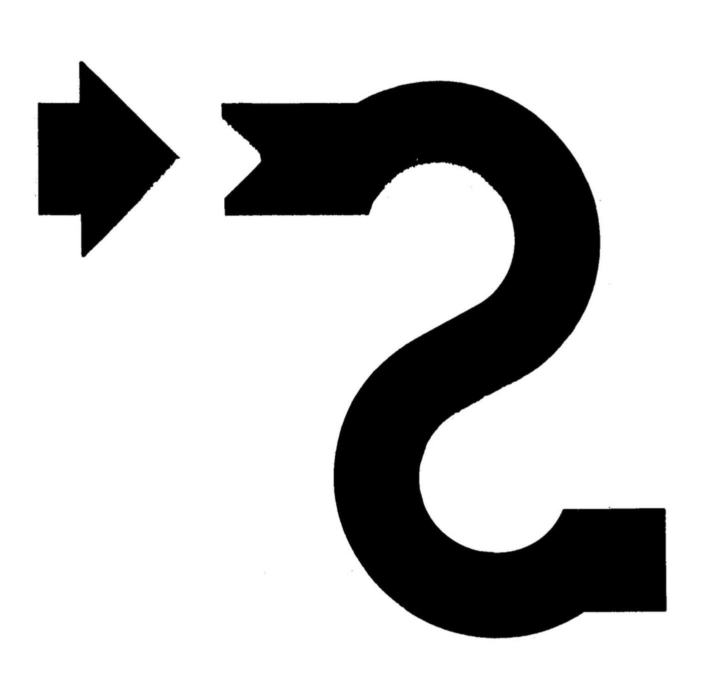
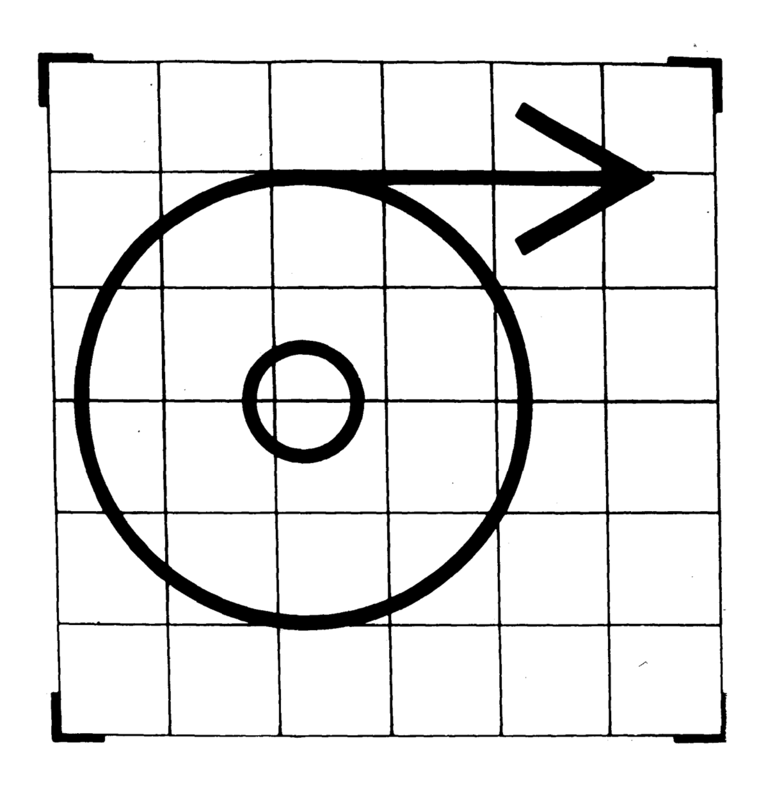


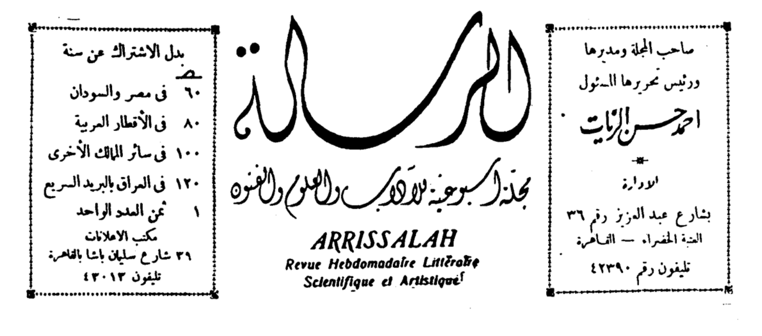
Suite d'une autre bobine

NF Z 43-120-7



Début de bobine

NF Z 43-120 1



1937

5 juillet - 27 décembre

(n° 209-234)

PROVENANCE DE LA COLLECTION

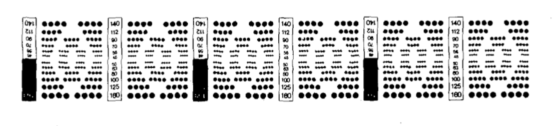
INSTITUT DU MONDE ARABE

ECHELLE DE PRISE DE VUE



Rx11

A.C.R.P.P



MIRE ISO N° 1
NF Z 43-007
AFNOR
Cedex 7 - 92080 PARIS-LA-DÉFENSE

graphicom 336.57.70



السنة الخامسة « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٦ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ — ٥ يولية سنة ١٩٣٧ » العـــدد ٢٠٩

فهرس العـــدد

الجيـــل الجديد

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

زارنى منذ بضعة أيام عدد من شبان هذا الزمان فنظرت إلى ثيابهم الجيلة وتفصيلها المحبوك على قدودهم المشوقة وتحسرت على أيامنا . وكان بينهم واحد يلبس بنطلوناً قصيراً فقلت له : « أتلبس هذا عادة ؟ » قال : « نعم . سبور » قلت : « فى أى مدرسة أنت ؟ » قال : « فى الخديوية » قلت : « اسمع . أنا أيضاً كنت تلميذاً فى المدرسة الخديوية ولا أذكر أنى رأيت فيها - فى تلك الأيام - تلميذاً يلبس بنطلونا قصيراً ، لا أدرى لماذا ؟ ربما كانت الروح « الاسبور » تنقصهم فى تلك الأيام ، ولكنى أعرف أيضاً أنى فى صغرى كنت لا أقبل أن ألبس هذا البنطلون القصير ... كان أخى الأكبر يأخذنى قبيل افتتاح المدارس إلى محل « ماير » ، وكان أشهر محلات الثياب فى تلك الأيام ، فيعرض على البائع أمثال هذا البنطلون فأقول لأخى : هذه سراويل لا بنطلون ، وآبى كل الإباء أن أتخذها ، وأصر على البنطلون الطويل فيضحك أخى ويقول للبائع : « هات له بنطلونا طويلا . . إنه يريد أن يكون رجلا ويحس أنه رجل ، فلا داعى للتنغيص عليه » . . وأنا أفهم أن تلبس هذا القصير

حين تلعب ولكن الحياة ليست كلها لعبا . . فيها ساعات للعمل والجد على ما أظن »

فقال أحد زملائه : « إنه لا يزال صغيرا »

قلت : « لا أدرى . لقد كنت أنا أيضا صغيراً لما كنت أرفض ارتداء هذا البنطلون . كنت فى التاسعة من عمرى يومئذ . وأحسب أن من كان فى التاسعة جدير بان يسمى صغيرا . . وليس للإحساس بالرجولة وقت معين أو سن مخصوصة . . فمتى تريد يا صاحبي أن تشعر أنك رجل ! »

والتفت إلى إخوانه وقلت لهم : « ليت واحداً منكم يقول لى كيف تقضون يومكم »

فترددوا ، وصار واحد منهم يبتسم ، وثان يفرك يديه ، وثالث يتمتم بكلام غير مسموع فقلت لهم : « أنا أصف لكم كيف كنا نقضى اليوم فى حداثتنا ... كان بيتنا فى ذلك الوقت عتيقاً جداً ، وله فناء واسع كبير فيه شجرة جميز ضخمة . وكان فى الفناء « حاصل » رحيب فيه أيضا بئر ، فكنت أستيقظ فى الساعة الخامسة صباحاً — صيفاً وشتاء — فأنحدر إلى هذا الحاصل وأدلى دلوى فى البئر فأملأه وأصبه على بدنى — بعد خلع ثيابى طبعاً . كان هذا يقوم عندى مقام « الدوش » فى أيامنا هذه ... فقد كان الماء يحمل إلى البيوت فى القرب على ظهور السقائين لا فى الأنابيب كما هو الحال اليوم ... ثم أصعد إلى المسكن فأفطر وأتناول كتاباً وأقرأ حتى يدنو موعد المدرسة فألبس ثيابى بسرعة ... فى دقيقة واحدة بلا مبالغة ، وما زلت الآن قادراً على ارتداء الثياب فى مثل هذا الوقت القصير ... أى فى دقيقة ... وأحسب أنى لو عملت فى فرقة تمثيلية لأدهشت المتفرجين بسرعة اللبس ... ما علينا ... انما ذكرت هذا لأنى رأيت كثيرين يضيعون ساعات فى ارتداء الثياب : يقفون أمام المرايا ويتأملون أنفسهم فى صقالها من الخلف والأمام ومن اليمين والشمال كأنهم سيعرضون فى مسابقة للجمال ، أو كأن أهم عمل للانسان فى هذه الحياة هو أناقة الملبس وحسن البزة وجمال الهندام . اذا مالت ربطة [illegible] كأن هذا عيباً فظيعاً ، واذا كانت هناك ذرة واحدة من التراب على نعل الحذاء خربت الدنيا وقامت القيامة فى البيت على الخادمة المهملة . ما علينا كما قلت . ثم أذهب أجرى الى المدرسة أجرى بالمعنى الحرفى لأنى كنت أقرأ فلا أجعل بالى إلى الوقت وموعد المدرسة . وما أكثر ما كنت أجرى وفى يدى ربطة الرقبة فلا يتيسر لى أن أضعها حول رقبتى إلا فى الصف أو فى المكتب . ولو تخلفت عن المدرسة لما كان فى ذلك بأس ولا منه ضير ، فقد كنت أنا ولى أمر نفسى ، ولكنا كنا نحب المدرسة وكانت لنا رغبة فى التعلم . وينقضى اليوم المدرسى فنكر راجعين إلى بيوتنا ثم نخرج للرياضة والنزهة والترويح عن النفس ساعة أو ساعتين

وأذكر لكم شيئاً . . كنا ثلاثة أو أربعة لا نكاد نفترق . ولم نكن فى مدرسة واحدة ولكنا كنا نلتقى بعد المدرسة فى بيت أحدنا ومعنا كتبنا أو بعضها فنتبادل الدروس التى تلقيناها فى يومنا ، ثم نمضى إلى قصر النيل أو غيره — على أرجلنا — فاذا كان اليوم يوم خميس ركبنا زورقاً على النيل وكان أبو أحدنا رجلا فيه شذوذ ، فكان يتفق أن يجىء إلى بيتى ويقف فى الفناء الرحيب تحت الجميزة ويصفق ، حتى إذا شعر أن أحداً أطل من النوافذ العليا كف عن التصفيق وانطلق يصيح : « ياأهل عبد القادر . . حوشوا ابنكم عن ابنى . . أفسد أخلاقه وعلمه السهر إلى الساعة اثنين » فيخيل لمن يسمعه يصيح أننا نسهر إلى الساعة الثانية صباحاً أى بعد منتصف الليل ، ولكنه كان يعنى الساعة الثانية بالحساب العربى : أى العشاء أو بعد ذلك بقليل ... »

فقال أحد الشبان : « لم يكن فى أيامكم سينما ولا غيرها من الملاهى التى تضيع الوقت »

فقلت : « إن اللهو ميسور فى كل وقت . وطالبه لا يعدمه فى أى مكان أو زمان . والمهم هو إرادة اللهو لا اللهو فى ذاته . وأنا أراكم تريدون الحياة كلها لهوا لا جد فيها ولا عمل ؛ وهذا هو الفرق بيننا وبينكم ، فقد كنا ندرك أن للهو ساعات لا ينبغى أن نعدوها ، أما أنتم فلا يكاد الواحد منكم يدرك أن للعمل وقتا أو أن العمل واجب . . تريدون اللقمة ممضوغة بل مهضومة قبل أن تضعوها فى أفواهكم ، بل أنتم لا تريدون أن تكلفوا أنفسكم عناء بلعها وازدرادها . . من منكم يعنى بأن يفتح كتاباً غير كتب المدرسة ؟ لقد كنا نذهب إلى المكاتب

ونبحث فيها عما نريد من الكتب . . وأنتم تنشر لكم الصحف اعلانات مشوقة مرغبة مغرية عن الكتب فلا يخطر لأحدكم أن يشترى منها كتابا . . حتى كتب المدرسة لا تقرأونها . . وشكواكم أبدا من الامتحان وصعوبته . . وسعيكم دائما إلى التسهيل والتخفيف والرأفة . . وما أحسبكم تطلبون إلا أن تعطوا الشهادات بلا امتحان . . والوظائف بلا استحقاق . .

وقد سمعت بعضهم يقول إن الجرائد والمجلات تشغل الطلبة فى هذه الأيام عن الدرس والتحصيل ، وأعتقد أن هذا كلام فارغ فقد كانت فى أيامنا جرائد ومجلات كنا نقرأها جميعاً . . اللواء والمؤيد والجريدة والمقطم والدستور والهلال والمقتطف ، بل كنا نذهب إلى دار الكتب لنقرأ فيها المجلات القديمة مثل الضياء والبيان لصاحبهما المرحوم اليازجي ... وكذاب من يقول إنكم تقرأون الصحف ، فما تقرأون فيها حين ترونها إلا أخبار الامتحان والاضراب والمظاهرات الساعية إلى الوزارات تستجدى النجاح ... وما تقرأون إذ تقرأون إلا المجلات الهزلية لأن حياتكم هزل بحت ،

فقال أحدهم : إن الحركة الوطنية هى المسئولة عن انصراف الطلبة عن التحصيل . فلم يقنعنى قوله هذا وبينت له أن الحركة الوطنية كانت أيضاً فى أيامنا ... بل كانت فى ذلك الوقت أحمى ، وكان مصطفى كامل يقيم البلاد ويقعدها بخطبه ومقالاته اليومية . ولكن قراءة المقال أو سماع الخطبة لا يستغرق اليوم كله ولا يستنفد الجهد أجمعه ... وقد كانت هناك فى أيامنا جميات أدبية شتى وكنا نعنى بأن نشهدها كلها . ولو أن جمعية أدبية قامت فى زماننا هذا لما حضرها إلا مؤسسوها ... وحتى هؤلاء فى مواظبتهم على الحضور شك كبير . . وفى كل أمة صحف ومجلات وأمور تشغل أبناءها ، وما أظن أن أحداً سيدعى أن مشاغلنا أكبر من مشاغل الشعب البريطانى أو الألمانى أو الفرنسى . . ومع ذلك لا نرى هذه البلادة المخيفة والانصراف المؤيس عن الجد

وقصصت عليهم قصة فقلت : « إنى بعد أن تخرجت من مدرسة المعلمين العليا وأصبحت مدرسا اتفق يوماً ان كنت جالسا فى مقهى بميدان قصر النيل - ميدان الاسماعيلية الآن - وكان معى كتاب «حديث المائدة» لوبندل هولمز ، وكنت أقرأ فيه حديث الشاعر على المائدة ، فمر بى انجليزى كان معلماً لى فى مدرسة المعلمين فخففت اليه وحييته ، فقد كنت أحبه ، فكان أول ما قاله لى : « أظن أنك لا تقرأ شيئا فى هذه الأيام ؟ » فسألته عن سبب هذا الظن القبيح بى فقال : « ألست مدرساً وموظفا ولك مرتب تتقاضاه فى آخر كل شهر ؟ فما حاجتك إلى القراءة ؟ » وكان يتهكم . ولو أنى شئت لما عبأت بسوء رأيه هذا ولكنه شق على أن يتوهم أنى ما كنت أقرأ إلا طلباً للشهادة ورغبة فى الوظيفة ، فرجعت إلى حيث كنت قاعدا وعدت اليه بالكتاب الذى كنت أقرأ فيه ودفعت به إليه وقلت له : « اسألنى إذا شئت . . امتحنى . . نعم فانى مستعد » فابتسم وقال: إنما كنت أمزح . . لأحثك على المواظبة على الاطلاع . . وانى لأعرف أنك تحب التحصيل للتحصيل » ففرحت بهذا جدا وعدت إلى مجلسى مسرورا مغتبطاً بحسن رأى استاذى ؛ وقد لقيته بعد ذلك بسنوات طويلات المدد فى انجلترا وكنت أهم بالعودة وأتزود من مكتبة هناك فقال لى : « أراك لا تزال تقرأ ؟ » قلت : « إن لنا مثلا يقول إن الزامر يموت وأصابعه تلعب . . صار الأمر عادة يا سيدى . . لا أستطيع ان أنام إلا إذا قرأت شيئا . . لا لأنام فان الكتب لا تنيمنى ، بل لأحلق فى سماء الفكر وأرتفع لحظة عن هذه الأرض . . »

فاعتذر أحدهم بأن الدروس كثيرة وأنها مضنية ، وهذا صحيح ، فانها أكثر مما ينبغى ، ولكنى قلت لهم : إن دروسنا كانت أقل وأفرغ وكان أمرها أهون ، ولكن الذى كنا نقرأه من تلقاء أنفسنا ، بلا حث أو حض ، كان أضعاف أضعاف ما تبرمون منه . . لقد كان أحدنا يقرأ فى الليلة الواحدة كتابا . . من منكم يعرف أن لداروين كتابا اسمه أصل الأنواع ؟ . . أو من منكم يعرف اسم داروين ؟ . . لقد قرأت هذا الكتاب الجاف فى صدر أيامى . . وقرأته بلا معين وحطمت رأسى به . . وما أكثر ما حطمت رأسى بأمثاله . . الحقيقة أنكم قوم ولا مؤاخذة فارغون . . وأنتم الذين سيكون فى أيديكم زمام هذا البلد المسكين ! »

ولا أعرف لماذا زارنى هؤلاء الشبان ، ولكنى أعرف أنهم انصرفوا راضين على الرغم من هذه العلقة !

ابراهيم عبد القادر المازنى

السندوتش والمائدة

للأستاذ عباس محمود العقاد

أدب السندوتش هو أدب الفاقة والعجلة، وأدب المائدة هو أدب اليسار والوقار، كما سماهما الكاتب البليغ الأستاذ الزيات وأصاب فى التسمية، لأنها تسمية وتوصيف وتعليل فى وقت واحد

وقد ختم الأستاذ مقاله سائلا: «ليت شعرى إذا خلت أمكنة هؤلاء النفر - أدباء الكهول - الذين نبغوا بالاستعداد والاجتهاد كيف تكون حال الأدب الرفيع فى مصر؟ أيذهبون وبطئان ما يعوّضون على رأى الأستاذ أحمد أمين، أم يذهبون وسرعان ما يُخلَفون على رأى الأستاذ العقاد؟»

وفى جواب هذا السؤال أيضاً لست من المتشائمين، لأن الجواب بعضه من سر المستقبل، وبعضه من حقائق الماضى؛ فإن وقفنا من المستقبل بين الشك والرجاء فوقفنا من الماضى أدنى إلى رجاء المتفائل. وأقصى عن يأس المتشائم. بل لعله موقف لا يحمل فى أطوائه غير يقين الرجاء

قبل ربع قرن من الزمان كان أناس غير قليلين يسألون كما يسأل الأستاذ الزيات اليوم: ترى من يرفع لواء الأدب بعد أعلامه البارزين فى هذه الآونة؟ ترى هل ينطوى اللواء بعدهم أو تهيء له الأيام أكفاً تنشره كما نشروه وتعزه كما أعزوه؟

ولم يكن اسم واحد من الأسماء الستة أو السبعة الذين أشار إليهم الأستاذ الزيات معروفاً تلك المعرفة التى تغنى فى اجابة السؤال؛ وربما كانوا مجهولين كل الجهل فى غير مجال الأصحاب أو مجال المتطلعين المتسمعين إلى أبعد الأصداء؛ فكان الجواب الغالب على الألسنة أن المستقبل مقفر مدبر. وأن من مات فات وليس له لاحق بين ناشئة الجيل

فاذا سألنا فى مفرق الجيلين مثل ذلك السؤال ورأينا البوادر تملى علينا مثل ذلك من الجواب، فليس من اللازم أن تصدق البوادر، وأن تنقضى خمس وعشرون سنة أخرى دون أن يخلف السابقين عوض من اللاحقين، وإن خفى نجمهم اليوم أو تراءى على الأفق تراثياً يتشابه فيه النجم والسديم

وإننا لنذكر اليوم الستة أو السبعة القائمين بأمانة الأدب وننسى الستين أو السبعين الذين كانوا يهزلون كما يهزل بعض الناشئين فى أيامنا، ويتبلغون بالقليل من زاد الاطلاع كما يتبلغ أدباء السندوتش بيننا: نسينا أولئك الستين أو السبعين لأن الزمان قد نسيهم وعفى على أسمائهم وآثارهم، ولكنهم كانوا فى أيامهم يحجبون الأفق ويشبِّهون الشخوص على الأنظار ويبعثون اليأس ويثبطون الرجاء. فليس من البعيد أن يكون لهم نظراء يلبسون الأمر علينا، وأن يكون للستة أو السبعة نظراء ينقشع عنهم الغبار بعد عشرة أو عشرتين من السنين، وإن جاز أن يخيب الظن كما يخيب بعض الظنون

وفى العالم كله نوازع شتى تنزع بالناس الآن إلى الأدب الرخيص أو أدب السندوتش أو أدب الفاقة والعجلة، وقلما تختلف البلاد فى هذه النوازع على اختلاف النظم الاجتماعية والمذاهب الحكومية التى تساس بها الشعوب فى العصر الحديث

ففى البلاد الديمقراطية يكثر القارئون بين سواد الشعب ويتوخى الناشرون الرواج فيؤثرون ما هو أشيع وأيسر على ما هو أندر وأنفع؛ ويطغى الأدباء الهازلون على أصحاب الجد والأمانة، فلا تتساوى الرغبة فى الأدب النفيس والرغبة فى الأدب الخسيس

وفى البلاد الفاشية يتحكم المستبدون فى أذواق الكتاب والشعراء فلا يذعن لعسفهم واستبدادهم إلا طائفة من المرتزقة المتزلفين الذين لا يقدرون على الأدب القيم؛ ولو أبيح لهم أن يطرقوه ويتوسعوا فيه، فهم أحرى أن يعجزوا عنه وهم مكبوحون مسوقون بالرهبة والاغراء

وفى البلاد الاشتراكية يعتقد الحكام أن الآداب هى لسان حال الطبقات، وأن الأدب الذى يليق بهم هو أدب الطبقة السفلى ومن إليها من أشباه العامة والمسخرين. وحسبك من أدب يقوم على أذواق هؤلاء. ويجرى مع هذه الأهواء

ولا ننس عصر الآلات وما يجرف به الناس من سرعة جائحة ونزوة جامحة. ولا ننس «الحرية الشخصية» وما سولته للصغار والأوشاب من غرور المساواة وتمرد المباهاة، فقد

بدأت باعتبار الرجل نفسه ندا للسراة والوجهاء. ولو كان فى الصعاليك والفقراء، وانتهت باعتبار الرجل نفسه ندا للعلماء والأذكياء ولو كان من الجهلاء والأغبياء . فضعف الخجل من التقصير، وضعف الطموح إلى مساواة الأعلين. وأصبح العيي الفه لايدارى عيه ولا فهاهته لأنه صاحب « حق » فى العي والفهاهة، وصاحب دعوة فى المساواة لايعدم لها أنصارا بالألوف والملايين !

تلك النوازع فى بلاد العالم كله على اختلاف النظم الاجتماعية والمذاهب الحكومية خليقة أن تنصر أدب الفاقة والعجلة، وتنحى على أدب اليسار والوقار . ولكننا نرجع إلى العصور الغابرة فلا يصادفنا عصر منها إلا كانت فيه نوازع كهذه النوازع فى نصرة الأدب المبذول وخذلان الأدب الكريم العزيز . وقريباً من عصرنا هذا كان تمليق الأغنياء والخضوع للجامدين والولع بمحاكاة الأقدمين وضعف الثقة والعجز عن حرية التفكير والابداع نوازع أخرى لاتقل فى أثرها الوخيم عما أحصيناه من مساوىء عصرنا ، فلا نفاد فى عصور الزمن لبواعث الضعف ولا نفاد فيها لبواعث القوة؛ وشأن العقول فى ذلك شأن الأبدان بين دواعى السقم ودواعى الصحة . لا ينفرد عصر بالأمراض كلها ولا ينفرد عصر بالعافية كلها، ولا يزال الحال فى تعادل ونقص وتعويض مادامت الحياة حية تعطى وتأخذ من دنياها بمقدار

على أننا لانخادع أنفسنا ولا نستر الفوارق التى بيننا وبين غيرنا . ففى انجلترا مثلا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم برتراند رسل وهو يجهد فى أعوص الموضوعات؛ وفى فرنسا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم رومان رولان وبرجسون فى المثل العليا وما وراء الطبيعة؛ وفى ألمانيا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم هوسرل وهيدجر فى معارض لايعنى بها فيما أحسب عشرة من قرائنا المصريين؛ وفى إيطاليا يكتب الهازلون ويكتب إلى جانبهم فريرو وجنتيلى وجروشى فى معضلات الاجتماع والتاريخ . وإنما مثلت بالفلسفة وحدها لأن موضوعاتها أعسر، وقراءها أندر، وعقول الباحثين فيها أكبر وأقدر؛ وهى بعد عنوان لما وراءها من أدب الجد والأمانة والرصانة والترفع عن القشور

أما فى مصر فأدب الجد والأمانة والرصانة والترفع عن القشور إنما يقوم على كواهل أصحابه ولا يقوم على كواهل القراء؛ وكل ماتملك من عزاء أن الجد والهزل فى هذا الباب يتساويان، فليس بيننا كاتب هازل يعيش بهزله ، وليس بيننا كاتب جاد يعيش بجده؛ وسبيل العزاء فى هذا أن الهزل والجد يعيشان على نمط واحد، فلا يجور الهزل حتى يطمس معالم الجد، وإن شاء أن يجور

كذلك يتعاقب أدباء الكهول وأدباء الشباب فى أوربا، ولهم فى التعاقب معنى يتمثل فى تعاقب الأدوار وتلاحق الأفكار، وتباين المدارس الذهنية على حسب الأحوال والأطوار

أما عندنا فحين ظهر بيننا من ينعتون أنفسهم بمدرسة الشباب لم يكن معهم شىء جديد ولا دليل على الحداثة غير شهادة الميلاد . وراحوا فى دعوتهم يميعون تميع الذى يربت على عطفيه ويتحبب إلى نفسه ويفرط فى تدليل سنه كأنه يتقدم فى سوق الرقيق لا فى ميدان الفكر وحلبة الصراع

بيد أننا قد جربنا الاختلاف بيننا وبين أوربا الحديثة فى خصال كثيرة صلح بعضها ولا تزال لها بقية على سنن الإصلاح؛ فلنجرب مابيننا وبينها من اختلاف فى هذه الخصلة خمساً وعشرين سنة أخرى ، ولا ننتظر نهايتها حتى نتفاءل ماوسعنا التفاؤل على أبواب المجهول ، وحسبنا منه فيما نحن فيه أن يتساوى الأمران فلا موجب للأمل ولا موجب للقنوط ، وكل ما كان بالأمس فهو وشيك فى غد أن يكون

أيذكر الأستاذ الزيات ما كانوا يعيبونه قبل خمس وعشرين سنة على كتاب الجيل الناشىء وشعرائه وناقديه ؟ ؟ كانوا يجمعون العيوب كلها فى كلمة واحدة يسمونها «التفرنج» ويعنون بها الخروج على قواعد العربية . وكان يخيل إلى سامعيهم أنهم على صواب لاريب فيه؛ فهل نرى اليوم مصداق ذلك فى لغة الفريقين من الموسومين بالاعراب والموسومين بالتفرنج فى ذلك الحين؟ أقرب الظن أن هؤلاء «المتفرنجين» من كهول اليوم أوفى للعربية من أولئك المستعربين المتشددين ، فإن لم يكن ذلك شفيعاً للأمل فى غد ، فلعله أن يكون مميناً على الانتظار !

عباس محمود العقاد

في التاريخ السياسي

المسألة الفلسطينية

والآراء المعروضة لحلها

بقلم باحث دبلوماسي كبير

تجتاز المسألة الفلسطينية الآن دوراً دقيقاً حاسماً ؛ فهى الآن قيد البحث والدرس من جانب السياسة البريطانية . والسياسة البريطانية تحاول هذه المرة أن تضع لحلها تسوية دائمة يقبلها العرب واليهود معاً ؛ ومنذ أن احتلت بريطانيا العظمى فلسطين ، وصدر عهد بلفور لليهودية بجعلها وطناً قومياً لليهود ، أعنى منذ عشرين عاماً ، لم توفق السياسة البريطانية إلى تحقيق السكينة والسلام فى فلسطين ؛ ذلك لأن النظام الغريب الذى ابتدعته السياسة الاستعمارية لهذه البلاد العربية لم يكن طبيعياً يرجى له البقاء ، فهو فضلا عن كونه يقضى بتمزيقها إلى شطرين هما فلسطين وشرق الأردن ، فانه أيضاً يقضى بجعلها ، وهى البلاد الاسلامية العربية ، وطناً قومياً لليهود من جميع أنحاء العالم ؛ وقد كان حلم اليهودية منذ أواخر القرن الماضى أن تستعمر فلسطين ، وان تحقق باستعمارها أمنية العودة إلى أرض الميعاد وإحياء مملكة إسرائيل بعد أن دثرت منذ ألفى عام ؛ فلما أسفرت تطورات الحرب الكبرى عن قيام الحكومة البريطانية باصدار عهدها بتعضيد إنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ، فتحت فلسطين على مصراعيها لتلقى الهجرة اليهودية من سائر الأنحاء ، ولم تمض أعوام قلائل حتى طغى هذا السيل الجارف على فلسطين ، واستأثرت اليهودية بمعظم مرافقها الاقتصادية . وشهد العرب فى فزع وروع بلادهم تتحول بسرعة إلى مستعمرة يهودية يكادون يصبحون فيها غرباء عن أوطانهم ؛ ومع أن اليهود ما زالوا من الوجهة العددية أقلية (فهم اليوم نحو أربعمائة ألف مقابل نحو ثمانمائة ألف من العرب) فانهم من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية هم ذوو النصيب الراجح فى شئون فلسطين وفى مرافقها وثرواتها ، تعضدهم السياسة الانكليزية وترجح رأيهم ومصالحهم .

هذا الوضع الشاذ لمصاير الأمة الفلسطينية لم يكن يرجى له البقاء ، ولم يرتضه العرب منذ الساعة الأولى بل قاوموه بكل قواهم ، وثارت فلسطين العربية غير مرة فى وجه هذا الاعتداء الصارخ على حقوقها القومية والتاريخية ، وأسمعت صوتها للسياسة البريطانية وللعالم كله . وكان العام الماضى مشهد فصل رائع من ذلك النضال الجلد المؤثر الذى تخوضه فلسطين للذود عن كيانها . وللمرة الثالثة أو الرابعة تحاول السياسة الانكليزية أن تبحث المسألة الفلسطينية على ضوء الحوادث والتطورات الواقعة . وقد حاولت من قبل أن تعالجها ببعض الحلول الجزئية ، كإنشاء مجلس تشريعى ، أو تقييد الهجرة اليهودية ، أو الحد من بيع الأراضى الى اليهود ؛ ولكن الأمة الفلسطينية لم تقبل هذه الحلول العرضية ، وما زالت تتمسك بمطلبها الأسمى ، وهو إلغاء عهد بلفور وإلغاء الانتداب البريطانى ومع أن السياسة البريطانية ما زالت تصر على خطتها فى التمسك بالانتداب وعهد بلفور ، فانها تشعر اليوم شعوراً قوياً بأنه يستحيل عليها من الوجهة العملية أن تمضى فى هذه الخطة ، وأن السلام لا يمكن أن يستتب فى فلسطين ما لم يوضع حل نهائى شامل للمسألة الفلسطينية يرضى العرب واليهود معاً . وهذه فى الواقع هى النقطة الشائكة فى الموضوع ، ذلك أن كل حل تلحظ فيه أمانى العرب القومية لابد أن يحد فيه من نشاط الصهيونية وأمانيها فى فلسطين ، وهذا ما لا ترضاه اليهودية ، بل تقاومه بكل قواها ؛ واليهودية قوة عالمية ذات شأن وذات نفوذ يذكر فى عالم السياسة والمالية العليا ، والسياسة الانكليزية لا يمكن أن تنسى هذه الحقيقة ، فاذا أضفنا إلى ذلك أن بريطانيا العظمى قطعت لليهودية فى شأن الوطن القومى عهوداً يصعب عليها أن تتراجع فيها ، أدركنا مبلغ

ما يحيق بحل المسألة الفلسطينية ، من المصاعب الفادحة والاعتبارات الدقيقة .

* * *

وقد كانت آخر خطوة اتخذتها الحكومة الانكليزية فى سبيل المسألة الفلسطينية . انتدابها فى العام الماضى على أثر الاضطرابات الدموية التى اضطرمت بها فلسطين مدى أشهر لجنة ملكية لتحقيق أسباب هذه الاضطرابات وسماع أقوال العرب واليهود وتعرف موقف كل فريق وأمانيه وأسباب تذمره ؛ وأن توصى بعد درس الحالة بخير الحلول التى تراها كفيلة بوضع الأمور فى نصابها وحل المسألة الفلسطينية حلا يوفق بين مختلف الأمانى والرغبات ويكفل استتباب النظام والامن فى فلسطين ؛ وقدمت هذه اللجنة إلى فلسطين فى أواخر العام الماضى وقامت بمهمتها ؛ وفى الأنباء الأخيرة أنها وضعت تقريرها المنشود ورفعته إلى الحكومة الانكليزية لدراسته واتخاذ قرارها بشأنه ؛ ولم يعرف رأى اللجنة بعد فى حل المسألة الفلسطينية بصورة قاطعة . ولكن الصحف البريطانية أذاعت أخيراً أنباء يستفاد منها أن اللجنة ترى أن تقسم فلسطين إلى منطقتين إحداهما عربية والأخرى يهودية ، وأن يختص العرب بالمنطقة الشرقية ولها منفذان إلى البحر عن طريق يافا وحيفا ؛ وأن يختص اليهود بالمنطقة الغربية ويعطى لها نظام الدومينون . وأن تجعل مدينة القدس وبيت لحم منطقة دولية مستقلة تحت إشراف عصبة الأمم، وأن تجعل حيفا قاعدة بحرية بريطانية ؛ ويلاحظ أولا أن هذه الفكرة فى تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب إلى مناطق اتحادية، وجعل مدينة القدس مركزاً دينياً حراً على مثل « مدينة الفاتيكان » فى رومه ، ليست جديدة ولم تنفرد بابدائها اللجنة الملكية البريطانية ، بل هى فكرة ظهرت منذ أعوام وقال بها بعض زعماء الصهيونية ورجال السياسة ، على اختلاف فى بعض التفاصيل ؛ ولكن هل يعتبر هذا الحل علاجا ناجعاً للمسألة الفلسطينية ؟ وهل يرتضيه طرفا النزاع ؟ وهل يحقق السلام المنشود ؟ هذا ما يشك فيه الشك أولا ، لأن العرب لا يرتضون حلا لقضيتهم يقوم على تمزيق بلادهم واقتطاع نصفها لليهودية بصفة نهائية وحصرهم فى منطقة ضيقة هى أقل المنطقتين من حيث المزايا الاقليمية والاقتصادية ؛ وثانياً لأن اليهودية تأبى أن تحد اطماعها فى فلسطين على هذا النحو ، ولا ترضى بأقل من فلسطين كلها ميداناً لنشاطها الاستعمارى ، بل لقد حاولت اليهودية فى الأعوام الأخيرة أن تدفع نشاطها إلى شرق الأردن ، وهى المنطقة التى حرمها صك الانتداب على الوطن القومى اليهودى فكيف بها ترضى اليوم أن تحصر فى المنطقة الساحلية ؟ وكيف ترضى اليهودية أن تنزع من نفوذها مدينة القدس ، إيليا أو أورشليم عاصمة داود وسليمان . ومثوى ذكرياتهم التى يبكونها منذ ألفى عام ؟ الواقع أن فكرة التقسيم ، إذا صح أنها هى العلاج الذى تراه اللجنة الملكية ، حلا للقضية الفلسطينية ، تصطدم بأكبر العقبات ، ولا يلوح أنها تلقى حظاً كبيراً من القبول أو النجاح

* * *

هذا وقد تقدمت فى تلك الأثناء بعض المقامات المصرية العليا التى تعنى بالشئون العربية والاسلامية باقتراح جديد لحل المسألة الفلسطينية خلاصته أن تضم فلسطين إلى سوريا وأن تؤلف منهما مملكة عربية إسلامية متحدة يتبوأ عرشها أمير من أمراء العرب البارزين وتعقد هذه المملكة مع بريطانيا العظمى وفرنسا معاهدة صداقة وتحالف على مثل المعاهدة المصرية الانكليزية . وإدماج فلسطين فى تلك المملكة العربية الجديدة يعاون على حل مسألة الوطن القومى اليهودى بصورة عملية ؛ ذلك أن اليهود يصبحون فى المملكة الجديدة أقلية دينية . ويكون مثلهم مثل الأقليات الدينية بمصر ، تكفل لهم قوانين البلاد الأساسية المساواة مع باقى السكان فى الحقوق والواجبات

وأذاعت الأنباء أيضاً أن الأمير عبد الله أمير شرق الأردن يرى لحل القضية الفلسطينية رأياً مماثلا بيد أنه يرى أن تكون المملكة العربية المشار اليها مكونة من فلسطين وسوريا ؛ والعراق

ويقال إن هذا الاقتراح بإنشاء مملكة عربية متحدة تكون فلسطين إحدى أجزائها هو الآن موضع اهتمام الدوائر السياسية البريطانية . بيد أنه يلوح لنا أن هذا الحل يثير صعابا عملية جمة . ومن المحقق أولا أن الأمة الفلسطينية يسرها أن تنضم إلى شقيقتها الكبرى سوريا ، وأن يستأنف القطران بذلك وحدتهما التاريخية . ولكن هذا الضم لا يتوقف على رأى السياسة البريطانية وحدها ، بل يتوقف أيضاً على رأى السياسة الفرنسية التى تسيطر حتى اليوم على مصاير سوريا ؛ ومن المشكوك فيه جداً أن توافق عليه بريطانيا العظمى لأسباب عسكرية واقتصادية خطيرة ؛ ومن جهة أخرى فان سوريا الجمهورية لا ترتضى الانضواء تحت لواء الملوكية المقترحة ولبنان تتمسك باستقلالها وانفصالها ؛ وأما اليهودية فإنها قد لا تأبى مثل هذا الحل ، بل ربما رحبت به لأنه يفتح أمامها آفاقاً جديدة للعمل ، وإذا كان وجود الوطن القومى اليهودى فى فلسطين خطراً اقتصادياً واجتماعياً على الأمم الاسلامية المتاخمة له ، فإن هذا الخطر يغدو أشد وأعظم إذا اتسع نطاق العمل أمام اليهودية واستطاعت أن تخلق لها مراكز جديدة للنشاط والعمل فى القطر السورى أيضاً ؛ هذا ومن الخطأ أن نقدر قوة اليهودية باقليتها العددية ، فإن هذه الأقلية تستند إلى قوى عظيمة فى الخارج تغذيها بتعضيدها المادى والمعنوى ؛ واليهودية العالمية قوة لا يستهان بها

والخلاصة أن المسألة الفلسطينية لا تزال فى دور ؛ وليس فى الحلول المعروضة ما يؤدى إلى تسويتها بصورة دائمة مرضية ، غير أنه لما كانت الحكومة البريطانية قد اقتنعت بعد حوادث العام الماضى بأنه لا بد من عمل شىء جديد يكفل استتباب النظام والأمن فى فلسطين ، فهى بلا ريب ستحاول القيام بتجربة جديدة ؛ واستتباب السلام فى فلسطين يهم السياسة البريطانية فى الظروف الحالية بنوع خاص ، لأنها أضحت ترى فى فلسطين مركزاً جديداً للدفاع الامبراطورى يمكن الاعتماد عليه ؛ وتقرير اللجنة الملكية الآن قيد البحث والدرس .

وسنرى عند إذاعته على أى الأسس ترى اللجنة أن تقسم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية ، والأخرى يهودية ، وسنرى أيضا إذا كانت الحكومة البريطانية تميل إلى تطبيق هذه التجربة الجديدة فى فلسطين . على أنه مما لاشك فيه أن اليهودية تعمل اليوم كما عملت دائماً على تدعيم مطالبها وأمانيها مهما كانت السياسة الجديدة التى تنتهجها السياسة البريطانية ؛ وسيجتمع عما قريب فى مدينة تسيريخ (زيوريخ) بسويسرا مؤتمر صهيونى عالمى جديد ، يعيد إلينا ذكرى مؤتمرات بال الشهيرة التى وضعت فيها أسس السياسة الصهيونية الحاضرة ؛ ونحن على يقين من أن العرب لن يقصروا فى الدفاع عن قضيتهم التى برهنوا دائماً على أنهم أهل للدفاع عنها ؛ بيد أن الظرف الحاضر يقتضى بلا ريب مضاعفة الجهود ؛ فعلى العرب أن ينظموا صفوفهم ليستأنفوا نضالهم السلمى المشروع، مزودين بقوة العدالة والحق والايمان

(* * *)

فصول فى التصوف الاسلامى وفتوحات ابن العربى

التصوف والصوفية فى الاسلام

للأستاذ خليل هنداوى

وإن كانت « الابيقورية » ذهبت ملحداً متطرفاً فى المادة فان الصوفية أيضاً قد نحت نفس هذا المذهب فى شططها وغلوها فى الروح والنفس وجوهر الله .

يقول الأستاذ « فريد وجدى » فى دائرة المعارف : إن التصوف هو مذهب كان الغرض منه تصفية القلب عن غير الله والصعود بالروح إلى عالم التقديس باخلاص العبودية للخالق والتجرد عما سواه . وهذا قديم كقدم النزعة التى أوجدته ، فان الانسان منذ ألوف من السنين أدرك أن خلف هذه الغلف الجسدانية سراً مكنوناً ، فنشأ هذا المذهب فى كل أمة راقية ، ولبس شكلا مناسباً لعقولها وأفكارها ، وهو معروف فى الهند والصين منذ ألوف من السنين ، وله عند الهنديين أساليب شديدة على النفس ، ولكنه لما وجد تحت ظل الاسلام وأحيط بأدب القرآن دخل فى دور جديد » . وقد اختلف العلماء والمتصوفون أنفسهم فى حقيقة تاريخ مذهب التصوف وإلى أين يذهب عهده . على أن عهده يرجع إلى قديم الزمن وإن لم يكن معروفا قبل بهذا الاسم . وقد اختلق العرب اشتقاقاً لهذه الكلمة واختلفوا فى وضعها ، فمنهم من ذهب مذهب القائل : « ان أول من انفرد فى الاسلام بخدمة الله عند المسجد الحرام رجل يقال له « صوفة » واسمه الغوث بن مر فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه فى الانقطاع إلى الله ، فسموا بالصوفية » وقال الزبير : قال أبو عبيدة : « وصوفة وصوفان يقال لكل من ولى من البيت شيئاً من غير أهله . أوقام بشىء من أمر المناسك » . وقد ذهب قوم إلى أن التصوف منسوب إلى أهل الصُّفة فى الانقطاع إلى الله وملازمة الفقر ، وهم المعروفون فى الاسلام بأهل الصفة . والتصوف عندهم يقصد به رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الفضيلة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص . ومنهم من نسب الصوفية إلى لباس الصوف . فقيل فى أحدهم صوفى ، وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف ، ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به ولكن أضيفوا اليه لكونه ظاهر الحال .

ويقول الشيخ الشعرانى فى كتابه الطبقات : « إن طريق الصوفية مقيدة بالكتاب والسنة ، وإنها مبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء » وإنها لا تكون مذمومة إن خالفت صريح القرآن أو السنة أو الاجماع لا غير ، أما اذا لم تخالف فغاية الكلام أنه فهم أوتيه رجل مسلم ، فمن شاء فليعمل به ومن شاء تركه . والتصوف هو عبارة عن علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل والكتاب والسنة . فكل من عمل بها انقدح له من ذلك علوم وأدب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها . فالتصوف انما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا عمله من العلل وحظوظ النفس كما أن علم المعانى والبيان زبدة علم النحو . ولا يدرك أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة إلا من تبحر فى علم الشريعة حتى بلغ إلى النهاية . وكيف تخرج علومهم عن الشريعة والشريعة هى وصلتهم إلى الله عز وجل فى كل لحظة ؟ وقد اجتمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر فى طريق الله إلا من تبحر فى علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها ، وتبحر فى لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك ، فكل صوفى فقيه ولا عكس .

وقد ورد فصل يحسن ذكره فى هذا الموضع للدلالة على الروح الصوفية التى كانت تسود عقول أصحابها من كتاب « اللمع فى التصوف [1] » قال الشيخ أبو نصر : سألنى سائل عن علم التصوف ومذاهب الصوفية وزعم أن الناس اختلفوا فى ذلك فمنهم من يغلو فى تفضيله ورفعه فوق مرتبته ، ومنهم من

(١) طبع فى مطبعة « بريل » فى مدينة « ليدن » سنة ١٩١٤ لصاحبه أبى نصر عبد الله بن على السراج الطوسى سنة ٦٤٠ وقد اعتنى بنسخه وتصحيحه « نيكلسون »

يخرجه عن حد المعقول والتحصيل ، ومنهم من يرى أن ذلك ضرب من اللهو واللعب وقلة المبالاة بالجهل ، ومنهم من ينسب ذلك إلى التقوى والتقشف ، وليس التصوف فى تنوق الكلام واللباس وغير ذلك . ومنهم من يسرف فى الطعن وقبح المقال فيهم حتى ينسبهم الى الزندقة والضلالة ، وليس من مذهبهم النزول على الرخص وطلب التأويلات والميل إلى الترفه والتنعمات ، وركوب الشهوات لأن ذلك تهاون بالدين ، وانما مذهبهم التمسك بالأولى والأتم فى أمر الدين . والصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ولم يترسموا برسم من الاحوال المحمودة والاخلاق الشريفة .

ما هو التصوف ؟ سال سائل محمد بن على القصاب وهو أستاذ الجنيد الصوفى الشهير . فقال : أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام . وقال الجنيد : التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة . وفى الحقيقة أن هذه الكلمة هى التى يتخذها الصوفيون أساساً لتصوفهم فى المشرق كان أم فى المغرب . ويدخل موضوع التصوف المبنى على هذه القاعدة فى عداد المذاهب الفلسفية . فالانسان إذا أراد أن يكون مع الله بلا علاقة فهو محتاج ولا ريب إلى معرفة الله وتحديد علاقاته مع الانسان وعلاقات الانسان معه . ولا ريب أن هذه الموضوعات هى سبيل مظلة من سبل الفلسفة التى يستضىء الفيلسوف عقله لانارتها ، والصوفى يعتمد توكله وإيمانه .

وكلمة التصوف جاءت إلى العربية من اليونانية « صوفيا Sofia » وهى تعنى إغلاق الفم والصمت . وليس يبعيد هذا ، لأن التصوف جاء إلى العرب ونشأ بينهم بعد هجرتهم من الجزيرة ، وتعرفهم إلى مدنيات الأمم المجاورة لهم كالفرس واليونان وكانت فكرة التصوف عند هؤلاء شائعة

والأرجح أن يكون التصوف مذهباً مستقلا له شأنه . ينظر صاحب هذا المذهب إلى الكون نظر أصحاب المذاهب الأخرى له . وكما أن المشرع الحكيم يضع من عنده القوانين للكون ويحدد كل شىء بالنسبة اليه بنظام ، وكما أن الفيلسوف قد يجحد كل ما يصنعه غيره ويناقش الطبيعة بلغته الفلسفية ومنطقه الخاص ، فالصوفى كذلك له من مذهبه ما يجعله مستقلا تمام الاستقلال عن المذاهب الأخرى : ينظر إلى الكون بعينه المجسدة ، ويتفهم الفضائل حسبما يوحى اليه مذهبه . ولا بأس بأن نقول كما قال « فيكتور كوزان » : إن التصوف هو مذهب من المذاهب الفلسفية ؛ وإنما يستعين على الظهور بالدين ؛ وهو إن لم يكن غنياً بمنطقه وقواعده وارتقائه على العقل فهو يتضمن قالب المذهب الفلسفى ولا يحدد إلا نقطة نظر بمضيقة المجال . وقد غلب هذا المذهب على المذاهب الطبيعية ، وعم فى سائر الديانات التى ارتكزت على الكتب السماوية والتعاليم البشرية .

على أن هذا لم يمنع قول القائلين : إن الصوفية ليست مذهباً يعتنقه المرء ، يأخذ بعقائده وتقاليده ، فانها أدنى إلى الطبائع فى بعض النفوس منها إلى قواعد مذهب مقرر . وأنت ترى كثيرين من الناس يعيشون عيشة الصوفية فى زهدهم وقناعتهم وماهم بالصوفيين .

حكم العلماء على الصوفية

نشأ المذهب الصوفى شأن كل مذهب يكون الاخلاص رائده ، ثم يتسرب اليه التحيل والهدى ، ولم يعرف التاريخ مذهباً داجى فيه أصحابه مثلما عرف من التصوف . فقد دخل فيه المخلص والزنديق والنشيط والبليد . فالتصوف أسه الزهد والتظاهر بالفقر وكراهية الدنيا . وكم من أناس حبب لهم العيش الرخاء والتوانى فى السعى ، فأووا إلى هذا المذاهب التى تعلى من قيمتهم وتظاهروا بالتصوف . وقديماً كان الناس يتسابقون إلى إيواء الصوفى وإطعامه ، والمبالغة فى إكرامه . وهكذا كانوا ينتقلون فى عيشهم من بادرة إلى بادرة معتمدين على الظاهرة الصوفية ، وليس فى قلوبهم إلا الغل والنفاق . ولابن تيمية فتوى جليلة فى الصوفية وحال أقسامهم ، فقد قال بعد أن شرح موضع الصوفية من العلماء : « والصواب أنهم مجتهدون فى طاعة الله كما اجتهد غيرهم ، ففيهم السابق السابق بحسب اجتهاده ، وفيهم من قد يجتهد فيخطىء ، وفيهم من

يذنب فيتوب أو لا يتوب . وقد انتسبت إليهم طائفة من صوفية الحقائق الذين اعتنقوا مذهب الصوفية باخلاص قلب ، ووفاء سريرة ، وصوفية الأرزاق ، وصوفية الرسم ممن لا يغنون فتيلا . والصوفية كانوا ولم يزالوا من جملة الزهاد ، ولكنهم انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال . واتسموا بسمات خاصة بهم . والتصوف طريقة بدؤها الزهد الكلي كما قدمنا في كل متاع الدنيا ؛ ثم ترخص المنتسبون اليها - لما حرموا من ملذة الدنيا لجعل البعض ذلك لهم حيلة - بالسماع والرقص ، فمال اليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرونه من التزهد ، ومال اليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب .

ويبدو ان هذا الضرب من التحيل لم يبخس حق قيمة المتصوفين الحقيقيين . وقد قال القشيري في رسالة : « لم يكن عصر في مدة الاسلام وفيه شيخ من هذه الطائفة إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتباركوا به . فقد أذعن الامام الشافعي لشيبان الراعي حين طلب الامام أحمد بن حنبل أن يسأله عمن نسي صلاة لا يدري أي صلاة هي ؟ وإذعان أحمد لشيبان كذلك حين قال لشيبان « هذا رجل غفل عن الله لجزاؤه أن يؤدب » . وكذلك إذعان الامام أحمد لأبي حمزة البغدادي واعتقاده فيه حين كان يرسل اليه دقائق المسائل ويقول : ما تقول في هذا يا صوفي ؟ وكان يروى أن الامام أحمد كان يحث ابنه على الاجتماع بصوفية زمانه ، ويقول إنهم بلغوا في الاخلاص مقاماً لم يبلغه

وقد أوى كثير منهم إلى ضروب من الكرامات زعموا أنها خاصة لا تصدر إلا عنهم ، يريدون من وراء ذلك أن الله يسخر قوات الطبيعة والأشياء لهم ، ولكن هذا النوع من هذه الكرامات لم يرق معشر العلماء فاختلفوا في أحكامها . والناس في إنكارها أقسام ، منهم من ينكرها مطلقاً ، ومنهم من يقول ان هذه الكرامات تشبه السحر من أهل السيميا ، وينصح للانسان بعدم صدهم وعدم تصديقه لهم . وقد أفتوا بتكفيرهم كما أفتوا بتكفير الغزالي وحرق كتابه الاحياء . ولكن البعض من أئمة هذا المذهب لم يجعلوا هذه الكرامات قواعد راسخة للصوفية لا يكون صادقاً إلا من يؤتاها ويأتي بها

وقد قال أبو يزيد البسطامي - واضع الله وراء جبته - : « لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود . ومن ترك التقشف ولزوم الجماعة وحضور الجنائز وعيادة المرضى وتلاوة القرآن وادعى بهذا الشان فهو مبتدع ، وفي هذا دلالة واضحة على أن من يدخل في هذا المذهب ويعتنق مبادئه ثم يطرح عنه قواعد الشريعة المشيد عليها هو مبتدع مختلق ، يحترف الصوفية فراراً من كلفات الدين ومشقات العيش

وخلاصة الأمر أن التصوف تقلب كثيراً وتحرر كثيراً وطرأ عليه ما يطرأ على سائر المذاهب عادة ، ولكن التصوف الحقيقي ظل محترما في عيون الناس وقلوب الناس . وليس بوسعنا اخراج الحكم عليها من باب أحكام العلماء لاختلاف فتاواهم فيها وإنما علينا أن نستعرض مبادئها وقواعدها ونرى ما يلائم منهاجه منها سنة الحياة وما يباين ، وهنالك القول الفصل

خليل هنداوي

من الأدب التحليلي

أنا ... والنجوم !

للأستاذ علي الطنطاوي

ما من كلمة هي أثقل على أذن السامع وأبغض اليه، من كلمة (أنا). وما حدث أكره إلى الناس من حديث المرء عن نفسه ... بيد أني متحدث الليلة عن نفسي، وقائل (أنا). وجاعلها عنوان مقالتي، لأني منفرد بنفسي. لا أجد معي من أتحدث عنه إلا (أنا).

أنا حين أتحدث عن نفسي أتحدث عن كل نفس، وحين أصف شعور واحد وعواطفه، أصف شعور الناس كلهم وعواطفهم: كصاحب التشريح لا يشق الصدور جميعاً ليعرف مكان القلب وصفته، ولكنه يشق الصدر والصدرين ثم يقعد القاعدة، ويؤصل الأصل، فلا يشذ عنه إنسان ... سنة الله في الخلق، وقانونه المحكم، ونظامه العجيب الذي جعل الناس مختلفين وهم متشابهون ـ ومتشابهين وهم مختلفون، برأهم على الوحدة في الحقيقة، والتنوع في الجمال. بخلق العيون كلها خلقاً واحداً، كل عين ككل عين، في تركيبها ووضعها، وصفتها، وما عين مثل عين في شكلها ومعناها وجمالها. تلك حكمة الحكيم الخبير، وهذه صنعة المبدع القدير!

٥٥٥

أنا منفرد على سطح دار في (الزبير)[١] في هذه الليلة الساكنة المتلألئة النجوم، وأمامي الصحراء التي تمتد إلى عمان واليمن ونجد والحجاز، وورائي السواد الذي يصل إلى أرض فارس، وهي قريبة، حتى أني لأرى لهيب النفط المشتعل في (عبادان) وأنا في مكاني ... أتأمل هذه الصحراء المجيدة المباركة، التي كتب على رمالها أروع سطور المجد، وأجل صحائف التاريخ، ونبت في رمالها دوح الحضارة الذي أوت اليه الانسانية، وتفيأت ظلاله يوم لاظل في الأرض إلا ظله؛ وأفكر فيطول بي التفكير، ويطل بي الفكر على آفاق واسعة ودنياوات عظيمة. وتنبلج في نفسي أصباح منيرة، فأجد في رأسي مئات من الأفكار الجديدة الكبيرة، وفي نفسي مئات من الصور الرائعة المبتكرة. ولكني لا أكاد أمسك واحدة منها لأقيدها بالألفاظ، وأغلها بالكلم، حتى تفلت مني وتعدو في طريقها منحدرة إلى أغوار عقلي الباطن، فلا أنا استمتعت بها استمتاع الناس بأفكارهم. ولا أنا سجلتها في مقالة وصنعت منها تحفة أدبية، ولو أني قدرت أن أكتب معشار ما أتصور لكنت شيئاً عظيماً. ولكني لا أقدر ... ولا أصب في مقالاتي إلا حثالة أفكاري؛ تنبت الأفكار في نفسي وتزهر وتثمر، ثم تذوي وتجف فآخذ الهشيم فأضعه في مقالتي!

ويتفجر الينبوع في نفسي، ويتدفق ويسيل، ثم ينضب وينقطع، فآخذ الوحل فأضعه في مقالتي!

وينبثق الفجر في نفسي، ويقوى ويشتد، ويكون الضحى والزوال، ثم يعود الليل، فآخذ قبضة من ظلام الليل، لأكتب منها مقالة، عنوانها ... «ضياء الفجر»!

من أجل ذلك أكره أن أنظر في كل ما نظرت، وأستحي أن أعود اليه، وأحب كل جديد لم ينشر. وأرى أن الذي يمدحني بمقالاتي يحقرني لأنه لا يعلم أنها درهم من خزائن نفسي المفعمة بالذهب، فهو يقول لي: إن الدرهم كبير منك لأنك فقير، ولكن الذي ينقد مقالاتي وينتقصها يقول لي: إنك غني فالدرهم قليل منك، إن هذه المقالة حقيرة لأنك أنت عظيم ...

لقد تعلمت هذه المسألة من عهد قريب، فصرت أحب النقد، وكنت أجهلها من قبل فاميل إلى الثناء والتقريظ

لبثت أعرض هذه المواكب من الأفكار، حتى تعبت ومللت، فألقيتها كلها في الصحراء، وجلست أفكر في الصحراء وحدها ...

---

(١) الزبير: بلدة صغيرة. على سيف البادية، غربي البصرة. تبعد عنها سبعة أميال. فيها قبر بطل الاسلام الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة. وعلى مقدمة منها أطلال عليها نقوش ظاهرة المشهور عنها أنها أطلال مسجد البصرة الجامع وأهلها يبلغون اثني عشر ألفاً، كلهم مسلمون سنيون يميلون إلى السلفية، وبحبون العلم. فيها مساجد كثيرة كلها يقام فيه الجمعة ومدرسة أميرية راقية، ومدرسة أهلية إسلامية أسسها الشيخ الشنقيطي رحمة الله عليه. والراجح أنها هي البصرة القديمة والله أعلم فليس هذا من علم.

نظرت اليها وهى متمددة على سرير الجزيرة الواسعة - نائمة - فامتلأت اكباراً لها واعظاما . ثم فكرت أن لو فتحت الصحراء عينها - أكانت تبصرني - وتحس بوجودى ؟ أشعر أنا بوجود رملة حملتها الريح فطارت بها . فست وجهى وهى طائرة ، ثم مضت فى سبيلها ؟ ما أنا فى وجود الصحراء إلا رملة ، وما حياتى إلا لحظة من حياتها ، ولو تثاءبت الصحراء ، أو حكت أنفها لتصرم قرن كامل قبل أن تنتهى من تثاؤبها وحكها أنفها ... فما أعظم الصحراء وما أطول عمرها ...

— بل ما أقل الصحراء . وما أقصر عمرها !

ما الصحراء ؟ بل ما الأرض كلها ؟ وما هذا المليار من القرون الذى عاشته ؟ انه يوم من حياتى ، انها نقطة من بحرى ... انى نمت يوما فلما أفقت وجدت نقطة صغيرة هناك ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : مخلوق صغير يدعى الشمس ... فعجبت من صغرها ، ثم لم أحفل بها . فما أرضك هذا يا ... يا ... يا أيها العدم !

هذا ما قاله لى كوكب قريب ، كان ينظر إلىّ باسما ... فذكرت ما قاله علماء الفلك عن الكواكب وعظمتها ، فسكت ولم أنطق ... وإذا بكوكب آخر يطل من هناك يقهقه ضاحكا يصرخ فى وجه الأول : اسكت اسكت أيها النملة الحقيرة . من أنت ؟ إن آلافا مثلك لا تملأ واديا واحداً من أوديتى ، انى أحمل مائة مثلك بين أصبعين من أصابعى ...

وكان وراءه كوكب خافت لا يقول شيئا ، لأنه لم يعلم بوجود هذا كله - لا يراه لبعده وصغره ، وكان وراءه ستمائة مليون من الكواكب كل واحد أكبر من الذى قبله ، وأصغرها من هذا الكوكب كالفيل من البعوضة ... فجلست أحدق فى هذه الكواكب ذاهلا مشدوهاً ، وانقطعت أفكارى عن الجريان وأحسست بضآلتى ، حتى لقد خلتنى عدماً ...

ثم صغرت هذه الكواكب فى نظرى لما رأيت شيئا أعظم منها ، صغرت لما رأيت السماء « سقفا مرفوعاً » ، حتى غدت كلها « مصابيح تزين السماء الدنيا » ، ورأيت السموات تطيف بها كلها . تحيط بهذا الفضاء « سبعاً طباقا » ، ورأيت الجنة من وراء ذلك « عرضها السموات والأرض » ، ورأيت العرش والكرسى . وملك الكائنات العظيمة . فأحسست أن عقلى ينهدم ويتحطم حين يحاول التفكير فيها وهى مخلوقة ، فكيف به حين يحاول التفكير فى الخالق ؟

وذهبت أقابل بين هذه العظمة الهائلة التى لا يدنو من تصورها العقل ، وتلك الدقة الهائلة دقة الجراثيم التى يمر الألف منها من ثقب إبرة ، دقة الكهارب التى يكون منها فى الذرة الواحدة مئات من الكواكب الصغيرة ، يدور بعضها على بعض ، كما تدور كواكب المجموعة الشمسية ، ذهبت أقابل بين هذا وذاك فعجزت . وأنكرت نفسى وجحدتها وامتلأت إيماناً بالخالق الأعظم ، فصحت من أعماق قلبى :

لا إله إلا الله !

ooo

أنكرت نفسى . ولم أعد أراها شيئا ... ونسيت يدى ورجلى ، حتى لقد حسبتهما جزءاً من الكرسى أو السرير الذى أجلس عليه . وأضعت ميولى كلها وشهواتى . حتى لم يبق لى (أنا) وإنما صرت (أنا) الكون كله ، الكون الذى ردد معى قولى ، لا إله إلا الله ! فأحسست حينما أنكرت نفسى . بلذة الوجدان التى لا توصف :

لا يعرف العشق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

وبدأت أفهم ما كنت قرأته من أقوال أهل التصوف ، وتعلمت أن الانسان لا يحس بعظمة ، إلا إذا نسى نفسه وعظمته . هنالك يجد هذا « الجرم الصغير » الذى هو رملة فى الصحراء وعدم فى وجود الكوكب ، والذى لا يمتد عمره أكثر من لحظة فى عمر السماء ... يجده أكبر من الكواكب ، وأخلد من السموات ، لأنه عرف الله وأدرك حلاوة الايمان ...

وقت بعد ذلك أصلى ، فلما قلت : الله أكبر ، محى الكون كله من وجودى ، ولم يبق إلا أنا العبد المؤمن الضعيف ، والله الإله العظيم الجبار !

ليس فى الدنيا شىء أجل ولا أجمل من الصلاة !

(البصرة) **على الطنطاوى**

على هامش رحلتي الى الحجاز :

فى تكية الدراويش

للدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ الشرقي بجامعة بودابست

عن كتاب نشره باللغة المجرية بعنوان « الله أكبر »

كان شعاع شمس الشتاء يسطع فى جو القاهرة ويتألق فى السماء اللازوردية ، ويربق ضوءه القرمزى على المآذن والقباب فتتوهج أطرافها فى الضوء الساطع كما يتوهج الذهب فى كف الرجل الكريم . أما أسطح بيوت القاهرة فكانت فرصة لما تداعب هذه الأشعة ـ تلك المداعبة الصحية ـ والريح تعبث بالأوراق والغصون فى حدائق قصر النيل الغناء.

وكنت فى خلال هذا الوقت وحيداً فى غرفتى ، شاعراً بأن السكون يطبق على كجناحين كبيرين ، ومنصرفاً إلى دراسة بعض كتب الأدب العربى القديم لأقارن بين عصر وعصر ، وبلغ بى التعب أشده من عكوفى على القراءة ومحاولة تفهم معانى الكتاب لأنى كنت أميل بفطرتى إلى تحليل أفكار المؤلف والوقوف على المعانى المستترة فى باطن الكلمات . ولاح لى أننى أشبه بغواص يجاهد فى بحر من الظلمات ليستخرج منه اللآلىء والأصداف . ما أمر العكوف على قراءة الكتب الخطية فى بلاد الشرق ؟ تغلق باب الغرفة دونك وتحاول أن تظل بمعزل عن العالم لتمثل فى خاطرك العصر الذى عاش فيه المؤلف والظروف التى كانت محيطة بها ، وإنها لمعجزة أن يظل الكتاب مهملا سنوات برمتها ، فما تكاد تفتحه حتى تهب عليك النسمة القديمة بسحرها وعطرها وتسمع كلام المؤلف أو صوت الشاعر كأن لم يغيره تقلب الحوادث وانصرام الاجيال

وفيما كنت أقلب هذه الأفكار وأشباهها إذ طرق الباب ، وكان الطارق صديقى محمد أمين حسونه ، أتى لزيارتى ودعونى إلى نزهة خلوية فى ضواحى القاهرة . وكانت الزيارة فى يوم الجمعة ـ وهو يوم عطلة عامة فى البلاد الاسلامية ـ ففى هذا اليوم المقدس تعطل المصالح والدواوين وتقفل الحوانيت ، ويتحتم على المسلمين أن يهرعوا إلى المساجد إذا سمعوا صوت الأذان . أما الآخرون الذين لا تربطهم بالتجارة صلة فهم يقضون ذلك اليوم فى اللهو والمتعة على ضفاف النيل الجميلة وفى داخل الحدائق الفيحاء المبعثرة فى جوانب القاهرة

وفى أثناء احتساء القهوة اقترح صديقى حسونه أن نقصد إلى حدائق الحيوانات للترييض أو تناول طعام الغداء فى ظلال الأهرام . ولكنى أجبته : وما رأيك فى زيارة إحدى تكايا البكتاش

هناك طفح وجه صديقى بشراً . وفى الحال وافقنى على القيام بهذه الزيارة . فقلت له : لقد زرنا الهرم عدة مرات وتحملنا بعض المشاق للوصول إليه بالترام . ثم تحدثنا عن بناء الأهرام وكيف حاول العرب أن يهدموا ذلك الأثر الخالد لاعتقادهم بأنه يحوى كنوزاً فى جوفه . ولكن على الرغم من المجهودات الشاقة التى بذلوها فانهم اضطروا إلى الانقطاع عن هدمه بعد أن أنهك قواهم وكلفهم نفقات باهظة ، وعند ما استولى المماليك على مصر كانوا يظنون أن الأهرام من عمل الطبيعة ـ وحاول البعض منهم أن يجرب أخذ الأحجار منها للبناء ولكنهم أكرهوا على التخلى عن هذه الفكرة لصعوبة تنفيذها وربما كان عدم قدرتهم على تنفيذها موافقة لارادة الله الذى قضت حكمته ببقاء هذا البناء المهيب الشامخ كرمز لعظمة مصر القديمة . وكثيراً ما قصدت إلى منطقة الأهرام وقضيت سويعات شاعرية أناجى القمر وأراقب أشعته اللجينية وهى تغمر الأحجار الضخمة التى يتألف منها البناء الشامخ

فى هذه البقعة الساحرة يجتمع الماضى والحاضر والمستقبل وتبدو عظمة مصر الخالدة التى بهرت العالم . ولكن مالنا نتغنى الآن بتلك الأكوام الحجرية المكدس بعضها فوق بعض . أجل ليس فى هذا ما يسر الخاطر ولا ما يشرح النفس ـ وما هى القيمة الروحية التى تمدنا بها رؤية الأهرام أمام زيارة تكية الدراويش ، تلك الطائفة التى ما زالت

تلهب فى نفوسنا أسمى معانى الخلود ومتاع الآخرة

***

وانطلقنا فى طريقنا إلى تكية البكتاشية بعد أن عبرنا شوارع القاهرة الرئيسية وانتهت بنا العربة إلى مقابر الخلفاء. هناك أفضى إلى صديق حسونه أنه حين كان طفلا وأسيئت معاملته أمام الأسرة، لم يجد من يلجأ إليه سوى كلب أرمنى كان مقعيا على الدرج فى نفس هذه البقعة، وكان يستدفىء بالشمس فاحتضنه ثم بكى. وبعد برهة وصلت إلى سمعه أصوات موسيقية متنافرة، فإذا بها حفلة من حفلات الزار التى تعودت نساء القاهرة إحياءها. وكانت الحفلة تقام فى أحد المنازل المجاورة لتلك القبور. فحمل صديق الكلب وانطلق إلى هناك حيث أتيح له أن يشاهد أكثر من عشرين سيدة وهن يرقصن على نغمات الموسيقى بجنون وحشى إلى حد أن كن يتصادمن ويتلاحمن، وكان البعض منهن يمزقن الأثواب. أو يمتطين ظهور الخراف البيضاء المصبوغة بالدم. وأسر إلى صديق بانه أحس بالراحة ساعتئذ ولم يعز هذه الراحة إلى أية صفة مجهولة، بل يبعد هؤلاء المريضات عن الانسانية، وفى عزلتهن هذه ما يشفى عواطفهن الهسترية ويبرئهن من النضال الدنيوى الذى وقعن فيه

وبينما كنا نبحث ونتجادل فى البواعث الحقيقية لحفلات الزار، ألفينا أنفسنا أمام أبنية التكية الملصقة بجبل المقطم، وبعد أن ارتقينا الدرج واجتزنا حدائق التكية أحسست بنشوة وانتعاش، كالنشوة التى تحدثها الريح فى يوم ساكن، ولقد ازداد سرورنا عند ما اجتمعنا بطائفة من الزوار الأجانب الذين أتوا خصيصاً لشهود حفلات الذكر والموسيقى، كذلك رأينا فريقاً من النساء وهن واقفات بخشوع وشاخصات بأبصارهن الى الأشجار الباسقة التى تكاد تشق أجواز الفضاء.

أما بيوت الدراويش ومساكنهم فتقع فى الجهة اليسرى من الحديقة، وهى مساكن نظيفة غاية فى البساطة ولكنها فاخرة الرياش، تزينها لوحات بها رسوم رؤساء الطائفة السابقين. وتعلو هذه الإطارات — باطة — وهى رمز الدراويش. ويزور التكية عادة جم غفير من أعيان الأجانب وبعض أمراء الشرق، ولقد شاهدت الكثير من رسومهم الفوتوغرافية وتوقيعاتهم لدى شيخ التكية. ويقع بالجهة اليمنى من الفناء الداخلى مطبخ ضخم البناء، وما كدنا نصل إليه حتى شممت رائحة الشواء ورائحة الطهى الزكية، وسال اللعاب فى فمى وتحركت شهيتى فتقدمت نحو المطبخ ورأيت الطاهى يشوى شرائح اللحم الضأن. وعزم علينا الطاهى بأن نتذوق طعامه، فلم أجد مانعاً من إجابة طلبه وأخذت ألتهم قطعة اللحم بشهية

تبلغ مساحة مطبخ البكتاشية نحو ٦٠ متر مربع بحيث تسع إعداد طعام لأكثر من مائتى شخص تقريباً. ولقد أخبرنى الطاهى أن للزمن تقلباته وانهم الآن يتوخون الاقتصاد فى مآكلهم مع انهم من سنوات خلت كانوا يتمتعون بأنواع المآكل الشهية، وأنهم كانوا يولمون الولائم الفاخرة لأكثر من مائة ضيف بعد انتهاء حفلات الذكر، أما الآن فقد تغيرت الأحوال لأن الهبات التى كانت تصلهم كادت تقطع. ومن الغرابة أن كل مافى التكية قديم أثرى، فالدراويش قد بلغوا من العمر عتياً، لا يعرف من أمرهم إلا نفر قليل من سكان القاهرة، ولايزورهم إلاخاصة الأصدقاء، ولولا زيارة بعض الأجانب لأصبحت تلك الدور فى عالم النسيان. حتى صديق المصرى حسونه الذى لازمنى فى هذه الزيارة لم ترق فى عينيه أحوال تلك الطائفة ولكنى على الضد منه ألفيت لذة عظيمة لزيارة هذه الطائفة التى تربطنى بها روابط روحية.

البقية فى العدد القادم

عبد الكريم جرمانوس

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسي ألفونس كار

نخاسة الأزهار

ـــ

ما اجتزت سوق الأزهار مرة إلا شعرت بحزن شديد، كأنني أتجول في سوق النخاسة حيث تقوم المساومة على الأجساد وتلقي العبودية طابعها المروع على وجه الانسان

يتمشى الأغنياء بين الأزاهر فيحدجونها بأنظارهم متفحصين أشكالها وصحتها وأعمارها. فاذا ما تمت الصفقة خرجت الزهرة المبيعة من سوق النخاسة لتتبع خطوات سيدها.

سيري وراء من اشتراك أيتها الزهرة التعسة. اذهبي اليه لتخدمي شهواته، زيني قصره بجمالك فلسوف ينزلك ثمين الآنية ويحوطك بالطالس الأعشاب. سيكون مسكنك فخما. أيتها الزهرة، فودعي الشمس والهواء، ودعي الحرية فالعبودية فاتحة ذراعيها لتضمك إلى صدرها.

يا لشقاء هذه الأزهار! إنها تعرض أكواماً يلفحها الحر والقر فتذوي مهتوكة تحت نظرات الفاحشين من الناس

لقد مر البائع فارفعي رأسك أيتها الزهرة، ليراك منتصبة تملأك الفتوة نضارة، فأنت لنضارتك معروضة على المشترين

إن أكثر الأزهار المعروضة في سوق النخاسة تحني رأسها وقد ارتخت قوائمها فتلاعبت فيها أضعف النسمات. لقد رسمت الأسفار البعيدة عليها آثار الضنى. وكتب الشقاء على تويجها آيات المذلة والاستعباد. وما تهتم هذه الزهرات بجمالها، وهي تعلم ما تحتم عليها من الخضوع لسيد مجهول يتحكم فيها.

لقد تسعد إحداها إذا اشترتها فتاة لتزين بها نافذتها فتجد الماء وتجد الهواء لتحيا وتطل عليها من وراء الأشجار أشعة الكوكب الذهبي يناجي فيها ابنته في كل صباح.

هنالك تسمع الزهرة تغريد أخيها الطير يمازجه نشيد الغادة بصوتها الحنون.

ما أسعد الزهرة التي تمر بها فتاة معلقة بذراع أمها فتحملها إلى غرفتها الطاهرة تجود بعطرها في الليل ممتزجاً بأحلام العذراء.

أما أنت أيتها الأزهار التي يشترك الأغنياء في قصورهم في ليلة عيد، فما أشد ويلك وما أظلم الأفق الذي تستقبلين. املأى أجواء القصر بالعبير في ليلة واحدة لقاء أجر معين، فانك ستحملين من عيد إلى عيد حتى يرتعي السل صدرك الضعيف فتجودين بالحياة على المزابل بزفرة دامية

وأشد منك شقاء يازهرات الأعياد زهرة تشتريها سيدة مستبدة لاتطلب من الأزهار إلا أوائل أريجها حتى إذا تخدرت منها طرحتها إلى الخدم يجهزون عليها بعيدة عن الهواء في ظلمات الليالي

ويل لهذه الأزهار تهمس أنينها همساً فلا يسمع أحد بلواها، فهي مستعبدة صامتة لاتعرف إلا أن تحني رأسها وتندفع إلى الفناء

تقتطف الزهرة من حضن أمها وتؤخذ بالعنف من بين أخواتها وأصحابها، لتطرح حيث تجود بنضارتها وعبير صباها، فيا للجريمة لاعقاب عليها!

لقد منعت القوانين نخاسة السود ولكنها ما منعت نخاسة الأزهار

ليهتف المصلحون بصوت وجدانهم فما من سميع وقد مات جان جاك روسو وبرنار دي سان بيار. ولكن من نستصرخ وإلى من نتجه؟ أفليس أنصار الحق نفسهم المنادون بمنع النخاسة بين الناس هم الذين ينسلون تحت جنح الليل يتلهون بدوس الأزهار واقتلاع وريقاتها الطاهرة من تويجها الضعيف ... ؟

أفليست السلطة هي التي تسمح باقتلاع الأزهار من منابتها لتحمل إلى سحيق الأقطار حيث تعيش ولا أسرة لها لأن بذورها تطرح على أرض تخنقها وتواريها

° ° °

مررت يوماً في تلك الساحة، فرأيت زنبقة رائعة الجمال يساوم عليها رجل هرم ألقت السنون غشاء على عينيه، وهو يصب نظراته على الوريقات البيضاء فتختلج ويمد يده إلى

ساقها ليجس بضاضته ، فتلوى خجلا وذلا ، فانحدرت من أجفاني دمعة حرى رأيت مثلها تنحدر على مهل من التويج الأبيض ، فخيل إلى أن الزنبقة تقول لى : — اشترنى أنت ولا تتركنى فريسة فى يد هذا الرجل فإن نظراته تحرقنى ولمساته تقضى على ، أنقذنى فإننى إن تبعته أموت

هتفت : — سأخلصك أيتها الزهرة الطاهرة

فدهش الشيخ لهذا الهتاف ، فأدار وجهه نحوى وأرسل إلى نظرة الاحتقار مشيراً إلى الخادم ، لحمل الزنبقة وسار بها وعبثاً حاولت إقناع البائع بفسخ البيع لأن الشيخ كان قد أدى ثمن الأمة الشقية

تبعتها وأنا أزودها نظرات الأسى والحنان فكانت تبتسم لى بدموعها من بعيد . وتوارت عن ناظرى ، وفى صباح اليوم التالى وقفت أمام القصر أستخبر النسيم عن زهرتى الحزينة . فتحت النافذة بعنف ورأيت الخادم يرمى بالزنبقة الذابلة إلى مطارح الأقذار

لكم من زهرة تجود بأنفاسها على مثل هذا الفراش ...

(ف . ف)

باقة من شعر طاغور

ترجمة الأديب نصرى عطا الله سوس

— ١ —

لقد خلعت أغنيتى كل زينتها

إنها لا تزهى بالملبس والزخرف

إن الزخرف ليفصم عرى وحدتنا ويقف بينى وبينك ، وطنينه يغرق همساتك

وإن زهوى كشاعر ليتبدد خجلا أمام مرآك .

آه يا مولاى الشاعر !

إنى أجلس عند قدميك

وكل ما أبغيه أن تجعل حياتى بسيطة ومستقيمة كعود من القصب ، كى تنفخ فيه موسيقاك

— ٢ —

أتناول يديها وأضمها إلى صدرى

وأحاول أن أملأ ذراعى بجمالها ، وأن أسرق بسمتها الحلوة بالقبل ، وأن أشرب نظراتها الفاتنة بعينى

آه ! ولكن أين ذلك ؟ من ذا الذى يستطيع فصل الزرقة عن السحاب ؟

أحاول امتلاك الجمال فيتملص منى ، تاركا « الجسم » وحده بين يدى فأرجع حائراً تعباً

كيف للجسم أن يلمس الزهرة التى لا تمسها إلا الروح ؟

— ٣ —

قلبى ، ذلك الطير الآبد وجد سماءه فى عينيك

إنهما مهد الصباح ومملكة النجوم .

إن أغانى تضيع فى أعماقهما .

دعينى أحلق فى هذه السماء المنفردة بلا نهائيتها

دعينى أشق سحبها وأنشر جناحىّ فى نور شمسها

— ٤ —

قال : « حبيبتى ، ارفعى عينيك »

فنهرته فى حدة وقلت : « ابتعد » فلم يتحرك

وقف حيالى واجعل يدى الصغيرتين فى يديه فقلت : « اتركنى » ، ولكنه لم يذهب

مال علىّ بوجهه حتى لامس أذنى فنظرت اليه وقلت : « ياللعار ! » فلم يتحول

ولمست شفتاه خدى فارتعشتُ قائلة : « لقد تماديت كثيراً » فلم يخجل

ورشق زهرة فى شعرى فقلت : « بدون جدوى » ولكنه وقف ساكناً

ثم أخذ إكليل الزهر من عنقى وذهب ...

إنى أبكى وأسائل قلبى : « لم لا يعود ؟ »

— ٥ —

أيها الحب

إن قلبي يتوق ليلا ونهاراً إلى أن يلقاك لقاء يستغرق كل شيء ... كلقاء الموت

إ كتسحني كعاصفة

خذ كل ما لدى

شرد نعاسي

وانهب أحلامي واستلبني من دنياي

وفي ذلك الدمار — وفي العراء الروحي المطلق . دعنا نصير وحدة من الجمال

واأسفاه ! باطلة رغبتي

أين الأمل في اندماج تام فيك وحدك ... يا الله .

— ٦ —

إن عينيك القلقتين الحزينتين تطلبان كنهي كما يطلب القمر أعماق البحر

لقد نزعت عن حياتي أثوابها أمام عينيك — لم أخف عنك شيئا من البداية للنهاية . ولذا أنت لا تعرفينني

لو كانت حياتي جوهرة لكسرتها مئات من القطع وصنعت منها عقدا يزين عنقك

لو كانت زهرة صغيرة رشيقة لقطفتها من جذرها ورشقتها في شعرك !

ولكن حياتي ، قلب ، يا حبيبتي ... لاشواطىء له ولانهاية .

إنك لا تعرفين حدود هذه المملكة ... ولو أنك ملكتها

* * *

لو كانت حياتي لحظة سرور لتفتحت عن بسمة لطيفة تدركينها في لحظة !

لو أنها لم تكن غير ألم لذابت دموعاً شفافة تنعكس عليها أعمق أسرارها دون كلمة !

ولكنها حب ... يا حبيبتي

مسراتها وآلامها لا تحد

حاجاتها وثروتها أبديان

إنها قريبة منك كحياتك

ولكنك لا تستطيعين إدراك قرارها ...

— ٧ —

أنا أهواك يا غرامي فاغفري لي حبي إياك

مثل عصفور ضال أسرت

عندما هزُّ قلبي سقط عنه قناعه وعاد عاريا . دثريه بالشفقة يا حبيبتي ، واغفري لي حبي .

إذا لم تستطيعي حبي — يا حبيبتي — فاغفري لي ألمي

لا تنظري إلى من بعيد بازدراء

سأسترق خطاي إلى زاويتي وأجلس في الظلام

وأحجب خجلي العاري بكلتا يدي

فأشيحي بوجهك عني واغفري لي ألمي

* * *

حبيبتي ، إذا كنت تحبينني فاغفري لي سروري

وإذا حمل فيض السعادة قلبي بعيدا فلا تبسمي لاستسلامي للخطر

وعند ماأستوى على عرشي وأحكمك بقسوة الحب ، وعند ما أمنحك عطفي — كإله — تحملي كبريائي — ياحبيبتي — وسامحيني عن فرحي ...

— ٨ —

أيتها المرأة ! إنك لست من صنع الله فقط . بل من صنع الرجال أيضاً

إنهم يضفون عليك من قلوبهم جمالا ...

الشعراء ينسجون لك نسيجاً من خيوط الخيال الذهبي ،

والرسامون يمنحون صيغتك خلوداً مجدداً

البحر يعطي لآلئه ، والمناجم ذهبها ، وحدائق الصيف أزهارها ، لتجملك وتجعلك أنفس مما أنت

رغبات قلوب الرجال تضفي مجدها على شبابك

إنك نصف امرأة ونصف حلم .

نصري عطا الله سوسى

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمـــد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

- ١١ -

تطور البراهمية الأولى

نصت « الفيدا » على أن الخيرين يذهبون إلى جوار الآلهة ويمتزجون بهم فى عالم الخلود ، وأن الشريرين يذهبون على بعض الأقوال إلى العدم المطلق ، وعلى البعض الآخر يتجسدون من جديد . ولما أصبح القول بالرأى الأول يتنافى مع عقيدة خلود النفس التى كانت قد عمت جميع البيئات المفكرة على أثر إيمان الناس بأن العالم ليس إلا أجزاء « براجاباتى » المتناثرة ، فلم يبق إلا الأخذ بالقول الثانى ، فأخذوا به وتفلسفوا فيه ، فنقلوه من تجسد ساذج إلى تناسخ فلسفى معقد ، ولكنه كان تناسخاً آرياً ، مبعثه السرور من الحياة والتفاؤل فى تقدمها وسيرها نحو الكمال والرغبة فى الامتزاج بالإله « براجاباتى » والاتصال ببقية الآلهة والشغف بتحقق السرور والمعرفة الكاملة التى لا تتحقق إلا بالتناسخ الذى هو شبيه بفعل الإله « براجاباتى » فى تحقيق السرور والمعرفة . إذ قررت شروح أحد نصوص « الفيدا » وهو النص الخاص بنثر أجزاء « براجاباتى » فى الكون ، أن هذه الأجزاء لم تنتثر إلا بدافعين قويين كانا عند هذا الإله : أحدهما الشغف بحيازة السرور ، والثانى الشوق إلى المعرفة . وإذاً ، فيجب أن يكون هذان المقصدان ضمن غايات التناسخ ليتم تشبهنا بهذا الإله الخير الذى رضى بتفريق أجزائه . ليحوز السرور بوجودنا ، ولتحدث له المعرفة الكاملة بطوفان أجزائه فى الكون كله .

غير أن هذا التفاؤل لم يلبث أن تضاءل شيئاً فشيئاً حتى تلاشى نهائياً وحل محله تشاؤم قاتم قابض أثر فى الحياة الفكرية الهندية تأثيراً عميقاً . وقد نشأ هذا التشاؤم فى أول أمره من اعتقاد المفكرين فى أن الحياة خير كلها ، وأنها لهذا يجب الحرص عليها والتهالك فى الاستمساك بها ، ولكن قصرها من ناحية وعدم التحقق من الاستيلاء على زمامها من ناحية أخرى ، يوجدان حسرة فى القلب وضيقاً فى الصدر وشعوراً بخيبة الأمل يسود له المزاج وتنقبض له النفس ، وهذا هو الذى كان فى المبدأ ثم جعل يتطور مع الزمن حتى زالت العقيدة فى خيرية الحياة زوالا تاماً وحلت محلها عقيدة تناقضها تمام المناقضة ، وهى أن الانسان شقى تعس فى جميع أدوار حياته ، إذ هو فى حياته الأولى فريسة للمصائب والنكبات والمخاطر والأمراض ، وهو قاصر عن الاستحواذ التام على جميع المتع والمسرات ، وإذا حاز شيئاً منها فالأجل قصير جداً يستوجب الشفقة والرثاء ، فاذا ترك هذه الحياة كان أكثر تعاسة وبؤساً ، إذ هو ينتقل فى الأجسام المختلفة من وضيع إلى أوضع ، غير عارف بمصيره ولا متحقق من حظه ، لأن كل مرحلة من مراحل حياته المتعددة تقذف به إلى المرحلة التى تليها قذفاً دون إرادة منه ولا اختيار ، وفوق ذلك فهو مسئول فى كل مرحلة من هذه المراحل التناسخية أمام الآلهة مسئولية قاسية على ما اقترف أو ما هوى فيه قسر إرادته من آثام وسيئات

وإذاً فالحياة شر ، والعالم شر . وهذا الوجود المادى كله شر ، وكله باطل ، والحقيقة هى غيره ، والاعتقاد بأن هذا العالم المادى هو متناثرات أجزاء « براجاباتى » – كما كان سائداً فى الزمن السابق – جريمة من الجرائم ، لأن الآلهة حق ، وهذا العالم المادى باطل ، ولا يمكن أن يكون الباطل من أجزاء الحق ، وإنما الصحيح هو أن أجزاء الحقيقة الالهية حالة فى هذا العالم المادى الباطل ، ولا وسيلة للخلوص من شر هذا العالم إلا استخلاص الحقيقة من الباطل ، ففى جانبنا الاستخلاص لا يتحقق إلا بالتخلى عن المادة ، وفى جانب الآلهة ، حسب الانسان أن يفهم أن وراء كل مظهر من هذه المظاهر حقيقة هى الجوهر الصحيح فى هذا المظهر . وهذه القاعدة عندهم تتناول حتى « براهما » رأس الآلهة نفسه ، فهم يعتقدون أن الحقيقة فى « براهما » هى « براهمان » أى الكائن

اللا شخصى أو الموجود المنزه عن الجرمية . والحال حلولا غير مادى فى جميع عناصر الكون ، وأن ادراكه على هذه الصفة هو المحقق الأوحد للنجاة من التناسخ المؤلم ولضمان الخلود ، ولكن هذا الادراك لا يتيسر إلا بهجر المادة وتجنب جميع مظاهر الحياة العملية وتسليم النفس للتأمل العميق المنتهى إلى الغيبوبة والامتزاج بالله والفناء فى ذاته

الكتب الدينية فى عهد التطور

البرانات

« الفيدا » وهو الكتاب الأساسى للديانة البراهمية ، وهو وحده المنزل ، أما غيره من الكتب فهى من عمل البشر المصطفين الذين هم أقرب الناس إلى « براهما » وهى لذلك لا تصل من القداسة فى نفوس الشعب إلى المرتبة التى وصلت إليها « الفيدا » وهى كذلك غير معجزة ولا مستحيلة التقليد ولكن إمكان تقليدها مقصور على طائفة واحدة من المقربين وهى طائفة « راشين » من خواص البراهمة . وهاك حديث البيرونى عن هذا الكتاب :

« وأما البرانات — وتفسير بران : الأول القديم — فانها ثمانية عشر ، وأكثرها مسماة بأسماء حيوانات وأناس وملائكة بسبب اشتمالها على أخبار أو بسبب نسبة الكلام فيها أو الجواب عن المسائل إليها وهى من عمل القوم المسمين : « رشين » والذى كان عندى منها مأخوذاً من الافواه بالسماع فهو « آدبران » أى الاول . و « مچ بران » أى السمكة و « كوم بران » أى السلحفاة . و « براه بران » أى الخنزير و « نارسنك بران » أى الإنس الذى رأسه رأس أسد . و « بامن بران » أى الرجل المتقلص الأعضاء بصغرها . و « باج بران » أى الريح . و « نند بران » وهو خادم له « مهاديو » و « اسكند بران » وهو ابن « مهاديو » . و « آدت بران » و « سوم بران » وهما النيران . و « سانب بران » وهو ابن « بشن » و « برهماند بران » وهو السماوات . و « ماركنديو بران » وهو « رش كبير » . و « تاركش بران » وهو العنقاء . و « بشن بران » وهو « نارابن » . و « براهم بران » وهو الطبيعة الموكلة بالعالم . و « بهشن بران » . وهو ذكر الكائنات فى المستأنف »

كتب أخرى

يروى لنا البيرونى كذلك أن للقوم كتباً كثيرة أخرى تعد بمثابة دساتير وقوانين دينية واجتماعية وأخلاقية . وقد لخص الكلام عنها فقال : « وأما كتاب « سمرت » فهو مستخرج من « بيذ » فى الأوامر والنواهى ، عمله أبناء « براهم » العشرون ولهم كتب فى فقه ملتهم وفى الكلام وفى الزهد والتأليه وطلب الخلاص من الدنيا مثل كتاب عمله « كور الزاهد » وعرف باسمه ومثل « سانك » عمله « كبل » فى الأمور الإلهية ومثل « باتنجل » فى طلب الخلاص واتحاد النفس بمعقولها ومثل « نايبهاش » لكابل فى « بيذ » وتفسيره وأنه مخلوق وتمييز الفرائض فيه من السنن . ومثل « ميمانس » عمله « جيمن » فى هذا المعنى . ومثل « لوكايت » عمله المشترى » الخ

ألوهية الطور الجديد

كان العامة فى الهند بعد تطور « البراهمة » يعتقدون بوجود ثلاثة آلهة : الاول « براهما » وهو الرئيس الأعلى . الثانى « فيسنو » وهو إله الحياة الدائب على إنماء الحياة وإزهارها ، والثالث « سيفا » وهو إله التدمير والخراب الذى أهم مميزاته الهدم والإبادة والذى لولا سلطان « براهما » لصير الحياة منذ زمن بعيد أثراً بعد عين . ولكن « براهما » الغير المحدود القوة يمسكها دائماً أن تميد ويحفظها من شر هذا المدمر الوحشى .

هذا عند العامة . أما الخاصة فكانوا يعتقدون - كما أسلفنا - بوجود إله واحد أزلى أبوى منزه عن الاستعانة بغيره وعن كل ما يوجب نقصه فى زعمهم .

وأبو الريحان البيرونى يذهب فى كتابه إلى ما هو أبعد من هذا فيؤكد أن فكرة الألوهية عند خاصة الهنود كانت سامية جليلة ، وأنهم كانوا يعبدون إلهاً متصفا بكل كمال ، منزها عن كل نقص . ويعلق على هذا بقوله : « ولنورد فى ذلك شيئا من كتبهم لئلا تكون حكايتنا كالشيء المسموع

فقط «ثم يروى بعد ذلك محادثة وردت فى أحد كتبهم المقدسة بين سائل مسترشد ومجيب موضح ؛ وفى هذه المحادثة يرى الباحث الأدلة ناصعة على ما يدعيه البيرونى من سمو التأليه عند خاصة الهند . وإليكم نص هذه المحادثة : قال السائل فى كتاب «باتنجل» : «من هذا المعبود الذى ينال التوفيق بعبادته ؟» . قال المجيب : «هو المستغنى بأزليته ووحدانيته عن فعل المكافأة عليه براحة تؤمل وترتجى ، أو شدة تخاف وتتقى ، والبرىء عن الأفكار لتعاليه عن الأضداد المكروهة والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمدى . إن العلم الطارىء يكون لما لم يكن بمعلوم ، وليس الجهل بمتجه عليه فى وقت ما أو حال» ، ثم يقول السائل بعد ذلك : «فهل له من الصفات غير ما ذكرت ؟» ويقول المجيب : «له العلو التام فى القدر ، لا المكان ، فانه يجل عن التمكن . وهو الخير المحض التام الذى يشتاقه كل موجود ، وهو العلم الخالص من دنس اللهو والجهل» : قال السائل : «أفتصفه بالكلام أم لا ؟» قال المجيب «اذا كان عالماً فهو لا محالة متكلم» . قال السائل : «فإن كان متكلماً لأجل علمه ، فما الفرق بينه وبين العلماء والحكماء الذين تكلموا من أجل علومهم ؟» ... قال المجيب : «الفرق بينهم هو الزمان فانهم تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين ، ونقلوا بالكلام علومهم إلى غيرهم . فكلامهم وإفادتهم فى زمان ؛ وإذ ليس للأمور الالهية بالزمان اتصال . فالله سبحانه عالم متكلم فى الأزل ، وهو الذى «براهم» وغيره من الأوائل على أنحاء شتى ، فمنهم من ألقى اليه كتاباً ، ومنهم من فتح لواسطة اليه باباً ، ومنهم من أوحى اليه فنال بالفكر ما أفاض عليه» ، قال السائل : «فمن أين له هذا العلم ؟» قال المجيب : «علمه على حاله فى الأزل وإن لم يجهل قط ، فذاته عالمة لم تكتسب علماً لم يكن له كما قال فى «بيذ» ، قال السائل : «كيف تعبدون من لم يلحقه الاحساس ؟» قال المجيب : «تسميته تثبت أنيته . فالخبر لا يكون إلا عن شىء ، والاسم لا يكون إلا لمسمى . وهو وإن غاب عن الحواس فلم تدركه ، فقد عقلته النفس وأحاطت بصفاته الفطرة ، وهذه هى عبادته الخالصة . وبالمواظبة عليها تنال السعادة

ثم يعقب البيرونى على هذه المحادثة بقوله : فهذا كلامهم فى هذا الكتاب المشهور . وفى كتاب «كيتا» وهو جزء من كتاب «بهارث» فيما جرى بين «باسديو» و «أرجن» : إنى أنا الكل من غير مبدأ بولادة ومنتهى بوفاة ، لا أقصد بفعلى مكافأة ولا أختص بطبقة دون أخرى لصداقة أو عداوة ؛ قد أعطيت كلا من خلقى حاجته فى فعله ، فمن عرفنى بهذه الصفة وتشبه بى فى إبعاد الطمع عن العمل ، انحل وثاقه ، وسهل خلاصه وعتاقه ، وهذا كما قيل فى حد الفلسفة : إنها التشبه بالله ما أمكن . وقال فى هذا الكتاب : «أكثر الناس يلجئهم الطمع فى الحاجات إلى الله . وإذا حققت الأمر لديهم وجدتهم من معرفته فى مكان سحيق ، لأن الله ليس بظاهر لكل أحد يدركه بحواسه ، فلذلك جهلوه ، فمنهم من لم يتجاوز فيه المحسوسات ، ومنهم من إذا تجاوزها وقف عند المطبوعات . ولم يعرفوا أن فوقها من لم يلد ولم يولد ولم يحط بعين أنيته أحد . وهو المحيط بكل شىء علماً» [1]

(يتبع) **محمد غلاب**

---

(١) انظر صفحتى ٢٠ و ٢١ من كتاب البيرونى

الموشـــح

للأستاذ توفيق الضوى

لقد كان الشعر فى أول أمره سجعاً غير مقيد بالقوافى الموحدة ؛ إنما كان قطعاً قطعاً وشذوراً شذوراً كل اثنتين منها أو أكثر على قافية واحدة ، ثم توحدت القوافى فى بعض الأوزان الشعرية انطلاقاً مع الأفكار والمحاكاة ، عدا الأراجيز التى بقيت مختلفة القوافى فسهل النظم عليها فى القواعد والضوابط التى هى من القيود المتينة ، ثم لما كثرت الأغراض وضاقت قوافى الشعر عن استيعابها عدل الأندلسيون إلى التفنن فيها فأوجدوا الموشحات غير متقيدين بالقوافى الواحدة ، بل تفننوا فيها بمظاهر مختلفة ذهابا مع الأفكار وهياما فى سماء الخيال . على أن للقريحة والذوق وللحس والخيال تأثيراً كبيراً على الشعر وتجديده وابتكار معانيه والتصرف فى قوافيه والتلاعب بأوزانه فوق ما لتأثير السلالة والاقليم والعمران وما يتعلق بها ، فلهذا كان الفرق بين الشعر العربى والأعجمى عند الأمم ، وبين الغربى والشرقى عند العرب . ومن المعلوم أن فنون الشعر سبعة : هى القريض ، والموشح ، والدوبيت ، والمواليا ، والزجل ، والكان وكان ، والقوما . وقيل إن الحماق منها أيضاً فتكون ثمانية . وثلاثة من فنون الشعر هذه معربة ولا يغتفر اللحن فيها . وهى القريض والموشح والدوبيت ؛ وثلاثة ملحونة دائماً وهى الزجل وكان وكان والقوما . وأما المواليا فيحتمل الاعراب واللحن . والآن نتكلم عن الموشح الذى هو مدار بحثنا ...

فالموشح فن من فنون الشعر الرائعة التى توسع فيها شعراء الاندلس اطلاقا لبنات أفكارهم فى سماء الخيال فأجادوا ماشاءت بلاغتهم وعنايتهم فى اظهار المنظومات فى قالب جديد مطبوعة على غرار جميل مطرزة بوشى لطيف حتى تفوقوا على غيرهم بهذا التصرف البديع الذى اقتبسه عنهم المغاربة فالمصريون فالسوريون فالعراقيون ؛ وعم عالم الشعر العربى الذى زاده التوشيح محاكاة فوق محاكاة أوزانه المطربة ، فكانت الموشحات موسيقى الشعر التى تضرب على أوتار القلوب ، فتناولها الشعراء بمنتهى الاقبال والتكريم وتباروا فى الاجادة فى فنونها هائمين فى سهولها وضروبها ، راشفين من صافى معينها ، واصفين مظاهر الطبيعة والعالم على اختلاف شئونها . فالاندلس أم الموشحات ، وصفاء أذهان شعرائها رأس هذه الاختراعات ... وهذا ماقاله صفوان المرسى الاندلسى يصف تأثير مناظر الاندلس فى شعرائها حتى أحسنوا النظم والنثر متفوقين فيهما على غيرهم

هنالك بين الغصن والقطر والصبا
وزهر الربى ولدت، آدابى الغرا

إذا نظم الغصن الحيا قال خاطرى
تعلم نظام النثر من ههنا شعرا

وإن نثرت ريح الصبا زهرَ الربى
تعلمت حل الشعر أسبكه نثرا

فوائد أسمار هناك اقتبستها
ولم أر روضا غيره يقرىء السحرا

كأن هزيز الريح يمدح روضها
فيملأ فاها من أزاهره درا

قال ابن خلدون فى الموشح : لما كثر الشعر فى الأندلس وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً سموه الموشح ينظمونه اسماطا أسماطاو أغصانا أغصانا يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ، ويلتزمون عدد قوافى تلك الأغصان وأوراقها متتاليا فيما بعد إلى آخر القطعة . وأكثر ما ينتهى عندهم إلى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل فى القصائد . وتجاروا فى ذلك إلى الغاية ، واستظرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه .

قال أبو عبد الله محمد الأزرق الأندلسى فى مدح موشحه ذهابا إلى القصيدة :

بعثت بها عذراء رائعة الحلى قضت أنها للمعلمات مرشحة
توشحت اللفظ البديع وأقبلت فها هي تبدو للعيون موشحة

ووصفها ابن دحية الأندلسى بقوله :

الموشحات هى زبدة الشعر ونسبته ، وخلاصة جوهره وصفوته . وهى من الفنون التى أغرب بها أهل المغرب على أهل

المشرق، وظهر وافيها ظهور الشمس الطالعة والضياء المشرق ...
وقال ابن معصوم في سلافة العصر : ولأهل اليمن أيضاً نظم يسمونه الموشح غير موشح أهل المغرب ؛ والفرق بينهما أن موشح أهل المغرب يراعى فيه الاعراب ، وإن وقع اللحن في بعض الموشحات التي هي على طريقتهم لكون ناظمه جاهلا بالعربية فلا عبرة به ، بخلاف موشح أهل اليمن فانه لا يراعى فيه شيء من الاعراب بل اللحن فيه أعذب ، وحكمه في ذلك حكم الزجل

وللموشحات اصطلاحات لا بد منها ، مثل اللازمة ، والمبدأ ، والدور ، والدرج ، والبطايحي ، والمجنح ، والخرجة ، والسلسلة ، والقفلة ، والانصراف ، والمجنب الخ

وأول من اخترع الموشحات في شبه جزيرة الأندلس مقدم بن معافر الفريري؛ والفريري نسبة إلى فريرة وهو حصن بالأندلس من أعمال كورة البيرة ؛ وقد يكون جده منسوباً إلى فرير وهي قرية بين جيحون وبخارى في بلاد العجم ، أو بلدة بخراسان كما ذكر السمعاني في أنسابه وياقوت الرومي في معجم البلدان . وهو من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني (٢٧٣ هـ ، ٨٨٦ م) وأخذ عنه أبو عبد الله محمد بن عبد ربه مؤلف العقد الفريد . وجاء بعدهما كثير من الشعراء فتفننوا في الموشحات حتى فاقوا من سبقهم فاشتهرت موشحاتهم ، وأشهرهم عبادة القزاز وغيرهم . وانتقل بعد ذلك الموشح من الأندلس إلى المغرب، ومن هذه إلى مصر ، ومنها اتصلت بسورية فالعراق، وذلك في العصر العباسي الرابع وفي أثناء القرن السادس للهجرة ...

قال الزبيدي في معجم تاج العروس : التوشيح اسم لنوع من الشعر استحدثه الأندلسيون ، وهو فن عجيب له أسماط وغصون وأعاريض مختلفة ، وأكثر ما ينتهي عندهم إلى سبعة أبيات . وقال أيضاً : الوشاح بالضم والكسر رسان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما ، تتوشح المرأة به ، ومنه اشتق توشح الرجل بثوبه ، وقال غيره أخذ التوشح من الظبية الموشحة وهي التي في جنبها طرتان

قال القيراطي موجهاً بالزجل والموشح ذهاباً إلى الشعر :

أرتاح للأقمار وهي طوالع   وشموس راحي للمغارب تجنح
ويهزني زجل الطيور بلحنها   والروض بالزهر النظيم موشح

وباختراع فن الموشح كان له الأثر العظيم في الشعر الأوربي ، فحاكى شعراؤهم هذه الأوزان والأشكال كما نرى في منظوماتهم ، ولا سيما قصائد فكتور هوجو شاعر فرنسا في ديوانه المسمى بالشرقيات ، وكذلك قصائد غوته الشاعر الالماني وغيرهما من شعراء بقية الأمم الأوربية التي وقفت على أشعار عرب الاندلس وموشحاتهم الخالدة، فكانت القافية عندهم لا تلتزم في أكثر من بيتين كالأراجيز عندنا ، أو أنها تلتزم في أبيات وتتغير وتعود إلى اللازمة كما في الموشحات ؛ ومنها نوع من الشعر يسمونه الأبيض وهو ما كان غير مقفى كشعر شكسبير شاعر الانكليز وغيره ...

قال أبو الوليد بن رشد الأندلسي في تلخيص كتاب أرسطو في الشعر ما نصه : والمحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء : من قبل النغم المتفقة ، ومن قبل الوزن ، ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها مفرداً عن صاحبه مثل وجود النغم في المزامير ، والوزن في الرقص ، والمحاكاة في اللفظ : أعني الأقاويل المخيلة غير الموزونة . وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والأزجال وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة إذ كانت الأشعار الطبيعية هي ما جمعت الأمرين جميعاً ؛ فالصناعة المخيلة أو التي تفعل فعل التخييل ، ثلاثة .. صناعة اللحن ، والوزن ، وعمل الأقاويل المحاكية . ومن أبدع فنون الموشحات كتاب المدبجات لعبد المنعم عمر بن حسان الغساني الأندلسي الجلياني المتوفى سنة ٥٦٩هـ ويوجد في المكتبة الخالدية في القدس الشريف ، وكتاب جيش التوشيح للسان الدين بن الخطيب ، وعقود اللآل في الموشحات والأزجال ، لشمس الدين النواحي ، ودار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك . والدر المكنون في سبعة فنون لمحمد احمد بن إياس الحنفي ، وحاوي الفنون وسلوة المحزون لابن الطحان وغيرها من المؤلفات القديمة القيمة . هذه كلمة موجزة عن تاريخ الموشح وعمله كتبتها خدمة لهواة الشعر والموسيقى ليكونوا على علم باصول الموشح وتاريخه لارتباطه الوثيق بفن الموسيقى والغناء

(اسكندرية)

توفيق الصوى
أستاذ في الموسيقى

من روائع أدب الغرب

ناقوس القرية

LA CLOCHE DU VILLAGE

لشاعر الحب والجمال : ألفونس دي لامرتين

الحياة : موجة في خضم تاوهات ، صبرها الشهد ، كأس الجد ، تملأ بالعبرات .
« لامرتين »

كالزفرات تعلو خفقات الناقوس الخاشع المتئدة . الأحراج تمسكها . الوديان تبددها . يد الصغير ، توازن كأسه ، وتفرغ نغمات الأرض العلوية ، في نسيم الليل المدلهم .

وجف من أصواته العالية ، جزع من خفقاته المتوالية . البلبل يطير تاركا بيته المضطرب . مياه الغدير المتموجة ، تجنى الأزهار اليانعة من جوانبه . أرملة القرية ، تركع لصدى نغماته تترك خيط مغزلها لترسل الرحمات للموتى .

يوقظ في قلبي ، غناء هذا البرج الرنان ...

لا سرور النهار الذي انتهى .

ولا بؤس اليوم الذي انقضى ،

ولا صور الماضي الفتية ، والذكريات الغنية ، التي تهدمت في هذه الطرقات بين الأنوار الذابلة .

لا نومي الهادىء في ظلال أغصان الدلب الندية ،

ولا أول نسمة في حياتي ،

ولا صوت أقدامي التائهة ، فوق هذه الذروات العالية ،

ولا السرور العظيم تحمله إلى موجاتك يا نسيم الصبا ، المثقل بالروائح العطرة التي لا تنضب .

لا ذكرى الجواد الواقف في المرج وقد لوى عنقه الحريري على يدي المدربة ، ومزج ضفائر عنقه . بشعرات رأسي الشقراء ، والأرض ترن تحت سنابكه القوية كالسندان ، بينا ردفه يحملني ، وزبد شدقيه يكسو فضة ناصعة حشائش الوادي .

لا الحب نفسه ...

الحب ، الفجر الأول في الحياة .

حيث شهور الربيع تجرى ماء الحياة في نسغ النبات ، فتزهر العقول وتخضر الأحراج .

في الظلال أصوات العذارى الحاملات الجرار لملئها من الينبوع ، تصل لسمعي وئيدة ، فتدب في جسدي الرعشة

ولا أنت ...

أنت التي أبكيك أبداً ،

الفورة الأولى لدى ،

صوت الفؤاد الذي يفنى ، ويوقظ في روحي الدمدمة السحرية ، معطرة بالعنبر ، فتنثر في الأجواء رياح الشعر

أواه . أيها المجد ، ولا أنت ...

لا الشتاء يحمل اليك دون أسف أيامي مع بقايا الأعشاب الفارغة من الحب .

ونثرات الأوراق الذابلة ، وصدى المجد الفارغ .

أعشاب الطريق ، مزروعات علوية . تعطر الأقدام ، ولكن جذورها لا تغرس في القلوب .

لا أكاليل الأعراس ، يقطفون زهورها في المساء . فيسممها الحقد ، ويذبلها الحسد .

ولا ما يهب الحياة نشوة . تاج المجد المحطم تحت يدي .

الزهرات المعارة ، لا تمسكها ساق . تذبل وتجف . ثم تقع من فوق الجبين

° ° °

هو ذاك اليوم .

أصواتك ممتزجة بزفرات امرأة ، مخضلة بالعبرات ، مترعة باليأس ، رنت في أرجاء الوادي . تبكي نعشين مرًّا ، يجللهما الحزن ، ويسبل عليهما الألم رداءه ،

في قبر واحد ، دُفنت أرواح ثلاثة ونسيت على حافة اللحد .

من الفجر حتى الليل ، من الليل حتى الفجر . تذرف الدمع أيها الناقوس . كأذرفه . تجمع بين قلبينا زفرة محرقة . الأهوية والسماء تردد نواحك ، كما لو فقد كل كوكب أمه ، وكل نسيم ولده .

من ذلك اليوم رنانك المقدسة ارتسمت في ذاكرتي المفجعة . وامتزجت بكأس آلامي المترعة . اختلطت زفراتك بأصوات قلبي ، وترددصداها في أنحائه . معدنك الرنان المغموس في اللهب يماثلني عند ما يبكي ، هو قطعة من روحي ، يوقع عليها ملاك نغماتك .

أرقد لغفلتك، وانهض ليقظتك. صوت نعيك، صديق تسمعه أذناى. بين رنين الأجراس، أفرق نغمتك. تغمرنى موجاتك. كالأجراس تعلو فى جنباتها رنات بعوضة طائرة.

أقول لنفسى: هذه الزفرة الحزينة المبهمة، يحملها إلى نسيم الليل العميق، موجة إثر موجة. أواه! لأجلى تتردد هذه الأصوات العالية. أفهم ما يقول. ويدرك ما أفكر. والهواء الجاهل فى هذا السكون المحتدم يحمل إلى لهجته المؤثرة.

أقول لنفسى: صوت هذا المعدن المتردد، قبل أن يصل إلى قلبى، ويغمر جنباته ويغرق قطعاته، اهتز فوق أطلال الماضى الراقد، يحمل إلى من بقايا قبته المنهدمة أشياء.

حجر القبر، حيث دفن حى، يقرع بهذا اللحن العذب.

لا تعجب ياولدى إذا اهتزت أفكارى لأصوات هذا الناقوس. مغرم بصمته الأمين للردى. لأول رنة تختلج تحت قبته أقف مصغيا لما يحمله إلى الحمام

أما أنت، مذياع الحزن البشرى الذى اخترعته الأرض لتجهر بآلامها. غن نشيد القلوب المحطمة الرائع، فزفرانك تهب الأحجار روحاً، والمقل الجافة دموعاً، والصلاة خشوعاً أبدياً، والقبور حزناً سرمدياً.

ooo

عند ما يحمل العمال نفسى وبقايا حطامى، تبق هنا روحى تقذف حممها الملتهبة نحو السماء. الباكون، حاشية باردة، تسير خلفى، لتضع جسدى، تحت باب حقير، ترتمى عليه أشعة الشموس.

إذا بدء ورعة قرعتك لشرفى. فلا تحزن مخلوقا بزفرانك المتصاعدة. لا تنشر الدموع فى الأفق. التمس جرس العيد واقرع فوق لحدى، برنة سلسلة سجن قرحة تقع على عتبته غرد كالعندليب لحناً خالداً، يرتفع من منزلك، والسوط الأسمر يوجه نحو فجر النهار خفقته الحزينة.

غن أنشودتك المترددة فى أعماق السموات تطفىء شهوة الخصوم المتشبثين بأدران الحياة.

إليك

اقرع قبل اليوم، دق رويدا الساعة. صديق فى منزلى الحقير، يحضر ليضىء فى هذا القلب المهدم، الحزن العميم، ويترك قبل أن يذهب قطرتين من العطر تضمخان طويلا كفنى.

حسين تفكجى

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

فى بلاد المدنية:

ذهبت بعيداً طائراً فى أجواء المستقبل فارتعشت وذعرت عند ما نظرت ما حولى فما وجدت من معاصر لى غير الزمان. ولبيت الأدبار مسرعاً حتى وصلت إليكم. يا رجال اليوم، ونزلت بينكم فى بلاد المدنية. فألقيت عليكم أول نظراتى بصفاء نية لأننى جئتكم بقلب مصدوع، ولا أعلم ما أهاب بى إلى الضحك بالرغم من ارتياعى، فان عينى ما رأت من قبل مثل هذه الخطوط والألوان.

ذهبت فى ضحكى وقد ارتعش قلبى واصطكت رجلاى فقلت فى نفسى (لعل هذه مصانع آنية المواد الملونة).

لقد برزتم أمامى يا رجال اليوم، وعلى وجوهكم وأعضائكم من الألوان عشرات الأنواع، وحولكم عشرات المرايا تعكس تموجات ألوانكم؛ والحق أنكم لا تستطيعون أن تجدوا ما تتقنعون به أشد غرابة من وجوهكم نفسها. يا رجال اليوم، فمن له أن يعرف من أنتم؟

لقد حفر الماضى فى وجوهكم آثاره فألقيتم فوقها آثاراً جديدة، لذلك خفيت حقيقتكم عن كل معبر وأعجزت كل بيان.

ولو كان لأحد أن يفحص الأحشاء فهل بوسعكم أن تثبتوا أن لكم أحشاء. وما أنتم إلا جبلة هباب ألوان وقطع أوراق ألصقت إلصاقاً. وهذه جميع الأزمنة وجميع الشعوب تتزاحم مرسلة نظراتها من وراء قناعكم كما تفصح جميع حركاتكم عن تراكم كل العادات والمعتقدات فيكم. فاذا ما نزعت أقنعتكم وألقيت أحمالكم ومسحت ألوانكم ووقفت حركاتكم فلا يبقى منكم إلا شبح ينصب مفزعة للطيور.

والحق، ما أنا إلا طائر مروع، لأننى رأيتكم يوماً عراة لا تستركم ألوانكم فاستولى الذعر على إذ انتصبتم أمامى هيا كل

عظام تومىء إلى باشارات العاشقين .

إننى أفضل أن أكون من عمال الجحيم وخدام الأشباح . لأن لسكان الجحيم ماليس لكم من شخصية معينة ، وأمر ما ألفاه هو أن أنظر اليكم سواء استترتم أو تعريتم . يارجال اليوم ...

إن جميع مايدعو إلى القلق فى آتى الزمان وجميع ماارتاعت له فى الماضى تائهات الطير، إنما هو أدعى الى الاطمئنان والارتياح من حقيقتكم ، لأنكم أنتم القائلون : (إنما نحن الحقيقة المجردة عن كل خرافة واعتقاد) وبهذا تتبجحون وتنتفخون دون أن يكون لكم صدور .

وهل من عقيدة لكم وأنتم المبرقشون بجميع ماعرف الزمان من ألوان حتى اليوم ؟ وهل أنتم إلا دحض صريح للايمان نفسه وتفكيك للأفكار جميعها ؟ فانتم كائنات أوهام يامن تدعون أنكم رجال الحقائق .

لقد قامت العصور كلها تتعارك فى تفكيركم ، وماكانت هذه العصور فى أحلامها وهذيانها إلا أقرب إلى الحقيقة من تفكيركم وأنتم منتبهون .

بليتم بالعقم ففقدتم الايمان وقد كانت للمبدع أحلامه وكواكبه قبلكم فوثق من إيمانه .

ما أنتم إلا أبواب فتحت مصاريعها لحفار القبور ، وما حقيقتكم إلا القول بأن كل شىء يستحق الزوال .

إنكم تنتصبون أمامى كهياكل عظام متحركة ، أيها المبتلون بالعقم ، ولا ريب فى أن أكثركم لم يخف عليه أمر نفسه عند ما تساءل : (هل اختطف إله منى شيئا وأنا نائم ؟ والحق أن ما سلب منى يكفى لايجاد امرأة ، فاأضعف أضلاعى) هكذا يتكلم العدد الوفير من رجال هذا الزمان .

إن حالكم ليضحكنى أيها الرجال ؛ ويزيد فى ضحكى أنكم لانفسكم مستغربون . ولشد ما يكون وبلى لو امتنع على أن أضحك من استغرابكم ولو اضطررت إلى ازدراد ما فى أوعيتكم من كريه الطعام .

إننى أستخف بكم لما على عاتقى من ثقيل الأحمال فما يهمنى لو نزل عليها بعض الذباب فانه لن يزيدها ثقلا وما أنتم من يحملنى أشد الاتعاب أيها المعاصرون .

واأسفاه ! إلى أية ذروة يجب على أن أرتقى بأشواقى فانى أدير لحاظى من أعالى الذرى مفتشاً عبثاً عن مسقط رأسى وأوطانى ، فانا لا أزال فى أول مرحلتى تائهاً فى المدن أتنقل أمام أبوابها .

لقد اندفعت بعواطفى نحو رجال هذه الأيام ، ولكننى ما لبثت أن تبينت فيهم قوماً غرباء عنى لايستحقون إلا السخرية ، وهكذا أصبحت طريداً يتشوق إلى مسقط رأسه وأوطانه . ولا وطن لى بعد الآن إلا وطن أبنائى فى الأرض المجهولة وسط البحار السحيقة ، لذلك وجب على أن أندفع بشراعى على صفحات المياه لأفتش عنه .

على أن أكفر عن ذنبى أمام أبنائى لأننى كنت ابناً لآبائى .

على أن أكفر عن حالى العتيد بكل جهودى فى آتى الزمان

هكذا تكلم زارا .

المعرفة الطاهرة

عند ما أطل القمر على ليلة أمس خيل إلى أنه أنثى أثقلها الحبل وكأن فى أحشائها كوكب النهار . وقد جاءها المخاض وأنا أميل إلى تذكير القمر منى إلى تأنيثه وان خلا من صفات الرجولة فانه رائد ليل يمر على السطوح وقد ساءت نواياه ، فهو كالراهب المتدفق شهوة وحسدا يتمنى لو يتمتع بلذات جميع العاشقين

لا ، إننى لاأحب هذا الهر المتجول على مزاريب السطوح ، لانى أكره كل متلصص أمام النوافذ التى لم يحكم إقفالها .

ان القمر ليمر خاشعاً متعبدا على بساط النجوم وأنا أكره كل من ينساب فى مشيته فلا تسمع وقعاً لاقدامه . فإن خطوات الرجل الصريح تستنطق الأرض ؛ وما يمشى الهر إلا متجسساً ، وهذا القمر لا يتقدم إلا بخطوات الغدر كالهر .

ما أوردت هذا المثل إلا لكم وعنكم يا أبناء الخبث وقد أرهفتم احساسكم لطلب المعرفة الصافية ، وما أنتم فى نظرى إلا عبيد الملذات لانكم أنتم أيضاً تحبون الأرض وما عليها ومنها . لقد عرفت طويتكم فاذا فى حبكم ما يخجل وما يفسد الاخلاق ، فما أشد شبهكم بكوكب الليل .

لقد أقنعوكم بأن تحتقروا كل ما ينشأ من التراب ، ولكن

هذا الاقناع لم ينفذ إلى أحشائكم ، وأحشاؤكم هي أقوى مافيكم ؛ وهكذا أصبح عقلكم خجلا من سيطرة أحشائكم عليه ، فهو يتبع الطرق الخفية المضلة فزعاً من خجله . أنصتوا إلى مناجاة عقلكم لنفسه فهو يقول : ليت لي أن أرتقي إلى حيث أنظر إلى الحياة محرراً من الشهوة فلا ألهث أمامها ككلب يدلي لسانه وقد شفه السغب من شهوته .

ليت لي أن أسعد بالتأمل متفوقاً على إرادتي متحرراً من خساسة الأنانية ومطامعها فيسود على السلام ولا يبقى لعيني سوى لحظات القمر الثملة .

ان عقلكم يطلب التملص من ذاته لأنه طريد يشتهي أن يتعشق الأرض كما يتعشقها القمر فلا تتمتع إلا عيونكم بجمالها

ان عقلكم يرى المعرفة الطاهرة لا تحتله ما لم ينبسط أمام الأشياء دون امتلاكها مكتفياً بانعكاس أشباحها عليه كما تنعكس الأشباح على مرآة لها مئات العيون .

أيها الخبثاء المتحرقون بالشهوات ، لقد خلت شهوتكم من الطهارة فلذلك تجدفون على الشهوة ، فأنتم لا تحبون الأرض كما يحبها المبدعون والمجددون الذين يسرون بما يبدعون وبما يجددون . فلا طهارة إلا حيث تتجلى إرادة الابداع ، فمن اتجه إلى خلق من يتفوق عليه فذلك عندي صاحب أطهر إرادة وأنقاها .

طلبت الجمال فما وجدته إلا حيث تنصب الارادة بأكلها إلى المراد ، وحيث يرتضي الانسان بالزوال لتجديد الصور وتبديلها ، فالمحبة والموت صنوان متلازمان منذ الأزل فمن أراد المحبة فقد رضي بالموت . هذا ما أقوله لكم أيها الجبناء .

ولكن نظراتكم المنحرفة المؤنثة تحب الاستغراق في التأمل فتريدون أن يدعى جمالا ما تحدجونه أنتم بعين الحذر والجبن ؛ إنكم لتدنسون أشرف الأسماء .

ان اللعنة التي تحل بكم ، أيها السائرون وراء المعرفة الطاهرة إنما هي عجزكم عن التوليد في حين أنكم تلوحون كالحبالى المثقلات على الآفاق .

إنكم تحشون أفواهكم بأنبل الكلمات لإيهامنا بأن قلبكم يتدفق عطفاً وما أنتم إلا منافقون .

لقد أخذت القول لكم فكلماتي مشوهة ذرية ؛ غير أنني أتناولها من الفتات المتساقط من موائد ولائمكم فأستعملها حين أعلن الحقيقة للخبثاء . وهذا ما يبدي من حسك وأصداف يخدش آنافكم أيها الخبثاء .

إن الهواء الفاسد يهب بلا انقطاع حولكم وحول مآدبكم لأنه مشبع من أفكاركم الدنسة وأكاذيبكم وخداعكم .

عليكم بأن تبدأوا باطراح خوركم لتتوصلوا إلى الوثوق بأنفسكم فما ينقطع عن الكذب من لا ثقة له بنفسه

لقد أخفيتم وجوهكم بأقنعة الآلهة أيها الرجال الأتقياء فأنتم ديدان قبيحة تتشح برداء الارباب

إنكم لجد متبجحين يا رجال التأمل ، حتى أن زارا نفسه أخذ بمظاهر جلودكم الالهية فخفيت عنه الأفاعي الكامنة وراءها

لقد كنت أرى في عيونكم روح إله أيها الطالبون المعرفة الطاهرة ، قبل أن تكشف لي تصنعكم فعرفت أنكم أمهر المتصنعين

لقد بعد المجال بيني وبينكم فما تميزت فيكم الثعبان القبيح ، ولا وصلت إلى رائحته الكريهة ، وما خطر لي أن أمامي حرباء تتلون بشهواتها . ولكنني عند ما اقتربت منكم تبددت الظلمة حولي . وها إن الفجر يغمركم بأنواره فلكل قمر جنوح إلى الغياب في شهوته . أنظروا إلى هذا القمر فهو في أفقه شاحب مذعور وقد باغته الفجر بأنواره المرسلة ، فكل شمس يتجلى حبها الطاهر في تشوقها إلى الابداع

أما ترون الفجر ينسحب على البحر وقد اهتاجه الشوق والحنين؟ إنما تشعرون بظمأه في حبه وحر أنفاسه ، فكأنه يريد ارتشاف اللجج . وها هي ذي تتعالى نحوه بآلاف نهودها ، واللجة نفسها متشوقة إلى وصال كوكب النهار ليرشفها ارتشافاً فتتحول إلى سحب ومسالك أنوار ، بل هي نفسها تفنى في النور متحولة إلى نور

وأنا كوكب النهار أحب الحياة وكل لجة بعيدة الأغوار ؛ تلك هي معرفتي . انني أجتذب كل غور ليتعالى إليّ ...

هكذا تكلم زارا ...

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١١٨ — المرأة والكتب

في (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة: حدثني الشيخ شديد الدين المنطقي بمصر قال: كان الأمير ابن فاتك محبا لتحصيل العلوم، وكانت له خزائن كتب، فكان في أكثر أوقاته اذا نزل من الركوب لا يفارقها، وليس له دأب إلا المطالعة والكتابة. وكانت له زوجة كبيرة القدر من أرباب الدولة. فلما توفي (رحمه الله) نهضت هي وجوار معها إلى خزائن كتبه، وفي قلبها من الكتب، وانه كان يشتغل بها عنها(١)، فجعلت تندبه، وفي أثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار هي وجواريها ... ثم أشيلت الكتب بعد ذلك من الماء. وقد غرق أكثرها، فهذا سبب أن كتب المبشر بن فاتك يوجد كثير منها وهو بهذه الحال

١١٩ — على الطنبور

قال جحظة: وهب لي جعفر بن المأمون طنبور عبيدة الطنبورية فاذا عليه مكتوب بآبنوس:

كل شيء سوى الخيانة في الحب يحتمل

١٢٠ — حتى متى ارقعك ؟

قال أسماء بن خارجة لجاريته:

اخضبيني

فقالت: حتى متى أرقعك ؟!

فقال:

عيرتني خلقاً أبليت جدته … وهل رأيت جديداً لم يعد خلقا

(١) في (الوفيات): قال القاضي ابن بكار: قالت ابنة أختي لأهلنا: خالي خير رجل لأهله لا يتخذ ضرة، ولا يشتري جارية، فقالت المرأة: هذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر وأصعب . . .

١٢١ — في الدنيا والآخرة

قال الجاحظ: روى أن أعرابيا اشتد عليه البرد فأصاب ناراً، فدنا منها ليصطلي بها وهو يقول: اللهم، لا تحرمنيها في الدنيا ولا في الآخرة

١٢٢ — الجديد والقديم

أبو بكر محمد بن نصر الأوسي:

وان كان عندي للجديد لذاذة … فلست بناس حرمة لقديم

١٢٣ — اذا استحكمت المودة بطلت التكاليف

قال عبد العزيز بن الفضل: خرج القاضي أبو العباس احمد بن عمر بن سريج وأبو بكر محمد بن داود الظاهري وأبو عبد الله نفطويه(١) إلى وليمة دعوا لها، فأفضى بهم الطريق الى مكان ضيق، فأراد كل واحد منهم صاحبه أن يتقدم عليه، فقال ابن سريج: ضيق الطريق يورث سوء الأدب

وقال ابن داود: لكنه يعرف مقادير الرجال ...

فقال نفطويه: اذا استحكمت المودة بطلت التكاليف

١٢٤ — غزل الصداقة

في (المقابسات) قال الحسن بن وهب: غزل الصداقة أرق من غزل العلاقة(٢)،

وهذه نفثة فاضل قد أحس كال الصداقة

١٢٥ — اسم أبو العتاهية

تكلم بعض القصاص قال: في السماء ملك يقول كل يوم: لدوا للموت وابنوا للخراب.

فقال بعض الأذكياء: اسم ذلك الملك أبو العتاهية ...

١٢٦ — الشاكر والصابر في الجنة

نظرت امرأة عمران بن حطان يوماً في المرآة وكانت من أجمل النساء ـ فأعجبها حسنها، ونظرت إلى عمران ـ وكان قبيحاً

(١) بكسر النون وفتحها والكسر أصح: لقب لدمامته وأدمته تشبيهاً بالنفط

(٢) العلاقة: الهوى والحب اللازم القلب، بفتح العين كما في (اللسان والنهاية) وبالكسر أيضاً كما في (القاموس). وقد أنكر الاصمعي هذا كما في (التاج)

فقالت : ابا شهاب ، تعال فانظر فى المرآة ! فجاء فنظر إلى نفسه وهو إلى جانبها كأنه قنفذ ورأى وجهاً قبيحاً ، فقال: هذا أردت؟ !

فقالت : إنى لأرجو أن أدخل الجنة أنا وأنت

قال : بم ؟

قالت : لأنك رُزقتَ مثلى فشكرت ، ورُزقتُ مثلك فصبرت . والشاكر والصابر فى الجنة ...

١٢٧ — فلا

فى (العمدة) لابن رشيق : قيل لابى السائب المخزومى : أترى أحداً لا يشتهى النسيب ؟

فقال : أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا ...

١٢٨ — لا حكم إلا للملاح

أبو القاسم المرتضى :

بينى وبين عواذلى فى الحب أطراف الرماح [١]
أنا خارجى فى الهوى لا حكم إلا للملاح

١٢٩ — ماء الملام ، جناح الذل

قال أبو تمام فى قصيدة :

لا تسقنى ماء الملام فاننى صب قد استعذبت ماء بكائى

فبعث مخلد الموصلى اليه بقارورة يسأله أن يبعث [٢] له فيها قليلا من ماء الملام [٣] ، فقال لصاحبه : قل له يبعث الى بريشة من جناح الذل لأستخرج بها من القارورة ما أبعث اليه

قال ابن أبى الحديد : هذا ظلم من أبى تمام لمخلد ، وما الأمران سواء لان الطائر إذا أعيا وتعب ذل ، وخفض جناحه ، وكذلك الانسان إذا استسلم ألقى بيديه ذلا ، ويده جناحه ، فذاك هو الذى حسّن (واخفض لهما جناح الذل) ألا ترى لو أنه قال : واخفض لهما ساق الذل أو بطن الذل لم يكن مستحسناً

(١) العواذل : قالوا : « فاما مذكر من يعقل فلم يجمع على فواعل الا فوارس وهوالك ونواكس فاما فوارس فلأنه شىء لا يكون فى المؤنث . . . فلم يخف فيه اللبس . وأما هوالك فانه جاء فى المثل : هالك فى الهوالك فجرى على الاصل لأنه قد يجىء فى الامثال ما لا يجىء فى غيرها . وأما نواكس فقد جاءت فى ضرورة الشعر . قلت : ثلاثة رابعهم العواذل . . .

(٢) فى كتب الادب والعلم وبعض كتب اللغة : بعث الشىء وبالشىء دون التفات إلى ما يبعث به وحده أو مع غيره ، وإلى ما ينبعث بنفسه أو لا ينبعث بنفسه وللنحويين المتقدمين كلام طويل فى هذا الفعل . وقد ردد أدباء فى هذا الزمان بعض ما قيل من قبل .

(٣) الآمدى فى (الموازنة) لم يعب قول أبى تمام وقد قال : « لما كان مجرى العادة أن يقول قائل أغلظت لفلان القول ، وجرعته منه كأساً مرة ، وسقيته منه أمر من العلقم وكان الملام مما يستعمل فيه التجرع على الاستعارة جعل له ماء على الاستعارة » .

١٣٠ — ولع الشعراء ببعض الالفاظ

فى (سر الفصاحة) للخفاجى :

قلما يخلو واحد من الشعراء المجيدين أو الكتاب من استعمال ألفاظ يديرها فى شعره . وقد كان أبو الحسن مهيار ابن مرزويه ممن غَرِى [١] بلفظ (طين وطينة) فما وجدت له قصيدة تخلو من ذلك إلا اليسير .

وقال أبو الفتح بن جنى : قلت لأبى الطيب المتنبى : إنك تكرر فى شعرك (ذا وذى) كثيراً ، ففكر ساعة ثم قال : ان هذا الشعر لم يعمل كله فى وقت واحد . فقلت : صدقت إلا أن المادة واحدة ، فأمسك

١٣١ — القاضى بسعادتك

قال أبو اليمن زيد الكندى : كنا نلقب [٢] أبا المكارم محمد بن الملك بن أبى جرادة (القاضى بسعادتك) وذلك أن القلانسى دعاه فى وليمة — وكنت حاضرها — فجعل لا يسأله عن شىء فيخبر عنه بما سر أو أساء إلا قال فى عقبه (بسعادتك) فان قال له : ما فعل فلان ؟ قال : مات بسعادتك ، وإن قال له : ما خبر الدار الفلانية ؟ يقول : خربت بسعادتك . فسميناه (القاضى بسعادتك) وكان يقولها لاعتياده إياها لا لجهل كان فيه ، وكان له أدب وفضل وفقه وشعر جيد

١٣٢ — وبأحسنت لا يباع دقيق

حضر جحظة بمجلس بعض الكبار مراراً ، وكان اذا غنى يقول له : أحسنت ، ولم يكن يخوله شيئاً ، فقال فيه :

ان تغنيت قال: أحسنت ! زدنى وبـ(أحسنت) لا يباع دقيق

(١) غرى بالشىء أولع به من حيث لا يحمله عليه حامل وغرى بالضم مشدد لا كما أورده (أقرب الموارد) مبنيا للمجهول مخففا .

(٢) فى كتب الادب لقبته كذا وبكذا وفى كتب اللغة لقبته بكذا . وقد خطأ صاحب (تذكرة الكاتب) الاول إذ لم يره كما يظهر وهو فى كلام الأدباء منذ ألف سنة .

١٣٣ — فلهذا يرقص الحبب

قال ابن خلكان : من معانى الأبيوردى البديعة قوله من جملة أبيات فى وصف الخمرة :

ولها من ذاتها طرب   فلهذا يرقص الحبب

١٣٤ — أنت الحسن اذن

قال ابو نواس : استقبلتنى امرأة فسفرت عن وجهها ، فكانت على غاية الحسن ، فقالت : ما اسمك ؟

قلت : وجهك

قالت : أنت الحسن اذن !

١٣٥ — يتيم

قال ابن خالويه فى كتاب (ليس) : أنشدنى أعرابى :

ثلاثة أحباب : فحب علاقة   وحب تملاق وحب هو القتل[1]

فقلت له : زدنى

فقال : البيت يتيم[2] .

١٣٦ — فر زيتون من الجبن

فى (الغيث المنسجم) للصفدى : كتب القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر لما التقى (الملك الظاهر) مع (زيتون الفرنجى) قريبا من عكا ، وهرب زيتون ، وأسر غالب من كان معه من الفرنج ، فجاء فى جملة الكتاب : « وفر زيتون من الجبن » قيل ان الملك الظاهر لما سمعها أعجبته وخلع عليه

١٣٧ — أينما كانت انتفعنا بها

فى كتاب (قضاة قرطبة) لمحمد بن الحارث الخشنى :

قال محمد بن فرج الفقيه : ما رأيت أعقل من زياد بن عبد الله (الخطيب بالمسجد الجامع بقرطبة) قلت له يوما : يزعم هؤلاء المعدلون[3] أن هذه الشمس . مقرها السماء الرابعة . فقال : (أينما كانت انتفعنا بها) ولم يزدنى على ذلك ، فعجبت من عقله

(١) الأحباب من جموع الحب بالكسر أى المحبوب والأنثى حبة (الأزرق) مصدر كالتلاق .

(٢) يتيم : فرد .

(٣) المعدلون : العدول الذين يزكون الشهود .

نفثة محزون

للأستاذ ابراهيم عبد الوهاب

فى ميعة الصبا ونضرته ، وفى ربيع الحياة وزهوه ، اختطف الموت ابنى ولم يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، ففاض صدرى بهذه الكلمة تفجعا عليه ورثاء له

عافَ الحياة ومَلَّ من أوْصابها   لما ألحَّ الداء فى أسبابها

بَكَرَت إليه يدُ المنونِ ولم يكد   يُوفِى من الدنيا على أوابها

ورمت مَنيته إليــه شباكها   وعدَتْ عليه بظفرها وبنابها

وطوت صحيفتَهُ ولما يَكتَمِلْ   عنوانُ قصتها وبَدْءُ كتابها

فمضى كأزهارِ الربيع قصيرةً   أيامُها وفريدةً فى بابها

***

أبنى أىُّ فجيعـةٍ غـدَّارةٍ   دَهياء قد نزلت بفصلِ خطابها

رمت القلوب فأقْصَدتْ حباتها   ومَحَتْ جميل الصبر فى أعقابها

وأسالت الدمع الأبِىَّ كأنه   غيثُ السماء هَمَى وهطْلُ سحابها

لهفى عليك وأنت نِضْوٌ خائر   تشكو من الحمى ومن أذنابها

وتبيت مضطرباً كأنك فى لظى   قلقاً تَوَجَّعُ من أليم عذابها

حلت بجسمك لاتريد فراقه   فكأنما ألفَتْكَ من أحبابها

ورمت يديك برعدة مشئومة   أيقنْتُ أن الموت ينذرنا بها

الجسم مرتعها ولحمك طعْمُها   وعصير قلبك من لذيذ شرابها

صهرتك لم ترحم صباك ولم تَهِنْ   حتى مضت بالروح فى أسلابها

***

وقف الطبيب إلى سريرك مطرقا   حيْرانَ مُعتَماً لدائك آبها

ودعا صحابتــه إليك فلم يجـد   رأياً جديداً أو مشيراً نابها

وأهابَ بالطب العتيــد فخانه   وأراد معجزة فما أوْفَى بها

الطب إن شاء الإله وسيلة ... تشفى من الحمى ومن أترابها

أو لم يشأ تلقاه شر رسالة ... للموت يُزجيها إلى أربابها

قل للمؤمل فى الطبيب وطبه ... إن الحياة رهينةٌ بكتابها

لا الطب يصنعها ولا أقطابه ... الله قدرها ليوم مآبها

هى صنعة المولى تملّكَ سرَّها ... وأجادها ووَعى دقيق حسابها

***

أبنىَّ أزمعتَ النوى وتركتنى ... أشتفُّ من كدر الحياة وصابها

أذكيت نار الحزن تلتهم الحشا ... وتذيب قلبى من سعير لهابها

تلك الدموع الحائرات بمقلتى ... هى مهجتى تنساب من أهدابها

أفلا رحمتَ أباك من أدوائه ... حتى أضفت لها الفراق مشابهاً

ورحمتَ أمك من لواعج ثكلها ... وغزير عبرتها وسود ثيابها

تبكى وتندب حظها وعثارَهُ ... وربيبَ مهجتها وصنوَ شبابها

وتود لو أنَّ الدموع شرابُها ... أو أن ماء البحر من تسكابها

وتطوف حول القبر تلتمس الهدى ... فكأنما أوفتْ على محرابها

حيرَى مُحَسَّرةً تمثل حزنها ... فتكاد تلمسه على جلبابها

الخطب أرهقها وحطّمَ عودها ... ولرُبَّ عاقلةٍ مضى بصوابها

***

قد كنت وثَّابَ الذكاء محبَّباً ... وبرئت من طبع الخصال وعابها

قد كنت بهجة دارنا وسرورها ... ففدت بفيض الحزن من أعتابها

قد كنت لى أملاً ألوذُ بنوره ... فى لجة الدنيا وشق عبابها

غدت الحياة ثقيلة أيامها ... ضيّقٌ على رغمى فسيحُ رحابها

ما أضيع الآمال بعدك والمنى ... هى خدعة الدنيا وكذب سرابها

***

حذت لى الأيام حرَّ نِصالها ... ومضت تجدُّ بحدها وذُبابها

وتتابعت نُوَبُ الزمان كأنما ... أَلِفتنىَ الأحداثُ فى إغبابها

وأصاب هذا الدهر خير أحبةٍ ... ملكتهمُ العلياءُ فى أنسابها

كانوا ملاذ الفضل مُعتصمَ الحجا ... وبشاشة الدنيا وزَهْوَ خضابها

قد كنت أمرح بينهم فى روضة ... والآن صرت لوحدتى ويبابها

***

أبنى إن عظمت بفقدك نكبتى ... فرجائىَ المولى عظيمُ ثوابها

ناداك ربك فاستجبت نداءه ... وصدَفتَ عن دنيا الورى وكذابها

نم فى جوار الله غير مُرَوَّعٍ ... وانعم بجنته ورحب جنابها

وارتعْ هنالك بين رَيِّق مائها ... وبهيج سُنْدُسِها وفى أعنابها

وارجُ الإله لوالديك تصبُّراً ... ينسيهما البلوى ووَقعَ مُصابها

إن الذى خلق المكاره والأسى ... هو بارئُ الرحماتِ يُسعِدُنا بها

ابراهيم عبد الوهاب

المدرس بمدرسة المنيرة الابتدائية الأميرية



ميكلانجـــلو

العبقرية الملهمة

MICHELANGELO

للدكتور احمـد موسى

— ٤ —

تكاد تكون شخصية ميكلانجلو من أعقد الشخصيات؛ ذلك لتعدد نواحي دراسته وتحديد مواهبه الفنية فإذا استعرضت تاريخ حياته في مختلف المصادر ، وجدت أن كل مؤرخ في تفرغ لتناوله من ناحية معينة ، بغية الوصول إلى تعريف محدود له ، ينتهي بوضع أساس يتفق وعظمته .

وقد قرأنا عنه الكثير ، وشاهدنا من إنتاجه وآثاره ما فيه الكفاية ، ووجدنا بعض مؤرخي الفن يدرسه كمهندس معماري ، وآخر يحلله كنحات ، وثالث كنقاش ، ورابع كمصور ، وخامس كشاعر ، وسادس كعاشق دفع به الهوى إلى تلحين ملحمات غزلية ألفها في ساعات إلهامه .

وقد أخذنا على عاتقنا دراسة ميكلانجلو دراسة فنية مبسطة ولكنها شاملة ، وتناولناه بالبحث كنحات عظيم . ولكنا لا نكون قد أدينا رسالة الفن تمام التأدية إذا لم ندرسه كمصور أيضاً . حتى تتم بذلك معرفتنا له من ناحيتيه البارزتين وهما النحت والتصوير ؛ ولا سيما وهو لم يكن ليقل عظمة في الأخير عن الأول ، بل إنه قد استطاع إظهار أدق وأعمق مشاعره النفسية ، وأفكاره الملهمة في التصوير الذي أخرجه على أعظم جانب من الإجادة وحسن الانسجام .

وإذا كنا قد علمنا أنه ترك بعض منحوتاته دون إكمال ، فإنه يهمنا أن نعلم أنه لم يترك من مصوراته إلا ما ندر غير كامل ، ومن هنا نستطيع أن ندرسه دراسة وافية كمصور ، ونصل بها إلى الأعماق التي لم نستطع الوصول إليها في النحت الذي قررنا أن اتجاهه فيه كان مثلياً كما كان كذلك في التصوير ، وهي ظاهرة طبيعية يحتمها التناسق في الإنتاج الفني والخلق المبتكر .

وإذا كان ميكلانجلو قد ظهر أمامنا بعد استعراض منحوتاته ، دائم الطموح نحو الكمال الانساني ، ساعياً وراء المثل العليا في التكوين الانساني والموضوعي ، مهتماً تمام الاهتمام باختيار المواقف العنيفة التي خرج بها عن المألوف من ناحية الانشاء الوضعي والتي من مقتضاها أن ظهرت تفاصيل الجسم على أقوى ما يمكن ظهورها به ؛ فإن هذا نفسه كان الاتجاه الذي سار فيه والهدف الذي رمى اليه في التصوير الذي لم يجمع فيه بين المناظر الشخصية مفردة كانت أو مجتمعة وبين الطبيعة إلا فيما ندر ، مخالفاً في ذلك ما رأيناه عند ليوناردو دافينشي (راجع المقالين الخاصين به)

ويشعر المشاهد لمصوراته عموماً كأنه واقف يستعرض تماثيل مجسمة لا صور أو لوحات مسطحة ، ومن هذا نستطيع أن نكون لفنه التصويري طابعاً مميزاً وروحاً خاصاً ، وهو أنه كان مصوراً نحاتياً أكثر منه مصوراً بحتاً ، إذ أن كل مصوراته تمت بصلة كبيرة إلى قواعد النحت ، أكثر من انتمائها إلى قواعد التصوير .

على أن مصوراته هذه لم تكن مرسومة بالزيت كما يعتقد كثير من الناس ، بل كانت تصويراً على الجص الطازج . وهذه الطريقة التي تتلخص في التصوير بألوان الماء على طبقة رقيقة من الجص أو الجير قبل جفافه هي التي يعبر عنها رجال الفن بتصوير الفرسكو « Al Fresco »

وقد صور بعض مصوراته بطريقة أخرى . وذلك أنه أخذ الألوان الطبيعية من الأرض ، Tempera ، وأضافها إلى محلول الغراء والعسل ، وعند ما أراد التصوير بها أضاف اليها الغراء الكثيف أو بياض البيض واستعملها بعد ذلك مباشرة

ولعلنا بدرسه على ضوء أبسط أصول تاريخ الفن نضطر إلى تقسيم تراثه إلى ثلاث مراحل تستغرق كل مرحلة منها حوالى الثلاثين سنة ، على اعتبار انه عاش حوالى التسعين

وتنحصر المرحلة الأولى بين سنة ١٤٧٥ ، ١٥٠٥ وهى التى قضى معظمها كنحات وقد سبق لنا درسها ، وله فيها ثلاث قطع لاتزال باقية ، أولاها صورته «دفن المسيح» ، وثانيتها «مادونا مانشيستر» ، وتشمل مريم ويسوع ويوحنا وملائكة أربعة والروح الغالبة على هذه اللوحة ظهور البساطة بأجلى معانيها مع عظمة التكوين الانسانى وهذه وسابقتها محفوظتان بجاليرى لندن غير كاملتين .

وقطعته الثالثة تمثل العائلة المقدسة ، وهى صورة مستديرة - ش ١ - محفوظة بمتحف أوفيسين بفلورنسا ، صورها سنة ١٥٠٤



(ش ١)

وتمثل مريم والطفل وخلفهما يوحنا ومجموعة أطفال فى مؤخر اللوحة .

أنظر إلى مريم وكيف أسندت الطفل بوضع أطراف يدها اليمنى تحت إبطه واسنادها له بيسراه ثم تأمل الجمال البادى على ملامحها ، وحسن إخراج الملابس وثناياها . إلى جانب جلستها الرائعة ، وظهور قدمها اليمنى بحالة فنية لاترتفع إلى مثلها غير عبقرية ميكلانجلو .



(ش ٢)

ثم شاهد ما ارتسم على وجه يوحنا من علامات الحب والاشفاق على الطفل يسوع . ولاحظ شعر الرأس والذقن إلى جانب الحياة التى تشع من عينيه

ورسم الأطفال فى مؤخر الصورة أقوياء التفاصيل والتكوين الجسمانى وهذا من مميزاته الخاصة ، وميله إلى قواعد النحت أكثر من ميله إلى قواعد التصوير

وتعطيك النظرة الشاملة للمجموع الإنشائى للصورة فكرة هائلة عن جمال الوضع الأولى والتصميم الكلى للوجه . فالرؤوس الثلاثة تكاد تكون بارتفاع واحد . ومع هذا لم تخرج على أصول الانسجام فضلا عن بعدها عن الازدحام الذى يؤدى غالباً إلى ضعف التوجيه . هذا إلى هدوء الألوان وبعدها عن الحدة .

وله مصورات تخطيطية بين سنة ١٥٠١ ، ١٥٠٥ منها ما مثل دراسات لرؤوس بمشاهدتها تعطيك فكرة صادقة



كتاب عن التربية في مصر

صدر أخيراً كتاب بالانكليزية عن مستقبل التربية فى مصر بقلم أستاذ انكليزى معروف فى دوائر التربية المصرية هو الدكتور جاكسون الاستاذ سابقا بمعهد التربية ، عنوانه : « التربية والعهد الجديد فى مصر Education and the New Era in Egypt » ؛ وقام باصداره معهد التربية ؛ ويقول الأستاذ جاكسون إن الذى حمله على تأليف هذا الكتاب هو الحاجة الماسة فى هذه المرحلة من تاريخ مصر الاجتماعى ، الى وضع سياسة حديثة للتربية تقوم على جهود موحدة نزيهة ومثل عملية . ويتناول الأستاذ فى كتابه ثلاث مسائل رئيسية هى : أولا ـ مهمة التربية فى مصر وفى رأيه أنها العمل على انشاء ثقافة مصرية . ثانيا ـ مسألة اعداد المعلمين . ثالثا ـ مسألة النظام ويتناول الاستاذ جاكسون هذه المسائل تناول العارف المطلع ، ولا غرو فقد أنفق أعواما يعمل فى أوساط التربية المصرية ، وهو يحاول فى بحوثه أن يوفق بين المقاصد العملية وبين المثل النظرية ، ويقدم اقتراحات عملية لبعض المسائل المستعجلة التى تواجهها مصر اليوم : فهو يرى مثلا أن التعليم الثانوى فى مصر نظرى محض ويقترح أن تدمج فيه بعض العناصر العملية ، وينوه بخطر التعليم السطحى ، ويرى أن تزاد البعثات العملية القصيرة إلى الخارج ؛ ثم هو يحذر ولاة الأمر من التقتير على المعلمين لأن المعلمين المغبونين الساخطين يغدون خطرا على المجتمع ، ويرى فى تعليم اللغة الانكليزية ألا يبدأ به إلا من السنة الثالثة الابتدائية بعد أن يكون التلاميذ قد حصلوا على قسط معقول من اللغة العربية

ويتحدث الاستاذ جاكسون طويلا عن مسألة النظام والطاعة ؛ وهو يرى أن استتباب النظام شرط جوهرى للتقدم ، ويرى ضرورة التشدد فى مسألة القوانين النظامية ؛ ثم يقول

عن مدى تأثره بليوناردو دافينشي

ولعل أبرز ما أنتجه فى هذه المرحلة أيضاً الصور الكارتونية للتصوير الجصى (الفرسكو) الذى لم يتم عمله والذى كان مخصصاً لبيت البلدية فى فلورنسا ، وهذه تخالف فى روحها وتكوينها لوحاته التى أظهرت تأثره بليوناردو وهى تمثل مذبحة كاشينا « Cascina » التى انتصر فيها الفلورنسيون على محاربيهم من بيزا فى ٢٧ يوليو سنة ١٣٦٤

وقد مثل فى هذه اللوحة جمهرة من الفلورنسيين يستحمون وأعداؤهم من بيزا يفاجئونهم ، وهى رائعة الانشاء قوية الإخراج مليئة بالحركة والرشاقة

وله أيضاً فى هذه المرحلة (١٥٠٥) كارتونات مصورة لم يبق منها للأسف إلا اثنتان ، الأولى لأجوستينو فيسيانو والثانية تمثل منظر « الصاعدين » ـ ش ٢ ـ ، وهى بالنظر إليها تبين رجلا عجوزاً جلس على مرتفع من الأرض يشير بيمناه إلى الهدف الذى يريد الوصول إليه ، وأمامه ولداه وقد مد الأول منهما يسراه إلى رابع لم تظهر منه إلا أطراف أصابعه الأربعة ، والطريقة التى انحنى بها الولد للأخذ بيد زميله من أطراف أصابعه هى من أقوى ما يستطيع فنان اختياره

أنظر إلى اليد اليمنى وكيف استندت إلى حافة المرتفع ، ثم تأمل الحرص البادى على يده اليسرى الممدودة لمساعدة زميله

وإذا تأملت ما تخلل الاحجار من نباتات ظهرت نهاياتها ونظرت إلى الأشجار وما غلب عليها من ظل و نور ، وشاهدت الكيفية التى عالج بها أوراق الشجر إلى جانب المرتفعات البعيدة فى مؤخر الصورة ، تر أن ميكيلانجلو كان عنيفاً ولكنه العنف الذى أدى إلى الخلود الفنى .

أحمد موسى

إنه مادامت الصبية فى وسعهم أن يقلبوا قرارات معلميهم إلى عكسها سواء بالشكوى إلى ذويهم او بالاعتصاب والصخب . فانه يستحيل عليهم ان يتعلموا إحترام السلطة المدرسية التى هى جوهرية بالنسبة للتعليم والعلم . إن الاعتصاب من انواع العنف فيجب محاربته وقمعه بالحزم من جانب السلطات وبتنمية الروح الاجتماعي فى المدارس وهو روح يكاد يكون مفقوداً .

ولا شك أن مسألة التربية وتوجيهها من أهم المسائل التى يجب ان تعنى بها مصر المستقلة ؛ فمصر تحتاج الى خلق جيل جديد يتمتع بصفات جديدة تناسب العهد الجديد وتناسب مسئولياته ؛ ومن الأسف أن ولاة الأمر لم يوفقوا حتى اليوم إلى تناول هذه المسألة الخطيرة بما يجب من الاهتمام ، ولاريب أن كتاب الأستاذ جاكسون يحتوى كثيرا من الحقائق والملاحظات الجديرة بالدرس والاعتبار

حول عيد القاهرة الألفى

أذاعت الصحف أن وزارة التجارة والصناعة تنوى أن تنتهز فرصة سنوح العيد الألفى لمدينة القاهرة المعزية فتقيم معرضاً مصرياً عظيماً تدعو الدول ولا سيما الدول الشرقية والاسلامية إلى شهوده والاشتراك فيه ؛ وهذه فكرة جليلة بلا ريب ؛ وقد سبق أن نوهت « الرسالة » فى أكثر من مقال رنان باهمية هذا العيد التاريخى ووجوب الاحتفاء به فى مظاهر عظيمة تتفق مع أهميته وجلاله؛ على أن هذه الدعوة لم تلق إلى اليوم صداها المنشود ؛ وإذا كان مجلس التنظيم قرر بهذه المناسبة أن يطلق اسم الخليفة المعز واسم القائد جوهر على شارعين من شوارع القاهرة القديمة ، وإذا كانت وزارة التجارة تريد أن تتخذ هـذه المناسبة لإقامة معرض دولى عظيم ، فان هذه الاجراءات والقرارات المتفرقة لا تكفى فى نظرنا للاحتفاء بهذا العيد . بل يجب أن يكون الاهتمام به شاملا ، وان تؤلف لجنة حكومية عامة تمثل جميع الوزارات المصرية والهيئات العامة ، لتضع برنامجاً شاملا لهذا الاحتفال التاريخى الجليل ، تندمج فيه هذه الاجراءات الجزئية التى ترى الجهات المختلفة اتخاذها ؛ ومن المحقق أن عيد القاهرة الألفى هو من أعظم الأعياد القومية ، فيجب أن يتخذ برنامج الاحتفال به هذا اللون ، وعلى أى حال فما يدعو إلى الغبطة أن تبدأ السلطات بالتحرك للتفكير فى إحياء هذا العيد بعد أن طال صمتها ، وبعد أن لم يبق على وقوعه سوى زمن قليل

الشيخ منصور المنوفى لم يكن شيخاً للأزهر

قرأت ما كتبه الأستاذ الجليل محمد عبد الله عنان فى عدد الرسالة الغراء (٢٠٨) تحت هـذا العنوان ـ مصر فى خاتمة القرن السابع عشر كما رآها العلامة عبد الغنى النابلسى ـ فرابنى منه قوله « ثم يحدثنا الرحالة عن الجامع الأزهر وعن شيخه وهو يومئذ الشيخ منصور الشافعى الضرير » ، وحدثتنى نفسى أن هذا الاسم لم يمر عليها فى شيوخ الأزهر ، فأخذت على عادتى أرجع إلى مصادرى التى قرأتها لأحقق هذا الأمر الذى استربت فيه ، وأدركنى الشك فى صحته

فرجعت إلى الخطط التوفيقية وإلى تاريخ الأزهر فوجدتهما متفقين على ان الذى كان شيخاً للأزهر فى تلك السنة التى رحل فيها الشيخ عبد الغنى النابلسى إلى مصر ، وهى سنة ١١٠٥ هـ ـ ١٦٩٣ م ـ هو الشيخ محمد النشرتى المالكى . وقد كان شيخاً للأزهر من وفاة الشيخ ابى عبد الله محمد بن عبد الله الخرشى سنة ١١٠١ هـ إلى ان توفى سنة ١١٢٠ هـ

وقد ذكر الجبرتى وفاة الشيخ الخرشى فى سنة ١١٠١ هـ وقال عنه إنه الامام العلامة والحبر الفهامة شيخ الاسلام والمسلمين وارث علوم سيد المرسلين الشيخ محمد الخرشى المالكى شارح خليل وغيره ، ويروى عن والده الشيخ عبد الله الخرشى وعن العلامة الشيخ إبراهيم اللقانى . كلاهما عن الشيخ سالم السنهورى المالكى ، عن النجم الغيطى عن شيخ الاسلام زكريا الانصارى، عن الحافظ ابن حجر العسقلانى بسنده إلى الامام البخارى

ثم ذكر وفاة الشيخ محمد النشرتى فى سنة ١١٢٠ هـ وقال عنه إنه الامام العالم العلامة الشيخ محمد النشرتى المالكى ، وهو كان وصياً على المرحوم الشيخ الوالد بعد موت الجد ، توفى يوم الأحد بعد الظهر ، وأخر دفنه إلى صبيحة يوم الاثنين ، وصلى عليه بالازهر بمشهد حافل ، وحضر جنازته الصناجق والأمراء والأعيان ، وكان يوماً مشهوداً

أما الشيخ منصور المنوفى فقد ذكر الجبرتى وفاته فى سنة ١١٣٥ هـ وكان قد جاوز تسعين سنة . وقال عنه إنه الشيخ

العلامة الفقيه المحدث الشيخ منصور بن علي بن زين العابدين المنوفي البصير (١) (لا الضرير) الشافعي، ولد بمنوف ونشأ بها يتيما في حجر والدته. وكان باراً بها. فكانت تدعو له، فحفظ القرآن وعدة متون، ثم ارتحل إلى القاهرة وجاور بالأزهر وتفقه بالشهابين البشبيشي والسندوبي، والشمس الشرنبابلي والزين منصور الطوخي، ولازم النور الشبراملسي في العلوم وأخذ عنه الحديث، وجد واجتهد وتفنن وبرع في العلوم العقلية والنقلية. وكان إليه المنتهى في الحذق والذكاء وقوة الاستحضار لدقائق العلوم، سريع الادراك لعويصات المسائل على وجه الحق، نظم الموجهات وشرحها، وانتفع به الفضلاء. وتخرج به النبلاء وافتخر بالأخذ عنه الأبناء على الآباء.

وقد رأيت بعد هذا أن أرجع إلى المصدر الذي نقل عنه الأستاذ عنان، فذهبت إلى دار الكتب وطلبت رحلة الشيخ النابلسي « الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز » فوجدته قد ذكر في صفحة (٢٠٢) أنه طلع عليه صباح يوم الأحد ٢٨ من شهر ربيع الثاني فحضر عنده الامام العالم الهمام الشيخ منصور المنوفي الأزهري الشافعي الضرير شيخ ، الأزهر ومعه الجماعة والطلبة وكثير من المجاورين بالجامع الأزهر، وحصل بعض أبحاث وفوائد علمية

ثم ذكر في صفحة (٢٠٤) أنه أصبح صباح يوم الاثنين ٢٩ من شهر ربيع الثاني، فجلس على عادته يستقبل من يأتي إليه من الأصحاب والاخوان، ثم قام من مجلسه إلى مجلس الشيخ زين العابدين بدعوة منه، فرأى عنده صديقه فخر العلماء الأعلام الشيخ أحمد المرحومي شيخ الأزهر، ومعه بعض أصحابه الكرام، فجلس يتذاكر معهم في مسائل العلوم ويتطارح الكلام من منطوق ومفهوم

ثم ذكر في صفحة (٢٧٥) أنه أصبح يوم الجمعة ١٠ من جمادى الثاني فاجتمع بالشيخ الامام العلامة منصور المنوفي الشافعي الضرير شيخ الأزهر

ثم ذكر في صفحة (٢٨٤) أنه أصبح يوم السبت ٢٥ من جمادى الثاني فذهب بعد الظهر إلى عيادة صديقه العلامة الشيخ أحمد المرحومي شيخ الجامع الازهر

وهذه هي المواضع التي جاء فيها ذكر هذين الشيخين المتعاصرين في كتاب الشيخ النابلسي، وهو يعطيهما فيها صفة شيخ الأزهر في الزمن الذي قضاه بمصر في رحلته إلى الحجاز وكان ذلك في سنة ١١٠٥ هـ كما سبق. فلو أخذنا هذا الكلام على ظاهره لكان للأزهر في تلك السنة شيخان مجتمعان معاً وهذا غير مقبول، مع مخالفته لما ذكرناه من أن شيخ الأزهر في تلك السنة كان الشيخ النشرتي المالكي، فلم يبق إلا أن الشيخ النابلسي تبرع بتلك الصفة لذينك الشيخين، ويجب أن تؤخذ على هذا لا على أنها حقيقة تاريخية

وقد ذكر الجبرتي وفاة الشيخ أحمد المرحومي في سنة ١١٢ وقال عنه إنه السيد عبد الله (لعله أبو عبد الله) الامام العلامة الشيخ أحمد المرحومي الشافعي

وهذا رأيي في تحقيق هذه المسألة التاريخية أنشره على صفحات الرسالة الغراء، ولعله يكون للاستاذ عنان رأي آخر في تحقيقها ينشره علينا فيها، والله يتولانا جميعا بتوفيقه

عبد المتعال الصعيدي

بين الجامعات الألمانية والانكليزية

احتفلت جامعة جتنجن الالمانية خلال هذا الاسبوع بمرور مائتي عام على قيامها؛ وكان المظنون أن يكون هذا الاحتفال بالغاً في أهميته وعظمته، لما لهذه الجامعة القديمة العريقة من ماض علمي جليل، ولما لها بالأخص من علاقات وثيقة بالثقافتين الانكليزية والامريكية اذ كانت دائما مقصد الشباب من الأمتين، ولكن حدث مالم يتوقعه أحد، وهو أن الجامعات الانكليزية والامريكية اعتذرت جميعاً عن شهود هذا الاحتفال الذي دعيت جميعاً إليه، ولم تذكر الجامعات المعتذرة أسباب هذه المقاطعة العلمية، ولكن بعض الصحف الانكليزية والامريكية تحدثت عنه، وهي جميعاً ترجع الأسباب الى خضوع الجامعات الالمانية في مناهجها العلمية والثقافية لسياسة الحكومة النازية خضوعا يضر بالمثل العلمية والثقافية العليا وينافي أسمى المزايا العلمية وهي حرية البحث وتوجيهه إلى الحقيقة وحدها؛ ولم ترض الجامعات الانجليزية والامريكية أن تشترك في احتفال جامعة جتنجن حتى لا يقال أنها تعترف

(١) البصير هنا معناها الضرير (الرسالة)

بوحدة المثل الثقافية والتعليمية بين الدول الديمقراطية التي تمثلها وبين الوطنية الاشتراكية الألمانية .

والواقع أن حال الجامعة الألمانية قد ساء في العهد الأخير وانحط مستوى التعليم العالي وأقفر كثير من الجامعات من الاساتذة والطلبة . مثال ذلك أن جامعة جتنجن فقدت من أساتذتها النصف فأصبحوا خمسة وأربعين بعد أن كانوا تسعين ، وأبعد البعض لأسباب عنصرية والبعض لأسباب سياسية . ونقص عدد طلبة الجامعة من ٤٢٠٠ في سنة ١٩٣٣ الى ١٨٠٠ طالب فقط هذا العام . وهجرها معظم الطلبة الأجانب ، وأصيبت سمعتها العلمية والثقافية

وقد حذت الجامعات السويسرية حذو الجامعات الانجليزية فاعتذرت عن الاشتراك في هذا الاحتفال لأسباب مماثلة . ولكن الجامعة المصرية قد قبلت الدعوة واشتركت في الاحتفال على يد مديرها .

انكلترا وطريق الهند

صدر أخيراً بالألمانية كتاب سياسي عسكري خطير عنوانه « طريق انكلترا إلى الهند » England's Weg nach Indien بقلم الهر كارل بارتس K. Bartz وفيه يشرح المؤلف بأسلوب تاريخي سياسي قصة الصراع بين السياستين البريطانية والفرنسية لامتلاك الهند في القرن الثامن عشر ، وكيف أن انكلترا استطاعت أخيراً أن تظفر بالهند دون معارك عسكرية كبيرة ، لأن الهند كانت عندئذ ممزقة الأوصال مفرقة الكلمة ، فاستطاعت السياسة الانكليزية أن تضرب الطوائف والممالك الهندية بعضها ببعض .

ويقول الكاتب إن انكلترا من ذلك التاريخ تحمي امبراطوريتها الهندية بجميع الوسائل والقوى ، وتحمي الطريق إلى الهند من جبل طارق ومالطه ومصر وعدن والجزيرة والدردنيل ؛ ثم يحلل جميع العوامل السياسية والعسكرية التي ترتبط بهذه المسألة ؛ ويستعرض شعوب الهند وآسيا ومهادها الصوفية الغربية ، كما يستعرض حياة الرجال الذين تدين لهم بريطانيا بامتلاك الهند .

ويلاحظ الكاتب أن انكلترا لا تطيق ظهور أية دولة عظيمة على مقربة من طريق الهند ؛ ومع ذلك فقد استطاعت إيطاليا أخيراً أن تفتح الحبشة وأن تربض في منتصف هذا الطريق ؛ ومن المحقق أن انكلترا لقيت في المسألة الحبشية هزيمة فادحة . بيد أن انكلترا لزمت الصمت ، وسارت في برنامج تسليحها ، وسوف يبين لنا المستقبل ما إذا كان في استطاعة السلاح الجوي أن يحافظ على طريق الهند ، وهو إلى اليوم لم يجرب تجريباً كافياً .

وفاة العلامة أدولف ايرمان

نعت أنباء برلين الأخيرة العلامة الأثري أدولف ايرمان وهو من أكبر الاخصائيين في علم الآثار المصرية ؛ وكان مولده في سنة ١٨٥٤ ودرس التاريخ والفلسفة . ثم تخصص في الحضارات القديمة ، وبالأخص في حضارة مصر الفرعونية ولبث أعواماً طويلة أستاذاً لحضارة مصر القديمة بجامعة برلين ، ثم عين بعد ذلك مديراً لقسم الآثار المصرية بمتحف برلين . فعكف على دراسة النقوش القديمة وأوراق البردي التي يغص بها هذا القسم ، وأخرج عدة كتب ورسائل في حضارة مصر الفرعونية وفي آثارها وفنونها

وزار الأستاذ ايرمان مصر مرتين ؛ بيد أنه درس الآثار المصرية في متاحف أوربا دراسة مستفيضة ؛ وكان يعتبر حجة فيها ؛ وكان إلى جانب زميله الدكتور أبشر العلامة الاخصائي في حل الرموز والنقوش الفرعونية أعظم أستاذين في تلك المدرسة الأثرية التي ما زالت منذ نحو نصف قرن تعمل للكشف عن حقائق أعظم وأقدم حضارات العالم

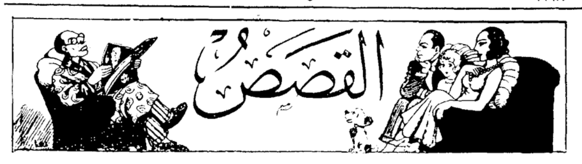
الحركة التمثيلية في مصر حديث لرئيس فرقة «دبلن جيت»

نشرت جريدة « ايرش تيمس » حديثاً طويلا للمستر هلتون أدوارادس مدير فرقة « دبلن جيت » التي قدمت إلى مصر في الشتاء الماضي ؛ ومما قاله أن الشعب في مصر على اتصال دائم بالقارة الاوربية فلديهم إلمام بالقصص التمثيلية الاوربية أوسع من إلمام الشعب الانجليزي بها

قال : وقد زرنا مصر عامين متواليين فمن سوء السياسة الاستمرار على الذهاب إلى هناك . وسيكون في العام القادم دور إحدى الشركات الفرنسية

وتقول الجريدة إن المستر إدوارس درس المسرح المصري

(البقية في ذيل الصفحة التالية)



أغنية الدير

للكاتب الأنجليزى وليام كانتون

ترجمة الأستاذ كامل محمود حبيب

هبط جون أوف فولد إلى هيثهولم - لأول مرة - رئيساً للدير هناك وفى صحبته شتى المؤلفات النادرة الأنيقة فى الفلسفة والدين والأدب، مغلفة فى جلد ثمين موشى بالذهب والفضة ثم الملابس الغالية الطريفة من الحرير والمخمل؛ وعباءات من الكتان الجميل، دقيقة الصنع، وقلانس محلاة بالعسجد. أشياء تنبئ عن نعمة وترف...

وراح القس الجديد ينفث من روحه التواقة الصافية فى جنبات الدير، فوضع فى نوافذ الناحية الغربية التى يسكنها هو أصصاً من البلور بها طاقات من شتى ألوان الزهور الناضرة. وزين حجرة سانت إيجون بالأصص المرصعة باليواقيت، فيها فنون وفنون من الزهر الصناعى؛ وفى سماء الحجرة طير من لجين تبدو كأنها محلقة فى سماء الأرض تهفو نحو هذه الطاقات وتحوم حولها؛ ثم أمر فصففت المناضد والكراسى الخشبية الجميلة فى حديقة الدير ليجلس عليها الموسيقيون كل صباح وكل مساء، يعزفون ويرتلون الأناشيد الدينية الشجية...

لقد كان الأب جون يفور نشاطاً وقوة، فى روحه الصفاء والجمال، وفى قلبه الإيمان واليقين؛ فأراد أن يبعث فى الدير روح الجنة ليستروح هو وإخوانه من الرهبان نسمات الخلد فى هذه الناحية النائية من الأرض...

وبذ هذا الدير غيره جمالا وروعة وبهاء.

***

وكان الأب توماس وكيل الرئيس يرى ما يفعله الأب جون وفى قلبه الاضطراب والأسى، وفى نفسه الغيظ والحنق؛ وكان يجلس إلى نفسه بين الحين والحين يحدثها: «حقاً، إن هذه الأشياء لا تعنى الرب، وهى تبعث فى العين السرور والبهجة،

دراسة عميقة. ومن رأيه أن الشركات التمثيلية المصرية ستبلغ أعلى مستوى وأن أهل الاسكندرية أقل اهتماما بالروايات التمثيلية من أهل القاهرة

قال: وقد شهدنا فى أثناء مقامنا فى مصر التمثيل فى المسارح العربية ورأينا فيها حركة نشيطة جدا. وقد طلب إلينا أن نقبل عددا من الطلبة المصريين فى دبلن ولكنهم ليسوا متضلعين فى اللغة الانجليزية، فتى جاؤا فستتاح لهم الفرصة لتعلمها ودراسة الطرق المسرحية فى وقت واحد

تأبين الرافعى فى طنطا

تألفت بطنطا لجنة من بعض المحامين والاطباء والعلماء وأعضاء مجلسى النواب والشيوخ ومن الأعيان والتجار لتأبين فقيد الأدب الكبير المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى وسيعلن فيما بعد عن ميعاد الحفلة ومكانها

وقد قررت اللجنة ألا يتعدى التأبين الموضوعات الآتية:

(١) الرافعى: تاريخه وحياة الوظيفة (٢) الرافعى الشاعر (٣) الرافعى الأديب (٤) الرافعى المؤلف (٥) فلسفة الرافعى

وترجو اللجنة حضرات الأدباء والشعراء ممن يرغبون فى الاشتراك فيها بأعمالهم أن يخابروا سكرتيرها، ويتفضلوا بارسال خطبهم وأشعارهم إليه لعرضها على اللجنة وإقرارها

أمين حافظ شرف

طنطا — شارع الشيخة صباح القديم

وتدخل إلى القلب اللذة والطرب ، وتنفث فى الحياة المتعة والجمال ! ماذا تفيد هذه الكنوز الغالية ، والطرف الجميلة ، والآثار النادرة ؛ وهى تجذب القلب عن العبادة ، وتورث فى النفس حب الحياة وحب الاستمتاع ؟ ما للراهب ولهذه الأشياء وهو يريد وجه ربه مخلصاً له ؟ هذا بعض عبث الشيوخ وخرفهم حين يسيطرون على بيوت الله ، يجمعون شتى الطيبات ، وألوان الملذات ، فتلهيهم عن ذكر الله وعن الصلاة ؛ وعن أناس يبيتون فى العراء حفاة عراة ، ويتضورون جوعاً ، لايجدون مأوى ، ولايجدون كساء ولا طعاماً . ليت هذا الشيخ الغفل ينظر بعينى القس الورع إلى مايقاسيه الفقراء وذوو الحاجة فيخفف من غلوائه ، وينزع عنه بعض حماقاته ! ... »

وفى الحق لم يكن توماس ليستشعر فى نفسه الأسى والألم لما يقاسيه بعض الناس من فاقة وعوز ، ولم تكن فى قلبه الرحمة والشفقة ؛ ولكنه كان يحس ألم الحقد والحسد يتنزى فى صدره كلما وقعت عينه على ما انتثر هنا وهناك فى نواحى الدير منذ هبط الكاهن الأعظم جون

لقد كان توماس على غير ما كان عليه رفاقه : كان رجلا فيه الكآبة والعبوس ، فكان الرهبان والقسس يعبدون الله مخلصين وفى قلوبهم الطرب والسرور . وفى قلبه هو التجهم والحقد ؛ وفى أرواحهم اللذة والقناعة ، وفى روحه هو الجفاف والغلظة ؛ وفى أنفسهم الرضا والاطمئنان ، وفى نفسه التقلقل والاضطراب . ثم هم يرون فى أرض الله مسرحاً للعين والقلب والنفس جميعاً ، وهو فى منأى عنهم قد شغلته فكرة تضطرب فى رأسه

***

واعتاد الأب توماس أن يدلف إلى المعبد كل مساء وفى يده مصباحه ، وقد أرخى الليل أستاره ، ونامت الحياة فى كل حى ، يتهجد ويتعبد ، ساجداً راكعاً ، قارئاً مرتلا ؛ يناجى ربه فى هدأة الليل وسكونه ، يسأله ويستغفره ، فما يبرح حتى تخونه قوته ، ويهن عزمه ، وتضطرب مفاصله ، من أثر الاندفاع والبرد فى وقت معاً ؛ فيرتد إلى حجرته يتكفأ فى طريقه ...

وانطلق - ذات مرة - إلى حيث ينطلق كل ليلة ، وقد تأججت فى نفسه ثورة الحقد على رئيسه جياشة مضطرمة ، تكاد تعصف بإيمانه وعقيدته ... انطلق والبرد يزلزل أعصابه ويتغلغل فى أوصاله وهو فى طريقه لايتململ ولا يعبأ ... وسجد فى محرابه ... غير أن صوتاً موسيقياً عذباً هادئاً رن فى مسمعيه فنزعه من أخيلته ، فأنصت يتسمع ... ثم استوى جالساً ، وحدق فيما حوله يريد أن يستشف أمراً ، وبدت عليه الدهشة حين رأى ضوءاً خافتاً يضطرب فى أرجاء الدير يزداد سطوعه رويداً رويداً ، وتعلو معه نغمات الموسيقى فتزداد حلاوة ووضوحاً

ورنت الموسيقى الإلهية فى جنبات المعبد ، وارتفعت الأصوات الملائكية تنشد نشيداً عذباً يرقق القلب ، ويبعث فيه الروعة والجلال . وخيل إليه أن الرسوم والأحجار والسقف والحوائط و ... جميعا تردد هذا النشيد فى رنات سماوية . وأحس بالناى الإلهى تحت ركبتيه تنبعث منه أهازيج يطرب لها الفؤاد ، وتهتز النفس ،

واستولت على الراهب الحيرة فما استطاع ان يبرح مكانه ... ثم أرهف سمعه فاذا الصوت ينبعث من ناحية المحراب أولا ثم يمسك ، فيندفع كل ماحوله يرتلون الأنشودة فى صوت فيه السحر والجمال ، وترتفع رنات الموسيقا لتزيد النشيد طلاوة وحلاوة ، وبدا له المكان يهتز طرباً كأنه يرقص مع النغم الشجى المنبعث من هنا ومن هناك

وتراءت له صور الملائك تضطرب فى هذا الضوء الإلهى الساطع ، وفى أيديهم المعازف ، وخيل إليه أن هذه الأشباح رسوم صورها لهخياله فحسب ، فانتفض من مكانه يحدق ذات اليمين وذات الشمال ، ويتحسس بيديه نواحى المكان ، وحين بدا له أن ما يرى حقاً لامرية فيه ، اضطرب ، وزالت عنه شجاعته ، وجمد فى مكانه وقد سيطر عليه الفزع والخوف ، غير أن صوتاً لذيذاً رن فى مسمعيه يطمئن نفسه :

نحن الملائك نبتهل إليك يارب
نحن الملائك نبتهل إليك يارب

وأجال بصره فرأى على جانبى المحراب ملكين يترنمان :
على مر الأيام والليالى ونحن نسبح بحمدك يارب

ونقدس اسمك العظيم يارب ، مادام هذا الكون اللانهائى .

ومن بين شفتيهما يتصاعد النفس فينعقد سحباً كثيفة بيضاء فى أعلى المكان . فاستشعر فى نفسه الخور والضعف غير أن حب الاستطلاع دفعه إلى المحراب ليرى ..

واستطاع أن يرى رسوم الملائك والملوك على أستار المعبد تردد هى أيضا هذه الأغنية

والصور على زجاج النوافذ ترتل هى أيضا الأغنية

ورؤوس الملائكة المنحوتة فى رخام المعبد ترتل الأغنية

والأسد والدواب المرسومة هنا وهاهنا ترتل هى الأخرى الأغنية

وتماثيل القديسين المنثورة فى نواحي المكان ترتل هى أيضا الأغنية .

والرسوم على الجدران ترتل أيضا الأغنية

وبدا له أن كلمات هذه الأغنية قد رسمت بحروف من ذهب يتوهج فيخطف البصر . على دروع الملوك والأمراء وذوى الجاه فى سقف المعبد ؛ والجميع يهزجون ويهتزون من فرح ومن سرور كأنهم أحياء . وتصاعدت أنفاسهم إلى سماء المعبد ، سحبا تغطى السقف وتحيط بالأعمدة ، ثم أمسك الجميع سوى رنات الناقوس العظيم فى أعلى المحراب

وملأ مسمعي توماس صوت يردد الأغنية خارج المعبد فى نبرات أخاذة شجية ، يخترق سكون الليل وظلامه ليستقر فى أذنيه هو . إنه ... إنه منبعث من حجرة التماثيل ، حيث الملوك والملكات ، حيث الأمراء والعظماء . حيث الكهنة والشهداء ، حيث القسس والرهبان ؛ قد صففت تماثيلهم الفضية والبرنزية والرخامية والحجرية . لقد أجابوا جميعاً دعوة الداعي فانطلقوا يترنمون بالأغنية الالهية فى طرب ولذة ... وهدأت الموسيقى خارج المعبد لتبدأ مرة أخرى داخله ، ثم ... ثم اندفعوا جميعاً بصوت فيه العذوبة والحلاوة يرددون :

على مر الأيام والليالى ونحن نسبح بحمدك يارب ،

ونقدس اسمك العظيم يارب ؛ مادام هذا الكون اللانهائى

واصطرعت فى رأس توماس أفكار متناقضة فما استطاع سوى أن يرفع عقيرته :

يا إلهى ، فليشملنا عفوك وغفرانك ؛

فليشملنا عفوك وغفرانك يا إلهى !

ثم تراخت قوته فانطرح على الأرض ذاهلا ...

°°°

وأفاق فما وجد إلا الظلام يشمل الأرض ، وإلا السكون يسيطر على الكون ، وإلا مصباحه الضئيل يضطرب فى ناحية من المعبد ... فارتد إلى حجرته وقد آلمه ما نازعته إليه نفسه من حقد على عبد من عباد الله الصالحين ، حباه الله بفضل من لدنه . فبذل فضل جهده فى العناية بمخلوقاته الخرساء الصماء ، وفى تنسيق قطعة من أرض الله لتكون جنة الله على أرضه ، ونزع ما فى صدره من غل ، فأيقن أنه إن لها الإنسان عن ذكر ربه ففي الكون مخلوقات ماتفتأ تردد مادامت السموات والأرض :

... نحن نسبح بحمدك يارب ،

ونقدس اسمك العظيم يارب ؛ ما دام هذا الكون اللانهائى

كامل محمود حبيب

5 me Année, No. 210

Lundi - 12 - 7 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للأدب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

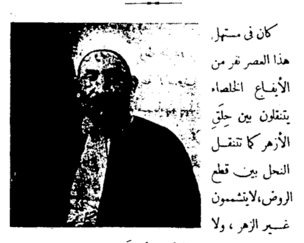
صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢١٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ١٢ يوليه سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

مصطفى لطفى المنفلوطى

بمناسبة ذكراه الثالثة عشرة



كان فى مستهل هذا العصر نفر من الأيفاع الخلصاء يتنقلون بين حِلَق الأزهر كما تتنقل النحل بين قطع الروض، لايتشممون غير الزهر، ولا يتذوقون إلا الرحيق؛ وكانوا كالفَراش رقاق الجسوم خفاف الأجنحة يتهافتون على أضواء النوابغ المعاصرين أينما تشع؛ وكانت الومضات الروحية الأخيرة للبارودى واليازجى ومحمد عبده وقاسم أمين ومصطفى كامل والشنقيطى قد التمعت التماعة الموت لتنطفىء كلها متعاقبة فى العقد الأول من عقود هذا القرن، فهيأت الأنفس والأذواق إلى أدب جديد كنا نفتقده فلا نجده؛

فهرس العـــدد

وكان إخواننا اللبنانيون فى مصر وفى أمريكا قد فتحوا نوافذ الأدب العربى على الأدب الغربى فأرونا فنوناً من القول وضروباً من الفن لا نعرفها فى أدب العرب ؛ ولكنها كانت فى الكثير الأغلب سقيمة التراكيب مشوشة القوالب ، فأجمناها على نفاستها كما أجمنا أساليب المقامات من الألفاظ المسرودة والجمل الجوف والصناعة السمجة والمعانى الغثة

وحينئذ أشرق أسلوب المنفلوطى على وجه (المؤيد) إشراق البشاشة ، وسطع فى أندية الأدب سطوع العبير ، ورن فى أسماع الأدباء رنين النغم ، ورأى القراء الأدباء فى هذا الفن الجديد ما لم يروا فى فقرات الجاحظ وسجعات البديع ، وما لا يرون فى غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة ، فأقبلوا عليه إقبال الهيم على المورد الوحيد العذب

وكان هذا النفر من الأيفاع المتأدبين يجلسون فى أصائل أيامهم الغريرة أمام (الرواق العباسى) يتقارضون الأشعار ، ويلهون بأغفال الناس ، ويترقبون (مؤيد) الخميس ليقرأوا مقال المنفلوطى خماس وسداس وسُباع ، وطه مرهف أذنيه ، ومحمود مسبل عينيه ، وفلان مأخوذ بروعة الأسلوب فلا ينبس ولا يَطرف . وكلهم يودون لو يعقدون أسبابهم بهذا المنفلوطى الذى اصطفاه الله لرسالة هذا الأدب البكر ، وجعله الإمام المفتى تلميذه المختار ؛ ولكن المنفلوطى كان فى ذلك العهد الذى قرأناه فيه قد جاوز الثلاثين ، فهو قليل الإلمام بالأزهر ، لا يجلس إلى شيخ ولا يأوى إلى رواق ؛ وكان قد هيأ نفسه ليكون كاتباً لا (عالماً) فلم يجعل همه لامتحان ، ولم يشغل ذرعه بشهادة

وبعد سنتين نشر مختار ما دبج من فصوله فى المؤيد فى كتاب عنونه بالنظرات ، وكان قد حكم على الشيخ عبد العزيز شاويش فى مقاله : (طبقات الكتاب) حكماً شديداً ورطه فيه على ما أظن صلته بالمؤيد وبالمغفور له سعد باشا ، والشيخ شاويش يومئذ محرر اللواء بعد مصطفى باشا كامل ، ولطه به اتصال ، فحرضه على أن ينقد (النظرات) فنقدها ذلك النقد الغاضب الصاخب فى ثلاثين مقالة ونيفاً لم تدع سبيلاً إلى التعارف بيننا وبينه

ثم زاولت التعليم فكنت أستعيد قراءة المنفلوطى مقسماً بين أقلام الطلبة . وفى سنة ١٩٢٠ ترجمت (آلام فرتر) وكان صاحب العبرات يومئذ قد بلغ الغاية فى الشهرة والأدب ، فرغب فى أن يرانى ؛ وكان لنا صديق مشترك فجمع بيننا فى داره ؛ ورأيت المنفلوطى لأول مرة فرأيت رجلا مجتمع الأشُد ، مربوع الخَلق ، ممتلئ البدن ، غليظ الشارب ، حسن السَّمت ، لا تلحظ على وجهه الطهم المصقول مخايل الفنان ولا سهوم المفكر ؛ ثم تحسبه وهو يحدثك حديثه المقتضب الخافض سَرِياً من عامة السراة فى الصعيد لا حظ له من بلاغة اللسان ولا رياضة القلم . ثم داخلته فتكشف لى عن ألمعية أصيلة تستترعادة بين الحياء والحشمة ؛ ووثق الودَّ بينى وبينه توافقُ المزاج المنقبض والطبع الحيى والوجود المنعزل ، فدرسته على ضوء ما أعلم من نفسى فلم أجاوز الحق فى تصويره وتقديره

كان المنفلوطى قطعة موسيقية فى ظاهره وباطنه ؛ فهو مؤتلف الخلق ، متلائم الذوق ، متناسق الفكر ، متسق الأسلوب ، منسجم الزى ، لا تلمح فى قوله ولا فى فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز القَدامة . كان صحيح الفهم فى بطء ، سليم الفكر فى جهد ، دقيق الحس فى سكون ، هيوب اللسان فى تحفظ . وهذه الخلال تُظهر صاحبها للناس فى مظهر العيى الجاهل ، فهو لذلك كان يتقى المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة ؛ ومرجع ذلك فيه إلى احتشام التربية التقليدية فى الأسرة ، ونظام التعليم الصامت فى الأزهر ، وفرط الشعور المرهف بكرامة النفس . ولكنك إذا جلست إليه رأساً إلى رأس ، تسرَّح فى كلامه ، وتبارى لسانه وخاطره فى النقد الصريح والرأى الناضج والحكم الموفق والتهكم البارع ، فلا تشك فى أن هذا الذى تحدثه هو المنفلوطى الذى تقرأه .

ثم هو إلى ذلك رقيق القلب ، عف الضمير ، سليم الصدر ، صحيح العقيدة ، نفاح اليد ، موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

في التاريخ السياسي

ماذا في روسيا السوفيتية

الصراع بين البلشفية والرجعية

بقلم باحث دبلوماسي كبير

يتساءل الناس عما يحدث في روسيا السوفيتية، وما هو سر هذه المحاكمات الدموية التي تترى منذ عام في موسكو، والتي يقبض فيها على أكابر الزعماء جماعات، ثم يعدمون بعد محاكمة مرتبة موجزة؟ ففي الصيف الماضي قبض على عدة من الزعماء وعلى رأسهم سينو فييف رئيس الدولة الشيوعية الأسبق، وحوكموا بتهمة التآمر على سلامة الدولة بتحريض ليون تروتسكي زعيم البلشفية المنفي، وأعدموا بعد محاكمة قصيرة؛ ثم عقدت خلال الأشهر الأخيرة عدة محاكمات مماثلة، حكم فيها بالموت أو السجن على عدة أخر من الزعماء البارزين مثل العلامة الفيلسوف بوخارين رئيس الدولة الشيوعية السابق، وكارل رادك أعظم كتاب البلشفية المعاصرين، وياجودا مدير البوليس السري وغيرهم؛ ومنذ أسابيع قلائل امتدت يد المطاردة إلى الجيش الأحمر وقبض على عدة من قادته وفي مقدمتهم المارشال توخاتشفسكي، وحوكموا بسرعة مدهشة بتهمة الاتصال بدولة أجنبية معادية لروسيا وإمدادها بمعلومات عن الجيش الأحمر وعن أسرار روسيا العسكرية، ثم أعدموا ليلة صدور الحكم؛ وأذاعت الأنباء على أثر ذلك أن بوادر التمرد ظهرت في بعض وحدات الجيش الأحمر، وأن الثورة نشبت بالفعل في بعض أنحاء روسيا، وأن طاغية الكرملين ستالين يلجأ في إخماد التذمر أو الهياج إلى أروع الوسائل، وهكذا؛ فما هي عوامل هذا الاضطراب الذي يتخذه البعض نذراً بانهيار النظام السوفيتي؟ وما هي الحقيقة وراء ذلك كله؟

إن الثورة البلشفية التي سحقت عرش القياصرة منذ سنة ١٩١٧، وبسطت على روسيا سيادة «الكتلة العاملة»، واتخذتها ميداناً للتجربة الشيوعية، لم تصل بعد إلى نهايتها؛ وما زالت روسيا السوفيتية تعيش منذ عشرين عاماً في ظل نظم ثورية تسير من طور إلى طور؛ وهذا الصراع الذي يضطرم اليوم بين ستالين وبين جماعة من خصومه، والذي تبدو بوادره في تلك المحاكمات الدموية الرائعة، إنما هو نذير تطور جديد في الثورة البلشفية لم تكتمل عوامله بعد؛ ويلاحظ أن هذه الاجراءات الدموية التي يجد ستالين في اتخاذها إنما تقترن بصدور الدستور السوفيتي الجديد الذي تم وضعه في الصيف الماضي، ثم صدر في ديسمبر سنة ١٩٣٦. بيد أنه يجب لكي نفهم عوامل هذا التطور الأخير، أن نرتد إلى الوراء، لنرى كيف نشأ الصراع بين ستالين وخصومه، وكيف أن هذا الصراع يرتبط أشد الارتباط بتطور التجربة الشيوعية في روسيا

كانت الثورة البلشفية تقوم عند بدايتها على دعائم ثلاثة: الشيوعية المطلقة، وسيادة الكتلة العاملة، وإضرام نار الثورة العالمية؛ وكان لنين رأس المذهب الجديد وزعيم الدولة الشيوعية الجديدة يستمد كل وحيه من تعاليم إمام المذهب وأستاذه الأكبر كارل ماركس؛ ولكن التجربة الشيوعية لم تلبث أن اصطدمت من الوجهة العملية بمصاعب اقتصادية واجتماعية خطيرة، ولم يلبث لنين نفسه أن اقتنع بوجوب الاعتدال في تطبيق التجربة والأخذ بسياسة اقتصادية جديدة تغفل فيها بعض المبادئ الشيوعية المتطرفة، وتدمج فيها بعض المبادئ الرأسمالية من (البورجوازية). وبدأ لنين بتطبيق هذه السياسة الجديدة منذ سنة ١٩٢١ ولكنه لم يلبث حتى توفي (يناير سنة ١٩٢٤) وكانت وفاة لنين في الواقع فاتحة هذا الصراع الذي تجوز الثورة البلشفية أطواره من ذلك الحين؛ فقد تولى مقاليد الأمور بعد لنين ثلاثة من خاصة أصدقائه وأعوانه هم سنوفييف وكامنيف وستالين؛ ولكن قطباً آخر من أقطاب البلشفية هو ليون تروتسكي مؤسس الجيش الأحمر (الجيش البلشفي) وأعظم رجل في الثورة بعد لنين كان يسهر على مصاير الثورة ويحاول أن يسير دفتها طبق آرائه، وبينما كان ستالين وزملاؤه يتوسعون شيئاً فشيئاً في تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة، وهي تنطوي بالأخص على الاعتراف بالملكية الصغيرة، ومهادنة الدول الرأسمالية والتعامل معها، ومراعاة الاعتبارات الزراعية والتجارية والصناعية في الانتاج، كان تروتسكي يعمل لمعارضة هذه السياسة ويرى أنها خيانة للثورة وللمبادئ الشيوعية الصحيحة، وكان تروتسكي يشدد بالأخص في وجوب اضرام نار الثورة العالمية ويرى أنها هي السبيل الوحيد

لظافر الاشتراكية ، هذا في حين أن ستالين وفريقه يرون الاقتصار على تطبيق التجربة الاشتراكية في روسيا وحدها ويرون نجاحها عققاً دون الثورة العالمية ؛ وكان تروتسكي بماضيه الثوري الحافل وصداقته المؤثلة للنين ، وما له من فضل عظيم في نجاح الثورة البلشفية ، ونفوذ قوي في الجيش الأحمر ، عماد الثوريين المتطرفين ومعقد آمالهم ، ولكنه لم يحسن استخدام هذا النفوذ وتوجيهه ؛ ومن جهة أخرى فقد استطاع ستالين وفريقه أن يستغلوا الظروف الاقتصادية ، وأن يعتمدوا في تنفيذ سياستهم على الرجال الاداريين ؛ واستمر النضال بين الفريقين يشتد ويتفاقم ، ولكن ستالين استطاع أن يقوي مركزه ونفوذه شيئاً فشيئاً داخل الحزب الشيوعي وخارجه ، وأن يعمل على إضعاف خصومه وتسفيه معارضتهم وسياستهم ، ولما شعر بأنه غدا هو الأقوى والأشد ساعداً ونفوذاً ، رفع القناع فجأة ، وأخذ يطارد تروتسكي وشيعته جهاراً ؛ وكان يعتمد في البدأ على مؤازرة عدة من أكابر الزعماء مثل سينوفييف وكامنيف وتومسكي وريكوف وغيرهم ، فلما شعر أنه يستطيع العمل دونهم انقلب إلى مطاردتهم ، فانضم هؤلاء إلى الفريق المعارض ؛ ونزل ستالين وشيعته إلى ميدان النضال ، واستطاع تباعاً أن يقضي على خصومه وأن يخرجهم من حظيرة الحزب الشيوعي الذي هو كل شيء في حياة روسيا العامة ، والذي يسيطر ستالين باعتباره سكرتيره العام على توجيهه واستخدام نفوذه وسلطانه ؛ ثم خطا ستالين خطوة أخرى ، فنفى تروتسكي وشرد الزعماء من أنصاره ، وشتت شمل المعارضة كلها (سنة ٩٢٩) واستأثر عندئذ بكل نفوذ وسلطة وغدا سيد روسيا وزعيمها القوي ، وأخذ يوجهها في الطريق الجديد الذي اختاره لها ؛ فوضع مشروع السنوات الخمس لتنظيم الانتاج الروسي ، وهو المشروع الذي قلدته فيه ألمانيا وإيطاليا بعد ، وعمل على التقرب من الدول الغربية ، وكان من أثر هذه السياسة أن انضمت روسيا إلى عصبة الأمم ، وتفاهمت مع فرنسا تفاهماً انتهى بعقد الميثاق الروسي الفرنسي ؛ وجد ستالين في تسليح روسيا ولا سيما منذ قيام الوطنية الاشتراكية (الهتلرية) في ألمانيا حتى غدت اليوم أقوى دول القارة في التسليحات البرية والجوية ، وبذلك اجتنبت روسيا عزلتها السياسية القديمة ، واتخذت مكانتها في السياسة الأوربية العامة إلى جانب الكتلة الديموقراطية ، وأضحت عاملا حاسماً في التوازن الأوربي

على أن المعارضة القديمة التي لبث تروتسكي روحها وزعيمها لم تخمد ولم تسحق ، فقد استمر تروتسكي في منفاه في مختلف البلاد الأوربية يشهر بقلمه ولسانه حرباً عواناً على ستالين وسياسته ، ويذكي بنفوذه القديم روح النضال في أنصاره داخل روسيا ؛ وهو الآن في منفاه الثاني بالمكسيك ، وبالرغم من محنته وشيخوخته ما زال يشهر سهام الخصومة والنضال على عدوه ؛ ويقول التروتسكيون إن ستالين قد سحق الثورة وبدد تراث لنين ، وبسط على روسيا نوعاً من الاشتراكية الوطنية التي بسطها الهتلريون على ألمانيا ، أو بعبارة أخرى بسط عليها نوعاً من الدكتاتورية البورجوازية (الرأسمالية) ، وارتكب بذلك أعظم خيانة لقضية الثورة البلشفية والثورة العالمية

والواقع أن الدستور الجديد الذي صدق عليه مؤتمر السوفيت الأعلى في ٥ ديسمبر الماضي يدلل بروحه ونصوصه على هذه الحقيقة التي يتخذها التروتسكيون محوراً للخصومة والنضال ، وهو أن الثورة الشيوعية قد انتهت ، وانتهت كذلك فكرة الثورة العالمية . ذلك أن الدستور السوفيتي الجديد يعترف صراحة بحق الملكية الفردية التي يعتبر إلغاؤها أساساً جوهرياً للمجتمع الشيوعي ؛ ويشمل الاعتراف بهذا الحق ملكية الايرادات الناتجة عن العمل وملكية المساكن الشخصية والأثاث المنزلي وحاجات الحياة اليومية ، ويشمل أيضاً حق الميراث ؛ ويمنح حق الملكية بالأخص للطبقات الممتازة في الدولة كالموظفين وأعضاء الحزب الشيوعي ، والذين حصلوا على أوسمة من ذوي المواهب والخدمات الممتازة ؛ ومن جهة أخرى فان الدستور الجديد يعترف بأن الحزب الشيوعي هو مصدر السلطات ، ويحمي الدكتاتورية التي يبسطها على روسيا في الوقت الحاضر ، ويؤيد بذلك طغيان ستالين زعيمه وسكرتيره العام ؛ ثم إن الدستور الجديد لا يعترف بحرية الصحافة والرأي والاجتماع كحق للأفراد ، وإنما يقرر أن الدولة هي التي تكفلها وهي التي تمد الشعب بالنشرات والصحف والخطباء وغيرهم ، وهي التي تسيطر بذلك على عقل الشعب وروحه ، وتسيره حيثما شاءت

هذه هي أسس الدستور السوفيتي الجديد ؛ فأي فرق بينها وبين الفاشستية الإيطالية ، أو الاشتراكية الوطنية (الهتلرية) الألمانية ؟ إنه الطغيان الحزبي المطلق ؛ وإنه لفناء الحقوق والحريات العامة كلها في شخص الدولة ، والدولة هي الحزب

القابض على السلطان ؛ ومعنى ذلك أن ستالين قد أضحى بقوة الدستور الجديد يشغل فى روسيا نفس المركز الذى يشغله موسولينى فى إيطاليا وهتلر فى ألمانيا ؛ وهذا النظام الذى يتوجه الدستور السوفيتى اليوم هو النظام الذى تعيش روسيا فى ظله منذ استطاع ستالين أن يجمع فى يده القوية كل مقاليد السلطة والحكم

وهذا هو محور النضال الذى يضطرم بين ستالين وخصومه ؛ وهذا هو السر فى تخوف الطاغية من كل حركة أو بادرة تدل على التذمر أو المقاومة ؛ ومنذ عام يجد ستالين فى مطاردة خصومه وكل من يخشى منهم منافسة أو مقاومة ؛ ولا تزال اجراءات القمع الدموية تجرى اليوم فى روسيا فى جميع دوائر الحكومة والجيش ، ولن تقف حتى يأمن ستالين كل معارضة وحتى يوقن أنه أخمد كل صوت وكل نزعة إلى المقاومة . ولكن هل ينجح الطاغية فى هذه المهمة القادحة ؟ هذا ما نشك فيه ؛ فروسيا البلشفية هى غير ألمانيا وإيطاليا ، ولن يستطيع كائن أن يخمد فى هذا المجتمع الروسى الذى عاش فى ظل الثورة عناصر النضال والثورة ؛ وقد تسفر الحوادث عما قريب عن نتائج وتطورات جديدة ؛ بيد أنها لن تكون على ما نعتقد سوى طور جديد من أطوار الثورة البلشفية

(***)

عين الرضى وعين السخط

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى

هل صحيح ما يقول الشاعر أن عين الرضى عن كل عيب كليلة . . . لا أدرى فقد صار كل شيء يحيرنى ، وما من أمر إلا أرانى يبدو لى فيه رأيان أو مذهبان لطول ما عودت نفسى أن أنظر إلى « الجانب الآخر » ، فلو أنى كنت قاضياً لظلت أحكامى تدور فى نفسى ولا يجرى بها لسانى أو يخطها قلمى . وليس هذا من التردد ، فان من كان ضيق الصدر متنبه الأعصاب مثلى قلما يتردد . وما أكثر ما يؤثر الجزم والبت وإن كان فى شك من الصواب كبير . ولكنما هذا من حب الموازنة والرغبة فى إنصاف كل جانب من جوانب الرأى . وقد قلت لنفسى وأنا قاعد أتدبر قول هذا الشاعر القديم إن أعظم الرضى رضى المرء عن نفسه . أم ترى هذا ليس من الرضى . . لا أدرى أيضاً . . . وأخشى أن أظل لا أدرى فلا أخرج بشيء أبداً . . . ولو أنى أعطيت نفس إنسان غيرى لما قبلت ؛ ومع ذلك لا تخفى على عيوبى ونقائصى من مادية وأدبية ، ومن بدنية ونفسية أو عقلية ، فأنا أعلم أنى . . . . ولكن هل من الضرورى أن أفضح نفسى وأهجوها إلى الناس . . . ومن دلائل الرضى عن النفس على الرغم من الاحاطة بعيوبها ، والفطنة إلى مواطن الضعف والنقص فيها أنى أستخف بهذه العيوب ولا أبالى أن أذكرها ، ولا أعبأ شيئاً إذا رأيت الناس يعرفونها كما أعرفها ؛ وإنى لأدرك بعقلى أنها نقائص ومذام ولكنى أرانى أتخذ أحياناً من المبالغة بها مفخرة ومحمدة ، ولست أستخف بها فى الحقيقة ولكنما أحاول تهوينها على نفسى حتى لا يكربنى أمرها ، ولأظل محتفظا بحبى لنفسى ورضاى عنها وغرورى بها ، وحب النفس من حب الحياة

وتذكرت وأنا أقلب هذا وأديره فى رأسى مقالا أو فصلا لأديسون الكاتب الانجليزى المعروف — أم ترى لا يقرأه أبناء الجيل الجديد — يتصور فيه أن الله جلت قدرته أذن للناس أن يخلعوا ويرموا ما لا يرضيهم من أجسامهم ، فهذا رمى أنفه وذاك آخر ألقى أذنيه ، وأخرج الثالث عينيه وقذف بهما ، ونزع رابع ساقه وطرحها ؛ وهكذا حتى صارت الأعضاء والجوارح المرمية المزهود فيها كوماً عالياً . وعاد الله فأذن لهم أن ينتقى كل واحد من هذا الكوم بديلاً مما زهد فيه ورماه فأقبلوا يقلبون ويبحثون وأخذ كل واحد ما أعجبه ووضعه موضع العضو المنزوع ، ثم نظروا بعد ذلك إلى أنفسهم فلم يعجبهم حالهم ولم يرضوا عن أنفسهم واستبشموا ما أخذوا بديلا مما نزلوا عنه فجأروا بالشكوى إلى الله تعالى وتوسلوا إليه أن يأذن فى أن يسترد كل منهم أعضاءه الأصلية . فتقبل الله دعاءهم رحمة منه بهم ، فما أسرع ما خلعوا ما استعاروا واستعادوا ما كانوا يسخطون عليه ويتبرمون به !

وهذه القصة الخيالية تدل على أن المرء لا يسعه إلا أن

يفطن إلى حقيقة نفســه ، ولكن إدراكه لعيوبه لا يمنع الحب والايثار . وأحسب أن من هنا ما يسمونه « مركب النقص » أى معالجة الانسان مداراة عيب يثقل على نفســه الشعور به ، ومحاولة تعويضه من ناحية أخرى ، والمقارنة والامتحان هما باب المعرفة ، ولا سبيل إلى هذا الذى يسمى « مركب النقص » إلا بعد المداناة أى الامتحان والمقارنة ولو امتنعت أسباب المداناة والمقارنة بينه وبين غيره لمــا شعر المرء بنقص فى نفسه أو فى بدنه ، ولمــا أحس الحاجة إلى مداراة النقص وستر العيب بالتماس الصحة أو القوة فى ناحية أخرى

وأرانى لا تخفى على عيوب أبنائى وهم أحب خلق الله إلى بعد نفسى كما لا أحتاج أن أقول فما أعدل بنفسى أحداً ، وما أكثر ماسمعت أمى رحمها الله تقول إذا رأتنى أشكو ألماً إنها تؤثر أن تكون هى المصابة ، وأحياناً كنت أسمعها تدعو الله أن يتوفاها قبلى فأنكر هذا عليها فى سرى وأعجب كيف يمكن أن يتمنى إنسان أن يموت قبل غيره . هذا إحساس لا أستطيع أن أدعيه . ولو أنى خيرت أن أموت قبل أولادى أو أن يموت أولادى قبلى لمــا رآنى أحد أتردد أو أتحير ، وربما أظهرت التردد نفاقاً وستراً للأنانية الصارخة ، ولكن هذا لا يكون منى إلا نفاقاً وَكذباً على الله والناس لا أكثر ولا أقل . وكثيراً ما سألت نفسى أترى الرجل غير المرأة ؟ وأنا أؤمن بأن أمى كانت مخلصة صادقة السريرة ، وقد كانت الدنيا كلها لا تعدل عندى قلامة ظفر من أصغر أصبع فى رجلها . فهل تراها لو أن الأمر كان جداً لا تتردد فى إيثارى على نفسها ؟ من يدرى ؟ الرجل غير المرأة على التحقيق . . وشعور الأب غير شعور الأم ، هى حملته تسعة أشهر على قلبها فهى تحس أنه قطعة منها بالمعنى الحرفى لا مجازاً ، ومن أين يتأتى للرجل مثل هذا الشعور وهو لم يعان شيئاً ولا يدرى أكثر من أن امرأته جاءته بغلام أو بنت قد لا يكون له رغبة فيه أو فيها . فأنا أستطيع أن أصدق هذا الايثار من المرأة ، ولكنى لا أستطيع أن أصدق أن يكون الرجل مثلها إيثاراً لابنه على نفسه — على الأقل فيا يمس الحياة — إلا إذا كانت نسبة عناصر الأنوثة فى نفسه كبيرة

ويحضرنى الآن بيت قلته من قصيدة نسيتها وأظنه كان ختام القصيدة وهو :

ألا ليتنى فى الأرض آخر أهلها فاشهد هذا النحب يقضيه عالَمُ

وعيب البيت فى نظرى أن فيه مغالطة واضحة — على الاقل لى — ذلك أنى لا أعنى أن أكون آخر من يبقى فى الدنيا لأرى كيف يفنى العالم ، بل لأنى لاأريد أن أترك الدنيا ، فاذا كان لابد من تركها والخروج منها ، فلتخرب قبلى أو فليكن موتى هو الايذان بخرابها وإعفاء هذا العالم كله . ولم أستطع وأنا أنظم البيت أن أختزل كل هذا فى شطر واحد.فجاء البيت غير دقيق فى التعبير عن حقيقة ما فى نفسى

وقد أحببت مرات عديدة — لا عداد لها فى الحقيقة فانى أبداً كما قال فى الأستاذ العقاد :

« أنت فى مصر دائم التمهيد بين حب عفا وحب جديد »

والسبب فى ذلك أن عمر الحب عنــدى لا يطول إلا ساعة أو ساعتين أو ليلة أو ليلتين — إلى أن أمل والسلام — وما من واحدة أحببتها إلا تمنيت على الله أن يهبنى القدرة لأصلح بعض ما لا أرضى عنه فامِلأُ هذه الساق وأدورها ، وأعالج الترهل الذى يبدو لى فى الثديين مثلا أو الردفين ، وأصلح الأنف ، وأخفف النتوء الذى فى أرنبته ، وأرسم الحاجبين رسما جديداً يكون أقرب إلى ذوقى ورأيى فى التناسب ، وأعالج نفسها أيضاً علاجى لبـدنها وهكذا إلى آخره ، فــا بى حاجة إلى الاطالة ، وليس هذا من الاعتراض على خلق الله سبحانه وتعالى . . حاشا وكلا . . وإنمــا هو من اشتهاء الــكمال كما أتصوره ، ولا كمال فى الدنيا مع الأسف

وقد صدق الشاعر فى الشطر الثانى من بيته كما لم يصدق فى شطره الأول فــا من شك فى أن عين السخط تبدى المساوى . وثم عيون أخرى عديدة تبدى المساوى غير عين السخط ، وفى وسعنا أن نتسامح مع الشاعر المسكين وأن نقول إنه يعنى بعين السخط عينا تبدى المساوى ، وأنه لم يرد القصر ولا التخصيص

وأسأل نفسى وأنا أكتب هذا الفصل : «ماذا أخطر ببالك هذا البيت؟ » والحقيقة أنى لا أدرى سوى أنى أردت أن أكتب كلاما فحضرنى هذا البيت ، فما أكثر الكلام الفارغ وما أسرعه إلى اللسان

ابراهيم عبد القادر المازنى

تأملات في الأدب والحياة

للأستاذ اسماعيل مظهر

الثقافة التقليدية :

في مقالات بعنوان « التعليم والحالة الاجتماعية » نشرتها في الرسالة الغراء منذ حين ، روجت لنظرية استخلصتها من تاريخ الأمم ودعوتها نظرية « الثقافة التقليدية » . ومؤدى هذه النظرية أن لكل أمة من الأمم ثقافة مأثورة تنتقل على الزمن من أهل إلى أهل ، وتتوارثها الأمم طبقة بعد طبقة ، وأن الثقافة التقليدية الخاصة بكل أمة من الأمم أو سلالة من السلالات ، لها من الأثر في الحالات الاجتماعية ، ما للصفات الوراثية الحيوية من الأثر في الأفراد ، وأن شباب الأمم من حيث القدرة على الرقي والاحتفاظ بصورة من المدنية تلائم مقتضى البيئة والظروف القائمة من الدنيا الحافة بالأمم ، إنما يرجع في الحقيقة إلى استمساك الأمة بثقافتها التقليدية واتخاذها أصلاً ثابتاً يغرس فيه ما ينتحل من ثقافات الأمم الأخرى ، فتتكيف هنالك المبادئ المنتحلة ، تكيفاً ملائماً لطبيعة ما توارث الأمم من مأثور ثقافتها التقليدية . وبذلك تحتفظ الأمة بطابع خاص وتجرى تطوراتها الاجتماعية والعقلية والنفسية على قاعدة ثابتة وأسلوب راسخ ، فتأمن بذلك شر الفورات الفجائية والثورات المجتاحة والكوارث الاجتماعية الفنية ، ويكون لها من مجموع ما حفظت من مأثور أسلافها ضابط يضبط نزوات الأفراد ، ويهيئ المجموع بعقلية ذات طابع تقليدي تكون لها بمثابة الكمّاحة التي تصدها عن التورط في نواح من التطور غير مضبوطة المعايير ، أو التعلق بأذيال فكرات ومبادئ مريضة المنطق ، بعيدة عن حاجاتها الأولية التي تضمن لها الاتزان والتمهل في طريقها إلى أسمات جديدة من المدنية أو الرقي العقلي

ولقد أردت بهذه النظرية أن تكون أساساً لسياسة التعليم في مصر ، فنتخذ من الأصول التقليدية التي قامت عليها المدنيتان العظيمتان ، مدنية الفراعنة في مصر ، وأساسها الزراعة والقوة الحربية ، ومدنية العرب وأساسها الاسلام والأدب العربي ، منارة نستشرف منها ما نحتاج من مبادئ عامة فنحور من برامجنا التعليمية وخططنا الثقافية بما يلائم طبيعة التقاليد المأثورة فيهما ، ذلك بأن الثقافة التقليدية في نفسية الأمم وعقلياتها بمثابة الصفة الوراثية في الفرد ، لا تنفك الأمم عن الأولى أو ينفك الفرد عن صفة تلقاها عن أسلافه

هذه النظرية على ما فيها من بساطة في الظاهر تحتاج في إثبات حقائقها إلى تأملات تاريخية عميقة ، ينفذ الباحث من طريقها إلى أبعد غور من الأعماق التي ينزل إليها قارئ التاريخ المادي . فان وراء الحوادث الظاهرة في صفحات التاريخ كانقراض الأمم المالكة ، أو فتوح البلاد ، أو انحدار الجيوش وانتصارها ، أو قيام الحكومات المختلفة وسقوطها ، أو تسلط الأفراد على الأمم وإطراح الأمم لسلطة الأفراد ، حقائق أخرى تصدر عن صفات نفسية تختفي من وراء الحوادث الظاهرة ، فتكون بمثابة القوة المحركة أو الطاقة في المادة ، فهي خفية بأعيانها ، ظاهرة بآثارها . وهذه القوة إنما تمكن وتستخفي طوعاً لظروف خاصة ، وتظهر وتستقوى على غيرها طوعاً لظروف أخرى ، وهذه الظروف التي تكمن معها القوى المحركة للجماعات أو تظهر ، ينبغي أن تكون موضوع كل من يكب على التأمل في الثقافات التقليدية لدرس ما لها من أثر في كمون هذه القوى أو ظهورها ، بحسب ما يحيط بالجماعات من ظروف تبعدها عن ثقافتها التقليدية أو تقربها منها

أما إذا أردنا أن نستوثق من حقيقة هذه النظرية ، فعلينا أن نرجع إلى التاريخ ، علينا أن نرجع إلى أقرب تاريخ منا ، أي إلى تاريخ العرب . فان الأمة العربية سادت الدنيا عندما استمسكت بعرى ثقافتها التقليدية ، وفقدت الدنيا عندما انحرفت عن الاسترشاد بثقافتها المأثورة . وكذلك كان شأن روما وشأن اليونان قبل العرب . أما الدورات التي انتابت الأمم متراوحة بين الاستعلاء حيناً والتنكّس حيناً آخر ، فما هي إلا دورات تقرأ فيها صوراً من التطور ترجع في حقيقتها إلى استمساك الأمم بثقافتها التقليدية حيناً ، وتفريطها في ذلك حيناً آخر

فعلينا إذن أن نرسم لمستقبلنا خطة نتخذ فيها ثقافتنا التقليدية نبراساً نستضئ به ، وإلا فانا سوف نظل نتخبط في الظلام فلا نستقر

حادثة:

قد تقرأ تاريخاً كاملا كتاريخ الاسكندر المقدوني وفتوحاته الكبيرة ، وقد تستجلي في هذا التاريخ صوراً من شجاعة الرجل ومن إقدامه ، وقد تجد في انتصار من انتصاراته سبباً للتأمل والعبرة ؛ غير أن كل هذا لا يدلك على حقيقة الرجل قدر ما تدلك حادثة من الحوادث الصغيرة في حياته

بعد أن هزم الاسكندر جيش فارس الهزيمة الأولى ، تقدم بجيشه نحو « طرسوس » ، وهي مدينة حصينة من مدن آسيا الصغرى ، تعرف في التوراة باسم « طرشيش » ، وجاء عيون الأسكندر يخبرونه بأن الجيش الفارسي قد عزم على أن ينهب المدينة ويحرقها إذا لم يبادر الاسكندر باحتلالها . فترك قائده الأكبر « قرمنيون » على رأس المشاة وتقدم الفرسان منحدراً من الجبال الهاوية بقربة من البحر ، إلى السهل الذي تستوي فيه طرسوس ، وجد في السير ، حتى يتسنى له أن ينقذ المدينة قبل أن يفعل بها الفرس ، والسهل الذي تستوي فيه المدينة شديد الحر كثير الرطوبة ، وقد أفرغ الاسكندر على جسمه درعه الثقيل وعدة حربه ، ممتطياً صهوة جواده الصوال « بوقيفالوس » ، فقطع أميالاً من الوهاد والوديان ، حتى إذا أشرف على المدينة ، كان قد بلغ منه العطش ، فنزل على ساحل نهر « البَرَدَان » وخلع درعه واستحم في النهر ، والظاهر أن هذا النهر ينبع من الجبال ويستمد ماءه من ينابيع باردة ، فماؤه مثلج بفطرته ، ولقد أصاب الخليفة المأمون مرض إثر استحمامه في نهر البَرَدان فمات ، ولقد أوشك الاسكندر أن يموت ، كما مات خليفة المسلمين من بعده ؛ ولزم الاسكندر فراشه بعد أن دخل « طرسوس » وشاع أن حياته في خطر

كان من الأطباء الذين يعنون به ، طبيب شيخ يدعى « فليب الأكرناني » ؛ وكان من قبل طبيباً لأبيه ومن المتفانين في خدمة بيت مقدونيا المالك ؛ وقد أقر جميع الأطباء بأن الاسكندر ميؤوس منه ، إلا هذا الرجل ، فأنه نصح للاسكندر أن يذعن إلى رأيه وأن يشرب جرعة سيعدها له بنفسه ، ورضي الاسكندر بذلك على رغم عناده ؛ وخرج الطبيب من حجرة الملك المريض ليعد جرعة الشفاء

في اللحظة التي خرج فيها الطبيب إلى الحجرة ، دخلها رسول من قبل قائده « قرمنيون » يحمل رقعة في يده ، فقدمها إلى الاسكندر ؛ وكانت تحذيراً للاسكندر من طبيبه « الأكرناني » فقد اتصل بسمع القائد أن الطبيب مالأ الفرس عليه وأنه تلقى منهم رشوة ليدس له السم في الدواء

كان الاسكندر قد أتم قراءة الكتاب لما دخل عليه الطبيب حاملاً الجرعة التي أعدها ؛ فتناول الأسكندر الجرعة بيده اليمنى وناوله الرقعة بيده اليسرى ؛ وطفق الاسكندر يكرع الجرعة ، والطبيب ينظر في الرقعة نظرات جامدة حيرى ؛ ثم ناول الاسكندر الكأس الفارغة للطبيب ، وناول الطبيب الرقعة للاسكندر ؛ ونظر كل من الرجلين في وجه الآخر برهة ، ثم استلقى المريض على فراشه ، وانصرف الطبيب إلى شأنه ، من غير أن ينبس أحدهما ببنت شفة .

ألست تجد في هذا الحادث الصغير معنى عظيماً يدلك على أن القلب الذي حمله الاسكندر كان جديراً بأن يفتح العالم ويدوخ الدنيا برمتها ؟

حاجة اللغة العربية :

قد تكون لغتنا العربية السمحاء في حاجة إلى كثير من وجوه الاصلاح . قد نقول بأن كتب النحو غامضة وأن قواعد الصرف مشتتة ، وقد نقول إن أدب العربية لم يخدم بعد الخدمة الواجبة ، بل نقول إن اختلاف مذاهب النحويين ، وجود الكثير من اللغويين أمران لابد من النظر فيهما وإصلاح شأنهما بما يلائم حاجات أبناء العربية في هذا العصر ، كل هذا وأكثر منه صحيح ، والحاجة إليه ماسة ؛ غير أن أحوج ما تحتاج إليه اللغة العربية المعجمات ؛ وأول ما نتكلم في المعجمات القديمة

أما هذه فاما مطولة ترضي نزعة الباحث الذي تمكن من الأدب وربي فيه الذوق الأدبي ، فأدمن البحث وطلب الاستقصاء ؛ وإما مختصرة اختصاراً مخلاً في كثير من نواحي الارشاد اللغوي ؛ وليس بين هذين وسط يسد طلبة الأديب

المار فى رياض الأدب عبور المستفيد ، فلا هو بالمستقصى ولا هو بالقانع بما بين يديه ، وهؤلاء هم جمهرة الأدباء عندنا ، بل وفى كل الأمم . ناهيك بأن معجماتنا القديمة قد تركت كل مادة علمية من المواد التى عرفها العرب ودرسوها من غير تعريف ؛ فهذه دُوَيبَّة ، وذلك طُوَيْر ؛ وهذا نبت يكون فى العراق ، وذلك عرق فى الساعد أو الزند ؛ وكذلك صفة الأمراض ، أفى الانسان كانت أم فى الحيوان ، فقد قرأت فى صبح الأعشى من عيوب الخيل ما يزيد على المئة عيب ، كلها ، كما أعتقد ، تمت إلى أمراض ؛ غير أنك قلما تقع على عبارة تشخص لك المرض أو أعراضه الصحيحة ؛ فمعجماتنا ناقصة من هذه الوجهة نقصاً شائناً ، ناهيك بأن فى كتب الأدب والتاريخ والخطط والشعر والتراجم ألفاظاً لم تدخل المعجمات القديمة ؛ ولا نقصد بذلك الألفاظ المولّدة ، بل نقصد بها ألفاظاً فصيحة صحيحة ، فالمعجمات القديمة إذن لم تحط بكل ما فى العربية من مادة لغوية ؛ وهذا نقص نضيفه إلى ما عدّدنا قبل .

نتكلم بعد هذا فى أنواع المعاجم التى نطالب الآن بوضعها لتتم حاجة اللغة ؛ وأول ما نحتاج إليه المعاجم التى تقابل فيها مفردات لغتنا ، مفردات لغة أخرى ؛ وليست الحاجة فى هذا مقصورة على لغة أو لغتين فان الواجب يحتّم علينا أن ننظر إلى كل اللغات الحية ، بل وبعض اللغات غير كثيرة الانتشار ، لنضع لها معجمات تقابل مفرداتها مفردات من اللغة العربية ، على غرار ما نرى فى المعاجم الكثيرة عند الأمم التى أدركت ما للمعاجم من أثر فى إحياء اللغات ونشر الثقافة والمعرفة .

تأتى بعد ذلك حاجتنا إلى المعاجم الخاصة بالعلوم والفنون ؛ فلست تجد الآن معجماً واحداً يرضى حاجة المختصين فى علم من العلوم أو فن من الفنون ويسعفهم بالكلمة الصحيحة والتعريف الكامل للمصطلحات التى تصادفهم أثناء بحوثهم ؛ وهذا نقص معروف شائع ، فلا حاجة إلى التوسع فى شرح الحاجة إلى سَدّ ثغرته ؛ وإنما يتبقى لنا أن نتعرف أن أمامنا فى هذا مجهود شاق طويل علينا أن نبذله وأن نضحى فيه بالجهد والمال والعين والعافية

أما الطامة الكبرى والمصيبة العظمى فتشعر بها إذا قارنت بين الأسماء القديمة والحديثة الواردة فى كتب التاريخ أو الجغرافية ، فقد تقرأ الاسم الواحد الدال على ذوات بعينها مرسوماً بعدة أهجية مختلفة فى كتب مختلفة أو فى كتاب واحد ؛ فقد يتفق أن يكون المؤلف قد اعتمد على كتب إنجليزية تارة وعلى كتب فرنسية تارة أخرى ؛ فينتقل الاسم الواحد كما يلفظه ويرسمه الانجليز مرة ، وكما يلفظه ويرسمه الفرنسيون مرة أخرى ؛ ولا تبلغ بلبلة الألسن فى هذه الناحية من الفساد مبلغها فى نقل الأسماء القديمة ، وبخاصة إذا كانت أسماء عرفها العرب ، فقد قرأت فى كتب مختلفة الأعلام الآتية : مرجراط ، مرجرات ، مرغرات ، مرغراط ، مرج راهط ، مرج راهد ، مرجراه ، وكلها للوقعة المعروفة فى مرج راهط ؛ وقرأت : رقطيس ، راقتيس ، راقطيس ، راقوده ، رقوته ، وكلها للمستعمرة الاغريقية المعروفة راقوطيس فى شمال الدلتا فى تاريخنا القديم وهى راقودة عند العرب ؛ وقد أذكر أن الفروق فى رسم الأعلام قد يبلغ من الاختلاف فى أسماء أخرى مبلغاً لا يدركه أشد الواقفين على حقيقة الأسماء القديمة ، ولا شبهة عندى أن مبتدئاً فى درس التاريخ أو الجغرافية إذا وقع له مثل هذا فى كتب مختلفة أو كتاب واحد لظن لأول وهلة أن اختلاف الرسم يدل على اختلاف الذات .

هذه الحال تحفزنا إلى الدعوة لوضع معاجم لأسماء الأعلام ، فنحتاج إلى معاجم فى أسماء الأعلام القديمة ، ومعاجم لأسماء الأعلام الحديثة ، ومعاجم تضبط فيها أسماء الأعلام العربية ، وإن من الأسماء العربية ما تقرأه على أوجه عديدة إذ لم يكن تام الضبط بالشكل الكامل

لم أتناول فى هذه الكلمة إلا بعض حاجة اللغة العربية إلى المراجع ، فهل قدرنا كل ذلك ؟ وهل اتخذنا العدة للعمل ؟ وهل لهذا العمل ظهراء من أغنياء هذا البلد والقائمين على أمره ؟ نرجو مؤملين أن تتوجه الجهود إلى هذا العمل إن كانت الرغبة فيه موجودة ، ونرجو أن يتضافر الكتاب والباحثون على خلق الرغبة فيه إذا لم تكن موجودة

اسماعيل مظهر

إلى الأستاذ أحمد أمين :

الضعف في اللغة العربية

للأستاذ محمد سعيد العريان

تناول الأستاذ الجليل أحمد أمين في العدد ٢٠٨ من الرسالة موضوع الضعف في اللغة العربية ، بعد ما تناوله عديد من الصحف والمجلات في هذه الأيام ؛ وما كان لي أن أعني بمناقشة ما قال الكاتبون في هذا الموضوع والادلاء برأيي فيه لولا اعتدادي بمكانة الأستاذ الكبير وما لآرائه من خطر وقيمة ، فأنا لهذا أكتب إليه أستدرك أشياء وأنبه إلى أشياء لعل لها أثراً في توجيه البحث ينتهي إلى الغاية التي يريد ونريد

وأحب قبل أن أمضي فيما أنا بسبيله أن أؤكد للأستاذ ما لا بد من توكيده : إنني فيما أكتب إليه بعيد عما يسميه النزاع الشخصي أو التعصب الطائفي ، فاذا رأى في مقالي ما يحملني إلى طائفة من القائمين على شئون اللغة العربيه فليتبرع لي بحسن الظن ، وإن رأى مني انحرافاً عن الصواب فلينسبني الى الخطأ في الاجتهاد ، لا الى الهوى والتعصب

***

وبعد فماذا يعني الأستاذ بالضعف في اللغة العربية ؟ أتراه يعني أن اللغة العربية في هذه الحقبة من تاريخها الأدبي سائرة إلى الضعف ؟ أم هو يعني ضعفها على ألسنة تلاميذ المدارس وطلاب الجامعة وناشئة المتأدبين من كتاب هذا العهد ؟

هذا سؤال أحسب الجواب عنه صريحا محدداً في مقال الأستاذ ؛ فما من شك في أن اللغة العربية في هذا العهد خير منها منذ ستين عاماً وقبل ستين عاماً ، وإن لم تبلغ بعدُ الهدف الذي ترمي إليه . وأما ضعفها في ألسنة طلاب المدارس وخريجي الجامعة وناشئة المتأدبين ، فأمر لا شك فيه كذلك ولا يحتاج إلى برهان

وإذا تحدد موضوع البحث على هذا الوجه فان علينا مناقشة الأسباب التي يرجع إليها هذا الضعف في اللغة العربية . وأرى الأستاذ الجليل يرجعها إلى أمور ثلاثة تتفرع في النهاية إلى ست مسائل : هي طبيعة اللغة نفسها ، والمعلم ، وبرامج التعليم ، والامتحانات ، والتفتيش ، والمكتبة العربية . وسأقصر حديثي الآن على بعض هذه المسائل دون سائرها ؛ إذ هي عندي أجدر بالعناية وأحق بالنظر . وأولى هذه المسائل هو المعلم ، وأراني أشارك الأستاذ في قوله : « إن معلم اللغة العربية في المدارس على اختلاف أنواعها عليه أكبر واجب وأخطر تبعة ، وبمقدار قوته أو ضعفه تتكون — إلى حد كبير — عقلية الأمة . . . » ولكني مع ذلك لا أشاطره الرأي بأن جزءاً كبيراً من ضعف اللغة يرجع إلى المعلمين . فالمعلمون في مدارسنا — وأنا واحد منهم — إلا أدوات عاملة بغير إرادة : ليس لهم حرية في العمل ولا خيرة في الطريقة ، ولا فكرة في التنفيذ ؛ وإنما يشرع لهم الشارع في وزارة المعارف وعليهم الطاعة العمياء والارادة الخرساء . قد يكون عيباً في المعلم أن ينزل عن رأيه بهذا الهوان ؛ ولكنه يريد أن يعيش ، ومن ورائه المفتش ، والمفتش الأول ، والرقيب ، والوزير ؛ كل هؤلاء عليه عيون لواحظ ، ليس عليهم أن يوجهوه أو يروا له الرأي الصالح بمقدار ما عليهم أن يحصوا عليه مخالفاته لما أرادت الوزارة من الخطة والمنهج والنظام . . .

وأراني وقد بينت للأستاذ موقف المعلم ومكانته في المدارس المصرية ، مسوقاً إلى أن أعتب عليه أن ينال معلمي اللغة العربية ودارَ العلوم بما يشبه أن يكون مصدرُه فكرةً قديمة مستقرة في موضعها من فكرة الكاتب الجليل لا تتصل بموضوع البحث من قريب أو بعيد ؛ وإلا فأين هذا الموضوع من دعواه بأن خريج دار العلوم أصبح لا يحذق الأدب القديم ولا الأدب الحديث ، ولا يستطيع تغذية الشعب بالأدب الذي هو في حاجة إليه . . . ؟

إننا هنا نتحدث عن ضعف اللغة العربية في المدارس لا ضعفها في الأدب العام الذي يغذي الشعب ويساير النهضة ؛ ولو كان هذا هو الموضوع لاستطاع أن يجد البراهين في كل ما يكتب الكتاب وينشئ الأدباء منذ نيف وستين عاماً ، وكلها شاهدة بما لدار العلوم من أثر على اللغة في هذا القطر وفي الأقطار العربية عامة ، وما أرى الأستاذ يستدرك فيعترف بأن من خريجي دار العلوم أفذاذاً نابغين يصح أن يكونوا المثل الذي ينشده إلا مجاملة لطائفة من أصدقائه وزملائه في الجامعة ، وما تُغيّر هذه المجاملة

شيئاً من وجه الرأى ، وما تغير شيئاً من الحقيقة التى يلاحظها كل من يقرأ مقالة الأستاذ الكبير ، وهى أنه خرج من البحث فى كفاية خريجى دار العلوم باعتبارهم معلمين ، إلى البحث فى كفايتهم باعتبارهم كتاباً وأدباء ومنشئين أثروا تأثيرهم فى الأدب العام أو لم يؤثروا ، وما هذا مصدر البحث ولا مورده ...

وما أريد أن أطيل فى هذا العتب ، فان هنا (النقطة الشائكة) التى كان هم الأستاذ أن يتحاشاها ، وكان هى لولا (الواعية الباطنة) التى أقحمتها فى غير موضعها من مقال الأستاذ الجليل

وأعود إلى ما كنا فيه فأقول إن الأستاذ لم يبلغ إلى الحقيقة فى قوله : إن دار العلوم وغيرها لم تستطع أن تخرج المعلمين الأكفاء الذين تتطلبهم وتتطلبهم اللغة العربية للأخذ بيدها والنهوض بها ومحاربة الضعف الناشىء فيها . وكان وجه الرأى أن يقول : إن وزارة المعارف لم تترك للمعلمين حرية العمل وحرية الرأى فى المناهج للأخذ بيد اللغة العربية والنهوض بها ومحاربة الضعف الناشىء فيها ؛ وذلك بما قيدتهم من قيود لاتدع لهم الخيرة فى أن يفكروا فى الوسائل ولا فى الغايات التى يجب أن يأخذوا بها الناشئة من طلاب اللغة العربية ليبلغوا بهم حيث يريدون

* * *

ولمنهج التعليم أكبر الأثر بعد ذلك فيما آلت إليه حال اللغة العربية فى المدارس المصرية ، وعلى ألسنة الناشئة من المتأدبين ؛ ولا أعنى بهذا منهج اللغة العربية وحده ، فهذا جزء من كل له أثره فى الثقافة العامة التى توجّه التلميذ وجهته ، وتُعدّه لأن يكون ما يكون فى غده : رجلاً لأمته يحرص على قوميّته وتراث أهله ومقوّمات وجوده ، أو واحداً كبعض من نعرف من شبابنا ، لايعرف له قومية وليس فيه حفاظ على ماخلّف الآباء ، ويُضيّع فيما يُضيع من تراث الأجيال لغةَ قومه ودين قومه . والدين واللغة فى تاريخ هذه الأمة شىء واحد ، يقوم كل منهما من الآخر مقام الجزء مما يكمّله ، وهما معاً عماد القومية العربية المسلمة التى نريد أن نطبع عليها ناشئة الغد .

هذا نقد عام لبرامج التعليم فى مدارسنا لا أحاول تفصيله ، وحسبى فى هذا السبيل أن أنبه أستاذى الجليل إلى أن نظر الطلبة فى صميم نفوسهم إلى أن اللغة العربية مادة ثانوية وإن وضعت فى المناهج فى أولها — ليس من عمل المعلم بقدر ماهو من تأثير المنهج الذى يفرض فيما يفرض على التلميذ فى المدرسة الابتدائية برنامجاً طويلاً عميقاً فى اللغة الانجليزية قبل أن يستقيم لسانه فى نطق جملة عربية واحدة . كما أن ضعف الثقافة فى الجمهور فيما يتعلق بالتاريخ الاسلامى والأدب العربى والمعلومات العامة التى تتصل بذلك — ليس مسئولاً عنه معلمو اللغة العربية ، لأن ذلك ليس داخلاً فى برنامج ما يدرسون لتلاميذهم ، وليسوا هم القائمين على تدريس التاريخ الاسلامى ، ولا شىء مما يتصل به من المعلومات العامة فى مرحلة من مراحل التعليم ؛ وقد كان ذلك إليهم منذ سنين ، وكانت حال اللغة يومئذ خيراً منها فى هذه الأيام

وهناك أمر ذو خطر يتصل بمنهج اللغة العربية ذاتها ، ولا مناص من الالتفات إليه ؛ ذلك هو ترتيب المنهج وتوزيعه على سنى الدراسة المختلفة ، ولا أعنى هنا الكم والمقدار ، إنما أعنى الكيف والطريقة .

إن الأستاذ أحمد أمين قد قصر نقده للمناهج على المادة دون الموضوع ؛ فراح يتهم قواعد النحو والبلاغة فى مادتها وتقسيمها دون نظر إلى مؤداها وغايتها وموضوعها من مراحل التعليم

إن الآفة والعلة والداء ليست فى قواعد البلاغة ومصطلحات النحو وفصول الأدب ؛ فما نحن بمسئولين أن نجعل هذه القايس اللغوية تسلية وملهاة يتلهى بها التلميذ فى وقت بطالته وفراغه كأنها قصة أو فكاهة ، فما هذا موضعها من العلم ولا مكانها ؛ ولكن العلة والآفة والداء أننا نعلم التلميذ قواعد اللغة قبل أن يعرف شيئاً من اللغة أو يقرأ منها قدراً صالحاً ليعينه على الفهم والمحاكاة ؛ وأننا ندرس له البلاغة قبل أن نقدم له النماذج الكثيرة من الكلام البليغ التى تنبه فيه ملكة النقد قبل أن نعطيه قواعد النقد ومقاييس البيان الرفيع ، وأننا نجرّعه مصطلحات الأدب وفنونه قبل أن يتذوق الأدب نفسه . هنا العلة فلنلتمس لها الدواء قبل أن نفكر فى حلاوته أو مرارته .

إن قواعد النحو ، ومصطلحات الأدب ، وفنون البلاغة ، كفلسفة القصة من القصة : لا ينبغى التفكير فيها والمعاناة فى استخراجها قبل الفراغ من القصة نفسها ، والحكم على

الشيء فرغ من تصوره ، كما يقولون ؛ فصوروا للطفل آداب لغته قبل أن يعطوه هذه المقاييس الصماء ليزن بها ما ليس في يده .

إن هذه المناهج بعيدة من الطبيعة بعد الغاية التي وصلنا إليها من الغاية التي إليها نقصد ؛ وإنما ينبغي حين نريد تعليم اللغة العربية على منهاج صحيح أن نحاكي الطبيعة الخالقة في منهاجها الواضح ؛ والطبيعة قد أملت علينا الطريقة التي يجب أن نأخذ بها كل ناشئ يتلقى لغة من اللغات ، ففرضت عليه أن يمر في أطوار التعلم بثلاث مراحل : السماع والتلقين ، ثم المحاكاة والتقليد ، ثم الابتكار والانشاء . فان الطفل يولد وله صوت وسمع وليس له بيان ، ثم يأخذ في محاكاة الأصوات التي يسمعها ؛ فاذا تكونت له أعضاء النطق أخذ يلقف الكلمات مما يسمع من أهله فيرددها كما سمعها بلهجتها ونبرها ، ثم يتدرج من ذلك إلى التعبير عن حاجاته باللسان الذي يتحدث به مَن حوله ؛ على أن قاموسه في ذلك لا يعدو كلمات قليلة على مقدار وعيه وحفظه وقدرته على التقليد ؛ وكلما تقدمت به السن واتسعت الدائرة التي يضطرب فيها ويستمع إليها ويلقف منها زاد محصوله اللغوي ؛ ثم لا يلبث أن يلمّ بكل معنى وبكل لفظ وبكل عبارة ، فيتحدث كما يتحدث الناس ، لا يعجزه أن يفهمهم ولا يعجزون ، وحينئذ يتم تمامه اللغوي في اللغة التي يتحدث بها أهله .

هذه هي الطبيعة الملهمة وطريقتها في إعداد الطفل إلى تلقي اللغة والفهم عنها والابانة بها . فأين طرائقنا من هذه الطريقة التي فرضتها الطبيعة على كل إنسان ناطق . . . ؟

وعلى هذا المنهج الطبيعي نفسه تخرج الخالدون من أدباء هذه الأمة ، فبلغوا ما بلغوا وخلفوا لنا هذا التراث الباقي على الزمن من الشعر والأدب . وطريقة الأخذ عن الرواة هي طريقة الطبيعة نفسها ، وهي هي كانت كل ما يؤهل الأديب أو الشاعر إلى التبريز في الأدب والاجادة فيه . وما كان الأصمعي وأبو عبيدة والقالي وغيرهم ليعلموا تلاميذهم أول ما يعلمونهم — المحادثة والانشاء والقواعد والتطبيق ، إنما كانت دروسهم في حلقات الدرس والرواية هي هذه الأمالي الباقية من جيد الشعر والخطب والأمثال والقصص ، أما النحو والصرف وقواعد البلاغة فكانت شيئاً من وراء ذلك لا ينظر إليه إلا عند الحاجة ، وهي اليوم عندنا أول الطريق وآخره

وأمامنا الأمثال في كل جيل وفي كل عصر من عصور العربية ترشدنا إلى الطريق التي يجب أن نسلكها في تعليم العربية ، ولكننا نغمض عنها أعيننا ونضرب في البيداء ، ومع ذلك ما ننفك نسأل أنفسنا :

« أين ومتى نبلغ الغاية ؟ »

وهل بلغ البارودي وحافظ وأضرابهما ذلك المبلغ من الشعر والأدب بالقواعد والتطبيق ومعالجة الانشاء ، أو بالاطلاع والرواية والحفظ من مأثور النظم والنثر ؟

ينبغي أن نعلم العربية على الطريقة التي يتعلم بها الطفل أن يتكلم ؛ فلتكن دروس العربية الأولى أن نتحدث إلى التلميذ ثم نسأله أن يتحدث ، وأن نحمله على المطالعة ثم نطلب إليه أن يكتب ، وأن نقدم له الغذاء من متن هذه اللغة ومن أساليبها في أقاصيص صغيرة مسلية نقصها عليه بلسان عربي سلس الأداء واضح النبرات مفهوم المعنى ، ثم نطلب إليه أن يعيد ما سمع بلغة كالتي تحدثنا بها إليه ولا تخرج عن قاموسه الذي نعرفه كلمة كلمة لأننا نحن الذين أمليناه عليه كلمة كلمة في هذه الأحاديث والقصص التي رويناها له ، ولا نفتأ كل يوم نزيد في معجمه اللغوي كلمات وأساليب فيما نتحدث به إليه ؛ فاذا بلغنا به مبلغاً ما بهذه الوسيلة فلنفكر حينئذ في تلقينه قواعد اللغة وموازين الكلام الصحيح لا على أنها قواعد جديدة يجب أن يدرسها ، ولكن على أنها جزء غير مسموع من الكلام الذي سمع ، ونطاق غير ملفوظ من الكلام الذي تحدث به . وهنا نقطة يجب ألا تغيب عن أحد من المشتغلين بالتعليم ، هي أن هذا ليس واجب معلم اللغة العربية وحده ، ولكنه واجب عام ينتظم المعلمين جميعاً ؛ وإلا كان عبثاً ما يحاوله معلم العربية ، فما يعالج هو تقويمه من ألسنة التلاميذ بالقدوة والمثال تفسده الرطانة الأعجمية في لسان باقي المعلمين

هذا هو الأمثل بأن يؤدينا إلى الهدف الذي نريده لو أخلص العاملون ، فليجربه من شاء ثم يحدثني عن النتيجة ؛ فانا نفسي قد حاولت هذه الطريقة في بعض الفرق (على غفلة من المفتش وغفلة من المنهج ...) فما أدعو إليها إلا مقتنعا بها مؤمناً بنتيجتها

* * *

والآن وقد وصلت إلى هذه النقطة من الموضوع ، أراني

مع الأستاذ أحمد أمين في الحديث عن المكتبة العربية ؛ فلو أنني زعمت له ولنفسي أن عندنا المعلم الكفء الموهوب الذي لا عل الحديث مع تلاميذه بلسان عربي مبين جذاب ليزودهم بالغذاء المرىء والنموذج الصالح من متن اللغة وأساليبها ، لما وسعني الزعم بأن عندنا الكتاب الذي يصلح أن يكون لهذا التلميذ أستاذاً في غيبة أستاذه ؛ يعطيه ما يعطيه المعلم من متن اللغة وأساليبها في عرض جذاب يحبب إليه مطالعته والتزود منـه ثم يحمله من بعد على أن يحرص على المطالعة لتكميل ثقافته ويجعل لها وقتاً من وقته طوال حياته في زمن التخرج وبعد التخرج

ولو أنني زعمت أن عندنا هـذا الكتاب لكذبتني وزارة المعارف التي لا تعطي تلاميذ مدارسها الابتدائية إلا كتابا واحداً للمطالعة العربية ألفه مؤلفه في القرن الماضي ... وما يزال حيث كان ؛ على حين تعطي هـذا التلميذ نفسه بضعة كتب للمطالعة الانجليزية قد تبلغ ستة كتب أو سبعة في السنة الدراسية ، ثمن الكتاب منها يبلغ ضعف ثمن كتاب المطالعة العربية ؛ وهي دقة بالغة في تنفيذ سياسة الاقتصاد ..!

على أن هنا حقيقة لا ينكرها أحد ولا يغفل عنها أحد ، هي أن المطالعة عند كل المشغوفين بالمطالعة — عادة لازمة أكثر مما هي وسيلة من وسائل العلم ، فاذا لم يعود الطفل أن يقرأ منذ حداثته فهيهات أن يمكن حمله على المطالعة المثمرة من بعد ؛ وهنا سر انصراف شبابنـا عن المطالعة والأدب إلى ذلك اللغو وتلك الدعاوى الفارغة التي تملأ أفواههم عن الأدب والتجديد .

ومن ثمّ يجب أن نبحث أولَ ما نبحث في نقص المكتبة العربية للأطفال ، ثم من يليهم ، ثم من يليهم ، إلى أن نبلغ الطبقة التي نجد فيها من يقرأ أمثال الأغاني والأمالي وعيون الأخبار والطبري وغيرها من تراثنا الأدبي الذي لا نجد من يقبل عليه إلا القليل من قراء العربية

وإنني أؤكد للأستاذ أحمد أمين أن المكتبة العربية لم تضعف هذا الضعف لعجز في المعلمين أو نقص في كفاية القائمين على شئون اللغة العربية ، ولكنّ وسائل التخذيل وقلة المكافأة ...

وقد عالجت طائفةٌ غير قليلة من أدباء العربية هـذا النقص في مكتبة الأطفال ، وكان خليقاً أن يبلغوا بها مبلغاً تطمئن إليه ، لو لا قلة المكافأة وسوء التقدير ، وأنا نفسي ما أزال أعاني أزمة عنيفة بيني وبين نفسي من جراء محاولة من هـذه المحاولات لاصلاح مكتبة الطفل ، صرفتني عن العمل لغيرها وقطعتني عن الجو الأدبي الذي كنت أعيش فيه والذي كنت أهيئ نفسي فيه لمنزلة في الند هي أجدى عليّ وأنفع ، وجعلتني غرضاً لسهام اللوم من أصدقائي الذين كانوا يحسنون الظن باستعدادي الأدبي . والأستاذ الزيات صاحب الرسالة أول هؤلاء اللائمين ، مع إعجابه بما أقدم للطفل العربي من أدب سائغ . وهأنذا ما أزال في المحاولة ، وما زلت أطمع في أن أبلغ بالقصص المدرسية — التي أصدرها مع زميلين من زملائي — مبلغاً أقتنع فيـه بأني قد أسديت يداً إلى المكتبة العربية وأحسبني قد سمعت مرة من الأستاذ أحمد أمين ثناءً على عملنا كان خليقاً بأن يحملني على الثبات ومضاعفة الجهد في هذه المحاولة ؛ ولكن عملاً كهذا ياسيدي لا يجزئ فيه أن أسمع كلمات الثناء وعبارات التشجيع وأنا أبذل فيـه من أعصابي ومن مالي وعمري ولا مكافأة ولا تعويض . أفيحسب أستاذنا الجليل أن سعيد العريان ومعه مائة مثله من معلمي اللغة العربية في مدارس الحكومة يستطيعون أن يسدوا هـذا النقص في المكتبة العربية ووزارة المعارف لا تحاول أن تشعرهم من قريب أو بعيد بأن لهم عليها حقاً أكثر من : أحسنتَ وأجدت ولله أنت ... !

أم تحسب أحداً يُقدم على أن يبذل لمثل هذا العمل جنيها لعله أحوج إليه في بيته ، وهو يعلم أن وزارة المعارف لا تكافئ الكتاب والمؤلفين إلا أن يكونوا مفتشين أو أشباه مفتشين ؛ حتى لو أن معلماً صغيراً (مثلي . . . !) أنشأ عملاً خليقاً بأن يُنتفَع به ، أسرع إلى محاكاته واحد من هؤلاء فيكافأ على التقليد ويضيع العمل الجيد على منشئه بلامكافأة ولا تعويض ...؟

ياسيدي ! والله ما كان في بالي أن أشكو ، ولا أردت أن يكون الحديث عن نفسي ، وليس من طبعي أن أقول : ليتني وليت الناس ! ولا كان همي أن ألتمس المعاذير المقصر والمجيد ؛ ولكنك رغبت إلى كل ذي رأي أن يدلي برأيه ، فهذا ما دفعني إلى ذاك ، وأرجو ألا أكون على حيد الطريق فيما كتبت ، أو أن أزايل حسن الظن من نفسك ، ولعل لي عودة قريبة إلى الموضوع والسلام عليك .

(طنطا) محمد سعيد العريان

في القديم والجديد

كلمة وكليمة(١)

للرافعي فقيد اللغة والأدب

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

... إن الخلاف بين ما يسمونه القديم والجديد ليس بخلاف على جديد ولا قديم ، ولكن على ضعف وقوة ؛ فان قوماً يكتبون وينظمون ، ولكن لم تقسم الفصاحة والبلاغة على مقدار ما يطيقونه من ذلك ، ولا يتسع الصحيح لآرائهم في اللغة والأدب ؛ وقد أرادوا أن يسموا كل ذلك من حيث ضاقوا ، ويطاولوه من حيث تقاصروا ، وينالوه من حيث عجزوا ، فظنوا بالأمر ما يظن إنسان يمشي على الأرض ويعرف أنها تدور فيؤول ذلك بأنه هو مدير الأرض على محورها بحركة قدميه ... نحن نقول : أسلوب ركيك ، فيقولون : لا بل جديد ! ! ونقول : لغة سقيمة ، فيقولون : بل عصرية ! ! ونقول : وجه من الخطأ ، فيقولون : بل نوع من الصواب ! !

* * *

... إننا لا نعرف قديماً محضاً ولا جديداً صرفاً ، ولا نقيم وزن أحدهما إلا بوزن من الآخر إذا أردنا بهما سنة الحياة ، وأنت لم تجد حياً منقطعاً مما وراءه ؛ بل أنت ترى الطبيعة قيدت كل حي جديد إلى أصلين من القديم لا أصل واحد هما أبواه ، فمنهما يأتي ، ومنهما يستمد ، وهما أبداً فيه وإن كان على حدة

* * *

.. المذهب القديم هو أن تكون اللغة لا تزال لغة العرب في أصولها وفروعها ، وأن تكون هذه الأسفار القديمة التي تحويها لا تزال حية تنزل من كل زمن منزلة أمة من العرب الفصحاء ، وأن يكون الدين العربي لا يزال هو هو كأنما نزل به الوحي أمس ، لا يفتننا فيه علم ولا رأي ، وأن يأتي الحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين ، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً ...

* * *

... سألت بعضهم ما هو هذا الجديد الذي تحامون عنه ؟ قال : هو ما يكتب به في الصحف . قلت : فان فيما يكتب الضعيف والساقط والرذول ثم ما هو الى الجزالة والفصاحة ، ثم ما يلتحق بجيد الكلام ، فأي هذه تريد ؟ وأيها ليس قياساً من أصله العربي المعروف ؟ أفتجعلون النقص مذهباً من كاله ثم لا تكتفون بخطأ واحد وتدعون أن الكمال في نفسه يجب أن يعد مذهباً من النقص ؟ أم الجديد هو ما يكتب به في الصحف ، تعني لأنك أنت تكتب في الصحف . . . . ؟

* * *

التجديد في الأدب إنما يكون من طريقتين : فأما واحدة فابداع الأديب الحي في آثار تفكيره عما يخلق من الصور الجديدة في اللغة والبيان ، وأما الأخرى فابداع الحي في آثار الميت بما يتناولها به من مذاهب النقد المستحدثة ، وأساليب الفن الجديدة . وفي الابداع الأول إيجاد ما لم يوجد ، وفي الثاني إتمام ما لم يتم ، فلا جرم كانت فيهما معاً حقيقة التجديد بكل معانيها ، ولا تجديد إلا من ثمت ، فلا جديد إلا مع القديم . . .

* * *

لم أقرأ إلى يوم الناس هذا في معنى هذا « الجديد » كلاماً يبلغ أن يصور منه برهان أو تؤلف منه قضية صحيحة ، وكل

(١) تحت هذا العنوان كان المرحوم الأستاذ الرافعي ينشر على قراء الرسالة الكرام كلمات جامعة تدور على أغراض مختلفة من الأدب والدين والأخلاق والاجتماع ، فكان موقعها في النفوس موقع الاعجاب البالغ والتقدير الكبير لـكل آثار الرجل حتى أنها ترجمت إلى الفرنسية ونشرت في صحف القوم هناك ...

ولما كنا قد تتبعنا الرافعي في كل ما كتب ، واستوعبنا آثاره بالبحث والنظر ، فقد رأينا أن نصل ما انقطع ، فنقدم للقراء ما نعرفه للرجل من مثل تلك الكلمات التي كان يرسلها عليه رحمة الله ؛ إلا أننا آثرنا أن نزجيها عقوداً كل عقد ينتظم حباته سلك من المعنى المشترك ، والغرض المتفق ، على أننا لسنا على رأي الرجل في كل ما نقل عنه ، وإنما نريد أن نقرب للقراء آراءه ، وأن نعف بهم على مجمل فلسفته ، والله نسأل أن يجعله عملا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتغمد الرافعي بفيض رحمته العميم ؟ (فهمي)

أقاويلهم ترجع إلى ثلاثة أبواب : جديد ، ومجدِّد ، ولنجدد . فأما الأول فهو عندهم تقبيح القديم والزراية عليـه والتنفير منه ، وأما الثاني فهو العائب والشاتم والتهزِّئ ، وأما باب قولهم « ولنجدد » فهو لا يزال إلى الآن مقصوراً على قول كل واحد منهم للآخر : « ولنجدد » ...

* * *

. . . أما والله لا أعرف أهؤلاء القوم يجدون أم يسخرون ! ولـكن الذي لا أجهله أنـ في بعض الناس أرواحاً وأمزجة انطبعت فيها صور الاجتماع الأوربي بما يحوي من فضائله ورذائله لأن هذه نتائج تلك ما منها لهم بد — فتريد هذه النفوس الرقيقة الجميلة ! ! أن تنسخ الرسم الاسلامي الشرقي وتقر كل ذلك الأوربي في مكانه . تلك هي نزعة التجديد . . . ! !

. . . لقد رأيت لأصحاب « المذهب الجـديد » أصلا في تاريخ الأدب العربي كانت جذوره ممن انتحلوا الاسلام وهم يدينون بغيره ، وممن كانوا يدينون به وتزندقوا فيه ، حتى قال الجاحظ في بعض رسائله يعني هؤلاء وأولئك : « فـكل سخنة عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا ! ! فمن قبلهم كان أولها »

ورحم الله أبا عثمان ، إن التاريخ ليعيد نفسه اليوم « بسخنة عين جديدة » ...

* * *

. . . إنهم إن أرادوا « بالمذهب الجديد » أنـ يكتب الـكاتب في العربيـة منصرفاً إلى المعنى والغرض تاركا اللغة وشأنها متعسفاً فيها آخذا ما يتفق كما لا يتفق ، وما يجري على قلمه كما يجري ، معتبرا ذلك اعتبار من يرى أن مخه بلا غلاف من عظام رأسه ، وأن عظام رأسه كعظام رجليه ! وأن أصابع قدميه كأهداب عينيه ! ! وأن مطلق التركيب هو مطلق النظام والمناسبة ! ! وأن اللغة أداة ولا بأس بالأداة ما اتفق منها ، ولا بأس أن يمزع الجراح مزعا من جلد العليل بأسنانه أو بأظافره أو بنصل الفأس ... ما دامت معقمة وما دام ذلك بعينه هو فعل المبضع لا يزيد المبضع عليه إلا في الدقة . .

إن أرادوا بهذا وأشباهه ما يسمونه المذهب الأدبي الجديد قلنا : لا ، ثم لا ، ثم لا ، ثلاث مرات . . .

* * *

أظن أن اللغة العربية لن ترتفع منزلتها عنـد هؤلاء الحق المجددين إلا إذا أصبحت لغة فرنسا أو انجلترا ... فيومئذ يكون الجاحظ جاحظاً بقوة الأسطول ، وعبد الحميد بقوة الجيش ، وابن المقفع بسلاح الطيران ، إذ هم وأمثالهم أسلحة التاريخ التي يقاتل بها مجد الأمة ليغلب وينتصر ، وهذا بعينه هو من دليلنا على أن هؤلاء الخمسة أو الستة المجددين هم خمسة أو ستة مجانين في أمراض العقل الاجتماعي . . .

« اختارها وأخرجها »

محمد فهمي عبد اللطيف

إلتقاء النجف بالأزهر

رأى العلامة الشهرستانى

للأستاذ عبد المنعم خلاف

العلامة الكبير السيد هبة الدين الشهرستانى رجل من رجالات العراق الذين يشار إليهم ، ويعتمد على رأيهم فى شئون الدين والدولة ، تولى وزارة المعارف العراقية لأول عهد البلاد بالاحتلال الانجليزى ، فكانت له فيها مواقف جريئة مع مستشارها الانجليزى لا يزال الناس يتحدثون بها ويثنون عليها . وكان العامل الأول على نشر التعليم بين المسلمين بعد أن كانوا يعزفون عنه نظراً للصبغة الاحتلالية التى كانت تسيطر عليه . وهو فوق ذلك صاحب قلم بارع فى سرد حقائق الاسلام وجلاء مآثره ، يشهد بذلك كتبه العديدة وخصوصاً كتابه « المعارف العالية » الذى نحا فيه منحى عصريا حميداً يحبب إلى الشباب قراءته ، وهو محاضر طلق اللسان لين الصوت وقور المظهر ، وديع النفس تشعر بأن فيضاً من سمو الروح وجلال الخلق يغمرك وأنت فى مجلسه . وهو من كبار مجتهدى إخواننا الشيعة ، وإن كان لسمو خلقه وغزارة علمه واتساع أفقه لا يختص بفريق دون فريق .

وكان على رأس الرعيل الأول من علماء الاصلاح فى النجف الأشرف أهاب بعلمائه وطلابه سنة ١٣٢٨ هـ فى مجلته « العلم » أن يرموا بأبصارهم إلى ما وراء أسوار معاهدهم الدينية من شئون الحياة والعلوم العصرية ، كما أهاب الأستاذ الامام محمد عبده برجال الأزهر . وقد صار له الآن تلاميذ ومريدون يتولون نشر دعوته وتعميم طريقته

وقد كان من حسن حظى أن أتيحت لى فرصة زيارته فلأت بصرى بصورته الجليلة . وشيخوخته الوقور التى ذكرتنى بالصور الذهنية لعلماء بغداد الأولين ، بعد أن ملأت سمعى بذكره العاطر وثناء الناس عموما عليه . فصدق العيان الخبر

وكان لا بد أن يتطرق الحديث إلى شئون المسلمين والآمال فى المستقبل الذى تحفز التاريخ ليكتب فيه صفحة جديدة للنهضة الدينية والدنيوية فى ديارهم

وهو يرى أن الوحدة الاسلامية المنشودة التى عهد لها المخلصون من رجال الاسلام ويدعون إليها لا يمكن أن تتم إلا بالتقاء النجف بالأزهر بتبادل الزيارات بين العلماء والبعثات بين الطلاب ، وإطلاع رجال كل من المعهدين على الأنظمة فى الآخر

وهذا رأى لا ريب سديد وقريب التحقيق يجب أن يلتفت إليه العاملون لجمع الشمل وتحقيق الوحدة . أنقله إلى مسامع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر المصلح الشيخ المراغى الذى تركزت فيه آمال النهضة الاسلامية ، وسار الأزهر فى عهده خطوات موفقة إلى الغاية التى ينشدها الناس من رجال الدين

والواقع أن الخلاف بين الشيعة وأهل السنة الذى يجسمه العوام والأغفال ، وينفخ فيه أعداء الطائفتين جميعاً من وراء ستار ، لا يمكن أن يزول إلا إذا رأى العوام رجال الدين من الفريقين يتآخون ويتبادلون الزيارات ويتملى كل منهم على الآخر فى أخوة وصفاء ، فالعوام هم الذين يعظمون الصغائر ويكبرونها ، أما العلماء من الفريقين فهم أفقه وأعقل من أن يجدوا مواضع الخلاف القليلة محلا لجفاء وهوة تفصل بين أهل التوحيد

ولقد وجدت هذه الرغبة فى التوحيد متجلية عند علماء الشيعة فى مواقف عدة ، فالسيد محمد الحسين آل كاشف الغطاء يدعو إليها فى المؤتمر الاسلامى بالقدس ، وها هو ذا العلامة الكبير السيد هبة الدين الشهرستانى رجل الاصلاح ، يرسم الطريق ويضع الخطة لها ويعد بمواصلة العمل فى سبيلها على رغم شيخوخته ، والأستاذ حسين مروة يدعو إليها منذ شهرين فى الرسالة .... كل هذا يبشر باقتراب الموعد ومواتاة الظروف ، ولم يبق إلا أول العمل فيها .

عبد المنعم خلاف

شخصيات مجهولة في الأدب العربي

إبراهيم بن سهل الاشبيلي

بقلم محمد الأمين بن محمد الخضر الشنقيطي

كثيراً ما رأيت من بعض الأدباء جهلاً شائناً بذلك الشاعر المطبوع إبراهيم بن سهل ؛ لخدمة للأدب ، وإحياء لذكره ، أتقدم بهذه الكلمة الموجزة إلى صحيفة العلم و(رسالة) الأدب ، راجياً أن أتبعها أخرى إن سمحت لي ظروفي وكان في صفحات الرسالة متسع

نسبه ، ميلاده ، وفاته

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بعيش بن سهل الاشبيلي ، نسبة إلى إشبيلية مدينة من أعظم المدن الأندلسية . ولد سنة ستمائة وتسع عشرة هجرية ، ومات غريقاً في البحر وهو ابن أربعين ، سنة ستمائة وتسع وخمسين هجرية كما ذكره أبو الحسن الخزرجي

قال صاحب نفح الطيب : غرق وهو ابن أربعين سنة في البحر . وقيل جاوز الأربعين . ولما غرق قال فيه بعض الأكابر : عاد الدر إلى وطنه . وذكر مالك بن المرحل في غرقه قصة طويلة ، خلاصتها أنه كان من كتاب أبي علي بن خلاص صاحب سبتة فأرسله مع ابنه إلى المستنصر ملك تونس فغرقا في البحر لشدة هيجانه . ولما بلغ المستنصر غرق ابن سهل قال : عاد الدر إلى وطنه

إسلامه

كان يهوديا وأسلم . وقد اختلف العلماء والمؤرخون في صحة إسلامه ، فمن قائل إن إسلامه كان ظاهراً وباطناً ، ومن قائل إنه في الظاهر فقط . ولا بأس أن أنقل هنا بعض أقوال الفريقين . قال محمد الصغير الأفراني المراكشي : كان يهوديا ثم من الله عليه بالدخول في الملة المحمدية وحسن إسلامه . وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدة بارعة ، قال أبو حيان وقفت عليها ، وهي من أبدع ما نظم في معناها . وقال المزني : كان يتظاهر بالاسلام ولا يخلو من قدح واتهام . وقال ابن مرزوق : صح لنا من أدركنا من مشائخنا أنه مات على الاسلام . وقال صاحب نفح الطيب : اجتمع جماعة مع ابن سهل في مجلس أنس فسألوه — لما أخذت منه الراح عن إسلامه — هل هو في الظاهر والباطن أم لا ؟ فأجابهم : للناس ما ظهر ولله ما استتر . وقال ابن سعيد القيسي في كتابه القدح المعلى : كتبت إلى ابن سهل استدعيه إلى أنس بثلاث أبيات فأجابني مرتجلا بأبيات آخرها

سآلفها إلف العتيق كتابه ... ولا أشتهي ورداً سواها الذي الخمر

فلما وصل أظهرت استحسان سرعة جوابه غير أني أنكرت عليه منزع بيته الأخير فقال : أليس في الجنة نهر خمر ؟ فقلت : بلى فقال : حسبي ، لا أبغي به بدلا . فقلت : بحرمة ما بيننا إلا ما أصدقتني هل أنت على دين أسلافك ، أم على دين المسلمين ، وأزلت عني شك الناس فيك . فقال : للناس ما ظهر ولله ما استتر . وقال في عنوان الدراية : سمعت شيخنا أبا الحسن الأندلسي يقول : شيئان لا يصحان : إسلام ابن سهل وتوبة الزمخشري من الاعتزال . وقد استدل الأفراني المراكشي على حسن إسلامه بقوله :

تسليت عن موسى بحب محمد ... ولولا هدى الرحمن ما كنت أهتدي

وما عن قلى قد كان ذاك وإنما ... شريعة موسى عطلت بمحمد

جاعلا أنه قصد بموسى الكليم عليه السلام ، وبمحمد نبينا عليه الصلاة والسلام ، وعندي أنه لا دليل في هذين البيتين (رغم اعتقادي حسن إسلامه) ، وأن موسى المذكور غلام كان يعشقه ، وذكر اسم محمد تورية ، وقد جاء ذكر موسى هذا في شعره كثيراً ، من ذلك قوله :

كساني موسى من سقام جفونه ... رداء وأسقاني من الحب أكؤسا

وقوله :

ليس ناري على موسى وحرمته ... بواجب وهو في حل إذا وجبا

وقوله :

أشاعوا أنني عبد لموسى ... نعم صدقوا على ما أشاعوا

وفي بيتيه الآتيين فصل القول أنه مشوقه لا الكليم عليه السلام

موسى تنبأ بالجمال وإنما هاروت لا هارون من أنصاره
إن قلت فيه هو الكليم لخده يهديك معجزة الخليل بناره

شهادات العلماء فيه

قال ابن القاضي في كتابه درة الحجال : كان ابن سهل ممن انتحل صناعة القريض فافتن بها وتصرف ، وعنى بمالم الأدب فوعى وصرف ، إلى أن بلغ الغاية في الشعر فصار فيه أوحد ، لا ينعت ولا يحد . وقال أبو الحسن الخزرجي في كتابه إعلام الزمن : إبراهيم بن سهل كان شاعر زمانه أسلم بعد يهوديته ومدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدة بديعة . وقال مالك ابن المرحل : كان ممنا ابن سهل وقد حسن إسلامه ، ولازم صلاة الجماعة ، ونظر في الأدب فنبغ في الشعر . وقال الافراني : وإن من تتبع مقطعاته علم أن له خبرة واسعة بفن العربية كقوله :

أموسى أيا كلي وبعضي حقيقة
وليس مجازا قولي الكل والبعضا
خفضت مقامي إذ جزمت وسائلي
فكيف جمعت الجزم عندي والخفضا

وفي هذين البيتين تنكيت على أبي القاسم الزجاج إذ قال في جملة : (وإنما قلنا بدل الكل والبعض مجازا) . وسئل بعض المغاربة عن السبب في رقة نظمه ، فقال : لأنه اجتمع فيه ذلان : ذل العشق وذل اليهود

عفافه

وقد كان فيما يظهر من كلامه عف الازار ، وبيته المشهور من أعظم الأدلة على ذلك وهو :

وأبى عفافي أن أقبل ثغره والقلب مطوى على جمراته

وقوله :

بتنا لشمشع والعفاف نديمنا خمرين من غزلي ومن كاساته

وقد ذهب ابن القاضي في شرحه لأبيات الذهبي لما تعرض لابن سهل إلى أن هذا من صناعته لا طبيعته ، ولعمري إن هذا منه توريك وتحامل ؛ وإلا فأي مانع من أن يكون العفاف فيه سجية ؟

شعره :

وله ديوان شعر مشهور ، وقفت عليه وهو في غاية الجودة ، ولا بأس أن أثبت هنا من شعره ما رخص الدرر ، ويكون في هذه الأسطر بمثابة الغرر . من ذلك قوله :

مضى الوصل إلا أمنية تبعث الأسا
أداري بها همي إذا الليل عسعسا
أتاني حديث الوصل زوراً على النوى
أعد ذلك الزور اللذيذ المؤنسا
ويا أيها الشوق الذي جاء زائراً
أصبت الأماني خذ قلوباً وأنفسا

وقوله :

قالوا سيسلبك العذار سفاهة
وحصاد عمرى في نبات عذاره
إن لم أمت قبل العذار فعندما
يبدو أيسلم عاشق بفراره
مثل الغرين نجما فوافق ساحلا
فاذا الأسود روابض بجواره
إن العذار صحيفة تتلو لنا
ما كان صان الحسن من أسراره

وقوله :

يا حسنه والحسن بعض صفاته
والحسن مقصور على حركاته
صافحته والليل يذكي تحتنا
ناربن من نفسي ومن وجناته
أوثقته في ساعدي لأنه
ظبي خشيت عليه من نفراته
والقلب يرغب أن يصير ساعدا
ليفوز بالآمال من ضماته

وقوله :

نظر جرى قلبي على آثاره خلع العذار فلالعاً لعثاره
يا وجد شأنك والزمان وخلني
ما المرء مأخوذ بزلة جاره

دنف يغيب عن الطبيب مكانه
لولا ذبال شب من أفكاره
للدمع خد فوق صفرة خده
فتراه مثل النقش فى ديناره

وقوله :

ردوا على طرفىَ النوم الذى سلبا
وخبرونى بقلبى أية ذهبا
علمت لما رضيت الحب منزلة
أن المنام على عينى قد غضبا
فقلت واحربا والصمت أجدر بى
قد يغضب الحسن إن ناديت واحربا

وقوله :

يقولون لو قبلته لاشتفى الجوى
أيطمع فى التقبيل من يعشق البدرا
ولو غفل الواشى لقبلت نعله
أنزهه أن أذكر النحر والثغرا
ومن لى بوعد منه أشكو بخانه
ومن لى بوعد منه أشكو به الغدرا
وما أنا ممن تحمل الريح شوقه
أغار حفاظاً أن أبوح له سرا

وقد أبدع فى فنون البيان وأتى فى شعره منها بالعجب العجاب . فمن حسن توجيهه قوله :

لقد كنت أرجو أن تكون مواصلى
فأسقيتنى بالبعد فاتحة الرعد
فبالله برد ما بقلبى من الجوى
بفاتحة الأعراف من ريقك الشهد

وله موشح كبير ، أبدع فيه وأجاد ، تبارى العلماء فى شرحه وإظهار معانيه ودرره ، برهن فيه على سعة باعه فى العربية والصناعة الشعرية ، أوله

هل درى ظبى الحمى أن قد حما ... قلب صب حله عن مكنس
فهو فى جر وخفض مثلما ... لعبت ريح الصبا بالقبس

ولعلى فى فرصة أخرى أتمكن من شرح بعض أبياته وإبراز مكنوناته والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل

موت صديق

للكاتب الفرنسى Xavier de Maistre

من كتابه « رحلة حول غرفتى »

ترجمة الأستاذ خليل هنداوى

سعيد ذلك الذى يجد صديقاً يلائمه منه قلبه وروحه . صديق يجمعه به وحدة ذوق ، وألفة عاطفة ، وجامعة معرفة . صديق لا يقلقه طمع ولا تسيره مصلحة . صديق يؤثر ظل شجرة على ترف مدينة . سعيد من يملك صديقاً !

كان لى صديق اختضره الموت منى فى عنفوان صباه ، ومطلع عمله ، فى العهد الذى أصبحت صداقته حاجة لقلبى شديدة . كنا نتآزر معاً على أعمال الحرب ، ولم يكن لنا الأغليون واحد نتناوبه وكأس واحدة نشرب بها ، وسقف خيمة واحدة يظللنا . فى الظروف التعسة كان لنا ذلك السقف حيث كنا نحيا معاً وطناً جديداً . رأيته ينجو من كل مهالك الحرب ويسلم من أهوالها كأنما الموت كان يدخر أحدنا للآخر ، وكأنما نفدت نباله التى سوبها إليه دون أن تصيبه . ولكن هذا لم يكن إلا ليجعل فقده — عندى — أكثر ترويعاً . ولقد كان فى قعقعة السلاح والذهول الذى علك النفس من جراء الأخطار ما يحول دون بلوغ آلام نزعه إلى عاطفتى وإحساسى . وموته قد يكون نفعاً لوطنه وشؤماً على أعدائه . لو كان ذلك لكان أسفى عليه قليلاً ، ولكنى فقدته فى وسط المسرات ورأيته يحتضر بين ذراعىَّ فى حين كانت تقوى صحته وتتوثق روابط مودتنا فى أيام الراحه والسكون

آه إننى لن أتعزى عن فقده ، وإن ذكراه لا تبرح قلبى ولا تحيا إلا فى طواياه . وإنها لن تكون فى الذين كانوا يحيطون به أو الذين حلوا محله . هذه الفكرة تجعل وقع فقده أنأى على النفس وآلم للقلب . وهذه الطبيعة التى تتراءى لنا خلية لا تبالى حظ الناس تضع رداء ربيعها الزاهى وتتزين بأبهى حال جمالها

(البقية على صفحة ١١٤٢)

الشعر على اللسان النبوى

للسيد جلال الحنفى

الذى لا زلنا نسمعه ونقرأه بحيث بات من البديهيات التى لا يُتجادل فيها ، وأصبح من غير المحمود الخروج عليه : أن الشعر لم يكن يلتئم على لسان النبى صلى الله عليه وسلم . ويقال إن النبى أنشد قول طرفة المشهور على هذا الشكل :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار

فقيل له : ليس البيت كذلك يارسول الله ، وإنما هو هكذا :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

فرجع صلى الله عليه وسلم منشداً للبيت كما أنشده من قبل ، ولم يتمكن من إنشاده بلفظه

وإنى لأعجب منتهى العجب كيف يسوغ لأحد أن يتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا العِىّ الذى ينقص أى امرئ إذا نسب إليه ، وناهيك بالنبى وهو أفصح من نطق بالضاد ، وصاحب الكلم الجوامع

ولا أريد هنا أن أدلى بالنصوص التى يعلم منها أن النبى رغب فى الشعر وحث عليه وافتخر ببعض رجاله ، ودرج على ذلك بقية من أصحابه ، وإنما أعرض هنا طائفة من المواطن التى تقيم الحجة على أن ما يسند إلى الرسول غير صحيح ، وأنه أنشد بضعة أبيات فى أحوال متعددة من دون أن يخرجها عن سننها

فلقد أنشد صلى الله عليه وسلم فى حفر الخندق من شعر عبد الله بن رواحة :

هذا الحِمال لا حِمال خيبرْ هذا أبرُّ ربَّنا وأطهرْ

ولكن ابن شهاب الزهرى قال تعليقاً على هذا تخلصاً من الحجة التى تقع على القاعدة الموضوعة فى هذا الأمر ، قال :

« ولم يبلغنا فى الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت »

والحقيقة أيضاً خلاف هذا إذ أنه صلى الله عليه وسلم أنشد فى حفر الخندق أيضاً لابن رواحة على ما رواه البخارى ومسلم والمؤرخون[1] :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

وأنشد رسول الله يوم الخندق أيضاً[2] :

بسم الإله وبه هدينا ولو عبدنا غيره شقينا
يا حبذا رباً وحب دينا

وأنشد عليه الصلاة والسلام لأمية[3] :

رجل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد

وأنشد فيما أنشد[4] :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الذهب الأحـ ـمر ما حلت بواديكم
ولولا الحبة السمرا ء لم تسمن عذاريكم

وكان صلوات الله عليه كثيراً ما ينشد لعنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

وينشد للبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وإنى لأخجل فى تحقيق مثل هذا الأمر والدفاع عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما علقوه به من هذا العجز عن النطق بالبيت على وزنه من حيث لاحكمة هنالك ، ولولا أن تكون هذه المسألة ضاربة أطنابها بين المعتقدات لما أسلكت قلمى فى سبيل نقدها

(بغداد) جلال الحنفى
خطيب جامع عطاء

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٤ : ٩٦)
(٢) البداية والنهاية (٤ : ٩٧)
(٣) خزانة الأدب للبغدادى (١ : ١٢٠)
(٤) نقد العلم والعلماء لابن الجوزى (ص : ٢٤)

بعض أسباب الضعف
فى اللغة العربية
للأستاذ عويس القرنى

كتب الأستاذ الكبير أحمد أمين فى أسباب الضعف فى اللغة العربية ، ودعا الباحثين أن يدلوا بآرائهم فى ذلك ليتبين الأمر على وجهه ونصل إلى علاج ناجع لترقيتها

وحرص الأستاذ المصلح على ترقية اللغة العربية هو الذى دعاه إلى فتح باب البحث ، ولذلك نتقبل نقده قبولا حسناً ؛ والأمر يهم مدرسى اللغة العربية ، إذ أن حديث الأستاذ يمسهم فى خاصة أمرهم ويرميهم بالتقصير والقصور ، فهم يدفعون عن أنفسهم ذلك بأدلة الواقع المحسوس

ولا يدعونا للدفاع عن أنفسنا عاطفة حزبية ، أو رغبة طائفية ، فذلك ما لا نرضاه ولا نميل إليه ، وإنما يدفعنا إلى ذلك الرغبة فى إظهار الحقيقة

والأستاذ الفاضل عودنا فى بحوثه وتآليفه الانصاف ووزن الأحكام بميزان الصدق والحق

ودار العلوم التى رماها بالتقصير والتخلف لم تتوان منذ أنشئت عن أداء مهمتها ، ولم تدخر وسعاً فى تقويم الألسنة وتثقيف العقول فى جميع مراحل التعليم

وأية نظرة إلى منهاج الدرسة تدل دلالة بينة على مقدار صلاحية أبناء الدار فى عملهم ؛ فهم يدرسون اللغة العربية أدبها وقواعدها وفقهها ، كما يدرسون القرآن الكريم ، والفقه وأصوله ، والفلسفة ، والمنطق ، والتاريخ ، والجغرافيا وغيرها يدرسون تلك العلوم بتوسع على أساتذة أكفاء

وأبناء الدار منبثون فى طول البلاد وعرضها ، يعلمون النشء ويقومون أخلاقهم ، ويبثون فى نفوسهم الوطنية الصادقة ويعودونهم البحث ويشوقونهم إلى الاطلاع

والعلوم التى يدرسونها فى مدرستهم يراها الأستاذ فى حديثه الماضى ضرورية لمعلمى اللغة العربية ، وهذه المواد لا تتوافر دراستها إلا فى ذلك المعهد الجليل

ودار العلوم لا تدعى الكمال ، وهى دائبة فى طلب الاصلاح وتعديل مناهجها كلما رأت ضرورة إلى ذلك

يقول الأستاذ إن خريجى دار العلوم لا يفهمون الأدب القديم ولا الحديث ، وهذا حكم لم تصح حيثياته التى تبرره ، ومن السهل على كل إنسان أن يرمى الناس بالضعف أو الجهل ، ويظل حكمه موقوفاً إلى أن تتبين دلالاته

لا يضير مدرسى اللغة العربية قلة التأليف ، فان طبيعة عملهم تثقيف العقول ، وتعويدها البحث والتفكير المستقيم ، وعقد الصلة بين النشء وبين الحياة ، وهم لم يقصروا فى واجبهم ، والنهضة الفكرية كما يشهد الأستاذ لهم فيها أكبر نصيب

وعملنا كعمل غيرنا من أصحاب الفنون ، فكما لا ينقص من قدر الأطباء والمهندسين والقضاة ألا يؤلفوا فى فنونهم التى حذقوها ، فكذلك شأن المعلمين

ونجاح الانسان فى حياته منوط باتقان عمله ، وأداء رسالته

والآن أظهر بعض أسباب الضعف فى اللغة العربية ، مما لم يذكره الأستاذ فى حديثه السابق

اللغة العامية :

معلم اللغة العربية يبذل مجهوداً كبيراً فى تعليمها وتلقينها لأبنائه ، ولو كان يسمع التلميذ من بيئاته لغة عربية ، ويتحدث بلغة عربية لظهر مجهود المدرس وترقت حال التلاميذ ، ولم نشعر بهذا الضعف ، والذى يبنيه الأستاذ فى الفصل يُهدَم خارجَه فى البيت وفى الشارع ؛ بل إن بعض مدرسى العلوم الأخرى يتحدثون مع تلاميذهم بلغة عامية ، ويقبلون منهم الاجابة بها متى أدت إلى المطلوب ، وينشأ من ذلك ما تراه من استهانة التلاميذ بلغتهم الأصلية ، ولا يتعودون التجويد ولا

العناية متى ما كان دون ذلك يقبل منهم

وما حيلة أساتذة اللغة العربية وحدهم ، وهم يبنون وغيرهم يهدم ؟

فعلة العلل — على ما أرى — طغيان اللغة العامية على الفصحى فى كل مكان ، حتى فى المدرسة نفسها

والعلاج أن نعنى باللغة العربية جميعاً فى محادثاتنا وكتاباتنا حتى نصل بها إلى حالة مرضية ، ونقوى أنفسنا بذلك

وقد لحظت وزارة المعارف وجوب التحدث باللغة العربية ، فختمت على مدرسيها جميعاً التحدث باللغة العربية الفصحى ، ولكن الواقع غير ما يجب

الطريقة

ومن أسباب الضعف التى عرفتها منذ اشتغلت بالتدريس ، طريقة التدريس بها . فأمام المدرس منهاج مطول من القواعد وأبواب متعددة ، والمنهاج يتطلب منه الشرح بطريقة خاصة ويطالب من المدرس تقسيم المنهاج على شهور السنة ، وإلقاء كل درس فى ميعاده . وإذا خرج المدرس عن الطريقة المطلوبة إلى طريقة يراها مفيدة للتلاميذ ، فقد يرى رؤساؤه أنه أتى أمراً إدا

والطريقة التى نسير عليها الآن يرى التلاميذ فيها عناية بالقواعد فيتوفرون عليها لعلمهم أنها وسيلة النجاح ، وطريق الحصول على درجات عالية ، ولا يصرفون تلك العناية إلى التطبيق العملى ، وإلى لباب الأدب ، والآثار الفنية التى تكون الذوق ، وتثمر العقل وتزيد الثروة ، فتجود لغتهم ، ويقوى تعبيرهم عما فى نفوسهم .

والعناية بالقواعد تخرج التلاميذ عن الغاية السامية من العلم ، إلى اعتباره وسيلة للنجاح ، ولذا يهملون بانتهائه وينسون باجتيازه

والذى أراه أن تغير الطريقة الحالية فى جميع سنى الدراسة إلى طريقة عملية تطبيقية ، وذلك إما بعرض نماذج أدبية مختلفة ، وإلقاء أسئلة منوعة فى الدرس تحوى أجوبتها الصحيحة القواعد المطلوبة ، وإما بوصف محسوس أو شرح حادثة ، ثم يوجه نظر التلاميذ إلى القاعدة بعد أمثلة كثيرة ، فالقاعدة تدرس كشىء ثانوى لا أولى .

وهذه الطريقة نافعة قد جربتها فثبتت لى فائدتها ، وكل عبئها يقع على المدرس فى تحضيرها وإعدادها إعداداً صالحاً ، وهى تقرب من الطريقة الطبيعية

القواميس العربية

ومن أسباب الضعف فى اللغة العربية فقرها من القواميس الحديثة المصورة التى تحدد المعنى فى الذهن تحديداً بيناً

وأمامنا الآن قواميس قديمة نأخذ منها معانى المفردات مع تقدم الزمن ، واختلاف العصور

ويشاهد الباحث حاجة ملحة إلى مظان البحث فلا يجد ، على حين نشاهد فى اللغات الأخرى ثروة عظيمة لمن يريد البحث والاطلاع . فعلى من تقع مسئولية ذلك ؟ أعلى مدرس اللغة العربية أم على العلماء ؟ أم على الجامعة ؟

الحق أننا شاعرون بالنقص ، ولكن لا حيلة لنا فى الكمال إلا بقدر

عريس القرنى

موت صديق

(بقية المنشور على صفحة ١١٣٩)

حول المقبرة التى يسترح جثمانه فيها . فالأشجار مورقة متشابكة الأغصان ، تشدو العصافير تحت ظلالها ، وللذباب الربى أغاريد على أزهارها . كل شىء يتنفس فرحاً وحياة فى مساكن الموتى ، وفى المساء ، حين يلمع القمر فى السماء ، وأنا أتأمل فى هذا المثوى الكئيب أسمع الصرصور يوالى بطرب إنشاد « أغنيته » التى لا يسأم ترديدها ، متوارياً بين الأعشاب التى تحجب اللحد الذى يثوى فيه صاحبى . إن فساد الكائنات هذا الفساد الذى لا يُحس به ، وكل نكبات الانسانية ومصائبها لا يعد شيئاً فى الوجود الكلى . إن موت إنسان يحس به ، يحتضر بين أصحابه اليائسين ، وموت فراشة أهلكها نسيم الصبح البارد فى فجوة زهرة ، هما حادثان متماثلان عند الطبيعة . فما الانسان إلا خيال أو ظل أو ضباب يذوب فى الفضاء .

خليل هنداوى

هل التقليد هو النظرية السائدة في التعليم والتشريع بمصر الحديثة؟

للدكتور محمد البهي قرقر

في مصر يلاحظ الانسان العادي إذا ما تتبع الصحف اليومية فحسب تغييراً متتالياً في برامج التعليم وتعديلاً من وقت لآخر في قوانين البلاد المدنية

تؤلف وزارة المعارف لجاناً لتهذيب مناهج التعليم ، يكاد يكون ذلك في آخر وفي أول كل سنة دراسية ، وتكلف وزارة الحقانية في فترات قصيرة متتالية بعض رجالها المسئولين على شكل هيئات استشارية صغيرة — تغيير بعض مواد القانون الجنائي أو المدني مثلا . كل ذلك تتسابق الصحف في الاعلان عنه ، وهو أيضاً حقيقة واقعة تتكرر كلما حدث تغيير أو بعض التغيير في هيئة الحكومة المركزية

قد يمر الانسان العادي بمثل هذه الأخبار دون أن يقف بها وقفة تفكير ، بل ربما يعدها مثلا من النشاط الحكومي . ولكن الباحث الاجتماعي الذي يربط الحوادث بأسبابها ، أو الباحث النفسي الذي يفتش للظواهر النفسية عن مصادرها ، لابدع هذه الظاهرة ، ظاهرة التعديل المتكرر ، تمر إلاو يستخلص منها نتائجها ، ولكن لا في صورة نهائية يقينية — فذلك ما لا يعمد إليه الباحث المتروي — وإنما يضعها في صيغة استفهامية مُرددة . وأول ما يخطر بفكره : هل لهذا التغيير والتحوير من سبب ؟ هل ذلك السبب أساسي ؟ أي له علاقة بالأساس الذي بنى عليه التعليم وارتبط به التشريع ، أم هو عرضي إضافي ؟

وأساس التعليم والتقنين يختلف طبعاً باختلاف أحوال كل أمة ، وبتكيف بالظواهر الاجتماعية والأوضاع الجغرافية لكل شعب : فالجنس والدين واللغة والعادات من المقومات الأولية في تكييف التعليم والتشريع . فالجنس — وأقصد به الجنس التاريخي الذي يتكون بمرور الزمن وتنشأ عنه وحدة جنسية — له صفات وغرائز نفسية ربما تباين كل التباين صفات وغرائز جنس آخر ، فالجنس الشمالي مثلا عرف بالبطء في الفهم والتروي في التفكير ، بينما الجنس الجنوبي — وخاصة سكان البحر الأبيض المتوسط — حاد الذكاء كثير الأخطاء في استنتاجاته العقلية . والدين له دخل كبير إلى حد ما في تكوين العادات الخلقية ، الفردية والاجتماعية منها ، في كل شعب ، بل في وسط شعب واحد ، فقد يرى الانسان في الشعب مظاهر خلقية متباينة ترجع في اختلافها إلى اختلاف معتقدات الشعب نفسها . وكل لغة — بسبب تميزها بوسائل التعبير التي تنم عن طرق في التفكير لكل أمة خاصة — تعتبر عاملا مهماً في تلوين التعليم والتشريع لا يقل عن عوامل العادات والوضع الجغرافي والحالة الاقتصادية للأمة

فالتعليم الطبيعي إذن يسير على وفق غرائز الشعب وصفاته النفسية ، لا بد أن يلاحظ فيه دين الدولة ولغتها وعاداتها . وسواء اعتبرت هذه كلها أو بعضها في نظر أمة أخرى أو أفراد منها — بناء على صورة نفسية مخصوصة ملقنة مثلا — ساذجة فطرية أو راقية ، فالمبدأ الأساسي هو ربط التعليم بها ربطاً وثيقاً ؛ وهذا الربط عينه هو ما يسمى عند علماء النفس والتربية بنظرية التعليم الوطني

كذلك التشريع . فالجنائي والمدني منه يرتكزان على نفسية الشعب التي تتمثل في أفراده وعلى أخلاق الشعب وعوائده التي للدين فيها أثر كبير . فالمشترع الحديث لا يفرض عقوبة على جرم مثلاً إلا إذا وثق أن من وراء ذلك الردع والتهذيب ، والردع والتهذيب كلاهما مرتبط بمعرفة نفسية المجرم وبظروف الأجرام ، والمرآة الوحيدة التي تنعكس عليها نفسية المجرم وتتشخص فيها هي تحليل نفسية الشعب الوروثة والمكتسبة ، والقياس الذي يوضح ظروف الجريمة هي عادات الشعب وقانونه الخلقي ، وليست المبالغة في العقوبة وحدها كافية في الردع والتهذيب كما يظن بعض المشترعين . وتشريع العائلة أساسه أيضاً دائماً عادات العائلة نفسها والعرف الشعبي الذي يحيط بها ومعتقدها الديني الثابت فيها ومنهجها الخلقي الذي تسير عليه . فاذا كان التشريع على هذه الأسس كان أيضاً تشريعاً وطنياً ، والتعليم والتشريع

إذا كانا وطنيين كانت الغاية منهما محققة وثابتة وهى رفع المستوى التهذيبي للشعب من ناحيتين يلتقيان عند نقطة واحدة؛ إلا أن إحداهما وهى ناحية التعليم، ذات أثر داخلى، والأخرى وهى ناحية التشريع، أثرها من الخارج

وكل حركة سياسية وطنية ترمى دائماً — إذا كانت سائرة فى طريقها الصحيح — أولاً وقبل كل شىء إلى جعل التعليم والتشريع وطنيين، ولكن لا بمعنى صبغهما بالصبغة الحزبية وإلا كانت الغاية منهما خدمة شخصية بحتة

على ضوء هذا التعريف الوجيز يمكن للانسان أن يتبين أسباب التعديل والتغيير فى مناهج التعليم وفى حركة التشريع عصر الحديثة

قسمت مدارس الحكومة إلى درجات معينة: إلزامى وابتدائى وثانوى وجامعى. ووضع لكل نوع من هذه المدارس منهاج خاص، وربما — بل هو الواقع — لا يكون الخطوة الضرورية للنوع الذى يليه من التعليم. ثم لوحظ أنه لا بد أن يكون فى المنهاج الخاص لكل نوع وحدة عامة قد تتنافى مع الحالة الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية التى تكتنف كل مدرسة والتى تؤثر إلى حد ما فى محيط تعليمها

ففى التعليم الالزامى مثلاً يوجد برنامج واحد شامل لمواد التعليم لكل مدارس القطر الالزامية، بينما المناطق الجغرافية المختلفة وأحوال البلاد الاجتماعية المتباينة لم تنل أية عناية فيه. وهنا يمكن للباحث الاجتماعى أن يدعى أن هذا المنهاج ليس وطنياً؛ إن هو إلا منهاج عبر على سفينة التقليد من حيز إلى آخر، من شعب إلى غيره، ولكنه لا يقطع بأجنبيته إلا إذا تحقق من نتائجه، ونتائج التعليم مهما اختلف فى أسلوبه يجب أن تكون التهذيب، وبلا ريب لم يكن التهذيب فى يوم من أيام حياة التعليم الالزامى نتيجة له، وإن كان مقصداً له مرسوماً، بل كانت نتائجه، وستكون كلما طال أجله على هذا النحو، إيجاد مشاكل اجتماعية تزداد تعقيداً على مر الأيام. وليس أصرح فى بيان هذه النتيجة من كلمة النائب المحترم الأستاذ عزيز أباظه عند مناقشة ميزانية وزارة المعارف فى مسألة التعليم الالزامى. فهو يقول: «إن الوسيلة المتبعة فى التعليم الالزامى عصر قد تكون متفقة مع الأحوال الفنية — وطبعاً هو يعنى أنها قد تكون طبق النظريات المقلدة — ولكنه يعتقد أن هذا التعليم فى وضعه الحاضر لا يفيد البلاد شيئاً» لأنه لم يقم على أسس البلاد الوطنية

كذلك إذا جاوزنا التعليم الابتدائى والثانوى، وناقشنا التعليم الجامعى، وخاصة ما يدعى منه زعامة التعليم الأدبى والثقافة العربية، رأينا ما يسمى «بالتجديد» الذى صار نغمة تسمع فى كل جدل ومناقشة، ليس ما يجرى فيه من التعديل إلا تعديلاً وتغييراً لا يعدو أن يكون سببه التقليد أيضاً أو هو التقليد نفسه. فمثلاً إنشاء سنة توجيهية، كمقدمة لدراسة الأدب العربى، يدرس فيها آداب اللغتين اليونانية واللاتينية، مع شدة ما بينهما من ناحية وبين الأدب العربى من ناحية أخرى من تباعد وانفكاك، محض تقليد للجامعات الأوربية، فهذه تحتم دراسة اللغة اللاتينية، لأنها مرجع النقل (Tradition) فى العلم الغربى وأصل لمصطلحاته الفنية لليوم. كذلك تحتم هذه الجامعات على طالب التخصص فى الفلسفة الأغريقية دراسة اللغة اليونانية القديمة لعلة نفسها بخصوص هذا الموضوع من الفلسفة عامة، ولكن أمصطلحات فن دراسة الأدب العربى مشتقة كذلك من اللغة اللاتينية أو اليونانية مثلا؟ أم ذلك هو التقليد «والتجديد»؟.

كذلك يجد الباحث الاجتماعى نظرية التقليد هى أساس محور التعديل والتغيير فى التشريع المصرى. فعند قراءتى: «يوميات نائب فى الأرياف» للأستاذ توفيق الحكيم فى مجلة «الرواية» استوقف نظرى حكاية حادثة قضائية هى نفسها تعد من الحوادث اليومية العادية، ولكنها تعطى للباحث صورة واضحة عن هذا التقليد: «سيقت امرأة ريفية إلى الوقوف أمام محكمة جزئية للحكم عليها، لأن جريمتها أنها غسلت ملابس فى ترعة عمومية، فلم يجد القاضى بداً من تغريمها، لأنه أمام نص قانونى». هذا النص القانونى اقتبس من النص الفرنسى الذى هو نتيجة لازمة لمخالفة نظام تام فى فرنسا. هذا النظام القائم هو أن البلديات هناك شيدت أولا أحواضاً عامة للفقراء

للغسل والاستحمام تسهيلا لهم من جهة ، ومنعاً لانتشار الجراثيم في مياه عمومية من جهة أخرى ، ثم شرعت بعد ذلك هذا النص وهو تشريع طبيعي . فتعديل القانون المصري وإدخال هذا النص الفرنسي فيه دون أن يكون بريف مصر منشئات مثل هذه ، تعديل لم يراع فيه إلا التقليد من ناحيته السلبية ، ولم يلاحظ بأية حال أساليب المعيشة في قرى مصر وحالتها الاجتماعية وعوائد أهلها

وليست أمثال هذه الحوادث القضائية هي التي تظهر فقط أن أساس تعديل القوانين في مصر هو التقليد ، بل مازال بعض كبار رجال القانون المصري المسئولين يباهي ويفتخر بأن التشريع المصري الحديث أصبح يضاهي أحدث القوانين لدى الأمم الراقية . ولكن الأمم الراقية نفسها إذا افتخرت بقوانينها فانما تفتخر بها لأنها وفق حضارتها وثقافتها ، وفق حالة شعوبها الاجتماعية والاقتصادية ؛ وبالعكس تسخر من الشعوب الأخرى التي تحاول تقليدها في تشريعها لذات التقليد وحب الانتساب إلى الرق والمدنية في شكلهما الظاهري . فكثير من الشعوب الغربية يعيب تركيا الحديثة في اقتباسها القانون السويسري مثلاً في أحوال العائلة ، والقانون الفرنسي في المسائل المدنية والتجارية — مع أن العائلة التركية لا تجتمع مع العائلة السويسرية إلا في النسبة البشرية ؛ أما التربية ، أما الغرائز النفسية ، أما العادات المتناقلة فشتان ما بينها من اختلاف — . التقنين عند تلك الأمم الراقية ليس عملية هينة يقوم بها القانون وحده ، وإنما ساعده الأعين في ذلك العالم النفسي الذي يبحث في تكييف صفات الشعب النفسية ، والعالم الاجتماعي الذي يربط ظواهر الأمة الاجتماعية بأسبابها ويقارن بينها وبين ظواهر أمة أخرى ، والعالم الاقتصادي الذي يبحث أسباب ضعف أو ارتفاع ميزان الأمة التجاري وحالة معيشتها

فالتعليم والتشريع إذن في مصر الحديثة كما يراه أي باحث اجتماعي نفسي أساسه التقليد أو على الأقل هو الجزء الأعظم المكون لهذا الأساس ، أما العوامل الوطنية المحلية فنصيبها في ذلك ضئيل . وما يسمى بالحركة الوطنية لا يتجاوز الآن أن يكون حركة صورية فحسب لم تنفذ بعد إلى اللباب بل ربما يقال عنها أيضاً إنها تقليدية

تعليم وطني ، تشريع وطني وحركة وطنية في مصر — لم تزل كلها بعد ألفاظا معانيها غير محدودة ، وخيالات لم تقابلها إلى الآن حقائق راهنة . نعم هناك المواد الأولية لبناء حركة تعليمية تشريعية وطنية ، هناك عادات للأمة ، هناك مقياس خلق — وليكن فيهما بعض نواحي النقص أو الضعف أو الانحطاط فمعالجة ذلك موكولة إلى المصلح الاجتماعي — ثم هناك دين ولغة تتمثل فيهما ثقافة الأمة الموروثة كما تتمثل في أبي الهول وأهرام مصر مدنيتها القديمة ؛ هناك أيضاً البناء الذي ينقصه فقط الاتمام والتوسيع ، هنالك الأزهر الذي يرجع بنظره الآن إلى ألف عام مضت — وهو لم يتقوض بعد ولن يتقوض — كمصدر لهذه الثقافة الوطنية ، كمصدر لهذا التشريع الوطني . ذلك هو فخر مصر ، كجامعة اكسفورد اللاهوتية ، جامعة اكسفورد التي هي معقل الثقافة الانكليزية القديمة الموروثة جيلاً عن جيل ، معقل لتقاليد Trdition لم تزل وستبقى فخر الشعب الانكليزي ما دام اعتزازه بالمحافظة على التقاليد

حركة وطنية ما هي إلا حركة رجعية ، وليست تقليدية ، حركة تنظر إلى تراث الماضي لتبني عليه مجد المستقبل لا لتقوضه وتستبدل به غيره ؛ فالتبديل معناه إنشاء خلق جديد على رغم الطبيعة وسنة الكون ، وتلك محاولة شاذة لم تخطر ولن تخطر ببال مصلح اجتماعي عاقل ، لأنها محاولة عبث وخيال لن يتحقق . تقليد وحركة وطنية شيئان لا يجتمعان في نظر عالم اجتماعي نفسي ، لا يجتمعان في نظر زعيم وطني ، وإن كانا قد يجتمعان في نظر روائي خيالي لم يلمس الحقائق بعد ؛ قد يجتمعان في نظر من شغف « بالتجديد » والانتساب إلى البحث لا لأنه يحب الجديد ويميل إلى البحث ، بل لأنه قد لا يدري ما هو التجديد وما هو البحث .

في المقال التالي سأعالج العلل النفسية لهذا التقليد

محمد البهي قرقر

دكتور في الفلسفة وعلم النفس
من جامعات ألمانيا

على هامش رحلتى الى الحجاز

فى تكية الدراويش*

للدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ الشرقى بجامعة بودابست

خاتمـــــــة

وتقع فى جانب الجبـــل مغارة عميقة هائلة ليست كلها من عمل الطبيعة ، بل إنهم اجتهدوا فى توسيعها شيئاً فشيئاً ، فهذه المغارة هى فى الواقع مقبرة الدراويش يتوسطها مقام الشيخ الكبير أبو عبد الله المغاورى الذى يرجع الفضل إليه فى تأسيس تكية القاهرة ، يحف به مئات من قبور الاخوان الدراويش ، وهى متناثرة هنا وهناك فى جوف المغارة . وأسر إلى صديق بأن هؤلاء الاخوان إنما تحرروا من قيودهم الزمنية وانطلقوا إلى العالم الآخر ليظفروا بلمحات يكشف لهم فيها الغيب ، ويروا مالا تراه العيون . بيد أننى لم أفكر كما فكرت الساعة فى أن الرجال فى أية لحظة من لحظات حياتهم هم أموات بالنسبة لتلك اللحظة ، فليس الوقت هو الذى يمضى سراعاً ، ولكننا نحن الذين نبتعد عن الزمن الصامت الثابت

وإذا ما أراد الزائر أن يهبط إلى جوف المغارة فعليه أن يخلع نعليه أولا ويودعهما فى صندوق خشبى مستطيل الحجم بجوار الباب ، كما يتحتم عليه أن يدفع بعض ما تيسر فى صندوق النذور . ولقد رأيت أن المترددين لزيارة هــذه القبور نفر يسير من سكان القاهرة الفقراء ، وأخصهم النساء اللواتى يلتمسن شيئاً من العزاء والسلوى فى وقوفهن أمام الأضرحة والقبور

خلعت وزميلى نعلينا وتأهبنا للتوغل فى داخل المغارة التى كانت شمس الصباح تنفذ من فوهتها . وبعد أن دفعنا بضعة قروش لحارس المقبرة وهو من الدراويش الأشداء ، دلفنا إلى مقصورة الشيخ الكبير مؤسس الطريقة ؛ وكان فى خارج المقبرة عدد من العجائز يرفعن أيديهن إلى السماء ويبتهلن إلى الله بالدعوات الصالحات ، وقد علمت أن فى وسع الموسرات منهن أن يدخلن إلى المقصـورة ويمسسن الضريح بأيديهن للتبرك — ولكن هذا نادر — أما بقيتهن من الفقراء اللواتى لا يملكن قوت يومهن ، وهن يكتفين بالوقوف بباب المقصورة وأمامهن أحد الدراويش حاملا فى يده مقرعة ليفسح الطريق للزائرين

إن زيارة الأضرحة فى مصر لا تزال من العادات المتفشية بين جميع الطبقات ؛ وعلى الرغم من محاربة العلماء لها ، فليس من السهل القضاء على الخرافات الكثيرة المتأصلة فى نفوس العوام ، لأنهم يعتقدون أن بعض الأولياء تحل بركتهم بالمرضى فيبرأون . ولقد قضى الوهابيون على هذه البدع والنقائص كلها فحرموا زيارة الأضرحة والتبرك بالأولياء ، واستطاعوا أن يعيدوا إلى بلادهم الشرائع الاسلامية خالية من كل شائبة . وهم يقولون إن قوة الانسان فى حد ذاتها محدودة ، وليس فى وسع أى مخلوق أن يشارك الله فى قدرته ؛ ويعتقدون أن وجود هذه الأضرحة يعيد إلى الذاكرة عبادة الأوثان التى قضى عليها الاسلام وحاربها بكل قوة

ووقع نظرنا على ضريح الشيخ المغاورى يتوسط المقصورة فى مساحة لا تقل عن تسع ياردات ، وفى طرف الضريح رأس من الحجر ملفوف عليــه قماش أخضر مطرز . وكذلك رأينا شمعتين كبيرتى الحجم موضوعتين بجوار الشاهد ، حتى خيل إلينا أنهما حارسان . ولا يجب أن يفهم من هذا أن هاتين الشمعتين موضوعتان لغرض الاضاءة ، كلا بل هما للزينة والتأنق ، لأننا شاهدنا مصباحاً متدلياً من السقف ينشر ضوءه الشاحب الخفيف على وجوه الزائرين

جلست مع صديقى حسونه على المقعد الحجرى المصاقب لضريح الشيخ ، نرقب عن كثب هذا المشهد المؤلم ، مشهد عشرات النسوة وهن يتمرغن فى الخارج على الحجارة ويرسلن أصواتاً مخيفة مزعجة كالنباح ، وأومأت إلى صديقى أنه يستطيع أن يستخلص موضوع رواية يوضح فيها بجــلاء حالة المرأة

* عن كتاب نشره بالمجرية بعنوان « الله أكبر »

المصرية ، ثم يعرج على وصف حالة العامل المصرى والفلاح المصرى ويحلل نفسية كل منهما . فالفلاح فى مصر لا يزال يكد ويشقى ، ويلاقى من صنوف الهوان ومرارة العيش ، كما كان يعانيه زميله أيام بناء الأهرام دون تغيير أو تبديل فى أسلوب الحياة ، وما برحت الخرافات والبدع الدينية ظاهرة الأثر رغم تقدم الحضارة وانتشار العمران ، وما زالت مسيطرة على نفوس هؤلاء العوام

أجل ! إنه لولا وجودى فى القاهرة لما فكر صديقى حسونه فى أن يقصد إلى تلك الخرائب والأضرحة ، ولكنى أغريته بزيارتها حتى يتمكن من أن يجمع المواد التى يتألف منها كتاب أو رواية تفهم معتقدات العوام وحالتهم الفطرية

ولا أبالغ إذا قلت إن هذه المغارة وهذا الضريح الذى يتوسطها وتلك الأضواء الخافتة المستحيية ، وهذا الشيخ الذى تفد النساء لزيارته خاشعات مسترسلات فى توسلاتهن الحارة . كل هذه مشاهد كان لها تأثير خاص على مشاعرى . أما حارس الضريح الذى لا يأذن لأحد بالدخول إلا إذا ناوله الجعل المخصص للزيارة فانه قادنا إلى أقصى المغارة حيث ألفينا نحو ثمانى نساء يطفن بالضريح ويلمسن الكسوة بأيديهن تبركا . ولقد حدث أن شاهدت واحدة منهن وهى واقفة كالصنم ، شاخصة ببصرها نحو المصباح الذى يرسل ضوءاً خافتاً لونه أحمر ، شاهدتها جامدة كالتمثال أكثر من دقائق معدودة ، لا تبدى حراكا ولا يهتز لها جفن ، وراعنى أن ألفيت برقعها الأسود ملقى وراء ظهرها ، وكان وجهها شاحباً شحوب الموتى ، ولكن صديقى علل ذلك بأن الشمس قلما تسطع على هذه الوجوه ، لأنهن يعشن محجبات فى داخل دورهن وإذا ما خرجن أحكمن وضع البراقع السميكة التى تحجب عن وجوههن ضوء الشمس فيكتسب الجلد لون الصفرة . وكانت هناك عجوز شمطاء تلقى بجسمها على جدار الضريح كأنما الشخص المدفون أحد أحفادها ، وثالثة نحيلة طويلة ، ترتدى السواد وتلطم صدرها بكلتا يديها ، ثم لا تلبث أن ترفعهما إلى السماء وتتوسل بصوت مرتفع . ورأيت الدموع تنحدر من عينيها وقد ارتسمت على وجهها آيات الرعب والفزع ، ثم سمعنا بعد ذلك صوتاً يخرج من صدرها ، وبعد برهة أخذت تولول وتمزق ثيابها . وكانت هذه الصرخة نذيراً لبقية النسوة اللواتى حافظن حتى هذه اللحظة على الصمت ، فإنهن أسرعن إلى تقليد حركاتها والارتماء ثم التمرغ على الثرى والتدحرج حتى يصلن إلى المحراب ، وهناك تخور قواهن . أما صديقى فقد راعه هذا المشهد المؤلم الذى يصور حالة خاصة من حالات الأمراض النفسية ، فأمسك بذراعى وطلب إلىّ أن نغادر المكان مريعاً ، بيد أنه نسى أن هذه المناظر المسترية هزتنى هزة عنيفة بحيث كدت أرتمى بدورى على الأرض ، لولا أننى قاومت هذه الرغبة وأقصيتها عن ذهنى . ما هذا البكاء ، وذلك العويل ، وشق الثياب ؟ لقد تمالكت رشدى ورحت أحدق فى وجوههن لأحاول أن أستخلص منها قصة كل واحدة ، وإليك نتيجة استنتاجى :

* * *

تربى الفتاة المسلمة على الطاعة والخضوع والانقياد ، لا على الحرية والصراحة فى الرأى والتفكير ، فالطاعة والانقياد هما الدعامة الأولى للتربية فى مصر ، وهذا هو السبيل للحياة المقبلة . فللوالد الحق فى أن يجبر ابنتـه على الزواج من الشخص الذى يختاره لها ويفرضه سيداً عليها ؛ وليس عليها سوى الامتثال لمشيئته ، كما أن للزوج سلطة ضربها إذا عصيت له أمراً . وإذا أرادت المرأة أن تثأر لنفسها فليس أمامها سوى طريق واحد ، هو طريق المؤامرات السرية والدسائس . والعادة أن جميع الأزواج لا ينظرون إلى زوجاتهن إلا نظرة الازدراء والتحقير ، بل إن البعض منهن يعتبرن من سقط المتاع . وهذا هو السبب الذى يدعو الكثيرات منهن إلى أن يقصدن إلى تلك الأضرحة ليتوسلن إلى أصحابها ويستنجدن بكراماتهم من هول تلك الفظائع ولا يخفى ما للعواطف المكبوتة من الأثر السىء فى النفوس ، وهؤلاء اللائى يدفن رغباتهن فى صدورهن إنما يتعرضن لأفظع الآلام المسترية ، فيعمدن إلى إقامة حفلات الزار والتوسل بزيارة الأضرحة للبرء مما يصيبهن من الأمراض العصبية

إننى لا أزال وأنا أكتب هذه السطور أتذكر صورة هذا

الرجل الذى دخل علينا ونحن بضريح الشيخ المغاورى ثم اتخذ موقفه بين الشمعتين وما كاد يرى صياح النسوة حتى راح يهز رأسه هزاً عنيفاً بطريقة منتظمة ، ثم ينادى بأعلى صوته : الله ، الله ... وبعد برهة كان يلتوى على الأرض التواء الحية الرقطاء وتتقلص عضلات وجهه ، ويرسل صراخا كالنباح ثم يهتف قائلاً : الله أكبر ! الله أكبر ! حتى خيل إلينا أن صخور المقبرة أوشكت أن تلتقط منه لفظ الجلالة . وكدت أفقد رشـدى من هول الموقف ، وأحسست كأن حشرجة الموت تنشب مخالبها فى حلقى ، فأردت أن أستنجد بكل قواى غير أنى لم أستطع إلى ذلك سبيلا ، فجاهدت قدر طاقتى حتى لا أسقط عن مقعدى ، ولكن بلا جدوى أيضاً لأنى شعرت كأن بى مسا من الجن ، وأن كابوساً قد جثم فوق صدرى ، وأن العرق البارد يتحلب من وجهى . وأخيراً هدأت نفسى فغادرت المكان وهتفت بصديقى أدعوه إلى الصلاة . ولكنه أجابنى بعدم قدرته على أدائها وهو لا يزال يرجف فزعا . فتركته ومضيت إلى القبلة ، حيث عادت إلى طمأنينتى الأولى . وبعد الصلاة رحت أفتش عن صديقى فاذا به يقف بجوار المحراب باهت اللون ، ينتظرنى بفروغ صبر لنغادر هذا المكان الذى كان يرمقه بعيون متفتحة رعباً

وتأوه صديقى ونحن نغادر باب المنارة ، ثم أفضى إلىّ بأنه من الصعب أن يشعر بأقل ميل نحو الشرق ، حيث الأضرحة والعقائد القديمة البالية والعادات المرذولة ، ولكن أمه — تلك السيدة الوقور الطيبة الأخلاق — طالما شكت إلىّ إيمانه المزعزع واتجاهه نحو الغرب ، وكانت تصلى من أجله عسى الله أن يرشده إلى الطريق السوى ويغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

وانطلقنا إلى حديقة المنارة وما كدنا نستقبل الهواء الطلق حتى وقع نظرنا على طائفة من السائحات الأمريكيات وهن يصغين باهتمام إلى شروح بعض التراجمة والأدلاء ، فهتفت بصديقى قائلا :

— هذا هو الغرب الذى تتعشقه

(تمت) عبد الكريم جرمانوس

الفلسفة الشرقيــــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٢ —

النفس — طورها — التناسخ

رأيت فيما أسلفنا من مستحدثات عهد التطور تلك النظرية الفلسفية العميقة التى تقرر أن الوجود المادى باطل ، ولكنه مشتمل فى داخله على جوهر سام هو وحدة الحقيقة فى كل موجود ، ورأيت كذلك أن هذه النظرية لم تقتصر على كائن فى الوجود دون كائن ، فهى قد تناولت الآلهة والأناس والحيوان والنبات ، غير أن أهم ما يعنى الباحث فى هذا الجوهر الحق المختبئ وراء الأستار المادية إنما هو النفس

وقد عنى خاصة الهنود بها عناية شديدة منذ أقدم عهودهم بالتفكير ، فقرروا أنها هى الجوهر الحق فى الانسان ؛ ولذلك أطلقوا عليها اسم الانسان لأنهم اعتبروا الجسم بدونها باطلاً لا يستحق أن يدل على الانسان كما تدل عليه النفس . ولا شك أن الباحث حين يتأمل فى هذه النظرية للوهلة الأولى يلمح فيها عناصر نظرية « أفلاطون » فى النفس والمادة حيث يقرر أن النفس هى وحدها النور الخالد والحق الأسمى فى الانسان ، أما الجسمان المادى فانه خيال باطل لا تطلق عليه كلمة « حقيقة » إلا تجوزاً ، لحلول النفس فيــه ولصوغه على نماذج المثل التى أبنا أن عناصرها مصرية

ويرى فلاسفة الهنـد أن النفس جاهلة بالفعل عالمة بالقوة ، وأن الجهل والعلم صفتان متعاقبتان عليها باختلاف الظروف والأحوال . ولا جرم أن الهنود قد سبقوا « أرسطو » بعدة قرون الى نظرية جهل النفس بالفعل وعلمها بالقوة وفوزها بالعلم الفعلى عن طريق الكسب والتجربة ، تلك النظرية التى بسطها أرسطو بسطاً واضحاً حين رد على أفلاطون القائل بأن النفس كانت عالمة بالفعل قبل أن تحل فى الأجسام المادية ثم نسيت

تلك المعارف بعد حلولها فى المادة الكثيفة ، وهى الآن لا تتعلم شيئاً جديداً ، وإنما تتذكر ما كانت قد تعلمته فى الماضى ثم نسيته

والنفس عند الهنود خالدة لا يعتورها الفناء ، لأنها هى كل ما فى الانسان من حقيقة كما أسلفنا ، ولهذا فهم لا يعتبرون الموت أكثر من تغيير ثياب النفس ومأويها ، إذ أنها هى لا تتعرض بالموت لأى شىء إلا انتقالها من مأوى الى مأوى بما يسمونه التناسخ أو التقمص . وقد أفاضت الكتب الهندية دينية وفلسفية فى هذه العقيدة أو النظرية إفاضة جعلتها كأنها وحى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهاك شيئا مما نقله لنا البيرونى خاصا بعقيدة خلود النفس وتقمصها :

قال « باسديو » لـ « أرجن » يحرضه على القتال وهما بين الصفين : « إن كنت بالقضاء السابق مؤمناً فاعلم أنهم ليسوا ولا نحن معاً موتى ولا ذاهبين ذهاباً لا رجوع معه ، فان الأرواح غير مائتة ولا متغيرة ، وإنما تتردد فى الأبدان على تغاير الانسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة التى عقباها موت البدن ثم العود . وقال له : كيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود لا عن ولادة ولا إلى تلف وعدم ، بل هى ثابتة قائمة لا سيف يقطعها ، ولا نار تحرقها ، ولا ماء يغصها ، ولا ريح تيبسها ، لكنها تنتقل عن بدنها إذا عتق نحو آخر ليس كذلك كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق . فما غمك لنفس لا تبيد ، ولو كانت بائدة فأحرى ألا تغتم لمفقود لا يوجد ولا يعود . فان كنت تلمح البدن دونها وتجزع لفساده فكل مولود ميت ، وكل ميت عائد ، وليس لك من كلا الأمرين شىء ، إنما هما إلى الله الذى منه جميع الأمور وإليه تصير » .

ولما قال له « أرجن » فى خلال كلامه : « كيف حاربت براهم فى كذا وهو متقدم للعالم سابق للبشر ، وأنت الآن فيما بيننا منهم معلوم الميلاد والسن ؟ » . أجابه قال : « أما قدم العهد فقد عمنى وإياك معه ، فكم مرة حيينا حقباً قد عرفت أوقاتها وخفيت عليك ، وكلما رمت المجىء للاصلاح لبست بدناً ، إذ لا وجه للكون مع الناس إلا بالتأنس » . وحكى عن ملك أنسيت اسمه أنه رسم لقومه أن يحرقوا جثته بعد موته فى موضع لم يدفن فيه ميت قط ، وأنهم طلبوا موضعاً لذلك فأعياهم حتى وجدوا صخرة من ماء البحر نابتة فظنوا أنهم ظفروا بالبغية . فقال لهم باسديو : إن هذا الملك قد أحرق على هذه الصخرة مرات كثيرة فافعلوا ما تريدون فانه إنما قصد إعلامكم وقد قضيت حاجته »

وقال باسديو : فمن يؤمل الخلاص ويجتهد فى رفض الدنيا ثم لا يطاوعه قلبه على المبتغى أنه يثاب على عمله فى مجامع المثابين ، ولا ينال ما أراد من أجل نقصانه ، ولكنه يعود إلى الدنيا فيؤهل لقالب من جنس مخصوص بالزهادة ويوفقه إلى الالهام القدسى فى القالب الآخر بالتدرج إلى ما كان أراده فى القالب الأول ، ويأخذ قلبه فى مطاوعته ولا يزال يتصفى فى القوالب إلى أن ينال الخلاص على توالى التوالد »(1)

وقال فى كتاب « سانك » : أما من استحق الاعتلاء والثواب فانه يصير كأحد الملائكة مخالطاً للمجامع الروحانية غير محجوب عن التصرف فى السموات والكون مع أهلها أو كأحد أجناس الروحانيين الثمانية . وأما من استحق السفول بالأوزار والآثام ، فانه يصير حيواناً أو نباتاً أو يتردد إلى أن يستحق ثوابا فينجو من الشدة أو يعقل ذاته فيخلى مركبه ويتخلص(2)

قال صاحب كتاب «باتنجل» : إفراد الفكرة فى وحدانية الله يشغل المرء بالشعور بشىء غير ما اشتغل به ، ومن أراد الله أراد الخير لكافة الخلق من غير استثناء واحد بسبب ، ومن اشتغل بنفسه عما سواها لم يصنع لها نفساً مجذوباً ولا مرسلاً . ومن بلغ هذه الغاية غلبت قوته النفسية على قوته البدنية . فمنح الاقتدار على ثمانية أشياء بحصولها يقع الاستغناء ، فمحال أن يستغنى أحد عما يعجزه واحد . تلك الثمانية هى : التمكن من تلطيف البدن حتى يخفى عن الأعين ؛ والثانى التمكن من تخفيفه حتى يستوى عنده وطء الشوك والوحل والتراب ؛ والثالث التمكن من تعظيمه حتى يراه فى صورة هائلة عجيبة ؛ والرابع التمكن من الارادات ؛ والخامس التمكن من علم ما يروم ؛ والسادس التمكن من الترؤس على أية فرقة طلب ؛ والسابع خضوع المرءوسين وطاعتهم ؛ والثامن انطواء المسافات بينه وبين المقاصد الشاسعة(3)

تقاليد البراهمة

كتب كثير من علماء الفرنجة المحدثين المشتغلين بتاريخ

(1) انظر صفحتى ٢٥ و ٢٦ من كتاب البيرونى
(2) انظر صفحة ٣٣ من كتاب البيرونى
(3) انظر صفحة ٣٤ من الكتاب المذكور

الفلسفة حول تقاليد البراهمة وطقوسهم الدينيـة ، فهممت بأن ألخص لك هنا ترجمة ما كتبوه من هذه التقاليد على نحو ما فعلت فى الطقوس المصرية ، ولـكنى وجدت ما كتبه أولئك العلماء ليس إلا هيكلا عظمياً إلى جانب ما نقله أبو الريحان البيرونى من هذه التقاليد ، فلم يسعنى إلا العدول عن الناقص إلى الـكامل أو القريب من الـكمال . وكنت أحب أن ألخص هـذا النص فى عبارات من عندى لـكى لا أكثر من النقل عن الغير ، ولـكن ضرورة الاصطلاحات الفنية من جهة وخلو كلام البيرونى من الحشو فى هذه النقطة من جهة أخرى قد ألجآنى إلى الاتيـان بالنص لتحقق الفائدة المرجوة . وهاك ما قاله البيرونى عن هذه التقاليد :

عمر « البرهمن » بعد مضى سبع سنين منه منقسم لأربعة أقسام : فأول القسم الأول هو السنة الثامنة يجتمع إليه البراهمة لتنبيهه وتعريفه الواجبات عليه وتوصيته بالتزامها واعتناقها مادام حياً ثم يشدون وسـطه بزنار ويقلدونه زوجا من « جنجوى » وهو خيط مفتول من تسع قوى ، وفرد ثالث معمول من ثوب يأخذه من عاتقه الأيسر إلى جانبه الأيمن ويعطى قضيباً يمسكه وخاتم حشيشة يسمى « دَرْبهى » يتختم به فى البنصر اليمنى ، ويسمى هذا الخاتم : « بيـتْر » والغرض فيه التيمن والبركة فى عطاياه من تلك اليد ، والتشديد فيه دون التشديد فى أمر « جنجوى » فان جنجوى مما لا يفارقه ألبتة ، فان وضعه حتى أكل أو قضى حاجته خالياً عنه ، كان بذلك مذنباً لا يمحصه عنه غير الـكفارة بصوم أو صدقة . وقد دخل فى القسم الأول إلى السـنة الخامسة والعشرين من سنيه ، ووجدت ذلك فى « بشن بران » إلى السنة الثامنة والأربعين . والذى يجب عليه فيها هو أن يتزهد ويجعل الأرض وطاءه ويقبل على تعلم « بيذ » وتفسيره وعلم الكلام والشريعة من أستاذ يخدمه آناء ليله ونهاره ، ويغتسل كل يوم ثلاث مرات ، ويقيم قربان النار فى طرفى النهار ، ويسجد لأستاذه بعد القربان ، ويصوم يوما ويفطر يوماً مع الامتناع عن اللحم أصلاً ، ويكون مقامه فى دار الأستاذ ويخرج منها للسؤال والـكدية من خمسة بيوت فقط كل يوم مرة عنـد الظهيرة أو المساء ، فما وجد من صدقة وضعه بين يدى أستاذه ، ليتخير منه ما يريد ثم يأذن له فى الباقى فيتقوت بما فضل منه ويحمل إلى النار حطبها من شجرتى : « بلاس » و « دوب » لعمل القربان ؛ فالنار عندهم معظمة وبالأنوار مقترنة ، وكذلك عند سائر الأمم فقد كانوا يرون تقبل القربان بنزول النار عليه ولم يثنهم عنها عبادة أصنام أو كواكب أو بقر وحمير أو صور

وأما القسم الثانى فهو من السنة الخامسة والعشرين إلى الخمسين ، وفى « بشن بران » بدل هذه الخمسين سبعون ، وفيه يأذن له الأستاذ فى التأهل فيتزوج ويقيم « الـكذخداهية » ، ويقصد النسل ، على ألا يطأ امرأته فى الشهر أكثر من مرة عقب تطهر المرأة من الحيض ، ولا يجوز له أن يتزوج بامرأة قد جاوز سنها اثنتى عشرة سنة ، ويكون معاشه إما من تعليم « البراهمة وكشتر » وما يصل إليه منه فعلى وجه الاكرام لا على وجه الأجرة ، وإما من هدية تهدى إليه بسبب ما يعمل لغيره من قرابين النار ، وإما بسؤال من الملوك والـكبار من غير إلحاح منه فى الطلب أو كراهة من المعطى فلا يزال يكون فى دور هؤلاء (برهمن) يقيم فيها أمور الدين وأعمال الخير ، ويلقب : « برْهـِتُ » ، وإما من شىء يجتنيه من الشجر أو يلتقطه من الأرض ، ويجوز أن يضرب يده فى التجارة بالثياب وبالفوفل ، وإن لم يتولها واتجر له « بيش » كان أفضل ، لأن التجارة فى الأصل محظورة بسبب ما يداخلها من الغش والـكذب ، وإنمـا رخص فيها للضرورة ، إذ لا بد منها ، وليس يلزم البرهمن للملوك ما يلزم غـيره لهم من الضرائب والوظائف . فأما التتابع بالدواب والبقر والأصباغ والانتفاع بالربا فانه محرم عليه ، وصبغ النيل من بين الأصباغ نجس ، وإذا مس جسده وجب عليه الاغتسال ولا يزال يقاس ويقرأ على النار ما هو مرسوم لها

وأما القسم الثالث ، فهو من السنة الخمسين إلى الخامسة والسبعين ، وفى « بشن » بدل الخمسة والسبعين تسعون ، وفى هذا القسم يتزهد ويخرج من الـكذخداهية ويسلمها والزوجة إلى أولاده إن لم تصحبه إلى الأصحار ، ويستمر خارج العمران على السيرة التى سارها فى القسم الأول ، ولا يستكن بسقف ولا يلبس إلا ما يوارى سوءته من لحاء الشجر ، ولا ينام إلا على الأرض بغير وطاء ، ولا يتغذى إلا بالثمار وبالنبات وأصوله ، ويطول الشعر ولا يتدهن

وأما القسم الرابع فهو إلى آخر العمر يلبس فيه لباساً أحمر ويأخذ بيده قضيباً ويقبل على الفكرة وتجريد القلب من

الصداقات والمداوات ، ورفض الشهوة والحرص والغضب ، ولا يصاحب أحداً ألبتة ، فان قصد موضعاً ذا فضل طلباً للثواب لم يقم فى طريقه فى قرية أكثر من يوم ، وفى بلد أكثر من خمسة أيام ، وإن دفع أحد إليه شيئاً لم يترك منه للغد بقية ، ولم يكن له غير الدؤوب على شرائط الطريق المؤدى إلى الخلاص والوصول إلى « موكش » الذى لا رجوع فيه إلى الدنيا

وأما ما يلزمه فى جميع عمره بالعموم فهو من أعمال البر وإعطاء الصدقة وأخذها ، فان ما يعطى البراهمة راجع إلى الآباء ودوام القراءة وعمل القرابين والقيام على نار يوقدها ويقرب لها ويخدمها ويحفظها من الانطفاء ليحرق بها بعد موته ، واسمها « هوم » ، والاغتسال كل يوم ثلاث مرات فى سند الطلوع وهو الفجر ، وفى سند الغروب وهو الشفق ، وفى نصف النهار بينهما ، أما بالغداة فمن أجل نوم الليل واسترخاء المنافذ فيه فيكون طهراً من كائن النجاسة واستعداداً للصلاة ، والصلاة هى تسبيح وتمجيد وسجدة برسمهم على الابهامين من الراحتين الملتصقتين نحو الشمس فانها القبلة أينما كانت خلا الجنوب ، فليس يعمل شىء من أعمال الخير نحو هذه الجهة ، ولا يتقدم إليها إلا فى كل شىء ردىء . وأما وقت زوال الشمس عن نصف النهار فانه مرشح لاكتساب الأجر ، فيجب أن يكون فيه طاهراً ، والمساء وقت العشاء والصلاة ، ويجوز أن يفعلهما فيه من غير اغتسال ، فليس أمر الاغتسال الثالث مثل الأول والثانى فى التأكد ، وإنما الاغتسال الواجب عليه بالليل وفى أوقات الكسوفات بسبب إقامة شرائطها وقرابينها . وتغذى البرهمن فى جميع عمره فى اليوم مرتين عند الظهيرة والعتمة ، فاذا أراد الطعام ابتدأ باقرار الصدقة منه لنفر أو نفرين وخاصة للبراهمة المتوحشين الذين يجيئون وقت العصر للسؤال ، فان التغافل عن إطعامهم إثم عظيم ، ثم للبهائم والطير وللنار ويسبح على الباقى ويأكله ، وما فضل منه فيضعه خارج الدار ولا يقرب منه إذ لا يحل له ، وإنما هو لمن سنح واتفق من محتاج إليه ، سواء كان إنساناً أو طائراً أو كلباً أو غيره ، ويجب أن تكون آنية مائه على حدة وإلا كسرت ، وكذلك آلات طعامه . وقد رأيت من البراهمة من جواز مؤاكلة أقاربه فى قصعة واحدة وأنكر ذلك سائرهم[1]

(يتبع) محمد غلاب

(١) انظر صفحات ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ من كتاب البيرونى

من صور الشارع :

العدالة

للأستاذ أمجد الطرابلسى

اللّيلُ داجٍ وأعاصيرُهُ	مجنونةٌ تضحكُ منه الرّعودْ
والبرقُ فى آفاقهِ لاهبٌ	كشعْلةِ الغيظِ بصدْرِ الحسودْ
والمطرُ الدّفّاقُ فى لحنِهِ	مسترسلٌ يُبدئُه أو يُعيد
يصافحُ النهرَ فتعلو لهُ	نغمةُ نايٍ وأرانينُ عود
والشارعُ الجَهْمُ مصابيحُهُ	كأعينِ الذؤبانِ فوق النجود
قفْرٌ منَ الناسِ ، فلا سيّدٌ	يخطرُ مختالاً ولا من مَسود
إلا عرابيدُ هُنا أو هنا	كأنما أرْجُلُهُم فى القيود
يبغونَ مَنجى من مُلثِّ الحيا	لولا خُمارٌ مُسْتَبِدٌّ عنيد
ونام . . . إلا مرقصاً فاجراً	يقظانَ لا يعرفُ معنى الهجود
نهارُهُ الليلُ ، وسُمّارُهُ	كُثْرٌ إذا أغفى الغبيُّ البليد
تمزّقُ الدجيةَ أنوارُهُ	كأنها أنوار عُرسٍ وعيد
وتطربُ الشارعَ أنغامُهُ	رنّانةً صخّابةً من بعيد
دخلته . . . يا حسنَه منظراً !	راحٌ ورَوْحٌ ولحونٌ وغيد
من كلّ خَوْدٍ خلقَتْ فتنةً	لحظا وقدًّا ونهوداً وجيد
وأهوجٍ فى عنفوانِ الصِّبا	صريعِ كأسٍ أو مُنى خدود
والناسُ فى رقصٍ وفى نَشْوَةٍ	حولَ دُمى الحسنِ قيامٌ قعود
ما منهمُ إلا فتى عابثٌ	ما فيهمُ إلا الضّحوكُ السّعيد
كأنّهمْ فى فرحٍ دائمٍ	مُذ نزلوا الأرضَ وعيشٍ رغيد

* * *

يا شاكياً أوصابَ هٰذى الدُّنا	لا زلتَ إلفاً للضّنى والجود
أتدّعى البؤسَ وتشكو الورى	ورهنُ كفيكَ المنى والسُّعود
أليس فوقَ الأرضِ غيرُ الأسى	أما ترى عيناكَ غيرَ الحود
هٰذى الأغاريدُ وهٰذا الهوى	وذلكَ الحسنُ وتلكَ القُدود
وهٰذه الأقداحُ فوّارةً	والدلُّ والسِّحر وخفقُ النّهود
أليس فيها ما يَبُلُّ الصّدى	ويفرحُ القلبَ المعنى العميد

* * *

عدتُ إلى الشارع نَضْرَ المنى والكونُ فى عينىَّ خلقٌ جَديد
تقولُ لى النفسُ وقد أُنسيَتْ ما أَلِفَتْهُ من شَقاء تليد :
أليسَ حقًّا صفو هٰذى الدُّنا ؟ أليسَ لى من خيرِها ما أريد ؟

***

وسرتُ نشوانَ حليفَ الرِّضى يغمرُ جَفنىَّ جمالُ الوجود
فرحان... لولا منظر لاحَ لى أماتَ فى قلبى الحبورَ الوليدْ
طفلٌ على وجهِ الثرى نائمٌ كأنهُ الجيفةُ فوقَ الصَّعيد
تحسبُهُ فى بؤسهِ كوكباً تحتَ نثاراتٍ من السُّحْبِ سودْ
تدفعُ عنه البردَ أسمالهُ لو تَدفَعُ الأقدارَ كفُّ العبيد !

***

وجاءه الشُرْطىُّ مستأسداً يحرمُهُ هـذا الرقادَ الشَّرودْ
أليسَ فى مَنظرِهِ غُصَّةٌ لسادةِ الأرضِ عبيدِ النقود ؟
أما على الدولة غَسْلُ الثرى من الفُضالاتِ وما لا يفيدْ ؟ !
أيقظهُ من نومهِ هاتفاً بلهجة الآمرِ ربِّ البنود
« هَيّا إلى دارِكَ .... هَيّا أَفِقْ !
فى الدارِ لا فوقَ الرَّصيفِ المجود ! »

***

الدّار ! ما الدار ؟ وما شأنُها ؟ ما الأهلُ ؟ ما آباؤهُ ؟ ما الجدود ؟
وهل ينامُ الناسُ فى دورِهم أم مثلهُ فوقَ الصَّفا والجليد ؟
وهل له بين الصّروحِ العُلى قصرٌ مشيدٌ، أو مَقرٌّ وطيد ؟
يا ناسُ ... دُلوه على مقبرٍ وَهْوَ به راضٍ شكورٌ سعيد !!

***

يا نعمةَ الدنيا ويا عدلها ! ماذا جنى هذا البرىءُ الشهيد ؟
أماله مُتَسَعٌ ناعمٌ وسْطَ المقاصيرِ وفوقَ المهود ؟
ضاقَ الثرى عنه وأترابهُ بين الرياحين وفوق الوُرود
أليسَ حُلْماً صفو هٰذى الدنا وفوقها هذا الشقى الشريد ! ؟

***

يا طفلُ عِشْ فوق الثرى جائعاً وقضِّ أيامَكَ كلباً طريد !
ليهنِكَ الفقرُ وويلاتُهُ فالفقرُ نُبْلٌ وسموٌّ وَجود !
إن جعتَ فالمجدُ طعامٌ .. وإن ظمِئتَ فالنبلُ شرابٌ برود !
لا تحسدِ الناسَ على حظِّهم فآلامُ الناس شقىٌّ حسود !
ولا تكن لصًّا ولا مُجرِماً فإن عقباكَ العذابَ المبيدْ !
ولا تدَعْ للغيظِ من مَسْرَبٍ إلى حناياكَ ولا للحقود !
واربع على الذلِّ ولا تأبه واسجُدْ لمن يطلبُ منك السجودْ
فغاصبُ الأموالِ حرٌّ بها يبخلُ إن شاء بها أو يجودُ !
مالكَ والدنيا ولذاتها ألم تقدَّرْ لكَ دارُ الخلودْ .. ! ؟

***

إيهِ خروفَ الذبحِ متْ يائساً فالكونُ للعقبانِ أو للأسود !
أو فاتخذ بين الورى مخلباً كمخلبِ الليثِ وناباً حديد
ثم انتزع حقك مستنسراً ولا تدعهُ لُعْبَةً للقرود ! ...

(دمشق) أمجد الطرابلسى

عناد..!!

خطبت اليه عروس الخيال أزف اليها المنى الساميه
أزف إليها أغانى السماء وأمهرها مهجتى الغاليـه
وأجعل حبى لهـا هيكلا تكون صلاتى به ناميه
غلائلها من ضيـاء النجوم وأزرارها القبـلة الواريه
منازلها حيث شاء النعيم وأبوابها فى يدى الحانيه
وأحلامها طول أيامهـا كما تحلم الزهرة الراويه
تطوف عليها طواف السلام وترقص رقصاتها العاريه
أفىء إليها بشـوق الوفير فتلقى به نعمـة العافيه
نظل كطيرين فى روضـة أليفين فى عيشة راضيـه
نطير كروحين فى جنة نعانق أحلامنا الظاميـه
تقبل خد الصبـاح المنير ونرقص للنسمـة الساريه
وأنت تبارك أشـواقنا وتبنى لنا العش فى الداليـه
فندعو بكل أهازيجنـا لمنشىء جنتنا الدانيـه
وننشـد أنغامك السامعات ونشكر آلاءك الضافيـه
حنـانك لا أنت قارون فى خزائنه الأنهـر الجاريه
ولا أنت (فورد) ولا شبهه ولا أنا ذو راحـة خاليه
فهـذا وذاك رهين الفناء وكل سيقضى بلا باقيـه
يعـدِّد آلامه ذو الغنى كعدِّ دنانيره الفانيـه
ولكن قلباً كبير الغرام يعيش الحياة ... الثانيه

(الكرك) صبحى فرح



ميكلانجـــلو

العبقرية الملهمة

MICHELANGELO

للدكتور أحمد موسى

خاتمـــة

أما المرحلة الثانية التى تنحصر بين سنة ١٥٠٥ ، ١٥٣٥ فهى تبدأ عندما رحل إلى روما وأقام فيها ، حيث أتم أبرز عمل فى حياته ، ألا وهو تصوير السقف السكستينى بالفاتيكان على الجص (الفرسكو) ، فظل من مايو سنة ١٥٠٨ إلى خريف سنة ١٥١٢ منكباً على العمل لا يعاونه مساعد ولا ينصرف إلى غيره ؛ الأمر الذى عاد عليه بشىء من حدة الأعصاب يؤوله غير عارفيه بكراهيته للناس

وهذا السقف مقبب يتوسطه حقل يكاد يكون مسطحاً ، وجنوبه مقببة أيضاً ولكن بشكل سيمتريكى متناظر ، يتخلل هذه الجوانب نوافذ على هيئة أهلّة

ولا بد أن تؤدى بنا الرغبة فى تفهم إنتاج ميكيلانجلو تفهماً صحيحاً إلى تقسيم تصويره هذا السقف إلى أربع شعب : إحداها تتناول المصورات الدينية التى صورها فى وسط السقف فى تسعة حقول عدا صور الجوانب التى منها أربع كبيرة والأخرى صغيرة ؛ محاطة كلها بإطارات وجامات من الشبهان (البرونز) ؛ والأخرى تمثل مناظر تاريخية للعهد القديم كخلق الدنيا ، وخلق آدم وحواء ، ونوح والطوفان ، والخالق يبدى إرادته ، وتناولت غيرها خلق النور من الظلام ، وخلق الشمس والقمر والنبات ، وخلق الحيوان ، وخلق آدم . وفى هذه القطعة عبر عن نهاية النهايات أبدع تعبير يمكن أن يتصوره ويخرجه فنان ، وخلق حواء والخطيئة والطرد من الجنة ، وفى هذه أجاد فى تمثيل قوة الارادة عند حواء ، والطوفان


جزء من صورة الطوفان — كابيلا سكستينا

وله صور على الجوانب المقببة لا يتسع المجال لذكرها جميعاً ، ولكنى أقتصر على ذكر أهمها من الصور التاريخية ، التى من أروعها صور الأنبياء والكاهنات وهى تقع بين فتحات النوافذ ، وقد أجاد تصويرها وكلها ترمى إلى نشر رسالة الخلاص والتبشير بانتهاء الجاهلية واليهودية . وأستطيع أن أقرر أن هذه المناظر أجمل وأعظم ما أبدعه فنان على مر القرون ، فهى الكعبة التى يحج إليها كل فنان حيث يقف ناظراً مستلهماً ، فيذهب به خياله إلى التسبيح بذكر العلى القدير الذى جعل من بين خلقه من استطاع الوصول بالفن إلى هذا الكمال . يقف المشاهد أمام هذا الخلق الرائع والجمال السامى والنبل العظيم كما لو كان فى حلم هنىء فيشعر دون إرادة منه بهبيق العبادة يحيط به ، وبنقاوة القلب

وصفاء الضمير يغمر كيانه ، ويحس أنه قد تجرد من حاجات النفس المادية ، ثم لا يلبث أن يرجع ببصره مطأطىء الرأس أمام العظمة الالهية التي تمثلت خير تمثيل في إبداع العبقري الملهم

ولا بأس من أن نعرج قليلاً على ذكر بعض هذه الصورات التي أرى أن أهم ما يجب تعريفه للقارىء منها هو : صورة جرمياس وقد غطت وجهه تجاعيد الهم والتفكير والكرب ، وصورة يونس والحوت . وصورة كاهنة عجوز ساحرة

كما أن له صوراً قصد بها التحلية ولم يسمها وهي تشمل رجالاً وأطفالاً ، وقد عرت جسوم الأولين ، ويستوقف التأمل في هذه الصور جمال التفاصيل وقوة الاخراج ، والابداع في إبراز الحركات الجسمانية كاملة قوية مما يجعلها تنبض بالحياة وتتحدث عن عظمة الفن



خلق الشمس والقمر — كابيلا سكستينا

ومن هذا نرى أن السقف السكستيني هو أعظم إنتاج وصل إليه ميكيلانجلو ، ليس في هذه المرحلة الثانية فقط؛ بل في حياته كلها ، لأنها مثلت القدرة الفائقة في الخلق الفني الأسمى والتفوق الرائع في التعبير عن المثل الأعلى ، كما تعرفنا بعينيه المحيطتين اللتين نظر بهما إلى الحياة فتغلغل إلى كنهها

وسافر بعد هذا إلى فلورنسا وهناك لا نعرف له إلا صورة واحدة أسماها « ليدا والبجعة » وهي مصورة بطريقة تمبرا Tempera (راجع المقال السابق) أتمها سنة ١٥٣٠ ، وللأسف توجد في أسوأ حال بالناشيونال جاليري بلندن

وكان أهم عمل له في المرحلة الثالثة صورته « ليوم القيامة » وهي هائلة عملها بالفرسكو على حائط الهيكل السكستيني من سنة ١٥٣٥ إلى سنة ١٥٤١ ، وتشمل السيد المسيح كقاضي العالم وإلى جواره مريم وحوله القديسون وبالقرب منه صورتان رسمت كل منهما في نصف دائرة ممثلة مجموعات من الملائكة

أما في الوسط فيوجد سبعة ملائكة رفع الأتقياء إلى النعيم وعلى اليسار الالقاء بالمغضوب عليهم في الجحيم ، وهنا نرى عبقرية ميكيلانجلو قد بدت في أقوى مظاهرها

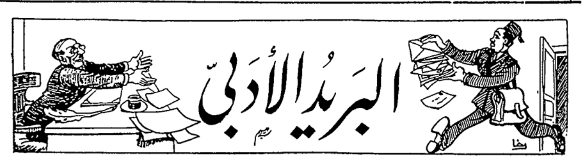
وتحت هذه المناظر صورة أخرى تمثل البعث وغيره من المناظر الدينية ، كلها عظيمة الانشاء قوية الاخراج ، وفيها يتمثل العنف والسيطرة الكاملة على التصوير الجسماني في أروع مظاهره وأبدع حركاته ، وقد تحقق باخراجها على يد ميكيلانجلو حلم الفنانين والمثل الأعلى لمؤرخي الفن الذين يعتبرون خلقه وإبداعه أسمى مقياس يمكن الوصول إليه ؛ ولا سيما أنه قد تحرر في كثير من هذه المناظر من قيود الكنيسة وتعاليمها ، طامحاً نحو السمو والكمال الفني المنشود ، فخرج عمله شعراً منثوراً من الناحية المعنوية ، وتصويراً عظيما من الناحية الفنية



صورة نبي — كابيلا سكستينا

والناظر إلى هذه الصور يرى عليها شيئاً من اللون الدخاني قد غلبه على كل ألوانها مرور مئات السنين وكثرة إشعال البخور داخل الكنيسة

أما آخر أعماله التصويرية فهو مجموعة الصورات المسماة « باولينا » وهي أيضاً بالفاتيكان بروما . وأهمها صورتان عظيمتان



شيخ الأزهر وقت مقدم النابلسي

ذكرت ضمن مقالي المنشور بالرسالة (عدد ٢٠٨) عن رحلة الشيخ عبد الغني النابلسي في مصر في أواخر القرن السابع عشر واقعة وردت على لسان الرحالة أكثر من مرة، وهي أن شيخ الأزهر وقت مقدمه إلى القاهرة في أوائل سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣ م) كان « الشيخ منصور المنوفي الأزهري الشافعي الضرير » ؛ فعلق الأستاذ عبد المتعال الصعيدي على هذه الواقعة (الرسالة رقم ٢٠٩) بكلمة أبدى فيها ارتيابه في صحتها، وذكر نقلاً عن الخطط التوفيقية أن شيخ الأزهر وقت مقدم النابلسي لم يكن سوى الشيخ محمد النشرتي المالكي، وأنه تولى مشيخته من سنة ١١٠١ هـ إلى سنة ١١٢٠ هـ

وقد رجع الأستاذ الصعيدي بنفسه إلى رحلة النابلسي (الحقيقة والمجاز)، فألفى ما نقلته عنه صحيحاً، وأنه أشار إلى الشيخ منصور المنوفي ووصفه أكثر من مرة بأنه شيخ الأزهر ولكنه مع ذلك يصر على ارتيابه في صحة هذا الوصف

ولم أكن أقصد حين كتبت مقالي عن رحلة النابلسي أن أحقق من كان شيخ الأزهر في ذلك الحين، فهذه مسألة لم تكن ذات شأن في موضوعي، وإنما قصدت قبل كل شيء أن أستخلص من هذه الرحلة الصورة التي يقدمها لنا الرحالة عن مصر ومجتمعها في ذلك الحين ؛ على أني مع كل ما نقله الأستاذ الصعيدي عن المصادر المتأخرة (مثل الجبرتي والخطط التوفيقية) لا زلت أميل إلى الأخذ بقول النابلسي من أن الشيخ منصور الأزهري كان شيخاً للأزهر حسبما يقدمه لنا، أولاً لأن هذا القول هو قول معاصر وشاهد عيان عرف الشيخ وحادثه بنفسه، ولست أعتقد أنه يسبغ عليه هذه الصفة عفواً، وثانياً لأن الشيخ النابلسي يقدم إلينا بياناً صحيحاً عن أكابر الحكام والمشايخ في مصر وقت مقدمه، ومن الصعب أن نعتقد أنه يخطئ في تعرف شيخ الأزهر وهو من الشخصيات البارزة التي يهمه أن يتصل بها أما كون الشيخ النابلسي يسبغ هذه الصفة على شيخ آخر

كبيرتان، الأولى لظهور المسيح، والثانية لصلب بطرس (١٥٤٥ — ١٥٥٠) وهما لا تقلان روعة عما سبقهما، ولو أن طريقة الاخراج كانت على شيء يسير من التكلف، أما الثانية فقد ظهرت واضحة جلية في الكيفية التي سار عليها في تصوير الأجسام الهائلة التي بدا عليها العنف والحركة

ومهما حاولنا الوصف فان مشاهدة هذه المناظر مما لا بد منه لمن يريد الوقوف على مدى القوى البشرية الموهوبة من الخالق ومدى ما يمكن الوصول إليه من عمل فني رائع، إن قدّر لنا أن نفهمه استطعنا أن نستمتع بناحية من أسمى وأروع نواحي الاستمتاع الانساني

وله أيضاً في هذه المرحلة صورتان تخطيطيتان لمشوقته فيتوريا كولونا، ويتجلى فيهما تأثره بالدين، كما نلاحظ من عنايته الفائقة ما كان لهذه المشوقة من قدر في نفسه وأثر عليها، أما صورته لمريم والمسيح مأخوذا من الصلب، وصورته للمسيح مصلوباً فان أصولها مجهولة للآن

وتكاد تكون جامعة أكسفورد هي الفريدة التي حصلت على مجموعة جيدة من تصويره الخطي، ويعقب ذلك جاليري بوناروتي في أوفيسين والمتحف البريطاني ومتحف اللوفر

تلك صفحة مبسطة لحياة رجل خالد اعتبره الفن إماماً والتاريخ مقياساً، فمحاولة الاحاطة به هنا متعذرة ؛ لأن إبداعه الفني وتحليل آثاره العظيمة لا يحيط بها إلا ضخم المجلدات

أحمد موسى

وكون المصادر المتأخرة تذكر أن شيخ الأزهر في ذلك الحين هو الشيخ النشرتي فقد يمكن تفسيره بأن الشيخ النوفي لم يمكث في المشيخة سوى أشهر وربما أسابيع قلائل ، وعلى ذلك فقد أغفل المتأخرون ذكره في ثبت مشايخ الأزهر

وعلى أي حال فانه مما يصعب على المؤرخ إغفاله قول معاصر وعلامة ثقة كالشيخ النابلسي

محمد عبد الله عنان

بحوث طبية هامة لطبيب مصري :

رفع الدكتور أنيس أنسي بك الطبيب الباتولوجي الأول بمعامل وزارة الصحة إلى صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا نتيجة بحث علمي قام به أخيراً وتناول فيه موضوعين : الأول خاص بسبب تضخم الطحال في القطر المصري ووادي النيل بوجه عام ؛ وقد سبق لباحثين كثيرين أن بحثوا في هذا الموضوع منذ أربعين سنة فلم يصلوا إلى نتيجة حاسمة ، وتضاربت الآراء العلمية حول سبب « تضخم الطحال » فقال بعضهم : إن سببه « ميكروب » مجهول ، وقال آخرون : إنه نوع من الفطريات . الخ . غير أن الدكتور أنسي بك اهتدى إلى أن السبب الحقيقي لهذا التضخم هو بويضة البلهارسيا « المرض المتوطن في مصر ووادي النيل » . وقد اعتمدت الجمعية الملكية البريطانية لطب المناطق الحارة والصحة العامة هذا البحث في جلستها المنعقدة بتاريخ ٢٥ أبريل سنة ١٩٣٧ ونشرته بمجلتها

أما البحث الآخر فقد اقترن بقيام الدكتور أنسي بك بعدة إحصاءات لعمليات الزائدة الدودية فاهتدى إلى أن معظمها أو ما يقرب من ٦٠ ٪ منها راجع إلى التهاب حاد ناشئ عن الاصابة بالبلهارسيا أيضاً وخاصة في المديريات الشمالية ، وقد بين أنسي بك أنه لا ضرورة لاجراء العملية لهؤلاء المصابين بل يكتفي بعلاج سببها وهو مرض البلهارسيا . ثم أوضح في بحثه كيفية الوصول إلى التمييز بين التهاب الزائدة الدودية الصديدي الذي ينتهي غالباً بالتهاب البريتون والوفاة ، وبين التهاب الزائدة الدودية الناشئ عن إصابة البلهارسيا . فكان هذا أول بحث من نوعه في عالم الطب ، وقد قامت الجمعية الدولية للجراحة في مؤتمرها الماضي ببحث هذه النتائج فاعتمدت ما انتهى إليه الدكتور أنسي بك ونشرته على نفقتها باعتباره استكشافاً جديداً لم يسبق المؤلف المصري إليه أحد

في الاكاديمية الفرنسية :

احتفلت الأكاديمية الفرنسية أخيراً باستقبال عضو جديد فيها هو الكاتب القصصي والصحفي الكبير إدمون جالو E. Jaloux ؛ وقد انتخب للكرسي الذي خلا بوفاة الشاعر والقصصي والنقادة الأشهر بول بورجيه الذي توفي منذ بضعة أشهر ، وكان بورجيه يشغل هذا الكرسي منذ أكثر من أربعين عاماً ؛ وقد افتتح إدمون جالو عهده في الأكاديمية كالمعتاد بالقاء حديث طويل عن سلفه وعن حياته الأدبية ومميزاته ومواهبه ؛ وكان أهم ما في حديثه أن بورجيه قد تأثر في حياته بحادثين عظيمين طبعا حياته كلها بطابع خاص ؛ أولهما وفاة والدته وهو طفل وزواج والده من سيدة أخرى ، وثانيهما أنه رأى حكومة الكومون في باريس (سنة ١٨٧١) وقد أثر الحادث الأول في نفسيته أعظم تأثير ، واستطاع أن يدرس خلاله تلك العاطفة التي كثيراً ما ينوه بها في قصصه وهي : « الغيرة »

وإدمون جالو من كتاب الجنوب في فرنسا ، وهو مرسيلي الأصل ، وله عدة روايات وقصص ممتعة ، وهو صحفي يكتب في كبريات الصحف الفرنسية فصولا أدبية مختلفة

وطن قومي للنور

اختار النوَر (الغجر) في بولونيا لهم ملكا جديداً ، ومنهم في بولونيا بضعة عشر ألفاً مفرقين في سائر أنحائها ؛ وقد صرح الملك الجديد بأنه سيعمل على حل مسألة الوطن القومي للنور وسيزور السنيور موسوليني لأجل هذه الغاية ، وربما استطاع النور أن يجدوا لهم وطناً قومياً في الحبشة يلم شعثهم ويجمع صفوفهم ؛ وهذه مسألة قديمة تبحثها بعض الجمعيات السياسية في انكلترا وألمانيا منذ نحو قرن ، بيد أنها لم تعمل شيئاً لحلها . على أن النور استطاعوا خلال القرن الأخير أن يحصلوا على حقوق المواطنين في معظم البلاد الأوربية مثل النمسا والمجر ورومانيا . وقد أخذ كثيرون منهم يهجرون حياة البدو ، ويستقرون على قواعد الحضارة الحديثة ، واندمج الكثير منهم في المجتمع الحديث

ونسوا لغتهم وعاداتهم القديمة ؛ وقد حصل النور فى بلاد البلقان على حقوقهم السياسية بمقتضى معاهدة برلين فى سنة ١٨٧٨ ؛ وفى سنة ١٩٠٦ عقدوا أول مؤتمر من النور فى صوفيا وطولبوا فيه بمنح الحقوق السياسية لنور تركيا ؛ وخطب يومئذ رئيس النور رمضان عليف ، وحثهم على المطالبة بالحقوق السياسية

والآن يرى النور أن يقوموا بحركة جديدة لانشاء وطن قومى خاص بهم على مثل مافعل اليهود فى فلسطين . ومن المستحيل أن يعرف عدد النور ، بيد أنهم يبلغون فى أوربا وما حولها نحو ثلاثة ملايين

متحف للآلات الموسيقية

افتتح متحف فى نوبيرت من أعمال نيرمبرج (ألمانيا) يحتوى على مجموعة فريدة من الآلات الموسيقية هى أتم مجموعة من نوعها ، وتضم هذه المجموعة نماذج من الآلات الموسيقية فى القرون الخمسة الأخيرة ، وكلها فى حالة جيدة من الحفظ ويمكن العزف عليها ، وهى بذلك تقدم إلى الموسيقيين ومؤرخى الموسيقى مادة بديعة للدرس والتأمل ، وبواسطتها يمكن استعراض التطورات المختلفة فى تركيب البيانو الذى أصبح أداة العصر وكيف أصبح على ما هو عليه الآن ، ومن النماذج المعروضة بهذا التحف معزف (اكلافسان) صنع فى سنة ١٧٠٣ ذو ثلاث أنغام وكان ملكا لآل مديتشى سادة فلورنس ، وبيانو صنع سنة ١٧٤٠ فى أوبرزنتوفن من أعمال بلغاريا ، وبيانو آخر كان ملكا لأمير الموسيقى موتسارت من صنع كيرنباخ بماينس ، ونماذج أخرى لآلات مختلفة ترجع إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر

موسم الفن والموسيقى فى سالزبورج

يقام موسم الفن والموسيقى فى مدينة سالزبورج (النمسا) هذا العام بين ٢٤ يولية و ٣١ أغسطس ، وقد غدا هذا الموسم حادثاً فنياً عالمياً يجلب إلى سالزبورج فى كل عام آلاف الزائرين من مختلف الأقطار ، ويشرف على إحياء هذا الموسم كالعادة أقطاب الفن العالميون تسوبون وغيرهم ، مثل أرتورو توسكانينى ، وبونوفالتر ، وماكس رينهارت ، وهانس كنبر تسسبوش ، ومعروف أن سالزبورج هى موطن موتسارت ، ولهذا تحظى أوبراته بعناية خاصة ، وسيمثل منها هذا الفصل «دون جوان» «والزمار المسحور» ، «وابل فيجارد» ، وتمثل أوبرات خالدة أخرى مثل «الأساتذة المغنون» لفاجنر ، و«فيدليو» لفان بتهوفن ، و«فالستاف» لفيردى ؛ وأوبرات أخرى لريخارد شتراوس ؛ كذلك تقام حفلات موسيقية عظيمة من مقطوعات موتسارت وشوبرت ، وبيتهوفن وفيبر وهايدن وغيرهم ، ومنها حفلات كنسية تقام فى كاتدرائية سالزبورج ، وإلى جانب هذه الحفلات التمثيلية الرائعة التى تقام فى مسرح البلدية الكبير تقام طائفة أخرى من الحفلات الباهرة فى مسرح موتسارت من أول يولية إلى أول سبتمبر ، وتموج مدينة سالزبورج أثناء هذا الموسم الفنى المظيم بالزائرين من مختلف أنحاء الأرض ، ويبلغ الاقبال على هذه الحفلات حداً لايتصور ، بحيث يستحيل على الراغبين أن يفوزوا بتذاكرهم إذا لم تحجز قبلها بأسابيع

ذكرى أبى العلاء فى الرابطة العربية

رأى مجلس إدارة الرابطة العربية وقد حان موعد العيد الألفى لفيلسوف العرب وحكيمها وشاعرها «أبى العلاء» أن يوجه إلى العالم العربى نداءه ورجاءه أن يعاونه فى المهرجان الأدبى الكبير الذى سيقيمه تخليداً لهذه الذكرى وإشادة بأدب هذا الشاعر الذى يعد مفخرة العالم قاطبة والشرق خاصة

وإن الرجل الذى تدعو الرابطة إلى الاحتفال بذكراه الألفية ليس بأقل مكانة من أدباء العالم الذين قادوا الذهن الانسانى وأناروا دياجير الحياة بما وهبوا من حكمة ، فهو فى مقدمتهم بل مجليهم الأوحد . فان قامت الشعوب الغربية بتخليد ذكرى هؤلاء الفلاسفة فى مواسم حافلة يحج إليها الناس من كل فج ليتلقوا منها الوحى والالهام الأدبى ، فالأحرى بالشرق العربى أن يخلد ذكرى فيلسوفه العظيم

وإن الروح الطيبة التى أملت الاحتفالات الفخمة بتخليد ذكرى المتنبى لتجعل الأمل قوياً والرجاء كبيراً فى أن يلقى هذا النداء كل اقبال وتشجيع

هذا وستصدر الرابطة قريباً بياناً جامعاً بأسماء حضرات أعضاء اللجنة التحضيرية وموعد إقامة المهرجان ونظامه ومدته

سكرتير الرابطة

كامل زيتونه



عزلة

للكاتب القصصي الفرنسي جي دي موباسان

ترجمة الأستاذ خليل هنداوي

وكان ذلك عقب غداء فشا على أثره طرب قوى ، قال لى صديق قديم :

— هل لك بأن تجوز ممشى « الشانزليزيه » سعياً على الأقدام ؟

انطلقنا بخطوات وئيدة ، تظللنا أشجار فى مطالع الايراق ، وقد هيمن السكون على تلك البقعة ، ما عدا تمتمة مبهمة دائمة تصاعد من قلب « باريس » ، ولقد تهب نفثات باردة تضرب وجوهنا ، ومن فوقنا قناديل من نجوم تبسط على أديم السماء الأسود أزراراً ذهبية !

قال رفيق :

— لست أدرى لماذا أرى الليل — هنا — أجمل منه فى مكان آخر ؟

يخيل إلىّ أن أفكارى تتمدد فى أرجائه ، وأن فى روحى هذه السارب من النور الدافق التى تعاممنى — خلال برهة واحدة — بأن أطّلع على السر الآلهى للأشياء ، ولكن سرعان ما توصد النافذة ، فينتهى باغلاقها كل شيء

وكنا بين الدهلة والذهلة نلمح على الأرصفة شبحين متلاصقين يزلقان فى الليل أو نمر بمقعد منعزل استوى عليه كائنان لا يراهما الرائى إلا نقطة سوداء . همس فى أذنى رفيق :

— إنهما لا يبثان فى فؤادى سأماً ، ولكن إشفاقاً كبيراً ، ومن كل أسرار الحياة لا يلوح لى إلا سر واحد يشغلنى ، وإن كل عناء فى الحياة مصدره أننا نحيا دائماً منعزلين ! وكل ما نبذل من جهودنا لا نريد به إلا الفرار من هذه العزلة . إن هؤلاء العشاق المنطرحين على المقاعد فى الجو الطلق يفتشون

تأبين الرافعى

نشرت الرابطة العربية بياناً فى الصحف اليومية والاسبوعية بأسماء حضرات أعضاء لجنة الاحتفال بتأبين فقيد العروبة والإسلام المرحوم السيد مصطفى صادق الرافعى ، وبالموضوعات النثرية التى سيتناولها الأدباء فى رثائه ، وحددت موعداً لاقامة الحفلة فى شهر اكتوبر المقبل ، فتحركت لذلك عواطف أعيان الأدب وأمراء البيان وقادة الفكر فى العالم العربى وأرسل إليها بعض حضراتهم ما جادت بهم قرائحهم الوقادة إشادة بأدب الفقيد الكبير وتقديراً لآرائه وبحوثه

ولما كانت الرابطة معتزمة إصدار كتاب جامع لتاريخ حياة الفقيد ، وبعض آثاره ، وما يقال فى رثائه شعراً ونثراً تخليداً لذكراه واعترافاً بجهوده الجبار فى خدمة العروبة والاسلام ، وليكون نموذجاً حياً للأدب الخصب والثقافة العالية فهى تأمل فى كتاب الشرق العربى وأدبائه ، وأئمة البيان فيه وشعرائه ، أن يبادروا بارسال ما توحيه إليهم ضمائرهم المؤمنة بفلسفة الفقيد الكريم ، والمقدرة لأدبه الحى الحديث والقديم ، فى أقرب وقت بعنوان سكرتير الرابطة بحدائق القبة شارع الملك رقم ١١٢ حتى يكون لدى الرابطة متسع لاصدار هذا الكتاب يوم حفلة التأبين

سكرتير اللجنة

كامل زيتونه

مثلنا عما يخفف مضض انعزالهم — وما ذلك إلا عمر لحظة — ثم يظلون منعزلين ونحن أيضاً

إنهم يحسون هذه العزلة ، أقل أو أكثر منا ، وهذا كل شيء . منذ حين أقاسى العذاب لأننى أدركت واكتشفت العزلة المروعة التى أحيا فيها ، وعلمت أن لا شيء يستطيع أن يقضى عليها مهما جربنا ، ومهما عملنا ، ومهما ذهبت إليه خفقات أفئدتنا ، ونجاوى شفاهنا ، وضمات أذرعنا ، فنحن دائماً نظل منعزلين

إننى قدتك هذا المساء إلى هذه النزهة ، فراراً من الجوى إلى بيتى ، لأننى أتألم كثيراً من العزلة التى تهيمن على المنزل ، وما عسى يجديني هذا ؟ إننى أكلك وأنت تسمعنى ، ونحن وحدنا جنباً إلى جنب ، ولكننا منعزلان ...

يقول الكتاب المقدس : سعداءهم مساكين الأرواح ، إن عندهم وهم السعادة ، إنهم لا يشعرون بشقائنا المنعزل ، ولا يهيمون مثلى فى الحياة ، لا يعرفون من اللمس إلا لمس المرافق ، ولا يعلمون من الفرح إلا قناعتهم الأنانية بالفهم وبالنظر ، وبالتنبؤ وبالتألم دون نهاية من إدراك عزلتنا الأبدية

إنك لترانى مجنوناً ! أليس كذلك ؟

إننى بعد ما أحسست عزلة كيانى ، خيل إلىّ أننى أهوى يوماً فيوماً فى مهوى مظلم لم يقع طرفى على حافة له ، ولم أدرك له نهاية ، وربما كان بلا غاية . فأفلتُ إليه وحدى دون رفيق معى ولا حولى ، ولا سالكٍ طريقى المظلمة . هذا المهوى هو الحياة ، وخلال ذلك كنت أسمع صخباً عالياً وصيحات وأصواتاً فكنت أدنو من هذا الصخب المضطرب متسللاً ، ولكنى لم أعلم علم الحق من أين مأتاه ، وما ألفيتُ إنساناً ، وما عثرتُ على يد أخرى ترتفع فى هذا الظلام المسدل علىّ

هناك رجال مثلنا أحسوا هذا الألم الممض وتنبأوا به ، منهم « موسى » الصالح :

« من جاء ؟ ومن دعانى ؟ لا أحد !

أنا وحدى ! وهذه الساعة التى تدق

يا للعزلة ! يا للشقاء ! »

ولكن العزلة — عنده — ما كانت إلا شكا طارفاً ، ولم تكن حقيقة ثابتة كما هى عندى . إنه كان شاعراً ، يؤنس الحياة بأخيلته وأحلامه . إنه لم يكن وحده أبداً . ولكنى أرانى وحدى

وهنالك « غوستاف فلوبير » أحد كبار أبناء الشقاء فى هذا الوجود ، لأنه كان أحد عباقرته ، كتب إلى صديقة له هذه العبارة اليائسة « نحن كلنا فى صحراء ، لا يفهم أحد منا أحداً » بلى ! لا يفهم أحد منا أحداً ، فمهما فكروا ، ومهما قالوا وجربوا فالأرض هل تعلم ما يجرى على مسارح هذه الكواكب المنتشرة كذرة نارية فى هذا الفضاء نرى منها على البعد سماء بعضها ، والأكثر عددا منها ضائع فى اللانهاية ، وقد يؤلف القريب منها كلا واحدا كما هو الحال فى ذرات الجسد

وهكذا الانسان لا يدرى ما يجول فى صدر رفيقه الانسان وإن واحدنا لأكثر بعداً عن الآخر من هذه الكواكب السابحة ، وأكثر اعتزالا لأن الفكر لا يسبر غوره

هل تعلم شيئاً أبعث على الهول من هذا التماس الخاطف فى الأكوان الذى لا نستطيع إدراكه . إننا نحب بعضنا بعضا كأننا مقيدون مبسوطة أذرعنا دون أن نقدر على ضم . على أن حاجة ضرورية للاتحاد تؤلفنا ، ولكن جهودنا لاتزال ضائعة ، وثقتنا غير مجدية ، وعناقنا ضعيفا ، وحناننا باطلاً ، فاذا أردنا اتحاداً لم تعمل مطامعنا إلا على إقصاء واحدنا عن الثانى

إننى ما شعرت أننى « واحد » إلا حين أستسلم لصديق وأفتح قلبى له . إذ أفهم ذلك الحاجز القائم بينى وبينه . هو هنالك ، ذلك الانسان ، أرى عينيه تسطعان حولى ولكن نفسه — وراءها — لا أدركها . هو يسمعنى ، ولكن فيم يفكر ؟ أجل ! فيم يفكر ؟ إنك لا تفهم هذا القلق ، إنه ربما يقليني ، أو يحقرنى ، أو يسخر منى ، إنه يفكر فيما أقول ، يناقشنى ، يحكم على ، يرانى أبله أو أحمق . وأنى لى أن أدرك ما يفكر فيه ؟ وأنى لى أن أفهم هل يحبنى كما أحبه ؟ وما يجول فى هذه الجمجمة المستديرة ؟ ! وأى سر هذا الفكر المجهول فى كائن : الفكر المتوارى الحر الذى لا نقدر على معرفته ولا قيادته ولا الاستيلاء عليه ، أو الظفر به ؟

أنا ، أردت بكل نفسي أن أسلم نفسي كما هي وأفتح أبواب نفسي جميعها . ولكني لم أقدر على هذا الاسلام كله ، لأنني أسون في أعماق نفسي « مكان ذاتي الخفية » حيث لا يظهر أحد ولا يقدر أحد أن يكتشفه أو يدخله ، لأنه لا أحد يشبهني ، ولأنه لا أحد يفهم أحداً !

أفهمتني أنت الآن ؟ كلا ! إنك لتحكم على بالجنون ، إنك تتأمل في ، وتحترز مني ! وتسأل نفسك : « ماذا به هذا المساء ؟ ولكنك إذا قدر لك يوماً أن تدرك موضع الألم فيّ فعد إليّ لتقول لي : « قد فهمتك ! » وحينذاك تجعلني سعيداً — ولو عمر لحظة —

هن النساء اللواتي جعلنني أحسن تقبل وحدتي ، آه كم تذوقت من الألم في سبيلهن ! لأنهن منحنني ، أكثر من الرجال ، التوهم بأنني لست وحيداً !

عند ما يحب الانسان يحس أن عالمه قد اتسع ، وأن سعادة — فوق السعادة الانسانية — تغمره . هل تعلم سبب ذلك ؟ وهل تعلم مصدر هذه السعادة ؟ يعود مصدره الى أن الانسان اعتقد بأنه ليس وحيداً . وأن العزلة أو الابتعاد عن الكيان الانساني قد انتهى سلطانه ، ويا للوهم !

المرأة هي أشد قلقاً منا بهذه الحاجة الملحة للحب الثابتة التي تأكل قلبنا المنعزل ، وهي الأكذوبة الكبرى من الحلم

إنك لتعرف هذه السويعات الجميلة التي نقضيها مع هذا الكائن الذي طالت غدائر شعره ، وراقت ملامحه أو فتكت لحاظه ، فأي هذيان علك علينا أرواحنا ؟ وأي وهم يغمرنا ؟

أنا وهي لم نكن إلا واحداً في هذه الساعة ، ولكن هذه الساعة لن تحين ، وبعد أسابيع انتظار وأمل وفرح خادع ، أجد نفسي فجأة أكثر انعزالاً ووحدة من أي عهد مضى ! فبعد كل قبلة وبعد كل عناق أجد العزلة تتسع آمادها ، ويا لها من عزلة مروعة مؤلمة !

يقول الشاعر « سوللي برودوم » :

ليس العطف والحنان إلا هياماً مقلقاً

كلها تجاريب باطلة يقوم بها الحب التاعس مجرباً « الاتحاد المحال » بين « الأرواح والأجساد »

وثم وداعاً ، فقد انتهى كل شيء ، على أن هنالك جهداً في معرفة المرأة التي كانت كل شيء لنا ، في لحظة من الحياة ، وما عرفنا ولن نعرف الفكرة الباطنة والسطحية من دون ريب ! وفي الساعات ذاتها حيث يخيل إلينا أن الأكوان أصبحت في عهد اتحاد سري وامتزاج كامل للرغاب ، تنزل إلى أعماق نفسها ، وكلمة قد تكون واحدة تبدي خطأنا ، وتطلمنا — كأنها البرق الوامض في الليل — على الهاوية التي تفصل بينها وبيننا !

وهنالك ماهو خير وأحسن في الوجود ؛ أن تقضي أمسية مع امرأة تحبها دون أن تتكلم ، سعيداً كل السعادة ، مغتبطاً بمجرد قيامها إزاءك . حاذر أن تطلب أكثر من هذا ، لأن امتزاج كائنين مستحيل

أما أنا الآن فقد غلّقتُ أبواب نفسي ، لا أقول لأحد عما أعتقد ، ولا أظهر ما أفكر . أنظر إلى الأشياء ، وأنا عالم ما تحمله إليّ العزلة المروعة — دون أن أعلن عنها ، وما عسى تهمني الأفكار والمشاحنات والمسرات والاعتقادات ؟ لا أستطيع أن أقاسم أحداً فكرة ، نفسي تتنصل من كل شيء ، وفكرتي الباطنة تظل خافية على الناس ، وعندي جمل عامة لكي أجيب بها على الأسئلة التي تلقى على كل نهار . وعندي ابتسامة تقول : نعم ! حين لا أكلف نفسي مشقة الكلام

لبثنا في مشينا حتى عرجنا في سيرنا على قوس النصر ، ثم هبطنا حتى ساحة (...) وكان يعرض فكرته متمهلاً وقد أضاعت ذاكرتي الشيء الكثير مما عرضه

وقف فجأة باسطاً يده نحو المسلة العالية المنتصبة الشامخ رأسها في النجوم المنفية القصية عن موطنها الحاملة تاريخ وطنها النقوش بإشارات غريبة ، وقد هتف صاحبي :

— إننا كلنا مثل هذه الأرض !

ثم غادرني دون أن ينبس بكلمة

أهو مجنون أم عاقل ؟ لست أدري : ولكن يخيل إلي طوراً أنه على بينة من أمره ، وطوراً أنه قد فقد عقله

خليل هنداوي

5 me Année, No. 211

Lundi - 19 - 7 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة

مص

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢١١ « القاهرة فى يوم الاثنين ١١ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ١٩ يوليه سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

الضعف فى اللغة العربية

للأستاذ أحمد أمين

أبنت فى مقالى السابق أعراض الداء، ووعدت القارىء أن أعرض فى المقال التالي للعلاج

وقد قرأت فى الصحف وصفاً لعلاج قيل إن مكتب التفتيش فى وزارة المعارف اقترحه؛ وخلاصته زيادة الحصص للغة العربية، وتوسيع مكتبة التلميذ. وأظن أن هذا علاج ليس كافياً ولا شافياً، وأنه لايلاقى المرض فى الصميم، وأنه لايقدم فى الموضوع ولا يؤخر، فلو ضاعفنا الحصص والمعلم على حاله من النقص، والمنهج كما هو من الضعف، لم نصل إلى نتيجة ولم تتحسن حالة المرض

إنما العلاج الحقيقى فى إصلاح المعلم وما إليه من منهج وامتحان وتفتيش، فالمعلم الآن تخرجه ثلاثة معاهد: دار العلوم والأزهر وقسم اللغة العربية فى كلية الآداب. وكلها معيبة بعيوب أبنتها فى مقالى السابق، فلا بد للاصلاح من توحيد تلك الجهود الموزعة والاقتصار على معهد واحد يسلح بكل أنواع الأسلحة الملائمة

وعندى أن أصلح معهد لذلك هو « دار العلوم »، فتاريخها القديم فى التعليم، وسبقها الأزهر فى هذا الباب، يجعلان المصلحة

فى بقائها ؛ وكذلك صبغتها الدينية ، وما بين اللغة العربية والدين من صلة وثيقة يجعلها أصلح من قسم اللغة فى كلية الآداب ، ولكنها فى شكلها الحاضر غير صالحة ، بل لابد لصلاحيتها من أمور :

(١) فصلها عن وزارة المعارف وتبعيتها للجامعة أسوة لها بكل المدارس العليا التى كانت تابعة للوزارة كالمعلمين والهندسة والزراعة والتجارة . فالجامعة أوسع حرية وأكثر استقلالا ، والحرية والاستقلال أصلح للنحو العلمى والرقى العقلى

(٢) إعادة النظر فيها من جديد : فى نظامها وبرامجها ، فقد بليت وأكل عليها الدهر وشرب ، ولم تعد أساليبها التى كانت صالحة منذ عشرين عاماً صالحة الآن ؛ على أن يشرف على وضع هذه النظم جماعة من خيرة رجال مصر ثقافة وعقلا وسعة تفكير وعلماً بمناهج التربية

(٣) أن تكون الدراسة فيها مقصورة على المواد العلمية ، وبعد الانتهاء يدرس المتخرج سنة أو سنتين أساليب التربية فى معهد التربية .

(٤) أن يعاد إنشاء تجهيزية دار العلوم لتغذى دار العلوم ، على أن تكون مدرسة ثانوية تابعة للجامعة أيضاً ، ويعاد تنظيمها بخير مما كانت ، فيتوسع فيها فى الدراسة الدينية من قرآن وتفسير وحديث وما إلى ذلك ، وتدرس فيها لغة أجنبية حتى يخرج الطالب منها مساوياً للطالب فى المدارس الثانوية الأخرى ومتفوقاً فى اللغة العربية والدين الاسلامى ، وخريجو هذه المدرسة يغذون دار العلوم وقسم الفلسفة فى كلية الآداب ونحو ذلك ، ويكون فى دار العلوم دروس فى اللغة الأجنبية أيضاً تتمم ما درسه الطلبة فى المدرسة الثانوية

(٥) تكون الدراسة فى دار العلوم دراسة قاسية شديدة دقيقة ، فى الانتقال وفى الامتحان ، فلا يسمح لضعيف ولا متوسط الكفاية أن يخرج من هذه المدرسة لأنها ستكون — على ما أعتقد — أفعل مدرسة فى رقى الأمة وتكون عقليتها والنهوض بحياتها .

هذا هو فى نظرى أهم علاج لضعف اللغة العربية ، فالحصة من هذا المعلم الكفء خير من مائة حصة من معلم غير كفء ؛ وقديماً قالوا : « ضربة المعلم بألف »

* * *

ويلى هذا فى الإصلاح إصلاح برامج التعليم ؛ فالحق — كما قلت — أنها برامج متأخرة توضع على عجل وتنفذ على عجل ، والفرق بين برنامج قديم وبرنامج حديث فرق ضعيف لايمس الأصول . واذكر أن وزارة المعارف كانت كلفت ثلاثة كنت أحدهم فى وضع برامج اللغة العربية سنة ١٩٢٨ ، فاجتهدنا فى النحو أن ندمج أبواباً بعضها فى بعض ونحذف أبواباً لايترتب عليها عمل فى كتابة صحيحة أو نطق صحيح ، وحذفنا كل منهج البلاغة القديم ووضعنا مكانه منهجاً جديداً كل الجدة ، ولم نضع منهجاً لأدب اللغة إلا فى السنتين الأخيرتين من المدارس الثانوية ، أما السنوات الثلاث الأولى فقصرناها على قراءة نصوص فى الأدب نثراً ونظما وتذوقها ومعرفة موضع الجودة فيها وتكليف الطلبة حفظ الكثير منها واحتذاءها ، ولكن — مع الأسف — أهمل هذا النهج بل وضاع أيضاً .

فمناهج اللغة العربية وخاصة فى المدارس الثانوية تحتاج إلى ثورة تقلبها رأساً على عقب تبسط فيها المصطلحات وتحذف منها الأبواب القيمة ويقتصر فيها على ما ينتج استقامة اللسان والقلم

ولو ألف فى وزارة المعارف هيئة فنية « مراقبة » للبرامج ووضعها وطريقة تنفيذها لكانت أفضل من كل المراقبات الأخرى لأن هذا هو العمل الأساسى للوزارة وما عداه تبع له .

وليس عمل برنامج اللغة العربية فى المدارس الابتدائية والثانوية من الأمور السهلة ، فهو يحتاج إلى دراسة المناهج السابقة من أول وضعها ، ويحتاج إلى دراسة المناهج للغات الحية الأخرى فى الأمم المختلفة للاستفادة منها والاتصال بتلاميذ المدارس فى مراحلهم المختلفة لمعرفة مقدار عقليتهم وهكذا .

ثم الامتحان له كبير أثر فى ضعف اللغة ، لأن التلاميذ عندنا اعتادوا أن يقرءوا للامتحان ، ويتعلموا للامتحان ، وبقدر صعوبة الامتحان والتشديد فيه تكون عناية الطلبة .

والامتحان فى اللغة العربية معيب من وجهين : من وجهة

ورقة الامتحان فانها فى أغلب شأنها نظرية لا عملية وتعتمد على الذاكرة والحفظ أكثر مما تعتمد على التفكير والعمل ، واللغة أداة للتعبير ، والغاية منها تقويم القلم واللسان فيجب أن يرى الامتحان إلى هذه الغاية ؛ أما أن تكون الأسئلة فيما هو التشبيه الضمنى ، وما هى الاستعارة المكنية ، وأثر الثقافة اليونانية فى الثقافة العربية ، فأسئلة لا يصح أن تكون فى المرحلة الأولى ولا الثانية من التعليم ، إنما تكون بعد أن يستكمل الطالب الجانب العملى

وكذلك من جهة التصحيح ، فقد استولى على مصححى اللغة العربية نوع من العطف أشبه ما يكون بالعطف على المجرم فلا يعاقب ، وبعطف الأم الجاهلة على ابنها فلا تؤدبه ، وأخشى أن يكون هذا التقليد فى تصحيح اللغة العربية موروثاً عن رجلين أحدهما المستر دنلوب وكان ينصح بالتساهل فى اللغة العربية لأنه لم يكن يهمه أمر قوتها ، وثانيهما المرحوم الشيخ حمزة فتح الله فقد طبع على الرحمة التى لا حد لها ، وشاع عنه أن لكل مسألة وجهين ، ثم انحدر هذا التقليد من السلف إلى الخلف

والمصححون يبنون تساهلهم على فكرتين باطلتين : أولاهما أن اللغة العربية هى اللغة الأصلية فلا يصح أن يرسب الطلبة فيها ، وهذا خطأ ، لأن لغتنا الأصلية هى اللغة العامية لا اللغة العربية الفصحى وشتان ما بينهما ، ولو كانت هى لغتنا الأصلية ما شكونا هذا الضعف ؛ وثانيتهما غلبة الرحمة عليهم وقد أبنا ضررها .

وليس أدل على فساد الامتحان من حسن النتيجة المئوية مع ضعف الطلبة ضعفاً نضجّ منه جميعاً بالشكوى . أمن المعقول أن نلمس هـذا الضعف ثم تكون نسبة النجاح فوق الثمانين فى المائة ؟

كل هذا جعل التلاميذ يهزءون باللغة العربية ولا يعيرونها التفاتاً ، ويحترمون اللغة الأجنبية والرياضة لأن الاحترام عندهم تابع لنسبة النجاح ، فكلما كانت النسبة قليلة كانت العناية بالعلم أقوى؛ وليس ينسى أحد منا العبارة التى تدور على ألسنة الطلبة وهى أنهم إذا سمعوا طالباً يجتهد فى استذكار اللغة العربية قالوا له : « وهل يسقط أحد فى العربى ؟ »

ثم لهم طريقة فى التصحيح ليست صحيحة ، فهم لا يقومون الورقة ككل ، ولكن يجزئونها جزئيات صغيرة ثم يضمون درجة على كل جزئ، فيحدث أن الطالب يأتى بأخطاء شنيعة تدل على الجهل التام ومع ذلك ينجح ، حتى يخيل إليّ أن التلميذ إذا أعرب « فى البيت » فى حرف جر والبيت مفعول به منصوب لأعطوه ٥٠٪ على صحة إعرابه « فى » وخطئه فى إعرابه « البيت »

ومالى أذهب بعيداً وقد حدث فى هـذا العام أن كانت فتاة قريبة لى تمتحن فى البكالوريا ، فجاءت يوم امتحان اللغة العربية وقالت: لقد أعربت « كفى حزناً » كفى فعل أمر وحزناً مفعول به ، أليس كذلك ؟ فقلت : نعم ليس كذلك ، وقالت: لقد قلت إن من خطباء العصر الأموى أبا بكر الصديق وعلى بن أبي طالب ، أليس كذلك ؟ فقلت أيضاً : نعم ليس كذلك ، وأطلعتنى على بقية الأجوبة فأيقنت برسوبها ؛ ولو كان لى الأمر ما أنجحتها مهما أجادت بعد هاتين الغلطتين الفظيعتين ، ولكنى دهشت أشد الدهش لنجاحها !

أنا كفيل بأن سنة واحدة توضع فيها ورقة الامتحان عملية أكثر منها نظرية ، ويشدد فيها فى التصحيح شدة حازمة تساوى الشدة فى تصحيح الرياضة واللغة الأجنبية ، كافية فى أن يوجه الطلبة عنايتهم الكبرى للغة العربية فيزول الضعف وتحسن النتيجة

ولا ننسى أن التفتيش بعد ذلك له أثره ، فلو حدد الغرض منه لبانت قوته الحالية أو ضعفه ، فليس المفتش جاسوساً يضبط الجريمة ، ولا هو عدّاد يعد موضوعات الانشاء والتمرينات ، ولا غرضه الأول أن يقول إن كلمة كذا ليست فى القاموس ، كلا ولا غرضه الأول أن يكتب عن المدرس أنه جيد أو ممتاز أو ضعيف ، إنما مهمته الأولى حسن توجيه المعلمين إلى تحقيق الغرض من دراسة اللغة العربية والوصول بالطلبة والمدرسين والكتب والمناهج إلى أرقى حد مستطاع ، وبمقدار تحقيق هذا الغرض أو عدم تحقيقه يكون الحكم على قيمة التفتيش

إذا أصلح المعلم والمنهج والامتحان والتفتيش صلحت اللغة العربية فى المدارس . وهذا هو العلاج الوحيد الصحيح ، أما ما عداه فعلاج غير حاسم ولا ناجع .

أحمد أمين

أدب الموافقة

للأستاذ عباس محمود العقاد

« أعتقد أن قيمة الكاتب موصولة صلة خفية بمقدار ما يستجيشه من روح الثورة . ولعلى أقترب من صحة التعبير إذا قلت روح المقاومة . إذ لست من الحمق بحيث أتخيل أن كتاب الجناح الأيسر وحدهم هم أصحاب المزية الفنية »

« قلت محتجاً على صاحبي : إن أجمل الآثار الفنية ومنها الآثار التي يكتب لها الشيوع بعد ظهورها كثيراً ما كانت فى بداية الأمر مقصورة فى عرفان قدرها على فئة جد قليلة . وناولته كتاباً اتفق أن كان معي ساعتئذ قائلاً : إليك فاقرأ . إن بيتهوفن نفسه قد جرى عليه مثل ذلك »

« ستدفعون الفنانين بينكم إلى الموافقة . ومن أبى من خيرتهم المنتقاة أن يبتذل فنه ألجأتموه إلى السكوت ، فتعود الثقافة التي تزعمون خدمتها وإيضاحها والذود عنها وهي وصمة عار عليكم »

« مهما يكن من جمال العمل الفني فى بلاد الجمهوريات الشيوعية الروسية فهو يعيب صاحبه إن لم يكن على النسق المرسوم . إن الجمال عندهم خلة من خلال الموسرين ! ومهما يكن من عبقرية الفنان فهو مصدوف عنه عفواً أو قسراً إن لم يعمل على النسق المرسوم ، فكل ما يطلب منه الموافقة ، وهو ضامن بعدها كل ما عدا ذلك »

« إذا اضطر العقل اضطراراً إلى الاذعان لكلمة الأمر فأقل ما هنالك أنه قادر على الاحساس بفقد الحرية . أما إذا سيس العقل من بداية الأمر سياسة توحى إليه أن يذعن قبل أن تأتيه كلمة الأمر فقد بلغ من فقده أن يفقد حتى الشعور بالاستعباد . وإنى لأعرف من أجل هذا أن كثيراً من الفتيان الشيوعيين يستغربون ويعمون فى الانكار إذا قيل لهم إنهم محرومون نعمة الحرية »

« إن خير الوسائل التي يبلغ بها الكاتب مرتبته العالية لهي مواهبه المتفردة بكل التفرد . لأن المرء إنما يكون بشراً عريق الانسانية بفرط ما فيه من الخصال الفردية ، فما كان روسى أعرق روسية من مكسيم جوركى ، وما أصغت أسماع العالم إلى كاتب روسى أشد من إصغائها إليه »

* * *

تلك شذرات من الكتيب اللطيف الطريف الذى كتبه الأديب الفرنسى الكبير « أندريه جيد » بعد عودته من البلاد الروسية ، متحريا فيه ما تعود أن يتحراه من الصدق والصراحة والاعتراف بالخطأ والانفة من الاصرار عليه ذهابا مع الغرور والكبرياء . وقد كان من نصراء الدولة الروسية الحديثة وأصحاب الرجاء العظيم فى تجاربها ومساعيها . فلما شهد الحقيقة بعينيه لم يخادع نفسه ولم يغالط حسه، وعاد يأسى ويأسف فى لهجة منزهة عن الضغينة والتشهير ، ولكنها تشف عن خيبة الرجاء فى كثير من الأمور فالثقافة هى مقياس الصلاح فى كل نظام

أما مقياس الثقافة فهو الابتكار والحرية ، أو هو « المزايا الشخصية » التى يعبر عنها الفنان والشاعر والكاتب كما قررنا ذلك وأعدنا تقريره مرات ، ولا نظنه اليوم فى غنى عن التقرير

لا أمل فى نظام حكوى أو نظام اجتماعى لا تقترن به ثقافة العلوم وثقافة الفنون

ولا أمل فى ثقافة نعرف ما تنتجه قبل أن ينتج ، ونستغنى عما تصوغه قبل أن تطلع عليه ، لأنه لن يعدو ما نعلم وما نظن من موضوع ومن غاية ومن قالب ومن تصوير وتفكير

وقد نسى « جيد » أن الكاتب الروسي فى ظل الشيوعية مطالب بشيء غير « الموافقة » وأصعب تحصيلاً على طالبه من الموافقة ! لأنه إذا وافق الروسيين الخاضعين للأمر والوحى والالهام فمن الواجب أن لا يوافق القراء الغرباء الذين لا يخضعون لأمر ولا يصدرون عن وحى أو إلهام . وويل للكاتب الروسي الذى يصاب باستحسان العالم لما يكتب ويبتلى بتقريظ النقاد فى بلاد رأس المال لما يمثله من شعور ويرمز إليه من آمال ويشابه به الآدميين الموسرين من عواطف وأحلام وأفكار

تلك إذن خيانة ، تلك إذن مخالسة وخديعة ، تلك إذن مؤامرة بين الكاتب وبين نظام رأس المال ، ويكفي أن يتشابه الانسان الشيوعى والانسان « البورجوازى » فى بعض العواطف والأحلام لتثبت دلائل المؤامرة كل الثبوت ، أو يثبت شذوذ الكاتب عن خلائق الشيوعيين ، لأنه إنسان كسائر الناس ! !

ومن أضاحيك القوم أن تصدر رواية لبعض أعلامهم بالانجليزية والفرنسية والشيكية ولا تصدر بالروسية ، ونعني بها رواية « نحن » لمؤلفها الكاتب الروسي النابغ « زمياتين » الذي يدين بالثورة ولكنه يدين بآمال لبني الانسان وراء آمال الشيوعيين .... فيقول الناقدون الحكوميون الحصفاء : وماذا عسى أن تكون تلك الآمال ؟ أليس هذا دليلاً على أن الكاتب يخامره شعور كشعور الموسرين الذين فقدوا غناءهم فهم أبداً في حنين إلى حال وراء هذه الحال ؟ !

وحقت اللعنة على زمياتين لأنه يحظى بالشهرة والمتابعة بين أناس من الآدميين البورجوازيين ، فضاع الرجل في بلاده ولم يغن عنه إعجاب القراء في غيرها ، ولم يؤذن له أن يكون إنساناً لأن الانسانية تشمل الناس جميعاً . أما الشيوعية فلا ينبغي أن تشمل أحداً غير الشيوعيين ! . .

ونحسب أن المقاييس كلها عرضة للضلال والحيرة والاشتباه ، إلا مقياس الحرية الفنية فهو وحده حسب الباحث من قياس صحيح وافٍ لمراتب الأمم وفضائل المجتمعات ومآثر الحكومات

فلا حرية — حق الحرية — حيث تتقيد الثقافة الفنية ، ولا استعباد — حق الاستعباد — حيث تنطلق الثقافة الفنية من قيودها

وبهذا المقياس الصادق المحكم ننفذ إلى الصميم من وراء الأغشية والظواهر ولا نقصر الحكم على الحرية التي تمثلها الشرائع ودساتير الحكومات

فرب أمة لا تشتمل قوانينها على حرف واحد يحرم الابتكار والحرية ، بل تنص القوانين فيها على حرية الرأي وحرية الابداع والتصوير ، ثم يظهر « الأثر الفني » فيها فتضيق به الصدور وتشيح عنه الأبصار وتتلاحق الكوارث على رأس صاحبه ، لأنه يقول ما لا يعجب الناس وإن لم يقل ما يخالف القوانين ويناقض الدساتير

تلك أمة من العبيد وإن قيل على الورق إنها أمة من الأحرار .

وشر ما فيها أنها مستعبدة مقهورة بغير حراس وغير قيود وغير طغاة ، ولو كان استعبادها من حراسها وقيودها وطغاتها لزال الاستعباد حين يزول جميع هؤلاء .

ورب أمة تزدحم الأوراق فيها بتحريم هذا وعقوبة ذاك ولا تنقطع فيها مبدعات الجمال وآيات الفنون فترة من الفترات . فارجع إلى مقاييس القوانين كلها تقل لك إنها أمة مغلوبة مسلوبة ، وارجع إلى مقياس الفن وحده يقل لك ما هو أصدق وأعمق ، وهو أن السعة سعة النفوس والأذهان لا سعة الدساتير المسطورة على الأوراق ؛ وإن نفساً تتسع للابداع الحديث وترحب بالرأي الغريب وتستقبل النوازع النفسية والخوالج الفنية بغير حدود ولا أرصاد لهي حرة في غنى عن الاذن لها بالحرية ، وهي وشيكة أن تنفض عن كواهلها كل ثقل يحول بينها وبين العمل الطليق

* * *

شر الآداب هو أدب الموافقة والمجاراة . لكننا نخطىء إذا حسبنا الحكومات الغاشمة علة هذا الأدب دون سائر العلل التي تفرضه على الكتاب والقراء

فالأدب التجاري أدب موافقة ومجاراة وإن لم تفرضه حكومة ولم يطلبه حاكم غاشم . لأن الذي يكتب للرواج يكتب ما يوافق الأذواق ويجاري الأهواء ، ولا يكتب ما ينبعث من سليقة حرة وقريحة شاعرة ، والذنب في ذلك على الأخلاق لا على القوانين

والأدب الضعيف أدب موافقة ومجاراة وإن لم تفرضه حكومة ولم يطلبه حاكم غاشم ، لأن النفس الضعيفة لن تهتدي إلى القوة ولو أخلي لها الحاكم طريقها . فهي توافق وتجاري عجزاً عن الخلاف والانفراد ، لا خوفاً من التفكير الطليق والقول الصريح

والأدب الجامد أدب موافقة ومجاراة ، لأنه ينافر الحركة ويوافق السكون والركود

والأدب الذليل أدب موافقة ومجاراة ، لأن الذليل لا يحسن غير التمليق والازدلاف . ولن يكون الملق إلا بالموافقة ولو كانت غير مأجورة ، وبالمجاراة ولو كانت غير مشكورة

وما من عيب تعينه على أدب من الآداب إلا انتهى في قراره إلى أن يكون ضرباً من الموافقة ونقصاً في الحرية والابداع . فالموافقة لا جديد فيها ولا حاجة إليها ولا دوام لها ، وإنما تولع النفوس بالأدب لأنها متغيرة وليست براكدة ، ولأنها متطلعة وليست بعمياء ، وكيف يتفق التغير والمطابقة ؟ وكيف يتمشى التطلع والاستقرار ؟

إلا أننا نبادر فنقول إن أناساً يتمردون ولا يجيئون بخير مما هو منظور من الأدباء الموافقين المستسلمين ، لأن التمرد المصطنع إن هو إلا موافقة مستورة ومجاراة معكوسة ، فيه كل ما يؤخذ على التقليد من نقص وكل مما ينعي عليه من وخامة ، وذلك ما نعود إلى تفصيله في مقال تالٍ

عباس محمود العقاد

منتسكيو

آراؤه ومثله

للأستاذ إسماعيل مظهر

إن اسم منتسكيو لاسم عظيم . والأثر الذى خلفته أعماله يبزل من الخلود فى داخل أوربا وفى خارجها منزلة تمهد لمن يريد أن يترجم له أن يتصل به متنحيا طرقاً شتى ومداخل متفرقة . ذلك بأن أعمال هذا الرجل العظيم قد تركت أثراً رئيساً فى جميع ما ظهر فى عالم الفكر من النظريات السياسية ، حتى أن كاتباً من أشهر كتاب هذا العصر قد ذهب فى نقد نظرياته مذهباً قضى فيه بأنهـا أول ما مهد لظهور فكرة « العقد الاجتماعى » التى كونها « رُوسُو » ودافع عنها أبلغ دفاع . ولا شك فى أنك تبهر بعبقرية هذا الانسان الفذ إذا علمت أن نظرياته السياسية كانت العمدة فى صوغ دستور الولايات المتحدة ، ومن هنا كان أثر « منتسكيو » عظيماً فى الترويج للفكرات والمبادىء التى قام عليها الدستور الانجليزى ، كما كانت باكورة الدراسات العميقة التى تناولت بُدايات التكوين السياسى الذى نشأ فى فرنسا خلال القرون الوسطى . فكان بمجموعة أعماله ودراساته وأفكاره من الرجال الذين عبّدوا الطريق للثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر

لهذا يجدر بنا أن نمهد للكلام فى الترجمة له بذكر شىء من الأطوار التى تقلبت فيها حياته السياسية . فقد كان « منتسكيو » رئيساً لمحكمة « بوردو » العليا ، وهى أول هيئة تشريعية إقليمية كانت فى فرنسا . وكان أعضاؤها يطمعون فى أن يكون لهم مقاعد فى محكمة باريس العليا . غير أن محكمة العاصمة الكبرى لم تذعن لهذا المطلب . لهذا ظلت النزعة « البرلمانية » جلية الأثر جد الجلاء فى كل ما كتب « منتسكيو » ، بالرغم مما كان يطنب فيه من الالمامات التاريخيـة المستفيضة وتملقه فى مجال البحث الاجتماعى بمعالجة مشكلات أوربا خاصة ؛ والانسانية عامة . فيجب أن نبي إذن ذلك الأثر المزدوج الذى أحدثته المحاكم العليا فى تاريخ فرنسا . فانها كانت حتى نهاية القرن السادس عشر الأداة الرئيسة التى اتخذتها الملوكية المركزية ، ذريعة لمدّ نفوذها ، وتثبيت سلطانها ، إتقاء لنفوذ النبلاء ومطامعهم من ناحية ، ودرءاً لسلطان الكنيسة من ناحية أخرى . وكانت هذه الأداة مجدية فى إضعاف نفوذ النبلاء الموروث ، وهو نفوذ يتضمن فيما يتضمن سلطاناً واسعاً ، مالياً وإدارياً

وكانت الخطة أن تقرر المحاكم العليا أن من حقها النظر فى « الدعاوى الملكية » التى كان كبراء أصحاب القطائع يرغبون فى أن تنظر أمام محاكمهم الخاصة . وكذلك قررت تلك المحاكم على اختلافها ، أن من حقها النظر فى الدّعاوَى التى يقتضى النظر فيها انتقاصاً من سلطان الكنيسة ، قضائياً ومالياً . ولا شك فى أن القوة الباطشة التى حازتها الملوكية المركزية فى فرنسا فى القرن السابع عشر ، كانت نتيجة لأشياء ثلاثة : الجيش ، ومجلس البلاط ، والمحاكم العليا

ولم تكن المحاكم العليا عند أول نشأتها فى فرنسا ، إلا جزءاً من مجلس البلاط . وكان من أثر هذه المحاكم كما يقول « هانوتو » أن احتفظت فرنسا بوحدتها ، ولم تُمَزَّق ولايات متفرقة

وفى أخريات القرن السادس عشر حدث انقلاب ، ساد محاكم فرنسا العليا ، وظهر أثره واضحاً فى روحها المنوية وفى عملها . فانها بدأت تستمسك بقوة بكل ما يدعى الملك من حقوق الدولة ، لتقضى بذلك على ما بقى لكبار أصحاب القطائع ورؤساء الكنائس من الامتيازات . غير أنها ، بجانب هذا ، بدأت تظهر بمظهر الأداة المستقلة عن إرادة الملك أيضاً . فكانت بطبيعة تكوينها وتاريخها ، الوسيلة الوَحيدَة التى يمكن أن تعارض إرادة الملك آمنة رخية البال . ذلك بأن أعضاء هذه المحاكم كانوا يملكون بالوراثة حق الجلوس فيها . ولم يكن من الهين أن يُسلب واحد منهم حقه فيها ، حتى أن « رشيليو » فى كتابه « العهد السياسى » ، قد عَبَّر بعمق عن الأخطار التى يجوز أن يواجهها العرش من نفوذ أعضاء المحاكم العليا ، أو من مسلكهم الذى يسلكونه عند الضرورة . وعصر « الفُرُونْد » Fronde والسنوات الأخيرة من حكم الملك لويس الخامس عشر ، قد حققت كل ما جال فى مخيلة « رشيليو » من المخاوف . ومجمل ما نرى إليه من هذا كله أن نوضح أن « منتسكيو » كان يرى أنّ الوظيفة الأولى للمحاكم العليا إنما هى فى أن تصمد لقوة الملك وأن تحد من سلطانه : قال :

« إن هذه الهيئات — المحاكم العليا — من أبعد الأشياء

تلاؤماً مع طبع الملوك . فان أعضاءها كثيراً ماينغصون على الملك بسرد حقائق غير مرغوب فى سماعها ولا يتصلون بالملك إلاّ لعرض الشكايات الحق . وأنت إذ ترى أن فئة من البطانة الملكية تلقي فى سمع الملك دائماً أن الشعب فى رغد وسعادة فى ظل الحكومة ، إذا بتلك المحاكم تظهرما فى أقوال هؤلاء من كذب ونفاق ، وتقرع مسامع العرش ، حيناً بعد حين ، بصدى تلك الأنات العميقة الجافية التي تتنفس عنها صدور أولئك الذين يتلونهم »

* * *

كتب منتسكيو بضع عبارات بالغة منتهى الجودة والابداع حلل فيها نفسيته ، وصور بها أخلاقه ويحسن بنا أن ننقل بعض فقرات منها ؛ وذلك أقوم سبيل تعرف به شيئاً من حقيقة منتسكيو :

يقول إنه وهب حساً عميقاً جعله يقدس معنى الصداقة ، فلم يجازف بان يخلع نعت الصديق على كل من اتصل بهم من الناس ؛ ولذا يذكر ، ولعله يذكر بحق ، أنه لم يفقد طوال حياته غير صديق واحد .

وكان خجولاً . حتى أن الخجل كان مصيبته الخلقية الكبرى ؛ قال :

« يخيل إليّ ان الخجل يغشّى على كل أعضائى الجسمانية ، فيربط لسانى ، ويظلم أفكارى ، ويقضى على كل ما عندى من قدرة على التعبير . ومن العجيب أنى أقل تعرضاً لنوبات الخجل فى حضرة ذوى الألباب منى فى حضرة الحمقى والمغمورين »

فلا عجب إذن إذا رأينا « منتسكيو » يمقت كل المقت ذلك الجو الخانق الذى كان يأنسه فى البطانات الملكية ؛ قال :

« لم أجهد نفسى فى أن أسعد وأربى من طريق البطانة . وإنما أمّلت دائماً أن أثرى من عملى فى ضياعى ، وأن أتاقى الخير من يد الآلهة لا من يد البشر » .

وليس لنا بعد هذا أن نعجب من أن « منتسكيو » كان لا يرى سبيلا للفرار من متاعب الحياة إلا بالنزوع إلى أسمى ما تتجه إليه الأنفس الأبيّة ، المتطلعة إلى المثل العليا ، والغايات السامية ؛ قال : —

« كان الإكباب على الدرس والتحصيل الدواء الواحد الذى استطعت أن أنجو به من كثير من مرارات الحياة . ولم آنس فى الحياة من حرج ، لا تكفى ساعة واحدة أقضيها فى القراءة ، لكى تذهب بكل آثاره من نفسى »

وكان عريض الأمل ، شامل النظر ، كُلى المرامى ، إنسانى النزعة ، فان الثورة الفرنسية ، وهو من أكبر الممهدين لها ، لم تلبث أن استقوت عليها بعد قليل الروح القومية ، فأسلمت نابليون قيادها ، وألقت بين يديه بروحها ؛ تلك الروح التى كانت أكبر الأسباب فى انتصاراته ؛ غير أن سيل الفكر الجارف الذى تقدم شبوب الثورة ، كان من غير شك ، ذا صبغة إنسانية . ومن كلمات لمنتسكيو ننقلها هنا يتضح لك الاتجاه الحقيق للفكر الفرنسى قبيل الثورة العظمى ؛ قال :

« إذا وضح لى أن شيئاً من الأشياء لى فيه نفع ، ولكنه مضر بأسرتى ، فإنى أنفيه من عقلى ، وأطرده من مخيلتى . وإذا وقعت على شىء نافع لأسرتى ، ولكنه مضر بوطنى ، فإنى أجتهد فى أن أنساه . أمّا إذا سقطت على شىء مفيد لوطنى ، ولكنه مضر بأوربا ، أو بالسلالة البشرية ، فأقل ما أعتبر أن نيله جريمة كبرى . »

وكان لمنتسكيو نظرات فلسفية عميقة فى حقيقة الخلق الانسانى ، طبقها واتخذها فى الحياة إماماً . وكان ككل الفلاسفة المثيين الذين درجوا من قبله يعتقد أن اللذة والألم دستور السلوك الانسانى . ولكنها اللذة التى لا تطفر نتصير شهوة ، والألم الذى يحتمل بصبر وشجاعة فى سبيل تحقيق المثاليات ؛ قال :

« إن دورة عقلى قد هيئت ، لحسن الحظ ، بحيث تجعلنى شديد الحساسية فأتأثر بالأشياء ابتغاء الاستمتاع بها . ولكن لم تبلغ حساسيتى بالأشياء حداً يجعلنى أتألم من فواتها »

من هنا نستطيع أن نؤلف صورة تدلنا على شىء من حقيقة « منتسكيو » ، وهذا كاف للتعريف به . ولهذا ننتقل الى الكلام فى مبادئه ونظرياته السياسية ، فإنها أخص ما يعلق بالذهن كلما ذكر اسم « منتسكيو »

* * *

إذا شرعت تقرأ كتاب منتسكيو «روح القوانين» ، وضحت لك صورتان جليتان : الأولى ، رجوعه فى التدليل على نظرياته إلى التاريخ ؛ والثانية : نزعته إلى أحكام الآخرة بين النظرية السياسية ، والعلوم الطبيعية . وللصورتين أهميتهما القصوى فى التعريف بمنتسكيو ودرس مذهبه . ناهيك بأنهما بداية ذلك التطور الفكرى الكبير الذى تناول منازع هذا الرجل العظيم منذ نشأته

مُفكّراً ، حتى تمام تكوينه كقوة عظيمة ، أثرت ، ولا تزال تؤثر ، فى مناحى الفكر والعمل الانسانى .

كان « منتسكيو » مفرط العناية بقراءة التاريخ . ولن تبالغ إذا قلت إنه كان بالتاريخ أشد هياماً من « روسو » . ذلك إلى أنه أوسع من « فولتير » نظراً ، وأشمل إحاطة ، وأنزع إلى معالجة المشكلات الاجتماعية . ومع كل هذا فإن معرفته بالتاريخ مقيسة على مفهومه الحديث ، كانت ضيقة محدودة . وكان من المحتوم أن يكون علمه بالتاريخ ضيق الحدود ؛ إذا وعينا أن التاريخ الحديث خلق جديد من مخلوقات القرن الثامن عشر

كانت معرفة « منتسكيو » بحوادث التاريخ تامة ، بالغة منتهى الضبط والإحاطة . ولقد حوى كتابه « عظمة الرومان وانحطاطهم » أسمى صور البلاغة ، وجمال الأسلوب . بل إنك لا تقول شططا إذا قضيت بأن أكثر النظريات التحليلية التى بثها فيه « منتسكيو » عند الكلام فى أربعة القرون التى أظلت نشوء النصرانية ، سبقاً وتعقيباً ، كانت عادلة متزنة ، لا هى إلى الافراط ولا هى إلى التفريط . ولقد كتبت الفصول الأولى من هذا الكتاب فى عصر لم يكن سلطان النقد قد تناول فيه التاريخ بعد ؛ فإنه كتبها قبل ظهور كتاب « تيبوهر » الذى يعد الفتح الأول للنقد فى مجال التاريخ . وكانت آراؤه فى القيصرية الرومانية الغربية وسبب انحلالها نفس الآراء التى ذاعت فى سبب انحلال القيصرية البوزنطية . وتلك وجهة من النظر التاريخى ذاعت فى القرن الثامن عشر ؛ ومن حسن الحظ أن البحوث التى ظهرت فى خلال نصف القرن الماضى ، قد طهَّرت منها عقول المؤرخين ، تطهيراً كاملاً

وكان « منتسكيو » ، إلى هذا ، محيطاً بتاريخ رومية أوسع إحاطة ، فاهما جوهره أقوم فهم ، ملماً بعناصره أمتن إلمام . ولكن معرفته بتاريخ اليونان كانت بغير شك أقل من معرفته بتاريخ رومية . وكتاباته فى تاريخ العصور الوسطى ، لا تخرج عن كتابات مُلِمّ بالآثار البدائية (الأرخيولوجيا) لا بالتاريخ

أما معرفته بتاريخ فرنسا فكانت شاملة ، وبخاصة تاريخها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ؛ ولا شبهة فى أنه كان محيطاً بتاريخ العصر الذى عاش فيه . وكان شديد العناية بدرس تاريخ انجلترا ، مشغوفاً بمسائله ومشكلاته . ولكن نظرته فيه كانت شاذة بالرغم من طرافتها

ولم يهمل « منتسكيو » التاريخ العام ، الذى يعتبر تاريخ رومية وفرنسا وانجلترا ، أجزاء منه وتفقاً ؛ بل زوده بعناية الدرس والتحصيل . فإن تاريخ مصر وبابل والهند والصين واليابان وشعوب خط الاستواء ، وشعوب الجد الشمالى ، كانت ماثلة له حية فى مخيلته . ولكن لم يكن الزمان قد زَوَّدَ المشتغلين بالتاريخ بعد بعدة يستخرجون بها من ماضى الشعوب صوراً واضحة جلية

يظهرنا هذا على أن عنايته بالتاريخ كانت كبيرة ولكن من الخطأ أن نتصور أن فلسفته السياسية كانت مستمدة من معرفته بالتاريخ ، أو مستندة إليها ؛ فانك إذا مضيت تماثل بين ما كتب أرسطوطاليس أو لا دوبرابس ، وبين ما كتب « منتسكيو » وقعت على الفارق العظيم ، والصدع النائى الذى يفصل « منتسكيو » فى العصور التى تقدمته ، والعصور الذى تلته ، وجملة الفارق بين الأساليب التى اتبعها القدماء ، والأساليب التى انتحاها المحدثون . فان « منتسكيو » كان يتخذ من التاريخ مضربا للأمثال والمثلات ، ليؤيد وجهة نظره ، ولكنه لم يستمد من التاريخ بالذات تلك الآراء التى قامت عليها نظرياته السياسية ، وليس عندنا من دليل على هذا أقوم من الدليل الذى ترجع فيه إلى الفصل الثامن من كتابه « روح القوانين » إذ يقول :

« كما أن الديمقراطيات تفسد وتنهار باعتداء الأمم على المحاكم العليا – البرلمان – والحكام والقضاة ، واستلاب حقوقهم وخصائصهم ، كذلك تسقط الملوكيات ، أو هى تأخذ فى الانحلال إذا مضت تسلب من النقابات والجمعيات والمدن امتيازاتها الطبيعية والحالة الأولى مظهر لاستبداد الجماعات ، والثانية مظهر لاستبداد الفرد . »

« إن السبب الذى أسقط أسرتى « تسن » و « سووى » كما يقول مؤلف صينى ، إنما يرجع إلى أن أمراء الأسرتين لم يكتفوا من الحكم بالاشراف الأعلى على شئون الدولة ، كما كان شأن الأمراء فى الأسر اللواتى سبقت فى الحكم ، وكما هو طبيعى أن يكون فى ملوكيات رشيدة ؛ بل حاولوا أن يتحكموا ويحكموا فى كل شئن من الشئون بأنفسهم ، وبغير واسطة .

وكانت هذه المؤلف الصينى ، تعبر عن الأسباب التى يعود إليها

سقوط الملوكيات فى كل الأزمان . »

« إنما تسقط الملوكيات بأن تقوم فى نفس الملك شهوة ان يظهر جبروته وسلطانه ، فيحرّف النظم المقررة ويفسدها ، بدل أن يحافظ عليها ويرعاها . ومثل ذلك أن ينتصب الحقوق والامتيازات التى تقوم عليها بعض النظم من يد فئة ، ويهبها باختياره ، ولمجرد إشباع شهوته ، لفئة أخرى ، أو أن يحكم خياله وتصوراته فى شؤون الدولة ؛ دون عقله ونُهاه . »

« تنهار الملوكية عند مايقدم ملك يحاول أن يحصر كل شىء فى ذاته . فيركز الحكومة فى عاصمته ، ويركز العاصمة فى بطانته وحاشيته ، ويركز البطانة فى ذاته ؛ وفوق كل هـذا يكون سقوط الملوكية سريعاً مروّعاً ، عند ما يسىء الملك فهم سلطته ومركزه ، وحب شعبه له ، وعند ما يغيب عن فهمه أنه يجب أن يشعر دائماً بأنه فى أمن وسلام ، قدر ما يشعر المستبد القاهر أنه دائماً فى خطر » اه

فهل من شك فى أن « منتسكيو » ، وهو رئيس محكمة « بوردو » العليا إنما يعبّر بهذا عما قام فى ذهنه عن ملوكية لويس الرابع عشر وخلفه ، وأنه ذلك المؤلف الصينى ، الذى يخيّل إلينا أنه لم يوجد إلاّ فى مخيّلة مؤلف « روح القوانين » لم يُقحم فى هذا الموقف إلاّ ليكون مادة لضرب المثل ، وإظهار المثلة ؟ ليس هذا ببعيد . ذلك بأن « منتسكيو » يعرف تمام المعرفة ، كما ذكر فى غير الموطن الذى نقلنا عنه هذا القول ، أن الملوكيات كثيراً ما فسدت وانحلت متأثرة بأسباب تختلف كل الاختلاف عن الأسباب التى ذكرها .

كذلك لايستطيع المؤرخ أن يعزو كبير قيمة لنزعة هـذا العبقرى إلى الاستعانة بالعلوم الطّبيعية . فإن قوله بأثر البيئة الطبيعية كأن أمراً له فى البحوث الاجتماعية والسياسية ، إلى جانب الجدة والحداثة ، خطره العلمى . غير أن هذا البحث تجلوا فى الصورة التى لابسته فى ما كتب « منتسكيو » ، وفى الصورة المحرفة التى ظهر بها فى بحوث « روسو » ، لن يجد فيه المفكر الحديث مقنعاً ، أو يقع فيه على حقيقة تنقع الغلة . فلقد عالج تطبيق العلوم الطبيعية على الاجتماعيات من وجهة هي على غرابتها وبعدها عن مناحى الفكر الحديث ، تثير عند المحدثين الذين يعرفون مرامى العلم العملى ومنازعه ، كثيراً من الاستخفاف بها ، والسخرية منها . ومثلنا على ذلك ما عالج به حالات انجلترا الاجتماعية من الآراء التى بثها فى فصلين من « روح القوانين[1] » فإن آراءه التى بثها فى ذينك الفصلين ، تحمل على القول بأن « منتسكيو » كان فيها إلى الهزل والمجانة ، أقرب منه إلى الجد . ويزيدنى بهذا الأمر ثقة أن فلاسفة القرن الثامن عشر لم يتعفّفوا عن النزعة إلى المجون ، بجانب ماكان فيهم من حب النفع العلمي ، والاستقامة فى التفكير . وعندى أن « منتسكيو » لم يرم بما كتب فى الفصلين السالفين إلا إلى الاستخفاف بقرائه من الانجليز . وما قولك فى رجل يبدأ البيان عن حالات الانجليز الاجتماعية بالكلام فى تأثير طقس بلادهم ، فيعزو إليـه نزعة الانجليز إلى الانتحار : ثم يحاول أن يعلل الصورة التى تلابس ميولهم القومية ، فيقول إنها ترجع إلى ضعف الاستعداد الطبيعى على ترشح العصارة العصبية . وهذا قول لايكفى أن يكون سبباً فى تعليل ميول الانجليز القومية لاغير ، بل يكفى للقول بأن الشعب الانجليزى مقضى عليه بالفناء جميعاً .

وهو يحاول فى فصل تال أن يفسر تأثير ذلك الأمر على شكل الحكومة الانجليزية فيقول إن سلالة لها استعدادها فى التأثر بالاستثارات المختلفة وقلة ثباتها على شىء ، لن تصبر على حكومة تُلقى مقاليدها فى يد فرد واحد ، فلا تقوم خارجة على سلطان الحكومة وعلى سلطانه ، وإنه من الطبيعي أن تحلم أمة غرس فيها طقس البقعة التى تسكنها من كرة الأرض خليقة القلق والجزع ، بحيث لا تحتمل البقاء على حالة بعينها ، أو الصبر على شىء بذاته ، بقوانين مستخلصة من التجارب ، فيكون من الصعب نبذها والنزوع إلى غيرها . ويخلص « منتسكيو » من هذا إلى رأى أعجب من كل آرائه الأخر ، مؤداه أن الدستور الانجليزى ، إنما هو جنى الضباب الذى يحط على بلادهم . أضف إلى ذلك أنه يعزو دين الانجليز إلى السبب عينه ، فى موضع آخر من ذلك الكتاب .[2]

اسماعيل مظهر

---

(١) هما الفصلان الثانى عشر والثالث عشر .

(٢) المصادر : دائرة المعارف البريطانية ، وبخاصة بحث الاستاذ أ . ج جرانت أستاذ التاريخ الحديث فى جامعة ليدز سابقاً .

من ذكريات الحملة الفرنسية

رستم مملوك الامبراطور

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يرقد نابوليون فى مثواه الخالد فى مؤخرة صرح الانفاليد بباريس ، فى تابوت من الرمر القاتم ، تظلله قبة فخمة رائعة ، وقد ركزت حوله عدة من الأعلام التى ظفر بها الامبراطور فى الوقائع الشهيرة التى خاضها وكان النصر حليفه فيها مثل مارنجو ، وفاجرام ، وايلو ، وأوسترلتز ، وبينا ، والاهرام ، وغيرها ؛ وقد استوقفنا يوم أتيحت لنا زيارة قبر الامبراطور منظر ذينك العلمين المزقين اللذين كتب أمامهما موقعة الاهرام ، فلم نستطع أن نميز لهما لوناً أو علامة خاصة أو أن نقرأ فيهما شيئاً

كانت الحملة المصرية من أعظم الحوادث التى تركت فى ذهن نابوليون أثراً خالداً ؛ ومع أنهـا اختتمت بالفشل من الوجهتين العسكرية والسياسية فانها تركت من الوجهة المعنوية أعمق الآثار ؛ ولم يكن نابوليون حين مقدمه إلى مصر فاتحاً يبحث وراء طالعه فقط ، ولـكنه كان يتصور انه يستطيع أن يعيد حلم الاسكندر ، فيبدل الأمم والحضارات ؛ ومن ثم فقد حشد فى جيشه المطابع والأدوات العلمية إلى جانب المدافع ، والعلماء المبرزين فى كل فن إلى جانب الضباط والقادة ؛ ولم يكن ظفر نابوليون بفتح مصر والبقاء فيها مدى حين ، ليضارع تلك الجهود البديعة التى اضطلع بها علماء الحملة الفرنسية لدراسة مصر وحضارتها ، وتلك النتائج العلمية الباهرة التى وفقوا اليها ، ودونوها فيما بعد فى كتاب « وصف مصر » أعظم وأقوم موسوعة ظهرت عن مصر ، فى العصر الحديث

ولما عاد نابوليون من مصر إلى فرنسا حينما تعقدت الحوادث وتجهمت ، (أكتوبر سنة ١٧٩٩) ، لم يكن لديه أمل فى استبقاء مصر طويلا ، ولـكنه أراد أن يغادرها جنده فى أفضل الظروف والشروط ؛ وهذا ما وقع بعد قليل ، فقد انتهت الحوادث بجلاء الفرنسيين عن مصر فى أواخر سنة ١٨٠١ ؛ ولـكن نابوليون لم يقطع صلته بمصر ، ولم ينقطع اهتمامه بشئونها ؛ فقد عنى بعد ذلك بتأليف لجنة من العلماء الذين رافقوا الحملة إلى مصر مثل برتوليه ومونج وفورييه ، لتضع موسوعة شاملة عن مصر ، وظهر أول مجلد من هذه الموسوعة ، أو كتاب وصف مصر الذى أشرنا اليه فى سنة ١٨٠٩ ، واستمر صدورها بعد ذلك أجزاء متعاقبة الى سنة ١٨٢٦ ، وكانت من أعظم ثمار الحملة العلمية

ولبث نابوليون وثيق الصلة بمصر وذكرياتها عن طريق آخر ؛ ذلك هو حرسه الخاص الذى ألفه من بعض المماليك والأقباط والترك والسود الذين اصطحبهم معه من مصر ؛ وكانت هـذه الفرقة المختارة التى يرتدى أفرادها الثياب الشرقية الزاهية ويركبون الخيول المطهمة تصحب القنصل الأول ، ثم الامبراطور ، فى غدواته وروحاته ، الى التويلرى ومالمزون ؛ وكان منظرها الفخم المروع معاً ، يثير طلعة الباريسيين ودهشتهم ، فيحتشدوا لرؤية أولئك الفرسان الشرقيين ، أولى الشوارب المفتولة ، والعمائم الملونة ، والثياب الفضفاضة ، كلما مر ركب نابوليون

وكان عميدَ هذه الكوكبة المختارة جندى مملوك يدعى رستم . ولرستم مع نابوليون قصة طريفة نرويها فى هـذا الفصل . كان رستم أحد أولئك المماليك الذين يصعب تعقب أصولهم أو حياتهم الأولى ، أتى به القدر الى القاهرة بعد أن بيع مراراً ولقى خطوبا ، وقدم الى بونابارت فى القاهرة حينما طلب أن يؤتى له ببعض الأدلاء الوطنيين . وكان رستم يومئذ فتى فى عنفوانه وسيم المحيا ، فراق نابوليون منظره ، وسأله حسبما يقرر لنا رستم بعد ذلك فى مذكراته ، هل يجيد الركوب والطعان ، فأجاب رستم بالايجاب . وسأله نابوليون عن اسمه ، فأجاب ان اسمه الأخير يحيى ، ولـكن اسمه الحقيقى الذى سمى به فى بلاد الكرج مسقط رأسه هو رستم ؛ فأمره نابوليون أن يتسمى بهـذا الاسم ، ثم وهبه سيفاً دمشقياً رصعت قبضته ببعض الجواهر ، ومسدسين زينا بالذهب ، وألحقه بخدمته

ولم تمض أيام قلائل حتى اضطر نابوليون الى مغادرة مصر مسرعاً الى فرنسا ، فلم ينس أن يصطحب معه مملوكه الجديد رستم على ظهر السفينة « مورون » التى أقلته الى فرنسا مع بعض علماء الحملة من أصدقائه ؛ وكان رستم يختص بخدمة سيده الجديد ، ويقضى المساء على مقربة من الحلقة التى تتألف كل ليلة فى مؤخرة « مورون » من نابوليون والعالمين برتوليه ومونج

يتحدثون فى الشئون العامة أو يلعبون الورق ؛ وكان نابوليون كثيراً ما يقول لمملوكه انه سيجد فى باريس كثيراً من المال والنساء الحسان ، فيطرب رستم ، وتضطرم مخيلته بالأحلام اللذيذة ، ويتذكر ماضيه التعس الحافل بصنوف البؤس والمخاطرة ، وما أسبغ الحظ عليه من رعاية ذلك السيد العظيم الذى سيقوده إلى مستقبل حافل بصنوف السعادة والنعيم

ووصلت « موirون » الى المياه الفرنسية بعد رحلة خطرة دامت نحو خمسين يوماً ؛ ولما وصل رستم فى ركب سيده إلى باريس ، رأى منظراً رائعاً لم يتصوره من قبل ، وسحرته عظمة العاصمة الفرنسية ، التى لم تكن القاهرة أعظم مدينة شاهدها فى الشرق الى جانبها شيئاً مذكوراً ؛ ولم تمض أشهر قلائل حتى ظفر نابوليون بالغاء الحكومة الادارية المؤقتة (الدركتوار) ، وصدر دستور القنصلية (ديسمبر سنة ١٧٩٩) ، وانتخب نابوليون قنصلاً أولا ، وانتخب معه صديقاه كامباسير ولبرون كقنصلين ثان وثالث ؛ وهنا جاء دور رستم فى الظهور الى جانب سيده فى المواكب العظيمة ، وكان نابوليون يتوق دائماً الى أن يحيط نفسه بتلك المظاهر الشرقية الساحرة ، فكان رستم يتقدم عربة القنصل الأول دائماً ، وهو على ظهر فرس بديع ، وقد ارتدى صدرية من القطيفة الزاهية فوق ثوب واسع ، ووضع على رأسه عمامة بيضاء أنيقة ؛ وكان منظره الشائق الساحر معاً أجمل ما فى ركب القنصل حين يغدو وحين يروح

وجاء دور الامبراطورية وتألق نجم رستم سراعا ، وشهد الحفلة الدينية الكبرى التى توج فيها الامبراطور بالرغم من معارضة رجال الخاصة ، وأعد له بهذه المناسبة ثوبان فاخران وضع رسمهما « إيسابى » مصور الامبراطور ، وظهر رستم فى كنيسة « الانفاليد » وعليه صدرية من الكشمير الفاخر المطرز بالذهب وعمامة رائعة الحسن ، وذاعت شهرته حتى أصبح من طرائف باريس التى يعنى برؤيتها كل زائر للعاصمة ، وطبعت صورته ووزعت بالألوف فى جميع أنحاء فرنسا ؛ وأغدق الامبراطور على مملوكه العطاء والصلة ورتب له عدة رواتب حسنة حتى غدا من أهل اليسار والنعم ؛ وكان الامبراطور يثق به ثقة لاحد لها ، فلم يكن من أقطاب حرسه الخارجى فقط ، ولكنه كان حارسه الأمين فى حياته الداخلية أيضاً ؛ فكان ينام عند عتبة غرفة الامبراطور فى البهو الملاصق ، وكان هو الذى يحمل العشاء إلى الامبراطور والامبراطورة حينما يكونان فى الفراش ؛ وكان ملحوظا بالرعاية من جميع أعضاء الأسرة الملكية والحاشية ، حتى أن الملكة هورتنس ابنة الامبراطورة جوزفين ، وزوجة الجنرال مورات ، عنيت بتصويره ، وكانت تغنى له المقطوعات الساحرة حتى لا ينام أثناء التصوير

وتاقت نفس رستم إلى الزواج ، وهام بحب آنسة تدعى دوفيل وهي ابنة أحد منادى الامبراطور ، وكانت رائعة الحسن فى التاسعة عشرة من عمرها ؛ ولما طلب رستم يدها قامت فى سبيله بعض صعاب شكلية لأنه لم يكن كالفتاة كاثوليكي المذهب ، ورفض الأسقف الموافقة على هذا الزواج ، فتدخل الامبراطور وقضى على هذه الصعاب ، وتم زواج رستم بالآنسة دوفيل فى سنة ١٨٠٦ ؛ ورزق رستم منها غلاما سمى « أشيل » ، فطرب الامبراطور لمولده وأغدق العطاء لمملوكه

وظل رستم متمتعاً برعاية الامبراطور ، يمرح فى ظلال النعماء والنفوذ ، حتى وقعت الكارثة ، وهزم نابوليون فى حرب التحرير واضطره الحلفاء الظافرون إلى التنازل عن العرش والسفر إلى جزيرة « إلبا » ؛ وهنا سئل رستم كما سئل المخلصون من حاشية الامبراطور ، عما إذا كان يرغب فى مرافقة الامبراطور إلى المنفى ، فتردد رستم فى اللحاق به ، وهرول إلى زوجه فى باريس مغادراً ذلك القصر الذى أنفق فيه أعواما طوالا متمتعاً برعاية أعظم رجل فى فرنسا ، وفى أوربا بأسرها ؛ ودلل بذلك على أثرته ، ووضاعة نفسه ؛ بيد أنه ندم على فعلته بعد ، حينما رأى بداية العهد الجديد تميل إلى اضطهاد كل من كانت له صلة وثيقة بالعاهل المنفي ؛ وكانت فرقة المماليك التى ينتمى إليها رستم قد انحلت مع مرور الزمن وغادرها معظم رجالها ومات عدد منهم ، وبقي رستم بعد ذلك أبرز أعضائها القدماء ، ورأى رستم نفسه ينزل من علياء نفوذه بسرعة ، ويجرد من سيفه وعمامته ، وينظر إليه بعين الشك من الحكومة الجديدة . ألم يكن رستم أخلص حرس الامبراطور وأقربهم إليه وأشدهم وطأة على أعدائه ؟ وأحيط رستم برقابة صارمة ، ونقل عيون الحكومة الجديدة عنه أغرب الأخبار ، وقيل أنه يدبر مؤامرة لقلب الحكومة الملكية ؛ والواقع أن رستم كان أبعد الناس عن هذه

الريب ، ولم يكن يود إلا أن يعيش فى سلام بعيداً عن ذلك الماضى الذى يريبه ويزعجه

ولما عاد الامبراطور من منفاه فى إلبا توجس رستم شرا ، وهرول إلى سيده القديم يلتمس الصفح والاعادة ؛ فأبى الامبراطور رؤيته ، ورده باحتقار . وكان رستم يقيم عندئذ منزويا فى بعض ضواحى باريس . فلم يكن أحب إلى نفسه من أن يستأنف حياة الانزواء والهدوء ؛ ولم يمض غير قليل حتى وقعت الكارثة الحاسمة وهزم نابليون فى واترلو وحمل إلى منفاه فى سنت هيلانه ؛ ولم يهتز رستم لهذه الحوادث ، وقنع من الحياة بالهدوء والسكينة ؛ وعاد إلى سكنى باريس بعد أن نسيته الحكومة الجديدة ، ولم تحاول إقلاق راحته ؛ بيد أنه لم يكن يتمتع بعد برخائه القديم بعد أن أنقصت رواتبه ، وكثر عياله ، فنراه فى سنة ١٨٢٤ يسافر إلى لندن إجابة لدعوة أحد أصحاب المسارح ، وهنالك يعرض نفسه فى ثيابه الشرقية القديمة ويكسب بذلك بعض المال

وقضى رستم فى لندن نحو عام ، ثم عاد إلى باريس ، وانتقل بأسرته إلى بلدة دوردان على مقربة من باريس ليعيش فيها ؛ وهنالك لم تفارقه صفته القديمة « مملوك الامبراطور » ؛ وكانت هذه الصفة تثير من حوله الفضول وتسبغ عليه مهابة خاصة ؛ بيد أنه لم يكن يتمتع يومئذ بشيء من مظاهره الشرقية القديمة ؛ وكان يحب الصيد ، ويغشى مجتمعات المدينة ، ويتصل بكثير من أهلها بأواصر الصداقة المتينة ؛ وكان كثيراً ما يقص ذكرياته عن الامبراطور ويفاخر بما لديه من آثار الامبراطور مما أفاضه عليه أيام عزه ؛ وكان بعض الساخطين عليه يرمونه بالخيانة ، ويقولون عنه إنه خائن لبلاده خائن لولى نعمته ، بيد أن رستم لم يكن ليعبأ بهذه المطاعن ، وكان يحتفظ دائماً بسكينته وهدوء نفسه

وتوفى رستم فى سنة ١٨٤٥ ، فى الرابعة والستين من عمره ودفن بمقبرة دوردان وكتب على قبره ما يأتى « هنا يثوى رستم رضا ، مملوك الامبراطور نابليون سابقاً ؛ ومولده بتفليس من أعمال الكرج » ؛ وكانت وفاته خاتمة لآخر الذكريات الحية فى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر[1]

محمد عبد الله عنان

(١) استقينا معظم التفاصيل الخاصة بحياة رستم من مؤرخ الفرنسى لنوتر Lenotre

وحى الثلاثين

للأستاذ عبد المنعم خلاف

على مقطع من مقاطع الزمن الذى ينثنى ، أقف مستدبراً مواكب الحياة الحاضرة ، لأستعرض هذه العقود الثلاثة التى كونت جسمى ذرة ذرة ، وملأت رئتى شهقة وأفرغتها زفرة . وسلسلت عقلى فكرة فكرة !

وأريد فى وقفتى هذه أن يكون فى روحى غيبوبة وامتداد ، وفى ذاكرتى صحو واجتماع ، وفى قلبى حنين واهتياج ، وفى عقلى سكون وإدراك ، وفى جسمى صحة ووُقود ، وفى قلمى حساسية وبيان . . . فإن الصور التى أرصدها مخبوءة فى رُكام من أيامى البالية التى لبستها أمام الشمس والقمر فطبعاها بالخاتمين « الأبيض والأسود » ثم نضوتها ومعها بسمة أو دمعة أو فكرة أو ذكرى ، أو قطعة من قلبى أو هزة من جسمى فى غَرارة الطفولة أو صَحوة الصبا أو فَوْعة الشباب الذى يوشك أن يمضى به ما أشاب الصغير وأفنى الكبير من كَرّ الغداة ومَرّ العشى . . !

* * *

أمس ! ياوادى الظلال الساكنة من حياتنا العاملة الناصبة . أنا الآن فى حركة إدبار وارتداد إليك ، فى ساعة ليس لى فيها حاضر راهن يشغلنى ، ولا أمل غائب يغازلنى ، واقفٌ فيك على أطلالى ! أبحث فيها عن صور عينى ولها فيك ظلال ، وأنغام أذنى ، ومنها بك أصداء . . بل إنى لأبحث عن سرى وميراثى من عهد آدم حادراً فى الأصلاب متنقلاً فى الأحقاب فى عالم غَيبى ومَشهدى !

فمن لى بما يَروِى لى ما بين مُبتداىَ ويومى هذا . . ؟ إنها شُقّة بعيدة أحسب أنها تُعيى تهاويلَ الخيال المسعِد !

* * *

وقد قالت « الفسلجة » : إنى صورة تتجدد فيها خلايا جسمى كل سبع سنين . . . فلستُ أنا الجسم الأول ولا الثانى ولا الثالث ولا الرابع . . . وليس فىَّ بقية منها ، فإذا بحثت عن أجزائى التى ماتت وأبعاضى التى غيّبت ، فلن أجدها إلا فى ذلك الجسم العظيم

اللذى أنا خلية منه : الأرض . ويالها من تيه لمن يبحث !

إذاً يا روحى ، أنت « المكان » الذى يمكن أن أبحث فيه عى : سرًّا كامناً فى عالم الغيب ، ثم نواةً فمقدةً فلُبًّا فثمرةً مدركة . فأفسحى لى من شأنك العظيم واحرقى بخوراً يعِدُّ لى جواً أعيش فيه ساعة الذكرى !

***

ودخلت قدس الروح المطر ، ومعى ذلك « الصندوق العجيب » جمجمتى ؛ أتحسس الشعاعَ الأول الهادى إلى مفتاح حياتى ، فلم أرَ ولكنى سمعت نجوى تقول :

« حينما طلبت شعلةُ الحياة حطباً جديداً قبل ثلاثين سنة ، دُفع بك وأنت « لاشىء » فى غيبوبة الأزل على حبل نسل تناهى إليك من أبيك عن أبيه عن ... آدم فى صف كبير من لداتك الذين أتى دورهم فى الاحتراق ... فانعقدت البذرة وتخلقت وركبت الذات ووضعت الذرة الصغيرة التى فيها كل ميراث آدم ، واتصلت بها الشرارة الخفية المجهولة فدار قلبك الصغير فأضاف بنبضه صوتاً إلى ضوضاء الحياة . . وبحركته دفعاً فى موكبها . . وبحرارته جمرةً فى شعلتها ... فاختلج آدم فَمَن والاه على السلسلة التى بينك وبينه ، فرَحاً بالامتداد والخلود .. واستَبقَتْ الملائكة والشياطين إلى احتلال الأمكنة فيك استعداداً للمعركة المقبلة ... وعششت فى قلبك الغربان والخفافيش السودُ ، والحماماتُ البيض شأنها على كل غُصْن ... وطارت عليك الذرات الجامدة التائهة لتكون لَبِناتٍ حيةً فى البناء الجديد .

ثم فَصَلتَ عن المستودع الذى التى فيه أزَلُك وأبدُك ، وخرجتَ فى موكب الربيع فى ابريل سنة ١٩٠٧ مع أوراقه وأزهاره وأغصانه وأفراخه . . كتلةً لحية عمياء بكماء صماء . . فأسرع جو الأرض إلى رئتيك المختلجتين فى ارتباك وسرعة لتلحقا حركة الحياة بالأحياء ، وفتحت الأضواء أجفانك ، وكل شعاع يريد أن يكون بشير النور ورسالة الشمس أم الحياة إلى « عدستك » الجديدة .

وكان أول صوت اقتحم أذنيك من ضجة الحياة ، صوت الآلام . . آلام تكاليف الحياة وحمل أماناتها الفادحة التى عرضت « على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » . . . صوت أمك . .

وبكيتَ من ازدحام هذه العوامل على جسمك الرقيق الغريب بينها فأذاقوا فاك لذَّته فسكتَ ... وكان هذا أولَ درس عرفته من منطق أهل الأرض مع المزعجين . !

***

ثم عاشت هذه الكتلة طفيلية فى حياة كحياة النبات ، وفى فراغ كفراغ النائم ومضت الدنيا تدور كل يوم حول « صندوقها العجيب » فتَدْخُلُ إليه على شعاع أو صوت أو طعم أو لمس لتثبت وجودها فيه أو لتُخْلَقَ فيه خلقاً آخر على الأصح « والأكوانُ عِداد العقول » كما يقول الرافعى العظيم .

وتفاعلت أشياء الدنيا مع أشياء القلب فأخذ الشخص الكامن يبدو ويمتد فكل ذرة تلد وكل معنى يتركب من هذه الأبجدية وظهرت بعض النِّسب بين الأشياء ، واشرأبت الأشياء إلى براهين وجودها . .

فقلت لصوت النجوى : أكانت الدنيا عدما قبلى ؟ !

فأجاب : قالت بعض الفلسفات : الدنيا فكرة !

قلت : لا ! بدون برهان . . .

قال الصوت : أنت وأخوك قد خرجتما من مستقر واحد بجسمين مختلفين قد تقمصتك روح وتقمصته أخرى . أفرأيت لو خالف بينك وبينه فكنتَ إياه وكان إياك ؛ أفلا كان العالم غير ماهو الآن عندك وعنده وعند الناس ؟

فتأملتُ ولم أعط الجواب للآن . !

***

ثم انقطع الصوت وابتدأت أرى فى الجمجمة خيوط ضوء على حواء وآدم فى شخصى الأمِّ والأب ، وأسمع منها أهازيج الجنة وأصوات ولدانها فى أصوات لداتى وأترابى بملاعب الطفولة ، وأرى قطعة من سماء القاهرة والشمس فيها والقمر ، فوق المكان الذى تيقظت فيه من الغيبوبة والذهول : حارة الروم . . . سقاها الحيا ، فوقفت أبحث عن الطفل الصغير وضعفه وجهله ورراءته وفراغه وثيابه وحلواه وحيوانه وصورته التى كان يتعجب منها كثيراً . . . فوجدتها أشياء لا تزال تضحك كما كانت وأنا أبكى بملى وأنوء بقوتى ، وأنفجر بامتلائى وأجن بيقظتى . .

ففتحت لها قلبي فكادت تنكره وتختنق بما فيه .

وقلت يا حمراء هل رجعة ؟ قالت وهل يرجع ما فاتا ؟

* * *

ثم جاء العهد الذى رأيت فيه الدنيا فى شخص المعلم لها عصا تلوح لي بها إلى الحق والواجب ، والنفس والغير ، وتشير بها إلى الأمام . . . إلى الغاية . . . إلى الرجولة ، ثم تُصلصل بالقيود حين يصلصل الجرس . . .

فصحوت لأعلام الطريق واستيقظت لصحبة ذلك الشخص الغامض المبهم الذى ابتدأ يضايقنى بندائه ، ويشغلنى بأشيائه ... أنا ؛ فتمنيت وتخيلت وتشبهت وجاء الأمل والعمل ، وأسلمنى الزمان إلى عهد الشباب بنداءاته وهزاته ، وأقبلت الدنيا بأعراسها واحتوائها ومباهجها ومغانيها تتحبب وتتغازل وتُغنى للثمرة الناضجة . . واستيقظت الشياطين والملائكة للمعركة التى رَسَمت خططها واحتلت لها الأمكنة فى قلب الجنين ، وحامت الحمامات والفراشات البيض ، والأغربة والخفافيش السود ، فتغيرت نبضات القلب وسُمعت منه أصوات لاعهد لها ولا تاريخ . . وقال الجسد : هأنذا . . . وقالت النفس : وهأنذى ... وقالت الحياة : دونكما . . .

ووقفت أنا . . . أرى المعركة وأتفرس فى القتلى والمصروعين بدهشة وأسف ولذة وعجب إلى يومى هذا ، وهكذا يدور الصراع والقبر الموعد . . .

* * *

وارتسمت البشرية بعلومها وآدابها كلمات على ذلك العرض الأبيض الذى فى رأسى : فألِفٌ وياء ، وواحد وألف ، وأرض وبحر وسماء ، ومادة وقوة ، ومثلث ودائرة ، وزنوج أفريقية وبيض أوروبا ، وبوذا وفينوس ، والجمل وزبلن ، والسلحفاة والطيارة والراديو ، والقبر والقصر ، والحق والواجب . . وقيل وقالوا ... ولست أدرى بعد ذلك : أهو قبض على ريح . ؟ . أو إمساك على ماء ؟ ! أو سراب على سبسب ؟ !

* * *

أيها الدهر الذى صحبته ولبسته ذرّة صغيرة إلى أن صرت كوناً فيه قلب وعقل ! هأنذا كواقف فى صحراء تلتقى بها على مدى بصره آفاق السماء ، إذا تلفت وراءه وجد إبهاماً وغموضاً وإذا تطلع أمامه وجد إبهاماً وغموضاً . . .

وددت لو أنى كنت الرجل الأول لأشهد نشأة الانسان والرجل الأخير لأشهد فناء الانسان . . . الانسان الواحد الهائل الذى يتمثل فى هذه الأشخاص التى تمتلئ بها الأرض وتفرغ منها كل لحظة . . . الانسان الذى وقع عليه كل الضوء وكل الظلام . . . وددت هذا لأعرف ؛ ولكن ليس لى متقدم عن زمانى هذا ولا متأخر .

يا لَبِناتِ الجسد ... ياقلبى الذى لم أره ولن أراه .. ياأعضائى وأجزائى التى تجمعتْ لأكون . . .

ياناصيتى وقدمى ، وإبهامى وفؤادى وظاهرى وباطنى . . !

أما سئمتن الألفة تحت هذا الرباط الضاغط ، فترون الفكاك والانطلاق ؟

إنى أشعر أن حَمّلتكن إصراً ، وأرهقتكن من أمرى عُسراً ، وآذيتكن من جوار روحى : بيت النار !

إنى يقظ للصحبة وفىٌّ للرُّفقة فى هذه الرحلة ، لا أبخل عليكن بالنظرة الرائية !

* * *

أيتها الأيام المقبلة التى فيها الأعباء الكبيرة والصحو من الرؤى والأحلام ، وبلوغُ القمة ثم الانحدار إلى الحفرة التى فيها الدوام والقرار . .

أُعيذ حرارة قلبى من يدك الباردة . . ، وما وراء قلبى فهو لسطوة قوانينك ، وصرامة نواميسك . فهذا شَعْرى فاصبغيه بلون الكفن . . . وجلدى فسجلى فملك بتجعيده ، وقدماى فاثقلى قيدها ، وأوصالى فافصمى عراها ؛ وإن شئت فاغلقى عينى وأحوجى سمعى إلى ترجمان ، واجعلينى كجذع هصرت غصونه وذهبت حِلاه وفنونه . .

أما قلبى فدعيه لى بأوتاره وأشواقه ، صوتاً أخيراً وصاحباً محدثاً أعيش معه يوم يدبر الناس وتزيغ الحواس ؛ حتى تطلبنى الأرض جسداً تأكله !

عبد المنعم خلاف

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

لما جاءني نعي الرافعي بعد ظهر الاثنين ١٤ مايو سنة ١٩٣٧ غشيتني غشية من الهم والألم سلبتني الفكر والإرادة وضبط النفس فلم أكد أصدق فيما بيني وبين نفسي أن (صادق الرافعي) الذي تنعاه لي (البلاغ) الساعة هو الرجل الذي أعرف ويعرف الناس؛ ودار رأسي دورة جمعت لي الماضي كله بزمانه ومكانه في لحظة فكر، وتتابعت الصور أمام عيني تنقل إليّ خيال هذا الماضي بألوانه وأشكاله ومجالسه وسمره وأحاديثه، من أول يوم لقيت فيه الرافعي من خريف سنة ١٩٣٢ إلى آخر يوم جلست إليه في قهوة (بول نور) منذ شهرين فحدثته وحدثني ثم انصرفت وانصرف وفي نفسي منه شيء وفي نفسه مني . . .

وعدت إلى النعي أقرؤه وفي النفس حسرة والتياع، فما زادتني قراءته شيئاً من العلم إلا أن مصطفى صادق الرافعي قد مات!

حينئذ أحسست كأن شيئاً ينصبّ انصباباً في نفسي، وأن صوتاً من الغيب يتناولني من جهاتي الأربع يهتف بي، وأن حياة من وراء الحياة تكتنفني الساعة لتملي عليّ شيئاً أو تتحدث إليّ بشيء. ونفذتُ إلى أعماق السر حين شعرت كأن عينين تطّلان عليّ من وراء هذا العالم المنظور لتأمراني أمراً، هما عينا الرجل الذي أحببته حباً فوق الحب، وأخلصت له وأخلص لي إخلاصاً ليس منه إخلاص الناس، ثم نزغ الشيطان بيني وبينه ففارقته وفي نفسي إليه نزوع وفي نفسه إليّ، ثم لم ألقه من بعد إلا مرسوماً في ورقة مجلة بالسواد ... وانحدرت من عيني دمعتان!

وانطلق بي الترام إلى غير وجهة معروفة، والدنيا في نفسي غير الدنيا، والناس من حولي غير الناس؛ فلما صار بي الترام في ميدان (العتبة) رأيت جماعة من الشباب والصبيان يسيرون في موكبهم وموسيقاهم هاتفين بنشيد الرافعي:

حماة الحمى يا حماة الحمى … هلموا هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت في العروق الدما … نموت نموت ويحيا الوطن

فكأنما كانت أصوات هؤلاء الشبان، في تلك الساعة، هاتفة بهذا النشيد، لتنبهني إلى أن الرافعي الذي وقع في نفسي منذ قليل أنه مات، هو حي لم يمت؛ وأن هذه النقلة من حياة إلى حياة، خليقة بأن تكون لمثل الرافعي هي الميلادَ الثاني. وثاب إليّ نفسي، فاستشعرت برد الراحة وهدوء الايمان

وانتهيت إلى (نادي دار العلوم) فما جلست قليلا حتى أقبل صديقي الأستاذ محمود شاكر وفي عينيه دموع وفي شفتيه اختلاج فمدّ إليّ يداً يصافحني وهو يقول: « الرافعي مات . . . » وأطرق وأطرقت، وانسرب الفكر في مساربه، فما عرفت إلا منذ الساعة أيُّ واجب عليّ لهذا الراحل العزيز.

* * *

لقد عاش الرافعي في هذه الأمة وكأنه ليس منها، فما أدت له في حياته واجباً، ولا اعترفت له بحق، ولا أقامت معه على رأى؛ وكأنما اجتمع له هو وحده تراثُ الأجيال من هذه الأمة العربية المسلمة، فعاش ما عاش ينبهها إلى حقائق وجودها ومقوّمات قوميتها، على حين كانت تعيش هي في ضلال التقليد وأوهام التجديد. ورضى هو مقامه منها غريباً معتزلا عن الناس لا يعرفه أحد إلا من خلال ما يؤلف من الكتب وينشر في الصحف، أو من خلال ما يكتب عنه خصومه الأكثرون، وهو ماض على سنته، سائر على نهجه، لا يبالي أن يكون منزله بين الناس في موضع الرضا أو موضع السخط والغضب، ولا ينظر لغير الهدف الذي جعله لنفسه منذ يومه الأول، وهو أن يكون من هذه الأمة لسانها العربي في هذه العجمة المستعربة، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال؛ وما كان – رحمه الله – يرى في ذلك إلا أن الله قد وضعه في هذا الموضع ليكون عليه وحده حياطة الدين والعربية، لا ينال منهما نائل إلا انبرى له، ولا يتقحّم عليهما متقحِّم إلا وقف في وجهه؛ كأن ذلك (فرض عين) عليه وهو على المسلمين (فرض كفاية)؛ وأحسبه قال لي مرة وقد كتب إليه صديق يلفته إلى مقال نشرته صحيفة من الصحف لكاتب من الكتاب تناول

فيه آية من القرآن بسوء التأويل : « يا سعيد ، مَن تراه يقوم لهذا الأمر إن سكت الرافعي ؟ » وما كان هذا من اعتداده بنفسه ، ولكنه كان مذهبه وإليه غايته ، وكأن القدرة التي هيأته وأنشأته بأسبابها لهذا الزمان قد فرضت عليه وحده سداد هذا الثغر ؛ وكان إلى ذلك لا ينفك باحثاً مدققاً فى بطون الكتب حيناً وفى أعماق نفسه المؤمنة حيناً آخر ، ليستجلى غامضة من غوامض هذا الدين أو يكشف عن سر من أسراره فينشر منه على الناس ؛ وأحسبه بذلك قد أجدَّ على الإسلام معانىَ لم تكن تخطر على قلب واحد من علماء السلف ، وأراه بذلك كان يمثل (تطوّر الفكرة الإسلامية) فى هذا العصر . فإذا كانت الأمة العربية المسلمة قد فقدت الرافعي فما فقدت فيه الكاتب ، ولا الشاعر ولا الأديب ؛ ولكنها فقدت الرجل الذى كان ولن يكون لها مثله فى الدفاع عن دينها ولغتها ، وفى النظر إلى أعماق هذا الدين يزاوج بينه وبين حقائق العلم وحقائق النفس المستجدّة فى هذا العصر ، ولقد يكون فى العربية كتاب وشعراء وأدباء لهم الصيت النابه ، والذكر الذائع ، والصوت المسموع ؛ ولكن أين منهم الرجل الذى يقوم لما كان يقوم له الرافعي : لا يترخص فى دينه ، ولا يتهاون فى لغته ، ولا يتسامح لقائل أن يقول فى هذا الدين أو فى هذه اللغة حتى يردّه من هدف إلى هدف أو يفرض عليه الصمت . . .

* * *

وبعد فماذا يعرف الناس عن الرافعي وماذا أعرف؟ هل يعرف الناس إلا ديوان الرافعي ، وكتب الرافعي ، ومقالات الرافعي ؟ ولكن الرافعي الذى يجب أن يعرفه أدباء العربية ليس هناك . فماذا يكتب عنه الكاتبون غداً اذا أرادوا أن يكتبوا هذا الفصل الذى تم تأليفه فى تاريخ العربية ، وماذا يقول الراثون عنه فى حفلة التأبين ؟

لقد عشت مع الرافعي عمراً من عمرى فى كتبه ومقالاته فما عرفته العرفان الحق ؛ وعشت معه بعد ذلك فى مجلسه وفى خاصته ، وخلطته بنفسى وخلطنى بنفسه ؛ فما أبعد الفرق بين الصورتين اللتين كانتا له فى نفسى من قبل ومن بعد ؛ أفتراني بهذا أستطيع أن أقول عن الرافعي شيئاً أؤدى به بعض ما علىّ من الدَّين للعربية وللفقيد العزيز ؟ مالى أتهيب هذا المجال فلا أقدم حتى أحجم ؟ اننى لأحس عبئاً ثقيلاً على عاتقى ، لا طاقة لى بأن أحمله ، وليس على أحد غيرى أن يقوم به . ولقد طلب إلىّ الأستاذ الزيات منذ عامين أن أكتب شيئاً عن الرافعي يعرّفه الى قراء « الرسالة » فما أحسبنى لقيت فى ذلك من الجهد الا بمقدار ما استحضرت الفكر وتناولت القلم ؛ على أن الرافعي كان يومئذ حياً ، وكنت أحذر أن يغضب أو ينالنى منه عتب ؛ فكيف بى اليوم والرافعي بعيد فى عالم الثانى ، والكلمة اليوم للتاريخ ، ووسائل العلم منى قريبة ؛ ورسائل الأستاذ الزيات تترى تستنجزنى الوعد وتقتضينى الحق الذى علىّ للأدب والعربية ، وصوت الفقيد العزيز يهتف بى حيثما توجهت : « إن لى عليك حقاً وإن للأدب عليك . . . ! »

ولكنى ما أكاد أمسك القلم حتى يكتنفنى الشعور بالعجز فما كاد أوقن أنه لا أحد يستطيع أن يكتب عن الرافعي إلا الرافعي نفسه ، ولكن الرافعي قد مات . . .

أيها الحبيب العزيز الذى ما أزال من كثرة ذكراه كأننى منه على ميعاد ، معذرة إليك !

* * *

وهأنذا أحاول أن أكتب عن الرافعي ؛ فلا ينتظرْ أحد منى أن أتكلم عن الرافعي الشاعر ، أو الرافعي الكاتب ، أو الرافعي الأديب ، أو الرافعي الفيلسوف ؛ فما يتسع لى الوقت ، وما يرضينى عن نفسى ولا يقنعنى بالوفاء أن أكتب عن هذه الحيوات الكثيرة التى اجتمعت فى حياة إنسان ؛ فلينهض لذلك غيرى ؛ ولكنى سأكتب عن الرافعي الرجل الذى عاشرته زمناً ، ونعمت بصحبته ، وخلطته بنفسى ، وتحدث قلبه إلى قلبى ، وتكاشفت روحه وروحى ؛ سأكتب عن الرافعي الرجل الذى عاش على هذه الأرض سبعاً وخمسين سنة ثم طواه الموت ؛ سأحاول أن أجمع شتات حياة تفرقتْ أخباراً وأقاصيص ونوادر على لسان معاصريه أو غابتْ سراً فى صدور أهله وخاصته ؛ أما الرافعي الشاعر الكاتب الأديب الفيلسوف فسيجد الباحثون مما أقول عنه مادة لما يقولون فيه ، ولعلى أن أوفق فى البلوغ إلى ما قصدت . وإننى لأتهم نفسى من كثرة ما أحب الرافعي أن أتحيَّف الأدب لو بدالى أن أقول : هذا رأيى . ولكنى سأقول : هذا ما رأيت . فمن كانت له عين بصيرة تنفذ إلى ما وراء المرئيات وتربط الأسباب بالمسببات فسيلمح جهده ويرى رأيه .

ولقد كان الرافعي منذ شهرين إنساناً حياً بعواطفه وأمياله وحبه وبغضه وشهواته النفسية ، ولكنه اليوم فصل من تاريخ العربية بألوانه وفنونه ؛ فلا عليّ اليوم إن قلت كل ما أعرف عنه خيراً وشراً ؛ فإنما أكتب للتاريخ ، والتاريخ لا يحابي ولا يحتسب ، وستمرّ بي في تاريخ الرافعي حوادث وأسماء سأصفها وأعرّف عنها بقدر ما ، كما سمعتها أو عرفت عنها ؛ فأيُّما كاتب أو أديب أو رجل أو امرأة أو ذي شأن أحس فيما أكتب شيئاً ناله بما يوجب المدح أو المذمّة فلا يشكر ولا يتعتّب ؛ فإن التاريخ بعد أن يقع لا يمكن محوه بممحاة تلميذ . . . وما فات من تاريخ الإنسان فهو جزء انفصل من حياة صاحبه ، وإنما له ماهو آت ، وما أحب أن يقول لي أحد صدقت أو كذبت ؛ فما هذا الذي أكتب رأيا أراه ، ولكنه رؤية رأيتها أو رواية رويتها فأثبتُّها مسندة إلى راويها وعليه تبعتها .

إن التاريخ الأدبي للرافعي يبدأ من سنة ١٩٠٠ وتاريخ ميلاده قبل ذلك بعشرين سنة ؛ وأنا ما بدأت صلتي بالرافعي إلا سنة ١٩٣٢ فما كان من هذا التاريخ فسأرويه من غيب صدري أو مذكراتي وعليّ تبعته ، وما كان من قبل فقد سمعت به من أهله وأصدقائه الأدنين وخلطائه منذ صباه ، أو كان مما قصه عليّ أو عرفت عنه من أوراقه الخاصة ورسائله إلى صحبه ورسائل صحبه إليه . فهذه مصادر علمي أقدمها بين يدى هذا الحديث ليعرف قارئه أين مكانه من الصدق ومنزلته من الحق . على أن الذاكرة خئون ، وما يمر على فكر الإنسان من مختلف الحوادث وصروف الأيام ينسيه أو يلهيه أو يخلط في معلوماته شيئاً بشيء ؛ فمن كان يعرف شيئاً من تاريخ الرافعي ورأى أني تصرفت فيه بنقص أو زيادة أو تغيير أو تبديل فليراجعني الرأي وليرشدني إلى الصواب ، على أن أكون عنده بمنزلة من حسن الظن وأن يكون عند نفسه ؛ وإلا فليرحني وليرح نفسه فما بي حاجة إليه ولا به حاجة . ورجائي هذا إلى أصدقاء الرافعي وخاصته وخلطائه ؛ أما الذين يروون عن السماع فليعلموا أن الحديث المتداول يزيد وينقص ، فما أرويه هو أقرب إلى الحق مما قد يكونون سمعوه .

***

الرافعي في يوم الأخير

في الساعة الثانية بعد ظهر الأحد ١٣ مايو سنة ١٩٣٧ نهض الرافعي عن مكتبه في محكمة طنطا الكلية الأهلية منطلقاً إلى داره في رفقة صديقه الأديب أمين حافظ شرف ، وتحت إبطه عديد من الكتب والصحف والمجلات ، تعوّد ألا يسير إلا ومعه مثلها ، وفي يمناه عصاه يهزها أمام ووراء ؛ وما افترق حتى تواعدا على اللقاء مساءً في مكان ما ، ليذهبا معاً إلى (متنزه البلدية) فيشاهدا فرقة راقصة هبطت إلى المدينة منذ قريب . وتغدى الرافعي وصلى الظهر ونام ، ثم نهض في الساعة الخامسة فصلى العصر وجلس يداعب أولاده قليلا — وجلوسه مع أولاده يداعبهم ويمزح معهم ويتبسط لهم جزء من عمله اليومي — ثم ذهب إلى عيادة الدكتور محمد الرافعي حيث لقي هناك أخاه الدكتور نبوي وصهره الأستاذ مغازي البرقوقي ؛ فجلس الرافعي يمزح ويضحك ويتندّر أكثر مما عرف عنه من المزاح والضحك والتندّر في يوم من الأيام ؛ ثم صلى المغرب والعشاء في العيادة ، ودعا أخاه ليصحبه الى مأتم جار من العامة ليعزيا أهله ؛ والمعروف عن الرافعي أنه كان يكره حضور المآتم وتقديم التعازي كراهة ظاهرة ؛ وقلما كنت تشاهده في مأتم إلا في النادر ، حتى أنه لما توفيت زوج ابنه الأستاذ سامي الرافعي لم يجلس في المأتم إلا لحظات ، ثم انفرد في خلوته يستوحي الحادثة مقاله المعروف : « عروس تُزَفّ إلى قبرها ! » وجاء المعزون يلتمسون الأستاذ الرافعي فلم يجدوا إلا ولده وصهره . أفكان الرافعي بحضور هذا المأتم في يومه الأخير يريد أن يصل نسباً أو يعقد آصرة بالعالم الثاني ؟ أو كان ميعاداً الى لقاء قريب ... !

ثم ذهب الرافعي بعد التعزية الى موعد صديقه ماشياً ، وقطعا الطريق الى المتنزه على الأقدام ؛ فتفرّجا ، وشاهدا ما شاهدا في الحفلة الراقصة ، وأخذ الرافعي ما أخذ من وحي الراقصات لفنّه ومادته الأدبية ، وأخذ صديقه ما أخذ ؛ أفكان بهذه الحفلة يريد أن يصل ما انقطع من قصة (الجمال البائس) و (القلب المسكين) و (في اللهب ولا تحترق) . . . ؟

وفي منتصف الساعة الثانية عشرة كان الرافعي في طريقه إلى

بيته، بعد ما ودع صديقه في منتصف الطريق؛ فلما بلغ الدار، خلع ثيابه، وتناول عشاء خفيفاً من الخبز والبطارخ، والبطارخ طعام الرافعي الذي يحبه ويؤثره على كل طعام في المساء، لأن له عملا أدبياً معه...!

واستيقظ مع الفجر على عادته كل يوم، فتوضأ وصلى، وجلس في مصلاه يدعو الله ويتلو قرآن الفجر. وأحس بعد لحظة حُرَاقاً في معدته فتناول دواءه وعاد إلى مصلاه، وصحا ولده الدكتور محمد فشكا إليه ما يجد في معدته، وما كان إلا شيئاً مما يعتاده ويعتاد الناس كثيراً من حموضة في المعدة، فأعطاه الدكتور شيئاً من دواء وأشار عليه أن ينام، ولبس الدكتور ثيابه، ومضى ليدرك القطار الأول إلى القاهرة، ومضت ساعة؛ ثم نهض الرافعي من فراشه لا يحس ألماً ولا يشكو ما به علة، فأخذ طريقه إلى الحمام؛ فلما كان في البهو سمع أهل البيت سقطة عنيفة أحدثت صوتاً شديداً؛ فهبوا مذعورين ليجدوا عميد الدار جسداً بلا روح.

قال الدكتور محمد: « ولما وجدت البرقية تنتظرني في محطة القاهرة وليس فيها سبب ما يدعونني إليه، تحيرت حيرة شديدة؛ بلى قد أيقنت أن شيئاً حدث، وأن كارثة وقعت؛ ولكن لم يخطر في بالي أنه أبي. لقد تركته منذ ساعتين سليما معافى قوى القلب أقوى ما يكون قلب رجل في سنه... كل الفاجآت المروعة قد خطرت في بالي إلا هذا الخاطر، ولكن... ولكن الذي مات كان أبي...! »

يا صديق، لك العزاء ولنا؛ أحسبت أن الرافعي سيموت في فراشه وهو قد نذر أن يموت في الجهاد وفي يده الراية ينافح بها الشرك ويدعو إلى الله ويواصل حملة التطهير...؟

طبت نفسا يا مصطفى، لكم كنت تخشى الهرم والمرض والزمانة ولزوم الفراش وثقل الأيام التي تعد من الحياة وما هي من الحياة، فأي كرامة نلت؟ وأي مجازجزت؟ وهل رأيت الطريق بين الحياتين إلا ما كنت تريد؟ وهل كانت إلا خفقة نفس نقلتك من ملأ إلى ملأ أرحب وأوسع في كنف الخلد وفي ظلال الجنة؟ يرحمك الله يا صديقي ويرحمنا!

(لها بقية) «طنطا» محمد سعيد العريان

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٣ —

البوذية

لما كانت البوذية ثانية الديانتين الجوهريتين في بلاد الهند، فقد كان من الطبيعي — وقد بدأنا بالبراهمة — أن نثني بها محاولين إيضاح غوامضها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، ولكن ينبغي لنا قبل الدخول في تفاصيل هذا المذهب أن نلم بشيء مما حواه لنا التاريخ الغامض عن حياة المنشيء العظيم لهذه الديانة الخطيرة التي لعبت في تاريخ الانسانية دوراً من أهم الأدوار. وإليك هذا الموجز المضطرب من حياة هذا الزعيم الديني الكبير

ولد « جوتاما سيرهارتها » في « كابيلا فاستو » على حدود « نيبال » حوالى سنة ٥٦٠ قبل المسيح من أسرة نبيلة، إذ كان والده رئيس قبيلة « ساكيا ». ولما شب زهد في نعمة والده وأخذ هذا الزهد يزداد شيئاً فشيئاً حتى إذا بلغ من نفسه منتهاه ألقى بالحلل الفاخرة جانباً واستبدلها بثياب خشنة مرقعة ثم هجر منزل أسرته إلى الغابات والأحراش لا يلوى على شيء من مظاهر النعمة التي كانت تحدق به إحداق السوار بالمعصم، لأنه آمن بأن مصدر جميع هذه الآلام التي تكتظ بها الحياة البشرية إنما هو الهوى المنبعث من الشهوات الجسمانية، وأن المخلص الوحيد من هذا السجن المطبق إنما هو في التلاشي المادي، وهذا التلاشي لا يتحقق إلا بالزهادة والتخلي عن جميع ملاذ الحياة وشهواتها. وقد أيقن كذلك بأن اللذائذ المادية ستار من الظلام يحجب عن النفس كل معرفة حقة، فالوسيلة الوحيدة إذاً، للتخلص من الألم ولتحقيق المعرفة هي الزهادة في المادة من جميع نواحيها. لم تكد هذه العقيدة تستولي على نفسه حتى بدأ في تحقيقها، فانسلخ عن كل مظاهر الترف وانسحب عن المدينة إلى إحدى

الغابات الموحشة ، فآوى فيها إلى شجرة كبيرة اتخذ تحت ظلالها الوارفة مقامه ، ثم أخذ يحاسب نفسه على ماقدمه من خير وشر حيناً ، ويتأمل في أسرار الكون وخفايا الوجود حيناً آخر ، واستمر على ذلك زمناً طويلا لايزاول من أساليب الحياة إلا هذا الأسلوب المائل الذى لافرق بين أمسه ويومه وغده .. وأخيراً شعر ذات ليلة وهو سابح فى بحار الفكر والتأمل أن المعرفة قد انقذفت إلى قلبه دفعة واحدة ، وأن أداء واجبه منذ اليوم لم يعد يتحقق بالنسك والتأمل فحسب كما كان قبل ليلة المعرفة ، وإنما أصبح يتناول إلى جانب ذلك شيئاً آخر ، وهو التبشير بمذهبه فى كل مكان ، ومحاولة غرسه فى كل قلب ، فهب لساعته يصدع بديانته الجديدة جهراً وفى غير مبالاة ، وسرعان ماتجمع حوله عـدد من الشباب والشيوخ يتشربون تعاليمه تشرب الأرض اليابسة للمياه ، ثم جعل عدد هؤلاء التلاميذ يزيد شيئاً فشيئاً وأخذت هذه الديانة تنمو ويتسع نطاقها حتى بلغ عدد معتنقيها نحو أربعمائة وسبعين مليونا من الأنفس فى الشرق الأقصى .

كان بدء بوذا فى الصدع برسالته على رأس العام السادس والثلاثين من عمره ، فظل جهاده في نشرها زهاء أربع وأربعين سنة لم ينضب أثناءها لنقاشه نبع ، ولم يخفت لتبشيره بدينه صوت ، ولكن لم يثبت عنه أثناء هذا الزمن الطويل الذى قضاه في نشر رسالته أنه غضب مرة واحدة مع مناقشه ، بل كانت الرحمة والعطف يفيضان من أساليبه في مختلف الظروف ومتباين الأحوال لافرق بين أن يكون مناقشه من تلاميذه المحبين أو من خصومه الحاقدين .

وأخيراً توفى هذا الحكيم حوالى سنة ٤٨٠ قبل المسيح عن ثمانين عاما قضاها بين الزهد والتقشف والدعوة لديانته الجديدة ، وكان موته بين جمع من تلاميذه الأصفياء — مثال البساطة البعيدة عن جميع مظاهر الجلال التى تحوط عادة آخر ساعات عظماء الرجال

شخصية بوذا بين الشك واليقين

سأل الملك « ميلاندا » أحد ملوك الهند الأقدمين الحكيم « ناجازينا » وهو أحد أتباع البوذية قائلا : « أيها الحكيم المحترم هل رأيت بوذا ؟ » فأجاب الحكيم : « كلا ياصاحب الجلالة » . س : « وهل أساتذتك رأوه ؟ » . ج — « ولاأساتذتى ياصاحب الجلالة » قال الملك : « إذاً ، ياناجازينا ، فليس هناك بوذا ما دام لم يقم على وجوده برهان قوى » . فلما سمع الحكيم « ناجازينا » هذا الاعتراض الذى وجهه الملك إلى إلهه . وكان حقا لايملك على وجوده برهانا مباشرا ، شرع يدلل عليه بآثاره الكونية فقال: « إذا غاب بوذا عن الأنظار ، فهنالك آثاره التى أنشأها ، ومصنوعاته التى خلقها فهي أقوى الأدلة على وجوده ، هنالك هذا العالم البديع الذى خلقه ، وهناك هذا العدد العظيم الذى أرسى سفنه بحكمته وقدرته على شاطىء النجاة بعد أن أنقذها من خضم الألم . وإذا كان من يرى مدينة منسقة بديعة التكوين والتنظيم لايستطيع إلا أن يعلن إعجابه بمنشئها وأن يرفع الصوت قائلا : ما أحكم هذا المهندس الماهر الذى شيد هذه المدينة وأتقن تنظيمها ! فالأمر يجب أن يكون كذلك بالنسبة إلى مدينة الكون العام التى أنشأها بوذا وأحكم تنسيقها .

وفى الحق أن نظرة واحدة إلى ماعليه الكون من نظام وانسجام تكفى لترسيخ الإيمان اليقينى بوجود بوذا » . فلم يكد الملك يسمع من الحكيم هذا البرهان حتى أعلن أنه مقتنع بوجود بوذا اقتناعه بوجود جده الأعلى مؤسس أسرته المالكة الذى لم يره كذلك ، وصرح بأن المشاهدة ليست كل شيء ، وأعلن أن كثيراً مما لا تعترف به المشاهدة له وجود واقعي يقيني

ويعلق الأستاذ «أولترامار» فى كتابه « تاريخ وحدة الوجود الهندية » على هذا بقوله : « أما النقد الحديث ، فلا يجد فى هذا البرهان ما وجده ذلك الملك الطيب القلب من الرضى والاطمئنان فهو إذ يوافق على أن مؤسس البوذية وجد تاريخياً لا يستطيع أن يؤمن بأن هـذا المؤسس كان فى الواقع على النحو الذى صورته عليه الأسطورة الهندية ، وفوق ذلك فتاريخ الديانات يعترف فى صراحة أمام النقد الحديث بأن براهين هذا الحكيم كانت مبنية على أسس ضعيفة واهية لا تستطيع الثبات فى ميدان الجدل المنطقي وأن قيمة هذه البراهين تزيد ضآلة بقدر مايكشف التاريخ أن أهم مصادرها هو الأساطير الشعبية المفعمة بالخرافات والأباطيل »

ويؤكد الأستاذ « أولترامار » أن استخلاص العناصر التاريخية الصحيحة من وسط ذلك المحيط المائل الملىء بالأساطير الخيالية فى ترجمة بوذا وصفاته وتعاليمه من الصعوبة بموضع ، وهو

لهذا يحيل القارئ إلى مؤلفات ثلاثة رجال من كبار العلماء الذين وصلوا إلى نتائج بحوث قيمة فى هذا الموضوع ، ليستأنس بآرائهم وهم : « كيرن » و «سينار» و « أولدنبيرج » . فأما أول هؤلاء العلماء، وهو الأستاذ « كيرن » فهو ينكر إنكاراً تاماً القيمة التاريخية لهذه الأساطير ويصرح بأنه لا أثر للحقيقة فى كل مانقل لنا عن « بوذا » وبأن هذه السيرة البوذية لم تكن إلا رموزاً للمثل العليا فى نظر الشعب

وأما الأستاذ « سينار » فهو لا يرى فى السيرة البوذية أكثر من أنها أسطورة قديمة رصعت بأبهى ماوعاه الشعب من أخلاق عدة أبطال طواهم الزمن فنسيت أسماؤهم وعلقت بالأذهان آثار بطولتهم

وأما الأستاذ « أولدنبيرج » فهو أقل قسوة على بوذا من زميليه ، إذ يعترف بأن طائفة من الحقائق الحائرة منبثة فى وسط هذا البحر من الأساطير وأنه يتيسر للباحث الدقيق أن يستخلص من بين الفرث والدم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين . أما بوذا على حالته التى هو عليها الآن فى الأسطورة قبل تمييز الخيال من الحقيقة فهو لا يبعد عن كونه شخصية رمزية

ويميل الأستاذ « أولترامار » إلى هذا الرأى الأخير ، إذ يعتقد أن الباحث العميق يمكنه أن يصل — عن طريق الموازنة الدقيقة بين كل المصادر — إلى حقائق يقينية عن شخصية بوذا وديانته وتعاليمه وأنه هو شخصياً قد وصل إلى كثير من هذه الحقائق ، وأن إحدى هذه الحقائق التى وصل إليها هى أن بوذا قد وجد حقاً ، وأنه كان شخصية غير عادية لها من الميزات مالم يفز بها سواها فى العصر الذى كانت تعيش فيه ، وأن هذا الرجل — بصرف النظر عما أحكمت حوله الأساطير من سياج التأليه — كان قوى الإرادة إلى حد بعيد ، ولكن هذه القوة وجهت كلها إلى النضال الداخلى ، فبينا كان ظاهره يدل على الوداعة ولين الجانب وخفض الجناح كانت نفسه تحوى فى داخلها عراكا قويا ضد الشهوات والرغبات ولم يسمح لهذا النضال أن يتجاوز نفسه إلى الخارج إلا فى ناحية واحدة وهى ناحية إقناع سائليه ومناقشيه ولكن هذا الاقناع كان دائماً ممزوجا بروح السلام العام الذى يتخلل كل نواحى مذهبه

وعنده أنه كما أن الأرض تحمل ما يلقى فوق ظهرها من خبائث الأشياء دون ضجر وتتقبلها قبولها للطيبات ، كذلك يجب على البوذى أن يحتمل باسما احتقار الناس وإهاناتهم وأن يتقبلها بنفس الروح التى يتقبل بها الاجلال والتشريف . وكما أن الماء يتخلص عن التراب ، ليروى الظمآن ، كذلك يجب على البوذى أن يشعر أعداءه بنفس الخيرية التى يشعر بها أصدقاءه

وأهم ما يلفت النظر فى شخصية بوذا هو أن وثوقه بنفسه وإيمانه بمبدئه ، وعقيدته فى نجاح رسالته لم تكن ممكنة التشبيه بأى شىء آخر ، وهو لهذا يقول : « إن من المحتم أن هنالك طريقاً للخلاص ، وأن من المستحيل ألا توجد هذه الطريق ، وسأعرف كيف أبحث عنها ، وسأجد حتما تلك الوسيلة التى توصل إلى الخلاص من كل وجود .

كان بوذا يجمع حوله الشباب ، ليلقى عليهم تعاليمه المؤثرة التى كانت تنال من نفوسهم منالا بعيد النور ، ولكن الأسطورة التى كانت كأنها إطار حول حياته زعمت أن موجة من الايمان كانت تخرج من عينى بوذا بمجرد نظره إلى تلاميذه فتسلك سبيلها إلى قلوبهم وتحتلها احتلالا قوياً قبل أن تنبس شفتاه بأية كلمة من تعاليمه .

(يتبع) محمد غلاب

حديث في سفر

للأستاذ محمود السيد

لقد كان التطلع إلى الأحداث الجارية منذ يوم الهدنة التي أعقبت الحرب الكبرى في البلاد الشرقية المجاورة لنا ، ديدنى ، والسفرُ إليها غايتي ، ومعرفةُ بواعث النهضات الرائعة التي نهضها أهلها ، مقصدى . وكنت أحاول البدء بتركية التي أحسن لغتها وألمُّ ببعض الالمام بأدبها القوى في حيويته الرقيق بجماله ، فلم أوفق . حتى أني قد وفقت في العام الثاني والثلاثين والتسمائة والألف ، لزيارة بلاد الجارة الصديقة إيران ، وكنت يومئذ تعباً جداً من لغوب الحياة الراكدة ، سائماً أيامها المتوالية المتكررة عندنا في غيرما انبعاث صحيح ، ولا انقلاب من العهد القديم إلى عهد الدنيا الحديث ؛ نازعاً إلى اغتراب أنسى فيه ، إلى حين من الزمن ، آلام المتطلعين من أبناء الشعب الصابر النبيل ، إلى حياة هنيئة حرة في مجد جديد يرام كالمجد القديم ؛ وقد أسمع وأرى ما يذكر ويفيد

غادرت بغداد شاخصاً إلى طهران مساء اليوم السابع عشر من شهر أيار ، مستقلا قطار خانقين . وفي فجر اليوم التالي بلغت هذه البلدة الصغيرة التي يتكلم قطينها شتى اللغى ، لأنها بلدةُ الحدود ونافذةُ العراق المطلةُ على إيران . وقد ذكرت فيها والأسف يحز في قلبي كائنة المغول الأولى ، إذ جاءوها في محرم الحرام من العام الثالث والأربعين والستمائة للهجرة ، نازلين إليها من همذان ففتحوها ثم قربوا من يعقوبا ؛ وكانت بغداد سكرى في غفلة عن الزمن القلب الحول والأقدار الغادرة . ولم يفعل خليفتها ووزيره وصحبهما سوى الهيؤ — الهيؤ فقط — للدفاع بأجناد من الخلائق فقدت المثل العليا ، فخارت عزائمها ووهت بعد مرة ، إذ أوهنها تخنيثُ الترف ، وتبلبلُ العقائد ، وانحطاطُ الخلق ، واضمحلالُ روح الاستقلال ، ثم ارتد المغول عنها متحفزين لهجمة ثانية قاضية . وكذلك فعلوا ، فقد عادوا مرة أخرى في العام الخامس والخمسين بعد الستمائة للهجرة يقودهم هلاكو . . .

لم أقم في خانقين التي كانت طريق البلاء الأكبر النازل على العراق بعد ازدهار الحضارة العربية الاسلامية فيه ، إلا ساعتين .

واكتريت لي سيارة رافقني فيها إلى كرمانشاهان تاجر ايراني ذو سجاحةٍ وظَرْفٍ . ثم جاء بعده عَقيبَ السرى منها مسافر عراقي من مشايخ العلم ، تراءت لي في محياه دلائل الحماسة في الدين ، وفي سلوكه دلائل الحماسة في القومية . فهو عربي من أهل النجف ، يدرك روح العصر بعض الإدراك ، على ميل شديد فيه إلى الماضي ، وحنين إلى دولة العرب في أيامهم الذهبية التي خلت من قبل . وكان سميراً من الطراز الأول ، ورجلا يصلح ، لو أدرك روح العصر كل الادراك ، لأن يكون قريباً من الكمال الانساني المجرد من الصفات التي يخلعها على الانسان في المجتمع نضال المتعصبين في الملل واعتراك النحل وتصادمها . وهو — كما كان يقول — من العاملين لآخرتهم كأنه موشك أن يموت غدا ، ومن العاملين لدنياهم كأنه يريد أن يعيش أبداً . وقد حداني الحديثُ ذو الشجون إلى أن أسأله : من السعيد في الدنيا أيها الشيخ الفقيه ؟

فأجابني وهو يعبس بسبحته السوداء : ومن ذا الذي تعني ؟ آلسعيد من أهل السياسة ؟ آلسعيد من أهل الحرب والطعان ؟ آلسعيد من التجار ؟ آلسعيد من المحترفين خدمة الحكومة بأعمال الدولة ؟ آلسعيد من ذوي الحرف والصناعات ؟ .. إلخ

فحيرني تساؤله هذا ، وأعجبت بمنطقه ، فقلت وقد أدركت بعض قصده : من السعيد من الطبقة التي تنتمي إليها أنت ياشيخي ؟

قال : أحسنت . لقد حددت التعريف فأنصفت . . السعيد منا نحن رجال العلم القديم والدين من صح فيه قولُ عمر بن عبد العزيز الوراق لأبي بكر بن حزم : « إن الطالبين الذين أنجحوا والتجار الذين ربحوا هم الذين اشتروا الباقيَ الذي يدوم بالفاني المذموم ، فاغتبطوا ببيعهم ، وحمدوا عاقبةَ أمرهم . . . فالسعيد الموفق من أكل من عاجله قصداً ، وقدم ليوم فقره ذخراً ، وخرج من الدنيا محموداً . . . »

قلت : يا شيخي هذه فلسفة صوفية قد تنافي ـ إذا كنت مقتصراً عليها ـ ما زعمت لي إذ قلت في بعض حديثك إنك من العاملين للآخرة ومن العاملين للدنيا فأهملت الدنيا هنا ؟ أليست هي على رأيك : « الأمر الفاني المذموم » .

قال : إذن لا بد من إيضاح . . إن أمرها لفان ومذموم

لأمثالى إذا ما اقتصرنا فى الحياة عليه . وهذا التشديد فى ذمها رِصمّامُ أمننا ، لأننا صرنا إلى حال لا تَسُرُّ المؤمنَ المحضَ ؛ وإذ كان هذا العصرُ عصرَ الاختصاص ، فإننا قد بَعُدْنا – إلا الأقل الأندَر منا – عن اختصاصنا وهو العمل بروح الدين ورُحنا نتطلع إلى مطامع الدنيا ، وحطامها ، فَنَسِينا النصيحة والدين هي ، وأقبلنا على كل ما فيه زهو وغرور . . .

قلت : هذا صوت صارخ فى البرية ، فهل للشيخ أن يَنصَحنى ؟

قال : لا تعجل . فان لكلامى بقية قليلة ، وفى القليل بُلغة . فأصغيت إليه ، فمضى يقول : فأما العمل للدنيا بالنسبة إلىّ ، فانى أحرث الأرض وأزرع فى بستان ورثته من آبائى أرضاً قاحلة ، وأتعفف عما فى أيدى الناس ، ولا أمد عينى إلى مال ؛ وبمنتوج بستانى وعمل يدى أحفظ على كرامتى ، وأشترى ورقى وحبرى وكتابى وثوبى وطعام عيالى ، وأرفع رأسى موفور العزة فى عشيرتى وأهل بلدى ؛ فهل من تقصير لدى بعد هذا فى أمر الدنيا ؟

قلت : كلا . لقد أوفيت يا شيخى .

قال : وأنصحك يا صاحبي – ولعلك فى غنى عن النصح – أن تكون ذا دين ، فانى لأشم فى رائحة كتبك هذه التي تحمل بين يديك فى رحلتك ، التى لا أعرف منها الغاية والمدى ، شيئاً أراه فوق التجدد الذى أنشده – مع من ينشده – لكم معشر الشباب اليوم فقد يسح لكم التجددُ على طريقة معتدلة لا تمس الدينَ ، ولا تَذْهبُ بالقومية مذاهب الفناء والدمار ؛ ولكن غير هذا لا يصح .

قلت : ياشيخي ؛ الآن كنت تنادى بالاختصاص ، فقد فهمت أنك من حماة الدين الذى لن أمسه بسوء إن شاء الله ، وإن كنت أقرأ كتباً تجادل فيه ، فلكي أستطلع طلعَ المجادلين وأعرف مقالاتهم .

قال مقاطعاً :

للرد عليهم ولا شك .

فقلت مستمراً فى قولى : ولكنى أراك فى قولتك الأخيرة متطرقاً إلى القومية ، فهل لى أن أفهم رأيك الواحد فى النحلتين .

قال : بلى ؛ فأنا قومىٌّ بعد كونى مسلماً . وإذا ادعيتُ مع المدعين أن للعرب الفضلَ الأكبرَ فى هذه الحضارة العتيدة ، فلن أخطىء الهدفَ من الصواب . وأنت تعلم أن أجدادنا نشروا ثقافتهم فى آسية وأشاعوا علومهم فى أوربة صُعُداً من الأندلس وأسسوا فى بلادهم المدارس ، وسافروا إلى أقصى البلاد فى سبيل العلم . بعد أن نقلوا إلى اللغة العربية كثيراً من الكتب العلمية ، ونقحوها وهذبوها أصولاً وفروعاً ، وأضافوا إلى بعضها ، فأصبح زمام الحركة العلمية العالمية فى أيديهم دهرا .

وكان سلطانهم ممتداً من ساحل المحيط الاطلانطيكي إلى تخوم الصين ، وكانوا هم أهل الصنائع والفنون

وكانوا أهل الشرائع العادلة ، وأولى نظام فى سياسة الملك قويم ، وآداب خالدة رائعة ، وفلسفات

قلت : معلوم

قال : أجل ، فهذا شيء مفصل فى كتب التاريخ ؛ فما الذى يعنيني الآن من أن أفخر بهم ، وبماضيهم المجيد الزاهر ، لكي أبعثَ فى نفوس بنى جلدتى – أبنائهم – الصبُوَّ إلى السير على آثارهم مع آداء الواجب الحق لما يتطلبه العصر الحديث منها من أعمال مهما كان نوعها ، ترفع لأمتنا رايتها خفاقة بين رايات الأمم الحية القوية المنيعة الجانب ، الرافلة فى حلل المدنية ، المتمتعة بتمتع المجد والاستقلال . وكذلك كان أجدادنا العرب أولئك فى أزمانهم السعيدة ، وأيامهم الخالدةِ الذكر ، فى سِفْر الحياة . وإنهم كانوا مع شيوع الفلسفة لديهم مسلمين حق إسلام ، يشعرون برابطة العروبة غالباً ، وإن كانت القومية على الطراز الغربى الجديد غير معروفة لديهم . . . فأكرر لك مرة ثانية : أنا قومىٌّ بعد كونى مسلماً ؛ وليس عندى – لنفسى – رأى غير هذا . . .

إلى هذه النقطة من الحديث بلغ الشيخ . فانتهينا الى مرحلة من الطريق ، وجبت فيها علينا الراحة . وكنا فى ضاحية قرية كائنة على حرف واد يُشرف عليه جبل سامق ، نبتت فى سفوحه الجنات والحدائق الغلب ؛ فأردت أن أكتفي من الرجل بما سمعت فالتفتُّ الى السائق أسأله « الشاىَ » له ؛ فقال مبتسماً وهو ينزل من السيارة : لعلك ترى فى كلامى اقتضاباً مخلا ، فانى وان كنت شيخاً ، لا أعرفني الا من أقل الطلبة علماً فان ألفيتَ فى منطقى وفى رأيى مالا تراه وافياً ، فسامحني فيه ، فهذا حديث عجلان . . . .

« نزيل القاهرة » محمود . أ . السيد

الخطابة
في عهد علي بن أبي طالب
للأستاذ احمد احمد بدوى

— ١ —

ارتقت الخطابة فى عهد على بن أبى طالب ارتقاء واضحاً وصارت سلاحاً قوياً يلجأ إليه الخليفة وخصمه ؛ يثيران بها الأنصار ، ويحفزان النفوس الى الغارة والحروب ؛ ولقد خلف لنا هذا العصر قدراً كبيراً من الخطب ، لم يؤثر مثله طول عهد الخلفاء الراشدين ؛ وليس ذلك بعجيب ؛ فان المسلمين لم يقفوا موقفاً يحتاج الى كثرة الخطابة ، كهذا الموقف الذى وقفوه أيام علىّ ومعاوية .

لم يقف المسلمون قبل اليوم يحارب بعضهم بعضاً ، وانما كانوا يجتمعون لحرب المشركين ، ونشر لواء الدين ، تملأ قلوبهم الروح المعنويّة ، والايمان القوىّ المتين ، وتحدوهم العقيدة أن لهم احدى الحسنيين ؛ فكان لهم من أنفسهم وازع أىّ وازع ؛ قلبهم يدفعهم ، وعقيدتهم تقودهم ؛ فلم يكونوا يوم خرجوا لمحاربة الفرس والروم فى حاجة الى اطالة القول والاطناب فى الخطابة لأن الدين الجديد وعقيدتهم فى وجوب نشره كان يحفزهم الى الجهاد ، وعلا قلوبهم ثقة بالنصر ، معتقدين أن الله يمدهم بروح من عنده ، وأن المجاهد منهم تنتظره جنات وعيون ، أو نعيم الدنيا وما يغنمه من العدو ، وما يناله من الفىء .

أما اليوم فهم مدعوّون لحرب قوم لا يشركون بالله ، ولا ينكرون محمداً ، بل هم على دينهم وعقيدتهم ، ومن جنسهم وملتهم ولذلك كان الموقف الجديد فى حاجة الى خطيب يبرّر حرب المسلم أخاه المسلم وقتل العربى بنى قومه العرب ، واحتاج قادة الفريقين وزعماؤهم الى الخطابة يقوّون بها الرّوح المعنوية ، ويخلقون فى نفوسهم الايمان بأنهم يحاربون من أجل الحق والدين الذى آمنوا به ، وبأن جهادهم ليس إلا لتمكين الاسلام ، وتنفيذ أحكامه ، وكان المتحاربون فى حاجة إلى هذه الرّوح حتى تشتد سواعدهم على قتل إخوانهم وذوى قرباهم ، وكان الزّعماء يلجأون إلى الخطابة كثيراً ، حتى لا تفتر هذه الرّوح ولا تضعف ؛ وكثرة تكرار القول تدخل فى النفوس توهم صدقه وصحته ، وذلك هو السرّ فى كثرة ما ورثناه من خطب هذا العصر كثرة لم نعهدها فى خطب الخلفاء حينما كانوا يحمسون المسلمين على حرب المشركين .

— ٢ —

ولكن الذى بين يدينا من خطب على وصحبه ، أكثر مما ورد لمعاوية وأركان حربه ، ويمكن أن نرجع ذلك إلى أن كثيراً من آثار معاوية وأنصاره ، قد امتدت إليه يد النسيان والضياع ، بعد سقوط دولتهم ، وتشتت شمل معاونيها ، فن الدولة الأموية بعد سقوطها لم يحاول أنصارها يوماً رفع رءوسهم ولا محاولة رجوعها ، ففقد بفقدانها الكثير من آثار خلفائها ؛ أما العلويون فمع أنهم كانوا يحاربون ويُقتلون ، ويلاقون من الحياة الشدّة والعناء ، كان لهم فى كل مكان الأنصار والمروّجون لدعوتهم والساعون إلى إقامة خلافتهم ، وقد نجحوا فى كثير من الأحيان فكان من الضرورى لهم أن يحفظوا كلام إمامهم ، وأن يتناقلوا أحاديثه وخطبه .

ويمكن أن نرجعه إلى أن كثيراً من الخطب التى نسبت إلى علىّ وضعت بعد عصره وضعاً ، وأضيفت إليه من غير أن يكون قد قالها ، ولا نريد الآن أن نمحص هذه الخطب ، وأن نبين ما وضع منها وما لم يوضع ، ولكن نقرّر أن كثيراً من هذه الخطب ألصق به إلصاقاً ؛ فكان سبب ما نراه من كثرة كلام علىّ كثرة يقل أمامها ما قاله معاوية ؛ هذا إلى أنه مما لا شك فيه أن علياً كان أبين من معاوية قولا وأفصح منه لساناً .

ويمكن أن يكون السبب قلة حاجة معاوية إلى الخطابة بالنسبة إلى علىّ ، فلقد كانت الروح المعنوية فى نفوس أهل الشام أقوى وأشد منها فى نفوس أهل العراق ، لأن معاوية قد ألقى فى روعهم أنهم إنما قاموا يقتصون لخليفة قتل مظلوماً ، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ؛ ومن أولى بالدفع عن حق عثمان من معاوية ؟ وكان مكر معاوية ودهاؤه حين يقول : إننا لا نريد منهم سوى قتلة عثمان ، فليدفعوهم إلينا ونحن نبايع صاحبهم — يحرك الشاميين إلى الأخذ بثأر عثمان ، فلا حاجة إلى كثرة الخطابة وتكرير القول ، هذا إلى أن أهل الشام كانوا أطوع لمعاوية من

أهل العراق لعلىّ . فمعاوية وأبوه وأخوه من قوادهم يوم حارب المسلمون فى الشام ، وإلى أن الشاميين كانوا فى موقف المدافعين عن بلادهم ، الذائدين عن حياضهم وعن أبنائهم ونسائهم . وهذا مما يقوى فى نفوسهم روح الجهاد ويدفعهم إلى الحرب والقتال .

وهناك سبب آخر هام دعا إلى كثرة خطابة على وصحبه ، فلقد كان الخلاف يمشى إلى قلوب أنصاره ، وكان المخالفون يبينون رأيهم بالخطابة فكان من الضرورى أن يقف بينهم خطباء يدعونهم إلى الألفة واجتماع الشمل ؛ هذا إلى أن أصحاب علىّ قد خذلوا خليفتهم ، وتقاعسوا عن نصرته ، فاضطر إلى أن يرق ذرا المنابر . وأن يرسل فيهم الصيحة تلو الصيحة يحرضهم على مناجزة أعدائه . وللإمام وأنصاره خطب كثيرة فى هذا الغرض .

على أن معاوية كان يلجأ إلى الخطابة الصامتة : فما كان عليه الا أن يعلق على المنبر أصابع زوج عثمان التى قطعت فى الدفاع عنه ، وقميص عثمان ، فيغنيه هذا عن تدبيج القول واطالة الحديث؛ اذ يجد من حوله ينادون : هيّا الى الأخذ بالثأر ، هيا الى الحرب والقتال ؛ وقد يكون السبب مزيجاً من ذلك كله .

— ٣ —

لم يكن لعلىّ بدّ من أن يخلق فى أنصاره الرّوح المعنوية ، وأن يبرر لهم موقفهم من حرب قومهم واخوانهم ، وأن يملأ قلوبهم بالحماسة والبسالة ، ويوغر صدورهم ضد عدوّه معاوية ومن معه ، فأحياناً يلجأ الى العاطفة الدينية يثيرها فيظهر أعداءه فى مظهر المارقين عن الدين ، والهادمين لأسسه ومبادئه ، هذا الدين الذى كان أجلّ مايعتزون به ويحاربون فى سبيله ، فيقول علىّ فى خطبة : «وايم الله ماوتر قوم قط بشىء أشد عليهم من أن يوتروا دينهم ، وانّ هؤلاء القوم لايقاتلونكم الا عن دينكم ؛ ليميتوا السنّة ، ويحيوا البدعة ، ويعيدوكم فى ضلالة قد أخرجكم الله عز وجلّ منها بحسن البصيرة ؛ فطيبوا عباد الله أنفساً بدمائكم دون دينكم ، فإن ثوابكم على الله ، والله عنده جنات النعيم ؛ وان الفرار من الزّحف فيه السلب للعزّ ، ومغلبة على الفىء ، وذلّ المحيا والممات ، وعاب الدّنيا والآخرة ، وسخط الله وأليم عقابه »

وهذه الفكرة قد تكرّرت فى أكثر خطب علىّ لتتأكد فى نفس أصحابه ؛ ولتصبح عقيدة إلى جانب عقيدتهم ، تدفعهم إلى حرب قومهم وبنى ملّتهم .

وأحياناً يثير فيهم الأنانية ، فيبين لهم سوء المغبّة إذا انتصر معاوية عليهم ، ويحدثهم عما سوف ينالهم على يديه من الذّلّ والهوان ، فيقول : «أما والله لئن ظهروا عليكم بعدى ، لتجدنهم أرباب سوء ، كأنهم والله عن قريب قد شاركوكم فى بلادكم ... وكأنى أنظر إليكم تكشّون [1] كشيش الضباب ، لاتأخذون لله حقاً ، ولا تمنعون له حرمة ، وكأنى أنظر إليهم ، يحرمونكم ويحجبونكم ، ويدنون الناس دونكم » . وأحسب أن المرء حين يغرس فى نفسه أنه إنما يدافع عن كيانه ، ليحفظ على نفسه حياتها وسعادتها وأمنها — يدافع عن حياضه ببسالة وقوة وهو مايرمى إليه علىّ بخطابته .

وتارة يلجأ إلى ماضى أعدائه ؛ فيذكرهم به ، ويتحدث عما كان لهم ولآبائهم من قبلهم من خصومة للإسلام ، وسعى إلى تحطيم أساسه ، ثم يأخذ فى بيان ماله من مآثر ومزايا ، بجعل الموازنة بينه وبين معاوية ضربا من العبث ؛ قال علىّ : « . . . لم يرعنى إلا شقاق رجلين قد بايعانى ، وخلاف معاوية ، الذى لم يجعل الله له عز وجل سابقة فى الدين ، ولا سلف صدق فى الاسلام ، طليق بن طليق ، حزب من الأحزاب ، لم يزل لله عز وجل ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم ،وللمسلمين ـ عدواً ، هو وأبوه حتى دخلا فى الإسلام كارهين ؛ فلا عزو إلا خلافكم معه ، وانقيادكم له ، وتدعون آل نبيكم صلى الله عليه وسلم ، الذين لاينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ، ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً »

وبيان مآثر على ومزاياه ، ونقائص معاوية والطعن فى أغراضه ومقاصده ، أهم مايدور عليه خطب العلويين حين يدعون قومهم إلى الحرب والقتال .

أما معاوية بن أبي سفيان فقد لجأ أيضاً إلى الناحية الدينية يثيرها فى نفوس قومه ويحفزهم بها إلى الجهاد والقتال ؛ ينثر أمامهم حجته الوحيدة التى دفعته إلى الخلاف وشق عصا الطاعة وهى قتل عثمان ، وادعاؤه أن علياً آوى قتلته ولم يأخذ بثأره ، ولذلك كان هو ومن معه قوماً نكثوا البيعة ، وسفكوا الدم الحرام فى البلد الحرام .

وهناك شىء آخر يستطيع أن يستغله معاوية فى إثارة حفيظة قومه : ذلك أن علياً وصحبه قوم أقبلوا من بلادهم ،

(١) كش الضب : صوت

واعتدوا على حرمة الشاميين وحرمة ديارهم ، فليس أمامهم إن أرادوا الحياة خالية من العار إلا أن يقاتلوا ويذبّوا عن نسائهم وأبنائهم ، قال معاوية يحرض قومه على القتال : « . . . أنظروا بأهل الشام ، إنكم غدا تلقون أهل العراق ؛ فكونوا على إحدى ثلاث خصال : إما أن تكونوا طلبتم ماعند الله فى قتال قوم بغوا عليكم ؛ فأقبلوا من بلادهم حتى نزلوا بيضتكم ، وإما أن تكونوا قوماً تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيكم ؛ وإما أن تكونوا قوماً تذبّون عن نسائكم وأبنائكم ، فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل واسألوا الله لنا ولكم النصر . . . »

وأيضاً كان يلجأ معاويه وصحبه فى تقوية الروح المنوية إلى الحديث عن ضعف جيش العراق وتفرق كلمته وإدبار أمره ؛ ولا ريب أن مثل ذلك الحديث يشجع قومه ويغريهم بالثبات ، حتى يتم الانتصار ؛ قام عمرو بن العاص يحرض أهل الشام على القتال فقال : « إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم ، وفلوا حدهم ، ثم إن أهل البصرة مخالفون لعلىّ ، قد وترهم وقتلهم وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل ، وإنما سار فى شرذمة قليلة منهم من قد قتل خليفتكم ؛ فالله الله فى حقكم أن تضيعوه ، وفى دمكم أن تطلّوه »

أما العلويون فإنهم لم يستغلوا هذه الناحية أيما استغلال ، مما يدل على أن جيش معاوية لم يدع لهم هذه الفرصة ، بل كان جيشاً متحداً متماسكا ، ولكنهم استغلوا ناحية أخرى ؛ هي أن معاوية ليس معه من له قدم سابقة فى الاسلام ، أما هم فمعهم جلّة الصحابة والأنصار والبدريين ؛ قال الأشتر النخعي يحث العلويين على الحرب : « . . . إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدريين قريب من مائة بدرى ، سوى من حولكم من أصحاب محمد ، أكثر ما معكم رايات قد كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فمن يشك فى قتال هؤلاء إلا ميت القلب ! . . . » وهذا هو الحق فلقد كان أكثر الصحابة منضمين تحت راية على ، ولكن ذلك لم يستطع الوقوف أمام دهاء معاوية وعمرو بن العاص ؛ فقد استطاعا بفضل ما أوتياه من الحصافة والمكر أن يظهرا بقلتهما على كثرة على ومن تبعه من صحابة وأنصار

— ٤ —

لم يكن التحريض على القتال هو كل أغراض الخطباء فى ذلك العهد ؛ بل كان من أغراضهم أيضاً الصلح بين المتقاتلين ؛ فلقد سمت الرسل بين الفريقين تريد حقن الدماء ، وكانت الخطابة عماد أحاديثهم ، وإن لم يوفق الخطباء إلى أداء مهمتهم ؛ فلقد كانوا مهذبين أكثر منهم سياسيين دهاة ، يستلون السخائم من الصدور

واستمع إلى حبيب بن مسلمة رسول معاوية إلى علىّ يقول : « . . . أما بعد فإن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان خليفة مهديا يعمل بكتاب الله عز وجل ، وينيب إلى أمر الله ؛ فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته ، فعدوتم عليه ، وقتلتموه رضى الله عنه ، فادفع إلينا قتلة عثمان ؛ إن زعمت أنك لم تقتله ، نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس ، فيكون أمرهم شورى بينهم ، يولى الناس أمرهم من أجمع عليهم رأيهم » ولذا قال له على : « وما أنت (لا أم لك) والعذل ؟ ! » . ويقول عدى ابن حاتم رسول على إلى معاوية : « أما بعد فإنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ، ويؤمن به السبل ، ويصلح به ذات البين إن ابن عمك سيد المسلمين ، أفضلها سابقة ، وأحسنها فى الاسلام أثرا ، وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدهم الله عز وجل بالذى رأوا ؛ فلم يبق أحد غيرك وغير من معك ، فانته يا معاوية ؛ لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل » . فلما انتهى ، قال معاوية : كأنك جئت متهدداً ، لم تأت مصلحاً

والحق أن الخطابة التى كان يقوم بها سفراء الزعيمين لم تكن لتدل إلا على أنهما يرغبان فى أن يسحلما حقهما بالسيف ؛ أما السفارة فلكيلا يكون ثمت مدعاة للوم أحدهما إذا اضطر إلى امتشاق الحسام

وكان من أغراضها أيضاً نصح الصحب ، وإرشاد المقاتلين إلى ما يجب أن يفعلوه فى الحرب كما يفعل القائد قبل الهجوم ، يوصي جنده ويمنحهم نصائحه : قال علىّ يرشد مقاتلته : « معاشر المسلمين ، استشعروا الخشية وتجلببوا السكينة ، وعضوا على النواجد فإنه أنبى للسيوف عن الهام ، وأكملوا اللأمة ، وقلقلوا السيوف فى أغمادها قبل سلّها ، والحظوا الخزر ، واطعنوا الشزر ونافحوا بالظّبا ، وصلوا السيوف بالخطا ، واعلموا أنكم بعين الله ومع ابن عم رسول الله . . . »

ومن أغراض الخطابة لذلك العهد الدفاع عن الرأى ، ومقارعة الحجة بالحجة ، وتفنيد براهين الخصم ، وأظهر مثال لذلك الخطب

التي قالها عليّ والخوارج ؛ فهي خطب مليئة كلها بالحجج والبراهين من جانب الخوارج ومن جانب الامام

— ٥ —

كانت أساليب الخطابة لذلك العهد رصينة في جملتها ، سهلة الألفاظ إلا في القليل ، لها مميزات الخطابة القوية ، تعتمد على الألفاظ الضخمة ، وعلى الجمل القصيرة يقل فيها السجع إلا إذا جاء عرضاً غير مقصود ، فالخطبة ترسل إرسالا ، لا تكلف فيه ولا تنميق ، ومع ذلك تكون قوية الأسر ، متينة السبك ، ولا غرو فلقد كان القائلون مقاويل العرب وأبلغهم وكان المقام يتطلب لساناً بليغاً يحرضهم ويدعوهم

ولقد كثر الاقتباس من القرآن ، وكان عليّ وصحبه أكثر غراما بالاقتباس يدخلون الآية والآيات في معرض خطبهم

هناك ملاحظة تبدو في خطب علي وتظهر ظهوراً واضحاً إذا أنت وازنت بين خطبه التي قالها في أول النزاع وآخره ؛ فانك تجد خطبه التي قالها بعد التحكيم ، والتي يستفز فيها القوم إلى حرب معاوية ، ضخمة في ألفاظها ، قوية في أسلوبها ، متينة فخمة ، أمتن واقوي من تلك الخطب التي قالها في أول النزاع ، وكانت خطبه تشتد وتقوي ، كلما ضعف أمله في نصرة قومه ، وزاد تواكلهم وتخاذلهم ، وحسبك أن ترجع إلى خطبته التي قالها لرؤساء أنصاره ووجوههم بعد أن رجع من حرب الخوارج ؛ أو إلى خطبته بعد أن أغار النعمان بن بشير على عين التمر ، أو عندما أغار الضحاك بن قيس على الحيرة ، أو حينما أغار سفيان بن الغامدى على الأنبار ، واستمع إلي السيل المتدفق من فم علي حين يقول : . . . ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم اغزوهم من قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ، فتخاذلتم وتواكلتم ، وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، حتى شنت عليكم الغارات ، وملكت عليكم الأوطان ؛ هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار ، وقتل حسان بن حسان البكري ورجالاً منهم كثيراً ونساء ، وأزال خيلكم عن مسالحها ، والذي نفسي بيده ، لقد بلغني أن كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة ، فينتزع حجلها وقُلُبها وقلائدها ورعثها ، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والإسترحام ، ثم انصرفوا وافرين ، ما نال رجلا منهم كلم ، ولا أريق لهم دم ، فلو أن امرأ مسلما مات من دون هذا أسفا ما كان عندي فيه ملوما ، بل كان به عندي جديرا

يا عجباً كل العجب ! عجب يميت القلب ، ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان ، من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ، حتى أصبحتم غرضا ، تُرمَون ولا تَرمُون ، ويغار عليكم ولا تغيرون ، ويعصي الله عز وجل فيكم وترضون ، إذا قلت لكم اغزوهم في الشتاء ، قلتم هذا أوان قُرٍّ وصَرٍّ ، وإن قلت لكم : إغزوهم في الصيف ، قلتم : هذه حمارة القيظ ، أنظرنا ينصرم الحر عنا ؛ فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون ، فأنتم والله من السيف أفر ، يا أشباه الرجال ولا رجال ! ويا طغام الأحلام ! ! ويا عقول ربات الحجال ! لوددت أني لم أركم ، ولم أعرفكم ، معرفة والله جرت ندما ، وأعقبت سدما ! قاتلكم الله ، لقد ملأتم قلبي قيحا ، وشحنتم صدري غيظا ، وجرعتموني نُغَب التهمام أنفاسا ، وأفسدتم على رأيي بالعصيان والخزلان ....

وتعليل هذه الظاهرة سهل يسير ، هو ذا التخاذل الذي بدا من القوم بعد التحكيم ، فلقد سئموا القتال وملوه ، وركنت نفوسهم إلى الهدوء والدعة ، واستسلموا إلى الراحة ، ووجدت الفرقة سبيلها إلى قلوبهم ، فكان الإمام في أشد الحاجة إلى ما يبعث الحياة فيهم ، ويعيد الحماسة اليهم ، فلا غرو ، كان يلجأ إلى الخطابة فيجعلها قوية الأسر ، مليئه بالألفاظ الضخمة التي تثير النفس ، وتبعث النخوة ، مفعمة بالتحذير والإنذار ، علها تحيي الميت أو تبعث الروح في الجماد .

نستطيع أن نقول : إن الخطب في عهد علي تؤرخ لنا الحالة السياسية ، وتسجل أهم ما كان في فترة خلافة عليّ ، وفضلا عن ذلك تستطيع إذا أنت تتبعت الخطب ، أن تلمس الحوادث التي قيلت فيها لمسا ، وهي تكشف لك في صراحة نفسية الامام علي ، وتبين الأدوار التي مرت فيها آماله : من النهوض والتفاؤل في أول الأمر ؛ إلى اليأس والقنوط في آخره ، كما أنها تكشف أيضا نفسية قومه ، وتضعها أمامك في صورة واضحة ، وإن المؤرخ ليجد في هذه الخطب معينا لا ينضب ، يساعده على فهم نفسيات المتقاتلين ليدرك النتائج التي وصلت اليها الحرب ، وكيف كانت طبيعية لا بد من حدوثها .

أحمد أحمد بدوي

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٣٨ — صلاة . . . !

في (معجم الأدباء) : قال حسان بن علوان البَيُسْتي : كنت أنا وجماعة من بني عمي في مسجد بَيُسْت[1] ننتظر الصلاة فدخل أعرابي وتوجه إلى القبلة ، وكبر ثم قال : (قل هو الله أحد ، قاعد على الرصد[2] مثل الأسد ، لا يفوته أحد ، الله أكبر !) وركع وسجد ، ثم قام فقال مثل مقالته الأولى وسلم . فقلت : يا أخا العرب ! الذي قرأته ليس بقرآن ، وهذه صلاة لا يقبلها الله . فقال : حتى يكون سفلة[3] مثلك ، أنّى آتى إلى بيته وأقصده وأتضرع إليه ويردني خائباً ، ولا يقبل لي صلاة ! (لا) إن شاء الله ، (لا) إن شاء الله ، ثم قام وخرج

١٣٩ — مسيلمة وأشعب

قال الثعالبي : قد تظرف من قال في كذب مسيلمة وطمع أشعب :

وتقول لي قولاً أظنك صادقاً
فأجيء من طمع إليك وأذهب
فإذا اجتمعتُ أنا وأنت بمجلس
قالوا : مسيلمة ، وهذا أشعب ! !

---

(١) بيست : بالفتح ثم الضم ثم السكون بلدة من نواحي برقة وبها مولد حاتم الطائي (ياقوت)

(٢) الرصد : الطريق ، موضع الرصد والجمع أرصاد . في (المصباح) : الرصدي نسبة إلى الرصد وهو الذي يقعد على الطريق ينتظر الناس ليأخذ شيئاً من أموالهم ظلماً وعدواناً

(٣) السفلة — بالكسر ثم السكون ، وبالفتح ثم السكسر وبالكسر ثم الكسر — نقيض العلية : أراذل الناس . قال الجوهري : ولا يقال لرجل سفلة كما تقول العامة . وفي اللسان والتاج : سأل رجل الترمذي فقال له : قالت لي امرأتي : ياسفلة فقلت لها : إن كنت سفلة فأنت طالق . فقال له : ما صنعتك ؟ قال : سماك (أعزك الله) قال : سفلة والله . فظاهر هذه الحكاية أنه يجوز أن يقال للواحد سفلة . (قلت) : احتقار حرفة أو صنعة أمر نكر ، ولسنا اليوم في تفنيد المقالة الزائغة

١٤٠ — إنما هو بركة من السماء

في (تاريخ ابن عساكر) عن أنس قال : كان أبو طلحة يأكل البَرَد وهو صائم ، ويقول : ليس بطعام ولا شراب . قيل له : أتأكل وأنت صائم ؟ !

فقال : إن ذا ليس بطعام ولا شراب ، وإنما هو بركة من السماء نطهر به بطوننا

١٤١ — رد الله عليك غربتك

كان الصاحب بن عباد يقول : لم أسمع جواباً أظرفَ وأوقعَ وأبلغَ من جواب عبادة فإنه قال لرجل : من أين أقبلت ؟

قال : من لعنة الله

فقال : رد الله عليك غربتك

١٤٢ — وعد الله ووعيده

عند أبي عمرو بن العلاء . .

في (عيون الأخبار) : اجتمع أبو عمرو بن العلاء وعمرو ابن عبيد فقال عمرو : إنّ الله وعد وعداً ، وأوعد إيعاداً ، وإنه منجز وعدَه ووعيدَه ، فقال أبو عمرو : أنت أعجم . لا أقول : إنك أعجم اللسان ، ولكنك أعجم القلب . أما تعلم ، ويحك ! أن العرب تعد انجاز الوعد مكرمة ، وتركَ إيقاع الوعيد مكرمة ثم أنشده :

وإني ـ وإن أوعدتُه أووعدتُه لمخلفُ إيعادي ومنجز موعدي

١٤٣ — عاد الدر الى وطنه

سئل بعض المغاربة عن السبب في رقة نظم ابن سهل فقال اجتمع فيه ذلان : ذل العشق ، وذل اليهودية .

ولما غرق قال فيه بعض الأكابر : عاد الدر إلى وطنه

١٤٤ — أدب الخواص

قال الوزير أبو القاسم المغربي في كتاب الخواص :

كنت أحادث الوزير أبا الفضل جعفرا[1] وأجاريه شعر المتنبي

---

(١) المعروف بابن حنزابة (بكسر الحاء وسكون النون) . قال ابن خلكان: كان أبو الفضل عالماً ، محباً للعلماء ، وكان يملي الحديث بمصر وهو وزير ، وقصده الأفاضل من البلدان الشاسعة ، وبسببه سار (الدارقطني) من العراق إلى الديار المصرية

فيظهر من تفصيله زيادة تُنبه على ما فى نفسه خوفاً أن يُرى بصورة من ثَناه الغضبُ الخاص عن قول الصدق فى الحكم العام وذلك لأجل الهجاء الذى عرض له به [١]

١٤٥ — أطعموا آذاننا

كان مروان بن أبي حفصة إذا تغدى عند إسحق الموصلي يقول له : أطعموا آذاننا ، رحمك الله !

١٤٦ — روائح الجنة فى الشباب

فى (أغانى) أبى الفرج : قال :

محمد بن هاشم الخزاعى : تذاكروا يوماً شعر أبى العتاهية بحضرة الجاحظ إلى أن جرى ذكر أرجوزته التي سماها (ذات الأمثال) فأخذ بعض من حضر ينشدها حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرح التصابى روائح الجنة فى الشباب !

فقال الجاحظ للمنشد : قِفْ ، ثم قال : انظروا إلى قوله :

روائح الجنة فى الشباب

فان له معنى كمعنى الطرب الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة .

١٤٧ — اله العرب لا تستخذى

أحب الأصمعي أن يستثبت فى كلة (استخذيت) [٢] أهى مهموزة أم غير مهموزة قال : فقلت لأعرابى : أتقول : استخذأت أم استخذيت ؟ فقال : لا أقولها .

قلت : ولِمَ ؟

قال : لأن العرب لا تستخذى

---

(١) فى قوله :

بها نبطى من اهل السواد يدرس أنساب أهل الفلا

قال ابن خلكان : المراد بالنبطى أبو الفضل جعفر ، وهذا ماغض منه :

وما زالت الأشراف تهجى، وتمدح

(٢) المبرد فى (كامله) يقول : هذا غير مهموز واشتقاقه من قولهم أذن خذواء أى مسترخية . وابن قتيبة فى (أدب الكتاب) عدها من التى تهمز . والعوام تدع همزها و (اللسان) أوردها فى خذأ وخذا وقال : استخذيت وقد يهمز ، واستخذيت وترك الهمزة لغة . . . والبطليوسى يقول فى (الاقتضاب) : « وترك الهمزة فى هذه اللفظة أقيس من الهمز . وقد حكى أن من العرب من يترك الهمز فى كل مايهمز إلا أن تكون الهمزة مبدأ بها » واستخذى : خضع

١٤٨ — أسهل الموت وأصعبه

الصابى :

إذا لم يكن للمرء رد من الردى فأسهلهُ ما جاء والعيشُ أنكدُ

وأصعبه ما جاءه وهو رائع تُطيف به اللذات والحظُّ مسعدُ

١٤٩ — فزع الاغنياء ، شهوة الفقراء

سئل (سيافيدس[١]) عن الموت فكتب : نومٌ لا انتباهَ معه ، راحة المرضى ، انفصالُ الاتصال ، نقصُ البنية ، رجوعٌ إلى العنصر[٢] ، فزعُ الأغنياء ، شهوةُ الفقراء ، سفرُ النفس ، فقدان الوجدان[٣]

١٥٠ — الفراق

قيل لبعض الصوفية : لِمَ تصفرّ الشمس عند الغروب ؟

قال : خوفاً من الفراق وبه ألم !

---

(١) قال أبو الفرج بن هندو : كان سيافيدس فيلسوفا حرم علي نفسه النطق حتى أن بعض الملوك عرضه علي السيف لينطق فما زال علي السكوت ثم إن الملك لما يئس من نطقه أمر بأن يكتب له مسائل ليوقع تحتها الجواب

(٢) العنصر : الأصل الذى تتألف منه الأجسام

(٣) الوجدان : الوجود

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

العلماء

وكنت نائماً فإذا نعجة تتقدم فتقضم اللباب المعقود إكليلا على رأسي، فكانت تعمل أنيابها فيه وتقول: لم يعد زارا من العلماء وذهبت بعد ذلك مزدرية متفاخرة. ذلك ما أخبرني به أحد الأولاد

أحب أن أستلقي على الأرض حيث يلعب الأطفال تحت الجدار المتهدم وقد بت في شقوقه الموسج والشقائق الحمراء. فانني لم أزل عالماً في عيون الصغار وفي عيون الموسج والشقائق الحمراء. لأنها طاهرة حتى في أذيتها

أنا لم أعد عالماً في نظر النعاج. تبارك حظي فهذا ما قضى به علي. والحقيقة هي أنني هجرت مسكن العلماء فخرجت منه جاذبا بابه بعنف ورائي.

لقد جلست روحي الجائعة طويلا الى الخوان، وما أنا كالعلماء متطبع على المعرفة كمن اتخذ كسر القشور مهنة له، فأنا عاشق الحرية والسير في الهواء الطلق على الارض الباردة كما أفضل ان أتوسد جلود الثيران على افتراش امجاد العلماء وألقابهم.

إن بي من الحماس ومن لهب الفكر ما يقطع عليّ أنفاسي فلا يسعني الا الاندفاع الى رحب الفضاء هاربا من الغرف المكسوة بالغبار.

ولكن هؤلاء العلماء يتفيأون الظلال فلا يقتحمون السير على المسالك التي تلهبها حرارة الشمس، بل يكتفون بالاستكشاف كالمتفرجين يفتحون أشداقهم وينظرون إلى المارة في الشارع. هكذا يفتح العلماء أشداقهم وينتظرون اتقاد شرارة الفكر في أدمغة المفكرين. وإذا ما لمستهم بيدك تطاير الغبار ما حولهم كأنهم أكياس من الحنطة، ولكن أحداً لا يظن أن هذا الغبار المتطاير منهم هو دقيق السنابل الصفراء التي ينتشح بها الصيف في زهوه.

إذا ما تظاهر العلماء بالحكمة، فان حقائقهم وأحكامهم تهزني برعشة البرداء إذ تنتشر منها روائح المستنقعات، ولكم أسمعتني حكمتهم نقيق الضفادع

إن لهؤلاء العلماء مهارتهم ولأناملهم لباقتها، فليس من نسبة بين صراحتي وتعقيدهم، فأناملهم لاتنى تغزل وتحيك ناسجة للعقل ما يستره. فهم كالساعات إذا ما أحكم ربط رقاصها دلت بضبط على سير الزمان وأسمعتك طقطقة خافتة. إنهم يعملون كحجر الرحى فيطحنون كل ما تلقى إليهم من حبوب، وكل منهم يراقب حركة أنامل الآخرين، وجميعهم يتلهون بالنكايات ويترصدون من يتعارج بعلومه، فهم أشبه بالعناكب في تلصصهم. ولكم رأيتهم يستقطرون سمومهم بكل حذر ساترين أيديهم بقفازات من زجاج ولهم مهارة خاصة بلعب النرد المزور، ولكم انحنوا فوقه والعرق يتصبب من وجوههم

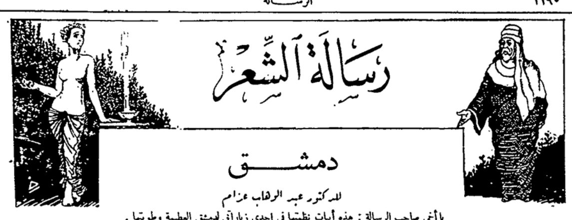
لا صلة بيني وبين هؤلاء الناس فان فضائلهم تبعد عن فضائلي بأكثر مما تبعد عنها أكاذيبهم ونردهم المزور

وما وجدت مرة بينهم إلا وكنت فوقهم، ولذلك أبغضني هؤلاء العلماء. لأنهم لا يطيقون أن يسمعوا بمرور أي كان فوق رؤوسهم، ولذلك وضعوا الأخشاب فوق رؤوسهم وأهالوا فوقها التراب والأقذار ليخنقوا وقع أقدامي، ولم يزل حتى اليوم أكثرهم علماً أقلهم إدراكا لأقوالي

لقد نصبوا بيني وبينهم حائلا كل ما في الانسان من ضعف وضلال، وهم يدعون هذا الحصن لمسكنهم السقف المستعار.

ولكنني بالرغم من كل هذا لا ازال امشي فوق رؤوسهم وأنا انشر أفكاري. ولو أنني مشيت على عيوبي فلن أزال ماشيا فوق جباههم، ذلك لأنه لا مساواة بين البشر، وهذا مايهتف به العدل، فما أريده أنا لا حق لهم بأن يتناولوه بارادتهم.

هكذا تكلم زارا . . .



دمشق

للدكتور عبد الوهاب عزام

يا أخي صاحب الرسالة : هذه أبيات نظمتها في إحدى زياراتي لدمشق العطيبة وطويتها .
ثم رأيت أن موضوعها يشفع لما فيها من قصور فأرسلتها إليك لترى رأيك في طيها أو نشرها

هذى دمشق نخل القلب عتار   طالت على القلب أشواق وأسفار
كم ماطلتك بها الأيام أمنيَة   لها على الدهر إعلان وإسرار
حطّ الرحال فهذا جهرةً بَردى   وذى دمشق هناك الأهل والدار
لا تُعجلني فما الأيام مُسعدة   لا تخدعني فصرف الدهر غدار
دعني أؤلف آمالا مشتّتة   وأسمع القلب . ملء القلب أسرار
دعني أزود قلبي ملء مُنيته   ففي فؤادىَ أسفار وأخطار

* * *

وردت جلّق ملتاعاً ومغتبطاً   تطغى بنفسي آمال وأفكار
دمشق مجتمع الأعصار قد زخرت   فيها كما اندفقت في البحر أنهار
خطّت أمامي سراعاً فوق رقعتها   من الوقائع أسطار فأسطار
فكل رجل على التاريخ سائرة   وكل طرف إلى التاريخ نظّار
وللأذان دوى فوق أربعها   وللأذان يبطن الأرض إسرار
يذيع قبر بلال[1] في مآذنها   صوتاً له من وراء الغيب تسيار
كالنبع شق الصفا والترب فازدهرت   منه الخمائل ، وهو الدهر ثرار

* * *

ذهبت للمسجد المعمور[2] أسأله   وقد تدل على الاعيان آثار
رأيت فيه خلال القوم مائلة   وللبناء من البانين أقدار
علوت في قمة التاريخ مأذنة[3]   لها من الحق والتاريخ أحجار
تطوف حولي خطوب الدهر في صخب   وترحم العين دولات وأقطار
أرى الوليد على ملك لسطوته   ذل الزمان ، وفيه المجد خطّار
دانت لهيبته الاهوال واجتمعت   في همّة العُرب أقطار وأعصار
كأن ما بين سيحون وقرطبة   على الخريطة أفتار وأشبار

* * *

أبصرت دمشق رميم الشعر في خلدي   لاغرو قد تبعث الأشعار أشعار
وقفت فيها أسيم الطرف في فتن   من الجمال لديها الطرف يحتار
كلا فؤادى وطرفي فوق بهجتها   بين الحضيض وبين السفح طيار
تندى القلوب وتجوى من نضارتها   ورب أخضر منه تقدح النار
واها لقلبي إن يبد الجمال له   سطراً تبدت من الآلام أسفار
خاض المطامع ، طماح المنى عرم   على الشدائد والسراء ثوار .
وقاسيون على الجنات مطّلع   بين الرياض وبين الشهب نظّار
عارى المناكب بالشجراء متزر   ثبت الجنان على الأحداث ، جبار
نسر يرى اللوح منه هامة عطلا   لكنه ذنبَ الطاووس جرّار
والصالحية حيا الله ساكنها   وحيّ في سعدها دار وديار
شجا فؤادى دروس في مدارسها   والدهر بالناس دولات وأدوار
يادار هذا زمان السعد فابتسمى   لافاتكِ السعد بعد اليوم يادار :

* * *

وقفت بالغوطة الخضراء أنشُدها   قلباً أضلّته أفياء وأشجار
هفا كما انطلق العصفور من قفص   دعته في الروض أطيار وأزهار
قالت : رأيت دمشقاً في مفاتنها   فكيف ينجو فؤاد فيك شمّار ؟
فسل دمشق هناك الروض مزدهر   والجو مبتسم والحسن سحّار
قالت دمشق : وما عندى به خبر   سائل بدمر لايخدعك إنكار .
يادمّر الخير قلبي فيك مرتهن   لاتجحديه فما يجديك إصرار ؛
ردى فؤادى ففي دهرى له عِدَة   وفي فؤادى لأرض العرب أوطار
فقد وردتك يوماً في حمى نفر   من الغطاريف فيهم يأمن الجار
كأنما كل خرق في عزيمته   نجم يضيء على الأهوال سيار
وكان مجلسُنا أيكاً على بردى   تردد الحسن فيه فهو محتار
نزجى الأحاديث من شكوى ومن ألم   ومن أمانٍ ذوت فيهن أعمار
نبنى على أسُس التاريخ آتيَنا   وللمعالي من التاريخ أسوار
وننشد المجد تدعوه عزائمُنا   والمجد مُصغٍ إذا ناداه أحرار
إما أرى المجد قد أضنى أشمته   وأشرقت فيه دولات وأمصار
أبصرت في الظلمات الشمسَ طالعة   لمّا تراءى لنجم الصبح إسفار

---

(١) بلال بن رباح مؤذن رسول الله . وقبره في دمشق (٢) مسجد جامع بني أمية بدمشق (٣) مأذنة الجامع الأموى صعدت فيها مع بعض الأصحاب

مختارات من أدب الرافعي

بَاىْ يَا بَابَا !

« في سنة ١٩٠٤ تزوج المرحوم مصطفى صادق الرافعي ، وفى سنة ١٩٠٥ ولدت له (وهيبة) ، فلما صارت بنت سنتين جلس إليها يوماً يناغيها ويداعبها ، وحب الرافعي لأولاده شيء أكثر من محبة الآباء ، فال عليها يقبلها، فآلمها ، فقالت له الطفلة ، وقال لها ، فكانت هذه القصة في هذه القصيدة »

محمد سعيد العريان

طفلتى فى العمرِ مَرَّتْ ... من سِنيها إثْنَتَيْنِ
ليستا فيما غَدَتْ تَعْـ ... ـقِلُ إلا ضحكتين
جئتُهـا يوماً فألقيْـ ... ـتُ عليها قُبلتَيْنِ
وأمالتْ عُنُقاً آ ... لَمْتُهُ من غمزتين
فَمَضَتْ غَضْبَى وقالت : ... «بَايْ يَا بَابَا بَايْ يَا بَابَا»

***

إعتـــاباً يا ابنتى أمْ ... ذاكِ من غيظِ الحبيبهْ ؟
بدأتْ دنيـاكِ مُنذُ الـ ... يوم والدنيا عجيبهْ . . !
وغريب منك أن تدْ ... رى معانيها الغريبه ...
نجمةٌ أبْعَدُ ما تُلْ ... قَى إذا لاحتْ قريبه
مثلُها حُبُّك للبا ... با ومعنى « بَايْ يا بابا»[1]

***

نَغْمَةٌ كالبلبل استعْـ ... ـلَى على الورد فغنَّى
أتمنَّى أن تُعيـدى ... مثلهـــا إذ أتمنَّى
قد غدا يُذهِبُ فى الدُّنْـ ... ـيا الغَنا لفظُكِ عنَّا
وأرى الشعرَ فنوناً ... صرتِ لى منهنَّ فنَّا
حكمةٌ ما مثلُها الحِكْـ ... ـمةُ عندى « باى يا بابا »

***

لو أتتنى كلُّ بُشْرَى ... مِلْءَ أنحاء البــلادِ
أو أتانى السعدُ يوماً ... هاتفاً باسمِى يُنادى
أو سَعَى بالمدح والتمْـ ... ـجيدِ لى كلُّ العبادِ
أو شَدَا فى كلِّ أرضٍ ... بقريضى كلُّ شادِ
لم يكن أحْلَى بسمعى ... كُلُّ ذا من «باى يا بابا»

سنة ١٩٠٧ — **مصطفى صادق الرافعي**

(١) يراد بكلمة « باي » عند العامة ، وأحياناً ينطقونها « يا باى » التكره ومعنى النفرة ؛ فان أصلها . يا أباه ، من نداء الاستغاثة ؛ فهذا المعنى الذى يظهر قريباً من اللفظة هو أبعد من حب البنت لأبيها من النجمة التى تلوح قريبة وهى بأعلى فى بعدها . الرافعي

بين الجد والمجون

فجيعة فى ساعة

وساعةٍ كالسِّوارِ حولَ يدِى ... ضاعت فأوْهِي ضَياعُها جَلَدِى
مازال يطوى الزمانَ عقربُها ... حتى طواها الزمانُ للأبدِ
ضيَّعها نجلىَ الصغيرُ وكم ... حمَّلنى من خَسارةٍ ولَدِى
قالوا : فداءٌ لَهُ فقلتُ لهم : ... كلاهما فلذتان من كَبِدى
قالوا : التمس غيرَها . فقلتُ لهم : ... وهَلْ معى ما يُقيمُ لى أوَدِى ؟
مَنْ مُسعِدِى إنْ أكُن على سفرٍ ؟ ... ومَنْ يفى لِيَ بالوعد إنْ أعِدِ ؟
إلتبسَت أيَّامى عَلَيَّ فلا ... أفرقُ مابين السبتِ والأحدِ
واختلَّ وقتِي فإنْ وعدْتُكَ أنْ ... أزُورَكَ اليومَ جئتُ بعد غَدِ
كم رُمْتَ عَدَّ الساعاتِ مُهتدياً ... بالشمسِ لكنْ غَلِطْتُ فى العددِ
روَّضْتُ نفسيَ على السُّؤالِ وما ... حَمَلْتُ ذلَّ السؤالِ من أحَدِ
جَهْلُ الفتى بالزمانِ أهونُ مِنْ ... سُؤالِ غيرِ المهيمنِ الصمَدِ
أمست يدي بعدها مُعَطَّلةً ... منظرُها فى العيونِ كالرَّمَدِ
فَمَنْ لِعَيْنِى بِحُسْنِ طَلْعَتِهَا ؟ ... ومَنْ لأُذْنى بصوتِها الغَرِدِ ؟
كم آنَسَتْ وحشتى بِدَقَّتِها ... فالآنَ أصبحْتُ شِبْهَ مُنْفَرِدِ
لاغرْوَ إنْ أقْضِ حقَّ عِشْرَتِها ... عِشْرَتُها لِيَ طويلةُ الأمَدِ
قد لازمَتْ مِعْصَمِيَ سنينَ إلى ... أنْ أصبحت قِطعَةً من الجسدِ
ناطقةً بالصواب أن سُئِلَتْ ... إنْ قُلْتَ كمْ لَمْ تَنْقُصْ ولم تَزِدِ
على الصراطِ السَّوِيِّ سائرةٌ ... إنْ حادت الشمسُ عنهُ لم تَحِدِ
أرْنو إليها إذا مَشَيْتُ وإنْ ... جَلَسْتُ فى مجلسٍ كشَفْتُ يَدِى
ألم تُشَاهِدْ ذا نعمةٍ حَدَثَتْ ... إذا مَشَى فى ثيابهِ الجُدُدِ ؟
صَبَرْتَ صَبْرَ الكرامِ آمُلُ أنْ ... تَعُودَ لى ثانياً فَلَمْ تَعُدِ
فلُذْتُ بالأولياءِ عَلَّ لهم ... سِرًّا وإن كنتُ غيرَ مُعْتقِدِ
مَنْ لِيَ بالعرَّافينَ أسألُهم ... عنها وبالنفَّاثات فى العُقَدِ
أسأتُ بالأصدقاءِ كلِّهِمِ ... ظَنِّى ففتَّشتُهُمْ فلم أجِدِ
شَتَّانَ بينىَ وبينَ لاقِطِها ... باتَ قريراً وبتُّ فى كَمَدِ
ليتَ الذى طُوِّقَت بها يَدُهُ ... فى جيدِهِ حَبْلٌ شُدَّ مِنْ مَسَدِ

محمود غنيم



قصة الحب والحياة

جرازييلا

كان لامرتين فى الثامنة عشرة من عمره عند مالمسه الحب بأنامله الناعمة ، وطاف به الشعر فى آفاق الوحى والالهام . وكانت « جرازييلا » الفتاة الأولى التى أسمعته نغمات الغرام ، وأسكرت روحه بتلك الخمرة العلوية التى تسكبها الآلهة فى ارواح الشعراء والمفكرين

فجرازييلا هى التى غرست فى فؤاد «لامرتين» زهرة الشوق والحنين . وهى التى جعلته ينطق بأرق مافى الحياة من صبابة وتذكار ، وألم ودموع !

لقد أحب دانتى بياتريس فكتب عنها الصحائف والأوراق وعشق جميل بثينة فصعد لأجلها التأوهات والزفرات ... ولكن لامرتين فى حبه لجرازييلا أرانا شيئاً خفياً لم تقع على مثله العيون

فالذى يقرأ ما كتبه لامرتين عن جرازييلا يعانق تمثال الحب ويتفهم معانى الحياة . . . لأن هناك أقوالاً إذا لم تبلل العيون بالدموع فهى تفعم النفوس بمأتم الحزن والكآبة ، ومرارة الشوق والتذكار

إن لامرتين عرف أن يسمع تلك الفتاة الساذجة البريئة تناشيد الحياة المعنوية وحفيف أجنحة الهوى . . . وأن يجعلها ترى من وراء ضباب أحلامها شجرة الحب المتعالية فى الفضاء ، ونهر الغرام الجارى بين الأرض والسماء

والذى يصغى إلى غمغمة تلك التعابير الشعرية الحنونة التى سالت على يراعة لامرتين ، ترفعه العاطفة إلى جنة سحرية فيرى مواكب الأرواح هائمة فى رحاب النعيم ، وغوانى الشعر راقصة على أنات الرباب فى ضوء القمر ! !

* * *

شغف « لامرتين » بالطبيعة منذ صباه وغذى شعوره وإحساسه برقة الحب والغرام ، وعناصر الحسن والجمال ... فجاءت كتاباته صورة حيـــة للمثل الأعلى الذى ينشده أصحاب التأمل وأبناء الخيال

ثم أحب التجول والاغتراب ليتغلغل فى صدر الطبيعة وليجنى فى حناياها تلك الزهرة القدسية الخالبة التى تملأ القلب عبيراً ، والنفس نشوة وكمالاً ... فارتحل إلى إيطاليا بلاد الشمس المشرقة والماء المترقرق ، والذكريات الزاخرة بالحياة والحرارة

وجاب أنحاءها فتعرف إلى آثار التاريخ الرومانى القديم الذى لم يمح الدهر سطراً واحداً من ذكرياته

وفى « روما » المدينة الخالدة استطاع الشاعر أن يدرس عصر النهضة درساً وافياً دقيقاً فكان يذهب فى الصباح الى نهر « التيبر » المنساب فوق رفات الدهور والأجيال ، فيجلس على ضفافه ويتطلع من ثنايا مائه إلى آماله وأمانيه التى يخبئها المستقبل . وعند ما يخيم الظلام يعود إلى مخدعه فينام راضياً مطمئناً

وهنا تشوق لامرتين إلى سماء « نابولى » الزرقاء ليشاهد فيها قبر « فرجيل» الذى كان يجد لذة فى ترديد أشعاره فذهب إليها . وفى هذه الأثناء التقى الشاعر بأحد أصدقائه القدماء فعاش معه عيشة ألفة ودعة

نابولى عند الايطاليين جنة سحرية فاتنة سكنتها أرواح الشعراء والأنبياء . . . هى غابة استدعتها عبقرية الله لتبقى مكمناً للفن والفكر والموسيقى ، ومأوى لكل من يريد أن يرسم أفكاره التواقة إلى المثل الأعلى ، وأحلامه الشاردة وراء أشباح الموت والحياة ! !

تأثر « لامرتين » لهذه المناظر وشعر بجاذب عاطفى فلهب

يدفعه إلى تفهم أسرارها . فمن مشاهد الصيادين يتفيأون فى ظلال مرا كبهم الصغيرة . . . والعاشقين يتشا كون الهوى تحت ألوية الدجى . . . والشمس المودعة تلقى نظرتها الحزينة على قمم الجبال . إن جميع هذه المناظر كانت تحرك إحساسه فينظمه شعراً لطيفاً عذباً كما تنظم القيثارة أنغامها وتنهداتها ! !

وبعد أن مرت بالصديقين أيام قليلة أحب لامرتين تلك الحياة الشعرية التى يحياها الصيادون فى مراكبهم تحت السماء الصافية ، وفوق متون الأمواج ، فتمنى كثيراً لو أتيح له أن يحيا تلك الحياة .

وشاءت الأقدار أن تحقق أمنية الشاعر ، وأن يلتقى بفتاة طاهرة تلمع فى صدرها محاسن الحب والعاطفة ، فقاده حسن الطالع إلى التعرف بصياد شيخ فى السبعين من عمره كان ينتصب دائماً قرب زورقه انتصاب الطيف بين الموت والحياة ! !

هنا اكتمل الحلم وتحقق الأمل . . .

كان ذلك فى ليلة من ليالى الصيف القمراء . . . بدا البحر فيها صافياً كمرآة العذراء فى ساعة عرسها . . . أما السماء فقد تكللت بتاج من الأنوار لتضىء العيون وتهدى القلوب . . وفى وسط هذه التأثرات مرت بالشاعر العبقري أحلام موردة تركت فى نفسه أثراً لا يمحوه الدهر .

ثم تلت هذه الليلة ليال جميلة فى زورق ذلك الصياد الشيخ !!

* * *

مات الصيف فأسرعت ربة الحقل بالرحيل لتستريح فى وادى الذكرى . ثم جاء الخريف الحزين فتناثرت أوراق الأشجار واعتصب جبين الأفق بغيمة من تلك الغيوم السوداء المنذرة بخمود جمرة الأفراح . . . وفى ليلة باردة اتفق الصديقان مع الصياد على سياحة فى عرض البحر فركب الثلاثة الزورق وساروا يداعبون الأمواج بمجاذيفهم الخشبية كأنهم فى حلم من الأحلام المزهرة . ولم تكد تمضى على ذلك ساعة حتى ثارت الأمواج منبئة بالكارثة الرهيبة . ثم أطفأت النجوم مصابيحها فاشتد حلك الظلام اشتداداً مخيفاً هو المصيبة العظمى . إلا أن الشيخ المسكين لم يستسلم إلى الهلكة فصاح بهم أن يغالبوا المنية حتى تلوى من أمامهم خاسرة مضعضعة .

وظلوا عالقين بين أشداق الموت ساعتين كاملتين حتى قذفتهم الأمواج الصاخبة إلى جزيرة تدعى « إيسكيا » كان بيت الصياد مبنياً فيها . . . وفى ذلك البيت الحقير كان يعيش الشيخ مع زوجه العجوز وحفيدته الحسناء غرازيلا .

لم تكن « غرازيلا » كسائر الفتيات . ولم تصنع مثلهن من طين وماء . . . لأن الله حباها بجمال رائع فتان ... فعيناها سرقتا سوادهما من ظلام الليل ، وجيدها التالع استعاد سحره من عرف الزهور البيضاء ، أما قوامها الخالب فقد سكبته الطبيعة من ضياء الفجر لتبهر به عقل كل من يراها ويتأمل فى معانى حسنها وجمالها

* * *

نشأت بين الصديقين والعائلة القروية ألفة لم تلبث أن تحولت إلى محبة سماوية ، فأصبح الفريقان لا يحتملان ألم الفراق . وقد كونت هذا التقارب عاطفة غريبة بين الفتاة والشاعر ، فإنها أحبته عند ما ألقت عليه أول نظرة . وبعد أن درس «لامرتين» أخلاق العائلة وتبين مشاربها وأفكارها شعر بجاذب روحى مجهول يحبب إليه كل فرد من أفرادها .

وأحب أن يقرأ لهم فى إحدى الليالى رواية «بول وفرجيني» ففعل . وفيما هو يقص عليهم تلك الفاجعة المؤلمة التى صورها كاتب فرنسا الكبير « برناردين دى سان بيير » أحس بدمعة حرى تتسايل على يده ، فنظر فإذا غرازيلا تبكي جاثية عند قدميه ، وإذا الشيخ وزوجه مطرقان كأن داهية دهياء حلت فى تلك الساعة !

فكانت هذه الكآبة دليلا على رقة عواطفهم .

* * *

فى إحدى الليالى تسلم رفيق الشاعر كتاباً من أمه تسأله أن يأتى إلى فرنسا لحضور زفاف شقيقته فرافقه لامرتين إلى نابولى ، ثم ودعه وعاد إلى الفندق ليصرف فيه ليلته . غير أن لامرتين لم يكن يحس بالرابطة التى توثقه بصديقه إلا بعد أن فارقه . وعند ما أقبل الصباح كان يقاسى آلام الشوق على سريره

وعلمت « غرازيلا » بمرض لامرتين فأسرعت إلى «نابولى» مع أخيها الصغير ، ولم تكد تدخل عليه وتشاهد نحوله واصفراره حتى تفجرت بالدموع وجداً ولوعة . وبعد أن جلست قرب

فراشه نزعت من جيدها أيقونة مقدسة وعلقتها فوق رأسه لتقيه من الموت . ثم خرجت متأثرة باكية تضرع إلى الله ألا يفجعها فيه ! !

مضى على هذا الحادث أسبوع كامل شفى فى أثنائه لامرتين من آلامه فعاد إلى منزل الشيخ . ولم يكد يطأ عتبة ذلك المنزل حتى أقبل عليه أصحابه يعربون له عن تعلقهم ومحبتهم وإعزازهم . وكان فى زيارتهم فتى فى العشرين من عمره مشوه البنية . لكنه طيب الأخلاق شأن أمثاله القرويين الذين لم تفسد المدنية عواطفهم . . . وسأل الشاعر عن أمره فقيل له إنه ابن خال لغرازيلا ، وإنه سوف يكون زوجها عند ماتسمح الظروف . هنا شعر بمرارة خرساء تمزق فؤاده !

مالت الشمس نحو المغيب تاركة قبلة حرى على وهاد تلك الجزيرة الهادئة ، وعنيها غمرت روح الشاعر سكينة عميقة ممزوجة بالأسى الساحق . . . وما أن صمم على ترك هذه الأسرة لتنعم بأحلامها وتأملاتها حتى وقفت غرازيلا والعجوز فى سبيله قائلتين إنهما لاتسمحان له بمغادرة المنزل مادامت العائلة تعتبره فرداً منها . وظلتا تتوسلان إليه حتى رضى أخيراً .

وتسلل الحزن إلى روح الشاعر فأوى إلى حجرته ليذرف فيها دموعه . وكان عند ماتهدأ ثورة عاطفته يلجأ إلى مذكراته فيبثها حنينه وشكواه ! !

* * *

مرت على هذه الحادثة ثلاثة أشهر فعاد إلى الشاعر انبساطه الماضى لأنه استعاض عن صديقه المخلص بغرازيلا الحبيبة التى كان يقضى معها أيامه ولياليه على شواطىء تلك الجزيرة الشعرية الساحرة . وهنا شاءت الحياة أن تضرم لوعة الشاعر . . . فى ذات ليلة عاد إلى المنزل فلحظ انقباضاً مرتسما على وجهى العجوزين أما غرازيلا فكانت عيناها مملوءتين بالدموع .

تساءل الشاعر عن سبب انقباضهم وحيرتهم فقال الصياد : إن خال غرازيلا جاء طالباً يدها إلى ابنه ، ولما كان فى هذا العقد سعادة للفتاة فقد أجابه الشيخ بالارتياح ، أما غرازيلا فلم تنطق بغير دموعها السخاحة .

عند ذلك أحس لامرتين بتعلقه بغرازيلا ، فأهمه كثيراً أن تخرج من ذلك المنزل ، وأن لا يراها فيا بعد صادحة بين جنباته وزواياه ، ثم دخل مخدعه يائساً وانطرح كالمحموم لشدة تأثره . . . وعبثاً حاول الرقاد .

وكانت تلك الليلة باردة جداً ، والبرق شديد اللمعان فى الفضاء ، والريح تئن كثكلى ترثى وحيدها ، والسيول تتساقط بروعة فتلقى الرعب فى القلوب . . وكان باب الحجرة يضطرب كلما هبت العاصفة . وقد خيل إلى الشاعر أنه يسمع أنيناً جارحاً ؛ وأن فماً يردد اسمه بلوعة وأسى !

وكما تبرز الدمعة من العين الباكية ثم تتلألأ على الوجه ، برز الفجر من أحشاء تلك الليلة المخيفة ، فأنار سفوح الجزيرة وأغوارها بضوئه الضعيف . فى تلك الساعة استيقظ لامرتين من رقده . ولم يكد يسمع صراخ العجوزين والأخوين الصغيرين حتى تسمَّر فى مكانه . . . ذلك لأن غرازيلا فرت إلى مكان مجهول . وهاج الحزن فى صدر الشيخ جميع آلامه فدنى من لامرتين وبيده ورقة مبللة كانت ملقاة على فراش غرازيلا ورجا إلى الشاعر أن يقرأها له فاذا هى تحتوى على هذه الكلمات المتقطعة :

« لقد احتملت كثيراً حتى أصبحت لا أقوى على الاحتمال أقبلكم قبلة الوداع . . . سامحونى . . . أفضل أن أكون راهبة متجردة من أحلامها وأمانيها على أن أعيش عيشة الذل مع الرجل الذى لم تهبنى السماء إياه . . . ردوا الخاتم إلى ابن خالى . . . سأصلي لألفونس ولأخوى الحبيبين . . . »

ولم يصل لامرتين إلى النهاية حتى ارتعشت يده فهوت الورقة إلى الأرض . وعند ما انحنى ليلتقطها رأى عند عتبة الباب زهرة حمراء كانت تحملها غرازيلا دائماً ، ووجد بجانبها تلك الأيقونة التى تركتها فوق رأسه يوم كان مريضاً . هنا علم أن الصوت الذى كان يناجيه فى عتمة الليل هو صوت غرازيلا . . . فمضى شاكياً !

* * *

قضى الأمر وفرت غرازيلا لتدخل إلى الدير ، ولكن فرارها راش سهماً ماضياً فى قلب لامرتين . فخرج منتحباً بين الأودية والوهاد .

وعند ما مالت الشمس نحو المغيب اهتدى إليها فى أحد الأكواخ . وما أن رآها حتى جثا بجانبها ووضع يديها بين يديه

ثم أدناها من فه ليدفئهما بحرارة أنفاسه . وبصوت متقطع خاطبها قائلا : لماذا اختبأت هنا ؟

فاعترفت غرازيلا له أنهم أرادوا أن يجمعوها بغير الرجل الذي اختارته روحها . . ثم قالت إنها لم تهب قلبها لغيره في العالم

وأحنى لامرتين رأسه ليشكوا لها ما يكابده من يأس وحرقة فقاطعته قائلة :

« لقد صرفت ليلة أمس باكية عند باب مخدعك . وعند ما خرجت قلت في نفسي إني لن أراك أبداً لأني سأصير راهبة تنقطع إلى عبادة الله على ضوء الشموع ، وفي ظلال انفرادها الطويل الملول . . ولكني قرعت باب الدير فوجدته موصداً وهكذا رجعت إلى هذا المأوى لأقضي فيه ليلتي . ثم أشعلت المصباح أمام صورة العذراء وخاطبتها قائلة : أيتها القديسة إني أهب حياتي بما فيها من صبوة وإغراء لخالق . . وإذا جاء غداً ذلك الحبيب فقولي له إني أحببته بكل ميولي وعواطفي ، وإني هجرت العالم لأجله . . قولي له إني ضحيت بأعز شيء لدي ، ها هو ذا شعري الذي كان يحبه فاني أقصه . خذيه أيتها العذراء وأبقيه معك ليظل آمناً بين يديك .

وهنا نزعت منديلها من رأسها فبدت كغصن عرى من أوراقه ! !

اختبأ الليل بين خرائب الأبدية ثم بزغ الفجر معلناً قدوم الشمس ، فقدم الصياد مع عائلته ليتفقدوا غرازيلا . وعند ما شاهدوا تلك الكآبة التي ارتسمت على محياها الناضر ركعوا قربها ملتاعين ونار الحزن تأكل أفئدتهم .

* * *

عاد الجميع صامتين الى الجزيرة . وبعد أن صعدوا صلواتهم لتختمر في الفضاء الوسيع ارتموا على مضاجعهم تخفرهم هيبة الأسى ، وتظللهم أجنحة اليأس والانفعال

وسارت الأيام في طريقها . . . ففي ذات ليلة من ليالي الربيع الجميلة كان الشاعر نائماً في حجرته فسمع قرعاً قوياً على الباب ففتحه فاذا صديقه القديم يدخل عليه قائلاً :

« أتيت لأصطحبك حالاً الى فرنسا لأن والدتك تريد أن تراك قبل موتها . فاذا لم تذهب تركت في قلبها غصة أليمة ترافقها الى الأبدية »

أثرت هذه الكلمات في قلب « لامرتين » . فعاوده دفعة واحدة تذكار الماضي الذي قضاه في حضن أمه . ولما لم يحتمل جسده المكدود قوة الصدمة وقع مغمى عليه . وعند ما ثاب اليه روعه وعد صديقه بالرحيل

ثم دخل حجرته ورتب ثيابه ، وبعد أن أخذ ورقة وأفرغ عليها جميع ما تضمره روحه العظيمة ، أقسم لغرازيلا أنه سيعود اليها عند ما تبرأ والدته العزيزة من مرضها . وأراد أن يودع غرازيلا قبل رحيله فمنعه صديقه . غير أن الفتاة استيقظت حينذاك فهبت مذعورة . وعندما علمت حقيقة الأمر وقعت فاقدة الرشد

تسرب داء الغرام إلى قلب « غرازيلا » فاصفرت زهرة حياتها اصفرار الوردة عندما يمسها الخريف بيده القاسية . أما لامرتين فكان يهتف باسمها في الحلم واليقظة !

ولم تشأ غرازيلا أن تفارق الحياة دون أن تبثه أسرار فؤادها ولاعج غرامها فأرسلت إليه هذه الرسالة :

حبيبي ألفونس

يقول لي الطبيب إني سأترك الحياة بعد حين ، فلذلك أريد أن أودعك الوداع الأخير ! آه يا ألفونس ، حبذا لو كنت قريبا مني الآن ، إذا لبقيت حية . . ولكن هي إرادة الله أيها الحبيب

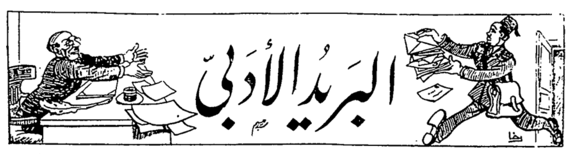
إن جسدي سيضمه التراب ويبلى سريعا أما روحي فستظل مرفرفة فوق رأسك إلى الأبد . إني أترك لك — كتذكار — لما بيننا من عهود — شعري الذي كنت تحبه وتداعبه بأناملك الجميلة فاحفظه لأن رؤيته تعيد إليك ذكرى تلك الليالي التي صرفناها معاً في هذه الجزيرة الحبيبة التي تحن مثلي إليك

(غرازيلا)

* * *

منذ ذلك اليوم انطبعت على محيا « لامرتين » كآبة خرساء وقطنت عينيه اللطيفتين أشباح اليأس والحنين . وكان كلما شاهد جنازة فتاة يخونه الصبر والتجلد فيرتمي على الأرض باكياً منتحباً ! أما روحه فقد اتشحت بوشاح الحزن والكآبة حتى تفصدت بهذه القصة الرائعة المؤثرة التي فتحت لمؤلفها الشاعر العبقري مغالق الخلود .

(البرازيل) يوسف البعيني



الشيخ منصور المنوفي لم يكن شيخاً للأزهر

ذكرت في العدد (٢٠٩) من مجلة الرسالة الغراء ارتيابي فيما نقله الأستاذ محمد عبد الله عنان عن رحلة الشيخ عبد الغني النابلسي من أن الشيخ منصوراً المنوفي الضرير كان شيخاً للجامع الأزهر وقت قدومه في رحلته إلى مصر ، وبنيت هذه الارتياب على أمرين : أولهما اضطراب ما ذكره الشيخ عبد الغني النابلسي في ذلك ، وثانيهما مخالفته لما جاء في الكتب التي عنيت بذكر شيوخ الأزهر وترتيب ولايتهم له . من تاريخ الجبرتي والخطط التوفيقية وكنز الجوهر في تاريخ الأزهر ، وقد خرجت من ذلك بترجيح هذه المصادر على هذا المصدر المضطرب .

ولكن هذا الترجيح الذي ذهبت إليه وهو المتعين عندي في هذه المسألة لم يرض به الأستاذ محمد عبد الله عنان لوجهين : أولهما أن القول بأن الشيخ منصوراً المنوفي كان شيخاً للأزهر في ذلك الوقت قول معاصر وشاهد عيان عرف الشيخ وحادثه بنفسه ، ولا يصح أن يسبغ عليه هذه الصفة عفواً ، وثانيهما أن الشيخ النابلسي يقدم إلينا بياناً صحيحاً عن أكابر الحكام والمشايخ في مصر وقت مقدمه ، ومن الصعب أن نعتقد أنه يخطيء في تعرف شيخ الأزهر . وهو من الشخصيات البارزة التي يهمه أن يتصل بها ، وقد رأى في التوفيق بين هذا المصدر وتلك المصادر السابقة أنه من الممكن أن الشيخ المنوفي لم يمكث في ذلك سوى أشهر أو أسابيع قليلة ، وأن يكون هذا هو السبب في في إغفال تلك المصادر له في ثبت مشايخ الأزهر .

ولا شك أن من يرجع إلى ما نقلته في ذلك من رحلة الشيخ النابلسي يرى أنه ذكر أنه قابل في صباح يوم الأحد ٢٨ من شهر ربيع الثاني الشيخ منصوراً المنوفي شيخ الجامع الأزهر ، ثم ذكر أنه قابل في اليوم الثاني (يوم الاثنين ٢٩ من شهر ربيع الثاني) الشيخ احمد المرحومي شيخ الأزهر ، فإما أن يكون للأزهر في ذلك الوقت شيخان وهو غير مقبول ، وإما أن يكون الشيخ منصور المنوفي قد عزل في اليوم الأول وولي الشيخ احمد المرحومي مكانه في اليوم الثاني وهو غير مقبول أيضاً . لأنه لو حدث مثل هذا في ذينك اليومين لأشار إليه الشيخ النابلسي في رحلته .

على أن الشيخ النابلسي يعود بعد هذا فيذكر أنه قابل الشيخ الأول في يوم ١٠ من جمادى الثاني ، وقابل الشيخ الثاني في يوم ٢٥ من جمادى الثاني ، وهو في ذلك أيضاً يصف كلا منهما بما وصفه به في الأول من أنه شيخ الجامع الأزهر ، والظاهر من هذا أنه يجري فيه على وصف ثابت لهما في هذه المدة التي كانت بين المقابلتين ، فلو أخذنا كلامه في ذلك على حقيقته لاجتمع للأزهر في ذلك الوقت شيخان معاً ، وهو ما لم تجر العادة به في الجامع الأزهر ،ولا في التقاليد الاسلامية .

ولا شك أنه لا يمكن الأخذ بقول الشيخ النابلسي في ذلك مع هذا الاضطراب الذي نجده فيه ، ولعل كلا من ذينك الشيخين كان شيخ رواق من أروقة الأزهر ، فالتبس من أ .ر هذا على الشيخ النابلسي ذلك الأمر ، وما هو إلا بشر يصيب ويخطيء ، والعصمة لله وحده .

عبد المتعال الصعيدي

تعديل جديد في عقوبات جرائم النشر

يصعب على الذهن الحر أن يسيغ أي حجر على حرية الرأي أو أي اتجاه الى التشديد في المؤاخذة على زلات القلم ؛ وقد كانت النصوص الخاصة بجرائم النشر في مصر موضع تعديلات كثيرة في الأعوام الأخيرة بسبب التطورات السياسية والدستورية المختلفة التي وقعت في هذه الفترة ؛ وأخيراً رأت السلطات المختصة أن

تجري تعديلا جديداً في هذه النصوص ، وأن تشدد العقوبة في بعض المواطن قمعاً لنوع سيء من القذف هو التهجم على الاعراض والكرامات الشخصية ؛ وقد كان القانون يعاقب بالحبس أو الغرامة على أمثال هذه الكتابات القاذفة ، وكان اتجاه القضاء في الغالب الى التخفيف والاكتفاء بعقوبة الغرامة ، فنشأ عن ذلك أن ذاع هذا الأسلوب المستهجن من الكتابة في الآونة الأخيرة ذيوعاً مثيراً ، فرأى الشارع في التعديل الجديد وجوب الحكم بالحبس على من يدينه القضاء في أمثال هذه الكتابات

والذي يهم الكاتب أن يسجل من الناحية الأدبية هو أن حرية القلم والرأى لا يمكن أن تتأثر بتشديد النصوص الجنائية في مثل هذه المواطن ، فالقلم يجب أن يتحلى إلى جانب الحرية بخلة الأدب والتعفف عن مس الكرامات والأعراض الشخصية ؛ وما يبعث على الأسف هو أن يضطر الشارع إلى الالتجاء إلى النصوص في تحقيق هذا المثل الذى يجب أن يحققه القلم لنفسه دون إرغام ؛ وقد كان خيراً لو استطاع الكتاب أنفسهم أن يضعوا لأنفسهم دستورهم الخاص ، وأن تحدد حدود الجدل والنقد بسائر صنوفه بحدود متينة من النزاهة والعفة والترفع عن لغو القول ؛ والقانون الانكليزى يعاقب السب والقذف الشخصيين بعقوبات شديدة رادعة ، ولكن يندر أن تتورط صحيفة انكليزية في مثل هذا الجرم ؛ والصحافة الانكليزية تضرب أرفع الأمثال لادب الحوار والجدل وعفة النقد والمناقشة ؛ فماذا يضيرنا أن نهتدى نحن في كتاباتنا بهذه المبادىء السامية ؟

وثيقة دبلوماسية فرعونية

أضحت مواثيق عدم الاعتداء من أهم عناصر السياسة الدولية الحاضرة ؛ ولكن هنالك ما يدل على أن هذه المواثيق التى استحدثتها السياسة الدولية بعد الحرب ، ليست من ابتكار الدبلوماسية الحديثة وحدها ، ففى تراث المصريين القدماء ما يدل على أنهم عرفوا مواثيق الاعتداء قبل آلاف الأعوام ؛ وهنالك وثيقة مدهشة من هذا النوع عثر عليها الأستاذ دنكان العلامة الأثرى الأمريكي ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام ، وتعتبر بحق أقدم وثيقة دبلوماسية وصلت إلينا

وهذه الوثيقة عبارة عن نقش على صفحة فضية يحتوى على نصوص ميثاق بعدم الاعتداء عقد بين الملك رمسيس الثانى وبين ملك الحيثيين خيتاسار ، وذلك في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ومن الغريب أن هذه النصوص لا تبعد كثيراً عما تستعمله الدبلوماسية في عصرنا عدا بضع فروق وصيغ يسيرة ؛ فعنوان الوثيقة مثلاً هو : « ميثاق سلام وأخوة دائمة » ، ويلى ذلك نصوص الميثاق وهى مدمجة في ثمانى عشرة مادة هذه أهمها : « يتعهد الحيثيون والمصريون كل قبل الآخر أن يلجأوا في تسوية جميع الخلافات التى تنشأ بين الدولتين إلى الوسائل السلمية وألا يلجأوا في تسويتها إلى القوة والعنف » . فأى فرق بين هذا النص وبين النصوص المماثلة في مواثيق عدم الاعتداء المعاصرة ؟ أما ضمان التنفيذ في هذا الميثاق القديم ، فقد رجع فيه إلى ما يتفق وروح العصر الذى وضع فيه ؛ ومن ثم فقد نص فيه على ما يأتي : « إذا ارتكب أحد الفريقين المتعاقدين ما يخالف هذا الميثاق الأبدي ، فقد حلت عليه لعنة جميع الآلهة المصرية والآلهة الحيثية »

ولم يقل لنا التاريخ القديم كم دام مفعول هذا الميثاق بين الفريقين المتعاقدين ؛ ولكن الأستاذ دنكان يؤكد لنا أنه قد دام بلا ريب أكثر مما دام مفعول ميثاق تحريم الحرب الأمريكي بين الدول ، أو ميثاق لوكارنو بين ألمانيا والحلفاء السابقين .

وان هذا الاكتشاف لأقدم وثيقة دبلوماسية يضيف آية جديدة إلى تراث الفراعنة ، وما زال هذا التراث كل يوم يتكشف عن عجائب وحقائق جديدة تدلل على ما وصلت إليه الحضارة الفرعونية في النضج وروعة الابتكار .

قرآن . . . !

يتلوا القراء في النقلة (١٣٨) في هذا الجزء من (الرسالة) قرآن ذاك الأعرابي الجلف أو القرآن الأعرابى أو تلك الأفكوهة ضاحكين . وإني أضيف في هذا الموطن أن هناك قرآناً إلحادياً مجوسياً دسه الداس بل الدساس[1] في سورة (النجم) : «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ـ تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن ترتضى — ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذن قسمة

(١) الدساس : من الحيات التى لايدرى أى طرفيه رأسه وهو أخبث الحيات ، أحمر كأنه الدم (اللسان)

ضيزى » وهناك قرآن فارسي شعوبي بثه راويه الخبيث المتحذلق النبي في القرن الثاني أو الثالث مرفوعاً معنعناً وحشره في سورة (العصر) : « والعصر إن الانسان لفي خسر — وإنه فيه آخر الدهر [1] — إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » وهناك غير ذلك ، وعند الطيبي والترمذي ماعندهما . وأنى يكون ما كذبوا ؟ كيف وهناك ثلاثة وأربعون كاتباً من كتاب الوحي ، وقد جمع القرآن قبل أن أظلمت بفقد رسول الله هذه الدنيا ، وقد كتبت النسخ غير المعدودة ، الكثيرة في زمن النبي (صلوات الله عليه) وصاحبيه وقد ملأت المصاحف في وقت الفاروق بلاد الاسلام كلها جماء « وإن لم يكن عند المسلمين إذ مات عمر مئة ألف مصحف من مصر إلى العراق إلى الشام إلى اليمن وما بين ذلك — فلم يكن أقل » كما قال ابن حزم وما مصحف عثمان إلا المصحف النبوي البكري العمري ، مازاد وما نقص . وقد عرف ذو النورين ألحان العرب — ولسان الكتاب المضري — والعربية لغات ، والعرب أمم ، وقد انتشروا في الأرض ، ورأى الاحتفاظ بإملاء القرآن ، فكتبت تلك المصاحف المسماة بالعثمانية . وأعجب العجب وأكذب الكذب هذه الرواية : « لما فرغ من المصحف أتي به عثمان فنظر فيه فقال : قد أحسنتم وأجملتم أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها » وقد حار أبو بكر السجستاني صاحب (كتاب المصاحف) في هذا الكلام — وقد رواه — فقال : « هذا عندي يعني بلغتها وإلا لو كان فيه لحن لايجوز [2] في كلام العرب جميعاً لما استجاز أن يبعث به إلى قوم يقرأونه » ثم سطر السجستاني بعد قليل : « . . . عن الزبير أبي خالد قال : قلت لأبان ابن عثمان : كيف صارت (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) ما بين يديها وما خلفها رفع وهي نصب ؛ قال من قبل الكتاب الخ » فهل كان الزبير أبو خالد يعرف هذا الاصطلاح المولد في فن النحو أعني الرفع والنصب ؛ وهل كان نحو أو شيء منه

(١) كتاب المصاحف ، راجع الرسالة ، الجزء (٢٠٤) الصفحة (٩١٥)

(٢) لايجوز : نعت لحن

في أيام أحد من الصحابة أو بعدهم بمدة طويلة ؟ وهل هذا لحن أو خطأ وقد بينه سيبويه في كتابه [1] وأوضحه علم العربية ؟ وكيف لم يستفد السجستاني وأمثاله من (الكتاب) وقد جاءوا من بعد صاحبه وقرأوا علم الخليل وأماليه فيه ؟ وهل بنى العلماء (علم العربية) إلا على قرآن العربية ؟ وكيف اجترأ السجستاني أن روى عن سعيد بن جبير أن مثل « فأصدق وأكن من الصالحين » [2] لحن وهو في القرآن العربي وهو في كلام العرب وشعرهم ؟

دعني فاذهب جانباً يوماً وأكفك جانباً [3]

وقد كشف الخليل (قاعدته) أيما كشف ، وبيانه في (الكتاب) .

إني لأقول هازئاً : الحق أن في الكتاب لحناً — كما افترى المفترون على عثمان وكما قولوه — لكن العرب ماأقامته بألسنتها ولن تقيمه أبداً ، وما اقتدر في هذا الدهر على إقامته وإصلاحه إلا أمثال رجال التضليل (أي مبشري البروتستانت) وهاشم العربي [4] (بل الأعجمي) في (تذييله) على (مقالة في الاسلام) معلمين الخليل وسيبويه والكسائي والفراء ما جهلوه ، وهادين العرب الصرحاء الأقحاح إلى الذي لم يعرفوه . وهو الحياء فاذا فارق المرء فارتقب كل عجيبة .

وبعد فان كان كتاب كل أمة أو ملة فيه تبديل وتحريف وفيه زيادة ونقصان ؛ وفيه الخطأ والخطل ، وكان كاتبه غير صاحبه ف « ذلك الكتاب لا ريب فيه » « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون »

النشاشيبي

(١) راجع كتاب سيبويه الجزء الأول الصفحة (٢٤٨)

(٢) راجع سيبويه ، الأول ، الصفحة (٤٥٢) والمفصل الصفحة (٢٥٥)

(٣) عمرو بن معدى كرب

(٤) عزى (التذييل) في حياة (الشيخ اليازجي) إليه فتبرأ منه ثم عصبه به مبشرو البروتستانت بعد وفاته : كتبوا في آخره : هاشم العربي الشيخ اليازجي وكلام التذييل ملآن بالأغلاط الصرفية والنحوية واللغوية ، واليازجي — على كثرة خطئه في اللغة — لايجهل كل هذا الجهل



تاريخ بئر السبع وقبائلها

تأليف عارف العارف قائمقام بئر السبع

تعد منطقة بئر السبع أكبر مديرية في أرض فلسطين لأنها تشتمل على نصف مساحة أراضيها ، وهى بلاد شاسعة الجوانب بعيدة الأطراف ، وليس لها حدود طبيعية تفصلها عن شبه جزيرة طور سينا وبلاد شرق الأردن

وتقع هذه الناحية على طريق القوافل العربية ، مثل قبائل سبأ ومعين وحضرموت وثمود التى كانت تأتى إلى أسواق كنعان واسرائيل وأرام لعرض البضائع المختلفة ، كما كانت طريق الجيوش البابلية والأشورية والفارسية واليونانية والرومانية الزاحفة لفتح الديار المصرية ، وكما كانت طريق الجيوش المصرية المتوغلة منذ زمن بعيد فى الديار الشامية والعراقية الشمالية .

***

يفتتح المؤلف كتابه « تاريخ بئر السبع وقبائلها » بذكر الروايات التى وردت فى الكتب القديمة عن بئر السبع وعن الشأن الخطير الذى كان لتلك الأرجاء فى عهد بنى اسرائيل الأول أى من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس ق . م . أى من عهد وفاة موسى إلى زمن بختنصر ملك بابل .

وقد اعتمد المؤلف فى هذا البحث على ما ورد فى أسفار الكتاب المقدس وحده مع أننا نعتقد أنه لو راجع أيضاً الروايات القليلة المبعثرة فى كتب المشنا والتلمود وذلك أمر سهل عليه لأنه يتقن العبرية — لوقف فيهما على أخبار مهمة عن بنى اسرائيل والعرب فى تلك المنطقة من جنوب فلسطين .

ونلاحظ أيضاً أنه كان حريا بالمؤلف أن يذكر اسم هذه المنطقة فى الآداب العبرية القديمة ، فقد سميت فى التوراة باسم نجب أى الجنوب ، وعرفت فى الطور الثانى من حياة بنى اسرائيل بفلسطين أى بعد رجوعهم من بابل باسم الداروم ، أى الجنوب أيضاً وعرفها العرب المسلمون بهذا الاسم أيضاً فى عصر البعثة الاسلامية وزمن الخلفاء الراشدين ، فقد ورد فى سيرة ابن هشام أن أسامة بن زيد بن حارثة أرسل على رأس جيش صغير إلى الشام وأمر بأن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين

ولب موضوع الكتاب قد تضمنه البابان الثالث والرابع ، لأن المؤلف يبحث فيهما عن الأحاديث والأخبار المتعلقة برجالى القبائل فى بئر السبع ، ويتكلم عن الحروب التى وقعت بينهم وبين القبائل القريبة منهم والنائية عنهم وقد أبان المؤلف فى هذين البابين عن مقدرة فائقة على تنظيم المعلومات الغزيرة التى جمعها بمثابرة ودأب من أفراد القبائل الضاربة هناك ، ففتح لنا بذلك عالماً عظيم الشأن كنا نجهله مع قربنا منه واتصالنا به ، وإذا كان المستشرقون قد جاءوا إلينا بأخبار عن حياة القبائل فى بئر السبع فان كل ما ذكروه منها لا يكاد يذكر بالنسبة إلى ذلك الفيض الدافق من المعلومات التى قدمها عارف بك العارف ، وذلك يرجع إلى أنه من أهل البلاد وحاكم على البدو

ويجد القارىء فى هذين البابين كثيراً عما ورد فى المصادر العربية عن أيام العرب فى الجاهلية ، كما يجد فيهما صورة مصغرة لحياة بنى اسرائيل الفطرية فى عصر القضاة قبل أن يأخذوا نصيبهم من الحضارة فى أرض كنعان .

ونود أن نلاحظ أن كثيراً مما ذكره رجال البدو لمؤلفنا بعيد عن الحقيقة التاريخية وليس إلا محض خيال لأنهم لم يدونوا شيئاً ولم يكتبوا حوادثهم ولا قيدوا أنسابهم ، وإنما هى روايات ينسجها خيالهم وفقاً لمصلحتهم وتبعاً لأطماعهم

فما يقولونه من أن أغلبهم أو أن جميعهم وعلى بكرة أبيهم إنما

نزحوا إلى هذه الديار من الجزيرة العربية ليس إلا نظرية ساذجة لا يقبلها عقل الباحث السليم ، فان مما لاشك فيه أن عدداً «عظيماً» من هذه البطون ليس إلا سلالة تلك القبائل التي عمرت تلك الديار منذ أزمان بعيدة وأحقاب طويلة فبينهم بلا شك بقية تلك القبائل التي كانت في هذه المنطقة قبل الفتح الاسرائيلي مثل العمالقة والمدنيين والادوميين ، ثم منهم بقية البطون الاسرائيلية مثل بني شمعون ودان ويهوذا ، وكذلك لاننسى وجود أرهاط من الانباط في هذه النواحي القريبة من شبه جزيرة طورسينا ، ولا ننسى كذلك أن هناك أفخاذاً من قبائل يمنية قديمة وصلت من أقصى بلدان الجزيرة إلى هذه الاماكن منذ زمن قديم

ولا شك أن العرب أخذوا يتسربون إلى هذه المناطق قبل الاسلام بعدة قرون واستوطنوا بعض أماكنها كما استوطنوا النواحي الاخرى من صحراء سوريا وتخوم بلاد العراق والشام .

وقد ذكر المؤلف ، وحق له أن يذكر ، أن هناك بعض قبائل تمتُّ بصلة إلى الافرنج الصليبيين .

ونحن نعتقد أن البحث الدقيق في اللهجات المختلفة يساعد الباحث على كشف الغطاء عن هذه المشكلة الجنسية العويصة التي تبلبلت فيها الاجناس البشرية ، وقد نرى في بعض الالفاظ المستعملة هناك بقية باقية من الاستعمال العبرى القديم مثل كلمة نقابة عند البدو في هذه الانحاء فهي تدل على المعابر والمسالك المنيعة في الجبال لانها وردت في مخطوط عبرى يرجع إلى القرن السابع . ق . م

وقد أحسن المؤلف بذكره نماذج من شعر أعراب القبائل ولكن فاته أن يأتي بمثل ذلك من رطانتهم العربية ، ولو أنه فعل لقدم خدمة جليلة للبحث العلمي اللغوى حيث كان يمكن أن نقف على لهجاتهم وأن ندرسها دراسة علمية ونقارن بينها وبين اللهجات العربية الاخرى ونتبين ما فيها من الالفاظ الغريبة التي جاءتها بلا شك من اللغات السامية الأخرى .

ولا نستطيع أن نكف أنفسنا عن التساؤل: لماذا صقل المؤلف الأحاديث التي سمعها من الأعراب صقلاً عربياً صحيحاً وفصيحاً ؟ ولماذا لم يتركها في لغتها البدوية الطبيعية والفطرية ؟ . . .

لذلك نلح على المؤلف ونشتد في الالحاح أن لا ينسى حين يقبل على طبع كتابه الطبعة الثانية أن يضيف إليه جملة أحاديث وأقاصيص الكثير من رجالات الأعراب من نواح مختلفة بلهجاتهم الطبيعية ورطانتهم الفطرية دون أن يتعرض لها بشيء من الزيادة أو الحذف .

ثم يأتي بعد ذلك الباب الخامس الذي يشتمل على تاريخ بئر السبع على ممر الأحقاب من أقدم الأزمنة التاريخية إلى يومنا الحالي

وثمة أمر آخر له خطره ، وهو أن المؤلف الذي يتقن العربية والعبرية لم يقع في ذلك الخطأ الفاحش الذي وقع فيه غيره من المؤلفين الشرقيين الذين يجهلون اللغات السامية ، وهو أنهم لا يضبطون كتابة أسماء الأماكن وأسماء الأعلام كتابة صحيحة كما ينطق بها أهل الشرق بل يكتبونها كما هي مدونة عند الغربيين الذين لا يستطيعون نطق الأسماء الشرقية نطقاً صحيحاً دقيقاً

أما مؤلفنا فكان في أغلب هذه الاحوال محسناً لكتابة هذه الالفاظ بضبطها الصحيح .

ولنا في هذا النوع بعض ملاحظات على مؤلفنا منها أنه لم يكن يجوز لعالم مثله أن يستعمل اسم البتراء دون أن يشير إلى اسمها الحقيقي القديم الذي منه اشتق كلمة بتراء المحرفة ، فالمؤلف يعرف أن البتراء التي تعرف اليوم بوادي موسى كانت عاصمة لبني أدوم قديماً ثم للأنباط في العصور المتأخرة ، وقد عرفت باسم سلع ومعناه : الصخرة ، ثم جاء اليونان وترجموا هذه الكلمة إلى اليونانية وأطلقوا على هذا المكان اسم بترا أي الصخرة أو الحجر

وكان عالمنا المرحوم أحمد زكي باشا كلما قرأ لبعض الكتاب كلمة بتراء بدلاً من سلع هاج وماج لانه يعرف أن العرب أنفسهم كانوا يستعملون في القديم كلمة سلع لا كلمة البتراء ، وقد أشار إلى ذلك في جملة مقالات نشرت بجريدة الاهرام قبل وفاته بزمن قليل

وفي الباب السادس يبحث في حالة بئر السبع في وقتنا الحاضر ، ومع أنه موجز فانه شامل كامل لان المؤلف من الافراد المعدودين الذين خبروا البلاد خبرة وافية .

ولا ننسى أن نشير إلى تلك الخريطة المفصلة لقضاء بئر السبع فهي بلا شك أول خريطة علمية دقيقة مبينة لمواطن القبائل العربية ومعينة لاسماء الامكنة في تلك البيداء الشاسعة الاطراف .

اسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب)
أستاذ اللغات السامية بدار العلوم

(طبعت بمطبعة الرسالة والرواية بحارة المدرستين ــ شارع المهدي)

5 me Année, No. 212

Lundi - 26 - 7 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

السنة الخامسة « القاهرة في يوم الاثنين ١٨ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ٢٦ يوليه سنة ١٩٣٧ » العـــدد ٢١٢

فهرس العـــدد

جلالة الملك فاروق الأول



اجتمع لجلالة الفاروق أعز الله نصره ما لم يجتمع لملك قبله من المزايا والخصائص فأحببناه أكثر من أخ ؛ وأجللناه أكثر من ملك : شباب كنضور الربيع كله حياة وجمال وخصب ، وخلق كمبهري النسيم فيه الرَّوح والريحان واللطف ؛ ونشأة كنشأة الأخيار المصطَفَيْنَ أقامها الله على أدب الدين وخلال الفتوة ؛ وجاذبية

كشعاع الروح الإلهي تجذب القلوب الصاغية بالهيام والحب؛ وشخصية على طراءة السن تبهر العيون بالجلالة وتملأ الصدور بالهيبة؛ وديمقراطية على عزة الملك كرحمة الله تُقر في الأذهان معنى السمو وسر العظمة؛ وعهد كإشراق الشمس قبله السرى المجهد والغسق الداجي، وبعده الصباح المسفر والضحى اللامع؛ وتاجٌ كدارة النور أو هالة القدس حلاه (مينا) بالشمس وزينه (المعز) بالقمر، فهو يتألق على جباه المنصور بالقمرين لا بماس الأرض ولا بلؤلؤ البحرين؟ وببعض هذه الخصائص والمزايا قدس الشعوبُ الملوكَ في الأمس البعيد، وفضّل الناس الملكية في اليوم الحاضر

* * *

مَن مثلُ فاروق جمع أطراف المجد فورث ملك الفراعنة وخلافة الإسلام وسلطان العرب، فكان رمزاً لأول حضارة مدنت الإنسان، وأقوم رسالة هذبت الحياة، وأعدل أمة حكمت الأرض؟ أليس هذا التاج المعنوي الذي يضعه الشعب على مفرقه يوم الخميس المقبل خليقاً بأن يسامي أضخم التيجان ملكاً وأرفعها مكانة؟ وهل يغض من خطر التاج أن انحسرت ظلال ملكه بعد أن ورفت على أكثر بقاع الكون؟ إن قيمة التاج في خلوص جوهره وأثالة مجده وسطوع تاريخه؛ وهذا التاج الذي له ملك مصر وهذه الملايين العرب والمسلمون ينظرون إليه نظرهم إلى الشعاع الهادي والأمل الباسم، هو من حيث هذه الصفات الثلاث أعظم تاج على جبين ملك

* * *

لا جرم أن فاروقاً الأول هو أول ملك في تاريخ مصر القديم والحديث نشأته الأمة على طبعها وحسها، وأعدته لعرشها بنفسها، وتوجته بطوعها ورضاها عقد التتويج الدستوري الشعبي الحر، ففتحت به عهداً لم يسبق، وبدأت به سنة لم تكن، وفصلت بالفاروق بين ماضٍ كليل بغى فيه الاحتلال على سيادتها واستقلالها، واعتدت فيه (الامتيازات) على أنفسها وأموالها، وبين حاضر زاهر يزخر فيه النيل بالحياة، ويجيش بالقوة، ويفيض بالأمل، ويقيم ملكه على الديمقراطية، وعرشه على الدستور، وحكمه على العدل، وصلته بالدول على المساواة. فهل تعجب إذا انقلبت البلاد من ضفاف الشلال إلى أرياف الدال، بشراً يتهلل في الوجوه، ومرحاً يتنزى في الأفئدة، وزينة تتخايل في الأرض، وأعلاماً تخفق في الجو، ودعاء يصّعّد في السماء، استعداداً للاحتفال بتتويج الفاروق سيد أعزاء مصر، وزين شباب الإسلام، وملك ملوك العرب؟

إن لابتهاج الشعب بتولي الفاروق حقوقه الملكية بواعث شتى: بعضها يرجع إلى شخصه، فشخصه عذب الروح قوى الجاذبية؛ وبعضها يرجع إلى عهده، فعهده أول عهد مصر بالسيادة والحرية؛ وبعضها يرجع إلى حكمه، فحكمه حكم الدستور والديمقراطية؛ ولكل أولئك ملابسات ومناسبات توزعت عواطفَ هذه الأمة الوديعة المطيعة المخلصة، ففرقت كما ترى في نشوة من نشوات الروح، فيها بهجة القلوب بالحب، وغبطة النفوس بالعزة، ولذة الحواس بالطمأنينة.

* * *

مولاي الفاروق!

إن من دلائل الفوز التيسير. ومالك الملك الذي اصطفاك لخلافة هذا المجد العريق قد يسر لشعبك في مستهل عهدك ما تعسر عليه الحِقَبَ الطوال من سيادته على أرضه. فتول القيادة العليا للسفين على هدى من الدستور ووحي من شمائلك الحرة؛ وأفِض من شبابك الفردوسي على ما خمد من عزائم هذا الشعب لطول ما كابد من عنت الأحداث وطغيان الدخيل؛ واطبع النشْءَ من شعبك الهين اللين على غرارك في ثقافة العقل وثقافة الطبع وثقافة الجسم، فإنك المثل الأعلى لكل ذلك. ومَثَلك الفريد يا مولاي هو ما تحتاجه مصر في تجديد ما رثّ منها، وتكميل ما نقص فيها، وتوفير مواهب الانشاء بها، وتنظيم قوى الدفاع عنها، وتوثيق أسبابها العمرانية والاجتماعية والسياسية لتربط بين أملاك العروبة وملكك، وتصل طرفي المجد بين عرش (مينا) وعرشك. ثبت الله ملكك بالسلام، ونضَّر عهدك بالوئام، وجمّل حكمك بالرخاء والصفاء والسكينة

احمد حسن الزيات

تاج مصر

من مينا إلى فاروق

للأستاذ عباس محمود العقاد

اسم الملك فى مصر القديمة دليل على عراقة النظام الملكى فيها ، لأنه دليل الرسوخ والتوطد والعمران المستفيض على حين يعرف الملك فى البلدان الأخرى بأسماء قريبة من البداوة أو من حالة البداية الفطرية .

فالملك فى اللغات اللاتينية (Rex) مأخوذ من كلمة الراجا الهندية وهى فى الأصل بمعنى الربان .

والملك فى اللغات السكسونيـة (King) مأخوذ من كلمة جنا كا (Jan aka) الهندية وهى بمعنى الوالد ، ولعلها كما يرى بعض الباحثين فى اللغات القديمة قريبة من كلمة الخان وما إليها .

والملك فى العربية وأخواتها بمعنى الاستيلاء ، والامارة بمعنى الأمر ، وكلاهما يتحقق لأصغر الحاكمين ولو كانوا من رؤساء العشائر ، لأن المرجع فيهما إلى الرآسة حيثما كان رئيس ومرؤسون .

أما « بارو » أو فرعون كما نعرفها الآن فمعناها « الباب الكبير » أو « الباب العالى » وهو الاسم الذى كان المصريون الأقدمون يعرفون به ملك البلاد ، وتسمية الملك به دليل على « تطور » الحكم عندهم من حالة الأبوة أو الزعامة البدائية أو الرآسة المستمدة من أواصر القرابة إلى حالة السياسة وتدبير العمران وقيام الدواوين ومراسم السلطان .

كذلك كان المصريون يعرفون التيجان ومعانيها السياسية إذ كان غيرهم لايتجاوزون عهد العصابة أو عهد الاكليـل من النسيج والزهر ، ثم من المعادن والجواهر ، فكان لملك الوجه البحرى تاجه وشعاره ، وكان لملك الوجه القبلى تاجه وشعاره ، ثم اتحد الوجهان فاتحد الشعاران ؛ وظل الملوك حينا يلبسون هذا أو يلبسون ذاك للدلالة على الحقوق السياسية التى تناط بكل تاج وكل شعار .

وعراقة النظام الملكى معقولة طبيعية فى بلاد كالبلاد المصرية تحتاج إلى نظام واحد فى الرأى ونظام واحد فى الحكومة ، ويد واحدة تشرف على سقيها وتدبير معيشتها ؛ ويساعد على استقرار « النظام » فيها أن أمورها كلها مستقرة تجرى على مثال واحد قليل التغيير والتبديل .

قال الأستاذ ألفرد فيدمان الألمانى فى كتابه (ديانة قدماء المصريين) : « إن الهيمنة على جداول الأرض كانت بطبيعتها أقرب إلى التركيز والتوحيد من سائر المرافق الأخرى . إذ لايتأتى تنظيم الرى فى مصر على نحو مضمون مكفول بغير هيمنة واحدة تمنع الأفراد أن يجوروا على المصلحة القومية فى سبيل المنافع الفردية »

وتناول الأستاذ اليوت سميث هذا الرأى فشرحه وفصله فى كتابه « التاريخ الانسانى » وأيد فيه ماسبقه إليه العالم الألمانى من تعليل عبادة الملوك فى مصر القديمة ، إذ كان المالك عندهم لزمام النيل ومقادير الماء مالكا فى ظنهم لمصادر الحياة ، خليقاً أن يحاط بمظاهر من التعظيم ومناسك من التقديس لايحاط بها الانسان ، ولا تكون لغير الأرباب .

ويزكى هذا الرأى أن « مينا » رأس الملوك الذين وحدوا البلاد وجمعوا بين حكم الوجهين إنما كان فى معظم أعماله مهندساً يسوس الماء ويدبره من ثم كيف يسوس البلاد ، وإليه ينسب المؤرخون الأولون تحويل مجرى النيل وإقامة السدود فى أقاليم منف والفيوم .

* * *

ثم جاء عهد الحضارة العربية وهى الحضارة الثانية التى بقى لها بعد الحضارة الفرعونية أخلد الآثار فى تكوين الشعائر وتقرير نظام الحكومة بين المصريين .

والفرق بين مظاهر الملك فيها ومظاهر الملك فى الحضارة الفرعونية هو الفرق بين حاكم يقول : إنه « عبد الله » وحاكم يقول ويقال له : إنه هو الاله وسيد الخلق والأمر وباعث الخير من الأرض والسماء .

فليس للملك العربى « تاج » ولا يحب الملوك العرب أن يتشبهوا بالأعاجم فى هذه المراسم . مدح عبد الله بن قيس الخليفة

عبد الملك بن مروان بقصيدة من جيد شعره يقول فيها :

إن الأغر الذى أبوه أبو العا — صى عليه الوقار والحجب
خليفـــة الله فوق منبره — جفت بذاك الأقلام والـكتب
يعتدل التاج فوق مفرقه — على جبين كأنه الذهب

فقال له عبد الملك : يا ابن قيس ! تمدحنى بالتاج كأنى من العجم وتقول فى مصعب (ابن الزبير) :

إنما مصعب شهاب من اللـ — ـه تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه — جبروت وليس فيه رياء

أما الأمان فقد سبق لك ، ولـكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً . . . هذا وعبد الملك بن مروان كان من ملوك العرب الذين أكثروا من اقتباس الأزياء والشارات الفارسية ، إلا مراسم التيجان التى بغضتها إليه النعرة العربية كما بغضتها إليه موجدته على ابن الزبير ومن مدحوه وجنحوا إليه !

وأياً كان سر الإنكار فى نفس عبد الملك فقد ظل الملوك المسلمون يؤثرون العمامة على التاج ويتخذون آثار النبى عليه السلام — ومنها البردة والخاتم — شعاراً للخلافة أعز عندهم وعند الرعية من كل شعار .

ثم جاء خلفاء الترك فاختاروا العمامة على التزين والترصيع ، حتى لبسوا الطربوش وميزوه على سائر الطرابيش بحلية من حلى التجميل ، كراهة منهم أن يتخذوا التاج ويتشبهوا بالملوك الأوربيين

أما ملوك مصر فقد لبثوا يتخذون الآثار النبوية شعاراً للخلافة حتى زالت عنهم هذه الآثار فعوضوها بما يشبهها ، ثم جروا على سنة الولاة العثمانيين حين دخلت مصر فى حوزة الدولة العثمانية .

* * *

ثم قامت الأسرة العلوية على أساس الانتخاب والتولية فى وقت واحد : فقد أساء الوالى العثمانى الحكم فاجتمع العلماء والنقباء بدار المحكمة واستقر رأيهم على اختيار محمد على الكبير والياً عليهم وإبلاغه ذلك والكتابة إلى الآستانة فى هذا المعنى . وانتقلوا إلى دار محمد على باشا هاتفين : إننا لا نريد هذا الباشا — يعنون خورشيد باشا — والياً علينا . وقال السيد عمر مكرم : « إننا خلعناه من الولاية » . . . فقال محمد على باشا : ومن تريدونه والياً عليكم ؟ فقالوا بصوت واحد : إننا لا نرضى إلا بك لما نتوسم فيك من العدالة . قال بعد تردد : إننى لا أستحق هذا المنصب وقد يكون فى التعيين مساس بحق السلطان . فعاد العلماء والنقباء يقولون : إن العبرة برضى أهل البلاد وقد أجمعنا على اختيارك .

فقبل محمد على وألبسه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى الكرك والقفطان وهما خلعة الولاية . ولم يمض على ذلك شهران حتى جاء الفرمان من قبل السلطان باقراره فى منصبه وتعزز ما اختاره الشعب لنفسه ، فكانت هذه هى بيعة الشعب المصرى لمحمد على الكبير ولأسرته من بعده

* * *

وكانت النهضة المصرية وشاء الله لمصر أن تكون ولاية مليكها المحبوب « فاروق الأول » فتحاً جديداً فى تاريخها لا مثيل له فى جميع هاتيك العصور ، وقدوة للاحقين جمعت كل حسن سائغ من الماضى وتنزهت عن كل ما يأباه المليك ويأباه رعاياه :

إستقلال الفراعنة بغير شوائب الوثنية ، وملك العرب بغير رعاية أجنبية ، واختيار الشعب بغير الولاية العثمانية . وقد كانت الدولة البريطانية تزعم لنفسها المزاعم فى إبان الحرب العظمى ، فبطلت هذه المزاعم وقام الملك الفاروق بالأمر بيننا أول ملك خلص لمصر عرشه وخلص له حبها واختيارها . فلا نظير لهذا الملك فى عهد الفراعنة ولا فى عهد العرب ولا فى دولة العثمانيين ولا فى دولة الانجليز . وهنيئاً لمصر هذه البداية ، وهنيئاً للفاروق هذه المزية ، وهنيئاً للمستقبل ما يرجى له من طوالع هذا الفأل الحسن وهذا البشير السعيد

وإن من الخير لمصر أن يكون تاجها هو التاج الذى اختاره الله للمليك الفاروق الفارق بين جيلين وعصرين :

تاج محسوس بالقلوب مثاله هو شخص المليك المحبوب ، ومن تراه الأفكار قبل أن تراه الأبصار ، وطلعة كما قال عبد الله ابن قيس :

. . . شهاب من اللـــه تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه — جبروت وليس فيه رياء

عباس محمود العقاد

حديث الملك فاروق

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

عرفت فضل النظام الملكي ومزيته في ليلة صيفية كان هذا الموضوع آخر ما أتوقع فيها أن يجري لي في خاطر . وكنا نحو عشرين — مابين كبار وصغار ، ورجال ونساء ، وشيب وأطفال — خرجنا في أربع سيارات إلى الصحراء — صحراء مصر الجديدة — ومعنا الطعام والشراب والسجاجيد والوسائد والأواني والأوعية وسائر مايحتاج إليه مثلنا في مثل هذه الرحلة ، إلا الأكواب فقد نسيناها على فرط حرصنا على تذكرها ، فاضطر أحدنا أن يعود بالسيارة إلى حيث مساكن الأحياء ليشتري لنا بغايتنا من هذا الذي نسيناه . وفرشنا السجاجيد وأخرجنا الوسائد والحشايا وصففنا الأطباق ووزعنا الفوط والأشواك والملاعق والسكاكين — فقد أبى أكثرنا إلا أن يكونوا من أبناء المدنية وان كان أصل الفكرة أن نجعلها ليلة « بوهيمية » وأن نطلق النفس على السجية ونتقي التكلف — وشرعنا نأكل ونسمر ونضحك ونلعب ونتخاطف الطعام والشراب ويجري بعضنا وراء بعض . وكنت جالساً على حافة السجادة وساقاي ممدودتان أمامي — كأنما يمكن أن أمدهما ورائي ! — وظهري إلى مؤخرة إحدى السيارات فان احدى ساقي مهيضة فليس في وسعي أن أجلس كما يجلس خلق الله . فأقبلت عليّ إحدى الفتيات وأراحت كفها على كتفي وقالت: « ولكن كيف نسينا الأكواب ؟ »

فهززت كتفي التي عليها راحتها — فقد كان الجو حاراً — وقلت : « وهل أنا أعرف ؟ »

فأبت إلا الالحاح وقالت : « ولكنك كتبت كل شيء في ورقة وراجعت كل شيء على مافيها ؟ »

فقلت بايجاز : « صحيح »

فقالت : « إذن كيف حدث هذا ؟ .. لابد انك تعمدت .. »

ولم تتمها فقد صاحت إحدى الفتيات في هذه اللحظة : « الملك فاروق ! »

وإذا بالقاعدين والمضطجعين جميعاً يثبون إلى أقدامهم كأنما شكبهم جميعاً حديد محمي ، ولولا ساقي وصعوبة هذه الحركة الباغتة عليها ، لكنت وثبت كما وثبوا ، فان للجماعة عدواها ، وصارت كل يد على أقرب كتف ، وجعلت العيون تدور في كل ناحية ، والألسنة تجري بالسؤال الطبيعي : « فين ؟ » . وكانت الفتاة التي أطلقت هذه الصيحة تشير إلى سيارة تخطف بعيداً عنا ، ولا يكاد يبدو منها شيء لكثرة الغبار الثائر وراءها . وسكنت الضجة أخيراً فقالت إحدى الفتيات : « هل سمعتم أغنية الملك فاروق ؟ » فقلنا جميعاً — أعني الرجال — : « لا » — بلسان واحد . فقالت : « أغنية جميلة » قلنا : « هات أسمعينا » فهزت كتفها ، وأولتنا ظهرها ، وأخفت وجهها في حجر زميلة لها . فسأل أحدنا : « هل فيها شيء يدعو إلى الحياء ؟ » فقالت بنته : « لا . إنما خجلها من أن تغني » قلنا : « إذن أسمعونا ياناس »

فأبين أن يسمعننا شيئاً ، وتركننا متلهفين على السماع الذي حرمناه . ولم أطق أنا صبراً فعمدت الى الحيلة ، وغيرت الموضوع ثم ملت على جارتي وسألتها — فيما بيننا — : « هل تعرفين هذه الأغنية ؟ » فهزت رأسها أن نعم ، فسألتها : « ماذا فيها ؟ » قالت : « لا شيء في الحقيقة وهي شائعة جداً »

قلت : « اهمسي بها في أذني » ففعلت وإذا بالأغنية كما يأتي :

« مصر فرحانه بفاروقها مصر فرحانه بحبيبها

كل بنت تستمنى لو جلالته يكون خطيبها »

وفهمت لماذا خجلت الفتيات أن يغنينها وإن كان لفظها لا يراد به المعنى الحرفي ولا يدل على أكثر من الحب العام الذي فاز به هذا الملك الشاب السعيد الحظ . وخطر لي وأنا جالس أفكر في هذه الأغنية الشائعة أن ملكا مثله يسعه أن يثق بحب الشعب له وأن يطمئن إلى دوام هذا الحب ، فإن المرأة تصنع بنا معاشر الرجال المغرورين ما تشاء

وقلت لنفسي وأنا أرى بعيني هذه الصحراء المهولة التي يضيئها القمر : إنه ليس في وسع رئيس جمهورية أن يفوز بمثل هذا الحب . ولا يعقل أن يكون رئيس جمهورية شاباً في مثل سن الملك فاروق ، وعلى أنه ماذا صنع الجمهوريون حين ألغوا الملكية واعتاضوا منها الجمهورية ؟ لم يصنعوا شيئاً سوى أنهم قلدوا الملكية ، واحتفظوا بكل مظاهرها ، وحرموا الشعوب إمكان الحب لرؤساء دولهم ،

واتخاذ هؤلاء الرؤساء رموزاً لأوطانهم وأعلاماً عليها ، وعناوين لها ، وأفقدوها معنى قومياً تتعلق الشعوب به . والجمهوريون يشعرون بذلك ويفطنون إلى الزيف الذي تكلفوه ، ولذلك يحفون رئيس الجمهورية بكل ما كان يحف بالملوك من المظاهر والمراسم . فله قصره ، وحرسه ، وحاشيته ، وإنعاماته — كائنة ما كانت — وله مقام كمقام الملك ، واحترام كاحترامه ، وتقاليد ملكية مقررة لا تختلف ولا يمكن التساهل في أمرها . وكل ما ذهب هو نظام الوراثة . هذا وللملكية نشوءها طبيعي في الأمم ، فقد كان الملك في العصور الأولى هو الأقوى أو الأقدر على العموم وبقدرته أو قوته الممتازة استحق التسويد . أما الجمهورية فنظام قائم على التكلف والمغالطة . والزعم فيه هو أن الأمر والرأي للأمة ، ولا أمر ولا رأي للأمة في الحقيقة ، وإنما الأمر والرأي لنفر ممن في أيديهم مقاليد الأمور ، وأعنة الشئون . وما دامت الشورى هي نظام الدولة ، والدستور هو الذي يجري على قاعدته الحكم ، والملك لا يحكم إلا بواسطة وزرائه ، فلماذا تتكلف الأمم عناء التبديل والتغيير والمغالطة لنفسها وتجيء برئيس جمهورية لا يختلف عن الملك في شيء ، ثم تزعم أنها جاءت بجديد ؟ كل ما تصنعه الأمم التي اعتاضت الجمهورية من الملكية هو أنها أفسحت المجال لأطماع وراء الأطماع العادية في مناصب الحكم أي في المناصب الوزارية . وقد يكون من عجائب الانسان أنه لا يقنع بمنصب الوزارة — وهو منصب حكم فعلي لا وهمي — وأن يروح يطمع في منصب لا يكون لصاحبه وهو فيه من الأمر قليل أو كثير . وكل ما يفيده هو الأبهة التي ليس وراءها حقيقة . ومن مغالطات الانسان لنفسه أن يدعي كره الملكية وأن يتخذ مع ذلك كل مظاهرها ما خلا الاسم ، ويروح على الرغم من هذا يقنع نفسه أنه غير شيئاً حين أبدل الملك برئيس جمهورية . وقد تكون الجمهورية أو ما إليها معقولة في بلد حديث العهد بالوجود مثل الولايات المتحدة ؛ أما في الأمم القديمة التي نشأت فيها الملكية وتقررت زمناً فان التغيير لا يكون إلا مغالطة ولا يكون الباعث عليه إلا الأطماع الشخصية أو جنون الحركات الثورية التي يفقد فيها العقل اتزانه واستقامة نظره ، وهدوءه .

ولم أسترسل في هذه الخواطر التي لا أدري لماذا دارت في نفسي ، فعدت إلى رفاقي أسألهم عن الملك فاروق وأحاول أن أعرف سر هذا الحب كله . فقالت فتاة صغيرة بسذاجة محببة : إنه شاب حلو . فقلت لنفسي : إن هذا معقول فإن الأمم تحتاج إلى الشباب لتجديد نفسها . ومجرد وجود ملك شاب على رأس أمته يشعرها بفيض جديد من الحياة والشباب على الخصوص ، وينعش في نفوسها الأمل . ولعل فتاتنا الساذجة لا تدرك ذلك كله ، ولكنها صدقت من حيث لا تدري . وقال رجل : إنه شديد التمسك بعادات قومه ودينهم . فقلت لنفسي : وهذا أيضاً صحيح وهو من مزايا الملكية ، والشعوب تحب أن ترى في ملكها رمزاً لكل ما تحرص عليه وتضن به ، من دينها وعاداتها وتقاليدها وآمالها ، ولا يتأتى هذا كما يتأتى في الملكية . وقال ثالث : إنه متواضع رقيق الحاشية والقلب . فحدثت نفسي أن هذا أيضاً صحيح ، ومعقول أن يكون باعث حب ، فما من أمة تحب العجرفة والشموخ والفطرسة والجبروت في حكامها ، حتى ولو خضعت لهم مكرهة ، وهي تؤثر الحدب والرعاية والعطف والعدل ، وهـذا كله حقها . وقال آخر : إن الأمل فيه عظيم ، وإن البشرى به حسنة ، وإن فاتحة عهده آذنتنا بالخير . ولا يكون مثل هذا الأمل الكبير في رجل عرفت حياته ونزعاته واتجاهاته ، وأصبح ما يمكن أن يكون منه مما يسهل أن يعرف بالقياس على ما كان فعلا في ماضيه المعروف . وعظم هذا الأمل دليل على عظم الرغبة في الانتقال إلى ما هو خير . ودلالات هـذا الأمل كثيرة وليس هنا مقام القول فيها . وقد كثرت في جلستنا الأسباب التي يعزى إليها حب الشعب للملك الشاب ، وكلها صحيح ولكني لا أذكر الآن أن واحداً منا أشار إلى جاذبيته الخاصة ، وقد يكون مرجعها إلى الشباب ، ولكني أحسبها هبة من الله ، فما أكثر الشبان وما أثقل الكثيرين منهم !

وعدنا وما كان لنا حديث إلا الملك فاروق وحبه لأمته وحب الأمة له . وما أظن أن حديثاً آخر كان خليقاً أن يكون أشهى وأمتع . ومتى كان الحديث عن الملك في المجالس أشهى الأحاديث وألذها فان للملك أن يبشر وللأمة أن تستبشر

ابراهيم عبد القادر المازني

لمناسبة تتويج الفاروق

خواطر تاريخية ودستورية

عن رسوم التتويج والتولية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تستقبل مصر بعد يومين حادثاً من أعظم الحوادث فى تاريخها الحديث هو الاحتفال « بتتويج » جلالة مليكها فاروق الأول ، أو بالحرى ببلوغ المليك رشده الدستورى وتوليه مقاليد الشئون ، وافتتاح عهده السعيد فى ظل الاستقلال والحريات الدستورية ؛ ويلاحظ ان هذا الحادث الذى هو الأول من نوعه فى تاريخنا الحديث ، سوف ينشىء سابقة دستورية ينسج على منوالها ، وسوف يكون هو الحجر الأول فى صرح تقاليد الملوكية المصرية الدستورية

ولقد كان للملوكية المصرية فى عصور الاستقلال والمجد رسوم وتقاليد مؤثلة ؛ وكانت رسوم البيعة والتولية من أعظمها وأعرقها ، وكانت تتشح بألوان ساحرة من الفخامة والبهاء ، وتعتبر من الحوادث القومية الجليلة ؛ ولو لم تنكب مصر بمحنة الفتح العثمانى فى سنة ١٥١٧ ، وينهار بذلك صرح استقلالها وملوكيتها التالدة ، لكان عرش مصر اليوم أقدم عروش العالم وأعرقها

فالحادث العظيم الذى تستقبله مصر فى الغد يعتبر من الوجهة التاريخية ذا أهمية خاصة فى تاريخها : أولاً لأنه يصل ماضى الملوكية المصرية المستقلة بحاضرها بعد أن انقطع سيرها زهاء أربعة قرون ؛ وثانياً لأنه يفتتح عهد الملوكية الدستورية فى عصر الاستقلال ؛ وهذا المعنى التاريخى المزدوج هو الذى يسبغ على تتويج مليك مصر الشاب خطورة قومية ودستورية ذات شأن

وسوف تتخذ اجراءات التتويج هنا صفة رمزية معنوية ، فليس هنالك تتويج بالمعنى الحقيقى ، وليس لمصر الحديثة تاج موروث أو آلات وأزياء ملوكية خاصة يتقلدها المليك عند توليته ؛ وانما هنالك اجراء دستورى خطير هو فى الواقع أسمى مظهر يبدو به الملك الدستورى لأمته ، وأقدس عهد يقطعه لها حين تقلده لأمورها ؛ وهذا الاجراء هو أداء الملك لليمين التى نص عليها الدستور فى مادته الخمسين ، وذلك أمام البرلمان مجتمعاً بمجلسيه فى هيئة مؤتمر ونصها : « أحلف بالله العظيم انى أحترم الدستور وقوانين الأمة المصرية وأحافظ على استقلال الوطن وسلامة أراضيه » ؛ وسيتلو هذا الاجراء الخطير عدة حفلات واستقبالات عظيمة يتاح فيها للأمة أن تبدى عميق حبها وولائها لمليكها ، ويستعرض فيها الجيش المصرى الذى تؤمل مصر أن يستعيد فى المستقبل القريب مجده العسكرى التالد ، ويغدو حصنها المكين ، وحامى حمى استقلالها وذمارها

وإذا كان « تتويج » الفاروق سيقتصر على ثلاثة اجراءات ومظاهر رئيسية ، هى أداء اليمين الدستورية يوم الخميس القادم ، فأداء صلاة الجمعة فى اليوم التالى فى مسجد الرفاعى ، ثم استعراض الجيش فى اليوم الثالث ؛ فان هذا البرنامج على بساطته المؤثرة يحتوى جميع العناصر القومية والشعبية التى تأخذ بها جميع القصور والأمم العريقة ، بل والتى عرفتها الملوكية المصرية فى ظل الدولة الاسلامية ؛ ذلك أن تبادل العهد بين العرش والأمة عن طريق اليمين الدستورية التى يؤديها جلالة الملك أمام ممثلى الأمة ، والتى هى معقد رسوم التولية ، ليست فى الواقع إلا مظهراً جديداً من مظاهر نظام البيعة القديم تطور مع الزمن طبقاً لتطور الفكرة الدستوريه ؛ ففى العصور الوسطى كانت الخلافة أو العرش مصدر السلطات الروحية والزمنية ، وكانت البيعة تعقد للخليفة أو صاحب العرش بهذه الصفة ؛ أما اليوم فان الأمة تغدو فى ظل النظم الدستورية هي مصدر السلطات ، ويغدو العرش رمزها الأسمى ، وهي التى يدين لها الجميع بالولاء

أما التتويج بصورته الشكلية المعروفة عند ملوك النصرانية من وضع التاج على رأس الملك الجديد فى حفل دينى على الأغلب فلم يتبع دائماً فى الدول المصرية الاسلامية ، ولم يتبع إلا فى دولة الخلفاء الفاطميين ، فقد كان لخلفاء هذه الدولة ضمن آلات الملك تاج من الجوهر الثمين يعرف بالتاج الشريف وبه جوهرة عظيمة تعرف

باليتيمة ومن حولها جواهر دونها ، وله موظف خاص يوكل بوضعه على رأس الخليفة فى المواكب والأيام العظام يعرف « بمتولى شد التاج » . أما الدول التى تلتها كالدولة الأيوبيــة ، ودولة المماليك البحرية ، ثم دول السلاطين الشراكسة ، فلم يكن التاج بين الآلات الملوكية التى اختصت بها ، بل كان أهمها العرش (أو سرير الملك) وكان سلاطين هذه الدول يضعون على رؤوسهم أيام التولية طرحة سوداء مرقومة بالبياض ، أو عمامة سوداء مرقومة بالبياض ، تنويهاً بشعار الخلافة العباسية القديمة وهو الســواد ، وقد كانت هذه الدول تنضوى من الوجهة الروحية تحت لواء الخلافة العباسية القاهية ، على أنه لم يكن سوى انضواء شكلى فقط

ثم إن الحفلات القوميــة التقليدية كانت فى هذه المناسبات العظيمة تحتوي دائماً على العنصر العسكري ، وعلى بعض المظاهر الدينية ؛ فكانت مواكب الخلفاء فى الدولة الفاطمية تمتاز بروعة عسكرية ، وكان يحف بالخليفة الجديد وينتظم فى ركبه صفوة القادة والضباط والجند فى أثواب وأزياء باهرة ، ويشق هذا الركب الخلافى العسكرى الفخم مدينة القاهرة فيعرض على أنظار الشعب المعجب طرفاً من قوة الدولة والجيش ؛ وكانت مواكب السلاطين فيما بعد تمتاز أيام التولية أيضاً بهذا الطابع العسكرى الفخم ؛ وما زال الطابع العسكرى فى عصرنا أعظم مظهر للمواكب المشهودة فى أرقى الدول وأعظمها

أما المظاهر الدينية فقد كانت تتخذ مكانتها دائماً فى المواكب الخلافية والسلطانية ، وكانت فى ظل الدولة الفاطمية أشد ظهوراً وتمكناً منها فى أية دولة مصرية أخرى ؛ ذلك لأن الدولة الفاطمية كانت خلافة مذهبية وكانت الإمامة الدينية شعارها ، وكان الخليفة يجمع بين يديه جميع السلطات الدينية والزمنيــة ؛ وكانت مواكب السلاطين تحتوى أيضاً مثل هــذا الطابع الدينى ؛ بيد أنه يجب أن نفرق بين هذه المظاهر التى كانت تتفق من الوجهة الشكلية مع روح العصر ، وبين مسألة أخرى هي مدى مثول العنصر الدينى فى تولية الخلفاء والسلاطين المصريين . وقد أثيرت هــذه المسألة أخيراً لمناسبة تتويج جلالة الملك فاروق ، ورأى بعضهم أن تجرى إلى جانب الحفلة الدستورية حفلة دينيــة فى أحد مساجد القاهرة يتلو فيها شيخ الأزهر على جلالته صيغاً معينة يجيب عنها جلالته بما يناسبها ، فيكون هــذا بمثابة تتويج دينى لجلالته إلى جانب التتويج المدنى ؛ وكانت حجة هؤلاء أن مصر دولة إسلامية دينها الرسمي الاسلام ؛ وقد اعترض على هــذا الاجراء بحق بأنه ينافى الأوضاع الدستورية ويخلق فى الدولة سلطة روحية لا وجود لها ؛ على أننا نزيد هنا أن هذا الاجراء لم تعرفه القصور المصرية فيما عرفت من رسومها وتقاليدها ، ولم يحدث قط فى تاريخ مصر الاسلامية ، أن تلقى خليفة أو سلطان عهداً أو تفويضاً من زعيم دينى سواء أكان قاضى القضاة أم شيخ الأزهر ، ولم يتلق السلاطين مثل هذا التفويض إلا من الخليفة العباسى ، الذى أقاموه هم بعصر بعد سقوط الخلافة العباسية فى بغداد ليتخذوا من لوائهــا أداة من أدوات السياسة . بيد أنه كان إجراء شكلياً فقط ؛ كذلك لم يحدث قط فى تاريخ مصر الاسلامية أن توج خليفة وسلطان فى مسجد من المساجد ، بل كان التتويج يجرى دائماً فى مقر الملك ، فى القصر الفاطمى أيام الدولة الفاطمية ، وفى دار الوزارة الكبرى ثم فى قصر القلعة أيام الدولة الأيوبية والدول التى تلتها ؛ أما العناصر والمظاهر الدينية فى حفلات تولية الخلفاء والسلاطين فكانت تلخص فيما يلى : مثول قاضى القضاة وأكابر العلماء إلى جانب أقطاب الهيئات العسكرية والدينيــة الأخرى ، فى حفل التولية ، وفى الموكب الملكي ؛ وأداء الخليفة لصلاة العيد أو الجمعة فى الجامع الأزهر أو جامع عمرو أو جامع الحاكم أو غيرها من المساجد الجامعة ؛ ولم يظهر نفوذ رجال الدين فى مسائل العرش والتولية إلا فى أواخر دولة الملوك الشراكسة حيث كان للعلماء والقضاة الأربعة نفوذ يذكر فى تولية بعض السلاطين وعزلهم وتقرير رشدهم ؛ بيد أن هذا النفوذ كان عارضاً يرجع إلى أحوال الدولة المصرية والمجتمع المصرى يومئذ ؛ ولم يكن من العوامل الأساسية فى مسائل العرش والتولية .

والواقع أن إجراء رسوم التتويج بالمسجد هو أقرب إلى الشعائر الوثنية والنصرانية ، والكنيسة تؤدى مثل هذا الدور الذى يراد أن يؤديه المسجد — فى الأمم النصرانية ؛ وقد شهدنا هذا المنظر فى تتويج جلالة ملك انكلترا حيث جرى تتويجه فى

الكنيسة وتلا عليه مطران كنتربرى صيغاً معينة أجاب عليها ؛ ومع أن الدول الأوربية قد تحررت منذ بعيد من سلطان الكنيسة فان هـذه الاجراءات ماتزال تمثل فى الاحتفالات القومية الكبرى كالتتويج وغيره ، فنرى الأمبراطور نابوليون بونابرت مثلا يجوز رسوم التتويج فى كنيسة الأنفاليد فى فاتحة القرن التاسع عشر ، كما توج سلفه الأمبراطور شارلمان قبل ذلك بألف عام فى إحدى كنائس رومة وتولى البابا ليون الثالث وضع التاج على رأسه ؛ على أن هذه المظاهر النصرانية والمناظر الوثنية التي ترجع إلى روح العصور الوسطى أيام كان سلطان الكنيسة الروحى يغشى كل سلطة زمنية وتستظل بلوائه الملوكية لتدعم سلطانها الزمنى ، لم تعرفها الملوكية الاسلامية ولم تأخذ بها ولم يلعب المسجد فى هذا الميدان مثل هذا الدور الذي تلعبه الكنيسة فى تتويج ملوك النصرانية ، كذلك لم تعرف الدولة الاسلامية لرجال الدين سلطة خاصة كتلك التى يزاولها الأحبار النصارى فى مثل هذه المناسبات السياسية والقومية .

وعلى ذلك فان البرنامج الذى وضع لتتويج جلالة ملك مصر والذى يقوم على العناصر التقليدية الثلاثة : العنصر الدستورى وقوامه أداء جلالته لليمين الدستورية أمام ممثلى الأمة ، والعنصر الدينى ومظهره أن يؤدى جلالته صلاة الجمعة فى اليوم التالى فى أحد المساجد الكبيرة ، والعنصر العسكرى ومظهره أن يقوم جلالته باستعراض الجيش المصرى الباسل فى حفل فخم ، هو فى الواقع برنامج موفق ، يتفق على بساطته مع الروح الدستورية الصحيحة ، ويجانب تلك البدع والرسوم الوثنية التى زعم البعض أنها تسبغ على حفلات التتويج لوناً روحياً خاشعاً ، وتنوه بصفة مصر الاسلامية فى حين أنها تنافى الأوضاع الدستورية والتقاليد الملوكية الاسلامية ؛ بل إن هذا العهد الدستورى المؤثر الذى يتقدم به المليك لأمته يوم توليه مقاليد أمورها ، ليذكرنا كيف تمت ولاية جده العظيم محمد على لمصر على يد زعماء الأمة المصرية فى منظر من أعظم المناظر الديمقراطية التي يسجلها التاريخ المصرى

٩٠٩ **محمد عبد الله عنان**

عرش الشمس

يقدمه واحد وأربعون قرناً !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

حينما أرسلت خيالى يرود لى ما يقع عليه « عرش الشمس » الذي يتبوأه اليوم الفاروق ، من البحر فوق ، إلى البحيرات تحت ، عرفت فى نفسى كلاماً يوحى إلى أن خذ قلمك وسر فى موكب التتويج جندياً يحمى أو شاعراً يغنى ! فانه موكب يسير فيه واحد وأربعون قرناً هى كل تاريخ الانسانية الذى وعته ذاكرتها . . وتحتشد فيه الدنيا لرجوع شباب « أمها » فى مَلِك نظيف المادة مكتمل ، واسع الروح قِدّيس الحياة ، قد صنعه الله على عينه ، وآتاه البسطة فى العلم والجسم ، واختار له ذلك الاسم الذى يومىء الزمن به إلى تاريخ وقف وتاريخ أقبل ، وحاطه بحكماء أذكياء على علم تام بكمالات النفوس وواجبات الملوك ، وعبّد له طريق الحكم وأزال منه الأشواك ورفعه على عرش لا تخفق فوقه راية أجنبية ، وأعده ليكون ملكا بطلا ومربياً شعبياً وقائد جيل !

وهأنذا فى الموكب أهتف : —

أشهد أن لا إله إلا الله يا مليكي ! فلا أعبـدك . . . ولا أنسى بك مَلِكك وباريك وإلهك . . . كمن فتنوا بعبادة الملوك فى الماضى ، ومن لا تزال فى قلوبهم بقية من هذه الجاهلية فى الحاضر

ولكني أجد فى قلبي سطوة الحب لمناك الذى أخرجه الله على قلوب الناس إخراجاً مفاجئاً فى ظرف غريب ، كما يُخرِج الفجرَ فتطرفُ له كل عين ، ويتفتح له كل قلب ، وتتنفس الأرض به من الظلام !

ولمناك يا مولاى فى ذهني صورة تمتد امتداد النهار . . . فتقع على الزنجى فى جنوب الوادى ، وعلى الأسكندرى ومن بينهما

لحبك حب هؤلاء جميعاً ، لأنك المنى الندىُّ الذى يَنْضح الله به قلوبهم الجافة ، ويبثه فيها رحمةً مُهداة .

هى صورة مؤتلفة الأصباغ من ألوان بِرْ الذى والبته على أمتك تقول به لها : أنا لك !

ومن كالِكَ الذى تستعلن به مصر فى كل مكان وطنته قدماك وتقول للناس : أنا هو !

ومن دينك الذى تقول له : يا سلاماً من رحمة الروح لنا . . وظلا ظليلا من سلطان الله فى أرضه علينا . . . وهدًى ضاحياً على أعلى منارة !

ومن شبابك الذى يقولُ به الزمان لمصر : تجددى تجددى يا أم أبى الهول ! تجددى فى آمال قلبك أيتها العجوز . . !

***

كلا ! ليس مصادفة ومحض اتفاق أن يبنع أبوك العظيم اسمك الكريم على ذاتك الفداة . . . وإنما هو الإلهام والإرهاص الذى ترسله المقادير حين تريد أن تحدث انقلاباً تضطرب به أحشاء الزمن ، وأن تحجز بين تاريخين بحاجز من قَدَرها . . !

كلا ! ليس مصادفة واتفاقاً أن تخرجك المقادير على مسرحها هـذا الاخراج الفنى العجيب الذى استجمعت فيه كل براعتها وحسها وبلاغتها فى التكميل والتجميل : فأفرغت ذاتك فى نصاب الرجولة ووشتها بألوان الروض ... وقدست روحك بدين السماح وأضاءت عقلك بنور العلم . . . وزينت قلبك بمختار الأخلاق ومصطفاها ... وإنما يراد بك أن تكون صورة من صور الكمال الانساني يراها شبان هـذا الزمان فيسيرون إلى الكمال الأعلى وفيك لهم أسوة . . !

كلا ! ليس صـدفة أن يتكون قلبك فى عهـد ثورة الأمة وزلزلها حين ذهبت تدق بيـدها المضرجة باب الحرية الحمراء ، تقرعه على مسمع « أسد » ظافر بمـا سلب ، تيَّاه بما غلب ، بطاش بين يجأر أو يهمس بالكلمة المقدسة : الحرية ! حتى ظفرت منه بما زلزلت الأرض له ... وإنما كان ذلك من الأقدار صبًا لقلبك الملكي فى القالب الذى صبت فيه قلوب شباب أمتك ليكون الاحساس الوطنى تحت ضغط الثورة ، على سواء فى الأعلى والأدنى . . . وذلك هو المقياس الصحيح لوحدة الأمة وعرشها . .

فليكن هذا كله فى موضع التأمل من عقول الشباب والأمل من صدورهم والعمل من أجسادهم ؛ فانها برسالة تطلب جنوداً ذوى أرواح من شعل ، وقلوب من جبل ، وأجسام من عمل !

ولتهنأ الأمة بملك يدرك الحرية ويعرفها معرفة الرأي الذى كان يدور فى عقله حينما يرى تلاحم الحجج بين حماتها وغزاتها . . ويعرفها فى قلبه معرفة الدم الذي كان يفور فيه حينما يسمع أن دما من دماء جنوده الشبان سفك على مذبحها . . .

وليهنأ الملك بالعرش الذى يقدمه إليه واحد وأربعون قرناً ... ويحمله أربعة من أبطال الدنيا : رمسيس وعمرو وصلاح الدين ومحمد علي . . . وتحوم حوله قلوب خمسة عشر مليوناً تصلي فى ملكوت السموات إلى مالك الملك أن يجعل عينه الراعية على الملك الشاب الإلهى . . وأن يحدث به انقلاباً تحتاجه أوضاع الأرض !

« القاهرة » عبد المنعم محمد خلاف

تولية محمد علي باشا الكبير

صفحة مصرية نبيلة

وضع الأستاذ المؤرخ القصصي الكبير محمد فريد أبو حديد قصة سينمائية عن قيام حكم محمد علي باشا الكبير سماها «ابنة الملوك» وعهد إلى الأديب يوسف تادرس الناقد المسرحي بكتابة «السيناريو» وفي هذه المناسبة السعيدة ننشر من مناظرها هذا المنظر الذي يصور كيف نصب الشعب المصري محمد علي باشا والياً عليه بحكم إرادته ومحض اختياره

المنظر: قاعة في قصر محمد علي باشا بالأزبكية. محمد علي باشا في ملابس الولاية واقف وأمامه أدهم أحد ضباط الأرنؤود.

أدهم : ... وبعد قليل وصل السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي فلقيا عناء كبيراً في اختراق الكتل البشرية المجتمعة في ساحة بيت القاضي والطرق المؤدية إليها فقد كان عددها يعدو الأربعين ألفاً.

محمد علي : (في دهشة) أربعون ألفاً؟!

أدهم : أجل يامولاي وقد بلغ بهم الحماس حداً لامثيل له... كانوا يضربون على الدفوف ويهتفون من أعماق قلوبهم: «عايزين الحاكم اللي نرضاه» «عايزين الباشا بتاعنا»

محمد علي : (يبتسم) وبعد!

أدهم : صعد السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي والعلماء والأعيان إلى القاضي... حاولت الدخول فلم أستطع ولكني علمت أن كلمة الجميع قد اتفقت على خلع خورشيد باشا لأنه ظالم مستبد.

محمد علي : وهل انفض الاجتماع على هذه النتيجة؟!

أدهم : الاجتماع لم ينفض بعد... لقد غادرتهم مجتمعين وجئت مسرعاً لأتلقى تعليمات مولاي.

محمد علي : لابأس سيقفنا الشيخ عبد المنعم على مادار في الاجتماع... قل لي يا أدهم ماذا يقول الناس عني؟

أدهم : إنهم في حيرة ياسيدي... يقول البعض إنك ستسافر في الأسبوع القادم إلى جدة لتقوم بأعباء الولاية، ويقول آخرون إنك تخشى السفر ولن تبرح القاهرة

محمد علي : (يبتسم ويهز رأسه)

أدهم : مولاي: أتسمح لي أن أسألك سؤالا؟

محمد علي : سل يا أدهم.



أدهم : كيف قبلت منصباً كهذا؟

محمد علي : لا يرفض المرء ترقية مهما كانت... لقد كان هذا المنصب وسيلة إلى الرتبة التي ساوتني بخورشيد... إنه اعتراف من الباب العالي بجدارتي لمنصب الولاية

أدهم : أتترك مصر إلى جدة؟! تغادر هذه الجنة الزاهرة إلى تلك الصحراء القاحلة؟!

محمد علي : ومن قال لك إني راحل أيها الغبي؟

أدهم : مولاي... لقد أحس رجالك بحيلة خورشيد لاقصائك عن القاهرة فتوسلوا إليك أن ترفض السفر فأبيت. فهل لي أن أتساءل...؟!

محمد علي : (مقاطعاً بإشارة من يده) لا تتساءل... لنترك كل شيء إلى الظروف. وما قدر فسوف يكون

(يدخل سرور ويؤدي التحية)

سرور : سليمان أغا وضابطان يطلبون الإذن على مولاي

محمد علي : (يبتسم) أدخلهم. وإذا جاء الشيخ عبد المنعم فأخبرني

توا . (يخرج سرور) إذهب الآن يا أدهم وتسقط الأخبار في القلعة فلعلك تحمل إلينا شيئاً جديداً .

(يخرج أدهم — يدخل سليمان أغا وضباط من الأرنؤود ويؤدون التحية)

محمد علي : خيراً .

سليمان أغا : جئنا يامولاي لنعرف ما ذا استقر عليه رأيك .

محمد علي : لقد أعلنتكم برأيي وإني مصر عليه .

سليمان : مولاي ! ولكن مصلحة جنودك ورجالك لايمكن إغفالها .

محمد علي : تطلبون إلي أن أخالف أوامر الباب العالي ؟ ! إنكم تطلبون المستحيل . . . لقد قبلت المنصب والرتبة فلا بد أن أرحل إلى جدة .

سليمان : وكيف تتركنا ؟ ! ومن يهتم بنا إذا تخليت عنا ؟ . .

محمد علي : إن خورشيد باشا صاحب الأمر في البلاد وتستطيعون أن . . .

ضابط(١) : نحن لانقبل أن يتحكم خورشيد فينا .

ضابط(٢) : ألا من سبيل لتحقيق أمنية رجالك يامولاي ؟ !

محمد علي : لاأظن ، فانها تتعارض وأوامر الباب العالي .

سليمان : يؤلمني ياسيدي أن أصرح بأن رجالك قد قر رأيهم على أن يحولوا بينك وبين السفر .

محمد علي : أجاد أنت فيما تقول ؟ !

سليمان : أجل ياسيدي سنمنعك بكل الوسائل .

محمد علي : كيف ؟

ضابط ٢ : سنلجأ إلى القوة إذا أدى الأمر إليها .

محمد علي : وإذا صممت أنا على السفر ؟

ضابط ١ : تعرض نفسك للخطر .

محمد علي : إن ذلك تهديد !

سليمان : سيدي . . . إن خورشيد هو الذي سعى لإبعادك ليتحكم فينا ويستبد بنا .

ضابط ٢ : إنه لا يريد بنا الشر فحسب ، بل بك أيضاً . . . إنك تدرك خديعته وتعرف أن في سفرك الخطر كل الخطر ومع ذلك تصر على رأيك

محمد علي : إذا نزلت على رغبتكم كنت في نظر السلطان ثائراً وحق لخورشيد باشا أن يلقي القبض علي ويرسلني إلى الأستانة .

سليمان : لن يستطيع هذا . . . إننا قوة كبيرة في البلاد . . . ثق يا سيدي أنه لن يصل اليك إلا على أجسادنا

محمد علي : (يتسوهوقول ساخراً) وإذا بدأت الحرب وقفتم في وجهي بين يوم وآخر وجعلتم تطالبونني بالرواتب أليس كذلك ؟ ! لا . لا . . . لن أقبل .

سليمان : مولاي . . . إننا لا نفكر الآن في الرواتب ؛ نحن ننظر إلى كياننا ، إلى الخطر الذي يهددنا . . سنكون طوع أمرك فهل تعطينا كلمة ؟ . .

محمد علي : لا أستطيع أن أفكر في الأمر إلا إذا وثقت من شيئين : ألا يطالبني الجنود بالرواتب الآن ، وألا يوقفوني مواقف حرجة فيما بعد .

سليمان : لك ذلك ياسيدي . لن تكون الرواتب مصدر قلق لك

محمد علي : (ساخراً) أحق هذا ؟ !

ضابط ١ : أجل يا سيدي ولنقسم بين يديك

(يدخل سرور ويؤدي التحية)

سرور : مولاي . . . الشيخ عبد المنعم .

محمد علي : (لسرور) ادخله حالا (لسليمان أغا) لا أستطيع أن أعطي كلمة الآن . . . وسأرسل إليكم كلمتي في المساء ؛ وعليكم أن تكونوا على استعداد .

سليمان : حسن يا سيدي

(يؤدي الثلاثة التحية ويخرجون)

(يدخل الشيخ عبد المنعم مسرعاً)

عبد المنعم : مولاي . . . إنهم في أثري إلى هنا .

محمد علي : من ؟

عبد المنعم : السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي والأعيان وأولاد البلد .

محمد علي : وما ذا حدث ؟ . . .

عبد المنعم : أوه يا سيدي . لقد كان يوماً عظيما . . . احتشدت الألوف . . .

محمد علي : (مقاطعاً) عفواً يا سي الشيخ أعرف كل هذا .

أريد أن تقص على مادار فى الاجتماع . أريد النتيجة فحسب .

عبد المنعم : وقف السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى ومن ورائهما العلماء والأعيان أمام منصة القاضى، وعرض السيد عمر مظالم الشعب فكان الجميع لساناً واحداً على خلعه

محمد على : وما السبب الذى بنى عليه قرار الخلع ؟ !

عبد المنعم : السبب أنه حاد عن سنن العدل وسار بالظلم فأصبح خارجاً على الشريعة .

محمد على : وبعد ؟

عبد المنعم : تحدث العلماء وأصحاب الرأي فى اختيار وال جديد واقترح السيد عمر مكرم اسم مولاى فقال الشيخ الشرقاوى : « إننا لا نستطيع أن نجد خيراً منه » وقال آخر : « إنه رجل ذكي محب للخير » وتبارى العلماء والتجار فى ذكر مناقب مولاى .

محمد على : ألم يعترض أحد ؟

عبد المنعم : لم يعترض أحد على شخصك يامولاي ولكن البعض رأى فى التعيين دون الرجوع إلى الباب العالى افتئاتاً على حقوقه

محمد على : وماذا قال السيد عمر ؟

عبد المنعم : ثار وصاح قائلا : « أي حقوق ؟ يجب أن يكون للشعب رأى فى اختيار حاكمه . . . كفانا مالقينا من حكامهم

محمد على : (يبتسم) ياله من رجل جرىء ! — فما الذى كان ؟

عبد المنعم : نزل الجميع عند رأيه فى النهاية وقرروا أن يجيئوا إلى هنا ليعرضوا عليك الولاية

(تسمع ضجة وجلبة صادرة من بعد تقترب شيئاً فشيئاً)

عبد المنعم : أتسمع يامولاى ؟ . . إنهم قادمون

(يسير محمد علي إلى نافذة ويطل من خلف الستر وينصت قليلا ثم يلتفت إلى الشيخ عبد المنعم)

محمد علي : اذهب الآن . . . لا أحب أن يراك أحد هنا وتستطيع أن تدخل معهم

عبد المنعم : حسناً ياسيدى . . (يخرج)

(يعود محمد على ليطل من خلف الستر . ترتفع أصوات الشعب ويسمع هتافات مختلفة وضرب بالدفوف)

(يدخل سرور ويؤدى التحية)

سرور : السيد عمر مكرم والعلماء ياسيدى

محمد على : أدخلهم ياسرور

(يخرج سرور وبعد لحظة يفتح الباب على مصراعيه ويدخل السيد عمر مكرم ثم الشيخ الشرقاوى وكثير من العلماء والأعيان)

السيد عمر : السلام عليكم ياسيدى

محمد على : عليكم السلام ورحمة الله . . .

(يتقدم محمد على ويصافح الجميع)

محمد على : تفضلوا . . . (يشير إليهم بيده فيجلسون) خيراً يا سيد عمر ؟ لعل ما جئتم من أجله خير ؟

الشيخ الشرقاوي : إنه خير باذن الله ياسيدى

السيد عمر : سيدى . . . لقد خلعنا خورشيد باشا من الولاية على البلاد واخترناك والياً علينا وجئنا نعرض الأمر عليك

محمد على : أيسمح لى صديقى أن أوجه إليه سؤالاً ؟ !

السيد عمر : تفضل ياسيدى

محمد على : هل من سلطتكم أن تعزلوا الولاة وتقيموا غيرهم ؟

السيد عمر : أجل ياسيدى . . . « إن للشعوب طبقاً لما جرى به العرف قديماً ولما تقضى به أحكام الشريعة الاسلامية الحق فى أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم إذا ما انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة . . »

الشرقاوى : ولقد انحرف خورشيد عن العدل وسار بالظلم ، لذلك أجمعنا على عزله واختيارك مكانه فإننا نتوسم فيك العدالة وحب الخير وبعد النظر

محمد على : ولكن خورشيد باشا لن يقبل القرار

السيد عمر : سواء علينا قبوله أو رفضه . . . فإن إرادة الشعب فوق إرادته

محمد على : وإذا رفض النزول من القلعة ؟

السيد عمر : نرغمه بالقوة

محمد على : وإذا لم يرض الباب العالى أن يسلم لكم بحق اختيار الحاكم

السيد عمر : لا يهمنا سلم أم لم يسلم . . . يجب أن يخضع لرأى الشعب ويختار الحاكم الذى نرضاه

محمد على : ولكن الأمر خطير ... فهل قدرتم مبلغ خطورته

السيد عمر : أجل يا سيدى ... الشعب يتمسك بحقه كاملاً ولن يقبل التفريط فيه وإن كلفه ذلك حياته

الشرقاوى : أجل . . . لن تقبل التفريط فى حقوقنا وفيما تفرضه الشريعة علينا

السيد عمر : البلاد مصرة على تنفيذ إرادتها ولو أدى الأمر إلى استعمال القوة

محمد على : أما من سبيل إلى الرجوع ؟ . .

السيد عمر : (مقاطعاً) عفواً يا سيدى . . . لقد جرب الشعب المصرى فى السنين الماضية أكثر ما يجربه شعب من المظالم والمتاعب وقد صحت عزيمته على ألا يرضى بحاكم (يشير بيده إلى محمد على باشا) إلا الذي اختاره

العلماء : أجل . أجل . لا نرضى إلا به

السيد عمر : هل تقبل يا سيدى ثقة هـذا الشعب الذي أحبك واختارك دون غيرك والياً عليه ؟

محمد على : إننى عالم بمـا فى قبولى من خطورة ، عالم به تماماً ولكننى أمام إجماع الشعب ونزولاً على رغبة ممثلي الأمة الكريمة لا يسعنى إلا القبول

الشرقاوى : شكراً يا سيدي . . .

محمد على : وإننى أشعر بثقل الحمل الذى تريدون وضعه على عاتق

السيد عمر : نحن على يقين من أن الله سيعينك وأنت بلا شك عالم بما تمتلىء به قلوبنا من الآمال

محمد على : أسأل الله أن يوفقنى إلى تحقيقها بمؤازرتكم ومعونتكم

السيد عمر : سيطلع علينا عهـد جديد بإذن الله تبطل فيه المظالم وتقام فيه الشرائع والأحكام

محمد علي : لن يبرم أمر إلا بمشورتكم ومعونتكم إن شاء الله

(يتناول السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى صرة من أحد العلماء ويخرجان منها ملابس تشريفه وهى عبارة عن جبة عليها كرك ويقفان ثم يتقدمان إلى محمد علي باشا الذي يقف فيلبسانه الجبة بين سرور العلماء)

السيد عمر : مولاى . . . لقد اختارك الشعب لأنه رأى الخير فى اختيارك ولن يرضى بديلا منك . نسأل الله تعالى أن يسدد خطاك ويديم الملك فيك وفى بيتك

العلماء : (يهتفون ويرفعون أكفهم بالضراعة) آمين . . .

محمد علي : أشكرك ياصديقي وأشكر السادة العلماء وأصحاب الرأى فى البـلاد . . . إننى سعيد بثقة هـذه البـلاد العزيزة وأسأل الله أن يعينني على خدمتها ورفع لوائهـا حتى تعيد مجدها الغـابر وتصبح سيدة الأمم .

العلماء : (رافعين أكفهم بالضراعة) آمين .

(تسمع ضجة من الخارج عند باب القاعة ويرى حجاج الخضرى يحاول الدخول ولكن الجنود يمنعونه ويمسكون به وسرور ينهره)

سرور : لا . لن تدخل .

حجاج : دعني . . . أريد أن أكلم الباشا .

محمد على : دعوه . . . دعه ياسرور

(يترك الجنود حجاجاً فيتقدم خطوة نحو الباشا)

حجاج : مولاى ... الشعب يريد أن يرى الوالى الذى اختاره

السيد عمر : أجل يا سيدى ... يحسن أن تطل عليهم من الشرفة

(يسير محمد على إلى الشرفة ويفتحها ويخرج ليطل منها وإلى جانبه السيـد عمر وخلفه الشرقاوى وعند ما يظهرون للجماهير ترتفع أصواتهم بالهتاف كالرعد)

أصوات : ينصر الله الوالى . ينصر الله مولانا السيد عمر . ينصر الله الباشا .

(ستار سريع)

عاش الملك

بقلم السيد زياده

أية قوة تنبعث فى نفسى الآن لأكتب ؟ ... ألا ما أشدها قوة نازية بالفرح أستغربها على نفسى أنا المخلوق لأحزن !! ولكنى إذ أنتشى وإذ يستطيع الفرح أن يستأثر بنفسى إنما أرانى فرداً ضئيلا من أمة فيه بعض ما فيها جماعات وأفراداً من صخب الفرح ، ولاء للعرش القائم على دعائم المجد ، وحفاوة بالملك القادم بين دعوات القلوب .

* * *

لقد دنت من الأفق شمس اليوم الضاحك الذى ينصرم فيه تاريخ مصر المتحن ليبدأ به تاريخها السعيد ...

اليوم الذى نظر إليه الشعب من بعيد كأول أيامه الخالدة ، وميلاد حياته الزاهرة ، وفاتحة عهده الجديد ...

اليوم الذى تنتظره الأمة انتظار المحب الولهان ليوم اللقاء الموعود .

اليوم الذى تتقدمه الحياة منذ شهور ببشائر الخير ، وتحفه بدلائل النعيم ، وتزفه بآيات الفرح ...

اليوم الذى يجلس فيه مليكنا الدستورى على عرشه المؤيد ليملك زمام شعبه المخلص له ...

دنا اليوم الذى يتحقق به حلم الشباب فى قلب مصر
وافتر ثغر الحياة عن بسمة الزمن
وتهافتت القلوب من أعماقها بالولاء للملك
ورقص غصن النيل لذيذ المياس بحواشيه وأعطافه
ونادى المنادى بأن فاروق الحبيب مقبل بعد غيبة ليتلق بكاهل الشباب أعباء الملك فهب الجميع يهتفون : عاش الملك . عاش الملك

* * *

مرحباً يا مرمق أبصار الأمة . ومبسم ثغر النيل ، وحبة قلب الكنانة ، وعنوان فخر الشباب ...

مرحباً يا باعث المجد من مرقده ، وناشر العز بعد انطوائه ، ومطلق الشعب فى هنائه ...

مرحباً يا حجة الزهو حين تزهو ، وقوة الأرواح حين تصبو ونور النفوس حين تسمو ، وحياة العزائم حين تتحد ...

مرحباً يا قائد الأمة الحية ، ومعجب ملوك العالم ، وحامل لواء السلام ...

* * *

أيها القادم من حيث فتن الغرب بجلاله ، ليفتن الشرق بأعماله ؛ هذه أرواحنا تناديك ظامئة إليك ، تستقبل من صفو وجهك الرى والحياة

أيها المتهلل بطلعة القمر من أبهة الملك فوق عرش الأفئدة .. هذه قلوبنا تحييك مصفقة لك خافقة بك تقتبس من حبك المرسل فى نواحيها النور والأمل . . .

أيها المشرف على واديه السعيد به إشراف العاطف الكريم الحنون . . . هذه عيوننا تتطلع إليك مرقرقة فيها دموع الفرح متسامية إليك منها نظرات الحنين ، تطالع فى ركابك العالى بهجة العيد الدستورى المخلد . . .

* * *

يا أيها الملكُ الملكُ . . . إن لك فى كل موضع من كل قلب صورةً تقدَّس واسما يُرَدَّد .

يا أيها العاهل العظيم ، أقبل على وادى النيل الشاعر بأنك رمز آماله . . . إن لك فيه تاجاً سنياً عقدت نسجه العتيدَ مئاتُ السنين بيد الخلود ، وعرشاً جليلاً هيأتْ مجلسه الوطيدَ قلوبُ الشعب بأعظم الولاء ... فما خلقت هامتك الشريفة إلا لتحمل أعرق تيجان الملوك ، وما خلق مقامك السنىُّ إلا ليتبوأ أسنى عروش الدول .

* * *

يافاروق ! لقد أشرق فى بدء عهدك تاريخ الفاروق ، ومضيت على سَنن أبيك لتتمّ نهجَه ، واتبعت فى علاك مناهج الرسل ؛ فما أسعد المُـلْكَ الأشمَّ بك ، وما أكبر المثل الأعلى للملوك فيك !! .

ليست عابثةً هذه الأمة التى تمد نفسها لتحييك بتحية فاقت كل تحايا الأمم للملوك بروحها الدفاقة الزاخرة التى هى روح الحب فى إيمان القلوب تحت إلهام الله . . . هذه الحماسة المتقدة فى قلوب شعبك ماهى إلا تعلقه بك ، وهذا البشر الشامل كل بقعة من وادى النيل ماهو إلا ولاؤه لك . . .

إن لنا من عبقرية شبابك آمالا شابة ناضرة ستحققها الأيام بيدك .

فامض بالأمة فيما شئت من سبل المجد ، وضع مصر من حيث أردت لها من صفوف الدول الماجدة ، وابسط علينا من ظلالك حياة العز والرَّغد ... وعش لنا يافاروق ...

السيد زيادة

إلى سدة المليك الشاب
شعب يبايع

للأستاذ محمود غنيم

النيلُ(١) تحملُ سِبطَ إسماعيلا ... أرأيتَ نيلاً جاء يحملُ نيلا
لو كانتِ الأملاكُ تحذُو مَرْكباً ... لرأيتَ بَيْنَ حُدَاتِها جبريلا
سارتْ فغضَّ البحرُ من غلَوائه ... .ومَشَى كما تمشى الجيادُ ذَلُولا
هبَّتْ عواصفُه فكُنَّ حِيالَها ... رَهْواً كما هبَّ النَّسيمُ عليلا
مالا طمَتْ أمواجُه جَنَباتِها ... بَلْ أوسَعَتْ جنباتِها تقبيلا
لو أنَّ زاحِفةً تفوهُ لكبَّرتْ ... نِينانُهُ ولهلَّلتْ تهليلا
يا بحرُ فوقَكَ دُرَّةٌ هيهات أنْ ... تَلْقَى لها فيما حَوَيْتَ مثيلا
أوَلَسْتَ تعرِفُ فيه مَنْ أجْدادُهُ ... قطعُوكَ عَرْضاً بالسَّفينِ وطُولا؟
فَلَطَالَمَا مَلأوا المياهَ مَرا كباً ... ولطالما ملأوا السهولَ خيولا
عرَفتهمُ الأيامُ إنْ هُمْ حارَبُوا ... أُسْداً وإنْ حكموا الأنامَ عُدُولا

* * *

أشْرِقْ بنورِكَ فى البلاد فإنَّما ... صَبْرُ البلاد على فراقِكَ عِيلا
الشَّعبُ يا فاروقُ صادٍ . نِيلُهُ ... مِنْ يومِ بُعْدِكَ لا يَبُلُّ غليلا
ما كان يُسْعِدُهُ التجلُّدُ ساعةً ... لو لم يكُنْ بِكَ قلبُهُ مأهولا
ماغبتَ عن بَصَرِ البلاد وسَمْعِها ... يوماً ولا بعُدَتْ رِكابُكَ مِيلا
كانت تطالِعُ ماتقول.فتنتشى ... طرَباً . وإنَّ مِنَ المقالِ شَمُولا
وترى على القرطاسِ رَسْمَكَ زاهياً ... غضًّا فيُصْبحُ طرْفُها مكْحُولا
قد كنتَ أنتَ حديثَها وسكوتَها ... حتَّى غدا بكَ وقتُها مشْغُولا
زُرْتَ الممالكَ داعياً فكشَفْتَ عن ... مِصْرَ الفتاةِ حجابَها المسْدُولا
أنْعِمْ بشَعْبٍ أنْتَ عُنْوانٌ لَهُ ... وكَفَى بعُنْوانِ الكتابِ دليلا
تمشى الممالكُ فى ركابك أينما ... تمشى وتَحْنى هامَها تبجيلا
سَمِعوا بمجد الأقدمين وأبصَرُوا ... بعيُونهم للأقدمين سليلا
كيْ يعلموا أنَّ الكنانة أُمَّةٌ ... طابت فروعاً فى الورى وأُصُولا
إنَّ لنى زَمَنٍ يفيض دِعايةً ... كادت تدُقُّ به الشُّعُوبُ طبُولا
هم يُعلِنون عن الشُّعُوب كأنها ... سِلَعٌ وترضى بالسكوتِ خُمُولا
مَنْ راح ينشُرُ للبلاد دِعايةً ... فكأنه يَبْنى لها أُسْطُولا

* * *

وَلِيَ الأُمورَ بمصرَ أصْيَدُ يافعٌ ... بزَّ الأوائلَ فِتيَةً وكهُولا
جَشَتْ بصَدْرى يومَ قُلِّدَ عَرْشَهُ ... ذكرى فراعِنَةِ القُرُونِ الأولى
ما أبهجَ الإكليلَ فوق جبينِهِ ... هذا الجبينُ يُزَيِّنُ الإكليلا
هذا هو الفاروقُ أشْرَقَ وجهُهُ ... فَسَلِ الغَزالةَ هل تُريدُ أُفُولا ؟
أفديه من مَلِكٍ أغرَّ وراءَهُ ... شعبٌ يُرتِّلُ حمدَه ترتيلا
يَعْنو لطلْعَتِهِ ويهتف باسمِهِ ... ويكادُ يتلو قولَهُ إنجيلا
مَلِكٌ تواضُعُه يزيدُ جلالَهُ ... ليس الغشومُ المستبدُّ جليلا
يُنسيكَ من فَرْطِ التواضُعِ تاجَهُ ... فتكادُ تحسَبُهُ أخاً وزميلا
يرْنو إليه الطَّرْفُ غيرَ مُنكَّسٍ ... والبدرُ يظهَرُ من سَناهُ خجُولا
يَقضى لُبانَتَهُ الغنيُّ ببابه ... ويرى الفقيرُ دُعاءَهُ مقبولا
لَبِقُ الحديث كأنما هو مُلْهَمٌ ... قد أدْرَكَ المعقولَ والمنقولا
لاتُحْصِ أعمارَ الملوكِ فإننى ... أجِدُ الملوكَ مَدارِكاً وعُقولا
ماقلتُ : قد بلغ الرشادَ بسِنِّه ... فعلَيْهِ كان بطبْعِه مجبولا
إنَّا عهِدْنا الرُّشْدَ فيه سجيَّةً ... ما كان فى يومٍ عليه دَخِيلا
ماضَرَّ غرْساً طاب قبلَ أوانِهِ ... أنْ كان حُرًّا فى النبات أصيلا
قد كان ذو القرنين مثلَكَ يافعاً ... وأرى كما تتشابهان مُيُولا
هيهاتَ أنتَ أجلُّ منهُ حضارةً ... وأعزُّ أوطاناً وأكرمُ جيلا

* * *

(١) النيل باخرة مصرية من بواخر شركة مصر للملاحة

فاروقُ تلك عنايةُ الله التي … قد حَقَّقَتْ في عهدك المأمولا
إن الكنانةَ ظنَّت استقلالَها … حُلماً فكنتَ لحلمها تأويلا
وهي المشاكلُ كلُّها وجدتْ لها … في عهدكَ الزاهي السَّعيد حُلولا
عَهْدٌ قصيرٌ غيرَ أنَّ غضونَه … في جَبْهةِ التاريخ صِرْنَ حُجُولا
لو حاكت التيجانُ تاجَك لم يجدْ … يوماً إليها الثائرون سَبيلا
ليت الذين وَلُوا العروشَ جميعهم … كانوا على حُكم الشعوب نزولا
أسِّسْ على الدستور مُلكك وابنه … تَبلُغْ به الشمَّ الرواسيَ طولا
كم ثَلَّ الاستبدادُ عرشاً بعد ما … أجرى حواليه الدماء سُيُولا
مَنْ لم يعزِّزْ تاجه وسريره … بالله والدستورِ كان ذليلا

* * *

إنَّ الكنانةَ بايعتْك فكُنْ لها … ظِلًّا كما كان الجدودُ ظليلا
وَهَبَتْ لعرشك مالها ودماءها … إنْ شئتَ تَلْقَ كليهما مبذولا
فاملأْ بلادَك حكمةً ومعارفاً … واجعلْ بلادَك في المناعة غِيلا
لن يستقيمَ لشعبٍ استقلالُه … يوماً إذا حَمَلَ السِّلاحَ كليلا
أين المدافعُ كالرُّعود دويُّها … والخيلُ تَصْهَلُ بالجنود صهيلا
يا رُبَّ طائرةٍ سمعتُ أزيزَها … فحسبته في مَسْمَعَيَّ هديلا
فانهض بمصرَ وجيشها حتى يرى … شبحُ المنيَّةِ طيفَها فيميلا
واكبحْ جِماحَ الطامعين وقلْ لهم … لا تطمعوا في أخت عِزرائيلا
وهُنا تُعادي مَنْ تشاء عِداءَه … مصرٌ وتأخذُ من تشاء خليلا

* * *

فاروقُ يفديك الحمى بهلاله … وصليبه . وأرى الفداء جليلا
أصبحتَ في مرح الشباب ولهوه … عن خير شعبٍ في الورى مسؤولا
حَمَلَ الشبابُ يراعَهُ وكتابَه … وحملتَ عِبئاً كالجبال ثقيلا
أولتكَ مصرُ قيادَها فأعِدْ لها … مجداً بناهُ الأقدمون أثيلا
وسُسِ الأمورَ إذا جَمَحْنَ بمُصْطفى … تلقَ الحُزونَ إذا مشيتَ سُهولا
هو صارمٌ ماضي الغِرار أَلِيلُهُ … فاحمِلْه عَضْباً في يديك صقيلا
قد أفرغتْ مصرٌ كنانتَها فما … رضيت به بين السهام بديلا
وإذا تحوَّلت الجبالُ فمُصطفى … عن حقِّه لا يقبلُ التحويلا

* * *

يا مصطفى لهجتْ بذكرك أمةٌ … أبناؤها لا يجحدون جميلا
ولقد توليتَ الأمورَ فلم تكنْ … سيفاً على رأس الحمى مسلولا
لا تثنينَّك عن طريقك عُصبةٌ … ملأت حناجرُها البلادَ عويلا
إنَّا بلوناهم فكانَ فعالُهم … مُرًّا وكان كلامُهم معسولا
فليَنْصبوا في غير مصرَ شِباكَهم … حَسْبُ البلاد وحسبُهم تدجيلا
سِرْ في طريقك . لا تُعِرْهم مسمعاً … واعلَمْ بأنَّ من الكلام فضولا
أنَّى اتجهتَ وجدتَ خلفك أمةً … ورأيتَ ربَّك بالنجاح كفيلا

«كوم حاده» محمود غنيم

تتويج رعمسيس الثاني

فرعون مصر الشاب

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

كانت وفاة الملك سيتى الأول والد رعمسيس فجيعة للبلاد جزعت لها ولبست من أدناها لأقصاها ثياب الحداد . وقد قضى نحبه فى عنفوان العمر واكتمال الرجولة بعد حكم مجيد زاهر . فامتد سلطانه واتسعت رقعة ملكه شمالا حتى دانت له الشام كلها ، وبلغ حدود الحثيين فى آسيا الصغرى وممالك بابل وآشور إلى أعالى الفرات ، واستتب له الأمر جنوباً فى النوبة ، وضرب على أيدى قبائل البدو فى الصحراء الغربية فكف عن الوادى الخصيب غاراتهم المتكررة . ثم جعل همه إلى صلاح البلاد وعمرانها ؛ وأمامنا حتى اليوم على علو همته شهود ناهضة ناطقة ، منها ضريحه الرائع ومعبد العرابة وبهو الكرنك الشاهق المرفوع السمك على عمده الفخمة وقد ازدانت جوانبها بتهاويل منقوشة تمثل انتصاراته وتروى وقائعه تخليداً لعظمته ومجده .

ولكن كان العزاء عن فقده ما يبدو من المخايل على ولده وإن كان بعد في سن الحلم .

فانظر إلى المليك الشاب من ذا الذى لا يعنو لفتنة طلعته ! فانه ليروعك أول ما يروعك – بالقامة الفارعة وجمال الوجه واستواء الخلق ، وهو ممشوق لطيف الأوصال لدن الأعطاف حلو الشمائل ؛ ومع ما يلحظه المتأمل فى ملامحه من القوة والتفاوت كضيق الجبين وقنى الأنف ومتانة الفك وشدة الذقن فان هذه جميعاً تكسوها سماحة ودماثة . كما أنه ليس من ذوى الطبائع الحزينة المسترسلة فى سبحات التفكير الهائمة فى أودية الأحلام ، وإن كانت له سماؤها لفرط ما صقلته التربية وهذبت حواشيه ، وإنما طبعه الغالب هو الأقدام والعزيمة يعمران هذا الجسد الذى ارتاض على الشقة والجهد من سباق العجلات إلى الرماية والصيد فضلا عن المعارك الحربية ، فتوفرت له منها مزايا سرعة الحركة ورباطة الجأش والاستخفاف بالخطر . وشد ما كانت تستجيشه أوصاف الشعراء لوقائع أسلافه . ثم هو يحس منذ نعومة أظفاره بأنه مولود للرياسة والملك . وكان يطيب له أن يستذكر المراسم التى هيأته لوراثة السلطان ، فيذكر شعائر التطهير وكيف ضمه والده إلى صدره على مشهد من كبراء الدولة ورجال القصر لتسرى إليه نفحات الحياة ، ثم نادى به ملكا من بعده فى وسط الهتاف المتصاعد والمديح المرتل .

تمثال رعمسيس الثانى فرعون مصر الشاب
(محفوظ بمتحف تورين بإيطاليا)

ولقد كانت التقاليد الدينية والسياسية حافزاً للفراعنة على رعاية مملكتهم بهمة وصدق ، فهم على العرش خلفاء الآلهة ، وهم مسئولون عما يفعلون بين يدى أوزيريس فى يوم الحساب . فلا جرم يكونون فى مقدمة خدام الدولة الساهرين على تدبير شئون مصر وممتلكاتها وتفقد أحوالها . وإن رمسيس لم يكد يشب عن طوقه ، ويتجاوز طور الطفولة حتى تولاه أبوه بدربه ويخرجه على يديه . فصحب الابن أباه فى حرب الشام ، وكان يعاونه فى الحفلات الدينية ويطلع على كافة شئون الملك وتدبير إدارته . فهو لما توكله إليه الآلهة اليوم من واجبات وتبعات غير هياب .

ولقد انقطع بين عشية وضحاها عهده بالصبا الغرير حين اجتز حلاق القصر طرته المهدلة على صدغه الأيمن شارة عليه . وعما قريب تضاف إلى قدرته الانسانية على عظمتها قوى الهيبة تنتقل إليه مع شعائر الملك . وهذى رعاياه كبيرة الأمل كشأنها فى مستهل كل عهد بأنه وإن كان الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل .

ولقد جرت العادة منذ ألني سنة بأن تجرى مراسم التتويج فى منف عاصمة الوجه البحرى بمقتضى احتفال مقرر منذ أقدم عصور المملكة المصرية المتحدة . ولكن فراعنة الدولة الحديثة قد آثروا أن يكون تتويجهم فى طيبة عاصمة الصعيد وهو منشؤهم ومنبت أعراقهم تحت رعاية الاله آمون . فلما جاء رعمسيس عاود السنة القديمة لأن أسرته من الدلتا ولأنه فوق ذلك موقن بأن الوجه البحرى يرتفع كل يوم شأنه ويعظم خطره من الناحيتين الحربية والاقتصادية .

وهكذا استهلت أعياد تتويج رعمسيس فى منف بعد الفيضان . ومنف مدينة عريقة في القدم واقعة فيما يلي ملتقى فرعى الدلتا وهى عامرة بالأهلين تطوقها خمائل النخيل الباسقة ، وتقوم فى أفقها الغربى مثلثات الاهرام ، وتسطع شمسها المتجددة على الحقول فتشيع فى فلاحيها النشاط والطرب كما تهب من ناحية بحر الروم نفحة باردة تنعش الأبدان .

حفلة التتويج عند الفراعنة (من آثار العرابة)

ولما كان المصريون الأقدمون يؤمنون بأن الاسم — سيان المنطوق والمكتوب — يقوم مقام المسمى وله قوة رهيبة تخلق الأحياء والأشياء ، فقد عكف الكهان على اختيار الأسماء الملكية الأربعة ليكمل بها اسم الملك . وتم بسرها لرعمسيس سلطة الملوك وجبروت الأرباب .

ثم تعاقبت المراسم تنقل للملك الجديد القوى السحرية المقترنة بتاجى مصر . فترى الملك بعد التطهر يتلق على هذه المنصة التاج الأبيض شعار الوجه القبلى ، وعلى منصة أخرى التاج الأحمر شعار الوجه البحرى ، ويسمون هاتين الحفلتين إشراق ملك الجنوب وإشراق ملك الشمال . ويقوم بالتتويج كاهنان مقنعان يمثل أحدهما الاله حوريس فى صورة صقر ، والآخر الإله ست فى صورة سلوقي .

ثم يتوج الملك بالتاج التوأم للوجهين القبلي والبحرى معا ، ويجلس على العرش وعلى جانبيه إله الجنوب وإله الشمال وقد وضع الكاهنان إلى دعامة العرش أزهار اللوتس وهو نبات جنوبى ، والبردى وهو نبات شمالى ، وربطا النباتين بعضهما إلى البعض بأربطة متقاطعة . وهما مع هذا لاينفكان يشدان فضول الأربطة بيديهما ويسندان برجليهما عراها حرصاً على توثيقها ؛ وأخيراً ينهض الملك والتاج على رأسه وهو متشح بالطيلسان وفى يديه المحجن المعقوف وسوط أوزيريس ويؤدى فريضة « الطواف بالحائط » حول المحراب إشارة إلي أنه يتسلم ملك حوريس وست ويتكفل بصيانته ودفع العدوان عنه .

ولم يبق بعد ذلك إلا اتخاذ الضمانات الرسمية . فان الآلهة تتخذ سجلات مستوفاة تحصى فيها كل شئ تجنباً للملاحاة والخلاف . وهذان كاهنان يمثل أحدهما إله العلم تحوت ، ويمثل الآخر إله الكتابة سخت ، يحرران الصكوك بالصيغة الملكية ويودعانها ديوان السماء . وأخيراً يدونان اسم رعمسيس على ورقة من نبات السبط المقدس تخليداً لحكمه .

ولقد كان لتراتيل الكهنة فى وسط السكون الرهيب فعل الرقى والتمازيم السحرية فى نفس رعمسيس ، فضلا عما كانت مصحوبة به من الحركات الموزونة والوقفات النبيلة والاشارات الملتوية فى ترسل ويسر . فامتلأ يقيناً بالرسالة الموكولة إليه وبقدرته على تأديتها وبأن التوفيق ملازمه طيلة حياته . ونهض بعد انتهاء المراسم وقد سرت فى اعطافه النفحة الالهية .

وحكم رعمسيس فرعوناً على مصر .

وقد ذهب بعدها إلى طيبة حيث جرى شبه تتويج ثان له ، وكان ثمة عيد الاله « مين » فى آخر مارس عقب موسم الحصاد . وعبدة « مين » لها شأنها الأكبر فى بلاد مصر الزراعية ، فهو إله الخصب وحامى الحقول والبساتين ، وهو يقرن أحياناً بآمون إله طيبة الأعظم ورب الأرباب والبشر وأب الفراعنة . وفى هذا العيد قدم الملك إلى « آمون — مين » قرباناً من الحصاد فى ذلك الأوان

وقد غادر رعمسيس قصره فى طيبة كما تطلع الشمس باهرة اللألاء من مشرقها ، وشخص إلى هيكل «مين» فى محفته الفاخرة يحملها ويحمل المراوح إلى جانبها عظماء الدولة ، ويتقدم المحفة الملكية كاهنان يمسكان مجامر البخور ، وكاهن آخر يرتل الأناشيد وهو ممسك بيده قرطاساً من البردى . وفى طليعة الموكب تعزف الطبول والأبواق عزفها الهاتف الآمر ، ويسير وراءه فى نظام جليل رائع أكابر رجال القصر تتبعهم فيالق من جنود الحرس البواسل . ولكن الاله « مين » يخرج من محرابه محمولاً على أكتاف ثلاثين كاهناً يصحبه عجل أبيض باعتباره الصورة الحية التى يتجسد فيها ، ويتقدمه صف طويل من الكهنة يحملون الشارات الدينية وتماثيل السلف الصالح من الفراعنة الراحلين ، ويتقدمون إلى المذبح حيث الملك واقف . وهنا يتعرف الاله مين على ابنه فيدخله فى عداد الأرباب كسائر أسلافه . وإنه لحدث عظيم . وإذ ذاك يطلقون طير الأوز فى جهات الأفق الأربع لاذاعة البشرى فى أركان المعمورة كما فعل الآله حوريس نفسه عند تتويجه . ويجرى الاحتفال ويتم فى وقار ودقة على حسب الأصول المرعية . وفى النهاية يقدم الملك القرابين لتماثيل أسلافه ويقتطع بمنجل قصير جرزة مصطنعة فيقدمها للآلهة باعتبارها باكورة الحصاد فى عهده

ويعود فرعون إلى القصر ، فيقبل عليه رجال البلاط ووزيره باسار وجميع الموظفين يحيون مليكهم وينشدون فى مديحه :—

أقبل علىّ بوجهك أيها الشمس المشرقة
يا من تضئ القطرين بسنا جمالك
أنت شمس الورى
تنفى عن مصر الظلمات
ولك طلعة أبيك رع
الصاعد فى معارج السماء
وإليك يوحى بكل ما يجرى فى بلدان الأرض
وأنت راقد فى قصرك
وإنك لتسمع ما يدور فى الخافقين من أحاديث
لأن لك الألوف من الأسماع
وعينك أنفذ من نجوم السماء
وتبصر مالا تبصره الشمس
وكل ما يقال ولو كان همساً ونجوى
يقع لا محالة فى سمعك .
وكل ما يفعله امرؤ فى الخفاء
فان عينك تراه .
يا رعمسيس يا رب الجمال ورب الحياة !

وكذا كانت أعياد التتويج عند قدماء المصريين تمتزج فيها عبادة فرعون بعبادة الآلهة لاعتبارهم أن الملك العظيم هو حمى الدولة وحمى الدين .

عبد الرحمن صدقى

إبراهيم باشا

موقعة نصيبين (*)

في أواخر هذا الشهر يخرج الأستاذ محمد بدران ناظر مدرسة ببا قادن الابتدائية ترجمة عربية لكتاب « إبراهيم » تأليف القاضي بيركريتيس بتصريح خاص من شركة روتلدج الإنجليزية ، والكتاب مثال من الدقة والأمانة في الترجمة . وإليك فصلا من فصوله ننشره بمناسبة تتويج الفاروق أعز الله ملكه .

لما علم محمد علي بأن الجيش التركي يستعد للزحف على بلاد الشام ويحرض أهلها على الثورة أمر وزير حربيته أن يلحق بإبراهيم رغم معارضة قناصل الدول وأسرع وزير الحربية إلى مقر القيادة العليا لجيش إبراهيم . وكان الطريق أمامه طويلاً ، ولا يستطيع هو السير فيه مسرعاً كما يسير الرسول . ولذلك سبقه مبعوث خاص يحمل إلى إبراهيم أوامر أبيه . ولم نستطع الاطلاع على نص هذه الأوامر ، ولكن في مقدورنا أن نتكهن بمعناها لأن إبراهيم قد خول منذ يونيه سنة ١٨٣٩ الحق المطلق في أن يفعل كل ما يراه صالحاً ، فيبدأ الحرب أو يحافظ على السلم حسبما تمليه عليه الظروف[1]

ولما ترك محمد علي لإبراهيم أن يتصرف في الأمر بحكمته وحسن تدبيره ، كان يعرف أنه لن يهاجم العدو إلا إذا اضطر إلى

(*) تقع قرية نصيبين على الطريق الواصل بين بيرة جك والاسكندرونة وهي غير نصيبين التي بالجزيرة ، ويسميها الافرنج والترك نزيب (المعرب)

(١) بوليتس في كتابه السالف الذكر ص ٦٣

ذلك اضطرارا ، على الرغم من أن تركيا ومصر كانتا في حالة حرب فعلية في البر والبحر منذ شهر مارس من عام ١٨٣٩ ، كما أنبأ القنصل الإغريقي العام بالقاهرة حكومته في ٢٦ من ذلك الشهر[1] . ولطالما استفز الأتراك إبراهيم بموقفهم العدائي ؛ ولولا قدرته على كبح جماح نفسه لتكشف ستار السلم عن حقيقة الحرب العلنية .

وقد كتب في ذلك القنصل اليوناني العام في الإسكندرية إلى وزارة خارجيته بتاريخ ١٨ يونية يقول :

« تدل الأنباء الواردة من المنطقة التي يعسكر فيها الجيشان في الوقت الحاضر على أن جيوش السلطان تواصل الزحف ، وتشجع أهل البلاد على الثورة بتقديم الأسلحة وبذل الوعود لهم . وقد تقدم (سليمان باشا والي مرعش) في جيش مكون من نحو ثمانمائة فارس ، حتى بلغ عينتاب واستولى على المدينة ، وإن كانت قلعتها لا تزال في أيدي المصريين . ويقال إن حافظاً باشا القائد العام للجيوش التركية كان مع هذه القوة ، ولكنه تخلف عنها قبل أن تصل إلى عينتاب . ورأى جنود السلطان سكوت الجيش المصري وامتناعه عن القتال إطاعة للأوامر الصادرة من الوالي إلى إبراهيم باشا ، بعد أن هددته الدول الأوربية وأنذرته ألا يكون البادئ بفتح باب العدوان ، فاغتنموا هذه السانحة وتوغلوا في البلاد من غير أن يلاقوا مقاومة ، اللهم إلا مناوشة بين الفرسان السالفي الذكر وكتيبة صغيرة من البدو »[2] .

وقد أفصح هذا القنصل العام نفسه في رسالة سابقة بعث بها إلى حكومته عن حقيقة تهديد الدول الأوربية . وقبل أن ننقل إلى القارئ شيئاً من هذه الرسالة نقول إن ميخائيل توسزا Michael Tossizza الذي بعث بهذه المعلومات إلى أثينا ، لم

(١) المصدر عينه ص ٥٨

(٢) المصدر عينه ص ٦٣

يكن من رجال الدبلوماسية الرسميين ، ولا من رجال البحرية ، بل كان تاجرا استوطن الإسكندرية قبل أن تستقل بلاد اليونان ، وكسب صداقة محمد علي . واحتفظ بهذه الصداقة . ولما أنشأت بلاد اليونان أول قنصلياتها في القطر المصري في عام ١٨٣٣ ، عهدت بأمور القنصلية إليه . ولم يكن يرسل في أول الأمر تقارير منتظمة إلى وزارة خارجيته ، كما أنه لم يبدأ الاشتغال بالمسائل السياسية إلا في سنة ١٨٣٨ (١) . ولم يكتسب قط في حياته ذلك الأسلوب الخاص الذي تكتب به المراسيم والوثائق السياسية ، بل كانت معانيه على الدوام واضحة كل الوضوح . ويتاز ما كتبه توسزا بميزة أخرى غاية في الأهمية ، وهي ناشئة من الصداقة الوثيقة التي كانت بينه وبين محمد علي . وقد كتب هذا القنصل إلى وزارة خارجيته في ٢٣ يوليه سنة ١٨٣٨ يقول :

« لقد أبلغ المستر كامبل وكيل إنجلترا السياسي الوالي بصفة رسمية أن بريطانيا العظمى تعارض أشد المعارضة فيما يطلبه من الاستقلال ، وتصر على أن يبقى كما هو ؛ وإلا فإن الدول الأربع : إنجلترا وفرنسا والروسيا والنمسا ستعمل مجتمعة لمنعه من نيل استقلاله ، ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة . وهذه الدول متفقة على ذلك ، وقد قررت أن تزيد قوة الأسطولين البريطاني والفرنسي في البحر الأبيض المتوسط ، وأن ترسل الجنود النمساوية إلى بلاد الشام إذا استلزم الموقف ذلك . ويلوح أن سمو الوالي سيجيب بأنه إذا عجز عن نيل رغباته بالرضا والمسالمة ، فستلجئه الضرورة إلى أن يعمل لنيلها بوسائل أخرى ؛ ومهما كانت العاقبة فسيكون من أكبر دواعي الشرف له أن تهزمه الدول الأربع الكبرى »(٢)

وكتب توسزا رسالة أخرى في ٦ سبتمبر سنة ١٨٣٨ يضم فيها بروسيا إلى جماعة الدول المتفقة . ولهذا الأمر أهميته ، لأننا عرفنا من قبل أن هلمث فون ملتكه كان وقتئذ مع الجيش العثماني الذي كان يعمل بكل ما في وسعه ليستثير غيظ إبراهيم . وليس يخفى علينا أن ملتكه كان في ذلك الوقت رجلا لا خطر له ، ولا يكاد يعرفه أحد ؛ ولكن انضمام النمسا والروسيا وبروسيا كان مقدمة لحلف القياصرة الثلاثة الذي تم فيما بعد ، ومضاعفاً للخطر الذي كان يتعرض له جيش إبراهيم . وقد أبلغ قناصل هذه الدول الثلاث محمداً علياً أن دولهم لا تسمح بأن يطرأ على العلاقة القائمة بينه وبين الباب العالي تغيير ما ، وأنه إذا أقدم على عمل أياً كان نوعه فستنضم هذه الدول إلى تركيا لقتاله والتغلب عليه ؛ فأجابهم الباشا عن ذلك بقوله :

« إنني لا أرغب في الحرب ، ولن أقدم على عمل عدائي ، ولكنني راغب في الاستقلال ، ولن أتخلى عن هذه الغاية »(١)

على أن هذا التحذير كان له أثره في نفس محمد علي ؛ ورأى أن خير وسيلة لتجنب هذه الأحاديث البغيضة المنذرة بأسوإ العواقب ، أن يرحل إلى الجنوب . وكانت الإشاعات متواترة بأن مناجم من الذهب صالحة للاستغلال قد كشفت في السودان . ورأى الباشا من مصلحته أن يتحقق من هذه الأنباء الهامة بنفسه ، حتى إذا ما اضطر إبراهيم إلى الزحف على الأتراك ، حلت بهذا الكشف مشكلة من أهم المشاكل . وزيادة على ذلك فإن غيابه يهيء الظروف للمسألة التركية كلها أن تستقر على قرار ثابت مكين . لكن هذا الغياب المؤقت لم يكن ليفت في عضد الزمرة الدبلوماسية المتحدة التي ظلت تعارض محمداً علياً بعد رجوعه في ١٥ مارس سنة ١٨٣٩

ولا شك في أن إبراهيم كان يعرف كل هذه الحقائق ويعرف أيضاً كيف يتعظ بعبرها ؛ لأن أباه كان دائم الاتصال به لا يقطع عنه أخباره ؛ وكانت معرفته بها وتقديره خطر الموقف الذي كان يواجهه سبباً في أنه لم يحرك ساكناً حينما استثار الأتراك غيظه ؛ وذلك لأنه أيقن أن الأتراك يلقون معونة أوربا السياسية ؛ وعرف الباب العالي ذلك فوقف من المصريين هذا الموقف المغضب . وكان فون ملتكه وفون ملباخ Von Mulbach وغيرهما من الضباط البروسيين لا يفتأون يحرضون قواد الترك العسكريين ، ويستعينون بما طبع عليه الألمان من اعتداد بالنفس ومغالاة في الاطمئنان إلى مقدرتهم ، فيغرون حافظاً باشا بالاستمرار على مناوأة إبراهيم .

وصادف تحريض الضباط البروسيين هوى في نفس القائد التركي العام ، فلم يشك قط في الظفر بأعدائه ، لأن له جيشاً جراراً ، وإدارة للمخابرات دقيقة النظام ، وهيئة طيبة من الضباط نواتها مساعدوه الألمان .

(١) المصدر عينه ص ٣ من المقدمة
(٢) المصدر عينه ص ٤٠

(١) المصدر عينه ص ٤٤

وشجعه على الاعتداد بنفسه أن إبراهيم لم يقابل هجومه في ٢٣ إبريل بهجوم مثله . ولما سقطت عينتاب في يده زاد اطمئنانه ، ولم يساوره قلق ما حتى جيء إليه بأحد الأسرى الذين وقعوا في يد الأتراك عند استيلائهم على قرية تل باشر . وهذا الأسير هو فرجاني شيخ عرب المنادى . وكان رجلا سواه الله وعدله ووهبه من الكبرياء بقدر ما وهبه من قوة الجسم . وأخذ القائد العام يسأل أسيره ، لعله يعرف منه ما يفيده في موقفه ، لكن الرجل كان عنيداً لا يلين فأجابه بقوله : « عن أي شيء تسألني ؟ دونك رأسي فليس ينجيه منك لساني ، بل ربما أوقعني في الهلاك وكان منطقي سبباً في إراقة دمي » . فأجابه حافظ بقوله : « لن أمس شعرة من لحيتك إذا صدقتني القول » . فقال له الأسير : « أقسمْ بالقرآن أني سأبرح هذا المكان حياً سليماً من الأذى ، أخبرك بما تريد »

فلما أقسم ضحك فرجاني ملء شدقيه وقال :

« أتريد أن أخبرك بالحق وأطلعك على رأيي في معسكرك ومعسكر إبراهيم ؟ أتريد أن تعرف ما سيقع في المستقبل ؟ ألا هل يستطيع أحد أن يتنبأ بما في عالم الغيب ؟ لكنك إذ أصررت على معرفة الحقيقة فاني مبلغك إياها : إن معسكر إبراهيم معسكر جنود ، أما معسكركم فمعسكر حجاج » .

فقال له القائد التركي غاضباً : « وما ذا تقصد بهذا القول ؟ » فرد عليه بقوله : « رأيت في معسكر إبراهيم أكداساً من الأسلحة وإلى جوارها كتائب من الجند المشاة مدججين بالسلاح ؛ ورأيت المدافع وإلى جانبها رجال المدفعية ؛ ورأيت الاصطبلات وبقربها الفرسان ؛ ورأيت كل إنسان في موضعه متأهباً لأداء واجبه ؛ ولم أر شيئاً من ذلك في معسكركم ، بل رأيت فيه يهوداً وتجاراً وأئمة ؛ رأيت فيه رجالا يقرضون المال ، ورجالا يبيعون ، وآخرين يصلون ، ولذلك قلت : إن معسكركم أشبه شيء بمعسكر الحجاج . وتسألني لمن سيكون النصر ؟ فأقول إن هذا ما لا أعرفه ، لأن علمه عند الله ، وستعلمن نبأه بعد حين » [(١)]

إن للأتراك أغلاطاً ولكنهم قوم كرام . ومع أن حافظاً قد تألم وكاد يصعق مما قاله العربي الصريح ، فقد فك أسره وخلى سبيله ، وقبل أن يعود إليه صوابه جاءه رسول ومعه خطاب من إبراهيم ؛ ولم يكن هذا الرسول يحمل راية الهدنة لأن الحرب لم تكن أعلنت رسمياً بين الدولتين . وكان تاريخ الخطاب ٨ يونيه سنة ١٨٣٩ وقد جاء فيه :

« إن التعليمات التي أرسلتها الدول العظمى إلى قناصلها المقيمين في الاسكندرية قد قضت بأنهن غير راضيات عن الحرب ؛ وإني لأعرف أيضاً أن سمو مولاى المعظم غير راض عنها ، ولكن على الرغم من هذا .

(١) فان سليمان باشا المرعشلي أرسل فصيلة من جنوده هاجمت جيوشنا في بولانق .

(٢) وأرسلتم فرقة إلى بلياس [(١)] لتحريض أهلها على الانتقاض علينا

(٣) وبعثتم بالحاج عمر أوغلو إلى كرد داغ [(٢)] للغرض نفسه .

(٤) وغزوتم أرضنا وهاجمتم عرب المنادى التابعين لنا .

(٥) ووزعتم الأسلحة على أهل ولاية عينتاب ، ودخل سليمان باشا المرعشلي هذه المدينة ولا يزال باقياً فيها إلى الآن . وبالأمس هاجمت قوة من الفرسان تحت قيادة سعادتكم صفوفنا وأمرتم مدفعيتكم أن تصوب نيرانها على فرساننا المنادى في مخافرنا الأمامية » .

وبعد أن ذكر إبراهيم هذه الأسباب قال :

« ولقد صبرت إلى الآن على هذا كله ولم أقابله بمثله ، لأنني كنت أحاول أن أقنع نفسي بأن هذه الأعمال العدائية تغضب السلطان مولانا المعظم . فاذا كنتم سعادتكم تعزون سكوتي عنها إلى الخوف فانكم مخطئون في ظنكم ، إذ ليس لسكوتي الا سبب واحد هو حرصي على احترام رغبات سمو والدي وسيدي المعظم . وإذا كنتم سعادتكم قد تلقيتم الأمر باستئناف القتال ، فما بالكم تنهجون هذا النهج وتدسون الدسائس . هلموا إلى ميدان القتال ولكن هلموا إليه بصراحة ، وخوضوا غمرات الحرب كما يجب أن تخاض . وإلا إخالكم قد نسيتم ما حدث منذ بضع سنين ، وستلقون رجالاً لا يعرف الخوف طريقه إلى قلوبهم ؛ أما الدسائس فاننا لا نطيق احتمالها إلى الأبد . فهل أحظى منكم بجواب صريح ؟ فان فعلتم فسينقل ردكم إلى إذا رغبتم حامل هـذا الخطاب الأمير ألاى مجود بك [(٣)] » .

(يتبع) محمد بدران

(١) كدلفين وبرو في كتابهما السالف الذكر جزء ١ ص ١٨٨ .

(١) ميناء صغير في خليج الأسكندرونة (المعرب)

(٢) جبل الأكراد (المعرب)

(٣) كدلفين وبرو (ج ١ ص ١٩٣)

مشروع تقسيم فلسطين وأخطاره

لباحث عربي كبير

جلس سكان فلسطين مساء يوم الأربعاء الواقع في ٧ يوليو ، أمام الراديو منتظرين سماع تقرير اللجنة الملكية . وكان السكون مخيماً في معظم البيوت وفي المقاهي والأندية . وما كاد المذيع يفرغ من قراءة خلاصة التقرير واستنتاجات الحكومة المنتدبة حتى انتاب أهل البلاد ذهول دام بضعة أيام من شدة الصدمة .. وأراد فخامة المندوب السامي أن يتلطف بهم ويجاملهم ويهون عليهم المصاب بدعوته أهل البلاد إلى إنعام النظر والتروي في إبداء الرأي ، وأن يحكموا العقل على العاطفة في تقرير الحكم على مشروع اللجنة الملكية

اتبعنا هذه النصيحة وقرأنا بإمعان خلاصة التقرير ، ثم أخذنا في قراءة التقرير نفسه . فما كان أشد دهشتنا عند ما رأينا اللجنة الملكية تخالف في تقريرها جميع تقارير اللجان البريطانية ، والخبراء الانكليز ، وكتب حكومة لندن البيضاء ، ورأي عصبة الأمم ، فيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية ، حتى أنها تخالف أيضاً صك الانتداب نفسه

تقول جميع هذه المستندات بأن التزامات الحكومة المنتدبة نحو العرب واليهود متساوية ، فقالت لجنة اللورد بيل خلاف ذلك ، وأوصت حكومة جلالة الملك بتنفيذ التزاماتها نحو اليهود أولا ثم النظر في التزاماتها نحو العرب . أي أنها توصي بإنشاء الوطن القومي اليهودي ، ثم بالنظر في المحافظة على حقوق العرب !.

وصرحت حكومة جلالته وعصبة الأمم مراراً بأن ليس الغاية من تصريح بلفور إيجاد دولة يهودية في فلسطين ، فقال اللورد بيل في تقرير لجنته بأن المراد من تصريح بلفور وصك الانتداب إيجاد دولة يهودية في الأراضي المقدسة عند ما يصبحون أكثرية فيها

وينص صك الانتداب صراحة بأن واجب الحكومة ترقية الحكم الذاتي في فلسطين ، فقالت اللجنة الملكية بأن إنشاء مجلس تشريعي مخالف لصك الانتداب ! ..

ولم تكتف اللجنة الملكية بهذا ، بل تهكمت في تقريرها بالعرب وزعمائهم ، ولم تر فيهم إلا مثالب ، ولم تر في اليهود وأعمالهم إلا محامد ، وجمعت في تقريرها جميع الآراء والأقوال اليهودية التي تزعم أن ليس للعرب حق في فلسطين ، وأن الأراضي المقدسة حق لبني إسرائيل ! فكان تقريرها هذا مجموعة أضاليل يهودية . حتى أنه لو قيل للدكتور وايزمن ، زعيم الصهيونية ، أن يكتب تقريراً عن القضية الفلسطينية ومطالب اليهود ، لما جرؤ على كتابة مثل تقرير اللجنة الملكية !..

إن تقرير اللجنة الملكية خطة سياسية مرسومة ، يراد منها أولا إزالة مفعول التقارير البريطانية السابقة التي جاءت كلها منذ الاحتلال حتى الأيام الأخيرة لصالح العرب مثنية عليهم ، ومظهرة سوء السياسة الصهيونية وخطرها على أهل البلاد ووخيم عواقبها ، وثانياً تحقيق إنشاء « المملكة اليهودية »

إننا لا نبالي بحكم اللورد بيل على العرب لأن حكمه فريد ، وطبيعي أن هذا الحكم الشاذ لا يؤثر في رأي المنصف العادل على حكم التاريخ ، ولا على الأحكام البريطانية العديدة السابقة ، ولا يقلل من أهميتها ومفعولها

والذي يهمنا في هذا المقال هو إظهار أخطار مشروع تقسيم فلسطين ، و « المملكة اليهودية » التي تريد الحكومة البريطانية إيجادها في قسم فلسطين الطيب

تمويه التقسيم

قسم اللورد بيل فلسطين إلى ثلاثة أقسام ، أعطى الأول إلى اليهود ، واحتفظ بالثاني لدولته ، وأبقى الثالث لأهل البلاد . أما قسم اليهود فيشمل جميع الفضاء الشمالي وسهل الحولة ومرج ابن عامر ، والسهل الساحلي حتى ١٠ كيلومترات جنوبي رحبوت ، وتبلغ مساحته حوالى ثمانية ملايين من الدونمات (الدونم ألف متر مربع) ، وفيه من المدن العربية صفد وعكا وحيفا وطبرية والناصرة ، ومن القرى عدد عظيم ، حكم عليها أن تصبح يهودية ، وقضى على سكانها العرب البالغ عددهم أربعمائة ألف عربي بأن يرحلوا من وطنهم العزيز . أما القسم الذي سيوضع تحت انتداب بريطاني جديد فيشمل القدس وبيت لحم وضواحيهما وجميع الأراضي التي تسير فيها طريق يافا - القدس ، وسكة حديد يافا — القدس . ويدخل في هذه المنطقة الرملة واللد وقرى عديدة كلها عربية . وعلاوة على هذه المنطقة فالحكومة المنتدبة تحتفظ لها بمنطقة لم تعين حدودها على ساحل خليج العقبة ، وستكون هذه المنطقة جميع ما يدخل فلسطين من صحراء سيناء وقسم كبير من فضاء بئر السبع إن لم يكن كله لأسباب سياسية

واعتاد الانكليز واليهود القول بأن ما بقي من فلسطين خاص

بالعرب ليوهموا العرب بأن ما يبقى لهم قسم مهم عظيم . والواقع أن ما يبقى لهم من وطنهم حسب مشروع التقسيم ، جبال نابلس وجبال الخليل والقسم الجنوبي من القسم الساحلي ، وهذا القسم من السهل قاحل على أكثر السنين لعدم انتظام سقوط الأمطار فيه . وبعبارة أخرى إن ما يريد اليهود والانكليز ابقاءه عربياً (مؤقتاً) جبال جرداء وصحراء محرقة . وهم يريدون إلحاق هذا القسم بشرق الأردن الفقير وتأسيس مملكة عربية منهما

أطلق على مشروع لجنة اللورد بيل مشروع تقسيم فلسطين ، وكلمة تقسيم تخدع كثيرين من الذين لا ينظرون بعيداً أو الذين لا يعرفون طبيعة الأراضي في فلسطين . أما الحقيقة فهي أن مشروع اللجنة الملكية يعطي فلسطين كلها لليهود ، لأن اعتبار البلاد هو بما فيها من أراض صالحة للزراعة ، لا بجبالها الجرداء ولا بصحاريها الجدباء . وإذا علمنا أن مساحة الأراضي الصالحة للزراعة في فلسطين لا تزيد على ٦ر٥٤٤ر٠٠٠ دونم ، حسب تقدير الخبير الكبير السير جون هون سمبسون ، وإن هذه الأراضي الصالحة للزراعة مؤلفة من سهول فلسطين وهي : سهل عكا ، وسهل الحولة ، ومرج ابن عامر ، والسهل الساحلي ؛ وإذا علمنا أن جميع هذه السهول داخل ضمن القسم اليهودي ، عدا جنوبي السهل الساحلي القاحل في أكثر الأوقات ، رأينا بجلاء أن جميع فلسطين الصالحة للزراعة وهي فلسطين الحقيقية والتي من خيراتها يعتاش جميع سكان البلاد ، داخلة ضمن القسم اليهودي ، وما بقي من فلسطين قاحل لا يعول من فيه من السكان

اجلاء لا تبادل أراض وسكان

يريد اليهود ترحيل الشعب العربي من فلسطين ليكونوا فيها وحدهم - فحقق لهم اللورد بيل قسماً كبيراً من أمنيتهم ، وذلك بقبوله هذا المبدأ ، وإصراره على إرغام العرب الذين يعيشون في « مشروع القسم اليهودي » من فلسطين ، على الرحيل إلى القسم الآخر منها ، أو إلى حيث يشاءون ، فيما لو قبل مشروع تقسيم فلسطين . ووضع اللورد بيل اصراره في عبارات كثيرة ما استعملها الدبلوماسي إلا لإخفاء الحقيقة والظهور بمظهر الشفيق العادل ، فقال بأن « مصلحة الفريقين تقضي بأن يبذل أقصى ما يمكن من الجهد للوصول إلى اتفاق بشأن تبادل الأراضي والسكان » .

ربما يخيل للقارىء من هذا القول أن هناك أقلية من العرب تملك أقلية من الأراضي في (مشروع التقسيم اليهودي) ، لا ، إن هذا خطأ مبين ، إذ أن كل ما تملكه اليهود من أراض في فلسطين منذ ابتداء حركتهم الصهيونية . مليون وربع من الدونمات ، بينما مساحة القسم الذي تريد اللجنة الملكية إنشاء مملكة يهودية فيه تبلغ حوالي ثمانية ملايين دونم . ومن هذين الرقمين يظهر أن « المملكة اليهودية » ستنشأ على أراض لا يزال العرب يملكون فيها ستة أضعاف ما يملك اليهود . كما أن عدد سكان العرب في هذه المنطقة لا يقل عن أربعمائة ألف ، بينما عدد اليهود فيها لا يزيد على ثلاثمائة ألف .

وفي الواقع أن لجنة اللورد بيل تريد إخراج ما لا يقل عن أربعمائة ألف عربي من (مشروع القسم اليهودي) واستبدالهم باليهود القاطنين بما يسمونه (القسم العربي) البالغ عددهم ١ر٢٥٠ فقط ، والذين لا يملكون فيه إلا بضع مئات من الدونمات . فستعمال تعبير تبادل السكان في هذه الحال غاية في الهزء والسخرية بالعرب . ليس الأمر أمر تبادل سكان ، وإنما هو إجلاء العرب عن القسم الخصيب من بلادهم الذي منه يعتاشون والذي من دونه لا حياة لهم.

ويصحب جلاء العرب عن وطنهم استيلاء « الحكومة اليهودية » على أراضيهم ، وهذا ما يريده اليهود . وما أوصت به اللجنة الملكية

أراد اللورد بيل مساعدة اليهود إلى أكبر حد ، فقرر منع بيع الأراضي بيعاً حراً لتنزل أسعارها ، وأعطى « الحكومة اليهودية » الحق في تعيين ثمن أراضي العرب ليوفر عليها مبالغ طائلة ؛ وعليه سيستولي اليهود على أراضي العرب مقابل أثمان زهيدة . فالأفراد من العرب الذين لهم أراضي في (المنطقة اليهوديه) ويمنون النفس بالثراء سوف لا ينالون الأسعار التي يمكن أن ينالوها فيها لو لم ينفذ مشروع تقسيم فلسطين .

الموت الاقتصادي

ربما يفكر البعض ، متأثرين بما سمته اللجنة الملكية « فوائد التقسيم » وبالدعاية التي يقوم بها بعض موظفي الحكومة . في أن لا فائدة من رفض التقسيم مادام اليهود واصلين إلى أكثر من النتيجة التي يوصلهم إليها تقرير اللورد بيل ، ويقولون متسائلين : ألم يحدد تقسيم فلسطين الأطماع اليهودية ؟ فاذن لماذا نرفضه ؟

غريب هذا المنطق : لنفرض (وهذا ليس بصحيح) أن ليس في إمكان العرب صد تيار اليهود عن فلسطين ، وليس في مقدورهم المحافظة عليها عربية ، وأن سيأتي يوم يصبح فيه القسم المعطى لهم الآن يهودياً إن لم يكن فلسطين كلها ، ولكن ذلك

لا يتحقق غداً، ولا بد له على الأقل من خمسين سنة . وسيظل اليهود خلال هذه السنين في نضال عنيف، وسيبذلون خلالها جهوداً عظيمة وأموالاً طائلة، حتى يصلوا إلى النتيجة التي يوصلهم إليها الآن مشروع التقسيم . فهل من الصواب إذن أن ننيلهم اليوم ما لعلهم ينالونه بعد مشقة وبعد جهاد يدوم نصف قرن ؟ أو ليس من الحكمة السياسية، إن لم يكن من الواجب الوطني، أن نصبر ونناضل بالطرق المشروعة، ونتخذ الوقت عوناً لعله يأتي لنا بما يفرج ؟ وما يدرينا أن تتغير الظروف الدولية فتكون لنا عوناً على المحافظة على عروبة فلسطين وعلى نيلنا حقوقنا فيها ؟ أما إن تأسست اليوم مملكة يهودية في قسم من فلسطين فيكون الأمر قد انتهى، ولا نعود بقادرين، مهما أتت الظروف على إرجاع ما ذهب منا، وما تقسيم فلسطين، وتأسيس مملكة يهودية في قسمها الطيب إلا وسيلة يراد بها تسهيل استيلاء اليهود على جميع فلسطين وشرق الأردن دفعة واحدة .

* * *

إذا نظرنا نظرة اقتصادية إلى ما يريد اللورد بيل ابقاءه (مؤقتاً) للعرب من وطنهم وجدنا أن هذا القسم قاحل لا يعيش من فيه، وخير دليل على ذلك نزوح ألوف من سكانه إلى السهل الساحلي حيث الخصب وحيث بساتين البرتقال منتشرة، ثم إن ألوفاً عديدة من سكان هذه المنطقة مزارعون يعتاشون من أعمالهم في الأراضي التي يملكونها في السهول الداخلة في المنطقة اليهودية .

ومثال ذلك جميع القرى الواقعة حتى على مسافات بعيدة من السهل الساحلي ومدن طولكرم والرملة واللد ويافا، فإن هذه القرى العديدة وهذه المدن الكبيرة تعتاش بما يعمل أهلها في أراضيهم ومزارعهم الواقعة في السهل الذي يريد مشروع التقسيم أن يستولي عليه اليهود ؛ فمتى حرمت هذه القرى والمدن من أملاكها، أصبح لا عمل لأهلها إلا مكافحة الجوع والشقاء (فكيف تصبح حالة سكان هذا القسم من فلسطين متى رحل إليه الأربعمائة ألف عربي سكان القرى والمدن التي سيستولي عليها اليهود إن قبل العرب التقسيم أو مكنوا الانكليز من تحقيقه ؟

حرمت مدينة يافا، بموجب مشروع التقسيم من بساتين البرتقال التابعة لها والتي منها يعتاش سكانها، فمعنى ذلك أن أهل هذه المدينة سوف لا يجدون لهم مرتزقاً يمكنهم من الاستقرار في مدينتهم، وسيأخذ اليهود الذين يحيطون بهم من كل ناحية في مضايقتهم، وستكون النتيجة حتماً رحيل سكان يافا وتهويد المدينة، ومصير اللد والرملة وهما في منطقة الانتداب كمصير يافا، لأن هاتين المدينتين حرمتا أكبر قسم من أراضيهما، وبغير هذا القسم من الأراضي لا حياة لسكانهما .

* * *

ستحل من غير شك (في المنطقة العربية) بل في (المملكة العربية) المنوي إقامتها في بلاد فقيرة، أزمة اقتصادية هائلة بل مجاعة شنيعة . وهذه الحالة ترغم الملاك فيها إلى بيع ما يملكون، أو رهنه، أو إيجاره على سنين عديدة، وليس في هذه البلاد من شار ولا مرتهن، ولا من مستأجر، غير اليهود ... وهكذا يأخذ اليهود في وضع أيديهم على (القسم العربي) ويلحقونه بملكهم، فتصبح فلسطين برمتها في مدة وجيزة مملكة يهودية خالية من أصحابها العرب . ربما يعترض على هذا الحكم من لا يعرف السياسة وتلاعبها بأن ليس لليهود الحق في شراء الأراضي في القسم العربي من فلسطين . هذا صحيح، ولكن في إمكان من يضع هذا القانون أن يضع غيره، لا سيما وأنه غير قابل للتنفيذ، والقانون وحده لا يستطيع الحيلولة دون وضع اليهود أيديهم على البلاد بمختلف الطرق ما دامت موارد البلاد الاقتصادية لا تفي بحاجة السكان .

ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل إن (المملكة العربية) الهزيلة سوف لا تعرف الاستقلال لأنها لا تقدر على حمل اعبائه الاقتصادية . والبلاد التي ليست مستقلة استقلالاً اقتصادياً والتي تجاورها دولة غنية قوية طامعة فيها، لا يمكنها المحافظة على استقلالها السياسي .. وستكون النتيجة التحاق الدولة العربية بالدولة اليهودية، سواء طلب العرب ذلك بدافع العوامل الاقتصادية، أم اضطروا إليه أمام حيل الدولة اليهودية، فتنتشر الملايين من اليهود في جميع أنحاء البلاد، ويصبح العرب فيها أقلية فقيرة لا شأن لهم يذكر، إن لم يرغموا على الرحيل إلى صحراء الجزيرة .

فمشروع التقسيم لا يحدد في الواقع المطامع الصهيونية، وإنما هو وسيلة لتحقيقها بمدة وجيزة، وهو حيلة يراد بها الوصول إلى تأسيس مملكة يهودية واسعة في فلسطين كلها، وفي شرق الأردن ذلك البلد العربي الذي لا يطبق عليه صك الانتداب، ولا يسري عليه تصريح بلفور، وفي ذلك ما فيه من الأخطار الفادحة لجميع البلاد العربية

دولة تولد مستعبدة

أقرت اللجنة الملكية أن الدولة العربية التي تريد إيجادها لا تستطيع الحياة حياة اقتصادية وحاولت تخفيف شدة الضربة على

العرب بالمـال ، فرددت عبارة « إعانة مالية » مراراً ، كأن المال هو كل شيء في الحياة ، وكأنه أعز من الأوطان والمقدسات. وقالت: « بما أن ذلك القسم من فلسطين الواقع في منطقة الدولة العربية لن يستفيد فيما بعد من قدرة المنطقة اليهودية على دفع الضرائب ، وبما أن مساحة منطقة الدولة اليهودية ستكون أوسع من مساحة المنطقة الحالية التي تضم أراضي اليهود ومستعمراتهم (بما لا يقل عن ست مرات) فينبغي أن تدفع الدولة اليهودية إعانة مالية للدولة العربية »

مما لاريب فيه أن شعب الدولة العربية المنوى إنشاؤها سوف لايقدر على دفع ضرائب تسد الأكلاف الضرورية لسير أعمال الدولة كما هي حال شرق الأردن الآن ، فان حكومة هذا الشرق تتقاضى إعانة سنوية من الحكومة البريطانية تمكنها من استمرار وجودها . ولتمكين حكومة (الدولة العربية) من الحياة يريد اللورد بيل أن تدفع الدولة اليهودية للدولة العربية إعانة مالية . أي أن حياة المملكة العربية تتوقف على ما تجود به عليها الدولة اليهودية . . .

إن في إمكان الدولة اليهودية أن ترفض دفع هذه الاعانة المادية بعد أن تكون قد نالت ما تبتغي . فمن يضمن دفع هذه الاعانة ؟ أهي الحكومة البريطانية ؟ لقد رأينا قيمة ضمانات هذه الحكومة ولا سيما تجاه العرب . لا ينبغي إن تبهر هذه الاعانة من يوطنون النفس على الاستفادة منها . إن اليهود لن يدفعوها إذا وجدوا مصلحتهم تقضي بذلك . وسيجدون ألف عذر ليتملصوا من دفعها . لقد تعهدت المـانيا بدفع تعويضات لفرنسا ولغيرها من الدول ولم يمض على تعهدها عامان حتى أخذت في تأجيل الدفع ثم التنصل منه نهائيا ، ولم تستطع فرنسا القوية على إرغامها . فهل في مقدور الحكومة العربية الضعيفة إرغام اليهود على دفع هذه الإعانة ؟

ولنفرض أن اليهود سيدفعون هذه الإعانة عن طيب خاطر فان هـذه الإعانة ضرب من استعمار اليهود للدولة العربية الفقيرة ، ووسيلة إلى تدخل اليهود في سياستها وفي جميع أمورها. هنالك قاعدة اقتصادية سياسية بسيطة تقول بأن الذي في يده ميزانية الدولة في يده مصيرها . فلما كانت خزينة الدولة في العهد السابق في يد الملوك ، كانت السلطة المطلقة في يدهم أيضاً ، ولما انتقل حق فرض الضرائب من الملوك إلى البرلمانات ، انتقلت السيادة معها . فأصبحت البرلمانات مصدر السلطات . ونرى في هذه الأيام ، في البلاد الديموقراطية ، أن نفوذ وزير المالية آخذ في الازدياد حتى أنه أصبح يتدخل في دوائر زملائه ويشرف عليها نوعا ما ، لـماذا ؟ لأن في يده توزيع ميزانية الحكومة على دوائر الوزراء . فالاعانة المالية اليهودية ستمكن الدولة اليهودية من الحصول على امتيازات خاصة في الدولة العربية ، ومن مراقبة ماليتها وسياستها . . . أي أن الدولة العربية ستكون طوعا أو كرها المستعمرة الأولى للدولة اليهودية ، وسوف لايمر على ذلك مدة طويلة حتى تدمج الدولتان ، ويتألف منهما دولة يهودية كبرى تهدد ماجاورها من البلاد العربية . . .

ورأت الحكومة البريطانية تحقيقاً للتقسيم صرفا لشرق الأردن عن المطالبة بحقوق العرب بأن تمده بثلاثة أمور : الحاق القسم الباقي من فلسطين به ، وتأسيس مملكة عربية (مستقلة) منهما ، وإعطاء مليونين من الجنيهات لحكومة شرق الأردن بدل المنحة التي تدفعها سنويا لسد عجز ميزانيته . . .

(البقية في العدد القادم)

اقتصادي

الفلسفة الشرقيـــة
بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٤ —

البـــوذية

نشأة الديانة والفلسفة البوذيتين

ذاعت في بلاد الهند قبل البوذية بزمن طويل أسطورة دينية مؤداها أن إنقاذ الإنسانية من آلامها سيكون على يدي شاب نبيل حسن الخلق والخلق ، يولد بين أحضان النعمة وينشأ بين أعطاف الترف والسعادة ، ثم يتخلى عن المادة ويزهد في الشهوات فيصل إلى المعرفة الكاملة التي بها ينقذ الانسانية من بين براثن الشر والألم . فلما ظهر بوذا وكان قد نشأ على النحو اللائم لبطل الأسطورة المتقدمة آمن الناس بأنه هو المنقذ المنتظر ، وكان هو شخصياً يعرف هذه الأسطورة فآمن بأنه بطلها المنشود ، فأعلن أنه لا شيء أنجع للوصول إلى النجاة من وسيلتين : أولاهما التخلي عن المادة ، وثانيتهما المعرفة . ثم بدأ جهاده بتحقيق هاتين

الوسيلتين في نفسه ، فتخلى عن اللذائذ تخلياً عملياً ، ثم لم يلبث أن أعلن أنه وصل إلى نهاية المعرفة كما أسلفنا

نشأت عن المبدأ الأول من هذين المبدأين الديانة البوذية التى هى وليدة الزهد والتقشف قبل كل شىء ، وعن المبدأ الثانى وهو المعرفة نشأت الفلسفة البوذية . وسنحاول هنا أن نلم فى شىء من الايجاز بالديانة البوذية وأركانها وتطوراتهـا ثم بالفلسفة البوذية وعناصرها الأولية

الديانة البوذية

لم يشأ بوذا فى أول أمره أن يقحم فى مذهبه أى شىء له علاقة بما بعد الطبيعة ، بل لم يتحدث عن الإله على أصح الأقوال ، وإن كان بعض مؤرخى الفلسفة قد رووا عنه أنه تعرض للألوهية بالإنكار وصرح بأن ليس هنالك إله على النحو الذى يصورونه به ، وإنما هنالك روح عام متغلغل فى كل شىء . ويروى البعض الآخر أن بين أقدم النصوص البوذية نصاً ينكر الألوهية أصرح الانكار ، إذ هو يتساءل قائلاً : « ما هو الآله ؟ هل هو نفس العناصر ؟ إذا كان ذلك فلا يكون فى الأمر جديد سوى وضع اسم مكان آخر

وإذا كان غيرها ، ولها هى هـذه الخواص التى نشاهدها ، فقد ثبت خلوه هو من بعض الخواص الثابتة للعناصر ، وهو نقص فيه . وإذا كان له كل خواصها فلم يكن فى حاجة إليها ، لاتخاذها وسيلة لايجاد العالم . وإذاً فنحن أمام خلاء من الألوهية يؤيده المنطق »

وأنا شخصياً أستبعد هذا الالحاد على ذلك المتنسك النورانى والمصلح الأخلاقى العظيم ، ولعل هـذا النص قد دُسّ عليه فى العصر الذى تلا عصره

وكان أهم ما يرمى إليه هو تخليص الانسانية من آلامها المتوالية التى يجددها التناسخ بقدر ما يعدده من وحدات العودة إلى الحياة التى هى فى كل مرة مليئة بالألم والشقاء . وقد اعتبر بوذا — كما أسلفنا — الجهل والشهوة الأساسين الجوهريين لهـذا الألم ، وأكد أنه لا خلاص للانسانية إلا بالمعرفة والتخلى عن المـادة ، وهما وسيلتان متلازمتان أبداً ، إذ لا توجد المعرفة الصحيحة حيث يحل التهالك على المادة ، ولا تستقر الزهادة حيث يوجد الجهل

ولا ريب أن هـذا الحط من شأن الحياة وما فيها من متع ولذائذ قد قسم البوذيين إلى قسمين : القسم الأول الدينيون ، والقسم الثانى المدنيون أو الأحرار ، ولـكن ليس معنى هذا أن طائفة الدينيين من البوذيين كانت مكلفة بتأدية طقوس دينية خاصة . كلا ، فبوذا لم يكلف أتباعه بأى نوع من أنواع العبادة ، وإنما كل ما كان يمتاز به الدينى على المدنى من البوذيين هو أن الأول كان أكثر تنسكا وأقل تعلقاً بالمادة من الثانى ، وهو لهـذا كان نموذجا له فى حياته العملية . لأنه أسرع منه خطى فى السير نحو الخلاص من شوائب المادة المدنسة

غير أنه لا ينبغى أن يفهم من هـذا أن جميع أفراد الطائفة الدينية البوذية كانوا بعيدين عن جميع مظاهر الحياة ، لأن الواقع يخالف ذلك ، إذ كان أكثرهم مع تنسكهم يتصلون بالناس فى المعاملة وأحوال المعيشة ، لـكن فى شىء من الاعتدال ، بل من الحذر والاحتياط . أما أقلهم فكانوا رهابنة يعيشون فى عزلة من الناس لا ينشغلون إلا بالتأمل فى أسرار الـكون والنظر فى عظمة الوجود

كان الملك محرماً على البوذيين الدينيين كافة حتى الذين يتعاملون منهم مع الناس ، وكان الواجب على كل فرد منهم أن يتسول طعامه يوماً فيوما وألا يدخر شيئاً مهما قل إلى غده

أحس المدنيون من البوذيين فى داخل أنفسهم بشىء من القلق المضنى ، فأيقنوا بأنهم لم يصلوا بعد إلى الهدوء النفسانى المنشود الذى به وحده تتحقق السعادة ، وبحثوا عن سبب ذلك فعلموا أنه التعلق بالمـادة والتخلف عن الطريق القويم الذى سار فيـه إخوانهم الدينيون ، ولـكنهم لم يستطيعوا أن يطبقوا على أنفسهم تلك المناهج الضيقة ولا أن يذعنوا لهاتيك القواعد التى كانت قد بدأت تقسو وتتشدد فى جميع أساليب الحياة ، فحظرت على البوذى أكل اللحوم والأسماك ، وقيدته بأنواع محددة من الأطعمة والأشربة والثياب ، ورسمت له الخطة التى يجب عليه أن يسلكها ، فاكتفى أولئك الأحرار من البوذيين بالايمان النظرى ببوذا وباتباع الأخلاق البوذية السامية من : صدق وأمانة وحلم وحياء ووداعة وإيثار وتضحية وغير ذلك من جلائل الصفات ، وجعلوا بيوتهم مأوى لاخوانهم الدينيين ؛ أما مشكلة عدم وصولهم إلى السعادة النفسية ، فقد وجدوا لها حلا طريفاً ، وهو أن من آمن ببوذا وتخلق بأخلاقه وآوى رجال دينه وأكرم مثواهم وعاش عيشة مدنية ، فان روحه بعد موته تتقمص بوذيا دينيا ، لتصل عن طريقه إلى الخلاص من المادة الذى يضمن لها السعادة والنجاة

مستحدثات البوذية :

أتت الديانة البوذية بمحدثات لم يكن للبراهمة بها عهد من قبل مثل نبع الوحي من داخل النفس بدل أن كان البراهمة يسندونه إلى الآلهة . ويعلق العلماء الأوربيون على هذا المبدأ بما يفيد عظمة بوذا وسموه على جميع سكان الهند وتقته بنفسه إلى الحد الذي لم يؤلف عند الشرقيين الذين وصلت ضآلتهم أمام أنفسهم إلى حد إسناد كل شيء إلى السماء ، تلك الضآلة التي كادت تمحو منتجاتهم العقلية الخاصة من صحائف مجهودات الفكر البشري . وسنرد على هذه الحملة الجائرة حين نعرض للوحي والالهام عند الكلام على الاشراقية إن شاء الله .

ومن الميزات التي اختصت بها البوذية إعلانها أن مهمتها نجاة العالم وإنقاذه من الألم والشقاء ، وفي هذا الغيرية مالم يخطر للبراهمة الأنانيين على بال ، وبهذه النقطة يقترب بوذا من المسيح في نظر العلماء الذين يصدقون حادثة الصلب ويتخذون منها برهاناً على غيرية المسيح وتضحية نفسه في سبيل إنقاذ البشر من الخطايا والآثام .

ومن هذه المستحدثات البوذية إلغاء نظام الطبقات الذي مر بك مفصلا في البراهمية « الأرثوذكسية » ثم أقره عهد التطور حتى جاء بوذا فحرمه على جميع معتنقي ديانته ، وإن كان الأستاذ « دينيس سورا » يري أن بوذا لم يلغ نظام الطبقات ، وإنما كانت المقاطعة التي نشر فيها ديانته خالية قبل وجوده من نظام الطبقات لأن من المسلم به أن البراهمة لم ينشروا ديانتهم في جميع بقاع الهند ، ولكن هذا الرأي غير صحيح ، لأن بعض النصوص البوذية روت لنا أن بوذا كان كثيراً مايتلاقي مع بعض البراهمة يتيهون في البراري والقفار فلا يكترث بهم ولا يلتفت إليهم .

ومهما يكن من الأمر ، فقد محا بوذا كل تلك الفروق التي كانت البراهمية قد وضعتها بين طبقات الشعب بزعمها أن الكهنة خلقوا من رأس براهما ، والجند من ذراعيه ومنكبيه ، وأرباب الحرف من ساقيه ، والأرقاء من قدميه ، فلما جاء هذا المصلح العظيم أعلن أن جميع بني البشر سواسية لا فضل لأحد على أحد إلا بالزهادة والمعرفة .

الأخلاق البوذية

بدأ بوذا منذ فجر اليوم الأول لتبشيره بديانته يعلم تلاميذه الفضائل التي رأى أنها وسائل الخلاص والنجاة ، ولكنه شاء أن يعلمهم هذه الفضائل عن طريق إنبائهم بأضدادها ، فأعلن أن الرذائل الواجبة التجنب عشر ، وهي : الشهوة والمقت ، والعمى والجهل ، والادعاء والرأي ، والشك والاهمال ، والخلاعة والوقاحة .

كانت هذه الرذائل في أول الأمر تذكر في تعاليم بوذا على النحو المتقدم ، دون ترتيب ولا تخصيص ، أما بعد ذلك فقد قسمت إلى فصائل اختصت كل ناحية من الانسان بفصيلة معينة منها بعد تطورها وتحديدها في مجموعتها . وهاك هذا التقسيم : إن الرذائل التي تهوى بالانسان عشر ، وإن نواحيه التي تأتى هذه الرذائل ثلاث اختصت كل ناحية منها بعدد من تلك الرذائل ، فرذائل الجسم ثلاث ، وهي : التعذيب والسرقة والزنى ؛ ورذائل النطق أربع ، وهي الكذب والنميمة والسباب والطيش ؛ ورذائل التفكير ثلاث ، وهي : الطمع والخبث والتزييف .

لم تكن البوذية تسوى بين هـذه الرذائل ، بل جعلتها متفاوتة في مراتب الاثم كما هي متفاوتة في سرعة الانمحاء عن مرتكبها ، ولكنها صرحت بأن الندم هو من أهم وسائل الخلاص منها

على أن الفضائل المضادة لهذه الرذائل المتقدمة ليست في مجموعها من النوع العالي في رأى البوذية ، وإنما هي فضائل سلبية لأن من تعفف عن السرقة مثلا لم يزد على أنه هجر رذيلة من شأنه أن يهجرها ، وهو لهذا لا يسمو إلى درجة من يستعمل فضيلة الزهادة أو التضحية ، أو ما شاكل ذلك .

وعندهم أن أهم تلك الفضائل الايجابية ما يأتي :

(ا) حب الحقيقة . (ب) الرأفة (ج) الطهر

(د) الاحسان . (هـ) مداومة التقوى

(و) احتمال كل المؤلمات والمفززات . وغير ذلك مما يصادفه القارىء من أمثلة عالية في كل صفحة من صفحات السيرة البوذية الفاتنة .

« يتبع » محمد غلاب



رفائيـــــل
الفنان أبداً
RAFFAELLO SANTI

للدكتور أحمد موسى

عرفنا من المقالات السابقة أن عصر الرفعة قد امتاز بعدد عظيم ممن توافرت فيهم الكفايات التي إذا قورنت بغيرها آمنا باطلاق بعض المؤرخين على هذه المرحلة الزمنية « عصر النهضة »

وعرفنا بعض الشيء عن ليوناردو دافينشي ، وتناولنا بالبحث ميكيلانجلو الذي اعتبرناه عبقرية ملهمة في عالم الفن ، كما فحصنا اتجاهه ونواحي إنتاجه ، ووصلنا إلى أنه كان أعظم فنان ظهر رغم ما بذله حاسدوه من مجهود لتدبير المكائد له حتى يقضوا على صيته وسمعته

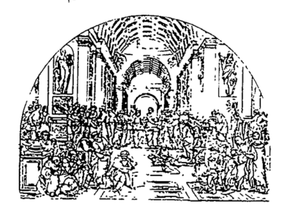
واليوم نعالج شخصية أخرى على النقيض ، غمرتها محبة الناس واستأثرت باكبارهم وتدليلهم إلى حد بعيد . ومن تكون هذه الشخصية غير « رفايللو سانتي » الذي كان على أكبر جانب من جمال الطلعة وسمو النفس ودقة الشعور ورقة الشمائل ؟

ولد رفايللو يوم ٢٨ مارس (؟) سنة ١٤٨٣ في أوربينو ، وتلقى أول دروسه على والده المصور جيوڤاني سانتي الذي مات عندما بلغ الابن الثانية عشرة من عمره ، ثم على معلم آخر ربما كان تيموتيوڤيتي الذي عاش في أوربينو في ذلك الحين أيضاً ، والذي كان صديقاً حميا له فيما بعد

ولم يترك رفايللو مدينة أبيه إلا سنة ١٤٩٩ عندما أراد الالتحاق بالعمل عند المصور المشهور بيروجينو في مدينة بيروجيا

وإذا رجعنا إلى مصوراته كلها نرى أن بينها واحدة أرخها سنة ١٥٠٤ وأسماها سبوسالزيو (Sposalizio) ، غير أن هذا لا يتخذ دليلا على أنه لم يقم بتصوير لوحات أخرى قبل هذا التاريخ ، إذ المعروف أنه اشتغل بالتصوير في كنيسة بيروجيا وفي سيتا دي كاستيلا

وفي هذه السنة أيضاً (١٥٠٤) سافر إلى فلورنسا وأقام فيها بضع سنوات لم يتركها أثناءها إلا عندما كان يذهب في بعض الآونة إلى بلدته أوربينو أو إلى بيروجيا حيث يقيم معلمه



مدرسة أثينا — صورة حائطية بالفاتيكان

وتأثر في فلورنسا بتراث ليوناردو (راجع الرسالة) وبفن فرا بارتولوميو Fra Bartolommeo فدقته في التصوير وعنايته المنهجية ترجع إلى ليوناردو ، على حين ترى السيمتري وجمال التناظر وإبداع التقسيم ورشاقة الحركة إلى بارتولوميو

وصور في فلورنسا لوحة لأجل سان فانشسكو في بيروجيا تمثل دفن المسيح ، وهي القطعة التي لا تزال محفوظة بجاليري بورجيزه في روما

واستدعاه البابا يوليوس الثاني سنة ١٥٠٨ للتوجه إلى روما حيث زخرف وصور بعض غرف الفاتيكان ، وهنا بدأ اسمه ينتشر ،

وما كاد يعمل لدى البابوين يوليوس الثاني وليو العاشر إلا وكانت

الألسنة تلهج بذكره ، وعم صيته إيطاليا وغيرها من البلدان المجاورة وكلفه فرانس الأول ملك فرنسا بأعمال فنية كما تهافت عليه كثيرون من الأكابر ، والتف حوله تلاميذ عديدون من المعجبين به والراغبين فى فنه

ولم يكن مظهر رفايللو ليدل على أنه فنان ، بل كان أقرب إلى مظهر الأمراء منه إلى رجال الفن . فتكوينه الجسمانى الرقيق وملابسه الرائعة الاختيار ، وشبابه الغض ، إلى جانب أدبه الجم وحديثه الخلاب ، كل هـذا جعل الناظر إليه أو المتحدث معه يظن أنه فى حضرة أمير أرستوقراطى

وكأن المشيئة أرادت ألا يكون بين ميكيلانجلو وبين رفايللو أي تشابه أو انسجام ، حتى الاتجاه الفنى عند كليهما كان مختلفاً ، فالموضوع الانشائى وطريقة الاخراج والتعبير تباينت عنـد كل منهما

وكان فى الخمس السنوات الأخيرة من حياته الرئيس الأعلى لبناء كنيسة بطرس ، وتعمق فى دراسة علم الآثار ومعرفة أسرار الفن القديم ، وفكر فى رفع الانقاض والأتربة عن آثار روما القديمة عندما كان محافظاً للآثار فيها

وبلغ الذروة فى سن مبكرة وفجأة أصيب بحمى انتهت بموته ، ولم يكن قد أكمل السابعة والثلاثين من عمره حين وافته المنية فى ٦ إبريل سنة ١٥٢٠ ودفن فى البانثيون بروما

يقول بعض المؤرخين بأن حزنه على خطيبته ماريابيبينا التى ماتت قبله بقليل كان من أهم العوامل التى قربت منيته ؛ فلقد كان على رقة إحساسه ودقة تكوينه الجسمانى عاشقاً مخلصاً ومحباً متفانياً . فضؤلت مقاومته للمرض

وسجل جمال خطيبته فى كثير من مصوراته وعلى الخصوص فى لوحاته التى مثلت المادونا السكستينية ودونا فيلانا ولا تزال بعض هذه الصور محفوظاً فى أوفيست بفلورنسا .

وأقيم له تمثال تذكارى من البرنز فى أوربينو بارتفاع أربعة أمتار تقريباً ، صنعه المثال الايطالى المعروف لوريجي بللى سـنة ١٨٩٧ ، كما نحت المثال الألمـانى هانل تمثالاً له لايزال من النماذج الفذة لطراز النحت الألمـانى .

هذه قد تكون أبسط قصة تقال عن فنان لانظير له ، عاش قليلا ولـكنه أنتج كثيراً ، وهو إلى جانب ميكيلانجلو لا يعدان فقط ثروة الفن الايطالى الحديث بل ثروة العالم أجمع .

ولم يشتغل رفايللو بالتصوير الجصى (الفرسكو) إلا بعد أن سافر إلى روما حيث قام بتصوير ثلاث غرف وردهة كبيرة فى الفاتيكان ، وفيها جمع بين التصوير الرمزى والدينى .

وبعد أن كان البابا يوليوس الثانى عازماً على زخرفة الغرف بواسطة بعض المصورين المعاصرين أمثال بيروجينو وسودوما وغيرهما ، تراه قد تحول اتجاهه إلى روفايللو بعد أن شاهد تصويره وتفوقه على معلمه ، فكلفه القيام بإكمال العمل إلى نهايته .

أما عمله فى الغرفة الأولى (Stanza bella Salgneura) (١٥٠٨ — ١٥١١) فهو متجه فى جوهره إلى الروح الفنية التى كانت لها الغلبة فى ذلك الحين وهي روح من النهضة ، ويتلخص موضوعها فى التعبير عن قوة القوى المسيطرة على العقل الانسانى ، المهيمنة على مصير الانسان ؛ فيرى الشاهد أمام عينيه صوراً رائعة للتعبير عن اللاهوت (الدين) والفن (الشعر) والفكر (الفلسفة) والقانون (الفقه) ، صورها كلها على مساحات دائرية الشكل ، وإلى جانب كل منها التفاسير المرتبطة بموضوع الصورة كالخطيئة والعقوبة والدنيا وحكم سالوم .

أما الصور الكبيرة فى هذا المكان فقد جعلها تنطق بالحقائق التى ترمز إليها في عالمنا الدنيوى .

وفى المكان المسمى ديسبوتا (Disputa) صور المسيحيين الصالحين مجتمعين حول الهيكل وقد فتحت فوق رؤوسهم أبواب السماء (النعيم) . وفى بارناس (Parnass) صور الشعراء الأقدمين والمحدثين ملتفين حول أبولو وآلهات الشعر من حوله .

أما الفلسفة فقد صور مايعبر عنها بمدرسـة أثينا الجامعة (السكارتون محفوظ بميلانو) وهى شاملة للمشتغلين بالعلوم العقلية أمثال أفلاطون وأرسطوطاليس وحولهم تلاميذهم ، واتخذ الفنان الركن الأيمن من الصورة لتصوير نفسه مع معلمه بيروجينو .

أما الدين فهو ممثل فى صورته بالبابا والقيصر وهما يصرفان الأمور والشئون بموجب الكتب السماوية .

« له بقية »

أحمد موسى



شـــقاء

للأستاذ اسماعيل مظهر

هذه صورة من صور الريف ، حملتها ذاكرتى منذ كنت شاباً فى مقتبل العمر ، وقد انتهيت من مجهود عام دراسى شاق فى زمان كنا ندرس أكثر المواد باللغة الانجليزية ؛ وما كدت أنتهى من تاريخ رومية واليونان والحساب والهندسة والجبر وأدب شكسبير ، حتى سارعت بالسفر إلى الريف أستجم بسكونه وسذاجته ، وأطلب فى حقوله وهوائه وشمسه راحة القلب وسلوى النفس ورخاء البال ، وأسعد بالعمل فى الحقول جهد استطاعتى لأشارك فى عمل له نتاجه وثمره القريب . غير أنى شعرت بعد قليل من الاستقرار فى الريف أن الحيـاة قلما تهبنا الراحة التى نطلبها أو تحقق بعض ما نتمنى من الوحدة والاتسق يشيمان فى نواحى العقل والنفس ، ويعوضان على المرء بعض ما ينفق فى حياة المدن من إرهاق يأنسه فى تنافر الصور فى المرئيات والمعقولات . ذلك بأن قريتنا الصغيرة كانت قد احتلت بكائن غريب الأطوار من نسل آدم وحواء ، أجدر به أن يكون على نشوء الانسان من صورة دنيا . المثل الأعلى والبرهان الصادق الملموس الظاهر للعيان

***

بقربة من غدير يمر بجوار القرية ، شجرة من الصفصاف تتدلى فروعها الطويلة فتمس صفحة الماء الجارى ، حتى ليخيل إليك أن بين الماء وفروع تلك الشجرة صراعاً ؛ كأن الماء يحاول أن يقتلعها ويجرفها بتياره ، وكأن الشجرة تحاول أن تقاومه إرادته فتتشبث بالأرض . أما الغدير فيجرى هادئاً مطمئناً بريئاً من فكرة العنف والفساد . وأما الشجرة فتطفو بفروعها على صفحة الماء الهادى ، كأنها ترجس فى خرافات الأقدمين .

فلا جلاد إذن ولا عراك ، ولا تناحر ولا خصام ، فى ذلك العالم الجميل الذى يضم الشجرة والغدير ، وما العاصفة والعراك إلا فى خيالك وفى نظرك إذ يخدعك عن هذه الحقيقة ، كما يخدعك عن كثير من حقائق الحياة .

وبين أصل الشجرة وحافة الماء منسطح صغير من الأرض كسته الأعشاب البرية . ونبتت فيه حشائش النجيل الجميلة وقليل من السعد ، تناثرت من فوقه بضع شجيرات من عشب البرنوف الأخضر الزاهى . وقد هجر فتيان القرية وعذاراها الحسان هذه البقعة الجميلة ، شأنهم فى هجر كل جميل . سعياً وراء العيش والضرب فى مناكب الأرض . لعنة الله على مناكبها .

تلك بقعة من الأرض أصح ما توصف به أنها ملك الطبيعة على قلة ما تملك الطبيعة من وادينا المظلم ، فلا محراث يبج بطنها ، ولا فأس تقلب طبقاتها ، ولا منجل يحصد ما نبت فيها ، بل ولا إنسان يحييها تحية الحب والجمال . فهى أحق بأن تدعى « الشقة الحرام » كما يسمون البقعة التى تكون بين جيشين متحاربين . No Man'sLanp

وكنت أمر على هذه البقعة المهجورة عجلان مسرع الخطو فأحييها تحية صامتة ، وأتمنى لو أن مشاغل الزرع والانتاج ، والحرث والحصاد ، والرى والصرف . تمكننى أن أسعد بيوم واحد أقضيه فى ظل هذه الصفصافة . وفوق بساطها السندسى الجميل . وكانت هذه الأمنية تعاودنى صبيحة كل يوم وأنا رائح إلى الحقل ، وفى كل أمسية وأنا غاد إلى دارى . ولكن الأمل باق ما دامت هذه البقعة بكراً لم يغشها إنسان ولم يفكر مخلوق فى أن يسعد بجمالها قبلى . ودرجت على ذلك الأيام . فالصفصافة واقفة مشرفة بهامة الجبار على مجرى الغدير . وغدائرها الطويلة يمايلها النسيم على صفحة الماء ، وخيال العراك الدائم بين الشجرة والغدير قائم فى وجدانى ، وأمل المتعة بيوم أقضيه فى ظل الشجرة المحبوبة متجدد كل يوم .

ولكن لا . فلا بد من يوم تمشى فيه الآمال الحلوة الخلابة

سحائب من الكدر . فان مخلوقاً غريباً احتل البقعة الحرام ، واستظل بالصفصافة المقدسة . وقد خلع رداءه وجلس على حافة الغدير ينظر فى مائه المنساب الدافق كأنه يستوحيه الأسرار ، مثبتاً ناظريه فى نقطة واحدة كأنما جاذبية الأرض قد تجمعت فيها ، والماء ينساب متحدراً إلى غاياته ، والصفصافة قائمة بظلها الوارف ما يعنيها فى هذه الحياة من شىء . استظل بها فيلسوف من طبقة أفلاطون ، أو أبله «ممسوخ» شوهت الطبيعة من خلقه كذلك الشبح الذى رأيته على ما وصفت صبيحة ذات يوم .

هو مخلوق هبط هذه البقعة من عالم سحرى عجيب ، ضئيل الجسم نحاسيُّ اللون صغير العينين أفطس الأنف دقيق الشفتين على غير قياس ، بارز الذقن إلى درجة غير مألوفة ، مكتنز الرأس طويل الوجه بارز الصدر محشوف الظهر ، طويل الذراعين قصير الرجلين . وقد اندكت رقبته بين كتفيه ، فقصرت قامته على قصرها ، وغشيت نحاسية وجهه بقعة من السواد الفاحم أتلفت مساحة منه غير صغيرة ، ونبت فيها شعرات قصار ملس كأنها الحشائش الفطرية فى حرجة كثيفة حجبت الأشجار الباسقة عن أرضها ضوء الشمس . وهو فوق ذلك أجرد ، فلا شارب ولا لحية له ، غليظ اليدين والقدمين واسع الشدقين بارز الأسنان إذا مشى فهو الهرة إذ تتلبث ؛ وإذا نظر فكأنه يريد أن ينفذ ببصره إلى ما فى سريرتك . وما تنم حدة نظراته وجودها ، إلا عن شدة ما قاسى من الزمن ومن الطبيعة ومن الناس .

مررت بهذا المخلوق محسوراً على أملى الذى سوف لا يتجدد بعد اليوم ، وعلى البقعة الحرام يستبيحها هذا القزم الأسود العجيب . فكنت أراه كل صباح ثم أخلفه من ورائى فى رواحى إلى الحقل وفى غدوتى إلى الدار وما رأيته يوماً بعيداً عن ظل الصفصافة أو غير ناظر إلى صفحة الغدير . وقد ألف المكان وألفه نظرى ، فكان يخيل إلىّ أن الصفصافة والغدير قد أصبحا له ، على حد قول هوجو ، بمثابة البيضة والعش والسكن والوطن والكون

ولقد هممت مرات عديدة بأن أسأل ما شأنه ، وما حاله ، وما الذى جعله يختار قريتنا دون القرى الأخرى . وكنت أقمع هذه الرغبة وأسلط إرادتي على حب الاستطلاع في نفسي . ولكنى هزمت ذات يوم فوقفت إزاءه وأطلت النظر فيه ، فأخذ يخالسنى
~~النظر وحول عينيه محوى وما تزالان تنظران فى الأرض وتتحركان~~
حركة عصبية شديدة ، حتى ليخيل إليك أن هذا الانسان ما يظن فيك إلا أنك وحش مقدس يريد الانقضاض على الفريسة السكينة الوادعة . ولم يكن فى هذا غير مصيب . فقد هممت أولاً أن أقرئه السلام ، ثم ترددت وقام فى نفسى أن أجره من أذنه الغليظ لأريه الطريق السلم إلى القرية الأخرى . ولكن لم كل هذا التعب ؟ فهو جالس على حافة الغدير مستجمع كأنه النسر الأجرب العجوز وقدمي حاضرة . فركلة واحدة تسلم به إلى الغدير يتولاه برحمته الأبدية . ولأى شئ خلقت الرجل وفيها القدم . ولأى شئ زودت بهذه العضلات القوية ، إن لم يكن لمثل هذا الطرف ولمثل هذا المخلوق الأشوه . فان الطبيعة ما أبدعت من شئ إلا وأبدعت معه طريقة التخلص منه . وقد قام فى نفسى أن الطبيعة لم تدربنا على العدو والقفز ، والركل واللكز ، والطفر والوكز ، فى طفولتنا إلا لتكون عدتنا لمثل هذه الساعة ، وفى مثل هذا الظرف ، ولمثل هذا القرد الأزعر العجيب

ولقد قويت فى نفسى هذه الشهوة وخيل إلىّ أن الأمر سهل هين والطريق مقفر والحقول خاوية . وقد انحدرت الشمس فغابت فى عينها الحمئة السحيقة . وما أجّل لهذا المخلوق فى الحياة بعد هذا كله إلا استيقاظة نفسية ، سرعان ما تبخرت معها فكرة الثورة على النظام وعلى الطبيعة ، وتحركت شفتاى على غير إرادة منى وقرأته السلام

يالله ! ها هو ذا قد نظر إلىّ بكامل وجهه ، وعيناه تبصان بصيصاً فيه الرعب والوجل والألم والقسوة والجود . وأخذ يجاهد جهاد المستميت ليرد تحيتى بأحسن منها ، وأخذت الكلمات تخرج من شفتيه غير متماسكة الحروف ، فكان فيها مد وغن، وقصر واستطالة، وعوج واستقامة ، وإمالة وإشمام ، ومضت دقائق ما أعرف عددها قبل أن يتم رد السلام :

— وعليكم السلام ... ورحمة الله وبركاته ... إزاى حضرتك سلمات ... أهلا وسهلا ... يا مرحب

— اسم أخينا إيه ؟

— اسمي ...

— أيوه

— اسمي ... والله اسمى ... اسمي ... محمد

— بتعمل إيه

~~— أ ... نا~~

— أيوه أنت

— أنا ... بشتغل ... فى غيط ... عم حمدان ... اللي ... قصادك ده !

— وبلدك إيه ؟

— أ .. نا

— أيوه إنت

— بلدي.... بلدي ... بعيد من هنا ! بينا وبينها ... تلاته تعريفه تمام . واسمها ... الخرابة

ولقد صدق المسكين . فأية بقعة من بقاع هـذا العالم الواسع تقذف الانسانية المسواة فى أحسن تقويم بمثل هذا الشبح الممسوخ إلا بقعة خراب !

إذن فقط هبط علينا من الخرابة . وكيف يستوى أن يعيش فى العمران والمدنية ، من تلفظه الخرائب الموحشة الجرداء . وبلدة الخرابة قرية لا يدور اسمها على ألسنة موظفي الحكومة إلا قليلا فهي فى شمالي الدقهلية وفى أرض بور تبلغ مساحتها بضعة آلاف من الأفدنة كلها مرتفعات وأخاديد ، وقد تجمعت المياه فى بعض المنحدرات ونبتت فيها النسيلة والبشنين . أما المرتفعات فقد تجمع من فوقها السبخ الأحمر الكريه وتوجتها أدغال من الطرفاء ، وما إن تبعث على هذا الخراب الشامل بنظرة حتى يخيل إليك أن الله قد أنزل على هذه الأرض حسباناً من السماء فأصبحت صعيداً زلقاً

وعلى تبة من تباب هذه الأرض السبخة المالحة تقوم أكواخ قرية الخرابة ، وقد نبت عليها شوك العاقول الأخضر ، وتسلقتها حشائش العليق ، وامتدت الرطوبة إلى نصف ارتفاعها . وعقدت أسطح الحجرات باللبن النيء ، وفتحت فى أعلاها النوارز بارزة من أواسطها ، فيخيل إليك إذا نظرت فيها أنهن عجائز القرية المهجورات مسخن بكارثة ، وهن يتطلعن جميعاً إلى الشمال . فاذا جن الليل وأرسل القمر أشعته الفضية على هـذا الكون الميت العجيب ، شبه لك أن القرية قطيع من الفيلة السود ، تتساوق متزاحمة ، ولكن فى صمت كأنه صمت القبور

ومن حول هذه القرية تقوم بضعة شجيرات من السنط بهت لونها وامتقعت أوراقها ، وما يغشاها من طرفى النهار إلا غربان تنعق ، وما يألفها فى الليل إلا البوم تنوح من حول القرية طيلة ساعات السواد ، نادبة حظ الأحياء والأموات ، مرسلة بأنّاتها الطويلة الشجية الحزينة ، ترثي الطبيعة المجرودة الغبراء

وعلى مسيرة بضع دقائق تقع جبانة القرية ، وقد انتثرت فيها القبور كأنها كثبان الرمل سفتها الرياح ، فتجاورت مزدحمة فى بقعة من الأرض ، والأرض من حولها فسيحة براح ، كأن طبيعة الانسان الاجتماعية قد أقسمت لتزحمنه فى القبور كما تزحمه فى الحياة . وقد ترى اللحد ومن فوقه ذلك الكثيب علاه السبخ الكثيب ، ومن حوله نبت الشوك وحوّط القبر من جميع جهاته ، كأن الطبيعة قد أرادت أن تحدد تخوم كل قبر لتكفي الموتى مؤونة العراك على امتلاك القبور ، وهنالك تقع على جحر ذئب ، وهنا على نبيشة ثعلب ، وقد تنتبه على حركة طائر فى وحشة ذلك الصمت الأبدى ، فترى قطاة أزعجها مسيرك فى مدينة الأموات ، فتركت عشها من فوق قبر لتنتقل به على صدر ميت كان بالأمس جباراً لا يرحم ، عنيداً لا يلين ، مشبوب الشهوات واسع الأمل مستثار الجنان

وإنك لتعجب كيف أن قزم الخرابة يترك تلك الجبانة التى نشأ بمقربة منها ، بل وفى حضنها الرهيب . ليهبط قريتنا ، فلا نراه إلا ونذكر الخراب والغربان والبوم . ولا نحييه إلا وفى مخيلتنا مجمل هذه الصور التى صورتها ، يحييها منظره ويدعوها إلى الوعى مجرد الذكرى ، بأن فى بلدتنا شخصاً من الخرابة . وتداعى الأفكار صفة نفسية ، ولكن لا بد من باعث يحركها ويدعوها. فكان هذا سبباً في أن يبعد الناس عن طريق هذا الانسان لئلا تقوم فى مخيلتهم ذكريات الخرابة وذلك القفر المجدب الحزين والأكواخ تسلقتها الحشائش والأشواك والأشجار الميتة القائمة من حولها ، والغربان والبوم ، والجبانة والقبور ، فتنتشى الطبيعة المرحة الباسمة سلسلة من تلك الذكريات الباكية . فلا ريب إذن في أن الأقدار قد تناصرت على هذا المسخ المشؤوم . ولكن لم يقس عليه من الأقدار شيء بقدر ماقست عليه الطبيعة التى شوهت من خلقه ، و « الخرابة » التى نبذته وقذفت به إلى الوجود .

وقد يولد بعض الناس مثقلين بأوزار ، أو محكوماً عليهم بأن يعيشوا فى جفوة عما يحيط بهم من الأشياء ؛ فمنهم من تجنى عليه الطبيعة ، ومنهم من تجنى عليه الأسرة ، ومنهم من يجنى عليه الناس ، ومنهم من تجنى عليه البيئة ، وكثير منهم من يجنى على نفسه ، ومنهم من يخرج إلى الدنيا حاملاً وزر أبيه ، أو وزر أمه ، او وزريهما معاً . وهو بعد تلك الأداة الضعيفة ، وذلك المخلوق البائس . الذي لا اختيار له فيما اختارت له الأقدار ، ولا



الاحتفال بتولية جلالة الملك

أذاع مجلس الوزراء البرنامج الرسمي التالي للاحتفال بتولية صاحب الجلالة الملك وهو

الوصول الى الاسكندرية

١ — تصل الباخرة بمشيئة الله الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ الموافق ٢٥ يوليه سنة ١٩٣٧ فيصعد إليها عضوا مجلس الوصاية والأمراء والنبلاء الموجودون بالاسكندرية ، ورئيس مجلس الوزراء والوزراء وكبار رجال القصر ، ومحافظ الاسكندرية وقائد حاميتها المصرية ومدير الموانى ، ومدير البلدية ، ومدير خفر السواحل

٢ — ينزل المستقبلون ما عدا رئيس مجلس الوزراء لانتظار جلالة الملك على رصيف محطة الاسكندرية

٣ — يقل جلالة الملك لنش المحروسة لتشريف سراى رأس التين وبمعية جلالته رئيس مجلس الوزراء وكبار رجال القصر

٤ — يعود لنش المحروسة إلى الباخرة فيقل جلالة الملكة وحضرات صاحبات السمو الملكي الأميرات وبمعية جلالتها ناظر خاصة جلالة الملك

٥ — يقوم ركاب جلالتها وسموهن الملكي إلى محطة الاسكندرية قبل قيام ركاب جلالة الملك وبمعية جلالتها ناظر خاصة جلالة الملك

٦ — يتحرك ركاب جلالة الملك إلى محطة الاسكندرية فى الوقت المناسب لكى يقوم القطار الملكى الساعة ٣٠ ، ٩ صباحاً

٧ — يكون فى مثول الاستقبال بالمحطة حضرات المستقبلين على ظهر الباخرة والمعتاد وجودهم عند تشريف جلالة الملك ثغر الاسكندرية سنوياً .

٨ — يقوم القطار الملكى إلى محطة سراى القبة رأساً ويقف فى المحطات المعتاد وقوفه فيها ويكون الاستقبال طبقاً لما يتبع عند

حيلة فى ما مضت به الكلمة المبرمة فى ألواح الأبد والأزل .

***

فى الإنسان طبيعة مشتركة ، من تفاسير الوجوه ماينم عنها ، ومن الذكريات وتداعى الأفكار ما يرسم على وجوه أبناء آدم تعابير واحدة . فكنت إذا ذكرت «محمداً» مساعد حمدان العربي وبلدته « الخرابة » ، ارتسم على الوجوه مايدل على ماقام فى النفوس من الاستيحاش والتشاؤم والبغض والاستفزاز .

وفى صبيحة ذات يوم ، أشبه بذلك اليوم الذي احتل فيه ذلك القزم سيف الندير المحبوب ، اجتمع نفر من أهل القرية وقد ذر قرن ذكاء بأبهته السماوية ، ينظرون فى الماء ليتبينوا شيئاً يعلو ويهبط أمام قنطرة تحجز مياه الرى

تلك جثة « محمد الخرابة » ، فقد تولاه الندير برحمته الأبدية ، أما أهل القرية فقد ظهرت على وجوههم تعابير الرحمة ممزوجة بالكثير من راحة البال والضمير . فلا الشوه يمازج ذكرياتهم ، ولا الخرابة بغربانها وبومها وأشجارها الميتة وقبورها الموحشة وسكونها الرهيب الأليم ، وليلها المربدّ الهادىء هدوء الموت ، يمر على مخيلاتهم أو يلابس وعيهم من بعد ذلك

***

ولكن . . . هنالك بمقربة من الجثة المسجاة ، جلست « فاطمة » ابنة حمدان ، بوجهها الصبوح وعينيها الواسعتين ، وبشرتها القمحية الجيلة وقوامها اللين المتعاطف ، جلست وحدها بغير شريك من فتيان القرية وفتياتها ، وهى أفتنهن جميعاً ، تخالس الجثة النظرات صامتة مبهوتة ، وترمق الجسد البارد بعينين حائرتين جامدتى النظرات ، وقد تقاطرت منهما دموع انحدرن كالحصات الكبار

اسماعيل مظهر

انتقال جلالته من الثغر إلى سراى القبة العامرة .

٩ — يعد دفاتر لقيد أسماء المهنئين فى قصرى رأس التين وعابدين .

حفلات مباشرة السلطة الدستورية

يوم الخميس ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ٢٩ يوليه سنة ١٩٣٧ .

١ — يقوم الركاب الملكى من سراى عابدين العامرة الساعة ٨،٣٠ صباحا إلى دار البرلمان عن طريق ميدان عابدين فشارع الخديو اسماعيل فميدان الفلكي فشارع الخديو اسمعيل فشارع قصر العينى فشارع مجلس النواب .

٢ — تكون العودة إلى سراى عابدين العامرة من طريق شارع قصر العينى فشارع سليمان باشا فشارع فؤاد الأول فميدان ابراهيم باشا فشارع ابراهيم باشا إلى السراى العامرة .

٣ — عقب عودة جلالة الملك إلى السراي الملكية العامرة تجرى التشريفات العامة حسب الترتيب الذى سيعلن عنه وفى الوقت نفسه تقام حفلات استقبال فى المحافظات وعواصم المديريات للموظفين والأعيان الباقين بها .

٤ — بعد انتهاء التشريفات يقدم وزير الحربية باسم الجيش المصرى وبحضور كبار الضباط إلى حضرة صاحب الجلالة الملك عصا الشيرية هدية منهم لجلالته رمزاً لاخلاصهم وولائهم

٥ — تجرى تشريفات حضرة صاحبة الجلالة الملكة قبيل الظهر وبعده طبقاً لترتيب المقابلات الذى سينشر فيما بعد ؛

٦ — قبيل المساء يذيع جلالة الملك كلمة على شعبه فى الراديو

٧ — تقام مأدبة عشاء بالسراى وتعقبها حفلة ساهرة

* * *

يوم الجمعة ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ٣٠ يوليو سنة ١٩٣٧

١ — يؤدى جلالة الملك فريضة الجمعة فى مسجد الرفاعى ، ثم تزور قبر المغفور له والده

٢ — تقام مأدبة غداء للعلماء فى قصر عابدين يحضرها رئيس مجلس الوزراء ووزير الأوقاف

٣ — فى الساعة الخامسة بعد الظهر تقام حفلة شاى بسراى عابدين العامرة

٤ — فى الساعة ٨،٣٠ مساء يشرف حضرة صاحب الجلالة الملك مأدبة العشاء التى يقيمها رئيس مجلس الوزراء بسراي الزعفران والحفلة الساهرة التى تليها

* * *

يوم السبت ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ٣١ يولية سنة ١٩٣٧

١ — فى الساعة ٨،٣٠ صباحاً يستعرض حضرة صاحب الجلالة الملك الجيش

٢ — فى الساعة الخامسة مساء تقام حفلة شاي بسراي عابدين العامرة يحضرها ضباط الجيش على اختلاف رتبهم وأسلحتهم ، وكذلك الضباط المتقاعدون من رتبة أميرالاى فما فوقها

رسائل عن مصر فى أواخر القرن الماضى

أصدر متحف بروكلين الأمريكي أخيراً كتاباً عنوانه « رحلات فى مصر Travels in Egypt » ، وذلك من ديسمبر سنة ١٨٨٠ إلى مايو سنة ١٨٩١ ، وهى عبارة عن رسائل بقلم تشارلس أدوين ولبور ، نشرها وعلق عليها العلامة الأثرى الأستاذ جان كابار . وللمؤلف هذه الرسائل المصرية قصة مؤثرة فقد كان من علماء الآثار الأمريكيين . ووفد على مصر فى أواخر القرن الماضى ، وقضى بين أطلالها ومعابدها القديمة نحو عشرة أعوام فى التنقيب والدرس ، ثم توفى فى سنة ١٨٩٦ . دون أن يتمكن من نشر شيء من مباحثه المديدة ، وترك مجموعة أثرية فخمة ومكتبة نفيسة عن الأثريات المصرية وهبهما أبناؤه إلى متحف بروكلين تخليداً لذكراه . وفى سنة ١٩٣٢ عثر الأستاذ كابار فى هذه المجموعة على رزم من رسائل مهملة ، وما كاد يتصفحها حتى أيقن بنفاستها وأهميتها من الوجهتين التاريخية والأثرية

ذلك أن تشارلس ولبور كاتب هذه الرسائل عاش فى مصر فى فترة وصلت فيها المباحث الأثرية القديمة إلى ذروة الازدهار ؛ وكان بمصر يومئذ العلامة الفرنسى ماسبيرو يقوم بأعظم حفرياته ومباحثه ، وكذلك العلامة الألمانى هينريخ بروكش ، والمستشرق الانكليزى سايس ، وكان ماسبيرو يومئذ قد وفق إلى أعظم اكتشافاته وهو اكتشاف المومياء الملوكية فى الدير البحرى ؛ وكان مستر ولبور وثيق الصلات بأولئك العلماء الأعلام وبأعمالهم

ومباحثهم ، وكان أيضاً وثيق الصلات بالأهالى فى المناطق الجنوبية التي يجرى فيها الحفر ، وقد وفق فى حفرياته إلى اكتشاف بعض القطع الأثرية وأوراق البردى ، وهى تحفظ الآن فى المتحف البريطانى . فهذه الجهود والتطورات العلمية الهامة التي شهدتها مصر فى أواخر القرن الماضى يصفها مستر ولبور فى رسائله باسهاب ، ثم هو يصف خلالها حالة الريف المصرى والمجتمع المصرى يومئذ ؛ وهذه الرسائل التي وجهها إلى أسرته وإلى بعض أصدقائه هى التي يضمها المجلد الضخم الذى أصدره متحف بروكلين وقام على نشره الأستاذ كابار ، وهى رسائل لها قيمتها فى تاريخ مصر الأثرى والاجتماعى فى أواخر القرن الماضى .

جوجليلمو مركونى

فى يوم الثلاثاء الماضى نعت أنباء رومة العلامة المخترع الأشهر جوجليلمو مركونى ، الذى كان لاختراعاته فى المواصلات اللاسلكية أعظم أثر فى تطور الحياة البشرية فى عصرنا ؛ وكان مولد هذا العلامة الكبير فى مدينة بولونيا (بايطاليا) فى ٢٥ أبريل سنة ١٨٧٤ فى أسرة كريمة من أب إيطالى وأم ارلندية ، وتلقى مركونى تربية حسنة فى جامعة لجهورن ثم فى جامعة بولونيا ؛ وكان من أساتذته العلامة الرياضى الشهير روزا . وأبدى مركونى منذ حداثته عناية خاصة بكل ما يتعلق بالكهرباء ، وشغلته فكرة نقل التموجات الكهربائية عن طريق الهواء فأجرى فيها تجارب لم تشجعه عليها الحكومة الايطالية يومئذ ؛ فذهب إلى انكلترا واتصل بالسير وليم بريس كبير مهندسى التلغرافات يومئذ ، وأجرى تجاربه باشرافه ، ونجحت التجربة لأول مرة فوق خليج برستول. وفى سنة ١٨٩٩ تقدمت التجربة خطوة جديدة ، واستطاع مركونى أن ينظم المواصلات اللاسلكية بين فرنسا وانكلترا فوق القنال الانكليزى . وفى سنة ١٩٠١ استطاع أن ينظم المواصلة اللاسلكية فوق المحيط الاطلانطيقى بين كورنوال فى انكلترا وجزيرة نيوفوندلند فى أمريكا على مسافة ٢١٠٠ ميل ؛ وعلى أثر ذلك افتتحت المواصلة اللاسلكية بصفة رسمية بين أوربا وأمريكا ، وكلل اختراع مركونى بالنجاح الكامل ؛ وذاع الاختراع بسرعة ، واستعملته السفن التجارية منذ أوائل هذا القرن ، وكذلك نظم فى جميع الأساطيل الحربية ، وأضحى أداة سهلة سريعة للمواصلات البرقية ؛ وخصص مركونى حياته لتحسين اختراعه الدهش ؛ وأنشأ منذ سنة ١٩٠٠ شركة للمواصلات اللاسلكية سميت باسمه ولها اليوم فروع فى جميع أنحاء العالم . ولما دخلت إيطاليا فى الحرب الكبرى تولى مركونى الاشراف على المواصلات اللاسلكية الايطالية ؛ وفى نهاية الحرب انتدب عضواً فى الوفد الايطالى لدى مؤتمر الصلح ، وتولى عن إيطاليا توقيع معاهدات الصلح التى عقدت مع النمسا وبلغاريا ؛ ومنح مركونى من ألقاب الشرف العلمية والأوسمة الرفيعة ما يضيق المقام عن ذكره ؛ ومنح جائزة نوبل للعلوم فى سنة ١٩٠٩ ؛ وانتخب منذ سنة ١٩٣٠ رئيساً للمجمع العلمى الايطالى ؛ وأنعم عليه بلقب المركيز ، وانتخب عضواً بمجلس الشيوخ

واليوم يغدو اختراع مركونى فى المواصلات اللاسلكية وتبادل التموجات الأثيرية أعظم ما عرف العصر ؛ ولم يحدث أى اختراع آخر مثل ما أحدث اختراع مركونى من ثورة فى نظم الحياة البشرية ، ولم يقرب مثل ما قرب بين أبعد أطراف العالم . وإذا كنا نستطيع اليوم فى لمح البصر أن نتصل بأوربا وأمريكا واستراليا ونحن جلوس فى منازلنا ، وأن نصغى إلى آخر الأنباء العالمية ، وأن نسمع الموسيقى والغناء على بعد آلاف الأميال ؛ وإذا كانت السفن فى عرض المحيط ، والطيارات فى جوف الفضاء ، تستطيع الاتصال والاستغاثة عند اللزوم ، فالفضل فى ذلك كله يرجع إلى عبقرية جوجليلمو مركونى

ولم ينبغ فى عصرنا من المخترعين نبوغ ماركونى فى ميدانه سوى رجل واحد هو أديسون المخترع الأمريكى ؛ على أن مركونى يتفوق على أديسون من الناحية العلمية ، ويمتاز بسعة آفاقه التى لم يحد منها بحر ولا جبل ولا هواء . وقد عاش مركونى طول حياته فى جو من الهدوء والثقة ، يحمله النجاح الى التماس النجاح ؛ وكان مثل العلامة المتواضع يرتفع بالفكرة الانسانية إلى ذروتها .

حرب الميكروبات

إذا كان عصرنا عصر المعجزات العلمية ، فهو أيضاً عصر المهلكات . ولم يسبق في التاريخ أن سخر العلم لاختراع المهلكات البشرية كما سخر في عصرنا ؛ فالأمم العظيمة كلها تسخر قوى العلم لاختراع الأسلحة الجديدة وصقل الآلات المهلكة . وتحسين الأسلحة الجوية والبحرية . وتحويل الحرب إلى عملية ميكانيكية مخربة ؛ وأفظع ما في هذا النشاط المخرب هو الحرب الكيماوية التي يوجه اليوم لها نشاط العلم والاختراع ؛ فعلماء الذين يعتبر واجبهم المقدس أن يعملوا لخير الانسانية ورفاهتها وصون الحياة البشرية من الأدواء والأمراض ، يعملون اليوم لافناء المجتمع الانساني ، وسحق المدنية ، وقتل الانسان بواسطة الغاز الخانق ، والسوائل الملتهبة والجراثيم (الميكروبات) الفتاكة ؛ وتشتغل المعامل الكيماوية في معظم الأمم الكبرى اليوم باختراع هذه المهلكات والعمل على مضاعفة قواها المهلكة ؛ وقد كانت ألمانيا أول دولة لجأت إلى هذه الوسيلة المروعة ، واستعملتها في الحرب الكبرى ، فاستعملت الغاز الخانق وأنواعاً أخرى من الغازات الخطرة ؛ وكانت هذه مفاجأة مروعة لجيوش الحلفاء . بيد أنها لم تبلغ يومئذ مدى كبيراً . فلما انتهت الحرب فطن الحلفاء الى هذا السلاح الجديد الخطر ، وأدركوا ما للحرب الكيماوية من أثر عظيم في المستقبل ، وانكب علماؤهم ومعاملهم على بحث السوائل والغازات والميكروبات المهلكة ؛ وكانت ألمانيا التي وجدت في المباحث الكيماوية السرية ملاذها وسلامتها بعد هزيمتها الساحقة في الحرب - في مقدمة الدول التي خصت الحرب الكيماوية باهتمامها ؛ ويقال إنها انتهت فيها إلى نتائج خطيرة .

والمعروف أن ألمانيا حاولت في الحرب الكبرى أن تستعين على إهلاك اعدائها بالميكروبات وانها حاولت تطبيق هذه التجربة في رومانيا . ومنذ سنة ١٩٣٣ ، أعني منذ قيام النازي في الحكم تعمل المعامل الألمانية ليل نهار لابتكار وسائل الدمار البشري وتعنى عناية خاصة بمسألة الميكروبات . وقد وجه معهد كوخ إلى المعامل الألمانية منشوراً فيه بيان مفصل عن الميكروبات التي يمكن استعمالها في الحروب المقبلة ، وعن أفضل الوسائل لاستعمالها .

ويقول الدكتور ليفين الألماني الاخصائي الكبير في هذا الموضوع : إن الميكروب هو أفضل مهلك للجيوش ، لأنه متى ارتفعت صيحة الذعر في الجيش فقد قضى عليه .

وتعنى الدول الكبرى الآن بهذه المشكلة الخطرة ، وتجتهد في ابتكار وسائل الوقاية ، إلى جانب ماتعنى به من اختراع المهلكات ، وهي جميعاً تفطن إلى الكوارث المروعة التي تتعرض لها الشعوب والانسانية من جراء هذا الخطر الشامل .

وفاة طبيب عالمي

نعت أنباء باريس الأخيرة الأستاذ الدكتور لا برسون العلامة الرمدي الشهير : توفي في الخامسة والثمانين من عمره بعد حياة علمية وطبية حافلة ؛ وقد بدأ حياته أستاذاً للرمد في كلية الطب بجامعة ليل ، ثم انتقل إلى باريس حيث عين أستاذاً للرمد في جامعتها ، وعين مديراً لقسم الرمد في « أوتيل ديو » وانتظم عضواً في أكاديمية الطب ، ثم انتخب رئيساً لها ، وطارت شهرته كحجة عالية في أمراض العين ، ووضع كتباً ورسائل كانت مرجع الأطباء الرمديين في جميع أنحاء العالم ، وكان لتعاليمه ومؤلفاته أثر كبير في تطور طب العيون بفرنسا ، وقد تخرج على يده عدد كبير من أطباء العيون في فرنسا وفي خارجها .

تصويب

قرأت في عدد الرسالة الأخير في مقالة الأستاذ المؤرخ الجليل محمد عبدالله عنان في صفحة ١١٧١ في الجانب الأيسر من الرسالة في السطر الرابع أن الملكة هورتنس ابنة الامبراطورة جوزفين من زوجها الأول كانت زوجة القائد مورات . والذي قرأناه في الكتب هو أنها كانت زوجة لويس أخي نابليون الذي نصبه ملكا على هولندة ، وولدت من نابليون الذي صار فيما بعد نابليون الثالث . أما زوجة القائد مورات الذي نصبه نابليون ملكا على نابل في إيطاليا فهي كارولين أخت نابليون . ويلاحظ أن الضمير في الفعل في الجملة مفرد مما يدل على أنه لايتكلم عن اثنتين فالمرجو إيضاح وجه الصواب للفائدة

(ش)



المستشرقون

تأليف السيد نجيب العقيقي

للأستاذ الحوماني

يكاد يكون الاستشراق علماً بنفسه له أصوله وفروعه ، وله مقدماته ونتائجه ؛ ويكاد يكون رجاله ، على رغم شتاتهم ، شعباً خاصاً له أفقه الخاص به ، وحياته القاصرة عليه ، وقد مر بهذا الشعب ورجاله فى العالم قرون لم يكتشفه ، كما هو ، عالم ولا أديب ولكن هنا لك بضعة من الكتاب نقلوا لنا وللغربيين نتفاً من أخبار هذا الشعب . . . فى معرض النقد أو التقريظ ، والناقل إما شرقى يشكر للمستشرق إنصافه أو ينعى عليه تعصبه ، وإما غربى يشكر له عصبيته أو ينعى عليه انصافه .

نقرأ فى بعض الكتب وفى كثير من الصحف أشياء عن هذا الشعب شعب المستشرقين ، ونقرأ أشياء لكثير من أفراد هذه الجماعة جماعة الاستشراق عما يكتشفون فى عالمهم من آثارنا نحن الشرقين .

اما أن نسمع بكاتب جمع شتات هذا الشعب فى مختلف الأزمنة والأمكنة ، ولم شعثه ، ثم كشف عن آثاره بين جلدتين تشتملان على كتاب وبلسان شرقي عربى يصور لنا حياتهم قديمة وحديثة ، ويبعث فينا آثارهم مكتسبة وموروثة ، ويكشف لنا آراءهم خاطئة وصائبة ، ويمحص لنا أقوالهم جائرة ومنصفة ، ويمعن فى البحث عن أغراضهم وأهوائهم ، ويعلل أفعالهم وأقوالهم ، ويحلل آراءهم وأفكارهم ، بعيداً عنهم وهو فى الصميم من جماعتهم ، منصفاً فى الحكم عليهم والقضاء لهم ، أما هذا الكاتب فلم نسمع أو لم أسمع أنا به على الأصح فيمن غبر أو حضر من كتابنا ماخلا هذا

الشاب المثقف (النجيب) صاحب كتاب « المستشرقون » المؤلف الحديث الذى أخرجته لنا فى الأيام الأخيرة مطبعة الاتحاد البيروتية فى مائتين وخمسين وجهاً من القطع الوسط يحمل اسم مؤلفه « نجيب العقيقى »

لا أحب أن أعرض لعروبة الكتاب والناحية البيانية فيه فان مؤلفه واحد من هؤلاء الشباب الذين عمروا قلوبهم بالثقافة الأجنبية فى معاهد إنما شيدت لقتل العروبة فى بلادنا لغة وخلقاً ومعتقداً ، وإذا قرأت فى الكتاب جملا فصيحة فانما هى نتاج الغريزة العربية فى المؤلف ، وثمرة حبه للأدب العربى وغرامه بالديباجة العربيــة الذي حمله على ألا يدع مؤلفاً عربياً ، قديماً أو حديثاً ، سمع به واستطاع الوقوف عليه ، إلا اتصل به وأخذ منه . فهو كاتب عربى فى مؤلفه هــذا بما قرأ لا بما درس . من أجل ذلك كانت ديباجته فيه غادية لا روعة فيهــا ولا سحر ، وربما وقفت عند كثير من جمله تتبين ماتشتمل عليه من معان أبهمها الاعجام .

فالكتاب فى لغته بسيط ، وهذا لايحط من قيمته العلمية ، فانما يؤخذ مؤلفه بما أودعه من فكرة لا بما تحتى فيه من ديباجة .

ما أحببت أن أعرض فى نقدى هذا لشئ من ذلك ولكنى أحب أن أعرض لمواطن الجمال فى الكتاب معللا يضع خلال خبرتها فى نفس الكاتب .

عرفت نجيباً منذ أنشأت عروبتى ولم أزل أعرفه حتى اليوم ؛ ولأول نظرة ألقيتها عليه شربت روحه ولم أزل أشربها حتى الآن

قرأت فى شمائله الحرية فى غير أنانية ولا أثرة ، والصراحة فى غير مراء ولا صلف ، ولمست فيه الروح الوثابة والعمل الجبار ؛ قرأت فى شمائله كل ذلك ولم أزل أقرأه فيها حتى ساعتى هذه

توسمت فيه إذ ذاك النجابة ولم يكن قد أنتج بعد ، فكتابه هذا هو باكورة عمله ، وإذا كان وليد أدبه الغض وشبابه الناضر

فماذا نرقبه من أدبه الكهل؟ ثم ماذا سيطلع علينا به وقد أشرف على الأربعين سن الحكمة والنضج؟

الحرية في نجيب حملتـه على ألا يتقيد في كتابه بدين درج عليه في البيت وتلقنه في المدرسة حتى كان جزءاً من دمه الفائر ونفسه الجبارة، ولم يحل دون تحرير فكره في مؤلفه هذا هيبة المستشرقين في نفوس الضعفاء من كتابنا حتى تحامى أكثر هؤلاء إبرام ما نقض أولئك من حق أو نقض ما أبرموه من باطل.

عرفت العقيقي حراً في زياراته لي وتحدثه إلي؛ عرفته حراً في شمائله، حراً في جدله، حراً في رأيه. وها أنذا أقرأه اليوم في مؤلفه الجديد حراً في درسه وتفكيره، حراً في بحثه وتحليله، حراً في نقضه وإبرامه.

والصراحة في نجيب حملته على أن يكتب في الأدب للأدب، ويبحث في العلم للعلم، ويجهر بالحق للحق.

فاذا نقم على المستشرق لتعصبه الذي يدفعه إلى الطعن على الاسلام (مثلا) فانما ينقم عليه للحق الذي يراه دون رياء أو تزلف يتملق بهما المسلم حباً للمـال أو سعياً وراء الشهرة التي يحسبها النفر الخامل من متأدبينـا في الضجة الفارغة واللقب الـكاذب.

العقيقي صريح في كتابه إلى أبعد حد في الصراحة لم يراع معه نبي الرجعيين من قومه عليه فيا يحمل على عصبية المستشرقين لدينهم أو عنصرهم، ولا حذر انتقام الجهلاء من غير قومه فيما يصوب من حملات الغرب على الشرق.

والروح الوثابة في نجيب حملته على ألا يترك أدبياً إلا جلس إليه ولا كتاباً إلا وقف عليه، حدت به هذه الروح إلى أن يبحث ما اتصل به من علم، وأن يدرس ما استطاع درسه من فن، حتى بدا له أن يبدع فيا ينتج فولدت هذه الروح فيه فكرة الـكشف عن هذا الشعب شعب الاستشراق المبعثر هنا وهناك.

ويهجر العقيقي أصدقاءه بضعة أشهر فلا يزورهم خلالها إلا لماماً، ويمعن في البحث والتنقيب، والـكتابة والترجمة، ثم يطلع عليهم بعد عام وقد سهم وجهه وتغضن جبينه، فاذا به يتأبط كراريس تشتمل على قلب نابض بالحياة، وإذا بضربات هـذا القلب تقرع الأسماع، وإذا بهذا القرع يملأ الأفق دوياً.

يتناول نجيب في كتابه رأي المستشرق في لغة العربي أو أدبه أو خلقـه أو معتقده فيمر به في طريقه إلى الحكم على وطن المستشرق وعلى مدرسته وعلى كنيسته ثم على حكومته، فاذا توفر لديه البحث عن وطنه كيف غادره، وعن مدرسته كيف تخرج منها، وعن كنيسته كيف اعتنق دينه فيها، وعن حكومته وكيف كانت منزلته منها، استطاع إذ ذاك أن يمحص هذا الرأي فيرجعه إلى المستشرق نفسه مجرداً عن الاهواء أو إلى أحد هذه العوامل متأثراً به إذ قلما استشرق غربي دون أن يتأثر بواحد منها

وهو يثبت في كتابه أن الاستشراق غالباً مدفوع بسياسة الغرب ودينه لغزو الشرق واستعماره وقتل القومية فيه حتى تتوفر الغلبة للغرب عليه.

هذا ما أحببت أن أشير إليه من موضوعات الـكتاب ويكاد يكون أروع موضوعاته، فالشرق جد محتاج إلى مثل هذا المؤلف وما أحوجنا إلى كتاب آخر من هذا النوع يخلقه قلم العقيقي ويطلق عليه اسم (الغزاة) يعني فيه بالارساليات التبشيرية عنايته بالاستشراق

وبعد فليس لي في ختام كلمتي هذه إلا أن أعلن إعجابي بهذا الأثر، وأدعو كل عربي أديب إلى الوقوف عليه والامعان في درسه. فهل يرينا المستقبل من أبنائنا من يضرب على هذا الوتر فيحرر نفسه من العبودية بين يدي كل غربي مستشرق؟؟؟

«بيروت» الحوماني
صاحب العروبة

في قصيدة الدكتور عزام

كان في قصيدة «دمشق» للدكتور عبد الوهاب عزام التي نشرت في العدد الماضي ـ كلمات يتعذر فهمها بغير الشكل، وقد أهمل شكل بعضها ـ فنعيد هنا نشر الأبيات التي وقع فيها ذلك:

حطّ الرحال فهذا جهرةً بَردى وذي دمشق. هناك الأهل والدار

نسرٌ يرى الدَّوح منه هامة عطلا لـكنه ذنبَ الطاووس جرار

وقد وقع تحريف في الأبيات الآتية وصحتها كما يلي:

خافي المطامع طاح المنى عرم على الشـدائد والسراء ثوار

شجا فؤادي عفاء في مدارسها(١) والدهر بالناس دولات وأدوار

إني أرى المجد قد أضنى أشمته وأشرقت فيـه دولات وأمصار

(١) في الصالحية مدارس إسلامية قديمة خربة

(طبعت بمطبعة الرسالة والرواية بشارع المهدى بعمارة عجم رقم ٧)

5 me Année, No. 213

Lundi - 2 - 8 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢١٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ٢ اغسطس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد



أسبوع التـاج

كانت مصر كلها طوال الأسبوع الماضي، من صباح أحده إلى مساء سبته، فى سكرة من الطرب النشوان، وفورة من الحماسة المضطرمة. والطرب والحماسة كلمتان مسكينتان لا تقمان من حقيقة الأمر فى كثير ولا قليل. وكيف تدرك من هاتين الكلمتين وأشباههما تلك الحال العجيبة التى قامت بسكان هذا البلد الوفى أبنائه ونزلائه لمقدم الفاروق، وتتويج الفاروق، ومواهب الفاروق، فجعلت كلامهم وأنغامهم وأحلامهم هتافاً لمجده لا يفتر، ودعاء لعهده لا ينقطع ؟ !

انفعلت قلوب الناس بما أجنته للمليك الشاب من الإعجاب والحب والأمل، فعبرت عن ضوء رجائها، وحرارة ولائها، بهذه

العنوان (فاروق الأول) مكتوب على شكل التاج من صنع الخطاط محمد حسنى

الملايين من المصابيح الكهربائية ، رصعت بها وجوه العمائر والمتاجر ، وجعلت منها عقوداً منظمة على أطورة الطرق ، وأبراجاً متوجة فى بُهر الميادين ، وأقواس نصر فى مداخل الشوارع ؛ وافتن فيها الصناع فرسموا بها أشكالا تعبر عن شتى العواطف، وخطوطاً تسفر عن خالص الأدعية ؛ ثم راحوا يرقصون ويهزجون فى إشراق باهر تشمه القلوب المتهللة ، وتعكسه المدينة المتألقة . ولكن ماذا يصنع الكاتب وقد انبثق فى حسه هذا النور، وانفتح فى ذهنه هذا العالم، إذا أراد أن يمثله للخاطر البعيد، ويسجله فى صحيفة الأبد ؟ هل يملك إلا ريشة من المعدن لا تلين، وألفاظاً من اللغة لا تدل ؟ وهل اللغة مهما اتسعت موادها إلا أبعاض من صوت النفوس ، وأصداء لهتاف القلوب ؟ ماذا يقول الكاتب أو الشاعر فى ثلاثة ملايين من الناس تجردوا من هموم الحياة وأنانية الذات ، واحتشدوا فى مسالك القاهرة يَسبحون فى أمواج هذا النور المعبر ، وقد انطوي كل منهم على عالم زاخر بالأماني والأخيلة والأحاسيس ، ولا حديث لهم ولا نجوى إلا ملكهم الأغر، وطالعه الأسعد، وعهده الأغر، وخلقه الأكمل؛ هذا يذكر فى فخر حادثاً من حوادث ديمقراطيته ، وذاك يروي فى إعجاب نادرة من نوادر عبقريته ، وذلك يقص فى زهو عملا من أعمال نبله ؛ والألسنة كلها فى كل مكان أشبه بلواقط الراديو ذوات المصدر الواحد تردد الحديث نفسه بصوته وطريقته ؟

قد يحتشد الناس فى أيام الزينة ومواكب النصر بدافع الإيحاء أو الإغراء أو الفضول فيقفون عند الظواهر والأشكال لا يحسون الروح ولا يلمسون الجوهر ولا يحفلون الغرض ، ولكن مواكب التاج كانت أنساً خالصاً لكل فرد ، وعرساً خاصاً بكل أسرة ؛ ساهم فيه كل بماله (قوطاً)، وبقلبه إخلاصاً، وبسروره غبطة . وهذه هى العقدة النفسية التى تنحل أمامها قوى الكاتب قبل أن يجد لها وصفاً أو يحدد لها علة .

***

رأيت جلالة الفاروق فى حفلات التتويج عن كثب ، وفى ذهني صورة طبيعية للغلام الشابل[1] الذى يهدف للثامنة عشرة من سنيه ، فاذا رجل وقور الطلعة ، رزين الحركة ، ظاهر الأبهة ، باهر الجلالة ؛ نظرته نظرة روحه لا نظرة عينه ، وعقله عقل جسمه لا عقل سنه : فأدركت حينئذ معنى قول الشاعر الفرنسى : « إن النفوس التي تولد على دَرَج العرش لا تنتظر عبقريتُها كرور السنين » وتعليل ذلك أن الطفل الملكى متى كان سليم الفطرة تستجيب غرائزه إلى وحى العمل الذى يُهيأ له ؛ وعلمُه بأنه يهيأ لوراثة الملك يحمله على اتخاذ سَمْته وسِمَته ؛ ثم ينشأ فى جو يساعده مافيه من النظام والاحترام ومظاهر القدرة وتقاليد الأسرة على سمو المدارك ونضوج الرجولة ؛ ولا ينفك يسمع فى مجارى دمه النبيل أصوات أجداده الأمجاد تأمر وتنهى ، وتشير وتوحى، وترسم وتدل ؛ فاذا رُفع إلى العرش واستوى عليه لم يجد فى نفسه شيئاً جديداً ينكره ، ولا فى جوه مظهراً غريباً يستريبه ؛ فيسير أمره على مارسمته النشأة ، وهيأته الطبيعة ، لا تكلف ولا تعسف ولا تظاهر ولا تذبذب .

لذلك انتقل الفاروق من حال التلميذ إلى حال الملك فى سهولة أدهشت الناس فى مصر وفى غير مصر .

وليس لهذا الدهش موضع ، فان الرجل الذى يختل توازنه ويضطرب أمره ، هو الذى يتحول بغتة من العجز إلى القدرة ، ومن الخضوع إلى السلطة ، ومن الصعلكة إلى المُلك ، فيستر صغره بالكِبْر ، وضعفه بالاستبداد ، وفشله بالخديعة ؛ ثم لا يطمئن إلى حاله ، ولا يستقر فى محله، فيتملق بالظنون، ويستمسك بالدسائس، ويعتصم بالترفع ؛ ولكن الفاروق العظيم ربيب المُلك وسليل محمد على وإبراهيم وإسماعيل وفؤاد يرى نفسه طبيعياً فى موضعه ؛ وموضعه فوق الحكم وفوق الأحزاب وفوق المطامع ، فلا يمكن أن يكون إلا كما تراه . ومخايل الفاروق ودلائل الحال تؤكد أنه سيكون في عهده السعيد المجيد موئل الدستور ، وملاذ الحرية ، وحارس الدين ، وراعى الشعب ، ومرشد الحكومة فى الحيرة ، ومرجع الأحزاب فى الخلاف ؛ أما ثقافة العقل والجسم والخلق فتلك رسالته التى وكل الله إليه أداءها بالتشجيع والتشريع والقدوة .

احمد حسن الزيات

[1] الشابل: المتلئ سمنة وشباباً

السرقات الأدبية

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

سأقص على القراء حادثة أعذر من لا يصدقها ولا ألوم من يرتاب في صحتها، ولكنها مع ذلك حقيقية، وبعض الحقائق أغرب من تلفيقات الخيال. وذلك أني على أثر الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ ذهبت إلى الاسكندرية لأقضي فيها أياماً أو لأتخذ فيها مقامي – حسب الأحوال – وكنت لا أزال سقيم الأعصاب جداً. وكنا في رمضان فأفطرنا واسترحنا ثم خرجنا لنحيي الليل بالسهر كما هي العادة وكنت منشرح الصدر، ولكني لم أكد أتجاوز عتبة البيت حتى وقفت وقلت لقريبي إني محموم، فأنا راجع، لجسني فلم يجد بي شيئاً فأصررت على أنها الحمى، فرقدت وكنت لا أكاد أطيق الصهد الذي أحسه. وزال عني ذلك بعد ساعة أو اثنتين غير أني لزمت الفراش وعادني طبيب الأسرة في اليوم التالي فقال: إن هذه حمى عصبية. فاستغربت ولكني عانيت من الأعصاب ما جعلني أصدق كل شيء، وبقيت أياماً في البيت زارني في خلالها صديقي الأستاذ العقاد وترك لي رواية روسية أتسلى بها، فأكببت عليها وقرأتها في ساعات أحسست بعدها أني صرت أقوى وأصح بدناً وأقدر على المكافحة والنضال في الحياة، وأنه صار في وسعي أن أستخف بما يحدث لي سقم الأعصاب من الوهم. وعدت إلى القاهرة، ومضى عام فطلب مني بعضهم أن أترجم له رواية؛ فقلت لنفسي إني مدين لهذه الرواية الروسية بشفائي وبالروح الجديدة التي استولت علي، فيحسن أن أنقلها إلى العربية عسى أن تنفع غيري كما نفعتني. وقد كان. نقلت الرواية بسرعة، وكنت أذهب إلى المطبعة لتصحيح المسودات فيقول لي العامل أحياناً: إن الأصول نفدت، فأقعد في أي مكان وأفتح الرواية وأروح أترجم وأرمي للعمال بالورقة بعد الورقة، وكأني أدون كلاماً حفظته من قبل. ولست أذكر هذا لأباهي به ولا لأقول لكم إني رجل بارع، بل لسبب آخر سيأتي ذكره في موضعه. وفرغنا من الترجمة والطبع؛ ولم يعن الناشر بأن يبعث إلي بنسخة من الرواية ولم أعن أنا بأن أطلب أو أدخر نسخة؛ وقد نسيت أن أقول إني سميتها «ابن الطبيعة» وكان اسمها في الأصل «سَنين» وهو اسم بطلها. وليس هذا إعلاناً فقد نفدت من زمان طويل. كان هذا في سنة ١٩٢٠. وفي سنة ١٩٢٦ شرعت أكتب قصة «ابراهيم الكاتب» وانتهيت منها ولم أرض عنها فألقيتها في درج حتى كانت سنة ١٩٣٠ فخطر لي أن أنشرها، فدفعت بها إلى المطبعة، فاتفق بعد أن طبعنا نحو نصفها أن ضاعت بعض الأصول وكنت لطول العهد قد نسيت موضوعها وأسماء أشخاصها فحرت ماذا أصنع؛ ثم لم أر بداً من المضي في الطبع فسددت النقص ووجهت الرواية فيما بقي منها توجيهاً جديداً. ونشرت الرواية. وبعد شهور تلقيت نسخة من مجلة «الحديث» التي تصدر في حلب وإذا فيها فصل يقول فيه كاتبه إني سرقت فصلاً من رواية ابن الطبيعة. فدهشت وللي العذر. واذكروا أني أنا مترجم ابن الطبيعة وناقلها إلى العربية، وأن أربعة آلاف نسخة نشرت منها في العالم العربي، وإني أكون أحمق الحمق إذا سرقت من هذه الرواية على الخصوص. فبحثت عن ابن الطبيعة وراجعتها وإذا بالتهمة صحيحة لا شك في ذلك، بل هي أصح مما قال الناقد الفاضل. فقد اتضح لي أن أربع أو خمس صفحات منقولة بالحرف الواحد من ابن الطبيعة في روايتي «ابراهيم الكاتب». أربع أو خمس صفحات سال بها القلم وأنا أحسب أن هذا كلامي. حرف العطف هنا هو حرفه هناك؛ أول السطر في إحدى الروايتين هو أوله في الرواية الأخرى... لا اختلاف على الاطلاق في واو أو فاء أو اسم إشارة أو ضمير مذكر أو مؤنث... الصفحات هنا هي بعينها هناك بلا أدنى فرق. ومن الذي يصدقني إذا قلت إن رواية ابن الطبيعة لم تكن أمامي ولا في بيتي وأنا أكتب روايتي؟ من الذي يمكن أن يصدقني حين أؤكد له أني لم أر رواية ابن الطبيعة مذ فرغت من ترجمتها، وأني لو كنت أريد اقتباس شيء من معانيها أو مواقفها لما عجزت عن صب ذلك في عبارات أخرى؟ لهذا سكت ولم أقل شيئاً وتركت الناقد وغيره يظنون ما يشاءون فما لي حيلة. ولكن الواقع مع ذلك هو أن صفحات أربعاً أو خمساً من رواية ابن الطبيعة علقت بذاكرتي – وأنا لا أدري – لعمق الأثر الذي تركته هذه

الرواية فى نفسى تجرى بها القلم وأنا أحسبها لى . حدث ذلك على الرغم من السرعة التى قرأت بها الرواية والسرعة العظيمة التى ترجمتها بها أيضا . ومن شاء أن يصدق فليصدق ، ومن شاء أن يحسبنى مجنونا فان له ذلك . ولست أروي هذه الحادثة لأدافع عن نفسى فما يعنيني هذا ، وإنما أرويها على أنها مثال لما يمكن أن تؤدى إليه معابثة الذاكرة للانسان . وليست الذاكرة خزانة مرتبة مبوبة ، وإنما هى بحر مائج يرسب ما فيه ويطفو بلا ضابط نعرفه ومن غير أن يكون لنا على هذا سلطان . فالمرء يذكر وينسى . ويغيب عنه الشيء ويحضر بغير إرادته وبلا جهد منه ، ويعلق بذاكرته مايعلق وهو غير دار أو مدرك لمايحدث ، وتتزاوج الخوالج وتتوالد كما يتزاوج الناس ويتوالدون وهو غير شاعر بشيء ممـا يجرى فى نفسه من التفاعل وأثره

ولست أحب أن أجعل من نفسى قاضيا يحكم على هذا بالسرقة وعلى ذاك بالانتحال إلى آخر هذا ، وإنما أحب أن أعلل وأفسر الحالات أو الحركات النفسية التى تؤدى إلى ما يمكن أن يسمى سرقة أو اقتباساً أوالتى تغرى إنسانا بما فكر فيه غيره . ولاجديد فى تعليلي أو تفسيرى فانه قائم على علم النفس ، وإنما الجديد فيه هو التوجيه أو التطبيق ، ولا فضل فى هـذا ولا مزية له . ومن أجل ذلك أقصر هذا الفصل على الأمثلة فان المقام لايتسع لها ولما يدولى من وجوه التعليل ، وأرجو أن تتاح لي فرصة قريبة أشرح فيها منهجي ورأيي فى هذه الحالات

وقد عنى العرب بتعقب شعرائهم ، فكل شاعر ظهر له من ينخل كلامه ويغربله ويرد المعانى إلى أصحابها أى إلى الذين سبقوا إليها . والسبق في الزمن هو الذى يكسب السابق الحق في المعنى ؛ وأنا أقول المعنى لأنه لم يكن ثم موضوع للقصائد غير الأغراض المألوفة مثل المدح والهجاء والفخر والغزل وما إلى ذلك . ولما كان البيت فى الشعر العربي القديم هو الوحدة فقد صارت الأبيات المفردة هى مدار هذا الضرب من النقد ؛ فهذا أخذ معنى البيت الفلانى من فلان ، وذاك نظر إلى قول علان ، إلى آخر هذا إن كان له آخر . ولهم فى هذا الباب حكايات بعضها لاشك مختلق والبعض قد يكون صحيحاً ، وأغنى بهذه الحكايات ما يراه المرء فى كتب الأدب من أن بعض الشعراء المستهترين المستخفين بالدنيا ومافيها من مثل أبى نواس سمع شاعراً مغمورا ينشد قصيدة فأعجبه معنى بيت فيها فأخذه جهرة وقال : أروى لك هذا المعنى وأنا حى ؟ . . ومثل ما يروون من أن المتنبي كان ينكر فى حياته أنه قرأ شعر ابن الرومي ، فلما قتل وجدوا بين أوراقه نسخة خطية بالطبع من ديوان ابن الرومى وعليها تعليقات بخط المتنبي . ولافائدة من محاولة التمثيل لهذا النوع من السرقات فان الكلام خليق أن يطول بلا جدوى ومن غير أن نجيء فيه بجديد وأكثر القراء يستطيعون أن يرجعوا إليه إذا شاءوا فى كتب الأدب المتداولة . لهذا أوثر أن أسوق أمثلة مما فى الآداب الغربية مما يدخل فى باب السرقات فان الأمر فى هذه أمر موضوع يقتبس ، أو قصيدة برمتها تؤخذ من أولها إلى آخرها على طولها بالحرف الواحد . والقليلون يعنون بتعقب هذا فذكر أمثلة منه خليق أن يكون أمتع .

أشهر شعراء الاغريق هومر كما لا أحتاج أن أقول ؛ وقد قرأت ترجمتين انجليزيتين له وحطمت رأسى بهما وأعترف أنه لم يرقنى منه إلا القليل ، ولكن كنت أخشى أن أجاهر بهذا الرأى لئلا يقول عنى إخوانى إن ذوقي فاسد أو إن بى نقصاً فى الاستعداد الأدبى ؛ أما الآن فانى أستطيع أن أجهر بذلك وأن لا أخشى تهماً كهذه . على أنى لا أذكر هومر الآن لأقول رأيي فيه بل لأروى قصتين صارتا الآن معروفتين : الأولى أن الأدب الاغريقي كان فى العصور الوسطى مجهولا أو مدفوناً وكان لايعرفه إلا الرهبان الذين احتفظوا بنسخ منه ضنوا بها على النشر والاذاعة لأنه أدب وثنى ، وفيما عدا هؤلاء الرهبان لم يكن أحد يعرف شيئاً لاقليلا ولا كثيراً عن الأدب الاغريقي ، فكان من سخرية الأقدار أن الرجل الذى رد إلى العالم هومر فى القرن الرابع عشر كان سكيراً نصاباً وشريراً كبيراً ، وأن الرجل الذى حمله على ترجمة هومر كان من أبرع كتاب النهضة ، وأن الرجل الذى آلى على نفسه أن يعمل على نشر جمال الأدب الاغريقي فى العالم كان لايعرف حرفاً واحداً من اللغة الاغريقية . هؤلاء الثلاثة الذين جمعهم الحظ هم بيلاتس Pilatus وبوكاشيو Boccaccio وبترارك Petrarch . فأما أولهم فكان مغامراً يؤثر أن يستخفى لأسباب لعل البوليس أعرف بها ؛ وكان قذراً كثير الشعر دميم الخلقة ، ولكنه كان يعرف اللغة الاغريقية فجاء به

بوكا كشيو وأنزله عنده ضيفاً فبقي ثلاث سنوات . أما بوكا كشيو فمعروف مشهور وهو عندى أنبغ نوابغ الايطاليين ولـكنه كان ساذجاً وكان لايعرف قدر نفسه وكان عظيم التوقير لبترارك حتى لقد صار فى آخر حياته يخجل لأنه كتب ما كتب باللغة الايطالية العامية لا باللاتينية . وأما بترارك فقد اقتنع لسبب لانعرفه بأن المخرج الوحيد من السوء الذى يراه فى زمانه هو إحياء درس الأدب الاغريقي ، ويظهر أنه كان هناك اعتقاد بأن هذا الأدب المقبور هو القادر وحده على حل المشاكل التى كانت تواجه العالم في ذلك الزمان ، وهكذا عرف الناس هومر بعد أن قبره الزمن عدة قرون .

ومن المحقق أن هومر كان يعرف الأساطير المصرية وأنه استعان بها فى قصيدتيه — الالياذة والأوديسية — وأحسب أن كثيرين قرأوا البحوث التى نشرها الأستاذ عبد القادر حمزة وأثبت فيها — استناداً إلى ما وقف عليـه وكشف عنه العلماء بالآثار المصرية والتاريخ المصرى القـديم — أن هومر أخذ كل العقائد وكل القصص من المصريين . والمصريون كما لا أحتاج أن أقول — أسبق بآلاف السنين لا بمئاتها فقط ، وهم الذين نشروا فى العالم القديم العقائد التى لا تزال باقية إلى اليوم . وهم أول من فكر فى الروح والآخرة والحساب والعقاب . وقد ذهبت مدنيتهم ولـكن آثارها بقيت وهى على قلتها كافية للدلالة على حضارتهم . وقد نشر الأستاذ عبد القادر حمزة النصوص وأثبت منها أن هومر أخذ قصصه من مصر وأن كل مافعله هو تغيير الأسماء وقلبهـا إغريقية . وأنا أزيد على ذلك أن هيرودوت يقول عن هومر كلمة لها مغزاها ، ذلك أنه يصف عمله بأنه « تنظيم » ، ويقول عنه في موضع آخر إنه وضع « إطاراً » للقصص ، وفى موضع آخر أيضاً إنه « جمع » . ومعنى هذا أنه كان معروفاً أن هومر لم يبتكر قصصه وإنما جمعها ورتبها ونظمها . ويظهر أنه كانت هناك روايات متعددة مختلفـة وأن هومر شعر بالحيرة بينها ولم يدر أيها يؤثر : ألرواية المصرية أم الروايات المشوهة التى شاعت فى اسبارطة وأثينا وفى غيرها ؟ ولهذا اضطرب ولم يستقر على رأى فى أيهما هو البطل — هكتور أو أخيل — ويرجح بعضهم أنه لحيرته بين الروايات المختلفة أعد نصين ، واحداً ينشده على الجانب الأسيوي

والآخر ينشده على الجانب الأوربى . على أن المهم أن هومر أخذ موضوعه كله بكل ما انطوى عليه من مصر ، فلولا مصر لمـا كان هومر . وأحسب أن الدنيا ما كانت حينئذ تخسر شيئاً فقد أصبح هومر اسماً لا أكثر

وأدع التوافه مثل قول أكثر من ناقد واحد : إن الرومان مدينون بفكاهتهم للاغريق ، وإنه ما من نكتة فى الأدب الرومانى إلا وهى مأخوذة من نكت الاغريق أو لها مايقابلها عندهم ، ومثل قولهم إن « الأبولوجيا » أو الاعتذار الذى كتبه سنيكا لما أمره نيرون بالانتحار ليس سوى تقليد ضعيف للأبولوجيا التى كتبها أفلاطون عن سقراط بعد الحكم على سقراط بالموت ، ومثل قولهم إن وصف درع « إينياس » فى قصيدة فرجيل مأخوذ من وصف هومر لدرع أخيل ، وقولهم أيضاً إن خير ما فى إينيادة فرجيل منقول بالحرف من إينيوس Ennius وكاتالاس Catallus وأن القصيدة كلها فى الحقيقة ليست أكثر من مقاطيع منقولة من شعراء سابقين مثل هومر وأبوللونيوس Appollonius ورودياس Rhodias ولوسيلياس Lucilius ولوكريشلاس Lucretius وأن مكروبيوس Macrobius ضبط كل هذه السرقات ، ومثل قولهم إن الشاعر الانجليزى « مارلو » — معاصر شكسبير — انتحل أبياتاً كثيرة ترجمها عن اليونانية فى روايته « الدكتور فاوست » . أدع كل هذا لأنه كما قلت من التوافه وأثب إلى ملتون الشاعر الانجليزى المشهور ، وأعترف أنى لا أحبه وأنى ما استطعت في حياتى أن أقرأ له قصيدة مرتين . وأشهر ما لملتون قصيدة « الفردوس المفقود » وأختها « الفردوس المستعاد » والأولى لا الثانية هى التى تقوم عليها شهرته . وهذه يقول النقاد إن من المعروف أنها عبارة عن جملة سرقات من ايسكلاس ودافيـد وماسينياس وفوندل وغيرهم . ولـكنه لم يكن معروفاً أن الفردوس المفقود كله — موضوعه ومواقفه وعباراته أيضاً — مترجمة ترجمة حرفية عن شاعر إيطالي مغمور غير معروف كان معاصراً لملتون . لم يكن هـذا معروفاً حتى اهتدى إليه « نوزمان دوجلاس » فقد اتفق له أن عثر على نسخة وحيدة من رواية « ادامو كاتوتو » Adamo Caruto لمؤلفها « سرافينو ديللا

سالاندرا « Serafino Della Salandra » وهذه الرواية وضعت في سنة ١٦٤٧ .

وأنا أنقل هنا ما يقوله « نورمان دوجلاس » قال :

سأسوق الآن بلا تمهيد ما يكفي لاثبات أن الفردوس المفقود ليس إلا نقلا وترجمة لهذه الرواية

محور قصيدة سالاندرا هو ما أصاب العالم من جراء العصيان الذى أغرى به الانسان الأول . وهذا هو محور موضوع ملتون

والأشخاص فى رواية سالاندرا هم الله ، وملائكته ، والانسان الأول والمرأة الأولى والحية وإبليس وزملاؤه . وكذلك في قصة ملتون

وفى فاتحة القصيدة أو التمهيد لها يذكر سلاندرا الموضوع ويتكلم عن الله وأعماله . وكذلك يفعل ملتون

ثم يصف سلاندرا مجلس الملائكة المتمردين وسقوطهم من السماء في منطقة جرداء نارية ويسوق أحاديثهم وكيف أنهم يحقدون على الانسان ويتفقون على الاحتيال على إسقاطه ويقررون أن يجتمعوا فى الهاوية حيث يتخذون التدابير الخليقة أن تجعل من الانسان عدواً لله وفريسة لجندهم . وكذلك فى ملتون

وسالاندرا يجسد الخطيئة والموت ويجعل الموت ثمرة الخطيئة . وكذلك يفعل ملتون

ويصف سالاندرا سبق العلم الالهى بنتيجة الاغواء وسقوط الانسان وتهيئته تعالى لأسباب الخلاص . وكذلك ملتون

ويصف سالاندرا موقع الجنة والحياة السعيدة فيها . ويفعل ملتون مثله

ويشرح سالاندرا الاعجاز فى خلق العالم والانسان وفضائل الثمرة المحرمة . وكذلك ملتون

ويروي سالاندرا الحوار الذى دار بين حواء والحية ويصف الأكل من الشجرة المحرمة واليأس الذى استولى على أبوينا — آدم وحواء — وكذلك ملتون

ويصف سالاندرا فرحة الموت بما ارتكبته حواء والسرور الذي عم الجحيم والحزن الذي انتاب آدم وخروج آدم وحواء من الجنة وحزنهما وندمهما . وكذلك يفعل ملتون

ويتوقع سالاندرا مجيء المخلص وهزيمة الخطيئة والموت ويتكلم عن عجائب الخلق ويصف قتل قابيل لأخيه هابيل ويذكر الخطيئات فى الدنيا والحرب وأهوالها . وكذلك ملتون

ويصف سالاندرا الحب الذى ينطوى عليه عيسى عليه السلام والعزاء الذى يشعر به آدم وحواء حين يبشرهما الملك بمجيء المسيح ثم خروجهما من جنتهما الأرضية . وكذلك يفعل ملتون

فالموضوع مأخوذ برمته كما أثبت ذلك نورمان دوجلاس . ويقول برتون راسكو : « إن هذا ليس كل شيء ويحيل القارىء على كتاب اسمه « أولد كالابريا » — كالابريا القديمة — ويؤكد أنه يؤخذ منه أن ملتون ترجم قصة سالاندرا حرفا بحرف وأن ماليس مترجما عن سالاندرا مترجم عن غيره من الشعراء القدماء

والذى يجعل الأمر أغرب أن ملتون كان قد أعلن قبل ذلك عزمه على نظم قصة خالدة لا يسمح الناس بأن يدعوها تموت وتقبر، ويعنى بها الفردوس المفقود ، وبعد أن أعلن عزمه هذا بسط لسانه فى كل الشعراء الانجليز الذين تقدموه مثل شوسر وسبنسر وشكسبير ومارلو وجونسون ووصفهم بأنهم صناع آليون ، وانتقد هومر وفرجيل وتاسو وعاب شعرهم . ويعلل نورمان دوجلاس اهتداء ملتون إلى قصة سالاندار بأن ملتون لقيه فى رحلته إلى إيطاليا ، وأن سالاندرا يرجح أن يكون أعطاه نسخة من قصته عسى أن يعينه على ترجمتها إلى الانجليزية . ويقول إن ملتون كان له أصدقاء يراسلونه من إيطاليا وإنه قابل جروتياس Gratius فى باريس وجاليليو Galelio في فلورنسا ، وإنه يحتمل أن يكون هذان قد أعطياه نسخة من القصة لما نشرت بالايطالية . والمحقق على كل حال أن قصيدة الفردوس المفقود نسخة طبق الأصل من قصيدة سالاندرا الايطالى .

وأنتقل الآن إلى ما هو أحدث فى أثناء الحرب العظمى . لم يكن لنا عمل بعد السعى وراء الرزق إلا القراءة والاطلاع واتقاء التعرض لمكاره الاعتقال والسجن وما عسى أن يكون وراءهما . وقد وقتنى الكتب ذلك مرة وجاء القوم يفتشون بيتى وكان معهم ضابط انجليزى ، فلما دخل المكتبة وأجال عينه في الرفوف وما عليها من كتب الأدب حسن رأيه فىّ ومال إلى الرفق ، فانتهى الأمر بخير . ولكن هذا استطراد فلنرجع إلى ما كنا فيه . والذى أريد أن أقوله هو أن صديق الأستاذ العقاد أعارنى

يوماً قصة « تاييس » لأناتول فرانس فقرأتها بلهفة فقد استطاع المترجم الانجليزي أن يحتفظ بقوة الأسلوب وتحدره وبراعة العبارة وسحرها . ومضت بضعة شهور ثم دفع إلى الأستاذ العقاد رواية « هايبيشيا » للكاتب الانجليزي « تشارلز كنجزلي » فقرأتها أيضاً ، ثم سألني : ما رأيك ؟ قلت : غريب . قال : إن الروايتين شيء واحد . قلت : صحيح

والواقع أن الروايتين شيء واحد وأن تاييس مأخوذة من هايبيشيا بلا أدنى شك . وفي وسع من شاء أن يقول إن أناتول فرانس ما كان يستطيع أن يكتب — أو ما كان يخطر له أن يكتب روايته لو لم يسبقه تشارلز كنجزلي إلى الموضوع . ذلك أن تاييس في رواية أناتول فرانس هي هايبيشيا في رواية كنجزلي ، والعصر هو العصر والبلاد هي البلاد ، وكل ما هناك من الاختلاف هو أن أناتول فرانس أستاذ فنان ، وأن تشارلز كنجزلي أستاذ مؤرخ . وأنا مع ذلك أفضل رواية هايبيشيا وأراها أكبر وأعمق وأملأ للنفس وأمتع للعقل ، فما لأناتول فرانس في تاييس غير براعة الأسلوب وحلاوة الفن ، ولكن الصور في رواية هايبيشيا أتم وأصدق ، والشخصيات أكثر ورسمها أقوى وأوفى والموضوع أحفل . وفي وسعي أن أقول بلا مبالغة إنها تعرض عليك عالماً تاماً لا ينقصه جانب واحد من الجوانب ؛ أما تاييس فليست سوى لمحة خاطفة من هذا العالم

وتشارلز كنجزلي يرسم لك الحياة في تلك الفترة من تاريخ مصر بكل ما انطوت عليه ويريك النـاس والأشياء والعادات والأخلاق والآراء والفلسفات الشائعة والفردية بدقة وأمانة ، أما أناتول فرانس فيرسم لك بقلمه البارع خطوطاً سريعة تريك ماوقع في نفسه من ذلك العصر ، فهو أشبه بالمصورين الذين يجرون على طريقة الامبرشنزم أي الذين يصورون وقع المناظر في النفس لا المناظر كما هي في الحقيقة والواقع .

هذا بعض ما يسعني الآن أن أذكره وأمثال هذا كثير في الآداب الغربية ، وليس له في الأدب العربي نظير ، وأسباب ذلك كثيرة يطول فيها الكلام فلنرجئها إلى فرصة أخرى تتسع لوجوه التعليل المختلفة .

ابراهيم عبد القادر المازني

في التاريخ السياسي :

المأساة الفلسطينية
ومشروع التقسيم البريطاني
بقلم باحث دبلوماسي كبير

لما تسربت الأنباء الأولى عن مشروع اللجنة الملكية البريطانية في تقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية ، وقبل أن يذاع تقرير اللجنة أبدينا في «الرسالة» أن هذا الحل الجديد الذي ابتكرته السياسـة البريطانية لتسوية المسألة الفلسطينية لم يكن حلاً موفقاً ، وأنه لا يمكن أن يرضي أحداً من الفريقين المتنازعين

والآن وقد مضت أسابيع على ظهور تقرير اللجنة عن مشروع التقسيم ، وعرفنا إلى أي حد ذهبت اللجنة الملكية في استنتاجاتها وفي توصياتها ، وكيف استقبل العرب مقترحاتها بعاصفة من السخط والانكار المطلق لا في فلسطين وحدها ولكن في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وكيف اعتزمت فلسطين أن تستأنف النضال في سبيل حياتها وكيانها ، وكيف تغدو اليوم وشيكة انفجار جديد لا تؤمن عواقبه ، فانه يصعب علينا أن نعتقد أن الحكومة البريطانية التي أقرت مقترحات اللجنة على عجل لم تعتده في مثل هذه المناسبات الخطيرة ، ستغضي عن هذه العوامل الجديدة التي ظهرت في الميدان منـذ ظهور التقرير ، والتي لا يمكن أن تعاون على استتباب السلام المنشود في فلسطين

إن مشروع التقسيم الذي تقترحه اللجنة يمزق فلسطين شر ممزق بل هو يقضي القضاء الأخير على كيانها القومي ويخرجها من عداد الأمم والمجتمعات ذوات المميزات الخاصة ويحرمها من كل أمل في التقدم والنهوض ؛ وإن نظرة واحدة إلى الحدود المقترحة لهذا التقسيم تكفي للحكم بأن فلسطين تمحى بمقتضاه من خريطة الوجود ولا يبقى منها برسم الدولة العربية الجديدة سوى صخور وبسائط صحراوية لم يتح للعمران طيلة القرون أن يذللها وأن يستثمرها ؛ وماذا عسى أن يبقى من فلسطين العربيـة إذا اقتطعت منها كل

سواحلها وثنورها وقواعدها المقدسة وكل بقاعها الخصبة ؟ إن الدولة اليهودية التي يشير التقرير بانشائها تشمل فى الواقع كل قواعد فلسطين وثنورها التاريخية عدا ثغر يافا الذى يبقى وحده مخرجاً بحرياً للقسم الصحراوى الذى خصص للعرب ؛ أما بقاع فلسطين المقدسة التى لبثت علماً عليها طوال القرون فقد تقرر أن تؤلف منها منطقة خاصة توضع تحت إشراف عصبة الأمم أو بالحرى تحت إشراف الانتداب البريطانى ، وبذلك تجرد كل فلسطين من قواعدها التاريخية وكل ثرواتها ومواردها الاقتصادية فى مصلحة الدولة اليهودية الجديدة ؛ ومع ذلك فاللجنة الملكية تنوه فى تقريرها بأهمية هذا التقسيم بالنسبة للعرب ، وتقول لنا إنه « سيمكنهم من الحصول على استقلالهم الوطني والتعاون على قدم المساواة مع العرب فى البلاد المجاورة ، وذلك فى كل ما يؤول إلى وحدة العرب ونجاحهم وسيخلصون نهائياً من خوف تسلط اليهود عليهم ووقوع الأماكن المقدسة بيد اليهود »

على أن هذه الألفاظ المعسولة لا تغير شيئاً من الحقيقة الهائلة وهى أن مشروع التقسيم يمحو فلسطين العربية من خريطة الوجود لينشئ على أنقاضها وتراثها التاريخى مملكة اسرائيل وليحقق بذلك حلم اليهودية القديم ؛ نعم إن المساحة التى تضمها الدولة اليهودية الجديدة هي أقل مما تطمح إليه اليهودية ، ولكنها تحتوى كما قدمنا على أطيب مافى فلسطين من قواعد وثغور ، واليهودية تغدو فى هذا الحيز الضيق أقوى وأشد إيماناً بالمستقبل ؛ ثم هى مع ذلك بدء فقط ؛ واليهودية تأسف بلا ريب أن تخرج بيت المقدس من قبضتها وهى مثوى تراثها الروحى وذكرياتها المقدسة ، ولكنها تتعزى عن ذلك بخروجها من قبضة العرب أيضاً ، وكونها وهى فى يد انكلترا أقرب إلى نفوذهم ؛ ومن يدرى فقد تسنح الفرصة فيما بعد لاستردادها بطريقة من الطرق ، وبذلك يصبح ظفر اليهودية باحياء مملكة إسرائيل القديمة كاملا شاملا

والخلاصة أن مشروع التقسيم هو قرعة الفناء للأمة الفلسطينية وهي حقيقة لم يتردد العرب لحظة فى إدراكها ، ومن ثم كان رفضهم للمشروع بهذا الإجماع السريع المؤثر الذي هو عنوان الخطر القومي ، والذي تلوذ به الأمم المجاهدة فى مواقف الحياة والموت ؛ ولقد جاهدت فلسطين مذ نكبت بالانتداب والوطن القومي اليهودي فى سبيل حريتها وعروبتها ، ولم تقبل أن تكون ميداناً لهذه التجربة اليهودية الخطرة التى لم تكن تتوجها مع ذلك أية صبغة شرعية أكثر من وعد الحكومة البريطانية بمؤازرتها ، فكيف ينتظر منها أن تقبل اليوم أن تقوم فى قلبها وفى أطيب بقاعها مملكة يهودية تتمتع بصفة شرعية دولية ، تنازعها البقاء وتنذرها بالفناء العاجل بما هيء لها من أسباب التفوق السياسى والاقتصادي والاجتماعى

* * *

ومن حسن الطالع أن الأمة الفلسطينية لا تقف وحدها فى هذا النضال الذى هو بالنسبة إليها معركة الحياة والموت ، فان شقيقاتها العربيات قد فزعت لفزعها وهبت من حولها تنصرها وتشد أزرها بالقول والعمل معا ، فألقى رئيس الوزارة العراقية تصريحاته الرسمية المعروفة فى إنكار مشروع التقسيم والحملة عليه بشدة ، وفى التنويه بما تعتزمه العراق من مقاومته باعتباره خطراً لا على فلسطين وحدها ولكن على الأمة العربية بأسرها ؛ ولم يقف رئيس الوزارة العراقية عند هذه التصريحات القوية الحازمة بل قدم احتجاجه بصفة رسمية إلى الحكومة البريطانية ؛ وأيد الشعب العراقي موقف حكومته بتنظيم مظاهرات الاحتجاج فى بغداد وغيرها ؛ وحذت الحكومة السورية حذو الحكومة العراقية فى القاء التصريحات الرسمية بمعارضة مشروع التقسيم ، وفى توجيه الاحتجاج الرسمى إلى لجنة الانتداب بعصبة الأمم ، وقام الشعب السوري بمظاهرات مماثلة لتأييد فلسطين فى موقفها ؛ وقامت مظاهرات مماثلة فى الحجاز ، وما تزال عواصم الجزيرة العربية كلها تضطرم بأمواج الاحتجاج والسخط على مشروع التقسيم والعطف على فلسطين وتأييدها فى جهادها . كذلك لم تكن مصر بمعزل عن هذه الحركة وإن تكن الحكومة المصرية قد آثرت أن تعمل فى صمت وهدوء ؛ فقد أعرب رئيس الحكومة المصرية فى بيانه الرسمى بمجلس الشيوخ عن اهتمام الحكومة المصرية بالقضية الفلسطينية وأشار إلى ماجرى من اتصاله بالحكومة البريطانية فى شأنها أكثر من مرة ، وإلى أنه عقب ظهور تقرير اللجنة الملكية قد بادر باستئناف هذا الاتصال والسعى بالمسائل الدبلوماسية إلى العمل على صيانة حقوق العرب

ومصالحهم ، مؤثراً ألا تكون هذه المساعى موضع المناقشة العلنية حرصاً على مصلحة فلسطين ذاتها ؛ هذا إلى ما أبدته الهيئات السياسية والوطنية المصرية من احتجاج على مشروع التقسيم وتأييد قلبي لفلسطين .

والواقع أن قيام اليهودية فى فلسطين في مثل هذا الحشد القوى المنظم ، خطر داهم لا على فلسطين وحدها ، ولكن على العالم العربى والاسلامى كله ؛ ويزيد هذا الخطر ويذكيه أن تنتظم اليهودية على هذا النحو إلى دولة ذات شخصية مستقلة تجثم في قلب العالم العربى ؛ وهذا الخطر متعدد النواحى ، فمن الوجهتين السياسية والاقتصادية يخشى أن تكون هذه الدولة الجديدة التى لايتأتى لها البناء إلا على ماتستطيع تقويضه من صروح الأمة العربية ، مصدر اضطراب دائم فى هذا الجزء من الجزيرة العربية ؛ وخطرها السياسى على كيان الأمة العربية ظاهر لايحتاج إلى بيان ؛ أما خطرها الاقتصادى فنحن نعرف كيف تعمل اليهودية بوسائلها القوية المعروفة أينما حلت على الاستئثار بجميع الثروات والمرافق ؛ على أن هناك خطراً أشد وأفدح من قيام اليهودية فى صميم المجتمع العربى والاسلامى على هذا النحو ، هو الخطر المنوى إذا صح التعبير ؛ ذلك أن اليهودية كما يشهد تاريخها الفكرى والفلسفى تضطرم دائماً بروح الثورة والانتقاض والهدم ، وقد كان هذا الروح الثورى الهدام مبعث كثير من الحركات الثورية الهدامة الخفية والظاهرة التى قلبت أوضاع المجتمع ، وبث إليه كثيراً من عناصر الانحلال والفوضى ؛ ويكفى أن نمثل لذلك بالشيوعية التى تعتبر اليوم أخطر عناصر الهدم ، فهى من نفثات العقلية اليهودية ؛ ومذ حلت الصهيونية فى فلسطين ظهرت معها العناصر الشيوعية وأخذت تتسرب إلى مصر وسوريا والعراق ؛ وهذه العناصر الثورية الهدامة التى تحملها اليهودية معها إلى فلسطين ، تغدو إذا ما اشتد ساعد الدولة اليهودية الجديدة خطراً داهما على الأمم العربية التى تجثم فى صميمها .

والأمم العربية تقدر كلها هذا الخطر ، وكلها من وراء فلسطين فى درئه ومقاومته ؛ وقد أبدت فلسطين عزمها جلياً قاطعاً على استئناف النضال إذا لم تسمع شكايتها العادلة ، وإذا أريد أن تفرض عليها سياسة التقطيع والتمزيق بالقوة القاهرة . على أننا من جهة أخرى نعتقد أن السياسة البريطانية الفطنة لم يفتها أن تقدر ما كان لمشروع التقسيم من سوء الواقع ، ولم يفتها بالأخص أن تلاحظ موقف البلاد العربية والإسلامية الأخرى وما ينطوى عليه من دلائل لاتستطيع السياسة البريطانية أن تغفلها ؛ ومع أن الحكومة البريطانية قد وافقت على تقرير اللجنة الملكية عن مشروع التقسيم فان ذلك لايعنى أنها قد اتخذت خطتها النهائية إزاء المسألة الفلسطينية ؛ كذلك لم يتخذ البرلمان البريطانى أي قرار في شأن المشروع بالرغم من المناقشات العديدة التى جرت حوله والتى لم تخل من بعض ميول معارضة للتقسيم ، بل آثر أن يرجئ قراره حتى تنتهى لجنة الانتداب الدائمة لعصبة الأمم من بحث المشروع ، وهو الآن أمامها قيد النظر .

والخلاصة أن السياسة البريطانية لاتزال بالنسبة للمسألة الفلسطينية فى مفترق الطرق ، وهى إذا استطاعت أن تغفل اعتراضات العرب على مشروع التقسيم وإقامة الدولة اليهودية ، فانها لاتستطيع أن تغضى عن موقف الأمم العربية والاسلامية ، وهى جميعاً تؤيد فلسطين فى ظلامتها ومحنتها ؛ وانكلترا التى تربطها بالأمم العربية والاسلامية روابط صداقة متينة هى اليوم أشد حاجة منها فى أى وقت آخر إلى تأييد هذه الأمم ومحالفتها ؛ وموقع فلسطين والجزيرة العربية فى طريق المواصلات الامبراطورية أمر جوهرى بالنسبة لمستقبل الدفاع عن الهند والامبراطورية البريطانية ؛ فهذه العوامل كلها مما يحملنا على الظن بأن المسألة الفلسطينية قد تجوز تطورات هامة أخرى قبل أن يستبين المصير النهائى الذى قدر لها ؛ وللسياسة أعاجيب لاتفنى وكم سمعنا أيام اشتداد النضال بين مصر وانكلترا ، وعيد السياسة البريطانية بضم مصر إلى الامبراطورية إذا لم تخلد إلى السكينة وتقبل المصير الذى يفرض عليها ، ولكن مصر لم تن للوعيد حتى اضطرت سياسة القوة الغاشمة أن تختفى ، وأن تترك المجال حراً لسياسة التفاهم والوفاق ؛ وكل مانرجوه فى هذه الكلمة هو أن توفق الأمة الفلسطينية المجاهدة فى دفاعها المؤثر عن كيانها ، وأن يكلل جهادها بما يحقق أمانيها وطمأنينتها .

بمناسبة اشراق دولة الفاروق الجديدة

لمحات من شمس الأمس الغاربة

السلطان الغوري ومفاوضاته الدولية

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

تستقبل مصر اليوم عهدها الجديد المشرق بتولية مليكها المحبوب الذي يتربع فوق عرش القلوب ويحكم شعبه عن ولاء ثابت له في حنايا الصدور. وعهد الفاروق وان كان جديداً ناضراً يستأنف عهود المجد السابقة ويسترجع آيات العلا الغابرة فقد كانت مصر أبداً واسطة عقد الدول وجوهرة تاج الدنيا.

وإن لعهدنا الحاضر معنى خاصا في تاريخ البلاد، ونحن إذ نحتفل في هذين اليومين بتتويج مليكنا المحبوب فإنا نشهد يوما من أكبر أيام مصر وأعظمها دلالة وأحفلها ببواعث الفخر والاعتبار والسرور، وذلك لأن عهد الفاروق الجديد أول عهد يخفق فيه على مصر علم الاستقلال بعد فترة سلب الدهر منها علمها ونزع عنها تاجها. ونود هنا أن نتخطى القرون الماضية التي شهدت تلك المأساة فنطفر إلى آخر عهد كان فيها ذلك العلم عالياً مكرماً عزيزاً، لنذكر في نشوة السرور الحاضرة بعض ما كان لبلادنا من العز الغابر لنحس بالنشوتين معا نشوة الأمل الطالع ونشوة ذكرى المجد التالد.

كان قانصوه الغوري آخر السلاطين العظماء الذين حكموا مصر منذ انقرضت دولة الأيوبيين في مصر فتعاقبوا على حكمها نحو ثلاثة قرون كانت مصر فيها أقوى أمم الشرق والغرب تبسط سلطانها على الشام والنوبة وتمتد نفوذها في البحر حتى قبرص وتدين لها بلاد الشرق قاطبة بالزعامة وتتقرب اليها دول الغرب قاطبة لابتغاء ما عندها من كنوز التجارة ولتخطب مودتها في السلم ولتتقي عداوتها في الحرب، وكانت مع كل ذلك قلب المدنية التي تكدست فيها آثار العلم والفن والصناعة التي بلغتها الانسانية إلى ذلك الوقت

تولى قانصوه في مارس سنة ١٥٠١ وهو جركسي الأصل. نشأ في بيت الملك الأشرف قايتباي العظيم وما زال حتى صار أميراً من أمراء الجيش ووكلت اليه قيادة فرق الحدود المصرية في طرسوس وكليكية وملطية. فلما مات قايتباي اختاره الملك الناصر ابنه لرياسة أمراء حلب وصار من كبار الأمراء الذين كان يقود كل منهم ألف فارس في الحرب، وكانوا لذلك يسمون (مقدمي الألوف)؛ وبلغ بعد ذلك الى أكبر مراتب الدولة فأصبح دوادارا ثم وزيراً.

وحدثت عقب ذلك احداث جعلت الناس يتطلعون اليه ليجعلوه سلطاناً. ولم يرض بذلك في أول الأمر إذ كان يؤثر أن يكون أحد كبار الأمراء حتى لا يتعرض للمسئولية الجسيمة التي يتطلبها تبوء العرش. ولكن كبار الأمراء اضطروه إلى قبول التاج اضطراراً حتى قيل إنه بكى عندما عجز عن مقاومتهم ونزل مرتين عن الجواد الذي أركبوه اياه ليسيروا به إلى القلعة ليحتفلوا بتوليته السلطنة بها

ولي الغوري عرش مصر ولقب بالملك الأشرف أبي النصر. وسار في القاهرة عقب ذلك في موكب حافل يحف به الأمراء وجنود الجيش الظفر، وكان يلبس الخلعة الرسمية التي كانت عادة السلاطين أن يلبسوها وهي الخلعة التي أهداها الخليفة العباسي إلى السلطان العظيم بيبارس من قبل منذ نيف وقرنين عندما انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة عقب تحطيم التتار بغداد وقضائهم على الحكم العباسي بها.

سار السلطان قانصوه في ذلك الموكب يلبس تلك الخلعة وهي عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق من الذهب حول العنق وسيف بدوي متدل من حمائله، وحملت على رأسه المظلة الرسمية التي يعلوها رسم طير من الفضة المذهبة. وكان عمره عند ذلك نحو الستين وله لحية ضرب فيها البياض، وهو بدين أسمر اللون واسع العينين.

وكانت مصر في أيامه مركز حركة سياسية متصلة لا تنقطع لأن أحوال العالم في وقته كانت تؤذن بشر انقلاب عرفه التاريخ الحديث

كانت اسبانيا قد تمكنت من طرد العرب من غرناطة، ولم تكد مصر تفيق من تلك الهزة حتى سمعت بأن دولة أخرى مجاورة وهي البرتغال قد عرفت طريقاً الى الشرق تسير فيه السفن من بلادها إلى الهند مباشرة عن طريق البحر حول رأس الرجاء، وكانت بلاد العالم كله تتطلع الى مصر لتنظر ما هي فاعلة في هذين الحادثين وتترقب سير هؤلاء البحارة الذين هاجوا بحار الشرق ليروا أيستطيعون أن ينفذوا الحلم الذي تصوروه في محاولة القضاء على تجارة مصر. وكانت مدن أوربا المطلة على البحر الأبيض المتوسط كالبندقية تقف عند ذلك مشدوهة تنظر تارة إلى مصر

وتارة الى شبه جزيرة الأندلس ، وهي تحاول أن تحتفظ بمودة الأولى لتحتفظ بتجارتها معها وأن تحتفظ بمودة الثانية خشية على سمعتها بصفتها إحدى البلاد المسيحية الخاضعة للبابا والتى ما كان ينبغى لها أن تعادى المسيحيين فى سبيل نصرة المسلمين .

وكانت حدود مصر الشمالية تضطرب كذلك بين قوتين ناشئتين إحداهما قوة الشاه اسماعيل الصفوي فى بلاد العراق وإيران ، والأخرى قوة النزلاء العثمانيين فى بلاد الأناضول وأوربا ، فقد كان محمد الفاتح أتم فتح القسطنطينية وجعل عاصمة دولته فيها محل الدولة البيزنطية العظمى . وكان الشاه اسماعيل الصفوى قد جمع أكثر العراق وإيران فى دولة عظيمة تهدد الشرق كله بأن تكتسح بلاده وتبسط عليها مذهبها الدينى الشيعي .

وكانت دولة الصفوى أشد دول الشرق خطرا على حدود مصر لأنها كانت تتبع طريق الدعاية والخفاء فى الاغارة على البلاد التى تليها . وكانت لا تتورع عن أن تحالف المسيحيين لتساعدهم على القضاء على عظمة الدولة الاسلامية السنية الكبرى وهى مصر

فكانت القاهرة بطبيعة هذه الظروف مركزا لتيارات مختلفة بعضها مقبل من الشرق وبعضها من الغرب ، لكل منها وجهة ولكل منها لون . وسننقل هنا بعض مناظر المفاوضات السياسية التي شهدتها أبهاء الحكم عند ذلك

كانت أسبانيا تدين لملك كبير وملكة عظيمة جمعا تاجى قشتالة وأرغونة فى سبيل توحيد كلمة مسيحيي الأندلس ، وتمكنا بذلك من القضاء على آخر أثر من آثار الحكم الاسلامى الذى كان لا يزال يتحصن فى غرناطة . وبلغت شكوى مسلمى الأندلس مسامع العالم الاسلامى ولاسيما دولة مصر ذات المجد التالد . وخشى عاهلا الأندلس أن يفتح ذلك عليهما باب الجهاد الصليبي القديم ؛ وشاعت إشاعات سوداء عن عزم سلطان مصر أن ينتقم من رعاياه المسيحيين للثأر لمن وقعت عليهم مظالم أسبانيا من مسلمى المغرب .

فعوّل ملكا أسبانيا على أن يرسلا من قبلهما إلى مصر رسولا عظيم المقام فى الدولة وهو « بطرس مارتير دانجير » وسار من غرناطة مارّا بفرنسا وإيطاليا وأبحر من البندقية فى سبتمبر سنة ١٥٠١ وبلغ الاسكندرية فى ديسمبر من ذلك العام

تردّد السلطان الغورى فى مقابلة ذلك السفير ولكنه سمح له بعد لأى بأن يمثل بين يديه ، وكان ترجمان السلطان « تنجرى بردى » من أصل أسبانى فساعد على تخفيف ما كان عند السلطان المعظم من الموجدة على سفير الملكين اللذين اشتهرا باضطهاد المسلمين وإذلالهم وإيقاع أشدّ صنوف الأذى بهم .

وقابل الرسول السلطان مرارا مقابلة علنية ثم سمح له بلقاء سرّى تمّ فيه اقناع السلطان بأن مابلغه عن مظالم الحكم الاسبانى إنما هو من أكاذيب يهود الأندلس ، فان السفير أقنع السلطان المعظم أن وقعة ملكى الأندلس إنما كانت مسدّدة إلى اليهود ، وأن هؤلاء قد هاجروا من تلك البلاد وجعلوا يشنون الغارة عليها ويرمون مليكها بالظلم والعسف كذبا لإيغار صدور المسلمين وملوكهم على دولة أسبانيا الناشئة . فلم يبعد ذلك السفير من مصر إلا بعد أن كتبت له معاهدة صداقة وسلام حملها معه وغادر القاهرة فائزا فى فبراير سنة ١٥٠٢

وكانت دولة البرتقال فى هذه السنوات قد أفلحت فى تثبيت أقدامها على شواطىء آسيا وجعلت تناصب مصر العداء فى بحار الهند فأثر هذا فى تجارتها حتى خلت أسواق بيروت والاسكندرية من الأفاويه التى كانت دول أوربا تتهافت على شرائها من تجار البندقية الذين يشترونها من أسواق مصر والشام . فثارت مصر لما أصابها من خسارة فى تجارتها وفى سفن أسطولها ، وأخذت تستعدّ لمقابلة عدوان دولة البرتقال بمثله وجهز السلطان فى الوقت نفسه بعثات سياسية أرسلها للمفاوضة مع البابا والبندقية ومع أسبانيا والبرتقال ، وكانت رسالاته تنطوى على رجاء المليك المتحضر للدول الأخرى أن ترعى حقوقه وأن تقلع عن معاداته حفظا للسلام كما كانت تنطوى على تهديد المسيحية بالايقاع بما للمسيحيين فى الشرق كله من مصالح ورعايا ومعاهد . وكان أول رسول له فى هذه المفاوضات هو رئيس دير جبل صهيون واسمه « فرا ماورو دى سان برناردينو » ثم أرسل بعد ذلك ترجمانه الخاص « تنجرى بردى » . ولكن هذه الرسائل لم تفض إلى نتيجة حاسمة ، واضطر السلطان إلى أن يعلن أنه سيعمد إلى القوة والبطش للانتقام . وما كاد يعلن هـذا العزم حتى بادرت دول أوربا فأرسلت إليه سفراءها للاعتذار له وإظهار صداقتها ومودتها وأنها غير راضية عن الدول التي تسعى للاضرار بمصر أو تعمل على الكيد للمسلمين ؛

وكانت البندقية أولى الدول التى سارعت إلى إظهار المودة والصداقة لشدة الترابط بينها وبين مصر . غير أن الظروف أساءت إلى هذه

الصداقة الوراثية بين البندقية ومصر وكادت تصل بها إلى القطيعة والعداوة ، إذ اتفق أن ضُبط في الشام في شهر مايو سنة ١٥١١ . رجلان أحدهما من جزيرة قبرص واسمه « نيقولان سوريه » وكانا آتيين من الشرق من بلاد الشاه اسماعيل الصفوى يحملان خطابين موجهين من الشاه إلى حكومة البندقية معنونين إلى « توماسو كونتاريني » قنصل البندقية في دمشق و « بطرس زين » قنصلها بالاسكندرية . وكان السلطان المعظم قانصوه يرى في الشاه الصفوى عدوا خطيرا . فلما رأى هذه المراسلة بينه وبين البندقية زاد حنقه على تلك الصديقة ورأى أنها تخادعه وتتظاهر بمودته في حين أنها تراسل عدوه الأكبر ، وأوشك الأمر أن يفضى إلى عداوة صريحة بينهما

فأمر السلطان بالقبض على القنصلين ، وقدما إلى القاهرة وسجنهما بها وعزم على أن يعامل رعايا البندقية معاملة رعايا الدول المعادية فيقبض عليهم ويصادر أملاكهم وأموالهم ويقطع علاقته بدولتهم إيذاناً بالعداوة الصريحة .

وكانت فرنسا والبندقية تتنافسان على النفوذ في الشرق ، فلما رأت فرنسا هذا التوتر في علاقة مصر بالبندقية سارعت إلى إرسال سفير إلى السلطان ليوثق معه روابط المودة وكان هذا السفير اسمه « أندريه لرو »

ولما رأت البندقية أن فرنسا تسعى هذا السعى في تلك الأزمة لم ترض أن تترك الميدان لمنافستها خشية ما يعود عليها من الضرر لو تغيرت سياسة مصر نحوها ، فبادرت بإرسال سفير كبير لمقاومة مسعى فرنسا وكان سفيرها هو « دومنيكو تريفيسان »

وهكذا شهدت القاهرة في سنة ١٥١١ معركة سياسية دولية لم يكن فيها سفراء فرنسا والبندقية هم المتنافسين على صداقة سلطان مصر فحسب ، بل كان إلى جانبهم سفراء آخرون بعضهم مسيحيون كسفراء (جورجيا) البعيدة ، وبعضهم مسلمون كسفراء الترك العثمانيين وسفراء شاه إيران .

ولعله من المناسب هنا أن نصف استقبال سلطان مصر لسفير البندقية مستمدين تفاصيل ذلك من كاتب صحب ذلك السفير .

قال شاهد العيان يصف رحلة السفير ومن معه إلى مقرها بالقاهرة ويصف لقاء السلطان لهم :

« نزلنا ببولاق ثم سرنا إلى المنزل المعد لنا في بقعة من أحسن بقاع القاهرة . وكان المنزل آية في الفخامة والرواء لا يستطاع أن يوجد مثله في بلد من البلدان . قيل إن نفقات بنائه بلغت مائة ألف دوقية . وكانت جدرانه مغطاة بالنقوش موشاة بالذهب وكانت أرضه مغطاة بالفسيفساء وأبوابه مطعمة بالأبنوس والعاج .

« وفي الغد أتى إلى السفير هدية من السلطان (وهنا وصف ما تحتوى عليه الصور) وفي يوم الاثنين ذهبنا إلى المقابلة الأولى لصاحب العرش وكان نظام المقابلة على النحو الآتى :

« جاء المهمندار والترجمان إلى السفير في بيته ليصاحباه ، وركب جواده ومن حوله معيته بعضهم يركب خيلا وبعضهم يركب بغالا . وسرنا في المدينة حتى بلغنا القلعة فنزل السفير ومن معه وصعدوا سلماً ثم دخلوا من باب يحرسه جماعة كبيرة من الجنود ثم دخلوا من أربعة أبواب واحداً بعد الآخر . وكان عند آخر باب منها فرقة موسيقى تصدح بالأنغام . ثم مررنا بعد ذلك بثلاثة أبواب أخرى حتى دخلنا إلى فناء صغير تحيط به حوائط قد علقت عليها أنواع السلاح والدروع وإلى جوانبها نحو خمسين رجلا يعملون في صناعة السلاح المختلفة ، وقد علمنا أن هؤلاء العمال إنما أعدوا قصداً لا طوعاً لصناعة السلاح والاستعداد للحرب فانا ما كدنا نمر حتى ذهبوا جميعاً وتفرقوا .

« وأخيراً رأينا السلطان في فناء القلعة الفسيح جالساً على مسطبة علوها نحو خطوتين فوق الأرض تغطيها قطيفة خضراء وعلى رأسه قلنسوة كبيرة يعلوها قرنان عاليان يبلغ كل منهما نصف ذراع . وكان يلبس قفطاناً من القطن الأبيض فوقه جبة من قماش لونه أخضر قاتم . وكان يجلس مربعاً ساقيه كما يجلس الخياطون عندنا وعن يمينه سيفه ودرعه وكانا لا يفارقانه أبداً . وكان عن يمينه على مسافة قليلة نحو عشرين من الأمراء اللكيين الذين يقود كل منهم ألفاً في الحرب وقوفا ، وكلهم يلبسون الأبيض وعلى رؤوسهم قلانس مثل قلنسوته ، وكان سوى هؤلاء عدد كبير من الساعدين كلهم وقوف يملأون فضاء الفناء .

« وتقدم السفير حتى إذا ما وقعت عينه على السلطان رفع قبعته وانحنى إلى الأرض فلمسها بيديه ثم رفعهما إلى شفتيه وجبهته دلالة على مقدار احترامه للسلطان العظيم ، ثم سار مع من معه نحو خمسة عشرة خطوة وحيا مرة أخرى ، وكان عند ذلك قد صار

على نحو عشرين خطوة من السلطان . وكانت هذه المسافة تغطيها الأبسطة ولم يكن من المباح السير فوقها ، فحيا السفير تحيته الأخيرة وأخرج من صدره خطاب (الدوج) مكتوباً على ورق بنفسجي وقد ختم بخاتم من الذهب ولف برباط تدلى منه دلايات من الذهب ، وقبل السفير الخطاب ثم وضعه على رأسه وسلمه للمهمندار فناوله للسلطان ففتحه ثم أرجعه فقرىء له ، فلما انتهى من سماع ما فيه سأل السفير عن حال الدوج وصحته ، ولما انتهى السفير من الجواب حيا وتراجع إلى الوراء خارجاً هو ومن معه .

وقد تعددت المقابلات بعد هذه المقابلة الأولى ، كانت إحداها في بهو فسيح يقول فيه شاهد العيان : « وهذا البهو لا يمكن أن يقاس به بهو التشريفات الكبير في قصر الرياسة العظيمة في البندقية وذلك لعظمته وجماله ونفاسة نقوشه وأثاثه »

وكانت المقابلة الثالثة في ساحة الرميلة المجاورة للقلعة في حديقة خاصة بالسلطان في ذلك الميدان الفسيح .

وكانت المقابلة الرابعة في هذا الميدان نفسه ولكن في غير الحديقة وكان السلطان هذه المرة جالساً على منصة إلى جانب سور القلعة وكان يلبس ملابس كالتي كانت عليه في المقابلة الأولى ، وكذلك كانت هيئة الاستقبال كالهيئة السابقة . وتقدم السفير حتى صار على أربع خطوات من السلطان ثم وقف هو ومن معه وجعل يتكلم مع السلطان بصوت عال بوساطة ترجمانه ، وجاء في أثناء الاجتماع السيد « بطرس زين » قنصل البندقية في دمشق وهو المتهم بخيانة السلطان وكان يلبس ثوباً من قطيفة قرمزية .

واستمرت المقابلة ثلاث ساعات كان السفير في أثنائها واقفاً يحمل قبعته في يديه وكان موضوع الحديث علاقة البندقية بدولة الصفوي ، وكان السلطان يتكلم غاضباً في لهجة قاسية ولهذا كان السفير يبذل الجهد لكي يهدىء من غضبه ، وكان كل همه أن يظهر براءة حكومة البندقية من كل سعي ضد مصر فنظر السلطان إلى السفير وصاح به قائلا : —

« أنا أعلم أن حكومة البندقية بريئة من السعي ضدي ولكن هذا الكلب (مشيرا إلى قنصل البندقية بدمشق) يعمل على خيانتي وقطع علاقتي بدولتك » وكان السلطان وهو يقول ذلك يضطرب أشد الاضطراب من الغضب فاستمر السفير في خطابه يحاول الدفاع عن دولته . فصاح به السلطان قائلا : « أيها السفير — هل تعلم كيف سارت الأمور ؟ إذا كنت قد أتيت سفيرا للصدق فرحبا بك ، وأما إذا كنت قد حضرت لتدافع عن الخونة وعن أعدائي فلا مرحبا بك . فاترك بلادي وخذ معك مواطنيك من تجار بلادك »

فعاد السفير يلاطف في حديثه وقال : « إنني أجهل ياسيدي السلطان ما كان من هذا القنصل . ولكني أؤكد براءة دولتي وصفاء مودتها لكم . فإذا كان عندكم ما يدل على كذب قولي فأنا مستعد أن أرهن حياتي على صدق ما أقول . وأما إذا كان القنصل قد أضر بمولاي بجهله وغباوته ، ولا أستطيع أن أسلم بأنه يقصد إلى ذلك قصدا ، فإن حكومة بلادي كفيلة بعقابه على جرمه الشنيع ؛ فأسلمه لي لأعود به إلى بلادي ليلاقي بها جزاءه بعد تحقيق دقيق . وسيلاقي من الجزاء ما يعلن للعالم كله صدق مودتنا لكم وتعلقنا بكم »

ثم قام السفير ووضع بيده غلا حول عنق القنصل المتهم . ولما انتهت المقابلة عاد السفير راكباً واقتيد القنصل سائرا على قدميه حتى وصل إلى البيت الذي كان السفير نازلا فيه .

وفي هذه المقابلة تناول الحديث موضوع الجزية المفروضة على قبرص وكانت البندقية تدفع تلك الجزية كل سنة لمصر .

وتعددت المقابلات بعد ذلك وكانت مقابلات خاصة بلغ عددها سبعا ، وفي المرة الأخيرة استأذن السفير السلطان في السفر فأذن له وخلع عليه خلعة من القطيفة المحلاة بالفراء حول رقبتها .

وكان نجاح ذلك السفير في هذه المفاوضات عظيما فإنه استطاع أن يحصل لدولته على معاهدة صداقة صريحة جدد بها عهود المودة الأولى .

وهكذا بقيت مصر مركزا عظيما للتوازن السياسي والاقتصادي بين الدول يقصدها الجميع ويتقرب إليها الجميع إلى أن أراد الله أن تفجعها دولة شرقية في استقلالها وعظمتها — تلك الدولة التي كانت مدينة لمصر أكبر دين في نشأتها وتقدمها — وهي الدولة العثمانية التي لولا حماية مصر لها في نشأتها ووقفاتها الكريمة في الدفاع عن المدنية الاسلامية أمام هجمات تيمور لما كان لها في العالم وجود .

ولكن إذا كان القضاء قد قدر لها أن تفقد استقلالها عند ذلك فقد شاء كذلك أن يعود لها ذلك الاستقلال عزيزا مجيدا لتعيد إن شاء الله سيرة عظمتها ولتستأنف قصتها في القيام برسالة المدنية والسلام في العالم الجديد .

محمد فريد أبو حديد

تأملات فى الأدب والحياة

للأستاذ اسماعيل مظهر

فى اللغة العربية :

من المشكلات العويصة التى تواجهها اللغة العربية فى هذا العصر ، مشكل قلّما انتبه له المشتغلون باللغة ، لأنه يتعلق بموضوع لايمكن يوماً ما أن يكون ذا علاقة بشئون الحياة العامة تلك الشئون التى يوجه لها الناس عادة معظم اهتمامهم ، ويصرفون فيها أكثر مجهودهم ، ويوجهون نحوها أخص عنايتهم .

ذلك بأن الموضوع الذى سنتكلم فيه له علاقة بنواح علمية صرفة ، قلما يحتاج إلى النظر فيها غير العلماء المختصين ، ونذر أن يحتاج إليها كاتب أديب ، أو شاعر مستجدد أو مستقدم . هذا بالرغم من أن أفق الأدب قد اتسع مداه ، وتصور الشعر قد تعالى إلى أسمات لم يفكر فيها الأقدمون .

أما المشكل فينحصر فى وضع أسماء عربيـة لأفراد الحيوان والنبات تعين الأشخاص والطبقات المختلفة بما فيها من الفصائل والعشائر والمراتب والأجناس والأنواع . ولقد كثر الجدل حول هذا الموضوع ولم يستقر الرأى فيه على شئ يصح الأخذ به ؛ فان لكل رأى من الآراء رأياً يناقضه ، ولكل أسلوب من الأساليب التى قيل بها أسلوباً ينابذه ، والأمر فوضى لا ضوابط له ولا حدود ، يتنحيها المترجم أو واضع الاصطلاح ، حتى يأمن أن يخرج له ناقد برأى جديد يسفه ماذهب إليه . وكل مالا حدود له ، لاعلم فيـه . فالعلم أول شئ حدود وضوابط ، هى أشبه بالمنطق عند القدماء . ومنطق العلم من شأنه البيان والتعيين فان ماهو مدخول بشك ليس من العلم الثابت فى شئ . فما بالك بمسألة علميـة ، كالتى نحن بصددها ، لم يتفق باحثان على قاعدة واحدة يمكن أن تتخذ أساساً للنظر فيه ؟

ظلت العربية واقفة وعجلة الزمان من حولها تدور ، وتسارع دوراتها فى خلال القرنين الفارطين ، حتى بعدت الشقة بين الحياة الجديدة ومطلوبات العلوم والفنون ، وبين اللغة العربية ، حتى أن الفرق ليروع كل واقف على حقيقة الهوّة التى تفصل بين العلوم والآداب ، وبين قدرة اللغة العربية على تأدية مدلولات مصطلحاتها فى كلمات أصيلة مضرية الأصل أو صحيحة الاشتقاق .

ولقد انحصر الخلاف بين الناظرين فى هذا الموضوع فى نقط ثلاث : الأولى القول بالتعريب ؛ والثانية القول بالنحت ؛ والثالثة القول بالاشتقاق . ولا بد من الكلام فى كل نقطة من هـذه النقط لنظهر ماوراءها من مناحى القوة والضعف ؛ حتى نخلص فى النهاية برأى ، آمل أن أكون قد وفقت فيه .

أما القول بالتعريب فرأى الذين يريدون اختصار الطريق وأخذ الأمر بنواصيه الظاهرة ، دون خوافيه . ولا شك فى أن العرب قد نزعوا هذه النزعة ، وجنحوا هذا الجنوح . ويريد القائلون بالتعريب أن يتخذوا مما عمل العرب ركيزة يرتكزون عليها تعززاً لرأيهم فيه . غير أن هؤلاء لم يفطنوا إلى أشياء من أوجب الواجبات أن تكون دستور القول فى مثل هذا الأمر . فالعربى أول شئ قد عرب وفى نفسه سليقة العرب وفى لسانه فصاحتهم وفى لثته بلاغتهم ، وهذا أمر يتطلب منا الحكم في مَن منّا يمكن أن يكون ذا سليقة عربية أو ذوق عربى يقارب ذوق الأقدمين أصحاب اللغة ؟ هذا شئ . وهنا لك شئ آخر فإن العربى لم ينزع إلى التعريب إلا مكرهاً ، بدليل القلة النادرة فى ماورد من الألفاظ المعربة مقيسة على الألفاظ العربية الأوزان الصحيحة الاشتقاق . وهذا يدل على أن قاعدة العرب كانت الاشتقاق على الصيغ التى كان يرى العربى أنها أصلح لأداء المراد . وهذا أمر له من الشأن مالم يفطن له الأكثرون . ذلك بأنى أعتقد أن العربى لم يزن ما اشتق من الأسماء خبط عشواء ، وإنما راعى فى اشتقاقها سليقة خاصة به . وبعد هذا وذاك ينبغى لنا أن نعرف أن التعريب ليس من السهولة بحيث يتصور الداعون إليه ، بل إن من أسماء الحيوان والنبات أكثرية مطلقة يفضل العرب أن يصوغ لها اسماً عربياً كائناً ماكان على أن يعربها فتكون غليظة غلظ الجبال ، لندرة مايوافق تركيب حروفها جرس تركيب الحروف العربية من حيث المخارج وتلاؤم ذلك فى الألفاظ العربية .

على أن جملة هذا القول لا تغنى عن التصريح بأننا فى حاجة إلى التعريب ، ولـكن بقصـد وقدر معلوم ، على أن نتقيد في

التعريب بقواعد، أخصها أن يكون المُعَرَّبُ على وزن عربي من الأوزان قياسية أو سماعية حتى يلائم جَرْسُه جَرْس الكلمات العربية، وحتى لا يحس منه المتكلم بالعربية نفوراً أو يجد فيه تنافراً مع ما تأتي من صيغ نعته الكريمة.

ومع القول بأننا في حاجة إلى التعريب، ينبغي أن نلحظ أن لجوءنا إليه إنما تدعونا إليه ضرورة قصوى يقف عندها جهدنا في البحث والاستقصاء وتقليب كافة الأساليب بكامل وجوهها.

ننتقل من هذا إلى الكلام في رأي يقول به المؤيدون لنظرية التعريب إطلاقا، وبلا قيد. هم يقولون إن أسماء الحيوان والنبات لغة علمية عالمية، لا ينبغي لنا أن نزايلها بوضع الفاظ أو مصطلحات عربية تقصينا عن جو العلم. وفي هذا القول وجوه من الضعف ووجوه من القوة. ذلك بأن القائلين بهذا الرأي قد فطنوا إلى حقيقة وغابت عنهم حقائق كثيرة، لم يجعلوا لها وزنا في كفتي الميزان الذي اتخذوه وسيلة للحكم في موضوع من أدق الموضوعات التي تتصل بحياة اللغة العربية.

أما الحقيقة التي لم تغب عنهم، فقولهم بأن أسماء الحيوان والنبات لغة عالية. وهذا ما ليس إلى نكرانه من سبيل. أما الذي غاب عنهم فحقيقة ذات علاقة شديدة بالحقيقة التي لم تغب عنهم. ذلك بأن أسماء الحيوان والنبات لغة عالية في اللغات الأعجمية أي في اللغات «الاندوجرمانية»، وليس في اللغات السامية. ولا أظن أن هذا الفارق ضئيل بحيث لا يعتد به، بل على العكس من ذلك أعتقد أن ذلك الفارق من أكبر الفوارق التي تحفزنا إلى القول بأن أسماء الحيوان والنبات إن كانت عالية في اللغات «الاندوجرمانية»، فلن تكون بالنسبة للغات السامية إلا أسماء غريبة لا تمت اليها بأي سبب من الأسباب.

أضف إلى ذلك أن جهادنا في سبيل اللغة العربية ينبغي أن يتجه متجهاً واحداً، هو أن تصبح هذه اللغة قادرة على الاستقلال بمصطلحاتها العلمية والفنية والأدبية: بمعنى أنها تصبح لغة العلم ولغة الأدب ولغة الفن في مدارسنا ومعاهدنا بحيث نستطيع أن نؤدي بها أغراض المعرفة من غير استعانة بلغة أخرى. ولنفرض مثلاً أننا أردنا أن ندخل طرفاً من علم الحيوان في كليات الأزهر فهل يمكن لنا أن ندخله من غير أن تكون اللغة العربية تامة القدرة على أداء المعاني والأسماء الضرورية لدرس هذا العلم الكبير

في وسط لا علاقة له بغير اللغة العربية؟ وكيف تصبح اللغة العربية وافية بمطالب العلوم والفنون، ما لم تكن تامة الوسائل لاداء أغراض العلم لطلاب لا يعرفون غير العربية؟ وهل من الممكن بعد هذا أن ندرس هذا العلم ونحشو العبارات العربية الصريحة بالفاظ يونانية ولاتينية، لا ينطقها أهلها الأصليون في بعض الأحيان إلا بصعوبة؟ وليجرب معي بعض حضرات طلاب الأزهر قراءة الجمل الآتية:

إن «الأورنيترونكهوس پارادوكس» حيوان ثديي بيوض يعيش في أوستراليا؛ والأنثريكوس طروغلوديطس حيوان من البرمات يعيش في أفريقية؛ والأرخوپتريكس طائر منقرض!

على هذه الصفة تكون عبارات علم الحيوان في العربية، إذا أردنا أن نلزم التعريب الحرفي الذي يوافق اللغة العالمية في اللغات «الاندوجرمانية» (الهندية الجرمانية). ولعمري كيف يستطيع عربي لا صلة له باللاتينية واليونانية أن ينطق هذه الكلمات الأعجمية المنحوتة من مقاطع متباينة وأهجية متنافرة نطقاً صحيحاً كما تنطق في لغتها العالمية التي يتغنى بها فئة من ذوي الرأي لم يفطنوا إلى الصعاب التي تكتنف نظريتهم، بل إنهم لم يحاولوا أن يفطنوا لها

* * *

ننتقل الآن إلى رأي القائلين بالنحت، وهم ولا شك أقل من القائلين بالتعريب. أما النحت فباب يلحقه اللغويون بفقه اللغة، ولكل من مشهوري اللغويين رأي فيه. فمن رأي السيوطي أن معرفته من اللوازم. وعرفه ابن فارس في كتابه «فقه اللغة» فقال: إن العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة، وهو جنس من الاختصار واستشهد بقول الخليل:

أقول لها ودمع العين جار ألم يحزنك «حيعلة» المنادى

والحيعلة من قول «حيَّ على». قال ابن فارس:

«وهذا مذهبنا في أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف فأكثرها منحوت، مثل قول العرب للرجل الشديد «ضِبَطْر» من «ضبط وضبر»؛ وفي قولهم «صَهصَلق»، إنه من «صهل وصلق»؛ وفي «الصِّلدِم» إنه من «الصلد والصدم» وقد ذكر ابن فارس مذهبه هذا مفصلاً في كتابه مقاييس اللغة.

ومن كلام ياقوت في معجم الأدباء:

« سأل الشيخ أبو الفتح عثمان بن عيسى اللطى النحوي ، الظَّهيرَ الفارسيَّ عما وقع من ألفاظ العرب على مثال «شقحطب» فقال : هذا يسمى من كلام العرب المنحوت ، ومعناه أن الكلمة منحوتة من كلمتين ، كما ينحت النجار خشبتين يجمعهما واحدة . فشقَحْطب منحوت من « شقَّ وحطب » . فسأله اللطى أن يثبت له ما وقع من هـذا المثال إليه ، ليعوِّل فى معرفتها عليه ، فأملاها عليه فى نحو عشرين ورقة من حفظه ، وسماها كتاب « تنبيه البارعين على المنحوت من كلام العرب » اهـ . وهذه الوريقات مفقودة على الأسف .

وحكى الفرَّاء عن بعض العرب « معى عشرة فأحْدهنَّ لى » أي صيرهن أحد عشر اهـ .

وقد ذهب اللغويون إزاء النحت مذاهب . فمنهم فئة لا تقول برأى ابن فارس . إذ لو صح رأيه إذنْ لأصبح النحت كثيراً فى اللغة ، وبذلك يمكن القياس عليه ويطَّرد فى كثير من الأحوال ومنهم فئة تقول برأيه . ولا شك فى أن قليلاً من التأمل يرجح قول ابن فارس فى أن كل الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف أكثرها منحوت . وأقرب مثل على هذا كلمة « قُرْدُوح » أى القرد الكبير فهي بلا شك منحوتة من « قَرّ » و « دَوْح » والقرود تقر فى الدَّوح ، فسمى العرب واحدها قُرْدُوح ، وما كان أكثر تسامحهم ، ما دام جرس الكلمة جارياً على الذوق العربى السليم .

وسواء أكان النحت أصلاً من أصول الوضع الصحيحة فى اللغة أم كان غير ذلك ، فان الرأى غير متفق على اتخاذ النحت أساساً من الأسس التي يلجأ إليها فى وضع الألفاظ الاصطلاحية الجديدة . ذلك بأن القول بأن اللغة العربية لغة اشتقاق ، وليست لغة نحت ، يجعل الذين يريدون التوسل بالنحت إلى وضع المصطلحات الحديثة يتريثون طويلاً . ولكنا بالرغم من هذا نعرض الأسئلة الآتية :

أولاً — أيعتبر النحت قياسياً أو سماعياً ؟ وما حد القياس والسماع فيه باعتبار أقوال فقهاء اللغة ؟

ثانياً — أيجوز أن نجرى على النحت فى وضع المصطلحات التى نعجز عن ترجمتها أو تعريبها تعريباً يفى بحاجات اللغة ؟

ثالثاً — أيفسد النحت اللغة العربية إذا روعى فيه (١) أن يكون المنحوت على وزن عربى نطق به العرب (٢) ألا يكون نابياً فى الجرس عن سليقة اللغة (٣) أن يؤدى حاجات اللغة من إفراد وتثنية ونسب وإعراب

رابعاً — أيجوز أن تنحت ألفاظ على غير وزن عربى عند الضرورة ، أم تقتصر على أن يكون المنحوت على وزن عربى إطلاقاً

خامساً — هل كون اللغة العربية لغة اشتقاق فى بنيتها ، ينافى النحت مع مراعاة شروط خاصة كالتى سبق أن ذكرناها ؟

سادساً — إذا أضفنا إجازة النحت إلى الاشتقاق ، أيكون هذا توسيعاً فى اللغة وتيسيراً ، أم تضييقاً وتعسيراً ؟

* * *

وقبل أن نمضى فى شرح ما نراه حول هذا المشكل الكبير ينبغى لنا أن نلقى نظرة فى التعريب والنحت . فنقول إنهما فى أكثر الأحوال عسيرين كل العسر ، شاقين كل مشقة ، جامدين كل جمود ، وبخاصة إذا كثرت مقاطع الكلمات الأعجمية المراد تعريبها أو تعددت حروفها إلى ما فوق الخمسة ، أو تكونت من أكثر من لفظ كما فى أسماء الأنواع من النبات والحيوان . وكذلك فى النحت فقد نجد أن حروف الكلمتين المراد نحت كلمة منهما قد تنافرت حتى ليتعذر نحت كلمة منهما توافق الجرس العربى .

على أننا بالرغم من كل هذا ، وبالنظر إلى كثرة الأسماء التى نريد إيجاد مقابلات لها فى العربية ، وهي تعد بالملايين ينبغى توسيعاً لأقيسة اللغة وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون والآداب أن نعتبر التعريب والنحت أصلين من أصول الوضع فى اللغة ، على أن نحذر من التمادى فيهما كل الحذر ، وألاَّ نلجأ إليهما إلا عند الضرورة القصوى ما دامت أوزان اللغة وصيغها تواتينا بحاجتنا من الأسماء التى نطلبها .

* * *

بقى علينا بعد ذلك أن نعرف هل تواتينا اللغة العربية بما نحتاج إليه من الأسماء ؟ إن لى فى هذا رأياً جديداً لعلى أوفق إلى تبيانه فى الأسطر التالية .

جمدت اللغة العربية بتعنت اللغويين ، كما جمدت الشريعة الاسلامية بتعنت أصحاب المذاهب . فان القول بقياسية الصيغ وسماعيتها ، بنسبة الكثرة والقلة ، بالرغم من أنها صيغ سمعت من أعراب أصلاء ، قد أصاب اللغة بجمود لم يبلغ الشعور بقسوته بقدر ما بلغ فى زماننا ، ولم يأنس جيل من أبناء العربية بقدار

أثره فى تقييد أساليبهم العلمية بقدر ما أنس جيلنا هذا . فإن أكثر الصيغ التى وردت منها أسماء النبات والحيوان صيغ سماعية ، ومعنى أنها سماعية أنه ممنوع عليك أن تقيس عليها وأن تصوغ على غرارها أسماء جديدة تدل على حيوان أو نبات لم يذكره العرب ، على قلة ما تستطيع أن تعين من أشخاص الحيوان والنبات التى ذكرها العرب لضعف التعاريف أو فقدانها كلية .

فلم يبق أمام الواضعين للأسماء الجديدة إلا الصيغ القياسية ، وهى قليلة مقيسة بالعدد الوافر الذى ورد فى كلام العرب من الصيغ التى اعتبرها اللغويون سماعية . وهذه القيود الثقيلة التى لا مبرر لها إلا مسألة إحصائية قيدت اللغة وقيدت الواضعين بقيود وصفدتهم بأغلال ، هى السر الوحيد فيما يقال عن عجز اللغة العربية عن مجاراة اللغات الأخرى فى الأسماء الدالة على الأشياء الحديثة ، ذلك فى حين أن إجازة الصوغ على تلك الصيغ التى قيل إنها سماعية يفتح على اللغة أبواباً واسعة تجعلها تفوق كل لغات الأرض فى القدرة على الوضع اللغوى الأصيل الذى لا يخرج عما اتبعه العرب من الأصول التى جروا عليها فى بناء لغتهم المجيدة .

ولا أريد أن أذهب هنا مذهب القائلين بأن كل ما قيس على كلام العرب ، ويقصد بهم العرب الأصلاء إلى نهاية القرن الثالث الهجرى ، فهو من كلام العرب ، وعلى رأسهم الامام ابن جنى ، على ما أرى فى رأيه من رجحان ، بل أريد أن أتواضع قليلا فأقول إن الظرف العلمي يحفزنا إلى التسليم ، على الأقل ، بالقول بأن كل الأوزان التى صاغ منها العرب أسماء الحيوان والنبات قياسية ، بصرف النظر عما ورد منها قلة وكثرة فى كلام العرب . فاننا بذلك نوسع حقيقة من أقيسة اللغة ، وتقل حاجتنا إلى التعريب والنحت ، حتى لأكاد أومن بأن حاجتنا إليهما تنعدم تقريباً ، وإنى لأفضل اسماً مصوغاً على صيغة نطق بها العرب ، مع مراعاة الشروط التى اتبعوها فى الوضع والتى سأشرحها بعد ، على اسم معرب أو منحوت مهما حسن جرسه فى السمع . فاننا بذلك نحافظ على سلامة اللغة ونكون قد أمنَّا التطوح باللغة فى مهاوى الفساد الذى سوف يؤدى إليه التمادى فى التعريب بالجملة ، إذا اتبعنا رأى بعض المتطرفين الذين لم يتذوقوا بعد للغة العرب طعما على أن العربى لم يجر فى وضع الأسماء على غير قاعدة ، بل إنه اتبع قاعدة أوحى إليه بها طبيعة الظرف الذى أحاط به فى مختلف البيئات التى عاش فيها ، وساعدته سليقته على تطبيقها . فانك إذا تأملت الأمر بعض الشيء ، ألفيت أن العربى كان ينظر فى الشيء فيلحظ فيه كثيراً من الصفات ، فاذا غلبت فى الشيء صفة صاغ له اسماً مستمداً من اللفظ الذى يدل على هذه الصفة والأمثال على ذلك كثيرة لا تحصى . ولا بأس من أن أورد هنا بعضاً منها .

الإِسْليح : نبات ؛ قال أبو حنيفة الدينورى : واحدته إسلحة طوال القصب ، فى لونه صفرة تأكله الابل . وقيل هو عشبة تشبه الجرجير ، وينبت فى حقوف الرمل ، والأولى أكثر (ابن سيده) . وقيل هو نبات سُهْلى ينبت ظاهراً ، وله ورقة رقيقة لطيفة وسنيفة محشوة حباً كحب الخشخاش . وهو نبات مطر الصيف يُسلِح الماشية (ابن خالويه واللسان) اهـ . فأخص صفة لحظها العربى فى النبات أنه يسلح الماشية أى يسهل بطونها ، فسماه الاسليح

الرَّتَم والرَّتيمة : قال أبو حنيفة : الرتم والرتيمة نبات من دقّ الشجر كأنه من دقته شبه بالرتم ، وهو الخيوط (اللسان) وقيل إنه شجر له زهر كالخيرى وحب كالعدس (ابن سيده) والرتمة خيط يعقد فى الأصبع للتذكير (ج) رتم كالرتيمة (ج) رتائم ورتام وأرتمة ، والرَّتَم محركة نبات كأنه من دقته شبه بالرتم زهره كالخيرى وبزره كالعدس (القاموس ١١٦ : ٤)

السُّلْت : قال الليث شعير لا قشر له أجرد . زاد الجوهرى : كأنه الحنطة . وعن أبى حنيفة : هو صنف من الشعير يتجرد من قشره كله . وعن اللسان : وينسلت حتى يكون كالبرّ سواء

السُّمْنة : عن أبى حنيفة : دواء تُسمَّن به النساء

الشَّعارير : صغار القثاء ، الواحدة شعرورة ، سميت بذلك لما عليها من الزَّغب

الظُّفرة : نبات حريف يشبه الظفر فى طلوعه (التاج)

الظِّلام ؛ والظالم ، قال الأصمعى : هو شجر له عساليج طوال وتنبسط حتى تجوز أصل الشجرة ، فمنها سميت ظِلاماً

العَصب : شجرة تلتوى على الشجر وتكون بينها ، ولها ورق ضعيف ؛ وفى اللسان شجرة العصبة نبات يلتوى على الشجر ،

وهو اللبلاب اهـ . والاسم تشبيه بعصابة الرأس لأنه يلتوى على غرارها

العَطفُ : نبات يلتوى على الشجر ، لا ورق له ولا أفنان

قال ابن بَرّى : العطَفة : اللبلاب ، سمى بذلك لتلويه على الشجر

العِقدُ : شجر ورقه يلحم الجراح (التاج)

فمن هذا يظهر لك أن العربي لم يجر فى وضع الأسماء على غير قاعدته ، وإنما كانت قاعدته أن يلحظ فى الشئ صفة ، فيرجع إلى لغته حتى يقع على الكلمة التى تؤدى معنى تلك الصفة ثم يصوغ منها الاسم على وزن يلذ فى أذنه جرسُه

على أن لنا فى لغتنا العربية من الأصول ما يقابل كل الأصول التى نحت منها الفرنجة أسماء الحيوان والنبات يونانية كانت أم لاتينية . فاذا استعنا بالصيغ السماعية على ما بين أيدينا من الصيغ القياسية ، انفتح أمامنا الباب المغلق ، وخرجنا إلى الرحاب الواسعة وحافظنا على سلامة اللغة أن يطيح بها التعريب السقيم ، أو يتلاعب بها من ليس فى مقدورهم تفهم أصولها وأساليبها

والسبيل المعقول هو أن نكب على جمع أسماء النبات والحيوان ثم نعرف من أية الصيغ وردت ونحصر هذه الصيغ حصراً كاملا بقدر الامكان ، ثم نجيز قياستها والصوغ عليها فى أسماء الحيوان والنبات . فاننا بذلك لا نخرج عن القاعدة التي جرى عليها العرب مادمنا سنراعى شرط لحظ الصفة في المسمى على ما عمل أسلافنا طيب الله ثراهم ، فان تسمحهم في هذا الشأن ، يضطرنا إلى القول مع الأئمة الذين قالوا من قبل « إن كلاماً قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب »

وإن لغتنا لواسعة وإن لنا فى أقيستها وصيغها التى وردت على لسان العرب ، ما يكفل لنا وضع الأسماء الجديدة التى يظن البعض أن وضعها من المستحيلات . وإني جربت على القاعدة التى شرحتها هنا ، لقمين بأن أضع اسماً لأى نبات أو حيوان لا اسم له فى العربية ، مصوغاً على ما ورد فى كلام العرب

وقد جمعت حتى الآن من أسماء النبات أكثر من ألفي اسم ، وسأضع فى هذا الموضوع رسالة آمل أن تكون مبدأ عهد جديد فى صوغ أسماء عربية للحيوان والنبات

اسماعيل مظهر

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٢ —

نسبه ومولده :

الرافعى سورى الأصل ، مصرى المولد ، إسلامى الوطن : فأسرته من (طرابلس الشام) ، ضم ثراها عظام أجداده ، ويعيش على أرضها إلى اليوم أهله وبنو عمه ؛ ولكن مولده بمصر ، وعلى ضفاف النيل عاش أبوه وجده والأكثرون من بنى عمه وخئولته منذ أكثر من قرن ؛ وهو فى وطنيته (مسلم) : لا يعرف له أرضاً من أرض الإسلام ينتسب إليها حين يقول : « وطنى . . . » فالكل عنده وطنه ووطن كل مسلم ؛ فأنت لم تكن تسمعه يقول : « الوطنية المصرية... » أو « الوطنية السورية ... » أو « الوطنية العراقية . . . » إلا كما تسمع أحداً يقول : هذه دارى من هذا البلد ، أو هذه مدينتي من هذا الوطن الكبير الذى يضم أشتاتاً من البلاد والمدائن . وإنما الوطن فيما كان يراه لنفسه ولكل مسلم ، هو كل أرض يخفق فيها لواء الإسلام والعربية ؛ وما مصر والعراق والشام والمغرب وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الإسلامى الأكبر ينتظمها جميعاً كما تنتظم الدولة شتى الأقاليم وعديداً من البلاد

وكثيراً ما كانت تثور الخصومات بين الرافعى وبعض الأدباء فى مصر ، فما يجدون مغمزاً ينالون به منه عند القراء إلا أن يتهموه فى وطنيته ، أعنى مصريته ؛ وكان الرافعي يستمع إلى ما يقولون عنه فى ذلك مغيظاً حيناً وساخراً حيناً آخر ، ثم يقول : أفتراهم يتهموننى فى مصريتى لأننى فى زعمهم غير مصرى وفى مصر مولدى وفى أرضها رفات أبى وأمى وجدى ، أم كل عيبى عندهم فى الوطنية أننى صريح النسب ؟ . . . وإلا فمن أبو فلان وفلان ؟

ومن أين مَقْدمه ؟ ومتى استوطن هذا الوطن ... ؟

***

ورأس أسرة الرافعي هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ بطرابلس الشام ، ويتصل نسبه بعمر بن عبدالله بن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه ، في نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقه في الدين ، مامنهم إلا له تاريخ مشهود وجهاد مشكور ومسجد ومزار .

وأول وافد إلى مصر من هذه الأسرة هو المرحوم الشيخ محمد الطاهر الرافعي ، قدمها في سنة ١٢٤٣ هـ (قريب من سنة ١٨٢٧ م) ليتولى قضاء الحنفية في مصر بأمر من السلطان ؛ وأحسب أن مقدمه كان أول التاريخ لمذهب الامام أبي حنيفة في القضاء الشرعي بمصر . ولم يعقب الشيخ محمد الطاهر غير فتاة وغلام ، انتهى بموتهما نسبه فليس في مصر أحد من ولده ؛ ولكنه كان كرائد الطريق لهذه الأسرة [1] ، فتوافد إخوته وأبناء عمومته إلى مصر يتولون القضاء ويعلمون مذهب أبي حنيفة حتى آل الأمر من بعد أن اجتمع منهم في وقت ما أربعون قاضياً في مختلف المحاكم المصرية ، وأوشكت وظائف القضاء والفتوى أن تكون مقصورة على آل الرافعي ؛ وقد تنبه اللورد كرومر إلى هـذه الملاحظة فأثبتها في بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية الانجليزية .

وقد تخرج في درس الشيخ محمد الطاهر وأخيه الشيخ عبد القادر الرافعي أكثرُ علماء الحنفية الذين نشروا المذهب في مصر . ومن تلاميذهما الأدنين المرحومان الشيخ محمد البحراوي الكبير والشيخ محمد بخيت مفتي الدولة السابق

ولما توفي المرحوم الامام الشيخ محمد عبده ، كان شيخ الحنفية في مصر يومئذ هو المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي ، فدعاه الخديو عباس إلى تولي وظيفة الافتاء ، وكان رجلاً زاهداً ورعاً فيه تحرُّج وخشية ، فلم يجد في نفسه هوى إلى قبول هذا المنصب ، تحرُّجاً من فتنة الحكم وغلبة الهوى في شأن يتصل بحقوق العباد وفيه الفصل في الخصومات بين الناس . . . فلما بلغته دعوة الخديو ذهب إلى لقائه وفي نفسه همّ ، وهو يدعو الله ألا يئول إليه هذا الأمر ضناً بدينه ومروءته . . . وتمت مراسيم التولية ، وتلقى الأمر من صاحب العرش بقبول وظيفة (مفتي الدولة) ثم نزل الى عربته فركبها عائداً الى داره وهو يتمتم ويدعو ؛ فلما بلغ الدار نزل الحوذي ليفتح له العربة ويساعده على النزول ، فاذا هو قد فارق الحياة قبل أن يجلس مجلس الحكم مرة واحدة ليقضي في شئون العباد . . . واستجاب الله دعاءه . . . !

وأبو الأستاذ الرافعي هو المرحوم الشيخ عبدالرزاق الرافعي ، كان رئيساً للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم ، وهو واحد من أحد عشر أخاً اشتغلوا كلهم بالقضاء من ولد المرحوم الشيخ سعيد الرافعي . وكان آخر أمر الشيخ عبد الرزاق رئيساً لمحكمة طنطا الشرعية ؛ وفي طنطا كانت إقامته الى آخر أيامه ، وفيها مات ودُفن ، وفيها أقام مصطفى صادق وإخوته من بعد أبيهم في بيته ، فاتخذوا طنطا وطناً ومقاماً ، لايعرفون لهم وطناً غيرها ولا يبغون عنها حولا . ولقد حاولت وزارة الحقانية أكثر من مرة أن تنقل مصطفى إلي غير طنطا فكان يسعى سعيه لالغاء هـذا النقل ، حتى لايفارق البلد الذى فيه وفاة أبيه وأمه ؛ وفيه مسجد السيد البدوى . . . [1]

---

(١) العجيب أن يكون أول قادم إلى مصر من هذه الأسرة ليس في مصر أحد من ولده ، ومع ذلك تستطيع أن تحصي من آل الرافعي في مصر الآن ما يزيد على ستمائة . وأسرة الرافعي كثيرة الولد ، فما منهم إلا له ثمانية أولاد أو عشرة أو اثنا عشر أو أكثر من ذلك ؛ وحسبك أن تعلم أن أولاد وأحفاد الشيخ عبد الرازق الرافعي (والد المترجم) يبلغون الآن واحدا وسبعين ولدا وبنتا ، وأن الشيخ عبد الرازق هذا هو واحد من أحد عشر أخا تولوا كلهم وظائف عالية في القضاء الشرعي ؛ وقد مات المرحوم مصطفي صادق وعمره سبع وخمسون سنة ولم يتزوج إلا واحدة ، ولد له منها أحد عشر ولدا وفتاة افترط منهم واحدة في سنتها الأولى وخلف عشرة يكون فقده . . . !!

(١) كان للرافعي صلة روحية بالسيد البدوى ترتفع عن الجدل والمناقشة، وله فيه مدائح وتوسلات شعرية ربما استطعت أن أجلو منها شيئاً على قراء الرسالة في غير هذا العدد . وكان الرافعي إذا أم مسجد السيد البدوى للصلاة اتخذ مجلسه تحت القبة فلا يمل الجلوس ساعات يقرأ ويدعو وهو يهتز وعيناه مسبلتان ؛ فاذا فرغ من دعائه وتلاوته رفع رأسه ومسح بيده على صدره ، ثم يمضي وما تزال شفتاه تتحركان بكلام ... وكان بيت آل الرافعي القديم في طنطا ، قريباً من مسجد السيد البدوى ، في حارة سيدى سالم ، وهي حارة قديمة ضيقة ملتوية يقال إن السيد البدوى أوي إليها أول ماهبط إلى طنطا منذ ألف سنة ؛ وكانت إلي عهد قريب هي مجمع دور الأعيان والسروات من أحباب السيد البدوى واللائذين به .

وكان الشيخ عبد الرازق رجلاً ورعاً له صلابة فى الدين وشدة فى الحق ، مابرح يذكرها له مع الاعجاب معاصروه من شيوخ طنطا .

حدثنى نسيب قال : « كنت غلاماً حدثا ، وكان الشيخ عبد الرازق الرافعى من جيراننا وأحبابنا الأجلاء ، وكان يتخذ مجلس العصر أحياناً فى متجر جاره وصديقه المرحوم الحاج حسن بدوى القطاطرى ، فى شارع درب الأثر ، ودرب الأثر يومئذ هو شارع المدينة وفيه أكبر أسواقها التجارية ؛ فنى عصر يوم من رمضان ، كان الشيخ عبد الرازق يجلس مجلسه من متجر صديقه ، فمر به رجل ينفث الدخان من فمه وبين أصبعيه دخينة ، فما هو إلا أن رآه الشيخ عبد الرازق ، حتى اندفع إليه ، فانقض عليه ، فأمسك بثيابه ، فدعا الشرطى أن يسوقه إلى القسم لينال الحد على إفطاره فى رمضان فى شارع عام . وما أجدى رجاء الرجل ولا شفاعة الشفعاء ؛ فسيق الرجل إلى القسم فى (زفّة) من الصبيان ، ليتولى الشيخ حده بنفسه على إفطاره . وما كان القانون يأمر بذلك ولا يجيزه ، ولكن الشرطة ما كانوا ليخالفوا أمر قاضى المدينة ، وما كانوا يعرفون له عندهم إلا الطاعة والاحترام »

وحوادث الشيخ عبد الرازق من مثل ذلك كثيرة يعرفها كثير !

واسم (الرافعى) معروف فى تاريخ الفقه الاسلامى منذ قرون وأحسب أن هناك صلةً مابين أسرة الرافعى فى طرابلس الشام وبين الامام الرافعي المشهور صاحب الشافعي ؛ وقد سألت المرحوم الأستاذ الرافعى مرة عن هذه الصلة ، فقال : لا أدري ، ولكنى سمعت من بعض أهلي أن أول من عُرف منا بهذا الاسم شيخ من آبائى كان من أهل الفقه وله حظ من الاجتهاد والنظر فى مسائله ، فلقبه أهل عصره بالرافعى تشبيهاً له بالامام الكبير الشيخ محمود الرافعى صاحب الرأي المشهور عند الشافعية ، والله أعلم .

والأستاذ الرافعي حنفى المذهب كسائر أسرته ، ولكنه درس مذهب الشافعى وكان يعتد به ويأخذ برأيه فى كثير من مسائل العلم .

وأم الرافعي كأبيه سورية الأصل ، وكان أبوها الشيخ الطوخى تاجراً تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام ، وأصله من حلب ، وأحسب أن أسرة الطوخى ماتزال معروفة هناك ، على أنه كان اتخذ مصر وطناً له قبل أن يصل نسبه بأسرة الرافعي . وكانت إقامته فى (بهتيم) من قرى مديرية القليوبية ، وكان له فيها ضيعة ، وفيها وُلد الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى يناير من سنة ١٨٨٠ م [١] ، إذ آثرت أمه أن تكون ولادتها فى بيت أبيه .

وكانت أم الرافعى تحبه وتؤثره ، وكان يطيعها ويبرّها ؛ وقد ظل إلى أيامه الأخيرة إذا ذكرها تغرغرت عيناه كأنه فقدها بالأمس ، وكان دائماً يحب أن يسند إليها الفضل فيما آل إليه أمره ؛ وقد توفيت فى أسيوط ودفنت بها ، ثم نقلت إلى مدافن الأسرة بطنطا ، وقد شيّعها الرافعي على عنقه إلى مقرها !

***

علمه وثقافته :

لأسرة الرافعي ثقافة أسميها كما يسميها الأستاذ اسماعيل مظهر (ثقافة تقليدية) ، فلا ينشأ الناشىء منهم حتى يتناولوه بألوان من التهذيب تطبعه من لدن نشأته على الطاعة واحترام الكبير وتقديس الدين ، وتجعل منه خلفاً لسلف يسير على نهجه ويتأثر خطاه . والقرآن والدين هما المادة الأولى فى هذه المدرسة العريقة التى تسير هذه الأسرة على منهاجها منذ انحدر أولهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب [٢]

وعلى هذه النشأة نشأ المرحوم مصطفى صادق ، فاستمع إلى أبيه أول ما استمع تعاليم الدين وحفظ شيئاً من القرآن ، ووعى كثيراً من أخبار السلف ، فلم يدخل المدارس المدنيـة إلا بعد

(١) لا نعرف للرافعى (شهادة ميلاد) تحدد يوم مولده بالضبط . وشهادة الميلاد الموجودة بملف خدمته فى وزارة الحقانية هى لأخيه المرحوم محمد كامل الرافعى ، وقد كنت أحسب مولده فى سنة ١٨٨١ أو ١٨٨٢ ، وبأحدهما أخذ الأستاذ الزيات فى مقالته عنه بالرسالة غداة نعيه . ثم وجدت بين أوراقه الخاصة ورقة مكتوبة بخطه يثبت فيها أن تاريخ ميلاده فى يناير سنة ١٨٨٠ فبها أخذت هنا .

(٢) يتخذ الرافعى فى بيته امرأة قارئة حافظة ؛ تقرأ كل يوم ماتيسر من القرآن ، وتعلم بناته من القرآن فى وقت فراغهن من المدرسة ، وتقيم ألسنتهن فى تلاوته .

ما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين . فقضى سنة فى مدرسة دمنهور الابتدائية ، ثم نقل أبوه قاضياً إلى محكمة المنصورة فانتقل معه إلى مدرسة المنصورة الأميرية[1] ، فنال منها الشهادة الابتدائية وسنُّه يومئذ سبع عشرة سنة أو دون ذلك بقليل ؛ ومن زملائه في المدرسة الابتدائية الأستاذ الجليل منصور فهمي بك ، ونيازى باشا وأحسبه قال لى : إن منهم كذلك الشارع القانونى الكبير عبد الحميد بدوى باشا

ومن أساتذته فى المدرسة الابتدائية شيخنا العلامة الأستاذ مهدى خليل المفتش بوزارة المعارف ، وكان يدرس له العربيـة ؛ وكان الرافعي ردىء الخط لا يكاد يقرأ خطه إلا بعد علاج ومعاناة فكان الأستاذ مهدى يسخر منه قائلا : « يا مصطفى ، لا أحسب أحداً غيرى وغير الله يقرأ خطك ! » وقد ظل خط الأستاذ الرافعي رديئاً إلى آخر أيامه ، ولـكن قراء خطه قد زادوا اثنين : هما سعيد العريان والعمال فى مطبعة الرسالة ...

وهنا أذكر حكاية طريفة تدل على مبلغ وفاء المرحوم الرافعي وتكشف عن شىء من خلقه : فقد صحبنى مرة منذ عامين إلى نادى دار العلوم ، وما أكثر ما كان يصحبنى إليـه إذا هبط القاهرة . وجلس وجلست معه فى جمع كبير من المفتشين والمدرسين ورجال التعليم ، وكان المرحوم الأستاذ أبو الفتح الفقي نقيب المعلمين السابق جالساً إلى جانب الأستاذ الرافعي يتحدثان ، وأنا بينهما أترجم للأستاذ الرافعي حديث محدّثه مكتوباً فى ورقة ، وبينما نحن كذلك والحديث يتشعب شعبه وينسرب فى ساربه ، والجمع حولنا مرهف الآذان يستمع إلى حديث الرجلين ، إذ نهض الرافعي واقفاً ، فانتبهت ، فإذا القادم الأستاذ مهدى خليل يبدو من طوله وجسامته واكتمال عضله كأنما يطل علينا من نافذة ... وإذا الرافعي يطأطئ له وينحنى يهم أن يقبل يده ؛ ثم عاد إلى مجلسه فال علىّ يقول فى همس : « هـذا أستاذى مهدى خليل ... » وفى صوته رنة هى أقرب إلى صوت طفل لأبيه حين يمر بهما معلم الغلام فيميل إلى أبيه يُسرّ إليه ... ومضى الأستاذ مهدى غير عابئ ولا ملتفت بما فيه من طبيعة المرح وعادة الاغضاء ، وأحسبه لم يعن بالسؤال عن هذا الزائر الذى نهض له أو بالنظر إلى وجهه ، على حين ظل ذكره على لسان الرافعي طول اليوم

* * *

وفى السنة التى نال فيهـا الرافعى الشهادة الابتدائية — وهى كل ما نال من الشهادات الدراسية — أصابه مرض مشف أثبته في فراشه أشهراً — وأحسبه كان التيفويد — فما نجا منه إلا وقد ترك في أعصابه أثراً كان حبسة في صوته ووقراً في أذنيـه من بعد .

وأحس الرافعى آثار هذا الداء بوقر أذنيه ، فأهمه ذلك هما كبيراً ، ومضى يلتمس العلاج لنفسه في كل مستشفى وعند كل طبيب ، ولـكن العلة كانت في أعصابه فما أجدى العلاج عليـه شيئاً ، وأخذت الأصوات تتضاءل في مسمعيه عاما بعد عام كأنها صادرة من مكان بعيد ، أو كأن متحدثاً يتحدث وهو منطلق يعدو . . . حتى فقدت إحدى أذنيه السمع ، ثم تبعتها الأخرى، فما أتم الثلاثين حتى صار أصم لا يسمع شيئا مما حواليه ، وانقطع عن دنيا الناس .

وامتد الداء إلى صدره فعقد عقدة فى حبال الصوت كادت تذهب بقدرته على الـكلام ، ولـكن القدر أشفق عليه أن يفقد السمع والـكلام في وقت معاً ، فوقف الداء عند ذلك ، ولـكن ظلت فى حلقه حبسة تجعل فى صوته رنينا أشبه بصراخ الطفل ، فيه عذوبة الضحكة المحبوسة استحيت أن تكون قهقهة . . .

وكانت بوادر هذه العلة التى أصابت أذنيه هى السبب الذى قطعه عن التعليم فى المدارس بعد الشهادة الابتدائية ، لينقطع لمدرسته التى أنشأها لنفسه وأعد برامجها بنفسه ، وكان هو فيها المعلم والتلميذ

وحظ الرافعى من الشهادات العلمية حظ أبيه ، فان الشيخ عبد الرازق الرافعى على علمه وفضله ومكانته ، وعلى أنه كان رئيساً للمحكمة الشرعية فى كثير من الأقاليم — لم تكن معه شهادة (العالمية) حتى جاء إلى طنطا . ولأمر ما نشب خلاف على بينه وبين بعض علماء طنطا حفزه وهو شيخ كبير إلى طلب الشهادة ،

(١) جاء فيما كتب الأستاذ الزيات عن الرافعي أن دراسته فى المنصورة كانت بمدرسة الفرير . وأحسب هذا قد جاءه من أن المرحوم الرافعي كان لا يعرف من اللغات غير الفرنسية والعربية ؛ ولـكن اللغة الأجنبية فى مدارس الحكومة كانت إلى ما بعد الاحتلال بقليل هى الفرنسية ، ولم تدخلها اللغة الانجليزية إلا بعد أن قويت شوكة المحتل حتى نفذت إلى برامج التعليم ...

فتقدم إلى امتحانها ونالها ، لغير غرض يسمى إليه إلا أن يستكمل براهينه فى جدال بعض العلماء . . .

وكان لأبى الرافعى مكتبة حافلة تجمع أشتاتاً من نوادر كتب الفقه والدين والعربية ؛ فأكبَّ عليها مصطفى إكباب النهم على الطعام الذي يشتهيه ؛ فما مضى إلا قليل حتى استوعبها وأحاط بكل ما فيها وراح يطلب المزيد . وكان له من علته سبب يباعد بينه وبين الناس فما يجد لذة ولا راحة فى مجالسة أحد ، وكان ضجيج الحياة بعيداً عن أذنيه ، وكان يحس فى نفسه نقصاً فى ناحية يجهد جهده ليداريه بمحاولة الكمال فى ناحية ، وكان يُعجزه أن يسمع فراح يلتمس أسباب القدرة على أن يتحدث ، وكان مشتاقاً إلى السمع ليعرف ماذا فى دنيا الناس فمضى يلتمس المعرفة فى قراءة أخبار الناس ، وفاتته لذة السامع حين يسمع فذهب ينشد أسباب العلم والمعرفة ليجد لذة المتحدث حين يتحدث ، وقال لنفسه : إذا كان الناس يعجزهم أن يسمعونى فليسمعوا منى . . . وبذلك اجتمعت للرافعى كل أسباب المعرفة والاطلاع ، وكانت علته خيراً عليه وبركة . وعرف العلم سبيله من نافذة واحدة من نوافذ العقل إلى رأس هذا الفتى النحيل الضاوى الجسد الذى هيأته القدرة بأسبابها والعجز بوسائله ليكون أديب العربية فى غد . . . !

كانت مكتبة الرافعى فى هذه الحقبة من تاريخه ، هى دنياه التى يعيش فيها ، ناسُها ناسه ، وجوُّها جوُّه ، وأهلها صحابته وخلانه ، وعلماؤها رُواته ، وأدباؤها سُمَّاره ؛ فأخذ عنها العلم كما كان يأخذ المتقدمون من علماء هذه الأمة عن العلماء والرواة فما لقم ، فنشأ ذلك نشأة السلف . يرى رأيهم ، ويفكر معهم ، ويتحدث بلغتهم ، وتستخفه أفراحهم ، وتتراءى له أحلامهم ومناهم .

وإذ كان قد فقد السمع قبل أن يتم تمامه ويكون أهلا لغشيان المجالس يتحدث إلى الناس ويستمع إلى حديثهم — فان حظه من العامية المصرية كان قليلا ، وكان عليه أن يسألنى أحياناً أو يسأل غيرى من خاصته ، عن كلمة أو عبارة أو مثل مما يسمع من أمثال العامة حين تلجئه الحاجة الأدبية إلى شىء من ذلك ، وكان يمزح معى أحياناً ويقول : « فلتكن أنت لى قاموس العامية . . . »

وإذ كان أبوه وأمه قريبى عهد بمنبتهما فى سورية ، وكان لم يسمع أكثر ما سمع فى طفولته إلا منهما — فان لهجته فى الحديث ظلت قريبة من السورية إلى آخر أيامه ، على حين تسمع إلى كل أسرته وإخوته وبنيه يتحدثون باللهجة المصرية فما ينم صوت أو كلمة على أن أصلهم سورى ، ولكن مصطفى كان بلغته ولهجة حديثه هو وحده النميمة على هذا الأصل ، وكأنه لم يقدم من سورية إلا منذ قريب .

ولم تُجدِ على الرافعى معرفته الفرنسية إلا قليلا أو أقلَّ من القليل ، فمنذ انتهى من المدرسة لم يجد فى نفسه إليها نزوعاً قوياً ، ملزمها سنوات يقرأ فيها بعض ما يتفق له من الكتب القليلة المقدار فى العلم والأدب ، ثم هجرها إلى غير لقاء ، ولو أنك كنت تسمعه أحياناً يأسف على هجرها ويمنى نفسه بالعودة إليها فى وقت فراغ ؛ وهيهات أن يجد الرافعى فراغاً من وقته .

هذه ثقافة الرافعى وتلك وسائله إلى المعرفة ، وقد ظل هذا على الدأب فى القراءة والاطلاع إلى آخر يوم من عمره ، يقرأ كل يوم ثمانى ساعات متواصلة لا يمل ولا ينشد الراحة لجسده وأعصابه كأنه من التعليم فى أوله لا يرى أنه وصل منه إلى غاية .

وكان إذا زاره زائر فى مكتبه جلس قليلا يحيِّيه ويستمع لما يقوله ثم لا يلبث أن يتناول كتاباً مما بين يديه ويقول لمحدثه : « تعال نقرأ . . . » وتعال نقرأ هذه معناها أن يقرأ الرافعى ويستمع الضيف ، فلا يكف عن القراءة حتى يرى فى عينى محدثه معنى ليس منه أن يستمر فى القراءة . . .

وفى القهوة ، وفى القطار ، وفى الديوان ، لا تجد الرافعى وحده إلا وفى يده كتاب . وكان فى أول عهده بالوظيفة كاتباً بمحكمة طلخا ، فكان يسافر إلى طنطا كل يوم ويعود ، فيأخذ معه فى الذهاب وفى الاياب (ملازم) من كتاب أى كتاب ليقرأها فى الطريق . وفى القطار بين طنطا وطلخا (وبالعكس) استظهر كتاب نهج البلاغة فى خطب الامام على ، وكان لم يبلغ العشرين بعد . . . ؟

(لها بقية) « طنطا » محمد سعيد العريان

تصويب : جاء فى الجزء الأول من هذه المقالات المنشور بالعدد ٢١١ أن الرافعى توفى صباح الاثنين ١٤ مايو ، وهو خطأ صوابه الاثنين ١٠ مايو ، وكان يومه الأخير هو الأحد ٩ مايو سنة ١٩٣٧

إبراهيم باشا

موقعة نصيبين

– ٢ –

واستقبل حافظ باشا الأمير ألاي والبكباشي الذي كان يصحبه أحسن استقبال، وأتحفهم بالهدايا وأخبرهم أنه سيرسل رده في اليوم التالي. وكانت الروح السارية في هذا الرد من أوله إلى آخره هي أن الخضوع لا يكون بالأقوال بل بالأفعال. ثم انتقل حافظ باشا من هذا المبدأ إلى قوله إنه لا يعترف بأن التهم التي يوجهها إليه إبراهيم قائمة على أساس صحيح؛ وحاول أن يثبت أن الجنود المصرية لا الجنود الشاهانية هي المعتدية، وجاء في ختام هذا الخطاب ما يأتي:

« لقد أعطيت لنفسي الحرية في كتابة هذه الرسالة الودية، لتكون دليلا على حسن نيتي؛ وقد أرسلتها مع الأميرالاي حاذق بك وبصحبته الأميرالاي أجد بك من ضباط الجيش الشاهاني المظفر. وعند ما تصلكم هذه الرسالة إن شاء الله سيتوقف العمل بما فيها على حكمتكم السامية »[1].

وبينما كان القائدان يتبادلان الرسائل على هذا النحو، كان رسول يستحث الخطى إلى إبراهيم، يحمل إليه رسالة من أبيه مؤرخة ٩ يونية سنة ١٨٣٩ يقول فيها:

« تسلمت رسالتك التي تقول فيها إن العدو يواصل زحفه وإنه احتل الآن ستين قرية وراء عينتاب، وإنه وزع السلاح على الأهالي وحرض العصاة على مهاجمة عكتار[2] وسلب أموال حاكمها وقتله. وقد قلت بعد ذلك إنه ليس من الحكمة أن يسمح للأتراك بالسير على هذه الخطة، وطلبت إلى أن أخبرك بما تفعل.

« إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول، وإذا ما صبرنا عليه بعد ذلك عز علينا أن نقفه، لأنه يبذر بذور الفتن ذات اليمين وذات الشمال؛ وكلما صبرنا عليه رغبة منا في عدم معارضة رغبات الدول الكبرى، زاد عدونا إيغالا في بلادنا وزادت الأمور حرجا. وتلك حال ترغمنا على العمل؛ فعلينا أن نرد هجومه بهجوم مثله. ولما كان العدو هو المعتدي فإن الدول لن تلقى التبعة علينا.

« فنصيحتي إليك أن تبادر عند وصول رسالتي إلى يديك بالهجوم على جنود العدو الذين دخلوا في أرضنا، وأن لا تكتفي بإخراجهم منها، بل عليك أن تزحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله »[1]

ووصلت هذه الأوامر إلى إبراهيم في غسق الليل؛ فأراد أن يهاجم العدو عند مطلع فجر اليوم التالي. ورأى سليمان باشا (الكولونيل سيف ساعد إبراهيم الأيمن، الذي طالما أشرنا إليه في هذا الكتاب) غير هذا الرأي، وأصر على أن وجود الضباط البروسيين في جيش حافظ باشا يحمله على الظن بأن مواقع العدو قوية محصنة؛ وطلب الضابط الفرنسي أن يستكشفا بنفسهما تلك المواقع قبل الهجوم عليه. ولما كان من شيمة إبراهيم أن ينصاع دائماً إلى حكم العقل، فقد قبل هذا الرأي عن رضى وطيب خاطر.

وفي صباح اليوم التالي اضطلع القائدان نفسهما بتلك المهمة الخطيرة، مهمة استطلاع مواقع الجيش التركي. وما زالا يقتربان من خط النار حتى أصاب الرصاص حصان أحد جنودهما فقتله وكانت نتيجة هذا الاستطلاع أن عرفا أن نصيبين التي اعتصم بها حافظ باشا أمنع من عقاب الجو، وأن ليس في مقدورهما أن يستوليا عليها عنوة[2]، لأن ثون ملتكه وثون ملباخ ندبا معسكر الأتراك عند سفح التل الذي يجري عنده نهر كرزين[3] وجعلا هذا النهر حائلا بين المصريين والجيش التركي. ولذلك اضطر المصريون أن ينسحبوا من مواقعهم ويهاجموا العدو من جهة أخرى. وأيقن إبراهيم وسليمان باشا أن الفضل في اختيار هذا

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٩٧

(٢) بلد صغير واقع على بعد ٣٢ كيلو مترا من شرق طرابلس والذين هجموا عليه في ذلك الوقت هم المتاولة. (المعرب)

(١) فنتربنيه في كتابه السالف الذكر ص ٣٠٩

(٢) المصدر عينه ص ٣١٢.

(٣) هو نهير يصب في الفرات وتقع نصيبين على ضفته اليسرى. وقد كتبه المؤلف وفنتربنيه كرسيم وكتبه فريد بك قرصيم، ولكن الخرائط التي اطلعنا عليها وكذلك كدافين وزميله والرافعي بك يكتبونه كرزين (المعرب)

الموقع المنيع الذى اتخذه الجيش التركى لنفسه يرجع إلى مهارة الضباط البروسيين وخبرتهم الفنية ، ولكنهما قدرا أن الألمان لن يستطيعوا أن يتنبأوا بالحركة الجريئة التى سوف يقدمن عليها

والحق أنهما لم يخطئا التقدير ، لكنهما حين أقدما على ما أقدما عليه عرضا أنفسهما لأشد الأخطار رغم أنهما بنيا خطتهما على نفسية البروسيين وعقلية الأتراك . وقد وصف تلك الخطة إيميه ڤنترنيه Aimé Vingtrinier صاحب سيرة سليمان باشا بقوله :

« وكانت فكرة سليمان وميضاً من العبقرية إذا أفلحت وأوهاما من عقل مخبول إذا أخفقت . ولكنه كان مؤمناً بصوابها ، واستطاع أن يبث هذا الإيمان فى الجيش كله لا فرق بين قائده الأعلى وأصغر جندى فيه »[1] .

وكانت الخطة التى نفذت بإشراف إبراهيم وعلى مسئوليته هى أن يترك الجيش المصرى المعسكر الذى كان يحتله وقتئذ ، ويسير مخترقاً قرية مزار[2] ، وأن يتم ذلك بين طلوع الفجر وغسق الليل ؛ ثم يلتف حول جبل بازار ويعود بعدئذ فيتجه نحو العدو مولياً وجهه شطر الجنوب فى اتجاه قرية كرد قلعة[3] ، وكانت الفكرة التى بنيت عليها هذه الحركة كلها هى : أولاً أن ڤون ملتكه عند مايرى أن الجيش المصرى قد رفع معسكره لايشك مطلقاً فى أن قواد هذا الجيش لن يفعلوا ما كانوا ينوون أن يفعلوه ، وهو تعريض جناحهم للخطر ، وأنه سيمكنهم بذلك من أن ينفذوا الشطر الأول من خطتهم قبل أن يدرك حقيقتها . وثانياً أن ڤون ملتكه إذا ما أدرك حقيقة الموقف وأراد الانسحاب إلى مواقع خير من مواقعه الأولى ليهاجم منها المصريين قبل أن يصلوا إلى أماكن آمنة ، لن يتمكن من التغلب على كبرياء القائد التركى ، بل إن هذا القائد سيتغلب على المنطق الألمانى الضعيف .

ويقال إنه لما فرض حافظ باشا رأيه على الضباط الألمان غضبوا أشد الغضب و. فعوا إليه استقالتهم ، فلما فعلوا ذلك قال لهم السر عسكر : « إن الجندى لا يستقيل قبيل الموقعة » . وكان هذا الاتجاه إلى المبادىء الخلقية العسكرية كافياً لحل المشكلة ، فلم ينسحب ڤون ملتكه بل أفرغ وسعه فى معالجة هذه الحال الطارئة ، فعدل خططه ونقل مدافعه التى أصبحت عديمة الفائدة لأن المصريين أبوا أن يقدموا أجسامهم طعاماً لنيرانها ، ووضعها حيث يمكنه الاستفادة منها . وأيقن أن الموقعة الحاسمة ستبدأ عند مطلع فجر اليوم التالى ، وكان يخشى أن تكون نتيجتها وبالاً على الجيش العثمانى ، لأن إبراهيم خرج على القوانين الحربية ، فأبى أن يتبع البديهيات الأولى فى فن الحروب ، وخرق مبادئها الأولية . ولشد ما تألم ذلك العالم الخبير بفنون الحرب حين رأى أن عدوه قد أبى أن يعمل ما يجب عليه أن يعمله . ولا شك فى أنه كان يعتقد أن أمثال ماكماهون Mae Mahon وبازين Bazaine[1] ممن يتمسكون بالقواعد والأصول ، خير من رجال كإبراهيم أو سليمان باشا يضعون قواعدهم لأنفسهم .

وما أسفر صبح اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيه حتى بدأت المعركة بهجوم المصريين . وكان جل اعتماد الأتراك على فرسانهم لأنهم ظنوا أن طبيعة الأرض تحتم عليهم اتباع هذه الخطة الحربية . وقد يكونون مصيبين فى ظنهم لأننا لا ندعى لأنفسنا تلك الخبرة بالفنون العسكرية التى تمكننا من أن نبدى رأياً فى هذا الموضوع . وكل الذى يعنينا هنا هو أن مشاة المصريين صدوا هجوم الفرسان العثمانيين ، فولى هؤلاء الفرسان الأدبار لا يلوى آخرهم على أولهم . وعندئذ وقع الاضطراب فى صفوف الجيش العثمانى كله فتضعضعت أركانه ولم تأت الساعة التاسعة حتى كان إبراهيم سيد الميدان غير المنازع .

وأقبل إبراهيم على خيمة حافظ باشا . وقد وصفها ڤنترنيه وصفاً لا نعتقد أنه كان جاداً فيه ؛ لأنه قال « إنها كانت واسعة الأرجاء كأنها قصر مشيد ، مزخرفة كأنها حجرة استقبال

---

(١) المصدر عينه ص ٣١٤ .

(٢) تقع هذه القرية جنوبى نصيبين بغرب . (المعرب)

(٣) فى الجزء الأول من كتاب كدلفين وبرو وفى كتاب الرافعى بك رسم واضح لموقعة نصيبين ومواقف الجيوش المحاربة والأماكن الواردة هنا فليطلع عليه من شاء . ولم نعثر فى جميع المصادر التى اطلعنا عليها على اسم القرية التى يسميها ڤنترنيه والمؤلف Kardikala ويسميها كدلفين وزميله Coadikala ، وقد راجعنا من أجل ذلك من المصادر التركية قاموس الأعلام لشمس الدين سامى بك ومعجم التاريخ والجغرافيا لعلى جواد بك والكتاب السنوى لولاية حلب وبعض الأطالس التركية عدا المصادر العربية الكثيرة ، واستفتينا بعض معارفنا من أفاضل الأتراك والسوريين . وأكبر ظننا أن الاسم الذى أثبتناه هنا هو الاسم الصحيح (المعرب)

(١) قائدان من قواد الحرب الفرنسية الألمانية (١٨٧٠ — ١٨٧١) هزمهما الجيش الألمانى فى هذه الحرب . (المعرب)

لأحد الأباطرة العظام ، يبهر الرائي جلالها وعظمتها » (١) يبدو على هذا القول كثير من المبالغة ، ولكن الذي لا شك فيه أنه كان في هذه الخيمة المزخرفة أريكة من الأرائك التركية المطعمة بالصدف ، البعيدة عن الذوق والجمال الفني بعدها عن النفع ، ثمنها عظيم ولكن الجالس عليها في عنـاء . وقد ترك بعضهم على هذه الأريكة أوسمة حافظ باشا ورسائله .

فلما دخل ابراهيم هذا المسكن المؤقت المترف ، الذي لا نشك في أن ثون ملتكه كان يعده مخالفاً للسطرين الثالث والرابع من الفقرة التاسعة من القسم الرابع عشر من المادة الثانية عشرة بعد المائتين من القواعد الخاصة بنظام الجيوش في الميدان ، كان يكسوه الغبار ويتصبب من جبينه العرق . ولما رأى هذه الأبهة الكاذبة تبسم ابتسامة ملؤها السخرية والازدراء ، ومشى من فوره إلى الأريكة غير حافل بالأوسمة التي لم تكن لها قيمة في نظره ، لأنه أكبر من أن يهتم بهذه الصغائر . ولكن الوثائق التركية وما قد يكون فيها من أمور ذات بال استرعت نظره ، فوقف يفحصها وإذا به يجد فيها فرماناً يعين حافظ باشا والياً على مصر بدل والده (٢) فأمر أن يعنى بفحص الأوراق الباقية عساه أن يجد فيها من المعلومات ما له قيمة حربية . وبعد أن وكل هذه الأمور إلى من يعنى بها ، أرسل الفرسان المصريين لمطاردة الأتراك الفارين ، وأعد العدة لمواصلة الزحف على مرعش وملطية وديار بكر

ويقول لنا القنصل اليوناني العام في تقريره المرسل إلى أثينا إن ابراهيم كتب إلى محمد علي من خيمة حافظ باشا نفسه ينبئه بهزيمة الأتراك ، وأن الموقعة لم تدم أكثر من ساعتين ، وأن البشير وصل بهذا النبأ السار إلى القاهرة في اليوم الثالث من شهر يوليه (٣) ؛ ومنها أرسل بالبرق إلى الاسكندرية حيث كان الباشا مقيماً في ذلك الوقت (٤) وجاء في تقرير قنصلي آخر أن مدافع الجيش لم تطلق أكثر من ساعة ونصف ساعة ، وأن الأتراك زلزلت أقدامهم فجأة ، فطارت قلوبهم وولوا مدبرين ، وأنهم خسروا خمسة آلاف قتيل ونحو سبعة آلاف أو ثمانية آلاف أسير ، أما عدد الجرحى فلم يرد له ذكر في هذا التقرير (١)

ولم يعش السلطان محمود حتى يعرف نتيجة مناصرته العظيمة ضد أعظم أتباعه وأشدهم بطشاً ، بل وافته المنية بعد يومين من واقعة نصيبين ، وقبل أن يصل نبأ هذه الطامة التي حلت بالجيش التركي إلى الآستانة . ويقول الفيكونت بنسنبي في موته : «لا شك في أن العلة كانت قد نشرت جناحيها عليه منذ شهور ، وأنه لم يحس بوطأتها فظل يعمل كل ما من شأنه أن يعجل يوم حمامه »

وماذا كانت علة السلطان يا ترى ؟ لقـد اختلف الأطباء في تشخيص مرضــه ، فأما الطبيب الانجليزي الدكتور ملجن Dr Milligen الذي عرض عليه فقال إن محموداً قضى نحبه بسبب اضطراب في المخ ناتج من إدمان المسكرات ، وقال الدكتور نونر Dr Neuner الذي كان يعالجه إنه مات بذات الصدر ، ووافق الحكيم باشي التركي كبير أطباء القصر على رأي الطبيب البريطاني (٢)

(يتبع)

محمد بدران

(١) فنترنيه في كتابه السالف الذكر ص ٣٣٠ .

(٢) مصر في القرن التاسع عشر تأليف إدورد جون طبعه في باريس بوازار ص ٤٥٤ ؛ والكتاب مترجم إلى العربية بقلم الأستاذ محمد مسعود . (المعرب)

(٣) في الأصل الانجليزي ٣ يونية ولقد استنتجنا من أول الأمر أنه ٣ يولية ثم رجعنا إلى المصدر الذي اعتمد عليه المؤلف وهو كتاب « النزاع بين تركيا ومصر » فوجدنا تسزا يقول بصريح العبارة إن الأخبار وصلت إلى الاسكندرية من القاهرة بطريق البرق في ٣ يولية ثم تأيد النبأ في المساء بخطاب جاء بالبريد . (المعرب)

(٤) بولينس في كتابه السالف الذكر ص ٧٠

(١) بولينس في كتابه السالف الذكر ص ٧٢

(٢) كدلفين وبرو في كتابهما السالف الذكر ص ٣٠٦ وما بعدها .

مشروع تقسيم فلسطين وأخطاره

لباحث عربي كبير

تتمة ما نشر في العدد الماضي

الأماكن المقدسة

لم تكتف اللجنة الملكية بحرمان العرب من قسم فلسطين الطيب ، مورد حياتهم ، بل سلخت القدس وبيت لحم ومنطقة واسعة توصلهما بالبحر عن البلاد العربية ، ووضعته مع غيره تحت انتداب بريطاني دائم ، بحجة أن المحافظة على هاتين المدينتين « أمانة مقدسة في عنق المدنية » ، كأن العرب لا يعرفون المدنية وكأنهم لا يدركون مقدار ما لهذين المكانين من قداسة

إن العرب هم أكثر الشعوب تقديساً للقدس وبيت لحم ، والانكليز يعرفون ذلك ، غير أنهم اتخذوا مبدأ « المحافظة على قداسة القدس وبيت لحم » وسيلة لسلخهما عن البلاد العربية ، وتسهيلا لتحقيق المآرب اليهودية في هذا الجزء من البلاد المقدسة

مهدت اللجنة الملكية في تقريرها السيطرة اليهودية على هذا القسم من فلسطين ، فهي توحي بأن تكون لغته الرسمية الانكليزية لتزول مع الزمن منه الثقافة العربية والروح القومية . ومهدت السبيل لأن تكون أكثرية موظفي الحكومة في هذه المنطقة من اليهود . إذ هي تقول (صفحة ١٣٨) بأنه لو لم يكن هناك الانتداب الحالي على فلسطين ، لاعتبرت الحكومة اليهود والعرب جماعة واحدة ، ولا تنتخب من بينهم الموظفين حسب كفايتهم لا حسب جنسيتهم ، كما هي الحال الآن ، ولكان أكثرية هؤلاء الموظفين من اليهود لأنهم أكثر كفاية وأكثر مقدرة . وتقول اللجنة بعد ذلك بأن الانتداب الجديد (صفحة ٣٨٢) لن يجعل ثمة مجال للبحث في حفظ التوازن بين ادعاءات العرب إزاء اليهود أو بالعكس ، لأن الحكومة ستنظر إلى جميع السكان نظرة واحدة . ومعنى هذا أنها سوف لا تراعي النسبة بين الموظفين ، بل ستأخذ الأقدر والأقيد لها . والموظفون اليهود أقدر بكثير من الموظفين العرب في نظر لجنة اللورد بيل .

ومتى أصبحت اللغة الرسمية الانكليزية ، ومتى أصبح الوظفون من الانكليز واليهود ، صعب جداً على العرب العيش في هذه المنطقة من بلادهم واضطروا إلى النزوح عنها ، فتصبح الأكثرية الساحقة فيها من اليهود . وحتى لو فرضنا أن عرب هذه المنطقة سيظلون فيها ، فان اليهود سينسلون إليها وسيصبحون فيها أكثرية . وعندها يطلبون إجراء استفتاء سائلين سكان هذه المنطقة فيما إذا كانوا يريدون الانضمام إلى « المملكة اليهودية » أو إلى « المملكة العربية » . وتكون النتيجة الانضمام إلى « المملكة اليهودية » ، ووضع اليهود أيديهم على الأماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية ، وإقامة هيكل سليمان مكان الصخرة الشريفة . . . وستجد الحكومة البريطانية عذرا لذلك تبرر به عملها قائلة بأنها تحب العدل ولا ترغب في حكم جماعة رغم مشيئتهم ! . . .

ثم إن القدس مدينة كبيرة ، يعيش أهلها على الوظائف والموظفين العديدين الذين فيها ، وعلى التجارة مع القرى . فمشروع التقسيم يحرم أهل القدس من الوظائف ويقلل عدد موظفي المدينة ، ويقطع القرى التي تتعامل مع القدس عنها . وسيحل حينئذ أزمة اقتصادية شديدة يقاسي سكان المدينة العرب آلامها . . .

***

تقول اللجنة الملكية إنه « يجب أن يلقى على عاتق الدولة المنتدبة أيضا عبء المحافظة على الأوقاف الدينية وعلى الأبنية والمقامات والأماكن الواقعة في أراضي كل من الدولتين العربية واليهودية والمقدسة لدى العرب واليهود » . وهي في هذا القول تريد إيهام الرأي العام بأن في المملكة العربية مقدسات يهودية ! والحقيقة أن ليس لهم في القسم المنوي إبقاؤه عربياً شيء من هذا القبيل . أما العرب فلهم في مشروع « المملكة اليهودية » جوامع وكنائس وأوقاف دينية وأبنية ومقامات وأماكن مقدسة عديدة ، تتعهد الحكومة البريطانية بالمحافظة عليها ! لقد رأينا قيمة تعهدات الحكومة البريطانية ومدى ما يمكن الاعتماد عليها . . .

ثم ما الفائدة للعرب من بقاء جوامع وكنائس ومقامات مقدسة في قسم من بلادهم يرغمون على الرحيل عنه ؟ إن العرب يقدسون الجوامع والكنائس مادام فيها مصلون ، أما إن قدر للشعب العربي أن يرحل عن وطنه (وهذا لن يكون) فخير له أن تنسف الجوامع والكنائس ، وأن تمحى آثاره المقدسة ، من أن تبقى أثراً يذكر الأجيال بأنه كان في هذه البلاد شعب عربي لم يعرف كيف يحتفظ بها . . .

دولة يهودية

إن لمشروع تقسيم فلسطين فائدة واحدة ، ذكرها اللورد بيل فى تقريره ، وهى تحقيق أحلام اليهود من تأسيس مملكة لهم فى الأرض المقدسة .

لقد منح تصريح بلفور اليهود وطنا قومياً فى فلسطين ، يعطيهم الحق فى القدوم إلى الأراضى المقدسة وسكناها دون أن يغير ذلك كيان العرب وحقوقهم . غير أن هذا التصريح لم يحقق آمال اليهود ؛ على أنهم قبلوه ليكون وسيلة لتحقيق تلك الآمال . وجاء اللورد بيل وأوصى بالغاء الانتداب القائم على تصريح بلفور ، وإعطاء اليهود مملكة فى أطيب قسم من فلسطين ، مستقلة تمام الاستقلال ، ولها ما لأكبر الدول من سيادة ومكانة . ومثل هذه الدولة لاتحقق آمال اليهود كلها ، بل هى إلى إحياء الصهيونية ، بعد أن كادت تفشل ، ووسيلة لإيصال اليهود إلى غايتهم الرئيسية ، وهي : إنشاء دولة يهودية ممتدة من النيل حتى الفرات ، واستعمار الشرق الأدنى ، لاسيما الشرق العربى ، استعماراً اقتصادياً .

إن تأسيس مملكة يهودية فى فلسطين أو فى قسم منها ، مهما كانت رقعته ، خطر عظيم على الشرق العربى أجمع . لأن منح اليهود مملكة معناه تقوية نفوذهم فى جميع أنحاء العالم ، وسيطرتهم على الدوائر السياسية الدولية ، سيطرة تجعل لدولتهم ، مهما كانت صغيرة ، أهمية دولية لا تقل عن أهمية كبار دول العالم . ويتلو ذلك تزلف الدول لهذه الدولة القوية ، فتأخذ فى عقد محالفات معها ، تضمن للدولة اليهودية حرية العمل فى الشرق الأدنى لاسيما فى بلاد العرب منه .

وفى أثناء ذلك تكون « الحكومة اليهودية » آخذة فى حشد اليهود فى « القسم اليهودى » من فلسطين . وقد صرح رجالاتهم من الآن ، بأنه سيبلغ عدد اليهود فى هذا القسم عما قريب خمسة ملايين ، جلهم من الشبان والشابات الصالحين للعمل . لهذا ستكون قوة التجنيد عندهم معادلة ، ان لم تكن أقوى ، لقوة تجنيد بلاد عادية يبلغ سكانها خمسة عشر مليوناً . وستدرب الحكومة اليهودية هذا العدد الكبير من الرجال و الشبان والنساء على الأعمال الحربية . وسيكون لديها جيش قوى مجهز بأحدث عدد الحرب . وزيادة على الجيش المحلى فإن للدولة اليهودية جيوشاً احتياطية منتشرة فى جميع أنحاء العالم . لأن كل يهودى خارج فلسطين سيعتبر نفسه جنديا فى جيش « الدولة اليهودية » ويلبي النداء مهما كان بعده عن الأراضي المقدسة . وليس فى العالم قوة تحول بين ملايين اليهود وبين الانضمام إلى جيشهم فى فلسطين . . . وإن حوادث اسبانيا الحالية خير برهان على ذلك .

وقسم المملكة اليهودية من فلسطين لا يتسع بصورة طبيعية لأكثر من مليون . فمتى وجد فيه ثلاثة ملايين إن لم نقل خمسة أو أكثر ، اضطروا بحكم الطبيعة إلى التوسع ، ولا توسع لهم إلا فى البلاد العربية . أما استيلاؤهم على بقية فلسطين وشرق الأردن فسهل متى كان لهم مملكة ، لعوامل اقتصادية عرضناها فيما تقدم . ومتى استولوا على « المملكة العربية » المنوي خلقها زاد عددهم فى فلسطين ، حينئذ يوجهون وجههم شطر سوريا ولبنان . وعندذلك ، مهما كانت شجاعة العرب ، ومهما كان صبرهم على القتال ، لا يكون فى مقدور جيش القطر السورى الشقيق ، حتى وإن عاضده بقية البلاد العربية ، الوقوف أمام جيش « المملكة اليهودية » العديد والمجهز أحسن تجهيز حربى حديث . . . ومتى زال استقلال سوريا ، هدد العراق ، ومصيره أن يجزأ بين الطامعين فيه ، يدخل قسم منه فى المملكة اليهودية . أما مصر فستجابه خصما عنيداً يكون عونا لأعدائها عليها . . .

ولنفرض أن لا خوف على استقلال سوريا والعراق ومصر السياسي من « الدولة اليهودية » ، فإن هذه البلاد سوف لا تنجو ولن تنجو من استعمار اليهود الاقتصادى لها . فوجود دولة يهودية فى فلسطين أو فى قسم منها معناه زوال كل ما لمصر من أمل فى زعامة البلاد العربية ثقافياً واقتصادياً ، إذ ستكون الدولة اليهودية حائلا بينها وبين هذه البلاد ، وسوف لا تنجو هى من استعمار اليهود الاقتصادى . ومعناه أيضاً زوال كل ما للعراق من أمل فى تقوية الرابطة بين البلاد العربية ، وتوحيدها ، ومن وصوله إلى البحر الأبيض المتوسط . أما سوريا ، بما فيها لبنان ، فان لم يزل استقلالها زوالا نهائياً ، فستكون تحت نفوذ الدولة اليهودية سياسياً واقتصادياً . . .

إن وجود « مملكة يهودية » فى فلسطين أو فى قسم منها ، ضربة قاضية لآمال العرب (بما فيهم مصر) ، وسبب لفقدان السلام والهدوء من الشرق العربى . لهذا يجب على كل عربى أن لا يرضى أبدا بتقسيم فلسطين ، ولا يمكن الحكومة منه . ويجب على جميع البلاد العربية أن تتساند وتحول دون تأسيس مملكة يهودية فى قسم من فلسطين ، فتحول بذلك دون وقوع الأخطار العديدة التى ذكرنا بعضها .

اقتصادى

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٥ —

كتاب البوذية

جمع تلاميذ بوذا الأولون حكمه وعظاته وتعاليمه ومناهج حياته العملية وضموا إليها قصصاً عجيبة وأساطير شيقة عن التجسد والتناسخ، وأخرى حوت كثيراً من معجزات بوذا وخوارقه للعادة وغير ذلك، فبلغت هذه المجموعة نحو عشرين مجلداً أطلق عليها كتاب «السلال الثلاث» ولكنها لم تكن مصونة صيانة «الفيدا» ولا صيانة «البيرانات» أو أي كتاب آخر من كتب البراهمة التي أقامت حولها القداسة سياجا من المناعة حفظها من التبديل. ولهذا مازج كتاب البوذية كثير من الخلط والعبث والانتحال حتى دس على بوذا مالم يدر له بخلد أو يخطر له على بال.

تطور البوذية

لم تظل البوذية طويلا على هذه البساطة التي رأيناها، إذ لم تلبث أن تحولت إلى ديانة معقدة، فيها كثير من الظلمة والخفاء و «الماوراء» الطبيعيات، فبوذا قد تحول إلى إله خفي ذي أسرار عجيبة، منها أن الإله تجسد في بوذا، لينقذ البشرية بأن يحمل عنها عبء خطاياها القديمة، ويحول بينها وبين ارتكاب أخرى جديدة، لا بواسطة نشر نور المعرفة بين الناس كما كانت الحال في العهد الأول، بل بطريقة فيها من الأسرار العويصة ما يجعل الفرق بين العهدين بعيداً والخلف شاسعاً. وليس هذا فحسب، بل إن بوذا قد أصبح بعد هذا التطور رمزاً للإله المنقذ الذي جعل يجيء إلى هذا العالم الأرضي من حين إلى آخر، متقمصاً جسد أحد بني الانسان، لينقذ البشرية في شخصه الذي يسمى في كل مرة «بوذا» ويجري عليه ما يجري على أفراد بني الانسان جميعاً من أكل وشرب وزواج وإنسال وغير ذلك من خصائص الأناسي. وقد كان بوذا الذي نحن بصدد مذهبه الآن هو الرابع من هؤلاء الأشخاص الذين تقمص الإله أجسادهم.

الفلسفة البوذية

لما تطورت البوذية على النحو الذي رأيناه آنفاً وخاضت فيما وراء الطبيعة، كان من المحتم أن يكون لها فلسفة، لاسيما وأن عناصر هذه الفلسفة موجودة في التعاليم الأساسية لهذه الديانة حيث قرر بوذا كما أسلفنا أن النجاة لاتتحقق إلا بعاملين متلازمين الزهادة والمعرفة، وأن من شأن الأولى أن توجد ديانة متصوفة، ومن شأن الثانية أن توجد فلسفة معقدة، وهذا هو الذي كان بالفعل، إذا أعلنت البوذية أن الانسان لايكون حكيما إلا إذا تمت له المعرفة، وهي لاتتم إلا إذا مر أمامه سلسلة مشاكل الكون المتماسكة الحلقات وأخذ في حل حلقاتها واحدة بعد واحدة. وعندها أن سلسلة المشاكل الكونية يجب أن يبدأ في حلها على النحو الآتي:

حيث إن الحياة مزيج من الألم والشيخوخة والموت، فأول الأسئلة التي ترد على الذهن هي: س: لم كان الموت؟. ج: لأننا ولدنا، ومن ولد يجب أن يموت. س: ولم ولدنا؟. ج: لأننا موجودون، والولادة والموت نوعان من الوجود، فالموت يقودنا إلى الحياة، والحياة تقودنا إلى الموت. س: ولم كان هذا الوجود؟ ج: لأننا خاضعون لارتباطات وثيقة بكل ما يغذي وجودنا، ولا سيما بالقوى الثلاث: المادية والنفسية والأخلاقية. س: ولم كان هذا الارتباط بالأشياء الخارجية أو الميل إليها أو الاتصال بها؟ ج: لأننا بالرغم من آلامنا الكثيرة نحس بظمأ إلى الحياة وشغف بها. س: ولم كان هذا الظمأ؟. ج: لأننا — وقد منحنا الاحساس — ننعطف بعزيزتنا إلى البحث عن الاحساس اللذيذ، وهو يوجد في استمرار الحياة. س: ولم كان هذا الاحساس؟: ج؟ لأنه يوجد تماس بين أعضائنا وبين الأشياء الخارجية. س: ولم كان هذا التماس؟ ج: لأن لنا حواس ستاً تتجاوب مع ستة أنواع من الأشياء أو مع ست حقائق موضوعية وبالأحرى مع ستة اختصاصات. س: ولم كان الاختصاص؟ ج: لأن كل مشخص يتألف من كائنين: المادة والمدرك. ومعنى هذا أنه اسم وصورة في آن واحد. س: ومم جاءت الاسمية والصورية؟. ج: جاءت من أنه توجد معرفة، ووجود المعرفة يستلزم وجود كائن معنوي جدير بأن يعرف كما يستلزم وجود

عملية المعرفة . س : ومم جاءت المعرفة ؟ ج : جاءت من أن طبيعتنا مكونة من استعدادات شتى ، وأن سلوكنا الحاضر وليد نتائج معارف سابقة . س : ومم جاءت هذه الاستعدادات ؟ . ج : جاءت من الجهل الطبيعي فينا ، لأننا لو كنا نملك المعرفة الحقة لما سقطنا في السطحية التي تطبقها استعداداتنا تطبيقاً عملياً في كل لحظة .

الكون عند البوذية

كل شيء حركة دائمة ، وليس هناك في الحقيقة كائنات موجودة ، وإنما كل ما في الكون لا يزيد على أنه حالات لهذه الحركة الأبدية يمتاز بعضها عن بعض بفروق ناشئة من سنن طبيعية لا يؤلف بينها عنصر جوهري شامل ، وإنما هي موجودة من نفسها وبفعلها تتكون حوادث الوجود . فإذا اتخذنا الانسان مثلا كنموذج لبعض الظواهر الناشئة من السنن الكونية وجدناه مؤلفاً من خمسة عناصر : المادة والاحساس والادراك والنمو والوجدان .

وترى الفلسفة البوذية أنه لاثبات لأي واحد من العناصر على حالة واحدة ، وتتخذ من هذا برهانها على أنه لا يوجد في الكون جوهر يؤلف بين الحوادث الكونية المشاهدة ، إذ لو كان هذا الجوهر موجوداً لما كان كل ذلك التعقد الذي يرافق هذه الظواهر دائماً ، ولشاهدنا فوق ذلك أثره الخاص ، مع أن الواقع أنه لا يشاهد لغير الظواهر الطبيعية أي أثر ، فمثلا الشهوة والجهل المجتمعان أبداً ينتجان أحداثاً ، والأحداث تنتج انفعالات ينشأ عنها إدراك الكائن لأنيَّته . وهذه الانفعالات وذلك الإدراك للأنية ينتجان الوجود الشخصي ، وهذا الوجود الشخصي ينتج الحواس ، والحواس تنتج التماس مع الأشياء ، والتماس ينتج الاحساس ، والاحساس ينتج الرغبات ، والرغبات تنتج تشرب المشتهيات . وهذا التشرب ينتج الصيرورة ، والصيرورة تنتج التوالد ، والتوالد ينتج الألم والشيخوخة والموت ، والموت ينتج الحياة بوساطة التناسخ ، وهكذا تتكون دائرة الحركة المتداخل أولها في آخرها تداخلا محكما .

النفس عند البوذية

تنكر البوذية النفس كما تنكر كل ما وراء الطبيعة ، ولكن آخر حلقة من هذه السلسلة المنطقية التي أسلفناها وهي حلقة التناسخ لا تلبث أن تخلق مشكلة عويصة وهي : إذا كان عنصر حياة مذهبكم هو التناسخ ، فما هو ذلك الكائن الذي يتناسخ ؟ فإن قلتم : إنه الجسم فلا يمكن أن يتناسخ جسم في جسم ، لأنه يلزم عليه أن يتضخم هذا الكائن إلى مالا نهاية ، أو أن يذهب منه شيء ويحل محله شيء آخر ، فيترتب على ذلك تشويش في النظام لا حد له ، إذ يعاقب البريء على جريمة الآثم ، ويثاب المجرم على براءة البريء ، وهذا لا يقبله عقل ؛ وإن قلتم : إن ما يتناسخ هو شيء غير الجسد ، قلنا لكم : ما المانع من أن يكون هو النفس ؟ غير أن البوذية تنفلت من هذا الجواب كما هو شأنها كلما أحرجت بأسئلة ما وراء الطبيعة وتقول : إن هذا السؤال غير مفيد ، لأن جوابه غير محدود ما دامت عناصر الشخص بعد موته ليست عينه تماماً وليست غيره تماماً ، وإنما هي مزيج من العينية والغيرية معاً

مصير البوذية

حينما نشأت البوذية كانت البراهمية قد خلقت بعض الشيء ، فاستطاعت تلك الديانة الناشئة أن تهزمها وتحصرها في أمكنة معينة من بلاد الهند ، ولكن البراهمية لم تلبث أن استردت قوتها وحملت على البوذية حملة عنيفة أجلتها بها عن أكثر البلاد الهندية ، حتى إذا فتح الاسلام الهند أجهز على البقية الباقية منها ، ولكن هذه الديانة حينما أجلتها البراهمية في القرون الأولى للميلاد المسيحي لم تكن قد انعدمت من الوجود ، وإنما كانت قد تفرقت شمالاً وجنوباً إلى الصين واليابان وجاوة وسومطرة ، وظلت هناك حيث التقت بالاسلام فصدمها خصوصاً في جاوة وسومطرة صدمة قاسية لم تقو بعدها على الناهضة والغلاب فتخلت له عن الميدان معترفة بأن البقاء للأصلح ، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن نجد لسنة الله تبديلا

ولكن ليس معنى هذا أن البوذية قد امحت من سجل الكون ، كلا فهي لا تزال تحتل قلوب الملايين من بني البشر وإن كانت قد تبدلت تماماً وخضعت لأهواء الشعوب التي اعتنقتها وانهزمت أمام عاداتها وتقاليدها انهزاماً جعلها أثراً بعد عين . فبعض الشعوب مثلا أدخل فيها عبادة النساء ، والبعض الآخر أدخل عبادة الفيلة محتجاً بأن بوذا قد تقمص أجسادها مرات متعددة ، والبعض الثالث جعل من شعائرها أن يباح للكهنة والقديسين كل موبقة مهما بلغت فداحة ما فيها من عهر ومجون ما دام هذا الكاهن يدعي أنه لا يحس أثناء هذا الفجور بسرور إلى غير ذلك مما لم يخطر لبوذا ولا لتلاميذه ولا لأنصاره الأولين ببال

« يتبع » محمد غلاب

أدب المنفلوطى

بقلم السيد جورج سلستى

كتبت على أثر الحملة الطائشة التى قام بها بعض الأدباء على المنفلوطى وأدبه بمناسبة ذكراه الثالثة عشرة

أحق ما يقولون من أن صاحب « النظرات » (ليس بالكاتب ولا الأديب) ، وأنه صنم من أصنام الأدب (يجب علينا تحطيمه وطرحه) ، وأنه خلو حتى (من ناحية واحدة خليقة بالتحليل ووجه واحد جدير بالدرس) ؟ !

أتكون نفثاته الشائقة تفاهة (لا قيمة لها ولا وزن) ، وكتاباته المتنة (مزيفة جوفاء) ، وأدبه الرائع (سقطاً هزيلاً) ؟ !

أبلغ العقوق فى هـذا الجيل حدَّه الأقصى فيتهجم الأبناء على آبائهم والتلاميذ على أساتذتهم ولا يعترفون لهم حتى بالتثقيف ولا يقرون لهم بفضل ولا شبه فضل ؟ !

أكلما طلع كاتب جديد كان القدح أول كلماته ، والنقد الجارح أول نفثاته ، وكان الهدم نصيب نابغة من نوابغ الأدب العالى وقطب من أقطاب الفن الرفيع ؟ !

أحتم على الأديب الناشىء أن يتخذ النقد المر وسيلة لبلوغ ما يصبو إليه من مكانة ، والتهكم اللاذع سبيلا إلى ما يطمح اليه من مقام ، كأن لا نهج إلا هذا النهج ، وكأن الانتاج ليس من مزايا التفوق والنبوغ ؟ !

إننا نكبر الجرأة — والجرأة من مزايا الأديب — ولكن عندما تكون محدودة ، مكبوتة النزوات ، مكبوحة الأهواء ؛ لأن الجرأة الطليقة تهور وجنون .

وإننا نجل النقد — والنقد عماد الأدب الصحيح — ولكن عندما يكون نزيها لا تحامل فيه ولا طعن .

نود أن يكون الناقد فذاً فى أدبه فذاً فى رجولته لأننا نربأ به أن يكون طفيليا يعيش على فتات سواه ، لا ، بل نربأ بكل من يمت إلى الأدب بصلة أو سبب أن يبنى مجده على تقويض زعامة غيره وهدم بنيان سواه .

ليس المنفلوطى بالأديب الكامل ، فالأديب الكامل لم يخلقه الله بعد ؛ ولا هو سيد الكتاب ولا إمام المنشئين ولا أمير الشعراء ولكنه من سادة الكتاب ومن أئمة المنشئين ومن الشعراء المجيدين ، فعلام الانكار ؟ !

وليس المنفلوطى من الروائيين الأفذاذ ولا القصاصين النوابغ ولكنه من خيرة من نقلوا الرواية الأعجمية إلى لغة الضاد وممن كتبوا فى القصة فبلغوا فيها شأواً ؛ فعلام التضليل ؟ !

إن فى أدب المنفلوطى مآخذ ، ما فى ذلك ريب ، ولكن ما ضعف أقله لا ينبذ جله . وعلى الناقد الحصيف ألا يجسم الأخطاء ويتعامى عن مواضع السموّ والجمال .

يقولون إن المنفلوطى لم يكن يهمه من الانشاء غير الأسلوب وفى هذا القول غلوٌّ كثير .

فهو على افتتانه بالمظهر كان يولى «الجوهر» اهتمامه وعنايته ؛ إلا أن روعة أسلوبه طغت على سواها فظهر أدبه أقرب إلى السطحية منه إلى العمق .

والتقعر لم يكن من شأنه فقد كان يلقى بآرائه فى سلاسة ووضوح فى ألفاظ جزلة ناعمة ، فأتت ديباجته وضاءة مشرقة تغمرها العذوبة ويفيض عليها السحر . أيكون ساحر البيان سقيم الأدب هزيله ، وتكون السلاسة جُرْماً والعذوبة إثماً ؟ !

ويقولون إن الجيد فى لغة جيدٌ فى كل لغة ، وإن المنفلوطى إذا نُقِلَ إلى لغة أعجمية تعرَّى من بهرجه وظهر ما فى أدبه من ضعف .

وهذا قول فيه نظر . فليس لقطعة من الأدب الانكليزى جلالها ذاته لدى نقلها إلى الفرنسية مثلا ، ذلك لأن لكل لغة سحرها الخاص فى الأداء والتعبير لا سيما فى الشعر والأدب .

وإنك عبثاً تستطيع بالغاً ما بلغت من قدرة أن تنقل شكسبير بسحره وفتنته إلى لغة أخرى ؛ وما ذلك إلا لأنه كان — وهو المتضلع من لغته البصير بدقائقها وأسرارها — على عنايته

بالفكرة شديد العناية بالأسلوب . ذلك الأسلوب الذى يفقد جل روعته بالنقل .

لندع شكسبير ولنتخذ أحد الكتاب المعاصرين مثالا . وليكن بول فاليرى هذا المثال .

فهذه « مقبرته البحرية » تكاد تكون أحجية ، وهي بالفرنسية مُعجزة فى السبك ، وما أحسب أن أحداً يأنس فى نفسه القدرة على نقلها إلى لغة أخرى ويظل محتفظاً بقوتها وروعتها الأصيلتين ، وليجرب نفسه من يشك فى القول أو من يرتاب فى صحته .

فتلاؤم الألفاظ فى كل لغة له جرسه الخاص ووقعه الخاص ، ولن يكون له مثل وقعه ومثل جرسه فى النقل والترجمة .

ويقولون إن المنفلوطي لم يصوّر إلا ناحية واحدة من نواحى الحياة هى البؤس ، وإنه لم يوفق حتى في هذه الناحية .

وهذا قول مردود ، فقد اشتهر المنفلوطى بمقالاته أكثر منه برواياته ، وهذه « نظراته » فى أجزائها الثلاثة طافحة بكل طريف؛ وقد عالج فيها جمعاً من فنون الأدب وشؤون الحياة الشيء الكثير

وهب أنه لم يكتب فى الاجتماعيات ولا فى الشعر ولا فى النقد الأدبى ، وأنه وقف قلمه السيال على المأساة دون الملهاة ، وعلى تصوير البؤس دون السعادة ، فهل يلام الحزين إن لم يفتر ثغره بالبسمات ؟ وهل تلحى الكئيب إذا لم تعرف مقلتاه إلا الدموع وإذا لم تفض نفسه إلا بما تشعر به ، ويجيش به صدره المجهود ؟ !

ثم من ذا الذي كتب فى البؤس فبلغ مدي المنفلوطى فيه ؟ ومن هو الكاتب العربى الذى حرك بنفثات قلمه مكامن الأشواق وهز مختلف الأحاسيس وتلاعب بالعواطف وأجري الشؤون من العيون كما حركها وأثارها وأجراها مصطفى لطفي المنفلوطى ؟ !

ويقولون إن التكلف احتل كتاباته كلها وإن قلمه كان يجرى بما لم تكن تشعر به نفسه . وفى هذا القول ما فيه من هراء

فلقد قال فيه عارفوه والذين لازموه فى حياته إنه لم يكتب إلا عن فيض شعوره وحسه ، وإن كتاباته صور حقيقية لنفسه ، وإن أدبه وكرم خلقه وما تحلى به شخصه من مزايا وصفات إنما هى رسائله وكتبه لا تنقص ولا تزيد ؛ أما أسلوبه فخال من التكلف وتكاد كلماته الطيعة تسيل رقة وعذوبة

والمنفلوطي إلى هذا كله شاعر مجيد وله قصائد رائعة لا نعيبها إلا قلتها . وهو فى شعره شأنه فى نثره متخير اللفظ متين السبك ، لطيف المعانى بارع الوصف ، وله فى الوجديات غرر وفى الحكم آيات

. . . . وبعد فحسب المنفلوطى فضلا على الأدب العربي أنه انتقل به فى مستهل النهضة من الجفاف إلى الايراق والايناع ، وإنه حبب جمهور المتأدبين في الانشاء الرفيع وأساغ له الاستمتاع بالسلاسة وتذوق العذوبة فيه . وحسبه فخراً أنه نسيج وحده فى عصره لم يجاره فى سحر بيانه منشيء فى جيله

ومن كان له فى الأدب خدمات مصطفى وفضل مصطفى ، فلن يضير مجده تهجم المهجمين ولن ينال من مكانته تشدق المتشدقين

على أنه يؤلمنا والله ألا توزن الأقوال وألا تقدر الرجال

« بيروت » جورج سلستى



رسالة الشعر

مختارات من أدب الرافعى

« انقطع الرافعى عن التعلم فى المدارس بعد حصوله على الشهادة الابتدائية لعلة أصابته فى أذنيه ، فكان لذلك أثر شديد فى نفسه ، وكان بذلك يرى نفسه وهو فى العشرين كأنما ودع الشباب ؛ فهو كثير الالتفات إلى الماضي والحنين إليه ؛ وما كان له ماض بعد إلا المدرسة التى هجرها برغمه من جراء العلة التى نالته . فاستمع إليه فى القطعتين التاليتين يتحدث عن المدرسة وعهد الدراسة كما يتحدث الشيخ الهم عن ماضيه البعيد . والقطعتان من أول ماقال الرافعي من الشعر وهو ابن عشرين سنة » . أما القطعة الثالثة فقد ألقاها فى الحفلة السنوية لجمعية الاتحاد والاحسان السورية المصرية بطنطا فى ٢٢ أبريل سنة ١٩٢١

محمد سعيد العريان

(١) زمن الدراسة

زمنٌ كالربيع حلّ وزالا ... ليت أيامه خُلقن طِوالا !
يحسَب الطفلُ أنه زمن الهمِّ ... وما الهمُّ يعرف الأطفالا
يابنى الدرسِ ، مَن تمنَّى الليالى ... كليا ليكم تمنَّى المحالا
ليلةٌ بعد ليلةٍ بعد أخرى ... وليالى المنى تمرُّ عِجالا
قد خبرْنا الأنامَ فى كل حالٍ ... فإذا الطفلُ أحسنُ الناسِ حالا
وهو إن جدّ لم يزل فى صعودٍ ... وكذا البدرُ كان قبلُ هلالا
غير أن الكسولَ فى كل يوم ... يجد اليومَ كلَّه أهوالاَ
ويرى الكتْبَ والدفاتر والأقـ ... ـلامَ وأوراق درسِه أحمالا
وإذا ما مشى إلى قاعة الدر ... سِ ذراعاً يظنُّه أميالا !
من يقمْ فى الأمور بالجِدّ يهنأْ ... والشقا للذين قاموا كسالى
وزمانُ الدروس أضيقُ من أن ... يجدَ الخاملون فيه مجالا
أيها الطفلُ لاتضيِّع زماناً ... لستَ تَلقَى كمثلِه أمثالا
ربما نلتَ مايفوتُ ، وهيها ... تَ إذا فاتكَ الصِّبى أن تنالا !

(٢) بعد المدرسة

ما لأيام ذا الصِّبَى تتفانَى ؟ ... وقديماً عهدتُها تتوانَى
ذهبتْ بالصِّبى ، سلام عليها ... من فؤادٍ بحبِّها ملآنا
كل ذى حالة سيُمْنَى بأخرى ... ويلاقي بعد الزمان زمانا
والفتى مَن إذا تغيَّر حالٌ ... لم يقف فى وُجوهه حيرانا
هذهِ ساعة الحصاد ، فمن كا ... نَ تَمَنَّى أراحَه ما عانَى
والذى يزرع التهاونَ فى الأشْـ ... ـياءِ لايجتنيه إلا هوانا
ليس يُجدى الإنسانَ أن يأمل النا ... سُ فلاناً من قومه وفلانا
فاسْعَ فى الأرض، إن عِقبان هذا الْـ ... ـجوِّ لايرتضين فيه مكانا
واحذر الناسَ، إنما يأمن النا ... سَ صَبِيٌّ يظنُّهم صبيانا
واركب الجِدّ فى الأمور ولا تجْـ ... ـبُنْ إذا فات بعضُها أحيانا
إن هذا الوجود كالحربِ: لايُكْـ ... ـرَمُ فى الحرب من يكون جبانا

« سنة ١٩٠١ »

مصطفى صادق الرافعى

(٣) مصر والشام

يا نسمة النيل مُرّي بالسلام إلى ... نعيم وادي الهوى في أرض لبنان

إلى النسيم الذي رقَّت نضارتهُ ... كدمعة الفجر رفَّتْ فوق ريحان

إلى النسيم الذي يَنْدَى على كبدي ... ندى السرور على آفاق أحزان

إلى النسيم الذي من طول أُلفتهِ ... للزهر أحيا بروح الزهر أغصاني

بالله يا نسمات النيل طِرْنَ إلى ... ذاك النسيم بأشواقي وتحناني

قلبي يرفُّ رفيفَ الطير بينكما ... كأنما أنتما فيه جناحانِ

* * *

لمصر في حقها الأدنى عليَّ هوًى ... وللشآم هوًى في حقها الداني

لستُ الكريم بذاتي إن رعيتُ لها ... عهداً ولم أرْعَ فيه عهدَ جيراني

* * *

يا مصر أرضُك مهدُ العقل كان بها ... والشام منبتُ أرواحٍ وأديانِ

نبوّة العقل في مصرٍ، وجارتُها ... نبوّة الروح فيها منذُ أزمانِ

كلتاهما تركتْ في الدهر معجزةً ... إيمانُ عقلي فيها عقل إيماني

معنًى من الحسن أعياني تفهُّمُهُ ... لكنهُ هو معنى الخالدِ الفاني

* * *

الشام من مصرَ، لكن قد تجاورتا ... لتُصبحا المعالي شبهَ ميزانِ

ألم ترَ الدهرَ وزّاناً بمجدهما ... مُلكاً بملكٍ وتيجاناً بتيجانِ

الشام من مصرَ لكن قد تباينتا ... لأنَّ حسنَهما في الأرض حُسْنانِ

لونانِ في واحدٍ كالغصنِ تنظرهُ ... لوناً وبالوردِ غصنُ الوردِ لونانِ

والشرق وجهٌ من الدنيا تطلُّ بهِ ... ومصرُ والشامُ في ذا الوجهِ عينانِ

يا مصرُ يا سوريا أالمجدُ (دائرةٌ) ... وأنتما في محيط المجد (قُطران)

كلاكما مُشبهٌ في الحسن صاحبَهُ ... أأنتما واحدٌ أم أنتما اثنانِ

أري المالكَ إخواناً مُعَلَّقَةً ... لكنما مصرُ والشامُ الشقيقانِ

لو تسألُ الأرضُ: أين أبناك؟ لالتفتتْ ... إليهما ثم قالتْ: هاهما ذانِ

رحلة ماتنقضي

للأستاذ فخري أبو السعود

ماطول لبثي في ديار قرار ... والنفس تائقة إلى الأخطار؟

إني سئمتُ لطول لبثيَ موطني ... ورغبت عن خدني وعفتُ جواري

ومللت نفسي إذ غدت وكأنها ... دثر من الأطلال والآثار

قد آدها طولُ القعود ولم تزل ... وثابة العزمات والأوطار

لأجددنَّ برحلة عزماتها ... وأصدَّعَنْ عنها قيودَ إسار

أأقيم في أرض وفكريَ ماوني ... في الكون عن دأب وعن تسيار؟

تالله أهدأ أو تُسابقَ خطوتي ... خطواته في شاسع الأقطار

في رحلة في الأرض تعقب رحلة ... لم أدر غايتها وأين قراري

أحثُّ خطوي في مسارح لم تُجَبْ ... بالكهرباء ولم تُجَزْ ببخار

متمليًا أنَّى ترامتْ بي النوى ... من فتنة الأرياف والأمصار

ألقى شروقَ الشمس يوماً من ذرى ... طود ويوماً من عباب بحار

وتظل دائبةً وأمعنُ دائباً ... حتى أودع قرصها المتواري

وأسيرُ من رمل لوادٍ معشب ... غشَّتْ حصاه سواقطُ الأزهار

نفسي هنالك صاحبي أكرِمْ به ... من صاحب من صفوة الأخيار

أنسى على سَنَن الطريق بلابلي ... ويخف ما بالنفس من أوقار

وأرى الحياة مع المسير جميلةً ... والمكثُ حلفُ الهم والأكدار

ويقول مَن هذا الغريب مُعاشرٌ ... أنا فيهمُ سرٌّ من الأسرار

أغشى ديارهمُ وأطوي أفقهم ... وأمرّ فيهم كالخيال الساري

وهُمُ حيالي دائبون بمسرح ... للعيش ذي وِرْدٍ وذي إصدار

فكأنهم دوني شخوصُ روايةٍ ... عُرضتْ مشاهدها على النُّظّار

ياليت عمري رحلة ماتنقضي ... موصولة الأسفار بالأسفار

لا أصطفي وطناً ولا آوي إلى ... دار فهذا الكون طراً داري

لادارَ إلا حيث أغنَى في حمى ... جبلٍ مُنيف أو مَعين جار

أروى فؤادي من مباهج عالم ... هو مسرح الألباب والأبصار

وأبيع في الأسفار عمراً واحداً ... أشرى به ألفاً من الأعمار

فخري أبو السعود



رفائيـــــل

RAFFAELLO SANTI

الفنان أبداً

للدكتور أحمد موسى

— ٢ —

أما فى الغرفة الثانية Stanya d Eliodoro (١٥١٢ — ١٥١٤) فقد صور مناظر دينية ومناظر قصصية ، تناول فى الأولى العلاقة بين الكنيسة والخالق ، وتحرير الكنيسة الفاتيكانية من أعدائها بواسطة البابا يوليوس الثانى . وفى الثانية مثل طرد هيليودورس من معبد أورشليم بفارس هبط من السماء . ولعل من أجمل تصاويره (الفرسكو) تلك التى مثلت صد اتيلاس عن روما سنة ٤٥٢ بقوة ليو الأول . وادماج ذلك فى محاربة الفرنسيين وطردهم من إيطاليا بعد مذبحة نوفارا سنة ١٥١٣ . أما القطعة التى مثلت تحرير بترى من السجن بواسطة الملاك فهى أيضاً لا تقل روعة عن سابقاتها .

وتبين صور السقف أربعة مناظر للعهد القديم (بحالة سيئة الآن) ، الأول يهوا وموسى ، والثانى فداء اسحاق ، والثالث ظهور يهوا لنوح ، والرابع حلم يعقوب .

وفى الغرفة الثالثة Stanya dell Encendio (١٥١٤ـ١٥١٧) سنجل عصر البابوين ليو الثالث والرابع .

أما القطعة التى مثلت مأساة احتراق بورجو بالحى الفاتيكانى ومحاولة البابا ليو التاسع إخمادها ، وسيره فى التصوير على الخط الاغريقى الرائع الذى مثل خرق ترويا فإنها من أعظم ما أنتجه رفائيل .

وفى الغرفة الرابعة Stanz a Constantine ترى من أبرز فيها الذبحة الهائلة بين قسطنطين الأكبر وماكنتيوس ، والتى لم يتم تلوينها إلا بعد وفاة رفائيل بواسطة تلميذه رومانو



١ — مادونا ديللا سيديا — فلورنسا

وله من الأعمال العظيمة غير ما ذكرنا زخرفة وتحلية بعض الأماكن والمسالك القبية بالفاتيكان ، وقد قام بهذه المهمة الفنية تلبية لطلب البابا ليو العاشر ؛ فعمل بالدور الأرضى وبالدور الأعلى كثيراً من المناظر الدينية وبخاصة تلك التى تنتمى إلى العهد القديم ، صور منها على السقف اثنتين وخمسين قطعة مساحة كل واحدة ١٣ × ٤ أمتار كلها بالفرسكو ، كما رسم كثيراً من النقوش والزخارف العربية وغيرها ووصل فى ذلك إلى غاية الاتقان مع وضوح اتساع خياله وروعته . ولم يقم بالعمل جميعه بمفرده ، كما كان الحال عند ميكيلانجلو ، بل استعان بتلامذته في التنفيذ بعد وضعه التصميم بنفسه . ومن بين هؤلاء التلاميذ من هو جدير بالذكر حقاً أمثال رومانو ، وبين ، وبيرينو دل باجا ، وكالدارا

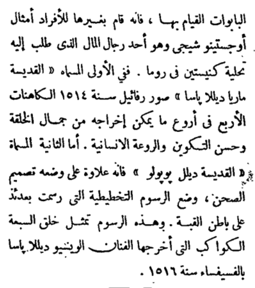


٢ ـ مادونا كونستبيلا ـ بطرسبرغ

وله كرتونات مصورة بالماء (١٥١٥ — ١٥١٦) ، جعلها لتغطية الأجزاء السفلى لحوائط الفاتيكان في أيام الأعياد الرسمية ، هي أشبه بتلك التي تراها في القصور إلى منتصف القرن التاسع عشر وكلها تشمل مناظر دينية من أهمها عودة بولس ، وتحرير بولس من سجنه ، وبطرس يستلم مفاتيح السماء من يسوع ، وشفاء الأعرج ، وموت أنانياس ، ومعاقبة كلماس بالعمى ، وبولس ويرنابا في ليسترا ، وبولس يعظ في أثينا ، والسبع الأخيرة من هذه القطع الكرتونية موجودة بمتحف ساوث كنسنجتن بلندن

وله قطع جمعها للنسيج وعرضت في الفاتيكان لأول مرة في ٢٦ ديسمبر سنة ١٥١٩ بالكابيلا سكستينا لمناسبة « يوم استفان » وهذه كلها جمعت منذ حوالى مائة وعشرين سنة (١٨١٤) في مكان خاص (Galleria degli Arazzi) بالفاتيكان . ولهذه القطع أمثلة موجودة بمتحف برلين ودرست منذ سنة ١٧٢٣

وإذا كنا لم نذكر للآن سوى الأعمال التي كلفه



البابوات القيام بها ، فانه قام بغيرها للأفراد أمثال أوجستينو شيجي وهو أحد رجال المال الذي طلب إليه تحلية كنيستين في روما . ففي الأولى المسماه « القديسة ماريا ديللا پاسا » صور رفائيل سنة ١٥١٤ الكاهنات الأربع في أروع ما يمكن إخراجه من جمال الخلقة وحسن التكوين والروعة الانسانية . أما الثانية المسماة « القديسة ديلل پوپولو » فانه علاوة على وضعه تصميم الصحن ، وضع الرسوم التخطيطية التي رسمت بعدئذ على باطن القبة . وهذه الرسوم تمثل خلق السبعة الكواكب التي أخرجها الفنان الوينسيو ديللا پاسا بالفسيفساء سنة ١٥١٦ .

وفي هذه السنة نفسها صور على حائط الردهة الصغرى بڤيلا فارنيزينا صورة « انتصار جاليتيا » ووضع تصميم الرسوم التي أخرجها تلميذاه رامونو وپيني والتي مثلت مناظر عشق « آمور وپسيشه » لسقف الردهة الكبرى .

ومهما يكن من شيء فان خيال هذا الفنان العظيم وقدرته على الخلق الرائع الذي يذهب بالتأمل إلى ملكوت السمو ويحرك لسانه بالتسبيح بقدرة الله ، كل هذا لم يتمثل على أشده إلا في تصوير العذراء التي أفنى روحه وتفانى بكليته في إخراج صورها على أقصى ما يمكن لعقل إنساني أن يتصوره من الجمال .

هذا بيان أساسه المنطق والمقياس الصادق ، ولا أثر للمبالغة فيه ولا إلحاح رغبة في تجليته على صورة تستأثر بإعجاب القارىء ،



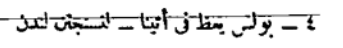
٣ ـ ضحية ليسترا ـ كنسنجتن لندن



وقد أجمع مؤرخو الفن على أنه لم يوجد ولن يوجد فنان بعد رفائيل يستطيع أن يخرج ماريا والطفل بهذه العظمة والقوة والجمال الذي أخرجهما به ، أما حنان الأم وحبها لطفلها وكمال الانسجام الانسانى فى وضعهما فهذه صفات تلتصق بما صوره رفائيل .

أما الطهارة التى تجلت والعفة التى تمثلت فى وجه العذراء ، فهذه عسيرة على غيره من رجال الفن مهما كبر اسمهم .

أحمد موسى


٤ — بولس يعظ فى أثينا — كنسنجتن لندن

فقد يحوم مثل هذا الكلام حول فنان آخر ، أما رفائيل فيكاد نطاق القول يضيق عن تناول حقيقته ووصفه .

وفى هذا المجال العظيم صور رفائيل ، وأظهر نهاية مقدرته ونبوغه ، وقد لجأ بعض المصورين إلى تصوير المادونا ودس ما صوره بين مخلفاته ، ولكنا — خصوصاً فى الوقت الحاضر — بعد تقدم علم التصوير الفوتوغرافى ، لاثبات الصور الحقيقية من المقلدة لا سيا بعد إمكان الكشف عن طبقات اللون على سطح اللوحات واتجاه الفرشاة ، لا نقع فيما وقع فيه بعض مؤرخى القرن الثامن عشر والتاسع عشر .


٥ — قصة صيد السمك — كنسنجتن لوندن



تراثنا الفنى فى ظل الاشراف الأجنبى

من الحوادث المدهشة المؤلمة مما كشفته التحريات الأخيرة من ضياع عشرات آلاف من التحف الفنية النفيسة من التحف المصرى ، مابين تماثيل وصور وحلى فرعونيـة وغيرها ، وقد اكتشفت هذه الفضيحة المؤسية على أثر حادث التمثال الفرعونى الذى اختفى من المتحف وظهر أخيراً فى متحف بافالو بأمريكا ، ثم رده المتحف الأمريكى بعد أن وقف على الحقيقة ، وكان تصرفه مثلا للأمانة العلمية المؤثرة ، وقد كنا نعتقد أن خسارة مصر الفنية تقف عند مجموعات التحف الفرعونيـة النفيسة التى تحتفظ بها متاحف العواصم الأوربية والامريكية والتى تسربت من مصر خلال الخمسين عاماً الأخيرة ومعظمها بطرق غير مشروعة ، على يد البعثات الأجنبية التى تستتر بصفاتها العلمية والأثرية ؛ ولكن ظهر مع شديد الأسف أن البقية الباقية التى استطعنا أن نحتفظ بها من عبث أولئك العابثين ، وأن نودعها فى متحفنا القومى ، لم تسلم أيضاً من الاختلاس والاعتداء ، بل ظهر أن هذا الاختلاس يصل اليوم إلى آلاف مؤلفة من التحف التى أدمجت وقيدت فى سجلات المتحف ولا وجود لها اليوم ؛ ونحن لانعتقد أن هذا الاختلاس المؤلم قد وقع فى يوم أو فى شهر أو أشهر بل وقع بالتوالى خلال أعوام طويلة ولم تفطن إليه السلطات ذات الشأن . ذلك أن تراثنا الفنى كان مع الأسف خلال العصر الأخير تحت الإشراف الأجنبى ، ومنذ أكثر من خمسين عاماً يتولى بعض العلماء الأجانب ، وهم جميعاً فرنسيون إدارة التحف المصرى ؛ وما حدث من تسرب تحفنا ونفائسنا الفنية وقع فى عهد هذه الادارة الأجنبية ؛ وكان صوت المصرى وصوت السلطات المصرية خافتاً فى الماضى ، فلم يرتفع كما يرتفع اليوم بالاحتجاج على هذه الفضائح المزرية ؛ وكان إذا أتيح له الاحتجاج يقنع بالترضية اللفظية . أما اليوم فان مصر لا تستطيع صبراً على هـذا الاعتداء الشائن على تراثها الفنى ، ولا بد من أن تقوم السلطات المصرية بكل ما تستطيع لتعقب الآثار الضائعة ، ولا بد لها قبل كل شئ أن تعتبر بهذا الدرس ، وأن تعمل على رفع الاشراف الأجنبى نهائياً عن المتحف المصرى ، كما وفقت من قبل إلى رفعه عن دار الكتب المصرية بعد عهد طويل من الاشراف الأجنبى تسربت فى ظله معظم التحف الخطية من القطر المصرى إلى ألمانيا التى كان يستأثر علماؤها بادارة دار الكتب المصرية

لسنا ننكر ما أفادته مصر فى العصر الأخير من معاونة العلماء الأجانب ، ولكن التعاون العلمى الصحيح يجب أن ينزه عن أن يتخذ أداة للاستيلاء على تراثنا الفنى والعلمى بوسائل ظهر فى أحيان كثيرة أنها لا تتفق مع مبادئ الأخلاق الرفيعة ، ولا تتفق بالأخص مع الثقة الكريمة التى كانت مصر تمنحها فيما مضى للعلماء الأجانب

مستقبل المهن العقلية

تساءل كاتب فى إحدى الصحف الفرنسية الكبرى عن مستقبل المهن العقلية وأبدى تخوفه من أن يصير التفكير والمهن العقلية إلى مصير سئ ؛ وإذ كان التفكير قوام الحضارات الرفيعة فانه يخشى أن تصاب الحضارة البشرية فى ركن من أعظم أركانها إذا لم تفطن الأمم المختلفة إلى ما أصاب التفكير والمهن العقلية من ضروب الركود والغبن ؛ ويقول هذا الباحث إن الفنون والمهن العقلية قد تضاءلت آفاقها وميادينها فى العصر الأخير وانحط معيارها المادى إلى أدنى الحدود ، هذا فى حين أن الحرف اليدوية والمادية قد ازدهرت وارتفع معيارها المادى ؛ وقد كان الفرق منذ ثلاثين سنة شاسعاً بين المهن العقلية ؛ والحرف اليدوية من حيث التقدير المادى ؛ أما اليوم فقد تضاءل هذا الفرق بل ربما تفوقت الحرف اليدوية فى بعض الأحيان على المهن العقلية ؛ ولنضرب لذلك مثلا ، ففى إدارة شركة من الشركات أو تحرير صحيفة من الصحف ترى

الموظفين الذين يتولون أعمالاً ومهناً عقلية كالتحرير والادارة، يتقاضون أجوراً لاتكاد تزيد على الأجور التي يتناولها بعض رؤساء العمل مثلا، وأحياناً يتفوق هؤلاء في أجورهم على المحررين ويتناول العامل الفني مثلا في مصنع من المصانع أجراً يفوق مايتناوله الطبيب أو المحامي العادي من مهنته؛ هذا مع أن الحالة قبل الحرب الكبرى كانت تختلف عن هذه الحالة كل الاختلاف ويرجع ذلك إلى تنظيم الحركة الصناعيـة والعملية منذ الحرب الكبرى، وتنظيم النقابات والاعتصابات لرفع الأجور والمنح، وتحسين أحوال العمال بوجه عام. أما أصحاب المهن العقلية فلم يفكروا ولم تسمح لهم ظروفهم بخوض مثل هذا الكفاح. بيد أن من الخطر على الحضارة أن يترك أصحاب المهن العقلية دون عون، وأن يدفعوا بفعل الظروف الاقتصادية إلى مصاير سيئة تحملهم على التفكير في تحقيق العيش من طرق أخرى. ومن مصالح الأمم والحضارة أن تدعم الحركة الفكرية والمهن العقلية، وأن تيسر لأربابها سبيل العيش المريح، هذا وإلا فانه يخشى أن يخمد النبوغ وينطفئ وتتحول الحضارة إلى ركام من الماديات المبتذلة.

مؤتمر فني للتربية:

يعقد بمدينة كوبنهاجن عاصمة الدانمارك بين أول أغسطس والعاشر منه مؤتمر للتربية على مبادئ مونتيسوري المشهورة برياسة الدكتورة ماريا منتيسوري صاحبة هذه الطريقة؛ وهذا هو المؤتمر السادس من نوعه، وسيشهده مندوبون عن دول كثيرة وعن طائفة عديدة من معاهد التربية العالمية؛ وستلقي الدكتورة منتيسوري محاضرات في الموضوعات الآتية (١) لماذا يمكن أن تؤثر التربية في سلام العالم (٢) ماذا يجب أن تزود به التربية لكي تعاون على تحقيق السلام (٣) ماذا يجب أن تسلح التربية به لمقاومة أخطار العصر (٤) ضرورة التفاهم العالمي لاعـداد الانسانيـة إعدادا خلقيا (٥) التربية كوسيلة لرفع مستوى الانسان والمجتمع. وسيلقي أعلام آخرون من رجال التربيـة مباحث أخرى، وتبحث أساليب منتيسوري للتربية بحثاً علمياً وفنياً، وتقام في نفس الوقت معرض دولي لمطبوعات هذه الطريقة وأشغال مدارسها.

وقد اشتهرت أساليب منتيسوري للتربية في العصر الأخير، وهي تنسب إلى الدكتورة منتيسوري التي كانت أول امرأة حصلت على درجة الطب من جامعة رومة؛ وتولت إدارة معهد الأطفال الشواذ في سنة ١٨٩٨، وحصلت بطريقتها الخاصة على نتائج طيبة في رفع المستوى العقلي لهؤلاء الأطفال. وفي سنة ١٩٠٧ طبقت الدكتورة منتيسوري طريقتها على الأطفال العاديين وأسفرت عن آثار حسنة وذاعت في عدة معاهد في رومه وميلانو وبعض عواصم القارة. وتقوم هذه الطريقة بالأخص على ما يأتي: (١) تدريب الحواس والنطق (٢) السيطرة على اطراف الجسم وحركاته (٣) تعليم القراءة والكتابة والحساب

وتتبع الآن كثير من رياض الأطفال في اوربا وامريكا طريقة منتيسوري

تأييد تصويب

استدرك قارئ فاضل هو (ش) في عدد الرسالة الماضي على عبارة وردت في مقالي المنشور في الرسالة (عدد ٢١١) تحت عنوان «من ذكريات الحملة الفرنسية» عن الملكة هورتنس بوهارنيه ابنة الامبراطورة جوزفين من زوجها الأول الكونت دي بوهارنيه، إذ ورد به أنها كانت زوجاً للجنرال مورات؛ والواقع أن ذلك سهو يؤسف له؛ وقد كانت الملكة هورتنس في الحقيقة زوجاً لأخي نابوليون، لويس بونابارت ملك هولنده كما ذكر (ش) في ملاحظته؛ أما زوج الجنرال مورات فقد كانت الأميرة ماري كارولين أخت نابوليون؛ وكانت حياة الملكة هورتنس من بعد سقوط الامبراطور في سنة ١٨١٥ حتى وفاتها في سنة ١٨٣٧ مؤسية مؤثرة؛ وتولى أصغر أولادها لويس نابوليون عرش فرنسا فيما بعد باسم نابوليون الثالث

هذا وإني لأشكر لحضرة القارئ غيرته واستدراكه

(م٠ع٠ع)

الملكة هورتنس:

في التصويب الذي نشر في عدد الرسالة الأخير وردت الجملة «فولدت من نابليون الخ» والصواب «فولدت منه» بالهاء والهاء تعود على لويس بونابرت أخي نابليون بونابرت ووالد لويس نابليون الذي صار يعرف باسم نابليون الثالث (ش)



قلب غانيـــة
وقصص أخرى

تأليف الأستاذ محمود تيمور

للأديب محمد فهمى عبد اللطيف

للقصة اليوم فى الأدب العالمى خطر كبير ، ومكانة معتبرة ، فهى فى الأمة مظهر رقيها الأدبى ، وتقدمها الفكري ، وهي وسيلة الكاتب يضمنها ما يريد من إبداء فكرة ناضجة ، أو شرح ظاهرة اجتماعية ، أو تحليل شخصية غريبة ، أو توضيح عاطفة نبيلة ، حتى قضايا التاريخ ، ومسائل العلم ، ومشاكل السياسة ، كلها قد أصبحت تؤدي بالقصص ، وتروى بالحكاية . ولعل من المعلوم أن القصة بمعناها الفنى الدقيق لون جديد فى الأدب العربى كان فى طليعة المضطلعين بأعبائه المرحوم محمد تيمور الكاتب المسرحى مؤلف «الهاوية» و «العصفور فى القفص» و«عبد الستار افندى» وغيرها من القصص التى نسج بردها بأسلوب نازل ، وأخرجها فى لغة عامية مهلهلة ، بحجة أنها أقرب إلى عقل الشعب ، وأنفذ إلى قلبه ، فكان فى صنيعه هذا إرضاء للفن بالموضوع والفكرة وخذلان فى الأداء واللغة . فلما استأثرت به المنية ــ عليه رضوان الله ــ قام من بعده سيد آخر هو الأستاذ محمود تيمور ، فحاول أن يكون نبوغه جماع ما كان لأخيه من الروح الفنية ، وما كان في نفس والده من النعرة العربية ، فصار يكتب القصة بأسلوب مبين ابتعد فيه عن الجفوة والخشونة ، وارتفع به عن السقط والابتذال ، وكأنى به قد ألقى نفسه وحيداً فى الميدان ، واستشعر عظم الأمانة الملقاة على عاتقه ، فأخذ يسد الفراغ بكلتا يديه ، وراح يعمل فى نشاط وتوثب ، مرهفاً العقل والحس ، حتى أخرج للناس وللفن جملة طيبة من القصص الممتع ، نشر جلها فى الصحف وطبع منها نحو ثمانى مجموعات آخرها هذه المجموعة التى بين أيدينا « قلب غانية وقصص أخري » وهى موضع النظر ، ومدار الحديث . . .

ثمانى قصص أو قل ثمانى قطع فنية هي التى تشتمل عليها هذه المجموعة مقدمة بكلمة المؤلف عن حافظ القصصى فى يوم ذكراه . وقصص الكتاب تختلف طولا وقصراً ، فأطولها « قلب غانية » التى وقعت فى صدر الكتاب ، وأقصرها قصة « أم » التى جاءت فى ختامه ، ثم هى أيضاً تختلف فى جوها وبيئتها ، وتتباين بأبطالها وشخصياتها ، ففي قصة « حنين » يدلف بك تيمور إلى صميم الريف العظيم ، فيستطيع أن ينقلك إلى « شمسه المحرقة وظلاله الوارفة ، وهوائه الساخن، ونسيمه اللطيف ، وغدرانه الوديعة ، وسواقيه الناعسة » حتى ليسمعك «خوار بهائمه ، وأغانى فلاحيه» ويريك « البهائم متراصة أمام معالفها ورؤوسها محنية على العلف تأكل فى شره فلا تسمع منها غير جرش وقضم وأنفاس ترددها بين الحين والحين »[1] ، وفى « قلب غانية » يقودك إلى « حى غير مشهور » إذ وراء جدرانه حب قائم ، وغرام يضطرم ، فيطلعك على طراز من الناس تجرى بهم الحياة وهم بطنان ، وتتغير الدنيا في تقاليدها وألوانها وهم لا يرعون مكانهم ، إذ الحياة « لا تستحق عندهم أكثر من حشو البطون ، والنوم ملء العيون وما لهم من الفراغ بعد ذلك فهم يقضونه « فى اطمئنان وتبلد » بين النارجيلة والثرثرة حول سلوك الناس » . وفى قصة « سراب » و « حورية البحر » و « السجينة » يأخذ تيمور بيدك إلى منابت الارستقراطية ، فاذا أنت في أسر من أفرادها الباشا والبك ومن أهون متاعها السيارة والسرة ، ولها الأمر والنهى ، وفيها الخدم والحشم ، والظئر والمربية ، « حياة كلها رخاء وبهجة تسير

(١) هذه الفقرات من كلام تيمور ص ١١٦ وما بعدها وكل ما هو مقحم بين الأقواس .

وفتى الهوى » وكل شيء فيها ميسور « المال والمرأة والأخوان »

أما في قصة « قبلة » فتيمور يهبط بك إلى طبقة نازلة فاذا أنت في « حارة قديمة ضيقة عابثة خالية من المصابيح لا تكاد الشمس تنزاح عنها حتى تستولى عليها وحشة كئيبة » وهناك ترى « الدخاخني والمكوجي وبائع الفول » وتتعرف على السايس والقربجي والزبال إلى آخر ما هناك من الأشخاص والعالم .

فتيمور من غير شك قصص شعبي لا يختص منه بطبقة من الطبقات ، ولا يقصر أدبه على طائفة دون طائفة ،ولكنه يضرب في كل ناحية ويجرى في كل حلبة ، وإن من الدهش حقا أن نرى ذلك الأديب النابه موفقاً في كل قصصه ، صادة في كل ما يصف ، فكأنه نشأ في كل هذه الطبقات وخالطها ولمس أحاسيس أهلها واستشف ما يجول في خواطرهم وما يدور بنفوسهم فهو من الجميع وللجميع ، يستوعب شؤونهم ويتحفز لها بقوة واحدة هي قوة الملكة المصورة ،والنظرة الشاملة ، فكأنه ـ وهو يصف ـ مصور لا كاتب ، وكأن ما يصفه مبسوط أمامه فهو ينقله على وضعه الطبيعي ، ومن ثم كان أدب تيمور هو الصورة الصادقة للحياة المصرية في أدق نواحيها ، فهو للسائح في بلادنا دليل مرشد، وهو للمؤرخ القادم مصدر ناطق ، وهو للاجتماعي الباحث مادة نافعة

وهناك ظاهرة في أدب تيمور يعيبها عليه بعض النقاد ، وهي خروجه على حدود الحشمة والوقار والأخذ عما يسمونه الأدب المكشوف ، وإنك لتجد شيئاً من هذا في قصة السجينة ، وقلب ثانية ، وسراب ؛ وتيمور يدافع عن نفسه بأن « الأدب ليس له عنده غير اسم واحد هو الأدب بمعناه الواسع ، وليس له إلا هدف واحد هو الفن[1] » ، وأنا لا أريد أن أفيض القول في الأدب المكشوف والأدب المستور فان القول في ذلك يطول ، ولكني أريد أن أقول : إن من الخطل أن نتخذ الدين والأخلاق ميزاناً من موازين النقد فنطمس شعر النواسي مثلا لما فيه من العهر والفحش ، وإنما الواجب أن تصور الحياة بالأدب ، وأن نقدر الفن للفن ، وأن نفرق بين الأديب والواعظ ، والظاهر أن القدماء كانوا أسمح منا نفوساً في ذلك ، فقد عاب بعض النقاد شعر ابن حجاج بما تضمنه من فحش المعاني ، فقال ابن سنان الخفاجي يرد عليه : « وليس الأمر عندي على ذلك لأن صناعة التأليف في المعنى الفاحش مثل الصناعة في المعنى الجميل ، ويطلب في كل واحد منها صحة الغرض وسلامة الألفاظ على حد واحد . . .[2] » فان كان في قصص تيمور بعض النواحي المكشوفة فإن في الناس من يقبلها كما أن في الناس من ينكرها ، وهي على كل حال ليست بعيب فني يحصى على الرجل . . .

وأما بعد فهل استطاع تيمور أن ينجو من سنان هذا القلم ؟ لقد حاولت أن أتلمس ما عليه فلم أقع إلا على هفوات طفيفة كأن يقول : « وكان كساب أفندي يرتدى زعبوطا !! » وأنا ما رأيت أفندياً يرتدي زعبوطا إلا في قصة تيمور

ثم هناك هفوات في اللغة والنحو قد يكون من السهل أن يتداركها الأستاذ في طبعة ثانية ، وأنا لست ممن يتساهلون في الخطأ اللغوي والنحوي ، لأن الكاتب الذي لا يراعي أشراط الكتابة هو فنان ناقص ! : وإني لأشهد أن تيموراً قد ارتقى أسلوبه عن ذي قبل ، وهو كل يوم في تقدم مطرد ، وإني لأرجو له تقدماً أوفى وأتم ؟

محمد فهمي عبد اللطيف

(١) الرسالة ٢٠٢ (٢) كتاب سر الفصاحة

5 me Année, No 214. — Lundi - 9 - 8 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تلفون ٤٣٠١٣

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

السنة الخامسة « القاهرة فى يوم الاثنين ٢ جمادى الثاني سنة ١٣٥٦ — ٩ اغسطس سنة ١٩٣٧ » العـــدد ٢١٤

فهرس العـــدد

مصطفى لطفى المنفلوطى

بمناسبة ذكراه الثالثة عشرة (١)

— ٢ —

كان مولد المنفلوطى كمولد الرافعى فى بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتى سنة ؛ ولكنه كان خِلْفة لنبعتين مختلفتين : فأبوه عربى صريح النسب إلى عترة الحسين ، وأمه تركية شابكة القرابة إلى أسرة الجوربه جي ؛ ونهج المنفلوطى سبيل آبائه فى الثقافة ، فحفظ القرآن فى المكتب ، وتلقى العلم فى الأزهر ؛ إلا أن للأدباء من أبناء الفقهاء نبوةً فى بعض الحالات على إرادة الوراثة والنشأة ؛ فهم يصدفون فى منتصف الطريق عن دروس الفقه

(١) أنظر العدد ٢١٠ من الرسالة

والأصول والعقائد ، إما لأن أذواقهم الأدبية الموهوبة لا تسيغ أساليب كتبها المعقدة ، وإما لأن طباعهم المدنية الحرة لا تطيق الحياة الدينية المقيدة . فكان السيد مصطفى على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يُلقي باله كثيراً لغير علوم اللسان وفنون الأدب ؛ فهو يحفظ الأشعار ، ويتصيد الشوارد ، ويصوغ القريض ، وينشئ الرسائل ، وتسير له شهرة في الأزهريين بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ الإمام ويرسم له الطريقة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة . ثم يستفيد المنفلوطي من قربه إلى الإمام صلته بسعد باشا ، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين نُفوقه لدى (المؤيد) ؛ والامام المجتهد محمد عبده ، والسياسي الخطيب سعد باشا ، والصحفي الكاتب علي يوسف ، كانوا أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده ؛ وأولئك الثلاثة كانوا على ما بينهم من التفاوت في نواحي النبوغ أفهمَ رجال العصر الحديث لحقيقة الأدب وأشدهم حدبا على بؤس أهله

كان المنفلوطي لا يعمل جاداً لشهادة الأزهر ، وإنما كان يعتمد في نيلها على جاه الإمام ، كما كان يعتمد من هم على شاكلته من أبناء العلماء على وساطة والديهم ؛ والإمام المفتي مفسر وحي الله ، وشارح فن عبد القاهر ، ومعيد الأدب إلى الأزهر ، كان يقيس كفاية الطالب بمقياس سيبويه لا بمقياس أبي حنيفة . فلما قبضه الله إلى رحمته جزع المنفلوطي فيه على سنده وأمله ، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده . ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن فهب يبتغي في (المؤيد) الوسيلة إلى النباهة والنجح ، وأوى من الوزير سعد باشا حامي النبوغ إلى ركن منيع ، فخلق له منصب التحرير في وزارة المعارف فضمن له به رغد العيش ووفرة الانتاج حتى اختار الله له ما عنده .

* * *

كان المنفلوطي أديباً موهوباً حظ الطبع في أدبه أكثر من حظ الصنعة ؛ لأن الصنعة لا تخلق أدبا مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة ؛ والنثر الفني كان على عهده لوناً حائلا من أدب القاضي الفاضل ، أو أثراً ماثلاً لفن ابن خلدون ؛ يتمثل الأول قوياً في طبقة المويلحي وحفني ناصف ، ويظهر الثاني ضعيفاً في طبقة قاسم أمين ولطفي السيد ؛ ولا يستطيع ناقد أن يقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين ؛ إنما كان أسلوب المنفلوطي في عصره كأسلوب ابن خلدون في عصره بديماً أنشأه الطبع القوي على غير مثال ؛ والفرق أن بلاغة (النظرات) مرجعها إلى القريحة ، وبلاغة (المقدمة) مرجعها إلى العبقرية .

أعلم أن المنفلوطي تأثر في القديم بابن المقفع وابن العميد ، وفي الحديث بجبران ونعيمة ، ولكن هذا التأثر دخل في فنه دخول الإلهام والإيحاء ، لا دخول التقليد والاحتذاء ؛ فله من الأولين إشراق الديباجة وقوة النسج ، وله من الآخرين جدة الموضوع وطرافة الفكرة ، ولكنك لا تتذكر وأنت تقرأه أحداً من أولئك جميعاً

عالج المنفلوطي الأقصوصة أول الناس وبلغ في إجادتها شأواً لا ينتظر من نشأة كنشأته في جيل كجيله . وأذكر أننا كنا نقرأ (غرفة الأحزان) و (اليتيم) وأمثالها فنطرب للقصة على سذاجتها أكثر مما نطرب للأسلوب على روعته . وسر النبوغ في أدب المنفلوطي ظهوره على فترة من الأدب اللباب ، ومفاجأته الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف الألم ويمثل العيوب ، في أسلوب طلي وسياق مطرد ولفظ مختار . أما صفة الخلود فيه فآتية من جهتين : ضعف الأداة وضيق الثقافة . فأما ضعف الأداة فلأن المنفلوطي لم يكن عالماً بلغته ولا بصيراً بأدبها ، لذلك تجد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه . وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالاً مباشراً بعلوم الغرب ؛ لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة . فإذا قدر الله لأدب المنفلوطي أن يفقد سحره وخطره في أطوار المستقبل ، فإن تاريخ الأدب الحديث سيقصر عليه فصلاً من فصوله يجعله في النثر بمنزلة البارودي في الشعر . وكفى بذلك عرفان فضل وخلود ذكر . أما مسألة الأدب الباكي والأدب الضاحك ، أو الأدب الضعيف والأدب القوي فمغالطة مريضة من النقد سنعرض لها في فرصة أخرى .

احمد حسن الزيات

أدب التمـــرد

للأستاذ عباس محمود العقاد

في ختام مقالنا عن أدب الموافقة قلنا « إن أناساً يتمردون ولا يجيئون بخير مما هو منظور من الأدباء الموافقين المستسلمين ، لأن التمرد المصطنع إن هو إلا موافقة مستورة ومجاراة معكوسة : فيه كل ما يؤخذ على التقليد من نقص ، وكل ماينعي عليه من وخامة ، وذلك ما نعود إلى تفصيله في مقال تال »

فليس كل التمرد إذن خيراً من كل الموافقة ؛ وليس كل التمرد ابتكاراً وخلقاً واستقلالا بالرأي والفطرة . فكيف على هذا نميز بين التمرد النافع المحمود والتمرد الذي هو ضرب من الموافقة المعكوسة ؟

والمحك الذي لايخيب ولا يخطئ في التمييز بين كل أدب صحيح وكل أدب سقيم هو هذا : هو أن الأدب الصحيح لن يكون آلياً يجري على نمط الأشياء التي تصنعها الآلات والتي تعرف سلفاً كما يعرف كل مصنوع في قالب مصبوب .

والأدب الذي يوافق ولا يخالف « آلي » محض ، لأن صاحبه ينزل عن مرتبة الانسان إلى مرتبة الآلة التي تحذو حذو ماسبقها ولا تضيف إليه أو تمسه بتحسين وتنقيح .

وكذلك الأدب الذي يتمرد على كل شيء ولا يميز بين ما هو أهل للموافقة وما هو أهل للنسخ والمناقضة إنما يصنع كما تصنع الآلة ويغنيك عن صاحبه كل الغنى ، لأنك تعرف رأيه قبل أن تسمعه ، وتدرك أسلوبه قبل أن تراه .

وغاية ما بين هذا وذاك من فارق أن الموافق يؤتى له بشيء فيراه كما يراه السابقون ولا يجب أن يراه على خلاف مانحلوه من لون ورسموه من شكل ونهجوه من طريق : يقال له هذا أبيض ، فيقول نعم هذا أبيض ؛ ويقال له هذا جميل ، فيقول نعم هذا جميل .

أما المتمرد الكاذب أو المتمرد المصطنع فأنت تعلم مايقول عن الأبيض قبل أن يلمحه بعينه ، وما يقول عن الجميل قبل أن يتأمله بفكره ويروزه بحسه وبصره : فالأبيض عنده أسود ، والجميل عنده قبيح ، والنافع عنده ضار ، والضار عنده نافع على غير قياس وفي غير تمييز وتمحيص . فاذا به ينزل عن مرتبة الانسان وينقلب آلة معروفة الوزن والحساب على العكس والمناقضة ؛ ومثل هذا لايخلق جديداً ولا يحمل في عالم الأدب والفن أمانة ، ولا يبالي بشأنه إلا كما يبالي بشأن المريض لاستطلاع حالة من أحوال سقم النفوس والأذواق .

***

إن « الآلية » هي الوصف الوحيد الذي ماجاز قط ولن يجوز أبداً في نتاج أدب صحيح أو فن صحيح .

وإنما يجوز الخلاف فيما عدا ذلك من الأوصاف . أما وصف الآلية فالاتفاق على انكاره بداهة من البداهات ، إذ كان معدن الفن كله حرية السليقة والقدرة على الابداع والاتيان بالجديد حتى في عرض المعنى القديم .

ونحن حين نقول الحرية لا نقصر الغرض منها على حرية الفنان في مواجهة العسف والاملاء والإيحاء من غيره ، ولا نقصد منها أن الفنان يأبى ما يرسم له ويساق إليه على حكم القسر والاضطرار ؛ ولكننا نقصد بها مقصداً قد يلوح في بادئ الرأي غريباً نابياً وهو هو المألوف المشهود فيما يمارسه وفيما قد مارسه كل صاحب فن وكل صاحب رسالة أدبية : نقصد بها « حرية الفن » حتى بين الفنان ونفسه ، فليس له أن يعتسف ولا أن يدعو ملكته إلى غير ما ترضاه وتنساق اليه بمحض « الحرية » وعفو السليقة ، وليس له هو أن يخلط الحرية الفنية حدودها أو يشق لها طريقها ، لأنها « حرية مطلقة » لا فرق عندها بين طغيان صاحبها وطغيان عدوها ، ولا محاباة عندها في استجابة أمر تراد عليه .

***

ومن الأدباء الواقعيون والخياليون ، ومنهم أنصار الماضي وأنصار المستقبل ، ومنهم الماديون والروحيون ، ومنهم المتفائلون والمتشائمون ، إلا أنهم جميعاً في هذه الخصلة سواء ؛ وهي الخصلة التي يتمردون بها على الآلية ويرتفعون بالانسانية إلى ذروتها العليا ؛ وما كانت للانسانية علامة ترفعت بها عن درك الحيوان إلا التكليف ؛ وما كان التكليف إلا الدرجة الأولى من سلم الحرية التي تأخذ

بشيء وتدع ما عداه ، والتي تختار بين الحميد والذميم والمطلوب والممنوع . أما الدرجات فوق ذلك فهي « الحرية الفنية » التي تنبعث من باطن الانسان بغير آمر ولا زاجر ، ولا تتوقف على التكليف والتخيير .

نعم ليس الواقعيون أو الماديون عنواناً آخر للموافقين أو المقلدين . فمن يصف الواقع ليس باللازم اللازب أن يخضع له ويرضاه ، ومن ينكر المثل العليا ليس باللازم اللازب أن ينكر الحركة ويخلد إلى الجمود .

لقد كان المتنبي « واقعياً » إلى جانب العمل ، وكان المعري واقعياً إلى جانب الزهد والقعود ، وكلاهما مع هذا مثل بارز في التمرد والثورة على « الآلية » والتقليد ؛ فأسلوب المتنبي جديد ، وخبرته للناس جديدة ، وثورته على الواقع معناها أنه من المتمردين وليس من الموافقين .

أما المعري فهو على تشاؤمه وزهده قد دفع الحاضر المحيط به دفعة الجبار الذي يهدم بيديه وهو قائم في مكانه . وقل فيه ماشئت إلا أنه آلة وليس بإنسان في الصميم من الحرية الانسانية ؛ وقل في تمرده ماشئت إلا أنه تمرد آلي وليس بتمرد « حر » يمتاز به المعري بين سائر المتمردين ؛ وإلا فمن هو المتمرد الذي يشبه المعري في تناول الأمور ونقد العيوب وصياغة النقد في منظومه ومنثوره ؟؟ تلك علامة الأدب الصحيح أو الفن الصادق : علامته أن عشرين شاعراً ينكرون أموراً بعينها ثم يختلفون في نمط الإنكار اختلافاً يحمل عنوان كل شاعر منهم ولا يخالط غيره من المناوين

***

من الواجب أن نثور على أدب الموافقة

وأوجب منه أن نثور على أدب « الثورة » الكاذبة ، أدب التمرد البخاري أو الكهربائي الذي يحطم ذات اليمين وذات الشمال كما يحطم القاطرة بغير سائق .

وفي أوربا اليوم غاشية من هذا التمرد الزري يوشك أن تسري إلى أمم الشرق ، لأنها أشبه الأمور معاً بكسل الكسالى وجموح الجامحين ، فلذا الكسلان والتمرد الآلي يغنيه عن التحصيل ، ويغنيه عن إجهاد الذهن ورياضة الذوق على التفريق والتمييز ؛ وأما الجامح الأهوج فالتمرد الآلي في يديه كالسيف الذي يشهره المجنون وهو مغمض العينين أو مفتوحهما على حد سواء

وأظهر ما كان ظهور التمرد الآلي في عالم التصوير ، لأنه الفن الذي يفاجىء العيون ولا يخفى الشذوذ فيه حتى يتسرب إلى الأفكار والأذواق . فالمصورون المجددون اليوم في أوربا اللاتينية يصورون لك ماشاءوا الا ما تراه وتحسه وتتخيله وتفقه مغزاه . ومن المحقق أنك تبحث عن وجه الرجل المرسوم فلا تراه ، وعن مشاهد الطبيعة المرسومة فلا تراها ، وعن الرمز المتوقع أو الشبه المنتظر فلا تلمح أثراً لهذا ولا لذاك . . . وكل شكل جائز أن تلقاه في الصورة إلا الشكل الذي يجب أن تلقاه ! ! ولا ندري بعدها ما الذي على الانسان أن يتعلمه ليسلك في عداد المصورين ؟ هل يتعلم الرسم ؟ هل يتعلم مزج الألوان ؟ هل يتعلم التشريح ؟ هل يتعلم التعبير ؟ هل يتعلم مشابهة الملامح ؟؟ كلا ! لا ضرورة لذلك في صناعة التصوير على مذهب هؤلاء المجددين . فما من صورة حديثة فيها سمة من تلك السمات . ولعل تعلم الحلاقة أو تعلم الطبخ أو تعلم النسيج أقرب إلى إخراج صورة الانسان على هذا المثال من تعلم الرسم والتشريح والألوان .

وإنما تبدو لنا حقيقة هذا التمرد إذا نظرنا نظرة واحدة إلى وجوه دعاته والمتظاهرين بفهمه واستحسانه . فجميعهم أمساخ مشوهون ، أو ضعفاء مهملون ، لا يقعون في موقع من الأنظار ولا الخواطر . ودأب هذه الزمرة من الناس أن تنكأ الأذواق والضمائر لتبلغ ممن يعافونها ويعرضون عنها مبلغاً من الانتباه والمبالاة ، وتلك سريرة خفية في جماعة الخلعاء حيث كانوا وحيث تهيأ لهم الظهور بالتفحش في الأخلاق ، أو التفحش في الأذواق ، ومن كان منهم سويّ الخلق معتدل التركيب في ظاهر الأمر فآفته لا محالة نقمة مطوية تلحقه بزمرة الأمساخ والمشوهين ، ولولا ذلك لما جنح إلى إيذاء الشعور واللجاجة في إيذائه حتى يقال من حوله إنه ليس بحقير وإنه لا يترك بغير انتباه .

ذلك نموذج من وباء « التمرد الآلي » في الفنون الأوربية الحديثة ، وهو تمرد أدنى إلى الغثاثة والعقم من كل جمود وكل موافقة .

عباس محمود العقاد

حلم بالمدرسة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

رأيت فى المنام أنى رددت تلميذاً . وقلما أذكر ما أراه فى أحلامى لأني أنام كالقتيل من فرط الاعياء والنصب ثم لأن ذاكرتى خوانة . وأحسب أن من فضل الله على أنه أعفانى من الشغلان بالأحلام وتأويلها . فما ينقصنى من دواعى الاضطراب إلا هذا . وقد كنت فى حياة أمي رحمها الله أصبح فأدخل عليها وأجلس إلي جانبها على حشيّة مطروحة فوق السجادة وأمامها الموقد وعليه وتحته أدوات القهوة كلها فتصب لى شيئاً فى الفنجانة وتناولنيها فأسألها : « نمت نوماً مريحاً ؟ » فتقول : « لله الحمد » فأسألها مرة أخرى : « أحلام لطيفة إن شاء الله ؟ » فتقص على مارأت وأنا مصغ وبى كالذهول من شدة استغرابى لدقة الوصف وإحاطته بالألوان والأصوات والاحساسات وما يدور فى النفس من معان ، وأرانى أسأل نفسى وأنا أنصت : « أتراها تتخيل ؟ » ولكنى أعرفها صادقة تتقى الله وتخشاه فلا يسعنى إلا أن أتعجب لهذه القدرة التى حرمت مثلها .

وأذكر أنه لم يسؤنى أنى رجعت تلميذاً أجلس فى الصف وأصغى إلى المعلم وأجعل بالى إليه . وقلت لنفسى وأنا ماض إلى المدرسة : إن الحياة مدرسة لا تنتهى . والمرء لا يكف عن التعلم لحظة واحدة إلا حين تنقطع أنفاسه ويخرج من الدنيا . وصحيح أن أكثر ما يتعلمه الانسان فى مدرسة الحياة يدفن معه فلا ينتفع به أحد — لا هو ولا سواه — ولو كان الذي أفاده فى حياته يبقى بعده ويتخلف فى الدنيا دونه لما كان المرء خليقاً أن يشعر بعبث التجارب وبما استطاع أن يحصل فى فسحة العمر طالت أم قصرت ؛ إذ ما خير أن أتعلم وأن أحصل وأن أستخلص الحكمة والعبرة مما أجرب وأعانى إذا كان كل ذلك يطوى معي بل لا يعود له وجود ؟ ولكن ما يبدو من قلة الجدوى فى النهاية لا يمنع أننا نظل نتعلم ما دمنا أحياء . وإذا كان هذا هكذا فالأولى أن يكون المرء تلميذاً جهرة وصراحة فلا يذهب يدعى أنه فرغ من التعلم وحصل كل ما ينبغي له تحصيله . وهذا الذى أصنعه الآن من استئنافى عهد التلمذة هو الذى يقضى به الصدق — صدق النفس على الأقل .

ولا أذكر ما الذي ردنى إلى المدرسة وكل ما أعرفه أني رأيتني أقصد اليها وأنى كنت فرحاً بذلك ، وكان معى شيء أحمله ولم ألتفت إليه إلا بعد أن صرت بين التلاميذ الآخرين فقد وجدت « الفصل » غاصاً بهم ، ولكنى لا أذكر منهم إلا وجه الأستاذ محمود عزمى فقد كان يجلس إلى أقصى اليمين ، وكان مكانى الذي قصدت إليه فى أقصى الجنوب ، وكانت وراءه نافذة مغلقة فوضعت ما أحمل على حافتها ، وعرفت فى هذه اللحظة فقط أن الذى أحمله هو قطع شتى من الحلوى والفطائر والسندوتش . وتذكرت وأنا أضع ذلك على حافة النافذة المحكمة العسكرية التى شهدت جلساتها أيام كنت أعمل فى جريدة الأخبار . وكانت المحاكمة طويلة وكنت أوافى الجريدة بأنبائها مفصلة ، وكانت الجلسات تعقد فى الصباح وفى المساء أيضاً كل يوم . وكنت أتعب وأجوع وأظمأ ، فكان المرحوم أمين بك الرافعي يبعث إليّ مع الخادم الذى يجيء ليأخذ منى الأوراق التى كتبتها بالسندويتش وما إليه و « بترموس » فيه عصير الليمون فكنت آكل وأشرب وأفرق

وكان الأستاذ الذى وجدته فى « الفصل » شاباً وكنت أحس أنى أعرفه . ولم أستغرب أن يكون شاباً ، وحدثت نفسي ان هذا خير من أساتذتى القدماء الذين كانوا جميعاً من الشيوخ ، ولا أعنى الشيوخ ذوي العمائم بل من الشيوخ فى السن ، ولا استثنى منهم إلا واحداً هو الأستاذ الشيخ احمد الاسكندرى ، أرانى لا أزال أضن به أن أسلكه مع سواه ممن علمونى فى صغرى . وقلت لنفسى وأنا واقف فى مكانى — فما أذكر أنى قعدت — عسى أن يسير بنا هذا الأستاذ الشاب فى نهج مستقيم واتجاه سديد فقد أضلنا تعليمنا القديم وحيرنا وتركنا كالتائهين فى الصحراء ، وما كان لنا من أساتذتنا السابقين مرشد أو معين ؛ وأحسبهم ما كانوا يعرفون إلا ما يعلموننا ، فلهم العذر إذا كانوا قد عجزوا عن هدايتنا وإرشادنا والأخذ بأيدينا .

وكان الأستاذ يحمل خيزرانة — فما استطعت حتى فى الحلم أن أتخلص من صور المدرسة القديمة ، وكان أبرز ما فيها العصا

وابتسمت وأنا أنظر إلى الخيزرانة فى يد المعلم ونظرت إلى الأستاذ عزمى فأدرك ما أريد وهز رأسه وابتسم ابتسامته المحببة وقال : « أيوه يا سيدى . . . لا يزال القديم على قدمه مع الأسف »

وقال الأستاذ شيئاً فهمت منه أنه يريد أن يلقى أحدنا كلمة استهلال — أي أن يفتتح الدرس ، فأعربت عن استعدادى لإلقاء الكلمة المطلوبة ، فقال الأستاذ عزمى : « من أول يوم يا مازنى ؟ » فابتسمت له راضياً وتنحنحت استعداداً للكلام ، وأذن لى الأستاذ فقلت كلاما لا أذكر منه مع الأسف ولا حرفاً واحداً ، ولكني أذكر أني كنت وأنا أتكلم أحدث نفسى بأن الأثرة كانت تفسد على التلاميذ حياة المدرسة المشتركة فكان أحدنا إذا اشترى شيئاً من الحلوى أو « الخلل » — فقد كنا نشتريه قبيل الغداء ونحمله معنا إلى موائد الطعام — أقول إن أحدنا كان إذا اشترى شيئاً يضن به على إخوانه ولا يسمح لهم بأن يشاركوه فيه ، وكان ربما ذهب إلى ركن خفي وأخرج من جيبه بعض ما فيه وراح « يبلع » قبل أن يفاجئه أحد ويطلب منه قطعة . ولكنا كبرنا الآن وعرفنا أن الأثرة عيب وأن لذة المشاركة أحلى وأطيب . وإن جديراً بي فى مستهل حياتى المدرسية الجديدة أن أستن سنة الإيثار أو على الأقل المشاركة ، وأن أقلب جو المدرسة جو تعاون ومودة .

كان هذا يدور فى نفسى وأنا ألقى كلمتى ، فامتدت يدى إلى النافذة واستراحت أناملى عليها إلى أن أستطيع أن أهتدى وأنا أتكلم إلى مناسبة تسمح بأن أوزع الحلوى والسندوتش على الزملاء ، ولكن المناسبة لم تعرض مع الأسف لسبب خارج عن إرادتى . فقد استيقظت فانتسخ الحلم قبل أن يتم . وكان الذى أيقظنى صوت دق عنيف على باب العمارة وصياح عال : « افتح يا محمود . . . إنت ميت ؟ . . . »

فأخرجت الساعة من تحت الوسادة ونظرت إليها فاذا هى الثالثة صباحاً ، فقلت : والله إن محموداً لمعذور ! وهل كان عليه أن يظل واقفاً بالباب ينتظر مقدم صاحبنا إلى الفجر ؟ وفتح الباب ودخل الرجل . فقد كان رجلا كما لا أحتاج أن أقول — يزمجر ويبرطم وبدأ الفصل الثانى من رواية إزعاج خلق الله فى سكون الليل فقد شرع يدق باب شقته ويصيح وينادى ، وبقى على هذا الحال ربع ساعة لا تنقص دقيقة ، وكان الذى يثير ثائرته ويهيجه إلى ما به أن من فى بيته — لا أدرى من — لا يريدون أن يفتحوا له الباب ، وكانوا يقولون له : « اذهب فنم حيث كنت » فيرج الباب ويهزه ويهدد بكسره ويدعو البواب المسكين أن يساعده على تحطيمه كأنما يمكن أن يعينه البواب على فعل كهذا . . . وأخيراً فتح الباب ووسعنى أن أضحك قليلا وأن أستأنف النوم — لا الأحلام مع الأسف . . . وتذكرت حكاية الرجل الذى رأى فى منامه أن واحداً يعرض عليه تسعة وتسعين جنيها وهو يأبى إلا أن تكون مائة ؛ واشتد الحوار واللجاج بينهما فاستيقظ الرجل فنظر فى يديه فألفاهما خاليتين فارغتين كفؤاد أم موسى ، فندم وأغمض عينيه ومد كفه وقال « طيب رضينا . . . هات يق »

كذلك أنا والله ... كنت أود أن أعود إلى حلمى لأرى ما يكون منى ومن إخوانى . وكان الذى يعنينى على الخصوص أن أعرف كيف يكون سلوكنا فى المدرسة وهل نعود إلى « الشقاوة » القديمة التى اشتهرنا بها ؟ . وهل « نحوى » على المدرس كما كنا نفعل فى صبانا ؟ . وهل يمكن مثلا أن ننثر الحبر الأزرق على ثيابه البيضاء حين يمر بنا ؟ . ونضع سن الريشة بين « الدرج » وغطائه ونذهب نخرج منها أصواتاً قد لا تكون موسيقية ولكنها كافية لإزعاج المعلم وبلبلة خواطره وتحييره الخ الخ

والأحلام — على ما يقال — تؤول بضدها ، فإذا كان هذا صحيحاً فهل معنى هذا أنى سأرتد معلماً ؟ .. أعوذ بالله .. ولا قدر الله .. لقد نجوت من هـذا فلن يردنى إليه شئ كائناً ما كان . وذكرت لهذه المناسبة حادثاً مضحكا — أو لا أدرى ماذا يفعل — ذلك أنى كنت محرراً فى جريدة الأخبار . وكانت الأحكام العسكرية مرفوعة فى ذلك الوقت ولكن الرقابة التحفظية على الصحف كانت قد ألغيت ، وكان صديق لى يبعث إلىّ بمقالات عن وزارة المعارف ويضع فى ذيلها اسماً مستعاراً مثل « مطلع » أو نحو ذلك فقد نسيت . وكانت هذه المقالات تقض مضجع الوزير يومئذ . وكنت أخشى أن نفاجأ بهجوم على الجريدة فتؤخذ الأصول ويعرف الكاتب فكنت أنقلها بخطي وأحرق الأصل ؛ ويظهر أن أحدهم

اتصل بعمال المطبعة الذين لا يعرفون أن فى الأمر سراً لأنهم يرون المقالات بخطى . فاقتنعت الوزارة أنى أنا الكاتب ولم تستغرب ذلك لأني كنت من موظفيها ومن رجال التعليم بها . وفي إحدى الليالي كنت عائداً إلي البيت — وكان يومئذ فى صحراء الامام — فصار كل من يلقانى هناك يقول لى: إن الشيخ (يريدون شيخ الامام وهو قريبي) يطلبك فسألت عنه ، فلم أجده ، فذهبت إلى بيتى ونمت ، وفي الصبـــاح بعث إلى الشيخ خادمه فلحقت به فقال: « إركب » فركبت . وكانت له مركبة يجرها جواد أصيل وسألته : « إلى أين إن شاء الله ؟ » قال « إلى وزارة المعارف » فدهشت وسألته : « وماذا أصنع فى وزارة المعارف ؟ » قال: « تتسلم عملك » فصحت من فرط الدهشة : « عملي ؟ . . ماذا تعني ؟ » قال: « جاءني وزير المعارف أمس وأنت تعرف أنه صديقي وقال لى إنه علم أن المازنى قريبي وأنه يعتمد على فى اقناعك بقبول العودة إلى وظيفة كوظيفة أقرانك فى الوزارة » فأدركت أن الوزير غلط وظن أني أنا كاتب المقالات التي أقامت القيامة وقلت : « إن المسألة فيها غلط . . لست كاتب المقالات » قال : « زى بعضه » قلت : « هذه رشوة لا أستحقها مع الأسف » قال : « يا أخي لا تكن مجنونا » قلت : « مجنون . . عاقل . . كيف أستطيع أن أدخل وزارة المعارف وأنا أكتب كل يوم بامضائى ضد الوزارة كلها ؟ . بأى وجه ألقى الناس ؟ . . كل ذمة لها ثمن . . لا تحسب أن أحداً أرفع من أن يرشى . . ولكن من سوء الحظ أن هــذه الرشوة تعرض فى الوقت الذى لا يسعنى فيه أن أقنع ضميرى بقبولها . . وقد قلت لك إنى لست الكاتب كما توهمت الوزارة فأرحها وأعفها من تكلف هذه الرشوة . »

وانتهى الأمر على هــذا الوجه . وانى ليخيل لى أحيانا أنى كنت مغفلا ولكن من يدرى ؟ . . وسواء أكنت أم لم أكن فما أعرفنى ندمت قط على شيء مضى وفات . . ولماذا أعنى النفس بالماضى ولا خير في ذلك ؟ والحاضر حسبي مشغلة . والحمد لله على ما وفق وأعان .

ابراهيم عبد القادر المازنى

كان لمصر أســــطول

فهل يعيد التاريخ نفسه ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مصر بين الدول التى دعتها الحكومة البريطانية إلى الاشتراك فى حفلة العرض البحرى الكبرى التى أقيمت لمناسبة تتويج جلالة الملك جورج السادس ، ولكن مصر اعتذرت عن إجابة هذه الدعوة لأنهـا لا تملك من الوحدات البحرية اللائقة ما يصلح لاشتراكها فى مثل هذا الحفل الدولى العظيم

وبالأمس احتفلت مصر بتتويج جلالة مليكها الفاروق احتفالا رائعاً يذكرنا جلاله وروعته بمجد عصورنا الذاهبــة وعظمتها ، وروعة أيامها ومناسباتها المشهودة ؛ واشترك الجيش المصري الباسل بوحداته البرية والجوية فى هذه المناسبة السعيدة اشتراكا يذكرنا بماضيه العسكرى الباهر ، ويبعث إلى الأمل فى أن يغدو سراعا كما كان فى الماضى درع البلاد وحصنها الحصين

ولكننا لم نسمع للأسف صوت الأسطول المصرى ، ولم نشهد أثره فى تلك المناسبات العظيمة لأن مصر لا أسطول لها

هذه الحقيقة المؤلمة يجب أن تلفت أنظار مصر المستقلة إلى مركزها الدقيق بين دول البحر الأبيض المتوسط ، وإلى ما يمكن أن تواجهه فى المستقبل من الأخطار من هــذه الناحية خصوصاً فى هذا العصر الفياض بالتطورات والاحتمالات السريعة ، وفى هذه المياه التى تنذر من آن لآخر أن تضطرم بكدر الخصومات والمنافسات التى تتفاقم عواملها يوماً بعد يوم

فمصر بلد بحرى بلا ريب تمتد شواطئه إلى مسافات بعيدة على طول البحرين التاريخيين العظيمين : بحر الروم أو البحر الأبيض المتوسط ، وبحر القلزم أو البحر الأحمر ؛ وقد لعب هذان البحران العظيمان منذ فجر التاريخ فى تاريخ مصر وفى مصايرها أدواراً خطيرة ؛ وسوف يلعب كلاهما بلا ريب دوره الخطير فى مستقبلها

وقد شعرت مصر دائماً بمركزها البحرى الخطير فى هذين البحرين ، فكان لهـا منذ أقدم العصور أساطيل حربية تجوس

خلال هذه المياه وتذود عن شواطئها ، وأساطيل تجارية تحمل تجارتها إلى أقصى ثغور العالم القديم

وكما أن لمصر تاريخ مجيد فى الغزوات والفتوحات البرية التى بلغت أحياناً قاصية الأناضول شمالاً ، وأقاصى السودان والحبشة جنوباً ، فكذلك لمصر تاريخ مجيد فى الغزوات والفتوحات البحرية، بل إن تاريخ مصر البحرى يبدو أحياناً فى ألوان من العظمة تضارع سيرة أعظم أساطيل هذه المياه فى العصور الوسطى ؛ فقد كان الأسطول المصرى طوال هذه العصور يملك ناصية شرق البحر الأبيض ، ويناهض أسطول الدولة البيزنطية ، وأسطول البنادقة أعظم أساطيل العصر ، وكانت له فى تلك المياه جولات وفتوحات عظيمة حتى أواخر القرن الخامس عشر

ومنذ القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) نرى مصر تعنى بأسطولها عناية فائقة ، وتنشئ دور الصناعة أو المصانع البحرية العظيمة لتغذى أسطولها باستمرار بمختلف الوحدات البحرية ؛ وكانت دور الصناعة بمصر والاسكندرية ودمياط أيام الفاطميين تخرج أعظم الوحدات البحرية المعروفة فى ذلك العصر . وبلغ الأسطول المصري فى أوائل عهد الدولة الفاطمية نحو ستمائة قطعة ترابط فى الاسكندرية ودمياط وعسقلان وفى البحر الأحمر . وكان للاسطول وشئونه ديوان خاص يعرف بديوان الجهاد أو ديوان العمائر ؛ واشتبكت مصر أيام الفاطميين مع الدولة البيزنطية فى غدة معارك بحرية شهيرة . وفى أيام الدولة الأيوبية لعب الأسطول فى المعارك الصليبية دوراً خطيراً ؛ وكانت الحراقات أو قاذفات النار المصرية عاملا حاسما فى هزيمة لويس التاسع ورده عن مصر . ومع أن الأسطول لم يحظ أيام دول السلاطين بمثل العناية التى حظى بها أيام الفاطميين ، فإنه لبث منذ القرن الثالث عشر إلى أواخر القرن الخامس عشر عاملاً هاماً فى التوازن الدولى فى شرقي البحر الأبيض المتوسط . وفى أوائل القرن الخامس عشر افتتح الأسطول المصري جزيرة قبرص فى عهد الملك الأشرف بارسباى (سنة ١٤٢٥ م) ، وغزا رودس أكثر من مرة . وكان يشتمل يومئذ على نحو ستين قطعة ، وكانت معظم بحارته من المتطوعين الذين يهرعون إليه كلما دعا داعى الجهاد . وما زالت مصر أيام السلاطين تحتفظ بأسطولها حتى الفتح العثمانى ، بل نرى السلطان الغورى آخر أولئك السلاطين يجدد الأسطول المصري ويعده لمحاربة البرتغاليين للمحافظة على طريق الهند القديم الذى كانت مصر حارسته وكانت تعلق عليه أهمية تجارية خاصة . وفى سنة ١٥٠٨ م أعنى قبيل الفتح العثمانى بأعوام قلائل نرى الأسطول المصرى بقيادة أمير البحر حسين يهزم الأسطول البرتغالى فى البحر الأحمر بقيادة الأميرال لورنسو الميدا ، ثم يشتبك بعد ذلك فى معارك بحرية شديدة مع أسطول برتغالى آخر بقيادة أمير البحر الشهير البوكركي على مقربة من باب المندب

والظاهر أن مصر لبثت بعد الفتح العثمانى مدى حين تحتفظ بأسطولها ، أو على الأقل بسمعتها البحرية ، فترى التواريخ النصرانية تنوه بشجاعة البحارة السكندريين فى موقعة لبانتو البحرية الشهيرة التى نشبت بين الأسطول العثمانى بقيادة على باشا ، والأساطيل النصرانية المتحدة بقيادة الدون خوان سنة ١٥٧١ م ، واشتركت فيها إلى جانب الترك وحدة بحرية مصرية ، تنوه التواريخ النصرانية بشجاعتها وبراعتها

بل ما لنا نرجع بعيداً ، وقد كان لمصر فى أوائل القرن الماضى أسطول ضخم ، وكانت من الدول البحرية التى يحسب حسابها فى شرق البحر الأبيض المتوسط ؛ ففى عهد محمد على استعادت مصر صفتها القديمة كدولة بحرية ، واستأنف الأسطول حياته فى هذه المياه بعد أن قطعت زهاء ثلاثة قرون . ومع أن الأسطول المصرى لم يبلغ عندئذ قوته القديمة ، فإنه لم يلبث أن غدا عاملا يحسب حسابه . واهتم محمد على بإنشاء الأسطول منذ بداية حكمه ، فأنشأ أسطولاً صغيراً فى البحر الأحمر ثم قرنه بإنشاء أسطول كبير فى البحر الأبيض المتوسط ، وأنشأ بالاسكندرية دار صناعة عظيمة لصنع الوحدات البحرية . ومع أن الأسطول المصرى قد نكب فى موقعة نافارين الشهيرة فى المياه اليونانية سنة ١٨٢٧ ، فإن عبقرية محمد على أبت ألا أن تنشىء لمصر أسطولاً آخر أعظم وأضخم ، فلم تمض أعوام قلائل حتى كان لمصر أسطول ضخم قوامه ست وثلاثون قطعة من مختلف الوحدات ، بها الف وثمانمائة مدفع ؛ ويبلغ رجاله نحو ثمانية عشر الف مقاتل ، وذلك فى سنة ١٨٤٣ أعنى لأقل من قرن مضى . وكانت معظم هذه الوحدات البحرية من صنع دار الصناعة المصرية الشهيرة ، وقليل منها اشترى من الخارج

وأنك لتدهش حقاً إذا علمت أن الميزانية المصرية لم تزد إيراداتها في ذلك الحين على ثلاثة ملايين جنيه ، وكانت هذه الملايين الثلاثة كافية للانفاق على الجيش والأسطول ، ومختلف المرافق والمشاريع الاصلاحية العديدة التي اضطلع بها مصلح مصر العظيم

هذا ولسنا نتحدث هنا عن أسطول مصر التجاري ، وكيف كان طوال العصور الوسطى يأخذ بأعظم قسط في المواصلات البحرية بين مصر وثغور البحر الأبيض المتوسط ، شرقه وغربه وشماله ، وكيف كان إلى جانب أساطيل البنادقة والجنويين يأخذ بقسط وافر في تجارة الهند في تلك العصور

***

عرضنا هذه الخلاصة التاريخية ليرى القارىء كيف كانت مصر في عصور استقلالها دولة بحرية عظيمة ، وكيف كان الأسطول المصري في تلك العصور عاملا من عوامل التوازن والاستقرار في شرق البحر الأبيض المتوسط .

والآن وقد استأنفت مصر حياتها الحرة المستقلة بعد فترة من المحن غلت فيها إرادتها وحرياتها ؛ الآن وقد عادت تحمل على كاهلها أعباء الاستقلال وتكاليفه ، وتعد أسباب الدفاع عن هذا الاستقلال ، وتعيد تنظيم جيشها الباسل ليتبوأ مكانته التاريخية القديمة بين الجيوش الحديثة ، فانه يلوح لنا أن حديث الأسطول المصري مما يناسب المقام والظروف .

وإذا كان من حسن الطالع أن تكون مصر صديقة وحليفة لبريطانيا العظمى أعظم الدول البحرية ؛ وإذا كانت مصر تستطيع إلى حين أن تعتمد على معاونة حليفتها العظيمة في رد اعتداء المعتدين عليها وخصوصاً من البحر ؛ وإذا كانت بريطانيا العظمى ترى من مصلحتها الحيوية أن تعاون بأقصى ما تستطيع في سلامة مصر من كل اعتداء خارجي ، فإن ذلك كله لا يمنع مصر من أن تفكر في المستقبل وأن تتطلع إلى اليوم الذي تستطيع فيه أن تنظم لنفسها نوعاً من الدفاع البحري إلى جانب الدفاع البري والدفاع الجوي .

ونقول نوعاً من الدفاع البحري لأننا لا نطمع أن تغدو مصر دولة بحرية في المستقبل القريب ؛ وإنما نطمع في أن يكون لمصر في الفرصة الملائمة قوة بحرية دفاعية تؤيد سيادتها في المياه المصرية وتقوم بقسطها من الدفاع عند الطوارىء والمفاجآت ، وتكون نواة لأسطول مصر المستقبل . ذلك أن مصر باعتبارها دولة بحرية من دول البحر الأبيض لا تستطيع أن تنفى عن هذه الحقيقة إلى الأبد ، ولا مندوحة لها من أن تساير تطور الحوادث والظروف

ولمصر أسوة بدول أخرى من دول البحر الأبيض ليست أكبر منها ولا أعظم موارد ، مثل اليونان وتركيا ؛ فكلتاهما تملك قوة بحرية متواضعة ، ولكنها في نفس الوقت تكفي لأغراض الدفاع المحلية ، وكلتاهما تعتبر من الدول البحرية في هذه المياه

إن عصرنا الحاضر عصر التسليحات والأهبات الدفاعية ؛ والبحر الأبيض المتوسط ليس مكفول السكينة ، بل يخشى أن يكون في المستقبل القريب مسرحا لمنافسات وخصومات ربما أصاب مصر رشاشها ؛ ومن بواعث الأسف أن تكون حقوق الأمم اليوم عرضة للانكار والانتقاص من جانب بعض الأمم التي تعتد بقوتها ؛ ففي مثل هذه الفترات المضطربة من الحياة الدولية التي يسود فيها قانون القوة ، ترتجف الأمم الضعيفة إشفاقاً على مصايرها ، وتستمد من بعض المحالفات القوية ما تعتمد عليه لدرء الخطر ، ولكن ذلك لا يعفيها من واجب الأهبة والاستعداد قدر استطاعتها ؛ وإذا كانت مصر لظروف خاصة قد تخلفت في هذا المضمار عن غيرها من الأمم ، فإن عليها أن تستكمل اليوم ما فاتها بالأمس ، لكي تستطيع مسايرة الحوادث والظروف ، ولكي تثبت قبل كل شيء أنها تحرص على استقلالها الذي نالته بعد طول كفاح

وهذه هي تكاليف الاستقلال الفادحة ؛ فإن استقلال الأمم لا تكفله الحقوق الدولية إذا لم تدعمه أهبة الدفاع ؛ ومصر اليوم تبدأ في هذا الميدان حياة جديدة ، وتعنى بتنظيم دفاعها يحفزها إلى هذا الواجب المقدس تاريخ جيشها المجيد ؛ ولكن مصر أيضا دولة بحرية ، وقد كان لها أسطول مجيد كما كان لها جيش مجيد . فلتذكر إذن تاريخ هذا الأسطول الذي بسطنا خلاصته في هذا الفصل ؛ وإذا كانت ظروفها الحاضرة لا تفسح لها مجالا للعمل السريع في هذا الميدان ، فإن المستقبل القريب قد يمهد لها سبيل التفكير ، وقد يمدها أيضاً بالوسائل والموارد التي تعاونها على تحقيق هذا المشروع الحيوي الجليل .

محمد عبد الله عنان

عـــالم !

للأستاذ علي الطنطاوي

« مهداة إلى روح المرحوم أستاذنا الرافعي »

حدثني بعض مشايخي عمّن رأى بعينه وسمع بأذنه . قال :

وقعت الصيحة في « حيّ الميـدان » أجل أحياء دمشق وأكبرها ، صبيحة يوم من أيام سنة ١٨٣١ ، بأن إبراهيم باشا ، قادم لزيارة عالم الشام الشيخ سعيد الحلبي [1] في مسجده . وابراهيم باشا من قد علمت في بطشه وجبروته ، ومن يده إلى السيف أسرع من لسانه إلى القول وعينه إلى النظر ... ومن كان جبار سورية وفاتحها وسيدها ؛ فطار الفزع بألباب الميدانيين ، وهم فرسان دمشق وحماتها ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، ماذا يصنعون ؟ إنهم يعلمون أن الشيخ لايقيم وزناً لأحد من أبناء الدنيا ، فلا يبجل سلطاناً لسلطانه ، ولا يوقر غنياً لغناه ، ولا يقيس الناس بما على جسومهم من ثياب ، ولا بما في صناديقهم من مال ، ولا بما يبتزون من أموال الدولة [2] ، ولكن يقيسهم بما في نفوسهم من فضائل ، وما في قلوبهم من إيمان ، وما في رؤوسهم من علم ؛ وإذا نظر الناس من خارج فرأوا الطبـل سميناً عظيما ، نظر هو من داخل فرآه خالياً حقيراً . . .

وكانوا يخشون أن يسوء ذلك من شأنه الباشا ، ويودّون لو رجوا الباشا ، ولكن كيف يصلون إليه وهو في قصره ، حوله الحجاب والأعوان ، والجند بالسلاح ، ومن حوله الموت ألواناً وأشكالاً ، يحمي حماه ، ويحرس أبوابه . . . ويتمنون لو رَجَـوا الشيخ ،ولكنّ الشيخ أعزّ من مائة ملك جبار ، تحميه هيبته، ويحرسه تقواه وتحف به الملائكة واضعة له أجنحتها ... [3]

ولم يكونوا يخافون أن ينال الشيخ بسوء ؛ فهذا شيء تُحيله عقولهم لما استقر فيها من إجلال الشيخ وإكباره . ولا تراه أبصارهم ، لأنهم يغضون عن آخرهم قبل أن تراه أبصارهم ، ولكنهم كانوا يخشون الشيخ على الباشا ، ويخشون الباشا على نفوسهم .

* * *

ومضوا يقيمون معالم الزينة ، ويبنون أقواس النصر ويرفعون الرايات على طريق البطل الفاتح . ويقطفون أزهى أزهار الغوطة لينثروها عليه . . . فما كان الأصيل حتى تم كل شيء . وأقبل الباشا في الموكب الفخم ، والجند والسلاح والدّبدَبَة . . . حتى انتهى إلى باب المسجد وكان باباً صغيراً . فاعترض الباشا كأنه يقول له : إرجع أو أرجع دنياك ، إنك تدخل بيت الله بشراً خاضعاً ، أما أن تكون تزور إلـه . . . بألف عبد ، وألف ثوب فلا ! إنه لا يجتمع ميراث النبوة التي جاءت بالتوحيد والمساواة ، وبقايا الجاهلية التي قامت على الشرك والتمييز بين الناس إلا محى أحدها . . . فانظر هل محا باطل حقاً ؟

قال الراوي : وتردد الباشا هنيهة يفكر . ثم أبعد أعوانه وترجل ودخل المسجد منفرداً ، وكان الشيخ جالساً على حصير قد وضعت فوقه حشية ، وكان مادّاً رجله فسمعته يقول :

. . . والمرء إذا خاف الله ، وصدق في مخافته . خافه كل شيء ، لأنه لا يرى كبيراً إلا صغره عنده أن الله أكبر . . . الله أكبر . إن لهذه سراً إلهياً ، ولكن المسلمين استعجموا فهم لا يرددون منها إلا حروفها فارغة من المعنى ، وما فرض الله على المسلم أن يقولها كل يوم (٨٥) مرة أقل ما يقولها [1] ويسمعها من المنارة ثلاثين مرة . . . [2] إلا ليعلم أنه لا كبير في الدنيا وأن من كان مع الله لم ينل شيئاً : لا الملك ولا المرض ولا الوحش ، فلو أن المسلم عرف معنى هذه الكلمة وهو يقولها ما عرف الذل ولا الجبن ولا الكسل .

قال رجل من طرق الحلقة :

(١) كان عالم الشام قبل طبقة الشيخ محمود الحمزاوي والشيخ محمد الطنطاوي والشيخ بكر العطار وأصحابهم .

(٢) يعني الرواتب .

(٣) جاء في الأثر : إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع .

(١) إن صلى الصلوات المفروضة (١٧) ركعة كل يوم ، وذلك مالا يكون المسلم مسلماً إلا به .

(٢) في كل أذان ست مرات .

فإن قتله الملك يا سيدى الشيخ ، أو أماته المرض ؟

فقال الشيخ : سبحان الله ! وهل يهـاب المسلم القتل ؟ أو يبغض الموت ؟ إن الموت شديد لأنه انقطاع اللذات ، وخسران الدنيا ، ولـكنه لا يكون بهذا المعنى إلا عند الكافر الذى يعيش فى الدنيا ، ويستمتع بملاذها ؛ أما من كان يتهيأ فيها للعيشة الخالدة ويقيم فيها كالمستعد للسفر ، ويرقب ساعته كما يرقب المسافر ساعة القطار ، ويراه حين يمضى ليلقى ربه ، كالآيب إلى وطنـه حين يذهب ليلقى أهله وصحبه ... من كان هذا شأنه لا يرى فى الموت موتاً ، وإنمـا يرى فيه ولادة جديدة ، وابتداء حياة ، وقد جاء في الحديث : إن أفضل الشهداء رجل يقول كلمة حق عنـد إمام جائر فيقتله بها ...

وكان الباشا قد وقف على الحلقة متنفّجاً ، مصعراً خدّه ، شامخاً بأنفه ، فنظر إليـه الشيخ رحمه الله فلم يتغيّر ولم يبد عليه أنه رأى فيـه أكثر من رجل ، وأشار إليه أن اجلس كما كان يفعل بغيره ، فلم يتمالك الباشا أن جلس . . . ونظر في الحاضرين يقلب فيهم بصره ، يفتش عن شئ أضاعه فيهم ، عن الخضوع والإكبار اللذين تعوّد أن يراهما حوله دائماً ، ينتظر أن يقوموا له ، وأن يقفوا بين يديه صفاً ، ولم يدر أن القوم كانوا في غير هذا ، لم يدر أن الشيخ قد علا بهم ، حتى جعلهم يطلون على الدنيا من شرفة طيارة ، أو من قطع السحاب ، فيرون الأرض كلها كمفحص قطاة ، ولا يرون في الباشا العظيم إلا نملة .. فمن الذى يحفل بنملة ...

وأجال الباشا نظره فيهم حتى علق برجل الشيخ ، وكانت ممدودة نحوه . فأثار مرآها كبرياءه وسلطانه ، ورأى فيها علامة تعجب أضيفت إلى عظمته وجلاله ، إضافة سخرية وتهكم ؛ ورآها كبيرة في عينه ، فأحس كأنما هى في عينه ، ونظر في الحاضرين ألم يجرد واحد منهم سيفه يتقرب إلى الباشا بقطعها .. ؟ وكان الباشا ينظر بعين بصره المادية ، لم تفتح بعدُ عين بصيرته المعنوية فيفاضل بين قصره وسريره ، ومكان الشيخ وحصيره ، وبين جنده وأعوانه ، وتلاميذ الشيخ وإخوانه ، فيوقن أن دنيا الشيخ كلها لا تثبت لحظة لسيفه الذى لم تثبت له دنيـا الخليفة العثمانى (امبراطور الشرق) . . . وكان كالأسد الذى زعموا أنه مر على قنبلة من القنابل المدمرة . . . ملقاة في أجمته ، فعجب منها وحقرها وقال : ويحك أى حيوان أنت ؟ يا للضعف والمهانة ! أين الأنياب ؟ أين المخالب ؟ أين . . أين . . يا للهوان ! ما ذا يصنع بأهله . قالوا : ثم ركلها برجله ، فانفجرت القنبلة ! وانفجرت القنبلة من فم الشيخ فرجع يتكلم

* * *

قال :

ومن عجيب صنع الله فى الانسان أن خلقه حيواناً كالحيوان ، ولـكنه وضع فيه ملَـكا ووضع فيه شيطاناً ، فمن كان همّـه من دنياه لذتا بطنه وفرجه ، وابتغاهما من حل ولم يعرف غيرهما لم يكن فيه إلا الحيوان ، فهو يرتع كما يرتع الحمار ، ويتبع غريزته كما يتبع ؛ ومن كان همه اللذة من حل وحرمة ، ومن كان لا يبالى ما اجترح من السيئات ، لم يكن فيه إلا الشيطان ، وكان العقرب والخنفساء خيراً منه ، لأن مصيرهما إلى التراب ومصيره إلى النار . ومن كان همه أن يعيش فى هذه الحياة كما يعيش فى مدرسة يتلقى فيها أساليب الكمال ، ليعيش من بعـدُ فى أساليب الـكمال ، فهو الانسان حقاً . .

ومن عجيب صنع الله فى الانسان ، أنه وضع فى نفسه الملك ، فلا يحتاج مهما كان ضالاً فاسقاً ظالماً إلا إلى تنبيـه الملك فى نفسه ، ليطرد الشيطان ، ويقود الحيوان ، فلست أنت الذى يعظه ، ولـكنه يعظ حينئذ نفسه ، وهذا معنى قولهم :

لا تنتهي الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

وذلك ثوابه الجنة ، والجنة لا تكون بالتشهى والأمل ، ولـكن بالجد والعمل . ولو أن تلميذاً أمضى عامه فى لعبه ولهوه ، ثم تمنى النجاح ، أكان ينجح ؟ ولو أن صياداً ألقى بندقيته فلم يضرب بها ورمى شبكة فلم ينصبها ، ثم حلم بالقنيصة أكانت أحلامه تعدو فى أثر الغزال حتى تأتى به مكتوفاً ؟ أم كانت السمكة تأتيه وحدها وعلى ظهرها الملح والفلفل تقول له : كلني ؟

قال رجل : ولـكن القلوب قست يا سيدى الشيخ ، فما علاجها ؟

قال : إن الشيطان لا يأتي إلا من إشعاره الكمال ، فأشعر نفسك النقص ، وذكرها في الصحة المرض ، وفي الحياة الموت . ولقد أدركنا من مشايخنا من إذا قسا قلبه أمّ المستشفى أو قصد المقبرة ، فخوف نفسه المرض وذكرها الموت . والمؤمن لا يزال بخير ما زال بين الخوف والرجاء ، فإن لم يخف أو لم يرج فقد هوى . . . ولقد سمعنا أن منهم من كان يدني يده من المصباح ويقول : يا نفس إن لم تصبري على هذا فكيف ويحك تصبرين على نار جهنم ؟ وإن المؤمن ما ثارت في نفسه شهوة ، إلا أطفأها بأنهار الجنة ، أو أحرقها بنار جهنم ، فاستراح منها . . .

وما الانسان لولا العقل ؟ وكيف يكون العقل إن لم يكن معه الايمان ؟ إنه لا يكون إذن إلا كما قالوا : أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة . . . وللسلطان سكرة ، فمن أسكره سلطانه وعزته على الناس ، فليذكر هوانه على الله ، وأن الله أهلك أشد الملوك : النمرود ، بأضعف الخلق : البعوض

فيامن أصله من التراب ، لا تنس أن نهايتك إلى التراب !

***

وكان الباشا يشعر ، والشيخ يتكلم ، كأنه كان محبوساً في صندوق ، ثم فتح عينيه فتنشق الهواء الطلق ، أو كأنه كان في ظلمة فاحمة ، فطلع الشيخ عليه شمساً نيرة ، فتضاءل حتى جلس على ركبتيه ، ورأى نفسه دون هؤلاء كلهم ، لأنهم ألصق منه بالشيخ وأدنى إليه ، ولم يعد يزعجه مرأى الشيخ وهو ماد رجله . . . بل كان يراه الغريق ويراها خشبة النجاة ، وكان يبصرها عالية كجناح النسر المحلق ، ثم لم يعد يرى فيها شيئاً ، لقد استحال الشيخ في نظره إلى فكرة . . . لم يعد يرى فيه إلا الحقيقة تمثلت إنساناً

***

قال الراوي : فلما ذهب الباشا ، بعث إلى الشيخ بكيس فيه ألف دينار من الذهب العين ، فلما جاءه به الرسول وألقاه بين يديه ، تبسم الشيخ رحمه الله ورده إليه ، وقال له : سلم على سيدك وقل له : إن من يمد رجله ، لا يمد يده .

(البصرة) **علي الطنطاوي**

من أدب القوة

مثال . . !

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

ثارت نفسه ثورة صارمة جامحة لِتَحَيُّف الناصبين وطنه وتمزيقه شر ممزق ؛ فصرخ الدم في عروقه ، ولصرخة الدم دوي يسمعه الأحرار فتصيبهم جِنَّة تخرجهم من ديارهم إلى القبور . . . وتحرك الإيمان في قلبه ، ولحركة الإيمان زلزلة تتحطم بها كل الشهوات ويستيقظ لها المؤمنون يقظة تخرجهم من قبور الغفلة إلى حومة الجهاد . . . وأقبل الملك والشيطان يصطرعان على فكره وهو بينهما كما تكون كُدْسَةُ الحَبّ بين شِقَّيِ الرحى . . .

يدعوه الأول إلى خطة الأقل والأكثر فيها الفداء في الدار التي عريت من الخلود وازينت بالشر ، ويقول له : إنك ما كنت لتحيا هنا ؛ وإنما الحياة هناك . . . فاذبح مالك لحريتك ، واذبح شهوة الدعة في الزلة لكرامة العزة ، واخرج من كل شيء لله الذي أعطاك كل شيء . . .

إيته جسداً عارياً من الحلى والزينة ، فإنها سلاسل تربطك بالأرض . . . وائته نفساً عارية من كَلَب شهوة البقاء . . . وائته عقلا عاريا من صور البنين والملوك والذهب والفضة والمنصب . . . فإن كل أولئك أقذاء وحجب تغشى العين فلا تبصر ذلك اللفظ الصارم الذي لا يرحم ، العابس الذي لا يبتسم : الواجب !

إيته عبداً مملوكا طائعا وله الكرامة قبل أن تؤخذ آبقاً كارها وعليك كلمة السوء . . .

ويدعوه الثاني إلى خطة الأقل فيها السلامة . . . والأكثر فيها العيش الموفور المعطَّر المُذَرَّر المفضض . . . ويقول له : مالك مجنوناً بالفناء وقد خلقت للبقاء ؟ ! الناس قطعان حيوان ليس فيهم حرمة ولا لهم واجب فلماذا تموت ليحيوا . . ؟ أتموت أنت الشابّ الغُرَانِقَ المُقْبِل ليحيا العجائز والشيوخ المدبرون . . ؟ لماذا تحمل وطنك بكل ما فيه على قلبك ؟ ألقه عنك يتحطم وعش على أنقاضه . . . دع أوهام الأديان وأحلام الفلاسفة والشعراء . . . أنت « لا تأتي إلى دنياك هذي مرتين »

فلا تقف فى وجه لذاتك مكتوف اليدين . ! » ولماذا تقدم نفسك للذبح ويتأخر فلان وفلان ؟ إنتظر حتى يتقدموا ... أتموت ليبقى الزعماء فلان وفلان وفلان يتمتعون بالمجد والنعمة والحل على الأعناق . ؟ أتخشى حساب الله على تخلفك عن الجهاد ؟ ومن أنت حتى يحاسبك الله العظيم ؟ ! على أن فى الحياة كفارة ...

فيقف فى غمرة من الحيرة بين وحى الملك ونزغ الشيطان ، ولكن صراخ الدم وزلزلة الإيمان مضافاً إليهما حديث الملك مضافاً إليها حكم العقل بأن الحياة الدنيا ما دامت تنتهى فالأولى أن تنتهى بشرف ... وما دامت اللذات والنعائم ، بنت ساعتها ، لا تحيا فى النفس إلا ريثما تحيا فى الحس . وليس لها نصيب من حياة الذكرى الخالدة فالأولى أن تفطم النفس عنها وبخاصة إذا دعا داعى الواجب وقالت قوانين الحياة الشريفة : يا إنسان ، النجدة !

كان «موظفاً» فى الحكومة ، والوظيفة رخصة تبيح لصاحبها عند نفسه وعند بعض الناس أن يغضى على كل لعنة تصيب دينه ووطنه . . ! وأن يكفر بالله ويعبد الرغيف . . . وليس الرغيف الضرورى فحسب بل الرغيف المرصع بكل لذات الفم له ولأبنائه وذرياتهم إلى يوم القيامة .. ! حتى لا يستهدف بزعمه للمناهم ... وأن يقيم حول ذلك الرغيف سورا وقلاعا من العبارات والضياع تحفظه ممن يتعقبونه ...

ياما أعجب أنانية الانسان ! إنه لا يدرك من حقه إلا ما امتلكه من التافه والحقير ... أما حقه الكبير الذى به سر حياته فلا يدركه ولا يغار عليه ولا يألم لوخز قلبه فى عقيدته كما يألم لشوكة تخز خلية من خلايا جسده الترابى . . ! ولا يثور لحق وطنه المسلوب كما يثور لمتاع سرق أو حمار نفق . . !

ولكن صاحبنا كان من الذين يضعون دائماً قلوبهم على أكفهم يعلنونها مستبرئة ظاهرة ليخيفوا بمرآها من ليست لهم قلوب ... أو من كانت قلوبهم هواء ، أو ليجعلوها دائماً تحت التأثير الباشر للحوادث ، تقرعها الحادثة فتجد صداها مردداً فى صدق وبعد عن الرياء والتدليس ، أو ليستفتوها إذا نزل أمر عاجل يتعجل الفتوى من إلهام الطبيعة وميزان الفطرة . لذلك ما كانت قيود الوظيفة ضامة على سمعه تمنعه من سماع نداء الواجب ، ولا كمامة على فيه تمنعه من كلمة الحق ... فلم يكن يدلس على نفسه بتأويل الحوادث ودفعها إلى غير وجهها وتحميلها غير ما يتقاضاه منطقها ، وخاصة إذا كان مدار الحوادث دينه أو وطنه ، فحينذاك يضع قلبه فى كفة ميزان والوظيفة بما وراءها من جاه ومال ودعة فى كفة ، ويختار الذى هو راجح وخير ، وهو الأول دائماً !

فلما أن طار الحريق فى جو وطنه من أنفاس الأحرار حسرة على ما أصاب بلادهم وحريتها كتب يقول :

« أيها الحاكمون ! »

أنا عامل فى حكومتكم ، ولكنى ما بعتكم حريتى لأنى لا أملكها ؛ فإنها ألطف وأدق من أن تملك ؛ إذ هى فى الحصن المغلق على سر الإنسان : فى القلب ...

لذلك أعلنكم أن هذا الجانب الخفى الرفيع منى قد أعلن الثورة عليكم ، وترك لكم هذا الجسد ملك يمينكم ، فإن شئتم أخذتموه بها فقطعتم منه الوتين .. وتلك غاية مكنتكم . . وإن شئتم تركتموه سلاحاً تقاتلكم به حريتى التى تحكمنى من داخل .. وتلك غايتها وغايتى !

أما أن أهادنكم على الدنية فى دينى والخائنة فى وطنى فذلك ما ليس إليه طاقة حر . .

المال الذى آخذه منكم إنما هو لتحقيق كرامتى بين الناس ؛ فإذا لم أجد لأمتى كرامة فما كرامتى أنا ؟ ! إذاً فهو الآن عندى كعلف الدابة التى تركب . . ولن أكونها !

والجاه الذى أتمتع به فى حكومتكم الدخيلة الغاصبة ، إنما هو جاه العبد . . لن يرتفع به إلى أن يكون سيداً مهما كان قربه من سيده ؛ لأن السيادة ليست له فى نفسه ، ولا فى اعتبار الناس ، ولا فى اعتباركم أنتم ، فهو جاه مثلث التزييف ، وأنا آباه !

ودولاب الأعمال فى حكومتكم يدور بحرية وإخلاص منكم ليفنى الحرية والاخلاص منا ؛ فاشتراكى معكم جريمة لا يغتفرها قلب الوطن ولا حساب الله .. فلن أصبر بعد اليوم على ما أرى من قبيح فعلكم بأمتى ونقضكم المواثيق التى واثقتم بها أنفسكم وتمزيق وطنى ذلك التمزيق الذى سيفنيه لو بلغتم مرادكم فيه ، وما أنتم ببالغيه »

وبهذا انطلق من وظيفته كما ينطلق الطير من قفص فيه حب وماء ، ونشيده : الجوَّ الجوَّ ! ولم يأس على الحب والماء لأنهما ليسا الشئ الهامَّ فى سعادة قلبه . . .

ثم سار يجاهد ويضرب فى الأرض ، لا يملك غير وجهه جاهاً ، وغير يديه ثروة ، وغير قلبه خزانة .

عبد المنعم محمد خلاف

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٣ —

الرافعي في الوظيفة

في أبريل سنة ١٨٩٩ عُيِّنَ الرافعي كاتباً بمحكمة طلخا الشرعية ، بمرتب شهري أربعة جنيهات ، وأعانه على الظفر بهذه الوظيفة ما كان لأبيه وأسرته من جاه في المحاكم الشرعية ؛ وما كان الرافعي ليجهل جاه أبيه وأسرته في هذه المحاكم ، وما كان منكوراً لديه أن لهم يداً على كل قاض في القضاء الشرعي ؛ فنشأ بذلك نشأة الدلال في وظيفته ، لا يراها إلا ضريبة على الحكومة تؤديها إليه عمل أو لم يعمل ، لمكانة أسرته من النفوذ والرأي ، ولمكانته هو أيضاً . . . ألم يكن يرشح نفسه ليكون أديب هذه الأمة ؟ هكذا كان يرى نفسه من أول يوم ، وظل كذلك يرى نفسه لآخر يوم . . .

وكانت إقامته بطنطا في هذه الحقبة ؛ فيها مغداه وإليها مراحه في كل يوم ، يتأبط حقيبته فيها غداؤه وفيها كتابه ، وما كان أحد ليستطيع أن يلفته إلى ضرورة التبكير إن جاء في الضحى ، أو يسأله الانتظار إذا دنا ميعاد القطار ولم يفرغ من عمله .

لم يكن يرى الوظيفة إلا شيئاً يعينه على العيش ، ليفرغ إلى نفسه ويُعِدَّها لما تهيأت له ، فما انقطع عن المطالعة والدرس يوماً واحداً ، وما كان أكثر ما كان ينقطع عن وظيفته .

وقضى الرافعي في طلخا زمناً ما ، ثم نقل إلى محكمة إيتاي البارود الشرعية ، ثم إلى طنطا ؛ وفي طنطا انتقل من المحكمة الشرعية إلى المحكمة الأهلية بعد سنين ، لأنه رأى المجال في المحاكم الأهلية أوسع وأرحب ، والعمل فيها أيسر جهداً وأكثر مالاً وأملاً ، وظل في محكمة طنطا الأهلية إلى يومه الأخير .

وحياة الرافعي في طلخا وإيتاي البارود وطنطا لا تخلو من طرائف ، وتاريخه في الوظيفة حافل بالصور والمشاهد التي كان لها أثرها من بعد في حياته الأدبية ؛ ففي طلخا عرف الكاظمي شاعر العراق الكبير واتصل به وانعقدت بينهما أواصر الود على ما سيأتي تفصيله ؛ وفي إيتاي البارود تفتحت زهرة شبابه للحب وتعطشت نفسه إلى لذاته ، وعلى (جسر كفر الزيات) فيما بين إيتاي البارود وطنطا مسته شعلة الحب المقدسة فكشفت عن عينيه النطاء ليرى ويحس ويشعر ويكون (شاعر الحس) من بعد ؛ وفي طنطا كان نضجه وتمامه وإيناع ثمره .

وما أستطيع أن أصف بتفصيل واضح كيف كان يعيش الرافعي في تلك الأيام البعيدة ، ولا كيف كانت صلته بالناس ، ولا كيف تفاعلت حوادث أيامه بإحساسات الشباب التي كانت تجيش بها نفسه الثائرة ؛ ولكني أعرف شيئاً واحداً هو كل ما يهمني إثباته في هذا البحث ، هو أن روحاً رفافة كانت تطيف به في تلك الأيام فتنتزعه من وجوده الذي يعيش فيه لتحلق به في أجواء بعيدة وتكشف له عن آفاق مجهولة لم يسمع بها ولم يعرفها فتوحي إليه الشعور بالقلق وألم الحرمان والاحساس بالوحدة ، فلا يجد متنفساً ينفس به عن نفسه غير الشعر ، وكان ذلك أول أمره في الأدب وإليه كان آخر ما يمتد أمله ، فما كانت له أمنية إلا أن يكون شاعراً ، شاعراً وحسب .

***

لم يتعلم الرافعي الحب بما يسمع في مجالس الشبان ، كما يتعلم أبناء هذا الجيل من أكاذيب التي التي يتداولونها في مجالسهم فيتعلمون الحبَّ منها فنَّا له قواعد مرسومة وغاية محتومة . . . لكنه استمع إلى وحي الحب أول ما استمع في همسات روحه ، وخلجات وجدانه ، وخفقات قلبه ، وانفعال أعصابه ؛ إلى ما كان للحب في نفسه من صورة مشرقة شائقة مما قرأ من أخبار المعذبين من شباب العرب ؛ فأحس كأن شيئاً ينقصه ، فراح يفتقده وشعر كأن إنسانة من وراء الغيب تناديه وتهتف باسمه في خلوة نفسه وجلوة خاطره تقول : ها أنا ذي . . . فهام بالحسن ينشده شعره وينشد فيه مثاله الذي يدور عليه ، وطار على وجهه كالفراشة الجائعة تقول لكل زهرة : أأنت التي ... فلا يستمع إلى جواب وإن الصوت البعيد لدائب يهتف في أذنيه : إني هنا ، إني هنا ياحبيبي فاقصد إلي . . .

لم يكن يحب إنسانة بعينها يناديها باسمها ويعرفها بصفتها ، بل كانت محبوبته شيئاً فى نفسه وصورةً من صنع أحلامه ، يرى فى كل وجه فاتنٍ لمحةً من جمالها ، وفى كل طلعةٍ مشرقة بريقاً من فتنتها ، وفى كل نظرة أو ابتسامة معنى من معانى الحبيبة النائمة فى قلبه وفى أمانيه . . . فمضى يتنقّل من زهرة إلى زهرة ، عفيف النظر والشفة واللسان ، حتى انتهى أمره إلى أمر . . .

لم ينس الرافعي إلى آخر يوم من حياته ما كان من شأنه وشأن قلبه فى صدر حياته ، فكان دائم الحديث عن هذا العهد كلما رفّت به سانحةٌ من سوانح الماضي تذكره ما كان من أمره وما آل إليه أمره .

ليس قصدي الآن أن أتحدث عن الحب فى تاريخ الرافعي ، فإن للحب فى تاريخه فصلاً ضافى الذيول كثير الألوان متعدّد الصور له مكانة المفرد من هذا البحث فى غير هذا الباب .

ولكنى أتحدث عن الرافعي فى بكرة الشباب فما لى مندوحة عن الإلمام بما كان يصطرع فى نفس الرافعي فى بكرة الشباب .

***

عاش الرافعي لفنه ولنفسه من أول يوم ، فما عاقته الوظيفة عن أن يكون كما أراد أن يكون ؛ على أنه كان إلى اهتمامه بفنه وعنايته بما يكمله ، وعلى أنه كان لا يرضى أن تتعبده قوانين الوظيفة وتقيده أغلالُ النظام الحكومي – كان إلى ذلك دقيقاً فى عمله الرسمي دقة تبلغ الغاية . وكان إليه تقدير رسوم القضايا والعقود ونحوها مما يتصل بعمل المحكمة ؛ فكان كاتباً حاسباً لا يفوته شيء مما يسند اليه ، حتى آل أمره من بعد إلى أن يكون المرجع فى هذا العمل لكتاب المحكمة جميعاً ، يستفتونه فيما أشكل عليهم من الأمر فى تقدير الرسوم ؛ ثم لكثير من كتاب المحاكم فى مختلف البلاد ، ثم لوزارة الحقانية نفسها وهي المرجع الأخير ، تكتب إليه فى زاوية مكتبة من محكمة طنطا تسأله الرأي فى حسبة أو إشكال أو شيء مما يتصل بذلك ، فيكتب إليها بالرأى لتبلغه فى منشور عام إلى كل المحاكم الأهلية .

وكان عليه العبء من هذه الناحية فى محكمة طنطا ، وقد طلب أكثر من مرة أن يحال إلى المعاش ليتفرغ لفنه ، فما كان يمنعه من المضى فى طلبه إلا ذعر سائر موظفي المحكمة وإلحاحهم عليه أن يبقى لئلا يخلو موضعه .

وكان فى صلته بموظفى المحكمة الذين يشركونه فى عمله نبيلاً كريم الخلق إلى حد بعيد ، فكان يتطوع ليحمل عنهم تبعة كل خطأ يقع فيه واحد منهم مهما كان مدى الخطأ ونتيجته ؛ وقد رأيته مرة فى صيف سنة ١٩٣٤ وقد لزمه مفتش من مفتشى الحقانية ثلاثة أشهر أو أكثر ، يستجوبه عن خطأ فى تقدير الرسوم لأكثر من مائة وعشرين قضية ، بلغ النقص فى الرسوم المتحصلة عنها بضعة وتسعين جنيها ؛ والرافعي يرد المفتش ويدافعه ويرى له الرأى ويصف له العلاج ، والمفتش دائب على الحضور كل يوم يبحث ويفتش ويستقصى وما ضاقت به أخلاق الرافعي ؛ على حين لم يكن على الرافعي فى هذه القضايا المائة والعشرين خطأ واحد ، وما كانت إلا من أخطاء زملائه فى المكتب حمل عنهم تبعتها حتى لا يتعرضوا لشرّ هو أقدر منهم على الخلاص منه .

شباب الرافعي

وكان من اعتداده بنفسه وحفاظه على كرامته بحيث لا يسمح لرئيس مهما علا منصبه وارتفع مكانه أن يجحد منزلته أو ينال منه أيّ نيل ؛ وكان يفرط فى ذلك إفراطاً يدعو إلى الشك أحيانا فى تواضع الرافعي وكرم خلقه وحسن تصرفه .

من ذلك أنه لما كان هذا المفتش يؤدى عمله فى المحكمة – وكان عمله التحقيق مع الرافعي – كان الرافعي يُلزم المفتش أحياناً أن يحضر هو إلى مكتب الرافعي فى حجرته الخاصة بالموظفين ليسأله وهو جالس إلى مكتبه والمفتش على كرسيه إلى الطرف

الثاني من المكتب . وكنت إحدى هذه المرات جالساً إلى جانب الرافعي — وكان يستدنيني ويشركني في عمله حين أذهب لزيارته في الديوان — فلما جاء المفتش همت بالانصراف ، فشد الرافعي ذراعي بعنف وهو يقول : « إجلس يا أخي . . . » ووجه إليه المفتش سؤالاً ، فالتفت الرافعي إليّ قائلا : « فَهِّمه من فضلك يا شيخ سعيد أحسن مُش قادر أفَهِّمه . . . [1] » ثم التفت إلى المفتش قائلاً وهو يشير إليّ : « حضرته مدرس ، يقدر يخلّيك تفهم . . . ! »

لم يكن اعتداد الرافعي بنفسه يبلغ به إلى مثل هذا الشذوذ في كل أحواله ، وإنما كان كذلك مع هذا المفتش بخاصته ، لأنه كان يعتقد أنه يرمى إلى إحراجه والتضييق عليه لقضايا مدنية كانت بين الرافعي وبين أصهار هذا المفتش ولم يقبل فيها الرافعي شفاعته .

وكان من تقاليد المحكمة كلما نقل إليها قاض أو نائب جديد ، أن يهرع إلى مكتبه موظفو المحكمة يهنئونه ويتمنون له ؛ فما أكثر ما كان يتخلف الرافعي عن وفد الموظفين ، ويظل وحده في مكتبه ؛ فإذا فرغ القاضي أو النائب من استقبالهم ، مضى هو إلى مكتب الرافعي في حجرته ، فينهض الرافعي لاستقباله ، فيقفان لحظة يتبادلان الشكر والتهنئة على هذا الاتفاق الذي هيأ لهما هذا التعارف . . . ثم يذهب إليه الرافعي بعد ذلك في مكتبه ليشكر له ويكرر التهنئة .

حتى مدير المديرية — ومحكمة طنطا هي جزء من ديوان المديرية — لم تكن صلته بالرافعي صلة المدير الحاكم بموظف صغير فكانت بينه وبين أكثرهم صلات من الود والصداقة فوق مايعرف من الصلات بين الموظفين ؛ ولكن منهم رجلا واحداً كان أقرب قرابة إلى الرافعي من أهله ومن خاصته ومن . . ومن تلامذته هو صاحب السعادة محمد محب باشا أقدر مدير عرفته مديرية الغربية منذ كانت مديرية ؛ وكان للصلة بين الرافعي ومحب باشا أثر كبير في أدبه سنتحدث عنه فيما بعد

* * *

لم يكن للرافعي ميعاد محدود يذهب فيه إلى مكتبه أو يغادره ، فأحياناً كان يذهب في التاسعة أو في العاشرة ، أو فيما بين ذلك ، فلا يجلس إلى مكتبه إلا ريثما يتم ما أمامه من عمل على الوجه الذي يرضيه ، ثم يخرج فيدور على حاجته ، فيجلس في هذا المتجر وقتاً ما ، وعند هذا الصديق وقتاً آخر ، ثم يعود إلى مكتبه قبيل ميعاد الانصراف لينظر فيما اجتمع عليه من العمل في غيبته ، وقد لا يعود ...

وكان هذا منه يغضب زملاءه في العمل ، فكانوا ينفسون عليه وربما كانوا لحسة ، ويبلغه عنهم ما يتحدثون به فيهز كتفيه ويسكت ، ثم لا يمنعه ذلك من بعد أن يأخذ بيدهم عند الأزمة ؛ وكان كتبة المحامين وأصحاب المصالح في المحكمة يسمونه بذلك عمدة المحكمة . . . !

خط الرافعي

وحدث مرة أن جاء إلى محكمة طنطا رئيس شديد الحول ، فلما صعد إليه موظفو المحكمة للتهنئة ، لم يجد بينهم الرافعي ، فلما سأل عنه تحدث الموظفون في شأنه ما تحدثوا ؛ فاستاء الرئيس وأرسل يدعوه إليه ، فلم يجده الرسول في مكتبه ، فغضب الرئيس وثارت ثائرته ، وأمر باستجوابه عن الاستهانة بنظام المحكمة ومواعيد العمل الرسمي ؛ وجاء الرافعي فبلغه ما كان ، فهز منكبيه وجلس إلى مكتبه يمزح ويتحدث على عادته كأن لم يحدث شيء ؛ ورفع الرئيس كتابه إلى وزارة الحقانية ، يبلغها أن في محكمة طنطا كاتباً أطرش ، لا يحسن التفاهم مع أصحاب المصالح على شدة اتصال عمله بمصالح الجمهور ، وهو مع ذلك كثير التهاون بنظام المحكمة ومواعيد العمل ولا يخضع للرأي ... وطلب الرئيس في آخر كتابه إقالة الرافعي من الخدمة ...

وأرسلت وزارة الحقانية مفتشها لتحقيق هذه الشكوى ، وليرى رأيه فيما طلبته محكمة طنطا ؛ وكان المفتش المندوب لذلك

(١) آثرت في هذا الخبر أن أرويه كما جرى باللغة العامية ، ليتأدى معناه إلى قارئه على وجهه . وكان الرافعي ينادي خاصته والمقربين إليه : « يا شيخ فلان ... » على اختلاف منازلهم وأعمالهم ولباسهم ؛ ولم يكن كل أحد يستأهل عنده هذا اللقب .

هو الشاعر اللبق الظريف المرحوم حفني ناصف بك . ولم تكن بين الرافعي وحفني ناصف صلة ما إلى هذا الوقت ، إلا ذلك النسب البعيد الذي يجمع بينهما في أسرة أبوتّون ... وإلا ... وإلا تلك الكلمة القاسـية التي كتبها الرافعي بأسلوبه اللاذع عن (شعراء العصر) سنة ١٩٠٥ ونشرها في مجلة الثريا وجعل فيها حفني ناصف ذيل الشعراء ...

وجاء حفني ناصف إلى الرافعي فحيا وجلس ، وبسط أوراقه ليحقق ... وقال الرافعي : قل لهم في الوزارة : إن كانت وظيفتي هنا للعمل ، فليؤاخذوني بالتقصير والخطأ فيما يُسند إليّ من عمل ؛ وإن كانت الوظيفة : تعال في الساعة الثامنة ، واجلس على الكرسي كأنك مشدود إليه بحبل — فلا عليّ إن تمردت على هذا التعبد .. قل لهم في الوزارة : إنكم لا تملكون من الرافعي إلا هذين الإصبعين ساعات من النهار ... !

واستمع الأديب الشاعر إلى حجة الأديب الشاعر ، ثم طوى أوراقه وحيا صاحبه ومضى ؛ فلما كان في خلوته ، كتب تقريره إلى وزارة الحقانية يقول :

إن الرافعي ليس من طبقة الموظفين الذين تعنيهم الوزارة بهذه القيود ... إن للرافعي حقاً على الأمة أن يعيش في أمن ودعة وحرية ... إن فيه قناعة ورضى ، وما كان هذا مكانه ولا موضعه لو لم يسكن إليه . دعوه يعيش كما يشتهي أن يعيش ، واتركوه يعمل ويفتنّ ويبدع لهذه الأمة في آدابها ما يشاء أن يبدع ، وإلا فاكفلوا له العيش الرخيّ في غير هذا المكان ..!

وبلغ التقرير وزارة الحقانيـة ، وانطوت القضية ، وصار تقليداً من تقاليد المحكمة من بعد أن يغدو الرافعي ويروح لاسلطان لأحد عليه ، وله الخيرة في أمره ؛ ولكنه مع ذلك لم يهمل في واجبه قط ، ولم ينس يوماً واحداً أنه في موضعه ذاك بحيث يرتبط به كثير من مصالح الجمهور .

قلت : إن الرافعي لم تكن بينه وبين حفني ناصف صلة ما . ولكن حفني تولى القضاء بعد ذلك مرة أو مرتين في محكمة طنطا فتقاربا وتوثقت بينهما أواصر الود ؛ وكانت طنطا في ذلك الوقت حلبة من حلبات الشعر والأدب ؛ فلا يمضي أسبوع حتى يقدم إليها أديب أو شاعر لزيارة الشاعرين : حفني والرافعي ، فيقوم للشعر سوق ومهرجان . وكان بين الرافعي وحفني من التقارب في الصفات ما يؤكد هذه الصلة ويوثق هذا الود ؛ فكلاهما شاعر ، وكلاهما من دعاة القديم ، وكلاهما أديب مرح يجيد الدعابة ويستجيد النكتة البكر ، وإن كانت فكاهة حفني أظهر وأبعث على الضحك وتكشف عن فراغ القلب ، وفكاهة الرافعي أعمق وأدل على قصد العبث والسخرية وامتلاء النفس . ولعل روح الفكاهة في الرافعي كان لها شأنها فيما كان بينه وبين المرحوم حافظ إبراهيم بك من صلة الود والاخاء .

حدثني الأستاذ الأديب جورج ابراهيم — صديق الرافعي وصفيُّه منذ حداثته — قال : لقد كانت الصلة بين الرافعي وحفني أكثر مما يكون بين الأصدقاء ، وكانا يتزاوران كثيراً ، أو يجتمعان في قهوة (اللوفر) بميدان الساعة ، وكنت أغشى مجلسهما أحياناً . . . فكنت أرى حفني يتواضع للرافعي ويتصاغر في مجلسه ، على مقدار مايتشامخ الرافعي ويتكبر ويدعي الأستاذية ، حتى ليرى له الرأي في القضايا التي لم يدرسها حفني بعد ، فلا يحكم فيها إلا بما حكم الرافعي !

* * *

ظل الرافعي في وظيفته تلك ، موزع الجهد بين أعماله الرسمية وأعماله الأدبية وما تقتضيه شئون الأب وشئون رب الدار ، على الورد المحدود والبساط الممدود . . . وما زاد مرتب الرافعي الشاعر الكاتب الأديب الذائع الصيت في الشرق والغرب ، الموظف الصغير في محكمة طنطا الكلية الأهلية ، على بضعة وعشرين جنيهاً في الدرجة السادسة ، بعد خدمة ثمان وثلاثين سنة في وظائف الحكومة . . .

على أن الرافعي كان له مرتب آخر من عمله في المحكمة ، هو ثمن ما كان يبيع من كتبه للموظفين والمحامين وأصحاب القضايا الذين يقصدون إليه في مكتبه لعمل رسمي ؛ فما كان أحد منهم يستطيع أن يظفر برضا الرافعي فيقضي له حاجتـه ، حتى يبيعه كتاباً من كتبه . وكانت ضريبة فرضها الرافعي من طريق الحق الذي يدعيه كل شاعر على الناس !

ليت شعري أكان على الرافعي ملام أو معتبة أن يفعل ذلك ..؟ لنا الله أيها الأدباء في هذه الأمة التي لا تحفظ الجميل !

«للبحث بقية» (طنطا) محمد سعيد العريان

أدب الميوعة والدلال

للسيد ماجد الأتاسي

منذ أسابيع خلت نعى أستاذنا « الزيات » في مقاله البليغ «أدب السندوتش» ، على أدباء هذا الجيل النابتين « جهلهم للغتهم ، وتقصيرهم في تحصيل آدابها » .

ثم علق الأستاذ « المازني » على هذا المقال ، وحدثنا عن شغفه بالكتب في أيام تحصيله الأولى ، وعن جلده على القراءة والدرس ، وقص علينا قصته مع كتبه يوم زواجه ، وكيف آثر الخلوة إلى هذه «الضرة» صباح يوم الجلوة على الجلوس والتحدث إلى زوجه العروس التي لاقت من «ضرتها» كل مايسوء ويضجر والتي نسأل الله لها الرحمة والرضوان ، وإلهامها أن تقابل ما تجد من اغتياب أستاذنا لها في شتى المناسبات ، بالصفح والغفران ، وهي آمنة مطمئنة في فسيح الجنان .

ثم تناول الأستاذ « أحمد أمين » هذا الموضوع بالبحث والدرس ، والتحليل والتعليل ، ووعدنا أن يعود إليه — كرة أخرى — ليصف لنا طرق العلاج ، وفنون الدواء من «صيدليته» ولعله يفعل .

وأخيراً عالج الأستاذ « العقاد » أدب « السندوتش » من — الوجهة العالية — وأتى على عوامل شيوعه وتفشيه في آداب الأمم الأخرى المعاصرة .

وهكذا تداول أساتذتنا الأئمة هذا الموضوع من أكثر من ناحية — بالبحث والدرس ، والتحليل والتعليل

وما كان لي — وأنا أحبو على عتبات الأدب حبو الأطفال وأحمل في ميدانه أجسام الأقزام — أن يدفعني مايلابس — عادة — نفوس الشباب ، من الغرور والصلف والتهور والنزق ، إلى أن أزج بنفسي بين أرجل هؤلاء العمالقة الأئمة الأخيار .

ولكنني أحببت — ولست أدري لم — أن أصرف أستاذي « المازني » ساعة عن هذه « الضرة » الباقية التي يهيم بها ، والتي لا يطيق لها هجراً ولا بعداً ، وأن أثقل فأهذر — أمامه حيناً ، فيهديني به أنه محظوظ من جماعة الثقلاء ، فلكم طرقوا بابه موهناً وهو يغط في نومه ، وسحبوه من فراشه لسؤال أو مزاح . ثم إني — بعد هذا — أطمئن وأقول له إنني لست من هؤلاء الشباب « الناعمين » أبناء الجيل الجديد ، الذين جاءوه زائرين ، فأذاقهم « علقته » وردهم إلى الباب مدحورين ، ثم فضحهم وشهّر بهم « في الرسالة » أمام الناطقين بالضاد أجمعين .

لئن نعى الأستاذ « الزيات » والأساتذة « المازني والعقاد وأمين» من بعده ، على أدباء هذا الجيل الناجين ، جهلهم بلغتهم ، وتقصيرهم في تحصيل آدابها ، فما أحقني إذن ، أن أشنب على زملائي الناشئين — وعلى الكهول في سوريا أيضاً — فأنعى عليهم جميعاً : ضعف النفس ، وضمور الشخصية ، وقلة الاستعداد لحمل رسالة الفكر الحر ، والعقيدة الثائرة ؛ وأن أسمى هذا النوع من حملة الأقلام « أدباء الدلال » بعد أن أسمى أستاذي « الزيات » أدبهم « أدب السندوتش » هذا الذي تقوم ثقافته على « نتفات من الكتب ، ولقفات من الصحف ، وخطفات من الأحاديث » والذي نجد نتاجه « مختصراً معتسراً كجنين الحامل أسقطته قبل التمام » .

إن شأن اللغة في الأدب الفحل ثانوي بالقياس إلى نفس الأديب وشخصيته ، وإن الجهل بها والتقصير في تحصيل آدابها ، من السهل واليسر — إلى حد بعيد — أن نعالجهما ونبرأ منهما ، إذا ما تعهدناها بالارادة القوية ، والعزيمة الحازمة ، والكدح الصابر ، والمعاناة الجلدة .

ولكن اللغة بلا نفس تنفخ فيها الحياة ، ولا شخصية تطبع هذه الحياة بطابع خاص ، ودون فكرة تذاع ، لاتكون إلا حطاماً تدوسه الأقدام ، وقرقرة تمافها الآذان

كثيرون وكثيرون من الأدباء أوفوا في معرفة لغتهم على الغاية ، وأشرفوا في تحصيل آدابها على الذروة ، ولكن طبيعتهم التي لابستهم ، وبيئتهم التي أخرجتهم ،وعوامل أخرى ، كل هذا لم يهيئ لهم النفس التي تهدم لتبني ، والشخصية التي تستقل لتهيمن ، فتهوروا وتدهوروا وانحدروا إلى الوادي بين جموع الناظمين والمنشئين واللاعبين ، من حيث طفر إلى القمة أهل النفوس والشخصيات ، فتبوؤا قمم « أولمب » واستقروا في جنات « عبقر » ذلك لأن قوام الخلود في عالم الأدب ، نصيب هـذا

الأدب من فيض الحياة وزخرها ، وقسطه من معرفتها وخبرها .
وهذه الحيـاة التي أعدت للرجال أهل العود الصلب واللسان العضب ، محرمة على من ضعفت نفوسهم ، وضمرت شخصيتهم ، ولانت قناتهم ، وموصدة أبوابها دون أولئك الذين يتهيبون مجاهلها ، ويخافون جدها ،ويجفلون من عثارها ، ويولون جياعاً على عتباتها ، والذين لاتحملهم أقدامهم الرخوة للجرى فوق شوكها ، والوثب على صخورها

هؤلاء « النـاعمون المدللون » أهل الدلال والدعة ، هم طفيليات فى هـذه الحياة ، وهم - بالتالى - متطفلون على موائد الأدب ، وليس للمتطفلين فى عالم الأدب بقاء

بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا ، فأقول بأن أصحاب النفس الشديدة ، والروح القوية ، والشخصية الجبارة ، يتهيأ لهم من حسن البيان ، وجودة المقال والارتفاع بفنون الـكلام ، ماتتقطع دونه أقلام من تمكنوا من ناحية اللغة ، وتفقهوا فى أساليبها ، وبصروا بنتاجها ، من أهل البرودة والنعومة والدلال

ذلك لأن الفـكرة فى النفس القوية قوة ، قوة عاصفة جامحة حرون ، « تـكهرب » لهـا الأعصاب المرهفة ، ويثور لحلها الوجدان ، فما تجد النفس ترفيها وتنفيساً إلا فى أن تقذف بها فى أسلوب نير كومضة البرق ، قوي كالحمم تنطلق من فوهة البركان ، بليغ يرتفع فى آفاق البلاغة والبيان إلى ما تتقطع دونه علائق الأحلام والأفهام

هذا هو الأستاذ البشرى يقول : « إن السيد جمال الدين الأفغانى كان غريباً عن العربية ، وإن قاسم أمين كان شبه غريب عنها ، وإن حسين رشدى باشا كان قل أن تطرد على لسانه ثلاث كلمات عربية متواليات ، ومع هذا كانوا يرتفعون بالعبارة أحياناً إلى ما يتخاذل من دونه جهد أعيان البيان »

ولا عجب من هذا ، ألا ترى إلى مقالنا ، كيف يبين ويرتفع في سماء الوجدان ساعة ثورتنا وغضبتنا ، إلى ما لا قدرة لنا عليه فى ساعة الرضى والاطمئنان ؟

كذلك هى النفس القوية ، أبداً فى ثورة عاصفة ، وغضبة جامحة ، وكذلك هى أبداً فى تحفز للوثبة ، وتأهب للطفرة والهجمة فان لم تجد أمامها ما تحطم ، رجعت إلى قرارتها تثير حرباً عواناً بين خيرها وشرها ، وحقها وباطلها ، وتقاها وفجورها ، لأن الهدوء والركون صور من صور الموت ، والنفس القوية لا تعرف فترات الموت والبرودة والجمود ، ما دامت تبصر النور ، وتتنفس الهواء .

* * *

الحياة سفر الأديب الموهوب : وهى صراع دائم بين الغى والرشد ، والحق والباطل ، والجمال والقبح ، والهدى والضلال ، والحب والبغض ؛ فالأديب الحق هو الذى ينزل إلى ميدان هذه المعركة المحتدمة ، يقاتل ويناضل ويصاول في سبيل الرشد والحق والهدى والحب والجمال ، إلى أن يحطم أصنام الشر والبطل ، ويهدم حصون الضلال والقبح ، أو يتحطم هو على أقدام الحق الذى ناضل فى سبيله ، وتحت ظل الراية ، التى نافح عنها ، وهكذا يلفظ النفس ، راضى النفس ، مطمئن الضمير ، هادىء الخاطر ، يبسم لأحلام القبر كما نسعى إلى الفراش إذا مسنا اللغب وأثقل جفوننا النعاس ، فنسحب اللحاف ، ونسبله علينا ، هادئين باسمين لنستسلم إلى الأحلام .

هذه هي الحياة ؛ وهذه هى رسالة الأديب : قطع الصخر ، وتجرع الصاب ، وتحطيم الأصنام ، والطفرة على حطامها إلى قمم المجد ، وسماء الخلود .

فهل أعد أدباؤنا الناشئون — والكهول أيضاً — نفوسهم ومهجهم وأدمغتهم لهذه المعركة التى وقودها النفوس الطامحة ، والقلوب الراغبة ، والضمائر الحرة ، والعقول النيرة ؟

اللهم لا ! اللهم لا !

من يمتري فى هذا فلا ينعى على أدبائنا الناجمين — وعلى الكهول عندنا — رخاوة العصب . والدلال والدعة والأنوثة واللين ؟

من يمترى فى هذا ، فلا ينعى عليهم ضيق الأفق ، وقحط الخيال ، وقصر المدى ، وضعف الجنان ، وتهيب القديم لأنه قديم ، وحب الجديد لأنه جديد ، والحرص على السلامة والمسالمة ، والراحة والركون ، والنفرة من المصاولة والمعاركة وقلة الجلد على حياة الجهد والتعب والضوضاء ، والتهيب من التجربة والاقدام ،

وضعف التعلق بالحق والمثل الأعلى والجمال ؟

إن حياة الأدباء أصبحت مضرب المثل ، ووحدة القياس ، في خمول النفس ، وكسل العقل ، وضعف الاستعداد للحياة ؛ فاذا قيل لك : هـذا أديب فاعلم أنه من هؤلاء الذين يخرجون إلى الشارع ، والفراش على أكتافهم « والمخدة » فوق ظهورهم .

أجل ! إننا لا نرى من ينقطع إلى الأدب من شبابنا إلا الذين خانتهم أقدامهم فى الوثوب إلى مراقى المجد ، والطفرة إلى قمم الظفر والذين نزلوا إلى ميادين الحياة ، فلما بلوها بلتهم ، وعجموها وعجمتهم ولوحت لهم بسياطها من بعيد هرولوا وارتدوا على أعقابهم ناكصين حائلة ألوانهم ، مرتعدة فرائصهم ، ثم انتحوا جانباً قصياً من الطريق ، بعيداً عن مواطن أهل الرجولة والإقدام ، على غرار العاجزين المتسولين الذين يقبعون فى زوايا الشوارع القـذرة ، أمام أهل الأعمال .

هاهم أولاء شباننا الذين يخفقون فى الشهادات « والبكالوريات » تسألهم : ما تصنعون ؟ فيقولون : ندرس الأدب . وهكذا أصبحت دراسة الأدب صناعة العجز ، ودليل الخور ، وبرهان الفقر فى المواهب ، أو الضعف فى النفس . وقد ينتهى هؤلاء إلى شئ ما فى دراستهم هـذه ، فتراهم يصيحون نائحين فى مآتم الموتى ، أو مهرجين فى حفلات الأحياء ، أو حارقين للبخور أمام أهل الجاه

ولا عجب من هذا ، فهم لا يصلحون للحياة ، ومن لا يصلح للحياة لا يصلح لحمل القلم ، والوقوف فى صفوف الأدباء

ثم هذه هى المقاهى ، ودور البطالة واللهو والعبث ، أصبحت ملاجئهم يلجأون إليها كما يلجأ العجزة إلى دورهم وملاجئهم ، ويفرون إليها من زحمة الحياة ، وهم يقرقرون ويموءون وينقنقون

أعرف أديباً كهلاً — أو على الأصح متأدباً — : أفتدرى ياصاحبى ما هى رسالة أدبه ؟ رسالته — بالضبط — رسالة « عميان الجنايز » والنائحات اللاتى يستأجرن فى المآتم للندب واللطم والشق والعويل ، أو رسالة « البرابرة » الذين يستأجرون فى مصر لتأديب المآدب ، وتنظيم الحفلات

يسمع أن صديقه فلاناً قد مرض ولزم الفراش ؛ وقد يكون ما به لفحة برد ، أو زكام طفيف ، فهو — منذ أيام المرض الأولى — يعد لصديقه العزيز مرثيته العصماء ليبكى فيه — إذا ما مات وأظنه يريده أن يموت ليرثيه — ليبكى فيـه النجم الذى أفل ، والبحر الذى نضب ، والرحمة التى رفعت ، والرجولة التى فقدت . ويسمع أن « فلاناً » وهو من أهل الجاه الطويل العريض — سيؤم المدينة بعـد أيام ؛ فاذا قدم كان صاحبنا الأديب الخالد أول المستقبلين والمرحبين ، وكان أول الخاطبين بين يديه والمـادحين ؛ وقد يكون هذا العين ممن لا يعرفهم صاحبنا إلا « بالسلام » وقد يكون من هذه الطبول المنفوخة الجوفاء التى نقع عليها فى طريقنا صباح مساء ؛ وقد يكون ممن كان يشهر بهم أديبنا آناء الليل وأطراف النهار ؛ وقد يكون من هؤلاء المجرمين الذين يروحون ويجيئون أمامنا بأثواب القديسين والأقطاب ، فنسجد لهم ونحملهم على الأعناق ؛ قد يكون هذا العين من كل هؤلاء ، ولـكن أديبنا لا يتحرج إذ يخلع عليه الألقاب ، وإذ يغرقه بالتحيات ، ويجعله فى البلاغة سحبان وإن كان أعيا من باقل ، وفى الـكرم حاتماً وإن كان أبخل من أشعب ، وفى الشجاعة عنترة وإن كان أجبن من أبى دلامة

وليت هذا الرثاء وهـذا المديح كانا من وحى الخاطر ، ومن بنات القريحة ؛ وإنمـا هما سرقات من الـكتب رصفت رصف الحصى ، ونتفات من الدواوين ركبت تركيب « اللعبة »

أعرف أديباً آخر — أو على الأصح متأدباً — أفتدرى ياصاحبى ما رسالته ؟ رسالته هى مهمة « سماسرة » القطن فى مصر أو « سماسرة » البصل والثوم عنـدنا فى سوريا . إذا كان الصباح يدعو إلى الانتـداب ، ويتغنى بمآثره و « يسمسر » له ؛ وإذا كان الضحى ، وكان الحكم الوطنى ملأ الجو بالتصفيق ، وحطم الآذان بقصائده ينشر فيها مجد بنى عبد شمس ، ويذيع فيها صنيع أبناء عدنان ؛ وهو « يسمسر » للحكم الوطنى لأن بيـد الحاكمين مناصب الدولة ، ورياسـة ديوان وزارة المعارف ؛ وهو عند الأصيل معارض للحكومة الوطنية ، متحمس فى معارضته ، مسرف فيها ، لأنهم طردوه ولم يقبلوه ، وهو أخيراً فى المساء رجل مسالم يقف بعيداً « على الحياد » لا يدعو إلى شئ ولا يؤمن بشئ لأنهم لوحوا له من بعيد بالسوط ، مهرول إلى عقر داره ، مضطرب

النفس ، مهتز القلب ؛ وآثر السكوت والرضى بالواقع على الشغب المغرض ، والنعيب المضجر

أعرف متأدباً قيل له ذات يوم « لم لا تنتسب إلى هذا الحزب ومبادئه كيت وكيت؟ » فقال : « إنني أؤمن بمبدئه ، وأرضى عن منهجه ، وأطمئن إلى برامجه ، ولكن خصومه أصدقائي وصحبي ، فلا قدرة لي على خصامهم ! . . وعلى أن أكون حرباً على هذا الحزب بين صفوفهم ! . . »

هذه خطوط هي إلى اللمحات الخاطفات أقرب منها إلى الصور الجامعات ، أوردناها — على عجل — لتلمس أيها القارئ نواحي من هذه الحياة التي يضطرب فيها جماعة الأدباء ، والتي هي ضرب من ضروب الجمود بل الموت .

***

زعم أدباؤنا أن سماءنا غائمة ليس لها روعة الإيحاء والالهام ، وأن آفاقنا ضيقة ليس لها القدرة على تفتيق الأذهان والأحلام ، وأن حياتنا جامدة ليس فيها من فيض الحياة ما يحرك الشاعر والأوتار .

لا ! لا ! لم تغم السماء ولكن عيونكم حسرى ما ترتفع ، ولم تضق الآفاق ولكن أذهانكم لم تفتق ، ولم تتجمد حياتكم ولكن أوتار قلوبكم ما تتحرك .

ها هنا زعماء يرقصون على قبور الأمة ، ويرتفعون على أشلاء الشهداء ، ويتناصرون لاقتسام الغنائم تناصر الذئاب الجائعة أمام الجيف في أقصى الصحراء ، والناس — على رغم هذا — يحملونهم على الأعناق ، ويحرقون أمامهم البخور ، ويهتفون باسمهم أطراف الليل وآناء النهار

في كل مكان مرجفون يرجفون ، ومضللون يكذبون ، وغادرون يغدرون ، وماكرون يمكرون ، وجاهلون يتعالمون ، وأغبياء يرتفعون ، ومجرمون في ثياب الأقطاب والأولياء ، وبين الهتاف والتصفيق يروحون ويجيئون .

والحقيقة في كل هذا تشرد فلا مأوى ولا مصير ، والفضيلة تستغيث وتستجير فلا مجير ولا نصير .

أليس في كل هذا ، ما يلهب الحقد والضغينة في صدر الأديب ويحوله إلى طاغية غشوم ، يبطش بلا رحمة ولا هوادة ، في أهل المجد المزيف المجرم ، والجاه الملوث الكاذب ؟

في كل مكان أمة تصنع لقمتها من دمعها ودمها وقطع كبدها ثم ترفعها بيدها المرتعشة المشلولة إلى فمها لتسد رمقها ، فاذا اليد القوية تمتد إليها وتتخطفها ، وهي على شفتيها ، والسوط يهتز في يسراها .

في كل مكان نماج رواقص على سكينة الجزار ، وسياط هاويات على ظهور المستضعفين من العباد ، وعذارى يشردن ويبعدن عن أوطان الآباء والأخوة والامهات ، وشذاذ الآفاق يشترون الضمير البشري بالأصفر الرنان ، وذئاب « جنيف » تعصف بها غرائز الوحشية والجشع ، فتنتشر في بقاع الأرض الآمنة المطمئنة ، تثير الفتنة ، وتبعث الروع ، وتستنزف الدماء ، ومن ورائها الخبث الأوروبي يحارب في سبيل السلام ، ويبغض في سبيل الحب ، ويرهب في سبيل التأديب ، ويسرق في سبيل الاطعام ، ويوقظ الفتنة في سبيل الأمان !

أليس في كل هذا ما يشعل النخوة في رءوسكم ، ويحرك المروءة في نفوسكم ، ويثير الغيرة في قلوبكم ، ويدفعكم إلى إغماد أقلامكم في أفئدة هذه الذئاب ، وصوغها أسرّة لهذه العذارى المشردات ، وإرسالها سهاماً في صدور الظالمين الطغاة ، ورفعها أعلاماً خفاقة للحق والخير والجمال ؟

أين أنتم يا أصحاب المشاعر الرهيفة ، والقلوب الرقيقة ؟ يقولون « الأدب نزيف القلب : طاهره ورجسه ، ونشيد الشعور : نبيله وخسيسه ؛ ومعيار القوة فيه أن ينزف القلب فيتفجر ، وأن ننشد فنبدع . » إذن ، لم لا تسمعوننا دقائق من زئيركم ، إلى جانب الشهور الطوال من نحيبكم نحيب الأطفال ، ونواحكم نواح العجائز ؟

ستقولون : « هذا ما يجرى على اللسان . وما يفيض عن القلب » ؛ وسنقول لكم : « إنكم مرضى في أعصابكم ، يا أنصاف الرجال ، وأشباه النساء . »

بلى : يا طلاب الأدب الباكى الناثح ، يا مجانين الفن

هؤلاء هم آباؤكم وأمهاتكم وأبناء عشيرتكم ، يزجون فى السجون . ويرسفون في القيود ، وتتلظى رقابهم على شفرات منجل الجلاد ؛ ترتعش جفونهم المثقلة لتلمح ومضات النور ، وتلهث صدورهم من خناق الكهوف ، ويغلي فى صدورهم الشوق إلى مروج الحياة الحرة ، حيث ترقص عرائس الأحلام والآمال فى أحضان الربيع . . .

أليس من جمود الحس ، وبلادة الشعور ، وغلظ القلب ، أن تشربوا كأسكم على قبور الآباء ، وأن ترقصوا فى مأتم الأمهات ، وألا تحرك أوتار قلوبكم هذه الأمانى المشتركة الطوال العراض ، وألا يهيمن على نفوسكم هـذا الموقف الذى تمازج فيه الأنوار بالظلمات ، والآلام بالآمال ، والضجر بالرغبات ؟ فما نراكم إلا مالئين بتحيكم جو الرجال ، وقارعين آذانهم بنواح « الدلع » والدلال ؟

المجد ، والشهرة ، والنبوغ ، والخلود : كل هذا من عرائس القلب ، وحسان الخيال .

لم لا يوقظ الحب في قلوبكم ، وتلهب الشهوة فى جسومكم عرائس هذه العواطف العليا اللاتى يرقصن على أكف النجوم عاريات ، وينمن على ظهور القرون غافيات ، ويضربن على أوتار التاريخ منشدات ، ويقطفن أكاليل الغار من رياض الجنان ، ليعصبن بها رءوس المجانين من أهل العشق والغرام ؟

لم لا تترامون على أقدام هذه العرائس التى يشع منها نور الرجولة ، وتتفتح تحتها أزهار الحياة ، بدل أقدام غانياتكم التى يفوح منها روائح الرجس والخزى والعار ، والتي مصيرها إلى نجوة قذرة فى جوف التراب ؟ أليس فى اختطاف الرجال رغباتهم من يد الأقدار ، وركوبهم مراكب الهول فى سبيل الآمال ، وتبوئهم عروش النصر مضمخة بالدماء ، أليس فى كل هـذا ما يبعث فيكم عواطف الرجولة والشدة والبأس ، بدل الأنوثة والبرودة والقنوع والدلال ؟

يا أيها السبعة ، ياشباب الشيوخ ، وياشيوخ الشباب ابعثوا الثورة والتمرد فى نفوس الناشئين من الأدباء ؛ قولوا لهم : « إن حياة الأديب لاتكون إلا فى ميادين الطعن والضرب والعراك ؛ ولا تهنأ إلا تحت ظلال الحق والحب والخير والجمال ! »

قولوا لهم : « إن القلم الذى تحملونه أعد لتغمدوه فى قلوب الباطشين الظالمين ، والمجرمين الحاكمين ، والأتقياء المزيفين ، فان لم تفعلوا فاغمدوه فى قلوبكم فما خلقت الحياة لنذل جبان رعديد ، وفى القبور مراد للاغبين »

إذا فعلتم هذا ، أيها السبعة الأئمة ، في العالم العربى جميعه ، تصبح معضلة الضعف فى اللغة من الهنات الهينات ؛ وتقر عيونكم بأدباء على غراركم : هم أهل لحمل القلم ومجده ، وهم أهل لأن يقولوا عن أنفسهم ماقال (فولتير) عن نفسه « مايمنعنى عن أن أكون ملكا ، وإن لم يزن مفرق تاج ؟ ! »

أجل ! آنئذ يصبحون ملوكاً على عروش الأدب والبيان ؛ ملوكا تتحطم تحت أقدامهم عروش ملوك البطش والجاه ، وتحمل عروشهم الخالدة أعناق القرون والدهور والآباد .

« حمص سورية » ماجد الأتاسي

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الشعراء

وقال زارا لأحد أتباعه : منذ بدأت أعرف حقيقة الجسد لم تعد الروح روحاً في نظري إلا على أضيق مقياس ، وهكذا صرت أرى (كل ما لا يفنى) رمزاً من الرموز .

فأجاب التابع قائلا : لقد قلت هذا من قبل يا زارا ولكنك أضفت إليه قولك « وكثيراً ما يكذب الشعراء » فلماذا قلت هذا ؟

فقال زارا : أنت تسأل لماذا ، وما أنا ممن يحق عليهم أن يُسألوا . ما أنا ابن الأمس وقد مر زمان طويل على إدراكي أسباب ما أرتأيه ، وهل أنا خزانة تذكارات لأحفظ الأسباب التي بُنيت عليها آرائي ؟ إنما يكفيني عناء أن أحفظ هذه الآراء نفسها ، أفليس في العالم عصافير تشرد من أماكنها ؟ ولكم وجدت في قفصي من طير غريب يرتجف إذا ما مرت عليه يدي

ومع ذلك فماذا قال لك زارا يوماً ؟ لقد قال إن الشعراء كثيراً مايكذبون، وهل زارا نفسه إلا واحد من هؤلاء الشعراء ؟ أفتحسب أنه بهذه الصفة قد أعلن الحق ؟ وما الذي يكرهك على تصديقه ؟

فقال التابع : إنني مؤمن بزارا .

أما زارا فهز رأسه وابتسم قائلا : ليس الايمان مما يرضيني حتى ولو كان هذا الايمان معقوداً علي ، ولكن إذا قال إنسان بكل جد : إن الشعراء يكذبون ، فانه ليقول حقاً لأننا نحن الشعراء نكذب كثيراً ، ولا بد لنا من الكذب ما دام ما نجده من العلم قليلا . ومَنْ من الشعراء بيننا لم يغش شرابه وفي سراديبنا تستقطر السوائل المسمومة ؟ ولكم فيها من أمور يقصر عن وصفها البيان . إن افتقارنا في المعرفة يهيب بنا إلى محبة مساكين العقول وبخاصة إلى محبة مسكينات العقول الفتيات . . . فنحن نعود بشهواتنا إلى الأمور التي تتحدث عنها النجائز في السمر وتقول إن ما نبحث فيه إنما هو قضية المرأة الأبدية .

يخيل لنا أن أمامنا طريقاً سوياً يؤدي إلى المعرفة وأن هذا الطريق لا ينكشف لمن يدركون الأمور بالعلم . فنحن لا نؤمن إلا بالشعب وبحكمته . فالشعراء جميعهم يعتقدون أن الجالس على منحدر جبل مقفر يتصت إلى السكون يتوصل إلى معرفة ما يحدث بين الأرض والسماء . وإذا هم هزهم الشعور المرهف خيل لهم أن الطبيعة نفسها أصبحت مغرمة بهم فيرونها تنحنى على آذانهم تلهمهم البيان الساحر والأسرار : فيقفون مباهين بالهامهم أمام كل كائن يزول .

وا أسفاه ! إن بين الأرض والسماء أموراً كثيرة لايحلم بها إلا الشعراء وهنالك أمور أخرى كثيرة فوق السماء ، فما جميع الآلهة إلا رموز أبدعها الشعراء .

والحق أننا منجذبون أبداً إلى العلياء ، إلى مسارح الغيوم فنرسل اليها أكراً منفوخة ملونة ندعوها آلهة وبشراً متفوقين .

والحق أنهم من الخفة على ما يجعلهم أهلا لاقتعاد مثل هذه العروش

ويلاه ! لكم تعبت من كل قاصر يطمح إلى جعل نفسه شيئاً معدودا ؟ ولكم أتعبني الشعراء ؟

وما نطق زارا بهذا الكلام حتى ثارت نفس تابعه ، ولكنه كظم غيظه فسكت وسكت زارا أيضا وغيض نظره كأنه يسبر أقصى نفسه ، ثم تنفس الصعداء وقال : انا من الأمس ومن الزمن القديم ولكنّ في شيئاً من غد وبعده ومن الآتي البعيد . فقد أتعبني الشعراء الأقدمون منهم والمجددون فما هم في نظري إلا رغوة لا صريح تحتها ، بل هم أسرّة بحار جفت مياهها . إن أفكارهم لم تنفذ إلى الأغوار ، وقد وقف شعورهم عند أول جرفها . وخير ما ترى في تأملاتهم قليل من الشهوة وقليل من الضجر فليست بحورهم إلا مجالات تنزلق على تفاعيلها الأشباح فهم لم يدركوا شيئاً بعد من القوى الكامنة في النبرات . لم يبلغ الشعراء درجة النقاء فهم يعكرون جداولهم ليخدعوا الناس ويوهموهم أنها بعيدة الغور ؛ إنهم يريدون أن يقيموا أنفسهم موفقين بين مختلف المعتقدات غير أنهم لا يزالون رجال العمل الناقص السائرين على السبل المتوسطة الحائرة فهم يعكرون المياه بأقدامهم .

وآسفاه لقد ألقيت شباكي في بحارهم آملا اصطياد خير الأسماك ولكنني ما سحبت هذه الشباك مرة إلا وقد علق فيها رأس إله قديم . وهكذا كان يجود البحر بحجر على الجائع . ولعل الشعراء أنفسهم خرجوا هم أيضاً من البحر وفيهم ولا ريب

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٦ —

سامكهيا:

عاش الحكيم « كابيلا » مؤسس هذا المذهب فى القرن السادس قبل المسيح كما يظن أكثر الباحثين الدققين. وقد نشأ هذا الظن عندهم من أن أقدم النصوص التى تحدثت عنه وعن مذهبه ترجع إلى القرن الخامس قبل المسيح ، وأنه قد عثر فى هذا المذهب وفي المذهب البوذى على تأثرات قوية متبادلة بين المذهبين بالتساوى مما يدل على أنهما متعاصران تقريباً لاسيما إذا كان بعض تلك النقط المتشابهة واضح الأصلية فى أحدهما والحداثة فى الثانى ، والبعض الآخر على العكس من ذلك تماماً .

سمى هذا المذهب بـ « سامكهيا » لقوله بالتعدد الذى لايتناهي فى النفوس ، وهو على الأصح مذهب إلحادى لايقول بإله مسيطر متصرف فى الكون ، وهـذه إحدي النقط التى يلتق فيها مع البوذية التى صورتها لنا نصوص العصر الذى تلا عصر « بوذا » وبعبارة أدق : لعلها إحدى النقط التى تأثرت فيها البوذية بعـد موت زعيمها بمذهب « سامكهيا » الإلحادى الذى لايشك باحث في أن الالحاد متأصل فيه .

يرى صاحب هذا المذهب أنه لايوجد للكون إله قدير منفرد بالتصرف فيه ، وإنما يرى أن هناك روحا عاماً أو عالماً من الأرواح غير محدود ولا متناه ، متشابه الوحدات ، وأن هذه الوحدات بتكاتفها مع المـادة هي التى تحدث فى الكون هذه الآثار وتلك التغيرات على النحو الذى يفصله فيما بعد ، وهو يرى كذلك وجود عالمين هما فى الحقيقة والأزلية والأبدية سواء ، وهما : النفس ، وتسمى بالهندية : « بوروشا » والمـادة ، وتسمى : « برا كريتى » . وهذان العالمـان لايتفقان فى أى شيء آخر عدا الحقيقة والأزلية والأبدية . ومع ذلك ، فان بينهما صلة قوية ، لأن مجاورة النفس للمادة هي التى تكسبها الحركة التى هى منشأ كل النتائج الصادرة عنها ، ولـكن النفس وحدها لاتستطيع أن تفعل شيئاً وإن كانت حية مشتملة بالقوة على جميع عناصر القدرة التأثيرية ، وهى مبصرة ولـكنها عاجزة على عكس المـادة العمياء المشتملة على قدرة كامنة يستحيل بروزها من غير اتصالها بالنفس ، وهم لهذا يشبهون اتحادها باتصال مقعد وأعمى التقيا فى صحراء ، فاتفقا على تعاون عملى بينهما يضمن لهما النجاة ، وهو أن يحمل الأعمى المقعد على كتفيه ، ليمكنه من السير فى مقابل أن يدله المقعد بوساطة بصره على الطريق الذى لم يكن فى مكنته أن يعرفه لولا معاونة رفيقه ، وقد وصلا معاً إلى شاطئ النجاة بفضل هـذا التعاون المظيم . وهكذا شأن النفس مع المـادة هيأ لهما اتحادهما إبراز خواصهما التى لم تكن لتوجد بدون هذا الاتحاد .

وللمادة ثلاث صفات ملازمة لهـا ، وهى الخيرية والهوى والظلمة ، وإن هذه الصفات تظل تتفاعل فيما بينها في عصور مختلفة حتى تصل إلى حالة الاعتدال التى تسوي بينها ، فإذا وصلت إلى هذه الحالة تتطورت تطوراً آخر جديداً نشأت عنه الطبيعة ، وبارتباط النفس والمادة المتطورة والطبيعة الناشئة عن هذا التطور يوجد هذا العالم المشاهد . غير أن هذه النظرية لم تلبث أن تلاشت

بعض اللآلىء ، فهم أشبه بنوع من المحار المنع بأصدافه ، ولـكم وجدت فى داخلهم بدل الروح شيئاً من الرغوة المالحة . إن الشعراء يقتبسون من البحر غروره ؛ وهل البحر إلا أشد الطواويس غروراً ؟ فهو حتى أمام أقبح الجواميس يدحرج أمواجه ويبسط أطالس مراوحه وأطراف وشاحه المفضض فيحدجه الجاموس بنظرات الغيظ لأن روحه المقتربة من الشاطئ لا تزال ملتصقة بعلفه ومرعاه فما يبالى بالجمال وبالبحر وبهاء الطواويس . هذا هو المثل الذى أضربه للشعراء . والحق أن فكرهم لطاووس مغرور بل هو بحر من الغرور ، ففكر الشاعر يطلب من يشاهده حتى ولو كان الشاهد جاموسا .

لقد أتعبنى هذا الفكر وسوف يأتى زمان — وهو قريب — يتعب فيه هذا الفكر من ذاته .

رأيت بعض الشعراء يتحولون عن الشعر ويوجهون النقمة إلى ما كانوا عليه ، ورأيت من يقدمون كفارة للفكر ، وما نشأ هؤلاء المكفرون عن الضلال إلا بين الشعراء .

هكذا تكلم زارا . . . .

وحلت محلها نظرية أخرى على العكس منها تماماً ، إذا أصبحت فكرة الارتباط الحقيقي بين النفس والمادة لاوجود لها ، وإنما أصبح الرأى السائد هو أن النفس تجتمع مع المادة اجتماعاً مؤقتاً ، أساسه الضرورة التي تتطلبها الحياة الدنيوية ، ثم لا تلبث هذه الضرورة أن تزول فتتخلص النفس من هذه الصلة المقيدة لها ثم تنطلق إلى عالم الأبدية الأعلى حيث تنام بلا نهاية نوما عميقاً هادئاً لا تزعجه الرؤى ولا تنغصه الأحلام .

ويرى كذلك أن الشر فى هذا العالم موجود وجوداً ذاتياً وأنه لا يقدر على محوه إلا بوساطة العمل الصالح والتخلى عن جميع اللذائذ والتأمل فى أسرار الكون ، وعلى الخصوص بالمعرفة التي هي الغاية المثلى من جميع هذه المحاولات المتقدمة .

وهم للحصول على هذا الخلاص المنشود يغالون فى التصوف مغالاة شديدة حتى ليجلس الواحد منهم على شاطىء أحد الغدران عدة أعوام طويلة دون أن يغادر مكانه ، ويقتات بالأعشاب ويديم التفكر فى أسرار الكون ، ولا يزال يغالب نفسه حتى ينتزعها نهائياً من دنس المادة ، وقد تصل به الحالة أثناء هذا التنسك إلى أن يصير جسمه نصف متحجر وتنبت فيه الحشائش وتلتف عليه الأغصان .

ومع ذلك فسوف لا يعم هذا الخلاص جميع النفوس البشرية وإنما سيبقى منها عدد غير متناه ساقطاً فى أحابيل الشر مسجوناً فى غيابات الأجسام المادية ، لأنه مهما اقتطع من اللامتناهي عدد ذهب إلى الخلاص ، فان ذلك الاقتطاع لا يؤثر فيه ولا يخرجه عن صفة اللانهائية لا سيما إذا عرف أن الأصل هو الشر أو الانحباس فى سجن المادة ، وأن التخليص عارض ، ولكن أنجع الوسائل إلى هذا التخليص هو معرفة القوى الكونية الخمس والعشرين ودوام التفكير فيها . ولذلك يقول « بياس ابن براشر » : اعرف الخمسة والعشرين بالتفصيل والتحديد والتقسيم معرفة برهان وإيقان ، لا دراسة باللسان ، ثم الزم أى دين شئت فان عقباك النجاة . . .

وهذه القوى الخمس والعشرون هي : النفس الكلية والهيولى المجردة ، والمادة المتصورة ، والطبيعة الغالبة ، والعناصر الرئيسية وهي : السماء والريح والنار والماء والأرض ، وتسمى « مهابوت » والأمهات التي هي بسائط العناصر ، فبسيط السماء « شبد » وهو السموع وبسيط الريح « سبرس » وهو الملموس . وبسيط النار « روب » وهو البصر . وبسيط الماء « رس » وهو الذوق ، وبسيط الأرض « كند » وهو الشموم . ولكل واحدة من هذه البسائط ما نسب إليه وجميع ما نسب إلى ما فوقه . فللأرض الكيفيات الخمس ، والماء ينقص عنها بالشم ، والنار تنقص عنها به وبالذوق ، والريح بهما وباللون ، والسماء بها وباللمس . ولعلهم فى نسبتهم الصوت إلى السماء يقصدون به أن لدوران الكواكب فى أفلاكها تلك اللحون الموسيقية التى زعم « فيثاغورس » أن سماعها يتاح لكل من صفت نفسه ولطف حسه . والحواس المدركة ، وهى : السمع والبصر والشم والذوق واللمس والارادة المصرفة والضروريات الآلية . واسم الجملة : « تتو » والمعارف مقصورة عليها [1]

أما الانسان فهو عند هذا المذهب معقد تعقيداً يلفت النظر ، إذ هو مكون من ثلاث شخصيات مختلفة : الأولى الجسم المادي الذى ينحل ويتفكك بالموت ثم تتلاشى أجزاؤه فى أصولها الناشئة عنها من عناصر المادة . الثانية جسم دقيق شفاف ، وهو الذى يعتبر فى الحقيقة الجوهر الصحيح للانسان ، وهو الذى يتناسخ ويتقمص الأجسام الأخرى . الثالثة النفس التى هى الواحد الحق المماثل كل المماثلة لجميع الآحاد الحقة التى هى من عالمه النفسانى النير المتناهي .

ويرى هذا المذهب أيضا أن الحواس الإنسانية لم توجد اتفاقاً ولا عبثاً ، وإنما وجدت وفاقاً لعناصر الكون ، فكل حاسة من حواس الانسان يقابلها عنصر من عناصر الطبيعة يصلح لأن تقع عليه هذه الحاسة بالذات كما أشرنا إلى ذلك عند الكلام على الديانة البراهمانية .

وليس هذا التعقيد فى شخصيات الانسان مقصوراً على مذهب « سامكهيا » وحده ، وإنما هو أسلوب هندى عام اشتركت فيه أكثر مذاهب تلك البلاد . بل إن غير « سامكهيا » قد يصل بهذه الشخصيات إلى أربع أو سبع أو عشر حسب الظروف والأحوال .

« يتبع » محمد غلاب

(١) أنظر صفحتى ٢١ ، ٢٢ من كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة » البيرونى .

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

---

١٥١ — تكون رأساً لخيار محمودين

فى (رسالة [١] أرسطو للاسكندر):

إنك قد أصبحت ملكا على ذوى جنسك وأوتيت فضيلة الرياسة عليهم فما يشرف رياستك ويزيدها نبلا أن تستصلح العامة، وتكون رأساً لخيار محمودين لا لشرار مذمومين. فان رياسة الاغتصاب — وإن كانت تذم لخصال شتى — أولى ما فيها بالمذمة أنها تحط قدر الرياسة وتزرى بها، وذلك أن الغاصب إنما يتسلط على الناس كالعبيد لا كالأحرار فرياسة الأحرار أشرف من رياسة العبيد. وقد كان ملك فارس يسمى كل أحد عبداً ويبدأ بولده، وهذا مما يصغر قدر الرياسة؛ لأن الرياسة على الأحرار والأفاضل خير من التسلط على العبيد وإن كثروا.

لا تلتفت إلى مشورة من يشير عليك بغير الذى أنت أهله. ولا تعبأ بكلام أقوام خسيسة آراؤهم ناقصة هممهم يوهون عندك الأمور ويحملونك على العامة

١٥٢ — نحن لا نملك علينا من لا يشاور

يروى أن روميا وفارسيا تفاخرا، فقال الفارسى: نحن لا نملك علينا من يشاور

فقال الرومى: نحن لا نملك علينا من لا يشاور

١٥٣ — الملك الدستورى

فى (الكامل) لابن الأثير: كان عضد الدولة لا يعول فى الأمور إلا على الكفاة، ولا يجعل للشفاعات طريقاً. شفع مقدم جيشه (أسفار) فى بعض أبناء العدول [٢] ليتقدم إلى القاضى ليسمع تزكيته ويعدله. فقال: ليس هذا من أشغالك إنما الذى يتعلق بك الخطاب فى زيادة قائد، ونقل مرتبة جندى وما يتعلق بهم، وأما الشهادة وقبولها فهى إلى القاضى، وليس لك ولا لنا الكلام فيه، ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته فعلوا ذلك بغير شفاعة

١٥٤ — أنا عبد الشرع وشحنته

فى (رحلة ابن جبير): حضر صلاح الدين أحد رجاله التميزين مستعديا على رجل. فقال السلطان: ما عسى أن أصنع لك وللناس قاض يحكم بينهم، والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه ممتثلة، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته [١]، فالحق يقضى لك أو عليك

١٥٥ — تعظم النعمة فى تملك سلطان عالم عادل

كتب ابن العميد (أبو الفضل محمد بن الحسين) إلى عضد الدولة [٢]:

بعد أهل التحصيل فى أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها وانتقاض مررها [٣] والأحوال الداعية إلى ارتفاع جل الموجود منها وعدم الزيادة فيها — الطوفان بالنار والماء، والموتان [٤] العارض من عموم الأوباء، وتسلط المخالفين فى المذاهب والآراء، فان كل ذلك يخترم العلوم اختراماً، وينتهكها انتهاكا، ويجتث أصولها اجتثاثاً؛ وليس عندى الخطب فى جميع ذلك يقارب ما يولده تسلط ملك جاهل تطول مدته، وتتسع قدرته، فان البلاء به لا يعدله بلاء، وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته، والبلوى بمن هذه صورته تعظم النعمة فى تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذى أحله الله من الفضائل بملتقى طرقها، ومجتمع

---

(١) رسالة مهمة مطبوعة فى أوربة

(٢) العدل من الناس المرضى قوله وحكمه، جائز الشهادة، وعدل الرجل زكاه؛ (اللسان)

---

(١) شحنة الكورة من فيهم الكفاية لضبطها من أولياء السلطان (اللسان) مثل الشرطة: رجال البوليس

(٢) الثعالبي: اقرأنى محمد بن الحسين الفارسى النحوى فصلا من كتاب لابن العميد إلى عضد الدولة كنت مررت عليه وأنا عنه غافل فنبهنى على شرفه فى جنسه؛ وحرك منى ساكنا معجبا بحسه متعجبا من نفاسة معناه وبراعة لفظه.

(٣) المرة: طاقة الحبل، وكل قوة من قوى الحبل مرة وجمعها مرر (اللسان)

(٤) الموتان (بالضم والفتح) الموت الكثير الوقوع، موت يقع فى المال والماشية (النهاية، اللسان)

فرقها . وهي نور [١] نوافر ممن لاقت حتى تصير إليه ، وشُرَّد نوازع [٢] حيث حلت حتى تقع عليه ، تتلفت إليه تلفت الوامق ، وتتشوف [٣] نحوه تشوف الصب العاشق ، قد ملكتها وحشة المضاع ، وحيرة المرتاع ،

١٥٦ — للرعية المنام وعلينا القيام

كان الرشيد في بعض حروبه فألح عليه الثلج ليلة ، فقال له بعض أصحابه : أما ترى ما نحن فيه من الجهد والنصب ووعثاء [٤] السفر والرعية قارة وادعة نائمة ؟ !

فقال : أسكت ، فللرعية المنام ، وعلينا القيام ، ولا بد للراعي من حراسة الرعية وتحمل الأذى . وإلى ذلك اشار بعضهم :

غضبت لنضبتك الصوارم والقنا لما نهضت لنصرة الاسلام
ناموا إلى كنف بعدلك واسع وسهرت تحرس غفلة النوام [٥]

١٥٧ — محلم العربي كسرى

في (تاريخ الطبري وشرح النهج لابن أبي الحديد) : لما قُدم على عمر بسيف كسرى ومنطقته وزبرجه [٦] وزيه في المباهاة وزيه في غير ذلك ، وكانت له عدة أزياء لكل حالة زي — قال : عليّ بمحلِّم — وكان أجسم عربي يومئذ في المدينة — فألبس تاج كسرى على عمودين من خشب ، وصُبّ عليه أوشحته [٧] وقلائده وثيابه ، وأجلس للناس ، فنظر إليه عمر ونظر إليه الناس فرأوا أمراً عظيماً من أمر الدنيا وفتنتها ، ثم قام عن ذلك فألبس زيه الذي يليه ، فنظروا إلى مثل ذلك في غير نوع حتى أتى عليها كلها ، ثم ألبسه سلاحه وقلده سيفه فنظروا إليه في ذلك ثم وضعه ثم قال : والله إن أقواماً أدوا هذا لأمناء ؟ فقال علي : إنك عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا .

١٥٨ — حتى يمسكن أزواجهن عن الحركة

ابن سعيد المغربي في بعض مصنفاته : وكان الملك العادل [١] ابن أيوب من أعظم السلاطين دهاء وحزماً ، وكان يضرب به المثل في إفساد القلوب على أعدائه وإصلاحها له . وكان صلاح الدين — وهو السلطان — يأخذ برأيه ، وقدم له أحد المصنفين كتاباً مصوراً في مكايد الحروب ومنازلة المدن — وهو حينئذ على عكا محاصراً للفرنج — فقال : ما نحتاج إلى هذا الكتاب ومعنا أخونا أبو بكر . . . وكان (العادل) كثير المداراة والحزم ، كثير المصانعات حتى إنه يصوغ الحلي الذي يصلح لنساء الفرنج [٢] ، ويوجهه في الخفية إليهن حتى يمسكن أزواجهن عن الحركة [٣]

١٥٩ — وأين أنت من محادثة الرجال ؟

قال المأمون للحسن بن سهل : نظرت في اللذات فوجدتها مملولة خلا سبعاً .

قال : وما السبع يا أمير المؤمنين ؟

قال : خبز الحنطة ، ولحم الغنم ، والماء البارد ، والثوب الناعم ، والرائحة الطيبة ، والفراش الموطأ ، والمنظر الحسن من كل شيء .

قال : وأين أنت — يا أمير المؤمنين — من محادثة الرجال ؟

قال : صدقت . هي أولى منهن

---

(١) نارت المرأة من الدية نوراً ونواراً (بالكسر) وهي نوار (بالفتح) وهن نور (الأساس)

(٢) نوازع : غربة ، تنزع إلى وطنها أي تشتاق وهي نازع بغير هاء

(٣) تشوق لكذا إذا طمح بصره إليه ثم استعمل في تعلق الآمال والتطلب (المصباح) .

(٤) من المجاز : (أعوذ بالله من وعثاء السفر) : من شدته (الأساس) وأصله من الوعث وهو الرمل والمشي فيه يشتد على صاحبه ويشق (النهاية)

(٥) ولمحمد بن يزداد في المأمون (وكان وزيره) :

من كان حارس دنيا إنه قمن ألا ينام وكل الناس نوام
وكيف ترقد عينا من تضيفه همان من امره : حل وإبرام

(٦) الزبرج : الزينة من وشي أو جوهر ونحو ذلك ، والزبرج الذهب (اللسان) .

(٧) الأوشحة : من جمع الوشاح (بكسر الواو وفتحها والأشاح على البدل) كرسان (نظمان) من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر ، والوشاح أديم عريض يرصع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها ، والوشاح اسم سيف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (اللسان ، التاج)

(١) محمد بن أيوب ، كان ملكا عظيما ذا رأى ومعرفة تامة قد حنكته التجارب ، حسن السيرة ، جميل الطوية ، وافر العقل ، حازما في الأمور صالحا ، مائلا إلى العلماء ، متعاهد دياه ، كان يأكل وحده خروفا لطيما مشويا ، ولادته سنة (٥٤٠) وتوفي سنة (٦١٥) ودفن في التربة التي بمدرسته (في دمشق) وقبره على طريق يراه المجتاز من الشباك المركب هناك (ابن خلكان) .

(٢) نساء ملوكهم وأمرائهم الغنيين

(٣) تحتاله .

خواطر وأفكار

للأستاذ أديب عباسي

الخاطر الخامر كالداء الخامر : هذا يضعف الجسم ويعرضه لأدواء أخرى ، وذاك يضعف الفكر ويعرضه للكلال والانقباض فى نطاق ضيق

***

يجب ألاَّ يخدعنا سكوت الناس عن رأى من الآراء أو فكر من الأفكار فنظن أن هــذا السكوت دليل الرضى وآية القبول ؛ فقد يكون الرأى من السخف ووضوح الخطأ فيه بحيث لا يتكلف أحدٌ مشقة العناية به والانبراء لتفنيده

***

الخطأ الكبير من صفات العقول الكبيرة ، أما صغار العقول فلا يمكن أن تكون لهم أخطاء كبيرة

***

قصر النظر كبعد النظر لازم فى بعض ظروف الحياة ، لا سيما فى الأزمات

***

الناجح والفاشل فى الحياة يلتقيان عند قلّة الأصدقاء والمريدين لهم إرادة بريئة من الملق والزلفى أو حب الاستعلاء والظهور

***

يقولون لو عرف الانسان كفايته متى تكون لفتر سعيه وقلّت أطماعه ، وليس أنأى عن الصواب من هذا الرأى . فالواقع أن الناس يسعون ويعملون ويؤملون كأنهم باقون إلى آخر الدهر ومن هنا ترى الشاب والكهل والشيخ يستوون فى المطامح والأطماع

***

كثرة التحليل والتعليل والتدبر كثيراً ما تكون سبيلاً للفشل بدل أن تكون عوناً على النجاح

***

يضطر المرء أحياناً أن يمثل دور المخدوع ، ليقيه أن يقلل من أذى الحاقدين وشرهم ، لا سيما إذا كانوا ذوى حول وسلطان

***

حتى الأعراض تهون عند البعض فى سبيل الانتقام

***

خير للمرء أن يخطئ مع التجربة من أن يتجنب التجربة كيلا يخطئ

***

تعوُّدك الأمر من الأمور أسهل جدًّا من انقطاعك عنه

***

فى الناس الميل لذكر السيآت ونسيان الحسنات ، لأنهم فى قرارة نفوسهم لا يحبون أن يكونوا المحسن إليهم ، ويودون دائماً أن ينالوا ما يشتهون بجدهم وسعيهم

***

فى طبيعة الناس جميعاً الملل من المؤثر يجيء على وتيرة واحدة ومن هنا ترى الناس على الاطلاق يتمنون لو يبدلون أحوالاً بأحوال وأوضاعاً بأوضاع مع العلم واليقين أن الأحوال والأوضاع الجديدة قد لا تكون خيراً من الحال والوضع القديم

***

السياسى كالدجال يعتمد على خداع الفكر كما يعتمد الدجال على خداع البصر .

***

إذا اشتد الجدل حول الرأى من الآراء أو الخطة من الخطط وانتصر الرأى أو الخطة ، فمن الخير والحكمة أن ننزل بالرأى أو الخطة درجة أدنى من التقدير ، وذلك أن حرارة النضال وشهوة الفوز لابد أن تكون أخرجت الرأى أو الخطة عن نطاق الصحة وصدق التقدير .

***

معارك الفكر الكبرى تترك كثيراً من قتلى الأفكار الأبرياء كما أن المعارك الحربية تترك كثيراً من القتلى فى غير ميادين القتال .

***

السعادة كالأفق دائماً أمامك .

***

ليست الفضيلة أن تمتنع عما لا تستطيع ، إنما الفضيلة امتناعك عما تطوله يداك وتخصه بهواك .

إذا أكثر المرء الحديث فى فضيلة من الفضائل فشك فى نصيبه منها

* * *

إذا جاء الاعجاب بالشىء بعد كره له ، فذاك هو أصدق الاعجاب

* * *

الإعجاب الفاجىء كثيراً ما ينتهى بالكره والاحتقار

* * *

الابتكار بالطبع غير الإغراب ، ولكن كثيراً ما يلتبس الواحد بالآخر . ومن هنا يجب ألا يخدعنا الإغراب عن مكان الابتكار فيه ، إن يكن تحته ابتكار

* * *

من الكتاب من لا يريد أن يريك الفكرة فى وضاحة من الألفاظ واستقامة من الأسلوب ، وذلك لأنه ليس على يقين من لجة هذه الفكرة أو صدقها ، فيرى أن يلففها ويغمضها بالملتوى من الأسلوب ومبهم البيان

* * *

حديث النعمة لا يعرف الاعتدال ، فإما السرف الشديد وإما الكزازة

* * *

الدنيا مع الواقف

* * *

الفشل أشدُّ أثراً فى حياة الأفراد من النجاح

* * *

ليست النتيجة بقياس صحيح لجودة الرأى وصواب النهج والخطة ، فقد ينتهى الرأى الخاطىء على غير انتظار بنتيجة طيبة وقد ينتهى الرأى الصائب بنتيجة سيئة

* * *

قدِّر السوء والشرَّ نتيجة لما تسعى . فان جاءك الخير أحسست به قوياً ، وإن جاءك الشر يكن لك من توطينك النفس عليه واقياً يقيك أذى اليأس وأخطار الخيبة

* * *

الشخصية القوية الواضحة كالفكرة القوية لا تزيدها المقاومة إلا رسوخاً وظهور معالم

* * *

منتهى الشك بدء اليقين .

* * *

الطفولة أسعد أوقات الحياة لأنها الدور الأوحد الذى يستطاع العيش فيه للحاضر دون الآتى أو الغابر من الزمن .

* * *

تظلم الثعلب إذ تشبه بمكره رياء الناس . فهو يمكر ويختل تحت أقسى الظروف ، وأشد الضرورة ، أما أكثر الناس فيختلون ويحتالون ويراءون ترفاً وفى غير حاجة سوى حاجتهم إلى إظهار الصغار وهوان النفس .

* * *

حتى الصغائر تظهر صغيرة فى صغار النفوس .

* * *

عند الاضطرار تتقارب صفات الخلق .

* * *

يبلغ من لؤم الطبع فى بعض الناس أن يؤذوا الأصدقاء إذا وُجد بينهم أعداء يريدون لهم الأذى ولا يستطيعون أن يفردوهم لأذاهم من بين هؤلاء الأصدقاء .

* * *

لو أتيح أن يتساوى جميع الناس فى الفضائل ، لأضحت رذائلنا ضرباً من الامتياز يُرغب فيه ويُسعى إليه .

* * *

التوقح أشرف من الرياء ، فهو على الأقل يدلُّ على الجرأة

* * *

عاد مشتركا ـ إن أمكن ـ وصادق منفرداً .

* * *

الإقدام لا يكون شجاعة إلا مع تقدير الخطر .

* * *

كل شىء يخف أثره وقيمته إذا تكرر إلا التضحية .

* * *

من ضحى مرة وأعادها ثم أعادها ، بعد إنكار لها ، فمنزلته فوق منزلة البشر .

* * *

أعط بعض ذاتك تعط كل ذاتك .

أديب عباسى



رسالة الشعر

مختارات من أدب الرافعى

« على جسر كفر الزيات كان للرافعى فى صدر شبابه مغدى ومراح ومن عيون الملاح على هذا الجسر تفتحت زهرة شبابه للحب ؛ و (العصفورة) التي ينسب بها الرافعى فى القصيدة التالية فتاة من بنات كفر الزيات لقيها على الجسر فهفا إليها قلبه وتحرك لها خاطره ، وهى كانت أول هواه ، وعمره يومئذ اثنان وعشرون سنة »

محمد سعيد العريان

عصافير يحسبْن القلوبَ من الحَبِّ … فمَن لى بها (عصفورةً) تلتقط قلبى[1]

وطارت فلما خافت العينُ فوتَها … أذالت لها حبّاً من اللؤلؤ الرطب

فياليتنى طـــير أجاوز عُشَّها … فيُوحشها بُعدى ويؤنسها قربى !

ويا ليتها قد عشَّشتْ فى جوانبي … تُغرِّد فى جنب وتمرح فى جنب

ألا يا عصافير الرُّبى قد عشقتُها … فهُبِّي أعلِّمك الهوى والبكا هُبِّي

أعلِّمك النَّوح الذى لو سمعتِه … رثيتِ لأهل الحب من شغف الحب

خذي فى جناحيك الهوى من جوانحى … ورُوحى برُوحى لَّتى أخذت لُبِّي

نظرتُ إليها نظرةً فتوجَّعتْ … وثنَّيتُ بالأخرى فدارت رَحَى الحرب !

فمِن لحظة يَرمي بها حدَّ لحظةٍ … كما التحم السيفان عضباً على عضب

ومن نظرة تَرتدُّ من وجه نظرة … كما انقلب الرُّمحان كعباً إلى كعب

فساقت لعينى عينُها أيَّ أسهم … قذفن بقلبى كلَّ هولٍ من الرعب

وساق لسمعي صدرها كلَّ زفرة … أقرَّت بصدري كلَّ شيءٍ من الكرب

ودارت بيَ الألحاظ من كل جانب … فمنهن فى سلْبى ومنهن فى نَهبى

فقلت: خُذِعنا ، إنها الحرب خدعة … وهوَّنَ خطبى أن أسْرَ أخوى خطبي

فقالت: إذا لم تنجُ نفسٌ من الردى … فحسبك أن تهوى فقلت لها : حسبي

ولي العذر إمّا لامنى فيكِ لائم … فأكبر ذنبي أن حبّك من ذنبى

ويا من سمتم بالهوى ، إنما الهوى … دمٌ ودمٌ : ها ذاك يصبو وذا يُصبى

متى ائتلفا ذَلاً وَدلاً تَعاشَقا … وإلا فما فى رونق الحسن مايَسبي

سلونيَ أُنبئْكم ، فلم يدرِ ما الهوى … سواي ، ولا فى الناس مثلى مَن صَبَّ

إذا شعراء الصَّــيد عُدُّوا فإننى … لَشاعرُ هذا الحسنِ فى العُجْم والعُرب[1]

وإن أنا ناجيتُ القلوب تمايلتْ … بها نسماتُ الشعر قلباً على قلب

وبي مَن إذا شاءتْ وصفتُ جمالَها … فوالله لا يبقَى فؤادٌ بلا حُب ! !

من الغيد ، أما دَلُّهـا فملاحةٌ … وأما عذابى فهو مِنْ ريقها العذب

ولم يُبقِ منها حُجبُها غيرَ خطرة … ولا هى أبقتْ للحسان مِنَ العُجب

عرضتُ لها بين التذلُّل والرضا … وقد وقفتْ بين التدلُّل والعتْب

وأبصرتُ أمثـال الدُّمَى يكتنفنها … فقلت : أهذي الشُّهب أم شبه الشهب ؟

فما زال يَهدى ناظرى نورُ وجهِها … كما نظر المَلّاحُ فى نجمة القطب

وقد رُحْنَ أسراباً وخفتُ وشاتَها … فعيني فى سرب وقلبيَ فى سرب

وقالت : تجلَّدْ . قلت : يامَيُّ سائلى … عن الحزن يعقوباً ويوسفَ فى الجب

وما إن أرى الأحباب إلا وداعاً … تُرَدُّ ، فإما بالرضاء أو الغضب . !

مصطفى صادق الرافعى

سنة ١٩٠٢

---

(١) مما يحسن ذكره أنه كان لأحد بني المنجم جارية (صفراء) مولدة ، فبلغ به الوجد بها إلى أن مرض ونحل ، فدخل عليه الطبيب لجسه وقال : هذا الفتى قد أحرقته (الصفراء) . يريد إحدى الطبائع الأربع ، فقال المنجم : أصبت وأحسنت من حيث لا تشعر ...

أقول : والرافعى يعنى بهذا أن عصفورته التي ينسب بها كان اسمها (عصفورة)

الرافعى

(١) من هذا كان الرافعي فى سنيه الأولى ولوعاً بأن يسمى (شاعر الحسن)

في هدأة الليل

قيثارتي . . .

« كأنما قلبي في خفقه * فراشة أنت لها المشعل »

الكونُ ساجٍ ؛ والدُّجى مُسْبَلُ … والبدرُ في هالته يرفُلُ
والليلُ كالْيَمِّ بعيدُ المدى … لا آخرٌ يُرْجَى ولا أوَّلُ
ونسمةُ الأمواج خفَّاقةٌ . . … حيرى فلا قصدٌ ولا موئلُ
رخيةُ الأعْطافِ في مسِّها … كأنها في لينها المخملُ
والنجمُ وسْنانُ السنا راجفٌ … والطيرُ مفقودُ اللُّهَا مُجْفِلُ
فسلسلِ الأنغامَ في هينةٍ … كما سرى في الجدولِ السلسلُ
ورفِّقِ الألحانَ تثملْ بها … فمن رقيقِ اللحنِ ما يُثْمِلُ

* * *

أغفتْ لِحاظُ الكونِ من حولنا … وغابَ في أغصانِه البلبلُ
وأسبلَ الجفنَ بنانُ الكرى … وأسدلَ السُّجْفَ الدُّجى المسدِلُ
وعدتُ في الليلِ وقيثارتي … ترجِّعُ اللحنَ وتسترسلُ
لحنٌ كما الحُلْمُ رفيفُ الرؤى … يحفلُ بالآمالِ ما يحفلُ
قد فاضَ في قلبي فأحيا به … ما كادَ من نضرِ المنى يرحلُ
كأنما أوتارُها جدولٌ … ينهلُ منه الروضُ ما ينهلُ
روحي على ضفّاته نبتةٌ … حياتُها في روضِها الجدولُ

* * *

كم تُسْكِرُ النفسَ أرانينُها … ويستخفُّ القلبَ ما يُذهِلُ
كأنما ألحانُها نسمةٌ .. … تروحُ بين الزهرِ أو تُقبِلُ
والقلبُ في هبّاتِها زهرةٌ … ترسلُها الأنسامُ ما ترسلُ

* * *

يا أيها القلبُ إلامَ الأسى … والكونُ صافٍ حولَنا يَجذَلُ
أذبلتني من طولِ ذاك الضنى … والزهرُ إن طالَ المدى يذبلُ
فدعْ أسى الدنيا وآلامَها … واطرحْ من الأشجانِ ما يُثقِلُ
حُثَّ الخُطى وانعمْ بصفوِ الصِّبا … فالعمرُ يخبو ، والصِّبا يأفلُ
ما خافَ ذاك العمرِ إلا الردى … نهايةُ الشُّعلةِ المنجلُ .

* * *

قيثارتي هزِّي الدنا نشوةً … كما تهزُّ السنبلَ الشمألُ
كأنما قلبي في خفقهِ … فراشةٌ أنتِ لها المشعلُ
إن أبقتِ الدنيا له مأملاً … فأنتِ سُؤْلُ القلبِ والمأملُ

* * *

فسلسلِ الأنغامَ في هينةٍ … كما سرى في الجدولِ السلسلُ
ورفِّقِ الألحانَ تثملْ بها … فمن رقيقِ اللحنِ ما يُثمِلُ

اسكندرية — أحمد فتحي مرسي

حمامة الموكب (١)

لا والذي علم الغيوب وصانها … لا أدعي علماً بأي مغيب
لكن فطنت إلى دقائق حاضري … فنظرت للآتي بعين مجرب
إن الحمامة فوق ركب مليكنا … روح النبي محمد في الموكب
هذي مبايعة بسر ما انجلى … وسينجلي في لمحة أو أقرب
ركن الخلافة لن يظل معطلاً … تاج الخليفة بين أجنحة النبي
واهاً لكم يا آل مصر رأيتمو … روح الرسول على الفناء الأرحب
هبطت على القصر المنيف بسحرة … ميمونة يوم الخميس الأطيب
ورأت خليفتها لدى استيقاظه … في الفجر نعم المجتبَى والمجتبِي
ولى المتوج وجهه مستقبلاً … بيت الإله بعزة وتهيب
ذرعت له أفق السموات العلا … لتراه يوم حلوله في المنصب
لترى معزاً دينها ومجدداً … سلطانها ومعيد عزة يعرب
وافرحة الورقاء لما شاهدت … تقوى الإله وعزة المترّب
أمنت على القسم العظيم وليه … وحبته سر طريقها والمذهب
وافرحة الفاروق بالروح التي … نزلت على أهل لديه ومرحب
فاروق يا مولاي إن إشارة … أغنت لديك عن المقال المسهب
المشرق الأقصى رنا إسلامه … شوقاً إلى مصر وأقصى المغرب
يرجو إمامتها وأنت إمامها … أيذاد عندك ظامئ عن مشرب

عبد اللطيف النشار

(١) يريد الحمامة التي هبطت على المركبة الملكية وظلت عليها في ذهاب الموكب إلى البرلمان ورجوعه إلى عابدين



مهر الوظيفة

للأديب نجيب محفوظ

كانوا أربعة فتيان، جمعتهم في البدء نشأة الصبا ثم مابين القصور الشماء والبيوت البسيطة من تفاوت ونفرة، وآخت بينهم زمالة الدراسة الطويلة ما بين ابتدائية وثانوية وجامعية، وأغراهم بالطموح إلى المجد اجتهاد عظيم وعزم متوثب ونجاح مؤازر لم يخنهم عاماً من الأعوام حتى غدوا تملأهم الثقة ويلهب قلوبهم الحماس.

وذكروا في حياتهم الدراسية العالية مثالاً لهم شرذمة من رجال مصر نشأوا على الاخاء نشأتهم، وتزاملوا في الدراسة زمالتهم. ثم كان منهم الوزير الخطير والمالي الكبير والفيلسوف الحكيم والمشرع العبقري، جعلوهم نبراساً منيراً بهداه يهتدون، ومن قوته يستمدون، وبعظمته يرجون ويأملون، ولم تقصر أخيلتهم عن التوفيق والابداع، فربط كل منهم نفسه بواحد من هؤلاء العظام اما لصفة ظاهرة أو سجية غالبة أو خلق معروف.

فلما أن حصلوا على ليسانس الحقوق ووضعوا أول قدم في طريق الحياة العملية الجديدة انتظر كل منهم نصيبه داعياً أن يجد فيه مايحقق أحلامه ويؤدى إلى هذه الحياة التي سعى إليها طويلا وبذل النفس كي يحقق مثلها الأعلى، وما كانت الوزارة لدى الزميل منهم إلا بعض أحلامه . . .

وفي الفترة التي أعقبت ظهور النتيجة ارتحل اثنان من الأربعة — وهما الثريان — إلى المصايف كعادتهما كل عام، وسافر واحد من الاثنين الباقيين إلى كفر الشيخ مسقط رأسه، وبقي في القاهرة « الأستاذ » جودة وهو شاب بسيط الحال من أسرة فقيرة في الصيت والرجال، عميدها موظف صغير بالبريد جاوز الخمسين ولم يجاوز مرتبه خمسة عشر جنيهاً، ولم ين الشاب عن السعي فحرر عدة طلبات استخدام وأرسلها إلى وزارة الحقانية وأقلام القضايا في الوزارات المختلفة، وكان طيب القلب قليل الخبرة فانتظر على شيء من الأمل والاستبشار، وفات يوم ويومان وأسبوع وأسبوعان، وشهر وشهران ولم يلق رداً أو يرى في الأفق بشيراً من الأمل، فراجع نفسه في تفاؤله وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد من يهتم لشأنه سوى أبيه العجوز الضعيف الذي لا يملك له ضراً ولا نفعا .

وعلى غير انتظار زاره صديقه رشدي ففرح به أيما فرح وكان في أشد الحاجة إلى من يبادله الرأي ويبثه الشكوى ويتقبل منه العزاء، فبادره سائلا :

« أراجع أنت من كفر الشيخ . . . ؟ »

فرد عليه الشاب وهو يتنهد :

« أي كفر الشيخ يارجل . . . لقد كنت تلك الشهور التي غبتها عنك كالرحالة أجوب البلدان وأزور الرجال وأتسقط الرزق . . . والآن ما أخبارك أنت . . . ؟ »

« لاشيء مطلقاً سوى أني سعيت للتوظف وعدت من مسعاي بالخيبة . . . هل من أخبار عن صديقنا حامد وإبراهيم ؟ »

« أخبار سعيدة والحمد لله . . . هما الآن موظفان بالحكومة المصرية . . »

« مبارك حظهما . . . ولكن كيف حدث هذا . . . ؟ »

« كيف حدث هذا ؟ أتحسب أن حامداً يشقى في طلب وظيفة وأبوه مستشار في محكمة النقض والابرام ؟ لقد كان تعيينه بالنيابة العمومية أمراً مفروغاً منه من يوم أن التحق بالكلية »

« حسن . . وابراهيم ؟ نعم إن إبراهيم غني ولكن أهله فلاحون وليسوا من ذوى المناصب الحكومية . . . »

« المال أبو الخوارق، وإبراهيم شاب جسور، أفتعلم ماذا صنع ... ذهب إلى وكيل وزارة الخارجية وهو من بني بلدته ،

وطلب يد ابنته ومهرها ألف جنيه . . . ولما كانت هذه الفتاة من ذوات الأمزجة الرقيقة اللاتى لا يجوز أن يمضين شهر العسل في مصر فما قريب سنذهب جميعاً لتوديع صديقنا العزيز وهو فى طريقه إلى السفارة المصرية بروما . . . »

فبدت الدهشة على وجه الشاب وتساءل :

وما الذى زكاه — وهو شاب ناشىء — فطاب فى عينى هذا الرجل الخطير . . . ومثل ابنته يتنافس فيها خيرة الموظفين الممتازين . . ؟

« ما فائدة التساؤل ؟ هب أنها عاطل من الجمال . . . أو أن رشاشاً يتلل سمتها . . أو . . أو . . فما يهمنى سوى رواية ما عندى من الأخبار . . . »

وصمتا لحظة جامدين خلا فيها كل منهما إلى أفكاره ثم نظر الشاب إلى رشدى وقال :

« ها إن الصديقين يرسمان الخطوة الأولى فى الطريق المؤدى إلى المجد ولا يبعد أن يحققا مرة أخرى المثل الأعلى الذى سبق أن حققه الباشوان اللذان كان الصديقان يترسمان شخصيتهما »

فأحنى الأستاذ رشدى رأسه مؤمناً فعاد الآخر إلى سؤاله بعد تردد :

« وأنت . . . ؟ »

« أما أنا فقد سعيت كما سعيت وأغلقت الأبواب فى وجهي كما أغلقت فى وجهك ولكنى لم أسلم للخيبة كما سلمت لها ، ففى ميدان المحاماة متسع لجميع ذوي العزائم والهمم ، والمحاماة ميدان تبرز فيه ملكات الرجال ومزاياهم ، فلا ينبغ فيها إلا كل عبقرى جبار ؛ وما أجدرها أن تبلغ بى ماتمتني نفسى من المثل الأعلى ... »

* * *

هذا جميل ، ولكنه لا يستطيع أن يحتذى حذو رشدى ولا أن يأمل آماله ، فآل رشدى على شيء من الثراء يمكنهم من أن يؤيدوا الشاب حتى يقف على قدميه ، أما هو فلا يمكن أن يطالب أباه بشيء من هذا ، لأنه يعلم علم اليقين أنه شيخ فقير وأنه يربى خمسة من البنات والبنين ، فما عسى أن يصنع . . . ؟ »

لقد أظلمت الدنيا فى عينيه وذوت أزاهير آماله اليانعة وبات يذكر أحلامه عن المجد والوزارة بالاستهزاء المرير والسخرية الأليمة ، وداخله شعور قوى بتفاهته وتفاهة الدنيا وأحلامها ومسراتها ، فعاش زمناً فى ظلمة أشد حلكة من ظلام القبور .

* * *

وبعد حين زاره فجأة الأستاذ رشدى ، وكان فى هذه المرة منشرح الصدر جذلا مسروراً فبادره بقوله : —

« قل معي يا بشرى . . . لقد اهتديت إلى كنز ثمين . . . فأصبت منه حظاً وأرجو أن تنال منه مثل حظى . . » فنظر إليه نظرة المريض المشرف على الهلاك إلى طبيبه . فاستطرد رشدى قائلا :

« لن تغرب شمس الغد على حتى أكون من الموظفين . . من أعضاء النيابة العمومية . . »

« مبارك . . »

« أرجو أن أهنئك بدوري عما قريب .. والآن اصغ إلى فانى أعلم أنك تتلهف الى معرفة حقيقة المسألة . هو مكتب للمعاملات المالية فى الطابق الخامس من عمارة رقم ٨٥ شارع سليمان باشا مديره رجل فى الأربعين حنكته الأيام والتجارب ففاق الفلاسفة فهماً للنفوس والرجال ، يعرفه جميع الماليين وكبار الموظفين لأنه يقرض النقود بأرباح هادئة . وقد غدا بحكم اتصاله بكبار رجال الدولة من زبائنه ذا نفوذ عظيم . له ظاهر يعلمه الناس جميعاً وباطن يعلمه هو وهم وأمثالنا من ذوى الحاجات . . هلم أدلك على قريب لى من أصدقائه المقربين ، خاطبه فى أمرك فان رأى أن شروطك ملائمة كان واسطتك إليه ، وثق يا صديق أنه إذا كتب لسعيك لديه النجاح فانك لا شك غداً من موظفي الحكومة الممتازين »

* * *

وفى عصر ذلك اليوم كان عند قريب الأستاذ رشدى . . . وقد قدمه إليه صديقه فلقي منه ترحيبا شد عزيمته وأنعش أمله ، قال له الرجل بعد ما بسط له مسألته :

« أذكر لى الوظائف التى ترغب فى الالتحاق باحداها »

فأجابه جودة :

« النيابة العمومية . . . قلم القضايا . . . السفارات أو القنصليات . . . »

« أوه ... إنك تنظر إلى علُ ... فما هي مؤهلاتك ... ؟ »

« ليسانس الحقوق »

« شهادة فى ذاتها مبجلة ... ولكن ليس العبرة بالشهادات... هل لك أقارب من ذوى المناصب . . . ؟ »

فضحك الشاب وقال :

« لو كان لي ما سعيت إليك . . . »

« حسن . . . من يطلب ثميناً فليدفع ثميناً . . . إلا أني أرجو أن تذكر أنه ما أنا إلا واسطة نزيهة ، وإني إن مددت لك يداً فلأنك صديق رشدى ولأنه حدثني عنك بما جعلني أقدرك وأعطف عليك . . . والآن اسمح لى أن أعرض عليك الوسائل التي قد تبلغ بك إلى غايتك المقصودة ، وما عليّ جناح إن لم يصادف بعضها هواك أو لم يستحق احترامك فعلى العرض وعليك الاختيار . . . »

فأحنى الشاب رأسه أن نعم ؛ فاستطرد الرجل همساً :

« النساء من أنجع الوسائل تحقيقاً للغرض ... أم جميلة ... أخت شابة ... زوج ظريفة ... أرى وجهك يحتقن فيه الدماء .. وتلهمه سورة الغضب ، حسن فلندع هذه الوسيلة . . . »

« نعم . . . نعم . . . »

« وسيلة أخرى شريفة جدا . . . الزواج . . . ولكنه ليس زواجاً بهذه الفتاة أو تلك ... وإنما هو طلب الانضواء تحت لواء اسم كبير . . . أو أسرة عتيدة . . . »

فانبسطت أسارير وجه الشاب وخفق قلبه من نشوة الأمل وصاح :

« هذا على هين . . . »

« لا تتسرع فليس الأمر كما تظن ... فشهادتك لا تكفي ... هـذه الأسر تهمها المحافظة على المظاهر ... وصون اسمها عن انتقادات الصالونات ما أمكن . . . فهو كبير يخرس الألسن ويدعم أى ادعاء وإن بعد عن الحقيقة . . . »

فعاوده اليأس واستشعر الخيبة مرة أخرى وقال : —

« فلألحق بوظيفة . . . وليدعوا لى فرصة حتى اقتصد من مرتبي وأفى بوعدى . . . »

« وما الداعي لرهان غير مضمون . . . والزبائن النافعون غيرك غير قليلين . . ؟ » .

« إذاً هات وسيلة أخرى . . . »

« وآسفاه إنها لا تكاد تختلف عن هذه إلا في الاسم . . . : مي المـال »

« وكم يجب أن أدفع ؟ »

« مهر الوظائف التي تطلب من الألف فصاعداً . . . »

الألف . . . إن والده لم يربح من الحكومة طوال عمره بها ضعف هذا المبلغ فكيف يأتى به فى ساعة من الزمن ؟ أواه . . . إن اليأس ينشب فيه أظافره فيستقر فى قلبه . . . ولكن التمعت فى ذهنه فكرة فصاح :

« لم لا يقرضني صاحبك المرابى المبلغ الذى يريد ويكتب على صكا أسدده فيما بعد من مرتبى ؟ »

« فكرة حسنة ، ولكنه رجل مرت به جميع التجارب وهو يرفض عادة أن يقرض مبالغ ضخمة لغير ذوى المراكز المالية المضمونة ، ولكنه قد لا يرى بأساً من كتابة صكوك وهمية كهذه بمبالغ صغيرة . . . مائة جنيه أو مائتين لمن يرغب فى وظيفة كتابية مثلا . . . »

وظيفة كتابية ؟ أين هذه من المجد والوزارة ومَثَله الباشا العظيم ؟

ولكن ما باليد حيلة وقد سدت فى وجهه الطرق وأظلمت الدنيا فى عينيه فينبغى أن ينفض عن الآمال العالية ولو إلى حين ريثما يبحث عن كسرة الخبز أولا ، ومن يعلم فقد تتمخض البداية الصغيرة عن نهاية عظيمة ! فكم من الوزراء بدأوا كتبة فى المحاكم المقبورة فى أقاصى الصعيد

وهكذا اضطر إلى أن يحول قلبه عن محركات الدولة الكبرى إلى آلاتها الصغرى الميكانيكية التى تتحرك ولا تدرى لم تتحرك أو كيف تتحرك

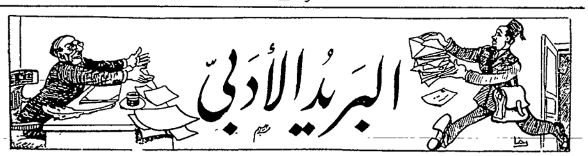
وأصبح ذات يوم فوجد نفسه فى حجرة واسعة تتزاحم فيها المكاتب الهرمة يقعد وراءها قوم خيل إليه — لجودهم وتفاههم — أنهم قطعة من بنيانها المتهدم

المركز صغير . . والمرتب ضئيل . . ترى هل ينتظر طويلا كى يضخم هذا المرتب أو يعلو هـذا المركز ؟ واقترب برأسه من زميل له وسأله همساً :

« ما موعد علاوتى المقبلة ؟ »

فنظر إليه الرجل دهشاً ورد عليه بصوت مسموع رنان :

« يحل موعد علاوتك — ومقدارها جنيه واحد — بعد



دولة الأدب والعهد الجديد

يحق لدولة الأدب أن تتطلع إلى العهد الجديد، عهد الملك الفتى فاروق الأول، وأن تؤمل أن تجتنى من الرعاية والشباب والجدة ما يسبغ عليها قوة جديدة ويحملها إلى آفاق جديدة أوسع وأعظم من آفاقها الحاضرة، وقد كنا وما زلنا نؤمل أن تفتتح الهيئات الرسمية والعلمية العهد الجديد بطائفة من المشاريع العلمية والأدبية الجليلة؛ ومن بواعث الأسف أن الجهات الرسمية لم تفطن إلى أهمية هذه المناسبة السعيدة وكونها من أصلح الظروف لوضع المشاريع الأدبية وترتيب الجوائز العلمية والأدبية، وقد رأينا الأمم الأوربية تتخذ هذه المناسبات لتنظيم الرعاية الأدبية وتنظيم المشاريع والجوائز العلمية الجليلة، ورصد الاعتمادات والهبات لتشجيع الحركة الفكرية وتشجيع الكتاب والمفكرين، وافتتاح العهد الجديد بنوع من الحلة الأدبية والعلمية تسبغ على الحركة الفكرية حياة جديدة. أما في مصر فقد مرت هذه المناسبة الجليلة، مناسبة تتويج الملك الشاب وافتتاح عهده الغض الجديد دون أن تحظى الحركة الأدبية من جهاتنا الرسمية والعلمية بما كان خليقاً أن تحظى به من المشاريع والجوائز؛ ولم يفطن إلى هذه المناسبة سوى دار الكتب المصرية إذ رتبت عدة جوائز أدبية من الكتب للمتفوقين من الطلاب؛ وهذا الاجراء على ما ينطوي عليه من معنى مشكور إنما هو اجراء متواضع كنا نود أن يصدر مثله مضاعفاً من هيئاتنا الرسمية العلمية؛ وقد كان خليقاً بوزارة المعارف العمومية والجامعة المصرية والأزهر ومجمع اللغة أن تنظم جميعاً مشاريع وجوائز علمية تعلن في مفتتح العهد الجديد وتكون عنوان عصر جديد من الاحياء العلمي والأدبي؛ ولكنها جميعاً غفلت عن هذه الفكرة الجليلة. على أن الوقت مازال متسعاً للتفكير والعمل؛ وما زلنا نؤمل أن تنتهز هيئاتنا العلمية هذه الفرصة لتعمل على شد أزر الحركة الأدبية بصورة عملية؛ وإذا كانت الحركة الأدبية قد حققت لنفسها في العصر الأخير تقدماً يبعث إلى الفخر والرضى، فقد كانت في ذلك مستقلة تعمل من تلقاء نفسها، ولو حظيت بقسط من الرعاية الرسمية لكان تقدمها مضاعفاً، فهل نظفر في العهد الجديد بمثل هذه الرعاية الكريمة؟ هذا ما نرجو، وهذا ما ندعو إليه.

آثار للشاعرة سافو بمصر

عثر أحد علماء الآثار الايطاليين وهو السنيور بريشا والسيدة ليديا نورسا أثناء مباحثهما في مصر عن الآثار الخزفية القديمة على قطعة من الخزف ترجع إلى القرن الثاني من الميلاد، وقد نقشت عليها ثمانية عشر سطراً من نظم الشاعرة اليونانية الشهيرة «سافو»، وهي أول مقطوعات من نوعها وجدت لهذه الشاعرة وقد قام بترجمة هذه النقوش العلامة الايطالي جوفريد وكوبول، وظهر من تلاوتها أن الشاعرة قد كتبتها أثناء إقامتها بجزيرة أقريطش، وهي في ملخصها ترنم بمحاسن الطبيعة والأحراج الخضراء في تلك الجزيرة.

أربع سنوات بصفة اسمية تصير فعلية بعد سنة فالمدة كلها خمس سنوات . . .»

ولفتت إجابة الرجل انتباه الحاضرين فعرفوا بداهة السؤال الذي اقتضى هذه الاجابة فلم يملكوا أنفسهم من الضحك . . . ومن حقهم أن يضحكوا من هذا الشاب الذي يسأل عن موعد علاوته ولما يمض عليه في العمل أسبوع. وقال له واحد منهم: «ستعملك هذه الوظيفة أن تستهين بأمتع فترة من عمرك وهي الشباب . . . فتستحث كل يوم – من أجل جنيه واحد – خمس سنوات من العمر اليانع أن تفوت وتنطوي.

نجيب محفوظ

وسافو كما هو معروف أعظم شاعرة عرفت فى التاريخ ، وهى يونانية عاشت فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس قبل الميلاد ، وهى صاحبة أعظم وأجمل مقطوعات غنائية عرفتها دولة الشعر .

ومن الغريب أن تخرج هذه التحفة الأثرية من مصر ؛ ومن الأسف ألا تجد السلطات المصرية وسيلة لمنع هذا السيل المتسرب من تحفنا وآثارنا .

مؤتمر للصيد تمثل فيه مصر

من أنباء برلين أنه سيعقد بها مؤتمر دولى عظيم للصيد فى شهر نوفمبر القادم ؛ وسيقام إلى جانبه معرض للصيد يكون أعظم ما عرف العالم من نوعه إذ سيغطى مساحة قدرها نحو عشرة أفدنة ، وسيضم نماذج من آلات الصيد ومناظره المختلفة منذ فجر التاريخ إلى يومنا ، وستشترك مصر فى هذا المؤتمر ، وترسل نماذج وصوراً من آثارها المتعلقة بالصيد عند الفراعنة لتعرض فى هذا المعرض العظيم .

العيد المئوى لدار نشر عظيمة

احتفلت دار النشر الألمانية الشهيرة «تاوخنتز» Tauchnitz بليبزج بعيدها المئوى ؛ ولعله لا يوجد بين مئات الملايين الذين يقرأون الانكليزية فى مختلف أنحاء الأرض من لا يعرف مطبوعات هذه الدار الشهيرة التى اشتهرت بجمالها وأناقتها واعتدال أثمانها ؛ وقد كان تأسيس هذه الدار فى سنة ١٨٣٧ على يد كرستيان برنهارد تاوخنتز ، أسسها لتقوم بنشر مؤلفات الكتاب البريطانيين والأمريكيين وبالفعل لم تترك علماً من هؤلاء الكتاب الذين يكتبون بالانكليزية إلا نشرت جميع مؤلفاته فى قطع جميل موحد ، وتضمنت مطبوعاتها مؤلفات جميع كتاب العصر الفكتورى مثل ليتون وتاكرى وكارلايل ودكنز وكولنس وهاردى وكونان دويل وكابتن ماريات ، وجميع الكتاب الأمريكيين مثل كوبر ومارك توين وبريت هارت وادجاربو وهاوثورن وغيرهم ؛ وقد جرت الدار على أن تنشر مؤلفات الكاتب كلها فى نفس القطع والشكل ؛ وقد أخرجت حتى يومنا أربعين ألف مجلد و٥٢٦٠ كتاباً للمؤلفين الانكليز والأمريكيين فى القرن الماضى والقرن الحاضر .

ومن الغريب أن دار تاوخنتز كانت تنشر كتب المؤلفين دون استئذان ولكنها كانت ترسل إليهم بعض تعويضات عن حقوقهم وكان ذلك سنياً محمد من جانبها لأنه لم يكن هناك فى ذلك العصر تشريع دولى لحماية المؤلفين وحقوق التأليف ، ولكن مطبوعات تاوخنتز لم يكن يسمح بدخولها فى انكلترا ولا الأملاك البريطانية لاعتدائها على هذه الحقوق فيما يظهر ، بيد أن السائح الانكليزى يشترى منها خارج بلاده بكثرة ، ويشتريها جميع الذين يتكلمون الانكليزية فى مختلف البلاد . ويقدر أن قراءها من الانكليز لا يزيدون على عشرين فى المائة بينما يقدر قراؤها من أبناء الأمم الأخرى بنحو ثمانين فى المائة .

وفى سنة ١٩٣٤ بيعت حقوق أسرة تاوخنتز فى النشر إلى دار نشر ألمانية أخرى فى ليبزج هى دار أوسكار براندشتتر ، وهى تقوم أيضاً بنشر المؤلفات الانكليزية تحت عنوان معروف هو « مكتبة البتروس »

التاريخ السياسى المعاصر

صدر أخيراً بالانكليزية كتاب عن التاريخ السياسى المعاصر عنوانه « العلاقات الدولية منذ معاهدة الصلح » Int. Relations Since the Peace Treaties لمؤلفه المؤرخ الأستاذ هنرى كار وقد كان الأستاذ كار مدى أعوام طويلة ، من كبار موظفى وزارة الخارجية البريطانية ، وأتيحت له فرصة حسنة لدراسة العلاقات الدولية عن كثب ومراجعة المحفوظات والوثائق الهامة ؛ وهو يقدم لنا فى كتابه عرضاً موجزاً للحوادث والعلاقات الدولية منذ عقد معاهدات الصلح فى سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٣٧ ، ومن رأيه أن معاهدة فرساى كانت وثيقة سيئة لم يحسن وضعها ، لأنها قصدت فى مجموعها إلى إذلال ألمانيا وانتهاز فرصة هزيمتها وضعفها إلى حدود أبعدت الشعب الألمانى نهائياً عن أوربا الغربية وجعلت من المستحيل على الحلفاء السابقين أن يطمعوا فى ولائه أو مصادقته ، ثم يستعرض الأستاذ كار سياسة إيطاليا الفاشستية وألمانيا النازية فى النمسا وأوربا الوسطى ، وأن ما يجمع بين السياستين هو عاطفة السخط على الدول التى استغلت ظفر الحرب واستولت على جميع الثمار والأسلاب ، ولكن هذه الجامعة السلبية ينقصها كثير من عناصر الوئام والتناسق . وكتاب الأستاذ كار على العموم سجل بديع لتاريخ الدبلوماسية الأوربية منذ خاتمة الحرب الكبرى إلى يومنا .

الحب والشعراء

قرأت المقال الطريف « فى الحب أيضاً » للأستاذ الأديب إبراهيم عبد القادر المازنى فى الرسالة عدد ٢٠٨ حتى وصلت إلى قوله : « وخليق بالمرء وهو ينظر إلى هـذه الفتنة المجتمعة ، أن تدركه الحيرة ، وأن يزوغ بصره ، فلا يعود يدرى أى هؤلاء الجيلات أولى بحبه ، فإن لكل جسم فتنة ، ولكل محيا سحره ، ولو أني وقفت على البحر لكان الأرجح أن أحب هؤلاء جميعاً ، جملة ، وأن أشتهى أن أضمهن كلهن فى عناق واحد فإن الظلم قبيح . ونفسى لا تطاوعنى على غمط الجمال فى أية صورة من صوره . ومن يدرى لعل القدرة على إدراك معانى الجمال فى مظاهره المختلفة هى التى وقتنى الحب ، ومنعت أن أعشق واحـدة على الخصوص وأجن بها » الخ

وهنا رأيت أن روح التصوف قد حلت فى الأستاذ من غير أن يعرفها ، أو يعرفها ولا يريد أن يتظاهر بها . فإنه بين الصوفية من يقول : « همه أوست » أى كل شىء هو ؛ ويرى أن الله روح سائر فى الكون . فكل شىء فيه مظهر من مظاهر جماله تعالى . لذلك لا وجود للقبح عندهم بل كل شىء حسن فى ذاته . وهؤلاء غير من يقول « همه أزوست » أى كل شىء منه . فهم لا يقولون كقولهم إن الله روح سائر فى الكون ، بل إنه تعالى مصدر لوجود الكون ، وإن كل شىء فى الكون وميض جمال قدرته وشعاع كمال صنعه ؛ وعلى هذا فلا وجود للقبح بالنسبة إلى قدرته تعالى وصنعه

ولكن هؤلاء الصوفية مع تلك العقيدة لم يضنوا بقلوبهم على فرد خاص من أفراد الجمال الكثيرة فى هذا العالم كما يضن الأستاذ بقلبه . فإننا كلما تتبعنا حوادث حياتهم ودرسنا سيرتهم وجدنا أن قلب كل منهم تقريباً علق بفرد خاص من أولئك الأفراد وأصبح فيما بعد دليلا لسموهم النفسى ، وسبباً لتقدمهم الروحانى

بقى ما هو الحب ؟ فينظر الأستاذ إليه نظرة التشائم ويقول إنه مرض ، وينسب ما اتصف به الحب من المزايا والمحاسن فى الشعر والأدب إلى الشعراء ومبالغتهم فيه . فكأن الشعراء هم الذين وصفوا هذا المرض المستحق للذم بالأوصاف والمزايا تفاؤلا فيه ، وإلا فهو نفسه لم يكن خليقاً بها . لذلك ختم الأستاذ مقاله بالدعاء على الشعر والشعراء . ولكننا نقول للأستاذ ألا يبادر فى الدعاء عليهم فإن التشاؤم وجوداً فى كل مكان مهما كان مصدره ، سواء أكان خيبة أمل ، أم كبر السن ، أم فساد الطبع . فبين الشعراء أيضا من يرى رأى الأستاذ . قال الشاعر الفارسى :

چنين قحط سال شد اندر دمشق

كه ياران فراموش كردند عشق

اشتدت المجاعة فى دمشق إلى درجة أن نسى الناس العشق .

وقال الآخر : أين نه عشق أست آنكه در مردم بود

أين بلا أز خوردن كندم بود

إن العشق الذي يوجد فى الانسان لا أصل له فإن هذا البلاء يوجد من أكل القمح .

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

القسام والقسامة ، السمح

قال الأستاذ فكري أباظه (١) : « لماذا لا يستعمل الناس هذا اللفظ الجميل البليغ — يعنى الكسم — ولا أعلم ما رأى مجمع اللغة العربية فى فصاحته ودقته وروعته »

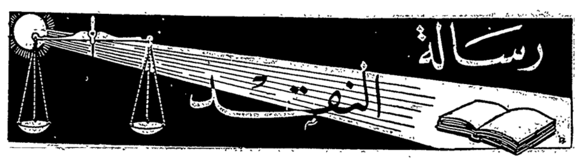
قلت : هذا (الكسم) العامي هو القسام والقسامة محرفين ناقصين ففى (التاج والأساس) : « قسم قسامة والمقسم والقسيم : الجميل معطي كل شىء منه قسمة من الحسن فهو متناسب كما قيل متناصف . ورجل قسيم وسيم بين القسامة والقسام »

ومن استثقل (القاف الثقيلة) لفظها سعدية زغلولية (٢) أو محمودية رازقية (نسبة الى محمود باشا عبد الرازق رحمة الله عليه) أو علوية وقراءة جماعة منهم فى القرآن بها — كما قال ابن خلدون — وهي متوارثة فيهم ، ويرون أنها الصحيحة المضرية . وقاف الجماعة هى بين القاف والكاف

وما دمت فى ألفاظ ... فأقول : إنى وجدت فى هذا الشهر العربى فى جريدة ومجلة وكتاب هـذه الكلمة غير الصحيحة : (السمحاء) وهى لفظة لا توجد فى الأرض ولا فى السماء ، وإنما هى (السمحة) أى السهلة كما فى (النهاية) والحنيفية السمحة هي الملة التى ما فيها ضيق ولا شدة كما فى (اللسان والتاج) فهناك السمح والسمحة لا الأسمح ولا السمحاء . والحديث المشهور الذى رواه الخطيب عن جابر هو : « بعثت بالحنيفية السمحة ، ومن خالف سنتي فليس منى » وهو من الأحاديث الضعيفة كما فى (الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير) للحافظ الأسيوطى

قارئ

(١) فى مقالة فى مجلة (٢) نسبت إلى الاسم واللقب ...



نقد كتاب إحياء النحو

تأليف الأستاذ ابراهيم مصطفى

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

— ١ —

لا ريب فى أن نحو اللغة العربية ثقيل عسير، يحتاج إلى كثير من التهذيب والتبويب؛ ليصبح سهل المأخذ، قريباً إلى النفوس، محبباً إليها درسه وفهم قواعده وأصوله

ولقد أخذت كتاب إحياء النحو، راجياً أن أجد فيه — كما يدل عنوانه — روحا جديدة تبعث فى النحو الحياة، أو فكرة حديثة تذلل صعبه، وتجمع ما تشتت من أبوابه ومسائله، وهأنذا، بعد القراءة، أبين رأيى فى الكتاب، بالصراحة التى يتطلبها العلم، وبالأدلة التى لا تدع مجالا للشك، آملا أن أكون قد وفيت بحق النقد البرىء

وسوف أنهج فى بحثى النهج الذى اتبعه المؤلف، فأذكر النتائج التى وصلت إليها بعد القراءة، ثم أتحدث بالتفصيل عن الأسباب التى أدت إليها، ويؤلمنى أن تكون النتائج هى :

أولاً : أن الكتاب ليس فيه شىء جديد

ثانياً : أن الكتاب لم يحدث فى دراسة النحو، أو كتبه، أو قواعده، أى تغيير أو تبديل

ثالثاً : أن ما فى الكتاب ليس إلا تعليلات كهذه التعليلات التى يستنبطها النحاة لشرح ما بين أيديهم، مما وقع فى كلام العرب، وإنك لواجد مثل هذه التعليلات التى جاء بها المؤلف، وأكثر منها فى الحواشى والتقارير

رابعاً : أن المؤلف ادعى على النحاة قضايا غير ممحصة

خامساً : أنه فى الأبواب القليلة التى أراد ضم بعضها إلى بعض يزيد النحو عسرا، لا سهولة وفهما، فضلا عن أنه لم ينجح فى هذا الضم

وسآخذ الآن فى مناقشة آرائه، وتفصيل القول فيها :

تعريف النحو

يأخذ المؤلف على النحاة، أنهم يعرفون النحو بأنه علم يعرف به أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناء؛ وهم لذلك قد ضيقوا دائرته تضييقاً شديداً، ويجب (فى رأيه) أن تتسع هذه الدائرة، حتى يصبح النحو قانون تأليف الكلام، وبيان كل ما يجب أن تكون عليه الكلمة فى الجملة، والجملة مع الجمل، حتى تتسق العبارة، ويمكن أن تؤدى معناها

وليسمح لى الأستاذ المؤلف أن أخبره بأن هذا التعريف غامض الغموض كله، فبيان كل ما يجب أن تكون عليه الكلمة فى الجملة قول عام مبهم، يشمل بيان أن تكون هذه الكلمة مستعملة فى معناها الحقيق، أو غير مستعملة، قصد بها السجع مع كلة أخرى أو لم يقصد، رمي بها إلى طباق أو تورية أو جناس، أو لم يُرمَ بها، إلى غير ذلك، وعلى هذا يشمل تعريف النحو علوم اللغة العربية كلها؛ لأنها جميعها ما وضعت إلا لبيان كلّ ما يجب أن تكون عليه الكلمة فى الجملة؛ ثم قسمت وأصبح لكل علم اختصاص خاص؛ ولا أحسبنى فى حاجة إلى أن أحدث الأستاذ عن اختصاص علم المعانى وعلم البيان وعلم البديع، التى ترمي جميعها مع علم النحو، كما قلت، إلى بيان ما يجب أن تكون عليه الكلمة فى الجملة؛ ولا إخال المؤلف يريد أن يجعل علم النحو عاما شاملا يضمّ تحت جناحيه علوم العربية كلها.

ولكن يظهر أن المؤلف (وتعريفه لعلم النحو غير محدّد ولا واضح كما قلت) يرى بكل ما يجب أن تكون عليه الكلمة فى الجملة إلى وصف حالها من تقديم أو تأخير أو نفى أو إثبات أو تأكيد أو استفهام ، وهنا أريد أن أقف معه وقفة قصيرة نستبين فيها غرض علم النحو وغايته .

لا أحسبنى أبعد عن الصواب إذا قلت : إن غرض علم النحو (كما هو واضح فيما بين أيدينا من كتبه) ليس إلا تكوين الجمل تكوينا سليما ، وإقدارنا على النطق الصحيح الخالى من الخطأ فى التركيب . فليس صحيحا إذاً أن ندعى على النحاة أنهم قصروا بحثهم على أواخر الكلمات ، بل هم قد تعرضوا كثيراً ، وكثيراً جداً ، أكثر مما توهم المؤلف الفاضل إلى بيان وضع الكلمة من الكلمة والجملة من الجملة ، وإلى حذف بعض أجزاء الكلام لدليل أو لغير دليل ، وإلى كثير مما يعرض للكلمة من النفى والاثبات . وأكبر الظن أنى أجلب السآمة للقارئ إذا أنا أخذت أحدثه عما فى كتب النحو من ذلك كله ، ولست أكلفه إلا أن يرجع إلى كتاب من هذه الكتب ليرى بعينيه أن المؤلف كان مغاليا كل المغالاة حين ادعى على النحاة أنهم لم يعنوا إلا بأواخر الكلمات . ولأجل الطمأنينة إلى النفوس سوف أنقل هنا مثالا صغيرا يبين دعواي : قال ابن هشام فى كتابه أوضح المسالك : وللفاعل أحكام : أحدها الرفع . . . الثانى وقوعه بعد المسند . . . الثالث أنه لابد منه... الرابع أنه يصح حذف فعله . . . الخامس أن فعله يوحد مع تثنيته وجمعه ... السادس أنه إن كان مؤنثاً أنث فعله بتاء ساكنة ... السابع أن الأصل فيه أن يتصل بفعله ، ثم يجيء المفعول ، وقد يعكس ، وقد يتقدمهما المفعول ، وكل من ذلك جائز وواجب .. الخ فأنت ترى من هـذا أن حكم آخر الكلمة لم ينل إلا واحداً من سبعة — بل أقل من ذلك كثيراً — من عناية ابن هشام ؛ أما بقية أحكام الفاعل فهى علاقته بالكلمة التى قبله وبعده ، وما يعرض لهـذه العلاقة من تذكير أو تأنيث أو تقديم أو تأخير أو غير ذلك . وإذا شئت أن أعد الكثير من أبواب النحو التى تنقض ادعاء المؤلف طال بي القول وانتهى بي إلى الإملال

أما إذا قصد المؤلف إلى أن من غرض النحو أن يفضل أسلوباً على أسلوب ، أو أن يوجب نحواً خاصاً من التعبير إذا كان الحال يستدعيه ، أو أن يبين سر جمال نوع من القول — فذلك أمر قد تكفل به علم المعانى والبيان والبديع ، فالنحو مثلا يقف أمام الجمل الآتية موقف المصحح لها جميعاً وهى : مصر مستقلة ، وإن مصر مستقلة ، وإن مصر لمستقلة ، واستقلت مصر ، ومصر استقلت ؛ يصحح النحو هـذه الجمل كلها ويقبلها ، وإذا تكلمت بواحدة منها فى أى حال قبلها النحو ، ولم يخطئها ؛ أما علم المعانى فينظر إلى الحال التى يقال فيها الكلام ، فعند ما يكون المخاطب منكراً استقلال مصر مثلا وقلت له مصر مستقلة كنت مخطئاً ، لأن الحال يستدعى أن تؤكد له القول ، وأن تقول له : إن مصر مستقلة . فاذا أراد المؤلف أن يجعل ما يبحث فيه علم المعانى والبيان من اختصاص علم النحو ، ومما يجب أن تتناوله بحوثه ، فانه لم يزد على أن ضم علمين أحدهما إلى الآخر من غير ضرورة ملحة بل ضما يجلب معه الاضطراب والخلط .

هذا إلى أن المؤلف لم يشر إلى علاقة الكلمة بالكلمة ، ولا ارتباط الجملة بالجملة من أول كتابه إلى آخره ، بل قصره على حكم آخر الكلمات ، ولم يعن بغيرها .

فلسفة العامل

أطنب المؤلف فى ذكر فلسفة العامل وبيـان أهميته لدى النحاة ، ثم أخذ ينقد مذهبهم من غير أن يذكر رأيه الصريح في العامل ، فالنحاة قد اضطرّوا — لمذهبهم فى وجوب ذكر العامل — إلى التقدير الذى سماه تقديراً صناعياً ، ولم يبين لنا كيف نحلل هذه الجمل التى اضطر النحاة فيها إلى التقدير . وهل نكتفي حين نبين مكان كلمة الضيف فى قولنا : الضيفَ أكرمته ، بأن نقول إن الضيف لم يرد به أن يكون مسنداً إليه ، ولا مضافاً إليه ، ولذلك كان منصوباً ، أم ماذا ؟

أما أن النحاة بالتزامهم أصول فلسفة العامل قد أضاعوا معانى الكلام فى باب المفعول معه ، فلا إخالنى في حاجة إلى بيان تحامل المؤلف مما نقله هو حين تحدث عن المفعول معه من أن النحاة قد تنبهوا للمعنى ، وأوجبوا أن يتبعه اللفظ ؛ فقد قال الرضى فى شرح الكافية ما نصه : الأولى أن يقال : إن قصد النصّ على المصاحبة وجب النصب وإلا فلا . ففكرة النظر إلى المعنى فى المفعول معه قديمة معروفة ، وهى التى يقبلها العقل ويستريح إليها .

وأما ما انتقده المؤلف من كثرة خلاف النحاة في كل عامل يتصدون لبيانه ، فالمغالاة فيه ظاهرة ، فهذه الخلافات لا تجدها في لباب كتب النحو ، ولكنك تجدها في الحواشي والتقارير ، ولا يعطي لها من العناية إلا مقدار ضئيل لا يخشى منه على دراسة لباب النحو وأصوله ؛ على أن الأستاذ المؤلف قد زاد رأياً جديداً في عامل النصب وأنه وجود الكلمة في حالة لا يراد بها أن تكون مسنداً إليها ولا مضافة وسوف نناقشه في ذلك .

معاني الإعراب

جعل المؤلف الضمة والكسرة علامتي إعراب فحسب ، أما الفتحة فليست علامة إعراب ولا دالة على شيء ، بل هي الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب التي يراد بها أن تنتهي بها الكلمة كلما أمكن ذلك ، فهي بمثابة السكون في لغة العامة .

ذلك قول يتهدم أمام النقد :

أولا : لأنه ليس من المعقول ولا من الواقع في شيء أن تكون المعاني التي قصد إليها العربي تدور حول اثنين : هما الاسناد والاضافة ، حتى يهتم بهما العربي وحدهما ولا يعنى بغيرهما فلا يضع له علامة تدل عليه ، فمعنا الحال والتمييز ، وعندنا أنواع المفعول والاستثناء ، ولا إخال واحداً مما ذكرت أقل من معنى الاضافة حظاً لدى اهتمام العربي ، بل إن بعض هذه الأنواع لا يتم الكلام إلا به ، ولا يفهم المعنى إلا بذكره ، فالكلام يكون أبتر ناقصاً إذا حذفت الحال أو المستثنى أو نوعاً من أنواع المفعول أو التمييز ؛ وإذا شئت أن تلمس ذلك ، فهاك أمثلة توضح لك ما قلنا :

تقول : عدت المريض ، واجتهدت رغبة في النجاح ، وسوف أزورك الساعة الخامسة ، ونجح التلاميذ إلا سعيداً ، واشتريت أقتين جبنا ، وما جئتك إلا زائراً ؛ فنظر كيف كان المعنى في المثال الأول بذكر المفعول به ، ولو أنك حذفته لصار المعنى ناقصاً مبتورا ؛ وفي المثال الثاني إذا أنت حذفت المفعول لأجله ، جعلت الكلام غير معلل ولا مسبب ، فتقل فائدته ومعناه ؛ أما إذا حذفت المفعول فيه في الجملة الثالثة فإنك سوف تلقي بمن تزوره في خضم من الظن والتخمين ، لأنه لا يدري متى تزوره حتى يتهيأ للقائك ؛ ولا إخال المستثنى في المثال الرابع يقل أهمية عن المستثنى منه ، فكلاهما مقصود يهتم به القائل ، ولو أنك حذفت المستثنى لفسد المعنى وأصبح خاطئاً . وقل مثل ذلك في الحال والتمييز ؛ فقد بدا لك أن العربي يقصد هذه الأنواع قصداً ، ويعني بها عناية تامة ، فلم لم يميز كلا منها بحركة ، كما ميز المضاف إليه بحركة ، وإذا علمت أن المضاف إليه لم يذكر في الكلام قصداً ، ولم يؤت به لأنه مراد لذاته ، (كما يقولون) وإنما جيء به لتعريف المضاف أو تخصيصه وتقليل شيوعه فحسب — إذا علمت ذلك أدركك العجب حين ترى أن ما يقصد في الكلام ويعنى به : من حال أو تمييز أو غيرهما ، لا يهتم العربي بأن يجعل له علامة خاصة تدل عليه ، أما ما يذكر عرضاً فإن العربي يحتفل به أيما احتفال ، ويضع له حركة تميزه . ذلك قول لا يستطيع العقل أن يقبله .

ثانيا : لأنه ليس من الصحيح أن الفتحة هي الحركة الخفيفة المستحبة التي يراد أن تنتهي بها الكلمة ، فلو كان ذلك صحيحاً ما وقف العرب بالسكون على الكلمات التي تنتهي بالفتحة ، ولا انتهزوا فرصة اختتامها بالفتحة ، فوقفوا بها استمتاعاً بما يحبونه من نطقها . ولست أدري كيف وصل المؤلف إلى هذه النتيجة وكيف استنبطها ، مع أنه ليس في الكلام العربي كله كلمات يقف عليها المرء بالفتح إلا إذا كان آخر الاسم منونا مفتوحاً ، فلو كان العرب يحبون الوقوف بالفتحة لجعلوا وقفهم بها لا بالسكون ، ولا ختتموا بالفتحة كل كلمة تقع في آخر الجملة ، ولما أتوا بكلمات مفتوحة في أول الكلام ووسطه ؛ وذلك غير ما هو واقع بين أيدينا

ثالثا : لأن المؤلف أراد أن يجعل الضمة علامة الاسناد ، فتكلف في سبيل ذلك عناء ومشقة ، وانتحل أسباباً لا تثبت أمام الانتقاد :

فمن ذلك أنه اضطر في سلامة قاعدته إلى أن يخرج اسم (لا) من أن يكون مسنداً إليه ، لأنه ليس بتحدث عنه ، ولذلك كان حقه الفتحة .

« يتبع » احمد احمد بدوي

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي بعمارة عجيم رقم ٧ }

5 me Année, No 215. — Lundi - 16 - 8 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة
مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢١٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٩ جمادى الثانى سنة ١٣٥٦ — ١٦ اغسطس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

فلسطين المنكوبة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أعجب أعاجيب الاستعمار في هذا الزمان مشروع التقسيم الذى اقترحته لجنة « اللورد بيل » للتوفيق بين العرب واليهود فى فلسطين — أو على الأصح للتوفيق بين العهود المتناقضة التى قطعتها بريطانيا للعرب أولا ثم لليهود من بعد ذلك. وتزعم بريطانيا الآن أن فلسطين لم تكن داخلة فى ما عنته بالبلاد العربيـة التى وعدت بمساعدتها على الاستقلال. وقد فند الأمير عبدالله هـذا الزعم بمذكرة بعث بهـا إلى المندوب السامى فى فلسطين وأورد نصوص الرسائل والتصريحات البريطانية التى لا يبقى معها ظل من الشك فى أن فلسطين كانت داخلة فى جملة البلاد العربيـة الموعودة بالاستـقلال والحرية. على أن الأمر ليس أمر رسائل أو ما يجرى مجراها وإنما هو أمر بلاد لا شك فى أنها عربية من قديم الزمان وأن حق العرب فيها وهم أهلها لا ينكره إلا مكابر ذو غرض، أو كما قال الأمير عبدالله فى مذكرته: « إن حق العرب فى بلادهم فلسطين صريح لا يحتاج إلى وثيقة أو وعد، فهم أهلها منذ أجيال، وفى إقامة متصلة بهـا، وهم على الرغم مما اجتاحهم من حروب وتكابدهم من خطوب لم يفرطوا فيها ولم يتحولوا عن شبر منها »

ومن غرائب ما تجيء به الأيام أن اليهود عاشوا في كنف العرب أحراراً آمنين على أموالهم وأرواحهم لا يتقون شراً ولا يخشون أذى ولا يتعرضون لاضطهاد ولا يسامون تضييقاً أو حجراً، على حين كانوا في أوربا يعدون « أنجاساً » منبوذين ، لا يواكلهم أحد ولا يشاربهم ولا يجالسهم إلا دونه . فإذا احتاج إلى مال يقترضه منهم دعاهم إليه وعنف بهم وبسط فيهم لسانه أقبح البسط وأبذأه وأخذ المال وركلهم . ومن شاء فليقرأ رواية السير « وولتر سكوت » عن عصر ريتشارد قلب الأسد وليتأمل كيف كان القوم يعاملون اليهود وبأي عين كانوا ينظرون إليهم . فإن قيل هذا كان عصر جهالة وعماية قلنا فما الرأي في هذا العصر وما يلقى فيه يهود أوربا من العنت والعسف والجور والتحقير والمهانة؟ — كتبهم تحرق ، وأموالهم تصادر ، وعلماؤهم ينفون من الأرض، وجنسهم يعير بأنه دون الجنس الآري ، ومعاملتهم ومخالطتهم ومصاهرتهم محرمة ، حتى اتخاذ الخدم منهم جريمة تستوجب العقاب . وأوربا التي تنكبهم هذه النكبة وتسومهم هذا الخسف ولا يرتفع فيها صوت بالدفاع عنهم واستهجان ما يحل بهم من العذاب الغليظ والمقت الشديد هي التي تريد أن تتخلص منهم فلا تجد إلا فلسطين المسكينة تقذف بهم عليها وتقول : اتخذوا لكم وطناً قومياً هنا ...

ومن سوء حظ اليهود أن لا وطن لهم ، ولكن العرب لا ذنب لهم في ذلك ولا كانوا هم الذين حرموهم أن يكون لهم هذا الوطن . وما تعلق اليهود بالوطن القومي و « صهيون » إلا من طول ما قاسوا من العذاب في أوربا وهول ما صبه أهل هذه القارة عليهم من البلاء ، وإنك لتجد اليهود القدماء في فلسطين لا يحفلون بهذا الوطن القومي إلا مجاراة وتقليداً لليهود الأوربيين وخوفاً من أن يتهموا بالخروج على ملتهم ، لأنهم كانوا حتى على أيام الحكم التركي يعيشون في بلهنية ورخاء ، بل كانت حياتهم أهنأ وأرخى من حياة أبناء البلاد العربية .

فلولا وعد بلفور ما حلت الجفوة ولا وقعت النبوة بين العرب واليهود ، ولكن إنجلترا التي تعهدت للعرب أن تؤازرهم على الفوز باستقلالهم وحريتهم ، فثاروا لهذا على دولتهم ، رمتهم بالوطن القومي والهجرة اليهودية فلم يسعهم إلا أن يتدبروا ما هددوا به ، وهل هو إلا الجلاء عن وطنهم ، وإلا أن يكرهوا ذلك ويثوروا عليه ، ومن الذي لا يثور على من يبغي إخراجه من دياره وطرده من وطنه . . ؟

والآن تجيء بريطانيا فتقول دعوني أقسم بينكما البلاد فلليهود شطر وللعرب شطر ، ولتكونوا بعد ذلك إخواناً وجيراناً متوادين . تأخذ مني أرضي وتعطيها لأجنبي وتقول لي كن أخاً له واصغ إليه بالود : وبأي حق تخول نفسها أن تفعل ذلك ؟ لا حق إلا أنها وعدت اليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين . ولكن من خولها أن تبذل لهم هذا الوعد ؟ لا أحد . . . هي خولت نفسها ذلك وانتحلت الحق فيه وعدت نفسها ملزمة بالوفاء ، والعرب ملزمين بالاذعان لقضائها فيهم . ولو أنها كانت تقطع اليهود من بلادها هي لما كان لأحد وجه اعتراض على ما تصنع ، فإن الأرض أرضها وهي حرة في أن تجود بها على من تشاء من خلق الله . ولكن البلاد ليست بلادها ولا تزعم قط أنها مستعمرة لها وإنما هي فيها بما يسمى « الانتداب » والانتداب معناه أن البلاد أمانة في عنق الدولة التي تندبها العصبة لإصلاحها وترقيتها وإعدادها لحكم نفسها بنفسها ولنفسها ، ولم نكن نعرف قبل اليوم أن من معاني أداء الأمانة تضييعها والتسخي بها على غير أصحابها . . .

وانظر كيف تقسم البلاد بين العرب واليهود ! . . تأخذ الساحل كله — ما خلا يافا فقد أنقذتها جارتها تل أبيب وأن ميناءها شر ميناء في البحر الأبيض — تقول تأخذ الساحل والأرض الخصبة وتهديها إلى اليهود ، وتمد إلى الجبال الجرداء ، والفيافي التي لا شجر فيها ولا ماء ، وتقول للعرب هذا نصيبكم ولن يضيركم محلها وخرابها فإن لكم الجنة في الآخرة فطيبوا نفساً وقروا عيناً واحمدوا الله واشكروني . ولا تنسى بريطانيا نفسها فإن لها حظاً من الغنيمة . . .

وفي الرقعة التي جعلتها من نصيب اليهود كثرة عربية فهؤلاء سيجلون عنها ويخرجون من ديارهم لأن بريطانيا شاءت هذا . وفيها ثروة العرب جلها إن لم تكن كلها وليس لليهود من المزارع إلا حوالي العشر ، فهذه الثروة أيضاً تنتقل إلى اليهود ويفقدها العرب ويرحلون إلى الصحراوات والجبال العارية . ولا منفذ للعرب إلى البحر إلا من يافا ، والطريق إلى يافا مما تحتفظ به بريطانيا لنفسها ؛ ومؤدى هذا أن تخرب تجارة العرب بعد أن تخرب زراعتهم ويضيع مالهم كما ضاع وطنهم .

وتقول بريطانيا إن هذه هي الوسيلة الوحيدة للسلام والوئام

بين العرب واليهود فى فلسطين ، فلو أنها تعمدت أن تثير بين الشعبين العداوة والبغضاء وأن تبذر بذور الحرب فى فلسطين لما فعلت غير ذلك . فلن يكف اليهود عن التطلع إلى ما بقى فى أيدى العرب من البلاد ، لأن دولتهم ستضيق بهم لا محالة ، ولأن مالهم وعلمهم وما يحسون من العطف البريطانى عليهم — كل ذلك خليق أن يغريهم بالطمع فى بقية فلسطين . وأما العرب فغير معقول أن يصبروا على هذا الظلم ، أو أن يكفوا عن الحنين الطبيعى إلى ما فقدوا ، أو أن تفتر رغبتهم فى استرداده ، فهى الحرب بين الأمتين لا مفر منها ولا هوادة فيها ولا حيلة لأحد فى اجتنابها . فإذا كانت الحرب ما تبغى بريطانيا فالمشروع يبلغها مأربها على التحقيق .

ووراء فلسطين — أو ما يبقى منها فى أيدى العرب — شرق الأردن يغرون أميره بالإمارة على البلاد كلها ؛ ومن وراء شرقى الأردن العراق وفلسطين طريقها إلى البحر الأبيض ، وبين العراق وفلسطين أواصر عروبة لا انفصام لها ، وبعيد أن تنام العراق على هذا ؛ ومصر جارة فلسطين وشقيقتها ، وقد تكون اليوم ذاهلة عما يجره عليها هذا التقسيم العجيب من المتاعب وما يهددها به من الأخطار ، ولكن الغفلة تزول وسيجىء يوم قريب تدرك فيه مصر أنها لا تستطيع أن تنفض عما يجرى على حدودها ، أو تستخف بالأثر الذى يكون لإنشاء دولة يهودية على الساحل الشرقى القريب من ساحلها ، وسترغمها الحوادث على أن تدرك أن القربى بينها وبين فلسطين أجدى عليها وأربح لها من هذه العزلة التى يحملها على الاخلاد لها الجهل وقلة الفطنة وضيق أفق النظر . وكل آت قريب ، ولكن الشىء فى أوانه خير منه بعد الدرس القاسى والامتحان الأليم والتجربة المرة

وإن عصبة الأمم لتنظر الآن فى أمر فلسطين ولكنه لا إيمان لنا بالعصبة التى لا خير فيها فما أجدت شيئاً على الحبشة المسكينة ولا هى تجدى فتيلاً على الصين . فليوطن العرب أنفسهم على الاستغناء عن كل عون من غير أنفسهم وليعلموا أن الذى يسعهم وحدهم بلا معونة من أوربا كثير لا يستهان به ؛ وإذا كان سبعون مليوناً من العرب لا يدخل فى طوقهم شىء فماذا يرجون ؟ .

ابراهيم عبد القادر المازنى

مصر مجاز المشرق

عامل بعيد الأثر فى تاريخها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

من الحقائق الجغرافية والتاريخية ما يلازم حياة الأمم حتى ليغدو من صميم هذه الحياة ، بل يغدو أحياناً عاملاً حاسماً فى تكوينها وتطورها ؛ فعلاقة النيل بحياة مصر مثلا علاقة أزلية خالدة لم يفصمها تعاقب الدهور والعصور ؛ وإذا كان هيرودوت قد ذكر منذ ألفين وثلاثمائة عام أن مصر هبة النيل ، فان هذه الحقيقة لا تزال ماثلة إلى اليوم بكل قوتها وروعتها ، وقد كانت ماثلة راسخة قبل هيرودوت بآلاف السنين . وقد كان النيل منذ أقدم العصور حياة الأمة المصرية المحتشدة حول ضفافه الخضراء ، وسيبقى أبد الدهر مصدراً لهذه الحياة ؛ وكان منذ فجر التاريخ عاملاً أساسياً فى تكوين هذه الحياة وفى تطور مظاهرها وأساليبها مدى العصور والدهور . كذلك كان موقع مصر الجغرافى وما زال عاملاً جوهرياً فى تطوراتها التاريخية وفى مصايرها السياسية والاجتماعية ، فقد كان هذا الركن الذى تشغله مصر صلة الوصل بين قارات العالم القديم ، وكان لهذه الحقيقة الجغرافية فى تطور تاريخها القديم والحديث أعظم تأثير

بل إن هذه الحقيقة الراسخة لتغدو فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر أشد وضوحاً وتأثيراً ؛ ذلك أن القدر شاء أن تحفر مصر قناة السويس وأن تغدو مرة أخرى طريق الهند والشرق الأقصى . وهل ينسى مؤرخ ما كان لقناة السويس من أثر عظيم فى مصاير مصر فى العصر الأخير وفى وضعها السياسى الحاضر ؟ وهل ينكر انسان أن القناة ستبقى عصراً هى العامل الفصل فى مصير مصر ومستقبلها الدولى ؟ ونقول إن مصر قد غدت كرة أخرى طريق الهند والشرق الأقصى ، لأن مصر كانت منذ أقدم العصور حلقة من أهم حلقات الوصل بين الشرق والغرب ، وكانت خلال العصور الوسطى حتى أواخر القرن الخامس عشر طريق الهند المختار ، وكانت ثغورها دائماً سواء فى البحر الأبيض المتوسط أو البحر الأحمر قواعد رئيسية لتجارة الغرب مع الهند

والشرق الأقصى ؛ ونحن نعرف ان مصر والشأم كانتا منذ القرن التاسع وحدة جغرافية وسياسية متحدة ، وكانت حدود مصر منذ الدولة الطولونية تصل حتى أقاصي الشام ؛ وكانت هذه المياه كلها على طول ساحل الشأم وسواحل مصر حتى برقة تقع تحت السيادة المصرية ؛ كذلك كانت مياه البحر الأحمر حتى ثغور الحجاز . وكان للهند والشرق الأقصى فى تلك العصور طريقان رئيسيان : الأول طريق قسطنطينية ، والثانى طريق المياه والأراضي المصرية ؛ ولكن الطريق الأول لم يكن دائماً خير الطريقين ، لأنه بعد اجتياز أراضي الدولة البزنطية ، ينحدر إلى مسالك وعرة فى أرمينية وفارس وما وراء النهرين ، وكان أيضاً أطول الفريقين شقة ؛ ولهذا كان طريق الثغور المصرية هو طريق الهند والصين المختار ؛ وكانت جمهورية البندقية لتفوقها البحرى فى البحر الأبيض المتوسط تستأثر فى تلك العصور بأعظم قسط من تجارة الشرق الأقصى ؛ وكانت مصر ، سيدة الطريق إلى الهند ، تستأثر بأعظم قسط من أرباح هذه التجارة ومكوسها ، وكانت المكوس التي تفرض فى ثغور مصر والشأم على التجارة الصادرة إلى الشرق الأقصى من أعظم موارد الخزينة ، هذا إلى ما تجنيه التجارة المصرية من أرباح الوساطة وأعمال النقل وغيرها

كانت مصر إذاً فى تلك العصور كما هي اليوم طريق الهند والشرق الأقصى ؛ بيد أنها كانت عندئذ سيدة هذا الدرب والتحكمة فى مصايره ، تدعم إرادتها وصولها بقوات برية وبحرية يخشى بأسها . ولما غزا الصليبيون سواحل الشام فى نهاية القرن الحادى عشر واستقروا حينا فى فلسطين وبعض ثغور الشام اضطربت مواصلات الهند من هذه الناحية حينا ، ولكنها تحولت إلى الاسكندرية ودمياط وإلى القلزم وعيذاب ثغرى البحر الأحمر ؛ وكانت القوافل التجارية تخترق مصر من الأسكندرية ودمياط براً إلى ثغر القلزم (وموقعه القديم مكان ثغر السويس) ، أو في النيل حتى قوص ، ثم إلى عيذاب ؛ وتسير بعد ذلك بحراً إلى الهند والصين ؛ وكانت ثمة طريق برية أخرى تخترق الشام والجزيرة ثم فارس وخراسان والسند ، أو تنحرف شمالا إلى بخارى ثم الصين ؛ وهذه الطريق الأخيرة هي التى سلكها ماركو بولو الرحالة البندقى الشهير فى القرن الثالث عشر والتى وصفها لنا فى رحلته أبدع وصف ؛ ثم سلكها من بعده في أوائل القرن الرابع عشر إلى الهند الرحالة المغربى الشهير ابن بطوطة الطنجى . والواقع أن فكرة قطع طريق الهند وحرمان مصر من مغانمها لم تكن بعيدة عن أفكار الصليبيين ؛ فلما انهارت حملاتهم ومشاريعهم واستطاعت مصر أن تردهم نهائياً عن الشام وثغوره ، استردت مصر كامل سيادتها وسيطرتها على طريق الهند ؛ ومن جهة أخرى فإن جمهورية البندقية لم تكن كباقى الدولة النصرانية متحدة الرأى مع الصليبيين دائما ، وكانت فى معظم الأحيان تؤثر مصالحها التجارية وتؤثر البقاء على صداقة مصر

ولبثت مصر تسيطر على طريق الهند والبندقية تستأثر بمعظم مغانم التجارة الهندية حتى أواخر القرن الخامس عشر ؛ وكانت علائق مصر والبندقية دائمة التوثق تنظمها دائما معاهدات متوالية تسمى جمهورية البندقية دائما إلى عقدها مع حكومة السلاطين .

ولكن حدث فى أواخر القرن الخامس عشر أن حاول البحارة البرتغاليون اكتشاف طريق جديد للهند ؛ واستطاع فاسكو دى جاما فى سنة ١٤٩٧ أن يكشف طريق رأس الرجاء الصالح ، وأن يصل عن هذا الطريق إلى ثغر قاليقوط فى غرب الهند ؛ ولم تمض أعوام قلائل حتى أنشأ البرتغاليون فى هذا الثغر مستعمرة برتغالية ، وأخذت بعوثهم البحرية تتردد إلى الهند عن هذا الطريق الجديد . وفى الحال شعرت مصر بالخطر الذى يهدد طريقها الهندية ومواردها التجارية ، وشعرت البندقية حليفتها وشريكتها بما يهدد تجارتها مع الشرق الأقصى من الخراب والإمحال ؛ وظهر هذا الخطر بصورة واضحة حينما أخذت التجارة الهندية التى كانت تسير إلى مصر عن طريق عدن وجدة وسواكن تتحول إلى الطريق البحرية الجديدة ، وأخذت السفن البرتغالية تطارد السفن المصرية التى تشق هذه المياه ؛ عندئذ هبت مصر تدافع عن مواصلاتها الهندية وامتيازاتها التجارية التى استأثرت بها مدى القرون ؛ وكان ذلك فى عهد السلطان الغوري الذي شاء القدر أن يكون آخر ملوك مصر المستقلة ؛ فبادر السلطان بإنشاء أسطول مصرى جديد فى مياه البحر الأحمر ليقاتل أولئك الخصوم الجدد . وفى بعض الروايات أن البنادقة أمدوا السلطان بالأخشاب والذخائر لتجهيز هذا الأسطول ؛ وعلى أي حال فقد التقى الأسطول المصرى بسفن البرتغاليين فى البحر الأحمر أكثر من مرة وأحرز قائده أمير البحر حسين على الأسطول البرتغالى بقيادة الأميرال لورنزو الميدا

فى سنة ١٥٠٨ انتصاراً حاسماً ؛ ولكن البرتغاليين عادوا فهاجموا الأسطول المصرى وهزموه فى العام التالى ؛ ولم يك ثمة شك فى مصير هذا النضال ، فإن البرتغال كانت يومئذ فى مقدمة الدول البحرية التى يخشى بأسها ، وكانت مصر من جهة أخرى ترقب خطراً آخر أعظم وأجل ، هو خطر الترك العثمانيين . أما البندقية فقد حاولت من جانبها أن تتأهب للنضال محافظة على تجارتها ، ولكن الدول الأوربية الكبرى ، فرنسا واسبانيا والبابوية ، اتحدت فى مجمع كامبرى لمقاومة البندقية والقضاء على محاولاتها

وهكذا فقدت مصر طريق الهند فى نفس الوقت الذى فقدت فيه استقلالها ، وفقدت كل ما كانت تجنيه من وراء هذا الامتياز القديم من المغانم الطائلة . ومنذ أوائل القرن الخامس عشر يغدو طريق رأس الرجاء الصالح ، هو الطريق المختار للهند والشرق الأقصى ؛ ومن ذلك الطريق سارت البعوث البحرية المتوالية لاكتشاف مجاهل المحيط الهندى والمحيط الهادى .

* * *

على أن القدر شاء أن تسترد مصر طريق الهند فى ظروف لم تكن تحلم بها ، وكانت بالنسبة إليها مفتتح عصر من الكوارث والمحن ؛ أجل كان افتتاح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ نذيراً بفاتحة الدور الخطير المحزن الذى قضى على مصر أن تؤديه فى ربط الشرق بالغرب وتوثيق المواصلات بين بريطانيا العظمى والهند وأستراليا ؛ بل لقد ظهر هذا النذير واضحاً منذ أيام الحملة الفرنسية حيث شعرت إنكلترا بالخطر الذى يهدد مواصلاتها المستقبلة من استقرار الفرنسيين فى مصر ، فبذلت كل ما وسعها لتحطيم الحملة الفرنسية وإجلاء الفرنسيين عن مصر ؛ وكأنما استطاعت انكلترا يومئذ أن تنفذ إلى حجب الغيب ، وأن تتصور قيام هذه القناة تشق الصحراء بين البحرين الأبيض والأحمر ؛ وكانت القناة منذ افتتاحها شراً مستطيراً على مصر ، لأنها لفتت أنظار الدول الأوربية إلى هذا الشريان الحيوى الجديد فى طريق الشرق الأقصى ، وأذكت أطماع السياسة الاستعمارية . ولم تلبث مصر أن سقطت فريسة هذه السياسة التجنية ؛ وكانت محنة فقدت مصر فيها استقلالها ؛ ومهما كانت البواعث التى تذرعت بها السياسة البريطانية لاحتلال مصر فى سنة ١٨٨٢ فإن حراسة القناة ، وهى شريان حيوى لطريق الهند ، كانت بلا ريب أهمها وأخطرها ؛ وقد غدت هذه الحقيقة فيما بعد شعار السياسة البريطانية ومحورها الأساسى فى التمسك باحتلال مصر .

ولما وقعت الحرب الكبرى ظهرت أهمية القناة كطريق حيوى للمواصلات الامبراطورية البريطانية ، ولعبت دوراً خطيراً فى حمل القوات والمؤن من أنحاء الأملاك والمستعمرات إلى ميادين القتال الأوربية ؛ وازدادت السياسة البريطانية اقتناعاً بأهمية هذا الشريان الحيوى فى مواصلاتها الامبراطورية ، وازدادت تمسكاً بحراسته والسيطرة عليه ، حتى إنها رأت يومئذ أن تعلن حمايتها على مصر تمهيداً إلى ضمها إلى أملاك التاج . فلما لم تقبل مصر هذا المصير ، واضطرت أن تشهر النضال فى سبيل حريتها واستقلالها ، وأعلنت انكلترا فى سنة ١٩٢٢ إلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، كانت مسألة المواصلات الامبراطورية أو بعبارة أخرى مسألة قناة السويس من المسائل المحتفظ بها ؛ ولما آن للمسألة المصرية أن تحل أخيراً بعقد معاهدة الصداقة المصرية الانكليزية فى أغسطس الماضى ، كانت مسألة المواصلات الامبراطورية وحماية قناة السويس عقدة العقد ، وكانت بالنسبة للسياسة البريطانية غاية الغايات ؛ وقد جاءت نصوص المعاهدة منوهة بأهميتها وخطورتها بالنسبة لمصاير العلاقات بين مصر وانكلترا

على أن المستقبل فياض بالاحتمالات ؛ وقد حمل تطور فنون الحرب الحديثة وتقدم التسليحات الجوية بعض الخبراء على الشك فى مستقبل قناة السويس كشريان للمواصلات الامبراطورية ؛ وقد أيدت ظروف الحرب الحبشية وتطوراتها هذه النظرية ؛ ومع أن السياسة البريطانية مازالت على تمسكها بأهمية القناة وخطورتها بالنسبة للدفاع الامبراطورى ، فانها تتوجس اليوم من حركات إيطاليا الفاشستية ومطامعها الاستعمارية ، وتتوجس بالأخص من تفوق تسليحاتها الجوية ، وتنظر دائماً إلى احتمال العود إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، إذا وقع ما يهدد سلامة القناة ؛ وهكذا نرى أن التاريخ قد يعيد نفسه ، وأن أحداث الحرب والسياسة قد تؤثر فى أهمية القناة كطريق للهند والمواصلات الامبراطورية ؛ على أنه إذا شاء القدر أن تفقد مصر طريق الهند مرة أخرى ، وان تغدو القناة فى عرف السياسة والحرب بل وفى عرف التجارة كما مهملا ، فإن مصر تكون آخر من يأسف لضياع هذا الامتياز المحزن ، وإنها لترى فيه يومئذ بشير الخلاص والرضى

محمد عبد الله عنان

هل أسلوب الحكم وحده كاف في تطور الشعب ورقيه؟

للدكتور محمد البهى قرقر

بتطور العلم الطبيعي ومراعاة الحقائق الراهنة والدنو من الواقع تغير مقياس الحكم على النظريات العلمية الفلسفية . فبعد أن كان أساس الحكم عليها تعمق صاحب النظرية فى الفكر وتشعب تفكيره فى فروض متعددة وخيالات مظنونه ، أصبح إمكان استخدامها أو عدم إمكانه فى حياة الإنسان العملية ميزان الصحة أو الخطأ فى الحكم على نظرية من النظريات الفلسفية .

ففلسفة العصر الحديث توجه عنايتها إلى الواقع وإلى الناحية العملية والسلوك النفسى للفرد والجماعة أكثر من النظر فيما وراء الطبيعة والبحث عن معنى النفس وهل هى جوهر أو عرض ، أو غير ذلك من الأسئلة التى تحوم حول ماهية النفس وكيفية تركيب الوجود على العموم .

وأسلوب الحكم ونوع النظام الذى تسير عليه أمة من الأمم خاضع لهذه القاعدة ، لأنه لا يخرج عن أن يكون عملاً عقلياً له صدى نفسى عملى أيضاً فى تلك الأمة . فهو من أهم موضوعات الفلسفة الواقعية الحديثة ؛ يلاقى استحساناً فى كل مكان إذا برهن على يد قائد سياسى إمكان استخدامه والانتفاع به فى الحياة العملية للشعب ، ولكن ربما يكون طالع نحسه فى سوء استخدامه لافى ذاته نفسه .

فالحياة العملية هي فى الواقع محك أية نظرية فلسفية ؛ فإن لم تتفق النظرية معها أو لم تجد نفعاً لها فهى إما خيال مفروض أو لم يئن الأوان لها بعد ولم يدن وقت استخدامها ، لا لأنها لم تنضج — فقد تكون فى ذاتها ناضجة — ولكن لأن الحياة العملية للشعب ربما لم تتطور نسبيا بما يدانيها .

فصلاحية نظام أى حكم أو عدم صلاحيته مرتبط بحال الأمة التى ينفذ فيها ، وكونه عاملاً من عوامل رقى الشعب يتوقف إلى حد كبير على موقف الشعب العملى نفسه منه ومن مبادئه ، وعلى تأثره بها .

وكل أنظمة الحكم فى العصر الحديث تدعى أنها تقصد إلى تحقيق فضيلة خلقية ، يكون من ورائها رفاهية الشعب ورقيه ، وشعور كل فرد بمعنى السعادة .

فالنظام الشيوعى يزعم أنه يريد تحقيق العدالة ومعنى المساواة فى كل ناحية من نواحى الحياة وبالأخص فى الناحية الاقتصادية التى لم يمسها بالتعديل نظام حكم قبله . وحينما كان نظريا لقى أتباعا كثيرين ولا سيما بين الطبقات الفقيرة والعاملة . فلما نزل به زعماؤه فى الحياة العملية وحاولوا تطبيقه أثبت أنه خيال مفروض ووهم لا يمكن أن يساير الحقيقة . ولم ينل الشعب الذى رغب فى الأخذ به من ورائه إلا الفوضى والشقاء . ومع ذلك لم يحكم الشعب نفسه ، وإنما تحكمت فيه فئة قليلة منه ضمنت لها السيطرة بالقوة والعنف ، فهو حكم استبدادى لا شعبى .

والنظام الديمقراطي « الهادي الرزين » ، الذى لا يتشدد فى معنى الوطنية — أو على الأصح الذى لا يعرف وطنا — ، والذي هو مغرم بحب « الانسانية » ، يبنى أيضاً الوصول إلى العدل ، يبني إعطاء الشعب حقه بتسليمه مقاليد أمره . ولخلابته — لأنه يحض على محبة الانسانية والعمل على « السلام » ، وفى الوقت نفسه يتملق الشعب ويدعى أنه فى خدمته ، مع المحافظة على نشاط الفرد المالي — لقى أنصاراً عديدين وأضحى أمنية لكثير من الأمم الضعيفة التى لم تزل فى سن الطفولة بعد خلقها ونشأتها ، لأنها تحب العمل للانسانية المزعومة وتميل للسلام العالمى — بمقتضى ضعفها — وتود أن تخرج عن حكم الفرد أو الهيئة الأرستقراطية

والحياة العملية لمثل هذه الشعوب أصح مقياس للوقوف على حقيقة هذا النظام وعلى مبلغ حصته فى رقيها ، لأنها تفهم « الديمقراطية » فهما ساذجا فطريا ، فهما لغويا لا سياسيا ، فالمعنى السياسى وملكة التلاعب بالسياسة لم تتكون عندها بعد ، ولأنه ليس من إنتاجها العقلى بل اقتبسته وآمنت به ، فأثره حينئذ ، إيجابا أو سلباً ، أظهر ، والحكم له أو عليه أصح وأقرب للواقع .

ومصر دولة من الدول الحديثة العهد التي تغرم بالديمقراطية ، ونظام حكمها ينص على أنها « دولة ذات سيادة ، وهى حرة مستقلة وحكومتها ملكية وراثية ، وشكلها نيابى — المادة الأولى من

دستور سنة ١٩٢٣ » ، وهو مظهر لا اعتراض عليه من ناحيته الشكلية والقانونية ، ولا من ناحية ما إذا كانت هناك رقابة أجنبية فعلية ، أو سياسة مجاملة ، تقيد في الواقع بعض الشيء من هذه السيادة ، فالدول الصغيرة تتمتع دائماً من الوجهة الدولية باسم السيادة التامة وإن كانت تسير فى سياستها العملية طبقاً لخطة دولة أخرى ذات نفوذ أكبر تحت ستار « الصداقة » أو « المحالفة » لغرض مزدوج : لوقاية الدولة الصغيرة من اعتداء أجنبي — وما هو في الواقع إلا اعتداء على نفوذ الدولة الكبرى فى سياسة الدولة الصغرى — ولمنفعة الدولة الحليفة الكبرى اقتصادياً وأدبياً فى السياسة العالمية . ولكن الشيء الذى يرغب الآن فى بحثه هو : هل من الممكن بواسطة هذا النظام نقل مصر من حالتها الراهنة إلى حالة أرقى ، وما مبلغ أثره فى تطور الشعب ؟

وبحث هذا يتطلب الوقوف على السلوك العملى للشعب إزاء هذا النظام ، ثم على مقدار استفادته منه . ولبيان السلوك العملى له وموقفه تجاه هذا النوع من الحكم أود أن أقتبس من دستوره بعض المواد التى لها صور عكسية بارزة فى حياة الأمة العملية والتى يقابلها بعض الظواهر النفسية التى لها صفة الأغلبية فى الشعب ، وبعبارة أخرى المواد التى لها مساس كبير بهذا السلوك النفسى .

(١) فى الفصل الثالث من الدستور يقضى أسلوب الحكم بتأليف هيئة شعبية نيابية ، لها صفة الرقابة على القوة التنفيذية بطريق الاقتراع العام . وصاحب الأغلبية فى هذه الهيئة يتولى رياسة تلك القوة .

ومن خصائص الشعب المصرى وألزم صفاته للآن السير وراء العاطفة والرغبة فى التصديق ، والتمسك بالعقيدة ، فهو سريع التأثر بالوعود الخلابة ، وخصوصاً بالتي على وفق رغباته المتخيلة ، لا يضعف تأثره بذلك إرهاب أو اصطدام بالواقع ، وهكذا شأن العاطفة إذا هي احتلت من النفس مكاناً واسعاً ، يكاد يكون لها كل سلطان على السلوك النفسى .

لهذا لم تحلل نتيجة الانتخاب بعد من أثر الدعاية المنظمة التى تسير طبق رغبات الشعب — ومن قوة العاطفة الحساسة الخارجة عن الاعتدال التى هى أميل بكثير إما إلى الانفعال والقابلية « فى حالة التصديق » وإما إلى الرفض والمعارضة « فى حالة الجحد والانكار » .

وزيادة على ما للشعب من هذه العاطفة فهو لم تتكون عنده بعد الملكة السياسية ، أو بعبارة أخرى لم تتميز عنده قوة الحكم المبنية على الروية والتفكير من قوة العاطفة الثائرة التى لم تهذب بعد . ولعل ذلك يرجع إلى جهله وتركه مدة طويلة إلى الطبيعة التى كانت تكتنفها عوامل متناقضة .

فالأكثرية النيابية إنما تعبر عن قوة العاطفة المصدّقة التى تغلب على الشعب وتكون الجزء الأعظم من نفسيته . ولهذا يصح أن يقال إن الحكم الديمقراطى الصادر عن ملكة سياسية والمرتكز على قوة شعبية لا تغلب عليها العاطفة لم يتحقق للآن ، وإن وجد أسلوبه ورسمت مبادئه النظرية .

(٢) ينص الدستور أيضاً على الحرية الشخصية ، على حرية الاعتقاد ، وعلى حرية إبداء الرأى والنقد

(المواد ٤ ، ١٢ ، ١٤) . حرية الفكر والاعتقاد ، حرية إبداء الرأى والنقد يتمتع بها إذن ، قانونياً ، كل فرد يعيش فى مصر . والمصرى طبعاً يفكر ويبدى رأيه وينتقد ككل إنسان لأن هذه معان عامة ، ولكن طريقته فى التفكير وفى إبداء الرأى وفى النقد ربما تنم عن فهم آخر لمعنى الحرية فيها : تنم إما عن سوء فى الفهم أو قصر فى إدراك ما هى الحرية فى شيء من الأشياء ، وربما لم يفهم بعد أن الحرية معنى محدود غير مطلق ، حرية فى شيء مقيدة بجواز استعمال شيء آخر ربما يكون مضاداً للأول ونقيضاً له .

حرية التفكير ما زالت تستخدم فى مهاجمة الدين وجرح العاطفة الدينية للشعب ، بل أظهر صورها التهكم بمعتقدات الأمة والسخرية بعاداتها ؛ حرية إبداء الرأى تستعمل فى الخروج عن المألوف للأمة والاستخفاف بما هو مقدس عندها ، حرية النقد سبيله العملى جرح الكرامة الشخصية أو الجدل للجدل فى غير طائل .

حرية التفكير ، حرية إبداء الرأى وحرية النقد حق سام من حقوق الشعوب المتمدينة ، ولكنه لا يصح أن يتخذ أداة للهدم ،

فوظيفته يجب أن تكون إيجابيــة لا سابية . جعله بعض الدول الراقية حقاً شرعياً لأفرادها بعد ماشعر الشعب من نفســه بقدرته على كظم شهوته العقلية وحاجته إلي تقرير ذلك ضد حاكم مستبد أو ابتغاء المساواة بالفئة الارستقراطية التى كفلت لنفسها هذا الحق منذ زمن بعيد .

فتقرير حرية الفكر وإبداء الرأى والنقد لكل فرد من أفراد الشعب حق إنسانى فطرى جيل ، وأجل منه استعداد الشعب وإعداده لاستخدام ذلك فى طريقه الطبيعي وتشريعه له من نفسه ، لا إعطاؤه له منحة أو فرضه عليه فرضاً ، فالطفل إذا ما أفسح له الطريق ربما يلقى حتفه فى هاوية .

(٣) كذلك المساواة أمام القانون . المساواة فى وظائف الدولة مبدأ شريف نصت عليــه المادة الثالثة من الدستور المصرى ، (المصريون لدى القانون سواء ، وهم متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية . . . . .)

المساواة فى الحقوق العامة مزية من مزايا الحكم وظاهرة من ظواهر عدله ، ولكن أساس التفضيل وقاعدة الاختيار لوظائف الدولة فى الأمم الراقية الجدارة الشخصية وإمكان القيام بالواجب نحو الأمــة ؛ ومقياس تلك الجدارة الانتاج العملى لا الهوى الحزبى ؛ وما شرعت المساواة وجعلت حقاً من حقوق الشعب إلا لافساح المكان للجدارة والكفاية لا للنسب والعائلة . وكلما كان الشعب إلى الفطرة أقرب كانت لعلاقة النسب والقرابة فى التميز بين فرد وآخر وتخصيصه بمنصب من مناصب الدولة الكبرى الأثر الأول ، لأن قوة الحكم فى الشعب حينئذ ما زالت تعتمد على العصبية ، فذا ماتطور الشعب بعوامل التهذيب جعلت القاعــدة فى الاختيار والتفضيل الكفاية الشخصية وتنوسيت عصبية القرابة الضيقة ، لأن مجموع الشعب أصبح حينئذ يعتبر كمجموع أفراد لعائلة واحدة .

ومن هنا تغلب الظاهرة النفسية التى تسمى « المحسوبية » — والتي تعد مرضاً اجتماعياً خلقياً فى الشعب — فى الشعوب الفطرية أو فيما هى أقرب إليها وإن اتخذت أحدث الأساليب فى نظام الحكم ؛ فإذا كانت هذه الظاهرة متفشية الآن فى مصر — وستبقى متفشية فيها مهما شرع ضدها من قوانين ، لأن علاج ذلك ليس بسن قانون وتشريع وإنما بتهذيب الشعب نفسه — فذلك لأن الشعب المصري مازال يعتبر قاعدة الجدارة فى الاختيار فى المنزلة الثانية .

فالمبادئ الأساسية التى هي مظهر الحكم الديمقراطي ، من تمثيل نيابي وإعلان حرية الفكر وإبداء الرأى والمساواة أمام القانون والتمتع بالحقوق السياسية والمدنية لكل فرد مصرى أو متمصر ، موجودة فى أسلوب الحكم المصرى الحديث ، ولكن مظاهر الحياة الواقعية للشعب تدل على أن سلوكه العملى منحرف عنها وموقفه تجاهها سلبي . وبالرغم من ذلك فهل يترقب لهذا النظام أثر إيجابي حتى يكون كفيلا بتغيير هذا الموقف وبترقية الشعب ؟ .

لايجحد أن تمشى الحكم مع هذه الأسس من العوامل التى تشعر الفرد باستقلاله وحريته وتؤمنه على حياته الفردية وتفسح المجال لجده وذكائه . واستقلال الفرد وإفساح المجال لجده ومواهبه من أسباب رقي الأمة كمجموعة متكونة من أفراد تربطهم روابط عدة ، طبيعية وثقافيــة ، ولكن هذه النتيجة الايجابية مقيدة بتنفيذ هــذه الأسس وبفهم الشعب لها فهماً صحيحاً ، و التنفيذ والفهم كلاهما ليس حاصلا لأى أسلوب من أساليب الحكم ، وإنما هما مقدمة من مقدمات نجاح الحكم نفسه وعادة تتكون بالمران فى نفسية الشعب .

فأسلوب الحكم نفسه لاينتج عادة وإنما يرعى العادات . فى ظله تتكون عادات ذات أثر إيجابى أو سلبى فى رقى الشعب أو انحطاطه . وتكون العادات الحسنة سبيله الوحيد التربية والتهذيب. فاذا استقر فى نفس الشعب حب الحرية وفهمها فهماً صحيحاً ، إذا عرف معنى المساواة ، كان عمله طبق ذلك الفهم وهذه المعرفة ، وكانت خطواته دائماً إلى الأمام ؛ وما أسلوب الحكم الديمقراطى حينئذ إلا مظهر خارجى فقط لمعنى نفسى مستقر ، طبيعى أو مكتسب .

فالشك إذن محوط بنظام الحكم وبنتائجه الايجابية فى رقي الشعب كعامل أول فى تطور الأمم ، ولكن الأمر الذى لامرية

فيه هو عامل التربية التي تنفذ إلى نفس الفرد والجماعة وتكيفها حسبما تختط الأمة لنفسها .

فاذا لم يرب الشعب الضعيف المستعبد على حب الحرية والمطالبة بالاستقلال ، لم يشعر بمعنى الحرية وبمزايا الاستقلال إذا ما تركته القوة المستعمرة وخلته ونفسه ، بل بالعكس لا يطل من هذا الاستقلال إلا الفوضى وعدم استقرار النظام حتى يتحكم فيه نفر من الشعب نفسه ويسوسه بالقوة والعنف ويومئذ يشعر بحكومة وبنظام .

فاذا قدر للنظام الديمقراطي في أمة لم تتكون عندها بعد الملكات الاستعدادية له أن يكون ذا نتيجة إيجابية في تطور الشعب فلن تلمس إلا بعد زمن طويل وجهد شاق يقوم به زعيم مترسم لبرنامج معين مقصود . ومع ذلك يصح أن ينسب هذا التطور إلى الزعيم كمرب اجتماعي لا إلى الحكم الديمقراطي من حيث هو .

فالنظام الديمقراطي في انكلترا مثلا ليس نظاما موضوعا ولا مواد دستورية مفرغة في الصيغ القانونية ، وإنما هو نظام يحس به الشعب وقد خلقه من نفسه خلقا ، وتكون كنتيجة لازمة لأسلوب مخصوص في التربية ، ولعادات مخصوصة لها بطول الزمن قوة الملكات الفطرية .

والشعوب الأخرى التي تحاول تقليد الدستور الانكليزي ولم يكن لها بعد ما للشعب الانكليزي من الاستعدادات والملكات السياسية لا تستفيد من هذا التقليد إلا التخبط وعدم الاستقرار . وما أشد عنايتها حينئذ بالصيغ الدستورية ، وما أكبر ولعها بالترنم بأغاني الدستور والتشدق بمواده ، أما الشعب نفسه ، أما مصالحه ، فأمر ثانوي يأتي بعد تنفيذ نصوص الدستور ، كأنما الشعب خلق للدستور لا أن الدستور وجد لخدمة الشعب ورفاهية الأمة . ما ذلك إلا لأن التقليد فيما يسمى « دستوراً » لا فيما يقصد من الدستور ، في مظهر من مظاهر المدنية لا في : كيف تتكون المدنية . بينما الشعب الانكليزي نفسه أو أي شعب آخر كون له دستوراً من نفسه لا يلقى الأهمية إلا على : ما ذا يقصد من الدستور . وهكذا الضعف يخلق صفة الأمانة والإخلاص في الظاهر فقط ، فما أشد الأمم الضعيفة تمسكا بنصوص ما يسمى قوانين دولية ، وما أخلص الفقهاء للنصوص الفقهية - لا للروح الفقهية - في وقت الضعف وانحطاط مستوى الانتاج العقلي .

فحرية الفكر وحرية إبداء الرأي والمساواة أمام القانون — أو بعبارة أخرى الدستور نفسه — معان تترس في النفوس ويروض عليها الشعب الفطري أو ما هو قريب منه حتى يقيد حريته الهوجاء التي لا تعرف حرمة للغير ولا للجماعة ، وحتى يحد كل فرد من جشعه وأنانيته ، ويومئذ توجد الحرية الصحيحة وتستعمل في موضعها وتتحقق المساواة أمام القانون فعلا .

فالدستور قبل كل شيء معنى خلقي أو هو يرتكز على الأخلاق التي تأخذ صبغتها الوطنية ، وما أحوجه لذلك في ثباته واستقراره إلى الدين والتدين . فكلما اشتد ميل الشعب الديني ازداد تمسكه بالدستور ، وكلما تحللت حكومة من الحكومات من دينها كان حكمها إلى الديكتاتورية أقرب . وهل هناك في التاريخ الحديث من هو أشد تدينا وأعرق في الدستور من الشعب الانكليزي والحكومة الانكليزية ؟

وإذن أولى بمصر أن تمنى بدينها وخلقها وبتنشئة شبابها على التربية الوطنية من أن تجري وتتعلق بمظاهر نفعها — إن كان فيها نفع — محدود ، أولى بها أن تنظر فيما يخلق الشعوب ويبنيها لا فيما يظهر عليها من أثواب ويكون لها من ألوان !

محمد البهي قرقر
دكتور في الفلسفة وعلم النفس
وعضو بعثة الامام الشيخ محمد عبده

من تاريخ الأدب المصري

أحمد بن يوسف
المعروف بابن الداية
للأستاذ محمد كرد علي

كان والده من جلة كتاب الدولة الطولونية انتقل من بغداد إلى مصر ، وكان من أهل المروءات والفضل ، ونشأ ابنه أحمد في مصر كاتباً فصيحاً وشاعراً مجيداً ، وحاسباً منجماً . وأصل آبائه من أقباط مصر على الغالب ، وكان جدهم الأول سميه أحمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون . ولأحمد هذا المعروف بابن الداية ثلاثة وعشرون مصنفاً فقدت ولم يبق منها فيما نحسب سوى قطعة من « كتاب المكافأة وحسن العقبى » تدل على علو كعبه في البلاغة وقد أثبت في كتاب المكافأة أخباراً في المكافأة عن الحسن والقبيح مما شاهده في عصره ، وذكر قصصاً شهدها أو نقلت إليه عمن أحسن إلى إنسان فكوفئ على إحسانه ، وساق في المكافأة على الحسن إحدى وثلاثين قصة ، وفي المكافأة على القبيح إحدى وعشرين قصة ، قال في آخرها : وإذ قد وفينا ما وعدناك به من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح ما رجونا أن يكون ذلك عوناً للاستكثار من مواصلة الخير ، وتطلب المارفة في الحسن ، وزجر النفس عن متابعة الشر ، وإبعادها عن سورة الانتقام في القبيح وقد قالوا : الخير بالخير والبادى أخير ، والشر بالشر والبادى أظلم — رأيت أن أصل ذلك حفظك الله بطرف من أخبار من ابتلى فصبر ، فكان ثمرة صبره حسن العقبى ، وأخبار حسن العقبى تسعة عشر خبراً سقط بعضها فيما يظهر

قال من أخباره : « حدثنا أحمد بن أبي يعقوب قال : أنكر المهدي على هرثمة بن أعين (من أكبر قواد بني العباس) تحككه بمعن بن زائدة وأمر بنفيه إلى المغرب الأقصى . فكلمه الرشيد فيه واستل سخيمته عليه . ومن ثم معن . وزادت حال هرثمة ، وشكر للرشيد ما كان منه . وأفضت الخلافة إلى موسى الهادي فتمكن منه هرثمة . وحدثت الهادي نفسه بخلع الرشيد ، وجمع الناس على تقليد ابنه العهد بعده ، وعلم بهذا هرثمة ، وتذكر عارفة الرشيد فمارض . وجمع الهادى الناس ودعاهم إلى خلع الرشيد ونصب ابنه مكانه فأجابوه وحلفوا له ، وأحضر هرثمة فقالوا له : تبايع يا هرثمة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين يميني مشغولة ببيعتك ، ويساري مشغولة ببيعة أخيك فبأي يد أبايع ؟ والله يا أمير المؤمنين لا أكدت في الرقاب من بيعة ابنك أكثر مما أكده أبوك لأخيك في بيعته . ومن حنث في الأولى حنث في الأخرى . ولولا تأول هذه الجماعة بأنها مكرهة وإسرارها فيك خلاف ما أظهرت لأمسكت عن هذا . فقال لجماعة من حضر : شاهت وجوهكم ، والله لقد صدقني وكذبتموني ، ونصحني وغششتموني . وسلم إليَّ الرشيد ما قدره الهادي فيه »

قصة ثانية : « حدثني هرون بن بلال قال حدثني ياسين بن زرارة قال : كان ببعض أرياف مصر نصراني من أهلها كثير المال فاشي النعمة سمح النفس ، وكانت له دار ضيافة ، وجرايات واسعة على ذوي الشعر بالفسطاط . فهرب من المتوكل رجل كنى عن اسمه لخطر منزلته ، لميل كان من المنتصر إليه ، فلما دخلها رأى فيها كثيراً من أهل بغداد ، فخاف أن يعرف فنزع إلى أريافها ، فانتهى به المسير إلى ضياع النصراني فرأى منه رجلا جميل الأسر ، وسأله النصراني عن حاله ، فذكر أن الاختلال انتهى به إلى ماظهر عليه . فغير هيئته ، وفوض إليه شيئاً من أمره ، فأحكم فيما أسند إليه واضطلع به . ولم يزل حاله يتزايد عنده حتى غلب على جميع أمره ، وقام به أحسن قيام ، فكان محل الرجل الهارب من النصراني يفضل كلما ذهب له

« وورد على النصراني مستحث بحمل مال وجب عليه . (وسأله) النصراني عن خبر الفسطاط فقال : ورد خبر قتل المتوكل وتقلد المنتصر . ووافى رسول من المنتصر في طلب رجل هرب في أيام المتوكل يعرف بفلان بن فلان ويوعز إلى عمال مصر والشام بأن يتلقوه بالتكرمة والتوسعة فيلحق أمير المؤمنين في حال تشبه محله عنده . فعدل النصراني بالمستحث إلى بعض من أنزله عليه ، وخلا الهارب بالنصراني فقال : أحسن الله جزاءك ، فقد أوليت غاية الجميل وأحتاج إلى أن تأذن لي في دخول الفسطاط فقال : يا هذا إن كنت استقصرتني فاحتكم في مالي . فلني لا أرد أمرك

ولا أزول عن حكمك ؛ ولا تنأ عني ، فقال له : أنا الرجل المطلوب بالفسطاط وقد خلّفت شملا جمًّا ، ونعمة واسعة . إنما عدل بي الخوف على نفسي . فقال له : ياسيدي فالمال في يدك وما عندك من الدواب فأنت أعرف به مني فاحتكم فيه ، فأخذ بغالا وما صلح لمثله ، وخرج النصراني معه . وقدم كتاباً إلى عامل المعونة من مستقره ، فتلقاه عامل المعونة في بعض طريقه ، ووصاه وجميع العمال بالنصراني ، وصار إلى الحضرة فأصدر إليهم الكتب في الوصاة به إلى أن قدم بعض العمال التجرة فتتبع النصراني ورام الزيادة عليه فخرج إلى بغداد

« قال لي هرون إن ياسين قال له : إن النصراني حدثه أنه دخل إلى بغداد فلم ير بها أدنى محلا ، وأكثر قاصداً منه ، ثم استأذنت عليه وعنده جمع كثير فخرج أكثر غلمانه حتى استقبلوني فلما رآني قام على رجليه ثم قال : مرحباً يا أستاذي وكافلي والقائم بي حين قعد الناس عني . وأجلسني معه وانكب على ولده وشمله ، وأنا أتأمل مواقع الاحسان من الأحرار ، وسألني عن حالي في ضياعي فأخبرته خبر العامل ، وكان أخوه في مجلسه فنظر إليه من كنا عنده ، وقال له : كنت السبب في تقليد أخيك فصار أكبر سبب في مساءتي ، فكتب من مجلسه كتاباً إليه بجلية الخبر وأنفذه . وأقمت عنده حولا في أرغد عيشة وأعظم ترفه . وورد على كتب أصحابي تخبروني بانصراف العامل عن جميع ما كان اعترض عليه في أمري . وأخرج أمر السلطان في إسقاط أكثر خراج ضياعي والاقتصار بي على يسير من مالها . قال ياسين فكتب النصراني ببغداد حجة أشهد فيها على نفسي أن أسلمه في جميع الضياع التي في يده (وسماها وحددها) لهذا الرجل الذي كان هرب، وصار بها إليه ، فقال له : قد سوغك الله هذه الضياع ، فاني أراك أحق بها من سائر الناس ، فامتنع الرجل من ذلك وقال له : عليك فيها عادات تحسن ذكرك ، وترد الأضنان عنك ، ولست أقطعها بقبض هذه الضياع عنك . ورجع النصراني إلى الفسطاط فجدد الشهادة له فيها . فلما توفى النصراني أقرها في يد أقاربه ، ولم يزالوا معه بأفضل حال »

محمد كرد علي

ظاهرة هامـــة

للأستاذ عبد المغني علي حسين

يروى كثير من الناس عن بعض الذين ماتوا من أقربائهم أو أصدقائهم ، أن هؤلاء ، عند ما حضرهم الموت كانوا يهتفون بأسماء بعض الذين سبقوهم إلى الدار الآخرة . ويروى الراوون أن المحتضر كان يتحدث إلى (الموتى) كما لو كانوا منه على مرأى وعلى مقربة . أما قول الناس في تعليل ذلك فهو أنه هذيان نتيجة اختلال الشعور . وبعض الناس يسلم بالعجز عن تعليل هذا الأمر . والجميع يعرفون بالتجربة أن المريض إذا (نادى على الأموات) على حد قولهم ، فقد تحقق دنو أجله ، ولم يعد ثم أمل في تماثله .

هذه الظاهرة معروفة مشهورة في بيئتنا المصرية ، ولا أحسب القارئ الكريم إلا قد سمع بها ، إن لم يكن شهدها بنفسه . ولكن أرجو ألا يحسبها قاصرة على البيئة المصرية ، أو على أية بيئة معينة ، فالواقع أنها شائعة في العالم أجمع ، ومعروفة بين بني البشر على اختلاف جنسياتهم وألوانهم ومدنياتهم ودياناتهم . وهي ، بالنظر لشيوعها هذا ، خليقة أن تسترعي اهتمام الباحث المفكر ، سيما وأنها تتصل بذلك السر الأعظم : الموت . هذه الظاهرة قد استرعت فعلا اهتمام من اشتغلوا بالبحوث الروحية ، وهي عندهم عظيمة الدلالة ، الخطر .

أمامي الآن كتب أخرج في عام ١٩٢٥ ، لأحد كبار الباحثين الروحيين من الانجليز ، هو سر وليم باريت ، عضو الجمعية الملكية البريطانية (T.R.S) ، وفي هذا الكتاب دراسة مستفيضة لتلك الظاهرة الشائعة ، ومن يتصفحه ير كيف يمكن أن يصير ... إلى نتائج خطيرة من ظواهر مشتتة لا تحمل في ظاهرها دلالة ولا قيمة علمية . عمد الباحث المذكور إلى دراسة هذه الظاهرة دراسة استقرائية على طريقة العلم الحديث التي بلغت به ما بلغ . تلك الطريقة القائمة أولا على شهود أكبر عدد ممكن من الظواهر ، ثم وصف تلك الظواهر بدقة وتفصيل وصدق ، ثم المقارنة بينها وملاحظة ما فيها من عناصر مشتركة ، ثم استنتاج ما يمكن استنتاجه . ويأتي بعد ذلك استنباط التجارب

للوقوف على مبلغ صحة هذا الاستنتاج .

لجأ سروليم باريت إلى أصدقائه من أطباء ومديري المستشفيات الكبيرة في مدينة لندن ، طالباً تمكينه من زيارة من يحتضر من المرضى كلما سمحت الظروف وسمح ذوو المريض المحتضر بنفسه عدداً كبيراً من الحالات ، ودون ما شاهده وسمعه ، وكانت تعاونه في هذا العمل زوجته « ليدي باريت » . وكتب أيضاً إلى أصدقائه من أطباء المستشفيات في عدد كبير من مدن العالم راجياً موافاته بوصف ما قد يعرض لهم من هذا الأمر . وبذا تم له جمع عدد كبير من تلك الحالات ، رتبها وبوبها ، وقدمها لجمعية البحوث الروحية بلندن Society of Psychical Research ثم أذاعها على ملأ القارئين في هذا الكتاب

في الكتاب وصف دقيق لكل حالة ، وبه الأسماء والأمكنة مذكورة ، وكذا الزمن باليوم والساعة والدقيقة . أما المحتضر فقد يكون رجلا أو امرأة ، شيخاً أو شاباً أو طفلا ، وقد يكون انجليزياً أو أوروبياً أو أمريكيا أو هندياً أو زنجياً ، وهو في أكثر الحالات يعاني آلاما جساما ، ووجهه متجهم ، فاذا به ينسى ألمه برهة ، ويتهلل وجهه ويقول : « ماذا أرى ؟ هذا أنت يا فلان . لقد جئت لتستصحبني . . . » أو نحو ذلك من الكلام

ولكن لو اقتصر الأمر على مثل هذا لما كان له كبير وزن من الوجهة العلمية ، إذ من الممكن القول بأن المريض وقد برحت به العلة ، وتسممت أعصابه ، واضطربت دورة الدم في مخه ، قد اختلط عقله ولم يعد يفرق بين الحقيقة والخيال ، وصار سواء عنده الشعور الذي يصل الى مخه بالطريق المعتاد من الخارج والشعور الذي ينبعث من عقله الباطن ، فالذكريات القديمة تتمثل له في شكل حقائق راهنة مصطبغة بالمشاعر المستولية عليه ، فهو من هذه الوجهة كالنائم إذ يحلم بالفكرة كأنها شيء محسوس . ولكن الكتاب لا يحوي هذا الضرب من الحالات فقط ، بل به مجموعة أخرى هي بيت القصيد ، وهي النقطة الدقيقة حقاً التي عندها يرغم الانسان على التفكير الجدي في أن كلام المحتضر لا يمكن أن يكون محض هذيان .

في الكتاب حالات هتف فيها المحتضر باسم شخص مات ولم يكن المحتضر يعرف أن ذلك الشخص قد مات ، فكان يبدو عليه التعجب لوجود ذلك الشخص بين (الأموات) مع أنه — في زعمه — بين الأحياء . يكون المحتضر مثلا قد دخل مستشفى منذ شهر أو أكثر ، وفي تلك الأثناء توفي فجأة واحد من أقربائه ، فكتم الأهل والأطباء عنه الخبر حتى لاتسوء حاله الصحية بتأثير الصدمة والحزن ، فتأتي ساعة احتضاره فاذا به يحدث بعض الذين ماتوا من قبل ، وبينا هو يحدثهم إذا به يقول مندهشاً « ما هذا ؟ أهذا أنت يا فلان ؟ ! وما الذي جاء بك مع هؤلاء ، وكان يجب أن تكون في جهة كذا الآن ؟ . . . » ثم ينظر إلى الحاضرين ويقول « لماذا لم تخبروني بأن فلاناً قد سبقني ، فهاهو ذا قد جاء ليستصحبني . . . » أو نحو ذلك من الكلام .

وإني أورد هنا حالة من تلك الحالات اخترتها لا لأنها مؤثرة بل لأن فيها جميع العناصر التي يطلبها الباحث : طفلة في الثامنة من عمرها تدعى جيني ، لها صديقة في نحو سنها تدعى أديث . مرضت جيني ونقلت إلى مستشفى ، وفي أثناء مرضها توفيت أديث فجأة ، وكتم الخبر عن جيني ، فلما جاء الموت يطلب جيني رجت الحاضرين أن يبعثوا بصورة من صورها إلى أديث كتذكار ، مما يثبت أن الخبر كتم عنها حقيقة . وبعد دقائق من رجائها هذا قالت : « انظروا ! هذه هي أديث . إنها تقول إنها ستكون معي . لماذا لم تخبروني بذلك . . . »

تدل ظواهر هذا النوع من الحالات على أن المحتضر يدرك تماماً أن في الحجرة معه طائفتين من الناس ، الطائفة المعتادة من أهل هذه الدنيا ، وطائفة أخرى من أهل العالم الذي هو قادم عليه ، والطائفة الثانية لا تقل عنده عن الأولى وضوحاً ، وليست أبعد عن حسه من الطائفة الأولى .

يقول المؤلف : « إن مثل هذه الحالات تضطر الانسان إلى التسليم بالغرض الروحي ، حتى أن البروفسور شارل ريشيه لم يجد بداً من التسليم بأن نظريته عن الحاسة السادسة لا تكفي لتعليل هذا النوع من الظواهر . . . » (1)

وفي الكتاب أبواب فيها وصف موسيقى سمعت ساعة احتضار بعض الناس دون أن يكون لها مصدر عادي معروف . وبهذه المناسبة أقول إن بعض من أصدقهم روى لي أنه حضر

(1) البروفسور شارل ريشيه أستاذ فرنسي مشهور ، من علماء الفسيولوجيا ، توفي منذ بضع سنين ، كان يشتغل بالبحوث الروحية ويفسر أكثر ظواهرها بافتراض حاسة سادسة للانسان أسماها Cryptethesia

اتجاهات الأدب العالمي في العصر الحاضر

وكيف يتجه أدبنا (١)

للأستاذ خليل هنداوي

أيها السادة

في هذه الجلسة أحدثكم حديثاً أراد البعض أن يكون جديداً ، أو أنا نفسي كنت ولا أزال أطلب الجديد وألح في طلبه وأردد بيت الشاعر الزهاوي :

سئمت كل قديم حتى سئمت حياتي

إن كان عندك شيء من الجديد فهات

ولكن أنى لي أن أعرف حدود هذا الجديد الذي تريدونه وأريده ؟ وأنى لي أن أعرف الرجل الذي يستطيع أن يدلني على الجديد الذي يبغيه ؟ إنني ما فكرت يوماً في هذا الجديد إلا ذكرت قول حكيم الجامعة : « لا جديد تحت الشمس » ومع هذا أراني كلما استقبلت هذه الشمس وما تحتها رأيت شيئاً جديداً ، وما أضيق الحياة لو بقيت حدودها ماثلة لا تتزحزح كما تراها العين !

إني محدثكم حديثاً أرجو ألا تقيسوه بمقياس الجديد ، لأننا لا نملك مقاييس صحيحة تفرق بين الجديد والقديم ، فقد تعثرون في هذا الحديث على قديم وجديد . وليس هذا كل ما يهمني ، وإنما همي أن أوجه عقولكم إلى « نصيب الأدب في حياة الأمم الحاضرة وحياتنا » ومتى ذكر الأدب هرعت وراءه صفوف من الذكريات لا تعد ، أو احتشدت حوله جحافل من حياة الناس لا تحصى ، لأن حديث الأدب هو حديث الحياة ، ومتى كان حديث الحياة تافها ؟ ومتى كان حديث الحياة يرويه رجل أو يحكم فيه رجل ؟ ...

قد يقول البعض : لم اخترت هذا الحديث الذي إن خص بعضنا فلن يرضي عنه الجل ؟ وما هو نصيب الأدب في الحياة الحاضرة حتى تحدثنا عن اتجاهاته وعهدنا الحاضر عهد علم ومادة ، لا عهد بضائع كلامية ؟

إنني لا أرى رأى من يقول بانحدار سلطان الأدب ، لأن الأدب ، أو قولوا الفن ، ليس بشيء غريب عن كياننا ، ولا بعنقاء مغرب نحلق وراءها ونريد صيدها ، ولا شوب نرتديه ونطرحه متى نشاء . وأنى لنا أن نهمل الأدب إذا كان الأدب جوهراً كامناً في صميم أنفسنا ، أو إذا كانت الحاجة إليه حاجة نفسية تأتي من داخل النفس لا من خارجها ؟

ويقول البعض : ونحن لا نجحد قيمة الأدب ولكنا لا نجد فيه ألهوة تنفي سأمنا وتملأ فراغنا حين ننتهي من جدنا . نتخذه مسلياً لا قائداً يتصرف بأمورنا ، ولكن هذا الأدب قد يكون ضرباً من اللهو يتفكر به قوم في جدهم ولكن ليس الأدب كله . وكيف يكون الأدب الذي يمثل حياة الناس ويصور هناءهم وشقاءهم ، وحيرتهم وطمأنينتهم ، ثم يأتي المجتمع يحاول أن يهدم هنا ، ويبني هنالك ، كيف يكون هذا الأدب لهواً تلهون به في فراغكم وهو الأدب الذي ينفذ إلى النفس فيجردها من خرقها رثة وينشئ لها حياة جديدة وجواً جديداً ؟ وإذا كانت رسالة العلم ، أن تقرب وسائل الحياة ، وتنوع أسباب الرفاه والراحة دون رسالة الأدب من حيث الأمة رسالة تثقيف الروح وتهذيب

موت شاب في ريعانه فسمع مع الحاضرين (زغردة) انبعثت من أحد أركان الحجرة ، ولم تكن صادرة بطبيعة الظروف عن أية واحدة من الحاضرات .

وبعد فلعل القارئ الكريم يسلم معي بما لهذه الظاهرة وأشباهها من دلالة ، وبأنها تفتقر فقط إلى الدراسة المنظمة . أما من وجهة الدين فهنالك الأقوال بأن المحتضر يرى أرواح الموتى ويحادثهم : روى أن بلالاً كان يبتسم عند الموت ، فقيل له في ذلك فقال « سنلقى الأحبة محمداً وحزبه » وروى ابن مالك عن أبي أيوب الأنصاري قال : « إذا قبضت نفس المؤمن تلقاها أهل الرحمة من عباد الله كما يتلقون البشير في الدنيا ، فيقبلون عليه ويسألونه ، فيقول بعضهم لبعض : أنظروا أخاكم ليستريح فإنه كان في كرب شديد . قال : فيقبلون عليه ويسألونه ما فعل فلان ، ما فعلت فلانة . . . » الحديث .

عبد المغني علي حسين

(١) نص المحاضرة التي ألقاها الأستاذ في بيروت في قاعة محاضرات كلية المقاصد الخيرية الاسلامية بناء على دعوة جمعية خريجي الكلية

النفس وصقل العقل . رسالة تنزل منها منزلة الايمان ، رسالة لايستطيع العلم أن يقوم بها وحده . وما وحّد علم بين أبناء وطن واحد ، ولكن الأدب وحد ويوحّد !

أما حاسة الارتياح إلى الأدب والفن أو حاسة تذوقهما فهي حاسة جذورها بعيدة القرار في النفوس . هذه الحاسة تدفعنا بالرغم منا ، وبدون وعى منا إلى أن نطلب الموسيقى مثلاً لأن نفوسنا تحن إليها ، وإلى أن نتنبط بمطالعة قصة أو انشاد قصيدة تمثل نفوسنا برغم السادة التى ترين على قلوبنا . هذه الحاجة هي ميزان أذواقنا وميولنا ، لاشئ يقدر على إخمادها ، والتهاب بها . ناهيك بأن كثيراً من هذه الأنواع الفنية والأدبية ماتتصل أسبابه مباشرة بأسباب حياتنا الاجتماعية ، وان الأديب الذى لايشعر بهذه الحاجة التى تسوقه إلى الكتابة لايستطيع أن يبدع شيئاً ، أو الفنان الذى لايحس هذا الدافع فى نفسه لايقدر أن ينشيء شيئاً !

كانت المقاييس التى توجه الأدب والفن أيها السادة مقاييس فنية تستلهم صدقها ودقتها من الأدب والفن نفسها . عودوا مثلاً إلى الأدب الفرنسي وانظروا كيف يدرسه الطلاب على مقاييس فنية صرفة ، أما اليوم فقد تبدلت المقاييس وأخذت مقاييس المبادئ الاجتماعية والسياسية تطغى عليه . وبحسب هذه المقاييس تغيرت اتجاهات الأدب والفن ، وتطورت غايتهما فى الجيل الحاضر . وتعليل ذلك أن الأدب كان يحيا منكمشاً بنفسه يصف الجمال للجمال ، ويرسم الفن للفن ، ويقنع بأن يطل على الحياة إطلالاً ، ويعمل على إكبار شأن الفرد ويجعل الأديب نفسه قلب الوجود تتلاقى فيه الاشياء أكثر مما يتوزع فى الأشياء . وأما اليوم فقد خرج إلى الحياة ، وإلى المجتمع وإلى السياسة . فأصبحنا ندرس الأدب على هذه الطريقة .

من الأدب الأدب الذى لا غاية له إلا نفسه . يتغنى الشاعر مثلاً لأنه يريد أن يغني لنفسه ويسمع ألحان نفسه ؛ ومن الأدب الذى نزل إلى المجتمع وخبر خلائق الناس وعالج الحياة ؛ ومن الأدب الذى تفيأ ظل الدولة والسياسة والأحزاب . أما الأدب الأول فنى إمكاننا أن ندعوه « الأدب الارستقراطي » لأن الأديب فيه لا يعمل إلا لنفسه ، أو لفئة نزرة العدد تعجب به ، فهو من نفسه فى عالم واسع المدد منفصل عن هذا الوجود ، والأدب الثانى ندعوه « الأدب الديموقراطى » يعنى بالطبقة الوسطى ويعالج مسائلها ويصور آلامها ويقلب وجوه حياتها ؛ والأدب الثالث ندعوه « أدب الأزمة » تخلقه أزمة اجتماعية كأدب الثورة الفرنسية ، وأدب الثورة البلشفية الحمراء ، أو تبدعه أزمة سياسية كأدب الحرب العظمى الذى صور فظائع الحرب وجوها المكفهر ، وأدب الفاشية الايطالية ، والهتلرية النازية . أو تخلقه أزمة عصبية أو دينية أو اقتصادية . وقد يقوم أدب على غير هذا القرار يتجرد من كل هذه العوامل الضيقة ، عوامل الزمان والمكان ، أدب شامل إنسانى يعانق الانسانية من أقصاها إلى أقصاها على اختلاف شعوبها ونزعاتها . ولكن حدث هذا الأدب يقوى فى أيام البلاء ويخف فى أيام الهناء ، لأن الشقاء يقرب الضعيف من الضعيف ؛ حتى إذا استراح الاثنان عادا إلى نزاعهما الذى لا ينتهى

ومن ذا يتأمل فى أدب اليوم ولا يجده ميدان صراع فى كل بقعة من بقاع الحضارة ؟ فأدب الأمم الديمقراطية يذود عن الديمقراطية ويدافع عن حرية الفرد بما فى وسعه أن يدافع ، لأنه يعلم أن تقييد الأدب هو نوع من القضاء على حريته التى لا يحيا إلا بها . هذه الحرية يتباهى بها لأنه يراها مستمدة من حرية الحياة التى لاتضيق ، وأدب الأمم الدكتاتورية يصول صولة أربابها ويفرض على الناس نفسه ، فبينا نرى فى الأدب الديمقراطي كل فرد يفكر وحده تفكيره الخاص ، له استقلاله وذاته وعالمه واعتقاده ، نرى فى الأدب الدكتاتورى أن الفرد الواحد يفكر تفكير الأمة كلها ، وأن الأمة كلها تفكر تفكير هذا الفرد .

وخير ممثل للأدب الحر المدرسة الأدبية الفرنسية التي لا تزال تحترم مبدأ ثورتها الذى أعلن حرية الفرد وزاد عنها . ولعل الوضع السياسى الذى خرجت به من الحرب العظمى أيد هذا الأدب ، ولم يزج بها في أحضان الآداب الأخرى التى ولدتها الأزمات المختلفة . وفي هذه المدرسة تجد ألوان الأدب والتفكير متآلفة على اختلافها ، فيها الأدب الفردى والأدب الاجتماعي والأدب الانسانى والأدب الشعبى والأدب الشيوعى ، ولكن

هذا لا يجعلنا نقول : إن مقاييس أدبها وفنها لم تختلف ، فلقد تبدلت المقاييس الفنية ، وكاد يحل محلها مقاييس تتبع النظريات السياسية والاجتماعية ، ولكن محمدة هذه المدرسة أنها وسعت كل هذه الألوان المتقاربة ، وهذه المبادىء المتنافرة ، وتقبلتها كلها باسم الديمقراطية . . .

إن أدب الأمم الدكتاتورية يسمى كما توجهه الديكتاتورية ضيق الفسحة ، قريب الغاية ، سليب الحرية ، لأن أصحابها جعلوا منه وسيلة للدعاية المحلية ، وتسيطروا على كل ما يتفرع من الأدب والفن كالمسرح والسينما .وأول من بشر بأدب (الدعاية) الأديب الروسى « بليكانوف » الذى كان يقول فى مطلع هذا القرن « إن كل أثر فنى مرتبط بحياة الشعب السياسية » وقد شاعت هذه النظرية فى مؤتمر (فولتا) الذى انعقد فى (روما) سنة ١٩٣٤ للبحث فى أدب المسرح وفنه ، فقال فيه أحد مخرجى السوفييت : « إن أدب التمثيل بحاجة إلى الاقتراب من الشعب ، وملامسة روحه » وقال فيه أحد فنانى الألمان : « إن السياسة المثلة يجب أن تتمثل فى أدب التمثيل لأن السياسة اليوم هى روح حياة الشعوب . »

وفى روسيا بعد هدوء ثورتها الاجتماعية أدرك أقطابها قيمة الفن ، فسخروا كل أنواع الأدب والفن لنشر دعاياتهم ومبادئهم . وعن السينما يقول « لينين » إنها الفن الأول للثورة . . . لأنها تصور الآلام الاجتماعية التى كانت ظهور الناس تلتوى تحتها ، وتهيئ النفوس لحياة أعدل ومثل أعلى . وفى المؤتمر الأخير الذى عقده أدباء الروس قال أديبهم الكبير « مكسيم غوركى » : «إن الدولة اليوم يجب أن يقودها ألوف من أرباب الثقافة الكاملين . وهذه وسيلة ضرورية لترد على الشعب العامل وسيلة إنماء عقله وبراعته ومواهبه التى هى حق من حقوقه المسلوبة فى جميع أنحاء العالم . هذه الغاية التى تتحقق بالعمل — تحتم علينا — نحن الأدباء — أن نكون مسئولين عن عملنا وسلوكنا الاجتماعى وهو عمل لا يحيل منا أدباء واقعيين ، وقضاة على الناس ونقاداً للحياة فحسب ، وإنما هو عمل يعطينا الحق بإنشاء حياة جديدة وتطور جديد . ومثل هذا الحق يوجب على كل أديب أن يشعر بمسئوليته الخطرة فى هذه المرحلة »

هذا مايقوله « مكسيم غوركى » أشهر أدباء الروس والأديب الأكثر انسانية فى أكبر مقاطعة غذت الآداب بالأدب الانسانى ، لأن تيار « الدعاية » قذف به إلى حيث يريد ! وهكذا ارتدى الأدب رداء محلياً حتى غدا الأدب فى روسيا أدباً روسياً والفن فناً روسياً ! وكذلك الأمر فى « الفاشية » فانها عملت بهذا المذهب القائل « إن الموضوع الأدبى يجب أن يستمد من قلب الأمة لا من المحيط الخارج عنها » وأصبحت تريد من الفن أن يخدم الدولة . . .

أما الهتلرية الجرمانية فقد أرادت أن تتفوق فى هذا الباب ، فسخرت العلم الذى لا يسخر للدلالة على أصالة الجنس الجرمانى وطهارته من اخلاط العناصر وقد طغت أيما طغيان على حقول الأدب والفن . يقول ممثلها فى أحد مواقفه « إن كل ما نعجب به اليوم من علم وفن واختراع إن هو إلا وليد فئة قليلة من الشعوب . وربما كانت هذه الفئة تنسلها سلالة واحدة ومن هذه السلالة تنحدر الثقافة الانسانية . . . لتتوار هذه الفئة ، فكل حال الحياة يتوارى معها . . . أريد أثراً جرمانياً يبقى أثر الجرمانية فيه بعد ملايين السنين » وقد أيد هذه النظرية أحد رجالها بقوله « إنا نريد فناً حقيقياً ، فناً جرمانياً يستمد روعته من قلب الابداع الفنى ، فناً يدخل إلى أعماق نفوسنا ويهزها هزاً ! » ويقول وزير دعايتها « فى اللحظة التى تسطر فيها السياسة رواية شعب ما ، حيث يتلاشى عالم وينشأ عالم ، حيث تزول قيم عتيقة وتقوم قيم جديدة ، لا يجدر برجل الأدب والفن ولا يحق له أن يقول : هذا شىء لا يهمنى ولا يعنينى . . . ونحن ، رجال السياسة — إزاء هذه الحركة ، رجال فن لأننا نهيء شعباً . ولست أدعو إلى أن يكون الأدب عسكرياً ، وإنما يجب على الأديب أن يخلق ويصور العلاقات المرتبطة بهذه الحركة الانقلابية . . . يجب على الأديب أن يجر نفسه إلى الزوبعة التى تعصف فى وطنه . عشى تحت مجاجتها ولا يقف شاهداً على الربوة ! إننا نحكم على الفن والأدب بالنسبة إلى تأثيرها فى الشعب . وكل ما خالف هذا لا نرضاه . . . »

(البقية فى العدد القادم)

خليل هنداوى

بحث فى الإيمان

للأستاذ على الطنطاوى

إلى الأخ البغدادى الذى كتب إلى أمس

كتبت إلى تسألنى عن الإيمان ، وتريد دليلا عقلياً على صفات الله السمعية ، وصورة حسية لما خبر به من المغيبات كالجنة والنار ، والجن والملائكة ، حتى لكأنك تراها بعينك ، وتعرض للقضاء والقدر وتسرد شبهاً عرضت لك تطلب منى ردها ، إلى آخر ما ذكرت فى كتابك من مسائل تنوء بها أكبر الأدمغة البشرية ، وتعجز عن حلها العقول العظيمة ، بَلْهَ عقل مثلى ودماغه . من أجل ذلك لزمت السكوت عن الجواب ، ثم بدا لى فرأيت الكلام فى هذه المسألة واجباً ، لأن معرفة الله أول مطالب الحياة ، وأسمى غاية لوجود البشر ، ولأن الشباب فى حاجة إلى مثل هذا البحث ؛ ثم إن البحث فى ذاته لذيذ ممتع . فأقدمت على فتح بابه ، وذكرت ما ألهمته فيه

المعارف البشرية

أورد النسفي رحمه الله في أول عقائده هذه الكلمة الجامعة قال : « حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق ؛ وأسباب العلم كثيرة : الحواس السليمة ، والعقل ، وخبر الصادق المعصوم » أى أن المعارف البشرية إما أن تكون مشاهدة محسة نراها ونسمعها ، وإما أن تكون معقولة ندركها بالفكر والقياس الصحيح ، وإما أن تكون مغيبة علمنا بها من طريق الوحى . أما المحسات فيتساوى فيها الناس والحيوان ؛ وليس فى إدراكها ميزة للناس ، ولئن كان أفقها عند الناس أوسع ، وإدراكهم لها أرقى . وأما المعقولات فيستوى فيها الناس كلهم من كل ذى عقل سليم . وأما الإيمان بالمغيبات فهى الميزة التى تمتاز بها عقول المؤمنين الذين يشاركون الناس فى الحس والتفكير ؛ ويختصون دونهم بالإيمان .

وسنحاول أن ندرس فيما يلى قيمة كل مصدر من مصادر المعرفة الثلاثة .

الحواس

تستطيع أن تشك فى كل شئ ، ولكنك لا تستطيع أن تشك فى شىء تراه أو تلمسه ، لأن الحس أصح طرق المعرفة وأدناها ، ولأنك إذا قلت : هذا الشئ (محسوس) ، تكون قد عبرت بأبلغ تعبير عن الثقة بوجوده ، والاطمئنان إليه ، والحواس هى طريق المعرفة الأولى ، والنوافذ التى تطل منها النفس على العالم الخارجى ، فلو أغلقت هذه النوافذ آض العالم عدماً . ولو أن رجلاً ولد أعمى أصم لكان عالم الألوان والأصوات (بالنسبة إليه) غير موجود ، ولما استطاع مطلقاً تصور الخضرة والحمرة ...

كل هذا مسلم به ، ولكن هل يحق لنا أن ننكر وجود شئ من الأشياء لأننا لا ندركه بحواسنا ؟ هل يجوز لنا أن نقول إنه ليس فى الوجود ملائكة مثلا ، لأننا لم نر الملائكة ولم نسمع أصواتهم ولم نلمسهم ؟ هل نستطيع أن ننكر الشياطين ؟

وبالعبارة الثانية : هل هذه الحواس كاملة تطلعنا على كل شىء فى الوجود ؟ وهل هى صادقة لا تخدعنا ولا ترينا الشىء على غير حقيقته ؟

إنى أسألك أولا : كم هي الحواس ؟ فتقول إنها خمس . فأسألك : ألا تعرف لها سادسة ؟ فتضحك وتحسبنى أمزح ، لأن الحواس كاملة لا يمكن الزيادة عليها . وأنها مشهورة معروفة من قديم الزمان ، لم يفكر أحد أن بالإمكان كشف حاسة سادسة لها .

بينما يعرف صغار طلبة البكالوريا الذين يقرأون علم النفس ، أن هناك حواس أخرى ، وتعرف ذلك أنت إذا دققت فى نفسك وحللت مشاعرك ؛ ألا تشعر بالتعب موجوداً فى عضلاتك عقب المشي الطويل أو الحركة العنيفة ؟ ألا تحس بالجوع والعطش والتهاب الجوف ، وغثيان النفس ؟ فبأى حاسة من الحواس الخمس عرفت ذلك ؟ أأبصرته أم سمعته ، أم شممت ريحه أم لمسته ؟ إنك لم تدركه بشىء من ذلك ، بل بحاسة سادسة دعنا نسميها (الحاسة المشتركة) مثلاً . . .

ثم ... ألا تحس وأنت مغمض عينيك بأن يدك ممدودة أو مرفوعة ، وأن كفك مقبوضة أو مبسوطة ؟ إنك لم ترها ، ولم

تدركها بحاسة من الحواس الخمس ، وإنما أدركتها بحاسة سابعة دعنا نسميها (الحاسة العضلية) مثلا ...

وكذلك حسك بالحرارة والبرودة ، فإنها حاسة ثامنة ، وحسك بتوازن جسمك عند المشي أو الوقوف ؛ بل لقد استطاع العلماء أن يكشفوا مركز هذا الحس ، وأن يعلموا أنه في الأذن الداخلية ، في مادة كلسية مبلورة ، لو أتلفت في حيوان فقد حسَّ التوازن وسار مترنحاً كما يترنح السكران . . .

فالحواس ليست كاملة لأن الكامل لا يقبل الزيادة ، وما دامت ناقصة فسيظل في الوجود أشياء لا ندركها أو ندركها ولا ندري أننا ندركها

ولنأخذ الكائنات التي ندركها ، هل ندركها كاملة ؟ أنا أرى الألوان ولكن هل أراها كلها ؟ هل أرى ما وراء الجدار ؟ هل أبصر عصفوراً على شجرة من مسيرة يوم ؟ هل أميّز رجلا في الصحراء على بعد عشرة أميال ؟ وأنا أسمع الأصوات ، ولكن هل أسمع صوت نملة تسير على التراب ؟

أفيحق لي أن أنكر أن للنملة صوتاً لأني لا أسمع هذا الصوت ؟ أو أن أجحد ما وراء الجدار لأني لا أبصر ما وراءه ؟ فأنا إذن أدرك من الكائنات أنواعاً معدودة ، وأدرك من هذه الأنواع مقادير محدودة

وهذه المقادير التي أدركها ، هل أدركها على حقيقتها ؟ ألا تخطئ حواسي أو تضل ؟ إني أضع أصبعي الوسطى على السبابة ثم أجري القلم على باطن الأصبعين فأحس بقلمين ... وأضع العود المستقيم في الماء فأراه منكسراً ... وأنظر في الصحراء فأرى الرمال مياهاً غزيرة . على حين أنه ليس هنالك إلا قلم واحد ، وإن العود المستقيم يبقى في الماء مستقيما ، وإن رمال الصحراء لا ماء فيها ، ولكن حواسي أخطأت وضلت . وانظر أي كتاب من كتب علم النفس (السيكولوجي) تر من ذلك شيئاً كثيراً ، فاذا كانت هذه هي قيمة الحواس ، فهل يحق لنا أن نجعلها وحدها طريق المعرفة ، وأن ننكر كل أمر لا تقع عليه حواسنا ؟ ألا ننكر نفوسنا قبل كل شيء لأن نفوسنا وأرواحنا لا تدركها حواسنا ولا تعرف ماهيتها ؟

الخيال

وإذا ثبت أن الحواس ناقصة محدودة ، ثبت أن الخيال محدود ، لأن الانسان لا يستطيع أن يتخيل شيئاً جديداً لم يدخل في دائرة الحس ، ولأنه لا عمل للخيال إلا تأليف صور جديدة من الأجزاء القديمة . فالذي نحت تمثال فينوس لم يأت به من العدم وإنما جمع في ذهنه أجمل أنف رآه ، وأجمل فم ، وأجمل عين ، ثم ألّف منها صورة جديدة لم يدركها الحس بمجموعها ولكنه أدرك مفرداتها على كل حال . والذي صور الحصان المجنح ، أخذ جسم الحصان وجناح الطائر . من أجل ذلك سمى كثير من علماء النفس هذا الخيال جامعاً ، وكرهوا أن يطلقوا عليه لفظ (الخيال المبدع) . فكيف إذن تستطيع أن تتصور الجنة أو الملائكة أو الحياة الأخرى وأنت لم تدرك بحواسك أي جزء من أجزائها ؟ إنه ليس في النفس شيء لم يدخل لها من العالم الخارجي ، وأنت لم تعش في الجنة ، فاذا قلت لك مثلا ... إن في الجنة أنغاماً موسيقية عطرة ، أو أن فيها عطوراً لها رائحة خضراء ، فهل تستطيع أن تتخيل هذه الأنغام العطرة ، أو هذه الرائحة الخضراء ؟ هل تقدر أن تتخيل بعداً رابعاً غير الأبعاد الثلاثة المعروفة (الطول والعرض والارتفاع) ؟ هل تتصور مثلثاً ليس له زوايا ، ودائرة ليس لها محيط ؟ كذلك لا تقدر أن تتصور أن لله يدا ليس لها طول ولا عرض ولا جسم ولا صلابة ولا صفة من الصفات البشرية ولا تشبه الأيدي ولا تشاركها إلا في الاسم . ألا تجد نفسك مضطراً إلى التسليم بالعجز والاقرار بأن المستحيل على الخيال البشري الوصول إلى معرفة ذات الله وصفاته الآلهية ؟

العقل

تقدم معنا أن الحواس خدعت ، فأحست القلم قلمين ، ورأت العود المستقيم منكسراً ، والسراب ماء . ولكن العقل لم يخدع ، وكان يعلم أنه قلم واحد ، وأن العود مستقيم ، والسراب ليس بماء ، فالعقل إذن أوسع قدرة ، وأصح حكما من الحواس . ولكن أليس لقدرته حدود ؟ هل يقدر العقل على أن يحكم على كل شيء ؟

الجواب : لا . لأن العقل لا يستطيع أن يحكم على شيء ،

أو يدركه إلا إذا حصره بين شيئين هما الزمان والمكان . لذلك يسأل العقل دائماً : متى ؟ وأين ؟ فلو قلت لك : إن حرباً وقعت ولكنها لم تقع اليوم ولا أمس ولا قبل سنة ولا أقل ولا أكثر لم تصدق ذلك ولم تدركه . ولو قلت لك : إني رأيت مدينة ليست في شمال ولا جنوب ولا سهل ولا جبل ولا هواء، ولا هي في مكان ، رددت ذلك وكذبته ، لأن الزمان والمكان ركنا العقل لا يقوم إلا عليهما . وبديهي أن ما اتصل بذات الله لا يخضع للزمان والمكان ، ولا يطلق عليه متى وأين ... ولذلك يعجز العقل عن إدراك أي شيء يتصل بالله عز وجل وصفاته ، ولا يستطيع أن يعرف عنها شيئاً بلا معونة من الخارج

ثم إن العقل محدود ، فلو قلت لك : إن خطا أبيض يمتد في الظلام ليس له آخر ، وأردت أن تفكر في هذا الخط ، وتجمع في إدراكه عقلك ، لعجزت عن إدراكه وشعرت بأن عقلك ينازعك منازعة شديدة إلى وضع آخر له ، ويميل إلى قطعه وإدراك نهايته . ولو قلت لك : إن المؤمن خالد في الجنة دائماً دائماً دائماً . . . وفكرت في ذلك لأحسست من عقلك ميلاً قوياً إلى وضع حد لهذا الدوام . ويتجلى هذا الميل في الرياضيات العالية التي فرضت اللانهاية نقطة وجعلت منها (+ ∞) لانهاية موجبة و(− ∞) لانهاية سالبة . . .

فاذا كان العقل محدوداً ، فكيف يحيط بالله وهو عز وجل غير محدود ؟ هل يمكن أن تضع بغداد في غرفتك ؟ لا . ولله المثل الأعلى !

الوحي :

بَيّن لك من هذا ضرورة الوحي ، والوحي ضرورة عقلية وضرورة عملية .

أما ضرورته العقلية فما رأينا من عجز العقل عن إدراك ماوراء المادة ، وعن معرفة الله ، فلم يكن بد من إتمام نقص العقل بعلم من الخارج ، وهذا هو الوحي .

فالوحي علم خارجي يصل إليه العقل بالسماع والتمييز ، كما أن المعارف المعقولة علم داخلي يصل إليه العقل بالادراك والتفكير ، وكلاهما من الله . لذلك لا يمكن أن يكون بينهما تناقض مطلقاً ، لأن الله عز وجل مبدع حكيم ؛ ومن شروط حكمة المبدع ألا يكون فيما يبدعه تناقض ، فالدين الصحيح (أعني الوحي) والعقل السليم متفقان في المبدأ ، متعاونان على بلوغ الغاية ، لا يقوم أحدهما إلا بالآخر . فلابد للوحي من عقل يدركه ويؤمن به ، ولابد للعقل من وحي يكمل نقصه ، ويمكنه من إدراك ما لا يستقل بادراكه منفرداً . وليس معنى هذا أن العقل يستطيع إدراك كل ماجاء به الوحي ، لأنه لو كان هذا لما كان للوحي من حاجة ، ولكن معناه أن الوحي لا يناقض العقل ، ولا يوجب مايحيله ، أو يحيل مايوجبه

وأما ضرورته العملية فهي أن الفضيلة والعدالة لاتقومان في الأرض إلا بقيام الدين . وبيان ذلك ان الانسان مسوق أبداً في حياته بالمنفعة الخاصة ، لايعمل عملا إلا إذا كان له فيه فائدة أو لذة ؛ وعبثاً تحاول حين تحاول أن تجد عملا واحداً يعمله امرؤ لنفعة غيره فقط ... ولست بحاجة إلى سرد أمثلة من لاروشفوكلد فقد نشرت عنه الرسالة فصلا ممتعاً في عدد من أعدادها الماضية لا أذكر رقمه تستطيع أن تفتش عنه وترجع إليه ، ولكن أسأل القارىء وآمل أن يجيب بانصاف : هل يتصور رجلا ملحداً (لا يؤمن بالله واليوم الآخر) فقيراً جائعاً ليس معه إلا قرش واحد لعشائه يضع هذا القرش في صندوق الطيران الوطني أو صندوق جمعية خيرية من غير أن يراه أحد ، ثم لا يخبر بذلك أحداً ولا يرجو (بالطبع) ثواب الله ، وإنما وضعه حباً للآخرين ؟ أو يتصور طالباً رأى ورقة جاره في الامتحان تستحق الرسوب ، فضحى بنفسه من أجله فوضع اسمه على ورقته ، ورضى بأن يرسب هو لينجح ذاك ، واحتمل لوم أهله وتأنيب أصحابه ، ولم يخبرهم ولم يخبر ذلك الطالب بما فعل ، ولم يرج عليه ثواباً من الله ، وإنما فعله حباً للآخرين ؟

قد يفعل ذلك إذا كان عاشقاً ؛ غير أن العشق أبعد شيء عن حب الآخرين ، بل هو الأنانية بأفظع أشكالها . فأنت لا تحب مطلقاً شخص المحبوب ، وإنما تحب لذتك فيه : تحب نفسك . ولو ضاعت هذه اللذة ، بأن فقد المحبوب جماله بمرض مشوه أو بذل نفسه لغيرك لأقلعت عن حبه ، بل لكرهته أشد الكراهية ؛ والحب العذري خرافة ليس هذا موضع الكلام في بطلانها .

فمن هو إذن الذي يضع قرشه في الصندوق وينام جائعاً ، ويؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ؟ هو المؤمن بالله واليوم الآخر

لا لأنه أسمى من البشر فهو خارج عن النواميس النفسية ، والمبادئ العامة ؛ بل لأنه يشتري لذة كبرى بلذة صغرى ، فهي أيضاً أنانية . . . يبذل قرشه هذا ليأخذه في الآخرة أضعافاً مضاعفة ، ويضحي بحياته هذه القصيرة الشقية لينال حياة طويلة سعيدة في الجنة . . . فالضحية إذن لا تكون إلا ثمرة للدين ، اي للوحي .

ولنعرض المسألة بشكل أوضح : لو محي الدين من الأرض هل تكفي القوانين والأخلاق الوضعية لضمان الفضيلة والعدالة ؟ أما الأخلاق فليس لها مؤيد عملي ، وأما القوانين فتؤيدها القوة ، فالقانون معناه الشرطي . فاذا سرق اللص ولم يره أحد ، ولم يقدر عليه الشرطي ، فسرقته جائزة عملا وإن لم تجز نظريا . وإذا قتل القاتل ولم يشهد جريمته أحد فجريمته جائزة وهو غير مسئول أمام القانون . ونتيجة ذلك ان الجرائم تنتشر ويستعمل الناس ذكاءهم ومواهبهم في ابتكار الحيل للفرار من القانون كما نرى اليوم في بعض بلدان الغرب التي تستغل فيها العلوم والفنون للسرقة والغش والاحتيال ، في حين أن الدين يؤيده اتباعه ، وضامنه فيه . فالتدين لا يستطيع أن يسرق او يقتل ولو لم يره احد ، لعلمه ان الله يراه ، ويطلع عليه ، وهذه اقوى وسيلة لنشر الفضيلة :

لا تنتهي الأنفس عن غيها   ما لم يكن منها لها زاجر

فكرة الإله

وهناك فائدة أخرى للدين : هي الاطمئنان الذي يحس به المؤمن حيال النكبات والمصائب ؛ فبينا نرى غير المؤمن مقبلاً على الانتحار ، يائساً قانطا ، نجد المؤمن راضيا بقضاء الله مستسلما إليه . وقد يفهم من هذه الفائدة أن الدين فطرة في الانسان على حد قول دوركايم : الانسان حيوان ذو دين وأكبر الأدلة على ذلك فكرة الإله . فالاعتقاد بوجود إله ازلي خالد قوي خير عادل موجود مع الانسان منذ وجد الانسان . وليس من حاجة لاقامة الأدلة العقلية على وجود الله ، كما أنه لا حاجة للتدليل على أن الجزء أصغر من الكل ، لأنهما من البديهيات .

وبيان ذلك أن الانسان لما بدأ يفكر نظر في نفسه فوجد فيها مبادئ لا يد له فيها ، ولا يدري من أين جاءته ولا يعرف عليها دليلا واحداً ، وجد أن الذي هو هو . الماء هو الماء . ليس الماء ورقة ولا شجرة ولا قطعة ولكنه ماء . . . والأرض هي الأرض . هذه بديهية ثابتة لا يستطيع العقل أن ينكرها مهما اختلفت الأعصار والأمصار ، فما هو الدليل عليها ؟

ما هو الدليل على أن الجزء أصغر من الكل ، وأن وجود الشيء ذاته في الوقت عينه وانعدام هذا الشيء مستحيل . إن التدليل على أمر معناه رد هذا الأمر إلى بديهية ثابتة . فكيف ندلل على البديهية وإلام نردها ؟

وكيف يصح في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل ؟

ومثل هذه البديهيات تماماً الاعتقاد بوجود إله ، بدليل أن البشرية لم تعش يوماً واحداً بغير هذا الاعتقاد وإن اختلفت المدارك فعرف بعض الناس الاله الحقيقي الذي لا تدركه الأبصار ، وألصق بعضهم صفة الاله ببعض المخلوقات ثم عبدها لا لذاتها بل لأن فكرته عن الاله تمثلت له فيها — وقد يعترض علي معترض بأن في الشبان اليوم من ينكر الاله ولا يقر بوجوده فأجيب بأن هذا الشاب لو ضاع في صحراء ويئس من المعونة أو أصابه مرض عضال عجز عنه الأطباء لعاد مؤمناً بالله ، ولآب إلى الله مقراً مستغفراً . فالايمان لم يذهب من نفسه وإنما غطته عوارض زائلة . وذلك قريب من قول السيدة رابعة العدوية وقد خبروها أن (فلاناً) من العلماء أقام ألف دليل على وجود الله . فقالت لو لم يكن عنده ألف شك لما أقام ألف دليل ! قيل لها : فما هو إذن ؟ قالت من ضاع في الصحراء وانقطع ماذا يقول ؟ قالوا يقول : يا ألله ! قلت : ذلك هو الله . وقول أناتول فرانس : إن كذا غراماً من السكر في بول أشد الناس إلحاداً ترده مؤمناً . يريد أنه لو أصيب بمرض ويئس من الحياة .

* * *

فاذا عرفت يا سيدي قيمة الحواس ، وحدود الخيال ، وطاقة العقل ، وفائدة الايمان ، كنت أنت الذي يجاوب على ما بعثت لي به من أسئلة . والسلام عليك ورحمة الله .

« دمشق »   **علي الطنطاوي**

مدرس الأدب العربي

في الكلية الشرعية ببيروت

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٧ —

المدرسة اليوجية

نشأت هذه المدرسة حوالى القرن الثانى قبل المسيح على أصح الأقوال وسارت فى تعاليمها على منهج مدرسة « سامكهيا » ولهذا لم يكن لها فى الابداع الفلسفى شىء يستحق الذكر ، وإنما يقدر مجهودها فى السلوك العملى الذى بعثته من مرقده بعد أن طغت عليه عوامل أخري شديدة التأثير . ويتلخص هذا السلوك فى الزهادة التامة ومحاولة إنقاذ الروح من سلطان البدن ومحاسبة الانسان نفسه على مقدار ما حصل عليه كل عضو على حدة من هذا التحرر من سيطرة المادة

وعندها أن الانسان مكون من قنوات كثيرة ، وأن العلة الوحيدة فى أنه لا يصل إلى مبتغاه من المثل الأعلى فى الخلوص من الطبيعة هى أنه حين يتزهد لا ينجح فى مراقبة جميع أعضائه ، وإنما هو يسيطر على بعضها فقط . فالبعض المتروك هو سبب الرسوب فى هوى الطبيعة السحيقة والرزوح تحت أنيارها الثقيلة والرسوف فى أغلالها الضيقة

أما من استطاع أن يخلص كليته بتمامها من سلطان المادة ، فانه يصير إلى نهاية المعرفة فينكشف له ماوراء الحجب ويحيط بأسرار الأقدار ويدرك كل ما تجرى به من أقلام الغيب وتحصل عنده القدرة الكاملة على قهر الزمان والمكان فينطويان أمامه متى شاء وكيف شاء . ويستطيع أن يختفى عن الأعين وأن يتشكل بأية صورة يشاء وأن يشكل جميع العناصر كما يريد ، وأن يحيط بمكنونات أفكار غيره ، وأن يظهر فى عدة أمكنة فى نفس اللحظة . فاذا وصل إلى هذه المرتبة فقد حصل على درجة النيبوبة وتفانى فى الكل الأول ، وهذه هى عليا درجات الكون أو غبة اليوجية ، ولعل ألطف رد على تلاميذ هذه المدرسة هو ما قاله أحد قواد إحدى الفرق الحربية الانجليزية فى الهند حين سمع هذه المزات التى يعزوها «اليوجيون» إلى مدرستهم ، فقال : ساخراً « إنى أظن أن زهاد الهنود إن استطاعوا — كما يزعمون — التغلب على الزمان والمكان والاختفاء عن الأعين واحتراق حجب الأقدار ومعرفة خفايا الأسرار إلى آخر ما يدعون ، فنى على يقين من أنهم لا يستطيعون التغلب على رصاص بنادقنا وقذائف مدافعنا »

غير أن نساك اليوجيين قد وجدوا لهذا الاعتراض رداً وهو أن حصول الشخص على المزة شىء واستعمالها الفعلى الذى ينشأ عنه انقلاب نظام الكون شىء آخر .

ومهما يكن من الأمر ، فان هذه المدرسة تعتبر مثلاً أعلى فى التنسك والزهادة وإن كانت تابعة لغيرها فى الأفكار والنظريات . ولما كانت تعاليمها المتنسكة تتفق مع طبيعة الهنود وما فطروا عليه من روحانية وميل شديد إلى العزلة ، وانعطاف قوى نحو التأمل فى أسرار الكون وخفايا الوجود ، فقد راجت مبادئها رواجا عظيما ، واعتنقها خلق كثير ، ولا تزال إلى اليوم حية آهلة بالمعتنقين والمريدين .

الفيدانتـــا

كان هذا المذهب فى أول نشأته محصوراً فى شرح « الفيدا » وتأويلها وتخريج آياتها المتشابهة ، ولكنه بفضل تلك البحوث المستفيضة التى كان زعماؤه يخرجونها حول تلك النصوص المعقدة المغرقة فى التعقد أخذ يرتقى شيئاً فشيئاً ويخطو إلى النظر العقلى خطوات واسعة حتى تحول إلى فلسفة نظرية عويصة فى عهد « سانكرا » ذلك الفيلسوف العظيم الذى يؤكد الباحثون العصريون أنه لا يقل عمقاً فى التفكير ودقة في النظر وغوصاً فى بحر الفلسفة المنطقية عن « كانت » و « هجيل » وهما أرق فيلسوفين فى العصر الحديث .

يرى هذا الفيلسوف أن العالم صدر عن الله بطريق الانبثاق، وهو يعود إليه بطريق الجذب ، وهذه فكرة قديمة سبق بها الأولون هذا الفيلسوف بزمن بعيد . ولكنها أخذت تتطور بين مباحث هذه المدرسة حتى وصلت إلى حلولية من النوع الراقى ، فقررت أن هذا العالم الظاهر ليس هو حقيقة الإله ، وإنما هو

كائن أدنى محدث ، ولكن كل جزئية منه تشتمل على طرف من تلك الحقيقة الالـهية ، ولهذا يجب أن يفهم الانسان أن شخصه الخارجي الذي يشبه غيره في شيء ويختلف عنه في شيء ، والذي يولد ويموت ويأكل ويشرب ليس في الحقيقة شيئاً مذكوراً وإنما الذي يجب أن ينظر إليه في شخصه هو الحقيقة الالهية ، لهذا يصح أن يقال له : أنت الانسان والاله ، أنت الخالق والمخلوق ، والعابد والمعبود ، أنت الشخص و « اللامشخص » . وإذا صرفنا النظر عن الناحية الدنيا فيه ، قلنا له : أنت الواحد الأوحد والكل الأعلى والأول والآخر .

ولما كانت هذه المدرسة تؤسس تعاليمها على أن عالم الظاهر لا يساوي شيئاً كما أسلفنا ، فقد احتقرت المعرفة الظاهرية واستخفت بالتجربة والمشاهدات إلى أبعد حدود الاستخفاف وأعلنت أن المعرفة الوحيدة الجديرة بالاجلال هي معرفة الحق الأعلى أو هي ما كان موضوعها الحقيقة الالهية ، وأنها لا تجيء إلا عن طريق الالهام البصيري الذي يتوصل إليه بالتنسك والرياضة والخلوص من المادة . وأخيراً أعلن « سانكرا » أنه لا يصل إلى « براهمان » إلا من تحققت لديه المعرفة الكاملة وتخلص من جميع علائق المادة ، إذ هو في هذه الحالة وحدها يصل إلى درجة الغيبوبة الكاملة أو التفاني في الله أو السعادة الأبدية .

غير أنه لم يكد يعلن هذه الآراء حتى هب المتعصبون من البراهمة يرمونه بأنه بوذي يتقمص جسم براهمي ، أو زنديق يرتدي ثوب متدين ، لأن النتيجة الأخيرة التي انتهى إليها مذهبه هي نفس زبدة تعاليم البوذية ، ثم جعلوا يحاربون مذهبه بكل ما أوتوا من قوة وسلطان حتى قضوا عليه ؛ وكان ذلك موافقاً بالمصادفة لأوان الفتح الإسلامي ، فاجتمع هذان العاملان وتكاتفا على قطع هذه السلسلة الفكرية من تاريخ الهند ، وعلى بدء تاريخ جديد يبرز للباحثين أثر الاسلام في تلك الأصقاع على صورته الحقيقية .

خاتمة

الطبيعة — الرياضة — المنطق

لا نريد أن نغادر الحديث عن تلك البلاد إلا بعد أن نقرر في صراحة أن الفلسفة بجميع أقسامها : الالهية والرياضية والطبيعية قد أزهرت فيها إزهاراً فائقاً ، وأن المقدمة الضرورية للفلسفة وهي المنطق قد بلغت في مدارسها الحد الكافي للتفلسف الراقي .

فأما الالـهيات فأحسب أن ما مر بك فيها كاف للتدليل على ما نقول . وأما الرياضة بجميع أقسامها فلم تصل في أي بلد آخر — إذا استثنينا مصر — إلى مثل ما وصلت إليه الهند من رفعة وارتقاء . ويكفي أن نصرح بأن الهنود هم أساتذة « فيثاغورس » أكبر رياضي اليونان على الاطلاق ، وهم أساتذة العرب في الحساب والهندسة والفلك ، بل إن أرقام الحساب المستعملة الآن في العربية هي هندية الأصل .

أما الطبيعة فحسبنا لنبرهن على سابقيتهم فيها أن نعلن أنهم قد وصلوا إلى نظرية « الذر » أو الجوهر الفرد قبل « ديموقريطس » و « لوسيب » أول قائلين بهذا في بلاد اليونان بزمن بعيد ، وأنهم قاموا في الكيمياء بتجارب جبارة كلفت كثيرين منهم الحياة نفسها كما روى التاريخ في عدة نواح من حديثه عن تلك البلاد .

وأما المنطق فهو قديم جداً في المدارس الهندية حتى ليرجعه بعض المؤرخين إلى القرن الثاني عشر . ولا شك أن أصحاب هذا الرأي يجزمون بأن المنطق الهندي هو أساس منطق ارسطو ، ولكن البعض الآخر لا يصعد بالنطق الهندي على سلم الماضي أكثر من عصر المدرسة اليوجية أي بعد عصر ارسطو ، ولكن هذا الرأي الأخير عندي غير صحيح ، إذ أن المنطق قد وجد بلا شك في مدرسة « سامكهيا » وهي قبل أرسطو بزمن بعيد .

وعلى هذا نستطيع أن نجزم بأن الفلسفة بأكمل معانيها قد وجدت في بلاد الهند ، وأن اليونان مدينة لتلك البلاد بكثير من نظرياتها التي يعتقد السطحيون أنها مبتدعة ، وبالتالي نصرح أن الهند كانت ولا تزال لبنة هامة ، بل حجراً أساسياً في بناء الفكر البشري الراقي ما في ذلك شك ولا ارتياب .

« يتبع » محمد غلاب

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ — ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٤ —

شاعر الحسن

كلف الرافعي بالشعر من أول نشأته ، فما كان له هوى إلا أن يكون شاعراً كبعض من يعرف من شعراء العربية ، أو خيراً ممن يعرف من شعراء العربية ... كان الرافعي واسع الأمل ، كبير الثقة ، عظيم الطموح ، كثير الاعتداد بالنفس ؛ فمن ثم نشأ جباراً عريض الدعوى طويل اللسان من أول يوم ... وبهذه الكبرياء الأدبية الطاغية ، وبما فيه من الاستعداد الأدبي الكبير ، وبما في أعصابه من دقة الحس وسرعة الاستجابة لما تنفعل به — بكل أولئك تهيأ الرافعي لأن يكون كما أراد أن يكون ، وأن يبلغ بنفسه هذا المكان بين أدباء العربية

وإذا كان الرافعي قد بدأ شاعراً كما أراد ، فما كانت له خيرة في المذهب الذي آل إليه من بعد ، ولكنها نوازع الوراثة ، وعوامل البيئة ، ودوافع الحياة التي كانت تضطرب به وتذهب به مذاهبها

لم يكن الرافعي يقدر في أيام نشأته الأولى أنه سينتهي من الأدب إلى هذه الغاية ، وأن الحياة سترده من الهدف الذي يسمو إليه في مملكة الشعر إلى هذا الهدف الذي انتهى إليه في دواوين الأدب والإنشاء . وما كان أحد من خاصته وأصدقائه ليعرف أن الرافعي الشاعر الشاب الذي توزعته الصبابة ، وفتنته الحياة ، وتقاسمته لذات الصبا ، وتمناه الهوى ، وتصباه الحب والشعر والشباب — سيكون مكانه في غده هذا المكان في الدفاع عن الدين والذود عن العربية والنضال في سبيل الله . وما كان هو يأمل في مستقبله إلا أن يكون شاعراً تسير إليه في إمارة الشعر منزلة تحمل ذكر فلان وفلان من شعراء عصره

ومضى الرافعي يسمو إلى غايته في الشعر ، وقد تزود زاده من الأدب القديم ، ووعى ما وعى من تراث شعراء العربية . وكان أمامه مثلان من شعراء عصره يمتد إليهما طرفه ويتعلق بهما أمله : هما البارودي وحافظ ؛ أما أولهما فكانت له زعامة الشعر ، على مفرقه تاجه وفي يده صولجانه ، قد قوى واستحصد واستوى على عرشه بعد جهاد السنين ومكابدة الأيام ؛ وأما الثاني فكان في الشباب والحداثة ، وكان جديداً في السوق ، قد فتنته الشهرة وفتنت به من حوله ؛ فأخذ الرافعي ينظر إليه وإلى نفسه ، ويوازن بين حال وحال ، ويقايس بين شعر وشعر ؛ فقر في نفسه أنه هو وهو ، وأنهما في منزلة سواء ، وأنه مستطيع أن يبلغ مبلغه ويصير إلى مكانه إذا أراد ؛ فسار على سنته وجرى في ميدانه ، لا يكاد حافظ يقول : أنا . . . حتى يقول الرافعي : أنا وأنت . . . وما فاته أن حافظاً يغالبه بالشهرة السابقة ، ويطاوله بالجاه والأنصار ، ويفاخره بمكانه من الأستاذ الإمام ، وبمنزلته عند البارودي زعيم الشعراء ، وبحظوته عند الشعب ؛ فراح الرافعي يستكمل أسباب الكفاح ويستتم النقص ؛ فأكد صلته بالبارودي ، وعقد آصرة بينه وبين الأستاذ الامام ، ومضى يتحدث في المجالس ، وينشر في الصحف ، ويذيع اسمه بين الناس . وانتهز نهزة فذهب يستطيل بأنه (شاعر الحسن) وبأن حافظاً لا يقول في الغزل والنسيب ... !

كانت المنافسة بينه وبين حافظ منافسة مؤدبة كريمة ، لم تعكر ما بينهما من صفو المودات ، ولم تجن على صداقتهما القوية ، فظل الرافعي وحافظ صديقين حميمين ، منذ تعارفا في سنة ١٩٠٠ إلى أن قضى حافظ رحمه الله في سنة ١٩٣٢

ليس من همي أن أتحدث عن شعر الشاعرين ، أو أقايس بين فن وفن وشاعرية وشاعرية ، فقد يبدو لي هنا بعد مابين المنزلتين في الموازنة بين الرافعي وحافظ في الشعر ؛ وما يهمني في هذا الحديث إلا إثبات الصلة بين الرجلين ؛ فمن أراد شيئاً وراء هذا فسيجد فيما أثبته هنا مقدمات البحث وهيكل البناء .

* * *

وفي إبان هذه المعركة الصامتة بين الرافعي وحافظ ، قدم إلى مصر شاعر كبير لم يكن الرافعي يعرفه أو يسمع به أو قرأ شيئاً

من شعره ، ذلك هو شاعر العراق الكبير المرحوم عبد المحسن الكاظمي ، ونشرت له الصحف غداة مقدمه قصيدة عينية من بحر الطويل [1] ، قرأها الرافعي فاستجادها ورأى فيها فنا ليس من فن الشعراء المعاصرين الذين قرأ لهم ، فلكت نفسه وبلغت منه مبلغا ، فقرر لساعته أن يسعى إلى التعرف به ، ليصل به حبله ويقتبس من أدبه ، وكان الرافعي يومئذ كاتباً بمحكمة طنطا ، ففارق عمله بغير إجازة ، وسعى إلى لقاء الكاظمي في القاهرة ، وهو يمنى نفسه بأن يكون بينهما من الود ما يرفع من شأن الرافعي ويجدي على أدبه . وكان في الكاظمي — رحمه الله — أنفة وكبرياء ، فأبى على الرافعي أن يلقاه ورده ردا غير جميل ، إذ كان الرافعي يومئذ نكرة في الأدباء ، وكان الكاظمي ما كان في علمه وأدبه وشهرته وكبريائه ، مع خلته وفقره . واصطدمت كبرياء بكبرياء ، وثار دم الرافعي وغلى غليانه ، فذهب من فوره فأنشأ مقالة (أو قصيدة ، لا أذكر) نال فيها من الكاظمي ما استطاع أن ينال بذمه والزراية عليه والغض من مكانته ؛ وما كان الرافعي مؤمنا بما كتب ، ولكنه قصد أن يلفت الشاعر إليه بالانذار والتخويف ، بعد ما عجز أن يبلغ إليه بالزلفى والكرامة .

وفعلت هذه الكلمة فعلها في التقريب بين الأديبين ، فاتصل الرافعي بالكاظمي وصفا ما بينهما وأخلصا في الوداد والحب حتى لم يكن بينهما حجاب ، وحتى صار الرافعي أصفى أصفياء الكاظمي ، وصار الكاظمي أشعر الشعراء المعاصرين عند الرافعي ، ثم ارتفعت الصلة بينهما عما يكون بين التلميذ والأستاذ ، وتصادقا صداقة النظراء ؛ حتى إنه لما هم الكاظمي أن يسافر إلى الأندلس في سنة ١٩٠٥ كتب كتابا إلى الرافعي يقول فيه : « . . . ثق أني أسافر مطمئنا وأنت بقيتي في مصر . . . »

هؤلاء الثلاثة : البارودي ، وحافظ ، والكاظمي ، هم كل من أعرف ممن تأثر بهم الرافعي من شعراء عصره . أما شوقي ، وصبري ، ومطران ، وغيرهم ممن نشأوا مع الرافعي في جيل واحد فلا أعرف بينه وبين أحد منهم صلة تمتد إلى أيامه الأولى ، وما سمعت منه — رحمه الله — حديثاً يشعر أن صلة خاصة كانت تربطه بواحد منهم في حداثته ؛ فلعل عند غيري من أهل الأدب علما من العلم يكمل هذا النقص ويسد هذه الخلة ، فليتفضل من يعرف بنشر علمه مشكوراً على وفائه للأدب والتاريخ .

* * *

بدأ الرافعي يقول الشعر ولما يبلغ العشرين من عمره ، ينشره في الصحف وفي المجلات السورية التي تصدر في مصر ، وكانت المجلات الأدبية كلها إلى ذلك الوقت في أيدي السوريين ؛ فجلة الضياء ، والبيان ، والثريا ، والزهراء ، والمقتطف ، وسركيس ، والهلال ، وغيرها — كان يقوم عليها كلها جماعة من أدباء سورية : كالبستاني ، واليازجي ، وصروف ، وجورج زيدان ، وسليم سركيس وغيرهم ؛ وكانت إليهم الزعامة الأدبية في اللغة والأدب الوصفي والتاريخ ، أما أدب الانشاء فكان قسمة بينهم وبين أدباء مصر .

والآن أدع لصديق الأديب الأستاذ جورج ابراهيم حنا ، أن يتحدث عن الرافعي في أول عهده بالشعر ؛ قال :

« بدأت صلتي بالمرحوم الرافعي قريباً من سنة ١٩٠٠ ؛ كنت يومئذ أقول الشعر ، وكان اسمي معروفاً لقراء مجلة الثريا ، ولم أكن أعرف الرافعي أو أسمع به ، وكان لأخيه الوجيه سعيد افندي الرافعي متجر في شارع الخان بطنطا ، يستورد إليه النقل والفواكه الجافة من الشام ، وكنت زبونه ، فذهبت إليه يوماً أشتري شيئاً من فاكهة الشام ، إذ كان له بها شهرة وكان بي إليها شوق ؛ فلما صرت إليه ، لقيت هنالك فتى نحيلا في العشرين من عمره ، يلبس جلباباً ، جالساً إلى مكتب في المتجر قريب من الباب ، فما رآني الفتى حتى ناداني ودعاني إلى الجلوس ، ثم قال لي : أتعرف أني شاعر ؟ قلت : لا ؛ لست أعرف . قال : أنا مصطفى صادق الرافعي ، وهذه الكراسات كلها من شعري . وعرض علي بضعة دفاتر كانت على المكتب ، ثم استأنف قائلاً : ولكنه شعر الحداثة فهو لا يعجبني ؛ سأختار أجوده وأمزق الباقي ، وسأطبع ديواني بعد قليل فتعرفني . . . ! »

قال : « وعرفت الرافعي من يومئذ ، وقويت بيننا الصلة حتى صرت أدنى أصدقائه إليه : يقرأ علي شعره ، ويستمع إلى رأيي

---

(١) أحسب عند صديق الأستاذ محمود شاكر علماً من هذه القصة أدق مما رويت هنا ، فانا أثبتها من الذاكرة كما حكاها لي المرحوم الرافعي منذ سنوات أربع لمناسبة قصيدة قرأناها معاً في مجلة أبولو من نظم الآنسة رباب الكاظمي ؛ فان كان عند صديقي تفصيل أو إيضاح فليتفضل بنشره .

فيه ، ويستشيرنى فى أمره . وقد كان أوله كآخره ، فما لبثت حتى أعجبت به وأحللته من نفسى أرفع محل من الحب والتقدير »

***

ظل الرافعي يقول الشعر لنفسه ، أو ينشر منه فى المجلات الأدبية ، أو يقرؤه على أصدقائه . وأصدقاؤه يومئذ صفوة من شباب السوريين فى طنطا : منهم الأديب جورج ابراهيم ، والصيدلى إلياس عجان ، والطبيب تودرى ، وكانوا يتخذون مجلسهم عادة فى وقت الفراغ ، فى صيدلية (كوكب الشرق) بطنطا

فلما كانت سنة ١٩٠٣ ، وعمر الرافعي يومئذ ثلاث وعشرون سنة ، نشر حافظ بك إبراهيم ديوانه ، وقدم له بمقدمة بليغة كانت حديث الأدباء فى حينها وطال حولها الجدل حتى نسبها بعضهم إلى المويلحي . واستقبل الأدباء ديوان حافظ ومقدمة ديوانه استقبالا رائعاً ، وعقدوا له أكاليل الثناء . والرافعي غيور شموس ، فما هو إلا أن رأى ما رأى ، فعقد العزم على إصدار الجزء الأول من ديوانه ، وما دام حافظ قد صدر ديوانه بهذه المقدمة البليغة التى أحدثت كل هذا الدوى بين أدباء الجيل فإن على الرافعي أن يحاول جهده ليبلغ بديوانه ما بلغ حافظ ، وإن عليه أن يحمل الأدباء على أن ينسوا بمقدمته مقدمة ديوان حافظ

وصدر الجزء الأول من ديوان الرافعي فى الموعد الذى أراد بُعَيْدَ ديوان حافظ بقليل ، وقدم له بمقدمة بارعة فصل فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته ، وهى وإن كانت أول ما نعرف مما كتب الرافعي لَتدل بمعناها ومبناها على أن ذلك الشاب النحيل الضاوى الجسد ، كان يعرف أين موضعه بين أدباء العربية فى غد . وإذا كانت مقدمة ديوان حافظ قد ثار حولها من الجدل ما حمل بعض الأدباء على نسبتها إلى المويلحي . فقد حملت هذه المقدمة الأديب الناقد الكبير الشيخ ابراهيم اليازجى على الشك فى أن يكون كاتبها من ذلك العصر ، مما يخادع نفسه فى قدرة الرافعي على كتابتها .

قال الأستاذ جورج ابراهيم :

« لما هم الرافعي أن يكتب مقدمة ديوانه ، جاء إلى فى جلبابه وإلى جانبه شيء ، فحدثنى من حديثه ، ثم سألنى أن أهيء له مكاناً رطيناً يجلس فيه ليكتب المقدمة ، فجلس فى غرفة من الدار ، ثم تخفف من لباسه . . واقتعد البلاط بلا فرش ، وبسط أوراقه على الأرض وتهيأ للكتابة ؛ فحذرته أن تنال منه رطوبة البلاط فى مجلسه الطويل . فقال : لا عليك يا جورج ؛ إنى لأحب أن أحس الرطوبة من تحتى . . . فينشط رأسى . . . ثم استمر فى مجلسه يكتب وليس معه ولا حواليه من وسائل العلم إلا قلمه وأوراقه ، حتى فرغ من المقدمة فى ساعات . . .

قال : « فلما تم طبع الديوان أهدى نسخة منه فيما أهدى إلى العلامة الشيخ ابراهيم اليازجى ، والشيخ اليازجى يومئذ أديب العصر وأبلغ منشيء فى العالم العربى . وكان الرافعي حريصاً على أن يسمع رأى الأستاذ اليازجى فى شعره وأدبه ، ومضى زمان ولم يكتب اليازجى ، على حين تناولت كل الصحف والمجلات ديوان الرافعي ومقدمته بالنقد أو التقريظ ، واحتفل به المؤيد احتفالا كبيراً فنشر مقدمته فى صدره ، والمؤيد يومئذ جريدة العالم العربى كله .

قال : « واستعجبت أن يهمل أستاذنا اليازجى هذا الديوان فلا يكتب عنه ، واغتم الرافعي لذلك غماً شديداً ؛ إذ كان كل ما يكتب الأدباء فى النقد لا يغنى عن كلمة يقولها اليازجى . فذهبت أسأله ، فقال لى : أنت على ثقة أن هذه المقدمة من إنشاء الرافعي؟ قلت : هو كتبها بعينى فما أشك فى ذلك . قال اليازجى : وأنا ما أبطأت فى الكتابة عن الديوان إلا من الشك فى قدرة هذا الشيخ على إنشاء مثل هذه المقدمة ؛ فأنا منذ أسبوعين أبحث عنها فى مظانها من كتب العربية . . . قلت : ياسيدى ؛ إنه ليس بشيخ ، إنه فتى لم يبلغ الثالثة والعشرين . . . »

وكتب اليازجى بعد ذلك فى عدد يونيو سنة ١٩٠٣ من مجلة الضياء فى تقريظ الجزء الأول من ديوان الرافعي ما يأتى :

« . . . وقد صدره الناظم بمقدمة طويلة فى تعريف الشعر ، ذهب فيها مذهباً عزيزاً فى البلاغة ، وتبسط ما شاء فى وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيته ، كلام تضمن من فنون المجاز وضروب الخيال ما إذا تدبرته وجدته هو الشعر بعينه . . . »

ثم انتقد الأستاذ اليازجى بعض ألفاظ فى الديوان ، وعقب عليها بقوله :

« . . . على أن هذا لا يزرى من قدر الديوان وإن كان

يستحب أن يخلو منه ، لأن المرآة النقيـة لا تستر أدنى غبار ، ومن كملت محاسنه ظهر فى جنبها أقل العيوب ؛ وما انتقدنا هذه المواضع إلا ضناً بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائب ، ورجاء أن يتنبه إلى مثلها فى المنتظر ، فإن الناظم كما بلغنا لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنيه ، ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة فى مثل هذه السن ، سيكون من الأفراد المجلين فى هذا العصر ، وممن سيحلون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر »

***

بلغ الرافعي بالجزء الأول من ديوانه مبلغه الذى أراد ، واستطاع بغير عناء كبير أن يلفت إليـه أنظار أدباء عصره . ثم استمر على دأبه ، فأصدر فى سنة ١٩٠٤ الجزء الثانى من الديوان ، وفى سنة ١٩٠٦ أخرج الجزء الثالث ، وفى سنة ١٩٠٨ الجزء الأول من ديوان النظرات ؛ ومضى على سنته ، معنياً بالشعر ، متصرفاً فى فنونه ، ذاهباً فيه مذاهبه ، لا يرى له هدفاً إلا أنه يبلغ منزلة من الشعر تخلد اسمه بين شعراء العربية .

وتألق نجم الرافعي الشاعر ، وبرز اسمه بين عشرات الأسماء من شعراء عصره براقاً تلتمع أضواؤه وترى أشـعتها إلى بعيد ؛ ولقى من حفاوة الأدباء ما لم يلقه إلا الأقلون من أدباء هذه الأمة ، فكتب إليه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده يقول :

« . . . أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سـيفاً يمحق به الباطل ، وأن يقيمك فى الأواخر مقام حسان فى الأوائل »

وكتب المرحوم الزعيم مصطفى كامل باشا يقول :

« . . . وسيأتي يوم إذا ذكر فيـه الرافعي قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة فى أجمل قالب من البيان »

وكتب حافظ ، وقال البارودى ، ونظم الـكاظمى ، وتحدث الأدباء والشعراء ما تحدثوا عن الرافعي الشاعر ، وظل هو على مذهبه ذاك حتى سنة ١٩١١ ، ثم تطورت به الحياة ، وانفعلت أعصابه بأحداث الأيام ، فانحرف عن الهدف الذي كان يرمي إليه من الشعر ، وتوجه وجهة جديدة فى الأدب سنتحدث عنها بعد

ليس كل شعر الرافعي فى دواوينه ، وليس كل ما فى دواوينه يدل على فنه وشاعريته ؛ فالجيد الذى لم ينشر من شعر الرافعي أكثر مما نشر ؛ وقد كان فى نية الرافعي لو أمهلته المنية أن يتبرع لشعراء اليوم بأكثر ما فى دواوينه ، ثم يخرج منها ومما لم ينشر ديواناً واحداً مهذباً مصقولاً . ليقدمه هدية منتقاة إلى الأدباء والتأدبين ، ولـكن . . . ولـكن الموت غاله فبطل أمله وبقى عمله تراثاً باقياً لمن يشاء أن يسدى يداً إلى العربية يتم بهـا صنيع الرافعي .

لم ينقطع الرافعي عن الشعر بعد تلك الفترة ولـكنه لم يقتصر عليه ، وسنتحدث عن ديوان الرافعي الذي لم ينشر حين يحين الفرصة للحديث عن أعماله الناقصة التى لم تتم ، فحسبي الآن وإلى اللقاء فى الأعداد المقبلة .

« سيدى بشر » محمد سعيد العريان

حاشيتان :

(١) سألني كثير من الأصدقاء أن أترجم لهم (خط الرافعي) المنشور بالعدد السابق من الرسالة ، ترجمة بخط المطبعة ؛ فاليهم ما يريدون : « اللهم اجعل لى نفساً مطمئنة ، توقن بلقائك ، وتقنع بعطائك ، وترضى بقضائك ، وتخشاك حق خشيتك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . »

وقد وجدت هذه الورقة المكتوبة بخطه بين أوراقه الخاصة على المكتب ، ولعلها من آخر ما كتب . رحمه الله .

(٢) لم تتهيأ لى الفرصة فى هذا الأسبوع لأنشر شيئاً من مختارات أدب الرافعي ؛ فمعذرة وإلى اللقاء في الأسبوع الآتى .

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٦٠ — هذه الصلة وأنا العائد

قال القاضي ابن خلكان: كان الملك المعظم شرف الدين عيسى (١) بن الملك العادل عالى الهمة ، حازماً ، شجاعاً ، مهيباً فاضلاً ، جامعاً شمل أرباب الفضائل ، محباً لهم ، وكان يحب الأدب كثيراً ، وله رغبة فى فنه ، وكان قد شرط لكل من يحفظ (المفصل) للزمخشرى مائة دينار وخلعة ، فحفظه لهذا السبب جماعة ، ولم أسمع بمثل هذه المنقبة لغيره ، وكان من النجباء الأذكياء : مرض أبو المحاسن محمد بن نصر (الوزير والشاعر الشهير) فكتب إليه:

انظر إلى بعين مولى لم يزل ... يولى الندى وتلاف قبل تلافى

أنا كالذى أحتاج ما يحتاجه ... فاغنم ثوابى والثناء الوافى

فجاء (الملك) بنفسه إليه يعوده ومعه صرة فيها ثلاث مائة فقال: هذه الصلة وأنا العائد . وهذه لو وقعت لأحد من أكابر النحاة ومن هو في ممارسته طول عمره لاستعظم منه

١٦١ — القيام عند ضرب النوبة

فى (نزهة الجليس) : قال العلامة السيد محمد كبريت المدنى: سبب قيام آل عثمان عند ضرب النوبة أن السلطان علاء الدين السلجوقي لما شاهد عزم السلطان عثمان وعلم قابليته (٢) فى فتح أطراف تلك البلاد أكرمه وأمده ، وبعث إليه الراية السلطانية والطبل والزمر ووسمه باسم السلطنة تقوية ليده وشداً لعضده . فلما وصل إليه ذلك ، وضربت النوبة بين يديه قام عند أول سماعه لها على قدميه تعظيما لذلك . فهم يقومون عند ضرب النوبة إحياء لتلك السنة

١٦٢ — المال ناموس الملك

فى (المنهج المسلوك فى سياسة الملوك) : قد كان يقال : المال ناموس (١) الملك تظهر به هيبته ، وتقوى أبهته . حكى أن سابور ملك الفرس اتخذ أعمدة وقواعد من الذهب ، وجعلها على باب خزانة المال يجلس عليها الخزنة وغيرهم ، فعظم بذلك عند نظرائه وأهل مملكته ، فلما أفضت المملكة إلى ولده جعل يفرق الأموال ويسرف فى العطايا ، فلما نفدت الأموال أخذ تلك الأعمدة وسبكها فوجدها مجوفة قد ملئت رملا فذهب حينئذ ناموسه ، وقلت هيبته عند أهل مملكته حين علموا سر هذه الأعمدة . فلهذه المعانى يجب حفظ المال والاحتياط عليه

١٦٣ — فقد أدى الى مصالح الرعية

فى (كتاب غرر ملوك الفرس وسيرهم) : كان كيقباذ يقول : ليس غرضنا فيا نحتفل فيه من أصناف الزين بالقصور المشيدة والفرش الممهدة والملابس الفاخرة والأطعمة الملونة إلا تزيين أمر المملكة ، وتفخيم أسبابها فى أعين الناظرين إليها والواردين من النواحى عليها ، دون الانهماك فى الشهوات ، والاستكثار من اللذات . وجدوى شأن المملكة وإقامة مروءاتها عائدة عليها بالمصلحة ، وما أدى إلى مصلحتها فقد أدى إلى مصالح الرعية .

١٦٤ — أمارات القيام ، يا غلام هات الطعام

فى (التاج ومحاضرات الراغب) : كان لكل ملك أمارة يستدل بها أصحابه إذا أراد أن يقوموا عنه ، فكان اردشير إذا تمطى قام سماره . وكان الأردوان الأحمر (٢) ، وله وقت من الليل وساعات تحصى فاذا مضت جاء الغلام بنعله فقام من حضره . وكان كيشاسف (٣) بدلك عينيه ، ويزدجرد يقول : (شَبْ بِشُدْ) (٤) وبهرام يقول : (خُرَمْ خُسْفاذ) (٥) وسابور يقول : حسبك يا إنسان . وقباذ يرفع رأسه إلى السماء ، وأبرويز يمد رجليه . وأنو شروان يقول : قرت أعينكما !

(١) هذا الملك الأديب هو الذى تقدم إلى الفتح بن على البندارى بترجمة (الشاهنامه) راجع الصفحة (٣) الجزء الأول من (كتاب الشاهنامه) للعالم المحقق الدكتور عبد الوهاب عزام .

(٢) القابلية الاستعداد للقبول (التاج) والكلمة ليست مولدة بل متأخرة وكأنها عصرية . . .

(١) يريد بناموس الملك : قوامه وقوته . واللفظة بهذا المعنى مولدة .

(٢) لعل الصواب الأصغر ، والأردوان علم على جماعة من ملوك النبط وكانوا من ملوك الطوائف بعد الاسكندر (الأستاذ احمد زكى باشا)

(٣) يشتاسف (فى التاج المنسوب للجاحظ) كيشاسف : معرب كشتاسب (محمد عارف وكيل جمعية المعارف)

(٤) معناه مضى الليل (محمد عارف)

(٥) نام ميمروراً (احمد زكى) خرم : السرور ، طيب الوقت مسترع الحال ، وخسفاذ : معرب خوش باد (مفهوم . . .) محمد عارف

وكان عمر يقول : قامت الصلاة . وعثمان يقول : العزة لله . ومعاوية يقول[1] : ذهب الليل . وعبدالملك يقول[2] : إذا شئتم . والوليد إذا قال : أستودعكم الله . والهادى إذا قال : سلام عليكم . والرشيد يقول : سبحانك اللهم وبحمدك . والمأمون إذا استاق على فزاشه . والمعتصم إذا نظر إلى صاحب النعل . والواثق إذا مس عارضيه وتثاءب .

وحكي عن بعض البخلاء أنه سئل: ما أمارتك لقيامنا؟ قال : قولى : ياغلام ، هات الطعام . . .

١٦٥ — الصيد

الصابى : مآرب الناس منزلة بحسب قربها من هزل أو جد ، ومرتبة على قدر استحقاقها من ذم أو حمد ، وإذا وقع التأمل عليها والتدبر لها وجد أولاها بأن تمده الخاصة نزهة وملعباً ، والعامة حرفة ومكتسباً — الصيد الذى فاتحته طلاب لذة ونظر ، وخاتمته حصول مغنم وظفر ، وقد اشتركت الملوك والسوقة[3] فى استجهاله ، واتفقت الشرائع المختلفة على استحلاله ، ونطقت الكتب المنزلة بالرخصة فيه ، وبعثت المروءات على مزاولته وتعاطيه ، وهو رائض الأبدان ، وجامع شمل الاخوان ، وداع إلى اتصال العشرة منهم والصحبة ، وموجب لاستحكام الألفة بينهم والمحبة .

١٦٦ — العامل (الوالى) النصرانى فى الدولة الاسلامية

فى (كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق) للبطريرك سعيد بن بطريق : ولى المأمون (وهو فى مصر) بكام النصرانى عمل بورة وما حولها . وكان بكام إذا كان يوم الجمعة لبس السواد وتقلد بالسيف والمنطقة ، وركب وبين يديه أصحابه ، فاذا بلغ المسجد وقف ودخل خليفته . وكان مسلماً يصلى بالناس ويخطب باسم الخليفة ويخرج إليه .

١٦٧ — من نبأ الورقاء أن محلكم حرم

قال أبو المحاسن شرف الدين محمد بن نصر الدين : إنه حضر درس الامام فخر الدين الرازى يوماً وهو يلقى الدروس فى مدرسته بخوارزم ودرسه حافل بالأفاضل واليوم شات وقد سقط ثلج كثير ، فسقطت بالقرب منه حمامة وقد طردها بعض الجوارح[1] ، فلما وقعت رجع عنها الجارح خوفاً من الناس الحاضرين فلم تقدر الحمامة على الطيران من خوفها وشدة البرد فلما قام الامام فخر الدين وقف عليها ورق لها وأخذها بيده ، قال شرف الدين : فأنشدته فى الحال :

يا ابن الكرام المطعمين (تبرعا) فى كل مسغبة وثلج خاشف[2]
العاصمين إذا النفوس تطايرت
بين الصوارم والوشيج الراعف[3]

من نبأ الورقاء أن محلكم حرم وأنك ملجأ للخائف
وفدت عليك وقد تدانى حتفها فحبوتها ببقائها المستانف[4]
لو أنها تحبى بمال لانثنت من راحتيك بنائل متضاعف

١٦٨ — ارقص للقرد فى زمانه

فى (وفيات الأعيان) : لما ولى جلال الدين الزينبى الوزارة دخل عليه هبة الله بن الفضل بن القطان — الشاعر المشهور — والمجلس محتفل بأعيان الرؤساء ، وقد اجتمعوا للتهنئة فوقف بين يديه ، ودعا له ، وأظهر السرور والفرح ، ورقص[5] .

فقال الوزير لبعض من يفضى إليه بسره : قبح الله هذا الشيخ فانه يشير برقصه إلى ما تقول العامة فى أمثالها . أرقص للقرد[6] فى زمانه

(١) فى (العقد) : إذا شئتم . وكان يزيد يقول : على بركة الله

(٢) فى (العقد) : إذا وضعت الخيزرانة وفى (التاج) : إذا ألقى المخصرة وفى (الأغانى) : قد مصعب لشيء : إذا شئت فقم

(٣) السوقة من الناس : الرعية ، من لم يكن ذا سلطان . سموا سوقة لأن الملك يسوقهم ويصرفهم على إرادته . . . الذكر والأنثى والواحد والجمع فيه سواء ، وجمعه سوق (بضم ثم فتح) وأما أهل السوق فهم سوقيون واحدهم سوقى (النهاية ، اللسان ، التبريزى)

قلت : السوقة لفظة مسكرة وميراث خبيث من زمان الجاهلية . وإنما تعد الاسلامية أولئك (السائقين) عبيداً وأجراء كما قال عمر : (من ولى أمر المسلمين فهو عبد المسلمين) وكما قال أبو مسلم الخولانى لمعاوية (السلام عليك أيها الأجير) وبيت صاحب (الروميات) مشهور

(١) الجوارح ذوات الصيد من السباع والطير

(٢) خشف الثلج (فهو خاشف) وذلك فى شدة البرد تسمع له خشفة (صوتا) عند المشى (اللسان)

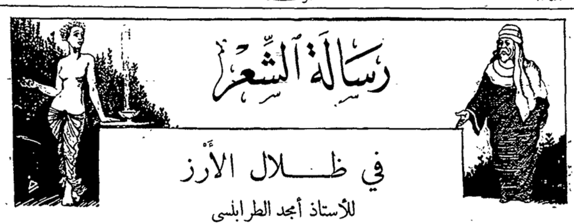
(٣) الوشيج : الرماح . فى الأساس : من المجاز : قنار عاف ، ورماح رواعف (٤) المستانف بلا همز ضرورة

(٥) ومن قول ابن القطان هنا :

كل من صفق الزما ن له قمت أرقص

(٦) ابن عنبة الاشبيلى :

أصبحت فى (الدهر) مستضاما أرقص فى دولة القرود



في ظـــلال الأرز

للأستاذ أمجد الطرابلسى

قلبيَ يا ابن الفناء ! ماذا   يُصْبيكَ في هيكلِ الخلودِ ؟
أيُّ جمالٍ تراه يبدو   ياقلبُ فى مَقْبَرِ العهود ؟
وأيُّ لحنٍ هناك يشدو   به وُجومُ المدى البعيد ؟
أراكَ ياأيُّها المُعَنَّى   فى الأرض كالهارب الطَّريد
تفرُّ من نقمةِ البرايا   وتتَّقي زحمةَ الوجود
تمشى على هامش الفيافى   مُجتنباً رنَّةَ القيود
مُلتمساً ملجأً بعيداً   عن الوشاياتِ والحُقود
كالوحش ليستْ تقرُّ عيناً   إلا ببيداء خلفَ بيدِ
بالأمسِ فى بعلبكَّ ، ذكرى الـ   ـزّمانِ من عزِّه التَّليد
قمتَ على رسمها تُغنِّى   غناء مُستوحشٍ عميد
غنّيتَها رائع المعانى   يميسُ فى أجملِ البُرود
واليومَ فى الأرْزِ يافؤادى   وغابه الأعطرِ البَرود
فى حضنِ لبنانه المُوشَّى   وعرسه الضاحكِ السعيد
تُجنّ فى بحرِكَ القوافى   كالموجِ فى الزاخرِ المديد
ويحكَ ياقلبيَ المُدوِّى !   يانبعةَ الحبِّ والقصيد
درُّكَ صُنْهُ ولا تبدِّدْ   يتيمةَ البكرَ فى الصعيد
كرِّمْهُ ياقلبُ فهو أغلى   من الدمِ الطاهرِ الشهيد
تعوَّدِ الصمتَ فهو أولى   بالحرِّ فى دولة العبيد
خيرُ صلاةِ الحزينِ دمعٌ   يفيضُ من ناظرٍ شرود

* * *

ياأرْزَ لبنانَ ! يامُصلَّى   مافاتَ من غابرِ العهودِ
أليسَ فى دوحكَ المُعلَّى   أرائكُ الأعصُرِ المَجودِ ؟
تفيَّأتْ ظلَّه وأغضتْ   من بعدِ إعيائها الشَّديدِ
يامربضَ الثلجِ يامحطَّ الـ   ـنُجومِ يامأمنَ الشَّريدِ !
بنتَ وحوَّمتَ فى الأعالي   نسراً تحرَّى ذُرى الفنود
تُرى تعاليتَ عن مُناخ الـ   ـنفاقِ والذلِّ والسُّجود ؟
أم قد ترفَّعتَ عن فناء الـ   ـورى فأمعنتَ فى الصعود ؟
ياأرزُ لانظامِ البرايا   فى دهرها المُنْجبِ المُبيد !
ماأجدرَ الناسَ بالتَّجنِّى   لابالزِّرايات والصُّدود !
وارحمتا للورى جميعاً   من حمَلٍ أعزلٍ وسِيد !
وارحمتا للورى جميعاً   الموقدِ الشرَّ والوَقود !
والآسرِ الخلقَ والأسارى   والحاسدِ النَّاسَ والحسيد !

* * *

إيه أولمبَ المصنونِ ! ماذا   لديكَ عن أعصرِ الجدود ؟
لعلَّ أدواحكَ الروانى   مثلُ أبى الهولِ فى الجمود
نسألها ، والسكوتُ دوماً   خيرُ جوابٍ لها سديد
هاتِ الأحاديثَ عن (عَبيدٍ)   وعن (كُلَيْبٍ) وعن (لَبيد)
ونسرُ (لقمانَ) ما دهاه   من بعدِ عمرٍ له مديد ؟
أيُّ الأساطيرِ نسَّقتْها   قريحةُ الشاعرِ المُجيد
وأيُّها قد تهدَّتْ حقَّاً   فى الزَّمنِ الغابرِ التليد
وأيُّها نسجُ أمَّهات   فى الليلِ حولَ الصَّلى قعود
يقصُصْنها للبنينَ شغلاً   لهم عن اللعبِ والهجود



أرزة لامرتين

وهتفةَ البلبلِ المُغَنَّى !   وبسمةَ البرعمِ الوليـدِ !
يا شاعرى ! متَّ غيرَ نَقْشٍ   عزَّ على الموتِ واللُّحود
خلَّفتَهُ للحجيجِ دُنيا   من التَّصاويرِ والوُعود
يرفُّ كالزَّنبقِ المُنَدَّى   في جَبْهَةِ الأَرْزَةِ الوَدود
يضحكُ للزَّائرين أُنساً   بهِمْ وَيَفْتَرُّ للوُفود
نَقَشْتَهُ لاهياً شَغـيلاً   عَنِ الفُجاءاتِ والنُّكود
و (جوليا) غِرَّةٌ لَعوبٌ   خفَّاقةُ الحُلْمِ والنُّهود
بسَّامةُ الطرفِ والأماني   ضحَّاكةُ الثغرِ والخُدود
تضحكُ فى نَوْمِها وتَعـدو   خلفَ الفراشاتِ في النُّجود
تناغمُ الطيرَ ليس تدرى   ماذا وراءَ الغدِ الصَّيود
ماذا لدى الغيبِ من هَدايا   أو نُوَبٍ كالظلامِ سـود
كم عَبْرةٍ تَعقبُ ابتساماً   ومأتمٍ نامَ خلفَ عيـد
خطَّتْ حروفَ اسمِها غروراً   تحتَ اسمِكَ الخالدِ المَجيد

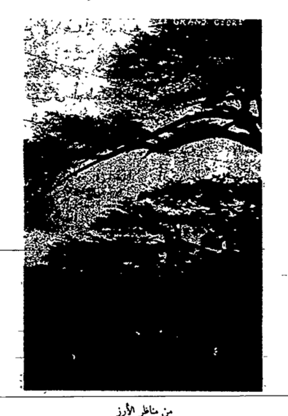
يا ليتَ شعرى ! وأين شعرى   من ظُلُماتِ المدى البعيد ؟
لعـلَّ أمس الحياةِ شطرٌ   من قَصصِ الجدِّ للحفيد ! !

***

مددتُ كفّى أُصوِّرُ اسمى   فى صفحةِ الأرزةِ المَجود
فارتعشتْ بالبراعِ كفّى   واحترقتْ فى دمى جُهودى
ويلى ! أأنعى إلى وُجودى   بأحرفٍ من يدي وجودى ؟
أينَ (لمرتين) أين (جوليا)   هل عنهما اليومَ من مُفيد[1]
سـلْ عنهما الدودَ فى ثراه   إن ضَنَّ غولُ الرَّدى بدُود
أمسِ على قربِهِ إلينا   أشدُّ قُرباً إلى ثمود

***

إيه لمرتينُ ياصديقى !   ياشاعرَ المأملِ الفقيد !
ياصرخةَ الناي فى الليالى !   ونفحةَ الزهرِ والورود !



من مناظر الأرز

(١) لامرتين الشاعر الفرنسى المشهور ، وقد زار الأرز عام ١٨٣٢ أثناء تجواله فى الشرق بصحبة ابنته جوليا ونقشا اسميهما على أرزة تعرف اليوم باسم أرزة لامرتين . وقد توفيت جوليا فى العام نفسه وعاد الشاعر الكبير إلى وطنه وحيداً

آملةً أنْ تعودَ يوماً فتقرأ الخطَّ منْ جديد
ما أخيبَ العمرَ للأماني ! وألعبَ الدهرَ بالجدود !
وأوسعَ النابَ في صباه وأقربَ القبرَ المهود !
خطَّتْ وخطَّ القضاء سطراً في لوحِهِ المنعَمِ الرَّصود
أمسكها الموتُ ـ يدعُها تعودُ للموكنِ المشيدِ
غاضَبَرَها والصِّبا غَريضٌ بلا ضَجيجٍ ولا وَعيد
بعيدةَ الحصِّبِ والمغاني غَريبةَ الدارِ والشُّهودِ

***

إيه (لمرتين) ! أنتِ كنز من الحشاشاتِ والكُبودِ
أودعتهُ أرضنا بَليلاً بدمعِكِ المُسْبَلِ البَديدِ
هديةُ الشاعرِ المغنّى لموطنِ الشعرِ والخُلودِ
فريدةٌ بعثتها بجرحٍ في القلبِ مُستعبرٍ فريد
وعدتَ من بعدها وحيداً بالوعةِ الشاعرِ الوحيد !
تضربُ بين الربى البواكي كالزورقِ التائهِ الشريد
قيثارةٌ ترسلُ الأغاني من مزقِ القلبِ والوريد
تنوحُ في هداةِ الليالي وفي الأعاصيرِ والرُّعود

***

للهِ ياشاعري دموعٌ ذرفتَ كاللؤلؤِ النضيدِ
ما فتئتْ في الخطوبِ تحنو على جراحاتِ ذا الوُجودِ
هلاّ حبستَ النواحَ قهراً للزمنِ الشامتِ الحقود
مازالَ هذا الزمانُ خصماً للعبقريين والبُنود
دعْ لاهبَ الجرحِ في الحنايا يأتكلُ الصدرَ كالوَقودِ
فاسبلْ على وقدِهِ ستوراً من البشاشاتِ والسُّعودِ
غالِفْ جراحاتكَ الدوامي ببسمةِ الساخرِ الجليد
وكنْ على صولةِ الرزايا أعندَ من دهرِكَ العنيد
هذا هو المجدُ لا دموعٌ تسحُّ فوقَ الثرى المجودِ
تضحكُ من سكبها البرايا في عرسِها الناعمِ الرغيد

***

أوّاهُ ! مالي أُريقُ شعري دماً على مذبحِ الجحود ؟
أنتَ عزائي وأنتَ روحي فعدْ إلى القلبِ يانشيدي ؟

« دمشق » أحمد الطرابلسي

تَرَدُّد . . .

أنت ياليلى مُنًى جنَّحها خلَم الحب الجميل الناضر
أنت في فجر حياتي بجمة قد أضاءت غيهباً في خاطري
قد تأملتك دهراً ، خاشعاً أثم النور بطرف حائر
ويراني من يراني هائماً غير أني في صباح سافر
أنت كالجدول يجري هائماً هازجاً ينشد لحن الطائر
وأنا الطائر في أجيائه تم الحب الحنون الساحر
رددي ياليل لحنى واذكري أنه ذوبُ فؤاد صابر
من ترى يعرف أحلام الندى غير من فازوا بحب ظافر
من ترى يعرف أسرار الربى وزهور الحقل غير الشاعر
قد ملأت الكأس من خمر الهوى فاسكبيه في فؤاد ثائر

(السلط) حسني فريز



رفائيـــــل

RAFFAELLO SANTI

الفنان أبداً

للدكتور أحمد موسى

وله صورة أخرى للمادونا مؤرخة سنة ١٥٠٦ وهى مسماة « مادونا ديجلى أنسيدى » محفوظة بجاليرى لندن ، وغير ذلك صورة للعائلة المقدسة محفوظة بيناكوتيك ميونيخ وهى صورة منظمة تنظيما سيمتريكيا جميلا ، غير أن روعة تصويره لعلاقة الأم بالابن لم تكن على درجة من الجودة ، كتلك التى عهدناها فى صوره الأخرى . وغير ذلك من صور المادونا ما هو محفوظ ببرلين وميونيخ ، وبانجلترا لدى اللورد كوبر وبمنزل بردج واتر بلندن ، كما أن له صورة مشهورة بإنشائها المجيد وهى المادونا « الدياويم » وقد توسطت الصورة ، وعن يمينها يسوع الطفل قد أخذه النوم بينما هى ترفع عن وجهه القناع بيمناها لتمكن يوحنا الطفل من مشاهدة يسوع ، وقد ركع يوحنا أمامه وكمال الخشوع بادٍ على وجهه وجمال النقاوة يغمر محياه وهى تسنده بيسارها .

والمادونا إلبا بمتحف بطرسبرج ومادونا الدوراندينى بلندن تسجلان تطور رفائيل واتجاهه اتجاهاً لا يعد جديداً من الناحية الفنية ؛ ولكنه يعد عظيما من الوجهة الدراسية .

هذا ولا ننس أن نذكر أن من بين صور المادونا ما أثار إعجاب مؤرخى الفن بالاجماع ، من ذلك مادونا دى فوليجنو (١٥١١) بجاليرى الفاتيكان ، ومادونا ديليسكا (بمتحف برادو فى مدريد) وملدونا ديلتندا بميونيخ ومادونا كولديڤينو أمورا بنابولى ومادونا ديلليمپاناتا بقصر پيتى بفلورنس .

ولقد وضع تصميم صور للعائلة المقدسة وترك إكمالها لتلامذته وأشهر هذه الصور بمتحف برادو بمدريد (؟) وهى المسماة لا پيرله La Berla وفيها ظهر أبدع تعبير للأمومة فى أسمى معانيها والحب فى أبلغ مظاهره .

أما للفن الخالص فله أروع صورة للمادونا وهى المسماة « مادونا دى سان سيستو » Madonna di San Sisto أو المادونا السكستينية . وعلى هذه اللوحة الرائعة التى بلغ طولها ٢/٦٥ متر وعرضها ١/٩٦ متر والتى يغلب الظن أنه صورها سنة ١٥١٥ ، يتجلى أعظم ما وصل إليه رفائيل من الإنتاج الفنى الخالد الذى سجله له التاريخ بمداد من نور ؛ فترى العذراء (ش ١) قد اعتلت الغيوم كملكة للسماء حاملة يسوع الطفل بين ذراعيها وقد تأبطته عناها ، وبكل حنان أسندت ساقيه بيسراها ، أما الوجه فهو أنبل ما استطاع فنان إخراجه . وفى الجهة اليسرى للصورة القديس سكستس الثانى وهو ينظر إلى يسوع نظرة التقديس المملوءة بكل ما أوتى رفائيل من قوة العبادة التى ملأت قلبه . وفى الجهة اليمنى منها القديسة بربارة . وعند قدمى العذراء ترى ملاكين يفيضان ببراءة الطفولة ووداعتها اللتين تمتلكان جميع الحواس لكثرة ما فيهما من الصفاء والنقاء .

وقد عملت هذه الصورة خصيصاً لكنيسة دير بيارسوا ، واشتراها القصر السكسونى سنة ١٧٥٣ بحوالى عشرة آلاف جنيه انجليزى فى وقت كانت قيمة الجنيه فيه تعادل عشرة جنيهات فى الوقت الحاضر .

وتنفرد جاليرى درسدن وحدها بامتلاك أعظم قطعة لرفائيل ولذلك تسميها « درة الجاليرى » بعد حصولها عليها من القصر السكسونى .



١ — مادونا سكستى — جاليرى درسدن

وبهذا تكون معظم صوره للمادونا قد انتهت ، وله غير ذلك صورة تمثل زواج ماريا بيوسف (ش ٢) سنة ١٥٠٤ وأسماها سپوساليتزيو Sposalizio محفوظة بميلانو وصورة القديس جورج يقتل التنين (باللوفر) وهى مصورة سنة ١٥٠٦

والقطعة التى يتجلى فيها حبه وهيامه بالموسيقى ، وقد أظهرت أستاذيته فى الفن وعظمته فى الانشاء التكوينى فضلا عن التوفيق الكامل فى اختيار الألوان ومزجها وإيجاد الانسجام التلى بينها . هذه هى صورة القديسة سيسيليا (ش ٣) وحولها ثلاثة تلاميذ (بولس ومجدلين ويوحنا) والقديس جيمينيانوس صورها سنة ١٥١٣ تلبية لطلب الكردينال لورنسو بوتشى لأجل سان جيوفانى فى مونتانولونا (محفوظة بيناكوتيك بولونا) وقد اهتم بتصوير تفاصيلها اهتماما خاصاً حتى أنك لترى أنه على صغر مساحتها نسبياً إلى ما شملته فى دقة رائعة وبراعة فائقة . فالملائكة فى السماء والآلات الموسيقية على الأرض وتفاصيل الملابس والوجوه وما ارتسم على كل منها يبين لنا إلى حد بعيد مدى القدرة العظيمة التى أظهرها فى هذه القطعة .

وله صورة هامة صورها لكنيسة ماريا ديللوسپا سيمو Lo Spasims di Licilia فى سنة ١٥١٧ والتى حازها فيليب الرابع ملك أسبانيا من نفس السنة تبين « حمل الصليب » وهى محفوظة بمتحف پرادو بمدريد (؟) وتشمل ستة عشر وجها كبيرا بين نساء ورجال عدا رؤوس الخيول وبعض الناس فى مؤخر الصورة وهى رائعة الإنشاء التكوينى والوضوعى ، ترى فيها الوجوه التى طغى عليها اليأس والقنوط إلى وجوه قد انعكس عليها ما فى قلوب أصحابها من حقد كين على المسيح . وهناك فى پرادو صورة أخرى لماريا « البحث عن المأوى » وغير ذلك صورة العائلة المقدسة تحت شجرة البلوط . وله فى سنة ١٥١٨ صورة رسمها للملك فرانس الأول ملك فرنسا وأسماها « القديس ميخائيل يحارب الشيطان بالسفود » باللوفر . وهناك بعض صور أخرى عملها فى بدء حياته الفنية ، كما أن هناك عدد غير يسير من اللوحات صورها بعد الذى ذكر ، وكلها يضيق المقام عن



٢ — ترويج ماريا (سپوزاليتسيو) — ميلانو

ذكره ، وبذلك ينتهى إنتاج هذا الفنان الخالد من الناحية الدينية وصورغير هذا كله صوراً شخصية لنفسه ولغيره ، ومن أهم ما يجب ذكره هنا ما صوره أثناء إقامته بفلورنسا ، وهو صورته لصديقه انجيولو دونى وزوجته مادلينه ستروزى دونى (١٥٠٥ بفلورنسا) وصورته لنفسه بفلورنسا أيضاً . أما صوره أثناء إقامته فى روما فأهمها صورة البابا يوليوس الثانى جالساً على كرسى ذى مسند مرتفع محفوظة بفلورنسا ومنها نسخة جيدة منقولة عنها ومحفوظة بلندن) وصورة الكردينال توماس انجرامى (محفوظة بفلورنسا) والصورة النصفية لشاب هو بيدو التوفيتى وقد كان يظن أنها صورته الشخصية إلى وقت ليس ببعيد (محفوظة بميونيخ) وصورتاه دونا بيلاتا ودونا جراڤيدا (بفلورنس) . وصورته المزدوجة لشخصين هما بيازانو وناڤاجيرو (بروما)



٣ — القديسة سيسيليا — بولونيا



٤ — زفاف آمود وبسيشه — فيلا فارنيزينا

وبعدئذ وأخيراً صورته المجموعية للبابا ليو العاشر مع الكردينال جيليودى مونيشى ودى رومى (قصر بيتى بفلورنسا)

ولقد حاول العمل أيضا كمعماري ووصل إلى حد لا بأس به وأنتج انتاجا جديراً بالذكر هنا ، حيث وضع تصميما لكنيسة بطرس روما ، وقد كلف بعض المختصين بعمل أنموذج مصغر منه أثار إعجاب معاصريه .

هذا مجمل قصة رفائيل سيانتى الذى مات فى سن السابعة والثلاثين ، ونحن إن ذكرنا هنا إنتاجه القيم دون تعمق فى نقد مصوراته ولوحاته فان هذا راجع لسببين أولهما ضيق المجال وثانيهما أننا لا نرغب فى أن تكون دراساتنا جامعية ، بل نكتفى بأن نذهب بذوق القارىء إلى السمو ونضع نصب عينيه أن الفن فى مصر ضعيف وأن الذين يقومون بالهيمنة عليه ليسوا ممن تخصصوا فى الفن علمياً وأن واجب الحكومة وواجب الشعب هو الالتفات إلى ما فى هذا الاتجاه الخاطىء من خطورة على تهذيب النشء والسمو بذوقهم ونحن نعتبرهم رجالا للمستقبل .

وإنه لما يثير عندنا الدهشة والاستغراب أن وزارة المعارف فى الوقت الذى لا تبيح فيه اشتغال تمورجى بالطب ولا تسمح لكاتب محام بالاشتغال بمهنة المحاماة تسمح بملء إرادتها أن يهيمن على الفن وعلى دراسته العلمية والثقافية غير من تخصص فى دراسته التاريخية والفلسفية

احمد موسى



رجل البيت ...

للأديب عبد الحميد جوده السحار

دق جرس الباب فأسرعت نعمات هانم لتفتح لزوجها كما هي عادتها في أول كل شهر فما كادت ترى وجهه حتى بادرته

— استلمت المرتب طبعاً ... سلمه بدورك

فقال لها وهو يدخل :

— انتظري حتى أدخل وأستريح ... انتظري قليلا

— لا ... هاتها ... أمدد يدك في جيبك ... أوه... أسرع

وضع حسن أفندي يده في جيب سترته الداخلي وهو يتململ وأخرج رزمة من الأوراق المالية ووضعها في يد زوجته التي كانت ممتدة إليه تنتظر أوراق البنكنوت . استلمت نعمات هانم مرتب زوجها فنادت ابنها حسونة ثم ابنتها فيفي وهي سائرة إلى جوار زوجها وكان متجها نحو غرفته ليغير ملابسه . لبى حسونة وفيفي النداء وسارا وراء والديهما ودخل الجميع غرفة الوالد فقالت نعمات هانم :

— خذ يا حسونة نقودك ... وأنت يافيفي ... خذي هذا

وأخذت تعد — واحد ... اثنان ... ثلاثة ... أربعة . هذا للبقال ... واحد ونصف هذا للخباز ... واحد ... اثنان . هذا للجزار ... أوه ... آسفة ياحسن بك ... نسيت أن أعطيك مصروفك . خذ ولا تحزن ... واحد ... اثنان ... ثلاثة ونصف ... هذا أجر المنزل وبقيت في يدها بضع أوراق مالية فطوتها وقالت : هذا للخياطة طبعا

فرفع زوجها رأسه وقال :

— كل هذا للخياطة ... لا لا ... هذا إسراف ... لا أو..

— هذا للخياطة والتنزه والملحقات ... سنشتري أنا وفيفي أقمشة للصيف ونرسلها إلى الخياطة ... مسكينة فيفي إنها لا تملك إلا تسعة فساتين فقط

فقال حسونة : ولكن يا ماما ... أنا محتاج إلى بذلة جديدة

— أوه حسونة ... الشهر الآتي ياحبيبي

ونظر حسن أفندي إلى حذائه البالي وسترته التي تغير لونها وهم بالكلام ولكنه فضل السكوت لأنه كان يعلم جيداً أن لا فائدة من الكلام .

* * *

انتقلت العائلة إلى غرفة المائدة لتناول الغداء ، فأخذ حسن أفندي ككل أول شهر ينتقد العمل في الحكومة ويصف الحكومة بمقبرة الكفايات ويعلم الله أن حسن افندي هذا لا يصلح لأي عمل حكومي أو غير حكومي فهو متردد ضعيف العزيمة ولا يحسن غير الخط . التحق بالحكومة من عشرين سنة أيام أن كان كل من يستطيع القراءة والكتابة يلتحق بها . يعتقد أنها نابغة وأنه لو كانت الأجازات موجودة في أيامه لحصل على أعلى الدرجات . ثم قال : التحق اليوم بوزارتنا موظف جديد متخرج من كلية التجارة وجاءت قرعته في مكتبي فناولته حساباً بسيطاً ليتمه ، وقدم إلى الحساب فلم أفهم منه حرفاً . مسكين هذا الشاب إنه اتبع طرقاً عقيمة طبعاً وكان خطه رديئاً ، فقلت له : « اسمع يا بني . سأنصحك لوجه الله أترك كل ما تعلمته في المدرسة واتبع الطريقة التي سأعلمها لك » فبهت الشاب ونظر إليّ مذهولا فقلت : « الطريقة التي سأعلمها لك اكتسبتها بالمران الطويل وسترى أنها بسيطة » ثم شرحتها له وأراد أن يعترض فقلت له : « اسمع . إعمل بطريقتي ولا تعمل بغيرها إننا نتبعها من عشرين سنة . أتريد أن تغير من نظامنا إكراماً لخاطرك . لا يا بني لا اسمح لك بغير طريقتي »

فقال حسونة : « ولكن يا أبي لماذا لم تتركه يتبع طريقته التي تعلمها »

فرد أبوه محتداً : « أية طريقة ؟ لا يوجد للحساب سوى طريقة واحدة ، أتظن أنكم تتعلمون الآن ؟ ! انكم تضيعون وقتكم سدى . رحم الله أيام أن كنا نحصل كل العلوم في أربع سنوات . اترك فلسفتك ياسيد حسونة »

أراد حسونة أن يرد ويقنع أباه ولكن نعمات هانم تدخلت وقالت :

— لنترك هذا الحديث . عليك ياحسن بك أن تكون هنا في الساعة الثامنة والنصف لنذهب إلى السينما

— لا أستطيع الليلة . . عندى شغل كثير .

— بل يجب أن تحضر .

— فثار حسن افندى وقال :

— قلت لا أستطيع . يجب أن تكون الكلمة كلمتي ، نعم يجب أن أطاع هنا . . أنا رجل البيت . . أنا رجل البيت .

وقام ثائراً واتجه نحو غرفته ثم لبس ملابسه . وفي أثناء خروجه قالت زوجته :

— تذكر الساعة الثامنة والنصف .

* * *

في الساعة الثامنة أخذت نعمات هانم تعد نفسها للخروج فدخلت غرفة الزينة وأمرت حسونة أن يجهز نفسه واختارت لفيفي الفستان الذى ينبغي لها ارتداؤه فقال حسونة :

— قد نلبس ونتعب أنفسنا ولكن أبي قد لا يحضر .

فردت نعمات هانم : « اطمئن »

فما كادت نعمات هانم تتم قولها حتى سمع رنين الجرس فنظر حسونة إلى أمه فرآها تبتسم فابتسم أيضاً .

— اسرعي يافيفي وافتحي . . إنه جاء

فتحت فيفي الباب فدخل حسن افندى مسرعاً وما كاد يرى زوجته حتى قال :

— ~~حظكم حسن . . لقد تمكنا من إنجاز كل شيء قبل~~ الثامنة لحضرت لأمتعكم بالسينما . . هيا اسرعوا .

فنظر حسونة إلى فيفي ثم إلى أمه وضحكوا .

وهكذا أثبت حسن افندى أنه حقاً رجل البيت .

* * *

ظهرت نتيجة البكالوريا وكان حسونة من الناجحين فأراد أن يلتحق بكلية من كليات الجامعة فاجتمعت العائلة ودار النقاش والمفاضلة واشتد الجدل بين الوالد المحترم والوالدة المهذبة ، وترك حسونة السكين ولم يأخذ رأيه حتى كرأى استشارى . الأب يرغب في إلحاق ابنه بكلية الهندسة والأم ترغب في أن ترى ابنها طبيباً .

— هندسة .

— طب .

— قلت هندسة . . هندسة

— قلت طب . . طب

— قلت هندسة وكفى . . أنا ولى أمره . . .

والتحق حسونة بكلية الطب .

* * *

وخطب فيفي خطيبان أحدهما محام والثاني ضابط بوليس فاجتمعت العائلة المحترمة ودار النقاش . . فالأب يفضل المحامي ويدافع عنه ويقول يكفي أنه يعمل حرا وأنه شاب سيكون له مستقبل باهر ، والأم تفضل الضابط لأن منظره بالشريط الأحمر كما تقول « يسر » وأن ناهيته ثابتة ، أما المحامي فمن يدري قد يتخاصم الناس وقد لا يفعلون . اشتد الجدل .

— المحامي

— الضابط

— قلت المحامي

— قلت الضابط

— لا . . . لا أقبل هذا أبداً . . . الكلمة هنا كلمتي والرأى رأيي . . . أنا رجل البيت . . . أنا رجل البيت لن تتزوج إلا المحامي . . .

وتزوجت فيفي من الضابط

~~وهكذا عاش حسن أفندى . . . رجل البيت~~

عبد الحميد جوده السحار



تعطف ملكي كريم

حضرة المحترم الأستاذ أحمد حسن الزيات مدير مجلة الرسالة

رفعت إلى الأنظار العلية الملكية النسخة التي قدمتموها إلى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم من العدد الذي أصدرتموه من مجلتكم فنالت حسن القبول والتقدير وإني أتشرف بابلاغ ذلك إلى حضرتكم مع شكر جلالته السامي .

وتقبلوا وافر الاحترام — كبير الأمناء

تحريراً في ٦ اغسطس سنة ١٩٣٧ — سعيد ذو الفقار

اللغة العربية والألفاظ الدخيلة

لاشك أن اللغة العربية تجوز في عصرنا طوراً من الإحياء والتجديد ، ولا شك أن مصر هي التي تحمل لواء هذه النهضة المباركة ؛ بيد أن هذه النهضة تتكشف أحياناً عن مظاهر ضعف تدعو إلى الأسف ؛ فبينا نجد لغة الصحافة والأدب تبلغ مستوى رفيعاً ، إذا لغة المصالح الحكومية والمحررات الرسمية بوجه عام لاتزال على جانب عظيم من الركاكة والضعف ، هذا إلى كثير من الألفاظ الأجنبية الدخيلة تستعمل في الدوائر الحكومية والعسكرية ؛ وهذه الألفاظ الدخيلة ، وهي تركية في معظمها ، هي من آثار عصر مضى ، ويجب أن تمحى اليوم لاعتبارات قومية وأدبية ظاهرة المغزى ؛ واللغة العربية ليست قاصرة عن أن تؤدي بديلا لهذه الألفاظ الأجنبية التي أضحت في الدوائر الرسمية كالطفيليات الضارة . ولقد رأت تركيا الكمالية من قبل أعوام أن تطهر اللغة التركية من جميع الألفاظ الأجنبية التي تسربت إليها ، ومن المعروف أن العربية كانت تمثل في التركية بنسبة عالية ولكن زعماء تركيا الكمالية الذين يضطرمون بغضاً لكل مايمت إلى الاسلام واللغة العربية بصلة ، لم يجدوا بديلاً في التركية تملك الثروة العربية التي أطلقت ألسنتهم قروناً ، بل عمدوا إلى اللغات الأوربية يشتقون منها ويستعيرون . ومن حق العربية على نفسها وعلى أبنائها أن ترد إلى التركية بضاعتها المزجاة من الألفاظ العتيقة ؛ واللغة العربية ليست في حاجة إليها ، وليست عاجزة عن أن تقدم مكانها البديل ؛ أليس مما يبعث إلى الخجل والأسى أن نسمع حتى اليوم كلمات « حقانية ، وباشكاتب ، وحكيمباشي » وأمثالها تدون في محرراتنا الرسمية ، وأن تكون اصطلاحات الجيش المصري إلى اليوم كلها تركية ؟ ولقد سبقت العراق مصر في التحرر من هذه الآثار البالية ، واستحدثت لنفسها في الدواوين وفي الجيش ألفاظاً واصطلاحات عربية ، وضربت بذلك مثلا رفيعاً يحتذى ، فعلى مصر التي تتصدر لزعامة الآداب العربية أن تحرر نفسها من هذه البقية العتيقة من العصر البائد ، وأن تطهر لغتها ومحرراتها من هذه الألفاظ الدخيلة ، وأن تكون في ذلك قدوة حسنة لجميع أبناء العربية في مختلف الأقطار .

مؤلف جديد في تاريخ العرب

صدر أخيراً مؤلف جديد بالانكليزية عن تاريخ العرب والاسلام عنوانه « تاريخ العرب History of the Arabs » بقلم الدكتور فيليب حتى أستاذ الآداب السامية بجامعة برنستون الأمريكية ، والأستاذ حتى شرقي تفقه في الجامعات الأمريكية وعرف بتضلعه في لغات الشرق وآدابه . وكتابه عن العرب مؤلف جامع يقع في نحو ثمانمائة صفحة . ويشتمل على تاريخ الأمة العربية منذ فجر التاريخ إلى سقوط دولة السلاطين في مصر وسقوط مصر في يد الترك العثمانيين في سنة ١٥١٧ م ، وانتقال زعامة الاسلام من الأمة العربية إلى الأمة العثمانية . ويمتاز كتاب الدكتور حتى بطابعه العلمي ، ومع ذلك فإن هذا الطابع لم يحل دون حسن العرض وطلاوة الأسلوب . وتمتاز الفصول الأولى من الكتاب ، وهي التي تتعلق بأصل الأمة العربية وحضاراتها الأولى من الحميرية والنبطية والسبأية ، بكثير من الدقة والوضوح ، وربما كانت في الواقع أقيم فصول الكتاب وأكثرها طرافة لأن البحث في أصول العرب والحضارة العربية

قبل الإسلام مازال من الموضوعات الغامضة على البحث الحديث .
ومع أنه يصعب على المؤرخ عادة أن يبسط هذه النواحي الشاسعة
لتاريخ العرب والاسلام في مجلد واحد ، فان المؤلف استطاع أن
يلم بهذه النواحي إلماماً حسناً ، وأن يقص تاريخ الخلافة في
عصورها وعواصمها المختلفة ، وتاريخ الأسر والدول الإسلامية
المختلفة بطريقة شاملة على إيجازها .

وقد كان المرجع الموجز في تاريخ الاسلام والعرب بالانكليزية
حتى اليوم كتاب المرحوم السيد أمير علي «مختصر تاريخ العرب»
ولا يزال إلى يومنا من أقيم المراجع الجامعية في بابه . وكتاب
الدكتور حتى من هذا الطراز ، فهو أيضاً يمكن أن يعتبر من
المراجع الجامعية الموجزة في هذا الباب ، بيد أن كتاب السيد
أمير علي يمتاز بميزة لم تتوفر في أي مؤلف آخر صدر بالانكليزية
في عصرنا عن تاريخ العرب ؛ ذلك أنه كتب بقلم مسلم يفهم
روح الاسلام الصحيح ، ويستطيع أن يدرك كثيراً من أسراره
التشريعية والأخلاقية والاجتماعية ، وإدراك روح الاسلام
الصحيح شرط أساسي لكتابة تاريخ الاسلام بروح الفهم
والإنصاف . وهذه الخلة قلما تتوفر للكتاب غير المسلمين

مسارح العراء

كانت مسارح العراء في العصر القديم من أهم ظواهر الثقافة
الفنية والرياضية ، وكان لها شأن كبير في الحياة الاجتماعية في أثينه
وروما ؛ والآن تعمل بعض الأمم العظيمة الحديثة على إحياء
مسرح العراء القديم ليتسع لعشرات الألوف من النظارة بين
الخضرة والهواء الطلق بدلا من المسارح الضيقة المغلقة التي لا تتسع
إلا لفريق من الخاصة والتي يتاح كثيراً لأفراد الشعب زيارتها
والتمتع بما يعرض فيها من المظاهر الفنية الساحرة . وقد سبقت
ألمانيا البلاد الأخرى في هذا المضمار ، فأنشأت مسارح عظيمة في
العراء في أجمل المواقع والبقاع ، ويبلغ عددها اليوم نحو مائتين
وخمسين مسرحا يؤمها نحو مليوني متفرج ؛ وهذه المسارح على
خمسة أصناف : مسارح الميادين العامة ، مسارح القصور ، مسارح
الطبيعة ، مسارح الحدائق ، والمناظر الهندسية الضخمة ؛ وقد
انتخبت عدة من القصور التاريخية والغابات الشهيرة بجمالها لانشاء
هذه المسارح ، ومنها ما يتسع لأكثر من عشرة آلاف متفرج
دفعة واحدة

وقد أقامت ألمانيا هذا الصيف معرضاً دولياً لمسارح العراء في
مدينة فرانكفورت ، وهو أعظم مظاهرة فنية من نوعه ؛ وبه
مناظر لتطورات المسرح والتمثيل منذ فجر التاريخ إلى يومنا ؛ ومن
الأمم المشتركة فيه فرنسا وهولنده وسويسرا وإيطاليا واليابان
والصين . وكل منها تعرض مناظر مسرحها القومي ، ولا سيما
المناظر التي اشتهرت في التاريخ ؛ من ذلك مناظر قدمتها فرنسا
ترجع إلى القرن السادس عشر ، وأخرى قدمتها سويسرا وإيطاليا
وهي جميعاً تدل على روعة المسرح وازدهاره في عصر الإحياء ؛
وفي هذه المجموعة النربية من المناظر الفنية يشعر الانسان بالدور
العظيم الذي يؤديه المسرح في نشر الثقافة الفنية والأخلاقية في
مختلف المجتمعات التي تتذوقه وتغذي مشاعرها منه . وسيبقى هذا
المعرض الفني العظيم قائماً حتى نهاية شهر سبتمبر

الروح الأوربي

ظهر أخيراً بالفرنسية كتاب عنوانه «الروح الأوربي»
L' Espsit Européan بقلم مسيو ديمون فلدن وفيه يعالج
الكاتب مشكلة أوربية جديدة هي فقد ما يسميه هو «بالروح
الأوربي» . وقد كان جان جاك روسو يقول في القرن الثامن عشر
إنه لم يبق في أوربا فرنسيون وألمان وأسبان وانكليز ، وانما هنالك
أوربيون فقط ، ويرجع ذلك في رأيه إلى أن أحداً من هؤلاء لم
يتلق تربية قومية خاصة . ورأي المؤرخ الفرنسي البير سوريل أن
ذلك يرجع إلى نفوذ اليسوعيين لأنهم هم الذين يتولون شئون
التربية في معظم أنحاء أوربا ، ولكن أوربا اليوم قد تغيرت تغيراً
عظيما وأصبح «الروح الأوربي» القديم أثراً بعد عين . ذلك لأن
النزعة القومية العميقة قد طغت بعد الحرب على أوربا طغياناً شديداً
واتخذت لونا محلياً يقرب إلى التعصب وقد كانت الفاشيستية أول
من وضع بذرة هذا التعصب القومي العميق ، ثم جاءت الوطنية
الاشتراكية (الهيتلرية) في ألمانيا فأذكت هذه الحركة ودعمتها
بفكرة الجنس أو الدم ؛ وطغت هذه الموجة القومية العمياء على
معظم المجتمعات الأوربية ؛ وحتى فرنسا التي عرفت بنظرياتها
الحرة الواسعة رأت نفسها مضطرة إزاء هذا التيار أن تنهج
نفس المنهج ، وأن تأخذ بهذه النزعة القومية الجديدة . والآن
ينهار الروح الأوربي القديم انهياراً تاماً ، ويندر أن يتفاهم
رجال السياسة الأوربية على خطة أو جهة موحدة ، لأن النزعات
والمصالح القومية تفرق الدول والمجتمعات ، وهذه هي المسألة التي
يعالجها الكاتب في كتابه بمنطق حسن وأسلوب جذاب .



سيرة السيد عمر مكرم

تأليف الأستاذ محمد فريد أبو حديد

للأستاذ أحمد أمين

ما كان لي — ولست متخصصاً في تاريخ مصر — أن أقدم للقراء كتاباً في تاريخ مصر الحديث.

وأغرب من هذا أن أقدم كتاباً في تاريخ مصر الحديث للأستاذ محمد فريد أبو حديد، وهو الذي وقف حياته على دراسة التاريخ، وبخاصة تاريخ مصر، فترجم « فتح العرب لمصر » تأليف الأستاذ بتلر، وهو الكتاب الفخم الضخم، الذي في ترجمته العناء المضني، وأخرجه للقراء كأنه مؤلف عربي؛ فذكر الأصول بنصها الأصلي، وترجم الإنجليزية، فلولا ما وضع على الغلاف من أنه ترجمة ماشك القارئ أنه عربي الأصل، عربي الأسلوب، عربي التفكير

وأخرج « ابنة المملوك »، وهي رواية تمثل عصر المماليك في مصر تصويراً دقيقاً، سلسل حوادثها تسلسلا بديعاً، وصاغها في أسلوب شيق، ورونق أنيق

ثم له الفصول الضافية، والمقالات الكثيرة في تاريخ مصر، وأحداث مصر، وبطولة مصر

ما كان لي بعد هذا كله أن أقدم كتاب «السيد عمر مكرم» للقراء، وكان يكفي أن يقال إنه كتاب في تاريخ مصر للأستاذ محمد فريد أبو حديد، ليثق القارئ به، ويقومه أحسن تقويم

ولكن أتاح لي القدر أن أقرأ الكتاب قبل نشره وطبعه، فراقني فيه — بجانب ناحيته التاريخية — ناحيته الأدبية؛ فقد استطاع مؤلفه أن يصوغه صياغة لذيذة شائقة؟ يقرؤه القارئ فكأنه يقرأ رواية ممتعة، لا كتاباً علمياً دقيقاً، مع أنه كتاب علمي دقيق أيضاً: على أن في عالم التأليف روايات شائقة، بنيت على أحداث تاريخية ثابتة، ولكن عيبها أنها قيمة من ناحية الأدب، وليست بقيمة من ناحية التاريخ، فلا يعرف القارئ أي الحوادث ثابت تاريخياً وأيها من نسج الخيال، أما هذا الكتاب فقيم من ناحيتيه الأدبية والتاريخية معاً، فليس فيه من الوقائع ما هو نسج الخيال؛ ومع ذلك استطاع المؤلف بمهارته أن يسبغ عليه متعة الرواية وإن لم يكن رواية

أشهد لقد بدأت قراءته وفي عزمي أن أفرغ منه بعد أسبوع على أقل تقدير، وأن أخصص له كل يوم بعض الوقت ولأعمالي الأخرى بعضه؛ ولكني ما بدأت به حتى أنساني عملي، وأنساني وقتي؛ واستمررت في قراءته بلذة وشغف حتى أنهيته شاكراً غاضباً؛ فأما الشكر فلأنه هيأ لي ساعات سعيدة لذيذة صرفتها في قراءته، وأما الغضب فلأنه اختلس مني زمني، من غير جرم يستوجب الحد

ومزية أخرى واضحة في الكتاب تظهر لكل قارئ، وهو أن المؤلف عني أكثر ما عني — لا بالملوك والأمراء كما فعل أكثر مؤرخينا — بل بالشعب وحركاته ونفسيته وحياته الاجتماعية وآماله الوطنية. واتخاذه السيد عمر مكرم محوراً لكتابه أكبر دليل على هذا؛ فهو ليس ملكا ولا أميراً، ولكنه أحد أفراد الشعب، وعظيم من عظمائهم، يشعر بشعورهم، ويأمل آمالهم، ويقصده الشعب في حوائجهم، ويرجعون إليه في خطوبهم. فاتخذه المؤلف نواة نسج حولها تاريخ مصر في هذا العصر وخاصة تاريخ الشعب وتطوراته ونظراته وآماله وآلامه.

وكان حب « فريد » لمصر، وعصبيته لكل ما هو مصري، وحسن تقديره للشعب المصري سبباً في بعض الأحيان أن يلوّن بعض الأحداث لوناً زاهياً جميلا براقاً يعجب الأديب والشاعر والسياسي، ولست أدري إلى أي حد يعجب المؤرخ الجاف المتزمت. ولكن نحن — على كل حال — أحوج ما نكون إلى الإكثار من الكتابة في تاريخ مصر في عصورها المختلفة، ومن جوانب الرأي المختلفة؛ فكل هذا يخدم مصر ويخدم الحق ويخدم التاريخ ويخدم السياسة

وأخيراً أهنئ أخي « فريداً » بنجاحه في هذا الكتاب، وتوفيق الله له، وأجدني مغتبطاً سعيداً بتقديمه للقراء، وأرجو أن يجدوا فيه من الفائدة واللذة ما وجدت

أحمد أمين

نقد كتاب إحياء النحو

تأليف الأستاذ ابراهيم مصطفى

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

— ٢ —

لا أحسب المؤلف يؤمن بذلك ، ولكنه (كما قلت) قد اضطر إليه اضطراراً ؛ لتسلم له فكرته ، فانني إذا قلت : لا تلميذ في فصلي راسب ، أريد أن أتحدث عن كل تلميذ في فصلي ، وأن أثبت له أنه غير راسب ؛ فتلميذ مسند إليه ، ومتحدث عنه ، لا ريب في ذلك ، وإنما سوغنا حذف خبر لا النافية للجنس في كثير استعمالها ؛ لأن الخبر وجود عام ، والعرب (إذا كان الخبر وجودا عاما) حذفوه ، لأنه مفهوم من الكلام . ألا تراهم يفعلون ذلك بعد لولا ؛ فيقولون : لولا محمد لهلك على ، فيحذفون خبر (محمد) والأصل لولا محمد موجود لهلك على ؟ ولا إخال المؤلف يشك في أن محمداً مسند إليه ، محذوف الخبر ، كما حذف خبر لا من غير أن يؤثر في اسمها ، بل هو باق على حاله ، مسنداً إليه ، ولا إخالني في حاجة إلى تذكير المؤلف بأن العرب يلتزمون حذف متعلق (الجار والمجرور) إذا كان وجوداً عاماً .

ومن ذلك تمحلات الأستاذ لنصب مفعولى (ظن) ، وإذا كنت لم أقتنع بأن اسم لا لم يعد مسنداً إليه ، فانني كذلك لا أستطيع أن أقتنع بأن المفعول الأول لظن لم يعد مسنداً إليه ، فانك إذا قلت : ظننت أخاك حاضراً ، لم ترد — بلا شك — أن تخبر السامع بأنك ظننت ظناً ما ، ولكنك تريد أن تخبره بأنك قد ألقى في روعك ظن حضور الأخ ، فأنت إذاً تقصد إلى أن تتحدث عن الأخ بأنك قد ظننت حضوره ؛ وأما احتجاجه بأنه يجوز حذفهما إذ لم يعودا مسنداً إليه ومسنداً ، فمردود بأن المبتدأ الذى هو مسند إليه بالاجماع يجوز حذفه إذا دل عليه دليل ، وكذلك مفعولا ظن يجوز حذفهما إذا دل عليهما الدليل ، وليس ثمت استعمال عربي ترى فيه مفعولي ظن محذوفين لغير دليل ، بل لا يمكن فهم هذه الألفاظ إلا وهى متعلقة بمفعوليها ، ويطول بى القول إذا أتيت بهذه التراكيب التى توهم المؤلف فيها حذف المفعولين لغير دليل ، وبينت له أن دليل المفعولين قائم في الجملة يلمسه السامع بأقل انتباه .

ومن ذلك أننا نجد الاسم الذى نريد التحدث عنه منصوباً فى باب الاستثناء ، ألا ترى أنك حين تقول : نجح التلاميذ إلا سعيدا تريد أن تخبر عن سعيد بأنه لم ينجح ، وتقصد ذلك قصداً ، ومع ذلك نجد سعيداً (وهو متحدث عنه) منصوباً أبداً ، لا نستطيع رفعه

رابعاً : لأنه لم يجعل الفتحة علامة إعراب ، جعل نصب جمع المذكر السالم ، وجمع المؤنث السالم محمولا على الجر وتابعاً له ؛ لأن العرب يعنون بالدلالة على الجر ويغفلون النصب ، وتلك علة تنهدم من أساسها ، فلو أن العرب كانوا يغفلون النصب حقا لما جعلوا له علامة تميزه فى المفرد ، ولحملوا النصب على الجر فى المفردات أيضاً ، وذلك ظاهر البطلان ؛ على أن المؤلف وقف أمام المثنى ولم يستطع شيئاً ، فقال : ولكن باب التثنية فى العربية غريب ، وأرجو أن يدلني الأستاذ المؤلف على موطن غرابته ومواضعها ، فانني لا أعرف فيه وجه غرابة إلا أنه استعصى على أن يسير مع فكرة المؤلف ، وما كان أغناه عن هذه الفروض التى ليس لها اطراد .

اختصار أبواب النحو

أبواب النحو حول سبعين بابا ، أراد المؤلف أن يختصرها ، فلم يستطع أكثر من أن يضم ثلاثة أبواب هى المبتدأ والفاعل ونائب الفاعل تحت عنوان واحد هو المسند إليه ، وأن يستغنى عن بعض التوابع وأن يدمج الباقى بعضه فى بعض ، وسوف نناقش رأيه فى هدوء لنرى أنه حتى فى هذه الأبواب القليلة لا يستطيع ضمها ولا اختصارها

أولاً : لأن المبتدأ له معنى ليس للفاعل فى كثير من التراكيب ، فنحو : هذا محمد ، وعلى أخوك ، لا نجد المبتدأ فى الجملة يتصل أى اتصال بمعنى الفاعل أو نائبه

ثانياً : لأن المبتدأ له أحكام يختص بها دون الفاعل ، من حيث وجوب أن يكون معرفة إلا إذا سوغ الابتداء بالنكرة مسوغ ، وليس كذلك الفاعل ؛ ومن حيث علاقته بالخبر ، الذى يجب أن يتأخر عنه أحياناً ، وأن يتقدم عليه أحياناً ، والذى يقع حيناً مفردا ، وحيناً جملة ، أو شبهها ، وليس للفاعل حظ من ذلك ، ولا أريد أن أدخل فى تفصيل هذا الجمل ، فيتعب القارىء ، أو يمل

ثالثاً : لأن نائب الفاعل له أحكام ليست للفاعل ، ألا تراه

يقع جاراً ومجروراً ، والفاعل لا يكون كذلك ؟ وإذا كان ظرفاً أو مقدراً وجب أن يكون مختصاً ، ولا يشترط ذلك في الفاعل ، إلى غير ما ذكرت من الأحكام ؛ هذا إلى أن باب نائب الفاعل ، يقصد فيه إلى غرض آخر ، هو بيان صورة الفعل عند ما يسند إليه

فأنت من هذا ترى أن ضم هذه الأبواب تحت عنوان المسند إليه يؤدي في النهاية إلى بيان أنواعه : من مبتدأ ، وفاعل ، ونائب فاعل ، وإلى ذكر أحكام كل نوع على حدة ؛ لا مفر من ذلك ولا مهرب . أما في علم المعاني حيث تتفق كلها في الأحكام التي يتناولها هذا العلم من تقديم وتأخير وذكر وحذف وإثبات ونفي ... الخ فقد وضعت كلها تحت عنوان واحد هو (باب المسند إليه) .

هذا شأن المؤلف في باب المسند إليه ، وقد رأيت أن فكرته لا تسير إلى غايتها ، بل تنتهي إلى ما أراد الهرب منه . أما شأنه في باب التوابع فأعجب وأغرب ؛ ويجب أولاً أن أسجل هنا ظاهرتين على المؤلف : أولاهما أنه لم يتعرض إلا لتحليل الجمل البسيطة الأولية ، أما الأساليب القوية الصعبة ، التي من أغراض علم النحو فهمها وإدراك مغازيها ، فلم يتعرض لها المؤلف ، وأحسب أن كتب النحو المطولة لم توضع لتوضيح مثل قام محمد وعلي . وثانيتهما أن المؤلف يغالي كثيراً في قيمة العامل حتى ليتوهم قارئ مؤلفه أن كتب النحو لم تشرح في التوابع إلا العامل فيها وذلك وهم ، فمن يقرأ هذه الكتب ير أن ذكر العامل لم يأت إلا عرضاً ، أما القصد والغرض فبيان علاقة التابع بالمتبوع وذكر مميزات كل صيغة ، وما تتضمنه من معنى وشرح قيمة كل أسلوب .

وسآخذ الآن في مناقشة بعض ما جاء به من الآراء :

أولاً : قال الأستاذ : « إن باب العطف ليس له إعراب خاص ، وليس جديراً أن يعد من التوابع ، ولا أن يفرد باب لدرسه » فهل قال أحد إن للعطف إعراباً خاصاً ، غير إعراب متبوعه ؟ ولكن هل اتحادهما في الإعراب يمنع من أن يفرد للعطف باب لدرسه ؟ يكفي أن ترجع إلى كتب النحو ترى أن ما ذكر في باب العطف جدير بأن يكون له باب يخصه ؛ فهناك حروف العطف المختلفة ، ولكل منها معنى خاص بها ، تكفل ببيانه علم النحو ، وباختلاف معاني هذه الكلمات تختلف علاقتها بما قبلها وبما بعدها ، وكذلك لكل حرف منها شرط لوجوده في الجملة حتى يكون استعماله صحيحاً (وهذا كله عكس ما توهم المؤلف من أن كتب النحو لم تدرس هذه الأدوات إلا من ناحية بيان أثرها في الاعراب) ثم هناك غير ذلك عطف على ظاهر ، وعطف على ضمير مرفوع أو منصوب ، أو مجرور ، ولكل ذلك حدود وشروط ، لا تكون الجملة صحيحة إلا بمراعاتها فأين تذكر هذه الحدود وتلك الشروط إلا في باب خاص بها ؟ ومن الغريب أن المؤلف يدعو في أول كتابه إلى دراسة علاقة الكلمة بالكلمة ، والجملة بالجملة ، وأحسب أن باب العطف الذي يريد حذفه — تتجلى فيه هذه العلاقة تمام الجلاء ، وفضلا عن هذا كيف يفهم طلاب اللغة العربية : الصغار والكبار ، هذه الحروف وكيف يعرفونها ويعرفون ما بعدها ؟ أنقول لهم : إن هذه الحروف حروف تشريك ، وإن ما بعدها شريك ما قبلها ، كما يفهم من حديث المؤلف ، هذه الحروف منها ما يفيد التشريك في اللفظ والمعنى ومنها ما يفيد التشريك في اللفظ دون المعنى ، كما هو مفصل في كتب النحو ، على أنه (إذا كان هذا كل ما يريده) ليس هناك كبير غناء في وضع لفظ مكان لفظ ، ولا سيما إن كان اللفظان مترادفين ، فظهر لك من هذا وجوب أن يكون للعطف باب خاص بأحكامه .

ثانياً : جعل المؤلف البدل والتوكيد باباً واحداً ، وذلك إن دل فإنما يدل على أن صاحب الكتاب يريد أن يتناسى الفوارق المعنوية بين البابين ، والتي يوضحها ويبينها الاستعمال ؛ فبينما نرى في باب البدل أن المقصود بالحكم هو البدل ، نرى في باب التوكيد عكس ذلك إذ أن المؤكد هو المعني بالحديث المقصود منه وإنما جيء بالتوكيد ليثبته وليقوي معناه ، ولأضرب مثلا يبين ما أردت :

تقول : قرأت الكتاب بعضه ، والمقصود من الجملة هو البدل (بعضه) لأنك لم تقرأ الكتاب كله ؛ وتقول : قابلت الوزير نفسه ، والمقصود من الجملة هو الوزير ولم تأت كلمة (نفسه) إلا لتؤكد أنك قابلته ، ولم تقابل (سكرتيره) مثلا ، وأحسب هذا فرقاً معنوياً واضحاً يكفي لأن يجعل لكل منهما باباً خاصاً به ؛ هذا إلى أن للتوكيد ألفاظاً لا يتعداها ، ولا يكون بغيرها ، أما البدل فمتحلل من هذه القيود وغير خاضع لها .

أحمد أحمد بدوي

{ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي بعمارة عجم رقم ٧ }

5 me Année, No 216. Lundi - 23 - 8 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
صـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢١٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٦ جمادى الثانى سنة ١٣٥٦ — ٢٣ اغسطس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

حوادث العـــراق

ذيول الانقلاب العسكرى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كان فى العراق ما خفنا أن يكون ، وجاءت الأنباء بأن بكر صدقى باشا رئيس أركان الحرب فى الجيش بوغت فى مطار البصرة وهو يتهيأ للسفر إلى تركيا برصاصات أطلقها عليه جندى ، وهمّ قائد القوة الجوية بأن يدفع عن صديقه فلحق به ، ولقى حتفه مثله فحملت الجثتان فى طيارة إلى بغداد حيث دفنتا ، وأبى الجندى الذى اغتالها أن يفضى بشئ عن بواعثه على هذه الجريمة ، وأوجح الآراء أن الاغتيال سياسى ، وأنه إحدى نتائج الانقلاب العسكرى الذى قام به المرحوم بكر صدقى باشا فى العام الماضى ، والذى عصف بالوزارة الهاشمية وشرّد رجالها ، والذى كان من ضحاياه المرحوم جعفر باشا العسكرى وزير الدفاع يومئذ . وفى الأنباء الواردة عن الحادث الجديد أن الجندى الذى أردى بكر صدقى كان يصيح وهو يفرغ رصاصته فى صدره : « يا لثارات جعفر » وسواء أصح هذا أم لم يصح ، وكان الرجل قد أطلق هذه الصيحة أو لم يطلقها ،

فإن المحقق أن الأمر أمر انتقام ، وأنه بعض رد الفعل لذلك الانقلاب العسكري المفاجئ الذي أحدثه بكر صدقي . فقد كان للوزارة الهاشمية أنصارها ولرجالها شيعتهم ، وللعهد الجديد خصومه ؛ وبعيد أن يكون الجيش كله — بأجمعه — قد رضى عما وقع ، وارتاح إلى التدخل لقلب وزارة وإقامة أخرى ، وسره أن يغتال جعفر العسكري ويدفن حيث لا يدري أحد ، وأن يكون قتلته معروفين ولا يسألون عما اجترحوا ؛ وغير معقول أن يكون الشعب العراقي قاطبة حامداً شاكراً ، قانعاً ، راضياً مطمئناً ، فإن هذا مطلب عسير ، وغاية لا تنال ؛ ومتى بدأت تجيز لنفسك أن تقتل ، وأن تستخدم القوة بعد إحكام التدبير في الخفاء ، في تحقيق مآربك — كائنة ما كانت — فقد أجزت هذا لسواك ، وأغريتهم بأن يحتذوا مثالك ويقتاسوا بك ؛ ومتى أمكن أن يأتمر جانب من الجيش بوزارة ، فإن من الممكن أن يأتمر جانب آخر منه بوزارة غيرها ، لأن الأصل — والواجب — أن يبقى الجيش بمعزل عن السياسة والأحزاب والوزارات ، وألا يعرف إلا وطناً يدافع عنه ويذود عن حقيقته حين يدعى إلى ذلك ، فإذا زججت به مرة واحدة في السياسة ، فقد أغرقته في لجها المضطرب إلى ماشاء الله ؛ وعز بعد ذلك أن تصرفه عنها وأن ترده إلى الواجب الذي لا ينبغي أن يعرف سواه . وهذا هو الذي خفناه وأشفقنا على العراق منه يوم حدث الانقلاب العسكري في العام الماضي . وإنا لنعرف للوزراء الحاليين كزملائهم السابقين وطنية وغيرة وإخلاصاً ، ولم يكن جزعنا لأن وزارة معينة ذهبت وأخرى جاءت ، فما نفرق — ولا ينبغي لنا أن نفرق — بين أحد منهم ، وإنما خفنا على العراق عاقبة اتخاذ الجيش أداة لإسقاط حكومة وإقامة أخرى ، فإن الحكم ليس من شأن الجيش بل من شأن الساسة والنواب والأمة ، وكل دولة تحرص على إقصاء الجيش عن كل ماله صلة بالسياسة ودسائسها ومكايدها ومناوراتها وخصوماتها ، اتقاء لما يفضي إليه اشتغاله بذلك من الشقاق وتفرق الكلمة وتوزع الولاء والمؤامرات والفتن والجرائم . وقد صح ما توقعناه مع الأسف وخسر العراق اثنين من رجال الحرب مشهورين بالاقتدار والحزم . وقد كان المرحوم ياسين باشا الهاشمي يكبر المرحوم بكر صدقي باشا ويوقره ويعرف له قدره ، ولكن بكر صدقي أخطأ مع الأسف فجر الجيش إلى ميدان كله شر وفساد ، وكان هو الضحية الأولى لخطئه .

ولا نعرف ماذا انتوت حكومة العراق أن تصنع ، ولكنا نرجو ألا تجمح مع أول الخاطر ؛ ولا شك أن التحقيق واجب ، وأن عقاب الجاني فرض ؛ غير أن الأمر يحتاج إلى الاعتدال والحكمة وبعد النظر ، أكثر مما يحتاج إلى البطش والتنكيل . ولا خير في مثل ما جاء في بعض الأنباء من أن الوزارة العراقية تريد أن تشتت شمل أنصار العهد السابق جميعاً ، فان أنصار الحكم السابق لا ينقصهم التشتيت ، وكل ما يؤدي إليه ذلك هو تعميق الهوة وإيغار الصدور . وإغراء النفوس بالانتقام وأخذ الثأر ، والعراق اليوم أحوج ما يكون إلى الصفاء والسكينة ليتيسر له أن يستأنف النهضة التي صدها الانقلاب العسكري ، أو جعلها على الأقل أبطأ وأقصر خطوات مما كان يرجى أن تكون ، وليتسنى له أن يؤدي واجبه للقضية العربية التي عنيت بها وزارة السيد حكمت سليمان عناية مشكورة . ولا سبيل إلى شيء من ذلك إلا بعد أن يستقر الأمر على حدود مرضية ، في الظاهر والباطن أيضاً لتخلو النفوس من دواعي النقمة وتتصافق الأيدي على العمل المشترك لخدمة الأمة ، ولا يكون هذا إلا بالتفاهم والتراضي والتعاون ، لا بالبطش والتنكيل . وقد جربت الوزارة السليمانية القوة والتشتيت ، ولسنا نراها أجدتا عليها فتيلا . نعم كانت البلاد ساكنة ، ولكنه سكون ظهر الآن أنه يستر شراً عظيما ، ومتى آثرت الضغط والحجر ، فقد ألجأت الناس بكرههم إلى العمل في الخفاء والتدبير في السر ، والنفاق في الجهر ، ولسنا نعرف أن اجتناب الاعتدال أمر غير هذا . ومن سوء الحظ أن بلادنا فقيرة في الرجال ، فكل من تفقد ، خسارة لا تعوض . وفق الله العراق ورجاله ، وسدد خطاهم وألهمهم الحكمة والرشاد

ابراهيم عبد القادر المازني

الخروج من النفس

للأستاذ عباس محمود العقاد

كل ناقد لا بد له من قدرة على الخروج من نفسه بعض الأحايين ، أو من قدرة على تصور الأشياء كما يتصورها مائة انسان لا كما يتصورها فرد واحد فى جميع الحالات

وما كان « الخيال » ملكة من أنفس الملكات وألزمها للناقد والأديب والشاعر والعالم إلا لأنه يتيح للأنسان أن ينظر إلى نفسه أحياناً كما ينظر إلى غريب ، وأنه ينظر إلى الغرباء أحياناً كأنهم نسخ أخرى منه يحس معها ويحس معه ، ويحس بالحظة عينها بالفوارق بين تلك الأحاسيس جميعها ، فينقد ويؤلف ويقسم ويوزع ويعلم أن الصواب لا ينحصر فى سمت واحـد ولا حالة واحدة ، وأن الأمر لا يكون خطأ لأنه يخالف ما استصوب ، ولا يكون دميا لأنه يخالف ما استحسن ، ولا يكون بدعاً غريباً لأنه يخالف ما تعود ، ولكنما الحقيقة فصيلة من فصائل الجان ، تتشكل كما يتشكلون بمختلف الأشكال والنماذج والألوان

وبعض الأمم يبتلون بضعف الملكة الناقدة لأسباب كثيرة بعضها أصيل وبعضها عارض يزول

فمنها ما يؤتى من جانب الغرور عقب النصر الباهر ، وفى أيام الرخاء الوافر ؛ ومنها ما يؤتى من جانب الجمود والركود وطول العهد بالحضارة ، بين جيران من ذوي الخشونة والجلافة ؛ ومنها ما يؤتى من جانب العزلة وقلة المخالطة والهجرة ؛ ومنها ما يؤتى من بلادة الحس وضيق العطن وشيوع الجهل والقدامة ؛ ومنها ما يؤتى من التعصب الشديد الذى يؤصله فى النفس طول الظلم والاضطهاد مع قوة فى الشكيمة وقدرة على التحول والتصرف تحول دون الأمة والفنـاء .

وأحسب أن المصريين من أكثر الأمم سخرية بما استغربوه ولم يتعودوه ، فلا يكون الخطيب خطيباً ولا الواعظ واعظاً ولا الممثل ممثلاً إلا إذا خاطبهم باللهجة المصرية التى لا تشوبها مسحة من اللهجات العربية الأخرى ولو كانت ريفية من صميم البلاد المصرية

وأذكر أن ممثلاً سورياً كبيراً حضر إلى مصر بعد اغتراب سنوات فى أوربا تتلمذ خلالها على أساطين المسرح الحديث وعاد إلى مسرحنا بنمط جديد فى بعض الأدوار يبذ به أنداده وسابقيه ، فذهبت ومعي اثنان من الأدباء - وأقول من الأدباء لا من عامة السواد - وأصغينا إلى الرجل وهو يترقى في دوره حتى شارف القمة وألهب النفوس بالتشوف واحتداد اللهفة ، ونظرت إلى جانبي فما راعنى إلا أحد الصاحبين ، وقد غلب ضحكا ، وإلا الصاحب الثانى يكاتم الضحك مكاتمة شديدة . وكل ذلك لأن الممثل قد مط الحروف وهو يصرخ ويهيج على نحو يقارب الفرنسية من جهة ، والسورية من جهـة أخري ، فنسي الأديبان أن الانسان قد يتألم سورياً وفرنسياً وليس من الضرورى أن يتألم مصرياً وقاهرياً وإلا انقلبت الخوالج الآدمية فأصبح الألم مما يضحك والمهياج مما يدعو إلى الفكاهة ، وحسبا أننى لم أفطن لاختلاف اللهجة كما فطنا ... فخرجا يتندران بهذه القصة ويزهيان بالفطنة التى رزقاها وحرمتها ، والذوق « الدقيق » الذى عدانى وما عداهما !

وكان عيد الحرية العثمانية فذهبنا جمعاً من الاخوان نشهد الحفل الحافل في بعض المسارح المشهورة يومذاك ، وكان بين الخطباء ترك وعرب وسوريون . فما أحسب أن رواية هزلية فى ذلك المسرح أثارت قط مجانة وضحكا وسخرية كالتى أثارتها « حماسة » الخطباء والشعراء وذكريات الفجائع والمظالم فى أيام الاستبداد . وكان أحد الخطباء مبيناً مفوها متدفقاً كأحسن ما يكون الخطيب فى لغة من اللغات ، إلا أنه ارتضح لهجة غريبة فبطلت محاسنه واحتجبت مزاياه . ولم يكن قصارى الأمر عنـد أصحابنا أنه يجهل العبارات المصرية والمخارج القاهرية ، وإنما كان عندهم جاهلاً بكل شئ يجعل الخطيب خطيباً ويجعـل السامعين يستمعون إليه .! فلما قلت لهم : إني أعد الرجل من أقدر من سمعت وأوفاهم بياناً ، قام أحدهم يحكيه ويردد عباراته ويمثل إشاراته وحركاته فسقطت الحجة كلها وقطعت جهيزة قول كل خطيب ! ! ... وإلا فماذا يبقى من قول القائل الذى يخالف اللهجة القاهرية هـذه

المخالفة، والذي يستطيع القاهري أن يحكيه ويماجن عليه ؟؟ لا يبق بالبداهة شيء !

ويؤمن العامة إيماناً عجيباً بتلازمة الأشياء لصورها وأسمائها وعاداتها التي ألفوها حتى لا يجوز أن تقع التفرقة بينها بنحو من الأنحاء

سألت أحدهم مرة : ما اسمك ؟ فأخفى اسمه الصحيح وقال لي إن اسمه « علي » وهو في الحقيقة يسمى إدريس ، وكأنه امتحن ذكائي بهذه الأكذوبة وظن أنني لا أفرق بين الكذب والصدق إذ كان الرجل الذي يسمى « إدريس » تلزمه هذه التسمية لزوماً لا فكاك منه ولا يمكن أن يسمى علياً بحال من الأحوال . ! فلما دعوته مرة أو مرتين باسم « علي » وصدقت ما قال تدرج إلى غشي ومخادعتي في غير ذلك موقناً أنني سأجهل الحق كما جهلته في استبانة اسمه الصحيح . وأين ... نعم أين بالله علي من إدريس ؟!

هذا مثل هابط جد الهبوط في ملازمة الأشياء لظاهرها وأسمائها بحيث لا تقبل الاختلاف ولا التصور على مثال آخر ، ولكن الذين يهبطون هذا الهبوط كثيرون وإن لم يظهروا هذا الظهور . وما من ناقد ينكر كلاماً لأنه يخالف أسلوبا من الأساليب إلا وهو قريب إلى طبقة ذلك القدم الذي يستجهل كل من يتخيل أن أسماء تطلق على الناس غير اسم إدريس !

كنا نناقش أستاذاً مدرساً في مسألة اجتماعية فاحتج علينا برأي فيها لبعض الأئمة السابقين ، قلنا : وهل هذا الامام حجة فيما نحن فيه ؟

قال : سبحان الله ! إننا نقضي العمر نتعلم اللغة العربية ولا نحذقها كما حذقها ذلك الامام وهو طفل لم يتعلمها على معلم . أفيكون هذا حظه من الفهم ثم يجهل كلاماً نحن ندريه ؟

قلت : أو لم يخطر لك أن ذلك الامام يقضي العمر يتكلم اللغة العامية التي نحذقها نحن ولا يبلغ من حذقها ما بلغناه ؟ أو لم يخطر لك أن الطفل المولود بين الفرنسيين أو الانجليز أو الألمان يسبق ذلك الإمام إلى معرفة الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية ؟؟ أتظن أن العربي وحده يحسن اللغة التي يتكلمها ؟ وإذا أحسنها أتظن أنه يحسن كل شيء على هذا المنوال بغير كتب وبغير معلمين ؟

فلاح عليه وأنا أساجله السؤال أنه لم يكلف بداهته قط أن تتصور للأمور أوضاعاً غير الوضع المعروض عليه . وقد تنساق أمة كاملة إلى خطأ شبيه بخطئه كما انساق العرب إلى تسمية الناس جميعاً « بالأعاجم » لأنهم لا يفهمون ما يقولون

ولست أرى ميزاناً للنقد والذوق أصوب وأحكم من سؤال المرء عن عشرة شعراء أو فلاسفة يقرأ لهم ويعجب بهم ويشهد لهم بالشعر والفلسفة . فكلما اختلف هؤلاء وتباعدت بينهم أوجه الشبه وأسباب الاختيار والترجيح كان ذلك دليلا على سعة القريحة وقدرتها على الاستحسان لجملة أسباب متفرقات لا لسبب واحد متكرر محدود . وكلما تماثل هؤلاء وتقاربوا كان ذلك دليلا على ضعف النقد وعجز الملكة الموكلة بالاستحسان والانتقاء

ومن هنا نعتقد أن البارودي خطا بالنقد العربي خطوات كما خطا بالشعر في معناه وأسلوبه . فانتقل بنا من المدرسة التي كانت تقصر الشعر على الجاهليين والمخضرمين إلى مدرسة تعرف الفضل للعباسيين والمحدثين ، وانتقل بنا مع ذلك من جماعة الزي الواحد والنمط الواحد إلى جماعة المكاثرين بالأزياء والأنماط . فقد كان الناقد قبله يستحسن البحتري ثم لا شيء بعده ولا شيء غيره ، فجاء البارودي على آثار من سبقوه يجمع بين المعري والبحتري وبين ابن الرومي وابن المعتز في ديوان واحد

ولا تزال في مصر بقية من المحدودين المطويين على أنفسهم يلج بهم الغرور ويشتد بهم الوهم على مقدار ما يضيق بهم المجال وينحسر بهم الذوق والشعور . فهم على يقين ما بعده يقين أن « الذوق » لم يخرج من مصر ، وأن الذوق هو ما اصطنعوه من الفكاهة الغثة أو الرقة المحفوظة المدبرة المتشابهة العبارات والتحيات والمصطلحات ، أو الجناسات الكلامية والفكرية التي لا تطلع على الذهن بلمعة من نور ، ولا تترك فيه فضلة من فهم ، ولا تبعث فيه حركة من حياة . ونسألهم : كم عدد الشعراء الفحول في عشرة آلاف سنة بين القوم الذين رزقوا الذوق كله والاحساس كله ولم يتركوا على زعمهم بقية منهما إلا كما يترك السؤر في الاناء المهجور ؟ ؟ وكم واحداً من « أبناء البلد » الذين لا ذوق إلا ذوقهم ، ولا إحساس إلا

إحساسهم ، ولا فكاهة إلا فكاهتهم ، ولا فطنة إلا فطنتهم ، قد صعد في مراتب الفن والشعر إلى مواطئ أقدام المحرومين المساكين ، الذين لا يشعرون ولا يتذوقون ، ولا يستمرئون اللطافة ولا يستملحون المعاني والنكات ؟؟ وإذا كان ما استقروا عليه هو غاية الحس والذوق ، وحمادى الابداع والاحسان ، وقصارى الاناقة والجمال ، فما بالهم لم ينجبوا رجلا واحداً خلاقاً في عالم الشعر أو الكتابة أو التصوير أو الموسيقى ، وقد أنجبت الأمم المئات والألوف ؟

سيمضي زمن نرجو ألا يطول قبل أن يفقه أدعياء الذوق يقيناً أنهم صفر من الذوق ، وأن الله لم يخلق على الأرض طائفة أغلظ منهم حساً ، وأثقل منهم روحاً ، وأفرغ منهم لباً ، وأعضل منهم داء على العلاج

وسيمضي زمن نرجو ألا يطول قبل أن يفقه أدعياء النقد عندنا أن الذوق الذي يستحسن حسناً جميل ، وأجمل منه الذوق الذي يستحسن الحسنين ، وأجمل منهما الذوق الذي يستحسن الشيئين بينهما تناقض في الحسن كأنهما ضدان

وسيمضي زمن نرجو ألا يطول قبل أن يشيع بيننا أن الآكل قد يشتهي طعاماً لذيذاً ولا يمنع ذلك أن تشتمل الأطعمة على ألف لون لذيذ غيره ، وأنه إذا جاز هذا في الآكال التي تعد وتحصر فأخلق أن يجوز فيما ليس له آخر ، وهو أطعمة الألباب وأصناف المعاني وألوان الشعور

ونرجو ألا يطول الزمن قبل أن يتعلم الهازلون الماجنون كيف يخرجون من نفوسهم ليعرفوها ويعرفوا سواها ، كما يخرج السائح من وطنه ليعرف وطنه ، ويخرج القارئ من زمنه ليعرف زمنه ، ويبتعد المصور من صورته ليراها حق الرؤية ويبلغ بها جهده من التسوية والتجويد

وتلك نقلة صعبة على من يحتاج إليها . ففي عالم المادة أكثر الناس انطلاقاً إلى الخروج المحبوسون في المكان المغلق المحدود . أما في عالم الفكر والروح فالمحبوسون في المكان المغلق المحدود هم أقل الناس انطلاقة إلى الخروج وأكثرهم قناعة بما هم فيه .

عباس محمود العقاد

المحاكمات التاريخية الكبرى

١ – الحركة النهليستية
ومصرع القيصر اسكندر الثاني

صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت الثورة البلشفية نتيجة محزنة للمعركة التحريرية الرائعة التي اضطرمت مدى ستين عاماً بين القياصرة وبين الحركة الثورية الروسية . ولم يثل عرش القياصرة ويسحق طغيان القيصرية وتمحى نظم الاقطاع وامتيازات النبلاء إلا ليقوم مكانها طغيان جديد أشد إمعاناً في الارهاب والسفك وثل الحقوق والحريات العامة . ومن ذا الذي يستطيع أن يقول إن الشعب الروسي يتمتع اليوم في ظل النظم البلشفية بلمحة من الحرية التي كان ينشدها في أيام القياصرة والتي اعتقد أنه ظفر بها كاملة في ثورة مارس سنة ١٩١٧ الاشتراكية ثم في ثورة أكتوبر البلشفية . كانت روسيا منذ منتصف القرن التاسع عشر مسرح نضال عنيف بين طغيان القيصرية وبين العقلية الروسية الجديدة الطموح إلى الاصلاح والتحرير ؛ وكانت روسيا الجديدة تنشد الاصلاح السلمي بادئ بدء وتحاول عن طريق الاصلاحات الدستورية والاجتماعية تحطيم الأصفاد المرهقة التي تطوق القيصرية بها عنق الشعب الروسي ؛ وكان رسل روسيا الجديدة يومئذ جمهرة من الشباب المستنير الذي حفزته مؤثرات الثقافة الحرة إلى التطلع إلى آفاق جديدة . كان هؤلاء هم طلائع «النهلزم» أو الحركة النهلستية كما سماها ترجنيف ، وكانت هذه الدعوة الاصلاحية المتوثبة دعوة مثل ومبادئ يذكيها طائفة من الكتاب الأحرار بأقلامهم الملتهبة ؛ وكان أخص ما يميز الدعوة الحديثة هو قول ستبنياك مؤرخ الثورة الروسية « هو إنكار كل ما يفرض على الفرد إنكاراً مطلقاً تعززه الحرية الفردية . وقد كانت النهلستية ثورة قوية مضطرمة لا على الطغيان السياسي ولكن على الطغيان المعنوي الذي يرهق حياة الفرد الخاصة » . على أن هذه الحركة الاصلاحية السلمية لم تلبث إزاء

عنت القيصرية وإغضائها عن الاستماع لدعوتها ، أن تطورت بسرعة إلى حركة ثورية تعتزم أن تحقق مثلها بالنضال والعنف . واحتشد الشباب المتوثب من جميع الطبقات تحت لواء الحركة الجديدة . بيد أنهم على قول ستبنياك « كانوا عزلا إلا من النظريات والمثل، وكانوا يحاربون قوة هائلة مدججة بالسلاح والعدد، ولم يك ثمة سبيل لأن يحركوا كتلة الشعب التي ترزح في أغلال الرق والذلة » . وكانت القيصرية تضاعف إجراءات القمع وتمعن في مطاردة أولئك الرجال والنساء الذين يتجاهلون حقيقة الحياة والنظم القومية الروسية .

وهنا يضطرم النضال وتنشب بين القوتين الخصيمتين : القيصرية والنهلستية — تلك المعركة الهائلة التي تقطر في كل مراحلها دماً ، وتتناثر حولها الأشلاء من كل صوب ، ويتساقط في حلبتها قياصرة وأمراء وقواد وحكام وشباب من كل الطبقات . كانت القيصرية وعميدها ، وكل المؤيدين لطغيانها ، هدفاً لطائفة من المؤامرات والجرائم التحريرية المحكمة تعصف بهم وتثل أرواحهم بين آونة وأخرى ؛ وكانت هذه الجمهرة المستبسلة من الشباب الغض بين فتية وفتيات تلقي بنفسها إلى تلك النار المروعة وهي تودع الحياة في كل مرة أفراداً وجماعات ؛ وكان العنف يذكي العنف فكلما وقع اعتداء جديد على زعيم من زعماء الطغيان حشد الطغاة في الحال حول المشانق رهطاً من الشباب المجاهد وأعدموهم بعد محاكمات مرتبة تختتم دائماً بمجازر بشرية . ذلك هو تاريخ النهلستية أو الحركة التحريرية الروسية التي سطرها التاريخ بمداد من الدم الغزير .

بدأ هذا النضال العنيف في سنة ١٨٧٥ بعد أن نضجت الحركة الثورية ، واحتشد حول المثل الحرة الجديدة جيش حقيقي من الفدائيين ؛ وكانت القيصرية كلما اشتد ساعد الحركة الثورية واشتدت مطالب الأحرار في سبيل الاصلاح الدستوري اشتدت من جانبها في القمع والمطاردة ، وازدادت حرصاً على سلطانها المطلق . وكانت سلطات الطغيان تبسط على أنحاء روسيا الشاسعة حكماً من الارهاب المطبق ، تدعمه جاسوسية بارعة خطرة ؛ وكانت القيصرية هي الباغية المتجنية لأنها لم تستمع إلى دعوة الاصلاح ، بل آثرت سلاح القمع الهمجي ، فمالت على الحركة الثورية تحاول تمزيقها ، ومالت على الأحرار تحاول إفناءهم ، وأسرفت في القبض والاعتقال والنفي إلى سيبريا ، وتدبير المحاكمات الصورية واتخاذها وسيلة لاعدام الزعماء والقادة والشباب المجاهد ؛ وأجاب الأحرار من جانبهم بتنظيم حركة من الإرهاب الثوري ذهب ضحيتها ثبت حافل من الوزراء والقضاة ورجال الشرطة وغيرهم من أعوان الطغيان . وكانت هذه المعركة الشهيرة في صحف الكفاح الثوري ذروة الحركة النهلستية ، وكان قوامها من جانب سلسلة من الجرائم السياسية المروعة ، ومن الجانب الآخر سلسلة من المحاكمات الرنانة . ففي سنة ١٨٧٧ قبضت الحكومة على خمسين من الأحرار النهلستيين وحوكموا في موسكو بتهمة التآمر على سلامة الدولة وهي التهمة الخالدة التي يشهرها الطغيان دائماً في وجه خصومه . وكان منهم صوفيا باردين وهي فتاة ثورية نابهة عرفت مثل النهلستية أمام قضاتها بما يأتي : « إن الجماعة التي أنتمي إليها هي جماعة الدعاة السلميين . إن غايتنا هي أن نبعث إلى نفس الشعب مثل نظم أفضل وأقرب إلى العدالة ، أو بالحرى أن نوقظ المثل الغامض الذي يجثم في نفسه ، وأن نبين له عيوب النظام الحاضر حتى لا يعود في المستقبل إلى نفس الأخطاء التي يعانيها . أما متى تدق ساعة هذا المستقبل المنشود فهذا ما نجهله وليس علينا نحن أن نبينه » . وأسفرت المحاكمة عن القضاء على كثيرين بالاعدام والسجن والنفي . وفي العام التالي قبض على نحو مائتين منهم وقدموا إلى المحاكمة في بطرسبرج ولينتجراد فهلك في بدء المحاكمة منهم ثلاثة وتسعون بالتعذيب والانتحار ، وقتل النهلستيون من جانبهم عدة من الجواسيس ، وأطلقت فتاة تدعى فيرا زا سولتش النار على تربيوف مدير الشرطة فجرحته جرحاً خطيراً (فبراير سنة ١٨٧٨) وقدمت إلى المحاكمة فبرئت وحملت على الأعناق في مظاهرة صاخبة، ثم فرت خيفة المطاردة والانتقام . وفي أغسطس أعدم الزعيم الاشتراكي كوفالسكي في أودسا فلم تمض بضعة أيام حتى انتقم له الثوار بقتل رئيس الشرطة مزنتزيف . وفي فبراير سنة ١٨٧٩ قتلوا في خاركوف حاكم المقاطعة البرنس الكسي كروبتكين ، وانتقمت القيصرية على الأثر باعدام الزعيم أوسنسكي وبعض رفاقه . وهكذا لبثت المعركة على اضطرامها أعواماً طويلة تحصد أرواح الفريقين .

وكان مصرع القيصر اسكندر الثاني أعظم حوادث هذا النضال الدموي المروع وكان ذروة الحركة النهلستية ؛ وكانت المحاكمة التي تلت أعظم المحاكمات السياسية التي عرفتها هذه الحركة الفياضة بالحوادث والمحاكمات الرنانة . وكان اسكندر الثاني الذي

تولى العرش سنة ١٨٥٥ يجنح فى بداية عهده إلى نوع من الاصلاح ومسالمة الحركة التحريرية وتحقيق بعض غاياتها . وكان تحريره لرقيق الضياع فى سنة ١٨٦١ فاتحة طيبة لهذه السياسة الاصلاحية؛ وكان يميل فى نفس الوقت إلى إجراء بعض الاصلاحات الدستورية التى لا تؤثر فى مجموعها على حقوق السلطة العليا ، ولكن تتخذ فى الوقت نفسه صورة المنح والمزايا الدستورية ؛ وكان يعتقد أنه يستطيع تحقيق هذه الغاية بانشاء المجالس المحلية (زمستفوس) ، ولكن الحركة التحريرية لم تحفل بهذه المشاريع الجزئية بل اشتدت فى مطالبها وضاعفت جهودها فى سبيل الكفاح والنضال ، وشهرت على القيصرية حربها العوان ، وردت القيصرية بمضاعفة إجراءات القمع الذريع ، واضطرمت بين اسكندر الثانى وبين النهلستية تلك المعركة الدموية المروعة التى أتينا على وصفها

ورأت اللجنة التنفيذية الثورية أو اللجنة التنفيذية لارادة الشعب كما كانت تسمى ، أن تقضى على الشر من أصوله فقررت إعدام القيصر (٢٦ أغسطس سنة ١٨٧٩) ونظمت شعبها الفدائية ، ودبرت تباعا عدة مشاريع لاغتيال القيصر . فبدأت فى شهر نوفبر بوضع لغم فى طريق القطار الذى يسافر فيه القيصر ولكنه لم ينفجر . وفى ديسمبر وضع الفدائيون لغما آخر فى طريق القطار الملكى إلى موسكو انفجر عند مرور القطار، ولكن القيصر وصل إلى موسكو فى قطار سابق؛ وفى مساء ١٧ فبراير سنة ١٨٨٠ نسف الفدائيون قاعة الطعام فى قصر الشتاء على ظن أن القيصر كان عندئذ يتناول طعامه فيها ، ولكن القيصر كان فى مكان آخر من القصر ، ولم يكن قد جلس إلى المائدة بعد ، فقتل فى الحادث وجرح سبعة وستون من الجند والحشم . ونشطت القيصرية من جانبها إلى مطاردة الجناة ، فأعدم عدة من الفدائيين ، ومنح لوريس مليكوف وزير الداخلية سلطة مطلقة على العاصمة لكى يستطيع السهر على حياة القيصر وأسرته ، وخول له الاشراف المطلق على القضايا السياسية وعلى جميع السلطات الادارية والمدنية . ورأى مليكوف من جهة أخرى أن يتخذ بعض إجراءات لاستمالة الشعب فأفرج عن كثير من المعتقلين وكانت تغص بهم السجون ، ورد آلاف الطلبة إلى الجامعات التى أخرجوا منها . وأصدرت اللجنة التنفيذية بياناً قالت فيه « إنها لن تترك الكفاح حتى يتنازل اسكندر الثانى عن سلطانه للشعب ويترك مكانه لجمعية وطنية تأسيسية تضع مبادئ الاصلاح الاجتماعى » . ولكن حدث فى مساء ٢٧ فبراير أن استطاعت الشرطة السرية أن تقبض على أندرى جليابوف زعيم اللجنة الثورية فى دار صديقه وزميله فى اللجنة المحامى تريجونى وقبض على تريجونى فى نفس الوقت ، وحمل النبأ إلى القيصر وزير الداخلية مليكوف فابتهج به أيما ابتهاج ، لأنه كان يعتقد أن جليابوف رأس اللجنة المدبر ولن يهدأ له بال مادام حراً طليقاً . ورفع الوزير الى القيصر فى نفس الوقت مشروع المجالس المحلية الذى اعتزمت الحكومة تنفيذه بعد أن وضع فى صيغته النهائية فوعد القيصر بالنظر فيه فى الغد .

وكان ذلك فى مساء يوم الجمعة ٢٧ فبراير سنة ١٨٨١ وكان القيصر يعتزم أن يشهد يوم الأحد أول مارس تمارين فرسان الحرس فى ميدان ميخايلوفسكى كعادته كل أحد . فرجاه وزير الداخلية ألا يفعل لأن جليابوف صرح أمامه أن القبض عليه لا يمنع وقوع اعتداء جديد على حياة القيصر ، ولكن القيصر لم يعبأ بهذا النصح وصمم على الذهاب .

وكان القبض على جليابوف ضربة شديدة للجنة التنفيذية . وكان يقيم منذ حين فى بطرسبرج باسم سلاتفنسكى مع صاحبته وزميلته صوفيا بيروفسكايا بزعم أنها أخته ، وكانت صوفيا ساعده الأيمن فى تدبير المشاريع وإدارة الشئون ؛ فلما قبض عليه ولم يعد ليلة ٢٧ فبراير جمعت صوفيا أعضاء اللجنة التنفيذية المقيمين فى بطرسبرج فى الحال وكان منهم ضابط البحرية سوخانوف ، والصحفى تيخوميروف ، وأسانيف وفرولنكو ، وجراتشفكى ، وحنه كوريا ، واجتمعت اللجنة فى دار فيرا فنجر ، وبحثت الموقف الخطير الذى انتهت إليه ، وكيف أخفقت مشاريعها المتوالية فى الأشهر الأخيرة ، واستطاعت شرطة القيصر أن تشل كل حركاتها ، وأن تقبض أخيراً على زعيمها ؛ وبعد مناقشات عاصفة قررت اللجنة بالاجماع أن تنفذ مشروع جليابوف لاغتيال القيصر وعهدت إلى صوفيا بيروفسكايا بالاشراف على التنفيذ ، وكانت اللجنة ترمى بهذه المشاريع الجنائية المتوالية فضلا عن الانتقام للضحايا العديدين ، إلى غاية سياسية عملية هى أن تستغل مايترتب على الاغتيالات السياسية من الاضطراب والروع وتحقيق بعض مطالبها الدستورية . ولكن هذه الخطة لم تحدث أثرها المنشود بل زادت بالعكس فى سخط القيصرية وحرصها على سلطانها ، وزادتها إقداماً وقسوة فى تتبع خصومها

(البحث بقية ــ النقل ممنوع) محمد عبد الله عنان

عصبة الأمم فى التاريخ

للدكتور حسن صادق

١ — فكرة عصبة الأمم وتطورها

يكثر الناس فى هـذه الأيام من الكلام عن عصبة الأمم بمناسبة انضمام مصر إليها فى هذا العهد الجديد ، ومنهم من يحبذ هذا الانضمام ويرجو من ورائه خيراً ، ومنهم المتشائم الذى يتمثل فى ذهنه الماضى القريب وما جرى فيه من حروب وعدوان بين دول هى أعضاء فى العصبة ، ويرى أن غنم هـذه العصبة للقوى وغرمها على الصغير الضعيف . وليس من غرضنا فى هذا المقام أن نخوض غمار السياسة فى مجلتنا الأدبية ، ولكننا سنبين فى هذه الكلمة كيف ولدت فكرة العصبة وتطورت خلال الزمن حتى برزت فى شكلها الحالى ، ونرجو أن يجد القارىء فى هـذا الموضوع بعض الفائدة العلمية التاريخية .

من يتصفح التاريخ يجد أن الشعوب دائماً فى حروب تفصلها فترات تطول حيناً وتقصر أحياناً . وكلما وضعت حرب أوزارها يبحث الانسان عن وسائل لتنظيم السلام ويهتم لهذا الأمر جد الاهتمام . ولم يشعر الانسان في أى وقت بشدة حاجته إلى توطيد أركان السلام أكثر مما شعر عقب الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤ لهول مالاقى الناس منها . وقد كانت فكرة عصبة الأمم كائنة قبل الحرب ، وظهرت جلية فى كتاب المسيو ليون بورجوا الفرنسى عنوانه « عصبة الأمم » . ثم بدت هذه الفكرة بعد ذلك رسمياً فى مذكرة الرئيس ويلسون فى ديسمبر سنة ١٩١٦ . وانتشرت هذه الفكرة بين رجال الحكم والسياسة فقويت ، ثم ازدادت قوة حين تغلغلت فى الرأى العام وسرت بين الشعوب التى عانت فى الخنادق أفظع الآلام وذاقت في تلك الحرب الضروس طعم الأهوال البشعة التى يذيب ذكرها لفائف القلوب .

وفكرة عصبة الأمم تضرب بأصولها إلى أزمان بعيدة ، لأنها تتصل بشعور طبيعي ضروري ، ورغبة شديدة فى الهدوء والسلام . والباحث المدقق يجد أن عصبة الأمم وجدت منذ أن تكونت شعوب منظمة قامت بينها الصلات الكثيرة المختلفة . وقد أنشأ الرومان مايمكن أن نسميه « جمعية شعوب » وكانوا هم بطبيعة الحال رؤساء هذه الجمعية .

وبعـد وقت طويل جاءت المسيحية تحمل للعالم أفكار المساواة والأخاء على الأخص . وهذا المثل الأعلى العظيم تحقق تقريباً فى القرون الوسطى أى من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر . فالمسيحية فى ذلك العهد كانت عبارة عن أسرة مكونة من جميع الأمم المسيحية ، تحت نفوذ رئيسين وهما البابا والإمبراطور . ولم يكن هذا النظام في الواقع إلا نوعاً خاصاً من « عصبة الأمم » تقوم على أساس من الدين . وكان رئيس المسيحية يحظى بسلطان كبير ، فكان فى استطاعته أن يصدر قرار الحرمان ضد أية دولة أو ضد جماعة من الأفراد ، ومن حقه أن (يشلح) أي فرد ولو كان رئيس دولة ؛ وهذا القرار الذي يجعل الدولة التى صـدر ضدها خارجة على القانون له نتائج خطيرة ، لأنها تصبح عرضة لعدوان الدول الأخرى عدواناً مشروعاً . وهـذه الحال من غير شك تنتج اضطراباً خارجياً . وفوق ذلك فان رعايا الأمير الخارج على القانون يصبحون فى حل من يمين الطاعة والاخلاص له ، وينتج عن هذا اضطراب داخلى دون ريب . وقد لجأ الباباوات كثيراً إلى هذه الوسيلة لحفظ السـلام وليصبحوا رؤساء إمبراطورية شاسعة كما يقول بعض المؤرخين .

وكانت الحروب فى تلك الأزمنة مشروعة ضد الملحدين ، وجائزة فى أحضان المسيحية نفسها . ولكن الباباوات والأساقفة كانوا يبحثون عن وسائل لتقصير مدتها وتخفيف نتائجها ؛ من ذلك أن مجالس الدين فى تولوز وكليرمون بفرنسا أذاعت فى الناس مايسمى « هدنة الله » و « سلام الله » ووجدت هذه الاذاعة من الدول المسيحية ما تستحقه من الاحترام .

والغريب فى ذلك العهـد أن الحرب نفسها كانت متلفعة بروح من العدل . ولم تكن الموقعة تقوم على خطط حربيـة ، ولكن كان المعتقد أن الذى يخرج من الحرب ظافراً ، سيخرج من محكمة الله فى الآخرة وعلى رأسه تاج النصر والظفر ؛ وعلى ذلك كانت تجرى المواقع بطريقة تبعث اليوم فى النفس دهشة شديدة . فالخصوم كانوا يتواعدون فى ساعة ومكان معينين ، ويصطفون للموقعة بطريقة نمطية لاتتغير ، ثم يهجم بعضهم على بعض وجهاً لوجه . وكانت خدع الحرب إلى القرن الخامس عشر تعتبر خيانة وعاراً ينفر منه المقاتل أشـد النفور . وأول موقعة

تطبقت فيها خطة حربية بمعنى الكلمة هي موقعة روكروى بين فرنسا وأسبانيا ، إذ قام الأمير دي كونديه بحركة التفاف طوق بها الأسبان وانتصر عليهم ، ولكن هذا العمل من جانب الأمير بعث التذمر في صدور كثير من فرسانه النبلاء ، لأنه لايمت في نظرهم ونظر عصرهم بأية صلة إلى النبل والشرف في القتال . وإذن نستطيع أن نعتبر موقعة روكروى خاتمة الطريقة الحربية في القرون الوسطى وبداية الحروب الحديثة التي تبرر جميع الوسائل وتجعل القتال أشد هولا مما كان .

وهذه القواعد التي ذكرناها لم تكن مقبولة في كل موطن ، فهي لم تكن تطبق إلا في أوربا المسيحية التي كان يحيط بها الأرتوذكسية اليونانية والاسلام ، ثم الأسيويين الذين كانت أوربا تطلق عليهم اسم البرابرة .

نستنتج مما سبق أن أوربا في تلك العصور كانت تشتمل على وحدة حقيقية على رأسها البابا والأمبراطور . ولكن في أواخر القرن الرابع عشر وخلال القرن الخامس عشر قويت الأمم في كل النواحي وأخذت كل أمة طابعها الخاص ، وشرعت تتناضل وتتقاتل . ثم ظهر الاصلاح الديني على يد لوثر وكلفن ، فأصاب المسيحية بضربة شديدة وفرقها شيعاً .

وعقب هـذه الحوادث ، رغب الناس في إقامة نظام جديد للعلاقات الدولية . وحاول أحد رجال الدين من الجزويت (سوارز ١٥٤٨ — ١٦١٧) أن يقيم نظاماً أقوى على الثبات من نظام القرون الوسطى ، بأن يدخل على العلاقات الدولية مبادىء المسيحية الثابتة . أدرك هذا الرجل أن لكل دولة الحق في سيادة زمنية متينة ، على أن تكون فيما بينها جميعاً جمعية حقيقية . ثم ذهب علماء البروتستانت إلى أبعد من هذا ، وجعل جنتليس أولا ثم جرتيوس من بعده مكاناً أكبر في تعاليمهما لسيادة الشعوب ، وأعلن في شجاعة أن العلاقات الدولية ينبغي أن تحرر من كل صبغة دينية . ولجنتليس في هذا المقام كلمة مأثورة لاقت رواجاً هائلا في ذلك الوقت وهي « فليعتصم علماء اللاهوت بالصمت في هذا الميدان ، لأنه غريب عنهم وهم غرباء عنه » والمفكرون الذين أتوا من بعدهما ، عملوا على توكيد آرائهما حتى انتشرت انتشاراً كبيراً .

ولما تولى هنرى الرابع عرش فرنسا جدد بناءها وأراد أن يعيد بناء أوربا كلها ، وكان هذا الحلم موضوع حديثه في أغلب الأحيان مع وزيره سوللي . وقد أعد هذا الوزير ماسمي « غرض هنرى الأكبر » وخلاصتـه أن تكون أوربا اتحاداً حقيقياً مسيحياً مكوناً من ست دول ملكية وراثيـة ، وخمس دول ملكية انتخابية ، ثم خمس جمهوريات . وكان سوللي يرى أن هذا المشروع لا يمكن تحقيقه إلا اذا انهارت قوة الأسرة الملكية النمسوية ، ومن هنا نشأ النضال ومقاومة الحركة الجرمانية . وكان الغرض أن يوضع على رأس الاتحاد المسيحي المرغوب فيـه مجلس مكون من ستين عضواً تنتخبهم الدول الداخلة في الاتحاد ، ويقيم هذا المجلس في هذه الدول على التوالي ، وأن تكون أحكامه إجبارية ، وتوضع تحت تصرفه لهـذا الغرض قوة مادية عامة ، وأن تكون حرية التجارة كاملة بين جميع البلدان التي يشملها الاتحاد . ثم رؤى أن يكون أول عمل يقوم به هـذا الاتحاد هو ابعاد الأتراك عن أوربا

ومات هنري الرابع من قبل أن يرى هذا المشروع الكبير نور الإنفاذ ، ولكن فكرته استقرت في النفوس والأذهان ، وظهرت آثارها في المؤتمرات السياسية . ففي مفاوضات وستفاليا التي اختتمت بها حرب الثلاثين سنة في عام ١٦٤٨ ، دار البحث عن وسائل تقضي على الاضطراب الألماني من ناحية ، وتجعل ألمانيا غير ذات خطر على أوربا من ناحية أخرى . وكان في ألمانيا حينذاك قوتان : الامبراطورية وكانت في حالة تدهور وانحلال ، ونحو أربعمائة دولة صغيرة تخضع إلى حد ما لسلطان الامبراطورية ، ففصلت هاتان القوتان حتى لا يتكدر صفو السلام ، وأعلن أن هذه الدول الصغيرة أصبحت مستقلة عن الامبراطورية . وهذا الاعلان سمي بالحريات الجرمانية ، وقد ضمنت هـذه الحريات الدولتان الظافرتان فرنسا والسويد . وهذا يعني أنه في ذلك الوقت ظهرت فكرة انشاء توازن أوربي ضامن للسلام الدولي

وفي نهاية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ، كثرت حروب لويس الرابع عشر حتى اشرأبت أعناق الناس للصلح والسلام ، وجرى البحث عن كيفية تنظيمها واقامة أسسها . وبعد معاهدة أوترخت سنة ١٧١٣ نشر القسيس دي سان بير — وقد حضر المفاوضات بصفته سكرتيراً — مشروعاً يجعل السلام دائماً في اعتقاده ، وأمل في وضع قانون عام لأوربا كما كان الحق الخاص للأفراد مقرراً بالأوامر الملكية . وأعلن القسيس أنه للمحافظة على سلام العالم ، ينبغي انشاء محكمة عامة تكون أحكامها

اجبارية . والدول التي تأبى انفاذها يجب أن توسع خارج القانون . والذي يلفت النظر هو أن مشروع القسيس دى سان بير أوسع مدى من مشروعات سابقيه ، فلم يكن خاصاً بأوربا وحدها ، بل بالعالم كله . وقويت هذه الفكرة على مر الأيام وظهرت آثارها في عدة مناسبات وعدة معاهدات مثل معاهدتي ١٧٦٢ ـ ١٧٨٣ ، كما نتج عنها فكرة العمل على خير الانسانية التي ظهرت في كتب جان جاك روسو

وقد تأثرت الثورة الفرنسية بهذا التيار من الأفكار . وفي ١٨ مايو سنة ١٧٩٠ أعلن « فولني » للجمعية التأسيسية قوله : « ستدعون الى الانعقاد جمعية الأمم » ووجهة النظر هذه اقتبسها بعض عظماء المفكرين ، وعلى الأخص الفيلسوف الألماني « كانت » فقد أعلن أن الحرب هي حالة الانسانية الطبيعية ، وإذن ينبغي إيجاد حالة للسلام بتكوين حلف من شعوب حرة . والشعوب الحرة في اعتقاده لا تكون إلا في الجمهورية . وكثير من أفكار كانت ، وعلى الأخص الفكرة الأخيرة ، اعتنقها الرئيس ويلسون ونادى بها كما هو معروف

وأول من ابتكر اسم « عصبة الأمم » هو الكاتب الفرنسي المشهور « جوزيف دى مستر » ، فقد وردت للمرة الأولى في حديثه السابع من كتابه الذائع الصيت « أمسيات سان بطرسبرج »

وفي أثناء حروب نابليون الأول وعقب سقوطه ، دار البحث عن انشاء هيئة لمنع عودة مثل تلك الحروب . ومن أجل ذلك فكر القيصر اسكندر الأول الروسي في إقامة الحلف المقدس ، أو الحلف الديني بين الملوك . وكان الغرض منه الدفاع عن مصالح الملوك أكثر مما يكون الدفاع عن قواعد السلام

وخلال القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين ، انتشرت أفكار الجنسية والقومية وشقت طريقها بين الشعوب الأوربية ، بفضل المفكرين الذين يعتبرون أن أوربا هي الأسرة الوحيدة للشعوب الحرة .

وعقب الحرب الألمانية الفرنسية في سنة ١٨٧٠ ، خيم على أوربا ضيق سياسي شديد ، فحاول رجال الدولة تبديده بخلق توازن أوربي تكون مهمته تجنب ألوان الخلاف والشقاق . وظلت الأفكار التي ترمي إلى التفاهم الدولي تنمو وتقوى حتى حرب سنة ١٩١٤ . والذي يدل على نمو هذه الأفكار ، كثرة عدد المؤتمرات التي أقيمت من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٩١٤ وانشاء هيئة قضائية دولية في لاهاي واتفاقيات السلام الموقعة في سنة ١٨٩٩ ، وسنة ١٩٠٧ وهذه المحاولات كلها أدت إلى تكوين عصبة الأمم في سنة ١٩٢٠

وحين إنشائها ، قامت عقبة فلسفية عملية مأتاها : كيف العمل لحمل الدول التي تزداد ميلا يوماً بعد يوم إلى الأخذ بمذهب الفردية ، على الخضوع لعصبة الأمم ؟ وهل ينبغي جعل عصبة الأمم دولة عليا حتى تقوم بدور هام ، أو جعلها تقتصر على أداء أعمال ثانوية فقط ؟ وفي الحق أننا إذا أنعمنا النظر نجد أن من الصعب على أمة من الأمم أن تقبل سلطة أعلى من سلطتها ، أو أن تقبل أن يكون للعصبة الحق في فرض سلطانها على الدول ، لاسيما وهذه العصبة تعتمد على مبدأ ديني كما كان الحال في القرون الوسطى .

ولكي تكون عصبة الأمم ذات مبدأ مقبول ، ينبغي أن تقدر كل القوى الدولية . وهذه القوى ليست الدول فقط ، ولكنها كامنة أيضاً في بعض هيئات دولية وبعض تيارات فكرية . وربما نرى في المستقبل هذه العصبة تدعو إلى تمثيل الدول فيها ، ممثلي القوى الدينية والخلقية والاجتماعية والاقتصادية . وهذا أمر صعب التحقيق ، ولكنه إذا تحقق يجعل للعصبة نفوذاً أقوى مما لها الآن .

٢ — تكوين عصبة الأمم

ولدت عصبة الأمم رسمياً في ١٦ يناير سنة ١٩٢٠ في وزارة الخارجية الفرنسية بباريس ، حيث اجتمع مجلس الإدارة للمرة الأولى برآسة المسيو ليون بورجوا الفرنسي ، المكونة من ممثلي الدول الكبرى المتحالفة ، وقام بأعمال السكرتير السير جيمس آرك درموند : ولم يصدف عن هذا المجلس من الحلفاء إلا الولايات المتحدة الأمريكية ، حتى قيل إن عصبة الأمم ولدت مشوهة هزيلة وكانت أولى خطواتها عرجاء

كيف تكونت عصبة الأمم هذه ؟

أخذت فكرتها مكاناً كبيراً أثناء الحرب العظمى وسيطرت على مفاوضات الصلح ، حتى أن الحلفاء وضعوا ميثاق العصبة في مقدمة معاهدات الصلح جميعاً . وهذا الميثاق لكبير أهميته ثم لروح الخلاف الذي بدأ يدب بين الحلفاء أنفسهم ، كان شديد الصعوبة في إعداده . وقد اجتمع المندوبون فوق العادة الذين كلفوا القيام بهذا الأمر في باريس ، وحاولوا ونجحوا آخر الأمر في التوفيق بين

الشروع الإنجليزي والأمريكي . والنص الأخير الذي اتفق عليه هو في الواقع ماعرضه الرئيس ويلسون مع بعض تحفظات هامة أرادتها بريطانيا لتجنب نفسها التدخل في منازعات الشعوب الأخرى

انتظم في سلك العصبة معظم الدول . ففي مبدأ الأمر ، اشتملت على كل الدول التي قامت في وجه ألمانيا ووقعت على معاهدات الصلح . وهذه الدول هي : بلجيكا ، بوليفيا ، البرازيل ، بريطانيا ، كندا ، استراليا ، زيلندة الجديدة ، الهند ، ثم آرلندة بعد قليل ، كوبا ، جمهورية خط الاستواء ، فرنسا ، اليونان ، جواتيمالا ، تاهيتي ، الحجاز ، إيطاليا ، اليابان ، ليبريا ، نيكاراجوا ، هندوراس بنما ، بيرو ، البرتغال ، رومانيا ، يوغوسلافيا ، سيام ، تشيكوسلوفاكيا ، أورجواي . وهذه الدول يطلق عليها اسم أعضاء مؤسسين لعصبة الأمم

ثم انضم إليها ١٣ دولة كانت على الحياد أثناء الحرب وهي : أرجنتين ، شيلي ، كولومبيا ، الدانمرك ، أسبانيا ، نرويج ، باراجواي هولنده ، إيران ، سلفادور ، السويد ، فنزويلا . وهذه الدول والتي ذكرت من قبلها تعرف باسم أعضاء أصليين في العصبة . ومن سنة ١٩٢٠ إلى الآن طلبت عدة دول الانضمام إلى العصبة وقبلت ١٤ دولة منها وأصبحت أعضاء فيها

وللقبول في العصبة أربعة شروط ذكر نصها في الميثاق ، وهي :

(١) تقبل الدولة عضواً في العصبة إذا كان لها حكومة حرة ؛ والحكومة الحرة في رأي ويلسون هي التي تكون على رأس أمة تحظى بالانتخاب العام وحرية الصحافة ، وتكون من نفسها حكومة برلمانية ، ولكن مع هذا قبلت الحبشة ولم تكن إلا حكومة مطلقة .

(٢) أن تكون الدولة منظمة حتى تستطيع أن تعضد حربياً أي حكم يصدر عن مجلس العصبة .

(٣) أن تمثل الدولة أمة حقيقية تربط أفرادها صلة الجنسية والقومية

(٤) أن تكون الدولة قد قدمت ضمانات فعالة تثبت احترامها للتعهدات الدولية . وقد أثار هذا الشرط مناقشة حادة حين عرض فرض دخول ألمانيا العصبة . وقد طرحت هذه المسألة منذ سنة ١٩٢٢ من جانب الانجليز ، ولكن مندوب فرنسا تمسك بهذا الشرط وأقفلت المناقشة على ذلك . وقد رفض قبول بعض الدول في العصبة لأسباب مختلفة ، ومنها الدول القوقازية مثل أرمينيا وجورجيا وآذربيجان لأن حدودها كانت لاتزال مثاراً للاحتجاج

فلما سويت هذه الحدود في جلاء ، دخلت هذه الدول العصبة في الوقت نفسه الذي دخلت فيه إيران ، وقد رفض قبول امارة ليخنشتين في العصبة لأن مساحة أرضها ضئيلة لم تبلغ الحد الأقصى الذي عينه ميثاق العصبة .

وبعد اجتماع العصبة الأول ، دخلها أربع دول هي أسبانيا وكورستاريكا وفنلنده ولكسمبرج . ولما بدأت النمسا وبلغاريا في إنفاذ تعهدات الصلح ، استطاعتا دخول العصبة ، ثم قطعت المجر على نفسها وعوداً رسمية صريحة بانفاذ ما فرض عليها فقبلت في العصبة في سنة ١٩٢٢ . ولم يبق في ذلك الوقت خارج العصبة من الدول الكبرى غير الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا السوفيتية . أما ألمانيا فقد رؤي أنها قامت بتعهداتها في مسألة السلاح والتعويضات ، ثم جاءت اتفاقات لوكارنو واستقر الرأي على أنها لا تكون ذات قيمة إلا إذا كانت الدول الموقعة عليها أعضاء في العصبة ، ومن أجل ذلك قبلت ألمانيا في العصبة في شهر سبتمبر سنة ١٩٢٦ ومثلها في مجلس العصبة وزير خارجيتها الهر فون شترزمان . ولكن ألمانيا إنفاذاً لسياستها ورغبة منها في استرداد كامل حريتها ، تركت العصبة بعد سنوات قليلة كما استقالت أسبانيا والأرجنتين .

وفي العصبة عنصر دائم هو السكرتارية العامة . وقد نص في الميثاق على أن يكون السكرتير العام انجليزي . وقد تولى هذا المنصب سير جيمس أرك درموند يعاونه ثلاثة آخرون فرنسي وياباني وإيطالي . والسكرتارية منقسمة إلى جملة أقسام ، وهي تعد أعمال مجلس العصبة وتقوم بدور الوساطة بين مجلس العصبة وجمعيتها العامة .

ويمكن أن تقول إن الجمعية العامة هي عنصر الديمقراطية في العصبة ، وإن مجلسها هو العنصر المختص بالحكم . وكان من المتفق عليه في بادىء الأمر أن يتكون المجلس من خمسة أعضاء دائمين يمثلون الدول الخمس الكبرى وهي انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وإيطاليا واليابان . ولكن لما امتنعت الولايات المتحدة عن دخول العصبة ، كون المجلس من أربعة أعضاء ، حتى قبلت ألمانيا فأكملت هذا النقص . وكان من المتفق عليه أيضاً أن يكون إلى جانب هؤلاء أربعة أعضاء مؤقتين ، وكانوا بادىء الرأي يمثلون البلجيك والبرازيل وأسبانيا واليونان . ثم زيد عدد الأعضاء المؤقتين إلى خمسة

وليس المجلس بازاء الجمعية فى المركز الذى يكون لمحكمة الاستئناف بالنسبة لمحكمة الدرجة الأولى ، فليس هناك أي استئناف أو أي فرق فى الدرجة ، فالمجلس هيئة تنفيذية تسيطر عليها الدول الكبرى ولا يخضع لأية رقابة . والجمعية العامة تسيطر عليها الدول الصغيرة لكثرة عددها ، وتستطيع فى بعض الحالات أن تعمل بمفردها . وينتج عن ذلك أن الخلاف جائز الوقوع بين هذين المنصرين فى العصبة .

واختصاصات مجلس العصبة كثيرة ، فهو الذى يوافق على تعيين السكرتير العام ويقرر محل إقامة العصبة ، وهو إلى الآن فى جنيف ، وهو الذى كان يعد الخطة التى ترمى إلى إعادة النظر فى التسلح ويفرض الرقابة على تجارة الأسلحة حتى لا تكون خطراً على سلام العالم . وفى حالة وقوع اعتداء دولى أو ظهور شبح الاعتداء أو خطر الحرب ، يتخذ المجلس ما يراه ضرورياً للوصول إلى حل سلمى للخلاف ، أى أنه يقوم بدور الوساطة بين الدول الأعضاء . ومن الناحية النظرية ، يستطيع المجلس أن يطلب من الدول التى ليست أعضاء فى العصبة ، أن تتخذ بعض تدابير يراها ضرورية لحفظ السلام . وهو المختص بتسلم وفحص تقارير الدول المنتدبة . ثم أعطت معاهدات الصلح مجلس العصبة اختصاصات مؤقتة مثل إدارة وادى السار (المادة ٥٠ من معاهدة فرساى) لمدة ١٥ سنة . وقد أجرى استفتاء فى شهر يناير سنة ١٩٣٥ فى ذلك الوادى وكانت النتيجة أن أعيد إلى وطنه الأصلى ألمانيا . وقد عين المجلس لهذا الغرض لجنة مكونة من خمسة أعضاء ، فرنسى وسارى وثلاثة أجانب . وأسندت رقابة مدينة دانزج إلى رقابة مجلس العصبة (المادة ١٠٢ من معاهدة فرساى) كما أسند إليه رقابة تسلح ألمانيا والقيام بتحقيق فى أرضها إذا تطلب الأمر . وقد تخلصت ألمانيا من كل رقابة واستردت حريتها فى التسليح وحطمت أغلال معاهدة فرساى الجائرة ، ولم تستطع العصبة منعها من انفاذ مشيئة شعبها الحي .

ما هى الصلات التى بين المجلس والجمعية ؟

الجمعية تعين أعضاء المجلس المؤقتين ولها الرأى فى مسألة قبول أعضاء جدد فى العصبة . ولكن اختصاصات الجمعية والمجلس فى أغلب الأحيان تختلط وتمتزج . وهما يتفقان على جميع المسائل التى تدخل فى حيز نشاط العصبة أو تمس السلام الدولى . ومن ناحية المبدأ ، لا يجتمع المجلس إلا مرة واحدة فى العام ، واجتماعات خاصة ، أما اجتماعات الجمعية فعامة علنية

والجمعية تعقد مرة فى السنة ، ولكنها تجتمع فى أى وقت تراه إذا دعت الظروف إلى ذلك ، أو إذا جدت مسألة تتطلب النظر فى الحال . وفى العصبة لجان كثيرة مثل لجنة العمل الدولى ولجنة المواصلات والنقل ولجنة الاقتصاد والمال ولجنة الصحة ولجنة التعاون الفكرى . وقد أنشأت العصبة محكمة العدل الدائمة الدولية بجنيف فى سنة ١٩٢٠ وهى مختصة بالفصل فى ضروب النزاع القانونى . أما محكمة لاهاى فمختصة بالفصل فى النزاع السياسي . فكل نزاع الآن يقع بين دولتين أو أكثر ، يمكن أن يقدم للفصل فيه إلى ثلاث جهات : محكمة التحكيم فى لاهاى ، ومحكمة العدل الدولية ، ومجلس عصبة الأمم

وقد ظهر نظام جديد عقب الحرب هو نظام الانتداب . ورقابة الدول المنتدبة من اختصاص العصبة . والانتداب هو إدارة دول ناشئة ، موكولة إلى دول كبيرة تعتبر فى عرف السياسة أنها أرقى من الدول الواقعة تحت الانتداب ، وهى أجزاء من الأمبراطورية العثمانية ومستعمرات ألمانيا القديمة . والانتداب ثلاثة أنواع : (ا) وهو ضرب من الحماية ، (ب) وهو قريب جداً من النظام الاستعمارى ، (ج) وهو عبارة عن ضم مقنع . وليست العصبة هي التى قامت بتوزيع الانتداب ، ولكنها فقط أقرت أمراً واقعاً . وفى كل عام تقدم الدولة المنتدبة تقريراً إلى العصبة عن إدارتها ، ولمجلس العصبة أن يبدي النقد الذى يرى من ورائه نفعاً .

ونستخلص من كل ما سبق أن عصبة الأمم ضعيفة ليس لها قوة مادية تكسبها الاحترام المرجو ، وأحكامها قليلا ما تطاع ، وهى لهذا ترجو وتطلب أكثر مما تأمر وترغم . وما زال فى الأذهان ذكرى اعتداء اليابان على الصين وإيطاليا على الحبشة .

ومن يدرى لعل العصبة فى المستقبل تستطيع أن تقوم بدور هام يحتاج إليه العالم . وقد كسرت الحرب النظم القديمة وهدمتها ، وينبغي إعادة البناء لا من خرائب الماضى وعلى مثالها ، بل بطريقة منظمة على ضوء حوادث الماضى وأحداثه ، حتى تتجنب الانسانية أهوالا أفظع وأبشع من التى سبقت

حسن صادق

علاقة مصر ببلاد النوبة
فى الجنس والدين
للأستاذ فهمى عبد الجواد حبيب

تمهيد

بلاد النوبة من البلاد القديمة تقع جنوب مصر وعلى بعد خمسة أميال من مدينة أسوان . ويحدها من الشرق البحر الأحمر ومن الغرب صحراء ليبيا ، وتمتد جنوباً حتى ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق ، غير أن هذا التحديد جغرافياً أكثر منه سياسياً إذ لم يكن لها حدود سياسية ثابتة . وقد كان ملوك الدولة المصرية القديمة يسمونها « خنت » أى الأراضى الجنوبية كما كانت تسمى « Ta - Sti » أى أرض القوس (أى المشهورون برمي النبال) ولهذا سماهم العرب رماة الحدق .

وقد أخطأ بعض الكتاب فى إطلاق كلمة كوش على جميع بلاد النوبة ، والصواب أن إقليم « كوش » يمتد من الجندل الثانى تقريباً حتى ملتقى النيل الأبيض بالأزرق ، وأما الاقليم الواقع بين الجندلين الأول والثانى فكان يعرف « بالواوات »

هذا ويطلق أيضاً بعض الكتاب خطأ كلمة « أثيوبيا » على بلاد النوبة معتمدين فى ذلك على خريطة سريدوت ومن نحا نحوه من المؤرخين ، فينسبون للنوبيين ما ليس لهم إذ أن هؤلاء المؤرخين كانوا يعنون بكلمة « اثيوبيا » جميع البلاد الواقعة جنوب مصر كالسودان والحبشة وغيرها . ومما زاد الطين بلة فى تعزيز هذا التعريف الخاطىء ما وقع فيه رهبان سوريا من الخطأ عند ترجمتهم الانجيل من اليونانية حيث ترجموا كلمة « كوش » بأثيوبيا ويعنون بها بلاد الحبشة .

وكانت النوبة على عهد العرب تنقسم قسمين : النوبة السفلى وتمتد من الجندل الأول إلى الرابع وعاصمتها دنقلة ، والنوبة العليا وتمتد من الجندل الرابع حتى بلاد الحبشة وعاصمتها سوبة على النيل الأزرق .

وقد كانت لهذه البلاد فى وقت ما عزة ومناعة ثم اعتورها ما يعتور كل موجود حتى صارت حالها إلى ما هى عليه الآن .

العلاقة بينها وبين مصر فى الجنس

أجمع المؤرخون على أن المصريين والنوبيين من أصل واحد مدللين على صحة قولهم هذا بأن كلا الشعبين ينتسب إلى الجنس الحامى فضلا عن تشابه لون بشرتهم . والواقع أن سكان مصر العليا والنوبة حتى الآن متشابهان ، وأما الوجه البحرى فنظراً لأن حدود مصر من جهة القنطرة سهلة الغزو فكان عرضة للغارات الخارجية ولذا سار منها الغازون أمثال الرعاة والاسكندر وقمبيز وغيرهم ؛ ومن ثم تأثر الوجه البحرى بدم هؤلاء الغزاة فتغير كثيراً عن مصر العليا . وهناك عامل آخر أثر فى جنسية سكان شمالى مصر وبشرتهم نوعاً ما ، ذلك أنه رحل إلى شمالى افريقيا قبل بناء الأهرام بعض الأوربيين ، وهؤلاء المهاجرون انتشروا فى شمالى افريقيا حتى جزائر كناريا . وقد وجدت ابنة لخوفو شرق الهرم الأكبر من الجنس الأبيض ذى الشعر الأشقر وتعليل ذلك أن خوفو تزوج واحدة من هؤلاء البيض ، كما أنه وجد فى العوينات رسوم لفريقين من المتحاربين السمر والبيض

وقد حدث فى عهد الأسرة العشرين حادث ذو بال : ذلك أنه فى عهد هذه الأسرة قل دخل الحكومة لفقد مصر كثيراً من البلاد الأسيوية فنقص ما كان يتقاضاه كهنة آمون فى عهد الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة فضلا عن ضعف الملوك ، فدعا ذلك إلى ازدياد سلطة هؤلاء الكهنة حتى تمكن أحد رؤسائهم المسمى « حرحور » من اغتصاب العرش وأسس الأسرة الحادية والعشرين . ولكن المصريين اعتبروا كهنة آمون مغتصبين للملك فصار عهدهم فوضى ولم يستطيعوا حفظ سلطانهم ولا القيام بما تتطلبه عظمة آمون من النفقات ، ورأوا أن معبودهم يعبد فى « نبتة » عاصمة النوبة فى ذلك الوقت وأن له المقام الأول بين آلهة النوبيين فلهذا اختاروا « نبتة » لتكون قبلتهم فى هجرتهم فهاجروا إليها من طيبة بعد أن حكموا بها ١٢١ سنة من ١١٠٠ — ٩٧٩ قبل الميلاد .

وقد رحب بقدمهم النوبيون نظراً لأن المدنية التى نشرها المصريون فى النوبة كانت لا تزال قوية الدعائم ، وكان هؤلاء الكهنة

على جانب كبير من العلم فساعدهم هذا على أن يكونوا رؤساء كهنة آمون فى نبتة وتدخلوا فى السلطة الزمنية كما سبق أن تدخلوا فى مصر وتزاوجوا مع النوبيين .

وفى عهد الأسرة ٢٣ تزوج أمير نوبى يسمى « كاشتا » أميرة مصرية ، ثم خلفه على ملك النوبة ابنه « بعنخى » وهنا يجب علينا أن نشير إلى ما لهذا التزاوج من أهمية إذ لو كان النوبيون ممتزجين بدم زنجى لما قبل الكهنة على ما هم عليه من المقام الرفيع أن يتزاوجوا بهم ، ولما تزوج نوبى بأميرة مصرية .

الديانة

كان النوبيون كالمصريين يعبدون آلهة عدة مثل تيتون وملول ، ولما استولى المصريون على بلادهم احترموا آلهتهم ثم أدخلوا عبادة آمون بها وأقاموا له المعابد ، وأخذ النوبيون يعبدون آمون حتى أصبح أكبر آلهتهم وصارت آلهتهم الأصلية فى مقام ثانوى .

وكان النوبيون يعبدون من الآلهة المصرية غير آمون إزيس وأوزيريس .

دخول المسيحية إليها

لا يعلم بالضبط كيف ومتى دخلت المسيحية بلاد النوبة ؛ ويقول البعض إنها دخلت من جهة الجنوب ، ولكن ليس هناك دليل يثبت صحة ذلك . والمرجح أنها دخلت فى هذه البلاد من جهة الشمال عن طريق مصر فى أول القرن السادس حيث كانت الوثنية هى دين أهل البلاد « فأليمبيدوس » الذى زار النوبة فيما بين ٤٠٧ — ٤٢٥م يقول إن البجة وقبائل أخرى من سكان الصحراء الشرقية كانوا وثنيين ، كما أن كتاب شيود وسيوس يثبت أن عبادة إزيس وأوزيريس كانت منتشرة فى بلاد النوبة فى هذا الوقت ؛ وحتى بعد ذلك بثلاثين سنة كانت إزيس تعبد فى جزيرة فيلة . ويؤيد دخول المسيحية إليها من الشمال عن طريق مصر أن المسيحية لما انتشرت فى الأمبراطورية الرومانية أخذ الأباطرة يضطهدون معتنقيها ففر بعضهم من مصر التى كانت تحت سيطرتهم فى ذلك الوقت إلى الجنوب كما فر البعض إلى الواحات الغربية ليكونوا فى مأمن من أذى الرومان وبطشهم . وهذا هو بعينه ما حصل مع الفارق لكهنة طيبة ، فإنهم لما أرادوا الهجرة ذهبوا إلى النوبة كما ذهب إليها المماليك فى عهد محمد على باشا فراراً منه

ولما زاد اضطهاد الإمبراطور دقلديانوس للمسيحيين وأوقع بهم وقعته المشهورة كثر التجاء الرهبان وغيرهم إلى الجبال والصحراء ، فنزح إليها الكثيرون وأقاموا بها يبشرون بدينهم ما استطاعوا ، حتى إذا ما أتى زمن قسطنطين وترك المسيحيين حريتهم واستأمن الرهبان وغيرهم أخذوا فى الظهور وفى إعلان الديانة المسيحية يعملون لها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وكان لسلكو زعيم سكان الصحراء الغربية والنوبة أكبر نصيب فى انتشار المسيحية فى هذه البلاد فقد وجد فى معبد كلابشة كتابة ترجمتها « أنا سلكو زعيم سكان الصحراء الغربية والنوبيين كافة قد أتيت إلى كلابشة مرتين وحاربت سكان الصحراء الشرقية (البجة) ونصرنى الله عليهم وأقسموا لى بآلهتهم إزيس وأوزيريس فصدقتهم) والإله الذى نصر سلكو هو بلا شك إله المسيحيين . ومن هذه الكتابة أيضاً نعلم أن سكان الصحراء الشرقية كانوا إلى آخر القرن السادس الميلادى يعبدون الآلهة المصرية . وقد كان من نتيجة المودة بين سلكوا وجستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥م) أن أرسل الأخير أسقفاً وهدايا إلى سلكو فعمد هذا الأسقف الملك سلكو الذى أخذ ينشر المسيحية فى بلاده . وفى عهد خلفه أربانوم تحولت معابد كلابشة والسبوع وعمدة وأبو سمبل وفيلة إلى كنائس ، وقد تم ذلك قبل نهاية القرن السادس واتخذ المسيحيون دنقلة عاصمة للمملكة المسيحية .

دخول الإسلام إليها

أرسل عمرو بن العاص بعد أن استتب له الأمر فى مصر عبد الله بن سعد لغزو بلاد النوبة عام ٢١ هـ فحاربهم وهزمهم وقرر عليهم الجزية ولكنه لم يتعرض لدينهم

وفى عام ٣١ هـ غزاهم عبد الله بن سعد فى خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه للثانى مرة وهزمهم ثم كتب لهم عهداً جاء فيه : « وعليكم حفظ المسجد الذى بناه المسلمون بفناء مدينتكم (دنقلة) ولا تمنعوا منه مصلياً ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم » .

ومن هذا العهد يتضح لنا أمران :

الأول — أن النوبيين حتى عام ٣١ هـ كانوا يدينون بالمسيحية

حول الثقافة العربية

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

إن من يطالع المؤلفات الحديثة عن الحضارة العربية يرى آراء متضاربة فى الأساس الذى قامت عليه ، وفى المناهل التى استقت منها ؛ ويرى كذلك تحاملاً عليها وانتقاصاً لقيمتها . فبعض المؤرخين لا ينسب إلى العرب أى فضل فى خدمة المدنية ، وينفى عنهم الابتكار ، ويقول إنهم لم يكونوا غير نقلة للعلوم ، وإن نتاجهم العقلى هو من الدرجة الثانية من حيث قيمته وأثره على تقدم العلم ، وإنهم كانوا متأثرين بالثقافة اليونانيـة وقد اتبعوها وفضلوها على غيرها . وهناك فريق آخر من الأوروبيين يرى غير ذلك ، ويقول بأن العرب فضلوا الثقافة الهندية وتأثروا بها أكثر من غيرها ، وأنهم كانوا عالة عليها اقتبسوا منها أكثر ما جاؤا به من آراء ونظريات فى العلوم والفنون ، ويرى هذا الفريق فى هذا نقصاً معيباً وناحية الضعف فى الحضارة العربية

وقد حاولت أن أعرف الأساس الذى يبنى عليه هؤلاء العلماء أقوالهم وأحكامهم في الحضارة العربية ، فتوصلت بعد بحث إلى أن الأساس الذى يعتمدون عليه فى هذا الشأن هو هذا الاقتباس ، إذ يرون فيه النقطة الضعيفة فى تاريخ العلوم والفنون عند العرب

إن اقتباس العرب عن اليونان أو الهنود أو غيرهم ممن سبقهم من الأمم لم يكن إلا بموجب غريزة فى الانسان تميزه عن الحيوان ، فالانسان على رأى الفيلسوف كورزبسكي (Korzybsky) يأخذ دائماً ما عمله غيره ويزيد عليه ، وإن قوة الانتاج فى (الانسان) لا تقوم وتقوى إلا على نتاج السابقين . وعلى هذا فليس فى الجري على هذه النزعة عيب أو مجال للتنقص

لا ننكر أن العرب اقتبسوا عن غيرهم ، وهذا الاقتباس مما ساعد على تقوية قوى الانتاج فيهم ، ومما أدى إلى إصلاح الأخطاء التى وجدوها فى تراث الأمم التى سبقتهم وإلى إضافة بحوث ونظريات هامة جعلت العلماء المنصفين يعتبرون بعض العلوم من موضوعات العرب . وتصفح بسيط لتاريخ العلوم في الرياضيات والطبيعيات والطب والفلسفة والفلك يثبت صحة رأينا ويريك خصب القريحة العربية بأجلى بيان

قال البارون دى فو : « إن الميراث العلمى الذى تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به . أما العرب فقد حفظوه وأتقنوه . . . فهم لم يكونوا حفظة وخزنة للعلوم فحسب ، ولكنهم توفروا على ترقيتها وتطبيقها باذلين الجهد فى تحسينها وإنمائها حتى سلموها للعصور الحديثة . . . » وقال الدكتور سارطون فى إحدى محاضراته فى جامعة بيروت الأميركية : « إن بعض الأوروبيين يحاولون أن ينتقصوا من قدر العرب العلمى فى القرون الوسطى ، وذلك بقولهم إن العرب لم يكونوا غير نقلة للعلوم ولم يزيدوا عليه شيئ ... هذا خطأ ... وإذا افترضنا أن العرب لم يكونوا غير نقلة أليس فى عملهم هذا خدمة كبيرة للعالم ؟ فلولا نقلهم لما تقدمت العلوم تقدمها الحاضر ولكنا حتى الآن فى قرون وسطى ... »

ويعتقد الدكتور سارطون بأن نقل العرب لم يكن ميكانيكياً بل حي الضد فيه روح وحياة

والثانى — أنه كان يوجد بدنقلة عاصمتهم بعض المسلمين مما أدى إلى بناء مسجد لهم ، ولكن من هم هؤلاء المسلمون ؟ إنى أرجح أنهم من المصريين أو العرب الذين نزحوا إلى العاصمة — دنقلة — بعد الغزوة الأولى بقصد التجارة .

وفى خلافة المأمون ثار البجة ، فسار إليهم عبد الله بن الجهم وهزمهم وعقد صلحاً مع ملكهم كانون الذى تعهد بالمحافظة على أرواح المسلمين وأملاكهم .

ومن هذا يتضح أن المسلمين كانوا عدداً قليلا وكان لهم ممتلكات فى بلاد النوبة .

وفى عام ٩٦٩ م أرسل جوهر الصقلى رسلا إلى جورج ملك النوبة ليستلموا الجزية وليدعوه إلى الاسلام فسلم الجزية ولكنه امتنع عن اعتناق الاسلام .

وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى انتشر الاسلام فى الجهات القريبة من دنقلة وما أتت نهاية القرن الرابع عشر حتى كان الاسلام قد عم هذه البلاد .

فهمى عبد الجواد حبيب
المدرس بالمدارس الأميرية

هذا من جهة الذين يعيبون على العرب نقلهم عن الغير ، أما الذين يقولون بأن العرب فضوا ثقافة على أخرى فمخطئون ، وسنحاول تبيان رأينا بايجاز

اختلفت أقوال علماء الغرب فى أى الثقافات فضل العرب فقال كاجورى إن الكرخى وأبا الجود والخيامى فضلوا الطريقة اليونانية على الهندية فى استعمل الأرقام ، وقال كانتور بوجود مذهبين مختلفين (فى زمن البوزجانى) أحدهما يتبع الثقافة الهندية والآخر اليونانية ، وقال أحد علماء الغرب بأن العرب تأثروا بالثقافة اليونانية وفضلوها على غيرها ، وقال آخرون مثل ذلك فى الهندية

والحقيقة أنه لم يكن موجوداً أى تفضيل، فقد كان علماء العرب فى العصر العباسى يترجمون ما يقع تحت أيديهم من المخطوطات هندية كانت أو يونانية ، فالبيرونى ذهب إلى الهند وساح فيها بقصد البحث والاستقصاء والتنقيب ، وكذلك محمد بن موسى بن شاكر ذهب إلى اليونان ابتغاء الحصول على مخطوطات ورسائل ، وهناك من العلماء العرب من أوجدتهم ظروفهم إلى أن يستقوا من ثقافتين أو أكثر وقد مزجوا ما استقوا وكونوا من ذلك ثقافة خاصة .

وعلى هذا فلم يكن هناك فكرة تفضيل إحدى الثقافات على غيرها بل جمع العرب الثقافات المختلفة التى نهلوا منها وخرجوا من هذا الجمع بثقافة تميزهم على غيرهم من الأمم . وقد لاحظ الدكتور سارطون كل هذا فقال : « والعرب لم يقتصروا على علوم اليونان فحسب ، بل أخذوا عن الهنود ، وفى كثير من الحالات جمعوا بين الثقافتين الهندية واليونانية . . . » وسبق الجاحظ الدكتور سارطون فيما قال ، فنجد فى كتاب الحيوان ما يلى : « وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونان ، وحولت آداب الفرس فبعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقص شيئاً ... »

يتبين مما مر أن العرب لم يفضلوا ثقافة على أخرى ، ولم يأخذوا باحدى الثقافات ويتركوا البواقى ، إنما هم طلاب علم راحوا يبحثون عنه فى الكتب والمخطوطات والرسائل القديمة من يونانية وهندية وفارسية وحبشية وسريانية وعبرية وغيرها ، فنقلوا ما عثروا عليه إلى لسانهم وهو معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة عند سائر الأمم المتمدنة ، وكان أكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية ؛ وقد يكون النقل عن اليونانية أكثر من غيره ولكن هـذا لا يعنى أن العرب فضلوا ثقافة على غيرها . وعلى فرض أنهم تأثروا بالثقافة الأغريقية ، فهل هـذا يعنى أن نية علمائنا الأقدمين تفضيلها على غيرها . وعلى كل حال فالقول بأن العرب فضلوا ثقافة على أخرى أو القول بوجود مذهبين مختلفين أحدهما يتبع الطريقة اليونانية والآخر الهندية قول خطأ لا يجب أن يؤبه له وهو من خيالات المستشرقين ، إذ لا يوجد من الأدلة ما يحققه بل على العكس لدينا شواهد عديدة تجعلنا نميل إلى أن العرب لم يخطر ببالهم تفضيل ثقافة على أخرى كما تجعلنا نميل أيضاً إلى القول بعـدم وجود مذهبين مختلفين أو مذاهب مختلفة ، وبأن المآثر العربية فى العلم والفن تأثرت بعناصر الثقافات المتعددة التى ساعدت على إيجاد ثقافة عربية لها مميزاتها وخصائصها الممتازة

(نابلس) قدرى حافظ طوقان

اتجاهات الأدب العالمي في العصر الحاضر

وكيف يتجه أدبنا

للأستاذ خليل هنداوي

تتمة مانشر في العدد الماضي

والآن أراني أجملت إبراز الاتجاهات الاجتماعية والعوامل التي تؤثر في الآداب الحاضرة فأين نجد أدبنا في غابره وحاضره وكيف يتجه ؟

كنت أود أن يتسع لي المجال أو أن يرجأ البحث عن اتجاهات أدبنا في الغابر إلى فرصة ثانية ، لأن التكلم عن اتجاهات أدب مهما كانت قيمته ليس بالشيء الذي يغني فيه الالمام ، ولكني ناظر إلى ناحية من نواحيه الاجتماعية القومية ، وغير خائض في خصائصه الأدبية .

إن أدبنا أيها السادة كان كثير الخصب والانتاج ؛ وتبارك الله ما كان أخصبه ! ولكن خصبه في الموضوعات التي تشب إليها اليوم كان خفيفاً جداً . خذوا الشعر مثلا ، والشعر أبرز ما راج في أدبنا ، فهو شعر لا أجده قد صفا كثيراً لنفسه ولا لمجتمعه . نما بعضه في جو ارستقراطي لايتصل بسواد الشعب ، نما في ظلال الطبقة المترفة ؛ وإذا غادر هذا الجو غادره إلى جو كان يرائي الأديب فيه ويداجي . أما المجتمع فلم يقم له أدب خاص يعبر عنه . وإذا أفاد بلاط الملوك والأمراء في نمو بعض الأدب الذي كانت تستحثه الدعايات والعصبيات فقد قتل ذلك الأدب الذي كان يجب أن ينطلق عن الحياة . وهذا المتنبي على جلاله وهو الذي يعد أحدّ الشعراء مزاجاً وأكثرهم اندفاعاً لم يخلص من أدب الرياء . وهذا المعري الذي يطفح شعره ببعض نظرات متألمة لا نجد أن تألمه كان نتيجة اختلاطه بالمجتمع ، ولكنه كان وليد تشاؤم صرف اختص به مزاجه . ويمكنني القول إن كثيراً من أدبنا خلقته أزمات سياسية وعصبية ليكون ضرباً من ضروب الدعاية . ولكنه كان مجرد دعاية تؤرث نار العداوة ، وتعبر عن نوازي العصبية في الأحزاب والقبائل وتحيي الضغائن في الأمة الواحدة . على أن أزمة الشعوبيـة التي احتدمت نارها بين الأعارب والأعاجم كان يجدر بها أن تخلق نوعاً قوياً من أدب الدعاية القوميـة ولكن الأدب لبث يمالئ الأوساط المترفة ، ينظم لها الشعر مسبحاً بحمدها ، أو مسلياً لها من مللها وسأمها .

أما أدبنا الحاضر فلا يمكننا الركون إليه ، لأنه أدب مضطرب يمثل اضطراب هذه الثقافة المكتسبة التي لم نتم هضمها ولم تتمركز فينا ! أدبنا الحاضر لم يتحرر من قيود القديم سالكا طريقته الخاصة دون تردد . وأديبنا لم يؤمن بأن في الحياة التي تتكرر فصولها كل يوم أمام عينيه أدباً غنياً يغذي فكره ؛ وأديبنا لايزال يعتقد بأن النزول إلى الحياة يضعف من قيمة أدبه . وبهذا يكتب الأدب فيه كل الألوان إلا لون الأدب ، وفيه أثر كل بيئة إلا بيئته التي هو فيها . على أن الأديب الحقيق حين يبث نفحة أرضه يحملها لتعانق نفحات الأرض كلها ، وحين ينشر نسمة شعبه ينشرها ليضمها إلى نسمات الشعوب !

لا أود أن أحدثكم من أدبنا الحاضر عن آفاقه الانسانية التي يسمو إليها ، ولا عوالمه الرحبة التي تتمانق فيها الانسانية ، ولا ذلك الجمال الذي يكسو الآثار الكونية به ، وإنما أحدثكم عن اتجاهات أدبنا من الناحية التي هي أصدق انطباقاً على حياتنا الحاضرة ، وهذه الحياة الحاضرة مؤثرة في أدبنا مهما فر منها ، وفي أديبنا مهما تجافى عنها ؛ لأن الأديب ليس كالعالم الذي يقدر أن يحيا في بيئة وكأنه ليس منها !

لو أراد واحد في الأجيال الآتيـة أن يستقرئ نفوسنا وحالنا لرأيتـه لايستطيع ، لأننا لانمثل في أدبنا عواطفنا ولا نصبغه بألواننا : إنا نكتب أدباً لا يمثل آلام حياتنا الاجتماعية والنفسية التي نعانيها . ألم تمر بنا أزمات مختلفة وظروف مروعة ؟ فأين الأدب الذي ولدته هذه الأزمات ؟ وأين قصة كقصة البؤساء تمثل البؤس الذي برح بنا في عهد الحرب ؟ وأين القصة التي تمثل حيرتنا وألمنا ؟ وأين مسرحية كمسرحية « غليوم تل » تصور أبطالنا وشهداءنا ؟ وهذا شوقي الذي خلف لنا تراثاً من سر حياته الشعرية لم يجد في هذه الأزمات ما أوحى إليه مسرحية يصور بها مشهداً من هذه المشاهد التي قد يكون فيها ماهو أشد وأقوى على خلق التأثير من الموضوعات المطوية التي عالجها في مسرحياته . وأخيراً أين ذلك الأديب الذي يترجم عن عصره ؟

على أن البعض يقول : وما عسى يغني الأدب الذي يأتي بالتلقين لا بالالهام ؟ وكيف يملك الأديب حريته في التعبير ، وإنما الأدب بحريته ؟

أجيب هذا البعض بأني لا أدعو أدبنا إلى أن يتقيد ، وما كنت يوماً لأدعو إلى أن أخلق للأدب أجواء محدودة يخوض فيها . وكيف أدعو إلى تحديد اتجاهات الأدب والتحديد معناه وقف روحه وحريته التي لايحيا إلا بها ؟ كيف أدعو إلى حبسه ضمن تقاليد جديدة ؟ ولكأني بذلك أهدم تقاليد وأرفع تقاليد وفي هذه وتلك عبودية ، وفي العمل نفسه عبودية أدهى !

أجل ! لا أريد أن يكون الأدب كله اجتماعياً ، أو ذاتياً ، أو إنسانياً أو قومياً ! وإنما أنشد أدباً حراً يستوحي ابداعه من قلب الحياة ، لايكون من الحياة على هامشها ، وإنما على متنها . ولا يمر هو بجانب ويترك الحياة بجانب آخر . وإنما همه أن يرافق الحياة في مراحلها ، ويعمل على تفوقها وتساميها . همه أن يوجه الحياة كما يريد . وإذا تحدثت عن اتجاهات يتجه إليها فانما هي اتجاهات يكون للأديب فيها مادة غزيرة ، وعالم نبيل الغرض .

إننا أمة لانزال في دور الكفاح ، الكفاح في كل نواحيها . ودور الكفاح دور اضطراب وحركة ، وهذا الدور لايجمل بالأديب أن يمر به هادئاً ساكناً دون أن يرفع صوته ، وإنك لن تجد أمة خلا مثل هذا الدور فيها من أدب يمثلها ويعبر عنها ويستحثها ويجعل قلبها بركاناً هادراً مهما كانت هذه الأمة حرة النزعة ، انسانية المبدأ ، لأنها ترى قوميتها مثل انسانيتها ، ولن يصدق للانسانية قلب لا يصدق لوطنه ، وليكن أدبنا مجرداً ما أراد ، متوجهاً حيثما توجه ، ولكنا نريد معه أدباً قوياً يساهم في بناء الجبهة القومية ، ويستمد روحه من الثقافة القومية ، ونريد معه أدباً اجتماعياً يخلق ثورة التجديد والابداع وينفض هذه المزق الرثة من التقاليد ، إذ لايؤتي الانقلاب السياسي ثمره إذا لم يكن مقروناً بالانقلاب الاجتماعي .

أحس هنا بل أكاد أسمع أصواتاً تنادي من حولي : أتريد أن تجعل من الأدب الواسع الانساني خادماً للقومية ، ومهذباً للمجتمع ؟ كأنك لم تعرف التعاريف الأولية التي تفصل الأدب عن القوميات والفن عن الأخلاق التي ضيقت حدوده وأفسدت جماله الذي لايحيا إلا في المطلق !

بلى ! إنني أفهم كما يفهمون ، وأدرك أن للأدب غاية أسمى وأعلى ، ولكنني ممن يعتقدون أن الأدب لايتجرد من شخصية أمته كالأديب لايستطيع أن يتجرد من شخصيته ولا يمكنه أن يكون إنسانياً قبل أن يكون قومياً ؛ وإذا تكلمت عن اتجاهات أدبنا الحاضر فان عوامل كثيرة تحملني على تحديد هذه الاتجاهات ؛ وقد تكون هذه الاتجاهات مفيدة لظروف حاضرة تموت بموتها ، وقد يبطل غداً بعضها ويبقى بعضها ، وقد يبطل كلها ولكن ماهي مادمت أعتقد أن هذه الاتجاهات محيطة بحياتنا الحاضرة ، ولا نستطيع أن نحل عقدة من عقدها إلا بمقتضاها !

يظنون أن الأدب القوي أن يكون الأديب بوقاً ينفخ في كل حادثة ، وفي مقدم كل وزير أو زعيم ، ومثل هذا الأدب لا يحتاج إلى أن نبدي إعراضنا عنه ، وإنما الأدب القوي روح يعلقنا بحب هذا الجو وهذه الأرض ، ويجلو لنا عن روائع الجمال فيها ، ولست أذكر أنني تلوت شيئاً من هذا :

أذكر أنني في هذه السنة كنت أنا ورفاق نقوم برحلة في أطراف الفرات الأوسط ، فجزنا قرية تدعى (الميادين) وكانت أناشيد الرفاق تتعالى . فهب من في السوق يصفقون لهم ، فما راعني ذلك ، ولكني أبصرت رجلاً ضريراً مخدود الوجه ، ممزق الثياب ، هب يلمس بوجهه مواقع الصوت والصدى ويداه تصفقان ، فطفرت من عيني دمعة وتمثلت الشعور الوطني يتيقظ في نفسه . فقلت : ألا يجد أدباؤنا في هذا المظهر مادة وموضوعاً ؟ ألا يجد شاعرنا عاطفة تهزه كالعاطفة التي ولدتها فيه قبلة محبوبة ؟ وأخيراً ألا نجد في هذا الضرير رمزاً للأمة التي فقأوا عينيها فهبت تتلمس النور بغير الحاسة التي خلقت لالتقاط النور ، وقد استحالت كل حاسة في جسدها عيناً تبصر ، وقلباً يشعر !

أعرف في هذا البلد فئة — قد تكون مخلصة — تدين بالأدب الانساني ، ولا تعنى بالأدب القوي ، تمشي فوق رءوس الحقب ، وتعلو على حالات عصرها لأنها في اعتقادها حالات زائلة كالغيوم ؛ ولا أستطيع أن أناقش هذه الفئة ، ولا أن أصرفها عن غايتها النبيلة ، ولكني أعلم أن الأدباء الانسانيين أنفسهم الذين بشروا بالدعوة الانسانية والأدب الانساني هم قوميون قبل أن يكونوا انسانيين ، لأن الذي لا يتسنى له أن يحس آلام شعبه الذي هو من لحمه ودمه ، لجدير بألا يتسنى له أن يحس آلام الانسانية . .

اتركوا الأدب والفن وعودوا إلى العلم المجرد والأخلاق تجدوا أن كل شعب يثبت فيهما شخصيته التي تختلف عن شخصية غيره. تأملوا الطرق الرياضية الجبرية التي يسلكها العقل الجرماني تجدوا أنها طرق مطلسمة مبهمة تلائم هذا العقل. على حين أن العقل الفرنسي الرقيق يخضع المنطق له ويسلك فيه الطرق الواضحة. وكذلك قولوا في الأخلاق: فكل أمة رتبت أنظمتها بحسب عاداتها. ولو أن طريقة العلم واحدة لما وجدنا طريقة كل عالم تختلف عن طريقة الآخر ... وإذا كان هذا شأن العلم والأخلاق فكم يكون اختلاف الأدب والفن اللذين يترجمان عن حياة الأمة؟

يقولون: لا وطن للفن! باعتبار أنه إذا صدر عن انسانية معينة فإنه يخص كل الناس. لأن الانسانية الكلية هي مجموعة هذه الانسانيات، والفن الكلي هو مجموع هذه الفنون، والفن صلة القربى بين الناس.

يقولون: لا وطن للفن! وأنى لنا أن نسلخ الفن عن الشعب الذي خلقه على صورته، أبالامكان أن نسلخه عن الطبيعة التي أحاطت به، والتراب الذي حمله؟ والسماء التي حنت عليه، والهواء الذي تنشقه، والوطن الذي احتضنه، وصدى أصوات الأجداد الذين نقلوا إلى الأحفاد ما ورثوه؟ إن الشعب باستطاعته أن يقتبس عن شعب آخر ثم يبقى ما يقتبسه كما هو؛ ولكن من جراء ذلك أن يتنازل عن شخصيته، ويخضع لهذا الغريب خضوعاً أعمى لا يفسر إلا بالجحود بعبقرية الوطن. لقد أخذت روما عن اليونان أنظمتها وفنونها التي أحبتها ولكنها لم تفهمها، فأعطت زخرفة جيلة ولكنها لم تعط أثراً فيه حياتها. وهكذا لا نستطيع أن نقول: هذا أدب انساني قبل أن نقول: هذا أدب عربي أو إيطالي أو جرماني!

إن أطوار الأدب والفن هي ترجمان صادق عن العصر المتحول، يظهر لنا مراحل الطريق، ومراحل السعي، ويحدد لنا أعمار الأمة، ومن خلال كل هذه الخطوط والصور والألوان نجد صورة الوطن، ونستشف ملامحه الحقيقة؛ وقد رأينا أن الأدب أكثر أنواع الثقافة تعلقاً بحياة الأمة، لأنه لا يصور إلا حياتها ولا يسرح إلا في جوها، والذرية العبقرية تكتسب من بيئتها صفات متى حان الوقت أظهرتها، وحولتها إلى الابداع؛ وعصير الأرض الوطنية يسقي الشجرة الانسانية؛ وبهذه الانسانية الشخصية، وبهذا المثل الأعلى الخاص يعلن كل شعب مزاياه وعبقريته. والعظماء أنفسهم لم يستثنوا عن هذه القاعدة، لأنهم كانوا قبل كل شيء وليدي بيئتهم وجيلهم.

إن انكار القومية ليس جحوداً بقيمة التاريخ وتأثيره فحسب، بل هو إغضاء عن الجغرافية وجهل بعمل الأرض والسماء والبيئة، لأن الأوطان ليست بفكرات خيالية ولا شعرية ولا وهمية، وإنما هي حقائق ظاهرة ثابتة؛ والثقافات المختلفة تثبت ذلك، وكل وطن يحدد حياة أهله ويلهمهم فنه؛ ولكل شعب أدبه وفنه، وهو بهذا يمثل دوره في القصيدة الكبرى، وإنا نود أن نعود إلى حمل مشعل جديد ورسالة جديدة إلى الانسانية، ولكنا نريد ألا تصرفنا هذه الانسانية عن قوميتنا، بل نريد أن نكف عن هذه الانسانية إذا ساومتنا على قوميتنا!

أذكر في هذا الموقف حادثة طريفة أدبية تمثل تأثير القومية في الأفراد الذين كانوا يؤمنون بالدعوة الانسانية. لقد كان العالم النقادة الفرنسي «تين» ذا ثقافة ألمانية صرفة. كان يعجب بألمانيا ويحبها حباً جماً ويراها له وطناً ثانياً بعد فرنسا. وكان يرى مع الفيلسوف «رينان» ان ألمانيا هي أم العقل والذكاء. وأن الألمان هم أساتذة العالم في العلوم والآداب والفلسفة، وهم أساتذة العقل الراهن. هبت حرب السبعين، وغمرت ويلاتها الفرنسيين. فضربت اعتقاد «تين» في الصميم، وكانت له يقظة قاسية مؤلمة، إذ وجد القول بأن العلم الانساني هو كل شيء للانسان قولاً كاذباً، وألفى ان الفن لا يحيا اذا كان الوطن يتمرغ في الشقاء، فأخذه الاشفاق على وطنه، وحمل بعدها حملات عنيفة على غطرسة العقل الألماني الانساني، وقال: «ان زمان العلم الخالص الانساني قد انتهى ... والآن يجب قبل كل شيء أن نساعد فرنسا على أن تحيا حياة تنطبق على حياتها الماضية ...»

ونحن في مرحلة شبيهة بهذه المرحلة، لا يجدر بنا في الوقت الذي تفتش فيه الأمم عن قوميتها، أن نضيع قوميتنا بحجة الانسانية. وقد قدمنا للانسانية تراثاً خالداً من الدين والفلسفة في سبيل الانسانية ... وكيف نطمع ونحن ضعفاء القومية أن نفيد الانسانية؟ والأمة الضعيفة القومية لا تعطي نتاجاً!

أعطوني أمة ضعيفة القومية ذات تتاج خالد ! أليس لنا في اليونان أمة العبقرية والفن مثل واضح على ذلك ؟ لقد تحجرت مواهبها وعبقريتها منذ تلاشت قوميتها . وهل أعطى العرب نتاجهم الأدبي إلا يوم كانوا أقوياء ؟ وأي نتاج لهم في عصر الضعف والتلاشي ؟ وهل يدرس الطلاب من الأدب الغربي إلا أدب الأمم التي ثبتت قوميتها ، وخفقت حريتها ؟ . . . وإذا كانت الثقافة أحلت لهذه الأمم أن تسخر ما لا يسخر للدعاية أفهل يلومنا أحد على أن نسخر هذا الشيء نفسه لغاية أسمى وأعلى ، لغاية إحياء قومية نبيلة : « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » . . . إني أخاف إذا غالينا في تجريد أدبنا من قوميتنا أن يقولوا : هذا أدب إنساني ولكن بلا وطن ! وضعف القومية يقتل كل خاصة مبدعة في الشعوب . لقد عملنا عملنا الإنساني كأفراد فلنجرب أن نعمله كأمة !

نحن في مرحلة نستطيع أن نقول فيها للأديب ما قاله وزير الدعاية النازية : « لا يحق لك أن تقول « لا يهمني شيء من هذه المرحلة » . وما قاله مكسيم غوركي « يجب على كل أديب أن يشعر بمسئوليته الخطرة في هذه المرحلة لأن عليك أيها الأديب يتوقف كل شيء لأنك لست حاكياً تردد ، ولا آلة فوتوغرافية عمياء تصور ما يعرض لعدستها ، ولا اسطوانة حاك تستنطقها أية إبرة نفس الكلمات ، وإنما أنت الصوت وغيرك الصدى . أنت الريشة التي تصور ، والأمة الأخيلة التي تلتقطها . أنت الابرة التي تنقش على الاسطوانة ما تريد والشعب الاسطوانة ، فعليك أن تتخير الكلمات التي تريد أن تنقشها . . . وإذا كان هم الرجل السياسي أن ينظم علاقات أمة وشؤونها في الداخل والخارج ، فان هم الأديب أن يوجه حياتها ومجتمعها . ويعطينا أدباً يستمد حياته من قلب حياتها لا من بطون الكتب والحجارة . . . »

الساعة قد دنت : وعلى هذه الأرض التي سطعت عبقريتها يريد جديد من المجد والجمال أن يتيقظ !

إنا تذوقنا من ألوان الاضطهاد في الأجيال السابقة ما يجعلنا نسخر حتى السماء في تشييد حريتنا وقوميتنا . . . فكيف لا نسخرك أيها الأدب لهذه الحرية ، وكيف لا نسخركم أيها الأدباء لأدب أرى فيه وجه أمتي . ؟

خليل هنداوي

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٥ —

الرافعي في أهله

« إذا رأيت رجلاً موفقاً فيما يحاوله مسدد الخطا إلى الهدف الذي يرى إليه ، فاعلم أن وراءه امرأة يحبها وتحبه ! »

وأنا لا أعرف — فيمن أعرف — أحداً تنطبق عليه هذه الحكمة الغالية انطباقها على حياة الرافعي ؛ فالواقع الذي يعرفه كل من خالط الرافعي واتصل به وعرف طرفاً من حياته الخاصة ، أنه ما كان ليبلغ مبلغه الذي بلغ لولا الحياة الهادئة التي كان يحياها في بيته ؛ فإلى زوجه يعود فضل كبير في نجاحه وتوفيقه وهدوء نفسه ، هذا الهدوء الذي هيأه إلى دراسة نفسه ودراسة من حوله والتفرغ لأدبه وفنه ، لا يشغله عنهما شاغل مما يشغل الناس من شئون الأهل والولد .

وقد تزوج الرافعي في الرابعة والعشرين من عمره ؛ ولزواجه قصة فيها طرافة وفيها مجال للفكر والنظر ؛ وما دمت قد أخذت على نفسي أن أكتب عن الرافعي في كل أطواره ، فلا على أن أقول ما أعرف من قصة زواج الرافعي ؛ ولا أحسبني بذلك أتجاوز مالي من الحق أو أتعرض لعتب أو ملامة ، فقد خرج الرافعي من ملك نفسه وأهله إلى حكم التاريخ ، وللتاريخ حق واجب الوفاء

وزوج الرافعي مصرية صريحة النسب ، من أسرة البرقوقي المعروفة في (منيه جناج) — دسوق — وأخوها الأديب الكبير الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي صاحب (البيان) ؛ وقد كانت صلة الأدب بين الرافعي وعبد الرحمن البرقوقي هي أول السبب في هذا الزواج .

حدثني المرحوم الرافعي قال : ... كنت في الرابعة والعشرين وكنت أعرف عبد الرحمن البرقوقي نوعاً من المعرفة التي تربط

بين شابين توافقا في الطبع ، واتفقا في الغاية ؛ وكان عبد الرحمن طالباً أزهرياً ولوعاً بالأدب ، له حظوة ومكان عند الأستاذ الامام إذ كان من تلاميذه الأدنين ؛ وكنا نلتقي أحياناً ؛ فسرني منه ماسره مني ؛ وكان يعيش عيشة مترفة ليست منها حياة الأزهريين إذ كان له من غنى أبيه ومن جاه أسرته عز وكرامة ... فما تعارفنا حتى تصافينا ، ثم اتصل بيننا الود ، فكنت له وكان لي أصفى ما يكون الصديق للصديق . . .

لم أكن أعرف له أخا أو أختاً ، ولم يجر في بالي قط أن الصلة بيننا ستتجاوز ما بيننا ، حتى كان يوم جلست فيه أتحدث إلى نفسي ، فكأنني سمعت صوتاً من الغيب يهتف بي أن صديقي عبد الرحمن هو صهري وأخو زوجي ... وانتبهت إلى نفسي وأنا أسائلها : أله أخت ؟ ياليت ... ! لوكان إنني إذاً من السعداء..[1]

وكانت نفسي في الزواج ، فما هي إلا أن تحرك في نفسي هذا الخاطر حتى سعيت إلى صديقي عبد الرحمن ، وقلت له وقال لي ؛ وجرنا الكلام إلى حديث الزواج ، فقلت لصاحبي : من لي يا أخي بالزوجة التي أريد ؟ ووصفت له الفتاة التي تعيش في أحلامي ؛ فلما فرغت من حديثي قال صاحبي : أنا لك بما تريد . قلت : أتعرف ؟ قال : هي هدية أقدمها إليك . قلت : مَن ؟ قال : اختي!

قال الرافعي : وغشيتني غشية من الفرح ، فما تلبثت حتى مددت إليه يدي فقرأنا (الفاتحة) ، وما وقع في نفسي وقتئذ أنني أمد يدي لأخطب عروسي لنفسي ، ولكني أمدها لأتعرف إلى العروس التي خطبتها عليّ الملائكة وأثبتت نبأ الخطبة في لوح الغيب

وبنى بأهله ، وعاشا أهنأ ما يكون زوج وزوج ، ثلاثاً وثلاثين سنة — ثلث قرن — لم يدخل الشيطان بينهما مرة واحدة ، ولم يتخاصما لأمر ، إلا مرة . . .

قال الأستاذ جورج ابراهيم : لقد حضرت عرس الرافعي ، وصحبته طوال يومه حتى صعد إلى جلوة العروس ، وشهدت اضطرابه وخجلته ، واستمعت إليه من بعد يتحدث عن سعادته ويغبط نفسه على حظه وتوفيقه ، وما شكا إليّ مرة واحدة هماً ناله ، ومضى عام . . . وجاءني ذات يوم ، فجلسنا نتحدث ، وتسرحنا في الحديث ، ولكن وجه الرافعي كان ينم على شيء . . على سر يطويه ، ثم لم يلبث أن أفصح ، قال : يا جورج ، لقد عزمت على أمر ... سأطلق زوجي ! وراعني هذا النبأ ونال مني ؛ قلت : تطلقها ! لماذا ؟ قال : إن إخوتها يجحدون حقها في تركة أبيها ، لا يريدون أن تستمتع منه بشيء . . . قلت : فهذا هو السبب ؟ قال : نعم ، قلت : فما ذنبها هي ؟ قال : أيهون عندك أن تكون زوجي ليس لها عند إخوتها حق ولا كرامة ؟ قلت : ويهون عندك أن تأخذها بما اقترف أخوها ؟ . . . مصطفى ، إنك جبار ، أولا فاذكر أن الطلاق جريمة لم يقترفها قبلك أحد من أسرة الرافعي ؛ أولا هذا ولا ذاك ، فاذكر أن أهل (طرابلس الشام) لا يذكرون الطلاق إلا كما يذكرون نادرة معيبة وقعت مرة ولن تتكرر من بعد . . . فكن بعض أهلك ياصاحبي . . . !

قال : وأطرق الرافعي هنيهة ثم قال : أحسبتني أفعلها ... ! ؟ ولم يدخل الشيطان من بعد بينه وبين أهله ، إذ كان كل منهما يعرف لصاحبه حقه وواجبه . . . ومضت اثنتان وثلاثون سنة بعد هذه الحادثة ، كما يمضي شهر العسل ، أو شهر الغزل ، ليس فيه إلا العطف والمحبة والاحترام .

***

كان الرافعي يعيش في بيته عيشة مثالية عالية ؛ فهو زوج كما يجب أن يكون الزوج ، وأب كما ينبغي أن يكون الأب ؛ وما كان منكوراً لأحد من أهله أن الرافعي ليس موظفاً كسائر الموظفين عمله في الخارج وحسب ؛ بل كانوا جميعاً يعلمون ما عليهم لهذا الرجل الكبير ، ويشعرون بما عليه من تبعات تفرضها عليه مكانته الأدبية ، فيهيئون له أسباب الهدوء والراحة والاطمئنان . كان في بيته كالملك من الحكومة الدستورية : يملك ولا يحكم ، ويعيش في جو من الاحترام والرعاية والطاعة ، فوق الأحزاب وفوق المنازعات ؛ فمن ذلك لم تكن (سياسة) البيت تشغله أي شغل أو تشغب في هدوئه وتعكر صفوه ؛ فكان خالصاً لنفسه ، منقطعاً لفنه وعمله الأدبي ، فدار كتبه له هو وحده ، وطعامه مهيأ في موعده وعلى نظامه ، وفراشه ممهد في موضعه لساعته ، ونظامه الذي يحقق له الهدوء والراحة ونشاط الفكر مرعيٌّ مضبوط

على أنه كان إلى ذلك يعرف واجبه لزوجه وأولاده ، فما هو إلا أن يفرغ من عمله حتى تراه بين أهله مثلا عالياً من الحب والوفاء ؛ وأنا ما عرفت أباً لأولاده كما عرفت الرافعي ؛ إذ يتصاغر لهم ويناغيهم ويدللهم ويبادلهم حباً بحب ، ثم لا يمنعه هذا الحب

(١) كان الرافعي يؤمن بالغيب والالهام إيماناً عجيباً ، وله في هذا الباب حوادث — سيأتي ذكرها — تشبه أن تكون من الخرافة أو من صنع الأحلام .

التالى أن يكون لهم أبا فيا يكون على الآباء من واجب التهذيب والرعاية والإرشاد ، ناصحا برفق حين يتحسن الرفق ، مؤدبا بعنف حين لايجدى إلا الشدة والعنفوان .

***

وما دمت بصدد الحديث عن الرافعى فى أهله ، فان واجبا علىّ أن أتحدث هنا عن شىء من (حب الرافعى) أراه يتصل بهذا الموضوع :

فى فترة ما من حياة الرافعى — سأتحدث عنها بتفصيل أوفى فيا بعد — كان للرافعى هوى وغرام ، ووقع له فى هواه مايقع للمحبين من ضرورات الحب ، ودافع نفسه مادافع فلم يجد له طاقة على المقاومة ، واحتال على الخلاص فما أجدته الحيلة إلا همًّا على هم ، وكان حبه أقوى منه ، ولكن دينه وأخلاقه كانت أقوى من حبه . وقال لنفسه : ما أنا وهذا الحدث الذى يعترض طريق ويغلبنى على إرادتى ؟ إن فى بيتى امرأة أحبها وتحبنى — والحب عند الرافعى لا يأبى الشركة ! — وإن لها علىّ حقا ليس منه أن يكون منى لغيرها نظرة أو ابتسامة إلا أن تأذن لى ! ماذا يكون من أمرى وأمرها غدا أمام الله حين يطلب كل ذى حق حقه ؟ أأقول لها : نعم قد ضيعت حقك وأعطيت من قلبى الذى لا أملك لمن لاتملك ؟ وَيْلى ! إنها الخيانة والاثم والعار !

وذهب إلى زوجه فحدثها وحدثته ، ثم أفضى إليها بخبره وكشف لها عن نفسه ، ثم قال : وأنت يازوجتى هل يخفى عليك مكانكِ منى ؟ ولكن . . .

واستمعت إليه زوجته هادئة مطمئنة . . . ثم أذنت له . . .

وكتب الرافعى رسالته الأولى إلى صاحبته التى غلبته على قلبه ، وقرأت زوجته الرسالة وطوتها وأرسلت بها إلى صندوق البريد . . .

وجاء جواب صاحبته فقرأته زوجته كما قرأت رسالته ، وصار هذا دأبهما من بعد... لاترى زوجته لها حقا عليه إلا أن تعرف ، ولا يرى على نفسه فى ذلك ملامة ماذامت زوجته تعرف . . . !

وأنشأ هذا الحب طُرفتين فى الأدب العربى تم بهما نقص العربية فى فلسفة الحب والجمال ، هما كتابا « رسائل الأحزان » و « السحاب الأحمر » ولكن . . . ولكن أحدا لم يقرأ القصة الأخرى . . . قصة الحب والوفاء والتضحية ، لأن الرافعى لم ينشرها فيما ألف من الكتب فى فلسفة الجمال والحب . . . !

(شبرا) محمد سعيد العريان

الفلسفة الشرقيـــة
بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٨ —

الديانة الفارسية

لاريب أن من يلقى على الديانة الفارسية نظرة فاحصة يأخذ بلبه ما يجده بارزا بين جوانبها من المبتدعات « الزرادشتية » التى يجزم بعض مؤرخى الحركة العقلية بأنها لم يسبق لها نظير فى تاريخ الديانات القديمة ، إذ لا يعرف التاريخ قبل « زرادشت » مجددا قلب الدين القديم رأسا على عقب وأحدث فيه أحداثا جديدة إلا « أخناتون » الفرعون المصرى الذى نادى بالتوحيد فى وسط معمعان الوثنية والتعدد الطاحنين ؛ ولكن «أخناتون» فى نظر هؤلاء المؤرخين لم يبلغ مرتبة « زرادشت » لأن دعوته كانت تجديدا سياسيا أكثر منها دينيا ، ولهذا قد فشل تجديده على أثر صعود خلفه على العرش ، وإذاً فزرادشت هو الفذ الأسبق فى هذا التجديد

ولكن ليس معنى هذا أن « زرادشت » قد قطع كل العلائق بالديانة القديمة وأنشأ ديانته إنشاء كاملا ، كلا ، وإنما هو قد أقر منها الشئ الكثير ، وهذا هو الذى يحدونا إلى أن نلقى على الديانة القديمة نظرة عجلى قبل أن نعرض للديانة « الزرادشتية »

الديانة قبل زرادشت

ليس عندنا من المصادر عن الديانة الفارسية السابقة على « زرادشت » القدر الكافى لإعطائنا عنها صورة واضحة تمكننا من تحليلها على الطريقة العلمية القيمة ، وإنما كل ما نعرفه فى هذا الصدد هو أن نقوشا أثرية يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل المسيح وجدت فى الشمال الغربى من بلاد فارس ، ووجدت فيها أسماء آلهة هندية ثلاثة وهى : « ميترا » و « أندرا » و « ڤاروتا »

ولما كان من غير الممكن أن تصل هذه الآلهة الهندية إلى ذلك المكان دون أن تخترق البلاد الفارسية، فقد استنتج بعض الباحثين ونخص منهم بالذكر الأستاذ « دينيس سوريه » أن للديانة الهندية أثراً عظيما على الفارسية الأولى. وقد ذهب غيرهم إلى ما هو أبعد من هذا، فزعم أن « أهورامازدا » إله « زرادشت » هو محرف عن « أور رواناشول » الإله الهندى العتيق، ولكن هذه مغالاة شديدة من أصحاب هذا الرأى، إذ النظريات العلمية لا يصح أن تبنى على مثل هذه التكهنات المستنتجة من التحككات اللفظية

ومهما يكن من الأمر، فإن تأثر الفارسية بالهندية أمر مقطوع به، إذ أننا نجد مثلاً فى الكتاب الفارسى المقدس « زند أفيستا » أسطورة تحدثنا عن « ييما » أول إنسان[1] أنه أطعم أبناءه لحماً محرماً (ولعله لحم ثور) ليصيرهم خالدين، وأنه قد فعل هذا نزولا عند نصيحة أحد الآلهة، وقد ظلت هذه العقيدة فيما يظهر سائدة حتى جاء « زرادشت » فأعلن احتجاجه ضد هذه الخرافة وصرح بأن الخلود لا يمكن أن يتوقف على أكل لحم الثور وإنما هو شئ معنوى يمنحه «أهورامازدا» لمن يستحقه بالفضيلة[2]

ومن هذه الأساطير أيضاً ما يحدثنا به « هيرودوت » من أن الملكة « أميتريس » حين صارت عجوزا أمرت بدفن أربعة عشر طفلاً من أبناء النبلاء أحياء، ليكون ذلك قربانا عنها، ليقر بها من الآلهة.

تمتاز هذه الديانة القديمة بأنها كانت تأمر بعبادة العناصر الأربعة: النار ممثلة فى كوكبيها العظيمين: الشمس والقمر، والهواء والماء، والتراب، وبتقديس كل مظاهر الطبيعة، وبأنها تأمر بتضحية بعض الحيوانات كالثيران والكباش، ولكن يجب أن يكون ذلك على يد جمعية مؤلفة من رجال الدين تنعقد خصيصاً للاشراف على الضحايا. وكانت بعض الحيوانات تمتاز بقداستها على البعض الآخر، فكلب الماء مثلاً كان مقدساً إلى حد أن من يقتله يجب أن يعاقب بضربه عشرين الف عصا، وكان هذا المسكين يموت غالباً قبل أن يستوفى هذا العدد، غير أنه إذا نجا بمعجزة، وجب عليه أن يشكر الآلهة على هذه النجاة، وذلك بتقديمه عشرة آلاف قربان من السوائل، وأن يقتل عشرة آلاف ضفدعة، ولم تكن هذه الحماية مقصورة على كلاب البحر، بل كانت القنافذ والكلاب البرية كذلك، كما كانت الثعابين والنمل والضفادع على العكس من ذلك تماما.

وعندهم أن الميت يجب أن يدلك بالشمع ثم تعرضه جمعية رجال الدين للطيور والكلاب، لتمزق جسمه وتأكل منه ما تشاء، ثم يوارى الباقى فى التراب. وقد تطورت هذه العقيدة فيما بعد فتحولت إلى عقيدة عرض الأموات فى برج السكوت. ومن المحتمل أيضاً أن يكون الهنود الذين لا يزالون يعرضون جثث موتاهم لتمزيق الوحوش قد تأثروا بهذه الشعيرة.

وعندهم أيضاً أن الشعر والأظافر بعد فصلها من الأجسام الحية تصبح مدنسة، وكذلك النَّفَسُ البشرى مدنس؛ ومن عقائدهم كذلك أن الجثة البشرية قد تطهر إذا قطعت ومزقت أجزاؤها ثم مر أحد الناس بهيئة خاصة من بين هذه الأجزاء.

وعندهم أن زواج الأمهات والأخوات والبنات ليس مباحاً فحسب، بل إنه مستحب وموصى به، أما الزنى فهو عندهم جريمة كبرى.

لم تمنع عبادة العناصر الفرس من اتخاذ آلهة أخرى لكل واحد منها اختصاص محدد مثل « أناهيتا » إلهة الماء والخصوبة التى صوروها بعدة أشكال وبدلوا اختصاصاتها كثيراً والتى يظن بعض الباحثين أنها أثر من « إيستار » إلهة « بابل » القديمة لا سيما وإن شمال بلاد الفرس كان خاضعاً لاستعمار البابليين فى ذلك العهد.

كان بعض الشعب يعتقد أن « هاومو » — وهو اسم لشراب كحولى — هو اسم لشخصية بين الآلهة والبشر والبعض الآخر يعتقد أنه إله يجب أن يعبد، وقد عبدوا هذا الشراب بالفعل، ووضعوا عدة أناشيد، للتغنى باسمه. وقد صرح الأستاذ « دينيس سواريه » بأنه لا مانع عنده من أن يكون لهذه الأناشيد التى تغنى بها الفرس القدماء فى عبادة الخمر أثر على رباعيات عمر الخيام التى جاءت بعد ذلك ببضعة عشر قرناً.

هذا كله خاص بعقيدة العامة وجماهير الشعب؛ أما الخاصة فقد كانت لهم عقيدة أرقى من هذه العقيدة على نحو ما كانت الحال عند المصريين القدماء، إذ تحدثنا آثار ملكية وجدت فى

(١) يلاحظ أن « ييما » الذى هو أول إنسان عند الفرس، هو نفس « ياما » أول إنسان فى الديانة الهندية كما أسلفنا.

(٢) راجع . ج . هـ . مولتون . (الزورواسترية الأولى) صفحة ١٤٩

مدينتي «سوز» و «بيرسيبوليس» أن كثيراً من الملوك كانوا يؤمنون بالالهين: «ميترا» و «أناهيتا» وغيرهما من آلهة الشعب، ولكنهم كانوا يضعون على رأس هذه الآلهة جميعاً الاله «أهورا مازدا» الذى سنتحدث عنه فى ديانة «زرادشت»، ومما يلفت النظر فى عقيدة الخاصة هو أن هذا الاله الرئيس كان عندهم غير مرئى وأن النار لم تكن إلا رمزاً له فحسب، وأنه لم يكن له معبد خاص، وإنما كانت جميع بقاع الأرض معابد له.

لقد ظل هؤلاء الملوك يعبدون «أهورا مازدا» عبادة حرة غير مقيدة بتعاليم نبوة «رزادشت» حتى آخر القرن الخامس قبل المسيح حيث اعتنقوا الديانة «الزرادشتية» وطبقوا كل طقوسها.

«الديانة الزرادشتية»

حياة زرادشت

يجمع أكثر الباحثين على أن «زرادشت» قد وجد حقاً وإن كانوا جميعاً لا يجرؤون على القول بأن لديهم أى برهان علمى يدل على وجوده؛ وهم يجمعون كذلك على أنه وجد حوالى نهاية القرن الثامن قبل المسيح، وإن كان قد شذت عن هذا الاجماع الأخير شخصية من أجل الشخصيات العلمية، وهى شخصية الأستاذ «كليمان» الفرنسى الذى يرى أنه وجد فى أوائل القرن العاشر قبل الميلاد [1]

يحدثنا أولئك الباحثون أن تاريخ هذا الزعيم الدينى مفعم بالأساطير الشعبية الغريبة التى لا يخلو منها شعب من الشعوب والتى رأينا صورة منها فى تاريخ «بوذا»؛ فن هذه الأساطير أنه ولد ضاحكا، رافعاً وجهه ويديه نحو السماء، وأنه حدثت ليلة مولده معجزات شتى رآها الخاصة والعامة؛ ومنها أنه تحدى بعض مشاهير السحرة فى عصره فحاولوا أن يهلكوه بكل ما أوتوا من علم وقوة، ولكنهم فشلوا فى ذلك فشلا ذريعاً. ومن ذلك أنه كان ينسحب من البقاع الآهلة بالسكان ويأوى إلى الصحراء، ليعتكف فيها مناجياً ربه بقلبه ولسانه، وأنه كان يوحى إليه بوساطة رؤساء الملائكة، وأنه عرج به إلى حيث الاله نفسه فصار أمامه، وأنه سحر الملوك ببراهينه، وأنه كان دائما على رأس الدعاية التى أسسها لدينه، وأنه مات فى إحدى الحروب الدينية التى كان يقوم بها تبعاً لأوامر شريعته، إلى غير ذلك من الأساطير الفاتنة التى تنظمها الشعوب عادة، لتحوط بها زعماءها أو تتخذها رمزاً لمستقبلها.

أما التاريخ فيحدثنا أن «زرادشت» نشأ فى بيئة ريفية متواضعة لا تستطيع أن تحمى نفسها مما ينزل بها من غارات جيرانها، ولهذا كان أكبر ما يشغل «زرادشت» فى شبابه هو أن ينجو هو وأسرته من غزو القبائل الرحالة التى كانت تهدد تلك الجهات فى ذلك العهد. ويحدثنا أيضاً أن أخلاقه الشخصية كانت على أسمى ما يمكن أن يكون فى تلك العصور، فقد رأينا آنفاً أنه عارض الدين القديم لحماية الأخلاق، إذ أعلن أن الخلود لا يكون إلا جزاء للفضيلة؛ وقد أعلن كذلك أن قتل أى كائن حى فى الغزو والغارات المؤلفة لأجل السرقة والسلب هو من أفظع أنواع الجرائم حتى ولو كان هذا المقتول حيواناً، ولكن التبعة فى ذلك واقعة كلها على المعتدين لا على الدافعين عن أنفسهم. وعنده أيضاً أن أجل الغايات هى الخلود النفسانى وإن كان السمو لم يمنعه من أن يعنى بالحياة الدنيا عناية فائقة إلى حد أن يفسح فى أدعيته مكاناً عظيما لطلب متع الحياة من: مال وخيل وجمال فيقول «أنا أسألك أن تنبئنى بالحقيقة يا «أهورا» هل أنت العدل حقاً؟ وهل حقاً سأنال هــذه المكافأة التى وعدت بها، وهى عشرة أفراس وحصان وجمل، وأيضاً الهبة المستقبلة التى وعدتنى بها وهى النعيم والخلود» [1]

أهم مميزات الديانة الزرادشتية

قبل أن ندخل فى تفاصيل هذه الديانة يجمل بنا أن نشير إلى أهم مميزاتها العامة التى تأسست عليها، وهى:

(١) إن هذه الديانة أسست على فكرة خطيرة أحدثت فى تاريخ الديانات هزة عنيفة لا عهد لها بها من قبل، وهى أن جميع الآلهة المذكورة فى تاريخ الديانات كانت آلهة محلية أي كان لكل شعب آلهته، بل لكل مقاطعة آلهتها، أو لكل قرية إلهها، وأن كل التطورات التى أحدثها الزعماء الدينيون قبل «زرادشت»

---

(١) راجع كتاب «ديانات العالم» للأستاذ «كليمان» صفحة ١٥٨ طبعة باريس سنة ١٩٣٠.

(١) نقله الأستاذ «ميه» عن كتاب «أفستا» فى محاضراته الثلاث عن هذا الكتاب طبعة باريس سنة ١٩٢٥

كانت تتناول تغييرات داخلية كما أشرنا إلى ذلك حين مثلنا لك بأخناتون ، أما « زرادشت » فقد استطاع أن يعلن فى جرأة أن « أهورامازدا » ليس إلهاً فارسياً ، وإنما هو إله الكون كله ، وأنه هو نبي تلقى الوحي من هذا الإله العالمي الذى ليس له شريك وإنما له خصم هو دونه فى الرفعة وهو « أهرمان » إله الشر الذى سينهزم على ممر الزمن وسينعدم جنده وأنصاره بانعدام الرذيلة من فوق الأرض .

(ب) إن هذه الديانة تمتاز عن غيرها من الديانات القديمة بأنها بنيت على أساس مبدأ تعميم الخير وإبادة الشر ، وهى ترى أن من أهم الوسائل الضرورية لتحقيق هذه الغاية هو تقوية النوع البشرى ونشر الخصوبة والعمران على سطح الأرض .

ويلاحظ بعض الباحثين أنه وإن وجد الخير والعدل فى غير الديانة الفارسية من الديانات القديمة ، إلا أن تلك الديانات لم تتخذهما غاية لها كما فعل « زرادشت » ؛ فخصومة « أوزيريس » وشقيقه « سيت » لم تكن حرباً بين الخير والشر ، وإنما كانت خصومة سياسية اضطرمت نارها من أجل الاستيلاء على العرش ، وإن كان أصحاب هذا الرأي لا يستطيعون أن يجحدوا أن الحق والعدل قد فازا فى هذه الأقصوصة بأكبر نصيب ، ولكن هناك فرقاً بين كون العدالة ممثلة فى الأسطورة كما كانت الحالة فى مصر وكونها غاية لها كما هي الحال فى الديانة « الزرادشتية » .

أما فى بابل فالحالة أدهى وأمر ، إذ نلقى الآلهة هناك بعيدين كل البعد عن فكرة العدالة كما تدل على ذلك أسطورة الطوفان البابلي الذى نكبت به آلهة بابل بني الانسان دون ذنب جنوه ولا جريمة اقترفوها ، وإنما كان بسبب نزاع قام بين أولئك الآلهة .

(ج) وحد « زرادشت » بين الإله « مازدا » وبين الخير توحيداً جعلهما اسمين لمسمى واحد ، فسبق أفلاطون إلى هذا المزج الفلسفي والأخلاقي العظيم . وبهذا أصبح الخير قلب الديانة « الزرادشتية » الذي ينبض بحياتها ، وقد أعلن أن الخير سيعم الكون كله عند ما تسود الفضيلة وينهزم إله الشر « أهرمان » الذي هو العدو الأوحد لأهورا والذى هو دائم الحرب معه مستعينا بجنوده من أنصار الرذيلة والفساد ، والذى يجب على كل مؤمن أن يقوم بنصيبه من قتاله بإبادة جانب من جوانب الرذيلة

يرى بعض العلماء أن تأسيس الديانة الزرادشتية على الفكرة من حيث هى ليس مميزاً لها ، وإنما المميز هو تأسيسها على فكرة الخير ، إذ كل الديانات الراقية : قديمها وحديثها قامت على مبادىء مختلفة ، فالبوذية مثلا أسست على مبدأ : الألم ، والمسيحية على مبدأ : الحب ، والإسلامية على مبدأ : التوحيد

ويعلق ذلك الفريق من العلماء على هذا الرأى بقوله : «ولكن الشعوب التى ظهرت فيها هذه الديانات لم تفهم تلك المبادىء العالية التى قصد إليها زعماؤها ، وإنما أحاطوها بسياج سميك من أساطير الوثنية الأولى التى بعثوها من مراقدها وأنزلوها من الاحترام العملى منزلة طغت على الغاية الأساسية للديانة ؛ فأنت إذا فتشت فى هذه الديانات الراقية بعد وفاة زعمائها وجدت ذلك ملموساً لا يحتاج إلى جدل ، فـ « بوذا » لم يتخيل قط أنه سيؤله ويعبد بعد موته ، ولو تخيل هذا فى حياته لانكسر قلبه حزناً وألماً ؛ و « زرادشت » لم يتصور ألبتة أن الشعب سيرفعه بعد عشرين سنة إلى منزلة « أهورامازدا » ؛ والمسيح لم يدر له بخلد أن الشعوب التى اعتنقت ديانته ستتغالى إلى هذا الحد فى شخصيته البشرية ؛ ومحمد لم يكن يسمح من غير شك أن تدعو أمته قوماً من البشر للشفاء أو لقضاء الحاجات كشركاء لله الذى قضى نبيهم حياته فى النداء بتوحيده وإفراده بكل شىء .

أما ما تحاوله العقلية العصرية من تفسير هذه الديانات بما يلائم روح هذا العصر فهو فاشل أو قليل النجاح ، لأن عامة الشعوب لا تستطيع أن تتعقل تلك المبادىء السامية التى أتت بها هاتيك الديانات .

(يتبع) محمد غلاب

نقــل الأديــب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٦٩ — وتضحي ممالك قوم طعم

أبو العلاء احمد بن سليمان :

تلوا باطلا ، وجلوا صارماً وقالوا : صدقنا فقلنا : نعم

يدول الزمان لغير الكرام وتضحي ممالك قوم طُعَم[1]

١٧٠ — جهنم اليهود وجنتهم في الدنيا

في (شرح النهج) لابن أبي الحديد : كل ما في التوراة من الوعد والوعيد فهو لمنافع الدنيا ومضارها . أما منافعها فمثل أن يقول : إن أطعتم باركت فيكم ، وكثرت من أولادكم ، وأطلت أعماركم ، وأوسعت أرزاقكم ، واستبقيت اتصال نسلكم ، ونصرتكم على أعدائكم . وإن عصيتم وخالفتم اخترمتكم ، ونقصت من آجالكم ، وشتت شملكم ، ورميتكم بالجوع والمحل ، وأذللت أولادكم ، وشمت بكم أعداءكم ، ونصرت عليكم خصومكم وشردتكم في البلاد ، وابتليتكم بالمرض والذل ، ونحو ذلك .

ولم يأت في التوراة وعد ووعيد بأمر يتعلق بما بعد الموت[2]

١٧١ — يادولة السوء لا لقيت صالحة

يادولة السوء لا لقيت صالحة

هل لانقراضك من وقت فينتظر[3]

(١) دالت له الدولة : كانت له . الطعم : جمع الطعمة : المأكلة ، يقال : جعل السلطان ناحية كذا طعمة لفلان أى مأكلة له (الأساس ، اللسان)

(٢) نكتة في (الأحكام في أصول الأحكام) لابن حزم : إن اليهود استجازوا الكذب على الباطل بغير العبرانية ، وادعوا أن الملائكة الذين يرفعون الأعمال لايفهمون إلا العبرانية فلا يكتبون عليهم غيرها . . .

(٣) الدولة : بالفتح والضم وجمع المفتوح دول بالكسر ، وجمع المضموم بالضم . وفي القاموس : دول مثلثة (فينتظر) بالرفع على الاستئناف والقطع ومن قول البسامي :

ألا يادولة السفل أطلت مكث فانتقلي

ويارب الزمان أفق تبصت إثبيرطق الدول

الدولة تجمع على الدولات قال :

وفيت كل صديق ودني ثمناً إلا المؤمل أيامى ودولاتى

وكيف نرجو خلاصاً أو نرى فرجاً

وفيك طول وفي أعمارنا قصر ! !

١٧٢ — أؤدب أمرهما وأقبل رأس الآخر

في (الموشح وخزانة البغدادي) : قال أبو جعفر محمد بن موسى المنجم : كنت أحب أن أرى شاعرين فأؤدب أحدهما وهو عدى بن الرقاع لقوله :

وعلمت حتى ما أسائل عالماً عن علم واحدة لكي أزدادها

ثم أسائله عن جميع العلوم فاذا لم يجب أدبته ، وأقبل رأس الآخر وهو زيادة بن زيد لقوله :

إذا ما انتهى علمي تناهيت عنده أطال فأملى أو تناهى فاقصرا[1]

١٧٣ — الدنيا سوفسطائية

في (الذريعة إلى مكارم الشريعة) للراغب الأصفهاني : قال بعض الحكماء المكر والخديعة محتاج إليهما في هذا العالم ، وذلك أن السفيه يميل إلى الباطل ، ولا يقبل الحق ، ولا يميل إليه لمنافاته لطبعه فيحتاج أن يخدع عن باطله بزخارف مموهة خدعة الصبي عن الثدي عند الفطام ، ولهذا قيل : مخرق[2] فان الدنيا مخاريق ، وسفسط[3] فان الدنيا سوفسطائية . وليس هذا حثاً على تعاطي الخبث بل هو حث على جذب الناس إلى الخير بالاحتيال .

١٧٤ — أين الوعد

في (وفيات الأعيان) : قال أبو محمد بن الحسن بن عسكر

(١) من أبيات (الكتاب) والشاهد دخول (أو) لأحد الأمرين . ومن شواهد (شرح الكافية) على أنه روى بـ (أو) و بـ (أم) فعلى الأولى قوله (أطال) الهمزة للصيرورة ومصدره الاطالة وعلى الثانية تكون الهمزة للاستفهام والفعل طال . (أملى) امتد من الملى وهو الزمن الطويل : أى أنتهي حيث انتهى بي العلم ولا أتخطاه مطيلا كان أو مقصراً وبعد البيت :

ويخبرني عن غائب المرء هديه كفى الهدى عما غيب المرء مخبرا

ولا أركب الأمر المدوى سادراً بعمياء حتى أستبين وأبصرا

(الهدى) السيرة (المدوى) المبهم المستتر (السادر) المتحير

(٢) مخرق الرجل أوهم أنه على حق وصواب وهو على خلافه (الشريشي) والكلمة مولدة . وفي مقامات الحريري (لأكذب من أبي ثمامة حين مخرق باليمامة) وفي اللغة الخرق والتخرق والتخريق : الاختلاق

(٣) السفسطة قياس مركب من الوهميات والغرض منه تغليط الخصم وإسكاته (التعريفات) وفي (محصل الرازي) السوفسطائية الذين قدحوا في الحسيات والبديهيات

الصوفى الواسطى : كنت ببغداد فى سنة (٥٢١) جالساً على دكة باب ابرز للفرجة ، فجاء ثلاث نسوة ، فجلسن إلى جانبى ، فأنشدت متمثلا :

هواء ولكنه جامد وماء ولكنه غير جار

وسكت ، فقالت احداهن : هل تحفظ لهذا البيت تماماً ؟ فقلت : ما أحفظ سواه . فقالت : إن أنشدك أحد تمامه وما قبله فماذا تعطيه ؟ فقلت : ليس لى شيء أعطيه ولكني أقبل فاه ، فأنشدتنى :

وراح من الشمس مخلوقة بدت لك فى قدح من نهار
هواء ولكنه جامد وماء ولكنه غير جار
إذا ما تأملتها وهى فيه تأملت نوراً محيطاً بنار
كأن المدير لها باليمين إذا مال للسقى أو باليسار
تدرع ثوباً من الياسمين له فرد كم من الجلنار [1]

فحفظت الأبيات منها . فقالت لى : أين الوعد ؟ . . — تعنى التقبيل — أرادت مداعبتى بذلك .

١٧٥ — كيف الحياة مع الحيات فى سفط

ابن عسال الطليطلى (عبد الله بن فرج) : حين أخذ الإفرنج طليطلة سنة (٤٧٨) :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس
فما المقام بها إلا من الغلط [2]
السلك ينثر من أطرافه وأرى
سلك الجزيرة منثوراً من الوسط [3]
من جاور الشر لا يأمن عواقبه
كيف الحياة مع الحيات فى سفط! [4]

(١) الياسمين : بفتح السين وكسرها ، الواحد ياسم ، وبعض العرب يقول شممت الياسمين ، وهذا ياسمون . وهو فارسى معرب لا يجرى مجرى الجمع (التاج) . الجلنار : زهر الرمان معرب كلنار . الأبيات لأبي القاسم على بن محمد القاضي التنوخى الانطاكى

(٢) الراحلة عند العرب كل بعير نجيب ذكرا وأنثى ومقصوده بالرواحل غير الابل فى ذاك الأقليم

(٣) الوسط اسم لما بين طرفى الشيء وهو منه ، والوسط (بسكون السين) ظرف : كل موضع صلح فيه بين فهو وسط بالتسكين وإلا فبالتحريك (اللسان ، التاج)

(٤) السفط : وعاء مثل القفة جمعه أسفاط

١٧٦ — عائشة بنت طلحة زعيمة السفور

فى (الأغانى) : كانت عائشة بنت طلحة لا تستر وجهها من أحد ، فعاتبها مصعب [1] فى ذلك ، فقالت : إن الله (تبارك وتعالى) وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ، ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله ما فىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد

١٧٧ — يكتب هذا فى مكارم الأخلاق

فى (تاريخ بغداد) لابن الخطيب : قال محمد بن احمد بن موسى القاضى : حضرت مجلس موسى بن اسحق القاضى بالرى سنة (٢٨٦) وتقدمت امرأة فادعى وليها على زوجها خمسمائة دينار مهراً ، فانكر ، فقال القاضى : شهودك ، قال : قد أحضرتهم ، فاستدعى بعض الشهود أن ينظر إلى المرأة ليشير اليها فى شهادته ، فقام الشاهد وقال للمرأة : قومى ، فقال الزوج : تفعلون ماذا ؟ قال الوكيل : ينظرون إلى امرأتك وهى مسفرة [2] لتصح عندهم معرفتها ، فقال الزوج : وإنى أشهد القاضى أن لها على هذا المهر الذى تدعيه ولا تسفر عن وجهها ، فردت المرأة وأخبرت بما كان من زوجها ، فقالت المرأة : فإني أشهد القاضى أن قد وهبت له هذا المهر وأبرأته منه فى الدنيا والآخرة

فقال القاضى : يكتب هذا فى مكارم الأخلاق

(١) مصعب بن الزبير زوجها . سمع مصعب عزة الميلاء تغنى فى بيت عائشة فى شعر امرىء القيس :

وتفتر عن أغر شتيت النبات لذيذ المقبل والمبتسم
وما ذقته غير ظن به وبالظن يقضي عليك الحكم

فصاح : يا هذه إنا ذقناه فوجدناه على ماوصفت

(٢) فى الأساس واللسان والمصباح والتاج : سفرت فهى سافر بغير هاء، واسفر الوجه والصبح أضاءا وأشرقا . وامرأة مسفرة فى كلام العلماء فى القرن الخامس وما بعده

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الحادثات الجسام

على مقربة من جزر زارا السعيدة ، تقوم في البحر جزيرة فوقها بركان يقذف حممه عليها بلا انقطاع ، ويقول الشعب وبخاصة العجائز فيه : إن هذه الجزيرة منتصبة صخراً يسد باب الجحيم ، غير أن هنالك منفذاً ضيقاً يخترق البركان وينتهي إلى هذا الباب

في ذلك الزمان ، حين كان زارا يسكن جزره السعيدة ألقى مركب مرساته أمام الجزيرة التي يعلوها الجبل المشتعل . ونزل بحارته إلى البر ليقتنصوا بعض الأرانب ، وما حان وقت الظهيرة واجتمع القبطان برجاله بعد أن لموا شعثهم حتى رأى هؤلاء الناس رجلاً يخترق الفضاء بغتة إليهم ثم اقترب منهم وصاح بهم بصوت جلي قائلاً : لقد حان الزمن ، لقد اقترب كثيراً ...

ومر بهم الشبح مسرعاً وهو يتجه إلى البركان ، فتميزوا به شخص زارا لأنهم كانوا رأوه من قبل جميعهم ماعدا القبطان وأحبوه كما يحب الشعب من يخشى

فقال شيخ البحارة — هذا زارا يسير إلى الجحيم

وفي الزمن الذي نزل فيه البحارة إلى جزيرة اللهب ، كان شاع اختفاء زارا بين الناس وقال صحبه لمن سألوا عنه : إنه أبحر على مركب تحت جنح الظلام ولم يعرف أحد الوجهة التي يقصدها

هكذا ساد القلق من اختفاء زارا ؛ وبعد ثلاثة أيام زاد هذا القلق بعد أن أخبر البحارة بما رأوا ، وشاع بين الشعب أن إبليس قد اختطف زارا ، ولكن صحب زارا لم يأبهوا لهذه الاشاعة بل ضحكوا منها وقالوا : إن ما نعتقده هو أن زارا قد اختطف الشيطان

غير أن اختفاء زارا كان يشغل بال صحبه ، وما مضت خمسة أيام حتى عاد إليهم ، فكان سرورهم عظيما

وهذا ما نقله زارا عن حديثه مع كلب النار . قال : إن للأرض جلداً ولهذا الجلد أمراضه ، وأحد هذه الأمراض الإنسان

وهنالك مرض آخر يدعى كلب النار ، وقد كان هذا الكلب السبب في تناقل الناس الأكاذيب وتصديقهم لها . وما اجتزت البحار إلا لأكشف هذا السر فرأيت الحقيقة عارية من أخمص قدميها حتى عنقها ، فما تخفى عني الآن حقيقة كلب النار ، وحقيقة جميع أبالسة التمرد والأقذار التي لا تتفرد العجائز بالذعر منها

لقد هتفت قائلاً : اخرج من أغوارك أيها الكلب الناري وقل لي كم هي عميقة أغوارك ومن أين تأتي بما تنفثه علينا . إنك تكرع من البحر بشراهة ، وذلك ما تنم عليه مرارة الملح في ثرثرتك ، والحق أنك وأنت كلب الأغوار لا تستمد غذاءك إلا من الأماكن السطحية ، فما أنت إلا كالمتكلم من بطنه لأنني في كل مرة سمعت فيها أقوال أبالسة التمرد والأقذار تبينتهم أشبه بك في دناءتك وأكاذيبك . لقد اتفقت أنت معهم على النباح واتفقتم جميعكم على ذر الرماد ونشر الظلام فأنتم أعظم المتفاخرين وتعرفون كيف تدفعون بالأوحال إلى الفوران وحيث تكونون لابد أن تحيط بكم الوحول وكل ماهو إسفنجي مضغوط ضيق المسام وما يطلب الانطلاق إلا من اتصف بهذه الصفات . والحرية هي الصرخة التي تفضلونها غير أنني فقدت إيماني بالحادثات الجسام منذ رأيت الصراخ والدخان يتعاليان حولها .

صدقني يا إبليس الثورات الصاخبة الجهنمية ، ليست أعظم الحادثات في أكثر ساعاتنا ضجيجاً بل هي في أعمقها صمتاً . وما يدور العالم حول موجدي الشغب الجديد بل هو يدور على محور موجدي النظم الجديدة .

لابد لك أيها الشيطان من الاقرار بسخافة ما كانت تنقشع عنه قرقعتك وضباب دخانك وهل من جسام الأمور أن تتحول مدينة إلى مومياء وأن يتداعى عامود إلى الأوحال ؟ وهذه كلمة أخرى أوجهها إلى هدامي الأعمدة : إن أقصى الجنون هو في إلقاء الملح إلى البحر وفي إسقاط الأعمدة إلى الوحول ، لأن هذه الأعمدة كانت مطروحة على أوحال احتقاركم وها هي ذي تنهض بسيماء الآلهة وقد انطبع عليها الألم الساحر . فهي والحق تدين لكم بالشكر لأنكم أسقطتموها أيها الهادمون .

وها أنذا الآن أسدي النصح للملوك والكنائس ولكل من أضعفته الفضيلة أو أهرمه الزمان فأقول : دع القوة تسقطك لتعود إلى الحياة لترجع الفضيلة إليك .

هكذا تكلمت أمام كلب النار ، فقاطعني بهريره قائلا :

(الكنيسة ، وما هي هذه الكنيسة؟) فقلت : إن الكنيسة شيء أشبه بالدولة ، بل هي من أكذب أنواع الدول ، ولكن صه أيها الكلب ، فانك أخبر بنوعك من أي كان . إنما الدولة حيوان خبيث على شاكلتك فهي تحب أن تتكلم فترسل بيانها دخاناً وهريراً لتخدع الناس وتجعلهم يعتقدون بأن أقوالها مستمدة من غور الأمور . فهي تريد أن تكون أعظم حيوان على وجه الأرض والعالم يراها على ما تريد . (*)

وظهرت على وجه الكلب أفظع معاني الحسد فصاح : ماذا تقول وهل يعتقد أحد أن الدولة هي أعظم حيوان على الأرض ؟

قال هذا وخرجت من بين شدقيه إعصار من الدخان وازداد هريره حتى حسبته مقتولا بغيظه . ولكنه ما لبث حتى استعاد السكون فقلت له : — لقد تملكك الغيظ ، يا كلب النار ، وذلك دليل على أنني أقول الحق عنك . وهأنذا أستمر في إعلان الحقائق فأحدثك عن كلب آخر من أتباع النار وهذا الكلب يتكلم حقيقة من قلب الأرض ، فلهاثه من ذهب ، وما يحسب حساباً للرماد والدخان والزبد الحار فإن فيما حوله ترتفع قهقهة تنتشر كأنها سحاب يزهو بعديد ألوانه . وهو عدو هريرك وزبد شدقيك وما في أحشائك من الاختلال . إن هذا الكلب يأخذ الذهب والضحك من قلب الأرض لأن قلب الأرض من ذهب ، فاعلم هذا أنت .

وغلب الكلب على أمره عند سماعه هذه الكلمات فأرخى ذيله خجلا وبدأ يعوي وهو يزحف زحفاً إلى مغارته .

هذا ما سرده زارا لأتباعه ولكن أتباعه ما كانوا يبالون بما يقول وقد اشتد شوقهم إلى إخباره عما حدث للبحارة والرجل الطائر في الهواء .

ولما سمع زارا ما قصوه عليه قال : ماذا عساني أظن بما قلتم ؟ أفأكون شبحاً من الأشباح ؟ ولعل ما رأوه لم يكن سوى خيالي ولعلكم سمعتم حكاية المسافر وخياله ، غير أنه من الواجب على أن أشدد النكير على خيالي فلا يذهب كما يشاء نائلا من شهرتي .

وهز زارا رأسه بتعجب متسائلا عما يقوله في هذا الحادث وهو لا يدري لماذا هتف الخيال قائلا : لقد اقترب الزمان .

هكذا تكلم زارا . . .

(*) لا ريب في أن زارا لا يقصد بهذا الوصف إلا الدول القابضة على عنق الشعب بالحكم المطلق

العراف

« . . . ورأيت الناس يستولي عليهم حزن عميق ، وقد وهنت قوى خيارهم فيما يعملون . وانتشر تعليم يؤدي إلى الإيمان في أن كل شيء باطل ومتشابه وقيد الزوال . فتجاوبت الأصداء في الهضبات مرددة : كل شيء باطل ومتشابه وقيد الزوال

لقد حصدنا ولكن غلالنا أكمد لونها وتهرأت ، فأي شيء تساقط تحت جنح الظلام من وراء كوكبه اللئيم ؟

لقد ذهبت جهودنا سدى وفسد خمرنا فاستحال سماً زعافاً فكأن عيناً حاسدة أصابت حقولنا وقلوبنا فأذوتها

جففنا جميعنا فإذا نزلت بنا حارقة فلا يتطاير منا غير الرماد . لقد تعب منا كل شيء حتى لسان اللهيب

غاضت الينابيع أمامنا وتراجع البحر عنا وقد زلزلت الأرض تحت أقدامنا ولكنها لم تفغرفاها لتوارينا . فمن لنا ببحر نغرق فيه ، إننا نصرخ طالبين البحر فيذهب صوتنا بدداً على سطوح المستنقعات

والحق أننا بذلنا أقصى جهودنا طلباً للموت ولما نزل جثثاً تحيا وعيونها جاحظة على اللحود . »

هذا ما قاله أحد العرافين فذهب قوله نافذاً قلب زارا فبدله تبديلا ، وأصبح زارا حزيناً متعباً يضرب في الأرض شبيهاً بمن ذكرهم العراف في نبوءته

وقال زارا لأتباعه : لن يمضي زمن طويل حتى ينسدل هذا الغسق القاتم على وجه الأرض ، وأنا أحاذر ألا أجد وسيلة للعبور بنوري إلى ما وراءه فأنقذه من الانطفاء . هل من حافظ له بين هذه الأحزان وأنا قد أعددته ليضيء في العوالم البعيدة ويشع في طيات الظلام السحيق

وسار زارا شارداً يحمل همه في قلبه ، فأمضى ثلاثة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً ولا يعرف الراحة حتى وقف لسانه عن الكلام فاستغرق في نوم عميق . وجلس صحبه حوله يسودهم القلق طوال الليالي متوقعين أن يفيق ليردوه عن أحزانه

وأفاق أخيراً تخاطبهم بصوت كأنه ترديد صدى بعيد قائلا :

(أصغوا إلي ، أيها الصحاب ، لأقص عليكم ما رأيت في حلمي وساعدوني على تعبيره ، فإن حلمي قد أغمض عيني ولم يزل معناه كامناً فيه

« يتبع »

فليكس فارس

هذى المعاهد

قضَّيتُ آمالَ الحشاشة أجمعا ... ورأيت ما اغترق العيونَ وأمتعا

وعرضتُ من فِتَن الطبيعة موكباً ... سيظل فى خلدى نضيراً مونقاً

ومضيت عن نظرٍ بديع معجب ... حَسَنٍ إلى نظرٍ أحبَّ وأبدعا

وجَلَتْ جلاها لى الطبيعة أُفقَها ... وأديمها وأراكها المتضوعا

وقرارةً هبطتْ ونجداً صاعداً ... وخميلة نضرت وعشباً أمرعا

ونميرَ ماءٍ سارياً متوانيا ... حيناً وحيناً دافقاً متدفعا

ينساب آناً ساكناً مترقرقا ... بسطت حواليه الغصونُ الأذرعا

ورمتْ عليه ظلالها مخضرَّةً ... فكأنَّ روضاً رفَّ فيه وأفرعا

ويغيب آناً فى حنايا غابه ... إلا خريراً منه شق المسمعا

يتلو على سمع الصخور قصيدةً ... عذبَ البيان مجنَّساً ومسجَّعا

ويفيض من جسر إلى جسر إلى ... جسر يزمزم تحته متخشعا

ويضل عن بصرى ويذهب ضاوياً

ويعود يلقانى مليئاً مترعا

صرَّفتُ فى تلك المجالى نظرتى ... ورويت طرفى مرسلاً ومرجَّعا

واشتقتُ لى فى كل بيت مسكناً ... منها وجانبَ كلِّ دوحٍ مضجعا

يا حُسْنَ أبياتٍ هناك تتابعت ... زُمَراً تفرَّق بعضها وتجمعا

جثمتْ على قمم الربى وسفوحها ... وبدا بها نَوْرُ الزهور مرصَّعا

وزكتْ بساحتها الثمارُ شهيةً ... وغدتْ حواليها السوائم رُتَّعا

ويجودها هامى السحاب فتنجلى ... أبهى من الثلج النقى وأنصعا

ما ضرَّ مالكها ونازلَ حُسنها ... ما نال من آماله أو ضيَّعا

فتنٌ نعمتُ بها نهاراً خلتنى ... قد جُبْتُ حُسْنَ الكون فيه أجمعا

مُذ طالعتْها الشمسُ فى رأد الضحى

حتى زها فيها الأصيل مشعشعا

هذى المعاهد كم سعدتُ بظلها ... وخطرت فى جنباتها مستمتعا

وصحبتُ فيها الليل آخرَ قافلٍ ... ولقيتُ فيها الصبح أول من سعى

ومضتْ بها ذكرى إلىَّ حبيبة ... وخلا بها ودٌّ نما وترعرعا

وقبستُ منها الشعر أمس ولم تزل ... توحى إلىَّ الشعر والعليا معا

أكسفورد (انجلترا) — **فخرى أبو السعود**

قلبى . . . قلبى

للمرحوم مصطفى صادق الرافعى

قلبى أأنت نصيرى فى محبتها ... أم أنت يا قلب فيها بعض أعدائى

كل الذى فيك من برئى وعافيتى

هو الذى فيك من سقمى ومن دائى

يا رحمتا لك من قلب كصومعة ... فى رأس شاهقة فى جوف صحراء

شيدت من الصخر لكن فى طهارتها

هى الغمامة قد شيدت من الماء

فالموت فيها بلا معنى يميت كما ... فيها الحياة بلا معنى لأحياء

يا حسرتا لك من قلب تقلب من ... جوع لجوع وإظماء لإظماء

عند الأحباء لا يألو منازعة ... وإن تكن روحه عند الأحباء

ناءٍ قد ازورَّ عن ناء وما ابتعدا ... لكن معاند من يهوى هو النائى

يظل ذاكر حب غير محتفل ... ذكرى وناسىَ حب غير نسّاء

أوفى بك الحب يا قلبى على زمن ... كالأرض بعد حصاد الزرع للرائى

سوداء شعثاء مغبراً جوانبها ... من بعد لفاء ريا النبت خضراء

قلبى إن بت مطوياً على حرق ... من الصبابة تطفيها بإطفاء

ويك اتئد إن نيراناً تحرقنى ... فى حبها هى نيرانى وأضوائى

يا بؤس للقلب من هجر عرفت به ... ثقل الزمان على قلبى وأحشائى

يمر يوم فيوم فى تسلسله ... والحب جالسنى فى يوم أخطائى

مثل الضباب على الأنوار يتركها ... مرضى من النور قد حمت بظلماء

وشقة الهجر تمضى لا انتهاء لها ... إذا الدلال مشى فيها بإبطاء

حمامة الموكب الملكى

صَحِبَتْ رَكْبَهُ المُعَزَّزَ زَرْقا ... ءُ وَحَفَّ الرِّكابَ سِرْبُ الحَمامِ

وَقُلُوبُ الطُّيُورِ قَدْ شَفَّهَا الشَّوْ ... قُ إلَيهِ فَكَيْفَ قَلْبُ الأَنامِ

هِيَ رَمْزُ السَّلامِ قَدْ هَزَّهَا البِشْـ ... ـرُ فَحَلَّتْ عَلَى رَسُولِ السَّلامِ

يَهْبِطُ الطَّيْرُ أَيْنَمَا هَبَطَ السِّلْـ ... ـمُ وَسَادَ الوَرَى لِوَاءُ الوِئَامِ

اسكندرية — **احمد فهمى مرسى**



الفيتامينــــــات

VITAMINS

للأديب عبد المنعم عبد الحميد بدر

... الجسم كالمعمل الكيماوى تجري داخله عدة تفاعلات كيماوية معقدة للقيام بوظائفه الحيوية المختلفة ، والروح كالعالم الكيماوى داخل هذا المعمل أمامه المواد الكيماوية والمواد الأخرى التي يريد اجراء التجارب عليها لتحليلها والاستفادة منها . فاذا نقصت إحدى هذه المواد وخصوصاً إذا كانت ذات أهمية كبرى وقفت التجارب أو قل وقف معظمها لنقص هذه المادة التى كانت تدخل فى إجراء كل منها وبذلك يضعف الجسم وتنتابه الأسقام والآلام .

ومن هذه المواد المهمة والتى يحتاج إليها معمل الجسم بكثرة الفيتامينات ، إذ أقل ما يقال في وصفها أنها من المواد التى تنظم الحياة ، فعليها يتوقف سير عمليات الهضم والتمثيل وقوة الجسم أو ضعفه وقابليته للأمراض أو مقاومته لها . وتوجد هـذه الفيتامينات فى المواد النباتية كالخضر والفاكهة ومحاصيل الحقل كالقمح والشعير والفول ، والمواد الحيوانية كاللحوم والألبان متى كان كل منها طازجاً أو مضى عليه زمن طويل غير أنه محفوظ بطريقة خاصة تمنع تطرق الفساد إليه

تعريف الفيتامينات

هي عبارة عن مواد كيميائية معقدة غير معروفة التركيب إلى الآن وهى ذات أهمية أساسية لنمو الجسم وبقائه فى حالة صحية وغيابها يجعل النمو غير طبيعى فضلاً عن تعرض الجسم للأمراض المختلفة التي يسببها نقصها في الجسم . فمرض نحافة العظام والكساح يتسببان عن نقص فيتامين (د) فى الأم أثناء الحياة الجنينية فينشأ الطفل وفيه هذا المرض ، كذلك إذا غذى بالأغذية الصناعية كالألبان المجففة بطريقة تؤدى إلى موت الفيتامينات فيها إذا اضطرت الظروف إلى تغذية الطفل بغير لبن أمه الكامل والمحتوى على جميع الفيتامينات لأى سبب من الأسباب . وكثيراً مايؤدى نقص الفيتامين فى الجسم إلى إحداث مضاعفات شديدة وأمراض خبيثة تأتى تدريجياً وببطء قد تودى فى نهاية الأمر بالحياة

وتوجد سبعة فيتامينات وهي : فيتامين (ا) وفيتامين (ب) وفيتـامين (ج) وفيتامين (د) وفيتامين (هـ) وفيتامين (و) وفيتامين (ز) والستة الأولى أكثر أهمية من الفيتامين السابع ، وعلى العموم فلكل منها وظيفة خاصة لا يمكن أن يؤديها فيتامين آخر فى حالة عدم وجوده

طبيعة الفيتامينات

لم يعرف للآن التركيب الكيميائى للفيتامينات ما عدا الفيتامين (د) الذي توصل إلى معرفة طبيعته فقط فى الوقت الحاضر بالنسبة لعلاقته الشديدة بالأرجوسترول Ergosterol وهي مادة عضوية معقدة التركيب يمكن تحضيرها في المعمل ، وبعض العلماء يعتبر الفيتامينات مواد حية والبعض الآخر يعتبرها مواد كيميائية معقدة غير حية يمكن الوصول إلى معرفة تركيبها بالبحث والتجارب ؛ غير أنه لم يمكن تحضير أى فيتامين على حالة انفراد فيقال إن هذه المادة هى فيتامين (ا) أو (ب) . . . الخ ، وكل ما أمكن عمله هو الحصول على مركزات أو مستخلصات أو مجففات تكون فيها هذه الفيتامينات بكثرة كزيت كبد الحوت ومجفف عصير العنب والموالح أو مستخلص الفواكه واللحوم ويستدل على وجود الفيتامينات كيميائياً بما يأتى : —

(١) فصل الفيتامينات من المواد الغذائية باستخدام طرق كيميائية وتركيزها فى مركزات صناعية سهلة التداول (٢) عن طريق دراسة بعض الصفات الكيميائية المهمة (٣) عن طريق دراسة طبيعة المواد التي تقتلها وتؤدى إلى تحللها

وتدرس الفيتامينات من وجهة وجودها أو عدمه بطرق حيوية خاصـه وذلك عن طريق نوع من الأرانب الغينية

Guinea Digs لمعرفة ما إذا كان أى نوع من الغذاء يحتوى على نوع مخصوص من الفيتامين أم لا . ولتوضيح ذلك نفرض أن المطلوب معرفة هل يحتوى التفاح على فيتامين (ا) أم لا لذلك يؤخذ نوع الأرانب الذكور ويغذى أو يحقن بمادة غذائية تحتوى على جميع الفيتامينات ماعدا فيتامين (ا) ثم تغذى أو تحقن بمستخلص التفاح فان نما جسمها نمواً عادياً ولم تضطرب أي عملية من عملياته المختلفة فى مدة تتراوح ما بين ٢١ ، ٢٥ يوماً دل ذلك على وجود فيتامين (ا) فى التفاح . أما إذا مرضت الأرانب وظهرت عليها أعراض كالأعراض التي تنشأ عن نقص الفيتامين (ا) كان ذلك دليلا على عدم وجود الفيتامين (ا) فى التفاح

وتعتبر الفيتامينات على وجه العموم مواد نباتية إلا أنه توجد عدة اعتراضات مهمة تقف حائلا دون قبول هذا الرأى وأهمها صلاحية أى Ergosterol أو أى Estrol مماثل له سواء وجد فى الأنسجة الحيوانية أو النباتية ـ لأن يتحول إلى فيتامين (د) صناعياً بفعل الأشعة فوق البنفسجية وكذلك توجد شبهة قوية فى أن بعض الحيوانات لها قدرة اكتناز فيتامين (ج) فى كبدها وتمثيله

تقسيم الفيتامينات

تقسم الفيتامينات من وجهة ذوبانها فى الماء أو فى الدهون ومذيباتها إلى قسمين رئيسين وهما : —

(ا) فيتامينات توجد فى الدهون فهى بالطبع تذوب فى الدهون ومذيباتها وهى فيتامين (ا) وفيتامين (د) وفيتامين (هـ) وفيتامين (ز)

(ب) فيتامينات قابلة للذوبان فى الماء وهى (ب) و (ج) و (و)

خواص الفيتامينات

لقد أجري العلماء عدة تجارب دقيقة أمكن بها معرفة المواد الغذائية التي يوجد فيها كل فيتامين بكثرة أو بحالة مناسبة للجسم حتى يتمكن الانسان من إدخالها ضمن غذائه للمحافظة على سلامة جسمه ووقايته ومقاومته للأمراض . وسنبدأ بذكر خواص كل فيتامين على حدة ثم نذكر بعد ذلك وظيفة كل فيتامين والنتائج التي تحدث فى حالة عدم وجوده فى الجسم أو نقصان مقداره عن الحد المناسب لحالة الجسم ونذكر المواد الغذائية والمركزات الصناعية التي يوجد فيها كل فيتامين على الترتيب

فيتامين (ا) ويسمى :

(١) فيتامين ضد التهاب العين Anti-ophthalmic

(٢) فيتامين ضد عدوى الأمراض Anti-infetine

يتأثر هذا الفيتامين بالحرارة إلا أن درجة التأثر تتوقف على ظروف البيئة التي يوجد بها وهذا الفيتامين سريع الأكسدة فى الجو العادي فاذا سخن فى درجة حرارة عالية تحت جو مفرغ من الهواء أمكن المحافظة عليه خصوصاً إذا أزيل غاز الأكسجين واستبدل مكانه بغاز متعادل كالأزوت غير الفعال . وهذا الفيتامين لايتأثر ـ بدرجة كبيرة ـ بدرجات الحرارة العالية عند تعقيم المواد الغذائية المحفوظة إلا أنه يفقد بسرعة الأكسدة عند تجفيف الفاكهة والخضروات ما عدا الفاكهة التى تعامل بغاز ثانى أكسيد الكبريت قبل التجفيف .

وظائف هذا الفيتامين الحيوية

(١) يمنع عدوى الأمراض (خصوصاً التهاب العين وأعضاء التنفس) (٢) يساعد على نمو الجسم (٣) يحافظ على سلامة البنية (٤) يساعد على عمليات الهضم (٥) عامل مهم للتناسل (٦) يحتاج إليه الطفل مدة الرضاعة ولذلك يجب توفره فى لبن الأم (٧) يمنع تعرض الجسم لمرض الانفلونزا

بعض النتائج التى يسببها عدم وجود فيتامين (ا) أو وجوده بقدر :

(١) ضعف مقاومة الجسم لعدوى الأمراض (٢) وقوف الجسم عن النمو (٣) تعرض العين لما يأتي : —

(ا) مرض العين والتهابها وفقدان قوة الابصار أثناء الليل (ب) فقدان غدد العين لخاصية البكاء (ج) تعرض جميع أعضاء التنفس للأمراض (د) التهابات بقناة الهضم (هـ) التهابات بغدد اللعاب تحت اللسان (٤) إسهال (٥) ضعف طبيعى (٦) فقدان شهية الأكل (٧) تعرض الجسم للأنفلونزا

ويوجد هذا الفيتامين فى مركزات صناعية : —

(١) فى الجزء الذى لايتصبن من زيت كبد الحوت وهو محضر بالصيدليات (٢) كاروتين محضر من الجزر أو الخضروات الخضراء فيتحول الكاروتين إلى فيتامين (ا) في الجسم والمادة الوحيدة التي يوجد فيها هذا الفيتامين بغزارة هي زيت كبد الحوت

المواد النباتية التي يوجد بها هذا الفيتامين هي : —

(١) بكثرة مثل : برسيم حجازى — جزر — خس — سبانخ — طماطم — (٢) بكميات حسنة وهى : —

(ا) فواكه : — مشمش — موز — برتقال — خوخ — أناناس — فراصية (ب) خضراوات : — خرشوف — كشك

ألماز — كرنب — كرفس — ذرة (صفراء) — بسلة (الخضراء) فلفل (أخضر) — قرع — فاصوليا — بطاطا (صفراء)

والمواد الحيوانية التي يوجد بها هذا الفيتامين : —

(١) بكثرة : — زبدة — جبن — قشدة — بيض (المح) لبن (غير مفروز) (٢) بكميات حسنة : — الكبد — الكلى — حيوانات بحرية Oyster - clam

فيتامين (ب) ويسمى :

(١) فيتامين ضد مرض البري بري Anti - b eriblri

(٢) فيتامين ضد مرض الأعصاب Anti - neuritic

يتوقف تأثير الحرارة على هذا الفيتامين تبعاً للوسط إذا كان حمضياً أو قلوياً أو متعادلاً وهو يتأثر بالحرارة سواء وجدت في محلول أو في المواد الغذائية الطبيعية ، والوسط له تأثير على درجة الحرارة التي يقتل عندها أو تقل كميته ، فمثلا المواد الغذائية الطبيعة كالحبوب تفقد هذا الفيتامين عند تسخينها إلى درجه ١٢٠ مئوية لمدة نصف ساعة ولكن يسهل قتله عند درجة ١٠٠° م إذا كان الوسط متعادلاً أو قلوياً نوعاً ما ويقتل هذا الفيتامين تماماً عند درجة ٢٥٠° مئوية لمدة ٤ ساعات في معظم المواد الغذائية .

وظائف فيتامين (ب) الحيوية

(١) يساعد عمليات الهضم (٢) يساعد على تكوين العظام (٣) يمنع أمراض الأعصاب (٤) تحتاج إليه الأم مدة الرضاع (٥) يقوى أعضاء الهضم

بعض النتائج الحيوية التي يسببها عدم وجود الفيتامين (ب) أو قلته :

(١) ضعف أو فقدان شهية الأكل (٢) ضعف عمليات الهضم والأعضاء المختصة بها (٣) ضعف نمو الأطفال مدة الرضاع (٤) ضعف البنية (٥) التعب (٦) انخفاض في درجة حرارة الجسم العادية (٧) ظهور علامات مرض البري — بري كما يأتي :

(ا) فقدان تعاون الأعضاء (ب) شلل تدريجي بالأطراف (ج) اختلال وظيفة أعضاء الهضم (د) النحافة

ويوجد هذا الفيتامين في المركزات الصناعية الآتية

(١) محضر من الخميرة Marmite (٢) محضر من فضلات الأرز بعد تبييضه (٣) محضر من نخالة القمح

والمركب الوحيد الذي يحتوى هذا الفيتامين بغزارة هو الخميرة

والمواد النباتية التي يوجد بها هذا الفيتامين :

(١) بكثرة وهي حبوب : — قمح — ذرة — أرز — شوفان (بشرط عدم فصل الدقيق عن النخالة) — بسلة (٢) بكميات حسنة : كشك ألماز — تفاح — فول — موز — جزر — كانتالوب — قرنبيط — بلح — كرفس — عنب — خس — ليمون هندى — بطاطس — بندق وجوز — سبانخ — برتقال — طماطم — خوخ — لفت — قراصية — أناناس

والمواد الحيوانية التي يوجد بها هذا الفيتامين :

(١) بكثرة : — بيض (المح) (٢) بكميات حسنة : — المخ — الكبد — الكلى — الجبن — اللبن — Ozster (حيوان بحرى)

فيتامين (ج) — ويسمى فيتامين ضد الاسخربوط Anti - Scorbntis

يتحمل هذا الفيتامين الحموضة عن الفيتامينات الأخرى ويحتفظ طبيعته في المحاليل الحمضية أكثر من القلوية والمتعادلة ولذلك يتطلب أثناء عمليات حفظ عصير بعض أنواع الفاكهة المحافظة الدقيقة على هذا الفيتامين لمنع أكسدته ، ولا يتأثر هذا الفيتامين بالأشعة فوق البنفسجية ، ويجب المحافظة عليها من الأكسدة أثناء تعريضه لهذه الأشعة ، ومن المعتاد أنه يتلف أثناء التخمرات الحمضية بواسطة البكتيريا ولا يفقد طبيعته أثناء التخمر بواسطة الخميرة أو في حالة وجود الأحياء الدقيقة التي تساعد على تخمر سكر Centose وبعض أنواع البكتيريا الأخرى ، ويلاحظ أن عمليات الطبخ المنزلى تساعد دائماً على قتل هذا الفيتامين بخلاف المواد المحفوظة في العلب التي يمكن المحافظة على مقدار الفيتامين الذى تحتويه بالمحافظة عليها من التعرض لفعل الأكسدة مع ارتفاع درجة الحرارة المستخدمة . ولقد تيسر في الوقت الحاضر الاحتفاظ بهذا الفيتامين في المواد الغذائية المجففة وخصوصاً إذا أجريت عمليات التفريغ الهوائى أثناء عملية التجفيف .

وإذا عرضت المواد الغذائية التي تحتوي على هذا الفيتامين والتي يراد تجفيفها إلى أبخرة غاز ثاني أكسيد الكبريت ساعد ذلك على الاحتفاظ بكمية أوفر منه في الطريقة السابقة خصوصاً إذا عوملت المواد الغذائية المراد تجفيفها بواسطة محلول قلوى يعرف باسم Lye Solution وهو مكون من الماء والصودا الكاوية في العادة بنسبة تركيز ½ ٪ إلى ٣ ٪ وذلك قبل تعريض المواد التي يراد تجفيفها إلى أبخرة غاز ثاني أكسيد الكبريت ، فاذا تم التفريغ

الهوائى أثناء عملية التجفيف (فى حالة العصير) فان الفيتامين تزداد كميته أيضاً فى المادة الناتجة . ويمكن الاحتفاظ بهذا الفيتامين فى بعض المواد الغذائية كالشمش والقراصية إذا حفظت بطريقة التجمد ، وذلك لو فرغت الأوعية التى بها المواد من الهواء الذى يفضل تعويضه فى هذه الحالة بغاز غير فعال كالأزوت

خواص هذا الفيتامين الحيوية

(١) يمنع مرض الأسخربوط (٢) يساعد على تكوين العظام
(٣) يساعد على تكوين الأسنان وحفظها فى حالة سليمة

بعض النتائج الحيوية التى يسببها عدم وجوده أو قلته : —

(١) الأسخربوط : — (١) إدماء الجلد والمفاصل والأطراف (ب) إدماء العضلات والأنسجة (حـ) آلام وورم فى المفاصل والأطراف (د) إحداث عظام المفاصل صوتاً عند تحركها
(٢) تحلل كالسيوم العظام (٣) تحلل الأسنان وفقدانها
(٤) نقص فى وزن الجسم (٥) تعب (٦) فقدان الشهية للأكل (٧) تغير لون الوجه واصفراره

ويوجد هذا الفيتامين فى المركزات الصناعية الآتية : —

(١) محضر من عصير البرتقال (٢) محضر من عصير الليمون

ويوجد فى المواد النباتية :

(١) بغزارة : — كرنب — خس — بصل — سبانخ — طماطم — عصير طماطم — فواكه — عصير الليمون Lemon Juse برتقال — عصير برتقال

(٢) بكثرة : — خضروات — كرفس — راوند — لفت — عصير ليمون بلدى — خوخ — أناناس — شليك — تانجارسن

(٣) بكميات حسنة : — فول (مطبوخ) — تفاح — بنجر — كرنب (مطبوخ) — موز — عنب — جزر — قرنبيط — خيار — عصير عنب — بسلة مطبوخة — فلفل أخضر — ليمون هندى — بطاطس — قرع عسلى — سبانخ (مطبوخ) — كيثرى ذرة سكرية — لفت أخضر — بطيخ — بصل

ولا توجد مواد حيوانية بها هذا الفيتامين سوي اللبن

فيتامين (د) : — ويسمى فيتامين ضد مرض نحافة العظام Anti rachitic ووظائفه الحيوية هى : —

(١) يساعد على تكوين العظام (العناصر المهمة هى الكالسيوم والفوسفور) .
(٢) ينظم عملية ترسيب العناصر المعدنية فى العظام والأسنان
(٣) تحتاج إليه الأم الحامل لمنع نحافة عظام الطفل

بعض النتائج الحيوية التى يسببها عدم وجود الفيتامين (د) أو وجوده بقلة : —

(١) نحافة العظام (١) عظام غير صلبة (ب) تضخم الكوعين والعقبين (حـ) بروز الجبهة (د) تغير شكل الصدر (هـ) إعوجاج الساقين
(٢) ضعف عموى فى الأعصاب (٣) تحلل الأسنان وفقدان المادة الكلسية .
(٤) قلة وجود عنصرى الكالسيوم والفوسفور فى الدم والعظام عن الكمية الضرورية

المركزات الصناعية : —

(١) استعمال الأشعة فوق البنفسجية من أقواس كهربائية خاصة
(٢) محضر من الجزء الذي لا يتصبن من كبد الحوت .
(٣) محضر من ارجوسترول بعد تعريضه للأشعة فوق البنفسجية .
(٤) تعريض المواد الغذائية للأشعة فوق البنفسجية .
(٥) مركب طبى معروف اسمه Uegetol

ويوجد هذا الفيتامين بكثرة طبيعياً وكذلك صناعياً فى :

(١) زيت كبد الحوت (٢) أشعة الشمس المباشرة
(٣) الأشعة فوق البنفسجية .

ويوجد فى مواد نباتية بكثرة : بيض (مح) — سمك السالمون وبكميات مناسبة فى : — الزبدة — اللبن الكامل — سمك Lem - Ayster

فيتامين (هـ) : — يسمى فيتامين ضد العقم Anti - Sterility

وهذا الفيتامين عامل أساسى لوظيفة التناسل فى الذكر والأنثى وعدم وجوده أو قلته يسبب عدم القدرة على التناسل فى الذكر والأنثى ويوجد بكميات مناسبة فى الخس والبرسيم الحجازي — شعير — فول — قمح (دقيق وردة) عسل أسود — شوفان (دقيق ونخالة) — أرز — ذرة (كله) ويوجد فى اللحوم

فيتامين (و) : — ويسمى فيتامين ضد البلاغرا ويمنع هذا الفيتامين مرض البلاغرا الذى أعراضه : —



القرآن وعلامات الترقيم – فتوى لمشيخة الأزهر

تلقت لجنة الفتوى بالجامع الأزهر اقتراحاً ، من الأستاذ محمود عفيفي المحامي ، خاصاً بطبع المصحف الكريم على الكيفية الآتية :

أولا : أن يكون بالرسم العادى المتبع الآن بالأزهر الشريف وفروعه وجميع المعاهد العلمية بمصر والبلاد العربية اسلامية وغير إسلامية .

ثانياً : أن يراعى وضع علامات الترقيم وسط الجمل لا فوقها كما هو متبع الآن .

ثالثاً : أن يوضع تفسير عصرى مختصر بهامش هذه الطبعة بمعرفة هيئة من كبار العلماء .

وقد جاء فى تقرير مرافق لهذا الاقتراح ماخلاصته : إن الغرض هو تيسير تناول كتاب الله الكريم وسهولة تلاوته كما أنزل مع فهم ما غمض من معانيه ، لأن كثيراً من المتعلمين فى المدارس مع نبوغهم فى اللغة العربية لا يستطيعون تلاوة القرآن فى المصحف بطبعته الحالية ، لاختلاف هجائه عن الهجاء الذى ألفوه ودرسوه فى معاهدهم ، فحرصاً على أن تكون تلاوة هؤلاء وأمثالهم ممن لا يحفظون القرآن ولم يتلقوه عن القراء صحيحة يجب طبعه بالهجاء العادى المعروف لهم ، وحرصاً على فهم معانى القرآن لمن يقرأه فى المصحف يجب وضع تفسير مختصر مفيد على هامش هذه الطبعة .

رأى اللجنة فى هذا الاقتراح

وقد أبدت اللجنة رأيها فى ذلك فقالت : إنها توافق على وضع تفسير مختصر مفيد على هامش المصحف ، وترجو أن يوفق الله جماعة من العلماء لوضع هذا التفسير ، حتى يعم الانتفاع بالقرآن الكريم .

أما وضع علامات الترقيم وسط الجمل لا فوقها ، فاللجنة ترى أن المصحف الكريم قد وضعت فيه قديماً وحديثاً علامات على بعض الحروف وبعض الكلمات وفى وسط الجمل للدلالة على كيفيات لهذه الحروف كالإدغام والإخفاء وللدلالة على معان تتعلق بالتلاوة كحسن الوقف ولزومه وامتناعه وغير ذلك ، وهذه العلامات لا ترى اللجنة حاجة لإحداث تعديل فى وضعها لأنها وضعت فى أماكنها للدلالة على أغراض خاصة وقد أدت بوضعها فى أماكنها هذه الأغراض بوضوح لا لبس فيه ، وبين كل ذلك فى التعريف الشامل بالمصحف الذى وضع فى ذيل الطبعة التى أمر بها حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول سنة ١٣٤٧ هـ

وأما إنشاء علامات ترقيم أخرى للدلالة على أن الجملة استفهامية مثلا ، ومقولة لقول سابق أو محذوف ، فلا ترى اللجنة مانعاً منها بشرط أن يوضع بشكل لا يوجد لبسا على القارىء فقد كان المصحف الكريم مجرداً عن « التعشير » و « الاعجام » و « النقط » و « رموز الوقف » ثم أحدث كل ذلك واستحسنه

---

(١) اضطرابات داخلية (٢) تبقع وسماكة الجلد (٣) مرارة والتهابات بالفم واللسان (٤) إسهال (٥) إضطرابات عصبية وعقلية

ويوجد بغزارة فى محضر الخميرة وبكثرة فى اللحوم والكبد والخميرة والبنجر وفى : بطاطس — سبانخ — لفت (أخضر) بيض — لبن — سمك (السالمون) . ويوجد بكمية حسنة فى : موز — جزر — لفت — بنجر — خس — كرنب — طماطم

فيتامين (ز)

أقل الفيتامينات أهمية وقد اهتدى إليه أخيراً فى زيت بزر الكتان أما صفاته وخواصه فلم تدرس بعد .

عبد المنعم عبد الحميد بدر
كلية الزراعة

مترجمة بتصرف عن William Wetson, Columbia S. C. As A Scientific Exhibit, American Medical Association, Uinneapolis, Minn, U. S. A.

كثير من العلماء حفظاً للآى وضبطاً للاعراب خصوصاً للأعاجم وغيرهم ممن لايحسنون العربية ، قال الزيلعي من علماء الحنفية : هو وإن كان محدثاً فستحسن ، وكم من شيء يختلف باختلاف الزمان والمكان . اه

وأما طبع المصحف الكريم على قواعد الرسم الكتابي العادى المتبع الآن ، فاللجنة ترى لزوم الوقوف عند المأثور من كتابة المصحف وهجائه وذلك لأن القرآن الكريم كتب وقت نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومضى عهده صلى الله عليه وسلم والقرآن على هـذه الكتبة لم يحدث فيها تغيير ولا تبديل ، وقد كتبت بها مصاحف عثمان ، ووزعت على الأمصار لتكون إماماً للمسلمين ، وأقر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عمل عثمان رضى الله عنه ، ولم يخالفه أحد فيما فعل ؛ واستمر المصحف مكتوباً بهذا الرسم فى عهد بقية الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والأئمة المجتهدين فى عصورهم المختلفة ولم ينقل عن أحد من هؤلاء جميعاً أنه رأى تغيير هجاء المصحف عما رسم به أولا إلى تلك القواعد التي حدثت في عهد ازدهار التأليف والتدوين في البصرة والكوفة، بل ظل مصطلح القرآن قائما مستقلا بنفسه بعيداً عن التأثر بتلك القواعد

ولا ريب أنه وجد فى تلك العصور المختلفة أناس يقرؤون القرآن ولا يحفظونه وهم فى الوقت نفسه لايعرفون من الرسم إلا ما وضعت قواعده فى عصر التأليف والتدوين وشاع استعمالها بين الناس فى كتابة غير القرآن ، ولم يكن وجود هؤلاء مما يبعث الأئمة على تغيير رسم المصحف بما تقضى به تلك القواعد .

قال العلامة نظام الدين النيسابوري في كتابه « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » ما نصه :

« وقال جماعة من الأئمـة : إن الواجب على القراء والعلماء وأهل الكتاب أن يتبعوا هذا الرسم فى خط المصحف ، فإنه رسم زيد بن ثابت ، وكان أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكاتب وحيه » . اه .

وجاء في الاتقان للامام السيوطى ما نصه :

« وقال أشهب : سئل مالك : هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا ، إلا على الكتبة الأولى . رواه الداني في المقنع ، ثم قال : ولا مخالف له من علماء الأمة . وقال فى موضع آخر : سئل مالك عن الحروف فى القرآن ، مثل الواو والألف : أترى أن يغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك؟ قال : لا . قال أبو عمرو : يعنى الواو والألف المزيدتين فى الرسم، المعدومتين فى اللفظ ، نحو « أولوا »

وقال الإمام أحمد : يحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو وياء أو ألف أو غير ذلك .

وقال البيهقى فى شعب الإيمان : من يكتب مصحفاً ينبغي أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به تلك المصاحف ، ولا يخالفهم فيه ، ولا يغير مما كتبوه شيئاً فإنهم كانوا أكثر علماً ، وأصدق قلباً ولساناً . وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم » . اه .

وقد جاء فى فقه الحنابلة ما يؤيد نقل السيوطى فى الاتقان عن الامام أحمد بن حنبل .

وجاء فى حواشي المنهج فى فقه الشافعية : أن كلمة « الربا » تكتب بالواو والألف ، كما جاء فى الرسم العثمانى ، ولا تكتب فى القرآن بالياء أو الألف ، لأن رسمه سنة متبعة .

وجاء فى المحيط والبرهان فى فقه الحنفية : أنه ينبغي ألا يكتب المصحف بغير الرسم العثماني .

على أن قواعد الاملاء التى حدثت فى عهد التأليف والتدوين لم يتفق عليها واضعوها بل اختلفوا فى رسم كثير من الكلمات كما هو مدون فى مواضعه ، وهى بعد ذلك عرضة للتغيير والتبديل ، وقد صارت اليوم موضع شكوى وتفكير نظراً لما فيها من كتابة أحرف لا وجود لها فى النطق ، وترك أحرف منطوق بها ، فلا ينبغى والحالة هذه أن يخضع القرآن فى رسمه لهذه القواعد المختلف فيها ، والتى هى عرضة للتغيير والتبديل .

وأما مارآه أبو بكر الباقلانى من أن الرسم العثمانى لايلزم أن يتبع فى كتابة المصحف ، فهو رأي ضعيف ، لأن الأئمة فى جميع العصور المختلفة درجوا على التزامه فى كتابة المصاحف ، ولأن سد ذرائع الفساد مهما كانت بعيدة أصل من أصول الشريعة الاسلامية التى تبنى الأحكام عليها ، وما كان موقف الأئمة من الرسم العثمانى إلا بدافع هذا الأصل مبالغة فى حفظ القرآن وصونه .

وأما ما ذكره صاحب الاقتراح من أن كثيراً من المتعلمين لايحفظون القرآن ، ولا يحسنون قراءته فى المصحف ، لعدم معرفتهم الرسم العثمانى ، فاللجنة ترى ــ تسهيلا للقراءة على هؤلاء ــ

أن ينبه فى ذيل كل صفحة على ما يكون فيها من الكلمات المخالفة للرسم المعروف .

على أن الأمر أهون ممـا يتصوره المقترحون للتغيير ، لأن رسم المصحف العثمانى لا يخالف قواعد الإملاء المعروفة إلا فى كلمات قليلة معدودة . ومع ذلك ، فليست هذه المخالفة مما تحدث شيئاً من اللبس على القارىء المتأمل ، لأنها إما بحذف حرف ، كحذف الألف فى « بسم الله الرحمن الرحيم » أو زيادة حرف ، كزيادة الألف فى « أولوا » أو إبدال حرف من حرف ، كرسم « الصلوت » بالواو بدلا من الألف ، أو وصل ما حقه الفصل بمثل وصل « انـــ » بما الموصولة ، كما فى قوله تعالى : « إنما لتوعدون لآت » أو فصل ما حقه الوصـل ، كفصل « فى » الجارة من « ما » الموصولة ، مثل « فى ما فعلن فى أنفسهن »

وواضح أن مثل هذا لا يشتبه على أحد أن ينطق به صحيحاً

وإن من يطلع على التعريف بالمصحف الذى أشير إليه فيما سبق ، يستطيع أن يتعرف تلك الكلمات بسهولة ، والله أعلم

(الرسالة) بقى أن لجنة الفتوى لم تذكر الحكمة فى الاستمرار على الرسم المضلل فى كتابة قوله تعالى « ولا تقولن لشاى (لشىء) إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » وقوله تعالى « والسماء بنيناها بأييد (بأيد) » ، و « بأييكم (بأيكم) المفتون »

مشكلة برامج التعليم

إصلاح برامج التعليم المصرية مشكلة طال عليها العهد ، وتقلبت بين مختلف التجارب والعهود ولم تستقر على وضع ثابت حتى اليوم ؛ وقد كان اضطراب برامج التعليم وتغييرها بين آونة وأخرى من أهم الأسباب التى أدت إلى انحطاط مستوى الثقافة المدرسية ، وبث الفوضى إلى معاهد التعليم وإلى نظم الدراسـة والامتحانات ؛ وكان آخر العهد بتغيير البرامج منذ نحو عام فقط ولـكن النظام الجديد ما كاد يستقر حتى سمعنا وزير المعارف الجديد يصرح منذ أيام بأنه يعتزم تأليف لجنة من ذوى الخبرة فى شئون التربية من رجال المعارف وغيرهم لتبحث برامج التعليم وتضع لها من الأسس الجديدة ما يتفق مع حاجات العهد الجديد ، وهذه فى الواقع فكرة لا بأس بها ؛ ولـكن الذى يصح التساؤل عنه بهذه المناسبة هو : أليس لهذه التجارب التعليمية من نهاية ؟ ومتى توفق وزارة المعارف إلى وضع الأسس النهائية لبرامج التعليم القومى ؟ ذلك أن مسائل التربية يجب أن تكون بمعزل عن التقلبات السياسية ، ويجب أن تكون بالأخص بمعزل عن الآراء والرغبات الشخصية ؛ ومن المستحيل أن نظفر بسياسة إصلاحية ثابتة للتعليم إذا لم نوفق إلى وضع المبادىء والأسس النهائية ، وإذا لم تتخذ هذه المبادىء والأسس صفة الاستقرار إلى حين معقول ؛ ولا بأس من أن تكون التفاصيل ذاتها عرضة للتغيير والتبديل كلما دعت الحاجة أو دعت التجارب ، ولـكن الاستمرار فى الانشاء والمحو على هذه الصورة كل عام أو عامين أو بعبارة أخرى كلما تغير وزير المعارف ، خطة عقيمة ضارة نلمس الآن نتائجها السيئة . وإذن فلنؤمل أن تكون هذه التجربة الجديدة التى يزمع وزير المعارف القيام بها لوضع النظم الأساسية للتعليم والتربيـة ، هى ختام هذه الفوضى ؛ بيد أنه يشترط لنجاح مثل هذه التجربة أنـ تجرى بعيداً عن الجو الحكومى ، وأن تقوم بها صفوة من ذوي الخبرة والثقافة الرفيعة ، وأن يسترشد فى إجرائها بكل ما يقتضيه العهد الجديد من تنمية الروح القوميـة وتوسيع الأفق وتعزيز العناصر الأخلاقيـة والعملية فى ثقافتنا .

هل اكتشف سر التحنيط عند الفراعنة ؟

المعروف أن العلم الحديث بالرغم من تقدمه بخطى الجبابرة فى سائر النواحى ، لم يوفق إلى اكتشاف سر التحنيط عنـد قدماء المصريين ؛ وقد كانت للفراعنة في هذا الفن براعة ليس أدل على عظمتها وروعتها من تلك المومياءات العجيبة من جثث الملوك والأمراء الفراعنة التي أخرجت من قبورها والتي ما زالت بعد آلاف الأعوام تحتفظ بشكلها البشرى احتفاظا مدهشاً حتى أنك لترى الأظافر وشعر الجلد والرأس باقية كما كانت أثناء الحياة . وقد حاول العلم الحديث أن يجرى تحنيط بعض العظماء لتخلد هياكلهم البشرية فلم تطل التجربة أكثر من أعوام تطرق بعدها البلي والعـدم إلى الجثمان المحفوظ ؛ وهذا ما حدث لجثمان (لنين) زعيم روسيا البلشفية فإنه لم يمكث بعد تحنيطه أكثر من بضعة أعوام ثم اضطرت السلطات إلى مواراته بعد أن ظهرت عليه أعراض التحلل . بيد أنه ظهر أخيراً فى أمريكا علامة شاب هو الدكتور جون فيدمان من جامعة الينوا يقول إنه قد وقف على سر التحنيط عند القدماء وإنه يستطيع أن يحقق حفظ الجسم المحنط أجيالاً وأحقاباً ، وأنه اهتدى أخيراً إلى سر المركب الذى كان يستعمله القساوسة

المصريون ، وأن أهم المواد التي كانت تستعمل لمزج هذا المركب هو محلول « النترسلولوز » . وقد يكون هذا العلامة قد وفق حقاً إلى اكتشاف مركب جديد لتحنيط الجثث ؛ ولكن الحكم على صحة الاكتشاف وعلى مدى أهميته لا يمكن تحقيقه قبل مضى مدة طويلة ، لأن التجربة لا يمكن الحكم عليها إلا بمرور الزمن الطويل

ونحن نذكر أن المؤرخ الأول هيرودوت قد عرض إلى مسألة التحنيط فى مباحثه التى أجراها عن المصريين القدماء وعن مدنيتهم وأحوالهم التى شاهدها واطلع عليها بنفسه ؛ وقد ذكر لنا هيرودوت فى كتابه أن التحنيط كان عند المصريين درجات وأن الجثة كانت تنقع بعد استخراج الأمعاء والحواشى نحو سبعين يوماً فى محلول لم يوضحه لنا تماماً لأنه هو لم يستطع الوقوف على سره نظراً لتحوط الكهنة فى الاحتفاظ بهذا السر ، وأن التحنيط كان على ثلاث درجات : الأولى للملوك والأمراء وهي أتقن الدرجات ، والثانية للنبلاء والأغنياء ، والثالثة لأفراد الشعب ، وهذه أبسطها وأقلها اتقاناً . وقد حاول كثير من العلماء أن يهتدي إلى سر هذا المحلول العجيب الذى يشير اليه هيرودوت ، ولكن العلم أخفق حتى يومنا فى اكتشاف هذا السر

كتاب جديد عن فلسطين

ظهر أخيراً فى انكلترا كتاب جديد عن فلسطين وضعته صحفية انكليزية شابة تدعى مس بربارا بورد وعنوانه « فتاة صحفية فى فلسطين » Neusgirl in Palestine ، وقد زارت مس بورد فلسطين فى الشتاء الماضى وأنفقت بضعة أشهر فى درس الحياة الاجتماعية الفلسطينية وعنيت بالأخص بتعرف أحوال المجتمع النسوى على اختلاف أجناسه وبيئاته ؛ وهى تقول لنا إنها قد زارت المرأة الفلسطينية فى القصر وفى الكوخ وفى الصحراء ، وتعرفت إلى أفقر الفتيات من النصارى واليهود كما تعرفت إلى حريم الأمير عبد الله ؛ ودرست عادات هذا المجتمع النسوي المتباين وأخلاقه وخواص حياته . وكتاب المؤلفة هو كتاب سائحة ، ولكن يطبعه شيء من العناية بالبحث والتحقيق أكثر مما يتذل السائح العادي ؛ وقد قصدت أن تظهر كتابها فى هذه الآونة التى تطرح فيها المسألة الفلسطينية على بساط البحث ليعاون فى تفهم أحوال المجتمع الفلسطيني .

وقد وفدت المؤلفة أخيراً على مصر وأقامت فيها بضعة أسابيع وشهدت حفلات التتويج ، وتعرفت إلى البيئات النسوية المصرية وهى تنوي فيما يظهر أن تضع كتاباً آخر عن مصر والمجتمع المصرى على طراز كتابها عن فلسطين ، بيد أنه لا ريب فى أن هذه الكتب التى تكتب على جناح السرعة خلال سياحة سطحية لا يمكن أن تكون مراجع قيمة عن الموضوعات التى تتناولها . وسنرى فى القريب العاجل ماذا تكتب هذه المؤلفة الشابة عن مصر والمجتمع المصرى .

حول أرزة لامرتين

كتب الأستاذ أمجد الطرابلسى فى حاشية قصيدته المنشورة فى صفحة ١٣٤٩ من عدد مجلتكم الأخير أن الشاعر الفرنسى دى لامرتين وابنته جوليا زارا أرز لبنان عام ١٨٣٢ ونقشا اسميهما للذكرى على شجرة هناك تشتهر الآن بأرزة لامرتين

والواقع غير ذلك فان الشاعر الفرنسى لم يزر مع ابنته غابة الأرز قط ولم يكتب هو اسمه ولم ترسم وحيدته اسمها على شجرة الأرز المذكورة . وكل ما فى الأمر أنه حاول أن يقوم برحلة إلى الأرز خريف عام ١٨٣٢ والمعروف عن هذه الرحلة أنها أخفقت لشدة الزمهرير إذ ذاك وكثرة الثلج والجليد ونحن نعلم أن لامرتين لم يسع بعد ذلك لادراك رحلته مرة أخرى وأنه استعاض عن مشاهدة الأرز عن كثب برؤية الغابة من بعيد

هذا وقد وضع الكاتب هنرى بردو كتاباً عنوانه « رحل الشرق » عالج فيه مسألة زيارة الفرنسى العظيم للبنان وأرزه وقد استطاع أن يثبت أن التوقيعين المنقوشين على الشجرة المشهورة إنما خطهما صديق قديم للامارتين وأسرته وذلك قبل قيام شاعرنا برحلته رغبة منه فى مفاجأة صاحبه المجيد مفاجأة ظريفة رقيقة

خليل عطا الله
(كلية الحقوق)



سيرة السيد عمر مكرم

تأليف الأستاذ محمد فريد أبو حديد

فرغت من قراءة هـذا الكتاب التحليلي المحكم ، كما يفرغ الانسان من شهود فلم تاريخي متقن ، وبدل أن أرفع يدى لأصفق ، أخذت قلمى لأكتب . شبهت هذا الكتاب بالفلم لأنه أوسع من الرواية ، وأوضح من القصة ، وأروع من السيرة ؛ ففيه البيئة والمكان ، وفيه الصور والألوان ، وفيه الوقائع التي تتكلم ، والخوالج التي تتجسم ، والدقائق التي تسفر ، والفروق التي تتضح . وتجلية الحياة المصرية السياسية والاجتماعية في القرن الثامن عشر على هذه الصورة الرائعة البارعة الملهمة لاتتهيأ إلا لأمثال الأستاذ فريد ممن توفروا على اكتناه الحق في هذا العهد المجهول المظلوم ، وأوتوا مع ذلك البصيرة التاريخية التي لاتطيش ، والضمير العلمي الذى لايخدع ، والقلم الفنى الذى لا يزلّ . والأستاذ فريد من كتابنا القلائل الذين لا يخرجون ما ينتجون إلا عن اختصاص محيط ودرس شامل وروية صادقة وضرورة حافزة وغرض نبيل . وقد عهده الناس فى تأليفه محققاً ، وفى ترجمته أميناً ، وفي قصصه مجوداً ، وفى شعره مجدداً ، وفى أبحاثه حجة . وهو بعد زيدان زعيم المذهب التاريخى فى القصة على نحو ما كان (ولتر سكوت) ؛ وحبه الخالص لمصر صرف هواه وجهده إلى تاريخها القديم والحديث تخدمه خدمة جلى وغرسه فى قلوب النشء غرساً مثمراً بالتعليم فى أسمى درجاته ، وبالتأليف فى شتى فنونه ؛ واعتزازه الصادق باستقلال وطنه وجّه نشاطه إلى ذلك العصر الذى خلص فيه سلطان مصر إلى أبنائها الخُلّص الذين وُلدوا فيها ، ونُشّئوا لها ، وذادوا عن حياضها المطهرة طمع الواغل الدخيل ذيادَ الأحرار البررة ؛ واتصافه بالخلق النبيل والطبع الحر جعله يُغرم فيه بالشخصيات الكريمة الحرة التى جلاها لقراء (الرسالة) فى مناسبات شتى ، ومنها هذه الشخصية العزيزة السيدة : شخصية السيد عمر مكرم التى أفرد لها هـذا الكتاب الذي نتحدث اليوم عنه

* * *

(سيرة السيد عمر مكرم) صورة فنية مشرقة لمصر فى القرن الثامن عشر ، تقرأها فكأنك تشاهده ، وتستبطنها فكأنك تعيش فيه ؛ برز فيها وجه هذا الرجل الأبى صادقَ النظر أشم الأنف ناطق الملامح ، فجعله فريد مثالا للخلق المصرى المحض فى ذلك العهد ، ومثلا للجيل المصرى الناشئ فى هـذا العهد « وقد رأينا الأمم الحديثة — وهى تسعى لتحفيز أبنائها إلى المكارم ، وحفهم على المعالى — تلجأ إلى التاريخ فتستخرج منه صور المجد والبطولة فتعرضها على الجيل الحاضر ليجد فيه مثلا يحتذيه ، وأملا يتطلع إلى تحقيق مثله ، وهى تقصد بذلك إلى إعلاء نفوس أبنائها ، والتسامي بأرواحهم وعواطفهم ، وإثارة الخامد من طموحهم ، بالتلويح لهم بأعلام المجد ، والاشارة إلى ذرى الأمانى الانسانية . ومصر بحمد الله عريقة فى كل مكرمة ، غنية فى كل فن ، عبقرية فى كل وجهة ؛ فليس الواقع بمعجزها ، ولا الحق بخاذلها ، إذا هى أرادت المُثُل العالية ، أو رسم صور البطولة والمجد » (1)

(1) من مقدمة المؤلف

الكتاب يشوّق جذاب بموضوعه وطريقته وأسلوبه . أما موضوعه فجهاد مصر في سبيل حقوقها وبلوغها من ذلك بفضل الأحرار من زعمائها أمثال السيد عمر مكرم ما تبغيه من حفظ كرامتها وإنفاذ إرادتها حتى بلغ من فوزها أن تحللت من إرادة الخليفة فعزلت بقوتها من الولاة من يفسد ، وولت برأيها منهم من يصلح ؛ وهو موضوع من أحب الموضوعات إلى النفس ، لأنه قصة الحياة ومطمح الانسانية إلى السمو . وأما طريقته فطريقة التحليل النفسي بصدقه ودقته ، والعرض الروائي بطلاوته وحبكته . وأما أسلوبه فقد ارتفع فيه فريد إلى الدرجة العليا من الفن : جزالة في رقة ، وبلاغة في سلامة ، وإيجاز في وضوح ، ومنطق في شعر .

وحسبي من ذلك أن أضع أمامك صورة صغيرة من الفصل الجميل الممتع الذي عقده لثورة المصريين على الفرنسيين في مارس من سنة ١٨٠٠ ، وقد عز القاهريين النصير ، وخذلهم الأمير ، وأهملهم الخليفة ، وسلط عليهم المحاصرون النار ، وأرسلت عليهم السماء المطر ، حتى قال فريد : « وأمسى أهل تلك الأحياء المنكوبة ليلة العاصفة وهم في أشد حالات البؤس والكرب ؛ يحاولون الخروج من منازلهم برغم الرعد والبرق والمطر لنهمر ، فتعوقهم المياه المتدفقة ، وتنزلق أقدامهم في الأوحال الخوانة ، فاذا بهم يسمعون قصف المدافع من بين أيديهم ، ويرى بعضهم أخاه صريعاً إلى جانبه قد أصابته رصاصة لا يرى قاذفها البعيد ، فيقف لحظة ينظر في إسعاف الصريع ، فاذا به يسمع هيعة من خلفه ، فينظر فاذا باللهب يندلع في منزله الذي تركه منذ حين قصير ، فيذكر الصبية الذين خلفهم فيه ، فيثب قلبه في صدره ، وهم منتفضاً كالملسوع . ويعدو نحو بيته وهو لا يعي من الفزع ؛ وفيما هو يعدو تطرق أذنيه صرخات داوية يعلوها الهلع والذعر ، من نساء يكدن يخرجن عن الوعي من الهول ؛ ويرى ماء المطر يهبط على النيران فلا يزيدها إلا توهجاً واندلاعاً ، ويسمع من دون فحيح اللهب وقعقعة النار صوتاً كأنما هو من صبية يستغيثون ، فيقتحم اللهب يطمع أن ينقذ فلذات كبده من بين أنياب السعير ، فما يكاد يخطو في المنزل خطوات حتى يحيط به النيران ، ويطيش سائراً ويتخبط حائراً حتى يوقن أنه لن يستطيع إنجاء ولده ، فتثور الطبيعة في رأسه ، ويخشى على نفسه ، فيحاول العودة من حيث أتى ، ولكن النار تحيط به وتأسره ، فيضطرب ويختنق ، ويحاول الصراخ فلا يخرج صوته ، ثم يثبت في مكانه ويقع لا يعي ، وينطبق اللهب مرة أخرى كأن ليس في جوفه شيء »

فأنت ترى أن « سيرة السيد عمر مكرم » بمنهاجها الذي سارت عليه ، وغرضها الذي هدفت إليه ، وأسلوبها الذي كتبت به ، حرية بأن تكون في يد كل شاب قدوة ، وفي يد كل كاتب نموذجاً ، وفي يد كل قارئ ثقافة ولذة .

جزى الله مؤلفها الفاضل خير ما يجزي به العامل المخلص على جهده وقصده وتوفيقه .

الزيات

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي عمارة عجم رقم ٧)

5 me Année, No217.

Lundi - 30 - 8 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــــدد ٢١٧ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٣ جمادى الثانية سنة ١٣٥٦ — ٣٠ اغسطس سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

الملك المـــــوفق

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

منذ بضعة أسابيع أدى صاحب الجلالة الملك صلاة الجمعة في مسجد من مساجد الاسكندرية على عادته المحمودة ، فلما انتهت الصلاة نهض جلالته ، فهتف باسمه الناس ، فأشار إليهم جلالته بيده أن كفوا ، ومال على أحد العلماء وهمس في أذنه أن بيوت الله للعبادة لا لهذا ، ولذكر الخالق لا لذكر المخلوق .

وفي جمعة أخرى أمر واحداً من رجال حاشيته ، فأعطى الإمام عشرين جنيهاً لخدم المسجد ، فتناولها الإمام شاكراً ، داعياً ؛ وكان للمسجد خادمان فنقد كلا منهما عشرة ، واتصل الخبر بجلالة الملك ، وعلم أن الإمام حرم نفسه ، فدعاه إليه وكلمه في هذا ، فقال الرجل : إني خطيب وإمام لا خادم ، وقد أعطيت المال لأفرقه على الخدم ففعلت وأمضيت مشيئة مولاي . فسرت جلالته عفةُ الرجل وأمانته وتقواه وأجزل له الثواب .

ولجلالته عناية بأن يعرف على أي وجه تنفذ أوامره . حدث في منتصف أغسطس أن حضر جلالته حفلة تمصير شركة البواخر الخديوية ، فطاف بالباخرة « محمد علي الكبير » ولاحظ أن

الدخنة لونها أحمر ، فالتفت إلى عبود باشا وقال إنه يؤثر أن يكون لونها أخضر ، فقال عبود باشا : « حباً وكرامة ، سيكون ماشاء مولاى » فقال جلالته وهو يبتسم : « سأسأل عن الدخنة ولونها » .

ويذكر القراء أن وزير الأوقاف السابق وقف مرة في البرلمان يرد على سؤال عن الأزهر ورثاثة فرشه ، فكان مما قاله — وظهر أنه كذب — أن طلبة الأزهر يقطعون السجاجيد ويأخذون مايقتطعون منها لفرش مساكنهم . وقد هاج الأزهر وماج لهذا ، وكتب الشيخ الأكبر الأستاذ المراغي إلى وزير الأوقاف يومئذ يبين له أن الموظفين الذين أمدوه بهذه المزاعم كذبوا عليه وغشوه ، ويطلب منه أن يحقق مع المسئولين عن هذه الأكاذيب والتشنيعات ، ولكن الوزير طوي الأمر لسبب ما . ولم يعن بالتحقيق الذى كان واجباً .

وكأنما عز على جلالة الملك أن يكون الأزهر بهذه الرثاثة ، وأن تضن عليه وزارة الأوقاف بالفرش اللائق ، وأن يقول وزيرها السابق ما قال فى طلبة هذا المعهد الاسلامي العالمى الذى لم يبق على عهده الألفى إلا القليل ، ولكن الحكمة والأناة شعار الملوك ، فقد سكت جلالته حتى خرج هذا الوزير من الوزارة ، وتولاها غيره ، ثم أمر بأن يفرش الأزهر بالسجاد على نفقة جلالته الخاصة ، وبأن يكون السجاد مصرياً من صنع مصريين . ولو أن جلالته أمر بذلك والوزير السابق قائم بالأمر فى الأوقاف ، لكان هذا بمثابة دعوة صريحة إلى الاستقالة ؛ ولكن جلالته تريث حتى لا تختلط الحسنة بالسيئة ، فليس هم جلالته أن يؤنب وزيراً ، وإنما همه أن يصنع جميلاً وأن يسدى مكرمة . والأزهر معهد مهول ، وسيحتاج من السجاد إلى شيء كثير ، فأخلق بصناعة السجاد المصرية أن تنشط من جراء ذلك نشاطاً عظيماً ، وجدير بالسجاد المصري أن ينفرد بالسوق بعد هذا فلا يتخذ مصرى سواه .

ولا يزال جلالة الملك فى صدر الشباب ؛ ومع ذلك آثر الزواج على العزوبة ؛ وله فى ذلك حكم لا حكمة ، وإنه ملك ، والملك قدوة لرعيته . والمثل يقول إن الناس يكونون على دين ملوكهم ، والزواج عفة وتقوى وحصانة . وقد وقع اختيار جلالته على مصرية من بيت كريم ، وفى هذا الاختيار معنى إنسانى بارز ، ومظهر ديمقراطى لا يخفى ، فقد عرف جلالته الآنسة ذو الفقار ، وكانت تصحب الأسرة الملكية فى رحلتها فى أوربا ، فهو اختيار فيه كل المعانى الانسانية وليس فيه أى معنى سياسى . وحسناً صنع جلالته ، فما بقى للزواج السياسى أية فائدة أو قيمة فى هذا الزمان . وإن الأمة المصرية تشعر الآن أنها صارت أقرب إلى ملكها بهذا الاختيار الموفق الذى احتذى فيه جلالته حذو المغفور له والده العظيم . وقد كان مما تحرص عليه الأسر المالكة فى العصور الماضية أن تبقى بمعزل عن أممها ، فلا تخالطها ، ولا تصاهرها ، وقلما كانت تبادلها حتى الشعور ، فالآن تغير كل هذا ، وأدركت الأسر المالكة أنها لشعوبها وأن شعوبها لها ، وكان من خير ما صنع المغفور له الملك فؤاد وأوقعه فى نفوس الأمة أن آثر أن تكون جلالة الملكة من رعاياه . واليوم يقتاس به جلالة الملك فاروق فيختار الملكة من رعاياه كذلك ، فلا يبقى موضع فى قلوب الأمة غير مشغول به

وهكذا يمحو جلالة الفاروق الفوارق التى تباعد ما بين الملك وأمته اكتفاء بالولاء الصادق ، والاخلاص الصحيح ، والحب الثابت ، والاجلال العميق ، واستغناء بذلك عن كل ما عداه مما لا خير فيه ، ولا محل له في هذا العصر ، فإن الملوك من طينة الخلق جميعاً ، فلا معنى للحرص القديم على أن يظلوا طبقة مستقلة عن شعوبهم لا تمسها ولا تقربها ولا تتصل بها من ناحية من النواحى . وأخلق بالشعوب أن تكون أعمق ولاء وأصدق وفاء لملوكها إذا شعرت أنهم منها ، وأنهم يمثلون خير ما للأمة من المزايا والخصائص والصفات والطباع ؛ وأنهم رمزها الأعلى حقاً ، وعنوانها الأرفع صدقاً ، وأن الأمر فى ذلك أمر حقائق واقعة ، لا أمر ألفاظ جوفاء وكلمات فارغة .

لقد ثبت العرش البريطانى على الرغم من زلازل الحرب العظمى وما تلاها ، لأن الشعب البريطانى يعرف أن العرش منه وله ، وأنه عنوان مجده ، وأنه الصلة الوثيقة بين أبعاض امبراطوريته ؛ وللعرش فى مصر أحق بالثبات والدوام على الزمن ، فقد قامت هذه الأسرة المجيدة باختيار الأمة لها ، وكان المصريون هم الذين ولوا محمد على باشا أمرهم ، وألقوا اليه بمقاليدهم ، وملكوه زمامهم . ولم يخيب محمد على ظن مصر به وبقينها فيه ، فقد رفع مقامها ، وأعلى شأنها ، وجعل منها دولة محسودة مرهوبة الجانب ، مخوفة

الليل

للأستاذ أحمد أمين

في ليلة حالكة السواد بعدت عن ضوضاء المدينة إلى مكان قصيٍّ على شاطئ البحر أهرب بنفسي من جرائم المدنية ووباء الحضارة ، وأغسلها من أدران التقاليد والمواضعات ، وأطهرها بالانغماس في عالم اللانهاية : في السماء والماء والجو الفسيح الذي لا يحده حد ولا ينتهي إلى غاية

غاب فيها القمر فلمعت النجوم ؛ ولو طلع لكسفها وهي أكبر منه حجما ، وأعظم قدراً ، وألمع ضوءاً ، ولكن دنيانا هذه يسود فيها التهويش حتى في القمر والنجوم

كان سواد هذه الليلة أحب إلى نفسي من ضوء الشمس ونور القمر ، فللنفس حالات تبسط فيها فيعجبها البحر الهائج ، والوسط المائج ، واللون الأبيض والأحمر ، والنكتة اللاذعة ؛ وتنقبض فتأنس إلى الليل الساكن ، والوحدة المريحة ، والسكون العميق ، واللون القاتم

***

لك الله أيها الليل ! فما زلت بالفن حتى ملكته واحتويته ، فجعل يشيد بذكرك ويرفع من شأنك ، حتى لم تجعل لأخيك النهار نصيبا يقاس بنصيبك ، فاقتسمتما الزمان قسمة عادلة ، واقتسمتما الفن قسمة جائرة !

فالمغني يقصر مناداته عليك ، ولا يلتفت في هتافه إلا إليك ؛ فإذا غنى بالليل نادى الليل ، وإذا غنى بالنهار لم يخجل فنادى الليل أيضاً ؛ والآلات كلها تتبعه فتردد على أوتارها ما ردده المغني بكلماته . ثم كان اسمك على قلته وضؤولته أداة طيعة في صوت المغني يوقع عليه ما شاء من نغمات : مرحة وحزينة ، ومديدة وقصيرة ، وعالية وهادئة ، وباعثة للقوة واليأس والأمل ، وداعية إلى الضعف والخمول والكسل

وحتى الصور ! لماذا شغف برسم غروب الشمس أكثر مما شغف بطلوعها إلا لأن غروبها إيذان بقدومك وارتقاب لزورتك ؟

أما الأدب فله فيه الباع الطويل والقول الذي لا ينتهي . تداولت عليه الأدباء ، فنقموا عليه حينا ، وتدللوا له حينا ، من عهد الأستاذ امرئ القيس إذ يقول :

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مُغَار الفتل شدت بيذبُل

إلى عهد الأستاذ محمد عبد الوهاب إذ يقول :

« بالله ياليل تجينا ، وتسبل ستايرك علينا »

شكوا طوله وتفننوا في ذلك ما شاءوا ، فتخيلوا أن نجومه شدت بالحبال ، وربطت في الجبال ، أو أن النهار ضل طريقه فظل الليل لا يبرح ولا يتزحزح كالذي يقول بشار :

أضلَّ النهارُ المستنيرُ طريقَهُ أم الدهرُ ليلٌ كله ليس يبرح ؟

أو أن النجوم حارت لا تدري أتتيامن أم تتياسر فوقفت فوقف الليل بجانبها كقول جرير :

أبُدِّلَ الليلُ لا تسري كواكبُهُ أم طال حتى حسبت النجم حيرانا ؟

وشكوا قصره فأبدعوا في ذلك أيما إبداع ، فشبهوه بعارض البرق كالذي يقول :

يارب ليل سرور خلته قِصَرا كعارض البرق في أفق الدجى بَرَقا

قد كاد يعثرُ أولاهُ بآخرِهِ وكاد يَسْبِقُ منه فجرُه الشفقا

وأنكروا من قصره وجوده فقالوا :

وليلة من الليالي الغر لم تك غير شفق وفجر

السطوة ؛ وحسبه فخراً أن احتاجت الدول العظمى إلى التألب عليه والائتمار به لحرمانه ما كان حقيقا أن يفوز به من الثمرات . ولا شك أن مصر مدينة برقيها الحديث للخديو اسماعيل على الرغم من كل ما جر اليه حكمه ، وإن كان مؤرخو الغرب يبالغون في ذلك ويهولون به ليستروا مؤامرات أوربا ومكائدها ، وما أوقعت فيه مصر بسوء نيتها وفساد طويتها . والمغفور له الملك فؤاد هو الذي أزخر تيار النهضة الحديثة وعرف كيف يذلل كل عقبة اعترضته في الاحتلال وفي عدم الاستقرار . والآن يجيء جلالة الملك فاروق بفيض من الحيوية ، ويمثل حكمة الشيوخ المحنكين في شبابه الغض ، وبقلب كبير ملؤه الحب لأمته ، وعزم صادق على الوثوب بها . ولحسبنا هذه الفواتح بشيراً بمستقبل سعيد في ظل حكمه المديد المبارك إن شاء الله .

ابراهيم عبد القادر المازني

كان هؤلاء الذين يشكون طوله ويشكون قصره يتحدثون بعواطفهم، ويترجمون عن مشاعرهم، فجاء قوم على أثرهم يتحدثون بعقولهم، فقال الفرزدق:

يقولون طال الليلُ والليلُ لم يَطُلْ
ولكنَّ من يبكي من الشوقِ يَسْهَرُ

وقال ابن بسام:

لا أظلمُ الليلَ ولا أدَّعي
أن نجومَ الليلِ ليست تغور

ليلي كما شاءت فإن لم تَجُد
طال، وإن جادت فليلي قصير

***

أيها الليل! كم لففت ثوبك على متناقضات: حزن على ميت، وسرور لميلاد، ومحب مهجور يشكو طولك، ومحب واصل يشكو قصرك، وعابد متهجد يناجي ربه، وداعر فاجر يبغي حظه، ودمعة حرى تسبلها أم ولهى بجانب سرير مريض، وضحكة صارخة تخرج من فم سكير عربيد، ومجلس أنس تتجاوب فيه الأقداح والأوتار، ويلبس فيه الليل ثوب النهار: بين بدور، وكاسات تدور، كأنه مسرح صغير تمثل فيه الجنة بصنوف نعيمها، أو معرض تعرض فيه الملاهي بشتى ألوانها، ومجلس بؤس تتجاوب فيه الزفرات والحسرات، وتتساقط فيه النفوس، قد شرقوا فيه بدموعهم، وتلظى الهم فى ضلوعهم، فهم بين كاسف بال، وساهم طرف، ومنقبض صدر، ولهيف قلب

***

يترقبك السارق ليحتمي بسوادك فى سرقته، والعاشق ليغر فى سكونك بعشيقته، والناسك ليبتهل إلى الله فى صلواته، ويتحد معه فى مناجاته، والشاعر لينظم شجونه فى قصيدته، والملحن ليوقع لحنه على قيثارته، والسياسى ليدبر مؤامراته، والعالم ليفكر فى نظرياته

***

ولكن لماذا استأثرت بكل هذا والنهار قسيمك في الخدمات وعديلك في الحياة؟ بل هو أشد منك حياة وأكثر قوة، فسلطانه الشمس وسلطانك القمر، وسلاحه الضوء وسلاحك الظلام، وشعاره البياض وشعارك السواد؛ وهو مبصر وأنت أعمى، وطبيعته الحركة وطبيعتك السكون؛ وهو يدعو إلى النشاط والعمل وأنت تدعو إلى الخمول والكسل، ولكن شاء الله أن يمن على الذين استضعفوا فى الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، فجعل من قوة النهار ضعفاً ومن ضعفك قوة

انتهزت فرصة السكون الذى منحك الله فجعلت منه حركة دونها حركة النهار، فحركته حركة جسم وآلات، وحركتك حركة عواطف وانفعالات، وشتان ما بينهما! لقد أطاق الناس مصائبه ولم يطيقوا مصائبك، فقال الشاعر:

وحُمِّلْتُ زَفْرات الضحى فأطقتها
ومالي بزفرات العشى يدان

واستمنت سلطان الحب فجعلته من أعوانك، وأسرت العواطف فاتخذتها من خدامك، فلما اجتمع لك الحب والعواطف نازلت بها الزمان، وغلبت بها كل سلطان؛ فالوصل لا يلذ إلا فى ظلك، والهجر لا يلدغ إلا فى كنفك، والسرور لا يشع إلا في حضرتك، والألم لا يضنى إلا فى هدءتك

من تعب فى النهار وجد فيك راحته، ومن أتعبته الحركة نعم فيك بسكونه، ولكن من تعب فيك لم يجد فى النهار عوضاً عنك، ولم يرض به بديلا منك

***

جالت هذه المعانى فى فكرى، وامتلأت بعظم الليل نفسى، فمن علىّ بنومة لذيذة، هادئة عميقة، فقابل جميل ثنائي بجميل صنعه، وأدى فريضة شكري بجزيل فضله

(سيدي بشر) احمد أمين

المحاكمات التاريخية الكبرى

٢ـ الحركة النهلستية

ومصرع القيصر اسكندر الثاني

صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان

للأستاذ محمد عبد الله عنان

اعتزم القيصر شهود حفلة الاستعراض العسكرية في ميدان ميخايلوفسكي كما قدمنا، وقام البوليس باتخاذ الاجراءات المعتادة للمحافظة على سلامة القيصر فزار الشوارع التي يمر بها الركب الملكي؛ وكان ثمة في شارع «مالايا سادوفيا» حانوت لبان افتتح هنالك منذ ثلاثة أشهر يديره شخص يدعى كوبوزيف وزوجه؛ وكان البوليس يشتبه في أمر هذا الحانوت وأمر صاحبه، فزاره في عصر يوم السبت بحجة التفتيش الصحي فلم يجد فيه ماريب؛ ولم يكن كوبوزيف في الواقع سوى عضو من أعضاء اللجنة التنفيذية وضعته اللجنة هنالك ليكون عوناً لها على التنفيذ.

واعتزمت اللجنة الثورية من جانبها أن تنتهز هذه الفرصة لتنفيذ قرارها باغتيال القيصر فغادرت بيروفسكايا مسكنها وذهب أسايف إلى حانوت كوبوزيف ليضع لغماً قوياً تحت شارع «ماليا سادوفيا» وأنفق كبالتشتش وهو عضو اللجنة المتخصص في صنع القنابل طول الليل في منزل فيرا فنجر مع جراتشفكي وبيروفسكايا، ولم يأت الصباح حتى تم صنع قنابل أربعاً حملها كبالتشتش وبيروفسكايا. وفي صباح يوم الأحد أول مارس وزعت صوفيا القنابل الأربع على أربعة من الشبان الفدائيين هم جرنفتسكي واملياتوف وميخايلوف وريساكوف وعمره تسعة عشر عاماً فقط؛ وتفرق الأربعة في نقط أربع عينت في خريطة التنفيذ حول منعطف نفسكي والطرق المفضية إليه. وفي الساعة الثانية بعد الظهر كان كل في مكانه المعين ينتظر إشارة صوفيا ووقفت صوفيا مدى حين ترقب ميدان الاستعراض عن بعد. ولكنها مالبثت أن علمت أن الركب الملكي لن يمر بالشارع الذي وضع فيه اللغم، فسارت عندئذ صوب منعطف نفسكي في اتجاه جرنفتسكي وأخرجت منديلها، ففطن الفتيان إلى إشارتها وساروا تباعاً صوب قناة سانت كاترين لمقابلة الركب الملكي، واستولى الفزع على أحدهم وهو ميخايلوف فانسل واختفى في آخر لحظة، وبقي الثلاثة الأخرون يرقبون الانذار الأخير.

وذهب القيصر إلى ميدان الاستعراض نحو الظهر. ولما انتهى الاستعراض ذهب إلى قصر ميخايلوفسكي القريب حيث تناول طعام الغداء مع الجراندوقة كاترين ميخايلوفنا؛ وفي الساعة الثانية وبضع دقائق انتظم الركب الملكي للعودة، وأمر القيصر سائق مركبته أن يعود إلى قصر الشتاء من نفس الطريق. وكان يحرس العربة الملكية ستة من الفرسان القوزاق وتتبعها عربة أخرى يقف فيها مدير البوليس، ثم ثالثة بها ضباط الحاشية. وسار الركب مسرعاً في شارع انجنرنايا، مجتنباً بذلك شارع مالياسادوفيا (الذي وضع به اللغم) ثم اتجه يميناً إلى جسر قناة القديسة كاترين؛ وكان المكان قفراً ليس فيه غير رجال الشرطة والمخبرين الذين ينتشرون على طول الطريق وسوى قليل من المارة.

بيد أن الركب ما كاد يقترب من جسر القناة حتى دوى انفجار هائل وانعقدت فوق الموكب سحابة من الدخان الكثيف، وكانت هذه قنبلة ريساكوف انفجرت وراء العربة فأتلفت مؤخرتها؛ وفي الحال أوقف السائق العربة ونزل القيصر منها سالماً وكان قد سقط على مقربة منها قوزاقي وثلاثة من الشرطة وغلام من المارة مصابين بجراح بالغة. وقاد رجال الشرطة صوب القيصر فتى عريض المحيا غائر العينين هو ريساكوف، فسأل القيصر: أهو الفاعل؟ وفي تلك اللحظة سأل أحد كبار الضباط: «هل جرح صاحب الجلالة؟» فأجاب القيصر: «شكراً لله فإني سليم معافى» وهنا قال ريساكوف: «لا تعجل بشكر الله» وسار القيصر ومن حوله الحاشية إلى مكان الانفجار ليرى الجرحى ولكنه ما كاد يسير بضع خطوات حتى دوى انفجار آخر وانكشف الغبار والدخان عن منظر مروع:

سقط القيصر صريعاً وقد كسر ساقاه، وبقر بطنه، واحترق وجهه، ومن حوله عدة من الجرحى. وفي الحال حمل القيصر مضرجاً بدمائه إلى قصر الشتاء، ولكنه زهق بعد ذلك بقليل دون أن يعود إلى رشاده أو يفوه ببنت شفة.

وعثر رجال البوليس بين الجرحى على الفتى الذي ألقى القنبلة

الثانية ، وكان في دور النزع . وتوفي بعد ساعات قلائل دون أن يبوح باسمه للمحقق . ولكن البوليس وقف على اسمه بعد ذلك وقد كان أجناتوس جرنفتسكي الثوري البولوني وأحد الفدائيين الأربعة . أما الرابع وهو أمليانوف فقد اختلط بالناس واستطاع الفرار

واعترف ريساكوف بإلقاء القنبلة الأولى ، وشرح للمحقق سيرته فذكر أنه طالب بمدرسة التعدين وعضو في حزب « إرادة الشعب » ، وأنه يشتغل ببث الدعوة الثورية بين العمال وقدم بعض تفاصيل عن المؤامرة وتدبيرها ولكنه لم يعرف عن أحد من زملائه . وفي ساعة متأخرة من الليل واجهه المحقق بجليابوف فحياه جليابوف بحرارة ؛ ولما علم بمقتل القيصر أبدى ابتهاجه ، وقال إنه وإن لم يشترك بنفسه في تنفيذ الحادث بسبب اعتقاله فانه يشترك فيه بكل قلبه ، وإنه اشترك في عدة محاولات سابقة لاغتيال القيصر ، ولم يمنعه من الاشتراك في قتله سوى مصادفة سخيفة ، ولذلك فهو يطلب أن يحاكم مع ريساكوف وسوف يدلي للمحقق بكل ما يثبت مسئوليته .

ولم يمض يوم آخر حتى استطاع البوليس أن يظفر بآثار الرهبين . وفي مساء نفس اليوم هاجم مركزهم في شارع تاليتايا فانتحر صاحب الدار وهو ثوري يدعى سابلين قبل دخول البوليس وقبض البوليس على صاحبته المدعوة جسيا هلفان وضبط لديها بعض القنابل . وقبض في صباح اليوم التالي على ميخايلوف ، ولاحظ البوليس في الوقت نفسه أن حانوت اللبان في شارع مالايا سادوفيا قد أغلق واختفى صاحباه ففتش الحانوت مرة أخرى فاكتشف فيه سرداباً خفياً يصل حتى منتصف الشارع وقد وضع فيه لغم ثبت بسلك رفيع إلى آلة كهربائية ؛ وفي يوم ١٠ مارس استطاع البوليس أن يقبض على صوفيا بيروفسكايا وكانت لا تزال مختفية في العاصمة ترقب الحوادث ، فاعترفت في الحال باشتراكها في مقتل القيصر واشتراكها في حادث القطار الملكي .

وهكذا استطاعت الشرطة أن تضع يدها على جميع الجناة ولم يفلت من يدها سوى أمليانوف الذي اختفى عقب الحادث ولم يعثر أحد عليه .

— ٣ —

وفي نفس اليوم الذي قبض فيه على صوفيا بيروفسكايا أعني في يوم ١٠ مارس ١٨٨١ ، وجهت اللجنة التنفيذية لحزب إرادة الشعب إلى القيصر الجديد — اسكندر الثالث — كتاباً ضافياً تستهله بالاعتذار عن مخاطبته في تلك الآونة الدقيقة « إذ يوجد ما هو أسمى من أية عاطفة بشرية وهو الواجب نحو الوطن ثم تقول فيه :

« إن المأساة الدموية التي وقعت على جسر ترعة سانت كاترين لم تكن حادثاً غامضاً غير متوقع ، بل كانت بعد كل ما حدث في الأعوام العشرة الأخيرة قضاء محتوماً ، وهذا ما يجب أن يفهمه الرجل الذي ألقى إليه القدر مقاليد الحكم . ولقد نمت الحركة الثورية واشتد ساعدها بالرغم مما اتخذ من إجراءات القمع الذريع ، وبالرغم من أن حكومة القيصر الراحل قد ضحت حريات كل الطبقات ومصالحها ولم تدخر وسعاً في ازهاق المجرم والبريء وفي تعمير السجون النائية بالمعتقلين . ولقد شنق عشرات ممن يسمونهم بالمحرضين فاتوا في هدوء الشهداء . ولم تقف الحركة الثورية بل استمرت قوتها في ازدياد . أجل يا مولاي إن الحركة الثورية لا تتوقف على إرادة الفرد ، بل هي عملية تقوم بها الاداة القومية ولن تنجح المشانق التي تقام لصفوة قادة هذه الحركة في انقاذ النظام السياسي المحكوم عليه ، كما أن صلب المسيح لم ينجح في إنقاذ العالم القديم الفاسد من ظفر النصرانية المصلحة

« ونحن أول من يعرف كم يحزن ويؤسى أن تبدد هذه المواهب والعزائم كلها في أعمال التخريب ، فهذه القوى يمكن في ظروف أخرى أن تستخدم في عمل الانتاج : في تربية الشعب وفي تثقيفه ، وفي زيادة رفاهته وتحسين نظمه ؛ فلماذا إذن نلجأ إلى خوض هذا النضال الدموي ؟

« لأنه لا توجد لدينا يا مولاي حكومة بمعنى الكلمة ، وواجب الحكومة هو أن تعبر عن أماني الشعب وأن تمثل إرادته ، ولكن الحكومة عندنا قد انحطت إلى عصابة قصر ، وغدت أحق من اللجنة التنفيذية بأن توصف بعصابة من الغاصبين »

وتستعرض اللجنة بعد ذلك مثالب الحكم القيصري وإمعانه في استعباد الشعب وتسخيره ، وما جلبته هذه السياسة على روسيا من الخراب والبؤس وما ترتب عليها من فقدان الحكومة لكل نفوذ معنوي . وهذا هو السبب في اضطرام الحركة الثورية ، بل هذا هو السبب في ابتهاج الشعب لازهاق القيصر ثم تقول :

« ولا مخرج لهذه الحالة سوى أمرين : فاما الثورة المحتومة التي لا يمكن أن يمنعها أي قمع ، وإما التوجه إلى سلطة الأمة

العليا . وإن اللجنة التنفيذية لتنصح إلى جلالتك باتباع الطريق الثانى ، فنى ذلك خير أمتنا وبه تجتنب المصائب المروعة التى تحملها الثورات . وثق بأنه متى عدلت السلطة العليا عن اتباع الهوى وقررت أن تستلهم فى عملها رغبات الأمة فنى وسعك أن تطرد الجواسيس الذين يلوثون الحكومة ، وأن ترد حرسك إلى ثكناته ، وأن تهد المشانق ؛ وسوف توقف اللجنة التنفيذية نضالها وتنفض القوى التى حولها لكى تعنى بالعمل الثقافى لخير الشعب ... ونحن نؤمل ألا تطغى لديك عاطفة السخط الشخصى على الشعور بالواجب ، والرغبة فى تعرف الحقيقة ، فنحن يحق لنا أن نشعر بالسخط أيضا ؛ وإذا كنت قد فقدت أباك فقد فقدنا نحن أخوة ونساء وبنين وأصدقاء أعزاء ؛ ولكننا على أهبة لأن نجمد مشاعرنا الشخصية إذا اقتضى ذلك خير روسيا ، وننتظر منك أن تفعل مثلنا »

« إن الشروط التى يجب تحقيقها لكى تترك الحركة الثورية المجال للعمل السلمى قد عينها التاريخ لا نحن . وإنا لنذكرك بها فقط فهى :

أولا — العفو العام عن الجرائم السياسية فهذه لم تكن جرائم ، بل هى أعمال عليها الواجب الوطنى

ثانياً — استدعاء ممثلى الأمة الروسية لتعديل مناهج الحياة الاجتماعية والسياسية الحاضرة وصوغها وفقا لرغبات الشعب

ثم تشير اللجنة إلى الشروط التى يجب توافرها فى الانتخاب الحر ووجوب إطلاق حرية الصحافة والرأى والاجتماع وتختتم خطابها إلى القيصر بما يأتى :

« هذه هى الوسيلة الوحيدة لتوجيه روسيا إلى طريق التطور السلمى والنظامى ، وإنا لنعلن خاشعين أمام الوطن وأمام العالم أجمع أن حزبنا سيخضع من جانبه لقرار الجمعية الوطنية التى تنتخب طبقاً للشروط المذكورة ، ولن يقوم بأى عمل عنيف لمعارضة الحكومة التى تستند إلى ثقة الجمعية الوطنية »

« والآن فقرر لنفسك يا مولاى . أمامك طريقان ولك الخيار . وإنا لا يسعنا إلا أن نرجو القدر أن يملى عليك عقلك وضميرك الحل الوحيد الذى يقتضيه خير روسيا وتقتضيه كرامتك الشخصية وواجباتك أمام الوطن = ١٠ مارس سنة ١٨٨١ »

« للبحث بقية — النقل ممنوع » محمد عبد الله عنان

بمناسبة الذكرى

فى حضرة سعد

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

لما قصدت القاهرة سنة (١٣٤٣) لأقول (كلمتى فى اللغة العربية) تقدم سعد (رضى الله عنه) إلى الأستاذ الكبير حافظ بك عوض بأن يلاقينى ويقول لى : (إن سعداً يحب أن يرانى فهل أحب أن أراه ؟ !) فلما قيل لى ذلك قلت : يا شيخ ، قل : يأمر ، إنما هو الآمر المطاع . وهل أنا فى هذا البلد إلا فى حمى عمرو بن العاص وحماه ؟ ثم يممنا فى اليوم الثانى ذاك العرين : بيت الأمة ، وعرجنا إلى عليّة فيه ، وكان الزعيم يومئذ موعوكا

فإن تك قد نالتك أطراف وعكة فلا عجب أن يوعك الأسد الورد[1]

وطلع علينا سعد ومشى إلينا فسارعنا إليه

فلم أر قبلى من مشى البحر نحوه ولا رجلا قامت تعانقه الأسد[2]

ومكثت والأستاذ حافظ عوض فى تلك الحضرة ذات الجلال وذات الهيبة حيناً ، وكانت أحاديث جمة أروى منها حديثين : ذكر الزعيم سعد جمال الدين الأفغانى (رضى الله عنهما) وأياديه البيض فى هذه اليقظة العربية الأدبية ، وأفاض فى هذا المعنى ، فقلت : يا مولاى ، إنه لم ينتبه من أمم الشرق فى ذاك الوقت إلا أمتان لا ثالثة معهما : الأمة اليابانية وجمال الدين . فابتهج البطل الخالد بهذا القول فى بطل مثله ، وقال : حقاً إن جمال الدين أمة وحده . ثم قلت له قبل توديعه : يا مولاى ، من دأب الطبيعة عند ارتقاء أمة أن تلخصها فى رجل ، ومصر لم تبرح تتقدم وتعلو منذ حين طويل ، وقد لخصها الله فى سعد . فأجاب جواب الأبطال العظماء المتواضعين ، وهل يكون العظيم إلا متواضعاً ؟ وهل يستعير رداء الكبر يلبسه إلا الصغير ؟ ثم قبلنا تلك اليد الطاهرة المباركة مودعين . ولما عدت إلى مصر سنة (١٣٤٦) ، وكان أمر الله وقضاؤه ذهبت إلى (القبر) وسلمت على صاحبه

طافت الكاس بساقى أمة من رحيق الوطنيات سقاها
عطلت آذانها من وتر ساحر رنّ مليّا فشجاها[3]

وقرأت فاتحة (الكتاب) لقائدين من قواد محمد : عمرو ابن العاص ، وسعد زغلول

النشاشيبى

(١) أبو تمام (٢) المتنبى (٣) شوقى

رابطة النقد بالأثر الأدبي

وأهداف النقد

للأستاذ خليل هنداوي

نص المحاضرة التي ألقيت في حمص بروضة البلدية في ١٧ يوليه على جمع غفير من هواة الأدب . وكانت حفلة زاهية دلت على إقبال شديد على حوض الأدب . وقد تخللها قصائد ومقطوعات لشعراء حمص الشباب جددت عهد ديك الجن الحمصي ، وقد أطرب الزائرين عزف نادي (دوحة الميماس) ولا عجب في تعانق الأدب والفن في مثل هذه الحفلة ، فإنهما عنصران يتمم أحدهما الآخر . وهكذا سادت الجو روح وثابة منعمة بالخواطر الرفيعة والشعر الجميل . وفي هذا الجو العالي ألقيت هذه الكلمة ...

(خ . ه)

كنت أود أن أزوركم خفيفاً لا مثقلا ، أمتع العين ببهجة مدينتكم ولا أجهد عقلي وعقولكم . كنت أود أن آتيكم زائراً لا محاضراً حتى أرى ألوانكم الطبيعية وتروا لوني الطبيعي . ولكن الأخ الأستاذ محمد روحي فيصل ألح علي في أن تكون الزيارة للمحاضرة ، ولكنه روعني كثيراً وكاد يدخل الجزع في نفسي لأنه وصفكم لي وصفاً يبعث على الخوف . قال لي : إنك ستنزل في قوم يدرسون آثار الأديب ويحصون عليه خطراته ، ويعمنون فيها تحليلا وتعليلا . بل سترى فئة عرفت آثارك وتعرف أفكارك ما تجانس منها وما تنافر . لأنهم قوم يقرأون ويدرسون ويحللون ويناقشون. فقلت له : ما دام الأمر هكذا فدعهم على الأقل يتناولوني وأنا بعيد عنهم ، ويسلقوني بألسنتهم الحداد من حيث لا تشوى نارهم جسدي ، ولا تبلغ مديتهم ودجي . أتريد أن تسلمني إليهم يداً بيد؟ ولكن ما دواعي هذا الجزع ؟ ولم أخشى الفئة الناقشة ؟ ألسنا ندعو إلى أدب عميق يستمد من ثقافة عميقة ؟ ألسنا نحرره من الدجالين ونغزوه غزواً مستمراً بالفكر حتى يغدو أدب الحياة وأدب الحقيقة ؟ وكيف أخشى قوماً هذا عملهم ؟ وإنما الأجدر بي أن أكون واحداً منهم فيما يعملون . والأجدر بي أن أشكر هؤلاء القوم لأنهم مراقبون — لا بمعنى لجان المراقبات والحياد السياسي — ولكن بمعنى المراقبة الحقيقية التي تجعلنا نتحقق إذا كتبنا ، ونتأنى إذا فكرنا ، وإذا كان هدفنا من الأدب هذا الهدف فلمن ننشد هذا الأدب ؟ ألشباب لا يقرأون أم لشباب يقرأون ولا يفكرون ؟

يظن الصديق الكريم أنه روعني وفي الحقيقة شجعني . إذ الخير لي أن أعطي فكرة تناقش وترد لي محطمة من أن أعطي فكرة تغشى بين عميان يقدسونها ولا يحسونها !

هذه ظاهرة حسنة من ظواهر أدبنا تدل على الاتجاه الثقافي الذي اتجه إليه أدبنا في العهد الجديد . وقد كنا في عهد إذا وجد الأديب لم يوجد القارئ ، وإذا وجد القارئ لم يوجد الأديب ، وقد بدأنا بعهد يستطيع الاثنان فيه أن يوجدا !

ها قد جئت ولا أدري ما يكون نصيبي بعد ما سكن روعي . ولكني أرجو أن يكون حظي في هذه المدينة حظ ذلك المكان المسحور الذي شاع عنه أنه لا يبيت فيه بائت ليلة إلا لقي حتفه حتى جاءه رجل يريد الموت ، وما أشد عجب الناس حين وجدوه حياً ، لأنه بإرادته الموت عاش . وهكذا أرجو أن أفك هذه الطلاسم لأني أريد أن أراكم غير مطلسمين . وأريد أن تروني غير مطلسم !

وعلى ذكر النقد وشيوع النظرة النقدية عندكم آثرت أن تكون كلمتي — بينكم — حول النقد ورابطة النقد بالأثر الأدبي .

تدركون جيداً المرحلة التي فصلت بين انحطاط أدبنا الأخير وبين تباشير النهضة الأدبية الحديثة ، وتدركون أن آفاقاً كثيرة تفتحت ، وأن اضطرابات فكرية هزت عالمنا الجامد ؛ وتدركون أن النقاد يرجعون هذه البوادر إلى مدرسة الأدب الغربي التي هي أعمق وأكثر ألواناً وصوراً وأكثر درساً للحياة واكتمالاً من الناحية الفنية . على أن للأدب الغربي — في أدبنا — جوانب أبرز من جوانب ، والجانب الأكثر بروزاً في نظري هو جانب النقد الذي يسرني أنكم غليتموه — فيكم — على كل شيء .

فنظريات النقد التي شاعت في أدبنا يعود لها الفضل في هذا التقدم . والنقد كما يفهم الأدباء ظاهرة يخلفها الأثر الأدبي ، إذ لا نقد إلا بعد الأدب . ولكني أريد أن أفهم اليوم هذه النظرية معكوسة عندنا لأنا بدأنا بالنقد قبل أن نبدأ بالأدب . ولأن الأدب الغربي الذي خلق لنا أجواء نقد ، وأعطانا مقاييس نقد صحيحة ، لم يفتح عندنا أجواء إنتاج بعد !

تقلبت مدارس النقد في الأدب الغربي كثيراً تقلب الأدب نفسه، والنقد فيه كان مصاحباً للأدب. وليس للنقد حدود واضحة؛ ففيه نزوع إلى الجمال ونشدان الحقيقة وتسجيل التاريخ الأدبي. وقد قسم الكاتب الفرنسي (ڤان تيجام) ثقافة الأدب في كتابه «الأدب بالمقارنة» إلى ثلاث مراحل: الأولى المطالعة بلذة؛ والثانية المطالعة بنقد؛ والثالثة تاريخ الأدب. ولكن هذه النتيجة الملائمة للمنطق تأتي مشوشة، فهو لم يوضح عمل النقد، ولكن يبدو له أن عمل النقد شيء ذاتي ولا يمكنه أن يكون تاريخاً. أما تاريخ الأدب فهو يريد به دراسة قوية حقيقية للآثار الأدبية وما تحتويه وما تتجه اليه وما تكنّ من فن وثروة. على أن هذا هو ما ينشده النقد ويرمي اليه ما استطاع

سأل الأستاذ (روزو) في مجلته «الآداب الحديثة» الأدباء: «إلى أين يذهب النقد؟» فأجاب الأستاذ (لانسون) محدداً علاقات النقد وتاريخ الأدب: «قد تمكن كتابة تاريخ الأدب بدون نقد، ولا تمكن كتابة النقد بدون تاريخ الأدب. فاذا أردت مثلاً أن تدرس المدرسة الشعرية الرمزية، فأنت مضطر إلى أن تصعد إلى أعلى وأن تسبق هذه الحركة وتطلع على ما هيأها»

ويقول (ادمون جالو): «إن النقد لا يستطيع أن يتفوق على تاريخ الأدب؛ ومن العسير أن نحكم على رجل نجهل حياته. وأظن أن القلق في أحكامنا التي نصدرها على معاصرينا إنما يأتي من هذه الناحية» على أن الناقد وإن لم يكتب التاريخ فهو يهيئ عناصره ومواده، وكثيرون من الناقدين يهيئون الأماكن المقبلة للآثار الحاضرة

وقد تطورت مهنة النقد في العصور كثيراً. فلقد كان في في عصرنا قاضياً يميز الكتاب الجيد من الكتاب الردئ، والأثر الرائع من الأثر السخيف. ولكن في هذا الحكم ما فيه من الجور لأنه يضع الحكم على الآثار في أيد ليست منها على شيء! ثم أصبح الناقد معلماً يوضح الطريق الواجب اتباعها، ولكن هذه المهنة زالت أيضاً وأصبح هم الناقد غير هم المعلم. وفي هذا المعنى يقول النقادة (سانت بوف): إن مهمتى كأستاذ أن أوقظ قبل كل شيء مسالك الذوق بواسطة التحليل والتحديث. أما الناقد فله واجبات أخرى الناقد يعطى أحكامه بسكون وملازمة نفسه!»

وقد أعلن (لاسير) أن للنقد رسالة سامية لا تقف عند تحليل المؤلفين، وإنما همه أن يؤثر في الجماعات، ومثله الأعلى أن يعد شعباً حر النزعة، مفتوح آفاق العقل، صافي العاطفة، لكي يأتي الشعراء والمبدعون من بعد ويجدوا من يفهمونهم ويعشون معهم ويسمون إلى ألحانهم. ولعل هذه النظرية تلائم نظرية الشاعر (ستيفان مالارمى) في أن الشاعر يجب ألا يتلوه إلا شاعر، أو قارئ يستطيع أن يسمو معه في لحظة ما ويتحد معه اتحاداً شعرياً. وهذا أهم ما في رسالة النقد لأن عبقريات كثيرة — بغير النقد — تنطفئ لأنها لا ترى طريق اتصالها بالجماعات

ويرى (ماسبى) أن النقد يعمل كمعلم ... «إننا نفتقر إلى معلمين ولا نطلب إلى النقد أن يعجبنا ... لا شيء أصعب اليوم ولا أعسر من وضع نظام وترتيب في الآثار الأدبية والفنية. وإزاء هذه الميول والأهواء المتباينة يجب أن يكون الواجب الأول للأدب أن يرينا أين نحن؟ ومن نحن؟ وأن يفصل بين العبقريات. وبعبارة أجلى أن يكون حارساً أميناً»

ونحن مهما تجردنا من هذا النقد المعلم فمن المحال أن نتجرد منه تجرداً تاماً، لأن من طبيعة الحال أن يقبل الناس على الناقد ويروا فيه «المطلع الحاكم» الذي يصحح بجرأته بعض الأخطاء الكبيرة. ويمكن القول بأن تقدير الآثار على رغم بعض الخطأ في هذا التقدير قد يكون ضرورياً في مجتمعنا الحاضر ...

وبعض النقاد يعملون على أن يتجردوا ويتركوا الحكم للقارئ نفسه. وذلك بأن يفتحوا له طريقاً يسلكها ويكتشفها لنفسه... ولكن هؤلاء مهما تجردوا — يحملون شيئاً من أنفسهم دخل في بضاعتهم من حيث لا يشعرون.

أما مدارس النقد التي قامت وتقوضت ثم قام غيرها ويقوم غيرها فهي أكثر من أن تحصي، ولكل فوائدها واكتشافاتها. فقد نشأ النقد نشأة ضيقة منذ نشأ. كان يرى أن الشيء الجميل له قواعد معينة معروفة ولا يكون بدونها جميلا. وهذا نقد مجرد ينصر الفكرة المجردة، ولكنه يهدم بنقد آخر لا يؤمن بالتجرد، بل يرى أن الجميل لا يكون مجرداً، وإنما هو كغيره له علاقات تربطه بغيره. وقد شاعت هذه النظرية كثيراً حتى نشأ عنها (النقد بالمقارنة والموازنة بين الأشكال الجميلة والآثار الأدبية في الشعوب

المختلفة ثقافتها) وهذا النقد قد وسع آفاق النقد إلى ما لا حد له .
ويعجبني في هذا المعرض سلسلة المقالات التي تنشرها مجلة الرسالة الغراء «بين الأدبين العربي والانجليزي» للأستاذ فخري أبو السعود . ولعلها تكون فاتحة سلاسل للمقارنة بين الأدب العربي والآداب الشرقية الأخرى التي اتصل بها أدبنا وتأثرت به وتأثر بها كالأدب الفارسي مثلاً الذي لا تزال علاقاته مع أدبنا تكاد تكون مجهولة .

أجل ! قد ولى عهد كان يرى أن الانسان مملكة إلى قلب مملكة ، وجاء عهد يرى أصحابه أن الانسان شيء من أشياء هذه المملكة ، يؤثر فيها ويتأثر بها بمقدار ... وقد أوحت هذه النظرية للنقادة الفرنسي (تين) نظرية تحليل الأثر الأدبي بعوامل الجنس والبيئة والزمن ... ونظرية التطور أوحت (لبرونتيير) أن يعتبر الأنواع الأدبية كائنات حية تتطور ويولد بعضها من بعض .
وقد شاعت نظرية جديدة تقول إن الأثر الأدبي لا تكمل صفاته إلا بدرس صاحبه . لأن المؤلف إنما يصف نفسه ويمنح أشخاصه كثيراً من شخصيته . على أن الأثر الأدبي يخضع من وجوه كثيرة لضرورات كثيرة وظروف كثيرة . ولكن لماذا نشغل كثيراً بالمؤلف إذا كان المؤلف نفسه ليس بسيد أثره الذي أعطاه ، ولا بسيد عمله الذي يريد أن يظهره ؟ بل نذهب إلى أبعد من هذا الحد وتقول : إن المؤلف هو الذي يطابق أثره ويمشي عليه ، وليس الأثر هو الذي يطابقه . ومهما كان هذا النقد موضوعياً علمياً فمن الواجب أن يتبعه نقد ذاتي يبث الناقد فيه آراءه الذاتية الشخصية .
ومن هذه الناحية تولد النقد (المنفعل أو المتأثر) الذي يرى أن الناقد الحقيقي هو الذي يتكلم عن خلجات نفسه في الآثار الرائعة التي يطلع عليها . ومهما أشرق على طبائع مختلفة ونماذج متباينة فهو يرعى شخصية وحدود اتصال الحادث بنفسه . ولكن هذه الذاتية إذا تطرفت كثيراً أخرجت النقد عن كونه علماً ؛ ويطلب في الناقد الحقيقي أن يكون ذا موهبة تحليلية نفسية ، وأن يكون قادراً على الخروج من حدود الذات لتمكنه تذوق الفكرة الغريبة مع احتفاظه بشخصيته . ونقد آخر يعمل على ترتيب درجات الآثار الأدبية ، وآلة ذلك — كما يقول سانت بوف — الذوق ، لأن الذوق يعبر عن كل دقيق وعن كل خفي يتمشى في أنفسنا !
... وتتمثل في إبان النهضة العلمية النقد العلمي ، ويقول أصحابه : إن إلحاق النقد الأدبي بالعلم لا معنى له ، إذ لا يوجد علم يختص بشخص دون شخص ، والنقد الأدبي لا يعرف إلا الأفراد في الرجال والآثار . ويقول هؤلاء : إننا لا نضم العلم إلى النقد ، ولكن نضم الفلسفة إليه . والنقد الحديث قد دخله شيء من مدرسة أفلاطون وشوبنهاور وبرغسون . نعم إن الغاية من الأدب والنقد إنشاء اللذة النفسية ، ولكنا نريد أن نعرف تحليل هذه اللذة التي يغمرنا بها الشعراء والكتاب ، وبذلك نزيدها أضعافاً مضاعفة . وهل كانت المجادلة على الشعر الصافي (Pure) إلا قبساً من فلسفة ما وراء الطبيعة . ونقد (تيبودي) الذي أوجد الاتصال بين الرمزية وفلسفة برغسون هو نقد مشبع بالروح الفلسفية المرتكزة على فلسفة الفنون والآداب . وهنالك النقد الاجتماعي والأخلاقي الذي يقيد الأدب والفن ويرى صلاحهما بمقدار معالجتهما للمسائل الاجتماعية والأخلاقية ، ولا ينصرها إلا بمقدار ما ينصران الأخلاق . وهكذا نجد في النهاية ألواناً كثيرة للنقد نشأت لتحليل ألوان الأدب وكل غايتها أن تفتح للأدب آفاق التجديد والابداع .

***

لقد دخلت هذه المدارس النقدية أدبنا وعملت فيه — على غير نظام — وأثرت فيه تأثيراً مباشراً . وليس طه حسين والعقاد واحمد أمين إلا وليدي هذه المدارس على اختلاف الاقتباس وتباين الطرائق : على أنكم إذا شئتم أن تقارنوا بين من أنتجهم أدبنا الحديث — بين الناقدين والمبدعين — فسدت المقارنة وشالت كفة المبدعين ، لأننا لا نجدهم كما نجد الناقدين . وهذا الأمر يجعلني أعتقد بالنظرية التي أعلنتها « إنا بدأنا بالنقد قبل أن نبدأ بالأدب » فنقادنا الذين تثقفوا بالأدب الغربي قد فتحوا فتحاً جليلاً في أدبنا القديم . ولكنه فتح لم يعد بكل الفائدة على توجيه أدبنا الحديث . فأدبنا الحديث لا يزال جامداً مقلداً لا تتلمس في أقلام أدبائه المبادئ الفنية التي يجب أن تكون فيهم ؛ وبهذا أفاد الأدب العربي الناقدين ولم يفد الأدباء المجددين .
قد يقول حملة لواء التجدد : إننا نريد التجديد والتطور ، ولكن القدماء يمنعون علينا هذا التطور ويجدوننا في أدبهم هدامين . ولأصحاب المذهب القديم أن يقولوا ذلك لأنهم يرون في أساليب المجددين التواء وتنكباً عن الأساليب العربية ؛ ثم لا يجدون في أساليبهم ذلك الحسن الفني الذي يبشرون به . وما

ذلك إلا لأن جل المجددين أنفسهم يمشون ولا يدركون أين يمشون ؛ ويأخذون من كل ثقافة برقعة فيأتى ثوبهم مؤلفاً من رقع ! ! فهل درسوا نظرية كل مدرسة فى الفن والحياة ؟ فليس الأدب الغربى كله من هذه البضاعة التى ألف أن يحملها إلينا من حين إلى حين أناس لم يستقيموا لأدبهم ولم يستقم الأدب العربى لهم . وإنا إذا دعونا إلى التجديد وإلى تدبر الأدب الحديث فلا ندعو إلى تعطيل الأسلوب العربى والبيان العربى ، لأننا نعلم أن لكل لغة من بيانها صبغة إذا زالت زال منها كل لون من ألوان عبقريتها . ولكنا لا نجد حرجاً في خلق المدارس الجديدة ليغذى أنصار كل مدرسة مدرستهم بخير ما يغذى . وفى الأقطار العربية فئات لا ينقصها من الثقافة شيء . ولا يضير العربية تعدد هذه المدارس لأنها باعث من بواعث النشاط والتحفز .

نحن في عهد قد اتسعت فيه مناحى ثقافتنا وأصبح لا يشبعنا ما كان يشبع من قبلنا ، وأصبحنا نطلب من الأدب أن يكون شيئاً غير التنميق والزخرفة والشعوذة . والأدباء والشعراء الذين كنا نطرب لهم بالأمس لم يعودوا يملأون نفوسنا ، وإنا إذا طربنا اليوم يمعض آثارهم فلأن هذه الآثار تخاطب فينا جزءاً عتيقاً من أنفسنا لا يزال يمد رأسه من حين إلى حين ، كالمقطوعة الشعرية مثلاً نسمعها فى مناسبة ما من فم قائلها فتطربنا ، ولكن إذا عدنا إلى « جوها » لم نجد شيئاً ، وإذا تلوناها تلونا فيها شيئاً كثيراً الا الشعر . وشعراؤنا على اختلافهم ينظمون كثيراً ولا نعرف لشاعر منهم لوناً خاصاً يتميز به إذا ميزت الألوان ؛ لأن جلهم لا يزال يرعى عهد القدماء « القائل » احفظ أشعار الأوائل وانهج على منوالهم تصر شاعراً . . . ولم يعلم هؤلاء أن العصر قد تبدل وتبدلت بتبدله مطالبه ، وأن الشعر أصبح ذا رسالة تفتقر إلى ثقافة عميقة وذوق مهذب فنى . فهل هب من شعرائنا من يدرس النظريات الفنية ؟ وهل فى تحليل هذه النظريات والاستفادة منها ما يضر مواهبهم ؟ وهل يعارض أصحاب القديم فى ادخالها وهى لا تهدد البيان ولا تحرف اللسان ؟

كان الشاعر — مثلاً — يكفيه أن يجمع بين أية فكرة وأية لفظة لا يبالى الملاءمة ولا يبالى أصل هذه الفكرة ؛ أما الآن فهو مضطر إلى أن يفرق بين الخطرة الفكرية والخطرة الشعرية ، وأن يعي علاقات الألفاظ بالمعانى وينسق ألحانها دون أن يخونه شيء . وهذا يدعوهم إلى أن يمارسوا النظريات الجديدة فى الفن وعلم النفس . وهذه النظريات هى وقف على العقل الانسانى الشامل لا تختص بأدب ولا تنتسب إلى قبيل ، وإن من واجب المدارس الأدبية إزاء هذه التطورات ألا تقف عند نظريات معينة فى النقد تتجمل من طلابها نقاداً ومؤرخين ، وإنما هنالك النظريات الفنية التى تزيد فى اطلاع الطالب على أعماق النفس البشرية وتجعله أكثر ارتباطاً بالحياة وتفهماً لها . وبهذا تعمل على تطور الأدب — لا تاريخ الأدب — تطوراً مخصباً يعود على كل حقول الأدب بالانتاج والابتكار . قلت : إن النقد تقدم في أدبنا ، وليس معنى ذلك أنه بلغ الذروة التى يريد بلوغها . فللنقد عند الناقدين مذاهب كما للأدباء ؛ وكل مذهب يفهم النقد كما يريد ، بينما يقف نقدنا عند مرحلتين : (١) نقد الآثار القديمة وتنظيمها وإنشاء دراسات مخصبة عليها . وقد خطا النقد العربى فى هذه المرحلة خطوة واسعة موفقة (٢) نقد الآثار الحديثة وأكثره عمل تهديمى صرف ، أو إضرام بخور المجاملة للأصنام الأدبية ، دون أن يجرب أن يكون نقداً عميقاً يلتفت إلى البناء . وإذا كانت فائدة النقد الأول إحياء مآثر الماضين ففائدة النقد الثانى أجل وأعلى لأنه يحيي الأحياء ويفتح لهم طريق الإبداع . ومن هذا ترى سر تهافت طلابنا على الدراسات القديمة وتجمد روح الانتاج والابداع فيهم .

تلوت قراراً جديداً أصدرته الجمهورية الألمانية هذا العام تمنع فيه الأدباء الأحداث أن يجروا أقلامهم فى ميدان النقد ، لأن النقد عمل ثقافى يحتاج إلى مراس واطلاع واختبار . وهى تزعم أنها تريد من وراء هذا أن تحمى آثار العباقرة من الهجم ، ولكنى أريد أن يبقى النقد وأن يتناوله الشباب . وإذا أريد حماية الأدب فلا نستطيع أن نحميه بمثل هذا القرار لأن النقد غريزة فى النفس ، بل ربما كان النقد وحده عبقرية . وقديماً قالوا إن النقد يرافق الأثر الأدبى ولا يخلقه . ولكنى أرى أن النقد في كثير من المواطن لم يكن مرافقاً وإنما كان خالقاً . أجل ! إن العبقرية تكاد تكون — كما يجمع علماء النفس — شذوذاً فى الناس كالمعجزة ، ولكن هذه المعجزة مرتبطة — من نواح كثيرة — بما حولها ، ولولا ما حولها لفسدت . وهكذا ساعد النقد عبقريات كثيرة على الظهور لأنه عبر عنها وفسر ما يكتنفها من إبهام . ولذلك

لا حاجة إلى خنق النقد بحجة حماية الأثر الأدبى ، لأن الأثر الأدبى والنقد لا يحتاجان إلى وسيط بينهما للتفاهم ، ولا إلى قانون يحمى أحدهما من الآخر . فليوجد الأثر الأدبى من شاء ، ولينقده من شاء . . .

تقولون لى : وكأنا بك لم تكفك مقاييسنا الجديدة فى النقد فما هى مقاييسك ؟

إننى لا أميل إلى مقاييس تقريبية محددة مقيدة . ومن ذا يستطيع أن ينشىء للحياة وأذواقها المتباينة مقاييس . . ؟ وأية عين ترى مثل ما ترى الأخرى ؟ ولقد تتغذى بثقافة واحدة فى بيئة واحدة ، وتتجه وجوهنا شطر آفاق واحدة ، ولكنا لا نتفق فى النهاية على تفهم ما نراه . ولكنا رأينا الحياة جميعاً ، وفهمنا منها كل بحسب مزاجه ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون للنقد مناح نوجهه إليها .

فالواجب الأول — عندى — للنقد أن يكون فى القارئ شخصية مستقلة فى النقد ، تترك صاحبها لا يقبل الشئ نقلاً ، وإنما يقبله إذا قبله عقلياً ... استقلال الشخصية أول ما يجب أن يلهم النقد . فبقدر ما يؤلمنى فقدان الاستقلال الشخصى فى الأمم ، كذلك يؤلمنى فقدانه فى الأفراد . وكما يقبل عليك الأديب بشخصيته ، أقبل أنت عليه بشخصيتك

والواجب الثانى للنقد — وهو واجب ما أحوج نقدنا إليه ! هو توجيه العقول إلى التوليد . وذلك بإنماء الذوق الفنى فى النفس حتى تتلمس مواقع الجمال ، وخلق الأجواء الخاصة له . فالشعر إذا لم يكن محدوداً فذلك لأن المحدود نفسه يتحدد فيه ويفقد روحه المنطقية ، ومن كان يتنبأ بأن الشعر يخضع لظروف جديدة ؟ أليس علم النفس أثر فيه كما أثر فى نواح مختلفة من الأدب ؟ ألم يدل فيه وجهات كثيرة وخلق منه اتجاهات كثيرة ؟ وبينما كان الشعر لغة لا تصف من النفس إلا حالات العاطفة الهائجة ، ومن البحر إلا أمواجه المصطفقة أصبح يهوى إلى الأعماق التى تثير هذه العواطف المتاوجة فى سكون النفس ! إذ ليس من الضرورة أن تصف أوعى ما فى نفسك وأقربه للاهتزاز والارتجاج . ويكفى من القصيدة أنها تضرب على وتر فى أعماقك تسمع رنينه ولا تسمعه . على أنى لست متشائماً من تأخر الإنتاج ، لأننا نؤثر أن نتكلم بالنقد على أن نتكلم بأدب غير ناضج ، ولا نريد أن يذهب تأثير الأدب الغربى إلى أبعد من جو النقد . نريده موقظاً فقط لا موحياً إلينا ، وفاتحاً عن أفق لا أن يكون هو الأفق !

والواجب الثالث أن يساعد النقد — كما يقول (لاسير) على أن يعد شعبا مفتوح آفاق التفكير صافى الذوق لكى يأتى المبدعون ويجدوا من يفهمهم ويعشون معهم . . .

خذوا النقد وسيلة لا غاية . وسيلة لفتح آفاق الإنتاج القوى . ولا تجعلوه غاية سيركم بل اجعلوه طريقاً إلى غايتكم . وليكن لون انتاجكم لون نفوسكم ولون هذه الطبيعة . ولا ترتدوا ثياب غيركم لأنكم لن تحسنوا تقليد غيركم ، ثم لن تجدوا بعدها لونكم الخاص . ولا تمشوا وراء خطوات غيركم مقلدين ... إننى رحبت بالروح النقدية عندكم على أن تكون مقدمة للابداع المنشود !

فليكن لناقدكم ضمير يوحى إليه أن يعترف بالجمال حيثما رآه !

وليكن نقدكم نقطة يتعانق فيها العدل والحق والجمال .

وليفتح لكم النقد طريقاً إلى التوليد .

وليفتح الناقدون الطريق للروح المولدة .

وإذا لم نكن عباقرة فلنمهد — على الأقل — الطريق للعباقرة .

ولعل الذى وصفكم لي بأنكم ذوو عقول ناقدة مناقشة هو الذى يصفكم لي فى المستقبل بأنكم ذوو عقول مبدعة مولدة

« حمص » خليل هنداوى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

– ٦ –

« لايؤاخذني القارىء بما أخذت به نفسي من الترتيب في هذه المقالات ؛ فقد يبدو لكثير من القراء أني أسير على غير منهاج واضح حين أجمع بين الحديث عن الرافعي الشاعر ، والرافعي الأديب ، والرافعي في أهله ، أو حين أثب من موضوع إلى موضوع لايمت إلى سابقه ولا يصله به سبب .

« وعذري الذي أقدمه إلى القراء من هذا الخلط هو أني أسير في تاريخ الرافعي على الترتيب الزمني لا ألقي بالا إلى غيره ؛ فأيما حادثة اعترضت حديثاً وجرت في زمانه تناولتها ، حتى لايفوتني شيء مما أريد إثباته ، فأسير مع الحادثة من حيث تبدأ في زمانها وأنتهي بها حيث تنتهي من تاريخه ، ثم أعود إلى ما كنت فيه على حساب السنين ؛ فهذا من هذا ؛ وللباحث من بعد أن يجمع عناصر موضوعه على ما يشتهي ويتناولها من حيث يريد »

شعراء العصر في سنة ١٩٠٥

قدمت الحديث في الجزء الرابع من هذه المقالات عن شيوخ الرافعي في الشعر الذين أخذ عنهم أو اقتفى آثارهم ، أو جرى معهم على سَنن . وأثبتُّ ما كان بينه وبين حافظ من المنافسة ، وما كان يتمتع به حافظ يومئذ من الشهرة والجاه والحظوة عند الشعب ، تلك الشهرة التي ألهبت غيرة الرافعي وحفزته إلى الكفاح وحمّسته إلى استكمال أسباب النلبة بعقد الأواصر وإنشاء المودّات والدعاية لنفسه . ثم بينتُ ما كان بين الرافعي والكاظمي من صلة الحب والتقدير ؛ وتساءلت في آخرة القول : هل من صلة بين الرافعي وبين غير هؤلاء الثلاثة من شعراء الجيل ؟ هل كان لغير البارودي وحافظ والكاظمي من شعراء العصر أثر في شعر الرافعي ؟ وما مبلغ هذا الأثر ؟ وما نتيجته ؟

على أن الباحث المحقق لايقنعه هذا التساؤل ، وليس يكفيه من وسائل البحث أن يعلم من شعراء العصر هؤلاء الثلاثة فحسب ؛ ولقد نشأ الرافعي الشاعر في أول هذا القرن ، وأوله حافل بشُلّة من الشعراء لم يجتمع مثلهم في زمان في بلد ؛ فما مبلغ تأثر الرافعي بكل أولئك الشعراء المعاصرين ؟

هنا أدع للرافعي نفسه أن يتحدث ، وما حديثه هذا إلا طرف من الدعاية التي كان يقوم بها لنفسه في أول عهده بالشعر ليبلغ المنزل الذي يطمح إليه . وإنه ليكشف عن شيء من خلق الرافعي وكبريائه واعتداده بنفسه ، ويدل على قوة الرافعي وعنفوانه وشدته في النقد ، إذ كان هذا الحديث أول ما كتب الرافعي في النقد .

إن أدباء العربية عامة لايعرفون من الخصومات الأدبية أشهر شهرةً من الخصومة بين الرافعي وأدباء عصره ؛ فالخصومة بين الرافعي وطه ، وبين الرافعي والعقاد ، وبين الرافعي وعبد الله عفيفي ، وبينه وبين غير هؤلاء — هي خصومة مشهورة مذكورة في موضعها من تاريخ الأدب العربي في هذا الجيل ، مشهورة مذكورة في موضعها من تاريخ النقد في العربية.

وإن قراء العربية عامة ليعرفون الرافعي الناقد معرفة بصيرة ، ويعرفون شدته وعنفوانه في النقد ، شدةً حبّبته إلى الكثير ، وألّبتْ عليه الكثير . على أن من يريد أن يعرف أول شأن الرافعي في النقد فليقرأ مقال الرافعي عن شعراء العصر في سنة ١٩٠٥

***

نشر الرافعي مقاله ذاك في عدد يناير سنة ١٩٠٥ من مجلة الثريا بتوقيع (*) وأحسبه أخفى اسمه وراء هذا الرمز حذر التهمة ، وليبلغ به مبلغه في الدعاية لنفسه ، فقد جعل نفسه في الشعراء رابع الطبقة الأولى من طبقات ثلاث تنتظم كل من يعرف الرافعي من شعراء عصره . جعل الطبقة الأولى منهم على الترتيب :

الكاظمي ، والبارودي ، وحافظ ، والرافعي ...

وفي الطبقة الثانية على الترتيب :

صبري ، وشوقي[1] ، ومطران ، وداود عمون ، والبكري ،

(١) لم يثبت الرافعي طويلا على هذا الرأي في ترتيب شعراء عصره ، وفيما كتب بعد ذلك من المقالات بتوقيعه الصريح ، بيان رأيه في آخرة —

ونقولا رزق الله ، وأمين الحداد ، ومحمود واصف ، وشكيب أرسلان ، ومحمد هلال ابراهيم ، ثم ... حفني ناصف !

وفي الطبقة الثالثة :

الكاشف، والمنفلوطي، ومحرم، وإمام العبد، والعزبي، ونسيم.

ثم ألحق بهؤلاء اثنين يعرفهما من شعراء العراق ، هما : السيد ابراهيم ، ومحمد النجفي

وقد افتتح الرافعي مقاله بما يأتي :

« قرأت في بعض أعداد (الثريا) كلمة عن (الأدب قديماً وحديثاً) فقلت : كلمة مألوفة . ولم ألبث أن رأيت جملة أخرى لأديب غيور على الشعراء ، كان رأس الشعر بين أولها وآخرها كأنما خدش بين حجرين ؛ فقلت : إني أنظم الشعر فأسرّ ، وأقرأ عنه فأسرّ ، فالى لا أثق بها والقوم قد أصبحوا يتنافسون في أسماء الشعراء ، كما يتنافسون في ألقاب الأمراء ؛ وقد استويا في الزور ، فلا أكثر أولئك شاعر ، ولا أكثر هؤلاء أمير

« ثم رأيت بعد أن عزم الله لي كتابة هذا المقال أن أتركه بغير توقيع ، وإن كنت أعلم أن أكثر من يقرأونه كذلك سيخرجون من خاتمته كما لو كانوا أميين لم يقرأوا فاتحته ، فإن الحكمة كلها والمعرفة بجميع طبقاتها أصبحت في أحرف الأسماء . فإن قيل : كتاب لفلان ... قلنا : أين يباع ، وإن كان من سقط المتاع . على أن اسمي قد لا يكون في غير بطاقتي وكتبي إلى أصحابي القليلين ، وفي سجلّ بعض الجرائد والمجلات ، فليظنني القاريءُ ما ضرب على رأسه الظن

« وسأذكر في هذه الأسطر كل من عرفته أو اتصل بي اسمه من الشعراء ، وأقطع عليه رأيي ، فإما وسمه فكمل به ، وإما أظهره كما هو في نفسه ، لا كما هو عند نفسه ؛ ولذلك فقد قسمتهم إلى ثلاث طبقات ، وجاريت في تسمية بعضهم بالشعراء عادتنا المألوفة »

ثم كتب رأيه بعد ذلك في كل شاعر ممن ذكرت مقتبساً بين شعره مستشهداً به على ترتيبه في موضعه من طبقته

وكان مما قاله عن صديقه ومزاحمه حافظ :

« وأكثر شعره في هذه الأيام (سنة ١٩٠٥) أضعف من قبل ... والذين لم تبتغم ألسنتهم ولم تزل أفكارهم على سقم يقولون : إن شعر حافظ اليوم خير منه في ديوانه الأول ؛ وذلك لأنهم لا يدركون موقع الخيال الشريف ، ولا يهتزون للمعنى البكر إلا في اللفظ الثيب ، وهؤلاء يفضلون (شوقي) عليه ، وهيهات بعد أن استنوق الجمل ... ! »

وكتب عن نفسه :

« لو كان هذا الشاعر (يعني نفسه) كما أسمع عنه ، فإني أكون قد ظلمته إذ لم أقدمه عن هذا الوضع (الرابع من الطبقة الأولى) ؛ فقد أخبرت أنه لم يتم الرابعة والعشرين من عمره ، ولذلك فإني لا أكتب عنه إلا ما أعرف من شعره ، سواء كان فتى أو كهلا ؛ وهو قد طبع من ديوانه الجزء الأول من سنة مضت ، وذكر في مقدمة شرحه أنه نظمه في عامين ، وأنه لم يقل الشعر إلا منذ ثلاث سنوات من طبع ذلك الجزء ؛ ولم ألبث أن رأيت منذ أشهر في بعض أعداد مجلة (الجامعة) تقريظاً مسهباً جداً للجزء الثاني من ديوان هذا الشاعر ؛ فأكبرت ذلك ، ولا شك أنه ينظم اليوم في الجزء الثالث قياساً على ما تقدم ...

« ومما امتاز به هذا الشاعر ولعه الشديد بالغزل ، وبلوغه فيه أسمى ما يبلغه النظم ؛ وله مزية أخرى ، وهي غوصه على المعاني في الأغراض التي لم تطرق ، وكثيرون يعدونه بذلك شاعر مصر ، وديوانه معروف ، وشعره مشهور ... الخ »

وقال عن شوقي :

« سيأخذ بعض القراء العجبُ إذا رأى شوقي بك ثاني الطبقة الثانية وهو هو (شوقي بك شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية) ، ولكنا نعجب أكثر منه إذ رأينا الشوقيات قد انقلبت إلى شوكيات ؛ فأي ذوق سليم يطمئن لهذه المعاني المكررة وتلك الألفاظ النافرة من مثل : « قضى أرْيحيُّ القوم » وغيرها . ولا أدري لهذا الانقلاب سبباً إلا إذا صح ما يقال من أن (صبري وسلمان) كانا يهذبان شعر الرجل من قبل ، وهو قول لا أجزم به ولا أرفضه ...

« ... وإنما اشتهر قديماً يوم كان الكاظمي في العراق ، والبارودي في سيلان ، وصبري من مهذبي شعره على ما يقال ، وحافظ في السودان ، والرافعي لم يقل الشعر بعد — على ما قيل

لى ! — وأثبت له الشهرة إضافته إلى الحضرة الخديوية على نحو مايذكر النحاة فى باب (الجر) بالمجاورة ... »

وختم المقال بقوله :

«... وسنرى ما يكون من امتعاض الشعراء بعد هذا المقال ، ولكنى أطلب إليهم أن يخفضوا عن أنفسهم ؛ فلا أنا من معية الأمير . ولا من حاشية السفير ، وليس ما كتبت إلا رأيى ، فليتق كلٌّ فى رأيه وعند نفسه أشعر الشعراء »

وذيلته مجلة (الثريا) بما يأتى :

« أتى إلينا مكتب بريد الزيتون يوماً ملفاً ضخماً وارداً من مصر ، وداخله كتاب موجز ومعه المقالة المتقدمة للنشر . أما الكتاب فهذه صورته بعد الديباجة :

« ... دونك مقالةً بكرا لم يُنسج على منوالها بعدُ فى العربية ، حَرِيّة بأن تصدّر بها مجلتك الغراء ؛ ولا يروعنّك شدة لهجتها فكلها حقائق ثابتة ، وإن آلمت البعض فان الحق أكبر من الجميع ؛ وإنى لبالمرصاد لكل من ينبرى للرد عليها ، وأنا كفء للجميع ؛ وما إخال أحداً يستطيع أن ينقض حرفاً مما كتبته ، وإن هم لزموا الصمت فحسبك من سكوتهم إذ ذاك إقراراً بأنى أنزلت كل شاعر فى المنزلة التى يستحقها .

« ولا يعنيك معرفة اسمى ، فأنا ابن جَلا وطَلاّع الثنايا ؛ فانظر إلى ما قيل وليس لمن قال ، وبعد هذا فإن أعجبتك مقالتى فانشرها وإلا فاضرب بها عرض الحائط .

« وإنى أقترح عليك أن تنشر جميع ما يردك من الردود فى المعنى ، سواء جاهر أصحابها بأسمائهم أو تستّروا ، فإن الموضوع طلْق شعبىّ ، وفى إطلاقك الحرية للكتّاب ما ينشط بهم لحرية الجولان فى هذا المضمار »

قالت الثريا : « وقد تصفحنا المقالة فراعنا شدة لهجة الكاتب وبتنا نقدم رجلاً ونؤخر أخرى فى نشرها ، إلى أن تغلب علينا الميل لنشرها ، إن لم يكن لشئ فلكثرة ما حوته من رائق الأشعار لفحول الشعراء ، وهم نخبة شعراء مصر فى هذا العصر ؛ فأقدمنا على نشرها كما وردتنا بالحرف الواحد ، غير متحملين تبعتها ؛ وللكتاب الأدباء الحرية فى الرد عليها ، وأبواب الثريا ترحب بكل ما يردها من هذا القبيل ، سواء من المشتركين أو غيرهم

« ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يُهدّم ، ومن لا يَظلم الناسَ يُظلَمِ[1] »

* * *

أحسب أن لهذا المقال أهمية كبيرة لمن يريد أن يدرس الرافعى دراسة أوسع قائمةً على قواعد من العلم والتحليل النفسى ؛ وإنما يستأهل هذا الاهتمام من ثلاث نواح :

أولاً : إنه أول ما أنشأ الرافعى فى النقد ؛ فهو كالمقدمة لهذه المعارك الطاحنة التى قامت بين الرافعى ولفيف من أدباء عصره بعد ذلك بعشرين سنة ؛ فلا بد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعى فى النقد أن يبدأ من هنا

ثانياً : إنه ثَبْتٌ جامع لأسماء الشعراء الذين نشأوا مع الرافعى فى جيل واحد ، وقرأ لهم ونظر فى شعرهم نظر الناقد أو نظر المعجب المحتذى ؛ فلابد لمن يريد أن يتحدث عن الرافعى فى الشعر ، وعن الشعراء الذين تأثر بهم أو تأثروا به ، أن يعرف هؤلاء الشعراء.

ثالثاً : إن فى هذا المقال لوناً من ألوان الدعاية التى كان يقوم بها الرافعى لنفسه ليبلغ إلى الهدف الذى كان يرمى إليه بين أدباء العصر ، فلا بد لمن يريد أن يدرس وسائل الرافعى إلى الشهرة وذيوع الصيت أن يقرأ هذا المقال .

وبعد فإن فيه شيئاً من أخلاق الرافعى المزهوّ بنفسه ، المعتدّ بعلمه ، القوىّ بإيمانه ، المتقحّم على مواطن الهلاك ؛ الرافعى القزم الضعيف الذى وقف على السفح تعتمد خاصرته على راحته وهو ينظر إلى فوق ليقول للشعراء العالقة على القمة : انزلوا إلىّ أو أصعد إليكم فأرميكم إلى بطن الوادى أشلاء ممزقة ليس فيها عضو إلى عضو ولا يسمع لكم صريخ . . . !

الرافعى ...؟ لقد كان الرافعى طويل اللسان من أول يوم ...!؟

« سيدى بشر » محمد سعيد العريان

---

(١) كان لهـذا المقال رنة وصدى بين جماعة الشعراء فى ذلك العصر . وقد تحدث عنه المرحوم الرافعى مرة إلى قراء الرسالة ، فى العدد ١٠٩ فى مقال بعنوان (كلمات عن حافظ) وصف فيها أثره وما أحدث من ضجة بين الشعراء ؛ فليرجع إليه من شاء .

على أن الرافعى لم يصرح فى ذلك العدد أنه كاتب المقال ، ولكنه لم يستطع كذلك أن ينفيه عن نفسه ، وإن كان معروفاً لدى خاصته وأصدقائه أنه كاتبه ؛ وأسلوب الرافعى لايخفى على أحد من قرائه .

وقد ذكر الرافعى أن هذا المقال نشرته الثريا فى سنة ١٩٠٣ وهو سهو حقيقته ما ذكرت .

من تاريخ الأدب المصري

شعر القاضي الفاضل

للأديب محمد سعيد السحراوي

وقفت على نسخة مخطوطة من ديوان القاضي الفاضل في دار الكتب المصرية فأحببت أن أعرض طرفاً منه خدمة للأدب (م . س)

سيرة القاضي الفاضل

ولد بمدينة عسقلان عام ٥٢٩ للهجرة ؛ فهو ليس مصري الأصل وإن كان مصري الدار . تولى أبوه القضاء في نيسان وهو طفل ، وثقفه تثقيفاً دينياً بحتاً حتى كبر ، فقدم إلى القاهرة في عهد الحافظ لدين الله ، وخدم فيها الموفق بن يوسف ابن جلال مدير ديوان الانشاء إذ ذاك فتعلم فنون صناعته ، وحذا حذوه في كتابته ، ثم انتقل إلى الأسكندرية يخدم بعض حكامها حتى عرف بينهم بالذكاء ، وبنبوغه في صناعة الانشاء ، فلما سمع به العاضد استدعاه إلى القاهرة وعينه كاتباً ، وفي عام ٥٦٦ للهجرة توفي الموفق بن يوسف بن جلال فجعل العاضد القاضي الفاضل مكانه — وظل يكرمه كل وال ويرقيه ، حتى ولي الملك صلاح الدين فجعله كاتبه وقاضيه ، ووزيره ومشيره ؛ وظلت هذه حاله إلى أن توفي في ١٧ ربيع الآخر عام ٥٩٦ للهجرة أي في الليلة التي هزم فيها الأفضل ودخل العادل القاهرة

نسبه وصفاته

وهو الوزير مجير الدين أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء المجد علي بن القاضي السعيد أبي محمد ويعرف بالبيساني . وقد ذكر عنه المؤرخون أنه كان ديناً كثير الصدقة والعبادة ، وله وقوف كثيرة على الصدقة وفك الأسرى ؛ وكان يكثر الحج والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان . وكان ضعيف البنية ، رقيق الصورة ، له حدبة يغطيها الطيلسان . وذكروا عنه أيضاً إنه كان فيه سوء خلق يكمد به نفسه ولا يضر أحداً ؛ وكان يجل أصحاب الأدب ويكرمهم ويعاونهم ، ويؤثر أرباب البيوت والغرباء ولا ينتقم من أعدائه ، فإما أن يحسن اليهم أو يقتصر على الاعراض عنهم [1]

والقاضي الفاضل كاتب معروف وأدبه له طابع خاص ، وأسلوبه لا يكاد يجهله مطلع على الآداب العربية ، فهو كما يقال عنه — رب العلم والبيان ، واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة ، والبصيرة النقادة ، والفضل الذي ماسمع به الأوائل لمن عاش في زمانه ، وماتعلق أحد بغباره أو جرى في مضماره [2] وهو كذلك شاعر جيد الشعر كما سيجيء

شعره

شعر القاضي الفاضل صورة من نفسه ، يدل على رقة حسه ؛ أكثره في الغزل ، لأنه أسلس ضروب الشعر قيادة للمحسنات اللفظية التي أغرم بها القاضي الفاضل غراماً شديداً ، وكلف بها كلفاً ظاهراً ، في غير تصنع واضح ، أو تطرف يخرج بها عن المعنى الذي يقصده . وقد اكتسب القاضي الفاضل من البهاء زهير وابن سناء الملك وابن قلاقس وغيرهم من الشعراء الذين عاشوا معه في مصر ، رقتهم وموسيقاهم الشعرية العذبة ، كما اكتسب مما كان يأتيه من أشعار الأندلسيين الذين كانوا في إبان نهضتهم الأدبية ، الأخيلة الرائعة والطرائق المستحدثة ، وإن كان قد حافظ على نظام سابقيه ، فظل ينظم فيما تعود سماعه وما كثر النظم فيه فلم ينظر إلى الطبيعة الساحرة نظرة الأندلسيين إليها ، ولم يجب الآفاق البعيدة التي جابوا فيها ؛ وربما كان ذلك نتيجة لنشأته الدينية واحتراماً لجلال المركز الذي وصل إليه

الفخر

القصيدة الأولى في ديوانه يعرفها بعض الأدباء ، وهي في الفخر ، وفيها يصف بلاغته متلاعباً فيها بالمعاني وهي خير مثال على شعره ومنها :

قضى نحبه الصوم بعد المطال ... وأطلق من قيد فتر الهلال

وروّض كاتب جنبي اليمين ... وأتعب كاتب جنبي الشمال

---

(١) ابن خلكان صفحة ٤٠٢ وما بعدها وابن الاثير جزء ١٢ صفحة ٦٥ والخريدة للاصفهاني وغيرهم

(٢) ابن خلكان

فدع ضيقة مثل شد الإسار — إلى فرجة مثل حل العقال
وقم هاتها مثل ذوب النضار — وموج البحار وطعم الزلال
جزى الله عنى عروس الدوالى — ولا أخطأتها كؤوس الغزالى
بمـا أطعمت من لذيذ الثمـار — وما ألبست من نسيج الظلال
وما ساست من مذاب السرور — وما خفضت من جماح التعالى
فكم زخرفت جنة للعذاب — وكم رفعت قبساً للضــلال
أغالط بالكأس حكم الزمان — فيـوم علىّ ويوم بمـالى
فجاءت بمـا فى عيون النساء — ومرت بما فى رءوس الرجال
وأسلو الغزال بهـا إذ أرى — بكاساتهـا دم ذاك الغزال
إذا مزج المـاء منها الكئوس — مزجنا أسنتها بالنصـال
وسكران كدر من سكره — زمان على كل عقل ممـال
فسكر الشباب وسكر الشراب — وسكر الصدود وسكر الوصال
فلا تذكرن عهود الوصـال — فعهدى بها والليالى ليـالى
ولم أبك عهداً رجاء الرجوع — ولكن أجـدده بالصقال
بعثن الليـالى بيأس جديد — علىّ قديماً فجـاست خـلالى
فمـا جاء عن منطق ذم جان — ولا جاء عن جوهري ذم حالى
ولم استغث تحت ظل الخطو — ب جرجرة البُزل تحت الرحال
خشنت لحال كشوك القتاد — ولنت لأخرى كشوك السيال
ولست لسـاناً لذل السؤال — وما زلت صـدراً لعز السؤال
حديث يناجى فروع السحاب — وأصل يناجى أصول الجبـال
ولى قلم منـه عين الكلا — م مجرى فتنتظر عين الكمال
يراع تظل رياض الطرو — س منها موشحة بالصـلال
كظل الوقيعة فيها الظلال — يشيع الوقيعة لى فى الزلال
وكتب يفيض بأرجائها — عين الجدا أو لسـان الجدال
تقدمها الشكل من فوقهـا — كمثل السهام أمام النصـال

وهى طويلة جمعت عدة أنواع من الشعر فأوعت .

الغزل

وشعر القاضى الفاضل الغزلى رقيق جزل ، فهو يقول معاتباً .

وإنى لمطوى الضلوع على جوى — بأيسر منه ينشر الوابل السجم
وأملت نفع الكتم فيه مغالطاً — غليلي ولكن قل ما نفع الكتم
وقد كان لى عزم على الصبر صابراً — فقد خانه بعـد النوى مانوى العزمُ

وأسمعها باللؤلؤ النثر جفنه — ويسمعها من بعدها اللؤلؤ النظمُ
لنفسى أريد الوصل لا بعد موتها — فلا خبر من بعد الممات ولا علمُ
لحى الله هذا العيش إن كان ما أرى — فآنفـه ظل وسالفـه حلمُ
وزعم صبرى أنه لى عـدة — وأكبر ظنى أن سيكذبنى الزعمُ
فلا بعد إطلال الحمى القطر وحده — ولا دارها دمعي ولا غلتي الظلمُ

***

تحرج عن وصلى مخافة إثمها — فلا تحرجى إن الصدود هو الإثم
وأكثر أيامى تعقبها الأسى — عليها ولكن قد تقلبها النعم
رضيت بما يقضى على قسط جوره — فلِمْ يغضب القاضى وقد رضى الخصم

واستمع إليه يقول متغزلاً ، وفى هذه الأبيات يظهر مدى أثر الشعر الأندلسي فيه :

سنّ النسيم تعانق الأغصان — أفلا يسن تعانق الخلان ؟!
قد كان بينهم حديث ساكت — ناجى خواطرهم بغير لسـان
فهمت قلوبهم فلمـا لم يجب — عنهـا اللسان أجابت العينانِ
والقلب يدركه وهو ليس بسامع — لفظ الدموع بألسن الأجفانِ
يا راحلاً من عينه قد أصبحت — فى الناس مقفرة بلا إنسانِ
فإذا جرت منها الدموع فإنما — تجرى لسقيا ذكرك العطشان

ومنهـا :

بلد بمـا يسقى غليلك ماؤه — ما دمت تنزل منـه فى نيران
وعجبت من متوسل مستوصل — بجهنم منه إلى بستان

وهو كذلك يقول :

يا هـلالاً إذا أنار ضللنا — وغُصَينا إذا تثنَّى ثنـانا
بينما جلنار وجهك يبـدو — إذ رأينا فى صدرك الرمانا

ومن غزله أيضاً :

تلك بجنتهـا أعـين — وفيها الذى تجتنى الأنفسُ
لهـا نكهة إذ تحيى بهـا — يغض لهـا عينه النرجسُ
وجاءت بعود لهـا خاطب — أرم لهيبتـه المجلسُ
لهـا معجز إن تأملته — فمـا سر إعجازه ملبسُ
أري العود من قبلها أخرساً — وفى يدها ينطق الأخرسُ
كأن المدامة من لحظها — ونار الغرام بهـا تقبسُ

ومالى في صيد العقارب حيلة — سوى عقرب دبت على ورق الورد

وإنى شجاع لا على كل حية سوى حية صيغت من الشَّعر فى الخد!

وفى الأبيات الآتية تبدو حيرته ويتجسم قلقه ، فله من قصيدة :

يمزقنى ذا الحب كل ممزق ويصبح خلقي فيه وهو جديدُ
مقيم وقلبي فى ركابك سائر قريب ـ ولكن ما أريد ، بعيدُ

وله من قصيدة أخرى :

ليال تقضت ليس يوم براجع إليها ولكن الليالى سترجعُ
فياليت أسباب الليالى تقطعت كأسبابنا فيها إذا تتقطعُ
وإن فرطت منا وأعيى اتباعها فياليت أن النفس لا تتبعُ
وإن كان قلبي بين جنبي حاضراً فليت هموم القلب لا تتبوعُ
وبينى وبين النائبات وقائع يهونها الموت الذي أتوقعُ
فكل زمان ليس لى فيه صاحب وكل حبيب ماله فىّ موضعُ !

وقال فى حبيب مريض ، وفيها تصوير لنفسه بديع :

وما عدته بل عدت سقمي بقربه ومما به مابى عليه قريب
أغيب برغمي ثم أحضر غائباً وأنظر آثار الضنا فأغيب !

وقال مداعباً :

بين الضلوع جهنم من حبهم فودهم لا يسممون حسيبها
فع الظلام الدمع كان طليقها ومع الصباح الهم كان حبيبها

وقال :

وماقضى الدهر لى من قربه وطراً إلا اقتضى الوطر المقضى أوطارا
يا من شقيت به دنيا وآخرة ترى عرفت سوى الدارين لى دارا؟
أشقى البرية منظوراً ومنتظراً هذا الضعيف الذى يهواك جبارا !

ومن شعره الموسيقى العذب قوله :

وقف الطيف بجفنى كطفل سائلاً أين الكرى أين رحل
إنما كان الكرى يسكنها فالكرى من وصلهم ثم انتقل
إنه ياطيف طوفان طغى وابن نوح ليس ينجيه الجبل
إن قلبى من قلوب لم تبن سرها لو لم تبينه المقل
حالت الأشياء عن حالاتها فتولى الماء إيقاد الغلل

هذه أمثلة من شعره الغزلى ، وما هي إلا قطرة من بحره الفياض ؛ ومنها نستطيع أن نحكم على نفسيته ؛ وهى لا تتعدى ماقال المؤرخون فيه .

«يتبع» محمد سعيد السراوى

فردريك نيتشه

FRIEDRICH NIETZSCHE

للأستاذ ابراهيم ابراهيم يوسف

عصره — مولده — تعليمه — شغفه بالأدب والموسيقى — أثر شوبنهاور وفاجنر فى تفكيره — أول مؤلفاته — « إنسانى وإنسانى إلى أبعد حد » « زرادشت » — بقية أعماله — فن نيتشه وفلسفته — وفاته — مدرسته

بدأ التفكير الاجتماعى يظهر جلياً فى آداب الأمة الألمانية فى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ويرجع سبب ذلك إلى تغلب النزعة الواقعية على غيرها من النزعات . وكان لهذه النزعة الجديدة أثرها الجليل ، فقد بدأت تسير فى سبيلها هادئة حتى تغلغلت فى نفوس المتأدبين . وكان على رأس القائمين بهذه الحركة الجديدة فريدريك نيتشه الذى أخذ يميل شيئاً فشيئاً إلى الاعتقاد بأن جماعات الناس تهوى إلى أسفل . وقد أرجع أسباب ذلك إلى أن الأدباء لا يعنون إلا بالفرد فى مُنتجاتهم الفنية ، فى حين أن حاجة الفرد ومتاعبه ومشاكله ليست بالذات حاجة العصر ومتاعبه ومشاكله ، وإن حالة الأديب قد تناقض حالة الجماعات البشرية . وعندئذ مال معه بعض صحبه إلى تفكيره هذا ، وبدأت الناس تحس بأن ما كتبه الأدباء عن ماجريات الأحوال وشئون الحياة ، أو ما كتبوه عن المسائل الاجتماعية والشئون السياسية التى سار ويسير إليها العالم ، ليست إلا بعض آراء من شتاتها . ومن ثم أدرك عامة الناس بأن لهم وجوداً ، وأنه يجدر بهم أن يعبروا عن آرائهم بصراحة . فأنجبت هذه الحركة أدباء فنانين من طراز جديد ، منهم المصلح الاجتماعى ، ومنهم الثورى الاشتراكى ، ومنهم طبقات الفوضويين . ولنحاول هنا أن نلم بتاريخ حياة فردريك نيتشه لنتعرف مكانه من بين هؤلاء .

* * *

ولد فريدريك نيتشه فى اليوم الخامس عشر من شهر اكتوبر سنة ١٨٤٤ م ، فى قرية « ريكن » Roecken الواقعة بالقرب من « لتزن » Loetzen . وقد يبدو لمن يحدق فى صورة نيتشه أو يسمع باسمه أنه يمت إلى أصل بولونى ، ولكن الباحثين قد فرغوا من إثبات أصله الألمانى . ويرجع التشكك فى اسمه

إلى أن الألمان الذين كانوا يستوطنون المناطق التي يتغلب فيها السلافيون لا يرون غضاضة في صبغ نهاية أسمائهم بالصبغة السلافية . وكذلك فعلت عائلة نيتشه . أما تكوين رأسه واصفرار لون شعره وزرقة عينيه ، فدليل كاف على أنه ينتمي إلى «الشماليين» أي سكان شمال أوربا .

وكان لفريدريك أب قس ورث عنه نزعته للموسيقى وذكاءه المتقد واحساسه المرهف وأعصابه الملتهبة . أما القوة فقد ورثها عن أمه التي أخذ عنها قوة الارادة ، والقدرة على العمل ، والقوة الحيوية ، وقوة مناعة جسمه ضد هجمات أعصابه الثائرة . أما الوعظ والدعاية لما يؤمن به فقد ورثه عن أبويه كليهما ، ولذا كان حب الوعظ والارشاد قويا عنده إلى حد أنه كان يهيم بوقع الكلمة التي ينطق بها . وكان من اجتماع نزعته الاصلاحية إلى قوة إرادته وصدق حيويته لهيب من النار يسرى في كلماته فتهتدى به الناس وتطمئن إلى حرارته في جو انعدمت فيه حرارة الايمان .

وليس غريباً أن يكون هذا شأن نيتشه ، فقد كان في صغره شعلة ذكاء تتقد منذ سني دراسته الأولى . فقد كتب مذكراته عام ١٨٥٨ ، ولما يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، بأسلوب واضح متزن يشف عن ذكاء مبكر ، إذ قال : « أصبحت في الطور الشعري الثالث . » وكتب أيضاً : « يجب أن أتمرن على القريض أكثر من ذي قبل ، وإن أمكن فسأنظم في كل ليلة قصيدة . » ومع كل ذلك لم تخلُ قصائده الأولى هذه من أبيات موسيقية أخاذة تحوي معاني مبتكرة . وفي سن الخامسة عشرة نظم قصيدته المعروفة باسم « بغير وطن » ذات النزعة الرومانتيكية . فالتف حوله الأدباء الناشئون وألف منهم جمعية أدبية أسماها « جرمانيا » . وكان يأمل أن يتتلمذ في المستقبل على جين پاول Jean Pawl بعد أن مال إلى فنه كل الميل . ولكن غير واحد من أصدقائه نصحوه بقراءة «هيلدرين» Hoelderin «ونوفاليس» Novalis فقرأهما كما قرأ « شكسبير » و « ترسترام شاندى » Tristram Shandy وهو في سن الخامسة عشرة . وكتب إذ ذاك في مذكراته : « إنني أقيد كل فكرة طريفة ؛ وقد اتضح لي أنني إلى ما قبل الآن كنت غير ملم بشيء من العلوم . »

ولم يكن شغف نيتشه بالأدب أكثر من شغفه بالموسيقى .

وكان أحب الموسيقيين إليه « روبرت شومان » (Robert Shumann) الرومانتيكي النزعة ، ولكنه مال بعد ذلك إلى شوبان (Chopin) ، إذ قال عن موسيقاه إنها تمثل جمال ونبل الفكر كما تمثل المرح وعظمة الروح الانسانية والشعور الفياض سواء بسواء » وفضلا عن ذلك فقد وضع نيتشه أيام صباه قطعاً موسيقية قال عنها بعد أن تقدم في السن : إن « نغماتها » تكاد تكون مطابقة لموضوعات مختلفة من پارسيفال (Parsival) التي ألفها فاجنر (Wagner) بعد عهد الصبا لنيتشه .

وعند ما التحق نيتشه بجامعة « بون » (Bonn) عام ١٨٦٤ كان يرغب في دراسة اللاهوت ، ولكنه نزع عام ١٨٦٥ إلى دراسة الآداب الكلاسيكية إلى جانب دراسته الأصيلة . غير أنه هجر فيما بعد دراسة علوم الدين وتعلق بالبحث في العلوم ، ثم رحل إلى « ليبزج » (Leipzig) طلباً لحرية الفكر وحرية الرأي ، ولكنه سرعان ما أدرك « أنه لا يوجد مكان تتوافر فيه حرية الفكر » وكان شوبنهاور (Schopenhauer) قد ساعده على تحرره من عقيدته الدينية ، بعد أن اتصل به في « ليبزج » التي قال فيها نيتشه : « هنا وجدت مرآة رأيت فيها العالم والحياة كما رأيت نفسي منعكسة بها في أجلى وضوح ؛ وهنا حدقت في عين شمس الفن الذي لا نهاية له ؛ وهنا رأيت المرض والبرء ، رأيت المنفى والملجأ ، رأيت النار والجنة » وفي هذا ما يدل بمفرده على مقدار تأثر نيتشه بشوبنهاور ، كما تأثر به بعد ذلك في أبحاثه الأدبية التي كتبها أثناء دراسته في الجامعة ، والتي أدهشت أساتذته ، إذ عجبوا لأسلوبه العلمي الرصين . ولكن كل أبحاثه الأدبية لم تكن لتغريه إذ كانت تنقصها الفكرة الانسانية . ودفعه هذا الاتجاه الجديد في تفكيره إلى تغيير منهج دراسته الذي كان قد صمم عليه . فقد كتب إلى صديق له عام ١٨٦٩ يقول : « إننا دون شك أتباع القدر . فمنذ أسبوع أردت أن أكتب إليك بأني اعتزمت دراسة الكيمياء وترك دراسة الآداب لمن هم أليق بها مني ، وهؤلاء هم الشيوخ . والآن يغريني شيطان القدر بالأستاذية في الآداب »

ولم يكن تعرف « نيتشه » إلى «شوبنهاور» أهم ما وقع للأول في حياته إذ أن تعرفه إلى فاجنر قبل نزوحه إلى « باذل » Basel

كان له أثر عميق فى نفســه . ولم يكن حب « نيتشه » لموسيق « فاجنر » وليد يومه ، بل لقد اعتبر « نيتشه » صديقه « فاجنر » المثل لكل الفنون الحديثة التى ارتشفها وهضمها . وبلغت تلك الصداقة أبعد مدى لها سنة ١٨٨٨ عند ما قضى كلاهما الصيف فى قرية بالقرب من « لوزرن » Lutzern . وحرص نيتشه على ألا تنزع الأيام منه هــذه الصداقة ، وود لو أن تبقى صلته بصديقه فاجنر إلى الأبد ، وقال عنها : « لقد كانت أيام تبادلنا فيها الثقة ، أيام مرح وسرور . والحق أنها لحظات لهـا أعمق أثر فى نفسى » . قال ذلك نيتشه عن صديقه الذى أخلص له فقال فيه : « إننى لا أعرف ماذا كان حظ الآخرين من مصادقتهم لفاجنر ، إلا أنى أعرف أن سماءنا لم تغشها سحابة قط » وما ذلك إلا لاعتقاد نيتشه بأن صديقه عبقرى كريم الخلق ، تنطبق عبقريته على وصف شوبنهار للعبقريات

وفى ذلك العهـد ألف نيتشه أول كتبه القيمة الذى أسماه « انحدار التراجيــدية من روح الموسيق Die Geburt der Tragoedie aus dem Geiste der Musik وأتمه عام ١٨٧١ وقد ضمنه أهم ما وقع له فى حياته الخاصة وصداقته مع فاجنر ، كما ضمنه مراميه الأولى والأخيرة فى الحياة ، ومساس الحاجة إلى الموسيق . ولقد كتب كتابه هــذا بأسلوب رائع تجلى فيه هيامه بالفنون ، وأثبت قدرته على البحث كعلامة . ولم يحجم نيتشه عن أن يقول رأيه فى الفنون الاغريقية وفى الاغريق . ويعد كتابه هذا من أروع الكتب الكلاسيكية التى تناولت الفن من عديد نواحيه التاريخية والفلسفية والعقلية . فلقد حاول نيتشه « أن يرى العلوم والمعارف بعين الفنان ، وأن يرى الفن عن طريق الحياة » وهاجم فى كتاب آخر له أسماه « نظرات لا تتفق وروح العصر » Un zeitgemaessen Betrachtungen ووضعه فيما بين سـنة ١٨٧٣ و١٨٧٥ — عديد الاتجاهات فى الثقافة الألمانية . فقد قال بأن ألمانيا تعيش فى حالة همجية من الثقافة . وأفصح فى هذا الكتاب عن طبيعة الحقائق الواقعية وما يقع تحت الحس فى كل آن . وطالب بأن يكون الفن ممثلا للعصر والحياة . وفى هذا الكتاب ينزع إلى المثل العليا ، كما يميل فى كتابته إلى الهكم المشبع بروح الفكاهة ، وفى كتابه الذى أسماه « بعض فوائد ومضار التاريخ فى الحياة » Von Nutsen und Nachteil der Hisioriefürdas Leben قال بأن كثرة المعلومات ليست وسيلة الثقافة ، ولا هى دليل عليها إذ المسألة متعلقة بالسمو فى الحياة . أما التخمة الناجمة عن التهام التاريخ وحشره فى الرأس حشراً فانها تجعل الحياة مريرة كما تجعلها خطرة . فالتاريخ يضعف الشخصية ، ولا يمكن لشخصية أن تتحمله إلا إذا كانت غاية فى القوة . أما ضعاف الشخصية فالتاريخ يؤيدهم ، إذ يصبحون دائرة معارف متنقلة ، ولا يكون لهم رأى ، وإن جرأوا على ذلك فهو رأى محايد ، ليس لشخصيتهم فيه أثر . ومن رأيه « أن وظيفة الانسانية أن تعمل دون انقطاع لتخرج إلى العالم شخصيات عظيمة » . والذى جر نيتشه إلى هذا التفكير هو شدة تأثره « بشوبنهاور » و « فاجنر » ، غير أن أثرهما فيــه لم يدم إلا بعض الزمن . فقد أدرك عند ما شاهد حفلات « باروت » Bayreuth — الحفلات الموسيقية والتمثيلية السنوية الهامة — أدرك أنه خدع في رأيه ، فقال بأن فاجنر يتخذ وسائل خشنة جامحة لإظهار تلك الفخامة العاصفة . وذلك الاضطراب العظيم المخيف وإن كان مزركشاً ومحلى بزخارف بهيجة أبغض الأشياء إلى نيتشه .

وفى سنة ١٨٧٦ أخذ نيتشه فى دراسة الفيسيولوجيا والطب والعلوم الطبيعية . ومن ثم أخذ يدرس من جديد جميع المسائل التى عالجها من قبل . وكتب في فترة العطلة التى قضاها فى جنوب ألـمانيا كتاباً أسماه « الخلاص » Loloesurq ، وهو أول جزء من كتاب جمع فيــه مختارات أقواله واختار له اسماً آخر هو : «إنسانى وإنسانى إلى أبعد حد» - Menschliches , Allsumen schliches وكان ذلك عام ١٨٧٨ . ولـما أن أهدى كتابه هذا إلى صديقه فاجنر ليطلعه على آرائه الجديدة بعث إليه فاجنر بقطعته الموسيقية «بارسيفال» ونجم عن ذلك فتور بين الصديقين ، إذ تمسك كل منهما برأيه . ولعل كتاب « إنسانى ، وإنسانى إلى أبعد حد » هو كما أسماه صاحبه « كتاب لأحرار الفكر » وفى هــذا الكتاب من التضارب فى القول ما جعل الناس تتحدث عنه . فبينا تراه فى هذا الكتاب ملماً بكل شئ سليم المنطق ، تراه غاضباً فى بعض مواضع الكتاب مهتاج الأعصاب مريضاً . والواقع أنه كان يقاسى الآلام ، ولكنه كان يحاول الكلام كمن لم يمس بسوء . وكان يريد الاحتفاظ بهدوئه ليهزأ بالعالم ، كما قال بعد ذلك بعشر سنين . والحق أن نيتشه كان ثائراً على نفسه .

« يتبع »

ابراهيم ابراهيم يوسف

الفلسفة الشرقيــــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٩ —

الديانة الفارسية

الزرادشتية ومصدرنا عنها

ليس لدى الباحث عن الديانة « الزرادشتية » إلا مصدر واحد ، وهو كتابها المقدس : « زندأفيستا » الذى وإن كان لم يتم جمعه إلا حوالى القرن السادس بعد المسيح إلا أنه قد احتوى على جزء عظيم يدعى « جاتها ياسنا » وهو الذي يرجح جميع العلماء أنه كلام « زرادشت » نفسه ويرجعون تاريخه إلى القرن السابع أو العاشر قبل المسيح على ما اختلفوا فى وجود النبي الفارسى كما أسلفنا . وما ليس من كلام « زرادشت » من هذا القسم هو — فى رأى الكثرة المطلقة من الباحثين — يمثل «الزرادشتية» الأولى حق تمثيل ، ويصح أن يعتمد عليه في تاريخ العصر الأول من عصور هذه الديانة . وهذا القسم قد وجد مكتوباً بلغة قديمة ترجع إلى ذلك التاريخ الذى عينه العلماء .

الميتافيزيقا

يجد الباحث فى قسم « الجاتها » أن « زرادشت » أرجع جميع آلهة العهد القديم إلى إلـهين اثنين : إلـه الخير « أهورا مازدا » أو « هور مازاد » أو « هرموز » ؛ وإلـه الشر أو الكاذب أو الردىء ، وهو الذي سيسمى فيما بعد بـ « أهرمان » فى رأى المحققين . ولـكن هذه التثنية ليست على علاتها ، ولم تكن تثنية بمعناها الصحيح ، لأن الالـه الذى خلق الـكون هو « أهورا » أما « أهرمان » فلم يكن له عمل إلا إيجاد شبه ظل من الشر لـكل خير يخلقه « أهورا » وهو وإن كان أزلياً كازدا ، لأنه توءم ردىء له إلا أنه ليس أبدياً مثله ، إذ هو سيفنى عند ما يتغلب الخير على الشر فيمحوه من الوجود . أما رفعته عليه فهى ثابتة بنص الـكتاب المقدس الذى أسلفنا الاشارة إليه . وإليك شيئاً من هذا النص :

« استمعوا بآذانكم الأشياء الجيدة وانظروا فيها بوضوح حتى تصمموا على أحد الايمانين ، لأن كل إنسان يجب عليه أن يصمم هو بنفسه قبل الفناء النهائى لـكى يتكون حظ كل واحد منكم حسب اختياره .

إذاً ، فالروحان الأولان اللذان ظهرا في الوجود كتوءمين هما : الخير والشر ، وهما دائماً فى التفكير والقول والعمل والحكماء قد اختاروا بينهما ، وحسناً اختاروا ، ولـكن الغاليك هم الذين أساءوا الاختيار . وعند ما تقابل هذان الروحان فى مبدأ الوجود أسسا الحياة و « اللاحياة » . وفى نهاية الأشياء سيكون أردأ أنواع الوجود من نصيب الذين يتبعون الـكذب كما يكون أحسن الفـكر من نصيب الذين يتبعون الخير . . . » إلى أن يقول :

« أيها الفانون ، إذا أنتم أطعتم أوامر « مازدا » الذى نظم السعادة والألم ووضع قاعدة العقاب الطويل للـكذابين وبارك الأخيار فانكم ستفوزون بالسعادة الأبدية [1] »

قد رأيت من هذا النص سمو « مازدا » على « أهرمان » من جميع النواحى ، وعلى الخصوص من ناحيتى الأخلاق والأبدية ، ولـكن هذا الالـه مع سموه وجلاله لم يسلب القوة والإرادة من البشر حتى ولا الأشرار منهم ، بل ترك لهم من الإرادة ما يكاد يساوى إرادته نفسها ، ليكونوا كاملى الحرية فى الاختيار . ولولا هذه الحرية لما رأينا الـكذب والشر يسودان كثيراً على هذه الأرض وينتصران أحياناً على الخير ؛ وهذه السيادة وذلك الانتصار كانا أحياناً يدفعان « زرادشت » إلى التشاؤم واسوداد المزاج كما يظهر ذلك فى الأنشودة الآتية : « نحو أى بلد أفر أو أنجو بنفسى ؟ لقد فصلت من النبلاء ومن أمثالى ، والشعب ليس مسروراً منى ولا الـكذابون الذين يحكمون البلاد أيضاً . ما ذا أعمل لأرضيك أنت يا (مزدا أهورا) ؟

أنا أعرف جيداً لماذا لم أحز أي نجاح : ذلك لأنى ليس لدى

(١) ياسنا آية ٣٠

مال ولا رجال . أنا أدعوك يا (أهورا) أن تمنحني مساعدتك كما يساعد الصديق صديقه .

يا « مازدا » متى تشرق شمس انتصار الخير في العالم بوساطة الحكمة السامية الممثلة في المحررين الذين سيجيئون [1] ؟ .

لم يقبل هذه التثنية « الزرادشتية » إلا أثناء حياة مؤسسها ، أما بعد موته فقد دار حولها الجدل ولم يفهم الناس هذه الموازنة المعقدة التي وضعها زرادشت بين الخير والشر . وما زال هذا الجدل يعمل عمله حتى انتهى حوالى القرن الرابع بعد المسيح بإحداث تغيير جوهري في هذه الديانة ، فذهب فريق من رجال الدين إلى إنكار التثنية بتاتاً وإعلان التوحيد حيث صرحوا بأن « مازدا » هو الإله الأوحد ، وأن « أهرمان » ليس خصماً له وإنما هو خصم روح القدس في « مازدا » إذ هذا الأخير يحتوي على روحين : أحدهما خيّر والثاني شرير [2] .

الملائكة والأرواح الخفية

يتحدث كتاب « زند أفيستا » عن عدد من كبار الملائكة كانوا وزراء لأهورا مازدا ، وقد حددهم القسم المتأخر من هذا الكتاب بستة وزراء ، كل واحد منهم له اختصاص معين وعمل محدود ؛ ووزاراتهم هي كما يأتي : (١) الفكرة الخيرة . (٢) الفضيلة الجلّى . (٣) الامبراطورية المشتهاة (٤) التنازل الكريم . (٥) الصحة (٦) الخلود

هؤلاء هم رؤساء الملائكة الذين يكونون الهيئة العليا التي تلي « أهورا » مباشرة . وهناك عدد عظيم من صغار الملائكة ومن الأرواح والجن ، لكل واحد منهم أيضاً مهمة يقوم بها ومنزلة يشغلها ، وهذه المهمات تختلف في جواهرها كما تختلف في قيمتها ، فبعضها أخلاقي كصغار الأعمال الخيرية ، وبعضها مادي كالعناصر والنباتات المختلفة . ولقد أخذ هذا العدد الأخير يتضاعف وتزداد سلطته حتى طغى أو كاد على الديانة الزرادشتية ولو في البيئات العامية على الأقل حيث عاد بالجماهير إلى عبادة العناصر كما كانت الحال في الديانة القديمة . وقد بعث « ميترا » من جديد وأصبحت النار والشمس والقمر والنجوم ملائكة ثم آلهة ، واستردت أهميتها الأولى في تلك الأوساط وعاد إلى الوجود من جديد « أهوما » إله الخمر الذي رأيناه في الديانة الأولى كما حدثت خرافات أخرى لم يكن للفرس عهد بها من قبل كذلك العملاق ذي الأرجل الثلاث والذي له أهمية في إدارة العالم . ولكن ينبغي أن نلاحظ أن مازدا هو الذي كان لا يزال الإله الرئيس على جميع هؤلاء ، ولم يكن الآخرون إلا آلهة ثانويين أو ملائكة أو أرواحاً .

هؤلاء جميعاً هم أعوان « مازدا » أو هم الحزب الأعلى ؛ أما الحزب الأدنى أو أنصار إله الشر فهو يتألف طبعاً من « أهرمان » رئيساً ، وقد كان الشعب في أول الأمر يتمثله في ثعبان أو في ذكر الضفدع أو في حيوان رديء مزعج أو في حصان جمح وتوحش ثم استطاع أحد الملوك أن يقبض عليه ويخضعه ، ولكن لما تقدم الشعب وارتقت عقليته لم يعد يتمثل إله الشر على هذه الصورة المادية الساذجة ، وإنما خطا به نحو التصور المنوي فرفعه إلى عالم المدركات العقلية وجعل له وزراء ستة كأهورا يختص كل واحد منهم بعمل من أعمال الشر والسوء ، وعلى رأس هؤلاء وضعوا « أندرا » الإله الشعبي القديم ، ولكن تحت اسم وزير سابع خاضع لأهرمان . ودون هؤلاء الوزراء وضع رجال الدين أيضاً ملائكة شر وأرواح سوء وشياطين وسوسة وضلال ، وذلك مثل ملك الرعد وملك العواصف المدمرة ، وكالأرواح الحالة في الحيوانات المؤذية والحشرات الضارة ؛ وهناك أيضاً من هذا الحزب شياطين موكل كل واحد منها برذيلة من الرذائل ، عليه أن ينميها وينشرها ويعلي شأنها [1]

لم يكتف رجال الدين بهذا التقسيم ، بل ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك فعينوا شمال بلاد فارس كمستقر لأرواح الشر وشياطينه ، وعلموا الشعب بعض تعاويذ سحرية إذا قرأها المؤمن فرت من أمامه أرواح الشر وتضعضعت قوتها وهوت إلى مكان سحيق . وكان أهم هذه التعاويذ ما أخذ من الكتاب المقدس ثم قرئ بطريقة خاصة ولهجة معينة ورنة موقّعة .

الإنسان أو الشخصية البشرية

لم يوجد في القسم القديم من « زند أفيستا » ما ينبئنا برأي

---

(١) ياسنا آية ٤٦ ، ٣
(٢) راجع (١) م (قبل) د جكسون » . دراسة زرادشتية صفحة ٧٠ طبعة نيويورك سنة ١٩٢٨

(١) انظر تفصيل كل هذا في كتاب .. جاكسون الذي أشرنا إليه آنفاً من صفحة ٣٧ إلى صفحة ١٠٩

زرادشت فى الشخصية البشرية من : جسم وروح من حيث المبدأ أو المصير ، وإنما كل ما لدينا فى هذا الشأن قد وجد فى الأجزاء الأخيرة التي كتبت بعد عصر زرادشت بزمن غير يسير ، أى بعد ما ارتقت المعارف الإنسانية نوعا ما وبدأ الخاصة يفكرون فى ثنائية الانسان ويحللونه إلى جسم وروح .

يجد الباحث فى هذه الآيات المتأخرة أن الانسان يتألف من جسم وروح وأن الجسم يتكون من أربعة أشياء : اللحم والعظم والقوة الحيوية والصورة أو القالب ، وهـذا الأخير هو وحده الذى يعود إلى الحياة فى حالة البعث دون الثلاثة الأول التى لاتبقى

وأما الروح ، فهي عندهم خمسة أنواع ، بين كل واحد منها وبين الأربعة الأخرى شيء من الترادف أو التقارب يجعل التحديد الدقيق صعباً أو كما يقول أحد الباحثين الأوربيين « إن مفردات لغاتنا لا تستطيع التعبير الصحيح عن هذه المعانى » . وهاك هذه الأقسام الخمسة للروح :

(١) النفس والالهام والعقـل (٢) الدين والضمير الخلقى والوحى (٣) الوجدان النفسي والشعور والاحساس (٤) الروح بأدق معانى الكلمة (٥) الفرافاشي . وهو عبارة عن شبح سماوى هو فى نفس الوقت ملك حارس وروح جوهرية ، وعلى الجملة هو الانسان الحقيقى الذى ليس الكائن البشرى إلا مظهراً له ، وهو وحده الذى يستطيع أن يتصل بأهورامازدا ويحيا فى حضرته ، ولهذا عند الموت يفني الانسان كله فى هـذا « الفرافاشي » (١)

مصير الروح

عند ما يموت الميت تظل الروح ثلاثة أيام وثلاث ليال معلقة إلى جانب الجسم ، منعمة بنعيمه أو معذبة بعذابه ، وفي فجر اليوم الرابع تهب عليها ريح إما معطرة إذا كان الميت خيراً ، وإما نتنة إذا كان شريراً فتحملها إلى موضع تلتقى فيـه إما بفتاة جميلة ، وإما بعجوز مفزعة ؛ وليست الأولى فتاة حقيقية ولا الثانية عجوزاً حقيقية ، وإنما هى صورة أعمال الميت ، وهى ضميره نفسه الذى سيقوده إلى حيث معبر الحساب والحكم الأخير . وعلى باب هذا المعبر يوجد ثلاثة قضاة بينهم « ميثرا » وهناك ينصب ميزان توضع في إحدى كفتيه حسنات الميت وفى الأخرى سيئاته . وبناء على صعود إحدى الكفتين يصدر الحكم على مصير هذا الميت .

ويلاحظ أن الثواب والعقاب لم يكونا ينصبان على كل حسنة أو كل سيئة على حدة ، بل على مجموعة النوعين ، فإذا رجحت الحسنات كفرت السيئات مهما كانت كل واحدة منها فى ذاتها جسيمة ؛ كما يلاحظ أن الندم والتوبة لم يكونا معتبرين ، وأن الغفران فى الحساب لا وجود له ألبتة لأنه مؤسس على العدل لا على الرحمة .

وعلى أثر انتهاء الوزن وصدور الحكم يؤمر المحاسب بالمرور فوق هذا المعبر أو الصراط الممتد فوق الجحيم ، الذي يتسع أمام الأخيار ويضيق حتى يكون أدق من الشعرة وأحد من الشعرة أمام الأشرار .

فهؤلاء الأخيرون يهوون في جحيم مظلم ظلاماً كثيفاً إلى حد يستطاع معه لمسه باليد ، فاذا هووا فى الجحيم كانوا متزاحمين كأنهم كمية من الشعر فى معرفة حصان ، ومع ذلك فكل واحد منهم يشعر فى وسط هذا الزحام بوحدة قسية وعزلة ممضة .

أما الأخيار ، فيذهبون إلى النور حيث يستقبلهم « أهورمازدا » بعد أن يمروا فى وسط العمل الصالح والقول الخير والفكر الطيبة ، وهناك يستمتعون في كنف « مازدا » بالسعادة الأبدية .

هذا كله بالنسبة لمن ثقلت موازينهم أو خفت ؛ أما من استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فهم يوضعون فى مكان فسيح بين السماء والأرض ، يقاسون فيه آلام الحر والبرد ، ويحسون بجميع التغيرات الجوية ، ويظلون ينتظرون فى أمل ورهبة الحكم الأخير على مصيرهم الذى يظل مظلما ماداموا فى هذا المكان . وأشهر أهل هذا الموضع هو : « كيرزاشبا » الذي قتل وحشاً مرعباً فحسب له ذلك حسنة ، ثم دنس النار المقدسة فحسبت عليه سيئة مساوية للحسنة الأولى فظل بين النعيم والجحيم (١)

« يتبع » **محمد غلاب**

(١) راجع « مونتون » صفحة ١٧٦

(١) ~~يرجع كتاب « مونتون » صفحات ٢٠٤ وما بعدها و « جاكسون »~~ صفحات ١٢٣ وما بعدها

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٧٨ — والأبيات على ظهر يده

في (مطمح الأنفس وشرح الشريشي) : خرج القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى من بني يحيى إلى حضور جنازة بمقابر قريش ، وكان رجل من بني جابر يؤاخيه يتزل بقرب المقبرة ، فعزم عليه في الميل إليه ، فنزل وأحضر له طعاماً ، وأمر جارية له بالغناء ، فغنت تقول :

طابت بطيب لثاتك الأقداح وزها بحمرة وجهك التفاح
وإذا الربيع تنسمت أرواحه نمت بعَرف نسيمك الأرواح
وإذا الحنادس ألبست ظلماؤها فضياء وجهك في الدجى مصباح

فكتبها القاضي طرباً بها في ظهر يده ، ثم خرج من عنده . قال يونس بن عبد الله : فلقد رأيته يكبر للصلاة على الجنازة والأبيات مكتوبة على ظهر يده .

١٧٩ — أوسعتهم سباً وأودوا بالإبل

في (مجمع الأمثال) : حديثه أن رجلا من العرب أغير على إبله فأخذت ، فلما توارَوا صعد أكمة وجعل يشتمهم ، فلما رجع إلى قومه سألوه عن ماله فقال : أوسعتهم سباً [1] وأودَوا بالإبل [2] . يضرب لمن لم يكن عنده إلا الكلام .

١٨٠ — اللثغة

قال علي [3] بن هرون المنجم : كنت وأنا صبي لا أقيم الراء في كلامي وأجعلها غيناً ، فدخل الفضل بن سلمة على أبي وأنا بحضرته ، فتكلمت بشيء فيه راء ، فلثغتُ فيها [4] فقال له الرجل : ياسيدي ، لمَ تدع ابنك يتكلم هكذا ؟ فقال له : وما أصنع وهو ألثغ ؟ [1] فقال له : إن اللُّثغة لاتصح مع سلامة الجارحة ، وإنما هي عادة سوء تسبق إلى الصبي أول ما يتكلم بتحقيق الألفاظ أو سماعه شيئاً يحتذيه ، فان تُرِك على مايستصحبه من ذلك مرن عليه ، فصار له طبعاً ، وإن أخذ بتركه أول نشوئه استقام لسانه . وأنا أزيل هذا عن عليّ ثمّ قال لي : أخرجْ لسانك فأخرجته فتأمله فقال : الجارحة صحيحة ، قل يابني : (راء) واجعل لسانك في سقف حلقك ، ففعلت ، فلم يستو لي ، فما زال ينقل لساني إلى موضع موضع من فمي ، ويأمرني أن أقول الراء فيه ، فاذا لم يستو نقل لساني إلى موضع آخر حتى قلت راء صحيحة في بعض تلك المواضع ، فطالبني بإعادتها ، وألزمني ذلك حتى ذهبت اللثغة ، فأمر أن أطالب بهذا أبداً ، ويُتقدم به إلى معلمي ، وأوخذ بالكلام به ، ففعل ذلك ، ومرنت عليه ، وما لثغت إلى الآن .

١٨١ — كلهم أعداء

قال ابن الجوزي : مر رجل بإمام يصلي بقوم فقرأ : « ألم ، غُلبت الترك » فلما فرغ قال له محمد بن خلف : ياهذا ، إنما هو (غُلبت الروم)

فقال : كلهم أعداء ، لا نبالي من ذكر منهم .

١٨٢ — ليس التكحل في العينين كالكحل

في كتاب (الأنساب) للبلاذُري المدائني قال : كان عبد الله ابن الزبير يشمّر إزاره ، ويحمل الدِّرَّة ، يتشبه بعمر بن الخطاب فقال أبو حرة :

لم نرَ من سيرة الفاروق عندكم
غير الإزار وغير الدِّرَّةِ الخلَقِ [2]

---

(١) أوسعته الشيء إذا جعلته يسعه ، والمعنى كثرته حتى وسعه فهو يقول كثرت سبهم فلم أدع منه شيئاً (الميداني)
(٢) أودَى به : ذهب
(٣) أخباري ، أديب ، شاعر ، متكلم . وفاته سنة (٣٥٢)
(٤) اللثغة تكون في غير الراء أيضاً

(١) بعضهم في حكاية الألثغ :
تشغب النكغ الحغام وغيق أحغ سكغ شغاب مكغغ
يريد :
تشرب النكر الحرام وريق أحر سكر شراب مكرر
(٢) الدرة : السوط ، التهذيب : الدرة درة السلطان التي يضرب بها . (الخلق) البالية . شيء خلق : بال ، الذكر والأنثى فيه سواء لأنه في الأصل مصدر ، والجمع خلقان وأخلاق . ويقال : ثوب أخلاق إذا كانت الخلوقة فيه كله

١٨٣ – كأنها رءوس رجال حلقت في المواسم

قال الأغر النهشلي لابنه لما بعثه لحضور ما وقع بين قومه : يا بُنيّ ، كن يداً لأصحابك على من قاتلهم ، وإياك والسفيه فإنه ظِلُّ الموت . واتق الرمحَ فإنه رِشاء[1] المنية ، ولا تقرب السهام فإنها رسل تعصي وتطيع

قال : فبم أقاتل ؟

قال : بما قال الشاعر :

جلاميدُ أملاء الأكفّ كأنها
رءوسُ رجالٍ حُلِّقتْ في المواسم[2]

فعليك بها ، وألصقها بالأعقاب[3] والسوق

١٨٤ – فالدب في الصحراء ما أفقهه

ناظر أبو زيد عبدُ الله بن عمر الدبوسي[4] بعض الفقهاء فكان كلما ألزمه أبو زيد إلزاماً تبسم أو ضحك فأنشد أبو زيد :

مالي إذا ألزمتهُ حجةً قابلني بالضحك والقهقهه
إن كان ضحك المرء من فقهه فالدب في الصحراء ما أفقهه![5]

١٨٥ – يا مسكين أين أنت ؟

ذكر الحافظ السلفي في (معجم السفر) : أن شخصاً قال في مجلس الامام ابن القابسي (وهو بالقيروان) : ما أقصر المتنبي في معنى قوله :

يُراد من القلب نسيانُكم وتأبى الطباع على الناقلِ[6]

فقال له : يا مسكين ، أين أنت من قوله تعالى: « لا تَبْديلَ لِخلْقِ اللهِ ، ذلِكَ الدِّينُ القيِّمُ ؛ ولكنّ أكثرَ النّاسِ لا يَعلَمُون »

(١) الرشاء : الحبل والجمع أرشية

(٢) أملاء : جمع ملء

(٣) جمع عقب : مؤخر القدم ، والسوق جمع الساق

(٤) نسبة إلى دبوسية وهي بلدة بين بخارا وسمرقند . والدبوسي أول من وضع علم الخلاف

(٥) يخبر بالجملة مطلقاً وفي كتاب الله : (قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم) والعكبري في (إعراب القرآن) يراه مستأنفاً أو حالا . وهم النحاة . . . وفي شعرهم :

قلب من عيل صبره كيف يسلو صالياً نار لوعة وغرام

(٦) وقبله وهو مطلع القصيدة :

إلام طماعية العاذل ؟ ولا رأى في الحب للعاقل

١٨٦ – أبو تمام ، البحتري ، المتنبي

في (المثل السائر) : سُئل الرضي عن أبي تمام ، وعن البحتري ، وعن أبي الطيب فقال : أبو تمام خطيبُ منبر ، والبحتري واصف جُؤْذَر[1] ، والمتنبي قائد عسكر

١٨٧ – التخصص بمعرفة التلصص

قال الثعالبي : سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول : أنشدني الصاحب تتفة له ، منها هذا البيت :

لئن هو لم يكفف عقارب صدغه فقولوا له : يسمح بترياق ريقه[2]

فاستحسنتُه جدا حتى حمت من حسدي عليه ، ووددت لو أنه لي بألف بيت من شعري ! . قال الثعالبي : فأنشدت الأمير أبا الفضل عبيد الله بن احمد الميكالي هذا البيت ، وحكيت هذه الحكاية في المذاكرة ، فقال لي : أتعرف من أين سرق الصاحب معنى هذا البيت ؟ فقلت : لا والله . قال: انما سرقه من قول القائل (ونقل ذكر العين إلى ذكر الصدغ) :

لدغت عينك قلبي إنما عينك عقربْ
لكنما المصة من ريقك ترياق مجربْ

فقلت: لله در مولانا الأمير فقد أوتي حظا كثيراً من التخصص بمعرفة التلصص .:.

(١) فيها لغات منها هنا (ضم الجيم وهمزة ساكنة ، وضم الذال) ، ومنها فتح الذال ، ومنها على مثال كوثر . والعرب تشبه به وبأمه لأجل عيونهما . . .

(٢) الرواية (لئن) وترجيح الشرط على القسم عند اجتماعهما وتقدم القسم وإن لم يتقدم ذو خبر – قليل . وبيت فيه عقرب بل عقارب لا يحسد صاحبه . والنكتة في (النقلة) معرفة التخصص بالتلصص .

من الأدب الرمزي

في الطبيعة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

احتفلت الطبيعة لعيني العاشقة، فحشدت أطفالها جميعاً، ووقفت تحاجيني بهم، وأبرزت نهودها من جبالها، وأرسلت شعرها من حورها، ورقرقت خدها بماء النبع، وموّهته بدم الشفق، وكللت جبينها بالزهر المضفور، ومشّقت قدّها في رقص السرو، وخرجت عليّ بملء الضحى السابغ ضياء وملء الليل الساجي نجوما، ومشت تتهادى على الحصى الملوّن، وتخطو على الجدد البيض والحمر، وأخذت تغازلني بالنسيم الذي استروحتُ فيه بردَ قلبها لحر قلبي... فسجدتُ أمامها بجسدي كله على الشوك والحصى في حضن صخرة مشرفة على هوة.. !

وقلت لها: هل أنا إلا منك ياذات الشباب المتجدد أبداً؟ يا أيتها الأم الولود الأكول الضاحكة المولة... يا ذات البطن البراح الذي مما فيه البحرُ والدَّيموم بعجائبهما وولائدهما... يا ذات الأثداء التي تدرُّ وتمتص.. !

سأرتد إليك وأجرد نفسي من شعور الانفصال عنك، وأقف في صفوف أطفالك صورةً من صور الجمال أو القبح كما تشائين.. وسأطلق أنفاسي موجةً في هبوات الريح، وأصواتي نغمةً في النشيد الكبير الذي يملأ أسماع السموات والأرض.. وخطفات ذهني مع ومضات البروق. وسأضع جسدي لبنةً في البناء العام كالجبل والحصى الموضوع تحت السقف المرفوع..

إني أخ كبير لأبنائك الذين تلدينهم مع ساعات الصباح والمساء، أتلقفهم بعينيَ هاتين اللتين فيهما الإعجاب والرحمة للجمال والقبح! عينيَّ اللتين وراءهما قلب خلقه الله أوسعَ منك وأعجب وأكثر ولادة... إنه يلد كل أبنائك ولادةً ثانية بمخاضها ورضاعها وفصالها.! ثم لا يرسلهم وينساهم فانين ضائعين كما تفعلين.. بل يبقيهم كلماتٍ تامةً دائمة مسجلة في اللوح المحفوظ...

فاسأليهم.. اسألي الورد والشوك، والجمل والذئب، والورقاء والرقطاء، والغراب والعصفور، والنحلة والجُمَل، وسائرَ ما تلدين من الأعلى والأدنى: ألست أوالي عليهم نظرتي وفكرتي؟

واسألي الشمس والنجوم: ألا أسافر معها سفراً غير زمنيّ فلا أيام فيه ولا ليالي.!

واسألي النهار: ألا أغتسل بأول قطرة من ضياء فجره إلى آخر قطرة من شفق غروبه، وأسير معه في موكب الحياة العام أدبُ بقدميَّ على قارعة الطريق الممدود من أول الدنيا إلى آخرها..؟

واسألي الليل: ألا أجلس فيه متيقظاً أسترقُ السمعَ وألتقط الكلمات الخفية التي ينثرها في غفلة على الأجساد الهاجعة في موتتها الصغرى؟

واسألي البحر: ألا أسلم إلى عرائس موجه جسدي يعبثن به، وأملأ بصري بأفقه ولجه وزبده، وسمعي بضجيجه وصخبه، ويدي بقواقعه وأصدافه؛ وأتوسع كثيراً كثيراً حتى أغطيه بروحي وأشربه بكأسي التي وراء حسي؟

واسألي الصحراء: ألا أقف في محرابها الأصفر، وأمسح عضلات جبالها التي أعياها الوقوف، وأرتدُ قلبي على مهادها بجانب ذراتها الجامدة وأشواكها الحادة؟

فيا أيتها الأم إني غير عاق في البنوّة بيني وبينك، والأخوة لأبنائك جميعاً مما علا أو سفل فأسبغي عليّ من شبابك الدائم، واكشفي لي عن محاسنك المكنونة، وعبقرياتك المضنون بها على غير أهلها، وزاوجي بيني وبين بناتك العرائس الأبكار اللائي لم يطمثهنّ إنس قبلي ولا جان... واسكبي في قلبي من ذاك الإكسير الخالد الذي يجعلك دائماً أصبى من أولادك؛ ولا تأكليني فيما تأكلين من بنيك أيتها الهرة... !

***

وحينما تغضبين أيتها الأم، فتزأرين بحناجر الريح، وتحطمين أبناءك بالقارعات العاتية... وتثور أخلاطك فتقذفين الحممَ والشواظ واليحموم من تحت، والصواعق وحرائق البروق وجبال الثلوج من فوق، وتنفضين ما على الأرض بالزلزلة والميدان. فلا يسلم من يدك بعوضة ولا جمل... وتفتحين فكيك لابتلاع الحقول بعشبها وشجرها، والمدن بمدرها ووبرها فتسدين الفجوات التي خلت في أحشائك، وتشبعين

جوعك إلى العناصر بأكل أبنائك الذين يضجون وهم فى الهول بين يديك بالثغاء والرغاء ، والزئير والطنين ، والهديل والنعيب ، وغيرها من أصوات الحيوان الأبكم ؟ وبالدعاء والبكاء من الحيوان الناطق : ابنك البكر الذى دلّلته وعزّزته وأعطيته مصباحا ومفتاحا زعم بهما أنه إلهك ! وجمل قضيتك كلها « معادلة جبرية » فى نصف سطر من قلة العجيب الذى يجعل الدنيا كلمات وأرقاما ... ! حينذاك أحاول أيضاً أن أقترب منك فى غضبك لأرى عبقرية الإماتة والتخريب فيك كما رأيت إبداع الايجاد والتكوين ، ولأرى الدنيا صوراً من القبح والبشاعة والقسوة والفوضى كما رأيتها صوراً من الجمال والانسجام والنظام ...

***

ولكنك تحتجبين عنا حين تبدلين الثياب لتخفى عوراتك وسوآتك وشناعاتك ، فتقتلين كل ذى عين حتى لا يراك فيقسم ألا يقترب ولا يعشق ولا يفنى فى مظاهر خداعك وطلاء حقيقتك ، وترسلين نارك التى تحرق دائماً ، وماءك الذى يغرق دائماً ، وقوارعك التى تحطم دائماً . . . فلا مطمع لأحبابك فى رشوتك بالحب والشعر ، ولا محسوبية ولا شفاعة أمام قوانينك الصارمة . !

***

وهأنذا أبحث عن حِرْز حَريز فيما وراء يدك المخربة ، أخط فيه قبرى وأختبىء فيه وأرصد منه دائماً حركة التجدد ورجوع الشباب والجمال إلى ديباجتك ، واحتفالك لغير عينى من عيون الشباب الشعراء المقبلين . . . وهم يسكبون فى سمعك ما أسكبه الآن من كلمات الهوى والغزل .. ويقولون لك : « ياذات الشباب المتجدد . . أسبغى علينا من شبابك وأرضعينا يا أمنا من إكسير الخلد . . . » فأناديهم من مكانى البعيد الذى لا سلطان لك عليه قائلا : أيها الطامعون فى الخلود مع هذه العجوز المتجددة ... لا تطمعوا أن تعطيكم ما بخلت به على من قبلكم من بنيها ... إنها لم تسمح لأحد بالبقاء الكثير حتى لا يحتويها ويكفر بجمالها ، فابحثوا عن مثل هذا المكان الحرير الذى أناديكم منه ... واقنعوا أن يكون حظ أحدكم منها قبراً معلوماً فى القبور ، يقف أمامه أبناؤها اللاحقون ويشيرون إليه قائلين : هنا يرقد قلب شاعر عرف أمنا فكان يشترى فيها الحبر بالذهب ... فاسكبوا على قبره كأساً منه .. !

عبد المنعم خفوف

أطفال الطبيعة

للأستاذ محمد عبد اللطيف السحرتي

لم تكن إلا زقزقة العصافير تطوف بأثير نفسى ، وأنا عائد إلى البلدة فى طريق الحبيب الذى تحتضنه أشجار الكافور الخضراء الفارعة — لم يكن أعذب لنفسى من زقزقة تلك العصافير التى مازجت أصواتها أحلامى ، وأنمشت ألحانها إلهامى — فى هذه الساعة السعيدة طابت أحلامى ، ونَبُل حديثى مع نفسى ، ولم يكن يهزنى إلا مرأى الفلاحين المساكين ، وهم يكدحون حول الوادى فى صبر وقناعة وأحلام مضطربة ... ثم تعاودنى أصوات العصافير فتمحى مادوم بنفسى من هزات الأسى ، وتنقل إلى شمورها الفرح ، وتبعث فىّ سعادتها البريئة .

يا إلهى ، لكأنك خلقت العصافير للطبيعة أطفالاً كما خلقت للناس أطفالهم ! وشتان بين أطفالها وأطفالنا ! فأطفالها فى طفولة خالدة ، وأطفالنا بعد عمر قصير يكبرون ، فتنداح براءتهم وتنمحى شفافة نفوسهم !

هؤلاء الأطفال الخالدون يُنَبِّلونَ انفعالاتنا ، ويطهرون نفوسنا من هموم الأعمال اليومية ، ويخلقون لنا جواً روحياً ساجياً ينعم فى بحبوحته الأدباء والشعراء ، ويلقون علينا دروساً روحية ثمينة . ولقد ألقت علىّ عصفورة درساً خلقياً بليغاً ، وأنا فى حديقة « مونسو » البديعة بباريس ، عند ما كنت ألقى لها فتات الخبز ، فكانت وهى تتناوله تنادى أخواتها لتشاطرها الغذاء ، وهذا درس فى الايثار يلقيه علينا هؤلاء الأطفال الكرام

ولكم أحب الأدباء هؤلاء الأطفال الأعزة ، ومن بين هؤلاء الأديب الفرنسى كوبيه فى قطعته « موت العصافير » التى يُظهرُ فيها إشفاقه عليها ويبدي تخوفه من مفاجأة الموت لها فى الشتاء ، ويسائل فى انفعال وهزة : « هل العصافير تختفى لتموت ؟ » .

والذى نعلم أن العصافير تختفى فى مكان أمين ، وأنها فى الجو الطليق تجد أماناً من الموت ولا تخشاه ، وإنما هى تخشى الانسان ، وهى إذ تمرح فى أمن وإيمان ، وتحمل الغذاء فى كل مكان ، وتستقبل الشمس فى الصباح وتودعها فى الغروب ، إنما تحمل للانسان رسالة الفرح والبراءة والجمال ، والحياة الطويلة ، إن لم أقل الخالدة !

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

رأيتني هجرت الحياة واخترت مهنة حرس للقبور على الجبل القفر حيث يرتفع قصر الموت ، فكنت أحرس النعوش وهي أسلاب النصر تغص بها الدهاليز المظلمة ، فكنت أرى الساقطين في معترك الحياة المسجين في التوابيت المغطاة بالزجاج يحدجونني بنظراتهم المروعة . وهنالك نشقت عرف الأبدية غباراً يتطاير على روحي فيرهقها ولا أستطيع أن أنفض عنها هذا الغبار الثقيل

وكانت أصداء الليل تدور بي ومعها شبح العزلة والانفراد ، فكان رفيقي سكون الموت تتعالى فيه من حين إلى حين حشرجة المدنفين

وكنت أحمل المفاتيح وقد علاها الصدأ أعالج بها أصلب الأبواب فتصرف مصاريعها بصراخ أبح ثم يذهب مدوياً في الدهاليز كأن الدرفات أجنحة تقبضها أطيار تنعق متململة ممن يريد تنبيهها من رقادها

وعندما كان يخيم السكوت بعد هذا الدوي كان يبلغ رعبي أشده فأبقى وحدي محاطاً بهذا الصمت الرهيب

ومر الزمان متمهلاً ، لو صح أن في مثل هذه الرؤى زمان ، إلى أن وقع ما أفقت له مذعوراً .

قرع الباب ثلاث مرات بدوي كأنه الرعد القاصف ، فهتفت الدهاليز ثلاث مرات بصدى كأنه الزئير ، وتقدمت إلى القفل أعالجه فلم يتزحزح قيد أنملة ، وهبت العاصفة بشدة فدفعت بالمصاريع ورمت إليّ بنعش أسود وقد تصدع الهواء بالصفير والولولة وسقط النعش فانحطم وخرجت منه آلاف من القهقهات ، فرأيت آلافاً من الأطفال والملائكة وطيور البوم والمجانين والفراشات الضخمة يطفرون حولي ساخرين

واستولى الخوف عليّ فإذا أنا مطروح على الأرض أصرخ صراخاً مريعاً فانتبهت لصوتي مذعوراً .

وسكت زارا لحظة وهو حائر فإذا بأحب أتباعه إليه ينهض ويقبض على يده قائلاً : « إن تعبير رؤياك إنما هو في حياتك نفسها يا زارا ، أفلست أنت النعش وقد حشدت الحياة فيه سيئاتها وعبوس ملائكتها ؟ أفليس زارا يجتاح اللحود مقهقهاً كالأطفال ساخراً بالساهرين على القبور الخافرين لها ، مستهزئاً بكل من تقرقع المفاتيح في أيديهم .

لسوف يذعر هؤلاء الناس منك فيطرحهم ضحكك أرضاً فيغمى عليهم ثم ينتبهون وبذلك يثبت عليهم سلطانك .

لقد أطلعت لنا كواكب جديدة في الآفاق ونشرت من الليل ما كنا نجهله من البهاء . والحق إنك مددت ضحكك فوق رؤوسنا فأظلنا بعديد ألوانه . فمنذ الآن ستتعالى قهقهة الأطفال من النعوش وستعصف من الجهود القاتلة الريح التي تتوقعها .

لقد مثلت نفسك أعداءك فأزعجتك رؤياك ، ولكنك انتبهت منسلخاً عنهم وعدت إلى روعك ، وهم أيضاً سينتبهون فيرجعون إليك .

هكذا تكلم التابع ، فدار سائر الأتباع بزارا يشدون على يديه محاولين اقناعه بالنهوض من فراشه والانسلاخ عن أحزانه ليعود إليهم ، غير أن زارا بقي جالساً على فراشه وعيناه جاحظتان كأنه عائد من سفر بعيد لا يعرف ممن حوله أحداً ، ولكن أتباعه رفعوه وأوقفوه فانتبه فجأة وتغيرت سحنته فمد يده يداعب شعر لحيته ورفع عقيرته قائلاً :

— كل هذا سيكون عند ما يحين زمانه . فأعدوا لنا غذاء طيباً الآن لأكفر عن الرؤيا التي رأيت ؛ غير أن العراف سيجلس إلى جنبي ليأكل ويشرب مني وسأريه بحراً يغرق فيه نفسه

هكذا تكلم زارا ...

ولكنه حدق في وجه تابعه الذي عبر له حلمه ، حدق به طويلا وهو يهز رأسه ...

الفداء

وسار زارا يوماً على الجسر فأحاط به رهط من أهل العاهات والمتسولين وتقدم إليه أحدب يقول له :

— التفت إلى الشعب يا زارا فهو أيضاً يستفيد من تعاليمك وقد بدأ يؤمن بسنتك . ولكن الشعب بحاجة إلى أمر واحد ليتوطد إيمانه بك : عليك يا زارا أن تتوصل إلى إقناعنا نحن أهل العاهات . وأمامك الآن نخبة منهم وما لك بعد مثل هذه الفرصة تنتهزها لتقوم باختبارك على مثل هذا العدد من الرؤوس . بوسعك الآن أن تشفي العميان والمقعدين فتخفف الأثقال ، وتريح المتعبين . تلك هي الطريقة المثلى لهداية هؤلاء القوم إلى الايمان بزارا

فأجاب زارا :

— من يرفع عن ظهر الأحدب حدبته فقد نزع منه ذكاءه.
هذه هي تعاليم الشعب . وإذا أعيد النور إلى عيني الأعمى فانه ليرى على الأرض كثيراً من قبيح الأشياء فيلعن من سبب شفاءه . ومن يطلق رجل الأعرج من قيدها فانه يورثه أذية كبرى إذ لا يكاد يسير ركضاً حتى تتحكم فيه رذائله فتدفعه إلى غاياتها . هذه هي التعاليم التي ينشرها الشعب . وهل على زارا إلا أن يأخذ عن الشعب ما أخذه الشعب عنه ؟

غير أنني منذ نزلت بين الناس سهل على أن أرى منهم من تنقصه عين ، ومن تنقصه أذن ، وآخر فقد رجليه ؛ وهنالك من فقدوا لسانهم أو أنفهم أو رأسهم .

وهكذا رأيت أقبح الأمور . وهنالك أشياء أشد قبحاً مما ذكرت لا يسعني ذكرها فما يصعب عليّ سكوت عن أكثرها .

رأيت رجالا فقدوا كل شيء ، غير أنهم يملكون شيئاً يسوده الافراط ، فهم رجال كأنهم عين عظيمة أو فم واسع أو بطن كبير أو عضو آخر كبير لا غير . وما هؤلاء الناس إلا أهل العاهات المعكوسة

وعندما عدت من عزلتي لأجتاز هذا الجسر للمرة الأولى وقفت مندهشاً لا أصدق ما أرى فقلت : هذه أذن ، أذن وسيعة كأنها قامة رجل ؛ وتقدمت إليها فلاح لي وراءها شيء صغير لم يزل يتحرك وهو ناحل ضعيف يستدعى الاشفاق ، فان الأذن الكبرى كانت قائمة على ساق دقيق . وما كانت هذه الساق إلا إنساناً. ولو أنك تفرست في هذا الشيء بنظارة لرأيت فوقه وجهاً يتقطب بالحسد وينم عن روح صغيرة تريد الانتفاخ وترتجف على قاعدتها .

وقال لي الشعب : إن هذه الأذن ليست رجلا فحسب ، بل هي أيضاً رجل عظيم بل عبقرى من عباقرة الزمان . غير أنني ما صدقت الشعب يوماً إذا هو تكلم عن عظماء الرجال ، فاحتفظت بعقيدتي وهي أن هذا الرجل ذو عاهة معكوسة إذ ليس له إلا القليل من كل شيء والكثير من شيء واحد .

وبعد أن وجه زارا هـذا الخطاب إلى الأحدب ومن تكلم بالوكالة عنهم اتجه نحو أتباعه وقد تحكم الكدر فيه فقال :

والحق أنني أسير بين الناس كأنني أمشى بين أنقاض وأعضاء منثورة عن أجسادها . وذلك أفظع ما تقع عليه عيناى فانني أرى أشلاء مقطعة كأنها بقايا مجزرة هائلة . وإذا ما جالت عيني إلى الماضى هاربة من الحاضر فانها لتصدم بالمشهد نفسه . فهنالك أيضاً أنقاض وأعضاء أشلاء وحادثات مروعة ، ولكنني لا أرى رجالا ...

إن أشد ما يقع على أيها الصحاب إنما هو الحاضر والماضى وما كنت لأطيق الحياة لو لم أكن مستكشفاً ما لابد من وقوعه في آتى الزمان ، وما زارا إلا باصرة تخترق الغيب فهو رجل العزم وهو المبدع ، هو المستقبل والمعبر المؤدى إلى المستقبل ، هو واأسفاه ذو عاهة ينتصب على هذا المعبر .

وأنتم أيضاً تتساءلون مراراً : من هو زارا ؟ وبماذا نسميه ؟ فلا تتلقون غير السؤال جواباً كما أتلقاه أنا .

أهو من يَعِدُ أم من ينفـذ الوعد ؟ أهو فاتح أم وريث أهو الطبيب أم هو الناقه ؟

أشاعر هو أم حقيقة ؟ أمحرر أم متسلط ؟ أصالح أم شرير ؟

ما أنا إلا سائر بين الناس قطعاً من المستقبل الذى يتراءى لبصيرتى ، وجميع أفكارى تتجه إلى جمع وتوحيد كل متفرق على أسرار ومبدد على الصدف العمياء .

وما كنت لأحتمل أن أكون إنساناً لو أن الانسان لم يكن شاعراً محللاً للأسرار ومفتـدياً لإخوانه من ظلم ما تسمونه صدفة ودهراً . وما الفداء إلا في إنقاذ من ذهبوا ، وتحويل كل ما كان إلى ما أريد أن يكون .

ما المخلص والمبشر بالغبطة إلا الارادة نفسها وهذا ما أعلمكم إياه يا أصحابي ، ولكن اعلموا أيضاً أن هذه الارادة لم تزل سجينة مقيدة.

إن الارادة تنقذ ، ولكن ما هي القوة التي تقيد المنقذ نفسه ؟

إن داء الارادة الوحيد إنما هو كلمة « قد كان » تقف الارادة أمامها تحرق الأرّم عاجزة عن النيل كل ما كان ، فالارادة تنظر بعين الشر إلى كل ما فات وليس لها أن تدفع بقوتها إلى الوراء ، فهى أضعف من أن تحطم الزمان وما يريده الزمان ، وهذا داء الارادة الدفين

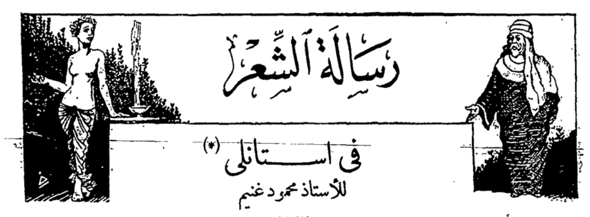
إن الارادة تنقذ ، ولكن ما هو تصور الارادة في عملها للتخلص من دائها وهدم جدران سجنها ؟

وا أسفاه ! إن كل سجين يصبح مجنوناً ، وما تنقذ الارادة السجينة نفسها إلا بالجنون .

إن الزمان لا يعود أدراجه . ذلك ما يثير غضب الارادة وكيدها فهنالك صخر لا طاقة للارادة برفعه ، وهذا الصخر إنما هو الأمر الواقع .

هكذا تكلم زارا ....

فليكس فارس



فى استانلى (*)

للأستاذ محمود غنيم

كلُّ شىء فى الصيف يشكو الخمودا ... وأرى البحرَ وحدَهُ فى نشاطِ
قذف البحرُ درَّهُ المنضودَا ... أرأيتَ الجُمانَ فوق الشاطِي ؟

* * *

ياخليلىَّ أين أين الرداء ؟ ... أنا مالى بكلّ ذاكَ يَدَانِ
ذاكَ ماء أمْ هذه كهرباء ... أمْ لهذا الخليجِ تيَّارانِ ؟

* * *

أنا أخشى عوارىَ الأجسادِ ... لستُ أخشى العُبَابَ والأعصارَا
يصرَعُ الموجَ ساعدى وفؤادِى ... خائرٌ واهنٌ أمامَ العذارَى

* * *

رفعوا فى الزوابع الأعلامَا ... يُنْذِرونَ الأنامَ بالأخطارِ
نكَّسوها ثم ارفعوها إذاماَ ... لاح سربٌ من الأوانسِ عارِ

* * *

أعَوارٍ تلك الدُّمَى أم كواسى ... بلباس يفصِّل الأجساماَ ؟
لاوقاه اللهُ البلى من لباسِ ... إنه كان واشياً نمَّاماَ

* * *

صاح ماذا رأيتُ حولَ الماءِ ... أهْوَ سِرْبٌ من الحمائمِ ظَامِ ؟
طيَّبَ اللهُ خاطرَ الصحراءِ ... أصبح البحرُ مرتع الآرامِ

* * *

هاهنا لؤلؤٌ بغير محارِ ... سابحٌ باحثٌ عن الغوّاصِ
وظباء لم تَدْرِ معنى النِّفارِ ... تَضَعُ السهمَ فى يد القنّاصِ

* * *

أنظرِ الشمسَ والهوى والهواء ... كيف راحت تنساب فى الأجسامِ
إنّ للشمس والهواء شفاء ... لايساوى ما للهوى من سقامِ

* * *

رُبَّ ثغرٍ يداعبُ الأمواجاَ ... ينثُر الماء كاللُّجين المُذابِ
تشتهيه النفوسُ ملحاً أُجاجاَ ... خارجاً من بين الثنايا العِذابِ

* * *

رُبَّ ساقين غاصتا فى الماءِ ... كلُجينٍ ينسابُ وسْط لجينِ
بدتا آيتينِ فى الإغراءِ ... وهما فيه نصفُ عاريتين

* * *

إن فوق الرمال غِيداً نياماَ ... كالأفاعى : لينٌ بغير عظامِ
ليس سُمًّا لعابُها بل مُداماَ ... هو بُرْءُ السقيمِ ، رِيُّ الظّامِ

* * *

قال جارى : ألاتكونُ رزِيناَ ؟ ... قلت : لاتلحني ، فقدتك جارَا
وتلفتُّ يَسْرَةً ويميناَ ... قال : ماذا أضعت ؟ قلت : الوقارَا

* * *

أيها المشتكى من الإقلالِ ... مَتِّع النفس بالجمال متاعَا
لم يُبيحوا لنا شُيُوعَ المالِ ... وأباحوا لنا الجمال مُشاعَا

* * *

صاح قل لى : مابال تلك الصدورِ ... كَشفُها لايحلُّ للأحداقِ ؟
ليتهم حرَّموا ذواتِ[1] الشُّعورِ ... فهْى عندى مثل القذى فى المآقِ

* * *

لاتَضيقوا بالمعصم المكشوفِ ... وتقولوا : خيرُ الجمال المصونُ
ماغناء الشَّذَى بغير أنوفِ ؟ ... قيمةُ الحسنِ أن تراه العيونُ

* * *

لاتقولوا : قد غاض ماء الحياءِ ... واقرأوا الآىَ فى وجوه الحسانِ
رُبَّ عضوٍ من هذهِ الأعضاءِ ... نَمَّ عن سرِّ قدرةِ الرحمن

(*) من شواطئ الاستحمام فى الاسكندرية

(١) يقصد صدور الرجال

وحى جديد . !

إلى ذات الوجه الأسمر

هذه السُّمْرَةُ العجيبةُ ، ماذا　　راح يُغْرِى بوصفها تبيانى ؟ .
أين شعري منها وأين خيالى　　هي فوق الخيال والأوزانِ
رُبَّ معنى توحى به لم يحوِّمْ　　حوله شاعرٌ مدى الأزمانِ
أنا منها فى مهبط الوحى ، لكن　　عَقَدَ الحبُّ فى ذَراها لسانى .
غير أنى مُسْتَلْهِمٌ سِحْرَ عينيك　　م المعاني ، ويالها من معانِ
لا تغضّى عنى جفونَكِ حتى　　أتلقَّى عنهنَّ آى افتنانى
أسعدينى بنظرةٍ منكِ تَشْفِى　　غُلَّةَ الصدرِ مِنْ شَجِىٍّ عانِ
وهَبى لى سويعةً من وصالٍ　　بعد عمرٍ قضيتُ فى حرمانِ
وأتيحي لناظرىَّ متاعاً . . .　　عبقريًّا من حسنك الفتّانِ
أضجعى رأسك الصغيرَ على صد　　رى وأصغى لهذه الألحانِ
ودَعينى أسكبْ بأذنيك أنغا　　م جريح شدا على الأغصانِ
لا تشيحي عنى بوجهٍ أفدّيه　　بدنيا من باسمات الأمانى . !

(القاهرة)　　**أحمد فهمى**

أيها الآسفُ الحزينُ الباكى　　إبكِ ماشئتَ ضيعةَ الأخلاقِ
قِفْ إن اسْطَعْتَ دورةَ الأفلاكِ　　أو فَكِلْ أمرَ الخلق للخلّاقِ

* * *

ها هنا أعشقُ الملاحةَ صِرْفاَ　　ما عليها من الثياب غِشاء
ها هنا ليس يعرف الكحلُ طرفاَ　　لا ولا يغمُرُ الخدودَ طِلاء

* * *

ها هنا روعةُ الطبيعة تبدُو　　فتراها عذراء بين العذارَى
أنظر البحرَ وهو جزر ومدٌّ　　وانظر الشمس فيه إذ تتواري

* * *

أيها البحرُ قد نزلتُك ضيفاَ　　فكأنى أغرقتُ فيك همومى
ليت عمْرى جميعَهُ كان صيفاَ　　ينقضى فوق شطِّ بحر الرُّوم

« الاسكندرية »　　**محمود غنيم**

من صور الطريق

الاعمى . .

هَدَّهُ السَّيْرُ ، وأَضْواهُ المطَافُ　　فتولَّتْ هَدْيَهُ الخُمْسُ اللِّطَافُ[1]
واهِنُ الخطوةِ لَمْ تَنْهَضْ بهِ　　مِنْ عَياءِ الجِسْمِ أطرافٌ ضِعافُ
رَاعنِى منهُ جَبينٌ شَاحِبٌ　　كجبينِ الزَّهْرِ أذْواهُ القِطَافُ
وَيَدٌ مِنْ حَوْلِهِ حَائِرَةٌ　　دَأْبُها فِي السَّيْرِ خَفْقٌ وارْتِجافُ
رَهْنُ كَفَّيْهِ السَّنَا لكنَّما　　دُونَ عَيْنَيْهِ حِجابٌ وسِجَافُ
مَنْ رَأَى الظَّمْآنَ يَرْجُو رَشْفَةً　　وَعَلَى جَنْبَيْهِ رِيٌّ وارْتِشافُ ؟
أَوْ غَرِيقاً عاجِزاً فِي مَوْجِهِ　　وَعَلَى مَرْمَى ذِرَاعَيْنِ الضِّفَافُ ؟

* * *

... يَامُطِيفاً لا تَنِي عَزْمَتُهُ ...　　أينَ يَرْسُو بِكَ فِي الأَرْضِ الطَّوافُ
رَنَّحَتْ عِطْفَيْكَ أَوْصَابُ الضَّنَى　　مِثْلَمَا رَنَّحَتِ العِطْفَ السُّلافُ
وَشَغَافُ القَلْبِ أَذْوَاهُ الأَسَى　　فَذَوَى مِنْ طُولِ مَا يَلْقَى الشَّغافُ
حَوْلَكَ النَّاسُ جُمُوعٌ حُشِدَتْ　　وَلَهُمْ عَنْكَ بِعَادٌ وانْصِرافُ
لَمْ يُصَافُوا مَنْ خَلَتْ رَاحَتُهُ　　وَاحْتَفَوْا بِالرَّاحَةِ المَلْأَى وصَافُوا
فَامْضِ فى شَأْنِكَ لا تَحْفِلْ بِهِمْ　　أَتجافَوا عَنْكَ أَمْ لَمْ يَتَجافَوا
لا تَرُجَّ النَّصَفَ ، أَوْ تَشْكُ الأَسَى　　لَيْسَ بَيْنَ النَّاسِ عَدْلٌ وانْتِصَافُ
أَرَأَيْتَ النِّضْوَ يَشْكُو دَاءَهُ　　لِطَبِيبٍ طِبُّهُ سُمٌّ زُعَافُ

* * *

لَوْ أَتاهُ النَّاسُ طُرًّا خُضَّعاً　　وَافَتِ الدُّنْيا بِنُعْمَاهَا وَوَافُوا
أَوْ سَعَى المَجْدُ إِلَيْهِ ، وَلَهُ　　بِجَنَابَيْهِ اعْتِصَامٌ وَالْتِفَافُ
لَمْ يَجِدْ فِيهِ غِنًى عَنْ عَيْنِهِ　　فَرِغَابُ المَجْدِ وَالدُّنْيا زِيَافُ
قَسَماً لَوْ زُفَّتِ الدُّنْيا لَهُ　　فِي مَجَالِيها لَمَا أَجْدَى الزِّفَافُ
لَيْسَ يُغْنِي الزَّهْرَ فى مَنْبَتِهِ　　رَائِعُ الطَّلْعَةِ وَالجَوُّ جَفَافُ

« الاسكندرية »　　**أحمد فهمى مرسى**

---

(١) يعنى أصابع كفه الخمس واللطاف الدقق . وقد استعملها العرب ومنها قول أبى تمام فى وصف القلم :

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت　　عليه شعاب الفكر وهى حوافل
أطاعته أطراف القنا وتقوضت　　لنجواه تقويض الخيام الجحافل



على سور (جينان[1])

للكاتب الصيني الشهير (يانغ مينغ شينغ)
ترجمة محمد مكين الصيني

لما رجع (هونغ سين) إلى المنزل قال لأخيه: « هل سمعت أن اليابانيين يريدون أن يحتلوا مدينة (جينان) ؟ »

فأخذ أخوه يشك في وفاء جنود الصين وقال: « ألم يقاومهم جنودنا ؟ »

قال وهو يريد أن ينوه بكرامة جنود الصين وإخلاصهم: « بلى ! »

فجعل أخوه يرتاب في كفايتهم قائلا : « هل في المدينة قوة كافية ؟ »

قال : « لا بد أن تسقط المدينة في أيدي اليابانيين عاجلا أو آجلا ! ولكن الواجب علينا أن ندافع عنها باذلين أقصى جهدنا ، فإن خضعت لهم في آخر الأمر قوتنا فلن تخضع لهم روحنا . » ثم رفع رأسه وأصلح بيده شعره .

فطفق أخوه يرتاب في توازن القوتين المتحاربتين قائلا : « بلغني أنه قد وصل إلى (جينان) خمسة آلاف من جنود اليابان. »

قال ، وهو يتمشى في الغرفة : « اسمع ! قد شرع اليابانيون يطلقون المدافع ! لا يتوقف الانتصار على كثرة الجنود ، فاذا اشتدت حمية قومنا وتطوع نصفهم للدفاع فلا تخش سوء العاقبة ولو... »

ثم توقف عن الكلام لأن قلم الرصاص الذي في يد أخيه انكسر ونشأ عن ذلك فرقعة صغيرة ، ووقف ينظر إلى أخيه بعين الريبة وسكت هنيهة ثم قال: « هل كتبت في هذه الأيام إلى السيدة الوالدة ؟ »

قال أخوه : « لا . قد انقطعت المواصلات بين (جينان) و (تسينغ تاو)[2] منذ أيام كما علمت فلا يمكن أن يصل إليها الخطاب لو بعثت به . »

— « إذا لم يصلها خطاب منا فلا محالة يشتد اضطرابها . ولا أمل في الدراسة هذا العام مع هذه الحالة ، فان استطعت أن تعود إلى البلد مبكراً فعلت . إن السيدة الوالدة بعد وفاة السيد الوالد في حاجة إلى من يعولها ، ويكفي أن يتطوع أحدنا للدفاع »

ولما سكت تأمل فيه أخوه شاكا في أمره .

وقد أكثر من الكلام ، وبعد أن دار في الغرفة دورتين جلس إلى مكتبه فأخذ كتاباً ينظر فيه كأنه يطالعه .

قد تتابعت في ضواحي المدينة أصوات المدافع وارتفعت الصيحات داخل المدينة .

تذكر فجأة أمراً ما فوضع الكتاب على المكتب ورمق أخاه حزيناً كئيباً يقول: « شانغ سين ! »

« مالك يا هونغ سين ؟ »

قال لأخيه بكل لطف : « إذهب إلى الآنسة « لوس » لعلها هي وأمها في حال سيئة من الذعر »

فأومأ أخوه برأسه أن سمعاً وطاعة .

وبعد بضع دقائق جلجلت أصوات المدافع تتخللها فترات قصار ، فقام أخوه يقصد الباب فصالحه قائلاً: « يا أخي ! » وقد خالف في ندائه هذا عادته فانه كان دائما يدعو أخاه باسمه فتلاقى بصره ببصر أخيه ثم قال: « إلى اللقاء ! »

---

[1] (جينان) عاصمة مقاطعة (شانتونغ) نشبت فيها الحرب بين الصين واليابان سنة ١٩٢٨ إذ تقدمت جيوش الحكومة الحاضرة نحو بكين وحاولت اليابان منع تقدمها ثم عقدت الهدنة

[2] (تسينغ تاو) ميناء في جنوب (شانتونغ) بينها وبين (جينان) سكة الحديد

فنظر إليه أخوه نظرة المحزون المهموم وقال : « ألا تخرج الليلة فتكتب خطاباً إلى السيدة الوالدة ؟ »

فأشار برأسه أنه سيفعل ، وخرج أخوه ، وكان ذلك بعد الظهر .

وبعد المغرب أخذت أصوات المدافع تتكاثر وتتعالى في ضواحي المدينة، وارتفعت الصيحات بالويلات؛ ولما كاد الليل ينتصف خفتت أصوات المدافع شيئاً فشيئاً وأخذت تقل ، وكان (هونغ سين) يتمشى في غرفته ويظن أن أخاه في منزل الآنسة (لوس) فدعا له بالأمن والسلامة ، ثم فتح خزانة الثياب وأخرج منها ثوباً من ثياب الألعاب الرياضية فلبسه ، وشد رباط حذائه ثم أقفل باب المنزل وخرج .

وكان القمر وهو في أيام التربيع الثاني ممتقعاً لونه معلقاً في جو الشرق تحيط به غيوم قاتمة كأنها تحاول أن تبتلعه .

وكانت الرصاصات وقنابل المدافع تتطاير هنا وهنالك ، وأصوات البكاء والعويل تملأ أذنيه .

جعل يمشي في أقرب طريق إلى البوابة الغربية لسور المدينة ؛ ولم يخطُ إلا خطوات قلائل حتى طارت قنبلة من فوق رأسه فوقعت على جدار بعض البيوت فملأت أذناه جلبة وضوضاء من تهدم الجدران يعقبه أصوات الفزع والصراخ والبكاء ؛ ثم عاد الجو بعد هنيهة إلى ما كان عليه من سكون وهدوء .

ولما اجتاز عدة شوارع رأى بيتاً تشتعل فيه النيران اشتعالا هائلا ، ورأى جماعة من الرجال والنساء ، منهم من يحمل على ظهره أمه الفانية ، ومنهم من يقود أباه الهرم ، ومنهم من تحمل على ذراعها رضيعها ، وهم يهيمون على وجوههم في الشوارع باكين صارخين لايدرون إلى أين يلتجئون . وبيناهم كذلك إذا بقنبلة تسقط بينهم فانفجرت فملئ الجو صراخاً وأنيناً : أنين الذين يشرفون على الموت الزؤام ، فأغمض عينيه ومضى في سبيله قدماً بخطوات واسعة . ثم ارتبكت رجلاه فجأة ارتباكا كاد يعثر منه ، فنظر إلى الأرض فاذا بجثة سيدة ملقاة على الثرى تبين في نور القمر أن قنبلة قد ذهبت باحدى رجليها وتركتها غارقة في دمائها البريئة ، وطفل لم يمض على ولادته حول كامل مكب على صدرها يرضعها

ولما بلغ جانب السور رأى نور القمر يسطع من بين الغيوم السوداء ، وشاهد كثيراً من جثث الجند مبعثرة على مسند السور هنا وهنالك يئن فيها من لم تزهق نفسه بعد ، فالتقط من الأرض بندقية وسلب إحدى الجثث كنانة الرصاص ثم أخذ يصعد على السور ، وما كاد ينتهي إلى شرفته حتى تدحرجت جثة من فوق السور عثر فيها ثم نهض من عثرته على الفور . ولما انتهى إلى الشرفات التفت يمنة ويسرة فوجد مسافة نيف وخمسين متراً خالية من حراسة الجند ، ثم أخرج رأسه من بين شرفتين ليعرف حالة العدو ، فطار نحوه الرصاص ومر بجانب أذنه ، فانسحب سريعاً وانتقل إلى مابين الشرفتين الخامسة والسادسة من يساره ، وأخرج رأسه مرة أخرى فرأى بأشعة القمر بضعة عشر جندياً يابانياً يحاولون تسلق السور من هذا المكان الخالي من الحراسة ، بعضهم على أكتاف بعض ، فصوب بندقيته إلى أحدهم في الطبقة السفلى وأطلق عليه رصاصة فأصابته بالمصادفة فانهارت الطبقة السفلى وتدحرج الذين فوقها إلى الخندق كلهم أجمعون .

ولكن بعد هنيهة اجتمعوا عند السور مرة أخرى فأطلق عليهم رصاصتين فأصاب أحدهما وأخطأ الآخر ، وبينا هو في اضطراب وغضب إذا برجل يناديه من وراء ظهره : « من أنت يا رجل ؟ ! »

أجابه (هونغ سين) بدون تروّ ولا تردد : « من عساكر الخفية . »

ولما التفت إلى خلفه وجد بضعة عشر جندياً قد أتوا إلى النقطة التي يدافع عنها وحده فدلهم على اليابانيين تحت السور ، فأطلقوا عليهم وابلا من الرصاص فأصابوا شرذمة منهم وتوارى الباقون في حقول القمح بجانب السور ، ولما لم يحسوا بحركتهم ظنوا أنهم قد فروا من وجوههم ، فأخرجوا مطمئنين رءوسهم من خلال الشرفات ، وإنهم لكذلك إذا بنار تلألأت أمامهم عن بعد ، وإذا بقنبلة طارت نحوهم فذهبت باحدى الشرفات وتطايرت شظايا القنبلة في كل صوب ، ومات عقب انفجارها أكثر المدافعين عن السور ؛ فانسحب الباقون إلى نقطة أخرى بعيدة عن مسقط القنبلة ثم جاءت قنبلة أخرى لم تصب شيئاً .

وبعد بضع دقائق اقترب بضعة عشر جندياً يابانياً من السور فأطلق عليهم وابل من الرصاص فاختفوا في حقول القمح

واستمروا على الكر والفر ، وبعد مدة مات المدافعون عن السور من قنابل المدافع ولم يبق منهم إلا جندي واحد مع (هونغ سين) الذي أصيب في ذراعه اليسرى فعصبها بمنديله .

انفجر الليل واجتمع الأعداء فى شرق السور الشمالى وخف الضغط على نقطتهما فأخرج (هونغ سين) من جيبه علبة لفائف التبغ وقدمها إلى زميله الجندى قائلا : « دخن لفافة »

ثم جلسا خلف شرفات السور ورأيا مئات من آثار قنابل المدافع على السور وقد اشتعل ضباب الصباح على وحشة واكتئاب

قال (هونغ سين) : « لولا غرفة اليابانيين لوصلت جيوشنا إلى مدينة (ديجو) : »

وقال الجندى : « يسوءنى جداً أنهم أهلكوا الليلة خلقاً كثيراً من إخواننا . » ثم امتص الدخان بقوة .

وعبر (هونغ سين) عن آماله قائلا : « لعل عدد الباقين منا يكفي للدفاع عن المدينة يوماً آخر . »

فهز الجندى رأسه ثم أخرج من جيبه رغيفاً من الخبز وقال لزميله : « أتحب أن تتناول شيئاً من هذا ؟ » فهز (هونغ سين) رأسه وأخرج لفافة من لفائف التبغ ليسد بها جوعه

دار الجندى بعينيه حول وجه (هونغ سين) وأطرافه وهو يأكل من خبزه ثم قال : « يا أخى ! إنك لا تشبه الجندى فى الصورة . »

فسأله (هونغ سين) مبتسما : « لا يهمنى هل أشبه الجندى فى الصورة أو لا أشبهه . قل لى هل أشبه الجندى فى الدفاع ؟ »

قال الجندى معجباً به : « نعم . ما رأيت قط جندياً باسلا داهية مثلك ! »

ثم شبع الجندى فكثر حديثه فقال . « ألا إن المتطوعين فى هذه المرة كثيرون ، وكنا بعد ظهر أمس ندافع فى جهة الجنوب فجاء طالب من طلبة المدارس ليساعدنا فى الدفاع ، وما كان أشجعه فى القتال : لكنه وا أسفاه لم يكن يدرى كيف يختفي وراء شرفات السور فأصيب بعد قليل بجرح . »

قال (هونغ سين) : « أكان ذلك بعد ظهر أمس ؛ »

« نعم . »

« كيف شكله ؟ »

« أقصر منك بقليل ويشبهك فى السحنة غاية الشبه . » قال ذلك وهو يديم النظر إلى عينى (هونغ سين)

فسقط على الأرض ما بقى فى يد « هونغ سين » من لفافة التبغ

فسأل الجندى فزعاً : « هل يلبس الزى الأزرق الخاص بالطلبة ؟ »

« نعم . »

« أجرحه فى خطر ؟ » قال هذا وهو فاغر فاه ينتظر جواب صاحبه الذى قال :

« جرح فى ترقوته اليسرى ، فإذا أتيح له من يسعفه أمكن أن يشفى ؛ ولكن أنى يكون لنا فراغ لنعتنى بجرحه ؟ فتساقط السكين على الأرض وجعل ينادى : « يا أماه ! » فسأله على سبيل المزاح « يا رجل ! أفتريد أن ترضع أمك ؟ »

فنهض (هونغ سين) من فوره .

فقال له الجندى : « أتريد أن تعود إلى المنزل ؟ »

« لا . بل إلى جهة الجنوب . »

« لإسعاف الجرحى ؟ »

« لإسعاف شقيق ؟ » ثم مشى نحو الجنوب .

فقال الجندى : « وا أسفاه ! »

فى هذه اللحظة نفسها اشتد هجوم الأعداء فى شرق السور الشمالى وتوالت أصوات المدافع وتعالت معممة المدافعين على السور وأصوات البكاء والعويل والصراخ داخل المدينة كأن الأعداء قد اقتربوا من جانب السور هناك .

فأدبر (هونغ سين) ودنا إلى شرقي السور الشمالى ساكتاً صامتاً يسمع الجندي يقول : « يا للخطر ! إن عدد المدافعين هناك غير كاف ، وإنى لذاهب إلى مساعدتهم . »

رأى الجندى ينهض من مكانه فيضع على كتفه بندقيته ويمشى نحو الشرق الشمالى .

فناداه (هونغ سين) : « انتظر ! »

فأقبل الجندى ووجده واقفاً واجماً رانياً إلى شرق السور الشمالى ولا يذهب إلى الجنوب .

فسأله الجندى : « مالك يا أخى ؟ »

فلم يجبه ببنت شفة وهو لا يزال واقفاً فى مكانه شاخصاً ببصره .

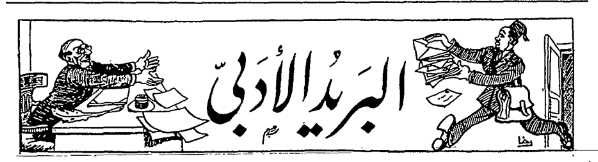
قال الجندى : « أنا ذاهب »

« نذهب معاً »

فهز (هونغ سين) رأسه هزة ومسح بكمه مدامعه وأخذ يعدو مع الجندى نحو شرق السور الشمالي الذى اشتدت عليه قنابل المدافع اليابنية

محمد مكين الصينى

أحد أعضاء البعثة الصينية فى الأزهر



حول العيد الألفي للأزهر

أذاعت الصحف أن مشيخة الجامع الأزهر تنوى أن تضع برنامجاً جديداً للاحتفاء بالعيد الألفى للأزهر ، وأنها ستبدأ قريباً باتخاذ الخطوات العملية لإحياء هـذه الذكرى الخالدة ، وهذه أول مرة نسمع فيها مذ تقلد الشيخ الأكبر منصبه باهتمام المشيخة بعيد الأزهر ؛ وقد كانت للمشيخة عناية خاصة بهذا العيد منذ أعوام ، وكان لها برنامج حافل وضعته للاحتفاء بالذكرى الألفية . وقد اتخذت بالفعل عدة خطوات عملية فى هذا السبيل فانتدبت مختلف اللجان لوضع تاريخ الأزهر ولتنظيم الاحتفال ، ودعوة مندوبى العالم الاسلامى ، وغير ذلك مما يقتضيه إحياء هذه الذكرى الجليلة ؛ ولكن هـذه الاستعدادات وقفت فجأة منذ نحو عام ونصف ، وقيل يومئـذ إن الوقت ما يزال متسعاً فلا داعى للعجلة في هـذا الاستعداد ؛ وكان هذا القول غريباً في ذاته لأنه لم يبق بيننا وبين انقضاء الألف عام على قيام الأزهر سوى ثلاثة أعوام إذا اعتبرنا تاريخ البدء فى إنشائه وهو جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ ؛ وقد اعتادت الحكومات والهيئات العلمية أن تحسب حساب هذه الأعياد قبل وقوعها بأعوام طويلة ، وأن تتخذ أهباتها فى تؤدة وروية ، وأن تعد كل شيء بنظام حسن ؛ ونحن لا نلوم مشيخة الأزهر لأنها عدلت عن برنامج الاحتفال السابق ووضعت برنامجاً جديداً ؛ لأن البرنامج القديم كانت تحدوه فى الواقع بواعث واعتبارات خاصة ، وكان واضعوه يتصرفون بروح ضيق ، وكانت الفكرة كلها ينقصها الروح القومى والروح العلمى الصحيح ؛ ولكنا نأخذ مشيخة الأزهر أنها تأخرت حتى اليوم فى الاهتمام بموضوع لا يدانيه شأن آخر من شؤون الأزهر فى أهميته وجلاله .

وثمة مسألة أخرى نريد أن نلفت إليها النظر ، وهى أن الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر يجب أن يكون احتفالا قومياً بالمعنى الحقيق ، ويجب أن تشرف الحكومة المصرية على وضع برنامجه وعلى تنظيمه ؛ ومن حق الأزهر أن يقوم فى تنظيم هذا الاحتفال بأكبر قسط ولكنا لا نرى أن يستأثر بوضع البرامج ودعوة اللجان وغيرها ؛ وإذاً فيجب أن تتولى تنظيم الاحتفال لجنة حكومية عليا يمثل فيها الأزهر والهيئات العلمية المختارة ، وبعض الشخصيات البارزة ، ويجب أن يشتمل برنامج الاحتفال على كل ما اصطلح العرف عليه في مثل هذه المناسبات . وفى وسع اللجنة الخاصة أن تستأنس بما تقوم به الهيئات العلمية الأجنبية فى أعيادها الكبرى من المظاهرات العلمية والاجتماعية لاحياء هذه الذكريات . (م)

كتاب جديد عن مصر

ظهر أخيراً كتاب جديد عن مصر باللغة الألمانية عنوانه « طريق مصر إلى الحرية » Aegyptens Weg zur Freiheit بقلم الكاتب الصحفي باول شمتس . والهر شمتس هو مكاتب جريدة « لايبزجر نويسته ناخرختن » فى القاهرة ، وقد عرف بعنايته بشئون مصر والشرق الأدنى ، وتبدو هـذه العناية فى فصول ومباحث كثيرة ينشرها فى الصحف الألمانية عن هذه الشئون .

وكتابه عن مصر صغير لا يتجاوز المائة والعشرين صفحة ، ولكنه يقدم للقارئ العادى كثيراً من الحقائق والمعلومات النافعة ، وهو يصور لنا مصر منذ العهد المسيحي حتى قيام الحرب الكبرى تعيش على هامش التاريخ ؛ وفى العصر الأخير تدب فى مصر روح

الوطنية الملتهبة ، وتنهض مصر الفتاة لاسترداد حريتها واستقلالها أولاً من يد الترك ثم من يد الانكليز . ومصر اليوم من المراكز الحيوية في سير الشئون الدولية ، وفي تطورها ، ومصر همزة الوصل بين الشرق والغرب . على أن الهر شمتس لايقدم إلينا جديداً في تصويره للشئون المصرية ، وكل ما هنالك هو أن هذا الكتيب الذي صدر بالألمانية في وقت اتجهت فيه الأبصار إلى مصر يعاون على فهم الشئون المصرية في المانيا وأوربا الوسطى .

تاريخ المقاهي

قرأنا في إحدى المجلات الأوربية الكبرى بحثاً طريفاً في تاريخ المقاهي ؛ خلاصته أن المقهى منشأة شرقية عرفت أولا في الشرق . وفي أواسط القرن السادس عشر سافر إلى الشرق طبيب الماني يدعى ليونارد راوفولف وزار الشام ، ورأى في مدينة حلب أول مقهى وشرب فيه أول قدح من القهوة شربه في حياته ، وعاد إلى ألمانيا يصف المقهى والشراب الأسود الذي يشبه الحبر ؛ وكان المقهى في تلك العصور لا يخرج عن مكان مفتوح يؤمه الناس ويشربون فيه القهوة جلوسا على الأرض ؛ وكانت القهوة قد عرفت في البلاد العربية قبل ذلك بنحو مائة عام ، ولم يكن المقهى ذائعا إلا في العواصم الكبرى ؛ وعرف الترك المقهى من العرب ، وظهر في قسطنطينية أول مقهى في سنة ١٥٥٤ ؛ أما في مصر فقد عرفت المقاهي قبل ذلك بنحو نصف قرن .

ومضى قرن آخر قبل أن ذاعت المقاهي في أوربا ؛ وفي سنة ١٦٤٥ ظهرت في البندقية أول دار من هذا النوع ؛ ثم ظهرت في لندن وأكسفورد بعد ذلك بقليل ؛ وكانت القهوة فيها على الطريقة الشرقية . ولم تلبث المقاهي أن ذاعت في انكلترا بسرعة . ولبثت المقاهي ممنوعة في رومة حتى أوائل القرن الثامن عشر . وظهرت المقاهي في فرنسا في أوائل القرن السابع عشر ، وافتتحت في باريس سنة ١٦٨٩ دار أنيقة سميت قهوة بروكوب ؛ وكان الفيلسوف فولتير من روادها . فذاع من بعده ارتياد الأدباء للمقهى ؛ ولم يظهر المقهى في برلين إلا في أوائل القرن الثامن عشر .

وكان المقهى في تلك العصور مركزاً للمقابلات والسمر ، ولم يعرف الموسيقى إلا في أواسط القرن الثامن عشر ؛ إذ افتتح في برلين أول مقهى موسيقى ؛ وكان هذا النوع من المقهى قد عرف قبل ذلك في باريس ؛ وكانت الفرقة الموسيقية التي تختار للعزف فيه تؤلف عادة من بعض الموسيقين العميان ؛ وكانت المقاهي تسمى في فينا بالمنتديات الفضية لأن الموائد والكراسي والمشاجب كانت من معدن يطلى بالفضة . وفي سنة ١٧٩٠ ظهر في لندن مقهى من نوع خاص لا يدخله سوى السيدات ؛ ويتولى الخدمة فيه سيدات . كذلك ظهر في لندن أول مقهى وضعت فيه مائدة البليارد ، وكانت عند ظهورها عجيبة من العجائب .

وتطورت المقاهي بعد ذلك ، وتفنن أصحابها في تجميلها وتأثيثها وتزويدها بمختلف الملاهي من الموسيقى والغناء وورق اللعب والرقص وغيرها ، وبلغت ما بلغت في عصرنا من الأناقة وحسن التنظيم ؛ وكثرة التنوع والافتنان في كل ما يجلب المسرة والمتاع إلى نفوس الزائرين ، وأضحت منتديات للسمر والسياسة والأدب .

حرية الفكر في مؤتمر القلم الدولي

قرأنا في البريد الفرنسي الأخير أخبار مؤتمر القلم الدولي الذي عقد في باريس في أواخر شهر يونيه . وسبق أن أشارت اليه « الرسالة » وذكرت أن مصر ستمثل فيه على يد وفد من أعضاء نادي القلم المصري برياسة الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب ؛ وقد شهد المؤتمر مندوبو خمسين دولة وتولى افتتاحه وزير المعارف ؛ وكانت أعظم ظاهرة في جلساته ومناقشاته مسألة حرية الفكر التي أصبحت مهددة في كثير من الدول والتي سحقت بالفعل في بعض الدول التي تسودها النظم الطاغية . وألقى الكاتب الفرنسي الكبير جول رومان رئيس نادي القلم الدولي بهذه المناسبة خطاباً رناناً نوه فيه بقدسية الحرية الفكرية ؛ ومما قاله : « إن للفكر قوانينه وأخلاقه وعاداته التي لا تستطيع أية حدود بل ولا يستطيع التاريخ أن يوقفها أو يمليها ؛ فالفكر وحده هو الذي يضطلع بوضعها ومراعاتها ؛ وإذا تنزل الفكر إلى الدعوة إلى فضائل لا توجد ، أو لا تستطيع الوجود إلا بمحالاته فهو يرتكب بذلك حماقة لا تغتفر ؛ وإذا كانت جمعية القلم لا دخل لها في السياسة

فأنا مع ذلك لا نستطيع أن نسترشد إلا بقيمة الفكر وحياته وحقوقه في جميع أنحاء العالم ؛ ولن نستطيع أن نقبل أي حجة لتعطيل حرية الفكر وحقوقه ، ذلك أنا نأمل أن قبول غل واحد يصفدنا فيما بعد بأغلال لا نهاية لها » . هذا وسوف نتحدث في فرصة أخرى عن قرارات هذا المؤتمر الأدبي الخطير .

الأزهر في مؤتمر القوانين

عاد منذ أيام اثنان من أعضاء وفد الأزهر في مؤتمر القانون الدولي بعد الاشتراك في دورة المؤتمر .

وقد بدأت هذه الدورة في اليوم الرابع من هذا الشهر ، وكان اليوم الأول خاصاً بحفلة الافتتاح التي أقيمت تحت رعاية وزير العدل في الحكومة الهولاندية واشترك فيها بعض أعضاء محكمة العدل الدولية في لاهاي ؛ ثم دامت جلسات المؤتمر بعد ذلك من اليوم الثاني إلى أن كانت جلسة الختام في اليوم الحادي عشر من الشهر .

وكانت مصر ممثلة في المؤتمر من جهتين : الأزهر ، وممثلوه هم الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حسن والشيخ محمود شلتوت ومحمد عبد المنعم رياض بك والأستاذ حسن البغدادي ؛ والجامعة المصرية وكان يمثلها الدكتور عبد الرزاق السنهوري بك .

وقد كان الربح الأدبي والعلمي الذي وصل إليه الوفدان ربحاً عظيماً إذ ألقى الدكتور السنهوري بك بحثه عن الجنسية في اليوم الثالث للمؤتمر . وأعقبه بعد ذلك في الأيام التالية الأستاذان الشيخ عبد الرحمن حسن والشيخ شلتوت فألقيا بحثيهما باللغة العربية للمرة الأولى في دورات المؤتمر كلها . وكان البحث الأول خاصاً بالشريعة الاسلامية وعلاقتها بالقانون الروماني ، والبحث الثاني خاصاً بالمسئولية المدنية والجنائية في الشريعة الاسلامية .

وقد تناقش كثير من أعضاء المؤتمر عند تلاوة هذه البحوث وكان الأستاذ البغدادي يتولى الترجمة العربية والفرنسية والأسئلة وأجوبتها كما تولى ترجمة البحوث نفسها عند إلقائها .

ومن المظاهر الشرفة التي نالتها مصر في هذه الدورة أن جلسة الختام التي تليت فيها قرارات المؤتمر النهائية . كانت خاصة برؤساء اللجان والمقررين ، فكانت الغالبية العظمى من الدول يمثلها في هذه الجلسة ممثل واحد سوى مصر ، فقد حضر من وفدها في هذه الجلسة اثنان هما فضيلة الشيخ عبد الرحمن حسن والأستاذ عبد المنعم رياض بك .

وكذلك كان من الربح العظيم الذي وصلت اليه مصر بواسطة الوفد الأزهري أن قرر المؤتمر جعل اللغة العربية إحدى اللغات الرسمية له . وقد قلنا إن بعض البحوث التي ألقيت في هذه الدورة ألقيت فعلاً باللغة العربية . وكذلك قرر المؤتمر حسبان الشريعة الاسلامية مصدراً من مصادر التشريع الحديث .

وقرر المؤتمر في ختام جلساته أن تعقد دورته القادمة في سنة ١٩٤٢ في مدينة لاهاي أيضاً .

بعثة أزهرية جديدة باسم جلالة الملك فاروق

علمنا أن الرأي قد استقر على اختيار بعض العلماء المتازين أيضاً لتأليف بعثة جديدة يتلقى أعضاؤها في جامعات أوربا من العلوم ، ما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلوم الشرعية وذلك على النهج الذي اتبع في تأليف بعثة « فؤاد الأول » الأزهرية

وسيطلق على هذه البعثة الجديدة اسم « بعثة فاروق الأول »

وتفكر إدارة المعاهد الدينية في هذه الأيام في تأليف بعثة أزهرية جديدة تؤلف من بعض العلماء الأزهريين المتازين الأكفاء لتوفدها إلى بعض القاطعات الإسلامية في الهند ، للدعوة إلى الدين الإسلامي ونشر مبادئه بين طوائف المسلمين في هذه المقاطعات

اضطراب آخر في شيوخ الأزهر

اطلعت في أثناء تحقيقي للاضطراب الذي وقع في رحلة الشيخ عبد الغني النابلسي على اضطراب آخر في كتاب « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » للشيخ أمين المحبي بن فضل الله بن محب الله المولود بدمشق سنة ١٠٦١ هـ والمتوفى بها سنة ١١١١ هـ فقد ذكر في الكلام على الشيخ محمد بن حسن بن محمد بن أحمد جمال الدين بن بدر الدين المعروف بالمنير ما ذكره الجبرتي عنه ، وخلاصته أنه ولد بسمنود سنة ١٠٩٩ هـ . وقدم الجامع الأزهر وعمره عشرون سنة فدرس على كثير من شيوخه وبرع في كثير من علومه خصوصاً علم الحديث ، وكان عالي السند فيه ، وكان يعرف أيضاً جملة من الفنون الغريبة كالزايرجة والأوفاق وغيرها



سيرة السيد عمر مكرم

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

بقلم الأديب توفيق الطويل

بارح الجيش الفرنسي أرض مصر بعد أن عرف الشعب مكانة ظالميه عند دفع العاديات ، فرأى جيش السلطان لا يملك العودة إلى القاهرة إلا في ظلال أعوانه الانجليز ، ورأى المماليك يفرون إلى الشرق ويهربون إلى الغرب ويلتمسون صداقة الفرنسيين أو مرضاة العثمانيين أملا في العودة إلى حكم البلاد، فعرف الشعب من ذلك أن مصيره موكول إليه وأن اعتماده على غير نفسه غفلة وخداع لا ينبغي أن يطولا . وكان على يقين بأنه يستطيع أن يصمد للحرب الطاحنة وحده شهوراً وأياماً كما فعل في ثورته الثانية العنيفة على الجيش الفرنسي المنظم. وكان زعماء هذا الشعب الكريم تعوزهم التضحية وينقصهم الاخلاص، ينتفعون بتقلبهم مع الحكومات على حساب الوطن المسكين سوى رجل واحد جمع الزعامة والجهاد والتضحية . كان ينزوي حين لا تنفع المقاومة ، ويثور ثورة الأسد حين تمس الحاجة إلى الثورة والتمرد . . ذلك هو السيد عمر مكرم . . . فلما سمع صوت الشعب يدوي مطالباً بحكومة جديدة خرج من عزلته وتولى قيادته . واحتشدت جموع الشعب التي بلغت أربعين ألفا بجوار الأزهر على كثب من بيت القاضي الذي كان يجتمع فيه الزعماء لاختيار الوالي الجديد . وانعقد اجماعهم على قبول «محمد على باشا » والياً بعد أن رشحه الزعيم الأكبر «عمر مكرم» لما عرفوه عنه من الذكاء والعدل والشهامة والعطف على المصريين

وقد ذاع صيته في أواخر أمره وذهبت شهرته في الآفاق ، وأتته الهدايا من الروم والشام والعراق ، وكانت وفاته سنة ١١٩٩ ﻫ

وقد زاد المحبي على ما ذكره الجبرتي من ذلك أنه بلغ أمره أن صار شيخاً للأزهر ، وأن أول من انتزع مشيخة الأزهر من المالكية ، وكان رحمه الله شافعياً

فهذا اضطراب آخر في شيوخ الأزهر ، فالشيخ المنير غير معدود في هؤلاء الشيوخ ، وقد كان شيوخ الأزهر في عهده الشيخ عبد الباقي المالكي القليني ، فالشيخ محمد شنن المالكي ، فالشيخ عبد الله الشبراوي الشافعي ، فالشيخ محمد الحفني الشافعي ، فالشيخ عبد الرؤوف السجيني ، فالشيخ أحمد الدمنهوري ، فالشيخ أحمد العروسي ، وقد صار أولهم شيخاً للأزهر سنة ١١٢٠ ﻫ وصار آخرهم شيخاً له من سنة ١١٩٢ ﻫ إلى سنة ١٢٠٨ ﻫ

والشيخ عبد الله الشبراوي هو الذي ذكر صاحب تاريخ الأزهر أنه أول من تولى مشيخة الأزهر من الشافعية ، وقد صار شيخاً للأزهر من سنة ١١٣٧ ﻫ إلى سنة ١١٧١ ﻫ ، فكيف يكون الشيخ المنير شيخاً للازهر بين توالي أولئك الشيوخ ؟ وكيف يكون أول من انتزع مشيخة الأزهر من المالكية إلى الشافعية ؟

فالحق أن الشيخ المحبي أخطأ في هذا كما أخطأ قبله الشيخ عبد الغني النابلسي في الشيخ منصور المنوفي الشافعي ، وقد كانا شاميين بعيدين عن الأزهر ورجاله ، ولا شك أن هذا يضعف من قيمة ماشذا فيه من ذلك .

ولو صح أن الشيخ منصور المنوفي كان شيخاً للأزهر كما ذكر الشيخ عبد الغني النابلسي لكان هو الذي انتزع مشيخة الأزهر من يد المالكية إلى الشافعية لا الشبراوي ولا المنير لأنه أقدم عهداً منهما كما سبق .

عبد المتعال الصعيدي

إزاء الطغاة من حكامهم . . . وقبل الوالى الجديد ترشيحهم بعد تردد . فقام إليه السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى وألبساه الكرك والقفطان فى بيته وخلعا عليه حكم البلاد باسم الشعب المصري الكريم . وكان ذلك فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ ، فتميز الوالى القديم « خورشيد باشا » غضباً وقال : « ولانى السلطان فلن يعزلنى الفلاحون » فلم يكن بدّ من أن ينزله هؤلاء الفلاحون بالقوة من قصره بالقلعة . وبدأ الكفاح المجيد بين شعب يفدي حاكمه الذى اختاره لنفسه بل يفدى حريته واستقلاله بالمهج والأرواح، وبين جيش يريد أن يحكمه على غير إرادته .. وكانت الثورة قائمة على مبدأ أعلنه الزعيم الأعلى لرسول السلطان الذى احتج بقوله تعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فأجابه الزعيم بأن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وأن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار فى الناس بالجور والظلم كان لهم عزله وخلعه . . .

وأصاب الشعب النصر الحاسم داخل المدينة وخارجها . . . وبارح البلاد خورشيد باشا بعد أن عرف بالتجربة أن إرادة الشعوب من إرادة الله . . .

ولبث الشعب المجيد يعين حكومته الجديدة فى رد أعدائها من مماليك وأتراك وانجليز حتى نجاه عن ذلك « واليه » وصارح زعيمه بأن واجب الدفاع والاشتراك فى سياسة البلاد قد سقط عن الشعب بعد أن صارت قوة الدولة كفيلة به . . ونهض الوالى بالبلاد نهضة زاهرة شملت تجارتها وزراعتها وصناعتها وثقافتها ولكنها كانت بعيدة عن روح الشعب الذى أكره على الاعتزال . ولم تكن ثمرة جهاده ولا نتيجة سعيه ولا وليدة ذهنه فذبلت وماتت بموت موجدها . .

واعتزل الزعيم ، حتى إذا اشتط الوالى فى ضرائبه التي أكرهته عليها كثرة إصلاحاته وحروبه خرج من مكمنه وأعلن مبدأه الذى لا يقبل فيه شكا ولا جدلا : أن ليس للباشا أن يغير نظام الحكم ولا أن يفرض ما شاء من الضرائب ولا أن يحكم الشعب بغير قانونه وعاداته . ولكن الباشا عرف كيف يفرق بين الزعماء وينتفع بحقدهم على زعيمهم فيأمر بخلعه من نقابة الأشراف ونفيه بعيداً عن موطن الثورات . .

هذا موجز مشوه لسيرة البطل الذى تناوله الأستاذ الجليل محمد فريد أبو حديد فى كتابه القيم الممتع الذى أصدره فى هذين اليومين وأبان فيه نهاية الكفاح المجيد الذى كان الشعب المصرى قد بدأه منذ قرن ونيف من الزمان . . والكتاب آية أدبية جمعت ثلاثة عناصر قلّ أن تجتمع فى كتاب : دقة العلم ، وجمال الفن ، وحرارة الوطنية .

على أن فى الكتاب رأياً ترددت كثيراً فى التسليم به ، ذلك هو تحديده للوقت الذى تحرك فيه الشعب المصرى للمحافظة على حقوقه وحرياته بعام ١١١٤ ﻫ إذ أن الحادثة التى أبدت هذا تتلخص في شكوى رفعها العلماء إلى الديوان فاستجيبت لعدالة الحاكم « الفعلى » يومذاك لا لحرص الشعب وزعمائه على حقوقهم ولا لخوف الحاكم من عنادهم . فأما عدالة الحاكم فيشهد بها قول الشيخ حسن الحجازى شاعر العصر برثيه :

ألا قل لمن فى موت حاكم مصرنا
غدا فرحا لا عشت حل بك النعم

إلى أن قال :

فأرجح ميزاناً وأوفى مكايلاً وأخمد نيراناً وقام به سلم
وليس له من مبغض غير معرض عن الحق أو من فى عقيدته سقم

إلى آخر ما جاء فى الرثاء الذى أورده الجبرتى (١٠٧ و ١٠٨ ج ١)

وأما الدليل على أن الشعب وزعماءه يومئذ لم يكونوا قد آمنوا بعد بالحرص على حرياتهم وحقوقهم فيشهد به مجيء فرمان من الدولة عام ١١٣٧ ﻫ يأمر بمنع العلماء من اجتماعهم بالباشا . وكان ذلك في وقت قد اشتد فيه الظلم ، وعانى الشعب ألواناً من التعدي على الحريات وانتهاك الحرمات ونهب الأموال ، فلم يقاوم الفرمان شعب ولا زعماء . ولما تكرر الظلم بعد هذا طالب الشعب العلماء بالذهاب إلى الباشا فاعتذر هؤلاء الزعماء بأنهم ممنوعون من طلوع القلعة ... ! (١٣١ ، ١٣٥ ج ١ من الجبرتى) فالشكوى وحدها ليست دليلاً على التحرك لدفع الظلم ، وإنما الدليل أن يقاوم المظلوم حتى ينصف أو يستشهد .

والرأي عندي — إن صح أن يكون لي رأي إلى جانب رأي أستاذي المؤرخ — هو أن الشعب قد تحرك للمحافظة على حقوقه وحرياته في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي (أواخر الثاني عشر الهجري) إذ سمعنا في هذه الفترة سلسلة من الحوادث تقوم على دفع الظلم ومقاومة أهله والاعتزاز بالحرية. ورأينا فيه كيف يهم الحكام — أقوياء وضعفاء وعدول وظلمة — بالرأي العام وزعامته. وسمعنا بالحفني وابن النقيب والصعيدي، وعرفنا موقف العلماء في فتنة الوقف، بل أروع من هذا كله موقفهم في فتنة الأزهر (٥٦ ج ٢ من الجبرتي) يوم رفضوا شيخ الأزهر الحنفي حين عينه شيخ البلد ولم يعبأوا بعنطقه يوم أصر قائلا لهم: أليس الحنفية مسلمين كالشافعية؟ أليس مذهب النعمان أقدم المذاهب؟ أليس القاضي حنفياً والوزير حنفياً والسلطان حنفياً ... ؟ وانتهى إصرارهم بالانتصار الحاسم على أكبر رأس في البلد.

ورأينا في هذه الفترة العالم الذي يغضب على الحاكم فيقول له في وجهه: لعنك الله ولعن اليسرجي الذي جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً (١٩ ج ٢) ورأينا العالم الذي يقول للعامة وهي تستنصره لدفع الظلم الذي يوقعه الحكام بهم: « في غد نجمع أهالي الحارات والأطراف وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم وننهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم » فما جاء مساء ذلك اليوم حتى ذل له الحكام واستكانوا لمناده (١١٠ ج ٢ من الجبرتي)

تكرر هذه الحوادث وظهور المقاومة فيها جميعاً هو الشاهد العدل على تحرك الشعب لحقوقه في هذه الفترة ... أما مجرد الشكوى من الظلم في فترات متقطعة، والصبر عليه، والعجز عن التمرد والسكوت عن كفاح المستبد حين يصر على استبداده فهو الدليل على أن الشعب لا يحرص على حقوقه ولا يتحرك للمحافظة على حرياته ...

هذا هو الرأي الذي خطر لي عند قراءة هذا الكتاب القيم الذي كسبته القومية المصرية وربحه الناطقون بالضاد ...

توفيق الطويل

يا ليل الصب ومعارضاتها

أعاد السيد محي الدين رضا طبع قصيدة « يا ليل الصب متى غده » لأبي الحسن الحصري وهي تقع في ٩٩ بيتاً ومعارضاتها قديماً وحديثاً وهي ٣٠ معارضة لأشهر الشعراء أمثال: شوقي وصبري وولي الدين يكن والأمير نسيب والزهاوي والرافعي والزركلي ونظيم والمعلوف والخوري. وهي تقع في ٥٤ صفحة من القطع الصغير طبعت على ورق جيد وثمن النسخة عشرة مليمات وتطلب من مكتبة خضير بالعتبة الخضراء بمصر وأجرة البريد خمسة مليمات

رحلتي إلى الحجاز

للأستاذ محي الدين رضا

هو مجموعة مقالات نشرها المؤلف في مختلف الصحف المصرية عن رحلته إلى الحجاز، وقد حوت وصفاً صحفياً طريفاً لكثير من نواحي الحياة في هذا البلد الأمين وصوراً قلمية لكثير من شخصياته. والكتاب دعاية حسنة للحج وتشجيع على تأدية هذه الفريضة من فروض الدين.

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي بعمارة عجم رقم ٧)

5 me Année, No 218.

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 6 - 9 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢١٨ « القاهرة في يوم الاثنين أول رجب سنة ١٣٥٦ — ٦ سبتمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

فن الحـــكم

للأستاذ أحمد أمين

يعاني الشرق الآن محنة من أشد أنواع المحن ، سببها أنه بدأ يحمل عبء نفسه ، وقد كان يحمله عنه المحتل

كان المحتل يصرّف أمور الأمة كما يرى ، فيحرّم ما يشاء ويحلّ ما يشاء ؛ ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ؛ فاذا استعان ببعض أفراد الأمة فبأيديهم لا بعقولهم ؛ وقد يستعين بعقولهم أيضاً ولكن على شرط أن تكون في خدمة عقله ، وفي الاتجاه الذي رسمه قلمه ، فمن حدثته نفسه أن يفكر تفكيراً حراً طليقاً فالويل له . أمسك بيده المال وهو عصب الأمة ، ينفق منه كما يشاء في الوجوه التي تخدم سلطانه ، ويبخل كما يشاء فيما يعارض مناهجه ؛ فهو شحيح كل الشح على التعليم العالي ، وعلى الجيش وما إليه ؛ وهو سخي فيما يصلح الأرض ويدر الثروة . وعلى كل حال لم يقف من الأمة موقف المعلم النزيه يؤهل تلميذه ليكون رجلا يوماً ما ، ويمرنه على أن يستقل بنفسه شيئاً فشيئاً ، إنما وقف منه موقف السيد من عبده يسخره وله الغلة ، ويطعمه ما يسد رمقه ليقوى على العمل له

ثم كان أن جاهد الشرق جهاداً شاقاً طويلاً جعل حكم الأجنبي له شاقاً عسيراً ، وساعدت الأحداث الخارجية وما فيها من قلق واضطراب على أن يغير المحتل سياسته ، ويحمّل الأمة أكبر عبئها ، ويطلق لها اليد في التصرف في أكثر شؤونها . فأصبحت الأيدي التي كانت تعمل بعقول غيرها غير كافية ، واشتدت الحاجة إلى العقول المفكرة ، وأساليب الحكم العادلة الحازمة ، فإذا بالشرق أمام مدرس يلقى لأول مرة أول درسه ، أو قاض يجلس على منصة القضاء أول عهده ، حتى الذين تولوا الحكم في عهد الاحتلال والحكم بعد الاحتلال يشعرون بالفرق بين الحكمين ، واختلاف الصعوبة في العهدين ، فقد كانوا في عهد الاحتلال أيدياً مسخرة ، وهم في عهد الاستقلال عقول مدبرة

* * *

أول درس يجب أن يتعلمه الشرق تضحية الحاكم ؛ وأعني بذلك أن يضحي بشهواته في سبيل تحقيق العدل الدقيق ، فلا تستهويه شهوة المال ، ولا شهوة الجاه ، ولا شهوة المنصب فتصرفه عن إحقاق الحق وإبطال الباطل . وطبيعي أن الشعب لا يرضيه من الحاكم في عهد الاستقلال ما كان يرضيه منه في عهد الاحتلال ؛ فقد كان في عهد الاحتلال يصبر على الظلم كارهاً بحكم القوة ، فلما رأى أن حكومته منه ، وأنها تستمد قوتها من قوته ، لم يرض عن ظلم ، بل هو يشتط في طلبه فلا يرضى عن عدل مشوب بظلم ، إنما يريد عدلاً خالصاً ، ويتطلب منها المثل الأعلى في العدالة وإلا لا يمنحها رضاه

ثم هو لا يرضى بتحقيق العدل السلبي وحده ، مثل عدم الترقية لصلة أو قرابة ، وعدم الظلم في توزيع مياه الري ونحو ذلك ، إنما يطالب بتحقيق العدل الايجابي أيضاً ، مثل إصلاح نظم التعليم ونظم المال ونظم الصحة ونظم الشئون الاجتماعية ؛ فإذا قصر الحاكم في ذلك مل المحكوم وسئم وشكا من أن العهد الجديد لم يفترق عن العهد القديم إذ لم تتحقق آماله ولم يظفر بما كان يرجو من سعادة .

* * *

على أن من الانصاف أن نقول إن تبعة صلاحية الحكم وعدمه لا تعود إلى الحاكم وحده ، بل إن جزءاً كبيراً يحمله الشعب المحكوم نفسه ، فالحكم فعل وانفعال مستمران بين الحاكم والمحكوم ، والنتيجة التي نراها من تقدم الأمة أو تأخرها هي نتيجتهما معاً لا نتيجة الحاكم وحده .

والأثر الذي يقول « كما تكونون يولى عليكم » ليس قانوناً للقدر بل هو قانون طبيعي ، فحالة المحكوم تشكل الحاكم — لا محالة — بالشكل الذي يتفق وحالته ، وقد علمنا التاريخ أن عسف الحاكم لا يتم ولا ينجح إلا إذا سبقه استنامة المحكوم وضعف إحساسه ؛ وصلاحية الحاكم مسبوقة دائماً بتنبه المحكوم وحسن تقديره للعدالة والظلم .

بل إن أساليب الحكم ونظريات الحكومات لم تتقدم على مر الزمان تقدم الشعوب في تقدير العدل والظلم ، فنظم الحكم التي وضعها اليونان والرومان وعلى رأسهم أفلاطون في جمهوريته وأرسطو في كتابه السياسة لم تتقدم كثيراً في عهدنا الحاضر ، ولكن شعوب اليوم في فهم الحكم ومدى سلطة الحاكم وإبائهم أن يتجاوز حده أرقى بكثير في ذلك من شعوب الأمس الدابر . لقد كان الحاكم يستطيع أن يحكم في سهولة ويسر وإلى عهد طويل شعبه على رغم أنفه بسلطانه وجبروته ، ثم هو يتحمل اعباء الحكم على كتفه وحده ؛ أما اليوم فلا يستطيع حاكم مهما أوتي من العقل والقوة أن يحكم إلا برضا شعبه وبمعونته ومشاركته إياه في حمل العبء ؛ وإن وجدت حالات تخالف ذلك فحالات شاذة لا يسمح النظام الاجتماعي ببقائها طويلاً .

بل تبين فساد رأي أفلاطون وأرسطو وأمثالهما في أن هناك طبقة خاصة يجب أن تحكم ، وأنها وحدها الصالحة للحكم ، وأن من عداها غير صالح إلا لأن يُحكم ؛ وتبين أن الحاكم الحق للشعب هو الشعب نفسه ، وإنما يركز آراءه في الحكم في أشخاص لأن الناس اعتادوا تجسيد المعاني والرمز إليها بمحسوسات تقريباً لعقولهم وتبسيطاً لأفكارهم ، ولا ينجح حاكم ولا مصلح إلا إذا مثل رأي الناس أو على الأقل رأي طائفة صالحة منهم ، فلو أتى مصلح بما لا يتهيأ له فريق من الناس لعد مجنوناً ، بل إن الشعب أو الطائفة منه هي التي تخلق حاكمها وتخلق مصلحها إذ هو ليس إلا مبلوراً لأفكارهم ومركزاً لآرائهم . وليس الحاكم أو المصلح

جذر الشجرة ولكن زهرتها ، إنما الجذر والساق والأوراق هى الشعب نفسه .

* * * *

يميل الشرق إلى أن يُحكم حكما ديمقراطياً ، وله الحق في ذلك ، لأنه جرب أنواعاً من الحكم الاستبدادى على أنواعه المختلفة فكانت مميتة لمشاعره ، عائقة لتقدمه ، وكان الحكام المستبدون ينعمون بكل صنوف الترف والنعيم على حساب بؤس الشعب وفقره .

ويميل إلى الديمقراطية لأنها على ما بها من عيوب لا تزال أرقى أنواع الحكم وأبقاه ، وحكم الاستبداد إن رضيته بعض الأمم حيناً ، أو فرض عليها فرضاً حينا ، أو ارتكن على بعض الظروف حينا ، فليس هو الحكم الصالح للبقاء أبداً

لقد انهار الاستبداد في مظاهره المختلفة وحلت محله الديمقراطية بأشكالها المختلفة . انهار استبداد رجال الدين بعد أن سيطروا على الشعوب أزماناً طويلة لقى فيها الناس من عنتهم ما كره إليهم الحياة

وانهار استبداد الأب بأسرته فلم يعد ذلك الأب الذى لا إرادة فى البيت بجانب إرادته ، ولا الأب الذى كلمته حكم ، وطاعته غنم ، وحل محله أب هين لين يأمر حيناً فيطاع ، ويؤمر حينا فيطيع

وتغيرت الغايات للسلطات فأصبحت الغاية من الحكومة لا أن تظهر بمظهر الآمر الناهى ، ولكن أن تحقق العدالة والحرية للناس حتى للضعفاء ؛ وأصبحت الغاية من الأب لا أن ينعم بسلطانه ، وإنما الغرض منه ومن الأسرة كلها إيجاد جو صالح لنمو الطفل وتربيته ورقيه . وليس الغرض من المعلم أن ينفذ إرادته بالعصا ، وإنما الغرض منه ومن الناظر والمدرسة كلها أن يمسكوا بدل العصا مصباحاً يضىء للتلاميذ حقائق الحياة وسبل الحياة

ولكن هذا الحكم الديمقراطي ليس يصلح إلا بتنظيم دقيق ، بل هو إلى النظام أحوج من الحكم الاستبدادى ، لأن الحكم الاستبدادى يحمل عبئه فرد واحد وأعوانه أياديه ، وهو الرأس المدبر ، فطبيعي أن يكون ظلمه وعدله منظما ، أما الحكم الديمقراطى فيحمل عبئه عدد كبير ، فإذا لم يؤد كل واجبه اختل البناء ، ومثله مثل الآلة ذات الأجزاء المختلفة أو كالساعة ذات القطع المتعددة المتباينة ، ولا ينتظم سير الآلة ولا سير الساعة حتى يقوم كل جزء بعمله

وسبب آخر لحاجة الحكم الديمقراطى للنظام دون الحكم الاستبدادى ، وهو أن الحكم الاستبدادى يرمى إلى تحقيق مصلحة فرد واحد أو طائفة محصورة ، وذلك سهل يسير

أما الحكم الديمقراطى فيرمى إلى مصلحة الشعب جميعه وخاصة الضعفاء ، كالفقراء والمرضى والفلاحين والعمال ، وهؤلاء عددهم فى كل أمة كبير ، ولا يمكن تحقيق الخير لهم إلا بجهد كبير ونظام دقيق

فإذا لم يتحقق هذا النظام فشل الحكم الديمقراطى ، وظن قصار النظر أن العيب يرجع إلى طبيعة الحكم ، وهو فى الواقع لم يرجع إلا إلى سوء تطبيقه واستعماله . ثم إذا اختل كان نذيراً بعودة الاستبداد ، وارتكن المستبدون وذوو السلطان إلى ما يبدو تحت أعين الأمة من سوء الحكم الديمقراطى وفساده ، واتخذوا ذلك ذريعة إلى استرجاع سلطانهم واستعادة استبدادهم ، وأعادوا الأمة إلى سيرتها الأولى يسخرونها لمنفعتهم ويستغلونها لصالحهم

فأكسير الحياة للشرق الآن تحرى العدالة فى الحاكم ، وتضحية شهواته ، وتنظيم حكمه وحمل كل عبئه ، وتنفيذ واجبه فى دقة ، وإلا كان تحت خطر الفوضى التى تقدم للأسد الرابض حجته وصياحه من جديد بأن الشرق أعطى حريته فلم يحسن استعمالها

احمد أمين

مصير الحضارة

للأستاذ عباس محمود العقاد

يجتمع اليوم في مصانع العالم ومخازنه من أسلحة الحرب وأدوات الهلاك ووسائل التدمير ما لم يجتمع مثله قط في تاريخ الانسان .

فهل يعقل العقل أن تلبث هذه الآلات مشلولة معطلة ينتهي أمرها بانتهاء صنعها ويقف الخطر منها عند حد التخويف والانذار ؟

وإذا هي استخدمت فيما صنعت له وانطلقت من عقالها وفعلت كل ما يخشى من فعلها الموبق الوخيم ، فماذا يبقى من الحضارة ؟ وماذا يبقى من تاريخ الآدمية بعد أن عبر هذا الشوط الطويل في آفاق الزمان ؟ ألا تكون النهاية ؟ ألا نرجع كرة أخرى إلى حالة بين الهمجية والحيوانية ينقطع السلم بعدها فلا نهتدى منه إلى طريق صاعد ، ولا نعود — إذا ملكنا رأينا — إلى تجربة قد رأينا في خواتمها ما يصد النفوس عن البدء فيها ؟

أكبر ما يرجوه الآملون في مستقبل الانسان أن تنقبض هذه الشرور الجهنمية في محابسها كما تنقبض الشياطين في القماقم ، فتخيف الناس خوفاً يعصمهم من آفاتها ويذودهم عن اللعب بنيرانها

فإن لم يصدق هذا الرجاء فأكبر الرجاء بعده أن تصمد البنية الآدمية للخطر المحيط بها وأن تفلت منه بقية صالحة تحفظ عناصر الحضارة والأخلاق كما تصان الذخيرة المنتقاة من أنقاض الحريق

وأصحاب الرجاء في هذه العاقبة السليمة يعلقون رجاءهم على اختلاف الحال بين العصور التي سبقت زوال الحضارة فيما سلف وبين العصور التي نحن فيها والعواقب التي نحن منساقون اليها

ففي الأزمنة الغابرة كانت غارات الهمج على الأمم المترفة هي المعول الأكبر الذي يضرب في أركان الحضارة ويقتلع العمران من أساسه ، وكانت غارات الهمج مصحوبة بحال من العقم في القرائح والأفكار تصيب الفنون والعلوم بالفاقة والكساد والنضوب ، فكانت تنقضي السنون وراء السنين ولا جديد في عالم التأليف ولا في عالم الاختراع ولا في عالم الفنون والآداب ، وتلك في الواقع هي علامة الدثور والاضمحلال التي لا تزيدها الغارات الهمجية إلا التسجيل والاعلان . ولا شك في أن الحضارات الأولى قد أخذت تموت وتتهاوى قبل أن يجهز عليها المغيرون من أبناء القبائل العارمة ، ولا أدل على موتها من ضمور ملكة الخلق والابتكار فيها .

أما اليوم فالأمر بيننا مختلف والاختراع بيننا أروج وأكثر مما كان في أيام ازدهار الحضارات البائدة ، وما تطلع الشمس صباحاً واحداً في أنحاء العالم المتمدن على غير كتاب جديد أو ثمرة فنية جديدة أو اختراع طريف أو تنويع وتحسين في اختراع قديم . فالبنية الآدمية بما اشتملت عليه من قدرة على التفكير أو قدرة على الشعور أو قدرة على الابتكار بنية سليمة مهيأة لطول الحياة ومغالبة الأحداث وتعويض المفقود .

هذا مع اختلاف آخر لا يقل في أثره ولا دلالته عن ذلك الاختلاف ، وهو أن الغالبين والمغلوبين في أيامنا سوف يكونون من أبناء الحضارة الحديثة الشاركين في علومها وصناعاتها وأدواتها وآلاتها ، فمن كتب له النصر من المحاربين في المعمعة القادمة سوف يضطلع بأمانة الحضارة وحده إذا قدرنا أن المهزومين يعجزون كل العجز عن متابعة الطريق واستئناف العمل النافع ؛ وسوف يستبقى من علومنا وأفكارنا ما يصلح أن يكون ذخيرة يأكل من زادها أبناء الأجيال المقبلة ، ثم يفتنون فيها ويزيدون عليها .

هذا وذاك مع اختلاف ثالث لا يقل عن ذينك الاختلافين في تغليب دواعي الأمل على دواعي القنوط ، وذاك أن معارف الحضارة الحديثة لا تشبه معارف الحضارات الأولى في جواز الفناء عليها . فقد كانت معارف المصريين واليونان والرومان الأقدمين أشبه شيء في جملتها بحرفة الصانع القديم الذي يصون سره ويحمله معه إلى قبره ، أو كانت بمثابة الخبرة الشخصية التي لا تقبل التعميم ولا اتصال النسق بين حاضرها وماضيها ، لأنها مسائل اجتهادية يكاد يبدأها كل عامل من البداية ولا يدعمها إلى أساس يبنى عليه من يخلفه من أبناء الصناعة .

أما حضارة العصر الحديث فهي حضارة قائمة على أساس العلم

الشائع المقرر الذى جعل لكل اختراع قاعدة ولكل صناعة أصلا ولكل مرحلة من مراحل التعليم مسافة وحدًّا ؛ فلو فنيت ثلاثة أرباع المصنوعات الحديثة من الدنيا لكان الربع الباقى مشتملا على جميع قواعدها وأصولها ومراحل التعليم والابتكار فيها ؛ ومن البعيد عن التصور أن تمتد الحرب إلى عناصر العلم المتفرقة فتجمعها كلها إلى بقعة واحدة وترسل عليها صيباً من القذائف الناسفة فتمحوها محواً ولا تذر منها بقية للتجديد والترميم .

ذلك بعيد عن التصور ، ولا خوف من اتجاه النية اليه أو اشتمال الطاقة على تنفيذه لو جاز أن يداخل النيات على أبعد الفروض .

* * *

نعم إن هناك خطراً أخطر على الحضارة من تدمير عناصر العلم بالقذائف الناسفة والآلات الجهنمية التى هى نفسها مادة من مواد العلم وجزء من أجزاء الصناعة .

هناك خطر على الحضارة أخطر من القذائف والآلات الجهنمية وهو إفساد الطبائع ومسخ العقول وتلويث الأخلاق وتعويد الناس أن يسخروا بكل نبيل جليل وأن يقنعوا من الدنيا بعيشة البهم ولذائذ الحيوان .

فلو شاعت هذه الآفة — بل هذا الوباء — بعد الحرب المقبلة لكان بقاء العلوم والصناعات وزوالها على حد سواء ، ولكانت الحضارة شيئاً لا يستحق الحرص عليه ولا الأسى لفقده ولا التفكير فى استبقائه ، ولبلغت الحرب بالناس أقصى ما يخاف من وبالها المحذور .

ومن خاف هذه العاقبة فله عذره الواضح مما نراه من تهالك على المتاع الزائل وتهافت على الشهوات الخسيسة وتهاتف على المثل العليا والأخلاق الفاضلة والمطالب التى تتجاوز ساعتها أو يومها أو عمر طالبها على أبعد احتمال .

الاشتراكيون لا يؤمنون بغير الخبز ، والفاشيون لا يؤمنون بغير الخنجر ، والذين يأنفون من مذهب أولئك ومن مذهب هؤلاء حيارى لا يهتدون إلى قرار ؛ ومتى أصبحت الغاية المنشودة ما كان فيه آباؤنا وأجدادنا منذ ألوف السنين فنحن راجعون إلى وراء ، مقبلون على هبوط يشبه الفناء .

إلا أن الأفق لا يخلو فى هذه الظلمة أيضاً من بارقة بعيدة يوشك أن يستفيض منها ضياء شامل .

فكما شاعت اللذات كذلك شاعت السآمة من اللذات ، وشاعت النزعة إلى التبديل ، وتسرب القلق إلى الضمائر ، فليست هى فى حالة استقرار ، ولكنها فى حالة تحفز وانتظار .

ويخيل إلينا أن الدنيا تتجه إلى تفكير جديد فى القرن العشرين يشبه التفكير الجديد عند الانتقال من طور العقائد التقليدية إلى طور العقائد بالبحث والاجتهاد ، أو يشبه التفكير الجديد عند الانتقال من هذا إلى الايمان بالعقل وحده ، ثم الغلو فى التعويل عليه كما غلا العقليون المعروفون « بالراشنلاست » فى أوائل القرن الغابر ، أو يشبه التفكير الجديد عند الانتقال من « الراشنلازم » إلى المذهب الروحى أو مذهب البصيرة والالهام الذي شاع منذ خمسين سنة فى الأمم الغربية كافة

أما هذا التفكير الجديد الذى ننتقل إليه الآن فهو التقاء العالم المشهود وعالم الأسرار عند « الفلسفة الرياضية » التى انتهى إليها البحث فى النور والاشعاع

نقديماً كان العلم الطبيعي فى ناحية والعلم الرياضى فى ناحية أخرى

كان العلم الطبيعى فى تجارب المحسوسات ، وكان العلم الرياضى فى الحقائق الذهنية التى لا تحتاج إلى العالم المحسوس

فاليوم وصل العلم الطبيعي بكل شيء إلى الاضاءة والاشعاع ، ووصل بالاشعاع إلى النسب العددية والتقديرات الرياضية ، وجاز في عرف العقل المثقف السليم أن تقاس الحقيقة من « باطن » العقل وداخل السريرة ، على مثال يقارب هداية الملهمين ومكاشفة القديسين فى الزمن القديم .

تلك البارقة من التقاء عالم المادة وعالم الأسرار بشيرة بالخير وشيكة أن تعصم النفوس من تيه الظلمات ، وأن تسلم زمام الحضارة الانسانية إلى غاية أبعد من الغاية التي يدين بها عباد الخبز وعباد الخنجر ، حيثما اهتدى بها العلم والفلسفة والعقيدة فى أعقاب الضياء .

المحاكمات التاريخية الكبرى

٣ـ الحركة النهلستية
ومصرع القيصر اسكندر الثانى

صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تلك هي الوثيقة التاريخية المؤثرة التي وجهتها اللجنة التنفيذية إلى القيصر الجديد ؛ ولكنها لم تحدث أثراً . ولم تكن الدوائر القيصرية تفكر في النزول عند نذر الرهبين ولما يجف دم الجريمة الرائعة التي كانت في الواقع ذروة الارهاب السياسى ؛ ومن ثم فقد ردت القيصرية بمضاعفة إجراءات القمع والإمعان في مطاردة الرهبين والثوريين ، وقبض خلال شهر مارس في بطرسبرج على عشرات منهم ، ولكن لم يقدم في النهاية إلى المحاكمة القضائية سوى ستة هم أندري جليابوف وصوفيا بيروفسكايا ونيكولا كبالتشش وجسيا هلفمان وتيموتي ميخايلوف ونيكولا ريساكوف وبدأت المحاكمة في ٢٦ مارس سنة ١٨٨١ أمام محكمة عليا ألفت من ستة من الشيوخ وعضوين يمثلان النبلاء هما الكونت بورنسكي والبارون كورف ، وممثل للتجار ، وممثل للفلاحين ، وعمدة موسكو ، وممثل لبطرسبرج ؛ وتولى الرياسة الشيخ فوكس ، وتولى إجراءات الاتهام النائب مورافييف الذى غدا فيما بعد وزيراً للعدل .

وكان أهم المتهمين في تلك القضية الشهيرة هما بلاريب جليابوف وصوفيا بيروفسكايا عضوا اللجنة التنفيذية لحزب إرادة الشعب وهما في الواقع مدبرا الجريمة ورأسا الحركة الإرهابية يومئذ ؛ وكان جليابوف من أقطاب حزب إرادة الشعب وأعظمهم نفوذاً وكان يومئذ فتى في الثلاثين من عمره ؛ وكان مولده في أسرة من الأرقاء ، ولكن الرقيق حرر وهو طفل فتفتحت أمامه آفاق جديدة ، وتلقى تربية حسنة ، وتخرج في مدرسة الحقوق في أودسا وشغف منذ حداثته بالأدب الثورى والنظريات الاشتراكية والتحررية ، ولم يلبث أن لفت أنظار السلطات ، واعتبر في سلك المحرضين الخطرين ونفى من أودسا . فذهب إلى كييف وهنالك اتصل بأسرة غنية كان يعطى لولدها درساً وتزوج من ابنتها « أولجا » وعاش حينا في هدوء وعزلة ، ولكنه لبث مع ذلك متصلا بالأوساط الثورية ، ولما اضطرمت الحركة الثورية في سنة ١٨٧٤ ونزل إلى ميدانها ألوف من الفتية والفتيات الذين ألهبت عقولهم وأرواحهم النظريات التحريرية الحديثة ، نظمت القيصرية من جانبها حملة القمع الذريع وقبض على ألوف من الدعاة والمحرضين وعقدت المحاكمات الرنانة تباعاً ؛ وكان منها المحاكمة الشهيرة التي عقدت في بطرسبرج سنة ١٨٧٧ وقدم فيها إلى المحكمة ١٩٣ متهما بينهم جليابوف وبيروفسكايا ، ولكن جليابوف برئ ؛ وما كان يغادر سجنه حتى اجتمع مع أقطاب زملائه وأسسوا حزب « إرادة الشعب » وقرر الحزب أن يلجأ إلى سلاح الارهاب السياسى . وفى أغسطس سنة ١٨٧٩ قررت اللجنة التنفيذية إعدام القيصر اسكندر الثانى حسبما قدمنا ؛ ودبرت لذلك عدة محاولات متوالية ولكنها أخفقت . وكان جليابوف رأس اللجنة المدبر وكان يوجه الحزب بنفوذه القوى إلى ميدان النضال العنيف وكان شجاعاً لسناً قوى العزم والارادة لايحجم عن شيء . وكان وقت المحاكمة كما قدمنا فتى في الثلاثين من عمره ، مديد القامة ، قوى البنية . وسيم الطلعة ، حلو الحديث ، يميل إلى الدعابة ويتدفق حين الجدل فصاحة وبياناً .

وكانت صوفيا بيروفسكايا تنتمى إلى أسرة عريقة شغل كثير من أعضائها مراكز كبيرة في الدولة ؛ وكان والدها حاكما لمقاطعة سنت بيترسبرج ، ولكنها آثرت منذ حداثتها حياة الحرية والمغامرة ، فغادرت منزل الأسرة إلى العاصمة وتلقت تربيتها في إحدى مدارس المعلمات ، ثم عينت بعد ذلك معلمة في إحدى مدارس الأقاليم ؛ ولكنها لم تجنح إلى السكينة والعزلة بل اتصلت بالحركة الثورية ، وقبض عليها لأول مرة بتهمة التحريض وهى دون العشرين . ولما أفرج عنها اشتغلت مدى حين ممرضة في أحد المستشفيات ثم قبض عليها مرة أخرى في قضية بطرسبرج الكبرى مع جليابوف وزملائه فبرئت ؛ ولكنها نفيت إلى إحدى المقاطعات الشمالية . بيد أنها تمكنت من الفرار وعادت إلى العاصمة حيث التحقت عضواً بحزب « إرادة الشعب » . وكانت حينا

قبض عليها في مارس سنة ١٨٨١ في السابعة والعشرين من عمرها ولكنها كانت تبدو بنظراتها الساحرة وعينيها الخضراوين ومحياها الوسيم أصغر بكثير من عمرها . وكانت صوفيا تحب جليابوف حباً جماً وتترسم خطاه ومغامراته بعزم مدهش ؛ وكان هذا حبها الأول والأخير . وكان جليابوف يبادلها هذا الحب المضطرم وكانا يعيشان معاً في أفق ساحر من الجوى والمثل الثورية .

أما عن باقي المتهمين فكان كبالتشش مهندساً في نحو الثلاثين من عمره ؛ وكان ميخايلوف عاملا فتى من عمال المعادن ؛ وكانت جسيا هلفمن فتاة من أسرة متوسطة تخرجت في مدرسة القابلات ولم تكن حسناء ولكنها كانت مخلصة مطبوعة ، وكان تعمل في مطبعة اللجنة السرية وتدير المنزل الذي يجتمع فيه الأعضاء .

بقي ريساكوف ، وقد كان فتى حدثاً في التاسعة عشرة ينتمي إلى أصل متواضع ؛ وكان وقت القبض عليه طالباً بمدرسة المناجم يعني ببث المبادئ الثورية بين العمال ؛ وكان أهم متهم في القضية بعد جليابوف وصوفيا بل كان مفتاح القضية في الواقع ذلك أنه قبض عليه متلبساً بجريمته على أثر إلقائه القنبلة الأولى على موكب القيصر ، وقد رأى فيه النائب المحقق درجنسكي منذ الساعة الأولى فريسة سهلة ، فمال عليه بالاغراء والألفاظ المعسولة واستطاع أن يحمله على الاعتراف بكثير من الوقائع والمعلومات الهامة المتعلقة بالجريمة وحزب إرادة الشعب ، وكان ريساكوف فتى هائم الذهن ، مضطرب الأعصاب ، فكان تارة يدون اعترافاته للمحقق وتارة يحاول تأييد مسلكه ؛ وقد نشرت أقواله فيما بعد في كتيب صغير ضمن ما نشر من وثائق هذا العهد ، وهي أقوال روح فتى هائم يتخبط بين الرغبة في التمسك بمبادئه ومثله ، وبين الروع الذي يثيره فيه شبح الموت ، ويقص ريساكوف في مذكراته كيف كانت مشاعره الحساسة التي شحذتها طفولة بائسة تتأثر أيما تأثر بما يراه بين الفلاحين والعمال من مناظر البؤس المطبق ، وكيف ترك لقاءه الأول لجليابوف في نفسه أعظم أثر ، وكيف أذكي جليابوف في نفسه عاطفة الكفاح ، فانضم إلى جماعة الرهبيين ، وارتكب جريمته على أنها عمل مجيد .

— ٤ —

ودام التحقيق زهاء ثلاثة أسابيع ، وفي يوم ٢٦ مارس سنة ١٨٨١ بدأت المحاكمة الشهيرة أمام المحكمة العليا التي ألفت كما قدمنا من ستة من الشيوخ وعضوين من النبلاء وعضو عن التجار وعضو عن الفلاحين اختارتهم المحكمة وعمدة موسكو ؛ وتولى رآستها الشيخ (السناتور) فوكس وتولى مهمة الاتهام النائب مورافييف ؛ واعترف جميع المتهمين بانتمائهم إلى حزب إرادة الشعب واشتراكهم في تدبير المؤامرة وتنفيذها ، ما عدا جسيا فانها أنكرت قيامها بأي عمل إيجابي ، وميخايلوف فانه اعترف بانتمائه إلى فرقة الرهبيين ولكنه أنكر اشتراكه في تنفيذ الجريمة .

وكان اعتراف جليابوف بالأخص رناناً مؤثراً ؛ فذكر أنه عضو في اللجنة التنفيذية وأنه انضم إلى الحزب نزولا على إيمانه وعقيدته ، وأنه وهب حياته منذ أعوام لخدمة قضية الحرية ، ثم قص في بلاغة وقوة على المحكمة تاريخ أعمال اللجنة التنفيذية وما دبرته من مختلف المشاريع لازهاق القيصر ، واعترف بأنه هو الذي دبر مؤامرة أول مارس ، وأنه هو الذي اختار المنفذين لها من بين المتطوعين الفدائيين ، ولكنه حاول جهده أن يبرىء ميخايلوف من تهمة الاشتراك .

وسمعت المحكمة عدة شهود من الشرطة وحجاب المنازل التي كان يتردد عليها المتهمون وعدداً كبيراً من الضباط والمخبرين الذين شهدوا مصرع القيصر ، وبعض زملاء ريساكوف وأساتذته ، فنوهوا جميعاً بذكائه ورقة خلاله . وسمعت تقارير الخبراء عن خواص القنابل والمفرقعات التي استعملت في الجريمة ووقفت المحكمة بذلك على كثير من تفاصيل الحادث وسير الحركة الثورية .

وألقى النائب مورافييف ممثل الاتهام مرافعة قوية عنيفة ، فقدم المتهمين في صورة مجرمين من أروع طراز ؛ وأبالسة من البشر ظمئين إلى الدم ، وحمل على الحركة الثورية وعلى مثلها ودعاتها بشدة ، وقال إن هؤلاء القتلة لا محل لهم بين مخلوقات الله وإنهم من عناصر الهدم والفوضى يعبدون طريقهم بالقتل ، وإن الوطن الروسي الذي خضبوه بدم القيصر الثمين قد عانى كثيراً من أعمالهم ، فعلى روسيا أن تصدر حكمها عليهم في شخص هذه المحكمة وليكن مصرع أعظم الملوك خاتمة حياتهم الاجرامية .

ثم جاء دور الدفاع ؛ وكان الدفاع مهمة شاقة أمام هذا القضاء المتين وهذه المحكمة التي عقدت لأداء مهمة معينة . وكان شاقاً بالأخص أمام اعتراف المتهمين الشامل ؛ ولم يكن للبواعث المعنوية والمثل العليا اعتبار في هذا الجو الخانق . ومع ذلك فقد قام الدفاع بمهمته التقليدية ، فتولى الأستاذ أونوفسكي الدفاع عن ريسا كوف وصور للمحكمة عقلية المتهم الفتية الساذجة ورجا المحكمة أن تراعي في تقديرها لجرمه حداثة سنه واضطراب أعصابه . ودافع الأستاذ خارتولاري عن ميخايلوف ففند أدلة اتهامه ، وبين أنها فيما عدا أقوال ريسا كوف لا تنهض دليلا على اشتراكه . وأن ريسا كوف لم يكن متزناً ولا متفقاً في أقواله . ودافع الأستاذ جركي عن جسيا هلفمان وبين أنها لم تقم قط بأي دور إيجابي في هذه المحاولات الاجرامية ، وأن كل ماقامت به هو أنها كانت تؤجر المكان الذي اعتاد المتهمون أن يعقدوا فيه اجتماعاتهم . ودافع الأستاذ جيراردي عن كبالتشش وشرح للمحكمة العوامل والظروف القاسية التي دفعته إلى سبيل الاجرام .

وتولى الأستاذ كدرين الدفاع عن صوفيا بيروفسكايا ؛ وكانت مهمة فادحة لا تبعث إلى شيء من الأمل ، فقد لبثت صوفيا حتى آخر لحظة متمسكة باعترافاتها ، واضطر الأستاذ كدرين أن يلجأ في دفاعه إلى ضروب من البلاغة المؤثرة ؛ فصور صوفيا فتاة وديعة هادئة تجيش بأعظم حب لوطنها ، وتعتقد بإيمان راسخ أن المثل الثورية هي سبيله الوحيد إلى الخلاص والمجد ؛ واستعرض نشأتها النبيلة ، وحياتها المضطربة ، ومثلها العليا ؛ وبين أنها لم تنزلق إلى الجريمة إلا مدفوعة بحبها للوطن .

أما جليابوف فقد آثر أن يتولى بنفسه الدفاع عن نفسه . وكان دفاعا رنانا تردد صداه خارج روسيا ، ووصفه مكاتب « التيمس » في بطرسبرج بأنه أعظم ظاهرة في القضية . وكان جليابوف يتدفق منطقاً وبياناً ؛ وكانت أقواله محاضرة فلسفية وسياسية مؤثرة ، واستهل جليابوف دفاعه بقوله : إن المبادئ بالنسبة لأولي المبادئ أثمن لديهم من الحياة ، وفند مطاعن النائب العام في مبادئ حزب إرادة الشعب ، وبسط مثل الحركة الثورية وغاياتها ، ثم عطف على الوسائل العنيفة التي تلجأ إليها الحركة الثورية ، فذكر أنها ليست إلا مهمة من المهام العديدة التي يتطلبها تطور روسيا ، وأنه يجب لكي تفهم غايات الحزب ووسائله أن يدرس ماضي هذا الحزب ، وهو ماض قصير ولكنه حافل بالتجارب . وسترى المحكمة متى استعرضت كتاب حياته المفتوح أن أصدقاء الشعب الروسي لن يعمدوا دائماً إلى إلقاء القنابل ، وإننا قد عرفنا خلال نشاطنا أحلام الشباب الوردية . وإنه ليس خطأنا أن يكون هذا العهد قد انقضى .

« وإن حياتنا القصيرة التي قضيناها بين الشعب قد كشفت لنا عن حقيقة آرائه وآماله ، وعرفنا من جهة أخرى أن هنالك في ضمير الشعب كثيراً من العناصر التي يجب تأييدها . وقد عولنا على أن نعمل باسم المصالح التي أخذ الشعب يشعر بها ؛ وليس باسم النظريات الخالصة . وقد رأينا سبيلنا العملية إلى ذلك أن ندبر مؤامرة لاحداث انقلاب حكومي ؛ ونظمنا لذلك القوى الثورية أتم تنظيم . وقد كانت مهمتي الشخصية ومقصد حياتي أن أخدم الصالح العام . وعملت لذلك طويلا بالوسائل السلمية ولكني أيقنت في النهاية أن الالتجاء إلى العنف أمر محتوم » .

« للبحث بقية — النقل ممنوع » **محمد عبد الله عنان**

خذ الحق واترك الباطل

اليابان والإســـلام

المساعى لتحقيق انشاء الدولة الآسيوية العظمى

مترجمة عن جريدة الوقت الهولندية

لقد عرفت اليابان بشدة تمسكها بلغتها ونزعتها القوية للبقاء على ما قد وجدوا عليه آباءهم خصوصاً فيما يتعلق بدينهم ومعتقداتهم؛ ولكن الذى يبعث على الدهشة والاستغراب هو موقفهم الآن تجاه الدين الاسلامي وانتشاره الرائع فى بلادهم . فني مدة قصيرة جداً صار لهذا الدين أتباع ومعتنقون كثيرون ؛ والأغرب من ذلك أن هؤلاء كان جلهم من أهل الوجاهة والسلطة . إن عددهم الآن فى الحقيقة لا يستحق أن يقارن بعدد معتنق الأديان الأخرى ، إذ أن البوذويين يبلغون ما يقرب من الأربعين مليوناً ، والشنتويين يناهز عددهم الستة عشر مليوناً ، ولكن إذا راعينا حداثة دخول هذا الدين بينهم وجدنا أن عددهم لا يستهان به . ولكى نعرف تماماً أهمية هذا الدين عندهم فلنتصفح أوجه الحوادث الأخيرة التى طرأت على تلك الحركة ، وبعد ذلك يكون سهلا علينا أن نستنتج هل كان دخولهم ورغبتهم فيه بدافع الميل الدينى الخالص أم كانت هناك أسباب أخرى ألجأتهم إلى ذلك

إلى منتصف سنة ١٩٣٤ لم يكن فى اليابان أية دعاية اسلامية تستحق الذكر ، ولم يكن هنالك أقل رجاء بأن سيكون لذلك الدين ما لنهضته الموجودة الآن . نعم قد سمع من بعض الأجانب تصريحات بوجوب إيجاد تلك الدعاية . فمثلا من قبل ١٨ أو ٢٠ سنة مضت تكونت بسعى بعض الترك والتتار والهنود والسوريين وكذلك بعض اليابانيين جمعية جعلت مهمتها نشر الدين الاسلامي فى جميع أنحاء آسيا الشرقية . ثم إنه يوجد فى الأماكن المجاورة للموانى مسلمون أجانب جاءوا إليها بقصد التجارة لسبب انتشار تجارة اليابان . وهؤلاء قد بدأوا بالدعوة سراً بين أفراد اليابانيين ، فانسلخ كثيرون منهم عن ديانتهم القديمة . وهكذا بقيت هذه الدعاية فى طى الخفاء إلى انتهاء سنة ١٩٣٤ . وفى ١١ اكتوبر سنة ١٩٣٤ افتتح أول مسجد فى كوبا ، وكان عدد الحاضرين يوم الافتتاح لا يتجاوز ثلاثين رجلاً منهم روسيون وهنود . ولم تتحقق إقامة هذا المسجد إلا بعد أن تقدمت طلبات حارة من جانب المسلمين إلى الحكومة ، لأنها فى بادئ أمرها رفضت رفضاً باتاً أن يبنى مسجد إسلامى على أرض يابانية بوذوية . وكان ذلك يوماً مشهوداً ألقى فيه رئيس جمعية نشر الديانة الاسلامية السيد ميان عبد العزيز خطبة حماسية . ومن هنا بدأت الدعوة جهراً وظهرت تلك الحركة فى أبهى مظاهرها .

أما السبب فى بناء المسجد فى كوبا دون العاصمة فذلك راجع إلى أن المسلمين هنالك كانوا أكثر عدداً ونشاطاً ومعظم هؤلاء من التتار التركمان الذين فارقوا الأراضي الروسية فى إبان مطاردة الروسيين

بنى هذا المسجد الفخم بأموال الأغنياء التاجرين وشيدت بجانبه مدرسة إسلامية . ثم ظهر من جانب الحكومة أسفها على طول تمنعها من الاذن لهم بذلك . فأرادت أن تبرر موقفها بالعمل مع المسلمين على تعميم هذا الدين فى أقرب وقت ممكن . ففى يوم افتتاح ذلك المسجد نشرت إحدى الجرائد اليومية الكبرى (أوسكامينخي) مقالة مسهبة عن انتشار الاسلام فى جميع أنحاء المعمورة ، وأهابت بالأمة اليابانية أن تضم نفسها إلى هذه الرابطة المتينة . ثم بين الكاتب أن هناك شبهاً فى العادات بين المسلمين واليابانيين ، من ذلك خلعهم لنعالهم عند دخول الأماكن المقدسة ، وغسل القدمين ، ثم غسل اليدين قبل كل أكلة . وقد تحاشى الكاتب مقارنة المسائل الجوهرية فى هذين الدينين كالتوحيد وتعدد الزوجات وما أشبه ذلك

ثم تأسست فى أول سنة ١٩٣٥ جمعية إسلامية أخرى فى عاصمة اليابان . وقد أسست بفضل الترتارى السيد عبد الحى . نالت هذه الجمعية الناشئة مساعدات جمة من عظماء البلاد وأصحاب السلطة فيها ، ولم يمض عليها حين من الزمن حتى انضوى الألوف من اليابانيين إلى لوائها ، معظمهم من أرباب الوظائف العالية وكبار الرأسماليين وأصحاب الأمر فى الجيش . وقد جعلت غايتها درس المدنية الاسلامية ومدنية البلاد الاسلامية العصرية ، ثم توثيق عرى المودة بين بلادهم وبين تلك البلاد .

وفي إحدى الحفلات التي أقاموها وحضر فيها أعيان البلاد ووزراؤها ألقى أحد أمراء التتار كلمة بليغة فى فضل الاسلام وخاض فى موضوع تفسير (ترجمة) القرآن إلى اللغة اليابانية وذكر لهم عظم انتشار الاسلام فى الشرق أجمعه (وقد تم الآن هذا التفسير وطبع منه آلاف النسخ التي وزعت على ألوف اليابانيين) ثم ألقى فيلسوفهم أوهارا كلمة بليغة عن هذا الدين الجديد (عندهم) وأشار بصفة خاصة إلى أن الاسلام مع ما فيه من اليسر والبساطة محتو على كثير من الحكم الحقة، واختتم كلامه بأن قال: « إنه يرى الدين الاسلامى أوفق الديانات وأليقها بالأمة اليابانية »

الحكومة اليابانية الآن تعتبر الدين الاسلامي ديناً معترفاً به اعترافاً رسمياً. فقد وعدت تلاميذ المدارس الاسلامية بإمكان التحاقهم بالمعاهد والكليات العلمية التابعة للحكومة، وأذنت للمسلمين بشراء الأراضى لاقامة المعاهد الاسلامية. ولم يقف إحسانها إلى المسلمين عند هذا الحد، بل فرضت لهم مساعدة مالية، وجلبت لهم أساتذة وعلماء من الأزهر الشريف بمصر لتلقين من يحبون من اليابانيين دراسة القرآن؛ ودعت إلى بلادها الدعاة المسلمين للتعاون على إكثار عدد المسلمين الذين قد بلغوا عشرين ألفاً. كل هذا وقع عند انتهاء سنة ١٩٣٥. وفى شهر ابريل من هذه السنة نفسها شيد بمعاونة الحكومة مسجد آخر فى توكيو. وهنا ألقى السيد ميان عبد العزيز خطبة بليغة سياسية جاء فيها قوله: « إن اليابان قد وقفت الآن لسلوك الطريق المؤدى إلى إنشاء الدولة الأسيوية العظمى، وسيكون الاسلام فى طليعة هذه الحركة ».

لم تكتف الحكومة بكل هذا التنشيط لهذه الحركة الجديدة، بل قررت فى سنة ١٩٣٦ عقد مؤتمر إسلامى فى توكيو، فكم بهذا قد أسدت إلى الاسلام من خدمات! وقد رفع الشاعر الكبير السيد عبد الرحيم بك قليلات تقريراً ضافياً عما رآه وشاهده أثناء مكثه فى تلك البلاد من ازدياد نمو تلك الحركة. من كل هذا نرى دون مبالغة أن البلاد اليابانية حقاً هي الأرض الموعودة للدعاة المسلمين، ونرى أنهم أتوا فى الوقت المناسب للقيام بمهامهم. والظاهر أن الحكومة اليابانية تحبذ كل شيء ينتسب إلى الاسلام. وحسبك ما ذكرناه دليلا

ثم لنر الآن ما هى البواعث على إنماء الحركة الاسلامية فى بلاد مثل اليابان؟. أما من ناحية المسلمين فالأمر بين، وذلك سعيهم لتعميم الاسلام فى جميع البلاد الآسيوية. وقد ظهرت بوادر هذه الحركة من بعد الحرب العظمى؛ وظاهر هذه الحركة عند العامة مسألة دينية محضة، ولكن الزعماء يقصدون من ذلك مقصداً آخر سياسياً. قال الرئيس بقوله: « إن اليابان الآن فى طريقها نحو تحقيق إنشاء دولة آسيوية عظمى الخ » قد نحا منحى سياسياً محضا.

أما الأمة اليابانية فانها تعلل الباعث لها على ذلك بأنه هو حبها للتسامح مع الأديان، كما صرح ساستها به مراراً ونطقت بذلك قوانينها. فالحكومة تتصنع التظاهر بذلك والساسة البارزون ورجال الحربية وغيرهم يظهرون ميلهم اليه لبساطة تقاليد هذا الدين ويسره متأثرين بقول فيلسوفهم أوهارا عندما أكد لهم ذلك فى خطابه:

ولماذا لم تجب الحكومة مطالب المسلمين في بادىء الأمر؟ قد تساءلت عن ذلك الجرائد اليابانية نفسها فأنكرت أولاً أن تحول الأمة نحو الاسلام بسبب إحساس عام طرأ على أفرادها، وكان الذى حملها على ذلك القول هو توجه تلك الأمة بأجمعها نحو ذلك الدين عند افتتاح مسجد كوبا ودرس القيصر نفسه للقرآن. ثم عللته بعد ذلك بأنه إنما هو نتيجة تأثير الدعاية التى قام بها المسلمون القاطنون فيها، ولكن للتأثير عليهم بذلك يلزم مضي وقت طويل، إذ أن اعتناق دين جديد عند اليابانيين أصعب منه عند الأوربيين، فدخولهم فيه لم يكن بسبب شعور قومي عام ولم يكن كذلك بدافع الاعتقاد الديني الخالص.

إذا فكر المرء قليلاً ونظر إلى مطامع اليابان فى بلاد الصين وما حواليها من البلدان الآسيوية التى يقطنها ٢٦٠ مليوناً مسلماً — ويوجد فى غرب بلاد الصين ٣٠ مليوناً مسلماً — ثم إلى سياسة المسلمين الذين يدعون كلمة تعميم الاسلام فى كلمة توحيد الآسيويين، وقابل بين هذا وبين محاباة اليابان وتحبيذها لتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم ومحاباة زعمائها، وعلاوة على ذلك أن أغلبية المحبذين لها هم من السياسيين البارزين ورجال الحربية والرأسماليين الكبار — لاستنتج معنا أن تلك المحاباة لم يقصد منها إلا تحقيق مطامعهم السياسية وأمانيهم فى الامبراطورية الآسيوية العظمى. ولم يكن اختيارهم للدين الاسلامى لمزية فيه لا توجد

في غيره من الأديان ، بل إن كل دين عندهم من هذه الوجهة في درجة واحدة ، إلا أن الاسلام تميز عن غيره بكثرة المعتنقين ؛ واليابان تؤمل بهذا وجود جبهة قوية لها أمام الاشتراكية ، ورابطة متينة لبناء الوحدة المزمع إنشاؤها .

أما كون الحكومة في السنتين الأوليين لم توفق إلى تلك النظرية — أو أنها لم ترد الاعتراف بها — فذاك بحث آخر ؛ ويحتمل أن يكون زعماء المسلمين يد في حملها على الاعتراف بنظرية نشر الدين الاسلامي لترويج تجارتها في تركيا وفي أواسط آسيا . وقد وفقت إلى ذلك وقدرت على مزاحمة الصادرات الأوربية ونالت إقبالاً كبيراً من البلاد الاسلامية كبلاد العرب والأفغان وإيران . وما دامت اليابان ترى حاجتها في الاسلام للوصول إلى تلك الأغراض فضررها سيكون بليغاً على الديانة النصرانية .

إن الاسلام يعتقد في مساعدات اليابان له أماني ذهبية ، واليابان بدورها تنتهز هذه الفرصة لاشباع مطامعها السياسية والتجارية . وقريباً يظهر هل تلك الأمة حقيقة راغبة في اعتناق ذلك الدين ، أو يظهر ما أخفته وراء تلك المجاملات اهـ .

« المرشد — سورابايا »

من تاريخ الأدب المصري

أحمد بن يوسف
المعروف بابن الداية
للأستاذ محمد كرد علي

« لاحقة »

ليس ما نشرته « الرسالة » لي في عدد ٢١٥ هو كل ما عُرف من أخبار أحمد بن يوسف الكاتب . فقد ذكر من ترجموا له أن أباه يوسف بن ابراهيم كان من ذوي المروءات التامة والعصبيات المشهورة ، وأنه كان كاتباً مجيداً يعد من كتاب الطبقة الأولى ، وأنه ولد داية ابن المهدي ، وكاتب ابراهيم بن المهدي ورضيعه وصاحبه ، وأنه صنف كتاباً في أخباره وفي أخبار المتطببين وغير ذلك ، وأنه قدم دمشق سنة ٢٢٥ ، ولعلها كانت سنة هجرته من بغداد إلى مصر . وذكروا أسماء من روى عنهم ورووا عنه ؛ وممن روى عنهم من غير المسلمين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب وعيسى بن حكم الطبيب

وكان يوسف بن ابراهيم من أصحاب الثروة يجري على كثيرين في الفسطاط . ولما حبسه ابن طولون في « بعض داره ، وكان اعتقال الرجل في داره يؤيس من خلاصه ، فكاد ستره أن ينتهك لخوف شمله عليه » جاء جماعة من أبناء الستر إلى أحمد بن طولون وطلبوا إليه أن يقتلهم إذا كان معتزماً على قتله ، وقالوا إن لهم ثلاثين سنة ما فكروا في ابتياع شيء مما احتاجوا إليه ولا وقفوا بباب غيره . وفي الساعة التي توفي فيها يوسف بن ابراهيم بعث أحمد بن طولون أيضاً بخدم فهجموا الدار وطالبوا بكتبه « مقدرين أن يجدوا كتاباً من أحد ممن ببغداد ، فحملوا صندوقين وقبضوا على أحمد وعلى أخيه ، وصاروا بهما إلى داره ، فأدخلوهما إليه وهو جالس وبين يديه رجل من أشراف الطالبيين ، فأمر بفتح أحد الصندوقين ، وأدخل خادم يده ، فوقع على دفتر جراياته على الأشراف وغيرهم ، فأخذ الدفتر بيده وتصفحه ، وكان جيد الاستخراج ، فوجد اسم الطالبي في الجراية ، فقال له وأحمد يسمع : كانت عليك جراية ليوسف بن ابراهيم . فقال له : نعم أيها الأمير ، دخلت هذه المدينة وأنا مملق ، فأجرى عليّ في كل سنة مائتي دينار ، أسوة بابن الأرقط والعقيقي وغيرهما . ثم امتلأت يداي بطول الأمير فاستعفيت منها »

هذا الوالد هو الذي أنجب احمد بن يوسف . وأنت ترى أن أحمد بن طولون كان يتخوف منه ، لمكانته واتصاله الوثيق بالبيت العباسي وربما وقع في خاطره أنه عين عليه ، في زمن كان فيه ابن طولون يرمي إلى نزع يده من الخلفاء وتأسيس ملك في مصر يكون له ولعقبه على عنق الدهر .

ولذا كان ابن طولون حذراً يقظاً وقد اتخذ أساليب مهمة لأخذ الأخبار ، واتقاء عادية كل من طرأ على مصر ؛ وعنده أن كل غريب يجعل تحت الترقيب ، ولا سيما إن كان عراقياً أو يمت إلى السياسة بأدنى سبب .

تثقف أحمد بن يوسف ثقافة أبناء الأعيان في عصره ، فجاء كاتباً شاعراً رياضياً منجماً أو هو كما وصفوه « مجسطي إقليدسي » حسن المجالسة والعشرة تام المروءة كأبيه ؛ وصار له اتصال دائم بأرباب الدولة ومنهم عظماء في الأدب والكتابة والفقه والطب

والهندسة والفلك لم تتعرض كتب التراجم لهم ، مثل على المتطبب المعروف بالديدان وقال فيــه إنه كان « حسن المعرفة لكتب أفلاطون ورموزه ومبرزاً في الطب » وكان على صلة بالمهندسين واستفدنا من كلامه أنه كان لهم في بغداد موضع يجتمع فيه وجوه العلماء بالهيئة والهندسة في دار العباس بن سعيد الجوهري ترب المأمون .

ولم نعرف حقيقة الديوان الذي كان يعد من كتابه أو من رؤسائه ، فان ابن النديم وصفه في الفهرست بالمهندس المصري ، وقال إنه فسر كتاب الثمرة ، وكتاب الثمرة من تأليف بطليموس أما سائر كتبه فقد ذكر منها ياقوت في معجم الأدباء طائفة صالحة ، ومنها سيرة احمد بن طولون وسيرة ابنه خمارويه وسيرة هارون ابن أبي الجيش ، وأخبار غلمان [(١)] بني طولون ، وكتاب أخبار الأطباء ، وكتاب مختصر المنطق ألفه للوزير العالم الكاتب العف علي بن عيسى ، وكتاب ترجمته ، وكتاب أخبار المنجمين ، وكتاب أخبار ابراهيم بن المهدي ، وكتاب الطبيخ . وكل هذه الأسفار فقدت ، ولولا أن عثر له في الأعوام الأخيرة على كتاب « المكافأة » بل على جزء منه لغطى الزمن على فضل أحمد ونبوغه في الكتابة أيضاً . وكم من رجل سدل على صيته القناع بعد قليل من رحيله لفقد ما كتبه وقلة أنصاره ، ورب رجل تضاعفت شهرته في مماته أكثر من حياته لاغفال حساده أمره بعد موته ولكثرة من أشادوا بعلمه وأدبه وابداعه .

وإذا كتب لأحمد بن يوسف أن تدرس حياته وأدبه دراسة أدبية ، وتهيأ لبعض المتفرغين من الباحثين أن يجمعوا طائفة من كلامه ، وهو قليل في المطبوعات التي بين الأيدي ، ولا يبعد أن يعثر له على أشياء في بعض المخطوطات — يسهل على نقاد الأدب أن يسلكوه مع سميه احمد بن يوسف الكاتب وزير المأمون في سلك واحد ، وربما يثبت لهم أن احمد بن يوسف المصري أوسع علماً من سميه البغدادي بما أصابه من الحظ المظيم من الثقافة التي تنم عليها أسماء مصنفاته فقط . وكيف لا تتأفق شهرة الكاتب البغدادي واتصاله كان بأعظم خليفة ، وكيف لا تضؤل شهرة الكاتب المصري وصلته كانت ببيت يعد في عرف السياسة يومئذ خارجاً عن الخلافة ؟ وبغداد في ذلك العصر يحمل إليها كل جميل ويعد ما يحمل منها جد جميل

إن كتاب « المكافأة » بأسلوبه ورشاقة بلاغته من أبلغ ما كتب كتاب العرب في القصص ، يشبه أسلوب ابن المقفع فهو من غراره في السلاسة وعدم الكلفة . وقد نقل فيــه شيئاً من القصص عن والده وعن رجال البلاط الطولوني وغيرهم وعن ابن المقفع وقال إنه « مما نقله ابن المقفع عن الفرس وتماله العرب »

روى لي أحد أصدقائي أن حافظ إبراهيم « رحمه الله » استظهر هذا الكتاب في سنة نشره وقال لي الأستاذ عبد العزيز البشري إنه قرأه ثلاثين مرة وما ارتوى من ديباجته . لا جرم إن بلاغة أحمد بن يوسف من النوع الذي لو راهنت على أنه ليس في وسع جهابذة النقد أن يسقطوا لفظة من جملته لربحت الرهن ، وصدقك الأدباء في قولك بتفرده في أسلوبه ، وأنه بلا جدال الفرد العَلَم بين من أنبتتهم مصر من الكتاب في الدهر الغابر

وبعد فمن عجيب ما فهمناه من حياة احمد بن يوسف أنه كان يحاذر محمد بن سليمان لما دخل مصر في سنة ٢٩٢ للقضاء على الدولة الطولونية ، وكان يستدعي « الواحد بعد الواحد من أسباب الطولونيــة ويستصفي ماله بالسوط وعظيم الإخافة » . وكان الطولونيون يعرفون أن هواه مع بني العباس بالطبيعة ويراقبون حركاته ، وما ندري وهو الذي جمع سيرة دولتهم ورجالها إن كانوا راضين عما كتب أم غير راضين ؟ لأن حرية القول ظاهرة في كلامه من كتاب المكافأة ، ولا شك أن سائر ما دونه من تاريخ القوم من هذا النمط . مات احمد بن يوسف سنــة نيف و ٣٣٠ وقال ياقوت وأظنها ٣٤٠

وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية فإن الظاهر أن احمد ابن يوسف عُمّر طويلاً لأنه روى عن رجال عرفهم في أيام احمد بن طولون ، وهذا هلك في سنــة ٢٧٢ والظاهر أنه كان صاحب مزارع انتقلت إليه من أبيه ومنها ما كان على مقربة من المحلة الكبرى

محمد كرد علي

(١) في اللسان : يقال فلان غلام الناس وإن كان كهلا كقولك فلان فتى العسكر وإن كان شيخاً ، والعرب يقولون للكهل غلام نجيب وهو فاش في كلامهم . ويقصد أحمد بن يوسف بغلمان بني طولون رجالهم والقائمين بدولتهم

الظاهرة الهامة (*)
وتأويلها
للأستاذ محمد أديب العامري

من الناس من يموت فجأة ، فهذا يقف قلبه عن النبض لتوقف الأعصاب التي تحركه ، فلا يصل الدم إلى أجزاء الجسم ، فتهبط الحرارة ويقف الغذاء ويسكن الجسم ، ثم ينحل من بعد . وهؤلاء لايعانون دور النزع الذي يسبق انقطاع المرء عن الحياة ؛ ومن ثم لا يصاحبهم بالطبع هذيان النزع الأخير ،

ومن الناس من يموت متدرجاً ببطء شديد ؛ فاذا تقدم في السن إلى حد بعيد تصلبت أوعيته الدموية ، وتيبست عضلاته ، وتعب جهازه العصبي ، وأضاع كثيراً من رشده . ومن المعتاد في مثل هؤلاء أن يفقدوا شيئاً من قواهم الشعورية التفكيرية قبل موتهم بأشهر ، بل بسنين ؛ فيصرحون بأشياء لا يصرح بها الانسان السوي عادة ، ويتحدثون أحاديث تحمل الناس على اعتبارهم مجانين ، أو أشباه مجانين .

ولكن أكثر الناس يموتون في فترة ، لا هي قصيرة كالفجائية ، ولا هي زائدة الطول كما هو الحال في « الموت التدريجي » . فهؤلاء يقعون في المرض فيؤثر المرض على بعض أجزاء أجسامهم ؛ وهم أثناء ذلك يحتفظون بقواهم العقلية من شعور ووعي وتفكير ؛ فاذا استفحل المرض أثر على الجهاز العصبي فعطل قوته الواعية (الشعور) وتحكم في المريض جزء آخر من قواه العقلية ، وهذا الجزء هو المسئول فيما أعتقد عما يظهر على المريض من هذيان .

وقبل أن نتوسع في شرح ما يقع للمريض في هذه الحالة وحالة « الموت التدريجي » أحب أن أتعرض قليلاً لعمليات العقل الانساني ، ففي هذه العمليات التأويل المرجح لظاهرة الهذيان التي تسبق الموت .

عقل الانسان هو عبارة عن قواه المدركة التي يسميها علماء النفس « الشعور » مضافاً إليها قواه الفكرية الأخرى التي يسمى بعضها « شبه الشعور » ويسمى بعضها « اللاشعور » أو « العقل الباطن » . فعند ما تكتب مقالة فأنت تفكر تفكيراً عنيفاً مقصوداً وموجها ، وهذا العمل نوع من الأعمال الشعورية وعند ما تحل مسألة رياضية أو عقلية فان عملك هذا يعتبر من نوع الشعور كذلك . والأعمال الشعورية التي يعملها الانسان قليلة وإن ظهر أول الأمر أنها كثيرة . أما المشي فمن أعمال المرء شبه الشعورية . فانك عند ما تقصد من بيتك إلى السوق تطلق رجليك دون تفكير شعوري واع في الشوارع والمنعطفات . وآية ذلك أنك تستطيع أن تقوم بعمل عقلي شعوري أثناء المشي ، وعمل اللاشعور من أعمال العقل التي نظن عادة أنه أقلها أهمية ولكنه في الواقع أكثرها إشغالا لقوانا العقلية وأكثرها دلالة على حقيقة شخصياتنا . فأنت تكون تعمل عملا شعورياً متعباً فلا يلبث تفكيرك أن ينصرف إلى أفكار خيالية بعيدة الوقوع . فأنت ترى نفسك وقد غنيت أو امتلكت أملاكا عريضة ، أو تزوجت من فتاة جميلة ، أو حصلت على شهادة عالية وأنت لا بث مكانك لم تنفض يدك من عملك . وتنصرف حالا إلى الانتقام من خصومك أو التحبب إلى أصدقائك على نحو لايتأتى لك حين تفكر في أساليب هذا الانتقام أو التحبب ويقع ذلك أثناء اليقظة وتسمى هذه الأفكار « أحلام النهار » فاذا ما نمت تعطل معظم التفكيرين الشعوري وشبهه وانطلق اللاشعور يعمل عمله . فأنت في النوم طائر مرة ، محارب أخرى ، مسافر ثالثة . وبالجملة يقع لك ما كنت ترغب في تحقيقه فامتنع عليك فانشغل به اللاشعور بعد أن أعرض الشعور عن حمل المرء على تحقيقه . وأهم ما يجب أن يعرف من هذا هو أن « أحلام النهار » والأحلام العادية وعمل النفس اللاشعوري إنما يكون أهمها في رغبات الانسان المكبوته ، وما كان يعمله لو أتيحت له الوسائل . ومن هنا ترى أن أكثر أعمال المرء في يقظته ونومه إنما هي أعمال لاشعورية

والذي يلاحظ المريض المقبل على الموت يرى أنه ينتقل من وعيه الكامل إلى هذيانه شيئاً فشيئاً ، فهو يهذي بادئ الأمر شيئاً قليلاً بينا يتخلل هذيانه تفكير واع ، ثم يتمادى في الهذيان حتى يطغى الهذيان عليه ، فلا يكون كلامه إلا خليطاً لا يتصل

(*) أنظر مقال الأستاذ عبد الغني علي حسين من الصفحة ١٢٣٧ من عدد الرسالة ٢١٥ .

بالشعور أو شبه بسبب . والاصغاء إلى المتوفي في هذه الحالة دراسة مهمة لشخصيته وتفكيره ومتاعبه . لأنه يفكر آنئذ بلا شعوره ويعطيك نفسه غير مغلقة ولا مصطنعة . والأرجح أن جميع ما يصدر عن المريض له تعليل على هـذا الأساس ، أى أن هذيانه تفكير لاشعوري .

وأحسن ماتشبه هذه الحالة بالنوم ، فالنوم فى الواقع شبه موت مختصر ، تثور فيه رغبات المرء المكبوتة ومخزونات اللاشعور العديدة على صورة أحلام . والذين تجرى أحلامهم على ألسنتهم أثناء النوم يتحدثون حديثاً يشبه الهذيان . على أن هذا الهذيان نفسه أصح دلالة كما قلت على نفسية النائم مما يصرح به أثناء وعيه الكامل عن شعور محكم مضبوط . ولهـذا يعمد المحققون إلى مثل هذه الحالات ليعرفوا منها أسراراً يقصدون إليها . وهم لذلك يلجؤون إلى طرق طبية خاصة توصلهم أحياناً إلى أغراضهم .

واصغ إلى هذيان المريض تجد أنه يحدثك عن أهم المشاكل التى كانت تعترضه فى حياته . ويساعدك على تحقيق هذا معرفة بالمريض تكون قد أطلعتك على أحواله الخاصة . ومع أن هنالك مايؤيد أن المريض إذا أقبل على الموت عرف ذلك ، فان هـذا لايدل على أن المريض يرى شيئاً من الحياة الثانية ويتحدث عنه ، إلا إذا كان هو من شـديدى الايمـان بهذه الحياة والعناية بها والتحدث عنها بحيث أنها تشكل فى عقله قسماً من أفكاره اللاشعورية التى يتحدث عنها وهو يهذى . ونحن هنا يجب أن نلتمس التأويل الممكن لحديث بعض المحتضرين عن أناس توفوا قبل .

فما قيل من أن محتضراً «كان يتحدث إلى الموتى كما لو كانوا منه على مرأى وعلى مقربة » سهـل التأويل على أساس نظرية اللاشعور . وأما أن هنا لك « حالات هتف فيهـا المحتضر باسم شخص مات ولم يكن المحتضر يعرف أن ذلك الشخص قد مات» فقول يحتاج بعد إلى تحقيق شديد . فالمرء قد يختزن فى لا شعوره معلومات لا تكون فى متناول شعوره دائما ، فهو ينكر معرفتها فى حال وعيه وشعوره فى حين أنها ترد على خاطره حين يتيه فكره لاشعوريا ، فلا يكفى قول رجل لك عن أمر إنه لا يعرفه دلالة على عدم معرفته ، إذ المرء نفسه قد يجهل أنه يعرف شيئاً مختزناً فى اللاشعور .

وإذا أريد الوصول إلى قرار علمى صحيح فى هذه الظاهرة فلا يجب أن تحمل أقوال المحتضر على شئ خاص حين يمكن حملها على معانٍ طبيعية عادية . فقول مريضة محتضرة عن شقيقة لها سبقتها إلى الموت دون أن تعلم « انظروا هذه هي شقيقتى إنها تقول أنها ستكون معى . لماذا لم تخبرونى بذلك ؟ » قول لا يدل دلالة قاطعة على أن الشقيقة المحتضرة عرفت قبيل موتها عن موت أختها ، كما يتضح من التأويل التى يمكن أن يؤولها هذا الكلام بصورة طبيعية ، أن العمد إلى تأويل روحية غير مستندة إلى ما يعتمد عليه العلم من وسائل الاثبات لا يزيد إيضاح هذه الظاهرة شيئاً ، بل يزيدها تعقيدا

هذا — ولا ريب أن المريض يعرف قبل الموت بزمن ، قصر أو طال ، بأنه سيموت . والرجل المسن الذي يرى قواه العقلية تنحط وقواه الجسدية تذهب ، هو رجل يموت فى الواقع ، وهو يعرف أن انحطاطه هـذا آيل به إلى الموت . فعند مايقع خلل فى أحد أجهزة الجسم المهمة يتحقق الموت ولا سيما إذا كان عالماً بشئ من طبيعة الحياة . والانسان المريض الذى يقبل على الموت يعلم قبيل موته فى الغالب أنه سيموت ، لأن الانحطاط الشديد الناتج من اختلال العمل فى بعض الأجهزة كما مر لا بد وأن يشعر المرء إشعاراً داخلياً بيناً بأن الخيط الذى يصله بالحياة وشيك الانبتات ، فلعل هذا هو الذى ينقله إلى التفكير اللاشعورى فى الحياة الثانية وفى معارفه الذين سبقوه إليها .

« عمان » **محمد أديب العامرى**
مدير مدرسة عمان الثانوية

فردريك نيتشه

FRIEDRICH NIETZSCHE

للأستاذ ابراهيم ابراهيم يوسف

تتمة مانشر في العدد الماضي

وفي سنة ١٨٧٤ كتب نيتشه في مذكراته « إن ديني – إن كان لي شيء يصح تسميته بذلك – لايتعدى العمل لمنتجات العبقرية . أما الفن فهوالتربية التي تحقق ما نأمله في الحياة وبذلك تهون علينا الحياة بما فيها من ألم . » وذكر نيتشه في نهاية الجزء الرابع من كتابه « إنساني ، وإنساني إلى أبعـد حد » في فصل « عن روح الفنان والأديب » كلاما بلهجة اليائس ، إذ اعتبر الفن في تدهور وانحلال – ولعله كان يتحدث في ذلك عن نفسه بالذات . فقد حمل نيتشه على الفنانين الذين يحجمون عن النظر إلى المثل العليا ، ويكتفون بالنظر إلى أعمالهم فقط . ولهذا انقلب على الفنانين وراح يمجد العلماء الذين يعملون للفكر ، فكل عالم أصبح في نظره « إنساني ، وإنساني إلى أبعد حد » . وهكذا بدأ يشيد بسقراط الذي كان قـد نعته من قبل « بقاتل التراجيديا واتخذه مثلا أعلى له .

وعد نيتشه بعد كتابه الأخير من الحكماء البلغاء القابضين على ناصية المنطق والخيال والقول الحكيم . وكان في جده صارماً وفي لذعه قارصاً وفي مزحه ظريفاً . وهو إذا ما غضب بلغ حد الغضب ، وإذا ماعمد إلى اللعب نسي نفسه ، وإذا مارقص تفانى في الرقص ، وكان الرقص أحب الأشياء إلى نفسه . وكان نيتشه يري في نفسه رأس حكماء الألمان ويعتقد بأن أسلوبه هوالأسلوب الخالد ، إذ في وسعه أن يكتب في عشرة جمل مالا يكتبه غيره في كتاب كامل . وكان قد قرأ من الألمان ليشتنبرج Lichtenbetrg و « هينـه » Heine ، ومن الفرنسيين مونتانى Montaigne وفونتنل Fontenelle وشامفور Chamfort وغيرهم . وكان يجد للفرنسيين آراء صادقة لم تجتمع في كافة كتب الفلاسفة الألمان .

وتخطى نيتشه في سنة ١٨٨١ تلك الأزمة التي عاجلته بعد كتاب « إنساني وإنساني إلى أبعد حد » وكتاب « آراء وحكم مختلفة » Vermischte Meinungen nud Sprueche وكتاب « الهـائم وظله » Der Wandrer Und Sein Schatten ، وأحس بأنه قد استرد قواه الجثمانية والروحية بعد أن جال في التيرول وفي جبال الألب وفي شمال إيطاليا . ورأي نيتشه أن الحياة تفتحت له من جديد ، إذ أخذ يدرك الأشياء على حقيقتها بعد أن زال عنه الغشاء . وقد أدى به تجواله إلى هيامه بتلك البلاد الجنوبية هياماً ضارع حبه لوطنه . ومن ثم أصبح شخصاً آخر لايؤمن بوطن خاص ، وصار « أوربياً » لايفرق بين شعب أو وطن ، حتى لقد قال « لكي تكون ألمانيا صادقاً ، يجب أن تنتزع النعرة الألمـانية من صميمك » . كذلك قال : « إن الألمـان هم رجال الأمس البعيد وسيصبحون رجال الغد البعيد ، اما أنهم رجال اليوم فلا ! » وما ذلك إلا لتمهدهم بتربية العاطفة بدلاً من تمهدهم تربية الفكر . وألمـانيا في اعتبار نيتشه أحط مستوى من بقية دول أوروبا في الناحية الثقافية . ولم يشعر نيتشه بأنه ألماني إلا بالقدر الذي تسمح به طبيعته « الأوربية الصادقة » فهو ألمـاني كما هو بولوني أو إيطالي أو غيرهما . ولعل حياته الأولى ومحيطه الذي عاش فيه ساعداه على أن يكون ذلك الرجل

وإذا كانت أعمال « أفلاطون » و « اسبينوزا » و « بسكال » و « روسو » و « جيته » قد أحدثت تطورات في الفكر البشري كما يقول نيتشه فان كتاب « شفق الصباح » Morgenroete الذي أخرجـه نيتشه عام ١٨٨٢ وجعل له عنواناً آخر هو « أفكارعن الأحكام الخلقية » أحدث هو الآخر تطوراً في الفكر البشري . وفيه عالج المسائل الأخلاقية ، فثلا كتب عن العادات المستحبة . وتساءل : ماهي العادة التقليدية ؟ فقال بأن العادة التقليدية هي الخضوع إلى مايضاد العادات الغريزية . وقال بأن على الناس أن يتعلموا من جديد ، وعليهم أن يرفضوا ما اتفق عليه العالم من عادات تقليدية ، إذ لاوجد « عدل أبدي » ، ولهذا فهو ثائر على كل اعتبار ، حتى على الاعتبارات الدينية المسيحية . وأعقب كتابه هذا بآخر عنوانه العلم المرح Froehlich Wis - senschaft وقد حاول فيه أن يحرر الانسان من قيوده المكبل بها ، ويبعده عما لحق به ، كما ينتعش فكره . ولم تمض أربع سنوات أخرى حتى أخرج كتاباً آخر عنوانه « لغة الريح

الساخن » (الذى من شأنه أن يذيب الثليج) - Sprache Der Tauwinds . والكتب الثلاثة الأخيرة تتم بعضها بعضاً . وفيها من غريب الآراء فى الاخلاقيات مالا يصح تلخيصه فى مثل هذه العجالة .

وعثر نيتشه في قراءاته على « زرادشت » فيلسوف الفرس الأقدم ومعلمها الأول والحكيم الخالد الذى عالج كل مسألة . فاتخذ من اسمه شخصية تملى على الناس آراءه الخاصة . فأصدر فى فبراير سنة ١٨٨٣ الجزء الأول من كتاب « زرادشت » . ولم يكن نيتشه فى حاجة إلى أكثر من عشرة أيام لوضعه ، فجاء فى أسلوب من الشعر المنثور الذى لايجارى . وكتب كتابه هذا أثناء تجواله فى طريق «زاوجلى» الذى يطل على خليج « رابللو » بالقرب من « جنوه » هنا لك نزل على نيتشه وحى ذلك الكتاب الذى اختار له اسم « كتاب للجميع ولغير أحد » وجعل له عنواناً آخر « هكذا قال زرادشت » - Buchfuer Alle Vnd Keinen , Also Sprach Zarathustra كذلك أتم الجزء الثانى والثالث منه فى عشرة أيام أخر . فكتب الجزء الثانى فى بلده « سلز ماريا » بين أواخر يونية وأوائل يولية من عام ١٨٨٣ وأتم الجزء الثالث فى يناير سنة ١٨٨٤ فى مدينة « نيس » . أما الجزء الرابع الذى كتبه لأصدقائه فقط فقد اقتطع من وقته زمناً أطول . وكان نيتشه أثناء وضع هذا الكتاب على أتم ما يكون من عافية وصحة . وكان لايسأم السير فى الجبال التى كانت توحى إليه بكل ما يكتب كما أن البحر الممتد أمامه كان له أثر في ذلك الوحى . ولقد كتب « زرادشت » كما لو كان يرقص أو يلعب . فقد قال بلسانه « كان من السهل أن يرانى الناس راقصاً . وكنت لا أعرف للتعب معنى . فقد سرت فى الجبال عدة أيام ، وفي كل يوم أسير سبع أو ثمانى ساعات متوالية ، وكنت أنام ملء جفنى ، وأضحك من كل قلبى . لقد كنت مستكمل كل معدات الحياة والفكر صبوراً . وكان هذا العهد يختلف عن تلك الأيام التى كتب فيها « إنسانى ، وإنسانى إلى أبعد حد » اختلافاً كلياً وكم كان نيتشه شكوراً فى كتابه الرجل الطيب Ecco homo الذى أتى فيه بشيء من مذكراته لعام ١٨٨٨ .

ويعتبر كتاب « زرادشت » الذى وضعه نيتشه فى رأى بعض النقاد ومنهم بيتر جاست Peter Gast « من الكتب الواجب تقديسها » . وقال نيتشه نفسه فيه « إنه نوع أنيق من الدعاية للأخلاقيات .» بل هو « شعور نبى » . « وهذا الكتاب رقص وموسيقى ، هو ألحان جميلة وحكم غالية ، هو العاصفة والهدوء ، هو المرح الكامل والظرف والغضب ، وهو إلى جانب ذلك مرعب ومخيف ، إذ فيه أسرار دفينة . » وإنه « كالغابة والليل والأشجار أى مجمع الظلام ، فمن لايخاف ظلمته سيجد فيه زهوراً ورياحين» هذه هي كلمات نيتشه في كتابه الذى كان يعجب به ويسميه « قرار المحيط » . وكتاب زرادشت هذا يعد بأجزائه الأربعة صباح وظهر وعصر ومساء اليوم الذى سيولد فيه الانسان الكامل Uedermensch أو السوبرمان Superman كما أسماه . وهذا الانسان الكامل قد تخيله نيتشه فى كتابه « العلم المرح » . ولهذا الانسان وحده حق الحياة ومن أجله تحمل نيتشه مضض الحياة . أما الانسان الراقى Hoehere Mensch الذى تكلم عنه فى كتابه «زرادشت» يختلف عن الانسان الكامل الذى جاء بوصف له فى الجزء الرابع . ولاداعى للاسترسال فإن (الرسالة) تترجم فى التحدث عما يتضمنه كتاب «زرادشت»، ونكتفى بما أشرنا إليه لنتحدث عن أسلوب نيتشه فى هذا الكتاب . فقد نهج فيه نهجاً فريداً . وكان نيتشه قد كتب إلى « روده» Rohde إمام اللغة فى ذاك العصر يسأله إن كان هناك فى اللغة الألمانية أسلوباً يضارع أسلوبه في زرادشت من حيث القوة ، وإن كان يعتقد بأن اللغة الألمانية بلغت أقصى شأوها على يدي جيته Goethe ولوتر Luther ؛ ويقول نيتشه « إن أسلوبى هو الرقص ، هو لعب متجانس فى كل أشكاله ، كذلك هو القفز والاختفار لكل تكرار » ويعد كتاب « زرادشت » أكثر كتبه انتشاراً وأبعدهم أثراً وغوراً ، وفيه تتجلى شخصيته وشاعريته . وهو يقول عنه : « إن هذا الكتاب أنشودة الليل — وفى الليل تجيش كل فوارة بصوت أعلى . كذلك روحى هي الأخرى فوارة . » وقال نيتشه على لسان زرادشت متحدثاً إلى شخصه : « إننى جوال أتسلق الجبال » كذلك قال: « إننى لاأحب المنبسط من الأرض ، وقد تبينت أننى لا أستطيع الهجوع إلا يسيرا . ولا أنتظر من القدر إلا أن أبقى هكذا جوالا أتسلق الجبال» وهذا الشعر الرمزى هو طابع كتاب «زرادشت» العظيم .

ولنيتشه في هـذا الكتاب شاعرية فذة ، فهو فى بعض الأحايين يخجل من أن يكون شاعراً ، لأنه قد يكذب مع علمه بكذبه ، ومع رغبته فى الكذب . ولهذا فهو يأبى أن يكون من طبقة الشعراء الذين لا ينظرون إلى أعماق الأشياء وأعماق الحياة . أما أنه كان ميالا إلى التلاعب بالكلام والصور فى شعره فذلك لا ينكره أحد . وكان نيتشه رومانتيكي النزعة الأدبية ، ولكنه كان يأبى أن يعرف عنه ذلك ، هذا إلى أنه كان عدواً لدوداً للأدب الرومانتيكي ، ومع ذلك فقد كان كلاسيكيا فى تذوقه للأدب . وكان من أنصار الايضاح والتبسيط ، يكره التفاصيل كما يكره التعقيد والتشكك . وكان يتذوق أدب « يونج ستلنج » Yung Stilling وجيته Goethe وشتفتر Stifter وجتفريد كلر Gottfried Keller وهم من غير نزعته . وكذا ظهرت هويته فيما لا يملكه .

وكان نيتشه يعمل فى نفس الوقت الذى أخرج فيه كتاب « زرادشت » فى تأليف كتاب آخر أظهره سنة ١٨٨٦ تحت عنوان « ما وراء الخير والشر » وهو مقدمة شبه مسرحية لفلسفة المستقبل ، وقال عنها نيتشه بأنها طريق ممهد لأرض زرادشت الموحشة الخطرة . وهو يختلف مع كانت Kant فى تفكيره إذ يتساءل : لم الاعتقاد فى مثل هذه الأحكام عن الأخلاقيات؟ وفى رأيه أنه لا يوجد مظاهر أخلاقية ، ولكن توجد تعابير أخلاقية للمظاهر . وكما يوجد لطبقة السادة تعاليمهم الأخلاقية ، كذلك يوجد لطبقة العبيد تعاليمهم الأخلاقية الخاصة بهم . ولهذا فالخير والشر أشياء تتغير معانيها بتغير الزمان وتغير البيئة . ويرى نيتشه « أن التعاليم الأخلاقية لطبقة السادة كانت قد اختفت من أوربا ألفى سنة إلا أنها رجعت فى عصره ، وكانت قد بلغت أوجها حينما وصل نابليون أسمى مجده . وفى رأى نيتشه أن الخير لا يوجد إلا عند الفقراء الذين لا قوت لهم ، وعند الضعفاء الذين لا حول لهم ، وعند المرضى والقبحاء وهؤلاء جميعاً هم المتدينون »

وكان نيتشه قبل إصداره كتابه الأخير على وشك إتمام نصف كتابه الأعظم « قوة الارادة لبلوغ الحكم ومحاولة قلب القيم جميعها » Der Wille zur Macht, Versuch einer Umwertung aller Werte وما يقصد نيتشه من « قوة الارادة لبلوغ الحكم » ؟

هو يقول : « إن الكائنات الحية تعمل قبل كل شئ لتظهر قوتها إذ الحياة هي قوة الارادة لبلوغ الحكم » وهو يرى في الجزء الأول من هذا الكتاب الذي لم يتم وضعه أن اللاإرادة هي المسيطرة على مشاعر الناس . وبذا تسيطرت اللاإرادة على الارادة للحياة . وفى الجزء الثانى من الكتاب نقد لكل القيم العليا : ففيه نقد للدين ونقد للأخلاقيات ومثلها العليا ونقد للفلسفة . أما الجزء الثالث فقد جعله كتاباً خاصاً بمبدأ تقرير القيم الجديدة . وقد اعتمد فى وضع قيمه الجديدة هـذه على اللاإرادة التى اعتبرها أساس القوة وأساس السيطرة . ونظرته فى الحياة هذه أصبحت عقيدة . فقال إن الارادة أساس الحكم في الطبيعة ، وهى أساس الحكم عند الفرد والجماعة ، وهى أساس الحكم فى الفن . أما كتابه الرابع فقد أراد أن يكون تمهيداً لتطور وازدهار هذه الفكرة . وينتهي الكتاب بالقسم الأخير منه الذى اختار له « العودة الأبدية » عنواناً . ولكن لسوء الحظ لم يتم نيتشه كتابه هذا ، وكان الجميع يتوقعون أن يزدان به الأدب الألمانى . ولم يكن هذا كل ما كان يريده نيتشه ، بل لقد وضع تصميم كتاب آخر عن « الوحدة والانعكاف » فى جزء خاص من كتاب « زرادشت » ولكن الأجل لم يمهله ؛ ولم يعش ليرى أعماله تنتشر وتروج . وكانت سنة ١٨٨٨ هي أكثر السنين التى أنتج فيها نيتشه مؤلفاته

وقد لاحظ النقاد فى بعض كتبه الأخيرة انطفاء جذوة فكره ، وبدت عليه أعراض الخبل ، وكان قد تملكه بعض الوقت . وقد جر عليه تطرفه — وليس فى ذلك مايعيبه — قسوة القدرة وإعراض الناس عنه ، ففى أواخر سنة ١٨٨٨ أصيب نيتشه بهزة عصبية شديدة ، وبدأ جسمه بعد ذلك فى الاضمحلال . ولكنه بقى حتى أواخر أيام حياته طيب القلب ، شديد الصبر ، كثير الأدب ، مراعياً إحساسات الناس كافة . وكان فى سنة ١٨٨٨ قد خيل إليه أن لابد له من أن يبذل أقصى مجهود فكرى ، فجمع أشعاره التى أسماها « أغانى زرادشت » ، ومنها قصيدة « غروب الشمس » الخالدة . ومن من الناس لايمجد « زرادشت » أو « الانسان الكامل » حين يذكر اسم نيتشه ؟

وبقى نيتشه حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس

عام ١٩٠٠ يقاسى آلام مرضه حتى وافته المنية فى مدينة فيمار Weimrr . ولم يكن فى نظر الناس حين ارتحل إلى العالم الآخر إلا أديباً غريب الأطوار والأفكار . أما اليوم فله شهرة عالية كأديب وفيلسوف . وقد كان نيتشه شاعراً مجيداً ذا عقل وثاب وإحساس فياض عميق ، فى حين أن بقية الشعراء لم يكن لهم إلا مجرد « نزوات مضطربة » وما كان نيتشه يهمه اصطلاح الناس على تمجيده أو الاعتراف بفنه ، فقد قال : « إن الطيبة لن تعود طيبة إذا لاكها الجار فى فمه » فكيف حال الطيبة إذا لاكتها الناس عامة ؟ .

وكذا مات نيتشه ، ولكن ما انقضت بعض الأعوام على وفاته حتى أخذ الأدباء والنقاد يشعرون بجبروت فكره ونبل غرضه . وكم من زعماء الأمم يتطلعون اليوم إليه كرائد لهم ، ويستمدون الوحى من تفكيره ؛ وكفاه بذلك فخراً .

ابراهيم ابراهيم يوسف

من تاريخ الأدب المصرى

شعر القاضى الفاضل

للأديب محمد سعيد السحراوى

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

المديح

هناك نوعان من الشعر قيل كلاهما فى مناسبته ، أحدهما يموت بموت المناسبة ، التى قيل فيها ، والآخر يخلد ويخلد معه هذه المناسبة ؛ ومن النوع الأول شعر المديح ، فشعر المديح عند القاضى الفاضل أقل شعره كمية وقيمة ، ومنه قوله يمدح صلاح الدين :

جهادك حكم الله ليس بجهود ... وعزمك أمر الله ليس بمردود
سفينة نوح ما ركبت وعسكر ... كطوفانه والشام بالفتح قد نودى
كأنّا ببحر الكفر قد غيض ماؤه ... إذا ما استوت سفن لها القدس كالجودى
إذا سد باب الأذى فالجود نافذ ... ويارب مفتوح كآخر مسدود

وقوله يمدحه أيضاً :

صحا الدهر لكن بعدما طال سكره ... وما كان إلا من دم البغى خمره
أقمت عليه الحد بالحد ضارباً ... بسيف إذا ما اهتز قد بان سكره
فمن كان ذا هم فقد زال همُّه ... ومن كان ذا نذر فقد حل نذره
فيا ملكا لا علك الخطب صبره ... كما أنه لا يجهل الدهر شكره
يجور على الهامات عادل سيفه ... ويجرى على أهل الأوامر أمره
لقد قمت فى نصر النبى وآله ... مقاماً على الرحمن قد حق أجره
سرى ملك الافرنج ينصر جمعهم ... فما ضرهم فى نصرة الحق كفره
وما هى إلا آية نبوية ... أقامت لهم بالنفع من خيف ضره
وعادتهم من قبل آية جدهم ... فينصرهم من لا يؤمل نصره

وقال من موشح فى مدح الفضل بن يحيى بن خالد :

دع اللوم يا عاذلى ... فما أنت بالعادل
ولا تكثرن الكلام ... وأقصر فهذا الملام
على الصب مثل الكلام ... ولو قمت فى كل عام
تلوم إلى القابل ... فما أنت بالقابل

وليست هذه النماذج فى مستوى شعره الآخر على ما أعتقد ، وفيها تكلف ظاهر — وأكبر ما يلفت النظر فى شعر المديح عند القاضى الفاضل أنه لا يبدأه — إلا فى القليل النادر — غزلا كما كانت عادة أسلافه ؛ كما أنه لا ينزل به إلى المستوى الذى نزل إليه كثير من الشعراء الأقدمين . وأقصى ما وصل إليه مديحه قوله :

لقد سالمتنا صروف الزمان ... وما برحت قبلها عائدة
وأمطرت نوء الندى دائماً ... فهزت به أرضنا الهامدة
وأسهرت عينك للمكرمات ... فأقررت أعيننا الهاجدة
وأطفت حرارة آمالنا ... مغانمُ إحسانك الباردة

وقوله :

وتلقى خطوب الدهر إن جد جدّها ... بعزم مجد فى عزيمة هازل
بفخر يرد النجم ليس بصاعد ... وجود يرد القطر ليس بنازل
سماك نفار لا يسمى بأعزل ... ولا لله ليست تُراع بمازل
أقول إذا ما جاء هل من مفاخر ... كقولى إذا ما جدّ هل من منازل
وكم لك من يوم أغر محجل ... ترد به قسرا نوازى النوازل

وكذلك قوله فى مدح شجاع وزير الخلافة من قصيدة طويلة :

أما ومنك على أعدائك الطلب ... فإن أعدى عدو عندنا الهرب
أنت الحياة التى ما بعدها رغب ... أو الحمام الذى ما قبله رهب

فليس يعصمهم فى الفلك ما ركبوا
وليس ينجيهم فى الأرض ما صربوا

وقوله فى مدحه أيضاً :

لك المجد تردى عن عداه علاه ... وفي رجاء قد عداه نداه
إذا شئت يوماً أن تراه قائما ... ترى ماترى فى انجم دون مداه
وجودك سحب والسحائب أرضها
فهذى البرايا لو علمت تراه

وأختم مختاراته في المديح بقصيدته الجميلة التي قالها فى العزيز مستعطفاً ومادحاً ومصوراً ومعاتباً :

هـذا الذى كنت به أوعدُ ... أنجز وعد الأمس هو للغدُ
فالغد قد أعجلنى حثه ... عن أن أقول اليوم لاتبعدوا
مالك إلا اليوم في شدتى ... أنت صديق وأنت أنت العدو
فليت لا كان لسانى لمن ... ليس له فى كشف خطب يدُ
بدا به البخل فألحاظه ... عطشى وفي ريقه الموردُ
تستشهد الأغصان فى أنها ... كعطفه اللدن وما أشهدُ
والناس حساد على وصله ... وما ألوم الناس أن يحسدوا
إن شبهوه صنما فأنهم ... فأنهم فى الحب قد ألحدوا
وذلك الجمر على خـــده ... يقبسك النور ولا يوقدُ
كأنمـــا قام بمحرابه ... من صدغه ذو خشية يسجدُ
يدعو لأيام العزيز التى ... بالعدل فى أحكامها تخلدُ
فكل أرض بالندى جنة ... وكل دار للدعا مسجدُ
يا نعمة الله التى فضلها ... يجحد إيمان تدى يجحدُ
تستنفـدُ الآمال معروفه ... وهو على المعهود لا ينفدُ
لله باب منك فى أرضه ... ما دونه ملجا ولا مقصدُ
ويستوى مورد معروفه ... مسود هذا الخلق والسيدُ
عبــدهم حر بإعتاقه ... وحرهم بالجود مستعبدُ
كلهم أسرى ندى سرهم ... إنهم فى كفه أعبدُ

الزهد

وشعره فى الزهد وبكاء الزمان ، والحنين إلى الأوطان كثير وأكثره فى بكاء الشباب وذم المشيب فهو يقول من قصيدة :

فالعمر كالكأس والأيام تمزجه ... والشيب فيه قذى فى موضع الحبب

ويخاطب الشباب بقوله منها :

نار وإن لم يكن كالنار محرقة ... فإن فى الشعر منها آية اللهب
ولى صباه وأبقى شهب ليلته ... والصبح ليس بمأمون على الشهب
يا ليـــلة ما أظن الصبح يذكرها
شيبت رأسى ورأس الفجر لم يشب
وخيمة العمر إن شد الصباح لها ... عموده كان حبل الشمس كالطنب
ونحن نأمل أسباب الحياة بما ... مثلته وأراه أضعف السبب
وحجة العمر أكدار فان غلطت ... بالصفو دنياك فاعدده من النغب
يحبك الناس إن أمسكت عن طلب
والله يمقت إن أمسكت عن طلب
إن كان رزق بماء الوجه محتلباً ... فرزق ربك يأتى غير محتلب

ويقول فى الشيب أيضاً :

ما مع الشيب حديث فى غزل ... قد شغلنا منه بالضيف نزلْ
لست ممن ينزل الضيفُ به ... فيراه الضيف عنه فى شغلْ

وكذلك يقول :

بلغت أول عمرى أرذل العمر ... فلم يزدني اشتعال الشيب فى الشعر
والشيب والشعر كانا ساكنى خلدى
وإنمـــا انتقلا منه إلى نظرى
أما خديعة أحلام أغر بها ... فى يقظتى فكر جاءت على فكر
كان الحمام أمام الصفو أرفق بى ... من الحياة التى أفضت إلى الكدر
علا البياض فتور كان أوله ... هذا البياض الذى يعلو على الشعر
فالليل ليل شباب امرئ إن سلكت ... فيه المنية لم يسلك بمعتكر
عمر الفتى ليـــلة والموت صبحها
والشيب بين الدجى والصبح كالسحر

متفرقات له

وللقاضى الفاضل شعر غير قليل فى الرثاء والهجاء والوصف والحكم وغير ذلك فهو يرثى العزيز فيقول مخاطباً قصره :

لئن صرت فوق الأرض أرضاً فربما
عهدناك من جوف السماء لنا سما
حكيت لنا بالأمس عنهم حقيقة ... فأصبحت أنت اليوم ظناً مرجماً
عزيز علينا أن نراك على البلى ... تراباً تعى المشتوف أن يتيمما
تصدى له من لا يراقب حرمة ... ومن ليس يرعى للمكارم محرماً
وما ساءنى أن ترحل الدار بعدهم ... إذا ذهب الحامى فلا بقى الحمى

وقال هاجياً مازحاً :

ولقد رأيت وما سمعت بمثله   للبين بينهم غراباً أعصما
وجه عليه من القباحة مسحة   ظلم اليسار وقد رآه فأظلمـا
وعليه وجه قد أجيبت دعوة   فيه من الداعي عليه فأرغما
لو أنه ذنب لكان كبيرة   أو أنه طود لكان مقطما
لو شئت أن أرقى لنيل قرونه   لجعلت ذاك الكتف تحتي سلماً

وقال فى كتم السر :

السر مالٌ أو دم   في سحره لا في يديه
إن كان يكتم سره   كان الخيار به إليه
أو كان يفشي شره   كان الخيار به عليه

وقال من قصيدة :

وإن امرأً أنفاسه نحو قبره   خطاه لحثوث السير ولا يدري

وقال أيضاً :

يا خائباً بالمعـاصي   كفيت عقبى الخلو
لئن أمنت الأعادى   فالنفس أدنى عـدو

وقال فى كتاب :

كتاب صحبت الأنس حين قرأته
كصحبة ما فيه من اللفظ للمعنى
هو الجوهر الأعـلى وما قد رأيتـه
من الجوهر الأعلى هو العرض الأدنى

وقال :

لا يعجـز الله هارب هربا   سحابه مـدرك إذا طلبـا
أين يفر المغرور من أجـل   ومن بلاء كلاهما كتبا
إذا رأى الشمس حوله اشتبكت   ذل أداة تفيـدنى الغلبـا
وهي بمنصوبهـا له شرك   وهو على نفسـه به نصبـا
يا موقـد البغى إن موقـده   نـاره يصطلى بهـا حطبا
عمائم للسـنان تلبسها الرمـح وترخى لهـا الدما عـذبا
وتسبح العـدا بها قضـبا   تخـر يوم الوغى له القضـبا

وله أيضاً :

سرت فكأن الليل قبل خدها   فأبق به قطفاً وأسند عقربا
[illegible] استغربت فى موطن الحب غربتى
فهـذا الدجى في صبحهـا قد تغربا

وقال يخاطب الليل :

فياليل ما افترق العاشقان   إذا كنت بينهما حاضراً
فقد جاءني هاجرى واصلا   فلا يرجعن واصلى هاجرا
وسر به غلتى   واردا   ولا تفجعنى به صـادرا
ودعني أطارحه شكوى الفراق   واحفظ عهود الهوى ظاهرا
لعلك تعرف سر الغرام   فتصبح للمبتلى عاذرا
وتعشق بدرك عشق البدور   وترجع مثلى بهم حائرا
فلا تبعث العجز قبل اللقاء   ولا تتبع الأول الآخرا
فكم فى حواشيك من طائر   يقص به قلبي الطائرا
ويكسر صبحك لى عينه   فياليل دمت له كاسرا

هذه نماذج عرضتها من شعر القاضى الفاضل وهى ليست أحسن ما فى ديوانه ، ولكنها هى التى تعطى الأديب صورة صحيحة عنه ، وأردت بعرضها التنويه به كشاعر لا يزال ديوانه مخطوطاً ، موجهاً نظر الأدباء والباحثين إلى الكنز الثمين الدفين فى دار الكتب المصرية وغيرها — الذي إن كنا لا نستطيع نشره الآن ، فاننا لا شك نستطيع الاشادة به على صفحات « الرسالة » التى تغار على نشر التراث العربي القيم ، تاركا البحث والتحليل فى شعره وأدب غيره من الأدباء والمغمورين إلى الباحثين والأدباء .

أما ديوان القاضى الفاضل فمخطوط بمكتبة معهد دمياط ، وأخذت له صورة فوتوغرافية محفوظة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨٥٩ أدب .

محمد سعيد السحراوى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٧ —

ملكة الإنشاء

بلغ الرافعي الشاعر مبلغه بعد سنة ١٩٠٥ ، ونزل منزله بين شعراء العصر ، وجرت ريحه رُخاء إلى الهدف المؤمل ، فامتد نظره إلى جديد . . .

وأخذ الرافعي يروض قلمه على الانشاء ، لعله يبلغ فيه مبلغه في الشعر ، فأنشأ بضع مقالات مصنوعة فتنتْه وملكتْ إعجابه فتهيأ لأن يصدر كتاباً مدرسياً في الإنشاء ، سماه «ملكة الإنشاء» يكون نموذجاً للمتأدبين وطلاب المدارس يحتذون فنّه وينسجون على منواله ، ووعد قراءه أن ينتظروه في غلاف الجزء الثاني من ديوانه ؛ وأحسبه كان جاداً فيما وعد ، لولا أمور نشأت من بعد وصرفته عن وجهه ، فظل الوعد قائماً بينه وبين قرائه حتى نسيه ونسوه .

ولا أحسب أن شيئاً ذا بال قد فات قراء الرافعي بعدم نشر هذا الكتاب ؛ وحسْب الأدباء والباحثين في التاريخ الأدبي أن يقرءوا من هذا الكتاب الذي لم ينشر مقالات ثلاثاً نشرها الرافعي في الجزءين الثاني والثالث من ديوانه ، وفي الجزء الأول من ديوان النظرات ؛ إعلاناً ونموذجاً لكتابه ؛ فإن في هذه المقالات الثلاث كل الغناء للباحث ، تدله على أول مذهب الرافعي في الأدب الإنشائي ، وطريقته ونهجه (١)

***

الجامعة المصرية

قلت : إن الرافعي كان جاداً فيما وعد بإصدار كتابه « ملكة الإنشاء » لولا أمور نشأت من بعد وصرفته عن وجهه ؛ فهذا كان يوم إنشاء الجامعة المصرية في سنة ١٩٠٧ ، وكان أمرها هو ما يشغله .

كان قد مضى على الرافعي يومئذ عشر سنين في مدرسته التي أنشأها لنفسه ، وكان فيها المعلمَ والتلميذ ، يدرس ويطالع ويتعلم ، لايرى أنه انتهى من العلم إلى غاية ؛ وما كان يدرس ليكون عالماً في الأدب ، أو راوياً في التاريخ ، أو أستاذاً في فرع من فروع المعرفة ؛ إنما كان يدرس ليتزوّد للشعر زادَه ، وليبلغ من العلم مبلغاً يعينه على أن يقول وينشيء . فلما أنشئت الجامعة المصرية ، تطلّع إلى مايقال هناك في دروس الأدب ، لعله يجد فيه الجديد الذي يتشوّف إليه ويطلبه ؛ فماذا وجد هناك ؟ .

لقد مضى على إنشاء الجامعة سنتان وما استحدثت شيئاً في الأدب يفتقر إليه الرافعي ، وما تحدث أساتذتها حديثاً في الأدب لايعرفه الرافعي . ماذا ؟ أهذا كل ماهناك ؟ وأيقن الرافعي من يومئذ أنه شيء ، فلبث يتربص ...

وطال انتظار الرافعي وما استطاعت الجامعة أن تثبت له أن فيها دروساً للأدب ، وما استطاع الرافعي أن يقنع نفسه بأن في الجامعة أساتذة يدرسون الأدب ، فكتب مقالاً في (الجريدة) يحمل على الجامعة ، وعلى أساتذة الجامعة ، وعلى منهج الأدب في الجامعة . ورنّ المقال رنينه وأحدث أثره ، فاجتمعت اللجنة الفنية للجامعة ، ونشرت دعوة على الأدباء إلى تأليف كتاب في (أدبيات اللغة العربية) جعلت جائزة الفائز فيه مائة جنيه ، وضربت أجلاً لتقديمه إليها سبعة أشهر .

وقرأ الرافعي دعوة الجامعة ، فما رضي ولا هدأت نفسه ؛ لقد كان أمله يومئذ أكبر من ذلك ؛ إن مائة جنيه شيء مغْرٍ لمثل الرافعي الأديب الناشىء ، الموظف الصغير ، الزوج العائل ، أبي وهيبة وسامي ومحمد ؛ ولكن . . . ولكنه يطمع في أكثر من مائة جنيه ، يطمع في أن يكون هو أستاذ الأدب بالجامعة .

« إنهم على الأغلب سيعهدون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه ، فيكون الحاضر لديهم كالغائب عنهم . ولا فضل لدارهم إلا أنها مصدر التلقين ؛ فاذا طبع الكتاب صارت كل مكتبة في حكم الجامعة ، لأن العلم هو الكتب لا الذي يلقيه ، وإلا فما بالهم لايعهدون بالتأليف لمن سيعهدون إليه بالتدريس ؟ وهل يقتصرون على أن يكون من كفاية الأستاذ القدرة على إلقاء درسه دون

(١) اقرأ في الجزء الثاني من الديوان ص ٦٧ « وصف بحر » وفي الجزء الثالث ص ٨٠ « رسالة فكاهية » وفي ديوان النظرات ص ٩٢ « الحسن المصنوع »

القدرة على استنباط الدرس واستجماع مادته حتى لا يزيد على أن يكون هو بين تلامذته التلميذ الأكبر . . ؟

لمَ تنفض إدارة الجامعة يدها من قوم هم رؤساء الصناعة ، وظهور مناصبها العالية ، وألسنة الحكم فيها ؟ ثم تلتمس من ضعف الأفراد ما لم تؤمله في قوة الجماعة وهي تعلم أن الحمل الذي تتوزعه الأكف يهون على الرقاب [1] ؟ »

وما سبعة أشهر لمن يريد أن يؤلف في تاريخ آداب العرب ؟ إنه لفن لم يتناوله أحد من قبل ، وإن مراجع البحث لكثيرة وإن من وراء ذلك جهداً لا يطيقه إنسان .

وكتب الرافعي مقاله الثاني في (الجريدة) ينعت الجامعة ولجنة الجامعة ، ويتأبى على الدعوة التي دعت ، ويقرر أن الذين دعوا الدعوة إلى وضع الكتاب وجعلوا لذلك العمل إلى فِصاله سبعة أشهر ، إنما مست بهم الحاجة إلى كتاب وأعوزهم مؤلفه فالتمسوه بتلك الدعوة يفتشون عنه في ضوء الجائزة . . . ومضى الرافعي يتجنى ويتدلل ، وعادت الجامعة تفكر في الأمر .

وأعادت نشر المسابقة لتأليف الكتاب ، وزادت المدة إلى سنتين ، والجائزة إلى مائتين ، وتعهدت بطبع الكتاب المختار .

ووجد الرافعي ما يشغله ، فعاد إلى نفسه ، وأغلق دار كتبه عليه . . .

***

تاريخ آداب العرب

إن كثيراً من الأدباء لا يرضيهم أن يعترفوا للرافعي بيد على العربية أو يروا له صنيعاً في الأدب يستحق الخلود ، إلا حين يذكرون كتابه « تاريخ آداب العرب » ، وإنه لكتاب حقيق بأن يذكر فيذيع فضل الرافعي على الأدب والأدباء .

انقطع الرافعي لتأليف كتابه من منتصف سنة ١٩٠٩ ، إلى آخر سنة ١٩١٠ ، وفي سنة ١٩١١ أتم طبع الكتاب على نفقته قبل أن يحل الأجل الذي عينته الجامعة .

لم يكن الرافعي طامعاً في جائزة الجامعة . ولذلك لم يتقدم إليها به قبل طبعه ، ترفعاً عن قبول الحكم فيه لجماعة ليس منهم من هو أبصرُ منه بالمحكوم فيه .

كان أسبق المؤلفات ظهوراً إلى دعوة الجامعة ، الجزء الأول من كتاب العلامة جورج زيدان ، ثم الجزء الأول من تاريخ آداب العرب . « سبقه ذلك بشهر أو شهرين سبقاً مطبعياً » [1]

وكانت مقالات الرافعي في (الجريدة) ، وكتابه « تاريخ آداب العرب » من بعد ، هما السبب في تدريس الآداب العربية وتاريخها في الجامعة المصرية ، وهما السبب كذلك في وضع ما وضع من الكتب في هذا العلم .

وأعان الرافعي على جمع ما جمع من وسائل البحث لكتابه مكتبات ثلاث كلها حافل بالنادر من كتب العربية ، مطبوعها ومخطوطها ، هي : مكتبة الرافعي ، ومكتبة الجامع الأحمدي ، ومكتبة القصبي بطنطا .

وكان من وسائل تشجيعه على إتمامه وطبعه ، ما أعانه به مدير الغربية الأديب المرحوم محمد محب باشا من معونات أدبية ومادية ...

ليس من همي هنا أن أتحدث عن القيمة الأدبية لكتاب الرافعي تاريخ آداب العرب ؛ فقد فرغ الأدباء من الحكم عليه ، وما منهم إلا له فيه رأي محمود وثناء مستطاب ؛ وما ناله أحد بنقد إلا الأديب طه حسين الطالب بالجامعة المصرية ، إذ يقول في مقال نشرته له (الجريدة) سنة ١٩١٢ : « ... هذا الكتاب الذي نشهد الله على أننا لم نفهمه ... » لكنه عاد فصحح رأيه فيه سنة ١٩٢٦ ، فاعترف بأنه لم يعجبه أحد ممن ألفوا في الأدب إلا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي « فهو قد فطن لما يمكن أن يكون من تأثير القصص في انتحال الشعر وإضافته إلى القدماء ، كما فطن لأشياء أخرى قيِّمة وأحاط بها إحاطة حسنة في الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب العرب [2] ... » .

نال الرافعي بكتابه هذا مكاناً سامياً بين أدباء عصره ، وشغل به العلماء وقتاً غير قليل ، وحسبك به من كتاب أن يقضي الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد بك (باشا) أسبوعاً يخطب عنه في مجالس العاصمة [3] ويكتب عنه مقالاً ضافياً في الجريدة جاء فيه : « قرأنا هذا الجزء ؛ فأما نحوه فعليه طابع الباكورة في بابه ، يدل على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكاً تاماً وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفاً حسناً ؛ وليس من السهل أن تجتمع له

(١) ما بين القوسين من مقال الرافعي بنصه .

(١) حكاه الرافعي .

(٢) ص ٩٠ ، ٩١ في الشعر الجاهلي ، ص ١٠٢ في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين بك .

(٣) عبارة الأستاذ لطفي السيد إلى الرافعي .

الأغراض التي بسطها في هذا الجزء إلا بعد درس طويل وتعب مملٍ ... وأما أسلوب الرافعي في كتابته فانه سليم من الشوائب الأعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العرب المتأخرين ، فكأني وأنا أقرؤه أقرأ من قلم المبرد في استعماله المساواة وإلباس المعاني ألفاظاً سابغة مفصلة عليها ، لا طويلة تتعثر فيها ولا قصيرة عن مداها تودى ببعض أجزائها ... » .

وكتب عنه الأمير شكيب أرسلان — وهو أشهر كتاب العربية في ذلك الوقت — مقالة في صدر المؤيد جاء فيها : « لو كان هذا الكتاب في بيت حرام إخراجه للناس منه ، لكان جديراً بأن يُحَجَّ اليه ؛ ولو عكف على غير كتاب الله في نواشئ الأسحار ، لكان جديراً بأن يعكف عليه ... »

وقال عنه المقتطف : « إنه كتاب السنة ... » وما كتب المقتطف مثل هذه الكلمة من قبل ومن بعد لغير هذا الكتاب .

وأسلوب الرافعي في هذا الكتاب أسلوب العالم الأديب ، يجد فيه كل طالب طلبته من العلم والأدب والبيان الرفيع . وكان الرافعي يومئذ قد أتم الثلاثين ... !

* * *

في السنة التالية ، أصدر الرافعي الجزء الثاني من تاريخ آداب العرب ، وموضوعه اعجازُ القرآن ، والبلاغةُ النبوية ؛ وهو الذي أصدره من بعد في طبعته الثانيــة باسم « اعجاز القرآن[1] » ، وباسمه الثاني يعرفه قراء العربية ، وقد طبعه على نفقته المرحوم الملك فؤاد رحمه الله . وفي مكتبة الرافعي الآن أصولُ الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب ، ومعها تعليقات كان المرحوم الرافعي ينوي إضافتها إلى الجزء الأول في طبعته الثانية فعاجلته المنية ؛ فهل للعربية في هذا البلد أوفياء مخلصون يعرفون للرافعي منزلته ولكُتُبه مكانها فيطبعوا هذه الأجزاء الثلاثة وينشروها على الناس ؟ وهل يسمعني معالي وزير المعارف وهو القائم على شئون العلم في هذا البلد ، وهو هو الذي كان يعرف الرافعي صديقاً وجاراً مواطناً فوق معرفته إياه أديباً وعالماً وشاعراً كان في الأدباء والعلماء والشعراء خير داعية لمصر الزعيمة بين الناطقين بالضاد ...؟

(١) ليس في مكتبة من مكتبات التجارة الآن نسخة واحدة من تاريخ آداب العرب أو إعجاز القرآن على كثرة مايطلبهما الناس ؛ وقد عثر الرافعي في العام الماضي على نسخة قديمة منهما فاشتراها لنفسه بجنيه كامل ، وكان ثمنها من قبل ٢٠ قرشاً .

لقد قلتُها مرة ، فهل أظلّ حياتي كلها أهتف بهذه الأمة التي لا تعرف الجميل فلا تجيب ... !

أيها الناس ! لقد أوشكت أن أومن بأن الرافعي مات .. !

* * *

حاشية : قلت : إن من المكتبات التي استعان بها الرافعي في تأليف كتابه ، مكتبة القصبي بطنطا ، وهي المكتبة التي أنشأها وجمعها المرحومان الحسيبان الشيخ إمام القصبي وولده الشيخ محمد القصبي شيخا الجامع الأحمدي قبل المرحوم الشيخ الظواهري الكبير

وقد حدثني عنها أبي ، كما حدثني عنها المرحوم الرافعي ، أنها مكتبة حافلة ، مشحونة بفرائد العلوم والفنون ، زاخرة بنوادر المخطوطات والمطبوعات من كتب الدين والعربية ؛ وهيَ الآن محبوسة في حجرة رطبة لا ينفذ إليها الهواء من حجرات زاوية القصبي بطنطا ، لم يفتح بابها منذ ربع قرن أو يزيد لعدم عناية القائمين عليها وجهلهم بقدرها ، فإذا لم يكن السوس قد أتى عليها فإن هنالك فرصة لا تزال لإنقاذ ما يمكن انقاذه منها ، وحسْب العربية ما لقيت من أهلها في عصور الجهل والانحطاط يا أولي الألباب ... ! ؟

« شبرا » محمد سعيد العريان



الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٠ —

الديانة الفارسية

مصير العالم

يحدثنا قسم « الجاتها » أن نهاية العالم موقوتة بموت « زرادشت » وأن « أهورا » أراد أن يختم به هذه الحياة الدنيا ، وهو لهذا يدفعه في حماسة إلى تأدية رسالته بأسرع ما يستطاع ويأمره أن يصدع بأوامر ربه وأن يعلن أنه سيتقدم بعد موته إلى القضاة الثلاثة الواقفين على الميزان أمام باب الصراط ، ليؤدي الحساب عن نفســه والشهادة عن جميع أتباعه الذين سيتحقق فناؤهم على أثر موته .

غير أن الـكون ظل بعد « زرادشت » سائراً في طريقه كما كان في حياته وقبل وجوده ، ولم يمت الأنصار ولا الخصوم ، ولم ينته العالم . فلما رأى رجال الدين الألسنة الحداد بدأت تتجه اليهم من جانب خصومهم . أرادوا أن يتحللوا من هـذه الورطة التي أوقعهم فيها نبيهم الساذج ، فأضافوا إلى الـكتاب المقدس آيات جديدة تحوي تأويلات للآيات القديمة وتصرح بأن جميع الزمن المحدد للكون هو اثنا عشر ألف سنة مضت منها ثلاثة آلاف سنة في خلق العالم الروحاني ، وثلاثة آلاف في إنشاء العالم المادي ، وثلاثة آلاف فصلت بين وجود بني الانسان ووجود « زرادشت » ؛ وثلاثة آلاف بين عصر « زرادشت » ونهاية الحياة الدنيا . أما التصريح الجازم في الجزء القديم بأن نهاية العالم ستكون عند نهاية حياة « زرادشت » فقد عرفوا كيف يتخلصون منه بلباقة لا بأس بها حيث أعلنوا أن « زرادشت » لم يمت كما رأى الناس في الظاهر ، وإنما نزلت بذرته الخصبة في البحيرة المقدسة ؛ وستظل فيها تغدو وتروح حتى قبيل نهاية العالم ، فاذا حان هذا الوقت المضروب نزلت إلى هذه البحيرة فتاة عذراء طاهرة ، لتغتسل فيها ، وإذ ذاك تتغلغل هذه البذرة إلى بطن العذراء فتحمل لساعتها بمنجي العالم ومن على يديه سيكون انتهاؤه فاذا ولد هذا المنجي وشب ، أخذ يدعو إلى دينه واصطفى له من التلاميذ خمسة عشر رجلا وخمس عشرة امرأة ، ليعاونوه على تأدية رسالته إلى أن ينتهي أجله المحدد بسبع وخمسين سنة فينتهي بانتهائه الـكون . وعلى أثر ذلك يبدأ البعث فتمتلىء بقاع الأرض بمياه شديدة الحرارة تسيل كلها من معادن صهرتها النيران القوية فأما الأخيار فيحسون كأنها حمامات من لبن فاتر يجد الجسم فيه لذة وسروراً ؛ وأما الأشرار فسيجدونها قاسية مؤلمة ، ولعل العذاب بمياه هذه المعادن هو آخر ما يقاسيه أهل الأعراف الذين هم بين الجنة والنار ، ثم يدخلون بعد ذلك في زمرة المعفو عنهم

عند ذلك ينهزم إله الشر الهزيمة الأخيرة ويُلقى بالثعبان الذي كان يمثله في وسط هذه المعادن فينصهر فيها ويستقر كل من السعداء والأشقياء في مكانه استقراراً أبدياً بلا تغير ولا تبدل . ولـكن عقيدة التأبيد في الجحيم لم تستمر على حالها ، بل لم تلبث أن صارت موضع نقاش بين رجال الدين انتهى بأن قر الرأي على أن للعذاب في الجحيم حداً ينتهي عنده فيلحق المذنبون بالأخيار المنعمين ، وإذ ذاك يتم السلام النهائي .

الفلسفة العملية أو الأخلاق

ليست الأخلاق من وضع الأهواء البشرية ولا من اختراع المنافع الفردية حتى تتأثر بالأزمنة والأمكنة والظروف المختلفة ، وإنما هي قوانين عامة خالدة ، ولذلك نرى الفضائل الجوهرية هي هي عند قدماء المصريين ، وعند الهنود والفرس والصينيين واليونان والرومان كما هي عند شعوب القرن العشرين في جميع بقاع الأرض إلا من تغيرت طباعهم ، وتبدلت فِطَرهم بسبب من الأسباب التي أجمع علماء الأخلاق والنفس والاجتماع على تأثيرها في السلوك البشري .

لهذا كانت الفضائل عند الفرس كما هي عند غيرهم من الأمم تتألف من صفوف ودرجات ، لـكل صف منها منزلته الخاصة ، فمثلا الشرف والاحسان والأمانة الزوجية من الجانبين كانت في الصف الأول . ولقد كانت العدالة والدقة والاخلاص والصدق

من أجل الفضائل كما كان العمل على تنمية النوع البشرى وتقويته من أهم الواجبات الدينية ، ولهذا أباحت الشريعة « الزرادشتية » تعدد الزوجات ، ليكثر النسل ، وحرمت الصوم لتتوفر القوة فى جميع أفراد الشعب ، وكذلك محاولة زيادة خصوبة الأرض والاستمتاع بما فى هذه الحياة من خيرات ولذات مشروعة كانت من أسمى فروض الشريعة حتى أن إهمال بقعة من الأرض بدون نبات أو عدم الاكتراث بالتزين كارتداء رث اللابس أو عدم المبالاة بتنظيم قص الشعر والأظافر ، كل ذلك كان من الجرائم المقوتة ، أما الرذائل المستفظعة فهى أضداد هذه الفضائل طبعاً .

هناك فضائل ثانوية أو مستحبات أخلاقية مثل أكل اللحوم وجميع الأطعمة المغذية ومحاولة الاحساس بالسرور ، ومثل مهاجمة الأعداء من الأفراد بنظير ما قدموه ، أما الدفاع عن النفس أو عن الوطن ، فقد كان من الواجبات المقدسة .

هذه هى أهم الفضائل الجوهرية والثانوية ولم يبق عدا ذلك إلا أعمال هي إلى الأساطير الوثنية أقرب منها إلى الفلسفة العملية وذلك مثل حظر قتل القنافذ وكلاب البحر كما أسلفنا .

الديانة المانوية

حياة مانى

لم يعرف التاريخ عن حياة « مانى » أو « مانيس » مؤسس الديانة المانوية أكثر من أنه ولد فى « بابل » سنة ٢١٥ وقتله أحد ملوك الفرس فى سنة ٢٧٥ بعد المسيح وأنه كان متنسكا متصوفا متشائما لا يؤمن بانتصار الخير على الشر ألبتة ولا أمل عنده في صلاح هذا الوجود ؛ وأنه تأثر فى بعض نواحى مذهبه بالزرادشتية وفى البعض الآخر بالمتهرية القديمة التى عبثت بها العقلية الرومانية فبدلت منها الشيء الكثير ، وفى البعض الثالث بالديانة البراهمية الأولى ، وفى الرابع بالمسيحية قبل وضع قواعد الكنيسة كما يتبين ذلك كله فى آرائه .

مذهبه

يرى « مانى » أن العالم نشأ من عملاق قسم جسمه إلى أجزاء ثم كون الموجودات من بعض هذه الأجزاء . ولا ريب أنك تذكر أسطورة بدء الخلق عند الهنود ، وهي التى حدثتنا عن اشتياق الإله « براجاباتى » إلى التكثر وعن تجزئته نفسه ونشره أجزاءه فى الكون ليوجد منها جميع الكائنات .

أما رأيه فى المبادئ الأولى فهو يتلخص فى أن للكون مبدأين الخير والشر ، وهما أزليان أبديان متساويان فى كل شيء . ولاشك أنه فى هذه النقطة قد تأثر بزرادشت من ناحية وبديانة «الثانوية» الغالية التي نشأت من مذهب زرادشت من ناحية ثانية . وإليك ما يقوله الشهرستانى عن هذا المذهب : « حكى محمد بن هارون المعروف بأبى عيسى الوراق ، وكان فى الأصل مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم ، أن الحكيم مانى زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين ، أحدهما نور والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا ، وأنكروا وجود شيء لامن أصل قديم وزعم أنهما لم يزالا قويين ، حساسين ، سميعين ، بصيرين ، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان ، وفى الخير متحاذيان تحاذى الشخص والظل » . إلى أن يقول : « ثم اختلفت المانوية فى المزاج وسببه والخلاص وسببه فقال بعضهم : إن النور والظلام امتزجا بالخبط والاتفاق لا بالقصد والاختيار ؛ وقال أكثرهم : إن سبب المزاج أن أبدان الظلمة تشاغلت عن روحها بعض التشاغل فنظرت إلى الروح فرأت النور فبعث الأبدان على ممازجة النور فأجابتها لإسراعها إلى الشر ، فلما رأى ذلك ملك النور وجه إليها ملكا من ملائكته فى خمسة أجزاء من أجناسها الخمسة فاختلطت الخمسة النورية بالخمسة الظلامية فخالط الدخان النسيم ، وإنما الحياة والروح فى هذا العالم من النسيم ، والهلاك والآفات من الدخان ، وخالط الحريق النار ، والنور الظلمة ، والسموم الريح ، والضباب الماء ، فما فى العالم من منفعة وخير وبركة فمن أجناس النور ، وما فيه من مضرة وفساد وشر فمن أجناس الظلمة فلما رأى ملك النور هذا الامتزاج أمر ملكا من ملائكته فخلق هذا العالم على هذه الهيئة ، لتخلص أجناس النور من أجناس الظلمة » [1] .

الميتافيزيقا المانوية

يرى هذا المذهب أن الانسان الأول مخلوق للنور أو للشمس الذى هو « أهورا مازدا » وكان هذا الانسان فى أول الأمر نوراً

(١) صفحتى ٦٥ و ٦٧ من الجزء الثانى من كتاب الشهرستانى

محضاً وأن حكمة خلقه إياه إنما هي الجهاد ضد الظلام؛ ولكن هذا الخصم العنيف لم يلبث أن انتصر على الانسان وكبله بالأصفاد وقاده إلى سجنه الحالك ولكن قوة إله الخير عملت على تخليصه من هذا السجن فنجحت بعض الشيء ، لأن إله الشر كان قد تمكن من حبس جسمه النوراني في هذا النمد الكثيف المكون من المادة المظلمة . وإذاً ، فالمادة أو الجسم الانساني أو « الماكروسكوم » و « الميكروسكوم » كما كانوا يسمونهما هما أصل الشر والسوء في هذه الحياة ، لأنهما سجن الروح النورانية ومن هذا نشأت عند « ماني » فكرة وجوب تخليص النفس من الجسم أو إنهاء هذا العالم المادي باضعاف النوع البشري وإبادة النسل بوساطة حظر الزواج وغير ذلك من وسائل التخريب والتدمير التي عمل على نشرها والتي لم تكن ملائمة لطبيعة الفرس الذين حبب إليهم زرادشت متع الحياة ولذاتها وعرفهم وسائل القوة والاخصاب .

مصير العالم المادي

ليس للمانوية في هذا الشأن شيء جديد لأنها تبعث خطوات الزرادشتية شبراً بشبر وذراعاً بذراع إلا فيما يختص بفناء الشر وامتزاج مملكته بمملكة الخير وتحقق السلام العام ، فقد أنكرت المانوية ذلك تمام الانكار ، وجزمت بأن المملكتين ستظلان متباعدتين متعاديتين أبداً .

نهاية ماني

لم تكد مبادئ المانوية تنتشر في بلاد فارس حتى تذمر الشعب مما احتوت عليه من ضعف ويأس وتشاؤم وانزواء وحرمان من لذات الحياة المباحة ، ثم أخذت هذه الضجة تعلو وتنتشر حتى بلغت أسماع الملك فأحضره أمامه ، وناقشه في مذهبه ؛ فلم يخف عليه شيئاً مما فيه ، وصرح أمامه بأن التخلص من الشر أمر مستحيل ، وأن استمرار العالم في الحياة معناه استمرار الشر ، وأن الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذا الشر هي تدمير هذا العالم ، فلم يكن من الملك إلى أن قال له : إن الحكيم المخلص لمذهبه يجب أن يبدأ هو قبل غيره بتطبيق هذا المذهب على نفسه ، فإن لم يفعل بدأ أنصاره ومريدوه بتطبيقه على أستاذهم ، ولما كنا من أنصارك فقد وجب علينا أن نبدأ بتطبيق هذه المبادئ عليك ، ثم أشار إلى الجلاد أن ابدأ بتدميره ليؤمن قبل موته بالشروع في تحقيق مذهبه وقد حدث هذا بالفعل كما أشرنا إليه في حياة ماني .

الديانة المزدكية

عاش « مزدك » حوالي نهاية القرن الخامس بعد المسيح ، وكان قد تأثر بمذهب ماني من بعض نواحيه ، وسار على منواله في كثير من مبادئه الفلسفية والدينية ، وإن كان قد خالفه في آرائه الاجتماعية مخالفة شديدة حيث أعلن وجوب اعتناق الشيوعية الغالية ، وصرح بأنها هي وحدها الوسيلة إلى إبادة الشر ، إذ الحقد الذي يأكل قلوب بني الانسان ، والحرب التي تمزق أشلاء أحد الأخوين بيد الآخر لامصدر لهما إلا الأموال والنساء ، فاذا ألغيت الملكية وأبيد الزواج وأصبح المال والمرأة مباحين لجميع الأفراد بلا قيد ولا شرط طهرت القلوب من الحقد إلى الأبد ووضعت الحرب أوزارها إلى نهاية الوجود ، وهو كما يدني أن تباح الأموال والنساء ، يريد كذلك ألا يختص أحد بطقوس دينية دون الآخرين حتى تزول جميع الفروق والاختصاصات التي هي منشأ كل بلاء في هذا الكون .

سقوط الديانات الفارسية

لما فتح « الاسكندر المقدوني » بلاد فارس وانتشر الإغريق في أنحاء البلاد وأحرقوا الكتب المقدسة والصحف الدينية ، تبلبلت العقول والأفكار والعقائد في تلك الأصقاع ، وصادفت هذا الاضطراب ظروف أخرى لا تقل أهمية عن الأولى ، وهي اجتماع ذلك الخليط العجيب من الفرس والمصريين واليونان واليهود في مدينة الاسكندرية كما سنشير إلى ذلك عند الحديث عن الأفلاطونية الحديثة .

اجتمع هذان العاملان القويان فحدث من اجتماعهما مزيج ديني غريب غمر الشرق الأدنى من أقصاه إلى أقصاه . ويعلق الأستاذ « سورا » على هذا بقوله : « إن هذا التخمر الديني التباين المناصر هو الذي قذف بالمسيحية إلى حيز الوجود كما تقذف الأنبذة بالزبد إلى خارج أوانيها » .

هـذا في فلسطين ومصر ، أما في بلاد بارس فكانت سائدة فيها الديانة الفارسية « الزرادشتية » بعد أن عبثت بها أيدي الأهواء والأغراض ، وبدلت فيها وزادت عليها مطامع رجال الدين وشهواتهم ، وقد ظلت هذه السيادة طول حكم الدولة الساسانية ولم تحن الرأس إلا في القرن السابع بعد المسيح حين هاجمها الاسلام وهو في عنفوان شبابه ، فذابت أمام سطوته ذوبان السكر في الماء (على حد تعبير أحد المؤلفين الفرنسيين) وإن كان البعض الآخر من الباحثين يجزم بأن الديانة « الزرادشتية » لم تتلاش تماماً أمام الاسلام ، وإنما تركت آثاراً تذكر في بعض نواحيه ، إذ ليس بعض الفرق الاسلامية إلا لوناً من ألوان الديانة الفارسية ، بل ليس تغني عمر الخيام بالخمر وتقديس بشار بن برد للنار وزندقة ابن المقفع ومروق الجاحظ في بعض آرائه إلا من بقايا الديانات الفارسية .

غير أن الذي لا شك فيه هو أن الاسلام قد اكتسح الديانة « الزرادشتية » اكتساحاً ملموساً ولم يدع لها من معتنقيها إلا نحو عشرة آلاف نسمة في بلاد الفرس ونحو مائة ألف في بلاد الهند وهم الذين أشرنا اليهم في مبدأ حديثنا عن الفرس ، وقلنا إنهم لا يزالون يعرّضون جثث موتاهم للوحوش .

أما المانوية فقد انتقلت إلى أوربا مع الرومانيين الذين كانوا في بلاد فارس ، ثم جعلت تنتشر في جميع أجزاء الامبراطورية الغربية الرومانية ، ولكن في خنوع وإذعان للمسيحية جعلاها إلى الأهازيء أقرب منها إلى المذاهب الجدية كأن تصرح مثلاً بأن خالق الكون هو إله الشر ، وأن المسيح هو إله الخير خصمه العنيف الذي ضرب المثل الأعلى على خيريته بتضحية نفسه للصلب في خير الإنسان .

ما زالت هذه الديانة المانوية تتلاشى في المسيحية على هذا النحو حتى ابتلعتها نهائيا ولم يبق لها في الوقت الحاضر من أثر في أوربا إلا على الآراء الاجتماعية مثل الاشتراكية والشيوعية وما شاكلهما من الآراء المتطرفة التي اعتنقتها المانوية بعد عصرها الأول ثم حملتها معها إلى أوربا فكانت جرثومة كثير من المذاهب الاجتماعية الأوربية في العصور الحديثة .

« يتبع »

محمد غلاب

التخيـــــــل[1]

للدكتور جميل صليبا

التخيل بحسب اصطلاح الفلاسفة معان كثيرة فبعضهم (ديكارت) جعله قوة مصورة تعيد ما في الخيال من الصور وتمثله تمثيلا محسوساً . وبعضهم جعله قوة مبدعة تركب الصور وتؤلف المعاني الجديدة وتخترع . وبعضهم جعله قوة وهمية كاذبة تنشأ عنها الأوهام والأحلام ، حتى لقد وصف تلاميذ ديكارت هذه القوة بقولهم: إنها « مجنونة المنزل» و « باعثة على الخطأ والرذيلة» أما فلاسفة العصر الحاضر فيجدون التخيل ضرورياً للانسان لأنه يخفف آلامه ويحبب إليه الحياة ويكشف له عن أسرار الكون . إن اختلاف معاني التخيل جعل أحد الفلاسفه المعاصرين يقول : إن هذه الكلمة الضرورية للغة العامة يجب أن تزول من قاموس علم النفس لكثرة معانيها[2] وأنه يمكن استبدالها بكلمات أوضح منها كالصورة والابداع والأحلام . على أنه لا غنى لنا عن هذا الاصطلاح لأن في كل من الصورة (التخيل التمثيلي) والابداع والأحلام شيئاً من التخيل . ولنبحث الآن في التخيل المبدع

التخيل المبدع

التخيل التمثيلي والتخيل المبدع : الحقيقة والخيال

التخيل التمثيلي هو ذاكرة بدون عرفان ، أو هو كما قيل رجوع الصور النفسية إلى ساحة الشعور . ونحن نعلم أن الصورة هي بقاء الاحساس في الشعور بعد غياب المؤثر . أو هي ذكرى الاحساس . فإذا استرجع الإنسان صورة جبل أو نهر ولم يعرف أي جبل يرى ولا أي نهر يتصور كان تخيله تمثيلياً Imagination reproductrice لأن الخيال يعيد ما حفظته النفس وبقي فيها بعد غياب المحسوسات. فهو إذن شبيه بالذاكرة إلا أنه كما قلنا ذاكرة بدون عرفان . إن هذا الخيال التمثيلي يقتصر كما ترى على استرجاع الصور المحفوظة في

(١) من كتاب « علم النفس » للدكتور جميل صليبا يقوم بطبعه « مكتب النشر العربي بدمشق »

(٢) غوبلو Goblot المفردات الفلسفية . مادة التخيل . الخيال بحسب الاصطلاح غير التخيل (ابن سينا)

النفس . أما التخيل المبدع فيركب هـذه الصور ويستخرج منها نماذج جديدة . أنظر إلى المصور ، إنه يرسم بريشته صورة خيالية يراها فى أعماق نفسه فهو لم يسترجع صورة بسيطة محفوظة فى نفسه فقط بل ركب بعض ما فى هذه الصور البسيطة إلى بعض فألف منها صورة جديدة .

إلا أن هذا الفارق بين التخيل التمثيلي والتخيل المبدع ليس مطلقاً ، لأن الخيال التمثيلي لا يسترجع الصور النفسية كما هى بل يبدلها فيمحو بعض عناصرها ويضم إليها بعض العناصر الجديدة. وقد بينا ذلك عند البحث فى الشعور وخطور الذكريات . فالذكريات ليست صوراً مطابقة للماضي بل هى فى الغالب مركبة من الماضي والحاضر معاً ، لأن النفس تنشئها إنشاء ، والادراك ليس بسيطاً بحيث يحدث فى النفس خيالا مطابقاً للشئ المدرك فقط . بل هو إنشاء صورة مركبة من عناصر نفسية متحولة . فالصورة ليست إذن خيالا ثابتاً بل هي حقيقة متبدلة ، حتى لقد قال المسيو (لوروا) : « الادراك والتذكر كل منهما اختراع » .

وعكس ذلك صحيح أيضاً . أى إن التخيل المبدع لا يبدع الصور من العدم بل يستمد عناصرها من الواقع . فالخيال إذن منسوج من الحقيقة . وقد فرقوا فى الإبداع بين الصورة والمادة فقالوا : إن التخيـل لا يبدع مادة جديدة بل يقتصر على جمع بعض الصور إلى بعض فيحلل ويركب ويصغر ويكبر . فهو يبدع صورة جديدة ، إلا أن مواد عمله مقتبسة كلها من الواقع . فالصورة وحدها إذن جديدة ، والتخيل مبدع بمعنى أنه يجمع العناصر بعضها إلى بعض فيؤلف منها مركبات جديدة . فكل إبداع هو فى الحقيقة تركيب .

وإذا قيل : إن العقل لايقتصر فى الابداع على جمع الصور وإنه إنما يجمع هذه الصور إلى المعاني المجردة والأحوال الانفعالية والنزعات والاهواء ، قلنا مهما كان نوع التركيب ، ومهما كانت حالة العناصر فان الابداع ينتهى دائماً إلى الصور . قال أحد العلماء المعاصرين ما خلاصته : « المخترع شاعر حدسي . قد يقال إن هناك عقولاً منطقية ، جدلية لاتتقدم إلا بالقياس والخطاب ـ سيراً على طريقة (فوبان) الذى كان لايهجم على حصن قوى إلا بعد أن يعد للأمر عدته ـ غير أن الأمر على خلاف ذلك ، لأن هذه العقول حدسية أيضاً ، فهى تجمع ثنايا الطرائق وأصول المنطق وأحكام العقل وصور القياس بعضها إلى بعض بدلاً من أن تجمع الألوان والأصوات والأوزان والاستعارات الحسية ، والأوضاع المشخصة » . ومهما كان الاختراع فى أوله بعيداً عن الصورة فهو دائماً يقلب المثال المجرد إلى صورة محسوسة تدل عليه وتجيبه وتخرجه من أعماق اللاشعور إلى الحياة الظاهرة الملموسة .

هل تستطيع النفس أن تبدع الصور ؟

إن أكثر علماء النفس يقولون مع « لوك » Y. Loch إن النفس عاجزة بنفسها عن ابداع أية فكرة بسيطة . فكل صورة هى إذن نسخة ، ولاتصور إلا بالاحساس . إن الأكمه لايستطيع تصور الألوان ، والأصم لا يستطيع أن يبدع الألحان . فالتخيل ليس مبدعاً من حيث هو موجد ، بل هو مبدع من حيث هو مركب

إلا أن الفكر يجمع كما قلنا فى هذا التركيب عناصر مختلفة فهو يجمع الصور المشخصة إلى الفكر المجردة ، والنزعات والأهواء . ولعله لايعجز عن إبداع بعض الفكر ، أما الصور فلا يتناولها إلا عن طريق الاحساس ، وإذا تمثلها أمكنه أن يمزج بعضها ببعض ويحصل بهـذه الممازجة عن صور جديدة . نعم إن الأكمه لايستطيع تخيل الألوان ، ولـكن البصير يستطيع أن يتخيل ألواناً متوسطة مركبة من الألوان البسيطة فيتصور لوناً بنفسجياً أكثر احمراراً من البنفسجي الطبيعي . قد يقال : إن الطبيعة أغنى من الفن ، وإن اختراعات المصورين ليست إلا تقليداً لما فى الطبيعة من الصور المختلفة وإن فى غروب الشمس من الألوان مالا يستطيع أعظم المصورين أن يأتى بمثله . هـذا صحيح ، لأن الألوان الطبيعية أكثر تنوعاً من الألوان الفنية . إلا أن أصوات الطبيعة أفقر من أصوات الفن ، وهى فى الغالب على نمط واحد . كحفيف الأغصان وتغريد الطير ، وخرير المـاء ، ونقيق الضفدع . إن آلات الفن ليست من هبات الطبيعة بل هى من اختراع الانسان . نعم إن الانسان لم يتصور بوضوح لحن العود قبل اختراعه له ولـكن العود لم يتكامل إلا بعد أن انتقل الانسان به من صوت إلى آخر وتخيل فى كل دور من أدوار انتقاله صوتاً أحسن وقعاً وأعمق تأثيراً من الأصوات المألوفة ، ففى كل درجة من درجات هذا التكامل قد تقدم الخيال وأبدع صورة جديدة لاعهد للفن بها من قبل .

« دمشق » جميل صليبا

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

بقية كلامه عن (الفداء)

لذلك تهب الإرادة وقد تملكها الغيظ مقتلعة الأحجار منتقمة من كل من لا يجاريها في كيدها وثورتها، وهكذا تصبح الإرادة المنقذة قوة شريرة تصب جام غضبها على كل قانع بعجزها عن الرجوع إلى ما فات. وهل انتقام الإرادة إلا عبارة عن كرهها للزمان لأنه أوقع ما لا قبل لها برده؟

والحق أن إرادتنا مصابة بالجنون، وقد نزلت لعنة على البشرية منذ تعلّم الجنون أن يتفكر. فإن خير ما طرأ على الإنسان حتى اليوم إنما هو فكرة الانتقام؛ وهكذا سيبقى العقاب ملازماً للألم في كل زمان وفي كل مكان. وهل فكرة الانتقام إلا العقاب بذاته، فما كلمة الانتقام إلا كلمة مكذوبة يقصد بها التعبير عن الضمير.

إن كلّ مُريدٍ يتألم لأنه لا قِبلَ له بالرجوع إلى الماضي لردّ ما فات، ولهذا لزم أن تكون الإرادة بل كل حياة على الاطلاق كفّارة وعقاباً.

بمثل هذه الاعتقادات تلفّع العقل بالغيوم فانبثق منه الجنون هاتفاً: كل شيء يزول، فكل شيء يستحق الزوال.

إن العدل نفسه يقضي بأن يفترس الزمان أبناءه، هذا ما أعلنه الجنون.

لقد وضع الناموس الأدبي وفقاً للحقوق وللعقاب، فأين المفر من نهر الحياة الجارف وما الحياة إلا عبارة عن عقاب؟ وهذا أيضاً ما أعلنه الجنون.

ليس من حادث واحد يمكننا أن نزيله من الوجود، فكيف للعقاب أن يمحو الحادثات؟ وهل من خلود لنير الأعمال في وجود لا ينفك يحول العمل عقاباً والعقاب عملاً؟ ولا مناص من هذه الحلقة المفرغة ما لم تتوصل الارادة إلى الفرار من ذاتها فتصبح حينذاك إرادة منفية.

إنكم تعرفون، أيها الاخوة، هذه الأغاني التي يتشدق بها الجنون. وقد أقصيتكم عن سماعها عند ما علمتكم أن الارادة مبدعة. كل ما فات يبقى مبدداً منثوراً كأنه أسرار ومصادفات رائعة إلى أن تقول الإرادة: إنني أنا أردت هذا. ثم تقول: وهذا ما أريده الآن وسأريده غداً.

هل نطقت الارادة بمثل هذا حتى اليوم؟ وإلى متى ستنطق به؟ هل هي تملصت من قيود جنونها فأصبحت تفتدي الحادثات بعزمها وتبشر بالحبور؟ هل هي اطرحت فكرة الانتقام وتوقفت عن حرق الأرم من كيدها؟ من ترى تمكن من تعليمها مسالمة الزمان بل ما يفوق هذه المسالمة؟

يجب على الارادة ولا أعني سوى إرادة الاقتدار أن توجه مشيئتها إلى ما هو أعظم من المسالمة. ولكن أنى لها ذلك ومن سيعلمها أن توجه هذه المشيئة إلى ما فات؟

وتوقف زارا عن الكلام فجأة كأن رعباً شديداً حل به فاتسعت حدقتاه وشخص بأتباعه سابراً أفكارهم وما وراء أفكارهم غير أنه ما لبث أن عاد إلى الضحك فقال بكل هدوء:

— ما تهون الحياة بين الناس لأن الصمت صعب على المرء وخاصة إذا كان ثرثاراً.

هكذا تكلم زارا . . .

ولكن الأحدب الذي كان يصغي إلى هذا الحديث وهو يستر وجهه بيديه سمع قهقهة زارا ففتح عينيه مستغرباً وقال: — لماذا يخاطبنا زارا بغير ما يخاطب به أتباعه.

فقال زارا: — وهل من عجب في هذا؟ أفما يصح أن يخاطب الأحدب بأقوال لها حدبتان.

فقال الأحدب: — ولا عجب أيضاً في أن يخاطب زارا تلاميذه كمعلم أولاد، ولكن لماذا يخاطب أتباعه بغير ما يخاطب به نفسه . . .

هكذا تكلم زارا ...

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٨٨ — العرب واليهود في الأندلس

كتب أيوب بن سليمان المرواني [١] إلى بسام بن شمعون اليهودي الوَشْقي [٢] في يوم مَطير :

لما كنت — وصل الله إخاءك وحفظك — مطمح نفسي ، ومنتزع اختياري من أبناء جنسي ، على جوانبك أميل ، وأرتع في رياض خلقك الجميل — هزتني خواطر الطرب والارتياح في هذا اليوم المطير ، الداعي بكاؤه إلى ابتسام الأقداح واستنطاق البمّ والزير [٣] ، فلم أر معيناً على ذلك ، ومبلغاً ماهنالك ، إلا حسن نظرك ، وتجشمك من المكارم ما جرت به عادتك : وهذا يوم حرم الظرف فيه الحركة ، وجعل في تركها الخير والبركة . فهل توصل مكرمتك أخاك إلى التخلي معك في زاوية ، متكئاً على دَنّ مستنداً إلى خابية [٤] . ونحن خلال ذلك نتجاذب أهداب الحديث التي لم يبق من اللذات إلا هي ، ونجيل الألحاظ فيما تعودت عندك من المحاسن والأسماع في أصناف الملاهي ، وأنت على ذلك قدير ، وكرمك بتكلفه جدير . ولا يعين المرء يوماً على راحته إلا كريم الطباع ، وها أنا والسمع مني إلى الباب وذو الشوق حليف استماع :

فذن أني داع بنيل المنى ودعت أشجاني ونعم الوداع [٥]

١٨٩ — شاعرة يهودية أندلسية

في (النفح) : كانت بالأندلس شاعرة من اليهود يقال لها قسمونة بنت اسمعيل اليهودي ، وكان أبوها شاعراً واعتنى بتأديبها

(١) هذا المرواني من ذرية عبدالعزيز أخي عبدالملك بن مروان وهو من أهل المئة السادسة (النفح)

(٢) وشقة : بلدة في الأندلس

(٣) البم : الوتر الغليظ من أوتار المزاهر (اللسان) الزير : الدقيق من الأوتار أو أحدها وأحكمها فتلا (التاج)

(٤) الخابية : أصله الهمز لأنه من خبأت إلا أن العرب تركت همزها

(٥) ذلكم الذي في الأندلس ، والحال في هذا الدهر كما قال : وليس بيني وبين قيس ... ، وفي سياسة الانكليز ومكرهم ، وحمق اليهود ، جنون اليهود

وربما صنع من الموشحة قسما فأتمته هي بقسم آخر . قال لها يوما : أجيزي هذا البيت ، فأجازته ، فقام كالمختبل وضمها اليه ؛ وجعل يقبل رأسها ، ويقول : أنت (وعشر الكلمات) أشعر مني . ونظرت في المرآة يوما فرأت جمالها وقد بلغت أوان التزوج ولم تتزوج فقالت :

أرى روضة قد حان منها قطافها وليس يرى جان يمد لها يدا

فوا أسفي ! يمضي الشباب مضيعا ويبقى الذي ما إن أسميه مفردا

وقالت في ظبية عندها :

يا ظبية ترعى بروض مزهر إني حكيتك في التوحش والحور

أمسى كلانا مفردا عن صاحب فلنصطبر قسراً على حكم القدر

فسمعها أبوها فنظر في تزويجها .

١٩٠ — بلاد أمان

المتنبي :

حمى أطراف فارس شَمَّريٌّ يحض على التباقي بالتفاني [١]

فلو طرحت قلوبُ العشق فيها لما خافت من الحدَق الحسان [٢]

١٩١ — ثهلان ذو الهضبات ما يتحلحل

قال ابن قتيبة : كان الأحنف إذا أتاه إنسان أوسع له ، فان لم يجد موضعاً تحرك لِيُرِيَه أنه يوسع له . وكان آخر لا يوسع لأحد ويقول : ثهلانُ ذو الهضبات ما يتحلحلُ [٣]

١٩٢ — لا تسألوا عن أشياء

سُئل بعضُ الوعاظ : لِمَ لَمْ تنصرف (أشياء) ؟ فلم يفهم ماقيل له ، ثم سكت ساعة فقال : أنت تسأل سؤال الملحدين لأنّ

(١) التاج : قال الفراء : الشمري : الكيس في الأمور المنكمش (انكمش في الأمر تشمر وجد) وشمري فيها أربع لغات إحداها فتح الشين والميم . والشطر الثاني إما من قوله (تعالى) (ولكم في القصاص حياة) وإما من قول أبي بكر لخالد : (أطلب الموت توهب لك الحياة) وقول المتنبي هو في عضد الدولة

(٢) معنى بديع غريب . قال العكبري وغيره : يريد بقلوب العشق أهل العشق . قلت : ربما أراد العشق نفسه . وهو الشعر ومبالغته

(٣) للفرزدق وأصله :

فادفع بكفك (إن أردت) بناءنا ثهلان ذا الهضبات ، هل يتحلحل ؟

وقبله :

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل

الله يقول : (لا تسألوا عن أشياء)[1]

١٩٣ — ليتنا نخرج منه كفافاً

سئل الشعبي هل يجوز أن يؤكل الجني لو ظفر به ؟
فقال : ليتنا نخرج منه كفافاً لا لنا ولا علينا . .

١٩٤ — رأى السلامة في الوقف

في (البيان والتبيين) : كان مهدي بن مهلهل يقول : حدثنا هشام (مجزومة) ثم يقول : ابن (ويجزمه) ثم يقول : حسان (ويجزمه) لأنه حين لم يكن نحوياً رأى السلامة في الوقف

١٩٥ — نعوذ بالله من قوم لايشعرون :

في (الغيث المسجم) : قال بعضهم يعتذر عن اشتغاله بالشعر : ولعمري ما أنصفني من أساء بي الظن ، وقال : كيف رضي مع درجة العلم والفتوى بهذا الفن ، والصحابة كانوا ينظمون وينثرون ، ونعوذ بالله من قوم لايشعرون !

١٩٦ — هذا سبب الإعجاب

قال اسحق الموصلي : قلت لزهراء الكلابية : حدثيني عن قول الشاعر :

أحبك أن أخبرت أنك فارك
لزوجك ؛ إني مولع بالفوارك[2]

ما أعجبه من بغضها لزوجها ؟

فقالت : عرفته أن في نفسها فضلة من جمال وشمخاً بأنفها وأبهة ، فأعجبته

(١) الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ، عفا الله عنها ؛ والله غفور حليم »

وأشياء عند الخليل (فعلاء) وعند الأخفش (أفعلاء) وعند الكسائي (أفعال) وهناك أقوال في سبب المنع منها أن ترك صرفها لكثرة الاستعمال خفت كثيراً فقابلوا حفها بالسقيل . . . ومنها التشبه بفعلاء ، وقد يشبه الشيء بالشيء فيعطى حكمه . . .

ومن وقف على كلام النحاة في (أشياء) عذر هذا الواعظ المسكين . . .

(٢) في (الأساس) : فلانة فرك من الفوارك وهي خلاف العروب . وحبيب الساء العلوب ، العروب ، وقد تعرفت لزوجها إذا تعرضت له وتحببت إليه

١٩٧ — اسقه الماء

دخل الشعبي على مسلم بن قتيبة فقال له : ماتشتهي ياشعبي ؟
فقال : أعز مفقود ، وأهون موجود
فقال : يا غلام ، اسقه الماء

اصلاح

كان (تطبيع[1]) في النقلة (١٨٠) وهو (أول نشوئه) وصوابه . (أول نشوءه) وفي النقلة (١٨٧) وهو :

لكنها المصة من ريقك ترياق مجرب

وصوابه : لكن المصة من ريقك ترياق مجرب

والخطب في زيادة (ما) في لكن (وتشديد نونها) فهدمت الزيادة البيت ، ورب زيادة نقص . وهي (المطبعة) ودواهيها

(١) التطبيع : لفظة وضعتها للخطأ المطبعي وشرحت أمرها في مقالة في (البلاغ)

الصحراء

للأستاذ أنور العطار

سَرَبَتْ فى رحابها قصص الحب   وغنت فى شاطئيها الرمالُ
ما ثنتها الأخطاب عن متعة الشدو   ولا طاف بالنشيد ملالُ
تتغنى والكون نشوان باللحن   فتهتز فى الأقاصي الجبالُ
وتضج الوديان بالنغم البكر   وتزهى أغوارها والدحالُ
نغمات أصغت إليها الليالي   ووعتها العصور والأجيالُ
فإذا العالم ابتسام وصفو   وربيع منضر مخضالُ
وإذا الكائنات يغمرها النور   ويطفو على مداها الجلالُ
خفقت حولها بخير الرسالات   وسح الندى وفاض النوالُ

* * *

المروءات لمحة من سناها   والبطولات والحجا والكمالُ
ملء أفيائها السخاء المنقى   ملء أعطافها السرى والنضالُ
كرمت عنصراً وطابت نجاراً   وصفت كالنمير فيها الخلالُ
فهي مهد النجوى ومنبثق النور   ودنيا ترودها الأبطالُ
ما عليها إن شحت الأرض بالخير   إذا لم تشح فيها الخصالُ
ليس يحيا فيها الضراعة والذل   ولا يصحب العلا إذلالُ
لا تطيب الحياة تطفح بالبؤس   إذا لم يهزها استبسالُ
حرة تنجب الغطارفة الصيد   فلا عاجز ولا سآلُ
كلهم كادح نمته المروءات   وزانت أقواله الأفعالُ
يغنم العيش خالصاً لم يهجنه   ابتذال ولم يعبه اتكالُ
والهناءات شرعة لم يردها   خائر العزم ، والهناء اهتبالُ

* * *

هاهنا الشعر والرحيق المصفى   هاهنا السحر والليالي الخضالُ
هاهنا السامر المضمخ بالعطر   وللحب فى حماه اختيالُ
هاهنا قيس يسكب الروح أنغاماً   وعيش المتيمين ابتهالُ
شجن صارخ ويأس مذيب   وحظوظ سود ودمع مذالُ
ضائع فى مجاهل الأرض تبكي   لبكاه الآثار والأطلالُ
يسأل النجم أين ليلاي يا نجم   ولا يهدي المحب السؤالُ
تتناجى الرمال إن هو غنى   وترامى كأنها الأطفالُ
يرسل الشعر حافلاً بالخيالات   كما ترسل الرؤى الآصالُ
تتنزى أضلاعه من جوى الحب   وداء الهيام داء عضالُ
يا له شارداً تقاذفه البيد   ويطويه ضعفه والكلالُ

* * *

لمعت فى القفار هلهلة الفجر ، وللفجر مطرف هلهالُ
فعلى الرمل من رؤاه تهاويل   وفى الأفق جدول سلسالُ
والنعامات ماتني مجفلات   ولقد زان حسنها الإجفالُ
هي فى بسمة الصباح أباديد   وفى موجة الضحى أرسالُ
تتحرى مواقع الماء تجلى   لاهفات ووردها الأوشالُ
صغرت رقعة الفلاة بعينيها   وقل المدى وضاق المجالُ
تنهب العمر فى مسابقة الظل   فيضوي أرواحها الإرقالُ
قلت مجنونة أطاف بها الذعر   فما تستقر فيها الحالُ
عيشها كله عناء وكد   وانتواء لا ينقضي وارتحالُ
زحمت فى وجيفها منكب الريح   وضاعت كما تضيع الظلالُ
فهي خط فى مصحف الأفق ناء   غيبته الأبعاد والأطوالُ

* * *

عن يميني وعن شمالي رمال   قلقات مروعات نهالُ
يوشك الهلك أن يصافح عيني   وبي منه رعدة وانذهالُ
هاهنا الموت كالح الوجه باد   وله جرأة وفيه صيالُ
لطمت خدها الجنوب من الذعر   وجنت من الصراخ الشمالُ
والمنحدت فى الرياح توالى   لم يفتها الإرنان والإعوالُ

* * *

دارة للعواصف الهوج تلهو   فى حماها الخطوب والأهوالُ
تتلظى الرمضاء فى ساحتيها   ولها فى دم الشموس اغتسالُ
تتحدى الدنيا وتصطخب الأرض   وترغى فيها الشجون الثقالُ

وهي غلفاء ما يعاودها الرعـ ـب وليست تروعها الأوجال
لاتنال النكباء من عزمها التثبـ ـت وما إن يهيجها زلزال
جثمت في فضاء ربى شمّا ء وتاهت كأنها الرئبال

* * *

أغفت الكثب ما تبين من البهـ ـر وتشت من الظماء التلال
حمت الكائنات واحتدم الحر وذاب الحصا وسال الضال
لفظت روحها الهجير ملالا وتراخت من اللهاث الرئال
يأكل الحر لحمها وهي صرعى مثلما تأكل الشموع الذبال
فهي هلكى على فراش من الجمـ ـر براها شحوبها والهزال

* * *

أيهذا السراب يا صورة الدنـ ـيا تهاوت في لجك الآمال
لحت لي تزدهيك بيض الأماني فارتوى خاطري ورف الخيال
علقت مهجتي بلألائك الغمـ ـر وأغفى بناظري الزيال
فنيت في رؤاك قافلة العمـ ـر وأودى بها الأذى والمطال
لم تزل ترتمي على الماء هيمى وهو ناء لا يدّنيه منال
شخصت مقلتي وضل ضلالي ومن الحب فتنة وضلال
تتسلى بنا الأعاليل جذلى والأعاليل محنة وخبال
لا يرد الإعياء عنا التشكي لا ولا يصرف العذاب مقال
فاضحكي يا رمال من خدع الآ ل فقد يضحك الفطين الآل
وارقصي في مجاهل البيد حتى تتمايا الجنان والأعوال
وامرحي في سوانحي وخيالي ليس يثنيك عن مرام محال
واحطمي هذه القيود لأحيا ربما أفنت المنى الأغلال
ودعيني أعش كما انتفض الطل ورف السنا وماج الزلال
أو كما غردت عشاش القماري وتغنى في الوهدة الشلال

* * *

خفق القلب فاذكرت بلادي وبلادي الحقول والأدغال
وبلادي الأنهار تهتف سكرى والندى السمح والسلاف الحلال
والرياض اللطاف تعبق بالعطـ ـر حلتها الأفياء والأظلال
والينابيع حفل بالأناشيـ ـد تراخى فيها السنا والبلال
لا يروعك مدمعي وهيامي أنا سر الهوى وأنت الجمال
تتراءى لناظري منك أروا ح رقاق يلذ منها الوصال
فأناجي وما أمل التناجي وأغني وللهوى استرسال
وبنفسي لحن حبيب يسليـ ـني وحلم يهفو إليه البال
وتصاوير من رباعي شتى ما لها الدهر في الوجود مثال
هي سلواي إن أظلني الهم ومادت بي الخطوب الطوال
نهل الحب من مناعمها الزهـ ـر وضاءت بسحرها الأشكال
فهي في العين صورة ليس تمحي نام عنها البلى وأغفى الزوال
وهي في القلب فرحة تملأ القلـ ـب فتطوى بحلمه الآجال
يا رباع الخلود عاش لك السعـ ـد ولا زال خدنك الإقبال
أنت مني الحلم الذي أشتهيه وحنى ومفزعي والمآل

* * *

أيهذا القفر الذي ادرع الهو ل وغابت في صمته الآزال
أنا في كونك الرحيب نداء أخفتته الأوجاع والأعلال
تترامى بي الهموم العواتي والشجا المر والأذى والنكال
أتعبتني المنى وما زلت أشقى وأعنى وللمنى بلبال
وبقلبي داء عياء قد استعـ ـصى وجرح لا يعتريه اندمال
وجناح الحياة مني مهيض لا تنوّيه رحلة وانتقال
فلعلي أبل في جوبي البيـ ـد وما يرتجى لي الإبلال
خاطري من أذية الدهر مكدو د وجسمي من الضنى أسمال
أقطع العمر في غمار الرزايا وحياتي زهادة واعتزال

* * *

يا رمال الآباد ما آدك السـ ـير ولا هد عزمك الترحال
أبدا توغلين في المجهل النا ئي وما إن يروعك الإيغال
غاب في يمك الرهيب أخو القفـ ـر وطاح المسافر الجوال
هدأ الدهر من نضالك تعبا ن وما نال من قواك النضال
أنت لحن من الخلود نقي ونشيد من البقاء حلال

أنور العطار



اختيار الأسماء وتبديلها

« وعلم آدم الأسماء كلها » القرآن

استبدل[1] سميّ صاحب النبي — زاد الله مصر في أيامه ارتقاء ومجداً — بذلك الاسم الأعجمي ، هذا الاسمَ (الفريدَ) العربيَّ مستناً بسنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) و « لكمْ في رسولِ الله أُسْوَةٌ حسنة » ففي (صحيح التِّرمُذى (٢)) : « كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يغير الاسم القبيح » وفي(مسلم والترمذى وأبي داود) : « عن ابن عمر — رضي الله عنهما — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — غيّر اسم عاصية وسماها جميلة » وفي (صحيح البخاري) : « قال : ما اسمك ؟ قال : حَزْن ، قال : بل أنت سهل » وفي (سنن أبي داود) : « سمي حرباً سلماً وسمى المضطجع المنبعث ، وأرضاً تسمى عفرة سماها خضرة ، وشعبَ الضلالة سماه شعب الهدى »

فاستبدال ملك مصر — أيده الله — (فريدة) ب (سافيناز) هو (والله) من الجودة والارصان والاتقان بمكان . وما أجدر الناس — والناس على دين ملوكهم كما يقال — في مصر وغير مصر من بلاد العرب والإسلام أن يغيروا أسماءهم القبيحة ، والأعجمية والإفرنجية ، وأن يختاروا لبنيهم وبناتهم الأسماء العذبة الحسنة العربية . وقد قال محمود جادالله (صاحب الكشاف) : « قد قدّم الخلفاء وغيرهم رجالا بحسن أسمائهم ، وأقصوا قوماً لشناعة أسمائهم » وقال : إن الأسامى السُّنُع — يعني الجميلة والشريفة الفاضلة — جديرة بالأثرة ، وإياها كانت العرب تنتحى في التسمية لكونها أنبه وأنوه وأنزه عن النبز » وليستهد الجاهل في ذلك الفقيه العالم صاحب الذوق . وإياك وفاقده . إياك من فاقده فرب عالم أو عويلم قد سلبه الله الذوق سلباً . فمن استرآه (طلب رأيه) في كلمة أو اسم أتحفه بآبدة ...

وإن الكلمات والأسماء العربية الفائقة البارعة الباهرة لتملأ الدنيا

(قارىء)

الهبات الملكية للبعوث الإسلامية في الأزهر

أفردت مشيخة الجامع الأزهر في مشروع الميزانية العامة باباً خاصاً لهبات الملكية — جاء فيه أن حضرة صاحب الجلالة الملك قد تفضل فأمر بوقف مبلغ قدره الف جنيه لينفق على الطلاب الوافدين إلى الجامع الأزهر من اليابان وجهات البلقان ، ووقف مبلغ قدره ٧٢٠ جنيهاً سنوياً للطلاب الذين يفدون إلى الجامع الأزهر من بلاد الصين . ثم ذكرت بعد ذلك مايفيد أن جلالة المغفور له الملك فؤاد الأول قد وقف في حياته مبلغاً قدره مائة جنيه تصرف في كل عام مكافأة للأول والثاني من الناجحين في امتحان الشهادة من طلاب الكليات الأزهرية الثلاث

وبهذا يصبح مجموع الهبات الملكية لطلاب البعوث الاسلامية في الأزهر ولبعض طلاب الأزهر المتفوقين ١٨٢٠ جنيهاً سنوياً

حديث طل

روى في مجلة العرب (الرسالة) الأستاذ محمد سعيد العريان المتحلي بالفضل والآداب ، والسابق في الميدان ، من كلام فقيد الأدب العربي ونابغته المرحوم (مصطفى صادق الرافعي) هذه الجملة : « فان الموضوع طلى شهي » والطلى في العربية :

---

(١) يضل بعضهم في استعمال هذا الفعل والقاعدة هي أن يجر (المتروك) بالباء ويجرد (المأخوذ) منها . وممن كان يخطىء في ذلك كثيراً الشيخ ابراهيم اليازجى ، ففي مجلته (الضياء) السنة (٣) الصفحة (٦٨٣) وهـذا من قوله لا من قول غيره : « وكانوا (أي الرومان) إذا مات أحد كبراء الدولة يذبحون عند نضد الحطب الذي يحرقون عليه جثته عدداً من أولئك الأرقاء أو غيرهم ممن ذكر (يعني الأسرى) ثم استبدلوا هذه العادة بالصراع ، ولذلك كانت من الملاعب المخصوصة بالمآتم » يريد استبدلوا الصراع بهذه العادة . وفي الصفحة (٧٥٦) من تلك المجلة : « السيارة هي اللفظة التي اختارها أحمد زكي الشهير لتعريب كلمة أوتوميبل ومنهم من اختار استبدالها بالجوالة أو الجوابة أو الدوارة » يريد ومنهم من اختار استبدال الجوالة الخ بها

(٢) روى الوفيات ومعجم البلدان أقوالا كثيرة في هذه النسبة منها ضم التاء والميم

الجَدْيُ ، الصغير من أولاد الغنم ، وجمعه الطليان ، وإنما سمى طلياً لأنه يُطلى أى تشد رجله بخيط أياماً . و (قول طلى) أي عذب أو ذو طلاوة قد نُقِد ، والنقـد حق لا يدفعه تعقب ، ولا يجدى الجدل . وقد وجدت فى اللغة لفظة صحيحة تسد مسد النقودة ، وتشأ كلها فى أكثر حروفها ، وهى (الطل) وهذا ما جاء فى (أساس البلاغة) للزمخشرى : « يوم طل : رطب طيب ، وحديث طل . وعن أعرابية : ما أطل شعر جميل وأحلاه ؛ وامرأة طلة : حسنة نظيفة » وفى شرح القاموس : « الطلة الخمرة اللذيذة وقيل : السلسة » وفى لسان العرب : « وحديث طل أى حسن »

فقل (الطل) وكُلْ (الطلى) . . .

« الاسكندرية » (***)

المسرح المصرى والنفوذ الأجنبى

كانت وزارة المعارف قد انتدبت فى الشتاء الماضي خبيراً أجنبياً لدراسة شؤون المسرح المصرى هو مسيو إميل فابر المدير السابق لمسرح الكوميدى فرانسيز . وقد نوهنا يومئذ بما هنالك من شذوذ فى هذا الانتداب ؛ وكانت نتيجة هذه الدراسة أن وضع مسيو فابر كالمتاد تقريراً لا يخرج فى معناه عما قيل وعرف منذ سنين ؛ ولكن كانت ثمة نتيجة أخرى هى أن وزارة المعارف حملت على انتداب فرقتين فرنسيتين للتمثيل فى دار الاوبرا فى الموسم القبل ؛ وقد كان المعتاد من قبل أن تستقدم فرقة فرنسية واحدة إلى جانب بعض الفرق الأجنبية الأخرى ؛ ولكن سنشهد هذا العام أول فرقة الكوميدى فرانسيز ، ثم نشهد من بعدها فرقة الأوبرا كوميك ؛ وهذه لعمرى وسيلة بديعة لاصلاح المسرح المصرى وتحريره من النفوذ الأجنبي . ولقد كنا نظن حينما تألفت الفرقة القومية أنها بداية عهد جديد فى تاريخ المسرح المصري ، وأننا سنظفر عما قريب بتمصير هذا المسرح وإصلاحه ليفى بالغايات القومية ؛ ولكنا رأينا نفوذ الجهة الأجنبية التى استعبدت الفن المصرى منذ قرن يشتد عن ذى قبل ؛ وظهر أثر هذا النفوذ واضحاً فى تنسيق القسم المصرى بمعرض باريس ، ثم ظهر فى هذه النتيجة المكوسة التى انتهى إليها انتداب الخبير الفرنسى لإصلاح المسرح المصرى ، ولسنا نعرف متى يتحرر الفن المصرى من هذه السيطرة الأجنبية التى تحاول تمكين أغلالها دائماً ؟

ولكن الذي نعرفه هو أن الفن المصرى لا يمكن أن ينهض من عثاره ما دام خاضعاً للتوجيه الأجنبي ، وأن مصر لن تظفر بقيام المسرح المصرى المنشود مالم تعمل أولا على تحريره من هذه الأغلال .

فهارس للفن الأندلسى

من المعروف أن اسبانيا تملك كثيراً من التحف الفنية الأندلسية ؛ ولكن توجد إلى جانب ذلك مجموعات أخرى من تراث الاندلس الفني لم تذع محتوياتها ؛ ومن ذلك مجموعة الجمعية الاسبانية الأمريكية ، فهى تملك مجموعة كبيرة من المصنوعات الخزفية الأندلسية ، ومن قطع الوشى والنسيج الأندلسية . وقد صدر أخيراً فهرسان كبيران مصوران لمحتويات هذه المجموعة الشهيرة أحدهما للتحف الخزفية وهو بقلم السيدة أليس فورذنهام ، والثانى للوشي والنسيج ، وهو بقلم السيدة فلورنس ماي ؛ وقد صـدر الفهرس الأول بمقدمة بديعة عن تاريخ الخزف الأندلسى ، ونماذجه وألوانه ولا سيما فنون غرناطة ، وما كان لها من أثر عميق فى تقدم فن النقش والتلوين . وقد اشتهرت مالقة وغرناطة منذ القرن الثالث عشر بصناعة الخزف المذهب ؛ واشتهرت تونس فى هـذا العصر بصناعة الآنية المزخرفة المساة « ملكي » وكان لبلنسية شهرة فائقة فى هذا الفن ، وكان لها أثرها فيا بعد فى ارجوان وقشتالة ؛ ثم ذاع هذا الفن الأندلسى بعد ذلك فى فرنسا وانكلترا . وكان الملوك والأمراء فى العصور الوسطى يزينون قصورهم وأبهاءهم بنماذج من الخزف الأندلسي والتلوينات الأندلسية ، ولا سيا الألوان الذهبية الوهاجة التى برع فيها أهل الأندلس . كذلك يصف الفهرس الخاص بالنسيج براعة أهل الأندلس فى هذا الفن ، وما كان لهم من فضل فى تقدم النقوش والنماذج المتماثلة ، واستحداث صور الأزهار والزخارف المستديرة . وقد كان للفن الأندلسى أعظم الأثر فى تطور هذا الفن الدقيق أيام عصر الإحياء ، وكانت غرناطة أيام ازدهارها تخرج من الحرير والكتان أفخم وأبدع النماذج التى كانت تستوردها أعظم القصور والشخصيات

آراء جديدة في العقاب

تطورت فكرة العقاب في القرن الماضي تطوراً عظيما، ثم هي لا زالت تتطور اليوم. وقد أصبحت الغاية الأولى من العقاب هي الاصلاح الاجتماعي بعد أن كانت هي الزجر والردع. وللعلامة الألماني الدكتور هانس فون هنتج كتاب في هذا الموضوع ظهرت أخيراً ترجمته الانكليزية وعنوانه «العقاب؛ أصله، وغايته ونفسيته». ويقول الدكتور فون هنتج في تصديره إنه يقصد بمؤلفه أن ينفذ إلى ذهن الرجل العادي قبل الأستاذ الباحث؛ لأن الرجل العادي هو المسئول في الواقع عن وضع التشريعات الحسنة والسيئة؛ ويتناول فكرة العقوبة والعقاب من ناحية جديدة، ويضع للعقاب تعريفاً جديداً، ويصفه بأنه نوع من التطعيم لخطر صناعي لا يقل شبهاً عن الأخطار التي تفرضها الطبيعة ذاتها لصون قوانينها، ويعرفه في مقدمته بما يأتي: «العقوبة تعني إنشاء خطر صناعي، والعقاب إضرار منظم، وصدع للحياة منظم في شكل قوانين يستعملها المجتمع ليعود الانسانية على تجنب بعض طرق العمل التي تخاصمها أو تؤذيها»

ويرى الدكتور فون هنتج أن فرض العقوبة لا يبرره سوى السعي إلى تخفيف الضرر الانساني، وعنصره القانوني يتوقف تماماً على مقدرته في التأثير في غرائز الفرد ومشاعره، فالرجل الذي لا يشعر مثلا شعوراً قوياً بغريزة الاحتفاظ بالنفس لا تؤثر فيه العقوبة كثيراً؛ وكذلك لا يكون للعقوبة قيمة اجتماعية إذا كان اكتشاف الجريمة التي توقع من أجلها العقوبة أمراً عارضاً. ويقدم لنا المؤلف أمثلة عملية عديدة يرى أن العقاب فيها لا أثر له ولا وازع، ويقول لنا إن مضاعفة العقوبة في مثل هذه الأحوال إنما هي قسوة همجية لا تحقق شيئاً من الردع المقصود؛ بيد أن القانون قد اعتاد هنا أن يضاعف العقوبة، دون أن يحاول صقل الجهد في الاثبات والاكتشاف؛ في حين أنك ترى مثلا فتى مغامراً يعتمد دائماً على حقه في الافلات من العقوبة، وبذلك لا يخشى العقوبة إلا بقدر ما يخشى جهنم

والعقوبة المادية ذاتها ليست كل شيء في تحقيق فكرة العقاب؛ فمشاق السجن مثلا يستطيع الكثيرون تحملها، ولكن الضرر الحقيق هو في الحياة التي تلي حياة السجن. والواقع أن معظم العقوبات القانونية قاصرة عن تحقيق الأغراض التي وضعت لها؛ ومن الواجب أن تكون القوانين في الدولة المثلى، سواء أكانت مدنية أو جنائية، سائرة وراء معيار الانسانية في تقدير الخطأ والصواب

ويعالج الدكتور فون هنتج موضوعه الدقيق بوضوح يقربه إلى فهم القارىء العادي، ويجعله في نفس الوقت مرجعاً قيما للباحثين

تعميم تدريس الدين في التعليم الثانوي والابتدائي للبنين والبنات

قررت وزارة المعارف تعميم تدريس مادة الدين في جميع فرق الدراسة بالمدارس الثانوية والابتدائية للبنين والبنات بعد ما كانت مقصورة على السنتين الأولى والثانية

وقد اعتمد معالي وزير المعارف المنهج الذي وضعه مكتب تفتيش اللغة العربية لهذا الغرض وستبدأ المدارس بتطبيقه في السنة الدراسية المقبلة

وأهم ما في هذا المنهج درس أخلاق ومناقب عمر بن الخطاب والسيدة عائشة والسيدة خديجة درساً صحيحاً يتجلى فيه ما لهم من أخلاق حميدة ومواقف مشهورة تبعث الطلبة على الاقتداء بهم، ودرس الآيات الكريمة والأحاديث النبوية، وأن تقترن هذه الدراسة بما يناسبها من الموضوعات، وأساس الدين الإسلامي، والآداب الإسلامية، وأدب الإنسان مع خالقه ومع المجتمع، ودرس سيرة أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، والاسلام والشورى، والاسلام والحكومة الصالحة، ودرس سيرة عمر بن عبد العزيز، والإمام أبي حنيفة، وسعد بن أبي وقاص، وأسماء بنت أبي بكر، والسيدة حفصة، ودرس الرسل والحكمة في إرسالهم، والإسلام وقواعده الخمس، والفضائل التي عزز بها الإسلام، وتأثير الإسلام في تهذيب النفوس، وشرح الفضائل والرذائل، وعناية الإسلام بشأن المرأة، والبدع والعادات المخالفة للدين

حول أرزة لامرتين

أخي السيد خليل عطا الله:

لست أدري كيف يجب أن أقول: ويل للتاريخ من الشعر أم ويل للشعر من التاريخ؟ وإنما أحب أن تعلم أنني يوم زرت الأرز، منذ شهر ونيف، ونظمت فيه قصيدتي، لم أكن عالما ولا مؤرخاً، ولعلي لن أكون أحدهما أبداً، وإنما أنا شاعر تجولت وإخواناً لي في ظلال الأرز ساعة من زمان صحبة دليل، واستمعت مأخوذاً إلى

ما يقصه علينا هـذا الدليل من ذكريات شعرية عذبة ، وأنعمت النظر فيما تركته هذه الذكريات من آثار محسوسة باقية ، فوجدتني أطرب لهـذا الفيض الشعرى الساحر ، فأسوغ طربي شعراً كفاني صدقه شرفاً ومجداً . ولا أعرف في الناس يا أخي من هم أحق بالرثاء من هؤلاء العلمـاء والمؤرخين الذين يستحقون كل إجلال وإعظام ، والذين يفنون زهرة صباهم ، وعنفوان شبابهم ، وجلد كهولتهم ، وراحة شيخوختهم ، بين أكوام الأوراق ورفوف الكتب ، ليظهروا حقًّا أو ليزهقوا باطلاً ؛ أما أنا فليس أحب إلى نفسي من أن تكون الحياة كلها أسطورة ! ولعلها كذلك ! . . .

أقول هذا لتوقن أنه لا ذنب لي في هذا الخطأ التاريخي الذي ارتكبته ، وإنما هو ذنب ذلك الدليل (الصادق) الذي طاف بي أرجاء الغابة يدلني ويعلمني ويهديني السبيل ؛ وذنب تلك اللوحة الرخاميـة المنصوبة على أرزة لامرتين ، أستغفر الله ، بل على الشجرة التي (يزعمونها) أرزة لامرتين ، تلك اللوحة التي تؤكد زيارة الشاعر الكبير للأرز خريف عام ١٨٣٢ ، والتي رأيتهـا ولاشك في الصورة التي نشرتها (الرسالة) المعززة . وإني إن شكرتك على ملاحظتك التاريخيـة القيمة فكم أحب أن أوجهها بدوري إلى أولئك الإخوان في بلدة (بشرى) الذين نصبوا تلك اللوحة منذ سنوات على الشجرة المذكورة وفي أعلى النقش تخليداً لذكرى هذه الزيارة بمناسبة مرور مائة عام عليها ، دون أن يشيروا بكلمة إلى حقيقة هذه الزيارة أو حقيقة هذا النقش ؛ وكم أود أيضاً — رغم كل هذا — أن يتمسك أولئـك الاخوان بمعتقدهم ، وأن يؤمنوا بزيارة الشاعر الكبير وابنتـه لأرزهم ، ونقشهما اسميهما على إحدى شجراته ، ولو كتب هنرى بوردو ألف كتاب ، لا كتاباً واحداً في دحض هذه الزيارة وتفنيدها . لا أريد بهذا الحقيقة والتاريخ ، وإنما أريد الاحتفاظ بهذا الكنز الشعرى الروحى الثمين . ومن يدرى فلعل كاتباً آخر يقوم غداً فينقض كل ما كتب صاحبنا (بوردو) ويثبت كل ما أنكر !

وختاماً أشكر يا أخي ملاحظتك الرقيقة من كل قلبي ، وإن كنت آسف ، وأحسبك ستأسف مثلي ، على أنك أفقدتني أو كدت تفقدني عطفي على قصيدة هي على من أعز شعرى

والسلام عليك . . .

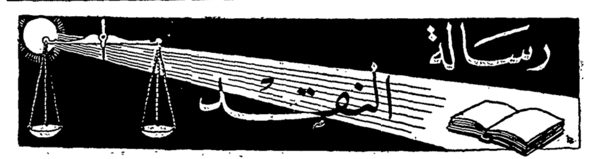
« دمشق » أمجد الطرابلسي

السينما والعلوم

لم يقف نشاط الفن السينمائي عند إخراج الروايات والقطع التاريخية والاجتماعية ، ولكنه اتجه في العصر الأخير أيضاً إلى الناحية العلمية فأخرجت عدة شرائط مصورة عن حياة الحيوان والنبات وعن كثير من الصناعات الدقيقة ، والآن تخطو السينما خطوة أخرى في هذه الناحية ، فقد بدأت منذ حين تخرج لنا سير أقطاب العلم في شرائط مصورة تمثل حياتهم واكتشافاتهم العلمية ، وكان أول شريط من هذا النوع شريطاً يمثل حياة الطبيب العلامة الفرنسى لوى باستور الذى اكتشف عدداً كبيراً من الجراثيم ، وساعدت تجاربه واكتشافاته العلمية على تقدم الطب تقدماً عظيماً ، وكان نجاح هذا الشريط عظيماً ، إذ يقدم عن حياة باستور صورة مطابقة مؤثرة . وتلا ذلك إخراج شريط آخر عن حياة فلورانس نيتنجيل المصلحة الانسانية ، ومنظمة المستشفيات الشهيرة . والآن تفكر إحدى الشركات الأمريكية السينمائية في إخراج شريط علمى جديد يمثل حياة العلامة والمخترع السويدى الشهير ألفريد نوبل ؛ ونوبل كما هو معروف مخترع الديناميت الحديث ، ولكنـه اشتهر بمأثرة إنسانية أخرى هى وقفه أمواله الطائلة على منح جوائز نوبل الشهيرة للآداب والعلوم والأعمال السلمية ، وهى تعتبر أعظم الجوائز الدولية في هذا الميدان ، ولم يعرف حتى اليوم من هو الممثل الذى سيقوم بدور المخترع الشهير ، ولكن الشركة التي تعنى بإخراج هذا الشريط وهى شركة كولومبيا ستبذل كل جهودها لتحقق لهذا الشريط العلمي الجديد نجاحاً باهراً . وهكذا تعاون السينما في تاريخ العلم بصورة عملية شائقة .

عيد مدينة برلين

احتفل في برلين في أواخر أغسطس بالعيـد المئوى السابع لقيام مدينة برلين العاصمة الألمـانية ؛ واقترن الاحتفال الرسمى بعدة حفلات موسـيقية فخمة في بهو قصر برلين ، وأقيم قداس موسيقى في كنيسة كلوستر باشراف الموسيقي الأشهر ادوين فيشر ؛ وكان من أهم المظاهر التي لفتت الأنظار إلى هذا العيد نماذج بديعة عرضتها شركة « أوربا الوسطى » في ميدان بوتسدام تمثل تاريخ خطط برلين من نشأتها إلى يومنا .



كتاب إحياء النحو

للأديب السيد عبد الهادي

نشر الأستاذ أحمد احمد بدوى ، فى مجلة الرسالة ، نقداً لكتاب إحياء النحو للأستاذ الجليل ابراهيم مصطفى ، ولقد قرأته بامعان وتدبر كما أقرأ غيره من البحوث التى تتعلق بعلم النحو وخاصة فى الأشهر القليلة الأخيرة التى قامت فيها ضجة حول الضعف في اللغة العربية وأسبابه وعلاجه ، وقد كان النحو محوراً فى هذه البحوث كلها ، فقد جعل كل من الباحثين النحو فى صورة خاصة سبباً من أسباب الضعف فى العربية وجعله فى صورة أخرى ، أوجز فى بيانها ، سبباً من أسباب التقوية فى العربية أي أن الباحثين المحدثين أجمعوا على تعبير نحوى قديم ، هو النحو فى الكلام كالملح فى الطعام يفسده ويصلحه ، فكان طبيعياً أن أقرأ أنا وأمثالى نقد الأستاذ بدوى لإحياء النحو لأنه نقد للمنهج الجديد الذى نريد أن تأخذ به نفوسنا والنشء كذلك فى معرفة قواعد اللغة العربية وهذه هي ناحية الأهمية فى هذا النقد بغض النظر عن علم المؤلف وجلال قدره فهذا أمر يعرفه الكل

وقد استهل الأستاذ نقده بأن نحو اللغة العربية ثقيل عسير يحتاج إلى كثير من التهذيب والتبويب ليصبح سهل المأخذ قريباً إلى النفوس محبباً إليها درسه وفهم قواعده وأصوله ، ولى على ذلك اعتراض ثانوى ذلك أن الأستاذ يريد أن يهذب النحو ويبوبه ليفهم بذلك قواعد النحو ، فأوجد بذلك شيئاً اسمه النحو وشيئاً أسمه قواعد النحو ، وهذه نتيجة خاطئة سببها على ما أظن الأسلوب الانشائي الذى لايعنى بتحديد المقصود من كل عبارة ومن كل لفظ ، وإنما يعني برصف بعض جمل منمقة تؤدى معنى عاما لاتحده خطوط أربعة ، وهذا إن جاز فى بعض أنواع الكتابة فهو غير جائز في النقد . وتفصيل القول فى هذا أن هناك مسائل ككون الفاعل مرفوعاً واسم إن منصوباً والتالى لمن مجروراً ؛ هذه المسائل وأمثالها هى قواعد اللغة العربية ولا سبيل لتغييرها أو تبديلها ، ولم يقصد أحد من الباحثين العاصرين باصلاح النحو إصلاح هذه القواعد — هذه القواعد تحتاج إلى ما يحصرها وينظمها ويقيم الدليل على صحتها ، وذلك هو علم النحو أو هو النحو بحذف كلة علم لأنها مفهومة ولا بد من تقديرها عند ما تقول النحو — والنحو هو محل بحث الباحثين ، وتجديد المجددين ، وليست قواعد اللغة محلاً لذلك ، وإذن ليس هناك شئ اسمه قواعد النحو كما خيل للأستاذ — وإلا فليقل لنا الأستاذ ماهى قواعد النحو التى يقصدها

ثم عقب الأستاذ على ذلك بذكر النتائج التي توصل إليها متأملاً بعد القراءة ، وأولى هذه النتائج أن الكتاب ليس فيه شئ جديد ومعنى ذلك أنه نقل من القديم لا أكثر ولا أقل ففيم النقد إذن ، وفيم ذكر النتائج الأربع الباقية إذا لم يكن هناك جديد ؟ المتفق عليه أن الشئ إذا كان صورة مما سبقه فليس محلا للنقد أبداً

والنتيجة الثانية أن الكتاب لم يحدث فى دراسة النحو أو كتبه أو قواعده أى تغيير أو تبديل . ويلاحظ هنا أن الأستاذ لايزال يصر على استعمال « قواعد النحو » وأي فرق بين النتيجة الأولى والثانية ؟ أليست الثانيـة تفسيراً للأولى ؟ فهلا أضاف الأستاذ احدى النتيجتين إلى الأخرى لأنهما فى معنى واحد ، والأستاذ لايجهل أن نتيجة واحدة قد تكون خيراً من عشر

تنأج ، وهو لا يجهل كذلك أن العدد فى الليمون

والنتيجة الثالثة أن ما فى الكتاب ليس إلا تعليلات كتعليلات النحاة ، وأظن هذا أيضاً داخلا تحت عدم الجدة التى لحظها الأستاذ فى النتيجة الأولى

والنتيجة الرابعة أن المؤلف ادعى على النحاة قضايا غير ممحصة ولننتظر ما يقول الأستاذ فى ذلك ونعقب عليه فى حينه

وأما النتيجة الخامسة فهى أن المؤلف فى الأبواب القليلة التى أراد ضم بعضها إلى بعض يزيد النحو عسراً لا سهولة وفهما على أنه لم ينجح فى هذا الضم . هذه هى النتيجة الخامسة والأستاذ يعترف فيها صراحة أن المؤلف قد أحدث حدثاً جديداً ، زاد النحو عسراً ، وهو أمر يستحق النقد الذى ينشر فى الرسالة على دفعتين ومع ذلك يقول الأستاذ فى النتيجة الأولى إن الكتاب ليس فيه شىء جديد ، هذا تناقض لا يصح أن يكون نتيجة الغفلة الفكرية وإنما هو نتيجة غفلة الذاكرة فحسب ، ألست معى أيها القارىء الكريم فى إقرار هذا التناقض الغريب ؟

ثم أخذ الأستاذ فى مناقشة ماورد فى الكتاب فابتدأ بتعريف النحو ولم يرض عن التعريف الذى ارتضاه المؤلف ليوسع دائرة النحو فقد قصره النحاة على معرفة أواخر الكلمات إعراباً وبناء ، وأراد المؤلف أن يكون النحو قانون تأليف الكلام وبيان ما يجب أن تكون عليه الكلمة فى الجملة والجملة مع الجمل حتى تنسق العبارة ويمكن أن تؤدى معناها . لم يرض الناقد عن هذا التعريف لعلم النحو ، ولكن القارىء يدهش إذا علم أن الناقد عاد ودافع عن هذا التعريف وأثبت أنه الصواب من حيث لا يريد حيث قال : « فليس صحيحاً إذن أن ندعى على النحاة أنهم قصروا بحثهم على أواخر الكلمات بل هم قد تعرضوا كثيراً وكثيراً جداً أكثر مما توهم المؤلف الفاضل إلى بيان وضع الكلمة من الكلمة والجملة من الجملة ... ... » وضرب الناقد مثالاً لذلك باب الفاعل فى كتاب أوضح المسالك لابن هشام

وإذا كان المؤلف قد آمن بأن هذه المباحث من مباحث النحو التى توسع فيها النحاة والتى خصوها بعناية تعدل أضعاف عنايتهم بحركات أواخر الكلمات فكيف استقام عنده تعريفهم للنحو بأنه علم يعرف به أحوال أواخر الكلمات اعراباً وبناء ؟ وإذن يكون تعريف النحو كما عرفه النحاة قاصراً عن غايته بشهادة الناقد نفسه لأنهم قد تعرضوا لمباحث كثيرة غير حركات الأواخر كما يقول الناقد ولكنهم جعلوا التعريف قاصراً على معرفة أواخر الكلمات اعراباً وبناء — وإذا كنا قد اكتفينا بنقد الأستاذ بدوى من مقاله نفسه مسلمين بصحة ما قاله بالحرف الواحد فهل لنا أن نستوضحه بعض الشىء ونسأله : هل صحيح أن النحاة وفوا المباحث النحوية التى هى غير حركات الاعراب حقها إحصاء وتبويباً ؟ فأين إذن الباب الذى بحث النفى ؟ وأين الباب الذى بحث التوكيد ؟ وأين الباب الذى بحث التذكير والتأنيث ، وأين أمثال هذه الأبواب التى هى العمدة فى تركيب الجمل وفهم خواصها ؟ نعم ذكرت بعض هذه المباحث مفرقة فى الأبواب المختلفة ، وقد اعترف المؤلف بذلك ، ولكنه دعا إلى جمعها وتكميلها وتنظيمها حتى تفيد فائدتها المرجوة ، ترى أليس تعريف المؤلف هو التعريف الصواب الشامل ؟

وأخيراً رمى الناقد بقضية لم يقم عليها برهاناً إلا الثقة الغالية التى يأمل أن يجدها من القراء ، فقد ادعى أن المؤلف لم يشر إلى علاقة الكلمة بالكلمة بل قصر الكتاب على حكم آخر الكلمات ولم يعن بغيرها . كيف لم يشر المؤلف إلى علاقة الكلمة بالكلمة مع أن الكتاب كله فى علاقة الكلمة بأختها ؟ ألا ترى أن المؤلف قد أرجع الحركات المختلفة إلى معان مختلفة ، وأن الكلمة تأخذ حركة خاصة إذا كان لها مركز خاص فى الجملة وعلاقة خاصة بغيرها من الكلمات وبتغير هذا المركز وهذه العلاقة تتغير الحركة ؟ أليس ذلك هو المبدأ الذى ينادى به المؤلف والذى استغرق الكتاب من أوله إلى آخره ؟ أو ليس ذلك بحثاً فى علاقة الكلمة بالكلمة والكلمة بالجملة . هذه مغالطة ظاهرة وحاشا لله أن تكون سوء فهم أو قصد .

ثم انتقل الأستاذ إلى نقد الكتاب فى فلسفة العامل فذكر أن المؤلف لم يذكر رأيه صراحة فى العامل ، والمسألة يكفى فيها التلميح عن التصريح لأنها واضحة جلية ، فالمؤلف يرى أنه ليس هناك شىء اسمه العامل يرفع وينصب ويجر وإنما يفعل ذلك المتكلم تبعاً لمركز الكلمة فى الجملة وعلاقتها بأخواتها ، وأظن أن الدفاع

عن نظرية العامل لا يجدى شيئاً وقد تهدمت تماماً وملها الناس وأصبح المشتغلون بالنحو لا يملكون أنفسهم من الضحك حين يقدرون العامل فى مثل زيداً رأيته حيث يقولون رأيت زيداً رأيته . على أنه فى كثير من الأحوال تكون الجلة واضحة فاذا حاولت تقدير عامل لكلمة فيها تعقدت كما فى قولنا « أحقاً ما تقول ؟ »

وانتقل الأستاذ بعد ذلك لمانى الأعراب ، وهو ينقد رأى المؤلف فى أن الفتحة ليست علامة إعراب ، وإنما هى الحركة المستحبة عند العرب وشأنها شأن السكون فى اللغة العامية . ينقد الأستاذ هذا الرأى لأنه فى نظره يجعل كل الأسماء المفتوحة الآخر لا يعنى بها العربى ولا يهتم بها ، مع أنهـا تعبر عن معان هامة فى الجلة قد لا تفهم إلا بها ؛ وقد أقام الأستاذ الدليل على ذلك . ونحن لا نخالفه فى أن من الكلمات المفتوحه ما يدل على معان هامة فى الجلة لا تفهم إلابها ، ولكننا نسأل الأستاذ : من أين له هذا الفهم ؟ من أين أتى له أن المؤلف قصد أن المعانى التى تدل عليها الأسماء المفتوحة الآخر معان لا يعتنى بها العربى وليست ذات خطر فى الكلام ؟ . لا يزال كتاب « إحياء النحو » بين أيدينا فيستطيع الأستاذ أن يقرأه مرة ثانية ليقتنع بأن المؤلف لم يقصد بتاتاً إلى ما فهمه ؛ ولقد قرأت الكتاب وأجهدت نفسى فى الفهم لأجد مايشير إلى ذلك تصريحاً أو تلميحاً فلم أجد . فليدلنا الأستاذ على الموضع الذى فهم منه هذا الفهم فإنا نكون له شاكرين

ولقد وضح المؤلف هذه المسألة وبينها تماماً حين عقد مشابهة بين الفتحة فى اللغة العربية وبين السكون فى اللغة العامية حتى لايدع مجالاً لفهم خاطئ وحتى يقرب المسألة من الأذهان ، فهل يستطيع الأستاذ أن يفهم أن المؤلف قصد أن الكلمات الساكنة الآخر فى اللغة العامية ، وكل كلمات اللغة العامية ساكنة الآخر ، تؤدى معانى ثانوية يمكن الاستغناء عنها ؟ وبم إذن تؤدى المعانى الهامة ، ما دام الأستاذ قد حكم على المشبه ، وهو الفتحة فى اللغة العربية ، بأنه فى رأى المؤلف ، لا يأتى إلا مع كلمات معانيها لا يعتنى ولا يهتم بها فانه سيفعل ذلك مع المشبه به ، وهو السكون فى اللغة العامية ، أى أن اللغة العامية تصبح فى رأى المؤلف خالية من المعانى الهامة قاصرة على المعانى الثانوية التى لايضير تركها ولا ينفع ذكرها . تلك هى النتيجة التى يريد أن يخرج بها الناقد وهى أبعد ما تكون عن العقل السقيم بله العقل السليم .

أن تكون الفتحة فى العربية كالسكون فى العامية ليس معناه أن الكلمات المفتوحة ليست مهمة ولا تعتنى بها اللغة ، بل إن العلاقة بين هذين المعنيين منعدمة تماماً ، إنما ذلك لأنها الأصل فى الحركات ولا يعدل عنها إلا لغرض هو الإسناد أو الاضافة ؛ ولم يقل أحد إن معنى الإسناد أهم من المعانى التى تؤديها الكلمات المفتوحة الآخر . ترى عند النحويين دائماً شيئاً اسمه الأصل وما عداه الفرع ولكنهم لا يجعلون أحدهما أهم من الآخر ، فهم يقولون الأصل فى المضارع الرفع والأصل فى الأسماء الأعراب الخ ، وليست فروع هذه الأصول بأهم منها بل لم يلتفت أحد مطلقاً إلى وجود أهمية أو عدمها فى هذا التقسيم . إن بناء أهمية وعدمها على أصل وفرع فى النحو فكرة خاطئة ومنطق فاسد .

والأستاذ لا يؤمن بأن الفتحة أخف الحركات ، فأيها إذن أخف ؟ وما رأى الأستاذ فى هذه الأدلة الكثيرة التى أوردها المؤلف ؟ وهلا تعرض لواحد منها فنقضه ؟ لم يفعل الأستاذ ذلك . النقد الصحيح أن يتعرض الناقد للأدلة وينقضها الواحد بعد الآخر حتى تكون حجته دامغة ودليله قاطعاً ؛ وإذا لم يفعل الأستاذ ذلك فقد كفانا مؤونة الرد عليه .

« يتبع »

السيد عبد الهادى
بالدراسة العليا بكلية الآداب

مجموعة شعر ضائعة

تركت على الحشائش بمتنزه الحياة بحلوان مجموعة قصائد لى فى كراسة صغيرة مجلدة بعضها نشر فى الأهرام والمقتطف وبعضها لم ينشر . فمن وجدها فليتفضل بردها مشكوراً مأجوراً

سيد قطب
مدرس بحلوان الابتدائية

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة محيم رقم ٧)

5 me Année, No 219.

Lundi - 13 - 9 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢١٩ « القاهرة في يوم الاثنين ٧ رجب سنة ١٣٥٦ — ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

معاملة النـــاس

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازني

لو أني صدقت ما حدثني به شيوخ الجيل الماضي الذين هم في منزلة آبائنا وأعمامنا ، وما رووه لي في وصف حياتهم المنقرضة ومعاملاتهم وعلاقاتهم ، لكنت حرياً أن أعتقد أن ذاك الجيل الذي انقضى كان أفضل وكان حظه من الرجولة أعظم ، ونصيبه من البساطة التي يستقيم بها النظر أوفر وأجزل ؛ فقد كان الفقر لا يعيب أحداً في ذلك الزمان ، ولا يغري الصديق بالفرار من صديقه أو اجتنابه ؛ وكان حسن الأدب والتواضع ولين الجانب لا يعرض المرء للاستخفاف أو قلة المبالاة به ؛ وكان للعلم شأنه وكرامته ، وكانت المعاملات تقوم على الصدق والثقة ولا تحتاج إلى الصكوك وما إليها ؛ وكان الصغير يوقر الكبير ، ولا يغمط الكبير فضل الصغير أو يبخسه حقه ، إلى آخر ذلك مما لا حاجة إلى التقصي فيه . وقد أدركت بعض ذلك فني وسعي أن أطمئن إلى الصدق في سائره ، فمن ذلك أنه بعد وفاة أبي بشهور قليلة ، دق علينا الباب رجل من العلماء كان زميلا لأبي ، وقال

إن « الأفندى » — يعنى والدى فقد اتخذ زى الأفندية فى آخر زمانه — ترك معه قبيل وفاته مبلغاً من المال ، وإنه لاعلم لأحد بذلك ، وإنه يخشى أن يزوره الأجل ، ودفع إلينا المال ومضى مرتاح الضمير . ولا أدرى ما شأن غيرى ، ولكن الذى أدريه أنه لو ائتمننى أحد على مال له لكان حقيقاً أن ييأس من رده :

وقد وجدت بالتجربة أنه لا كرامة لمن لا مال له ، وأن صاحب المال ، وإن كان قد جمعه بشر الوسائل وأرذلها وأسفلها ، قد يغتابه الناس ويبسطون فيه ألسنتهم ولكنهم لا يلقونه بغير الحفاوة ولا يبدون له غير التعظيم والتوقير ، وأن من شاء أن يضمنَ إكبار الناس له فليشعرهم بالاستغناء عنهم ، وأن الناس ينزلونك حيث أنزلت نفسك ، ولا يخطر لهم أن يرفعوك عنه ، فإذا كنت معهم عف اللسان مكفوف السلاطة مأمون الغضب ، لم يهابوك ولم يبالوك ، ولم يتقوا أن يسيئوا اليك وان كانوا يرون منك انك تكره أن تسيء إلى نملة ؛ وقد يظهرون لك الاحترام ولكنهم يعدون ذلك فضلاً منهم وإيثاراً للصنع الجميل ، لا حقاً لك عليهم . أما إذا كانوا يعرفون أن أدبك لا يمنعك أن تهيج بهم وأن لينك قد ينقلب صلابة وعنفاً ، ورقة ملمسك خليقة أن تحور شوكا حاداً كشوك القنفد ، إذا خطر لهم أن يجاوزوا معك الحدود التى ترسمها لهم في علاقتك بهم ، وتفرضها عليهم ، فأيقن أنهم لايكونون معك فى حال من الأحوال إلا على ماتحب وترضى ، وقد يسخطون عليك فى سريرتهم ويكتمونك ماينطوون عليه لك من المقت والحقد ، ولكن هذا لاقيمة له ، فان الخوف من عصفك بهم يظل يقيك أذاهم . وماذا يضيرك أن يجدوا ويضطغنوا إذا كانوا لايجرؤون أن يكشفوا لك عن هذه الصفحة المستورة ؟؟ وإنك لتعلم أنهم ينافقون ويبدون غير ما يبطنون ، ولكن الحيلة فى ذلك قليلة ، والشأن شأنهم لا شأنك ، وعلى أنه ماداعى النيظ والنقمة ؟ وما موجب الكراهية والمقت ؟ وما الحاجة إلى النفاق ؟ إن كل ما تبغيه منهم أن يجنبوا الاساءة اليك كما تجنبها اليهم ، فاذا بدأوك بذلك فانهم الظالمون ، والشاعر القديم يقول :

لا تطمعوا أن تهينونا ، ونكرمكم
وأن نكفّ الأذى عنكم ، وتؤذونا !

فإذا كانوا يأبون إلا أن ينتحلوا الحق في الاساءة بلا مسوغ ، فذنبهم على جنبهم . وتالله ما أسرع ما يرتد الناس إلى الواجب وحسن الأدب إذا رأوا منك تمرداً على سوء الخلق وقلة الحياء ! !

كان كبير من الكبراء يدخل حيث أكون ، فيمر بي وكأني قطعة أثاث ، وكنت ألقاه كثيراً ، فحملت هذا فى أول الأمر على الذهول أو نحوه ، ولكنه تكرر وباخ وتبينت فيه سخافة الكبرياء والنفخة الكذابة ، فقلت : أكيل له بصاعه ، وصرت أتعمد أن أدخل عليه وهو مع الناس فأحييهم وأحمله ، وأتخطاه بيدي وعيني كأنه ليس هناك ، ولم يكن له غير هذه النفخة ، فلما خرقت القربة المنفوخة ، لم يبق شيء ، فلم يطق صبراً ، وأقبل يوماً فهممت أن أشيح بوجهى عنه ، فاذا هو يطوقنى بذراعيه ! !

وليست هذه المبادئ التى يُلقنها التلاميذ فى المدارس ، ولكنها هي المبادئ التى ألقنها ابنى ، وأحرص على أن يفهمها ويعمل بها ، وقليل من رياضة النفس عليها تكفيه ، لا مثلى ، فقد نشأت على غير ذلك واعتدت خلافه ، فخيب الناس والدنيا أملى فى كل ناحية ، وأحدثوا لى رجات نفسية أتلفت أعصابى . وكنت أعتقد مثلاً أن فى وسعي أن أسير فى الحياة من غير أن أسيء إلى أحد أو أخشى أن يسيء إلي أحد ، وأن عليّ أن أعطى الناس حقوقهم فى صراحة وباخلاص ، وأن لى أن أثق أن سيعطينى الناس حقى ولا يقصرون فى أدائه إليّ كاملا ؛ فاذا الأمر على خلاف ذلك ونقيضه . أنا أكف أذاى عن الناس ، ولكنهم هم لا يعنون بمثل ذلك ، حتى لصرت مضطراً أن أحتال لاتقاء أذى الناس ، وأنا أؤدى للغير حقه غير منقوص ، ولا أبخل عليه بالاسراف فى الأداء ، ولكنه هو لا يخطر له أن لى حقاً يؤدى ، أو كرامة تحفظ ، لا لسبب إلا أنى لا أتقحم على الناس ولا أركبهم بالغطرسة ، ولا ألح عليهم ببيان ما يجب لي ، ومن هنا تغير رأيى فى كل ما نشأت عليه ، وأدركت أنه لا يوافق هذا الزمان ؛ وتغير سلوكى مع الناس ، واختلفت سيرتى وتربيتى لأبنائي . وما زلت أجنب أن أبدأ بعدوان ، فما لهذا معنى ، ولكنى لا أتردد في دفع الأذى ، ولهذا مزيته ، وتلك أن ترغم الناس على أن يكونوا خيّرين !

ابراهيم عبد القادر المازنى

المحاكمات التاريخية الكبرى

٤ - الحركة النهلستية
ومصرع القيصر اسكندر الثانى

صفحة رائعة من صحف الثورة على الطغيان

للأستاذ محمد عبد الله عنان

خاتمـــة البحث

وكانت مرافعة جليابوف عن نفسه خاتمة المناظر العاصفة فى تلك القضية الشهيرة . وكان هذا الزعيم الثورى المضطرم حسبما يصفه مكاتب التيمس ، يحدج قضاته بنظرات ملتهبة كأنها نظرات وحش يُطارد ، وكانت ألفاظه وعباراته الرنانة تحدث أثرها فى المحكمة والنظارة ؛ وكلما ضجت الجلسة ألقى على الجمهور نظرته الملتهبة حتى يعود إلى سكينته . ولما انتهى من مرافعته ، أذنت المحكمة للمتهمين تباعاً بأن يقول كل منهم كلمته الأخيرة . فكرر كبالتشش أقواله عن ثبات حزبه السلمية ، وأنهم لم يسفكوا الدم رغبة فى السفك ، ونوه بأنه قد اخترع جهازاً للطيران يرجو أن ينسب له بعد موته إذا أخرج إلى حيز التطبيق . ونفت صوفيا عن نفسها ما اتهمها به النائب من القسوة وفساد الخلق واحتقار الرأى العام . وحاول ريساكوف أن يكرر نظرياته السياسية ؛ وأصر ميخايلوف على نفى اشتراكه فى الجريمة .

وبذا اختتمت المرافعات فى هذه القضية الشهيرة ولم تستغرق فى الواقع سوى ثلاثة أيام . وفى صباح يوم ٢٩ مارس أصدرت المحكمة حكمها وهو يقضي باعدام المتهمين الستة شنقاً . فاستقبل المتهمون مصيرهم فى سكينة وثبات . وهل كانوا يتوقعون مصيراً آخر ؟ إن الحكم بالاعدام كان قاعدة مقررة فى جميع الجرائم السياسية التى جرت فى الفترة الأخيرة ، ولم يفلت من هذا المصير المروع سوي قلائل من الثوريين الذين اشتروا حياتهم بالاندماج فى سلك البوليس السياسى ؛ ولم يطعن أحد من الستة المحكوم عليهم فى الحكم بطريق النقض ، ولكن ريساكوف وميخايلوف رفعا طلباً بالعفو لم تر المحكمة أن تراجع القيصر فى شأنه ؛ وحاول ريساكوف ليلة التنفيذ أن يلجأ إلى الخطوة الأخيرة فعرض أن يندمج فى البوليس السياسى وأن يفتدى حياته بالعمل على مقاومة الارهاب والمرهبين ، وأفضى بأسماء وبيانات جديدة عن الثوريين ونظم الحركة الثورية ، فلم يقبل طلبه وخاب مسعاه

وقدمت جسيا هلفمان إلى المحكمة بلاغاً قالت فيه إنها حامل لأربعة أشهر ، وطلبت إرجاء التنفيذ حتى تضع حملها ؛ فانتدبت لفحصها لجنة طبية أيدت دعواها ، فقررت المحكمة أن ترجئ التنفيذ حتى تضع حملها ويمضى على وضعها أربعون يوماً

* * *

وكان التنفيذ فى اليوم الثالث من ابريل سنة ١٨٨١ ففى نحو الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم حمل المتهمون الخمسة على عربتين عاليتين إلى ميدان سيمونفسكى حيث نصبت المشنقة وكانت والدة صوفيا قد سعت إلى رؤيتها فلم توفق إلى ذلك إلا عند خروج الموكب من السجن . وكان المتهمون قد ألبسوا أردية سوداء ، وأوثق كل منهم فى مكانه فى العربة ، وظهره إلى الخيل وقد وضعت على صدره لوحة كتب عليها بحروف بيضاء ظاهرة : « قاتل الملك » وكان يتبع المحكوم عليهم عربة بها خمسة قسس ؛ وكان الموكب رهيباً يحف به حرس قوى من الفرسان والمشاة ، وقد اصطف الجند على طول الطريق من السجن حتى ميدان التنفيذ . وكان الميدان غاصاً بعشرات الألوف من النظارة إذ كان تنفيذ الاعدام يجرى فى ذلك العصر بطريقة علنية ؛ وكان الشعب يهرع دائماً إلى رؤية هذه المناظر المؤسية . وفى نحو الساعة التاسعة وصل موكب المحكوم عليهم إلى ساحة التنفيذ فأنزلوا من العربات وتلا عليهم سكرتير مجلس الشيوخ الحكم ؛ ثم قرعت الطبول إيذاناً بالاجراءات الأخيرة ، فكشف النظارة رؤوسهم وتقدم القسس من المحكوم عليهم وفى يدهم الصلبان فقبلوها . وأبدى المحكوم عليهم فى تلك اللحظات الرهيبة ثباتاً يثير الاعجاب والخشوع إلا ريساكوف فانه كان مضطرباً ممتقع اللون ؛ وبعد إجراء المراسيم الدينية قبـل كل صاحبه وودعه الوداع الأخير

وقبل الساعة العاشرة بقليل تقدم الجلاد فرولوف بثوبه الأحمر إلى فرائسه يحيط به معاونوه وألبس المحكوم عليهم الأكفان والقلنسوات . وبدئ التنفيذ باعدام كبالتشش ثم تلاه ميخايلوف فصوفيا فجليابوف فريساكوف ؛ وحدث حين إعدام ميخايلوف أن قطع حبله وسقط على النطع ثلاث مرات قبل أن يزهق ، فثار الجمهور لهذا المنظر المروع ، وعلت غمغمة السخط والروع . ولكن الجلاد أتم مهمته بهدوء ولم يحدث حادث . وكان هذا آخر إعدام علني في روسيا القيصرية . وكان له في الرأي العام أيما أثر . ووجه كاتب روسيا الأكبر يومئذ الكونت ليون تولستوي إلى القيصر اسكندر الثالث خطاب احتجاج على هذه الفظائع المثيرة

وأما جسيا هلفمان فكان لها قصة أليمة أخرى ، ذلك أن حزب إرادة الشعب لجأ إلى الرأي العام الخارجي ليحاول إنقاذ هذه الفتاة المنكودة من براثن الموت ، وأذاع شاعر فرنسا وكاتبها الأكبر يومئذ فكتور هوجو في الصحف الفرنسية خطاباً مفتوحاً إلى القيصر يناشده فيه الرأفة بآلام الفتاة ؛ ورددت صحافات القارة هذا النداء . وفي الثالث من يوليه سنة ١٨٨١ عدلت عقوبة الاعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة . وفي شهر سبتمبر نقلت جسيا إلى مستشفى السجن ووضعت طفلة لم يعرف مصيرها . وتوفيت الأم بعد ذلك بأشهر قلائل في فبراير سنة ١٨٨٢ من جراح أصابتها وقت الوضع وقيل إنها أحدثت فيها عمداً

* * *

هذه صفحة مؤسية مروعة معاً من صحف الثورة على الطغيان ، وقد كانت النهلستية بلا ريب من أعظم الحركات التحريرية المنيفة التي عرفها التاريخ ، وكانت من أحفلها بمواطن النضال الدموية وكانت القيصرية من جانبها من أشد النظم الطاغية إمعاناً في القسوة والعنف وإخماد النزعات الحرة . وكان هذا النضال الذي يخضب أرض روسيا بدماء الفريقين ، ويدفع بآلاف من الشباب المستنير إلى ظلمات السجن والنفي مسألة حياة أو موت للقيصرية ولروسيا الجديدة معاً ؛ وقد سار هذا النضال حيناً بعد مصرع اسكندر الثاني ومصرع قاتليه . ولكن القيصرية ضاعفت أهباتها ووسائلها لقمع الارهاب . ومع أن الرهبين استطاعوا أن ينزلوا بالقيصرية وأعوانها عدة ضربات دموية أخرى وأن يدبروا اعتداءين جديدين على حياة القيصر ، فان القيصرية استطاعت بوسائلها الذريعة أن تمزق شمل الحركة الثورية ؛ وركدت ريح النهلستية في أواخر القرن الماضي بعد أن هلكت زهرة دعاتها وأنصارها ؛ ثم استعادت شيئاً من نشاطها في أوائل هذا القرن ، ولكن القيصرية استطاعت من جانبها أن تجتنب العاصفة بتحقيق بعض الاصلاحات الدستورية المنشودة ، وإصدار الدستور الروسي الجديد سنة ١٩٠٦ . على أن المثل الثورية التي بعثتها النهلستية في روسيا الجديدة لم تخمد جذوتها بل لبثت على اضطرامها حتى مهدت الحرب الكبرى أخيراً لانفجارها الرائع في سنة ١٩١٧ . وعندئذ لم تقف العاصفة عند سحق القيصرية وكل نظمها القديمة ، بل دكت نظم المجتمع الروسي القديم كله وقامت البلشفية على انقاضه تطمح إلى اضرام نار الثورة العالمية وتحقيق مثل ماركس ولنين

كانت النهلستية حركة فريدة بين الحركات التحريرية . وكانت وسائلها العنيفة من طراز لم يعهد التاريخ كثيراً من أمثاله ؛ ذلك أنها جعلت من الثورية ديناً تدين به الشبيبة المستنيرة ، ينبث إلى أعمق عقولها وأرواحها ، وجعلت من الحرية هيكلا مقدساً تتفانى هذه الشبيبة في الحج إليه ، وتسقط في سبيله صرعى لا تلوي على شيء إلا أن تموت في سبيل العقيدة الجديدة ؛ وقد كانت ضحايا النهلستية عظيمة فادحة . ومن الصعب أن نقدم عن هذه الضحايا بياناً شافياً لأن الأساليب الهمجية والوسائل السرية التي كانت تتبعها القيصرية في مقاومة الحركة كانت تحصد المئات والألوف في خفاء وصمت ؛ يهلكون ألوفاً في أعماق السجون أو في معسكرات الاعتقال النائية في أعماق سيبريا ، هذا عدا من حصدتهم المشانق وهم وحدهم ألوف ؛ وليس من المبالغة أن نقول إن المناظر الدموية التي يقدمها إلينا كفاح النهلستية ، تفوق في روعتها مناظر عصر الارهاب ابان الثورة الفرنسية ؛ ذلك أن الثورة الفرنسية كانت بالرغم من اضطرامها وعنفها قصيرة الأجل محدودة

المدى ، وكانت آثارها المعنوية تفوق أحداثها المادية بكثير . أما الثورة النهلستية فقد استطالت نحو أربعين عاماً ؛ تضطرم آنا وتخبو آنا ، ولكنها لبثت دائماً تلتهم فرائسها من الجانبين . هذا إلى أن نزعة الكفاح في الحركة الثورية الروسية كانت أعرق أصولاً وأبعد مدى . وبينما نرى الثورة الفرنسية تستسلم بعد أعوام قلائل إلى الحركة العسكرية الرجعية وتغدو أداة ذلولا فى يد جندى طموح هونابليون ، إذا بالحركة الثورية الروسية تمضى فى طريقها برغم كل مقاومة حتى تفوز بتحقيق كل مثلها وغاياتها . بيد أنه كان ظفرا سلبيا فقط ، وكان ظفراً قصير المدى ؛ فقد مهدت الحركة النهلستية كما قدمنا إلى الانقلاب العظيم الذى درج زعماؤه وقادته فى غمارها وتغذت عقولهم وأرواحهم بتعاليمها ومثلها ، وكان ظفر الثورة البلشفية كاملا شاملا ، ولكن شتان بين تلك المثل الحرة الاصلاحية التى تنشدها النهلستية ، وبين ذلك الهدم الشامل الذى انحدرت اليه اليه الثورة البلشفية . أجل سقطت القيصرية صرعى المثل الجديدة وأعلنت سيادة الشعب أو الكتلة العامة فى عبارات ضخمة ، ونودى بالحريات والحقوق العامة ، واستطاعت الثورة الجديدة أن تحتفظ بانتصارها الظافر مدى حين كان شعارها فيه مكافحة الخطر الخارجى ؛ ولكنها ما كادت تثبت أقدامها حتى استحالت بسرعة إلى نوع جديد من الطغيان لا يقل فى أساليبه ووسائله فظاعة عن أساليب القيصرية ووسائلها ؛ ولم تلبث أن غدت سيادة الشعب اسماً بلا مسمى ؛ واستطاعت الزعامة الجديدة أن تفرض سلطانها المطلق على ذلك العالم الرومي القديم الذى كان يطمح إلى عالم جديد من النور والحريات المثلى ؛ وانتهت الثورة التحررية بعد كفاح طويل إلى تلك النتيجة المحزنة التى أشرنا إليها فى فاتحة هذا البحث . ذلك أن النظم التى تسود روسيا الآن باسم البلشفية ليست فى الواقع إلا صورة من أشنع صور الطغيان الدموى التى عرفها التاريخ (١)

(تم البحث — النقل ممنوع) محمد عبد الله عنان

(١) رجعنا فى كتابة هذا البحث إلى تاريخ روسيا لرامبو (بالفرنسية) وإلى دائرة المعارف الفرنسية وكتاب Soukhomline عن القضايا الشهيرة فى روسيا (بالفرنسية) وإلى كتابنا «تاريخ الجمعيات السرية»

فى تاريخ الادب المصرى

ابن الصيرفى

أبو القاسم على بن منجب بن سليمان الصيرفى

مات بعد سنة ٥٤٢

للأستاذ محمد كرد على

كان ابن الصيرفى من كتاب الدولة الفاطمية ، ومن عظماء المنشئين والمؤلفين من المصريين فى عهده ؛ جزل حظه من البلاغة والشعر والخط الجميل ، وأخذ صناعة الترسل عن صاعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش ، ثم انتقل منه إلى ديوان الانشاء وبه الحسين الزبدى ثم تفرد بالديوان . ولابن الصيرفى تصانيف تجمله فوق أقدار رؤساء الدواوين وكتاب الملوك والسلاطين ، ومنها فى الأدب والتاريخ والترسل كتاب « عمدة المحادثة » و « عقائل الفضائل » و « استنزال الرحمة » و « منائح القرائح » و « رد المظالم » و « لمح الملح » ومنها « الاشارة إلى من نال الوزارة » و « قانون ديوان الرسائل » وهذان الكتابان مطبوعان . وله غير ذلك من التصانيف منها اختيارات كثيرة لدواوين الشعراء كديوان ابن السراج وأبى العلاء المعرى وغيرهما . وله شعر جيد لكنه اشتهر بالكتابة . وقد ضمن كتابه الاشارة إلى من نال الوزارة ذكر من تقدم من سفراء الدولة ووزرائها وسلاطينها ، ولم ير أن يتوسع فى إشباع الموضوع قائلاً : « إذا كان الاستقصاء لا يليق بكل تصنيف لا سيا إذا خدم به سلطان ينفق أوقاته فى تدبير دولة وإقامة سنة واستضافة مملكة ، وإذا بقيت من زمانه فضلة استعجل بها جزءاً من الراحة ، يستعين به على ما يستأنفه من مهماته » بدأه بترجمة الوزير ابن كلس الآمرى وإليه أهدى كتابه . وفى هذا الكتاب مثال واضح من سوء إدارة الفاطميين أخريات أيامهم ، وما توسعوا فيه من الألقاب ، وما أوغلوا فيه من المصادرات ، وما كان لهم وعليهم . وكان من لوازم الدعاء الذى يستعمله ابن الصيرفى فى كل سجل ورسالة وتقليد وكتاب ، بل يستعمله الاسماعيلية الفاطميون عامة أن يقال بعد الصلاة على النبى

(وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على ابن أبي طالب)

وذكر في مقدمة قانون الرسائل ما ننقله بحرفه : « ولما رأيت أولى الفطر الصحيحة ، والعقول الرجيحة ، قد سبقوا إلى النظر في سائر العلوم ، ووضعوا فيها المصنفات ، ونظموا ذكرها في الكتب المؤلفات ، ثم انتقلوا عن ذلك إلى قوانين الأشياء فقرروا في كل منها ما كان أصلاً يعتمد عليه ، ونهوا عما كان فساداً لنظامها أو أدى إليه ، وخالفوا بين أحكام تلك التصنيفات لاختلاف الأزمنة وتباين البلاد والأوقات ، فوجدتهم قد صنفوا في كتابة الخراج كتباً كثيرة ، وعُنوا بكتابة الجيش عناية كبيرة ، فألف كل من العراقيين والمصريين في ذلك ما وصلت إليه طاقته واقتضاه ما أوجبه وقته والبلد الذي يحتله . فأما صناعة الشعر وذكر بديعه وسائر أنواعه وتقاسيمه ، فقد أكثر كل منهم فيه المقال ، وتوسع في تصنيفه وأطال ، ورأيتهم أهملوا الكلام في الكتابة الجليلة قدراً ، النبيهة ذكراً ، الرفيعة شأناً ، العلية مكاناً ، التي هي كتابة حضرة الملك المشتملة على الانشاء إلى ملوك الدول ، والمكاتبة عنه إلى من قلّ من الأمم وجلّ ، وكيف يجب أن يكون متوليها وما يخصه من الأخلاق والأدوات ، وما يجب أن يكون فيه من الفضائل ، وأن يجتنبه من القبائح والرذائل ، وكيف ينبغي أن تكون أمور أتباعه ومعينيه ، وأي الحالات ينبغي أن يكون عليها ديوانه الذي يتولاه وينظر فيه »

وكتاب قانون ديوان الرسائل درة نفيسة قدمه إلى الأفضل ابن أمير الجيوش وقال : « يجب أن يكون هذا الكتاب مخلداً في ديوان الرسائل يقتدي به كل من يخدم فيه ، ويستضيء بهدايته ويحتذي أمثلته وأن يؤخذ المستخدمون في الديوان بفهمه وبحفظه » ثم قال : « ثم ينتفع بهذا الكتاب إذا جعل بحيث استقر مخزوناً بديوان الرسائل للقراءة فيه وتدبره كل من تصفحه أو يعمل بمقتضاه على مرور السنين وكرور الأحقاب والأعوام ، فيكون كالمعلم لهم ، والمهذب لأخلاقهم ، والهادي لهم إلى سنن الصواب الذي قد درست معالمه وتنوسيت أحكامه »

ومما رأى أن يكون رئيس الديوان من المسلمين « ومع ذلك فيجب أن يكون متمذهباً بالمذهب الذي عليه الملك ليكون أتق جيباً وأنصح غيباً ، فان المسلمين وإن جمعتهم كلمة الاسلام ، فقد اختص كل واحد منهم بمذهب يباين به بعضهم بعضاً ، حتى حدث بذلك بينهم من التباعد والتنافر قريب مما بين المسلمين والمشركين »

وعاد فأكد هذا المعنى في موضع آخر من أن الكاتب ينبغي أن يكون على دين الملك ومذهبه لكونه بكاتب الملوك المخالفة ملتهم ملة ملكه ، وربما احتاج في مكاتباته إلى تفخيم ملة ملكه والاحتجاج لها وإقامة الدلائل على صحتها ، ولن يحتج لملة من اعتقد خلافها ، بل المخالف للملة إنما يبدو له مواضع الطعن ومواضع الحجاج ، فان اعترض معترض بالصابي وأنه كان يكتب عن ملوك مسلمين وهو على غير ملتهم ، فالجواب أنه كان من أهل ملة قليل أهلها ، ليس لهم ذكر ولا مملكة ، ولا لهم دولة قائمة ، ولا منهم محارب لأهل الاسلام ، ولا من يكاتِب ويكاتَب ، ولا من يخشى من الكاتب الميل إليه ، والانحراف معه . ثم إن المشهور من أحوال ذلك الكاتب أنه كان قد حفظ من ملة الاسلام وسننها مما يحتاج إليه في كتابته مالا يوجد عند كثير من المسلمين في زمانه ، وكان في صناعته الغاية في وقته فقادت ملوك عصره الضرورة إليه ، إذ لم يجدوا من المسلمين من يغني غناءه ولا ليسد مسده »

قال : « ومما يحتاج أن يفهمه هذا الكاتب أن يعرف الفرق بين مخاطبة الملوك الاسلامية وبين مخاطبة الملوك المخالفين للملة واللسان ، لأن مخاطبة من يتكلم باللسان العربي مشهورة المقاصد معروفة الطرائق يستعمل فيها الأسجاع وتنميق الألفاظ وتحسينها وزخرفتها وترتيبها مع ضبط المعنى وحسن التأليف . وأما مكاتبة المخالفين للسان فإنه لا ينبغي أن يهتم فيها بالألفاظ المسجوعة ، ولا ضرب الأمثال والتشبيهات والاستعارات ، فإن ذلك إنما يستحسن مادام مفهوماً في تلك اللغة وغير منقول إلى غيرها ، وأكثر هذه الضروب إذا نقلت من لغة إلى لغة فسدت معانيها ، وعاد حسنها قبيحاً ؛ ومنها مالا يفهم بعد نقله بتة ؛ ومنها ما إن فهم له معنى كان غير ما قصد ، لا سيما إن كان الناقل لها مقصراً في اللغتين المنقول منها والمنقول إليها . وأرى أن الأفضل في هذا الباب أن يتولى هذا الكاتب نقل ما يكاتب به إن كان عارفاً بهما فينقل ما يكتب به ويكتبه بخط أهل تلك اللغة ولسانهم ، إما في ذيل الكتاب أو في كتاب طيه ، لأنه قد لا يجد الملك الذي يصل إليه الكتاب ناقلاً ماهراً عالماً باللغتين ، فربما أفسد الناقل المعنى فعاد الكتاب المصلح مفسداً فيبطل الغرض الذي قصد به . وهذا باب يجب صرف العناية إليه جداً ، وليس يحتاج في مكاتبة أهل

اللغات المخالفة بغير المعاني السديدة البريئة من الاستعارات، والكتابات الصائبة لمواضع الحجج التي تبق جزالتها ونضارة معانيها وبهجتها مع النقل والترجمة.»

وذكر فصلاً في عمل من يستخدم خازناً لديوان الرسائل فقال: «ينبغي أن يؤخذ بجمل كل شيء من الرسائل مع شبهه، وجعل كل سنة على حدتها، ويجعل لكل شهر إضبارة، ولكل صفقة من الأعمال إضبارة وعليها بطاقة في مضمونها» قال: «وينبغي لهذا الخازن أن يحتفظ بجميع ما في هذا الديوان من الكتب الواردة، وينسخ الكتب الصادرة والتذاكير وخرائط المهمات، وضرائب الرسوم وغير ذلك مما فيه ـ احتفاظاً شديداً، ويكون بالغاً في الأمانة والثقة إلى الحد الذي لا مزيد عليه، فإن زمام كل شيء بيده؛ ومتى كان قليل الأمانة أمالته الرشوة إلى اخراج شيء من المكاتبات من الديوان، وتسليمه إلى من يكون عليه فيه ضرر أو لمن يأخذه نفع. وهذا أمر متى اعتمده الخازن أضر بالدولة ضرراً كثيراً من حيث لا يعلم الملك ولا أحد. ومن أحسن ما سمعته في أمانة خازن ما رواه علي بن الحسن الكاتب المعروف بابن الماشطة في كتابه المعروف بجواب المعنت في الخراج من أنه كانت تجمع الأعمال والحسابات بالعراق بعد كل ثلاث سنين إلى خزانة تعرف بالخزانة العظمى، وكان يتولى في وقته ذلك رجل يعرف بمحمد بن سليمان الكانجار، وكان شديد الأمانة بالغاً فيها إلى المبلغ الأقصى، وكان رزقه كل شهر خمسمائة درهم تكون بخمسين ديناراً من صرفهم ذلك؛ وكان لهذا الخازن خازن بعينه يقال له إبراهيم، فحدث إبراهيم أن رجلا لقيه في بعض طرقه من أسباب أبي الوليد أحمد بن أبي دؤاد فقال له: هل لك في الغنى بقية عمرك وأعمار عقبك من بعدك من حيث لا يضرك؟ فقال: هذا لا يكون. فقال: بلى، في خزائنك دفتر في قراطيس أعرف موضعه من بعض الخزائن من رفوفها، وأسألك أن تنقله من ذلك الرف إلى رف غيره ولا تخرجه ولا تغيره وأحمل إليك مائة ألف درهم وأعطيك كتاب ضيعة تغل لك كل سنة ألف دينار وتخرج عن الديوان. قال: فارتعد من هول ما سمعه وقال: ليس يمكنني في هذا شيء إلا بأمر صاحبي، فقال له: فاعرض ذلك على صاحبك واجعل هذا الشيء له ونجعل لك شيئاً آخر. فعرف محمد بن سليمان الخازن صاحبه بالخبر، وكان في منزله آخر نهار، فقال له: ماذا قلت للرجل؟ قال: قلت له إني أستأمرك، فأمر ابناً له وابن أخ بالتوكيل به، فلم يفارقاه طول ليلته، فلما أصبح صار معه إلى الديوان فوقفه على الدفتر، فأخذه محمد بن سليمان الخازن وحمله في قبائه ولم يزل يترقب علي بن حسين صاحب الديوان حتى حضر، فلما حضر صار إليه، وكان أبو الوليد في حبسه فقص عليه القصة، ودفع اليه الدفتر فنظر فيه فوجده نسخة كتاب من بعض النظار بما وقف عليه من فضل ما بين القوانين التي كانت تلزم ضياع احمد بن أبي دؤاد وبين ما يلزمها على معاملة العامة لجميع السنين، وأن جملته أكثر من ثلاثين ألف ألف درهم (ثلاثة ملايين دينار) فأحضر علي بن عيسى أبا الوليد وأسمعه كل غليظ على جلالة رتبته، وأمر بأخذ قلنسوته وأن يضرب بها رأسه ويطالب بالمال. فلولا أمانة هذا الخازن، ونزاهة نفسه وصدفها عن المال الذي بذل له مع كثرته لرغب فيه، ولرأى أن لا شيء عليه في نقل دفتر من مكان إلى مكان، وهو في الخزانة لم يبرح منها، فيتوجه عليه بذلك ضرر، ولا خرج من يده فيظهر في يد غيره، ولا يعرف موضعه فيطلب منه، ورأى وجوه السلامة واضحة، ونيل الغنى قريباً فكان يضيع على هذا السلطان ذلك المبلغ الكثير من المال»

محمد كرد علي

بين العلم والأدب

للأستاذ علي الطنطاوي

قرأت منذ أيام في صحيفة يومية ، مقالة يسأل فيها كاتبها عن العلم والأدب والقول فيهما ، والمفاضلة بينهما ، فوجدته قد حمل الكلام على غير محمله ، وساقه في غير مساقه ، فأفتى وهو المستفتي ، وحكم وهو المدعي ، فلم يدع منقصة إلا ألحقها بالأدب ، ولم يترك مزية إلا نحلها العلم ، وزعم بأن الأمر قد انتهى ، والقضية قد فصلت ، وحكم للعلم على الأدب ... فلم أدر متى كانت هذه المنافرة وأين كانت هذه المفاخرة ، ومن هو الذي جلس في منصة القضاء ، ومن الذي زعم أنه وكيل الأدب حتى أخزاه الله على يديه ، وأذله به ؟ . . .

ومتى كان بين العلم والأدب مقاربة ، حتى تكون بينهما (مقارنة) ، ومتى كان بينهما مناضلة ، حتى تكون بينهما مفاضلة ؟ وهل يفاضل بين الهواء الذي لا يحيا حيّ إلا به ، وبين الذهب الذي هو متاع وزينة وحلية ، ولو كان الذهب أغلى قيمة ، وأعلى ثمناً ، وأندر وجوداً ؟

إن الأدب ضروري للبشر ضرورة الهواء . ودليل ذلك أن البشرية قد عاشت قروناً طويلة من غير علم ، وما العلم إلا طفل ولد أمس ولا يزال يحبو حبواً . . . ولكن البشرية لم تعش ساعة واحدة من غير أدب ، وأظن أن أول كلمة قالها الرجل الأول للمرأة الأولى ، كلمة الحبّ ، لمكان الغريزة من نفسه ، ولأنها (أعني غريزة حفظ النوع) كانت أقوى فيه ، والحاجة إليها أشد وبقاء النوع معلق بها ، فكانت كلمة الحب الأولى أول سطر في سفر الآداب ، كتبت يوم لم يكن علم ، ولا عرفت كلمة العلم . . . ودرج البشر على ذلك فلم يستغن أحد عن الأدب ، ولم يعش إلا به ، ولكن أكثر البشر استغنوا عن العلم ولم يفكروا تفكيراً علمياً ، وهؤلاء هم الأكابر من العلماء كانوا ينطوون في ساعات من ليل أو نهار ، إلى مطالعة ديوان شعر ، أو النظر في قصة أدبية ، أو صورة فنية ليلبوا صوت العاطفة ، ويستمعوا نداء الشعور ، وأكثرهم قد أحب ، وملأ نفسه الحب ، فهل بلغ أحداً أن أديباً نظر في معادلة جبرية ، أو قانون من قوانين الفيزياء أو أحسّ الحاجة إلى النظر فيها ؟ وهذا أكبر عالم في مختبره ، يسمع نغمة موسيقية بارعة ، أو يرى صورة رائعة ، أو تدخل عليه فتاة جميلة عارية مغرية ، فيترك عمله ويقبل على النغمة يسمعها ، أو الصورة يمعن فيها ، أو الفتاة يداعبها ، فهل رأيت شاعراً متأملاً يدع تأمله ، أو مصوراً يترك لوحته ليستمع منك قوانين الرقاص ونظرية لابلاس ؟

هذه مسألة ظاهرة مشاهدة ؛ وتعليلها بيّن واضح هو أن المثل العليا كلها تجمعها أقطاب ثلاثة : الخير والحقيقة والجمال . فالخير تصوره الأخلاق ، والحقيقة يبحث عنها العلم والجمال يظهره الأدب . فاذا رأيت الناس يميلون إلى الأدب أكثر من ميلهم إلى العلم فاعلم أن سبب ذلك كون الشعور بالجمال أظهر في الانسان من تقدير الحقيقة . . . وانظر إلى الألف من الناس كم منهم يهتم بالحقيقة ويبحث عنها ؟ وكم يعني بالجمال ويسعى للاستمتاع به ؟ إن كل من يعنى بالجمال ويتذوقه بل إن كل من يذكر الماضي ويحلم بالمستقبل ويحس اللذة والألم واليأس والأمل يكون أديباً ، ويكون الأدب – بهذا المعنى – مرادفاً للانسانية . فمن لم يكن أديباً لم يكن إنساناً .

ولندع هذا التفريق الفلسفي ولنفاضل بين العلم والأدب من الناحية النفسية (السيكولوجية) إننا نعلم أن العلم يبحث عن الحقيقة فهو يستند إلى العقل . أما الأدب فيتكئ على الخيال . فلننظر إذن في العقل والخيال : أيهما أعمّ في البشر وأظهر ؟ لا شك أنه الخيال . . فكثير من الناس تضعف فيهم المحاكمات العقلية ، ولا يقدرون على استعمال العقل على وجهه ؛ أو تكون عقولهم محدودة القوى ، ولكن ليس في الناس من لا يقدر على استعمال الخيال ، وليس فيهم من يعجز عن تصور حزن الأم التي يسمع حديث ثكلها ، أو لا يتخيل حرارة النار ، وامتداد ألسنة اللهب ، عند ما يسمع قصة الحريق ؛ بل إن الخيال يمتد نفوذه وسلطانه إلى صميم الحياة العلمية فلا يخرج القانون العلمي حتى يمر على المنطقة الخيالية (الأدبية) . ولا يبنى القانون العلمي إلا على هذا الركن الأدبي . وبيان ذلك أن للقانون العلمي أربع مراحل : المشاهدة والفرضية والتجربة والقانون . فالعالم يشاهد حادثة طبيعية ، فيخيل القانون تخيلا مبهماً ويضع الفرضية ثم يجربها فاما أن تكذبها التجربة فيفتش عن غيرها ، وإما أن تثبتها فتصير

قانوناً ، فالمرحلة التي بين المشاهدة والفرضية مرحلة أدبية لأنها خيالية . وقد شبه هنرى بوانكاره الرياضى الفرنسى (أو غيره فلست أذكر) شبه عمل الذهن فى هذه المرحلة بعمل الذى يبنى جسراً على نهر ، فهو يقفز أولا إلى الجهة المقابلة قفزة واحدة ثم يعود فيضع الأركان ويقيم الدعائم . وكذلك الفكر يقفز إلى القانون على جناح الخيال ، ثم يعود فيبنيه على أركان التجربة ؛ فالقانون العلمى نفسه مدين إذن للخيال أى للأدب .

ثم إن الخيال يخدم العلم من ناحية أخرى هي أن أكثر الكشوف العلمية والاختراعات قد وصل اليها الأدباء بخيالهم ، ووصفوها فى قصصهم قبل أن يخرجها العلماء ؛ فبساط الريح هو الطيارة ، والمرآة المسحورة هى التلفزيون ، والحياة بعد قرن هى هى خيال ولز فى روايته مستقبل العالم ...

أنا إلى هنا فى القول بأن الحقيقة فى صف العلم والجمال مع الأدب ؛ ولكنى أقول ذلك متابعة للناس ، وسيراً على المألوف ، والواقع غير ذاك . ذلك أن العلم فى تبدل مستمر ، وتغير دائم ؛ فما كان يظن فى وقت ما قانوناً علمياً ظهر في وقت آخر أنه نظرية مخطئة ؛ والكتاب العلمى الذى ألف قبل خمسين سنة ، لم يعد الآن شيئاً ولا يقبله طالب ثانوى ، فى حين أن الأدب باق فى منزلته ، ثابت فى مكانته مهما اختلفت الأعصار ، وتناءت الأمصار . فإلياذة هوميروس ، أو روايات شكسبير ، أو حكم المتنبي ؛ كل ذلك يقرأ اليوم كما كان يقرأ فى حينه ، ويتلى فى الشرق كما يتلى فى الغرب ، ولا يعتريه تبديل ولا تغيير

فأين هي الحقيقة ؟ وأى الشيئين هو الثابت ؟ وأيهما المتحول ؟

***

وعد عن هذا ... وخبرنى يا سيدى الكاتب : ما هى فائدة هذا العلم الذي تطنطن به وتدافع عنه ؟ وماذا نفع البشرية ؟

تقول : إنه خدم الحضارة بهذه الاختراعات وهذه الآلات ؛ إن ذلك احتجاج باطل ، فالاختراعات ليست خيراً كلها ، وليست نفعاً للبشرية مطلقاً ، والعلم الذي اخترع السيارة والمصباح الكهربائى ، هو الذى اخترع الديناميت والغاز الخانق ، وهذه البلايا الزرق ، فشره بخيره والنتيجة صفر

ودع هذا ... ولنأخذ الاختراعات النافعة : لنأخذ المواصلات مثلا ... لاشك أن العلم سهلها وهونها ، فقرب البعيد ، وأراح المسافر ، ووفر عليه صحته ووقته ، ولكن هل أسعد ذلك البشرية ؟ أحيلك فى الجواب على (شبنكلر) لترى أن البشرية قد خسرت من جرائها أكثر من الذي ربحته : كان المسافر من بغداد إلى القاهرة ، أو الحاج إلى بيت الله ، ينفق شهرين من عمره أو ثلاثة فى الطريق ، ويحمل آلاماً ، وتعرض له مخاوف ، ولكنه يحس بمئات من العواطف ، وتنطبع فى نفسه ألوف من الصور ، ويتغلغل فى أعماق الحياة ، ثم يعود إلى بلده ، فيلبث طول حياته يروى حديثها ، فتكون له مادة لاتفنى ، ويأخذ منها دروساً لاتنسى ، أما الآن فليس يحتاج المسافر (إن كان غنياً) إلا إلى الصعود على درجة الطيارة ، والنزول منها حيث شاء بعد ساعات قد قطعها جالساً يدخن دخينة ، أو ينظر فى صحيفة ، فهو قد ربح الوقت ، ولكنه خسر الشعور ، فما نفعتنا المواصلات إلا فى شيء واحد ، هو أننا صرنا نقطع طريقنا إلى القبر عدواً ، ونحن مغمضو عيوننا . . . لم نر من لجة الحياة إلا سطحها الساكن البراق !

ولنأخذ الطب . . . وليس من شك أن الطب قد ارتقى وتقدم ، وتغلب على كثير من الأمراض ، ولكن ذلك لايعد مزية للعلم لأنه هو الذى جاء بهذه الأمراض ، جاءت بها الحضارة ؛ فاذا سرق اللص مائة إنسان ، ثم ردّ على تسعين منهم بعض أموالهم أيعدّ محسناً كريماً ، أم لا يزال مطالباً بالمال المسروق من العشرة ؟

أنظر فى أىّ مجتمع بشرى لم تتغلغل فيه الحضارة ، ولم يمتد إلى أعماقه العلم ، وانظر فى صحة أهله وصحة المجتمعات الراقية ؟ هل الأمراض أكثر انتشاراً فى فيافى نجد ، أم فى قصور باريز ؟ أو ليس فى باريز أمراض لا أثر لها فى البادية ؟ فليس إذن من فضل للعلم في أنه داوى بعض الأمراض بل هو مسئول عن نشرها كلها ؟

وتعال ياسيدي ننظر نظرة شاملة ، هل البشر اليوم (فى عصر العلم) أسعد أم فى العصور الماضية ؟ أنا لا أشك فى أن سعادتهم فى العصور الماضية ، عصور الجهالة (كما يقولون) كانت أكبر وأعمق ، ذلك لأن السعادة ليست فى المال ولا القصور ولا الترف ولا الثقافة ، ولكن السعادة نتيجة التعاضل بين ما يطلبه الانسان ، ويصل إليه ، فإذا كنت أطلب عشرة دنانير وليس عندى إلا تسعة فأنا أحتاج إلى واحد ، فسعادتى ينقصها واحد ، أما روكفلر فسعادته ينقصها مليون ، لأن عنده تسعة

وتسعين مليوناً وهو يطلب مائة ؛ فأنا بدنانيرى التسعة أسعد من روكفلر ... وكذلك الانسان فى الماضى لم تكن مطاليبه كثيرة فكان سعيداً لأنه يستطيع أن يصل إليها ، أو إلى أكثرها ؛ أما مطاليبه اليوم فهي كثيرة جداً لا يستطيع أن يصل إلا إلى بعضها فهو غير سعيد !

* * *

هذا وأنا لا أعنى الأدب بمعناه الضيق ، أي الكلام المؤلف نثراً أو نظماً ، بل أعنى الأدب بالمعنى الآخر ؛ أريد كل ما كان وصفاً للجمال وتعبيراً عنه ، لا فرق عندى بين أن تعبر عن جمال الفتاة بصورة أو تمثال أو مقطوعة من الشعر ؛ ولا فرق عندى بين أن تصور غروب الشمس بالريشة والألوان ، أو بالألفاظ والأوزان ، فالموسيقي أديب ، والمصور أديب ، والنحات أديب ، والشاعر أديب ؛ والأدب بهذا المعنى أهم من العلم ، وأنفع للبشرية ... ولو كره العالمون !

علي الطنطاوي

تحقيق تاريخي

مولاي اسماعيل والأميرة دوكنتي

للأستاذ ابن زيدان

ذكر بعض مؤرخى أوربا أنه لما رجع سفير مولاى اسماعيل ، عبد الله بن عائشة الرئيس البحرى الشهير من بعض سفاراته فى فرنسا ، وتلاقى بمولاى اسماعيل ، كان من جملة ما وصف له عند الإفضاء إليه بنتائج سفارته جمال الفتاة دوكنتي بنت لويز الرابع عشر ، فكان ذلك أعظم باعث لمولاى اسماعيل على خطبتها من والدها بواسطة سفيره المذكور . غير أن والدها لم يحقق رغبته ، ولم يعر أدنى التفات خطبته ، لأسباب : منها عدم ملاءمة طبعها لطبعه ، ومباينة نبعها لنبعه ، وتعدد أزواجه وسراريه ، وكثرة حشمه وذراريه ، إلى علل أخرى هي أولى بعدم الذكر ، وأحرى لبعدها عن الحقيقة ، ولتلون مغامزها ومغازيها الدقيقة

طالما بحثت ونقبت بتعطش لحجة يستند إليها فى إثبات هذه الأحدوثة الغريبة المغربية فى بابها . بالطرق الرسمية ، فلم أعثر على شيء يستحق الذكر فيها ، أو تطمئن إليه النفس ، سوى ما جاء به بعض مؤرخى أوربا ، مما لا سند لهم فيه ، فيما علمت وقرأت غير كتاب ابن عائشة المذكور ، ذلك الكتاب الذى سأفيض القول فيه وفى قيمته فيما يلي بحول الله . ثم جال بفكري أنه لابد أن تكون هذه القضية ، إن كان لها أصل ، ثابتة مسجلة بوزارة الخارجية ، فرحلت إلى فرنسا . ولما حللت بعاصمتها باريس ذهبت تواً إلى وزارة خارجيتها ، فقوبلت من رؤسائها بمزيد الاحتفاء والاعتناء ، وحملت على كاهل البرة والاحترام ، وسوعدت على تصفح كل ما يهمنى فى بحوثي التاريخية ، من الوثائق والأوراق الرسمية . فجست خلالها أياماً أبحث وأنقب ، وآخذ ما راقني بالتصوير والتقييد ، فلم أجد من بين أخبار تلك الذخائر ضالتى المنشودة ، فرجعت أدراجى ، وأعملت الفكر في هذه القضية ، وقابلت بين هذا الكتاب الملصق بابن عائشة ، وبين غيره من المكاتيب الرسمية الرائجة إذ ذاك ، حتى المكاتيب الصادرة من ابن عائشة ، الممضاة بخط يده ، فلم أجد بينها وبينه مناسبة ما ، لا من حيث الأسلوب الدبلوماسي الجارى به العمل فى ذلك العصر ، ولا من حيث التقصير الواقع في هذا الكتاب ، بالنسبة لأهمية هذا الأمر الجلل

أما من حيث الأسلوب الدبلوماسى ، فإن كل من يرجع إلى تاريخ العلائق السياسية الخارجية إذ ذاك وما يصدر فيها من المكاتيب والوثائق الرسمية الاسماعيلية ، يدرك بالبداهة أن نسبة هذا الكتاب لابن عائشة المشتمل على هذا الأمر المهم ، إنما هي خيالية فحسب ، لجريانه وصدوره على غير المألوف والمعهود من الأساليب الكتابية والدبلوماسية المتبعة إذ ذاك

وأما من الحيثية الأخرى ، فإنه يبعد كل البعد أن يخطب ملك عظيم إلى ملك عظيم بنته وهو أجنبى عنه بهذه الوسيلة المخلة بعظمتهما معاً ، إذ التقاليد تقضى فى مثلها ألا يصدر فيها مثل هذا الكتاب الذى هو أشبه برسالة تكتب لطلق إنسان ، بأسلوب يزرى بعظمة السلطان ، ويقضى بيله هذا السفير العظيم الشان ، إذن فما يقتضيه الحال حينئذ ؟ يقتضى أن يحرر فى ذلك كتاب رسمي ، باسم جلالة الخاطب لجلالة المخطوب إليه ،

ويرسل صحبة سفير عظيم ماهر كابن عائشة ، مع هدايا نفيسة ، وتحف مغربية تستلفت الأنظار ، وتحف المخطوبة من الاعتبار باطار ، وتقضى بنيل الأوطار ، طبق القرر المتاد فى السفارات المتبادلة بين الملكين فيا هو أوهى وأوهن من هذا الأمر

لا بد أن أعرض على القراء نص هذا الكتاب ، وكيف وجد وبأي لغة كتب ، ولأي لغة نقل ، وبشهادة من يراد اثباته ، مما لم تجر به عادة ، ولا ارتكب مثله لا في البدء ولا في الإعادة ، لتعلموا قيمته :

هذا الكتاب نقل عن مجلة فرنسية ، سميت مجلة فرنسا ، وكتب لأول مرة باللغة الأسبانية ، ولم يحرر أصله الموهوم باللغة العربية ، التى هى لغة من ألصقت نسبته به ، والتى هى لغة الدولة المغربية الرسمية ، والتى كانت تخاطب بها الدول الأجنبية ، ونقل من اللغة الاسبانية إلى اللغة الفرنسية ، والذى شهد على ابن عائشة به كاتب أجنبي لتاجر أجنبي كان مقيماً بسلا فى ذلك العهد ، وإذا تحققت هذا وأحطت به علماً . فإليك نص هذا الكتاب منقولاً عن المجلة المذكورة عدد ٦٢ مترجماً بقلم رئيس الترجمة العلمية بالرباط سابقاً الكمندار إسماعيل حامد الأشهر :

« وبعد فقد أمرنى مولانا السلطان على أنه إن كان جواب ملك فرنسا موافقاً لما تضمنه كتابنا هذا فأتجهز للسفر على أى مركب من المراكب الحربية الفرنسوية ترد على مرسى سلا أو غيره لأتوجه الى حضرة سمو ذلك الملك الفخيم وأعرض على جنابه العلي المعاهدة التى يرغب سيدنا عقدها معه بمزيد الاشتياق والفرح، وأن أحقق لديه بكل التأكيد بأنه يفتخر سيدنا بمصاهرة أعز الملوك وأجلهم ، وأن يبيح له الدخول فى جميع مراسى الإيالة الشريفة وسائر مدنها وأقطارها ، وكذلك لكافة رعيته ، وعليه أشهد أن القبطان عبد الله بن عائشة هو الذى أملى عليّ هذا الكتاب باللغة الاسبانية ، ثم ألزمنى بترجمته إلى اللغة الفرنسوية ولأجله وضع فيه خاتمه والسلام . الامضاء : جان مانى دولا كلوازري النازل بمدينة سلا فى مقابلة تجارة السيو جوردا ، وكتبه فى ١٤ نوفبر سنة ١٦٩٩ موافق ٢١ جمادي الأولى سنة ١١١١ »

هذا أصل الكتاب . وهذه ترجمته حرفياً فلنبحث الآن فيا يُعَضِّده أو يَعْضِده ، لنكون على بينة من أمره ، ولنميز بين خله وخمره ، فنقول : هل يمكن لابن عائشة ، وهو ذلك السفير الخطير أن يملي على كاتب أجنبي نص هذا الكتاب الخاص بمولاه ، المتعلق بأمر مهمه ، من الواجب أن يكون سرياً لا يتجاوز الخاطب ، والسفير يعليه عليه باللغة الأسبانية ، ويلزمه بترجته إلى اللغة الفرنسية ؟ هذا ما لا يوافق عليه عظمة الخاطب ومهنة السفير ، ولا يقبله العقل السليم ، ولا يصدقه الواقع ، حتى فيا هو أقل من هذا الأمر الخطير ، وإلا فأين كتاب الدولة ومترجموها ، المتنون بتنميق مكاتبها ، وتطريزها بالذهب ، وتلوينها بأصباغ مبهجة خلابة رائقة ، بطرق فنية ، امتاز بها كتاب المملكة المغربية ؟ ما بقى لنا إلا أن نتساءل قائلين :

هل يمكن أن يكون ابن عائشة وضع هذا الكتاب افتياتاً منه على ولى نعمته وهو لا يعلم ، ووجهه للملك لويز ليجس نبضه فى الأحدوثة التى لم تعزز بثانية فى بابها ، حتى يعرف من أين تؤكل الكتف ، فان نجح مسعاه قدمه قرباناً لمولاه ، بين يدى نجواه ، رجاء ازدياد تمكن وتقرب منه ، وإن أخفق وخاب كتم الأمر عنه وقنع بالحالة التى كان عليها معه ، ولذلك كله تجشم مشقة الالتجاء إلى ذلك الكاتب الأجنبى ، وإملاء الكتاب عليه بنص أسبانى أجنبي ، وإلزامه بنقله إلى نص فرنسي أجنبي . واكتفى بوضع الخاتم عن الامضاء بخطه ، ولكن هناك عقبة كأداء تعترضه في هذا السبيل ، وهى أن هذا الأمر من الأهمية بمكان ، وليس بالأمر الهين الذى يمكن تمشيه والوصول إليه فى طى الخفاء ؛ ولا يؤدى به إذا أخفق فيه إلى عقاب سلطانه وجفاه .

إننا نعلم جيداً كغيرنا أن المغرب كان إذ ذاك طافحاً بكتاب بارزين هم أولى بإسناد هذه المهمة إليهم ، وأحق بالقائها عليهم ، لو كانت تخطر ببال ، فكيف عدل ابن عائشة عنهم إلى هذا الكاتب دون سواه ، وهو كاتب أجنبي لتاجر أجنبي ، لا علاقة له بمطلق شؤون الدولة ، ولا بالبلاط السلطانى وكيف اطمأن إليه فى هذه القضية المهمة ، التى يتوقف علاجها على كاتب ماهر من كتاب أسرار الدولة المارسين لها العارفين بأساليبها ممن يتلاعب بأطراف الكلام ، ويداوى بيلسم بلاغته الكلام ، ويوصل بسحر بيانه إلى هدف القصد والمرام ؟ فهل بلغ البله بابن عائشة إلى هذا الحد ، فخاطب أعظم ملوك أوربا إذ ذاك بمثل هذا الخطاب الصبيانى فى خطبة فلذة كبده ، وريحانة قصره وقرة عين ملكه لملك عظيم ، عرف بعلو الهمة والشهامة والغيرة ،

والمحافظة على أبهة الملك وسطوة السلطان ؟ هذا يسأل عنه من درس حياة الخاطب ، وسيرة سفيره ابن عائشة معه ، وما لسفيره هذا من المكانة المكينة في العقل والدهاء ونفوذ البصيرة ، وعدم الدخول في ميادين الفضول ، والبصر بما يصلح من الشئون الدولية ، وما لا يصلح ، وعدم تجاوزه لحدود وظيفته ، وما تقتضيه رسوم مرتبته ، فلم يكن ابن عائشة مغفلا ولا أبله ولا إمعة ولا فضولياً ولا ثرثاراً حتى يأتي بسر من أسرار سيده ، لو كان ، ويضعه بين يدى كاتب أجنبي لتاجر أجنبي ، ويتبرع باطلاعه عليه والإفضاء به إليه ليفضي به لدولته ، فيذيع وينتشر قبل وصوله لصاحبه المخاطب به ، ويشهده مع ذلك على نفسه ، وهو يعلم قيمة شهادته عنده وعند غيره إذ ذاك

نحن لانشك في أن المصاهرة هي من آكد العلائق وأوثقها بين ملوك الدول ، ولا زال الملوك يرغبون فيها ، توطيداً لدعائم عروشهم ، وتثبيتاً لمراكزهم ، وتسييراً لنفوذهم ، وسعياً وراء تأمين ممالكهم ، فليس هناك من عار يلحق الجد أبا النصر اسماعيل لو ثبتت خطبته لبنت أعظم ملوك أوربا في عصره ، سعياً وراء ربط علائقه معه برباط من المصاهرة وثيق ، واستطلاعه على أسرار دولته ، الذى لا يتأتى إلا بالمصاهرة ، وليس في الدين الاسلامي مانع منه ؛ ومن الضرورى لدى كل المسلمين أن الشرع الاسلامى ، يبيح التزوج بالكتابية ، وفرنسا من أهل الكتاب، فحينئذ لاداعى لتستر الجد مولاي إسماعيل ، وتكتمه في هذا الأمر الذى يبيحه شرعه القويم لو شاء ، ولا موجب لالتجائه إلى هده الخطبة بهذا الأسلوب المريب الغريب المخل بعظمته وعظمة المخطوب إليه ، كما أنه لا داعى لارتكاب ابن عائشة هذه الهفوة ، وهو ذلك السفير الحازم (الضابط) المجرب العارف بمقتضيات أحوال الملوك وما تتطلبه مناصبهم ومراسيمهم ، وما تتنافس فيه نفوسهم الطامحة من التنافس فيما يظهرهم بمظاهر العظمة والجلال والفخار المطلق ، على أن ابن عائشة إنما كان سفيراً في الشئون الراجعة إلى وظيفته ، ولا شك أن هذا الأمر ليس منها في قبيل ولا دبير ، فلم يكن ابن عائشة في الدولة الاسماعيلية وزير خارجية ، وإنما كان رئيس البحرية ، يترأس الأساطيل المغربية التي كانت تمخر عباب البحر إلى شواطىء الدانمارك ، وفرنسا ، وغيرهما ، فكيف يمكن أن يكافه مخدومه بهذا الأمر ، وهو بعيد عنه تمام البعد ؟ بل كيف يمكن تدخله فيه ، وهو بهذه المثابة ، مع وجود من تسيغ التقاليد الدولية تكليفه بذلك من وزراء ورؤساء الدولة الاسماعيلية المدنيين السياسيين ؟ بل كيف لايفطن مولاى إسماعيل لذلك ، وهو ذلك الملك الألمى « الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا » ينتدب لكل مهمة أهل بلواها ، حسبما شهد له بذلك غير واحد ، حتى من ساسة أوربا ؟ قال الأب بيستونى مؤلف المعنون بحكاية حوادث بالمغرب ، صفحة ٣٥ منه في حقه : يدرك مايدور في ضمير مخاطبه قبل أن ينطق بمراده . إلى أن قال : بصير بعواقب الأمور ، آخذ بالأحوط في متوقع الحوادث ، وبصفحة ٦٠ منه لايسند تدبير أموره بغيره من قواد وكتاب ، ولكن يستشيرهم فيما عزم عليه فيجبذون .

لو كان هذا الكتاب صحيحاً ، لجاء على صورة المكاتبة الدولية ، وبأسلوبها ، ولكانت له أهمية كبرى ، وطنين ورنين في الدوائر الإدارية الفرنسية ذات الشأن ، ولاحتفظ بأصله ، كما احتفظ بغيره ، مما هو أتفه منه في السجلات الدولية والفرنسية المعدة لذلك ، ولتناقله كتاب ذلك العصر من مؤرخي الشرقيين ، والغربيين ، فقد تتبعت بغاية اليقظة والتثبت جل المصادر المتعلقة بتاريخ دولتنا الإسماعيلية ، مغربية وفرنسية ، وغيرها مما كتب بلغات مختلفة ، وأساليب متعددة في ذلك العصر ، كرحلة مويط ، وتاريخه للدولتين ، الرشيدية والاسماعيلية ، وسواه كثير ، فلم نعثر على شيء ، ولم نقف لهذه الأحدوثة على أثر ولا خبر يسمع وتطمئن النفس إليه ، ولطالما تباحثت في ذلك مع جماعة من علية المستشرقين وغيرهم ، فلم يفيدوا بما يحسن السكوت عليه ، ومنهم من وعد بالبحث في مواطنه ، وبعد مدة أجاب سلبياً ، وغاية ما هنالك ، رواج القضية حتى استفاضت بدون استناد لأصل أصيل يثبتها ، ولقد أجهد نفسه البحاثة الكبير الكنت هنرى دوكسترى ، وهو من هو في البحث ، والتنقيب ، عسى أن يصل إلى أصل يعتمد عليه في الإثبات ، بصفة رسمية ، فلم يظفر بشيء كسابقيه ، ومن أتى بعده ، وكل من ذكرته في هذا الموضوع من المؤرخين المستشرقين وغيرهم ، وبينت له وجهة نظرى في إبطال القضية ، ودحضها بالحجج الواضحة ، حبذ النظرية واقتنع بها

والباحث المولع مثلي بالبحث والتنقيب عن الآثار والوثائق

التاريخية ، ولا سيما ما كان متعلقاً منها بسلفنا الطاهر ، لابد أن يكون جد مسرور لو عثر على مايطمئن نفسه ، ويقر فى قرارتها ثبوت هذا الأمر الخطير بالطرق الرسمية المعروفة المتبعة . هذا ولا عار يلحق الخاطب المظيم ، لو كان هـذا الكتاب صحيحاً ، وحبذا ذلك ، وأبى لويز الرابع عشر أن يحقق له هـذه الأمنية لأسباب ارتآها ، وعلل خارجية يعقلها من يعلم بوقوع هـذه الشئون بين من لايعد من الخاطبين وخطوباتهم فى سائر الطبقات ، ولكننا ويا للأسى والأسف لم نقف ولا وقف غيرنا ممن أجهد نفسه فى البحث قبلنا على ما يثبت ذلك ، فليس هنالك نص محفوظ فى الدوائر الرسمية يتضمن ذلك ، وليس هنالك جواب يدل على وجود هذا الكتاب من والد المخطوبة ، والجواب ضرورى ولا شك حسب القواعد الجارية ، ولا سيما فى مثل هـذه المهمة التى أصبحت الشغل الشاغل لكثير من الباحثين ، والتى يريد إثباتها كثير من المستشرقين ، بل والشرقيون كذلك من غير التفات إلى مصدر وثيق ، ولا نص رسمى صريح يحمل على اليقين . على أنه لو كان هنالك كتاب لكان عنه جواب بالطبع ؛ ولو كان هنالك جواب لحفظ أصله من غير ارتياب ؛ ولو كانت هنالك رغبة حقيقية من جلالة الخاطب فى هذا الأمر لوقع منه ما يؤيده من مراجعة الملك المخطوب إليه بواسطة نائبه الذى كان بمثابة وزير الخارجية إذ ذاك ، وكان يقيم ، فى الغالب ، بثغر طنجة ، وكانت الأمور الخارجية ، كيفما كانت ، منوطة به من جانب السلطان فى ذلك العهد ، وما ذاك إلا لكون هذا الكتاب يقتضى بنصه الصريح شـدة رغبة مولاي اسماعيل فى ذلك ، فكيف يمكن أن يكون راغباً فيه متعلقاً كل التعلق به ولا يراجع المخطوب اليه ، ولا يخاطبه فى شأنه بمكاتيب رسمية تفصح عن مراده تمام الإفصاح ؟ ذلك مما ينقض هذه القضيـة بوضوح ، ويصيرها فى حيز العدم .

جعل مؤرخو أوربا لهذه القضيه سبباً غريباً نعده نحن ، بحسب تقاليدنا الدينية وتقاليد ملوكنا الغيورين العظماء ، من قبيل الروايات والتشبث بالخيال الكاذب . أتدرى ما هو هذا السبب ؟ هو وصف ابن عائشة تلك الفتاة الجميلة لمولاى الجـد اسماعيل وصفاً كاشفاً جعله ينزو هـذه النزوة التى تقضى على ما عرف به من الثبات الذى يحطم النزوات والوثبات والمشهود له به من كتاب عصره سواء فى ذلك الأوربيون وغيرهم ، بل صيره ينزع هـذه النزعة التى تجعله فى صف الذين تقودهم غرائزهم إلى الهيام بما يرضيها ويشبع نهمها بأي وسيلة كانت ، مع أنه كان بقصره الفاخر العامر من الأزواج الطاهرات والسرارى وأمهات الأولاد الأعجميات الجميلات ما يغنيه ولا شك عن التعلق بفتاة وإن كانت أميرة بعيدة عنه تمكن أحد سفرائه من وصفها بكل دقة ؛ فقد نص « بيدجان مكان » فى تعليقه على ما كتبه « سان أولون » على أن مولاى اسماعيل ، وإن كان ولوعاً بالنساء ، فإنه لم يكن من الذين يستهويه حبهن ، ويستولى على فكره ، بل كان مقتصراً على ما تدعو إليه الحاجة إليهن ، ولم تشغله كثرة نسائه عن تدبير شئون مملكته ، والنظر فى مصالحها ، إلى آخر ما قال من هذا القبيل فلينظر فى كتابنا « المنزع اللطيف ، فى التلميح لمفاخر مولاى اسماعيل بن الشريف » وليس سفيره ابن عائشة بذلك المتهور السخيف ، الذى يتجرأ على مولاه وسيده ، بوصف هذه الفتاة له وجهاً لوجه ، وهو الذى كان يقف بين يديه وقوف الملوك بين يدى مالكه ، بأدب واحتشام ، وتهيب لمقامه واحترام

والذى يرفع نقاب الغموض عن هذه القضية ، هو ما كان بين الخاطب والمخطوب إليه من غاية الرعاية وتمام المودة ، وحسن العلائق ، والمخاطبات التى كانت أكبر عنوان على تعظيم أحدهما للآخر والتنويه به . واعتناء كل منهما باجابة صاحبه عن كل أمر له علاقة بتوثيق العلائق السياسية بينهما ، وأي علاقة تضاهى علاقة المصاهرة فى هذا الباب أو تحل محلها ؟ فكيف إذن تصح خطبة سيدنا الجد اسماعيل الأكبر منـه بهذه الصفة ؟ وكيف لايجيبه جواباً يعبر فيه عما تكنه نفسه للجد من إجلال وتقدير عهداً منه فى غير هذا الأمر ؟

هذا ما ظهر لي فى هذه الأحدوثة أبديته ، راجياً من الباحثين والمؤرخين أن يرشدونا إلى أصل ثابت غير الكتاب الذي أبديت فيه رأيي ، ولهم مزيد الشكر مني سلفاً .

« الرباط » ابن زيدان

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢١ —

الفلسفة الصينية

يلاحظ الباحثون أن لديهم مصادر لابأس بها عن جميع الفلسفات الشرقية القديمة ماعدا الفلسفة الصينية فإنها ظلت إلى ماقبل هذه السنين الأخيرة مدروسة دراسة ناقصة ، إذ لم يوفق قبل هذا العصر أحد لأن يكتب عنها كتاباً وافياً يعالج نواحى فلسفتها العميقة المتشعبة ، ولكن ليس معنى ذلك أن هذه الفلسفة ظلت مجهولة تماماً إلى أن ظهرت تلك البحوث الأخيرة ، كلا ، فهذه الفلسفة قد عرفت فى العالم الأوربى المتمدين قبل الفلسفة الهندية مثلا ، إذ ترجم « كونفيشيوس » سنة ١٦٨٧ و « مانسيوس » سنة ١٧١١ ، ولكن الذى ظل ينقص الباحثين إلى هذا العهد الأخير هو الكتب الشاملة لجميع نواحى هذه الحياة العقلية القيمة ؛ غير أن هذه الثغرة قد أخذت تضيق على أثر شعور العلماء المحدثين بوجوب استيفاء هذه الدراسة الهامة ، ذلك الشعور الذى تجلى بوضوح فى كتاب العالم الكبير والمستشرق الخطير (ا . ف . زانكير) . ولا ريب أن هذا المؤلف وأمثاله قد كشفوا للعقل الحديث عن ناحية هامة من نواحى الفكر البشرى كانت مجهولة لدى العامة ، ومعروفة معرفة مشوهة لدى الخاصة . ولهذا الجهل أو التشويه ثلاثة أسباب : الأول صعوبة اللغة الصينية إلى حد يصعب معه إتقانها واكتشاف أسرارها . الثانى فقدان الثقة نهائياً من جميع الترجمات التى نقلت النصوص الصينية إلى اللغات الأوربية لما وجد بينها من تباين واختلاف جديرين باسقاطها كلها من صف الحقائق العلمية . السبب الثالث هو ذلك التزمت الأوربى المتعجرف الذى ظل إلى ماقبل هذه السنوات الأخيرة يجزم فى طفولة بأن أول فلاسفة الدنيا هو « تاليس »

وأن العقلية الشرقية — ولا سيما الجنس الأصفر — غير قادرة ألبتة على أن تنتج آراء فلسفية ذات قيمة عالية ، إلى غير ذلك من الدعاوى السطحية التى أنزلتها البحوث الأخيرة عن الفلسفة الصينية منزلة الخجل والسخرية ، إذ كشفت الدراسات الحديثة عن أن للصين فلسفة عميقة مبتدعة جديرة بالاحترام يرجع تاريخها إلى عشرين قرناً قبل المسيح ، وأنها استطاعت أن تلون الحياة العملية العامة للأمة جماء بلونها الراق ، وأنها استطاعت كذلك أن تحفظ الكيان الخلقى الكامل لهذه البلاد مدى أربعة آلاف سنة ، بل إن بعض العلماء يعتقد أن الفضل فى هذا التماسك الاجتماعى والمقاومة السياسية واحتفاظ الصين باستقلالها إلى الآن يرجع إلى تمسكها بالأخلاق العالية المسجلة في فلسفتها

على أن هذا لايمنعنا من أن نعترف مع الأستاذ زانكير بأن الفلسفة الصينية لم تعرف علم النفس التجريبي على النحو الذى يدرس عليه الآن ، وأن العقلية الصينية لم تعرف المناهج العلمية ، بل وأنها لم تنجح تماماً فى تأليف كتاب منظم متقن فى علم المنطق وإن كان هذا كله يجب أن ينظر إليه بعين التحفظ والاحتياط ، لأننا سنشير فيما بعد إلى المنطق الصينى ، وسنبين بعض مافيه من عمق وسمو كما أننا سنشير كذلك إلى مالهم من مجهود لابأس به فى العلوم المختلفة الأخرى

غير أن أولئك العلماء الذين استهانوا بالفلسفة الصينية ورموها بالخلو من النظريات لهم فى ذلك بعض العذر ، وهو أنهم لاحظوا فى جميع الأطوار التاريخية لهذه الأمة أن الفلسفة العملية هي التى تفوز بأهم الأدوار فخدعهم ذلك عن الفلسفة النظرية التى هى أساس كل هذه الأخلاق العملية . وفى الواقع أن من طلائع مميزات الأمة الصينية تحوُّل النظريات بسرعة إلى أخلاق عامة فى الشعب كله ، ولهذا قال « سوزوكى » اليابانى مانصه : « إذا كان الدين ممثلا فى اليهود ، والتنسك فى الهنود ، والتفلسف فى الإغريق ، فإن الأخلاق هي الثقافة الروحية التى التقت في إمبراطورية [1] الوسط بممثليها الحقيقيين وبنموها المنظم المحدود [2] »

(١) إمبراطورية الوسط هى الصين

(٢) راجع كتاب تاريخ الفلسفة الصينية القديمة تأليف « سوزوكى » صفحة ٤٧ طبعة لندن سنة ١٩١٤

بلغت الأخلاق الصينية من السمو إلى حد أن روى لنا الأستاذ « زانكير » أن المبشرين المسيحيين حين اتصلوا بالصينيين فى القرن التاسع عشر ورأوا ماعندهم من أخلاق بهتوا خجلا من عقيدتهم القديمة عن هذه الأمة ولم يجدوا لهم من هذه الورطة مخلصاً إلا أن يعلنوا أن الإله قد أوحى إلى الصينيين كما أوحى إلى الإسرائليين ، وأن « شانج — تى » ليس إلا الرب السماوى المذكور فى الكتاب العبرى المقدس ، بل إن أحد « اليسوعيين » فى القرن التاسع عشر اشتغل بجمع بعض النصوص الصينية ، ليثبت منها هذا الوحى الإلهى ، وإن عدداً كبيراً من القسس والعلماء قد حاولوا أن يربطوا بين التوراة وبين الكتب الصينية تارة فى الأخلاق وتارة فى أصول العقيدة ، وثالثة فى اللغة [1] على نحو ما رأينا من التحككات اللفظية التى قام بها العلماء بين الفلسفتين : الهندية والفارسية . ويستطرد هذا العالم فيقول ما ملخصه : وقد ظلت الفلسفة الصينية مجهولة القيمة فى أوربا إلى القرن التاسع عشر ، وهذا طبيعى ، لأن الفلسفة التى تسمو فيها الأخلاق إلى هذا الحد لايمكن أن تفهم حق الفهم فى العصور التى — مع الأسف الشديد — لاتعنى بالأخلاق كثيراً ؛ ولكن العجيب فى رأيه هو هذا التناقض البارز الذى وجد كثيراً فى كتب « المُستصينِين » والذى أنزل أولئك الباحثين فى نظر « زانكير » منزلة العوام والأميين كما يصرح بذلك بعد أن يسرد طائفة كبيرة من آرائهم المتضاربة المتناقضة ثم يسأل أولئك المتعالمين متهكماً فيقول : تقولون إن العقلية الصينية غير جديرة بالاحترام ، لأنها لم تترك تراثاً علمياً ، فهل تستطيعون أن تنبئونى متى عرفت أوروبا العلم ؟ وهل كان لسها أقل فكرة قبل القرن السادس عشر عن العلم أو عن مناهجه الحديثة ؟ وهل كل شعوب أوروبا لم تكن مستوية مع الصين فى هذه النقطة تمام الاستواء إلى عهد النهضة ؟

على أن هذه التهمة التى رموا بها العقلية الصينية هى باطلة من أساسها ؛ فالصينيون قد عرفوا منذ أكثر من ثلاثين قرناً الرياضة والفلك إلى حد أن كان لهم فيهما بحوث قيمة تدور حول بعض معقدات فروع هذين العلمين مثل معرفة الفروق الدقيقة بين السنتين : الشمسية والقمرية ، ومعرفة أوقات دورات هذه الأفلاك الثلاثة : الأرض والشمس والقمر بالنسبة إلى بعضها . وفوق ذلك فقد كانت لهم دراية عظيمة بالأدب ونقد النصوص والتاريخ والجغرافيا وتاريخ الفنون وعلم اللغات . كل هذه المواد كانت معروفة ومدروسة فى الصين بدرجة من العناية لم تكن تبلغها أوروبا قبل القرن السادس عشر

أما العلوم الطبيعية فيكفى لإثبات نبوغهم فيها أن نعلن فى فخر أنهم هم الذين اخترعوا البوصلة وأحجار المناظير ورواسم « كليشهات » الطباعة المصنوعة من الخشب ، وأنهم عرفوا الورق والحرير و (البورسيلين) والطلاءات الثابتة وبرزوا فى كل هذا على أوروبا قبل عصر النهضة

نعم إن أوروبا قد سبقت الصين فى هذه العصور الحديثة ، ولكن ذلك ليس معناه نقص العقلية الصينية أو عدم استعدادها للنبوغ فى هذه العلوم ، كلا ، وإنما هو ناشىء من أن الصينيين لم يحتكوا بأوروبا احتكاكاً مباشراً متواصلاً ، فلم ينلهم نصيب كبير من هذا النمو العلمى الحديث ، ويدل على ذلك أن الشبان الصينيين الذين أخذوا بحظ من العلوم العصرية لم يكونوا أقل نبوغاً من شباب أى شعب آخر

ثم يعلق الأستاذ زانكير على هذا بقوله : والآن نعود إلى النقاش فى مشكلة الفلسفة المنهجية فنسأل أولئك المتجنين على الصينيين : ما ذا يقصدون بهذه العبارة ؟ إن كانوا يريدون بها تطبيق مناهج العلوم التجريبية على الفلسفة ، فنحن نوافقهم على أن الصينيين لم يعرفوا هذا الفن ، ولكننا نعود فنهمس فى آذانهم بأن أوروبا لم تنجح فى هذه الطريقة إلى الحد الذى يبرر هذه الطنطنة ، ويستدعى تلك الكبرياء . بل بالعكس إن أحدث الآراء الفلسفية المحترمة قد عدلت نهائياً عن هذه الفكرة ، وآمنت بأن العلم قد عجز أن يكون أستاذ الفلسفة وملهمها ، وأعلن استعداده إلى العودة من جديد إلى بنوتها والتتلمذ عليها ، واعترف أن مناهجه الميكانيكية ليست إلا جزءاً من مناهج الفلسفة ابتدعته هى حينما ألجأتها الحاجة إلى دراسة المظاهر الخارجية التى لا تعرف إلا عن طريق هذه المناهج التجريبية . وأخيراً فهل سقراط وأفلاطون والقديس أوجستان والقديس توماس — ولم يعرف واحد منهم المنهج التجريبي — لم يكونوا فلاسفة فى نظر أولئك المتجنين [1] ؟

(١) تاريخ الفلسفة الصينية تأليف (ا . ف . زانكير) صفحة ١٦ طبعة باريس سنة ١٩٣٢

(١) راجع كتاب زانكير صفحات ١٧ وما بعدها

نحسب أننا بعد هـذا كله قد رسمنا لك صورة واضحة للفلسفة الصينية فى شكلها العام ، ولما أصدر عليها الباحثون من أحكام متسرعة لم تلبث أن انهارت أمام النقد المصرى النزيه

مصادرنا عن الفلسفة الصينية

يرى العلماء أن أهم مصادر فلسفة شعب من الشعوب هو الكتب التى سجلت فيها آراؤه الفكرية وأخلاقه العملية ، وأن أصدق ما يحقق هذه الغاية عند الشعوب القديمة هى الكتب الدينية، لأن الدين والفلسفة توءمان فى النفس البشرية لا يستطيع أحدهما أن يستغنى عن الآخر ، إذ لا تكاد العقيدة الدينية تستقر فى النفس حتى توقظ التفكير الذى هو مبدأ الفلسفة ، ولا تكاد الفلسفة تبدأ فى مهمتها دون أن تفتتحها بالبحث عن الإله ، وهو الجوهر الأساسى فى العقائد . وإذن فنستطيع أن نجزم بأن الدين والفلسفة شقيقان مستقلان بدآ من مصدر واحد متجهين إلى غاية واحدة وإن اختلفت أثناء الطريق وسائلهما ، بل قد يعظم هذا الاختلاف حتى يصل إلى درجة الخصومة كما حدث بين « أنا جزاجور » ورجال الدين فى أثينا ، أو بين الفلاسفة ورجال الكنيسة فى أوروبا فى القرون الوسطى ، ولكن الصينيين لحسن حظهم لم يعرفوا هذه المعارك الدامية التى شهدتها أوروبا المتمدينة بين الفلسفة والدين مراراً عدة ، بل ظل العقل والدين عندهم فى وئام وسلام يتعاونان تعاون الشقيقين على حل خفايا الكون ومشكلات الوجود .

لهذا كله كان من الطبيعى فى الصين — أكثر منه فى أى بلد آخر — أن نبحث عن مصادر الفلسفة بين صفحات الكتب الدينية وفى تقاليد الشعب وعاداته الشفهية ، وهذا هو الذى كان بالفعل ، إذ اعتمد الباحثون العصريون فى الفلسفة الصينية على ما يأتى:

(ا) العادات والتقاليد الدينية التى ظلت — بفضل العزلة — كما كانت منذ آلاف السنين ، ولم تنل منها هذه العصور الطويلة كما نالت من تقاليد الشعوب الأخرى ، والتى لا تزال قادرة على إعطائنا صورة أمينة لما كان عليه العقل الصينى منذ تلك العهود .

(ب) الكتب الدينية الخمسة المسماة : « وو — كينج » والتى يمكن أن تعد بين أقدم الكتب الإنسانية ، ومع ذلك فلا يستطيع العالم الدقيق أن يطمئن إلى هذه الكتب كمصادر موثوق بها عن النصوص الأولى، إذ قد ثبت أن أكثرها كتبه « كونفيشيوس » ملخصاً بأسلوبه الخاص ، ولهذا ينبغى للباحث الاحتياط من هذه الكتب كما يقول أحد العلماء الألمان ، ولكن ليس معنى هذا أننا نتهم « كونفيشيوس » بتشويه هذه الكتب ، كلا ، ولكنه لما صرح بأنه لم يأت فى مذهبه بجديد ، وإنما أقر أنقى وأطهر ما كان فى العقيدة القديمة ، فقد خشى الباحثون المحدثون أن يكون قد ألغى من هذه الكتب كل ما ليس نقياً فى نظره ، وهذه خسارة علمية كبرى ، لأن العالم يهمه أن يجد الآثار التاريخية بغثها وقضيضها ، ليستطيع أن يستخلص منها الحقائق فى حياد تام . وفوق ذلك فإن تلاميذ « كونفيشيوس » قد شرحوا هذه النصوص وعلقوا عليها ، وربما يكونون قد حذفوا منها أو أضافوا إليها .

يوجد بين هذه الكتب الخمسة ثلاثة جديرة بالعناية ، وهى : « شو — كينج » ، و « شى — كينج » ، و « إبى — كينج » ؛ فأما « إبى كينج » فهو أهم هذه الكتب من حيث تصوير الناحية العقلية للأمة ، وقد حوى كثيراً من التطورات الفكرية المختلفة وهو لهذا يدعى : « كتاب التغير » وعليه أكثر من غيره يعتمد « المستصينون » فى فهم الحياة الفلسفية لهذه الأمة ، لأن التطور الذى وقع له ليس تطور حذف ولا تشويه ، وإنما هو تطور إضافة وتأويل للنصوص القديمة بما يتفق مع سير العصور المختلفة . أما نصوصه فقد أثبت العلماء أن بعضها يرجع إلى القرن الثانى عشر قبل المسيح ، وأن هذا البعض قد وجد عليه الطابع النحوى واللغوى لتلك العصور التى كتب فيها . والفضل فى هذا التحقيق العلمى يرجع إلى العالم الدقيق « ألبز » الذى استطاع بمعونة علوم اللغة أن يحدد — ولو على وجه التقريب — العصور التى كتبت فيها هذه النصوص . وإذاً ، فنحن نرى أنه اجتمعت فى هذا الكتاب المحافظة الدقيقة مع التطور المستمر .

وأما « شو — كينج » فأهميته كلها تنحصر فى احتوائه على جميع النواحى الأخلاقية إذ أنه ضم بين دفتيه أسمى أنواع الفضائل والخيرات التى اتصف بها حكماء ملوك الصين فيما قبل التاريخ تلك الفضائل التى اتخذها « كونفيشيوس » فيما بعد نموذجاً احتذاه وسار على منواله .

كان هذا الكتاب أكثر الكتب الصينية تعرضاً إلى التشويه والتبديل ، إذ تحدثنا القصص الشعبية أنه كان فى عهد « كونفيشيوس » مائة فصل كاملة نسخها هذا الحكيم بخطه ، وأنه لما أمر الأمبراطور « اتسين — شى — هوانج — تى »

باحراق الكتب افتقد الناس كتابي : « شو ـ كينج » و « شي ـ كينج » فلم يجدوهما ، فاضطروا إلى أن يستنسخوهما من جديد . وقد اعتمدوا فى هذا على ذاكرة شيخ قدير وعالم جهبذ كان قد اشتهر فى عصره بالدقة وقوة الذاكرة ، وهو « فو — سانج » . ولهذا السبب قد أصبح كتاب « شو — كينج » ثمانية وخمسين فصلا بعد أن كان مائة .

ومهما يكن من الأمر ، فان هذا الكتاب له أهمية عظمى من الناحية الأخلاقية ، لاحتوائه على كثير من الحكم والمواعظ والأمثال والقصص التى تعلي من شأن الفضيلة والخير .

هذه هى المصادر القديمة التى يعتمد عليها . وهناك كتب أخرى قد كتبت فى العصور المتأخرة وسنشير إليها عند ما نعرض لعصورها فى شىء من التفصيل .

« يتبع » محمد غلاب

فقيد الأدب السوداني

التيجاني يوسف بشير

للأديب المبارك ابراهيم

فى أواخر شهر يوليو المنصرم ، منيت النهضة الأدبية الحديثة فى السودان بخسارة جد فادحة قل أن يأتى الزمان لها بعوض ، وذلك بوفاة شاعر هو من أجل شعراء النهضة ، هذا إن لم أقل إنه أرهفهم إحساساً أجمعين !

* * *

يعد الفقيد من أصغر شعرائنا المجيدين سناً ، إذ كان مولده فى مدينة أم درمان عام ١٩١٢

وقد تلقى علومه بمعهد أم درمان العلمي ؛ وبعد تخرجه ساهم فى تحرير جريدة « ملتقى النهرين » ، قبل اندماجها فى جريدة « حضارة السودان » . ثم حرر فى مجلة « أم درمان » ، ومجلة « الفجر »

وكان الشاعر الشاب يؤمل أن تواتيه الظروف ، فيتزح إلى القطر المصرى الشقيق ، للانتظام فى أحد معاهده العالية ، غير أن جده العاثر لم يمكنه من إدراك هذه البغية

ومن رقيق شعره فى الحنين إلى أرض الكنانة :—

عادنى من حديثك اليوم بامصر   رئىٌّ وطوفت بي ذكرى
وهفا باسمك الفؤاد ولجت   بسمات على المباسم سكرى
إنما مصر والشقيق الأخ السو   دان كانا لخافق النيل صدرا !
نضر الله وجهها فهى ما تز   داد إلا بعداً على وعسرا !

* * *

والتيجاني لم يكن كأولئك النظامين الذين إذا ما شاءوا أن يؤلفوا القوافى أتوا بالتعابير الجاهزة الجافة ، فقوموا قصيدهم منها كما يقوم البناؤون البيت أو البناء بقوالب من الطوب . . . كلا لم يكن شاعرنا كأولئك ، وإنما كان رحمه الله أشبه ما يكون بالمثال الماهر الذى يعمد إلى المواد الأولية البكر فينحت منها فى غير محاكاة ، تماثيل هى آية من آيات الفن الخالد على الزمن

وإليك أغرودة من أغاريد الشاعر المرقصة ، وقد أسماها « النائم » قال :

أيها النائم فى مهـ   ـد أغانيّ ولحنى :
هكذا يدفق يا نا   عس فى حسنك حسنى
أنت يا واهب ألحا   نى ويا ملهم فنى
إنما أصنع من كر   مك صهبائى ودنى :
يا أمانىّ التى أعـ   ـددها فى كل لون
وأغانىّ التى ألـ   ـهمها ملهم جن !
والتى ذوبها المطـ   ـرب فى الصوت الأغن
كلما طار بها اللحـ   ـن وفراها المغنى :
خفقت ذات جناحيـ   ـن : مدوٍ ومرن :
عبرت كل فؤاد   ونفذت كل أذن :

وكل آثار الفقيد من هذا الضرب الذى يمتاز بالرصانة فى الأسلوب ، والسمو فى الخيال ، والتجديد فى المعانى

* * *

وفن التيجاني فى مجموعه ، مزاج من الأحاسيس العاطفية المتناهية فى الدقة ، والتأملات الروحية الفلسفية الصوفية : التى ترى أن كل الكائنات ؛ كبيرها وصغيرها ، جليلها وحقيرها ، تحدث عن جلال الخالق عز وجل

وليس أدل على صدق هذا القول من قصيدة شاعرنا التى نشرتها له « الرسالة » فى العدد ٣٨ من سنتها الثانية ، تحت عنوان

« الصوفي المذب » ، وهذه القصيدة تمثله صوفياً من الطراز الأول ، ومنها : —

الوجـود الحق ما أو سع فى النفس مداه
والسكون المحض ما أو ثق بالروح عراه
كل ما فى الكون يمشي فى حناياه الإله
هذه النملة فى رقتها رجع صداه !
هو يحيا فى حواشيها وتحيا في ثراه !
وهى إن أسلمت الرو ح تلقتها يداه !
لم تمت فيها حياة الله إن كنت تراه !

***

وله من نفس القصيدة ، وكأنى به كان يصور شعوره عند دنو الساعة الأخيرة :

أذني . . . لا ينفذ اليو م بها غير العويل
نظرى ... يقصر عن كل دقيق وجليل
غاب يا نفسيَ إشرا قك والفجر الجميل
واستحال الماء فاستحجر فى كل مسيل
يرجع اللحن إلى أو تاره بعد قليل :

***

وكان حب الشاعر المفرط للبحث والتنقيب في أمهات الكتب الأدبية والفلسفية يحمله على أن يقطع ليالي برمتها ساهراً : يقلب صفحات كتبه تارة ، وصفحات أفكاره تارة أخرى ، أو يغازل عرائس أشعاره وقوافيه ، البارعات الجمال ، ذلك دون أن يقيم لصحته وزناً ، أو يعطى جسمه الغضوى راحته من المجهود وفى ذلك يقول : —

ويح نفسى تنام من دونها الأ نفس شوطاً وماتهم بشوط !
أنا والنجم ساهران نعد الصبح خيطً من الشعاع لخيط !
كم صباح نسجته أنا والنج م وأرسلت شمسه من محطى !

***

وكان من جراء هذه الجهود المتواصلة التى كان يبذلها الشاعر فى الانكباب على الدرس والتحصيل أن أصيب بداء « السل » التيَّ أودى بحياته فى أقل من نصف عام . فرجع هذا اللحن الجميل إلى أوتاره ، على حد تعبير الشاعر . والشاعر نازل فى ريعان الشباب ، ولما يتجاوز الخامسة والعشرين

***

هذا وقد خلف الشاعر ديوان شعره ، الذى كان يعده للطبع بعنوان « إشراقة » . وقد قدم له بقصيدة شيقة جاء فيها :

قطرات من الندى رقراقه يشرق البشر دونها والطلاقه
قطرات من الصبا والشباب الغض (م) منسابة به منساقه
ورذاذ من روحى الهائم الولهان (م) أمكنت فى الزمان وثاقه !
قطرات من التأمل حيرى مطرقات على الدجى براقه
يترسلن فى جوانب آفاقي (م) شعاعاً أسميته « إشراقه »

***

فى سنة ١٩٢٧ ، نشرت له مجلة « البلاغ الأسبوعى » أولى قصائده ، وهو يومذاك طالب حديث السن فى الخامسة عشرة من عمره ، ومطلعها : —

تبدى الصدود وإننى أهواها حسناء ما عرف الهوى لولاها !

وأما آخر ما نظمه الشاعر وهو على فراش الموت ، فقصيدة بليغة مؤثرة ، يخاطب فيها صديقه الشاعر السوداني المشهور : محمود أنيس . وفيما يلى جانب منها : —

أرأيت الصديق يأكله الدا ء ويشوى عظامه المحراق ؟
جف من عوده الندى فتعرى وتنفت من حوله الأوراق !
وأنا اليوم لا حراك كأن قد شد فى مكمن القوى أوثاق
بت استنشق الهواء اقتساراً نفس ضيق وصدر مطاق
وحنايا معروقة ، وعيون ، غائرات ، ورجفة ، ومحاق !
مالنا دون ذا احتيال فإن الله (م) فى علمه الشئون الدقاق !
كيف أجزيك يا «أنيس» ومالى من يد بالجزاء مثلى تساق
فالقريض الذي تقدر لا أعلم (م) إن كان فى الجزا يستشاق
فاحتفظها ذكرى فإن مت فاقرأ بينها الحب ما عليه مذاق
أو حيينا فسوف نقرأ فيها فترة لا أعادها الخلاق !

***

ألا رحم الله فقيد الأدب السودانى ، فلو عاش لغدت له شهرة مدوية بين قراء العربية فى شرقنا العزيز .

(أم درمان سودان) المبارك ابراهيم

همس وعزلة

للأديب يوسف البعيني

إلى أخي وصديقي الأستاذ فليكس فارس

مرَّ عليكِ الخريف بحزنه وكآبته . . .

ثمَّ كفَّنكِ الشتاء بضبابه وثلوجه . . .

ومع أنكِ تسمعين همهمةَ الرياح ، وتشاهدين تناثرَ الأوراق في الأودية والمنحدرات ، أراكِ لا تحرّكين شفتيكِ ولا تهمسين بكلمة . فهل أخرسَ الموتُ لسانك ؟ لسانكِ الذي كنتُ أسمعهُ شادياً مغرّداً يُفعم القلبَ حباً ، والروح فرحاً وانتعاشاً !

واأسفاهُ ... إنَّ ليالي الانزواء والانفراد قد حوّلت رائعَ إنشادكِ إلى وحشة خرساء صامتة ... فما عدتِ تغازلين القمر ، والجدول ، والزهر ، والشمس المطلة من وراء جدائل الشفق

فسلامٌ على أيّامك الغُرّ الحسان ...

أيامِ زهوكِ وسروركِ ! !

* * *

عجباً . . !

أهكذا يذوي الانفراد زهرةَ الأرواح ؟

ويحوّلُ إيناعها الناضر إلى ذبولٍ مؤلم وإطراقٍ مخيف ؟

عجباً . . !

أهكذا تجرّد العزلة زهرة الأرواح من زهوها الأنيق لتتعرى كالحُلم الحزين في برودةِ الموت ؟

* * *

وافجيعتاهُ عليكِ ... لم تعدْ حرارةُ أنفاسكِ تُدفئكِ ! إني أخشى عليك من تجمُّدِ العناصر ، وظلمة ليالي الخريف الحالكة!

* * *

دمعةٌ فابتسامة ،

ليلٌ فصباح ،

هذا هو قانونُ الحياة

فلا حزنٌ يبقى ، ولا يأسٌ يدوم

فاستعدي لكي تنفضي عن مناكبك غبار العزلة والانفراد ، وأن تفتحي للفجر قلبكِ الطافح بخمرةِ الحبّ والجمال

فما قريب يأتي الربيعُ بنسماته العليلة ،

وزهوره البيضاء ،

وأندائه النابعة من أجفانِ النجوم !

كفاكِ صمتاً . . .

فالصمتُ للعظام والجماجم ،

وليس لكِ يا ابنة الآلهة !

* * *

فهل تستيقظين وتنزعين عن وجهكِ نقابَ الموت أيتها الوحيةُ الحبيبة

المتسربلة بالضباب ،

والمتّشحة بالشعور والعواطف ،

والمصغية إلى أغاني الكواكب ؟

نعم . . سوف تستيقظين ،

وسوف ترافقين ذاتي الخفيَّة . . .

فنفرحُ معاً عندَ أقدام الوادي ، ونحتسي كؤوسَ الحياة منفردين

إنَّ الربيعَ حياةٌ . . .

ومن لا يشاركُ الربيع في سروره وأفراحه ، فليس من أبناء الحياة ! !

«البرازيل» يوسف البعيني

تشريع ولز للزواج
وأثره الاجتماعي
للأستاذ خليل جمعه الطوال

إن الانسان مدني بفطرته ميال بطبيعتــه إلى تفهم نواميس الكون التي تحيط به ، والوصول إلى عللها ونتائجها ؛ وهو إلى جانب ذلك قلما يطمئن إلى نظم معينة ، أو يستقر على حالة ثابتة . ولعل مسألة الهيئة الاجتماعية كانت أولى المسائل التي أكب على دراستها دراسة جدية لمـا لها من الأثر البليغ المباشر في مشاكل حياته اليومية التي يصطدم بها صبـاح مسـاء حتى لينوء بحملها . وإذا كان لا بد من نتيجة مرضية لدراسته هذه التي أعارها جزءاً من اهتمامه غير يسير ، فقد انتهى إلى أن المجتمع يرتكز على نظم واهية لا تماشي البيئة في سرعة تضخمها ، ولا الأحوال في استمرار تطورها ، فجاءت هــذه النتيجة حدثاً جديداً بل صدمة عنيفة ألقت الرعب في قلوب الكثيرين من علماء الاجتماع الذين انقسموا إزاءها إلى ثلاث فرق رئيسية لكل منها في الأمر وجهة نظر خاصة لا تقرها الفرقتان الأخريان وهي : (١) فرقة المتشائمين (٢) فرقة المحايدين (٣) فرقة المتفائلين

فالفرقة الأولى : هم الذين تسرب إليهم اليأس من الاصلاح فألقوا حبــل الأمور على غاربها وانكفأوا على أنفسهم يتوقعون انطلاق رصاصة الدمار الأخيرة التي لا يستطيعون لدرئها سبيلا ؛ فمنهم من مال إلى الزهد عن عقيدة دينيــة واكتفى من العيش باليسير ؛ ومنهم من لزم عقر بيته يصـابح الفجر بنكده ويشحن الزمن بزفرات بؤسه

والفرقة الثانيــة : وهم سواد المجتمع الأعظم ، فقد شغلتهم أعمالهم الشخصية وسعادتهم الوقتية التي راحوا يهتبلون لها السوانح كلما طرأت ، عن التفرغ لدراسة أحوال المجتمع ، ووقفوا من تقلب أوضاعه واصطراعها موقف المتفرج في حومة القتــال لا يبدون رأياً ، ولا يدفعون عادية ، ولا يقرون أمراً

أما الفرقة الثالثة فهم الذين هالهم ما رأوه في جوف هذه النظم والأوضاع من البؤس المسرع إليهم ، فأحدث هذا المنظر في نفوسهم آثاراً شتى ليست على مستوى واحد من العمق والتأثير ، ولذلك هبوا من غفوتهم واستيقظوا من رقدتهم مشمرين للأمر ليدفعوا عن البشرية عدوانه وليسدوا ثلمة الشقاء قبل أن تتسع ، فمنهم من استل سيفه وقام بحركة اصلاح عنيفة : كما حدث في روسيا الشيوعية وإيطاليا الفاشية . ومنهم من لزم حد الاعتدال فقام يدعو تارة بلسانه وطوراً بيراعه كأفلاطون ومور وسبنسر وموريس وبرناردشو وإبسن وكثير غيرهم من أساطين علم الاجتماع

ومن كبار دعاة هذا الرهط في انكلترا اليوم الكاتب العالمي الفذ هربرت جورج ولز الذي جاءت آراؤه ونظرياته خلاصة وافية ضافية ونتيجة صادقة صائبة لدراسات سابقيه ومتقدميه

دعوة ولز

صنف ولز قرابة الخمسين كتاباً بأسلوب يستهوي القارئ ويغريه ، بعيداً عن التقعر والاسفاف ، خالياً من اللبس والابهام ومن مستهجن اللفظ وزركشة العبارة التي قد تزيد الفكرة تعقيداً . وتجعل المعنى ملتاثاً سقيما ، وذلك لأنه يكتب مؤلفاته للخاصة والعامة على السواء ، ويدعو لآرائه رعاع القوم ودهماءهم كما يدعو سراة الناس وأمراءهم . وقد تناول في كتبه معظم البحوث الاجتماعيــة التي اصطبغ بها أسلوب الأدب الانكليزي الحاضر من سياسية وعلمية وتشريحية ، ولا سيما البحوث الدينية إذ تناول كثيراً من مسائل الدين المسيحي وعقائده بمشرط النقد والتجريح ، فجردها بطريقة علمية من معظم السفاسف والترهات التي حاكها حولها إنكشارية الدين من القساوسة والرهبان ليجعلوا منها ذريعة إلى أطماعهم الشخصية وأغراضهم الذاتيــة . وله في التاريخ مؤلف لم يسبق لغيره أن نسج على منواله ، لا ترى فيــه أثراً للدعوة القومية والعصبية الوطنية ، إذ هو عدوهما الأزرق وخصمهما الألد ، في الجهر والخفاء . ومما يستوقف النظر ويدل على سعة علمه ومعرفته بنتائج الظروف والتطورات قبل وقوعها هو صدق تكهنه عن كثير من الحوادث ، فقد تنبأ عن مصير الاشتراكية الحاضر وعن الحرب الكبرى فجاء حدوثهما دليلاً على صدق نبوءته ونفوذ

بصيرته . وعلاوة على ما ضمنه هذه الكتب من الآراء السديدة التى قضى في دراستها طول العمر وريق الشباب فقد كتب على صفحات الجرائد والمجلات كثيراً من المقالات التى كان ينتزعها من صفحة الحياة اليومية ، وتمليها عليه مستلزمات البيئة الاجتماعية

وخلاصة القول أن ولز يدعو فى جميع كتاباته « البيولوجية » و« السيكولوجية » إلى مقت الحروب وتحطيم آلاتها المدمرة وإلى إزالة الاستعمار والروح الوطنية ، وينادى بالحرية والعلم والعالمية ؛ وهو فى دعوته هذه إنما يُهيئ السبيل السوى للحوادث التى لابد من وقوعها في المستقبل القريب

أما خير كتب ولز فى هذا الموضوع وأحدثها فهو كتابه الطوبى العصرية Modern utopia الذي يرى به إلى إيجاد مدينة كبرى فاضلة لتكون وطناً للهيئة الاجتماعية بأسرها ووافية بحاجات السعادة البشرية ، وقد رشحت مادة هذا الكتاب من دراساته للفلسفة الأفلاطونية التي تغلغل فى ثناياها واتسم بطابعها . ولولز فى هذا الكتاب آراء طريفة فى المرأة والزواج أعرضها على صفحات الرسالة الغراء لا لأنها تلائم روح عصرنا وتتمشى مع حضارتنا ، ولا لأنها وقعت من نفسى موقع القبول والاستحسان ، بل لأطلع جمهور القراء على ناحية جديدة من مناحى التفكير الغربى

يرى ولز أن ناموس الطبيعة فى كائناتها قائم على أن تتوالد وتتكاثر ، وعلى أن يفترس القوى الضعيف بأنياب محددة ومخالب قوية طبقاً لنظام تنازع البقاء وبقاء الأفضل ، وما الحياة فى نظره إلا حلبة تتصارع فيها الكائنات الحية على اختلاف أنواعها وأجناسها فيخرج منها القوى ظافراً منصوراً ، ويولى الضعيف منهزماً مكسوراً . وليس ما نشاهده من فتك الإنسان بأخيه فى مجاهل أفريقيا وغابات الهند وفي جزر زيلندا أو ما يماثله بين شعوب الأسكيمو التي تقتات باللحوم البشرية حيث يقيمون فى كل يوم مجزرة هائلة من بنى الإنسان تتفطر لهولها القلوب الجلامد ، وتسح لها العيون الجوامد ، أو ما نشاهده من تطاحن الأمم والشعوب على استعمار الأمم الضعيفة ، واقتسام ثروتها ؛ ومن فتك الحيوانات بعضها ببعض – إلا مظهراً من مظاهر تنازع البقاء ونوع من حكم الطبيعة على الضعيف بالموت والفناء . وعليه فلا سبيل لتقدم البشرية ، وقد أصبحت مشاكلها تشغل الحيز الأكبر من عقول مفكريها ، كشوبنهور ، ونيتشه ، وبرناردشو ، وهكسلى إلا إذا أسندت أمرها وألقت مقاليدها ووكلت بشؤونها حكومة عالية واحدة تسيطر على هذه الحركة وتبيدها ، لئلا تصبح الهيئة الاجتماعية أشبه بأجمة للافتراس . ويتم ذلك بمنعها الضعيف عن التناسل والتكاثر وجعلها عدد الوفيات منه يزيد فى كل عام على المواليد زيادة مطردة ؛ وهكذا فلا تمضى حقبة من الزمن حتى تصبح الهيئة البشرية بكاملها كتلة واحدة من القوة متجانسة الأجزاء متماسكة الذرات ، ولا يكون بعد ثمة تنازع على البقاء ، الذي يشبهه ولز بشوكة فى جانب حق الضعيف والدنية ، أو حسكة فى لهاة العدل والإنسانية .

فولز فى هذا الموضوع يناقض زميله ومعاصره برناردشو الذى يذهب الى أن خيرَ وسيلة للخلاص من هذا الضعيف هى أن ندعه فريسة فى يدي القوي ونتركه يتمرغ فى حمأة الموبقات والشرور المهلكة التى ينقاد إليها بضعفه ، وهكذا يكون كمن بحث عن حتفه بظلفه

أما كيف يتسنى للحكومة إخراج ما يقترحه عليها من الآراء إلى حيز العمل فيراه فى أن تهيمن على الزواج وتجعله شريعة مدنية لا دينية ، وخاضعاً لقوانين معلومة تضمن بها صيانة المجتمع من الضعف والانحلال

ويقول بعضهم تعليقاً على آراء ولز : إن بعض الناس — وقد رأوا أنه يسلبهم بشريعته هذه حق الزواج وهو جل مابقى لديهم من ذلك التراث النفيس الذى ورثوه عن تلك الامبراطورية الرومانية المقدسة ، يوم كانوا فيها قابضين على زمام السلطتين الدينية والدنية ومن ورائهم محاكم التفتيش بسراديبها المخيفة ، وأقبائها الموحشة — أخذوا ينسبونه إلى الكفر والالحاد والجنون ، لا لأنه هتك ستر الدين وخرج على عقيدة من عقائدهم الجوهرية ، بل لأنه أذاقهم مرارة الحق إذ غمز مطامعهم الشخصية ، وحاول أن ينتزع من أفواههم لقمة دسمة يرون فيها وهم يتشدقون بمضغها

هيبة الدين وجلاله ، وسلاح الايمان وسطوته ، ولأنه ليس لأكثرهم أيضاً من حرية الفكر وإنطلاق الذهن ما يدركون به كارثة الهيئة الاجتماعية التي تنتج من الزواج في غالب الأحيان. ويقول أيضاً بأن الزواج في عرفهم ليس إلا رباطاً مقدساً لا تبلى جدته ولا تنحل عقدته لسبب من الأسباب إلا بالموت ما دام الكاهن قد أعطى الزوجين بركته القدسية وربطهما بحباله الأزلية

فولز إذاً من أشد خصوم البابوية خاصة والكنيسة الرومانية عامة — وهي التي يسميها بالكنيسة الأفلاطونية لما بينها وبين طبقة أفلاطون الحاكمة من العلاقة المشتركة من حيث الزواج — لإصرارها على أن الزواج لا يتم إلا بالإكليل الذي يضعه هو من الأهمية على الهامش فقط.

أما خلاصة ما يضعه من التشريع : فأن يكون طالب الزواج بالغاً سناً تؤهله لذلك (الرجل ٢٧ سنة ، والمرأة ٢٠ سنة) مؤدياً ما عليه من الديون والضرائب القانونية ، ذا دخل ثابت معلوم — تحدد الحكومة نهايته الصغرى — يمكنه من أن يعيش مع زوجه وأولاده عيشة رخية ، وذا شخصية فعالة قادراً على العمل ، وألا يكون مجرماً عند زواجه ، ومكفراً عن الأجرام التي سبق أن ارتكبها ، وبالغاً من التهذيب درجة عالية . على أن أهم هذه الشروط أن يكون كلا الزوجين خالياً من الأمراض المعدية والوراثية كالسل والجنون والسرطان .

هذه هي الشروط الأساسية التي يريد ولز وضعها ، ويشترط على كل من طالبي الزواج أن يقدم بها شهادة للجنة المسؤولة عنه ، وهذه بعد أن تطالعها وتبحثها تعين لهما يوماً معلوماً يحضران فيه لاجراء بعض المراسم القانونية لكل منهما بانفراد عن رفيقه ، وبحضور الشهود والمميزين ... وكل اثنين يتعاقدان على غير هذه الكيفية يكون عقدهما فاسداً بحكم القانون ، وترتب عليهما الحكومة عند أول مولود لهما مبلغاً مقرراً من المال يدفعانه للخزينة حتى يبلغ المولود سن الرشد ، وذلك لقاء عنايتها به ، وضماناً لمستقبله ، وجزاء لتخطيهما القانون ، وذلك بعد أن تمنعهما من أن يتناسلا مرة ثانية

الطلاق

لا يحق للزوجة في حالة زواجها من الرجل زواجاً مدنياً بالشريعة الولزية أن تطلب طلاقها منه إلا إذا أقامت عليه البينة أنه سيء الخلق فظ الطباع يعاملها معاملة قاسية ، أو أنه قال لفراشها ومنصرف عن الاهتمام بأمرها إلى السكر والدعارة والفسق ، إلى ما هنالك من الصفات المستنكرة ؛ فمتى توافرت هذه الأسباب أو بعضها يتقيد كل من الزوجين برفيقه مدة معلومة وذلك حتى يصبح أصغر أولادهما غنياً عن عناية أمه به ، وبعدها يتم الطلاق . ويحق لكل منهما أن يتزوج ثانية بمن يريده . على أن ولز لا يميل حقيقة إلى الطلاق ؛ وذلك لما ينتج عنه للأسرة — وهي التي تمثل الهيئة الاجتماعية بأصغر أشكالها — من وخيم العواقب التي تفت في عضدها وتجعلها مشوشة النظام ، مفككة الأوصال ، واهية الروابط التي ترتبط بها أفرادها ربطاً محكماً ؛ ولكنه يستحسنه في مثل هذه المناسبات الاضطرارية ، والأحوال الشاذة لعلمه أن ما ينتج عن عدمه من تنغيص حياة الزوجين أضر بهناء الأسرة من وخيم عواقب الطلاق

الزواج المؤقت « المتعة »

يبيح ولز « المتعة » في كتابه : « الطوبى المصرية » Modern utopia وهي أن يتزاوج اثنان لمدة أربع سنوات أو خمس مثلا وبعدها يكون لهما الحق في الانفصال أو في تجديده ثانية على ألا يكون لهما الحق في التناسل في مثل هذا النوع من الزواج المؤقت

مساواة المرأة بالرجل

يقول ولز إن مساواة المرأة بالرجل وعدمها من الأمور الرئيسية التي كانت ولا تزال مثار البحث والاختلاف بين كبار العلماء والفلاسفة . فقد ذهب أفلاطون قديماً إلى أن المرأة خلقت وهي غاية بنفسها وموازية للرجل في الحقوق والواجبات ، وإلى أنها حرة في جميع أمورها وتصرفاتها لا فرق بينها وبين الرجل إلا في الجنس فحسب ، فباب العمل والتنافس على الجاه والثروة يجب أن يكون مفتوحاً على مصراعيه للجنسين على السواء

كما أنه أباح للمرأة التي في الطبقة الحاكمة حق ممارسة الألعاب الرياضية والتدرب على حمل السلاح في سلك الجندية . ولكن أرسطوطاليس ذهب إلى عكس هذا المذهب وقال : لم تخلق المرأة إلا لتحفظ النوع من الفناء ، وإن هي للرجل إلا أمة صاغرة تسير بإرادته دون أن يكون لها حق الاعتراض عليه ؛ فهو ينكر على أفلاطون مساواته للجنسين بلهجة شديدة ملؤها الهزء والاستخفاف . أما هو وإن كان له مذهب ثالث وسط بين هذين المذهبين إلا أنه يفضل النظرية الأفلاطونية على تلك الأرسطوطاليسية التي يعيب على العرب خاصة وعلى الشعوب الشرقية عامة شدة تعصبها لها والعمل بها لما هم فيه من التأخر والانحطاط ، على حين أن الشعوب الغربية وهي التي تعمل بالنظرية الأفلاطونية قد قطعت شوطاً بعيداً في مضمار المدنية

يحمل ولز على العرب مثل هذه الحملة الشعواء كشأن غيره من الشعوبيين الذين يحاولون إفساد التاريخ العربي والنيل من المدنية الاسلامية التي ظلت تسود العالم مدة من الزمن ليست قليلة ، وهو لو درى أن أوروبا بأسرها قد أخذت تضيق قليلا قليلا من نطاق مساواة المرأة بالرجل بعد أن أطلقت لها العنان إلى جانب الرجل مدة قرن ونيف ، وذلك لما انغمست فيه من فساد الأخلاق وخشية من أن يتسرب هذا الداء منها إلى بنيها . أجل لو عرف هذا وأشباهه ودرس البيئة العربية لأنصفهم ولما عاب عليهم شدة محافظتهم على المرأة

المرأة والعمل

يرى ولز أن المرأة خلقت ضعيفة الجسم والتركيب لاتقدر على تحمل الأعمال الشاقة ومزاولتها كالرجل ، وأن الطبيعة إنما أعدتها بهذه الكيفية لتقصر مهمتها على إدارة البيت وتربية الأطفال ؛ فعليها أن تنصرف بكليتها نحو هذه الغاية السامية التي خلقت لها ، وأن تجعل سعيها موجهاً نحو إغراء الرجل وحمله على الزواج منها ، وبذلك تصبح شريكة له في سرائه وضرائه ومساهمة معه في حلو الحياة ومرها . أما إذا وكلت أمر بيتها وإعالة أطفالها إلى من يقوم بهما تحت إشرافها وكانت فيها مواهب القدرة على العمل والتفوق على الرجل فلا بأس من أن تمارس ماهي كفؤ له من الأعمال على أن يكون ذلك لها من الأحوال الشاذة لاقاعدة مطردة . فولز في هذا الموضوع يقف موقف الحيرة والتردد وهو أيضاً كما يشاهد القارئ يخالف آراءه السابقة بعض المخالفة في شدة تحفظه

المرأة والحكومة

ينظر ولز إلى الأمومة نظره إلى وظائف الحكومة ، ولذا يريد أن تدفع الحكومة لها عند كل ولادة مبلغاً مقرراً من المال يزيد بزيادة ماتلده من الأولاد ، وتبقى مستحقة لهذا المبلغ حتى يبلغ أصغر أولادها سن الرشد ، وذلك لكي تصرفها عن التطلع إلى الوظائف المدنية . وهي بهذه الطريقة أيضاً تشجع على الزواج أولئك الذين يحجمون عنه بسبب الفقر وتنقذ من وهدة الشقاء والبؤس الأرامل اللواتي ينفصلن عن الحياة الزوجية بموت أزواجهن ولا يكون لهن من المال مايقوم بأودهن وأود أولادهن حيث يصبحن فريسة تنتاشها مخالب البؤس وبراثن الفقر ، أو يطوحن بعفافهن وشرفهن في سوق الدعارة والموبقات

ولولا عدا ماتقدم آراء متطرفة في شيوعية النساء وفي النظرية اليوجينية أو التأصيل لانرى ضرورة للتبسط فيها لأنها تنبو عن الذوق العربي الذي لم تفسده الحضارة الغربية بعد

خليل جمعة الطوال

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٨ —

الطور الثانى من حياة الرافعى

هل كان للرافعي خِيَرَة فى المذهب الجديد الذى ذهب إليه عند ماشرع يكتب « تاريخ آداب العرب » ؟

وهل كان يعنى مايفعل حين انحرف عن الهدف الذى كان يسعى إليه فى إمارة الشعر إلى المنحى الجديد فى ديوان الأدب والإنشاء !

هل كان عن قصد ونية أن يتخلَّى الرافعى عن أمانى الشباب وأوهام الصبا وأخيلة الفتيان وأحلام الشعراء ، ليقف نفسه على العربية وتراث العربية يستبطن أسرارها ويغوص على فرائدها ، وعلى الإسلام وأبطال الإسلام يكشف عن مآثرهم وينشر آثارهم ؟ . . .

الحق أن الرافعى لم يكن له خِيرة في شيء من ذلك ولا كان يعنيه ولا توجهت إليه نيته ؛ ولكنه ألَّف تاريخ آداب العرب لأنه وجد فى نفسه رغبة إلى أن يؤلف فى تاريخ آداب العرب ، وكتب فى إعجاز القرآن لأن إعجاز القرآن باب فى تاريخ الأدب ؛ فلما أخرج كتابيه إلى الناس لم يلبث أن ارتد إليه الصدى مما يقول الناس ؛ فاذا هو عندهم أديب ليس مثله فى أدباء العربية ، وإذا هو عندهم كاتب من الطراز الأول بين كتاب العربية ، وإذا هو صاحب القلم الذي يكتب عن إعجاز القرآن فيُعجز ، ويتحدث عن الإسلام حديث المؤمن إلى المؤمن ، حديثَ قلب إلى قلب ليس بينهما حجاب فكل ما ينطق يُبين . . . ووجد الرافعي كأنما اكتشف نفسه . . .

وهنا بدأ الرافعى الكاتب الذى يعرفه اليوم قراء العربية ، على حين أخذ الرافعي الشاعر يتصاغر ويختفى رويداً رويداً حتى نسيه الناس أو كادوا ، لايتحدثون عنه إلا كما يتحدثون عن شاعر استمعوا حيناً إلى أغاريده العِذاب ثم ترك دنياهم إلى العالم الثانى ليتحدث إليهم من صفحات التاريخ . . .

لقد عرف الرافعى من يومئذ أن عليه رسالة يؤديها إلى أدباء الجيل ، وأن له غاية أخرى هو عليها أقدر وبها أجدر ؛ فجعل الهدف الذي يسعى إليه أن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال ، وأن ينفخ فى هذه اللغة روحا من روحه يردُّها إلى مكانها ويردّ عنها ، فلا يجترىء عليها مجترئ ولا ينال منها نائل ولا يتندر بها ساخر إلا انبرى له يبدد أوهامه ويكشف عن دخيلته .

ونظر فيما يكتب الكُتاب فى الجرائد ، وما يتحدث به الناس فى المجالس ، فرأى عربية ليست من العربية ، هى عامية متفاصحة ، أو عجمة مستعربة ، تحاول أن تفرض نفسها لغة على أقلام المتأدبين وألسنتهم ، فقر فى نفسه أن هذه اللغة لن تعود إلى ماضيها المجيد حتى تعود (الجملة القرآنية) إلى مكانها مما يكتب الكتاب وينشىء الأدباء ، وما يستطيع كاتب أن يشحذ قلمه لذلك إلا أن يتزود له زاده من الأدب القديم .

وعاد الرافعي يقرأ من جديد ، ينظر فيما كتب الكتاب وأنشأ المنشئون فى مختلف عصور العربية ؛ يبحث عن التعبير الجميل والعبارة المنتقاة واللفظ الجزل والكلمة النادرة ، ليضيفها إلى قاموسه المحيط ومعجمه الوافى ، فتكون له عونا على ما ينشئ من الأدب الجديد الذى يريد أن يحتذيه أدباء العربية .

***

هذا سبب مما عدل بالرافعي عن مذهبه فى الشعر إلى مذهبه الجديد فى الأدب والانشاء . وثمة سبب آخر كان الرافعى يصرح به كثيراً لمن يعرفه : ذلك أنه كان يرى فى الشعر العربى قيوداً لاتتيح له أن ينظم بالشعر كل مايريد أن يعبر به عن نفسه الشاعرة . هكذا كان يقول هو ، وأقول أنا : إنه كان يعجز أن يصب فى قصيدة من الشعر ما كان يستطيع أن يكتبه فى سهولة ويسر مقالا من مقالاته الشعرية الرائعة التي يعرفها قراء العربية فيما قرأوا للرافعى . والحق أن الرافعي بطبعه شاعر فى الصف الأول من الشعراء ، لا أعنى الشعر المنظوم ؛ فذلك ميدان سبقه فيه كثير من شعراء العصر ، بل أعنى الشعر الذى هو التعبير الجميل عن

خلجات النفس وخطرات القلب ووحى الوجدان ووثبات الروح .

ولقد كان — رحمه الله — بما فيـه من اعتداد بالنفس ، يكتب المقال الفنى المصنوع فيقيس لفظه بمعناه ويربط أوله بآخره ويجمع بين أطرافه كل ما ينبض به قلبه من معانى السرور والألم ، والرجاء واليأس ، والرغبة والحرمان ؛ فإذا فرغ من إنشائه جلس يترنم به ويعيده على سمعه الباطن ، ثم لا يلبث أن يلتفت إلى جليسه قائلا: « أسمعت هـذا الشعر ؟ أرأيت شاعراً فى العربية يملك من قوة البيان ما يجمع به كل هذه المعانى فى قصيدة منظومة ... ؟ »

هذه العبارة التى كان يسمعها جلساء الرافعى كثيراً ، تفسر لنا قول الرافعي إن فى الشعر العربى قيوداً لا تُتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن نفسه الشاعرة ، أو تؤيد ما أدعيه أنا ، من أنه كان يشعر بالعجز عن الابانة عن كل خواطره الشعرية فى قصيدة من المنظوم ولا يعجزه البيان فى المنثور . نعم ، كان شعر الرافعي أقوى من أداته ، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره . . .

أفترى فى العربية شاعراً يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من « أوراق الورد » فى قصيدة منظومة دون أن يتحيف المعنى ويختل الميزان ؟

لا أحسب أن الرافعى كان يعنى ما يقول حين يزعم أن القيود فى الشعر العربى من أسباب الضعف فى الشعر ؛ فهو نفسه لم يكن يستطيع أن يجهر بهذا الرأى ، بل أحسبه في بعض نقداته الأدبية أنكر مثل هذا القول على بعض الأدباء وراح يتهمه بمحاولة الغضّ من قدر الشعر فى العربية ؛ فما أراه كان يقول ذلك إلا تعبيراً عن معنًى تأبى كبرياؤه الأدبية أن يصرح به .

* * *

ذلك هو السبب الثانى الذى عدل بالرافعى عن الاستمرار فى قرض الشعر معنياً به مقصوراً عليه .

لم يهجر الرافعي الشعر هجراً باتاً بعد أن اتخذ لنفسه هذا المذهب الجديد ، ولكنه لم يجعل إليه كل همه ، واتجه بقلبه ولسانه إلى الهدف الجديد ، فلا يقول الشعر إلا بين الفينة والفينة إذا دعته داعية من دواعى النفس أو من دواعى الاجتماع . وسنرى فيما سيأتى بعد ، أنه قد صبا إلى الشعر ثانية عند ما مسّ الحب قلبه واتقدت جذوته فى أعصابه سنة ١٩٢٣ ، فدعته نفسه ؛ وعند ما اتصل ببلاط الملك فؤاد — رحمه الله — سنة ١٩٢٦ ، فدعته داعية الجماعة .

* * *

حديث القمر

قلت إن الرافعى بطبعه كان شاعراً ، ولكن شعره كان أقوى من أداته ، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره فنزع إلى النثر الفنى . وقلت إنه كان يرمى إلى أن يعيد (الجملة القرآنية) إلى مكانها مما يكتب الكتاب وينشئ الأدباء لتعود اللغة على أولها فصيحة جزلة مبينة ، وإنه أخذ على نفسه أن يكون نموذجاً فى هذا الأدب الجديد يحتذيه أدباء العربية . وقدمت فى المقال السابق أن الرافعى كان على نية إصدار كتاب مدرسي سماه (ملكة الانشاء) يكون عوناً للمتأدبين وطلاب المدارس على الاقتباس لإجادة الانشاء . فكل أولئك ما دفعه إلى إصدار كتابه « حديث القمر » من بعد

كتاب « حديث القمر » هو أول ما نشر الرافعى من أدب الانشاء ؛ أصدره بعد كتابيه : تاريخ آداب العرب ، وإعجاز القرآن . وما بى أن أصف حديث القمر لقراء العربية ، فهو مشهور متداول ، وهو ضرب من النثر الشعرى ، أو الشعر النثرى ؛ يصف من عواطف الشباب وخواطر العاشق وما إليهما في أسلوب فنى مصنوع أحسبه لا يطرب الناشئين من قراء العربية في هـذه الأيام ، إلا أن يقرأوه على أنه زاد من اللغة ، وذخر من التعبير الجميل ، ومادة لتوليد المعانى وتشقيق الكلام فى لفظ جزل وأسلوب بليغ

ومن هذا الكتاب كانت أول التهمة للرافعي بالغموض والإبهام واستغلاق المعنى عند فريق من المتأدبين ؛ ومنه كان أول زادى وزاد فريق كبير من القراء الذين نشأوا على غرار فى الأدب لا يعرفه ناشئة المتأدبين اليوم

* * *

شبوبه فى الأدب

أما إذ وصلت إلى هذا المكان من تاريخ الرافعى فإني أسأل

نفسي : عمن أخذ الرافعي هـذا المذهب في الكتابة ، وبمن تأثر من كتاب العربية القـدامى والمحدثين ؟

هذا سؤال لا أجد جوابه فيما حدثني به الرافعي أو أحد من أهله وصحابته ؛ وما أستطيع أن أثبت شيئاً في هـذا المقام يعتمد عليه الباحث . وأكبر ظني أن الرافعي نفسه كان لا يعرف أستاذه في الأدب والإنشاء ؛ فما كان همه أول همه أن يكون كاتباً أو منشئاً ، ولكن تطوّرات الزمن هي ردته من هدف إلى هدف وألزمته أن يكون ما كان . وقد قرأ الرافعي كثيراً وأخذ عن كثير ، فمذهبه في الكتابة من صنع نفسه ، وهو ثمرة درس طويل وجهاد شاق اختلطت فيه مذاهب بمذاهب وتداول عليه أدباء وأدباء من كتاب العربية الأولين . ولكني أجد من الفائدة هنا أن أشير إلى اثنين من أدباء العربية كان يقرأ لهما الرافعي أكثر ما يقرأ إلى آخر أيامه : هما الجاحظ وصاحب الأغاني ، وكان يعجب بأدبهما ويعجب لإحاطتهما عجباً لا ينقضي وإعجاباً لا ينتهي ، وكان لا بد له حين يهم بالكتابة بعد أن يجمع عناصر موضوعه في فكره أو في مذكرته — أن يفتح جزءاً من الأغاني ، أو كتاباً من كتب الجاحظ يقرأ فيـه شيئاً مما يتفق ، ليعيش فترة ما قبل الكتابة في جو عربي فصيح .

ومما لا يفوتني إثباته في هـذا المجال أن مجلة (الهلال) قد استفتت أدباء العربية يوماً منذ سنوات ، في أي الكتب العربية تعين الناشيء الأديب على مادته ؟ وكان للرافعي في هذا الاستفتاء جواب لا أذكره ، أحسبه يفيد الباحث عن المصدر لأدب الرافعي

وسمعت الرافعي مرة يقول : « إن كلمة قرأتها لفكتور هوجو كان لها أثر في الأسلوب الأدبي الذي اصطنعته لنفسي ؛ قال لي الأستاذ فرح أنطون مرة : إن لهوجو تعبيراً جميلا يعجب به الفرنسيون كل الإعجاب ، قوله يصف السماء ذات صباح : « وأصبحت السماء صافية كأنما غسلتها الملائكة بالليل »

قال الرافعي : « وأعجبني بساطة التعبير وسهولة المعنى ، فكان ذلك حذوي من بعد في الإنشاء »

أفندعي بهذا أننا عرفنا واحداً من شيوخ الرافعي في الأدب والإنشاء ... ؟

« شبرا » محمد سعيد العريان

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

نشيد القبور (*)

هنالك جزيرة القبور ، جزيرة الصمت والسكون ، وهنالك أيضاً أجداث شبابي ، فلأحملن إليها إكليلاً من الأزاهر الخالدات

بهذا ناجيت نفسي ، فقررت أن أقتحم الغمر

يا لصور الشباب وأشباح أحلامه ، يا للحظات الغرام ! يا لأويقات الحياة الإلهية ! لقـد ترامت سريعاً إلى الزوال ، فأصبحت أستعرض ذكرياتك كما أستعرض خيال الأحبة الراقدين في القبور .

إن نفحات الطيب تهب منك يا أعز المضيعات فتروّح عن قلبي وتستقطر مدامعي ، إنها لنفحات تستنبض قلب الهائم وحيداً على العباب .

أنا المنفرد أراني أغنى الناس وأجدرهم بالغبطة لأنك كنت لي يوماً أيتها الذكريات ولما أزل أنا لك ، فقولي لي : على مَ تساقطت ثمراتك الذهبية عن أغصانها ؟

إنني لم أزل منبتا لغرامك الذي أورثتنيه يا أيام الشباب وبذكرك تنوّر فضائلي بعد وحشتها بعديد ألوانها الزاهية

وآسفاه ، ما كان أولاك بألا تفارقيني ، أيتها الأيام الساحرات فقد اقتربت إليّ وإلى شهواتي لا كأطيار يسودها الذعر بل كأطيار تستأنس بالواثق بنفسه

أجل لقـد كنتِ معدّة مثلي للبقاء على العهد إلى الأبد ، يا أويقات الشباب ، وليس لي أن أدعوك خائنة وقد وصفتك بالأويقات الإلهية . لقد مررت سراعاً أيتها الأويقات الهاربات وما هربت مني ولا أنا هربتُ منك ، فما أنا مسؤول ولا أنت أيضاً عن خياناتك وعن خيانتي

لقـد أماتوك طلباً لقتلي ، يا أطيار آمالي وصوت الشرور

(*) هذا النشيد يقع في الكتاب بعد نشيد الرقص .

سهامها نحوك لتصل مخضبةً بالدماء إلى قلبي فأصابت هذه السهام مقتلاً مني لأنك كنت أعز شيء لدي بل كنت كل ما أملك ، لذلك قضى عليك بالذبول في صباك والزوال قبل أوانك

لقد صُوِّبت السهامُ إليك وأنت أنعم من الحرير وأضعف من ابتسامة تمحوها نظرة قاسية

فليسمع أعدائى ما أقول :

— إنّ القتل أخف جرماً من جنايتكم على ، فقد سلبتمونى ما لا قبل لى بالاستعاضة عنه بشيء ، ذلك ما أقوله لكم ، أيها الأعداء . أفما قتلتم أحلام شبابى وحلتم دون إتيانى بمعجزاتى ؟ لقد سلبتم منى تفكيرى ، وهأنذا أحمل هذا الاكليل لتذكاره حاملاً معه لعنتى لكم ، أيها الأعداء ، لأنكم قصرتم مدى أبديتى فانقطعت كأنها صوت ينقطع في الزمهرير تحت جنح الظلام فما تسنى لى أن أنظر إلى هذه الأبدية إلا لمحا لأنها توارت عنى بطرفة عين

وأنت ساعة ناجتنى فيها طهارتى قائلة :

— يجب أن تكون جميع الكائنات إلهية ، وأنت أرسلتِ إليَّ الأشباح المدنسة ، يا أيام الشباب ؛ فانقضت تلك السانحة وعادت حكمة الشباب تقول لي : (يجب أن تكون جميع الأيام مقدسة فى نظرى) وما هذه الكلمة إلا كلمة الحكمة المرحة . وعندئذ أتيتم أيها الأعداء فحولتم ليالى راحتى إلى أرق وهموم ، فأين توارت هذه الحكمة المرحة ؟

لقد كنت فيما مضى أتوقع السعادة فأرسلتم على طريقى بومة مروعة مشئومة فتبددت أمانيَّ العِذَاب

نذرت يوماً أن أرتجع عن كل كراهة ، فحولتم كل ما حولى إلى قروح ، فأين مضت مخلصات نذورى الطاهرات ؟

لقد مررت على سبيل السعادة كفيف البصر فرميتم على طريق الأعمى كوماً من الأقذار فأصبحت كارهاً للطريق القديم الذى تلمسته . وعند ما توصلت إلى القيام بأصعب أعمالى ، عند ما تمكنت من الاحتفال بالانتصارات التى تغلبت فيها على ذاتي أهبتم بمن يحبوننى إلى الهتاف قائلين بأننى أوقعت بهم أشد الآلام

والحق أنكم لم تنقطعوا عن تشريد خير العاملات فى قفيري وتحويل جناها إلى علقم مرير ؛ ولكم أرسلتم إلى إحسانى أشد المتسولين إلحاحاً ودفعتم أهل القحة ليطوفوا باشفاقى وهكذا نلتم من فضيلتى وهي ممنعة بإيمانها

وكنت كلما قدمت أقدس ما عندى محرقة للتضحية تسارعون فى تقواكم إلى إحراق أدسم ذبائحكم لتتصاعد أبخرة شحمها مدنسة خير ما قدست

وطمحت يوماً إلى الرقص متعالياً بفنى إلى ما وراء السبع الطباق فأفسدتم على أعز المنشدين لدى ، فرفع عقيرته بأفظع الأناشيد وقرع أسماعى بنغمات الأبواق الحزينة الباكية

لقد كنت قائلا أيها المنشد البريء ، إذ غدوت آلة فى يد الغدر فقضت نغماتك على خشوعى بينما كنت أتهيأ للقيام بأروع رقصى

وما أنا بالمعبر عن أسمى المعانى بالرموز إلا عند ما أدور راقصا ، لذلك عجزت أعضائى عن رسم أروع الرموز بحركاتها . فأرتج على وامتنع عليَّ أن أبوح بسر آمالى . لقد ماتت أحلام شبابى وفقدت معانيها المعزيات

إننى لأعجب لتحملى هذه الصدمات وأعجب لصبرى على ما فتحت فيَّ من جراح ، فكيف أمكن لروحى أن تبعث من مثل هذه القبور ؟

أجل إن فيَّ شيئاً لا تنال منه السهام مقتلا ، ولا قبل لأحد بدفنه لأنه يزحزح الصخور عنه فتحطم ، وما هذا الشيء إلا إرادتى ؛ والارادة تجتاز مراحل السنين صامتة لا يعتريها تحول وتغير . إن إرادتي قديمة لا تنى تدفع قدمى إلى السير فهى القوة المتصلبة المتعالية عن الفناء

ليس فيَّ من عضو لا يصاب إلا قدمي السائرة إلى الأمام تدفعها هذه الارادة الثابتة الصامدة المتجلدة التى تخترق الدافن دون أن تنطرح تحت لحودها

إن فيكِ وحدكِ يا إرادتى يصمد ما لا تبدده أيام الشباب ، فأنت لا تزالين حية وفتية تملأك الآمال ، تجلسين على ركام الدافن وقد طبع الزمان عليها قبلاته الصفراء . إنك لن تزالي أيتها الإرادة هدامة لجميع القبور ، فسلام عليكِ يا إرادتى ، لأنه لا بعث إلا حيث تكون القبور

هكذا تكلم زارا ... ...

فيلكس فارس

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٩٨ — صرت في راحة ابن أيوب أقرا

(أعظم مروحة في الدنيا)

في (ثمرات الأوراق): قال أبو الفوارس بن اسرائيل الدمشقي: كنت يوماً عند السلطان صلاح الدين بن أيوب، فحضر رسول صاحب المدينة ومعه قَوْد (١) وهدايا، فلما جلس أخرج من كمه مروحة بيضاء عليها سطران بالسَّعَف (٢) الأحمر وقال: الشريف يخدم مولانا السلطان ويقول: هـذه المروحة ما رأى السلطان ولا أحد من بني أيوب مثلها، فاستشاط السلطان صلاح الدين غضباً، فقال الرسول: يا مولانا السلطان، لا تعجلْ قبل تأملها، وكان السلطان صلاح الدين ملكا حليما فتأملها فإذا عليها مكتوب:

أنا من نخلةٍ تجاورُ قبْرا ... ساد من فيه سائرَ الخلْق طُرا
شملتني عنـاية (القبر) حتى ... صرت في راحة ابن أيوبَ أُقرا

فإذا هي من خوص النخل الذي في مسجد الرسول فقبّلها السلطان صلاح الدين، ووضعها على رأسه، وقال لرسول صاحب المدينة النبوية: صدقتَ فيما قلتَ من تعظيم هذه المروحة !!!

١٩٩ — لم يحلني الا على الأزهار

قال أبو جعفر الذهبي لفاضلٍ أديب جمع بينه وبين فاضلٍ أديب:

أيها الفاضلُ الذي قد هداني ... نحوَ من قد حمِدتُه باختيار
شكر اللهُ ما أتيتَ وجازاك ... ولا زلتَ نجمَ هَدْيٍ لسارِ
أيُّ برقٍ أفاد أيّ غمامٍ ... وصباحٍ أدّي لضوء نهارِ (٣)
وإذا ما غدا النسيمُ دليلي ... لم يُحِلني إلا على الأزهار

(١) القود (بفتح القاف وسكون الواو): الخيل أو جماعة منها

(٢) السعف: ورق النخل

(٣) «وصباح» أي وأي صباح. والشرط على مثل هذا هو العطف على مماثل المحذوف. وبيت (الكتاب) وهو لأبي دؤاد:

أكلَّ امرىء تحسبين امرأ ... ونار توقد بالليل نارا

ومن (أمثاله وهو من أمثالهم): ما كل سوداء تمرة ولا كل بيضاء شحمة

٢٠٠ — الشغل للقلب ليس الشغل للبدن

العباس بن الأحنف:

تعتلّ بالشغل عنـا ما تكلمنا ... الشغل للقلب ليس الشغلُ للبدنِ

قال أبو الفرج الأصفهاني: لا أعلم شيئاً من أمور الدنيا خيرها وشرها إلا وهو يصلح أن يُتمثل به بهذا النصف الأخير

٢٠١ — يستر المحاسن كما يستر القبائح

نقل ابن الجوزي عن بعضهم قال:

قلت لجاريتي: ألا تلبسين الحلي؟

قالت: لا، لأنه يستر المحاسن كما يستر القبائح

ابن الرومي:

وما الحَلْيُ إلا زينة لنقيصة ... يتمم من حسن إذا الحسن قصَّرا
وأمّـا إذا كان الجمال موفَّراً ... كحسنك لم يحتج إلى أن يُزوّرا

٢٠٢ — كلنا في الهوى سوا

ابن زريق المقدسي:

كلّ من جئتُ أشتكي ... أبتغي عنـده دَوا
يتشكّى شكيّتي ... كلّنا في الهوى سوا !!!

٢٠٣ — فترجمت العيون عن القلوب

في (ديوان المعاني): عن أبي عكرمة قال: أنشدت أعرابياً قول جرير:

أبدّل الليـل لاتسرى كواكبُه ... أم طال حتى حسبت الليل حيرانا ؟!

فقال: هذا حسن، وأعوذ بالله منه! ولكن أنشدك في ضده من قولي، وأنشدني:

وليـلٍ لم يقصره رقادٌ ... وقصّره لنا وصْلُ الحبيبِ
نعيمُ الحبّ أورق فيه حتى ... تناولنا جناه من قريبِ
بمجلس لذّةٍ لم نقوَ فيـهِ ... على الشكوى ولا عدّ الذنوبِ
بخلنا أن نقطّعه بلفظٍ ... فترجمتِ العيونُ عن القلوبِ

فقلت له: زدني فما رأيت أظرف منك شعراً. فقال: حسبك.

٢٠٤ — فأين عنها نعزف ؟

قال الحسين بن الحسين بن مطير :

إنّ الغوانيَ جنّةٌ ريحانُها   نَضِرُ الحياة فأين عنها نعزف؟[١]
لولا ملاحتهنّ ماكانت لنا   دنيا نلذّ بها ولا نتصرّف

٢٠٥ — دواء اللبس الحبس

كان بعض الولاة إذا اشتبه عليه حكم حبس الخصمين حتى يصطلحا ، ويقول : دواء اللَبْس الحَبْس . . .

٢٠٦ — مايصنع الشيطان بين الحيطان ؟

رأى أبو نؤاس غلاماً جميلاً يمشي في بعض السكك فقال له : ماتصنع الحور بين الدور ؟

فقال الصبي : مايصنع الشيطان بين الحيطان ؟ !

٢٠٧ — كأنى فى عيونهم السماح

بكر بن النطاح :

تراهم ينظرون إلى المعالى   كما نظرت إلى الشيب الملاحُ
يُحدّون العيونَ إليّ شَزْراً   كأنى فى عيونهم السماحُ

وهذا بديع فى حسنه ، بليغ فى تشبيهه

٢٠٨ — لم يجد أحمق يقبله سواك

أنشد رجل الفرزدق شعراً ، وقال : كيف تراه ؟

فقال : لقد طاف ابليس بهذا الشعر فى الناس فلم يجد أحمق يقبله سواك

٢٠٩ — انما سرق محجنى

قال الجاحظ في (كتاب الحيوان) : حدثنا حماد بن سلمة قال : كان رجل فى الجاهلية معه محجن يتناول به متاع الحاج سرقة فاذا قيل له : سرقت قال : لم أسرق إنما سرق محجنى . فقال حماد : لو كان هذا اليوم حياً لكان من أصحاب أبي حنيفة [٢] .

٢١٠ — دف ومزمار ونغمة شادن

ابن سيد الناس :

يا عصبة ما ضرّ دينَ محمدٍ   وسعى إلى إفساده إلا هي
دفٌ ومزمارٌ ونغمة شادن[١]   أرأيتَ قطّ عبادةً بملاهِ ؟ !

٢١١ — اذا انقطع وصله

قيل لأعرابى كان يُسهب فى حديثه : أما لحديثك هذا آخر قال : إذا انقطع وصله . . .

٢١٢ — قد جاءك بالشمال فأته باليمين

فى (نزهة الألباء فى طبقات الأدباء) للأنبارى : حكى أبو زكرياء (التبريزى) أن المتنبي كان بواسط جالساً وعنده ابنه مُحسِّد قائماً وجماعة يقرأون عليه فورد إليه بعض الناس فقال : أريد أن تجيز لنا هذا البيت وهو :

زارنا في الظلام يطلب سراً   فافتضحنا بنوره فى الظلام

فرفع رأسه وقال : يا محسد ، قد جاءك بالشمال فأته باليمين فقال :

فالتجأنا إلى حنادسِ شَعْرٍ   سترتنا عن أعين اللوّام

قال أبو الجوائز (الحسن بن على الواسطي) : معنى قول المتنبى لولده قد جاءك بالشمال فأته باليمين أن اليسرى لا يتم بها عمل وباليمنى تتم الأعمال ، فأراد أن المعنى يحتمل زيادة فأوردها . وقد ألطف المتنبى فى الإشارة ، وأحسن ولده فى الأخذ

٢١٣ — أنتم الأطباء ونحن الصيادلة

سأل الأعمش أبا حنيفة عن مسائل فأجاب ، فقال الأعمش : من اين لك هذا ؟

قال : مما حدّثتنا

فقال : يامعشر الفقهاء ، أنتم الأطباء ونحن الصيادلة

(١) نعزف عنها : ننصرف عنها . والزاى تكسر وتضم

(٢) عدو لأصحاب الرأى ، القياس يقول . .

(١) الدف : بضم الدال وفتحها

مختارات من أدب الرافعي

أغاني الشعب

« لم يوفق شاعر من شعراء العربية توفيق الرافعي في تأليف الأناشيد ، ولم يكتب لنشيد وطني أو طائق من الذيوع والشهرة والانسجام مع الألحان ما كتب لأناشيد الرافعي ؛ فكان بذلك خليقاً أن نسميه « شاعر الأناشيد »

وهذا نشيد الكشافة المصرية « اسلمي يا مصر » ، ونشيد شباب الوفد « حماة الحمى » ، ونشيد الشبان المسلمين ، ونشيد بنت النيل ، ونشيد تلاميذ المدارس الثانوية « مجداً مجداً مدرستي » كلها من تأليف الرافعي ، وهي دائرة على كل لسان في كل حفل أو ناد

« وعرف الرافعي لنفسه هذه الميزة التي فاق بها شعراء العربية عامة في باب هو من الشعر في هذا العصر صلبه وقوامه ، فأجمع أمره على إخراج ديوان « أغاني الشعب » يضع فيه لكل جماعة أو لطائفة من طوائف الشعب نشيداً أو أغنية عربية تنطق بخواطرها وتعبر عن أمانيها ؛ وقد جرى الرافعي في هذا الميدان شوطاً بعيداً ، وأنجز طائفة كبيرة من أغاني الشعب نشر بعضها وما يزال سائرها في طي الكتمان بين أوراقه الخاصة ومؤلفاته التي لم تنشر بعد ، ولا أدري متى يقدر لها أن تنشر ...!

« والذي أنشره اليوم نشيد من هذه الأناشيد ، وضعه الرافعي على لسان الفلاحة المصرية ، وسيجد القراء في أسلوبه ومعانيه شيئاً مأنوساً يحببه إلى الشعب ويخفف وقعه على فؤاده ولسانه »

محمد سعيد العريان

نشيد الفلاحة المصرية

الفجر قد غبّر ثم لاحا
والديك قد أذّن ثم صاحا
وأطلقتْ حمامتي الجناحا
والكلبُ بالباب غدا نبّاحا
واشتاقت البهائم السّراحا — هيّا إلى غيطك ، سُقْها : حا ، حا

أروح والجارةَ نملأ الجرّهْ
نمرّ بالغيط القريب مرّهْ
نرى المنا والفرحَ والمسرّهْ
يارب لا تنزل بنا مضرّهْ
واكتب لداري الرزّ والأفراحا — هيا إلى غيطك ، سقها : حا ، حا

البنتُ يا مَولى الدعا المجابِ
احفظ عليها صحةَ الشبابِ
وافتح على أولاديَ الأحبابِ
مَن راح للغيط وللكُتّابِ
ذا يقرأ الغيطَ وذا الألواحا — هيا إلى غيطك ، سقها : حا ، حا

يا نخلة الغيط احذرى الغرابا
يا نعجة الغيط احذري الذئابا
يا صاحب الغيط احذر العذابا
من الربا ، والفقرَ والخرابا
إن الربا ليس لنا مُباحا — هيا إلى غيطك ، سقها : حا ، حا

إياكَ أن تذكر لي (الخواجا)
فقد رأيتُ جارنا المحتاجا
راحَ إليه مالُهُ وماجا
وباع حتى البطَّ والدّجاجا
لا خير فيمن جانب الصلاحا — هيا إلى غيطك ، سقها : حا ، حا

إياك والرهن على الغيطانِ
فتُنْزِل الدود على الأقطانِ
وتفتح الأبوابَ للشيطانِ
وتجعل الهدمَ على حيطاني
الشمس جاءت والصباح راحا — هيا إلى غيطك ، سقها : حا ، حا

أنا ابنةُ الفلاّح أمُّ النصرِ
فلاّحة يا بنت هذا العصرِ
لكن كوخي من أساس مصرِ
يُسْنِدُ فيها ركن كلِّ قصرِ
هلُمّ غنّي معنا الفلاّحا — هيا إلى غيطك ، سقها : حا ، حا

سنة ١٩٠٧

مصطفى صادق الرافعي

الغـــــدير

على صفحتَيْكَ تلوح النجومْ — وفوق لجينك يلهو القمرْ !
مياهك راكدة كالهموم ! — أأفنى مياهك طول السهر ؟

ترف عليها طيوف النخيلْ — وترقص فيها ظلال الغصونْ
وتنسابُ منهوكة كالعليل — طواه الأسى واحتواه السكونْ !

وتمضى الهوينى رويداً كما — يمر الزمان على اليائس !
وتسبح فى صمتها مثلما — يجوب الكرى مقلة الناعس !!

فياساريا ماينام الدجى — وما يستطيب الكرى والوسَنْ
تسائل عيني عنك الحجا : — أهذا الغدير رقيب الزمن ؟ !

يلف الحقول وتطوى القرى — وما لك من صاحب أو رفيقْ
أما ياغدير سئمتَ السُّرَى — وبُعد المطاف وطول الطريق ؟!

فأنَّى تلقي غبار المسيرْ ؟ — وأنى تلبِّي نداء العدَمْ ؟ !
وحتَّامَ تحيا حياة الأسيرْ — وفيها الملال ومنها السَّأمْ ؟

طويتَ القرون ولمَّا تزلْ — فتيًّا كما كنتَ منذ القدَمْ !
كأنك في الأرض نور الأمل — ينير الدياجي ويمحو الظُّلَمْ !!

تقبِّلك الوردةُ الهائمهْ — وترشف من فيكَ معنى الأملْ
وتغفى فتحسبُها نائمهْ — ولكنها أسكرتْها القبلْ ! !

وتحضنك النسْمة المترفهْ — وتشكو إليك لهيبَ الجوى
وتهمسُ فى أذنك المرهفهْ — حديث العتاب ونجوى الهوى

وترقى وئيداً إلى الرابيهْ — وتعدو حثيثاً إلى المنحدَرْ
ونفسك دائبة ساعيهْ — وغيرك يشكو الونَى والخوَرْ !

وتشرق فى الظلمة الدامسهْ — كأنك فى الأرض معنى الهدَى
وتضحك فى الليلة العابسهْ — فمش هانئاً قد أمنتَ الردَى

وأمواهك العذبة الشادِيَهْ — ترتل لحن المنى باسمهْ
هنا الشعر والسحر والعافيهْ — هنا الحب والفتنة الهائمهْ ! !

هنا قد عَرَفْتُ الهوى والجمالْ — وأدركْتُ كيف يكون الخلودْ
هنا قد درَى القلب معنى الكمالْ — ومعنى الحياة وسرَّ الوجودْ !

ربك صف ما وراء الغيوبْ — وحدِّثْ عن القبل المنتظرْ
أناخت على كاهلي الخطوبْ — فجئتك أشكو إليك القدرْ !!

فيا معهد الحب أينَ الحبيبْ ؟ — ويا موطن الحسن أين الهوى ؟!
تنكَّرْتَ لى فكأنى غريبْ — وما غيرتنى صروف النوى !

ساغمض عينيَّ حتى أرى — خيالك يملأ لي خاطري
وأحيا بذكرك بين الورى — فهل أنت إن لم أعُد ذاكري ؟!

«اسكندرية» — محمود السيد شعبان

تليد من جمال

رائعٌ والله هذا الوجه حالى القسمات
مُعجِبُ الحسنِ وسيم رغم حيف السنواتِ
رغم شيْب قد تمشَّى فى المعانى والسِّمات
وتراءى مستطيراً طائفاً بالشعَرات
لم يزل حُسنُك رغم الشيْب يسبى المهُجَات
يأسر اللب ويُنسى كلَّ عذراء مَهاة
غضة الجسم توافت كنضير الزهرات
غرة القلب لعوبٍ خطرت كالنسمات
رائعٌ حسنُك من بين وجوه الغانيات
ووضىءٌ يجذب الأعين دون الأخريات
رائعٌ كالشفق الغارب يُذكى اللهفات
ينبئ الناظرَ عن ماضى الحُلَى والحسنات
وتليدٍ من جمالٍ كان ممنوعَ اللذات
كان شغلَ العابديه وعناء العاذلات
لم يزل ينبئُ عنه عذبُ تلك البسمات
وأرى أطيافَه فى حُسن تلك اللحظات
إن يكن قد ودَّع الطيشَ وسحرَ اللفتات
وغريرَ الضحكاتِ وطروبَ الثرثرات
فقد اعتاضَ بحلم ووقار وأناة
رائعٌ ينبئُ عن قلبٍ ملىء بالعظات
وبأشتات التجاريب وجمٍّ الذكريات
قد جَنَى حلواً من العيش ومُرَّ الحادثات
فهو يَسبى اليوم بالحسنِ ويَسبى بالصِّفات
وأحاديثَ عِذابٍ كشهيِّ الثمرات
زانت الغيدَ رزانٌ ذاتُ حُسنٍ وحَصاة

فوزى أبو السعود



مملكة النحـــل

عيشة النحل وتربيته الحديثة

بقلم جمال الكرداني

أفراد الخلية

كلنا لا نجهل هذه الحشرة الصغيرة التي تعطينا العسل ، وقد يعدها من ليس على علم بمعيشتها من الحشرات الحقيرة مع أنها في الواقع تنشئ من جوعها مملكة هي مثال الاستقلال والرقي والنشاط . يعيش النحل معيشة اشتراكية في جماعات تقدر زنة الجماعة منها بما يقرب من خمسة إلى ستة أرطال ، والجماعة تملأ ثلاثة أوأربعة أقداح ، وتتميز في أفراد الجماعة الواحدة ثلاثة أنواع هي اليعسوب والذكر والشغالة

وقد يكون أوفق أن نعطى اليعسوب لقب ملكة الجماعة لجلالها وحسن سيطرتها على مثل هـذا العدد الكبير — وهي وحيدة في الحالة العادية للخلية — ولكن تتعارض معيشتها بين الأفراد الأخرى للجماعة مع هذا اللقب إذ أنها تختلف عن عيشة ملوكنا بيننا ، فالأجدر إذن تسميتها أم الخلية ، ويعزز هذه التسمية أنها والدة كل نحلة في الخلية تقريباً

والملكة لا تترك مدينتها إلا مرة أو مرتين للإخصاب فقط بل تمضى معظم حياتها في ظلام الخلية ، وإن كان هذا حكم واجبها وهو وضع البيض . وقد يشغلها هـذا الواجب الدقيق عن الالتفات إلى شئ سواه فلها خدم بمرتبة الوصيفات تكاتنا تحرسها وتقدم إليها الطعام وتؤدى لها غير ذلك من الخدمات . وإذا ساعدتنا الظروف على رؤية ملكة الخلية يتضح لنا جلالها إذ نجدها على القرص وحولها ما يقرب من عشرين نحلة تواجهها دائماً وتأبى أن توليها ظهرها تأدباً ، وهذا الحرس ككل أفراد الجماعة يقدم حياته فداء اليعسوب إذا لزم ذلك

ويمكننا تمييز اليعسوب بطول مؤخرها لوضع البيض وقصر جناحيها ، لأنها كما قلنا لا تطير خارج الخلية كثيراً . والملكة حمة بلغ من عفافها أنها تأبى أن تلدغ بها من هو أقل منها وأضعف سلطاناً ، فهي لذلك لا تستعملها إلا لمحاربة مثيلاتها الملكات إذا اقتضت الضرورة

والذكر ليس كبيراً كاليعسوب وإن كان منظره أضخم وليس له حمة . ولكون وظيفته تقتصر على إخصاب الملكات الصغيرة لا يوجد منه في الخلية غير بضع مئات . يعيش الذكر في الخلية عيشة رخاء وراحة ، لا يشترك بقسط من العمل ، فلا يجمع هباء النبات ولا رحيق الأزهار بل تطعمه العملة ؛ وإذا أراد الزيادة انقض على ما هو مخزون بالخلية . ويتخذ الذكر له ركناً بعيداً عن جلبة الخلية فينام حتى منتصف النهار ، ويخرج بعد تناول الطعام شاقاً صفوف العملة محدثاً حركة بين باقي النحل ولا يبالي حتى بالحراس فيطير إلى الأزهار البعيدة ليعرض جسمه لأشعة الشمس وهناك يشاكس الرعاة من النحل فيقلبها أثناء جمع قوتها . وفي الأصيل يرجع إلى الخلية بطنين عال فيتناول غذاءه وينام إلى اليوم الثاني . وهـذه الحياة حياة كسل ولا بد أن تنتهي ككل شئ لذيذ في وقت قريب ، ففي الشتاء عند قلة الغذاء تنقض عليه العملة فتقتله وينتهي الرخاء بالفناء

أما العاملة أو الشغالة فهي أصغر أفراد النحل جسماً. وقد يكون ذلك استعداداً طبيعياً يساعدها على تأدية أعمالها الشاقة في خفة ونشاط . والشغالة أكثر أفراد النحل عدداً فقد يصل عددها ٣٠٠٠٠ في الخلية الواحدة . وكل واحدة لها واجبات خاصة وعندها استعداد طبيعي لأدائها ، فمنها يتكون حرس الخلية ورعاة الحقول والمربيات إلى غير ذلك . ويخيل إلينا أن كل عاملة تنافس غيرها بالسعي والجد فهي تقضى حياتها لا تميل إلى الكسل ولا تعرف الرفاهية

وأهم عمل للشغالة تموين الخلية بالغذاء فتطير الرعاة من زهرة

إلى أخرى ومن حقل إلى حقل يساعدها على ذلك زوجان قويان من الأجنحة ، الأماميان منهما أكبر من الخلفيين ، وإذا مازارت زهرة تدخل لسانها الطويل المغطى بالشعر فى قاعدتها وتمتص الرحيق . وأحب الأزهار إلى النحل هي ذات اللون الأزرق والأرجوانى والأصفر ؛ وتحب كذلك الأزهار الحمراء المشوبة بألوان أخرى زاهيــة مثل حنك السبع . والنحلة غير العينين المركبتين ثلاث أخرى بسيطة على شكل مثلث (٠٠) ويختلف شكلها فى الذكر هكذا (٠٠) ، وهذه العيون تساعدها على اختيار ما تريده من الأزهار . وطبيعى أن تعاود النحلة زهرة أو حقلاً عدة مرات لأن قدرتها على الحمل لا تمكنها من أخذ كل ما يروق لهـا من زهرة ما مرة واحدة . ويساعدها على زيارة الزهرة نفسها مرات عدة ما تفرزه عليها من رائحة خاصــة تميز منطقة هذه الزهرة عن بقية مناطق الحقل . ومن هنا تقدر قوة حاسة الشم عند النحل . وأثناء انتقال الرعاة فى الحقل وزحفها على أزهاره المختلفة يجتمع هباء النبات في شبه كيس فى الرجلين الخلفيتين للنحلة ، فإذا دخلت أخرى تركت بعض هذا الهباء بدون قصد ، وبذلك يحدث الإخصاب بين الأزهار . وكثيراً ما ربى النحل فى المزارع لهذا الغرض . وعلاوة على جمع رحيق الأزهار تقوم الشغالة بصنع أقراص العسل الشمعية وملئها بالشهد نفسه . ومن واجبات المربيات حراسة البيض وتقديم الطعام للصغار . وعلى عاتق العملة تقع حراسة الخلية وأقراصها ومليكتها من كل معتد أو فضولى كالذباب والعثة . وألد أعداء النحل هو الزنبور الأحمر (زنبور البلح)

وينقسم النحل بحسب الجهة التى يعيش فيها إلى عدة أقسام ويتميز كل نوع من الآخر بحجمه ولونه ، فالنحل البلدى أو المصري صغير مائل إلى البياض ، أما القبرصي فلونه أحمر وأضخم من المصرى . وهناك نوع يعيش فى إيطاليا وهو أطول قليلاً من القبرصى . أما النحل الكرنيولى ويعيش فى يوغوسلافيا فلونه أسود وهو أطول من الايطالى وأضخم من القبرصى

الاستعمار والخراب

نواة مستعمرة النحل ملكة ملقحة لوضع البيض ، فبعد ستة أيام من خروجها من العذراء تطير إلى علو بعيد ويطير وراءها الذكور ؛ وأثناء هذه المسافة الطويلة تخور قوى بعض الذكور فيسقط إلى الأرض ؛ وفى النهاية تختار الملكة أحدها وهو الذكر المثابر على الطيران ويكون عادة من خلية غير التى أنتجت هذه الملكة . ويموت الذكر بعد عملية التلقيح ، وتقتل العملة ما بقى من الذكور فى الخلية وعند عودة الملكة ملقحة تظهر أعضاء التذكير البيضاء اللون متصلة بفتحتها التناسلية إذ تنفصل عن جسم الذكر عقب السفاد . وإذا ما وصلت الملكة إلى الخلية استقبلتها (الشغالة) بالالتفاف حولها ؛ وبعد يومين تبتدئ فى تأدية وظيفتها فتضع ما يقرب من ٤٠٠ بيضة كل ٢٤ ساعة ، وتستمر على نشاطها سنتين أو ثلاثاً

وللملكة قدرة على وضع بيض ملقح وبيض غير ملقح ؛ فالأول ينتج الملكات والخناث (العملة) تبعاً لنوع الغذاء الذى يقدم لليرقات بعد فقسها و تبعاً لشكل الثقوب التى تربى فيها ، والثانى ينتج الذكور

ومدة إفراخ البيض ثلاثة أيام فى جميع الأفراد . وعند خروج اليرقات الصغيرة تتغذى جميعاً بالغذاء الملكى مدة ثلاثة أيام وهو سائل يشبه اللبن تفرزه الشغالة الصغيرة من غدد خاصة فى رأسها ؛ وبعد هذه المدة تتغذى الشغالة بمزيج مركب من العسل وحبوب الطلع يسمي بخبز النحل . أما يرقات الذكور فتتغذى بخبز النحل مع جزء من الغذاء الملكى وتستمر الملكات على غذائها . وتمكث يرقات الملكات خمسة أيام إلى أن تشرنق ، وكذلك يرقات الخناث. أما يرقات الذكور فتمكث ستة أيام ، وفى هذه الأثناء تنسج حولها شرنقة تتحول داخلها إلى عــذراء . وبعد مضى سبعة أيام على عذراء الملكات وثلاثة عشر يوماً على عذارى الخناث وخمسة عشر يوماً على عذارى الذكور تخرج منها الحشرات الكاملة

وتعمر الملكة زمناً طويلا قد يصل إلى أربع سنوات ، وتضع فى السنوات الأولى من حياتها ما متوسطه ٤٠٠ بيضة فى اليوم، ثم يقل شيئاً فشيئاً فى السنوات التالية ؛ ولذا يستحسن تغيير الملكة بأخرى جديدة كل سنتين أو ثلاث حتى لا تضعف الخلية

وتعيش الخنثى زمناً يختلف من عشرة أيام إلى ستة أسابيع تبعاً لمقدار الشغل ودرجة صعوبته: وغالباً تقضى الخناث التى تولد فى الخريف فصل الشتاء فى راحــة قليلة ، ثم تعاود عملها فى فصــل الربيع الذى تنتهى فيه حياتها . والذكور لا تعمر كثيراً وليس لها منفعة معظم السنة بل إنها فضلا عن ذلك تتطفل على ما تجمعه الشغالة

وهكذا تكون المستعمرة . وتستمر الملكة فى وضع البيض والشغالة تخدم الخلية ، فإذا مات جيل من الشغالة حل محله جيل يعقبه وهكذا . وفى حالة عدم تلقيح الملكة ، وذلك ينشأ عن عدم



حديث لأميل لودفيج مع الأديب المصري جورج قطاوي

تعد ضواحي سان موريتز قبلة الكتاب والفنانين منذ « نيتشه » فان منظر بحيرات سيلس ماريا في سفح جبال الألب مما يخلب النفوس؛ ولهذا أقام بها الكاتب المشهور أميل لودفيج منذ سنوات. ولقد تعرفت منذ ثلاث سنين بمؤرخ حياة الرجال العظماء حينما كان يعد كتابه الكبير عن ماء النيل . ويسرني أن أسمع منه أثر رحلاته العديدة في مصر والسودان . ولهذا انتهزت فرصة وجودي في ضيافته يوماً لأسأله عن الأسباب التي حملته على وضع كتابه هذا الأخير . وقد وجدت على مكتبه ست تراجم لكتاب النيل « بالايطالية والمجرية والبرتغالية والفرنسية الخ » وغيرها الآن تحت التحضير ، ولكن الذي يهمه أكثر من هذا كله هو الترجمة العربية

قال إميل لودفيج : « إن الشرق يجذبني اليه منذ كنت صبيا . فقد كنت أسمع أبي يتحدث عن مصر فتبهج هذه الحكايات مخيلتي ؛ ذلك أن أبي — وكان يدعى هرمان لودفيج كوهين — كان طبيباً للعيون ، ودعاه السلطان عبد الحميد لاستشارته فاستمر في رحلته إلى مصر حيث اكتشف علاجاً للرمد ، وتغلغل في بيوت القاهرة العريقة ، وتعرف بأميرات عديدات من البيت المالك ، وزار السودان ، ودرس قبائل البشارية الذين كانوا يدعونه « حكيمباشي »

« وهأنذا قد عبرت وادي النيل من الحبشة إلى الدلتا بعد مضي نصف قرن على رحلة أبي . ولما أصبت بالملاريا في أثناء مقامي بالحبشة عند منبع النيل الأزرق كانت زوجتي هي التي قامت بوصف البحيرات الكبري ، ومن وصفها وضعت الحسين صفحة المخصصة للنيل الأبيض . وقد حكم نقاد أمريكان عديدون بأن هذه الصفحات هي خير ما في الكتاب »

«المعروف أن مدام لودفيج هي نفسها إفريقية ، فقد ولدت في دربان من أب ألماني وأم اسكتلندية وهي ساعد زوجها الأيمن»

وأضاف لودفيج قائلاً : « ولقد وضع جلالة الملك فؤاد تحت تصرفي خلال ثلاثة أسابيع باخرة تدعي « الكاشف » صعدت

رؤية الذكور لها أو عدم اللحاق بها عند طيرانها ، تهدأ الملكة بعد ثلاثة أسابيع وتضع نوعاً من البيض غير ملقح يسمى بالبيض الكاذب وهنا تتعرض المستعمرة للخراب

أما إذا ماتت الملكة أو ضاعت فيبتديء الضعف يتطرق إلى الخلية، وينتهز الأعداء فرصة هذا الضعف، فتظهر دودة تفتك بالشمع، وتغير الزنابير والنمل على النحل فتاً كله. وإذا استمر الحال كذلك شهرين فصير الخلية الخراب إن لم تمد بملكة جديدة . وفي أغلب هذه الأحوال تبحث الشغالة عن بيضة ملقحة من بيض الملكة المفقودة وتنقلها إلى عين ملكية ، وعند فقسها تعامل معاملة الملكات في المعيشة والتربية والغذاء فتنتج ملكة حقيقية . أما عند عدم وجود بيض ملقح فتتطوع شغالة أو أكثر لوضع البيض ويكون غير ملقح طبعاً فتنتج ذكوراً فقط فتسير الخلية إلى الخراب . وتسمى مثل هذه الشغالة بالأم الكاذبة . ولا تستطيع الأم الكاذبة وضع البيض في صفوف متتالية وعيون متعاقبة كما هو شأن الملكة . كذلك تضع الأم الكاذبة أكثر من بيضة واحدة في كل عين ؛ وقد يكون البيض على جدر هذه العيون وذلك لعدم وجود غريزة وضع البيض عند الأم الكاذبة لقصر بطنها . ونجد في مثل هذه الحالة طنيناً مستمراً بالخلية وهذا لأن الطمأنينة لا تدب في نفوس أفرادها . ويجب اسعاف مثل هذه الخلية ببرواز به بيت ملكي من خلية أخري أو شراء ملكة جديدة ووضعها في الخلية ، إلا أن ذلك يحتاج إلى مهارة ودراية .

(البقية في العدد القادم)

جمال الكرداني

بها النيل ، وهذه الأسابيع الثلاثة مع رحلتى إلى اليونان هى أسعد أيام حياتى

و « النيل » من بين جميع مؤلفاتى هو الذى اقتضى أكثر الجهد والعناء والبحث والعمل الطويل ، لأن مؤلفاتى الأخرى مثل « نابليون » و « بسمارك » و « لنكولن » و « غليوم الثانى » قد ألفتها خلال فصل صيف ، من مارس إلى نوفبر . وأما قصصى التمثيلية ، فقد كان يلزمنى يومان اثنان لأكتب كل فصل منها . وعلى الضد من ذلك قد قضيت عشر سنوات لأضع مأساة نهركم العظيم التى أردت أن تكون من القوة بحيث تمثل أبطالى من البشر ، تخلصت من الوقائع والاحصاءات والوثائق لأعيد فى ذهن القارئ جو ما عبرت من أماكن ، وما استنشقت من عطر لا سبيل إلى نسيانه ... لأن منشأ أكثر مؤلفاتى هو أثر شعور يتمكن منى ؛ فكتاب « ابن الرجل » مثلاً قد تمثل إلى ذهنى ذات مساء بينا كنا فى طريقنا من بيت المقدس إلى الناصرة »

ولما سألته عن الشخصيات المصرية التى احتك بها ، حدثنى عن تشرفه بلقاء المنفور له الملك فؤاد فقال :

« لقد كان يتمنى لو وضعت حياة الخديو اسماعيل ، ولما كان الوضوع لا يلهمنى الالهام الكافى فقد وعدته بأن أخصص بضع صفحات من « النيل » لذكرى والده

والحق أن خير رجال الحكم المصريين الذين أتيح لى لقياهم هو سفيركم فى لندن : الدكتور حافظ عفيفى باشا ؛ وفى خلال مرورى بلندن فى يونيه الماضى تحدثت طويلاً إليه . وقد أراد تقدمتى إلى جلالة « الملك فاروق » لولا أن سفرى إلى أمريكا قد حرمنى هذا الشرف »

وكان المسيو لودفيج عائداً فعلا من الولايات المتحدة حيث قضى زمناً بالقرب من الرئيس روزفلت فى بيته الخلوى بهايد بارك . وهو يحمل لرئيس الحكومة الأمريكية أشد الاعجاب ، إذ قال :

« إنه رجل من نوع جديد ، ظهر لأول مرة فى الحياة العامة ، رجل القرن العشرين ، الباسم أبداً ، المستبشر المتفائل على الدوام . فإننى ما رأيت قط نظرة أصفى من نظرته ، ولا وجهاً أشد من وجهه حزماً وعزماً . وهو رجل الحكم الوحيد السعيد الذى عرفت . . . وسيكون اسم كتابى عن حياة روزفلت : « بحث فى الهناء والمقدرة » . والرئيس يود بكل جوارحه لو فرض على سياسة العالم التآلف والوفاق . وأعظم أمانيه وأعزها تدعيم السلام فى أوربا

وله فى هذا الصدد آراء دقيقة ثمينة ، غير أنى أخشى أن يكون قد سبق السيف العذل ولات حين تدخل ؛ ولم أستطع أن أخفى عنه رأيى فى هذا ، فإنى أرى أوربا تندفع ، منخفضة الرأس ، نحو حرب جديدة ؛ وأشفق من أن تقع الواقعة حتى قبلما يترك روزفلت الحكم

والبحث عن الكوارث المقبلة لا يكون فى الصعوبات المادية التى تعانيها أوربا بل فى روح الشر والعداء المشبعة بها بعض الدول ، ولكن روزفلت ساهر ؛ والفرق بينه وبين الديكتاتوريين أنهم يريدون أن يخافهم الناس وروزفلت يريد أن يحبوه »

وعبثا حاولت معرفة رأى المسيو لودفيج فى الماهدة الانجليزية المصرية ، فقد قال :

« إن كل شىء يتوقف على السياسة الدولية وعلى الحرب القادمة التى لا أرى مفراً منها »

ومع ذلك فهو لا يخفى عطفه الشديد على الفلاح المجاهد العنيف الذى يشتغل بقوة ؛ وهو يعنى كثيراً بما ينتظره من مصير . وكذلك يتمنى لو جمعت الأخوة يوماً ما بين العرب واليهود

على أن تشاؤمه لا يحول بينه وبين الأمل فى مستقبل حضارتنا المهددة فهو يقول :

« إن ما ينبغى هو إنقاذ الميراث الأدبى المجيد للشاعر جيته من المتوحشين . وإذا عشت حتى عام ١٩٣٩ فإننى سأعيد كتابة حياة مؤلف فاوست . فهو الرجل العظيم الوحيد الذى لا أمل الاعجاب به طرفة عين . أما الآن فقد أتممت كتاباً يختلف اختلافاً محسوساً عن كل ما كتبته حتى اليوم وهو « كليوباترة » ، وقد كتبته فى أربعة أسابيع ، كأننى كنت فى حلم »

وهكذا ترانى قد ظللت وفياً لبلادكم وأرجو أن أسافر إلى القاهرة هذا الشتاء فى شهر فبراير ، وأتحدث فى الجامعة .

ع . قطارى

حول مهمة دار الكتب

تحتفظ دار الكتب المصرية ، فضلاً عن مجموعة مخطوطاتها الحافلة ، بطائفة كبيرة من المطبوعات النفيسة النادرة ؛ ومنها ما يرجع تاريخ صدوره إلى القرن السادس عشر أو القرن السابع عشر ، وكثير منها من مطبوعات القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ؛ وهذه المجموعة من المطبوعات القديمة هي في الواقع أنفس ما تحتفظ به دار الكتب بعد مخطوطاتها ، من المصادر والمراجع القيمة التي لا يستغنى باحث عن الرجوع إليها ؛ ومنها معظم المراجع في المباحث الاسلامية والشرقية ؛ ومنها مراجع عربية مثل تاريخ العميد بن المكين المطبوع في القرن السادس عشر ، ونزهة المشتاق للإدريسي المطبوع في أواخر هذا القرن ، وتاريخ ابن عربشاه ، وتاريخ ابن العبري المطبوعان في القرن السابع عشر ، ومراجع نفيسة أخرى تعتبر في حكم النادر والمخطوط .

وقد جرت دار الكتب حتى اليوم على تيسير سبيل البحث والمراجعة للباحثين القلائل الذين يعتمدون في مباحثهم على هذا التراث ، وكانت تسمح لهم باستعارة هذه الكتب خارج الدار باذن خاص ولمدد محدودة ؛ ولكن حدث أخيراً أنها قررت حبس هذه المراجع وعدم التصريح بخروجها من الدار وقصر المراجعة فيها على القراءة بالدار ذاتها ؛ وحجة دار الكتب في ذلك المنع هو أن هذه المراجع أصبحت لندرتها كالمخطوطات يجب المحافظة عليها من الضياع ، وإبقاؤها أبداً داخل الدار في متناول الباحثين

ونحن مع دار الكتب بلا ريب في المحافظة على نفائسها والحرص عليها من الضياع والتبديد ؛ ولكنا نلاحظ أن هذا القرار معطل لمهمة دار الكتب الأصلية . ذلك أن دار الكتب لا تحتفظ فيما عدا هذه المجموعة من المطبوعات القديمة ، بكثير من الكتب والمراجع الحديثة القيمة ، وجل ما اقتنته الدار في الثلاثين عاماً الأخيرة من كتب القصص والأدب السائر والمؤلفات العادية ، وأما ما اقتنته من الكتب والمراجع النفيسة في هذه الفترة فقليل جداً بالنسبة إلى الآلاف المؤلفة من كتب القصص الفرنسي والإنكليزي التي ما زالت تجد في اقتنائها ؛ ومعظم ما يقرأ ويعار لا يخرج عن هذه الدائرة ؛ وهذه نتيجة يؤسف لها ، ولكن هذا هو الواقع ؛ وخير ماتقوم به دار الكتب هو معاونة البحث العلمي وذلك بوضع مجموعتها من المراجع القيمة تحت تصرف الباحثين ؛ فإذا كانت تريد اليوم أن تحبس هذه المجموعة بحجة المحافظة عليها فان ذلك يعطل البحث والمراجعة ، لأن معظم الذين يستفيدون من هذه المجموعة لا تسمح لهم ظروفهم بالمكث ساعات طويلة في دار الكتب . ومن المستحيل عليهم أن يترددوا عليها بلا انقطاع ليقوموا بمباحثهم في حجراتها . وخير لدار الكتب أن تعود إلى نظامها القديم في إباحة استعارة هذه الكتب ، مع اتخاذ التحوطات والضمانات اللازمة . هذا مع سعيها في نفس الوقت إلى تجديد هذه المجموعة ، وذلك بشراء الطبعات الجديدة للكتب التي صدرت لها طبعات جديدة وهي كثيرة تعد بالآلاف . أما إذا كانت دار الكتب تريد أن تغدو متحفاً آخر ، وإذا كانت تريد أن تقتصر مهمتها الثقافية على تقديم كتب القصص والأدب الخفيف للشباب ، فذلك ما لا نسيغه ولا نعتقد أنه متفق مع وجودها ومهمتها الحقيقية .

تحقيق صحفي شائق

قال الرئيس جفرسون ذات مرة في تعليقه على مهمة الصحافة : « إن إلغاء الصحافة لا يجرد الأمة من مزاياها بقدر ما يجردها إغراقها في الكذب . وإن المرء لا يستطيع أن يصدق اليوم شيئاً تنشره الصحف » ، وقد مضى منذ عهد الرئيس جفرسون عصر طويل تطورت فيه الصحافة وغدت قوة عالمية يخشى بأسها . بيد أنه يبقى أن نتساءل دائماً : هل تؤدي الصحافة دائماً مهمتها طبقاً لمبادئ الحق والأخلاق ؟ هذا ما تصدى لتحقيقه بالنسبة للصحافة الأمريكية اثنان من أكابر الصحفيين الأمريكيين هما مدام سوزان كنجسبوري وهورنل هارت ؛ وقد نشرا نتيجة تحقيقهما في كتاب صدر أخيراً تحت عنوان «الصحف والأخبار» Neuspapers and He Neus وجرى هذا التحقيق تنفيذاً لرغبة « محسن مجهول » رصد لهذا الغرض مبلغاً كبيراً من المال لدى كلية « برن مور » ، وقدم إليها مجموعة كبيرة من قصاصات صحفية لبث يجمعها مدى أعوام . وقد استعرض المؤلفان في كتابهما حالة الصحافة الأمريكية اليوم ، والقواعد الأخلاقية والثقافية التي تسير عليها طبقاً لدستور الصحافة الأمريكي ؛ وخرجا من ذلك بأن الصحافة تجرى في تغذية قرائها على أسلوب

آلى محض ، فتقصد قبل كل شيء إلى إثارة الشعور والحس ، وإذكاء تطلع القراء ؛ وإن معظم قراء الصحف الكبرى يستقون معلوماتهم ويكونون أفكارهم من قراءة العناوين ورؤوس الموضوعات . وأما من حيث الناحية الأخلاقية فان الصحف لا تسير على وتيرة واحدة ، وكل منها تخرج الخبر المعين في الصيغة التي تناسب اتجاهها السياسي أو الاجتماعي ؛ ويترتب على ذلك أن الخبر الواحد يحدث آثاراً شتى طبقاً للصيغ والتعليقات المختلفة التي أخرج بها ؛ ومن هنا تضعف الحقيقة في رواية الأخبار. كذلك يتناول المؤلفان مسألة الاعلانات وما تحدثه من الأثر في أذهان القراء . ومما يلاحظانه أن الصحف الزنجية تغرق في نشر اعلانات السحر ؛ وبذلك تستمر على تغذية عقول الزنوج بهذا الضرب من التخريف . وإلى جانب ذلك تكثر الصحف البيضاء من نشر اعلانات المنجمين وقراء الطالع . وينوه المؤلفان في تحقيقهما بنتيجة خطيرة هي أن الصحافة كانت مسئولة في العصر الأخير عن زعزعة الايمان بالديمقراطية والثقة في مزاياها ، وذلك لما تغرق فيه من تشويه نتائج الحكم الديمقراطي ، ومن نشر الأنباء التي تسبغ الريب على صلاحيته من النواحي الاجتماعية والأخلاقية والسياسية .

نقول : وإنه ليجدر بأحد الصحفيين المصريين النابهين أن يقوم بمثل هذا التحقيق ، فيحدثنا عن الآثار التي أحدثتها الصحافة في العصر الأخير في عقلية المجتمع المصري ، وعن مدى التزام الصحافة المصرية في أساليبها وفي مقاصدها للقواعد الأخلاقية والثقافية الحقة .

توماس مان والجامعات الألمانية

كانت جامعة بون الألمانية ضمن الجامعات التي منحت كاتب ألمانيا الأكبر توماس مان درجاتها الفخرية ، وكان ذلك قبل قيام الوطنية الاشتراكية في ألمانيا ، وأيام أن كان الكاتب الكبير في إبان مجده ؛ ولكن ألمانيا الهتلرية تنكرت لجميع الكتاب الأحرار ، وكان توماس مان في مقدمة ضحايا النظام الحالي ، فغادر ألمانيا إلى انكلترا مع أخيه الكاتب الكبير هينريش مان ؛ ثم نزعت عنه الحكومة الهتلرية جنسيته الألمانية ؛ وعلى أثر ذلك سحبت جامعة بون منه درجتها الفخرية ، وأعلنته بهذا التجريد في خطاب موجز جاف ؛ فرد عليها توماس مان بخطاب مسهب يفيض وطنية ونبلا ؛ وفيه يحمل على النظام الحالي في ألمانيا ويستعرض آثاره المخربة للحضارة الألمانية والتفكير الألماني ؛ ثم يعرب عن حزنه لما أصاب الجامعات الألمانية في هذا العهد من الصغار والذل . ويقول : « إن الجامعات الألمانية تحمل قسطاً عظيما من المسئولية في المحنة الحاضرة لأنها أساءت فهم مهمتها التاريخية ، وسمحت بأن تكون مهاداً لتغذية القوى الهمجية التي خربت ألمانيا من الوجهات الاخلاقية والسياسية والاقتصادية ... وإن كاتبا ألمانيا يدرك مسئوليته وتتوق وطنيته إلى الإعراب من الوجهة المعنوية عن كل ما يحدث في ألمانيا لا يستطيع أن يغض الطرف عن ذلك البلاء الذي يعصف بوطنه ، والذي يسحق الأجسام والعقول والأرواح ويسحق الحق والصدق » . وقد ظهرت رسالة توماس مان هذه إلى جامعة بون أخيراً بالانكليزية وأحدث نشرها أثراً عميقاً في انكلترا وأمريكا . وتوماس مان هو بلاريب أعظم كتاب ألمانيا المعاصرين ، وهو يحمل جائزة نوبل للآداب

مدرسة اللغات الشرقية وخلف السير دينسون روس فيها

أعلنت « الصنداي تيمس » أن مدرسة اللغات الشرقية قد ساعدها الحظ فوجدت خلفاً للسر دينسون روس من بين رجالها هو المستر رالف ترنر . وكان قد عين أستاذاً في جامعة «سانسكرت» بلندن سنة ١٩٢٣ واشتغل مع السر دينسون روس في مدرسة اللغات الشرقية

ومن المحتمل أن يكون المستر ترنر أقل معرفة بالشرق الأوسط من السر دينسون ، ولكنه من المستشرقين الذين لهم شهرة عالية . وقد تخصص في فقه اللغات الهندية الآرية

كاتب فرنسي يزور مصر

وصل إلى الإسكندرية الأستاذ كلودفارير الكاتب القصصي الفرنسي المعروف . وسيزور القاهرة ويقضي يومين فيها ثم يبرحها عائداً إلى فرنسا

والمسيو كلودفارير ينتسب إلى جماعة من البارزين في المجتمع الفرنسي والمشتغلين بالثقافة ؛ وتنظم هذه الجماعة الآن رحلة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط للدرس والسياحة



الربع الخـــالى

THE EMPTY QUARTER

تأليف الشيخ عبد الله فلبي

للأديب محمد عبد الله العمودى

المستر سنت جون فلبي ، صديق العرب وخليفة لورنس ، يعدُّ من أبرز شخصيات الاستشراق فى العالم العربى

اتصل بالملك ابن السعود فأحبه وأخلص له ، ورافق البدو فى البوادي كثيراً فبهرته عظمة الصحراء فترادها ، وتقلب فى كثير من أقاليمها ، وتكاد آثاره تنحصر على قلب البلاد العربية حيث الملك ابن السعود وأقوامه الوهابيون .

له مؤلفات جليلة ، ومجهودات جبارة ،عرَّف فيها عالم الغرب بشعب العرب الفتيّ الناهض وقائدهم الأعظم

وهـذه المؤلفات هي المرجع الوحيد لمن يبتغي تاريخ نجد ، وحركة « الاخوان » الأخيرة ، وكلها باللغة الانجليزية منها :

« قلب جزيرة العرب » و « بلاد نوهابيين » و « تاريخ بلاد العرب » و « الربع الخالي » أخيراً . . .

وهذا السفر الذى نحن بصدده يعد بحق من أروع الأسفار وأخلد الآثار ، وأدهش الأخبار ، وإلا فهل يخطر ببال أحد أن هذه الصحراء العربية التى طالما تهيبها الغزاة ، وارتدت عنها أنظار المستكشفين ، يقتحمها المستر فلبي فيبرز لنا عالماً مجهولاً، وبقعة مسحورة ؟ !

هذا الربع الخالي يقع بين حضرموت ونجد ، واليمن وعمان ؛ وهو عبارة عن مفازة عظيمة ، واسعة الأكناف ، مترامية الأطراف تتناوح فيها الرياح ، وتدوى بها الأعاصير ؛ وللبدو فيها خرافات وأوهام يحار المرء فى صحتها كقولهم بوجود قصور قائمة ، وعيون جارية ، ومدن مطمورة تحت الرمال ! وما إلى ذلك من غريب الأخبار . . . والمؤرخ فى مثل هذه الحال لايمكنه أن يرفض كل أخبار هذه البقاع لما عُلِم من أنها كانت آهلة بالعمران والسكان فى عصور واغلة فى القدم ... وما نعلم أحداً طعن فى هذه الرمال وكتب عنها تقارير قيمة ، وأبحاثاً لها أهميتها فى عالم الكشف سوى ثلاثة من الأوربيين هم : برترام توماس [1] ، وچيزمان [2] والمستر فلبي أخيراً . . .

وكتبهم هذه لا تتعدى المشاهدة والملاحظة التى مرت بهم فى أثناء سيرهم فى طريق خاص ، بل فى طريق مأهول . فياليت شعرى ما علم المناطق المجهولة التى لم تطأها حتى أقدام البدو من أبنائها ؟ ؟

ومهما كانت الاحاطة محدودة وضيقة بهذه البقاع فإن المستر فلبي قد نشر لنا صفحة من صحفها المطوية ، وصورة من صورها الغامضة ، وقفنا على الشيء الكثير من أسرارها وخفاياها

وأمنيته فى اختراق هذه الآفاق تعود إلى سنة ١٩١٨ حتى تحقق حلمه فى عهد الملك ابن السعود بعد أن أخذ عليه إقراراً كتابياً أنه غير مسؤول إذا ما لحقه سوء فى الطريق ؛ فأمضى المستر فلبي وتوكل على الله . وانحدر من (الهفهوف) أو (الهفوف) باقليم الحسا فى عشرين رجلا و ٣٢ جملاً محملة بالماء والزاد والمتاع ، واستغرقت رحلته أكثر من شهرين ، اخترق الجنوب ثم انعطف نحو الشمال حتى بلغ (السُّلَيِّل) من أعمال (نجران)

ومؤلفه هذا يقع فى ٤٠٠ صفحة من القطع المتوسط ،ومحلى بصور رائعة تمثل مناظر ذلك العالم المجهول . وقد قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام ؛ الأول يشمل صحراء (جافوره) و (جبرين)

(١) Arabia Felipi

(٢) in unknawn Arabia

وهاتان المنطقتان تقعان جنوب الحسا فيهما عيون ونخيل ، وهجر « للاخوان » ثم تليهما إلى الجنوب منطقة (الرمال) وهي عبارة عن مفاوز ذات سطح متموج ؛ ويأتي القسم الثالث وهو « الربع الخالي » ويمضي المستر فلبي ويصور لنا شبحه المخيف كما يتصوره البدو وكيف يبتلع الأرواح ، ويدفن الأشباح ! وبعد هذا القسم في نهاية الكتاب تأتي شذرات قيمة ، وملاحظات دقيقة ، لبعض العلماء الطبيعيين في المتحف البريطاني بلندن عن النيازك التي سقطت في بقاع الربع الخالي ، وعن أنواع غريبة الشكل من الطيور والحيوانات والحشرات ، ومن الأخيرة جمع صناديق قدمها للمتحف البريطاني . . .

والقيمة العلمية لهذا الكتاب يلمسها المرء في ثنايا السطور ، فهو يرسم لنا مناظر خلابة للصحراء ، والأشياء المتصلة بمظاهر البادية تصويراً طبيعياً ، قريب الانتزاع ، صادق النظرة ، من وصف الاطلال التي مر عليها ، ومراتع الوحوش التي أبرد فيها ، وآفاق البادية المجلوة التي كانت من أمتع المناظر ساعة الأصيل !

وقد أفاض في حياة الأفراد والجماعات التي تعيش في ذلك العالم المجهول وأخصهم « بني مرة » و « المناصير » فعرض لحياتهم البسيطة الساذجة ، ومراعيهم المتجهمة المتناثرة في عرض الصحراء ، وكيف أنهم يعتمدون في قوتهم على لحوم الغزلان والوعول والأرانب التي تكثر في تلك البراري . .

وفي هذا الكتاب يكشف لنا المؤلف عن ناحية سياسية مجهولة بين حضرموت ونجد ؛ فمن المجزوم به أن القبائل الحضرمية المتاخمة لحواشي الربع الخالي من الصعب عليها الاتصال والامتيار من بلاد نجد ، لوجود هذه الفلاة الفاصلة ، ولكن المؤلف يميط اللثام ، ويرفع الظن ، ويعلمنا أن صلات القبائل الحضرمية في الشمال وأخصها الصَّيْعر والعوامر والمناهيل متينة بالبلاد النجدية ، ولابن السعود سلطة نوعية على هذه القبائل ، فقد روى المؤلف في ص ١٠٣ حادثة (سيف ابن طناف) شيخ مشايخ المناهيل في (حضرموت) وكيف فاض إلى نجد من أقصى حدود حضرموت ومعه هجين من الأصائل ليقدمه لابن حلوي حاكم الحسا السابق دليلا على الولاء والخضوع !

ومن عجيب ما حدثنا به المؤلف في ص ١١٦ أنه بينا كان يجوس خلال بعض الغياض يطارد الجعلان لاحظ سائلاً قرمزي اللون يسيل على لحاء إحدى الشجيرات ؛ فتبينه فوجده مادة صمغية تشبه تلك المادة التي أنزلها الله في البرية على بني اسرائيل ليقتاتوا بها عند رحيلهم من مصر وهي « المن » الواردة في القرآن الكريم في قوله تعالى (وأنزلنا عليهم المن والسلوى) . وقد ذهب العالم الاسرائيلي الدكتور يهودا إلى أن هذه اللفظة مصرية قديمة بمعنى (لا نعرف) وذلك أنه لما خفي أمرها على بني اسرائيل ، ولم يدركوا حقيقتها وكنهها كسوها هذا اللفظ الذي معناه في المصرية ما تقدم . ويزيد هذا العالم أن هذه اللفظة لا تزال شائعة الاستعمال في اللسان العبري الدارج : فهل لأستاذنا الدكتور ولفنسون أن يتكرم بإماطة اللثام عن أصل هذه الكلمة ومصدر اشتقاقها ، وشجرة المن وما ورد عنها في الآثار اليهودية ؟

ويمضي المستر فلبي ويصف لنا الشيء الكثير من القصور المهدمة ، والآثار التي تشير إلى الماضي السحيق وخاصة في منطقة جبرين [1] ، كما عثر هناك على حلق مفككة ، وخرز مبعثر هنا وهناك ، وشظايا خزف ، وجرار مدفونة في الرمال !

ويعجبنا من المؤلف أنه كان في أثناء الرحلة حركة قمالة ، فقلما ترك فرصة إلا وشغلها في البحث والتنقيب ، خلال الأشجار وثنايا المخارم ، وادعاص الرمل ؛ وكان في سيره لا يساير القافلة بل كان في اتجاه آخر يتعثر بين انجاد الفلاة وأغوارها ، علَّه يقع على جديد ، أو يتوصل إلى شيء غريب ، وقد كان له ما أراد فقد وضح لنا أن منابت الربع الخالي لا تنبت إلا العبل والمندب والعلقة والبركان والمرخ والحمض والغضا والحرمل والسمر والسرح ، وهذه النباتات يقتات بها حيوان ذلك الاقليم وتساعف الجمال في رحلاتها الطويلة الشاقة . ومن أدهش ما حدثنا به المؤلف أنه توجد في تلك الصحاري الغبراء مروج مخصلة ومناظر ساحرة ، لمسارح الابل ، ومراعي الشاء !

ولعل الظاهرة الطبيعية في ذلك البلقع من الأرض ، هي الرياح فقد كانت شديدة الدوى ، قوية الاعتكار ، ومع هذا فلها موسيقى عذبة ، ولحن مطرب ، ترنحت لها أعطاف الشيخ عبد الله وخال نفسه في ال music hall وذلك عند ما اعتلى قوزاً من الأقواز ، وكانت الرياح تصفر حواليه ، وهناك استرعى انتباهه لحن عذب ، ظنه لأول وهلة صادراً عن أحد رفاقه ، ولكن تبين له أخيراً أنها أغان مبعثها الرمال Singing Sands وقد

(١) هكذا يضبطها المؤلف بالجيم المعجمة ، مع أنها في كتب الأدب بالياء المثلثة ولعل لهجات القبائل دخلا في هذا من إبدالهم الياء جيما وبالعكس كما هو مشاهد في حضرموت .

استكتب المؤلف أحد العلماء الطبيعيين عن أسبابها في فصل أدرجه في خاتمة الكتاب

وهذه الرياح الهوج كانت من أكبر الصعاب في عرقلة سير الاستكشاف ومضايقة المؤلف في أبحاثه ، فهو يحدثنا في ص ١٨٨ كيف ثارت الطبيعة ، فعصفت الرياح ، وانبعثت الأعاصير ، فزعزعت المضارب وحطمتها ثم استوى عليها الرمل وما أخرجوها إلا من بطن الأرض

وهذه الظاهرة ليس للشك فيها مجال ، فكثيراً ما سمعنا في حضرموت أن الرجل يقف في وسط هذا الرمل فما تمضي عليه خمس دقائق حتى يصير مغروزاً فيها ؛ والحضارمة لا يسمونه إلا « البحر السافي ! »

ويمضي المؤلف ويصف لنا الآبار في هذه الأصقاع ، فيحدثنا أنها كثيرة جداً ، وما على البدوي إلا أن ينبش الأرض على بعد بعض قوائم ، فيرى الماء وقد نزا من جوفها ؛ وحفظ هذه الآبار من سفي الرياح غريب ، فيقول إن البدو يغطون أفواهها بالجلود العريضة وأغصان الشجر ، وهم على اتفاق تام على رعاية هذه المصلحة العامة في جميع تطوافهم

وعند ما دخل المؤلف منطقة (شنَّة) ص ٢٢٨ تراءت له منبسطات من الرمل محاطة بكثبان تكون شكل بحيرات وأخرى منها مستطيلة ، أدى بحثه إلى أنها بحيرات كانت موجودة من العصر الجيولوجي الثالث ، وكانت تتدفق اليها الأنهار من شتى أنحاء الربع الخالي ، حاملة الطمي معها ، ثم لم تلبث هذه البحيرات أن جفت وفاضت عليها أنفاس الرياح فغمرتها بكثبان الرمل !

ويظن المستر فلبي أن بلدة (شنة) لا تبعد عن البقعة التي كان وادي الدواسر يصب مياهه فيها في الأعصار القديمة ؛ ويعزز رأيه بأن حفافي تلك البحار لا تزال محسوسة حتى هذه الساعة في الأجراف التي تعود إلى العصر البيوسيني في طرقات (جيبان) وأفاض المؤلف في هذه الظاهرة الجيولوجية العجيبة التي خرجنا منها بأن بقاع الربع الخالي كانت آهلة في عصور سحيقة بالسكان والعمار ، وكانت حضرموت وظفار وجبال القرا ، بل الشاطئ الجنوبي من الجزيرة العربية مغموراً بالمياه ؛ وكانت وديان الدواسر وتثلث وبيشة أنهاراً تصب مياهها في رحاب الربع الخالي ؛ فلما جفت هذه الأنهار ، وأضحت وديانا كما هي اليوم انحسر الماء عنها فخلت تلك البقاع فلم يبق فيها إلا هذه الآثار من الأصداف وأحجار البحر ، وفضلات الزجاج ، والصخور الغريبة التي شاهدها المؤلف وشحن منها صناديق . وقال عن وادي الدواسر إنه أعظم الأنهار القديمة ينحدر من جبال عسير واليمن فيمر على (دام) و(السُّلَيِّل) فيلتقي بنفسه في أحضان الربع الخالي !

وهذه النظرية المحيِّرة لم يقل بها المستر فلبي وحده ، بل فطن لها كثير من علماء الجيولوجيا كالطبرون والعالم الايطالي كاتاني داتيانو ، إذ يعتقدون استناداً إلى الأدلة الجيولوجية أن الجزء الجنوبي من بلاد العرب كان في يوم ما مزدهراً بحضارة عظيمة تعود إلى ماقبل التاريخ ، أيام كانت هذه البقاع تأهل بأقدم أمم الأرض وأشدها قوة من بني عاد . . .

وهذا السفر الجليل الذي خدم فيه المؤلف العرب لم يسلم من بعض الهنات ، من ذلك ما جاء في ص ٧٧ عند الكلام على قبيلة « المناصير » فقال ، استناداً إلى ضعف رواية ، إنها قبيلة كانت تدين بالمسيحية واسمها يدل عليها !

وفي ص ٧٨ تكلم عن أجود أنواع الابل ، فقال إنها الابل التي تنتمي إلى قبيلة (آل بوشامس) من قبائل عمان ، وهذه القبيلة لا تعد من المسلمين ! بل تنتمي إلى المذهب الاباضي، ولهم صلاة عجيبة !

وهذه شطحة من (أخينا الشيخ عبد الله) ، فالاباضية فرقة من فرق الاسلام !

وفي بقاع الربع الخالي يوجد حيوان من نوع الماعز يسميه الأهالي « الوضَيْحي » وقد أطلق المؤلف عليه اللفظ الأفرنجي Oryh ، وهذه اللفظة لا تعني إلا (الوعل) وهو يختلف عن « الوضيحي » في انتصاب قامته ، وتقوس قرنيه مع انتظام عقد عليهما ، وهذا الحيوان يوجد بكثرة في جبال حضرموت ، أما الوضيحي فيظهر أن اسمه العلمي Antelope

وفي الكتاب نبذة عن رملة (وبار) الشهيرة إذا ساعفتنا الظروف نقلنا منها شيئاً لقراء الرسالة

وأخيراً ، لا يسعنا إلا أن نهتف هتاف المعجبين بهذا المجهود الذي بذله المستر فلبي فقدم للعرب خدمة تذكر له أبد الدهر

محمد عبد الله العمودي

بدار العلوم

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي بعمارة عجم رقم ٧)

5 me Année, No 220.

Lundi - 20 - 9 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر المالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٢٠ « القاهرة في يوم الاثنين ١٤ رجب سنة ١٣٥٦ — ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

حقيقـــة النفس

هل إليها من سبيل ؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كان « ويندل هولمز » يقول — ولا يزال ، على الأقل في كتابه فقد شبع موتاً من زمان — إن الانسان في حقيقته ثلاثة ؛ وإن « احمد » — مثلا — توجد منه ثلاث صور : فهنا أحمد كما يعتقد هو في نفسه ، وهناك أحمد ثان كما هو في رأى محمد ، وهناك أحمد ثالث هو الذي يتكون من اعتقاده في رأى محمد فيه ، وعلى هذا القياس يمكن أن يكون هناك ألف أحمد أو أكثر ، ولا يكون لأحمد الحقيق وجود في الواقع ، لأنه ضائع بين شخصياته المتعددة ، ولأنه هو نفسه قلما يعرف حقيقة نفسه فكيف بمعرفة غيره ؟

كنت أفكر في هذا الذي قاله ويندل هولمز لأن صديقاً لي كان يبدو لي كأنه طائفة من النقائص جمعت وخلط بعضها ببعض وعجن التراب فيها بالنار ، ثم صيغ من هذا المزيج المتنافر وغيره ، مما يخفى علينا ، إنسان نعرفه باسمه ، ولا نعرف كنهه وحقيقته ؛ وابتسمت وقد خطر لي أنه كالمهربات التي يجد رجال الجمارك مكتوباً على صناديقها: « بطاطس » أو « زيتون »

ويفتحونها فاذا البطاطس أو الزيتون هناك ، ولكن حشوه حشيش أو رصاص أو غير ذلك من المحظورات ! وكنت أعجب له هل يدرك ، يا ترى ، أن له بواطن وظواهر مختلفات ، وأنه أشخاص كثر لا شخص واحد ، وأن فى أعماقه تيارات شتى تتلاقى لتتدافع لا لتتساير ؟ فسألته عن ذلك فقال : « إنك لست أقل منى تعدداً ، أنت أيضاً لك جوانب كثيرة » فبينت له أنى لا أنتقد ولا أعيب ، وإنما أريد أن أفهم ، فكان مما سمعته منه : « إنك أنت أيضاً لك سيرة فى حياتك العامة ، وسيرة أخرى فى حياتك الخاصة ، ولك رأى تذيعه ورأى تضمره ، وشخصية تكشف عنها وأخرى تسترها ، ونزعة تبديها ونزعة تحجبها ؛ أو لعلك لا تتعمد شيئاً من ذلك ولا تفطن إليه ولا تدريه ولكنك على التحقيق تغير جلدك فى اليوم الواحد أكثر من مرة »

قلت : « إذن ما حقيقة الانسان؟ »

قال: «حقيقته يعلمها الذي خلقه وركبه فيما شاء من الصور »

قلت : « قد تؤدي هذه الحيرة إلى إنكار المرء لنفسه . أين أنا بين هذه الصور العديدة المتناقضة التى تبدو لى كأنها لى ؟ »

قال : « وما المانع ؟ »

قلت : « وإذا ضاعت نفسى ؟ إذا خفيت عنى حقيقتها ؟ »

فصاح بى وهو يضحك : « إذا ؟ تقول إذا ؟ إن حقيقتها ضائعة يا صاحبى من قبل أن تفطن إلى احتمال ضياعها ! تعال ... تعال »

قلت : « إلى أين ؟ »

قال : « وما سؤالك هذا ؟ أتكره أن تريح رأسك المتعب أو أن تنظر إلى صورة لجانب من نفسك الخفية المضمرة ؟ »

قلت : « ماذا تعنى ؟ »

قال : « أعنى أن النفس كتاب فيه ورق كثير ... كثير جداً ... ولكنه مطوى ... يحتاج إلى يد تفتحه وتقلب صفحاته ؛ هذه الأيدى هي المناسبات والظروف . وكثير من الناس تظل كتب نفوسهم مطوية لأن حياتهم لا تتيح لهم أسباباً تدعو إلى فتح الكتاب والنظر إلى ما فيه ... وقد تكون نفيسة جداً ، ولكنها تبقى مغلقة مجلدة ، لأن حياتهم تتدفق بانتظام فى مجرى مألوف مثلا ، لا يحوج إلى الرجوع إلى الكتاب والاستمداد من وحيه والاسترشاد بما فيه ... ملايين وملايين من الخلق هكذا ، وتراهم فترى البساطة والوضوح والجلاء . . . لاشيء يبدو خفياً أو معقداً . . . ولكن من يدري كيف يكونون لو أن الكتاب فتح مرة ؟ وماذا ترى يبقى حينئذ من البساطة والوضوح ؟ تعال ، تعال » .

قلت : « هل لي أن أعرف أى يد ستفتح لى اليوم كتابى وتقرئنى بعض ما فيه ؟ »

قال : « فتاة رشيقة ظريفة تنسيك الدنيا والسعى والكدح وراء الرزق » .

قلت : « ومعنا رابع أو رابعة ؟ »

قال : « رابع : أخوها »

فهممت بسؤال ولكنه زجرنى عنه ، وقال : « اركب اركب» . وبلغنا البيت فأطلق النفير فأطل الذى هو « أخوها » وصاح: « حالاً . حالاً »

وخرجنا إلى روضة على النيل وكانت جلسة ظريفة ممتعة ، نعمنا فيها بالضحك والحديث وأنس المجلس ثم رجعنا ، فسألنى لما صرنا وحدنا : « ما رأيك ؟ »

قلت: « لا أدرى ماذا تستفيد من هذه المجالس إلا الحسرة . أولى بك أن تقصر ... هو أحجى وأرشد »

قال : « لا أستطيع . إنى مدبر فميني لا تزال تتلفت إلى ما أوَلّى عنه . أنت أصغر مني فالذى أمامك لا يزال إن شاء الله أطول مما خلفت وراءك . وهل وراءك إلا الطفولة الغافلة والحداثة الجاهلة والشباب الغرير ؟ ولكنى أنا ورائى خير ما فى العمر . . . فلا يسعنى إلا أن أتثنى وأتلفت وأدور وأتوقف . غير أنى لا أتحسر لأنى أصح إدراكا لحقائق الحياة من أن أفعل ذلك ؛ وحسبي متعة النظر ولذة الحديث ، ومن متى أن أرى الشباب كيف يلهو كما كنت ألهو . ولست أحجم عن اللهو إذا تيسرت لى أسبابه وإلا ففى لهو العقل الكفاية »

قلت : « اسمع . إنى لا أرى مما يليق بك أن . . . . »

فصاح بى: « خل ما يليق بى لى ، فانه شأنى . واسمع . إن لي حياتين : حياة العمل وهذه مشتركة بينى وبين الناس وأنا فيها

جاد صارم ، وحياتي الخاصة وهذه لي وحدي وليس للناس شأن بها فيها لا يمسهم منها ... لا تعترض ... إن الناس جميعاً كذلك ومنافق كذاب من يدعي غير هذا»

ومن آرائه أن أهل المدن المتحضرين ليسوا أقل خشونة وجلداً من أهل الريف ، ولا أرق ولا أطرى كما يتوهمهم البعض . ومن قوله لي فيّ ذلك : « إنكم تنظرون إلى أفراد معدودين من ذوي اليسار والترف ، وتقيسون أهل المدن جميعاً على هؤلاء الآحاد وتنسون أن كثرة الناس من الفقراء الذين لا يكفون عن السعي والكدح في سبيل الرزق ليلا ونهارا ... أين في الريف من يتعب كتعب أهل المدينة ؟ أين في الريف من يعدم قوتاً ، ويبيت طاوياً كما يبيت الكثيرون من سكان المدن ؟ وأين هو هذا الترف في حياة المدينة ؟ وليس في المدن رذيلة إلا وفي القرى مثلها ؛ ولكن المدن مزدحمة غاصة ، وتيار الحياة فيها زاخر ، فالعيوب تبدو أبرز . كلا ، الانسان هو الانسان سواء أكان في قرية سحيقة أم في مدينة ، ولكن الحياة في القرية أهدأ وضغطها على الأعصاب وإتلافها لها أخف وأقل ؛ فالناس في المدن أطلب للترفيه، وأكثر مصارحة بالرغبة فيه »

وآراؤه في مجالسه العامة غير آرائه في مجالسه الخاصة ، فهو مثلا في حياته العامة لا ينحرف مقدار شعرة عن تأييد التقاليد المقررة ، ولا يكف عن الدعوة إلى مغالبة النفس وضبطها وكبحها والحرص على الفضائل الاجتماعية ، ولكنه حين يكون بين إخوانه الذين اصطفاهم لا يتردد في المغالنة بانكار الخير والشر والفضيلة والرذيلة ، ويذهب إلى أن هذه كلها أكاذيب يستعان بها على تنظيم حياة الجماعة ووقايتها ما تجره الفوضى ، ويؤدي إليه إرسال النفس على السجية الساذجة بلا كابح . وعنده أن الانسان حيوان مصقول لا أكثر ، ولكن الصقل لا يمنع أن تطغى عليه حيوانيته إذا استفزها شيء ، فلا تعود طبقة الدهان — وإن كانت سميكة — تنفع أو تصد . وما من إنسان في رأيه يحجم عن الشر حتى من غير استفزاز إذا وسعه أن يقدم عليه وهو آمن . وكل امرئ يشتهي أن يكون له مال الأغنياء ، وقوة الأقوياء ، وسطوة الحاكم ، وبطش الظالم ، وفجور الفجار ؛ ولكنه يقيس قدرته إلى شهوته فيطلب ما في طوقه ، ويقصر عما عداه ، وتفعل العادة والنظام المألوف والشرائع فعلها أيضا

ولست أعرفه مشى في جنازة أو بكي على ميت، فإن هذه عنده سخافة . وحبه مع ذلك للحياة وجزعه من الموت أقوى ما عهدت، ووفاؤه لإخوانه وحدبه ورقة قلبه من الفلتات المفردة في هذه الدنيا . وهو حين يذكر نظرية قديمة ظهر بطلانها وعفى عليها الزمن ، يخيل إليك أنه يؤبن ميتاً على قبره من فرط شعوره بالزوال؛ وإذا سمعته يبين فساد رأى رأيته يترفق بالرأي ولا يعنف في تفنيده كأنما يتقي إيلامه وجرحه

وقد قلت له مرة : «إنك تهدم بيد ما تبني بالأخرى» فقال : «كلا ، فان الذين أصارحهم بما أنطوي عليه من الآراء الخاصة — أو على الأصح أدع نفسي تتفتح على هواها بلا كابح في حضرتهم — يسمعهم أن يفهموا ويقدروا ، بل أن يهتدوا إلى أصح وأصدق من آرائي ؛ أما سواد الناس فأصلح لهم أن يبقوا على التقاليد ، وأن تنحدر حياتهم في المجاري المقررة المحفورة من قديم الزمان ، وإلا ارتدوا إلى الهمجية . ثم إني أخشى أن أكون مخطئاً فكيف أستبيح أن أزلزل للناس نفوسهم ؟ ألا يمكن أن يكون الناس على صواب وأكون أنا الذي ركبت من الغلط أبلد الحمير ؟ جائز ... كل شيء جائز »

صحيح ! كل شيء جائز ! ولهذا تضيع الحقيقة

ابراهيم عبد القادر المازني

توارد الخواطر

للأستاذ عباس محمود العقاد

قبل أربع عشرة سنة كتب صديقنا الأستاذ المازني مقالا عن الخيام ألمع فيه إلى تصوف الخيام واستغرب أن يدين رجل مثله بخيالات المتصوفة وشطحاتهم البعيدة عن تحقيق العلم وتقرير الواقع لأنه «كانت له موهبة تنأى به عن التصوف : ذلك أنه كان رياضياً بارعاً ؛ ومما يذكر له في هذا الباب تنقيحه التقويم السنوي تنقيحاً أظهر فيه من الحذق والأستاذية ما أطلق لسان جيبون المؤرخ الانجليزي بالثناء عليه . وله كذلك طائفة من الجداول الفلكية ومؤلف في علم الجبر بالعربية ؛ والذهن الرياضي مجاله وعمله ضبط الحدود والحصر وتعليق النتائج بأسبابها والمعلول بعلته ، وهو عمل يتطلب من الدقة والعناية والترتيب والتبويب مالا يطيقه أو يقوى عليه ذهن التصوف . ومن العجيب أن فتزجرالد لم يفطن إلى دلالة هذا ولا خطر له أن يسوق هذه الحجة فيما ساقه لتبرئة الخيام من التصوف »

ومن رأيي الذي لا أزال أراه أن الملكات الرياضية أقرب الملكات إلى التصوف والفروض البعيدة والعقائد الخفية ، فكتبت يومئذ بصحيفة البلاغ مقالاً عن القرائح الرياضية والتدين ، ناقشت فيه رأى الأستاذ المازني وبينت فيه أسباب العلاقة بين القريحة الرياضية وبين التدين والايمان بالغيب ؛ وأهمها أن حقائق الرياضة ذهنية وليست خارجية ، فهي أقرب إلى الفروض وأبعد عن مراجعة الواقع الذي يراجعه علماء الحس والتجربة والمشاهدات العملية ؛ فاعتماد الرياضيين على البديهة أكثر من اعتمادهم على الملاحظة ، واستعانتهم بالفرض أكثر من استعانتهم بالتجربة : وموقفهم أمام المجهول موقف من يسلم به فرضاً ولا يستبعد فيه أي شيء ، وهذا سر تدينهم وإخباتهم وميلهم إلى تصديق المعجزات والخفايا وما شاكلها مما يلي البديهة الغامضة ولا تكاد تجمعه بظواهر الأشياء صلة . وفي عصرنا هذا لم يشتهر أحد من الرياضيين كما اشتهر أوليفر لودج الانجليزي وفلامريون الفرنسي وأديسون الأمريكي ، وكلهم من أعظم عمدة الرياضيات ، وكلهم مسترسل في إثبات أسرار الروح وكشف غوامض الاستهواء

قلنا : « لهذا تتآخى فروع هذه الحقائق أحياناً وتتآلف العلوم التي تبحث فيها وتتقارب الملكات التي تكون في المشتغلين بها ، فيكثر من يجمع بين الفلسفة والرياضة ولا يندر أن ترى من يجمع بينهما وبين الموسيقى معاً . فالفارابي مثلاً كان رياضياً مبتكراً في الموسيقى ، وفيثاغوراس أقدم فلاسفة ماوراء الطبيعة عند اليونان كان يبني فلسفة الكون كله على النسب الموسيقية بين الأعداد . وقد مر بمصر قبل أيام نابغة من أفذاذ الرياضة هو ألبرت اينشتين صاحب فلسفة النسبية التي دهمت الناس ببدع في تعريف الوقت والفضاء يكفي أن نذكر منها أن الخط المستقيم ليس من اللازم أن يكون أقرب موصل بين نقطتين . وهو فيلسوف رياضي وموسيقار بارع في العزف على القيثار . وليس يخفى الشبه القريب بين ملامح العظماء من الفلاسفة والرياضيين وملامح العظماء من نوابغ الموسيقيين . فقد تلتبس عليك صورهم حتى لا تكاد تميز بعضهم من بعض ولا سيما في نظرات العين وسعة الجبهة وارتفاعها . . . . » ومن ذلك أن ينبغ العازفون والحاسبون والعدادون في الطفولة الباكرة وفيما دون الخامسة أحياناً ولا يحصل ذلك في سائر العلوم

ذكرني ذلك البحث القديم الجديد اتفاق عجيب بين أمور متعددة لا رابطة بينها في هذه الأيام

فالأستاذ المازني يكتب عن توارد الخواطر ، وفي مقالي الأخير بالرسالة كلمة عن الرياضيات واتصالها بعالم الروح ؛ وبينا أفكر في هذه الموضوعات إذا بكتاب جديد يصدر من مطبعة « جولانكز » الانجليزية عنوانه « عظماء الرياضيين » لمؤلفه الأستاذ (بل) الرياضي المشهور في الجامعات الأمريكية . فتصفحته واستقصيت بعض تراجمه فإذا به لا يقول ما قلته عن الصلة بين التدين والرياضة والموسيقى والحقائق الفرضية ، ولكنه يعرض لنا تراجم العظماء الرياضيين وعجائب آرائهم ونوادر صباهم وطرائف أخبارهم فلايسع القارىء إلا أن يخرج منه بتلك النتائج التي أجملناها قبل أربع عشرة سنة كأنها استقصاء ثم تلخيص لكل ما ورد في ذلك الكتاب

من ذلك أن الرياضي الكبير سلفستر يقول : « ألا يجوز إذن أن توصف الموسيقى بأنها رياضيات الحس ، وأن توصف الرياضيات بأنها موسيقى العقل ، وأن يقال إن الموسيقار يحس

رياضيا وأن الرياضي يفكر موسيقيا ؟ فالموسيقى هي حلم الحياة ، والرياضة هي عمل الحياة ، وكلتاهما تستوفى نصيبها من الأخرى حين يرتقى الذهن البشرى إلى أوجه الأعلى ، ويسطع فى مزدوج من العبقرية يجمع بين موزار ودرشليه ، أو بين بيتهوفن وجاوس ، وهو الازدواج الذى تجلى وميض منه فى عبقرية هلمهولتز وأعماله »

ومن ذلك أن الرياضى السويسرى النادر المثال ليونارد إيلر الذى قيل فيه إنه يصنع المعادلات كما يتنفس الهواء ، كان شديد التدين ، وكان يصلى بالأسرة فى منزله ؛ وخطر له أن ينتقل من ألعوبة دبروها فى البلاط الرومى للفيلسوف « ديدرو » إلى الجد كل الجد فى إثبات وجود الله بالمعادلات الرياضية . فلما تمادى ديدرو فى تكفير رجال الحاشية الروسية ومجادلتهم فى وجود الله تعمدت كاترين الكبيرة أن تداعبه وتفحمه من طريق الرياضيات التى كان يجهلها كما يجهل اللغة الصينية ، فوكلت به إيلر فواجهه فى جد ورصانة ولفق له معادلة وتحداه أن يجيب إن استطاع الجواب ... فلم يدر الفيلسوف بماذا يجيب ، وكانت أضحوكة البلاط إلى حين

قال الأستاذ (بل) مؤلف الكتاب : « ولم يقنع إيلر بفكاهته الفاخرة بل حاول بعد ذلك أن يجلو الزنبقة وراح وهو جاد غاية الجد يركب المعادلات والبراهين الرياضية التى تثبت أن الله موجود وأن الروح مجردة من المادة . وقيل إن هذه البراهين تسربت إلى فلسفة الفقه والتصوف على أيامه فكانت على الأرجح نخبة الأزاهير التى تتمثل فيها عبقريته الرياضية بمعزل عن الشؤون العملية »

ومن ذلك أن جاوس الملقب بملك الرياضيين عرف تصحيح الحساب قبل بلوغ الثالثة من عمره . وكان أبوه رئيساً لطائفة من العمال ، فلما كان يوم السبت واستدعاهم لإحصاء مالهم وما عليهم بمسمع من طفله الصغير غلط فى الجملة فصاح به الطفل : « يا أبتاه ! ليس هذا بصحيح ، وإنما الصحيح كيت وكيت » وروجع الحساب فإذا هو على صواب

ويقول المؤلف : « ومما تشوق ملاحظته — لما هو معهود فى الرياضيين من الميل إلى الموسيقى — أن فيرستراس الكبير لم يكن يقبل الأنغام على ضروبها مع اتساع مشاركاته ، فلم تكن تعنيه ولم يزعم هو أنها تعنيه »

وعندنا أن هذا غريب حقيق بالملاحظة كما قال المؤلف ، إلا أن غرابته تهون كثيراً متى ذكرنا أن فيرستراس هو القائل إن الرياضي لا تستقيم له ملكة الرياضة إلا بقسط من الشاعرية فيه ، وأنه كان يعارض إخوته فى تعلم الموسيقى لأنهم كانوا يروضونه بها على الرقص وشهود المجتمعات

وكان « كبلر » يزعم أنه اهتدى إلى نسبة بين حركات الكواكب السيارة ومواقعها تشابه النسب التى بين الأنغام الموسيقية والمقامات

وتتعدد الأقوال التى ترجع بتركيب الكون كله إلى النسب الرياضية ولا سيما بعد ما ظهر في السنوات الأخيرة من تحليل النور ورد المادة كلها إلى الاشعاع ، ورد الاشعاع كله إلى مقدورات عددية يوشك أن تخرج به من عالم المادة إلى عالم الحساب . فبعد مقال أفلاطون : « إن الله يهندس » ومقال جاليلى : « إن كتاب الطبيعة العظيم مكتوب بلغة الرياضيات » ومقال جاكوبى : « إن الله يحسب » يقول الأستاذ جينس في كتابه « الكون الخفى » وهو من أقطاب العصر الحديث : « إن مهندس الكون الأعظم قد بدا لنا اليوم محض رياضى ... وإن الكون يلوح لنا رياضياً على منوال مخالف لكل معنى تصوره الفيلسوف « كانت » أو كان فى وسعه أن يتصوره فى أيامه ؛ فإن الرياضيات بالايجاز تهبط إلى الكون من عل ولا تصعد إليه من الأدنى »

ومن الاتفاق الذى ينساق فى هذا المساق ما رواه الأستاذ جينس فى كتابه المتقدم عن رأى هكسلى فى المصادفات وتوارد الخواطر . فهو يعتقد اعتقاده أننا لو أسلمنا الآلات الكاتبة إلى ستة قرود يدقون على حروفها بغير قصد ولا معرفة ، ملايين بعد ملايين من السنين لكان لزاماً أن يجئ الوقت الذى « تنكتب » فيه بهذه الوسيلة جميع الكتب التى فى المتحف البريطانى »

ولا يخفى ما يريده هكسلى بهذه النكتة المنطقية ، ولكنه على كل حال قد خرج بالمسألة إلى « ما وراء الطبيعة » وأبطل حكم العقل والارادة فيها . فمهما يطل عمر الانسان فما هو ببالغ أن يفسر لنا على هذا النمط اتفاق الخواطر فى صفحة واحدة بله الألوف من المجلدات التى تحويها دار الكتب البريطانية

ولا حاجة إلى القرود الستة وملايين السنين والآلات الكاتبة لتعليل توارد الخواطر فى الآراء أو فى العبارات ، فإن علم النفس يغنينا حيث لا يغنى التطوح ملايين السنين وراء

الشهود والمحسوس . وقد كان علم النفس كفيلاً حتى الآن لتعليل حفظ العقول صفحات عديدة فى حالة « الغيبوبة » أو حالة التنويم المغناطيسي أو حالة « التنويم الذاتى » أو ما يشبه هذه الحالات من عوارض الحمى العصبية . فإذا رأينا حالة كالتى رواها صديقنا الأستاذ المازنى يستوعب فيها الانسان بضع صفحات لايخرم منها حرفاً ولا نقطة ثم يعيدها وهو معتقد أنه يمليها من وحى بديهته فلنرجع إلى علم النفس فى وصف العوارض التى تأتى بهذه الغرائب فإنه لكفيل بتعليلها أو بإبداء مقطع الحق فيها

وإنما العبرة من جميع ما تقدم أن نسأل : ترى لو صدر كتاب « عظماء الرياضيين » قبل كتابة المقال الذى ناقشت به الأستاذ المازنى منذ أربع عشرة سنة ، أما كان أقرب الاحتمالات إلى الذهن أننى قرأت ذلك الكتاب واستوحيت منه التحليل الذى فرقت به بين عقول الطبيعيين وعقول الرياضيين وعقول الموسيقيين ؟ أما كان من المستغرب يومئذ أن يقال إننى لم أطلع على ذلك الكتاب وإن كان مؤلفه لم يبسط فيه الرأى الذى بسطته ، ولم يتجاوز أن جمع أخبار الرياضيين وعجائبهم فى سجل واحد ؟

فأما وصدور الكتاب بعد كتابة المقال محقق لا شك فيه فهذا التوافق يبدو سهلاً جائزاً خلواً من الغرابة . ومن ثم ينبغى أن نقدم الاستقراء العقلى — فى تمحيص الخواطر المتواردة — على استقراء التاريخ مع رجاحة هذا وصعوبة الاستغناء عنه ، لأن استقراء التاريخ وحده لا يكفى للبت فى جميع الأمور

ونعنى بالاستقراء العقلى أن نمتحن ذهن الكاتب وأن نتابع وجهته فى تفكيره ؛ فإذا عرفنا أنه قمين أن يقول ما قال ، وأن يخوض حيث خاض ، ويتوجه حيث توجه ، فالاتهام بعد ذلك ضرب من اللغو والتمحل ، وإن لم يكن كذلك فهو متهم ولو لم يكشفه استقراء التاريخ

أما حين يقع الاتفاق فى العبارات والحروف صفحات متواليات فليس من المروءة أن نجزم باستحالة ذلك قبل أن نحتكم إلى الاستقراء العقلى من طريق علم النفس ودرس الذهن الذى تقع له أمثال هذه الغرائب ، فقد يهدينا الحكم الوئيد هنا حيث يضلنا الحكم السريع ، ولا ضير علينا إذا تطابق الحكمان فى النهاية بعد الموازنة والمقابلة بين جميع الفروض .

عباس محمود العقاد

١ — مصر
فى أواخر القرن الثامن عشر
كما يصفها الرحالة سافارى
للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مصر خلال العصور الوسطى كعبة لطائفة كبيرة من الرحل والباحثين يفدون عليها من المشرق والمغرب ، تجذبهم عظمتها وآثارها وعلومها وفنونها ؛ وقد ترك لنا كثير من هؤلاء الرحل آثاراً قيمة عن مصر وأحوالها فى مختلف العصور . ونستطيع أن نذكر من هؤلاء ابن حوقل وعبد اللطيف البغدادى وابن بطوطة ، والبلوى ، وابن خلدون من الرحل والعلماء المسلمين ، ومركو بولو ودى جوانفيل وبيترو مارتيرى من الرحل الغربيين . ولم ينقطع ورود هذا الرهط من الرحل بعد الفتح العثمانى ، بل نلاحظ بالعكس أن الرحل والباحثين الغربيين يفدون على مصر منذ القرن السابع عشر فى فترات متقاربة ويضعون عنها المؤلفات والبحوث المطولة ؛ ولدينا منهم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ثبت حافل ؛ ولدينا من آثارهم مجموعة نفيسة من الوثائق والصور عن مصر فى هذه الفترة . وإذ كان العصر العثمانى من أغمض عصور التاريخ المصرى وأشدها ظلاما ، فان هذه المجموعة من آثار الرحل الغربيين تعتبر من أهم مراجعنا فى دراسته وتصويره

بيد أنه مما تجدر ملاحظته هو أن القرن الثامن عشر كان بالنسبة للدولة العثمانية فترة انحلال وضعف ؛ فقد كانت قواها العسكرية تنهار تحت ضربات روسيا القوية ، وكانت الاضطرابات والمتاعب الداخلية تقوض من صرحها القديم الشامخ ؛ وكانت مصر فى ذلك الحين قد أخذت تتحرك من سباتها الطويل ، وتترقب الفرص لتحطم ذلك النير الغاشم الذى يعصف بقواها المادية والروحية منذ قرنين . وفى منتصف القرن الثامن عشر استطاع زعماء مصر ، بقية الأمراء من الشراكسة أن يستردوا نوعا من الاستقلال المحلى ، وأن يبسطوا حكمهم الفعلى على مصر ، وأن يجعلوا سلطة الدولة العثمانية اسمية رمزية فقط ؛ وتعاقب فى

حكم مصر منهم عدة بدأت بابراهيم بك ورضوان بك ، ثم على بك الكبير . فحمد بك أبى الذهب ، فراد وابراهيم . على أن هذا الحكم الداخلى المستقل كان نوعا من المغامرة التى لا تستند إلى قوة مادية يخشى بأسها أو تأييد شعبى حقيقى ، وكانت مصر عاجزة عن مواجهة الأخطار الخارجية دون معاونة الدولة العثمانية . فنى تلك الفترة التى انهارت فيها قوى الدولة العثمانية ، والتى تركت مصر فيها مفتحة الأبواب دون حماية حقيقية ، نرى ثبتاً من الرحل الغربيين يفدون عليها فى فترات متقاربة ، ويدرسون أحوالها وشئونها بعناية ودقة ؛ وكان جل هؤلاء الرحل من الفرنسيين والانكليز ؛ فهل كان مقدمهم إلى مصر فى تلك الظروف أمراً عرضياً ؟ وهل كانوا طلاب سياحة وثقافة ودرس فقط ؟ أم كانوا طلائع الاستعمار الغربى المتوثب يومئذ ، قدموا إلى مصر يجوسون خلالها ويتفقدون شئونها وأسرارها تمهيداً لمشاريع يجيش بها هذا الاستعمار ؟ يلوح لنا أن هذه الرحلات والدراسات المستفيضة لم تكن بريئة كل البراءة ، ولم تكن بعيدة كل البعد عن وحى الاستعمار ومشاريعه ؟ ولقد ألفى الاستعمار فى هذه الدراسات كل ما يرغب فى معرفته عن مصر وعن أحوالها الاقتصادية والسياسية وبالأخص عن قواها الدفاعية . وفى خاتمة القرن الثامن عشر دبر الاستعمار الأوربى أول مشاريعه لافتراس مصر ، وجاء بونابرت إلى مصر تحدوه أحلام امبراطورية عظيمة ، كان يعتقد أنه يستطيع أن يتخذ مصر قاعدة لتحقيقها .

وكان فى مقدمة الرحل الذين قدموا إلى مصر قبل الفتح الفرنسى بقليل رحالة ومستشرق فرنسى ترك لنا عن مصر فى أواخر القرن الثامن عشر أثراً من أنفس الآثار وأقيمها ، فان الرحالة العلامة هو كلود إتيان سافارى (Savary) ، الذى قدم إلى مصر فى سنة ١٧٧٦ ، تحدوه أحلام مشرقية باهرة ؛ وكان مولده فى فترى سنة ١٧٥٠ ، ودرس دراسة جامعية حسنة فى رن وباريس ، وكان فى السادسة والعشرين من عمره حينما اعتزم الرحلة إلى المشرق يجذبه بهاء المشرق وروعته ؛ وقضى فى مصر ثلاثة أعوام طاف خلالها أرجاء الديار المصرية من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ، وزار جميع معالمها ومعاهدها وآثارها ، ودرس جميع أحوالها وشئونها ومجتمعاتها ، ودرس اللغة العربية والدين الاسلامى : ثم زار الجزر اليونانية ، وعاد إلى فرنسا سنة ١٧٨١ بعد غيبة دامت خمسة أعوام ؛ ووضع عن رحلته ودراساته فى مصر طائفة من الرسائل المستفيضة ملأت ثلاث مجلدات ، ونشرت بين سنتى ١٧٨٥و١٧٨٩ ؛ ثم نشر ترجمة حسنة للقرآن وأتبعها بكتاب فى تفسير قواعد الدين الاسلامى تحت عنوان Morale de Mahomet ، وترجم بعض قصص ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية ، ووضع أجرومية للغة العربية والعامية ظهرت بعد وفاته . وتوفى فى باريس سنة ١٧٨٨ ، وهو دون الأربعين .

***

كان سافاري إذاً رحالة من طراز خاص ، أعدته مواهبه ومعارفه للقيام بدراسات حسنة فى بلاد المشرق ؛ فقد درس اللغة العربية ، وعرف تاريخ المشرق ، وعرف كثيراً عن الاسلام والشريعة الاسلامية ؛ ومن ثم كانت رسائله عن مصر تمتاز بطابع من الدقة لا نجده فى كثير من الكتب والدراسات المماثلة ، وهو يقدم إلينا هذه الرسائل تحت عنوان « رسائل عن مصر » Lettres sur L'egypte ، ويصف لنا محتوياتها فيما يأتى : « بها وصف لخلال أهل مصر القديمة والحديثة ووصف لنظم الدولة ، وأحوال التجارة والزراعة ، وغزو القديس لويس لدمياط منقولا عن جوانفيل والروايات العربية ، ومعها خرائط جغرافية » ويهدى سافارى كتابه إلى « صاحب السمو أخى الملك . . لما أسبغه عليه من مؤازرة مكنته من نشر رسائله ، وإنه لشرف عظيم أن يتوجها باسم مولاه . . » ويوجه رسائله إلى هذا الأمير أخى الملك ؛ وقد كان ملك فرنسا يومئذ هو لويس السادس عشر وأخوه الدوق دورليان . ويبدو مما كتبه سافارى فى رسالته الأولى أن الأمير المشار إليه هو الذى نصحه عند سفره أن يدرس أحوال المجتمعات التى اعتزم زيارتها وخلالها وعاداتها ولغاتها .

وقد كان لآثار مصر الفرعونية وذكرياتها القديمة فى نفس سافارى أعظم الأثر ، وهو يعرب لنا فى مقدمته عن عظيم إعجابه بذلك التراث الباهر ، ويقول لنا : « إن من يرى الآثار التى

تحتفظ بها مصر ، يستطيع أن يتصور أى شعب هذا الذى تحدت صروحه أحداث الزمن . فهو لم يكن يعمل إلا للخلود ؛ وهو الذى أمد هوميروس وهيرودوت وأفلاطون بكنوز معارفهم التى أسبغوها على بلادهم ؛ وإنه لمن الأسف أن العلم لم يستطع بعدُ أن يكشف عن أسرار النقوس الفرعونية (الهيروغليفية) التى تغص بها هذه البلاد الغنية ، فمعرفة هذه الأسرار تلقى ضياء على التاريخ القديم ، وتبدد الظلمات التى تكتنف عصور التاريخ الأولى »

وقد تحققت أمنية سافارى بعد ذلك بقليل ، إذ اكتشف حجر رشيد ووقف العلم على أسرار اللغة الفرعونية ، وبدأت البحوث الأثرية بين الأطلال والآثار الفرعونية تكشف تباعا منذ أوائل القرن التاسع عشر عن روعة هذه المدنية الفرعونية الباهرة التى ما زالت هياكلها وآثارها العظيمة ، مدى العصور مثال الاعجاب والاجلال والتقدير .

* * *

ويبدأ سافاري رسائله عن مصر من الاسكندرية فى ٢٤ يوليه سنة ١٧٧٧ بعد أن مكث فى مصر أكثر من عامين ، ويوجهها جميعاً إلى هذا الأمير الذى يهدى إليه كتابه ، ويستهلها بوصف جامع لجغرافية مصر ، ثم وصف بديع لمدينة الاسكندرية وآثارها الرومانية ؛ ويستعرض بعد ذلك حوادث الفتح العربى ، ودخول الاسكندرية فى ظل الحكم الاسلامي ، ويعطف على قصة مكتبة البطالسة الشهيرة ، وينقل خرافة إحراقها بأمر عمر عن بعض الروايات العربية . ويبدو مما يكتب سافارى أن الاسكندرية كانت فى أواخر القرن الثامن عشر لا تزال تحتفظ بقسط من عظمتها القديمة وتجارتها الزاهرة برغم الأحداث الكثيرة التى مرت بها . وكان مما أثار اهتمام الرحالة بنوع خاص منظر عمود السوارى وما يحيط به من الأسرار المغلقة ، والمسلات التى كانت تسمي يومئذ «إبرة كيلوباترة» والمقابر الرومانية ، أو كما يسميها مدينة الأموات

ولم يفت سافاري أن يلاحظ آثار الفتح العثمانى المخربة ؛ فهو قد درس تاريخ مصر الزاهر فى عهد الدولة الاسلامية ، واستطاع أن يقدر مما شاهده يومئذ من أحوال مصر تلك النتائج المحزنة التى انتهت إليها بعد قرنين ونصف قرن من حكم غشوم عاسف جاهل ؛ وهو يقول لنا بحق إن الفتح التركى كان خاتمة لمجد مصر وإن حكم الباشوات قضى على العلوم والآداب ، وخرب التجارة والصناعة والزراعة ، وأسبغ حجاباً من العفاء الشامل على كل ما كان لمصر الاسلامية من عظمة ورخاء

ثم ينتقل سافارى من الاسكندرية إلى رشيد ، ويقضى بها ردحاً من الزمن ، ويصف لنا رشيد وأهلها وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية فى عدة رسائل شائقة ؛ ويقول لنا إن الحياة فيها ساحرة مغرية ، وإن لأهلها أزياء خاصة ، وإنهم يقصون الشعر ويرسلون اللحى ؛ ثم يقصد بعد ذلك إلى القاهرة فى مركب شراعى ، ويخترق فرع رشيد ماراً ببعض القرى الشهيرة يومئذ مثل برمبال ومحلة أمير ، ويصف لنا هذه الرحلة البطيئة الشائقة ، ويصف لنا بالأخص منظر القرويات على الشاطئ ، وكيف يهرعن إلى النهر لأخذ الماء وغسل الثياب والاستحمام أحيانا ، وكيف شهد كثيرات منهن يسبحن فى النهر نحو المركب وهن يصحن : « يا سيدى هات ميدى [1] » ويقول لنا فى لغة شعرية : إنهن يسبحن فى كثير من الظرف ، وإنهن يتمتعن بأجسام رشيقة ساحرة ، وبشرة سمراء بديعة

وفى هذه المواطن وأمثالها تبدو براعة سافارى الوصفية ، وتبدو قوة بيانه . والواقع أن سافارى يكتب بأسلوب رفيع سواء من الناحية العلمية أو الناحية الأدبية ؛ ولا يفوته أن يقدم إلينا خلال وصفه كثيراً من المقارنات التاريخية والأدبية الشائقة ؛ وهو من هذه الناحية يتفوق على كثير من الرحل الذين كتبوا عن مصر ؛ كما أن رسائله تمتاز كما قدمنا بطابعها العلمى الدقيق

وسنرى عند ما يتم سافاري رحلته النيلية ، ويصل إلى مدينة القاهرة أى صور قوية شائقة يقدمها إلينا هذا الرحالة العلامة عن حياة العاصمة المصرية والمجتمع المصرى فى أواخر القرن الثامن عشر ؛ وسنرى أى وثيقة نفيسة تقدمها إلينا رسائله عن تاريخ مصر السياسي والاجتماعى والاقتصادى فى هذه الفترة المضطربة التى تعز مصادرها ووثائقها

فينا فى أوائل سبتمبر
« للبحث بقية »

محمد عبد الله عنانه

(١) الميدى عملة صغيرة من نقود هذا العصر

أســـباب التقليـــد
في التعليم والتشريع
بمصر الحديثـــة
للدكتور محمد البهي قرقر

في مقال سابق[1] حاولت أن أبين أن التقليد هو أساس التعليم والتشريع اليوم في مصر، أساس التعديل في برامج التعليم والتغيير في القوانين الدنية والجنائية، وخصصت بالذكر هاتين الناحيتين لأنهما مظهر الأمة الثقافي والطابع العقلي الذي يعبر عن نفسية « الشعب .

وإذا ذكرت التقليد فلا أريد منه الناحيـة الإيجابية التي يجب أن تشجع وتُنمى في زمن الطفولة، فذلك لم يكن هو النظرية السائدة في التعليم والتشريع بمصر، وإنما أقصد النوع السلبي الذي هو ذاك، أقصد النوع الذي لا يتعدى محاكاة الظواهر المقلدة ولا ينفذ إلى كيفية تكونها وهو الذي تدفع إليه العاطفة المجردة عن الروية . ولهذا قلما تتخذ الظاهرة المقلدة صفة الثبات والاستقرار، بل سرعان ما تنمحي من الوجود إذا خفيت العاطفة التي بعثت على تقليدها أو تغلبت عليها عاطفة أخرى تحمل على تقليد مظهر آخر.

لـكل كاتب أو مؤرخ أن يبدى رأيه في علل هـذا التقليد وأن يوضح الباعث عليه . له أن يعتقد مثلا أن السبب هو رغبـة مصر الحديثة الفتية النشأة في مسايرة الدنية الحاضرة والتقدم بسرعة إلى مصاف الدول الراقية، فهي لذلك لا غنى لها عن التقليد، ولا مفر إذن من أن تتعثر في طريقه مرة أو أكثر . ولـكن التقليد الناشيء عن مثل هذه الرغبة في الأمم الأخرى هو دائماً أشبه بسياسة مرسومة ثابتة نعرف إلى أي شيء تنتهي وأي طريق تسلك، فهو نوع إيجابي من التقليد، وذلك مالا أعتقده في الحركة التقليدية السائرة اليوم في مصر لأنها حركة هوجاء متقلبة، تهدم اليوم ما بنته بالأمس، وتبنى في الغد من جديد على غير أساس .

لذلك الـكاتب أو هذا المؤرخ أن يعتقـد أيضاً أن العلة هي الضعف، إذ يشاهد أن الأمة الضعيفة تقلد القوية في مظاهرها لأنها ربما تتخيل الجمال مفرغا في تلك المظاهر — فهي لانحطاطها لم تتكون عندها ملـكة مستقلة للجمال، مطبوعة بطابعها الخاص، أو على الأقل لم تنضج عندها تلك الملـكة بعد، أو لأنها ربما تحاول بذلك أن تستر ما بها من ضعف ونقص؛ فما دام شعار القوى مثلا هو القبعة، أو ما دامت ميزته في قوم هو ليس منهم العجمة في التعبير، فربما يُخيِّل الضعيف لنفسه إذا ماوضع القبعة فوق رأسه، أو إذا ماأفصح عن مراده في أمته بغير لغته الوطنية، أو لهج لسانه من حين لآخر بكلمات أجنبية، أنه قد أصبح في منزلة القوى وأن له أن يتيه كبرا وخيلاء، ولم يدر أن سـلوكه العملي الناشيء عن صفات نفسية خاصة به، وأن طريقه في التفكير الخاضع لبيئته وما ورثه في دمه عن أسلافه ينم عن أنه ما زال هو الضعيف، ولـكنه تزيى بزى القوى فحسب.

وربما يكون الضعف هو السبب الرئيسي والعلة غير المباشرة لـكثير من صور التقليد، ولـكن البحث النفسي الحديث يتجنب الآن بقدر الامكان استنتاج قوانين عامة لجملة من الظواهر النفسية — لأن ذلك قد مضت مدته بفقدان العلوم الطبيعية والرياضية نفوذها على العلوم العقلية، وتأثيرها في تكوين كليات لها عامة تشرح بها جزئيات متعددة — ويفتش لـكل ظاهرة عن علتها الخاصة بها والمباشرة في تكوينها .

والتقليد الآن في مصر في أهم ناحيتين من نواحيها الثقافية والعقلية : في ناحيتي التعليم والتشريع، ظاهرة تغلب على نفسية الشعب، أو بعبارة أدق على رجاله المسئولين في توجيه سياسته العامة . وإذن لبحث هذه الصفة يجب استعراض المؤثرات التي أوجدتها في نفسية هؤلاء وتعهدتها إلى درجة النضوج . وأظن أننا إذا رجعنا ببصرنا إلى تاريخ مصر الحديثة في جيل سابق وجدنا تلك المؤثرات بادية في شيء واحد : في الابتعاد عن التربية الوطنية الذي كان نتيجة لخطة إحدى مدارس التعليم في مصر ولسياسة أخرى تعليمية كانت تهيمن على مدرسة ثانية منها .

فالتعليم في مصر ليس واحداً، والمدرسة التي تخرج منها الشعب متباينة النزعة مختلفة الغرض . فبينا نرى مدرسة وطنية، وهي الأزهر، تعتمد في تهذيب أبنائها على ما ورثته الأمة من ثقافة

(١) نشر في مجلة الرسالة في العدد ٢١٠

في صورتها التي احتفظت بها من عصور مضت ، إذا بنا نرى مدرسة أخرى ، وهي مدارس الأرساليات الأجنبية ، تلقن الناشئة المصرية مبادىء تنتهي بخلق أمم متعددة في أمة واحدة ، وبفئات من الناس مختلفة لا تجمعهم وحدة في التفكير ولا وحدة في الغرض . وبينما نشاهد هذه وتلك إذا ببصرنا يقع مرة أخرى على مدرسة ثالثة ، وهي مدارس وزارة المعارف ، ليس بينها وبين اللتين قبلها من صلة إلا أنها ربما تكون أو تحاول أن تكون مزيجاً منهما ، ولكنه مزيج لا ينتج عنصراً جديداً كما فقدت فيه كل من مادتيه خواصها .

فالأزهر — في نظر علماء الشعوب والاجتماع — لا شك أنه المدرسة الوطنية التي تربط الأمة بماضيها — وإن كان ينقصها ربط الحاضر بالماضي ، وتلقن جيل اليوم ما كان لخلفه من دين ولغة وعادات خلقية وقومية ، وهو لهذا كان ولم يزل مكان الخطر على الاستعمار الغربي وعلى سياسته في حكم الشعوب الاسلامية كما يراه الأوربيون أنفسهم الذين تخصصوا في السياسة وفي فلسفتها . ففي المجلة [1] العلمية السياسية الألمانية « Valf in Werden » لمخرجها الأستاذ الفيلسوف السياسي Ernst Krieck الأستاذ بجامعة Heidelberg ، بحث جدير بالاعتبار عرض كاتبه لبيان صلة الاسلام ومقدار علاقة الأزهر على الخصوص بالحركات الوطنية في الشرق تحت عنوان « الاسلام والفاشستية » فكاتب هذا البحث يرجع الحركة الوطنية الحالية ضد السيادة الفرنسية في تونس ومراكش والجزائر إلى الأفراد الذين غلبت عليهم الدراسة الوطنية — الاسلامية — وعلى الأخص إلى أولئك الذين تلقوا علومهم في الأزهر بالقاهرة . فالأزهر في رأى هذا الكاتب وفي رأى كثير من أمثاله منبع الخطر على السيادة الأجنبية في الشرق كله .

وفوق ما للأزهر من هذه الصبغة الوطنية فهو مدرسة الشعب والسواد المنتج من الأمة . ولسبب ما ، إما لأسلوبه في التعليم « وعدم تمشيه في وقت من الأوقات على نظم التربية الحديثة » ، أو لشعبيته ، أو لسبب آخر غير هذا وذاك ، ولت الطبقة المثرية من الأمة من أرباب المناصب الكبرى في الحكومة وجهها نحو مدارس الإرساليات الأجنبية ، وقصدت الطبقة المتوسطة إلى النوع المزيج وهو النوع الحكومي ، وقنع الأزهر بالشعب وبأبنائه ، طوعاً أو كرهاً ، واضطر لهذا أن يكون بعيداً عن أفق سياسة الدولة ، لأن سيادة الروح « الأرستقراطية » وجدت في ظل الحكم التركي ثم في حكم الاحتلال كل أنواع التأييد .

فأسلوب التعليم في هذه المدرسة بعيد في ذاته عن التهيئة إلى موجة التقليد الطاغية اليوم في مصر والتي تنذر بالخطر ، لأنه هو نفسه ضد التقليد والبقية في طريقه ، وكذا رجالها ليسوا ممن يتبعون سياسة التقليد لأنهم أبعدوا عن السياسة العامة للدولة واكتفوا بالتحدث إلى الشعب عن الحياة الآخرة والسبل الموصلة إلى السعادة فيها ، وإن فرطوا بهذا الاكتفاء في حق أنفسهم كأبناء الشعب وفي حق دينهم لإظهاره بالمظهر الروحي فحسب ، ثم أخيراً في حق وطنهم لإقصاء أنفسهم وهم أكثرية عن سياسة توجيه الأمور في الدولة أو لرضاهم بهذا الاقصاء

والمدرسة الثانية ، وهي مدارس الإرساليات الأجنبية كانت — ولا تزال — تعمل على قطع الصلة بين الوطن وتراثه العلمي والديني والخلقي ، وبين أطفاله وشبانه من أهل الطبقة العالية الذين ولوا الأمر فيما بعد ؛ إذ كانت القاعدة أن ينتخب أولو الأمر منهم ؛ ثم زودتهم بثقافة أجنبية ملؤها الدعاية لأمة من أمم الغرب طبقاً لجنسية الإرسالية . وإن نوع هذه الثقافة قد يكون مختلفاً — وفي الواقع [1] هو كذلك — عن ثقافة البلد الذي تنتمي إليه الإرسالية اتباعاً لخطة سياسية مرسومة لم يُرد بها — كما يدعى أو كما يفهمه الشرقي البسيط — القيام بعمل خيري من نشر ثقافة حديثة ومكافحة لأمية ؛ وإنما قصد بها ضمان السيطرة على النفوس والتصرف في ميولها ؛ فنشأت في الأمة فئة تجهل الأمة نفسها ، تجهل عقليتها وطباعها ، تحتقر الشعب وتهزأ بتقاليده ، ثم بعد ذلك شاء القدر أن يكون زمامه بيدها

ولاختلاف ميول هذه الثقافة واتجاهاتها — وإن كانت

(١) عدد يولية سنة ١٩٣٧ من العام الخامس للمجلة صفحة ٣٣٩ ــ ٣٤٨

(١) في المجلة المذكورة يشير الكاتب (صفحة ٣٤٣) إلى أن في فرنسا نفسها لا يوجد دروس للدين في أية مدرسة من مدارسها بينما تساعد الحكومة الفرنسية في شمال أفريقيا المبشرين والارساليات التعليمية مساعدة جدية في نشر الدين المسيحي بين الوطنيين بغية خلق عدم الوحدة بينهم واستخدام بعضهم ضد بعض .

متحدة فى غرض الدعاية — كانت وجهة هذه الفئة الحاكمة مصوبة على العموم نحو ظواهر المدنية الغربية ، واقتباس ما يوحى به ميلها الثقافى ، لا اقتباس ما قد يتفق مع مدنية الأمة وثقافتها القديمة وما يتطلبه الشعب ولا يتعارض مع قوانينه الخلقية وسننه الطبيعية .
وهنا نجد مظاهر شتى لهذا التقليد أنشأتها ميول الثقافة الأجنبية المختلفة . فمن تثقف بالثقافة الفرنسية من تلك الفئة — وهو عدد كبير — كان المثل الأعلى فى نظره حضارة فرنسا وحريتها المزعومة ، وعمد إلى التقليد فى مظاهر الحضارة الفرنسية ، وإلى الاقتباس من القانون الفرنسى ، لأنه يمثل فى نفسه ، كما تلقن ، صورة العدالة ، وينطوى فى نظره على «حب» الحرية وتقديس معنى الإنسانية — وما كان القانون الفرنسي ، ولا أى قانون وضعى آخر يمثل فى يوم من الأيام صورة العدالة على الاطلاق ، ولا ينطوى على حب الحرية للحرية نفسها ، ولا يقدس الانسانية للانسانية ؛ وإلا لما أعطى القسوة صفة خلقية ، وأنكر على الوطنى المستعمر حقه الطبيعى فى الحياة مادام فى ذلك حفظ السيادة الفرنسية . وماشهرة فرنسا بحب العدالة وبحب الحرية وبتقديس الانسانية إلا لما قامت به من الثورة ، كرد فعل نفسى ضد حكم الظلم والاستبداد ؛ ثم استغلّ بعد ذلك استغلالاً أدبياً فى صالحها . وللارساليات التعليمية فى الدعاية به وخصوصاً فى الشرق قسط غير قليل . ثم تكون نتيجة هذا التقليد عكسية ، ونهاية الاقتباس خاطئة ، لأن مصر الشرقية غير فرنسا الغربية ، ومصر الضعيفة الحديثة النشأة غير فرنسا المستعمرة . وبالرغم من ظهور الخطأ وعكسية النتيجة لايدير المقلد وجهه نحو أمته ويدرس حالتها النفسية والاجتماعية . ثم يقتبس ما تدعو إليه هذه الدراسة ، لأنه لم يألف الأمة ولم يتعرفها منذ طفولته

ومن تثقف بالثقافة الانكليزية عشق تقاليد الأمة الانكليزية وأعجب على الأخص بالبرلمان الانكليزى وبعراقة الدستور الانكليزى ونظام الأحزاب الانكليزية وبتمتع الأقلية بحرية المعارضة ، فهوى وفقاً لميله تقليد انكلترا فى مظاهرها الدستورية ونظامها البرلمانى ؛ ولكنه يخطئ أيضاً فى تقليده ، لأن الشعب المصرى ذو صفات نفسية تغاير تمام التغاير صفات الشعب الانكليزى ؛ له طريق آخر فى التفكير وأسلوب آخر فى المعاملة ؛ هو شعب ناشئ لم تتركز طبائعه بعد ، ولم يروض على عادات خلقية تتناسب وفطرته ، فإذا نوقش فى خطأ تقليده أصر عليه وسرد تأييداً لإصراره أقوال الساسة الانكليز والعرف الدستوري فى البرلمان الانكليزى . وأولى به أن ينظر إلى الواقع وفى أى شعب هو يعيش . أولى به أن يتعلم خواص الشعوب بدل أن يحلق فى خيال نظرى «قانونى» لا طائل تحته . ولكن ميله الثقافى هو الذي حدد له نهاية الطريق وأملى عليه برنامج السير

ومن تثقف بالثقافة السويسرية يستهويه نظام التعليم ونظام الأسرة فيحاول تقليد الشعب السويسرى ، أو بعبارة أخرى يضطر أن يسير فى طريق ميوله الثقافية ، والتعليمية — وليس إلا طريق التقليد طبعاً — ثم لايلبث أن يرى نتيجة تقليده بين يديه خاسرة ، لأن المصرى فى طبعه وفى ميوله الغريزية غير السويسرى الذى هو نفسه يغاير نفسه — وبناء على هـذا يتغير نظام تعليمه — فى منطقة أخرى من مناطق الاتحاد السويسرى . والأسرة المصرية التى حددت عاداتها طريق سلوكها فى الحياة وعين دينها ولغتها طريق تفكيرها وفهمها لما يحيط بها ، غير الأسرة السويسرية التى تتطلب أيضاً بحكم الوراثة وبحكم العادات وطبيعة البلاد أسلوباً فى التعليم خاصاً بها

وهكذا دواليك نجد العمل الجدى لهذه الفئة تقليداً سلبياً قلما يتحول إلى محاكاة إيجابية ، إلى « التمصير » الذى هو عملية نفسية يقوم بها الفرد كالأمة ، عملية تتطلب أولا أن تنشأ الأفراد تنشئة وطنية ثم تزود بثقافة أخرى أجنبية . وإذن يكون عمل الفرد كعمل الأمة مصبوغاً بصبغة وطنية وفى الوقت نفسه مساراً لخطى الأمم الراقية . فالأمة اليابانية مثلا تقلد الحضارة الغربية ولكنه تقليد إيجابى ، لأنها تنظر إليها ثم تحاكيها لا فى صورتها الأولى ولكن فى صورة يابانية شرقية بعد ما تكون قد مزجت بينها وبين حضارتها الموروثة ووفقت بينهما . وهو لهذا تقليد فيما ينفع ؛ تقليد لايمس بالخطر العوامل الأولى المكونة لحضارة الأمة ، كأمة مستقلة

فجهل الوطن وما فيه والنزوع إلى التلون بلون غربى — كما هى النتيجة الحتمية لأسلوب هذه المدرسة — من الأسباب القوية لهذا التقليد السلبى ؛ ثم اختلاف النزعة نحو هذا التلون ،

تبعاً لاختلاف نوع الثقافة، من أكبر العوامل في كثرة التغيير والتعديل اليوم في سياسة الأمة التشريعية والتعليمية

وربما تكون تبعة المدرسة الثالثة، وهي مدارس وزارة المعارف، في هذا التقليد أقل من المدرسة السابقة، ومع ذلك فعليها تبعة كبيرة أيضاً، لأنها لم ترسم لها خطة تعليمية وطنية، أو أرغمت، فطاوعت، على السير وراء سياسة استعمارية، سياسة أوربية أجنبية. فالاتجاه الذي توحي به وتخلقه في تلامذتها لايخلو من مبالغة في عظمة الغرب واحترام المدنيـة الغربية، كأبلغ شيء وصل إليـه العقل الانساني — ولكن لا لخدمة الانسانية ولكن لسيادة القوى — وذلك يقوى غريزة التقليد في الطفل ويدفعها إلى ناحية معينة قلما تحيد عنها أو تتصرف في تقليدها؛ ثم في الوقت نفسه لا يخلو ذلك الاتجاه من النظر إلى الشرق كوطن وإلى تقاليده ودينه ولغته كمقومات لثقافته من إلقاء نظرة بسيطة عليها قلما يصحبها احترام أو يتبعها تقديس مما يدعو إلى الارتباط بها والحنين إليها

وهكذا يسير الشعب إلى غير وطنه ويقاد في غير طريقه الطبيعي ويدفع به في كفاح لم يتهيأ ولن يتهيأ له، وهو كفاح ضد الطبيعة ومقتضياتها؛ وهيهـات أن يفوز إن لم تهلكه الحرب هلاكا بطيئاً، وذلك شر أنواع الهلاك وآله

فبـدأ التقليد ليس معيباً إذا كان إيجابياً، لأنه إلى جانب الفكرة الخالقة والعقل المستقل في الانشاء من عوامل تقدم الأمة، فما كان لأمة أن تستقل في نهضتها العقلية بنفسها ولكن يجب عليها أن تكيفها بشخصيتها وطابعها. وهذا التكييف نفسه مدين إلى حد كبير بالاعتماد على ثقافة الأمة الموروثة أو هو نفســه المحافظة على تلك الثقافة والاعتزاز بها

واليوم آن للأزهر أن يعمل على تأدية رسالته، من ربط حاضر الأمة بماضيها، في ثبات وجرأة؛ وهي رسالة شاقة، ولكنه راعي الواقع، فلا يدري إنسان متى تتهيأ الفرصة للأزهر من جـديد، فيمنحه الدهر رجلاً مستقل الفـكر، قوى الارادة، صادق العزيمة، متفهماً للحياة كما منحه في السابق رجل[1] التاريخ والاصلاح، وكما يمنحه اليوم بصنوه[2]. فما أشد تقاربهما في الفكرة، ولكن ما أبعد المسافة بين توليهما شؤون تلك الجامعة العالمية

وإذا كانت روح السياسة العامة الآن للدولة مشبعة بمجاملة الأجانب ومنحهم حرية كاملة في تعليم جالياتهم وعدم إلزامهم بثقافة البلد الوطنية — كما هو الشأن في البلاد الأوربية نفسها — فلا يصح أن تقصر تلك السياسة في حق أبناء الأمة وتكل أمر تربيتهم إلى جهة أخرى غير الأمة نفسها. يجب أن تفهم حد المجاملة وتدرك ما ينطوي عليه حق الأمة في استقلالها وحريتها

وإذا كانت وزارة المعارف اليوم تعنى بالثقافة الوطنية بعض العناية فيجب أن يكون الدافع لها عليها مصلحة الوطن والعمل على تحقيق استقلال الأمة لا الرغبة في كسب عواطف الشعب أو استمالة طائفة منه خاصة، فما أكثر تغير الشعب في عواطفه، ولكن ما أثبته على حب من أخلص اليه في خدمته!

محمد البهي قرقر
دكتور في الفلسفة وعلم النفس
وعضو بعثة الامام الشيخ «محمد عبده»

(١) الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده
(٢) الأستاذ الأكبر المراغي

من الأدب الرمزي

فيما وراء الطبيعة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

ركب مسوق إلى مايجهل بعصا قاهرة يقظة فلا التفات ولا اعتراض ولا جموح . . .

- من الذرّات التي لاتدركها الأبصار لدقتها وصغرها . . إلى الذرات الضخمة التي لاتدركها الأبصار لجلالتها وكبرها ، يتألف الركب المسوق المدفوع الذي لايعرف من أين ولا إلى أين

لقد وُلد فيه كل شيء أثناء الرحلة مخيّ مسافراً وهلك مسافراً . .

يسير الزمان والمكان في الركب المهدود ، وتسير الابعاد والحدود ، والمهود واللحود ، والحركة والجمود ، والموت والحياة ، والظلمات والنور ، أضداداً مؤتلفة ونقائض مجتمعة في صمت . !

السموات شاخصة العيون إلى الأرض . . والأرض مشرئبة الأعناق إلى السماء . . واللجة مقبلة في لهفة على الشاطيء . . . والشاطيء واقف يترقب اللجة . . وهكذا يرنو كل شيء إلى كل شيء . . زوارق سائرة في لجة لايعلم لها شاطيء . . . أجسام هابطة أبداً الى غير قرار . . . كل شيء يدور على نفسه نحو كل أفق ليرى النهاية ، فلا يرى إلا أشياء دائرة مثله . . .

أبداً تخرج الحياة من الموت ويخرج الموت من الحياة ليشهدا سير الركب ؛ ثم يفنيان في الطريق . . .

أبداً تسافر الأضواء في ملايين سنيها محاولة كشف النهاية فلا تقع إلا على ذرات ترسل أضواءها . . .

الرحلة طويلة شاقة ومع ذلك فليس فيها مراحل ولا مواقف . . .

الصمت والصبر شعار القافلة إلا صراخاً ينبعث من «أكثر شيء جدلاً» . من الانسان . صاحب الجمجمة الدائبة على التلفت إلى الوراء والتطلع إلى الأمام ، وسؤال كل شيء : ما أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ وإلى أين تنتهي ؟ ولماذا نحن هنا ؟ « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ » فيجيبها كل شيء : (ما المسئولُ بأعلمَ من السائل . . .) ثم يردد كل شيء صدى تلك الكلمة الكبيرة المعزّية : « ما أشهدتُهم خلقَ السموات والأرض ولا خلقَ أنفُسِهم »

الركب سائر بانسجام ونظام . . . وهذا هو موسيقاه التي تستحثه وتنسيه وعثاء السفر . . .

من جمح وحاد عن طريق الركب ضل واحترق ضلالَ النيازك والشهب واحتراقها . . .

كل شيء قانعٌ بالنظر إلى عصا القهر المرفوعة عليه أبداً ، إلا هذه الجمجمة . . ! فهي تحاول جهدها أن ترى اليد القابضة على العصا . . . ومن هنا تعبت من النظر وزاغ منها البصر وتراجع حتى لم تعد ترى العصا إلا في يدها هي المصنوعة من الطين . . ! فعبدت نفسها وسجدت لها . . !

***

ألا يا عابد البطولة الإنسانية وفاديها ومالئ كئوسها من دمه ومحرق حبة قلبه بخوراً لها . . ! ليس هذا موقع العبادة من قلب الإنسان والفكر الدله من رأسه ... وإنما هذه العصا المرفوعة أبدا هي مكان السجود ... فارفع جبهتك كثيراً كثيرا لتسجد عليها فوق . . !

أنظر إليها وحدها واجدكما جد لها قلب الجبل ... واخفق كما خفق لها جوف البحر ... واعصف كما عصفت لها جوانح الريح ... واصفر كما اصفر منها وجه الصحراء ... والتهب كما التهب بها وجه الشمس ... وسر كما سار أمامها الركب المسوق .. !

أنظر إليها دائما فهي تشير إلى الطريق ... فإذا عميت عنها فهي شعلة تخرق البصر ... وسر في طوعها دائماً فهي حماية وسلاح ... فإذا شردت كارهاً فهي صوت وصاعقة . . !

***

قال لي ضباب مبهم في نفسي : لم تحوم حول اللجة ولا تضرب في أعماقها ؟

قلت : أنا عاجز قاصر ضئيل محدود ... فليس لي يدان باقتحام عالم القدرة والاستطالة والجلالة واللانهائية !

قال : لقد أتيت بشيء مما في اللجة وأنت لما تزل على الساحل...

قلت : كذلك الذي يأتي به الطير البحري المتربص على الساحل : سمكة ميتة طافية قذف بها جوف البحر ... أو صغيرة خفيفة مبذولة

لأنها ليست من الزجاجة بحيث تختفي في عالم العمق والاحتجاب ...

قال : لقد أفرغت نفسك من كل شيء وهيأتها لصداقة الطبيعة وأفهمتها أن تتصل بها اتصال بُنُوَّة بأمومة ؛ فلا تفزع من هولها وقسوتها ولا تجفُل من غموضها وإبهامها ، ولا تشمئز من وجوه القبح فيها ، ولا تجمُد أمام وجوه الجمال بها ، ولا تغفل عن الدقيق ، ولا تقصر عن إدراك الجليل ؛ وحقيق على من انتهى إلى هذا أن يبتدىء بشيء آخر . . .

قلت : أجل ! كما يبدأ ثور الطاحون من حيث ينتهي . . !

قال : لولا الغطاء الذي على عيني الثور لجمح وأبى الدوران على محيطه الضيق

قلت : لو استطاع الثور أن يزيح ذاك الغطاء عن عينيه لحُلَّت العقدة ... فما دامت هناك يد غير مدفوعة تضع ذاك الغطاء فهو عاجز مملوك يرى السلامة في التسليم والدوران . . . وإلا فظهره مبسوط مكشوف والسوط له حاضر . .

***

لقد قلت لنفسي يوماً : سأبعثك للارتياد فيما وراء الزمن والفلك فاصنعي الريش وأعدي الجناحين ... فإذا وقفت هناك فلا يَخْسأنَّ بصرك دون أن ترى طرق الركب المسوق . . سيكون ذلك عسيراً ولكن تجردي وامتدي فإن فيك قوة على ذلك . .

وقلت لها : إن المكان سينتحي . . . فترين الفراغ وعماياته ومهاويه التي ليس لها قرار .. فطيري فيه مغمضة العين ، واضربي فيه بمجموع الإدراك لا بأفراده فإنها تغرق في لججه وظلماته ..

وقلت لها : أعدي السمع للموسيقى التي تميت طرباً ، والعينَ للأضواء التي تحرق لهباً . . واللمس والذوق لما لا يلمس ولا يذاق

وقلت لها : هناك كلام دائم قديم فاملئي معانيك منه واحذري أن تحدثي به ناس الأرض . . وسترين كل ما كان في الأرض هناك في منطقة الصمت الذي يصعق ، والسكون الذي يهول . . سترين ما يقال إنه تبدد من الأضواء والأصوات وأمواج الخلائق ووَمضَات المعاني . .

وقلت لها : سترين بالقوى المطيعة أبداً ، العاملة بلا ضعف يلحق ولا فتور ولا سأم ، القائمة على مراقبة الذرات في حركاتها وتنقلها ، والحبات في تولدها وانفلاقها ، والرياح في انسيابها واندفاعها ، والأمواج في رحلاتها ومدها وجزرها ، والأضواء في انبثاقها وفيضانها ، والظلمات في انطباقها وانفراقها ، والاجرام في نثارها ونظامها ... فقفي هناك طويلا وتعجبي من صبر هذه القوى المجندة ويقظتها وطاعتها ، واملئي سمعك بنشيدها وهي هاوية صاعدة راكعة ساجدة تحت المشيئة الواحدة القاهرة الضاربة على العوالم بنطاق من العلم والقهر ، فلا رد ولا اعتراض ولا هرب من أقطارها ...

وقلت لها : ربما تستطيعين الوصول في خطفة من خطفاتك إلى المنطقة الثابتة التي لا تتغير ... فإن كان ذلك فاحذري أن تتوغلي في متاهاتها ! فربما لا ترجعين إلى ثوبك الأرضي ثابتة فيترك في الأرض معذباً مجفواً لا يفهمه الناس ولا يرحمون ... فاحذري !

وقلت لها : التراب عنصر كثيف ثقيل يزيد « ثقله النوعي » كلما بعد عن نطاق الأرض ، ولو كان نضرة خد أو حرير ورد ، أو عبير زهر ، أو نغم وتر ! فخففي رحلك منه حتى تسرعي ...

وقلت لها : لا تنسي أن تلقي بنظرة منك على الذَّرَّة التي أنت منها ... وحاولي أن تتبيني مكان هذا الذي يقول فيها : أنا إله ! سترينه قزماً يدب ممسوخ القوام ... وقد كان يستطيع أن يتطاول ببعض ما فيه لو عقل وأراد ورأى عصا القهر التي تدفع عجلة الفلك...

قلت لها كل ذلك فقالت : يا هذا الذي يصنع الألفاظ ويحاول خديعتي بها . ! يا من

يُشَمِّر لِلُّجِّ عن ساقه ويغمره الموج في الساحل !

عش كهذا الطير الساحلي مكتفياً بالنظر إلى اللجة الرجراجة المائلة ، قانعاً بما تقذفه إليه من النفايات ، عالما بأنه مخلوق مُعَدٌّ للساحل وحده ، فهو دائماً ينكتُ بمنقاره في الرمل والقواقع وغثاء البحر ...

هو يعلم أن في جوف اللجة سمكا كثيراً صغيراً وكبيراً يشبع جوعه الذي يحسه في دوام ... ولكنه يعلم كذلك أنه لو تقدم خطوة نحو اللجة لا بتلعته حقيقة من حقائقها وغاب فيها قبل أن يبتلع إحداها وتغيب فيه ... عش هكذا دائراً على نفسك في محيطك الضيق مادام على عينيك الغطاء . . .

وابحث في لجة نفسك عن الأشياء التي تنشدها فلعلك تجد منها صوراً صغرى تدركها بالوحي الصغير إدراك النبوة للكبرى بالوحي الكبير . . .

***

ابن العـــديم وتآليفه

للأستاذ محمد كرد علي

كان كمال الدين عمر العقيلي الحلبي رئيس الشام (٦٦٦ هـ) من بيت علم. تولى خمسة من أهله منصب قاضي القضاة بحلب، وأكثرهم على جانب من الأدب والفضل، وكلهم مذ كان الاسلام يحفظ القرآن. وكان كمال الدين هذا محدثاً حافظاً مؤرخاً صادقاً فقيهاً مفتياً منشئاً بليغاً كاتباً مجوداً. درس وأفتى وصنف، وترسل عن الملوك، وكان رأساً في الخط المنسوب لا سيما النسخ والحواشي «يقرأ الخط العقد كأنه يقرأ من حفظه. وأما خطه في التجويد والتحرير والضبط والتقييد فسواد مقالة لأبي عبد الله ابن مقالة، وبدر ذو كمال، عند علي بن هلال» «وهو أكتب من كل من تقدمه بعد ابن البواب» ترجم له ياقوت في معجم الأدباء وعرض لتراجم أهله، وكان ياقوت اجتمع بكمال الدين، وأخذ عنه وبالغ في مدحه، وقال إن من أجداده بني أبي جرادة، وكان أبناء العديم يُعرفون بهـذا اللقب وقد كتب بخطه ثلاث خزائن من الكتب: واحدة لنفسه وخزانتين لابنيه، لكل منهما خزانة قال ياقوت وأنشدني لنفسه وبإملائه بحلب في ذي الحجة سنة ٦١٩ (وكان كمال الدين شاباً):

وساحرة الأجفان معسولة اللَّمى
مراشفها تَهدى الشفاء من الظما

حنت لي قوسي حاجبيها وفوَّقت ... إلى كبدي من مقلة العين أسهما

فوا عجبا من ريقها وهو طاهر ... حلال وقد أضحى عليَّ محرما

فإن كان خمراً أين للخمر لونه ... ولذته مع أنني لم أذقهما

لها منزل في ربع قلبي محله ... مصون به مذ أوطنته لها حمى

جرى حبها مجرى حياتي فخالطت ... محبتهـا روحي ولحميَ والدما

تقول إلى كم ترتضى العيش أنكدا ... وتقنع أن تضحى صحيحاً مسلما

فسر في بلاد الله واطَّلب الغنى ... تفز منجداً إن شئت أو شئت مُتْهما

فقلت لها إن الذي خلق الورى ... تكفل لي بالرزق مَنّـاً وأنعما

وما ضرني أن كنت رب فضائل ... وعلم عزيز النفس حراً معظما

إذا عدمت كفاي مالاً وثروة ... وقد صنت نفسي أن أذل وأحرما

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأخدما

ونظن البيت الأخير مقحما إقحاماً في هذه القصيدة، لأنه بيت من قصيدة مشهورة لعلي بن عبد العزيز القاضي من أهل القرن الخامس التي يقول في مطلعها:

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

قال ياقوت بعد إيراد هذه القصيدة: ولا يظن الناظر في هذه الأبيات أن قائلها فقير وقير، فإن الأمر بعكس ذلك لأنه، والله يحوطه، رب ضياع واسعة، وأملاك جمة، ونعمة كثيرة، وعبيد وإماء وخيل، ودواب، وملابس فاخرة وثياب. ومن ذلك أنه بعد موت أبيه اشـترى داراً كانت لأجداده قديماً بثلاثين ألف درهم؛ ولـكن نفسه واسعة، وهمته عالية، والرغبات في الدنيا بالنسبة إلى الراغبين، والشهوة لها على قدر الطالبين. قال ياقوت: وكان إذا سافر يركب في محفة تشيله بين بغلين، ويجلس فيها ويكتب، ورحل إلى العراق ومصر والحجاز

ويقول ياقوت أيضاً إن كمال الدين صنف مع هذه السن كتباً منها كتاب «الدراري في ذكر الدراري»، جمعه للملك الظاهر غازي، وقدمه إليه يوم ولد ولده العزيز الذي هو اليوم سلطان حلب. وكتاب «ضوء الصباح في الحث على السماح»، صنفه للملك الأشرف، وكان قد سير من حرَّان بطلبه، فانه لما وقف على خطه اشتهى أن يراه فقدم عليه فأحسن إليه وأكرمه، وخلع عليه وشرفه. وكتاب «الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة»

ومع هذا لا يزال الضباب المبهم يناديني ويسألني سؤاله ... وأنا أنادي:

لمحة من النور الذي عندك ضحاه الدائم الذي لا يغيب يا هادي الركب وصاحب القافلة ... النور الذي تهتدي به ظلمات الدنيا وأضواؤها إلى مسالكها ومساربها ومواقعها ... النور الذي أعطيت به كل شيء خلقه ثم به هديته ...

النور الذي اهتدت به كل ذرة في بناء العالم وكل خلية في جسمه وكل قوة من قواه إلى مكانها وعملها ... ثم إماءة بطرف عصاك إلى المخبوء وراء الزمان والمكان والأجرام والشواخص والكثافات ... ثم قدرة على الانفصال عن الركب لأشهده كله وهو يسير ...!

(الاسكندرية) عبد المنعم خلاف

وأنا سألته جمعه لجمعه لي وكتبه في نحو أسبوع وهو عشرة كراريس . وكتاب في الخط وعلومه ، ووصف آدابه وأقلامه وطروسه ، وما جاء فيه من الحديث والحكم ، وهو إلى وقتي هذا لم يتم . كتاب « تاريخ حلب » في أخبار ملوكها وابتداء عمارتها ومن كان بها من العلماء ، ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية والملوك والأمراء والكتاب ، وشاع ذكره في البلاد ، وعرف خطه بين الحاضر والباد ، فتهاداه الملوك . ومن كتبه تبريد حرارة الأكباد ، في الصبر على فقد الأولاد . وكتاب « دفع التجري عن أبي العلاء المعري » وكتاب « التذكرة » وهو في أجزاء في دار الكتب المصرية أولها الجزء الخامس وآخرها الجزء السادس عشر ، وفي هذه الأجزاء قصائد جيلة لأناس من معاصريه ورسائل منثورة وغيرها (راجع ما كتبناه في هذه التذكرة في المجلد السابع من مجلة المقتبس ص ٨١١) . ومما نقله أبيات للسابق أبي اليمن محمد بن الخضر المعري وهي :

حلب معهد الصبا والتصابي فسقاها الوسميُّ ثم الوليّ
موطني بعد موطني فكأني لغرامي بحبها البحتري

إلى أن قال :

فلديها كل الفنون وفيها ما اشتهاه الشرعيُّ والفلسفيُّ
غير أني أرى الأطايب شزراً وحليف الإفلاس عنها قصيّ

وكان في حلب في ذلك الزمن جلة من العلماء كما قال الشاعر ، بل إن من قراها ما كان أشبه بدار علم مثل معرة النعمان وكفر طاب ، وكفر طاب اليوم مزرعة خربة

ومما اقتبسه في هذه التذكرة أبيات لسنان صاحب الدعوة

لو كنت تعلم كل ما علم الورى طراً لكنت صديق كل العالم
لكن جهلت فصرت تحسب أن من
يهوى خلاف هواك ليس بعالم
فاستحي إن الحق أصبح ظاهراً عما تقول وأنت شبه النائم

وسنان هذا هو أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الدعوة دعوة الاسماعيلية ، ومقدم الفرقة الباطنية بالشام ، وإليه تنسب الطائفة السنانية . وهو الذي كتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب جواب كتاب هدده فيه ، على ما نقل ذلك ابن خلكان في وفيات الأعيان ، وافتتحه بقوله :

ياذا الذي بقراع السيف هددنا لاقام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام إلى البازي يهدده واستيقظت لأسود البر أضبعه
أضحى يسد فم الأفعى بإصبعه يكفيه ماقد تلاقى منه إصبعه

ثم أردف هذه الأبيات بكتاب كله تهديد لصلاح الدين .

وقد كتب مرة أخرى :

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت بيوتك فيها واشمخر عمودها
فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى مغارسها منا وفينا حديدها

وفي خزانة المجمع العلمي العربي بدمشق نسخة من كتاب دفع الظلم والتجري، وسماه هناك « كتاب الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري» وهو مخروم من آخره نقص منه بيت القصيد وهو تبرئة المعري من التعطيل ، وكان أعداؤه ينحلونه أبياتاً ليصححوا دعواهم عليه انحلال العقيدة . وفي هذا الكتاب فصول جيلة في نشأة المعري وعماه وشيوخه ورحلته إلى بغداد وقوة حافظته . وقد استفدنا منه أنه كان عند أبي العلاء أربعة كتاب في جرايته وجارية يكتبون عنه ما يكتب إلى الناس ، وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف ، وكتب له جماعة من المعرة أخصهم أنسباؤه ومنهم ابن أخيه ، وكان ملازماً لخدمته ويكتب له تصانيفه ، ويكتب عنه الإجازة والسماع عمن يسمع منه ويستجيزه ، وكتب تصانيفه بخطه حتى يقع بخطه من المصنف الواحد نسختان وأكثر . واستفدنا منه أن المعري زار دار العلم ببغداد لا دار العلم في طرابلس ، ولم يكن في طرابلس دار علم ، وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك بن عمار في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة . وأبو العلاء مات قبل جلال الملك في سنة تسع وأربعين واربعمائة

وأهم مصنفات ابن العديم على ما يظهر تاريخ زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ومنه نسخة في دار الكتب المصرية ، أخذت بالتصوير الشمسي من إحدى خزائن الأستانة وهي في ثلاثة مجلدات . بدأ كتابه بجغرافية حلب والبحيرات التي في أعمالها ، وما فيها من الجبال وما جاء في صحة تربة حلب وهوائها واعتدال خراجها وصفة مائها ، وما ورد من الكتابة القديمة على الأحجار بحلب وعملها . وعقد فصلا في بيان أن معاوية ومن كان معه بصفين لم يخرجوا عن الإيمان بقتال علي عليه السلام ، وفصلا في ذكر ما جاء في الكف عن الخوض في حديث صفين . وذكر الراوندان وعين زربة وبهسني والمرزبان والشغروبكاس

وعربسوس ، وفصلا فى ذكر فضائل الشام ، وحلب وقويق نهر حلب وما ورد فيه وذكر الغراب ومخرجه ومعرفة من حفره ، وذكر جتيهان نهر المصيصة وسيحان نهر أذنة والعاصى نهر أنطاكية وحماة والبردان نهر طرسوس ، وذكر البحر الشامى ويعرف ببحر الروم . وأشار إلى مايتعلق بحلب وأعمالها من الملاحم وأمارات الساعة . وعقد فصلا فيمن نزل من قبائل العرب بأعمال حلب ومن كان قبلهم فى سالف الحقب ، وهو من أهم فصول كتابه . وذكر من نزل فى أعمال حلب من حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وعقد باباً فى فتح حلب وقنسرين وما تقررت عليه أحكامها ، ونقل شرط عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) على أهل قنسرين وهو على الغنى ثمانية وأربعون، وعلى الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المدقع اثنا عشر يؤديها بمنار — والغالب أنها دراهم والدرهم على الأكثر عشر الدينار ، ويقدر الدينار بنحو نصف جنيه مصرى ذهباً — وعلى مشاطرة النازل بينهم وبين المسلمين وألا يحدثوا كنيسة إلا ما كان فى أيديهم ولا يضربوا بالناقوس إلا فى جوف بيعة ، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة ، ولا يرفعوا صليباً إلا فى كنيسة ، وأن يؤخذ منهم القبلى من الكنائس للمساجد ، وأن يُقْروا ضيوف المسلمين ثلاثاً ، وعلى ألا يكون بين ظهرانى المسلمين الخنازير ، وعلى أن يناصحوا المسلمون ولا يغشوهم ولا يمالئوا عليهم عدواً ، وأن يحملوا راجل المسلمين من رستاق إلى رستاق ، وألا يلبسوا السلاح ولا يحملوه إلى العدو ، ولا يدلوا على عورات المسلمين ، فمن وفى وفى المسلمون له ، ومنعوه بما يمنعون به نساءهم وأبناءهم ، ومن انتهك شيئاً من ذلك حل دمه وماله وسباء أهله وبرئت الذمة منه ؛ وكتب بذلك كتاباً . وهذا الكتاب فيما نذكر لم يرد بهذا النص فى كتب الفتوح والبلدان المشهورة

ومما روى ابن العديم قال : وأخبرنا قاضى العسكر أبو الوليد محمد بن يوسف بن الخفر قال : كانت حلب من أكثر المدائن شجراً فأفنى شجرها وقوع الخلف بين سيف الدولة بن حمدان وبين الإخشيد أبى بكر محمد بن طغج ، فإن الإخشيد كان ينزل على حلب ويحاصرها ويقطع شجرها ، فإذا أخذها وصعد إلى مصر جاء سيف الدولة وفعل بها مثل ذلك ، وتكرر ذلك منهما حتى فنى ما بها من الشجر . واتفق بعد ذلك نزول الروم على حلب وأخذ المدينة فى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ففنى شجر الشربين لذلك ، وكانت الوقعة بين سيف الدولة وبين الدمستق فى هذه السنة فى سفح جبل بانقوسا وسميت وقعة بانقوسا . وقال فى سيف الدولة إنه كان يتشيع فقيل على أهل حلب التشيع لذلك .

ومما ذكره جبل برصايا وقال إنه جبل عال شامخ شمالى عزاز يشرف على بلد عزاز وكورة الأريتق (الأرتيق) وتحتهما قرية يقال لها كفر شيغال وقفها نور الدين محمد بن زنكى على مصالح المسلمين . وهذا الجبل بين عزاز وقورس . وذكر ما فى حلب من اعزازات وما فيها وفى أعمالها من العجائب والخواص والطلسمات والغرائب . وقال إن حلب من الأرض المقدسة ، وإن أهل حلب فى رباط وجهاد ، وإنها كانت باب الغزو والجهاد ، ومجمع الجيوش والأجناد ، وذكر صفة مدينة حلب وعماراتها وأبوابها وما كانت عليه أولا وما تغير منها وما بقى . ثم ذكر فصولا أخرى فى فضلها وفضل قنسرين وفصولا فى أنطاكية ، ومنبج ، ورصافة هشام وخناصرة ، وبالس ، وحياد بنى القعقاع ، ومعرة النعمان — نسبة للنعمان بن بشير — ومعرة مصرين ، وحاضر قنسرين وسرين وكفر طاب ، وأفامية ، وشيزر ، وحماة ، وبغراس (بيلان اليوم) والمصيصة ، وعين زربة ، واذنة ، والكنيسة السوداء ، وطرسوس ، وذكر كيفية النفير بطرسوس وكيف كان يجرى أمره ، وعقد فصلاً لفضل طرسوس والحصون المجاورة لها وللمصيصة وانطاكية ، وذكر حصن ثابت بن نصر وهو الذى كان مشهوراً قبل الثغور وبنائها ، وذكر حصن مُجَيْف ، وحصن شاكر ، وحصن الجوزات ، وعرض لتل جبير ، وأولاس ويقال له حصن الزهاد ، وذكر الهارونية ، وحصن الأسكندرونة ، والتينات ، والمثقب ، وسيسيه ويقال لها سيس وهى مدينة قريبة من عين زربة إلى غيره من الحصون ، وذكر مرعش والحدث المعروفة بالحدث الحمراء ، وزبطرة ، وحصن منصور ، ومكفلية ، وسُمَيْساط ، ورعبان ، ودلوك ، وقورص وكيسوم . فاستدللنا بهذا أن عمل حلب كان يتناول قسماً مهماً من الجزيرة ومعظم بلاد قاليقلا ، وبعض بلاد آسيا الصغرى (ويقع الكتاب فى ٥١٨ صفحة وعدد أوراقه ١٩٦)

محمد كرد على

تطور علـــم الكلام

في رسالة انقاذ البشر من الجبر والقدر

للأستاذ محمد على كمال الدين

من آثار الماضين المطمورة في الخزائن رسالة « إنقاذ البشر من الجبر والقدر » للشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ . وقد قام بنشرها وطبعها الشاب الفاضل على الخاقانى النجفي عضو منتدى النشر فيها .

لم تقتصر هذه الرسالة على طلاوة الحديث وسهولة الأسلوب فقط، بل استهلت بمقدمة وجيزة متقنة الترتيب والتنسيق والتأليف ، عرضت لتاريخ تطور علم الكلام لم نجدلها مثيلا فى مطولات الكتب. ويدرك الباحث قيمة هذه المقدمة عند مقارنتها مع مقدمة مختصر كتاب الفرق بين الفرق ؛ فقد كان المؤلفان متعاصرين فضلا عن أن لهما سبقاً فى التأليف على معظم مؤلفى الكتب المتداولة اليوم فى مثل هذه الموضوعات

لقد قارنا بين المقدمتين فوجدنا شبها بين مسلكى المؤلفين ، ولو أن بين موضوعى الكتابين فرقاً ظاهراً . أما وجه الشبه فإن كلتا المقدمتين تبحثان عما جد من نقط الخلاف بين المسلمين . وأما وجه الافتراق فإن مقدمة مختصر كتاب الفرق بين الفرق لم توضح العوامل النفسية والاجتماعية الداعية لهذا الاختلاف ، وأنها لم ترنا نظرية جديدة فى أسباب هذه الحركة الفكرية ؛ أضف إلى ذلك أنها قرنت نظرية الاستطاعة مع نظرية القدر فى حين أن هذا الاقتران لا يصح منطقياً إلا على رأى القائل : إن القدر مرادف للجبر ، وهو خلاف رأى ذلك المؤلف نفسه ؛ فإن بحث الاستطاعة وتقدمها وتأخرها عن الفعل إنما حدث بين علماء الجبر أنفسهم ، فكأنما المؤلف غفل عن التطور الفكرى والظروف والمدارج العقلية التى يمكن للنظريات أن تحل أو تخلق فيها ؛ فى حين أن مقدمة المرتضى كما ستراها علمية فنية ، فقد بدأت فى نظرية نسبة المعاصى ونفيها عن الله ، ثم أعقبت ذلك بنظرية العدل فنظرية الاعتزال يعني المنزلة بين المنزلتين ، وتلاها بنظرية القدر ويعنى بها الجبر ؛ على أنه راعى فى ذلك كله العوامل النفسية والاجتماعية المباشرة لخلق مثل هذه النظريات التى جاءت مرتبة بعضها وراء بعض فكان منها علم الكلام

وهذا هو الذى دعانى إلى العناية بدراسة هذه المقدمة وإلى تحليلها فلعلنا نستنتج تاريخ علم الكلام وتطور نظرياته . قال الشريف :

« واعلم أن أول حالة ظهر فيها علم الكلام وشاع بين الناس فى هذه الشريعة هو أن جماعة ظهر منهم القول بإضافة معاصى العباد إلى الله سبحانه ، وكان الحسن ابن أبى الحسين البصرى ممن نفى ذلك ووافقه فى زمانه خلق كثير من العلماء كلهم ينكرون أن تكون معاصى العباد من الله ، منهم محمد الجهنى وأبو الأسود الدؤلى ومطرف ابن عبد الله ووهب ابن منبه وقتادة وعمر ابن دينار ومكحول الشامي وغيلان وجماعة كثيرة لا تحصى ؛ ولم يك ما وقع من الخلاف يومئذ يتجاوز باب إضافة معاصى العباد إلى الله سبحانه ونفيها عنه وغيره من هذا الباب »

فأنت ترى أن الشريف بدأ مقدمته يبحث نفسى علمى عن الحالة التى ظهر فيها علم الكلام وهو وإن لم يصور فى المقدمة تلك الحالة بوضوح وجلاء إلا أن تحليلها العلمى يكشف لنا عنها ، فقد درج فيها مثلا جماعة من أكابر التابعين ممن تصدوا لنفى ذلك القول ؛ ومن تصدى مثل هؤلاء العلماء تتجلى لنا أهمية هذا القول وقيمة القائلين به ومبلغ تأثيرهم وتأثيره فى أفكار الناس ، كما أن وجود أبى الأسود الدؤلى المتوفى سنة ٦٩ هـ بين هؤلاء الجماعة النافين ، وهو المعروف بعلمه ومكانته ، يدل دلالة صريحة على أن البدأ فى هذا القول لا يعدو هذا التاريخ ، أى لا يعدو سنة ٦٩ كما يدل على وجود رأى خاص بعلماء النفى . فنحن الآن نبحث نقطتين إحداهما العوامل التى كونت ذلك القول ، والثانيتهما علماء النفى ورأيهم وكيفية تكون هذا الرأى .

(١) عوامل نسبة المعاصى إلى الله .

أما الحالة والعوامل النفسية التى دفعت إلى هذا القول فيمكن استنتاج رأى الشريف فيها من موضوع البحث نفسه . بحث

العاصى ، فانه من الواضح أن العرف والعادة يقضيان باستحالة ظهور هذا البحث فجأة وبدون أسـباب ، فى حين أن الذى كان عليه المسلمون ونشأوا عليه هو الطاعة طاعة الله .ورسوله التى تجلت أسبابها فى عهد النبى والصحابة . فهل يمكن تغيير اتجاه الأمة فجأة ، من هذا التوغل فى الطاعة إلى البحث فى المعاصى دون أن تجد عوامل اجتماعية وروحية مما تدفع إلى هذا التغير

والسيد المرتضى لم يساعده الايجاز فى مقدمته على بيان عوامل البحث فى المعاصى ، وربما كان معتمداً على فهم القارىء واستنتاجه فان الباحث إذا رجع إلى الاحداث التاريخية قبل سنة ٦٩ يجد أنها بدأت فى مقتل عثمان وثنت بوقعة الجمل وحروب صفين ، وناهيك بمفعول هذه الأحداث وعظيم أثرها على الفطرة العربية والايمان المتغلغل ، فكان أن تمخضت عن خروج الخوارج المتصلبين فى نظرياتهم الدينية والذين لم يكتف بعضهم بتخطئة على ومعاوية وأصحابهما بل يريدون من الناس أن يحكموا بكفرهما وكفر من ناصرهما . وهـذه الأحداث هي التى كونت نظريتهم فى تكفير مرتكب الكبيرة وهى كما ترى عين نظرية المعاصى المبحوث عنها غير أنها توسعت بنسبة هذه المعاصى إلى الله .

وهنا يجد سؤال : كيف ومتى توسعت نظرية تكفير ذوى المعاصى فشملت إضافة هـذه معاصى العباد إلى الله تعالى ؟ وبتعبير أوضح كيف تطور الموضوع من إيجابي لدى فريق إلى سلبي لدى فريق آخر ، ومن تكفير مطلق إلى تبرئة مطلقة ، فى حين أن طبائع الجماعات والأحزاب المتطاحنة تـترسل بالطعن بعضها فى بعض باصرار وشدة . وإن رأت الاعتدال فانما يكون بالإعراض والاغفال لا فى التبرئة ، فان من المعلوم أن نسبة عصيان العبد إلى ربه تسـتلزم نقض ذلك التـكفير وتخفيف وطأته ، وذلك يستحيل تحقيقه عقيب تلك الأحداث الدموية أى عقيب سنة ٤٠ ، نعم يمكن أن يتكون من إصرار الخوارج على التكفير ومن حركاتهم الطفيفة ضد معاوية والعنيفة ضد ابن الزبير ، ومن تفاقمها ضد عبد الملك وعامله الحجاج يمكن أن يتـكون من جميع ذلك عوامل لتهيئة نفسية الأمة فى تكوين جماعة ذات رأى فى تبرئة الصحابة بقصد مناضلة الخوارج ، والوقوف ضد تيارهم كما أن الأحداث التى قام بها يزيد بن معاوية والتى فتنت الناس فى دينهم ولطخت ثيابهم بدم الحسين وبدماء أهل المدينة ، وأيضاً حصار مكة المكرمة من قبل الحجاج لا بد أنها ولدت فى نفوس الناس الشك والحيرة فى العاقبة وسوء المنقلب ، فمن الجائز أنهم لجأوا إلى وسـيلة تبرئة الصحابة والتابعين كما يحصلوا هم على هذه التبرئة ضمناً فنسبوا معاصي العباد إلى الله . ونحن نرى أن نشوء فئـة تبرىء الأحزاب وتصحح أعمالهـا وأغلاطها لا يحصل عادة إلا بعد استقرار الوضع السياسى واطمئنان النفوس ، وأيضاً بمعونة جيل جديد ينضم إلى بقايا تلك الأحزاب ؛ فمن هذا النشء الجديد ومن أولئك البقية الذين كانوا شباناً عند تلك الحروب والفتن الداخلية التي انغمسوا فيها مسبوقين غير مختارين ؛ فمن هؤلاء وأولئك يجوز أن تتكون فئة مختلطة تفكر أو تعتقد بتبرئة السلف — وبتعبير آخر يمكن أن يحدث على عهدها مثل هذه النظرية التى خلقها التطور الفكرى — والسيد المرتضى وإن اكتفى بذكر النظرية عن تحديد وقتها أو تعيين الجيل الذى اعتنقها فانى أرى أن خير جيل وأفضل وقت يمكن أن تتجلى فيه نظرية نسبة عصيان العبد إلى الله هى المدة بين سنة ٦٠ و ٦٩ مراعين فى ذلك سنن الاجتماع ومدى تطور عقلية الجماعة .

وإجمال القول أننا جعلنا التسعة والعشرين عاماً بين سنة ٤٠ و٦٩ هى المدة التى تطورت فيها النظرية من قضية بسيطة إلى قضية مركبة ، أو من دور الشعور بها فالتفـكير ، إلى دور نضوجها وبروزها نظرية ثم معتقداً ، ذلك المعتقد الذى اضطر أبا الأسود الدؤلى وإخوانه التابعين إلى إنـكاره . ومن الأدلة على صحة رأينا هذا هو المـكانة العلمية التى كان عليها الحسن البصرى كما يظهر من قول المرتضى (وكان الحسن بن أبى الحسين البصرى ممن نفى ذلك) فانك تعلم أن مثل هذه المـكانة لا ينلها إلا من قارب عمره ٣٩ عاما وقـد كانت ولادة البصرى سنة ٣٠ هـ وعليه لا بد وأن تـكون المدة من ٦٠ إلى ٦٩ هى القدر المتناسب لخلق نظرية نسبة المعاصى لله .

(٢) علماء النفي ورأيهم :

أما علماء النفي فيظهر لنا من المقدمة أن المرتضى يرى أنهم

جمع غفير من السلف الصالح فانه بعد ما ذكر سلسلة صالحة من التابعين ألحقها بقوله : مع جماعة كثيرة لا تحصى . والمنطق يحكم فى ذلك . فان سواد الأمة ورجال العمل فيها مسوقين طبعاً لرفض نسبة معاصى العباد إلى الله ، ذلك القول الذى ينفر منه الحس ولا يقبله العرف فقد عسر على فهم الناس الإذعان بأن الكفر والفسق وسائر الأجرام التى يرتكبها العصاة عادة — تنسب إلى الله وهو فى الوقت نفسه العادل الرؤوف الرحيم . فكان رأى هؤلاء القول بالعدل وأنهم ينفون أن تنسب معاصى العباد إلى الله .

ويضيف المرتضى إلى ذلك أنه لم يكن فى ذلك الدور الذى حصرناه بين ٦٠ و ٦٩ غير بحث المعاصي نفياً وإثباتاً .

فان قيل إن النقطة الأولى أعنى البحث فى نسبة المعاصى لله يؤول إلى القول بالقدر الذي هو بمعنى الجبر على رأى المرتضى ، وأيضاً النقطة الثانية أعنى البحث فى نفيها عنه بنسبتها إلى الانسان تؤول إلى القول بالاختيار وهو الذي يدعوه المرتضى العدل . قلت : ولكن هذا المآل لا يتحقق فعلا قبل تفهم الأمة حقيقة بواعثه نفسها وقتلها بحثاً ودرساً ثم تطبيقاً ، ومن الجائز تحقق ذلك وتحقق هذا المآل ولكن بعد سنة (٦٩) أى بعد تقادم نظرية نسبة المعاصي ونفيها ، وأيضاً بعد مرور زمن يتناسب مع مدى تقدم عقلية الأمة ، وعليه فيكون عهد نظرية القدر ونظرية الاختيار متأخراً كما قال المرتضى بعد عهد طويل .

ولا يذهبن بنا الظن إلى أن معنى تأخر هاتين النظريتين أنهما لم تخطرا ببال أحد ولم يعرض لهما الكتاب والسنة والأحاديث مطلقاً ، فقد عرض الكتاب فى مختلف الموارد إلى القدر والاختيار تصريحاً وتلميحاً وكناية ، وكذلك الحديث ؛ غير أنا لا نرى أن ذلك يستلزم أن تصبح علماً مفرداً لدى الناس إذ ليس كل ما يعرض له الكتاب والسنة يتفهم الناس نظرياته العلمية فعلا ، فقد جاء أن الكتاب يحوى بين دفتيه علوماً لم تكتشف بعد . ولذلك رأينا الشريف المرتضى قد خطأ القائلين أن القدر أول موضوع فى علم الكلام فقال : ولم يك ما وقع من الخلاف حينئذ يتجاوز باب نسبة معاصي العباد إلى الله ونفيها عنه . ومن هنا نعرف أن رأى المرتضى لا يتفق مع رأي القائلين بأن معبد الجهني وغيلان الدمشقى هما أول القائلين بالقدر وإنما يرى فيهما كما عرفت فى أنهما يقولان بنفي معاصى العباد عن الله وهى النظرية العدلية . وخلاصة رأي المرتضى كما يأتي :

(١) إن أولى النظريات فى علم الكلام الاسلامى هى نظرية نسبة المعاصى إلى الله

(٢) ثانيتهما النظرية العدلية وهى رأى علماء النفى

(٣) يستنتج أن عام ٦٠ — ٦٩ هو أعلى حد يمكن أن يكون مبتدأ لتاريخ علم الكلام ؛ وذلك لأنا ضبطنا الأرقام على أساس تاريخ وفاة العلماء أى على أخص المقدمات . ومن هنا يعرف القارئ أن تاريخ علم الكلام يجوز أن يتقدم على سنة ٦٠ ولا يمكن أن يتأخر عن سنة ٦٩ ، وهكذا الشأن فى جميع أرقام بحثنا التالية فيجوز عليها التقدم ولا يجوز التأخر وسيتجلى رأى المرتضي أكثر فى أجزاء المقدمة التالية قال :

« بيان القدرة والمقدور وما أشبهه . فأما الكلام فى خلق أفعال العباد فى الاستطاعة وفيما اتصل بذلك وشاكله فانما حدث بعد دهر طويل ، ويقال إن أول من حفظ عنه القول بخلق أفاعيل العباد جهم بن صفوان فإنه زعم أن ما يكون في العبد من كفر وإيمان ومعصية فالله فاعله كما فعل لونه وسمعه وبصره وحيويته ، وأنه لا فعل للعبد فى شىء من ذلك ولا صنع ، والله تعالى صانعه ، وإن لله تعالى أن يعذبه فى ذلك على ما يشاء ويثيبه على ما يشاء . وحكى عنه علماء التوحيد أنه يقول مع ذلك إن الله خلق في العبد قوة بها كان فعله ، كما خلق غذاء يكون به قوام بدنه ، ولا يجعل العبد كيف يصرف حاله فاعلا لشىء على حقيقة ، فاستبشع من قوله أهل العدل وأنكروه مع أشياء أخرى حكيت عنه . ولما أحدث جهم القول بخلق أفعال العباد قبل ذلك ضرار بن عمرو بعد أن كان يقول بالعدل فانتفت عنه المنزلة واطرحته ، فخلط عند ذلك تخليطاً كثيراً وقال بمذاهب خالف فيها جميع أهل العلم وخرج عما كان عليه واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد بعد ما كان يعتقد فيهما من العلم وصحة الرأى لأنه كان فى الأول على رأيهما وأخذ عنهما »

« لها بقية »

(العراق — النجف) محمد علي كمال الدين

الفلسفة الشرقيــــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٢ —

الفلسفة الصينية

العصر الأول

عقيدة العامة

لا يستطيع الباحث أن يحصل على نتائج قيمة فى دراسة عقيدة شعب من الشعوب إلا إذا صعد مع الماضى إلى العناصر الأولى لهذه العقيدة بقدر المستطاع . ولا شك أن العقيدة الصينية هى إحدى تلك العقائد القديمة التى تتكون من عناصر مختلفة وأساطير شعبية متباينة . ولهذا وجب علينا قبل أن ندرس الوحدتين الصينيتين : الدينية والفلسفية أن نلم بمعتقدات العامة فى عصور ما قبل التاريخ ، حتى إذا ما وصلنا إلى العصور الراقية ، استطعنا أن نربط بين الأصل والفرع على نحو يرضى البحث العصري .

تتكون عقيدة العامة عند الصينيين من أقدم عصورهم من عبادة الأرواح الخفية والقوى الغامضة التى كانوا يشاهدون آثارها دون أن يدركوا كنهها على نحو ما فعلت جميع الشعوب الغابرة . وكانت هذه الأرواح المعبودة مؤلفة من نوعين : أرواح الموتى : من آباء وأجداد وغيرهم ، وتسمى عندهم بال « كُـوِى » وأرواح القوى الطبيعية مثل الشمس والقمر والكواكب وتسمى عندهم « شين » .

وكانت هذه الأرواح بنوعيها تنقسم من حيث المكان إلى قسمين : الأرواح العليا أو السماوية ، وهى جميع الكواكب والنجوم ؛ والأرواح الدنيا أو الأرضية ، مثل : الأنهار والبحيرات والمنابع ، والغابات والمروج والأودية والجبال والتلول والربوات . وتندرج فى هذا القسم الأدنى أو الأرضى أرواح الموتى كذلك .

ولقد كان الصينيون ولا يزالون إلى اليوم يؤمنون بأن هناك أرواحاً موكلة بالمطر ، وأخرى بالجفاف ، وثالثة بالانبات ، وغير ذلك ، وأن هناك أرواحاً خاصة لحماية المنازل ورعاية أفراد الأسر .

كان هذان النوعان ال « كُـوِى — شين » إذن هما اللذين يحكمان الكون ، ويسيران كل حركاته . ولهذا كان من الطبيعى أن تنحصر تفكيرات أفراد الشعب وحكامه ومشاغل قلوبهم فى البحث عن نيات هذه الأرواح ومقاصدها ، وما يرضيها ، وما يغضبها ، لكى يعمل كل فرد من أفراد الأمة حاكما كان أو محكوماً على اجتذاب رضى هذه الأرواح ، وجلب خيرها ودفع شرها . وكانت هناك وسائل كثيرة تستعمل للحصول على هذه الغاية مثل السحر والرقى واستنطاق الوحى على لسان رجال الدين

تمتاز العقيدة الصينية القديمة عن عقائد الشعوب الأخرى بالمغالاة فى تقديس الأجداد إلى حد لم يعرف له نظير عند الأمم الغابرة ، فنى الماضى قدموا عبادتها على عبادة أرواح السماء ، وقد حافظوا على هذا التقديم من أي تغير طوال هذه العصور السحيقة ، ولا يزالون إلى هذا العصر يشعرون الباحث فى معتقداتهم بنفس هذا الشعور الذى يذكرنا بطفولة الانسانية ، ولكن لعل هذا النوع من العبادة قد بقى إلى الآن ، لأنه يحمل فى ثناياه مبادئ أخلاقية سامية تدفع الأبناء إلى احترام الآباء فى حياتهم وبعد مماتهم وليس بغريب على الصينيين أن يكون أثبت العقائد عندهم هو ما يمت بصلة إلى الأخلاق كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل الماضي

هناك ناحية أخرى قد تميز الشعب الصينى عن غيره ، وهى الإغراق فى تقديس الأرض وعبادتها حتى كانوا يطلقون عليها اسم : « القوة المحسنة التى تتسلم البذور لتردها ثماراً مضاعفة » ولا ريب أن السبب فى هذا هو أن الشعب الصينى كان شعباً زراعياً يضع الاستغلال والاستنبات في المنزلة الأولى فى الحياة

عقيدة الخاصة أو عبادة السماء

بقدر ما كان العامة يقدسون الأرض لما تفيضه عليهم من نعمة الخصوبة ووفرة الإنبات ، كان الخاصة يعبدون السماء لما يرونه بعين الفكر كامناً فيها من قوة معنوية لها كل السلطان على الأرض وما فيها ، وهكذا ظهر الفرق منذ أقدم العصور واضحاً بين عقيدة العامة الساذجة التي تأمر بعبادة الأجداد وغيرهم من الموتى ، وعقيدة الخاصة التي تحصر العبادة في السماء أو في « شانج — تي » أي السلطان الأعظم

لم تكن عقيدة الخاصة هذه مستحدثة في العصور المتأخرة ، وإنما هي قديمة جداً ، إذ نراها مسطرة في أقدم فصول كتاب « إي — كينج » . ولقد كانت الرياسة في هذه العبادات الراقية مقصورة على الملك الذي كان يسمى : « تي » أي السلطان وكانوا يلقبونه أيضاً بابن السماء ؛ وقد تطورت هذه الرياسة في العصور المتأخرة فتجاوزت الملك إلى حكام المقاطعات والأقاليم

لم تكن عقيدة الخاصة مجرد عبادات وطقوس دينية فحسب ، وإنما كانت ممتزجة بتفكيرات قيمة حول الكائن من حيث هو كائن وتحليلات لا بأس بها للقوى الطبيعية السماوية والأرضية التي كانوا يشاهدون آثارها ، وكان ذلك مقصوراً على الخاصة ومحرماً على العامة تحريماً قاسيا . ويتضح هذا التحريم من قراءة أقدم فصول « إي — كينج » إذ لا يكاد الباحث يتصفحها حتى يجزم بأنها لم تكتب إلا للحكماء والملوك وخاصة الأمراء وعلماء كبار رجال الدولة

وفي الواقع أن حكماءهم كانوا يقولون : ليس من العقل أن تسلم إلى الجمهور الأداة التي يسيء استعمالها ، والتي قد تجرحه فترديه قتيلا . وقد ظلت فكرة « المضنون به على غير أهله » قائمة في بلاد الصين حتى هذه العصور الحديثة ، ولهذا قال : « لاأو — تسي » حكيمهم المتنسك في العصور التاريخية : « كما أنه من غير الممكن إبعاد الأسماك عن الماء دون أن تموت ، كذلك من المستحيل أن تكشف أسرار الدولة أمام العامة دون أن تفسد الحال »

من هذا نعرف مقدار حرص الخاصة على عدم تسرب أسرار عقيدتهم إلى العامة . والآن نريد أن نشير إلى شيء من تفاصيل هذه العقيدة ، وعلى أي نحو كانت العقلية الصينية تفهم القوى المتصرفة في الكون وتؤمن بها وتوجه إليها التقديس . وإليك هذه الإشارة :

كان أولئك الخاصة من أقدم العصور يسندون التأثير في جميع الكائنات إلى قوتين عظيمتين : السماء والأرض ؛ ولكنهم كانوا يرون في السماء وحدها السلطان الأعلى « اللامحدود » القوة ، وكانوا يعتقدون أن السماء نفسها كائن حي متحرك بالإرادة ، وبعبارة أدق : أن السماء هي العالم الحي المتحرك حسب نظام دقيق عجيب ، وأنها هي كل الكون ، وأن الأرض وجميع ما عليها من خصوبة وتناسل ومظاهر أخرى ليست إلا رمزاً تمثيلياً من رموز السماء . وقد كانت الأرض هي الرمز النسوي للسماء لما يظهر على سطحها من خصوبة ونباتات ؛ ولكن ليس معنى هذا أن خاصة الصينيين كانوا يعتقدون — كما اعتقد بعض الشعوب الأخرى القديمة — بأن الكائنات تناسلت من زواج السماء مع الأرض ، كلا . وإنما كانوا يعتقدون بالوحدة المطلقة وبأن الأرض ليست إلا مظهراً للسماء بحيث يستحيل تصور فصلها عنها كما تستحيل تثنيتهما في الحقيقة ، لأن كل واحدة منهما هي الأخرى ، وهي أصل جميع الكائنات في نفس الوقت . ولئن وجدنا في كتاب « إي — كينج » أن عناصر الوجود الإيجابية مستقرة في السماء وعناصره السلبية موجودة في الأرض مثلا ، وأن الأرض تدعى بالأميرة المخصبة ، فليس معنى هذا هو التثنية الحقيقية ، وإنما هي رموز لا أكثر ولا أقل

وهكذا نتلاقى عند هذه النقطة من الفلسفة الصينية بوحدة الوجود سافرة جلية بعد أن قصرها أولئك المتفيهقون على العقلية الآرية وجزموا بأنها برهان السمو الفكري . وليست هذه الوحدة موجودة في الفلسفة الصينية بهيئة غامضة ، أو قابلة للفرض والتخمين ، كلا ، بل إنهم يصرحون بأن كل كائن من الكائنات الموجودة حية كانت أو جامدة إنما هو نتيجة لإحدى حركات

الوحدة المطلقة ، وأن جميع الحوادث الكونية ليست ناشئة إلا عن تغير المظاهر الطبيعية ، وأن هذه الوحدة هى المنشأ والمرد لجميع الموجودات بغير استثناء . غير أن هذا التأثير لا يتجه من الوحدة إلى الكثرة الناشئة عنها بطريقة مباشرة ، وإنما يتجه إليها بوساطة قوى هي كذلك ناشئة عن تلك الوحدة ، وعلى هذا النحو تحدث الموجودات . فمثلا الرعد يحدث الحركات الأبدية التى تجذب أحد الضروريين إلى الآخر ، والهواء يحدث فرقتهما وكذلك المطر يحدث الخصوبة ، والشمس تحدث الحرارة ، والجبال تحقق السكون ، والماء يحدث السرور ؛ وهكذا تحدث القوة الطبيعية وحدها بعض الحوادث حيناً ، وتتكاتف مع إحدى القوات الأخرى على إحداث البعض حيناً آخر ، وتتضارب مع قوة ثالثة إما للإحداث أو للكف عنه حيناً ثالثا ، وبناء على ذلك كله فليس للعالم عند الصينيين منشئ أجنبي عنه ، وإنما المنشئ هو عين المنشأ ، كما هى الحال عند الهنود وعند الرواقيين مع الاحتفاظ بالفروق الدقيقة المميزة لكل واحدة من هذه الفلسفات

على أن أهم ما يجمل بنا أن نشير إليه فى هذا الموضع هو تصريح الفلسفة الصينية أو عقيدة الخاصة منذ عصور ما قبل التاريخ بأن جميع الكائنات هى نتائج التغير والتحول الدائمين والناشئين من الحركة . تلك النظرية التى طالما تلألأت فى سماء الفكر الإغريقى فى عصر ما قبل « سقراط » وكانت منشأ مجد « هيراكليت » ومبعث تلك المجادلات الفلسفية التى احتدم أوارها بينه وبين « بارمنيد » وتلميذه « زينون الإيليائى » .

وليست هـذه هي النظرية الفلسفية الوحيدة التى سبق الصينيون فيها الإغريق ، بل إنهم قد سبقوا أفلاطون بتلك النظرية التى أسلفناها آنفاً ، وهى تصريحهم بأن السماء كائن حى ، متحرك بالإرادة . وإذا أردت التوسع فى إيضاح هذه النظرية فارجع إلى أفلاطون أو إلى كتب ابن سينا وابن رشد فإنك ستجد فيها الفصول الضافية والبحوث المستفيضة .

لا يفوتنا قبل أن نغادر هذا الفصل أن نعلن أن هذا الكون الأوحد عند الصينيين لم يكن مادياً محضاً ، وإنما كان طبيعياً أى مادة مشتملة على روح ، بل إنهم صرحوا بأن الجانب المادى فى الطبيعة لم يحتفظ بنظامه كاملا إلا بفضل الجانب الروحى ، وكذلك ينبغي أن نشير إلى أن الإنسان له عندهم منزلة خاصة ، بل إنهم كانوا يعتبرونه عالماً مستقلا ويضيفون اسمه إلى اسمى السماء والأرض كمظهر قوى من مظاهر الوحدة الكونية أو الكون الأوحد ، لأنه هو المشتمل على الروح من بين جميع الكائنات وفي هذا يقول كتاب « شو-كينج » : إن السماء والأرض هما أبوا الكائنات جميعها ، والإنسان من بين جميع الكائنات هو وحده الموهوب روحا » .

ولكن ليس معنى إضافة اسم الإنسان إلى اسمى : السماء والأرض هو تكوين ثالوث كثالوث الهنود أو المسيحيين ، بل إنها وحدة مطلقة كما أسلفنا . وكذلك يجب أن نعلن أن هذه النظريات الراقية لم تكن يوماً ما عامية ثم تهذبت ، وإنما هى وليدة أفكار الخاصة والمهذبين استخلصوها مباشرة من دراسة ما حولهم من الظواهر الطبيعية

« يتبع » محمد غلاب

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢١٤ — لقد صغرت عظيماً

سأل رجل خالد بن صفوان فقال : هبْ لى دنينيراً . فقال خالد : لقد صغّرتَ عظيا (صغرك الله !) الدينارُ عشر العشرة ، والعشرة عشر المئة [1] ، والمئة عشر الألف ، والألف ديتُك

٢١٥ — ألم العيون للذة الآذان

كان جحظة البرمكي ناتئ العينين جداً ، قبيح الوجه ، وكان طيب الغناء ، ممتد النفَس ، حسن المسموع ، حلو النادرة كثير الحكاية ، صالح الشعر فقال فيه ابن الرومى :

نبئتُ جحظة يستعير جحوظه   من فيل شِطرنج ومن سرطان
وارحمتا لِمنادميه ! تحمّلوا   ألمَ العيون للذّة الآذان

٢١٦ — عتاب بين جحظة والزمان

فى (الايجاز والاعجاز) للثعالبي : كان الشبلى يرقص على قول جحظة :

ورَقّ الجوُّ حتى قيل : هذا   عتابٌ بين جحظةَ والزّمان

٢١٧ — نزلنا عن الأكوار نمشى كرامة

قال يونس بن محمد المقتي : أخبرنا عبد الله بن منظور قال : لما سرنا إلى الزيارة ، وانتهينا إلى باب الخشبة ، وهو الباب الذى يفضى إلى القبر (قبره صلوات الله عليه) نزل رجل عن راحلته وأنشد :

نزلنا عن الأكوار نمشى كرامة   لمن بان عنه أن نلم به ركبا [2]

فلما سمعه الناس نزلوا عن رواحلهم ومشوا إلى القبر

(١) فى (أدب الكتاب) : « ومائة زادوا فيها ألفا ليفصلوا بينها وبين منه فلو لم تكن الألف لالتبس على القارئ » قلت : الحال تقتضى حذفها حتى لا يضل لافظها وكم أضلت هذه الألف فتح الميم قارئ المئة ومد ...

(٢) المتنبي من قصيدة فيها :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه   حريصاً عليها مستهاماً بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى   وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد   إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا

وتمثل هذا الرجل بهذا البيت أحسن من مدح أبى الطيب المتنبي من مدحه به ، وقاله فيه

٢١٨ — يا كفى الله شر ما هو حالك

أبو عامر بن الفضل التميمى و« هذا كلام عليه أمارة الأمارة وله ملاحة البداوة ورشاقة الحضارة [1] » :

واصلتنى الهمومُ وصلَ هواكِ   وجفانى الرقادُ مثلَ جفاكِ
وحكى لى الرسول أنك غضبى   يا كفى الله شر ما هو حالك ! !

٢١٩ — ذهب ذلك القليل

فى (روضة العقلاء ونزهة الفضلاء) : قال شعيب بن حرب : قال لى شعبة [2] : عقولنا قليلة فإذا جلسنا مع من هو أقل عقلا منا ذهب ذلك القليل . وإنى لأرى الرجل يجلس مع من هو أقل عقلا منه فأمقته .

٢٢٠ — ارجاف العوام مقدمة السكون

كان ابن الزيات يقول : إرجافُ العوامّ مقدّمة الكون . نظمه جحظة :

وإرجاف العوامِ مقدّماتٌ   لأمرٍ كائنٍ لاشكَّ فيهِ [3]

٢٢١ — لا ...

كان ابن الليث قاضى مصر يكتب فى فتيا فسمع جارية تقول :

ترى فى الحكومة ياسيدى   على من تعشق أن يُقتلا ؟ [4]

فرمى القلم من يده وهو يقول : لا

٢٢٢ — فكيف حالى لو كنت أعبد ثلاثة ؟

فى (نفح الطيب) : كان محمد بن أبى بكر القرموطى الرسى من أعرف أهل الأندلس بالعلوم القديمة المنطق والهندسة والعدد والموسيق [5] والطب ، فيلسوفاً ماهراً ، آية الله فى المعرفة بالأندلس يُقرىء الأمم بألسنتهم فنونهم التى يرغبون فيها وفى تعلمها . ولما

(١) دمية القصر : والبداوة والحضارة بالفتح والكسر

(٢) من أئمة الحديث . فى تاريخ بغداد : قال النضر بن شميل : مارأيت أرحم بمسكين من شعبة

(٣) العوام فى البيت بالتخفيف

(٤) الحكومة : القضاء . فى الأساس : وهو يتولى الحكومات وفصل الخصومات

(٥) بكسر القاف وقد فتح بعضهم

تغلب طاغية الروم على مرسية عرف له حقه فبنى له مدرسة يقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود . وقال له يوماً وقد أدنى منزلته : لو تنصرت وحصلت الكمال كان لك عندى كذا ، [1] وكنت كذا . فأجابه بما أقنعه ، ولما خرج من عنده قال لأصحابه : أنا عمرى كله أعبد إلهاً واحداً ، وقد عجزت عما يجب له ، فكيف حالى لو كنت أعبد ثلاثة كما طلب الملك منى ؟ !

٢٢٣ — وأستشهد بالموتى

فى (كشكول العاملى) : قيل لأعرابى : كيف غلبت الناس؟ فقال : كنت أبهت[2] بالكذب ، وأستشهد بالموتى . . .

٢٢٤ — انها لم تجعد عنى

فى (الكشاف) : شهد رجل عند شريح (القاضى) فقال : إنك لسبط [3] الشهادة !

فقال الرجل : إنها لم تجعّد عنى [4]

فقال : لله بلادك ! وقبل شهادته

٢٢٥ — علم الله نيتى من سمائه

فى (أمالى) القالى : كان الجمّاز منقطعاً إلى أبى جزء الباهلى ، فتنسك أبو جزء وقال للجماز : لا أحب أن تخالطنى إلا أن تتنسك ، فأظهر الجماز النسك وأنشأ يقول :

قد جفاني الأميرُ حين تقرّى فتقرّيت مكرهاً لجفائه [5]
والذى انطوى عليه المعاصى علم الله نيّتى من سمائه

٢٢٦ — المصغر لا يصغر

فى (وفيات الأعيان) : اجتمع الكسائى يوماً بمحمد

(١) كذا : تستعمل مفردة ومكررة معطوفاً عليها وبلا عطف ، والكثير التكرير مع العطف

(٢) بهته : قابله بالكذب

(٣) بسكون الباء وفتحها وكسرها . والسبط فى الأصل : الشعر المسترسل الذى لاجعدة فيه (لاجعودة فى أطرافه)

(٤) الشعر الجعد هو الذى فيه التواء وتقبض خلاف المسترسل . وقد جاء قول الرجل — كما قال الزمخشرى — على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال وهو فن من كلامهم بديع ، وطراز عجيب منه قول أبى تمام .

من منىء أبناء يعرب كلها أنى بنيت الجار قبل المنزل

(٥) تقرأ : تنسك وقد سهل . وقد تستبدل الياء بالهمز تخفيفاً كما قالوا قريت . فكتابتها (والحالة هذه) بالألف المقصورة حسب القاعدة

ابن الحسن (الشيبانى صاحب أبى حنيفة) فى مجلس الرشيد فقال الكسائى : من تبحر فى علم يهدى إلى جميع العلوم . فقال له محمد : ما تقول فيمن سها فى سجود السهو ، هل يسجد مرة أخرى ؟ قال الكسائى : لا . قال محمد : لماذا ؟ قال : لأن النحاة تقول : المصغر لا يصغر [1]

فقال محمد : فما تقول فى تعليق الطلاق بالملك ؟ قال : لا يصح قال : لمَ ؟ قال : لأن السيل لا يسبق المطر .

٢٢٧ — والى المعقول

فى كتاب (الزهرة) لعلى بن داود (الظاهرى) : ليتحر الساقى العدل فانه والى المعقول ، وإلا ناله من خجْلة[2] الاستعفاء ما ينال الوالى من خجلة العزل .

٢٢٨ — قل لى متى

أحمد بن فارس :

إذا كان يؤذيك حرُّ المصيف[3] وكرب الخريف ، وبرد الشتا
ويلهيك حسن زمان الربيع فأخذُك للعلم قل لى متى ؟

٢٢٩ — الله أعدل

قال المنصور لبعض أهل الشام : ألا تحمدون أن دفع عنكم الطاعون منذ ولِينا كم ؟

فقال الشامى : إن الله أعدل من أن يجمعكم علينا والطاعون . . .

٢٣٠ — أف على النرجس والآس

فى (نزهة الجليس) للعباس بن على المكى : كتب الشاه اسمعيل ملك العجم إلى الملك الأشرف قايتباى — ملك مصر — هذين البيتين :

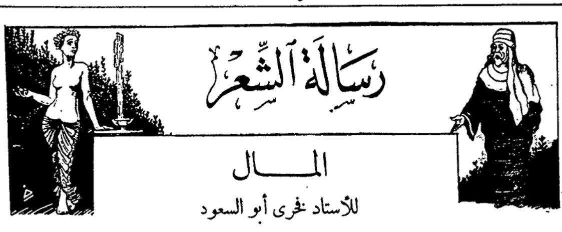
السيفُ والخنجرُ ريحانُنا أفّ على النرجس والآس [4]
شرابنا من دم أعدائنا وكأسنا جمجمة الراس

(١) فى (طبقات الأدباء) إن هذه المسألة جرت بين بشر المريسى والفراء . وفى رواية فى (تاريخ ابن الخطيب) أنها بين محمد بن الحسن والفراء

(٢) فى اللسان : به خجلة أى حياء

(٣) يقع القبض فى عروض المتقارب ويقع الكف فى عروض الهزج ولا يحرك غيرها . وقد قالوا : القبض فى عروض المتقارب أحسن من التمام . ويجوز أيضاً فى هذا البحر اجتماع العروض الصحيحة مع العروض المحذوفة

(٤) النرجس : بفتح النون وبكسرها



المال

للأستاذ فخرى أبو السعود

إيّاك يبغى رائحٌ أو مغتدٍ ... وإليك يسألُ حائد أو مهتد

وعليك أنت تجمّعوا وتفرّقوا ... كلٌّ إلى أربٍ يروح ومقصد

وعلى هواك تواصلوا وتباغضوا ... متزاحمين عليكَ عذبَ المورد

متنافسين على جداكَ ففارق ... فيما يُجمّعهُ وغصّانٌ صدِ

مَن نال من جدواك رامَ تزيُّداً ... هيهات مهما زدتَه لم يزهد

أحببْ إلى أسماعهم وقلوبهم ... بصداك لا بل باسمك المتردد

قطبُ الحياة وملتقى طلابها ... طراً وسلكُ نظامها المتبدد

يُعلى مكانك عالمٌ بصروفها ... وبطبعها المتقادم المتجدد

بك تُطلَبُ الدنيا ويُدرَكُ مابها ... من متعةٍ لأخى النُّهى المتزيّد

وتصونُ ماء الوجه يومَ ملمة ... وتقومُ دون الحادثات بمرصد

وأراك تقتحم كل حصن مغلق ... أشب وتفتح كل باب موصد

وأراك عدة كل حر ناهض ... يقضى حقوقاً للعلا والسودد

وأراك جيشاً للغنيّ مؤزّراً ... يمشى بجند حيث سار مؤيّد

وكأنّ هذا الكون دولة من مشى ... فى جانبيه بمطرفٍ أو متلد

أنا إن حويتُ قليلَ فيضكَ خلتنى ... ملكاً على هذا السوّاد المجهَد

يشقون كى أهنا وأخطر مكرماً ... فيهم وأُدعى بينهم بالسيّد

ويسارعون إلى رضاى محكَّماً ... فى خير ما صنعَ الصّناعُ وأجوَد

وتهشّ لى أنّى ذهبتُ ديارُهم ... طرباً وبِبِشرٍ عند مقدمى النّدى

فإذا خلَتْ كفّى فيالى مجتوى ... إن جاء أُنكرَ أو مضى لم يُفقد

أنت الصديق الصادق الفرد الذى ... يُغنى إذا افتُقِدَ الصديقُ ويفتدى

نعمَ المصاحبُ فى المُقام وحبذا ... خدناً لذى السّفرِ الفذِّ المبعِد

فتشتُ عن وجه الصديق فلم أجد ... فيمن عرفت سوى الطلّوب المجتدى

مَن ليس فى يوم الرفيهة مؤنسى ... بحديثه أو فى الكريهة مُسعدى

حتى إذا أقصيتُ كلَّ مُسائلٍ ... عنّى وصاحب حاجةٍ متودّد

ألفيتنى فرداً لعمرك واحداً ... فنبذتهم ووفرتُ ما ملكت يدى

فخرى أبو السعود

ريحانتى الأولى أو الحرمان

للأستاذ سيد قطب

ريحانتى الأولى وروح شبابى ... أنذا دعوت سمعتُ رجع جواب

أنا فى الجحيم هنا وأنتِ بجنة ... من روح إعجاب ورىّ شباب

أنا فى الجحيم وأنت ناعمةُ المنى ... خضراء ذات تطلّع وطلاب

أنا لا أريدك ها هنا فى عالمى ... إنى أعيذكِ من لظى وعذاب

لكنها الذكرى تثور بخاطرى ... مجنونةً حمقاء ذاتَ غلاب

* * *

عينى رعتكِ وأنت نابتةٌ فلم ... تغفل ولم تفتر ولم تتألم

وتعهدتك يدى وأنت نحيلة ... وغذاكِ من نفسى الحنانُ ومن دمى

فنموتِ والآمال حولك تنتشى ... وتهم راقصةً وتهتف بالنغم

حتى إذا أينعت وانطلق الشذى … ألفيتُ نفسي فى صميم جهنم
ملقًى هنالك لا أحس ولا أرى … إلا الشواظَ وكلُّ داجٍ معتم

* * *

بيني وبينك شُقة لا تنتهي … أبداً أقارب حولها وأباعد
هى شقة النفس الخراب ، وإنها … لجاهل لم تُكتشف وفدافد
الشمس فيها لا تطلُّ وما بها … إلا الرواكدُ والظلام البارد
أنا لستُ سالكها وأنت خفيةٌ … أن تجتني عنها ونجمك صاعد
فإذا الذى بيني وبينك كلُّه … ذكرى تطل برأسها وتعاود

* * *

وأراكِ من خلل الغيوم أسيفةً … إذ تذكرين رعايتي وجهودي
وترين حاضرنا وغابرنا معاً … وتراجعين مواثقي وعهودي
نفسي فداك فلا أراك شجية … ترقي الغضونُ لوجهك المعبود
وقف عليك تطلعي وتلهفي … وقف عليك قصائدي ونشيدي
لكن أعيذك خطرة فى عالمي … إني أعيذك وحشتي وركودي

أيها البحر (١)

للآنسة نفيسه السيد

سرِّحْ الطرفَ فى الجلال وهاتِ … نفحاتٍ مِنْ آيهِ البيِّناتِ
واملأ النفسَ من معانيه سحراً … مُستفيضاً فى أروع الآياتِ
موطني بوركَ المقامُ حواليـ … ـكَ كريم الغدوات والروحاتِ
حيثُ نُشِّئتُ فى ظلالك أرعى … شاطئ اليمِّ فى مراح الحياةِ
وملاذُ النفوسِ أنتَ إذا ما … أثقلتها الأيامُ بالحادثاتِ
فتولِّي إليكَ منطلقاتٍ … مِنْ قيودِ الهموم والحسراتِ
نائياتٍ عنْ عالمِ الأرضِ تحيي … فتراتٍ مِنَ المنى صافياتِ

* * *

دولٌ أقبلتْ عليكَ ودالتْ … مِن قديمٍ وأنت فى الراسياتِ
مُشبهٌ للزمانِ تأخذُ عنهُ … سرَّهُ مِن تقلُّبٍ وثباتِ
تحديثُ الأيامِ فيكَ مُعادٌ … فى قديمٍ من العصور وآتِ

(اسكندرية) نفيسه السيد

(١) من القصائد التي ألقيت فى حفلة «أدب البحر» التي أقيمت بالاسكندرية

من وحي جنائن دمشق

تعــــالي

للسيد جورج سلتي

تعالَيْ لنسهرَ حتى السَّحَرْ … فللمغرمينَ يلذُّ السهرْ ،
فهذا الغدير ، وهذي الرياض … التى تعشقين ، وهذا الزَّهَرْ
أطلَّ عليها جميعاً ، كوجهكِ … غِبَّ الشجونِ ، أخوكِ القمَرْ
يوشِّحُها من سناءٍ ضياه … ووهجِ أشعتـهِ بالبِدَر !
تعالَيْ فقد رقدَ المرجفون ، … وغطَّ الوشاةُ ، ونامَ القدَر !
سجا الليلُ إلاَّ هبوبَ النسيمِ … العليل ، وإلاَّ حفيفَ الشجر
وأبلسَ إلاَّ خريرَ الغديرِ … وجرجرةَ الماءِ فى المنحدر
تعالَيْ أُساقطْ منكِ الكلامَ ، … فإنَّ كلامَ الحسانِ دُرَرْ
وتحت ستارِ الدُّجى يُستطابُ … حديثُ القلوبِ ويحلو السمَر
تعالَيْ فكلِّي جوارحُ تهفو … لمرأى المحيَّا الوسيم الأغَرّ
تعالَيْ فشوقي إليكِ تلظَّى … وانَّ حنيني إليكِ استعَرْ
تعالَيْ أبثكِ نجوى الفؤادِ … وأشكو إليكِ صُروفَ الغيَرْ
وما فعلتْ بيَ أيدي البعادِ … وما خلَّفتْ من بليغ الأثَرْ!

* * *

هنا مجتلى عبقريُّ الرواءِ ، … وضيءِ المحاسنِ ، فَذُّ الصور
زهـا بغـلائلهِ الفـاتنات … وماجَ بوشيِ الربيع النضر
كأنَّ جنانَ الخلودِ عليه … تجلَّين بالرونقِ المبتكَر !
مراءٍ تشعُّ بسحرِ الجمال … فتسبي العقولَ ، وتسبي النظَر
هنا الروضُ يطفحُ بالنُّعميات … فيشأو جميعَ الرياضِ الأُخَر
هنا متعةُ النفسِ يا منيتي … وراحُ النهى ومراحُ الفكَر
هنا جنةُ اللهِ فى أرضه … إذا كانَ من جنةٍ للبَشر
تعالَيْ فإنَّ لقاءكِ فيها … لسرُّ الحياةِ ونعمى العُمُر

* * *

تعالَيْ نذوبُ غراماً فنبقى … حديثَ الدهورِ ونجوى العُصُر

جورج سلتي



مملكة النحل

عيشة النحل وتربية الحديثة

بقلم جمال الكردانى

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

ومن العوامل التى تسبب خراب الخلية وتؤدى إلى دمارها ظاهرة تسمى بالتطريد ، والتطريد هو هجر الملكة الخلية مع بعض الحاشية لتكوين مستعمرة أخرى ، وذلك لضيق الخلية أو وجود منازع لها فى الملك . ويحدث التطريد فى الربيع أى فى أوائل ابريل حيث تكون الخلايا قوية وآهلة فتحس الملكة بضيق المكان فتضطر للمهاجرة . وعند ما ترى الملكة نخاريب (عيون) ملكية تنتبه إلى أنه سيخرج منها يوماً ما ملكات تنازعها الملك فتعمد للسعها داخل عيونها وتمنعها من ذلك الشغالة حديثة السن فيعز على الملكة ذلك وتؤثر الرحيل

عند ذلك ترسل الملكة بضع نحلات هى الكشافة للبحث عن محل لائق للهجرة ، وهو عادة الأشجار والجدران العالية ؛ ثم يخرج النحل الكبير فى السن ويتجمع بالقرب من باب الخلية ويتماسك بواسطة الأرجل حتى تتكون كتلة تسمى بالطرد

وعند تمام اجتماع الطرد تخرج الملكة وتركب وسط هذا التل ثم يطير الطرد قصداً المكان الذى تهديه إليه الكشافة

ويسبق هذه الهجرة ظواهر يمكن النحال ملاحظتها ، وهى انقطاع الملكة عن العمل وربما كان ذلك لانشغالها بفكرة الرحيل ، ويلاحظ كذلك تجمهر النحل على أبواب الخلية . كذلك يوجد غالباً دوى غير عادى داخل الخلية . وفى استطاعة النحال منع التطريد إذا فطن له فيعمل على توسيع المكان بوضع براويز جديدة كلما لزم ذلك مع ملاحظة مسألة التهوية . ويجب أخذ البراويز التى بها بيوت ملكات أو قطع البيوت منها أولاً بأول حتى لا تفقس . وإذا كانت مهارة النحال فائقة فيمكنه عزل الملكة القديمة (الأصلية) فى برواز سلكى يوضع فى الخلية فيرى النحل ملكته ولكن لا يرى لها بيضاً على الأقراص فتذهب نزعته للتطريد . وإذا رأى النحال أن الملكة لا تستحق مثل هذا الحفظ يخرجها من الخلية ويميتها ويدخل ملكة جديدة ، فيظن النحل أن التطريد قد تم ، وأن هذه الملكة زعيمته الجديدة ؛ ويمكن منع التطريد بتاتاً بقص أجنحة الملكة من جانب واحد

النحل والعسل

عرف النحل من قديم الزمن ، وكانت الجماعات منه تسكن شقوق الصخور والتجاويف التى توجد فى سوق الأشجار وعند تحقيق فائدته استأنسه الانسان ، ونقله قدماء المصريين إلى جانب بيوتهم ، وكونوا له بيوتاً أرقى من الأولى ، وهذه ما زالت ترتقى حتى كونت الحديثة

وتنجح تربية النحل فى الحدائق والمزارع حيث تحاط الخلايا بأشجار تظللها ، ويحسن أن تكون قصيرة متساقطة الأوراق مثل التفاح والخوخ والبرقوق ، لأن الأشجار العالية تساعد على التطريد كما أن الدائمة الخضرة تمنع أشعة الشمس . ويستحسن تظليل الجهة الشرقية والجهة الجنوبية قليلاً تسمح لأشعة الشمس بالوصول إلى الخلايا إذ أنها من العوامل المنشطة للنحل ؛ ويقام عادة سياج فى الجهتين الشمالية والغربية لمنع الأهوية الباردة عن الخلايا

وخلايا المناحل المصرية نوعان بلدية وأفرنكية ؛ أما البلدية فعبارة عن اسطوانة من نوع طين القلل طولها ١٢٠ سم وقطرها ١٥ سم تسد بقرصين أحدهما به ثقب وتلتصق بالجدران الداخلية إلا من أسفل أقراص الشمع ويبلغ عددها من ٢٠ إلى ٢٥ قرصاً

أما الأفرنكية فعبارة عن صندوق خشبي يتصل بقاعدته أربع قوائم قصيرة وغطاؤه محكم القفل سهل الفتح ، ويرتكز على حافتي جانبين متقابلين من هذا الصندوق عشرة براويز مساحة السطح المحصور بين دائر كل برواز ٣٥,٥ × ٢١,٥ سم² وعرض حافته العليا ٢,٥ سم وبين كل برواز والذى يليه مسافة قدرها ١,٥ سم . كما أن مستوى القاعدة ممتد من أحد جوانب الصندوق إلى الخارج مسافة ١٢ سم لوقوف النحل قبل دخوله الخلية أو طيرانه منها ؛ ويخرج النحل من الخلية ويدخلها عن طريق فتحة عرضية فى قاعدة وجه الصندوق من جهة الامتداد .

وأهم جزء من أجزاء الخلية سواء كانت بلدية أو أفرنكية هو القرص الشمعي ، ويقوم النحل فى الخلايا البلدية ببنائه كله ؛ أما فى الخلايا الأفرنكية فيثبت أساس شمعي على كل برواز ويكون عمل النحل هنا قاصراً على تعلية أضلاع الأشكال المسدسة المنقوشة على هذا الأساس الشمعي ، وهذا الأساس يقلل من تعب النحل فى بنائه من جهة ويجعله يبذل هذا المجهود فى عمل عسل من جهة أخرى . وقد وجد أن المجهود اللازم لعمل أربعة أرطال من العسل يبذل فى صنع رطل واحد من الشمع . وهذا الشمع يتكون من دخول العصير الذى تمتصه النحلة من الأزهار فى غدد لها أسفل الجسم فيستحيل إلى شمع فاذا ملئت هذه الغدد فاض منها الشمع على شكل قشور تزيلها النحلة برجليها الخلفيتين ، وباستعمال فمها ورجليها الأماميتين يمكنها بناء الأقراص أو تعلية الأساسات

ولون القرص الشمعي أبيض فى الابتداء ويحفظ لونه إذا استعمل فى تخزين العسل ، أما إذا استعمل للإفراخ فان لونه يسمر . ويمكن الاحتفاظ بالقرص صالحاً للاستعمال مدة خمس سنوات إذا اعتنى به ولم يكسر عند استخراج العسل .

وعند تمام بناء القرص تقوم الشغالة بجمع العسل وتخزينه وطريقة ذلك أن تمتص النحلة رحيق الأزهار وترسله إلى حوصلة خاصة موجودة بالجزء الأمامي من البطن حيث تحصل فيه تغيرات كيميائية وغيرها ويكتسب الطعم الخاص به ، وبعد وضع العسل فى العيون يتبخر ماؤه قليلا ثم تغطيه الخناث بغطاء من الشمع . ويخزن العسل فى الجزء العلوى والجانبي من القرص ، أما الجزء الأوسط منه فتشغله الأفراخ .

ويقطف العسل مرة فى السنة عادة فى أغسطس أو سبتمبر ، ولكن إذا كانت الخلايا قوية والنحل مجدا يقطف العسل مرتين فى أغسطس واكتوبر . ويلاحظ عند قطف العسل ترك ربع المقدار فى الخلية ليكون غذاء للنحل فى الشتاء . وفى الطريقة البلدية توضع الأقراص فوق بعضها فى إناء من الفخار مثقوب من أسفل ، فترا كم الأقراص يسبب سيل العسل وخروجه من الثقب إلى إلى إناء معد لذلك . وهذه الطريقة طبعاً غير مرضية لما يشوبها من الأوساخ وغيرها وخصوصاً إذا استعملت الأيدى لتكملة العصر

أما فى الطريقة الحديثة فنحصل على العسل بوضع البراويز المحتوية عليه فى جهاز يسمى الفراز يديرها دورات سريعة ، وبنظرية الطرد المركزى ينفصل العسل من البرواز ويسقط فى اسطوانة محيطة بالجهاز ، وعند ضمان نظافة الجهاز يكون العسل نقياً رائقاً حلواً شهياً .

وكلنا طبعاً لا نجهل لذة طعم العسل وحلو مذاقه وخصوصاً وقت طفولتنا كما أننا لا ننسى أنه يدخل فى معظم الفطائر والمربات فيزيد طعمها حسناً .

ويستعمله الغربيون بدل السكر فيضعونه فى أقداح الشاي وما شاكل ذلك . وكثيراً ما يدخل فى العقاقير الطبية لنزيل شيئاً من مرارتها ويكسبها طعماً مقبولا . والعقاقير التى يلزم الانسان منها مقادير صغيرة جداً ولا يتسنى للفرد أخذها بمقاديرها الحقيقية وهى على حالتها الراهنة ، تمزج بالعسل بحساب معلوم ويتعاطى الانسان منها مقادير تحتوي على هذه الكميات الضئيلة من العقاقير وقد قال الله تعالى « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس »

جمال الكرداني
بكلية الزراعة

***

تعليق

ورد فى مقال (مملكة النحل) المنشور فى العدد الماضي من الرسالة أن يرقات ذكور النحل تتغذى بخبز النحل مع جزء من الغذاء الملكى (اللبن) بعد ثلاثة الأيام الأولى ، والحقيقة أن يرقات الذكور والشغالة بعد تغذيتها فى الثلاثة الأيام الأولى بالغذاء اللبني تغذى بغذاء نصف مهضوم من العسل وحب اللقاح (أنظر مملكة النحل العدد الرابع من المجلد الثامن — ابريل سنة ١٩٣٧)

يوسف احمد موسى
معاون أعمال فرع النحل بوزارة الزراعة



من قصص التاريخ

جاسبار هوزيه

١٨١٢ – ١٨٣٣

للأستاذ عبد اللطيف النشار

إن كان البؤس مؤهلاً لبقاء الذكرى فليس أحد أحق بأن يعيش في ذاكرة الناس من جاسبار هوزيه .

أربى عمره على العشرين ولكنه لم يعش في الواقع إلا أربعة أعوام ، وذلك لأن بقية عمره يجب أن تحذف من حساب الأعمار . عاش ما بين العام الذي ولد فيه وبين اليوم الذي بلغ فيه من العمر ثمانية عشر عاماً ، وهو يجهل تمام الجهل ما يعلمه الأطفال دون عمد — ما يعلمونه بالغريزة وحدها . كان يجهل مثلا أن في الدنيا مزارع وأن في هذه المزارع طيوراً وزهوراً ؛ وكان يجهل أن في الدنيا رجالا وأن هؤلاء الرجال يمشون ويضحكون ويبكون ؛ وكان يجهل أن فوقنا سماء وأن في السماء كواكب وأن أحد هذه الكواكب يضيء في النهار وبقيتها تنير في الليل .

هكذا عاش ثمانية عشر عاماً وهو لا يعرف شيئاً عن الدنيا ولا عن الناس ولا عن الأفراح ولا الأحزان .

وفي يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٢٨ وجد جاسبار هوزيه عند باب مدينة نورمبورج في بافاريا وكان هذا أول عهد الناس به وعهده بالناس .

ولما ترك هذا الباب حاول المشي ولكن قدميه خانتاه لأنه لم يعتد المشي فوقع . وهو الآن يمشي لأول مرة في الطريق وهمهم بأصوات غير مفهومة لأنه لا يعرف الكلام . ولو كان يعرفه لخاطب الناس بمثل هذا القول :

« في هذا اليوم أترك للمرة الأولى سجناً مظلماً وضعت فيه منذ مولدي ولم أنتقل منه ، ولم أعرف غيره . ولست بالأعمى ولكن لأول مرة ترى عيناي اليوم ضوء الشمس ، ولست بالأصم ولكني إلى ما قبل لحظات لم أكن أعرف ما الأصوات ؛ وهكذا أنا بينكم لا أستطيع المشي ولا السماع ولا النظر . إنني رجل ولكني أقل بينكم من الأطفال .

وكانت قوانين هذه المدينة شديدة على المتشردين ، فلما رأى الجنود جاسبار مرتمياً على الأرض قادوه إلى قسم البوليس ، ولكن كان عبثاً ما حاوله المحققون من الحصول على إجابة منه

وخطر ببال واحد منهم أن أمامه دواة وقلماً وورقة ، فلما رأى جاسبار هذه الأشياء تناول القلم وكتب اسمه فاستدل المحققون بذلك على أنه يدعى الخرس والصمم ، وعلى أنه متشرد فأرسلوه إلى السجن

وكان من بين الذين حضروا التحقيق معه طبيب اسمه الدكتور « دومر » وقد استرعت هذه الحالة اهتمامه فصار يعوده في السجن ويترقب تصرفاته

ولما جيء إليه في السجن بقطعة من اللحم وبقدح من الجعة ارتاع ورمى بالقدح ، وجيء له بقطعة من الخبز وبقدح من الماء فتهلل وجهه وتندى منشرحاً ثم نام

وفي خلال الأيام الأولى زار السجن عدد كبير من الناس ليروا هذا المجهول . وكان بعضهم يحمل إليه الكعك ، والبعض يحمل إليه اللعب

وكان الفريق الأخير حكيما لأن المعاملة المعقولة مع مثل هذا المخلوق هي معاملة الأطفال . لكن جاسبار كان يرفض كل ما يقدم إليه إلا جواداً خشبياً حين رآه تهلل وأبدى رغبة دالة على نفاذ الصبر في الحصول عليه . فأدرك النظارة من ذلك أنه كان يملك مرة مثل هذا الجواد الخشبي ، وأنه كان في يأس من استرجاعه

وعلى التدريج استطاع جاسبار رؤية النور وسماع الأصوات ، وكان من قبل يبكي عندما يسمع دقات الساعة من الكنيسة المجاورة وينزعج عند ما تمر بالقرب من السجن فرقة موسيقية . وقد أغمي عليه في أول مرة سمع فيها الألحان

وكان الدكتور « دومر » يراقب في اهتمام شديد كل هذه التطورات ، فلما اقتنع بامكان تعليمه طلب إلى وُلاة الأمور تسليمه إليه . وبدأ يعلمه ووجد تقدمه مستمراً . وبعد مدة كتب جاسبار تاريخ نفسه في المجالة الآتية :

« كنت لا أعرف كم عمري لأني لم أكن أشعر بوجود الأيام والليالي ولا بمدلول العمر ، ولكني كنت أشعر بوجودي في الغرفة المظلمة التي لم أعرف غيرها . وكان رجل يزورني كل يوم ويأتي بالطعام ، وكنت أشعر بأني غير وحيد في هذه الدنيا . وقد وضع الرجل أمامي شيئاً لم أكن أعرف ما هو لكن شكله كان يسرني ، وهو جواد خشبي ، وكنت أرى ذلك الرجل يمشي فأحاول المشي مثله ولكني كثيراً ما كنت أقع أو يصطدم رأسي بالحائط . وأفهم الآن — ولكني لم أكن أفهم من قبل — أن ثيابي كانت بين حين وآخر تتبدل بثياب أنظف وأن شعري كان يقص . وأحسب أن ذلك الرجل كان يضع في طعامي مخدراً ليتمكن من إحداث هذا التغيير دون أن أشعر

وفي يوم من الأيام جاء بدواة وقلم وورقة وأمسك بيدي وعودني كتابة اسمي ولم أكن أعرف معنى لهذه الحركة ولا للاسم الذي أكتبه . ولكن سهل عليّ ذلك بحكم الاعتياد . وأظن تعلمي كتابة اسمي قد استغرق نحو عام من العمر . وأحسب أن هذا الاسم ليس هو اسمي الحقيقي ولكنه الاسم الذي أرادوا أن يطلقوه عليّ . على أنني غير راضٍ عنه وأريد إن مت أن يكتب على قبري : « المجهول »

ولست أشك في أن أبي أراد إنكاري ولم يرد قتلي وهذا هو الذي يجعلني أعتقد أن اسم جاسبار هو زيه ليس اسمي . ويظهر أنني أصبحت عبئاً ثقيلا عليهم بعد إذ بلغت هذا العمر فأرادوا التخلص مني . ففي أحد الأيام دخل الرجل الذي اعتاد أن يحمل إليّ الطعام والشراب ولكنه لم يقدم لي طعاماً ولا شراباً فاستغربت وزاد استغرابي لما وضع عصابة على عينيّ وحملني فلم أسائل نفسي عما يراد أن يصنعوه بي

وهنا تخونني ذاكرتي ولكن أحسب أن وجودي في الطريق لأول مرة صدم أعصابي وأظن أنهم أزالوا العصابة عند باب « نورمبورج »

وأقام جاسبار عند الدكتور درمر وصار يرافقه في الأسواق ويظهر بين الناس . وفي أحد الأيام أصيب جاسبار وهو يدخل باب المنزل بطعنة من خنجر قذف به فجرح في جبينه ولكن الجرح كان خفيفاً . ولم يتمكن أحد من معرفة الذي شرع في قتله

لكن هذا الشروع كان كافياً للدلالة على أن حياة جاسبار لم تكن في مأمن بتلك المدينة .

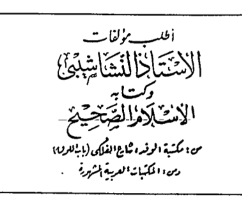
وطلب اللورد ستانهوب وهو من أغنياء الانكليز إلى الدكتور دومر أن يترك له جاسبار فتركه له . وأرسل جاسبار إلى مدرسة في انكلترا . وكان يقيم بها في منزل الدكتور مهرمان .

وفي يوم ما كان جاسبار يسير بالقرب من متحف أوزن فأصيب بطعنة وهرب الذي طعنه .

وعلى الرغم من أن الطعنة كانت مميتة فقد تمكن جاسبار من العودة إلى منزل الدكتور مهرمان . وكان كل ما استطاع أن يفوه به قبل موته أنه ولد في ٣٠ ابريل سنة ١٨١٢ في بافاريا .

وأعلن اللورد ستانهوب أنه يكافئ من يرشد عن قاتله بخمسة آلاف فلورين ، ولكن البحوث الرسمية وغير الرسمية ذهبت كلها سدى . ومات جاسبار في ١٧ ديسمبر سنة ١٨٣٣ .

عبد اللطيف النشار





تشجيع جلالة الملك للكتاب والمؤلفين

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فأمر بمنح الأستاذ محمد بدران ناظر مدرسة بنبا قادن الابتدائية والعضو فى لجنة التأليف والترجمة والنشر خمسين جنيهاً تشجيعاً له على ما بذله من جهد فى ترجمة كتاب « ابراهيم باشا » فقابل الأستاذ بدران هذا العطف الملكي الكريم بالشكر والضراعة إلى الله أن يحفظ لمصر فاروقها

مدالية ذهبية اسلامية الى فضيلة الأستاذ شيخ الجامع الأزهر

تلقت مشيخة الأزهر فى الأيام الأخيرة كتاباً من وزارة الخارجية ، جاء فيه ان جمعية « اسلام سيفا سماج » — وهى جمعية إسلامية كبرى فى بومباى — قد قررت منح حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر « الدالية الذهبية الاسلامية » التى أنشأتها هذه الجمعية وجعلتها وقفاً على كبار المسلمين الذين يؤدون أعمالا ذات أثر ملموس فى تاريخ النهضات الاسلامية الحديثة

وقد أرسلت الجمعية هذه المدالية الذهبية منذ أيام إلى فضيلة الأستاذ الأكبر مشفوعة بصورة من قرار مجلس ادارتها

متى يعلن الأدب المصرى عن نفسه

ظهرت أخيراً ترجمة ألمانية لرواية تركية من قلم الكاتب التركي قربان سعيد عنوانها « على ونينو » فأثار ظهورها اهتماماً فى دوائر النقد الأدبي ، وظهرت عنها فى الصحف الألمانية عدة مقالات نقدية ، ووصفها أحد النقدة المعروفين فى إحدى الصحف النمسوية الكبرى بأنها رحلة بديعة فى القوقاز وبلاد الكرج وفارس ، وفى تلك المناطق التى لا يؤمها الأوربى كثيراً والتى تختلط فيها المذاهب واللغات المختلفة فى صعيد واحد . وليست هذه أول مرة يترجم فيها الأدب التركي الحديث الى اللغات الأوربية ، ولكن المهم هو أن كاتباً تركياً يستطيع بانتاجه الأدبي أن يتقرب إلى الذوق الغربى ، وأن يثير اهتمام الدوائر النقدية الأوربية . ولا ريب أن الحركة الفكرية فى تركيا الحديثة لم تبلغ مابلغته الحركة الفكرية فى مصر من القوة والتقدم ، ولكنها تمتاز بخاصة لم يبلغها الأدب المصرى بعد ، وهي أنها استطاعت فى بعض النواحى أن تجاري الحركات الأدبية الأوربية وأن تعرف عن نفسها ، وأن تلفت أنظار النقد الأوربى ، وأن تنال استحسانه فى بعض الأحيان . أما فى مصر فمن بواعث الأسف أننا لم نوفق فى هذه الناحية بعد ، ولا تزال الأمم الأوربية تجهل كل شيء عن أدبنا وتفكيرنا . نعم ترجمت فى الأعوام الأخيرة بعض القصص المصرية إلى بعض اللغات الأوربية ، ، ولكنها لم تثر اهتماماً نقدياً كافياً ، وكان نقلها إلى الأدب الأوربى نتيجة اتصالات شخصية ، ولم يكن مترتباً على مزاياها الأدبية الخاصة . وما دام الانتاج القصصى فى مصر يعتمد على النقل والاقتباس ، ولا يتحرى الطرافة ودراسة الحياة والظروف القومية فانه سيبقى حيث هو مجهولا من الأدب الأوربى

أما قصة « على ونينو » هذه التى أثارت استحسان النقد الأوربى ، فهى قصة غرامية شائقة وقعت حوادثها فى مدينة باكو حيث كان « على » يدرس فى جامعتها ، وحيث عرف « نينو » أجمل فتاة فى العالم ، وهي تقدم لنا صوراً حسنة عن الحياة الشرقية فى القوقاز وبلاد الكرج وفارس ، وعن العواطف والمشاعر والأخلاق فى هذه الانحاء

الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية فى عصبة الأمم

هبطت على (الأهرام) برقية من جنيف فى اليوم السادس عشر من هذا الشهر تقول:

« ظهر على الشمسى باشا مندوب مصر فى عصبة الأمم للمرة الأولى فى اللجنة السادسة التابعة لهذه العصبة فأحرز فيها نجاحاً جديراً بأن تفاخر مصر به وبأن تشكره عليه جميع البلاد التى تتكلم باللغة العربية

فمن المعلوم أن جميع البيانات والمنشورات التى تتعلق بالتعاون الفكرى كانت تصدر حتى الآن باللغتين الفرنسوية والانجليزية. ولكن على الشمسى باشا أظهر ما لمصر من المكانة منذ افتتاح جلسة اللجنة بتدخله فى المباحثة تدخلاً باهراً أثبت على أثره الفائدة العظيمة والحاجة الماسة إلى الاعتراف للغة العربية بمثل الحقوق التى تتمتع بها اللغتان الفرنسوية والانجليزية »

وقد أوضح هذه النظرية ببلاغة نادرة، وأيدها بحجج دامغة وافق عليها جميع المندوبين وهم من أعظم المفكرين فى جميع البلدان

وهكذا قبل اقتراح على الشمسى باشا ووافقت اللجنة باجماع الآراء على استعمال اللغة العربية فدخلت هذه اللغة دخولاً باهراً في الميدان الدولي وأصبح من الواجب الاعتراف بعلى الشمسى باشا بأنه أدى لمصر وجميع البلاد العربية أعظم الخدم وأجلها

معرض باريس

هل كان معرض باريس الدولى دعاية حسنة لفرنسا، وهل تحقق ما كان معقوداً عليه من الآمال؟ هذا ما تتساءل عنه معظم الصحف الفرنسية؛ وترى صحف اليسار الاشتراكية أن المعرض كان نجاحاً عظيماً لحكومة الجبهة الشعبية التى افتتح فى ظلها، والتى أشرفت على مراحله الأخيرة، ولكن صحف الكتلة الوطنية ترى أن معرض باريس كان كارثة على سمعة فرنسا، وأنه كان فشلاً ذريعاً للحكم الاشتراكى؛ وتقول فى التدليل على ذلك إن المعرض قد فتح بصفة رسمية منذ ٢٥ مايو الماضى، ولكنه فتح قبل أن تتم معظم أقسامه، ولا تزال إلى اليوم بعد أشهر من افتتاحه أقسام لم يتم إعدادها. ولم يجذب معرض باريس إليه إلى اليوم ما كان منتظراً من الزائرين، ولم تقم حكومة الجبهة الشعبية بدعاية قوية فى هذا السبيل، ولم تقدم من التسهيلات ما يغرى بزيارته. وقد شعرت الحكومة بفشلها ففكرت أن تمد أجل المعرض عاماً آخر ابتداء من نوفمبر القادم وهو الموعد الذي حدد لإغلاقه؛ ولكن تقوم دون ذلك صعاب كثيرة يجب تذليلها، ذلك لأن كثيراً من الأمم الكبري المشتركة فى المعرض مثل ألمانيا وانكلترا تعارض فى مد الأجل لأنها تحتاج إلى معروضاتها لتعرض فى جهات أخرى، ولأنها لا تستطيع أن تستمر فى الاشراف على أقسامها فى معرض باريس إلى أجل غير مسمى، والحكومة الفرنسية تسعى إلى مد الأجل لكى تستطيع تحصيل نفقات المعرض وهى تقدر بمليارات الفرنكات؛ وتقدر إدارة المعرض أنه يجب لتحصيل هذه النفقات أن يزور المعرض على الأقل عشرون مليونا من الزائرين، وهو عدد لم يتحقق إلى اليوم سدسه ولا خمسه. وعلى أى حال فان مصير المعرض لن يتطور قبل نوفمبر القادم وهو موعد إغلاقه الأصلى

ضوء جديد على اللغز الروسى

ما زالت روسيا لغزاً مغلقاً على المؤرخ والسياسى، يصعب النفاذ إلى روحها وعقليتها؛ فهى تخرج من ثورة إلى ثورة، وتتحرر من طغيان القيصرية لتقع بين براثن طغيان أشد وأروع هو طغيان البلشفية. وقد ظهر أخيراً بالانكليزية كتاب قيم يلقى كثيراً من الضياء على اللغز الروسى، ويشرح لنا تكوين روسيا السياسي فى مراحله المختلفة؛ وعنوانه: « تاريخ روسيا السياسى والدبلوماسي Political and Diplomatic History of Russia بقلم الأستاذ المؤرخ فرنادسكي Vernadskey؛ ويقول الأستاذ فرنادسكى إن نظام الطغيان هو نوع الحكم الوحيد الذى يصلح لروسيا، وإن روسيا عاشت مدى الأربعمائة عام الماضية تحت نير الطغيان؛ ويستعرض العوامل الجغرافية والتاريخية التى تؤيد هذه النظرية؛ فروسيا أعظم أمم الأرض من حيث المساحة، وكما أن حرمان ألمانيا من الحدود الطبيعية جعلها دائماً دولة عسكرية من الطراز الأول، فكذلك حاجة روسيا إلى الدفاع عن أقاليمها

الشاسعة يجعلها دائماً فى حاجة إلى اليد والنظم الحديدية . ولروسيا مهمة جعلتها قبلتها دائماً هي حماية الشعوب السلافية ؛ وروسيا السوفيتية تسير على هذه السياسة لأن ظروفها وعواملها لم تتغير .

ويقول لنا الأستاذ فرنادسكي أيضاً إنه يستحيل علينا أن نفهم روسيا المعاصرة إلا إذا وقفنا على العناصر التى تتكون منها .

وكتاب الأستاذ فرنادسكي الجديد هو فى الواقع ملحق لكتابه القيم عن تاريخ روسيا « History of Russia » الذى ظهر فى سنة ١٩٢٩ ، وأثار إعجاب الدوائر الأوربية والتاريخية بدقة عرضه وقوة تصويره ورزانة استنتاجه ؛ وقد وصفته الدوائر النقدية يومئذ بأنه أعظم كتاب ظهر عن روسيا فى عصرنا . وقد استقبل كتاب الأستاذ فرنادسكي الجديد بمثل ما استقبل به كتابه الأول من الإعجاب والتقدير ؛ ويعتبر فرنادسكي أعظم أستاذ فى عصرنا للتاريخ الروسى .

جائزة جيته

كانت لجنة نوبل بجامعة استوكهلم قد منحت في أوائل هذا العام جائزة نوبل للسلم للكاتب الألمانى فون أوسيتسكى ، وكان لذلك وقع سيء لدى حكومة ألمانيا النازية ؛ لأن فون أوسيتسكى كاتب ديموقراطى يدعو إلى السلام ومقاطعة الحرب ، وهذا مالا يروق لزعماء ألمانيا الحاضرة ؛ وكان أوسيتسكى معتقلاً فى أحد المستشفيات حينما أسند إليه هذا الشرف الدولى العظيم ؛ وقد احتجت الحكومة الألمانية يومئذ على ما اعتبرته تحدياً لها ، وقرر الهر هتلر أن يحرم على الكتاب الألمان قبول جوائز نوبل ، وأمر بانشاء جائزة أدبية كبرى تسمى بجائزة « جيته » وتخصص لأعظم كاتب ألمانى يخدم بقلمه ودعوته الحركة الاشتراكية الوطنية الألمانيــة . وفى الأنباء الأخيرة أن جائزة « جيته » منحت للكاتب الألمـانى أروين جيدو كولنهاير ، وهو من الكتاب الشيوخ ، ولكنه استطاع أن يجاري النازية ، وأن يحوز استحسان زعماء ألمانيا الحاضرة ؛ ولم تكن له شهرة أدبية من قبل ؛ ولكن الاعتبار الأول فى منحه هذه الجائزة الكبرى ، هو أنه خدم الحركة النازية بقلمه ودعايته ؛ وقد علق أحد الكتاب الألمان النفيين على ذلك بقوله : « إن النجاح الذى أسبغته جائزة جيته على كولنهاير قد عوضه عن الفشل الذى ما فتئ يلاقيه فى حياته الأدبية »

الأستاذ استراثمان Strathmann

فى اليوم الرابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٧ بلغ الأستاذ الكبير المستشرق Strathmann الستين من عمره ، وهو مدير المعهد الشرقى بجامعة هامبورج ، والأستاذ الألماني الوحيد المتخصص فى الفرق الاسلامية والمخرج لمجلة « Der Islam »

لهذا الأستاذ كثير من الأبحاث الاسلامية وله مؤلفات عدة تمتاز بالدقة العلمية والمنطق السليم وتعد لهذا من المراجع الأولى فى الأوساط الأوربية للاستشراق ؛ لأنه إذا كتب يكتب عن تفكير وروية ثم عن احتياط شديد . وهذا غاية ما يمتاز به العالم .

وفوق ماله من المزايا العلمية وسعة الاطلاع فهو وديع هادئ لايحب الظهور ، ولا يميل إلى الاعلان عن نفسه ؛ يسير مع طلبته كأحدهم ولكنه مع ذلك لا يتهاون فى النقد العلمى معهم ، بل قد تكون له فى ذلك أحياناً ثورة نفسية باعثها الرغبة الشديدة فى تعويد تلامذته الكتابة العلمية ، ومن ورائهـا قلب طاهر يضمر لهم كل محبة وإخلاص .

يرحب بالمصريين ولا يضن عليهم بارشاداته القيمة وإن أخذت كثيراً من وقته ؛ ويعمل دائماً على تعريفهم بمشاهير علماء الاستشراق في أوربا ، فاذا وفد إليه وافد من هؤلاء سارع إلى دعوة طلبته وفى مقدمتهم المصريون إلى منزله البهيج المنظر لتبادل الحديث والتعرف بالوافد ثم يشيعهم بعد ذلك بكل عطف . فضلاً عن أنه يدعوهم من وقت لآخر لتوثيق عرى الرابطة بينهم .

فاذا بلغ اليوم الستين من عمره فانما يبلغها ووراءه مفخرة عظيمة من الأبحاث العلمية المستقلة وطلبة نجباء فى كثير من بقاع الأرض .

دكتور محمد البهى

ماذا تعنى الفاشستية

لم تثر مسألة من المسائل فى عصرنا من الجدل قدر ما تثير الفاشستية ؛ ومع ذلك فلا يزال معنى الفاشستية ومراميها الحقيقية

بعيداً عن فهم الرجل العادى . وقد صدر أخيراً بالانكليزية كتاب يوضح هذا اللغز ويفسره عنوانه «الفاشستى» The Facist بقلم الكاتب السياسى ا . أشتون وفيه يحلل معنى الفاشستية ويستعرض مثلها بطريقة واضحة . ومما يلاحظه فى مقدمة كتابه أن من العبث أن ندرس الفاشستية من واقع عقائدنا وآرائنا السياسية ، بل لابد لذلك من أن نلبس جلد الفاشستى ؛ وهو يحاول ذلك فى كتابه ؛ ويلخص لنا مستر أشتون مركز الفرد فى الدولة الفاشستية بما يأتى : « إن الفرد لا قيمة له فى نظر الدولة مطلقاً ، وليس له حق البقاء إلا كفرد من المجتمع؛ وقد استبدلت حقوقه الشخصية بتسليم كل أفكاره ومشاعره ورغباته إلى الدولة ، فلا حق له فى التفكير أو التقدير ؛ ولهذا أصبحت قوة التقدير عنده معطلة جامدة ، وكل ما يسمح له أن يفكر فيه هو ما تسمح به الدولة أن يفكر ؛ وهو يدهش إذ يرى فى العالم أناساً لا يعتقدون أن الفاشستية هى خير طريق إلى الحياة »

ويلاحظ المؤلف أيضاً أن من خطل الرأى أن نعتقد أن الأكثرية من الدولتين الخاضعتين للنظم الفاشستية ، وهما إيطاليا وألمانيا ، ساخطة على هذه النظم ؛ ولكن يلاحظ من جهة أخرى أن ألمانيا وإيطاليا هما دولتان فى طور الفتوة ، وليست لإحداهما كما لانكلترا أو فرنسا أو أمريكا تقاليد ديمقراطية عريقة ؛ بل لقد كانت الفكرة الديمقراطية لديهما طارئة ، ولم يرسخ غرسها ؛ ومن ثم قد استحالت الديمقراطية فى إيطاليا غير بعيد إلى حالة من الفوضى يستغلها المحترفون ، وأما الشعب الألمانى فهو بطبعه شعب عسكرى يجنح إلى النظام والالتفاف تحت الألوية العسكرية ، ويقدم خضوعه للنظم التى تشبع بهذه الروح بسهولة لا توجد فى الشعوب الأخرى

مصاير الحرب والسلام فى أوربا

لفت أنظار الدوائر السياسية فى انكلترا وفى القارة كتاب سياسى خطير ظهر أخيراً بالانكليزية عن نيات ألمانيا ومشاريعها العسكرية عنوانه : « مؤامرة هتلر ضد السلام » Hitler's Conspiracy against Peace ومؤلفه الدكتور ا كنر (وهو غير الطيار الشهير) أحد الكتاب الألمان المنفيين ؛ وفيه يستعرض أغراض هتلر العسكرية كما يبسطها فى كتابه المعروف « كفاحى » ويدلل على أن ألمانيا النازية قد قطعت شوطاً كبيراً فى الاستعداد لتنفيذ هذا البرنامج بالعنف والسيف ؛ وهذه مسألة ليست جديدة فى الواقع ، ولكن الجديد فى كتاب الدكتور اكنر هو المعلومات الهامة التى يذيعها عن جهود الحكومة النازية لتكوين العقلية العسكرية فى الشعب الألمانى وإقناعه بأن الحرب هى وحدها طريق المجد والرخاء ، وعن الدعاية المدهشة التى تنظم فى ألمانيا ضد الدول التى يعتبرها النازى عقبة فى سبيل أحلام ألمانيا . كذلك يقدم لنا المؤلف طائفة من المعلومات الجديدة عن مشاريع ألمانيا فى أسبانيا وآمالها فى محالفة الحكومة الفاشستية التى تحاول أن تعاون فى إقامتها فيها ، وعن أطماع ألمانيا فى المشرق ووسائلها للتمهيد لهذه الأطماع ؛ وهذه الحقائق الغريبة يدعمها المؤلف بطائفة من الوثائق والأدلة الهامة السرية والعلنية . والكتاب صفحة هامة من التاريخ السياسى تلقى ضياء كبيراً على مصاير الحرب والسلام فى أوربا

كتاب عن المسألة الاستعمارية

أضحت المسألة الاستعمارية من أخطر المشاكل الدولية التى تهدد سلام العالم ؛ وما زالت المأساة الحبشية ماثلة أمام الأعين بكل روعتها ، فقد ذهبت أمة عريقة فى الاستقلال هى الحبشة ضحية لهذه الشهوة الاستعمارية الخطرة وأدركت الأمم الصغيرة مرة أخرى أن الحق والسلامة والعدالة الدولية كلمات جوفاء إذا لم تدعمها القوة الناشئة . وقد صدر أخيراً كتاب خطير عن المسألة الاستعمارية عنوانه « المسألة الاستعمارية : أهميتها الدولية » Colonial Problem, les Intern. Significance بقلم الأستاذ الدكتور بون ؛ وفيه يبحث الكاتب دعاوى الدول المحرومة من المستعمرات مثل ألمانيا وإيطاليا واليابان فى المساواة الاستعماريه ويستعرض ثروات الأمم الاستعمارية الكبرى وعدد سكانها ومواردها

الطبيعية وموارد مستعمراتها ، ويقارن مزاياها الاقتصادية ، ويخرج من بحثه بأن القيمة الاقتصادية للمستعمرات مبالغ فيها لأنها ليست فى الواقع عاملا مفيداً فى تخفيف ضغط السكان فى الدول الكبرى ، هذا فضلا عن أن عبء الدفاع عنها وقت الحرب يثقل كاهل أصحابها

ويرى الدكتور بون أن عصر بناء الإمبراطوريات الاستعمارية قد انتهى ، وأن عصرنا هو عصر انحلال لهذه الإمبراطوريات وكل ما تستطيع الدول المحرومة أن تشهده هو عملية التصفية ؛ وينوه المؤلف بالأخص بالعامل النفسي فى الدول المحرومة ويصف حقد ألمانيا لفقد مستعمراتها بواسطة معاهدة فرساى ؛ ويرى أيضاً أن الشروط التى يجب توفرها لضمان سلام العالم هي عود الأمم إلى التعاون ، وتنازل الأمم الاستعمارية عن بعض امتيازاتها للدول المحرومة ، وعود الأمم المحرومة إلى موقف التعقل والرشاد .

أدب البحر

أقامت جمعية « أبولو » في الأسكندرية فى الأسبوع الماضى حفلة شعرية عن أدب البحر نظمها سكرتير الجمعية الدكتور أبو شادى . واشترك فيها جمع حفيل من حضرات الشعراء والمستمعين ...

وقد بدأت الحفلة بكلمة الدكتور أبي شادى، ثم تلتها قصيدة رائعة للأستاذ « احمد محرم » ثم توالى الشعراء فى إلقاء قصائدهم وكانت من القصائد المبرزة فى الحفلة قصائد حضرات الشعراء « يوسف فهمى ، ومحمد السيد ، وزكى غازى ، وفتحى الشهابى ومصطفى السحرتي »

ثم نهضت الآنسة نفيسة السيد وألقت قصيدة جميلة هزت الأسماع ننشر بعضها في هذا العدد تشجيعاً لها على المضي في هذا الميدان ... متجاوزين عن بعض هنات بسيطة لا تشوه من جمال القصيدة .

وقد لاحظنا فى الحفلة أن كثيراً من شعرائها قد خرجوا فى إلقائهم عن قواعد اللغة البسيطة ... فمثلا نرى الشاعر « محمد السيد » قد خرج بكثير من كلمات القافية عن صحتها ... فنراه ينطق كلمة « زفاف » بفتح الزاى وصحتها بالكسر وكلمة « هتاف » بكسر الهاء وصحتها بالضم ... وكذلك نرى الشاعر « مصطفى صبحى » ينطق « ريح الشمال » بكسر الشين وصحتها بالفتح ... إلى غير ذلك مما تمصانا عنه الذاكرة

والحفلة فى مجموعها مجهود موفق نشكره للدكتور أبي شادي ولحضرات الشعراء الأفاضل ، ونهنئ به الاسكندرية التى تلبثت زماناً طويلاً بعيدة عن أمثال هذه المحافل الأدبية

فتحى . م

ذكرى شاعر قوقازى

احتفل أخيراً فى بلاد الكرج والقوقاز بالعيد المئوى لمولد الشاعر الكرجى إيليا شافشفادزى ، أعظم شعراء الكرج فى القرن التاسع عشر وكان هذا الشاعر زعيما وطنياً لعب دوراً عظيما فى إذكاء الروح الوطنية بين مواطنيه ، واتخذ الشعر والأدب سلاحاً لدعوته ، ولبث مدى أربعين عاماً زعيم أمته الفكرى ؛ وقد نظم الشعر بكثرة وبراعة واشتغل بالأدب والصحافة ، وكان له مع القيصرية مواقف وطنية مؤثرة ؛ ولما صدر الدستور الروسى على أثر ثورة سنة ١٩٠٥ ، احتفظت القيصرية بكراسى مجلس الشيوخ لصنائعها من رجال البلاط ؛ ولكنها لم تجد بداً من النزول على ضغط الحركة الوطنية فى القوقاز ، ورأت أن تهدئها باختيار ممثل لها فى مجلس الشيوخ ؛ وكان هذا الممثل هو الشاعر الكبير شافشفادزى أو البرنس شافشفادزي ، وهو الأول والأخير الذى حظى بهذا الشرف ؛ وقد انتظم الشاعر مع ذلك فى صف خصوم القيصرية منذ مقدمه إلى بطرسبرج ، فكانت النتيجة أن القيصرية توسلت إلى التخلص منه بوسائلها المعروفة . وكان أن قتل بعد ذلك بأشهر قلائل على أثر عودته إلى القوقاز . ولكن القيصرية لم تستطع أن تقتل الحركة الوطنية التى أذكاها شافشفادزي بقلمه ولسانه ، بل لبثت آثارها ماثلة فى الجيل الذى خلفه ، والذى استطاع فيما بعد أن يعاون فى هدم القيصرية والطغيان . ومما هو جدير بالذكر أن ستالين زعيم روسيا وطاغيتها الحالى هو من مواطنى الشاعر وتلاميذه فى الوطنية والحركة التحررية



كتاب إحياء النحو

تأليف الأستاذ ابراهيم مصطفى

للأديب السيد عبد الهادى

تتمة

واصل الأستاذ بدوى نقده ، فى مقاله الثانى ، لمعانى الأعراب وأخذ يناقش بعض الأمثلة الواردة فى الكتاب دون اعتماد على نقل قديم أو سند من رأى . فبينا ترى الكتاب قد امتلأ بآراء أئمة النحو القدماء وبالنصوص القديمة الصحيحة مؤيدة بأسماء الكتب وأرقام الصفحات ، وذلك شأن الباحث الحديث الذى لا يقطع صلته بالماضى ولكنه لا يقف عند حده ، ترى نقد الأستاذ قد خلا منه تماماً ؛ وخلو النقد من أمثال هذه النصوص والآراء يسقط قيمته ويحيله إلى مجادلات لفظية لا تغني عن الحق شيئاً .

ولعلي لا أجد بياناً أوفى ولا حجة أقطع فيا بينى وبين الأستاذ بدوى من خلاف حول معانى الإعراب إلا أن أقدم للقارئ الكريم صورة صحيحة دقيقة عن رأى المؤلف فيها ، وإذ ذاك يستطيع القارئ بنفسه أن يحكم للكتاب أو عليه وأن يقدر فضل المؤلف ودقة نظره وأن يعرف إلى أى حد كان هذا النظر صحيحاً جديراً بأن يكون إحياء للنحو بكل مافى كلمة الاحياء من معنى .

واللغة العربية لغة معربة أى تتغير حركات الحرف الأخير من كلماتها تبعاً لتغير التراكيب ، وهذه أهم ظاهرة تلفت النظر فى اللغة العربية ، وقد كان العرب شديدى العناية بالإعراب ، وكان حسهم به دقيقاً يقظاً ؛ وقد قالوا : اللحن هجنة على الشريف . وقال عبد الملك بن مروان : شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن . هـذا شأن حركات الإعراب ومنزلتها فى اللغة العربية .

أما الحركات الأخرى التى ليست حركات إعراب وهى التى تكون فى أوائل الكلمات أو فى أوساطها فليست أقل شأناً فى العربية من حركات الإعراب فإنها أداة للتفريق بين المعانى المختلفة ، فهى تفرق بين اسم الفاعل والمفعول فى مثل مكرَم ومكرِم ، وبين فعل المعلوم وفعل المجهول فى مثل كَتَب وكُتِب ، وبين الفعل والمصدر فى مثل عَلِم وعِلْم ، وبين الوصف والمصدر فى مثل فرِح وفرَح وحَسن وحُسْن ، وبين المفرد والجمع فى مثل أسَد وأُسْد ، وبين الفعل والفعل فى مثل قدِم وقدُم ، وبين معان أخرى كثيرة يتبينها الناظر في مفردات اللغة العربية بسهولة وبكثرة عظيمتين .

من هذا نرى عناية اللغة العربية بالحركات على اختلاف أنواعها وحرصها على الدقة فيها حرصاً شديداً .

وقد حاول علماء النحو أن يعرفوا منشأ حركات الاعراب ، وفكروا فى ذلك طويلا وأنعموا النظر ودققوا الإحصاء ، فهداهم كل ذلك إلى أن حركات الإعراب ليست إلا نتيجة لعامل مذكور فى الجملة ، وإن لم يكن مذكوراً فلا بد من تقديره حتى يسلم العقل بوجود حركة الإعراب لأنها عرض حادث لا بد له من محدث ، ومحال أن يوجد الحادث من غير محدث ؛ وقد أطالوا الكلام فى العامل لأنه فى نظرهم سبب حركات الإعراب ، فجعلوا الأصل فى العمل للأفعال ، والأسماء تعمل حملا عليها ، وبعض الحروف يعمل

حملا على الفعل ؛ وجعلوا بعض العوامل قوياً وبعضها ضعيفاً . وعلى الجملة قد وفوا العامل حقه من البحث والإحصاء ، وألفوا كتباً بجمع قواعد النحو تحت عنوان العوامل . وقد عشنا على هذه النظرية طوال هذه السنين حتى أحالها الزمن إلى عقيدة ثابتة يؤمن بها الصغير والكبير ، فأعطينا للكلمات المختلفة قوة ترفع وتنصب وتجزم ، ولم تعط لأنفسنا هذه القوة ، ونحن الذين ننشئ الكلمات ونغيرها ونبدلها ونحن الذين نرفع وننصب ونجزم .

وقد جاء المستشرقون وحاولوا أن يجدوا أصلا لحركات الإعراب فافترضوا أنها بقايا لزوائد كانت تلحق بالأسماء ، وقد انقرضت الزوائد وبقيت الحركات دالة عليها ، وهذا مجرد فرض لم تقم على صحته أدلة كافية باعتراف المستشرقين أنفسهم

ثم جاء الأستاذ الجليل مؤلف « إحياء النحو » ونظر فيما قرره النحاة في منشأ حركات الإعراب وما انتهى إليه المستشرقون ، أطال النظر فيما سبقه من الآراء والنظريات ، وأطال الاتصال بالعربية وأساليبها الصحيحة فلم يرقه ما قرره أولئك ولا هؤلاء في منشأ حركات الاعراب ، واهتدى بثاقب فكره إلى أن حركات الإعراب إنما هي إشارة إلى معنى خاص يقصده العربي حين يلتزم الفتحة أو الكسرة أو الضمة ؛ ولم يستقم عنده أن يكون الإعراب حكما لفظياً يتبع لفظ العامل دون أن تكون له إشارة إلى معنى خاص ، أو أثر في تصور المفهوم ؛ فما كان للعرب أن يلتزموا هذه الحركات ويحرصوا عليها الحرص الشديد وهي لا تعمل في تصور المعنى شيئاً ؛ ونحن نعلم أن العربية لغة الايجاز ، فالعرب يحذفون الكلمة إذا فهمت والجملة كذلك ، ويهملون مالاحاجة إليه رغبة في الإيجاز كعلامة التأنيث في الصفات الخاصة بالمؤنث ، كما في أيم وظئر ومرضع ، فهل يعقل في لغة هذا شأنها من الإيجاز أن تلتزم حركات إعراب مختلفة دون أن تكون هذه الحركات دالة على معان مختلفة

نرى في اللغة العربية ظاهرة التعدد في صيغ الكلمات والأدوات التي تؤدي وظيفة واحدة ، ولكن لكل واحدة معنى خاص تشير إليه كصيغ الجموع المختلفة ، كل صيغة لها دلالتها الخاصة ، وكالصيغ المختلفة للصفة المشبهة لكل صيغة دلالتها الخاصة ، وأدوات النفي لكل أداة معنى خاص في النفي ، وأدوات الشرط المختلفة كذلك لايعدل عن واحدة إلى الأخرى إلا تبعاً للمعنى ؛ وهكذا في كل الظواهر التي نشاهدها في اللغة العربية ، وما علامات الإعراب إلا ظاهرة من هذه الظواهر الكثيرة تسير على منهاجها وتأخذ حكمها ، وتكون دالة على معان مختلفة ، وتتغير تبعاً لتغير هذه المعاني ؛ فالذي يعدل بالعربي عن حركة من حركات الإعراب إلى الأخرى إنما هو المعنى وليس عاملا من العوامل . ذلك ما ارتآه الأستاذ الجليل مؤلف « إحياء النحو » في حركات الإعراب . أشهد ويشهد معي كل منصف أنه فتح جديد في فهم العربية

فما عسى أن يقول الأستاذ بدوي في ذلك وما عساه أن يقول في هذه العبارة « نريد أن نفهم حركات الإعراب كما نفهم الظواهر الأخرى في اللغة العربية كصيغ الجموع المتباينة وصيغ الصفات المختلفة وأدوات النفي المتنوعة من حيث دلالة كل واحدة منها على معنى خاص ؟ »

وأخيراً لم يرق لدى الأستاذ الناقد أن تضم أبواب الفاعل والمبتدأ ونائب الفاعل تحت باب واحد هو المسند إليه وحجته أن المبتدأ لا يصح أن يكون نكرة والفاعل يصح أن يكون كذلك وللمبتدأ أحكام مع الخبر من حيث تأخره وتقدمه عليه ووقوع الخبر جملة حيناً ومفرداً حيناً آخر وليس للفاعل حظ من ذلك . والجواب عن ذلك سهل يسير ؛ فلو أن الأستاذ فهم كيف وحد المؤلف أحكام المبتدأ والفاعل وأزال وجوه التفرقة بينهما لانتفت عنده كل شبهة ولآمن بأن البابين باب واحد شطرته الصناعة الفاسدة شطرين ، وذلك أننا حينما ننظر إلى المبتدأ والفاعل كشيء واحد هو المسند إليه نستطيع أن نوحد أحكامهما المختلطة ؛ وأهم ما يفرقون به بين الفاعل والمبتدأ أن الفعل يوحد مع الفاعل الجمع أو المثنى ، وأما المبتدأ فلا بد أن يطابقه الخبر ، ولكن المؤلف جمعهما في هذا الحكم بقاعدة سهلة يسيرة هي أن المسند إليه إذا تقدم وجب أن يطابقه المسند في العدد وإذا تأخر وجب أن يكون المسند مفرداً وهي قاعدة مضطردة لا يقام لسبيلها والحال كذلك في التعريف والتنكير ، وذلك أنه إذا تقدم المسند إليه وجب أن يكون معرفة ، وإذا تأخر جاز أن يكون نكرة ، والحال كذلك في التقديم والتأخير، فاذا كان المسند إليه من



كتاب إحياء النحو

اكتشاف لغوى مهم

للأستاذ يوسف كركوش

تمتاز اللغة العربية عن سائر اللغات بحركات الاعراب التى تلحق أواخر الكلم ، إلا ما يقال عن بعض اللغات السامية : كاللغة السريانية : من أن لها علامات اعرابية ، وهى لغة ميتة . وأما سائر اللغات سواء الحية منها أو الميتة فان أواخر كلماتها ساكنة ، مهما تغير موقع تلك الكلمات من الجملة ، وأما باقى أبحاث اللغة : من صرف ، واشتقاق ، وبلاغة ، إلى غير ذلك فهى موجودة فى أكثر لغات العالم

وقد بذل علماء اللغة العربية — منذ القرن الأول للهجرة — جهوداً جبارة للكشف عن حقيقة هذه الظاهرة الاعرابية ، ومعرفة أسبابها ، فاستنبطوا قواعد وضوابط زعموا أنها تكشف عن حقيقة هذه الظاهرة ومعرفة أسبابها . فكان من نتيجة استنتاجهم أن هذه الحركات الاعرابية متأثرة بعامل يكون فى الجملة ، فكأنهم اعتبروها كائنات حية تؤثر أثرها . وإنا لنعترف لهم بالفضل لتتبعهم واستقرائهم كلام العرب ، منظومه ومنثوره ورحلاتهم الطويلة الشاقة لأجل مشافهتهم الأعراب ؛ ولكنهم لم يوفقوا فى استنباط هذه القواعد والدساتير

وقد أولعت منذ نعومة أظفارى — بدرس اللغة العربية ومدارستها، وقرأت كل ماوصل إلى يدى من مؤلفاتها ؛ ومع ذلك لم يزل الشك يساورنى فى صحة هذه القواعد والدساتير التى وضعها علماء اللغة لها ، هذا مع اعترافى بصحة هذه الظاهرة الاعرابية . فكنت على الدوام أتطلب وأتساءل وأجمع المعلومات لعلى أهتدى إلى تعليل صحيح لهذه الظاهرة بحيث يكون قريباً من الذوق الفطري .

وصادف أني اجتمعت بزميل لي يشاركنى هذه الفكرة ويجول فى ذهنه ما يجول فى ذهنى ويتمنى لو تسنى له أن يزيل اللثام عن هذه القضية . فقد احتلت حيزاً كبيراً من عقله فكان حين صادفنى هذه المرة أن قال لى قبل كل شىء : البشرى . فقلت له : ومثلك من يبشر بخير . فقال : طلع علينا كتاب من مصر لأستاذ مصرى اسمه إبراهيم مصطفى واسم الكتاب « احياء النحو » فيه تحقيق فكرتنا . ثم ناولني نسخة من هذا الكتاب

ألفاظ الصدارة وجب تقديمه ، وإن أوقع تقديمه فى لبس وجب تأخيره والعكس بالعكس ، وهكذا نجمع أحكام الأبواب الثلاثة تحت باب واحد فنسهل بذلك على الدارس المبتدىء ونحببه فى دراسة النحو ولا نفوت من أحكام اللغة حكما واحداً صغيراً أو كبيراً .

وإنى أسأل الأستاذ بدوى سؤالاً واحداً بعد ذلك كله : ألم يجد فى كتاب إحياء النحو شيئاً واحداً يستحق التقدير والثناء حتى كان كل نقده من أول حرف إلى آخر حرف ذماً وانتقاصاً ؟ لا أظن أحداً من الناس يوافقه على أن كتاباً خرج فى مائتى صفحة ليس فيه موضع لثناء أو تقدير ، ولو أن كتاباً خرج كذلك بالفعل لوجب على من يريد أن يحاربه أن يتلمس له موضع حسن حتى يوهم الناس أن نقده برىء خال من الهوى والتعصب .

السيد عبد الهادى

بالدراسة العليا بكلية الآداب

فكأن تبرزوني به عظيا لا يوصف . فقرأته بإمعان وترو متجرداً من عواطف الحب والكره ، فرأيت المؤلف قد علل الحركات الإعرابية من ضم وفتح وكسر ، وكذا التنوين وعدمه بتعليل طبيعي فطري يجرى مع الذوق السليم . فكدت أطير فرحاً وزال عني ذلك الكابوس الذي كان جاثماً على صدري

فالكتاب جليل عظيم القدر ، لا باعتبار مادته ، بل باعتبار نزعته التجديدية ، وترتيب معلوماته ترتيباً منطقياً لاستجلاء تلك الفكرة السامية . فهو بحق « إحياء النحو » . وهذا العمل اكتشاف مهم في اللغة العربية : لاظهاره ما للغة العربية من مزايا جليلة ، ولازالته عناء البحث عن طالبيها ، فبعد أن كان الطالب يحتاج إلى مدة كبيرة لمعرفة أسباب هذه الظاهرة صار يكفيه من الوقت لمعرفة ذلك أقل بكثير

وكنت أعتقد أن هذا الكتاب سوف يحدث ضجة في العالم العربي ولا سيما مصر ، وأن الأقلام ستأخذه بالنقد والتحليل لاظهار حقيقته ؛ ولكن — مع كل الأسف — لم يقع بعض هذا ، مع أن في العالم العربي لا سيما في مصر فطاحل العلماء في اللغة العربية . هذا مع خطورة هذه المسألة ، فهي جديرة بالبحث لأنها مسألة حيوية لها صلة بالتفكير والتعبير . ولو أن مثل هذا الكتاب ظهر في إحدى البلدان الغربية لأعاروه أهمية عظمى . وإني لأربأ بأبناء أمتي أن يبلغ بهم الجمود هذا الحد فيصدق فيهم قول أعدائهم من الأجانب : إن الأمة العربية أمة بعيدة عن التطور عدوة لكل تجديد .

والعجيب كل العجيب من الأستاذ « أحمد أمين » أنه حين كتب في (الرسالة) حول موضوع « ضعف اللغة العربية » لم يجعل الضعف ناشئاً من قبل قواعد اللغة ، بل اعتبره ناتجاً من قلة كفاية المعلم ، وما إلى ذلك من مناهج ، وتفتيش ووسائل التربية . وهذه لا ينكر أن لها أثراً في ضعف اللغة ، ولكنها في المرحلة الثانية ، وهي غير خاصة باللغة العربية ، بل تشمل سائر الدروس

وبصفتي فرداً من أبناء الأمة العربية — أقترح : أن يشكل (مجمع اللغة العربية الملكي بالقاهرة) لجنة تنظر في هذا الكتاب وتمحصه تمحيصاً دقيقاً ، وتختبر هذه النظرية التي دعا إليها المؤلف في كتابه وتضع لنا قواعد على ضوء هذه النظرية . إذ أن مثل هذا العمل من أهم أغراض المجمع المذكور ، فان من جملة أغراضه أن يبحث كل ماله دخل في تقدم اللغة العربية

(الحلة — العراق) يوسف كركوسه

كتاب في قصور دمشق

ثلاثون قصة وقصة (من لب الحياة)

تأليف الأستاذ محمد النجار

أخذ الاهتمام بالقصص يزداد في العالم العربي لما تبين من نفاسة قيمته الفنية والأدبية ، وعظم فائدته القومية والانسانية . وكانت مصر وما تزال مجلية في الحلبة ؛ ثم بدا نمو هذه الحركة ونشاطها في لبنان . أما دمشق فظلت في تأخر حتى إذا ظهر كتاب (في قصور دمشق) رحب به الأستاذ منير العجلاني في المقدمة التي كتبها له واستزاد مؤلفه من أمثاله وحثه على الاستمرار في الكتابة . وأقاصيص الكتاب صغيرة تتراوح بين ثلاث وأربع صفحات تفضح — إذا صح القول — كثيراً مما في زوايا الخدور في صراحة يستهجنها بعض المتأدبين ويحبها المحافظون ، وفيه كثير من الأساليب واللهجات العامية

تلذ قراءة هذا الكتاب للفتيان لأنهم يذهبون مع رغباتهم ويستطيبون لذات الحياة مهما كبحوا جماح أهوائهم وربما فسروا حكاياته مع ما يتفق وغرورهم ، أما الكهول فلعلهم لا يجدون في هذه الأساطير كبير غرابة لأنها أحاديث تملأ المجالس الخاصة ، وما هي بالأمر الذي يطغى على دمشق بل هو ناحية صغيرة من نواحيها الجديرة بالاهتمام . وليست هذه الحال تختص بدمشق وحدها ففي كل بلد من عجائب أسرار البيوت ما تعافه النفوس الأبية .

ولا ريب أن الأستاذ النجار قد عانى من المشاق في سبيل تلقف هذه القصص وجمعها من مجالس اللذات وأفواه الهامسين وأحاديث الأندية ، وهو على عنايته بإبراز هذه الصور واضحة مجردة عناية يشكره الأدب الواقعي عليها ، مصلح ينبه قومه إلى هذه الأسواء وضرورة معالجتها .

(دمشق) مظفر البقاعي

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي بعمارة عجم رقم ٧)

5 me Année, No 221.

Lundi - 27 - 9 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٢١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ رجب سنة ١٣٥٦ — ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العــدد

مصر العربيـــــة

للأستاذ محمد اسعاف النشاشيبي

أبهجتنا معشر العرب ونعشتنا كلمة مصر المعرقة في العربية والكرم فى (عصبة الأمم) فى هذا اليوم ، ذودا عن فلسطين إحدى الولايات (المديريات) المصرية من قبل ، وحدتنى على[1] أن أبعث إلى (الرسالة) مجلة الأمم العربية بهذا القول ، وقد أنشأته إذ سمعت ضُباح[2] غرّ غُمر فى عربية مصر ، ومصرية عمرو[3]

***

لما كان مهرجان شاعر العربية الأكبر أحمد شوقي (رحمه الله) فى شوال سنة (١٣٤٥) وجئت القاهرة : الحاضرة اللغوية للأمم العربية كما أجهر بكلمتى فى ذلك اليوم المشهود ، استهللتها بهذا الكلام : « ليست دار العربية رمالَ الدهناء أو هضبات نجد أو الحجاز أو إقليم الشام أو أرض العراق ، بل دارها كل مكان ينطق بالضاد أهله ، ويتلو فيه كتاب محمد (صلوات الله عليه) قراؤه ؛ وأقوى القوم عربية بل العرب العرباء أعرفهم بأدب العربية ،

(١) حذاه على كذا لا إلى كذا
(٢) أصل الضباح للثعلب والبوم
(٣) هو سيدنا أبو عبد الله عمرو بن العاص الصحابى العربى المصرى (سلام الله عليه ورضوانه)

فأهل مصر إذن هم القبيل المقدم في العربية ، وهم سادات العرب»

وهذا التاريخ المصرى ، وهذى أحاديثه ، وهذه الاسلامية المشرقة فى مصر ، وهذه العربية المنورة فى مصر ، وتلك الأيادى البيض ، وتلك الآثار ، وهذه المساعى في هذا الزمان ، وهذه كلة مصر المجلجلة في (دار العصبة[1]) ذائدة عن فلسطين فى هذا الوقت . كل ذلك يقول لى : صدقت ، صدقت ! . . .

فقد ساندت مصر العاملين فى إعزاز العربية وإعلائها يوم كانوا يعملون ، وقد حمت مصر هذه العربية حين لا أباة ضيم ولا حماة يحمون

حمت مصر دونهم هيكل الديـــن وروح البيان من فرقانه[2]

وإن كانت إنما وقت عربيتها وحمت إسلاميتها ، إذ الاسلامية والعربية والمصرية كلمات فى هذا الوجود مترادفات

وما يجادل فى عربيــة المصرية ومصرية العربية إلا كافر بالشريعة الكونية ، وإلا محترق محتقد على هذه الإسلامية ، وإلا ناشئ أضلته على علم (وهو غافل) هذه المدرسة الغربية ، وإلا وغد سمسار باع التالى رخيصاً فى سوق العلوج والفرنج والحكومات الأجنبية ، وإلا غبي جاهل ، ولهذا يقال :

قد اطلعت على سرى وإعلانى
فاذهب لشانك ليس الجهل من شانى[3]

وإن مصرياً يجهد أن ينسلخ من عربيته لطالب فى الدنيا محالا ، ولن يكون مرغبه إلا من بعـد أن يفارق نحلته ، وينسى لغته ، ويضمحل أدبه ، ويفنى مجده فى ثلاثة عشر قرناً ، ويمحى حسبه ، فكونُ مراده إنما هو بعدمه ، ولن يكون هذا إلاّ ألاّ يكون هو

ومكلف الأيام ضـد طباعها متطلب فى المـاء جذوة نار[4]

. وإذا ذكرنا العربية فإنما نعنى هـذه العبقرية ذات التعاجيب المحمدية ، وهذه القوة الخلقية ، وهذه المقاصد القرآنية ، وهـذه الآداب الالٰهية ، وتلك الحضارة والمدنية

هذه هى العربية ، وإن أظل وهن ، وإن جاء ضيم ، فالقوة فى النفوس ما بادت ، والعزة فى غد « إن مع اليوم غداً يا مسعدة[1] » وإن درج أهلها الأولون أنشد المصريين المنشدون:

فان يك سيار بن مُكرم انقضى فانك ماء الورد إن ذهب الورد[2]

وإن قال عربي متمم إلى العربية ، ما معه من العربية شيء : لست بعربى ، فليس لمصرى أن يقول مقاله ، ويضل ضلاله ؛ إن المصرى هو وارث ذاك المجد ، والمصرية هى وارثة العربية . وإن لم يكن المصرى هو العربي ، فليت شعرى من يكون العربى ؟ وإن لم تكن مصر دار العربية ، فأين — يا قوم — فى الدنيا دارُها ؟

وإن قال زنيم نيط بالمصرية : لست فى شيء من العربية ، قالت له المصرية : ولست فى شيء من المصرية . أنكر العربية فأنكرته المصرية

وأنت زنيم نيط فى آل هاشم
كما نيط خلف الراكب القدح الفرد[3]

إذا لم يكن المصرى هو العربي كل العربى فهل العربي هو المغربي أو العراقى أو الشامي أو الحجازى أو النجدى أو اليمانى أو الحضرمي أو العمانى أو ذلك البدوى ، ذلك الأعرابى

هل ذهب كل هؤلاء بعنقبة العربية وقعد المصرىّ حجرة[4] العربيةُ رحجرٍ[5] عليه . . . ؟ ؟ ! !

إن العربية لن تنكر بنيها كَبُروا أو حقروا ، نأوا فى الدار أو قربوا ، قلّ عديدهم أو كثروا ، فكل أولئك بنوها ، ولكن يحزنها ويمضها عقوق فى بنيها ، وأقرب الأبناء إلى أمهم ابن فى الدنيا برّ . وهل رأت العربية فى حين أبرَّ بها من مصر ؟

وليست العربيــة بالعزوة ، ليست العربية نسبة ، ولكنها عقيدة ونحلة وملة ، ولكنها خليقة وأدب ولغة

ليست العربية نسبة ، ولكنها جامعة تؤلف بين القلوب ، وفيها وفى شريعتها الحرية ، وليست كمثل جامعة غربية ، لأهلها ضجيج وعجيج « وأولئك الأغلالُ فى أعناقهم »

---

(١) أول هاد إلى مثل هذه العصبة هو كتاب الله : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغي حتى تفئ إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل »

فى (جامع البيان) وهو تفسير ابن جرير الطبرى : قال ابن زيد : هذا أمر من الله أمر به الولاة كهيئة ما تكون العصبة بين الناس ، وأمرهم أن يصلحوا بينهما فان أبوا قاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله فاذا رجعت أصلحوا بينهما

(٢) شوقى (٣) مسلم بن الوليد (٤) التهامى

(١) يضرب مثلا فى تنقل الدول على مر الأيام وكرها (الميدانى)

(٢) المتنبي

(٣) حسان (٤) ناحية (٥) حرام

فالعربي هو ذلك التمدن المتحضر المهذب المثقف ، المتعلم العالم العزيز الأبى الناطق بلسان القرآن . وليس بعرب « خُرّابُ باديةٍ غَرثَى بطونُهم (١) » ولا قراضيب (٢) فى (الجزيرة) ولا مُدْلَنفِقون (٣)

وآنف من أخى لأبى وأمى إذا مالم أجده من الكرام (٤)

وقد قلت من قبل : ألاَ إننا كلنا أجمعين عرب أو عربيّون وإنه ليُحقّ هذا لهجة عربية ألهجنا منذ القديم بها ، وأدب عربى نُجِعْنا به (٥) وتروينا منه ، وخلق عربى اشتملنا عليه (٦) . وما الأمة إلا لغتها وأدبها وخلقها ، وكفى بذلك جامعاً ، وإن النسب الواشج إلا زائدة ، ولو عزا العازى كل أمة وقتش أصلها لتشظّت وراحت أمماً . . .

وهو قول لم يلاق مكذّباً ، ولم يجد أحد عنه مُتَعَقَّباً (٧)

وإن هذه العربية أم العلم وربة التفكير ، وزعيمة البحث والنظر — لن تقول لمصرى من أبنائها — وهنالك فى وادي النيل ماهنالك وهنالك التاريخ الناطق، وهنالك مجد باسق، فلن تقول له : طلّس (٨) وطرّس ، بل تقول له : مجّد وقدّس ؛ إنك قد سكنت جنتين ، وكنت ذا المنقبتين ، وكانت دارك مصدر المدنية ، وموئل العربية قد جمعت العز من أطرافه : سؤدد (المصرى) ومجد العربى (٩)

مصر مصدر العلم والمدنية

مصر موئل العرب والعربية

مصر ! حيا الله مصر ! حيا الله رَبعَها (١٠)

محمد اسعاف النشاشيبي

(١) الثني ، والخارب اللص وخصه الأصمعى بسارق البعران
(٢) القرضوب : اللص
(٣) الادلنفاف : المجئ للسرقة فى ختل واستتار (المخصص)
(٤) الثنى
(٥) سئل أبيّ عن النبيذ فقال : عليك بالماء ، عليك بالسويق الذى نجعت به أى غذيت به فى الصغر « الأساس »
(٦) من المجاز : عجبت من حاله واشتماله على أخلاق جميلة وسير مرضية (الأساس)
(٧) متعقباً : متفحصاً يعنى أنه من السداد والصحة بحيث لايحتاج إلى تعقب
(٨) طلس الكتاب : محاه وطرسه بالغ فى إزالته
(٩) من مهيار
(١٠) ربعها : قومها

سلوك المرأة
وسلوك الرجل
للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أمر النساء فى كل حال عجيب . وإذا كان أحد من الرجال يفهمهن — كما ينبغي أن يُفهَمن — فأنا والله بهن جاهل . ولى العذر ، فما أراهن يفكرن فى شأن على نحو ما أفكر أنا أو يتناولنه من الناحية التى أتناوله منها . وأحسب أن هذا الضرب من الجهل هو الوحيد الذى لايعيب المرء أو يسقط قيمته أو يزرى به . قالت لي مرة فتاة من معارفنا : « ماقولك ؟ » قلت : « خير إن شاء الله ! نعم ياستى ! » قالت : « هل يشغلك شيء غداً ؟ » قلت : « إذا كنت تمنين بالشيء العمل فإنه لا ينقطع ؛ على أن أمرى بيد الله ثم بيدى.فأشيرى كيف تأمرين ، والعوض على الله » قالت : « اسمع . نريد . . »

فقاطعتها : « نريد ؟ . هكذا ؟ بلفظ الجمع ؟ »

قالت : « لا تقاطع من فضلك . اسمع ... نعم أختى وبنت عمى وأنا »

قلت : « أهلاً وسهلاً . . تفضلى »

قالت : « الجو فى هذه الأيام بديع .. تهيّئ لنا زورقاً حسناً نظيفاً مريحاً ، نركبه فى النيل ونقضى يوماً كله على متن الماء ، ونتغدى فيه أو فى إحدى « القناطر » التى نمر بها فى طريقنا »

قلت : « اقتراح جميل، ولكن.. أنا وحدى أكون معكن ؟ وفى خدمتكن ؟ ارحمن ينمى يافتيات ! »

فقالت : « تستطيع أن تدعو فلاناً وفلاناً »

فدعوتهما وأعددنا الطعام ومررنا بهن فحملناهن إلى قصر النيل حيث كان الزورق ينتظر ، ولم ألق إليهن نظرة حتى نزلن من السيارة وشرعن ينحدرن إلى مكان الزورق ؛ فدهشت ، فقد كانت ثيابهن زاهية نظيفة مكوية ، بل كانت أنخر وأبرع ما رأيتهن فيه ، فتناولت ذقني بيدى وقلت : « هيه ... نهارك أسود يا أبا خليل » ولم أكد أهز رأسى هزتين حتى نادتنى إحداهن فنظرت إليها

مستفسراً فقالت : « خذ بيدى فإنى أخشى أن أزل وأقع على التراب أو تنوص قدمى فيه » فسألتها وأنا أتناول يدها :

« أين تحسبين نفسك ؟ فى سباق الخيل ؟ ما هـذه الثياب التى لبستها ؟ ؟ »

قالت وهي تحنى رأسها لتنظر إلى قدميها : « ما لها ؟ ألا تعجبك ؟ ؟ »

قلت : « تعجبنى وتعجبنى .. ولـكنها لن تعجبك بعد نصف ساعة فى الزورق »

ولا أطيل . ركبن ، ووثبنا نحن وراءهن فأشرنا إليهن أن يجلسن فنظرن إلى المقاعد — ولم يكن بها سوء والله — متأففات مترددات فنفضنا لهن التراب الموهوم عن الحشايا المطروحة على المقاعد . وصحيح أنها ليست وثيرة جداً ، ولا جيلة المنظر ، ولـكنها نظيفة . غير أن فتياتنا تبادلن نظرات تنبئ بالامتعاض ولا تنبئ بالرضى ، ثم انتهين بأن جلسن متلاصقات جداً محاذرات أشـد الحذر ؛ وكان لابد أن أغضى عن ذلك فليس ذنبى أنهن جئن فى ثياب لا تصلح إلا على الأرض اليابسة . وناولت أحد إخوانى مجدافاً وأخذت أنا الآخر ، وتركنا الدفة لثالثنا ، وقام الملاح فدفع الزورق عن الشاطئ بالمردى ، ثم بدأنا نجدّف . وكنت أضرب الماء برفق شديد حتى لا يطير منه شئ ، ولـكنّ رشاشاً منه كان يصيبهن على الرغم من ذلك فيصرخن ويتلاغطن ثم يتدانين ويعبّسن ويمسكن عن الـكلام ولا تبقى لهن عين يدرنها فى الناظر التى جئن لينعمن بالنظر إليها

وأخيراً قال الذى بيده الدفة : « خذ أنت الدفة وأعطنى المجداف »

فلم أتردد فى القبول فما كان يسرنى أن أكون سبب التنغيص . واتخذ صاحبى مقعده وراح يضرب المـاء بعنف فيتعالى الصراخ فلا يعنى بأن يلتفت إليهن ولا يزيد على أن يقول وهو يضحك : « لا بأس ! سينشف الماء ثم يفرك الوحل فلا يبقى شئ ... » وقد حرن ماذا يصنعن لاتقاء هذا المطر . وكنت ربما ضحكت إذ أراهن يخرجن مناديل فى سعة الـكف وينشرنها على حجورهن كأنما من الممكن أن تستر شيئاً .

وأخيراً بلغنا مكاناً دنونا من شاطئه ، وقال الملاح : إن الأحسن أن يجر الزورق بالحبل . وقام فأخرج حبلا طويلا شده إلى الزورق ووثب إلى الشاطئ وراح يجر ، وقعد أحدنا عنـد الدفة ليضبط الزورق فلا يجنح أو يلصق بالأرض . فعاد إلى الفتيات البشر وانطلقت ألسنتهن وإن كن لم ينسين موجدتهن علينا لما أصابهن من البلل . ثم تهامسن ونهضن وجعلن يصحن بالملاح وهو بعيد لا يسمع ونحن نسألهن ماذا يبغين وهن لا يباليننا أو يجبننا . وسمع الملاح فوقف وارتد الينا ، وإذا بهن يردن أن يتولين هن جر الحبل أو « اللبان » كما يسميه النواتية . فنصحنا لهن ألا يفعلن وحذرناهن وأنذرنهن فأبين إلا أن يفعلن ، وفى ظنهن أن هذا أسلم لثيابهن ، وأشرح لصدورهن وأجلى للصدأ وأجلب للصحة أيضاً ، فتركناهن يفعلن وأدنينا لهن الزورق من الشاطئ وحملناهن واحدة واحدة إلى الأرض . فذهبن يجرين إلى أول الحبل حيث تركه الملاح ودفعنا نحن السفينة إلى الماء مرة أخرى وكنا نراهن فاذا باثنتين منهن يتناولان الحبل معاً وكانت الثالثة تدور حولها ولا تصنع شيئاً فمرة تكون أمامهما وتارة تكون خلفهما وهكذا ، فانتهى الأمر بأن التف الحبل على سيقانهن جميعاً فصرخن ووقفن يحاولن تخليص أرجلهن مما أحاط بها فخلصت أرجلهن ولـكن الحبل صار على صدورهن وأعناقهن ، والزورق يضطرب بنا ونحن نحاول أن نضبطه بالمجداف . واستطعن أخيراً وبعد لأى وصراخ فظيع أن يتجنبن شنق أنفسهن ، فتهامسنا بأن الأولى بنا أن نسكت وندعى الجهل بمـا حدث وأن ننظر ماذا يصنعن بعد ذلك . ويظهر أنهن خجلن أن يقلن شـيئاً فمدن إلى الحبل واستأنفن جره فحمدنا الله ولـكنهن كن يمشين شيئاً ، ثم يقفن فجأة وعلى غير انتظار منا ، فيضطرب بنا الزورق فناديناهن ، فلمـا تنبهن إلى أننا نريد أن نكلمهن وقفن وأقبلت علينا واحدة منهن وقفت بعيداً وأشارت إلينا تسألنا عما نريد ، فصحت بأعلى صوتى : « لا تقفن » فقالت ويدها على أذنها : « إيه ؟ » فقلت لصاحبيّ : « صوتكما أقوى فكلاها وأفهماها أن الوقوف يضايقنا ويتعبنا ، ففعلا . فلما عرفت ما نريد بدأت تسألنا هل نحن مسرورون ، وهل هن يحسن جر الحبل ؟ فأثنينا على براعتهن ، وامتدحنا حذقهن ، وأكدنا لهن أن الدولة حين تحتاج إلى ربابنة ونواتية للأسطول فانهن سيكن خير المرشحات أو خير أساتذة المدرسة البحرية . وكنا نرجو أن

تعود إلى زميلتها فيستأنفن جر « اللبان » ولكنها تذكرت أن بها حاجة إلى منديل مما فى حقيبتها فأخرجناه لها وحملناه إليها فذهبت به وإذا بثانية تعود وتصيح بنا أنها هى أيضاً تحتاج إلى منديل فناولناها إياه ، وبدا لها أن الثالثة قد تطلب منديلها فيحسن أن تأخذه لها على سبيل الاحتياط ، فأجبناها إلى ماطلبت ، فذهبت ثم عادت وقالت إن الثالثة لا تريد المنديل فهى ترده لنضعه حيث كان فأطعنا ومضت ، وبعد دقائق أخرى عادت الثالثة تقول : إنها رأت أن الأحسن على كل حال أن تأخذ المنديل ، فدعونا الله أن يمينا على الصبر وأعطيناها المنديل فذهبت وأوعزنا إلى الملاح أن يلحق بها وأن يتولى هو الجبل ولا يدع للفتيات إلا المظهر

ولما جاء وقت الطعام تخيرنا رقعة من الأرض خضراء ظليلة وتأهبنا للجلوس فنظرت الفتيات إلى الأرض مشفقات من البلل كأنما تق مايخشين على ثيابهن التى خططها الجبل بالوحل فنشرنا لهن مناديلنا فان مناديلهن لاتصلح لشىء إلا للزينة . فجلسن عليها كالرماح استقامة ، وكنا نشعر أنهن غير مرتاحات وأن الجلسة متعبة لهن ، وأن خوفهن البلل ينغص عليهن ولكن ماذا كان يسعنا أن نصنع ؟ ولو كان يسعنا أن ننقل لهن بعض أثاث البيت من سجاجيد وحشايا ومتكآت وما إلى ذلك لفعلنا . ولكنا لم نكن نعلم أنهن سيرتدين هذه الثياب التى تصلح للعرض ولا تصلح لرحلة على النيل .

وانحدرت الشمس قبل أن نعود إلى قصر النيل فكدن يبكين لأنهن تأخرن وكن على موعد مع الخياطة ، فعجبنا لا تمادهن معها فى يوم يخرجن فيه لمثل هذه الرحلة التى طلبنها وأردن أن تستغرق النهار كله ... ولكن المرأة هكذا أبداً ... تكون لها عين فى الجنة وعين فى النار . ولست ألومها أو أعيبها فانها طبيعتها التى لا حيلة لها فيها ، ولكنى أرجو ألا ألام — وأن أعذر — إذا كنت أشعر بالحيرة والعجز فى كثير من الأحيان عن الفهم الصحيح والتقدير المرضى المريح ؛ وأحسب أن الرجال جميعاً مثلى جهلة مساكين . ولا شك أن المرأة يحيرها كذلك مالا تفهم من طباع الرجل وسلوكه ، فالعجب بعد ذلك أن الجنسين يستطيعان أن يقنعا أنفسهما بأنهما متفاهمان ، وأن كل شىء بينهما على ما يرام

إبراهيم عبد القادر المازنى

٢ — مصر
فى أواخر القرن الثامن عشر
كما يصفها الرحالة سافارى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أشرف سافارى على القاهرة بعد رحلة ممتعة فى النيل ، فلم ترقه العاصمة ولم تبهره مناظرها كما بهرته مناظر الأسكندرية ؛ ذلك أن القاهرة التى كانت خلال العصور الوسطى أعظم مدن الاسلام ، انتهت فى أواخر القرن الثانى عشر إلى مدينة متواضعة تحيط بها التلال والخرائب ويصف لنا سافارى خطط العاصمة المصرية يومئذ ، وضيق شوارعها وأزقتها ؛ ولكن القاهرة كانت مع ذلك تلفت النظر بمساجدها الثلاثمائة وقلعتها التاريخية المنيفة ، ويقدم الينا سافارى عن القلعة وعن أبنيتها وسكانها صورة شائقة ، فيقول لنا إنها فقدت مناعتها القديمة منذ اخترع الديناميت ، وان لها مدخلين تحرسهما ثلة من الانكشارية وستة مدافع مصوبة نحو مسكن « الباشا » ذلك أن الانكشارية يمالئون البكوات المصريين ، والبكوات هم الذين يملون إرادتهم على الباشا ، وفى داخل القلعة قصر سلاطين مصر السالفين ، قد غلب عليه العفاء والخراب ، ولكن بقيت منه عدة أعمدة فخمة وجدران زاهية ؛ وفى أحد أبهائه المهجورة تصنع الكسوة النبوية التى يحملها أمير الحج كل عام . ويسكن الباشا بناء كبيراً يطل على «قره ميدان» ، ويعقد الباشا الديوان ثلاث مرات فى الأسبوع فى غرفة الديوان الشاسعة ، وقد خضبتها دماء البكوات المصريين الذين فتك بهم الباب العالى قبل ذلك بأعوام قلائل . أما اليوم فهم سادة مصر ، وليس لممثل السلطان أية سلطة فعليـة ، وإنما هو أداة فى أيديهم يحركونه طبق أهوائهم ، بل هو سجين فى القلعة لا يستطيع أن يغادرها دون إذنهم . أما الانكشارية فيسكنون فى قصر صلاح الدين وقد بقيت منه أطلال تدل على عظمته السابقة ، وأربعون عموداً من الجرانيت الأحمر ؛ وإلى جانبه توجد منظرة عالية تشرف على القاهرة ، يرى منها منظر المدينة الرائع بميادينها ومآذنها وحدائقها

وهنا لا يتمالك سافارى نفسه من أن يصيح : « ان النظر من هذه المنظرة لتأخذه نشوة من التأملات اللذيذة » ولكن يغشاه فى الحال كآبة ، فيقول لنفسه : « ان هذه البلاد الفنية التى كانت عصوراً ملاذ العلوم والآداب والفنون يحتها اليوم شعب جاهل بربرى يسومها سوء الخسف ؛ أجل إن الطغيان ليسحق بنيره الحديدى أجمل بلاد العالم ؛ والظاهر أن شقاء الانسان يزداد بنسبة ما تقدمه الطبيعة لإسعاده . . . »

هكذا يقدم لنا سافارى ذلك المنظر المحزن منظر مصر الاسلامية وقد أودى الحكم التركى الغاشم بكل عظمتها وبهائها السابقين .

***

ويصف لنا سافاري ثغر بولاق الذى كان مدخل القاهرة يومئذ ، ومرساه الضخم الذى يغص بمئات السفن ، وما به من الخانات التى خصصت لسكنى التجار الأجانب وتخزين بضائعهم . وفى مياه بولاق أيضاً كانت ترسو سفن النزهة البديعة التى يتخذها البكوات وغيرهم من الأكابر للنزهة والسمر فى النيل أيام الصيف الحارة ولا سيما فى الليالى القمرة . ثم يصف الرحالة بعد ذلك جزيرة الروضة والمقياس ، ويستعرض تاريخ مقاييس النيل وقصة وفائه ؛ وهنالك فى الروضة على مقربة من المقياس كانت طائفة من القصور الفخمة التى خصصها البكوات للتنزه فيها مع حريمهم وهى منعزلة تحيط بها الرياض الفيحاء ، ولا يسمح لانسان بالاقتراب منها ولا سيا حينما يوجد بها حريم الأمراء .

أما الحياة الاجتماعية المصرية فيخصها سافارى بكثير من عنايته ، ويفرد لها عدة رسائل شائقة ؛ وهو يصف المصرى بالكسل ، ويقول لنا إن الجو يؤثر فى عزيمته ، ومن ثم فانه يميل إلى الحياة الهادئة الناعمة ، ويقضى يومه فى عمله وفى منزله ، ولا يعرف المصري صخب الحياة الأوربية وضجيجها ، وليست له أذواق أو رغبات مضطرمة . ونظام العائلة المصرية عريق فى المحافظة ، فرب البيت هو السيد المطلق ؛ ويربى الأولاد فى الحريم ويدينون للوالد بمنتهى الخضوع والطاعة والاحترام ، ويعيش أفراد الأسرة جميعاً فى منزل واحد ، ويتمتع الوالد بكل مظاهر التكريم والاجلال ولا سيا فى شيخوخته . ويجتمع أفراد الأسرة حول مائدة الطعام جلوساً على البسط ؛ وبعد النداء يأوي المصريون إلى الحريم حيناً بين نسائهم وأولادهم ؛ وفى المساء يتريضون فى النيل فى قوارب النزهة ، ويتناولون العشاء بعد الغروب بنحو ساعة . وهكذا تجرى الحياة على وتيرة واحدة . ويشغف المصرى بالتدخين ويستورد الدخان من سورية ويخلط بالعنبر . وللتدخين أبهاء خاصة منخفضة يجتمع فيها السيد مع مدعويه ؛ وبعد انتهاء الجلسة يأتى الخادم بقمقم تحترق به العطور ، فيعطر المدعون لحاهم ، ثم يصب ماء الورد على رؤوسهم وأيديهم .

والمرأة المصرية ماذا كانت أحوالها فى ذلك العصر ؟ يقول لنا سافارى إنها كانت كالرقيق لا تلعب أى دور فى الحياة العامة ؛ وإذا كانت المرأة الأوربية تسيطر على العروش ، وتقود الآداب والعادات ، فان دولة المرأة فى مصر لا تتعدى « الحريم » ولا علاقة لها بالشئون العامة . وأعظم أمانيها أن تنجب الأولاد ، وأهم واجباتها أن تعني بتربيتهم . والحريم هو مهد الطفولة ومدرستها ، وفيه يربى الأولاد حتى السابعة أو الثامنة . كذلك يعنى النساء بالشئون المنزلية ، ولا يشاركن الرجال فى الظهور ، ولا يتناولن الطعام معهم إلا فى فرص خاصة ، ويقضين أوقات الفراغ بين الجوارى والغناء والسمر ؛ ويسمح لهن بالخروج إلى الحمام مرة أو مرتين فى الأسبوع . وهنا يصف لنا سافارى حمامات القاهرة ، ومناظر الاستحمام والزينة ، وكيف يشغف النساء بالذهاب إلى الحمام مع جواريهن ، وهنالك يقضين أوقاتاً سعيدة بين مجالى التزين واللهو ، ويستمعن فى الابهاء الوثيرة إلى الغناء وقصص الحب

وتستقبل المرأة زوارها من النساء بأدب وترحاب ، ويحمل الجوارى القهوة ، ويدور الحديث والسمر ، وتقدم أثناء ذلك الفاكهة اللذيذة ، وعند الانتهاء من تناولها تحمل الجوارى قماقم ماء الورد فيغسل المدعوات أيديهن ، ثم يحرق العنبر وترقص الجوارى . وفى أثناء هذه الزيارات النسوية لا يسمح للزوج أن يقترب من الحريم ، إذ هو مكان الضيافة الخاصة ، وهذا حق تحرص المصريات عليه كل الحرص . وقد ينتفعن به أحياناً لتحقيق أمنية غرامية ، إذ يستطيع العاشق أن ينفذ إلى الحريم متنكراً فى زى امرأة ، فإذا لم يكتشف أمره فاز ببغيته ، وإذا

اكتشف أمره كان جزاءه الموت . والمرأة المصرية مفرطة فى الحب والجوى ، مفرطة فى البغض والانتقام ، وكثيراً ماتنتهى الروايات الغرامية بفواجع مروعة .

وتوجد طبقة خاصة من نساء الفن هى طبقة القيان «العوالم» ، وهؤلاء العوالم يمتزن بالذلاقة ومعرفة الشعر والمقطوعات الغنائية ، ولا تخلو منهن حفلة ، وتقام لهن منصة يغنين من فوقها ، ثم ينزلن إلى البهو ويرقصن فى رشاقة ساحرة ، وأحياناً يبدين فى صور مثيرة من الهتك ، ويدعون دائماً فى كل حريم ، وهنالك يروين القصص الغرامية ويخلبن الألباب بذلاقتهن ورشاقتهن وفصاحتهن .

وهكذا يحدثنا سافارى بافاضة عن الحياة الاجتماعية المصرية فى أواخر القرن الثامن عشر ، ولأحاديثه فى هـذا الوطن قيمة خاصة ؛ فهى أحاديث باحث مطلع درس وشهد بنفسه ، وملاحظات عقلية مستنيرة ، تمتاز باتزانها ودقتها فيما تلاحظ وفيما تصف وتعرض

***

وأخيراً يصف لنا سافارى آثار هليوبوليس والجيزة ؛ ويقدم لنا عن الأهرام وأبى الهول صوراً شعرية ساحرة ، ويستعرض مختلف الروايات عن أصلها وبنائها منـذ هيرودوت إلى عصره ، ويصف لنا منفيس وأطلالها ، ويحدثنا عن الجيزة وخططها وتاريخها وعن الفسطاط ومعالمها وكنائسها وآثارها ، كل ذلك بافاضة ممتعة تتخللها مقارنات وملاحظات تاريخية قيمة ؛ ثم يحدثنا بعد ذلك عن رحلته في دمياط وضواحيها ، وكيف تتبع فى رحلته سير حملة القديس لويس الصليبية منذ نزولها في دمياط وسيرها بعـد ذلك حتى مدينة المنصورة . ويقدم إلينا خلاصة تاريخية لهـذه الحملة الشهيرة مشتقة من المصادر الاسلامية ومذكرات دى جوانفيل مؤرخ الحملة وأحد شهودها

وإلى هنا تنتهى رسائل سافارى عن الوجه البحرى ومدينة القاهرة والحياة الاجتماعية المصرية ، وهذه الرسائل تشغل الجزء الأول من مؤلفه عن مصر ، وهى أهم وأقوم مافى المجموعة . أما بقية الرسائل ، وهي تشغل الجزءين الثانى والثالث ، فيخصصها سافارى لوصف رحلته فى الوجه القبلى ، ووصف مدنه وآثاره وواحاته ، ثم وصف الجو والاقليم والزراعة والتجارة ، وديانة المصريين القدماء وآلهتهم ، والنيل وخواصه الأزلية ؛ وهـذه الرسائل تحتوى كثيراً من البحوث والملاحظات القيمة ، بيد أنها لا تقدم إلينا جديداً يعتد به ، ولذا اكتفينا بالاشارة إليها

***

هذه خلاصة شاملة لرسائل العلامة المستشرق سافارى عن مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، وهى رسائل لاشك فى قيمتها وأهميتها ؛ وإذا استثنينا مذكرات الجبرتى ، فإن رسائل سافارى تعتبر أنفس وثيقـة من نوعها عن أحوال مصر فى هذه الفترة المظلمة من تاريخها ؛ وتبدو قيمة هذه الرسائل بنوع خاص فيما تقدمه إلينا من صور الحياة الاجتماعية المصرية بافاضة لانجدها فى مصادر أخرى ؛ فهى من هذه الناحية وثيقة ذات أهمية خاصة . وقد كانت بحوث سافارى بلا ريب مصدراً من أقوم المصادر التي انتفع بها علماء الحملة الفرنسية فيما بعـد حينما وضعوا موسوعتهم الشهيرة فى « وصف مصر » بعد ذلك بنحو ربع قرن (١)

تم البحث

(فيما في أوائل سبتمبر) محمد عبد الله عنان

(١) اعتمدنا فى استعراض رسائل سافارى على الطبعة الكاملة من رسائله التى ظهرت سنة ١٨٨٥ فى ثلاثة أجزاء ؛ واعتمدنا فى نقل ترجمته الشخصية على معجم لاروس الكبير

على تمثال فوزى المعلوف

كلمة الأستاذ فليكس فارس

في حفلة ازاحة الستار عن تمثال الشاعر فوزى المعلوف
في ١٢ سبتمبر في مدينة زحلة — لبنان

عند ما أزيح الستار عن هذا النُّصب كأنه إنسان عين لبنان. وحبة القلب في بلاد العرب، رأيت القدرى المحدقة بهذا الوادى تميد من جهاتها الأربع وقد أطلت من ورائها طغيات أصنام تراشق نظرات الاستغراب وتتبادل هتفات الاستنكار

إننى أعاينها بالجرح الوسيع فتحته فى القلب أدواء البلاد ونكبات الأمة ، وأسمع صخبها وضجيجها بالأذن التى لم تزل تدوى فيها زفرات البائسين وصيحات المشردين والشهداء

أولئك هم أصنام الشعب المستضعف القـُلول، استفزهم ما راود أمجادهم من حذر ، وخامر أحلامهم من وساوس، فترا كضوا من مقاعد الزعامات والمناصب المنتزعة بدهاء الجهل ودسيسة العجز ، ومن أبواب الهياكل والمعابد وجوانب القوى المسيطرة على العناصر الحائرة المتعثرة ، هرعوا يتصايحون :

نحن أرباب هذه الأرجاء وأسياد شعبها . . نحن الأحياء يعبدنا الأحياء ، فمن ترى هذا الصنم الجامد لايملك سمعاً ولا بصراً يرفع على مثل أنصابنا فيحنى الناس الرؤوس أمامه خاشعين ؟

من هذا الدخيل الجامد الصامت تُقحمه الهيكل قوة مجهولة وتفرض به على النفوس عبادة لاتوجه إلينا ، محرقة عند قدميه بخوراً لايتعالى نحو تيجاننا ؟ وصاح أحد صنار الأصنام بأسياده الجسام : أفما عرفتموه ؟ إنه ذلك الفتى الضعيف الناحل الذى كان يحدجنا بلفتات الاحتقار ويقرع أسماعنا بأناشيد زهوه واغتراره . إنه هو الذى أنكر ألوهيتنا المتعددة السائدة على عشرات العناصر المتقاطعة ، فادعى أن للوطنية إلهاً واحدا وأن قطعاننا قطيع واحد لراع واحد هو حق الحياة

أفليس هذا الصنم الجامد ، ذلك الفتى الذى رأى فى عزتنا مذلة لقومه، وفى عظمتنا صنارا لبلاده ،فتوارى وفى دمعته نار وفى أنينه إرعاد

فقالت طغمة الأصنام : ومن يجرؤ على رفع هذا الانسان المتحجر إلى مصاف الأرباب فيقتعد المنصة العالية فوق مستوى الرعية ؟

أوصل هذا الانسان إلى نفوذ سر السيادة فرقص على الحبلين، وتمارج على الساقين ، موهما الشرق أنه ذو الحول والطول وراء ستائر الغرب ، ثم عاد موهما الغرب أنه يقود من بلاده قطعاناً له تخدرها إذا شاء واستنفارها إذا شاء ؟

ألهذا الرجل منبسطات السهول ومرتفعات الأنجاد ليستغلها بالسياط تلهب ظهور العاملين فيستقطر من جلودهم نضاره ويقيم على عبوديتهم زعامته . . ؟

أعرف أن يستغل نزعات طائفة أو مطامح عنصر أو تعصب فئة فاستنبت زعامته من الضغائن وأنماها من الأحقاد ؟

أورث مالاً من جدوده فابتاع من متسولات الضمائر مقاماً يسمع الناس منه روائمه وبدائمه ؟

أجهل لغة قومه أم تجاهلها، وأعرض عن تقاليد أجداده أم استنكرها ، محاولا اقتباس مظاهر تتمرد سريرته عليها ؟ هل أقام المآدب وأحيا المراقص نخاصر واستخصر ليثبت أنه أهل للمدنية وقيادة الشعوب إلى النور أم هو توسل على الأقل بالتابعة متخذاً منا موقع الذنب ؟

بأية فضيلة من فضائلنا تحلى هذا الابن ليرفعه من حوله إلى مقام الأرباب ؟

ووجمت الأوثان التى عبدت حتى الأمس القريب متسائلة عما إذا كان العهد الجديد المشرقة أنوار ضحاه ولو بعد حين سيرفع لأمثال هذا المتمرد من الأموات أنصاباً وسينادي بأمثاله من الأحياء أرباباً

* * *

إن أنوار الحق تتفجر على كل قطر عربى ؛ ففى لبنان كما فى مصر والعراق وسوريا وبلدان الجزيرة كلها أبطال يقوضون مقاعد الأصنام فى السياسة كما قوضها من قبل فى الدين رسل الله وأنبياؤه . وهاهى ذي أوثان الأمس تتلمس رؤوسها بسواعدها المرتجفة متراجعة بخطوات من فقد ثقته بنفسه

اعربى أيتها الأوثان أيا كنت ومن أية جهة طلعت رسومك على الآفاق ، فما النصب الذى يحييه أحرار الأمة الآن بالصنم الذى يزاحمك فى هيكل الوثنية ، وقد آن لها أن تضمحل . ما نصبنا إلا

تمثال عزتنا الجريحة وقوميتنا المضللة ؛ إن هو إلا الرمز الكامل لآلامنا وجهادنا في المرحلة التي قدرعلينا أن نجتازها ، ليرد الاختبار سوانا إلى محجة الصواب ولنعرف نحن أن نميز بين طريق سلامتنا ومهاوي انقراضنا .

ليس المقام مقام تأبين وتفجع على من يمثل هذا التمثال فإن صفحات تاريخ الأدب مليئة بكلمات أمراء البيان عمن خشع الغرب لبيانه الشرق وما حلق فوقه من متقدميه ولا من معاصريه بيان . ولئن كان مأتم فوزى من أروع الأيام وأفجعها على الشرق العربي بأسره فإن يوم فوزى إنما هو اليوم الذى يرتفع فيه تمثال صفحة خالدة طبعت عليها مساوئ فترة الانتقال وفجائع طور التجاريب .

أي أخي فوزى ! يا شاعر الأمة المشردة . إنني وأنا أنظر إلى ابتسامتك المرة واشراق جبينك المتجهم أسمع صوتاً يقرع الفضاء من أصداء هذا الوادي مردداً قولك :

أنا الغريب فلا أهـل ولا وطن
إذا انتسبت أمام النـاس وانتسبوا
ومن يكون غريباً فى مواطنـه
لابدع إن أنكرته الأرض والشهب

ويليه ، صوت آخر يتردد على ذلك الشاطئ الحزين صداه

قسما بأهلي لم أفارق عن رضى
أهلي وهم ذخرى وركن عمادى
لكن أنفت بأن أعيش بموطني
عبداً وكنت به من الأسياد

أسمع هذا الإنشاد فيخيل إلى أن صيحات جيل كامل فى أمة مروعة فقدت قوميتها فخسرت أوطانها

إن لخطرات الحظ تأثيرها على الأمم كما لها تأثيرها على الأفراد ؛ وليس للفرد كما ليس للمجموع أن يطفر من سلسلة الوقائع إلى مستقر يستحدثه فجأة لنفسه ؛ غير أن هنالك قوة سمها الارادة الجزئية إن شئت تتمرد على الانقياد لما يضير ، فاذا هى تنبهت صمدت بوجه التيار بالمقاومة السلبية حتى يعبر الكاسح فتتمكن من استئناف سيرها نحو وجهتها ، وإن هى استسلمت وجبنت فقدت الشعور بذاتها ومشت متطايرة مع العاصف ينثرها هباء على ممرا كفه ..

إن هذه الأمة التي كونت شخصيتها من مبادئ واحدة فى الأصل ومن ثقافة انطوت سريرتها عليها منـذ أجيال ، ومن بيان وحى علوم المتقدمين ، وما قصر عن استيعاب علوم المتأخرين لايستقيم لها أمر ولا يستعاد لها مجد مالم تتوصل إلى إحياء حضارة تتوافق وما كمن فيها من فطرة وحوافز

لقد مرت بهذه الأمة أدوار من التاريخ قضت على استقلالها وحضارتها فذهبت قطعاناً مبددة تتراكض وراء كل ناعق يجزها ويحز رقابها ، ولو أن العناية لم تستبق لنـا فى كل حقبة أنموذجا لكياننا ورسماً لـما كنا ولما يجب أن يكون لما بقى لنا من صفاتنا الأصلية شئ نستدل به على حقيقتنا

إن سريرة الأمم المبتلاة بالانحطاط المرهقة بالمظالم تنكمش منسحبة من كتل الشعب لتتجلى من حين إلى حين لمعات أنوار فى بيان عباقرته المتمردين . وإذا نحن استعرضنا فيلق المجاهدين من أول متنبه للفاضلين تحت الأطلال إلى هذا المنتصب بيننا الآن كأروع رمز لشخصية الأمة الكامنة وراء تشردها وتقاطعها ، لما رأينا واحداً من هؤلاء المجاهدين ينزع مثل هذه المنازع الضليلة التي يتوغل فيها المشككون الحائرون فى هذه الأيام

إذا شئنا أن نتبين حقيقة موقفنا من أنفسنا ومن سوانا ، وإذا صعب على البعض منا أن يتميز طريقه إلى قوميته ووطنيته فليتنصت إلى ما تصـدو به أجواء البلدان العربية كلها من أقوال المصلحين الذين عاشوا بآمال أمتهم وماتوا بعللها وأدوائها

أولئك المضطهدون هم أولى بإنارة سرائرنا ممن كانت حياتهم لهم لا للناس ، فما شعروا بذل الأمة لأنهم استغلوه ، وما أحسوا بأنهم غرباء فى أوطانهم لأنهم أنكروا كيانها ومالأوا على حقها

ما يثير النعرات الدينيـة والاقليمية فى هـذه البلاد إلا الأنانيون الذين يرون فى تبدد الأقوام تجارة رابحة لسماياتهم ؛ أما الأرواح الجبارة التي أشبعت من مبادئ الشرق العليا حرية واستقلالاً ومجداً فانها تمر بأجنحتها محلقة فوق كل عنصر ثقافته من وحى الشرق ، والهامه وبيانه من لغة كفلت حياتها قوة لا تطاولها قوة ...

لقد كان زمن أمكن فيه للأمة أن تبعث جسماً واحداً حين مزقت كفنها وشقت لحدها ، ولكنها انتثرت بين أنامل الجامعين وقد عبثت بالرمة أهواء الحياة بعد أن جمتها روعة الموت ، فاذا بالنبت الواحد هياكل عظام عديدة تهب من مرقدها منفرطة

يتسلق كل منها ذروة لاستقبال أنوار الضحى وأوائل شعاع الشمس

تلك سانحة من الدهر ونت ولن تعود ما لم نستعدها بعشرات الأعوام جهود من يذكرون أن جميع هذه الهياكل القزمة ، وقد بدأت تدب فيها الحياة ، إنما هي هيكل جبار واحد جرعه سيف واحد وتسجى طوال الأجيال جثة واحدة في قبر واحد

لا يضع للأمة دستورها الحقيقي إلا من مثلوا سريرتها وثقافتها شاملة لروح المذاهب والعناصر كلها ؛ وما أدري أين عباقرة الشرق العربي أحياء وأمواتا من سجن روحه بين جدران طائفته وحطم جناحي عبقريته في قفص إقليمه منكراً وطن فكرته الواسع الأرجاء ...

هنالك تحت ظلال الأرز نصب لم يزل يهتف من أعلى ذرى لبنان بقوله :

أنا مسيحي ولي الفخر بذلك ، ولكنني أهوى النبي العربي الكريم ، وأحب مجد الاسلام وأخشى زواله . إنني أسكن المسيح شطراً من حشاشتي ومحمداً الشطر الآخر

أنا شرقي ولي الفخر بذلك ؛ ومهما أقصتني الأيام عن بلادي أظل شرقي الأخلاق ، سوري الأميال ، لبناني العواطف

ذلك هو نداء جبران ! فما ذا تجيبه يا فوزي ؟

أفما أنت شاعر الأمة المشردة ؟ أفما تمازجت في روحك كل عظمة من وحي أنبياء الشرق جميعهم ، ومن إلهام عباقرته وفروسية أبطاله في كل زمان ومكان ؟ ...

أفترضى أن يضرب حولك من لبنان نطاق يوقفك في طريق النهضة وقفة تمثال أودنيس في جبيل وباعال وباخوس بين أعماد بعلبك المحطمة ؟ ...

لا وحقك يا فوزي ، ما أنت في تقدير أخيك الذي قاد أوائل خطواتك نحو قمة الخلود ، وفي تقدير كل نافذ لروحك ومدرك لعظمتك إلا المثل الأعلى للوطنية الحقة التي عشت من أجلها شريداً ومت من أجلها شهيداً ...

اليوم لا ترى حولك إلا فئة قليل عديدها تطوف ممجدة فيك الشاعر المبدع الكبير ، ولكنك سترى غداً أفواجاً من كل عنصر ومن كل قطر عربي تتوارد اليك لتحيي فيك بطلاً من طليعة القيلق الذي حطم سلاسل الأمة بتحطيم أصنامها والقضاء على أرباب شركها وأوهامها

— فليكس فارس

محمد بن جعفر الكتاني

بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته

للأستاذ محمد المنتصر الكتاني

تمهيد

في تاريخ الرجال كثير من الخلاف يكاد يعجز الباحث والمؤرخ عند ما يريد التوفيق — وتاريخ رجال المغرب ورجال المشرق في هذا سواء — فبينا أنت تقرأ عن خالد مثلا أنه ولد في القرن الثاني إذا بك تجد في تاريخ آخر أنه مات في القرن الرابع ، ثم هو نفسه تارة يصوره لك بعض المؤرخين في صورة العابد العالم الثقة الصدوق ، وحيناً تقرأ عنه عند غير المؤرخ الأول أنه لم يكن بالعالم ولا الثقة وإن هو إلا كذاب مضل . وفي كتب التراجم أمثلة لهذا النوع كثيرة .

ويريد جمع من النقاد معرفة السبب فتعييهم المعرفة ويلهم تعداد الأسباب والاحتمالات فيقفون عندها دون جزم بواحد منها

وعندي أن لذلك أسباباً كثيرة أهمها :

(١) فقدان الثقة في كثير من المترجمين . إذ هؤلاء يكتبون — عمداً — ما توحيه إليهم أغراضهم وإن خالفت ما يعرفون .

(٢) جهل بعضهم بحالة المترجم ، فهم إذا سئلوا عنه حملهم الاعتداد الكاذب بالنفس أن يجيبوا بصفات لو قدر وعاش المسؤول عنه وسمعها لنفاها وأنكر أن تكون فيه ؛ وقد يضطر هذا المجيب لكتابة ما أجاب به فيزيده تنميقاً وتزويراً في جمل مغرية مشوقة يستر بها تضليله وكذبه .

(٣) الخصومة المذهبية . فترى المؤرخ في هذه الحالة يهتم اهتماماً مريباً بالبحث عن النقائص ، حتى أنه ليجهد نفسه إلى حد الإعياء ليخرج له معايب من قصص وحوادث تافهة لا يؤبه لها عادة . وكنا نحسن الظن في هذا الخصم المذهبي لو اعتنى بالمزايا اعتناءه بالنقائص ولكنه لا يعرج له على مزية ولو كانت كوضح الشمس ، وبالعكس الحب المذهبي ، فبقدر ما يخفى الأول من مزايا ومحاسن يستر هذا الثاني العيوب والمخازي .

(٤) الاستسلام لاحدى عاطفتي الحب والبغض ، فذاك صديق المؤرخ أو سلف لصديقه توجب عليه المجاملة والاطراء التبادل أن يخضع لمقتضيات هذه الصداقة فيُحسّن القبيح ويقبّح الحسن ويعرف المجهول ويجهل المعروف ، وبالعكس لو كان المترجم عدواً له أو سلفاً لعدو ؛ وقد يكون الحامل على الحب أو البغض غير الصداقة والعداوة

(٥) الخوف من ذي نفوذ أو سلطان ، فهو إذا تكلم بالحقيقة عذّب وأهين فيتحاشا هذه الاهانة وذاك العذاب — إذ لم يكن من الكلام بد — بالتقية متأولا على أنها مذهب لكثير من طوائف المسلمين إن لم يكن ديناً فتديناً ! وقد يستغني عن التأويل . وهذا السبب الخامس لم يكد يخلو منه أحد من مؤرخي المتقدمين والمتأخرين

(٦) الجبن الأدبي أو يسمونه بفقدان الشجاعة الأدبية ، فهو إذا تكلم خاف ألا يقبل كلامه أو يتهم فيه بغرض ، ومن خصائص هذا الجبان الأديب الخوف من النقد لحد الهلع ، وإن تحمس يوماً واقتحم هذه الأوهام وكتب شيئاً لا يجرؤ أن يوقعه باسمه الصريح بل يكتفي بالرمز ؛ وهذه العلة هي داء كثير من الثقات في هذا العصر لو تغلبوا عليها لأنتجوا وأفادوا

وأزيدك شيئاً وهو أني لا أرى علاجاً لهؤلاء أنفع من وجوب اعتبار الشروط المطلوبة في رواة الحديث من عدالة وضبط ومعرفة في مؤرخي الرجال ، فكما أن المحدث لا تقبل روايته إذا فقد منه أحد الشروط الثلاثة فكذلك المترجم لا يلتفت لكلامه إلا إذا عرفت ثقته وعدالته ومعرفته بالرجل الذي يترجم له معرفة بثبت سندها ومصدرها ؛ وبهذا فقط تسلم الأعراض من الأغراض وتحفظ الحقوق فلا يوضع رفيع ولا يرفع وضيع

لهذه الأسباب التي جعلتها كقواعد جامعة لما لم أذكر من العلل ولغيرها سقطت قيمة كثير من كتب التراجم قديماً وحديثاً . وتمتاز الحديثة منها (والحمد لله الذي لا يحمد على شر سواه) بالتفنن في أساليب الطعن والغمز واللمز ببراعة لا يفطن لها الكثير من الناس إلا قارئ عني بها عناية خاصة أو قارئ أتيحت له معرفة دخائل جامعيها ونواياهم . أضف إلى هذا ما فيها من تراجم قوم لم يعرفوا بين عشيرتهم حتى بالطلب قد أغدقوا عليهم من بحور العلم ما غمرهم ومن جبال السنة ما دك كواهلهم دكا ، ومن صفات النبل والكرم ما أصبحوا به ملائكة تدوزهم الأجنحة إلا أن معرفة مرافقيهم بهم قصتها ، ومن ضروب الاصلاح والارشاد ما يشرحه العارفون بالمتهم على النقيض من ظواهر اللفظ والمعنى ، وهنا يحمل المذهب القائل بأن لكل(١) نمط ظهراً وبطناً وحداً ومطاماً .

وبعد فهذه ترجمة إمام كبير عرفه الناس قبلي وترجموه لكن باختصار وعلى غير هذا الأسلوب ، تربطني به صلة هي صلة الوالد بالولد ، بل صلة الروح بالجسد ؛ ولكي يطمئن قارئي ويهدأ روعه أعاهده عهداً أدين بوفائه ألا أكون أحد أولئك المترجمين الستة ؛ وسأحمل نفسي على تناسي هذه الصلة الكريمة زمناً ؛ وسأعنى بالحق المجرد ولو كان علي أو عليه مقتصراً على ذكر حياته — دون تحليل — في شيء من التفصيل وتاركاً كثرة تلك التعاليق الفضفاضة التي اعتادها الناس اليوم والتي إن دلت على شيء فإنما تدل على نفس المؤرخ أكثر مما تدل على نفسية المؤرخ له ، ولا يفزع إليها غالباً إلا من فقد مادة القول في أحوال من يترجمه وماجرياته . وفي اعتقادي أن ذلك مما يشوه الحقائق التاريخية ويغطيها بحجاب كثيف يعسر على الناقد النزيه تمزيقه ويقصي القارئ عن تفهم الأشياء بعقله لا بعقل سواه غير متأثر ببيئة أو مذهب

وقد رتبت حياته على فصول ، فأذكر أولاً أسرته ثم نسبه فنشأته فشيوخه فتلاميذه ، معرجاً على وصف خُلقه وخَلقه ومذهبه ومعارفه وثناء الكبار عليه ومدائح الشعراء فيه وتعلق الملوك به ، ثم أرجع فأتحدث عن رحلاته ومؤلفاته وشرح العلماء لها أو ترجمتها أو نقدها وأختم الترجمة بحادثة وفاته ورثائه ونقله فذكر مترجميه فأوهام بعضهم فمصادر الترجمة

وقد أخالف هذا الترتيب أو أسهب في فصل وأختصر في آخر مضطراً في الاسهاب والاختصار لما بيدي من ثروة المادة أو فقرها

(١) ورد هذا المعنى خاصاً بآي القرآن في بضع أحاديث مرفوعة أخرجها الطبراني في معجميه الكبير والأوسط والبزار وأبو يعلى ، صحح الحافظ نور الدين طريقاً منها على شرط الصحيح ونقله السيوطي تحسين حديث الأول في الكبير وموقوفه على ابن مسعود عند الطبراني أيضاً ومرسله عن الحسن البصري عند أبي عبيد في فضائله وأبي نصر السجزي في الأبانة وانظر معناه عند الحافظ الطحاوي فقد رواه مرفوعا في مشكل الآثار ج ٤ ص ١٧٢

أسرته

تنحدر أسرة الامام ابن جعفر من سلالة الفاتح بن الفاتح ادريس بن ادريس المطلبي الهاشمي الحجازي ثم تتشعب بطوناً وأفخاذاً حتى تنحصر فى ملك زواوة الكتانى يحيى بن عمران

كانت فاس مقر أسلافه فى ظلال ملوك دولتهم الادريسية التى ملكت [1] مائتى سنة وثلاث سنين سوى شهرين تقريباً وكان عملها [2] بالمغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران وقاعدة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة ، وكانوا يكابدون مملكتين عظيمتين ومتغلبين كبيرين هما دولة العبيديين بمصر وأفريقيا ودولة بنى أمية فى الأندلس ، وكانوا ينازعون الخلفاء إلى درك الخلافة العظمى ويقعدهم ضعف سلطانهم وقلة مالهم بالنسبة إلى هاتين الدولتين

وفى سنة ٣١٧ تغلب موسى بن أبى العافية السفاح البربرى على جميع بلاد المغرب بعد حروب وفتن طالت وأزمنت بينه وبين الأدارسة انتهت أخيراً بانتصاره والانتقام منهم انتقاماً خسيساً فقتل كثيراً وذبح كثيراً ومن أفلت منهم أجلاهم عن بلادهم وأخرجهم من ديارهم مغلوبين على ملكهم مطرودين عن دار عزهم التى بناها أسلافهم وفروا بأجمعهم إلى قلعة [3] حجر النسر فتبعهم السفاح إليها وشدد عليهم الحصار وحاول استئصالهم والقضاء عليهم لولا تقريع رؤساء المغرب وأكابر دولته له إذ قالوا « أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتقتلهم أجمعين ؟ هذا شيء لا نوافقك عليه ولا نتركك له » فخاف قولهم « ولا نتركك له » واعتبره تهديداً بالثورة عليه فارتحل عنهم لفاس وخلف عليهم قائده أبا الفتح التسولي فى ألف فارس يمنعهم من التصرف [4]

وقد ذكر الامام المقّرى فى كتابه الكنور أسماء جماعة من الأدارسة الذين فروا من قلعة حجر النسر لهذا الحصار المخنق الذى تركه عليهم ابن أبى العافية ، وذكر المواضع التى فروا إليها ، فكان من بينهم جد أسرة الإمام الملك يحيي بن عمران . ولفظ

(١) الاستقصا جـ ١ ص ٨٩
(٢) الأنيس المطرب جـ ١ ص ١٤٤ ط الوضية
(٣) هى حصن شاهق منيع بسوماته قرب جبل العلم من المغرب الأقصى قال صالح بن عبد الحليم فى الأنيس المطرب بناه محمد بن ابراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس رضى الله عنه وقال ابن خلدون فى العبر اختطه كبير الأدارسة ابراهيم بن محمد بن القاسم .
(٤) العبر جـ ٤ ص ١٧ و جـ ٦ ص ١٣٥ — الاستقصا جـ ١ ص ٨١ الأنيس المطرب جـ ١ ص ١٢٢

المقرى : « ثم فر إلى زواوة الكتانى أمير المؤمنين [1] يحيى بن عمران بن عبد الجليل بن يحيي بن يحيي بن محمد بن إدريس »

وما أن وطئ يحيى بن عمران هذا تراب زواوة حتى بايعه أهلها ولقبوه بأمير الناس . يؤخذ هذا من كلام ابن جزى فى مختصر البيان حيث عرف الكتانى يحيى وهو يتكلم عنه بملك زواوة أمير الناس . ومن كلام المقري حيث نعته بأمير المؤمنين بل صرح ببيعة قبائل زواوة ليحيى العلامة الشريف الزكي المدغرى قال فى درته : خرج هذا الجد — يعنى يحيى — من فاس مع أبناء عمه واستقر معهم فى حجر النسر ثم انتقل إلى جبل زواوة حوز الجزائر فاراً بنفسه وبويع بذلك الجبل وسمى أمير الناس . ونقل عنهم هذا جماعة من متأخرى المؤرخين [2]

ويدل على وجود هذه الإمارة أو هذه الدولة التى لم أعرف من ملوكها غير يحيى بن عمران ما خلفت من معاهد وآثار فى القطر الجزائرى لا تزال ماثلة إلى اليوم مما لا يكون عادة إلا من أثر الملوك والدول . ومن هذه الآثار مسجد سيدى الكتاني بقسطنطينية ، قال عنه مؤرخ الجزائر الأستاذ احمد توفيق المدنى : هو من أجمل وأبدع مساجد القطر الجزائرى . ومنها مدرسة سيدى الكتاني التى بجانب المسجد قال عنها المؤرخ المدني : ولا تزال إلى يومنا مدرسة علم [3] . وذكر فى النبذة أن لها أوقافاً وناظراً ومدافن لبعض أهل العلم

وبما سقت من النقول والأدلة على إمارة الكتانى يحيى يظهر خطأ العلامة القاضى محمد الطالب ابن الحاج إذ يقول عنه فى كتابيه الأشراف ونظم الدر : وكان يعرف بأمير الناس مع كونه لم تتقدم له ولاية إذ لم أقف على من ذكره من الأمراء . وإذا علمت أن حجة القاضى بن الحاج فى نفي الامارة عن يحيى إنما هى عدم وقوفه على من ذكره من الأمراء علمت وهن هذه الحجة بوقوف غيره على من ذكره منهم كابن جزى الكلبي والمقرى والشريف المدغرى — وكلهم أقدم منه — وغيرهم ممن نقل كلامهم ؛ على أن قول القاضى : ولعل ذلك — يعنى شهرة يحيى بالكتاني — لظهور الخباء من الكتان أيام إمارة بعض أسلافه مما يشعر باضطرابه فى نفى هذه الامارة إذ المعروف عند كافة من أرخ للعائلة — وهم

(١) وفى نسخة أمير الناس
(٢) الدرر البهية جـ ٢ ص ١٠٩
(٣) كتاب الجزائر ص ٢٣٣

كثير سيأتي ذكر بعضهم — أن يحيى هذا هو أول من استبدل خيام الصوف والشعر بالكتان أيام امارته هو لا إمارة بعض أسلافه كما زعم ابن الحاج ويؤكده إجماع المؤرخين — وابن الحاج منهم — على أن يحيى بن عمران أول من لقب بالكتاني لهذا السبب

وفي بحر القرن السادس في دولة السلطان المرشد عبد المؤمن ابن على الموحدى رحمه الله رجع أسلافه من زواوة إلى المغرب الأقصى واستوطنوا مدينة شالة [1] وقيل بل استوطنوا قبيلة بني الحسن ، ووفق الامام في النبذة بين القولين بأن قبيلة بني الحسن كانت إذ ذاك من عمالة شالة فهي في حكم المحل الواحد . وهو توفيق وجيه ، وتسمية المالك باسم قواعدها استعمال شائع بين كل الناس منذ القدم ، ويجوّز في النبذة أن يكون الراحل الأول من زواوة هو الشريف محمد بن عبد الله بن هادى بن أمير الناس الكتاني يحيى وأن يكون ولده الشريف أبا بكر حفيد حفيد الكتاني الأمير

وفي سنة ٦٥٦ أو ٦٥٤ كما ذكر جماعة من المؤرخين ، وقال الشريف [2] الفضيلي سنة ٦٦٦ أو ٦٦٤ انتقل أسلاف الامام رحمه

(١) ويسميها بعض المؤرخين بسالا القديمة موقعها على ميلين من البحر على ضفاف وادى أبي رقراق الذى يتصل بمدينة سالا الحديثة وهناك مصبه فى النهر ، يرجع تاريخ بنائها إلى عهد قديم جداً اختلفوا فيمن أسسها هل البربر سكان البلاد الأصليون ؟ أم الفينيقيون ؟ أم الرومان ؟ أم اسكندر ذو القرنين ؟ أم أفريقش الحميرى ؟ أم القرطاجنيون ؟ بكل قال جماعة واتفقوا على أنها بنيت قديماً إذ جاء وصفها عن الرحالين قبل الاسلام بنحو اثنى عشر قرناً تقريباً ووجد فى الحفريات الأخيرة من الآثار البربرية القديمة والفينيقية والرومانية ما يشهد لهذا القدم ، خربت فى عهد الوندال الكوطيين إلا ما اعتاص عليهم تخريبه وفتحها عقبة بن نافع الفهرى لما أتى المغرب المرة الثانية سنة ٩٢ ، وعلى يده أسلم أهلها أولا ثم ارتدوا . وفى سنة ٩٠ فتحها موسى بن نصير وأجبر أهلها على الرجوع للدين الحق ثم ارتدوا وبقى أهلها فى أرجوحة بين الايمان مرة والكفر مرات إلى أن قيض الله لهم مجيء الفاتح الأكبر إدريس بن عبد الله المحض عليهما السلام ففتحها فيما فتح من مدائن المغرب عنوة فى القرن الثانى بعد أن أخرج منها دولة برغواطة الزنادقة وعلى يد إدريس هذا تفتحت أفئدة أهلها أخيراً لقبول نور الهداية والتوحيد كباقي بلاد المغرب

كان لشالة شأن فى دول الاسلام وقد استعملت لبعضهم كقاعدة للملك عمرت وخربت مراراً ، وفى سنة ١٢٠٥ تم خرابها — بفظائع وقبائح قال المؤرخ بوجندار : يخجل القلم لذكرها — على يد السلطان يزيد بن محمد العلوى قال بوجندار : ولم يبق اليوم من معالمها ومراسمها إلا ما صار مرعى للمواشي والدواب ووكراً للصدى والبوم والغراب

(أنظر كتابي شالة وآثارها ومقدمة تاريخ رباط الفتح)

(٢) الدرر البهية جـ ٢ ص ١٠٩

الله من شالة إلى مكناسة الزيتون ، وأفاد مؤرخ لا أعرفه : إن المنتقل الأول إلى مكناسة هو الشريف موسى بن أبي بكر بن محمد

واشتهر منهم بهذه المدينة علماء أجلة وفقهاء مهرة وعارفون كبار ترجم لبعضهم مؤرخ البيت المالك النقيب ابن زيدان في تاريخ مكناس

وفى آخر القرن التاسع [1] كما حقق الامام رجع من مكناس إلى فاس مدينة الآباء والجدود أول قادم منهم وهو الشريف محمد بن قاسم بن عبد الواحد ونزل بحى عقبة بن صوال وبقيت بها منهم فرقة انقرضت فى أواخر القرن الثانى عشر وهم أولاد الشريف احمد بن على بن احمد ولم تزل فاس عشهم إلى الآن سوى أفراد اختاروا السكنى بغيرها من مدن المغرب وآخرين طوح بهم الزمن إلى السنكال وصعيد مصر ودمشق

وكان أسلافه فى كل هذه المدن التي حلوا بها كقبائل زواوة وتلمسان [2] وضواحيها وشالة ومكناس الدروة والسنام لشهرتهم بينهم بالدين المتين والتقوى والعلم والفقه والشرف المتواتر

قال ابن خلدون فى مقدمة العبر عن شرف بنى ادريس — وآباء الامام منهم — إنه قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغاً لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في دركه إذ هو نقل الأمة والجيل من الخلف عن الأمة والجيل من السلف

وقال العلامة القاضى محمد الطالب ابن الحاج فى نظم الدر واللآل : واشتهر هنالك — زواوة أولاده — الملك الكتانى يحيى — بصراحة الشرف ، وظهروا ظهور النار على الشرف . قال ثم إنتقلوا من زواوة إلى بنى الحسن من عمالة شالة ومنها لمكناسة الزيتون وكان لهم فيها الصيت الشهير بصراحة النسب وعلو المكانة وعظيم الحظوة عند ملوك بنى مرين ، ومنها انتقلوا إلى فاس ومن لدن انتقلوا إليها وأهلها يعظمون قدرهم ، ويعدون فى المحافل فخرهم ، ويثبتون تواتر شرفهم ويتنافسون في مصاهرتهم ، ويتفاخرون بمجاورتهم ومصاحبتهم

« له بقية » **محمد المنتصر الكتانى**

(١) المعروف عند المؤرخين أن رجوعهم منها كان فى وسط القرن العاشر ، لكن الامام رد هذا بأدلة قطع بها

(٢) قال المؤرخ الشريف محمد بن أحمد الكتانى فى كتابه التنبيه إن الكتانيين فى عصره وهو العصر الثانى عشر سكنوا تلمسان وضواحيها فيما سكنوه من المدن ، وأضرحة بعضهم هناك مشهورة

في سبيل الإصلاح

بحث في الوظيفة والموظفين

للأستاذ علي الطنطاوي

الوظيفة في اللغة : مايقدر للرجل في اليوم من طعام أو رزق أو نحوه ؛ والوظيفة العهد والشرط ؛ والتوظيف تعيين الوظيفة ؛ والمواظفة الموافقة والمؤازرة

والوظيفة في العرف عمل يقوم به الرجل للمنفعة العامة ، (أي المنفعة المشتركة بين جميع الأفراد الساكنين في المكان القوى) ويأخذ عليه أجرة من الخزانة العامة

طبيعة الوظيفة ومنشؤها

البحث في منشأ الوظيفة يقتضي البحث في ظهور الحكومة لأنها مجموع الموظفين ، أو بالعبارة الثانية مجموع الأشخاص الذين يقومون بأعمال ضرورية لا تقتصر منفعتها عليهم وحدهم بل تمتد إلى الهيئة الاجتماعية التي يكون لهم عليها حق الطاعة والانقياد

وقد أكثر الباحثون من الكلام في منشأ الحكومة وظهر في ذلك كثير من النظريات أشهرها نظرية (العقد الاجتماعي) التي أثارها الفيلسوف الانكليزي هوبس Hobbes (١٥٨٨ — ١٦٧٩) واشتهر بها من بعد جان جاك روسو ، وكان لها أكبر الأثر في الثورة الفرنسية الكبرى ؛ غير أنها سقطت الآن ، وأصبحت في رأي العلم أسطورة خرافية ، وأجمع العلماء على اطراحها ، لأن هذا العقد لم يوجد أبداً ، وهوبس ورسو وان اختلفا في المبدأ — فرأى الأول أن الانسان مفطور على الشر ، وأن الانسان ذئب الانسان Homo homini lupus واعتقد الثاني العكس — وان اختلفا في هذا فهما متفقان على أن الانسانية اجتازت دوراً طبيعياً مطلقاً من كل القيود ، قبل أن تدخل في الحياة الاجتماعية وتنشئ الحكومة ، وتلك فرضية باطلة . والحقيقة أن الانسانية لم تعرف هذه الحياة الطبيعية أبداً ، وانما عاشت من البدء حياة اجتماعية ساذجة تتمثل في القبيلة والاسرة والجماعة . وهذا الذي يراه العلماء المحدثون مطابق لما جاء في الكتب السماوية

ولن نفيض في هذا البحث لأنه ليس من غرضنا تحقيق القال في منشأ الحكومة ، ولكن غرضنا عرض مسألة (الوظيفة والموظفين) عرضاً اجتماعياً ، وبيان صلتها بالحياة العامة ، لتعالج وينظر فيها في هذا العهد الذي تقف فيه مصر والشام وغيرهما من الأقطار العربية على مفترق الطرق تصفي حساب الماضي تصفية عامة ، فتبقى على الصالح وتلقي الفاسد . لذلك ندع الكلام في منشأ الوظيفة ، وننظر إليها نظرنا إلى (ضرورة اجتماعية) نشأت من ميل الانسان الفطري إلى الحياة الاجتماعية . وما ظهر في هذه الحياة من حاجات جديدة ليست حاجة فرد دون فرد ، ولكنها حاجة المجموع ، استلزم القيام بها انقطاع جماعة من الناس إليها تكفل لهم الناس بالمعيشة وعاهدوهم على الطاعة ليكونوهم من انجاز عملهم الذي انقطعوا له ، على نحو مايفعل الذين ينتسبون إلى جمعية أو نادٍ أو شركة ، حين ينتخبون جماعة منهم يديرون الشركة أو الجمعية ويجعلون لهم راتباً معيناً ويعطونهم حق اتخاذ القرارات ويتعهدون بطاعتها وتنفيذها ؛ غير ان جماعة الموظفين أو الحكام لم تنشأ بعقد كهذا العقد ، ولكنها نشأت بالتدريج وبشكل طبيعي . والراجح انها كانت تستند في أول أمرها إلى القوة والطغيان ، وأنها كانت إرادة طرف واحد ، هو الطرف القوي (الحكام) اضطر الفريق الثاني (الشعب) إلى قبولها والخضوع لها ، لأنه ضعيف ولأنه رأى وجود هذا الحاكم القوي الظالم أخف الضررين وأهون الشرين ؛ إذ لولاه لكانت الحالة فوضى وإذن يكون كل قوي حاكماً على كل ضعيف ، فيكون بدل الظالم الواحد ألف ظالم

ثم تبدل هؤلاء الحاكمون الأقوياء على مر الأيام حتى استحالوا أخيراً موظفين خاضعين لنوع من الأنظمة والقوانين يختلف رقيها وشدتها باختلاف الممالك والبلدان

أما طبيعة هذه الوظيفة فليس لها شبيه في الحقوق الخاصة وخير ما يمكن أن يقال فيها أنها تمثيل شخصية الدولة الحقوقية ، والتعبير عن إرادتها ، وقديماً كان يشبهها فريق من العلماء بالوصاية ، ويرون الحكام بمثابة أوصياء على الشعب ، ثم اتضح أن الوظيفة لا تشبه الوصاية بشيء ، وأنها أقرب إلى الوكالة . فساد الرأي

بأن الحكام وكلاء عن الشعب يقومون بأعمالهم بالنيابة عنهم ، ويعبرون عن إرادتهم ؛ بيد أن هـذه الوكالة تحتاج إلى موافقة جميع الأفراد ، وهذا غير واقع ولا ممكن . فما هي طبيعة هذه الوظيفة إذن ؟

إنها كما قلنا من طبيعة خاصة لا شبيه لها في الحقوق الخاصة . « وغية ما يستطاع أن يقال في هـذا الشأن هو تشبيه الحكام — كما أشار إلى ذلك الأستاذ هريو Hauriou — بالمتبرعين بالعمل ، أي بأفراد يقومون بإدارة مصالح الدولة من دون أن يعهد إليهم بها من قبل جميع الأفراد الذين تتألف منهم الجماعة ، ولكن هذا التبرع يختلف عن مثيله في الحقوق الخاصة بأنه لا يحتاج إلى إجازة المتبرع له [1] »

وكون الوظيفة ضرورية يبرر هـذا الوضع الشاذ للسلطة العامة ، أو هيئة الحكام أو الموظفين

حقوق الموظفين وواجباتهم

تبين أن تقسيم الهيئة الاجتماعية إلى طبقة الحكام (أعني الموظفين) والمحكومين (أي الشعب) ، وتكليف المحكومين بالعمل والكسب لإعالة الحاكمين ضرورة حيوية ، ولما كانت القاعدة في الضرورة أنها تقدّر بقدرها ، وأن لها أحكاماً خاصة ؛ وجب أن يمنح هؤلاء الحكام (أي الموظفين) أقل قسط ممكن من الحقوق ، لتخف أحمال الشعب ، وتقلّ أتعابه ، ويحملوا أكبر مقدار من الواجبات ، ليتحقق على أيديهم أكبر قسط ممكن من الخدمة العامة

- أما أن يكون على الموظفين واجبات فأمر أساسي اقتضته طبيعة الوظيفة ؛ أما أن يكون لهم حقوق ، فأمر ناشيء عن تلك الواجبات ، يستحيل قيامهم بها دون الحصول على هذه الحقوق .

وأول الواجبات في الوظيفة أن تكون الغاية من إحداثها تحقيق منفعة عامة ضرورية لا يستغنى عنها ولا يمكن تحقيقها إلا بإحداث هذه الوظيفة ، وبغير هذا الشرط لا تكون الوظيفة مشروعة ، بل تكون شكلاً من أشكال الاستبداد كما لو أحدثت لمنفعة شخص أو لإرضائه ، أو لتأمين مصلحة خاصة لحزب من الأحزاب ، أو جمعية من الجمعيات السياسية

وثانيها أن يختار من الأشخاص أقدرهم على تأمين هذه المنفعة وأن يراعى في اختياره الكفاية الشخصية والمواهب الذاتيـة ، لا الأسرة ولا اللون الحزبي ولا الشفاعات .

ولهم بعد ذلك حق الطاعة على الرعية من غير أن تحتاج عقودهم وأعمالهم ومقرراتهم إلى المصادقة الفردية من جميع المحكومين أو تحتاج إلى حكم قضائي . يؤيد ذلك اعتبار الحكام (الموظفين) منتخبين من قبـل الشعب ، وحائزين لثقته ، وأنهم (لما هم عليه من الصفات والمزايا) أقل خطأ من سائر الأفراد ، وأنه لو أعطي الأفراد حق الاعتراض على كل العقود العامـة وإقامة الدعاوى دائماً لأدى ذلك إلى الفوضى وعرقلة سير القضايا العامة وضياع المصلحة التي من أجلها أوجدت الحكومة

وبديهي أن حق الطاعـة لا يكون للحكام إلا إذا اتبعوا الدستور وساروا على القوانين والعادات المرعية

ومن حق الموظفين الذين انقطعوا عن الكسب لأنفسهم وعن تأمين مصالحهم الخاصة أن تؤمن هذه المصالح من قبل الدولة وأن يمنحوا بعض الامتيازات ، ويتمتعوا ببعض الحصانات .

أي أن للموظف قبل كل شيء أن يأخذ راتباً من خزانة الدولة ولكن كيف يقدر هـذا الراتب ؟ وما هو الأسلوب الصحيح لتعيين مقداره المشروع ؟

جاء في البخاري عن عائشة : « أن أبا بكر رضي الله عنه لما استخلف قال : لقد علم قومي أن حرفتي لم تكن تعجز عن مئونة أهلي وشغلت بأمر المسلمين فسيأكل آل أبي بكر من هذا المال »

وكان الذي فرضوا له برديه إذا أخلقهما وضعهما وأخذ مثلهما. وظهره (دابته) إذا سافر ، ونفقته على أهله . كما كان ينفق قبل أن يستخلف ؛ فرضي بذلك [1]

وهذا الأسلوب طبيعي ومقبول ، ولكنه شخصي لا يصح اتخاذه قاعدة عامة ، لأنه يؤدي إلى الفوضى ، ولا يجعل للرواتب أسلوباً معروفاً ، ولا أصلاً ثابتاً ، ثم إن فيه حيفاً على الموظفين المقتصدين الذين كانوا يعيشون قبل الوظيفة عيشة ضيقة أو التابعين المفلسين الذين لا يجدون قبل الوظيفة ما ينفقون ، كما أن فيه منفعة لمسرفين وتشجيعاً لهم على إسرافهم . وقد يرد هذا الاعتراض

(١) عن الأستاذ ج سنيف في كتابه الحقوق العامة الشاملة

(١) أبو بكر الصديق للطنطاوي ص١٩٩

الأخير بأن الموظف لا يعطيَ إلا ما فيه تأمين حاجاته الضرورية ، غير أن في ذلك ظلماً للموظف ظاهرا

فما هي القاعدة المقبولة إذن في هذه الرواتب ؟ ...

هي أن يعطى الموظف أقل بقليل مما يستطيع أن يحصله من العمل الحر ، أو ما يحصله رجل مكافئ له في المواهب والسجايا والكفاءة من عمل مشابه لعمله ؛ وهذا تقدير معقول دائم الاعتبار يختلف باختلاف البلدان والشعوب ، وغناها وفقرها ، ورقيها وانحطاطها ، وكون ما يعطاه الموظف أقل بقليل مما يستطيع تحصيله في العمل الحر ، ناشئ عن فكرة الدوام في الوظيفة بالنسبة للعمل الحر والراحة والاطمئنان فيها ؛ فالتاجر لا يضمن لنفسه مقداراً من الربح كل شهر ، كما تضمن الدولة للموظف راتبه ، والتاجر مهدد بالإفلاس والضياع ، وليس على الموظف شيء من ذلك . ثم إن الدولة توفر للموظف من راتبه قسطاً كبيراً يكفيه ويغنيه أيام مرضه وتقاعده عن العمل ، والتاجر موكول إلى نفسه

وللرواتب ضابط آخر هو ألا تزيد نسبتها في الميزانية العامة عن الخمس (عشرين في المائة) وهذا طبيعي لأن الغاية من الحكومة ضمان المنفعة العامة ، وهؤلاء الموظفون وسيلة إلى هذه الغاية . أفيعقل أن تكون الوسيلة غاية ؟ أيعقل أن يأخذ الأعضاء الإداريون في الشركة نصف الأرباح ؟ كذلك لا يعقل أن يأخذ الموظفون نصف موازنة الدولة رواتب لهم

***

وقبل أن ندع الحديث عن وجائب الموظفين وحقوقهم نعرض هذه المسألة : هل الموظفون عمال يقومون بعمل بعينه ثم إذا وفوه كانوا أحراراً في أوقاتهم وأعمالهم ، أم هم مقيدون خارج الوظيفة ببعض القيود ؟ وبالعبارة الثانية : ما هي علاقة الأخلاق والسلوك بالوظيفة ؟ لا أعني التفكير والاتجاه السياسي أو العمل الأدبي ، فإنه لا خلاف في أن للموظف أن يفكر كما يشاء أو يعمل أي عمل علمي أو أدبي أراد ، ويأتي كل ما يجيزه القانون لغيره من الأعمال العامة[1] ولكن أعني السلوك الشخصي ، وأكثر الناس على التفريق بين الأخلاق الاجتماعية ، كالصدق والأمانة والأخلاق الشخصية كالعفاف فلا يرون ما يمنع الموظف إذا كان أميناً على أموال الدولة ، قيّماً بما أسندت إليه من عمل أن يسلك سبيل اللهو ، وينتهز اللذات ، ويبلي صوت نفسه وجسمه ، ولا يرون ذلك قادحاً ، ولا يجدون له صلة بالوظيفة

وهذا الرأي باطل كل البطلان ، لاسيما في بلاد كبلادنا لا يزال الناس ينظرون فيها إلى الموظف (والموظف الكبير على التخصيص) نظرة إجلال وإكبار ، ويتخذونه قدوة ويسلكون مسلكه ، وقديماً قيل : الناس على دين ملوكهم ، فاذا فسد الموظفون فسدت الأخلاق العامة ، ثم إن من الوظائف ماله علاقة ماسة بالأخلاق وما ينبغي في صاحبه الكمال حتى يكون في نظر الناس سالماً من الشوائب منزهاً عن المعايب كوظائف المعارف (التعليم) والعدلية (القضاء) ، جاء في الحديث : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم . فما ظنك بمدرس يقوم في النهار واعظاً معلماً ، يوفى التبجيل ، يكاد يكون رسولا ... فاذا كان الليل اجتمع هو وتلميذه في الحانة أو الماخور ، أو اجتمع معه على باطل ... وما ظنك بمفتش يدخل الصف على المدرس ، ممثلا القانون والأمة والدين ، يراقب ويسجل ويكون لقراره صفة التقديس فلا يرد ولا يكذب ، وتكون مقدرات المدرس معلقة به ، ماظنك بهذا المفتش إذا ذهب في المساء يؤم الحانات أو يطرق أبواب المعلمات ... أو يأتي المنكرات ؟ وقل مثل ذلك في القاضي . بل ربما كان احتياج القاضي إلى الكمال ، في كل أحواله ، وفي كافة أموره ، أشد من احتياج المعلم ، لأنه يجلس مجلس الأنبياء ، ويقوم مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذلك عنيت القوانين الشرعية ، بأخلاق القاضي فلم تكتف بالعلم ، وإنما اشترطت فيه بعض الشروط الأخلاقية ، فأوجبت فيه أن يكون حكيما فهما مستقيما أميناً مكيناً متيناً (مجلة — مادة : ١٧٩٢) وقيدته ببعض القيود فألزمته اجتناب الأفعال والحركات التي تزيل المهابة (مادة : ١٧٩٥) ومنعته من قبول هدية الخصمين أبداً (١٧٩٦) ومن الذهاب إلى ضيافة كل من الخصمين قطعاً (١٧٩٧) الخ

فياحبذا لو عمل بهذه الأحكام ، ووضع مثلها للمدرسين ورجال المعارف خاصة ، وللموظفين عامة

(١) انظر في العدد ٢١١ من (الرسالة) مقالي «الوظيفة والموظفون» الذي وجهته إلى وزير معارف سورية يوم كنت معلماً ابتدائياً في وزارته ... فقد أوضحت فيه هذه المسألة وعقدته على بيانها

وقد يعترض معترض بأن هـذه قيود لايجوز أن يقيد بها الموظف ، بل يجب أن يتمتع بحريته كما يتمتع بها كافة الناس ، والجواب أنها قيود حقيقة ، ولكنها ضرورية لتأمين الغاية من وجود الموظفين ، وهى المنفعة العامة ، فاذا كانت هذه القيود شاملة الموظفين ، وإذا دخلوا فى الوظيفة على معرفة بها ، لم تعد قيوداً اضطرارية وإنما تكون بمثابة شرط اختيارى ، ثم إن فى امتيازات الموظفين وحقوقهم التى يمتازون بها من سواد الشعب ما يبرر تقييدهم ببعض القيود اللازمة

تعيين الموظفين

درسنا الوظيفة على أنها ضرورة حيوية ، الدافع إليها والغاية منها المنفعة العامة ، وأبنا أن الواجب فى اختيار الموظفين ، ملاحظة قدرتهم على تحقيق هـذه الغاية وكفاءتهم للقيام بها ، وهذا هو الحق الذى يقضى به العقل والنقل ، جاء فى الحديث عن ابن عباس[1] : من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين

وفى الحديث [1] عن يزيد بن أبى‌سفيان قال : قال لي أبوبكر الصديق حين بعثني إلى الشام : يا يزيد إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ولى من أمر المسلمين شيئاً فاستعمل عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا حتى يدخله جهنم .

وكان الشأن فى المسلمين الأولين أنهم يفرون من الولاية ويخشونها ، ولا سيا القضاء فربما عرض عليهم فأبوا ، فنالهم أذى فصبروا واحتسبوا ولم يقبلوا . وحديث الأئمة فى هـذا الباب أبي حنيفة ومالك وغيرهما مشهور معروف ، والأحاديث فى التنفير من طلب الوظيفة كثيرة جداً حتى عقد لها الحافظ عبد العظيم فى (الترغيب والترهيب) باباً مستقلاً . جاء فى الحديث الصحيح (الذى رواه الشيخان البخارى ومسلم) عن عبد الرحمن بن سمرة : يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة ، فانك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها

وروى أبو داود والترمذى عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من ابتغى القضاء وسأل فيه شفعاء وكل إلى نفسه ومن أكره عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده

وروى مسلم وأبو داود عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبي ، ثم قال : يا أبا ذر : إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها

وكان النبى صلى الله عليه وسلم لايولى أحداً حرص على الولاية أو سألها . جاء فى الحديث (الذى رواه البخارى ومسلم وأبو داود) عن أبي موسى . قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من بنى عمى ، فقال أحدهما : يارسول الله ، أمرنا على بعض ماولاك الله تعالى . وقال الآخر مثل ذلك . فقال : إنا والله لانولى هذا العمل أحداً سأله أو أحداً حرص عليه

* * *

هذا هو الأصل فى تعيين الموظفين ، يختار الأصلح للعمل ، الأقدر عليه وهو مقيم في بيته ، ويحتال عليه بالاقناع وبالتهديد حتى يقبل مكرهاً ، فانتهى الأمر عندنا إلى مايعلمه الناس كلهم ، وأصبحت تعرض المسألة من الموظفين فلا تكاد تجد اثنين من أهل الكفاءات ، وإنما تجد من أدخلته الوظيفة شفاعة شفيع ، أو جاه وسيط ؛ وخير شفيع اليوم « شفيع النواب » [1] وخير وسيط « الأصفر الرنان » أو غير ذلك مما يعلم ولا يقال ، وما فى قلب كل قارىء منه غصة ، وما يحفظ منه كل قارىء حوادث وأخباراً . . .

الموظفون فى بلادنا

وما دمنا في الحديث عن بلادنا ، وما دامت غايتنا الاصلاح فلنصور الداء كله . . .

قدمنا الكلام فى أن الوظيفة ضرورة تقدر بقدرها وأن عدد الموظفين يجب أن يكون معلقاً بالمنفعة العامة ، فلا يقل عن العدد اللازم ، كيلا يحمل الموظفون مالا طاقة لهم بحمله فتتعطل

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد

(١) قال الفرزدق : ليس الشفيع الذي يأتيك مئتزراً . . .

المصلحة ، ويقف دولاب العمل ، ولا تزيد حتى يرهق الشعب ، وأن نسبة الرواتب يجب ألا تتجاوز خمس الموازنة وأن ينفق الباقي على المصلحة ذاتها كما ينفق جلّ أرباح الشركة على المنفعة العامة للأعضاء كلهم ، لا على منفعة مجلس إدارتها القائم عليها

على حين أننا نرى في بعض هذه البلدان العربية بلداً يأخذ موظفوه خمسة أسباع الموازنة (٥/٧) وينفق سبعان فقط (٢/٧) على المصلحة ذاتها . . . أليس معنى هذا أن الشعب كله أصبح خادماً لهذه الفئة ، بدل أن تكون هي خادمة له ؟ وأن غاية الوظيفة حياة الموظفين وسعادتهم لا المنفعة العامة الضرورية ؟

وقدمنا بأن حد الراتب أن يكون أقل بقليل مما يحصله الموظف في العمل الحر على حين أن الراتب عندنا يزيد أضعافاً مضاعفة على ما يحصل من العمل الحر . بل لا نسبة بينهما مطلقاً وقد نشأ عن ذلك أن كان عندنا طبقتان طبقة مترفة سعيدة هي طبقة الموظفين ، وهي الأقل عدداً ، وطبقة مرهقة متألمة شقية هي طبقة جمهور الشعب . وإني لأقول (عن استقراء وبحث) إنه ليس في المائة ممن أعرف من الموظفين اثنان أو ثلاثة يستطيعون إذا أخرجوا من وظائفهم ، تحصيل نصف الراتب أو ربعه من العمل الحر ، ذلك أن علو الوظائف وكثرة الراتب لم تكن قائمة على الكفاءة ، بل مر وقت كانت تقاس فيه كفاءة الموظفين بمقدار اتصالهم بالأجنبي المسيطر وتزلفهم إليه . فنشأ عن هذا أن اتسعت الهوة بين الشعب والحكام (أي الموظفين) . وحمل لهم الشعب في نفسه أشد البغضاء ، وأمر النقمة ، حين رأى المئات من المكلفين لا يقوم ما يدفعونه كلهم من الضرائب ينتزع انتزاعاً من أفواه عيالهم وأعناق بناتهم — لا يقوم براتب موظف واحد كبير . وحين رأوا في القانون خروقاً كثيرة يسقط منها المال على الموظفين الكبار ، فيأخذونه بلا ورع ولا حياء من أجور سفر إلى تعويضات إلى غير ذلك مما أضرب عليه مثالا واحداً شاهدته بعيني في إحدى البلدان العربية : جاء مفتش للغة الانكليزية من داره التي لا تبعد عن المدرسة أكثر من خمسمائة متر ماشياً على رجليه ، فلبث في المدرسة نحواً من نصف ساعة ، ثم ذهب لشأنه فعلمت علم اليقين أنه قدم إلى الوزارة القائمة الآتية (مصروفات تفتيش) :

قرش صاغ

٤٠	أجرة سيارة (من أقصى المدينة إلى المدرسة)
١٠	ثمن أوراق وأقلام للتفتيش
٣٠	ثمن غداء ومصروفات متفرقة
٨٠	المجموع

فأخذ ثمانين قرشاً (وهي اليوم أكثر من مائة فرنك) ولم ينفق منها فلساً واحداً

الوظيفة في بلادنا قد خرجت عن الأصل الذي قررناه في أول هذه المقالة ، فلم تعد ضرورة حيوية ولم تعد غايتها المصلحة العامة ، بل أصبحت باباً للكسب وطريقاً إلى العيشة وأصبحت قبلة الناشئين وهدفهم ، لا تخلو وظيفة إلا أقدم عليها المئات من الشباب المتعلمين ولو كانت وظيفة عامل بريد أو كاتب ديوان ولو كانوا ليسانسيين ودكاترة ، وتوصلوا إلى رضا الرؤساء (وأكثرهم من بقايا العهد البائد) بشتى الوسائل الباطلة والطرق الدنسة الملتوية ، ثم اذا فاز منهم من فاز ثابر على إطاعتهم لأن بقاءه معلق بهم ورقيه موقوف على رأيهم ؛ وإذا كان هـذا الفائز في الوظيفة شريفاً ، أو كان على بقية من المبادئ التي تلقاها في المدرسـة ، وأحب أن يعيش في الوظيفـة بإخلاص وشرف واستقامة ، ذاق الأمرّين وأصلاه الرؤساء حرباً حامية ، حتى يَخرج أو يُخرج غير مودّع ولا مأسوف عليه ..

ضاع الشرف واضمحلت الأخلاق ومات النبوغ فكم من نابغ موهوب وعبقري نادر دفن نبوغه وعبقريته في وظيفة خاملة. الوظيفة في بلادنا خصيمة النبوغ . هذا الرافعي الذي لم ينشأ في العربية في كل عصورها كاتب أبلغ منه عاش ومات كاتباً في محكمة صغيرة ، وهؤلاء الجاهلون في أرفع وظائف المعارف ، والظالمون في أعلى درجات القضاء ...

إن مسألة الوظيفة عقبة من أشد العقبات في طريق هذه الشعوب العربية الناهضة ، فيجب أن ينظر إليها ويبحث فيها ، ويوليها الكتاب والمفكرون وأولو الأمر والحكام الوطنيون أكبر العناية ، ويحلونها من الاهتمام في أرفع مقام

علي الطنطاوي

من وحي «الشجرة الضائعة»

على طريقة الشعر المنثور

للأستاذ خليل هنداوى

— ١ —

أتدرين لماذا أحبك أيتها الشجرة القديمة
التي اشتركت جذورها مع جذور الزمان ...
لا أحبك لأنك قوية عالية المناكب غليظة الجذع ، ولا أحبك لكهولتك التي لا تزال تتدفق بالحياة كالشباب ، ولا أحبك لأنك رمز القدم ...
أحبك لأمر واحد وأحب معه كل قديم من أجله ...
لأن فى القديم شيئاً من حيواتي الغابرة التي لا أعيها ...
وربما كان لى عين إلى أعماقك !
وربما كان لى ثغر في عروقك ...
وربما رأيت الحياة بك مرات كثيرة ...
إنك أقدر على تفسير اللاشعور فى نفسى من نفسي ...

— ٢ —

ما أضل أولئك الذين يظنون انهم استطاعوا ان يقولوا : « قد وجدنا ما أضعنا »
أيستطيعون أن يتمثلوا ما أضاعوا حتى يجدوه ؟
لو كان الشيء الذى أضعته واحداً لقلت :
ما أهون الأمر !
ولكنى أضيع كل يوم شيئاً ولا أجد هذا الشيء ...
وشقائى أنني كلما ذهبت أفتش عن هذا الضائع ، أضعت معه شيئاً آخر كان معي !
فحياتى أشياء ضائعة ، وسعي ضائع وراءها .
فأين تريدون أن أجد أجزاء نفسى التي تناثرت مني على طريق العمر ؟
وبينا كنت أحمل هذه الأجزاء كعوامل لسعادتى وحياتي أمسيت أحملها ذكريات ثقيلة
هل بامكانى أن أطرح هذه الذكريات عنى كما تطرحين أيتها الشجرة هذه الأوراق البالية عنك كل خريف ؟
أتعاودك ذكرى الأوراق المتساقطة بعد أن يكسوك الربيع سواها ؟
فاذا لم تعاودك ذكرى الورقة الأولى فلماذا تعودين إلى إبداع الورقة الجديدة — كل ربيع — على مثال الورقة الأولى ؟
أليست الورقة الأولى هى مصدر إلهامك ومدار حياتك ؟
وحقك ! أينما رأيت أوراقك قلت : هذه الورقة الأولى !
دعيني إذاً أفتش فى هذه المسارب قبل أن تغمض عيناى ..
لأقول : هنا سحبت قدميها مرة ، ففي هذا المكان جزء منها فلأحاول أن أوقظ هذا الجزء ...
وأقول : هنا جلسنا ذات يوم وضحكت لنا الحياة . فلأحاول أن أستعيد هذه الضحكة من الآن من التى طوتها
وأقول : هنا تركت بقية منها لم تعد تحملها نفسها ولا يجدها أحد سواى . فلأجرب أن أستنقذ هذه البقية من النسيان !
وأقول : هنا يعبق الجو بأشذاء وعطور من جسدها يوم كان يتفتح للمياه كالزهرة ، فلأجرب أن أغمر روحى بهذه الأشذاء وهذه العطور .
وهنا يطفح المكان بألوان محاسنها التى تحولت ... فلأعمل على إحياء هذه الألوان الباهتة .
وهنا أمس أشياء كثيرة ! أحسها ولكني لا أقدر أن أمسكها لأنها أفلتت مني كما أفلتت منها ...
دعيني إذاً أفتش عن أجزاء نفسى فى كل مكان ، قبل أن يطوينى الزمان .

— ٣ —

أيها الزائر لحدي — هنا — لا تكثر التأمل فى الأرض حيث ذرات جسدى تقيم لأنك لن تجدنى هناك ...
ولكن تأمل فى الشجرة التى تغمرنى ظلالها وتحنو على أغصانها وتشدو لي أطيارها
إنك تجدنى فيها على كل ورقة تتحرك ، وفى عصارة كل عود يرتجف ، وتسمع همسى فى كل خشخشة منها !
أنا ميت فى الأرض ، وحى فى الشجرة .

خليل هنداوى

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٣ —

الفلسفة الصينية

أخلاق العصر الأول أو الفلسفة العملية

أشرنا في الفصل السابق إلى أن فلسفة الخاصة لم تتأثر ألبتة بأفكار العامة ولم تحمل أى طابع من طوابع العقلية الشعبية ونجزم هنا بأن عكس ذلك هو الذى وقع أى أن العامة هي التي تأثرت بفلسفة الخاصة ، ولكنه تأثر أخلاقي فحسب ، وإنما نقول فحسب ، لأن فلسفة الخاصة النظرية ليس لها على عقيدة العامة إلا آثار طفيفة لا تكاد تذكر ، فبينما نرى فلسفة الخاصة تعجز عن رفع الجماهير إلى الايمان بـ « شانج — تى » وهو السلطان الأعلى نشاهد فلسفتها العملية تسود الشعب كله خاصة وعامة ، بل وتلون عقيدة الجمهور بذلك اللون الأخلاقي الراقي

نحن نعلم أن الصينيين كانوا يرون أن السماء كائن متحرك تبعاً لقانون منظم ، وهذا القانون يربط القوى الثلاث : السماء والأرض والإنسان ربطاً محكما ، وإن كان لكل واحدة من هذه القوى في الظاهر طريق خاص أو غاية مقصود تحقيقها . فغاية السماء تسمى : « تيانْ تـاوْ » . وغاية الأرض تسمى : « توتـاوْ » . وغاية الإنسان تسمى : « جين تاو » إلا أن هذه الغايات ليست في الحقيقة إلا غاية واحدة ، وهى غاية العالم أو قانون الطبيعة أو واجب الموجودات

لهذا الارتباط المحكم بين تلك الغايات الثلاث أثره العميق في كل شئ ، إذ لا يكاد اضطراب بسيط يحدث فى أحدها حتى يتردد صداه في جميع جزئيات الآخرين ، فمثلا إذا حاد الإنسان عن الطريق السوى ، فاقترف جريمة من الجرائم حدث فى الحال اضطراب في السماء والأرض ، وليس الكسوف والخسوف والزلازل وظهور الكواكب ذوات الأذناب والجدب والأوبئة ليس كل ذلك إلا نتائج جرائم الانسان وحيدته عن الطريق المستقيم ، فاذا ماحدث فى السماء هـذا الاضطراب الناشئ من سلوك الانسان وأعقبه اضطراب الأرض عاد الأثر من جديد إلى السماء فتضاعف اضطرابها . ولهذا تقول « أونج فان » أو القاعدة العظمى ، وهي أقدم مستند فلسفي صيني : إن سلوك احترام من يستحق الاحترام يجلب الغيث فى الوقت المراد والتبصر يجلب الحرارة في الوقت المراد والتمرن على التأمل يجلب البرودة فى الوقت المراد ، وحكمة الملك تجلب الهواء في الوقت المراد ، ولكن الفظاظة تديم المطر من غير انقطاع ، والكسل يديم الحرارة من غير انقطاع ، والهوس يجلب البرد من غير انقطاع ، واحتقار مايستحق الاحترام يجلب الجدب ، والحماقة تجلب العاصفة »

وإذا رأينا أن الصين يربطون المظاهر الطبيعية بالفضائل والأخلاق إلى هذا الحد ، استطعنا أن نجزم بأن الواجب هو الذى كان له القيادة العليا فى هذا الشعب ، وبأن كل فرد كان يحاول بقدر طاقته أن يكون فاضلا حتى لا يكون مجلبة للوباء أو للجدب فتشقى بسببه الأمة جماء ، ولكن الفضيلة عندهم لم تكن تتحقق بعمل أو ببضعة أعمال خيرية وإنما هي كمال الخلق وتحقيق الاستنارة التامة للنفس ، واتباع الصراط السوى فى كل شيء ، ذلك الصراط الذى هو موجود بالفطرة لدى كل روح بشرية والذى هو برهان احترام النفس الانسانية وارتباطها بالسماء.

وأكثر من ذلك أن المستصينين الذين اشتغلوا باللغة الصينية عثروا فى دراساتهم على أن كلمة « تاو » التى هى الطريق المستقيم أو الغاية المثلى لكل الكائنات أو تحقيق الواجب تدل أيضاً على نصيب الانسان الممنوح له من السماء ، وهذا برهان آخر على ارتباط الفضيلة والواجب بحظ الانسان فى الحياة عند هؤلاء القوم .

وعند الصينيين أن الانسان خيّر بفطرته ، لأنه جزء الطبيعة والطبيعة هي الإله ، ولكن الانسان ليس مجبراً على اتباع طبيعته الخيرة دائماً مثل النبات أو الحيوان ، وإنما هو كائن مفكر له كسب واختيار قد يبعدانه أحياناً عن الصراط السوى الذى هو صوت السماء أو صوت الطبيعة . أما الخير الموجود في نفسه ،

فليس كامل التكوين ، وإنما هو موجود على هيئة استعداد فقط وعليه هو أن يحققه حتى تصبح الفضيلة طبيعة عملية له .

وهنا أحسب أنى لست فى حاجة إلى التنبيه إلى أن الصينيين قد سبقوا الرواقيين إلى هذه النظرية بعدة قرون حيث قرر هؤلاء الأخيرون أن الانسان هو جزء الطبيعة التى هي الإله ، وأنه خير بفطرته ، وأن الشر لا يقع منه إلا إذا حاد عن طبيعته ، وأن هذه الحيدة لا تأتيه إلا من التفكير وحرية الاختيار .

وعلى ذكر حظ الانسان الذى تمنحه إياه السماء ينبغى لنا أن نشير هنا إلى أن القدر كان عند الصينيين على نوعين : الأول هو الأقدار الناشئة عن أفعال الإنسان نفسه ، وهذا النوع لا يمكن تعديله أو التغيير فيه . والنوع الثانى هو الحظ الذى تبدأ السماء بتوزيعه على الإنسان ، وهذا يمكن تلطيفه أو تحويل شره إلى خير كما ينص على ذلك كتاب « شو — كينج »

رفع الصينيون إلههم إلى أسمى آواج الكمال الخلقى فنزهوه عن الظلم وعن الاستثناء (المحسوبية) فمن المستحيل مثلاً أن ينزل بالبشر الآلام والأرزاء اتباعاً لهواه ، أو أن يطرد من رحمته إنساناً لم يجرم ، أو أن يعفو عن آثم لم يقلع عن إثمه كما كان يفعل آلهة البابليين والعبرانيين ؛ وإنما هو إله فاضل يمنح النعمة والسعادة للأخيار ، ويقسو إلى أقصى حدود القسوة على المجرمين والأشرار . وفى هذا يقول كتاب « شو — كينج » ما نصه . « إن الفضيلة وحدها هى التى تؤثر فى السماء ، وإنه لا يوجد أمام الفضيلة ألبتة شئ بعيد بحيث تعجز عن اللحوق به ، وإن المتكبر منخفض ، والمتواضع مرتفع ؛ فإذا لاحظت ذلك ، فإنك ستسير على صراط السماء ... »

من الفضائل الهامة التى نصت عليها الأخلاق الصينية الرحمة التى تجب للصغير على الكبير ، وللضعيف على القوى ، وللفقير على الغنى . ويحدثنا أحد العلماء بأن الآية الموجودة فى الانجيل فى هذا الصدد موجودة بنصها فى أقدم الكتب الصينية وهى : «إنما السعداء هم الرحماء» راجع الانجيل وكتابى «شو — كينج» و « إى — كينج »

ومما لا شك فيه هو أن الفلسفة العملية الصينية لم تكف لحظة عن مهاجمة العنف وعن الأمر بالرحمة فى المعاملات ، بل وعن إفهام الأقوياء والأغنياء أن الضعفاء والفقراء خير منهم ؛ وأن هذه الخيرية سر غامض كامن وراء هذه المظاهر السطحية الخداعة من غنى وقوة وجاه . ومن هذا ما يقوله كتاب «إى — كينج» : « إن الهواء الذى يصفر فى السماء إنما هو تصوير لقوة الرجل الذى يظهر صغيرا ، وإن الرجل الذى يمشى فوق ذيل النمر دون أن يعضه هو الذى سينجح ، وإن التواضع يخلق النجاح ، وإن الحكيم المتواضع يستطيع أن يجتاز البحر الأعظم »

ويعلق أحد الباحثين على هـذا بقوله : ولكننا يجب علينا ألا نفهم أن الرحمة التى تدعو إليها الديانة الصينية هى الرحمة التى تجر إلى الضعف ، وإنما هى الثبات فى وداعة والصلابة فى تحقيق الواجب . وعلى الجملة هي المقياس المضبوط فى كل شئ أو هى الاعتدال أو التوسط فى كل شئ ، وهذا التوسط كانوا يسمونه : « تشونج » أى الفضيلة فى ذاتها ، وفيها يقول « إى — كينج » : « إن احتمال فظاظة الأفظاظ فى وداعة ، واختراق الأنهار فى ثبات وشجاعة ، وعدم إهمال البعيد ، وعدم الانشغال بالغير ، كل هذا مجتمعاً هو الذى يحقق السير فى طريق الاعتدال الأوسط »

وهناك نص يعد من أقدم نصوص كتاب «شو — كينج» يقول : « إن الفضائل التى تصير الانسان غاية فى الكمال : هي المتونية مع الجد ، والتخلى مع الثبات ، والحشمة مع البساطة ، والحزم فى السلطان مع الحكمة ، وسهولة الانقياد مع القوة ، والصلابة فى الاستقامة مع الوداعة ، والرحمة مع التمييز ، والشدة مع الإخلاص ، والشجاعة مع العـدالة . فإذا اتبع رعاياك هذه المحامد ، فإنهم سيكونون مستقيمين فى الطريق السوى »

من خلال هـذا كله نلمح فى سهولة أن الأخلاق الصينية قد أقيمت منـذ أقدم عصورها على أساسين جوهريين : الأول المثالية العليا والثانى سعادة المجتمع . ويعلق العالم « زانكير » على هذا بقوله : ولقد فهم بعض الباحثين أن الأخلاق الصينية نفعية جافة فظة . وفى الواقع أن النظرة السطحية المتسرعة فى فلسفة الصينيين لابد أن تنتج هذه النتيجة ، إذ لا يكاد الباحث يتصفح كتبهم حتى يلتقى فيها بقاعدة « الفضيلة طريق السعادة » أو « السعادة غاية الفضيلة » فإذا كان الباحث من أولئك الذين لا يكلفون أنفسهم التعمق جزم بنفعية هذه الأخلاق ، بل بأنانيتها

ولكن نظرة فاحصة، وتأملة دقيقة، تظهران أن هذه السعادة المقصودة ليست هي سعادة الفرد، وإنما هي سعادة المجتمع، وليس ذلك النجاح الموعود به لمكافأة الفضيلة هو نجاح الشخص، وإنما هو النجاح في تحسين أحوال البيئة العمرانية التي يقيم فيها الفضلاء. وفي الحق أن الأثرة عند الصينيين من أقبح الرذائل، وأن الغيرية أو الايثار في رأيهم من أجل الفضائل، وأن الفضيلة بوجه عام تنحصر في الخضوع الحر الذي يصدر من الفرد نحو مجتمعه صدوراً إرادياً، لأن ذلك المجتمع الممثَّل في أوامره الحية إنما هو عندهم صور أمينة للأوامر السماوية. وهكذا نرى أن القانون والحرية هما الدعامتان الجوهريتان للأخلاق الصينية. وفوق ذلك فهما تذكراننا بعبارة «كانت» القيمة، وهي: «إن السماء التي تسطع نجومها فوق رأسي هي عين القانون الأخلاقي الذي في داخل نفسي»

نظام الأسرة

كان لرب الأسرة في الصين كما كان في روما حق الحياة والموت على جميع أفرادها بدون استثناء ودون أي تذمر أو اعتراض، ولكن بقدر ما كان أرباب الأسر في روما قاسي القلوب متحجري الأكباد لا يبالون بتضحية فرد أو عدة أفراد في سبيل هوى من الأهواء أو شهوة من الشهوات. كان رؤساء الأسر في الصين على العكس من ذلك تماماً تفيض الرحمة من قلوبهم، وينبع الحنان من بين جوانحهم، ولا يسلكون مع جميع أفراد أسرهم إلا سبيل العدالة والاستقامة، ولا يتخذون في معاملاتهم إياهم رائداً غير الفضيلة، وإن كانوا لا يتوانون لحظة واحدة في اتخاذ أقسى أنواع الحزم إذا تطلبت الحالة الاخلاقية أو الاجتماعية ذلك. أما واجبات المرءوسين نحو رؤسائهم في الأسرة من احترام واخلاص وطاعة فإننا نكتفي بما أشرنا إليه منها عند حديثنا عن الأخلاق العامة.

السلطان

تنتقل السلطة إلى الملك عند الصينيين من السماء مباشرة، ولهذا يجب أن يكون فاضلاً، مستقيما، حكيما، بل قديساً منزهاً عن النقص، لأنه الابن الحقيقي للسماء؛ وليست البنوة المادية هي المعتبرة، بل إن الاصطفاء المعنوي هو كل شيء، وإن منحة السماء لا تتوقف على جاه ولا مولد، وفي هذا يقول «شو — كينج»: «إن من يستضيء بالفضيلة الساطعة هو وحده الذي يمكن أن يسمو ولو كان ابن فلاح» وهذه القاعدة الأخلاقية تعلن في صراحة أن «الأمبراطور» إذا حاد عن الصراط السوي، فإن السماء تسلب منه السلطة؛ وهذا طبيعي لأن الملك مادام قد قطع برذيلته صلته الداخلية بالسماء، فيجب ان تزول صلته الخارجية بها. ولقد تجسمت هذه الفكرة حتى خصص «كونفيشيوس» فيما بعد في قانون العقوبات الذي أنشأه مادة لعقاب الفرد الذي يفقد صلته بالسماء.

أقنعت هذه النظرية الملوك بأن الحكم بحد السيف والخنجر مستحيل، وبأن السلطة الوحيدة الدائمة إنما هي المنبثقة من الفضيلة، وفي هذا يقول كتاب «إي — كينج» في وعظ الأمراء: «إن القوانين القاسية لا تستطيع أن تحقق الرخاء، وإن نصيب الحزم يساوي نصيب الخيرية، وإن القسوة يجب أن تقف عند التوسط، فاذا ما تعدته فقدت نتيجتها النافعة. ومن يطبق القانون بوداعة مع حزم، وبخيرية مع قسوة معتدلة، يفز بالشهرة، إذ يكون قد أدى وظيفته على وجه الكمال. إن الشعب إذا أحس بقسوة القانون عصاه دون أقل تأنيب من الضمير» ويقول أيضاً: «إن الوداعة الداخلية، والحزم المعتدل، والترضية الممنوحة للجميع من غير استثناء، والأمانة، والاستقامة، كل ذلك هو الذي يحقق تحسين حال الشعب ويعظم امتداد الثقة حتى تتناول الخنازير والأسماك»

لم تكن هذه القواعد الأخلاقية عند الصينيين مجرد نظريات علمية تسجل في الكتب دون أن تحقق في الواقع، كلا، وإنما كانت أخلاقاً عملية طبقها الشعب: عامته وخاصته وملوكه. ومن هذا السمو الأخلاقي العملي ما تحدثنا به الأساطير الصينية عن أحد ملوك عصر ما قبل التاريخ، وهو (هوانج — تي) أي الإمبراطور الأصفر الذي عاش حوالي القرن السابع والعشرين قبل المسيح، والذي تمثله لنا الأسطورة مثلاً أعلى للفضيلة والحكمة، وإن كانت الكتب المقدسة لا تذكر عنه شيئاً.

أما «شو — كينج» فهو يحدثنا أن بلاد الصين كانت سعيدة قوية في عهد ملوك الأسرتين: الأولى والثانية أي أسرتي

الخـــــريف

LA CHUTE DES FEUILLES

للشاعر شارل هوبر ميلر فوى

ترجمة السيد عارف قباسه

« ميلله فوى شاعر فرنسى رقيق من شعراء القرن التاسع عشر (١٧٨٢ ـــ ١٨١٦) طبع بطابع الحزن العميق . تجرع كأس الحمام والغصن أملود والشباب رىق ، عقب هزال ألح عليه إلحاحاً فحطم جسمه تحطيا . نظم ميلله فوى مراثى عديدة — وبها نبه ذكره وعلا شأنه — ولعل أشهرها الخريف La Chute des Feuilles

أحس الشاعر الشاب بالموت يدب فى مفاصله اللدنة وأعضائه المريضة فعمد إلى يراعته وقرطاسه وأثبت هذه الآية الشعرية يبكى فيها حياته الفقيدة وشبابه الراحل وغصنه الذاوى . وأنت حين تقرأ غير هذه المرثية مما سجلته يراعة (ميلله فوى) تحس بالكآبة Melancolie تسيل من كلماته وتفيض وتفيض حتى تغمر قلبك فلا تستطيع أن تحبس عينك عن إرسال أدمعها » (عارف)

تناولت يد الخريف الغابات فنضت عنها ثيابها ، وعرّت الأشجار من أوراقها الذاوية ، وكست أديم الغبراء بطبقة صفيقة منها ، ففقدت الغابة سرها ، وصمت البلبل الفريد عن الشدو

شاب مريض تبلغت به العلة — أفعم الأسى فؤاده فى فجر حياته ، وذب دبيب الموت فى جسمه فى ميعة صباه — أخذ يطوف بخطى بطيئة متمهلة فى الغابة العزيزة على سنيه الأولى وينشد هذه الألحان :

« أيتها الغابة التى أحب ! وداعاً مابعده من لقاء . المنية تنشب أظفارها فى جسمى . حدادك أنذرنى بجدى المأثر . إنى أرى في كل ورقة تسَّاقط من أوراقك آية من آيات موتى

أى عرّافة « أبيدور[1] » المشئومة ! لقد قلت لي :

« ستذوى أوراق الأشجار وستصفر فى نظرك ولكن للمرة الأخيرة »

السرو الخالد المتموج المياد أرخى فوق رأسه أفنانه الطويلة وابتدرنى قائلاً :

« سيذوى شبابك . سيذوى قبل ذوى عشب المرج وعُسلج الهضاب »

يا لله ! هأنذا أقضى نحبى . مسَّنى قر نكباء حرجف

أرى ربيع حياتى يتلاشى (كتلاشى التموع فى زفرة اللظى الحمراء) .

تساقطى أيتها الورقة الزاهقة تساقطى !

غشاوة على الأبصار وحجاب على الأعين هذه السبيل

إنها تخفى على يأس أمى مقري فى الغد

ولكن إذا توجهت حبيبتى — مع دلوك الشمس — شطر المسلك المنعزل ، شعثاء الشعر ، مشقوقة الجيوب تبكى على ، أيقظي بهمساتك الخفيفة ظلى القرير .

قال ذلك ، ثم طفق يبعد . . . وبلا إياب

الورقة المتساقطة أخيراً أعلنت انطفاء شعلته

تحت السنديانة شق لحده . ولكن حبيبته لم تأت لزيارة جدثه ، وراعى الوادى هو الوحيد الذى يكدر صفو الرمس بوقع أقدامه

حماه « سوريا » عارف قباسه

(١) مدينة تقع على شاطئ بحر إيجه اشتهرت بعرّافيها

« رِهيا » و« شانج — إين » لأن ملوكهما كانوا فضلاء وحكماء ؛ وكذلك امتدت السعادة إلى أول عهد الأسرة الثالثة التى أسسها « وين — وانج » الحكيم الذى كان يطلق عليه اسم الملك المهذب، والذى هو النموذج الأعلى لكونفشيوس ، والذى ساهم بخطه فى نسخ « إى — كينج » وقد حكم فى سنة ١١٢٢ قبل المسيح

غير أن السلطة انتقلت إلى ملوك غير مستقيمين فسلبت السماء سلطتها منهم ، وسقط الشعب فى حضيض التنازع والتفرق ، وأخذ صغار الحكام يستأثرون بالسلطة . وعلى الجملة ساد الشقاء والبؤس تلك البلاد خمسة قرون كاملة انتهى بانتهائها هذا العصر وبدأ العصر الذى سنتحدث عنه فى الفصل الآتى

« يتبع » محمد غلاب

تطور علم الكلام

في رسالة انقاذ البشر من الجبر والقدر

للأستاذ محمد علي كمال الدين

تتمة ما نشر في العدد الماضي

يظهر للباحث من عنوان المرتضى « بيان القدرة والقدور » ومن قوله عن زعم جهم بأن ما يكون في العبد من كفر وإيمان ومعصية فالله فاعله . يظهر أن المرتضى يرى أن نظرية جهم في خلق الأفعال هي عينها نظرية القدر ، وهي هي نظرية الجبر ؛ وقد صرح بذلك في رسالته في معرض صفات الله عند نهاية صفحة ٤٠ بقوله : « سبحانه وتعالى عما وصفه به القدرية المجبرة المفترون » وعليه يكون القدر في عنوان كتابه : « إنقاذ البشر من الجبر والقدر » عطف تفسير على الجبر

كما يظهر أيضاً من قوله : ولما أحدث جهم القول بخلق أفعال العباد قبل ذلك ضرار بن عمرو بعد أن كان يقول بالعدل فانتفت عنه المعتزلة واطرحته . يظهر أن النظرية العدلية كانت هي السائدة بين طبقات الأمة حتى بعد حدوث الاعتزال أي بعد القرن الأول ، وأنها سبقت نظرية الاعتزال في الحدوث وسبقت نظرية خلق الأفعال ؛ وأيضاً عند تدقيق أسطر المرتضى المبحوث عنها ولاسيما ما يخص ضرار بن عمرو نستنتج النقط الآتية :

(١) إن واصلاً وعمراً هما رجلا الاعتزال وإن ضراراً كان معتزلياً ؛ ونعرف هذا من استنباء المرتضى انتفاء المعتزلة عن ضرار بخروجه عما كان عليه واصل وعمرو بعد أن كان على رأيهما وأخذ عنهما

(٢) إن الزمن الذي حدث فيه الاعتزال هو عند المائة الأولى ، ويدل على ذلك أن ولادة واصل كانت سنة ٨٠ والعادة تقضي أن المرء لا يكون عالماً قبل أن يتجاوز العشرين من عمره وبإضافة العشرين إلى الثمانين تكمل المائة ، وهو نتيجة طبيعية للتطور العقلي فإن للجدل العنيف بين طبقات الأمة في تكفير ذوي الكبائر أو تفسيقهم يؤدي عادة إلى خلق جماعة وسطى تضع لذوي الكبائر منزلة بين المنزلتين

(٣) إن الزمن الذي حدثت فيه نظرية خلق أفعال العباد يكون بعد المائة الأولى بدلالة اطراح المعتزلة لصاحبها ضرار لأنه وافق جهماً في نظريته الجديدة ؛ ونرجح أن يكون الزمن الذي حدثت فيه النظرية هو المدة المحصورة بين وفاة الحسن البصري سنة ١١٠ وبين مقتل جهم سنة ١٣١ . على أن هذا الزمن المفروض حرى أن تحدث فيه النظريات العلمية لكثرة انتشار العلم والدرس مع ازدياد عدد العلماء وشدة تضارب الآراء والأهواء

(٤) في هذا الظرف الذي حدثت فيه نظرية جهم ظهرت آراء ومقالات غريبة لم يصرح بها المرتضى ؛ غير أنه أضاف في عرض حديثه عن ضرار أنه خلط تخليطاً كثيراً وقال بمذاهب خالف فيها جميع أهل العلم . ولم أجد مسوغاً للمرتضى في عدم تصريحه بنوع هذه الآراء في حين أن صاحب الملل والنحل ذكر كثيراً منها . ولو أن المرتضى ذكر بعضها لوجدنا من مقدمته سلماً كاملاً للتطور الفكري . ونعود الآن إلى بقية أجزاء المقدمة ، قال :

« ثم تكلم الناس بعد ذلك في الاستطاعة فيقال إن أول من أظهر القول بأن الاستطاعة مع الفعل يوسف السمني ، وإنه استزله إلى ذلك بعض الزنادقة فقبله عنه ؛ ثم قال بذلك حسين النجار وانتصر لهذا القول ووضع فيه الكتب فصارت مذاهب المجبرة بعد ذلك على ثلاثة أقاويل : أحدها أن الله تعالى خلق فعل العبد وليس للعبد في ذلك فعل ولا صنع ، وإنما يضاف إليه لأنه فعله كما يضاف إليه لونه وحيويته ، وهو قول جهم . الثاني أن الله تعالى خلق فعل العبد ، وأن العبد فعله في استطاعة حدثت له في حال الفعل لا يجوز أن تتقدم الفعل ، وهو قول النجار وبشر المريسي ومحمد بن برغوث ويحيى بن كامل وغيرهم من متكلمي المجبرة نحو الأشاعرة وغيرهم »

قبل تحليل هذا القسم نلفت نظر القارىء إلى كلمة المرتضى « مذاهب المجبرة » بدون أن يقرنها بكلمة القدرية ، فهي وإن لم تدل على رجوعه عن رأيه في مرادفة الجبر والقدر ولكن يشم منها حدوث كلمة جبر ومجبرة ، وأنها غلبت في نسبتها إلى جهم وجماعته بدلاً من لفظة القدر التي حاول أن يهرب عنها الفريقان المتطاحنان . ولو أردنا التماس سبب لغلبة جهم في هذا التملص من صفة (القدرية) ربما وجدناه في مطابقة فهم العامة لمعنى كلمة

الجبر مع النظرية ولا سيما وإن جهماً ونظريته وأصحابه فرس ألحاح ، فهم أحرى أن يتحاشوا ويعملوا على الخلاص من وصمة الحديث « القدرية مجوس هذه الأمة » .

ولنعد إلى بحثنا فقد استأنف المرتضى بحثه مراعياً تدرج الموضوعات بمقتضى تاريخها وتسلسلها الطبيعي فعرض لنا صورة من الجدل الذي جد بعد قرن وربع قرن بين علماء الجبر أنفسهم إضافة إلى النقاش الحاد بينهم وبين العدلية والمعتزلة ؛ فهذا ضرار لم يأخذ بنظرية صاحبه جهم كما هي ، بل حاول الجمع بينها وبين لون من الاختيار فقال : إن الانسان وإن يكن مجبراً على خلق الأفعال فإن هذا الجبر لا يتنافى على رأيه مع الاستطاعة على القيام بالعمل ، أي أنه لا يتنافى وجود فاعلين على أن يكون أحدهما كالقوة البخارية والثاني كالآلة المحركة ؛ وزاد أن هذه الاستطاعة سابقة على حدوث الفعل بخلاف جهم الذي سلب هذه الاستطاعة من أساسها ، وادعى أن إسناد الأفعال للإنسان على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة كما يسند اليه لونه وحيويته ، وكما يقال أمطرت السماء ، وكسفت الشمس ، وخسف القمر إلى غير ذلك

والذي يرمى إليه المرتضى حدوث بحث وموضوع جديد في علم الكلام هو بحث الاستطاعة ولم يعين وقت حدوثه كما هي عادته ولكن سنة التطور العقلي تقضي بأن حدوثه إذا لم يكن في حياة جهم أي قبل سنة ١٣١ فعقيب مقتله . على أن تعدد الآراء في بحث الاستطاعة مع تعقد النظريات يدل على طول زمن البحث فيها كما تقتضيه الأبحاث الفلسفية التي غمرت المجتمع بعد عهد المنصور أي بعد سنة ١٣٦ ... وعليه سوف لا نجد غرابة في بعد الزمن الذي حدث خلاله الرأي الثالث في الاستطاعة أو القول الثالث من أقاويل المجبرة كما اصطلح المرتضى وهو قبل سنة ١٨٩ أي قبل زمن وفاة يوسف بن خالد السمني صاحب هذا القول ؛ على أنه إذا كان الرأيان أو القولان الأولان يقرران نفي الاستطاعة مطلقاً أو وجودها سابقة على الفعل فبمقتضى التطور لا مناص أن يكون القول الثالث هو حدوث الاستطاعة حتى الفعل حيث لا رابع لها .

بقي علينا أن نعرف السبب الذي ساق المرتضى إلى نسبة هذا القول للزنادقة . أقول إن اقتران تحقق الاستطاعة مع الفعل صريح بأن هذه الاستطاعة أمر غير ذهني فلا يمكن أن يتصوره العقل مجرداً بل يتحقق خارجاً كما تتحقق الحرارة مع النار . وهذا عين مقالة الزنادقة القائلين بعدم وجود أمور ذهنية غير واقعة تحت الحواس ، لذلك نسب المرتضى إليهم هذا القول

أما شخصية يوسف بن خالد السمني هذا وهل نسبته هذه إلى مذهب (السمنية) من مذاهب الهند القديمة فذلك مالم أستطع تحقيقه الآن لانعدام المآخذ لدى

ولكن الذي يلفت نظر الباحث اهتمام المرتضى بهذه المقالة : الاستطاعة مع الفعل ، فقد جعلها مفتاحاً إلى مقالة كثير من المجبرة مثل بشر بن غياث المريسي المتوفى سنة ٢١٨ ، ومحمد بن عيسى الملقب ببرغوث ، ويحيى بن كامل من أصحاب بشر ، وأيضاً الحسين بن محمد النجار الذي وضع في هذه المقالة الكتب وغيرهم . فكأن المرتضى يشير إلى أن تاريخ اتساع علم الكلام وتشعب نظرياته عند المسلمين بدأ عند هذه المقالة ومنها أخذ يزداد توغلاً وعمقاً فكثر فيه المؤلفون والمجادلون والمجالسون ؛ غير أن تحقيق تطور هذه النظرية الذي هو موضوع بحثنا يحتاج إلى دقة وبحث واستقصاء أكثر ولا سيما وقد شغلت عهداً طويلا يبتدئ من سنة ١٣١ ويستمر إلى سنة ٢١٨ وهو عهد وفاة بشر المريسي ثم إلى عصر الأشعري وهو سنة ٣٠٠ . والآن نأتي على آخر أجزاء المقدمة ، قال المرتضى :

« ثم تكلم الناس من بعد ذلك فيما اتصل بهذا من أبواب الكلام في العدل واختلفوا فيه اختلافاً كثيراً والكلام في ذلك أوسع أبواب العلم »

فكان العدل هو العامل الأكبر في خلق علم الكلام فقد ابتدأ مع اول نظريه وهي نسبة المعاصي لله أو للعبد نفسه ، واطرد مع جميع نظرياته ، وأخيراً أصبح العدل موضوعاً مستقلا لدى المعتزلة بل أصبح أوسع أبواب العلم كما يقول المرتضي ؛ غير أن المجبرة والصفاتية والأشاعرة تحاشوا التوغل فيه كما توغل المعتزلة

جدول تطور علم الكلام

الآن وقد أنهينا مقدمة المرتضي مع تطور علم الكلام الذي ارتآه وحاولنا البرهنة على صحة رأيه في هذا التطور فلا ندري إن كنا موفقين في بعض هذه البرهنة أو غير موفقين . غير أن القارىء ربما أدرك ما لاقيناه من العناء في هذا العمل . وإكمالاً للفائدة رأينا أن نلخص رأى المرتضي بالتطور في الجدول الآتي :

النظرية	أصحابها	نقيض النظرية	أصحابه	الزمن
نسبة المعاصي لله		نسبتها للانسان والقول بالعدل	السلف	من ٦٠ إلى ١٠٠
تفسيق ذوى الكبائر وتكفيرهم	السلف والخوارج	منزلة بين المنزلتين	المعتزلة	١٠٠ — ١١٠
القدر أو الجبر ونفي الاستطاعة	جهم بن صفوان	الاختيار ومطلق الاستطاعة	السلف والمعتزلة	١١٠ — ١٣١
الجبر والاستطاعة قبل الفعل وعنده	ضرار بن عمرو	» » »	» »	١٣١ —
» » حال الفعل	يوسف السمنى وبشر المريسى	» » »	» »	١٣١ — ٢١٨
» » » »	النجارية والأشاعرة	» » »	المعتزلة	٢١٨ — ٣٢٤

نتيجة البحث ورأينا الخاص

يلاحظ القارىء أنا حاولنا أن نتلمس رأى المرتضي نفسه لنكشفه أمام القارىء كما يمكنه أن يستخلص منه طريقة تطور علم الكلام . وقد آن لنا أن نعرض أمام القارىء آراءنا الخاصة والنتائج التي حصلنا عليها ، وللقارىء أن يأخذ بها أولا يأخذ . وهى تتلخص فى أربعة أمور : زمان علم الكلام ، المكان الذى نشأ فيه ، عوامل تكوينه ، صبغته

(١) أما الزمن الذي نشأ فيه علم الكلام فهو عصر خلافة الامام على وحركات الخوارج وجدالها معه ، وأول نظرية هي بحث المعاصى والكبائر وتكفير مرتكبيها سنة ٣٨

(٢) المكان الذى نشأ فيه علم الكلام هو العراق وبعض ما جاوره من بلاد الفرس بدلالة أن هذه الأقطار كانت منبت الخوارج ومراكز حروبهم ونظرياتهم فضلاً عن أن معظم علماء الكلام كانوا من أهل هذين القطرين

(٣) إن عوامل تكوين علم الكلام لم تكن دراسية بالأساليب والمناهج التى نعرفها بل كونتها ثورة فكرية عامة صدع بها الدين والكتاب المقدس وسندتها قابلية الفرد والمجتمع وغذتها الخبرة العلمية الموروثة تلقيا وتلقينا من دراسة الأمم والمدارس القديمة من سريانية وكلدانية وحيوية وجنديسابورية وحرانية وعبرية واسكندرية ، فكانت هذه الثورة الفكرية بما كان لها من مقومات ومغذيات هى المدرسة الكبرى لعلم الكلام وناهيك بالمجتمع مدرسة عظمى سريعة النموطيبة النتاج

(٤) كانت صبغة علم الكلام منذ نشأته الأولى فى الصدر الأول فطرية ، فمشت نظرياته بمقتضى العقلية العربية الاسلامية ، وقد كفلتها الذهنية الخصبة فتوصلت إلى نتائج تلك النظريات طفرة ومن دون تمهل ، وأخذت بها كآراء صحيحة وإن لم تراع الترتيب والتبويب العلمي . ولا أظن أن هذا الأسلوب من الدراسة يمنع من أن ندعوه علم الكلام أو يمنع من اصطباغ معتنق نظرياته بصبغة علماء الكلام . وعليه يكون لعلم الكلام دوران : أولا صبغته الفطرية وهي تبتدىء منذ سنة ٣٨ وتنتهي فى سنة ١٣٦ ؛ والدور الثانى صبغته الفلسفية الحاضرة وتبتدىء منذ عصر الترجمة سنة ١٣٦ ه

وتقريباً للاذهان سنضرب للقارىء مثلاً يرتضيه الخيال ويتفق مع النواميس الاجتماعية ، فربما أعطانا صورة لتلك الثورة الفكرية ، وهذا المثال هي الثورة الثقافية والاجتماعية الماثلة لدى الشعوب والحكومات الشرقية التي استقلت بعد الحرب العامة فقد شاهدنا هاته الشعوب والحكومات كيف سارعت وتطورت فى دراسة نواحى الاستقلال وما يلابسها من نظريات اجتماعية وسياسية ومدنية وقضائية وعلمية وفنية وعسكرية وما إلى ذلك من خصومات الحضارة الأوربية وأساليبها — درست جميع ذلك بطريقة عملية تلقينية وبأساليب التفكير والتجربة والتقليد إذ لم تكن لدى تلك الحكومات ما يصح أن يقال لها مدارس فنية أو عسكرية قضائية أو اقتصادية ، ومع ذلك وجدنا ابن الريف والفلاح الأمى قد سارع فى تلك البلاد إلى تلقى الأنظمة والفنون الحربية بما فيها آلاتها وأدواتها الميكانيكية كما وجدنا الحضرى ساق السيارة والباخرة والقطار ، والتاجر والصانع أصبح سياسياً أو إدارياً أو صحافياً أو مهندساً فى حين أن معظم هؤلاء وأولئك لم يكونوا قد سمعوا بشىء فى ذلك فضلا عن مشاهدته والقيام بما يتطلب . والأغرب من ذلك كله أن جميع هؤلاء الفنيين أو المدربين الشرقيين قد نجحوا ومهروا ببضعة سنين

ونحن نرى فى هذا المثال صحة المقارنة وانطباقها مع تلك الموجة العربية الاسلامية كل الانطباق إلى درجة لم يبق معها مجال للحيرة والشك فى سرعة قبول المسلمين لنظريات علم الكلام وفى كيفية امتزاج هذا العلم وأشباهه مع الدين الإسلامى

(العراق . النجف) محمد على كمال الدين

في الأدب العربي

دعبل الخزاعي
الشاعر المتمرد
للأستاذ عبد الحليم عباس

قال دعبل : مضى على ستون عاماً ما تصرم منها يوم إلا وقلت فيه شعراً . وقد يكون مغالياً فى هذا ولكن الشيء الذى ليس فيه مغالاة أنه نظم كثيراً أضعاف ما خلص إلينا ، فقد ضاع الكثير من شعره ؛ وليس هذا الضياع بالمستغرب ، وإنما المستغرب أن يصل إلينا شيء من شعره فقد كان الرجل طلعة ، هجاء ، ومرعباً بهجائه . وحسبك أن تعلم أن من جملة من أقذع فى هجوهم خمسة من الخلفاء ، وفئة صالحة من الأمراء والوزراء والقواد ، ثم كان إلى جانب ذلك شيعياً . أفلا ترى أن الزمن كان متسامحاً إذ أبقى على شيء من شعره ؛ على أن هذه البقية كافية للحكم على شعره ، وتقديره من حيث الجودة ، ولكنها لا تكفي أبداً لدراسته من الناحية النفسية ، فليس يمكننا أن نعرف معرفة صحيحة أسباب تمرده ، ولا أن نجزم فى الحكم على بواعث ثورته ؛ وقصارى جهدنا أن نفترض وأن نتخذ من الكلمة الصغيرة ترد فى سيرته مفتاحاً للغوص على هذه النفس العجيبة ...

كان البحتري يتعصب لشعره ، ويفضله على مسلم بن الوليد ، ويقول فى أسباب هذا التفضيل : « إن شعره أدخل فى كلام العرب من شعر مسلم ... » أما إنه أدخل في كلام العرب من شعر مسلم فما لا يمترى فيه اثنان ، بل لعله أدخل فى كلام العرب من شعر كل الشعراء الذين تقدموه فى الدور الأول للدولة العباسية ؛ واما أنه خيرٌ من مسلم فالبقية الباقية لا تجيز لنا هذه المقارنة . هو متين السبك ، شديد أسر التراكيب ، فحل الأسلوب ، حتى لو دعته الضرورة أن يقول شعراً فى أقل الأمور التى لا تدعو إلى الاحتفال بالشعر ولفظه ، قال :

أسر المؤذن صالحٌ وضيوفه   أسر الكمى هفا خلال الماقط
بعثوا إليه بنيه ثم بناتهم   مابين ناتفةٍ وآخر سامط
يتنازعون كأنهم قد أوثقوا   خاقان أو هزموا كتائب ناعط

وما هذا المؤذن الذى أسره صالح وضيوفه ، وكأنهم أسروا الخاقان وهزموا الكتائب ؟ ديك دجاجٍ لا أكثر ولا أقل . أتينا بهذه الأبيات ، لندلل على أن دعبل لا يتنزّل عن فحولة اللفظ حتى فى أتفه المواقف . . ولكن وا أسفاه لقد ضاع جلة هذا الشعر الفحل . ولنترك الآن الأسف والحكم على شعره فليس ذلك بمجدٍ شيئاً . . ولندرسه على ضوء ما تبقى من شعره ومن سيرته

والآن أيهما الشقى بصاحبه : أدعبل وهو يحمل خشبته — على حد تعبيره — فلا يجد من ينزو به الغيظ وتثور به الحمية فيصليه عليها ، أم أهل عصره وهم يتجرعون غصص ثورته ، ويصطلون بنار هجوه ، يمدحهم مرة فيغدقون عليه النعم ، ويتملقونه بالهبات ، عله يفيء إلى الرضا ، ولكنهم ما يعتمون — لا لشيء إلا أن دعبل أراد — أن يرو الرضا ينقلب سخطا ، والمدح هجاء مقذعاً ، لا تشفع فيه عارفة ، ولا ينهنهه الخوف من سُلطان .

لم يترك وزيراً ترهب صولتُه ، ولا قائداً يُخشى فتكُهُ ، إلا شنَّع عليه حتى الخلفاء رقى إليهم ، فأقضَّ مضاجعهم ، وبعث فيهم من الوجل أضعاف ما بعث فيه سلطانهم . تصافى والمأمون — عقب هجائه لأبيه — فلا أذنٌ سمعت ، ولا قصيدة اشتهرت حتى كان كما يقول تاريخ عصره أول داخل على الخليفة ، وآخرُ من يترك مجلسه ، ولكنها أيام ... وإذا ببغداد تنشد قصيدة جديدة فى هجو الخليفة من نظم دعبل

ويأخذ الرشيد بطبعه ، وهو الخاملُ بعد لم تعرفه أندية الشعر ولا محافلُ بغداد ، وتصله هبتهُ قبل أن تراه عينه ، ثم يموت الرشيد فيكون رثاؤه إياه ...

قبران فى طوس : خير الناس كلهم ،   وقبر شرهم هـذا من العبر
لا ينفع الرجسُ من قرب الزكىِّ ولا   على الزكىِّ بقرب الرجس من ضرر

والرجسُ هاهنا هو الرشيد ...

ونعجز إن نحن لا حققناه، نذكر من تصدى لهجائهم، فحسبك أن تعلم أنه لم يسلم منه — كما يقولون — أقرباؤه ولا عشيرته الأدنون، فقد هجا خزاعـة، وما خزاعة غير قبيلته التي أراد أن يكون فيهـا نسبه. فالبعض يهمس همساً خفياً — فرقاً منه — أنه دعيّ النسب في خزاعة. فأيهما الشقي؟ أهو بمصره، أم عصره به؟

أما هو فقد استمرأ طعم الشقاوة، بل نظن أنه كان يجدُ فيها لذته

ما أطول الدنيا وأعرضها وأدلني بمسالك الطرق

الحق أن أهل عصره هم الأشقياء به، هو بلاء صُبّ عليهم في أرفه العصور وأحلاها:

لقد طبع — أبو علي — وهذه كنيته — على الهجاء، وما هو بالهجاء، وإنما الحريق يأتي على العدو والصديق، فما علة هـذا؟ أهي نفسٌ فطرت على الشر بطبيعتها؟ أم أن هناك دوافع وحوافز ساقته إلى النقمة وقسرته على هذا التمرد؟ هذا ما نحاول جهدنا أن نتلمسه في سيرته وما نأسف — من أجله — على ضياع الكثير من شعره

وأول مايتبادر للذهن أنه قد يكون في عقيدته الدينية تعليل لنقمته على عصره، فقد كان شيعياً كما أسلفنا، أشاد بمدح العلويين فمن المحتمل أن يكون انساق مع عاطفته الدينية، فأخذ يشنع على العباسيين، الخلفاء والوزراء وكل من له صلة بهم؛ على أن هـذا إن يصدق على شاعر فعلى غير دعبل، فالعصر العباسي شهد ثلاثة من الشعراء المتشيعين، دعبل، والسيد الحميري، وديك الجن، وأوسطهم أخلصهم للعلويين، السيد الحميري هو الذي اتخذ مدح العلويين مجالاً لشعره، أما الاثنان الآخران فقد كان تشيعهم من النوع الحقيق — إن صح هذا التعبير — انهمك الشاعر السوري في رثاء جاريته وردة، وفي البكاء والحنين على جوار أُخر... أما دعبل فقد وجد في الهجاء متسعاً يلهيه عن التشيع... لم تعرف له في العلويين قصيدة عبقرية خلا واحدة

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

نستخيخ أنهـا صادقة اللوعة، تنم عن إخلاص، وهو شيء لا ننكره، وإنمـا الذي نذهب إليه وتؤيده سيرته نفسها أن يكون مصـدر نقمته على الذين هجاهم نظرته إليهم كمغتصبين أو كأعوان لمغتصبي حق أبناء علي، وإلا فما يمنعه أن يلمح إلى أفضليتهم في خلال هجائه للعباسيين على الأقل؟ مرة واحدة ذكرهم في هجو الرشيد

وليس حيٌ من الأحياء نعرفه من ذي يمان ومن بدو ومن حضر
إلا وهم شركاء في دمائهم كما تشارك أيسارٌ على جزر

وليس يرد على هذا أن المأمون جدّ في طلبه لهذه القصيدة فغير دعبل يستشعر الخوف، أو يتدبر العواقب. أليس هو القائل للمأمون نفسه:

إني من القوم الذين سيوفهم قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله
واسترفعوك من الحضيض الأوهد

والقائل للمتوكل:

ولست بقائل قذعاً ولكن لأمر ما تعبـــدك العبيد

وللمعتصم:

ملوك بني العباس في الكتب سبعةٌ
ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة
خيـارٌ إذا عدوا وثامنهم كلبُ

وشيء آخر. إذا كان كرهه للخلفاء، ومناصبته إياهم العداء، تشيعاً لأبناء علي، فما ذنب أقربائه؟ ماذنب عشيرته خزاعة، بل ماذنب هؤلاء الذين ليس لهم من جريرة غير موافقةُ أسمائهم للقافية في شعر دعبل

ما جعفر بن محمد بن الأشعث عندي بخير أبوة من عثعث
عد البيوت التي ترضى بعشرتها تجد فزارةَ العكلي من نسبك

إذن فلم تكن العقيدة الدينية هي كل السر في هذه الثورة، وعامة هذا الهجاء، لعله تعصبه للقحطانية على النزارية، لا على الأرجح، لأن من بين من هجاهم من ليسوا من نزار، بل نظن أن هذه كلها دوافع جاءت متأخرة، وإنما السر كله في تركيبه

يقول لأحد أصدقائه: ما كانت لامرىء عندي من منة إلا وتمنيت موته. فما عسى يرى علماء النفس في هـذه الخاطرة؟؟ أإباء منحرف عن وجهته؟ كيفما يكن فما هو بالرجل الخير هذا الذي يود أن يكافىء المحسن إليه بتمني الموت له.

وما ترى فيمن تهتاج نفسه لقول الشعر ، فتضيق عليه فنون الشعر إلا أن ينشئه هجاء ، فإذا سأله سائل: لمن؟ قال : « لم يستحقه أحدٌ بعد ، حتى إذا ما لاحاه أحد ، ذكر اسمه فيه ، ونشره فى الناس

ودعبل يعلل هذه الظاهرة فى نفسه بأن الهجاء آخذ بطبع الشاعر من المديح وأن الناس له أرهب . وقد قال مثل هذا بشار وقد يكون بشار صادقاً بالقياس لنفسه ، بل هو صادق مافى ذلك شك ، ولـكن دعبلاً قد أخطأ فى تعليل ظاهرة الهجاء فيه ؛ إنه مسوقٌ إليه بطبيعته ، إنه يفتنُّ فيه ، ويتخذه مجالاً لفنه ، كما يتخذ بعض الشعراء الغزل مجالاً للقريض

وعدا هذه الطبيعة المتمردة الناقمة فيه منذ نشأته الأولى ، فقد كان يرافق الشطار واللصوص ، واتهم مرة بالقتل

. وبقىَ هذا الخلق ملازماً له كل حياته ، فكان يلاقى قطّاع الطرق يؤاكلهم ويؤانسهم ، فلا يؤذونه « ولا هو يتعرض لهم بأذى » قال أحدهم : مازلت أعرف فيه مشية الشطار

هو ناقمٌ ولـكنك لاتلمح فيه هذه النقمة إلا هينة لينة ، فلا يشكو الزمن كما يشكوه غيره من كبار الناقمين ، كأنه أعلى من أن يضج بشكوى ...

حملت على زمنٍ ظالمٍ   فوف تكافى بشكر زمن

وهو إذ يتهجم على الأحياء ويستفد جهد ثورته ، لا يوازن بين قدره وأقدارهم كما يفعل ابن الرومي فى الهجاء ، ولعلَّ مردَّ هذا إلى أن دعبل لم يكن معجباً بنفسه كما كان ابن الروى الذى أضعف أدواته الشعر

وإذا كان الهجاء آخذا بطبع الشاعر ، فما باله يكره ملاقاة الخلفاء أمنية كل شاعر ؟ أراد ابن الدبر أن يقدمه للخليفة فاعتذر أحد أصدقائه : إن أبا على موسومٌ فى الهجاء ومُنيته أن يخمل ذكره . فقال دعبل لصديقه : ماعدوت الذى بنفسى

ولسنا نحب أن نختم هذا الفصل دون أن نشير إلى شيء من التسامح الذي تحلى به عصره . أحب أبو مسعد المخزومى أن يوغر عليه صدر المأمون فأنشد هجاءه فيه ، فقال : أجبه ، قال : لو أمرتنى أن آتيك بالذى على منكبيه لفعلت . قال : أما هذه فلا ...

إن العصر الحديث لجد محتاج إلى ملوك وأمراء ووزراء يستبقون القتل والسجن لغير رجال الأدب

« شرق الأردن »   عبد الحليم عباس

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

حكمة البشر

ليست الأعالى ما يخيف بل الأعماق ، فعلى الجرف تحدق العين فى الهاوية وتمتد اليد نحو الذرى فيقبض الدوار بالإرادتين على القلب

أفتعلمون أيها الصحاب ما هى إرادة قلبي المزدوجة ؟ إن الخطر المحدق بي على منحدرى إنما هو اتجاه نظرى إلى الذروة بينما تلمس يدى مستنداً فى الفضاء . وما أعلق إرادتى إلا على الانسان فتشدنى إليه مرهقات القيود لأننى منجذب منه إلى الإنسان المتفوق فإليه تندفع إرادتى الثانية . إنما أنا أحيا بين الناس كالضرير لا يعرف من حوله ، كيلا تفقد يدى ثقتها من الوقوع على مستند مكينَ

أنا لا أعرفكم ، أيها الناس ، تلك هي ظلمتى أتلفع بها وتعزيتى ألجأ إليها

فأنا جالس أمام الباب متوجهاً إلى الأوغاد صائحاً بهم : إلىَّ يا من يريد أن يخدعنى

إن أول حكمة بشرية أعمل بها هى أن أستسلم لخداع الناس فلا أضطر إلى الوقوف أبداً موقف الحذر لأن فى الناس من يخدعون

ولو أننى وقفت هذا الموقف فى العالم أ كان يتسنى للإنسان أن يثقل منطادى فيمنعه من الانفلات والانطلاق إلى أبعد الآفاق ؟

إن إغفالى للحذر إنما هو عناية تسهر علىَّ لا يصالى إلى ما هو مقدور

إذا أنت امتنعت عن الشرب من كل كأس فإنك هالك ظمأ (١) ، فإذا أردت أن تبقى طاهراً بين الناس فعليك أن تتعود الإغتسال بالماء القذر

لـكم ناجيت قلبي لأعزيه ، فقلت له : صبراً أيها القلب المرم ، إنك لم تفلح بهذه النقمة فتنعم بها كأنها نعمة

وهذه حكمتى البشرية الثانية : إننى أدارى المغرور بأكثر

(١) أليس هذا معنى قول بشار :
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى   ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربه
(الرسالة)

مما أدارى الفخور ، لأن الغرور الجريح مبعث كل النائبات ، في حين أن العزة الجريحة تستنبت جرحها ما هو خير منها

إذا لم يحسن الممثلون لرواية الحياة أدوارهم فيها فخير لك ألا تشهدها ؛ وليس أمهر من أهل الغرور في التمثيل لأنهم يقومون بأدوارهم وكل إرادتهم متجهة إلى اكتساب رضى الشاهدين وإعجابهم ، وهم لا يدخرون وسعاً في سبيل خلق شخصيتهم وتمثيلها، لذلك يلذ لي أن أنظر من خلالهم إلى الحياة فهم خير دواء للسوداء .

إنني أدارى أهل الغرور لأنهم أساة أحزاني المقيمون الانسان ممثلا أمام عياني

وفوق ذلك فمن له أن يسبر الأعماق في تواضع المغرور فأنا أريد له الخير وأشفق عليه بسبب اتضاعه ، فهو يريد أن يقتبس منكم ثقته بنفسه متغذياً من نظراتكم ، متسولاً الثناء من تصدية أكفكم . إن المغرور ليصدق أكاذيبكم إذا ما أحسنتم إيرادها عنه ، فما هو إلا حائر يشك بأعماق نفسه في قيمة نفسه

إذا كانت الفضيلة الحقيقية تجهل ذاتها فالمغرور كذلك لا يعرف شيئاً عن تواضعه

أما حكمتي البشرية الثالثة فقائمة على أنني لا أدع لاستحيائكم سبيلا إلى تنفيري من مشاهدة الأشرار ، فأنا أسر بالنظر إلى ما تخلق حرارة الشمس من عجائب المخلوقات كالنمور وأشجار النخل والأفاعي ذوات الأجراس . ولكم بين الناس مثل هذه المخلوقات العجيبة أفقستها حرارة الشمس أيضاً ، وفي الأشرار أيضاً من البدائع الشيء الكثير ...

إن أوفركم عقلا لا يبلغ في نظري منتهى الحكمة ، كذلك لا أرى الشر إلا مبالغاً في وصفه . ولكم تساءلت مشككا : لماذا لا تزال الأفاعي تطن بأجراسها ؟

إن لكل شيء مستقبله حتى الشرور ، فالظهيرة البالغة التناهي في إشراقها لم تتكشف للإنسان حتى اليوم . لكم من أمور تعتبر شروراً في هذا الزمان وهي لا تتجاوز الثلاث عشرة قدماً حجماً ، ولا الثلاثة أشهر بقاء ، وغداً سيولد ماهو أعظم منها . ولا بد من أن تخلق الحياة التنين المتفوق خليقاً بالانسان المتفوق ؛ فان شموساً محرقة ستدخل حرارة الابداع في الغابات النضة الرطبة لم تمسها يد بعد

لا بد من أن تصبح وحوشكم نموراً وعقاربكم تماسيح ، فيجد القناص في الغاب ما يرضيه

والحق أن فيكم كثيراً من المضحكات يا رجال العدل والصلاح .

ولشد ما يضحكني خوفكم ممن دعوتموه إبليساً . لقد بعد الجمال بين روحكم وكل عظيم ، فاذا ما لاح لكم الانسان المتفوق بصلاحه أورثكم خوفاً ورعباً . فانكم، أيها الحكماء والعلماء ، ستولون الأدبار إذا ما لفحتكم الحكمة المشمسة على الانسان المتفوق في غبطته وعريه .

لقد وقعت عيني عليكم ، أيها العظماء ، فأدركت هذا السر ، وها أنذا أعلنه لكم ، إنكم ستصفون الانسان المتفوق الذي أنبئكم به بأنه شيطان الشياطين .

أتعبني هؤلاء العظماء ، وأشدهم إرهاقاً لي أوفرهم عظمة ، فأنا أتوق إلى اجتياز مرتبتهم فأفوتها وأنا أتجه إلى الانسان المتفوق

لقد عرتني هزة عند ما شاهدت خيار العظماء في عريهم فشعرت بجناحين استنبتهما ساعداي لأحلق بعيداً عنهم في آفاق الدهور الآتية . إنني أتوجه إلى الدهور البعيدة ، إلى الظهيرات النارقة بأنوار لم يحلم بها الفن من قبل ، فهنالك تتجلى الآلهة خجولة من كل ما يقع من حوادث على الأرض .

ليتني أراكم متنكرين ، أيها الاخوة والأقرباء ، أهل الصلاح والعدل ، فتبدون بحللكم وقد نفخها الغرور ، وليتني أجلس بينكم متنكراً أنا أيضاً ، كيلا أعرف من أنتم ولا أعرف من أنا ، لأن هذه آخر حكمة لي من حكم البشر .

هكذا تكلم زارا ...

مناجاة . . . !

حبيى ! إنْ دنا ثغرى إلى خـدَّيك لهفانًا . . .
فلا تغضبْ ! فقد يُغرى الـهوى باللثم أحيـانًا !
وما ذنبي إذا ما كنـتُ فى وجدى مِنَ الناسِ ؟!
هو الحبُّ ! وما فى الحبِّ (م) يا فتّانُ مِن باسِ
فقم نمرح مع الأطيـار إنَّ الله يرعانَا !
وبادِلني — فداك الرُّو ح — أنفاساً بأنفاسِ !

* * *

حبيبى ! نم على كَفِّي لأروى العين مِن حُسنِكْ !
وأسقى رُوحىَ الظَّمْأى إلى الأنوار مِن دَنِّكْ ! !
وأطوي سـاعةً همِّى وآلامي وأكدارِى
وأحيا بين أحـلامى وأنغـامى وأشـعارى
وترنو سـاعةً عينا يَ فى صَمْتٍ إلى عَيْنِكْ !
وثغرى خاشِـعٌ يُملِي على أذْنَيْكِ أسْرَارِى !

* * *

حبيبي ! هاتِ لي وحدِى رحيق الخلْدِ مِن ثغرِكْ !
ودعنى أرشـف الألحا ن والأشواق مِن شَعرِكْ !!
لأهدِى نفسِىَ الحيْرى وأروِي قلبىَ الصَّـادِيَ
وأسْتَافُ الصَّبَابة والـهوى مِن نورك الهادِى !
عشقتُ الحسْنَ فيكَ وما عَشِقْتُ الحسْنَ فى غيْرِكْ !!
فهيَّا قم بنا نشـدو مع الأطيار فى الوادى !

* * *

عبـدْتُ اللهَ فى مِحرَا بِ أشـواقي وأشجانِى !
وفيها شـاهدَتْ عينِي وفيها قال شـيطانِى ! !
وفى الأطيار والأنهـا ر والأزهار والعُشْبِ
وفى حِسِّى وفى رُوحِى وفى نفسِى وفي قلبى !
وفى الحسْنـاءِ أبْصِرُها فأهواهاَ وتهـوانى !!
وأنشدها من الأشعا ر ما يوحيه لى حُبِّى !

* * *

حظي من الناس !

لى الله من مستهدف شفَّه السقم فليس له روح يقوم بها جسم
مشت فى حياتى والشباب مصاحبى هموم لها فى محو آثاره همٌّ
حياة يعاف الهامدون صروفها وينكر مسراها به الدم واللحم
لأجمل منها فى تجهمه البلى وأحلى مذاقاً من لذاذتها السم
نصيبي من دنياى مالا أحبه وحظى من أبنائها الكاشح الفدم
وحولى ممن يظهرون لى الرضا قلوبٌ إذا هبت سخائمها سحم
محضت صحابي الأقربين مودتى وباعد عنى كيد أعدائي السلم
فمالى أصلى الشدَّ فى وحدتى وما لقلبى تغشاه الكآبة والغم
وما اللألى فى الغيب قد نذروا دمي وجوههم تندى وأحقادهم تنمو
إذا لم يكن غير الرياء خليقة فأجدى لهذا الكون من أهله العقم

* * *

ألا أيها الشاكى الذى ليس ينتهى متى ينجلى عن فجر أيامك الوهم
طويت على يأس شبابك كله ولو شئت لم تيأس ولم يرعك السقم
أتشقى بما قالوا ويؤذيك ما نموا وتشفق من عدوانهم كلما هموا ؟
وتجزع إما نال منك معاشر ضئال لهم فى كل مخزية سهم ؟
عزاءك إن ضاقت فؤادك غمة فإن سهام البغى ترياقها الحلم
وصبرك للأعداء أنفى لكيدهم وشكواك من ظلم اللئيم هى الظلم

(حمص) رفيق فاخورى

وداعاً ياهوَى نفسِى عرفتُ الحبَّ والوَجْدَا !
ومَن تامَتْهُ غانيةٌ يرى فى غَيِّهِ رُشْدَا !
وداعاً ! قد وهبْتُ الحبَّ (م) آهـاتى وأنفـاسي
وأوهامي وأحـلامي وتفكيرى وإحسَاسِى !
فدعنى ! ليس فى دُنْيَا يَ ما يُرْجى وما يُهدا !
فلم يترك لِيَ المحبو بُ ما أعطيهِ للنَّاسِ ! !

(اسكندرية) محمود السيد شعبان



من أساطير الإغريق

غـــرام أورورا

للأستاذ دريني خشبة

...رأته على رمال الهلسبنت[1] يرتع ويلعب ، فوقفت تملأ عينيها وقلبها بجماله ، ثم نظرت إليه وهو يداعب البحر المضطرب ، ويتواثب فوق عبابه الزاخر ، فسحرها قوامه ، وفتنتها قسماته ، ونسيت أنها ربة الفجر الوردية الهيفاء ، وأن من ذكران الآلهة من هو أكثر من هذا الشاب تيتون – بن بريام ملك طروادة – جمالاً وأشد فتنة وأخلق بحب ربة جيلة لعوب مفتان ، مثل أورورا ... ولكن ماذا يصنع أهل هذا العالم فى قلوبهم ، ولا سلطان لأحدهم على فؤاده ؟ يستوى فى ذلك الأرباب وغير الأرباب

لقد كان تيتون يتقلب بين الموج ، فتتقلب نفس أورورا فى جحيم من الهوى ، وتتلظى فى سعير من الحب ، وتنجذب نحو الفتى الجميل المفتول بكل مافيها من نورانية وقداسة ... وكان يبرز من الماء ليستجم على الشاطئ الناعم الوادع ، فتكاد تجن به ، وتود لو ترشف قطرات الماء التى تنحدر على جسمانه ذى العضل وتتلألأ فى ثنايا شعره الأسود الفاحم

وطفقت توسوس لها نفسها المغرمة بالأماني ! وتزخرف لها الأحلام ، فصممت أن تتكشف له ، وتتبرج على مقربة منه ، وتدل وتميس ، عسى أن تأسر لبه ، وتسبي قلبه ، فيسلس قياده ، وينخذل فؤاده ، دون مشقة أو عناء ... ولكن تيتون أبى ، واستكبر قلبه أن يلين ؛ ولم يستطع ذلك المرمر الناصع الذائب فى ساقيها ، ولا هذا الورد المتفتح فى خديها ، ولا الأبالسة الراقصة في عينيها وفوق ثديها ، أن ترقق من عناده ، أو تنتصر على فؤاده ، أو تسكب فى نفسه صبابة أو هوى

– إذن أنت ماتشتهى !

– أشتهي ماذا أيتهـا القادة ؟! إذهبي فاعرضي مفاتنك الرخيصة على غيرى !

– ومن أنت حتى تكلم أورورا ربة الفجر هكذا ؟

– أورورا ؟ كيف ؟ مايدريني ؟

– أجل ، أنا أورورا ... انظر

وأخذت ترف فى الهواء ، وتسبح فى السماء ، وتغوص فى المـاء ، وتأتى من آيات الإعجاز مابهر تيتون

– الصفح إذن ياربة ؟!

– لا صفح إلا أن تهب لى حبك ، وتلقى بين يدى قلبك !

– وكيف ، وأنا بشري عاجز ، ولا ألبث أن أفنى فى بضع سنين ، وهذا أبى الضعيف الشيخ قد خطب لى حسناء من بنات الملوك ؟

– « أما أنك عاجز فلا ؛ وأما أنك لاتلبث أن تفنى فى بضع سنين فسأهبك الخلود ، وسيخلعه عليك زيوس سيد الأولمب فلا تموت أبداً ، بل تحيا كالآلهة إلى لانهاية الأزل ؛ وأما أبوك الضعيف الشيخ فلا أحب إليه من أن يراك فى كل ماذكرت ، ولا سيما إذا علم أننى سأكون لك من دون هذه الفتاة التى خطبها لك ، والتي لاتلبث أن يخط الشيب رأسها ، ويعصر الزمان عودها فتجف ، وتذوى ، وتحملها أنت كأثقل الأعباء إلى القبر ... حيث الدود والذباب ، والكلاب والذئاب ... »

– ولكن ... ألا تأذنين لى فى لقاء أبى ؟

– لن يكون هذا أبداً ...

– هذه قسوة ياربة !

– ستفتنك هذه القسوة بعد قليل

(١) مياه الدردنيل

وانطلقت تداعبه وتلاعبه، وتضاربه وتقالبه، حتى زالت عنه وحشته، فأنس إليها، وأقبل بكل مشاعره عليها، واتفقا على الرحيل من فورهما إلى أولب، فانطلقا يطويان الرحب

* * *

— من هذا يا بُنيَّة ؟

— ... ؟ ...

— صيد جميل، ومجازفة جديدة؛ أليس كذلك ؟

— أجل يا أبي، وليست مجازفات أبنائك أروع من مجازفاتك

— مجازفاتي أنا ؟ أية مجازفات يا أورورا ؟

— مجازفاتك الغرامية التي لا تحصى مع الغيد الرعابيب من عبادك

— أي غيد رعابيب يا أورورا ؟ جراءة بالغة !

— لعل الإله الأكبر، سيد الأولب، قد نسي ! على كل حال فسيدة الأولب حيرا العظيمة لا تنسى ... لقد شهدتك تلهو مع يو، وتعبث مع لاتونا، وتتساقى كؤوس الغرام مع يوروبا .. و... و...

— أسكتي ... إنك ابنة لا خير فيك ... وماذا تبتغين لهذا الشاب الغرانق الجميل يا أورورا ؟

— الخلود ... الخلود يا أبي ... ينبغي أن يعيش أبداً ... لن يموت ... لن يموت ... ألا تراه جميلاً يا أبتاه ؟ ألا تبهرك منه وسامته وقسامته ؟ ألا تنظر إليه كيف هو عبل قوي عبقري سمهري؟ لقد لقيته عند شاطئ الهلسبنت، ورأيته يشق اليم فعلقه قلبي، وهويته نفسي ... وكان الموج يلفه في أعرافه، ثم يسجد تحت قدميه كأنه يقبلها، فلما خرج من الماء، رأيت الدنيا كلها تحف به، وتغازله وتناغيه، فلم أر أن يفوز به غيري، ولا أن يستأثر بجماله سواي، وقد رضي أن يتبعني إلى أولب، فتفضل يا أبتاه وامنحه الخلود، فالموت لمثل هذا الجمال قسوة هائلة، وذبول هذا الحسن شيء مخيف جداً ... ينبغي أن يعيش إلى الأبد حبيبي تيتون ... أليس كذلك يا أبي ؟ أليس كذلك ؟ أليس خليقاً بالخلود كالآلهة ؟

وتقدم تيتون فسجد بين يدي سيد الأولب، وتفضل رب الأرباب فمنحه الخلود ... واأسفاه ! ألا ليته ما فعل ... ألا ليته ما فعل ؟ !

قال زيوس وهو يحدث نفسه :

« إذهبي يا أورورا، سأعذبك بهذا الحبيب، وسأنتقم لكبريائي منك، وسيكون تيتون عبئاً ثقيلاً على قلبك، وسيعيش إلى الأبد بجانبك كما اشتهيت، وسأعلمك كيف تستبيحين أن تكلمي أباك كما فعلت ... فوعزتي وجلالي لأعذبنك بألف حبيب وحبيب ! »

* * *

وعاشت أورورا مع حبيبها تيتون أحسن عيش وأجمله، واستمتعا بسنين كانت أشهى من الأحلام، وأنجبا طفلهما اليافع الجميل ممنون [1] فكان لهما كالقبلة الحلوة فوق ثغر الحياة الباسم

ومرت الأيام، وأورورا جميلة وردية كما هي، لأنها ربة، ولأن قوانين الزمان من قدم وحداثة لا تجوز على الآلهة لأنه لا أول لهم ولا انتهاء؛ فأورورا جميلة دائماً، وردية أبداً لا يني قلبها يخفق بالحب وينشده، ويهيم بالجمال ويفتقده، ونفسها عاشقة وامقة كذلك، وإن أماني الغرام تجيش في صدرها دواماً، فهي إن خلت إلى حبيبها تيتون ألزمته فنوناً من الغزل، وضروباً من النجوى، إذا صبر لها الشباب، واحتملها الصبا، فليس المشيب بصابر لشيء منها، ولا محتمل القليل الأقل من تكاليفها، ولا له جلد على أفانينها

— ما هـذه الشعرة البيضاء التي بزغت في سواد شعرك كما تبزغ نجمة الفجر في أخريات الليل يا حبيبي ؟

— « أية شعرة بيضاء يا أورورا ؟ ربما كانت نذير المشيب ياحبيبتي :

— « المشيب ؟ : كلمة غريبة لم أسمعها إلا منك : ماذا تعني ؟

— آه ! أنتم معشر الآلهة لا تعرفون المشيب، أما نحن، معشر البشر، فسرعان مايذهب صبانا، ويولي شبابنا، فنشيخ ونهرم، وتصبح لنا رؤوس مجللة بشعر أبيض يشبه إبر الشوك، يقول الشعراء إنه نور قبيح يسمى بين أيدي الكهول ليشق لهم ظلام القبور ! !

— يا للهول ؟ إن هذا الضرب من خيال الشعراء يخيفني !

(١) قتله أخيل في حروب طروادة

— اطمئنى ! أنا باق إلى جانبك آخر الدهر . أليس قد وهبنى الخلود سيد الأولمب ؟

— بلى ! ولـكن ...

— ولـكن ماذا ؟

— هذه الشعرة البيضاء التى قال فيها شعراؤ كم ما قالوا ؟

— الشعرة البيضاء ؟ مالها هذه الشعرة البيضاء ؟ ليست شيئاً مادام سيد الأولمب قد وهبنى الخلود ؟ إن اقسى أفزع الشعراء من الشيب هو ما ينذر به من غروب شمس الحياة !

— ولـكن الشعرة البيضاء تنذر بأكثر من هذا ؟

— آه ! قد فهمت ما يوسوس فى صـدرك ؟ ألم أعد جيلا يا أورورا ؟

— بل أنت ما تزال جميلا يا حبيبى .

— إذن لا عليك من هذه الشعرة البيضاء .

***

وتمتما سنوات أخريات ؛ ولـكن الشعرة البيضاء أصبحت شعرات وشعرات ، حتى غلب نور المشيب حلك الشباب ؛ ولم تعد لطُرَّة تيتون المصفوفة تلك النضارة وهذه اللمعة ، وذلك السحر الذى كان يرف مع النسيم على جبينه المشرق الناصع فيثير الغرام فى قلوب العذارى ... بل حال لونها الأسود الفاحم ، ونبت فيها قتاد شائك تنفشه الرياح على جبين متغضن باسر ذى أسارير ، يبعث الرهبة فى أفئدة العفاريت :

— تيتون !

— نعم يا حبيبتى !

— لا ! لا ! لا تنادنى بهذا النداء .

— ولِمَهْ ؟

— لم يعد يصلح ... لقد اشتعل رأسك شيباً ، وتغضن جبينك ، وتَرَهَّل خداك وبرزت عظامهما ، وغارت عيناك جداً وانطفأ فيهما بريق الشباب الغض ، والصبى الغريض . وعضلاتك لقد عصرتها السنون يا تيتون ! ويْ ! مالك تنحنى هكذا ؟ هل ضاعت منك درة ثمينة ، فأنت تبحث عنها فى أديم الأرض بعكازك هذا الغليظ ؟ آه ! بل ضاع منك شبابك أيها الشيخ الهرم فأنت تبحث عنه فى هذا الثرى !

— حسبك يا أورورا ... حسبك يا ربة !

— « لا ، أبداً ، ليس حسبى ، أغرب عنى أيها المسخ الشائه ظل فى عقر الدار حتى أرتد إليك ! !

وانطلقت ربة الفجر الوردية غاضبة صاخبة ، وذهبت تطوى الفيافى وتهيم فى الرحب ، حتى كانت من غير قصد عند شاطىء المسينت ، حيث لقيت لأول مرة حبيبها الجميـل الشاب تيتون ابن بريام ملك طروادة ، منذ نصف قرن من الزمان ! ! أواه تيتون ! ! يا للذكريات الحلوة التى تطيف بالقلب كما تطيف أطيب الأحلام بعينى نائم ! ! هنا ، على رمال ذلك الشاطىء الهادىء ، وبين طيات ذلك الموج الذى يبدو كأنه لم يتغير ، رأت أورورا الوردية تيتون البارع ، وشعره الأسود الفاحم يتهدل على جبينه الوضاح ، ثم لا يلبث أن يستوى حين تمر عليه أمشاط الأمواج . وهنا ... ثارت عاصفة الغرام القديم فى قلب ربة الفجر الوردية لأول مرة ، وشب لظى الحب ملء جوانحها ... وفوق هـذه الرمال السافيات تكشفت أورورا لتيتون الفتى لتخلب لبه وتملك عليه قلبه ، ولـكنها ما استطاعت إلى ذلك من سبيل ، حتى تقلبت تحت قدميه ، وتبرجت بين يديه ، فرضى ما عرُضت عليه ، وانطلق معها إلى أولمب ! فما لها اليوم غاضبة على تيتون ؟

مشت على شاطىء غرامها الأول فثارت فى فؤادها الذكريات وأرسلت عينيها تفتش بين طيات الموج الجياش عن تلك الصورة الحبيبة الرائعة ، التى تطفو هناك ... هناك فوق ذلك الثبج كلم جميل ... صورة تيتون وهو يصطرع مع اليم فيصرعه ، ويغالب اللجة فينتصر عليها ... ثم جلست على صخرة مشرفة على البحر الممتلىء بالذكريات ... وطفقت تبكى !

لا ريب أنها عنفت نفسها على ماصنعت أمس مع تيتون ! ماذنبه ؟ ما جريرته ؟ بأى حق تنعى عليه شيبته ولا يد له فيها ؟ ولـماذا تخزه بقوارص الـكلم لأن جبينه تغضن وامتلأ بأسارير الـكبر ؟ ولماذا تعيب عليه عينيه الغائرتين المنطفئتين ؟ ولم تذكره بشبابه وتتهكم عليه فتقول له إنه يبحث عنه بعكازه فى التراب ؟

لا ريب أنها كانت قاسية ، ولا ريب أنها لامت نفسها ، لأن كل تلك الأفكار ترددت فى أعماقها ؛ وقد سألت روحها المتألمة ألف سؤال فلم تستطع أن تراها محقة فيما صنعت ...

***

وعادت أورورا أدراجها إلى تيتون البائس الهرم فهشت له

وبشت ، وراحت تملق له ، وتتحايل على قلبها ترجو لو تستطيع أن تخدعه فيسيخ هذه الكومة التراكمة من القبح والشوه والدمامة ؛ قبعت فى ركن سحيق تجمل أوضار السنين وتنوء بكارثات الليالى

ولبثت تتغفل نفسها بضع سنين ؛ ولكن للآلهة[1] كما للبشر قوة محدودة من الاحتمال ، ومدى غير واسع من الصبر ؛ وقد جاهدت أورورا نفسها مجاهدة طويلة شاقة ، عادت بعدها إلى التبرم بتيتون ، والضيق بشيخوخته الثقيلة ، والنقمة على تلك اللحظة الأسيفة التى لقيته فيها ، ونوبة الجنون التى جعلتها تتورط لدى سيد الأولب فتسأله أن يهب حبيبها نعمة الخلود

— وفيم كل هذا الحزن يا أختاه ؟

— وما العمل للخلاص منه ؟

— أنت المخطئة ، ذلك لا ريب فيه

— مخطئة ! وكيف ؟ هل كنت عامدة أن أقصد إلى الملسپنت لأراه ثمة ؟

— أبداً وليس هذا ما عنيت

— إذن كيف كنت مخطئة ؟

لأنك سألت سيد الأولب أن يهب حبيبك الخلود ، ونسيت أن تسأليه أن يديم له شبابه ، ويحفظ عليه صباه . إذن كنت تمتعت بجماله الفتان أبد الحياة !! أليس كذلك يا أورورا ؟

— بلى ، هو ذاك ولكن ... لقد سبق السيف العذل !

— على كل حال هناك من هو أجمل من تيتون فلا تبتئسى

— أجمل من تيتون ؟ وكيف الخلاص من تيتون قبل كل شىء ؟

— « لا أيسر من ذلك ، إسحريه !

— أسحره ؟ ! آه ، أسحره ؟ فكرة يا أختاه ! ولكن من هو هذا الشاب الوسيم الذى عنيت أنه أجمل من تيتون ؟

— وَىْ ! لا بد من صيد آخر قبل أن تطلق سراح الصيد القديم ؟!

— لا بد يا أختاه لا بد ؟

— إذن فاذهبى إلى جبل هياتوس حيث يرعى سيفالوس الجميل قطعانه !

— « ثم ... ؟

— ثم عودى فاسحرى تيتون واخلعى منه !

— وماذا ترين أن أسحره إليه ؟

— إنه عجوز هرم يدب على عكاز ... ألا تسحرينه (نطَّاطا[1]) ؟

— بلى ! فكرة أخرى نابغة يا أختاه !

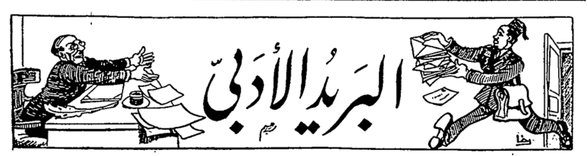
* * *

ولقيت أورورا حبيبها الجديد سيفالوس الراعى فهويته وشغفته حبا ؛ أما تيتون فياويحه ، ويا ويح للعشاق من قلوب العذارى ! إنه مازال إلى اليوم يثب مع آلاف الجنادب فى الحقول والنيطان[2] بعد إذ سحرته أورورا

دريني خشبة

(١) ليذكر القارىء أن القصة من أساطير اليونان

(١) بالعربية (جندب)
(٢) السهل المطمئن الواسع من الأرض



مصاير تراث اسبانيا الفني

ماذا كان مصير ذخائر أسبانيا الفنية بعد عام من حرب أهلية طاحنة سحقت فى طريقها كل شيء؟ لقد أثار مصير هذا التراث الفنى العظيم جزع الدوائر العلمية والفنية فى جميع أنحاء العالم، وهو جزع من حقنا أن نشاطر فيه بنوع خاص؛ ذلك أن بين هذا التراث آثارا وذخائر إسلامية عزيزة هي البقية الأخيرة من ذكريات الأندلس الاسلاميـة . وقد رأت حكومة الجمهورية الاسبانية إزاء هذا الجزع أن تدعو العلامة الأثري الانكليزى السير فردريك كنيون إلى إسبانيا ليتحقق بنفسه مما بذلته الحكومة من جهود عظيمة لصون هذا التراث؛ فاستجاب السير كنيون إلى هــذه الدعوة وطاف أياماً بمدريد وبلنسية ، وعاين الأماكن التى نقلت إليها المخطوطات والصور والتحف الفنية، ونشر نتائج تحقيقه في جريدة التيمس . وخلاصتها أن الحكومة الجمهورية قد استطاعت أن تنقذ معظم تراث أسبانيا الفنى ، وأن مجموعة قصر « برادو » التى ظن أنهـا أتلفت ، وهي من أعظم المجموعات الفنية قد نقلت على عجل إلى بلنسية ، وحفظت فى قلعتها المنيعة فى صناديق غير قابلة للحريق؛ وحفظت مجموعة البسط والمنسوجات الملكية أيضاً فى أحد أبراج القلعة ، ومنها عدة من مجموعة الدوق ألبا الشهيرة . أما مجموعة الأسكوريال من الكتب والمخطوطات ، وهى التى تضم بينها المكتبة العربية الأندلسية ، فقد نقل منها نحو ألف مخطوط إلى بلنسية ؛ ونقل إليهـا أيضاً مجموعة كبيرة من نفائس المكتبة الوطنية ، وحفظت باقى الكتب والمخطوطات بمدريد فى مستودعات أمينة أحيطت بجميع الوسائل الممكنة للصيانة والانقاذ . ومن ذلك يتضح أن جميع محتويات مكتبة الأسكوريال الشهيرة ، ومنها المجموعة العربية الأندلسية التى تضم نحو ستة آلاف وخمسمائة مخطوط عربى قد أنقذت من ويلات الحرب ، وحفظت سليمة إلى اليوم ، وذلك بالطبع يثلج صدر كل عربى وكل مسلم

ولا زالت مجموعة كبيرة من الصور تحفظ بقصر « برادو » غير تلك التى نقلت إلى بلنسية وفيها كثير مما حمل من قصر الأسكوريال ؛ ونقلت مجموعة كبيرة من الذخائر المختلفة من صور وتحف خزفية وأثاث وتماثيل إلى أقبية المتحف الأثرى ، وإلى أقبية كنيسة سان فرنسيسكو ، وهى وإن لم تنظم وتصنف فان كل قطعة منها تحمل تعريفها

أما مجموعة الدوق ألبا الشهيرة فقـد أصابها بعض التلف ، وقد هدم قصر الدوق ألبا المسمى قصر « ليريا » ، ولكن أنقذت معظم محتوياته ونقلت مجموعة الصور إلى بلنسية ، وكذلك الأوانى الذهبية والفضية ، والبسط الثمينة . أما المكتبة فقد أنقذت أيضاً ونقلت إلى دار البلدية ، وكذلك نقل إليها عدة من قطع الأثاث التى أمكن إنقاذها

وأما مجموعة طليطلة فليس يعرف مصـيرها ؛ وقد نقلت الحكومة بعضها مما كان فى الكنيسة الكبرى قبل إخلائها ، ولكنها تركت الباقى ومنها صور جريكو وإنجيل سان لويس الشهير وغيرها ، ولا يعرف ماذا أصاب هذه الذخائر بعد استيلاء الثوار عليها

صور بالفرنسية من الحياة المصرية الشعبية

من الآثار التى أخرجتها أخيراً بالفرنسية أقلام مصرية كتاب للسيدة قوت القلوب هانم الدمرداشية عنوانه « الحريم » Harem ، وقد أصدرته دار النشر الفرنسية « جايمار » ضمن المجموعة التي يشرف على إصدارها الكاتب الكبير بول موران ؛ ومهد له بول موران نفسه بمقدمة جميلة نوه فيها بمـا يحتويه الكتاب من صور ساحرة تطبعها البساطة ، وتمثل فى ألوان

زاهية طرفاً من الحياة المصرية في المجتمعات الشعبية ؛ ويقول لنا بول موران فى خاتمة كلمته إن هذه الصور التى استخرجت من روائع مصر المضطرمة تبعث إلى النفس متاعاً وحرارة وتقترب منا ، وتلمح فيها من خلال النسمات الساحرة أن شمسها هى شمسنا : شمس البحر الأبيض المتوسط »

أما الصور التى يقدمها بول موران إلى قرائه فهى : شم النسيم . عقد الزواج . ليلة الحناء . ميلاد . طلاق . قهوة المأتم . ليلة من ليالى رمضان . العيد . ليلة فى القرافة . يوم الأضحى . العودة من الحج . سوق البطيخ . مقهى فى مصر القديمة . الذكر فى بجامع سيدى المغربى . المدير فى القرية . . . وغيرها ؛ وهي صور مألوفة لنا نعرف جميعاً كيف تدور فى أوساطنا الشعبية ؛ ولكن الطريف هو أن هذه الصور تقدم إلينا بالفرنسية فى ألوان أخرى يرى فيها القارىء الغربى متاعاً خاصاً قد لاتسبغه عليها صورها الأصلية ؛ وتقدم إلينا المؤلفة هذه الصور المختارة من الحياة المصرية الشعبية بأسلوب بسيط ، ولكنه لاذع فى مواطن كثيرة ينم عن تمكنها من تفاصيل هذه الصور ، وتذوقها لروح هذه التقاليد الغريبة التى أخذت تختفى شيئاً فشيئاً من الحياة المصرية .

وإذا كان ثمة مايبعث إلى الأسف فهو أننا لم نوفق بعد إلى إخراج صور من حياتنا الشعبية باللغة العربية تنبو عن ذلك الابتذال الذى يقترن بتصويرها عادة ، وتنفث ذلك الروح اللاذع الذى يسبغه عليها الطابع الأجنبى

آراء جديدة فى التربية للكاتب ولز

عقد أخيراً فى انكلترا مؤتمر للتربية برياسة الكاتب الباحث الاجتماعى الشهير هـ . ج . ولز ، بسط فيه آراءه في التربية ، وهى آراء طريفة خلاصتها أن المواد التى تدرس للنشء يمكن تقسيمها إلى قسمين : قسم يعمل لتكوين الذهن البشرى ، وقسم لتلقين المعارف . ويرى ولز أنه يجب أن يخصص للقسم الأول ثلاثة أرباع الوقت . ويحمل ولز على نظم التعليم الحاضرة ، وخصوصاً فى تعليم التاريخ والجغرافيا ، ويرى من السخف أن تحشد فى رؤوس التلاميذ أسماء الأنهار والجبال والمدن ، وقصص حب الملوك والملكات والمعارك الحربية السخيفة على النحو الذى تلقى به . ومن رأيه أن تعليم التاريخ يجب أن يدور حول تاريخ النوع البشرى ، وما وفق اليه الذهن البشرى من الاختراعات العظيمة وتأثيراتها الاقتصادية والاجتماعية فى حياة المجتمع ؛ أما التاريخ القوى الذى يتخذ اليوم أداة لبث الدعايات المختلفة فيجب أن يكون قطعة من التاريخ العام . ومن العبث أن يحكم على الماضى لصالح الحاضر ، أو على الحاضر لصالح الماضي كما هو الشأن اليوم فى معظم الدراسات

ولآراء ولز فى تعليم التاريخ قيمة خاصة لأنه أستاذ هذه المادة وقد سبق أن عالجها فى فرص كثيرة ، وكتابه الشهير فى خلاصة تاريخ العالم يتأثر بهذا الاتجاه الجديد الذى يريد أن يسير فيه تعليم التاريخ

علم أوراق البردى

دارت فى مؤتمر أوراق البردى الدولى الذى عقد أخيراً فى اكسفورد مناقشة حول تعريف « علم البردى » (بابيرولوجى) فذكر العلامة السير كنيون أنه يشك فى وجود علم حقيق يمكن أن يطلق عليه هذا الاسم ، وأنه من الواجب أن نعترف بأنه لايوجد مثل هذا العلم ، أو أنه إذا وجد فهو علم محدود المدى . وعلم البردى هو العلم الذى يبحث فى جميع الكتابات التي تلقيناها على صفحات البردى ؛ والمبرر الوحيد لمعاملته كوحدة علمية خاصة هو أن النقوش التى تلقيناها تتعلق فى جميع الأحوال إما بزمن خاص أو موضوع خاص أو بهما معاً . ولقد تلقينا عن طريق البردى معلومات عن الانجيل والتوراة هى أقدم معلومات من نوعها ؛ وقد ألقت ضياء على تاريخ الكتب المقدسة فى عصور مظلمة جداً ، وردت كثيراً من النصوص إلى أصولها ، وأثبتت أن الفساد لم يتطرق إلى النصوص أيام العصر البيزنطى فقط . كذلك تلقينا عن طريق البردى معلومات كثيرة عن الكتابات اليونانية ، وتلقينا عن طريقها معلومات نفيسة عن مصر الفرعونية خلال عصر يربى على ألف عام .

والسير كنيون هو أعظم العلماء الاخصائيين فى مباحث البردى ، وقد بدأ مباحثه فيها منذ نحو خمسين عاماً . ومؤتمر البردى المشار إليه هو الخامس من نوعه . وقد شهده مائة وخمسون عالماً من جميع الأنحاء .

من خطبة واصف غالى باشا الثانية فى عصبة الأمم دفاعاً عن فلسطين

« إنى أشترك من صميم فؤادي مع مندوب نروج فى الثناء على مهمة عصبة الأمم وعلى أعمال الدول المنتدبة فى مختلف البلدان الواقعة تحت الانتداب ، كما أنى أقدر الخدمات الجليلة التى يقدمها

الذكاء اليهودى للعالم فى جميع ميادين النشاط البشرى ، ولكنى لا أكتم أسفى لأن الخدم التى أداها العرب للحضارة عامة وللحضارة الأوربية بنوع خاص أهمل أمرها ولم ينوه بها التنويه الكافى »

« وأنا لا أريد أن أتوغل فى هذا البحث ولكنى أقول على سبيل التذكير إن أوربا فى القرون الوسطى لم تطلع على آثار اليونانيين إلا من التراجم العربية ، وإن الفلاسفة والشعراء العرب أثروا تأثيراً عظيما فى الفلسفة والشعر فى أوربا الجنوبية ، وإن تأثير الفروسية عند العرب فى أخلاق القرون الوسطى التي كانت جافية في أول الأمر ساعد على تهذيبها وتثقيفها وتجميلها »

استخدام اللغة العربية فى الإذاعة الدولية

من أخبار جنيف أن سكرتارية عصبة الأمم العامة ستدرس فى آخر الدورة كيفية استخدام اللغة العربية فى نشرات الاذاعة اللاسلكية التى تهم التعاون الفكرى ، وقد وافقت اللجنة بالاجماع على استخدام اللغة العربية ، على أن هناك حاجة للقول بأن الأموال المرصودة فى ميزانية السنة الحالية لا تساعد على نشرات الاذاعة اللاسلكية فى مدى كبير ، ولكن السكرتارية مصممة تصميما صادقاً على أن تبدأ فى تنفيذ القرار وستخصص مبلغاً لهذه الغاية . والبعض يأمل فى أن تعطى مصر إعانة مالية كبيرة للبدء فى الدعاية التامة .

والاذاعة باللغة العربية فرض أساسى على مصر لأنها أكبر وأغنى البلاد التى تتكلم هذه اللغة . ومع ذلك فمن العدل أن تشترك فى ذلك جميع البلدان التى يهمها الأمر بما تسمح به وسائلها المادية وواجب كذلك على البلدان الأوربية الكبيرة التى لها عدد كبير من الرعايا العرب ، كما أنه واجب على البلدان العربية الأخرى التى هى من أعضاء أو من غير أعضاء عصبة الأمم أن تساهم فى هذا العمل ، فمسألة التعاون الفكرى متعلقة لا بالبلدان التى هى أعضاء فى عصبة الامم ، بل بجميع البلدان

الى سيدى الأستاذ الزيات

أشكر لك رأيك فيما كتبت من مقالات عن فقيد الأدب العربى المرحوم مصطفى صادق الرافعى ، وأعتذر من عدم استطاعتى تقديم شىء لهذا العدد والعدد السابق ؛ وأنت أعلم بما علىّ من واجبات ثقال فى هذه الأيام تحول بينى وبين كثير مما أحب ، وأعد بأن أرسل الجزء التاسع من هذه المقالات للعدد الآتى ؛ وأرجو أن تتهيأ لى الظروف التى تعيننى على الاستمرار فى كتابة تاريخ الرافعى وفاء للرجل الذى وقف حياته للدفاع عن الاسلام والعربية ، فلما مات أوشك أن ينساه من المسلمين والعرب إلا قليل من أهل الوفاء . والسلام عليكم ورحمة الله ...

« شبرا » محمد سعيد العريان

وفاة الأستاذ كابيتان

توفى الأستاذ هنرى كابيتان العضو في المعهد الفرنسى والأستاذ فى كلية الحقوق بباريس ، والأستاذ كابيتان معروف لدى كثير من المصريين الذين تلقوا علومهم فى كلية الحقوق بباريس ، حيث كان الفقيد يدرس القانون المدني منذ سنين طويلة . وقد توفى عن ٧٢ عاماً . وكان إلى جانب عضويته فى المعهد ، عضواً فى أكاديمية العلوم الأدبية والسياسية والمجلس الأعلى للمعارف ، كما كان يمثل فرنسا فى الهيئة الدولية لتوحيد القانون الخاص . وللفقيد مؤلفات قانونية كثيرة جلها خاص بالقانون المدنى ، وله فى « سبب الالتزام » نظرية معروفة .

وكان الأستاذ كابيتان رئيساً للجنة الامتحانات التى جاءت السنة الماضية لامتحان طلبة مدرسة الحقوق الفرنسية فى القاهرة وقد طلب من الأستاذ كابيتان حينذاك الاسراع بالعودة إلى باريس بسبب وفاة نجله .



رواية المصـــــدور

تأليف الأستاذ كرم ملحم كرم

للسيد جورج سلستي

أطلّت القصة الحديثة على الأدب العربي مستحيرة الوضاءة مكتملة العناصر والتكوين، فهفت إليها الأبصار هفوها إلى الجمال المتألق الضاحي، وتعلقتها الأفكار تعلقها للجديد المستطرف الأخاذ، وتشرّبتها النفوس بلذّة وشغف؛ ونفوس الأدباء أبداً ظماء للخمرة العلوية يترع الفن بها أقداحهم فيعبّون منها ولا يرتوون

والقصة اليوم — وهي تتبوأ الذروة في الأدب — رسالة من رسالات الفكر النير يزفها هدى للناس فنان ملهم، ومشعل من مشاعل الثقافة الشاملة يحمله للورى عبقري فذّ؛ رسالة تمشي بالناس نحو هدف من أهداف الانسانية الكبرى، ومشعل ينير لهم من خفايا نفوسهم ما يجهلون.

فلا غرو إذن — وللقصة هذا المقام الرفيع — إن رأينا أدباءنا يعالجون فنها الساحر على ضوء النظريات الحديثة، ويقدمونها للقراء نتاج ما وصلت إليه قرائحهم من قدرة على تفهم أسرار النفس البشرية الغامضة، واستطاعة على الإبانة عن الشعور بالحق والحب والجمال.

والأستاذ كرم ملحم كرم استهوته القصة وهو أديب ناشئ طرير العود، وقد طلع على الناس بمجلته الروائية الأسبوعية «الف ليلة وليلة» وهو محرر في جريدة «الأحرار» فعرفنا به أول أديب في قطر الشام وقف جهوده كلها في سبيل الفن الروائي. وهو لا يزال منذ عشر سنوات خلت حتى اليوم يتحف الأدب بروايات شائقة جلها يمت إلى القصص العالي الرفيع، ولا سيما الموضوعة فقد بلغ الكثير منها في الحوار والتحليل وسرد الوقائع شأواً بعيداً في الجودة

و «المصدور» قصة إنسانية، وقائعها مستمدة من صميم الحياة، محورها الحب الشهيد وقطبها العاطفة المقهورة، تتلخص في أن طالباً من أبناء الموسرين هام بحب قروية عذراء أهلها خدم في أملاك أبيه في ضواحي المدينة، وهامت هي به كذلك دون أن يأبها للهوة السحيقة التي تفصل بين مقاميهما. وعاهدها على الزواج مهما اعترضته العراقيل، وعاهدته على الوفاء حتى الموت

وهنا يبدأ النضال الشريف في سبيل الحب الطاهر الوثيق بين القلبين الكبيرين، ومن هنا تبدأ الآلام النفسانية المرهقة التي لاتنتهي إلا بمأساة فاجعة

فأهل الحبيب المعمود لم يكادوا يدرون بما يتأجج في فؤاده من هوى مبرّح لربيبة نعمتهم حتى ثارت ثائرتهم، وحتى راحوا ينهون فتاهم عن هذا الحب الأعمى الغرّار تارة باللطف والحسنى، وطوراً بالتهديد والوعيد، وحتى حالوا بينه وبين تردّده على أملاك أبيه في «نهر الكلب» مسرح حبه ومرتع أمانيه

وأهل الفتاة الولهى ماعلموا بهوى ابنتهم لابن سيدهم ومولاهم حتى خشوا أن تحل بهم النكبات من جراء هذا الحب المتهود الطائش، ويطردهم أسيادهم من المزرعة التي صرفوا فيها سنى حياتهم الهانئة على مافيها من عناء ووصب، فزجروا الفتاة وعنفوها وزينوا لها حب أبناء القرى السّفّ البرىء من المآثم، ونعوا عليها حب أبناء المدن المتقلب الأرعن الملىء بالجرائم، فما كانت لترعوى عن غيها في رأيهم وضلالها

ورأى الأهل جميعاً أن يلجأوا إلى الحيلة والإكراه فأوهموا الفتاة أن ابن سيدها الذى تجرأت فرفعت إلى عليائه عينيها الخاطئتين قد تزوج ولم يعبأ بوعوده لها ولا بعهوده، وأرغموها على خطبة من لا ينبض بحبه فؤادها المولّه، فاسودت

فى نظرها الحياة ، وآثرت أن تترهب على أن تزف لغير الحبيب ففرت إلى الدير بعد أن وضعت بعض ثيابها على ضفة النهر فى يوم عاصف الأنواء لتوهم أهلها أنها انتحرت

وضللوا الفتى ، فقالوا له إن فتاته خطبت إلى فتى من يليتها أليق بها منه وأنها ستتزوج فى العاجل بعد قليل ، وأنها سعيدة كل السعادة فى حبها الجديد لخطيبها الفلاح

وحتموا عليه أن يتزوج بالفتاة التى انتقوها له لينعم ، فرضخ لإرادتهم القاهرة وبنى بابنة بيت رفيع العماد ليشقى !

ولم يلبث أن عاف زوجته واجتوى منزله ، وراح ينفق ماله ويبذل شبابه بين الأقداح والغوانى لينسى حبه الشهيد البكر ، فهزل جسمه وانكفأ لونه من الإدمان فى الشراب والإسراف فى طلب الهوى الأثيم ؛ وما زال كذلك حتى عراه السقام ، وعشش فى صدره السل الوبىء

فى مصح ظهر الباشق بلبنان التقى الحبيبان على غير ميعاد بعد طول البعاد لقاء مرًّا على حلاوته الظاهرة ، فتى ينفث رئتيه ، وراهبة نذرت نفسها لله تعتنى بالمرضى من عباده البائسين . فآسته بحنانها فى أيامه القلائل المعدودات ؛ وبين يديها الطاهرتين ، وعلى مرأى من الأبوين الجانيين ، فاضت روحه إلى باريها تشكو جور الآباء وجنايتهم على الأبناء

هذه هى القصة بظاهرها ، وهذا هو هيكلها ؛ أما روحها ، أما التحليل الدقيق لنفسيات أبطالها ، أما المواقف الغرامية العذرية ، وأما ما يتخللها من مفاجآت حادة عنيفة ولطيفة رفيقة معاً ، وأما السبك المتين والوصف الأنيق ، فهـذا ما ملأ به الأستاذ كرم مائتى صفحة تقرأها مندفعاً وأنت تودّ ألا تنتهى ؛ وهذا ما أودّ من القراء الكرام أن يستمتعوا بمطالعته مثلى ، وينعموا فى لذة قراءته كما نعمت ، فليس الخبر كالخبر ، ولا السماع كالنظر

***

قوام القصة اليوم القدرة على سرد الحوادث فى حينها وعلى تحليل أبطالها تحليلاً نفسانياً متقناً وعلى الابانة عن هذين العنصرين الرئيسيين — السرد والتحليل — بالأسلوب الشائق الممتع ، واللغة الصحيحة الفصيحة من غير ركاكة ولا إسفاف

والأستاذ كرم لم تغب عنه هـذه الحقائق عند ما كتب « الصدور » فوضعها نصب عينيه فوُفِّق بذلك إلى حدٍّ بعيد

وإن يكن من شىء آخذه عليه فى هذا الصدد فهو صورة زوجة شفيق بطل القصة ؛ فقد جاءت مشوهة لا يرضى عنها الذوق الفنى .

فشفيق مال بعد زواجه القهرى إلى الدعارة والشراب يدفن فيهما إخفاقه وآلامه ، وهذه ثورة من ثورات النفس الجامحة ، ونزوة من نزوات اليأس القاتل التى يحتاج من كان مثل شفيق وفى حالته ، ولكن ما بال زوجته تنحدر إلى مثل هوته وهى التى لم ترغم على الزواج منه كما أرغم هو ؟ وما بالها تتمرغ فى مثل حمأته وقد بنت به بمطلق رضاها .

أما الأسلوب فى القصة فشائق جذاب ، ولغته متينة عالية وألفاظه عذبة منتقاة وليس فيها من الخطأ اللغوى إلا النزر اليسير

وما كنا نرغب أن نتعرض لذكرها لولا ضننا بهذا السفر النفيس أن تعلق به أمثال هذه الهنات .

قال المؤلف: « حازت منها نظرة دميعة » وصوابها : دَمِعٌ أو دَمِعَةٌ يقال : امرأة دَمِعَةٌ ودَمِع بغير هاء إذا كانت غزيرة دمع العين ورجل دَمِيع .

« الحب البئيس » صوابها : البائس من بئس الرجل إذا نزل به عُدْمٌ أو بلية يرم لها ؛ وأما البئيس فمن بؤس الرجل إذا اشتدت جرأته فان كان هذا مراده فلا غبار عليها .

« العيش المرير » صوابها : العيش المرّ .

« نواحها الفجيع » صوابها : الفجوع من صيغ المبالغة أى الكثير اللهفة والأسف أو فاجع اسم الفاعل .

« زوجها المجندل أمام الموقد » صوابها : المجدّل بتشديد الدال ومعناها المصروع على الجدالة من جدّل الفارسُ قِرْنه أى رماه على الأرض الصُلْبة .

على أن أمثال هذه الهفوات اليسيرة لا تذهب برونق الكتاب ولا تنقص من قيمته . ويقيننا أن كرماً سيتداركها فى الطبعة التالية إن شاء الله .

جورج سلستى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى بعمارة عجم رقم ٧)

5 me Année, No 222.

Lundi - 4 - 10 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٤٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

السنة الخامسة «القاهرة في يوم الاثنين ٢٨ رجب سنة ١٣٥٦ — ٤ أكتوبر سنة ١٩٣٧» العـــدد ٢٢٢

فهرس العـــدد

مقتضيات الحروب الحديثة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كانت الحرب في الأزمنة القديمة لا تدور أرحاؤها إلا بين الجيوش : أي بين الجماعات المجمولة للقتال والمدربة عليه ولا عمل لها في الحياة إلا هذا ؛ ومتى غلب جيش جيشاً وألحق به هزيمة تضعضعه وتمنع أن تكون له قدرة على الكر انتهى الأمر ووضعت الحرب أوزارها وسلم المغلوب للغالب بما تفرضه القوة الراجحة . ولكن الحال اختلفت في عصرنا هذا وصارت الحرب صراعاً بين الأمم والشعوب لا بين الجيوش المحترفة وحدها ؛ وهذا بعض ما أفضى إليه التقدم الآلي في النواحي المختلفة . فلم تعد الجيوش وحدها تكفي ، ولم يبق من الممكن الاجتزاء بها والتعويل عليها وحدها كما كان الحال في العصور الغابرة ، بل صارت الحالة تدعو إلى اعداد الأمة كلها للحرب وتدريب كل فرد من أفرادها على فنونها وتهيئته لما تقتضيه حاجاتها ومطالبها ؛ وما نرى من عناية الدول المختلفة بأن ينشأ شبابها نشأة عسكرية من الصغر وتدريبهم على الحركات الحربية واستعمال أدوات القتال البرية والبحرية والجوية لتكون منهم للدولة ذخيرة تستمد منها وتعتمد عليها إذا وقعت الواقعة . وقد توسعت الدول في هذا الاستعداد حتى

امتد الأمر إلى المرأة ، فالطالبات أيضاً لهن فرق يتعلمن هذه الحركات العسكرية ويحملن البنادق ويتدربن على تسديدها إلى الأهداف وعلى مشقات الحياة فى الخنادق فضلا عن واجبات التمريض والصناعات اللازمة للحرب مثل الذخيرة وما إلى ذلك ؛ وهو توسع فى الأهبة لا حيلة فيه ولا مفر منه إذا شاءت الأمة أن تأمن وتطمئن بعد أن صار من السهل أن يتخطى العدو الجيوش الراصدة له وأن يمطر القرى والمدن وابلاً من القنابل المخربة والغازات الفتاكة . وبعد أن أصبح كل شيء وكل مكان صالحاً لأن يكون غرضاً للعدو وميداناً للقتال

ولم يسع الأمم العربية والشرقية إلا أن تحتذى هذا المثال ، وإلا أن تنسج على ذلك المنوال . فى تركيا تتدرب الفتيات كما يتدرب الفتيان على أساليب الحرب وآلاتها بلا فرق . وفى العراق أدخل التعليم العسكرى فى المدارس الثانوية ، فكل طالب فيها يتلقى هذا التعليم كما يتلقى غيره من العلوم والمعارف الدنية فى الساحات المجعولة لذلك ؛ وقد سميت فرق الطلبة : « فرق الفتوة » . وكنا قد شرعنا فى مثل ذلك فى مصر ولكن على غير نهج مقرر أو خطة مرسومة معروفة الوسائل والغايات ؛ وذلك أن الجامعة رأت فى العام الماضى أن تعنى بالتربية الرياضية وألبست الطلبة أردية خاصة واستقدمت لتدريبهم رجالاً من رجال الجندية ، ورغبت فى تدريبهم على استعمال البنادق فاستأذنت أولى الأمر ، وقيل إنهم أذنوا ، ولكنا لم نر أثراً لهذا الإذن ، وكان ذلك ختام ما بدأته الجامعة

أما فى هذا العام فإن المرجو والمنتظر أن يكون هذا الأمر جدا ، أو هو ينبغى أن يكون كذلك . وقد طلبت البعثة العسكرية البريطانية التى جيء بها لتدريب الجيش المصرى إدخال التعليم العسكرى فى المدارس الثانوية وفى الجامعة على الأخص . ولا غرابة فى هذا الطلب أو الاقتراح ، فإن البعثة تدرك أدق إدراك مايقتضيه التطور الحديث فى الحرب ومطالبها ، فإن الجيوش لا تكفى ولا تغناء لها — مهما بلغ من ضخامتها ووفاء عدتها ووفرة أسلحتها — ولا مهرب من أن تكون الأمة كلها جيشاً عند الحاجة بعد أن انتفى الفرق من حيث التعرض لحملات العدو بين الذين يكونون فى الصفوف الأولى من خطوط القتال والذين يكونون فى بيوتهم أو قرارهم فى أقصى طرف من البلاد

ولا شك أن الحرب بلاء ونقمة ، وأن الرقى الآلى الحديث قد جعلها آفة ماحقة ، ولكن الرجاء فى السلامة من هذا البلاء لا يكون بالاكتفاء بالانحاء عليها ، وبسط اللسان فيها ، والقول بأنها شر مستطير وخراب شامل ؛ وإنما يكون الرجاء فى أخذ الأهبة ، واستيفاء العدة ؛ ولا سيما إذا كانت البلاد مكشوفة كبلادنا ومطموعاً فيها ومهددة بالغزو فى أية لحظة تستعر فيها نار الحرب كما نحن مهددون .

على أن التدريب العسكري أو الرياضى — إذا آثرت هذا اللفظ الذى لا يزعج — حسن فى ذاته ومحمود ، بغض النظر عن الأغراض الحربية ؛ ويكفى أنه يقوم الأجسام ، ويصلح الأبدان ، ويهذب النفس ويقويها ، ويجعل المرء على العموم أكفأ وأقدر على القيام بفرائضها والاضطلاع بتكاليفها

على أنا أمة مهددة بأن تصبح بلادها أوسع ميادين الحرب وأهولها إذا شاءت المقادير أن تشب نارها بين دول الغرب ، فلا حاجة بنا إلى قول شيء فى فضل التربية الرياضية ومزيتها وقيمتها فقد صار الأمر لا معدى عنه بحكم الظروف والأحوال لا بالاختيار والرأى والهوى . وهذه الأحوال تقضى علينا بأن نختار أحد أمرين : الأول أن نوطن أنفسنا على أن تأكلنا أول دولة تطمع فينا وتتاح لها فرصة العدوان علينا ، فاذا آثرنا هذا المصير الزرى فليس علينا حينئذ إلا أن نقعد منتظرين من يجيء ليستولى علينا ؛ والثانى نوطن أنفسنا على الذود الواجب عن حقيقتنا والدفاع عن حريتنا واستقلالنا ورد كل عدوان عليهما ، فاذا كان هذا هكذا فالأمر بين ، وعلينا إذن أن نعد العدة لهذا الدفاع وأن نتخذ له كل أهبة يفرضها التطور الحديث فى الحرب ووسائلها وأساليبها وآلاتها ؛ ولا بد حينئذ من تهيئة الأمة لمطالب هذه الحرب المخوفة على نحو يكفل للدولة الانتفاع التام بقوى الرجال والنساء فيها جميعا ، فللنساء مايستطعن أن يحسن من الأعمال ، ولا خفاء بهذه فانها معروفة ، وعلى الرجال أن يكون كل واحد منهم مستعداً لحمل السلاح والسير إلى حيث تحتاج إليه الدولة لعمل من أعمال الدفاع القوى ؛ ولا يتسنى هذا إلا إذا دربنا الفتيان من الآن فى المدارس والجامعة على إتقان ما عسى أن يطالبوا به إذا دعاهم داعى الوطن

وقد يتوهم البعض أن هذه الدعوة التى أرسلها لا تخلو من إسراف وشطط ومبالغة فى تصور الأخطار وتجسيمها والتهويل بها ، ولكنى أعتقد أن الأمر على خلاف ذلك وأن الحال على نقيضه

الفيلسوف الحاكم

للأستاذ عباس محمود العقاد

شهدنا بعد الحرب عجباً من عجب السياسة والرآسة لم يشهده جيل واحد من تاريخ بنى الإنسان

شهدنا موسيقاراً على رأس دولة ، وفيلسوفاً على رأس دولة أخرى ، وهو قبل ذلك ابن حوذى وتلميذحداد ، وتقاشين وأفقيين على رءوس دول أخرى يجلسون على عروش القياصرة والخواقين، ويسوسون شعوباً كبيرة،بلغ بعضها الذروة من الحضارة والنظام

أحب هؤلاء جميعاً وأولاهم بعطف النفس الانسانية فيا نظن هو الفيلسوف الحاكم « مازاريك » الذى قام على جمهورية التشك والسلواق بعد الحرب العظمى ، وقضى نحبه في الشهر الغابر وهو فى السابعة والثمانين

قرأت له قبل أن أسمع الشيء الكثير عن سيرته فى الجهاد الوطنى وعن مساعيه فى السياسة الدولية : قرأت له كتابه الحافل عن « روح الروسيا » فاكبرت منه اطلاعاً واسعاً يخيل إليك أن صاحبه لن يفرغ معه لعمل من الأعمال الجسام . وخلاصة ما يقال فى الكتاب أنه لم يدع فيلسوفاً واحداً من الأقدمين أو المحدثين الا ألم برأيه وتعقب الصلات الفكرية والاجتماعية بينه وبين عقول الدعاة البارزين من فحول الروسيين

ووقعت لى بعد هذا الكتاب شذور من تواليفه الكثيرة يكفى لبيان نطاقها الواسع وموضوعاتها المختلفة أنها تناولت التنويم المغناطيسى كما تناولت فلسفة باسكال وهيوم ، وتناولت أدب الصقالبة كما تناولت الثورة العالمية ، وصدرت فى ذلك كله عن صدر رحب برىء من العصبية والضغينة وعن ذهن شامل مفتح المنافذ على شتى الأنحاء

فى تاريخ هـذا الرجل عبر لا تنتهي لمن شاء أن يتأمل فى أخلاق الناس وفى موازين العدل والانصاف بين الأمم ، وفى ضعف الانسان ولو كان من الحكماء وكان من الحاكمين

كنت أقرأ الثناء عليه وأقرأ الزراية على « روجر كازمنت » الشهيد الإرلندي فى وقت واحد

وكنت أقرأ الثناء والإزراء على عمل واحد فى وقت واحد وصحافة واحدة ، فأعجب للعقول وأعجب للأهواء ، وأعجب لمن خطر لهم أن يقولوا مرة من المرات ولو من قبيل التجوز والمزاح : كل شيء بالعقل فى هذه الدنيا ! ! وما فى هذه الدنيا شيء إلا وللعقل فيه حيرة ، وللضلال فيه جانب مقرون بجانب الهداية

هرب مازاريك من بلاده واتفق مع الحلفاء على تأليف جيش من أبناء وطنه الأسرى والمبعدين ، ونجح فكان من الأبطال وأقام فى قصور هابسبرج ، ومات بين التعظيم والمحبة والإطراء

وصنع « روجر كازمنت » ، ما صنع مازاريك فهرب من بلاده واتفق مع الألمان على تأليف جيش من أبناء وطنه الأسرى والمبعدين ، وفشل فكان من الخونة المجرمين ، وسيق إلى القبر وهو ينظر إلى الشمس السافرة ويهتف : ما أجمل هـذا الصباح ! ولكنه كان صباحه الأخير

والصحف البريطانية يومذاك تذكر هذا وتذكر ذاك ، فأما مازاريك فبطل كريم ، وأما كازمنت فخائن أثيم . ويتبع ذلك ما يتبع الإخفاق والخزى من فرية المفترى، وأكذوبة الكاذب ، واجتراء اللئيم

***

وأعني بذلك أننا أسرفنا فى الاطمئنان وبالغنا فى الاخلاد إلى دواعى الأمن والثقة والاستراحة إلى انتفاء المخاوف ؛ وقد آن لنا جداً أن ندير عيوننا فيما حولنا ، وأن نتدبر دلالة مانرى ، وأن نمد بصرنا إلى أبعد من يومنا الحاضر . والمثل يقول :« من مأمنه يؤتى الحذر » فكيف بالذى لا يحذر شيئاً ، ولا يتقى أمراً ؟ وهب أنه لا مطمع فينا فان خلو بلادنا من وسائل الدفاع الكافى ; وضآلة عدتنا يغريان بنا الطامعين . وما زال الضعف إغراء كافياً للقوى بالوثب . ولنحن غير أهل للاستقلال إذا لم نحسن الحرص عليه والضن به ولم نعد العدة لطول الذود عنه والكفاح دونه . وقد يجيء زمن تبطل فيه الحروب وتعيش فيه الأمم إخواناً متآزرين متعاونين ؛ غير أنه إلى أن يجيء هذا الوقت السعيد لا يسع أمة تعرف لحقها فى الحياة قيمته وتدرك ما تقتضيه المحافظة عليه إلا أن تستعد للحرب دونه . وعسير جداً أن تحيا أمة عزلاء فى أمان من المخاوف بين أمم مدججة شاكية فى البر والبحر والهواء

ابراهيم عبد القادر المازني

كان مازاريك في صباه عوناً للمستضعفين ولو كانوا مبغضين منبوذين ، وكان نصيراً للحق ولو كان الباطل أدنى منه إلى الشهرة والاعجاب . فدافع عن اليهود فى بلاد لايطاق فيها اسم أبناء إسرائيل ، وزيف الأسانيد الوروثة التى يفخر بها أبناء قومه ويعتدونها من تراث الوطن الحرام المصنون به على النقد والتشكيك ، فكان أبوه أول من صدق فيه تهمة القادحين وذهب إليه يستأديه بعض المال الذى قبضه من مصارف اليهود ، وكان الغلاة من دعاة الوطنية في بلاده أول من تبرأ منه وخاض فى عرضه حتى قال قائلهم : « إن عاراً على وطنه أن يكون بين نسائه امرأة حملت فى بطنها مازاريك »

ودارت الأيام دورتها فاذا بهذا العار هو عنوان وطنه ، وهو القائل باسمه والكاتب باسمه والوكيل الذى اجتمع وكلاء بلاده بعد الحرب العظمى يعلنون على الملأ الأوربى أن كل ماوقعه مازاريك فى دار الهجرة والاغتراب هو صك نافذ على البلاد تدين به وترعاه

***

وجرى حديث مستفيض بين الحاكم الفيلسوف وبين المؤرخ الشهور أميل لدفج استغرق أياماً ، وجمعه لدفج في كتاب جاوزت صفحاته ثلاثمائة صفحة ، واختار له عنواناً : « حامى الديمقراطية . أو مازاريك يتكلم » . .

من قرأ هذا الكتاب سمع أفلاطون وأرسطو يتكلمان فى العصر الحديث ؛ غير أن الايمان بالديمقراطية فيه أكبر من إيمان صاحب المدينة الفاضلة وصاحب السياسة المدنية ، لأن الحاكم الفيلسوف لا يعدل بالحرية الفردية نعمة من نعم الأرض ولا نعم السماء؛ وينعى على كارل ماركس كما ينعى على موسوليني انهما يطويان الفرد فى الحكومة ، ويضحيان بالواحد على مذبح الجملة ؛ ويسأله لدفج أيهما أحق لديه بالتقديم والايثار : السلطان أو الحرية، وإرادة الحكومة أو إرادة الأفراد ؟ فيقول : « ليس فى وسعى أن أعتقد أن ضمير الفرد مطوى فى ضمير اجتماعي واحد . إذ ليس فى الدنيا من شيء محقق غير الضمائر الفردية . وليس أمام السياسة إلا أفراد اجتمعوا على هذا النحو ليتألف منهم مجتمع واحد يكون على ضروب شتى ومنها الفاشية . أما أنا — وأنا من الفرديين — فليس يستمع أن أسيغ فكرة الادماج أو إلغاء الأفراد ، وأن تكون الحكومة أو الأمة أو الشعب ممثلة فى شخص واحد . ولا أنسى أن هنالك علماء اجتماعيين ودعاة سياسيين يقبلون مايسمونه ضمير المجتمع وينكرون ضمائر الأفراد متفرقين ، ولكنها فكرة لا يقرها العلم ، ومصدرها النزعة الأرستقراطية فى السياسة ... »

***

ووددت لو أن « مازاريك » حين مات كنت محتفظاً له بتلك الصورة التى تناسقت وتلاحقت من جهاد الشباب ومن ثورته فى الكهولة ، ومن بحوثه ومصنفاته ، ومن رسالة الديمقراطية التى قام بها على سرير الدولة كما قام بها من قبل على منصة التعليم وعلى منبر الدعاية

ولكن الفيلسوف الذى يستبق فى الحكم صورة أفلاطون أو صورة « السياسة المدنية » إن هو إلا أسطورة من أساطير الخيال ، نتوهمها بالنظر ونترسمها بالأمل ، ولا نلمحها بعين الواقع ولو أغضينا عن كثير

قبل أن يقضى الموت قضاءه فى الحاكم الحكيم بأشهر معدودات وقع لى كتاب عن أوربا الوسطى للكاتب الانجليزي هنرى بوتسى أسماه « اليد السوداء على أوربا » أحصى فيه مظالم الشعوب الصغيرة التى ضمتها معاهدة فرساى إلى حكومات لاتحبهم ولا يحبونها ، ومنها شعب السلواق المضمومين إلى حكومة « مازاريك » رسول الديمقراطية ونصير كل شعب مظلوم أيام كان الظلم نازلا بتلك الشعوب من آل هابسبرج !

وكان مازاريك قد عاقد وكلاء السلواق المقيمين بالولايات المتحدة في السادس والعشرين من شهر مايو سنة ١٩١٥ أن تكون حكومتهم مستقلة فى داخل الدولة على مثال الولايات المتحدة الأميركية ، وأن يكون لهم مجلسهم النيابي ، ومحاكمهم التى يضعون لها شرائعها ، ولغتهم فى التعليم والادارة والحياة العامة

فلما جاء يوم الانجاز وقامت الدولة التى مهد لها أولئك الوكلاء إذا بأرضهم مستعمرة مملوكة ، وإذا بهم أتباع مسخرون ، وإذا بالعقد المبرم قصاصة مهملة ، وإذا بالحاكم الحكيم يتحلل من عقده فيلجأ إلى حيلة لم يلجأ إليها عاهل من عواهل هابسبرج ولا متحذلق عندنا من صناع الفتاوي وطلاب الحيل الشرعية ، فيقول لوكلاء الشعب المهضوم إن العقد إنما أبرم فى يوم بطالة رسمية عند الأمة الأميركية ، وذلك فى شرع البلاد التى أبرم فيها مبطل لشروطه ناقض لفحواه !

ويلى ذلك قصة أليمة من قصص المظالم والدعايات الكاذبة ،

بحت فيها الأصوات وذهبت فيها صرخات المغلوبين على آذان عصبة الأمم كما تذهب زمجرة البحر الصاخب بين أجواز الفضاء ...

* * *

سيرة الرجل عبرة لا تنقضي ودروس لا تنفد . أولها : أن الفيلسوف لن يسلم من لوثة الحكم والسياسة ولو أضمر الخير وأسلف الجهاد الطويل فى قضايا المظالم والشكايا

وثانيها : أن الديمقراطية لا تسلم فى وطن تختلف أجناسه ولغاته وأديانه وطبقات الحضارة فيه إلا على أساس « الولايات المتحدة » التى يستقل فيها كل فريق بالحكم والتشريع

وثالثها : أن أوربا الوسطى لا تزال كما كانت قبل الحرب العظمى غيلاً تصطرع فيه ضوارى الأحقاد ويوشك أن يندفع بالعالم مرة أخرى إلى حرب لا تؤمن لها عاقبة

وإننا على ما انتاب الديمقراطية من خيبة ، وما تعاورها من نقض وتقويض ، لا نزال على إيمان وثيق بها أنها هى كهف السلام ومعقل بنى الانسان ، ومآل الحكم فى المستقبل البعيد إن لم يعجل لها النصر فى مستقبل قريب

فالدول الديمقراطية لا تبغي الحرب كما تبغيها الدول الدكتاتورية ، وبريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة لا يخشى منها على سلام العالم كما يخشى من إيطاليا وألمانيا واليابان والجمهوريات الروسية

ولقد يقال إن بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة إنما تسالم الدول الأخريات لأنها شبعت من المستعمرات فلا حاجة بها إلى المشاكسة ولا إلى اقتحام المشكلات ، لكنه اعتراض وجيه فى ظاهره غير وجيه فى لبابه . إذ أن المسالمة والاكتفاء شأن جميع الدول الديمقراطية ولو لم تكن لها مستعمرات ولا أسواق مملوكة فى بلاد المستضعفين ؛ وهذه الدنمرك والسويد والنرويج وسويسرة لا تملك أرضاً وهى من اليسر والرواج فى حال يحسدها عليه المالكون ؛ وربما خلت من الجند والسلاح فليس بها إلا قليل من الشرطة وما يحتاجون إليه من أداة

إنما الحقيقة أن الدكتاتورية والحرب قرينان لا يفترقان ، لأن الدكتاتورية لا تقوم إلا على عسكرية ، والعسكرية لا تستقر طويلا بغير قتال ، ولا أمان للعالم كله إلا باتجاه سريع إلى الديمقراطية يقصيه من زبانية الاستبداد سواء كانوا من أهل اليمين أو من أهل الشمال

عباس محمود العقاد

الفنادق والمقاهي التاريخية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كما أن الآثار والأطلال والذكريات الباقية تستمد جلالها من الحوادث والمناسبات التاريخية التى ارتبطت بقيامها ، فكذلك تستمد جلالها من الزمن ؛ وقد يكون الزمن كل شيء فيما تتشح به الأطلال الدوارس أحياناً من روعة الخلود ؛ وأقدم الهيا كل والآثار هي بلا ريب أعرقها من هذه الناحية ؛ فالقديم مهما كانت ضآلته من الناحية التاريخية أو الفنية يبعث إلى النفس أثراً خاصا ويحملها إلى تلك العصور الذاهبة الذى يرجع إليها ويرتبط بها

فما بالك إذا كان هذا الأثر أو الصرح القديم لا يزال كسابق عهده يقوم بمهمته التى أنشئ لها منذ الأحقاب المتعاقبة ، ويتلئ حياة وبهجة ، ويساير العصر ، ويربط الحاضر بالماضى بأوثق الصلات ؟

لسنا نريد أن نحدثك فى هذا المقال عن معاهد أو آثار تاريخية من هيا كل أو صروح أو معاهد أو غيرها مما اصطلح على اعتباره آثاراً تاريخية تمتاز بقيمتها الفنية وبالمناسبات العظيمة التى أنشئت من أجلها ؛ ولكنا نريد أن نحدثك عن نوع آخر من هذه المنشآت التى قامت دون مناسبة تاريخية خاصة لتقوم بمهمة من مهام الحياة العادية ، ثم استطاعت أن تغالب صروف الزمن ، وأن تحمل رسالتها المتواضعة خلال أحقاب وأحقاب ، وأن تبقى إلى اليوم قائمة بنفس مهمتها ، وأن تكتسب بذلك جلال القديم وروعته

نريد بذلك الفنادق والمقاهى التاريخية

إنه لمن الشائق حقا أن تنزل فى فندق ما ، أو تجلس فى مقهى أو مطعم ما ، فيقال لك إن هذا الفندق أو المطعم أو المقهى يرجع قيامه إلى أربعة قرون أو خمسة ، وإنه لا يزال كما نشأ باسمه وأوضاعه القائمة لم يتغير منه شيء إلا ما اقتضاه الزمن من أعمال الصيانة ، وإن كثيراً من الشخصيات التاريخية العظيمة قدمرت به قبلك ، ونزلت حيث تنزل أو جلست حيث تجلس . إن فى ذلك ما يذكي الخيال ويبعث إلى النفس جلالا خاصا هو جلال هذه الأحقاب الطويلة التى مرت بهذه النشأة المتواضعة ، وجلال تلك

الشخصيات التاريخية العظيمة التي ما زالت ذكرياتها وأشباحها تطوف بالمكان وتسبغ عليه من روعتها ما لم يسبغه التاريخ

ولقد آنست هذه المشاعر في كثير من المنشآت الاجتماعية التاريخية التي أتيحت لي زيارتها خلال تجوالي في العواصم الأوربية وآنستها هذا العام بنوع خاص خلال رحلة قمت بها في بلاد التيرول النمسوية : فذكرت أننا في مصر لا نعرف اليوم أمثال هذه المنشآت ، ليس فقط لأن أحداث الزمن لم تبق منها على شيء ، بل لأننا أيضاً فقدنا في عصور الانحطاط خلة الاستمرار ، فلا نعرف في مصر منشأة تجارية أو اجتماعية أو فندقاً أو مقهى أو غيرها من المنشآت المماثلة تخطت قرناً محافظة على قديمها ، متصلة بحديثها ، وهو ما يعتبر من الأمور العادية في العواصم الأوربية حيث يرجع كثير من هذه المنشآت إلى أحقاب وقرون . ولقد عرفنا هذه المنشآت في العصور الوسطى ، فكان للقاهرة فنادق ومقاهٍ ، تخطت دولا وعصوراً وهي تقوم بمهمتها الاجتماعية ؛ وإنه ليحضرني الآن منها مثل هو فندق مسرور أو خان « مسرور » الذي يحدثنا عنه المقريزي في غير موضع ، والذي لبث عصوراً مهبط الواردين إلى القاهرة من كل صوب يتناقل السياح اسمه في جميع الأقطار الاسلامية ، والذي تذكره قصص ألف ليلة وليلة في مواضع مختلفة ترجع إلى عصور مختلفة كأنه علم على القاهرة ، وكانت القاهرة أيام السلاطين تموج بأمثال هذه المنشآت المعمرة من ربط وفنادق وخانات ووكالات شهيرة دثر معظمها أيام العصر التركي . وفي خطط المقريزي بيانات شائقة عن هذه المنشآت التي لبثت مدى عصور دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية المصرية .

أما اليوم فان القاهرة التي تغص بالآثار والصروح التاريخية العامة لا تعرف شيئاً من هذه المنشآت الخاصة التي يسبغ عليها القديم جلاله ، والتي تساير الحياة الاجتماعية في عصورها ومراحلها المتعاقبة

* * *

مما يلفت نظر السائح في مدينة أنزبروك عاصمة التيرول فندق « النسر الذهبي » Goldene Adler ، وهو صرح متواضع يقوم على ضفة من الحنايا المعقودة على الطراز القوطي ؛ ولكن هذا الصرح المتواضع يقوم حيث هو ، ويؤدي نفس مهمته في إيواء السياح وإطعامهم منذ نحو خمسمائة عام ، وفي مدينة أنزبروك القديمة Alte Stadt التي تمتاز بدروبها الضيقة وأبنيتها القوطية العتيقة ، عدة من هذه الفنادق والمطاعم القديمة التي طوت أجيالاً عديدة من حياتها ؛ ولكن « النسر الذهبي » يمتاز عنها جميعاً بتاريخه المجيد ؛ فقد حفلت غرفه الضيقة وأبهاؤه المنخفضة التي لم يغير تعاقب الزمن شيئاً من أوضاعها بكثير من الملوك والعظماء في مختلف العصور ؛ وقد وضعت على بابه لوحتان من الرخام نقشت عليهما أسماء هؤلاء الملوك والعظماء وتواريخ نزولهم فيه ؛ ولفت نظرنا بين هذا الثبت بنوع خاص اسم أمير تونس حيث نزل في فندق النسر الذهبي مع حاشيته في سنة ١٥٤٠م ، واسم يوهان فولفجانج فون جيته شاعر ألمانيا الأكبر حيث نزل فيه سنة ١٧٩٨م ، وأسماء عدة أخرى من ملوك أوربا وأمرائها نزلوا فيه في القرن السادس عشر أو السابع عشر أو الثامن عشر ؛ وإن الانسان ليتلو هذا الثبت التاريخي الحافل متأثراً ، وهو يرجع بذهنه إلى تلك التواريخ والعصور البعيدة فيأخذه شعور من الاجلال والروع لهذا القديم التالد الذي ما زال يتلقى حياة ورغبة في مسايرة الزمن . ولقد كان مقام جيته في فندق « النسر الذهبي » حادثاً ذا أهمية خاصة خلدت ذكراه إلى يومنا باقامة مطعم باسم جيته إلى جانب الفندق ما زال مقصد الواردين من كل صوب ، يجذبهم اسم الشاعر وذكراه قبل أن تجذبهم الأطعمة الشهية التي يتناولونها ، وروح الشاعر ترفرف عليهم

وتوجد بالمدينة أيضاً عدة منشآت أخرى من فنادق ومطاعم وأبهاء للنبيذ Weinstude يرجع معظمها إلى قرنين أو ثلاثة قرون ومنها بهو النبيذ الشهير « أوتوبرج » الذي يرجع قيامه إلى نحو قرنين ، ولا زال حيث هو يشرف على نهر « إن » ويقوم بنفس مهمته في استقبال الآكلين والشاربين

وفي العاصمة النمسوية (ڤينا) جملة كبيرة من هذه الفنادق والمقاهي التاريخية التي قطعت قروناً من أعمارها ، وشهدت عصور الامبراطورية الزاهرة ، ولم تؤثر في حياتها أحداث الزمن ، ولا زالت تقوم في جنبات العاصمة النمسوية تسطع بالليل كأنها قطع من النور ؛ وهي تزهو جميعاً بماضيها كما تزهو بحاضرها . وقد يضيق بنا المقام إذا حاولنا هنا تعداد الأمثلة ، وربما أتيحت لنا بعد فرصة

أخرى للتحدث عن هذه المقاهي الشهيرة التي تلعب أكبر دور في الحياة الاجتماعية النمسوية، ولكنا نذكر سبيل على التمثيل مثلين يلفتان النظر بحق : أولهما مطعم « لنده » Linde الشهير الذي يقوم حيث هو منذ أكثر من خمسمائة عام في شارع « البرج الأحمر » ، (روتنتوم) والذي شهد حصار الترك الأول للعاصمة النمسوية سنة ١٥٧٠ م، واحتفل منذ حين بمرور خمسمائة عام على قيامه ، ومن الشائق أن ترى تاريخ إنشائه منقوشاً على ما يقدم إليك من آنية الطعام ، فيذكرك دائماً بعمره المديد وماضيه الحافل ؛ والثاني مثل « منزل الطرب » Lusthaus الشهير في حي براتر ، وقد أنشئ في أوائل القرن السادس عشر ، ولا يزال يقوم حيث هو ؛ وهو اليوم مطعم ومرقص ، ولكنه كان من قبل منزل راحة ورياضة ملكيا ؛ وقد بدأ حياته الجديدة من نحو قرن وكان خلال القرن الماضي مسرحاً لعدة من الحوادث الاجتماعية الشهيرة ، وكان بالأخص منتدى محبوباً للأرشيدوق رودلف فون هبسبرج ابن الامبراطور فرانز يوسف وولى عهده ، يقصده مع صحبه لقضاء السهرات المرحة ، ولا زالت ذكريات هذا الأمير المنكود الذي زهق في ريعان شبابه في ظروف غامضة ، ماثلة في هذا البهو الأنيق تطوف بزائريه ، وتذكرهم بالمأساة الشهيرة التي اقترنت بمصرعه في يناير سنة ١٨٨٩ م

وفي معظم العواصم الأوربية نجد أمثال هذه المنشآت تذكر السائح المتجول بالمناسبات والعصور التي قامت فيها ، وتقدم إليه طائفة من الذكريات السابقة التي يلذ استعراضها وتأملها

***

وهـذه المنشآت الاجتماعية القديمة فضلا عن كونها تزين العواصم الجليلة ، تلعب في الواقع دوراً عظيما في الحياة الاجتماعية الخارجية ؛ وكثير منها يعتبر بحق نوعا من الآثار القيمة التي يجب المحافظة عليها لا من الوجهة الأثرية أو الفنية لأن معظمها يتطور ويتجدد من هذه الناحية مسايراً للعصر وللحياة ، ولكن حرصا على قديمها وعلى تراثها من الذكريات القديمة التي امتزجت بحياة المدينة وحياة الشعب . ولا زلنا نذكر بهذه المناسبة تلك الضجة التي قامت منذ أعوام في الصحف الفرنسية بمناسبة هدم البناء القديم الذي كان يشغله الملهى الباريزي الشهير المسمى « بالطاحونة الحمراء » (مولان روج) عندما أريد تجديد الشارع الذي يقوم فيه فقد ثارت الصحف يومئذ لهذا الإجراء وعز عليها أن يختفي هذا الملهى الشهير الذي امتزجت ذكرياته الساحرة بالحياة الباريزية الليلية حيناً من الدهر ، وأصبح من أشهر المنتديات الاجتماعية التي تجتذب كل زائر لباريس

وفي معظم الأحيان تقترن أسماء هذه المنشآت الاجتماعية القديمة بأسماء كثير من الشخصيات التاريخية ، فنجد مقهى أو منتدى معيناً يؤمه كتاب العصر وشعراؤه ، وفي هذا المقهى يجتمعون ويتسامرون ، ويكتبون وينظمون ، وفيه تتفتح مواهب الكثير منهم ، وفيه يتألق نجم بعضهم وتسبغ أسماؤهم فيما بعد على المكان كثيراً من رنينها وشهرتها . فمثلا نجد اسم « المقهى الانكليزي » (كافيه أنجليه) الذي سطع في باريس في أواخر القرن الماضي يقترن بأسماء كثير من أعلام السياسة والتفكير والأدب في هذه الفترة ، وفيه بزغ مجد الكثير منهم

والخلاصة أن الفنادق والمقاهي التاريخية تستحق أن تؤرخ كما تؤرخ الهياكل والصروح الأثرية ، وإذا كانت الهياكل والصروح العظيمة تجد دائماً من يتصدى لدراستها وتاريخها من النواحي الأثرية والفنية ، فان الفنادق والمقاهي تستحق أن تدرس من وجوه أخرى تمت بأكبر الصلات إلى تاريخ المجتمعات التي تقوم فيها ، وتاريخ الأخلاق والعادات الشعبية ، وهي وجوه لا تخفى أهميتها . ولقد قرأت منذ أعوام في إحدى الصحف الفرنسية عدة مقالات شائقة لأحد مشاهير الكتاب « حياة مقهى باريزي عظيم » فأعجبت بطرافتها وتلاوتها ووددت لو أننا نستطيع أن نقدم إلى قرائنا مثل هذه الصور الاجتماعية الساحرة .

ورحم الله مؤرخنا الكبير تقي الدين المقريزي إذ فطن منذ خمسة قرون إلى أهمية هذه النواحي الاجتماعية في حياة الأمصار العظيمة فأنفق أعواماً طويلة من حياته في دراسة الأحياء والدروب والصروح والمعاهد والمنتديات الاجتماعية ، وقدم إلينا في « خططه » مجموعة من الصور الاجتماعية والشعبية لمدينة القاهرة حتى عصره ولم ينس الفنادق والمقاهي التاريخية

(بدن فيا) في منتصف سبتمبر
محمد عبد الله عنان

الأزهر وطريق إصلاحه

ربط حاضر الأمة بماضيها

للدكتور محمد البهى قرقر

ليست فكرة إصلاح هذا المعهد العظيم حديثة النشأة؛ وليست كل محاولة لإصلاحه كانت ناجحة؛ وليس كل من قام بأمر الاصلاح فيه كان موفقاً. ولا أريد هنا أن أسرد الأدوار التى مر بها الإصلاح، وعدد الخطوات التى أخفق فيها السعى، والأخرى التى كان له فيها بعض النجاح؛ إذ كل باحث فى أمره يوقن أن الخطوة الأولى التى كانت موفقة فيه هى التى خطاها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وأنه هو الذى يعتبر أول مصلح كانت له فكرة، وبجانبها شخصية ذات إرادة مستقلة، وبسببه حافظ الأزهر على حياته، وإن كانت حياة الهرم الذى تعوزه زيارة الطبيب الحاذق من وقت إلى آخر. وبالرغم من وهن هذه الحياة كان ما قام به الإمام هو دور المصلح وداعية البطولة فى زمنه

استمر الأزهر بعد ذلك فى حياته التى يحس فيها بضعف. تارة يشتد إذا لم يجد فى طبيبه صفة المهارة — وكثيراً ما كان ذلك — وطوراً يخف إذا واتاه القدر بمن يواسيه أكثر ممن يطببه. تغيرت فيه عدة مناهج واستبدلت نظم بأخرى باسم الإصلاح؛ ومع ذلك لم يتم إصلاح أو لم يتكون أساسه، لأن الإصلاح الذى يجب أن يكون، وبعبارة أخرى الذى يحمل عليه قانون الوجود الحالى المبنى على تنازع البقاء وحياة الأصلح ليس علاجاً مؤقتا وإنما هو إيجاد حياة من نوع آخر، حياة فتوة لها قوة ممانعة ومقاومة وقوة كفاح وهجوم. ظل أمره كذلك حتى هيأ القدر له؛ وشاء أن يكون تلميذ الإمام، رجلا[١] من أولئك الذين لهم عقول مستقلة بعيدة المدى فى التفكير، ولها قوة إرادة فى التنفيذ فى صمت ورزانة. فأول خطوة ضرورية رآها للإصلاح أنه عمل على إشعار الأمة بالأزهر وإتصال الأزهر بالأمة، فحياته إذن يجب أن تكون من نوع حياة الأمة، ومصر أمة ناشئة فتية

أبدت هذا العمل عقلية[٢] أخرى من هذا الطراز — وعقول

(١) فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى (٢) دولة على دهر ـث

الإصلاح دائما متفقة متجانسة — ولكنها أشعرت الأمة هذه المرة بصورة أخرى هى أن لا غنى للأمة المصرية ولا للعالم الاسلامى عن الأزهر. ولكن كيف يؤدى رسالته الوطنية والعالمية فى القرن العشرين؟

تنبهت الأذهان وعنى الكتاب والباحثون فى الشئون الاجتماعية والعلمية بهـذا الموضوع ودونوا لهم آراء فى ذلك وآسف أنى لم أطلع عليها. وقد يجوز أن يكون هؤلاء قد عالجوا الموضوع من نواح عدة، وأظهروا رغباتهم الاصلاحية لهذا المعهد التاريخى الكبير فى صور يرون فيها مهمته فى العصر الحديث. ربما يكون بعضهم قد تناول مثلا تحديده كمدرسة عالية لفئة خاصة من الأمة يجب عليها قبل الالتحاق بها استيفاء شروط مخصوصة ودراسة إعدادية على نمط خاص أو غير ذلك من التنظيم والمناهج

ولا أريد أن أبحث الآن: كيف يكون الأزهر معهداً نظامياً كمعاهد الحكومة العالية، لأنى لا أبغى أن يكون الأزهر على هذا النمط الآلى، وإنما أريد أن أبحث: كيف يتحول الأزهر إلى جامعة علمية حديثة مع الاحتفاظ بصبغته الماضية التى خولت له أن يكون هو المدرسة الوطنية الوحيدة فى مصر فى الوقت الحاضر بحكم اعتمادها على ثقافة الأمة الموروثة، والتى منحته صفة روحية باعتبار أنه المكان الأول فى العالم الإسلامى للعناية بالدين ونشره، ثم كيف يكون الطريق العملى لذلك، إذ كثيراً ما كتب دعاة الاصلاح وكثيراً ما حاول القائمون بأمره أن يصلحوه، ولكنها كانت كتابة يغلب عليها الخيال، ومحاولة كان أساسها تقليد نظم مدارس أخرى: مدارس وزارة المعارف التى هى فى نفسها أيضاً بناء مرقع روعى فيه تقليد رسوم متباينة؛ وهذه المحاولة كادت تخرجه عن الغرض الذى يجب أن يكون له الأزهر والذى كان له منذ قرون مضت

وغاية الأزهر (أولا) تهذيبية علمية وطنية، لأنه يقوم بتربية جزء عظيم من أبناء الأمة ويعده فوق ذلك لتولى عدة مصالح فى الشعب، لا يمكن تعويضه فيها، لها قيمتها فى إصلاح[١] نواحيه الخلقية والاجتماعية، وبالأخص فى رعاية الأسرة التى هى الدعامة الأولى فى بناء الأمة. و (ثانيا) دينية عالية لأنه المرجع الأول لحل المسائل الدينية التى لها ارتباط وثيق بالشئون الاجتماعية

(١) التهذيب المدرسى، التهذيب الشعبى بوساطة الوعظ، ثم رعاية المحكمة الشرعية للأسرة ومحافظتها على كيانها

والاقتصادية لأمم العالم الاسلامي والتي يتوقف تقدم تلك الأمم أو تأخرها بنسبة كبيرة على فهم الروح الدينية (الفقهية) أو عدم فهمها لهذه المسائل الحيوية

ومن يفكر أو يحاول أن يحمل غيره على أن يعتقد أن غاية الأزهر روحية بالمعنى الكنسى ، فبعث تفكيره هذا التقليد السلبي الذى طغى على النواحى العقلية في مصر الحديثة ، ومنشأ محاولته جهل أو تجاهل بالتاريخ أو سوء فهم للاسلام وللأزهر ولأثره فى تكوين النهضة الوطنية ، أو هو نفسه لايقيس الوطنية إلا بمقياس العاطفة ، وما كانت العاطفة فى يوم من الأيام إحدى الدعامات فى بناء راسخ !

ولكن الأزهر الآن يؤدى مهمته كما كان يؤديها فى الغابر من تلقين ما للماضى من ثقافة ؛ وربما يُدَّعى أن هذا التلقين وحده لا يُعد الناشئة للكفاح في الحاضر ولا يقرب فهم المسائل الدينية والاجتماعية من ضوء الواقع الحالى ، فذلك التلقين لايفى لهـذا بالغاية من وجود الأزهر، لأنه أداء جزء من مهمة يجب أن يتصل به توآ أداء البقية وهى ربط الحاضر بالماضي . وهذا هو الطريق العملي ، فيما أظن ، لتحقيق غاية الأزهر التهذيبية والدينية

ربط الحاضر بالماضي ليس معناه ضم ثقافة أجنبية جديدة على حدة إلى ثقافة الماضى ، وإضافة علوم حديثة مستقلة إلى ما كان للأمة فى الأزمان الغابرة ، وإنما هو السير فى البحث العلمي على أثاث الثقافة الموروثة ، ولكن فى ضوء مقتضيات العصر الحاضر . وهذا السير يتطلب التخصص فى العلوم المختلفة ولكن فى موضوعات الفن الواحد . فمثلا في الفقه يجب أن يكون هناك أساتذة فنيون فى موضوعاته مزودون بثقافة أخرى لها ارتباط وثيق بالموضوع المتخصص فيه . فيجب أن نرى أساتذة فى *الفقه الجنائى* ، وهو يشمل على سبيل التقريب: الديات وفرض مبدأ التعويض المالى . التعزير بالحبس . القصاص . إعفاء الوالى من إقامة الحد إذا رأى المصلحة العامة في ذلك ... وأساتذة فى *الفقه المدنى والتجارى* ، وهو يشمل على سبيل التقريب : عقود البيع ، نظرية الربا وربط الفائدة . الرهن . الايجارة ، الشفعة . عقود الشركات المختلفة . مبدأ الضمان والكفالة . الهبة . الوصية ... وأساتذة فى *فقه الاحوال الشخصية* ، وهو يشمل على سبيل التقريب : عقد النكاح ، حقوق الأسرة . النفقة ، الارث ، نظرية إثبات النسب والتبنى وعلاقة ذلك بالمجتمع وتكوين الأسرة . نظرية الحضانة الفردية وارتباطها [1] بنظرية قيام الدولة بالعناية بالأطفال إجبارياً لشقاق فى العائلة أو طروء جنون على أحد الزوجين أو ما شاكل ذلك ... وأساتذة فى *الفقه الادارى والسياسى* ، وهو يشمل على سبيل التقريب : معاملة الأجانب ونظرية الأقلية فى اعتبارها هيئة منعزلة لها احترام عاداتها مالم تخل بنظام الأكثرية وعليها ضريبة (الجزية) للقيام برعايتها وحفظ مصالحها . مبدأ الجهاد . قوانين الأسر والعتق . مبـدأ الشورى فى نظام الحكم الداخلي . مبدأ التفويض للوالى . الاستقلال فى السياسة الخارجية (نحو العدو مثلاً) وإعلان الحرب

وفى الفلسفة والأخلاق يجب أن يكون هناك أيضاً فنيون فى موضوعاتها المختلفة على هـذا النمط ، فإخصائيون فى *فلسفة الاسلام* ، وتشمل على سبيل التقريب : محافظة الاسلام على وحدة الأمة والرغبة فى عدم تصدعها . نظرية الايمان بوحدة الخالق . تفضيل صلاة الجماعة . ضرورة الاجتماع كل أسبوع فى مكان واحد لا فرق بين غنى وفقير ورفيع ووضيع لتجديد عهد الأخاء وهو الغرض من صلاة الجمعة . ضرورة اجتماع أغنياء مسلمي العالم فى أول مكان للدعوة الاسلامية كل عام لتذكر عهد النشأة والاستمرار فى التمسك بالعقيدة والعمل على نشرها ، وهو الغرض من الحج . العمل على إشعار ذوي النفوذ المالى بوجوب العطف على الفقراء إبقاء للالم فى أيديهم وقمعاً لثورة نفسية بين الطبقات المعدمة ربما تتبعها ثورة أخرى اجتماعية (بلشفية) تقلب نظام الحكم فى الأمة وتنزع رؤوس الأموال من أيدى أصحابها . . وهو الغرض من الزكاة . واخصائيون فى *الفلسفة الاسلامية* ، وتشمل على سبيل التقريب : لا حكاية ما قال ابن سينا وتبعية

---

(١) هو نظام حكومى فى ألمانيا وفى بعض بلدان أوربا يعرف هنا باسم « Soziale Fürsorge » وغايته وقاية الطفل فى الصغر من تأثر نفسه بالشقاق الحاصل فى العائلة أو من أى خلل آخر يطرأ فى بنائها ويكون من ورائه تغوير سلوكه الشخصى لشقائه هو أو شقاء المجتمع الذى هو فيه بسببه فهو تدبير حكومى للوقاية من أمراض اجتماعية

ابن رشد لأرسطوطاليس وأمثال ذلك مما ينقل فحسب ، وإنما قبل كل شيء بيان منزلة الفلسفة الإغريقية ، وهى الفلسفة الإلهية وعلاقتها بعلم «التوحيد» الاسلامى، ثم مقدار نصيب الاسلام من هذا العلم . ثم بيان مساهمة العلماء الاسلاميين ومساهمة الثقافة الاسلامية فى خلق فلسفة إسلامية وتكييفها ... وإخصائيون فى *أصول الإسلام والأخلاق الإسلامية* : وتشمل على سبيل التقريب : المبادىء الخلقية التى جاء بها الاســلام . مقارنة ذلك بالنظريات الأخلاقية الاسلامية التى اشتغل بها علماء الاسلام والتى قد لا يمت[1] بعض مبادئها إليه بصلة إيجابية . مقارنة ذلك أيضاً بالنظريات الخلقية الحديثة . دراسة المبدأ الخلقي ونظرية اعتباره المطلق أو المقيد ...

وهذا التخصص ليس تبويباً جديداً أى صورياً فحسب ، وإنما هو أبحاث علمية مستقلة يجب على من يقوم بها دراسة ما يشبهها فى الثقافات الأخرى حتى يتكون مبدأ المقارنة والاستنتاج ، ثم يتبعه مبدأ التطبيق العملى ، وهما من عوامل التقدم فى البحث العلمى ، لأن حكاية ما قيل فقط لا يسمى بحثاً فضلا عن وصفه بالعلمى . فأستاذ الفقه الجنائى مثلاً يجب أن يدرس علم النفس الجنائى: Kriminal psychologie ، الذى هو مختص ببحث أنواع الإجرام النفسى ، ثم بحث التشريع الجنائى الحديث وكيفية بنائه على التجارب النفسية بوساطة هذا العلم . وأستاذ الفقه المدنى والتجارى عليه أن يلم بالنظم الاقتصادية الحديثة . وأستاذ الفقه السياسي ينبغى أن يلم بالتاريخ الاقتصادى والسياسي وبفلسفة[2] الحرب وفلسفة مبدأ حكم الأقليات

وبواسطة هذا يتسنى لهؤلاء الأساتذة لا بيان مزايا الدين الإسلامى فحسب فى هذه الموضوعات مثلاً، بل حمل الأمم الإسلامية على الاعتماد فى تشريعها الحديث فى كل أنواعه على مبادىء الفقه الإسلامى، ثم فى الوقت نفسه ردّ حملات العلماء الأجانب على الإسلام التى سببها الجهل أو الرغبة فى إبعاد المسلمين عن اتباع دينهم باسم « خدمة العلم » و « حرية البحث » حتى يدب فيهم ضعف الشقاق ، بين المصمم على اتباعه وبين الواهم فى التخلى عنه ، بين « الرجعى » و« المجدد » وبين« القديم » و « الحديث » . وما خدمة العلم هنا إلا الرغبة في السيادة واستمرار سيطرة « الحضارة الأوربية » على الشرق الإسلامى

وعلى هـــذا النمط فى التخصص يسير الأمر فى العلوم الأخرى . وبخاصة تجب مراعاة هذه القاعدة بدقة في قسم الوعظ والإرشاد . فضلا عن أن تتبع فيه دراسة أساليب التبشير الحديث يلزم دراسة نفسيات الشعوب الاسلامية المختلفة وعاداتها ولغاتها . وبناء على هـــذه الدراسة الأخيرة ينشأ التخصص والتوزيع ، فيجعل : قسم للوعظ والارشاد للشعب المصرى :

فالنوع الحملى منه : يتولى قبل كل شيء بحث نفسية المجرمين ونوع الاجرام الذى يرتكب بكثرة بمساعدة الاحصائيات الرسمية لذلك ، ثم دراسة أسلوب الوعظ الذى يمكن أن يؤثر فى مثل هذه النفسية ويحملها على الاقلاع أو التقليل من هذا الاجرام ...

والنوع الثقافى الآخر : يتولى الإعداد لتهذيب شعبى مبنى على البساطة ، وكيفية الخطابة فى المساجد ، وإعطاء دروس للشعب فيما هو فى حاجة إليه من الثقافة الخلقية والواجبات الفردية والجمعية

ويجعل قسم للوعظ والدعاية : لشعوب الشرق الأدنى

» » » : لسكان الشرق الأقصى والهند وجاوة

» » » : لشعوب البلقان

» » » : لسكان السودان والحبشة وجنوب أفريقيا

» » » : لسكان أمريكا الجنوبية

وفى كل قسم من هـــذه الأقسام تدرس فضلاً عن لغــة الشعب ، القواعد الخلقية التى يسير عليها، والمذهب الفقهى السائد فيه . وبناء على هذه الدراسة تحدد موضوعات الوعظ الدينى التى تجب دراستها فى كل قسم ، لأن الغاية من الوعظ هى حمل الشعب بطريق التأثير فى نفسه على اتباع قواعد خلقية معينــة يقتضيها النظام العام لحفظ وحدة الأمة وبغية سعادتها . والغاية وإن كانت واحدة فإن الطرق إليها مختلفة لضرورة اختلاف النفسيات التى

(١) فبعض مبادىء الأخلاق التى توصف بالاسلامية وبالأخص الصوفية والتي عنى بها علماء القرن الرابع الهجرى هي مبادىء مدرسة الأسكندرية ، المدرسة الأفلاطونية الحديثة التي تأثرت بالأخلاق الدينية اليهودية ثم المسيحية

(٢) للأستاذ الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel فى هـــذا الموضوع نظريات نفسية عظيمة الشأن ، هى أساس فلسفة هذا النوع فى أوربا على العموم

تخضع في تكونها إلى الوراثة والتربية الأولى والمجتمع فيما بعد، وهذه العوامل ليست متشابهة في كل أمة

هذا فضلا عن أن دراسة نفسيات هذه الشعوب وثقافتهم هي في نفسها دراسة إسلامية يرجى من ورائها تعارف الأمم الإسلامية وتزايد الرابطة بينها

وبهذه الأهمية أصبحت دراسة علم النفس التجريبي اليوم، ومن خصائصه وصف النفسيات المختلفة للأفراد والأمم، العامل الأول في السيطرة على النفوس إما لغرض إصلاحها أو بغية استعمارها. ولم يعن الأوربيون بدراسة النفس الشرقية على ضوء التجارب والسلوك الشخصي وكذا بقية الأمم الضعيفة وإنشاء المعاهد [1] المختلفة لدرس ثقافاتهم وأديانهم ولغاتهم حباً أفلاطونيا في العلم وغراماً خيالياً بالبحث، وإنما عنوا بها رغبة في السيطرة والاستعمار العسكري أو التجاري

وإذا كان التخصص في الموضوعات الفنية يحتاج إلى الاتصال بالأوساط العلمية الأخرى، الأجنبية عن الأزهر، فإن التخصص في أقسام الوعظ أشد احتياجاً إلى الاتصال بالشعوب الاسلامية المنتشرة في بقاع الأرض ودراسة أحوالها النفسية والشعبية لبناء الوعظ على أساس متين تكون من ورائه الفائدة محققة، وتتقوى بذلك رابطة مصر العلمية والأدبية بالأمم الإسلامية الأخرى، وهي رابطة يجب أن تحافظ عليها لأنها سبب عظمة مصر فيما بينها وتعلق تلك الشعوب بها

وبهذا يكون للأزهر صلة حية بالشعب إذ يصبح المدرسة العالية لثقافة وطنية مؤدية لمقتضيات العصر الحاضر، ومعهد البحث للتشريع الوطني الحديث؛ وفي الوقت نفسه يقوم برسالته الروحية في بقية العالم الاسلامي، ومن ورائها يؤدي رسالة مصر الأدبية في الخارج. وماهذه المنزلة العالية التي تتمتع بها مصر اليوم في الشرق إلا لهذه الصلة الروحية واعتقاد أن مصر تملك أكبر مكان للدراسات الاسلامية كما تملك مكة المكرمة أول مكان للدعوة إلى الاسلام. ولولا الأزهر لما نالت مصر تلك المنزلة بين الأمم الشرقية، فهي تمثل سياسياً تقريباً في كل بلدان العالم الأخرى التي لاتتصل بالاسلام اتصال تدين، وتنفق على ذلك مبالغ جسيمة، ومع هذا فمصر الحديثة صاحبة النهضة التي لاتقل شأناً عن نهضة كثير من بلدان أوربا الجنوبية والشرقية مازالت هنا في أوربا هي مصر الافريقية

إن الأزهر قارب أن يبلغ ألف سنة، وتلك مفخرة لم تصل إليها إحدى الجامعات العالية بعد، والعالم يريد أن يرى رؤية محسوسة مبلغ التطور الذي وصل إليه والذي هو مقياس نهضة مصر العلمية الوطنية، لا التقليدية، ويعرف أي القواعد يسير عليها في بحثه، وأية نظرية يأخذ بها في تأدية رسالته، بعد ما وقف بالبحث عند طريقة [1] القرون الوسطى زمناً طويلا وبعد ما كان في حيرة من أمر رسالته، حيرة سببها عدم معرفته بها

إن مصر اليوم والعالم الاسلامي يشهد بما لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي من عمل جدي ملموس في إصلاح هذه الجامعة العالية ويعترف بقدرته على إتمامه اعترافاً مرجعه الاقتناع بأن له شخصية مصلح في التاريخ الحديث، وما أقل وجودها في العالم وأندرها في مصر وأشدها ندرة في الأزهر. كل يعقد عليه أملاً كبيراً، أمل البناء والتشييد في الاصلاح. كل يرتقب ثورة فكرية، وانقلاباً إصلاحياً له حدثه التاريخي؛ فالوقت تأخر، والحاجة ماسة، والعقول متهيئة لهذا الانقلاب، والنفوس ملت هذه التعديلات الصورية

مولاي المراغي: إذا كان المصلح الأول والوحيد قبلك وهو الأستاذ الامام، قد حافظ على حياة الأزهر فحسب، ولم يتركه لك فتياً بل سلمه إليك كهلا يعاني ألم الضعف، فإن ذلك ما أمكنه وأمكن زمنه معه أن يؤديه للأمة والتاريخ؛ ولكنك أنت في زمن توفرت فيه وسائل الاصلاح وانبثقت روح الشباب والتجدد في كل شيء، فمهمتك من هذا النوع، ولها حباك القدر بتلك الشخصية، وبتأديتها ستكون موضوعاً للتاريخ والبحث

محمد البهي قرقر
دكتور في الفلسفة وعلم النفس
وعضو بعثة الامام الشيخ محمد عبده

(١) في ألمانيا يوجد في كل جامعة من جامعاتها وهي ١٧ جامعة عدة معاهد مختلفة لهذا النوع من الدراسة كمعهد ثقافة الشرق الأدنى، المعهد الصيني، المعهد الأفريقي، معهد سكان جزر الملايا وجاوة، معهد درس ثقافة أوربا الشرقية وبلاد البلقان ... وكان يطلق عليها فيما قبل معاهد الاستعمار

(١) تلك الطريقة هي تكرار رواية المنقول، الجدل في الصور والألفاظ، قصر التهذيب على الناحية العقلية. شحذ الذهن وقلة الاهتمام بالناحية النفسية الأخلاقية وانعدامه بالنسبة للناحية الجسمية التي أثبت علم النفس التجريبي اليوم مدى ارتباطها بالجانب العقلي والنفسي وأثر تربيتها في تكوينهما تكويناً إيجابياً

صاحب النحلة السنانية

رسالته ، دهاؤه ، بيانه

لأستاذ جليل

ذكر العلامة الأستاذ محمد كرد علي في مقاله المحقَّق : (ابن العديم وتآليفه) في (الرسـالة) الغراء — الجزء ٢٢٠ في ١٤ رجب ٥٦ — سنانًا الاسماعيلي (صاحب النحلة السنانيـة أو الحشيشية [1]) وروى أبياتًا من شعره ، وأشار إلى رسالته إلى السلطان صلاح الدين . وقـد رأيت أن أنشر تلك الرسالة الأنيقة لنفاستها ، وقد نقلت — كما قال ابن خلكان — من خط (القاضي الفاضل) وما قولك في شيء يعجب عبد الرحيم البيساني فينسخه بنفسه ؟ ثم أورد ما أملاه صاحب (شذرات الذهب) من أنباء سنان هذا وفيه حديث عجيب في الكيد أو الدهاء ما يبلغ دهاة منا كير مبلغه ، ولا سمع السامعون شبهه . ثم أروى (بيانًا) لسنان إلى جماعته لجلالة قيمته في تاريخ النحل وقـد عثر عليه العرباني [2] (م . ستان جوارد) ونقله إلى الفرنسية . و(البيان) يبين لنا أن (أبا الحسن راشد الدين) قد ادعى دعوى الجماعة في الألوهية أو حاولها ، ولم يشأ أن يحتكرها في القاهرة محتكرون ، ويستبد بها فاطميون — كما يقولون — أو عبيديون ، وهو قد عرف من (أسرار الدعوة ...) ما عرفوه ... وما حل في مصر حل مثله في الشام ...

***

الرسالة

يا للرجال لأمر هال مُفظِعهُ ... ما مر قط على سمعي توقُّعهُ

قام الحمام إلى البازي يهدده ... وكشرت لأسود الغاب أضبعه

أضحى يسد فم الأفعى بأصبعه ... يكفيه ماقد تلاقى منه أصبعه

ياذا الذي بقراع السيف هددني ... لا قام مصرع جنبي حين تصرعه

(١) في (كتاب الروضتين) : « وكاتبوا سنانا صاحب الحشيشية » والسنانية أو الحشيشية فرقة من الاسماعيلية والاختلاف بينهما قليل كما قال ستان جوارد

(٢) العرباني : عارف العربية من العجم

إنا منحناك عمرًا كي تعيش به ... فإن رضيت وإلا سوف ننزعه [1]

وقفنا على تفاصيله وجمله ، وعلمنا ما هددنا به من قوله وعمله ، فيالله للعجب من ذبابة تطن في أذن فيل ، وبعوضة تعد في التماثيل . ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم وما كان لهم من ناصرين . أو للحق تُدحضون [2] ، وللباطل تنصرون « وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقلَبٍ ينقلبون » . وأما ماصدر من قولك في قطع راسي ، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي ، فتلك أمانيّ كاذبة ، وخيالات غير صائبة ، فإن الجواهر لا تزول بالأعراض ، كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض . كم بين قوي وضعيف ، ودني وشريف ! وإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات ، وعدلنا عن البواطن والمعقولات ، فلنا أسوة برسول الله في قوله : ما أوذي نبي كما أوذيت . ولقد علمت ماجرى على عترته ، وأهل بيته وشيعته ، والحال ما حال ، والأمر ما زال ، ولله الحمد في الأولى والآخرة ، إذ نحن مظلومون لا ظالمون ، ومغصوبون لا غاصبون « وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » ولقد علمت ظاهر حالنا ، وكيفية رجالنا ، وما يتمنونه من الفوت [3] ، ويتقربون به إلى حياض الموت . قل « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » وفي أمثال العامة السائرة : (أوَ للبط ، تهددين بالشط) فهيء للبلايا جلبابا ، وتدرع للرزايا أثوابًا ، فلأظهرنَّ عليك منك ، ولأفنينهم فيك عنك ... فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه [4] ، والجادع مارن [5] أنفه بكفه « وما ذلك على الله بعزيز » فاذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد ، واقرأ أول (النحل [6]) وآخر (صاد [7])

(١) قلت : لم تستمر هذه المنحة ... وقد حاولت الجماعة غير مرة اغتيال (بطل المسلمين) « والله يعصمك من الناس »

وإلا سوف الخ : القول عند بعضهم : وإلا فسوف ، وحذف الفاء مختص بالضرورة وفي (إعراب القرآن) : (إن ترك خيراً) لجوابه عند الأخفش (الوصية) واحتج بقوله (من يفعل الحسنات الله يشكره قلت : إن صح مذهب الأخفش فالحجة قول (الكتاب) المعجز لا قول الشاعر ...

(٢) دحضت الحجة : بطلت ، وأدحضها : أبطلها (٣) فوت الحياة

(٤) من المثل وأصله : (حتفها تحمل ضأن بأظلافها) ومن شعرهم : وكانت كعنز السوء قامت بظلفها ... إلى مدية تحت الثرى تستثيرها

(٥) مارن الأنف طرفه والقول من مقدمة المقامات

(٦) أتى أمر الله فلا تستعجلوه (٧) ولتعلمن نبأه بعد حين

الخبر

وفى سنة (٥٨٨) توفى راشد الدين أبو الحسن سنان بن سلمان مقدم الاسماعيلية ، وصاحب الدعوة بقلاع الشام . وأصله من البصرة ، قدم إلى الشام فى أيام نور الدين ، وأقام فى القلاع ثلاثين سنة ، وجرت له مع السلطان صلاح الدين وقائع وقصص ، ولم يعط طاعة قط ، وعزم السلطان على قصده بعد صلح الفرنج ، وكان (سنان) قد قرأ كتب الفلسفة والجدل

قال المنتجب : أرسلنى السلطان إلى سنان مقدم الاسماعيلية ومعى القطب النيسابورى ، وأرسل معنا (تخويفاً وتهديداً) فلم يجبه بل كتب على طرة كتاب السلطان : (الأبيات فى الرسالة المتقدمة) ثم كتب بعد الأبيات خطبة بليغة (هى تلك الرسالة) مضمونها عدم الخوف والطاعة ، فلما يئس صلاح الدين منه جنح إلى صلحه ، ودخل فى مرضاته

قال اليونينى فى تاريخه : إن سناناً سير رسولا وأمره ألا يؤدى رسالته إلا خلوة ، ففتشه السلطان صلاح الدين فلم يجد معه ما يخافه فأخلى له المجلس إلا نفراً يسيراً فامتنع من أداء الرسالة حتى يخرجوا فخرجوا كلهم غير مملوكين صغيرين فقال : هات رسالتك ، فقال : أمرت ألا أقولها إلا فى خلوة فقال : هذان ما يخرجان

قال : ولِمَ ؟

قال : لأنهما مثل أولادى

فالتفت الرسول إليهما وقال : إذا أمرتكما عن مخدومى بقتل هذا السلطان تقتلانه ؟

قالا : نعم ، وجذبا سيفيهما . فبهت السلطان ، وخرج الرسول وأخذهما معه فجنح صلاح الدين إلى الصلح وصالحه . ودخل فى مرضاته

***

البيان

« بسم الله الرحمن الرحيم : فصل من اللفظ الشريف للمولى راشد الدين عليه السلام ، وهو أفضل البيان تقوتى[1] ربى لا إله إلا هو العلى العظيم . أيها الرفقاء ، غبنا عنكم غيبتين : غيبة تمكين وغيبة تكوين ؛ واحتجبنا عن أرض معرفتكم ، فضجت الأرض ، وتقلقلت السموات ، وقالت : يا بارى البرايا النفور ، فظهرت بآدم ، وكانت الدعوة حواء ، فحوينا على قلوب المؤمنين الذين ضجت أرض قلوبهم شوقاً إلينا ، فنظرنا فى سماء نفوسهم رحمة منا ، فمضى دور آدم ودعوته ، ونفذت رحمة منا فى الخلائق حجته . ثم ظهرت بدور نوح ففرقت الخلائق فى دعوتى ، فنجا بدعوتى ولطفى من آمن بمعرفتى ، وهلك من الخلائق من أنكر حجتى . ثم ظهرت فى دور إبراهيم على ثلاث مقالات : كوكب وقمر وشمس فخرقت السفينة ، وقتلت الغلام ، وأقمت الجدار جدار الدعوة فنجا بلطفى ورحمتى من آمن بدعوتى ؛ وخاطبت موسى بخطاب ظاهر غير محجوب للسائل هرون ، ثم ظهرت بالسيد المسيح فسحت بيدى الكريمة عن أولادى الذنوب فأول تلميذ قام بين يدى يوحنا المعمدانى ، وكنت بالظاهر شمعون ، ثم ظهرت بعلى الزمان وسترت بمحمد ، وكان المتكلم عن معرفتى سلمان ، ثم ذرّ أبو الذر الحقيقى فى أولاد الدعوة القديمة بقيام قائم القيامة حاضراً موجوداً فما تمّ لكم الدين حتى ظهرت عليكم براشد الدين فعرفنى من عرفنى وأنكرنى من أنكرنى ، وأنا صاحب الكون ما خلت الدار من أفراخ القدم . أنا الشاهد والناظر ، ولى الرحمة فى الأول والآخر ، فلا يغرنكم تقلب الصور ؛ تقولون فلان مضى وفلان أتى ، أقول لكم أن تجعلوا الوجوه كلها وجها واحداً ، ما يكون فى الوجود حاضراً موجوداً صاحب الوجود ! لا تخرجوا عن أمر ولى عهدكم من عربها وعجمها وتركها ورومها فأنا المدبر ، ولى الأمر والارادة . فمن عرفنى باطناً قد تمسك بالحق ، ولا تكمل معرفتى بنير ما أقول . عبدى أطعنى واعرفنى حق معرفتى أجعلك مثلى حياً لا تموت وغنياً لا تفتقر ، وعزيزاً لا تذل . اسمعوا وادعوا تنتفعوا . أنا الحاضر وأنتم الحاضرون بحضرتى . أنا القريب الذى لا أغيب ، فإن عذبتكم فبعدلى ، وإن عفوت عنكم فبكرمى وفضلى ، أنا صاحب الرحمة وولى الغفر والحق المبين ، والحمد لله رب العالمين ، وهذا بيان »

هذا بيان راشد الدين وقد أنشر أمثاله من رسائل العبيديين بعد حين

(قارىء)

(١) قد يكون الأصل تونى أو تقوى بالاضافة إلى ياء المتكلم أو أنها من لغة الجماعة

الأزهريون والخدمة العسكرية

للدكتور محمد عبد الله ماضي

في الأيام الأخيرة قامت ضجة حول ما أشيع من عزم وزارة الحربية المصرية على وضع تشريع يقضي بتجنيد حملة القرآن الشريف، وطلبة العلم بالمعاهد الدينية، حتى أن بعض الهيئات المحترمة قررت استنكار هذا الأمر، ورأت فيه مالا يتناسب وحرمة الدين، وما يتنافى مع تكريم أهله. ولعل لأصحاب هذا الرأي بعض العذر، ولعل لديهم من القرائن البعيدة عن جوهر الموضوع ما حملهم على الاستنكار، وجعلهم يرون في مثل هذا التشريع مساساً بكرامة الدين وأهله؛ ولكني أريد هنا أن أحاول معالجة موضوع التجنيد العام في ذاته، وأن أبين رأي الإسلام فيه

ولابد لنا أن نعرف أولا أن غريزة الكفاح من الغرائز البشرية ذات الأثر الفعال في حياة الأفراد، وفي نظام الجماعات وتكوينها؛ ولقد كان هذا الأثر واضحاً في كل العصور، وفي جميع تطورات الجماعة من البسيطة الهمجية إلى الراقية المتحضرة. فالكفاح الدائم بين الأفراد والجماعات من سنن الطبيعة وقوانينها ما دامت الطبيعة وما عاش الإنسان؛ وهو الوسيلة لبقاء الأصلح، وفناء العاجز الضعيف؛ وهو إذاً سبيل الحياة الدائمة المتواصلة، كما يقول نوفيكوف (Novikov) وبقية أصحاب نظرية الكفاح من علماء الاجتماع

والحرب نوع من أنواع الكفاح القاسية التي نراها لا تزال تتكرر في مختلف العصور بالرغم من بغض الناس لها، وبالرغم مما تجره وراءها من ويلات. وإن الدعوة إلى السلام الدائم بين جماعات الشعوب أمر محمود، ولكنه لا يغير من الواقع شيئاً، وخلم لنيذ لم نر إلى الآن أن الوقائع التاريخية والحوادث الاجتماعية تساعد على تحقيقه. ففي الحوادث التي وقعت في السنوات الأخيرة بين الشعوب المنتسبة إلى عصبة الأمم — حصن الدعوة إلى السلام الدائم — وفيما تكرر ويتكرر من اعتداء قويهم على الضعيف منهم ما يبين لنا أن دعاة السلم لم يتعدوا في دعوتهم حدود القول، ولم يأتوا بشيء عملي لتحقيق ما يدعون إليه

فلا غرابة إذن إذا كنا نرى الأمم القوية في كل العصور تنادي بالسلام وهي تستعد للحرب؛ أما الشعوب الضعيفة فإنها تتخدر أعصابها بالدعاية إلى السلم، وتصم آذانها عن نداء الواجب صيحة السلام التي يرسلها القوى المدجج بالسلاح معمياً، حتى لا تزال هذه الأمم الضعيفة في عمى عن الحقائق، فريسة له، عاجزة عن الدفاع عن نفسها أمام هجماته، وميداناً لتحقيق مطامعه. والشعوب الحية العزيزة، التي تشعر بالكرامة، وتأبى الضيم والذلة على استعداد دائم للدفاع عن نفسها، ورد اعتداء المعتدي، فهي تأخذ أفرادها بالمران على الأعمال الحربية، تقوى أجسامهم، وتربي العزة في نفوسهم، وتحبب إليهم التضحية بالنفس والنفيس في سبيل دفع الاعتداء عن أمتهم، ورد المهانة وسلامة الكرامة، والاحتفاظ بالحرية. فالروح العسكرية، وتربية الشعب تربية عسكرية أمر لابد منه لكل أمة تريد أن تعيش مرفوعة الرأس، عزيزة الجانب بين الأمم؛ أمر لابد منه لإشعار أفراد الشعب بمعنى العزة والكرامة، وحتى يؤمنوا بأن الموت العزيز خير من الحياة الذليلة

هكذا صنعت وتصنع الأمم الحية الكريمة، وهكذا كان شأن الأمة الاسلامية في مبدئها، وفي العصر الذي كان المسلمون يعملون فيه بتعاليم الإسلام الصحيحة قبل أن تختلط بالمبادىء الدخيلة التي أعطيت صبغة الإسلام وهي ليست منه في شيء. فكما تأمر مبادىء الإسلام بتعليم النشء وتثقيفه، فهي تأمر أيضاً بأخذه بأنواع الرياضة، وتدريبه على فنون الحرب. وقد جاء في الحديث الشريف [1] «حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي» وفي التعليق على حديث «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي. إلا إن القوة الرمي. ألا إن القوة الرمي» يقول صاحب نيل الأوطار: وكرر ذلك للترغيب في تعلمه (الرمي) وإعداد آلاته؛ وفيه دليل على مشروعية الاشتغال بتعليم آلات الجهاد، والتمرن فيها، والعناية في إعدادها، ليتمرن بذلك على الجهاد ويتدرب فيه، ويروض أعضاءه

ولكن لنا في رسول الله أسوة حسنة، وهو المثل الأعلى

(١) نيل الأوطار طبعة منير الدمشقي جـ ٢ ص ٢٤٧ — ٢٤٨

للرجولة الكاملة ، فلقد ساهم عليه السلام بنفسه فى كثير من أنواع الرياضة ، والتمرينات الحربية ، فسابق فى العدو ، ورمي ، وصارع ؛ ولقد شاهد اللعب بالحراب ، واشترك فى سباق الخيل. كان يفعل كل هذا ، ويأمر به ، ويشجع عليه أفراد أمته ، حتى النساء منهم ، فلقد كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها جريا على الأقدام ، فمرة تسبقه ومرة يسبقها . أرأيت كيف أن هذا لا ينافى الوقار والشرف والعلم والفضل وعلو السن ؟ ! هذا هو حكم الاسلام فى الرياضة البدنية ؛ وهذا هو حكم الإسلام فى الخدمة العسكرية ، وتعليم أفراد الأمة فنون الحرب ، وأخذهم بآداب الجندية

ولم تزل الشعوب الاسلامية قوية عزيزة الجانب حتى أخذت روح الجندية تضعف فى نفوس أفرادها ، وأخذ استعدادهم للدفاع عن حماهم يضعف ويقل ؛ فأخذ العدو يهاجمهم بما لا حول لهم به ولا قوة ، حتى وصلت بهم الحال إلى ما هم عليه من الضعف ، وحتى استعبدهم الغير ؛ وما فتئت الدول المستعمرة فى العصور الأخيرة تعمل على قتل روح الجندية ، روح القوة والرجولة فى الأمم الاسلامية المغلوبة على أمرها ، لتطول مدة حكمها لها ، ولتأمن جانبهم فى الدفاع عن أنفسهم . عملت على هذا ، ووضعت لتنفيذه خططاً مدبرة محكمة ؛ كان من أشدها خطراً عندنا فى مصر قانون البدل والإعفاء من الخدمة العسكرية ؛ إذ ظن المغفون خطأ أن فى ذلك ميزة لهم وشرفاً اكتسبوه ؛ وكانت نتيجة هذا الإجراء الدبر أن انحصرت الخدمة العسكرية فى أفراد الطبقة الفقيرة الجاهلة من الشعب ؛ وعومل هؤلاء أثناء تأدية الخدمة من رؤسائهم معاملة إذلال وقهر ، غرست فى نفوسهم البغض لما هم فيه ، وقتلت فيهم الروح المنوية التى لا بد منها لانتصار الجنود إذا اشتدت الخطوب ، ووقع القتال ؛ هذه الروح المنوية التى جعلت العشرين من جند النبي وأصحابه يغلبون مائتين ، والمائة يغلبون ألفين

هذه العوامل وغيرها ولدت فى نفوس الشعب عندنا بغض الخدمة العسكرية وتحقيرها ، حينما تفخر الشعوب الحية بها وتعتز ؛ وبهذا فقد شبابنا كثيراً من معانى القوة والرجولة . ومن عجائب الدهر أن تجعل الخدمة العسكرية عقوبة للطالب الأزهرى يعاقب بها إذا رأى ولاة الأمور خروجه على النظام ، وقرروا إنزال العقاب به ؛ فهم حينئذ يمحون اسمه من سجلات الطلبة الأزهريين ويبلغون الجهات المختصة لتحرمه من امتياز الإعفاء من الخدمة ، وتعاقبه فتجعله يؤدي الخدمة العسكرية — كما وقع ذلك فى بعض عصور الأزهر الغابرة —

ألا إن هذا عكس للحقائق ، ووضع للأمور فى غير نصابها ؛ هذه الروح يجب أن تزول ، وأن يحل محلها روح الشعور بأن الجندية شرف لا عقوبة

الواجب على أولى الأمر بعد أن حصلنا على معاهدة الاستقلال ، وأطلقت يدنا من عقالها فى كثير من الشئون أن يصلحوا ما أفسده الدهر من أمر الخدمة العسكرية فى بلادنا . وإذا أردنا أن يسلم لنا شرفنا فلنعمل على تربية روح العزة والكرامة ، ولنتعهد روح الرجولة بما ينميها فى نفوس الأفراد ، فيجب أن تكون الخدمة العسكرية عامة اجبارية على كل من يصلح لها من أبناء الشعب بلا تفريق بين طبقة وطبقة ، وبغير تمييز بين أهل حرفة دون حرفة ، ليشعر أبناء الشعب جميعاً بالأخوة والمساواة ، وليدخلوا جميعاً مدرسة الرجولة

وعلى جميع طبقات الأمة أن ينادوا بهذا ، ويطالبوا ولاة الأمور بتنفيذه ؛ وعلى حملة القرآن الشريف ، والأزهريين منهم خاصة — من أصحاب الامتياز المزعوم — أن يطالبوا أولى الأمر مع المطالبين ، بل فى مقدمتهم بالتجنيد الإجبارى العام ، فانهم أبناء الأمة ، وعليهم أن يشتركوا فى إعداد أنفسهم للدفاع عنها إذا دعا الداعى . ولهم أن يفخروا بشرف الانخراط فى سلك الجندية ؛ فلقد حان الوقت ليخرج الأزهريون من عزلتهم ، وليأخذوا أنفسهم بتعاليم الإسلام الصحيحة ، وينفوا ما زيف عليهم منها

فليس من الإسلام أن حملة القرآن الشريف ، وطلبة الأزهر يعفون من خدمة العسكرية ، فالاسلام دين الرجولة يمقت كل ما يمت إلى التخنث بصلة ؛ وليس من الإسلام هذا الوقار المزعوم الذى يتخيله العامة عندنا فى المشية المتثاقلة المتشدة البعيدة عن النشاط وخفة الحركة ، فلقد كان النبي عليه السلام يسير متلقياً جسمه إلى الأمام مسرع الخطو ثابته ؟

محمد عبد الله ماضى
دكتور فى التاريخ والاجتماع
وعضو بعثة تخليد ذكرى الشيخ محمد عبده بألمانيا

فى تاريخ الأدب العربى

كليــــلة ودمنة

للأستاذ عبد الله محمود اسماعيل

لست أزعم أن أدلة هذا البحث ـ على قوتها ـ مما لا يستطاع نقضه أو إضعافه . ولست أزعم أن موضوع البحث مما لم يسبق لبعض الأقلام تناوله . ولكن الذى أستطيع زعمه أن أكثر ما سأعتمد عليه فى تدعيم وجهتى طريف مبتكر لا يشينه سطو ولا تمكره إغارة

وقد يكون مرجع الفضل فى إثارة هذا البحث إلى رسالة صغيرة كتبها عن ابن المقفع الزميل « الأستاذ محمد قايل » ذهب فيها مذهب بعض المستشرقين من القول بأن نسبة كتاب كليلة ودمنة إلى غير عبد الله بن المقفع يعوزها الدليل القوى ، وأن الكتاب فى مجموعه لا يخرج عن حكايات وضعها ابن المقفع أو نقلها عن الآداب الدخيلة (١) . يريد بذلك ألا يجعل للكتاب أصلا فى الفارسية أو الهندية بهذا الاسم ، وهو يؤيد اختياره هذا بما يلمس فى الكتاب من بلاغة عبارة ، وقوة أداء ، وخلو من المسحة الدخيلة ، مما لا يتهيأ لكتاب مترجم حرص فيه على الأمانة ؛ وبأن مؤرخى الهنود وعلماء أوربا يجهلون كتاباً بهذا العنوان والتبويب فى الهندية ، كما يجهلون شخصى « بيدبا » و « دبشليم » وكلا الدليلين ساقط ، لأن هذه القوة البلاغية فى الترجمة ، وسبك الألفاظ وفق أرجح أساليب العربية ليس مما يستغرب من ابن المقفع وقد « كان فى نهاية الفصاحة والبلاغة مضطلعاً باللغتين — العربية والفارسية — فصيحاً بهما (٢) »

وما لنا نذهب بعيداً وفى المكتبة العربية الآن كتب مترجمة عن الفرنسية والانجليزية والألمانية أتت ، على الرغم من سحر بيانها وشريف أسلوبها ، أمينة على الأصل ، حريصة على روح المؤلف ، وهذه قصة البائسين لحافظ بك ، ورفائيل وفرتر للأستاذ الزيات ، فقد جاءت مع الأصل كالحسناء وخيالها فى المرآة . وتلك حالة لا يجد فيها المترجم كبير عناء متى كان متمكناً من لغة المنقول عنه والمنقول إليه ، خبيراً بآدابهما ، وطرائق الحسن فيهما . كما كان الشأن مع ابن المقفع

على أننى لا أرى هناك ما يحمل على التمسك بالحرفية والأمانة فى ترجمة مثل كتاب كليلة ودمنة ، فليس هو بالكتاب العلمى الخطير ، ولا القصة الفنية التى يذهب التصرف فيها شيئاً من جمالها وروعتها ، وهو فى النهاية لا يعدو أن يكون كتاب تخريف وسمر للخواص وأرباب البيان على الرغم من هذه الطنطنة التى ملأت صدر الكتاب . ولا شك أن ابن المقفع كان يفهم هذا فأباح لنفسه بعض التصرف فى الأصل فرفع بذلك عن قلمه كثيراً من الحرج والهيب

أما ما يقال عن جهل مؤرخى الهنود وعلماء أوربا بدبشليم وبيدبا ، وبكتاب له هذا الاسم والتبويب فى اللسان الهندى ، فلا يمكن أن يتخذ منه دليل قاطع على وضع ابن المقفع للكتاب ، فان صلاحيته للقول بهذا أضعف من صلاحيته للقول بأن الفرس هم وضعة الكتاب ، فقد نقل هذا الرأى أحد مؤرخى القرن الرابع الهجرى ؛ قال محمد بن اسحاق النديم : « فأما كتاب كليلة ودمنة فقد اختلف فى أمره ، فقيل عملته الهند ، وقيل عملته ملوك الأسكانية (١) ونحلته الهند ، وقيل عملته الفرس ونحلته الهند ، وقال قوم إن الذى عمله بزرجهر الحكيم (٢) » الفارسى . على حين لم أعثر فى الكثير الذى قرأته من المراجع القديمة على من يصرح بأن ابن المقفع هو واضع الكتاب

وإن هذا التأييد التاريخى للقول الثانى مع ما ذكروا من أن المراجع الهندية والأوربية تجهل وجود كتاب كليلة ودمنة فى السنسكريتية ، كما تجهل وجود ملك يسمى دبشليم ليجعلني أميل إلى الأخذ به وترجيحه على ما سواه . ولن يضعف منه تأريخ المسعودى لدبشليم الملك ضمن من ذكر من ملوك الهند الأقدمين وقوله إنه الواضع لكتاب كليلة ودمنة ، فإن جل ما كتبه عن هذه العصور القديمة لا يخرج عن دائرة الجمع الذي لا يقوم على أساس صحيح من التحقيق والتحرى ، ويكفى لصدك عن التعويل

(١) ابن المقفع لقايل ص ٥٠

(٢) الفهرس لابن النديم ص ١٧٢ ، طبعة المكتبة التجارية

(١) الأسكانية : الطائفة الثانية من ملوك الفرس الأوائل من أفريدون إلى دارا بن دارا . مروج الذهب أول ص ١٢٩ مطبعة عبد الرحمن محمد

(٢) الفهرس ص ٤٢٣

على ما كتب أن تعرف أنه جمل ملك « دستلم » أو « دبشليم » مائة وعشرين سنة [١] ؛ وأن ما ذكره بعد ذلك عنه وعن « فور » سابقه لا يتجاوز ما ذكر في مقدمات كليلة ودمنة ؛ الأمر الذي يحملنا على الظن بأن المسعودي ما عرف هذين الاسمين إلا عن طريق هذا الكتاب

وليس يبعيد على الفرس وضع كتاب كليلة ودمنة وإلباسه هذا الثوب الهندي ، فهم جيران الهنود وإخوانهم في جنسيتهم الآرية ، يشركونهم في ذكائهم وتعقلهم وخيالهم « وهم أول من صنف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن ، وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان [٢] »

ولا محل للاعتراض هنا بأن الكتاب لو كان من عمل الفرس لتضمن شيئاً من المجوسية والمذاهب الفارسية الأخرى ؛ لأنه لم يوضع لتدوين عقيدة أو إذاعة مذهب ديني خاص ؛ وهذا كتاب « مزدك » الذي نقله عن الفارسية ابن المقفع وأبان بن عبد الحميد ، « فإن أول ما يتبادر إلى الذهن أن الكتاب يبحث عن مذهب مزدك ، ولكن الأستاذ « براون » ذكر في كتابه « تاريخ آداب الفرس » نقلا عن « نولدكى » : أنه كتاب أدب وضع للتسلية ، ويعد في مصاف كتاب كليلة ودمنة ولا تضر قراءته مسلما [٣] »

على أننا لو سلمنا باحتواء الأصل على شيء من هذه المذاهب الفارسية ، فإننا نرجع نقاء الترجمة العربية منها إلى ما ذكرنا من تصرف ابن المقفع ، ولعل الذي حمله على هذه التصفية عقيدته الاسلامية الجديدة أو خوفه من تشكك المنصور فيه إن سمحنا لأنفسنا بالطعن في صدق إسلامه

وإن مما يكاد يحملنا على الجزم بأن ابن المقفع ناقل لكليلة ودمنة لا واضع له ما ذكره صاحب الفهرس من أن جماعة من النقلة عن اللسان الفارسي — وفيهم من عاصر ابن المقفع أو قرب وقته — قاموا بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية . قال العلامة جورجي زيدان : « يظهر أن بعض الأدباء حسد ابن المقفع على شهرة الكتاب فأعادوا نقله ، واشتغل بعضهم بنظمه ، وتصدى آخرون لمعارضته [٤] » . ولا غير هذا يفسر لنا سر الاختلاف الذي ذكره

(١) مروج الذهب أول ص ٤٨

(٢) الفهرس ص ٤٢٢

(٣) ابن المقفع لخليل مردم بك ص ٦١

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ١٣١

ابن النديم في عدد أبواب الكتاب ، فقد قال : « هو سبعة عشر باباً ، وقيل ثمانية عشر ، ورأيت أنا في نسخة زيادة بابين [١] » .

وكان أقدم من نقل الكتاب إلى العربية نظماً أبو سهل الفضل بن نوبخت الفارسي من خدم المنصور ومن العاملين في خزانة الحكمة لهارون الرشيد « وقد كان معوله في علمه على كتب الفرس [٢] » ثم عبد الله بن هلال الأهوازي ، نقله ليحيى بن خالد البرمكي في خلافة المهدي سنة ١٦٥ هجرية ، ثم أبان بن عبد الحميد اللاحقي ، قال محمد بن اسحق « وقد نقل من كتب الفرس وغيرها ما أنا ذاكره : كتاب كليلة ودمنة ، كتاب السندباد ، كتاب مزدك [٣] ... » وقد كان أبان هذا « صديقاً للبرامكة ، متصلا بهم أشد اتصال ... وكان أديبهم الرسمي » ومن المختصين بالرشيد . ويظهر أن نقله الشعري — على جدته — كان على جانب من الجودة فقد « أعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار ، ولم يعطه جعفر شيئاً وقال : ألا يكفيك أن أحفظه فأكون راويتك [٤] ؟! »

ولو قدرت الحياة لهذه التراجم الأخرى أو لبعضها لقطعت الشك باليقين ، ولوضعت بين أيدينا الدليل المادي على أن موقف ابن المقفع من الكتاب لم يكن إلا موقف المترجم البليغ والمهذب البصير ؛ أما وقد نالها من عوادي الزمان وتقلب الأحداث ما أودعها عالم الفناء فليس لنا إلا الاعتماد على دراسة ما بقي مما كتبه عنها الثقات من رجال الأدب والتاريخ ، وما اقتبسته كتبهم عن بعض هذه التراجم ، وفي هذا وذاك كثير من الغناء والعزاء

ولئن ذكرنا بالفضل صاحب الفهرس لما أفادنا في هذا المقام فلا يسعنا إلا أن نذكر بمزيد الاعجاب فضل ابراهيم الصولي ، فقد نقل لنا في كتابه الأوراق [٥] ستة وسبعين بيتاً من ترجمة أبان النظمية ، ولولاه ما بقي لنا منها إلا الأبيات الأربعة التي ذكرها أبو الفرج [٦] وهي لا تغني في البحث شيئاً

(١) الفهرس ص ٤٢٤

(٢) الفهرس ص ٣٨٢

(٣) الفهرس ص ٢٣٢

(٤) بتصرف عن عصر المأمون أول ص ٢٤٩ وثان ص ٣١٧

(٥) طبع منه قسمان يبدأ أولها بترجمة أبان وتجد بها الأبيات المذكورة . ومخطوطه بدار الكتب تحت رقم ٥٩٤ تاريخ

(٦) الأغاني ج ٢٠ ص ٧٣

وفي هذه الطائفة التي ذكرها الصولي من المنظومة دليل آخر على أن أبان اشتق من مصدر فارسي ، وأنه لم يعتمد على نسخة ابن المقفع ، إذ لم يقع له من عباراتها إلا ما جاء وليد المصادفة أو الاستعانة وهو نادر ، كما يلاحظ على منظومته قلة تداخل حكاياتها والاقتصاد في سوق الحكم ، وربما ذكر الشيء في غير الباب الذي وضعه فيه ابن المقفع

ابتدأ أبان نظمه بالبيت المعروف : —

هـذا كتاب كذب ومحنة وهو الذي يدعى كليـله دمنة

ثم ذكر في الأبيات الأربعة التي تليه أن الكتاب من عمل الهند ، وصفوا فيه الآداب على ألسنة البهائم ، ليشتهي السخفاء هزله ، وليعرف الحكماء فضله : —

وهو على ذاك يسير الحفظ لذ على اللسان عنـد اللفظ

ثم أتى الصولي بعد ذلك باثنين وعشرين بيتاً يبدو أنها ليست من هذا التمهيد الذي وضعه أبان ؛ وإنما هي من باب برزويه تبدأ عند مناجاة هذا الحكيم نفسه بقوله : « يانفس[1] أما تعرفين نفعك من ضرك ؟ ! ألا تنتهين عن تمني ما لا يناله أحد إلا قل انتفاعه ... » وفيها يحدث نفسه بأن الدنيا بما لنا فيها من أحباء وأصدقاء كثيرة الآلام ، وأنه لا ينبغي للانسان أن يعرض نفسه للهلاك في سبيل جمع ما يرضى به أهله ومحبيه ؛ وأن في النسك وترك الدنيا لمن يشقى بها النجاة من الشرور . وختم أبان الأبيات بالاقرار بالوحدانية وأنه مرتهن بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ؛ ثم اقتبس الصولي من باب الأسد والثور تسعة وأربعين بيتاً في مواطن مختلفة من الباب ذكر فيها طرفاً من الحديث الذي دار بين كليلة ودمنة حول التقرب من الملك ثم كيد دمنة للثور عند الأسد ؛ ثم تحدث عن المال وما فيه من عز وجمال ، وامتدح العقل ومشورة غير أهل التهمة

ولكي يتضح بعد المنظومة عن ترجمة ابن المقفع نلفت النظر إلى أن حديث المال الذي ذكره أبان في باب الأسد والثور جعله عبد الله في باب الحمامة المطوقة . وإليك الأبيات التي ذكرها في هذا الموضوع لتتحقق بعد الموازنة من صدق ما ارتأينا من المباينة بين الترجمتين : —

الأهل والإخوان والأعوان عند ذوي الأموال حيث كانوا
والمـال هادي الرأي والمروّه وهو على كل الأمور قوه
والمـال فيه العـز والجمال والذل حيث لا يكون المـال
وربمـا دعا الفقــير فقرُه إلى التي يحبط فيهـا أجرُه
فيخسر الدين كما كان خسر دنياه والخسران ما لا ينجبر
وليس من شيء يكون مدحا لدى الغنى إلا يكون قدحا
على الفقير ويكون ذما كذاك يدعى وبه يسمى
فإن يكن نجداً يقولوا أهوج كذاك عند الحرب لا يعرج
وهو إذا كان جواداً سيّداً سمى للفقر مضيعاً مفسدا
أو يك ذا حلم يقـل ضعيف أو يك بساماً يقل سخيف

* * *

وقد يظن كثير من الأدباء أن ابن المقفع عرف كيف يخلد اسمه باختياره ترجمة كتاب كليلة ودمنة أو ادعائه ذلك ؛ ولكن الذي لا يتطرق إليه الاحتمال عندي أن كتاب كليلة ودمنة إنما كتب له الخلود ، وبقي على توالي الأحداث والأيام لأن عبد الله ابن المقفع تصدى لترجمته فألبسه هذا الثوب الرائق من بلاغته وتهذيبه ومعرفته . ولقد يدهش أصحاب ذلك الظن إذا قلنا لهم إن الكتاب لم يكن له في الفارسية من الخطر ما صار له بعد نقله إلى العربية على يد ابن المقفع ، ولكن دهشهم سيتبدد متى عرفوا أن الفرس أنفسهم حينما رأوا الكتاب في صورته الجديدة المنسجمة استولى عليهم الإعجاب ، وأخذوا ببلاغته فنقلوه إلى الفارسية مرة أخرى ، وأهملوا أصوله التي بين أيديهم فأذهبها النسيان ؛ حتى لقد ذكر ابن النديم أنهم نقلوه « إلى اللغة الفارسية بالعربية[1] » ليتمكن من يتكلم الفارسية ولا يكتبها من قراءته بالحروف العربية التي سرى استعمالها بينهم

وإني لأسائل نفسي الآن عن المصير الذي كان ينتهي إليه كليلة ودمنة لو لم يكن عبد الله بن المقفع ضمن من ترجموه ؟! إنه ولا شك مصير مظلم ؛ أو قل هو المصير الذي انتهت إليه التراجم والنقول الأخرى

(أسيوط) عبد الله محمود اسماعيل

(١) كليلة ودمنة ، ترجمة ابن المقفع ص ٧٦ طبعة وزارة معارف خمسة عشرة

(١) الفهرس ص ٤٢٤

محمد بن جعفر الكتاني

بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته

للأستاذ محمد المنتصر الكتاني

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

وكان أسلافه يعرفون قديماً بعدة ألقاب : بالكتانيين وأمراء الناس والزواويين وشرفاء عقبة ابن صوال، وحديثاً بالكتانيين فقط

فأما شهرتهم باللقبين الأولين : فنسبة إلى جدهم الأول أمير الناس الكتانى يحيى بن عمران الذى يعده المؤرخون أول ملك مغربى استعمل فى معسكراته خيام الكتان فنسبوه إليها ، وما كانت تعرف قبله غير خيام الصوف والشعر ، وأول ملك بويع باسم أمير الناس ، فلزم بنيه لقبه الأول إلى اليوم ، وورثوا عنه الثانى ردحاً من الزمن

ذكر هذا القاضى بن الحاج فى كتابيه نظم الدر والأشراف ، والشريف الدغرى فى الدرة ، وأبو زيد السيوطى المكناسى ووالده أبو بكر في كتابيهما في الأنساب

وأما شهرتهم باللقب الثالث : فنسبة إلى زواوة وهى قبائل بربرية كبيرة مواطنها فى الجزائر « بنواحى بجاية ما بين مواطن كتامة وصنهاجة ، أوطنوا عنها جبالاً شاهقة متوعرة ، تنذعر منها الأبصار ، ويضل فى غمرها السالك[1] » فر إليها الكتانى يحيى حين تغلب السفاح بن أبي العافية على ملك أسلافه فنصبوه ملكا عليهم وتدبرها بنوه من بعده قرنين كاملين وثلاثين سنة تزيد قليلاً أو تنقص قليلا

ذكرهم بهذا اللقب ابن عمرو العبدى فى كتابه الكوكب السانى فى النسب الكتانى

وأما شهرتهم باللقب الرابع فنسبة إلى حى معروف من أحياء فاس يعرف بعقبة بن صوال ، كان نزولهم به أول ما رجعوا من مكناس فى آخر القرن التاسع

عرفهم به القاضى بن الحاج فى الأشراف وعلى هذا اللقب وضع فيهم كتابه الشهير « نظم الدر واللآل فى شرفاء آل عقبة ابن صوال » وبه ذكرهم أيضاً الشريف القادرى في الدر السنى

ولا يعرف اليوم أحدهم بلقب من تلك الألقاب الثلاثة — أمراء الناس ، الزواويين ، شرفاء عقبة بن صوال — التى أصبحت تاريخية وفى بطون الكتب ليس غير ، ولا أدري إذا كانت بعض الأسر بالجزائر أو غيرها من الأقطار التى أقاموا بها لا تزال تحمل أحد هذه الألقاب

واللقب الأول والأخير هو (الكتانى) فقط الذي بقى عند آبائه من القرن الرابع إلى الآن

ولعل من العبث أن أعيد القول فأذكر أنه تقدم فى السلافة أئمة أعلام شاركوا فى توريث التراث المحمدى ، فهدوا وعلموا وهذبوا وألفوا ، وفى الخزائن العامة والخاصة الدليل الناطق ، وقد بلغ ما عده بعضهم من مؤلفاتهم فيها المئين[1] وكتب المؤرخين طافحة بتراجمهم

ومن منهم لا يعرف (على بن موسى[2]) و(عبد الواحد بن عمر[3]) وولده (أحمد[4]) و(محمد بن أحمد بن على[5]) و(محمد بن عبد الوهاب[6]) و(المأمون بن عمر[7]) و(إدريس بن

---

(١) العبر ج ٦ ص ١٢٨

---

(١) انظر معجم تأليف رجال المغرب الأقصى لصديقنا الأستاذ عبد السلام ابن سودة

(٢) على — من كبار علماء القرن الثامن توفى بمكناس ترجمه أبو زيد السيوطى المكناسى فى عقد اللآلى والعلامة المؤرخ النقيب ابن زيدان فى تاريخ مكناس ج ٥ ص ٤٥١

(٣) عبد الواحد — تخرج على الشيخ الامام التاودى ابن سودة ومن مشايخه العلامة جوس كان مع اشتغاله بالعلم يتجر ويمارس الفلاحة ولاه المرحوم سيد قومه السلطان محمد بن عبد الله نظارة أوقاف الضعفاء « بسيدى فرج » بالاشتراك مع بعض الأشراف فحمدت ولايته . هذا ومن بعده كلهم توفوا بفاس (٠٠ — ١٢٠٣) الرياض الربابية — النبذة — السلوة ج ٢ ص ٢٥٣

(٤) ابن عبد الواحد — أخذ عن الشيخ التاودى ابن سودة ولازمه ، يعد من مؤرخى العائلة فقد اعتنى بتاريخها اعتناء كبيراً وله فى ذلك « كتابات وتقاييد » (٠٠ — ١٢٤٤) المصدر نفسه والسلوة ج ٢ ص ٢٥٣

(٥) ابن أحمد — من رجال القرن الثانى عشر ، عالم فقيه مؤرخ ثقة ، من أساتذته شيخ الشيوخ عبد القادر الفاسى وولداه وهو صاحب الكتابين المعروفين « نصرة العترة الطاهرة من أبناء على وفاطمة » و « التنبيه من الغلط والتلبيس فى بيان أولاد الامام محمد بن إدريس » لا أعرف مدفنه ولا سنة وفاته — نظم الدر — النبذة

(٦) ابن عبد الوهاب — من أعيان القرن الثانى عشر ، عالم فقيه مدرس ترجمه ابن يخلف الأندلسى فى سلوة المحبين والامام فى النبذة

(٧) المأمون — عالم فقيه مؤرخ أديب شاعر ، درس بجامع القرويين زمناً وهو صاحب الكتابين «هداية الضال من القيل والقال» و «النغم المصيب ،

الطائع(1)) ومَنْ من المغاربة يجهل (جعفر بن إدريس(2)) وأولاده الأربعة صاحب الترجمة و(أحمد(3)) و(عبد الرحمن(4)) و(عبد العزيز(5)) و(عبد الكبير بن محمد(6)) وولده (الشهيد

في مناقب مولاى الطيب » انقطع عن الناس وتزهد (٠٠ — ١٣١٠) الدرر البهية ج ٢ ص ١٢٢ — النبذة — المرشد — مقدمة التراتيب الادارية ص ٢٤

(١) إدريس — هو جد صاحب الترجمة من مشايخه الأئمة الشريف عبد السلام الأزمى ومحمد بن عبد الرحمن الحجرتى والشريف محمد الحراق التطوانى قاتل السبانيا بضاحية تطوان فى جيش المرحوم السلطان محمد بن عبد الرحمن العلوى وأبلى بلاء حسناً إلى أن أسره العدو ، ثم فك أسره بعد وكان ذلك فى وقت لم يعهد فيه اشتراك القنوات وأبناء العائلات كأجناد فى الجيوش (٠٠ — ١٢٨١) نظم الدر . الرياض الربانية . النبذة . السلوة ج ٢ ص ١٩٤ . الدرر البهية ج ٢ ص ١١٩ . طبقات المالكين للقاضي ابن مخلوف ج ١ ص ٤٠٢

(٢) جعفر — يلقب بالصادق علم كبير وإمام شهير أجمع من ترجمه على أنه من أكبر علماء المغرب — ولا أعد مبالغاً إذا قلت إن « من » هنا مقحمة — فى كل الفنون المعروفة في عصره وكان مرجوعاً إليه فى اتقانها وضبطها وحل مشكلاتها ، يعتمده الملوك فى فصل القضايا المزمنة ، ويجد فيه جميع القضاة عند المعضلات أتى هاد وأعلم دليل ، كانوا يشبهونه بمالك بن أنس فى النظريات ويعدونه وارث مالك بن دينار فى « السنن المحمدية » له من المؤلفات فى مختلف الفنون ما يقارب المائة ، طبع منها كثير ولما مات صلى عليه أهل مكة فى الحرم صلاة الغائب ولم يكن بها أحد من أهله (١٢٦٥ تقريباً — ١٣٢٣) . النبذة . الدرر البهية ج ٢ ص ١٢٠ فهرس الفهارس ج ١ ص ١٣١ . طبقات المالكية للقاضي بن مخلوف ج ١ ص ٤٣٣ . معجم شيوخ القاضي عبد الحفيظ الفاسي ج ١ ص ١٧٣ . الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامى لمندوب المعارف محمد الحجوي ج ٤ ص ١٤١

(٣) أحمد — أحد الأئمة المشار إليهم علماً وديناً وزهداً وورعاً من أظهر صفاته الصلابة فى الحق والجهر به على أى حال ، والحب فى الله والبغض فى الله كانوا يشبهونه برجال السلف الصالح مؤلفاته تبلغ الثمانين في الحديث والفقه والتصوف والكلام والذات النبوية وغير ذلك (١٢٩١ — ١٣٤٠) النبذة . الشكل البديع

(٤) عبد الرحمن — إمام محدث وعلامة متفنن ، وكان هذا شاعراً خلاً جمع إلى سمو المعنى عذوبة فى اللفظ ورصانة فى التعبير ، وكاتباً مترسلاً من الطبقة الأولى جودة وبلاغة وكان على جلال علمه ووقاره ذا روح شاعرة محبوبة ، اللطف والظرف بعض صفاتها له مؤلفات كثيرة طبع بعضها ، وشعر كثير لم يجمع بعد ورسائل أدبية تخرج فى مجلد (١٢٩٧ — ١٣٣٤) المصدر نفسه ، وفى العزم نشر بعض شعره فى رسالتهم «رسالة العرب ؟!»

(٥) عبد العزيز — قال عنه أخوه فى النبذة : تفقه ونجب وللافادة جلس وانتصب . وكان فقيهاً عالماً نبيهاً ذا حياء وحشمة ووقار وصمت وسمت ووقار وأدب وهمة علية ونفس عزيزة أبية . له عدة مؤلفات (١٢٩٤ — ١٣٢٥)

(٦) عبد الكبير بن محمد — عالم صوفى مسند اتفق من ترجمه على أنه من خيرة أهل عصره صلاحاً وزهداً وعبادة وحسن أخلاق ما اغتاب أحداً قط ولم يغتب [illegible] غائباً — فى مجلسه أحداً حتى ألد أعدائه (؟ !) له بضع مؤلفات (١٢٦٨ — ١٣٣٣) النبذة . فهرس الفهارس ج ٢ ص ١٣٩ معجم شيوخ القاضى الفاسى ج ٢ ص ٧٤

محمد(1)) و (عبد الكبير بن هاشم(2)) و (الطاهر بن حسن(3)) و (عبد الحفيظ بن محمد(4)) رحمة الله عليهم أجمعين

اشتهر بلقب « الكتانى » قديماً خلق كثير في الأندلس والمغارب الثلاثة وبغداد ودمشق لايمت واحد منهم لأسلاف الامام بصلة ، فيهم الوالى الأمير والمحدث والفقيه والطبيب والأديب وو ... وقد وقفت على تراجمهم عند عياض فى المدارك والخطيب فى تاريخ بغداد والسمعانى فى أنسابه وابن الجزرى فى طبقات القراء والذهبي فى التذكرة وتاريخ الدول والميزان والضوء اللامع والحافظ فى اللسان والدرر الكامنة وابن عثمان النابلسى فى مختصر طبقات الحنابلة وابن القاضى فى الجذوة والقادرى فى النشر وابن جعفر (المترجم) فى السلوة

وقد عنى بتاريخ أسلافه جمهرة من المؤرخين قديماً وحديثاً وأولهم — فيما أعلم — أبو عبيد البكري صاحب المسالك الذى

---

(١) الشهيد — الامام المعذب فى الله ؟ العلامة الكبير شيخ التصوف وترجمانه مؤسس الطريقة الكتانية وبانى زواياها فى مدن المغرب وبواديه ومعتنقوا طريقته يقدسونه ويعتقدونه اعتقاداً عظيما وعددهم يتجاوز المليون ، كان مفرط الجمال جداً ولو أن صواحب يوسف رأينه لقطعن النياط بدل الأيدى ، كان كما وصفوا نصر بن حجاج — طريد عمر لجماله — إذا بدا لا تبقى محجبة ولا مخدرة ولا راهبة ! إلا اشرأبت بعنقها من الشرفات والمنازل لتراه ومن أجل ذلك كان لا يظهر للملأ إلا ملثماً ، قتله السلطان عبد الحفيظ ظلماً بعد ما أذاقه من العذاب ألواناً حتى استشهد وهو تحت السياط بتهمة الانتفاض عليه وطلب الملك لنفسه والقصة طويلة معقدة ؟ ومن يرد استعراض هولها فليستحضر مصيبة كربلاء فهى هى لا تخالفها إلا فى التاريخ ، له مؤلفات كثيرة طبع بعضها (١٢٩٠ — ١٣٢٧) النبذة . معجم شيوخ القاضى الفاسي ج ١ ص ٤٤ وقد اطلعت على كتاب فى مجلد ضخم خاص بحياة هذا الشهيد لشيخنا العلامة محمد بن أحمد ابن الحاج

(٢) ابن هاشم — العلامة الموثق الماهر الحيسوبى إمام نسابى مدينة فاس قال عنه فى النبذة : هو الآن زعيم الشعبة الكتانية وإليه يرجع فى معرفة أصولها وفروعها . عمر طويلاً له بضع مؤلفات أشهرها « الشكل البديع فى النسب الرفيع » فى مجلدين أرخ فيه لعائلات الأشراف بفاس و « زهر الآس فى بيوتات فاس » فى أربع مجلدات تكلم فيه على أولية جميع البيوتات الفاسية ما عدا الأشراف ، وكلاهما يدل على سعة اطلاعه وإتقانه فى هذا الباب (٠٠ — ١٣٥٠)

(٣) الطاهر — قال عنه فى النبذة : هو الفقيه العلامة المرتدى برداء الحياء والفضل والكرامة من أهل العلم والتقوى والديانة والمروءة والعفاف والصيانة . ألف في كثير من الفنون ، وتصانيفه تربو على الستين لم يطبع منها غير كتاب واحد فى اقتراب كلمتى الشهادة (٠٠ — ١٣٤٧)

(٤) عبد الحفيظ — علم شاعر أديب بينه وبين العلامة الوزير عبد الله الفاسي مساجلات معروفة ، تخرج فى الأدب على العلامة الأديب الكبير أحمد ابن المواز (٠٠ — ١٣٤٥)

بعد كالمعاصر للملك الكتاني يحيى بن عمران إذ أبو عبيد مات[1] في آخر القرن الخامس والكتاني مات في آخر القرن الرابع

وهأنذا مورد طائفة من الكتب التي فيها تاريخ أسلافه بعضها خاص بهم والبعض الآخر مذكورون فيها ضمن باقي الأسر المغربية عرفت من القسم الثاني « المسالك والممالك » لأبي عبيد و « تاريخ الأدارسة » للبرنسي و « أنيس الأنيس » لا أعرف مؤلفه « وكتاباً » للأزوارقاني و « مختصر البيان في نسب آل عدنان » للشيخ الامام المقرئ أبي العباس احمد بن محمد بن عبد الله بن جزى الكلبي و « معدن الأنوار في التعريف بأولاد النبي المختار » للشيخ الامام أبي العباس احمد بن محمد بن عبد الله المقري التلمساني و « ابتهاج القلوب بخبر أبي المحاسن وشيخه المجذوب » للشيخ الامام عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي وهما نسختان : قديمة وقعت فيها خلط كثير أجمع على نقدها وتزييفها نطقاً وكتابة كل من وقف عليها من المؤرخين والنسابين — وفيهم أخوه شيخ الجماعة محمد وجماعة من آل بيته — وجديدة نقحها واستدرك فيها على نفسه ، وتجديد المؤلف لهذا الكتاب بنفس العنوان الأول معناه عنده التنبيه على عدم اعتماد النسخة القديمة خصوصاً وقد زاد في الجديدة أشياء لم تكن في الأولى وحذف منها ما تعثر فيه قلمه من الاخطاء ، وكلا النسختين في متناول اليد ... و « درة التيجان ولقطة اللؤلؤ والمرجان في الإعلام بتعزز الأنساب وذكر بعض الأشراف ذوى الأحساب » للامام الكبير محمد بن محمد بن محمد الدلائي البكرى و « شرحها » للعلامة المشارك محمد بن احمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي و « الدر السني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسني » للعلامة الكبير الشريف عبد السلام بن الطيب القادرى و « التنبيه من الغلط والتلبيس في بيان أولاد الامام محمد بن ادريس » للفقيه العالم المؤرخ الشريف محمد بن احمد بن على الكتاني ، وكتاباً في « الأنساب » للشيخ الامام أبي بكر بن محمد السيوطي الكتاني ، وكتاباً آخر في « الأنساب » أيضاً لولده الامام النسابة أبي زيد السيوطي و « عقد اللآلى المستضيئة النورانية لنفي ظلام التلبيس في سلالة مولانا إدريس بن إدريس » له أيضاً ، وكتاباً فيه الجواب على أسئلة تتعلق بالسبطين » للشاعر الكاتب احمد بن عبد القادر القادرى و « الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة » و « السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر من أعقاب الشيخ عبد القادر » كلاهما للأديب الكبير العلامة الشريف سليمان بن محمد الحوات و « سلوك الطريق الوارية في الشيخ والمريد والزاوية » للصوفي الواعظ الكبير الشريف محمد بن على الناللي الزبادى و « تحفة الحادى المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب » للمؤرخ الأديب الشهير أبي القاسم بن احمد بن على بن ابراهيم الزياني و « الدرة[1] الفائقة في أبناء على وفاطمة » للعلامة الشريف الزكي بن محمد المدغرى و « الإشراف على بعض من بفاس من مشاهير الأشراف » للعلامة المؤرخ القاضي محمد الطالب بن حمدون بن الحاج و « الدرر البهية والجواهر النبوية » للعلامة النسابة الشريف ادريس بن أحمد الفضيلي

وأما الكتب الموضوعة فيهم خاصة فعرفت منها « الكوكب السائي في النسب الكتاني » للفقيه العالم المدرس مبارك بن عمر العبدي الأسفي و « نظم الدر واللآل في شرفاء عقبة ابن صوال » للقاضي ابن الحاج صاحب كتاب الاشراف المتقدم ذكره ، وشرفاء عقبة هو اللقب الذى كان يعرف به أسلاف الامام في القرن العاشر كما ذكرت قريباً و « الروضة المنيفة في النسبة الكتانية الشريفة » لقاضي حد كورت الحالي العلامة المؤرخ عبد الحفيظ الفاسي و « الرياض الربانية في الشعبة الكتانية » لوالد المترجم شيخ الاسلام الشريف جعفر الصادق و « النبذة اليسيرة النافعة التي هي لاستار جملة من أحوال الشعبة الكتانية رافعة » للامام المترجم و « الجوهر النفيس في النسب الكتاني » لأخي المترجم العلامة الكبير الشريف عبد الرحمن و « منتهى الأماني في التعريف بالنسب الكتاني » و « الجوهر المكنون في ذكر فرع[2] الحلبي المصون » كلاهما للعلامة الشريف طاهر بن حسن الكتاني و « المظاهر السامية في النسبة الشريفة الكتانية » لصاحب التراتيب الادارية[3]

(١) في الصلة لابن بشكوال أنه توفى سنة ٤٨٧ ونقله ابن أبي أصيبعة والصفدى والسيوطي وغيرهم . وفي بغية الملتمس أنه توفى سنة ٤٩٦ قال الأستاذ عبد العزيز الميمني في مقدمة شرح أبي عبيد على أمالي القالي ولا غرو أن الضبي أو ناسخ كتابه قد وهم

(١) قد نسب هذا الكتاب لغير هذا المؤلف راجع مصادر السلوة

(٢) مرجع عائلة الامام اليوم إلى فرعين : الطيبين والحلبيين — والمترجم من الفرع الثاني — وهذا الكتاب خاص بهذا الفرع

(٣) هو العلامة الشريف عبد الحي الكتاني

هذا مجمل تاريخ أسلافه فى المغربين — الأقصى والأوسط — وبهذا فقط اعتنى مؤرخو المغرب وكنت أحسب كغيرى أن سلفه لم يرحلوا إلى الشرق قديماً وبالحري أن يكون لهم فيه ذكر أو تاريخ حتى كشف « الغيب » عن خطئى وتقصير جميع مؤرخينا إذ ثبت أن لهم بالشرق الأقصى — جاوى — تاريخاً خالداً ومجداً لا يبيد

لما رجع الأستاذ الهاشمي التونسى من رحلته الطويلة لبلاد جاوى مر فى طريقه على مصر فاستقبله الصحافي السيد محي الدين رضا مندوباً عن جريدة القطم ليسأله عن حالة جاوى العامة ، فأجابه الرحالة التونسى بحديث مسهب نشرته القطم فى عدديها الصادرين فى ١٣ و ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٩ ونقلته عنها مجلة الدهناء الجاوية التى تصدر بمدينة سورابايا فى عدديها (١٩ و ٢٠) من السنة نفسها الموافق لربيع الثانى سنة ١٣٤٨ . أقتطف من هذا الحديث ما يتعلق ببحثى ، قال الأستاذ الهاشمي :

« ... دينهم — الجاويين — الاسلام اعتنقوه فى أواخر المائة الثامنة من الهجرة وأوائل القرن التاسع على يد طائفة من رجالات المغاربة من أسرة الكتانى الموجودة إلى اليوم فى مراكش حسبما هو مكتوب ومنقوش على الشاهد وألواح المرمر التى فوق قبور أولئك الدعاة والتى لا تزال ماثلة واضحة القراءة بخطوط بديعة ، وهذه القبور تعرف حتى الآن بين عامة الجاويين بقبور المغاربة فى مدينة « نبتام » فى أقصى الجزيرة الغربى ومدينة « سورابايا » فى أقصى الجزيرة الشرقي ومدن « الطوبان » و « شربون » و « سومدانج » و « دماك » فى قلب الجزيرة الجاوية ومن يراجع تاريخ سديو الفرنسى ير فى الفصل المعقود لتقدم العرب فى الملاحة كيف أن عرب الأندلس والمغرب أول من اجتاز جزائر الخالدات إلى خليج غينيا ورأس الرجاء الصالح متوجهين رأساً إلى أقصى الشرق من طريق أقصى الغرب

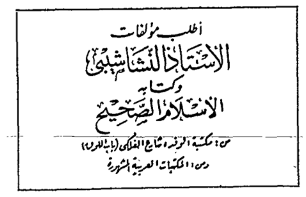
وحين كنت بالأزهر الشريف سنة ١٣٥٣ سألت عن هؤلاء المغاربة الدعاة الطلبة الجاويين — وهم كثير بالأزهر — فأجابونى بما معناه : من الطفل الرضيع إلى الشيخ الفانى فى جاوى كلهم يعرفون أن الكتانيين المغاربة هم من هدى الله للاسلام على يدهم خمسين مليوناً من القطر الجاوى ، وهذه أضرحتهم الفخمة فى مختلف مدن بلادنا لا تزال ناطقة بذلك ما دامت جاوى جزءاً من أجزاء المعمور »

ولما كنت لا أعتبر تاريخ دخول الاسلام لجاوى رابطة عائلية فحسب بل أعتبره صلة متينة بين جاوى والمغرب

ولما كنت لا أعرف سوى ما قصه عليه الأستاذ الهاشمى وأيده لى الطلبة الجاويون بالأزهر

ولما كنت فى شك مما نشر فى القطم حيث تتبعت كل ما كتبه زعيمنا الاسلامى العلامة شكيب أرسلان فى تعاليقه على حاضر العالم الاسلامى فلم يذكر كون الدعاة الناشرين للاسلام بجاوى هم من آل الكتانى ، على أنه صرح بأنهم مغاربة ، وتركني أشك فى هذا ما أعتقده فيه من الاطلاع الواسع الذى « أعدم نظيره » فى هذا العصر على الدقيق والجليل من أحوال الأقطار الاسلامية النائية ويكفي للتدليل على ما أقول تعاليقه الرنانة فوائد وعلوماً على « حاضر العالم الاسلامى » فضلا عن عشرات المؤلفات التى يتحف بها العالم الاسلامى بين حين وآخر وكلها مشهورة بل محفوظة عن « ظهر قلب » فأنا أرجو من سمو الأمير وحضرة الرحالة التونسى وسماحة العلامة الكبير مؤرخ جاوى الحبيب محمد ابن عبد الرحمن ابن شهاب العلوى الحضرمى ومن كل من له خبرة واطلاع على الموضوع أن يفيدونا — مشكورين مأجورين — عن وقت دخول هؤلاء المغاربة الكتانيين إلى جاوى ، وعن أسمائهم وتراجمهم وما سبب رحلتهم هذه الطويلة — من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق — وهل تركوا عقباً بها ، وبماذا يعرف اليوم مع ذكر المصادر بأى لغة كانت المطبوع منها والمخطوط

محمد المنتصر الكتانى



شد الرحال إلى الجبال

للأستاذ عز الدين التنوخي

وأخيراً عاد الأمير شكيب أرسلان من جُنَيْبرة[1] إلى لبنان ؛ وبعد أن قرت عين المسافر بالاياب ، وألقى عصاه بين أهله والأحباب ، حركني وصديقي الشيخ محمد بهجة البيطار شوق مبرح إلى زيارة أمير البيان فى رحابه ، فشددنا الرحال إلى الجبال ، أو بالحرى أدرنا العجلات نحو الهضبات ؛ وأحب أن رافقنا فى السيارة لهذه الزيارة : الشيخ بهجة الأثرى البغدادىّ والشيخ ياسين الدّواف النجدىّ والشيخ على الطنطاوى الدمشقىّ الذى لا يجهله قرّاء الرسالة . وما زالت سيارتنا بسم الله مجراها ومرساها تصعد فى الجبال تارة وتصوّب فى بطون الأودية أخرى حتى بلغنا العشية عين صوفر عرين الأمير ، فعلمنا أنه فى كورة الشوف يردّ الزيارة لوفود القرى التى استقبلته يوم رجوعه إلى ربوعه ، وكان علينا أن نكتب إليه بزيارتنا من دمشق ، فذلك الاهمال أو النسيان ، قد دهانا بهذا الاخفاق أو الحرمان ، ولم يخفف شيئاً من حسرتنا إلا علمنا بأن أمير البيان سيهبط الغوطة بعد أيام قليلة ، ولذا عوّلنا على العودة إلى الفيحاء من طريق الفالوغة وفيها خليل لنا مصطاف يقال له إبراهيم[2] ، ولما هبطنا بالسيارة واديه ، وحللنا ناديه ، ونلنا قسطنا من الراحة وحظنا من الراح[3] نهضنا لامتطاء سيارتنا فأقسم علينا : لا رحيل لكم اليوم ولا براح ، فلم نجد بداً من النزول عليه مكرهين ومكرمين

وغداةَ غدٍ صعدنا إلى « عين الصحة » المدنية فى جبل الفالوغة والتى تعلو سطح البحر بنحو ١٥٠٠ متر ، وقد اشتهرت بأنها للرمل حطوم ، وللأطعمة هضوم ، اشتهار « عين بُقّين » فى وادى الزبدانى من مصايف دمشق . وأخبرنى الكيماوىّ الثقة الذى حلل الماءين أن ماء بقين أخف مياه الشام فى الثقل ، وأشفاها لآلام الكلى والملل ؛ وإنما سميت بعين بقين لأن المريض إذا عبّ منها عبتين ، أو شرب كما يقول العامة بُقّين ، هضم الطعام وشفى الكليتين

وإلى جانب عين الصحة مقهى صغير تناولنا فيه صبوحنا من صهباء الماء والخبز المرقوق واللبن الخاثر والبيض المسلوق ؛ وقد شاركنا فى رحلة الصباح هذه وفى الاصطباح صديقان كريمان : القاضى خليل رفعة[1] والصوفى شمس الدين ، وتخلف فى الفالوغة السيد ابراهيم معتذراً وقد خشى أن يبهره الصعود ، فاغتاظ رفاقه لتخلفه هذا لأن شرط المرافقة الموافقة ، وأغرونى بهجوه فقلت لهم على العين ، هذين البيتين ، ومسحة الارتجال بادية عليهما :

إذا لم تزر فالوغة ورياضها ... ولم تشهد الجنات حولك ألفافا
وإن أنت لم تصعد إلى عين صحة ... ولم ترو منها لم تكُ الدهر مصطافا

وعلى يسار المقهى خيام أربعة من الطيارين الفرنسيين مع أزواجهم وأطفالهم ، وبذلة أحدهم تتألف من سرويل قصير أزرق وقميص شفاف أبيض ، والنحور والصدور والظهور حواسر ، والأفخاذ والسوق والاقدام ظواهر ؛ وهؤلاء الرفاق يأتون من مطار رياق للاستشفاء بالماء والهواء ، فيقضون فى الأسبوع يوما كاملا فى مثل خيام الكشافة ويعيشون فيها عيشة الكشافة ومعهم جميع أدوات المطبخ فلا يحتاجون فى ملهى الأطعمة إلى شئ غير ماء العين . ولعل الارتياض على الحياة الكشفية فى الصغر قد ذلل لهم فى الكبر صعابها والآن لهم رقابها وجملهم يتتنون لها الوسائل والأسباب

وفى نحو الثامنة من الصباح وقفت على العين سيارة ترفع علماً فرنسيا صغيراً يدل على أن ركابها من المفوضية الفرنسية ببيروت وفتح الباب فنزل منها أبوان شيخان وأطفال ثلاثة يحمل كل منهم عصاً ذات زج كالمزراق ، وعلى ظهره حقيبة الجند ، وعلى رأسه قبعة كبيرة تحاكي مظلات اليمن والجزائر ، وفى رجله حذاء صفيق الجلد ناتئ المسامير يذكرنا بمداس الأصمعي الذى قال فيه : « نعم قناع القدرى هذا »

والتفت إلىّ رب المقهى قائلاً : هذان الجدّان هما المسيو بريال Beriel وزوجه ، وهؤلاء الثلاثة الأولاد أحفاده ؛ يأتى بهم فى الأسبوع مرة ليصعد إلى قمة الجبل ، ويترك على العين سيارته

---

(١) كنا كان يسميها آباؤنا ، وهى اليوم (جنيف) مقر عصبة الأمم
(٢) السيوفى من قضاة دمشق العادلين
(٣) أى القهوة وهى راح العربى

(١) نائب دمشق العام ومن أنصار العدل فيها ، والصوفى شيخ التكية المولوية بدمشق

وهو يرتاض بذلك وزوجه العجوز التي جاوزت الستين ، ويروض أحفاده على حياة الجنود ، والغربيون يعودون أطفالهم صغاراً ما يضطرون إليه كبارا ، مجارين في ذلك غرائز الطبيعة ؛ لأننا نشاهد الأولاد يركبون العصيّ استعداداً لركوب الجياد ، ونرى البنات يكثرن الوقوف أمام المرآة تعوداً لما يعملنه وهنّ أمهات

إن حياتنا الشرقية ركود وكسل ، والحياة الغربية حياة نشاط وعمل ؛ فالجماعة منا إذا خرجوا إلى ظاهر المدينة للتنزه جلسوا على ضفة بردى أو النيل أو الفرات ، وأخذ بعضهم يغلي شراب الجاه[1] ، وشرع الآخرون في الحديث أو الغناء ، وإلى جانبهم مضطجعون ، أو على الآرائك متكئون ؛ وإذا خرجت رفقة من الأوربيين إلى التنزه أخذوا في الارتياض بأنواع الرياضات والألعاب ، فهذا يلاكم وذا يصارع ، وهذا عدّاء وذلك وثاب ، وهذان فريقان يجرّان الحبل ، أو يتقاذفان الكرة بالراحة[2] أو القدم ؛ فالتنزه في عرفنا للطعام والشراب أو الاضطجاع أو السماع ؛ وفي عرف الغربي للعدو والوثب والصراع ، والحركة براها بركة ، والتواني والسكون هلكة

ثم التقينا على العين بإخوان لنا من رجال العراق ، فتجاذبنا أطراف الأحاديث إلى أن حدثنا عن الانقلاب العراقي الأخير فحمدنا الله على حدوثه ، ولم يستشر فساد أو تعم فتنة ، وعلى إرساله لإنقاذ الموقف الخطير ذلك الرجل الاداريّ الحكيم ، والجندي العربي الصميم « السيد جميل المدفعي » الذي قضى حياته في الدفاع عن حوزة العروبة ، والذي أجمعت الكلمة لسلامة دواعي صدره على الثناء عليه وعلى محبته ، والاعتصام في هذا المأزق الضيق بمروته ، ثم ودّعنا إخواننا بعد أن تزودنا من شرب الشاء عبا ، ونزلنا راجعين إلى حمّانا ونحن نمتع العيون بسواحر المناظر من وادي حمّانا الذي غنى باسمه من قبلنا لامرتين ، وكان منظر الصنوبر الأخضر على الجبال أروع هاتيك المناظر وأبدعها وأشدها للعين بهراً وللقلب سحراً ، فقد جعل كل من أصحابي يترنم ببعض الأغنيات ، وجعلني أرتجل الشعر مغنياً بهذه الأبيات :

أوادي حمّانا سقيت وأُخصبت ... رُباك مغاني الحسن والحسناتِ

شهدتُ لقد شاهدت فيكَ صنوبراً ... يبدّد ما في القلبِ من حسراتِ

وخلت الغواني في الجبال حواملاً ... مظلاّتهن الخضر والنضراتِ

وسربَ نعامٍ أبصر السيل هادراً ... فأسندَ مرتاعاً إلى الهضباتِ

هل المسكُ من هاماتك الخضر فائحٌ ... أم المسك من غاداتك العطراتِ

لَطبتَ أيا وادي الصنوبر وادياً ... وباركَكَ الله من شجراتِ !

« دمشق » عز الدين التنوخي

(١) وهو الشاى كما ذكره الامام البيروني في كتاب الصيدنة

(٢) أي التنس ، والراحة أخذها الانكليز من العربيـة فقالوا racket (أنظر معجم دبستر الكبير)

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

أعمق الساعات صمتاً

ماذا جرى لي يا صحابي ؟ لقد سادني الاضطراب فأضعت هداي وأراني مندفعاً بالرغم مني إلى الرحيل والابتعاد عنكم وآسفاه

أجل ، على زارا أن يعود إلى عزلته ، غير أن الدب يرجع إلى مغارته كئيباً حزيناً . ماذا جرى لي ومن ترى يضطرني إلى الرحيل ؟

إنها (هي) مولاتي الغاضبة ، لقد كلمتني فأعلنت لي إرادتها وما كنت ذكرت لكم اسمها حتى اليوم ، هي أعمق ساعاتي صمتاً وهي نفسها مولاتي القاهرة ، كلمتني أمس

وسأقص عليكم ما جرى فلا أخفي عنكم شيئاً كيلا يقسو قلبكم علي وأنا أفاجئكم برحيلي عنكم

أتعلمون ماهي خشية من يستسلم للكرى ؟ إنه الذعر يستولي على الانسان من رأسه إلى أخمص قدميه ، لأن أحلامه لاتبتدئ ما لم تنسحب الأرض من تحته

إنني أضرب لكم أمثالا ، فاصغوا إلي :

أمس عند أعمق الساعات صمتاً خلت الأرض من تحتي وبدأت أحلامي

وكان العقرب يدب على ساعة حياتي في خفقانها ، وما كنت سمعت من قبل مثل هذا السكوت يسود حولي ويروع قلبي

وسمعتها (مى) تقول لى ، ولا صوت لها : إنك تعرف هذا يا زارا فصحت مذعوراً عند سماعى هذه النجوى وتصاعد الدم إلى رأسى

فعادت هي تقول ، ولا صوت لها : أنت تعرف هذا يا زارا ولكنك لا تعلنه.

فانتفضت وأجبت بلهجة التحدّي : — أجل إنى أعرف هذا ولكنني لا أريد أن أعلن ما أعرف

فقالت (مى) ولا صوت لها : أصحيح أنك لا تريد ؟ لا تخف نفسك وراء هذا التحدّى يا زارا

فأخذت أبكي وأرتعش كالطفل قائلا : ويلاه ، أريد أن أصرح ، ولكن هل ذلك بامكانى ؟ أعفنى من هذه المهمة لأنها تفوق طاقتى

فقالت، ولا صوت لها : وما أهميتك أنت يا زارا قل كلتك وتحطم

فقلت : أهى كلتى ما يهم ، فمن أكون أنا ؟ إننى أنتظر من هو أجدر منى باعلانها وما أنا أهل لأصطدم بالمنتظر فأتحطم عليه

فقالت ، ولا صوت لها : وما أهميتك أنت ما دمت لم تصل بعد إلى ما أريده من الانضاع ؟ وما أقسى ما يتشح به الاتضاع ، وما أصلب جلده .

فقلت : لقد تحمل جلد اتضاعى كثيراً ؛ فأنا ساكن عند قاعدة ارتفاعى ولم يدلني أحد بعد على ذراه العاليات ، ولكننى تمكنت من سبر أغوارى ومعرفتها .

فقالت ، ولا صوت لها : أى زارا ، وأنت المعدّ لنقل الجبال من مكان إلى مكان . أفما بوسعك أن تنقل أغوارك ومهاويك أيضاً ؟

فقلت : لم تنقل كلتى الجبال بعـد ، فإن ما قلته لم يبلغ حتى آذان الناس ، لقد أتيت إلى العالم غير أننى لم أتصل به بعد .

فقالت ، ولا صوت لها : وما يدريك ..؟ إن الندى يتساقط على العشب فى أشد أوقات الليل سكوناً .

فأجبت : لقد هزأ الناس بى عند ما اكتشفت طريق ومشيت عليها ، والحق أن رجلىّ كانتا ترتجفان إذ ذاك ، فقال لى الناس : لقد ضللت سبيلك يا زارا ، بل أصبحت لا تعرف أن تنقل خطاك

فقالت ، ولا صوت لها : وأية أهمية لسخريتهم ؟ لقد تخلصت من الطاعة يا زارا فوجب عليك أن تأمر الآن . أفلا تعلم أن من يحتاج الجميع إليه بأكثر من احتياجهم إلى أى شيء إنما هو من يقضى فى عظائم الأمور ؟

إن القيام بالكبائر صعب ، وأصعب من هذا أن يأمر الانسان بها . إن ذنبك الذي لا يغتفر هو أنك ذو سلطان ولا تريد أن تحكم

قلت : ليس لى صوت الأسد لأصدر أوامرى

فقالت — كأنها تهمس همسا — : لا يثير العاصفة إلا الكلمات التى لا صوت لها ؛ إن من يدير العالم إنما هى الأفكار التى تنتشر كأنها محمولة على أجنحة الحمام . عليك أن تسير يا زارا كأنك شبح لما سيكون يوماً فى آتى الزمان ؛ وهكذا تندفع فى سبيلك إلى الأمام وأنت تتولى الحكم

فقلت : إن الخجل يتولانى

فعادت تقول ، ولا صوت لها : عليك أن تعود طفلا فيذهب خجلك عنك ؛ إن غرور الشباب لما يزل مستولياً عليك لأنك بلغت الشباب متأخراً ، ولكن على من يريد الرجوع إلى طفولته أن يتغلب على شبيبته

واستغرقت فى تفكيرى وأنا أرتجف ، ثم عدت إلى تكرار كلتي الأولى قائلاً : لا أريد . وعندئذ ارتفع حولى صوت قهقهة مزقت قلبي وصدعت أحشائى

وقالت (مى) للمرة الأخيرة : أى زارا ، إن أثمارك ناضجة ، غير أنك لم تنضج أنت لأثمارك ، فعليك إذن أن تعود إلى العزلة لتزيد فى قساوتك ليناً

وعاد الضحك يتعالى ، فشعرت أنها انصرفت عنى (مى) وعاد الصمت يسود بأعمق مما كان حولى ، أما أنا فبقيت منطرحاً على الأرض سابحاً فى عرقى

والآن ، وقد أعلنت لكم كل شيء أيها الصحاب، فها أنذا أعود إلى عزلتى وما أخفيت عنكم شيئاً . أرحل عنكم بعد أن علمتكم أن تعرفوا من هو أشد الناس تكتماً ومن يريد أن يكون كتوماً

واأسفاه ، أيها الصحاب ، إن لدي ما أقوله لكم أيضاً ، ولدي ما أبذله ، فلماذا لا أبذله الآنَ ؟ ألعلنى أصبحت شحيحاً ؟

وما نطق زارا بهذا حتى أرهقه سلطان حزنه لاضطراره إلى الرحيل ، فبكى منتحباً وما تمكن أحد من تعزيته ، ومع هذا ما أرخى الليل سدوله حتى ذهب زارا وحده تحت جنح الظلام متخلياً عن صحبه

(يتبع) فليكس فارس

خواطر

فى الموت والخـــلود

للأديب عبد الوهاب الأمين

لى صديق لايخشى الموت لأنه لايفكر فيه ، ولهذا الصديق فلسفة رائقة فى الاطمئنان ، تعجبنى لأننى لا أعتقد بها ؛ وقد حاولت أن أحاوره فيها فرأيت أنه يحتمى بالعقل ويجعله مدار التفكير ، ولا يقيم وزناً لعاطفة الخوف من الموت أو الجزع من لقائه ، فهو مطمئن أولاً ، ومعتقد بتفاهة الموت ثانياً ؛ وقد اختلط هذا الاطمئنان بذلك الاعتقاد فتشكل منهما شعور جديد ، فكأن صاحبي هذا لايفكر بعقله بل يفكر بعاطفته

يقول صاحبي :

« إن الموت خاتمة طبيعية محتومة لحياة الانسان ، فالتفكير فيه عبث لاطائل تحته ، مادام أن التفكير ، مهما طال وعمق ، لايغير تلك النتيجة المحتومة ، حتى ولو صدقت ادعاءات بعض المشتغلين بالعلم من أمر إطالة العمر ، أو تجديد الشباب ، فان هذين لايعنيان الخلود . فلو فرض أن إعادة الشباب كما يصورها الدكتور « فرونوف » صحيحة ومؤكدة علمياً ، فان من الصحيح والمؤكد كذلك ، أن نهاية هذه الحياة ، مهما طالت ، هى الموت ؛ والتفكير فى الموت مهما كانت كيفيته ، سخيف لاطائل تحته

« هذا لو كان التفكير في الموت فى حد ذاته لايؤثر تأثيراً سيئاً فى أعصاب الانسان ، أما وأنه يورث السوداء ، ويسىء إلى الأعصاب ، بل ينهكها ، ويضع غشاوة بين ناظرى الانسان وبين مناظر الحياة ، فأحرى بالعاقل ألا يشترى بسعادة الاطمئنان والغفلة قلق التخوف وانتظار الشر ، وأن يستمتع بالحياة كما تأتيه لا أن يضع فى كأسها سم التخوف والتفكير فى الموت »

فاعترضت قائلاً :

« إن التفكير في الموت سخيف كما تقول ، ولكن الانسان يفكر في الموت بالرغم منه ، وهو لو وجد سبيلا إلى النسيان والغفلة عنه لما تردد فى ذلك ، ولكنى أجدنى فى بعض الأحايين ترهقني أخيلة الموت وأنا على أتم ما أكون صحة وراحة بال ، ولا يكون تفكيري هذا بإرادة منى ، فإنى لا أرغب أن أشوب حالة الراحة التى أنا فيها بقلق غير مرغوب »

فقال :

« إن هذا الوهم الذى تمكن منك بسيط ، فأنت تعتقد حين يرد ذكر الموت على خاطرك أن ذكره لايرتفع من وهمك ، وتتصور العجز ، ومن تصور حالة من الأحوال النفسية واعتقد أنه فيها ، فهو فيها لامحالة ؛ وكذلك من يتصور أنه مريض اعتقاداً جازماً ، فانه يمرض »

قلت : فما الحل إذن ؟

فقال :

« إن أبسط الوسائل للتخلص من هـذه الأحوال النفسية هو الرجوع إلى « العقل » . فلو فكر المرء واستعمل عقله استعمالا صحيحاً في هذه القضية ، فإن الرهبة والجزع من الموت لا يزولان منه فحسب ، بل يرى فيهما مثالاً من أمثلة السخف تدعو إلى الرثاء .

« إن الخوف من الموت بالطبع يستلزم وجود الألم . أى أن الانسان لا يخشى الموت إلا لأنه يتصور أن فيه ألماً جسمياً أو روحياً ؛ وقليل من التروي يؤدي إلى سخافة هذا الرأي ، فإن حالة الموت لا تكون إلا إذا انتفت الحياة الشاعرة ، أو القدرة على إدراك الألم فى الإنسان . أى أن الانسان لايموت إلا وهو مائت ، ولا يشعر بألم الموت لأنه لا يشعر بالألم إلا الجسم الحى . وما دام الجسم حياً فهو غير ميت طبعاً ، وإذا مات فإنه لا يشعر ، وفى كلتا الحالتين ليس هناك ألم ولا موضوع للألم يخشاه الإنسان

« هذا إذا كان أساس الخوف هو تصور وجود الألم ، أما إذا كان أساسه الفزع من فقدان الحياة ، فإن الأمر أدعى إلى الرثاء ! فإن الذى يخشى أن يفقد شيئاً يحبه أحرى به أن لايفكر فى فقدانه ، فالتفكير فى ذلك مدعاة إلى تشويه حسن ذلك

الشيء ، وهؤلاء السوداويون الذين يدعون حب الحياة وهم يفكرون دوماً أن هذه الحياة زائلة وأنهم فاقدوها لامحالة مخطئون ولا شك ، وأحرى بالمرء أن يعيش كما جاء إلى الدنيا ، فلا يسأل ولا يضع موضوعاً للتساآل أمام عينيه ، فإنه سيموت قبل أن يصل إلى جواب »

***

وقد جرني التفكير فيما يجرى فى هذا السبيل إلى التفكير في « الخلود » ضـد الموت وعدوه ، فالمرء بطبيعة الحال يخشى الموت ولا يرغب فيه ، وهو بذلك كأنه يريد الخلود ، فما هو الخلود يا ترى ؟ وكيف يرى الحياة مخلوق خالد ، لو أمكن تصوره ؟

وقد قرأت كثيراً فى كتب الأدب عن الفكرة التى تمثل للأديب في صدد الخلود ، والحياة الخالدة و « الفردوس » ولكنى لا أكتم القاريء أننى لم أستطع أن أرضى شعورى الفنى بلذة الحياة الخالدة ، فضلاً عن أنى لا أستطيع أن أفهم كيف تكون هناك « حياة » فى « خلود » ! كما أن من المعلوم أيضاً أن الخلود لم يجد من الأدباء على وجه العموم التفاتاً جدياً بل كان فى أكثر كتابات الكاتبين الرمزيين والخياليين فقط ؛ ولعل الأستاذ المازنى أشد أدباء العربية سخرية بالخلود وبالأدب الخالد .

وما دمنا فى حديث الخلود فى الأدب فما هو ياترى المقصود به؟ وأى أدب خلد أو سيخلد ؟ وهل فى وسع المرء أن يتصور للخلود عمرا ؟

لا ريب أن تاريخ الأدب لا يتعدى بضع مئات من السنين ، وأرجو ألا يسارع القارئ فيذكر لي أوراق البردى وشعراء الفراعنة فهذه الآثار لم تخلد — إن صح أنها خلدت — لأنها من الأدب بل لأنها من التاريخ ... فما قيمة مئات السنين هذه في عمر الدنيا ؟ وهل هذه المئات من السنين هى المفهوم من معنى « الخلود » فى الأدب ؟ إن كان ذلك فما أشد بؤس الأدب وما أحوجه إلى إلى خلود أطول عمراً !

هذا فى الأدب ، أما فى حياة الفرد فالرزء أعم كما أسلفنا ، وبالرغم من أن جميع البشر يتمنون الخلود فإنه ليس أبرد منه وأخلى من السعادة الموموقة . وأمامى قطعة من شعر العقاد لعله لم يقلها فى هذا المعنى ، ولكنه يستفاد منها وهي :

لو علمنا حظنا من يومنا	ما بكى الصبية فى غض السنين
أى كنز قد سفكناه على	حسرات تضحك القلب الحزين!
حجبت عنا مزايا عمرنا	فبكى من هو بالصفو قمين
وقضينا العمر لاندرى بما	بين أيدينا وندرى ما يبين
نجهل الورد فنرميه ولا	يجهل الشوك الفتى وهو طعين
أترانا لو علمنا حظنا	من غد نقنع بالحظ الرهين ؟
أم ترانا نحمد الخطب إذا	حان علماً بالذى سوف يحين ؟
إن شكونا قبل لاتشكوا فقد	أنصفتكم هذه الدنيا الخؤون
لو درى الطفل بما سوف يرى	شق الطفل بما سوف يكون

والمازنى يقول فى أحد كتبه ما مؤداه : تعساً للجيل الذى يكون فى حاجة إلى أدبنا هذا . وهو يقولها في سخرية ، فلعله لايقصد أن يقتصر على السخرية فقط فإن فى هذه الكلمة معنى حقيقياً عظيم الأهمية

« بغداد » عبد الوهاب الأمين

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٣١ — وأما بذل بقول فمحال

في (محاضرات الأدباء) : كان محمد بن بشير ولى فارس فأتاه شاعر فمدحه فقال : أحسنت ! وأقبل على كاتبه وقال : أعطه عشرة آلاف درهم . ففرح الشاعر ، فقال : أراك قد طار بك الفرح بما أمرت لك . يا غلام ، اجعلها عشرين ألفاً . فلما خرج قال الكاتب : جعلت فداك ! هذا كان يرضيه اليسير ، فكيف أمرت له بهذا المال ؟ ! فقال : ويحك ! أوتريد أن تعطيه ذلك ؟ إنما قال لنا كذباً سرّنا ، وقلنا له كذباً سرّه[1] ، فما معنى بَذْل المال ؟ أما قول بقول فنعم ، وأما بذل بقول فحال

٢٣٢ — فتركتها للناس لا لله

أبو جعفر القرطبي :

وأبى الدامة ما أريدُ بشربهـــا
صلَفَ الرقيع ولا انهماك اللاهى[2]

لم يبق من عصر الشباب وطيبه شيء كعهدى لم يحل الإلهى
إن كنت أشربها لغير وقتها فتركتها للناس لا لله[3]

٢٣٣ — راقه باعتداله وهندسته

في (أدب الكتاب) للصولي : كتب سليمان بن وهب كتاباً إلى ملك الروم في أيام المعتمد (العباسى) فقال : ما رأيتُ للعرب شيئاً أحسن من هـذا الشكل ، وما أحسدهم على شيء حسدى إيام عليه

وإنما راقه باعتداله وهندسته وحسن موقعه ومراتبه

(١) مما يروى :
ألم تر أنى أزور لوزير فأمدحه ثم أستغفر
فأثنى عليه ويثنى على وكل بصاحبه يسخر

(٢) وأبى : الواو للقسم

(٣) إن كنت : أى والله لئن كنت ، حذف القسم ولامه الموطئة أو المؤذنة ، وربط جواب الشرط بالفاء في (فتركتها) مرجحاً على القسم وهذا قليل كما بينت ذلك من قبل

٢٣٤ — وهذا أيضاً مما يكتب

كان أبو حاتم السجستاني يكتب عن الأصمعي كل شيء يلفظ به من فوائد العلم حتى قال فيه : أنت شبيه الحفَظَة[1] تكتب لفظ اللفَظَة . فقال أبو حاتم : وهذا أيضاً مما يكتب

٢٣٥ — الحجاج السكهاكه

في (الفائق) للزمخشري : الحجاج[2] كان قصيراً أصعر[3] كُهاكِهاً[4] : هو الذى إذا نظرت إليه كأنه يضحك وليس بضاحك ، من الكهكهة[5]

٢٣٦ — فاجتمع له العمى من جهتين

ابن الأثير في كتابه (المثل السائر) : بلغنى عن أبي العلاء ابن سليمان المعرى أنه كان يتعصب لأبي الطيب حتى أنه كان يسميه الشاعر ، ويسمى غيره من الشعراء باسمه ، وكان يقول : ليس في شعره لفظة يمكن أن يقوم عنها ما هو في معناها فيجيء حسناً مثلها . فياليت شعرى أما وقف على هذا البيت :

فلا يبرم الأمر الذى هو حالل ولا يحلل الأمر الذى هو يبرم

فلفظة حالل نافرة عن موضعها وكانت له مندوحة عنها لأنه لو استعمل لفظة (ناقض) لجاءت اللفظة قارة في مكانها . لكن الهوى — كما يقال — أعمى . وكان أبو العلاء أعمى العين خلقة وأعماها عصبية . فاجتمع له العمى من جهتين[6]..

(١) الملائكة الحافظين للأعمال : الكرام الكاتبون

(٢) سمي عبد الملك ابنا له الحجاج لحبه الحجاج بن يوسف وقال فيه :
سميته الحجاج بالحجاج الناصح المكاشف المداحي
المداحى : الباسى ...

(٣) في النهاية واللسان : اصعر (بالعين) والصعر ميل في العنق وانقلاب في الوجه

(٤) في اللسان والتاج أيضاً : كهاكهة

(٥) في النهاية : من الكهكهة : من القهقهة

(٦) جاء هذا الكلام في بحث المنافرة بين الألفاظ في السبك ، ومما أورده أيضاً : أنشد بعض الأدباء بيتاً لدعبل وهو :

شفيعك فاشكر في الحوائج إنه يصونك من مكروهها وهو يخلق

فقلت : إن عجز هذا البيت حسن ، وأما صدره فقبيح لأن سبكه قلق نافر ، وتلك الفاء التي في قوله : (شفيعك فاشكر) كأنها ركبة البعير ، وهي في زيادتها كزيادة الكدش

٢٣٧ — لصحت بهذا البيت

فى (الكنز المدفون) : روى عن الشيخ العارف بالله أبى العباس السيارى [١] أنه قال : لو صحت صلاة بغير قرآن لصحت بهذا البيت [٢] :

أتمنى على الزمان محالا أن ترى مقلتاىَ طلعةَ حرٍّ

٢٣٨ — بأنامل الحور على النور

قال جحظة فى أماليه : حدثنى أبو حرملة قال : قال على بن عبيدة الريحانى : حضرنى ثلاثة تلاميذ لى فجرى لى كلام حسن فقال أحدهم : حقّ هذا الكلام أن يكتب بالغوالى [٣] على خدود الغوانى .

وقال الآخر : بل حقه أن يكتب بقلم الشكر فى ورق النعم

وقال الآخر : بل حقه أن يكتب بأنامل الحور على النور

٢٣٩ — وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم

قال الحريرى فى كتابه توشيح البيان : كان أحمد بن المعذل [٤] يجد [٥] بأخيه عبد الصمد وجداً عظيما ، على تباين طريقيهما ؛ لأن أحمد كان صواماً قواماً ، وكان عبد الصمد سكيراً خموريا [٦] وكانا يسكنان فى دار واحدة ينزل احمد فى غرفة أعلاها وعبد الصمد فى أسفلها ، فدعا عبد الصمد ليلة جماعة من ندمائه ، وأخذوا فى القصف [٧] والعزف حتى منعوا أحمد الورد [٨] ، ونقضوا عليه التهجّد ، فاطلع عليهم وقال : « أفأمن الذين مكروا السّيئاتِ أن يخسف الله بهم الأرض »

فرفع عبد الصمد [٩] رأسه وقال : « وما كانَ اللهُ ليعذّبهم وأنتَ فيهم »

(١) القاسم بن القسم الزاهد المحدث شيخ أهل مرو ، ودته سنة ٣٤٢

(٢) لعلى بن محمد البديهى وقبله :

مر من كنت أصطفيه وللدهـــر صروف تشوب حلواً بمر

(٣) جمع الغالية : نوع من الطيب مركب من مسك وعنبر وعود ودهن (النهاية) قال الراغب : أول من سمى الغالية معاوية ، وذلك أن عبد الله بن جعفر اتخذها وأهداها اليه فسأله عن كلفتها وأخبره فقال : هي غالية

(٤) بالذال لا بالدال (٥) وجدبه : أحبه (٦) مولدة وهى كثيرة

(٧) الجلبة والاعلان باللهو (اللسان)

(٨) الورد : الوظيفة من قراءة ونحو ذلك

(٩) من كلام عبد الصمد :

أرى الناس أحدوثة فكونى حديثاً حسن

إذا وطىء رابنى فكل بلاد وطن

وكان عبد الصمد شاعر البصرة وظريفها كما قال الثعالبي

٢٤٠ — جمال ، جلال ، كمال

قال أحد العلماء : تجلّى الله على المسجد الأقصى بالجمال ، وعلى المسجد الحرام بالجلال ، وعلى مسجد الرسول بالكمال فذلك يوقف [١] النواظر ، وذاك يملأُ الخواطر ، وهذا يفتح البصائر

٢٤١ — وتسكينها حركات الطرب

فى (المُغرب فى حلى المَغرب) : قال أمين الدين بن أبى الوفاء شاعر الفسطاط فى مغن مبدع :

تنبّا محمدُ فى فنّه وآيته أن شدا أو ضربْ [٢]

بقـــولٍ أعاجم أوتاره أقاولُ تخرس فصْح العربْ [٣]

فتحريكُها سكنات الأسى وتسكينُها حركات الطربْ

٢٤٢ — رأينا العفو من ثمر الذنوب

فى (خاص الخاص) : كان الصاحب إذا أنشد بيت السلامى [٤]

تبسّطنا على الآثام لما رأينا العفو من ثمر الذنوب

يقول : هذا (والله) معنى قد كان يدور فى خاطر الناس فيحومون حوله ويرفرفون عليه ولا يتوصلون إليه على قرب مأخذه ، حتى جاء السلامى فأفصح عنه ، وأحسن ماشاء ، ولم يدر مارمى به

٢٤٣ — بيضاء وخضراء وسوداء

يونس النحوى [٥] : الأيدى ثلاث : يد بيضاء ، ويد خضراء ، ويد سوداء . فاليد البيضاء هى الابتداء بالمعروف ، واليد الخضراء هى المكافأة على المعروف ، واليد السوداء هى المن بالمعروف

٢٤٤ — . . وامش حيث شئت

سأل رجل أحد الأئمة : إذا شيعنا جنازة [٦] فقدامها أفضل أن نمشى أم خلفها ؟

فقال : اجهدْ ألا تكونَ عليها وامش حيث شئت ...

(١) أوقف : قيل إنها غير مسموعة وقيل غير فصيحة . وذكروا عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : لو مررت برجل واقف فقلت له : ما أوقفك ههنا ، لرأيته حسناً .

(٢) منع الاسم للوزن

(٣) أقاول : هى أقاويل لكنه لقب بها ، وهم الشعراء . (فصح) جمع فصيح ، بضمتين وسكن للوزن

(٤) نسبة إلى مدينة السلام : بغداد

(٥) يونس بن حبيب روى سيبويه عنه كثيراً

(٦) لفظة نبطية بكسر الجيم وفتحها ، وللغويين كلام كثير فيها

البعـــاد

للأستاذ فخري أبو السعود

آه ما أعذبَ البعادَ و إن أزْ رَى عليه مِن قبلنا العاشقونا
إنني أشتهي البعاد زمانا مثلما أشتهي التواصل حينا
لا أحِبُّ اللقاء عهـداً مقيما مستمراً به تُقَضَّى السنونا
ما ألَذَّ الهوى لقـاً ووداعاً وكتاباً أدَّى التحايا أمينا
إن هذا البعادَ يُذكي بيَ الحـبَّ ويُحْيي ولائيَ المكنونا
فأُفَدِّيكِ في النوى بحياتي حيثما تُصبحين أو تُمسينا
وأُحيِّيكِ كلما ذكَّرتنيـكِ رياضٌ رفَّتْ علينا غصونا
وأرى أن ودَّنا يعبر السهـلَ ويَرْقَى الربى ويطوي الحزونا
إن هذا البعاد يبعث بي الأشـواقَ حرَّى ويستجيش الحنينا
ويُعيد العذابَ مِن ذكرياتي وقديماً من عهـدنا ودفينا
ويثير المنى بنفسي ولن ألـقَى بأسمى المنى سواكِ قمينا
أتمنى اللقا بيوم لنـا أر جِعُ فيه إليكِ أو ترجعينا
أتمنى اللقـا وفيكِ وفائي باتَ عندي بأن تبرِّي ضمينا
حبُّنا مِن صِفاتِهِ أنه برٌّ وثيق الذمام يعلو الظنونا
وأَحَبُّ الأيام عنديَ ما أرْ قُبُ فيـه لقاءكِ الميمونا
أُنفقُ العمرَ مسرفاً فإذا أقْـبَلَ يومُ اللقاء كنتُ ضنينا
كلَّ حين لنا لقاء سعيدٌ ووداع أطوى عليه شجونا
وتزيدين في البعاد جمالا ورواء وبهجـة وفتونا
وتزيدين في الشمائل إيناسـاً وعطفاً كما أُحبُّ ولينا
وتزيدين كلَّ حينٍ سموًّا وعلوًّا فاتَ الذرى والقنونا
أنتِ كنز من المحاسنِ أُخفيـه نفيساً عن ناظريَّ ثمينا
كي أراه إنْ عُدتُ أبغيه قدْ زَا دَ جمالاً يسبي النهى والعيونا
كلَّ يوم أُجدِّد الحبَّ بالبُعـد وأجني منه فنوناً فنونا
فكأني عشقتُ ألفاً وما زلـتُ الفتى الوافيَ الذي تعرفينا
ما أحَبَّ الهوى افتقاداً ووجدا نًا وقرباً حينا و بعداً شطونا

فخري أبو السعود

فريسة البغاء

للأستاذ ضياء الدين الدخيلي

شلت يد قادتكِ للهاوية واتبذت جهلاً سواء السبيل
ورغبـة جياشة عاتيـة عمت فأغرتكِ بمرعى و بيل

***

جنايةَ المجتمع الفاشـل كُسِفتِ في حمأة آثام
طويتِ دون لذة العاجل تاريخ أجيـال وأقوام

***

للشهوة العمياء أسلمت لم ترعى نواميس صلاح العباد
فمدت من خزى بإكليل ذم شعار موت النفس نهب الفساد

***

يا أم ضيعتِ وكنتِ الحنون لو راعت الأمة آمالها
قد عاقبتها بالضياع السنون إذ وأدت بالشر أشبالها

***

أمسيت فينا شبحاً للفنـاء وكنت للنوع ضمان الخلود
صلتِ عليـه بجرائم داء كم هدمت آلامه من وجود

النجف الأشرف — العراق

ضياء الدين الدخيلي



الفن الهنـــدى

للدكتور أحمد موسى

مقدمة

كان لما كتبناه على صفحات « الرسالة » من الأثر ما شجعنا على مواصلة البحث والتحرير فى موضوع ظننا لأول وهلة أنه ليس من الموضوعات التى يقبل القراء على قراءتها إقبالهم على غيرها ، وقد وصلتنا رسائل عدة ، استفهم كاتبوها مرة عن بعض التفاصيل ، وأخرى امتدحوا فيها خطتنا فى الدرس والبحث ، وثالثة يطالبوننا بأن نكثر من الكتابة عن الفن الشرقى على وجه الخصوص . .

ولما كان تاريخ الفن لا يعنى بفن بعينه دون سواه ، ولما كانت رغبتنا هى العمل على إيجاد ثقافة فنية أقرب إلى الكمال ، وغايتنا هى الوصول إلى ما يسمو بذوق القارئ ، فيستطيع تقدير الجمال والتعرف على ناحيــة فذة فى تاريخ الحضارة الانسانية كلها ، وجدنا أننا نستطيع الآن أن نبدأ بدرس الفن الهندى — وهو فن شرقى — لاسيا وقد فسرنا مميزات الفن المصري ، وأوضحنا فى شئ من الاسهاب آثار أكروبوليس أثينا ، وآثار بابل وآشور كما تناولنا بالبحث بعض أقطاب الفن أمثال روبنز ورمبراندت وجويا وليوناردو وميكيلانجلو ورفايللو دون عناية بترتيب زمني أو مدرسي وقصدنا بذلك تبسيط الدرس

على أن درس الفن الهندى يكاد يكون من الدراسات المعقدة ولا سيا أن معرفتنا بتفاصيل العقائد الدينية فى تلك البلاد تكاد تقرب من المعرفة الاجمالية ، كما أن المعالم الأولى للفن الهندى مفقودة تماماً بالنظر إلى أن المشيدات الفنية أقيمت كلها من الخشب فى أول الأمر فتلاشت معالمها بمضى القرون وأصبحنا أمام آثار حجرية بدأت بعد الوصول بالفن الهندى إلى درجة عظيمة تستحيل معها معرفة المرحلة الابتدائية لهـذا الفن ؛ كل هذا إلى أن الهند محاطة من الشرق والجنوب والغرب بالمياه ، ومن الشمال بجبال عظيمة ، جعل الفن الهندى قائماً بذاته لا تجد له نظيراً بين الفنون الأخرى من الوجهــة العامة . نعم يرى الدارس المدقق أوجه الشبه بينه وبين الفنون الأسيوية ، ولكنا هنا لا نتعمق فى البحث والاستقصاء ، وكل ما نريده هو الإحاطة الاجمالية ، وفهم أبرز المميزات للفن الهندي ، والوقوف على مدى ما وصل إليه الفنان فى هذا المجال

وخير وسيلة وأبسطها لهذه الغاية هي تقسيم الفن الهنـدى إلى ثلاث مراحل : الأولى مرحلة البراهمة التى استمر أثر حضارتها إلى حوالي سنة ٢٥٠ ق . م . والثانية مرحلة البوذيين التى بدأت عند ما نادى بوذا بمذهبه فى القرن السادس قبل الميلاد ، وظلت حتى كان المذهب البوذى هو الدين الرسمى للبلاد بواسطة الملك أسوكا حوالى سنة ٢٥٠ ق . م . أما المرحلة الثالثة فهى المرحلة البراهمية الجديدة التى بدأت عند إدماج المذهب البوذى فى المذهب البراهيمى صاحب الغلبة فى القرن السابع بعد الميلاد . وقد بلغ الفن الذروة فيما بين القرن الثامن والثاني عشر بعد الميلاد ، وبعدئذ دخل الاسلام بسطوته إلى تلك البلاد من القرن الثانى عشر

وبدأ الفن الهندي بمعناه الكامل فى المرحلة البوذية حيث توجد أقدم الآثار الجديرة بالتسجيل والدرس والتى يرجع عهدها إلى عصر الملك أسوكا

وخير الأمثلة عليها الباقى بأعمدتها التذكارية فى « الله أباد » و « دهلى » وغيرها ، وفيها كلها أقيمت هذه المآثر لتسجيل النصر لبوذا وطراز الأعمدة التذكارية يتلخص فى أنها أقيمت على قواعد

مستديرة الشكل تحمل تيجاناً على هيئة زهرة اللاوتس وعليها الأسد رمزاً لبوذا

هـذا إلى جانب بناء مجموعات من الأعمدة التذكارية على قواعد مستديرة الشكل تحمل مبانى صامتة من الحجر المحروق ، وقد أخذ شكلها التكوينى هيئة القباب ، وإلى جانبها خصصت غرفة صغيرة لدفن الأجسام المقدسة ، أحيطت جميعها بسور عال ذى بوابة كبيرة من الخشب . وأقدم أنموذج لهذا النمط البناء المسمى ستوبا سانتشى ، يرجع تاريخه إلى عصر أسوكا ، وقد بلغ ارتفاعه سبعة عشر متراً ، وبه أربع بوابات ذات نقوش وزخارف بديعة .

هذا إلى جانب المعابد المنحوتة فى الصخر والتى يتمثل فيها الفن الهندى البوذى تمثيلاً جيداً ، نحتها وهيأها البوذيون ، وكانت النمط الذى سار عليه البراهميون فيما بعد . فأنشأوا المعبد على هيئة مربع قسموه بواسطة الأعمدة إلى ثلاثة أجنحة (أشبه بالكنائس بازيليكا) فكان الجناح الضيق منتهياً بفتحة كقبلة صغيرة على هيئة نصف دائرة وضع فيها تمثال بوذا أو صورته . أما الحوائط فكانت كلها مزخرفة



٢ — مقابر ميرا ، صخرية



١ — جروتا إلفانتا ، منحوت فى الصخر

ومنقوشة ، وإلى جوار هذا المربع غرف كثيرة وطرق ومسالك وردهات . كل هذا منحوت فى الصخر مما يثير الاعجاب حقاً ، كتلك التى نحتها المصريون فى الصخر أيضاً (راجع الرسالة — الفن المصرى ، العمارة المصرية)

أما المدخل العام فكانت واجهته جميلة التكوين ، تأخذ بلب الناظر إليها لما فيها من مظاهر العناية الفائقة والدقة المتناهية ، هذا إلى جنب التماثيل والمنحوتات التى لا تقل قيمة فنية عن بقية البناء .

أما الدعامات والأكتاف السائدة فكانت مختلفة التكوين سائرة على غير قاعدة هندسية فنية ثابتة . والناظر إليها يرى أنها



٣ — جروتا كايلاسا

وأهم وأبرز نماذج لهذه الأنماط المعارية تنحصر فى حدود الهند الشمالية الغربية بالقرب من بمباى وكارلى وأدشونتا وبهايا وإيلورا ؛ وأقدم هذه كلها يرجع تاريخه إلى سنة ١٥٠ ق . م ، وأعظمها وأشهرها وأجلها أقيمت فى وقت الانتقال من الديانة البوذية إلى البراهمية بين سنة ٥٠٠ وسنة ٨٠٠ بعد المسيح

وتمد معابد إيلورا الصخرية على الخصوص من عجائب المعارة الهندية وتشمل الطرازين البوذى والبراهمى معاً ، وبعض هذه المعابد على سفح الجبل الجرانيتى ، وبعضها الآخر منحوت فيه من الداخل وكلها تقرب من ثلاثين معبداً وديرا

تشبه فى بعض أجزائها تلك التى عملت على الطراز الباروكى فى أوربا لولا ما غلب على حليتها من الخيال الشرقي

وكانت الأعمدة حيناً مضلعة ، وقد بلغت أضلاع بعضها أحياناً الستة عشر ضلعاً ؛ وكانت التيجان أعلاها مربعة الشكل أو على قطعة حجرية ذات ثمانيـة أضلاع أو مربعة الشكل أيضاً . وكانت حيناً آخر مستديرة تسير على طولها قنوات رفيعة وتيجانها مستديرة مرة ، وعلى هيئة كرة منبعجة مرة أخرى



٤ — باجودا مهملجابور

(له بقية) احمد موسى



من أساطير الإغريق

(القصة الخالدة التي أوحت إلى شاكسبير روميو وجوليت)

التوت الأبيض والتوت الأحمر

أو (بيرام وتسبيه)

للأستاذ دريني خشبة

كان أجمل شباب بابل، وكانت أجمل حسانها

كان فتنة فى فتنة، فى جسم قوى، وقلب جمي، وخلق حي، وقوام مفتول، ونفس حلوة ساكنة سجواء[1]... وكانت قسيمة وسيمة، خفية لطيفة، غضة كالورد عطرية كأنفاس البنفسج؛ تفتر عن فم خمرى شتيت، وترنو بعينين دعجاوين نجلاوين؛ وترسل شعرها الْمُغْدَوْدِنَ[2] على ظهرها العاجىّ تارة، وصدرها المرمرىّ أخرى، يداعبه النسيم، وتقبّله الآلهة، وتنتظم فيه حبّات القلوب

وكان بيتاهما متلاصقين، فكان يراها وكانت تراه، وكان يلقاها وكانت تلقاه؛ وكانا يتلاعبان فى الصغر، طفلين كالملائكة ثم شبا، فكانا ينفران إلى الخلاء والأدغال، ويلتقيان عند النبع القريب، ويتسلق بيرام أشجار التوت الأبيض — ولم يكن التوت الأحمر قد عرف بعد — فيهز أغصانها وأفنانها . ويساقط الثمر الشهى اللذيذ على سندس العشب، رطباً جنياً ... فتأكل تسبيه، وتقر به عيناً ! !

ثم ترعرعا أيضاً؛ ودبت الحياة الحلوة الجميلة، حارّة متدفقة زاخرة، فى قلبيهما الصغيرين؛ وأخذ الفؤادان الصغيران يثبان إلى الأعين السعيدة النقية الطاهرة، يرى كل إلى صاحبه، ويتزود كل من جمال أخيه زاد الهوى وذخيرة الحب، للأيام المقبلات

ولم يعرفا أنه الحب، ذاك الذى يخفق فى صدريهما أول الأمر ولكنهما عرفاه، وعرفاه معرفة كلها شجو وكلها حنين حين ألح عليهما وحين كانا يفترقان أشوق ما يكونان إلى لقاء، وأصبى ما يكونان إلى اجتماع... ثم عرفا كيف يتشاكيان وكيف يتباكيان وكيف يكون الليل جحيما حينا يقبل فيفصل بينهما بظلامه، ويجمع بين روحيهما بسهده ودموعه وطويل أنينه، وكيف يكون فردوساً خالداً حينا يجمع بينهما فى يقظة أو منام

ولم يقو بيرام على عذاب البعد، فاتفق وتسبيه على أن يكلم أباه ليكلم أباها فى الخطبة، ولكن الوالد أبى واستكبر، ورفض أن تكون هذه الفتاة التى هى مطمح أبصار شبان المدينة زوجة لولده، وكذلك أبى والد الفتاة؛ ثم شجر الخلاف واتسع، وكثرت شياطينه، وأحيا عداوات قديمة، فتدابر القوم وتناكروا ولكن ما فى قلبى الحبيبين ظل على ما كان عليه؛ بل ألهب البعد الذى جرّت إليه الخصومة أوار حبهما، فازدادا هياماً، وذابا غراماً، وكانت عداوة أهليهما عليهما برداً وسلاماً

ولم يعد يفكر إلا فيها، ولم تعد تفكر إلا فيه، وراح ينظم الشعر يتغنى به برحاءه، ويرسل موسيقاه يكلم بها السماء عسى أن ترق له آلهتها فترحمه مما يقاسى ... وراحت هى تبكى وتتكلم بلغة الدموع إلى نفسها الملتاعة، وترسل آهاتها فى صميم الليل تتردد بين النجوم الخفاقة السكاى تتوسل إلى أرباب الرحمة والحب أن تدرك بلطفها ضعف الحبيبين المظلومين

وتصدعت السماء، وانهمرت شآبيب الرحمة، وانهل فيض الحنان، وأمرت الآلهة فزلزلت الأرض زلزالها ... وكانت الغرفة التى ينام فيها بيرام ملاصقة للغرفة التي تنام فيها حبيبته تسبيه، وكان يفصلهما جدار مشترك بين المنزلين المختصمين، فأحدث الزلزال في هذا الجدار صدعاً صغيراً كالشعرة، فوصل هواء الغرفتين، وحمل كلام الحبيبين، وأخذت موسيقى بيرام وغناؤه

(١) ساكنة (٢) المغدودن : الناعم الطويل

ينسابان إلى غرفة تسبيه ، وأخذ بكاء تسبيه وآهاتها تنساب فى غرفة بيرام ؛ وأخذت النجوى الحلوة ، والشكوى الجميلة ، وغزل الكلام ، وحنين القلوب ، يتنقل فى بروج هذا الشق كأنها كواكب السعد تحدوها الآهات الملتهبة ، وتذهب بها القبلات الحارة ، ترف بأجنحة من أثير من فم إلى فم ...

— تسبيه ، تسبيه !

— من ؟ من يناديني ؟

— تسبيه ، هو أنا ، أنا بيرام !

— من أين تتكلم ؟

— من هنا ... ألم تشعرى بالزلزلة ؟

— آه ! شعرت بها فى العشاء الآخرة ليلة أمس

— إنها أحدثت فى الحائط الذى يفصل بيننا شقا ... وأنا أكلك منه

— بيرام !

— تسبيه !

— إذن لقد رثت الآلهة لحالنا !

— واستجابت دعاءنا يا تسبيه ، لقد حركتها موسيقاى !

— إذن كنت تعزف وتغني ، بينما كنت أبكي وأئن وأذوى !

— لا ! ولكني كنت أسكب نفسى دموعاً على أوتار القيثار !

— بالقسوة هذا الجدار يا بيرام ! إنه يفصل بيننا بشدة !

— هو على كل أرحم بنا من أبوينا ... أليس قد انفرج ليصل حديثنا ؟

— نشكره ، إن من الصخر لما يتفجر منه الماء ! .

— نشكره جداً يا تسبيه ... وأشكره أنا خاصة لأنه فرج عن قلبي بالتحدث إليك

— بيرام !

— حياتى !

— هل الجنة أجمل من سجننا هذا ؟

— إنه أجمل من أنضر الجنان يا تسبيه !

— وهذا الظلام ! أليس هو أضوأ من سنا الضحى ؟

— لأننا نتحدث فيه يا أختاه !

— أحب أن أسمع موسيقاك يا بيرام تتدفق فى روحى خلال هذا الجدار

— ليس أحب إليّ من ذلك يا تسبيه

— أنا لم أسمعك تغنى مذ تناكر أهلونا

— سأفعل إن وددت !

— وماذا عساك تغنى ؟

— كل أغنياتي التى ترنمت بها فيك ؟

— ألا تغنى شيئاً آخر ؟

— للآلهة ! لأنها أنعمت عليّ بحبك !

* * *

وهكذا كانت أحاديث الحبيبين المذيبين كلما جنهما الليل ، وضمها غاشى الظلام ؛ أحاديث كأوشية الروض ، وأفواف الزهر ونجوى البلابل ، ممزوجة بعبرة أو عبرتين يريقانهما على جفاء الأهل ، ولدد الطباع ، وقسوة الأيام

ولم يحتملا هذه الحال طويلاً ، فلقد شفهما الهوى ، وأنحلتهما الصبابة ، وفعل الحب فى قلبيهما الضعيفين أفاعيله . ففى ليلة سافرة البدر ، ساجية النسيم ، صمتت فيها الطبيعة ، وتكلم القمر ، دار بين العاشقين الحديث الآتى :

— تسبيه ؟ !

— بيرام !

— أوشك القمر أن يكون بدراً ياحبيبتى !

— إنه جميل الليلة ، وحبذا لو ظل جميلاً الليالى المقبلة ...

— إن القمر جميل دائماً ... أليس هو ابتسامة هــذه الدنيا فى ليالى العاشقين ؟

— لكنه صامت أبداً ... إنه أبكم لا يعى !

— سو ... لا تقولى ذلك يا تسبيه ... قد تسمعك ديانا فتغضب !

— هل يتكلم ؟ هل يفهم ؟

— أما أنه يتكلم فحق ... لكنه لا يتكلم بلسان كلساننا ... إنه يتكلم بلسان من فضة ياتسبيه ، لسان له رنين حلو فى أعماق الروح ... ثم هو يفهم آلام المحبين لأنها تصعد إليه مع آهاتهم ...

— خيال شاعر وفلسفته !

— بل هو الحق ياحبيبتى ! لقد كان يكلمنى وكنت أكلمه . وكان يفهمنى وكنت أفهمه ، كان يكلمنى بآراده [1] وأضوائه ،

(١) أشعته

وهى لسان صامت ولكنه بليغ لَسِن ، وكنت أكله بوجدانى مرة ، وموسيقاى أخرى ، فكان يضحك فى الأولى ، ويرقص فى الثانية ... تسبيه !

— ماذا يابيرام ؟

— أعنى لو غمرتنا أشعة القمر غداً ، فى هذا السهل المنبسط

— غداً ؟ وكيف ؟

— ولم لا ؟ ألا ترغبين ؟

— وكيف أرفض ؟ أنا أتمنى ذلك

— إذن سنلتقى !

— وكيف أفعل يابيرام ؟

— تنسرقين إذا نام أهلك ... لن يشعر بك أحد

— وأين نلتقى ؟

— عند مقبرة نينوس

— ... ؟ ...

— ألا تعرفينها ؟

— مكان رهيب !

— لكنه جميل رائع ! سنجلس ثمة بين يدىْ القمر ونتحدث ، ونشفى أنفسنا مما نجد !

— وتعزف وتغنى ؟

— وقد نبكي !

— ... ؟ ...

— اتفقنا ! أليس كذلك ؟

— اتفقنا

— إذن أنتظرك ، إذا لم أجدك هناك ، عند النبع القريب . تحت التوتة البيضاء ! وكذلك تفعلين

— أفعل ماذا ؟

— تنتظرينني ثمة إذا سبقتني !

— ترى ما ذا تبتغي ديانا مني ؟

— لا شيء ... لا شيء ...

***

ما كان أجملها ليلة سطع فى حواشيها القمر ، ودحرج لآلئه على مياه النبع ، ودغدغ[1] بأضوائه العشب وأفنان الشجر فتبسمت وتضاحكت ، ونشر فى أجوائها بخوره المصاعد من مجامر الورد ، ومداهن البنفسج ، احتفاء بمقدم تسبيه ! يا لجمال الطبيعة ! لقد كان كل ما فيها موسيقى صامتة تنشر أحلى النغم حوالى هذه الحبيبة التى انسرقت تحت أسدال الظلام تمشى كالقطاة وترسل من فوق رأسها خماراً رقيقاً كسحابة الصيف تستر ما وراءها وليست شيئاً ! لقد كانت تتوجس فى نفسها خيفة وهى تدب فى سكون الليل ، كما يسرى الحلم الجميل فى خلد النائم

وذهبت تطوى الطريق وفى رأسها ألف فكرة عن هذه المجازفة ؛ وبلغت مقبرة نينوس آخر الأمر ، ولكنها لم تجد حبيبها عندها . ترى ؟ ما ذا عوقه ؟ لقد كان رخام المقبرة نظيفاً ناصعاً ، ولقد كان شبح الفناء جاثماً فوقها يلمع فى ضوء القمر ، كأنه يتلاعب بالسنين والأحقاب ، وكأنه يسخر من كل شىء فوق الأرض ! وبدا للفتاة الضعيفة كأنه يرقص كالسكران فوق الشاخص الرخامى ، ولكنها أخذت تصرف عن عينيها رؤى عفاريت الليل ، وتصاوير الوهم المريض ؛ ثم سخرت من خوفها وذكرت التوتة البيضاء ، والنبع الذى عندها ، فارتدت إليهما لتجلس ثمة ، ترتقب زورة الحبيب

وجلست عند جذع التوتة ، وجعلت تحدج الثمر الأبيض ، وتشتهى لو سقط منه شىء تأكله حتى يحضر بيرام ... ثم سمعت دبيباً يقترب ، فلم تشك أن بيرام قد أقبل ، ونبض قلبها بشدة واندرفت من عينيها عبرة لم تفكر هذه اللحظة أن تذرفها ... ثم أبطأ الدبيب ... ووثبت تسبيه تمد عينيها الثاقبتين فى أرجاء الدنيا الصامتة الرهيبة ، ولكنها لم تر شيئاً ، وعادت عفاريت الليل ترقص فى وهمها ، ولكنها لم تبال ، وجعلت تجاهد نفسها مجاهدة لينة مرة ، عنيفة مرة أخرى ، وهى فى هذا وذاك تفكر فى حبيبها بيرام ، وتضرب فى تأخره أخماساً لأسداس ... ثم ذعرت الفتاة ذعراً كبيراً ، وساخت الأرض تحت قدميها المرتجفتين أو كأن قد ... ذلك أنها لمحت شبح لبؤة تخرج من دغل قريب لجأة ثم تيمم شطر النبع الذى تعرش من فوقه التوتة . ماذا ؟ إنها لبؤة ضارية أقبلت ترتوى من ظمأ ملح وجواد[1] شديد ... وهى تتبهنس[2] مع ذلك كأنها عروس ولكن من الجن

وأطلقت الفتاة ساقيها للريح ، ولم تحفل بها اللبؤة ، لأنها قد افترست فريسة قبل ساعة ونهشتها ، وهذا فمها ملوث بالدم الغريض الدافىء ...

(١) الدغدغة . الزغزغة .

(١) الظمأ (٢) تتبختر

لم تصنع اللبؤة شيئاً ، إلا أنهـا رأت الخمار الأبيض الذى كانت تسبيه ملتفعة به ، ملقى على الأرض ، فعاثت فيه ، وكأنما أرادت أن تمسح فمها به ، فلوثته بالدم ، ثم هممت نحو النبع فارتوت على مهل ، وعادت أدراجها نحو الدغل الذى تركت فيه فريستها لتأتى على بقاياها

أما الفتاة فقد ظلت تجرى حتى بلغت شجرة ضخمة وجدت فى أصلها فراغاً فاختبأت فيه ، وراحت تلهث من الذعر والتعب ، وتتمنى ألا ترتد اللبؤة إليها ... وقد أيقنت أن ديانا ، إلهة القمر ، قد سمعتها حين عابت على البـدر عيه وبكمه ، فساقت إليها هذا الوحش فى هذا الليل

* * *

ولم يمض طويل على تلك الأحداث حتى أقبل بيرام وفى نفسه لهفة ، وبقلبه قلق ، فقصد إلى مقبرة نينوس فلم يجد عند هاشيئاً ؛ ووقف قليلا يبحث عن تسبيه فى كل شيء ! فى شجيرات الورد وفسائل الزنبق ، وفى العشب الخائف المذعور حول المقبرة ؛ وتولاه طائف من الوجد والذهول فراح يبحث فى السحابة الرقيقة البيضاء التى انتشرت على وجه القمر فى هـذه اللحظة ، متبهة خمار تسبيه على وجهها الرقيق الناحل ... ثم ذكر ميعاده عند النبع القريب تحت التوتة البيضاء ، فانثنى ميمما شطرها ...

« يا للهول ! ويا للفزع الأكبر ! ! ما هـذا ؟ خمار حريرى أبيض ؟ لمن هذا الخمار يا ترى ؟ أواه ! إنه خمارها لاريب ! لقد شهدتها تلتفع به مراراً ! يا أرباب السماء ! ما هذا الدم ؟ واأسفاه عليك يا تسبيه ! لقـد قتلتك الوحوش فلن أراك بعد اليوم ! أنا السبب يا حبيبتى ! لقد جررت عليك هذا باقتراحى الضال ! ألا ليت أمي لم تلدنى ! أى وحش ضار اغتذى بك يا تسبيه ؟ أيها القمر القبيح الأبكم لم أغريتنا بهذا اللقاء ؟ أنت تتستر الآن حياء وخجلا من فعلتك التى فعلت ، وكنت بالأمس سافراً متبرجا ! أغرب أيهـا الأصفر كصفرة الموت فلا جمال فيك ! رد على موسيقاى وأغانى فأنت جبس[1] لئيم لا تستأهل منها شيئاً ! هات كل ما عندك لى هات ! هات دموعى وأشجانى وآهاتى ! هات سهدى وعبادتى ومناجاتى ! قتلت تسبيه تحت سمعك وبصرك ما أقساك يا صاحب الليالى المواضى ! أوه ... ولـكن ... لا ... أنا الذى قتلتها ، لاذنب لك يا قمر ... إنى أستغفرك ؛ أبق كل ذكرياتى عندك ، فلا آمن عليها إلا أنت ! أما أنا ... فهلم ياحسام أسكن هنا ... فى حبة القلب .... إروَ من هـذا الدم الدافق فلا أمل لصاحبك فى الحياة بعد اليوم ... »

وألقى الفتى المسكين نظرة على كل شيء حوله ، لاحرصاً على الحياة المرة ؛ ولـكن لينظر إلى كل ما نظرت إليه تسبيه قبل أن يأكلها الوحش ، وليتزود من الأثر الذى تركته فى الوجود عيناها الحزينتان المفزوعتان ...

ثم أغمد سيفه فى صدره ... وسقط يتجرع سكرة الموت !

* * *

وهدأ روع تسبيه ، فبرزت من مكمنها فى أصل الدوحة ، لترى من أين كان يتردد فى أذنيها هذا النداء الحبيب . وكان شبح اللبؤة مازال يتمثل لها فيفزعها فى الفينة بعد الفينة ، ولـكنها كانت تسير بخطى وئيدة ، لأنها ماشكت مطلقاً فى أن النداء لحبيبها ، ولأن الصوت الفضى الذى كان يمتزج بأضواء القمر فيغمر أذنيها وقلبها ، كان مازال يداعب أذنيها الصغيرتين ... ثم بدا لها أن تحث الخطى حتى تنبه بيرام إلى وجود لبؤة فى هذا السهل الجميل جعلته كالفلاة ... فأسرعت ، وأسرعت ! !

— من هذا المستلقى على حفافى النبع ؟ هو من غير شك !

ثم أسرعت أكثر من ذى قبل

— بيرام ؟ ! ماهذا ؟ السيف فى صدرك ؟ لِمَهْ ؟ حبيبي ! رد على ! كلم تسبيه ! ها أنا ذى ! لم قتلت نفسك يابيرام ؟ آه ! هذا الخمار الأبيض ! ويْ ! إنه ملوث بالدم ؟ عاثت فيه اللبؤة الملعونة !

— تس ... بيه !

وأرسل القتيل هذا الاسم المحبب وحشرجة الموت تعتلج فى صدره ، ثم فتح عينيـه قليلاً فرأى فتاته تبكي فوق رأسه ، فتبسم ... ثم مات !

— بيرام ! لا ! لا تمت ! لا بد أن تعيش من أجلى !

ولـكنه مات برغم هذه الأمانى

— إذن أنا التى قتلتك يا حبيبي ؟ إشهدى يا توتتنا البيضاء !

ثم رفعت بصرها إلى فوق ، ولـكنها بدلاً من أن ترى الثمر الشعى الأبيض ، رأت ثمراً أحمر يقطر دماً قانيا

— أوه ! رويت من دمه أيتها الشجرة فغرجت ثمرك من

(١) بكسر الجيم الثقيل الروح والجبان واللئيم



أسطورة الاطلانطس

هل كانت الاطلانطس التي مازالت مستقى خصباً لأقلام القصصيين حقيقة قارة أو منطقة مفقودة ؟ لقد ظهرت في العصر الأخير عدة قصص رنانة عن خرافة «الاطلانطس» وكان آخرها رواية لبيير برنوا عضو الأكاديمية الفرنسية . ولكن «الاطلانطس» ماتزال خرافة يكتنفها الغموض المطبق . وقد حاول كاتب انجليزى هو جيمس براموبل أخيراً أن يدرس قصة «الاطلانطس» دراسة تاريخية علمية ، فوضع عنها كتاباً سماه «الاطلانطس المفقودة» Lost Atlantis ، جمع فيه كل ما ورد في الروايات القديمة والحديثة وفى التقاليد المأثورة ، وفى الشعر والقصص عن هذه الأسطورة ، وفى رأيه أن هذه (الاطلانطس) لابد أن تعنى شيئاً ولو أن ما يحيط بها من الغموض يحول دون معرفة الحقيقة ، وأن هذه القارة ربما كانت على الأغلب جزائر «آزورس» فى عصر غابر جداً قد يرجع إلى عشرة آلاف عام قبل المسيح . والواقع أن الأسطورة تثير في الانسان الجانب الشعري قبل أن تثير فيه الناحية العلمية ؛ وإذا كانت جزائر «الآزورس» يمكن أن تكون فرضاً أول للقارة المفقودة ، فكذلك يمكن أن تكون قادس وقرطاجنة ؛ وهنالك غير ذلك فروض كثيرة ذهب إليها مختلف الباحثين . وأما الحوادث التي ترتبط بهذه الأسطورة فلا حصر لها ، وهى قد ترجع إلى عصر الاهرام أو عصر أفلاطون ، وأفلاطون ممن تحدثوا عن «الاطلانطس» ؛ بيد أن مستر براموبل يرى رواية أفلاطون خارقة مستحيلة إذ يقول إن «الأطلانطس» أو القارة الوسطى قد اختفت فى الماء فى يوم واحد ، لأن العوامل الجيولوجية لاتحدث أثرها بمثل هذه السرعة الخارقة ؛ ومن جهة أخرى فإن أسطورة «الأطلانطس» ليست فى ذاتها أكثر إغراقاً من أساطير تاريخية أخرى لها مكانة فى التاريخ ، كحصار طروادة وقصة هيلين التي خلدها هوميروس فى الإلياذة ؛ وقصة ملكة سبأ التي شغلت الباحثين والرواد فى الأعوام الأخيرة وأمثالها من الروايات المغرقة التي تبدو مع ذلك ذات مسحة تاريخية هي من نوع أسطورة الاطلانطس ، ولو أنها من الناحية الزمنية ترجع إلى عصور أكثر ظلاماً وغموضاً ، وعلى أي حال فإن كتاب «الاطلانطس المفقودة» يقدم إلينا مجموعة من الروايات والفروض الشائعة التي تتعلق بهذه الأسطورة منذ فجر التاريخ إلى عصرنا

حبنا وسعادتنا ؟ ! يا للقسوة ! تعالوا يا أهل ! تعالوا أيها القساة ! فتشوا عن الرحمة في قلوبكم المتحجرة واذرفوا دموعكم علينا ... إحذروا أن تفرقوا بعد اليوم بيننا ، فقد ربطت بين جسومنا المنايا ... لقد أبيتم أن نجتمع فى الحياة فلا تفرقوا بيننا بعد الموت... وداعاً أيها القمر ... وداعاً فقد ظلمناك ! »

ثم جذبت السيف من صدر حبيبها وأغمدته فى صدرها بعد أن قبلت بيرام الميت قبلة الوداع ... وسقطت تتخبط فى دمائها جانبه ... ثم عالجت سكرات المنون فوضعت رأسها الجميل ، وشعرها المغدودن فوق صدره ... ولفظت ثمة آخر أنفاسها

وأقبل أهلوهما فى الصباح فبكوا كثيراً ، واستغفروا لذنوبهم ، ثم أقاموا للحبيبين قبراً واحداً من الرخام الناصع عند حفافي النبع.... تحت التوتة الحمراء !

دريني خشبة

مر ، مرير ، ممر

نقد السيد جورج سلستى فى (الرسالة) لفظة (المرير) فى (رواية الصدور) وقد كان العلامة الشيخ ابراهيم اليازجى قد أنكر هذه الكلمة فى مجلته (الضياء) كما أنكر الفاظاً عربية صحيحة غيرها . والشيخ ابراهيم والسيد جورج كلاهما مخطىء فى نقد تلك اللفظة ، فالمرير مثل المر والممر ، وهى فى كتب اللغة وكلام العرب ورسائل البلغاء ، قال (أساس البلاغة) للامام الزمخشرى: « وشىء مر ومرير وممر » قال :

إنى إذا حذرتنى حذور حلو ، على حلاوتى مرير
ذو حدة ، فى حدتى وقور

وفى (نهج البلاغة) — وصوّاغه من أئمة الفصاحة والبلاغة : « وإن كان ذا مشقة شديدة ومذاقة مريرة »

فقل: المر، أو المرير ، أو الممرّ إذا اقتضت ذلك حال، ولكل مقام لفظ ومقال ...

(الاسكندرية) ***

أوراق البردى ونصوص التوراة

ظفر المنقبون فى العصر الأخير بكثير من أوراق البردى التى يتضمن نصوصاً من التوراة فى عصور مختلفة ، ووجدت معظم هذه النصوص الأثرية ضمن أوراق البردى المصرية ؛ وقد استطاع المستر شستربيتى المثرى الانكليزى المعروف فى مصر بأنه من أكبر هواة الآثار أن يحرز عدة من أوراق البردى الهامة التى تلقى ضوءاً على نصوص التوراة الأولى ؛ ووصفت هذه الوثائق أخيراً وترجمت نصوصها فى كتاب بقلم العلامة الأثرى الانكليزى السير فردريك كينون ، وعددها اثنتا عشرة وثيقة متباعدة تكوّن قسما من نسخة من التوراة كتبت فى القرن الثالث الميلادى . وهذه التوراة كما يصفها السير كينون كانت مجموعة واحدة تحتوي على ستة وخمسين صفحة من البردى لصقت معاً ونظمت فى ملف ؛ وقد استطاع السير كينون أن يقرر بالاعتماد على هذه الوثائق كثيراً من الحقائق التاريخية التى تتعلق بتطور النصوص ونتائجها ؛ وأهم هذه الحقائق هو أن نص التوراة كما ورد في كتاب « إيسيا » ليس هو أصح النصوص التى انتهت الينا . وهنالك بضع وثائق أخرى ترجع إلى القرن الرابع الميلادى وكلها مما يعاون فى تتبع النصوص وتحقيقها

الرئيس مازاريك والحركة الفكرية

فقدت الحركة الفكرية فى أوربا الوسطى بوفاة الدكتور مازاريك محرر تشيكوسلوفاكيا ورئيسها السابق ركنا من أهم أركانها . ذلك أن الرئيس الراحل لم يكن وطنياً وسياسياً عظيما فقط بل كان أيضاً مفكراً وكاتباً مبرزاً ، وقد درس الفلسفة واشتغل فى شبابه بالتدريس وكان مدى أعوام طويلة أستاذاً للفلسفة فى جامعة براج ؛ وله رسائل وبحوث فلسفية قيمة . كذلك اشتغل الرئيس مازاريك بالصحافة والأدب ، وله عدة آثار أدبية ونقدية لها مكانة فى أدب أوربا الوسطى ، وكان الرئيس مازاريك أيضاً من أعظم هواة الكتب ، وقد جمع أثناء حياته مكتبة عظيمة كانت كعبة الزوار من كل صوب ، وقد تركها لأمته

رحلة فى بلاد التركستان

لا تزال التركستان الصينية من المناطق التى يجهل العالم الخارجى الكثير من أحوالها ؛ وقد وقعت فى الأعوام الأخيرة بهذه البلاد النائية عدة أحداث وتطورات سياسية هامة لفتت إليها الأنظار ، وزارتها عدة بعوث أوربية لتكشف ما هنالك من الحوادث والظروف ، ولتدرسها من الوجهة الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ، وكان من هذه البعثات بعثة أوفدتها الحكومة الانكليزية إلى مدينة أورمش فى أعماق التركستان سنة ١٩٣٥ لتعقد الصلات السياسية والتجارية بين انكلترا والحكومة الجديدة ؛ وكانت هذه البعثة برياسة السير أريك تيشمان ، يعاونه ثلاثة من المغول واثنان من الصينيين ؛ وسافرت البعثة من بكين فى سيارتين كبيرتين تتقدمهما قافلة من الجمال تحمل البنزين والمؤن ؛ واخترقت البعثة صحراء جوبى الشاسعة مدى ألف وخمسمائة ميل إلى أورمشى ؛ ثم سارت منها إلى مدينة كشغر عاصمة التركستان الصينية فقطعت بذلك نحو ألفين وخمسمائة ميل فى أربعين يوماً . وقد دون السير تيشمان رحلته ودراساته لهذه الأقطار المجهولة فى كتاب ظهر أخيراً عنوانه « الرحلة إلى تركستان » joxrney To Twrkestan ومرض السير تيشمان مدى حين فى كشغر ، ولكنه استطاع أن يتم مهمته وأن يخترق بعد ذلك صحراء البامير المروعة على ظهر مهر ، ومنها انحدر نحو حدود الهند

الشمالية الغربية ، ثم عاد إلى الصين عن طريق الهند

ويقدم إلينا السير تيشمن فى كتابه خلاصة قيمة عن تاريخ التركستان الصينية ، وعن أحوالها وظروفها الحالية ؛ ويفيض في وصف الفيافي الشاسعة والجبال الشامخة التي شاهدها ، وفي وصف الأجناس البشرية التى لقيها فى طريقه ، ولغاتها ومعتقداتها وأساليب حياتها

فى دار المحفوظات النمسوية

يتردد صديقنا الأستاذ عنان الذى يقضى الآن أجازته فى فينا على دار المحفوظات النمسوية ليدرس الملفات الخاصة بحياة ولى العهد السابق رودلف فون هبسبرج وبمصرعه المؤسى فى حادثة مايرلنج الشهيرة ، وقد كانت هذه الملفات السرية التى تحتوى على كثير من الوثائق المخطوطة محفوظة فى قصر (البورج) ولم يتح لإنسان أن يطلع عليها إلا بعد الحرب الكبرى حيث نقلت المحفوظات الامبراطورية إلى محفوظات الدولة ؛ وبين هذه الوثائق مذكرة خطية مستفيضة عن مصرع الأمير رودلف فى قصر مايرلنج مكتوبة بقلم كبير حاشيته الكونت فون هويوش وفيها يفصل الظروف والعوامل النفسية والاجتماعيــة التى دفعت بالأمير إلى الانتحار . وينوى الأستاذ عنان بعد دراسة هذه الملفات أن يضع مؤلفاً عن مأساة مايرلنج الشهيرة مستقى من أوثق المصادر والمراجع

بعثة ثقافية مصرية إلى فرنسا

وجهت الحكومة الفرنسية الدعوة إلى الحكومة المصرية لايفاد ثلاثة من خريجي كلية الآداب واثنين من خريجى كلية الحقوق لزيارة فرنسا والإقامة بها عاماً دراسيًّا كاملا

وقد خصصت جمية أصدقاء الشرق لكل مبعوث مصرى من الذين تقرر الجامعة إيفادهم عشرة آلاف فرنك طول مدة الإقامة على أن تتكفل أيضاً بنفقات الانتقال على البواخر الفرنسية والسكك الحديدية المصرية والفرنسية

وقد تلقت وزارة المعارف أمس الأول كتاباً من قنصل فرنسا يطلب إليها فيه دعوة المبعوثين لمقابلته والتعرف إليهم .

ونذكر فى هذا الصدد أن جمية أصدقاء الشرق بباريس لم تضع للبعثة برنامجا وإن كان المفهوم أن الدعوة مقصود بها توطيد صلات الصداقة وإيجاد علاقات أدبية وثيقة بين الشعبين المصرى والفرنسى عن طريق إيفاد مثل تلك البعثات ؛ وقد وقع اختيار الجامعة على أعضاء البعثة وسيغادرون مصر فى هذا الشهر

الحياة الطبيعية للإنسان ١٥٠ سنة

وصل الأستاذ « لازارف » مدير معهد البيولوجيا فى روسيا — بعد سنوات متواصلة من البحث — إلى أن العمر الطبيعى للانسان ينبغى أن يكون ١٥٠ سنة وأن السبب الوحيد لعدم مقدرة الجيل الحاضر على الوصول إلى هذه السن هو عدم الاهتداء إلى سر التغلب على عملية التفكك فى الجسم الانسانى . ويعتقد الأستاذ أن الانسان يصل إلى عنفوان قوته فى سن العشرين وبعد ذلك تبتدىء عملية التفكك وأنه سوف لا يمضى وقت طويل حتى يتمكن العلم من وقف هذه العملية وبذلك يتمكن الجزء الأعظم من سكان العالم من التعمير مائة وخمسين سنة . وربما استخدمت فى ذلك جهازات كيميائية أو أشعة خاصة يستطيع بها المخ أن يحتفظ بقوة وظيفته . ويستدل الأستاذ على تأثير هذا فى بعض الأمراض التى كانت تعتبر عضالة منذ خمسين سنة وقد أصبحت الآن سهلة الشفاء

تعيين سكرتير لجمعية مارك توين فى مصر

اختارت جمية مارك توين الدولية مستر جون هوجورف ليكون سكرتيراً لها فى مصر

وهذه الجمية مؤلفة على نمط أندية شكسبير ، وتتجه أغراضها إلى نشر كتابات مارك توين وتشجيع الملكات الأدبية من أية جنسية كانت ، ولها فروع فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والأمبراطورية البريطانية وفرنسا وإيطاليا وألمانيا واليابان وغيرها من البلاد . ويؤيد جمهورها كثيرون من أقطاب العالم بينهم السنيور موسوليني ومستر هوفر ، واورل بلدوين ، ومستر رامسى ماكدونالد ، والجنرال سمطس ؛ ومن أعضائها ستيفن كيلوك ، وأوجينى أونيل ، وجيوفانى بابينى ، وويلز وأندريه موروا

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى عمارة عجم رقم ٧)

5 me Année, No 223.

Lundi - 11 - 10 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

السنة الخامسة « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ شعبان سنة ١٣٥٦ — ١١ أكتوبر سنة ١٩٣٧ » العـــدد ٢٢٣

فهرس العـــدد

فلسطـــين

والسياسة الانجليزية الجديدة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

آثرت الحكومة البريطانية أن تغلط فى فلسطين غلطتها فى مصر ، فاعتقلت رجال اللجنة العربية العليا ، وحملتهم فى بارجة حربية تمضي بهم الآن إلى سيشيل . وهذا عين ما صنعته فى مصر لما ضاقت بالحركة الوطنية فيها ذرعاً ، وتوهمت أنها إذا قبضت على رجال الوفد سهل عليها بعد ذلك أن تكفل الراحة لنفسها ، والاطمئنان على تحقيق غاياتها فى مصر . فذهب الزعماء إلى سيشيل وبقوا فيها ماشاءت السياسة البريطانية ، فلم تخمد الحركة الوطنية ، ولم يعدل المصريون عن مطالبتهم بالاستقلال ، ولم يكفوا عن السعي لاسترداد حريتهم القومية ، ولم ترجح كفة المتدلين بعد أن أقصى الذين كانت تسميهم المتطرفين ، وانتهى الأمر بالافراج عن المعتقلين واطلاق سراحهم وعودتهم إلى وطنهم ، ثم لم تجد السياسة البريطانية بدأ من الرجوع إلى هؤلاء المتطرفين وغيرهم من زعماء البلاد للاتفاق معهم على حل تستقر به العلاقات بين البلدين على حدود معقولة معروفة

والذى فعلته السياسة البريطانية فى مصر وأخفقت فيه ، ولم تجد منه جدوى ، تفعله الآن فى فلسطين ، وما نظن بها إلا أنها ستخفق هناك أيضاً . فان رجال اللجنة العربية العليا ليسوا رجال تهييج ، ولا هم الذين يحرضون على أعمال الارهاب أو الاغتيال التى أثارت ثائرة البريطانيين ، وأغرتهم بهذا العنف الذى تأخذ به زعماء العرب الآن ، وإنما هم رجال سياسة يطالبون بحق بلادهم ويدافعون عنه ، ويسعون للفوز به بالطرق المشروعة . ومن غرائب التفكير المقلوب أن الصحف البريطانية تقول فى تعليقها على هذا الاعتقال والنفى إن القبض على المتطرفين خليق أن يفسح المجال لغيرهم من المعتدلين ، ويشجعهم على الظهور والمجاهرة بآرائهم التى كانوا يخافون الجهر بها . وتنسى هذه الصحف أن الأمر ليس أمر اعتدال وتطرف ، وإنما هو أمر حق للبلاد يطلبه الجميع بلا فرق ، ويجمعون عليه بلا تفاوت أو شذوذ أو اختلاف . ومن البعيد جداً أن يجرؤ أحد على التقدم باسم الاعتدال والمعتدلين بعد أن نكلت الحكومة البريطانية برجال اللجنة العربية العليا . وأخلق بكل عربى من أهل فلسطين أن يستنكر هذا العنف الذى لا مسوغ له ، وذلك الظلم الذى نزل برجال اللجنة العربية . والمعقول أن يمتنع العرب — متطرفوهم والمعتدلون منهم إذا صح أنهم فريقان — عن التقدم إلى الانجليز لمفاوضة أو مباحثة قبل أن يرفع الظلم عن اخوانهم . وإذا صح أن فى فلسطين اعتدالا وتطرفاً وأن المعتدلين كانوا يخشون الظهور بآرائهم الحقيقية أمام المتطرفين — وهو ما لا نعتقد أنه صحيح — فالبداهة تقول إن هؤلاء حقيقون أن يخشوا الظهور الآن بعد الذى كان من الاعتقال والنفى حتى لا يتهموا بالتواطؤ مع البريطانيين على إقصاء رجال اللجنة العربية عن الميدان

فالذى فعلته الحكومة البريطانية لا خير فيه ولا جدوى منه ؛ وكل ما هو خليق أن يثمره هو أن يوقع فى روع العرب أن بريطانيا ممالئة للصهيونية ، ومناوئة للعرب ؛ وأنها تلجأ الآن إلى وسائل الضغط والعنف والتخويف والإرهاب بعد أن أعيتها الأساليب السياسية . وإلا فلماذا تختص بريطانيا العرب بهذا العنف وتحاشتهم على حين تسالم الصهيونيين وتحاسنهم ؟ وإذا كانت حوادث الاغتيال التى وقعت هى التى استوجبت اللجوء إلى هذه الأساليب العنيفة ، فقد كان يحسن بالحكومة البريطانية أن تذكر أن الذين اغتيلوا كان أكثرهم من العرب . وأن ممن وقع الاعتداء عليهم بعض زعماء العرب أنفسهم ، وأن هناك اغتيالات وقعت من الصهيونيين أيضاً ، وهذا ما لا شك فيه . فلماذا تأخذ العرب وحدهم بذلك وتدع الصهيونيين ؟ على أن زعماء العرب لم يكفوا قط عن دعوة الشعب إلى التزام السكينة والهدوء وضبط النفس والمحافظة على اتزان الأعصاب حتى فى أعصب الأوقات ، لأنه ليس مما يساعد على تحقيق غاية العرب ويكفل للزعماء الفوز بالحصول على ما ينشدون من الحرية ومن المحافظة على حقوق البلاد أن يقع اضطراب يمكن أن يستغله خصوم القضية العربية وأنصار الوطن القومى والصهيونية . فحوادث الاغتيال التى وقعت هى فى الحقيقة معاكسة لمساعى العرب وإساءة إليهم ؛ ولو وسع زعماء العرب أن يقطعوا دابرها لفعلوا ولما ترددوا ، ولكنهم ليسوا الحكومة ، وليس أمر الأمن والنظام إليهم ، ولا فى أيديهم زمامه ؛ فمن أشد الظلم وأصرخه أن يؤخذوا بما يشكون هم منه ، ويرون فيه إحباطاً لسعيهم ومناوأة لهم

ومن الواضح أن هذا مظهر اضطراب شديد فى السياسة البريطانية ، فقد كان المفهوم من موقف ممثلها فى عصبة الأمم أنها لم تعد ترى فى مشروع التقسيم حلاً مقبولاً لمسألة فلسطين ، وأنها ستعيد النظر فى الأمر ؛ بل لقد صرحت أنها تنوى أن تبعث إلى فلسطين بلجنة أخرى تتناول الموضوع بالدرس والبحث من جديد ، وتفاوض رجال العرب وزعماءهم وممثلى الصهيونية لعلها تهتدى إلى حل آخر يكون أكفل بإرضاء الفريقين . وكان المفهوم أيضاً أنها بهذا تفسح لنفسها فى الوقت وترجئ الحل إلى أن يتيسر ؛ ولا يتفق هذا وسلوكها العنيف ، فإن الذى يريد المفاوضة والتفاهم لا يلجأ إلى الشدة والضرب على الأيدى والتحبيس . ومن عساها تفاوض أو مع من ترجو أن تتفاهم إذا كانت تشرد الزعماء فى نواحى الأرض وتقصيهم ؟ أتفاوض العامة أو من يا ترى ؟ وما هى الجدوى على كل حال من هذه السياسة العنيفة ؟ سؤال نلقيه ونحن نتعجب ، فإن اعتقال رجال اللجنة العربية لا ينفع أحداً من الانجليز أو الصهيونيين ، لأن هؤلاء الرجال إنما يمثلون رأى الأمة ويتكلمون باسمها ؛ والانجليز يشاؤون أن يشكوا فى ذلك ،

وأن يزعموا أن هناك معتدلين مستعدين للظهور والتقدم متى خلا المجال من هؤلاء المتطرفين الإرهابيين . وسيرى الإنجليز أنهم فى هذا مخطئون كخطئهم فى اعتقال زعماء المصريين مرتين ونفيهم أولا إلى مالطة ثم إلى جزيرة سيشيل . وسيتبين الإنجليز أنهم أوغروا صدور العرب بلا موجب ومن غير عوض ، وحملوا العرب فى كل مكان على إساءة الظن بالسياسة البريطانية بعد أن كان العرب يعتقدون أن بريطانيا حليفة طبيعية لهم ، وأنها أولى بصداقتهم ومحالفتهم . ولا ندرى ماذا تكسب بريطانيا من إسخاط العرب وإيغار صدورهم ؛ ولكنا ندرى أن يأسهم من صداقتها ومن إمكان التفاهم معها بالعدل والإنصاف قد يدفعهم إلى ما تكره بريطانيا ويحملهم على النظر فى أمرهم من ناحية جديدة ، وعلى طلب حقهم بوسائل جديدة . فإذا كان فى هذا مكسب للسياسة البريطانية فإنه ينقصنا أن نعرفه . ولن يكون العرب إلا معذورين إذا التمسوا حقهم من طريق آخر غير طريق الاعتماد على روح العدل والإنصاف عند بريطانيا

ابراهيم عبد القادر المازنى

في التاريخ السياسي

حوادث الشرق الأقصى

والحرب بين الصين واليابان

بقلم باحث دبلوماسى كبير

تضطرم الحرب فى الشرق الأقصى بين الصين واليابان منذ ثلاثة أشهر ؛ وهى حرب غير رسمية ، بدأت لأسباب تافهة ، واتسع نطاقها بسرعة ، وأضحت خطراً حقيقياً على السلام . ومن المحقق أنها لم تكن لتنشب لو لم ترد اليابان نشوبها . وأن اليابان تشهرها على الصين وفقاً لخطة مقررة ، وتحقيقاً لغايات بعيدة المدى ؛ وهى ليست فى الواقع إلا خطوة جديدة فى سبيل تنفيذ السياسة التى رسمتها اليابان لبسط نفوذها على الصين واستعمار مناطقها الغنية تباعاً ؛ وقد بدأت هذه السياسة منذ سنة ١٩٣١ حينما غزت اليابان ولاية منشوريا بحجة المحافظة على مصالحها وأرواح رعاياها من فوضى الإدارة الصينية ، وانتهت بفتح هذه الولاية واقتطاعها من الصين ، وإقامة حكومة صورية فيها تخضع لرأيها وتأتمر بأوامرها ؛ وكان فتح اليابان لمنشوريا اعتداء صريحاً على الأراضى الصينية تؤيده القوة الغاشمة وحدها ؛ ولكن اليابان لم تحفل بما أثاره الاعتداء يومئذ لدى الدول العظمى من ضروب الاحتجاج والتوجس ، ولم تحفل بنوع خاص بتدخل عصبة الأمم ولا بما اتخذته ضدها من قرارات تقرر مسئوليتها وعدوانها ، بل قابلت هذا التدخل بالانسحاب من العصبة ، ومضت فى تنفيذ خطتها بجرأة لامثيل لها . ولم تكتف بفتح ولاية منشوريا والاستيلاء عليها ، بل حاولت أن ترغم الصين على الاعتراف بهذا الفتح ، فبعثت جيوشها إلى الأقاليم المجاورة لتقضى على كل مقاومة صينية ، وغزت ثغر شنغهاى لكى تهدد حكومة نانكين الوطنية وتحملها على الخضوع لمطالبها ؛ ولكن الحكومة الوطنية قابلت القوة بمثلها ، واستطاعت أن ترد القوات اليابانية عن ثغر شنغهاى بعد معارك طاحنة ، ووقفت الأمور يومئذ عند هذا الحد وقنعت اليابان مؤقتاً بغنيمتها الأولى

ومن ذلك الحين واليابان تفصح بين آونة وأخرى عن خططها ونياتها نحو الصين بأعمال وأقوال لاتترك مجالاً للشك فى مقاصدها الحقيقية ؛ فهى لم تكد تستقر فى منشوريا حتى عادت تهدد الأقاليم الصينية الشمالية فى منطقتى شاهار وجيهول ، وتغير عليها من آن لآخر لمختلف الأعذار والحجج . ولما كانت الحكومة الصينية الوطنية فى ظروف لا تمكنها من إرسال جيوشها إلى تلك الأقاليم النائية ، فقد تركت أمر المقاومة للجيوش المحلية ؛ ولكن الجيوش المحلية قاصرة الأهبة والعدد ، ولا يضمن ولاؤها دائماً ؛ ومن ثم استطاعت اليابان بتفوقها الحربى أن تبسط على منطقة شاسعة من الأقاليم الشمالية شبه حماية عسكرية . كل ذلك وحكومة نانكين الوطنية تستغيث بعصبة الأمم وبالدول العظمى التى ضمنت بمعاهدة « الدول التسع » استقلال الصين وسلامة أراضيها ، فلا تجد مغيثاً غير الاحتجاج والتصريحات العقيمة ؛ واليابان فيما بين ذلك تتوغل تباعاً فى أراضيها لاتلوى على شيء

ومنذ عامين طلعت اليابان على الدول بتصريح جديد فى غاية الخطورة ، خلاصته أن اليابان لا تطيق بعدُ أى تدخل جديد من الدول الغربية فى شئون الصين ، وأنها تعتبر أي محاولة جديدة من جانب الدول الغربية لتوسيع نفوذها أو مناطق امتيازها فى الصين عملاً غير ودى بالنسبة إليها . ولم تقصد اليابان بهذا التصريح الذى صيغ على مثال تصريح منرو الأمريكي أن تعلن عطفها على الصين أو تضامنها معها ضد عدوان الدول الغربية ، كما قصدت السياسة الامريكية باعتناق مبدأ الرئيس منرو وطبقته منذ نحو قرن بهذا المعنى بالنسبة للدول الامريكية ، ولكنها قصدت غاية أخرى أبعد مدى ، وهى أن تجعل من الصين ميداناً لنشاطها الاستعمارى دون الدول الأخرى ، وأن تستأثر وحدها بتوسيع نفوذها السياسى والاقتصادى فى مناطقها الغنية ، وأن تقتطع من أراضيها ما استطاعت كما فعلت بالنسبة لكوريا ومنشوريا .

وعلى هذا الأساس الغريب أرادت اليابان أن تفهم فكرة الجامعة الأسيوية وأن تطبقها ، فهي ترى أنها أحق الأمم باستعمار الصين ، وأنه إذا كانت الصين لا تستطيع أن تنظم شئونها وتجمع كلمتها ولا أن تدافع عن نفسها الاستعمار الغربى ، فان اليابان تأخذ على نفسها تلك المهمة بوضع الصين تحت نفوذها وحمايتها ، وبذلك يمكن في نظر اليابان أن تحقق فكرة الجامعة الأسيوية ومبدأ آسيا للأسيويين . وقد كان لهذا التصريح وقع عميق فى أوربا وأمريكا ، ولكنه مر كما تمر باقى الحوادث فى الشرق الأقصى أمام نظر الدول وسمعها ولم يثر سوى الاحتجاجات الدبلوماسية العادية . ذلك أن أوربا مشغولة بمشاكلها الخاصة ، والدول العظمى متخاصمة مفرقة الكلمة ، ولم يعد للجبهة الأوربية القديمة قيمة دبلوماسية ذات شأن ؛ واليابان تعرف هذه الظروف وتستغلها ، وتعرف أن سياسة المفاجأة والأمر الواقع في الشرق الأقصى لايمكن أن تلقى فى مثل هذه الظروف من أوربا الممزقة المشغولة بخصوماتها وخلافاتها الخاصة مقاومة يعتد بها

وعلى هذا المنوال قامت اليابان فى العام الماضى بحركتها لفصل الصين الشمالية عن الصين الجنوبية ، وحاولت بالقوة القاهرة أن تملى إرادتها على زعماء الشمال وعلى حكومة نانكين وأن تفرض على الولايات الشمالية نوعاً من الحكم المستقل يكون تحت إشراف السلطات العسكرية اليابانية ، وقرنت الوعيد بالعمل فغزت الأقاليم الشمالية وهددت بكين العاصمة القديمة ، ووجهت بلاغاً نهائياً إلى الحكومة الوطنية ؛ بيد أن الحكومة الوطنية أبت أن تذعن للوعيد ؛ ولكنها اضطرت أن تترك الشمال لمصيره ، واستطاعت اليابان أن تحقق مشروعها بإرغام زعماء الشمال على إنشاء إدارة مستقلة عن حكومة نانكين

ولم تمض على هذه الحركة التى تفصح عما وراءها بضعة أشهر حتى شهرت اليابان على الصين تلك الحرب الجديدة التى يتسع نطاقها يوماً عن يوم ، والتى شملت الشمال والجنوب ، والبر والبحر والهواء ؛ وانتحلت اليابان لإثارتها عذراً تافها هو أن حامية بكين أطلقت النار على جنود يابانية كانت تقوم بمناورات فى البقعة المجاورة وظهر فيما بعد أن جنود الحامية اعتقدوا خطأ أن اليابانيين ينظمون على الحامية هجوماً حقيقياً . ولو كانت اليابان تعمل عن حسن نية وتقصد الانتصاف لجنودها فقط لاكتفت بالاجراءات الدبلوماسية التى تتخذ فى مثل هذه الأحوال من طلب الاعتذار والتعويض ؛ ولكن اليابان ، وهي تعمل وفقاً لخطة استعمارية مرسومة ، اتخذت هذا الظرف ذريعة للقيام بحركة جدية واسعة النطاق لتحقيق خطتها ، فوجهت إلى الحكومة الوطنية إنذاراً نهائياً بقبول مطالبها الخاصة بفصل الأقاليم الشمالية ، وغزت جنودها فى الحال إقليم شاهار ، وبعثت جيشاً وأسطولاً إلى شنغهاى أعظم الثغور الصينية ، ونفذت قواتها البحرية إلى النهر الأصفر (ينج تسى) متجهة إلى نانكين عاصمة الصين الوطنية ، وضربت الحصار البحرى على جميع شواطىء الصين ، ونظمت على المواصم الصينية الآهلة مثل كنتون ونانكين وبكين عدة غارات جوية فتكت بالسكان الآمنين ، وما زالت الجيوش اليابانية تتدفق على الصين من الشمال والجنوب ، ونطاق الحرب يتسع بسرعة مروعة . أما الحكومة الصينية الوطنية فقد رفضت منذ البداية كل المطالب اليابانية وأعلنت عزمها الثابت على مقاومة الاعتداء بكل قوتها ؛ وأعلن الماريشال تشانج كايشك رئيس الحكومة الوطنية وقائد جيوشها أن الصين سوف تقاوم حتى يجلو آخر ياباني عن الأراضى الصينية . وهكذا اضطرمت الحرب فى الصين بين الجيوش اليابانية المغيرة وبين الجيوش الصينية المدافعة ، ومع أنها لم تعلن بعد بصفة

رسمية ، فإنها تكاد تشمل اليوم كل المناطق الهامة فى الشمال والجنوب

ويتلخص الموقف الآن فيما يأتى: غزت الجنود اليابانية شاهار وزحفت على شانص شمالاً ؛ ونفذت إلى شانتهاى والنهر الأصفر جنوباً ، وهذه هى أهم ساحات القتال لأن فيها تقع معظم مناطق الدول الممتازة مثل بريطانيا العظمى وفرنسا وأمريكا . وتجد اليابان مصاعب جمة فى التقدم فى هذا الاتجاه نحو نانكين عاصمة الصين الوطنية ، لأن الدول تأبى اخلاء مناطق امتيازها وتنذر اليابان بسوء العاقبة إذا وقع الاعتداء عليها . وقد ارتكبت الجنود اليابانية أكثر من حادث أثار احتجاج الدول مثل إلقائها القنابل على سيارة السفير البريطانى وجرحه . وتشتد المقاومة الصينية فى هذه المنطقة بنوع خاص لأنها مركز الحكومة الوطنية ومجمع قواتها . وقد كانت اليابان تؤمل أن تحرز نصراً سريعاً يرغم الصين على قبول مطالبها ؛ ولكنها ما زالت بعد ثلاثة أشهر من القتال حيث بدأت ، ولم تذعن الصين ولم يهن عزمها ؛ وقد اضطرت اليابان إزاء ذلك أن تعلن أنها ستمضى فى الحرب إلى النهاية ؛ وألقى البرنس كونوى رئيس الحكومة اليابانية تصريحات رسمية حدد فيها أغراض اليابان من الحرب بما يفيد أن اليابان ترمى إلى تحطيم الجيوش الصينية الوطنية وحزب الكونفتباح (الحزب الوطني) لأنها هى التى تثير روح الخصومة والمقاومة ضد اليابان ، وأن اليابان على استعداد لمهادنة حكومة صينية جديدة تقبل التعاون معها ؛ فاذا لم تقبل الصين هذا التعاون السلمى فان اليابان على أهبة لحرب طويلة الأمد . والمفهوم من هذه التصريحات أن اليابان تؤمل أن تفضى هزيمة الجيوش الوطنية إلى قيام حكومة صينية جديدة مستعدة لقبول مطالب اليابان فى استقلال الصين الشمالية والاعتراف بحكومة منشوكيو (منشوريا) ، ومنح اليابان امتيازات اقتصادية كبيرة ، وقبول المستشارين اليابانيين فى معظم الادارات الهامة ؛ أو هى تؤمل بعبارة أخرى قيام حكومة تخضع لوحيها ورأيها وسلطانها

ولكن تطور الحوادث لا يؤيد هذه الآمال ، بل لقد أفضى اعتداء اليابان بالعكس إلى نتائج هامة لم يكن يتوقعها اليابان ؛ فان الخطر على كيان الصين القومية أثار فى الصين روحاً جديداً ، وجمع كلمة الزعماء والقادة المحليين ، فانضموا جميعاً إلى الحكومة الوطنية فى مقاومة الغزو اليابانى ، ومن أسطع الأمثلة على ذلك أن الحزب الشيوعى الذي كان أخطر منافس للحكومة الوطنية ، أعلن انحلاله ووضع قواته العسكرية تحت تصرف الحكومة الوطنية ؛ وهكذا تلقى اليابان أمامها بدلاً من الصين الممزقة المتخاصمة جبهة موحدة تجمع على الكفاح والمقاومة ؛ وهكذا يثير الخطر الخارجى ضرام الوطنية الصينية مرة أخرى بعد مافترت فى الأعوام الأخيرة ، ويمد الصين بقوى معنوية عظيمة فى هذا الصراع الذي يقصد به تمزيق وحدتها والقضاء على كيانها القوي . وسيكون الفصل فى هذا الصراع للقوة المادية قبل كل شيء ، ولكن لاريب أن اليابان تزج بنفسها فى مغامرة عظيمة خطيرة العواقب ، وهي قد تحرز اليوم بتفوقها الحربى بعض الانتصارات العاجلة ، ولكن الصين قطر بل قارة عظيمة مترامية الأطراف ، ذات موارد هائلة ، وكلما طالت الحرب تثقل عبئها على اليابان وعلى مواردها المحدودة ؛ هذا إلى أن الصين الوطنية قد اكتسبت فى الحروب الأهلية المتوالية خبرة عسكرية لابأس بها ؛ وسوف نرى فى المستقبل القريب ماذا تسفر عنه هذه الحرب الاستعمارية التى لاسند لها من الحق أو العدالة أو القانون

(***)

ياقـــوت

للأستاذ محمد كرد علي

كان مولد ياقوت عبد الله شهاب الدين في بلاد الروم سنة ٥٧٤ وأخذ أسيراً وهو صبي فقيل له الرومي ، واشتراه في بغداد تاجر يعرف بعسكر الحموي فنسب إليه فقيل له ياقوت الحموي أيضاً . ونشأ نشأة إسلامية فجعله سيده في الكتاب يتعلم ما يستفيد هو منه في ضبط متاجره ، وقرأ شيئاً من النحو واللغة ، وشغله مولاه بالأسفار ثم أعتقه في سنة ٥٩٦ ، فاشتغل بالنسخ بالأجرة ، وحصل بالمطالعة فوائد ، وعاد مولاه فأعطاه شيئاً وسفره إلى كيش وعُمَان ؛ ولما عاد ياقوت من سفرته كان مولاه قد مات ، فأعطى أولاد مولاه وزوجته ما أرضاهم به ، وبقيت بيده بقية جعلها رأس ماله وسافر بها وجعل بعض تجارته كتباً ، وسهل عليه بتجارته أن يطوف الشام والعراق والجزيرة وخراسان ، واستوطن مرو ودخل خُوارَزمْ وغيرها ، أو كما قال عن نفسه إنه جاب البلاد ما بين جيحون والنيل . وأقام مدة في حلب عند الصاحب الأكرم القفطي المصري وزير حلب ، وأهدى اليه كتاب معجم البلدان ، وفي حلب مات سنة ٦٢٦ هـ

لقي ياقوت في حياته هناء وشقاء ، شهد وقائع التتر في خراسان ، ووصف ما فعلوه في بلاد الاسلام ، وانهزم منهم لا يلوي على شيء ، وفقد ثروته حتى عد من المفلوكين . وكان مرة في دمشق فناظر بعض من يتعصب لعلي بن أبي طالب ، وجرى بينهما كلام ، فثار الناس عليه ثورة كادوا يقتلونه فلم منهم ، وخرج من دمشق منهزماً إلى حلب . وقال عن نفسه إنه كان قدم نيسابور في سنة ٦١٣ وهي مدينة الشاذياخ فاستطابها ، وصادف بها من الدهر غفلة خرج بها عن عادته ، واشترى بها جارية تركية ما رأى أن الله تعالى خلق أحسن منها خَلقاً وخُلقاً ، وصادفت من نفسه محلاً كريماً ، ثم أبطرته النعمة فاحتج بضيق اليد فباعها فامتنع عليه القرار ، وجانب المأكول والمشروب حتى أشرفت بنفسه على البوار ، فأشار عليه بعض النصحاء باسترجاعها فعمد لذلك ، واجتهد بكل ما أمكن ، فلم يكن إلى ذلك سبيل ، لأن الذي اشتراها كان متمولاً ، وصادفت من قلبه أضعاف ما صادفت منه ، وكان لها إليه ميل يضاعف ميله إليها ، فخاطبت مولاها في ردها على ياقوت بما أوجبت به على نفسها عقوبته ، فقال في ذلك قصيدة منها :

أئِنُّ ومن أهواه يسمع أنتي ... ويدعو غرامي وجده فيجيب
وأبكي فيبكي مسعداً لي فيلتقي ... شهيق وأنفاس له ونحيب

ومن جملة ما ألف ياقوت من الكتب ثلاثة مطبوعة ، أولها « معجم البلدان » وثانيها « المشترك وضعاً والمختلف صقعاً » وثالثها « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » أو طبقات الأدباء . رتب معجم البلدان على حروف المعجم ، وذكر فيه أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان ، والقرى والمحال والأوكان والبحار والأنهار والغدران والأصنام والأوثان مضبوطة بالشكل . واعتمد في تأليفه على من كتب قبله في الجغرافيا من العرب ، وعلى اللغويين ودواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الأدب ، والتقط من أفواه الرواة وتفاريق الكتب ، وما شاهده في أسفاره وحققه بنفسه من أسماء البلدان ما عظمت به فائدته . وفي كل ما كتب ظهرت إجادته وما ينقله عن غيره قد يكون فيه نظر ، ويتبرأ هو من عهدته . فقد قال مثلاً في مدينة الصفر : ولها قصة بعيدة من الصحة لمفارقتها العادة ، وأنا بريء من عهدتها ، إنما أكتب ما وجدته في الكتب المشهورة التي دونها العقلاء . وقال فيما نقل عن الصين : هذا شيء من أخبار الصين الأقصى ذكرته كما وجدته لا أضمن صحته ، فإن كان صحيحاً فقد ظفرت بالغرض وإن كان كذباً فتعرف ما تقوله الناس ، فإن هذه بلاد شاسعة ما رأينا من مضى إليها فأوغل فيها وإنما يقصد التجار أطرافها . فكأن ياقوت بما ينقل من الأوهام والخرافات إلى جانب الحقائق الثابتة يريد ألا يخلي كتابه من كل أطروفة ولو كانت سخيفة ليستفيد منه الجاهل ، ويتفكه به العالم ، ويتملم المتعلم الأديب ، ويقتبس الباحث . وتوسع خاصة في الكلام على المدن التي أنشأتها العرب وحرص على الإلمام بأخبار فتوح البلاد وحاصلاتها وأموالها وعمرانها وعادياتها ومصانعها وأخلاق أهلها ، وما وقع فيها من الوقائع التاريخية المهمة وما قيل فيها من الأشعار البديعة ، فأمتع قارئه بكل مفيد ، بحسب ما وصل إليه علمه وعلم جيله ، أو قرأه في كتاب ، أو استقراه بنفسه ونقله عن الثقات . وهذا القسم جاع ما في معجمه مما أدركه في عصره ، أو اقتبسه من

الأصول المتقنة فى خزائن مرو ، قال : وكانت سهلة التناول لايفارق منزلى منها مائتا مجلد وأكثر ، وبغير رهن تكون قيمتها مائتى دينار . وما كان يفارق مرو لولا ماعرا من ورود التتر إلى تلك البلاد ، وما كان لهم من الأثر القبيح في خرابها . ويتألف من الأبيات والقصائد التي استشهد بها ياقوت فى معجم البلدان ديوان جيل ، يحوي كل ما يفيد من رائق الشعر ، وكذلك من عجائب البلدان الخليقة وأخلاق الناس ، ودرجة الرفاهية والثروة فى عصره ، وأفاض فى كلامه على البلدان بذكر من خرج منها أو نسب إليها من الأعيان ، ولا سيا رجال الحديث . وكتابه خاص ببلاد الاسلام والشرق وذكر بعض أسماء المدن فى بلاد الافرنج وهو يتحفظ فيا ينقل عن حال البلاد الأخرى . ومما قال فى الروم : « وفي أخبار بلاد الروم أسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها فليعذر الناظر فى كتابى هذا ، ومن كان عنده أهلية ومعرفة ، وقتل شيئاً منها علىّ ، فقد أذنت له في إصلاحه مأجوراً »

أما كتاب « المشترك وضعاً والمفترق صقعاً » فقد انتزعه بنفسه من معجم البلدان ، واقتصر فيه على ما اتفق من أسماء البقاع لفظاً وخطا ، ووافق شكلاً ونقطا ، وافترن مكاناً ومحلاً ، توفيراً لوقت المطالع الذى يحب السرعة فى تلقف الفوائد ، وبعداً به عما ذكره فى معجمه الكبير من الاشتقاق والشواهد والنكت والفوائد والأخبار والأشعار . ودعا ياقوت على من يختصر بعده كتابه معجم البلدان ، وما خلا مع هذا من بضعة مؤلفين حاولوا ذلك وفيهم صفي الدين عبدالمؤمن سمى مؤلفه « مراصد الاطلاع » قال ياقوت فى الكلام على اختصار كتابه : اعلم أن المختصر لكتاب كمن أقدم على خلق سوىّ فقطع أطرافه فتركه أشل اليدين أبتر الرجلين ، أعمى العينين ، أصلم الأذنين ، أو كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلاً ، أو كالذى سلب الكمي سلاحه فتركه أعزل راجلاً . وقد حكي عن الجاحظ أنه صنف كتاباً وبوبه أبواباً ، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء وجعله أشلاء ، فأحضره وقال له : يا هذا إن المصنف كالمصور ، وإنى قد صنفت فى تصنيفى صورة كانت لها عينان فعورتهما ، أعمى الله عينيك ، وكان لها أذنان فصلمتهما ، صلم الله أذنيك ، وكان لها يدان فقطعتهما ، قطع الله يديك ، حتى عدّ أعضاء الصورة . فاعتذر إليه الرجل بجهله هذا المقدار ، وتاب إليه عن المعاودة إلى مثله

بقى أن نطلق القول في كتاب ياقوت الثالث وهو (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) وقد جمع فيه ما وقع إليه من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والاخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة وأرباب الخطوط المنسوبة وكل من صنف فى الأدب تصنيفاً ، مثبتاً وفياتهم ومواليدهم وتصانيفهم وأخبارهم وأنسابهم وأشعارهم . قال : فأما من لقيته أو لقيت من لقيه ، فأورد لك من أخباره وحقائق أموره مالا أترك لك بعده تشوقاً إلى شيء من خبره . وقال إنه جمع للبصريين والكوفيين والبغداديين والخراسانيين والحجازيين واليمنيين والمصريين والشاميين والمغربيين وغيرهم على اختلاف البلدان ، وذلك على حروف المعجم أيضاً . وقال فى الاعتذار عن نفسه ، وعمن يقول له إن الاشتغال بأمر الدين أهم : « إن هذه أخبار قوم عنهم أخذ القرآن والحديث ، وبصناعتهم تنال الإمارة ويستقيم أمر السلطان والوزارة وبعلمهم يتم الاسلام ، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام » وإن كتابه هو علم الملوك والوزراء والكبراء يجعلونه ربيعاً لقلوبهم ، ونزهة لنفوسهم .

وارشاد الأريب من أوسع كتب التراجم ؛ وقد لا تتعادل التراجم فيه ، فيكتب فى الرجل العشرين والثلاثين صفحة حتى لم يبق زيادة لمستزيد ؛ وقد يكتب في العظيم أيضاً أسطراً معدودة وخصوصاً فى أواخر الكتاب حتى ليظن من لم يقف على ترجمة المترجم به أنه من المغمورين . وما أدرى إن كان أتى ذلك من المؤلف أم من النساخ والناشرين . وعلى كل فارشاد الأريب أو الجزء الذى طبع منه كنز ثمين للأدب ، ومنجم فيه الركاز والذهب ، فرائد يلتقطها صاحبها ولا سيا وأن ياقوت نقل من كتب جليلة ضاع بعضها على نحو ما نقل من كتب مرو وقال إن أكثر فوائد معجم البلدان منقول من خزائنها

وقال فى كتابه إرشاد الأريب أيضاً : وربما قال بعضهم إنه تصنيف روىّ مملوك ، وما عسى أن يأتى به ؟ إن القوم لا ينظرون ما قيل إنما يسألون عمن قال . ولو عاش ياقوت ورأى بعد أكثر من سبعة قرون كتابيه معجم الأدباء ومعجم البلدان اللذين لا يستغنى عنهما باحث ولا أديب وأنهما من الكتب الأمهات التى حوت كل طريف مفيد تزيد على القرون حسناً وتبين حاجة الناس إليها ، لاغتبط وعرف أن ما كان يقوله الناس فيه ، قالوه فى أمثاله فى كل عصر ثم ذهب لغط المتقولين والطاعنين وثبت علم العالمين والمتأدبين والباحثين .

محمد كرد على

إلى لبنـــــان

صــور وخواطــر

للأستاذ على الطنطاوى

لقينى الأستاذ عز الدين التنوخى ، وكنت قادماً من سفر .

فقال لى : هلمّ !

قلت : إلى أين ؟

قال : إلى الجبـل نزور أمير البيان ، ورجل الاسـلام شكيب أرسلان

قلت : ما أعدل والله بزيارته شيئاً ؛ ولكنى آت من سفر ولم أبلغ دارى

قال : اطمئن فان الدار فى محلها لم تطر ، وما عليك أن تراها غداً ؟

قلت : ما على من شىء ، وسرت معه . ولم أعد أرى السفر شيئاً ، لأنى أصبحت فى هذه السنين الأواخر كذلك الذى كان (موكلاً بفضاء الله يذرعه) فلا أكاد ألقى عصا التسيار وأحط الرحال من سفر ، حتى أتهيأ لآخر . اطوّف ما اطوّف ، ثم آوى إلى هذه الغرفة الصغيرة أجلس بين ركام الكتب أحسب ما كسبت من هذا العناء الطويل ، فلا أجدنى كسبت إلا صوراً فى الذاكرة أضمها إلى صور ، وذكرى فى النفس أجمعها بذكرى ، وصفحة فى دفترى أضيفها إلى صفحة أسعد بتدوينها ، وأسرّ بيقائها ، وإن كنت لا أدوّن إلا الأقل مما أراه وأشعر به ، ولا أذكر إلا التافه مما يمر بى . وإن كنت أعلم أن صور الذاكرة إلى امحاء ، وذكريات النفس إلى ضياع ، وقصنص الدفتر إلى السكين والنار لا يزهدنى ذلك بها ، ولا يصرفنى عنها ، لعلمي أن الحياة نفسها ستموت ، والوجود سيعدم ، ولا يبقى فى الوجود إلا الموجد

***

وكنا خمسة فى السيارة : الأستاذ التنوخى ، وأنا ، والأستاذ الشيخ بهجة البيطار ، والأستاذ الشيخ بهجة الأثرى ، والشيخ ياسين الرواف معتمد المملكة السعودية فى دمشق سابقاً ...

خرجنا من دمشق مع الغروب ... وكان اليوم جمعة ، وكانت ليلة قمراء ، فسالت الطرق بالدمشقيين على عادتهم فى مثل هذه الليالى فامتلأت جوانب بردى ، والمرجة الخضراء ، والربوة ، ووادى الشاذروان أجمل أودية الدنيا وأحلاها — بخير الفتيان ، وأجمل الفتيات ، وأحلى الأطفال ؛ فلم يكن أمتع للعين ، ولا أشهى للقلب ، من ذلك المشهد . فسرنا فى هذا العالم الساحر ، مترفقين متمهلين ، لأننا لا نمشى فى طريق وإنما نمشي فى بحر من العيون والقلوب والمفاتن جمع كل جميل بارع أخاذ ، حتى بلغنا دمّر :

والحور فى دمّر أو حول هامتهـا
حور تكشف عن ساق وولدان (١)

فوقفتنا نمتع الأنظار بحوْرِها وحورها ، وشموسها وبدورها ؛ وأنت مهما عرفت دمشق لا تزال ترى فيها أبداً جمالا تجهله ولا تعرفه ، ففى كل يوم جمال جديد ، وفى كل مكان فتنة جديدة ، فلا تدرى أين تقف ، وماذا تنظر ، وأيا تفضل ؟ أوادي الشاذروان أم جنائن الغوطة ، أم جبال بلودان ، أم العين الخضراء ، أم سهول الزبدانى ، أم العيون التى لا يحصيها عدد ؟ ...

سقى الله ماتحوى دمشق وحياها ... فما أطيب اللذات فيها وأهناها
نزلنا بها واستوقفتنا محاسن ... يحنّ إليها كل قلب ويهواها
لبسنا بها عيشاً رقيقاً رداؤه ... ونلنا بها من صفوة اللهو أعلاها
سلام على تلك المعاهـد إنها ... محط صبابات النفوس ومثواها
رعى الله أياماً تقضت بقربهـا ... فما كان أحلاها لديها وأمراها (٢)

***

خلينا الهامة وجرايا بلدة ابن واسانة (٣) والوادى كله عن أيماننا ، وأسندنا إلى الجبل نستقبل الصحراء إلى ميسلون بلاط شهدائنا ، ومشهد أبطالنا ، ومبدأ تاريخنا الحديث ، ومثوى الأسد الرابض يوسف العظمة ، الذى وقف هو وأشبال دمشق العزل الأقلاء فى وجه ثانى دولة قوية ظافرة ، فما ضعفوا ولا استكانوا

---

(١) شوقى رحمه الله

(٢) ابن النقار

(٣) ولابن واسانة هذا قصيدة طويلة جداً ، من أعجب الشعر القصصى الواصى يصف فيها جماعة دعاهم إلى قريته ففعلوا معه الأفاعيل ، وهى قصيدة نادر مثالها تلقاها فى يتيمة الدهر للثعالبي (ج ١ ص ٣٠٠) المطبعة المصرية

ولا جبنوا ؛ وما زالوا يقاتلون ويدافعون عن العرين ثابتين ماثبتت الروح في أجسامهم ، حتى أعجزهم أن يعيشوا أشرافاً فماتوا أشرافا ؛ فكان موتهم حياة لهذه الأمة التي حفظت العهد وحملت الأمانة ؛ وكانت قبورهم مناراً أحمر في طريق هذا الشعب المجاهد المستميت لن يقف أو يتباطأ حتى يأخذ (الكل) الذي (أعطى) الآن (بعضاً) منه ، ولن ينام حتى يرى هذه الصحراء قد آضت جنات ألفافا ، تحمل الزهر الذي لا يسقى إلا بالماء الأحمر الملتهب تحمل أزهار الحرية

سيبقى هذا اللحد لتمر عليه الأجيال الآتية ، الأجيال الحرة العزيزة ، فتذكر جهاد أسلافنا ، وتعرف الثمن الذي دفعوه ، ولتعلم أن القوة إن غلبت الحق حيناً ، فان الحق يصنع القوة التي يغلب بها دائماً

سأذكر ما حييت جدار قبر	بظاهر جلق ركب الرمالا
مقيم ما أقامت ميسلون	يذكر مصرع الأسد الشبالا
تغيب عظمة العظمات فيه	وأول سيد لقى النبالا
مشى ومشت فيالق من فرنسا	تجر مطارف الظفر اختيالا
أقام نهاره يلقى ويلقى	فلما زال قرص الشمس زالا
فكفن بالصوارم والعوالى	ووسد حيث حال وحيث صالا
إذا مرت به الأجيال تترى	سمعت لها أزيزاً وابتهالا(1)

* * *

ثم أخذت السيارة تصعد بنا في مسالك ملتوية مستديرة تزيغ الأبصار من استدارتها وعلوها ، حتى إذا ظننا أننا بلغنا قنة الجبل تكشفت لنا قنن فاذا نحن لا نزال في الحضيض ، وما فتئنا نعلو ونتسلق وندور حتى حاذينا (بلودان) درة المصايف الشامية ، وبدا لنا فندقها الفخم الضخم أكبر فندق في سورية كلها (إي ولبنان) الذي بنته الحكومة ليملأ الخزانة مالاً والجيوب ذهباً فملأ النفوس فساداً ، والأخلاق انحطاطاً ؛ لما أنشأوا فيه من بلايا وطامات زعموها حضارة ورقيا ، ورأيناها الموت الأحمر والبلاء الأزرق فكنا حين نبيع الأخلاق بالمال كمن يطرد ابنه من بيته ويربي فيه ذئبا...

ثم عدنا نهبط ، وهذه سنة الحياة : « ماطار طير وارتفع إلا كما طار وقع » ولا علا رجل إلا هبط ، إلا رجلاً علا بعلمه وبأخلاقه ومواهبه ، فذاك الذي لايهبط أبداً بل يزداد رفعة ، لأن علمه لن ينسى ، وأخلاقه لن تذهب ، ومواهبه لن تضيع ، أما من علا على قوائم الكراسي وأعناق الشعب ، فأحر به أن يسقط مهما استمر علوه وطال بقاؤه

أقول : إننا مازلنا نهبط حتى انتهينا إلى سهل البقاع الخصب الأفيح الجميل ، الذي يفصل لبناننا (الشرقي) الأجرد المهيب الرهيب الذي ادرع المهابة ، واتشح بوشاح الخلود ، ولاحت عليه سمات الجلال ، والجد والوقار ، ولبنانهم (الغربي) المرح الفرح الأخضر الجميل ، الذي اتزر بالسحر ، وارتدى رداء الشعر ، وكلاهما أخاذ فاتن ، ولكن الأول جليل والثاني جميل ، والجنات الخالدات والفراديس الباقيات ، في دمشق على سفح لبنان الشرقي ... قال شوقي :

نبتت لبنان جنات الخلود وما نبتت أن طريق الخلد لبنان

وأنت حين يحتويك لبنان الغربي تحس بجماله وروعته ولكنك تشعر أنك أنت له ، وأنك جزء منه ، ولكنك تحس حين تكون في لبناننا أنه هولك ، وأنه جزء منك ، وشتان بين ماتكون أنت في قلبه ، وما يكون هو في قلبك ، وأنت حين تكون في لبنان الغربي تجد يد الانسان لم تبق من جمال الطبيعة إلا قليلاً ، وتجد ماتجد أكثره في المدن الكبرى ، ولكنك حين تكون في لبنان الشرق تجد الطبيعة الحلوة الفاتنة التي لم تبدلها يد الانسان ، وإنما احاطتها باطار يحفظها ويظهر جمالها

وقد زعموا الجبلين جبلاً واحداً ، صدعته حوادث أرضيه (جيولوجية) من زمن قديم ، لا أدرى متى كان لأنى لم أدركه ولا أدركه أبي ، أعنى آدم عليه السلام الذي توفى في الأمس القريب . وعلى ذكر آدم ... أليس من العار علينا أن نقيم حفلات الذكرى والتكريم لفلان وفلان ممن خدموا البشرية وننسى هذا الرجل العظيم الذي كان له أكبر الأثر في خدمة البشر ؛ ولم لايفكر الناس في إقامة حفلة تذكارية كبيرة لهذا الرجل ، يشترك فيها عارفو فضله ، ومن (بقى) حقيقة من نسله ؟

* * *

قلت : إن الجبلين كانا جبلاً واحداً ، والأمتين فيها أمة

(1) شوقي رحمه الله

واحدة ، ولـكنك واجد فى هذه المسافة التى لاتتجاوز الساعتين جمهوريتين مختلفتين ، وعَـلَمين متباينين ، وحدوداً كحدود الـمانيا وفرنسا ...

ألقاب مملكة ... ...

وسبحان خالق الهر ، وخالق الأسد ، وخالق كل شيء !

* * *

وأنخنا رواحلنا (أعنى وقفنا سيارتنا ، ولم يكن معنا رواحل ولا رحال) فى شتورة ، عروس السهل ، نستريح فيها قليلاً قبل أن نتسلق بالسيارة الجبل التى لاتبلغ الطير ذراه ، ونصبح فى نصف طريق السماء . وإذا أنت شئت أن تتصوّر مبلغ مانعلو ، فتصوّر شارعاً طوله قرابة كيلين اثنين ، قد وقف على رأسه ، وكنت أنت فوقه تطلّ على الدنيا من عل ...

علونا فى جبال شجراء ضاحكة ، نجتاز القرى المتناثرة على السفوح والذرى ونرى الينابيع تتدفق من أعالي الصخور ، وتسيل فى بطون الأودية خالة سكرى . وما زلنا فى علو ولفّ ودوران ، حتى بلغنا ظهر البيدر حيث صرنا فوق السحاب ، لا على المجاز أو المبالغة كما يقول الشعراء ، بل على الحقيقة التى يشاهدها الناس كلهم فقد كان السحاب يمسّ الذرى التى تحتنا ويلفح وجوهنا ويحجب عنا السهل والسفوح ، وكنا نعلو عليه أحياناً فلا يبلغنا ولا يمسنا ، ونراه يمر من تحتنا ، أشبه شيء بالغبار الأبيض تحمله الريح . حتى درنا تلك الدورة الـكبيرة ، وأشرفنا على وادي (صوفر — حمانا) المظيم أوسع أودية لبنان وأجلها وقد ازدهى بالصنوبر وانتثرت على سفوحه عشرات القرى ولاحت مبانيها المظيمة وقصورها الشم

والروابى توسدت راحة السحـــب ونامت على وشاح مرقق
والذرى البيض فى الملاء نسور حومت تكشف الخفى المغلق
نشرت فى الفضاء أجنحها الزهــــر فأسنى بها الوجود وأشرق
والقرى غلغلت بأخبية الغيــب وضاعت بين الغمام المنمق
والينابيع ضاحكات من الزهـــو ترامى فيها السنا وتألق
وتراءى البحر البعيد كـحلم مبهم راجف الخيال ملفق
سرقته السماء فى الأفق النا ئى فمن أبصر الخفيات تسرق[1]

* * *

تمر على الانسان ساعات بل لحظات ينسى فيها هذا العالم المادى ، وهذه الحياة القصيرة الناقصة ، ويحس كأنه يعيش بنفسه حياة أكمل وأجمل ، تخالط نفسه مشاعر لا عهد له بها ، ولا يقدر على وصفها ، وتغمر قلبه لذة لا يعرف أى شيء هى ، فيشعر أنه انتقل إلى عالم سحرى جنى عجيب ، كهذه اللحظات التى تمر علينا فى غمرة التأمل النفسى ، أو فى هزة الموسيقى ، أو فى نشوة الحب ، أو حين الاستغراق فى العبادة والمناجاة ...

هذه هي اللحظات التى تمرّ عليك حين تشرف على وادى (صوفر — حمانا) أو تجلس فى الشاغور ، أو تصعـد إلى عين الصحة فى فالوغ ...

لست أريد الدعاية للبنان ، وما لبنان فى حاجة إلى دعاية ، وما فى لبنان سرير فى فندق ، أو غرفة في دار إلا وقد امتلأت حتى أننا لم نجد فى صوفر وقد وصلناها ليلا مكاناً نبيت فيه ، وكلما دخلنا فندقاً خرجنا منه بخفى صاحبنا حنين الاسكاف ... حتى قادنا المطاف إلى فندق لطيف معتزل ، قاعد فى منتصف الطريق بين صوفر ويحمدون ، ولم يكن بعده فندق نأوى إليه . فتملقنا بصاحبه ، وتوسلنا إليه وأطمعناه حتى رضى أن يعد لنا مكاناً فى الردهة (الصالون) فقبلنا ، ووضعت لنا سرُرٌ صغار كسرر الجند وطلبة المدارس الداخلية جاء بها من بيته ، فحمدنا الله عليها

* * *

ولـما دخلنا الأوتيل : عمامتان عاليتان على دلّمى البهجتين : بهجة العراق وبهجة الشام ، وعقال نجدى فخم على هامة أمير من أمراء نجد ، ونحن الاثنان (الطربشان) الأستاذ عز الدين وأنا ، تملقت بنا الأنظار ودارت حولنا الأبصار ، وحفّ بنـا شباب يسلمون علينا . فقلنا : وعليكم السلام يا إخواننا ... فما راعنا إلا أنهم ضحكوا وضحك الحاضرون ...

فقلت لأحدهم : من فضلك قل لى ، لماذا تضحك ؟

هل تجد فى هيئتي ما يضحك يا سيدى ؟

فازداد الخبيث ضحكا ، فهممت به . فوثب الحاضرون وقالوا : يا للعجب : أتضرب فتاة ؟

قلت : وافضيحتاه ! فتيات بسراويل (بنطالونات) وحلل (بذلات) ؟ وأين الشعر وأين اللحم ؟

(١) أنور العطار

قالوا : أنت فى لبنان

قلت : عفواً ، لقد حسبت أنى فى لبنان[١]

وفررنا ونحن مستحيون . نحاول ألا نعيدها كرّة أخرى ولما خرجت فى الليل لحت فى طريق واحدة من هؤلاء النسوة فحيتني ، فقلت لها : مساء الخير يامدموازيل

فقالت : مادموازيل إيه ياوقح ؟

قلت فى نفسى إنها متزوجة وقد ساءها أن دعوتها بالمدموازيل (الآنسة) وأسرعت فتداركت الخطأ وقلت : بردون مدام

قالت : مدام فى عينك قليل الأدب ، بأى حق تمزح مى أنا (فلان) المحامى

قلت : بردون ، بردون

ووليت هارباً ، فذهبت إلى صاحب الأوتيل فرجوته أن يعمل لنا طريقة للتفريق بين الرجل والمرأة ، فدهش منى ووجم لحظة ؛ ثم قدر أنى أمزح فانطلق ضاحكا

قلت : إنى لا أمزح ، ولكنى أقول الجدّ وقصصت عليه القصة ...

قال : وماذا نعمل ؟

قلت : لوحات صغيرة مثلا من النحاس ، كالتى توضع على السيارات لبيان رقمها ، أو على الدراجات ... يكتب عليها رجل . امرأة . تعلق فى الصدر تحت الثدى الأيسر أو تتخذ حلية من الذهب أو الفضة عليها صورة ديك مثلا أو دجاجة ، أو ... أو شاة أو خروف ، أو شيء آخر من علامات التذكير والتأنيث ...

فراقه اقتراحى وقبله على أنه نكتة ، ولكنه لم يفكر بالعمل به لأنه لم يجد حاجة إلى هذا التفريق ما دام المذهب الجديد يقول بمساواة الجنسين ؟

***

ولم نطل الاقامة فى صوفر ، لأننا لم نجد الأمير شكيب فعدنا أدراجنا إلى دمشق

(دمشق) علي الطنطاوى

(١) عيت لبنان الشرقي العربى وعنوا لبنان الغربي (المستعرب)

الأدباء المحترفون

للأستاذ مصطفى جواد

الأدب فى كل أمة غذاء النفوس الصافية من كدر المادية المُبرّأة من أمراض الطمع والجشع ، السالمة من إسار المكايد والخدائع ؛ والأدباء فى كل شعب هم الطبقة الرفيعة فى المراتب البشرية ، المحلقة فى سماء الصفاء بأجنحة لطف أرق من الهواء . والمادية لاتؤمن بدين الأدب ولا عطف لها على البشرية ولا رحمة ، فالأدب نورانىّ والمادة بهيمية ترجع بالانسان إلى عصور كان يتنازع فيها الوحوش فرائسها ، ويعد الشبع والرى من الدنيا نفائسها؛ وكلما رقى العقل فى الصناعات انخفضت العاطفة واستبدت المادية واستحكمت الوحشية ، فلولا الأدباء بين الناس كالنجوم الزهر[١] فى السماء الدنيا لبدا ليل المادية أشد ظلاماً وأهول منظراً . ولعله سيأتى زمان يتخفى فيه الأدباء كما كان الأنبياء يتستّرون من الناس في أول الاستنباء ، ورأس المحنة وأيام الدعوة ، خشية الاستهزاء والازراء والتعذيب والتقتيل ، وإذن لايعصم الأدباء يوم ذاك من ضربة المادية الأشبه جمهورية أفلاطون وإلا مثل المدينة الفاضلة التى أفكر فيها فيلسوف فاراب . أما مافعله الشيوعيون لأدباء الشيوع فى روسيا منْ قصرهم فى قرية نزهةٍ وامدادهم بضرورى المادة ليستهتروا بالاستشاعة ويدعوا إلى التشارك فهو أخلق بالأدب المبتذل والشعور المتحلل والعواطف المطوفة والنفوس المأسورة والانفعالات المكبوتة ، فما أغنى الشيوعيين عما فعلوا وما كان أحرى الأدباء بالاباء على هذا الازدراء ! وكلما علت المادة امتاز الأدباء عن أهل المادة وعبدة الحيوانية ، فيعيشون منفردين معتزلين كالمتصوفة فى الربط الهادئة إلا من تسبيح وتحميد، وكالرهبان فى الأديار الواجمة إلا من تكفير وارتسام ، يزرعون فيحصدون ويغرسون فيجتنون ، لا تجارة تلهيهم ولا تكالب يقسيهم ولا انخداع يؤذيهم ، فهم حينذاك صفوة

(١) الزهر جمع أزهر وزهراء، ولا يجوز أن يقال « النجوم الزهراء » لأنه لم ينطق به فصحاء الأمة ولا أثبته قواعد لغتها ، وإن جاء فى الشعر قافية فهو من كبائر الضرائر

الصفوة ، وأيتام الانسانية وملائكة البشر ، يضيع أحدهم بين الناس كما يضيع الملك إذا هبط بين البشر ، بل هو أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ، فويل لأهل الأدب من شر قد اقترب .

الأدب عدوّ المادة ، والمادة غائلة الأدب . وأعنى بالأدب فى كل ما أسلفت من القول « مولدات العواطف ونتائج العقول من وصف حزن وأسباب حزنه، ونعت فرح وأسباب فرحه، مزخرفاً ببدائع الكون ، أو مطلياً ببهرجه وغلوائه ، ممهداً له بوصف الجمال وذكر القبح وتبيان حسن الخلق أو سوئه والتصريح بالمدح والقدح ، فيكون ذلك للأدب كالحلى للعروس أو كالحطب للنار » وحد هذا الأدب « حركة العواطف واشتغال العقل والتأسيس على الحقيقة والخيال » فهو — كما قدمنا — غذاء النفوس البشرية الراقية وحبيب الانسانية وربيب الحقيقة والامكان ؛ فالمحترف بحرفة المادة لايقدر على دخول جنة الأدب ؛ والأديب لايستطيع الخروج إلى جهنم المادة وما أعفه عن ذلك . فكيف يبلغ امرؤ أن يتردد بين الجنة والنار ويجمع بين السلم والحرب ؟! وإذا ما رأينا واحداً قد ألم بالبرزخ تنفح إليه نسمات جنة الأدب من أمام ، وتلفحه شرارات المادة من وراء ، فهو لا أديب ولا مادى بل صاحب اختيار فى الاختبار ، ثم يصير إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار ، فلذلك ومن ذلك قل الأدباء المحترفون لجمع المادة واحتجان البيضاء والصفراء ؛ وإنما سميناهم أدباء على سبيل أدب القدماء ؛ وهم فى رأينا « برزخيون » وصلهم الأدب كوصوله لمن قال « وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل » وماتوا وهم فى عهد الاختبار والفتن والمحنة .

ومن الأدباء من يضطره الزمان إلى الاحتراف فيستدفع الحرفة ضنك الزمان ، ولو ترك ونفسه وأنجى من ذل الحاجة ما لجأ إلى الحرفة ولا قاربها . ومن الأدباء المحترفين أبو القاسم نصر بن أحمد بن نصر بن مأمون الخبزأرزى ، نسبة إلى حرفته « خبز الأرز » فقد كان هذا أميّاً لا يتهجى ولا يكتب ، وكان يخبز الأرز بمربد البصرة فى دكان له ، وينشد الناس أشعاراً مقصورة على الغزل ، والناس يزدحمون عليه ، ويطربون باستماع شعره ، ويتعجبون من حاله وأمره ؛ وكان أبو الحسين محمد بن محمد المعروف بابن لنكك البصرى الشاعر المشهور — مع علو قدره عند البصريين — ينتاب دكانه ليسمع شعره ، وقد اعتنى به وجمع له ديواناً ؛ وذكره الثعالبى فى اليتيمة ، والخطيب فى تاريخ بغداد ، وياقوت الحموى فى معجم الأدباء ، وابن خلكان فى الوفيات . قال ياقوت : « وكان ممن يفضلون الذكور على الإناث ، فكان أحداث البصرة يلتفون حوله ، ويتنافسون بميله إليهم ، ويحفظون شعره لسهولته ورقته [1] » وقد نزل نصر هـذا بغداد وأقام بها دهراً طويلاً وقرئ عليه ديوانه فيهـا . حدّث الخطيب بسنده إلى أبى محمد عبد الله بن محمد الأكفانى البصرى ، قال : خرجت مع عمي أبى عبد الله الأكفانى الشاعر وأبى الحسين ابن لنكك وأبى عبدالله المفجع وأبى الحسن السباك [2] فى بطالة عيـد ، وأنا يومئـذ صبى أصحبهم ، فمشوا حتى انتهوا إلى نصر بن أحمد الخبزأرزي وهو جالس يخبز على طابقه ، فجلست الجماعة عنده يهنئونه بالعيد ويتعرفون خبره ، وهو يوقد السعف تحت الطابق ، فزاد فى الوقود فدخّنهم ، فنهضت الجماعة عند تزايد الدخان ؛ فقال نصر ابن أحمد لأبى الحسين بن لنكك : متى أراك يا أبا الحسين ؟ فقال له أبو الحسين : إذا اتسخت ثيابى ؛ وكانت ثيابه يومئذ جُـدَداً على أنقى ما يكون من البياض للتجمل بها فى العيد ؛ فمشينا فى سكة بنى سمرة حتى انتهينا إلى دار أبى أحمد بن المثنى ، فجلس أبو الحسين ابن لنكك وقال : يا أصحابنا ، إن نصراً لا يخلى هذا المجلس الذى مضى لنا معه من شيء يقوله فيه ، ونحب أن نبدأه قبل أن يبدأنا واستدعى دواة وكتب :

لنصر في فؤادى فرط حب ... أنيف به على كل الصحاب
أتينـــاه فبخرنا بخوراً ... من السعف المدخن للثياب
فقمت مبادراً وظننت نصراً ... أراد بذاك طردى أو ذهابي
فقال : متى أراك أبا حسين ... فقلت له : إذا اتسخت ثيابي

وأنفذ الأبيات إلى نصر فأملى جوابها فقرأناه فاذا هو قد أجاب :

منحت أبا الحسين صميم ودى ... فداعبنى بألفاظ عـــذاب
أتى وثيابه كقتير شيب ... فعدن له كريعان الشباب
ظننتُ جلوسه عندي لعرس ... فجئت له بتمسيك الثيـــاب
فقلت متى أراك أبا حسين ... فجاوبنى : إذا اتسخت ثيابي

(١) معجم الأدباء (٧ : ٢٠٨)

(٢) وردت فى تاريخ الخطيب « السباك » والصواب ما فى الوفيات وهو ما ذكرناه

فان كان التقزز فيه خير   فلِمْ يكنى الوصى أبا تراب(١)

وحكى الخالديّان الشهيران فى كتاب الهدايا والتحف أن الخبز أرزى نصر بن احمد هذا أهدى إلى ابن يزداد والى البصرة فصاً وكتب معه :

أهديتُ ما لو أن أضعافه   مطرح عنــدك ما بانا
كمثل بلقيس التى لم يبن   إهداؤها عند سـليمانا
هذا امتحان لك إن ترضهُ   بان لنا أنك ترضانا (٢)

قال ابن خلكان « وأخبار نصر ونوادره كثيرة وتوفى فى سنة سبع عشرة وثلثمائة . وتاريخ وفاته فيه نظر ، لأنه (٣) ذكر فى تاريخه أن احمد بن منصور النوشرى المذكور سمع منه سنة خمس وعشرين وثلاثمائة (٤) » قال الخطيب : « روى عنه مقطعات من شعره المعافى بن زكريا الجريرى وأحمد بن منصور النوشرى وأبو الحسن بن الجندي وأحمد بن محمد العباس الأخباري وغيرهم ؛ وذكر النوشرى أنه سمع منه ببغداد بباب خراسان فى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة (٥) » والصحيح أن وفاته كانت فى سنة ٣٢٧ كما ورد فى معجم الأدباء (٦) ، ومما أورده له ابن خلكان :

خليلى هل أبصرتما أو سمعتما   بأكرم من مولى تمشى إلى عبد ؟
أتى زائراً من غير وعد وقال لي :   أجلك عن تعليق قلبك بالوجد
فما زال نجم الوصل بينى وبينه   يدور بأفلاك السعادة والسعد
فطوراً على تقبيل نرجس ناظرٍ   وطوراً على تعضيض تفاحة الخد

* * *

ألم يكفني مانالنى من هواكم   إلى أن طفقتم بين لاهٍ وضاحكِ
شماتتكم بى فوق ما قد أصابنى   ومابي دخول النار فى طرّ مالكِ

* * *

كم أناس وفوا لنا حين غابوا   وأناس جفوا وهم حضّارُ
عرضوا ثم أعرضوا واستمالوا   ثم مالوا وجاوروا ثم جاروا
لاتلمهم على التجنى فلو لم   يتجنوا لم يحسن الاعتذارُ

* * *

بات الحبيب منادمي   والسكر يصبغ وجنتيه
ثم اغتدى وقد ابتدا   صنع الخمار بمقلتيه
وهبت له عينى الكرى   وتعرضت نظراً إليه
شكراً لإحسان الزما   ن كما يساعدنى عليه

* * *

كم أقاسى لديك قالاً وقيلا   وعدات ترى ومطلاً طويلا ؟
جمعة تنقضى وشهر تولّى   وأمانيك بكرةً وأصيلاً
إن يفتني منك الجميل من الفعـــل تعاطيتُ عنك صبراً جميلا
والهوى يستزيد حالاً فحالاً   وكذا ينسلى قليلاً قليلاً
ويكَ لاتأمننْ صروف الليالى   إنهـا تترك العزيز ذليلا
فكأني بحسن وجهك قد صا   ح به اللحية : الرحيلَ الرحيلا
فتبدلت حين بُدلت بالنو   ر ظلاماً وساء ذاك بديلا
فكأن لم تكن قضيباً رطيباً   وكأن لم تكن كثيباً مهيلا
عندها يشمت الذى لم تصله   ويكون الذى وصلتَ خليلا

* * *

رأيتُ الهلال ووجه الحبيب   فكانا هلالين عند النظر
فلم أدر من حيرتى فيهما   هلال الدجى من هلال البشر
ولولا التورّد فى الوجنتين   وما راعنى من سواد الشعر
لكنتُ أظن الهلال الحبيبَ   وكنتُ أظن الحبيبَ القمر
وذاك يغيبُ وذا حاضر   وما من يغيبُ كما من حضر

ومما ذكره له ياقوت الحموى :

شاقني الأهل لم تشقنى الديار   والهوى صائر إلى حيث صاروا
جيرة فرقتهم غربة البيـــن وبين القلوب ذاك الجوارُ
كم أناس رعوا لنا حين غابوا   ... ...

إلى آخر الأبيات المتقدّم ذكرها منقولة عن الوفيات

* * *

فلا تمنّ بتلفيق تكلّفه   لصورةٍ حسنها الأصلى يكفيها
إن الدنانير لاتجلى وإن عتقت   ولا تزاد على الحسن الذى فيها

وأورد له الخطيب :

بأبى أنتَ من ملولٍ ألوف   رُضتنى بالأمان والتخويفِ
حار عقلى فى حكمك الجائر العد   ل وفى خلقك الجليل اللطيف
أنتَ بالخصر والمؤزّر تحكى   قوّة الشوق بالفؤاد الضعيف
ليس عن خبرة وصفتك لكن   حركات دلّت على الموصوف
لك وجه كأنه البدر فى التمـــم عليه تطرّق من كسوف

وأغرب مافى حياة هذا الرجل المشهور بمزاورة اللذات وملابسة الشهوات وقوفه موقف الحكيم المتنصح والمفيف المتنطس فتسمع منه قوله :

(١) تاريخ الخطيب « ١٣ : ٢٩٨ — ٩ » ووفيات الأعيان « ٢ : ٢٨٢ » (٢) الوفيات « ٢ : ٢٨٢ » (٣) أى الخطيب كما سترى
(٤) الوفيات « ٢ : ٢٨٥ » (٥) تاريخ الخطيب « ١٣ : ٢٩٧ »
(٦) معجم الأدباء « ٧ : ٢٠٨ »

كم شهوة مستقرّة فرحاً قد انجلت عن حلول آفاتِ
وكم جهول تراه مشترياً سرور وقتٍ بغم أوقات
كم شهوات سلبن صاحبها ثوب الديانات والمروءات

وقد جمع جملة من الحكم وأشتاتاً من الأخلاق وركاماً من التجارب فى قوله :

لسان الفتى حتف الفتى حين يجهل وكل امرىء مابين فكيه مقتل
إذا مالسان المرء أكثر هذره فذاك لسان بالبلاء موكل [1]
وكم فاتحٍ أبواب شر لنفسه إذا لم يكن قُفل على فيه مُقفل
كذا من رمى يوماً شرارات لفظه تلقته نيران الجوابات تشعل
ومن لم يُقيّد لفظه متجمّلاً سيطلق فيه كل ماليس يجمل
ومن لم يكن فى فيـه ماء صيانةٍ فمن وجهه غصن المهابة يذبلُ
فلم تحسبنَّ الفضل فى الحلم وحده بل الجهل فى بعض الأحايين أفضل
ومن ينتصرْ ممن بغى فهو مابغى وشرُّ السيئين الذى هو أوّلُ
وقد أوجب الله القصاص بعدله ولله حكم فى العقوبات منزلُ
فان كان قولٌ قد أصاب مَقاتلاً فان جواب القول أدهى وأقتل
وقد قيل فى حفظ اللسان وخزنه مسائل من كل الفضائل أكملُ
ومن لم تقرّ به سلامةُ غيبه فقربانُه فى الوجه لايتقبّل
ومن يتخذ سوء التخلف عادةً فليس لديه فى عتاب مُعوَّلُ
ومن كثرت منه الوقيعة طالباً بها عزّةً فهو المهين المذلّلُ
وعدلٌ مكافاة المسىء بفعله فماذا على من فى القضية يعدل
ولا فضل فى الحسنى إلى من يخسها بلى عند من يزكو لديه التفضل
ومن جعل التعريض محصول مزحه فذاك على المقت المصرّح يحصلُ
ومن أمِن الآفات عجباً برأيه أحاطت به الآفات من حيث يجهل
أعلمكم ماعلمتنى تجاربى وقد قال قبلى قائل متمثـل :
إذا قلت قولاً كنت رهن جوابه فحاذر جواب السوء إن كنت تعقل
إذا شئت أن تحيا سعيداً مسلماً فدبّر وميّز ماتقول وتفعل [2]

وذكر له الخطيب أبياتاً ثلاثة تدل على ارتباكه فى الهوى وهى :

ماجفانى من كان لى أنساً أنست شوقاً يمض أسبابهْ
كنت يعقوب بعد يوسف إذ حنـــنَ إلى شمّ بعض أثوابهْ
دخلتُ باب الهوى ولى بَصرٌ وفى خروجى عميتُ عن بابهْ

« بغداد » مصطفى جواد

(١) ذكر له هذا البيت وآخر بيت فى القصيدة ياقوت الحموى فى معجم الأدباء
(٢) تاريخ الخطيب « ١٣ : ٢٩٧ — ٨ »

الفلسفة الشرقيـــة
بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٤ —

الفلسفة الصينية
العصر المنهجى

لم يكد حكم أسرة « تشو » ينتهى حوالى القرن السابع قبل المسيح حتى هوت بلاد الصين فى أعمق أنواع الفوضى والاضطراب ، وظلت ترزح تحت نير هـذا التدهور السياسي والاقتصادى والأخلاقى نحو خمسة قرون . فلما ضيقت هذه الأزمة الاجتماعية الخناق وأحكمت الضغط ، كان من الطبيعى أن تنفجر العقول الجبارة بعد أن استاءت الضمائر النبيلة ؛ وكان من الطبيعى كذلك أن يحدث هذا الاستياء وذلك الانفجار آثاراً بارزة فى الحياة الاجتماعية عامة ، وفى الحياة العقلية بنوع خاص ، وهذا هو الذى كان ، إذ لم يكد ينتهى الثلث الأول من القرن السادس حتى كان كوكب تلك الشخصية البارزة الممتازة وهى شخصية « لاهو — تسيه » قد سطع فى سماء الصين سطوعاً أعقبه انفجار ينبوع عبقرية أخرى فاقت الأولى عمقاً وسمواً ، وتكاتفت وإياها على رفع الفلسفة الصينية إلى صفوف منتجات الأمم الراقية ، تلك هي عبقرية « كونفيشيوس »

عرف « كونفيشيوس » « لاهو — تسيه » ولكنه لم يكن معه على وفاق فى الآراء الفلسفية ، بل كان وإياه على طرفى نقيض فى أهم النظريات ، إذ لم يكد « كونفيشيوس » ينضج ويعلن مذهبه حتى لاحظ الناس أن بين المذهبين خلافاً جوهرياً فى القواعد الأساسية ؛ ولم يكن هذا الخلاف حول عقيدة دينية أو رأى نظرى ، وإنما كان فى الفلسفة العملية ، لأنه نشأ من سؤال هام دعت إليه الحالة الاجتماعية فى بلاد الصين ، وهو : « ما هي الوسيلة الناجعة لإنقاذ البلاد من هذا التدهور ؟ »

بينما كان « لاهو — تسيه » يرى أن التنسك والزهادة واحتقار الحياة العملية هى الوسيلة لهذا الانقاذ المفتقد ، كان

« كونفيشيوس » يعلن أن الوسيلة الوحيدة لهذه النجاة هي العناية الفائقة بتنظيم الحياة العملية على أساس الخير الأخلاقي الذي ينتهي حتماً إلى الصلاح الاجتماعي ، وصرح أن الاهتمام بالعمران المنظم والقضاء على الرذائل التي تنخر في بناء صرحه هما وحدهما الكفيلان بإعادة الرفهنية والهدوء إلى الدولة ، وقد كان من المفهوم بعد تأسيس هذا الخلاف أن يتسع البون بين هذين المذهبين في أكثر نظرياتهما الهامة ، وهذا هو الذي حدث بالفعل

غير أنه ينبغي لنا أن نشير إلى أن محاولة حل هذه المشكلة ليست من مستحدثات هذين الفيلسوفين ، وإنما هي محاولة قديمة ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ؛ غاية ما هنالك أن ذلك الخلاف كان في الماضي نظرياً فحسب ، لأن البلاد لم تكن قد هوت بعد في هذا التدهور ، أما في هـذا العصر فقد أضحت هذه المشكلة عملية يجب الاعتناء بها

الآن وبعد أن ألمنا إلى هذين الفيلسوفين هذه الإلماعة العاجلة نريد أن نتناولهما في شيء من التفصيل بادئين بأولهما

***

لاهو — تسيه

حياته

ليست هذه الكلمة اسمه ولا اسم أسرته ، وإنما معناها : « الأستاذ القديم » أو « العالم القديم » أو « الحكيم القديم » ؛ أما اسمه الحقيقي ، فهو « بي — يانج » ، واسم أسرته « لي » وقد دعاه الناس بعد موته : « تان » ، وهو لقب مشرف كان الصينيون يطلقونه على الحكماء بعد موتهم

ولد هذا الحكيم في سنة ٦٠٤ قبل المسيح في قرية « كيو — جين » بمملكة « تشو » التي هي الآن في مقاطعة « أونان » وكل ما يعرفه التـاريخ الصحيح عن حياته هو ما يحدثنا به « مي — ما — تسيان » أقدم مؤرخ صيني من أنه أمضى الأكثرية الغالبة من حياته في « تشو » . وفي أواخر حياته عين مديراً لدار المحفوظات الملكية ، ولكن أحداً لا يعرف ما هي الوظائف التي شغلها هذا الحكيم قبل هـذه الإدارة ولا كم سنة قضاها فيها ، وإنما روى لنا هذا المؤرخ أنه حينما تقدمت به السن اعتزل الخدمة في الحكومة ، وانسحب إلى وادي « هان — كو » حيث اعتزل الناس جميعاً وظل فيه عاكفاً على تأملاته الفلسفية أميناً لمبادئه الأخلاقية . وفي أثناء هذه العزلة جاءه « ين — مي » وهو أحد أخصاء تلاميذه الأوفياء وألح عليه قائلا : « من حيث إنك أردت أن تدفن نفسك في هذه العزلة الموحشة ، فأنا أتوسل إليك أن تؤلف كتاباً لتؤدبني به » فلم يسع هذا الحكيم بإزاء ذلك الرجاء الملح إلا أن يجيب تلميذه إلى سؤله ، فألف كتاب « تاو — تي — كينج » وعلى أثر فراغه من كتابته غادر ذلك الوادي الذي عرفه الناس فيه وانسحب إلى حيث لم يره بعد ذلك أحد

وقد حدثنا « مي — ما — تسيان » أيضاً أنه أعقب بعده ابناً يسمى « تسونج » صار بعد أبيه من عظماء الدولة ؛ وكان قائداً كبيراً من قواد جيوشها ، وأن مشاهير رجال المملكة الذين لعبوا أهم الأدوار السياسية والاجتماعية فيها كانوا من ذريته

أما الأساطير الشعبية فقد أحاطت هذا الحكيم بغابة كثيفة من الروايات والحوادث التي تبتت الاستحالة الزمنية في بعضها ، وتحقق الاستبعاد في بعضها الآخر ، كما أنه قد غلبت الحقيقة على البعض الثالث . فمن هذه الأساطير ما يحدثنا عن تلك المقابلة الهامة التي حدثت في سنة ٥٢٥ قبل المسيح بين « لاهو — تسيه » و« كونفيشيوس » ومادار فيها من محاورات بين الحكيم الشيخ الهادئ الواثق مما يقول ، وبين العبقري الشاب المتحمس المفعم بالآمال العذبة في المستقبل المنير

تحدثنا هذه الأسطورة أن الشيخ أعلن في حديثه أن إصلاح الحياة الاجتماعية بوساطة النشاط العملي مستحيل ، وأنه لا يتيسر إلا بوساطة التنسك والزهادة والاعتزال ، وأنه لم يقل بهذا الرأي إلا بعد تجارب طويلة استغرقت سبعين سنة ، وأن « كونفيشيوس » حينما سمع من الحكيم الشيخ هذا الرأي ، لم يتردد في الحكم عليه بأنه خاطئ باطل ، وبأن نتيجتــه هي الخمول واليأس ؛ ثم سأله قائلا : « إذا كان واجب كل فرد من أفراد الدولة أن ينسحب في كهف من الكهوف ، فمن ذا الذي يعمر المدن ، ويفلح الأرض وينشئ الصناعات ، ويديم النوع البشري على سطح الأرض ؟ وإذا كان هذا الاعتزال من واجب الحكماء فحسب ، فمن ذا الذي سيربي الانسان ويؤدبه ويصون الفضيلة والأخلاق ؟ »

وتحدثنا هذه الأسطورة أيضاً أن المقابلة بين هذين الحكيمين كانت من أجل هـذا الخلاف فاترة ، وأن سوء التفاهم قد ساد بينهما على أثر هذه المحاورة . ويعلق أحد « المستصينين » على هذا النبأ بقوله : « ما دام قد ثبت تاريخياً أن « لاهو — تسيه » كان

مدبراً لدار المحفوظات في مدينة « لو » في نفس التاريخ الذي زار فيه « كونفيشيوس » هذه العاصمة ، بل إنه قد ثبت أنه زار دار المحفوظات نفسها وطلب الاطلاع على بعض ما فيها من وثائق قديمة كانت دراسته في حاجة إليها ، أفليست هذه الظروف كلها تدعونا إلى تصديق هذه الأسطورة لا سيما إذا كان ما حدثتنا عنه من خلاف صحيحاً صحة علمية ؟ »

ومن هذه الأساطير أيضاً ما يروى لنا أن « لاهو — تسيه » بعد أن اعتزل الخدمة ارتحل إلى بلاد الهند وأخذ ينشر تعاليمه هناك ، وقد تلاقى مع « بوذا » فتتلمذ هذا الأخير عليه ، وتلقى عنه تلك المعارف الصينية القيمة التي كانت فيما بعد أساساً لمذهبه

ويستبعد الأستاذ « زانكير » صحة هذه الأسطورة ، لأن « بوذا » لم يولد إلا بعد هذا الحكيم بمائة وخمسة وعشرين عاما ؛ وإذا صح سفره إلى الهند ، فلا يمكن أن يصح لقاؤه مع شخص بقي على مولده خمس وأربعون سنة ، فضلا عن نشأته واستعداده لتلقي العلم ؛ فإذا أضفنا إلى هذا أن حكيمنا لم يعتزل الخدمة إلا بعد بلوغه سن الثمانين استطعنا في سهولة أن نجزم باستبعاد صحة هذه الأسطورة

هناك أسطورة ثالثة تنبئنا بأن هذا الحكيم قد كتب ألف كتاب ، منها تسعمائة وثلاثون في شرح فن الحياة العملية والأخلاق والسلوك والمعاملات الإنسانية ، والسبعون كتاباً الباقية في السحر ، وعلى الأخص في صنع التمائم التي يجلب حملها السعادة للأحياء

لا ريب أن هذه الأسطورة لا تقل عن سابقتها بطلانا ، لأن هذا الحكيم لم يثبت عنه أنه كتب غير كتاب « تاو — تي — كينج » الذي أشرنا إليه آنفا ، والذي خصصه لتسجيل مذهبه الفلسفي . بل إن النقاد المحدثين يجزمون بأن هذا الكتاب على حالته الراهنة ليس من تأليف « لاهو — تسيه » وإنما هو مجموعة من آرائه وحكمه مضافاً إليها آراء وحكم لبعض القدماء الذين سبقوا عصر هذا الحكيم ، ويرجحون أن هذا الكتاب قد كتب بعدة أقلام مختلفة ، بعضها لتلاميذ هذا الحكيم ، والآخر لبعض المتمذهبين بمذهبه

مذهبه

اختلف الباحثون المحدثون في المذهب النظري لهذا الحكيم اختلافات شتى جعلت اليقين عسيراً على كل من يحاول الحكم على هذه الفلسفة « اللاهو — تسية » والسبب في وقوع كل هذه الاختلافات بين العلماء هو صعوبة معنى كلمة « تاو » التي اتخذها هذا الحكيم عنواناً لكتابه ؛ ولكن ليس معنى هذا أن تلك الكلمة كانت في الأصل غامضة أو عويصة ؛ كلا ، فقد مرت بنا في عصر ما قبل التاريخ وعرفنا أن معناها إما « الصراط السوي » وإما « واجب الانسان » أو « الفضيلة العليا » أو « الغاية المثلى » ولكن الصعوبة حدثت من المعنى الجديد الذي أسبغه حكيمنا على هذه الكلمة حين اختارها عنواناً لكتابه الفلسفي ولم يصرح في تحديده بكلمة قاطعة ؛ بل ترك الباحثين يستنتجون هذا المعنى الحديث من المشاكل التي درست في هذا الكتاب ؛ فلما عالج العلماء الأوربيون هذا البحث ذهب كل منهم مذهباً يناقض مذهب الآخر ؛ بل إن بعضهم ألقى سلاحه بإزاء هذا العنوان وانسحب من الميدان ؛ ومن هذا القسم الأخير المسيو « دينيس سورا » الذي أعلن أن هذه الكلمة غير مفهومة . وإذاً فالمذهب النظري لهذا الحكيم غير مفهوم . أما الأستاذ « زانكير » فقد أفاض في شرح هذه الكلمة وتعقب مراميها المختلفة تعقباً يروي غلة الباحث الشغوف . وخلاصة ما قاله في هذا الشأن أن هذه الكلمة تحمل من المعاني ما لا يمكن أن يؤدى بلفظة أوربية . ولهذا يكون خاطئاً كل من حاول ترجمتها بكلمة واحدة من لغاتنا الحديثة ، بل الوجب ترجمتها بجملة طويلة أو بعدة كلمات ، فمن معانيها مثلا : الروح الأزلي الأبدي المشتمل على جميع القوى الحيوية ، والكائن النقي ، والجوهر الأساسي لكل موجود ، والحياة الحقة لكل كائن ، والمدبر العام للكون كله ، وفوق ذلك كله فهذه الكلمة قد احتفظت بمعانيها القديمة التي كانت لها في عصر ما قبل التاريخ ، وهي : الصراط السوي ، والفضيلة ، والواجب ، والغاية ، والتطور ، ولكن ينبغي أن نعلم أن هذا التطور ليس إلا أثراً ظاهراً لهذه القوة ، أما هي نفسها فثابتة لا تتغير

وأكثر من هذا أن « لاهو — تسيه » يصرح بأن « تاو » هو الـ « في ذاته » ، بل هو الكائن الغير القابل لمُدْرَكيَّة العقل البشري ، لأن أي كائن متى حصره التفكير الانساني ووضع له اسماً مُحدَّداً ، فقد فَقَدَ نقاءه ولا نهائيته

ولا شك أن من يلقي نظرة عاجلة على المدرسة الأفلاطونية الحديثة ويستعرض ما قاله « أفلوطين » عن الاله يجد الشبه عظيماً بينه وبين هذا الرأي

« يتبع » محمد غلاب

الفروسة والتربيـــة

للسيد جريس القسوس

كلمة تمهيدية

يعاني العالم مشقة كبيرة في التوفيق بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ؛ وما عرف التاريخ منذ بدئه حرباً أشـد هولاً من هذا النزاع بين الفرد والمجموع برغم محاولة الفلاسفة وعلماء الاجتماع ورسل الأديان التوفيق بينهما . إذ تؤثر الجماعة المحافظة ، وتكره كلّ ظاهرة يرجى من ورائها انتقاض كيانها وهدم صرح نظمها وتقاليدها . بيد أنه قد ينهض أحياناً فردٌ يشهر عليها حرباً عواناً فيصطدمان ، فإن كتب له الخلود انتصر عليها ، وإلا طمس أثره وراح ضحية شذوذه

ولقد برهن التاريخ أن الحق في أغلب الأحيان للقوة ، لذا ترى أن عدد أسماء العظماء في التاريخ قليل جداً إذا ما قيس بعدد من خضع لأحكام الجماعة وسلطتها ، وتمشى بموجب تقاليدها ونظمها . والعظيم بحق هو من فاضل الجماعة وغلبها ، وتمكن من أن يسيرها حسبما يراه صالحاً

أما في العصور الوسطى فقد كانت للجماعة السلطة التامة على الفرد ، دينياً وعلمياً واجتماعياً . فهنالك الكنيسة تستأثر بالسلطة الدينية ، وترى أن ما تسنه للفرد على الأرض من شرائع وقوانين يُسنُّ في السماء ، وتتسلح ضده بمحاكم التفتيش والقطع والتأديب ، وتتذرع بكل سلطة زمنية فوق الدينية لتتى حقها الذي هو حق الجماعة ، وتحارب الزنادقة وهم — في رأيها — من شذّوا عن مبادئها وخالفوا أحكامها . ويلحق الكنيسة نظام الرهبنـة Monasticism ، وقد حل هذا النظام محل معاهد التربية في نشره الفضيلة ، وتعززه ناحية من نواحي الرسالة النصرانية . وهنالك الطريقة الزهدية Mysticism التي دعت إلى الزهد وعيشة التقشف والاتصال بروح الله في الحياة الدنيا ، فسيطرت بذلك على فكر الفرد وحياته الروحية وقيدتهما مدة ليست قصيرة

أما الطريقة المدرسية Scholasticism فقد هيمنت على عقل الفرد ، ووضعت له قواعد وحدوداً ثابتة ، ليس له أن يتعداها أو يشذ عنها في حياته الفكرية . أما الاجتماع والسياسة فمهدهما الفروسة Chivalry وفعله — كما سترى — لم يختلف كثيراً عن فعل غيره من الأنظمة والمعاهد التي ذكرناها

كل هذه الأنظمة تعاونت وتضافرت على صيانة الحضارة في العصور الوسطى وخاصة المظلمة منها ، لكنها كانت تتوخى دائماً إعلاء كلمة الجماعة وإخفات صوت الفرد ، فحالت بذلك دون تقدم الحضارة تقدماً حثيثاً ، إذ كلما حاولت سفينة الحضارة الاقلاع ، ألقت الجماعة مرساتها لتوقفها وتعيقها عن السير المطرد . والصراع بين الفرد والمجموع قائم على هـذا الأساس . فالفرد يبتغي رفع المرساة وتحطيمها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، بينا الجماعة تريد خلاف ذلك . ومهمة التربية والتعليم في كل عصر ومكان — كما بينا — التوفيق بينهما ، وإصلاحهما إصلاحاً يكفل معه تقـدم الحضارة . وسنتناول في هـذا المقال نظام الفروسة ونرى كيف كان مرساة للنظم والمبادئ الاجتماعية والأخلاقية ، وما كان فضله على التربية خصوصاً

الفروسة ، طبيعتها ، نشأتها

الفروسة في أكمل وضع لها : نظام أو معهد اجتماعي لا ديني (من حيث نشأته) ، ذو مبادئ ، ومثل اجتماعية وأخلاقية عالية قائمة على قواعد وتقاليد رسمية راسخة . ومن شروط الانتظام في هـذا السلك أن يكون المرء حر المولد ، شريف النبت ، (أو يكون قد نال النبل من أحد الملوك) ، يملك ضيعة ، ويستطيع أن يعول نفراً من الضعفاء . ولم تمنح العضوية إلا لمن زاد عمره على الحادية والعشرين ، اللهم إلا في آخر عهد هـذا النظام ، فقد كانت تمنح لأبناء العائلات المالكة الذين لم يبلغوا ، أو تجاوزوا السن القانونية لنيل هذه العضوية . وكان لا بد لكل طالب من أن يقضي مدة معينة يجوز في خلالها بعض الامتحانات والمراسيم ، ويتقن العلوم والفنون ، ويتحلى بالسجايا التي يقتضيها شرف هذه المهنة . وقد اقتصرت العائلات النبيلة على هذا النوع من التربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، خصوصاً مع عدم توفر العلوم فيه كما سترى

كانت مبادئ الفروسة ومثلها العليا خليطاً مما ورثته عن النصرانية والحضارة الرومانية ، واحتفظت به من عادات قبائل البربر الجرمانية وطباعها . وكان للفروسة صبغة عسكرية فى القرون التى تلت سقوط الدولة الرومانية حتى القرن التاسع والعاشر للميلاد ، فكل ملك أو بارون أو لورد أو بيل ، سافر أو ناضل على ظهر جواد ، وكان له أتباع وحشم عدّ فارساً . فالفروسة والإقطاع هما فى الحقيقة توأمان من حيث نشأتهما وشيوعهما . ولقد ازدهر نظام الفروسة واستكمل نموه منذ الغزوات الصليبية الأولى فى القرن الحادى عشر للميلاد ، وما فتئ ينمو ويشتهر حتى أوائل القرن السادس عشر . فكان المعهد التربوى الوحيد خلال تلك القرون للعائلات النبيلة والملكية ، حتى جاء عصر النهضة Renaissance بمدارسه العالية ، فحلت هذه محل الفروسة وغيرها من المعاهد والطرائق التى سبق الإيماء إليها

مبادئها وصفاتها

لعهد ليس بالبعيد كانت هناك مبادىء وصفات تؤهل الفرد لاكتساب لقب « جنتلمان » Gentleman ، تلك التى إذا ما حازها عُدّ فارساً . من هذه المبادىء والسجايا الشجاعة والأنفة واحترام النفس والاتصاف للشرف واللطف والرقة فى المعاملة ونكران الذات وطلب الشهرة عن طريق الحرب ، وغير هذه من الصفات الخشنة كالشراسة والقسوة والغضب إلى حد الجنون ، والتهرج والإسراف والرغبة فى الحياة العسكرية العنيفة الجافة ، والإيمان القويم بالله . وكما أن للرهبنة فضلاً على الناحية الدينية من علمى التربية والأخلاق ، فللفروسة فضل على الناحية اللادينية منها . إذ رفعت من شأن فكرة الخدمة Service والرأفة لدى قوم غلاظ الطباع ، وذلك بأن فرضت عليهم شروطاً وقواعد لابد لهم من مراعاتها مدة انضوائهم تحت لواء الفروسة . ولو أنعمنا النظر قليلاً فى هذه الفكرة لألفينا أنه حينما وُجدت الطاعة والخدمة ، وجد معها الاستعباد والقسوة . فإذا كان تشجيع الطاعة والخدمة من حسنات الفروسة ، فتعزيز الاستعباد والإذلال هو من سيئاتها

ولم تكن الفروسة فى الواقع إلا خادمة للرسالة النصرانية ، فقد ولدت فى معهد الكنيسة ، ثم نشأت وانتشرت تبشر بمبادئها ، وتنشر النصرانية بين برابرة الجرمان . وحينما تحولت الكنيسة إلى السلطة الزمنية تستنجدها وتستفزعها لمهاجمة المسلمين فى عقر دارهم ، كانت الفروسة أول من لبى نداءها . وقد كان لاتصال الفروسة بالكنيسة أثر مسلموس فى خلق الفارس ، فكان لابد له ، إذا نشد الكمال ، من أن يتوخى مبدأ الاعتدال فى حياته وأن يستسلم لأسياده وينقاد إليهم إنقياد الأعمى ، ويتضع لمن هم دونه رتبة ، ويشفق على الضعفاء والفقراء ويحسن إليهم ، وأخيراً أن يجل الجنس اللطيف كل الإجلال

ويجازي من نكث هذه الشروط بأن يطلب للبراز مع غيره مبارزة قد تؤول إلى هلاكه . بهذا وبغيره من الوسائل السلمية والإيجابية ، وبالمزاولة الطويلة ثبت نظام الفروسة ورسخت قواعده ومبادئه رسوخاً متيناً ، وانتشر انتشاراً عمّ مختلف طبقات المجتمع البشرى فى أوروبا حقبة طويلة من الزمن .

ومن الصفات التي لم يكن يقتضى اكتسابها تعليماً خاصاً ومجهوداً كبيراً الشجاعة والإقدام ؛ بيد أن ما يرافقهما من التمرن على حمل السلاح واستعماله ، والتفنن فى ركوب الخيل ، أمور يتلقاها الفرد فى سلك الفروسة . وما يصدق على الشجاعة يصدق على الشهامة Gallantry واحترام السيدات ، فإن ذلك لم يكن يقتضي تعليماً رسمياً . على أنه لابد لاكتساب كل سجية مطبوعة بطابع الفروسة الخاص من وقت طويل وعناء كبير لدقتها وتعقدها . وفيما يلي نبذة للمؤرخ « كورنش » تبين باختصار مبادئ الفروسة وأثرها فى حياة الفرد والمجموع يقول :

« لقد علمت الفروسة العالم واجب الخدمة الطوعية الشريفة ورفعت من شأن الشجاعة ، والخضوع لأحكام السلطة ، ووقفت قوتها العسكرية على خدمة الدين ، وشجعت السخاء والإحسان والإيمان القويم ونكران الذات والشهامة ؛ وفوق كل هذا إجلال السيدات . ومع أن للفروسة فضلا كبيراً على علمى التربية والأخلاق فمثالبها شتى ، لأنها كانت تشجع بعض الرذائل كالغرور وحب القتال وازدراء الرعاع والتهتك والخلاعة . ولا مراء فى أن هذا المعهد — على ماله من مناقب ومثالب — كان ملائما لروح العصر والبيئة اللذين نشأت فيهما . »

نظامها ومنهاجها

للتربية في هذا النظام ثلاث مراحل ، تبتدئ أولاها من السنة السابعة وتنتهي بالرابعة عشرة ، ويُسمى الفتى في هذا العهد بالوصيف Page ؛ وتبتدئ المرحلة الثانية من السنة الخامسة عشرة وتنتهي بالحادية والعشرين ، ويطلق على الفتى في هذه السن لقب «الرفيق» Squire ؛ أما المرحلة الثالثة والأخيرة فتبتدئ من السنة الحادية والعشرين ، وفيها يعرف الفتى بالفارس Knight

كان يجرى التعليم والتمرين في معهد بلاط أحد الملوك Court School ، أو قلعة أحد النبلاء . فني قلاع النبلاء يجرى التعليم الخاص بالطبقة التي هي دون النبلاء . أما النبلاء فيبعثون أولادهم إلى بلاط الملك حيث يخدمون في حاشيته ؛ وفي كثير من الأحيان يمارس أبناء الملوك الخدمة في قصور آبائهم كسائر أبناء النبلاء ، ولم يجر التعليم في بيوت العامة لندرة وسائله ، وقلة معدات التمرين فيه ؛ لهذا كانت دور النبلاء وقلاعهم وقصور الملوك مزدانة بالفتيان والفتيات طيلة سني التعليم والتمرين . ولقد كان للفتيات كما للفتيان حق ونصيب من التربية في هذا المعهد ، فقد كان في عصر الإقطاع شريعة [1] تقضي بأن يرث النبيل ضياع آباء الفتيان والفتيات الذين هم في خدمة النبيل ، وتخوله حق السلطة على أولئك الفتيان والفتيات والتصرف بهم كما يشاء قبل أن يدركوا سن الحادية والعشرين . فأدى هذا الحق ، أعني التحكم في أولاد الميت وبناته إلى تزويجهم حسبما يراه النبيل صالحاً ، بهذا كان التزاوج بين الفتيان والفتيات شائعاً جداً في قلاع النبلاء ، وخصوصاً في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد . وطبيعي أن يقوم النبيل بكل ما تتطلبه معيشة هؤلاء الفتيان والفتيات ماداموا قاصرين وعاجزين عن القيام بذلك من تلقاء أنفسهم

أما الفتيات فقد كُنَّ يتلقين العلوم والفنون المنزلية من خياطة ونسج وموسيقى وغناء ثم الفرنسية وبعض اللاتينية . وكانت تعلم هذه العلوم في مدارس الأديرة ؛ من هذه في انكلترا دير « دار تفورد » Dartford في كنت ، وقد اختص ببنات العائلة المالكة ، ودير « كارو » Carow قرب نوردش ، وكان خاصاً ببنات الطبقة النبيلة ، ومدرسة دير سان ماري في ونشستر Winchester وغيرها . وبعد أن تم الفتاة تحصيلها في هذه المدارس تعود إلى قلعة النبيل المتولى أمرها ، حيث تكتسب صفات الفروسة ، وتجالس الفتيان في « الصالون » حتى تصل إلى اختيار زوجها منهم . وغالباً مادفعت هذه المادة الكثيرين إلى أن يبعثوا بناتهم وأبناءهم إلى هذه القلاع ، ليلتحقوا في خدمة النبيل ظاهراً ، وينشدوا التزوج باطناً . فالتزوج هو في الحقيقة غاية ما كانت ترمي إليه تربية الفروسة في هذه المرحلة ، لأن من كان خليقاً بالزواج عن هذه الطريق كان جديراً بنيل شرف الفروسة

نعود الآن إلى الوصيف لنرى كيف يتدرَّج في مراحل هذه التربية حتى يصبح فارساً . ينشأ الوصيف والوصيفة مع نساء حاشية النبيل حتى السنة السابعة ، وفي خلال هذه المدة يكون الوصيف قد ألف ركوب الخيل ، وتعلم هو والوصيفة القراءة والكتابة وبعض مبادىء العلوم البسيطة التي تقتضيها الخدمة المنزلية . وكلما تقدم الوصيف في السن ، تعقدت العلوم التي يتلقاها وصعبت . فحينما يصل سن السابعة يشرع في تعلم فنون الصيد واللعب بالسيف والترس ورمى القرص والرمح . وليست هذه الفنون سهلة المنال كما يظهر ؛ ففن الصيد مثلا يتطلب إلماماً بقوانين الغاب Forest Laws ، وهو ينقسم إلى قسمين : —

(١) صيد الغزال وما كان من فصيلته وعلى شاكلته Fenery ؛

(٢) والبيزرة ؛ وهذا القسم ضرب معقد من ضروب الصيد يقتضي معرفة بأنواع الطيور وكيفية إقاتتها وتدريبها على الصيد . وعدا هذا يتعلم الوصيف أصول المصارعة والملاكمة والجرى وركوب الخيل واللعب بالسيف والرمح ومبارزة الدببة والجواميس . كان الوصيف مشغوفاً بهذه الفنون العملية كل الشغف ، لأنها كانت ذات أثر مباشر في حياته ؛ لهذا لم يُعن كثيراً بتعلم القراءة والكتابة والموسيقى . بيد أن إعراضه عن هذه العلوم النظرية إلى غيرها لا يعني عدم اهتمام مدارس الفروسة بها ، فقد كان للوصيف فرصة سانحة ليتعلم فيها العزف على بعض الآلات الوسيقية والتدرب على الغناء . وقد تخرج في هذا المعهد المنشدون الكثيرون Minstrels الذين كانوا يرحلون من بلد إلى آخر ، ويحلون حيث غواة الموسيقى وعشاق الفن . ولقد عنيت

(١) راجع دائرة معارف التربية لمونرو تحت مادة Chivalric Education

بعض العائلات المتدينة بتعليم الموسيقى والنشيد الديني ، فكان منها مدارس خاصة ، عدا نظام الفروسة

كان الوصيف يصرف أويقات فراغه في الخدمة المنزلية ، ومشتركاً في حياة النبيل العائلية ؛ فتراه يرافق سيدته « زوجة النبيل » أنى ذهبت ، ويقوم بخدمتها المنزلية بكل طاعة وإذعان . ومن الخدمات البسيطة التي اختص بها تجفيف عرق سيدته ، وذب الذباب عنها ساعة نومها بمروحة لا تكاد تفارق يده طيلة أشهر القيظ

وما يكاد الوصيف يشب ويصبح « رفيقاً » Squire حتى يشرع في تعلم فنون جديدة كفن المناداة Heraldy ، وهو فن معقد يقتضي إتقانه عناية ومجهوداً كبيرين ، و « تقطيع اللحم » وهذا أيضاً فن قائم بذاته ، وقد أهمل وتنوسي على مرور الزمن . وأهم واجباته المنزلية في هذا العهد تحضير الموائد ، فهو الذي يقطع اللحم — كما قلنا — ويتناول صحون الأطعمة وكؤوس الخمر من الوصفاء ، ويوزعها على الضيوف . وعلى الرفيق أن يُعدّ فراش النبيل ، وأن يتولى سياسة حصانه ، وأن يقوم بتعبئة البنادق وصقلها وتنظيفها . وعليه أن يرافق سيده في سفراته الطويلة ، ويتولى رعايته وحراسته في الليل ، فلا يغمض له جفن مادام سيده نائماً . وعلى « الرفيق » أن يلقن الوصيف كل ما تقتضيه الخدمة المنزلية ، وتتطلبه الحياة العملية كركوب الخيل ، وتعلم اللغات الألمانية والانكليزية وبعض اللاتينية (أما الوصيفات فالفرنسية) ، والعزف على الناي والقانون ، والرقص والغناء ولعبة الشطرنج ، ومبادئ الفروسة وقوانينها . ومن الكتب التي كانوا يعتمدونها في تعلم مبادئ الفروسة وصفاتها في انكلترا خصوصاً كتاب « سلوك الغلام على المائدة » لغروستست « Bishop Grosseteste's Stans Puer ad Mensam »

وعلى « الرفيق» أن يرافق زوجة النبيل في روحاتها وجيئاتها وأن يلاعبها الشطرنج ويراقصها ويعزف ويغني لها . أما علاقته معها فعفيفة غاية العفة ، بريئة غاية البراءة ، قلما تؤدي إلى الفعل

المنكر ، لأنه بمرافقته إياها وإذعانه لها يكتسب صفة من أسمى صفات الفروسة وأنبلها ، ألا وهي إجلال الجنس اللطيف وإيناسه . وكان يتجلى هذا الشعور في المرحلة الأخيرة من مراحل الفروسة

وخصوصاً في أوان المبارزة . فعند ما تعقد حفلات المبارزة تهرع إليها أجمل الفتيات وأنبلهن ؛ وقد تستغرق الحفلة الواحدة ثلاثة أيام أو أكثر . وللمبارز إذا انتصر على خصمه أن يجرده من سلاحه وجواده ، وأن يمر بالفتيات ، فيتعهدهن بنظره حتى يقع بصره على إحداهن ، فيختارها لتسمى ملكة الحب والجمال « Queen of Love and Beauty » فتتوج بإكليل وتشرف على بقية الحفلات بينا السيدات يحطن بها من كل جانب ، راغبات في التقرب منها تشرفاً

وللكنيسة أثر ملموس في حياة الفارس ، فتراها إذا ما قارب السنة الحادية والعشرين من عمره ، سيطرت عليه ، ووجهت حياته السلمية والحربية إلى ما فيه خيرها ونفعها . فتعرض له بعض المراسيم والامتحانات الدينية المعقدة التي لا بد له من اجتيازها . أهم هذه ما يجيء في الحفلة النهائية التي يصبح فيها « الرفيق » فارساً ؛ وتستغرق هذه الحفلة أحياناً عدة أسابيع ، فيصرف بضعة أيام في الصوم وليلة في إحدى الكنائس القديمة المظلمة ، مسترسلا في التأمل والتفكير ، ثم يستحم ، ويعترف عند أحد الكهنة ، وبعد ذلك تعقد الحفلة النهائية ، ويترأسها أحد الكهنة ، وفيها يخلع عليه الكاهن ثوباً أبيض رمز الطهر والنقاوة ، وآخر أحمر إشارة إلى ما سيسفكه من الدم في الدفاع عن مبدئه ودينه ، وسترة سوداء قصيرة تذكرة بشبح الموت الذي سيلقاه دون خوف أو وجل ؛ ثم يصغي إلى عظة بليغة يلقيها الكاهن عن حياة الفروسة . وفي النهاية يقسم الفارس يمين الفروسة الرسمي وخلاصته : « أن يذود عن الكنيسة ، ويكافح الأشرار ، ويحترم رجال الدين ، ويجل الجنس اللطيف ، ويصون الضعفاء ، ويحسن إلى الفقراء ، وألا يحجم عن سفك دمه في الدفاع عن بني دينه وجنسه » . ثم ينادى فارساً باسم الله ، والقديس جورج ، والقديس ميخائيل ، ويناول السيف والمهماز ويُلطم على وجهه لطمة خفيفة رمزاً إلى آخر إساءة يستطيع أن يصفح عنها ، وإلى حياة العنف والجهاد التي سيحياها

ويقضي الفارس السنين العشر الأولى التي تسبق السن القانونية للالتحاق بالفروسة في الدرس المتواصل ، والاستعداد الدائم لهذه الحفلة التي تعد أكبر حادث في حياته . ولقد ورد في

رسالة كتبها جيلس دى روم « Giles de Romme » لتلميذه الملك هنرى دى جاند « Henry de Gand or Ganchy » في صغره بعض الموضوعات والدروس التي يتعلمهـا « الرفيق » والصفات التي لا مناص له من اكتسابها لكي يكون فارساً ، منها الإحسان والشجاعة والاعتدال ؛ والقسم الأخير من الجزء الثانى من هذه الرسالة يتناول ذكر واجبات « الرفيق » نحو الكنيسة . أما الفصل السابع فيقتصر على الموضوعات العلمية كتعلم اللاتينية والالمام بالفلسفة ، وعلم البيان Rhetoric وهذا خاص بأبناء الأمراء والملوك ، وعلم الحساب الذى لا بد منه لإتقان الموسيقى ، وتعلم الهندسة التي لا غنى لطالب علم الفلك عنها . كل هذه العلوم خاصة بأبناء الطبقة الوسطى Gentry . وهناك عدا الفنون السبعة المعروفة فنون وعلوم أخرى لا بد للطالب من تعلمها وهى :

(١) العلوم الطبيعية لأنها تتعلق بطبيعة الأشياء

(٢) علم ما فوق الطبيعة لأنه يبحث عن الله وملائكته

(٣) علم اللاهوت

(٤) علم الأخلاق لأنه يعلم الفرد ضبط نفسه

(٥) علم السياسة لأنه يعلم إدارة المدن والممالك

وشعار الفارس فى حياته — كما رأيت — الدين والحب والحرب ، فهو الخادم الأمين المطيع للكنيسة ولسيدته التي تمثل الجنس اللطيف كله ، ولسيده الذى يمثل الملوك والنبلاء

وترى مما تقدم أن الفروسة لعبت دوراً باهراً فى تاريخ التربية خصوصاً والحياة الاجتماعية عموماً ، وأن مناهجها لا يقل عن منهاج الجامعات والمدارس الابتدائية Grammer Scools فى القرن الثالث عشر للميلاد خصوصاً ؛ وأثره فى أدب الإفرنج لا يقل عن أثره فى التربية والاجتماع والسياسة . فقـد أصبح مستقى فياضاً لآدابهم ، وعلى الفروسة تدور بعض القصص الرائعـة والقصائد الحماسية والأناشيد الشائقة ؛ وحسبنا فى هذا المقام أن نذكر أن الرجوع إلى العصور الوسطى عموماً والفروسيـة خصوصاً لاختيار الموضوعات الأدبية كان من أكبر خواص ومظاهر العصر الابتداعى Romantic Age فى الأدب الانكليزى فى القرن التاسع عشر . وأثر هذا ظاهر فى بعض قصص سرْ ولتر سكوت وخاصة « إيفنهو » Ivanhoe « وتلسمان » Talisman « والأبوت » The Abbot

وفى إحدى قصص وليم ثاكرى William Thackery الرائعة أعنى « هنري إزموند » Henry Esmond وفى غير ذلك العصر من عصور الأدب الانكليزى كعصر الياصابات مثلا وخصوصاً فى بعض ملاهى شكسبير مثل « جعجعة ولا طحن » Much Ado About No thing و « رجلا فيرونا » Two Gentlemen of Verona « وكما تشاء » As you Like it

والمقام يضيق عن التوسع في هذه الناحية ، فعسى أن يقوم من بين الأدباء من يجد في نفســه الكفاية للبحث فى علاقة الفروسة بكل من الأدب والسياسة وفضلها وتأثيرها عليهما .

جبرئيل القسوس
الجامعة الأمريكية : بيروت

* * *

مصادر هذه الرسالة

1. Monroe's Hist. of Education
2. Monroe's Cyclopedia of Education: (Chivalric edncation)
3. Cyclopedia of Social Sciences : (Chivalry in Europe)
4. Encyclopedia Britanica : (Knighthood)
5. Cubberly's Hist. of Education
6. مقالة الأستاذ عبد الله عنان عن « الفروسـة » فى « أحسن ما كتبت » ص ٢٥

أبحاث تاريخية جديدة

الإسلام في غرب أفريقية

مدى انتشاره في تلك الأقاليم ومبلغ أثره في الأهلين

للأديب جمال الدين محمد الشيال

تقدمة

بدأ الإسلام في شبه جزيرة العرب ... ومنها انتشر سريعاً في مختلف أنحاء العالم فوصل إلى الصين شرقاً امتد إلى الأندلس والمحيط الأطلسي غرباً . وأينما وصل الإسلام نشأت حضارة إسلامية جديدة أخذت عناصرها من حضارة الإقليم الهرمة المحطمة ومن حضارة الدين الجديد وتعاليمه... ثم استقرت هـذه الحضارات ، كل حضارة في إقليمها الخاص بها ... وظهرت لها بمرور الزمن مميزات خاصة ... ولـكن هذه الحضارات كانت تتصف بصفات مشتركة تجتمع فيها عند نقطة واحدة تميزها جميعاً... تلك هي أنها حضارات إسلامية

وفي كل بلد من هذه البلاد الإسلامية وجدت معاهد للعلم ونشأ العلماء في كل فن ... ونبغوا ... ورحلوا ... ونشروا دينهم ... وكتبوا الـكتب تتحدث عن كل علم وفن ... وتصف كل قطر عرفوه أو رحلوا إليه أو نقلوا إليه دينهم ...

وكانت بلاد المغرب إحدى تلك الأقاليم التي انتشر فيها الإسلام وإحدى تلك الأقاليم التي نشرت الإسلام في طول الصحراء وعرضها حتى وصل إلى حدود الـكمرون جنوباً وإلى شاطئ المحيط الأطلسي غرباً ... وقد تحدث المؤرخون الإسلاميون عن هذه الجهات في كتبهم ورحلاتهم ...

فأبو عبيد البكري الأندلسي وابن فياض الأندلسي وابن خرداذبة كلهم يتحدثون عنها وعن حدودها فيقولون : « فأول بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرومي مدينة أنطابلس المعروفة ببرقة ، وآخرها مما على ساحل البحر الأعظم مدينة طنجة ، وطنجة هذه آخر بلاد المغرب المحقق وما بعدها من البلاد فإنما هو في الجنوب إلى أن يأتي بلاد الحبشة والهند ... »

أما ابن بطوطة فقد جاب الصحراء المسلمة واتصل بقبائلها وملوكها ووصل حتى بلدة كارسخو بين نهرى النيجر والسنغال .

وابن بطوطة رحالة عاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وقد طاف في معظم الجهات الإسلامية المعروفة في ذلك الحين ومنها غرب أفريقية ؛ وقد أحببت أن أنقل عنه أخبار انتقاله باختصار لتكون دليلاً مادياً على وصول الإسلام لتلك الجهات وإن كان الرجل يخلط خلطا غريباً بين نهرى النيل والنيجر ، ولـكن له في الواقع عذره لجهل العالم كله في ذلك العصر بأواسط أفريقية ومنابع أنهارها . يقول ابن بطوطة :

« ثم سرنا من زاغرى فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسخو ؛ والنيل ينحدر منها إلى كابرة ، ثم إلى زاغة ؛ ولـكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالى ... وأهل زاغة قدماء في الإسلام ولهم ديانة وطلب للعلم ؛ ثم ينحدر النيل إلى تنبكتو ، ثم إلى كوكو ، ثم إلى بلدة مولى من بلاد الليميين — وهي آخر عمالة مالى — ثم إلى يوفي ، وهي من أكبر بلاد السودان ، وسلطانها من أعظم سلاطينهم ؛ ثم ينحدر إلى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ؛ ثم إلى دنقلة ، وهي أكبر بلادهم وسلطانها يدعى بابن كنز الدين أسلم أيام الملك الناصر ؛ ثم ينحدر إلى جنادل ، وهي آخر عمالة بالسودان ، وأول عمالة أسوان من صعيد مصر »

« ثم سرنا من كارسخو فوصلنا إلى نهر صنصرة ، ثم رحلنا إلى بلدة ميمة فنزلنا منها على آبار بخارجها ، ثم سافرنا منها إلى مدينة تنبكتو ، ومن تنبكتو ركبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة ، ثم سرت إلى مدينة كوكو وهي مدينة كبيرة على النيل ؛ ثم سافرت منها إلى تكدا ، ووصلنا إلى كاهر من بلاد السلطان التكركرى ؛ ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوماً في برية لا عمارة فيها إلا أن بها الماء ، ووصلنا إلى الموضع الذي يفرق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر وطريق توات ، وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا إلى هكار وهم طائفة من البربر ملثمون ، وسرنا من بلاد هكار شهرا ، ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برار ، ثم وصلنا إلى بودا وهي من أكبر قرى توات ، وأقمنا ببودا أياماً ثم سافرنا في قافلة ، ووصلنا في أواسط ذى القعدة إلى مدينة سجلماسة ... الخ[1] »

---

(١) رحلة ابن بطوطة — طبعة وزارة المعارف سنة ١٩٣٣ ص٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣

وهو إذ يتحدث عن معدن النحاس ص ٣٢٠ يقول «ويحملون النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار — وإلى زغاى — وإلى بلاد برنو وهي على مسيرة أربعين يوماً من تكدا وأهلها مسلمون ولهم ملك اسمه ادريس ...»

من هذا نستبين بكل وضوح أن أقصى ما وصل إليه ابن بطوطة غرباً هو مدينة «كارسخو» وهو فى كل تلك المنطقة التى طاف بها يذكر لنا أنه كان ينزل بسلطان الولاية المسلم فيرحب به ويجمعه بقضاة الولاية وعلمائها . غير أن ابن بطوطة لم يصل إلى شاطىء المحيط من جهة الغرب فى حين أن الاسلام كان منتشراً فى غانة في ذلك الحين كما سنرى من قول ابن خلدون المعاصر لابن بطوطة فى كتابه « المغرب فى تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب » وهو يبدأ بتحديد بلاد المغرب وغرب أفريقية على عهده، وقوله في ذلك ثقة لأنه نشأ فى تونس وتنقل فى معظم بلاد المغرب كتلمسان وبسكرة وبجاية وغيرها . واتصل بالحكام فى كل تلك الأقاليم ، وله كتابه الشهور (العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر)

حدود المغرب كما جاءت فى كتاب « المغرب » لابن خلدون

« إن المغرب قطر واحد متميز الأقطار ، فحده من جهة الغرب البحر المحيط ، وعليه كثير من مدنه مثل طنجة وسلا وأذفو وأنفى وأسفى ، وهى كلها من مساكن البربر وحواضرهم ؛ وأما حده من جهة الشمال فالبحر الرومى المتفرع من هذا البحر المحيط يخرج فى خليج متضايق ما بين طنجة من بلاد المغرب وطريف من بلاد الأندلس ؛ وأما حده من جهة القبلة والجنوب فالرمال المستهيلة الماثلة حجزا بين بلاد السودان وبلاد البربر ، ويعرف عند البادية بالعرق ، وهذا العرق سياج على المغرب من جهة الجنوب مبتدىء من البحر المحيط وذاهب فى جهة الشرق على سمت واحد إلى أن يعترضه النيل الهابط من الجنوب إلى مصر فهنالك ينقطع ؛ وأما حده من جهة الشرق فيختص بطرابلس وما وراءها إلى جهة المغرب مثل أفريقية والزاب والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى والسوس الأدنى والأقصى . هذا هو المغرب فى العرف لهذا العهد وهو الذى كان فى القديم ديار البربر ومواطنهم [1] »

(١) (المغرب فى تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب) لابن خلدون . طبعة لايدن سنة ١٨٤٨ . ص ١١٨ وما بعدها

ومن هذا نرى أن ابن خلدون فى وصفه للبلاد أدق بكثير من غيره من كتاب العرب ؛ وتبدو لنا دقته من وصفه لتفرع بحر الروم من البحر المحيط ، وتبدو لنا دقته بوضوح بعد هذا بقليل عند ما يتتبع العرق حتى يصل إلى النيل . وسيبدو لنا ابن خلدون أكثر دقة عند كلامه عن شعوب البربر ، وقد أردت أن أبدأ بوصف جونستون لهذه الشعوب ثم أتبعه بوصف ابن خلدون ؛ وسنرى بعد قراءة الوصفين أن ابن خلدون على تقدم عصره كان أجمل وصفاً وأدق تعبيراً من جونستون . ولا غرو فابن خلدون ابن تلك الفيافى والبلاد . وسنأتى الآن بتقسيم جونستون لجماعات البربر : فى أوائل القرن السابع كان الجنس الليبي أو بربر شمال أفريقية الذين كانوا يسكنون كل المنطقة الواقعة بين الحدود الغربية لمصر (بعد واحة سيوة) شرقاً وساحل مراكش غرباً ينقسمون إلى : —

(١) البربر الشرقيون أو الليبيون (لواتا Luota وهوارة Huore وأوريغا Aurjgha ونفوسة Nefuse) ويسكنون قيرينيقا وطرابلس وتونس وجزءاً من شرق الجزائر

(٢) البربر الغربيون أو صنهاجة Senhaga وكانوا يشغلون سواحل الجزائر وغربيها وكل مراكش حتى يصلوا إلى حدود الصحراء جنوباً

(٣) زناتة Zeneta وهم أقتم لوناً وقد انحدروا من Getulians وقد يتصلون فى الأصل بالنولا الذين سكنوا فى القرن السابع أجزاء كانت تقل أو تكثر من الإقليم الصحراوي جنوب الجزائر وتونس ومراكش ومن زناتة انحدر البربر المزاب Mzab Berbers الحديثون وقبائل الورجلى Wargli People وبنو مرين Beni Merin الذين أسسوا أسرة حكمت البربر فيما بعد

وقد دُفع كثير من زناتة السود إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط فى فترات مختلفة ، كما أن كثيرين من البربر الشرقيين أو الليبيين قد دفعوا إلى قلب الصحراء تحت تأثير العرب الفاتحين ومنهم نشأت مزقة الطوارق فيما بعد . وكذلك هاجر كثيرون من البربر الغربيين أو الصنهاجيين فى القرن السابع إلى الصحراء جنوباً واستقروا شمال نيجريا وشمال حدود السنغال فليس هناك من شك أن كلمة زناجة Zenaga (اسم قبيلة من قبائل

البربر) قد أخذت من صنهاجة ثم حرّف البرتغاليون زناجا فيا بعد فأصبحت « سنغال » (١)

وفى القرن السابع كذلك كانت هناك علاقات تجارية بين زنوج الجارامنت Negroid Garamantes وبين جنوب وشرق ليبيا ووصلت هذه العلاقات حتى كانم وبحيرة شاد ودارفور وكردفان ، فكانت هذه الطرق أكبر مسهل للعرب فى فتوحهم المستقبلة للسودان وبلاد المغرب

هذا ملخص تقسيم جونستون لهذه القبائل . ولنر الآن ماذا يقول ابن خلدون فى وصفها قال : « هذه الأمم السودان من الآدميين هم أهل الإقليم الثانى وما وراءه إلى آخر الأول ، بل وإلى آخر المعمور متصلون ما بين المغرب والمشرق يجاورون بلاد البربر بالمغرب وافريقية وبلاد اليمن والحجاز بالوسط ، والبصرة وما وراءها من بلاد الهند بالمشرق ؛ وهم أصناف وشعوب وقبائل أشهرهم بالمشرق الزنج والحبشة والنوبة ، وأما أهل المغرب فنحن ذاكروهم ، وأما نسبهم فإلى حام بن نوح »

« وعد ابن سعيد من قبائلهم وأممهم تسع عشرة أمة فنهم بالمشرق الزنج على بحر الهند ولهم مدينة منبسة وهم مجوس ويليهم بربرا ، والإسلام لهذا العهد فاش فيهم ولهم مدينة مقدشوا على على البحر الهندى يعمرها تجار المسلمين ، ومن غربيهم وجنوبهم الدمادم وهم حفاة عراة ؛ ويليهم الحبشة وهم أعظم أمم السودان وهم مجاورون لليمن على شاطىء البحر الغربى منه ؛ ويليهم البجا وهم نصارى ومسلمون ولهم جزيرة مدينة دنقلة غرب النيل وأكثرهم نصارى ؛ ويليهم زغاوة وهم مسلمون ومن شعوبهم تاجرة ؛ ويليهم كانم وهم خلق عظيم والإسلام غالب عليهم ومدينتهم حيمى ولهم التغلب على بلاد الصحراء إلى فتران ؛ ويليهم عن غربيهم كوكو وبعدهم تقارة والتكرور ولمى وغنم وجابي وكوري وانكرار ويتصلون بالبحر المحيط إلى غانة فى الغرب »

« ولما فتحت أفريقية المغرب دخل التجار بلاد المغرب منهم فلم يجدوا فيها أعظم من ملك غانة . كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب الغرب وكانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك ، وكانت تجاورهم من جانب الشرق أمة أخرى فيما زعم الناقلون تعرف بصوصو . ثم بعدها أمة أخرى تعرف بمالى . ثم بعدها أمة أخرى تعرف بكوكو ويقال لها كاغو . ثم بعدها أمة أخرى تعرف بالتكرور. ثم إن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلى بلاد البربر واعتزوا على السودان واستباحوا حماهم وبلادهم واقتضوا منهم الأتاوات والجزى ، وحملوا كثيراً منهم على الاسلام فدانوا به ؛ ثم اضمحل ملك أصحاب غانة وتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم من أهل السودان واستعبدوهم وأصاروهم فى جملتهم . ثم إن أهل مالى كثروا أمم السودان فى نواحيهم تلك واستطالوا على الأقاليم فتغلبوا على صوصو وملكوا جميع ما بأيديهم من ملكهم القديم ، وملك أهل غانة إلى البحر المحيط من ناحية الغرب وكانوا مسلمين يذكرون أن أول من أسلم منهم ملك اسمه « برمندانة » . ثم يذكر ابن خلدون بعد ذلك من تولى الحكم بعد هذا الملك حتى يصل إلى الملك ساكوره (سبكرة) فيقول عنه : « وحج أيام الملك الناصر وقتل عند مرجعه بتاجورا وكانت دولته ضخمة اتسع فيها نطاق ملكهم وتغلبوا على الأمم المجاورة لهم وافتتح بلاد كوكو وأصارها فى ملكة أهل مالى فاتصل ملكهم من البحر المحيط وغانة بالمغرب إلى بلاد التكرور فى المشرق ، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وأفريقية ... الخ »

هذا هو كلام ابن خلدون وقد تعمدت أن أنقله فى هذه السطور الكثيرة لأنه قد شرح ما ألم به ابن بطوطة وما أجمله جونستون ، فمن كلام ابن خلدون نستطيع أن نفهم بوضوح أى القبائل كانت تسكن فى كل تلك الأقاليم ، ونستطيع أن نفهم بوضوح أى هذه القبائل كانت تدين بالإسلام وإلى أى حد وصل الإسلام ؛ ولكن ابن خلدون عاش فى أوائل القرن الرابع عشر كما قلنا وهو إذ يتحدث عن هذه الديار يتحدث عنها كديار إسلامية انتقل إليها الإسلام من مختلف الجهات واستقر بها وأثر فى أهلها ، ولكننا قد نتساءل بعد هذا : كيف دخل الإسلام إلى تلك الجهات وكيف اقتحم على أولئك الزنوج غاباتهم وأحراجهم وبيوتهم ومدنهم ؟ وكيف أثر فى الأهلين وفى عاداتهم وأخلاقهم ؟ هذا ما سنتناوله الآن بالبحث

(يتبع) جمال الدين محمد الشيال

(١) جونستون — استعمار افريقيا — كامبروج سنة ١٩١٣ ص ٥٤

الهيــــكل

لشاعر الحب والجمال «لامارتين»

ترجمة السيد عارف قياسة

« مهداة إلى أستاذنا الزيات اعترافاً بما لترجمته من فضل على المترجمين » (عارف)

(ولج الشاعر ذات مساء بيعة قرية ، فاذا ضوء خافق ينير ظلمتها ، وإذا نفسه الطاهرة تجيش بالخواطر ، وإذا قلبه الخاشع يفيض بالشعر ، وإذا هو يخرج من البيعة ويمتشق يراعته ويسجل هذه القصيدة فى صفحة الخلود) :

* * *

ما أحيلاه حين يصعد كوكب الشفق إلى القبة الزرقاء ، وقد سبق محفة الليل الهادئة الوادعة ، وحين يتنازع النور والظلام عرش الغبراء . ما أحيلاه إذا ماضرب فى أعماق الوادى ، والقلب عامر بالتقوى ، زاخر بالورع ، مولياً وجهه شطر الهيكل القروى حيث تخلع الطبيعة على أروقته الساذجة ثوباً من الأشنة ، وحيث تزال الحجب وتكشف الأغطية ، وحيث تتحدث السماء إلى قلوب طفحت بالتقوى

* * *

تحية أيتها الغابة المقدسة ! تحية يا أيها الحقل الذى رفرف الحمام فوقه ، يا حارس أجداث القرية ! إنى لأبارك أرماسك المتواضعة فى غدوي ورواحى . ويح الأولى مشوا على رفات العباد اختيالا ! جثوت على ركبتى أمام قبورهم إجلالا وقد رنت أقدامى فى صخرة الهيكل . الليل ساج داج ، والضوء خافت مرتعش فى المحراب ، ينبعث من سراج وهاج ، تألق قرب (المذابح) المقدسة ، سراج يتلألأ حين يبسط الكرى أجنحته على الكون رمز الإحسان الساهر ، ماسح مدامع البؤساء ، وجامع آهات الأشقياء

* * *

دلفت إلى الهيكل ، فلم يرن فى أذنى غير اهتزاز رفنائه تحت وقع أقدامى الموزونة . أيتها الجدران المباركة ! أيتها المذابح المقدسة ! إنى لفريد وحيد ، وإن نفسى لتود لو سكبت أمامكن آلامها الممضة ، وغرامها المضنى ، وأودعت السماء كلمات خفية ، ستدرك كنهها هى وحدها ، وستسمعها أنتن وحدكن

* * *

ولكن لمَ أزهف إلى تلك المذابح غير هياب ولا وجل ؟ أى ربى العظيم ! إنى لأجرؤ أن أحمل فى هذا الهيكل الخاشع قلباً يرمضه الألم ، ويضنيه الغرام . رحماك ربى ! إني لأحس بالرعدة تسرى فى كيانى : إغفر ما اجترحت فى بيتك من خطايا وآثام . كلا ! إن نار الجوى التى تلهمني لا تصبغ وجهى بحمرة الإثم . الحب طاهر ما أذكت الفضيلة لظاه ، نقى نقاوة من أخلصت لها الوداد . إن غرامى ليلذع قلبي ولكن بجذوة مقدسة ، فالصبر يشرفه ، والشقاء ينقيه ويطهره

* * *

لقد ذكرته إلى الغبراء ، وإلى الطبيعة الحسناء ؛ ذكرته أمام مذابحك المقدسة فى غير وجل ولا إشفاق ، وإنى لأجرؤ على ذكره أمام عظمتك أيها الرب القدير ! أجل ! لقد تمتمت شفاهى باسم « إلفير Elvire » برغم ماقذفه هيكله من الروع فى فؤادى . إن ذلك الاسم الحبيب الذى تعيده الأجداث إلى الأجداث ، وتهمس به الأموات فى آذان الأموات ، ليكدر سكون المقبرة الرهيب كما يكدره شق زفر آهة معولة

* * *

تحية أيتها الرموس المقرورة ! تحية أيتها المنازل المقدسة ! لقد أعاد صدى الليل سويعاتنا السعيدة وأويقاتنا الحبيبة حين أذريت دمعي أمامكن . شاهدت السماء مدامعى المسفوحة فقرت عيني وطابت نفسى

لعل « إلفير » التى تساهر وحيدة صورتى الحبيبة ، تدلف فى تلك اللحظة إلى معبد داج ، مخضلة العينين بالدموع ، وتجثو أمام المذابح القفرة تودع آلامها وأشجانها كما أودعت آلامى وأشجانى

حماة « سوريا » عارف قياسة

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٤٥ — مكشوف الرأس

فى (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلى : فى سنة (٤٥٦) توفى عبد الواحد بن على بن برهان العُكبرى النحوى صاحب التصانيف ، قال الخطيب : كان مطلعاً بعلوم كثيرة منها النحو واللغة والنسب وأيام العرب ، وله أنس شديد بعلم الحديث . وقال ابن ما كولا [1] : سمع من ابن بطة ، وذهب بموته علم العربية من بغداد ؛ وكان أحد من يعرف الأنساب ولم أر مثله ؛ وكان فقيها حنفياً ، أخذ علم الكلام عن أبى الحسين البصرى وتقدم فيه . وقال ابن الأثير : له اختيار فى الفقه ، وكان يمشى فى الأسواق مكشوف الرأس [2]

٢٤٦ — عن ابن الرومى عن النرجس . .

ابن الرومى :

أرى حسن هذا النرجس الغضّ مخبراً
عن الله أن ليس النبيـذ محرما

٢٤٧ — وكنتم قبله سراً يموت فى ضلوع كاتم

مهيار :

ما برحت مظلمة دنياكم ... حتى أضاء كوكب فى هاشم
نبلتم بهِ وكنتم قبـله ... سراً يموت فى ضلوع كاتم [3]

٢٤٨ — نوارة لا تحتمل أن تحك بين الأكف

سئل أبو العباس بن البناء ، وكان رجلا صالحا ، فى قوله تعالى :

(١) على بن هبة الله من نسل أبى دلف وله (الاكمال) وعليه اعتماد المحدثين كما قال ابن خلكان

(٢) وممن كانوا يمشون مكشوفى الرءوس : الشيخ زين الدين عبد القادر الدشطوطى (نسبة إلى دشطوط من قرى الصعيد وفاته ٩٢٥) وعبد العال المصرى (وفاته ٩٣١) وابراهيم المصري المشهور بأبى لحاف (وفاته ٩٤٠)

(٣) وفى رواية وهي التى فى الديوان المطبوع (بنتم به وكنتم من قبله) بنتم بظهرتم ، وبعد البيت :

خلتم بهـديه وعمته ... بعد الوهاد فى ذرى العواصم
تخفق راياتـكم منصورة ... إذا ادرعتم باسمـه فى جاحم

(قالوا إن هذان لساحران [1]) لِمَ لَمْ تعمل إن فى هذان ؟

فقال : لما لم يؤثر القول فى المقول ، لم يؤثر العامل فى المعمول

فقال له : يا سيدى ، هذا لا ينهض جواباً فإنه لا يلزم من بطلان قولهم بطلان عمل إن

فقال له : إن هذا الجواب نوّارة لا تحتمل أن تحك بين الأكف

٢٤٩ — رفق

فى (اليتيمة) : كان سيف الدولة قلما ينشط لمجلس الأنس لاشتغاله عنه بتدبير الجيوش ، وملابسة الخطوب ، وممارسة الحروب . فوافت حضرته إحدى المحسنات من قيان بغداد ، فتاقت نفس أبى فراس إلى سماعها ، ولم يرَ أن يبدأ باستدعائها قبل سيف الدولة ، فكتب إليه يحثه على استحضارها :

محلُّك الجوزاء أو أرفعُ ... وصدرك الدهناء أو أوسع [2]
وقلبك الرحب الذى لم يزلْ ... للجدّ والهزل به موضع
رفّهْ بقرع العود سمعاً غدا ... قرع العوالى جُلّ مايسمع

فبلغت الأبيات المهلبى الوزير فأمر القيان بحفظها وتلحينها ، وصار لايشرب إلا عليها

٢٥٠ — كيف يصبح ؟ كيف يمسى ؟

عبيد الله بن العباس الربيعى :

ياشادناً رام إذ مرّ ... فى السعانين قتلى [3]
تقول لى : كيف أصبحت ؟ ... وكيف يصبح مثلى ؟ !

البديع الهمذانى :

ياسائلى ، كيف تمسى ؟ ... أخو الهوى كيف يمسى ؟ !

٢٥١ — الصلاة رحمة

فى (كتاب أخبار النساء) لابن قيم الجوزية : قال بعضهم :

(١) قرأ أبو عمرو : إن هذين لساحران ، وابن كثير وحفص إن هذان لساحران (واللام هى الفارقة) وأبى : إن ذان إلا ساحران . وهناك غيرها منها إن هذان لساحران وفي (اعراب القرآن) تبيين كل ذلك . في شرح الكافية : قد جاء ذان وتان واللذان واللتان فى الأحوال الثلاثة

(٢) الجوزاء : برج فى السماء سميت لأنها معترضة فى جوز السماء أى وسطها (التاج) الدهناء : الفلاة ، موضع لتميم بنجد مسيرة ثلاثة أيام لا ماء فيه ، يمد ويقصر فى الشعر (التاج)

(٣) السعانين : عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع يخرجون فيه بصلبانهم (القاموس) وهو : يوم السباسب فى شعر النابغة :

« يحيون بالريحان يوم السباسب »

سمعت يحيى بن سفيان يقول : رأيت بمصر جارية بيعت بألف دينار فما رأيت وجهاً قط أحسن من وجهها صلى الله عليها !

فقلت له : يا أبا زكريا ، مثلك يقول هذا مع ورعك وفقهك ؟!

فقال : وما تنكر على من ذلك ؟ ! صلى الله عليها وعلى كل مليح ! يا ابن أخي ، الصلاة رحمة

٢٥٢ — يحترس بها من الغيلان

في (الموشح) للمرزُباني : قال احمد بن عبيد الله مما أنكر على أبي العتاهية قوله لما ترفق في نسيبه بعُتبة :

إني أعوذ من التي شعفت مني الفؤاد - بآية الكرسي [1]

وآيةُ الكرسي يهرُب منها الشياطين ، ويُحترس بها من الغيلان — كما روى عن ابن مسعود في ذلك — وأبو العتاهية مع رقة طبعه ، وقرب متناوله ، وسهولة نظم المنثور عليـه ، وسرعته إلى مايعجز المتأنيَ بلوغُـه — لايخلو من الخطأ الفاحش والقول السخيف

٢٥٣ — لأن العناية من ثم

قال أبو بكر بن العربي في رحلته : كان بمدينـة السلام إمام من الصوفية يعرف بابن عطاء ، فتكلم يوماً على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه . فقام رجل من آخر مجلسه — وهو مشحون بالخليقة من كل طائفـة — فقال : يا شيخ ، ياسيدنا ، فإذن يوسف همّ وما تمّ

فقال : نعم لأن العناية من ثمّ

فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم ، وفطنة العامي في سؤاله ، والعالم في اختصاره واستيفائه

٢٥٤ — ما زعزعتك

روى أن رجلا من بشار وهو مستلق على قفاه في دهليزه كأنه فيل [2] ! فقال يا أبا معاذ إنك تقول :

إنّ في بردىّ جسماً ناحلاً لو توكأت عليه لانهدمْ

وإنك لو أرسل الله الريح التي أهلكت عاداً عليك مازعزعتك

(١) شعف الحب فؤاده : علا وغلب عليه (الأساس)

(٢) في (الأغاني) : قالت امرأة لبشار ما أدرى لم يهابك الناس مع قبح وجهك ، فقال لها : ليس من حسنه يهاب الأسد

٢٥٥ — فإنها قد مثلت في الضمير

ضرير :

وغادة قالت لأترابهـــا : يا قوم ، ما أعجب هذا الضرير !

أيعشق الإنسان ما لا يرى ؟ فقلت — والدمع بعيني غزير — :

إن لم تكن عيني رأت شخصها فإنهـا قد مثلت في الضمير !

٢٥٦ — لو رآه ابن ليون لاختصره

كان ابن ليون التجيبي — وهو من شيوخ لسان الدين بن الخطيب — مولعاً باختصار الكتب ، وتآليفه تزيد على المائة

ومما حكي عن بعض كبراء المغرب أنه رأى رجلا طوّالا [1] فقال لمن حضر : (لورآه ابن ليون لاختصره) إشارة إلى كثرة اختصاره للكتب

٢٥٧ — فلا يزال عليه أو به طرب

مما يستحسن في وصف العود قول ابن القاضي :

جاءت بعود تُناغيه ويسعدها فانظر بدائع ماخصت به الشجر

غنت على عودها الأطيار مفصحة غضاً فلما ذوى غنى به البشر

فلا يزال عليه أو به طربٌ يَهيجه الأعجمان : الطير والوتر

٢٥٨ — وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم

في رسالة (أخلاق الكتاب) للجاحظ : حدثني عمر بن سيف أنه حضر مجلس أبي عباد ثابت بن يحيي يوماً في منزله وعنده جماعة من الكتاب فذكر ماهم عليـه من ملائم [2] الأخلاق ، ووصف تقاطعهم عند الاحتياج ، وعدم تعاطفهم عند الاختلال فقال :

معاشرَ الكتاب ، لا أعلم أهل صناعة أملأ لقلوب العامة منكم ، ولا النعم على قوم أظهر منها عليكم . ثم إنكم في غاية التقاطع عنـد الاحتياج ، وفي ذروة الزهد في التعاطف عند الاختلال . وانه ليبلغني أن رجلاً من القصابين يكون في سوقه ، فيتلف مافي يديه ، فيخلي له القصابون سوقهم يومه ويجعلون له أرباحهم فيكون ربحها منفرداً ، وبالبيع منفرداً ، فيسدون بذلك خلته ، ويجبرون منه كسره

(١) الطوال : بالتشديد المفرط الطول وجمعه طوالون ، لا يكسر إنما يجمع جمع السلامة

(٢) الملائمة : اللؤم

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

المسافر :

وكان قد انتصف الليل عند ما توجه زارا إلى أكمة الجزيرة وهو يجد في السير ليبلغ الشاطئ الآخر عند بزوغ الفجر إذ كان يقصد الابحار من هذه الجهة حيث ترسو بعض المراكب لتقل طلاب الهاجرة من الجزر السعيدة

وتذكر زارا الرحلات التي قام بها منفرداً منذ صباه فمرت بمخيلته رسوم الجبال والتلال والذرى التي تسلقها في حياته فقال : «ما أنا إلا رحالة ومتسلق مرتفعات وما تستهويني منبسطات الأرض ولا يستقر بي مقام . ومهما قُدّر علي ومهما وقع لي فلا تعدو الحوادث أن تكون في نظري رحلة واعتلاء . فما لي أن أرى من الآفاق إلا ما انطبع منها في نفسي . ولقد مضى الزمن الذي كان لي فيه أن أتوقع الحوادث من خطرات الحظ . وهل لي أن أنال من الدهر شيئاً لم يستقر في نفسي من قبل ؟

إن كل ما يطرأ عليّ بعد الآن إنما هو ذاتي العائدة تكراراً بعد انفراطها وتمازجها في الأشياء وتصاريف الزمان . غير أنني أصبحت الآن على مدرج آخر الذرى أمام أصعب مسلك ما اقتحمت مثله في حياتي ، فأنا أبدأ الآن أشد رحلاتي عناء وأروعها وحشة

وأنّى لمثلي أن يتجنب مثل هذه الساعة التي تهتف قائلة : إنك على مبدأ طريق المجد حيث تتداخل الذرى في المهاوي . أنت تسير على هذه الطريق وكنت تراها قبلاً آخر ما تقتحم من أخطار فأصبحت لديك آخر ملجأ تهرع إليه

إنك تسير على طريق المجد فعليك أن تتذرع بالحزم الأوفى لتقطع بنفسك خط الرجوع على نفسك

إنك تسير على طريق المجد ، فأنت منفرد عليها لا يزحمك أحد من ورائك ، وقد محت أقدامك آثار خطاك على ما وراءك من المسالك ، ولاحت كلمة المستحيل بعينيك على آفاق هذه الطريق

ولا بد لك إذا ما خلت المدارج تحت أقدامك أن تتسلق قمة رأسك إذ لا سبيل لك للاعتلاء إلا إذا اتجهت إليه وإلى ما وراءه وأنت تدوس على قلبك ، وهكذا سيشفيك ما كان يحلو لديك

إن من أفرط في ادخار جهوده لا يلبث حتى يُبتلى بالخمول ، تبارك كل جهد يشد العزم ، فلا خير في أرض تدر اللبن والعسل ؛ ومن يطمح إلى الاحاطة بأمور كثيرة فليتدرب على إرسال أبصاره إلى ما وراء حدود ذاته . وعلى كل متسلق للذرى أن يتمزز بمثل هذا الحزم إذ لا يسع من يتحرى الأمور متجسساً بفضوله إلا الوقوف عند أسهل الأفكار منالا . وأنت يا زارا تطمح إلى الاحاطة بالعلل وإلى نفوذ خفايا الأمور ، فعليك أن تحلق فوق ذاتك فتجتازها متعالياً حتى ترى ما فيك من كواكب متصاغرة في كل أفق دون أفقك الرفيع

أجل إن ذروتي إنما هي حيث أقف ناظراً إلى الأعماق فأرى فيها ذاتي وكواكبها ، تلك هي آخر هضبة أطمح إلى بلوغ قمتها »

بهذا كان يناجي زارا نفسه وهو يصعد المرتفع مملا بالتعاليم الصارمة ما في قلبه من جراح

وعند ما بلغ الذروة انبسط البحر أمام ناظريه فوقف مبهوتاً واستغرق في صمت طويل ، وكانت السماء لا تزال تتألق بالنجوم والهواء يهب بارداً على الأكمة

وهتف زارا حزيناً : «لقد تبينت ما قُدّر عليّ ، وهأنذا مستعد للاقدام فهذه آخر عزلة أقتحمها

سأنحدر إليك أيها البحر المظلم المنبسط عند أقدامي ، أنت الليالي المفعمة بالأحزان ، أنت القضاء والقدر أيها الخضم البعيد

إنني أقصد أرفع جبالي مقتحماً أبعد أسفاري فعليّ إذاً أن أهبط إلى مهاوٍ أبعد في أغوارها من كل ذروة رقيتها حتى الآن

عليّ أن أذهب من الأسى إلى أغوار مارسبت في مثلها من

قبل فأصل إلى قرارة مافى الأحزان من ظلمات . ذلك ماقدر عليّ فأنا على أهبة لاقتحامه

لقد تساءلت فيما مضى عن منشأ الجبال فعرفت أخيراً أنها نهدت من البحار كما تشهد صخورها وجروف ذرواتها ، فما يبلغ الأعلى مقامه إلا لانطلاقه من القام الأدنى »

هكذا تكلم زارا وهو مائل على قمة الجبل تدور به لفحات الصقيع ، ولكنه ما بلغ الشاطىء ووقف بين نتوءات صخوره حتى حل عليه التعب وتزايدت أشواقه فقال :

« إن البحر هاجع أيضاً فعينه الوسنى تحدجنى بلفتات غريبة وأنفاسه الحرى تهب علي . إنه مستغرق فى أحلامه يتقلب مضطرباً على جافيات مسانده . إننى أستمع لهديره كأنه يئن بتذكارات مفجعات ، وقد يكون هذا الهدير نذيراً بالشؤم فى آتى الزمان

إننى أشاطرك الأسى أيها الدجى المظلم الوسيع ، فأنا بسببك ناقم على نفسى أتمنى لو طالت يدى فأنقذك من أصفاد أحلامك »

وانتبه زارا فإذا هو يضحك ساخراً من ذاته فتمرمر وتساءل عما إذا كان سيبلغ به حماسه إلى اطلاق انشاده لتعزية البحار ، وعما إذا كان سيستمر مضعضعاً فى سكرة غرامه واستسلامه فقال :

«لقد عرفتك فى كل زمان يازارا تقتحم الأمور الخطيرة بلا كلفة وبلا مبالاة ، وقد رأيتك طوال حياتك تدغدغ الوحوش المفترسة فكان يكفيك منها أن تهتاج حبك بأنفاسها الحرى وبنعومة مخالبها لتجتذبك إليها

ليس من خطر أعظم من الحب يحدق بالمستغرق فى عزلته فإن المنفرد يحب كل شىء يتنسم فيه الحياة ؛ وما أعجب جنونى بالحب وتساهلى فيه »

هكذا تكلم زارا وقد عاد إلى الهزء بنفسه ؛ غير أنه تذكر من هجر من خلانه فخيل اليه أنه يسيء إليهم بتفكيره فيهم ، فنقم على نفسه وانقلب من ضحكه إلى البكاء فسالت دموعه مريرة يمازج فيها الغضب والشوق

فليكس فارس

العلويون والتقمص

فى أوقات مختلفة ، لكتاب مختلفين ، نشرت (الرسالة) مجلة الأدب الراقى والفن الرائع ، بعض الآراء عن بعض المعتقدات والمذاهب المتفرعة عن الإسلام

بحثها الأستاذ عنان على سبيل التاريخ ، وغيره على ضوء المعلومات الحديثة والاختبارات الشخصية

وقد أجمع الكتاب والناس على أن الدروز يؤمنون بالتقمص ؛ وقد كان إجماعهم فى هذه المرة صادقا لايلوثه شك . أما أنا فأقول إن العلويين « النصيرية » يؤمنون بالتقمص كإخوانهم الدروز . ولست أطلع بهذا النبأ طلوع من يجهل ، فلقد تحريت هذا الاعتقاد بنفسى بين إخواننا فألفيته موجوداً مستساغاً لا شك فيه ولا غبار عليه . وللعلويين فى اعتقادهم هذا حكايات جميلة ، ونكت حلوة لا بأس إذا نقلنا « للرسالة » شيئاً منها

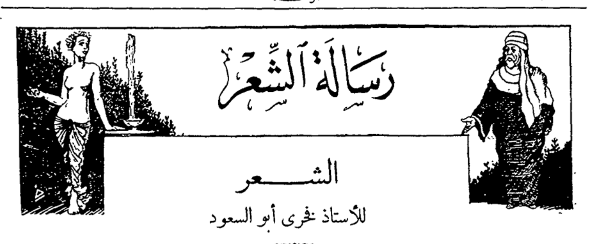
قال لى أحدهم : ألا تعتقد يا أخى بالتقمص وقد أوجسنا من دلائله ما حملنا على الإيمان به أشد الإيمان وأقواه ؟ قلت : ما هذه الدلائل ؟ قال : اسمع ، ولد فى قرية (كذا) يقصد امرأة مات زوجها عنها ويدعى أنه تحول إليه ، يذكرها بعهود الصبا ، وبأيام قضاها وإياها ، ويحدثها بأسرارها الزوجية السالفة ، فتدهش لهذا وتعجب وتهبه من مالها الكثير وتؤمن أنه رجلها الراحل . قلت : هذا لا يكفينى . قال : إن كان لا بد فدونك :

لاشك أنك تعرف فى القرية الأجير (فلانا) وقد تدرك احترام معلمه له ، وقد ترى حب أم معلمه له الحب الجم ، وحياءها منه الحياء الكثير ، ولا بد أنك لحظت فى كفه آثار طلق نارى يظهر لك عتيقاً . قلت : وما تعنى بهذا ؟ قال :

أما الأجير فإنه أب للمعلم ، وزوج لأمه ، وهو يماتها لتزوجها بعد وفاته ، إنه أكد أبوته العتيقة بآثار الطلق وبحوادث وأعمال صدقها بعض قدماء القرية ، وقد جرت بينهم وبين الراحل أمثالها ، ولو علمت أنه أتى عالم النور يوم مات أبو معلمه لصدقت بعض الشىء مما أقول

ذاك ما روى الرجل أثبته للتأكد من إيمانه بهذا المذهب ، وهذا ما حدث لى معه . وقد روى بعضهم أن اعتناق التقمص إنما يثير عدم مبالاة بالحياة ؛ وقد رأينا من العلويين الشيوخ شيئاً من هذا ، وقد رأينا من بعضهم شجاعة ربما كان من جملة بواعثها — غير طبيعتهم الجبلية فى سوريا — اعتقادهم بمذهب التقمص .

حماة « سوريا » محسن شيشكلى



الشـــــعر

للأستاذ فخرى أبو السعود

ألا يا صدى للنفس قد بات حاكياً ... تترجم عنها شجوها والأمانيا
تبوح بذكراها وتحكى شعورها ... وتروى رؤاها صادقاً والمعانيا
وتكشف من أسرارها كل مبهم ... خبيراً بأغوار السريرة داريا
لأنت نديم النفس فى صبَوَاتها ... وإنْ عَنَّ خطب كنت أنت المواسيا
لها منك فى الأشجان يا شعرُ مفزَعٌ ... تُدافِعُ عنها اليأسَ بالبِشْرِ ماحيا
وأنت قرين البأس والجد والعلى ... وكم تلهم العليا وتوحى التساميا
وما أنت ألفاظٌ تُصاغ لباقةً ... ولكنْ شعورُ النفس قد فاض طاميا
مَعينٌ بنفس المرء يجرى ترقرُقاً ... إذا حَبستْه غيضَ جَرْجَرَ داويا
أهابَ به من حادث الدهر نازلٌ ... فأقبلَ دفَّاقاً يلبى المناديا
وما كنتُ يوماً ناظمَ الشعرِ إنما ... غدوتُ لهُ فى صفحة الكون تاليا
أقلِّب من ديوان ذا الكون صفحةً ... تلى صفحةً أتلوه للناس راويا
صحائفُ ما تَبلَى على الدهر جِدّةً ... وكم بات تالوها عظاماً بواليا
صحائف حُسْنٍ قد عبدتُ صفاتِه ... وصورتُ منه فى القصيد مَجَانيا
وأودعته آمالَ أمسٍ وهَمَّه ... وأيامَ حسْنٍ قد مضت ولياليا
إذا رُحتُ أتلو ما خططتُ رأيتنى ... كأنِّىَ أحيا ذلك العهد ثانيا
وما العيشُ إلا أنْ ترى فتنة الورى ... وتودِعها من بعـــد ذلك القوافيا
فلا عشتُ إلا ناظراً متملّياً ... أُهذِّبُ شعراً يَعرِضُ الكونَ حاليا
يصوِّر حسنَ الأفق بالشمس سافراً ... ويرسم سحر البدر يغشَى الدياجيا
وأقدامَ طودٍ حفَّها الموجُ غاسلاً ... وهاماتِ هضبٍ لفَّها الغيم كاسيا
ويحكى ائتلاف النور والظل والشذا ... ويحكى خُفوقَ الغصن بالغيث ناديا
ويحكى خرير النهر يجرى مُسَلْسَلاً ... وألحان طير بات فى الغصن شاديا
أميرُ الفنونِ الشعرُ جَمَّع شملها ... وأترعَ منهنَّ النفوس الصواديا
رَوَى كلَّ عينٍ ناقشاً ومصوراً ... وكلَّ سَماعٍ شادياً ومناجيا
وفيه مجالٌ للخيال وملعب ... به الفكرُ يُدنى كلَّ ما كان نائيا
ويمضى مع الأحلام فى كل مذهب ... وترْمِى به شتى الطيوف المراميا
ويخلُق منها عالَماً بعد عالَم ... مليئاً بأسباب المسرات حاليا
ويدفعه حبُّ البعيدِ فينثنى ... مع الريح يمضى أو إلى النجم راقيا
ويَصْدَع أنيارَ الثرى وقيودَه ... ويمرح فى طلْق السموات ساريا
ويمعن فى ماضى الزمان مُجَوِّلاً ... ويسبر محجوباً من الغيب آتيا
ويجمع أطراف الحياة وتلتقى ... على وِرْدِهِ الأجيالُ شتى تواليا

فخرى أبو السعود

من الشعر الرمزي

تعـالي . . . !

للأديب محمود السيد شعبان

تعالَيْ نشرب الكأس الـ (م) تي عتَّقَها الرَّبُّ . . . !
وأحلاها لِكَيْ يصبو إليها الثغرُ والقلبُ
كُؤوس لَمْ تحرِّمْها دِيانات ولا رُسْـلُ !
إذا طَشَ الحجا يوماً ففيها اللُّبُّ والعقْلُ ! !
وفيها السِّحْرُ والإلها مُ والنَّشْوَةُ والحُبُّ !
تعـالَيْ ! . . . ماننا نشقى وفى إمكاننا الوَصْـلُ ؟

***

خيالُ أنتِ فى فكري أُحيِّي فيـه أحلامي . .
تعالَيْ ! لا يُرَوِّعْكِ الـ أسى يابِنْتَ أوهامي !
عشقتُ السِّحْرَ والأحـلا مَ والدنيـا التي فيكِ ! !
وما زال الهوى بالتَّعـــــر والألحان يَبْنيكِ !
تعالَيْ ! إنَّني صَـدْيانُ في بَيْداء أيَّامي
وثغري ظامئٌ يا لَيْـــــتَني أرْوِيهِ مِنْ فِيكِ ! !

***

تعالَيْ أدفئي صـــــدري وما يحوي بأنفاسِكْ !
تعـالَيْ زاوِجِي ما بَيْـــــنَ إحساسي وإحساسِكْ
تعـالَيْ يا ابْنَـةَ الآما لِ نَقْضِ العمرَ لاهِيناَ !!
وهيَّا ننفُضِ الأشجا نَ يوماً مِن أيادينا
وَصُبِّي النورَ في كأسي وصُبِّي الوَجْدَ في كاسِكْ !
وَبُثِّي رائعَ الأحْـــلا مِ حِيناً في أمانِينا . . .

***

تعـالَيْ ! رافِقِي ذاتِي تعالَيْ ! غازِلِي حِسِّي ...!
تعالَيْ ! أَسْقِكِ الأَسْرا رَ مِن دَنِّي ومِن كأسي !
فما في الوَحْدَةِ الخرْساء ما تهواهُ ألحاني
وهٰذا الصَّمْتُ لا يرضا هُ لي حُبِّي وتحناني
أُريدُكِ كَيْ أُجاهِدَ فِيـــــكِ عَن طوْعي هوى نَفْسي !
فما لَكِ لا تُلَبِّيني إذا ما الطُّهْرُ لبَّاني ؟ !

***

تعالَيْ ! بَدِّدي شجْوِي تعـالَيْ ! جدِّدِي قلبي
فما يهنيكِ أَنْ أحيا على الدنيـا بِلا حُبٍّ !
وأَنْ تبقَي معي نفسي بلا إِلْفٍ يُوافيها !
وتحيـا ما ترى في النا سِ إنساناً يواسيها !
دعيني بالهوى أشــــدو إلى أَنْ يَنْقَضي نَحْبي ...
لأمضي غيرَ محزُونٍ على الدنيا وما فيهـا ! !

***

أرادَ الحسْنُ يا قلبي نُنـا أَنْ نعشَقَ الدنيَا !
وتـ[illegible] ـد وحي [illegible] سوى أن نحيا . .
أخذنَا الحبَّ والنجوَى عن الأطيار تَلَقِينَا ...
وتامَتْنَا رُؤَى الدنيـا فـكاد القبحُ يُصْبِينَا ! !
فؤادي ! قد طوَى هذا الـــــهوى عنَّا الأسَى طَيًّا
فأنشدْ رُوحيَ السَّكْرى نشـــــيداً لِلمُحِبِّينَا ! !



الفن الهنـــدى

للدكتور احمد موسى

العمارة

— ٢ —

قلنا إن من أهم النماذج الفذة للعمارة الهندية مجموعة معابد إيلورا الصخرية ، لأنها شاملة لكلا الطرازين البوذى والبراهمى ومبنية على سفح الجبل الجرانيتى ؛ فضلاً عن كونها جميلة التكوين رائعة النقوش والزخارف . وأهم هـذه المجموعة مما يمكننا تناوله بشىء من التنويه هنا معبد كايلاسا الذى نحت فى الصخر ثم فصل منه فأصبح كأنه قائم بذاته ، ويبلغ ارتفاعه ثلاثين مترا ، وصحنه مقسم إلى خمسة أجنحة فصلت عن بعضها بقوائم ، وحوائطه الخارجية مليئة بالمنحوتات التمثيلية بلغت كلها غاية الدقة ؛ وعلى المدخل يوجد فيلان كبيران على اليمين واليسار ؛ وهذا يذكرنا مع الفارق بما كنا نراه على مدخل المعابد المصرية كالمسلتين اللتين اعتاد المصريون إقامتهما عند مداخل معظم معابدهم

وأعقب ذلك اتجاه الفن البنائى الهنـدى اتجاهاً جديداً فى مرحلة أسماها مؤرخو الفن المرحلة البراهمية الحديثة ، وأهم معابدها التى ساروا فى تشييدها على نمط الطراز البوذي ، لا من النحت فى الصخر فقط ، بل أيضاً من حيث الوضع التكويني والإنشائى بالذات ، فضلاً عن تشييدهم المعابد قائمة بنفسها . أما من حيث الطراز الفنى فقد اختلف الإجراء والاتجاه فى شمال الهند عنه فى جنوبها ، وهذا مقبول بالنظر إلى بعد الشقة بين الشمال والجنوب

وكانت صفة معابد الشمال أنها أقيمت مكعبة الشكل فى مجموعها التكوينى ، قد توسطها صحن مربع أو ما يقرب من هذا الشكل ، وتعلوه قبة مربعة الجوانب السفلى اللاصقة للحوائط ومنتهى آخرها بالتقاء الخطوط الزاوية ، فكانت بذلك أشبه بهرم مقوس الأضلاع

وقبل الوصول إلى الصحن وبالقرب من المدخل عملت ردهة تؤدى إليه على نفس الطراز . أما المظهر الخارجى العام للمعبد فكان كثير التعاريج والأضلاع المتشعبة وواجهاته منطاة بالتماثيل وكلها من الحجر الرملى . ويوجد كثير من طراز هذه المعابد فى مقاطعة أوريسا فى الشمال الشرقي

وقد توسعوا فى التصميم الكلى للمعبد بإضافة مبان ملحقة به ، لها قباب ينطبق عليها الوصف السابق ؛ وأقيمت المعابد على هذا النحو فى مقاطعة راجا أو راجبوتانا



١ — مقبرة ميرا الصخرية

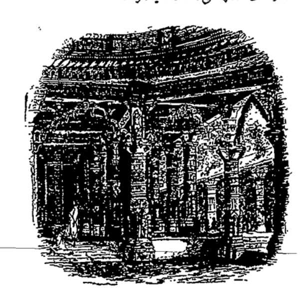
وخير الأمثلة التى يمكننى أن أسوقها مما يستحق الإعجاب

كثيراً معابد كاچوراو وتبلغ الأربعين عدًّا معظمها راجع إلى القرن العاشر بعد المسيح ، وهى تعتبر بحق المثل الفنية للعمارة الهندية إجمالا ، وتبلغ مساحة المعبد الواحد مساحة كتدرائية مسيحية ، ولم يتركوا أى معبد دون شحنه بالزخارف والمنحوتات على واجهاته وبداخله



٢ — داجوب توپاراما يا

وتعتبر مجموعة معابد دچانيا (طريقة دينية معينة) من الدرجة الأولى فى الفن الهندى . منها معبدان قائمان على قمة جبل أبو (ش ٣) يرجع تاريخهما إلى القرنين الحادى عشر والثانى عشر وهما مبنيان من الرخام الأبيض الناصع ، ويحيط بالصحن ستون حقلا حملت سقفها على أعمدة عديدة رائعة



٣ — معبد ڤيالاساه على جبل أبو

أما المعابد الجنوبية فأبرزها دون نزاع مجموعة أسموها الپاجودا وهى عبارة عن مجموعة مبان متجاورة أحيطت بأربعة حوائط من جهاتها الأربع ، وفى واحدة منها وجد المدخل (جوپورا) بتكوين ذى طراز أنموذجى للفن الهندى أسفله بناء مربع وأعلاه سقف على هيئة هرم مدرج ناقص ، أى أن قاعدته العليا مسطحة وقد بلغت درجاته الخمس عشرة . وفى داخل البناء ردهات وصالات ذات أعمدة خصص بعضها للحجاج (تشولترى) ، ولم يختلف المكان المقدس (ڤيمينا) فى شكله الكلى عن النمط الذى ساروا عليه فى إنشاء المدخل إلا أنه مربع الأرضية

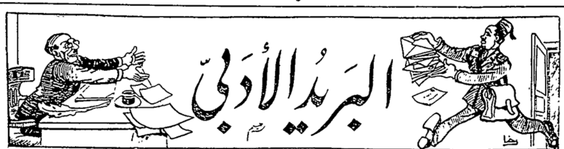
وعلى ذلك تميزت المعابد الجنوبية عن الشمالية بهرمها المدرج وصالاتهـا وردهاتها ذات الأعمـدة ومبانيها التى عملت من الآجر .



٤ — معبد بورو بودر

ولعلنا نسجل هنا أهم ما أقيم فى المرحلة الزمنية المنحصرة بين القرن العاشر والقرن السابع عشر من روائع هذا الطراز ، فپاجودا تانجورا بمدخلها البالغ طوله ٦١ متراً وپاجودا سرينيجام وطول واجهتها كيلو متر تقريباً ، وپاجودا شيللا بروم ومادورا كل هذه تجل عن الوصف ، ولا تدع مجالا للشك بأن الفن الهندى — وإن كان الدرس المفصل به عسيراً بالنظر إلى الأطراف النائية لهذه البلاد — من أهم الفنون الشرقية التى يجب علينا العناية بها وإلفات النظر إلى ما فيها من جمال وروعة

احمد موسى



ترجمة جديدة لحياة جان جاك روسو

كتبت حياة جان جاك روسو فيلسوف النفس والطبيعة مراراً وتكراراً ؛ وحتى لم تحرم العربية من ترجمة لروسو وتحليل لنظرياته وكتبه بقلم الدكتور هيكل بك ، ولكن الباحث في حياة روسو يجد فيها دائماً من الجديد والطريف ما يشجع على استعراضها وتصورها . وقد صدر أخيراً بالألمانية كتاب جديد عن حياة روسو عنوانه « الأحلام والدموع » Träume und Traenen بقلم الكاتب النمسوي هانز يوليوس ڤيلي H. J. Wille تناول فيه حياة المفكر من ناحية جديدة هي ناحية العاطفة والمشاعر ؛ وربما كانت هذه الناحية من حياة روسو هي أخصب وأدق ناحية في شخصية ذلك الذي أراد أن يصوغ الحياة طبقاً للعاطفة والمشاعر الانسانية . والواقع أنك إذا حاولت أن تحكم على شخصية روسو من أعماله وحوادث حياته فقط ، فان مثل هذا الحكم لا يمكن أن يتفق مع خلال هذه العبقرية العظيمة ، بل يتناقض مع كل ما فيها من الاضطرام والسمو ؛ وإذا كان روسو هو ذلك الروح المضطرم الذي ترتفع بالفكرة الانسانية إلى أسمى مواطنها ، وإذا كان هو مؤسس المذهب « الرومانتيكي » وإذا كان قد نفذ بتأثيره الساحر إلى عبقريات مثل جيته وشلر ، فإن في جوانب حياته الخاصة ما يلقي حجاباً على عبقريته وسمو خلاله ، فهو ، وهو الذهن الحر ، يأبى مدى ثلاثة وعشرين عاماً أن يسبغ على شريكة حياته وأخلص النساء إليه — تيريز ليفاسير — شرف الزوجية ، ويقول لنا إنه تزوجها دون رغبة ودون إرادة ؛ وهو المؤسس لمذهب جديد من التربية ، يرغم زوجته على أن تبعث بأولادها الخمسة إلى ملجأ اللقطاء ؛ وهو رجل النفس والعاطفة يطأ بقدميه أقدس وأعمق عواطف زوجه ، وهو في جميع أعماله وتصرفاته ينم عن أثرة عميقة لا تتفق في شيء مع النظريات الانسانية والأخلاقية السامية التي يبشر بها في كتبه ؛ على أن مواطن الضعف الشخصي والشهوات الشخصية لا يمكن أن تكون مقياساً للحكم على عبقرية ما من نواحيها العامة ، وقد كان روسو عبقرية لا شك في عظمتها ، فيجب أن يحكم عليه من هذه الناحية العامة ليس غير

هذه الصور كلها يقدمها الينا يوليوس ڤيلي بقوة وإفاضة ، ويقف بنا طويلا عند حياة تيريز وشخصيتها الساذجة ، إلى جانب حياة المفكر الأثرية ، وهو يرى في تيريز شخصية انسانية تحمل على الاحترام والعطف ، ويرى أنها كانت مثالاً للتضحية . وهو على العموم يصور لنا روسو رجل النفس والعاطفة قبل كل شيء

على مثال نوبل

رفع ألفرد نوبل المثرى العظيم ، بهبته الطائلة التي رصدت جوائز لأقطاب التفكير والسلام في أنحاء العالم ، اسم أمته — السويد — إلى السماكين ؛ وفي كل عام توزع جوائز نوبل العظيمة إلى مستحقيها بين آيات التقدير والاعجاب للمحسن العظيم . واليوم يتقدم مثر سويدي آخر هو المالي الكبير اكسل فنرجرن ، ويوقف من ثروته الطائلة مبلغ ثلاثين مليوناً من الكرونات على الأعمال والمباحث العلمية ، والجهود العقلية التي تفيد الانسانية كلها بوجه عام . وقد نظمت هذه الهبة العلمية على مثل هبة كارينجي المشهورة ، وسيبدأ تنفيذ ما فيها في حياة الواهب على يد مجلس مؤلف من الواهب وزوجته وخمسة آخرين من بين رجالات السويد المشهورين . وقد استطاع المحسن الجديد أن يحرز ثروته الطائلة كسلفه العظيم نوبل من بعض المخترعات الصناعية . وهو يعنى عناية خاصة بالمشاريع العلمية والفكرية ؛ وقد اشترى أخيراً الجريدة السويدية المشهورة « نيا دا جلجت الهاندا » ، ووقفها للدعوة إلى التفكير المستقل وإلى معاونة الحركة الفكرية وتشجيعها

وهكذا تنافس السويد أمريكا في رصد الهبات العلمية ، وتحرز من هذه الناحية ظفراً بعد ظفر ؛ وسيكون لهبة فنرجرن من الأثر المعنوي العظيم ما لهبة سلفه نوبل ؛ وستكون دعامة جديدة في صرح التقدم العلمي والانساني

احياء النحو لابراهيم مصطفى

جاء فى مجلة الآداب الشرقية التى تصدر بالألمانية عن هذا الكتاب بقلم طاهر خميرى ما يأتى: —

الكتاب يقتصر على معالجة إعراب الاسم فى العربية جاعلاً هدفه إبدال القواعد الكثيرة المبنية على نظرية العامل بأخرى أقل منها عدداً وتقوم على أساس من طبيعة اللغة (ص ١٩٥)

والمؤلف إذا أغضينا عن استثناء واحد (ص ٤٣) يستعين بمصادر عربية فقط

وأساس الفكرة أن الضمة علم المسند إليه والكسرة علم الاضافة بينا الفتحة لاتدل على شيء بل الحركة الخفيفة التى تهرع إليها اللغة مادام الأمر لايدور حول إسناد أو إضافة (ص ٥٠). أما تفاصيل هذه النظرية فيناقشها المؤلف فى صورة واضحة منزمة وإن لم تكن كل أجزائها فى نسق واحد من الاقناع

فالمؤلف مثلا — على حق كل الحق إذ يتخذ من إغفال علامة النصب فى كل من جمعي المذكر والمؤنث السالمين (ص١١١) مؤيداً لنظريته السالفة وإن كان الطريق مفتوحاً أمام احتمالات أخرى؛ ولكن ليس كذلك حكمه بأن اسم إن كان ينبغى له حقاً أن يرفع لولا أن النحاة ضلوا فى هذه النقطة (ص ٦٤)، هذا الحكم الذى يبنيه على مستثنيات قليلة يحوم حولها الريب وعلى نظائر لاصلة لها بما نحن فيه

كذلك كان المنتظر أن كل بحث حول علامة النصب يتخذ له من المفعول به نقطة ارتكاز ولكن مما يلفت النظر أن المؤلف أعرض عن ذلك إعراضاً تاماً

ومما يدعو إلى السرور أن باب الاجتهاد فى النحو العربى قد فتح أخيراً على يد مؤلف عكف على موضوعه سبع سنين صدق فيها الاعتكاف (أنظر المقدمة) يحدوه الأمل فى أن يشيد بناء النحو العربى من جديد، ولهذا لايسعنا إلا أن نتجه إليه شاكرين

هذا ولما كان المؤلف يعتزم إخراج جزء آخر فى الفعل وقد أكد هذا العزم فصرح بأن عنده مبادئه وتخطيطاته كاملة، كان لنا ألا نسد الطريق أمام كلمة أخيرة

وإنه لمن الضرورى الذى لامفر منه فى عمل من هذا القبيل ألا يغفل عن متابعة الخطوات الأخيرة فى مباحث علم اللغة العام فان هذا — مثلا — كان حرياً بلا شك أن يحفظ من زلل كثير فى استنباط نتائج قد يؤدى إليها كون تغير المعنى بمساعدة الحركات من خصائص اللغة العربية (ص ٤٥) اهـ

عقد مؤتمر عالمى فى القاهرة للبحث فى مسائل الشريعة الاسلامية

كانت الجامعة الأزهرية قد اشتركت فى مؤتمر تاريخ الأديان الذى عقد أخيراً فى مدينة لاهاى، وقد رفع المندوبون الأزهريون إلى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر تقريراً ضافياً ضمنوه المناقشات والقرارات التى اتخذها المؤتمرون فيما يتعلق بالبحوث الاسلامية التى تقدمت إلى المؤتمر

وقد عنى فضيلة الأستاذ الأكبر بدراسة هذا التقرير، واجتمع مراراً بحضرات المندوبين الأزهريين وكان معهم الأستاذ عبد الرازق السنهوري بك عميد كلية الحقوق ومندوب الجامعة المصرية في هذا المؤتمر. وعلى أثر هذه الاجتماعات اتصل فضيلة الأستاذ الأكبر بالدوائر الرسمية المختصة وتحدث معها فيما كسبت من النتائج العملية فى هذا المؤتمر وما أفادته الجامعتان المصرية والأزهرية من الاشتراك فيه.

وقد علمنا أن الآراء انتهت إلى أن فى الشريعة الإسلامية من مسائل التشريع الجنائى والمدنى والتجارى ما يصح أن يؤلف قواعد ذات صبغة قانونية يمكن الأخذ بها فى مختلف التشريعات الحديثة كالوقف والوصية والميراث وشروط البيع والشراء والإيجار إلى غير ذلك من مختلف المسائل الشرعية ذات الصفة العامة

ثم رؤي أن كثيراً من التشريعات الحديثة اقتبست أحكام بعض هذه المسائل وجعلتها جزءاً من القانون العام، وأن من الإنصاف أن تسمع آراء علماء القانون فى هذه المسائل حتى يمكن تمحيصها وتكون ملائمة لروح هذا العصر

لذلك استقرت الآراء على عقد مؤتمر عام فى مدينة القاهرة يدعى إليه مندوبو الجامعات والهيئات العلمية فى العالم لتعرض عليه هذه المسائل للبحث فيها ولتقرير صلاحيتها لتكون أساساً ومصدراً فى التشريع الحديث

وقد تقرر أن تقوم مشيخة الأزهر بالاشتراك مع الجامعة المصرية بالدعوة إلى هذا المؤتمر، وجرت بحوث فى كيفية تأليف اللجنة التحضيرية التى تبحث هذا الموضوع وتحدد الموضوعات الإسلامية التى تعرض على المؤتمر وتعين الزمان والمكان لانعقاده.

وقد انتهت هذه البحوث إلى أن تؤلف هذه اللجنة من بعض علماء الأزهر وبعض رجال القضاء الشرعى ورجال القانون وستنتظم هذه لدعوة جميع البلدان الاسلامية

تعديل التقويم الغريغوري

طلبت سكرتيرية لجنة المواصلات فى عصبة الأمم إلى الحكومة المصرية موافاتها برأيها فيما يتعلق بالتقويم الغريغورى واقتراح تعديله

وقد رأت وزارة المعارف أن تساهم فى هذا الأمر مساهمة جدية فأحيل الموضوع إلى أحد كبار موظفيها البرزين فى المسائل التاريخية لبحثه ووضع تقرير عنه

ونذكر فى هذا المقام أن فى أوربا وأمريكا هيئتين علميتين تسعيان لتعديل التقويم الجريجورى وتبذلان الجهد لدى لجنة المواصلات والمرور بالعصبة لتحقيق أغراضهما وغاياتهما . وقد رأت هذه اللجنة أن الموضوع خطير لاتصاله بحياة الشعوب والأفراد جميعاً ، فوجهت الدعوة إلى الأمم الممثلة فى العصبة وغير الممثلة ، فتألفت من مختلف الممالك والأقطار هيئات محلية ولجان أهلية لدراسة هذا الموضوع واقتراح الوسائل التى يمكن أن ينفذ بمقتضاها ؛ حتى إذا ما استجمعت اللجنة الآراء والمقترحات فى أنحاء العالم ، تقدمت إلى العصبة لدراسة الموضوع جملة فى اجتماعها

وقد لخصت لجنة المواصلات الفكرتين الأوليين اللتين تشير بهما هاتان الهيئتان العلميتان فى أوربا وأمريكا

فالاقتراح الأول يرى إلى جعل عدد شهور السنة ١٢ شهراً ويوماً واحداً فى السنين البسيطة ويومين فى السنين الكبيسة . وأن يسمى اليوم الأول « يوم السنة » ويكون عقب شهر ديسمبر ، ثم يسمى اليوم الثانى « اليوم الكبيس » ويكون عقب شهر يونيو

ومن خصائص هذا الاقتراح أن يجعل الشهر ٣١ يوماً ليناير وابريل ويوليو واكتوبر ، و٣٠ يوماً فى الشهور الأخرى . وبذلك يكون مجموع شهور السنة الاثنى عشر هو ٣٦٤ يوماً . ومن مزاياه أيضاً أن تبدأ السنة دائماً يوم « أحد » وأن تبدأ شهور يناير وابريل ويوليو واكتوبر يوم « الأحد » ، وشهور فبراير ومايو وأغسطس ونوفمبر دائماً يوم « أربعاء » ، وشهور مارس ويونيو وسبتمبر وديسمبر يوم « جمعة »

أما الاقتراح الثانى فيرى إلى جعل السنة ١٣ شهراً وأن يكون عدد أيام الشهر ٢٨ يوماً ، على أن يضم إليها يوم واحد فى السنين البسيطة وفق الاقتراح المتقدم . أما الشهر الثالث عشر فيكون موقعه عقب شهر يونيو ويسمى « الشهر الوحيد »

ومن مزايا هذا الاقتراح أن يجعل الشهور متساوية فى عدد الأيام والأسابيع وأن يجعلها جميعاً مبتدئة بيوم واحد هو يوم « الأحد » . ويذهب أصحاب هذا الاقتراح إلى أن فوائده كثيرة متعددة من النواحى الزراعية والمالية والاقتصادية والحسابية والتعليمية وهى تلخص فيما يلى :

١ — جعل كل شهور السنة متساوية الأيام ، ويجعل الأيام ثابتة لا تتغير ، وبهذا يمكن معرفة تاريخ أى يوم إذا عرف موضعه فى أى أسبوع من أسابيع الشهر ، وكذلك يمكن معرفة اسم اليوم إذا عرف تاريخه

٢ — توحيد الأيام ، فيسهل تنظيم الأعمال الخاصة والعامة ، كصرف الأجور ومعرفة أيام الأسواق والمواسم والأعياد والأجازات وافتتاح الدراسة وانتهاؤها . الخ

٣ — تقسيم الشهر إلى أربعة أسابيع متساوية ، فيسهل تطابق الحسابات الأسبوعية والحسابات الشهرية ، ويرتفع الخطأ الذي ينشأ عادة من اختلاف الشهر وأسابيعه

٤ — تسهيل مقارنة الايراد والمنصرف فى كل شهر فى الشئون التجارية والمالية والمنزلية

٥ — لما كانت أجزاء الأسابيع تلى وفق هذا النظام ، فإنه يسهل وضع الاحصاءات ، إذ يعطى مقياساً ثابتاً لايرادات الحكومة وصادراتها وواردتها

هذا هو تلخيص الاقتراحين . وستبدأ الوزارة فى دراستهما ولما كان هذا الموضوع لا يعني الحكومات وحدها ، بل يتصل بحياة الهيئات والجماعات والأفراد فإن الوزارة ترحب بكل ما يبدى من الرأى فى هذا الموضوع

الى صديقى الأستاذ على الطنطاوى

تتعب نفسك ياصديقى وتتعب المنطق معك إذا حاولت أن تجادل من يفهم أن ماينشر فى (الرسالة) بغير إمضاء يجب أن يكون لرئيس تحريرها ، ثم يعين الاسم على هذا الفهم ، ويقيم المناقشة على هذا الأساس . ومن بداءه الصحافة كما تعلم أن ماينشر فى الصحيفة من غير إمضاء إنما ينسب إليها لا إلى شخص بعينه ؛ ورئيس التحرير مسئول ، ولكن مسئوليته ليس معناها فى اللغة ولا فى الاصطلاح أنه يكتب مالا يمضيه غيره . فأعف قلمك ياصديقى من مثل هذا الجدل ، وأجره بما عودت قراءك المعجبين بك من مُلهَمات الحق والخير والجمال

الزيات



من أساطير الإغريق

يوم قيـــامة ...

أو طيش فيتون

للأستاذ دريني خشبة

عاد الفتى الساذج فيتون إلى أمه الحسناء الهيفاء كليمين ، بعينين مغرورقتين ، ونفس مكلومة ، وفؤاد خافق متصدع ، فجرى بينهما هذا الحديث :

— مالك يا حبيبي ! لماذا تبكى ؟

— ... ؟ ...

— لا . لا ... فيتون يبكى ؟ هذا عجيب ! أيكون أبوك أبوللو وتبكى ؟!

— أبوللو أبى ؟ كذب ، كذب !

— كذب ؟ وكيف يافيتون ؛ أمك كذابة ؟

— لا . لا . عفواً يا أماه ! أنت لا تكذبين ، ولكن ربما يكون كلامك سخرية بى !

— ولم أسخر بك يا بنى ؟

— الأولاد فى المدرسة يغمزوننى فى أبى ، وكلما حلفت لهم أن أبى أبوللو ضحكوا !

— دعهم يضحكوا يافيتون . ماذا يضيرك ؟

— يضيرنى أننى لم يعد لى وجه أريق ماءه بينهم ، لا بد إذا كان أبوللو أبى أن ألقاه

— تلقى أبوللو ؟

— ولم لا ؟ أليس كل الأبناء يلقون آباءهم ؟ فلم لا ألقى أبى ؟ أأنا بدع من الناس ؟

— لست بدعا ، ولكن أبوللو فى بلاد بعيدة ... إنه فى الهند !

— ولم لا أذهب إلى الهند لأرى أبى ؟ صف لى الطريق بحق الآلهة عليك يا أماه

— إذهب إلى الأرض التى تشرق من أفقها ذُكاء . فهناك ترى أباك

وذهب إلى الهند التى تقع فى مشرق الشمس مباشرة ؛ وكان عند شاطئ المحيط قصر باذخ منيف ، لا يبلغ البصر مداه ، ولا يدرك الطرف أوله ولا آخره ... وكان مع ذلك قائماً على عماد رفيعة من ذهب ركبت فيها ماسات كبيرة ذات سناء وذات لألاء . وكان سقفه العظيم المطعم بالعاج المصقول يلمع ، ويكاد سناه يذهب بالأبصار ؛ أما أبوابه فصيغت من الفضة الخالصة ونقشت فيها أبهى الرسوم ؛ وافتنّ ڤلكان فصور فوق الجدران بالرسم البارز الأرض والبحر والسماء بما فيها من قُطّان ؛ فأقام فى الأرض غابها وأدغالها ومدنها وأنهارها وجبالها ووديانها ... حتى آلهتها . وأبرز فى البحر عرائسه الآنسات الفاتنات ، فجعل منهن سابحات يتواثبن فوق الموج ، وجالسات على النؤي يمشطن شعورهن الداكنة التى تحكى خضرة البحر ، وراكبات على ظهور السمك وحيوان الماء يتلاعبن ويتضاحكن ... وجعلهن ذوات صور متشابهات وغير متشابهات ، دليلاً على حذقه وجليل قدرته ؛ وجعل فوق هذا كله صورة السماء بكل بروجها الاثنى عشر ، بحيث جعل منها ستة إلى اليمين ، ومثلها إلى اليسار ... خَلْقَ ڤلكان ، ومن أحسن من ڤلكان خلقا (1) ؟!

وهكذا كان قصر الشمس آية من آيات الفن عجبا ، ومع هذه الأبهة البالغة والعظمة الأخاذة ، فقد تقدم فيتون غير هياب ، ودخل فى غير وجل ، وكان يلمح اللمحة من الرسوم الجميلة والتصاوير الساحرة ، ثم يسلك فى سبيله قدما حتى كان فى البهو الأعظم الذى يستوى فى صدره أبوه ، على عرش ممرد ناصع ، تنعكس منه أضواء لامعة خاطفة ، تبهر النظر ، وتُخَسّئ الأبصار . وسار الفتى مسافة قليلة ، ثم وقف مكانه عَشِيًّا من شدة الخطف

---

(1) ليذكر القارئ أن القصة أسطورة

والإيماض ، ولم يدر أيان يذهب ؛ وكان أبوه متشحاً بوشاح فضفاض أرجواني ، وعن يمينه وعن يساره وقفت الأيام والشهور والسنون ، ثم الساعات في صفوف منظومة متلاحقة ؛ ثم وقف الربيع — وتمثله هنا امرأة — وفوق رأسه إكليل جميل من الغار والزهر ؛ ومن بعده وقف الصيف . وقد نضا جيب قميصه عن صدره ، وقبض على حزمة من سنابل القمح الناضجة بيمينه ؛ ثم همّ الخريف متهالكاً على نفسه ، وعلى قدميه آثارات من عصير العنب ... أما الشتاء ، فقد بدا شيخاً وقوراً جلل الشيب رأسه ، وتراكم الثلج والبرد على شعره الناصع [illegible]

وقد لمح أبوللو ولده فيتون حيث سمر مكانه ، وقد خطفت الأضواء بصره ، وأخذه المنظر العجب الذي سحره عن نفسه ، فهتف به ويباركه ويقول :

— فيتون ! فيم قدمت يا بني ! لأمر ذي بال ، ليس من ذاك بد ؟

— أوه ! يا نور السموات والأرض يا فوبوس[1] : يا أبي إن أذنت لي أن أناديك بهذا النداء ! إن كنت حقاً ابنك فزودني ببرهان أقدمه للناس حين أقول إني أنا ابن أبوللو

— برهان ؟

— أجل ، هب لي من لدنك برهاناً يثبت أبوتك لي ، فلقد استهزأ بي التلاميذ ، وفضحوني في بنوتي لك . لا بد من دليل ، هل تسمع ؟ لا بد من دليل !

— لا عليك يا بني ! لك ما أردت . على أنه كان ينبغي أن تصدق كل ما قالت لك أمك ؛ وأنا من جهتي لست أنكرك ، فأنت ابني وأنا والدك ، والآن سل ما شئت فإني مانحك أياً ما تريد

— صحيح يا أبي ؟

— أولا تصدق ما أقول ؟

— بلى ، ولكن ليطمئن قلبي !

— صحيح يا بني ، وأقسم لك بهذه البحيرة المقدسة التي يحلف بها الآلهة

فيتلفت فيتون حوله ليرى البحيرة ، ولكنه لا يجد لها أثراً

— وأين هي تلك البحيرة يا أبتاه ؟

— ولد ظريف يا فيتون ! أنا ما رأيتها قط ، ولكنا نحلف بها في كل أمر جلل يا بني !

— إذن هب لي أن أسوق محفة الشمس يوماً واحداً بدلاً منك

(١) أحد أسماء أبولو

— وي ! فيتون ! أي طلب هذا ؟

— لا بد !

— محال يا ولدي ! أنت حدث ، ثم أنت بشري من بني الموتى ! سل ملء الأرض ذهباً أمنحك ما تريد !

— كلا ، كلا ... لا بد أن أسوق محفة الشمس من المشرق إلى المغرب ليراني سفهاء التلاميذ ، وليتأكدوا أنني ابن أبوللو !!

— إنها ستحرقك وتحرق التلاميذ إخوانك قبل أن يروك !

— لا ... لن تحرقني ، أنت قادر على أن تجعلني أحتمل كل شيء ! ألست إلهاً [illegible]

— بلى ، ولكن ...

— لكن ماذا ؟ لا بد ، لا بد ، محال أن أسألك شيئاً آخر !

— يا بني إن هذا ليس في طوقك ، إنك ضعيف صغير ، والعمل الذي تطلب أن تتولاه شاق حتى على الآلهة ، إني أقوم به والرعب يملأ قلبي ، وأنا من أنا يا فيتون ... إن سيد الأولمب نفسه ، الإله الأكبر ، جوف ، جل سناؤه ، وتقدست أسماؤه ، لا يستطيع أن يسوق عربتي الملتهبة ذات اللظى يوماً أو بعض يوم ، فما بالك أنت ؟ إن الثلث الأول من الطريق صعب المرتقى لأنه يميل قليلا قليلا قليلا عن خط العمود ؛ وخيلي ترقى مزالفه[1] في صعوبة ليس بعدها صعوبة ؛ والثلث الثاني عال شديد العلو ، لأنه يرتفع فوق قمة العالم ، حتى لأجزع أنا نفسي من أن أنظر إلى أسفل تقية للدوار يأخذ في رأسي[2] حين أرى إلى البحر المتمرد والبطاح الشاسعة والجبال الشم تزدلف مع تحتي ؛ أما الثلث الأخير فحدور شاق كمهاوي الجبل إذا وقفت عليه فوق شعفته[3] ، ولذا فهو يقتضي الحذر وحصر البصر ؛ حتى إن تاتيز الواقف في نهايته ليتلقاني ، يرتعد من الخوف عليّ ، والرثاء لي ، خشية أن أتردى في هاوية اللانهاية . هذا ، ولا تنس السماء التي تجري فوقي لستقر لها ، بكل ما فيها من كواكب وأجرام ، فإذا غفلت لحظة ، أو أخطأت قيادة العربة ، جرفتني في دورتها إلى حيث لا أعلم أين تذهب أو تستقر بي . ثم تدبر معي قليلا يا فيتون ، إذا أنا سمحت لك بقيادة العربة ، فإذا يصيبك من الهلع حين تنظر إلى السفل فترى الأرض تلف ، والسباع تهمهم في الأدغال ، والناس يكظون المدن ، والآلهة تطل من قصور الأثير ، والأشباح تسري حواليك كالسادر ؟ ماذا من

(١) المزالف : المراقي (٢) هذه عبارة القاموس (٣) قنه

الروع يعتريك يا ولدى ؟ هل تستطيع أن تكبح جماح الخيل أو حتى تملك ألاّ يفلت العنان منك ؟ إنك ستمر بين قرنى الثور أمام الحوت ، وعلى مقربة من فكي العقرب وذراعى السرطان .. يا بنى ! هل تستطيع أن تقود الخيل التى تنفث اللهب من مناخرها وأفواهها وسط هذه الدنى الدائبة ؟ اختر لنفسك يا بنى ولا تجعل الناس يقولون أهلكه أبوه »

وتشبث فيتون وركب رأسه ، ولم يشأ أن ينكل قيد شعرة ؛ فلم يسع أبوللو إلا أن ينطلق به حيث عربة الشمس : العربة العظيمة المطهمة ، المصنوعة كلها من الذهب الخالص ، وقليل من الفضة المزركشة باللآلىء والجوهر ، وأحجار الماس التى تعكس أشعة الشمس جميعاً فتضاعف أضواءها ، وتزيد كثيراً فى لألائها

وتقدمت ربة الفجر ففتحت أبواب المشرق ، ونضرت بالورد طريق أبوللو ؟ ثم أخذت النجوم تثب كالحمائم قِبَل المغرب وفى أثرها نجمة الصبح فريدة كأنها الورقاء

وتلفّت أبوللو إلى الساعات المنتشرة عن جانبيه ، فأمرهن أن يسرجن الخيل ، فأطعن ، وقصدن إلى الإسطبل الكبير حيث وجدن الخيل قد التهمت كفايتها من العلف المقدس ، فوضعن فى أفواهها اللجم ، وأسرجنها بكامل عدتها

وتناول أبوللو وجه ولده فنضحه بطيوب إلهية ، وضمخه بدهن كريم ، ثم قطر فى عينيه قطرات من ماء أولمب ، كي يقوى الفتى على تحمل الحرارة الفائقة ، والصبر لضوء الشمس القوى ؛ ثم وضع على رأسه الصغير هالة النور الربانية ، وأشار إليه فاستوى على العربة العظمى التى تجر الشمس ، فتنير أقطار السموات والأرض ، وقال يوصيه :

— « أى بنى : ها قد استويت على عربة أبيك التى ما قادها من قبل أحد غيره ، ولا يقدر عليها أحد سواه ! أى بنى فاشدد إليك أعنة الخيل ، وتجنب أن تلهبها بهذا السوط ، فهى قد مرنت على الطريق وهى لا تبطىء حتى تحتاج إلى أن تساط . أى بنى ولا تنحرف عن شمالك أبدا ، وظل منتهجاً سبيل الاستواء الذى هو الدائرة الوسطى من الدوائر الخمس ؛ واحذر أن تعلو إلى الدائرة العليا أو أن تسفل إلى الدائرة السفلى ؛ وسترى آثار رحلاتى من قبل ، فسر على دربها تصل إن شاء الله . أي بنى ولا ترتق معارج السموات فتصيب مساكن الآلهة ، ولا تهو قريباً من الأرض فتجعل كل ما فيها هشيما جُرُزاً ، بل خذ الطريق الوسطى أبداً ، فإن خير الأمور أوساطها ... فإذا أفلتت الأزمة من يديك ، فظل حيث أنت ، ولا تذهب مذاهب شتى فى رُحب السماء . وسأتولى أنا بعد ذلك إنارة الأرض والسموات . أى بنى وما دمت قد اخترت لنفسك برغمي ، فلا أقل من أن تعى نصيحتى والسلام عليك »

وودع فيتون على أبيه السلام ... وانطلق من أبواب المشرق وطفقت الخيل الصافنات تنفث اللظى فتموه السحب بالذهب ، وتسابق أنفاس النسيم التى تهب هي الأخرى رخاء من أبواب المشرق

وعجبت الخيل بعد شوط قصير من هذا الحمل الخفيف الذى لا عهد لها به ؛ وعجبت أكثر حين أحست بالعربة تتأرجح خلفها كالزورق الذى له ليس له صُبرَة[1] تثبت به فى مهب الأعاصير

وجمحت الخيل ... وانطلقت فى غير طريقها المعهود ... ولأول مرة ارتفعت حتى كادت تلامس الدبين الأكبر والأصغر . فثار ثائرهما من لفح الحر ؛ ولأول مرة كذلك تحرك الثعبان المنحوى فوق نجم الشمال حين أحس الدفء ، فنفث سمه الذعاف ، وفرت من طريقه الكواكب ... ونظر فيتون تحته ، فرأى الأرض تلف كالخذروف فريع قلبه ، وزلزلت نفسه ، وسقطت من يديه أعنة الخيل فجرت به فى السفل حتى اقتربت من الأرض ... ونظر وراءه .. فرأى أنه لم يقطع من الثلث الأول إلا أقله ؛ ثم نظر أمامه فوجد أكثر الطريق وأوعره ، فزادت حيرته ، وأسقط فى يديه ، وترك كل شيء للقضاء والقدر ... وضاعف ربكته نسيانه أسماء الجياد ... وحدث أن ارتفعت هذه فجأة ، حتى كانت قاب قوسين من فكي العقرب ، ذلك الهولة المخيف الذى أوشك يبتلع العربة بمن فيها .. وشدهت ديانا ربة القمر حين رأت عربة أخيها تتخبط فى الآفاق ، وتصطدم بالكواكب ، فتحدث الشهب ، وتحرق العوالم السماوية : « ترى ماذا أصاب أبوللو ؟ مسكين ! لابد أنه نام . على كل حال سيستيقظ ! » ولكن العربة هبطت فجأة حتى صارت فى سماء الأرض ، وحتى صارت الأرض منها على مدى رمية سهم ... فما هي إلا لحظات حتى شبت الحرائق فى كل الأرجاء ... ها هي ذى الغابات العظيمة تشتعل ... وها هي ذى ألسن النيران ترقص فى كل فج ... وها هي ذى الوحوش تجري هنا وهناك ثم تسقط فى كل البقاع ... والمدن ! المدن العامرة الآهلة ... إنها تحترق بمن فيها من شيوخ ضعفاء ونساء وولدان ... أما الشباب ! فوا أسفاه على

(١) الصبرة والصبارة : الحجر الذى يضعه الملاح فى قعر زورقه حتى لا يميل فيغرق ، ويسميه العوام (الصابورة)

الشباب ! إنهم يجرون كالجان إلى البحار والمحيطات والأنهار والينابيع ! وهاهم أولاء يقذفون بنفوسهم فيها ... ولكن ! واأسفاه ! إن مياه البحار والمحيطات والأنهار والينابيع تغلي وتفور ، ويعب عبابها بالحمم ، فالشباب يستجيرون فيها من الرمضاء بالنار ! لقد بادت أمم بتمامها ، واختبأت أمم في النيران والكهوف وشقوق الأرض والجبال ... أما الطيور فقد خربت أوكارها ووكناتها ، ولم يسلم منها إلا مالاذ بأخوص أو أدحي [1] ... ومسكينات عرائس البحار ! لقد شحبت ألوانهن ، وذوى جمالهن وغُصْنَ في الأعماق مع السمك يلتمسْنَ الماء البارد ، ولجأت أسراب منهن إلى البحار الجنوبية ، وآثرن أن يعاشرن البنجوين : ... أما قمم الجبال العالية التي ظلت منذ الأزل محلاة بركام الثلج ، فقد خلت حللها الناصعة ، وحلت عمائمها المخملية ، وصارت تلتهب ... فهذه طوروس الشماء ، وتلك القوقاز العاتية ، وهاتيك الألب المزهوة ... كلها تلتهب ... كلها تقذف بالحمم ... حتى أولمب مثوى الآلهة ، لقد غدا كومة عالية جداً من النار .

ولقد كانت الصحراء اللوبية فراديس يانعة ولكن فيتون المجنون حولها إلى رمال وكثبان ، ولولا أن أدخل النيل رأسه في كثيب مهيل منها لجف ماؤه ، وتبخر في السماء كله ، ليجري في كوكب آخر ! وهكذا فعل الفرات وأخوه ، وكذلك صنع الكنج والسند ... فشكراً لكل الأنهار التي ضنت بنفسها من أجل سعادة البقية الباقية من النوع البشري !

يا لَهُ يوم قيامة ؟! لقد ضجت الآلهة في الأرض ، وكلما حاول نبتيون الجبار إله البحار أن يخرج رأسه من اليم ليجأر بالشكوى إلى أخيه كبير الآلهة ، خاف وذعر أن تحرقه الشمس الهوجاء التي يسوق عربتها فيتون ... ولولا أن جازفت أمنا الأرض فبرزت من المحيطات وهتفت بجوف العظيم ، لأصاب من بقي العذاب الأليم ... لقد قالت له : « ياجوف العلي ! يارب الأرباب ! إصغ إليّ ، واستجب لدعائي ! ماهذا الذي نامت عيناك عنه فذهب بزرعي وضرعي ؟ أهذا جزاء خصوبتي وما تهب عبادك من حَبٍّ وأبٍّ وعنبٍ وقضبٍ وحدائق غُلب ؟ : أهكذا تكون عاقبة إخلاصي في مكافأة عبادك الذين يقيمون لك الهياكل ويبنون باسمك الصوامع والمعابد ؟ ماذا من القرابين يارب الأرباب يُذبح باسمك بعد أن يهلك كل ماعليّ من قطعان وأسراب ورِعال ؟ ثم هذه العوالم التي ما أنشأتها إلا بعد عناء وجهد ! كيف تدع هذه الشمس الرعناء تأتي عليها جميعاً ، وتصير كل شيء في مُلكك إلى هيولي ؟ استيقظ ياجوف واستمع ، وأدركنا بلطفك هذه الساعة التي نحن فيها أشد ما نكون في حاجة إليك . آمين ! »

* * *

وهب جوف من سباته العميق على جؤار ربة الأرض ؛ وأبصر فرأى ماحل بالعالم الجميل من تدمير ووبال ... فألم وتصدع ... ونظر إلى عربة الشمس ينتفض فوقها غلام يافع عرف فيما بعد أنه فيتون بن أبوللو فهاج وماج ، وأخذ صاعقة من أكبر صواعقه وأقتلها ، ثم أحكم تسديدها إلى الراكب المجنون .. وأرسلها تقصف وتعزف ... وتهز الأفلاك ... فأصماه وأرداه !!

وسقط الغلام الأحيمق من عُلوِ العالم يتقلب في نهر إريدانوس المتدفق في سهول إيطاليا ... حيث مات ... واستراحت الدنيا كلها منه ! وعادت الشمس إلى ربها ... أبوللو المسكين ... فهو يجري بها إلى اليوم لمستقر لها !!

أما كليمين البائسة ، فهي إلى اليوم تبكي ولدها ... وقد بكته معها أخواتها ، وكن في كل صباح يذهبن إلى النهر الذي سقط فيه فيسكبن دموعهن ، حتى رثت لهن الآلهة ، فسحرتهن إلى أيكات ثلاث من شجر الحور ، فهن حانيات على النهر منذ ذلك اليوم حنو المرضعات على الفطيم

وكلما سكبن دموعهن حارت إلى كهرمان كريم

وحزن سيكنوس ، صديق فيتون ، على خدن صباه ، فجمع رفاته وبنى لها قبراً من الرخام تظله الشجرات

دريني خشبة

استدراك

جاء في مقال « كليلة ودمنة » المنشور بالعدد الماضي من « الرسالة » صفحة ١٦١٧ « فلا يسعنا إلا أن نذكر عزيز الإعجاب فضل إبراهيم الصولي » والصواب « أبي بكر الصولي »

(١) الأخوص عش في الأرض ، والأدحي بيت النعام

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي عمارة عجم رقم ٧

5 me Annee, No 224. Lundi - 18 - 10 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٢٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ شعبان سنة ١٣٥٦ — ١٨ أكتوبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

الحـــــرب

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كان الذى يقول — قبل بضع سنوات — إن الحرب واقعة وأن العالم مقذوف به فى جحيمها لامحالة ، يعد من المنجمين الذين يُقرأ كلامهم للتسلية ولا يُحمل على محمل واحد من محامل الجد ؛ أما الآن فإن الحرب على كل لسان وفى كل ذهن وإن كانت كل دولة تقول وتؤكد إنها لاتريدها ولا تسعى لها وأنها تحاول أن تتقيها جهدها . والحق أن المرء لايكاد يصدق أن دولة ما — مهما بلغ من وفاء عدتها — تُقدم على إضرام نار الحرب فى الدنيا وتعرض المدنية للبوار ، وكيان العالم للتقوض والانهيار . وهى شرارة واحدة تطير فإذا الدنيا كلها براكين تقذف بالحمم فقد مضى الزمن الذي كان يسع أمتين فيه أن تقتتلا ما شاءتا ، وبقية الأمم وادعة ساكنة وآمنة مطمئنة لاتكاد تُعنى بما يجرى فى ساحة الحرب ، وصرنا إلى زمن كل مايحدث فيه له رجعه وصداه فى كل زاوية وركن من هذه المعمورة . ولا أمل فى هجوم مختلس وزحف سريع فاذا النصر قد خرجت به أمة والهزيمة قد باءت بها أخرى . ولم تعد الحرب قتالاً بين جيش وجيش بمعزل عن

الأمم والشعوب بل أصبحت تدور بين الأمم نفسها بكل ما تمت من وسائل التدمير والتخريب ومعدات الدفع والتوقى ، وليس الذى يصيب غير المحاربين من البلاء والنكبات والتقتيل دون الذي يصيب الذين هم فى الصفوف . ولا فرق فى الحقيقة — أو لم يبق ثم فرق — بين مجند يحمل سلاحه ويسير إلى حيث يؤمر ، وآخر يقيم فى بيته بين أهله وأبنائه ويذهب إلى عمله الذى يكسب منــه رزقه ؛ وقد يكون الجندى أحسن حالاً لأنه يجد على الأقل من يعنى بتدبير وسائل الوقاية له وتوفير الطعام والشراب وتمكينه من الراحة على قدر المستطاع ، أما أهل المدن والقرى من شيوخ ونساء وأطفال وغير هؤلاء وأولئك ممن لا يؤخذون للحرب فيُفاجأون فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار بالتخريب والتدمير والتقتيل من غير أن تكون لهم أمثال الوسائل المتوفرة للجندى الذى فى الصف للدفاع والهجوم ومقابلة كل طارىء بما يستدعيه

نقول إن المرء يصعب عليه أن يصــدق أن دولة تجازف بالإقدام على الحرب واحتمال تبعة إضرامها فى العالم لأن أهوالها أفظع من أن تسمح بهذا التصديق ، ولأن النصر فيها كالهزيمة من حيث الخراب الذى يحل بالفريقين المحتربين ، ولأنها لا بد أن تطول حتى تستنزف القوى جميعاً بعد أن أصبحت جهاداً بين شعوب لا مجرد اعتراك بين جيوش ؛ حتى النساء صرن يجندن أو يدربن على أعمال الجنود ، أو يستخدمن على الأقل فى المصانع والمستشفيات من ثابتة ومتنقلة وفى سوق السيارات وغير ذلك مما يسهل أن يقمن به وهن بعيدات عن الصفوف الأولى للمحاربين

ولــكن الأمم على الرغم من هول الحرب تبدو ماضية إليها بسرعة ، ولا تكاد تلوح بارقة من الأمل فى اتقائها واجتناب كارثتها الشنيعة ، فــكل دولة تكدس السلاح والذخيرة وتحث المصانع على العمل المتواصل ، وكل مجهود موجه إلى استيفاء الأهبة فى كل باب ولــكل احتمال . والشعور بالاستعداد — أي بالقوة — يغري بالتهور كما يمكن أن يصد عنه ، فالذين يقولون إن أحسن وسيلة لمنع الحرب هي الاستعداد لها مصيبون ومخطئون فى آن معا . فما من شك فى أن علم الدولة التى تحدثها نفسها بالحرب أن غيرها مثلها استعداداً لمقابلة الشر بمثله ، خليق أن يمسها على التردد الطويل والحساب الدقيق للعواقب ، ومتى بدأ الحساب فالإحجام مرجح لأن المفاجأة الحاسمة مستحيلة فى هذا الزمان ، وعند كل أمة من الرجال والعقول والمواهب مثل ما عند الأخرى — ونعني أمم الغرب على الأقل — وكل دولة تستطيع أن تستدرك ما يظهر لها من النقص بسرعة كافية . وقد جرب العالم هــذا فى الحرب الــكبرى، ومعلوم أن ألمانيا فاجأت الحلفاء يومئذ بالغازات الخانقة فما لبث الحلفاء أن اتخذوا الــكمائم ثم ما عتموا أن اهتدوا إلى صنع الغازات فصاروا يرسلونها على الألمان كما كان يرسلها الألمان عليهم . واحتاجت بريطانيا إلى بعض المواد التى لا غنى عنها لصنع الذخائر — وكانت قد أصبحت منقطعة أو عزيزة المنال — فاحتثت همم علمائها فهداهم البحث والتجريب إلى ما يحل محل هذه المواد ويغني غناءها وهكذا . ولا شك أن كل أمة تعول على سلاح لديها أكثر مما تعول على سواه ولــكنها لا تستطيع أن ترجو طول الانفراد به وبمزيته بعد أن تلح به على أعدائها فى الحرب

غير أن وفاء العدة يغرى من ناحية أخرى بالغطرسة ومحاولة التحكم، ومتى صارت الأمم كلها شاكية مستعدة فأخلق بذلك أن يجعلها أضيق صدراً عن احتمال الغطرسة والشموخ . والأعصاب تتلف فى مثل هذه الأحوال . وقد يكون تلف الأعصاب أجلب للحرب من أى سبب أو باعث آخر ؛ ولهذا ترى أنصار السلم ينصحون بالسكينة واتزان الأعصاب وضبط النفس والحرص على ذلك مهما بلغ قوة الشعور بالاستفزاز

وأسوأ ما فى الحالة أن الحرب تدور رحاها شيئاً فشيئاً وفى مكان بعد مكان حتى ليخشى أن تنتشر وتعم الدنيا ؛ ونارها توقد بلا إعلان . ففي إسبانيا لا تدور الحرب بين فئتين من الأمة وإنما هي بين دول شتى فى الحقيقة لــكل منها مأربها وغايتها وسلاحها الذى تجربه وتختبر فعله وغناءه . وفى الصين قامت الحرب بلا انذار أو إعلان وقد تضطر دولة أو دول أخرى غير الفريقين المتحاربين أن تخوضها مهما فتتسع الدائرة ويعظم الخطب ولا يؤمن اندلاع النار فى قارات أخرى . فاذا ظل هذا يحدث فى رقعة بعد رقعة من الأرض فماذا يكون المصير ؟ وحيال هــذه الحالة لا ندرى كيف يسع إنساناً أن يطمئن إلى استقرار السلم وإمكان تفادى الحرب ؟ إن كل ما يسعى له أنصار السلم والمشفقون على العالم

وحضارته هو أن يحصروا هذه الحروب فى مناطقها حتى لا تعدوها أو تمتد إلى سواها كما يفعل رجال المطافئ حين يرون النار قد شبت فى بيت أو مصنع . وليس هذا من التشبيه أو التمثيل فإنها النار هنا وههنا بلا فرق أو تفاوت سوى أن نار الحريق أهون من تلك التى يؤججها التدبير المحكم

ومن العسير أن يتكهن المرء بشيء فقد صار العالم يعيش يوماً فيوماً فإذا مضى يوم ولم تتفاقم فيه أزمة ولم يستفحل فيه خلاف حمد الله وشكره ورجا أن يجيء الغد بما يفرج الكرب أو ترجئه أو يلطفه على الأقل .

ابراهيم عبد القادر المازني

كلبي « بيجو »

للأستاذ عباس محمود العقاد

أنا أكتب هذا المقال عن « بيجو » وهو ينظر إليّ ، ثم يذهب ويعود ليطل مرة أخرى ولا يدرى أنني أكتب عنه وأشيد بذكره ؛ وكل ما يدرى أنني جالس فى هذا المكان الملعون الذى يحجب كل مكان فى البيت غيره ، وهو كرسى المكتب !

فى كل مكان فى البيت يرانى مستعداً لملاعبته واستجابة نظراته، والتفرج على فنونه وألاعيبه وقفزاته ، أو يرانى مستعداً للإشارة إليه واستدعائه فإذا هو واثب وثبة واحدة إلى حيث يستوى على مكانه بجانبي ، ويغريني بملاطفته ومجاملته أن أبذل له الملاطفة والمجاملة وأحييه بعبارات التودد والمجاملة

ينتظر منى ذلك فى كل مكان إلا كرسى المكتب ... فإذا جلست إليه لأكتب أو لأقرأ فهو حائر لا يدرى ما يصنع : يدنو من الكرسى إلى مسافة قصيرة ، ثم يرفع رأسه وينظر ، ثم يعيد النظر كرة أخرى ، ولعله يسائل نفسه : ما بال صاحبي لا يناديني ولا يجيبني ؟ وما بال عينيه تتجهان أمامه وقلما تتجهان ناحيتى ؟ فإذا طال عليه التساؤل والترقب رجع أدراجه وغاب هنيهة ثم عاد إلى المكتب يترقب كلمة النداء ، أو نظرة الاستدعاء ، أو لمسة التربيت والاحتفاء ؛ ولا يزال كذلك حتى ييأس ويسأم فيولى وجهه شطر ألعوبة يتلهى بها ، أو شغلة أخرى من الشواغل البديعة التى يفرضها على نفسه ولا يفرضها أحد عليه ، وأولها حراسة الباب والعواء على من يصعدون السلم أو يهبطونه !

وقد تبعنى اليوم إلى المكتب ونظر إليّ قليلاً ثم غادر المكان الملعون يائساً عابساً دون أن يلح فى الانتظار والمناورة ، لأنه تعلم بالمرانة الطويلة أن الانتظار فى هذا المكان لا يفيد ، وأن الكلب العاقل الرشيد هو الذى يغادر مكان الكتب والأوراق بغير تدبر ولا تأمل ولا إطالة . والحق معه حتى فى آراء الأناسىّ العقلاء الراشدين !

وقد أردت اليوم أن أدهشه وأخلف عادته فرفعت رأسى من الورق فى بعض جيئاته وصحت به منادياً : بيجو ! بيجو ! تعال ... إن كتابتى اليوم تعنيك . ألا تريد أن تقرأ ما كتبت ؟ فوجم ولم يكد يصدق أذنيه . وتردد لحظة ، ثم قفز إلى الكرسى فالمكتب حيث الورق الذى أخط عليه هذا المقال ... كأنه يريد حقاً أن يقرأه ويستطلع ما فيه ، وكأنه لا يفضل بالعقل والرشد أولئك الآدميين الذين يعنيهم ما يكتب عنهم الكاتبون كما ظننته لأول وهلة ! ولكنه ما لبث أن أخافنى من أسلوبه فى القراءة والمطالعة ، لأنه هو والتمزيق فى عرفه شيء واحد . وهل هو بدع فى أسلوبه. وهذا شأن كثير من الآدميين الذين أكتب عنهم ؟ فنحيته برفق وحملته إلى الباب وأرسلته فى الدهليز ، وعدت إلى المكتب فأقفلته ولا أزال أسمع نباحه يلاحقني بلهجات تتراوح بين الاستغراب والشكاية والسباب !

ويجب أن أعترف للقراء بأن كلبى « بيجو » ليس بكلبي على التحقيق ، ولكنه كلبي فى شريعة الدعوى والاغتصاب ، أو هو كلب صديقى العزيز « فيفى » الذى لم يجاوز السنتين إلا منذ شهرين ، ولا إخاله إلا مطالبى به قريباً بعد أن زال الموجب لانفصاله وهو انحراف صحته فى موعد التسنين ، وفيما أصابه على أثر ذلك فى مصاب أنقذه الله من خطره الشديد

والأصل فى المصائب أن تجمع بين الأصدقاء لا أن تفرق بينهما كما افترق فيفى وصديقه بيجو ... ولكن اللوم فى هذا الافتراق على صداقة بيجو دون غيرها — أى على إفراطه فى

الصداقة لا على تقصيره فيها — فعاذ لله أن يتهم كلب بخيانة الأصدقاء

كان بيجو يرى « فيني » على سريره ساكناً من التعب والاعياء فلا يحسب أن شيئاً تغير بينه وبين مولاه ، ويقفز إلى السرير ليعرض خدماته التي لا يكل عنها ولا يتوانى فيها ، وهي الموائبة والملاعبة واصطناع العض والمصارعة ، ومولاه في شاغل عن ذلك ولكنه هو لن يقبل العذر ولن يعرف شاغلاً أهم من تلك الخدمات المرفوضات

وإذا أقبل الطبيب وصرخ « فيني » من مقاربته وجسه وفحصه كما يصرخ جميع الأطفال من جميع الأطباء فما هي إلا لمحة كأسرع ما يكون لمح البصر وإذا بأنياب « بيجو » توشك أن تنغرس في ساق الطبيب الذي يعتدي على مولاه بما يبكيه !

أما إذا ربطوه اتقاء لهذه الفاجآت فلا راحة ولا قرار في البيت كله ، لا لمولاه العزيز ولا للنائمين حوله أو الساهرين عليه

لهذا عوقب « بيجو » على إفراط صداقته بالنفي من جوار مولاه في أثناء توعكه وانحراف مزاجه ، ورضيت أنا أن أتولى مؤاساته وحراسته أيام منفاه ، حتى تنجلي الغاشية فيعود إلى مأواه

وما انقضت فترة وجيزة حتى أصبح « بيجو » شخصية من شخصيات البيت المعدودة ، وحتى فرض على نفسه واجبات وأعمالاً لم يفرضها أحد عليه ، ولكنه يغضب ويتذمر إذا أنت قاطعته فيها أو عوقته عنها ، كأنك تحسبه مخلوقاً عاطلاً لا يصلح لعمل ولا يؤتمن على واجب ...

عرف الفرق بين جرس التليفون وجرس الباب ، فلا يدق هذا أو ذاك إلا أسرع إلى الاجابة ، وغضب من الخادم كلما سبقه إلى غرضه فتظاهر بعضه والوثوب عليه . ومن عجائب ذكائه أنه إذا سمع جرس الباب أسرع إلى الباب ولم يفعل كما تعود أن يفعل حين يسمع جرس التليفون . مع أن جرس الباب يدق في المطبخ حيث يكون الخادم ولا يدق في المكان الذي يجري إليه . ولعله عرف أن فتح الباب هو المقصود بدق الجرس في المطبخ كلما يجري الخادم لفتحه على إثر سماع دقاته ، ولكن تفريقه بين الجرسين براعة تشهد له بالقدرة على مزاولة الأعمال والواجبات

ومن الأعمال والواجبات التي فرضها على نفسه ولم يفرضها عليه أحد أنه لا يدع إنساناً ولا حيواناً يصعد السلم إلا أدركه بنباح الاحتجاج من وراء الباب فيعدو أمامي ويعود إليّ ولا يزال يرقص ويتوثب حتى أجزيه على استقباله بالتحية الواجبة والتربيت المحبب إليه

ألأجل الطعام يهش لي « بيجو » هـذه الهشاشة ويرعاني هذه الرعاية ؟ أنا أود من الباحثين في طبائع الحيوان أن يراجعوا ملاحظاتهم وأحكامهم في أسباب التآلف والمودة بين الحيوان والإنسان ، فان إطعام الكلب ولا شك سبب من أسباب وفائه وتعلقه بأصحابه ، ولكن لاشك أيضاً في أن الكلاب تفهم للمودة أسباباً غير الإطعام وتدرك معنى من معاني الصلة النفسية ليس مما يرتبط بالمنافع ؛ وأوضح دليل على ذلك أن « بيجو » يعتبر نفسه تابعاً لمولاه « فيني » ولا يعتبر نفسه تابعاً لأبيه أو خادم أبيه ، وكلاهما يطعمه ويلاطفه ويسقيه . أما « فيني » فهو لا يطعمه ولا يسقيه ولا يتورع عن خطف طعامه إذا ساغ في مذاقه ، وقد يتبرم به فيضربه أو يقبض على لسانه أو يضع أصبعه في عينه ، وبيجو في كل ذلك لا يقابل الأذى بمثله ولا يفتأ متعلقاً بالطفل أشد من تعلقه بآله وذويه .

فلما زارني « فيني » مع أبيه بعد شفائه ونجاته من خطره كان المعقول المنظور أن يخف « بيجو » إلى الأب الكبير الذي يعني بإطعامه وإيوائه ، ويشمله بعودته وحبائه ، ولكنه التفت أول ما التفت إلى « فيني » العزيز دون غيره ، وتهافت عليه يعانقه ويلحس وجهه بلسانه ويئن أنيناً من فرط حنينه وفرحه ؛ وجهدنا جهداً شديداً في التنحية بينه وبين مولاه الصغير لفرط ما أرهقه بتحياته ومجاملاته ، وكنا سبعة منا أستاذ في علم الزراعة والحيوان ، وأخ له أديب جم الاطلاع ، وصديق مهذب من أدباء الموظفين ، وسيدة انجليزية وابنها اليافع ، ووالد فيني وكاتب هذه السطور ، فأتعبنا الكلب الأمين الودود جد التعب ونحن نبعده من هنا فيرجع من هناك على حال من اللهفة والاشتياق تجلب الدمع إلى الآماق . فماذا بين بيجو ومولاه فيني من البر والمجازاة غير الصلة النفسية التي لاشأن لها بالطعام والشراب ؟ ولماذا يحسب

نفسه تابعاً للطفل ولا يحسب نفسه تابعاً لأبيه ؟ إنه لا يفقه أنهم أهدوه إلى فيني الصغير ليكون لعبته وحارسه وعشيره ، ولكنه قد يفقه أنه نده وقرينه بواشجة الطفولة والملاعبة الصبيانية ، وهي على كل حال واشجة غير وشائج المنافع والطعام والشراب

ويشبه هـذا فى الدلالة على إدراك الخلائق العجماء للصلات النفسية أن « بيجو » لا يطيق « الطاهى » احمد حمزة ولا يرتاح إلى رؤيته ولا يسمع النـداء على اسمه حتى يحسبه تهديداً له بالعقوبة والإقصاء ، وهو مع هذا يألف فراش المنزل « محمدا » ويهش له ويستريح إلى مصاحبته فى المنزل وفى الطريق ... فلم كانت هذه التفرقة عنده بين هذا وذاك ؟ ؛ كلاهما يقدم له الطعام ، ويزيد صديقه « محمد » بتجريعه الدواء الذى يتعاطاه لعلاج السعال أحياناً وهو يمقته وينفر منه أشد النفور . غير أن الطاهى « احمد حمزة » يتحاشى « بيجو » خوفاً من النجاسة فيشعر « بيجو » بجفائه وبلقاه بمثله ، ويحتمل التجريع والغصص من زميله لأنه يحتفي به ويأنس إليه

من إدراكه « للمعانى » الفكرية أنك إذا لمسته بالعصا وهو غافل عن رؤيتها فهو لا يبالى ولا يحفل ولا يحسبك غاضباً أو قاصداً لعقابه ، ولكنه إذا التفت إليك ورأى أن العصا هى عصا التأديب التى تخوفه بها ظهر عليه الرعب ، أو ظهر عليه الأسف والتوسل ، كأنه يقرن بالعقاب معنى غير معنى الضرب وألمه ، وهو استياء سيده وإعداده له عدة العقاب

***

والخلاصة أن « بيجو » مخلوق مفيد ومخلوق أنيس ، وهو أفيد ما يكون فى المكتبة التى ينفضها ويستثقل ظلها ، لأننى استفدت على يديه فوائد جليلة وأنا أقرأ بعض الكتب الحديثة فى علم النفس وعلم الاجتماع

يقول علم النفس إن التعاطف فى التربية والتعليم أنفع وأنجع من تبادل الأفكار ؛ وبيجو يؤكد لي ذلك ، لأننى أرى منه أن الكلاب أسرع تعلماً من القردة ، وهى أرفع فى مرتبة التكوين والادراك ؛ وإنما فاقت الكلاب القردة بسرعة التعلم لأنها عاشرت الانسان طويلا فاتصلت بينه وبينها العاطفة وإن لم يتقارب بينه وبينها تركيب الأعصاب والدماغ

ويقول علماء الاجتماع من أنصار « الفاشية » إن الغرائز لا تتبدل ، وإن الحرب والعدوان غريزة الانسان ، فلا فائدة لوعظ الواعظين بالسلام ، ونصح الناصحين بالأخاء والعدل والمساواة .

وبيجو يدحض ذلك أيما ادحاض ، لأنه قد تحدر من سلالة الذئاب فما زالت به التربية والمصانعة حتى أصبح حارس الأطفال والحملان ، وقد كان قبل ذلك آفة كل طفل من بنى الانسان ، وكل صغير أو كبير من أبناء الضأن

وبعد « بيجو » بحق من أحسن الشراح للعالم الروسى العظيم « بافلوف » صاحب التجارب المشهورة فى اخوان بيجو من الكلاب الروسية ... فانه جرب أن الكلب يسيل لعابه إذا شاهد الطعام ، فقرن بين تحضير الطعام له ودق الجرس على مقربة منه . فاذا بفمه يتحلب كذلك كلما دق الجرس ولو لم تصحبه رؤية طعام ؛ فبنى على ذلك مذهبه فى مقارنات العواطف ومصاحبات الشعور وظواهره الجسدية . وجاء علماء النفس والتربية فاستفادوا من ذلك فوائد شتى فى علاج الخوف والجشع والعادات الذميمة التي يصعب علاجها فى بعض الأطفال ، فجعلوا يقرنون الشيء المخيف بالشيء المحبوب ليعودوا الطفل أن يسكن إليه ولا يخشاه ، ويقرنون الشيء المرذول الذى يحبه الطفل بالشيء المزعج الذى يصده عنه وينفره من إتيانه ، ليقلع عن ذميم الخلال بداهة وعفواً بغير أمر ولا إلحاح

بيجو خير مفسر لهذا المذهب النافع الذى كان الفضل الأول فيه لواحد من أبناء جنسه ، فقد عهدته فى منزله الأول وليس أبغض إليه من السلسلة والطوق ، لأنهم كانوا يقيدونه بهما فى حديقة الدار كلما أضجرهم بعبثه وفضوله . فلما جاء عندى وليس للمنزل حديقة واسعة أطلقه فيها أصبحت السلسلة والطوق من أحب الأشياء إليه وأدعاها إلى طربه وابتهاجه ، لأنه تعود كلما ربط بالسلسلة والطوق أن يخرج مع الخادم لغشيان الطريق وقضاء ساعته المنذورة للمرح والرياضة فى الخلاء :

ولبيجو فنون أخرى يشارك فى تفسيرها وتفهيمها ، وفضائل شتى يتبرع بهداياها ومزاياها ، وإن فى بعض هذا لما هو حسبنا من تقدير للأستاذ بيجو والصديق بيجو والزائر الكريم بيجو ... الذى نخشى أن نسطو عليه ، لفرط مانستفيد منه ونأنس إليه

عباس محمود العقاد

فى أى عصر تعيش مصر؟

للدكتور محمد البهى قرقر

لكل عصر من عصور التاريخ التى حصل فيها انقلاب تطورى للشعوب والعقل الانسانى على العموم، طابع خاص يتميز به عن غيره. ومن أهم تلك العصور التى كان لها حدث تاريخى عظيم فى ذلك الانقلاب وخصوصاً فى نشأة الدول وتطور النظم الحكومية عصر القرون الوسطى والعصر الحديث.

فالاستبداد أى قيام طائفة بعينها بالحكم فى الرعية وادعاؤها أنها وحدها هى التى تصلح للحكومة والمختارة للسيادة - ظاهرة من الظواهر التى تكوّن طابع عصر القرون الوسطى. فهذه الطائفة كانت ممثلة فى رجال الكنيسة، وكان مصدر اختيارها على حسب زعمها هو الله، وحكومتها تعرف فى التاريخ السياسى بال Hierarchie

وهناك ظاهرة أخرى لا تقل عن سابقتها شأناً فى تكوين هذا الطابع، وهى ظاهرة التمسك بالنصوص القانونية والجمود فى تنفيذها ولو كان فى ذلك التضحية بالصالح الحيوية للرعية وعدم التمشى مع ما تتطلبه العدالة العامة التى هى الغرض المقصود من أى قانون وضعى أو مصبوغ بالصبغة الدينية، وهذه الظاهرة تعرف فى تاريخ التطور العقلى بال Dogmatismus

وكون تلك النصوص فى هذا الوقت كانت لها صبغة دينية لا يغير من قيمة هذه الظاهرة ولا من كنهها وهى التمسك بالنصوص القانونية من حيث هى نصوص. كما أن كون الطائفة الحاكمة كانت من القساوسة وأرباب الكنيسة لا يبدل من حقيقة الظاهرة الأولى وهى أن الحكم كان استبدادياً، إذ اتصاف الطائفة التى حكمت والنصوص القانونية التى سادت فى هذا العصر بالوصف الدينى لا يدل إلا على مصدر حكم السلطة التنفيذية، وإلا على مصدر التشريع، كما أن الوصف بالديمقراطية فى العصر الحديث لا يبين أكثر من أن مصدر الأمرين جميعاً هو الأمة. أما كون القانون فى ذاته أو الحكومة فى نفسها عادلة أو غير عادلة فليس بضرورى أن يكون مرتبطاً ارتباطاً تاماً بالمصدر، وإنما هو شىء آخر سبيل معرفته الناحية العملية فى الحياة الإنسانية، وكونه طبق مصالح الأغلبية من الرعية أو ليس على وفقها. فقد يكون مصدر الحكم جمعياً، وهو الأمة مثلا فى الحكم الديمقراطى والذى هو مظنة العدل، ومع ذلك لا يكون طبق مصلحة السواد الأعظم من الشعب؛ وقد يكون فردياً كما فى الحكومة الاستبدادية والتى هى مظنة الجور، وبالرغم من هذا يكون وفق ماتتطلبه المصلحة العامة فى الأمة، إذ الواقع أنه فى الحكم الديمقراطى قد لا تمثل الحكومة فى أسلوب الحكم رأى الأكثرية وإنما تمثل قوة الزعيم الشخصية التى تمكنه من الاستيلاء على نفوس الأغلبية، أو الضعف النفسى للأغلبية الذى يجعل قيادها سهلا والتحكم فيها أمراً هيناً

وسواء اعتمدت تلك الطائفة حقاً فى حكومتها وفى تعلقها بالنصوص القانونية على المبادىء الصحيحة للدين المسيحى أم على تعاليم الكنيسة [١] أى تعاليم تلك الهيئة التى تمكنت باسم الدين وهو هو دائما الوسيلة القوية فى تملك الشعور الإنسانى، من سيادة ارستقراطية دامت مدة طويلة، سواء أكان هـذا أو ذاك فذلك بحث آخر خارج عما أريده هنا.

وهناك أيضاً ظاهرة ثالثة كانت أيضاً من مكوّنات طابع عصر القرون الوسطى، وهى اتجاه التعليم نحو الناحية الدولية International وغايته التى كانت تقصد إلى الانسانية المحضة Homanität . وربما نشأت هذه الظاهرة من تلون الحكم والنصوص القانونية بلون دينى فى ذلك الوقت، لأن الدين لا يعرف جنساً من البشر بعينه ولا يقصد إلى تهذيب أمة لكونها أمة مخصوصة، وإنما لكونها جماعة إنسانية، ولعلها كانت نتيجة لرغبة تحقيق الفكرة الامبراطورية للكنيسة. وتحقيق مثل هذه الفكرة يتأثر تأثراً سلبياً بالدعاية لمبدأ التعليم القومى

فالأمة الانكليزية مثلاً فى العصر الحديث — وكذا كل أمة لها سياسة استعمارية عالية — تعلم [٢] الناشئة فيها سياسة الحكم الامبراطورى والعمل لأداء «رسالة» إنجلترا فى الامبراطورية

(١) يؤيد هذا الرأى الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel فى كتابه فلسفة التاريخ صفحة ٤٠٧ — ٤٢٨ طبعة Reklem فى ليبنج Pliilosoplie den Leschichte

(٢) للاستاذ Von Weise العالم الألمانى تقرير عن حالة التعليم فى انجلترا نشرته إحدي جرائد ألمانيا الكبرى Femdenllatt في الأعداد التى صدرت من تاريخ ١٢ يونية ١٩٣٧ — ١٧ منه تحت عنوان:

Eryiehmg zur Lady, Erzielung zum Jentleman

وخلاصة التقرير أن انجلترا تعتبر أشد الأمم تعصبا فى التربية القومية والنزعة الجنسية.

الانكليزية على يد رجال الشعب الانكليزي وحدهم ، وهي تربية قومية محضة ، ولكنها في الوقت نفسه تعلن خارج بلادها وفي حدود امبراطوريتها تأييد التعليم للدولي وأن الغاية منه بلوغ الكمال في الانسانية ، لأن ذلك من الوسائل السلمية لضمان بقاء الاستعمار وضغط الشعور القومي في البلاد الخاضعة لها من طريق ظاهرة المحبة والاخلاص

أما القانون الخلقي لهذا العصر فكان العمل للسلام الانساني والاعتراف لكل من القوى والضعيف والمفكر والأبله وغير هؤلاء من نوعى الانسان بالتمتع بالحياة كاملة على حد سواء . وربما كان ذلك نظريا فقط لأن حوادث التعذيب التي تنسب إلى الجهة العليا يومئذ أي إلى الكنيسة ضد العلماء يصح أن تكون دليلاً على أن السلام الذي كان يعترف به كمبدأ خلقي كان يقصد به عدم إثارة أي نزاع ضد الطائفة الحاكمة وهي الطائفة المنتخبة من الله والموكلة بأمره في الخلق

وهكذا اليوم مثلاً دعوة السلام التي تُقرر كمبدأ سياسي دولي والتي تديعها جمعية عصبة الأمم في كل يوم وكل مناسبة ليست إلا أمراً نظريا يقصد منه ترك القوى يتمتع بسيادته على الأمم الضعيفة في أكبر قسط من الراحة وهناءة البال دون أن تزعجه مطالبها القومية ورغبتها في الاستقلال بالسيادة

والعصر الحاضر يتمتع بطابع مخصوص تنم عنه جملة ظواهر تكاد تكون على الضد من الظواهر السابقة

فالديمقراطية ، أي كون الشعب هو الذي يباشر حكم نفسه بالأسلوب الذي يختاره : بالأسلوب البرلماني أو الشيوعي أو الفاشستي تكوّن جزءاً كبيراً من هذا الطابع

كذلك سياسة الواقع Politik der Realität ومراعاة المصالح القومية nationale Interense ظاهرة أخرى لهذا العصر . وقد تكون هي وحدها محور المشاكل الدولية اليوم ، والسبب الرئيسي في شل عصبة الأمم وإظهارها بالمظهر الخيالي الذي يتضاءل أمام الحقيقة ، فضلا عن أنها منذ خلقت لم تكن إلا حلماً لذيذاً للأمم الضعيفة ، وستاراً ولكنه شفاف ، يكشف دائماً عن مقاصد القوى وسياسته ذات الوجهين

ولعل من سياسة الواقع واتباعها رفض نظرية التعليم الدولي وبناءه على الأسس القومية وتوجيهه نحو الصالح الوطني ، واستبدال الغرض «الوطني» بالآخر الانساني . وهذه ظاهرة أخرى توضح طابع هذا العصر

أما قاعدته الخلقية فهي تحقيق مبدأ تنازع البقاء والاعتراف بأن الصالح للحياة هو القوى والأصلح المنتج . ولعل الايمان بهذه القضية الخلقية نتيجة للشعور الوطني الذي ساد الأمم والدويلات ، وتمكن من نفوس الجماعات البشرية المختلفة في الجنس والعادات واللغة . فإحساس كل أمة بوجوب استقلالها وخضوعها لسيادتها الذاتية فحسب أذكى قوة النضال فيها وحفظها من التوزع داخل الأمة في مكافحة الأحزاب السياسية الوطنية بعضها بعضاً ثم صوبها نحو الخارج : أي أن كل أمة وجهت قوة الكفاح نحو الأمم الأخرى دفعاً لما عساه أن يحدث من خطر يذهب بسيادتها الذاتية . ومن النتائج الضرورية للكفاح بقاء القوى واستمرار تمتعه بالحياة . وهو حادث طبيعي ؛ غير أنه أخذ في العصر الحديث صفة خلقية[1] ونال استحساناً عقلياً وتأييداً عملياً ، وهذا هو الذي جعل تلك القضية الخلقية من مميزات هذا العصر

أما الدعوة إلى السلام العالمي الذي ينادي به نظام جنيف ، والتي ربما يتنافى في الظاهر مع إقرار مبدأ تنازع البقاء إقراراً خلقيا ، فهي دعوة مدخولة وأقرب إلى الخديعة منها إلى نداء إنساني عام يرجى من ورائه سعادة الجماعة البشرية ، لأن القائم بها يفهم من السلام العالمي ترك النائم في أحلامه واستسلام الضعيف لضعفه واستمرار المستعمر في إذلاله ، بينما هو يمثل لديهم جميعاً دور الحكم الذي اختير للفصل من خالق العالم

تلك مظاهر العصرين ومنها يتكوّن طابعهما . فإذا نظرنا الآن إلى مصر ، إلى مركز النص القانوني وقيمته فيها ، وإلى نظامها الحكومي ، وإلى المبدأ الخلقي للسياسة العملية فيها ، وأخيراً إلى مبدأ التعليم واتجاهه ، إذا نظرنا إلى كل هذا فهل يمكننا أن نظفر بحكم قطعي على طابع الحياة فيها ؟ وهل يتهيأ لنا بصفة حاسمة أن نقول إن مصر تعيش في وقتنا الحاضر ، أو في عصر القرون الوسطى ، أو أنها لا تعيش في كليهما ؟ وإذن في أي عصر تعيش هي ؟

– لنسترجع هذه الظواهر واحدة واحدة ونستعرضها في مصر حتى يكون الحكم نتيجة صحيحة لمقدماته

(١) رأى الفيلسوف نيتشه في كتابه Wille zur Nacht

أليست الـ Dogma والمبالغة فى تقديس القانون من حيث هو « نص » قانونى فقط هى التى تحمل على أن يقوم برياسة الوظائف الفنية الكبرى التى تحتاج إلى تخصص وخبرة تامة فى الفن كوظائف الصحة والتجارة والاقتصاد والمعارف ... — رجال كل مؤهلاتهم أنهم درسوا القانون الجنائى أو القانون المدنى أو الدولى مثلاً ؟ أليس شأن هؤلاء كشأن القساوسة فى العصور الوسطى الذين ولوا الوظائف المدنية الفنيـة وليس لهم مؤهلات إلا أنهم من رجال الكنيسة ومدرسة القانون الدينى ؟

لماذا هذا الظلم وهذا الاجحاف الذى يصيب الفلاح سنوات وسنوات بسبب قانون تحريم تعديل ضريبة الأطيان قبل مضى ثلاثين سنة على وضعها أو تعديلها ؟ أهذا شىء آخر غير التمسك بالنص القانونى وإن ذهبت مصالح الشعب الحيوية ضحية ونـفذ الظلم فى صورة « مشروعة » ، فى صورة قانون ؟

لماذا تترك « العقبة [1] القانونية » تتحكم فى إنجاز مشروع مجلس المعارف الأعلى وهو المجلس الفنى فى أمور التعليم وفى سياسة البلاد الثقافية سنوات عدة ولو سادت مع ذلك الفوضى فى تعديل برامج التعليم وذهب وقت الرئيس ، الرجل « القانونى » الذى يجب أن يكون وقته خالصاً لصالح الأمة فى دراسة تكميلية فنية شخصية أى دراسة شئون التربية التى لاتغنيه عنها شيئاً دراسته القانونية ؟ أهذا أمر آخر غير التمسك بالنصوص القانونية من حيث هى نصوص فقط ؟

لماذا يضحى بالكفايات الشخصية فى العمل الحكومى ؟ ولماذا يسود هـذا القانون البيروقراطى قانون الوظائف الأوتوماتيك الذى يجعل المكافأة بالعلاوات على مدة الخدمة لاعلى نوعها ؟ وربما يقال إنه قانون عادل لأنه يحرم طريق الاستثناء ! ولكن لم لا تكون قاعدة الاستثناء هى الكفاية بدل المحسوبية ؟ ولم لا تجعل الجدارة الشخصية مع مراعاة الأقدمية بعض المراعاة مبدأ للترقية المادية ؟ أمن عدل القانون أن يحرم على الناس استخدام مواهبهم الشخصية فى المصالح العامة ؟ أمن عدله أيضاً أن يكون من جماعات الانسان آلات أوتوماتيكية ، أومن عدله أن يشجع

(١) تحت هذا العنوان نشرت جريدة الاهرام فى أحد أعدادها فى شهر سبتمبر سنة ١٩٣٧ أن سبب التأخير فى انجاز مشروع مجلس المعارف الأعلى هو عقبـة تتلخص فى أن مجلس الشيوخ وافق فى سنة ١٩٢٣ على المشروع بينما مجلس النواب لم يوافق عليه للآن ، وتنفيذ أى قانون مرهون بتصديق المجلسين معاً

الكسل ويعترف له باستحسان شرعى ؟ أم ذلك كله هو التمسك بنص القانون من حيث هو نص فحسب ؟

لماذا يقدم رجل [1] إدارى — وكذا كل رجل صاحب نبوغ خاص يحمله دائماً على استقلاله فى تفكيره ويهيىء له نضوجاً خاصاً فى قوة التمييز بين العمل للمصلحة والطاعة « للنص » القانونى — من كبار رجالات مصر المصلحين الذين هم ثروة الأمة وذخيرتها إلى المحاكمة أمام هيئة عليا بحجة أنه نفذ إصلاحاً قبل تسلمه الرد بالموافقة من الوزارة المسئولة ؟ أيقدم مصلح للمحاكمة لأنه حول مستنقعاً كبيراً كاد يقضى على سكان عاصمة إقليم من أهم أقاليم الوجه البحرى إلى متنزه عام وشيد عليه معهداً للثقافة العقلية : مكتبة البلدية بدمنهور ، وداراً أخرى لتلك الغاية على طراز آخر : سينما البلدية ، وملعباً رياضياً لتقوية أجسام الشبيبة ومساعدتها على التمتع بالصحة فى الشباب والشيخوخة ، كل ذلك فى زمن وجيز وبإرادة نافذة ؟ أيقدم للمحاكمة لأنه عطف على الفلاح واعترف بنصيبه فى الحياة وباشتراكه فى معنى الإنسانية وبمركزه فى الانتاج الاقتصادى لمصر فاستعمل معه أسلوب اللين فى تحصيل الضرائب التى يدفعها للموظف الحاكم وفى الواقع لخادمه الذى يجب أن يكون تحت تصرفه ولمصلحته فى كل لحظة وبكل عناية ؟

ما ذنبه إذا كانت الجهة العليا الحاكمة تجرى فى تنفيذها للمشروعات على أسلوب بيروقراطى وتتمسك « بنص » قانونى كم ذهبت مصالح حيوية ضحية له . وكم دام إنجاز بعض المشروعات الهامة سنوات طويلة وقد كان لا يستغرق أكثر من أشهر معدودة لو فهمت الروح القانونية . أليست فكرة معاقبة رجال الإصلاح على هذا النحو هى فكرة الكنيسة فى القرون الوسطى ضد من كان يريد أن يحكم عقله مرة ما فى فهم النصوص القانونية ؟

هل يفهم الانسان شيئاً آخر سوى تحكم النص القانونى وحده إذا عرف أن أحد الكنستبلات المالطيين فى بوليس الأسكندرية أعيد للخدمة ثانية بعد عزله وفقاً لنص المعاهدة ، لأنه تجنس بالجنسية المصرية ؟ إننى أعرف رجلين من الأرمن هنا فى هامبورج تجنسا بالجنسية المصرية . أنا لم أدهش من شعور أحدهما يوم قابلنى فى سنة ١٩٣٥ فى وقت اشتدت فيه حركة الطلبة بالقاهرة للحصول على غرض شريف : للحصول على دستور سنة ١٩٢٣ . إنه لم

(١) صاحب السعادة الاستاذ عبد السلام الشاذلى باشا

يستح أن يجرح عاطفتي الوطنية إذ يفاجئني بقوله : ماذا يقصـد هؤلاء الطلاب أولاد العرب من حركتهم هـذه ؟ ألا يستحون من مطالبة بريطانيا بالتخلي عن حكم مصر ؟ ألم يفهموا للآن أنها تمدنهم وتحد من همجيتهم ؟ لم أدهش حقاً لهذا لأني أعلم أن تجنسه بالجنسية المصرية لا يمكن أن يكيف شعوره بكيفية مصرية مهما حاول ذلك ، كما لم أدهش منه يوم قابلني هو بعينه في شهر يونيه الماضي وجعل يردد لي حبه وتعلقه بمصر وفخره أنه يحمل على صدره العلم المصري ، لأني أعلم أيضاً أنه يستتر وراء هذا العلم من مطاردة بعض أفراد النازى هنا له ، لأن سحنته يهودية ولأنه هو وأخاه من التجار الأجانب الذين هم تحت مراقبة البوليس لسوء سمعتهم الأخلاقية واتباع حيل اليهود الدنيئة في كسب الربح

ولو سوّغ التجنس بالجنسية المصرية لهذا المـالطى حقوقاً أخرى سياسية لمـا كان ينبغى أن يجيز له مباشرة عمل متصل بنظام الأمة الداخلي ، ولـكنه « النص » القانونى الذى لايفرق بين مصرى ومتمصر له من الطبائع النفسية وطرق التفـكير مايبعده أشد البعد عن طبيعة المصرى أو العربى المتمصر مثلا ؛ والسلوك العملي للانسان خاضع لطبائعه النفسية ونوع تفكيره

وغير هذا من الحوادث كثير . فاذا ذهب من يريد الاسلام عن اقتناع لا عن محاولة وإكراه إلى قنصلية مصرية فى الخارج ليسجل إسلامه فيها كهيئة رسمية تمثل أمة إسلامية تحتل المـكان الأول بين أمم العالم الاسلامى لم يصل إلى غايته ، لأن نص القانون المصرى يحرم ذلك تجنباً لإشكال دولى بينما يبيح أعمال التبشير الإكراهية فى مصر السلمة التى يقول عنها الأستاذ المراغى إنها سرقة أرواح واغتصاب نفوس عملاً بحرية الأديان . ولـكنه النص القانونى

بجانب هذه الظاهرة : ظاهرة التمسك بالنص القانونى التى هى إحدى ظواهر عصر القرون الوسطى ، نجد ظاهرة أخرى من ظواهر العصر الحاضر وهى الظاهرة البرلـمانية التى لا تبيح استبداد الفرد أو الطائفة الارستقراطية بالحـكم . ولـكن بالرغم من وجود هذا النظام الشكلى فان أهم مكوّنات طابع العصر الحاضر لايجدها الباحث إذا فتش عنها فى مصر الحديثة

فالسياسة العملية السائدة اليوم في مصر ليست سياسة الواقع ومراعاة الصالح الوطنى ؛ وغاية التعليم ليست قومية وطنية بل دولية بكل معانيها ، إذ أعز أماني مصر الحديثـة خدمة « الانسانية » والعمل على تلاشى الفوارق الطبيعية قبل تكوين أمة مصرية يشعر كل فرد من أفرادها بأن عليه واجباً نحو نفسه ونحو وطنه . كما أن النظرية الخلقية التى تلقى استحساناً عند الطبقة الحاكمة والتى تشبعت بها نفوسهم هى تأييد السلام العالمي الموهوم ، والعمل لقضية السلام ، والافتخار بالاشتراك فى جمعية المحافظة على السلام الدولية التى قضى عليها بالموت منذ خلقت

فأنا لا أدرى إذا كانت مصر تعيش في القرون الوسطى لهذا المظهر السائد اليوم : مظهر التمسك بالنصوص القانونية ولو كان فيه التضحية بالصالح الحيوية وعدم تحقيق معنى العدالة . ولـكن المظهر البرلمانى يحول دون الحـكم بذلك ، لأن مظهر السلطة فى ذلك الوقت كان استبدادياً قصراً على الطبقة المختارة من الله

أم أنها تعيش في العصر الحاضر لوجود هذا المظهر الشعبى ؟ ولـكن سياستها ليست سياسة الواقع ومراعاة المصالح القومية كما أن أسلوبها فى التعليم هو الأسلوب الدولي ، وقاعدتها الخلقية ليست إقرار مبدأ تنازع البقاء

أم أنها تعيش فى كلا العصرين ؟ ولـكن محال على أمة فتية رشيدة تسير فى طريق التطور الطبيعى أن تجمع حكومتها بين الأضداد . وإذن لابد أن تكون ظواهر أحد الطابعين خادعة

وأغلب ظني أن مصر لم تدخل بعد فى العصر الحاضر صاحب الطابع الوطنى ؛ ولـكنها تقطع الآن الفترة السابقة له ، وهى فترة مملوءة بالأخطار الجسيمة التى تمس حيوية الشعب ، فترة الحرية الكاذبة التي تطغى على كل ناحية من النواحى العقلية والخلقية وتتجاوز الحدود الطبيعية ، فترة الرغبة في التخلص مما يسمى « قديماً » ــ وخير الوطن فى التمسك به ــ والنزوع إلى الجديد المبهم غير المحدود الذى تلوكه الألسن ولا تفهمه عامة الشعب بل وكثير من خواصها ــ وهو لهذا خطر ــ فترة التحرر Liberalismus

فإذا قوى فى الأمة شعور التمسك بالوطن وبالقديم ؛ وقوى الشعور بالمحافظة على ما كان للأمة والاعتزاز به فى أية ناحية ، كان ذلك ابتداء الحياة فى العصر الحاضر

محمد البهى قرقر
دكتور فى الفلسفة وعلم النفس
وعضو بعثة الأستاذ محمد عبده

في تاريخ الجمعيات السرية

١ – طائفة سرية عجيبة

تعيش في عصر المدنية بأساليب همجية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قامت الجميات والطوائف السرية في جميع العصور والمجتمعات وتنوعت مبادئها وغاياتها الدينية والسياسية والاجتماعية ، ولعبت مختلف الأدوار في تكوين الآراء والعقائد ، وذهبت في الغلو والإغراق كل مذهب ، وتركت آثارها في جميع الأمم والمجتمعات التي قامت بها

ولكن التاريخ لم يسجل في صفحاته السرية الحافلة سيرة أغرب وأروع من سيرة جماعة سرية من البشر الهائمين اصطلحوا على التوسل لتحقيق مبادئهم الروحية المزعومة بتشويه الانسان وتعطيل مهمته الاجتماعية بطريقة بربرية اعتبرت في جميع الأمم والعصور وحشية مثيرة تطاردها الأمم المتمدينة بمنتهى الشدة والصرامة . تلك هي « طائفة المجبوبين » (سكوبتسى) Skoptsy السرية التي قامت في روسيا في أواسط القرن الثامن عشر ، ولا تزال قائمة حتى اليوم ، والتي تعتبر الجب وسيلة النقاء من الدنس وطريق الخلاص الأبدي من آثام هذه الدنيا

ولقد عرف التاريخ منذ أقدم العصور أمثلة من هذا النوع اعتبرت فيها هذه الوسيلة الهمجية ضرباً من التضحية السامية التي ترتفع بصاحبها إلى مراتب التقديس ، وظهرت بين بعض طوائف الرهبان في أوائل عصور النصرانية ، وذاعت حيناً بين رهبان الكنيسة الشرقية ، ولكنها كانت دائماً مثار الإنكار من الناحيتين الدينية والإنسانية

وعرفت معظم العصور والأمم طوائف الخصيان والمجبوبين من العبيد والخدم ، وعرفتها المجتمعات الحديثة حتى أواخر القرن الماضي ، ولكن طوائف الخصيان كانت تحشد دائماً من الرقيق بسائر أنواعه ؛ وكان نظام المجتمع منذ فجر التاريخ قائماً على التفرقة بين طوائف المجتمع ، وكان الرق مشروعاً في هاتيك العصور ، وكان الرقيق متاعاً مباحاً تجري عليه سائر التصرفات ، وكان الخصي أو الجب وسيلة بربرية لإعداد طوائف من الحشم تمتاز بصفات خاصة تؤهلها لخدمة القصور والبيئات الرفيعة ؛ وقد استطاعت طوائف الخصيان أن تشق طريقها إلى السلطة والنفوذ في مواطن كثيرة ؛ ولكنها كانت تعتبر دائماً من الناحية الاجتماعية من الطبقات الدنيا ، وكان ينظر إليها دائماً في كثير من الرثاء والاشفاق لأنها تعاني حالة اجتماعية منافية للأوضاع الإنسانية الطبيعية

ولكن المجتمعات المتمدنة تنكر اليوم الرق وتعتبره ضرباً من ضروب الهمجية الذاهبة . وتعتبر القوانين المحدثة الخصي أو الجب من أشنع الجرائم التي يمكن أن تقع على إنسان ، وتعاقب مرتكب هذه الجريمة الشائنة بأقصى العقوبات ، بل تعاقبه بالاعدام كالقاتل العمد سواء بسواء

ومع ذلك ففي قلب أوربا المتمدينة تقوم إلى اليوم تلك الطائفة السرية العجيبة طائفة « سكوبتسى » Skoptsy وشعارها تلك الجريمة المثيرة جريمة الخصي أو الجب كوسيلة إلى السعادة الروحية والخلاص الأبدي

***

وترجع الرواية قيام هذه الطائفة السرية إلى أواخر القرن السابع عشر على يد فلاح يدعى دانيلو فليبوف ؛ ولكنها عرفت يومئذ بجماعة « أهل الله » ، وتزعم الرواية أن دانيلو هذا ألقى ذات يوم جميع الكتب المقدسة في نهر « الفولجا » وقال إنه لا يوجد كتاب يحقق سلام الروح الأبدي سوى الروح القدس ذاته ؛ ثم صعد إلى الجبل مع نفر من أنصاره ، فنزلت عليه سحابة من النور ، ونفذ إليه الروح القدس ؛ وزعم أنصاره أن الاله قد مثل في شخصه على مثل ما يزعم الدروز بالنسبة لشخص الحاكم بأمر الله

وتتلخص تعاليم فليبوف فيما يأتي : إن الاله الذي بشرت به الأنبياء نزل إلى الأرض لينقذ أرواح البشر ؛ وليس ثمة من إله غيره ، ولا تعاليم غير تعاليمه ؛ وعلى المؤمنين أن يطيعوه ، وألا يشربوا الخمر ، وألا يرتكبوا الزنا ، وألا يتزوجوا ؛ وعلى من تزوج ألا يقرب زوجته ؛ وعليهم ألا يسرقوا ، وأن يحتفظوا بسر تعاليمه ، وأن يحب بعضهم بعضاً ، وأن يؤمنوا بالروح القدس .

وتبنى فليبوف بعد ذلك فلاحاً آخر يدعى سوسلوف وزعم أنه هو ابنه المسيح ، واختار سوسلوف له اثنى عشر رسولا ، وتوفى سنة ١٧١٤ ، ودفن فى أحد الأديار

وبعد وفاة سوسلوف تمثلت روح المسيح على زعمهم فى شخص لوبكين وهو جندى من فرقة الاسترلتزي ؛ وعلى يديه انتشر مذهب الطائفة فى كثير من الأديار بين الرجال والنساء معاً . ولما استفحل أمره قبض عليه وأعدم سنة ١٧٣٢ وأخرجت جثته فيما بعد وذر رفاته في الهواء ؛ وقبض على كثيرين من أشياعه وحوكموا بتهمة المروق والكفر ونفى كثيرون منهم إلى سيبريا ؛ ولكن هذه المطاردة لم تخمد من حماسة أولئك الكفرة المتعصبين فاستمروا يبثون مبادئهم فى الخفاء ، ويتعاقب في زعامتهم مسيح بعد آخر ؛ وكانوا يقيمون شعائرهم سراً فى جوف الليل فى بعض الضياع أو الأنحاء المهجورة ، وفى أواخر القرن الثامن عشر تطورت مبادىء الطائفة وتوسع بعض دعاتها فى تفسير تعاليم فليبوف ، وقال إن الزواج المحظور هو الزواج الكنسى فقط وأن « الأخ » يستطيع أن يتصل بأخته اتصالاً روحياً ؛ ولم يلبث أن ذاع بينهم الاختلاط الجنسى الحر ، وكان هذا الاختلاط يتخذ أحياناً صوراً مثيرة ، فتعقد جماعاتهم بالليل ، وتنتهى شعائرهم المزعومة بمناظر مروعة من الفجور والفسق

وكانت هذه نقطة التحول فى مبادىء طائفة « أهل الله » : ذلك أن فريقاً من المؤمنين رأى فى هذه الحياة الجنسية الشائنة خروجا على تعاليم فليبوف التى تحتم التزام الفضيلة والعفة ، ورأو فى « الجب » خير وسيلة للتخلص من الشهوات والموبقات الآثمة ؛ ومن هنا ظهرت طائفة « المجبوبين » (السرية سكوبتسى) واكتشفت السلطات الضحايا الأولى لهذه الدعوة البربرية فى سنة ١٧٧٢ فى مقاطعة أورمل ؛ وظهر من التحقيق الذى أمرت الامبراطورة كاترين بإجرائه أن الدعاة يزعمون أنهم يرسمون للبشر طريق الخلاص الأبدي ، وأنه يجب على المؤمن ألا يذوق الخمر ، وألا يعاشر النساء ، ويجب على الفتيان والفتيات ألا يتزوجوا ، كما يجب على المتزوجين أن يضربوا عن الاتصال الجنسى ؛ وظهر أيضاً أن الدعاة استطاعوا أن يؤثروا على كثيرين من الفلاحين ، وأن يحملوهم على قبول الخصى أو الجب المطبق تحقيقاً للعفة والسعادة الأبدية . ولم تستطع السلطات يومئذ أن تظفر بزعيم الطائفة الحقيقى ؛ ولكن ظهر فيما بعد أنه فلاح يدعى سلفانوف ، وهو فتى فى الثلاثين من عمره ، هادىء المزاج ، كثير التأمل والهيام ، عارف بالقراءة والكتابة وهو ما كان يندر فى ذلك العصر ؛ وكان يبشر بدعوته بعبارات صوفية غامضة ؛ وكان من زعماء « أهل الله » ولكن راعه ما رآه من ذيوع الفسق بين المؤمنين ، فبدأ دعوته ضد « السحر » النسوى أصل كل بلاء وإثم ، وأخذ يدعو إلى « النقاء المطلق » ؛ وهذا النقاء لا يتحقق فى رأيه إلا بمجانبة كل بواعث الضعف ولا سيما الاغراء الجنسى ، والكبرياء ، والأنانية ؛ ولا سبيل إلى تحقيق هذا المثل الأعلى إلا « بقتل الجبة » أو بعبارة أخرى إعدام الأعضاء الجنسية والتخلص من آثامها

« هكذا نشأت طائفة « المجبوبين » (سكوبتسى) ، واستطاع سلفانوف أن يحشد حوله جماعة من التلاميذ والأشياع معظمهم من الفلاحين البسطاء ؛ ولم تكتشف السلطات أمره إلا فى سنة ١٧٧٥ إذ قبض عليه وجلد وعذب مراراً ، ثم نفى إلى سيبريا ، وقبض على كثيرين من أشياعه المجبوبين ، وجلدوا ، وحكم عليهم بمختلف العقوبات

ولكن الدعوة البربرية لم تخمد مع ذلك ، فحملها تلاميذ سلفانوف ورفعوه إلى مرتبة التقديس وأسموه « بالمنقذ » وجاوزت الدعوة طبقة الفلاحين إلى الطبقات الأخرى ، فانتظم فى سلك الطائفة جند وتجار وغيرهم خضعوا جميعاً لهذا التشويه الهمجى ؛ وزعموا أخيراً أن سلفانوف هو الانسان الوحيد الذى مثلت فيه روح المسيح ، وأنه سيعود قريباً . أما سلفانوف فلبث يرسف فى منفاه فى أركوتسك زهاء عشرين عاماً ، ثم استطاع الفرار أخيراً ولم تهتد السلطات إلى أثره

وفي العام الثانى ظهر فى قرية بيخوفو على مقربة من موسكو شخص يرتدى أسمالاً بالية ، وقد حزم بطنه بسلاسل من الحديد وبدت عليه آثار السقم والورع ؛ فالتف حوله بعض الفلاحين ، وكان يصلى بينهم بلغة مجهولة ؛ ولم يمض سوى قليل حتى ظهرت معجزاته إذ استطاع أن يشفى امرأة مريضة ، وأن يحول الخمر إلى ماء ؛ وفى ذات يوم أخذ يتكلم بالروسية وزعم أنه القيصر

« بطرس فيدروفتش » ولم يكن هذا الدعي سوى سلفانوف نفسه ، رأى في حوادث البلاط الروسي يومئذ منفذاً جديداً لدعوته ؛ والقيصر بطرس فيدروفتش أو بطرس الثالث هو زوج الامبراطورة كاترين ، وقد توفي سنة ١٧٦٢ في ظروف مؤسية غامضة ، واتهمت زوجه بتدبير مصرعه لأنهما كانا على خلاف دائم ؛ وكان القيصر مصاباً بالضعف الجنسي ، وكانت زوجه تبغضه وينفضها لفجورها ؛ ولكنه كان محبوباً من بعض طوائف الشعب لنزعته الحرة وخلاله الرقيقة ، وكان من مآثره التي زادت في حبه أن أفرج عن آلاف عديدة من المنفيين لأسباب دينية ؛ فلما توفى على هذا النحو الغامض ذاعت حول وفاته أقاويل وروايات كثيرة ، وزعم كثيرون أنه لا يزال على قيد الحياة ، وقام أكثر من دعي ينادي بأنه القيصر بطرس ، ومن أشهر هؤلاء بوجاتشيف زعيم القوزاق الذي أثار الثورة حيناً في مقاطعة الأورال ، ثم هزم وأعدم . واتخذت هذه الأسطورة على يد سلفانوف وأشياعه صبغة جديدة ، خلاصتها أن المسيح تمثل لآخر مرة في شخص القيصر بطرس الثالث ، وأن أمه العذراء الزابيث ولدته بمعجزة ثم تخلت عن العرش لوصيفة لها تشبهها كل الشبه ، وذهبت لتعيش بين « أهل الله » في مقاطعة أوريل باسم الفلاحة آكولينا إيفانوفا . ولما كبر بطرس وزوج بالامبراطورة كاترين اكتشفت زوجه أن به عنة فاعتزمت قتله والاستيلاء على العرش من بعده ؛ ولكن بطرس علم بأمر هذه المؤامرة ، فترك العرش وغادر بطرسبرج « لكي يقاسي مع أهل الله » وقتل مكانه مجبوب يشبهه كل الشبه ؛ واختفى القيصر حيناً ثم قبض عليه ، وعذب كما عذب المسيح ، ونفي مدى عشرين عاماً في مكان سحيق ، ولكنه استطاع أن يفر ، وأن يعود متشحاً بكل مجده وعلاه

تلك هي الأسطورة التي مزجها سلفانوف بشخصه ، وحاول أن يستغلها من الناحيتين السياسية والدينية ؛ ولكنه لم يلبث أن وقع في يد السلطات مرة أخرى ، فقبض عليه في موسكو سنة ١٧٩٧ ، وزج إلى دار المجانين في بطرسبرج ؛ وأراد القيصر بول الأول (وهو ابن القيصر بطرس الثالث وكاترين) أن يرى ذلك الدعي الذي زعم أنه أبوه ، فاستدعى سلفانوف إليه ، وجرت بينهما محادثة تنبأ فيها سلفانوف للقيصر بموت سريع عنيف . ولبث الدعي في سجنه طيلة حكم بول الأول ؛ وقبض أيضاً على تلميذه ورسوله « شيلوف » وسجن حتى موته وغدا قبره مزاراً يحج إليه المجبوبون من سائر الأنحاء

وفي عهد القيصر اسكندر الأول تنفست طائفة المجبوبين الصعداء ، لأن القيصر الجديد كان ذهناً حراً في معنى من المعاني ؛ وفي عهده صدرت عدة مراسيم تحريرية ، ومنها مرسوم بالكف عن مطاردة المجبوبين « لأنهم بفعلهم الذميم قد عاقبوا أنفسهم بأنفسهم عقاباً كافياً » وعلى ذلك أطلق سراح المعتقلين منهم ، وانتدبت لجنة خاصة لبحث جميع المسائل المتعلقة بالطائفة ، وأفرج أخيراً عن سلفانوف بتدخل سيد بولوني من ذوي النفوذ يدعى الكسي اليانسكي ، وكان من المتصوفين المتدينين ، واعتنق مبادىء الطائفة وكان أول أعضائها من خاصة المثقفين ، وقد لعب فيما بعد دوراً عظيماً في تطورها وتقدمها

وسنرى فيما يلي كيف عاشت هذه الطائفة السرية العجيبة خلال القرن القرن التاسع عشر عصر العلم والنور ، وكيف أنها لا تزال قائمة حتى يومنا في ظل النظام البلشفي ، وفي قلب أوربا المتمدينة (١)

(للبحث بقية)
فينا في أوائل اكتوبر

محمد عبد الله عنان

(١) انتفعنا في هذا الفصل بالبحث المستفيض الذي كتبه المؤرخ نولكوف عن طائفة « سكوبتسي » وبما كتبه سخوملين في مؤلفه بالفرنسية عن القضايا الروسية الشهيرة

الدمـــــام

Le bâton de rouge

لأستاذ جليل

اللعَس سواد مستحسن يعلو شفة المرأة أو سواد فى حمرة قال (التاج) : لعس كفرح لعسا ، والنعت ألعس وهي لعساء من فتية ونسوة لُعس : فى شفاههم — وشفاههن — سواد

وفى اللُّعس جمع اللعساء يقول الزمخشري : « إذا رأيتَ أبكاراً لُعْسـاً ، وعجائز قُعْسـا[1] فقل : لعاً[2] وتعسا !! » قل: لعاً للأبكار اللعس ، وتعساً للعجائز القعس

نعم ما يوصينا به إمام عظيم فى اللغة والأدب ونحلة المعتزلة ! الحق أنّ شيخنا الزمخشري لا يستحى ...

فاللعَس هو صِبْغ الله ، صباغ الله ، « صِبْـغة الله ، ومن أحسنُ من الله صبغة ؟ »

ومن هوى كل من ليست مُموِّهةً
تركتُ لون مشيبي غير مخضوب[3]

وإذا أحب محب أن يرشف ريق رَشوف[4] أو يَرُفَّ شفتيها[5] أو يترضبها[6] فإنه يرجع بخير ، إذْ ما فى صبغة الله إلا الطهر —وإن سمى حاسد أو عذول هذا الرضاب بغير اسمه فقال : هذا بُصاق ! فليس ثمة ضير .

تقول : هذا مجاج النحل تمدحه وإن ذممت تقل : قيء الزنابير[7]

وقد رفضت الترقشات[1] المتقيّنات[2] المتنمّصات[3] المتّشمات[4] تلك الصبغة ، صبغة الله ، وركضن إلى صبغة العطار والصيدلانى فكان تبديلُ خلق الله وتصويره . وجاء من ذلك — من تلك الدواهى — هذا الوشم فى الجسم واليد والوجه واللثة والشفة . وقد « لعن الله الواشمة والمستوشمة » كما « لعن الله النامصة والمتنمصة » لكن الخبيثات ما يبالين لعناً ولا ذما ، ولا يحسبن للأخرى حسابا

كان وشم الشفاه فى القديم ، وجاءت اليوم هذه (الحمرة) فيها ، هـذا (الموت الأحمر[5]) وأمسى (التحمير) دين كل شابّة وتابّة[6] ...

وكأن أولئك الحور[7] العين الحسان الكواعب وهنّ مقلات مدلات بجمالهن ، ذوات أبهة ، مزدهيات — فكأنهن والنات فى دماء صرعاهن ، صرعى عيونهن !

وكأنّ شفة الرجل بعد تلك الرّشفات خطْمُ[8] ضار فى نهلا مفترس

إنه لمـا عمّت وطمّت هذه البلية التى « ليس لها من دون كاشفة[9] » وكنا من خدام هذه اللغة رأينا أن يوضع لها لفظة فكانت كلمة (الدّمام[10]) المسماة فى الفرنسية Le bâton de rouge فتقول — يازير النساء وطِلْبها[11] إن شئت أن تقول —

---

(١) القعس : نقيض الحدب

(٢) لعا : دعاء للعاثر بالسلامة

(٣) المثنى

(٤) يرشف : بضم الشين وكسرها . الرشوف : المرأة الطيبة الفم يصلح لأن يرتشف

(٥) يرفهما : يرشفهما

(٦) ترضب المرأة : ترشف رضابها

(٧) فى (الوفيات) : أبو اسحق العراقي : أنشدنا شيخنا ابن الخلوف يسم قائلا :

في زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول هـذا مجاج النحل تمدحه وإن ذممت تقل قيء الزنابير
مدحا وذما وما جاوزت وصفهما حسن البيان يرى الظلماء كالنور

---

(١) ترقشت : تزينت

(٢) التقين : التزين بألوان الزينة

(٣) النامصة التى تنتف الشعر من وجهها والمتنمصة التي تأمر من يفعل بها ذلك (النهاية) والمنماص : المنقاش

(٤) المتشمة : طالبة الوشم ، أصلها موتشمة مثل المتصل أصله الموتصل (المصباح)

(٥) الموت الأحمر : الموت قتلا ، والأغبر الموت جوعا ، والأسود الموت خنقاً وغرقاً ، والأبيض الفجاءة

(٦) تابة : عجوز

(٧) الحور مفردها : حوراء ، وقد قال المولدون : حورية

(٨) الخطم من السبع بمنزلة الجحفلة من الفرس ، بمنزلة الشفة من الانسان

(٩) ليس لها من كاشفة أي قدرة على كشفها إذا وقعت ، وقيل : الكاشفة مصدر بمعنى الكشف كالعافية (الكشاف)

(١٠) للدمام معان ، جلها قل استعماله ، ومنها الحمرة التى تحمر بها النساء وجوههن ، وحسبها هذه الكلمة ، والدمام ظهيرها فى التحمير كما أنه منها

(١١) طلب نساء أى يطلبهن جمعه أطلاب

بين العـــلم والأدب

للأستاذ عبد الكريم الناصرى

قرأتُ فى العدد (٢١٩) من « الرسالة » الغراء مقالة للأستاذ على الطنطاوى يقارن فيها بين العلم والأدب ، ويفاضل بينهما ، ويقضى في أمرهما ؛ فوجدته « لم يدع مذمّة إلا ألحقها » بالعلم ، « ولم يترك مزيّة إلا نحلها » الأدب ، كأنما « الأمر قد انتهى والقضية قد فصلت » وحكم للأدب على العلم « فلم أدر متى كانت هذه المنافرة ، وأين كانت هذه المفاخرة ، ومن هو الذى جلس فى منصة القضاء ، ومن الذى زعم أنه وكيل العلم حتى أخزاه الله على يديه ، وأذله به ؟ »

رأيتُ فى قهوة أو ملهى أو معهر (Café Chantant) فى (شارع عماد الدين)

شارع عماد الدين ! هذا شارع هاري الدين ، هاز الدين ، موهى الدين ...

فتقول : رأيت فتاة مثل الدُّمية أو رأيت دمية[1] ، أمامها قشوتها أو عتيدتها[2] ، وهي تدمّ شفتها بالدمام ، وهو دمى فى الشفة !

ليس دمى فى جيدها ؛ إن دمى فى الشفة ! !

دُمك أنت — زيرَ الغوانىَ — لادمى فإنه
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدى
شيئاً تتيمه عين ولا جيد[3]

« ر »

(١) الصورة المنقشة من العاج ونحوه . ويقال لمرأة الدمية يكنى عن المرأة بها . عربية (اللسان)

(٢) تقول : إذا فتحت قشوتها فحت نشوتها وهي صل المرأة الذى فيه طيبها وأدهانها وهى من خوص تتخذ فيها مواضع للقوارير بحواجز بينها (الأساس) العتيدة طبل العرائس اعتدت لما تحتاج إليه العروس من طيب وبخور ومشط وغيره (اللسان) قلت : نشر العلامة الأستاذ المغربى فى مجلة المجمع العلمي العربي) مقالة ذكر فيها ألفاظا للمساة بالفرنسية (Sac-à-main) منها هاتان الكلمتان وهما لها ، والفضل له

(٣) المتنبي

والذى لاحظته على الأستاذ وعجبت له أنه يتوسع فى مفهوم الأدب توسعاً كثيراً ، بينما يبخل بذلك على العلم ويضيّق معناه كل التضييق ؛ فهو يقول : « إن الأدب ضرورى للبشر ضرورة الهواء » « لأن البشرية لم تعش ساعة واحدة من غير أدب » ولكنها « عاشت قروناً طويلة من غير علم ، وما هو إلا طفل ولد أمس ولا يزال يحبو حبواً » ... وذلك لأن الأدب بمعناه الواسع يشمل « كلّ ما كان وصفاً للجمال وتعبيراً عنه » فكلُّ « من يعنى بالجمال ويتذوقه ، بل كل من يذكر الماضى ويحلم بالمستقبل ويحس باللذة والألم واليأس والأمل يكون أديباً ، ويكون الأدب — بهذا المعنى — مرادفاً للانسانية ، فمن لم يكن أديباً لم يكن إنساناً » ... أما العلم فهو هذا العلم المنظم الطرائق المقرر الأصول ، هذا العلم الذى وُلِدَ أمس ، علم نيوتن ودارون وإينشتين !!

كلا يا سيدى ، ما هكذا تقام الموازنات ، ولا هكذا تعقد المفاضلات . فإذا كنت قد توسعت فى معنى الأدب كل هذا التوسع ، حتى جعلته مجرد الإحساس والشعور ، فمن العدل والإنصاف أن تتوسع فى معنى العلم أيضاً ، فتجعله مجرد التفكير والمحاكمة العقلية ، فبغير ذلك لا تكون لموزاناتك ولا لمفاضلتك قيمة أو معنى ، لأن الأصل في المقارنة بين شيئين أن يكون أساسهما مشتركا ...

فالعلم بمعناه الواسع قديمٌ قِدَم العقل ، لا « طفل ولِدَ أمس » والمحاكمة العقلية — أى العلم — هى الفارق بيننا وبين العجماوات ، فيكون العلم — بهذا المعنى — مرادفاً للانسانية ، فمن لم يكن عالماً لم يكن إنساناً ... أليس كذلك ؟

« إن أول كلمة قالها الرجل الأول للمرأة الأولى » كما يقول الكاتب : « كلمة الحب ، لمكان الغريزة من نفسه » ...

وهذا صحيح ، فإن الأدب — فى أعمق معانيه وأصدقها — تعبير عن الغرائز الحيوانية والبشرية ؛ وقد بدأ الأدب منذ قال « الأديب الأول » ما قال « للأديبة الأولى » وكان من نتيجة اشتغالها بالأدب واهتمامهما به ، أن أخرجا مما كانا فيه ، وهبطا إلى هذه الدنيا .— مما يدل على أن شؤم الأدب على أصحابه بدأ منذ ذلك العهد — ثم استمر بعدها القتل والتخريب واتباع الغرائز

وإطاعة الشهوات ، واستمر الأدب يصور ذلك كله ، ويعبر عنه وينبه إليه ، ويقويه في الأذهان ، ويحييه في النفوس ، ولولا العلم والعقل ، وسنه القوانين والأنظمة للجماعات ، ووقفه الأفراد عند حدهم ، وحده من شرتهم ، لعم البلاء وعظم الخطب ، ولفسدت الأرض ومن عليها !

يقول الأستاذ على : « إن أكثر البشر استغنوا عن العلم ولم يفكروا تفكيراً علمياً » بينما « لم يستغن أحد عن الأدب ولم يمش إلا به »

وهو في هذا القول أيضاً يقصد بالأدب المعنى الواسع الذي وضعه له ، ويقصد بالعلم المعنى الضيق الذي ارتضاه له ... ولقد بينا خطأ هذا القول ، وبينا أن « الفصيلة البشرية » تتميز بالحاكة العقلية عن بقية الحيوانات ، وأن من غير الممكن أن تتصور إنساناً بغيرها ، أي بغير علم

فاذا أردنا أن نجد ، أي نقصد بالعلم والأدب معنيهما العاديين ، وجدنا أن كثيراً جداً من الناس يستغنون عن الأدب ، وليس لديهم خيال الأدباء ، ولا سمو مشاعرهم ومثلهم ، بينما نجد سوادهم الأعظم لايستغنون عن العلم ، ونتائجه ، من وسائل المواصلات ، إلى وسائل التسلية والترويح عن النفس ، إلى غير ذلك مما لا يعد ولا يحصر ، كما أننا نجد هذا السواد الأعظم يفكرون تفكيراً علمياً . أجل ، يفكرون كما يفكر ميليكان وجيمس جينس واينشتين ... فان منطق العامة ومنطق العلماء واحد في « النوع » وإنما الاختلاف في « الدرجة » . وهذه الحقيقة تخفى على الكثيرين ، وإن كانت من بسائط علم المنطق الحديث ، بل إن منطق العلماء موجود عند البشر جميعاً ، لأن « الاستقراء » و « الاستنتاج » هما الميزانان اللتان تميزان العقل البشري عن سائر الحيوانات . والغسالة ، كما يقول هكسلي ، تستخدم في اكتشاف أن البقعة التي على الثوب هي بقعة حبر ، عين المنطق الذي استخدم في اكتشاف السيار نبتيون

أما سؤال الكاتب : « هل بلغ أحداً أن أديباً نظر في معادلة جبرية ، أو قانون من قوانين الفيزياء ، أو أحس الحاجة إلى النظر فيها ؟ » فانه غريب حقاً . وما كنت أنتظره مطلقاً من الأستاذ الطنطاوي ... فهل بلغك يا أخي أن بول ڤاليري ، أمير شعراء فرنسا ، كان عالماً رياضياً قبل أن يكون شاعراً ، وأن جوتيه ، أعظم شعراء الدنيا بعد شكسبير ، كان عالماً بيولوجياً قبل أن يكون شاعراً ، وأن هـ . ج . ولز ، عميد أدباء الانجليز ، كان أستاذاً في الجيولوجيا ، وأن اشتغاله بهذا العلم لايزال إلى اليوم يطبع أدبه وتكهناته وتنبؤاته ؟؟ وماذا تريد بعد هؤلاء الجبابرة من أمثلة ؟؟

الأدب لايستطيع بحال من الأحوال أن يستقل عن العلم ؛ والقول باستقلاله خطأ شائع يجب تصحيحه ...

يقول الشاعر العظيم وردزورث : « إن الأشياء التي يستطيع الشاعر أن يستمد منها ويستوحيها موجودة في كل مكان » وإن « عيني الانسان وسائر حواسه وإن كانت ولا ريب خير مرشد له وهاد ، فانه يسير في كل طريق ويتبع كل جو يستفز مشاعره ويستثير أخيلته ، ويستطيع أن يحرك فيه أجنحته »(1)

ويقول وليم هنري هدسن المحاضر السابق بجامعة لندن :

« نستطيع أن نقول إن الشاعر العظيم حقاً هو مفكر عظيم في الوقت نفسه . وهو لذلك لا بد أن يهتم ، ويتأثر باكتشافات العلم المتفرقة وبقضاياه ومساجلاته ، أو على الأقل بالحركات الفكرية التي تثيرها هذه . إن معارف العصر الجديدة ، وكل ما تحدثه من التغييرات في معتقدات الناس الموروثة وآرائهم التقليدية في النظام الكوني وعلاقاتهم به ، وكل ما تقدمه لهم وتضعه أمامهم من المشاكل والمسائل ، لا محالة تسحره جوانبها العاطفية والروحية سحراً لا يقاوم(2) ؛ ثم إن ما يتراءى وراءها من خير للبشرية ومطامحها وآمالها أو من شرور ، لا بد أن يسترعي التفاته ويستدعي اهتمامه . وعلى فرض أنه لا يتخذها موضوعات تامة له المباشر ، فانها تدخل إلى شعره من مسالك خفية لا تعد

(1) Preface to Second edition of Lyrical Ballads

(٢) ذلك بأن الشاعر — وهو هنا ممثل الأدب الخالص — لايطلب منه أن يتحدث عن الجوانب الموضوعية من الحقائق ، لأن ذلك من شأن العلم . وإنما المطلوب منه أن يتحدث عن الناحية العاطفية والروحية منها . وقد جمع العلم عدداً هائلا من الحقائق ، يستطيع كل شاعر وأديب أن يستلهمها . فهي معين لاينضب . ولكن أكثر الادباء لايعلمون !

(2) Hudson, An Introduction to the Study of Literature, Shas. III. PP. 112 - 113.

ولا تحصى ، فتلونه بلونها وتطبعه بطابعها ، كما تدخل فى تفكير عصره الجارى فتلونه بلونها وتطبعه بطابعها إذن فبعيد كل البعد عن الحق أن الشاعر لا صلة له بالعلم ومعارفه ، بل هو على الضد من ذلك ، لا يستطيع مطلقاً أن يتجاهل نتائجها الكبيرة تجاهلا تاماً ، وإذا كان من ذوى العقول الفلسفية فانه يجد الاطلاع عليها ومحاربتها فيما يتصل منها بكل مسألة ومصلحة تعود إلى حياة الانسان العليا واجباً عليه وفرضاً » ... « إن استنباط العواطف والأحاسيس من المعرفة العلمية (Emotionalisation of Knowledge) — عملية بطيئة حتما ؛ ولكن من مقاييس عظمة الشاعر كمفكر أن يقدر على أن يرى إمكان هذا الاستنباط وعلى أن يساعد — بادراكه المعانى الروحية للحقائق العلمية — على تتميمها وتكميلها [٢] »

***

ويدع الكاتب تفريقه « الفلسفى » ، ويفاضل بين العلم والأدب من الناحية النفسية . فيقول : « إننا نعلم أن العلم يبحث عن الحقيقة فهو يستند إلى العقل ، أما الأدب فيتكئ على الخيال؛ ثم ينظر فى العقل والخيال : أيهما أعم فى البشر وأظهر ؟ .. فيرى أنه الخيال « من غير شك » بل إن هذا الخيال ليمتد إلى صميم الحياة العلمية ، فالعلم إذن « مدين للخيال أى للأدب »

ولكن من المبادئ الأولية فى الأدب أن « التفكير »عنصر من عناصره الرئيسية الأربعة . فالأدب إذن يستند إلى العقل أيضاً . ومن ذا الذى يستطيع أن يزعم أن مسرحية (أهل الكهف) كلها خيال ؟ ! !

فاذا كان العلم مديناً للخيال أى للأدب ، فالأدب مدين للعقل أى للعلم . والنتيجة أن ليس هناك تفاضل ، ولا دائن ومدين ... أليس كذلك ؟ !

أما أن الخيال أعم فى البشر من العقل وأظهر ، فغير صحيح والأدلة والأمثلة التى جاء بها الأستاذ لا تثبت أن من الناس مَنْ يملكون خيالا ولا يملكون عقلاً ، ليقال إن الخيال أعم من العقل ، ولا أثبتت أن الذين يملكون خيالاً واسعاً أكثر من الذين يملكون عقلاً قوياً ، ليقال إن الخيال أبرز فى البشرية وأظهر

نعم « ليس فى الناس من لا يقدر على استعمال الخيال » . ولكن ليس فى الناس من لا يقدر على استعمال العقل ، وإذا كانت عقول بعض الناس « محدودة القوى » ومحاكاتهم العقلية ضعيفة ، فان خيال الكثيرين محدود القوى ضيق المجال أيضاً . وإذا لم يكن فى الناس من يعجز عن « تخيّل حرارة النار وامتداد ألسنة اللهب » فليس فيهم مَنْ لا يدرك أن اقتحام اللهب ، والدخول فى وسط النار ، يحرق جسمه ويقضى عليه ! وقولك إن كثيراً من الناس « لايقدرون على استعمال العقل على وجهه » لا معنى له ، لأن جميع الناس يستطيعون أن يستقروا ويستنتجوا ، وإنما الاختلاف كما سبق القول فى الدرجة والمقدار

ولا أريد ههنا أن أبحث عن الصلة بين « العقل » والخيال ؛ لأن المقام لا يتسع لذلك ، ولأني أريد أن أساير الأستاذ فى فروضه ونظرياته حتى يكون الردّ ... أوجز . ولكن لا مانع من أن أسأله هذا السؤال: ما السر فى قلة أدب القصص والخيال Fiction فى الشرق عامة بالقياس إلى أدب المقالة والتفكير ؟

***

ثم يقول الأستاذ على : « أنا إلى هنا فى القول بأن الحقيقة فى صف العلم والجمال مع الأدب » « والواقع غير ذلك . ذلك أن العلم فى تبدل مستمر وتغير دائم » . « فى حين أن الأدب باق فى منزلته، ثابت فى مكانته » « ولا يعتريه تغيير ولا تبديل » . فأين هى الحقيقه؟ وأي الشيئين هو الثابت ؟ وأيهما المتحول ؟

كلا هذين الرأيين مخطئان ، ولننظر أولا فى الرأى الثانى :

فالأدب متغير متبدل دائماً . لأن الأدب يصدر عن الشخصية ويخاطب الشخصية ، وبما أن شخصيات الناس تختلف ، فكل شخص يفهم من قصيدة بعينها ما لا يفهمه شخص آخر ؛ ومعنى ذلك أن الحقائق العاطفية والمعانى الروحية التى أراد الشاعر أن يوصلها إلى نفس القارئ قد ضاعت وزالت ، وبتعبير أدق ، قد تحولت إلى ملايين من الحقائق والمعانى . وهـذا هو السبب فى اختلاف النقاد على الأثر الأدبى الواحد . بل إن الشاعر نفسه قد يعجز بعد مضى زمن قصير أو طويل عن استعادة معانيه العاطفية التى أودعها قصيدته . وإلى جانب هذه المعانى المتبدلة المتحولة نجد ما يحتويه « الكتاب العلمى الذى ألف منذ خمسين سنـة » هى

نفس حقائق الطبيعة، والذى لا « نقبله » منه اليوم هو نظرياته (كما سترى بعد قليل).

فإن قلت: إن المهم ههنا أنى أقرأ اليوم الديوان الذي نظم منذ ألف سنة ولا أقبل الكتاب العلمى الذى كتب منذ خمسين سنة لأن ما فى الأول من صفات القوة والجمال وسمو الموضوع هو الذى يبقيه ويخلده. كما أن نسخ النظريات و« القوانين » الجديدة لتلك التى سبقتها هو الذى يدعونى لرفض الثانى. قلت: هذه النظرة إلى بقاء الأدب أقبلها على تعارضها مع الحقيقة التى ذكرتها عن تغيره، لأن غايتى من هـذا المقال أن أدفع التهم التى ألصقتها بالعلم لا أن أبحث فى الأدب أو أفاضل بينه وبين العلم فلننظر الآن فى تغير العلم الدائم، والكتاب الذى « لا يقبله طالب ثانوى » ...

يتلخص عمل العلم فى أنه يجمع مقداراً من الحقائق، ثم يحاول أن يضع لهـا قاعدة عامة تربطها وتفسرها جميعاً، على أن تنطبق على كل ما يكشف من الحقائق بعد وضعها. فإذا اكتشفت حقيقة أو أكثر لا تتفق معها عدل عنها إلى قاعدة أخرى، أعم وأشمل. وهكذا « يتدرج » العلم من قاعدة إلى قاعدة أوسع، أى تنطوي على حقائق أكثر. إن العلم لا يرى في هـذه القواعد والنظريات والقوانين أكثر من « فروض ». ولكن بهـذه الفروض وحدها يستطيع أن يكشف الحقائق، لأن كل فرض ينبه إلى حقائق جديدة، ولأن العلماء حين يضعون فرضاً لا يكتفون به ولا يسكنون إليه، بل يجدون في البحث والملاحظة والاستقراء وابتكار الآلات واستنباط الوسائل التى تعينهم على الوصول إلى بيانات أوفى، وحقائق أكثر. وهـذه تقابل مع الفرض الموضوع، فان تعارضت معه وضع فرض أشمل. إذن فوضع فرض جديد معناه كشف حقائق طبيعية جديدة — لا تغير فى الحقائق السابقة — ومعناه أيضاً « تقدم » — لا تغير — من فرض إلى آخر أشمل.

ومن ذلك نستطيع أن نستنتج بسهولة أن الطالب الثانوى لا يرفض الكتاب الذى ألف منذ خمسين سنة، بل يقبله ويقرؤه، ولكن النسخة التى بين يديه هى طبعة جديدة من ذلك الكتاب منقحة وموسعة ...

وزيادة فى توضيح المسألة أدع السر جيمس جينس يردُّ على الأستاذ الطنطاوى:

« إن الغرض العام للعلم هو أن يسير إلى مثل هذه النظريات ويصل إليها. ولا نستطيع مطلقاً أن نعتبر نظريةً ما نهائية أو حقيقةً مطلقة، إذ من المحتمل أن تظهر حقيقة جديدة ترغمنا على ترك هذه النظرية؛ وقد يحدث ذلك للنظرية النسبية ولو أنه بعيد الاحتمال، وإذا ما حدث ذلك برغم استبعاده فان الوقت الذى أنفق في تكوينها لم يضع سدى، بل سيكون تدرجاً إلى نظرية أوسع وأكمل، تتفق مع عدد أكبر من الظواهر الطبيعية. من ذلك يظهر العلم للرجل العادى متغيراً دائم التغير دائراً حول نفسه محاذياً لنظرياته الأولى، ولكن العالِمَ يراه دائم التقدم، يرقى من نظرية إلى أخرى، تحظى كل نظرية منها باتفاقها مع حقائق تزيد على التى أزاحتها، ورائده الوصول إلى هدفه الأسمى وهو النظرية التى تفسر ظواهر الطبيعة كاملة » (1)

***

ثم ينظر الأستاذ فى نتائج العلم ويسأل: ماهى فائدة هذا العلم؟ وماذا نفع البشرية؟

يريد أن يقول: ماهى فائدة هذا العقل؟ والجواب على ذلك سهل ميسور. فالعقل لم يوجد إلا ليستخدمه الانسان فى الدفاع عن نفسه، والتغلب على أعدائه من الحيوان، وفى حفظ بقائه، وفى الرقىّ بحياته وتوفير أسباب سعادته بعد ذلك؛ ولولا هذه الغاية لما وجد أصلاً ... ولقد جرب العقل الفلسفة فوجدها عاجزة كل العجز عن إبلاغه هذه الغاية؛ لأن الفلسفة كما لا يخفى عليك كلام فى كلام؛ والكلام لا يستطيع أن يقتل حشرة، أو يهلك مكروباً، أو يصنع طيارة. لذلك تركها وأساليبها و« قيَمها » وخرافاتها، وسلك هذا المهيع السوىّ، والطريق الواضح، طريق العلم ... فلم يلبث حتى رأى نتائجه المحسوسة الباهرة ... فالعلم إذن آخر مظهر من مظاهر الرقي العقلي، وآخر اتجاه اتجه إليه العقل. وليس من البعيد جداً أن يتفق العلم والفلسفة والدين على أية صورة من الصور، ولكن دوره سيظل هو هو لا يتغير ولا يتبدل

(1) من مقالة للسرجينس نشرت ترجمتها فى العـدد ١٨٥ من الرسالة تحت عنوان (بناء العلم)

ودوره هذا لا يقتصر على تخليص البشرية من جميع أعدائها ولا على إسعادها ماديًّا ، فحسب ، بل هو يشتمل على إسعادها فكريًّا ، وتلك هي غايته العليا

* * *

تقول : « إن الاختراعات ليست خيراً كلها ، وليست نفعاً للبشرية مطلقاً » وهذا صحيح ، أو هو صحيح إلى حد ما ؛ والمفهوم منه أن أكثر الاختراعات خير ، وإن لم تكن كلها خيراً ؛ ولكنك لا تلبث حتى تنقضه بهذا التقرير « الحسابي » الحاسم ، وهو أن العلم « شره بخيره والنتيجة صفر » ... صفر !!

وتقول : إن العلم « سهّل المواصلات وهوّنها ، فقرّب البعيد ، وأراح المسافر ، ووفر عليه صحته ووقته ، ولكن هل أسعد ذلك البشرية ؟ »

بالطبع . والأدلة موجودة في السؤال . ولكنك ترى غير هذا الرأي ، وتجيب جواباً لا صلة له ألبتة بالسؤال . فوسائل المواصلات الحديثة لم تسعد البشرية ، ولماذا ؟ لأننا لم نعد نتحمل آلام المسافات الطويلة ، أو نتعرض لمخاوفها ، فخسرنا الصور والمشاعر « وصرنا نقطع طريقنا إلى القبر عدواً ونحن مغمضو عيوننا ... لم نر من لجة الحياة إلا سطحها الساكن البراق !» ... وهذا بالطبع دليل ساطع قاطع على أن وسائل المواصلات الحديثة لم « تسعد » البشرية ... صحيح ! !

ثم تقول إن العلم تغلب على كثير من الأمراض ، ولكنه هو الذي جاء بها ، جاءت بها الحضارة ، (وهذه فكرة خاطئة عن صلة العلم بالحضارة ، وليس هذا موضع بحثها) فهو لا يزال مديناً .. تقول هذا ناسياً ناحية مهمة ، وهو أن الحكم على العلم وموقفه من الأمراض لا ينبغي أن يبنى على وضعه الحاضر فقط ؛ فاذا كان العلم قد تغلب في هذه المدة القصيرة على كثير من الأمراض واكتشف جراثيمها ، وصنع السموم المضادة لها ، فانه سيتغلب عليها جميعاً ، ويفنى الجراثيم عن آخرها ، وكذلك يقضى على عدو آخر فظيع للبشرية ، وهو الحشرات ؛ وعندئذ تستريح البشرية وتسير قدماً إلى الأمام — وفى النجاح الذي أحرزه إلى اليوم خير مؤيد لما أقول ...

* * *

إن هؤلاء البدو الذين يرفع من حياتهم الأستاذ على سيتحضرون حتما ؛ لأن التحضر يجرى بحكم قانون طبيعي قاهر . وهؤلاء البدو ليسوا سعداء ، كما يظن ، لأنه لا يمكن أن يكون سعيداً من يفترس أخاه لقبضة من العشب ، أو جرعة من الماء . ونحن يجب أن ننظر إلى فتوحات العرب نظرة اقتصادية قبل كل شيء ...

ثم إن هناك فرقاً بين سعادة وسعادة . وسعادة اينشتين حين يقع على حقيقة جديدة ، ليست هي سعادة زنوج أفريقيا ، أو بدو نجد ، لأن سعادة الانسانية الراقية أعلى من سعادة الانسانية المنحطة . وهذا الفرق يشبه تماماً الفرق بين الرواية البوليسية السخيفة وبين « هاملت » . وبين « اللذة » التي يحصل عليها القارئ العامي من قراءة الأولى ، وبين « اللذة » التي يحصل عليها المثقف من قراءة الثانية . فلننظر إلى طبيعة اللذة والسعادة قبل كل شيء .

عبد الكريم الناصري

الفلسفة الشرقيـــة
بحوث تحليلية
بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٥ —

الفلسفة الصينية
العصر المنهجي — « لاهو — تسيه »

فلسفة العملية

يغالي بعض الباحثين حين يصف « لاهو — تسيه » بأنه ميتافيزيكي فحسب ولا شأن له بالفلسفة العملية أو الأخلاق كما يصف « كونفيشيوس » بأنه عملي لا يأبه للميتافيزيكا ، وإنما الحقيقة أن لكل منهما رأياً قيما في الأخلاق ، وهـذا طبيعي ، لأنهما اغترفا من منبع واحد ، وهو فلسفة عصر ماقبل التاريخ ، ولـكن الخلاف قد دب بينهما حول الوسيلة التي توصل إلى الخير والكمال ، فبينما كان « لاهو — تسيه » يرى أنهـا التنسك واحتقار المادة وإهمال الحياة العملية وعدم الإكثار من القوانين ، ويرى أن عصر الأباطرة الذين شرعوا القوانين واللوائح كان عصر تدهور وانحلال تلا العصر الذهبي الذي كان الملوك فيه لايعرفون القوانين ولا يهتمون بالعقاب ، كان « كونفيشيوس » على العكس من ذلك يرى أن العصر الذهبي هو عصر أولئك الملوك الذين قننوا القوانين ووضعوا القواعد التشريعية ، ولهذا كان يتخذهم نماذج يسير على منوالهم . وإذن ، فالاثنان أخلاقيان يريدان الكمال والسعادة للأمة ، وإنما يختلفان في الوسيلة فحسب ، وقد شرح « لاهو — تسيه » رأيه في الأخلاق العملية فقال مانصه : « بقدر ما يكثر الملك من القوانين واللوائح ، يهوى الشعب في البأساء ؛ وبقدر مايكون لدى الشعب من وسائل للغنى والرفهنية ، تـكون حالة الأسرة والوطن رديئة ؛ وبقدر ما تتضاعف الأوامر الشديدة يكون عدد اللصوص والمجرمين في نمو وتضاعف [1] » وعلى الجملة ، كان المثل الأعلى من الملوك في رأيه هو الملك الذي تجهل رعيته الوجود جهلاً تاما

(١) راجع « تاو — تي — كينج » فصل ٥٧

وعنده أن المعرفة الظاهرية رديئة ، لأنها لا توصل إلا إلى حقائق نسبية ، ومن حيث إن الغاية المقصودة هي الحقيقة المطلقة في ذاتها ، فينبغي ألا نشتغل إلا بما يوصل إلى هذه الحقيقة ، ولا يوصل إليها إلا الاتحاد التام ، والامتزاج الكامل بـ « تاو » ولا يتيسر هـذا الامتزاج بالتربية ولا بالتثقيف الظاهري ، كلا ، فهاتان الوسيلتان معدومتا الفائدة ، وإنما هو يتحقق بالعزلة التامة ولذلك فالقديسون الذين يريدون الاتصال بـ « تاو » واتباع الصراط السوي ، يجب عليهم أن ينبذوا كل ثقافة وينسحبوا إلى مكان مقفر ويعيشوا كما كان أهل العصور الغابرة يعيشون ممتزجين بالقوة غير المرئية ، وهو يصف هـذه الحالة فيقول : يكون خائفاً كمن يخترق سيلا في الشتاء ، متردداً كمن يخشى أن يراه جيرانه ، جدياً كأجنبي في محضر مضيفه ، بارداً كالثلج حين يتحلل ، جافا كالخشب الخام ، فارغا كالوادي [1] » وفي العموم أن المثل الأعلى للخيرية في رأى هذا الفيلسوف هو الطفل الذي يولد على الفطرة بريئا نقيا ، وأن الوسائل التي توصل إلى الكمال هي : الحياء ، والضعف والبساطة و « الؤووي » ومعناه العزلة والتخلي عن كل عمل ، وسلوك الصراط السوي

غير أن هذا كله ليس معناه أن « لاهو — تسيه » قد أمر بإهمال المسئولية الاجتماعية ، كلا ، بل هو قد حض بالعكس على العناية بالجمعية البشرية وأعلن أن الأنانية وإهمال خدمة العمران من الرذائل الكبرى وقد سبقت تعاليمه الآمرة بالغيرية والمحبة العامة تعاليم المسيحية بنحو ستة قرون ، ولم يكن تبشير « لاهو — تسيه » بحب الغير ناشئاً عن عاطفة ، وإنما كان منبثقاً من منبع الواجب والالتزام اللذين كانا يملكان عليه تفكيره وحواسه

وعنده أن القديس هو الذي يحكم الشعب ويسوسه ، ولـكن لا بالقوة والقسوة ، بل بالمثل الأعلى الذي يقدمه مثبتاً به أنه فوق الطبيعة ، وأنه لايحكم شعبه بالقوانين والعقوبات ، ولا يخضع الشعوب الأخرى بالحروب ، وإنما يعامل الجميع ببساطة الطفل وطهارته ؛ هذا هو وحده الأمير الذي تنتظره الصين وتعول عليه في محنتها

أحسب أنك ترى بعد كل هذا معي ومع الأستاذ « زانكير » أن « لاهو — تسيه » كان فيلسوفاً لا تنزل به عبقريته إلى ما هو أدنى من صفوف أفلاطون والقديس « أوجوستان » و « كانت » وأنه إذا كان قد أخفق أو ضل السبيل في بعض

(١) انظر الكتاب المذكور فصل ١٥

أفكاره ، فان التبعة فى ذلك واقعة على التدهور الذي كان ميزة عصره وخاصيته ، وإذا لم يكن مذهبه قد أزهر فيا بعد كما أزهرت مذاهب الإغريق ، فان لذلك سببين : الأول أنه لم ينشىء فى حياته مدرسة لنشر فلسفته ، والسبب الثانى أن الطبيعة الصينية لم تكن تتلاءم مع تعاليمه المغالية فى التنسك والسلبية ، ولهذا لم تكد فلسفته تعرف فى أوروبا حتى أزهرت فى البيئات الاشراقية إزهاراً لم تعرف له نظيراً فى منبتها الأصلى

« التاوإسم » أو « الاهو — تسيه »

بعد أن توفى « لاهو — تسيه » نشأ من ميتافزيكيته مذهبان : « التاوإيسم » الفلسفى و « التاوإيسم الدينى » ، وكلاهما نشأ من « تاو » وهو عنوان كتابه الذى أشرنا إليه .

فأما « التاوإيسم » الفلسفى فقد انقسم فيه تلاميذ الحكيم إلى عدة أقسام ، فبعضهم تخصص فى دراسة المعرفة وما يمكن أن يحصله الإنسان منها ، وهل هذا التحصّل مفيد أو غير مفيد . والبعض الآخر قصر بحثه على دراسة الظواهر الطبيعية وما تحتويه من أسرار . ولكن لما كان الجميع متأثرين برأي أستاذهم الذى أسلفناه ، وهو القائل بأن « التاو » غير قابل للمدركية البشرية ، فقد كان من الطبيعي أن يعلنوا أن العقل الانسانى قاصر عن إدراك « المطلق » وبالتالي هو قاصر عن إدراك بعض الحقائق الموجودة

هناك فريق ثالث من تلاميذ هذا الحكيم لما يئسوا من إدراك العقل البشري لكنه « التاو » لم يجدوا بدأ من أن يعلنوا أن مالم يُدْرَك بالعقل ، يدرك بوساطة السحر ؛ وهنا نشأ مذهب « التاو إيسم » الدينى وهو مزيج من قواعد سحرية ، وتعاليم تصوفية . ولما كان هذا القسم الأخير لا يعنينا كثيراً فى دراستنا الحاضرة فقد آثرنا أن نقصر إشارتنا هنا على « التاوإيسم » العلمى

من أشهر أولئك التلاميذ الذين أحيوا مذهب أستاذهم بعد موته وواصلوا سلسلة بحوثه هو « يين — سى » الذى سار على ضوء تعاليم أستاذه فكتب بحوثاً قيمة حول نظرية المعرفة ونقد العقل البشرى وأبان قصوره عن إدراك « المطلق » ومن مشاهير هؤلاء التلاميذ أيضاً « لين — تسيه » الذى كان من أعلام عصره الأجلاء والذي كتب بحوثاً هامة حول كثير من المشاكل الفلسفية ، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن ما عثر عليه من مؤلفاته وجد مشوهاً متناقضاً مما يدل على أن بعض الأيدى قد عبثت به وقد عاش هذا الحكيم فى القرن الخامس قبل المسيح

هناك حكيم آخر من أولئك التلاميذ ، وهو : « تشوانج — تسيه » الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع قبل المسيح وعاصر « مانسيوس » الذى سنتناوله بعد أستاذه « كونفشيوس »

يروى لنا المؤرخون أن هذا الحكيم شغل فى مطلع شبابه مركزاً سياسياً هاماً ، ولكنه لم يكد ينضج حتى عاف السياسة واعتزل الخدمة وقصر حياته على البحث والتأليف ، وفى أثناء ذلك بلغت كفايته مسمع الملك ، فبعث إليه رسوله بهدية عظيمة وطلب إليه أن يقبل منصب وزير فى الدولة ، فلما عرض عليه الرسول ذلك أجابه بقوله : إن هذا المبلغ عظيم إذا قيس إلى حالتي وإن منصب الوزير منصب محسود ، ولكن ألم تر فى حياتك أن الثور الذى خصص للذبح فى أحد المعابد ثم أخذوا يطعمونه حتى سمن ثم أحاطوا جسمه قبل ذهابه إلى المذبح بالحلى والجوهرات ليكون منظره جميلا ، ألم تر أن هذا الثور ساعة دخوله إلى المعبد يتمنى أن لو كان خنزيراً صغيراً حتى ينجي من الذبح ، ولكن هذا التمني لايجديه فتيلا ؟ إذهب إذن من هنا ولا تهنى بحضرك فأنا أفضل أن أنام في قناة حمئة مليئة بالأوحال على أن أذعن لتقاليد البلاط والتزاماته

ويحدثوننا كذلك أن هذا الافراط فى التمسك بالكرامة والمحافظة على حرية الرأى قد جر عليه حياة مليئة بالصعوبات والأشواك ، ولكنها مليئة كذلك بالاحترام والاجلال إلى حد أن روت لنا إحدى الأساطير أن أخرى زوجاته كانت من الأسرة المالكة

مؤلفاته ومذهبه

روى التاريخ أن هذا الحكيم قد كتب ثلاثة وثلاثين كتاباً وأن هذه الكتب كلها قد جمعت تحت عنوان واحد وهو : « المناهج الحقيقية لزهور بلاد الجنوب » ولكن المدققين من المؤرخين يرون أنه لم يثبت له شخصياً إلا نحو عشرة كتب كتبها بخطه ؛ أما الباقى فهو مجموعة مكونة من آرائه وآثاره مع شروح وتعاليق تلاميذه

أما مذهبه فيمكن أن يدرس من ثلاث نواح : الناحية الأولى النظرية ؛ وفيها لم يكن يختلف عن أستاذه « لاهو — تسيه » فى شيء ، إذ هو يرى معه أن العقلية البشرية قاصرة عن إدراك « التاو » بواسطة المعرفة الثقافية التى لا تتناول إلا الحقائق النسبية

أما « المطلق » فهو لا يعرف إلا عن طريق الانفعال النفساني ، وإن كل محاولة لمعرفة هذا « المطلق » عن طريق التفكير المنطقي آيلة ضرورة إلى الفشل المحقق بعد أن تقود صاحبها إلى صحراء قاحلة من السفسطة والضلال ، لأن المنطق لا يصل إلى نتائجه إلا بالتحليل؛ ولو أصبح تحليل « المطلق » ممكناً ، لخرج عن كونه « مطلقا »

أما الناحية العلمية من مذهبه : فهي وإن كانت مؤسسة على الأصول الجوهرية من آراء « لاهو — تسيه » إلا أنها تطورت عن المذهب القديم كثيراً . ولإيضاح هذه الناحية العملية أجرى فيلسوفنا الشاعر محاورة بين روح السحاب وبين الضباب ، ثم بسط مذهبه على لسان الضباب فقال : « صير قلبك حازماً وتجنب كل تدخل في أي شيء ؛ أي الزم ال« وو — وى » أو « اللاعمل » ودع الأشياء تتطور حسب ناموسها الطبيعي ، ولا تأبه لجسمك وأغلق عينيك وأذنيك ، وانس كل ما يربطك بالعالم الخارجي ، وامتزج بالمبدأ الأول . فك وثاق قلبك ، ومد روحك ؛ وعد إلى عالم « اللاإدراك » فإذا تحقق ذلك رجع كل كائن إلى الصدر المبدئي العام ، وعاد كل شيء إلى منشئه دون علم منه بهذه العودة واجتمع كل موجود ، وتوحد الجميع كما كانت الحال في البدء ، ولم يصبح كل كائن مريداً ولا قادراً عن البعد عن هذه الوحدة المطلقة الأبدية »

ويعلق أحد المستصينين على هذا بقوله : ينبغي ألا يتسرب إلى الأذهان أن تنسك « شوانج — تسيه » كان نوعاً من الحرمان والرهبنة على نحو ما هو موجود في الديانات الهندية والمسيحية ، كلا ، فالحكيم في رأيه لا يستحق هذا الاسم إلا إذا ترفع عن جميع الآلام وتخلص منها وأخضعها لإرادته . أما متنسكو تلك الديانات فهم تحت الآلام لا فوقها ، وهذا فرق عظيم يجب أن يعنى به الباحثون

بهذا الفيلسوف تنتهي أرقى الحركات العقلية حول « التاو إيسم » الفلسفي بعد أن أزهرت إبان القرنين : الخامس والرابع قبل المسيح إزهاراً ساعد عليه تعطش الشعب إلى السعادة والهدوء في وسط مما من هذا التدهور السياسي والعمراني الذي أشرنا إليه آنفا

هذا ، وسندرس ما عرض له « التاو إيسم » من تطورات في العصور التاريخية التي تلت هذا العصر ، ولكن بعد أن ننتهي من دراسة أعلام المذهب الآخر وهم : « كونفيشيوس » وأشياعه

(يتبع) محمد غلاب

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ — ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٩ —

« قطعتني زحمة العمل أسبوعين عن مواصلة الكتابة وقامت بيني وبين الواجب ؛ ثم ألح علي المرض أسبوعين يغدو ويروح بين الليل والنهار ، فلا أهم أن أشرع القلم لأستأنف حديثي حتى يقطعني الإعياء ويقعد بي العجز . ثم كان من صمتي في الأسابيع الأربعة الماضية فهو من ذاك ، ولعله عذر يبلغ بي عند الأصدقاء الذين ضاقوا بهذا الصمت الطويل فأوسعوني في رسائلهم عتباً وملامة ، فكان عتابهم آية من آيات الود الصافي وحسن الإخاء »

الرافعي في سنوات الحرب

كان الرافعي — رحمه الله — شاعر النفس ، مرهف الحس ، رقيق القلب ، قوي العاطفة : يرى المنظر الأليم فتنفعل به نفسه ويتحرك خاطره ويتفطر قلبه ؛ وتقص عليه نبأ الفاجعة فلا تلبث وأنت تحكي له أن تلمح في عينيه بريق الدمع يحبسه الحياء . ولقد كان الرافعي يقرأ فيما يرد إليه من بريد قرائه كثيراً من المآسي الفاجعة يسأله أصحابها الرأي أو المعونة ، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاماً مكتوباً ، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها فما تبرح ذاكرته من بعد إلا مع الزمن الطويل

ولقد وقعت الحرب واستعرت نارها في الميادين البعيدة لا يبلغ إلينا منها نار ولا دخان ولا يراق دم ، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء ، فما كان ضحاياها في مصر بالجوع والمتربة أقل عديداً من ضحاياها هناك في الميدان ... كيف كان يعيش العامل المسكين في تلك الأيام ؟ رباه ! إنني ما أزال أذكر يوم أرسلني والدي — وأنا غلام بعد — أستدعي النجار لعمل عندنا فوجدته جالساً في أهله يأكلون : كانوا ستة قد تحلقوا حول قصعة سوداء فيها كومة من فتات الخبز إدامه الماء ، تتسابق

أيديهم إليه فى نهم كأنما يخشى كل واحد أن تعود يده إلى القصعة بعد الأوان فلا يجد اللقمة الثانية ... !

هكذا كان يعيش نصف الشعب فى تلك الأيام السود مما فعل القحط والغلاء ، لأن أقوات الشعب قد حملت إلى الميدان لتخزن في دار المؤن وقتاً ما ، لتقذفها من بعد قنابل المحاربين وتذروها رماداً فى الهواء ... !

ونظر الرافعى حواليه فارتد إليه البصر حسيراً مما يرى ويسمع ، فاحتبس الدم فى عينيه ولكن قلبه ظل يتحدث بمعانيه

ومضى عام وعام والحرب ما تزال مستعرة ، والبؤس تتعدد ألوانه ، وتتشكل صوره ، وتحشد آثاره ؛ والرافعى دائم الحديث إلى نفسه وهو يحمل من هم الشعب في قلبه الكبير ، حتى امتلأ الإناء يوماً ففاض ...

* * *

فى بعض اللحظات التى تفيض فيها النفس بالألم ، يحس الإنسان كأنه شيء له فى نظام الكون إرادة وتدبير ، وأن من حقه أن يقول المقدور : لماذا أنت فى طريقى ...؟ فتراه فى بعض نجواه يتساءل : ربِّ ، لِمَ كتبت عليَّ هذا .. ؟ لماذا حكمت بذلك ..؟ لماذا قدّرت وقضيت ..؟ ما حكمتك فيما كان ..؟ ألم يكن خيراً لو كان ما لم يكن .. ..؟ ثم يثوب إلى نفسه ويفيء إلى الحق ، فيعود معتذراً يقول : رب ، لقد ظهر حكمك ، ودقت حكمتك فمغفرة وعفواً ... !

وتظل حكمة الله مطوية فى ظلمات الغيب ، لا يتنورها إلا من غمره شعاع الإيمان وسطع فى قلبه نور الحكمة ، أما الذين تعبدتهم شهوات أنفسهم فهم أبداً فى حيرة وضلال

فى لحظة من تلك اللحظات أغمض الرافعى عينيه وراح يفكر ، وفى رأسه خواطر يموج بعضها فى بعض ؛ ثم فاءت نفسه ، فرفع رأسه وهو يقول : « ربِّ ، ما أدق حكمتك وأعظم تدبيرك..! » وأفاض الله عليه ورفع عن عينيه الغطاء ...

وعاد ينظر إلى الناس يأكل بعضهم بعضاً ، ويسرق بعضهم أثواب بعض ، ويتزاحمون على الحياة فيسارعون إلى الموت ؛ فدمعت عيناه ولكنه كان يبتسم ، وعاد يقول : « حكيم أنت يا رب ! ليتهم وليتنى ... ليتهم يعلمون شيئاً من حكمة الله فى شيء من أغلاط الناس ! ... كل شيء فى هذا الكون العظيم يجرى على قدَرٍ منك وتدبير حكيم ! »

ثم شرع يؤلف كتابه المساكين

كتاب المساكين

أخرج الرافعى كتابه هـذا فى سنة ١٩١٧ ، وهو الكتاب الرابع مما ألف الرافعي فى المنثور ، وثانى ما ألف فى الأدب الإنشائى ، ويعرّف به الرافعي فى الصفحة الأولى منه فيقول : هو كتاب « أردتُ به بيان شيء من حكمة الله فى شيء من أغلاط الناس »

وقدم له بمقدمة بليغة فى معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنسانى يقول فيها :

« هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مَرْقعةً جديدة ... فقد والله بليت أثواب هـذا الفقر وإنها لتنبدل على أركانه مزقاً متهدِّلة يغشى بعضها فى بعض ، وإنه ليلْفِقُها بخيوط من الدمع ويمسكها برُقع من الأكباد ويشدها بانقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل وأمل إلى خيبة وخيبة إلى هم ؛ وأقبحُ من الفقر ألا يظهر الفقر كاسياً أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنهـا غابت فى جماجم الموتى الأولين ... »

والكتاب فصول شتى ، ليس له وحدة ترتبط بين أجزائه ، إلا أنه صور من آلام الانسانية كثيرة الألوان متعددة الظلال ، تلتقى عندها أنة المريض ، وزفرة العاشق ، ودمعة الجائع ، وصرخة اللهفان المستغيث ؛ فهنا صورة (الشيخ على) الرجل الذى يعيش بطبيعته فوق الحياة وفوق الناس لأنه يعيش بنعمة الرضى ، وإلى جانبه قصة الغنى الشيخ الذى حسب أنه سيطر على الحيـاة لأنه ملك المال ، وهذه صاحبته الحسناء الصغيرة التى انتشلها الشيخ بماله من الفقر الجائع فوهب لها المال ولكنه سلبها نعمة الشعور بالحياة ، وهذه ، وهذه ... من صور المساكين الذين يعيشون يحتسون السموم أو يتطهرون بالدموع

وأول أمر الرافعي فى تأليف كتاب المساكين أنه كان فى زيارة أصهاره فى (منية جناح) فلقى هناك الشيخ على ، والشيخ

على هذا رجل يعيش وحده ليس له جيب يمسك درهما ، ولا جسد يمسك ثوباً ، ولا دار تؤيه ، ولا حقل يغل عليه ؛ يجوع فيهبط على أول دار تلقاه يتناول ما يمسك رمقه ، ويدركه النوم فيتوسد ذراعه حيث أدركه النوم من الدار أو الطريق ، رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس ، وآمال الحياة ، ولقيه الرافعي واستمع إلى خبره فعرف من فلسفته فلسفة الحياة ، ووجد عنده الحل لكل ما في نفسه من مشكلات ، فكان هذا الكتاب من وحي الشيخ على الفيلسوف الصامت في الرافعي الأديب ، واجتمعت له مادة الكتاب في مجلس واحد لم ينطق فيه أحد بكلمة

ويصف الرافعي الشيخ علي فيقول :

« ... هو حليم لنفسه غضوب لنفسه ، وكذلك هو في الحمة والوقار ، والضحك والعبوس ، والزهو والانقباض ، وفي كل ضدين منهما لذة وألم ؛ كأنه جزيرة قائمة في بحر لا يحيط بها إلا الماء فلا صلة بينهما في المادة وإن كانت هي فيه ؛ فالناس كما هم وهو كما هو يرونه من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى ، ويرى نفسه من دهره أقوى من يصيب بأذى ؛ ويتحاشونه رأفة ورحمة ، ويتحاماهم أنفة واستغناء ؛ ثم إن مسه الأذى من رقيع أو سقيط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه فيألم وكان ألمه مرض طبيعي ، ولا فرق عنده في هذه الحال بين أن يمغص بطنه بالداء أو يمغص ظهره بالعصا ... ؛ وهو والدنيا خصمان في ميدان الحياة غير أن أمرهما مختلف جداً فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمع إليها ولم يقع فيها ، وقهرها هو لأنها لم تظفر به ...

« ... وهو رجل سدت في وجهه منافذ الجهات الأربع كلها إلا جهة السماء ، فكأنه في الأرض بطل خيالي يرينا من نفسه إحدي خرافات الحياة ، ولكنه مع ذلك يكاد يخرج للدنيا تلك الحقيقة الإلهية التي لا تغذوها مادة الأرض ولا مادة الجسم ، فهي تزدري كل ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف وكل ما ردت عليك النبطة من بسطة في الجسم أو سعة في المال أو فضل في المنزلة ؛ وكل ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف

« ... فهو أجهل الناس في الدنيا وأجهل الناس بالدنيا ... وأنت إذا سطعت له بالجوهرة الكريمة النادرة فلا يعدو أن يراها حصاة جميلة تتألق ، وإن هولت عليه بألوان الخز والديباج حسبك مانقا لم تر قط نضارة الربيع وألوان الربيع ... »

هذا هو الشيخ علي الذي أوحى إلى الرافعي كتاب المساكين وسب إليه القول فيه ورده إلى إلهامه ، وهو عنده النموذج الكامل للرجل السعيد والفيلسوف الناضج

ولقد فرغ الرافعي من كتاب المساكين في سنة ١٩١٧ ؛ وفرغ الشيخ علي من دنياه بعد ذلك بقليل ، ولكن روحه ظلت تعمل في نفس الرافعي وتملي عليه وتلهمه الرأي إلى آخر أيامه بعد ذلك بعشرين سنة ؛ والواقع أن الرافعي كان يؤمن بفلسفة التسليم والرضى فيما لا طاقة له به ، إيماناً كان مادة حياته ونظام عمله ، وبذلك هو الذي كان يفيض عليه أمارات المرح والسرور حتى في أعصب أوقاته وأحرج ساعاته ، فكنت لا تراه إلا مبتسماً أبداً أو ضاحكاً ضحكة السخرية والاستسلام

* * *

كتاب المساكين الذي يقول عنه المرحوم أحمد زكي باشا :

« لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير ، وهيجو كما للفرنسيين هيجو ، وجوته كما للألمان جوته »

هو كتاب اجتمع على إخراجه سببان : أهوال الحرب التي حطت على مصر بالجوع والقحط والغلاء ، والشيخ علي الجناجي

« شبرا » محمد سعيد العريان

أبحاث تاريخية جديدة

الاسلام في غرب أفريقية

مدى انتشاره في تلك الأقاليم ومبلغ أثره في الأهلين

للأديب جمال الدين محمد الشيال

تابع ما نشر في العدد الماضي

كيف عم الاسلام غرب أفريقيا

١ — في المدة التي بين سنتي ٦٤٠ و٦٤٢ تم لعمرو بن العاص فتح مصر. ومنها استطاع عبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن الزبير فيما بعد فتح طرابلس وتونس والجزائر

٢ — وفي سنة ٦٦١ كانت واقعة صفين المشهورة وانشق بعدها قوم على علي بن أبي طالب فسموا بالخوارج. وقد هاجرت فئة منهم إلى شمال أفريقية ونزلوا بشواطئ تونس، وقد استمرت بقاياهم حتى قبيل الحرب العظمى في جزيرة جربا Jerba. وهناك انتشرت آراؤهم. ومن هذه الجزائر انتقلت هذه الآراء إلى شمال أفريقية حتى ساحل مراكش الأطلسي؛ وبعد سنة ٧٢٠ أصبحت الخارجية مذهب الأهلين من البربر

٣ — وفي سنة ٦٦٩ استقر حكم العرب في شمال أفريقية، وعين عقبة بن نافع حاكما على أفريقية (تونس الحالية)؛ وفي سنة ٦٧٣ أنشئت القيروان لتكون حاضرة لحكم المسلمين. وفي سنة ٦٨١ تقدم عقبة نحو الغرب بجيشه حتى وصل إلى المحيط الأطلسي

٤ — وبعد سنة ٧٩٥ تولى حكم أفريقية موسى بن نصير وتقدم في فتوحه حتى استولى على مراكش إلا مدينة سبتة Septa وهناك لم يجد العرب صعوبة في نشر الاسلام دين الفطرة. وتمكن موسى من فتح الأندلس بعد ذلك على يد قائده البربري طارق بن زياد

٥ — وتولى حكم أفريقية بعد هذا الأدارسة ثم الأغالبة وتبعهم أسرات أخر حتى أتى الفاطميون فورثوا الحكم وأغاروا على مصر واستقلوا بها باسطين نفوذهم على أفريقية وصقلية

٦ — وفي المدة التي بين القرن السابع ومنتصف القرن الحادي عشر كان العنصر العربي في شمال أفريقية أقلية يمثلون في آلاف من الجنود والحكام ورجال الدين. ولكنهم استطاعوا بمرور الزمن أن يفرضوا دينهم ولغتهم وحكمهم على ملايين من البربر

٧ — وحوالي سنة ١٠٤٥ نزل بالشاطئ الأيمن للنيل قبائل بني هلال وبني سليم آتين من أواسط بلاد العرب وابتدأوا يعملون على إثارة الشغب في مصر العليا؛ ولكي يتخلص منهم حكام مصر الضعفاء في ذلك الحين حرضوهم على أن يغزوا شمال غرب أفريقية، فعبر الصحراء منهم ما يقرب من المائتي أو الثلاثمائة محارب حتى وصلوا إلى حدود تونس وطرابلس واستقروا هناك

٨ — وبعد مدة يسيرة رحل إلى مصر قبائل أخرى من شبه جزيرة العرب ووصلوا إلى النيل الأوسط. وعلى النيل الأزرق (في سنار) أنشأوا امبراطورية الفنج Fung العظيمة التي استقرت من القرن الرابع حتى القرن التاسع عشر. ومن النيل الأعلى قاد هؤلاء الأقوام حملات كثيرة متتالية نحو وسط وغرب أفريقية. ومن نسل هؤلاء تكونت قبائل لا زالت تعيش حتى اليوم حول بحيرة شادو في دارفور ووادای وشمال السنغال ونهر النيجر

٩ — وفي القرن الحادي عشر أيضاً نشأت فرقة المرابطين. وعلى أيديهم اعتنق سكان سينيغمبيا Senegambia ونيجريا الاسلام

١٠ — وتلت دولة المرابطين دول كثيرة كدول الموحدين والحفصيين وغيرهم، وكانت كل دولة تبدأ حكمها بنشر مذهبها الديني، وبالتالي كانت تدفع كثيراً من البربر أثناء نشر دعوتها إلى اعتناق الاسلام

١١ — وفي عهد الملك السعدي السادس «المنصور الذهبي» وصلت مراكش إلى أقصى قوتها، وشملت مملكة نيجرية واسعة

١٢ — وفي نهاية القرن الخامس عشر قامت في مصر العليا وغرب السودان أسرة مسلمة زنجية. وتولى أحد هؤلاء الزنوج الحكم، واتخذ تمبكتو حاضرة لملكه. ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه المدينة مركزاً علمياً وتجارياً لغرب ووسط أفريقية. ولقد أثرى حفيد هذا الملك «إسحاق بن سوكيا» Ishak bin Sokya وزادت قوته وبدأ النزاع بينه وبين الامبراطور المورى moorish

أبى العباس المنصور . وتمكن الجيش الورى بقيادة جودر باشا Juder Basha من هزيمة إسحاق والاستيلاء على تمبكتو . وأتى بعد جودر قائد آخر أكثر شجاعة وإقداماً منه وهو «محمود باشا» فأتم الفتح الورى للسودان حتى وصل إلى بورنو Bornu وسنيغمبيا . ولم تتضاءل قوة الوريين إلا في القرن الثامن عشر بعد قيام النولا وهجوم الطوارق

ويقول جونستون : « ولربما كانت مراكش تستطيع أن تغزو شمال أفريقية وتحكمه فى القرن السادس عشر — لولا أن وصلها الترك ... » [(١)] — ونحن لا نستطيع أن نقر جونستون على هذا القول ... إلا إذا كانت الحكومة القائمة فى مراكش حينذاك قوية تستطيع أن ترد اعتداء الغرب عنها ... ولكن الحقيقة أن الحكومة فى كل بلاد المغرب فى ذلك الوقت كانت ضعيفة أمام نشاط ممالك غرب أوروبا وخاصة أسبانيا — فإنها بعد أن قضت على دولة الإسلام فيها سعت وراءه تطارده فى شمال أفريقية وغربها ... وجونستون نفسه يقول : « ولما استنجد أهل الجزائر وتونس بقراصنة الترك ضد اعتداءات مسيحيي اسبانيا في القرن السادس عشر — انتهز سلطان الترك الفرصة وأنشأ مناطق تركية في الجزائر سنة ١٥١٧ وفى تونس سنة ١٥٧٣ وفى طرابلس سنة ١٥٥١ ... »

فمن هذا القول نرى أن ثورة الغضب المسيحى فى اسبانيا على المسلمين لم تكن قد هدأت ؛ بل إننا لنحسها بين ثنايا كلمات جونستون قوية ملتهبة دفعت أهل المغرب للاستنجاد بالترك ورضوا نجدة القراصنة منهم . وحقيقة أن الترك الذين نزلوا بشمال أفريقية كانوا قراصنة لم يتعدوا الشاطىء إلى الداخل ، ولم يضموا إليهم أراضى وملكا جديداً بل اكتفوا بمهنتهم القرصنة وسلب سفن المسيحيين . ولو أنهم حاولوا ملكاً فى الجنوب لاستطاعوه ، ولغدت أفريقية الشمالية كلها مسلمة اسلاماً حقاً متصلاً بالعالم الخارجي الآن ، ولكنهم على كل حال حموا شمال أفريقية من الغرب الساحق الماحق هذه المدة الطويلة . وها نحن أولاء نسمع كل يوم عن اضطهاد الطليان والفرنسيين والاسبان للمسلمين فى طرابلس وتونس والجزائر ، ومع هذا فإن الإسلام فى ذلك الحين لم تقف موجة انتشاره ، بل كان مجرد الجوار أو الاتصال بين المسلمين والوثنيين فى جميع قبائل السودان حتى حدود الكمرون — كان مجرد الاتصال كافياً لنشر الإسلام فى تلك الجهات كما سنرى بعد

لم تخضع مراكش كجاراتها للحكم التركي ولكنها تأثرت بنواح تركية مختلفة ، فقد أخذت عن الترك نظام الملبس ونظام تعبئة الجيوش ولقب الباشا وغير ذلك من الأمور . ولكن مراكش بقيت مستقلة ، بل لقد أعلن حاكمها المنصور نفسه خليفة سنة ١٥٣٨ بعد انتصاره على البرتغال وبعد أن رأى الخلافة العباسية تنقرض من مصر ، وتنتقل إلى تركية

غير أننا سنرى أن نوع الحكم لم يكن له من التأثير قدر ما كان للثقافة الاسلامية العربية ، فمهما انتقل الحكم إلى أيدى الترك أو الإغريق أو السلاف أو الزنوج المستعربين فإن الأثر الإسلامى والثقافة الإسلامية امتدت حتى شملت كل شمال أفريقية والصومال وسناو ونوبيا وكردفان ودارفور ووادای وبورنو وأراضي الحوصا والصحراء ومعظم سينغمبيا وآفاقاً متسعة داخل حدود النيجر وعلى طول شواطىء القلتا Uollta الأعلى كما اعتنق أهالى كل تلك الجهات الدين الجديد : دين الإسلام

جهات نجهلها

ولقد كنت أحس عند قراءتى عن هذه المناطق لذة غريبة فلقد كنت أكشف لنفسى الأستار عن آفاق واسعة شاسعة من العالم الإسلامى يجهلها معظم المصريين وتجهلها برامج تعليم التاريخ في مدارسنا المصرية ، ولكننا بعد هذا التمهيد نستطيع أن نصور الحالة التى كان عليها كل شمال أفريقية فى هذه الكلمات :

كانت موجة التأثير الإسلامى تتسع طوال العصور الوسطى فتشمل كل يوم آفاقا جديدة من شمال أفريقية ، وامتدت الموجة فشملت بعض العصور الحديثة ؛ ولكن أوسع حلقة من حلقات هذه الموجة وآخرها تلاشت بانتهاء القرن التاسع عشر ، وبتلاشيها ترك البربر المستعربين يحكمون شمال وشمال غرب أفريقية ، والترك المسلمين يحكمون شمال شرق أفريقية ، والزنوج المستعربين يحكمون النيجر والسودان الأوسط ، وبعض العرب يحكمون النيل الأعلى وساحل نوبيا ، وعرب عمان واليمن وحضرموت يحكمون ساحل أفريقية الشرقى وامتد نفوذهم إلى الداخل حتى وصل إلى إقليم البحيرات والكنغو الأعلى

(١) الكتاب السالف الذكر ص ٦٩

ولنتحدث الآن عن أثر الإسلام في بعض هذه الولايات كمثل للولايات الأخرى ؛ وليكن حديثنا عن نيجريا والسودان الأوسط

حضارة جديدة

كان لدخول الاسلام في أفريقية تأثير هام على سكانها وخاصة في السودان الغربي . ولم يقتصر تأثير الاسلام على التغيير الواضح الذي أحدثه في الأهلين من الناحية البشرية ، بل لقد حمل معه إلى هؤلاء الأقوام حضارة جديدة منحت الأجناس الزنجية أخلاقاً وثقافة لازالت تميزهم في حياتهم السياسية ونظمهم الاجتماعية . ولقد رأينا كيف أن كثيراً من الهجرات القبلية العديدة خلال ألف السنة الأخيرة حدثت تحت ضغط الاسلام ضغطاً مباشراً أو غير مباشر ؛ بل إننا لنرى أن ثورة الفولاني السياسية في القرن التاسع عشر ودخول الكانمبو Kanembo إلى بورنو كان تحت تأثير الاسلام . ولقد كان للاسلام كذلك تأثير عميق في لغات نيجريا الرئيسية ، فمعظمها تحوى كثيراً من الألفاظ العربية التي لاتزال تستعمل حتى اليوم

* * *

والاسلام الآن دين السواد الأعظم من سكان أرض حوصا Hausa Laud وبورنو Bornu بل لقد نفذ الاسلام إلى كثير من القبائل الوثنية التي لم يصلها التبشير المسيحي بعد ، وكما أن الاسلام دخل في هذه الجهات من الشمال فان الشمال أشدها وأكملها إسلاماً — وإن كان الاسلام في نوبيلاند Nupeland ويوروبالاند Yorubaland له نصيب كبير من القوة والانتشار ومع هذا فهناك مساحات شاسعة لم يدخلها الاسلام بعد

ونحن لانعرف إلا قليلاً عن حالة المسلمين خلال القرون السابقة لجهاد الفولاني . ولو أننا وثقنا بأقوال ليو الأفريقي Leo Africanus فإن أهالي كاتسينا Katsina وكانو Kano كانوا برابرة نصف عراة في منتصف القرن السادس عشر . وعلى الجملة فالحوصا قد يكونون أيسر قيادة وأسرع تأثراً بالدعوات الدينية من غيرهم . وفي سنة ١٨٠٤ وضع الشيهو عثمان Shehu Osman (قد تكون شاه أو شيخ ثم حرفت) لبلاط جوبير Gobir نظاماً هو خير قليلاً من النظام الوثني ، وقد بقي الأهلون يصلون للموتى

ويمجدون الأولياء الراحلين ويسمحون لنسائهم بالخروج سافرات . ولقد لاحظ « أولدفيلد Oldfield » في رابا Rabba أن ابنة عثمان زايكي Osman Zaiki حاكم نوبيلاند الفولاني تحمل في يديها زجاجات برتغالية مملوءة بالمشروبات الروحية ، فشرب الخمر وعقيدة الخلود لازلا سائدين

ولا زالت بعض الطقوس الوثنية تقام عند تولية الأمير العرش ؛ ورؤساء « أكوين Akuain » المسلمون في هارداوا Hardaua عند انتخابهم يقدمون فروض الطاعة للشجرة المقدسة

والقرآن لديهم هو الكتاب المقدس ؛ بل إنهم ليستشفون بشرب الحبر الذي كتبت به آيات القرآن . وهم مازالوا يعتقدون في السحر والتعاويذ ، ولكنهم يتقون شر السحر بالآيات القرآنية والأحجبة يحيطون بها رقابهم وأذرعتهم وأوساطهم

والمسلمون في تلك الأقاليم عند بناء منازلهم يدخنون الطلاسم لتقيهم شر الأرواح الخبيثة

من هذا كله نرى أن الاسلام من الناحية الروحية لم يستطع تماماً استئصال شأفة الوثنية أو إزالة خرافاتها لانقطاع الصلة وبعد الشقة بينه في تلك الجهات وبين ديار الاسلام القوى الحق . ولكن الاسلام من الناحيتين السياسية والاقتصادية بادى الأثر في هؤلاء الأقوام . لقد حمل الحضارة إلى هذه القبائل المتبربرة ، ودعا جماعات الوثنيين المبعثرة إلى وحدات مرتبطة ، وسهل التجارة بين هذه المناطق وبين العالم الخارجي ، وبذلك استيقظت الغرائز التجارية الكامنة في نفوس الحوصا Hausa والنوبي Nupe واليارويا Yaroba والبري بري Beri Beri ؛ وحملهم على الظهور بمظهر لائق ، ورفع مستوى معيشتهم بأن خلق لهم جواً اجتماعياً راقياً ؛ وبث في نفوس المسلمين الشعور بالعزة واحترام النفس والغير . فتفوق المسلمين في تلك الجهات على غيرهم من الناحيتين الثقافية والسياسية يرجع إلى تعاليم دينهم ؛ فنحن لا ننسى أن الاسلام حمل إليهم فن القراءة والكتابة ...

والآن أصبح زنجي السودان بعد أن حرم عليه الاسلام شرب الخمر وأكل لحوم البشر وسفك الدماء رفيقاً لسكان العالم المتحضر

(البقية في العدد القادم)

جمال الدين محمد الشيال

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٥٩ — فافشر ماشئت

فى (الغيث المسجم) للصفدى : حكي أن بعض الوعاظ كان على منبره يتكلم فى المحبة وأمور العشق وأحواله ، ومد أطناب[١] الإطناب[٢] فى ذلك فقام إليه بعض الجماعة وقال :

بعيشك هل ضممتَ إليك ليلى   قبيل الصبح أو قبّلتَ فاها
وهل رفّت إليك فروعُ ليلى   رفيفَ الأقحوانة فى نداها[٣]

فقال الواعظ : لا والله

فقال له : فافشر[٤] ماشئت ...

٢٦٠ — تغزل برجليها

قال ابن الجوزى فى الشذور : قال ثابت بن سنان المؤرخ : رأيت فى بغداد امرأة بلا ذراعين ولا عضدين ، ولها كفان بأصابع معلقات فى رأس كتفيها لاتعمل بهما شيئاً ، وكانت تعمل أعمال اليدين برجليها ، ورأيتها تغزل برجليها ، وتمد الطاقة[٥] وتسويها

٢٦١ — وإنه لمفوه

كن للمكاره بالعزاء مُقَنَّعاً   فلعلّ يوماً لاترى ماتكرهُ[٦]
فلربما استتر الفتى فتنافست   فيــه العيون وإنه لموَّهُ

(١) الطنب : بضم الطاء والنون وسكون النون حبل طويل يشد به البيت : الخباء

(٢) الاطناب : المبالغة فى مدح أو ذم

(٣) رف : اهتز نضارة وتلؤلؤاً (الفرع) الشعر التام . ورواية الأغانى : قرون ! والشعر للمجنون . وهناك هذه (الرواية) : مر المجنون بزوج ليلى وهو جالس يصطلى فى يوم شات فوقف عليه ثم أنشأ يقول : (بربك اليمين) فقال : اللهم إذ حلفتنى فنعم ، فقبض المجنون بكلتا يديه قبضتين من الجمر فما فارقهما حتى سقط مغشياً عليه ، وسقط الجمر مع لحم راحتيه ، وعض على شفته فقطعها ...

(٤) الفشار والتفشير (أيضاً) فى كلام الأدباء وكتبهم كثير

(٥) طاقة الشعر أو الخيوط

(٦) مقنعا : مستمسكا ، من تقنع البطل بسلاحه : رجل مقنع مغطى بالسلاح (التاج) عن الأصمعى : حلف بعضهم بالطلاق الثلاث إن كانت العرب قالت أحكم من هذه الأبيات

ولربما خزن الكريم لسانه   حذرَ الجواب وإنه لمفوَّهُ
ولربما ابتسم الكريم من الأسى   وفؤاده من حرِّه يتأوَّهُ

٢٦٢ — ألله ، ألله

قيل لصوفي : لم تقول : ألله ، ألله ، ولا تقول : لاإله إلا الله ؟

فقال : نفيُ العيب حيث يستحيل العيب — عيب

٢٦٣ — بين اماميں

قال الحريرى : قد غلط الأصمعى فى تصغير (مختار) غلطاً أودع بطون الأوراق ، وتناقلته الرواة فى الآفاق ؛ وذاك أن أبا عمر الجرمي حين شخص إلى بغداد ثقل موضعه على الأصمعي إشفاقاً من أن يصرف وجوه أهلها عنه ، وتصير السوق له ، فأعمل الفكر فيما يغض منه فلم ير إلا أن يرهقه فيما يسأله عنه ، فأتاه فى حلقته ، وقال له : كيف تنشد قول الشاعر :

قد كن يخبأن الوجوه تسترا   فاليوم حين بدأن للنظار[١]

أو حين (بدين) ؟ فقال له : (بدأن) قال: أخطأت ، فقال (بدين) قال : غلطت ، إنما هو حين (بدون) أى ظهرن ؛ فأسرها أبو عمر فى نفسه وفطن لما قصده ، واستأنى به إلى أن تصدر الأصمعى فى حلقته ، واحتف الجمع به ، فوقف به وقال له : كيف تقول فى تصغير (مختار) فقال : (مخيتير)[٢] قال : أنفت لك من هذا القول ! أما تعلم أن اشتقاقه من الخير وأن التاء فيه زائدة ؟ ولم يزل يندد بغلطه ويشنع به إلى أن انفض الناس من حوله

٢٦٤ — الا الماء

سئل جحظة البرمكى عن دعوة حضرها فقال : كان كل شيء بارداً فيها إلا الماء

٢٦٥ — هذه عنى

فى (الأغانى) : وَلِيَ قضاء مكة الأوقص المخزومي فما رأى الناس مثله فى عفافه ونبله ، فإنه لنائم ليلة فى جناح له إذ مر به سكران يتغنى :

(١) من أبيات فى (الحماسة) للربيع بن زياد فى رثاء مالك بن زهير العبسي وهناك : حين برزن للنظار

(٢) فى كتاب سيبويه : فاذا حقرت (مختارا) قلت مخير وإن شئت قلت : مخيير لأنك لو كسرته للجمع قلت : مخاير ومخايير

عوجى علينا ربّة الهودج (١)

فأشرف عليه فقال: يا هذا، شربت حراما، وأيقظت نياما، وغنيت خطأ! خذه عني! فأصلحه وانصرف

٢٦٦ — ردوها على

فى (الغرر الواضحة) أُرْتِجَ على الحجاج في صلاته فلم يجسر أحد أن يهديه لما ضل عنه، فتلا قوله تعالى «رُدُّوها عليّ» فردت عليه. فلله دره! ما أحسن ما أجال فكره حتى أدرك به الفهم العازب، ولم تبطل صلاته بكلامه. قيل للحسن (البصرى): أتى رجل صاحباً له في منزل، وكان يصلي فقال: أدخل؟ فقال في صلاته «أدخلوها بسلام آمنين» فقال الحسن: لا بأس

٢٦٧ — زلق وقع فى الطين

فى (صيد الخاطر) لابن الجوزى: مازال المتيقظون يأخذون الاشارة من مثل هذا (٢) حتى كانوا يأخذونها من هذا الذي تقوله العامة ويلقبونه بـ (كان وكان) فرأيت بخط ابن عقيل عن بعض مشايخه الكبار أنه سمع امرأة تنشد:

غسلت له طول الليل فركت له طول النهار
خرج يعاين غيرى زلق وقع فى الطين

فأخذ من ذلك إشارة معناها: يا عبدي إني حسنت خلقك وأصلحت شأنك، وقومت بنيتك، فأقبلت على غيري فانظر عواقب خلافك لي. وقال ابن عقيل: وسمعت امرأة تقول من هذا (الكان والكان) وكان كلمة بقيت فى قلبها مدة:

كم كنت بالله أقل لك لذا التوانى غائلة
وللقبيح خميرة تبين بعد قليل

قال ابن عقيل: فما أوقعه من تخجيل على إهمالنا لأمور غدا تبين خمائرها!

٢٦٨ — المتنبي الأول

فى (المختلف والمؤتلف) للآمدى: كان الأخطل الضبعي شاعراً، وادعى النبوة، وكان يقول: لمضر صدرُ النبوة ولنا عجزها. فأخذه عمر بن هبيرة فقال ألست القائل:

لنا شطر هذا الأمر قسمة عادل متى جعل الله الرسالة تُرْتَبا (١)

قال: وأنا القائل:

ومن عجب الأيام أنك حاكم على، وأنى فى يديك قصير (٢)

قال: أنشدنى شعرك فى الدجال (٣). قال: اغرب ويلك! فأمر به فضربت عنقه

٢٦٩ — فرجت وكان يظنها لا تفرج

فى (الغرر والدرر): أمالى أبي القاسم المرتضى: روي الصولى أن منشداً أنشد ابرهيم بن العباس وهو فى مجلسه فى ديوان الضياع:

ربما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال (٤)

قال: فنكت بقلمه ثم قال:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً، وعند الله منها مخرج
كملت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج (٥)

فعجب من جودة بديهته

٢٧٠ — وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

فى (مؤنس الوحدة) لابن الأثير:

أهدى إلى سيف الدولة صدقة بن منصور بن مزيد كتاب ففتحه لينظر فيه، فوقعت عينه منه على هجاء بنى أسد فأطبقه ثم قال:

وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

اصلاح

فى النقلة (٢٥٠) فى البيت الثانى: (وكيف) والصواب: (كيف)

---

(١) العرجى، والعجز: إنك إلا تعلى تحرجى

(٢) أي من شعر أوقول يسمعونه فينتفعون به

---

(١) أى راتبة فى واحد. فى اللسان والتاج: أمر ترتب على تفعل (بضم التاء وفتح العين) أى ثابت. وتاء ترتب الأولى زائدة

(٢) محبوس

(٣) مسيلمة وفيه يقول الأخطل الضبعي:

لهفاً عليك أبا ثمامة لهفاً على ركنى شمامه
كم آية لك فيهم كالبرق يلمع فى غمامه!

والأحنف يقول فيه: ليس بنبي صادق ولا متنبٍ حاذق

(٤) فرجة: كشفة، خلاص. وهى مثلثة كما فى التهذيب وفى اللسان والتاج وغيرهما بالفتح فى الأمر، وبالضم فى الحائط ونحوه. والبيت منسوب إلى كثيرين منهم أمية بن الصلت

(٥) المخرج فى ابن خلكان والبغدادى. (كملت) تمت. وفى ابن خلكان ضاقت، وفى هذا يقال: إنه ما ردد هذين البيتين من نزلت به نازلة إلا فرج الله تعالى عنه

غـــنى...؟! (١)

للأستاذ سيد قطب

غنيةٌ أنت بالتعبير قد ذخرتْ	أطواءُ نفسك منه زادَ أحقاب
وهبتِني منـه أشتاتاً منوّعةً	وزدتني منه في جود وإسهاب
في كل جارحة عنوانُ ملحمة	من الحديث، وسرٌّ جِدُّ جذّاب
تقصُّ تاريخها في فنّ راوية	منسّقِ النبر ذي لحن وإطراب
وإن تاريخها أقصوصة جمعتْ	تجاربَ الكون في أحلام أرباب

تجارب الكون في سحر وفي فتنِ
من نضرة الروض أو من وحشة الغاب
ومن سناء الدراري في تألقها
ورهبة الكون في جنح الدجى الخابي
ومن غموض الصحاري في مجاهلها
والعيلم الرحب يطغى جد صخّاب

ومن صيال الضواري في تقحمها	ومن أغاريد أطيارٍ وتنْعاب
وفرحة الظافر النشوان خافقة	تختال معجبةً في خطو وثّاب

* * *

هذا حديثك بينا أنت صامتةٌ	وغيبته كلَّه في صمت محراب
فهل بلغتُ مدًى ما أنت زاخرةٌ	من التجارب في خلقٍ وإنجاب؟
لا. لا وحقك لم أبلغ سوى طرفٍ	من الحديث على وَفْرٍ وإطناب
وخلف ذلك كنزٌ كله طُرَفٌ	يزيد مذخورُه في كف وهّاب
وإنّ عندك ما تعطينه أبداً	للسائلين بإفصاحٍ وإعراب

* * *

العين. ماذا تقص العين من خبرٍ	مسلسلٍ في حنايا النفس منساب؟
وما الذي أبدعت للفن إذ همست	للأمنيات فلبّت بضع أسراب؟

وأفصحت عن حنين كامنٍ وهوى
يسري الهوينى شفوفاً بين أهداب؟

* * *

والثغر. ماذا يبث الثغر من قُبَلٍ
في صمته العذب، بل في سحره السّابي
وإن فيه لقبلاتٍ قد ارتسمت	من بعد ما نضجت، للآثم الصابي

* * *

والجسم. ماذا يقول الجسم قد خفقت
فيه الحياة، وتاهت تيهَ غلّاب؟
يقول ما تعجزُ الدنيا برمتها	عن أن تقول بتصويرٍ وإعراب

* * *

خلاصةٌ أنت من فن الحياة حوت	جميع ما تبدع الدنيا لإعجاب
غنية أنت بالتعبير قد ذخرت	أطواء نفسك منه زاد أحقاب

(حلوان)	سيد قطب

(١) من ديوان « أصداء الزمن » يصدر أول ديسمبر

يأس

للسيد جورج سلستي

ياحبيبَ الفؤاد أسرفتَ في الصدِّ	وإني من غير صدٍّ أذوبُ!
وتجنّيتَ يا حبيبي ومن غيــر تجنٍّ تكادُ روحي تزهقُ!
شفَّ جسمي النوى فبتُّ ولي جسـ	ـمٌ بخيطٍ من الدّماء معلّقْ!
فترفّقْ فدتكَ روحي فمالي	بين كل الورى سواك حبيبُ!

* * *

يا حبيبي أحسُّ من ألم البُعـ	ـد وشجْوِ النوى بقلبيَ بركى
وبصدري المكبوت أرمضه الحبُّ	فأدمى منه الحنايا الحرارا
وبرأسي كأنما سَوْرةُ اليأ	سِ أطاحتْ بلبّه فاستطارا
يالقلبي الباكي وصدري المدمّى	من حبيبٍ قضى بهجري وتركي!

* * *

إيه يا هاجري جراحي تناديــ	ـكَ وقلبي اللهيفُ يهفو إليكا!
كلُّ ما بي يدعوكَ فارجع بحقِّ الـ	ـوفا إليَّ قبل وفاتي (١)
عُدْ ولو ساعةً أمتّعُ عينيَّ	بضاحي مرآك قبل مماتي
ذاك حسبي من الحياة ودعني	بعد هذا أموتُ بين يديكا!

جورج سلستي

(١) كذا

من طرف أهل الحرف

ذكرتني مقالة الأديب البحاثة الأستاذ مصطفى جواد البغدادي (الأدباء المحترفون) وما رواه فيها من سيرة (الخبزأرزي) وشعره بإخوان له في الأدب والحرفة ، فرأيت أن أملي بعض طرائفهم مضافاً إلى تلك المقالة البغدادية في (الرسالة الغراء) :

قال علي بن ظافر : كان الوزير أبو بكر بن عمار كثير التطلب لما يصدر عن أرباب المهن من الأدب الحسن فبلغه خبر (ابن جامع الصباغ) فمر على حانوته وهو آخذ في صناعة صباغته ، والنيل قد جر على يديه ذيلا ، وأعاد نهارهما ليلا ، فأراد أن يعلم سرعة خاطره، فأخرج زنده ويده بيضاء من غير سوء وأشار إلى يده وقال:

كم بين زند وزند ؟

فقال ابن جابر :

ما بين وصل وصد

فعجب من حسن ارتجاله . ودخل ابن عمار هذا سَرَقُسْطة فبلغه خبر يحيي القصاب السرقسطيّ ، فمر عليه ولحم خرفانه بين يديه ، فأشار ابن عمار إلى اللحم وقال :

لحم سباط الخرفان مهزول

فقال يحيي :

يقول للمفلسين : مَهْ ، زولوا

وكان يحيي السرقسطي ترك مهنته مدة ثم عاد إليها فكتب إليه الوزير أبو الفضل بن حسداي :

تركتَ الشعر من عدم الاصابه   وملت إلى الجزارة والقصابه

فأجابه يحيي :

تعيب عليّ مألوف القصابه   ومن لم يدر قدر الشيء عابه[1]
ولو أحكمت منها بعض فن   لما استبدلت منها ذي الحجابه[2]
وإنك لو طلعت عليّ يوماً   وحولي من بني كلب عصابه
لهالك ما رأيت وقلت هذا   هزبر صيّر الأوضام غابه
فتكنا في بني العتري فتكا   أقر الذعر فيهم والمهابه
ولم نقلع عن الثوريّ حتى   مزجنا بالدم القاني لعابه
ومن يعتز منهم بامتناع   فإن إلى صوارمنا إيابه[3]
ويبرز واحد منا لألف   فيغلبهم وتلك من الغرابه
وحقك ما تركت الشعر حتى   رأيت البخل قد أوصى صحابه
وحتى زرت مشتاقاً حميمي   فأبدى لي التجهم والكآبه
وظن زيارتي لطلاب شيء   فأقصاني وغلّظ لي حجابه

وكان مظفر الذهبي مصوراً ؛ ومن قوله :

كلفت بتصوير الدُّمى في شبيبتي   وأتقنتها إتقان حر مهذب
وحاولت عنها رجعة ومدحتكم   فلم أخل من تزويق زور مكذب

وكان نجم الدين يعقوب بن صابر منجنيقياً ؛ ومن شعره :

كلفت بعلم المنجنيق ورميه   لهدم الصياصي وافتتاح المرابط
وعدت إلى نظم القريض لشقوتي   فلم أخل في الحالين من قصد حائط

قال ابن خلكان : كان ابن صابر المنجنيقي جندياً في ابتداء أمره ، مقدماً على المنجنيقيين ببغداد ، ولم يزل مغرًى بآداب السيف وصناعة السلاح والرياضة ، ولم يلحقه أحد من أهل زمانه في فهمه لذلك ، وصنف كتاباً سماه (عمدة السالك في سياسة الممالك) يتضمن أحوال الحروب وتعبئتها وفتح الثغور وبناء المعاقل ، وأحوال الفروسية والهندسة والمصابرة على الحصار ، والقلاع والرياضة الميدانية ، والحيل الحربية الخ ؛ وكان شريف النفس متواضعاً ، وهو شاعر مجيد ذو معان مبتكرة ، وجمع من شعره كتاباً سماه (مغاني المعاني) وكانت له منزلة لطيفة عند الامام الناصر ، توفي سنة ٦٢٦ . ولابن صابر :

قالوا بياض الشيب نور ساطع   يكسو الوجوه مهابة وضياء
حتى سرَت وخطاته في مفرقي   فوددت ألاّ أفقدَ الظلماء
وعدلت أستبقي الشباب تعللا   بخضابها فصبغتها سوداء
لو أن لحية من يشيب صحيفة   لمعاده ما اختارها بيضاء

ومن الأدباء المحترفين السراج الوراق وأبو الحسين الجزار ونصير الدين الحمامي . قال ابن حجة في (خزانته) : «وتعاصر السراج هو وأبو الحسين الجزار والنصير الحمامي وتطارحوا كثيراً وساعدتهم صنائعهم وألقابهم في نظم التورية» ومن قول السراج الوراق :

ياخجلتي وصحائفي سود غدت   وصحائف الأبرار في إشراق
وموبّخ لي في القيامة قال لي :   أكذا تكون صحائف الوراق ؟!

وقال الجزار :

كيف لا أشكر الجزارة ماعشـ   ـت حفاظاً وأرفض الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيـ   ـني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وكتب إليه نصير الدين الحمامي :

ومذ لزمت الحمام صرت به   خلا يداري من لا يداريه

(١) تعيبُ علىّ الخ : أراد تعيب عليّ
(٢) الحجابة في الاندلس بمنزلة الوزارة (٣) يعتز في رواية



من أساطير الإغريق

مصرع بروكريس

للأستاذ دريني خشبه

رأته أورورا حينما كان الصبح يتنفس أنفاسه الندية العطرية يثب فوق الجبال ويصيد الوحوش بين الأدغال ، فهامت به ، ووقفت تعبده ، وتروى من جماله ، وتسق نفسها الصادية أبداً إلى كل ريان مفتان ... وحاولت أن تكلمه فشاح بوجهه ، وتصدت له فأعرض عنها ، ثم انطلق فى أثر ظبي فلم يزل به حتى أرداه وانحنى يحمله ... ولكنه وجد مكانه أورورا ... ! وجدها متجردة تُمرّغ جمالها تحت قدميه ، فنفر نفرة جرح بها كبرياء ربة الفجر الوردية ، وجعلها ترمقه بعينى أفعى ؛ تودلو تنفث في صدره سمها فترديه

« أنا أورورا ، ربة الفجر والندى ، حبيبة الزنبق والبنفسج والورد ، لا أروق هذا الأنسىّ المخلوق من تراب !! وحق أبى لآسرنه ولأسجننه ، ولأجعلنه يتلوى تحت قدمى ، ويبكى مِن أجل قبلة أمن بها عليه ! »

وأرسلت رُقية من رُقاها الساحرة فنشرت الظلام على عينيه والنسيان في قلبه ، وبات لا يملك لنفسه حلاً ولا عقداً ... ثم حملته إلى كِناسها(١) فى شعاف الأولب ، وحبسته ثمة ، وأذهبت عنه طائف السحر فأدرك ووعى ، وهب مذعوراً ، ثم غرق فى شيء كالحلم لما رأى العماد من ذهب ، والطنافس من عجب ، والكأس حفها الحبب ، والنّدامى والطرب ، وكل راقصة كالخيال يراقصها أمرد كالطيف ، فتميل ويختال ، ويتأوّد كالسيف ... وأورورا مع هذا وذاك تدل وتتبرج ، وتفوح وتتأرج ، كأنها ربيع بأكمله ، زخرف الدنيا بالزهر ، ووشاها بالروض ، وابتعث فيها المرح والحياة

— أين أنت إذن ؟ سيفال ! أين أنت ؟

— أين أنا ؟

— ألا تعرف ؟ هذه غُرُفات الأولب !

— الأولب ؟ !

— أجل ... أولب أربابك

— محال ! لن يكون الأولب هكذا !

— ولم ؟

— لأن الأولب مأوى الصالحين ! أليس الآلهة أجدر منا بالتقوى ؟ ما هذا ؟ أخمر ورقص وطرب ... وفسق فى الأولب ؟

لا ... ليس هذا الأولب ... لن يكون الأولب هكذا ! !

— بل هو الأولب يا سيفال ! وليس ما ترى هنا إلا قليلا

(١) الكناس بالكسر بيت الظبي

أعرف حر الأشيا وباردها ... وآخذ الماء من مجاريه

فأجابه أبو الحسين الجزار :

حسنُ التأتى مما يعين على ... رزق الفتى والحظوظ تختلف(١)

والعبد مذ صار فى جزارته ... يعرف من أين تؤكل الكتف

وفى (كتاب المغرب في حلى المغرب) : حضر الجزار بين يدى الصاحب الكبير كمال الدين بن أبى جرادة مودعاً وقد أزف رحيل الصاحب عن مصر سنة (٦٤٥) فاتفق أن وجه سلطان مصر شيئاً من التمر الذى يصل من أعلى الصعيد فى المركب المبشر بزيادة النيل على وجه البَرَكة ، فأمر الصاحب أن يقدم فأكل الجزار فى جملتهم ، وقال فى ذلك ارتجالاً فأتى بأبدع تورية .

أطعمتنا التمر الذى ... للبركات قد حوى

لله ما أطيبــه ! ... لو لم تشبه بالنوى

« الاسكندرية » (***)

(١) تأتى للأمر : ترفق له

مما هناك ! هل ترى ڤينوس ؟ ألم تصل لها ؟ أنظر من هذه الكوة فهى تطل على حديقتها !

— وأنا ما شأنى ؟ أريد أن أذهب !

— تذهب ؟ تذهب إلى أين يا سيفال ؟ لن تبرح عاكفاً على الفو الذي ترى !

— لا ، لن يقوي الأولمب كله على قهرى !

— ها . ها ... مضحك ... أنت مضحك يا سيفال ! كل الأولمب ؟

— أؤكد لك !

— ولِمَهْ ؟

— لأنى أحب زوجتي وأقدسها ... إنها جميلة جدا

— أجمل من أورورا ؟ ! أليس كذلك ؟

— أجمل من أورورا لدى كل من ينظر بعيني زوج أمين مخلص !

— أنت عنيد يا سيفال ! إنك تزدريني !

— بل أنا أنتصر للفضيلة التى كان ينبغي أن تتنزل علينا من الأولمب ! من جاء بي هنا ؟

— أنا ...

— ولماذا ؟

— أنت تعرف !

— لا أعرف شيئاً ... والذى أعرفه لا يليق بشرف ربة ! أرجو أن تطلق سراحى !

— إذن أنت تفضل عليّ زوجتك : أهي أجمل منى ؟ ألا تزال تعتقد هذا يا سيفال ؟

— أنا أفضل زوجتى لأنها لم تتلوث ... ولا زلت أقول إنها أجمل منك لأننى أنظر إليها بعينيّ لا بعينيك !

— زوجتك أجمل من ربة الفجر الوردية ؟

— أجمل من ربات الأولمب جميعاً ، إلا من تجملن بمثل روحها ، ولست منهن !

— أيها التعس !

— ولم أكون تعساً وأنا أسعد الناس بزوجتي بروكريس !

— بروكريس ! ها ! عرفتها ! إحدى وصيفات ديانا ! حقيرة مثلك ! أغرب من وجهى أيها القذر ! إذهب ! إذهب إلى زوجتك بروكريس التى تفضلها على أورورا ؛ ستمنى يوماً أنك لم تعرفها ، وأنها لم تكن زوجتك ... إذهب ... إذهب ! »

***

وبلغ بيته وهو يلهث من التعب ، ويرتجف مما ألم به ، فلقيته زوجته الجميلة الحسّان بابتسامة شفت صدره ، وقبلة ذات حُميّا أذهبت بعض ما وجد ... إلا أنه كان ينتفض آنة بعد آنة ، ويعود فيبتسم ، ثم تغرورق عيناه بدموع نقية كاللؤلؤ كلما نظر إلى زوجته ، حتى هجس وسواس فى قلب بروكريس فقالت له :

— ماذا يا سيفال ؟ أتخفى عنى ذات صدرك ؟

— كلا ، ولكنها أورورا ...

— ماذا ؟ ماذا صنعت بك ربة الفجر ؟

كانت تحاول أن تسحرني عنك ... أو ... تشركني فيك على الأقل ؟ !

— ... ؟ ...

ولكنها فشلت ... لقد أذللت كبرياءها

— وهل استطعت ؟ إنها جميلة وصناع ، ولها فى الغزل الصارخ أساليب خارقة يا سيفال ...

— لقد قهرتها وأساليبها ... إن قطرة من معين إخلاص تطفئ لظى جحيم يا بروكريس !

— لاريب يا حبيبي ... أنا أمزح فقط ... سيفال ، عندى لك مفاجأة طيبة

— مفاجأة ! أية مفاجأة يا بروكريس ؟

— تعال ... افتح هذه الغرفة

— أوه ! ماهذا ... كلب عظيم ، من أين يا بروكريس ؟ إنه سينفعنى كثيراً فى صيدى

— ومفاجأة أخرى أعظم ! أنظر فى ركن الغرفة !

— هه ! حربة ! لم أر قط مثل هذه الحربة ! إنها ليست من صنع بشر ! آه ! إنها من صنع ڤلكان لاشك ! البشر لا يجيدون أن يصنعوا مثل هذه !

— إحزرْ إذن ممن الهديتان ؟

— من الملك !

— وأنى لي أن يهدى الملك إليّ ؟

— ممن إذن ؟

— إحزر !

— لا أدري !

— إنهما من ديانا يا سيفال ! أهدتهما إلى هذا الصباح !

— من ديانا ؟ آه ! لقد ذكرت ذلك أورورا ماذا ذكرت لك أورورا ؟

— أنك كنت إحدى وصيفاتها !

— وأى ضير علىَّ أو عليك فى هذا ؟ أليست هي إحدى تابعات أبوللو ؟ لقد كانت وما تزال تتمنى أن لو كانت إحدى وصيفات ربة القمر !

— لا ضير ، لا ضير يا بروكريس

— إنى أهب لك ما أهدت ديانا إلى !

— أشكرك !

— الكلب لا تسبقه الريح ، والحربة لا تخطئ الغرض

***

وظل سيفال يعود أصيل كل يوم إلى زوجته مثقلاً بشتى أنواع الصيد ؛ وأحب كلبه وحربته حباً لا يعدله إلا حبه بروكريس

واشتهر أمر الكلب فى الإقليم كله ، وذاع صيته ، حتى لقد أخطأ بعض افراد الشعب فى حق بعض الآلهة ، فسلط عليهم ثعلباً سِلْقاً[1] لم يستطيعوا مكافحته ، ولم تقو كلابهم له على طراد ، فاجتاح ماشيتهم ، وأتى على دجاجهم ، وعاث فى حقولهم ، ونفش في زروعهم ؛ ولم يدروا كيف خلاصهم منه ، حتى سمعوا بكلب سيفال فرجوه فيه ، كيما يطلقه فى أثر الثعلب فيريحهم من شره ... وانطلق ليلاب — وهذا هو اسم الكلب — وراء الثعلب ، كما يمرق السهم عن القوس ، أوكما تمرق النظرة الخاطفة عن العين النجلاء ؛ وما انفك يحاوره ويداوره ، وينبح به فيزلزله ، حتى همّ أن يفتك به ويمزقه إرباً ... ولكن حدث أن كانت الآلهة تطلع من فلال الاولب ، تتعرج بهذا الطراد ، وتشرح صدورها بمرآه ، فالتفت بعضها إلى بعض ، وعز عليها أن يقتل كلب إلـهىٌّ ثعلباً إلـهيًّا أمام الملأ من الناس ، فقضوا لتوِّهم أن ينقلب الاثنان فيكونا تمثالين من المرمر الناصع ، فهما كذلك إلى اليوم !!

وأسف سيفال على كلبه ، وانقلب على عقبيه غضبان صمتاً ... ولم يزل فى كل يوم ، وفى مثل تلك الساعة التى حاقت بكلبه العزيز هذه النازلة ، يتوجه إليه ، ويقف قليلاً عنده ، حانًّا لذكراه ، آنًّا على ما حل به ، ثم ينطلق بعد ، وفي يده رمح ديانا ، فيصيد الظباء وليس معه ليلاب

وانطلق مرة فى إثر ظبي فأنهك قواه ، ونال منه الإعياء ، وانسدح على العشب الأخضر فى فَيْء دوحة باسقة ، ثم راح يتخلّج[2] من شدة التعب ؛ وكان الوقت ظهراً ، وكان القيظ قد أجج الدنيا حوله ، فتفصد[1] العرق من جسمه المنهوك ، وتراخت عضلاته ووهنت روحه ، وأنشأ يردد كلاماً كالأغنية يرسله هكذا :

أين أنت يا نسمة ؟ يا ابنة الربيع اللعوب

يامنعشة الروح المتعبة ، أين أنت ؟

هلمى يا نسْمة ، هلمى إلى سيفال ،

فهو مشوق إليك ، يرجو لو تنفسين عنه ؛

هلمى يا نسمة ففرجى عن سيفال المضنى ،

وهبى على رأسه الملتهب ، وصدره المكروب؛

لقد كنت يانسمة ، ياأحلى قُبَل الحياة ،

تداعبين جبينى ، وتنعشين نفسى ،

فماذا حال بينك وبينى ، يا نسمة الربيع ،

وساقية الحب ، ورسول المحبين ...

وكانت أورورا ما تفتأ تتعقب سيفال فى كل فج ، وترقبه فى كل حنيّة ؛ وكانت تقف فى صورة بلبل فوق رأسه ، مختبئة فى أفنان الدوحة التى نام فى ظلها ؛ فلما سمعته يتغنى غناءه ، ضحكت واستبشرت ، وانتهزتها فرصة نادرة للايقاع بينه وبين زوجته ، وانطلقت من فورها إلى بروكريس ، حيث تكشّفت لها فى صورة إحدي صويحباتها :

— بروكريس !

— مرحباً بأعز الحبيبات ، ماذا جاء بك فى هذا القيظ ؟

— نبأ أسود ماكنت أوثر أن أحضر إليك به !

— نبأ اسود ؟ ياللهول ! ماذا ؟

— أرجو ألا أثير سخطك على ...

— كلا ... كلا ... عجّلى أرجوك !

— سيفال !

— ماله ؟

— أتذكرين يوم رويت لى ما كان من أمره مع أورورا ؟

— لم أنس ! ولكن مال سيفال ؟

— يبدو لى أنى لم أكن مصيبة فى تبرئته ! لقد نفيت شكوكك فيم ذهبت إليه من الميل إلى ربة الفجر ، وقلاه لك لما عرف أنك كنت وصيفة ديانا !

— وماذا حدث بربك ؟

— إنه يحب فتاة أخرى اسمها نَسْمة ! إنه مولع بها أشد الولوع !

---

(١) السلق : الذئب واستعمل هنا صفة

(٢) يشكو من التعب ويضطرب

(١) جرى وتصبب

— لا أصدق !

— لاتصدقين ؟ وهل أنا كاذبة ؟

— وكيف عرفتِ ؟ هل أوحيَ إليك ؟

— بل سمعته يهتف باسمها ، ويشدو بحبها ، ويتغنى أحر الغناء !

— لا أصدق ؛ لا أصدق ، سيفال لايحب واحدةً سواى !

— هل لك فى أن تسمعي غناءه بأذنيك ياصديقتى !

— وأين هو ؟

— قريب من الدَّغل الذى عند النبع ... سأحضر لك حصاناً صافناً

وغابت أورورا ، ولم تلبث طويلاً ، بل عادت بعد هنيهة ومعها حصانان مطهمان ، ركبتاهما وأسرعتا إلى الدغل ... وكان فؤاد بروكريس يخفق كالعاصفة ، وكان وجهها قد شحب وامتقع حتى صار كالليمونة ، وكانت ألف فكرة تزحم رأسها وتثور فيه كالبركان ، وكانت ما تنفك تحدث نفسها بالهواجس فتقول : « نسمة ؟ ترى ما نسمة هذه ؟ عروسٌ من عرائس البحر ؟ أم غادة من غيد السوق ؟ أم ربةٌ كأورورا من ربات الأولمب ؟ أهى جميلة ؟ أهي أجمل مني ؟ ألها عينان كعيني ؟ ألها روح تستطيع أن تمتزج بروح سيفال بقدر ما امتزجت به روحي ؟ أهكذا ياسيفال ؟ لقد غلبت اليقين على الشك يوم أن ذكرت لى أمر أورورا معك ، فلم تعد الشكوك لتفترسني ؟ يا ترى ؟ ألست تعود إلىّ أصيل هذا اليوم مثقلاً بصيدك كسابق دأبك ؟ حنانيك يا آلهة السماء ! » فكانت زفراتها لا تخفى على أورورا ، فكانت هذه تسليها وتواسيها

واقتربا من الدوحة التي نام تحتها سيفال وراح يغنى ...

وأشارت أورورا إلى الزوجة البائسة فاختبأت فى الحشائش الطويلة القريبة من سيفال ، بعد أن تركت جوادها بعيداً من المكان ... وهناك أنصتت بكل سمعها وقلبها ، فسمعت زوجها ما يزال يتغنى باسم نسمة ويقول :

يا نسمة إلامَ أهتف بك يا نسـمة !

يا نسمة يا أحب شيء فى هذا الحرور !

تعالى قبّلى خدّيَ ووجنتيَ وجبينى !

كم أنا مشتاق إلى نسمة يا سماء !

فابعثها رخيـةً ندية ، عليـلةً بليلة !

تنعش فؤادى وتثلجُ برفيفها صدرى

وكان ماخافت بروكريس أن يكون : فها هو ذا سيفال يهتف باسم حبيبته نسمة ويتغنى ، ويتمنى لو جاءته تقبل خديه ووجنتيه ؛ وهاهو ذا يضرع إلى السماء أن ترسلها إليه رخيةً نديةً تشرح الصدر وتثلج الفؤاد ... فماذا بعد هذا ؟ وأى برهان وقد سمعت الأذنان ؟ « إذن ، لقد كذب علىّ فى الأولى ، ولن يكذب علىّ فى الثانية ... إذن لقد صبا فؤاده إلى أورورا ، وما يزال فؤاده يصبو إلى الثانيات من كل جنس وفى كل فج ... آه للنساء الضعيفات من الرجال الأقوياء ... وبلى عليك ياسيفال ... وبلى عليك وألف ويل ! »

وعاثت الوساوس فى صدرها ، وانقلبت أضواء الظهر الساطعة ظلاماً داجياً فى عينيها الحزينتين ، فأرسلت آهةً عميقةً قطعت بها على سيفال غناءه ، فهب الفتى مذهولاً مروّعاً ، وحسب أن وحشاً يتربص به فى الحشيش ، فجمع قوته ، وتناول حربته — حربة ديانا التي لاتخطىء — وأطلقها إلى المكان الذى صدرت منه الهمهمة ، وذهبت الحربة لتستقر فى صدر بروكريس !!

وا أسفاه !

لقد جرى سيفال ليرى هذا الصيد الجديد ، فماذا رأى ؟

— بروكريس ؟ ؟ يا للهول ! أهو أنت ؟

— ... ؟ ...

— وماذا جاء بك الساعة يا حبيبتي ؟

— لا ... شيء ... فقط ... لاتتزوج ... نسمة ، من بعدي !

— نسمة ؟ أوه ! إنها لا شيء ... لقد كان الجو متأججا من الحر يا حبيبتى ... وكنت أتمنى أن تهب علىّ نسمة من الريح تروح على ! ...

- أحق ... هذا ؟ ...

— هذا هو الحق وحبك يا بروكريس

— إذن ... سلام ... عليك

— بروكريس ! بروكريس ! لا ! لا تغمضى عينيك دونى ! إفتحيها لسيفال !

***

ولكنها ماتت ... وماتت بيد زوجها وحبيبها الأمين الوفى ! وودعت الحياة وليس فى قلبها أثارة واحدة من الشك فى حبه وإخلاصه ...

وأرسل الفتى أنينه فى الآفاق ، ورفع وجهه ليقلبه فى السماء بالشكوى ، ولكنه رأى ... أورورا .. واقفة تبتسم وتضحك .. فجن جنونه ... وانطلق هائما على وجهه ، لا يلوى على شيء ، ولا ترقأ له دموع ... حتى مات !

دريني خشبة



حادث عظيم في الصحافة البريطانية

وقع في يوم أول أكتوبر الجاري حادث عظيم في الصحافة الانكليزية بل في الصحافة العالمية بأسرها ، فقد اختفت جريدة « المورننج بوست » أقدم الصحف اليومية الانكليزية ، وفقدت كيانها المستقل لتندمج في منافستها القوية جريدة «الديلي تلغراف» .

ومنذ أول أكتوبر تصدر الديلي تلغراف باسمها الجديد وهو « الديلي تلغراف والمورننج بوست » ونستطيع أن نقدر أهمية هذا الحادث الصحفي متى علمنا أن « المورننج بوست » قطعت إلى اليوم مائة وخمسة وستين عاماً من حياتها المستقلة ، وأنها لبثت مدى حياتها الطويلة دائماً من أعظم الصحف البريطانية وأقواها نفوذاً .

وقد انشئت المورننج بوست في سنة ١٧٧٢ ، واستمرت تصدر بانتظام حتى اليوم وكانت نزعتها دائماً دستورية محافظة ، ولكنها كانت تصطبغ دائماً بنزعة استعمارية وامبراطورية عميقة ، وكانت دائماً أشد الصحف البريطانية معارضة للسياسة التحررية ، ومن ثم فقد كانت أشدها خصومة لسياسة الحكم الذاتي سواء في ارلنده أو الهند كما كانت من أشدها خصومة للحركة الوطنية المصرية وللمعاهدة المصرية الانكليزية . أما جريدة « الديلي تلغراف » منافستها القديمة ووراثتها اليوم فقد أنشئت في يونيه سنة ١٨٥٥ ، على يد أسرة لادسون الشهيرة ، واستمرت تحت إشرافها وإدارتها حتى سنة ١٩٢٨ إذ انتقلت ملكيتها من اللورد برنهام آخر أصحابها من أسرة لادسوف إلى اللورد كامروز صاحبها الحالي .

وكانت الديلي تلغراف أول جريدة انكليزية بيعت بينس واحد (أربعة مليمات) وهو ما اعتبر يومئذ مغامرة صحفية جريئة لأن الصحف كانت تباع يومئذ بأربعة إلى خمسة بنسات ، وكان صدورها في أربع صفحات فقط . أما اليوم فهي تصدر في اثنتين وثلاثين صفحة من القطع الكبير وتباع أيضاً بينس واحد

ونشأت «الديلي تلغراف» حرة في نزعتها السياسية ، وكانت تناصر سياسة جلادستون في أواخر القرن الماضي ، ولكنها تطورت في اتجاهها السياسي شيئاً فشيئاً حتى غدت محافظة اتحادية وأخذت تشاطر منافستها القديمة نزعتها الاستعمارية ، ولكن بأسلوب أكثر اعتدالاً وأقل تطرفاً ، وجمعت الديلي تلغراف أقطاب الكتاب في أواخر العهد الفكتوري ، وتألق فيها نجم طائفة كبيرة من أعاظم الصحفيين ؛ وتولت الانفاق على بعثة استانلي الاكتشافية سنة ١٨٧٤ — ٧٧ . ومن أشهر مواقفها الصحفية حديث نشر للقيصر سنة ١٩٠٨ ولهلم الثاني ، فكان له أعظم صدى ، وكاد يزعزع عروش آل هو هنزلرن ، وكان من نتائجه أن استقال البرنس فون بيلوف رئيس الحكومة الألمانية .

والديلي تلغراف اليوم من أكبر الصحف الانكليزية حجماً ، وأعظمها نفوذاً ، وأوسعها انتشاراً ؛ وقد كانت تطبع حتى سنة ١٩٢٨ ، أعني أيام أن كانت في حوزة اللورد برنهام ٨٤ ألفاً ، ولكنها منذ خفضت ثمنها ثانية إلى بنس واحد في سنة ١٩٣٠ ارتفع عدد المطبوع منها إلى ٥٣٢ ألفاً وهو رقم انتشارها اليوم

وقد صدرت الديلي تلغراف عددها الأول في عهدها الجديد بعد أن ضمت إليها منافستها القديمة بكلمة مؤثرة قالت فيها إنها ترحب بقرائها الجدد قراء المورننج بوست القدماء ، وأنه إذا كان اختفاء المورننج بوست تلك الجريدة الدستورية القوية يعتبر محنة قومية ، فان القراء يستطيعون بعطفهم ومؤازرتهم أن يخففوا وقعها ، وانها باحتفاظها باسم منافستها القديمة إلى جانب اسمها تدلل على ولائها للقضية المشتركة التي دافعنا وما زلنا ندافعان عنها . وأعلنت في مقال آخر ، سردت فيه تاريخ الجريدتين ، أنها سوف تحافظ أبداً على مبادىء الولاء والحرية والتسامح التي سارت عليها حتى اليوم ، وستكون أبداً عند حسن ظن قرائها وأصدقائها

الكتاب المصريون باللغة الفرنسية

اهتمت الصحافة الفرنسية بالمجموعة التي نشرها المسيو روبير بلوم من نفثات أقلام الكتاب المصريين الذين يكتبون باللغة الفرنسية، وبكتاب « عودة الروح » الذي وضعه الأستاذ توفيق الحكيم، ونقله إلى الفرنسية المسيو موريك برن. فقد نشرت جريدة « البتي باريزيان » في القسم الأدبي مقالا للمسيو جان فينيو الرئيس السابق لجمعية الأدباء تحدث فيها عن كتاب مصر وآثارهم في الفرنسية ووجوب معرفة أسمائهم ومؤلفاتهم باللغة الفرنسية ليطلع عليها القراء في فرنسا، وليأخذ هؤلاء المؤلفون مكانتهم في أسرة الفكر الكبيرة، وقد خص المسيو جان فينيو كتاب « عودة الروح » للأستاذ توفيق الحكيم بقسم من بحثه إذ قال:

« إن هذا الكتاب الحي الطريف موضوع باللغة العربية كما أن كتاب فينيير موضوع باللغة العبرية. وقد نقله إلى الفرنسية موريك برن، وهو من أفضل ممثلي الثقافة الفرنسية في القاهرة. وقد غير عنوان الكتاب بالفرنسية واستبدله بعنوان « رواية نهضة مصر » وهنا وجه لمناقشته في هذا الاستبدال لأن القسم الاجتماعي بل القسم الأدبي والسياسي لا يتألف منهما الكتاب كله. فالمؤلف يستهل كتابه بنكات مسلية عن حياة الطبقة الوسطى في القاهرة — وهي حياة بسيطة ضيقة يعني أصحابها بأمور تافهة — وهم يقولون إن الشرقيين يقفون عند الأمور السطحية الخفيفة ولكن يوجد ثمة عدة حوادث وقعت للشاب محسن المتيم بحب جارته سنية الحسناء، وقد كان يجب أن يراعي جانب الايجاز في الكلام عن هذا الموضوع. ثم إن الحادثين اللذين يطلق هذا التغيد لسانه في الكلام عنهما منصرفاً عن تتمة تصريحاته الغرامية — يستطاع الاستغناء عنهما

وبما أن الموضوع يدور على « عودة الروح » فقد كان يجب أن يبين المؤلف كيف فقدت تلك الروح. وهذه النقطة مصروف النظر عنها، ومهما يكن من الأمر فان القسم الثاني من الكتاب وحوادثه تجري في إحدى ضواحي القاهرة في منزل والدي محسن يظهر لنا أنه أفضل قسم في الرواية، وفيه وصف لوالدي محسن اللذين كانا من أصحاب الأطيان الموسرين، بيد أنهما كانا أنانيين يبالغان الفلاح بقسوة

ولدينا محاورة بين موظف بريطاني وعالم فرنسي تبين لنا الأماني الطامحة التي يمتاز بها هذا الجنس من البشر. فنحن نقرأ في الكتاب بعض عبارات تقتضي التأمل كالحديث الذي دار في القطار الذي سافر به محسن إلى أطيان والده، فان أحد المسافرين وهو مصري الجنسية قال في عرض كلامه عن البلدان الأوربية « هذه بلدان خالية من الأخاء خلافاً لبلادنا حيث نرى الأقباط والمسلمين إخواناً »

وهذا الكلام موضوع نظر يبعث على التساؤل بعد مطالعة « مجموعة الكتاب المصريين باللغة الفرنسية » ورواية توفيق الحكيم عن الأفكار الأدبية الكبيرة، وعما إذا لم يكن الهدف الاسمى الديني آخذاً في الانحطاط عن مستواه الأصلي في العالم، على أن الانسان لا يسعه إلا إبداء الدهش من رؤية فضائل الدين الاسلامي القديمة مفقودة من هذه الكتب المختلفة وعدم اهتمام المؤلفين بها. ولم تنفرد أوربا بافتقارها إلى الحب الحقيقي وهو دون سواه قادر على تجديد شباب الأمم والنفوس »

وقد كتبت السيدة ترز هربان مقالا عن رواية « عودة الروح » نشرته في جريدة « ليجور » وإليك بعض ما جاء فيه:

« إن مصر تظل في نظرنا أرض الماضي وهي ترتبط بحكايات النيل وأسرار الأهرام ولا نزال نسترشد بفنها ودياناتها مدة طويلة وربما ظللنا مدة طويلة أيضاً صارفين النظر عن الاهتمام بحاضرها

« ولا نجد مندوحة عن الاعتراف بالجميل للكاتب العربي توفيق الحكيم وموريك برن مترجم روايته لكشفهما أسرار مصر الأخرى، أي مصر الفلاحين، والطبقة المتوسطة المقيمة في ظلال الرموس المصممة على البقاء في الحياة »

الحياة في القطب الشمالي

يفيد التقرير الأخير الذي أرسله الرفيق « بابانين » رئيس البعثة القطبية العلمية السوفياتية أن هذه البعثة دهشت عند ما رأت بعض الحيوانات والطيور الحية في المحيط المتجمد الشمالي

وقد كتب الرفيق « بابانين » من محطة القطب الشمالي يقول إنه يستفاد « اعتماداً على رواية « نانسن » أن كثيراً من الخبراء يشيرون إلى أن المحيط المتجمد الشمالي خال من الاحياء، على أننا قد شهدنا ظاهرة في غاية الأهمية، ذلك أننا سمعنا في اليوم الذي وصلنا فيه إلى القطب زقزقة طائر، فخيل إلينا في الحال أنه قد جيء به على إحدى الطيارات. على أنه ظهرت هنا بعد ذلك طيور أخرى من أنواع مختلفة

وكان الرفيق شيرشوف (العالم المائي الذي رافق البعثة) يجد دائماً كميات كبيرة من متباين أنواع السمك في مختلف الأعماق »

سرقة لوحة زيتية قيمة من متحف ليبزج

سرقت فى صباح يوم ١٠ أكتوبر الجارى من متحف ليبزج لوحة زيتية للرسام الألمانى لوكاس مولار المعروف باسم لوكاس كراناخ

وتمثل اللوحة المسروقة رسماً فضياً لموسى الكليم وفى يده الألواح التى كتبت عليها الشريعة اليهودية ، وظهر فى مؤخر الصورة الشعب اليهودى

وقد رسمت هذه اللوحة منذ حوالى ٤٠٠ سنة ، وكانت تعد من أثمن اللوحات الموجودة بمتحف ليبزج وتقدر قيمتها بخمسة وعشرين ألف مارك تقريباً

والذى يهمنا معرفته هو أن لوكاس كراناخ هذا فنان ألمانى أصيل ولد سنة ١٤٧٢ بكراناخ فى أوبر فرانكين ، وكان مصوراً خاصاً لقصر الأمير فريدريش العاقل بڤيتيمبرج ، واشتغل بكثير من الأعمال كالصيدلة وبيع الكتب إلى جانب اشتغاله بالفن ، وكان له مصور كبير للتصوير

وقد اختير عمدة لبلدة ڤيتيمبرج المذكورة سنة ١٥٣٧ وكان صديقاً حميماً لمارتن لوثر صاحب المذهب الدينى المعروف ، ومات سنة ١٥٥٣ فى نفس البلدة

وكان كراناخ أهم أستاذ فى الفن الألمانى فى كل منطقة سكسونيا دون نزاع ، وقد غلب على فنه فى أول أمره طابع الدقة والقوة فى إبراز المميزات الشخصية واستمر كذلك حتى سنة ١٥٢٠ إلا أنه بعدئذ تهاون بعض الشىء فى إخراج قطعه فجاءت ناعمة وأقل قوة مما سبقها

والدارس للوحاته يلاحظ أنه كان ميالاً إلى الوجوه المربعة وكثيراً ما جعل سيقان النساء أطول من القدر المناسب

ويعتبر كراناخ مصوراً ألمانياً شعبياً متبسطاً فى اختيار مواقفه تخير ألوانه من تلك التى تميل إلى المرح والبهجة

وله عدة لوحات كثيرة بالزيت وبالقلم الرصاص وبالحفر على الخشب محفوظ معظمها فى ألمانيا وقليل منها فى ڤينا وفلورنسا وغيرها

والعبرة هنا هى أن الزمان لم يمنح مصر بعد فناناً يستطيع تاريخ الفن أن يسجل اسمه من حيث الاتجاه الجديد أو الابتكار أو المقدرة الفذه ؛ ذلك لأننا قوم نسجل لأنفسنا بأنفسنا النبوغ والعبقرية دون حاجة إلى تسجيل التاريخ ا . م

المستشرقون والاسلام

علمنا أن الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حسن رئيس الوفد الذى قام بتمثيل الأزهر فى مؤتمر تاريخ الأديان قد رفع إلى فضيلة الأستاذ الأكبر مذكرة تتضمن أسماء الكتب العلمية التى وضعها المستشرقون فى مختلف المسائل الإسلامية ، وجاء بعضها محرفاً وبعضها لا يفيد حكمة الشارع ، ثم بولغ فى تحريف مدلولاتها ومعانيها على نحو يتعذر معه فهم أحكام الإسلام على وجهها الصحيح

وقد أشار الأستاذ فى مذكرته إلى أن هذه الكتب تدرس فى بعض الجامعات العلمية على أنها صورة صحيحة لما جاء فى الشريعة الإسلامية من أحكام وقواعد ، وبما أن مؤتمر الشريعة الاسلامية — الذى رؤى أن يعقد فى القاهرة — سيتناول بالبحث هذه المسائل ، فمن الواجب أن ندرس هذه الكتب دراسة كاملة لتقول مشيخة الأزهر فيها كلمتها فى هذا المؤتمر

وقد وافق فضيلة الأستاذ الأكبر على هذا وأصدر أمراً إلى إدارة المعاهد الدينية بأن تطلب إلى المكتبات الشهيرة فى انجلترا وفرنسا وألمانيا لتبعث إلى المشيخة بهذه الكتب التى ذكرت فى قائمة خاصة وستؤلف لجنتان إحداهما من كبار رجال القانون وبعض المتضلعين فى اللغات الأجنبية لتطلع على هذه الكتب ولتنقل ماجاء فيها خاصاً بالمسائل الإسلامية إلى اللغة العربية . والثانية من كبار علماء الأزهر لتقوم بوضع الأحكام الصحيحة لهذه المسائل على أن تعد بياناً يشمل جميع الأخطاء التى جاءت فى هذه الكتب ليلقى فى المؤتمر باسم مشيخة الأزهر

فى المجمع اللغوى

وضعت مذكرة لعرضها على صاحب المعالي وزير المعارف بتحديد موعد افتتاح المجمع اللغوي فى دورته الخامسة

وقد تم طبع مجلة المجمع فى دورته الثالثة وستوزع قريباً وبدىء بطبع مجلة الدورة الرابعة الماضية . وسيجرى المجمع في دورته الجديدة على نظامه العادى ، نظراً لتأخر صدور القانون الجديد الخاص بالمجمع ؛ وكان مجلس النواب قد أقر هذا القانون فى دورته الماضية ولكن مجلس الشيوخ أرجأ التصديق عليه إلى الدورة الجديدة

كليات المقاصد والكلية الشرعية

كتب إلينا أستاذ فاضل من أساتذتها يقول :

زار سعادة العشماوى بك وكيل وزارة المعارف المصرية كليات المقاصد والكلية الشرعية التي أنشأها سماحة الأستاذ الكبير مفتى لبنان لتعد الطلاب للدراسة العالية فى الأزهر الشريف ، ولتنشىء الجيل الجديد الذي يجمع بين الثقافة الاسلامية والثقافة الحديثة ، فسر منها سروراً عظيما ، وزار قاعاتها ومكتبتها ، وحضر درساً فى الأدب العربي للأستاذ على الطنطاوى ودرساً للأستاذ الشيخ محمد الماعوق ، فكان إعجابه شديداً ، وأعلن أنه على استعداد لقبول اثنين من طلاب الكلية فى دار العلوم العليا فى مصر بلا امتحان ، فكان ذلك مكرمة عظيمة لسعادته تشكرها له الكلية خالص الشكر ، وترجو أن ترى آثارها الطيبة فى تقدم الكلية وازدهارها ، وتوثيق الصلات بين مصر والأقطار الشقيقة فى أقرب وقت ، ونأمل من الرسالة (المجلة العربية الكبرى) أن تبلغه هذا الشكر على صفحاتها

جمعية فرنسية اسلامية فى باريس

ألفت أخيراً جمعية فرنسية إسلامية فى باريس غايتها تعزيز الصداقة وتنمية العلاقات الفرنسية الاسلامية على قاعدة المساواة بين جميع أعضائها والتعلق المتين باحترام العقائد والآراء والابتعاد عن التبشير

وستتخذ هذه الجمعية مكتباً لها على مقربة من الجامع فتجعله مركز صداقة وتربية وتعاون . وسيؤلف هذا المكتب من : قاعات درس لعمال شمال أفريقيا الوجودين فى منطقة باريس ، ومكتبة تحتوى على مؤلفات فرنسية وعربية ، وغرفة للمطالعة مجهزة بكتب عديدة عربية وفرنسية وقاعات للمحاضرات وعرض الأشرطة السينمائية

وهذا النادى سيعد لأن يصبح مركز ثقافة فرنسوية وعربية وستنتشر فائدته فى فرنسا وأفريقيا الشمالية والشرق القريب بفضل العلماء والأدباء والفنانين والفلاسفة العرب والفرنسيين الذين سيترددون عليه

ذكرى مؤرخ كبير

احتفل أخيراً فى مدينة فالنسين بفرنسا بذكرى المؤرخ الفرنسي الشهير « فراوسار » لمناسبة انقضاء ستمائة عام على مولده إذ أنه ولد على أرجح الروايات سنة ١٣٣٧ ، وقد اتخذ الاحتفال أهمية خاصة ، لأن فراوسار يعتبر فى الواقع عميد المؤرخين الفرنسيين فى التاريخ الفرنسي فهو أول من كتب التاريخ فى فرنسا بروح جديد ، وأول من فهم أن التاريخ شىء أكثر من القصة والرواية ، وقد كان التاريخ حتى عصر فراوسار يكاد يمتزج بالقصة والأسطورة دائماً ، وكان لا يزال خاضعاً لوحى الكنيسة ، وكان المؤرخون هم الرهبان غالباً ، فكان التاريخ مزيجاً من الروايات التى يصوغها رجال الدين حسبما تملى أهواء الكنيسة ، وكانت الملوكية والشعب والحروب والحوادث جميعاً ينظر إليها من هذه الناحية ، ويحكم عليها طبقاً لهذه الروح ، ولكن فراوسار استطاع أن يتحرر من هذه الروح وأن يكتب التاريخ على أنه سجل الحوادث الجارية . وقد دون حوادث عصره فى كتاب شهير يعتبر من هذه الناحية ذا قيمة تاريخية خاصة ، وهو تاريخ فرنسا وانكلترا وعلائقهما فى عصره ؛ ويعرف هذا المؤلف عادة « بتاريخ فراوسار » ، ويعتبر أنه أول مؤلف فرنسي وضع نهج التاريخ الحديث ومهد لتطوره كرواية حرة للحوادث والشئون

ونستطيع أن نقارن فراوسار من هذه الناحية بمؤرخنا العظيم ابن خلدون ، فكلاهما عاش فى نفس العصر ، وكلاهما استطاع قبل غيره أن يفهم روح التاريخ الحقة ، وأن ينظر إليه من ناحية جديدة ، وأن يعامله باعتبار أنه أكثر من قصة ورواية تخضع لتأثير العوامل الدينية أو السياسية ، ولكن ابن خلدون كان بلا ريب أوسع آفاقاً من فراوسار ؛ ولم يرتفع فراوسار أو غيره من المعاصرين إلى تلك الآفاق الرفيعة التى سما إليها ابن خلدون ، والتى جعلت منه أول فيلسوف اجتماعى ، وأول مؤسس لفلسفة التاريخ وأصول الاجتماع

فى نادى القلم العراقى

اجتمع نادى القلم العراقى مساء اليوم الثانى من هـذا الشهر فى دار أحد أعضائه السيد توفيق وهبى وتلا السكرتير رسالة وردت من نادي القلم الانكليزى يطلب فيها ترشيح أحد كبار أدباء العراق لتعيينه عضو شرف أسوة بالأمم الممثلة فيه

فقرر المجتمعون ترشيح معالى الأستاذ الشيخ محمد رضا الشبيبى رئيس نادى القلم العراقى ووزير المعارف لهذه العضوية الفخرية

وقد ألقى فى هذا الاجتماع الدكتور متى عقراوى فصولا من رسالة حول التعليم الاجبارى فكانت مدار مناقشات دقيقة



يوميات نائب فى الارياف

للأستاذ توفيق الحكيم

محاورات أفلاطون

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محفوظ

للأستاذ محمود الخفيف

تفضل الأستاذ الحكيم فأهدى إلىّ كتابه « يوميات نائب فى الأرياف » وكنت قد قرأته فصولا فى مجلة الرواية ؛ بيد أني عدت فتلوته وقد انتظمه مجلد واحد فألفيتني أكثر استمتاعاً به وأكبر محبة له ولصاحبه

المؤلف الفاضل غنى بشهرته عن التعريف ، عرفه جمهور القراء وأحبوه فى « أهل الكهف » ووثقوا مَن مواهبه الفنية في تلك القصة الرائعة وفى أختها « شهر زاد » وزادتهم مؤلفاته بعد ذلك معرفة به ، وارتياحاً إلى فنه ، وابتهاجاً بتوفيقه . والحق عندى أن توفيق الحكيم قد صار فى « القصة المصرية » أحد أعلامها الأفذاذ ، بل لقد خطا بها وهى بعدُ فى طفولتها خطوات سريعة وثيقة حتى لقد غدا فى هذه الناحية « كعبد الوهاب » فى الوسيقى وكالمرحوم « مختار » فى فن النحت ، وحق لمصر أن تفخر به كما تفخر بهما . ولست أعنى بالإشارة إلى « القصة المصرية » تبرزه فيها وحدها فلقد كتب له النجاح فى ذلك الفن فى أوسع حدوده ورأيناه موهوباً كما يقول أهل الفن كما رأيناه يجمع إلى موهبته ثقافة من الطراز الأول . والقصصى يخلق أولا وفيه القصة : فى نفسه أسلوبها وروحها ، وفى رأسه الميل الشديد إلى صوغها واعلانها . وقل مثل هذا عن كل ذى فن

والكتاب الذى أحدثك عنه ضرب من القصة إذا تجاوزنا عن أصولها المصطلح عليها فهو كما ترى اسمه « يوميات » . غير أن الأستاذ قد ألبسه ثوب القصة فى مهارة عجيبة تعد فى ذاتها ناحية من نواحى نبوغه فى هذا الفن . فقد جعل من « ريم » ومن حادثة مقتل « قمر الدولة » سلكا ينتظم أجزاءها ويتسلط على القارىء من أول الكتاب إلى آخره ؛ ويمكنك أن تعتبرها نوعاً من القصص « الاصلاحى » على نحو ما كان يجرى عليه دكنز فى فنه وما كان يتوخاه منه ، وهنا نرى من الأستاذ الحكيم مسلكا جديداً فى القصص لم ينزل به عن مستواه في مسلكه السالف فى أهل الكهف وشهر زاد ، تلك الناحية الفلسفية التى حلّق بها فى أفق عال فسيح . أجل رأينا في هذا الكتاب من مستلزمات الفن ومن آياته ما يعجب ويطرب ! رأينا أولاً عنصر التشويق كما تجلى فى خلق حادثة القتل ثم إخفاء القاتل والبحث عنه ، وكما يتجلى فى شكل أدق وأجمل من ذلك الوصف الشعرى الجميل الفائق لتلك الفتاة الريفية « ريم » ذلك الوصف الذى عطف عليها القلوب ، وجذب إليها النفوس ، وأكسب القصة مسحة من الجمال السامى كانت تظهر فيه نظرات الأستاذ الفلسفية ؛ ورأينا كذلك فى القصة عنصر الفكاهة ناضجاً حلواً تسيغه الأفئدة وتعلق به ، كما رأينا دقة الوصف وشموله فى غير التواء أو تعقيد ؛ ورأينا خبرة الأستاذ بالوسط الذى يكتب عنه تلك الخبرة المدهشة التى لم يدق عنها معرفة العبارات المحلية التى كان يجريها على ألسنة أشخاصه على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم وفصائلهم . هذا إلى وصف الأشخاص أنفسهم حتى لكأنك تراهم وتستمع إليهم . وها أنذا أحد أبناء الريف أشهد ما وجدت في وصفه شذوذاً ولا لمحت فيه مسحة من خيال . ورأينا فى القصة إلى جانب ذلك كله النقد الصحيح الذى يرضيك ؛ نعم قد يحسب بعض القراء ممن لم يروا مثل هؤلاء الأشخاص الذين وصفهم الأستاذ ، كالقاضى الأهلى والقاضى الشرعى مثلاً أن عنصر

« الكاريكاتير » زائد في بعض أوصافه ، ولكن الذين رأوا في الحياة مثل هؤلاء شهدوا له بالصدق ، وأعجبوا بطريقته وطلبوا منها المزيد فوق هذا كله أو قل بهذا كله تحققت للكتاب ناحية فريدة وهو أنه سجل لعصر من عصورنا ، فيه كثير من ألوان حياتنا في بيئة من بيئتنا ، سوف تقرأه الأجيال المقبلة وترى فيه من نواحي اللذة ما يحببه إليها ويكسبه بذلك طول الحياة . ولن أفرغ من هذه العجالة دون أن أطلب ملحاً من الأستاذ الحكيم أن يجرى قلمه على هذا النحو في نواحي حياتنا الأخرى فيرينا يومياته في بيئة الموظفين مثلاً في « الدواوين » أو في غيرها من الجهات فما أحوجنا إلى هذا النوع من القصص يجرى به قلم فنان

***

أنتقل بالقارئ بعد ذلك إلى الكتاب الثاني « محاورات أفلاطون » وقد اضطلع بنقله إلى العربية الأستاذ زكي نجيب محمود ونشرته لجنتنا المباركة الناهضة « لجنة التأليف والترجمة والنشر »

عمل الأستاذ زكي كما ترى عمل المعرب ، وقد يحسب البعض أن التعريب أمر هين لا يكلف صاحبه عناء ، ولا يكشف عن مقدرة أدبية ؛ ولكن الذين مارسوا هذا العمل والذين يقدرون الأمور حق قدرها ، يعرفون أنه من أشق الأعمال ومن أقطعها حجة في معرض التدليل على المقدرة والكفاية الثقافية ؛ وحسبك أن تذكر ما بين اللغات من تباين وتفاوت في الأساليب والتراكيب والاصطلاحات والمجازات وغيرها من ضروب التعبير ، وأن تذكر ما تفتقر إليه اللغة العربية من الألفاظ التي تقابل ما استحدث من الألفاظ العلمية في اللغات التي تنقل عنها ، لتعلم مقدار الجهد الذي يعانيه المعرب

وفوق ذلك فهناك ما هو أهم من اللغة في ذاتها ؛ هناك أصول الترجمة الصحيحة وما تتطلب من شروط ، وأهمها في رأيي الإلمام التام لا باللغتين فحسب ، فذلك قد يتوفر للكثيرين ، ولكن الإلمام التام بالفن الذي يترجم . وعندي أن الذي يتعرض لترجمة فن من الفنون لا يفهمه حق الفهم ، إنما يكون كسالك الصحراء أضلته دروبها أو ذهب بلبه فضاؤها الشاسع وقد جهل صواها ، وتاه عن مبدئها ومنتهاها . أما الذي يترجم عن فهم وخبرة ووثوق من الموضوع فإنه كالربان الماهر عرف وجهته واتخذ إليها سبيله ؛ ثم يكون لفهم الموضوع من فهمه هذا ما يعينه على التعبير الصحيح ، وما يجعل اللغة ذاتها طيعة في يده مواتية له فلا يتعثر ولا يقف ولا تظهر في عمله الركة ولا يشوبه الإبهام والتناقض والاضطراب

والأستاذ زكي كما عرفته من قرب وكما عاشرته وصاحبته فيلسوف بطبعه ، لا ترى الفلسفة فيه أثراً من آثار الثقافة فحسب ، بل هي مظهر من مظاهر الطبع قبل هذا . تحدثه في أي أمر فيفلسفه ، إن صح هذا التعبير ؛ لذلك كان شغفه بالفلسفة ومسائلها نتيجة ميل ذاتي ، وذلك لعمري سبيل العلم الصحيح . والذين لا يعرفونه إلا فيما كتب يشهدون له بطول الباع في هذه الناحية . وهل نسينا فصوله الممتعة في الرسالة ؟ وهل نسينا كتابيه اللذين اشترك في وضعهما مع الأستاذ العلامة أحمد أمين وهما « قصة الفلسفة اليونانية » و « قصة الفلسفة الحديثة » ؟

إذا عرفت هذا عن زكي ، وعرفت معه أنه متين في لغته ، ضليع في الانجليزية ، أدركت مقدار نجاحه في ترجمة هذا الكتاب الذي أحدثك عنه . الحق أني معجب بهذه الترجمة ، محتكم فيما أقول إلى الذين قرأوا الكتاب فصولاً متتابعة في الرسالة قبل أن يجمع في سفر . ذلك أني أخشى أن يحمل البعض كلامي على المجاملة لما بيني وبين زكي من صداقة . وإذا كانت عين الرضى عن كل عيب كليلة ، فتلك العين من ناحية أخرى ترى من المحاسن ما يخفى على غيرها وما يدق على أي عين سواها على أني لو وجدت في تلك الترجمة عيباً ما ترددت في ذكره بل وفي ابرازه

هذا عن الترجمة ، أما عن الكتاب في ذاته فهو من تلك الكتب التي يعد نقلها إلى لغة معينة خدمة جليلة لتلك اللغة هذا لأنه من كتب الثقافة العالية التي أحدثت أثراً كبيراً في النهضات الفكرية للأمم التي ترجمته . وحسبك أن ترى سقراط كما يصوره تلميذه أفلاطون في ذلك الحوار ، وأن ترى طرفاً من فلسفته في الأخلاق والحياة الانسانية ، وأن ترى أسلوبه في التفكير وتلمس أوجه الصواب فيما يطرق من مسائل ، وأن ترى خلقه القويم وتحس عظمة روحه وقوة نفسه ؛ ونقل ذلك الكتاب إلى لغتنا بالذات مكمل لناحية من نواحي النقص من ثقافتنا ولذلك فهو مظهر من مظاهر نهضتنا الفكرية الحديثة

الخفيف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧

5 me Année, No. 225

Lundi - 25 - 10 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٢٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ شعبان سنة ١٣٥٦ — ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

أى زمان هذا ؟ !

فرغ الشيخ منصور من قراءة « الأهرام » ثم ألقاها من يده الراعشة على الوسادة وقال بلهجة الساخط القانط : « أى زمان هذا ؟ » هل أتى أمر الله وقامت القيامة ؟

وكنا خلياه لنفسه ساعة شغلها بالنظر فى الجريدة ، وشغلناها فى شأن من شؤونه . فلما تحرك هذه الحركة العصبية ، وقال هذه الجملة التعجبية ، أقبلنا عليه نستفهم الأمر ونتأول الحديث .

والشيخ منصور هـذا فقيه نابه من فقهاء الأزهر القديم ، قضى عمره [1] فى خدمة الدين وعلومه وهو على الحال القروية الأولى من بساطة الطعام والمنام والملبس ، فلم يشك داء ولم يشرب دواء قط !

أولاده مثقفون مترفون ، يشغلون المناصب الرفيعة ويسكنون المنازل الأنيقة وينعمون بمتع الحضارة ؛ ولكنه لايزال هو وزوجه الشيخة يعيشان فى دارهما العتيقة فى حى الباطنية على النمط الأول : يأتدمان بالفول ، ويتفكهان بالتمر ، ويستصبحان بالزيت : ولا يخرجان — إن خرجا — إلا لصلة

(١) العمران ثمانون سنة

رحم أو لزيارة ضريح . والشيخ لاينفك يحمد الله على أنه لم يركب سيارة ، ولم يغش قهوة ، ولم يشهد حفلة ، ولم يتعلق بشئ من أسباب الدنيا إلا بما لابد منه لسلامة البدن والدين ؛ فلولا أنه يقرأ الصحيفة كل صباح ، ويسمر مع نفر من تلاميذه كل مساء ، لكان بينه و بين هذا العالم المتغير « كمال الانقطاع » . وهو اليوم يدخل فى خدود التسعين من سنيه قطيعَ القيام قعيدَ الغرفة ، إلا أنه سليم الحواس شاهد اللب ؛ ويرى أن الفضل فيما يتمتع به من طول العمر وبقاء الجسم وفراغ البال ، إنما يرجع إلى الإيمان بحكمة الله والرضى بقسمة القدر . وبلغه أن قوماً من العلماء يسكنون فى أحياء الأغنياء ، ويستطيلون على الناس بالجاه والثراء ، وأن أحدهم بلغ من ترفه وسرفه أن اشترى ثلاجة بعشرة جنيهات ، فاستهال الخبر ، وتعاظم الأمر ، ثم بكى وقال : ياحسرتا على الدين والعلم ! إن العالم إذا امتلأت عينه من الدنيا ، فرغ قلبه من الدين !

سأله أحدنا : ماذا قرأت يا مولانا في الجريدة فأنكرته على الزمان ؟ فأجاب بلهجته تلك :

« حرب داخلية فى الغرب ، وحرب خارجية فى الشرق ، وحرب عالمية تترقب فى البحر ، وتتوثب فى البر ، وتتنزى على ألسنة الساسة المساعير من أبناء المدنية وربائب الحضارة ؛ ثم سقوط الفرنك فى سورية ، وحبوط السياسة فى فلسطين ، وهبوط القطن فى مصر ، وقنوط الناس فى كل مكان من صلاح الحال وانفراج الأزمة ؛ ثم وباء الدنج الذى يؤازر الملاريا والأنفلونزا على خمود الحياة وشل الحركة . لقد كنا لا نرى الموت إلا حيث تكون الشيخوخة الفانية ، ولا نسمع بالمرض إلا قُبيل الموت المرغوب ، ولا نعرف من الأطباء إلا طبيب المركز يوم يزور القرية كل أربع سنوات ، فيأمر بتسوية التلال ، وكنس الأزقة ، ورش الحيطان الخارجية بالجير ؛ وكانت النفوس راضية مطمئنة تسبح فى فيض من نعم السلام والدعة ، لا يُمرضها حقد على إنسان ، ولا يقلقها حرص على شئ ؛ وكان الناس لا يعلمون عن أوزار الحرب إلا ما يتسقطون من أنبائها الحين بعد الحين بين العثمانيين والمسكوف ؛ وكانت السلامة أدوم ، والأعمار أطول ، والأرزاق أيسر ، ورحمة الله أقرب ، وأمة الرسول بخير

أما اليوم فكأنما أصاب الناسَ سُعار من الجحيم فلا يبرحون بين عمل دائب ، وهم ناصب ، وطمع شره ، وتنافس دنئ ، وعداوة راصدة . ثم فشا الطب ففشا المرض ، وانتشر العلم فانتشرت الجريمة ، وفاض الخير وغاضت البركة ، واستبحرت المدنية المادية فخفَتَ بين ضجيجها الآلى صوت الضمير ، وهلك فى عبابها المزبد سلام النفس . وكان الظن بالمدنية والعلم أن ينزعا من نفوس بنى الإنسان غرائز الحيوان ، ويهيئا لهم حياة الجنة التى حرمتهم إياها رذيلة الطمع . فهل رُفع الإيمان من الأرض حتى عم الناس هذا البلاء ، وأصاب العلماء منه ما أصاب الجهلاء ؟

فقلت له ياشيخنا ! كان عدد الناس فى صدر أيامك قليلاً ، وخير الله بالنسبة إليهم كثيراً ؛ فكانت الحياة وادعة ، والنفوس قانعة ، والجوارح عَفَّة ، والجوانح سليمة . و براءة الصدور من الحسد تصل قطيعة القلوب بالألفة ، و ترفه لغوب العيش بالمعونة ؛ وخلو البال من الهم يدفع المرض عن الجسم ، ويصد الرذيلة عن الروح . فلما جاءت المدنية الكاذبة وفرت وسائل الصحة ، ومدت أسباب الأمن ، فزاد النسل أضعافاً مضاعفة ، وكثرت الحاجات كثرة فاحشة ، فتزاحم الناس على موارد الرزق ، وتكالبوا على موائد العيش ؛ ثم أيأستهم هذه المدنية من عزاء الدين ، وشككتهم فى ثواب الله ، وأرابتهم فى غَناء الخُلق ، فعادوا فى حضارتهم الزاخرة بعجائب العلم كأوابد الوحش ، لا يقودهم إلا غريزة الحى ، ولا يحكمهم إلا قانون الحياة . والله وحده يعلم كيف المصير

فقال الشيخ منصور فى تسليم المصدق واستسلام المؤمن :

« الأمر لله يا بنى ! لا يقع فى ملكه إلا ما يريد . نسأله تعالى أن يبقينا فيكم على سلامة ، ويخرجنا من دنياكم على خير »

احمد حسن الزيات

الحظ المعاكس

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

الذين يعتقدون أنهم مضطهدون فى الحياة وأن كل من فى الدنيا وما فيها من ناس وأشياء يناوئهم ويكيد لهم ويناصبهم معذورون، وإن كان الأطباء يقولون إن هذا مرض؛ فقد تتوالى المصادفة على وتيرة واحدة لا تختلف أو تتنوع حتى يكبر فى وهم المرء أن هناك عمداً، فيروح يعذر ابن الرومى الذى حكوا أنه كان إذا رأى النوى مبعثراً أمام باب البيت ردّ داخلاً ويقعد عن التصرف فى يومه ذاك إيثاراً لطلب السلامة مما يتوهم أنه لا محالة ملاقيه من السوء والشر

حدث يوماً أنى بكرت فى القيام من النوم ليتيسر لي أن أكتب ما ينبغي أن أكتبه فى ذلك اليوم، ثم أخرج لقضاء عدة حاجات لا سبيل إلى إرجاء واحدة منها. فأما الكتابة فاستحالت لأن الآلة الكاتبة تعطلت لعلة لم أستطع أن أهتدى اليها، ولأنى لم أجد فى البيت كله لا حبراً ولا قلماً ولا شيئاً مما يستطيع المرء أن يكتب به، فابتسمت — فما بقيت لى حيلة — وقلت: «صدق المثل ... باب النجار مخلع» وحدثت نفسى أن هذا يفسح الوقت لقضاء الحاجات الأخرى، فارتديت ثيابى وخرجت من الشقة متوكلاً على الله، فلم أكد أضع رجلي على الدرج حتى زلت قدمى، فنهضت متوجعاً على يدى ورجلي فقد هاضنى الاصطدام بالدرجات وحدثت نفسى أن ساقى على الأقل لا ينقصها هذا الرض الجديد، ثم نفضت التراب عن ثيابى — بحكم العادة فان السلم نظيف — ومضيت متحاملاً على نفسى إلى «الجراج» ولكن السيارة أبت كل الاباء أن يدور محركها. ولست حديث عهد بالسيارات ولا أعرفني عجزت عن علاج حرانها إذا كان لأسباب عارضة، ولكن الأمر استعصى على فى ذلك الصباح حتى كدت أجن، فتركتها واستأجرت سيارة وفى ظنى أنها أسرع من الترام وما إليه، فلم نكد نقطع كيلو واحداً من الطريق حتى عرض للسائق راكب دراجة خرج فجأة من زقاق، فأراد السائق أن يتقى أن يدوسه ويزهق روحه فاصطدم بحافة الرصيف وكاد يقتلني أنا أو يحطمني على الأقل. فنقدت الرجل ما استحق من الأجر وقلت: الترام أسلم وكنا عند محطته، فوقفت ثلث ساعة أنتظره وهو لا يجيء لسبب لا أدريه؛ وأنا أحتمل المشى مهما طال، ولكنى لا أحتمل الوقوف خمس دقائق، فأحسست أن بدنى قد تضعضع وأن ساقيّ أصبحتا لا تقويان على حملى، وإن كنت دقيقاً خفيفاً — وزناً لا دماً — ورأيت مركبة خيل مقبلة فأسرعت إليها وركبتها، والقارىء أعرف بمركبات الخيل، وأكبر الظن أنه رأى كيف ينام الجواد وهو يوهمك أنه يجر المركبة ... ما علينا ... سرنا دقائق بسرعة كيلو وربع في الساعة وإذا بالترام الذى نفد صبرى وتهدم جسدى وأنا أنتظره يدركنا ويمر بنا كالبرق الخاطف ويتركني أتحسر على العجلة التى صدق من قال إنها من الشيطان لعنه الله. وأوجز فأقول إن كل باب طرقته فى ذلك اليوم الأسود ألفيته مسدوداً، وإن كل رجل أردت أن ألقاه وجدته مسافراً أو مريضاً، فأقصرت خوفاً على الباقين الذين كنت أريد أن أقابلهم أن يدركهم الموت. ولا شك أن ابن الرومى كثرت تجربته لأمثال هذه المصادفات فصار يؤثر اختصار الأمر والنكوص من البداية اتقاء لمانات الخيبة التى مل تكررها ولم يكن يجد فيها لذة وله العذر

وأذكر أنه كان معنا فى المدرسة الابتدائية تلميذ مجد مجتهد وذكى بارع، وكان حرياً بالنجاح والسبق فى أى امتحان، ولم يكن لأحد منا أمل فى مزاحمته، ولكنه كان قبل كل امتحان يصاب بمرض يقعده عن أداء الامتحان. وكنا نحن على نقيضه لا نصاب بمرض حتى ولا بزكام خفيف، وكان يتفق أن ينذرنا المدرس أنه مختبرنا غداً مثلا فى الجغرافيا فتهبط قلوبنا إلى أحذيتنا؛ فقد كانت الجغرافيا أثقل ما نتلقاه من المعارف والعلوم فى المدارس الابتدائية لأنها كانت عبارة عن أسماء خلجان وأنهار وجبال ورؤوس وبلدان ليس إلا؛ وكان حفظ هذه الأسماء التى لا آخر لها يسود نور الضحى فى عيوننا، ولا أعلم ماذا كان يفعل سواى، ولكنى أعرف أنى كنت أنشد المرض بكل وسيلة أعرفها فأروح أقف ساعة وساعتين فى تيارات الهواء، وأصب الماء البارد على رأسى فى الشتاء وأتركه مبلولا للهواء وفى مرجوى أن أزكم أو أحم فلا يحدث من ذلك شيء، وأضطر إلى الذهاب إلى المدرسة فما بى بأس يصلح أن يكون مسوغاً للتخلف وأعاني

الاختبار الذى أنذرنا به ، وألقى جزاء العجز عن الحفظ ، وتمضى الأيام وأنا صحيح معافى ، وإذا بأحد المدرسين يبشرنا أنه سيذهب بنا إلى حديقة الحيوانات فى يوم كذا فنفرح ونعد طعامنا ونمنى النفس بيوم جميل نلعب فيه وننط ونمتع العين بمنظر القرود والفيل ذى الخرطوم — أبو زلومة كما نسميه — والأسود . ويصبح الصباح الذى أحلم به فأهم بأن أرفع رأسى عن الوسادة فاذا به أثقل من حجر الطاحون ، فأستغرب وأتحسسه فلا أجده مشدوداً إلى شىء ، فأسأل أمى فتقبل على وتجسنى ثم تقول : « أنت سخن . . لا بد من شربة حالاً » فأصيح : « ولكن كيف أذهب إلى جنينة الحيوانات إذا شربت شربة ؟ » فتقول : « جنينة الحيوانات ؟ إنت مجنون ؟ نم نم ... لا جنينة الحيوانات ولا غيرها ... » فأتحسر وأقول لنفسى : « بقى يا رب تشفينى يوم امتحان الجغرافيا وتمرضنى يوم جنينة الحيوانات ؟ الأمر لله » وأرقد وتجىء الشربة فأتجرعها بكرهى ، وبعد ساعتين اثنتين تهبط درجة الحرارة إلى الحد الطبيعى

ومن غرائب الدنيا أن فيها متزوجين يسخطون على نسائهم ولا يريدونهن — ولا يدرى أحد لماذا تزوجوهن إذن — ورجالا يطلبون الزواج ولا يجدون النساء الموافقات ، وفقراء لا يكادون يجدون الكفاف ولهم من البنين تسعة أو عشرة أحياء يأكلون الزلط كالنعامة ؛ وأغنياء يسر الله لهم الرزق وأدر عليهم أخلاف الثروة يشتهى الواحد منهم أن تكون له طفلة واحدة ولو كانت عوراء أو كسيحة . وترى بنات دميات ثقيلات الدم والروح يتزاحم الشبان عليهن ويطرحون أنفسهم تحت أقدامهن وهن لا يردنهم ولا يشجعنهم ويرفضن أن يكن زوجات لهم وإن كانوا صالحين وأحوالهم حسنة وسيرهم مرضية . وترى بنات جميلات رشيقات ممشوقات يفتن العابد بالحسن والظرف وحلاوة الطبع وطيب الحديث وبراعة الذكاء ، ولكنهن مسكينات لا يرعب فيهن أحد ولا يتألهن مخلوق ولا يحلم بوجودهن لا شاب ولا كهل . قالت لى مرة واحدة من هؤلاء الجميلات المسكينات — أعنى المنبوذات — إن أغلب ظنها أن العنس هو كل حظها من الدنيا . فتألمت وقلت لها : « يا شيخة حرام عليك ... أهذا كلام تقوله شابة فى العشرين من عمرها ؟ » قالت : « هذا اعتقادى ... وأى شىء هناك يغرى بالأمل ؟ . . إن الناس يطلبون المال » قلت : « مالك جمالك وعقلك وحسن تدبيرك وأخلاقك الطيبة » قالت : « أشكرك ولكنك لن تستطيع أن تحيى أملاً مات ... إنى أدرى منك ... » فتذكرت فتاة هى مثال مجسد للدمامة وثقل الدم وقلة العقل فقلت : « إذا كانت فلانة قد وفقها الله إلى زوج صالح كريم ... » فقاطعتنى وقالت : « هــذا هو الذى يحدث دائماً ... أليس حظ فلانة هذه مدهشاً ؟ من كان يتصور ؟ ألهم لا اعتراض ... » قلت : « إنك ما زلت صغيرة فاصبرى » قالت : « بالطبع ... ثم إنه لا حيلة لى إلا الصبر ولكنه لا يسعنى إلا أن أرى وأتعجب ... هل تعرف إن كل من زارتنا خاطبة — وإن كانت لم تصرح ببواعث الزيارة — ذهبت ولم تعد ؟ . . وليس هذا فقط بل بحمنا من معارفنا أن هؤلاء الزائرات الخاطبات عبننى بكيت وكيت (وذكرت لى عيوباً ليس فيها شىء منها) وإن كل حديث جرى مع أبى فى أمر زواجى انتهى بالانقطاع بلا سبب نعرفه » فلم يسعنى إلا أن أرثى لها . فليس كل ما تعانيه إبطاء الحظ عليها بل شر من ذلك الإيلام الذى تحدثه صدمة الخيبة كلما نشأ الأمل . وقد كان من أثر ذلك أنها صارت تجنح إلى التمرد أحياناً على المجتمع وعلى حالاته وما يكون بين الناس فيه ؛ فلولا أن لها من عقلها وحسن تربيتها وازعاً قوياً ...

وقالت لى مرة وأنا ماض بها إلى بيت خالة لها : « شف ... أنا لا أخرج قط إلا مع أبى أو أخى أو معك أحياناً .. ولكنى واثقة أن الناس يعرفون وجهى ولا يعرفون صلتك بنا سيروننى اليوم وواثقة أيضاً أنهم سيعتقدون أنك ... أنك ... غريب .. وأنى خارجة معك للنزهة أو ... وأنى بالاختصار بنت فاسدة الأخلاق ... وواثقة فوق هذا أنهم سيمسون بأن يذيعوا هذا عنى كأن لهم ثأراً عندى ... فما رأيك ؟ »

فقلت لأخفف عنها : « المصيبة واحدة ... أنا أيضاً رجل تقى ورع أخاف الله وأتقيه ولى زوجة وأولاد ؛ وأنا واثق أن ناساً يعرفوننى ولا يعرفونك سيروننا فيقول كل منهم فى سره أولصاحبه : شف ... شف ... أما إن معه لبنتاً !!! يا ابن الـ ... »

فضحكت فقالت : « هذا أحسن ... ليس فى وسعنا أن نصلح الكون إذا صح أن به حاجة إلى الاصلاح ، ولكن فى وسعنا دائماً أن نتلقى ما تجىء به الحياة بابتسامة حلوة كابتسامتك وإن لم يرزق كل إنسان مثل هذا الفم الجميل »

وهكذا الدنيا دائماً ...

ابراهيم عبد القادر المازنى

في تاريخ الجمعيات السرية

طائفة سرية عجيبة

تعيش في عصر المدنية بأساليب همجية

تتمة البحث

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان عهد القيصر اسكندر الأول أصلح عهد لنمو الحركات الروحية السرية في روسيا . ففيه أنشئت في بطرسبرج عدة محافل سرية لمزاولة الشعائر والتجارب الروحية ، وكان قوام هذه الحركة عدة من سيدات الطبقة العليا مثل البارونة بكشفدن ومدام تاتاريبوفا . وكان الأكابر والخاصة يشهدون هذه الحفلات الروحية التي اشتقت رسومها وشعائرها من رسوم بعض الجمعيات السرية الوثنية قبل جمعية « أهل الله » وطائفة « سكوبتسى » ذاتها ؛ ووقع القيصر نفسه تحت تأثير البارونة فون كرودنر الشهيرة ، وهي سيدة اشتهرت يومئذ بنزعتها الصوفية والروحية وكان لها أكبر الأثر في توجيه سياسة القيصر ، وفي سير الحوادث والشئون ؛ وكان القيصر يعتقد أن مؤازرة هذه الحركات الروحية هي خير وسيلة لمكافحة حركة البناء الحر (الماسونية) والجمعيات السرية الأخرى التي كانت منها طائفة « سكوبتسى » ، ولكن طائفة « سكوبتسى » أو طائفة المجبوبين لقيت في عهد اسكندر الأول كما قدمنا فترة صالحة للنمو ، واستطاعت بما خول لها من الحرية والتسامح أن تلم شعثها ، وأن تنشط لإذاعة مبادئها ، واستطاعت بالأخص أن تنفذ إلى الطبقات المستنيرة التي لم تصل إليها من قبل . وغدا سليفانوف في شيخوخته كأنه ملك غير متوج يحج إليه الوفود من كل صوب ، وتنهال عليه العطايا والمنح ؛ وكثرت أموال الطائفة ، واشتد نفوذها ، وقدم اليانسكي وهو زعيم الطائفة الفكري إلى كبير الوزراء رسالة وضعها عن مبادىء الطائفة ومثلها ، وفيها يبرر إجراء « الجب » بحرارة ، ويقترح على القيصر مشروعا للاصلاح السياسي تنقل بمقتضاه السلطة الفعلية إلى طائفة « المجبوبين » ، ويبقى القيصر رئيس الدولة بالاسم تحت زعامة سليفانوف الروحية ؛ فأثارت هذه الجرأة اهتمام القيصر وحكومته بأمر المجبوبين مرة أخرى ، وقبض على اليانسكي ، وسجن في أحد الأديار . أما سليفانوف فقد ترك حراً نظراً لشيخوخته وضعفه ، بعد أن وعد بالكف عن الدعوة إلى الجب والاقتصار على الدعاية الروحية

على أنه لم يف بهذا الوعد ، بل استمرت الدعوة الهمجية وذاعت بين طبقات كثيرة ، واعتنقها عدد من الأغنياء وذوي النفوذ ، وبلغ عدد المجبوبين في هذه الفترة آلافاً كثيرة . وانتظم في سلك الطائفة يومئذ وصيف سابق للامبراطور بطرس الثالث (فيدوروفتش) يدعى كوبليف ، وأخذ يؤكد أن سليفانوف إنما هو القيصر بطرس بلا مراء ، وأن القيصر اسكندر يعرف جيداً أن جده يعيش بين المجبوبين منذ عهد بعيد ؛ وأسبغ سليفانوف على هذا الداعية لقب « النبي » ؛ وهكذا أصبح سليفانوف يزعم أنه المسيح وأنه القيصر معاً

واكتشف حاكم بطرسبرج الكونت ملورادفتش أن ابني أخيه قد وقعا في شرك « المجبوبين » وأن أحدهما قد كابد بالفعل عملية الجب فثار سخطا ؛ وضاقت حكومة القيصر ذرعاً بهذا الاجتراء المجرم الذي لم تنج منه حتى طبقة النبلاء ، فانتدبت في سنة ١٨٢٠ لجنة سرية للتحقيق . وبعد البحث قررت قرارها على اعتقال سليفانوف . وفي الحال اعتقل الداعية ، ولكن في رعاية ورفق ، وألقى في دير سوزدال ؛ فارتاع أنصاره ، وحاولوا السعي لإطلاق سراحه ، ولكن الحكومة كانت هذه المرة جادة ثابتة العزم . ولما رأى الزعماء أن السلطات تتربص بهم وترقب حركاتهم عمدوا إلى أساليب السرية القديمة ، وأخذوا يعملون في الخفاء ، ويتظاهرون بأنهم من أخلص أنصار الكنيسة ، ولكن السلطات قبضت على معظم زعماء الطائفة وزجتهم في مختلف الأديار والقلاع . وتوفي سليفانوف في معتقله سنة ١٨٣٢ ؛ ولكن « المؤمنين » يعتقدون إلى اليوم أنه حي ، وأنه سيعود ليتولى السلطات في روسيا ويقيم يوم الحساب على نحو ما يعتقد الدروز في عودة الحاكم بأمر الله

ولم يخمد نشاط هـذه الطائفة السرية العجيبة خلال القرن التاسع عشر ، بل لبثت دعوتها تتسرب إلى جميع الطبقات ؛ ونفذت الدعوة إلى الجيش بكثرة ، وا كتشفت السلطات مئات من « المجبوبين » فى كرونستات وفى القوقاز ، وأمر القيصر أن تؤلف من هؤلاء الخصيان فرقة خاصة فى الجيش . وفى سنة ١٨٤٢ قدم جند هذه الفرقة إلى القيادة بلاغاً قالوا فيه إنهم لا يعترفون بالقيصر ، وإن القيصر الحقيقى هو بطرس الثالث الذى اعتقل فى سوزدال وأعلنت وفاته كذباً ، فقبض على زعماء الفرقة ونفوا إلى سيبيريا

وتوالت محاكمات دعاة « السكوبتسى » خلال القرن التاسع عشر ، وأدمجت فى قانون العقوبات الروسى العقوبات الآتية : وهى أن يعاقب الشخص الذى يقوم بتشويه نفسه بالنفى إلى سيبيريا ؛ ويعاقب الذى يقوم بتشويه (بخصى) شخص آخر بستة أعوام فى الأشغال الشاقة ؛ ويعاقب الدعاة بالنفى إلى سيبيريا ؛ ويعاقب الشخص الذى يقوم بإيواء الدعاة فى منزله عقاب مرتكبى جريمة التشويه

ومن أشهر قضايا « المجبوبين » فى هذه الفترة ، محاكمة وقعت سنة ١٨٦٩ أمام محكمة جنايات تمبوف ، وفيها حكم بالنفى على مكسيم بلوتتزين ، وهو تاجر غنى كان يأوى فى منزله تسع نساء مشوهات ؛ ذلك أن هذه الطائفة البربرية كانت تجتذب إليها النساء أيضاً ، وكان تشويه النساء يجرى بقطع أجزاء من الثديين أو بانتزاعهما ، وكذلك بتشويه أعضاء أخرى ؛ وكان يخرج من هؤلاء النسوة المشوهات بين آونة وأخرى «مريم» تزعم أنها أم المسيح المزعوم . وكان بلوتتزين من أكابر الدعاة ، وكان يعتبر من «أنبياء» الطائفة وله نفوذ عظيم فى الولاية كلها . وفى سنة ١٨٧٦ ، كانت محاكمة رنانة أخرى أمام محكمة جنايات مليتوبول ، وفيها ظهر أمام القضاة مائة وستة وثلاثون مجبوباً حكم على معظمهم بالنفى . وكانت هذه المحاكمة الشهيرة خاتمة حركة سرية واسعة النطاق تمدت حدود روسيا إلى رومانيا ، وذهب ضحيتها مئات من الفلاحين والعمال . وكان الدعاة قد أخذوا إزاء اشتداد المطاردة فى روسيا يتسربون إلى رومانيا وهنالك أسسوا لهم « محافل » سرية فى ياسى وجلاتز ؛ وظهر فى جلاتز بين الدعاة شخص يدعى ليسين وهو روسى من موسكو ، وكان يمتاز بنوع من الهيام الصوفى ، فالتف المؤمنون حوله ولقبوه « بالمنقذ » وزعموا أنه القيصر بطرس الثالث . وصرح ليسين لأنصاره أنه أعظم من المسيح ، لأنه أتى لأجل المجد وليس كالمسيح لأجل المأساة ، وأسبغ صفة الأنبياء والحواريين على عدة من أنصاره ؛ وذاعت الدعوة الجـديدة فى رومانيا بسرعة ، وهرع الخصيان من كل صوب لتحية المسيح الجديد ؛ وبعث ليسين رسله يبشرون بقيامه ؛ ثم سار بنفسه فى حفل من أنصاره إلى بطرسبرج ليقدم نفسه إلى « القيصر الظاهر » ؛ ولـكنه اعتقل مع زملائه فى الطريق ؛ وقامت السلطات بتحقيق واسع النطاق فى أمر المجبوبين استغرق أربعة أعوام ، وقدم إلى محكمة مليتوبول مائة وستة وثلاثون متهماً ، وكان جلهم من الفلاحين ومعظمهم شبان ومنهم شيوخ قلائل وأحداث لم يجاوزوا الخامسة عشرة ؛ وكانت فى الواقع أشهر محاكمات هذه الطائفة السرية المدهشة

واعترف بعض «الأنبياء» المتهمين أثناء المحاكمة بكثير من أسرار الطائفة وإجراءاتها ورسومها الوثنية ؛ ولـكن ليسين « المسيح والقيصر » صرح أمام قضاته بأنه غير مذنب ، وأن المؤمنين قد اختاروه وفقاً للنبوءات المقدسة ، وأن رسل الطائفة يبشرون بالمسيح الجـديد وفقاً لتعاليم الانجيل ، وأنه لا يزال على عقيدته مخلصاً لمبادئه ورسالته ، وأنه منذ شبابه يبحث عن السلام والحقيقة فلم يجدها إلا لدى طائفة «سكوبتسى» ؛ وألقى آخرون من الدعاة تصريحات روحية وفلسفية ، وأشادوا بنقاء المثل التى ينشدها المجبوبون ؛ وقضت المحكمة فى النهاية على ليسين بالأشغال الشاقة ستة أعوام ، وقضت على آخرين من الأنبياء بالأشغال الشاقة لمدد مختلفة ، وقضت على معظم المتهمين الآخرين بالنفى إلى سيبيريا

وفى أوائل هذا القرن بعد ثورة سنة ١٩٠٥ سمح «للمجبوبين» أن يختاروا مكان إقامتهم ، فهرع كثير منهم إلى روسيا ؛ وقدر عدد المنتمين إلى الطائفة يومئذ فى روسيا بخمسة عشر ألفاً ، وجرت بعد ذلك عدة محاكمات أخرى اتهم فيهـا الدعاة بالتحريض على « الجب » وقضى على مئات منهم بالسجن والنفى

* * *

وفى ظل النظام البلشفى استطاعت الطائفة أن تجوز العاصفة

بسلام بالرغم مما لحق زعماءها الأغنياء من فقد ثرواتهم وأملاكهم الواسعة ؛ ورأى الدعاة أن يسايروا النظام الجديد اجتناباً للمطاردة وقام منهم داعية يدعى ارما كوف ، فوجه إلى جميع « المؤمنين » خطاباً مفتوحاً يناشدهم فيه أن يجانبوا الغنى والكبرياء والشح ، وأن يعودوا إلى الحياة الأخوية الساذجة التى دعا إليها سليفانوف ، واقترح أن ينتظم أبناء الطائفة فى جماعات روحية مشتركة ، ووضع للطائفة نظاماً تعاونياً جديداً على أساس الشيوع ؛ وحمل ارما كوف على الاختلاط الجنسى ، ووصفه بأنه أعظم عقبة تحول دون تحقيق الصفوة الانسانية لمبادئ الحياة الرفيعة ؛ وتبعه داعية آخر يدعى منشنين ، وأذاع فى سنة ١٩٢٨ رسالة قال فيها إن مصائب الانسانية كلها ، وجميع المنازعات والجرائم والحروب ، هى نتيجة الغريزة الجنسية ؛ ثم يقول ما يأتى : « ما الذى يدفع إنساناً إلى الاختلاس والجريمة ؟ هى الغريزة الجنسية . وفى كل مكان نرى عيادات الأمراض السرية ، وفى كل يوم تقع آلاف من حوادث الاجهاض وقتل المواليد ؛ ولقد كان العالم وما يزال غاصاً بالبغاء والبغايا ، وكل ذلك يرجع إلى فعل الأعضاء الجنسية » ويقترح منشنين كعلاج لهذه المحنة الانسانية أن يعانى الرجال عملية « الجب » فى سن النضج ، ويقول إن ذلك لا يضير الانسانية فى شىء

وفى سنة ١٩٢٩ اكتشفت السلطات السوفيتية محافل سرية للمجبوبين فى موسكو ولننجراد ، وظهر من التحقيق أن الدعاة يرتكبون جريمة التشويه ، ويبشرون فى اجتماعاتهم السرية باقتراب حكم القيصر بطرس الثالث ؛ فقبض على كثيرين من الزعماء والدعاة ، وحوكموا أمام المحكمة الثورية ، وقضى على كثير منهم بالسجن « لأنهم يذيعون خرافة دينية تقترن بها فائدة مادية ، ولأنهم ارتكبوا جرائم الضرب والجرح » . ووقعت فى سنة ١٩٣٠ محاكمة رنانة أخرى فى لننجراد حيث قبض على كثيرين من أعضاء الطائفة وبينهم عدة من أكابر الأغنياء السابقين ، وعدة من العاملات ؛ فقضت المحكمة على الزعماء بالسجن ، ولكنها قضت ببراءة الضحايا من العمال والعاملات . وظهر من التحقيق أن الطائفة تعمل بنشاط فى جميع أنحاء روسيا ، وأنها تبذل كل الوسائل وكل صنوف الإغراء لاجتذاب الأنصار ، وأنها لا تحجم عن ارتكاب صنوف الافساد والوعيد والعنف لتحقيق غاياتها ؛ وأنها تستظل فى دعايتها ببعض نصوص الانجيل والتوراة ، وتعمد إلى خصى الأطفال وبذل المطايا للفقراء الذين يرتضون التشويه ، واستخدام اليتامى ثم تشويههم بعد ذلك . وتجرى عملية التشويه دون رسوم معينة بل تجرى حيثما أمكن ؛ ويأخذ الداعى على الضحية دائماً عهداً وثيقاً بالكتمان . وظهر أيضاً أن الدعاة يجتمعون تحت جنح الظلام فى مصلى خفى يقام فيه حاجز بين الرجال والنساء ، ويرتدى « المؤمنون » ثياباً بيضاء ويحملون الشموع المنيرة ، ويتلون صلوات من تأليف رسلهم ودعاتهم ، ويتمايلون أثناء الصلاة فى حركات عنيفة تبلغ أحياناً درجة الهيام

* * *

وهكذا نرى أن هذه الطائفة السرية التى قامت منذ القرن السابع عشر على مبادىء وثنية ، وأساطير روحية سخيفة ، والتى تتوسل إلى تحقيق مثلها بأشنع الأساليب البربرية ، لا تزال تقوم إلى اليوم فى قلب أوربا ، وفى قلب روسيا السوفيتية التى يغمرها جو من الالحاد والانكار لم تعرفه من قبل أمة من الأمم . على أن قيام هذه الطائفة الهمجية فى قلب روسيا بالذات أمر يمكن فهمه وتفسيره ، ففى قفار روسيا النائية توجد مجتمعات من الفلاحين يسحقها الجهل والفقر ، وتنحدر فى سذاجتها إلى مستوى يدنو من الهمجية ، وفى هذه المجتمعات الساذجة المتأخرة تفشو الخرافات والأساطير الدينية بصور مروعة تذكرنا بأساطير الوثنية الأولى ؛ وفيها بالذات استطاع الدعاة أن يحشدوا ضحاياهم . بيد أننا قد رأينا أن دعوة المجبوبين قد وصلت فى العصر الأخير إلى طبقة المثقفين والنبلاء . وأعجب من ذلك أن تقوم مثل هذه الطائفة إلى اليوم تبشر بمبادئها ورسومها الهمجية . ولكن روسيا بلد العجائب ؛ ومن الصعب أن نتصورها قطعة من أوربا المتمدنة ، وقد كانت وما تزال اليوم مسرحاً لأغرب الدعوات والمذاهب والأساطير

« فينا فى أوائل اكتوبر » محمد عبد الله عنان

التشريع والقضـــاء

فى العهد الفرعوني

للأستاذ عطية مصطفى مشرفة

— ١ —

قبل أن نتكلم عن تاريخ القضاء فى مصر ، ينبغي أن نمهد بكلمة عامة تتناول حالة المصريين فى عصورهم الأولى قبل أن تنشأ فكرة القانون بينهم وقبل أن يخضع نظامهم لقواعد معينة مرتكزة على قوة الدولة تحدد سلوكهم وتنظم ما بينهم وبين غيرهم من علاقات

تدل الآثار المصرية على أن النوع الانساني قطن مصر منذ أزمان عهيدة ، وأثبت أكثر الباحثين فى تاريخ الأجناس البشرية أن هذا النوع الانساني عند ما استوطن وادى النيل أخذ فى استثمار أرضه ، فظهرت الأسرة تبعاً لثبات المعيشة واستقرارها وأصبحت النواة الاجتماعية الأولى للمجتمع المصري . وكانت الأم في الزمن الغابر هى قطب دائرة الأسرة إذ لم يعرف الطفل إلا والدته ؛ ثم ظهر الأب وأصبحت له السلطة العليا عليها تخضع له جميع أفراد أسرته من زوج وولد ونزيل ورقيق

قامت إذن الحياة الاجتماعية الأولى عند قدماء المصريين كما قامت عند غيرهم من الأمم القديمة على جماعة الأسرة ؛ ذلك بأن الانسان مدنى بطبعه ليس فى قدرته أن يظل متعزلاً عمن حوله ، فهو محتاج دائما إلى مساعدة غيره له فى كل أطوار حياته

فالأسرة إذن هى أول خلية اجتماعية وجدت فى الجنس البشرى؛ وهذه الوحدة الاجتماعية الأولى اشتملت على جمع من الأفراد ربطتهم عاطفة القرابة وجمعتهم صلة الدم ، وكانوا يخضعون خضوعاً تاماً فى أموالهم وأرواحهم لرجل فيهم هو أب الأسرة أو جدها ؛ فكان هذا الرئيس هو الذى يوفى بعهودها ويطالب بحقوقها ويقضى بين أفرادها ، وكانت كلمته فيهم بمثابة فرض يطيعه أفراد أسرته ولو كان ظالماً ؛ وكان أفراد الأسرة متضامنين يحافظون على أموال أسرتهم وحقوقها ويحمون أفرادها ويتحملون أعمال كل فرد فيها ، فعلى كل منهم تقع مسئولية أخيه ونتيجة جرمه ، لأنهم متضامنون فى الشر والخير معاً ، فلكل منهم أن يطالب بحق أخيه ، وعلى كل منهم أن يأخذ بثأر أخيه

ثم اتسعت دائرة الأسرة على مر الأيام تبعاً لازدياد النسل حتى أصبحت عشيرة تتكون من عدة أسر ترجع إلى أصل واحد وتدين بعقيدة دينية واحدة ؛ ثم اتسعت دائرة العشيرة فتحولت إلى قبيلة تتكون من مجموعة من العشائر تضم جماً من الأفراد تربطهم رابطة القرابة أو المصاهرة أو الصادقة أو الضرورة للتعاون على اتقاء الأخطار ؛ ثم توطنت القبيلة فى الاقليم ، وكانت مصر مكونة من عدة أقاليم كثيراً ما كانت تتحارب ، فيتغلب إقليم على آخر ويضمه إليه . وقد أدت هذه الحروب إلى تكوين مملكتين عظيمتين إحداهما فى الشمال والأخرى فى الجنوب ، إلى أن وحدهما « مينا » أو « ميناوس » أو « مصرايم » أول ملوك مصر بجعلهما مملكة واحدة تخضع لسلطانه سنة ٣٤٠٠ ق . م فكان بذلك أول مؤسس لأسر الفراعنة . لذا قال « أرسطو » فى الكتاب الأول من السياسة : إن الأسرة هى مصدر الدولة وأساسها الذي تقوم عليه

وإذ اتضح لنا أن الأسرة هي أول جماعة فطرية . وجب علينا أن نبين كيف كانت تلك الخلية الأولى من الوجهة القانونية وعلى أي قاعدة حددت صلاتها وعلاقاتها بين أفرادها من جهة ، وبين الجماعات الأخرى من جهة ثانية

كانت سلطة رب الأسرة أو رئيس العشيرة أو شيخ القبيلة مطلقة ؛ يقضى بين أفرادها بما يشاء لا ينازعه فى قضائه منازع ؛ وتمتد سلطته إلى أموالهم امتدادها إلى أرواحهم . وكان يدير شئونها الداخلية ويتولى أمورها الخارجية أمام الجماعات الأخرى وفقاً للتقاليد والعادات ، فكانت كلمته قانون الأسرة بين أفرادها كما كانت القوة هى القانون الذى يحكم صلاتها مع الجماعات الأخرى ؛ فهى التى كانت تفض كل نزاع مهما كان نوعه ، سواء أكان هذا النزاع مدنياً أم جنائياً ، فمن كتب له النصر وتمت له الغلبة كان الحق والعدل فى جانبه . فكانت القوة تحمى الحق بل كانت تخلقه وتوجده ؛ فمن كان قوياً استطاع أن يحصل على كل حقه ، ومن كان ضعيفاً

فات عليه من حقه على نسبة ضعفه ؛ وكان الانتقام الفردى هو طريق عقاب الجانى أو الجناة ، وكان للمجنى عليه أو لأى فرد فى أسرته أن يقضى رغبة الانتقام التى تجول فى صدره فيختار من طرق العقاب ما يزيل به حقده على كل مرتكب للجريمة . وقد يقوم أفراد أسرة المجنى عليه بمهاجمة أفراد أسرة الجانى لتضامنهم فى الأخذ بالثأر ، ولاعتقادهم بأن جرم الدم لا يمحوه إلا الدم إذ لم يكن هناك من قوانين وقواعد تنظم استعمال ذلك الحق كما لم يكن هناك من سلطات عليا تحدد العقوبة وتشرف على تنفيذها

كان الأخذ بالثأر إذن حقاً وواجباً معاً ؛ وكثيراً ما كان عبئاً ثقيلاً يقع على أفراد أسرة الجانى فتختار أهون الشرين وذلك بتسليم الجانى إلى أصحاب الدم ، وبذلك تتخلى عن المعتدى إما خوفاً من الهزيمة وإما اجتناباً للحرب ورغبة فى حقن الدماء . وقد تكتفى أسرة المجنى عليه إذا وجدت نفسها أمام خصم قوى بالصلح تلقاء تعويض أو فدية تؤخذ من الجانى حتى تغض النظر عن طلب الثأر ، وبذلك نشأت فكرة شراء الجريمة بالمال ، وسمى ذلك بالدية أو بدل الصلح على الجريمة ؛ فكان القاتل ينجو من العقاب إذا أفلح فى الصلح مع أهل القتيل . ولم يكن المال الواجب دفعه ثمناً للصلح متساوياً فى جميع الجرائم المتعددة من حيث الجسامة ، بل اختلف كثرة وقلة بحسب مركز الجانى والمجنى عليه معاً رفعة وضعة وبحسب مركز أسرتيهما وبحسب الاهانة التى لحقت الأسرة المتعدى عليها بسبب الجريمة . قامت العدالة إذن وتأسست على المصلحة المادية المؤيدة بالقوة والمعززة بها ؛ وشاع نظام المبارزة الذى هو التجاء صريح إلى حكم القوة لفض نزاع مدنى أو جنائى ، فكان المنتصر هو صاحب الحق ؛ وأصبحت المبارزة وسيلة قضائية أخرى لفض النزاع بين المتخاصمين

ثم خطا المجتمع المصرى القديم خطوة أخرى إلى الأمام تبعد بعض الشئ عن حالة الوحشية السابقة ، فركن إلى مهارة الخصمين لفض النزاع ، فشرع مثلاً مساجلات غنائية بين الخصمين يكون المنتصر فيها صاحب الحق ، أو ترك ذلك إلى المصادفة كإلقاء الخصمين مكتوفى اليدين أو الرجلين أو هما معاً فى الماء ، ومن أشرف منهما على الغرق كان هو مقترف الذنب ؛ أو يكوى به اللسان أو أى عضو آخر فى الجسم بحديد محمى ، ومن يمتنع منهما كان امتناعه دليلاً على أنه المذنب ، إلى غير ذلك . وكانوا يلجأون إلى هذه الوسائل وأشباهها فى تعرف الحق لاعتقادهم أن الله لا يخذل صاحب الحق أبداً

ثم تدرجوا فى الرقى فاختاروا « وسيطا » يفصل فى النزاع بحكمته بينهم ، وانتهى التدرج إلى قبولهم « حكما » يفصل فى منازعاتهم ، فحل « الحكم » محل « الوسيط » وبذلك أقبل الناس إلى شيوخ العشائر وإلى رؤسائها وإلى رئيس القبيلة وإلى كل شخص عرف بأصالة الرأى وصحة الحكم ليفصلوا فيما شجر بينهم من نزاع ، فكان قضاء مضطرباً غير ثابت لأنه لم يصدر عن قانون مسنون بحدد بقواعده ، ولا يستند إلى سلطة عليا تتولاه وتؤيد أحكامه ولو بالقوة عند الاقتضاء ، لأنهم كانوا غير ملزمين بالالتجاء إلى هذا « الحكم » ولا مجبرين على اتباع قراراته ، بل لم يكن هو نفسه مجبراً على الفصل بين من يحتكمون إليه ؛ وكانت القوة هى الملاذ الأخير يلجأ إليه من لم يرض بنتيجة التحكيم لفض النزاع . ثم خطت الأمة المصرية بعد ذلك خطوات سريعة إلى الرقى إذ أحلت النظام القضائى محل الطرق السابقة وحتمت الالتجاء إلى المحاكم لتفصل فى النزاع وفق قانون معين مسنون

نشوء فكرة القانون عند قدماء المصريين

لما كان الانسان محتاجاً إلى زاجر يزجره أو رادع يردعه فقد أحس منذ القدم وجوب وضع القواعد والقوانين التى تحدد له مدى سلوكه ونشاطه وتحفظ له حقوقه وتقى الناس اعتداءه ؛ لهذا وجب أن نتكلم عن المظاهر الأولى التى برزت فيها فكرة القانون فى المجتمع المصرى القديم وكيف استقل وتباعد عن المصلحة المادية المعززة بالقوة

لما نشأت المدينة كوحدة سياسية وتكونت من جماعات هذبتها العقائد الدينية وثنية كانت أم سماوية ، وخضعت تلك الجماعات لسلطة رئيس الإقليم أميراً كان أو ملكا ، نشأت عندئذ فكرة القانون مستقلة عن القوة

كان قدماء المصريين يعتقدون أن المعبودة « ما » أو « معت » هى إلـه العدل والحق ؛ لذا وضعوا على تاجها ريشة نعامة ، وكانت تدل عندهم على العدل . وكانوا يقولون إن « توت » أو « طهت »

أو « تحوت » المعروف عند اليونان باسم « هرمس » نزل إلى الأرض ووضع لسكان وادى النيل القدماء القواعد الأساسية للقوانين المدنية والجنائية فاعتبروه رب القوانين وإله كل المعارف؛ وكانوا يقولون عنه إنه أول مشرع مصرى يحتذى وينسج على منواله . ويزعمون أنه ترك كتباً قيمة فى التشريع وفى نظم القضاء، ولكننا لم نهتد إلى شىء من تلك الكتب . وكانوا يعتقدون أن للعدالة إلهاً يوحى بالحكم لمن يرفع إليه النزاع من الكهنة أو السحرة . وكان من نتيجة اعتقادهم أن قوانينهم منزلة عليهم من السماء وأنها صادرة بوحى الآلهة ومشورتهم أن صبغ القضاء عندهم بالصبغة الدينية التى أكسبته الاجلال والوقار. ثم تكونت بمضى الزمن وتكرر الحوادث والمنازعات المماثلة أو المتشابهة وصدور أحكام مصدرها الالهام ـ عادات مرجعها الالهام ليس لها صفة إلزامية ، وإنما تستمد قوتها من صفتها الدينية ومصدرها الالهى المنسوبة إليه ؛ ثم تولى القضاء حفظ هذه العادات والتقاليد القانونية ومفسريها من زعماء الكهنة أو الأشراف (إما لضعف السلطة الملكية وإما لاتساع المملكة وعجز الملك عن القيام بالقضاء بين أفرادها) واحتكروا معرفتها وساعدهم على الاستئثار بمعرفة هذه القوانين جهل العامة من المصريين ، فأصبحوا يفسرونها بحسب ما تمليه عليهم شهواتهم ويطبقونها بحسب ما يكون فيه منافعهم ويؤولونها بما يؤيد استمرار سلطتهم واتساع نفوذهم؛ ويسمى هذا العصر بعصر التقاليد غير المدونة . ولما كثر ظلمهم لعامة الشعب المصرى وظهر للشعب سوء نيتهم قلبوا لهم ظهر المجن وطالبوا بتدوين هذه العادات وتلك التقاليد فى نصوص تنشر على الناس جميعاً حتى يعرف كل شخص فى الأمة حقوقه وواجباته؛ وبذلك بدأت مرحلة تدوين القانون . وقد جمعت تلك القواعد العرفية فى نصوص كتبت فى ألواح من الفخار أو الخشب أو البرنز وباشرت الحكومة إصدارها ونشرها فى الناس

ولقد كانت القوانين المصرية فى دورها الأول ذات صبغة دينية ، وكانت تميل إلى الانصاف والعدل كما كانت مشربة بمكارم الأخلاق فأصبحت بذلك قريبة إلى المثل الأعلى للحق ؛ ثم تشبعت بعد ذلك بالمسحة المدنية وبخاصة عند ماضعف نفوذ الكهنة بعصر

ويرجع ظهور التشريع بمصر إلى القرن الخمسين ق . م إذ فى هذا القرن تعلم المصريون الكتابة عند ماوضع لهم « تحوت » إله القانون ما وضع من قوانين ثم جمعها لهم سنة ٤٢٤١ ق . م وعلى مر السنين بعثرت تلك القوانين فجاء الملك « بوخوريس » مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين (٧١٨—٧١٢ ق . م) وجمعها ثم عدلها ووضعها فى مجموعة واحدة نظم بها المعاملات المدنية والأحوال الشخصية وبذلك سميت بمجموعة بوخوريس عند المصريين وبقانون المقود عند الاغريق فيما بعد ذلك

وقد عمل فى مصر بمجموعة قوانين بوخوريس هذه بعد أن امتدت إليها يد التنقيح أكثر من مرة فى العهد الفرعونى وطبقت على المصريين أيام حكم الاغريق والرومان لمصر حتى سنة ٢١٢م حيث أصدر الإمبراطور الرومانى كراكلا (٢١١—٢١٧م) قانوناً منح به الرعوية الرومانية لسكان الأمبراطورية الرومانية وكانت مصر جزءاً منها، وبذلك طبقت فى مصر القوانين الرومانية

« يتبع »

عطية مصطفى مشرفة
بكالوريوس فى الآداب فى التاريخ
ودرجة ليسانس فى الحقوق

الاجتهاد لا يزكو مع الفوضى

للأستاذ علي الزين

— ١ —

لقد اتفق لى منذ سنين خلت أن ضمنى مجلس فى إحدى القرى مع بعض العلماء المجتهدين — بعرف أنفسهم — وكان فيمن حضر هذا المجلس ضابط فلسطيني من إخواننا أهل السنة. وما إن استقر المقام بالجميع حتى تنحنح فضيلة العالم وانطلق يتحدى فى كلامه مواضع الخلاف بين أهل السنة والشيعة بكل ما فى نبراته من اعتداد بأحقية الشيعة، وبكل ما فى قلبه من حرص على توجيه الأنظار نحوه، وبكل ما فى لهجته من عنجهية ونبو عما تقتضيه اللياقة من الاحتفاء بالضيف الفلسطيني ومراعاة عواطفه كمسلم سنى أو كرجل قانون لا رجل دين يحسن الجدل ويستسيغه فى مثل هذه الموضوعات: وكان بيت القصيد فى حديث مولانا الاجتهاد وخطره — من حيث الإباحة والحظر، وأثر ذلك إيجاباً وسلباً فى الدين والعلم والعقل أيضاً، ثم كيف أن الشيعة — دون غيرهم من الفرق الاسلامية — استقلوا بهذا الفضل وفاقاً للأحاديث النبوية، وطبقاً للمأثور من أقوال العلماء والحكماء والمؤرخين، وما إلى ذلك من شواهد على فضل الاجتهاد وفوائده. كل ذلك جرى والضابط الفلسطيني واجم تحاشياً لهذا المجتمع الشيعي وتهيباً من هذا العالم الأرستقراطي الذى لم يترك مجالا لغيره فى الكلام، أو جهلاً بالموضوع، أو استخفافاً بالتحدث عنه لغير مناسبة لا أدرى؛ غير أن هذا الحديث أثار حفيظتى من العالم لا لشىء سوى أن يتملق العامة بالانتصار لمذهبهم أمام رجل سنى، كما استفز عواطفى هذا الوجوم من رجل غريب بروحه وميوله عن المجلس قد فوجىء بما لم يكن يترقبه ويألفه من حديث، فاندفعت للاعتراض بما أوحته إلى هذه الحال من خواطر وأفكار يمكن أن يفترضها ويقدرها الشيعى وغير الشيعى من المسلمين إذا اضطره الأمر إلى أن يتجرد من عصبيته، وأهاب به المقام للتمسك بكل ما يمكن أن يقال فى تحرير موضع النزاع. ولكن مكان مثل هذا العالم فى مثل هذا المجلس من العامة لم يدع سبيلاً إلى إتمام كلامى وتوضيح مرادى، بل اضطرنى كما اضطر غيرى إلى السكوت والإصغاء لو كان فى الامكان أن يسكت الفكر العنيد، أو يرتاح الضمير الحر بدون أن يفضى بمكنونه ويفرغ سورته فى قالب من اللفظ وسمط من البيان، فرحت أرفه عن النفس بعد الانصراف عن هذا المجلس بتسجيل تلك الخواطر وكتابة هذا المقال؛ بيد أنه لم يكن لي من الشجاعة الأدبية أو من الاعتداد بما كنت أكتبه آنئذ ما يجرئنى على النشر، فطويت المقال فيما طويت من الأبحاث وجعلت مع الأيام أرقب المناسبات والفرص التى تهيىء لى نشره إلى أن قامت الرسالة الغراء تعالج هذا الموضوع — موضوع الاجتهاد — وتشجيع الأقلام على تمحيصه بحثاً وتفكيراً، فحولت وجهى نحوها معتداً بإنصاف الأستاذ الكبير — صاحب الرسالة — وعطفه على مثل هذه الموضوعات التى تتوالى على صفحات مجلته، وإن كنت قد خالفت أولئك الباحثين فى لهجتى ومنحاى، اعتقاداً منى بأن المجاملة والمداورة والتملق فى مثل هذا المقام لا تسمن ولا تغنى، بل هى إلى إغراء المتعنتين بتعنتهم وجمودهم أقرب منها إلى تأييد المخلصين والأخذ بيدهم إلى مكامن الداء ومواضع العلة، وهي كذلك إلى التلبيس والإبهام أقرب منها إلى الصراحة والجهر بالحق الذي يجب أن يقال فى محاربة العرف الزائف ومعالجة الأهواء المريضة، وتقويم الأفكار المستعبدة، من حيث لا يغنى التردد والخوف عن الثقة بالنفس والإقدام بالقول والعمل شيئاً.

— ٢ —

لا جرم أنه كان فى إقفال باب الاجتهاد بعض التقييد للحرية والاستقلال فى الرأي، وبعض الحجر على العقل والفكر والمنطق أن تجرى مجراها الطبيعي الذى أعدته الشريعة السمحاء وهيأته طبيعة الحياة الحرة: ولا جرم أنه كان فى فتحه على مصراعيه تعزيز للعلم وتحرير للفكر والمنطق، وتنزيه للاسلام — دين الفطرة — عن الجمود والضيق لو قد انتهى بنا الأمر إلى ما كان يجب من الانطلاق مع نتائج التحرير العلمي والفكرى، وجعل الدين — بذلك — مآلا للصحة وغاية للاتحاد وتفسيراً للحياة من سائر الوجوه والنواحى تفسيراً يقره منطق الحياة الحكيم، وتكبره الفطرة الانسانية الحرة

أما والنتيجة ليست — بجميع ذيولها — كما يظن ويفترض لا أحسب أنه كان فى فتح باب الاجتهاد على هذا النحو من الاضطراب والفوضى التى نجدها عند علمائنا اليوم — خدمة للعقل والدين أكثر مما كان فى سده وإقفاله عند غيرهم

... فها نحن أولاء معشر الشيعة الإمامية ممن استمروا على القول بالاجتهاد وخطوا على ضوئه خطوات واسعة فى العلوم الدينية والإسلامية وتأنقوا ماشاء لهم التأنق فى علوم الكلام ، والحديث ، والتفسير ، والفقه ، والأصول ، وإنهم لتأنقهم وتوسعهم فى هذا الأخير قد أحالوه إلى مزيج من الفلسفة والنظريات الغريبة وأوشكوا أن يخرجوا ببعض مباحثه عن حدود المعتقدات الشيعية كما هو الشأن فى بحث (اتحاد الطلب والإرادة) على ما قرره صاحب الكفاية — ها نحن أولاء قد استحال عندنا الاجتهاد أو كاد أن يستحيل — بتشعب أفكار الباحثين وتعسفهم فى التفكير والتخييل وتسامحهم فى النتائج إلى نوع من الافتراضات والوساوس والشكوك ، يستطيع معها ضعاف الوجدان والعقيدة من ذوى الأهواء والمآرب الشخصية أن يستنبطوا لكل مأرب حكما ، وأن يخلقوا لكل عسف عذراً ، وأن يمهدوا لكل شذوذ فى القول والفعل قياساً وشكلا ، يدرأ عنهم التهم ، ويحتفظ لهم بثقة الجمهور ، ويشحذ لهم من منطق الدين شركا للصيد وسلاحاً للنقمة ؛ من حيث لا يستطيع — مع هذه الوساوس والشكوك — من يحتاط لدينه ووجدانه أن يجزم بحكم من الأحكام الفرعية إلا فيما شذ وندر من الأحكام التى لا تتسع للتأويل والافتراض والجدل

ذلك إذا كان الذين يتخصصون بتلك العلوم الدينية من ذوى الكفايات والمواهب السامية ، فكيف بنا إذا كانوا من البله والحمقى الذين من شأنهم أن يكونوا عرضة للتلبيس ومظنة للأوهام وأرجوحة للأهواء السياسية والمنبهات العصبية ، أو الذين لا يتعلمون هذه العلوم فى الغالب إلا احتفاظاً بتقاليد آبائهم وإلا ذريعة للرزق والاكتساب ؟

أفترى أن الأمة أو أن الدين — بمثل ذلك — يمكن أن ينتهى إلى غاية أو يستقر على رأى ؟ أم هل يمكن مع هذه الحال أن تكون النتيجة إلى غير ما نحن عليه اليوم من فوضى الاجتهاد وإطلاق العنان لكل طامح ولكل معتوه يسول له غروره وجشعه أن يستغل هذا الاسم ويدنس روحانيته بما يوسوسه له الهوى وحب الذات من فتاوى وأحكام وبدع يرسلها إرسال المسلمات ، ويصرفها تصريف المطمئن إلى صوابه ، وكفايته ، وإخلاصه ؟ أم هل يمكن أن تؤول بنا الحال إلى غير مامنينا به فى جيل عامل من تنابذ العلماء وتجريح بعضهم بعضا ومحاولة كل منهم أن يذهب إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر فى تحريمه وتحليله وتقريبه وتبعيده ؟

أم هل لنا مع كل هذا — ومع تيقننا من أن الدين الإسلامى إنما وجد لخير الإنسان وصالحه وتوجيهه نحو المثل العليا التى توحد بين أفراده وشعوبه وتجعلهم إخواناً فى السراء والضراء — أن نقول إن فتح باب الاجتهاد عندنا كان أجدى على الدين من سده واقفاله عند اخواننا السنية ؟ هيهات هيهات ! ولو أن الذين أوصدوا باب الاجتهاد لم يتأثروا بعوامل زمنية واعتبارات سياسية بأن انقطعوا فيما وقفوا عنده واختاروه من المذاهب ، لما كان أكثر انطباقاً على جوهر الكتاب والسنة وأقرب ملاءمة لمنطق الحياة الاجتماعية والعقلية ، وأشد اتساقاً مع دواعى الاحتياط والحزم واختلاف الأيام والظروف ، وتطور الحاجات ... لكان إقفاله على ذلك النحو من الإحكام والاعتدال — فى تلك الأيام العصيبة والظروف الحرجة — أجدى على الإسلام من فتحه على هذا الشكل من الفوضى والتسامح والاسترسال مع كل شذوذ وتعسف وادعاء شخصى ، وأضمن لمنعته واتحاد كلمته ، واتساق سلطانه

هذا وإن الأمر الذى ما انفك يقلق بال كل أريب وريب خاطر كل مفكر — وللاجتهاد حكمته البالغة ومزيته العظمى فى ترويض الأصول العلمية وتصريف الأحكام على ما توجبه ضرورات الحياة ويقتضيه تطور أحوالها واختلاف دواعيها وجعل الدين (بذلك) يتسع لأبعد مدى فى تطورها وتقدمها — تحولنا نحن الشيعة حملة لواء الاجتهاد وتخلفنا فى ميادين الحياة على اختلاف أنواعها وفروعها ، دون بقية الفرق الإسلامية التى حلئت عن نعمة الاجتهاد ولم ترزق مرونة منطقه ورحابة صدره تخلفاً لم ينفع معه استقلال إيران الشيعية فى السلطان ونزولها على آراء المجتهدين وامتثالها لإرادتهم فى كل شأن من شؤونها وفى كل طور من أطوارها ، طول هذه الحقبة الغابرة من الدهر

ثم جمود أكثر أولئك المجتهدين منا وتحرجهم تحرجاً يغرى الناس بالجمود والتقليد ، ويميت فيهم حياة العزة والطموح ، كأنما

أوتوا منطق الاجتهاد ليحاربوا كل جديد فى الحياة ، ويطاردوا كل مصلح ، ويفرضوا على الناس حياة الاتكال الراتبة ، وعيش الاعتزال المبتور ، أو ليختصروا هذه الشريعة الكونية ويضيقوا هذه السهلة السمحاء ، ولا يوجهوا كبير عنايتهم وجهودهم لغير هذه الفوارق والتقاليد المذهبية التى أوشكت أن تكون — بحكم ذلك الخلاف والتعصب الاسلامى العام — بمنزلة الأصل للكتاب والسنة ، يؤول ما التبس منهما واختلف على حسب المألوف والمعتبر من ذلك لدى كل فرقة من فرق الإسلام

— ٣ —

ثم ما الاجتهاد إن لم يكن فى جلته ومآله عبارة عن استقلال الفقيه فى تفسير الكتاب والسنة ، واستنباط الأحكام الشرعية من ذلك لكل واقعة من وقائع الحياة قديمها وحديثها على حسب المنطوق والمفهوم ، وعلى مقتضى العموم والخصوص ، والاطلاق والتقييد ، وما إلى ذلك مما توضحه القرائن ويقره الذوق والمنطق [1] ؟

وهو بهذا المعنى محدود النطاق ليس لعقل المجتهد باصطلاحنا ولا لخياله أن يتجاوز به ماوراء الجمل والألفاظ فى الكتاب والسنة ، فإنه على فرض أن تنص القرائن الحالية والمقالية — وفرض المحال — ليس بمحال — على معنى من معانى الكتاب والسنة لا يساعد على استخراج الحكم الذى يقتنع به العقل ويستسيغه الذوق ويتفق مع ماجريات الحياة ، لا يستطيع المجتهد أن يتجاوز النص فى حكمه ويراعى مقتضى العقل المجرد ، والذوق السليم ، لنتحلل من إطلاق القول « أنه كان فى سد باب الاجتهاد حجراً عاماً على العقل »

ثم ما يدرينا فى أن يكون هم من أوصدوا هذا الباب آن ذلك بعد أن انضجت عندهم أكثر أحكام الفقه وقضاياه واطمأنوا إلى تحرير نصوصه وأدلته :

أولاً — الاحتياط من أن تتعدد المذاهب الاسلامية إلى غير نهاية وأن يكثر الخلاف ويستحكم حتى تتفرق الكلمة ويتمكن الدخلاء والدساسون من الكيد للاسلام ، فتنحل قواه ، وتلتبس حكمته ، ويضطرب قصده ، وتنعكس الآية «إنما المؤمنون إخوة»

ثانياً — تحرير الفكر وتوجيهه إلى باقى النواحى العلمية والفكرية التى استقبلها الاسلام فى أوج نهضته وازدهار مدنيته وحضارته — باعتقاد أن مجاهل الحياة المتشعبة وحاجات الانسان المتعددة المتنوعة أبعد مدى وأوسع نطاقاً من أن تنحصر أو تتضح أو تحد بما ينطوى عليه الفقه والأصول من أحكام وقواعد ليقتصر البحث عليها كما كانت الحال إذ ذاك

هذا وإذا كان الاجتهاد فى الفقه لا يعدو فى جلته ومآله أن يكون من قبيل الاجتهاد في تفسير الجمل والمفردات اللغوية والتمييز بين الحقيقى وبين المجاز ، والمنقول ، والمشترك منها . بعد البحث عن تاريخ نشأتها ، وعما كان يلابسها آن ذلك من قرائن حالية ومقالية وما كان يتصل بها ويكتنفها من عوامل الاجتماع والسياسة ومن خصائص الزمان والمكان ، ثم عما رافق تطورها وتنقلها فى الأيام ، والجماعات ، والأشخاص ، من تحوير وتغيير . وكما أنهم هنا قد اختلفوا بين القول بإباحة التفسير بالرأى وبين القول بعدمه ، وترددوا بين القول بجواز الاشتقاق والتصريف ، والوضع للمستحدثات من المعانى وبين القول بعدمه . ثم انتهى بهم الخلاف والتردد إلى عدم الاطمئنان للفرد مهما كان شأنه ، وإلى الاتفاق على تأليف مجمع من العلماء الاختصاصيين يوكل إلى مجموعه التصرف فيما يتفقون عليه من رأى

فلماذا لايكون واقع الأمر هناك — فى الفقه — كذلك ؟ ولماذا لاننتهي بعد هذا النزاع الطويل العريض الذى أحكمه ووسعه استئثار الفرد وتمادى الفوضى إلى ما قد انتهى إليه علماء اللغة من تأليف مجمع من علماء الدين على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ثم إنشاء (مجلة) لتحرير البحث فى مواضع النزاع بينهم وتعميم مايقرره منطق العلم والدين ، والحياة الحرة ، ويفرضه التجرد لمحض الحق والخير ؟

وعلى فرض أن تصطدم هذه الوسائل — فى أول الأمر — بما قد فطر عليه الجمهور من جمود فى الطبع ، واحترام للشائع من أوضاع وتقاليد ، والتمسك بالمألوف من عرف ورواية ، أو أن تحدث هذه الابحاث رد فعل فى الأوساط الاسلامية كما هو الشأن فى كل فكرة جديدة — علمية كانت أو دينية — لاتنسجم

(١) وهنا أستميح العذر من سادتى الأصوليين إذا تجوزت فى تعريف الاجتهاد ولم ألتزم بنص عبارتهم أو أراعى المعنى اللغوى — اعتقاداً منى — بأن بذل الوسع فى تحصيل الحكم إذا لم يخرج بصاحبه عن طور التقليد ويكون له رأيا خاصاً بالمسألة لايحقق له صفة الاجتهاد بالمعنى المراد

- ثم اعتقاداً بأن بقية الأدلة التفصيلية هى فرع عن الكتاب والسنة خلقتها الحاجة إلى النص القطعى فى بعض الفروع والاعتبارات أو إلى تحديد مفاد النص ومداه سعة وضيقا ولذلك كانت مهملة مع وجوده ووضوحه لاشأن لها ولا أثر .

مع الشائع والمألوف من عادة وقول — إنه على فرض أن يكون ذلك كله فى أول الأمر ، فلا بدّ لهذه الوسائل فى النهاية من أن تقوى وتسلس لنتائجها الأفكار والعقول وتراض على مقرراتها الأذواق والنفوس من عامة المسلمين وخاصتهم ولا سيما إذا استمرت معها عواطف المصلحين وحججهم الدامنة وتضافرت على تأييدها وتقريرها فى المجتمع الاسلامى الحياة فى تطورها والثقافة فى تقدمها ، وإلا فالاتكال على المصادفات أو ما يشبه الاتكال عليها — فى الإصلاح والتأليف — عجز وقنوط لا يقتنع به المصلح المتد بصواب مبادئه ، وسداد خططه ، وسمو غايته ، ولا يليق بالأمم المتفائلة الطامحة

أجل ! ماذا يمنع حماة الدين وقادة الفكر فى العالم الاسلامى أن يؤلفوا لجنة دائمة أو لجاناً من العلماء الاختصاصيين الذين عرفوا بمرونة الرأى وسمو الفطرة وسلامة الذوق ، وهيأت لهم الظروف أن يضيفوا إلى ثقافتهم الدينية ثقافة اجتماعية عالية تشعرهم بواجبات الحياة وواجبات الدين ، وتمكنهم من التوفيق بين ما التبس أو تفاوت من نواميسهما — يوكل إلى هذه اللجنة تسوية الخلاف القائم بين المذاهب الاسلامية وتحرير النصوص والأدلة على ضوء العلم وسداد المنطق النزيه ، وتعديل الأحكام والنواميس وتقريرها على وجه تذوب فيه النعرات والفوارق ، ويستقيم القصد والغاية ، ويستمر العمل والسير على المنهج القويم اللاحب

وهل ذلك بعزيز على همم المخلصين من القادة إذ هم احترسوا فى أخذ النصوص والأدلة والأحكام ، مما جره عليها عادي الزمن وتصادم العصبيات وتزاحم المذاهب السياسية والدينية وتنازع الأهواء الشخصية والحزبية ، من تلبيس ، واختلاق ، وتصحيف وادغام

ثم راعوا فى تفسيرها وتوجيهها ، تجدد الحياة واتساع أفقها وتطور مقتضياتها ، وتشعب ضرورياتها وكمالياتها عما كانت عليه فى صدر الاسلام وعهد أئمته الأول

فانه لم يبق فى إمكان الفرد أن يقوم بمثل هذه المهام — مهام الاجتهاد — كما ينبغى ويجب حتى فى الطائفة الواحدة من طوائف المسلمين ، لأن الدين بالنظر لتوسع أبحاثه وتشعب فروعه ، ولأن الحياة بالنظر لتعقدها وتطورها المستمر ، قد أصبحا أكبر من أن تستقصى حقائقهما وتستكنه أسرارهما ويطابق بين داعيهما فرد مهما كان ، ليوكل إليه بمثل هذه المهام الشاقة ولأن الفرد مهما كانت عبقريته ومهما كانت جهوده لا يمكنه أن يكون منزهاً عن الخطأ معصوماً من الزيغ حرياً بأن يستقل بجهود أمة وتراث أجيال ، ويتصرف بمقدرات الأفكار والعواطف الدينية

— ٤ —

ولكن مثل هذا العمل الانسانى الخطير لا أحسبه يتم على وجهه الأكمل ويكون له أثره الفعال فى جميع الأوساط الاسلامية إذا لم تحفز (النجف) ويهيب بها داعى النهضة إلى أن تجارى (الأزهر) وتتلافى هذه الفوضى السائدة فى مدارسها وفى كتبها الدراسية وفى أساتذتها وتلامذتها ، ثم فى الاجتهاد والتقليد أيضاً بالعمل على تنظيم تلك المدارس ومراقبة الأساتذة والتلامذة والكتب الدراسية فيها ، وإعداد اللجان الاختصاصية لتعديل برامج التعليم وتوسيع هذه البرامج ، ثم تحوير الكتب الدراسية أو تغييرها وترتيبها على حسب عقلية التلامذة وعلى حسب مراتبهم العلمية ، لتتضح بذلك السبل أمام الطالب وتقرب النتائج ويتوفر عليه من الوقت والنفقة ما يزيد فى نشاطه وطموحه إلى أن يتثقف ثقافة عالية تيسر له بعد الاختصاص بما يختص به من علوم الدين أن يتذوق الدين وأن يتذوق الحياة بدون مشقة ، وأن يتفهمها ويؤدى فرائضهما على الوجه الصحيح الأكمل لكي يتهيأ للنجف نفسها من وراء ذلك كله أن تتفاهم مع الأزهر ، وبحمل للاجتهاد — بالتعاون معه — المحل المرموق والأثر البالغ فى نفوس المسلمين وعقائدهم وآدابهم

ثم لكى يتسنى للمعهدين الخالدين ويروق لهما على هدى الاجتهاد وبركة الائتلاف أن ينزلا عن بعض التقاليد ، وينظرا للدين وللحياة نظراً مجرداً يرتفع بالدين عن كل هذه الحواشى العفنة البالية ، ويسمو بالإنسانية عن كل هذه الفصول التى تثير الريب وتشعب الظنون ، وتوسع الخرق بين الأخوين ، نظراً حكيما ملؤه الاخلاص والسمو ، يخطو بالإسلام والإنسانية خطوته الأبدية الكبرى إلى الأمام ، إلى الاتحاد ، إلى السعادة الأبدية والحياة الخالدة

وإلا فإذا دامت النجف على ما نعهدها من الأوضاع المدرسية فسافة الخلف بعيدة بين المعهدين بعد الفوضى عن النظام ، والبداوة عن الحضارة ، لا يمكن أن تغنى فيها الأقوال والمجاملات عن العمل والإخلاص شيئاً

(النبطية — جبل عامل) **على الزين**

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٠ —

الرافعي شاعر الأناشيد

ولع الرافعي منذ نشأته في الشعر بالأناشيد الوطنية والأغاني الشعبية ، يفتنّ في نظمها ، ويبدع في أوزانها وأساليبها ؛ ففي سنة ١٩٠٣ أخرج في الجزء الأول من ديوانه بضع قصائد وطنية ، تفيض عاطفة وتشتعل حماسة ؛ واشتهر من بينها قطعته (الوطن) التي يقول في مطلعها :

بلادي هواها في لساني وفي دمي يمجِّدها قلبي ويدعو لها فمي

وذاعت على ألسنة تلاميذ المدارس ، يحملهم المعلمون على استظهارها في دروس المحفوظات إلى يومنا هذا ، كما اشتهر كثير من قصائده الوطنية وأغانيه الشعبية . وجاء في هامش ديوانه بعد تمام هـذه المقطوعات : « قد تمت القطع التي نظمت للنشء من تلامذة المدارس ، وقال ناظمها : إنه إذا وجد الناس أقبلوا عليها أقبل هو على نظم غيرها مما هو أرق ، غير مبال بوعورة هـذا المسلك الذي لم يسلكه قبله أحـد . فها نحن أولاء ننتظر من الصحفيين وشبان المصر أن يأخذوا بيده في هذا المشروع ، حتى لا يفيض ما بقي في ذلك الينبوع ... [1] »

ثم دأب على نظم أمثال هذه الأغاني ، ينشر منها طرفة رائعة في كل جزء من ديوانه ، فنشر نشيد الفلاحة المصرية ، وأرجوحة سامي ، وغيرهما ، وأذاع في الصحف كثيراً مما نظم من « أغاني الشعب »

وإنك لترى الرافعي في هذه الأغاني والأناشيد ، له طابع وروح غير ما تعرف له في سائر شعره ، فتؤمن غـير مضلل أن الرافعي هبة الزمان للعربية ليزيد فيها هـذا الفن الشعري البديع الذي تقطعت أنفاس شعراء العربية دونه منذ أنشد شاعرهم في الزمان البعيد : « نحن بنو الموت إذا الموت نزلْ ... » ثم لم يقل أحد من بعده شعراً يترنم به في الحرب ، أو يدعو إلى الجهاد ، أو يستنفر إلى المعركة ، حتى أنشد الرافعي ...

ويقيني أن اسم الرافعي إذا كتب له الخلود بين أسماء الشعراء في العربية ، فلن يكون خلوده وذكره لأنه ناظم ديوان الرافعي ، أو ديوان النظرات ، أو المدائح الملكية في المغفور له الملك فؤاد ، أو قصائد الحب والغرام بفلانة وفلانة من حبائبه الكثيرات ، ولكنه سيخلد ويذكر لأنه شاعر الأناشيد ...

***

ونهضت الأمة نهضتها الرائعة في سنة ١٩١٩ ، ودوّي صوت الشعب هاتفاً : إلى المجد إلى المجد ، إلى الموت أو الحرية ؛ وصاح صائح الجهاد يدعو كل نفس من داخلها ، فإذا الأمة صوت واحد ، على رأي واحد إلى هدف واحد ؛ وإذا مظهر رائع من مظاهر الإيمان بحق الموجود في وجوده يتمثل في كل مصري ، ويستعلن على كل لسان في مصر

واجتمع رأي طائفة من رجالات مصر على أن يكون لهذه النهضة نشيد يعبر عن أمانيها وغايتها ، ويكون أغنية كل مصري ، تجتمع عندها خواطر نفسه ، وخلجات فكره ، وهمسات قلبه ؛ فيكون صوتها من صوته ، ولحنها من أحلامه ، وبيانها من معاني نفسه

وتلفّت النـاس يفتشون عن ذلك الشاعر الموهوب الذي يؤملون أن تتحدث الأمة بلسانه وتهتف بشعره . وأعلنت لجنة النشيد عن جائزة وضربت أجلا ...

وتبارى الشعراء في الافتنان والاجادة ، وتقدم كل شاعر ببضاعته ، وتقدم الرافعي فيمن تقدم ؛ ولكن اثنين لهما مكانهما وخطرهما بين شعراء المصر لم يتقدما بشيء إلى لجنـة النشيد : هما شوقي أمير الشعراء ، وحافظ شاعر النيل . أما حافظ فلأنه من المحكمين في اختيار النشيد ، وأما شوقي ... من يدري ؟

وكان على رأس لجنة النشيد الوزير العالم الأديب ، الأستاذ جعفر ولي باشا ، فكأنما عز عليه أن ينتهي الأجل المضروب فيتقدم الرافعي ، ويتقدم الهراوي ، ويتقدم عبد الرحمن صدقي ،

(١) شرح الرافعي الأجزاء الثلاثة من ديوانه ، ولكنه لسبب ما ، نسب الشرح إلى أخيه المرحوم محمد كامل الرافعي ، ولعل هذا من الدعاية التي كان يدعوها لنفسه في أول عهده بالشعر ؟ ومن هذا يرى القارىء حديث الرافعي عن نفسه في هذه العبارة بضمير الغائب ، على أنها من قوله هو نفسه

ويتقدم غير هؤلاء ممن يقول الشعر ، وممن لا يحسن إلا أن يزن فاعلاتن ومفعولاتن على كلام ، ولا يتقدم شوقي وحافظ

ونسأت اللجنة الأجل المضروب ، وسعى الساعون إلى الشاعرين الكبيرين ليحملوهما على الاشتراك في المباراة ؛ فأما حافظ فأصر وأبى ، وأما شوقي ... رحمه الله ، لقد كان حريصاً على أن يقول الناس في كل مناسبة : لقد قال شوقي ... ولكن ماذا يقول ذلك اليوم ؟

وكان لشوقي نشيد ، أنشأه منذ عهد لتفتتح به (فرقة عكاشة) موسمها التمثيلي ؛ فماذا عليه لو تقدم بهذا النشيد القديم إلى لجنة المباراة ؟

وتقدم شوقي إلى اللجنة بنشيده المشهور :

بني مصر مكانكمو تهيَّا فهيا مهِّدوا للمجد هيَّا

وتساءل الأدباء بينهم : لماذا مدّت اللجنة الأجل المضروب ؟ فلم يلبثوا أن جاءهم الجواب الصريح ؛ فعرفوا أن اللجنة لم تفعلها إلا حرصاً على أن يكون النشيد المختار من نظم شوقي ...

عندئذ نجمت ثورة أدبية حامية ، وتمرد الأدباء على اللجنة وحكم اللجنة ، وهل كان لهم أن يطمئنوا إلى عدالتها وقد ذاع الحكم قبل موعد الفصل في القضية ؟

وكان الرافعي على رأس الثائرين ، فأنشأ بضع مقالات في (الأخبار) ، وللأخبار يومئذ مذهبها السياسي وكاتبها الأول هو المرحوم أمين بك الرافعي ؛ فسحب الرافعي نشيده من اللجنة قبل أن يسمع الحكم فيه ، وراح يعلنها ثورة صاخبة على اللجنة وأعضاء اللجنة ، وعلى شوقي وأنصار شوقي ، وقال في نشيده ما يقال وما لا يقال ، وتابعه جمهرة من الأدباء ؛ فكتب المازني والعقاد في (الديوان) ، وكتب غير المازني والعقاد ؛ وشوقي رحمه الله رجل كان على فضله ومكانته وعلى منزلتـه في الشعر ، ضيق الصدر بالنقد والناقدين ؛ فمن هذا كان بينه وبين الرافعي شيء من يومئذ ، إن لم يكن من قبل يوم نشر الرافعي مقاله في (الثريا) عن شعراء العصر في سنة ١٩٠٥ ؛ فما التقيا من بعد حتى لقيا الله ؛ على أن أحداً من أدباء العربية لم ينصف شوقي بعد موته ولم يكتب عنه مثل ما كتب الرافعي عن شوقي في مقتطف ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، وهو نموذج من الأدب الوصفي أحسبه نادر المثال فيما يكتب الكتاب عن الأدباء المعاصرين

***

ومضت لجنة المباراة في طريقها غير آبهة لما يقال ، ومضى الرافعي في ثورته ؛ ثم لم يلبث أن جمع لجنة غير اللجنة ، من أصدقائه وصفوته والآخذين عنه ، لتنظر في نشيد الرافعي وحده

وأصدرت اللجنة الأصيلة حكمها ، فكان الفائز الأول هو شوقي ، وفاز من بعده الهراوي وعبد الرحمن صدقي ، وأعلنت اللجنة الأخرى أن نشيد الرافعي هو النشيد القومي المصري ... وسبّقت بين المغنين جائزة ، ليصنعوا لحناً لنشيد الرافعي :

إلى العلا ، إلى العلا ، بني الوطن إلى العلا ، كلُّ فتاةٍ وفتى

وفاز الموسيقار الكبير الأستاذ منصور عوض بالسبق إلى اللحن والجائزة !

ليس من همي هنا أن أوازن بين نشيدي شوقي والرافعي ؛ فقد مات نشيد الرافعي (إلى العلا ...) بعد ماسبقه نشيد شوقي إلى الموت بعشر سنوات ، ولم تُجْدِ كل المحاولات في بعثه ونشره ... وإن كان لي أن أقول شيئاً هنا في الفرق بين النشيدين فهو أن أصف كيف كان استقبال الناس لنشيد الرافعي واحتفائهم به في كل مكان ، وكيف كان نشيد شوقي

لقد سمعت نشيد الرافعي أول ما سمعته في حفل رسمي أقيم لإذاعته بطنطا في سنة ١٩٢١ أو ١٩٢٢ بمسرح البلدية ؛ فما أحسب أني رأيت نشيداً احتفل له الناس ما احتفلوا لنشيد الرافعي يومئذ؛ فإذا كان قد مات بعد ذلك بسنين وجر عليه النسيانُ أذيالَه ، فما أظن ذلك كان لضعف فيه أو نقص يعيبه ، ولكننا نعيش في شعب أكبر فضائله أن ينسى ... وعند الله الجزاء ... !

***

اسلمي يا مصر

وتطورت الفكرة الوطنية فتمثلت بشرا في سعد زغلول ؛ فهو المصري الذي لو أرادوا أن يمثلوا ذلك الشعب العريق إنساناً تراه العين لما وجدوا إلا صورته ، ولو سألوا : من الرجل الذي يقول أنا الأمةُ صادقاً غير محتال لما وجدوا غيره ...

وتطورت فكرة النشيد القومي عند الرافعي فرأى رؤياه في منامه ، فلما أصبح ألف نشيده « اسلمي يا مصر » وما كان هم الرافعي عند ما ألفه أن يجعله نشيداً قومياً ؛ إنما قصد إلى أن يجعله بياناً رمزياً على لسان سعد ، أو كما يقول الرافعي في خطابه إلى سعد في جبل طارق :

« وما أردت بإظهار نشيدك إلا أن تظهر في كل فرد من الأمة على قدر استعداده ، ويبقى اسمك الجليل مع كل مصري على الدهر ليكون مصدراً من مصادر إمداده

« ويقولون إنه نشيد يقربك من الأجيال الآتية ، وأنا أقول إنهم هم يتقربون به إليك ، ويجدون منه الوسيلة لتقبيل اسمك المحبوب إذ لا يستطيعون مثلنا تقبيل يديك ، ويعلمون في كل زمن من شرح هـذا الاسم الكبير أنه الرجل الذي خط قلم الأزل كتاب نهضته الكريمة ، واختاره الله للأمة كما اختار الأنبياء إلا أنه نبي الفكر والعزيمة ... »

قلت : إن الرافعي لم يكن يعني بانشاء نشيده «اسلمي يامصر» أن يجعله نشيداً قومياً ، فإنه لطمئن إلى أن نشيده « إلى الملا.. » ماض في طريقه إلى هذا الهدف ؛ إنما كان يعني أن يضع في هذا النشيد صوتَ سعد كما تصورت حقيقتُه في نفسه ؛ لكن نشيده ما كاد ينشر ويذاع ، حتى أبدت البلاد رأيها ؛ فقام الطلبة والأدباء والفنانون يدعون دعوتهم إلى اتخاذه نشيداً قومياً لتجعل صوتَ سعد في هـذا النشيد صوتَ البلاد ، ولتتخذ ما فيه من معاني المجد شعاراً لكل مصري ، أن كان صوت سعد يومئذ هو صوت كل مصري

وتألفت اللجان في مختلف البلاد لإعلانه وإذاعته ، وتسابق الملحنون إلى ضبط نغمته ورسم لحنه ؛ فكان أسبقهم إلى ذلك الموسيقار منصور عوض ، والموسيقار صفر علي ؛ واللحن الأول أدق اللحنين وأوفاهما بالغاية ؛ ولكن اللحن الثاني أذيع وأعم ، وبه تنشده فرق الكشافة المصرية بعد إذ صار نشيدها الرسمي

النشيد القومي في سنة ١٩٣٦

ونجحت الدعوة نجاحها المؤمل ، فصار نشيد «اسلمي يامصر» هو نشيد مصر القومي من سنة ١٩٢٣ إلى سنة ١٩٣٦ حين أعلنت الحكومة عن المباراة العامة لتأليف نشيد قومي يهتف به الشعب وتعترف به الحكومة

في هذه الفترة كان الرافعي على نية إنشاء نشيد وطني جديد، إجابة لرغبة تقدم بها إليه شبان الوفد ؛ فما أذاعت الحكومة بيانها عن المباراة حتى تقدم بنشيده الجديد :

حماةَ الحمى ، يا حماة الحمى | هلمّوا ، هلموا لمجد الزمن
لقد صرخت في العروق الدما | نموت ، نموت ، ويحيا الوطن

كما تقدم بنشيده الآخر : « اسلمي يا مصر » ؛ ولأمر ما استبعدت لجنة المباراة النشيد الثاني ، ومنحته الجائزة الثانية على النشيد الأول . وما أريد أن أعرض لرأي اللجنة وحكمها في هذا النشيد الجديد ، فذلك باب من النقد الأدبي ليس من قصدي التعرض له في هذا المقال ؛ فان للتاريخ الأدبي حكمه في هذا الشأن ، يوم تُنسى الأحقاد وتَمحى العداوات

***

ليس ما ذكرت هو جهد الرافعي في الأناشيد ، وليس بهذا وحده يستحق أن نخلع عليه هذا اللقب الذي لا أرى غيره من شعراء العربية جديراً به ؛ فما أستطيع أن أحصي كل ما أنشأ الرافعي في هذا الباب ، وحسبي أن أذكّر بنشيده الخالد الذي أنشأه في سنة ١٩٢٧ ليكون شعار (الشبان المسلمين) ، فهنا ، في هذا النشيد ، يُعرف الرافعي الشاعر المسلم المجاهد الذي وقف قلمه وبيانه على خدمة المسلمين والعرب

أما « نشيد الملك » ، و « نشيد بنت النيل » ، و « نشيد الطلبة » التي أنشأه ليكون به هتاف تلاميذ المدرسة الثانوية بطنطا — فذلك فن من البيان له فصل بعنوانه في تاريخ الأدب العربي

البحر المنفجر

في أناشيد الرافعي عامة ، تعرف له طابعا وروحاً ونغمة هي سرّ نجاحه فيما ألف من أناشيد ، ويميل في أناشيده الوطنية خاصة إلى إبراز معنى القوة في سبك اللفظ ولحن القول ؛ ولو أنك سمعته مرة وهو في خلوته الشعرية يحاول شيئاً من هذه الأناشيد لسمعت لحناً له رنين يشترك فيه صوت الرافعي ، ونقر أصابعه على الكتب وخفق نعله على أرض المكان ؛ وعلى أن الرافعي كان أصم لا يسمع قصف الدافع ، فإنه كان لا يستوي له النظم إلا في مثل هذه الحال . واسألوا صديقنا الأستاذ مصطفى درويش المحقق بوزارة المعارف : ماذا رأى وماذا سمع يوم صحب الرافعي من طنطا إلى القاهرة وكان يؤلف في القطار نشيده « حماة الحمى ... » ؟

واسألوا الآنسة مارى قدسى معلمة الموسيقى بوزارة المعارف تحدثكم عن خبر الرافعى يوم جلس إليها وهى تعالج تلحين نشيده « بنت النيل » ويوم جلست إليه تعزف له على البيانة لحنها لنشيد « اسلمى يا مصر » وهو يسمعها بعينيه تتبعان أصابعها على المعزف وهو ينقر على الأرض بعصاه ورجليه، وينفخ شدقيه وفى أذنيه وقر ثقيل ... !

هذه النغمة التى كانت تتمثل للرافعى فى سمعه الباطن وهو يعالج نشيداً من الأناشيد، كان لها أثرها الفني فى عمله، وهى هى التي كانت تشعره أحياناً بالعجز عن أن يجد فى موازين الشعر العربى النغمة التى كان يريدها في أناشيده كطبل الحرب؛ فلما هم أن يضع نشيد الطلبة :

مَجْدًا مَجْدًا مَدْرَسَتي ... مدرستي مَجْدًا مَجْدًا
عن علمى عن تربيتى ... مدرستى حَمْداً حمداً

لم يجد له نغمة تلائمه فيما يعرف من بحور الشعر، فاخترع له هذا الميزان الذى يزنه به قارئه، وسماه: « طبل الحرب » ولكن صاحب المقطم أشار عليه أن يسميه: « البحر المنفجر » وتفعيلاته « فَعْلُنْ، فَعْلُنْ، فُو » مكررة فى كل شطر، مع بعض علل فى الميزان يمكن إدراكها بالموازنة بين الشعر وتفعيلاته

***

هذا هو الرافعي شاعر الأناشيد، وهذا جهده وما بلغ؛ وقد كان على نية إصدار ديوان من شعره سماه: « أغانى الشعب » جمع فيه ما أنشأ من الأناشيد الوطنية، وأغانى الجماعات والطوائف لولا أن عاجلته المنية. فلو أن أدباء العربية ذكروا يوماً أن عليهم واجباً لإمام من أئمة الأدب العربى كان يعيش فى هذا العصر فاجتمعوا على العناية بآثاره وإتمام رسالته الأدبية، لأخرجوا لقراء العربية ذخراً من الأدب العربى والبيان الرفيع لا يقدر على إنشاء مثله جيل كامل من مثل أدباء هذا الزمان ... !

ورحم الله جماعة تألفت منذ بضعة أشهر لتأبين الرافعى فى شهر أكتوبر، وأوشك شهر أكتوبر أن ينتهى وما استطاعت الجماعة أن تثبت أن فيها حياة ... !

رحمك الله يا مصطفى، وفى ذمة الله ما جاهدت لهذه الأمة التى لا تعرف الجميل !

« شبرا » محمد سعيد العريان

الكميت بن زيد

شاعر العصر المروانى

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

تمهيد

فى الأدب اجتهاد لم يغلق بابه كما أغلق فى الفقه وغيره من علومنا الشرعية، وقد كان لامتياز الأدب بهذا على غيره من العلوم أثر كبير فى ازدهاره فى هذا العصر، وفى وصوله إلى ما لم يصل إليه فى عصر من العصور السابقة، وهو فى هذه النهضة المباركة شغل الطالب فى معهده، والتلميذ فى مدرسته، بل شغل الناس جميعاً على اختلاف أنواعهم ومذاهبهم. ولو أن غير الأدب من العلوم كان له حظه من فتح باب الاجتهاد لم يصر إلى هذا الجمود الذى صرف الناس عنه، وجعلهم يكرهون النظر فيه، ويخشون ما يصيبهم من العنت إذا خرجوا عن مألوفه

وللنفس حاجات فى هذا الاجتهاد المغلق تجعلها تحن إليه الفينة بعد الفينة، فإذا خشيت العنت أو أصابها فيه شيء من العنت عدلت عنه إلى غيره حباً فى المسالمة، أو يأساً من حال الناس فى هذه الناحية؛ ولا تجد مثل الأدب فى رحابة صدره للاجتهاد، وعدم ضيق أهله بأمر الاجتهاد فيه، فتلج بابه، وتسلى عنها به ما يصيبها من أذى الناس وجحودهم لفضل المخلصين العاملين فيهم

وهأنذا الآن بصدد الكتابة عن الكميت بن زيد الأسدى، وبصدد التنويه بالفتح الجديد الذى فتحه فى الأدب العربى بهاشمياته، لأرفعه بها إلى درجة الزعامة على شعراء عصره «عصر بنى مروان» ولأبعد جريرا والفرزدق والأخطل عن هذه الدرجة التى اتفق الناس على منحها لهم، ولا علىّ من مخالفة الناس فيما ذهبوا إليه فى زعامة الشعراء فى هذا العصر، فليس فى الأدب كفر ولا إلحاد ولا غيرهما مما يرمى به الباحثون جزافاً في هذه الأيام

ونحن إذا بحثنا فى هذه الزعامة الشعرية التى عرفها الناس لجرير والفرزدق والأخطل نجد أن ملوك بنى مروان هم الذين روجوا لهذه الزعامة، وهم الذين شغلوا الناس بهؤلاء الشعراء

عن الكميت وغيره ممن يخالف سياستهم ، ويناوىء بشعره ملكهم ، ويناصر به غيرهم من منافسيهم ، وقد مضى عهد بنى مروان ومضت بعده عهود وعهود ، وكان لحب التقليد الذى منى به الاسلام والمسلمون أثره فى بقاء الناس على هذه الزعامة الشعرية

وإنما روج ملوك بنى مروان لجرير والفرزدق والأخطل لأنهم وجدوا فى شعرهم انحرافاً عن الجادة التى يجب أن يكون الشعر عليها ، ووجدوا فيه ما يخدم مآربهم فى حكم الأمة الإسلامية حكما مطلقاً لايقيدهم فيه قانون سماوى أو وضعى ، وفى الاستئثار لأنفسهم وأنصارهم بأموال هذه الأمة وخيراتها ، يصرفونها فى اقتناء القيان ، وشراء الجوار الحسان ، وإشباع شهواتهم فى هذه الحياة ، والقضاء على روح المقاومة للظلم في الأمة حتى تخضع لهم ، وتستكين لحكمهم ؛ ولا نستثنى منهم فى ذلك إلا الملك الصالح عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فقد سار فى حكمه القصير على خلاف سيرتهم ، وأشاح بوجهه عن أولئك الشعراء الذين كانوا يروجون لهم

ولم يكن مثل جرير والفرزدق والأخطل فى ذلك إلا كمثل من يعيش منا الآن بعقول القرون الماضية ، ولا يتأثر عقله بشىء من العصر الذي يعيش فيه ، فهكذا كان أولئك الشعراء يعيشون بعد الإسلام بعقول الشعراء الذين لم يدركوا عهده ، ولم تعمل فى نفوسهم رسالته ، ولم تؤثر فى قلوبهم هدايته ، ولم يهذبهم تقويمه وإصلاحه ، فاستعملوا شعرهم فى خدمة أغراضهم وقضاء مآربهم ، وتعلقوا به ملوك بنى مروان طمعاً فى أموالهم ودنياهم ، ولم ينظروا فيــه إلى الأمة وما تطلبه من الشعر الذي يوقظها من غفلتها ، وينهض بها من كبوتها ، ويحارب عوامل الفناء التى تعمل عملها فيها ، بل ساعدوا خصومها عليها ، وعملوا بشعرهم على تفريق كلمتها ، والرجوع بها إلى حالة الجاهلية ، فكان شعراً رجعياً جامداً بغيضاً ، لاتسري فيه روح الحياة ، ولا يصح أن يكون صاحبه به زعيما فى الشعراء

فإذا نظرت فى شعر الكميت بن زيد وجدته يمثل لك عصر بنى مروان تمثيلاً صادقاً ، لا أثر فيه للخداع والغش ، ولا يشوهه الحرص المقوت على الصلات والجوائز ، وخيل إليك أنك تعيش فى عصر بني مروان مع الذين عاشوا فيه ، وأن ظلمهم وإفسادهم حاق بك كما حاق بهم ، فأخذ قلبك يضطرب بالحقد عليهم ، وأخذت نفسك تضطرم بالثورة على ملكهم ، وتنشد ملكا آخر يسود فيه العدل ، وينتصر الحق على الباطل ، وتنهض به الأمة ، وينتظم لها أمر دينها ودنياها

فهو شعر حى ناهض يدعو إلى الحياة والنهوض ؛ أما شعر جرير والفرزدق والأخطل فهو شعر ميت جامد يدعو إلى الموت والجمود ، ولم يكن الخضوع لزعامة هذا الشعر إلا أثراً من آثار الروح الشيطانية المستولية على النفوس منذ فقد فى المسلمين الحكم الصالح ، وأخذوا يعيشون عيشة آثمة جاهلية ، يضيع فيها الحق ، وينتصر عليه الباطل ، وتنشر فيها أعلام الشر ، وتطوى أعلام الخير ، فأظلمت العقول ، والتبست عليها الأمور ، فصارت ترى الباطل حقاً ، والشر خيراً ، والاثم طاعة وبراً ، وجمدت على هذا بطول الزمن حتى صارت حالها تدعو إلى اليأس فى إصلاحها ، وإزالة هذه الغشاوة عنها

على أنى فيما أراه من زعامة الكميت على شعراء عصره أذهب فى هذا مذهب بعض العلماء والشعراء كانوا يتعصبون له ويقدمونه فى الشعر على غيره من الشعراء جميعاً . قال أبو الفرج الأصبهاني : أخبرنى محمد بن القاسم الأنباري ، قال حدثنى أبى ، قال حدثنا الحسن بن عبد الرحمن الربعى ، قال حدثنا أحمد بن بكير الأسدى ، قال حدثنا أحمد بن أنس السلامي الأسدى ، قال سئل معاذ الهراء : من أشعر الناس ؟ قال : أمن الجاهليين أم من الإسلاميين ؟ قالوا : بل من الجاهليين ، قال : امرؤ القيس وزهير وعبيد بن الأبرص . قالوا : فمن الإسلاميين ؟ قال : الفرزدق وجرير والأخطل والراعى . قال فقيل له : يا أبا محمد ما رأيناك ذكرت الكميت فيمن ذكرت ؟ قال : ذاك أشعر الأولين والآخرين

وقال أبو الفرج أيضاً : أخبرنى الحسن بن على الخفاف ، قال حدثنا الحسن بن عليل العنزى ، قال حدثنى احمد بن بكير ، قال حدثنى محمد بن أنس الأسدى السلامى ، قال حدثنى محمد بن سهل راوية الكميت قال : جاء الكميت إلى الفرزدق لما قدم الكوفة فقال له : إنى قد قلت شيئاً فاسمعه منى يا أبا فراس ، قال: هاته ، فأنشده قوله :

طَرِبتُ وما شوقاً إلى البيض أطرَبُ
ولا لعباً منى وذو الشوق يلعبُ
ولكن إلى أهل الفضائل والتُّقى
وخير بني حوَّاء والخير يُطلَبُ

فقال له: قد طربت إلى شيء ما طرب إليه أحد قبلك، فأما نحن فما نطرب ولا طرب من كان قبلنا إلا ما تركت أنت الطرب إليه

وفى رواية أخرى عن محمد بن على النوفلى، قال سمعت أبي يقول: لما قال الكميت بن زيد الشعر كان أول ما قال الهاشميات فسترها ثم أتى الفرزدق بن غالب فقال له: يا أبا فراس إنك شيخ مضر وشاعرها، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدى، قال له: صدقت، أنت ابن أخى، فما حاجتك؟ قال: نفث على لسانى فقلت شعراً فأحببت أن أعرضه عليك، فإن كان حسناً أمرتنى بإذاعته، وإن كان قبيحاً أمرتنى بستره، وكنت أولى من ستره علي. فقال له الفرزدق: أما عقلك فحسن، وإني لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك، فأنشدني ماقلت، فأنشده:

طَرِبتُ وما شوقاً إلى البيض أطرَبُ

قال فقال لى: فيم تطرب يا ابن أخى؟ فقال:

ولا لعباً منى وذو الشوق يلعب

فقال: بلى يا ابن أخى فالعب فإنك فى أوان اللعب، فقال:

ولم يُلهِني دارٌ ولا رسم منزل ولم يتطرَّبني بنانٌ مُخضَّبُ

فقال: ما يطربك يا ابن أخى؟ فقال:

ولا السانحات البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر أغضب

فقال: أجل لا تتطير، فقال:

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى وخير بنى حوَّاء والخير يطلبُ

فقال: ومن هؤلاء ويحك؟ فقال:

إلى النفر البيض الذين بحبِّهم إلى الله فيما نابنى أتقرَّبُ

قال: أرحنى ويحك من هؤلاء؟ قال:

بني هاشم رهط النبيَّ فإننى بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ
خفضتُ لهم مني جناحى مودَّةً إلى كَنَفٍ عطفاه أهلٌ ومرحبُ
وكنتُ لهم من هؤلاء وهؤلا مُحباً على أنى أُذمُّ وأُغضبُ
وأُرمَى وأَرمِي بالعداوة أهلَها وإنى لأُوذَى فيهمُ وأُؤنَّبُ

فقال له الفرزدق: يا ابن أخى أذع ثم أذع، فأنت والله أشعر من مضى، وأشعر من بقى

وهذه الهاشميات من الدرر اللوامع فى سماء الشعر العربى، وبها يسمو شعر الكميت على غيره من الشعر، وقد أجاد فيها فى مدح بنى هاشم والدعاية لهم، وتصوير حكم بنى مروان تصويراً شنيعاً ينفر الناس منه، ويدعوهم إلى الثورة عليه، حتى هيأ النفوس إلى تلك الثورة التى قام بها بعده أبو مسلم الخراسانى، فقضى على حكم المروانيين، وأقام بعده حكم العباسيين الهاشميين

ولا شك أن الشعر الذى يبلغ به صاحبه هذه المنزلة العالية ويستطيع به أن يقيم دولة ويقعد دولة، هو الشعر الذى يستحق به صاحبه الزعامة على شعراء عصره. لا ذلك الشعر الذي لا يعد وأمره أن يكون ألفاظاً جوفاء لا طائل تحتها، ولا ثمرة فى هذه الحياة لها

وقد شهد الفرزدق شهادة أخرى لهذه القصائد، فقيل له: أحسن الكميت فى مدائحه فى تلك الهاشميات، فقال: وجد آجراً وجصاً فبنى

عبد المتعال الصعيدى

دراسات في الأدب الانكليزي

جون ملتون

للأستاذ خليل جمعه الطوال

تمهيد

لقد كانت انكلترا قبل الحكم الأليزبثي غارقة في بحر خضم من الحروب الدينية والنازعات المذهبية ، وكان أدباؤها منقسمين إلى عديد البطانات السياسية المتضادة التي كانت لا تفتأ تتناحر فيما بينها على اجتذاب حبل الرأي في الأمة ، ومقاليد الأمور في الحكومة ، والمراكز الملحوظة في السيادة ، وصرفتهم هذه الحروب الدينية السياسية عن طبيعتهم ، واجتاحتهم إلى ميادينها الدامية ، كما يجتاح السيل الأتيُّ قطعة من الخشب ، أو قصبة من القش . فلا عجب إذا تضيفت شمس الشعر — في انكلترا — للمغيب ، ولا عجب أيضاً إذا تعطلت في الناس أخيلتهم التوثبة ، ومشاعرهم المشبوبة ، وصدورهم المليئة بالأحاسيس الوثابة ، والعواطف الجياشة ، إذ ليس في البيئة السياسية ثمة ما يغذي هذه الأمور ، أو يثير أسبابها ويوقد جذوتها

وما هو الا أن اعتلت اليصابات سدة العرش ، وتسنمت عاليها وتقلدت بيدها الحديدية زمام المملكة وأعنتها ، حتى سارت في خطتها على المبادئ القويمة اللاحزبية ، فأباحت الناس على مختلف طبقاتهم ومللهم الحرية المطلقة في معتقداتهم ، فخمد بذلك روح التناحر المذهبي — ولو إلى حين — وانفرط عقد هذه البطانات السياسية المتضادة ، إذ قطع التسامح الديني الذي أوجدته اليصابات أسباب تضادها ، فاستيقظت مشاعر الشعراء وعواطفهم على هدوء ريح هذا التعصب المذهبي المقوت ، وأخذت أخيلتهم التوثبة تتحرر من أصفادها وقيودها التي كبلتها بها البيئة السياسية مدة من الزمن ليست بالقصيرة . وقد ساعد على هذه النهضة المباركة ذوق الملكة الأدبي ، إذ استدنت الأدباء إلى قصرها وقربت الشعراء من بلاطها ، فكان عملها هذا وتشجيعها للأدباء بمثابة التعويض العادل للآداب عما خسرته تحت نقع تلك الحروب الذهبية — السالفة الذكر — التي خلقها تكالب الكاثوليك والبروتستنت على السيادة

وما هي إلا فترة من الزمن حتى توفيت اليصابات ، فأخذ الأدباء عامة ، والشعراء خاصة ، ينحتون سبلهم الوعرة في صخر السياسة الأصم بكل عناء وجهد ، إذ كان موتها كالريح الهادئة أذكت سعير تلك النار المذهبية الخامدة ، فعادت النفوس إلى شنشنتها القديمة من التخاذل والانقسام الديني . والتف الأدباء ثانية ، كل حول بطانة خاصة ، يناصرها في الجهر والخفاء ، ويذود عنها بلسانه وقلمه ، وإذ كان الدين علة هذا الانقسام وسبب تحزب هذه الأحزاب ، فقد كان نتاج الأدباء إذ ذاك ، متسماً بالنزات الدينية ، والمظاهر الحزبية . وخير من نلتمس هاتين الظاهرتين بوضوح وجلاء في آثاره « جون ملتون » وهو الذي سنعرض لدراسته في هذه الكلمة المجلى

شخصيته وحياته

لملتون شخصية فذة محاطة بستر كثيف من الغموض والابهام ، ليس من الهين علينا خرقه ؛ يدل على ذلك : تشعب الأحكام فيه ، وتباين وجهات النظر إليه ، وتناصر الآراء عليه . فبينا نرى المعجبين بسمو شخصيته ، والمفتونين بسحر شاعريته ، يوغلون في تقديسه وتبجيله ، ويبوؤونه وشكسبير سناما واحد من الشهرة والعظمة ولا يرون « لفردوسه » في الشعر مثيلاً إلا بالرجوع إلى الإلياذة والأوذيسة — إذ بالكثيرين من خصومه يجردونه من جميع مواهب الشاعرية السامية ، ويجهدون الفكر في تسقط سقطاته ، وتقصي هفواته ، والاحاطة بكل ما من شأنه ان ينتقص من شاعريته وينال من شخصيته . أما الفريق الأول فزعيمهم « وليم هزلت » ، وأما الفريق الثاني فعلى رأسهم « جونسون » ؛ ولا تظهر الحقيقة بين حالتي الاغراق في الاعجاب ، والتحذلق في التعرض إلا مجسمة مكبرة ، ومشوهة ملفقة ، فلا عجب إذا قلنا إن ملتون كان ولم يزل غامض الشخصية ، مكتوم الطوية . ونحن إذ نعرض له بمثل هذه الكلمة المجلى ، فلسنا ندعى أن فيها فصل الخطاب الذي لا يرد ، ولا التوفيق بين مختلف هذه الأقوال المتبلبلة والأحكام المتشعبة ، وإنما نريد توجيه اهتمام الناقدين ، وجهود الباحثين إليه ، وعرض

مختلف القالات فيه ، تاركين — ما أمكن — للقارىء الكريم الحرية فى إجازة غثها من سمينها

***

ولد ملتون فى « برودستريت » بلندن ، وكان والده كاتباً ؛ وإذ كان من أهل اليسر والرخاء فقد كان شديد الرغبة فى تعليمه تعليماً جامعياً عالياً . ولقد كانت طفولته النادرة تنبىء بما سيكون له من المجد المخبوء فى جوف المستقبل ، وليس أدل على طموحه وعبقريته وتحفزه للوثوب إلى قمة المجد من تلك القطوعات الشعرية الجيلة التى نظمها وهو لايزال بعد فى ربيع صباه ، تائهاً بكبرياء فتونه

كان ملتون طويل القامة ، ساهم الوجه ، شتيت الثغر ، أبلج الحاجبين ، ذا عينين نجلاوين ، أشم الأنف . سخامي الشعر رجله ، مليح الفم ، معتدل الأعضاء ، وكان (كما روى عنه) بارع الجمال ، تمشق منظره العين ، وترتاح لحديثه النفس ، وهو — إلى جانب ذلك كله ، مزهو بنفسه معجب بخلقه ، وممتد بذكائه ، تشهد بذلك آثاره العديدة ، وأساليبه الشعرية المستعصية ؛ وما أسلوب الشاعر فى قصيدته إلا صورة لطبعه ، ومرآة لأخلاقه

مكث ملتون فى بيت والده فى « هارتون » حتى منتصف العقد الثانى من عمره ، حيث عاش تحت كنفه عيشة مترفة رخية ، لا ترنق صفوها الأكدار والأحزان ، ولا تعبث بهنائها الهموم والأشجان ، فشب محباً للحرية ، وما من شىء يضع فى جذوة نفسه المتوقدة ، أو يفل من شباة عزيمته المتحفزة ، وإذ ليس من شاغل يشغله بأمور عيشه ، فقد كان منصرفاً إلى افتعال الشعر والعبث به ، وإلى احتذاء أساليب أفذاذ الشعراء فى القريض .

وفى عام ١٦٢٤ أدخله والده مدرسة University of christ فى كمبردج ، فأقبل على الدرس لا يلوى عنه إلا حين يجهده الفكر ، فنال بذلك استحسان معلميه ومديح عارفيه ، إذ بز جميع أقرانه ، واشتهر بين سائر لداته بذكائه اللامع ، وفطنته المتوقدة . وفى عام ١٦٣٢ أنهى علومه الجامعية ونال درجة M.A السامية فغادر كمبردج راجعاً إلى بيته فى هارتون ، حيث أكب على مطالعة الآداب الكلاسيكية مدة خمس سنوات تمكن فى خلالها من الاحاطة بجميع ما فيها من رائع النثر وجيد الشعر . أما اللغة الانكليزية ، فقد بلغ اطلاعه عليها حد الاحاطة بجميع أوابدها المستعصية . وليس أدل على ذلك من مطالعة ملحمته الشهيرة المعروفة « بالفردوس المفقود » إذ تحتاج فى كل صفحة إلى الاستعانة بالمعجم عشرات المرات

وبعد أن قضى فى هارتون خمس سنوات فى الجد والمطالعة ، أخذ يطوف فى أنحاء أوربا ، ويتنقل بين مدنها العامرة وعواصمها الزاهرة ، فتلقحت بذلك عبقريته بعناصر أدبية جديدة ، وتجلت مواهبه عن جرائم شعرية سامية ، لطفت من عرام نفسه ، ولينت شيئاً من حرونة طبعه ، وزادت فى قيمة إنتاجه . ففى عام ١٦٣٨ ذهب إلى إيطالية ، وكانت إذ ذاك كعبة الأدب ، ومثابة الفن ، وقبلة الشعراء والمتأدبين ، يحجون إليها فى كل عام ليردوا شرعة آدابها الرائعة ، وليروحوا عن أنفسهم من عنائها ، وذلك بالتمتع بسمائها الصافية ، وأشجارها الباسقة ، ومناظرها المتناسقة . وقد زار من مدن إيطالية فلورنسة ، واجتمع فيها غير مرة بأعظم علمائها وهو غاليلو ، ومنها عرج على رومة وهى العاصمة ، والمثابة العزيزة لسائر أنواع الفن ؛ ثم سار منها إلى نابولى ، وهناك قرع سمعه نبأ الحروب الداخلية التى شبت فى انكلترا عن اصطدام حق الملوك الالهى برغبة الشعب الملحة فى الحصول على حقوقهم كاملة غير منقوصة ، ولهذا فانه لم يتم رحلته بل رجع إلى وطنه وهو يقول : إنه لمن المزرى بالرجل أن ينشد الراحة فى السفر ، بينما مواطنوه يجالدون فى سبيل حريتهم

ملتون والسياسة

وبرجوع ملتون من رحلته تبتدئ حياته السياسية ، وهى دور ملىء بالجهود الجبارة والأحداث الخطيرة ؛ ولئن كان إذ ذاك مأخوذاً بنزق الشباب وتهور العاطفة إلا أنه أظهر فى ميدان السياسة من الحنكة والدهاء والمرونة الدبلوماسية ما لا طاقة على مثله إلا لذوى النبوغ والعبقرية . كان حبل السياسة إذ ذاك مضطرباً بين حق الملوك الإلهى وبين ديمقراطية الشعب ؛ وأحياناً بين البروتستنتية المصلحة ، والكاثوليكية البالغة فى المحافظة على تقاليدها — ولو بليت — وكان ملتون خصم الملكية اللدود ، وعدو البابوية الأزرق ، فلا عجب إذا انهال عليهما بكثير من الامتهان والزراية ، أو تسقط لهما كل ما من شأنه أن يحط من جلالها أو ينال من عظمتهما

لقد ناهض الملكية كثيراً ، وقاومها مقاومة غماء الجبين ، حتى أنه لم يدع سانحة تمر إلا اهتبلها منددا بعيوبها ومثالبها ،

شاهراً ظلمها ومساوئها ؛ كما ناصر الطهريين كثيراً في تقويض دعائم الكاثوليكية . والطهريون في ثورتهم على الكاثوليكية ومن ورائها الملكية ، أشبه ما يكونون في التاريخ العربي بالخوارج في ثورتهم على العلويين أولا والأمويين ثانياً ؛ ووجه الشبه بينهما اختلاط الدين بالسياسة في مبادئهما . وما مبادئ الطهريين التي هبوا متشمرين للنضال السياسي في تحقيقها ، إلا صورة من المبادئ الوهابية في جزيرة العرب . ولقد كانت الدعوة الطهرية في بادئ أمرها دينية محضة ، أي كدعوة الخوارج إبان خروجهم على علي ، ولكنها — كمثيلتها — لم تلبث أمام أرستقراطية الملوك أن تنكرت لهم ، واصطبغت لمجالدتهم بالصبغة السياسية ، فقد ناهض الطهريون الملوك مناهضة عنيفة ، وأنكروا عليهم حقهم الآلهي في السيادة والسلطة ، وانتزعوا لفظه من أفواههم بعد أن كانوا يتشدقون بمضغه تشدق من يمضغ لقمة دسمة . وما انتصار النظام الدستوري في انكلترا وانهيار دعائم الملكية إلا رمزاً لانتصار المبادئ الديمقراطية على الأرستقراطية ، بل صورة لانتصار الطهريين على جميع منافسيهم ، ذلك الانتصار الذي أملى على ملتون ملحمته الشهيرة المعروفة بالفردوس المفقود ، وهي صورة حية لما كان عليه الدين إذ ذاك من التبلبل والانقسام ، تطلعنا على مدى ما وصل إليه الطهريون في جهادهم لتدعيم أسس حرية الشعب الدينية والسياسية تلك الحرية التي أنجبت أمثال دن ، وبنيان ، وملتون

ومن كتابات ملتون السياسية رسالته المعروفة : بـ Tenure of King and Magistrates وقد كتبها عام ١٦٤٩ دفاعاً عن إعدام الملك — ذلك الإعدام الشنيع الذي صوره فيما بعد بصورة ترتعد منها الفرائص وتقشعر لها الأبدان في كراسته المعروفة بـ Eikon Basilike

وإذ كان ملتون ظهيراً لكرمويل ومساعداً له ضد الملكية الظالمة ، فقد عينه هذا بعد تسنمه سدة الحكم بمدة وجيزة — أي عام ١٦٤٩ — ترجماناً له في قسم السكرتارية اللاتينية ، وكان عمله ترجمة جميع الدواوين والرسائل إلى اللغة اللاتينية ، إذ كانت اللاتينية إذ ذاك هي اللغة السياسية الوحيدة المتفق عليها بين جميع دول أوربا

« يتبع » خليل جمعة الطوال

أبحاث تاريخية جديدة

الاسلام في غرب أفريقية

مدى انتشاره في تلك الأقاليم ومبلغ أثره في الأهلين

للأديب جمال الدين محمد الشيال

تتمة

ولقد حمل إليهم الإسلام أيضاً نظام الحكم الديموقراطي . ذلك أن نظام الادارة في الاسلام نظام ديموقراطي — لا فارق بين رجل الدين وعامة الشعب — فرئيس المقاطعة هناك هو الليمان Liman (ويبدو لي أنها محرفة عن لفظة الامام العربية) ويختار من بين أفراد الشعب ، وكل الصفات التي يراعيها الناس أثناء انتخابه هي أن يكون على خلق طيب وأن يكون ملماً بالقرآن إلماماً لا بأس به . ومن وظيفته أن يؤم الناس في الصلاة . وليس هناك نظام مركزي يوحد بين هؤلاء الليمانز Limans ، فكل منهم مستقل في إدارته . ويزود الليمان هو والمالم Malam (وأرجح أن أصلها معلم ، فوظيفته تعليم الناس ولا بد أن يكون على علم ولو قليلاً بالقرآن) بما يقدمه الناس لهم من عطايا عن طيبة خاطر . ومهمة هؤلاء المعلمين Malams تعليم الصغار ؛ غير أن أكثر اعتمادهم في الكسب على التمائم التي يقدمونها للناس . والمعلمون كذلك أطباء يستخرجون الأدوية من جذوع الشجر وأوراقه . ومعظمهم طفيليون على المجتمع ، بل إن بعضهم يستخدم تلامذته لسؤال الناس . وكثير منهم ممن ذهبوا إلى مكة وحجوا البيت الحرام يشاع تقديسهم ؛ وهم يستغلون هذه الاشاعات الخيالية طول المدة الباقية من حياتهم . ولكننا برغم هذا لا نعدم أن نجد بين هؤلاء المعلمين من يحيا حياة كلها تقوى وورع وسعى لنشر العلم . وفي معظم الولايات الاسلامية تقام الصلاة كل يوم كما يحتفل المسلمون بعيدى الفطر والأضحى إذ يسمونهما (Karamin Salla & Baban Salla) أي العيد الأصغر والعيد الأكبر

المذاهب الدينية

ويعتبر سلطان سكوتو Sokoto الرئيس الروحى لجميع مسلمي السودان الأوسط حيث يسمونه Sarkin Musulmi ولقد امتد نفوذه فى أوائل هذا القرن حتى شمل تمبكتو غرباً وأجادز Agades شمالاً (ولكن هذا النفوذ لم يشمل بورنو حيث يتمتع الشيهو بمركز دينى يضاهى مركز سلطان سكوتو) وهناك مذاهب دينية مختلفة تعمل على تقدم الاسلام ونشره ، أهمها مذاهب القادرية والتيجانية والسنوسية . وللمذهبين الأولين أتباع كثيرون فى مختلف أنحاء نيجريا ، وخاصة مذهب التيجانية الذى أسسه أحد أساتذة بلاد المغرب واسمه « سيدى أحمد التيجانى » وكثير من ثورات السودان المحلية يرجع لتأثير هذا المذهب فى السودانيين. أما مذهب السنوسية فلم يتعمق إلى الجنوب كثيرا ؛ لقد بلغت دعوته شمال نيجريا وله بعض الأتباع فى سكوتو وبورنو . وليس هناك ما يميز أتباع هذه المذاهب عن بقية المسلمين سوى رغبتهم وسعيهم للتطهر ، وسوى حلقات الذكر التى يقيمونها فى الحين بعد الحين (وإن كانوا لا يفهمون معنى ما يقولون أثناء الذكر كما يقول Meek)

والمساجد منتشرة فى كل مدن الاسلام ، أما فى القرى فالمسجد قطعة من الأرض مسورة بحاجز من الخشب

الاسلام ينتشر وإن كان المسلمون لا يبشرون به

لا يوجد بين المسلمين الآن إرساليات تبشيرية تعمل لنشر الاسلام ، ولكن الاسلام ينتشر عفواً بين تلك الجماعات دون بذل مجهود . والجهاد عند المسلمين واجب لنشر دينهم بين الوثنيين ولكننا لو عرفنا أن الجانب الأعظم من دخل الفولانى يعتمد على تجارة الرقيق بدا لنا السبب فى عدم اهتمام هؤلاء كثيراً بالتبشير لدينهم بين الوثنيين

ومع هذا فقد كانت هناك إرساليات تبشيرية هامة فى أوائل حكم الفولانى . فإن لاندر Lander يحدثنا أنه قابل فى Island village of the niger معلمين من الفولانى Fulani Malams أرسلهم أمير نوبى Nupe لينشروا تعاليم الاسلام بين السكان الوثنيين غير أن الإسلام لم ينتشر فى تلك الجهات نتيجة سعي الإرساليات قدر ما انتشر نتيجة جذب ثقافة المسلم العالية لجيرانه الوثنيين . والآن بعد سهولة المواصلات أصبح المسلمون أكثر اتصالاً بالوثنيين ، وكانت نتيجة هذا أن الوثنى الذى يتعدى منطقة إقامته يرى أن من الصالح أن يعتنق الاسلام ، وأن يتبع المسلمين فى أسلوب حياتهم ، لأنه سريعاً ما يدرك ضيق دينه إذا قارنه بمالية الاسلام ؛ وهو إلى هذا كله لا يجد صعوبة فى انتقاله من الوثنية إلى الاسلام ، فهو بالمباشرة يستطيع بسرعة أن يستسيغ نظم الدين الجديد . والوثنى كذلك يرى أن المسلم متسامح وأنه يعيش فى منزل أنظف من منزله ويرتدي ملابس خيراً من ملابسه ، وله بالعالم معرفة أوسع من معرفته . فلا غرو بعد هذا إن فضل الوثنى الاسلام فاعتنقه . والوثنى عند ما يسلم يغسل جسمه كله ثم يعلن إسلامه فى المسجد

نظم التعليم فى تلك الجهات

وهناك مدرسة فى كل بلدة من بلاد الاسلام يديرها معلم من الأهلين ، ويرسل إليها الأطفال فى سن مبكرة غالباً بين الثالثة والرابعة ، يرسلهم آباؤهم إلى هذه المدرسة فراراً من الجهد الذي يبذلونه لرعايتهم . ومن هؤلاء المعلمين من يمارس التجارة إلى جانب مهنة التعليم . أما الأطفال فهم يستمعون إلى دروسهم في العادة ساعة فى الصباح وساعة فى المساء ، وهؤلاء الأقوام لا يهملون تعليم بناتهم . ويتلقى التلاميذ دروسهم عادة قبل شروق الشمس وبعد غروبها حتى يستطيع الصبية منهم خدمة الحقول أثناء النهار

وأول ما يتعلم الأطفال الصلاة ، ثم يعلمون كيف يقرأون القرآن ، ثم يتلقون بعض الواجبات الدينية كشروط الوضوء وطرق الاغتسال وغيرها . والأطفال يقرأون العربية جميعاً وراء معلمهم بصوت مرتفع منغم . وإذا تقدم الأطفال فى السن وكبروا علموا شيئاً من تفسير القرآن ؛ غير أن نظم التعليم العامة عندهم تسير على نهج آلي . فمعظم الأولاد يحفظون القرآن كله أو بعضه ، وهم لا يفقهون له معنى . بل إن أكثر المعلمين هناك ثقافة لا يعرف شيئاً عن التطور الفكرى الذى يسود العالم الاسلامى اليوم . وإن كان هناك نفر من النيجريين على درجة كبيرة من العلم والثقافة فنهم شيهو دان فوديو Shehn Dan Fodio وقد ألف كتاباً فى اللاهوت وابنه بلو Belo وهو نحوى ومؤرخ مشهور وغيرهم كثيرون . ولا يتقاضى المعلمون مرتبات غير الهدايا التي تقدم إليهم . وعند ما يتم الولد دراسته يأخذ المعلم من أهله حملاً أو عنزة ومع هذا فإن ٣٪ من المسلمين فقط هم الذين يقرأون ويكتبون

فضل الاسلام فى توحيد هذه القبائل المبعثرة

يبدو لنا بعد هذا بوضوح كيف أن نظم الاسلام الاجتماعية والسياسية توافق الزنوج كل الموافقة خصوصاً وإن زنوج السودان يسود بينهم الدم الحامى أو دم البحر الأبيض المتوسط . فالاسلام إذ يفرض على هؤلاء الناس الختان ويبيح لهم تعدد الزوجات ويمنعهم عن أطعمة خاصة ويحرضهم على أن يكونوا أحرارا ، لا يطلب منهم المستحيل ، بل إن Meek يقول « إن الاسلام إذ يفرض على الزنوج عبادة الله لا يفرض عليهم جديداً فإن Animistic people فى نيجريا يعتبرون إله السماء هو المسيطر والمنظم للعالم »

وبعد هذا فإنا لا ننسى كيف حمل الاسلام إلى هؤلاء الأقوام الشعور بضرورة الوحدة ، فلقد جمعهم بعد تفرقة . والفضل كل الفضل للاسلام إذ كون من تلك القبائل المبعثرة وحدات متحدة قوية ؛ بل إن ميك يعترف بالفضل للاسلام إذ وحد هؤلاء الناس حتى استطاع الانكليز أن يحكموهم هذا الحكم غير المباشر . وإن كان المسلمون فى تلك الجهات هم الذين يتولون أمورها ولهم قيادة الرأى العام فيها

***

لقد رأينا كيف اتسعت موجة الاسلام واتسعت حتى تلاشت فى القرن التاسع عشر وابتدأت حركة الاستعمار ووجد المستعمرون أن مصدر الصعاب التى قامت فى طريقهم هو الاسلام والخلاف الدينى بينهم وبين أهالى الجهات المستعمرة . ولذلك فهم يبذلون الآن جهدهم لنشر المسيحية حيثا حلوا . وهم يجذبون الناس إليهم بمختلف الوسائل التى تحمل طابع الانسانية ، فهم ينشئون المستشفيات والمدارس ودور اللهو والكنائس وغيرها . ثم هم يجتهدون أخيراً أن يحولوا بين مسلمى السودان وزنوجهم لينشروا بينهم المسيحية . ولكن واجب المسلمين الآن أن يلقوا بالدعوة من جديد حتى تبتدئ الموجة ثانية وتتسع . . وتتسع حتى تصل إلى هؤلاء الأقوام فتحسن من تعليمهم وتعمل على تقوية إيمانهم . ولا أحسب أن هناك قطراً يصلح لهذه المهمة غير مصر؛ ولا أحسب أن معهداً فى مصر يصلح لهذه المهمة غير الأزهر، ورجال الأزهر. فهل يفكر القوم في هذا ؟ !

جمال الدين محمد الشيال

المراجع

1 — Keane: North Africa
2 — Hogben: The Muhammedan Emirates of Nigeria Oxford 1930.
3 — H. H. Johnston; The Colonization of Africa Cambridge 1913
4 — Meek: Northern Nigeria v. II

١ — ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار المغرب . طبعة لايدن سنة ١٨٤٨
٢ — ابن خلدون : المغرب فى تاريخ الدول الاسلامية بالمغرب طبعة لايدن ١٨٤٧
٣ — المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب طبعة لايدن سنة ١٨٤٧
٤ — ابن بطوطة : رحلته المسماة « تحفة النظار ... الخ »

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٧١ — فان لم ينتهوا راجعت ديني

كان أبو الطراب من لصوص الحجاز فتاب فظُلم فقال :

ظلمتُ الناس فاعترفوا بظلمى فتبت ، فأزمعوا أن يظلمونى
فلست بصابر إلا قليــلاً فإن لم ينتهوا راجعت دينى

٢٧٢ — الشاهد عند الحاجة

قال أبو العيناء : ما رأيت قط أحسن شاهداً عند حاجة من ابن عائشة . قلت له يوماً : كان أبو عمرو المخزومى يصلك ثم جفاك ، فقال :

فان تنأ عنا لا تضرْنا ، وإنْ تعُد
تجدْنا على العهد الذى كنت تعلم[1]

٢٧٣ — ما زلت تخفى الصدقات

مرَّ الفرزدق[2] بالحكم بن المنذر بن الجارود فاستسقاه ماء ، فقال : هلا لبناً يا أبا فراس ؟ قال : ذاك إليك . فلأْ له عُساً[3] من خمر ، وأمر فحلبت عليه لقحة[4] فصمدت الرغوة فوق الشراب وأتاه به فشربه حتى صك بالعس جبهته ، وانتفخت أوداجه ، واحمرت عيناه ، فمسح سباله وقال : جزاك الله خيراً ! فانك ما زلت تخفى الصدقات ، ونعمّا هى[5]

٢٧٤ — وهذا ينتسب عرضا

سئل رجل عن نسبه فقال : أنا ابن أخت فلان . فقال

(١) لجرير بن خرقاء العجلى

(٢) معرب (برازده) الرغيف يسقط في التنور أو فتات الخبز ، وهو لقبه واسمه همام

(٣) العس : القدح الضخم يروى الثلاثة والأربعة والعدة

(٤) اللقحة : الناقة الحلوب . بكسر اللام وفتحها

(٥) التيس الخبيث عابثاً ، والآية الكريمة : (إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير)

أعرابى : الناس ينتسبون طولاً ، وهذا ينتسب عرضاً[1]

٢٧٥ — بل يزوج

كان ذئب ينتاب بعض القرى ويعيث فيها ، فترصده أهلها حتى صادوه وتشاوروا فى تعذيبه . فقال بعضهم : تُقطع يداه ورجلاه ، وتدق أسنانه ، ويخلع لسانه . وقال بعضهم : بل يصلب ويرشق بالنبال . وقال بعضهم : بل توقد نار عظيمة ويلقى فيها . وقال بعض المتحنين بنسائه : لا ، بل يزوج . وكفى بالتزويج تعذيبا ! وفى هذه القصة يقول الشاعر :

رب ذئب أخــذوه وتمــارَوا فى عقابهْ
ثم قالوا : زوِّجــوه وذروه فى عــذابهْ

٢٧٦ — فأما البخارى وكافر لما سمعناه

قال ابن العماد الحنبلى : كان عبد السلام[2] بن عبد الوهاب ابن عبد القادر الكيلانى — ويلقب بالدكن — أديباً كيساً مطبوعاً عارفاً بالمنطق والفلسفة والتنجيم وغير ذلك من العلوم الردية ! وبسبب ذلك نسب إلى عقيدة الأوائل

(١) ابراهيم الحجارى :

سألته عن أبيــه فقال : خالى فلان
فانظر عجائب ما قد أتت به الأزمان

(٢) ولد سنة ٥٤٨ وتوفى سنة (٦١١) في شذرات الذهب : كان عبد السلام حنبلياً وولى عدة ولايات ، وقد جرت عليه محنة فى أيام الوزير (ابن يونس) فانه كبس دار عبد السلام هذا ، وأخرج منها كتباً من كتب الفلاسفة ورسائل إخوان الصفاء وكتباً من كتب السحر والنيرنجيات وعبادة النجوم ، واستدعى ابن يونس العلماء والفقهاء والقضاة والأعيان ، وقرئ فى بعضها مخاطبة زحل يقول : أيها الكوكب المضئ المنير ، أنت تدبر الأفلاك ، وتحيي وتميت ، وأنت الهناء . وفي حق المريخ من هذا الجنس ، وعبد السلام حاضر . فقال ابن يونس : هذا خطك ؟ قال : نعم . قال : لم كتبته ؟ قال : لأرد على قائله . فأمر باحراق كتبه . فجلس قاضى القضاة والعلماء وابن الجوزى معهم على سطح مسجد مجاور لجامع الخليفة يوم الجمعة وأضرموا ناراً عظيمة تحت المسجد ، وخرج الناس من الجامع فوقفوا على طبقاتهم ، والكتب على سطح المسجد ، وقام أبو بكر بن المارستانية فجعل يقرأ كتاباً كتاباً من مخاطبات الكواكب ونحوها ، ويقول : العنوا من كتبه ومن يعتقده — وعبد السلام حاضر — فتصيح العوام باللعن ، وقد تعدى اللعن إلى الشيخ عبد القادر بل إلى الامام أحمد ، وظهرت الأحقاد ، ثم حكم القاضي بتفسيق عبد السلام ، ورمي طيلسانه ، وأخرجت مدرسة جده من يده ويد أبيه عبد الوهاب ، وفوضت إلى ابن الجوزي . ولما قبض على ابن يونس ردت مدرسة الشيخ عبد القادر إلى ولده عبد الوهاب ، ورد مابقى من كتب عبد السلام التى أحرق بعضها

رأى عليه والده يوماً ثوباً بخاريا — وكان عبد الوهاب كثير المجون والداعبة — فقال : والله هذا عجب ! ما زلنا نسمع (البخارى ومسلم) فأما (البخارى وكافر) فما سمعناه !

٢٧٧ — كفيتنا مؤونة مراجعته . . .

كتب القاضى أبو يوسف كتاباً وعن يمينه انسان يلاحظ ما يكتبه ، ففطن له أبو يوسف ، فلما فرغ من الكتابة التفت إليه وقال : هل وقفت على شيء من خطأ ؟

فقال : لا والله ولا حرف واحد

فقال له أبو يوسف : جزيت خيراً حيث[1] كفيتنا مؤونة مراجعته . ثم أنشد :

كأنه من سوء تأديبه أسلم في كُتَّابسوء الأدب[2]

٢٧٨ — فانظر الى حجر صلد يكلمنا

قال أبو عامر البريانى فى الصنم الذي بشاطبة :

بقيةٌ من بقايا الروم معجبة

أبدى الثبات بها من علمهم علما[3]

لم أدرِ ما أضمروا فيه ، سوى أمم — تتابعت بعد سموه لنا صنما

كالبرد الفرد ، ما أخطا مشبهه — حقاً لقد برد الأيام والأمما !

كأنه واعظ طال الوقوف به — مما يحدث عن عاد وعن إرما[4]

فانظر إلى حجر صلد يكلمنا — أسمى وأوعظ من قُسٍّ لمن فهما

(١) حيث للمكان (وللزمان عند الأخفش) وهى هنا للتعليل واستعمالها بهذا المعنى فى كلام المولدين كثير فى فاتحة المفصل : « ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه فى عجم خلقه ولكن فى عربه لايبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج » وفى (الكشاف) وغيره مثل ذلك

(٢) البيت في (كتاب الأوراق) جو لاحمد بن يوسف من وزراء المأمون . (الكتاب) جمع كاتب فأطلق على محله مجازاً للمجاورة (التاج) وعند المبرد : المكتب موضع الكتاب . وخطأ من جعل الموضع الكتاب وابن الأعرابي يقول : يقال لصبيان المكتب الفرقان أيضاً وفى (التاج) نقل شيخنا عن الشهاب فى شرح الشفاء أن الكتاب للمكتب وارد فى كلامهم . ولأبى العيناء ويروى لابن عروس الشيرازى :

تباً لدهر قد أتى بعجاب — ومحا فنون العلم والآداب
وأتى بكتاب لو ابسطت يدى — فيهم رددتهم إلى الكتاب !

(٣) معجبة : بكسر الباء : حسنة جداً ، أو حاملة على التعجب . وبفتحها ذات عجب : زهو كبر

(٤) يقصد بعاد وارام أقدمين ، ماضين

٢٧٩ — وأنتم كدود الخل

فى (إرشاد الأريب) لياقوت : حدث الرئيس أبو الحسن هلال قال : قلت لجدى أبى إسحق (الصابى) — تجاوز الله عنه — وهو يشكو زمانه : ياسيدى ، مانحن بحمد الله تعالى إلا فى خير وعافية ونعمة كافية . فما هذه الشكوى التى تواصلها ، ويضيق صدرك بها ، وينتنص عيشك معها ؟ فضحك وقال : يا بنى ، نحن كدود العسل قد نقلنا منه إلى الخل فلهذا نحس بحموضته ، ونأسى ونحزن على ما كنا فيه من العسل ولذته . وأنتم كدود الخل ماذقتم حلاوة غيره ، ولا رأيتم طلاوة[1] ضده

٢٨٠ — يا ابن نمار باير انركى شادى

فى (عيون الأخبار) : قال على بن هشام : كان عندنا بمرو قاص يقص فيبكينا ، ثم يخرج بعد ذلك طنبوراً صغيراً من كمه فيضرب به ويغنى ويقول :

يا ابن تيار بايد أندكى شادكي

معناه : ينبغى مع هذا الغم قليل فرح

٢٨١ — ولكن بدموعى !!!

نَوْرَزَ الناس ونورزتُ ولكن بدموعى[2] ! وذكت نارهمُ والنار ما بين ضلوعى !

٢٨٢ — قبل أن يبادرنى بالعقوق

تزوج أعرابى على كبر سنه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أبادره باليتم قبل أن يبادرني بالعقوق ...

(١) طلاوة : مثلثة ، حسن بهجة

(٢) نورز : من النيروز والنوروز أيضاً ، وهو أعظم أعياد الفرس . وكانت عادة عوامهم فيه رفع النار فى ليلته ورش النار في صبيحته ، وفى ذلك يقول المعوج :

كيف ابتهاجك بالنيروز ياسكنى — وكل ما فيه يحكينى وأحكيه
فناره كلهيب النار فى كبدى — وماؤه كتوالى عبرتى فيه

ومعنى نيروز يوم جديد . حكى أنه قدم إلى على (رضى الله عنه) شيء من الحلوى فسأل عنه . فقالوا : للنيروز . فقال : نيروزنا كل يوم .. وفى المهرجان قال : مهرجونا كل يوم . وفيه استعمال الفعل من الالفاظ الاعجمية ؛ وهو من قوة الفصاحة ، وطلاقة اللسان ، والقدرة على الكلام (نهاية الارب ، اللسان ، التاج)

قطعتان من روائع أدب الغرب

١ — حنين إلى الوطن

للشاعر الناثر : شاتوبريان

ما أكثر ما تكن جوانحى من ذكريات عِذاب
عن البلد الجميل الذي فوق أرضه ولدت ، وتحت سمائه ترعرعت !
أختاه ، ما أجمل تلك الأيام التى أنفقناها فى فرنسا !
دمت يا بلادى محطاً لغرامى ومنية لفؤادى !

***

هل تذكرين يا حبيبتاه أمنا الرءوم
حين كانت تضمنا إلى صدرها الحنون
باسمة الثغر ، متهللة الوجه بقرب موقد كوخنا
وحين كنا نلثم معاً شعرها الأبيض الجميل
هل تذكرين ؟

***

هل تذكرين يا أختاه ذلك القصر الباذخ
وقد خوَّص فى النهر بقدميه
وذلك البرج القديم ، المسرف فى القدم
حيث يقرع الناقوس مؤذناً بانبلاج الصبح وعودة النهار
هل تذكرين ؟

***

هل تذكرين تلك البحيرة السجواء
وقد داعبها السنونو بأجنحته الخفيفة السوداء
والقصب اليابس وقد طأطأت هامه الرياح النكباء
ومليكة النهار الفتانة ، وقد احتُضرت فوق ثبج الماء
هل تذكرين ؟

***

هل تذكرين صديقتي «هيلانه» ، رفيقة الحياة الحنون
هل تذكرينها فى الغابة حين كانت — وهي تقتطف الزهرة البديعة
تسند صدرها الجياش إلى صدرى
وتضم قلبها الخفاق إلى قلبي
هل تذكرين ؟

***

أواه ! من ذا الذي يعيد إليَّ « هيلانه »
وطودي وتلك السندیانة ؟
ذكرياتهم هى التى ترمض أحشائى بالألم
آناء الليل وأطراف النهار
دمت يا بلادى محطاً لغرامى ومنية لفؤادي

***

٢ — الفراشة Le Papillon

للامارتين

تولد حين يذر قرن الربيع ، وتقضى لما يرفرف الموت فوق أكمام الورد :

تسبح وقد امتطت جناح النسيم ، فى سماء صافية الأديم
وتتأرجح على أكمام أزاهير لا تكاد تتفتح
فيسكرها عَرْف نفاح ، ونور لماح ، وزرقة بهيجة
تنفض الغبار عن جناحيها والميلاد حديث
وتطير صاعدة إلى السموات العلى خفيفة كالنسيم
تلك حياة الفراشة المشرقة
إنها لتحكي الرغبة : تمس كل شيء ولا تقع أبداً على شيء
ثم تعود أخيراً إلى السماء تنشد اللذة الفقيدة

حماة « سوريا » عارف قياسه

احياء النحو

أهدى الأستاذ ابراهيم مصطفى أستاذ اللغة العربية بالجامعة المصرية كتابه النفيس «إحياء النحو» إلى صديقه الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين ، فأجابه الأستاذ على هديته الثمينة بهذه الأبيات :

لَوْ كانَ عصْرُكَ للمَواهبِ مُنْصِفا ... لدعَاكَ حَقًّا «سيبَوَيه مصطفى»
أَحْيَيْتَ للفُصْحَى لِساناً مُرْهَفاً ... سَلَّتْ عليه الأَعْجَمِيَّةُ مُرْهَفا
لَوْ عاصَرَ الدُّؤَلِيَّ فضْلُكَ لَمْ يكُنْ ... للنَّحْوِ غيرُكَ واضِعاً ومُصَرِّفا
شَرُفَتْ بِكَ العَرَبُ الكِرامُ وَإنَّها ... لَجَدِيرَةٌ بك أن تتيهَ وتَشْرُفا
أَلْقَتْ وَدِيعَتَها إليك فَصُنْتَها ... لا وَانِياً عنها ولا مُتَكَلِّفا
لله سِفْرٌ أنت ناسِجُ وَشْيِهِ ... أَزْرَى بما نَسَجَ الرَّبيعُ مُفَوَّفا
كَمْ مَذْهَبٍ فى النَّحْوِ عادى مذهباً ... تَجْرِى بَيانُكَ فى العُدَاةِ مُؤَلِّفا
وَتَنَكَّرَتْ سبل الهدى فيه إلى ... أَنْ لاحَ نُورُ حِجاكَ فيه مُعَرِّفا

أحمد الزين



من أساطير الإغريق

بومـــونا

للأستاذ دريني خشبة

عروس من عرائس الغاب يترقرق الجمال فى إهابها الوردى وتلتمع فى فمها الرقيق الخمرى ثنايا من اللؤلؤ الرطب ، وتبسم ... فتثور من عينيها وشفتيها أسراب من النحل فى قلوب العاشقين ، تلسعهم ، وتسقيهم رحيقاً ! !

هى بدع من عرائس الغاب ؛ فهى لا تنتشى الأنهار تتلاعب فى طيات أمواجها ؛ وهى لا تحب البحر لا هادئاً ولا متمرداً ؛ وهى تكره الغابة لأنها تعج بالأفاعى والوحوش ، ومنظر هذه حين يساور أحدها الآخر يبعث فى نفسها اشمئزازاً ، ويثير فيها غضباً على الطبيعة الظالمة التى جعلت الضعيف فريسة للقوى يذله ويقتله ... ثم يأكله

لذلك أولعت بومونا بالحقول الساكنة الهادئة ، إلا من نشاط الحياة يسرى فيها فتهتز وتربو ، ثم تكتسى بالسندس ، وتنضر بالزهر ، وتطن بموسيقى اليعاسيب ... وأولعت كذلك بالحدائق .. وقد غرست حديقتها على عُدْوَة النهر، وسَوَّجت عليها بسياج من شوك ، ثم جعلت لها بوابة جميلة عرشت فوقها عساليج الشبر والياسمين ... وكانت تقضى فى جنينتها أكثر وقتها ، ولو استطاعت لم تبرحها قط ، لأن الزنبق الغض ، والنسرين الجميل ، وأكمام الورد ، وهالات البنفسج ، ونضرة الشقائق ، وأرج التفاح ، وعبق الرياحين ، وشذى أزهار الخوخ العقيقية ، وابتسامات الأقاح ، ولآلىء الندى المبعثرة فوق العشب ... كل هذا كان أحب إلى قلبها الخلى ، ونفسها العزوف ، من هؤلاء الناس ، والآلهة ، وأنصاف الآلهة ، الذين كانوا ينتظرون أوبتها فى المساء إلى دارها ، فيقفون فى طريقها ، ليفوز من يفوز منهم بنظرة أو خطفة أو لمحة ، يعود بعدها إلى منزله مصدع القلب ، حائر الروح ، خفق الأحشاء موهون القوى !

وكأين من قائل لآخر :

— أرأيت بومونا هذا المساء يا صاح ؟

— الحسّان الفتان ! أجل والله ... رأيتها ، وأورثتني ألف حسرة يا صديقي !

— أوَ مشغوف أنت بها حبا ؟

— ومنذ الذى لم تشغفه بومونا حبا ، وقد تبلت قلوب الآلهة؟

— إنى أغار من كلماتك أيها الصديق ... فاقصر !

— وأنا أغار من غيرتك ، فاذهب لطيتك ! !

ويكاد أحدهما يحرق صاحبه بالشرر الذى ينقدح من أغوار قلبه ... عن طريق عينيه ... ثم يمضى كل فى سبيله . وهكذا تمادى الناس فى بومونا ، وهكذا تنافس الجميع فى حبها حتى الآلهة فلقد رآها أبوللو وجن بها جنوناً ، ولقيها مارس وفتن بها فتوناً ... ولكن العروس كانت لاهية عن الجميع ، لا يتفتح قلبها لحب ولا يرق قلبها لشكاة المغرم الصب ؛ وكل ما كان يصبيها ويشغل بالها ، هو هذا الفردوس الحبيب ، الذى لا يضايقها بكلمات الغزل ، ولا يضجرها بالأنظار الجائعة ؛ بل يحييها دائماً بالابتسامات البريئة وبالرَّوْح والشذى

غير أن واحداً من عشاق بومونا كان يعدل لا حبه لها حب ، ولا يسمو إلى افتتانه بها افتتان ... فتى لمحها مرة تطوى الطريق قبيل الشروق إلى حديقتها ، فوجده منجذباً إليها ، مجنوناً بها ، فتبعها ، وجعل يقلب عينيه فى مفاتن شعرها المتهدل فوق ظهرها وكتفيها ، حتى ليكاد يقبل العقبين الرائعتين ، اللتين أخذتا تعلوان وتهبطان على ثرى الطريق ، كأنهما ختم الطبيعة فى صك البكور

أو زهرتان من اللوتس، ترشفان سلافة الندى ... وكان جسمها الرخص يتأود كالخيزران، وساقاها الناصعتان المرمريتان تضيئان في غبشة الصبح، فتفجران في قلب ڤرتمنوس نيران الحب، وتزلزلانه زلزالاً عظيما.

وعرف الفتى ميعادها، فكان يصحو مع الفجر، ويهرع إلى الطريق، ويلبث يعد الدقائق والثواني كأنها ساعات بل أيام بل دهور وآباد ... حتى إذا أقبلت، شعر بقلبه يخفق، وأعصابه تذوب، وأحس كأنه خفّ على الأرض، وغدا طيفاً يوشك أن يسرى مع نسيم الصباح الذى تنشقه پومونا ... له الله! لكم منّى نفسه بقبلة يطبعها على هذا الفم الشتيت تذهب حرّ قلبه وتشفى صدَى روحه الظامئة المتعطشة، ولكنه كان يعود أدراجه كل صباح بعد أن يتأثر سالبة نبه، ولا لب له، ولا قلب معه، ولا مداوى لجراحات فؤاده إلا دموعه يسكبها عبرة فى أثر عبرة، وإلا آهاته يرسلها من أعماقه فتزيد فؤاده جراحا!

***

وذوى ڤرتمنوس وذبل شبابه، وشفّه الهم وأضوى جسمه الفكر، واستسلم لبكاء طويل يتعلل به، وغناء يشبه العويل، يرسله فى نبرات تشبه الأنين، يضمنه بثه، وينظمه شكواه، ويلف فيه بقايا فؤاده المعذب، ويودعه النُّطف الأخيرة من روحه الحيرانة، ويذهب به فى الليلة المقمرة فتجتمع حوله الوحوش، وتسكر بموجع أنغامه الهوام، ويرقص من فوقه الشجر ... ثم يبكى كل هؤلاء له ... ويعود من حيث أتى!

ولقيته مرة ڤينوس فرقت له، ورثت لحاله، وراعها أن يلقى محب كل هذا العذاب، فى هوى عروس غاب، فجلست إليه تسامره وترفه عنه

— أهكذا يقتل الناس الحب يا ڤرتمنوس؟

— إي وحقك يا ربة! لقد نال منى هواها، ولم أعد أفكر فى أحد سواها!

— مسكين! وهل كلمتها قط؟

— مرة واحدة اجترأت أن أهتف باسمها، ولكنها أشاحت وأعرضت عنى

— وفيم تطمع إذن؟

— أطمع فى رضاها، وأطمع بعد ذلك فى العيش فى ظل حبها

— وإذا لم ترض؟

— سأعيش لحبها وآلامى! ولكن؟

— ولكن ما ذا يا ڤرتمنوس؟

— ألا تساعديننى يا ربة الجمال؟ ألا تتفضلين فترققى قلبها علىّ؟

— عندى فكرة!

— أضرع إليك يا ربة!

— سأمنحك قدرة التشكل، وتستطيع أن تبدو فى أى صورة شئت

وانحنت ربة الحب والجمال فتناولت من ماء الغدير قطرات، ثم نفثت فيهن وتمتمت بكلمات سحرية، ونظرت إلى الفتى فى ظرف ودل، ونثرت الماء فى وجهه

— والآن، فكر فى أي صورة تنقلب إليها

وأخذ ڤرتمنوس يتقلب فى صور شتى ... وكلما حاول أن يرتد إلى صورته الأولى لم يستطع، فتضاحكت ڤينوس وقالت له:

— فكر أيضاً فى صورتك الأصلية قليلا ...

وسرعان أن عاد إليها ... ثم ودعته ربة الجمال والحب وهي تقول له:

— تستطيع الآن أن تلقى پومونا، وسأرى ما يسوقك إليه ذكاؤك! ورفت ڤينوس فكانت فى سماء الأولمب!

***

واستطاع ڤرتمنوس أن يدخل حديقة حبيبته فى أى لحظة شاء. وكان يدخلها فى صورة بلبل غرد، ما يزال يغنى ويهتف حتى يلفت إليه أنظار پومونا وأسماعها؛ وكان يتبعها أينما ذهبت فيقف على أقرب شجرة، ثم يرسل أغانى الحب وأغاريد الغرام، فتنسكب فى أذني عروس الغاب، فتقف لتسمع لحظة، ثم تأخذ فى عملها كأنها لم تسمع شيئا ... فيتضايق الفتى، ويطير أسوان أسفا ...

واستمر على هذه الحال أشهراً، وكل يوم يمر يزداد بالعروس هياماً، ويفنى فيها حباً، حتى خيف عليه من المرض؛ وأحس هو أن ريب المنون يسرى فى عظامه، وبرد اليأس يوشك أن يقف نبضات قلبه؛ ثم بدا له آخر الأمر أن يزور حبيبته فى صورة أخرى تختلف عن تلك الصور البلبلية التى اعتاد أن تراه فيها، ثم عول هذه المرة — إذا لم يفز بحبيبته پومونا — على أن ينتحر تحت قدميها فى صورة البلبل الحزين!

رأى أن يزورها فى صورة عجوز شمطاء! ولم لا؟ أليس عجائز النساء أقدر على إيلاف قلوب العذارى من كل أحد غيرهن؟

أليس لهن حديث طلي يتصل من حيث ينقطع ، ويتشقق عن كل خرافة حلوة وكلمة طيبة ، وبأسلوب ظريف يشبه (تنميل) الخمر في أطراف السكارى ؟ !

وقف ڤرتمنوس في ظل أيكة باسقة نامية في منعرج قريب من حديقة پومونا ، ثم طفق يفكر في صورة عجوز طيبة القلب ، سمحة الملامح ، وراح يتخيل شعرها الأشمط[1] وذوائبها الخلس[2] وغدائرها الزُّعر[3] ، ويديها عاريتي الأشاجع[4] ، وعينيها الفاترتين ، وجبينها المجعد ، ووجهها المعروق[5] ... فكان له كل ذلك ، ثم كانت له هيبة ووقار وأَسْر ، في سكينة ودعة وحسن سمت ... وأضفى عليه حِبَرة سوداء فضفاضة ، وجعل في قدميه خفين هرمتين ، وفي يده عكازاً مقوساً ما أشبهه بصولجان الموت !

ثم جعل يدب في هيئته تلك ، حتى كان لدى باب الحديقة فطرقه ؛ وكانت پومونا تقطف الزهر وتصنع منه باقات تقدمها لصويحباتها عرائس الغاب في مثل ذلك اليوم من كل أسبوع ... فلما لمحت العجوز تتهالك على نفسها بباب حديقتها ، أسرعت إليها وحيتها أحسن تحية وألطفها ، ثم فتحت لها وأدخلتها ، وكانت الخبيثة — أو كان الخبيث — تبالغ في إظهار الضعف وتعمُّل الإعياء ، فكانت پومونا تسندها من هنا ، وتشد أزرها من هناك ... حتى وصلتا آخر الأمر إلى ظُلة وارفة ذات أفياء ، يعرش فوقها كرم نضير تدلى جناه الحلو الناضج ، يغازل العيون والأحشاء ؛ وأشارت العروس إلى العجوز كي تجلس على إحدى الأرائك التي صُفّت عليها الوسائد والحُسْبانات[6] ففعلت ، ولكن ... ؟ بعد أن أخذت بفَوْدَيْ پومونا ... وطبعت على ثغرها القبلة الأولى الحارة ... قبلة الأماني والأحلام : !

لقد شُدهت پومونا من أسر هذه القبلة ، لأنها لم تكن من تلك القُبَل الفاترة الباردة التي تخرج من شفاه العجائز كزمهرير الشتاء ، بل كانت قبلة ناعمة فيها خمر ولها حُمَيّا ، وفيها شعر وموسيقى ، وفيها روح وامقة صادية كانت تتردد على شفتي العجوز كأنما حاولت أن تلتقي في صدر الفتاة بكل أسرارها : !

ولو لا أنها كانت عجوزاً حَيْزَبُوناً لعشقتها پومونا ...

***

(١) باص الشعر يختلط بسواده وبزيد عليه
(٢) يعني أشمط واحدتها خلساء وخليس
(٣) جمع زعراء أي قليلة الشعر جداً (٤) بدت عروقها.
(٥) قليل لحم (٦) الوسائد

ووثبت الفتاة فقطفت عِزْقاً[1] من العنب وقدمته للضيفة العجوز ... ولكنها بدلاً من أن تجدها تهش للثمر الجنى الشهي وجدتها غائبة عن رشدها ... أو ... كالمغشى عليها ! ترى ! ماذا أصاب أخانا ڤرتمنوس المختبئ في جلد هذه العجوز ؟! آه ! مسكين! إنه لم يكد يفيق من سحر القبلة ، حتى رفع بصره إلى پومونا ، فشهد العجب العاجب ، والجمال النادر ، والحسن الباهر ، والرونق والبهاء والرواء !! لقد شهد الساقين الجميلتين والقدمين الصغيرتين وشهد الركبتين الرائعتين اللتفتين ... وقليلاً من الفخذين اللجينيتين ... فاستطير لبه ، وصبا قلبه ، وشردت أفكاره ، وغشي عليه ؟ !

ولما أفاق — أو أفاقت العجوز — سألتها ماذا أصابها ، فشكت وطأة السنين وضعف البدن ، وتهافت أعصابها من الكبر ؛ ثم شكرت لها عِزْق العنب ، وأخذت في أكل حباته ، وهي تخالس العروس النظرات ... ثم نظرت إلى الكرم العارش فوقهما ، وأرسلت من أعماقها آهة طويلة حامية ، ثم قالت تحدث الفتاة :

— أرأيت يا حبيبتي (!) لو نما هذا الكرم على الأرض من غير أن يحمله هذا العريش ، هل كان يؤتي أكله ، ويحلو عنبه كما هو حلو هكذا ؟

— كلا يا أماه ! هذا شيء بدهي !

— تعنين أن الكرم لا يستغني عن هذا العريش ! ؟

— طبعاً !

— ولا غناء للعريش من غير كرم !

— لا يكون منظره جميلا رائعاً كما يكون ومن فوقه الكرم:

— عجباً لكن والله يا عذارى !! تعرفن ذلك ، ولا تفكرن في عطلكن !!

— أو عاطل أنا يا أماه ؟ ماذا تقولين !

— عفواً يا ابنتي ... فإن لك ألف حلية من جمالك الذي لا جمال مثله ... إنما قصدت أنكن تزهدن دائماً في أن يكون لكن أزواج كما لهذا الكرم عريش ... لا سيما أنت يا صغيرتي پومونا إني أعرف أن كل شباب المدينة مونعون بك ، وكل أمراء النواحي متيمون في هواك ؛ وأعرف أيضاً أن منهم من يتعذب بالليل ، ويذل بالنهار ، لأنك ترفضين أن تمنحيه نظرة حين يلقاك في الطريق ، وقد وقف لهذا اللقاء ساعات وساعات ... بل أعلم

(١) عنقوداً

يا أجمل عرائس الغاب أنك قد بززت هيلين الهيفاء، وبنلوب اللعوب فى كثرة العشاق الذين يعبدون جمالك، وتحبت قلوبهم لحسنك، وتتصدع صدورهم من هول ما تهجرين وتصدين. ماذا ؟ لم يا بنيتى لاتختارين لنفسك من بينهم كفءا يقاسمك هذه الحياة وتقاسيمه، ويشركك فى هذه الحديقة الفيحاء وتشركينه، ويبسم لك وتبسمين، ويواسيك وتواسين ؟ ما غايتك من هذه الوحدة، وأنت بها فى منئى، ولو أينعت حولك ألف ألف بنفسجة، ومثلها من الورود والرياحين؟ وهذا الفتى المسكين الذى اسمه ... أسمه ... أسمه ماذا ؟ آه ! ڤرتمنوس ! ذكرت أنى سمعت أنه يحبك حباً أورثه السهد، وأولاه الضنى، حتى لم يبق منه هواك إلا حشاشة تترقرق دموعاً فى عينيه، وتتأجج نيراناً فى صدره ... لم لا ترحمينه يا بومونا ؟ لم لا ترثين له يا أجمل عرائس الغاب ؟ إنه ليس إلهاً ولا نصف إله، ولكنه خليق بحبك جدير بأن تكوني له من دون العالمين، لأنه مغرم بك أكثر من كل عشاقك ؛ وهو ليس كجميع العشاق، لأنه لم يحببك إلا عن بصر بك، وتقدير لحسنك، ولأن عشاق هذا الزمان مفاليك لا ألباب لهم، فهم ينظرون النظرة فتهيج شياطين الهوى فى صدورهم، ثم ينظرون النظرة إلى حسناء أخرى فتنجذب شياطينهم إليها، فإذا لقيتهم ثالثة لم تأب تلك الشياطين أن تتصرع تحت قدميها . . . أما ڤرتمنوس، فقد أحبك ولم يشرك حسناء فى هواك، لأنه لا يرى لك فى قلبه شريكة تسمو إلى إخمصيك ... إرحميه يا بومونا، اعطفى عليه، وانظريه كأنه يتوسل إليك بلساني، ويشكو لك بثه بعيني (!) ... ألا تخافين أن تقتص له ڤينوس منك ؟ ألا تعلمين أنها تثأر للعشاق من كل حبيبة قاسية القلب ؟ ألم تعرفى ماصنعت بالقاسية أناجزرتيه ؟

— ومن أناجزرتيه يا أماه ؟ وما قصتها ؟

— ألا تعرفينها ؟ ولا تعرفين مأساة الفتى إيفيس ؟

— وما مأساة إيفيس ؟ قصيها علي بالله عليك :

« لقد كان إيفيس فتى جميل المحيا وضاء الجبين، ولكنه كان من صميم الشعب ؛ وكانت أناجزرتيه من بنات الأعيان الموسرين ... وكانت بينهما من أجل ذلك هوة سحيقة لم تمنع إيفيس من حب الفتاة لدرجة الجنون . وكان كلما لقيها غشيه من الغرام ما لو حمله جبل لناء به، ولكن الفتاة كانت تعرض عنه وتزورّ، وتطوى الطريق عجلاته إلى قصرها الباذخ المنيف ذى الشرفات ... وكان الفتى يتبعها بقلب وامق متصدع ولكنها كانت تدخل من باب الحديقة الحديدى ثم توصده من دونه، فيقف ثمة يتزود منها نظرات الموجع الهفان من خلل القضبان، ثم يذرف دموعه، وينثنى إلى داره، وليس فى قلبه إلا حبها مع ذاك، ولا فى عينيه الباكيتين إلا صورتها ! وطالما كان يهب من نومه فى جنح الليل فيطوى الطريق مفزّعاً، حتى إذا كان لدى البوابة الحديدية وقف عندها، وعانق قضبانها، وبكى ماشاءت الآلهة، وتغنى آلامه وغرامه، ثم ارتد وقد تضاعف وجده، وازدادت صبوته ... وكم ذا رأته أناجزرتيه فكانت تحقره وتسخر منه، بل كانت لاتعفيه من كلمة قارصة، أو غمزة تهكم واستهزاء، ولم يشفع لديها ما قاله مرة لمرضعها العجوز وما بث من شكاة ؛ بل زادها ذلك قسوة وعناداً ... ولما جد به الجد، ولم يكن بد مما ليس منه بد، ذهب إليها فى ضحوة ضاحكة من ضحوات الربيع، ثم تعلق بالبوابة، وكانت حبيبته ترتع وتلعب فى حديقة القصر، فهتف بها وقال : « أيتها القاسية أناجزرتيه إسمعي ! لقد قهرت قلبي وغزوت نفسى وتم لك النصر ! فهنيئاً لك ! تغنّيْ أناشيد الفرح واللذة الصارمة لأنك قتلت إيفيس ! إعقدى فوق هامتك إكليل الغار لأنك أذللت قلبه العزيز، ومرغت فى التراب روحه العالية . . . ولكن اصغى إلى يا متحجرة القلب ... لقد عولت على أن أشرب كأس المنون، ولكنى آثرت أن أشربها أمامك إن لم يكن بين يديك، لتتلذذ عيناك بهذا المنظر الموجع الأخير، وليبتهج قلبك بآخر صورة من صور انتصاراتك على ... بيد أنى أهتف بك يا آلهة السموات أن تثأرى لى، وأن تجعلى لى ذكراً فى قصص المحبين يتناقله الخلف عن السلف، ويتذاكره الناس فى طويل العصور والآباد ... » وكانت السماء كلها تصغى لما يقول إفيس فلبّت واستجابت ... وكان قد ربط حبل مشنقته فى قضبان البوابة، وجعل أنشوطتها فى عنقه ؛ فلما انتهى من مقالته ألقى بنفسه ... وقبضت روحه ! ولم تتحرك أناجزرتيه مع ذلك، بل أرسلت خدمها الذين نقلوا الجثة إلى أم الفتى وهم يبكون ويضجون ... وصرخت الأم المفجوعة وولولت على وحيدها، ثم حمل الجسمان فى إران [1] إلى المقابر، ومر الموكب الحزين من الشارع الذى فيه قصر الفتاة القاسية،

(١) نعش

فصمدت لتنظر إليه ، ولـكنها ما كادت ترى إلى الجثة مسجاة فى النعش حتى تثلجت عيناها ، ثم استحالتا إلى رخام بارد ... وروعت لما أصابها ، وأرادت أن ترجع قليلاً ، ولـكنها لم تستطع لأن الرخام سرى فى قدميها أيضاً ... ثم فى ساقيها ... ثم فى ذراعيها ... ثم فى جميع جسمها ... أما قلبها ، فقد كان رخاماً منذ زمن بعيد ... وكذلك تحولت أناجزرتيه إلى تمثال مازال محفوظاً فى متحف ڤينوس بسلاميس ... عظة وذكرى ... »

وكأنما عملت القصة عملها فى نفس يومونا ... فانذرفت من عينيها الحزينتين عبرتان حارتان ... ونظرت لترى إلى العجوز ... ولـكن ... لقد كان ڤرتمنوس العاشق الحزين الجيل القوى يجلس مكانها ، ويأخذ رأس الفتاة على صدره ... فقالت له :

— من أنت أيها الفتى ؟

— أنا ...

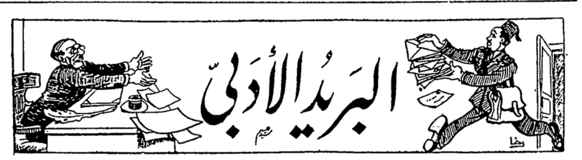
وانفجر فى بكاء شديد وقال :

— حبيبك ڤرتمنوس يابومونا ...

فقالت : أهو أنت ؟!

وتبادلا قبلات أشهى من الشهد ، وأشد أسراً من الخمر ...

٩٠٤٣ — دريني خشبة



معرض عظيم للحضارة الرومانية

احتفل أخيراً فى رومة بافتتاح معرض عظيم إحياء لذكرى الامبراطور أوغسطوس (أوكتافيوس) منشئ الامبراطورية الرومانية ، وذلك لمناسبة انقضاء ألفى عام على وفاته ، وسيبقى المعرض مفتوحاً مدى عام كامل ؛ وقد جمعت جميع الآثار والتحف الفنية المتعلقة بالامبراطور أوغسطوس وعصره ، وأصلحت ، وأقيمت فى مواقع مناسبة ، وساهمت فى ذلك العمل العلمى الجليل جميع المتاحف الايطالية ، ومعظم المتاحف الخارجية التى تحتفظ بآثار من عصر أوغسطوس ، وفى مقدمتها المتحف البريطانى ؛ وأصلح أثر أوغسطوس المظيم في رومة وهو « الأوغسطيو » أو قبر أوغسطوس الذى يضم رفاته ورفات زوجه وأخته وبعض خلفائه ، وغدا أعظم مناظر هـذا المعرض . وقد استغرق العمل لإعداد هذا المعرض العظيم خمسة أعوام ، وأشرف على تنظيمه من الناحية العلمية العلامة الأثرى الأستاذ جليو جليولي ، وبذل جهوداً عظيمة ليحقق أمنية « الدوتشى » فى أن يكون المعرض صورة عظيمة خالدة من الحضارة الرومانية ؛ وقسم المعرض إلى خمسين قسما ، وجمع فيه نحو ثلاثة آلاف تمثال وصورة ونقش من آثار العصر ، ومائتى نموذج تمثل الأثاث الرومانى ، ومجموعات كثيرة من الأنواط والنقود الرومانية ؛ والمقصود أن تقدم هـذه الأقسام المختلفة صورة بارزة من الحياة الرومانية فى مختلف نواحيها ، من الأسرة والحياة الخاصة إلى الدولة والحياة العامة ، والجيش والبحرية والتجارة والصناعة والزراعة والعلوم والفنون . وقد أقيم نموذج كامل لمنزل رومانى فى هذا العصر ، مؤثث بنماذج من أثاث العصر وحفل القسم الحربى بنماذج من السلاح والعدد المعاصرة ؛ وأفرد قسم خاص للدين جمعت فيه تماثيل الآلهة الرومانية ، وآلهة الأمم التي كانت خاضعة للدولة الرومانية ؛ وللنصرانية قسم خاص بهـا جمعت به نماذج وتماثيل تمثل حياة المسيح والرسل والشهداء حتى عصر قسطنطين ، هذا وستلقى خلال العام الذى يقوم فيه المعرض سلسلة قيمة من المحاضرات العلميـة والأثرية عن الامبراطورية الرومانية وعصر أوغسطوس والحضارة الرومانية ، ويشترك في إلقائها أعظم الأساتذة الايطاليين

ولما كانت إيطاليا الفاشية تضطرم اليوم بروح امبراطورية فهى تريد أن تحيى مناظر رومة الامبراطورية ؛ وقد عمل السنيور موسولينى كثيراً فى هذا السبيل ، وبذل عناية خاصة لتجميل رومة ، وإقامة الأبنية الجديدة الضخمة ، وشق الشوارع العظيمة وإصلاح الآثار والهياكل والقناطر الرومانية القديمة ، وإعادة كثير

من الأسماء اللاتينية ؛ وشجع سنيور موسوليني أيضاً كل الأبحاث الأثرية والعلمية المتعلقة بروما القديمة وحضارتها ، وظهرت في هذا الباب في الأعوام الأخيرة كتب ومباحث قيمة وقد كان عصر الامبراطور أوغسطوس أعظم عصور رومة ، وكانت رومية في عصره حاضرة العالم السياسية والفكرية . وكانت ملاذ العلوم والآداب ، فلا غرو أن تتخذ إيطاليا الفاشية عصره رمزاً للعظمة الرومانية وأن تعمل لإحياء ذكراه بكل ما وسعت من حماسة وتكريم

ضوء جديد على تطور الأجناس

اشتهر العلامة الإنكليزي السير جيمس فرازر منذ ربع قرن ببحثه ونظريته عن تطور الأجناس البشرية . وله مؤلف جليل شهير في هذا الفن عنوانه Totemism and Exogamy ؛ ولكن نظريات الأجناس البشرية تطورت في العصر الأخير تطوراً عظيماً ، واستطاع السير فرازر أن يخرج من دراساته ومباحثه المختلفة في هذا الميدان بنظريات جديدة يضمنها اليوم مؤلفاً جديداً تحت عنوان Totemica وهذا المؤلف الجديد يعتبر في بابه مجهوداً بديعاً سواء من حيث الوضوح في عرض الآراء والنظريات ، ومن حيث الدقة العلمية والفنية . وللسير فرازر ثلاث نظريات شهيرة في تطور الأنواع البشرية ومؤثراتها تتلخص فيما يأتي : الأولى نظرية الروح الخارجية ، والثانية نظرية الرسوم السحرية التي تجرى لزيادة محصول الغذاء ، والثالثة نظرية التجاذب غير الزوجي لانتاج النوع البشري . والسير فرازر يلقي ضوءاً جديداً على هذه النظريات ، وعلى تفاعلها في تطور الأجناس ، وهو لا يزال على رأيه القديم من أن الانسان الأول كان يعمل عامداً لاجتناب مساوئ الازدواج وأن الإنسان المتوحش له آراء معينة في ضرورة الزواج ، ويلجأ السير فرازر في التدليل على نظرياته إلى العوامل الجغرافية ، ويقول لنا إن الشعوب المتجاورة تمكن المقارنة بينها ، ويمكن تقدير الظروف التي أثرت فيها نظم كل في الآخر . وهو لا يسلم بالرأي الحديث القائل بأن التفاعل الثقافي بين الأمم أشد تأثيراً في تطورها من الاختراع المستقل . ومن رأيه أنه مع التسليم بأهمية الصفات الفردية أو صفات الجماعات ، ومع التسليم بأن الإنسان يستطيع الاضطلاع بمقدار من الاختراع المستقل ، فإن الأمم مدينة في تطورها على الأغلب إلى عامل التقليد ؛ ولنا في اللغات القومية المختلفة أكبر شاهد على ذلك

ويرى العلامة فرازر في أوستراليا أصلح معهد لدراسة التطورات البشرية ، ففي هذه القارة الساذجة لا تزال تمثل عادات الإنسان الأول والعصر الحجري ، وهي العادات التي عرفتها أوربا وعرفها العالم قبل فجر التاريخ ؛ كذلك في جزر المحيط والهند وأفريقية وأمريكا لا تزال تمثل آثار بارزة من ذلك العهد الذي هو أول عهد لتطور النوع الإنساني

تمثال لبلزاك

لم يحظ الكاتب الأشهر أونوريه دي بلزاك كمعظم الكتاب الأعلام من معاصرين ولاحقين بتمثال يخلد ذكره في باريس ، تلك العاصمة العظيمة التي أحبها وخلد حياتها الاجتماعية في أوائل القرن الماضي في كتبه ورواياته . وكان المثال رودان قد تقدم منذ سنة ١٨٩٨ بنموذج برونزي لتمثال لبلزاك ولكنه رفض يومئذ . وأثار رفضه جدلاً عظيماً في الصحف والدوائر الأدبية ، ومنذ العام الماضي تألفت في باريس جمعية كبيرة تضم نحو خمسمائة من أقطاب الآداب والعلوم والفنون لتقوم ببذل المساعي اللازمة لاقامة تمثال لبلزاك من أصل نموذج رودان ، وبالفعل استطاعت أن تحصل على موافقة مجلس بلدية مدينة باريس على أن تعين بذاتها ميداناً يصلح لاقامة تمثال الكاتب الكبير ، ثم اقترحت أن يكون هذا الميدان هو شارعي ملتقى مونبارناس وراسباي وهما في أعظم شوارع باريس . وسيعرض نموذج رودان أولا في بهو الفنون الجميلة ، ثم يصنع تمثال بلزاك على نمطه ، ويقام بعدئذ في الميدان المذكور ، وبذلك يحظى بلزاك بتمثاله بعد مضى أكثر من ثمانين عاماً على وفاته ، وتزدان العاصمة الكبيرة بتمثال كاتبها العظيم

أفريقية مستودع الماس

كان المعروف حتى الآن أن إقليم الترنسفال وناتال في جنوب أفريقية يضم أعظم مناجم للماس في العالم ، ولكن المباحث الأخيرة دلت على أن مستعمرة « سيراليوني » البريطانية في غرب أفريقية قد تصبح في المستقبل القريب مورداً من أعظم موارد الماس في العالم . ففي سنة ١٩٣٠ عثر المستر بوليت أحد مندوبي القسم

الجيولوجى على قطعة كبيرة من الماس فى إحدى بقاع المستعمرة ؛ فاهتم المعهد الإمبراطورى بالأمر ، وأجريت فى هـذه البقعة مباحث فنيـة أسفرت عن نجاح مدهش إذ بلغ المستخرج من الماس من هذا المنجم الجديد فى سنة ١٩٣٦ أكثر من نصف مليون جنيه . والمنجم الآن فى يد إحدى شركات الماس الكبيرة تستغله طبقاً للامتياز الممنوح لها فى مساحة تقدر بنحو أربعة آلاف ميل فى شرق سيراليونى .

ويقول مستر بوليت مكتشف المنجم إن أصناف الماس التى استخرجت تضم جميع الأنواع المعروفة من الأنواع الرديئـة إلى أثمن وأبدع الأنواع ، وقد استخرج المنقبون ذات مرة من ياردة مربعـة فقط نحو مائتين وخمسين قيراطاً من الماس . وهى نسبة مدهشة . وتزن القطع المستخرجة عادة من ١٢ قيراطا إلى ١٤٤ قيراطا ، وقد وقع المنقبون ذات مرة على قطعة زنتها ٧٨ قيراطا من أنخر أنواع الجواهر وبلغت قيمتها نحو خمسة آلاف جنيه . والمنظور أن يكون لهذه المناجم الجديدة فى المستقبل القريب شأن عظيم فى انتاج الماس ، وربما غدت مثل مناجم الترنسفال موردا من أعظم موارد الماس فى العالم .

ذريعة وباريكاد Barricade

الذريعة لغةً الوسـيلة . يقال فلان ذريعتى بمعنى وسيلتى . والذريعة أيضاً عند العرب الناقة التى كانوا يختفون وراءجنبها لصيد الحيوانات المفترسة . كان الصياد يعين الوضع الذى رعا تأتى منه الفريسة ، فينيخ ناقته فى مكان قصىّ ويختفى وراء جنبها حتى تأتى وتهجم على الناقة . فإذا دنت منها صوّب الصّياد نبله إليها فيصيبها

فاختفاء الصياد وراء جنب الناقة للوقاية من هجوم الوحش وانتظاره إياه فى شىء من الأمن ومحاربته عن بعد ، ثم هجوم الحيوان الوحشى على الناقة وتعرضه للخطر الكامن وراءها وهى رابضة ، ينبهنا إلى حيـلة من حيل الإفرنج فى حروبهم الداخلية إذ يسدون الطرق بأكداس من أثاث بيوتهم كموائد ومقاعد تحول بين ناصبى الحيلة وبنادق أعدائهم فيطلقون على تلك الأكداس الواقية لفظة « بَرِّكَادْ » Barricades ؛ وإقامة الأكداس لها عبارة مشهورة وهى dresser des barricades

فهل من الجائز ترجمة اللفظة الفرنسية « بركاد » بلفظة « ذريعة » وعبارة dresser des barricades بعبارة « نصبوا الذرائع ؟ »

فإلى أرباب اللغة وحماتها أوجه هذا السؤال راجياً الجواب عنه على صفحات الرسالة الغراء ولهم جزيل الشكر

أحمد العربى

طالب بكلية الآداب بباريس

الصلات الثقافية بين مصر وجاراتها الشرقية

دأبت وزارة المعارف المصرية فى السنوات الأخيرة على تقديم المساعدة إلى جاراتها الشرقية ، رغبة فى توسيع الثقافة المصرية

وقد عاونت وزارة المعارف المدارس الحجازية فى العام الدراسى الماضى ، إذ مدت بعض مدارسها بمدرسين مصريين أكفاء على نفقتها الخاصة

وقد تلقت الوزارة نبأ من جدة جاء فيه أن إحدى المدارس الأهلية تلقى ضيقاً مالياً ، وأن بها مدرسين مصريين يقومان منذ أمد غير قريب بالتدريس فيها وأن المدرسة تطلب إلى وزارة المعارف المساهمة فى دفع نصيب من مرتبيهما

وقد أصدر معالى وزير المعارف قراراً باعانة هذين المدرسين رغبة من الوزارة فى السير على خطتها المرسومة

تصويب

جاء فى قطعة (الدمام) فى العدد (٢٢٤) فى الصفحة (١٦٩٤) فى السطر (١٩) : « زير النوانى » بفتحة على الياء ، وهـذا تطبيع ، وفى مثل هذه الكلمة (النوانى) تقدر الحركة فى حالتى الرفع والجر ، وتظهر فى حالة النصب ، وهى هنا مجرورة بالاضافة

(م)



أخبار أبي تمام للصولى

لأستاذ جليل

حبيب الطائي ، أو أبو تمام ، أو أبو التمام[1] ، أو ملك القريض الأول — والملك الثاني هو المتنبي ، والبحترى نائب ملك ثم أمراء (كبار وصغار) ووزراء ، والمعرى شيخ إسلام ، وابن الرومى إمام (خليفة) خوارج ، وقواد وعمال ولايات (ولاة) ورعايا وجنود وقديديون[2] ، ولا ملك ثالث فى المملكة — حبيب هذا شاعر عبقرى أيّ شاعر ، ومنزلته هي منزلته ، وشعره هو شعره ، فما تقريظ أو تقحيم بنافعه ، ولا تعييب بضارّه؛ إنه الشاعر ذو العبقرية والإبداع ، وإنه فى سماء القريض الشمس ذات الضياء الباهر والإشعاع ؛ وقد كان الشعر قبل أبي تمام تجربة وتمريناً ، ومقدمة وتمهيداً ؛ وكان كلاماً ، ثم جاء ابن أوس وابن الحسين فقالا — وغيرهما مثلهما لا يقول — : « لأبي تمام استخراجات لطيفة ، ومعان طريفة لا يقول مثلها البحترى[3] » « نحسن أن نقول ولكن مثل هذا — مثل قول المتنبي — لا نقول[4] »

وإن الباعث اليوم على هذا القول هو كتاب فى أخبار (الحبيب) ظهر ، وهو كتاب : « أخبار أبي تمام » تأليف أبي بكر محمد بن يحيي الصولى

وكتاب يصنفه إمام الأدباء وسيد الظرفاء أبو بكر الصولى طرفة تحفة دونها كل طرفة . وقد أبي الله أن يضام هذا الكتاب (كما ضيم من قبلُ ديوانُ هذا الشاعر بتلك الطبعات المخزيات المحرفات ...) فسخر له أدباء مهذبين مثقفين ثلاثة ، وهم (خليل محمود عساكر ، ومحمد عبده عزام ، ونظير الاسلام الهندى) — أبٌ وابنٌ وروحٌ قُدُس كما تقول النصارى — فحققوه أبلغ تحقيق راجعين فى كل مشكلة إلى الأساتذة الأجلاء : (الأستاذ أحمد أمين ، والدكتور طه حسين ، والأستاذ أمين الخولى ، والدكتور كراوس ، والأستاذ ابراهيم مصطفى) وطبعته (لجنة التأليف والترجمة والنشر) فى مصر أكمل طبع ، واختارت له الكاغد الجيد

طالعت هذا الكتاب فألفيت الصولي قد سطر فيه من أخبار أبي تمام مالم نره فى تصنيف من كتب الأدب قبله ، وروى أقوالا لأئمة كبار فى هذا الشاعر لم يطرفنا إياها غيره ،وهي تمالئ ممالئة بعبقرية (الطائى الأكبر) وعلو منزلته . « قال عمارة بن عقيل : لقد عصفت رائية[1] طائيكم هذا بكل شعر فى لحنها . لله دره ! لقد وجد ما أضلته الشعراء حتى كأنه كان مخبوءاً له » . و « قال الحسن بن وهب : وأما الشعر فلا أعرف مع كثرة مدحى له وشغفي به فى قديمه ولا فى حديثه — أحسن من قول أبي تمام فى المعتصم بالله ، ولا أبدع معانىَ ، ولا أكمل مدحاً ، ولا أعذب لفظاً ؛ ثم أنشد (البائية العبقرية) ثم قال : هل وقع فى لفظة من هذا الشعر خلل ؟ كان يمر للقدماء بيتان يستحسنان فى قصيدة فيجلون بذلك ، وهذا كله بديع جيد[2] » والقصيدة واحد وسبعون بيتاً . وأما رسالة الصولى إلى مزاحم بن فاتك فى أول الكتاب فهي كتاب وحدها ، على حدة . وقد أملتها البلاغة

---

(١) محمد بن يزيد المبرد قال : ما سمعت الحسن بن رجاء ذكر قط أبا تمام إلا قال : ذاك أبو التمام ، وما رأيت أعلم بكل شيء منه (أخبار أبي تمام) للصولى

(٢) القديديون : تباع العساكر من الصناع (الأساس)

(٣) (أخبار أبي تمام) للصولى ، والقول لصاحب الكامل : المبرد

(٤) ابن نباتة السعدى فى (شرح التبيان) للعكبرى

---

(١) يعنى التى مطلعها :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار !

وهذه الجملة فى خبر فى (أخبار أبي تمام) وقد روى مثله (الأغانى) ورواية الصولى فى كتابه أجل وأتم

(٢) (أخبار أبي تمام)

الصولية الطلّة المذبة المربية ، وفيها العلم والتّصحّفة

* * *

وفى (أخبار أبي تمام) أشياء هينة الخطب أذكرها ليهتم بها فى الطبعة الثانية بعد مدة قريبة إن شاء الله :

فنى الصفحة (٥٦) فى السطر (٥) : « خفتَ إعراضك » وفى الحاشية : « فى الأصل : خفت غرضك ، ولعل الصواب ما أثبتناه » قلت : الأصل (غرضك) هو الصحيح ، والغرض الملل والضجر ، وجملة (كرهت إملالك) بعدها — تحقّ ذلك . والصولى لم يخف إعراض صاحبه لكنه خاف — إذ طوّل كا حسب — ضجره ، والغرض الضجر

وفى الصفحة (٨٩) السطر (٨) « وأرعف كلَّ ذى قلم خيانته » فهل أرعف هى أزعف (بالزاى) أو أزعفت أى أهلكت قتلت قتلاً سريعاً ؟

وفى الصفحات (٢١٨) (٢٢٣) (٢٤٤) : « كالمعائب ، من معائب ، المخائل » بالهمز ، وهى بالياء فى المعايب والمخايل ، والقاعدة الصرفية معروفة

وفى الصفحة (١٢٣) فى السطر (١٢)

وفوّارة ثأرهـــا فى السما ، فليست تقصر عن ثارها[1]

جاءت الهمزة فى أول عجز البيت وهي من ملك الصدر فى عروضه (في السماء) والبحر من المتقارب والقبض فى عروضه كثير بل هو عند بعضهم أحسن من التمام

وفى الصفحة (١٥٠) :

سقى عهدَ الحمى سَبَلُ[2] العهادِ ورَوَّض حاضرٌ منـه وبادى

كتبت (رَوَّض) بالبناء لما سُمى فاعله وهى بالبناء لما لم يُسمَّ فاعله . ولو أراد أبو تمام الأول لقال : (أروض) وروّض الغيث الأرض : جعلها روضة ، وأروضت الأرض ألبسها النبات ، أو كثرت رياضها

وفى الصفحة (٢١٧)

نجان شــاء الله ألاّ يطلما إلا ارتداد الطرف حتى يَأفلا

جاءت (يأفلا) بالهمز وهي فى البيت مخففة لأن الألف ألف التأسيس

(١) ثارها : بلا همز (٢) السبل (بالباء) : المطر المسبل (الهاطل)

وفى الصفحة (٢٣٠)

فلعل عينك أن تعين بمائها والدمع منه خاذل ومواسي

رويت (مواسي) بالواو ، وواساه لغة ضعيفة أو رديئة كما فى (الصحاح والتاج) لآساه

وفى الصفحة (٢٣٥)

« عربى عربى اجايَ ماترام » اجاى بهذه الصورة : أجئى — أقعد وان لم تكن للهمزة قاعدة نحوية مضبوطة مجمع عليها حتى اليوم

وفى الصفحة (٢٣٨) السطر (٩) :

« هيّجتَ منى شاعراً أرَبّا » وفى الحاشية : « أرب : أقام بالمكان أو زاد » قلت: ليس للأرب قبلة (جهة صحة) يتوجه إليها معنى ، فهى (الأزبّ) بالزاى أى المنكر الداهى ، والأزب من أسماء الشياطين كما فى (التاج) وأصل الأزب الكثير الشعر وكذلك أصل الزباء وهى من الدواهى الشديدة ، ومثلها الشعراء وفى (مجمع الأمثال) : جاء بالشعراء والزباء أى بالداهية الدهياء

هذه هى الأشياء القليلة فى الكتاب وهو (٣٤٠) صفحة . وإذا عرفت أن هناك مصنفاً ضبطه أديب مشهور ، له صيت ، وطبعته مطبعة ، فصادف[1] فيه ناقده قرابة ألف غلطة — أعوذ بالله من ذلك !! — تجلت لك فضيلة هذا الكتاب : أخبار أبى تمام أو أبى التمّام والسلام

(قارئ)

(١) صادف : وجد ، وقد صادف أستاذ لفظة صادف بمعنى وجد فى كلام قائل تخطأه ... لا (صدفة) فى العربية لكن فيها المصادفة



النحو والنحاة

بين الأزهر والجامعة

للأستاذ محمد عرفة

كتاب ألفه الأستاذ محمد عرفة المدرس بكلية اللغة العربية فى مناقشة كتاب « إحياء النحو » للأستاذ ابراهيم مصطفى المدرس بكلية الآداب . وقد بحث الكتاب فيما أشكل من مسائل النحو وأبهم من علله وأسبابه وقد أراد مؤلفه أن ينشر منه فصل معانى الاعراب بمناسبة ما دار فى الرسالة من جدل حول معانى الاعراب

معانى الاعراب

يرى مؤلف « إحياء النحو » أن بينه وبين من تقدمه من النحاة خلافاً فى حركات الاعراب ؛ فهم يرون أن هذه الحركات اجتلبها العامل وليست تدل على شىء من المعانى ؛ فالاعراب حكم لفظى خالص يتبع لفظ العامل وأثره ، وليس فى علاماته إشارة إلى معنى ولا أثر لها فى تصوير المفهوم

أما هو فيرى أن حركات الاعراب دالة على معان ، وأنه قد استكشف أصلاً عظيماً وهو أن من أصول العربية الدلالة بالحركات على المعانى وأنه رأى أن الضمة علم الاسناد وأن الكسرة علم الإضافة ، وأما الفتحة فهى الحركة الخفيفة عند العرب يلجأون إليها إذا لم تكن بهم حاجة إلى أن يبينوا أن الكلمة مسند إليها أو مضافة . أنظر كتاب إحياء النحو ص ٣٢ و٤١ و٤٨ و١٩٤

ثم إن المؤلف قد وضح طريقه وهو أن المتقدمين جعلوا الاعراب حكماً لفظياً ، وأن علاماته لا تدل على معنى ، وأنه قد هدى إلى معانٍ لعلامات الاعراب خفيت على النحويين . وهذا عمل جليل وابتكار وإبداع لو تم له

ومشايعة المؤلف على هذا الرأى ظلم عظيم للنحاة المتقدمين منهم والمتأخرين ؛ وإن من غمط النحاة حقهم ، ومن ظلم تاريخ النحو أن ننسب إلى النحاة أنهم كانوا يرون أن علامات الإعراب لا تدل على معنى ولا تؤثر فى تصوير المفهوم . وإننا إذا شايعنا المؤلف على هذه الفكرة رأى سكان الأقطار العربية ومن يأتون بعدنا أننا لم نفهم النحو ، وأن مصر تدرس النحو وتقرأه فى كتب المتقدمين والمتأخرين ولا تفهم أقوالهم الواضحة فتعزو إليهم ما لم يقولوه

وأنا أبادر إلى بيان رأى النحاة فى علامات الإعراب وأقرر أنهم جميعاً — لا مستثنياً أحداً — يرون أن الحركات علامات على معان تركيبية ؛ وأنهم قرروا أن الضمة علم الفاعلية ، وأن الفتحة علم المفعولية ، وأن الجر علم الاضافة ، وأنه لا فرق بين ما ذهب إليه الأستاذ من أن الحركات أعلام على معان ، وما ذهب إليه النحاة . وأنا أؤكد للأستاذ المؤلف أنه ما من نحوى واحد ذهب إلى أن الإعراب حكم لفظى خالص وليس فى علاماته إشارة إلى معنى ولا أثر فى تصوير المفهوم ، وإنى أتحدى — وأنا أقصد ما أقول — من يخالفنى أن يقيم الدليل على ما يقول .

إن علماء النحو جميعاً يرون أن الحركات دوال على معان وقد صرحوا به تصريحاً جلياً

أليسوا قد ذكروا فى سبب وضع النحو أن أبا الأسود الدؤلى سمع قارئاً يقرأ (إن الله برىء من المشركين ورسوله) بالجر فقال : معاذ الله أن يكون بريئاً من رسوله . اقرأ (إن الله برىء من المشركين ورسوله) بالرفع ؛ فالكلام واحد ولم يتغير فيه إلا حركة اللام ، فإذا حركت بالجر أدى إلى كفر ، وإذا حركت بالرفع أدى إلى معنى مستقيم لا كفر فيه . فهل كانوا يروون ذلك وهم يرون أن حركات الإعراب لا تدل على معنى ولا أثر فيها لتصوير المفهوم ؟

أليسوا يذكرون أن أبا الأسود سألته ابنته : ما أحسن السماء يا أبت (برفع أحسن وجر السماء) فقال : نجومها . فقالت : لا أريد هذا أنا أتعجب من حسنها . فقال : ما هكذا تقولين ، قولي ما أحسن السماء (بفتح أحسن ونصب السماء) هل كانوا يحكون هذا ويتداولونه في كتبهم وهم يرون أن الحركات لا تدل على معنى في لغة العرب ؟

أليسوا قد عرفوا العامل بأنه ما به يتقوم المعنى المقتضى للاعراب ؟ أليس ما حكوه من قول ابن مالك :

ورفع مفعول به لا يلتبس ونصب فضلة أجز ولا تقس

كان كافياً لأن ينبه المؤلف إلى أنهم يعتقدون أن علامات الاعراب دوال على المعاني ؟ فالبيت معناه أن الرفع علامة الفاعلية والنصب علامة المفعولية ؛ فإن كان هناك موضع تميز فيه الفاعل عن المفعول بغير العلامة فأعط كل واحد منهما علامة الآخر ما دام لا يلتبس ككسر الزجاجُ الحجرَ فانه معلوم هنا الكاسر من المكسور . أليسوا قد ذكروا أن الأصل في الأسماء الاعراب وعللوا ذلك بأنها هي التي تتعاور عليها المعاني المقتضية للاعراب كالفاعلية والمفعولية الخ ؟ أليسوا عند تفسير القرآن أو الشعر يعربونه أولاً ثم ينزلون المعنى على حسب هذا الاعراب ويعربونه إعراباً آخر فينتظم نظاماً آخر ثم ينزلون المعنى على حسب هذا النظم ؟

وذلك كقوله « إنما يخشى الله من عباده العلماء » بالنصب . والمعنى عليه أن الذين يخشون الله هم العلماء ، وعلى القراءة التي ترفع لفظ الجلالة وتنصب العلماء يكون المعنى لا يخشى الله أحداً إلا العلماء

إن النحو كله مبني على أن حركات الاعراب دوال على معان تركيبية مقصودة من الكلام ، ومن لم يفهم هذا الأصل لم يقدر أن يفهم علم النحو ولا آراء المفسرين ولا آراء علماء العربية في تفسير الشواهد والقصائد من الشعر

فاذا لم يقنعك هذا دليلاً على أن علماء النحو يعتقدون أن علامات الاعراب دوال على معان ، فسنأخذ في بيان أصرح ، وسننقل لك من كلامهم ما هو أوضح

قال الخضري في حاشيته على ابن عقيل في ص ٣٠ في بحث المعرب والمبني : « وإنما أعرب المضارع لشبهه الاسم في أن كلا منهما يتوارد عليه معان تركيبية لولا الاعراب لالتبست . فمتواردة على الاسم كالفاعلية والمفعولية والاضافة في ما أحسن زيداً ، وعلى الفعل كالنهي عن كلا الفعلين أو عن أولهما فقط أو عن مصاحبتهما في نحو لا تمن بالجفا وتمدح عمراً . ولما كان الاسم لا يغني عنه في إفادة معانيه غيره كان الاعراب أصلا فيه بخلاف المضارع يغني عنه وضع اسم مكانه كأن يقال في النهي عن كليهما ومدح عمرو وعن الأول فقط ، ولك مدح عمرو ، وعن المصاحبة مادحاً عمرا . فكان اعرابه فرعاً بطريق الحمل على الاسم . هذا ما اختاره في التسهيل »

وقال ابن يعيش في شرح المفصل للزمخشري في ص ٧٢ من الجزء الأول :

« والاعراب الابانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم لتعاقب العوامل في أولها . ألا ترى أنك لو قلت ضرب زيدْ عمرْو بالسكون من غير إعراب لم يعلم الفاعل من المفعول ؟ ولو اقتصر في البيان على حفظ المرتبة فيعلم الفاعل بتقدمه والمفعول بتأخره لضاق المذهب ولم يوجد من الاتساع بالتقديم والتأخير ما يوجد بوجود الاعراب . ألا ترى أنك تقول ضرب زيد عمرا ، وأكرم أخاك أبوك ، فيعلم الفاعل برفعه والمفعول بنصبه سواء تقدم أو تأخر

فإن قيل فأنت تقول ضرب هذا هذا ، وأكرم عيسى موسى وتقتصر في البيان على المرتبة ، قلت هذا شيء قادت إليه الضرورة هنا لتعذر ظهور الاعراب فيهما . ولو ظهر الاعراب فيهما أو في أحدهما ، أو وجدت قرينة معنوية أو لفظية جاز الاتساع بالتقديم والتأخير »

وقال الزمخشري في المفصل ص ٧١

« القول في وجوه إعراب الأسماء »

« هي الرفع والنصب والجر وكل واحد منها علم على معنى ؛ فالرفع علم الفاعلية ، والفاعل واحد ليس إلا : وأما المبتدأ وخبره وخبر إن وأخواتها ، ولا التي لنفي الجنس ، واسم ما ولا المشبهتين بليس فملحقات بالفاعل على سبيل التشبيه والتقريب ، وكذلك النصب علم المفعولية ، والمفعول خمسة أضرب : المفعول المطلق والمفعول به والمفعول فيه والمفعول معه والمفعول له . والحال والتمييز

والمستثنى المنصوب والخبر فى باب كان ، والاسم فى باب إن والمنصوب بلا التى لنفى الجنس وخبر ما ، ولا المشبهتين بليس ملحقات بالمفعول

والجر علم الاضافة . وأما التوابع فهى فى رفعها ونصبها وجرها داخلة تحت أحكام المتبوعات ، ينصب عمل العامل على القبيلين انصبابة واحدة »

وقال ابن يعيش فى شرحه ص ٧٢ :

« وجوه الاعراب . يريد بها أنواع إعراب الأسماء التى هى الرفع والنصب والجر ، لأنه لما كانت معانى المسمى مختلفة : تارة تكون فاعلة وتارة تكون مفعولة وتارة تكون مضافاً إليها كان الاعراب المضاف إليه مختلفاً ليكون الدليل على حسب المدلول عليه .. وقوله (وكل واحد منها علم على معنى) يريد الرفع والنصب والجر كل واحد منها علم على معنى من معانى الاسم التى هى الفاعلية والمفعولية والإضافة. ولولا إرادة جعل كل واحد منها علماً على معنى من هذه المعانى لم تكن حاجة إلى كثرتها وتعددها ؛ ثم قال فالرفع علم الفاعلية فقدم الكلام على الفاعل من بين المرفوعات لا سيما المبتدأ لمشاركته فى الإخبار عنه ، وذلك لأن الفاعل يظهر برفعه فائدة دخول الاعراب الكلام من حيث كان تكلف زيادة الاعراب إنما احتمل للفرق بين المعانى التى لولاها وقع لبس ؛ فالرفع إنما هو للفرق بين الفاعل والمفعول الذى يجوز أن يكون كل واحد منهما فاعلاً أو مفعولاً »

كلام الأستاذ إبراهيم مصطفى صريح فى أن النحاة جعلوا الاعراب حكما لفظياً خالصاً ، ولم يروا فى علاماته إشارة إلى معنى ولا أثراً فى تصوير المفهوم . وكلام النحاة صريح لا لبس فيه أيضاً فى أن الاعراب حكم معنوى وأنهم يرون أن الحركات دوال على معان وبينوا كل معنى ، وكل حركة تدل عليه ، والنحو كله مبني على ذلك لا يمكن أن نفهم قواعدهم ، ولا أن نفهم اللغة العربية إلا على ذلك ، وهو من الوضوح بحيث لا يخفى على مبتدئ فى تعلم النحو بله الدارسين له والمتخصصين فيه

ليت شعري ، ماذا نفهم فى هذا الموقف المحير ، موقف الأستاذ من نصوص المتقدمين فى هذه المسألة ؟ أنفهم أنه فاته وجه الصواب فيها ، وهو من وقف حياته على دراسة النحو ، ووقف سبع سنين من عمره فى بحث هذه المسائل ؟

أم أفهم أن المؤلف لم يخف عليه وجه الصواب فى هذه المسألة عند النحويين ولكنه نفسه عليهم وأغرم بالتجديد ، فحرمهم علمهم وتجاهل هذه النصوص التى تتكرر فى كل كتاب

إنني حاولت نفسى على فهم ذلك ، ولكن منعنى أن الأستاذ ابراهيم حجة ثبت وهو كما يقول الدكتور طه حسين فى المقدمة (له أمانة فى الرأى والنقل جميعاً)

على أن هذا البحث الشخصى لا يعنينا فسواء علينا أكان هذا أم ذاك ، إنما الذى يعنينا هو أن ننصف شيوخ العربية وقد كاد يظلمهم بعض من تربوا فى حجورهم وتثقفوا على أيديهم ، وأن ننير تاريخ علم العربية . فإن كنت قد بلغت بعض ذلك فجدود ساعفت ؛ وبحسبي أن أؤدى فى هذا الكتاب ديناً فى عنق لقوم راحوا وخلفوا هذه الثروة العلمية فى النحو والصرف واللغة والبلاغة جمال ذى الأرض كانوا فى الحياة ، وهم

بعد الممات جمال الكتب والسير

محمد عرفة

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

5 me Année, No. 226

Lundi - 1 - 11 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ٢٢٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ شعبان سنة ١٣٥٦ — أول نوفمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

الخريف فى الريف

دعنا الآن من القاهرة ! فبشرُها الباسم قد استسرَّ فى قطوب الطبيعة ، وشجرها الوارف قد اقشعر من رياح الخريف ، وهدوؤها الشاعر قد غاب فى صخب الفتنة ؛ وكأنما خفقت فى جوها المستنير الصفو أبابيلُ سودٌ من طيور الليل !

دعنا الآن من القاهرة ! فقد أصيب علِمها بداء السياسة ، ونُكب رأيها بتدليس الهوى ، وامتُحن خُلقها بشهوة المنفعة ؛ وكأنما فرغ القادة من جهاد الأجنبى ليشوي بعضهم بعضاً فى حريق الوطن !

دعنا الآن من القاهرة ! وتعال نرفه عن حواسنا وأعصابنا فى سكون الريف الآمن ، وفى كنف الفلاح المؤمن ، حيث الهوى جميع ، والخريف ربيع ، والطبيعة الكهلة رُواء وغناء وسحر !

يقول (هوجو) : « إن الخريف هو الربيع انبعث من القبر ناسياً حُلاه وحُلله » . ولكن الخريف المصرى فى الريف هو الربيع الحق فى نضرته وزينته وعطره ؛ فبينا ترى الحقول المتصلة فى بياض الدمقس (١) أو صفرة النضار ، يجردها سبتمبر من القطن

(١) الدمقس الحرير الأبيض

الحريري الأشوك والرز المسجدي المائج ، إذا بها في خضرة السندس أو زرقة اللازورد يكسوها أكتوبر أعواد الذرة اللفاء وقصب السكر الوريق ونبات البرسيم المؤزر ؛ فأينما أدرتَ بصرك لا تجد إلا رياضاً شجراء من شراب وحب ، ومروجاً فيحاء من زهور وكلأ . ثم ترى النيل في أعقاب فيضه كذوب التبر ينساب هادراً في الترع والقنوات ، فيجعل من ضفاف الجداول ، وحفافي الطرق ، وحواشي الغيطان ، سلاسل زبرجدية من الريحان والعشب . وتنزل على الفلاح المكدود سكينة الرضى والأمل ، فينقلب شاعراً يتهادى في ظلال الذرة الخفاقة على مدرجة الطريق المخضوضر ، وفكره مستغرق في الله الذي يضع البركة في غيطه ، أو في البَرَّة التي تجلب السعادة إلى بيته

ها هو ذا بعد صيفه الجديب المجهد ، يستنشي نسيم الراحة بين أولاده على مصطبة الدار ، أو بين بهائمه على رأس الحقل ، ويتربص بقطنه المخزون الثمن الربيح ، ليقضي دينه فيستريح ، ويزوج ابنه فيفرح ، ثم يكسو عوارى الأبدان (بالدبلان) و(الشيت) ، ويمحو مرارة الأفواه بالرمان والبلح ؛ وترى القرية بذكورها وإناثها تعيش من فسحة هذا الأمل ، ودعة هذه الحياة ، وبهجة هذه الحقول ، في فيض من الرخاء والغبطة لا يسممه كيد ، ولا تكدره منافسة

خريف الريف وربيعه يتفقان في الخصوبة والبهجة . ويختلفان في الحيوية والطبيعة . فبينا تجد ربيع ابريل ومايو موّاراً بالحياة ، فواراً بالعاطفة ، هداراً بالهتاف ، يجعل من كل حي حركة لا تني ورغبة لا تخمد ، اذ تجد ربيعاً أكتوبر ونوفمبر ساجي النهار ، سجسج الظل ، ساكن الطائر ، ينفض على كل امرئ دعة الطمأنينة ، وسكون التأمل ، وروعة العبادة . فالمشية وئيدة الخطوات ، والوقفة بعيدة النظرات ، والجلسة طويلة الصمت ، والشبان والشواب يتبادلون التحايا بغمز العيون وافترار الشفاه ، كأنما هم وهنّ نشاوى من رحيق عجيب يعقد الألسن ، ولكنه ينعش الروح ، ويوقظ القلب ، ويبسط المشاعر !

أي جمال أملك للنواظر والخواطر من جمال السماء الريفية وقد زينتها رياح الخريف بقزعات(١) من الغيم الرقيق كأنها القطعان البيض ترتعي في المروج الخضر ؟ هذه السماء بألوانها السحرية المختلفة التي تتعاقب عليها بتعاقب الساعات ، تنطبق على أرض كرقعة الفردوس لا ترى فيها خلاء ، ولا عراء ولا وحشة ، ولا تسمع فيها لغواً ولا تأثيماً إلا هتفات الطير الحائمة على أعذاق النخل اليانعة وسنابل الذرة النضيدة ، وإلا شَدَوات الرعاة قد كوموا الحشيش أمام الماشية وتحلقوا حول النار المشبوبة يشوون عليها الأمطار(١) والسمك ، ثم يأكلون ويغنون في لذة وبهجة

* * *

عهدُنا بالريف في أيام الخريف أن يكون بنجوة من الهم وسلامة من الكآبة . فالأهراء طافحة بالحب ، والمخازن مفعمة بالقطن ، والغيطان كاسية بالزرع ، والجيوب غنية بالمال ، والنفوس رخية بالرجاء ؛ ولكن ما بال فتيان القرية وفتياتها على غير ما نعهد : يمشون ساهمين ، ويقفون واجمين ، كأنما غاب عن كل عين حبيب ، ومات في كل نفس أمل ؟

ألا تراهم يا حسن يدافعون الأسى عن وجوههم ببسمات مكذوبة لا تخدع النظر عن الكمد الباطن ؟

— ما ذا يصنعون يا صديقي والدائن يقتضي (القسط) ، والصراف يطلب (المال) ، والمالك يريد (الإيجار) ، والأسرة تبتغي (الكسوة) ، والقطن وهو سداد هذا العوز كله يصبح عقدة المشكلة وغلق الأزمة ؟ فثمنه البخس لا يفي بأكلاف زرعه ، بَلْهَ ما يُحمل عليه من الأسباب ، ويُناط به من المنى

هؤلاء بنوهم وبناتهم كانت أحاديث أحلامهم أن يتزوجوا في هذا العام الذي يتزوج فيه مليكهم المحبوب ، تفاؤلاً بطالعه وتيمناً بجدّه ، فرد هذا الكساد المؤيس أحلامهم أضغاثاً وأطماعهم وساوس . فكيف تطمع مع ذلك أن ترى البسمة التي تعهد . وتسمع الأغنية التي تحب ؟

فقلت له والأسف يغلب على صوتي وكلامي : مهما يكن من الأمر فإن خريفكم أجمل من ربيع الشعراء ، وعبوسكم أنبل من بشر الكبراء ، وغيمكم أفضل من صفو القاهرة

أحمد حسن الزيات

(١) القزعات : قطع من السحاب متفرقة صغار

(١) الأمطار جمع مطر بضم الميم وهو (كوز) الذرة

فلسفة الأسماء

للأستاذ عباس محمود العقاد

أقام السير رونالد ستورز طويلاً فى القاهرة ، واشترك فى كثير من حوادث مصر والشرق الأدنى قبل الحرب العظمى وبعدها ، وأعطى نفسه نصيباً وافياً من المتعة بالأدب والفنون ولا سيما الموسيقى والتصوير إلى جانب اشتغاله بالسياسة خافيها وظاهرها . وقد لقيته مرة أيام البحث فى تحويل « الأوقاف » من ديوان إلى نظارة ، وكان يومئذ « سكرتيراً شرقياً » لدار الوكالة البريطانية ، فبدأنا الكلام بروايات برناردشو والنقد الانجليزى الحديث ، ثم استطردنا إلى أعمال الاحتلال والادارة الوطنية فقال : أظن أن ديوان الأوقاف مختل لأنه المصلحة الوحيدة التى ليس عليها رقابة أجنبية ! ولا أدرى أ كانت هفوة لسان منه أم كانت سبراً لنورى واختباراً لمقدار ما يستبيحه من الأقوال والآراء على مسمع منى فى صدد الأوقاف وتحويلها إلى رقابة الحكومة . فقلت له : إن المجلس البلدى الاسكندرى أعظم اختلالا من ديوان الأوقاف وهو مملوء بالرقابة الأجنبية . فاستدرك كلامه الأول وأخذنا فى حديث آخر ، وانصرفت وهو يقول بعد انصرافى للأستاذ حسين روحى الذى كان واسطة التعارف بينه وبينى : « صاحبك لا يزال فى بداية الشباب »

ولم أره بعد ذلك ، ولكنى سمعت بمشروعاته الكثيرة ومنها ما حدثنى به فى تلك الزيارة ، كإحياء صحيفة « المؤيد » وإنشاء بعض الصلات الأدبية والفكرية بين الغرب والشرق على أيدى المثقفين من الأوربيين والمصريين . ثم وصل إلينا فى هذا الشهر كتابه الذى أسماه « تشريقات » أو مشرقيات ، وضمنه تاريخ حياته فى مصر وفلسطين وقبرص وبلاد العرب وغيرها من الأقطار الشرقية القريبة ، فاذا هو كتاب حافل باللاحظات واللمحات كما ينتظر من تعليقات رجل سياسى فنان حسن المراقبة للناس والمتابعة للحوادث والأحوال . ولقد أخطأ فى بعض هذه اللاحظات واللمحات خطأ ربما ساقه إليه حب الزخرفة والتنميق .

ولعلنا نعود إلى بيان بعضه فى مقال آخر ، ولكنى أردت فى هذا المقال أن أقف عند ملاحظة لاحظها على أسماء الخدم والخصيان فى قصر الأميرة نازلى وغيره من القصور ، وهى أنها محصورة فى محاكاة الجواهر والرياحين قلما تخرج عنها ، لأننى عنيت بهذه الأسماء فى بعض الأوقات ودار البحث فيها بينى وبين أناس من المشتغلين بعلم النفس فى المدارس المصرية العليا ، فعللوها تعليلا يخالف ما اعتقدت ولا يوافق المتواتر عن تاريخ الزنوج والعبيد

كنا فى إحدى المكتبات العامة فدخل إليها خادم زنجى له اسم من أسماء الجواهر ، فقال أستاذ واقف معنا : ألا ترون « مركب النقص يفعل فعله فى أسماء هؤلاء الخدم ؟ إنهم يشعرون بما لهم من بخس القيمة فيعوضونها بنفاسة الأسماء ! »

وكان هذا التعليل يستقيم على ذلك الوجه لو أن الخدم الزنوج يختارون الأسماء لأنفسهم ولا يختارها لهم النخاسون والسادة الذين يشترونهم ، ولكن الواقع أنهم يسمون بغير علم منهم ، وعلى غير معرفة باللغة العربية ولا بأسماء الجواهر والرياحين فيها أو فى غيرها

وإنما الحقيقة على ما يبدو لى أن رغبة السادة هى الملحوظة فى التسمية لا رغبة العبيد والخدم المبيعين ، ولهذا يقصرون تسمية العبيد على نوع من أربعة أنواع بين الأسماء : المقتنيات النفيسة وما شابهها من الرياحين الجميلة ، أو ألفاظ التفاؤل ، أو الشهور والأيام التى تم فيها الشراء أو تمت فيها الولادة ، وإلا فكلمة عبد مضافاً إليها اسم من أسماء الله الحسنى كعبد الله وعبد الكريم وعبد الباسط وما يشعر بالتفاؤل والدعاء خاصة

فالخصيان والعبيد يسمون بجوهر وفيروز ومرجان وياقوت ولؤلؤ وألماس كأنهم قنية نفيسة يباهى بها صاحبها ؛ ويلحق بهذا تسميتهم بريحان وكافور ونرجس كأنهم من أدوات التجمل والزينة فى البيوت

فإن لم يكن هذا فهم يسمون بما يدل على التفاؤل والاستبشار بالخير بعد شرائهم ، فيدعونهم بسعيد وبخيت وسرور وفرحات وقدم خير وخوش قدم وما إلى ذلك من ألفاظ التمنى والرجاء ؛ والملحوظ فى ذلك هم المالكون كما أسلفنا لا العبيد والجوارى

فان لم يكن هذا ولا ذاك فأسماء العبيد تكثر فيها أسماء الأيام والشهور والمواسم مثل خميس وجمعة وشعبان ورمضان ومحرم وعيد وربيع ، لأن مالكيهم حين يشترونهم لا يعرفون لهم سمة يسمونهم بها غير اسم اليوم أو الشهر الذى كان فيه الشراء

عنيت باستقصاء هذه الأسماء ودلالاتها فى بلدي أسوان حيث تعيش جمهرة من الزنوج السود ، وحيث يندر بيت لا يكون فيه عبد أو جارية من بقايا أيام الدراويش

ثم التفت إلى الأسوانيين أنفسهم فتبين لى من أسمائهم وحدها أن البلدة « عصبة أمم » عجيبة يلتقى فيها أناس ترجع أصولهم إلى جميع القارات ما عدا القارة الأمريكية ، فنهم من هو فى أصله تركي أو كردى أو من درس وأعي العراق . ومنهم من هو عربي أو مغربي أو حبشي ، ومنهم من هو مجرى أو بشناقي أو من أهل البلقان ، وبعضهم لا يذكرون هذه الأصول وإن دلت عليها حروف وإضافات فى الألقاب

على أننى لم أكن أحفل بالدلالات الجغرافية والتاريخية كما كنت أحفل بالدلالات النفسية والاجتماعية ، فى هذه دليل أمتع من كل دليل على قرابة الإنسان وتشابه العقائد والخوالج بين البشر وإن باعدت بينهم البحار والصحاري وآماد الدهور

كنت أعجب لأناس يدعون بأسماء الكلاب والحشرات ، وأحسب أنها ألقاب تحقير أطلقها عليهم الأعداء أو المتهكمون الماجنون ثم غلبت عليهم فعرفوا بها بدلا من أسمائهم ، ولكنى علمت أن أسماء الكلاب والحشرات هى أسماؤهم التى دعاهم بها آباؤهم وأمهاتهم ، وأن الآباء والأمهات قصدوا إلى ذلك قصداً ليعيش لهم أولئك الأبناء ، كأنما يحقرونهم ويشبهونهم بالحيوان الأعجم والحشرة المهينة لتزهد فيهم الموت ويأنف من أخذهم إليه!

والعجيب أن هذه العقيدة كانت سارية فى يونان القديمة ومصر القديمة والشرق القديم ، ولا تزال سارية حتى اليوم في بعض القبائل الأفريقية التى تؤمن بالأرواح الشريرة وتخاف منها على أطفالها وصغارها ، وتحصنهم منها بمحصنات شتى إحداها حقارة الأسماء أو بشاعتها . ولا شك أن اسم « معاوية » مثلا وهى الكلبة التى تعاوى الكلاب يمت بصلة إلى هذه العقيدة ، كما يمت إليها اسم هريرة وما إليه

ولحقارة الأسماء وبشاعتها سبب آخر غير تزهيد الأرواح الشريرة فيها ، وذلك هو التخويف بها أو احترام « الطواطم » المعبودة حيث كان الأقدمون يتبركون بها ويعتقدون أن أسلافهم من سلالتها

ففي القبائل القاتلة التي تعيش على الغارة ولا تزال فى خوف من الاغارة عليها يسمى الرجل بما يكره الأعداء ، وترى بينهم من يدعونه ذئباً أو أسداً أو حنظلة أو جمرة أو حرباً وما إلى ذلك من المخوفات والمنفرات

وفى القبائل التى تؤمن أو كانت تؤمن « بالطواطم » يسمى الرجل كلباً أو ثعلباً أو صقراً أو نسراً كما يتفق من أصول الطواطم القديمة الباقية بمناوينها وان نسيها أبناء القبيلة

ويقول السائحون بين القبائل التى على الفطرة إنهم يكرهون البوح بأسمائهم ويسترِيبون بمن يسألهم عنها ، لاعتقادهم أن الاسم جزء من الانسان من عرفه استطاع أن يسلط على صاحبه أرواح الشر والمرض واتخذه هدفاً يقذف عليه المتاعب والملمات . ونحن المتحضرين المحدثين نحسب اننا بعيدون مترفعون عن هذه الطبقة السفلى من طبقات العقول الآدمية ، حتى نسمع « سحاراً » يسأل عن اسم المقصود بالسحر واسم أمه فنعلم أن المسافة بيننا وبين الفطريين أقرب مما نتوهم ، ولا سيما فى سراديب الظلام التى يهبط إليها من يهبطون ساعة الفزع أو ساعة الضغينة

ولا ريب أن حياة الأمة بين ماضيها وحاضرها تتمثل كثيراً فى أسماء أبنائها ؛ فنعلم أن الأقوام التى تنحصر أسماؤها فى الظواهر الطبيعية سماوية كانت أو أرضية إنما هى أقوام فطرية لم تدرك من العلامات غير هذه الظواهر لتميز الرجال والنساء ، وأن الأقوام التى تظهر فيها أسماء الصناعات كالنجار والحداد والقصاب والزيات والعطار والعقاد قد تقدمت أشواطاً فى الحضارة ، وأن الأقوام التى تظهر فيها العناوين الاجتماعية قد عرفت بذخ الملك وألقاب التشريف ومراتب الطبقات ، وأن الأقوام التى يذكر فيها الحرب والبطش والعداء قد درجت على الغزو ورعاية الماشية ، والتي يذكر فيها الهدى والرشد والصلاح

وأوصاف الفضائل قد أخذت بقسط من الدين وفلسفة الاخاء ، وقس على ذلك ماتنم عليه معانى الأسماء وتراكيبها

بل ربما استطلعنا تاريخ الأمة السياسى من بعض الأسماء . فاسم « تفيدة » فى مصر يدل على أن المصريين كانوا زمناً من الأزمان يتشبهون بالترك تشبه المحكومين بالحاكمين ، إذ الاسم فى أصله عربى صحفه الترك من « توحيدة » لأنهم ينطقون الواو فاء ولا ينطقون الحاء ، فأصبح تفيدة وتقلناه نحن عنهم نقل المحاكاة

بل ربما عرفت الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها الرجل من دلالة اسمه واسم أبيه ، فالأغنياء مثلاً قلما يسمون أبناءهم بعبد الغنى أو عبد الرزاق ، والمثقفون قلما يسمون أبناءهم بالأسماء المنسوبة إلى أماكن وبلاد إلا لمناسبة مفهومة ، فالرجل المثقف لا يسمى ابنه «حجازى» أو «حبشى» وهو لم يولد فى الحجاز أو الحبشة أو فى موسم حج وعلاقة حبشية ، ولا يسمي ابنه « مرسى » وهو لم يولد فى مرسية ولا فى مكان إلى جوار المرسى أبى العباس وما شابه ذلك من المناسبات

وربما ألمت بقبس من تاريخ الأسرة وتكوين ذريتها إذا سمعت اسم رجل أو امرأة منها ... فإذا سمعت فى الصعيد باسم « قنعنا » فاعلم أنه اسم بنت لها أخوات ثلاث أو أربع ، ويغلب أن تسمى إحداهن « رضينا » والأخرى « حمدنا » وهكذا مما يشف عن الغيظ وعن الخوف مع ذلك من التمرد والشكاية

ونحن نعرف أسماء كثيرة تكذب مسمياتها : حسن وهو دميم ، وبدر وهو مظلم ، وعزيز وهو ذليل ، وصادق وهو كاذب ، وسليم وهو شديد الإيذاء ، ولكنى لا أعرف اسماً يكذب مسماه أدل على المجون والظرف من اسم « قبيحة » جارية الخليفة « المتوكل » وقد كانت أشهر جواريه بالصباحة وروعة الجمال ؛ ولخير ألف مرة أن يفاجأ الإنسان هذه المفاجأة من أن يترقب الحسن فيخيب رجاؤه بمرأى قبيح ومخبر لئيم . ومن سمع اسم « قبيحة » فنع بجمال يسير ليرضي ويبتهج ، أما من سمع اسم « جميلة » فهو يحسب أنه مغبون مخدوع إن لم ير هذه الجميلة فى الذروة العليا من الجمال

إن فلسفة الأسماء بحث ليست له نهاية ، وفيما تقدم نموذج لمن يشوقه أن يسترسل فيه

عباس محمود العقاد

المحفوظات التاريخية المصرية

متى تنظم بطريقة علمية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

—>>>•<<<—

عرضت لى منذ بضعة أعوام فرصة لزيارة دار المحفوظات المصرية بالقلعة ، ولست أذكر الآن من زيارتى سوى ممرات حجرية ضيقة تفضى إلى غرفة عتيقة شاسعة قد طرحت فيها الأوراق الصفراء أكداساً على الأرض ، وغصت جنباتها وزواياها بحزم متناثرة من الوثائق القديمة ؛ ولم يكن يومئذ بالدار سجلات أو فهارس منظمة ، ولم تكن تعرف محتوياتها بالضبط ولم تلفت محتوياتها حتى اليوم أنظار الباحثين

وفى أواخر هذا الصيف زرت دار المحفوظات النمسوية بمدينة فينا ، وترددت عليها مراراً لمراجعة بعض اللفات والوثائق التى تتعلق ببعض مباحثى فدهشت لما رأيت من دقة التنظيم وحسن التنسيق وسهولة البحث والمراجعة ، وشهدت كيف يستطيع الباحث أن يعمل فى جو من النظام والترتيب ، وكيف يتاح له أن يظفر فى الحال بما يطمح إلى مراجعته من الوثائق واللفات ، منسقة مصنفة طبق الموضوعات والتواريخ ، مدونة فى سجلات دقيقة تدل فى الحال على مافيها ، وترشد الباحث إلى غايته بأيسر أمر

وقصدت أيضاً إلى دار مجموعة الصور التاريخية النمسوية — وهى من أعظم المجموعات العالمية فى نوعها — لأشاهد صوراً لبعض الشخصيات التاريخية ، ولأستأذن فى نقلها ، فقدمت إلىّ الصور المطلوبة فى دقائق معدودة ، واخترت فى الحال للنقل منها ما شئت ؛ ذلك لأن هذه المجموعة الحافلة قد نظمت بمنتهى الدقة ورصدت محتوياتها مرتبة وفق الصور والتواريخ والأسماء ، ويكفى أن يلقى الموظف المختص على السجل المعين نظرة ليعرف فى الحال إن كانت الصور المرغوبة ضمن المجموعة ، وليستخرجها فى الحال من مكانها

أعجبت بهذا النظام الدقيق الذى يوفر على الباحث كثيراً من

الوقت والعناء ، وذكرت في كثير من الأسف ما انطبع في ذاكرتي من مناظر دار المحفوظات المصرية ، وكيف أن هذه الدار التي تغص جنباتها العتيقة بكثير من وثائق التاريخ المصري في مختلف عصوره — ولا سيما العصر التركي وعصر محمد علي — لا زالت بحالتها الساذجة ، وأكداسها المختلة المجهولة مغلقة على البحث والتحقيق

إن لدور المحفوظات مهمة من أجل المهام التاريخية والعلمية فهي مستودع الماضي وسجلاته ومستودع وثائقه السياسية والدينية والاجتماعية ؛ وهذه السجلات والوثائق هي أهم مصادر المؤرخ والمحقق ، وهي أصدق الدلائل على أحوال عصرها لأنها تصطبغ غالباً بالصبغة الرسمية ؛ ومنها الوثائق الملوكية والإدارية والعسكرية ومنها الوثائق والمعاهدات الدولية المختلفة ؛ ثم هناك الوثائق السرية التي لم تعرف في عصرها ، وهي أنفس ما في دور المحفوظات ، تتلقاها من مكامنها في عصر متأخر أو تحتفظ بسريتها فترة من الزمن حتى يختتم العصر الذي صدرت فيه ويختتم آثاره ؛ وتقدر هذه الفترة عادة بخمسين عاماً ، تعرض بعدها هذه الوثائق لأنظار البحث والتحقيق ؛ وفي دور المحفوظات الأوربية كنوز من الوثائق المختلفة الملوكية والإدارية والدولية التي ترجع أحياناً إلى عصور متأخرة ، والتي تلقي أعظم ضوء على تواريخ الأمم الأوربية وعلائقها في مختلف العصور

ولنا في دار المحفوظات النمسوية التي حظينا بالتردد عليها ووقفنا على بعض محتوياتها ونظمها خير مثل لما يمكن أن تؤديه المحفوظات المنظمة من خدمات جليلة للبحث والتحقيق ؛ فهذه الدار التي يرجع تأسيسها إلى نحو قرنين ، والتي تشكل الآن جناحاً كبيراً من دار وزارة الخارجية ، تعتبر من أهم مصادر البحث والتحقيق في شئون التاريخ الأوربي منذ القرن الرابع عشر ؛ ويطلق على الدار اسم « محفوظات الأسرة والبلاط والدولة » Das Haus, Hof - ung Staatsarchiv دلالة على صفتها الشاملة ، فهي مستودع محفوظات الأسرة أعني أسرة آل هبسبرج ، ومحفوظات البلاط ، ومحفوظات الحكومة والدولة ، وبها مجموعات هامة من الوثائق الملوكية والسياسية والإدارية والدولية ، وبها على الأخص طائفة كبيرة من الوثائق السرية التي تتعلق بأعمال المجلس السري أو مجلس البلاط الخاص ، وقد نظمت محتوياتها في مراحل متعاقبة تشمل جميع عصور التاريخ النمسوي والتاريخ الأوربي العام حتى سقوط الإمبراطورية النمسوية في سنة ١٩١٨ ، ويرجع أقدم أقسامها إلى عصر القيصر فرديناند الأول في أوائل القرن السادس عشر ، وتشمل الوثائق السياسية والدينية والادارية والعسكرية عصور التاريخ الإمبراطوري حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية المقدسة في سنة ١٨٠٦ ؛ وأهم أقسامها بلا ريب هو مجموعة وثائق مجلس الدولة السري ومجلس البلاط الخاص ، والمجلس الاستشاري ، وهي الهيئات الثلاث التي كانت تشرف منذ أواخر القرن السادس عشر على شئون الإمبراطورية ، وتحدث بأعمالها وسياستها أعظم الأثر في مجرى السياسة الأوربية ، وفي هذا القسم طائفة كبيرة من وثائق التاريخ الأوربي العام ، وبه على الأخص مجموعة نفيسة من وثائق عصر الوزيرين الشهيرين كاونتز وزير الإمبراطورة ماريا تيرزيا ، وقرينه مترنيخ أعظم شخصية سياسية في التاريخ الأوربي في أوائل القرن التاسع عشر ؛ ثم هنالك قسم المحفوظات السياسية ، وهو يحتوي على مجموعة عظيمة من الوثائق التي تتعلق بالسياسة الداخلية والسياسة الخارجية ، والمراسيم والبروتوكولات المختلفة ، والمعاهدات والاتفاقات والمكاتبات الدولية ، ولا سيما خلال القرن التاسع عشر ، ووثائق الحكومة القيصرية منذ عصر ماريا تيرزيا حتى سقوط الإمبراطورية في سنة ١٩١٨ ؛ ثم قسم الوثائق الدستورية ، وهو يضم مجموعات مختلفة من أوراق المجالس الإمبراطورية والمحلية حتى العصر الأخير . ولوثائق الأسرة ، أعني أسرة آل هبسبورج قسم خاص يضم كثيراً من الوثائق والأوامر والتقارير الخاصة بالقياصرة وأعضاء الأسرة بوجه عام ؛ وكذلك للبلاط قسم خاص يضم الوثائق المتعلقة به وبهيئاته المختلفة ؛ وأخيراً يوجد ثمة قسم خاص للوثائق والمجموعات العلمية والتاريخية التي يهبها كبار العلماء والهواة إلى دار المحفوظات

وقد أفردت دار المحفوظات النمسوية معرضاً خاصاً لطائفة من التحف والوثائق التاريخية النادرة ، يضم عدة مخطوطات لاتينية وقوطية قديمة ، وقرارات امبراطورية ترجع إلى عصور متأخرة وعدة معاهدات ومكاتبات تاريخية شهيرة رأينا من بينها مكاتبة

طويلة من السلطان سليمان خان إلى القيصر ، يلقب فيها « بسلطان سلاطين الشرق والغرب ، صاحب ممالك روم وعجم وعرب .. الخ » وصورة معاهدة تركية نمسوية عقدت سنة ١١٨٩هـ بشأن تنظيم الحدود بين الدولتين ، ومعاهدة أخرى صادرة من السلطان عبد المجيد خان ، وقرارات مؤتمر ڤينا الشهيرة الذى نظمت فيه حدود الدول الأوربية وأحوالها عقب سقوط نابوليون وعليها توقيعات أعضاء المؤتمر ، وغير ذلك من التحف والوثائق التاريخية النادرة .

***

ولنعد بعد ذلك إلى دار المحفوظات المصرية فنقول إنه من أشد بواعث الأسف أن تبقى هـذه الدار على حالها من الخلل والفوضى ، وأن تبقى بذلك مغلقة دون البحث والتحقيق ، وإذا كانت محتويات هذه الدار لم تعرف بعد بطريق الحصر الدقيق ؛ فإنه لاريب أن هذه الأكداس المبعثرة من الأوراق والوثائق التى تغص بها أركانها وجنباتها ، تضم كثيراً من الوثائق التاريخية والسياسية والادارية الهامة ولا سيما فى أواخر العصر التركى وعصر محمد على ؛ وإنا لنذكر بهذه المناسبة أن المغفور له الملك فؤاد الأول كان قد اهتم بأمر هذه المجموعة منذ أعوام ، وندب لها بعض الموظفين الذين يعرفون التركية لنقل ما فيها من الوثائق التركية إلى العربية ، ولسنا نعرف ماذا تم فى أمرها بعد ، وهل حققت أمنية الملك الراحل على نحو مرضى ، وهل بدأ القائمون بأمر هذه الدار بتنظيمها وحصر ما فيها في سجلات منظمة تدل على ما فيها ؛ ذلك أن الوقت قد حان لأن يكون لنا دار محفوظات منظمة على أمثال دور المحفوظات الحديثة ، تصنف محتوياتها بأسلوب علمى طبق العصور والموضوعات ، وتحمل إليها أشتات الوثائق والأوراق القديمة المبعثرة فى مختلف المصالح والجهات ، وتعرض محتوياتها لأنظار الباحثين والمحققين ، تمدهم بمواد وحقائق جديدة تؤيدها الأدلة والوثائق التى لا ريب فى صحتها

ونحن نعرف أن دار الكتب المصرية تضم طائفة كبيرة من أوراق البردى ومن الوثائق التاريخية ، ومنها أعلام شرعية وحجج أوقاف ومراسيم إدارية قديمة وغيرها ، وقد عهدت دار الكتب أخيراً إلى أحد العلماء الأجانب بتنظيم مجموعتها من أوراق البردى وتنظيمها وتصنيفها فى كتاب خاص ؛ وأما الوثائق الأخرى فهى مبعثرة فى فهارسها لا تجمعها رابطة ما ؛ كذلك يوجد فى محفوظات وزارة الأوقاف ، والمحكمة الشرعية العليا ، وبعض المصالح الحكومية الأخرى أوراق ووثائق تاريخية قديمة في غاية الأهمية ، وهذه كلها مهملة تبلى فى ظلمات الأروقة الرطبة ، ولا يكاد ينتفع أحد بتراجمها إلا فى ظروف شخصية نادرة . فمن الواجب أن تجمع هذه الأشتات كلها في دار محفوظات عامة تكون مرجع البحث العام ؛ ومن المحقق أننا سنظفر من ذلك بتراث جليل ، لا يقل فى أهميته ونفاسته من الناحية القومية عما تحتفظ به دور المحفوظات العامة فى الأمم الأخرى

لقد نشأت دار الكتب المصرية فى ظروف متواضعة ، وبدأت بثروة أدبية قليلة حملت إليها من بعض المساجد والمجموعات الخاصة ؛ وهاهى ذى اليوم ولما يمض على إنشائها نحو نصف قرن تغص بتراثها الزاخر من مخطوط ومطبوع ، وتتبوأ مكانة بين دور الكتب العالمية ؛ فلنبـدأ بإنشاء دار محفوظات مصرية منظمة تقوم إلى جانب دار الكتب ، وتعاون البحث والتحقيق من جانبها ، وتمد المؤرخ المصرى بمادة جديدة نفيسة . ونحن على يقين من أنه لن تمضى فترة يسيرة حتى تغدو دار المحفوظات المصرية ، كما غدت دار الكتب ، مقصد العلماء والباحثين من جميع الأنحاء

(الباخرة كوثر في ٢٤ اكتوبر) **محمد عبد الله عنان**

الوحـــدة

للدكتور ابراهيم مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

شبح يهولنا اسمه ، ويزعجنا رسمه ؛ مع أنا لو عرفناه لألفناه ، ولو خبرناه لتعشقناه ؛ ووحشة نفر منها فرارنا من الخطر الداهم ، أو العدو المهاجم ، ولو ثبتنا لها في صبر وجلد لكسبنا المعركة وأصبحنا بوحدتنا سعداء ؛ وعزلة قد يضيق لها الصدر ، وتنقبض النفس ، ولكنها عادة لا يمكن أن تكتسب إلا بشيء من الدربة والمران ؛ ورياضة لا تخلو من مجهود أو عناء . وكيف لا تكون مجهدة وهي تقف حجر عثرة في سبيل بعض الغرائز الكامنة ، وتحرم الفرد من لذائذ المجتمع ومغرياته الخادعة ، فتحول دون غريزة حب الاجتماع وسد حاجتها ، وتعارض صلات القرابة والمودة في امتدادها وانبساطها ؛ بيد أنها في كل هذه أشبه ما يكون بالدواء المض يتعاطاه المريض لما يرجوه بعده من برء وشفاء

حقاً إن الوحدة طب للنفوس وعلاج للأرواح ، نستطب بها من ويلات المجتمع وآلامه ، فتقينا ولو زمناً لهيب الحقد والحسد وسموم القيل والقال ، وتبعدنا ولو إلى حين عن مظاهر الشره والجشع وظلم الانسان لأخيه الانسان ، فلا تقع العين على وجوه شاكية ، ولا تسمع الأذن أصواتاً باكية ، ولا يقر اللسان مكيدة ، ولا تقاسم اليد في جريمة ، ولا تسعى القدم إلى خطيئة . وقديماً قالوا تشقى الوحدة من المجتمع بقدر ما يشقى المجتمع من الوحدة . وبالوحدة نداوي كذلك أمراض القلب والروح ونناجي أنفسنا بأنفسنا ، فنخرج من زحمة الأهل والاخوان وتيار الحياة المائج المائج إلى حيث السكون والتأمل ، ونبدد تلك السحب الكثيفة التي نسجتها الحمية حولنا ، والأضواء البراقة التي تعشى لها أبصارنا لنميز بين الحقيقة والاعتبار . ولم تكن الوحدة عبادة إلا لأنها توبة وندم وتهذيب وتطهير

وقد عرفت لها الأديان هذه المنزلة فدعت إلى الخلوة والاعتكاف الذي لا يراد به مجرد أوراد تتلى أو أناشيد يترنم بها ، بل يقصد أن تعرض صفحة الحياة على بساط البحث وتعقد محكمة الضمير في جو هادئ ساكن وتقضي بقضائها العادل إن بالبراءة أو الاتهام . وما أحوجنا إلى هذه الرقابة وهذا الحساب الدقيق دون انقطاع ! ولكن جد الحياة ولهوها وحلاوة العيش ومرارته تصدفنا عن ذلك وتلقي بنا في بحر لجي لا سكون فيه ولا اطمئنان . ونحن فوق هذا مولعون بستر هفواتنا وتغطية زلاتنا ، نسترها على الناس وعلى أنفسنا ، ونتجاهلها وكل الأدلة قائمة عليها : مغالطة مدهشة وصلف كاذب وغرور غريب . وإنك لترى الفرد يأتي أمراً يأباه العرف وينكره الدين ، فيسارع إلى أن يعد نفسه في صف المحافظين على التقاليد والمتدينين طمعاً في أن ننسى فعلته وتخفى خطيئته . وقد نفهم هذا التصنع إن أراد أن يرضى به من حوله ؛ فأما أن يخدع به نفسه فتلك حماقة حمقاء وغفلة عمياء ؛ وما منا من أحد إلا لاحظ أنه إذا حاسب نفسه على ذنب ارتكبته ، أو إثم اقترفته ، عز عليها هذا الحساب ، وقد تأبى وتستكبر وتشرد وتجمح . وكثيراً ما تفر إلى المجتمع لتنزوي في ركن من أركانه وتضل في منعرجاته وعطفاته . والجناة والمجرمون أنفر الناس من العزلة والوحدة وأرغبهم في الجلبة والضوضاء التي تخدر أعصابهم فلا يحسون ولا يشعرون . فلم يكن بد من أن تستثيرنا التعاليم السماوية إلى الخروج من هذا التجاهل المزري والتنكر المرذول

والتصوف وهو فلسفة الوحدة يرى أن علاج الروح لا يتم إلا إن شخص الإنسان أدواءه بنفسه ، ووقف على عيوبه مباشرة وبدون واسطة ، ثم تعهدها بالتقويم والإصلاح . ويعتقد أن المرء أقدر على هذا التقويم إذا خلا إلى نفسه وخلص من شواغله ؛ فإنه يلتقي بحسناته وسيئاته وجها لوجه ، ولا يجرؤ على المبالغة في الأولى ولا على إنكار الأخرى . وإذا صح أن الطبيب هو الذي يقود المريض نحو طريق البرء والعافية ، فلا شك أن المريض هو الذي يقطع هذا الطريق بقدميه . على أنه لا يكاد يوجد طبيب

يستطيع أن يتكهن بعلة قبل أن يعرف ظروفها ومكوناتها ، ولا أن يصف دواء قبل أن يقف على حقيقة الشكوى وموضع الألم . فإذا أضحى العليل آسيا كان أعرف الناس بعلته وأقدرهم على علاجها . لهذا تعشق الصوفية الوحدة ، وحببت إليهم الخلوة التي يستطبون فيها من آلامهم ويداوون أمراض نفوسهم . حقاً إنهم ينشدون وراء الفراق تلاقياً ، ويأملون بعد الهجر وصلا ، ويرجون في الوحشة أنساً ، ولكنهم لن يصلوا إلا عن هذا الطريق الوعر والمسلك الصعب . فالوحدة وسيلة لتهذيب النفوس والأرواح وسلم الوصول إلى الغبطة والسعادة

وليس أثرها مقصوراً على الروح فحسب ، بل يتعداها إلى العقل . ففيها تنضج الأفكار وتختمر الآراء وتتمحص الحقائق ؛ وفوق سطحها الهادئ تتفجر ينابيع الحكمة ، ومن سمائها الصافية تتنزل آيات النور والمعرفة . فلولاها ما نعمنا بكثير من الأدب الرائع والخيال العذب والشعر الرقيق ؛ وفي غير جوها لا يستطيع أن يتوفر عالم على فرض يحققه ، أو فيلسوف على نظرية يناقشها ويحللها ؛ وبدونها لا يجد السبيل مصلح إلى وضع نظمه السديدة ومبادئه القويمة . وإذا تتبعنا تاريخ الأنبياء والعظماء والقادة والمصلحين والفلاسفة والمفكرين وجدنا أن أشدهم تعلقاً بالمجتمع وشئونه أرغبهم في ساعات خلوة يدبر فيها ما اضطلع به من مهام جسام . ولئن كانت الجمعية تمدهم بقدر كبير من الغذاء العقلي فهم في مسيس الحاجة إلى ساعات فراغ يمثلون فيها هذا الغذاء ، ويتعهدون هذه البذور لتخرج للناس أينع الثمرات . ففي ردهات الأكاديمية ومتنزهات الليسيه أخرج أفلاطون وأرسطو أكمل وأتم فلسفة عرفت في التاريخ القديم . وفي غار حراء أعد «محمد» صلى الله عليه وسلم نفسه لقبول الوحي الإلهي والتعاليم السماوية . ولولا خلوات العلماء اليوم المستمرة وعزلتهم في تجاربهم الدائمة ما خطا العلم خطوة واحدة إلى الأمام . وها هو ذا بعض الساسة المعاصرين يحتذى حذوهم ، ويسير على سننهم ؛ فإذا ما حز به أمر لجأ إلى نفسه فاستفتاها في غير جلبة ولا ضوضاء . ففي الخلوة صفاء عز أن يتوفر في المجتمع ؛ وفيها ضياء إن مرت به سحب حياتنا الصاخبة خسفته . وفي العزلة تفكير وروية ونظر وتأمل لعل جيلنا الحاضر الذي انغمس في بحار المادية أحوج ما يكون إليها

هذه هي الوحدة في أثرها الروحي والفكري والأخلاقي والعقلي . وهنا نتساءل : هل نحن نقدرها قدرها ونتعلق بأهدابها ؟ وهل يعني الكثيرون منا بلحظات فراغ يطمئنون فيها إلى أنفسهم ويركنون إلى أشخاصهم ؟ وهل عوائدنا وتقاليدنا تحترم ساعات الوحدة والانفراد ؟ لا أظن ؛ فإن المقاهي والأندية تأكل نصف أعمارنا أو يزيد ، وبيوتنا مبغضة إلينا كل البغض فلا نقصدها إلا للنوم أو الطعام أو الشراب . وقد يصل الأمر بالطالب أن يذاكر دروسه على قارعة الطريق ، وبالأستاذ أن يحضر أعماله في مجتمع الإخوان ، وبالقاضي أن يدرس قضاياه في ناد عام . وكأننا نأبى إلا أن نفكر جهرة كما أن نتكلم جهرة ، وأن نشترك في كل شيء ، لأننا لا نحسن الاستقلال بشيء ، وإذا ما شاء أفراد أن ينظموا أوقاتهم ويخلصوا إلى أنفسهم ولو ساعة أو ساعتين كل يوم عدا عليهم الزوار فقصدوهم على غير موعد ، وأطالوا مكثهم لديهم . وبذا أصبحنا لا يشعر واحد منا أن وقته ملكه بحال

ابراهيم مدكور
كلية الآداب



التشريع والقضاء

فى العهد الفرعوني

للأستاذ عطية مصطفى مشرفة

— ٢ —

أثر القانون الحورابى فى قانونهم القديم

يعتبر القانون الحورابى منبعاً استقى منه القانون المصرى القديم بعض مواده ، فالشريعة البابلية من أقدم شرائع العالم وهى أقدم من شريعة موسى بل تتقدمها بعدة قرون . وقد عرفت تلك الشريعة باسم شريعة حورابى نسبة إلى الملك « حورابى » سادس ملوك بابل الذى عاش حوالى سنة ألفين ق . م

ويقول المؤرخون بأن الملك « حورابى » بعد أن دون عادات بلاده وضعها فى مواد شملت المسائل التجارية والمدنية والجنائية ، وأنها كانت فى مستوى أرقى مما كانت عليه قوانين البلاد الأخرى ، فكان مما نصت عليه « الوراثة » فجعلت مال المتوفى ينتقل بأكمله إلى ورثته ، وبذلك وضعت للشرائع الأخرى الحجر الأساسى لكيفية انتقال الحقوق إلى الغير ، وجعلت للموهوب له ملكية ماوهبه إليه الواهب . ويكفى الشريعة الحورابية فخراً أن الشرائع السماوية جاءت ببعض المبادئ التشريعية الموجودة إذذاك فيها ، فقد جعل حورابى بعض مواد شريعته وفق قوله تعالى : « الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » فالله تعالى قد كتب على المسلمين القصاص فى القتل والجروح كما كتبه على بنى اسرائيل من قبل ، فقال تعالى : « النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص » فقد كانت شريعته تنص على أنه « إذا سمل أحدهم عين حر تسمل عينه ، وإذا كسر أحدهم عضو حر يكسر له عضو ، وإذا خلع أحدهم سن رجل من طبقته يخلع سنه »

ومما هو جدير بالذكر أن حورابى فصل السلطة التنفيذية عن السلطة القضائية وعهد بالقضاء إلى من يتخرج فى مدرسة التشريع فى بابل

ولما ساءت الحالة السياسية فى بابل بعد موت ملكهم « حورابى » واشتدت المظالم وعمت الفوضى البلاد ، هجرها كثير من العلماء نفوراً من الضيم واستوطنوا بعض الممالك الأخرى ثم نشروا ثقافتهم وتشريعهم وعلمهم بتلك الممالك ؛ وكان حظ مصر من تلك الشريعة الحورابية وفيراً ، إذ استوطن بعضهم البلاد المصرية ونشروا فيها حضارتهم البابلية ، ثم ضرب المصريون بسهم وافر فى التشريع وأدخلوا فى تشريعهم تعديلات جمة وافقت روح عصرهم ، وبذلك بذوا أساتذتهم الحورابيين وعلوا بالتشريع المصرى علواً كبيراً ، وخصوصاً عندما أنشأوا مدارس التشريع فى طيبة وغيرها لتغذى القضاء بنوابغ المشترعين

أثر القانون المصرى القديم فى القانونين الاغريقى والروماني

تدل الاستكشافات الأثرية والمباحث العلمية الحديثة على أن اليونان والرومان يدينون لمصر بكثير من المبادئ القانونية ؛ فمنذ أوائل العصر التاريخى هبط مصر ، بفضل الصلات البحرية والتجارية ، بعض علماء اليونان مثل فيثاغورس وهيرودتس الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد ودرسوا نظمها وقوانينها . كذلك حضر إلى مصر عام ٥٥٩ ق . م المشرع الاغريقى صولون ، فلما عاد إلى بلاده أدخل فى تشريعها ما اقتبسه من مجموعة قوانين بوخوريس وأدمجه فى قانون صولون الذى وضع فى أثينا فى مبدأ القرن السادس ق . م . ومما أخذه المشرع صولون من قانون بوخوريس مبدأ أن المدين لايجوز حبسه ، لأن التنفيذ يجب ألا يتعدى مال المدين ويتجاوزه إلى شخصه . وقد أخذ صولون من قانون أمازيس أحد ملوك الأسرة السادسة بعد العشرين فكرة معاقبة كل متعطل ومن مالت نفسه إلى الراحة وعدم العمل فيما يدر عليه من المال الحلال ما يسد به رمقه وحاجات أسرته

كذلك اقتبس الرومان الكثير من القوانين المصرية وأدمجوها فى قانون الألواح الاثنى عشر الذى وضع فى روما فى منتصف القرن الخامس ق . م فقد أثبت العالم الفرنسى الأستاذ ريفيو وهو ممن وقفوا حياتهم على دراسة القوانين عند الأمم القديمة أن

القوانين الرومانية ترجع إلى القوانين التي وضعها قدماء المصريين ، إذ أن قانون الألواح الاثنى عشر الذى هو أساس القوانين الرومانية مستق من القوانين المصرية وانه لايتيسر معرفة كنه القوانين الرومانية ولا سيما المدنية منها إلا إذا فهم الانسان أصولها التي وضعها قدماء المصريين فقد قال الأستاذ ريفيو ماتعريبه « إن المبادئ القانونية البحتة التي نص عليها قانون الألواح الاثنى عشر مأخوذة من القوانين التي وضعها قدماء المصريين » وعند ماهبط رسل روما بلاد اليونان لتحضير قانون الاثنى عشر لوحاً أخذوا كثيراً من قانون صولون اليوناني الذى وضع في أثينا في أوائل القرن السادس ق . م . وقد نقل الرومان عن القوانين المصرية طريقة التعاقد الشفاهية التي كانت تتم عند المصريين في جميع عقودهم بقسم أى صنك Sanach يصدر من التعهد للمتعهد له بأنه سيؤدى إليه ما اتفقا على أدائه ، وقد أطلق الرومان على هذا الشكل من التعاقد Sponsio فيوجه المتعهد له للمتعهد القسم بقوله أتقسم Spondes - ne فيجيب المتعهد أقسم Spondes وكانت تشبه طريقة التعاقد هذه مايسمى عند الرومان بالـ Mancipation

كذلك أخذ الرومان عن المصريين طريقة تحرير العبيد بواسطة محاكم دينية أعدت خصيصاً لذلك ، كما شرع « أمازيس » طريقة الإشهاد بالميزان في كافة العقود الناقلة للملكية ولا سيما في البيع والتبنى ، وهى الطريقة التي نقلها الرومان في تشريع الألواح الاثنى عشر . لذا يمكننا أن نقول بحق إن القانون الروماني قد أخذ أيضاً مبادئ كثيرة عن القوانين المصرية في مختلف العصور بعد صبغها بصبغة رومانية . ولا غرو فقد بلغت القوانين المصرية إذ ذاك من الرقي ما جعل ديودورس الصقلي — وهو مؤرخ يوناني عاش في القرن الأول قبل الميلاد — يقول عنها : « إنها كانت جديرة بالإعجاب وأعجب بها العالم فعلا »

القضاء عند قدماء المصريين

تبعاً لسنة التقدم الاجتماعي وتنوع الصلات الاجتماعية والاقتصادية وتهذيب الأفكار والنفوس شعر قدماء المصريين منذ القدم بحاجتهم لقاض يفصل في خصوماتهم ويحمل في يده ميزان العدل فيقر الحقوق في نصابها ويرفع الظلم ويدفع الأذى ويستخلص حق الضعيف من القوى ؛ غير أن النظام القضائي في العهد الفرعوني يشوبه بعض الغموض لسببين : أولهما قدم عهده ، وثانيهما قلة المصادر التي كتبت عنه ؛ غير أنه مما لا جدال فيه أنه كان للملك كل السلطة العمومية إدارية وقضائية ، بل كانوا يؤلهونه ويقدسونه ويحترمونه احترام العبد للسيد ، ويعبدونه في حياته ومن بعد مماته ، ويسمونه بأسماء الآلهة ، فهو الحي الدائم ، وهو الإله الرحيم ، أو الإله الأعظم ، إلى غير ذلك

كان هذا الفرعون إذن خليفة الإله وظل الله في أرضه ؛ فهو رئيس الديانة وحامى الدين والدافع عن الوطن وأراضيه ، وهو السيد الآمر الناهى في جميع مرافق البلاد ، فهو رئيس الدولة ومصدر جميع سلطاتها وكان يستمدها من الآلهة رأساً

كان الملك يباشر القضاء إما بنفسه وإما بواسطة موظفيه الدينيين أو المدنيين . ولم يكن هؤلاء القضاة منقطعين لأعمالهم القضائية ، بل كان بعضهم من الكهنة وبعضهم من كبار العلماء يختارهم الملك للقضاء مضافاً ذلك إلى وظائفهم . وكان للملك الرأى الأعلى في القضاء بالرغم من أنه كان يسمح لغيره بالفصل فيه . وكان لأي فرد من رعايا الملك أن يطلب الإنصاف منه إذا ظلم ، فيعيد الملك النظر في القضية ويفصل فيها بنفسه . وكان للملك الحق المطلق في النظر والفصل في القضايا ؛ وله أن يستعمله بنفسه أو ينيب غيره فيه بناء على التماس يرفع اليه من المتظلمين عن حكم اعتبروه جائراً وقد فصل فيه غيره . وكانت هذه الحالة الأخيرة هي الشائعة ، فكان الملك لا يجلس للقضاء في الأكثر إلا إذا اشتكى أحد رعاياه من الحكم الصادر عليه وطلب منه التدخل

كانت مصر مقسمة إلى عدة أقاليم يدير شؤون كل منها رئيس هو حاكم الإقليم ونائب الملك فيه ؛ وكانت له كل السلطة العمومية من إدارية وقضائية على جميع أنحاء إقليمه . وكان إذا جلس للقضاء وجب عليه أن يشرك معه مجلساً مكوناً من قضاة يعينهم الملك ؛ وكان لهذا المجلس بعض المدونين . وانقسم كل إقليم إلى مراكز عدة ، وانقسم كل مركز إلى عدد من المدن والقرى تكوّن جملة نواح ؛ وكان في كل ناحية محكمة يختار قضاتها من أهلها وتنظر في القضايا البسيطة ، وكانت أحكامها قابلة للنظر فيها من

المحكمة العليا التي كان مقرها عاصمة القطر ، فلم تكن السلطة التنفيذية إذن مستقلة عن السلطة القضائية ، فالوزير الأكبر كان رئيس الحكومة ، وهو في ذات الوقت رئيس المحكمة العليا وله سلطة القضاء في المملكة . كذلك كان حكام الأقاليم رؤساء لمحاكمها . وكان الحكم يصدر متوجاً باسم الملك ؛ وكان يطلق على القضاة لقب « ساب » Sab . وكانت وظيفة القاضي يرمز لها بالهيروغليفية بصورة ابن آوى . وكان القضاة يؤدون قسماً بلزمهم الطاعة لجميع أوامره متى كانت عادلة . وكانت القوانين تسجل في دار العدل ويعتبر تسجيلها في هذه الدار بمثابة نشر لها ، إذ بمجرد تسجيلها تسرى على أهل البلاد . أما المراسيم فكانوا لا يسجلونها في دار العدل ، بل كانت تنفذ بمجرد ختمها بخاتم الدولة

كان القضاة في زمن الفراعنة من القسس المتخرجين في مدارس التشريع في معابد منفيس وطيبة وآن (أو عين شمس) وكانت المحكمة الكبرى بمدينة طيبة تؤلف من ثلاثين قاضياً يختارون من فطاحل الكهنة المتضلعين في المسائل القانونية ، بنسبة عشرة عن كل مدينة من تلك المدن الثلاث ، وأعطيت الرياسة لأكبرهم سناً ، كما منح الرئيس مرتباً أكبر من بقية إخوانه القضاة . وكان على معبد المدينة الذي ينتخب الرئيس منه أن يرسل إلى المحكمة بقاض آخر حتى يصير عدد القضاة في المحكمة بما فيهم الرئيس واحداً وثلاثين قاضياً . وكان رئيس المحكمة الكبرى إذا جلس للحكم بين الناس يضع في عنقه سلسلة ذهبية معلقاً بطرفها حجر كريم على شكل تمثال إله العدل « ما » أو « تمت » ؛ وكان يدير هذا التمثال على الأعضاء عندما يدلى كل برأيه ، فإذا تم ذلك نطق الرئيس بالحكم . وكانت توضع على منصة القضاء أثناء انعقاد الجلسات ثمانية مجلدات ضخام تحوى كل القوانين المصرية القديمة

وكانوا ينتخبون قضاتهم ممن وسعت تجاربهم وعظمت معلوماتهم الدينية والدنيوية وكثرت ثقافتهم العلمية ، وكانت أحكامهم محترمة ونافذة . أما مرتبات القضاة فكانت تصرف لهم من خزينة الملك

وقد كثرت أنواع المحاكم عندهم بحسب اختصاصها فوجدت المحاكم الأسرية أو المنزلية التي كانت لا تتناول إلا المسائل البسيطة ، وكان قاضيها رئيس الأسرة الذي خول السلطة التأديبية على جميع أفرادها .

وكما وجدت المحاكم المدنية عند قدماء المصريين ذات الدرجات الثلاث: جزئية بالقرى والمدن ، وابتدائية بعواصم الأقاليم، واستئنافية بعاصمة الدولة ، كذلك وجدت المحاكم العسكرية والقضاء الإداري الذي كان يفصل بين الأفراد والجهة الإدارية كالمنازعات التي تقع بين دافعي الضرائب وبين الموظفين المكلفين بجبايتها . كذلك وجد القضاء الجنائي بنوعيه العادي الذي يفصل في قضايا الأفراد، وغير العادي الذي ينظر في الجرائم التي تمس الملك أو الدولة بصفة عامة ؛ وكانت تتولاه المحكمة الخاصة ، وكان يدخل ضمن تشكيلها نفر من رجال الجيش . وكان القضاء الجنائي العادي على درجتين : الدرجة الأولى محكمة المدينة أو محكمة الإقليم وتستأنف أحكامها أمام الملك أو مجلس الملك الخاص كما وجدت محاكم دينية لتحرير العبيد منذ الأسرة الحادية والعشرين ، فكان إذا ظلم السيد عبداً له لجأ العبد لمعبد من المعابد واحتمى بتمثال أحد الآلهة ، فإذا اقتنع كهنة المعبد بظلامته قضوا بجعله من حيث الشكل عبداً للإله الذي احتمى به ، وبذلك تزول سلطة السيد عنه ويصبح حراً . وسمح لكل مصري حر ظلمه أحد الحكام أو جهة إدارية أن يلجأ إلى إله يحميه من هذا الظلم

« يتبع » عطية مصطفى مشرفة

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليليـــة

للدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

- ٢٦ -

الفلسفة الصينية

العصر المنهجي — كونفيشيوس

مبادئ

ليست كلمة « كونفيشيوس » هي الاسم الصيني الصحيح لهذا الحكيم ، وإنما هو تركيب « لَتّنَهُ » الأوربيون كما اقتضت طبيعة لغاتهم إذ أصلها « كونج فوتسيه » . فأما « كونج » فهو اسم الأسرة ، وأما « فووتسيه » فمعناها الأستاذ المبجل

ولد هـذا الحكيم في مدينة « تسيئو » سنة ٥٥١ قبل المسيح من إحدى الأسر الملكية الماجدة التي أثبت تاريخ دوحات الأسر العريقة أنها تصعد إلى عهد أسرة « تشو » في القرن الحادي عشر قبل المسيح ، وأن رئيس هذه الأسرة في ذلك العهد الغابر الذي سبق مولد « كونفيشيوس » بأكثر من خمسة قرون كان يدعى دوق « دى سونج »

تزوج « شوليانج — هي » والد حكيمنا للمرة الأولى وعاش مع زوجته زمناً طويلا دون أن يرزق ولد ، وكان إذ ذاك حاكما على مدينة « تسيئو » فلما بلغ من العمر سبعين سنة تزوج مرة ثانية فرزق هذا الحكيم الذي منت به السماء على الصين ، ليحفظ تراثها الغابر ، ويبعث مجدها الدائر ، ويسطع في سماء مستقبلها سطوعاً يسجل اسمها بين أسماء الأمم الخالدة ؛ ولكنه لم يكد يبلغ العام الثالث حتى توفى والده وترك الأسرة في حالة من الضنك رثى لها ، بيد أن مجد الأسرة وسمعتها الأدبية ساعداها على تربية هذا الطفل وتثقيفه كما يتثقف أبناء طبقتها من الأثرياء ، وقد كونت هذه التربية العالية « كونفيشيوس » تكويناً فيما كان أساس تلك الفلسفة الباهرة

لا يعرف التاريخ عن حياته الخاصة أكثر من أنه تزوج في التاسعة عشرة من عمره ، وأنه لم يكن موفقاً في زواجه ، ففارق زوجته بعد بضعة أعوام من تاريخ الزواج ، ولكنه أعقب منها غلاماً وفتاة زوجها فيما بعد لأحد تلاميذه الأوفياء ، وأنه بعد زواجه بزمن يسير عين مراقباً في إحدى إدارات الزراعة فكان هذا التعيين ثقيلاً على نفسه ، لأنه كان يراه من ناحية غير متناسب مع سمو مكانته ، وكان من ناحية ثانية متنافياً مع مواهبه وثقافته ، ولكن ضرورة البأساء قد ألجأته إلى قبوله فقبله على مضض ؛ ثم ظل يتحرق إلى مهنة التعليم التي كان يعتقد أنه خلق لأجلها ، فلما حيل بينه وبينها أخذ يقوم بها في أسرته ، وأخيراً عين أستاذاً في مدينة « لو » حيث كرس مجهوداته كلها للعلم والتعليم والبحث وراء الحقيقة ، ونشر الفضائل الأخلاقية . وكان منزله أرقى ناد في المدينة يجتمع فيه أجل الشبان المهذبين الراغبين في العلم والأخلاق والتقدم الاجتماعي ؛ وكان جميع المهذبين من شيوخ وشبان مفتونين بما حواه رأس هذا الحكيم الشاب من معارف سامية . وفي الحق أن رأيه كان موسوعة لعلوم عصره وفنون زمنه . وإليك مايصف به نفسه في كتاب« لون — يو » :

« في الخامسة عشرة كنت أفرغ كل عنايتي في الدراسة ، وفي الثلاثين كنت أسير بخطى أكيدة وحازمة فوق صراط الفضيلة ، وفي الأربعين لم يكن لدى أي ريب ، وفي الخمسين كنت أحيط علماً بناموس السماء ، وفي الستين كنت أفهم كل ما تسمعه أذنى ، وفي السبعين كانت كل رغبات قلبي متجهة إلى عدم مخالفة أية قاعدة أخلاقية [1] »

في سنة ٥٢٥ قبل المسيح ارتحل إلى « لو » مدينة « لاهو — تسيه » ليكمل معارفه بالاطلاع على محفوظات الدار الملكية كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ؛ وبعد أن أقام بهذه المدينة سنة عاد إلى بلده . وفي سنة ٥١٦ شبت حرب أهلية بين كبار الملاك في مقاطعته ، فغادرها إلى مقاطعة أخرى ، فاستقبله رئيسها أعظم استقبال ، وأخذ يستنصحه في كثير من نواحي الحياة ، ولكنه لم يتبع نصائحه في حياته العملية ، فلما قدم إليه المال رفضه الحكيم قائلا :

« إن الرجل الفاضل لا يتسلم من المال إلا بقدر ما يقوم به من الأعمال ، وإني قدمت إلى الأمير نصائح فلم يعمل بها ، فإذا حسب بعد ذلك أنني سأقبل ماله فهو بعيد عن فهمي

(١) راجع الفصل الثاني من كتاب « لون — يو »

وبعد إقامته خمسة عشر عاماً في هذه القاطعة عاد إلى بلاده ، وكانت المياه فيها قد رجعت إلى مجاريها ، وهناك عين مديراً أعلى لمدينة « تشونج — تو » فمكنه هذا التعيين الجديد من أن يخرج مبادئه إلى حيز العمل وأن يحقق أفكاره العمرانية الراقية . وإذا صدقنا ما يقوله أحد معاصريه المؤرخين ، جزمنا بأن عصره كان عصر إعجاز في النجاح الإداري . فالرقي الذي ظهر في تلك المدينة والسلوك الأخلاقي الذي استحدث فيها جعلا أمراء المدن الأخرى يتخذونها نموذجاً لمدنهم ، بل إن دوق مدينة « لو » سأل « كونفيشيوس » عما إذا كان من الممكن تطبيق قواعد إدارته على جميع مدن الدولة ، فلما أجاب بالإيجاب عينه الدوق نائباً للسكرتير العام للدولة ثم وزيراً للحقانية فلم يكد يتولاها حتى انقطعت جميع الجرائم وتعطل تطبيق قانون العقوبات تعطيلا تاماً ، لأنه لم يعد في الدولة جانون يطبق عليهم

لاريب أن في هذا شيئاً من المبالغة ، ولكن الذي لاشك فيه هو أن البلاد قد قطعت في عهد إدارة « كونفيشيوس » شوطاً بعيداً في التقدم الأخلاقي والعمراني والسياسي ، وأن هذا الحكيم قد أعاد إليها صورة العصر الذهبي وأشعرها من جديد بالرخاء والسعادة . وبمعاونة صديقيه «تسيه لو» و «تسيه يو» اللذين كانا يشغلان وظيفتين عاليتين من وظائف الدولة قد تمكن من تقوية سلطة الأمراء وإضعاف قوة الأسر المتمردة فاستتب الأمن وسادت السكينة في البلاد

غير أن هذه النعمة لم تدم طويلا ، إذ لم يكد حكيمنا يصل إلى أوج الشهرة الحقة حتى حسده جماعة من معاصريه وهيأوا للدوق أسباب اللذة ؛ فلما أفرط فيها أصم أذنيه عن سماع نصائح « كونفيشيوس » فهدده هذا بالاستعفاء إن لم يستقم ويعنَ بمرافق الدولة . فلما أصر الدوق على عناده لم يسع الحكيم إلا اعتزال الخدمة ، وقد فعل ؛ فاستقال في سنة ٤٩٦

ومنذ هذا التاريخ أخذ « كونفيشيوس» يرتحل من بلد إلى بلد حتى آخر حياته دون أن يقيم في بلد أكثر من ثلاثة أعوام ، وكان يستقبل في كل مكان بالإجلال والإعظام ، ولكن لم يتبع نصيحته أي ملك ، بل كثيراً ما تعرضت حياته للخطر ، وكان قلبه من أجل ذلك مفعماً بالمرارة والحزن في جميع أسفاره التي كان لا يرافقه فيها إلا تلاميذه المخلصون والتي أذاقته من التشاؤم واليأس ما دفعه يوماً إلى أن يسائل نفسه قائلا : « هل أنا إذن ، بقطينة مرة لا يستطيع أحد من بني الإنسان أن يذوقها »

بعد أن أنهكته هذه الأسفار المختلفة ألقى عصا التسيار في مدينة « لو » وكانت سنه إذ ذاك تسعة وستين عاماً فاستقبله دوقها الجديد بكل ترحاب وإجلال ، ولكنه نهج نهج أسلافه فلم يتبع نصائح الحكيم في أي شأن من شؤون الدولة ، فلم يكن ذلك جديداً على نفس « كونفيشيوس » ولكن الذي حطم قلبه في هذه الشيخوخة هو أنه رأى بعينيه الفانيتين موت ابنه الوحيد وتلميذيه المختارين « هوى » و « تسيه — لو » . فلما حلت به هذه الكارثة أحالت الدنيا في نظره ظلاماً ، ولكنها لم تقعده عن واجبه في الحياة ، فكرس الشهور الأخيرة من حياته لجمع ونسخ الكتب القديمة المقدسة التي أشرنا إليها في حديثنا عن مصادر الفلسفة الصينية

وأخيراً هوى هذا الكوكب في اليوم الحادي عشر من الشهر الرابع من سنة ٤٧٨ قبل المسيح بعد مرض لم يدم إلا أحد عشر يوما

كونفيشيوس وجد حقاً

كتب أحد المؤلفين الانجليز وهو : « هـ . ج . ألين » كتاباً سخيفاً بعنوان« كونفيشيوس أسطورة » عانى فيه عَرَقَ القِرْبة كما يقول العرب لإنكار « كونفيشيوس » ومحاولة تصويره في صورة الأساطير الخيالية . ولست أحب أن أرد على هذا المتعالم الانجليزي بأحسن من تعليق الأستاذ « زانكير » الذي أقتطف منه ما يلي : « في ذلك العصر المحزن أي الربع الأخير من القرن التاسع عشر الذي كان الناس يظنون فيه أن العلم ينحصر في الإنكار والشك في الحوادث والشخصيات التاريخية الثابتة ، فأنكروا « لاهو — تسيه » و « بوذا » والمسيح . في ذلك العصر الأسيف هب إنجليزي خامل ، بنية إنشاء الضجيج حول اسمه الذي لولا هذا الإنكار لما ذكره أحد ، فزعم أن « كونفيشيوس » أسطورة من الأساطير ، ولكن إذا كان ينبغي لنا أن نشك في وجود حكيم « تو » فلست أدري لماذا نحن نؤمن بوجود « سقراط » و « يوليوس قيصر » و « شارلمان » بل ، ولكي لا ننسى الانجليز في ردنا نقول لهذا الزاعم أيضاً : وكذلك يجب أن نؤمن بوجود « غليوم الفاتح » [1] ، وأظن

(١) دوق فرنسي فتح انجلترا وتملك عليها في سنة ١٠٦٦ وقد ذكره العالم « زانكير » ليهين به ذلك الانجليزي المتعالم .

أنه ليس لدينا من الأسباب ما يحملنا على إنكار واحد من هؤلاء
ولكن لحسن الحظ قد بدأ العقلاء يعدلون عن النظر إلى هذا النوع من العلم نظرة جدية .
أما الذى لا يقبل الريبة بحال : فهو أن « كونفيشيوس » —بالرغم من قلة مصادرنا العلمية عنه— قد وجد وجوداً حقيقياً لأن تلاميذه ومعاصريه قد أعطونا عنه صوراً مادية وأخلاقية أمينة

أخلاقه الشخصية

إن أهم ما اشتهر به هذا الحكيم من أخلاق سامية هو الهدوء الذى لا حد له ؛ إذ حدثنا تلاميذه أنه لا الظلم للروع ، ولا الألم المبرح ، ولا الخطر المميت ، كانت تهزه أو تحدث فى نفسه أقل اضطراب . ومن هذه الأخلاق أيضاً ما يروونه لنا عن وداعته الفائقة ، وتواضعه المنقطع النظير الذى يصفه لنا هو شخصياً فيقول : « كيف أستطيع أن أشبه نفسى بالحكيم أو بالرجل الذى يعمل للفضيلة ؟ ! إن كل ما أستطيع أن أقوله عن نفسى : هو أننى أقهرها على محاولة مساواتهما بدون ملل ، وعلى تعليم الآخرين دون انفكاك »

ومع ذلك فقد كان عنده ثقة عظيمة فى نفسه وفى رسالته الأخلاقية ، غير أنه كما أن تواضعه لم يهنه أمام من هم أقوى منه ، كذلك ثقته بنفسه لم تدفعه إلى الكبرياء على من هم دونه

ومن محامده الجليلة أنه لم يسمح يوماً لعاطفتـه أن تتعدى حدودها المرسومة لها فى أى ناحية من نواحى حياته العلمية أو العقلية حتى قيل عنه : إن التفكير العاطفى لم يجد له مكاناً قط بين تعقلاته . وقد كان هذا القول حقاً إذ أنه حين سأله تلاميذه عن رأيه فى حكمة « لاهو — تسيه » القائلة : « أحبوا أعداءكم كما تحبون أصدقاءكم » أجاب بقوله : « إذا أحببتم أعداءكم ، وكافأتم بغضهم إياكم بحب من جانبكم ، فبماذا إذاً تكافئون حب أصدقائكم ؟ كلا ، بل أجيبوا على البغض بالعدل وعلى الحب بالحب »

ولكن ليس معنى هـذا أنه كان جافاً محروماً كل عاطفة نبيلة ، كلا ، لأنه كان يحمل بين جنبيه قلباً يفيض بالعطف على أصدقائه وتلاميذه ، وبالحب الحار لوطنه ، وبالإشفاق القوى على الضعفاء

(يتبع) محمد غلاب

رؤيا «مرزا»

للكاتب الإنجليزى أديسون
بقلم الأستاذ محمود الخفيف

قال أديسون :
قد اتفق لي حينما كنت فى تلك المدينة العظيمة ، مدينة القاهرة ، أن اشتريت بثمن بخس بعض المخطوطات الشرقيـة القديمة التي ما زلت محتفظاً بها

وبين تلك المخطوطات التي صادفتها مجموعة تسمى «رؤى مرزا» قرأتها فى سرور عظيم ثم عولت على تقديمها إلى القراء إذ لا أجد لدى غيرها أسرى به عن نفوسهم ؛ وسأبدأ بأولى تلك الرؤى وهأنذا أترجمها كلمة كلمة فيما يأتى :

فى اليوم الخـامس لظهور القمر ذلك اليوم الذي كنت أقدسه جرياً على عادة جدودى ارتقيت تلال بغداد العالية بعد أن أديت فرائض الصباح ، لأقضى هنالك بقية اليوم في التأمل والصلاة

وبينما كنت أنعم هناك بالهواء الطلق على قمم الجبال ، إذ وجدت نفسى غارقاً فى تأمل عميق حول حياة الانسان وما يكتنفها من غرور ، وإذ كنت أنتقل من فكرة إلى فكرة فقد ناجيت نفسي قائلاً : « حقاً إن الانسان خيال ، وإن حياته حلم » .
وبينا أنا كذلك أعمل الفكر ، إذ أخذت عيناى رجلاً فى زى الرعاة على رأس صخرة تقع غير بعيد منى ، وكانت فى يده آلة موسيقية ، فلما رآنى أنظر إليه رفعها إلى شفتيه وجعل ينفخ فيها ألحانه ؛ وكان صوت تلك الآلة فائق الجمال كما كانت تنبعث منها طائفة من النغمات الرخيمة لم يسبق أن صادفت مثلها رونقاً وطرباً . ولعمرى لقـد صورت لى تلك الألحان هاتيك الأنغام السماوية العذبة التي تقابل بها أرواح الصالحين حينما تصعد إلى الجنة ، هنالك حيث تذهب عنها آثار آلامها الأخيرة وحيث تتأهب لما أعد لها من النعيم فى ذلك المكان السعيد . وسرعان ما اهتز قلبي فى انتشاء عجيب

وكثيراً ما أخبرت من قبل أن الصخرة القريبة مني مسكن جنى، وأن كثيراً ممن مروا بها قد سمعوا تلك الألحان الموسيقية، ولكني لم أسمع قبل اليوم أن ذلك الوسيقار يظهر للأعين

ولقد أنعش ذهني بأنغامه العذبة وهيأ فكرى لسماع محاورته وأنا أنظر إليه نظرة الحائر، فلما استوثق منى أشار إلى أن أسير إلى حيث يجلس. ولقد اقتربت منه باحترام يليق بطبيعته العلوية، ولما كان قد تملك قلبي بأناشيده الحلوة فقد ألقيت بنفسى على قدميه وعيناى تذرفان الدمع

فنظر إلىّ الجني نظرة عطف وحنان سرعان ما جعلته أليفاً إلى نفسى، وسرعان ما بددت تلك المخاوف التى ساورتنى وأنا أدنو منه، ومد يده فرفعني عن الأرض وتناول يدى قائلاً: «مرزا! لقد سمعتك وأنت تناجى نفسك فاتبعنى»

واقتادنى إلى أعلى صخرة بين تلك الصخور ثم وضعنى فوق أعلى قممها وقال:

— «ول وجهك نحو الشرق وأخبرني ماذا ترى هنالك؟»

قلت: «إني أرى وادياً مترامى الأطراف يخترقه مجرى هائل من الماء»

قال: «إن الوادى الذى تراه هو «وادي الشقاء»، وإن المجرى الذي يخترقه هو جزء من ذلك المجرى العظيم «مجرى الأبدية»

فقلت وما السبب فى أن هذا الجزء من المجرى يخرج فى أوله من خلال ضباب كثيف ثم ينتهى عند آخره إلى ضباب كثيف؟

قال «إن ذلك الجزء الذي ترى هو قسم من الأبدية تعبرون عنه بالوقت وتقيسونه بالشمس، وهو يمثل الحياة من أولها إلى منتهاها»

ثم قال: «أنظر إلى هذا البحر الذى تكتنف الظلمة طرفيه وحدثنى عما ترى فيه»

قلت: «إنى أرى قنطرة كبيرة فى هذا الخضم»

قال: «إن هذه القنطرة ليست إلا الحياة الدنيا، فانظر إليها بإمعان»

نظرت فرأيتها مكونة من ثلاث حلقات تكون فى مجموعها عشر أقواس؛ ثم شاهدت إلى جانبها عدداً من الأقواس المحطمة يصل بها الفرد إلى ما يقرب من المائة، وبينما كنت أعد هذه الأقواس أخبرنى الجنى أنها كانت فى أول أمرها تبلغ الألف عدداً، ولكن فيضاناً هائلا قد اكتسح معظمها وترك القنطرة على تلك الحالة المتهدمة التى كنت أراها

قال الجنى: «أخبرنى ما ذا ترى فوق تلك القنطرة؟»

قلت: «إنى أرى جموعاً من الناس تسير فوقها وأرى الضباب يكتنف نهايتها»، ولكنى لما أمعنت النظر قليلا شاهدت بعض الناس يسقطون من أعلى القنطرة إلى العباب المتلاطم تحتها

وازداد إمعانى فرأيت عدداً من «الأبواب المسحورة» أو الفخاخ كان لا يلبث المار إذا مسها بقدمه أن يهوى من خلالها إلى اليم ويذهب إلى غير رجعة. وكانت تكثر هذه الفخاخ عند أول القنطرة؛ وكان كثير من الناس لا يكادون يظهرون من تحت الضباب حتى رأيتهم يسقطون من خلالها إلى البحر؛ غير أنها كانت تقل تدريجياً نحو الوسط، ولكن لتعود إلى كثرتها عند نهاية الأقواس السليمة

ولقد شاهدت بعض الناس يسيرون سير المقيد الموثق فوق الأقواس المهدمة، ولكنهم كانوا قليلين، وما لبثوا أن رأيتهم يسقطون الواحد تلو الآخر بعد أن أخذ منهم التعب، وبلغ من نفوسهم الجهد من جراء هذا السفر الطويل

وقضيت وقتاً غير قصير أتأمل فى هذا البناء العجيب وما يحوى من مختلف الأشياء. وتالله لقد بلغ من نفسى أن أرى بعض الناس يسقطون وهم فى لحظات سرورهم وفترات انتشائهم، وكانوا يتعلقون بكل ما قرب منهم علهم ينجون من هذا السقوط؛ وكنت أرى غيرهم يهوون فى هذا القرار السحيق بينما كانوا يرفعون أبصارهم نحو السماء فى تأمل وتفكير

ورأيت غير هؤلاء جماعة كانوا يلهون سعياً وراء الحصول على بعض الفقاقيع الزاهية التى كانت تخلب ألبابهم، وبينما هم يحسبون أنهم على قاب قوسين منها، كانوا يهوون فى هذا الخضم الزاخر

وتبينت من خلال هذا الماء قوماً يحملون فى أيديهم نوعاً من السيوف البواتر، بينما كان يحمل غيرهم بعض القاذورات وهم يدفعون بها المارة فيمرون على تلك الفخاخ التى لم تكن فى طريقهم

فاذا هم فيها يغرقون . ولما رآني الجنى أتأمل فى هذه المناظر المحزنة قال « دع عنك هذا فقد أطلت النظر إليه »

ثم قال : « حول نظرك عن القنطرة وانظر هل ترى شيئاً غيره لانستطيع أن تفهمه ؟ »

قلت : « إني أرى جماعة من الطير تحوم باستمرار حول القنطرة ثم تعود فتسقط فوقها من حين إلى حين . أرى عدداً من النسور والعقبان والغربان وأرى أشكالاً عجيبة وطيوراً مزعجة أجسامها آدمية نسوية ولها أجنحة مخيفة ، وأرى طائفة من الغلمان ذوى أجنحة يتجمعون فى تزاحم حول الأقواس الوسطى »

قال الجنى : « إن ماتراه إنما يمثل الحسد والطمع والوساوس والأوهام واليأس والحب وغيرها من الهموم والعواطف التى تحيط بحياة الإنسان »

وهنا تنهدت تنهداً عميقاً وقلت : « وا أسفاه ! إنما خلق الانسان عبثاً ، فهو فريسة للشقاء والفناء يذوق العذاب فى حياته ثم لايلبث أن يبتلعه الموت »

وتالله لقد أشفق على الجني إذ سمعنى أنطق بهذا وأمرنى أن أحول بصرى عن هذا المنظر الذي يثير الشجن وخاطبنى قائلا : « كفى نظراً إلى الانسان فى حياته الأولى إذ يأخذ أهبته إلى حياة الخلود وانظر إلى هذا الضباب الذى يحمل إليه الموج هؤلاء الذين يسقطون فى اليم »

فحولت نظرى كما أمرت ، ولست أدرى هل زاد ذلك الجنى قوة إبصاري أم هل أزال بسحره جزءاً من ذلك الضباب الذى كان أكثف من أن تخترقه العين ، فقد رأيت الوادى وقد فتح من نهايته وتكشف عن محيط واسع تتوسطه صخرة فتقسمه قسمين متساويين ؛ ولقد تجمعت السحب فوق أحد هذين القسمين فلم أر فيه شيئاً ، ولكنى رأيت فى الآخر محيطاً واسعاً تتناثر فيه طائفة من الجزر لا عداد لها ؛ وكان سطح تلك الجزر مغطى بأشجار الفواكه والزهور تتخللها غدران صغيرة عديدة ، واستطعت أن أرى أناساً يلبسون فخم الثياب وتكلل هاماتهم الزهور وهم يمشون بين الأشجار أو يجلسون حول النافورات أو يضطجعون على سرر من الزهر ، واستطعت أيضاً أن أسمع ترنم الطيور الشادية وخرير المياه المتدفقة مختلطة بأصوات الناس وأنغام الموسيقى

ولشد ما أبهج نفسى أن رأيت ذلك المنظر الرائع وتمنيت لو أتيح لى جناحا نسر فأطير إلى هذا المكان السعيد ، ولكن الجنى أفهمنى أن لاسبيل إليه إلا سبيل الموت ؛ ثم خاطبنى قائلاً « إن الجزر الخضراء التى تراها أمامك والتى تغطى سطح البحر على مد البصر أكثر عدداً من الرمال التى تغطى شاطىء ذلك البحر ، ويوجد وراء هذه الجزر التى تراها أعداد أخرى لا يصل إليها نظرك ولا يمكن أن يتسع لها خيالك ، وتلك هى مساكن الصالحين بعد الموت ، وهم يحلون بها كل حسب درجة صلاحه ، وفيها من ألوان النعيم ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . أو ليست تلك الجنان يا مرزا جديرة بأن يسعى الإنسان إليها ؟ وهل تكون الحياة شقية إذا كانت وسيلة إلى تلك الغاية السعيدة ؟ وهل تخشى الموت الذى يذهب بك إلى مثل هذا النعيم القيم ؟ كلا لا تحسبن الإنسان قد خلق عبثاً . وكيف يخلق عبثاً من أعدت له هذه السعادة فى تلك الحياة البهيجة ؟ »

وهنا خاطبت الجني قائلاً : « هل لك أن تطلعنى على ما تحت هاتيك السحب التي تحجب القسم الآخر من الأسرار ؟ ولما لم أتلق جواباً عن سؤالى درت برأسى لأخاطب الجنى مرة أخرى ، ولكنى لم أجد أحداً بجوارى ، فتلفت ثانية نحو المنظر الذى كنت أراه أمامى ولكنى لم أجد فى مكان الموج الزاخر والقنطرة ذات الأقواس والجنان الخضراء سوى وادى بغداد المستطيل وقد وقفت الثيران والأغنام والإبل ترعى العشب على جانبيه .

محمود الخفيف

أبو الفرج الببغاء

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

أبو الفرج الببغاء أديب سامق البناء أديبه ، فله الشعر العذب الرقيق ، والنثر الحلو الرشيق . إذا أنشدت شعره كنت كمن يسرح طرفه فى حديقة فينانة أريضة ، غانية بمختلف الأزهار ، ساحرة بموسيقا الأطيار ، قد انتظمت أسماطاً وقلائد ، وضمت أوساطاً وخرائد ؛ تجيل فيها بصرك فلا تدري أى شماها تسلك ؛ فوصفه يهدى إليك صورة أروع من الصوَر ، ويعرض عليك الحقيقة مرصعة بالخيال ، والخيال موشى بجمال الحقيقة ؛ ومدحه فرائد يطول بها جيد الممدوح ، ولآلئ ليس لها مثال ، بل هى مضرب الأمثال . فمن ذلك الذى يوصف بمثل قوله :

يا عارضاً لم أشم مذ كنت بارقه ... إلا رويت بغيث منه هطّال
رويدَ جودك قد ضاقت به هممي ... ورِدَّ عنى برغم الدهر إقلالى
لم يبق لى أمل أرجو نداك به ... دهرى لأنك قد أفنيت آمالى

من هذا الذى يبلغ نداه أن يرغم الدهر ويفنى الأمل ؟ ولا يطاول الجوزاء فيطولها ، ويسامي السماء فيسمو عليها ، وخمرياته وتشبيباته وتشبيهاته فعلها فى الرءوس دونه معتق المدام ، وأثرها فى النفوس أنكأ من أثر الحسام ، فكل شعره يبهر من يراه ويسحر من ينظر فيه ، فهو أزاهير من الجمال ، وطاقات من الحسن والروعة تحير الألباب وتخلب الأبصار . وإنه لما يشق على النفس الشاعرة أن ينفرط عقد لا يجيد تنظيمه غير راسمه ، أو ينتكث نظم لا يحسن تنضيده سوى ناظمه ، فلا محيص حينئذ من أحد أمرين كلاهما محبب إلى النفس مرهف للحس ؛ إما أن تستوعب ذاكرتك ما قرأت فتلتهمه روحك بعد أن انتهبه بصرك ، وإما أن ترسمه فى مخيلتك بالبرق ريشة خيالك وترق بصورة آمالك

ينتسب أبو الفرج إلى قبيلة عريقة فى عروبتها لا يفرعها قبيلة شرفاً ومجداً هى قبيلة بنى مخزوم ؛ وولد بنصيبين فى أوائل القرن الهجرى الرابع ، ولم أعثر على مصدر يحقق لى سنة مولده . ترجم له الخطيب البغدادى فى الجزء الحادى عشر من تاريخ بغداد فقال عنه : (عبد الواحد بن نصر بن محمد أبو الفرج المخزومي الحنظبي الشاعر المعروف بالببغاء . كان شاعراً مجوداً وكاتباً مترسلا ، مليح الألفاظ جيد المعانى حسن القول فى المديح والغزل والتشبيه والأوصاف)

وترجم له أبو منصور عبد الملك الثعالبي فى الجزء الأول من كتابه يتيمة الدهر فقال : (هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومى من أهل نصيبين نجم الآفاق ، وثمامة الشام والعراق ، وظرف الظرف ، وينبوع اللطف ، وأحد أفراد الدهر فى النظم والنثر ، له كلام بل مدام بل نظام من الياقوت بل حب الغمام ...) إلى آخر مانعته به من أوصاف

أما سبب تلقيبه بالببغاء فلثغة كانت مدار أحاديث طريفة ومحاورات ظريفة بينه وبين صديقه أبى إسحق الصابى نورد بعضها لأن فى قصصها متعة ولذة . رُوى أن كلاً من أبى الفرج الببغاء وأبى إسحق الصابى كان يشتاق رؤية صاحبه ويتلهف على اللقاء به ويتمنى أن يجتمع به بأى ثمن ؛ وكانا يتكاتبان دون تلاق فتعارفت رسائلهما قبل تعارف شخصيهما . واتفق أن قدم أبو الفرج بغداد ، فكان أول ما يهمه أن يبحث عن صديقه فإذا هو معتقل ، فزاره فى محبسه ولم يُثنِّ زيارته ، فعتب عليه الصابى بقصيدة منها :

أبا الفرج اسلم وابق وانعم ولا تزل
يزيدك صرف الدهر حظّاً إذا نقص
مضى زمن تستام وصلى غالياً ... فأرخصته والبيع غال ومرتخص
وآنستنى فى محبسى بزيارة
شفت كمداً من صاحب لك قد خلص
ولكنها كانت كحسوة طائر
فواقاً كما يستفرص السارق الفرص
وأحسبك استوحشت من ضيق محبس
وأوجست خوفاً من تذكرك القفص

فأجابه الببغاء دون ريث مع رسوله :

أيا ماجداً مذ يمّم المجد ما نكص ... وبدر تمام مذ تكامل ما نقص
تقنصت بالألطاف شكرى ولم أكن
علمت بأن الحرّ بالبرد يقتنص
وصادفت أدنى فرصة فانتهزتها ... بلقياك إذ بالحزم تنتهز الفرص
فإن كنت بالببغاء قدماً ملقبا ... فكم لقب بالجور لا العدل مخترص
وبعد فما أخشى تقنص جارح ... وقلبك لى وكر ورأيك لى قفص

فأنهى الحديث إلى عضد الدولة غريم الصابى فأعجب به وكان سبباً من أسباب العفو عن الصابي وإطلاقه ، فرأى أن يكون أول ما ينشده وصف الببغاء وذكرُ محاسنه والتلميح بفضل أبي الفرج وذكائه فأرسل أرجوزة منها :

ألفتها صبيحة مليحه ناطقة باللغة الفصيحهْ

عدت من الأطيار واللسانُ يوهمني بأنها إنسان

ومنها وهو آخرها :

تلك التي قلبي بها مشغوف كنيت عنها واسمها معروف

نشرك فيها شاعر الزمان والكاتب المعروف بالبيان

وذاك عبد الواحد بن نصر تقيه نفسي عاديات الدهر

فأجاب أبو الفرج بأرجوزة منها :

من منصفي من حكم الكتاب ؟ شمس العلوم قمر الآداب

أضحي لأوصاف الكلام محرزاً وسام أن يلحق لما برزا

وهل يجاري السابق المقصر ؟ أم هل يساوى المدرك المذر ؟

ومنها بعد أن أطال فى وصف الببغاء :

لو لم تكن لى لقباً لم أختصر لكن خشيت أن يقال منتصر

وإنما تنمت باستحقاق لوصفها حذق أبي إسحاق

شرفها وزاد فى تشريفها بحكم أبدع في تفويفها

فكيف أجزى بالثناء المنتخب من صرّف المدح إلى اسمي واللقب

ومن أبدع ما مدح به اللثغ ما كتبه الصابى إلى أبي الفرج :

أبا الفرج استحققت نعتا لأجله تسميت من بين الخلائق بَبَّغا

بياناً منيراً كاللجين مضمنا نضاراً من المعنى أذيبا وأفرغا

فلولا امرىء القيس انتدبت مجاريا كبا أو لقس فى فصاحته صغا

ومنها :

وما هجنت منك المحاسن لثغة وليس سوى الانسان تلقاه ألثغا

أتعرفها فيا تقدم خاليا بعير إذا ما صاح أو جمل رغا

فيالك حرفاً زدت فضلاً بنقصه فأصبحت منه بالكمال مسوغا

وبعد فلنترك حديث اسم أبي الفرج ولقبه ، ولنتحدث عن حياته الأدبية لنصل منها إلى دراسة شعره ونثره

اتصل أبو الببغاء فتى بأمير حلب سيف الدولة على بن حمدان وهو حينذاك حلبة آمال الأدباء وكعبة رجاء الشعراء ، يملأ أفواههم بالنضار ، فيملئون أرجاء ملكه بروائع الأشعار ، ويرمع أقدامهم بمنحه ، فيرفعون عقائرهم بمدحه ، وليس ذلك من مثله بمستغرب ، فان صلته بهم وشيجة فهو أديب مجيد وشاعر رقيق تهزه الأريحية وتتملكه موسيقا الشعر ، فيسح عليهم وسميه وتهمى ديمه ، ولأنه رأى أن يتشبه بعظماء الخلفاء ممن قربوا الشعراء وأدنوا مجالس الأدباء والعلماء كعبد الملك والرشيد والمأمون فغمرهم بلجينه ليروى منبت عزهم ومعين شعرهم ومهبط وحيهم وسماء فيضهم ، ولأن دولة الأدب سناد قوى لدولة السياسة وعماد حصين لرجالها يذيعون حسناتها ويذودون عن رجالاتها ، فجمع حوله من فحول الشعراء من لم يجتمع مثله لأمير أو خليفة قبله ؛ فالمتنبي وأبو فراس الحمدانى ، والصابى والموصلي والببغاء والوأواء وغير أولئك وهؤلاء جعلهم فى حياطته ينشدون محامده ويدبجون مدائحه ، ولا يعرف تاريخ الأدب ممدحاً مدح بعشرة آلاف بيت من عيون الشعر سوى سيف الدولة . قال الثعالبي فى يتيمته فى ترجمة سيف الدولة :

(كان كل من أبي محمد عبد الله بن محمد القاضى الكاتب ، وأبي الحسن على بن محمد الشمشاطى قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت)

ولأن سيف الدولة كان أرفع أمراء الدولة قدراً وأوسعهم مُلكاً وأقواهم سلطاناً هرع إليه الشعراء وكان زعيمهم من يصل سببه بأسبابه

لذلك ولغيره سار أبو الفرج فى ركابه فعاش طوال عمره وفياً له ولابنه من بعده ، فمدائحه فيض قلبه ونبعة حبه لا رغبة فى ولاية ، ولا خوفاً من وشاية ، ومتى كان الشعر باعثه الشعور ومصدره الوجدان ، بلغ أقصى الجودة والإحسان ؛ ولا شك أن اللهى تفتح اللهاة . قيل إن سيف الدولة ضرب دنانير للصلاة عليها اسمه ورسمه وأمر عقب ضربها بعشرة منها لأبي الفرج فانطلق منشداً :

نحن بجود الأمير فى حرم نرتع بين الشعور والنعم

أبدع من هذه الدنانير لم يجر قديماً فى خاطر الكرم

فقد غدت باسمه وصورته في دهرنا عوذة من العدم

فزاده عشرة أخرى ، فهو لهذا قمين بالوفاء له لم يتغير عن وده فى قربه أو بعده ، ولكن هذا لم يمنعه أن يمدح غيره من لداته لا من عداته ، ولعل هذا يرسل إلينا قبساً من أخلاقه وسيكشف لنا ما سنقدمه من شعره ونثره عن خلال كريمة وموعدنا بدراسة نثره وشعره عدد تال

« المعادى » عبد العظيم على قناوى

من وحي الشجرة الضالة

على طريقة الشعر المنثور

للأستاذ خليل هنداوى

— ١ —

ما تقول الشجرة ...

من هو هذا الضال الذي ملأ سكينتي نداؤه ؟

وما عسى يفعل الضال فى ظلالى ؟

أيبتغى منى هداه ؟

وكيف يجد هداه من لا ينطوى قلبه على هدى ؟

أنا لست ضالة وإن رأيتنى فى وحدتى ووحشتى :

أنا لست صامتة وإن لم تسمع لسانى ! :

أنا لم أعتزل رفيقاتى ولو شئت الإعتزال لما إستطعت !

وكل مابى من جذور يتصل بجذورهن تحت الأرض الصامتة ،

وكل ما يجرى فى عروقهن من دم الأرض يجرى فى عروقى!

— ٢ —

لا تحدثنى عن الاعتزال !

إن التفكير فى الاعتزال هو مرض الحياة !

نحن هنا فى دائرة الوجود الشاملة يتصل بعضنا ببعض !

أيستطيع عالم من هذه العوالم المختلفة أن يحيا منعزلا !

نحن على ضلال ما ظللنا نطلب الاعتزال !

— ٣ —

ألا أين هذه النار التى ستضرمنا ؟

ألا حبذا النار !

لأنها عنصر موحد... لا يترك وراءه إلا الرماد !

ينبغى لنا أن يحول رماداً حتى نشعر بالاتصال !

— ٤ —

لست ضالاً إلا حين تعتقد أنك جئتنى منفصلا !

وأنت ترى أن كل جذورك متعلقة بجذور الأرض

وأن خيالك متمنطق بجميع آفاق السماء!

أفأنت قادر على بتر جذورك وقطع خيالك

ومن أمامك ومن ورائك سلسلة حلقاتها لا تتناهى !

— ٥ —

إن فى جسدى جزءاً منك

وفى جسدك جزءاً منى ...

ونحن لا ندرك هذه الأجزاء الغريبة فينا حتى نقدر على اقتلاعها ، لأنها أجزاء تآخت مع أجزائنا

— ٦ —

لم تخلق الحياة جزءاً يستطيع أن يحيا منفصلا !

حتى الأموات الذين أكملوا دوراتهم يبقى اتصالهم بأرواحنا!

وهل يستطيع الأحياء أن يعيشوا بغير أموات ؟

إنهم فى يقظاتهم يمشون وراء خواطرهم وأفكارهم !

وهم فى أحلامهم يعيشون فى جزائرهم النائية ...

أن إبادة الحياة لبعضها الوجود ثم تكريرها لبعضها المفقود هما سواء فى معنى الاتصال ! ...

قل معى كما أقول ....

لتدخل كل الأكوان فى روحى فإنها واسعة جداً !

ولتتزاحم كل الآفاق فى عينى فإنها لا تضيق ...

وليتمثل لى الفناء كاشراً عن أنيابه فلن يروعنى

لأننى جزء هائم من أجزاء الحياة الثابتة التى لا تقدر الحياة نفسها على هضمى ...

هى تحملنى تائهة من مكان إلى مكان !! إلى التربة التى أنجم فيها جديداً لأناجى فيها كل الأكوان

— ٨ —

قل للحياة ...

اصنعى بى ما تريدين ! فأنا حياة مثلك !

واجعلينى إذا شئت رماداً لغذاء الزهور المتفتحة ... إننى سأغذيها بقلبى !

لأن هذه الزهور المتفتحة تدرى مثلى أنها تأكل رماد زهور كانت تحيا مثلها ....

ليس سر الحياة فى الذرة أن تشعر بأنها حية !

إن سر الحياة فى كل ذرة أن تؤدى الناية من حياتها ثم تمضى لتأتى الذرة الثانية التى نشأت فى حضنها ...

أنت من حياتك تمثل كل يوم هاتين الذرتين ، فتثلهما على وجههما الأسمى الذى تنشده الحياة

خليل هنداوى

الحرف العربي والافرنجي

لأستاذ جليل

قرأت فى (الرسالة الغراء) قطعة (الدمام) التى فيها شرح اللعس ... ووصية الزمخشرى ... — ولن نعمل بها — بلن الاعتزالية — إن شاء الله — فلما وصلت إلى « شارع عماد الدين ، هذا شارع موهي الدين » كركرت[1] وقهقهت، وقلت فى نفسي: لو ماشت جماعة من العرب أصحابنا الكماليين فى اتخاذ تلك الحروف المسماة باللاطينية [2] لأمسى محيي الدين Mouhiddin موهى الدين وتذكرت حديثاً طريفاً أحببت أن أقصه على قراء الرسالة :

فى الاسكندرية رجل تركي يكتب بالعربي ، والدجاج يخطب أيضاً ويكتب ... وهو مولع بحرية القول ، والحرية — يا أخا العرب — من غرائز هذا الجيل [3] (التركى) منذ القديم ... وقد عرفت مصر حرية القوم المعرفة البليغة المتقنة ...

ولاقانى هـذا الرجل ذات يوم وعلق يطنب فى تقريظ الكماليين ، وفى تجديدهم ، وفى هذه الحروف التى استبدلوها بالقديمة ، فقلت له : يا شيخ ، اسمع : أما ذلك المظيم فان اجلالى إياه ينسف هرفك به . ووالله ما ذكرته فى وقت إلا تذكرت أبيات حفص بن الأحنف الكنانى فى ربيعة بن مُكَدَّم :

لايبعدنّ ربيعةُ بنُ مكدّم وسقى الغوادى قبرَه بذَنوب[4]

نفرتْ قَلوصى من حجارة حَرَّةٍ
بُنيت على طَلْق اليدين وهوب[5]

لا تنفرى (يا ناق) منه فانه شريب خمر مِسعر لحروب[6]

لولا السفار وبُعدُ خَرْق مَهْمهٍ
لتركتُها تحبو على العرقوب[7]

(١) قرقر الضاحك وكركر (الاساس)
(٢) هذه كتابة العرب وعلمائهم واليوم يقولون : اللاتيني
(٣) عنده من الناس أجيال أى أصناف : جيل من الترك وجيل من الخزر (الاساس)
(٤) استعار الذنوب للغيث وإنما أصله في الدلو المملوءة ماءاً والمقاربة للملء (التبريزى)
(٥) الحرة : أرض ذات حجارة سود
(٦) المسعر الذى كأنه آلة فى إيقاد الحروب (التبريزى) يا ناق : مرخمة فالفتح على لغة من ينتظر والضم على لغة من لا ينتظر
(٧) الخرق : الارض الواسعة

فالرجل فوق ما فى نفسك ، وهو بطل من أبطال هذا الزمان ؛ وأما ذلك التجديد فليس اليوم أن يقضي فيه قضاءه ، وللغد الحكم فتنظر أأحسن القوم أم أساءوا . وأما تلك الحروف الافرنجية فما عمل الكماليون شيئاً ، كانوا يكتبون من اليمين ، فصاروا يكتبون من الشمال

قال : لم أفهم

قلت : الحرف العربي هو الحرف الافرنجى نفسه ، والحرف الأفرنجى هو الحرف العربي عينه (وأنفه)

قال : زدنى إيضاحاً

قلت : هات تُتفة ورقة ، رَ ، أنظر ، تكتب اللام من اليمين بالعربي هكذا (ل) وتكتبها بالافرنجى من الشمال هكذا (L) ، وتكتب النون العربية بهذه الصورة (ن) والافرنجية بهـذه الصورة (N) بسبب رقك إياها من جهة الشمال ، والجيم العربية هى هذه (ج) ، والجيم الأفرنجية هى هذه (G) ، وهذه سيننا (س) وهذه سين الفرنج (S) . وقس على ماذكر ما لم يذكر . وللجهة (جهة اليمين أو الشمال) أثر فيما تخاله اختلافاً ، فالحروف واحدة غير أن الحضارة العربية — التى مدّنت أوربة كما يقول الافرنج [1] — قد نقحت الحرف العربي وحسنته ؛ فالاختلاف الظاهر هو من حرف تقدم وارتقى وهُذّب ، ومن حرف وقف . ولو استبدل مثلُ الصينى بحرفه الحرف العربي أو اللاطينى لكان له عذر مقبول ، ولكن قومك قل لهم : « أتستبدلون الذى هوَ أدنى بالذى هو خير ؟! »

ولما ندب الكماليون ذلك العالم الأوربي منذ بضع سنين ليفتش المدارس المالية فى اصطنبول ، وشاهد من تقهقرها بتغيير الحروف ماهاله ، نصح للترك أن يعودوا سريعاً إلى الحروف العربية فلما أوريت [2] صاحبنا التركى الذى يكتب بالعربي حراً ما أوريته ، وأنبأته بحديث العالم الغربى وجم وجوما « فبُهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين »

« الاسكندرية » (***)

(١) قال لوبون فى كتابه مدنية العرب :
Au point de vue intellectuel et moral ils ont civilisé l' Europe
(الصفحة ٦٧٧)
(٢) قال الزمخشري : سمعتهم يقولون : أورنيه بمعنى أرنيه ، من الورى أى أبرزه لى ، وذكر فى (الكشاف) أنه قرئ . سأوريكم

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١١ —

١ — « إن المرأة للشاعر كحواء لآدم. هي وحدها تعطيه بحبها جديداً لم يكن فيه؛ وكل شرها أنها تتخطى به السموات نازلا ... »

٢ — « إن النابغة في الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق ... »

٣ — « ... إن ملكة الفلسفة في الشاعر هي ملكة الحب؛ وإنما أولها وأصلها دخول المرأة في عذاب الكلام بإبهامها وثرثرتها ... » (الرافعي)

الرافعي يعشق ...!

أتراني أستطيع الحديث عن الرافعي العاشق فأوفّى القول وأبلغ الغاية ... ؟

وهل يكون لي أن أدعى أنني أكتب في هذه الصفحات تاريخ الرافعي إذا أنا لم أعرض لحديث الرافعي العاشق ... ؟

وهل خلت فترة في حياة الرافعي من الحب ؟

ذلك الرجل الذي لا يتخيله أكثر من لم يره إلا شيخاً معتجر العمة مطلق العذبة مسترسل اللحية مما قرأوا له من بحوث في الدين وآراء في التصوف وحرص على تراث السلف وفطنة في فهم القرآن مما لا يدركه إلا الشيوخ بل مما لا يدركه الشيوخ ...

هذا الذي يكتب إعجاز القرآن وأسرار الإعجاز، والبلاغة النبوية؛ ويصف عصر النبوة ومجالس الأئمة وكأنه يعيش في زمانهم وينقل من حديثهم ...

هذا الذي كانت تتصل روحه فيما يكتب - من وراء القرون - بروح الغزالي، والحسن البصري، وسعيد ابن المسيّب؛ فما تشك أن كلامه من كلامهم وحديثه من إلهام أنفسهم ...

هذا الذي تقرأ له فتحسبه رجلاً من التاريخ قد فرّ من ماضيه البعيد وطوى الزمان القهقري ليعيش في هذا العصر ويصل حياة جديدة بحياة كان يحياها منذ ألف سنة أو يزيد في عصر بعيد ...

... هذا الرجل كان عاشقاً غلبه الحب على نفسه وما غلبه على دينه وخلقه ...!

إن الحديث عن حب الرافعي لحديث طويل؛ فما هي حادثة أرويها وأفرغ منها، وحبيبةٌ واحدة أصفها وأتحدث عنها؛ ولكنها حوادث وحبيبات، وعمر طويل بين العشرين والسابعة والخمسين، لم يشرق فيه صباح ولم يجنّ مساء إلا والرافعي جديدٌ في الحب؛ بين غضب ورضى، ووصل وهجر، وسلام وخصام، وعتب ودلال، وحبيب إلى وداع وحبيب إلى لقاء ... وشابَ الرافعي وما شاب قلبه، وظل وهو يدب إلى الستين كأنه شاب في العشرين ... ومات وعلى مكتبه رسالة ودادٍ من صديقة بينها وبينه جواز سفر وباخرة وقطار، وكان في الرسالة موعد إلى لقاء ...!

***

وقلت للأستاذ الزيات مرة وبين الرافعي وبين أجله عام: هل لك في موضوع طريف عن الرافعي أنشره لقراء الرسالة ؟ إن للرافعي في الحب لحديثاً يلذ ويفيد ...

قال: ومن لي بهذا ؟

قلت: أنا لك

قال: ولكنه حديث يُغضب الرافعي !

قلت: وعليّ أنا أن يرضى ...

وذهبت إلى الرافعي فأفضيت إليه بعزمي. قال: أو تفعلها ؟ أفكان لهذا مجلسُك مني كل مساء تسترق السرّ لتدخره إلى يوم تنشره فيه على الناس بثمن ...؟

قلت: لو أنه كان سراً لم يعلمه غيري ماعقدت العزم على شيء ولكنك ياسيدي ...

وما كان للرافعي سر يستطيع أن يطويه بين جوانحه يوماً وبعض يوم، فكأنما أذكرته ما كان ناسياً؛ فعاد يقول: وماذا تريد أن تقول في حديثك عن حبي ؟

قلت: حديثاً لو همّ غيري أن يجعل منه مقالاً لقرائه لما كان الرافعي هو الرافعي عند من يقرؤه، ولكن أحسبني أنا

وحدي الذى أستطيع أن أقول إن الرافعى كان يحب فما أغيّر شيئاً من صورة الرافعى كما هو فى نفسه وكما هو عند من يعرفه ... إنني أنا وحدى الذى أعرف الحادثة وجوَّها وملابساتها وما كان فى نفسك منها ؛ ولعلى يوم عرفتُ كنت أسمع نبضات قلبك وخلجات وجدانك ومرمى أملك وما كانت غايتك فى الحب ومداك . أما غيرى فهل تراه يعرف إلا الحادثة ؟ وحسبه أن يقول : إن الرافعي يحب ... ثم تكون الفضيحة التى تخشاها وأنت منها طاهر الإزار ...

واستمع الرافعى إلى حديثي ثم أطرق هنيَّة وعاد يسألنى : وهل أقرأ ما تُعِدّه قبل أن تنشره ، أو يكون يومك كأمسك؟ (١)

قلت : لك ما تريد

قال : أنت وشأنك !

***

وأجمت أمرى ، وأعددت فكرى ، وتهيأت للكتابة ، ثم شغلتنى العناية بطبع (وحى القلم) وتصحيح تجاربه عن الوفاء بما وعدت ... ومات الرافعى !

فإن يكن فى الحديث عن (الرافعي العاشق) حرج فلا عليّ فقد استأذنته فأذن ، وما أكتب الآن إلا مستمداً من روحه ، راوياً من بيانه ، ولديّ شهودى من كتبه ورسائله ، وما يعرفه أصدقاؤه وصفوته . وإذا كان الرافعي قد خفت صوته إلى الأبد فلا سبيل إلى أن أسمع رأيه فيما أكتب عن تاريخ قلبه ، فإنى لمؤمن شديد الإيمان بأننى ما أزال فى رضاه ومنزلتى عنده وإن كان بيننا هذا البرزخ الذي لا أعرف متى أجتازه إليه فأسمع من حديثه ويسمع من حديثي !

الحب عند الرافعي

وهل فى الحب عار أو منمة ؟

هذا سؤال يجب أن يكون جوابه إلى جانبه قبل أن أمضى فى هذا الحديث ...

أما الحب الذى أعنيه — وكان يعنيه الرافعي — فشيء غير الحب الذى يدل عليه مدلول هذه الكلمة عند أبناء هذا الجيل ...

إن الحب عند الناس هو حيلة الحياة لإيجاد النوع ؛ ولكنه عند الرافعى هو حيلة النفس إلى السموّ والإشراق والوصول إلى الشاطئ المجهول ؛ هو نافذة تطل منها البشرية إلى غاياتها العليا ، وأهدافها البعيدة ، وآمالها فى الإنسانية السامية ؛ هو مفتاح الروح إلى عالم غير منظور تتنوَّر فيه الأفقَ المنيرَ فى جانب من النفس الإنسانية ؛ هو نُبوَّة على قدر أنبيائها : فيها الوحى والالهام، وفيها الإسراء إلى الملأ الأعلى على جناحى ملك جميل ... هو مادة الشعر وجلاء الخاطر وصقال النفس وينبوع الرحمة وأداة البيان

كذلك كان الحب عند الرافعي ، ولذلك كان يحب ... وسعى إلى الحب أول ما سعى على رجليه ، منطلقاً بإرادته ليبحث فى الحب عن ينبوع الشعر ، فلما بلغ أغلق الباب من دونه فظل يرسف فى أغلاله سنين لا يستطيع الفكاك من أسر الحب ؛ وكانت (عصفورة) أول من فتح لها قلبه فسيطرت عليه وغلبته على نفسه ؛ وكانت سنه يومئذ إحدى وعشرين ...

وبلغ الرافعي بعصفورة إلى غايته ، واشتهر (شاعرُ الحسن) وترنم العشّاقُ بشعره وما بلغت عصفورة إلى غايتها . ثم مضى كل منهما إلى طريق . وأتمّ الرافعي طبع ديوانه . وكما ينتهى الحب الذى هو حيلة الحياة لإيجاد النوع إلى الزواج أو إلى الغاية الأخرى ثم يبدأ فى تاريخ جديد — كذلك انتهى حب الرافعي وعصفورة وأنجب ثمرته الشعرية ، ثم كان تاريخ جديد ...

وعلى مثال هذا الحب كم كانت له حبيبات وكم أنجبت ثمرات ؛ وإنه ليخيل إليّ أن الرافعي كان كلما أحسّ حاجةً إلى الحب راح يفتش عن (واحدة) يقول لها : تعالى نتحابّ لأن فى نفسى شعراً أريد أن أنظمه أو رسالة فى الحب أريد أن أكتبها ... !

ولقد سمعته مرة يقولها لإحداهن ... وسمعت إحداهن مرة تقول له : متى أراني فى مجلسك مرة لتكتب عنى رسالة فى « ورقة ورد » ؟

---

(١) يشير الرافعي بهذا إلى حديثى عنه فى الرسالة صيف سنة ١٩٣٥ ، وكان الأستاذ الزيات قد طلب إلى أن أكتب شيئاً مما أعرف عن الرافعي يعرّفه إلى قراء الرسالة ، فصدعت بأمره وكتبت حديثاً فى ثلاث مقالات لم يعلم بها الرافعي ولم يقرأها إلا منشورة ، فغضب غضبة عادية كبعض غضبه ، وكتب إلى الأستاذ الزيات يعتب عليه أن يشجعنى على ذلك (العقوق) وأن ينشر لى هذه (التخليطات الظريفة) من غير أن أرجع إليه ليصحح بعض معلوماتى

على أن الرافعي كان له إحساس عجيب في مجالس النساء ، وكان لمن عليه سلطان وله سحر وفتنة . وهو في هذه المجالس فكه مداعب رائق النكتة لا تملك السيدة الرزّان في مجلسه إلا أن تخرج عن وقارها ؛ وكانت هذه أداته في استالتهن حين يلتمس الوحي أو يجد الحاجة إلى أن يقرأ شعراً في عين ساحرة . فإذا استوى له ما أراد عاد إلى مكتبه لينشيء وينظم وتنتهي قصة حب

وكان يسمى كل جميلة (شاعرة) لأنها هي تمنحه الشعر ، و (الشواعر) عنده طبقات ، على مقدار ما يمتن فيه من الشاعرية ويرهفن من إحساسه ؛ ففلانة شاعرة كالمتنبي ، وهذه كالبحتري ، وتلك بنت الرومي ، ورابعة بشار بن برد ، وخامسة عبدالله عفيفي أو شاعر الرعاع ... !

وحين يجلس في شرفة قهوة (لمنوس) بطنطا وتمر به الجميلات في رياضتهن أو في حاجتهن ، تسمع ثبتاً حافلاً بأسماء الشعراء يبدأ من مهلهل بن ربيعة وينتهي بفلان الذي يؤمل أن يكون أمير الشعراء بعد أن يموت كل الشعراء ... !

هذه لمحات أذكرها على غير صلتها بالموضوع لأنها تشير إلى بعض عناصره ؛ على أنني وقد بلغت هذا القدر من الحديث لم أبدأ القول بعدُ عن حب الرافعي الذي حاولتُ هذا المقال لأتحدث عنه

إنها حادثة وقعت في تاريخ الرافعي وسنه ثلاث وأربعون سنة فأنشأته خلقاً جديداً ، كانت دعابة من مثل ما قدّمتُ فأوشكت أن تكون علة ، فلما اختار الله له أنقذه بكبريائه من دائه ، ولكنه خلّف في قلبه جرحاً يدمَى ، ولكنها كانت بركة في الأدب وثروة في العربية

من تكون هذه الشاعرة التي غلبته على إرادته فغلبها بكبريائه ؟ ماشأنها وما خبرها ؟ هذا موضوع حديثي في العدد القادم

محمد سعيد العريان

العـــدد ١٨٣

أعددنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة

دراسات في الأدب الانكليزي

جون ملتون

للأستاذ خليل جمعة الطوال

تابع ما نشر في العدد الماضي

على أن كرمويل ما لبث أن توفى ، فكان موته زلزالاً عنيفاً قوض دعائم ذلك الدستور الذي شاد بيده الحديدة بنيانه ؛ وزاد في الطين بلة ضعف خلفائه السياسي ، فعادت الملكية إلى مكانتها السابقة ، وكان طبيعياً أن تنتقم من البرلمانيين ، وتثأر منهم لعرشها المغصوب وعزها المسلوب . أما ملتون فقد أدرك ما للملكيين عنده من الثأر الجسيم ، وذلك لما نالهم منه من الطعن والامتهان والزراية ، فأوجس خيفة من شرهم وانتقامهم ، فتوارى عن عيونهم مدة من الزمن تجنباً لكيدهم ؛ إلا أن هؤلاء بثوا وراءه العيون والأرصاد ، فتمكنوا من القبض عليه ، وزجوه في غياهب السجن وغرموه غرامات مالية فادحة ؛ ثم سيق للمحاكمة ، وقد كاد يحكم عليه بالإعدام لو لم يدافع عنه أمام المحكمة أشهر رجال المحاماة في ذلك العصر

وفي عام ١٦٦٢ م اعتزل ملتون السياسة ، إذ فقد بصره وأصبح غير قادر على الاتصال الفعلي بالهيئة البشرية الاجتماعية ، والاشراف على أحداثها السياسية والدينية والاجتماعية ، فقصر وقته لذلك على الدرس والاجتهاد ، وأكب على التأليف حتى نبه صيته في جميع الأوساط الأدبية كشاعر فذ وكاتب بليغ ، ومع اعتزال ملتون الفعلي للأمور السياسية فقد ظل يهز الرأي العام بكتاباته وشخصيته الفينة بعد الأخرى ، وهو وفيذ وحدته ، ووحيد عزلته . وما هي إلا ثلاث سنوات قضاها في عقر بيته منعزلا عن المجتمع حتى أخرج للعالم ملحمته الشهيرة المعروفة بالفردوس المفقود وهي أعظم سفر أدبي في سجل الأدب الانكليزي ؛ وقد لا نجد لها حتى اليوم مثيلاً إلا بالرجوع إلى الملاحم العالمية السبع [1]

(١) هذه هي الملاحم العالمية الثمانية كما عدها الأستاذ W. H. Stephenes

(1) Ilisd (2) Odyssey (3) Aeneid
(4) Niebelungen (5) Lied (6) Divine comedy
(7) Jerusalem Delivred (8) Paradise last

الفردوس المفقود

لقد أجمعت الآراء على أن ملحمةَ الفردوسِ المفقودِ في الأدب الانكليزي كالألياذة فى الأدب اليونانى والكوميديا الالهية فى الأدب الايطالي ، وأنها فى شهرتها الواسعة هى الثالثة لهاتين الملحمتين العالميتين . ولئن وجد فيها بعض المتحذلقين من نقدة الأدب مجساً لمشارطهم ومغمزاً لمباضعهم ، إلا أن ذلك لايمنع الأديب المنصف من أن يرى فيها للأدب الانكليزى تعويضاً عادلاً لركوده وتغلب الموجة السياسية عليه فى عهد الإحياء (New Birth)

لم ينظم ملتون هذه الملحمة المشهورة دفعة واحدة ، ومن المؤكد أنه ابتدأ نظمها بعد أن اعتزل السياسة ، وبعد أن فقد بصره . ولقد أملى أبياتها على أكثر من كاتب واحد ، يدل على ذلك نسخها الخطية الأصلية التى لا تزال محفوظة فى مكتبة « كلية ترنتى » فى « كمبردج » . وقد طبعت لأول مرة عام ١٦٦٧ فى عشرة أجزاء ، ثم نقحت وزيد عليها جزءان آخران ، وطبعت للمرة الثانية فى اثنى عشر جزءاً وذلك عام ١٦٧٤ . أما موضوعها فقد استمده من الكتاب المقدس ، وأوحى إليه بمادتها الجزلة ذلك النزاع الخطير الذى قام في إنكلترا من اصطدام المبادئ الديمقراطية التى ترمى إلى رفع لواء حرية الشعب الدينية والسياسية بالمبادئ الملكية الأرستقراطية التى غايتها جعل شئون الأمة وحريتها فى أيدي الملوك كالآلة الصماء يديرونها فى لهوهم وعبثهم أنى شاءت لهم أنانيتهم وكيفما رغبت أهواؤهم . وإذ كان لا بدَّ للأدب الحى من أن يصور المجتمع فى سلمه وحربه ، ويجارى الزمن فى تقلبه وتطوره ، فقد صور ملتون ذلك النزاع الخطير الذى خاض غماره فى ملحمته هذه تصوراً دقيقاً لا مزيد عليه

لقد كان الدين إذ ذاك مشتجر الأراء ، ومصطرع البطانات ، ومحور الخلاف بينها ؛ وكان لا بد لمن أراد أن يكون مبرزاً فى هذا الميدان الديني من أن يكون ملماً بجميع النصوص الدينية ، ولذلك أقبل الأدباء على الكتاب المقدس يتدارسونه وعلى الانجيل يتدبرونه ، طمعاً فى الشهرة والفوز ؛ وقد كان ملتون أبعدهم فى ذلك غوراً وأكثرهم فى الدرس مطالعة واجتهاداً يحفزه عليه سُعاره للشهرة ، وحبه للجاه ، وطموحه للسمو والمجد ؛ ناهيك بتوقد فطنته ، وطاعة ذهنه ، وتوثب شاعريته ، ولذا فلا عجب إذا رشحت دراساته للدين ، وتغلغله فى ثناياها بمثل ملحمة « الفردوس المفقود » التى اختلف الأدباء على تقديرها ، وانقسموا إزاء تمجيدها شأن انقسامهم إزاء كل أمر خطير ، إذ كانوا في ذلك بين منتقص ذى هوى لم يسلم من الغلو والاسراف ، ومطنب فى المديح لم يسلم من التحذلق والاغراق ؛ وليس أدل على هذا من هذه الفقرات الوجزة التى نثبتها فيما يلى بإسنادها إلى أصحابها تاركين للقارئ حريته فى تمييز غثها من سمينها

رأى جونسون

لقد مهد جونسون لرأيه فى ملتون بما قرره « بوصو » عن الشاعر المجيد إذ يقول : « الشاعر الفذ المجيد هو الذى ينظم قصيدته وينشرها لغاية سامية ينشدها ومثل عليا يتطلبها ، وتكون الحقيقة فيها هى بيت القصيد بل أسها الذى تقوم عليه ؛ وما الخيال بجانبها إلا أداة طيعة يعهد بتلفيقه سُبُلَ الوصول إلى غايته المنشودة ومُثُله العليا المقصودة » ، ثم جعل من هذه الفقرة الوجزة دستوراً للنقد ومحكا للشعر يعرف بها غثُّ القصائد من سمينها — ولو إلى حد — وأخيراً قال : لقد ألف ملتون ملحمة الفردوس المفقود ليمهد للدين سُبُله الوعرة التى ضلت فيها عديد البطانات وليدحرج من هذه السبل تلك الصخرة الناشزة التى تحطمت عليها مختلف العقائد ، وتنكرت أمامها أكثر الحقائق ؛ ولعله لم يكن له من غاية أخرى سوى نظم الحقائق الدينية ، ونقلها إلى الغير عن طريق القلب لا العقل ، وبصورة لا أثر فيها ألبتة لالتواء اللاهوت وإبهامه ، ولتعسف المنطق واحتمال تأويلاته ، ولكنه لم يوفق إلى ذلك ، إذ جمح به الخيال حتى أخرجه عن دائرة الحقيقة ، وشردت به الشاعرية المتوثبة حتى أبعدته عن منطقة المعقولات ؛ فجميع أغراضه متنكرة كأنها لغز غامض ، وتعابيره ملتوية كأنه يقول شيئاً ويريد غيره ، وصوره شائهة حتى لكأنها من تلفيق الخيال المحض الذى لا حقيقة له فى الوجود . وبالجملة فإنه ليس فيها من أثر لما يريد خلا ما كان من بعض القوافي المقوية المصطنعة ، والألفاظ المزركشة الآبدة ، والتعابير المستعصية الغامضة ، التى ينِد عنها الطبع وينشز منها الذوق

رأى ماكولى

الفرق بين أشعار ملتون ودانتي كالفرق بين الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة التصويرية المكسيكية ؛ فبينا يصور الثاني إحساساته صورة لفظية كاملة ، وينفض عليك عواطفه كما جاشت في صدره واعتلجت في قلبه ، إذ بالأول لا يزيد في وصفه على الإشارة الغامضة ، ولا في تصويره عن الصورة المبهمة للشيء — أي المسودة — ذلك يصف الأشياء بجزئياتها ، وهذا يحيطها بستر كثيف من التورية البعيدة ، والاستعارة الدقيقة ، التي لا تظهر معها إلا بعد إعمال الفكر وكد الخاطر . وأكاد أجزم جزم اليقين أن ليس بين الأدباء من قرأ ملحمة الفردوس المفقود فعلقت شحنتها بشغاف قلبه ، أو هزت نبراتها وتراً من أوتار حسه . وعندي أنها ليست في الشعر إلا كالأحاجي في اللغة ، ولولا ثوب الشهرة الفضفاض الذي يضفيه الأدباء على ملتون في غير استحقاق لكانت ملحمته هذه صفراً على هامش الأدب ؟؟!

رأى هزلت

لقد كان شكسبير يعنى بنقد المجتمع وسوءاته أكثر من اعتنائه بنقد الديانات وطوائفها ، وكان أيضاً ينظم الشعر بدافع الفطرة الشعرية الكامنة في نفسه لا بحافز الشهرة الذاتية ، ولهذا كان مغايراً لملتون كل المغايرة ؛ وذلك لأن ملتون كان مصاباً بسعار الشهرة ، وشديد التمسك والتعصب لمبادئه الطهرية الدينية . لقد كان كلاهما شاعراً فذاً ، إلا أنه بينما يسير الأول — شكسبير — وراء خياله وعاطفته ، إذ بالثاني — ملتون — يُسيِّر خياله وعاطفته وفق إرادته ؛ فعاطفة الأول هي التي تدفعه إلى قرض الشعر ، بينا إرادة الثاني هي التي تستكره خياله على النظم ؛ ذلك تتسم أشعاره بعفو الخاطر وبداهة الفطرة وتوقد العاطفة ، وهذا تتسم قصائده بجهد الفكر ، وغزارة المعرفة ، ومنحة العقل ، وتصنع الخيال ، وبرود العاطفة ؛ ذاك تتسم أشعاره بحرارة القلب الملتهبة ، وهذا بغزارة العقل الرائعة

لقد كان ملتون محباً للوحدة ، على حين كان شكسبير مغرماً بالمجتمعات الزاخرة ؛ ولذا فبينا يصور الأول — على العموم — نفسه بأشعاره ، إذ بأشعار الثاني صورة جلية لمحيطه ، ومرآة مجلوة تنعكس عنها مرئيات بيئته . كان ملتون مشغوفاً بالدرس والمطالعة ، بينا كان شكسبير لا يجد اللذة والراحة إلا في مطاوي الطبيعة ومناجاة أسرارها ومحاكاة مرئياتها . ذاك — أي ملتون — يمثل بأشعاره قوة العقل وسلطان الإرادة ، وهذا يمثل حرارة العاطفة وسلطان القلب

على أنه ليس في هذا ما يمنعنا من أن ننظر إلى ملحمة الفردوس المفقود نظرنا إلى الإلياذة والأوديسة — أو القدس المحررة — لتاجور ؛ ذلك لأنها وإن كانت تتسم بقوة العقل وجبروته إلا أن فيها من حرارة العاطفة ما ينبأث له القلب ، ويعتلج له الصدر . ولئن دقت تعابيره ، والتوت أغراضه ، وسما أسلوبه في بعض المواضع ، فما ذاك إلا لسمو الفكرة التي يصورها ودقة التعبير عنها ولأنه يخاطب بأشعاره الخاصة لا العامة

لم يتقيد ملتون في ملحمته « الفردوس المفقود » بالتزام قافية واحدة ، وليس ذلك لعجزه وضعفه ، فقد كانت القوافي أطوع لخاطره من بنانه ، كيف لا وهو أعلم بأوابد اللغة وشواردها ؟ ولكن لأنه رأى في القافية قيداً للعاطفة يجب التحرر منه

(البقية في العدد القادم) **خليل جمعة الطوال**

نقـل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٨٣ — الله والنبي والعيد العربي

في رسالة لأبي الفضل احمد بن الحسين الهمذاني (بديع الزمان) [١]:

إن عيد الوَقود لَعيدُ إفك، وإن شعارَ النار لشعار شرك. وما أنزل الله بالسذق [٢] سلطاناً، ولا شرّف نيروزاً ولا مهرجاناً [٣]. وإنما جعل الله (تعالى) النار تذكرة ومتاعاً [٤]، ولم يضرب لها عيداً، ولم يجعلنا لها عبيداً. ألله والنبيّ، والعيد العربيّ، والتكبير الجهير، وتلك الجماهير، والملائكة بعد ذلك ظهير، والرحمةُ صوباً [٥] وصبّا، والبركات فيضاً وفضاً [٦]، والموسم الطاهر من لغو الحديث. هذا هو العيد، وذلك هو الضلال البعيد ...

٢٨٤ — ... والوجوه قباح

الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن:

لايوحشنّك أنهم ما ارتاحوا ... مما جلاه عليهم المُدّاحُ
فهمُ كقوم عُلّقت بإزائهم ... بيضُ المرائي والوجوه قباحُ [٧]

(١) كتبها إلى الشيخ الرئيس أبي عامر في معنى السذق

(٢) السذق: ليلة الوقود يقال فارسيته سذه. في نهاية الأرب: وهم يوقدون النار بسائر الأدهان، ويزيدون في الولوع بها حتى إنهم يلقون فيها سائر الحيوانات

(٣) في (الألفاظ الفارسية المعربة): عيد الفرس من (مهر) المحبة و (كان) — فوق الكاف ثلاث نقط — المتصلة. وفي (المصباح) معناها محبة الروح. في (نهاية الأرب) وقوعه في (٢٦) من تشرين الأول من شهور السريان. وكان مذهب الفرس فيه أن يدهن ملوكهم بدهن البان وكذلك عوامهم الخ

(٤) في (الكتاب) الكريم: «أفرأيتم النار التي تورون؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين» أقوى: افتقر

(٥) مصدر محذوف الفعل وجوبا وجلة المحذوف خبر المبتدأ (الرحمة)

(٦) من فض الماء: سال: وفض لازم متعد

(٧) قال صاحب دمية القصر: هذا معنى لم يأت بمثله فكر، وعندي — والضمان علي — أنه بكر. (المرائي) جمع المرآة قالوا: الكثير فالجمع مرايا. والأزهري يقول: من حول الهمزة قال: مرايا. وقد نقد الحريري هذا الجمع، ورد الخفاجي قوله. يقال: ترأى في المرآة وترأى (بالتشديد) وفي الحديث: لا يترأى أحدكم في الماء وزنه يتفعل حكاه سيبويه

٢٨٥ — إذن تستوي

سمع بعض الحكماء رجلاً يقول:

قلب الله الدنيا!

فقال: إذن تستوي لأنها مقلوبة

٢٨٦ — رسالة ...

قال صاحب البدائع: خرج المعتصم بن صُمادح صاحب المَرِيّة يوماً إلى بعض متنزهاته فحلّ بروضة قد سفرت عن وجهها البهيج، وتنفست عن مسكها الأريج، وماست معاطف [١] أغصانها، وتكللت بلؤلؤ الطلّ أجياد قضبانها. فتشوّف إلى الوزير أبي طالب بن غانم أحد كبراء دولته فكتب إليه بديهاً بورقة كُرُنب [٢] بعود من شجرة:

أقبِلْ أبا طالب إلينا ... واسقط سقوط الندى علينا [٣]

٢٨٧ — لئيم العطاس

في (كامل) المبرد: روى أن عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس — أتته وفود من الروم، وقام السّماطان [٤] فأتى برجل منهم، وعطس أحد مَن في السماطين، فأخفى عطسته فقال له عبد الملك لما انقضى أمر الوفد: هلاّ — إذ كنت لئيم العطاس [٥] — أتبعت عطستك صيحة حتى تخلع بها قلب العِلج [٦]

(١) المعاطف: الأردية، المعطف: الرداء

(٢) الكرنب: بضم الكاف والراء وفتحهما السلق أو نوع منه أحلى وأغض من القنبيط

(٣) ولوضاح اليمن:

فاسقط علينا كسقوط الندى ... ليلة لا ناه ولا زاجر

وفي قلائد العقيان: أن المتوكل على الله (صاحب بطليوس) مر في بعض أيامه بروض مفتر المباسم، معطر الرياح النواسم، وأزاهيره تتيه على الكواكب، وتختال في خلع الغمائم السواكب. فلما حصل من أنسه في وسط المدى، عمد إلى ورقة كرنب قد بللها الندى. وكتب فيها بطرف غصن يستدعي الوزير أبا طالب بن غانم: أقبل أبا طالب، البيت وبعده

فنحن عقد بغير وسطى ... ما لم تكن حاضراً لدينا

(٤) قام القوم حوله سماطين أي صفين وكل صف من الرجال سماط (اللسان)

(٥) في رواية للجاحظ: هلا إذ كنت ضيق المنخر، كز الخيشوم

(٦) العلج الرجل من كفار العجم، والقوى الضخم منهم جمعه علوج وأعلاج (التاج) وهناك جمع آخر. ولمحمد بن ذؤيب في الرشيد:

جهير الكلام، جهير العطاس ... جهير الرواء، جهير النغم
ويخطو (على الأين) خطو الظليم ... ويعلو الرجال بخلق عمم

على الأين: مع الاعياء. عمم: جسيم

٢٨٨ — سرقت حمرة الخدود الملاح

ابن الزقاق الأندلسي :

ورياض من الشقائق أضحت يتهادى بهـا نسيم الرياح
زرتهـا والغمام يلطم منها زهرات تفوق لون الراح
قلت : ما ذنبها ؟ فقال مجيباً : سرقت حمرة خدود الملاح !

٢٨٩ — ليس الهوى بالاختيار

فى (نهاية الأرب) : قال رجل من أهل المدينة كان أديباً ظريفاً طلاباً للأدب والملح : كنت يوماً فى مجلس رجل من قريش ، ومعنا قينة ظريفة حسنة الصورة ، ومعنا فتى من أقبح ما رأته العين ، والقينة مقبلة عليه بحديثها وغنائها . فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا فتى من أحسن الناس وجهاً فأقبل علىّ صاحب البيت فقال : إن فى أمر هذين لعجباً ، قلت : وما ذاك ؟ قال : هذه الجارية تحب هذا (يعنى القبيح الوجه) وليس لها فى قلبه محبة ، وهذا الحسن الوجه يجدها وليس له فى قلبها محبة . قال المدنى : فقلت لها : تختارين هذا وهو أقبح من ذنوب المصرين، على هذا الذى هو أحسن من توبة التائبين ! فقالت لى : ليس الهوى بالاختيار ، ثم أنشأت تغنى وتقول :

فلم تَلُمِ المحبَّ على هواه فكلّ متيم كلف عميد [1]
يظنّ حبيبَه حسناً جميلاً وإن كان الحبيب من القرود !

٢٩٠ — رحمة الله عليه

(فى سيرة عمر بن عبد العزيز) لابن الجوزى : قال ابراهيم ابن هشام بن يحيي بن يحيي الغساني : حدثني أبي عن جدي قال : كنت عند هشام بن عبد الملك جالساً ، فأتاه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة [2] فأقرّها الوليد وسليمان حتى إذا استُخلف عمر (رحمه الله) نزعها . فقال له هشام : أعد مقالتك ، فقال : يا أمير المؤمنين إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرها الوليد وسليمان ، حتى إذا استخلف عمر (رحمه الله) نزعها . فقال : (والله) إن فيك لعجبا ! إنك تذكر من أقطع جدك القطيعة ومن أقرها فلا تترحم عليه [1] ، وإنا قد أمضينا ماصنع عمر [2] رحمة الله عليه ...

٢٩١ — الورد والياسمين

قال هبة الله محمد النصيبي : كنت فى زمن الربيع والورد في داري بنصيبين [3] ، وقد أحضر من بستاني من الورد والياسمين شيء كثير ، وعملت — على سبيل الولع — دائرة من الورد تقابلها دائرة من الياسمين فاتفق أن دخل على المهذب والحسن ابن البرقيدى الشاعران فقلت لهما : اعملا فى هاتين الدائرتين . ففكرا ساعة ثم قال المهذب :

ياحسـنها دائرةً من ياسمين مشرق
والورد قد قابلها فى حلة من شفق
كعاشق وحبّـه تنامزا بالحدق [4]
فاحمرّ ذا من خجل واصفر ذا من فرق

فقلت للحسن : هات ، فقال : سبقنى المهذب إلى مالمحته فى هذا المعنى وهو قولى :

يا حسنها دائرة من ياسمين كالحلى
والورد قد قابلها فى حلة من خجل
كعاشق وحبه تغامزا بالمقـل
فاحمر ذا من خجل واصفر ذا من وجل

فعجبت من اتفاقهما في سرعة الاتحاد ، والمبادرة إلى حكاية الحال !

٢٩٢ — أخاف ألا أموت فى أوله

قيل لخالد بن صفوان : مالك لاتنفق ؟ فإن مالك عريض قال : الدهر أعرض منه

قيل : كأنك تؤمل أن تعيش الدهر كله
قال : لا ، ولكن أخاف ألاّ أموت فى أوله

---

(١) خبر المبتدأ (كل) فى أول البيت الثانى : يظن

(٢) أقطعه قطيعة ، أي طائفة من أرض الخراج ، والاقطاع يكون تمليكا وغير تمليك ، والقطائع إنما تجوز فى عفو البلاد التى لا ملك لأحد فيها ولا عمارة . (اللسان)

(١) ترحم عليه ورحم عليه ترحما سواء . والصاغانى يقول : الأولى لحن ، والمجد فى القاموس يقول رحم هى الفصحى ...

(٢) من قضائه العدل ما ذكره زياد بن أنعم قال : (أتى إليـه بسارق فشكا إليه الحاجة فعذره وأمر له بنحو عشرة دراهم) فليفكر فى حكومة عمر المفكرون

(٣) من العرب من يجعلها بمنزلة الجمع فيعربها فى الرفع بالواو الخ والأكثر يجعلونها بمنزلة ما لا ينصرف والنسبة إليها نصيبى ونصيبينى ، مدينة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام (يا قوت)

(٤) (الحب) بكسر الحاء ، هنا : المحبوب

الغنى والفقير

للكاتب الفرنسي «لا بروبير»

بقلم الأديب يوسف جوهر

جيتون لامع البشرة، طلق المحيا، ممتلىء الخدين، عينه حادة مقتحمة، ومنكباه عريضان، وصدره منصوب ومشيته مزهوة مختالة، يتكلم باعتداد، ويستعيد من يحدثه، ثم لا يكاد يسيغ مايفضى به إليه. يخرج منديلاً فخماً ويفرغ أنفه فى جلبة شديدة، يبصق بعيداً، ويعطس عالياً جداً؛ ينام فى الليل وينام فى النهار، ويغط فى المجتمعات؛ يشغل من المائدة وفى المجالس مكاناً أكثر من غيره؛ يكون وسط زملائه عند ما يتنزهون، يقف فيقفون، يستأنف السير فيسيرون؛ يقاطع ويخطىء من يتكلمون ولا أحد يقاطعه، ويصاخ السمع لحديثه مهما أطال الكلام؛ كل الناس من وجهة نظره، والجميع يصادقون على مايرويه؛ إذا جلس تراه قد استلقى فى كرسيه ووضع ساقيه الواحدة على الأخرى، وقد عقد جبينه وخفض قبعته على عينه حتى لايرى أحداً، أو يجذبها عن جبهته ليُرى كيف تكتسى بالعتوّ والصلف. هو مهذار ضحوك سريع الضجر، معتدٌّ بنفسه غضوب، جرىءٌ على المعتقدات، سياسي. وهو كتوم لشاكل الساعة؛ وهو يعتقد فى نفسه العبقرية وقوة العقل. ذلك لأنه غني...

* * *

لفيدون عينان غائرتان، ذلون محترق، وأعضاء يابسة، ووجه نحيل؛ ينام قليلا، ونومه خفيف جداً. هو مهموم مشدوه كأنه صاحب ذهن بليد، فهوينسى أن يقول ما يعرف أو يتحدث عن الحوادث التى يعلم، فإذا ما جازف أحياناً روى بركاكة. يعتقد أنه يثقل على من يتحدث إليه، ويتكلم باقتضاب وتهيب. يذهل عن الاصغاء فلا يناقش؛ يصفق ويبتسم لما يحدث به الآخرون؛ يجري ليؤدى لهم خدمات صغيرة. هو مجار متملق مطيع، هو كتوم لشئونهم حيىٌّ، يمشى برفق وقلق كأنه يخشى أن يطأ الأرض؛ يسير وقد خفض عينيه لايجسر على رفعهما فى وجوه المارة، ليس له بطانة لتستمع؛ يجلس خلف من يتحدث؛ يزن فى نفسه مايقال ويتراجع إذا مارمقه أحد؛ هو لايشغل مكاناً ولا يملأ مقعداً؛ يسير وقد زوى كتفيه وأمال قبعته على عينه كي لايراه أحد؛ يختبىء ويتوارى خلف معطفه، تختفى عن عينه الطرقات والأروقة إذا ما ازدحمت بالناس لأنه لايجد وسيلة للمرور منغير أن يُعترض، والانسلال منغير أن يُرى، إذا مادعاه أحد للجلوس جلس على حافة المقعد؛ يتكلم خفيضاً فى المناقشة ويتلعثم، غير أنه صريح فيما يختص بالشئون العامة، ناقم على الظروف؛ له فكرة غير متطرفة عن الوزراء والوزارة. هو لايفتح فمه إلا ليجيب؛ يسعل ويفرغ أنفه مستتراً بقبعته؛ يبصق فيكاد يلوث نفسه، ينتظر حتى يصير منفرداً ليعطس، فإذا ما اضطر عطس فى غفلة من الجماعة، وهو لايساوى فى نظر الناس لا تحية ولا ترحيباً. ذلك لأنه فقير...

يوسف جوهر

عبادة جديدة؟! (١)

للأستاذ سيد قطب

لك ياجمال عبادتى لك أنت وحدك ياجمال
تُعصى تعاليمُ الطغا ة، أو الهداة على ضلال
ويخالَف التشريع جهـراً، أو خفاء فى احتيال
وتجانَبُ الأديانُ أو تُنسى وتهجرُ عن ملال
وأراك وحدك ياجمال تَلقى الخضوعَ والاحتفال
والحبَّ والإيمانَ من كل الأنام بكل حال!

* * *

المال معبود الحيا ة المستذل قوى الرجال
هو بعض قربان النفو س إلى مقامك فى ابتهال
وأرى الألوهة فيك تو حى بالعبادة فى جلال
ما أنت إلا مظهـر منها تُوشِّيه الظلال
فإذا عبدتك لم أكن ياحسن من أهل الضلال
بل كنت محمود العقيـدة فى الحقيقة والخيال
أعنو لمن تعنو له كل النفوس بلا مثال
متفرقاً فى الكون فى شتى المرائي والخلال
فإذا تركز ها هنا بَطَلَ التمحل والجدال!

(١) من ديوان «أصداء الزمن» يصدر أول ديسمبر



القطـــة

للأستاذ فخرى أبو السعود

بادلتُها الوداد من زمانِ ... كأكرم الأصحاب والخلان
تهش لى حين ترانى بشراً ... وتمعص الذيل وتحنى الظهرا
تمسح بى فراءها الصقيلا ... ترتقب التربيت والتدليلا
لها فراء ناعم كثيفُ ... مهدَّل مرجَّــل نظيف
تخطر فيه خطرة الثرىّ ... فى خير ثوبٍ مونق عصرىّ
مجدَّدُ اللمعـــة والرواء ... تلبسهُ فى الصيف والشتاء
تغسله بطرَفِ اللسانِ ... أجملْ بذيالك اللسان القانى
وقد بدا من فمها الأنيقِ ... بين ثنايا الدر والعقيق
ثيابُنا والفرشُ والوسادُ ... أو حجرُ مَن شاءتْ لها مهادُ
تنام فى الظهر وكلَّ آنِ ... وتسهد الليـل بلا أشجان
تجوس فى الدار وفى الحديقهْ ... تطلب فأراً تبتغى تمزيقهْ
تحمرُّ عيناها وتخضرّانِ ... كما بدا فى الليل كوكبان
أنيقة السكون والحراكِ ... رشيقة الوثاب والعراكِ
ما أهتزَّ شىء دون ناظرَيها ... إلا أصابته بمخلبيها
مِن كُرَةٍ أمامها تمرُّ ... أو ذيل ثوبٍ حولها يُجرُّ
أو أنمُلى فى الطرس أو أهدابى ... أو شفتى تهتزّ فى الخطاب
ياحُسنَها حيثُ مضتْ من تحفهْ ... إن جثمتْ في البهو أو فى الشُرفهْ
تدلف من دوح إلى خميلهْ ... كنَمِرٍ يمشى إليك غيلهْ
وآنةً تزحف كالأفاعى ... وآنة تهجم كالسباع
مُكرَّمةٌ حيث مضت أميرهْ ... عزيزة ما بيتنا أثيره
مستعيدة بعيشها راضيهْ ... مُدلَّة بنفسها آبيه
لها وداد بيننا أكيدُ ... يحمله الكبير والوليد
أحببتُ فيها صورة من نفسى ... وكلَّ مخلوق وكلَّ جنسِ
يُنبئ عن ودى وعن وفائى ... نَظْمِيَ فيها الشعرَ واحتفائى

فخرى أبو السعود

ذكريات الهوى

للسيد جورج سلستى

يا نفسُ خلّى ذكريات الهوى
وانسى فكم أشقتْكِ ذكرى الغرامْ!
ذادتْ عن الأجفانِ طيبَ الكرى
وحرمتْها من لذيذِ المنامْ
وسربلتْ جسمي بثوب الضنى ... وألبستْنى حلّةً من سقام
وأنزلتْ بى ذكرياتُ الهوى ... شتى الرزايا والخطوبَ الجسام
كأنني أصبحت مُستودعاً ... للهمِّ والأحزان دون الأنام

***

لا تذكري يا نفسُ ما قد مضى ... وأسلى فقد يقضى عليكِ الحنينْ
وصلتِ أطرافَ الضحى بالدجى ... من وَلَهٍ حتى متى تسهرين؟
صدّعتِ بالآهات هدْء الدجى ... وشقّ صمتَ الليل منكِ الأنين
ورحتِ لما اشتدَّ فيكِ الظما ... ترتشفين الدمعَ لا ترتوين
أصبحتِ بين الناسِ أُمثولةً ... وبتِّ فيهم عبرةَ العاشقينْ

***

أغرقتِ فى التذكار يا مهجتي ... وشقوةُ الانسانِ تذكارُهُ
فعصفتْ بى عاصفاتُ الشقا ... وصوّحَ اللذاتِ إعصارُهُ

وكلٌّ منْ داوى الأسى بالأسى ... أربتْ وزادتْ فيه أكدارُهُ
وذكرياتُ الحبّ بحرٌ طما ... يجتاحُ نفسَ الصبِّ تيّارُه
والحبّ نارٌ أُججتْ فى الحشا ... وكم فتى أودتْ به نارُهُ

***

ربّاهُ حظّى كالدجى فاحمٌ ... محلولكٌ ما فيه غيرُ السوادْ !
أنى مشتْ منّى الخطى لا أرى ... على سبيلي غيرَ شوكِ القتادْ
قد عيلَ صبرى يا إلهَ السما ... وبلغَ السيلُ الزُّبى[1] والنجادْ
أغلق كوى التذكار فى خاطرى ... وانزعْ شعورى واجعلنى جمادْ
إحساسىَ الجاني على عيشتى ... والشاعرُ الحسّاسُ أشقى العباد

جورج سلستى

ليتنى

للأديب محمود السيد شعبان

أظلمَ الكونُ فمَنْ فيهِ نيامْ ... غيرَ قلبٍ فى دُجَى الّليلِ يَسيحْ!
هتفَ النجمُ بهِ : يا ابنَ الظلامْ ... ما الذى تهوَى منَ الليلِ القبيحْ؟!
قالَ : أهوى وَحْشتَهْ !
قال : أهوى ظُلْمتَهْ !
قال : أهوى فيه أطيافَ الهمومْ ... وأنينَ العاشقِ الباكى الحزينْ
وأناجى البدرَ فيهِ والنجومْ ... مُنشداً وحدِى نشيدَ العاشقينْ
ساهداً أحرُسُ حبِّي !
ساهراً أعبدُ ربِّي !
إيهِ يا ليلَ الأمانِي والحنينْ ... دَعْ فؤادِي فيكَ يحيا بالمُنَى !
إنّني يا ليْلُ مِنْ ماء وطينْ ... ليتني كنتُ شُعاعاً من سَنَا !
ساطعاً يهدِى الأناما !
لامعاً يمحُو الظلاما !
ليتنى كنتُ على خدٍّ أسيلْ ... دَمْعةً يشرَبُ منها وَرْدُهُ !
دمعة تجرى على خدٍّ جميلْ ... قدْ حَلالِي وصفَا لِي وِرْدُهُ
حيثُ لا أخشَى رقيباً
أوْ بعيداً أو قريباً !

ليتني ضَمّةُ معمُودٍ صَريعْ ... قد تلاقَى بعد هجرٍ بحبيبهْ !
يخفُقُ القلبُ لها بيْنَ الضلوعْ ... كذبالٍ يتلوَّى فى لهيبهْ ! !
ليتنى كنتُ عِناقاً !
أو صُـدوراً تتلاقَى !
ليتنى قُبلةُ ظمآنٍ علىَ ... شفتَىْ حَسْناء يهواها فُؤادُهْ !
قبـلة طابتْ ولذّتْ مَنهلا ... هي خمر العاشقِ المُضنَى وَزَادُهْ !
هيَ كأسٌ مِن عقيقٍ !
مَلأوها بالرّحيــقِ ! !
ليتنى آهةُ محزُونٍ كئيبْ ! ... ليتني أنّةُ مظلومٍ ينوحْ !
إنّنى أهوى البكا أهوَى النحيبْ ... إنّ قلبي بدُموعى يستريحْ !
فدعوُنى يا رفاقِي . . .
فالبكا حُلْوُ المذاقِ ! !
ليتني قَطْرةُ ماء فوقَ زَهْرَهْ ... فى رياضٍ باسماتٍ للندَى !
إنّ طَلَّ الفجرِ ما أعجبَ أمْرَهْ ... يَملأُ النفسَ جلالاً وهدًى !
جلّ باريهِ تعالَى
ملأ الدُّنيا جمالاً
ليتنى كنتُ فَراشاً هائماً ... جالَ فى الروضِ فحيّاهُ العبيرْ !
أقطعُ العيْشَ وحيـداً حالماً ... بيْنَ روضٍ وسماء وغديرٍ ! !
ذاكراً حُلوَ الأمانِي
ناسياً مُرَّ الزّمانِ !
ليتنى سَجْدةُ شيْخٍ فى صَلاتِهْ ... يعبدُ اللهَ الذى يَرْهَبُ بأسَهْ
ليتنى زَفْرةُ ميْتٍ فى مَماتِهْ ... حطّمَ الدّهرُ ويا للهَوْلِ كأسَهْ !
إنّنا أهـــلُ التراب
قد خُلقنا للعـذاب !
ذاكَ ما أهواهُ مِن دُنيا الشُّرورْ ... ذاكَ ما أرْضاهُ مِنْ دار الفناء
عالمٌ كادَ على الناس يَثُورْ ... مُذْ طغَوْا فِيهِ ولجُّوا فى العداء
هلْ لنفسِي مِنْ مُؤسِّ
قبلَ أنْ تأفُلَ شمسى؟!

(الاسكندرية) محمود السيد شعبان

(١) جمع زبية وهى الرابية لا يعلوها ماء . «وبلغ السيل الزبى» مثل يضرب للأمر إذا اشتد وبلغ الغاية



من أساطير الاغريق

١ - خرافة جاسون

للأستاذ دريني خشبة

غلب بلياس الظالم أخاه إيسون على مُلك تساليا، فهام الملك على وجهه فى أقصى الأرض، وهامت معه زوجته الملكة الصالحة آلسيميديه، وطفلهما الوحيد اليانع جاسون ... وعرجا فى تطوافهم بأستاذ أخيل العظيم شيرون، فدفعا إليه بالطفل يهذبه ويؤدبه، ويُنشّئه على الفروسية ومكارم الأخلاق؛ ورَجَوَاه أن يكتم سرهما عنه حتى يشب ويترعرع، ويبلغ أشده، فيثير فى صدره الحمية، ويرسله ليثأر لأبويه، وليستخلص العرش من غاصبه. وأخلص شيرون فى تربية جاسون الاخلاص كله، وكان يردفه خلفه ليعلمه الرماية، وهو شرف عظيم لم ينله من تلاميذه غير أخيل الخالد، وغير جاسون... ثم مرت الأيام، وشب الفتى على غرار أستاذه، فلم يكن فى الدنيا بأسرها أحملُ منه لسيف، ولا أرمى لسهم، ولا أرجح فى تفكير، ولا أوفر فى حظ من جمال وكمال. ووقفه شيرون على سر أبويه، وما كان من اغتصاب عمه بلياس عرش والده؛ فثار ثائر الغلام، وازلزل قلبه، وضرب برجله يود لو يخرق الأرض فيكون عند الظالم، فيذرو عظامه فى الريح!

ووعظه شيرون، وأوصاه بالصبر وطول الأناة وإعمال الروية وحذره أن يعيث فسادا فى الأرض، ونصحه أن يكون رحيما بالضعفاء، وألا يألو جهداً فى مساعدة من يطلب منه المساعدة، وألا يكون عداوة لمثة سيئاً فى عداته لجميع الناس ... وأعطاه الفتى موثقه، ثم اخترط سيفه، وربط على قدميه وساقيه نعليه الذهبيتين، وودع أستاذه وحياه أحسن تحية، وانطلق يذرع الرحب إلى يولكوس، حاضرة تساليا

ولقى فى طريقه سيلا زاخر العباب، فوقف حياله ينظر ويفكر، ويدبر لنفسه خطة يعبره بها. وكان السيل جياشاً ينحدر من شعاف الجبل القريب، فيجرف فى سبيله الجلاميد والنُّؤى، وتظل تتدحرج ويضرب بعضها بعضاً فتنسحق وتتفتت، فراعه أن ينزلق وسطها، ويكون مصيره مصير جلمود منها ... وفيما هو يعمل فكره، وفيما هو يتلفت يمنة ويسرة، إذا به يرى عجوزاً تأْتأة تدب على عكاز غليظ، مقبلة نحوه، مادة ذراعها المعروقة مستغيثة تهتف: « بُنى! بُنى! انتظر أرجوك! انتظر يا ولدي!! » من هذه؟ لا يدرى جاسون. بيد أنه انتظر حتى أقبلت العجوز وسألها عن شأنها، فتوسلت إليه أن يحملها على ظهره ليعبر بها مجرى السيل! ووجم جاسون قليلاً، لكنه ذكر وصاة شيرون أستاذه، فتبسم، وانحنى للمرأة فاحتملها على كاهله القوى المتيد، ثم رجاها أن تدفع إليه بمكازها يتوكأ عليه ففعلت، وتقدم بخطى وئيدة، ولكنها أكيدة، إلى مجرى السيل لا يفكر فى نؤيه وجلاميده، ولا جيشانه واصطخابه، بل يفكر فى أنه يجب أن يؤدي يداً لهذه العجوز التى استنامت به ... وعبر مجري السيل، وبلغ عُدْوته الأخرى بعد عناء وجهد، ووضع على الرمال اللينة المتطامنة حمله ... ولكن ... يا عجبا!! أين هى المرأة العجوز الحيزبون؟ أين الكومة من الجلد المتهافت، والعظام النخرة، التى كانت ترهق كاهله؟ لقد ذهبت، ووقف مكانها شباب رائع، وجمال فتان، وغادة حُسّان مفتان!!

— يا للآلهة! من أنت بحق السماء يا ربة؟

— أنا؟ ... ألا ترى إلى هذا الطاووس المزهو بذيله وألوانه أيها العبد الصالح؟

— أوه ؟ ! أو أنت جونو [1] ؟

وسجد جاسون بين يدى الربة ، سيدة الأولب ، ثم أذنت له أن ينهض ، وأخذت برأسه فباركته ، وسألها أن تهبه رعايتها في حله وترحاله فوعدت ، ثم رفت فى أثير السماء التي تفتحت لها أبواباً ، وغابت عن بصر جاسون !

ووقف الفتى لحظة مسبوهاً مشدوهاً ثم انطلق فى طريقه ... وراءه بعد مرحلة طويلة أن يرى إلى قدميه فلا يجد إلا نعلاً واحدة فى إحداها ... أما الأخرى ، فقد ذكر أن السيل انتزعها من قدمه واحتملها ، وهو لا يستطيع استعادتها ، لأن حمله كان يرهقه !

ثم بلغ يولكوس

ورأى جمعاً حاشداً حول ملكها بلياس ، الذى وقف ينحر الذبائح ، ويقرب القرابين للآلهة ، ويفرق حواياها [2] فى الفقراء ! فدافع الناس ، وشق طريقه إلى الهيكل حيث وقف الملك ، ثم سار إلى عمه قدُماً ، حتى كان قبالة المذبح ... وما كادت عين صاحب العرش — أو غاصبه — تقع على الفتى الذى يلبس نعلاً واحدة حتى شحب لونه ، وغاضت الدماء الوردية من خديه ، وأخذ قلبه يخفق ويضطرب اضطراباً شديداً .... ذلك لأنه ذكر تلك النبوءة التى تنبأ له بها أحد سحرائه ، والتى حذرته من الشاب الذى يقبل من بلاد بعيدة لابساً نعلاً ذهبيةً واحدةً فى إحدى قدميه فى حين يكون هو مشغولاً بتقريب القرابين للآلهة !! إن هذا الشاب يقتله !!

وأمر حراسه بالقبض على الفتى وإحضاره إلى غرفة العرش نجىء به إليها ، ولم ينتظر جاسون حتى يبدأه عمه بالكلام ، بل وقف أمامه جباراً يغلى الدم فى عروقه ، وطلب إليه أن يعتزل الملك ، ويخلع التاج ، ويعطى الصولجان صاحبه ، وأن يعيد الحق إلى نصابه ... « لأنك انتهزت ضعف أبى الذى أوهن منه عظامه ، واشتعل رأسه شيباً . فسَطَوْتَ عليه ، وألبت عليه الأوشاب من مرتزقة الجند ، ورعاع الشحاذين والأفاقين ، فلبست تاجاً ليس لك ، واستويت على عرش تزعزعه الجريمة من تحتك ، ثم حاولت أن ترشو الآلهة وتخدع السماء بالأضحيات والقرابين ، ولكنك لا تخدع إلا نفسك فالتمس لها السلامة من موت يفتك ، ومغبة وبال يحيط بك ... »

وكان بلياس يسمع هذه الكلمات الثائرة كأنها سهام تملأ أذنيه ، ومنايا تطير حول قلبه ... بيدأنه استعد لها بالمكر ، وتهيأ لصيدها بالخدعة ، فتبسم لابن أخيه وقال : « ماذا تقول ياجاسون؟ أتحسبنى يابنى قد سلبت أباك عرشه ، وغلبته على صولجانه ؟ ؟ كلا والله يا بُنىّ كلا ... ولكن ... ليسكن طائرك قبل كل شىء ... فلقد دعوت نفراً من (رعاياك !) لوليمة إلهية ، وقد أقبلوا من كل فج ، وهم ينتظروننا الآن ، وليس من حسن الرعاية ولا من مروءة الملوك أن يستأنوا عن مواعيدهم ، فهلم تلقهم ياجاسون ، وترحب بهم ، فاذا فرغنا وفرغوا من طعامهم ، عدنا سوية لنبحث هـذا الأمر الذى أهمك وأقلقك ، وملأ فؤادك بالوساوس والأراجيف ؛ وسترى أن الذى أنبأك هذا النبأ زخرفه عليك ، وشوه حقيقته فى نفسك ، بدليل هذه النيران التى تنقذف كلمات من فك !! تعال ... مرحباً بابن أخى جاسون ! لشد ما أنا مشتاق إليك يا حبيبى ! »

ثم قبله فى جبينه قبلة صفراء قاتلة ، أفتك من قبل التماسيح ؛ وانطلقا إلى البهو الكبير ، حيث صُفَّت الأخاوين [1] الحافلة بأشهى الآكال وأطيب الأشربات ، وحيث جلس المدعوون إليها صفوفاً صفوفاً وألوفاً وألوفاً ...

وجلس جاسون فأكل وشرب ، ثم أخذت الموسيقى تعزف فتشرح الصدور الحرجة ، وتشفى النفوس من كل حرد ؛ واعتلى المنصة التى أقيمت فى صدر الحفل جماعة من المنشدين ورواة القصص ، شرعوا يسردون قصصهم ، ويتناشدون أشعارهم ، ويروون من أنباء الأبطال مايأسر القلوب ويسحر الألباب ، حتى أن جاسون نفسه كان يصغى إليهم وكأنه يتلقى وحياً من السماء يتنزل على قلبه ، ويدعوه إلى فعال الفتية الأبطال

قال أحد المنشدين : « واسمعوا أيها الناس حكاية الملك الذى صبا قلبه إلى امرأة غلبت فؤاده وسحرته بجمالها عن زوجته وأم طفليه ، فبنى عليها [2] ، ولم يبال أن ينقض ركن الأسرة وينهار

(١) عودنا القراء فى أساطيرنا السابقة أن نسميها باسمها اليونانى (حيرا) وهذا هو اسمها اللاتينى

(٢) أحشاياها

(١) إخوان لغة فى خوان الذى جمعه خون وفى القلة أخونة

(٢) تزوجها

عمادها ... ذلك هو أتماس أحد ملوك تساليا فى الزمان القديم . ولقد فزعت الملكة البائسة وخشيت أن يصيب طفليها مكر ضرتها فاعتزمت أن ترسلهما إلى ملك كولخيس ليكونا بنجوة من إينو الخبيثة ... وفيما هى واجمة تفكر فى ذلك إذا هرمز الأمين يتنزل من السماء فيسألها وتجيبه :

— نيفيل أيتها العزيزة ؟ فيم تفكرين حزينة هكذا ؟

— هرمز ؟ تباركت يا رسول السماء ! أفكر فى ولدى هذين وما عسى أن يصيبهما من مكر إينو ...

— لا عليك يا حبيبة الآلهة ، إنى مساعدك ، كفكفى دموعك !

— شكراً يا إله الرحمة ، سأسبح لك ما حييت !

— وأين تحسبينهما يكونان فى سلام وأمن يانيفيل ؟

— لا يكون ذلك إلا عند ملك كولخيس ، ولا أدري كيف أرسلهما إليه ؟ !

— لا أهون من هذا ، فانتظرى طرفة عين :

ومضى الإله فغاب برهة ، ثم رجع ومعه كبش عظيم ذو فروة ذهبية وقرنين وحوافر من خالص الإبريز ، فقدمه إلى الملكة المحزونة ليركبه طفلاها ، ولينقلهما إلى ملك كولخيس ؛ وسجدت الملكة شكراً لهرمز ، ثم ودعت طفلها فركسوس ، وابنتها هـلّه ، وطبعت فوق جبينهما وخدودهما ألف ألف قبلة ، ودعت لهما ؛ ثم انطلق الكبش فى الأثير يطويه بين بكائها الطويل وآهاتها التى لا تنتهى ... وطفق الكبش يعرج فى السماء ، ويخطف فوق المالك ، حتى كان فوق بحر صاخب مضطرب ، تقلبت أمواجه ، وتناوحت زوابعه ، فنظرت الفتاة المسكينة هـلّه تحتها لترى ما هنالك ، ولكنها فزعت فزعاً شديداً حينما رأت سراطين البحر وحلازينه تقتل وتحترب ويأكل بعضها بعضاً ، فارتجفت رجفة هائلة ، وانفلت صوف الفروة من قبضتها فسقطت من عَل وجعلت تهوى حتى تردّت فى البحر وابتلعتها أمواجه ... ومنذ ذلك الوقت ، وهذا المكان يعرف من أجل ذلك باسم (الهلسبنت[1]) نسبة إلى الفتاة البائسة هـلّه ! . ومضى الكبش يستبق الريح ، ويطوى العوالم ، حتى وصل إلى مملكة كولخيس ، فهبط قليلاً قليلاً ، حتى إذا كان على الأرض نزل الفتى فركسوس فصلى للآلهة ، وذرف الدمع على أخته ، وسلم على الملك الذى هش له وبش ، وأحسن لقياه وأكرم مثواه ، ثم شحذ سكينه وتلّ الكبش لجبينه ، وكبر وسبح باسم جوف ، وبأسماء آلهة السماء وجزر الحيوان قرباناً لهم جميعاً ... وسلخ الجلدة الذهبية وقدمها هدية للملك الذى فرح بها فرحاً شديداً ، ولأنها كانت تعدل كل ما فى كنوز الملوك من ذهب ... وقد ربطها الملك فى سنديانة باسقة ، ووكل بها تنيناً هائلاً ليحرسها وليسهر عليها من كل سارق رجيم ... ومنذ ذلك اليوم والفروة التى تعدل ألف كنز معلقة لا تمتد إليها يد ، ولا يجسر أحد أن يقترب منها وإلا جازف بنفسه فأصبح لقمة سائغة للتنين ... »

ولحظ بلياس كيف زاغت عينا جاسون عندما سكت المنشد ، فانتهز الفرصة ، وانطلق يغريه بالاستيلاء على الفروة الذهبية ، ليكون بها أعز الملوك وأضخمهم غنى ، وأوفرهم ثراء ؛ ثم ليخلد اسمه بين أسماء الأبطال الذين دوخوا المالك ، وأتوا من الفعال ما جعلهم أنشودة المجد فى فم الزمان ... « ولم لا يا ابن أخى ؟ لقد علمت ان أستاذك الذى نشأك ، وهذبك وأدبك ، هو شيرون السنتور الأكبر ، أستاذ أخيل العظيم ؛ وقد خلد أخيل اسمه على أسوار طروادة ، وأعلى ذكره فى جميع الأنام ، فلم لا تذهب إلى كولخيس لتحصل على الفروة الذهبية إما سلماً وإما حرباً ، وأنت من أنت فى أبطال الوغى ، وصناديد الحروب ؟ ألست أرمى الناس لسهم ، وأضربهم بسيف ، وأحذقهم طعاناً برماح ؟ إنها فرصة المجد لمن يبتغى المجد يا جاسون ، فلا تضعها ! لا تقل « بل حسبي أن أحكم الناس » فالناس يمشقون أشجع الناس ... » وهكذا طفق بلياس المخادع يزخرف للفتى ، حتى هاج فى صدره الشاب نائم المنى وأبعد الآمال ... فرضى جاسون بالاضطلاع بهذه المجازفة ، وظن أنها من اليسر بحيث لا تستعصى على شجاعته . بيد أنه عندما خلا إلى نفسه ، وراح يفكر فى الوسيلة التى يبلغ بها مناه ، بدت له حقائق أسقطت فى يده ، وجملته يتخاذل ، ويندم على الوعد الذى وعد عمه ؛ غير أنه ذكر ما قال له أستاذه شيرون من ضرورة احترام الوعد ، وربطه بالشرف ، فصمم على السفر إلى كولخيس وجلس يفكر فوق عدوة النهر ، وكانت سهادير اليأس تملأ بظلماتها عينيه ، فلم يهتد إلى الوسيلة ! ... وانطلق إلى غرفته

---

(١) هو الدردنيل



قضية صحفية خطيرة

قرأنا في البريد الإنكليزي الأخير تفاصيل قضية أدبية خطيرة ظهرت فيها شدة القانون الانكليزي على اللغة القاذفة وأساليب الجدل المستهجنة ؛ فقد نشرت جريدة « أكشن » Action وهي جريدة حديثة تناصر المبادىء الفاشية مقالاً حملت فيه بشدة على جريدة « الديلي تلغراف » الشهيرة ، فنسبت إليها أنها واقعة تحت نفوذ جماعة من الماليين والدوليين ، وأنها تعمل لخراب البلاد والامبراطورية البريطانية وتمكين نفوذ العصبة الدولية من ناحية السياسة البريطانية ؛ وتناولت في مطاعنها اللورد كمروز صاحب الديلي تلغراف ، فذكرت أنه ينتمي إلى أصل يهودي ، وأنه بهذه الصفة يخصص جريدته لمناصرة اليهودية الدولية والمالية العليا . فرفعت الديلي تلغراف وصاحبها الأمر إلى القضاء وطلبا تعويضاً ضخماً عن هذا القذف المزدوج . وللصحافة الإنكليزية تقاليد سامية في الأساليب الكتابية وفي المناقشات الحزبية تجعل مثل هذه المطاعن خارجة عن كل ما تبرره الخصومة السياسية من صنوف الجدل . والقانون الإنكليزي صارم جداً في مثل هذه المواطن التي تساق فيها الأقلام إلى القذف المثير ؛ ومن ثم فقد حكم القضاء للورد كمروز والجريدة الديلي تلغراف بتعويض قدره عشرون ألفاً من الجنيهات على الجريدة الفاشية وأصحابها وناشريها ، من ذلك مبلغ ١٢٫٥٠٠ جنيه للورد كمروز نفسه ، والباقي لشركة جريدة الديلي تلغراف . وقد كان لهذه القضية الأدبية وتطوراتها صدى عميق في جميع دوائر الصحافة والأدب والذين يقرأون الصحف الإنكليزية يعجبون حقاً بأساليبها الرفيعة في المناقشات الحزبية وجميع ضروب الجدل الأخرى ، ويقدرون ما تمتاز به من الأدب الجم والتعفف عن المطاعن

فقضى فيها ليلة ليلاء مثقلة بالهم والفكر ... ثم انبلج الصبح ، فانطلق إلى هيكل جونو عند دودونا ...

— جونو ... جونو ... لقد كدت أنسى جونو ... يجب أن أصلي لجونو ، فقد وعدتني أن تدركني بغوثها كلما حزبني أمر ... لقد حملتها على كتفي هذين في صورة عجوز شمطاء ! وهي ستحمل عني هذه المرة ! »

ووقف بجانب المذبح يرجو ويتوسل ويصلي ؛ وكانت سنديانة هائلة — هي الناطقة بنبوءات جونو — نامية وراء المذبح ، فسمعها جاسون تهتف باسمه وتقول :

— لبيك أيها الفتى لبيك ! لبيك وسعديك يا جاسون ! يا حبيب جونو لبيك ! كفكف غوارب دمعك فسترعاك الربة وتحفظك ... تعال ! اصعد فوق ! اقطع أحد أغصاني واصنع منه عصاً ، واجعل لها رأساً على هيئة السفينة التي تحملك إلى كولخيس وسمّها آرجس [1] لك ، وذلك باشراف مينرفا ... ولتكن العصا معك دائماً ، ولكن لا تنقلها من السفينة فهي حارستها ، وكلما ألم بك خطب أو حزبك أمر ، فارجع إليها فهي تكلمك وتشير عليك ... » وسكتت السنديانة ، وصنع جاسون العصا ، وذهب عند سيف البحر ليرى عمال آرجس ، باشراف مينرفا ، قد فرغوا من السفينة الهائلة وأنزلوها الماء . ففرح واستبشر ، وسماها (آرجو) نسبة إلى صانعها ثم أعلن عن حاجته إلى نفر من شجعان هيلاس ، يقاسمونه مجازفته ، فاجتمع إليه عدد غير قليل ، منهم هرقل الجبار وكاستور وأدمتوس وتيزيوس وأرفيوس وبولكس وبليوس ... وأعدوا ميرتهم ، واستكثروا من ذخيرتهم ، ثم همت الفلك ، واحتواها الماء

« البقية في العدد الآتي » دريني خشبة

(١) حيوان رائع من أتباع جونو

الشخصية المحضة ؛ فالصحافة الانكليزية مثل أعلى في هذه الناحية ، ومن ثم كانت صرامة القضاء الانكليزي في الحكم على كل ما يعتبر خروجاً على هذا المبدأ السامي

أرقام عن معرض باريس

نشرت الصحف الفرنسية أخيراً بعض إحصاءات عن معرض باريس تبين سير الأحوال السياحية التي ترتبت على قيام المعرض ؛ فمن ذلك أن عدد الذين استفادوا من التذاكر المخفضة لزيارة المعرض بلغ حتى شهر سبتمبر سبعة ملايين ، وزار المعرض في يوم واحد من أيام سبتمبر نحو أربعمائة ألف زائر ، فكان هذا رقماً قياسياً لم يسبق تسجيله في أي معرض دولي سابق ؛ وزار قصر اللوفر حتى سبتمبر ٧٥٩ ألفاً ، وزار قصر فرساي مليون و٧٤٤ ألفاً في حين أن زوار فرساي في مثل هذا الفصل لا يزيدون عادة على ربع مليون ؛ وصعد إلى سطح قوس النصر في هذا الفصل مليون و٧٥٠ ألفاً في حين أن هذا العدد لم يبلغ في مثل هذه المدة في العام الماضي أكثر من ٣٦٩ ألفاً ؛ وزادت نسب السفر في خطوط الملاحة النهرية إلى الثغور الفرنسية من ١٩ إلى ٢٢٧ في المائة حسب الخطوط ، وزادت النسبة في خطوط البحر الأبيض وحدها ٦٦ في المائة ؛ واستهلكت باريس في شهري يوليه وأغسطس نحو مليون ونصف كيلو من اللحم ؛ وزادت إيرادات المسارح البارزية منذ افتتاح المعرض أربعين مليون فرنك ، وهي زيادة لم تعرفها من قبل قط

على أن معظم الخبراء يرون هذه الأرقام بعيدة عن تحقيق ما كان معقوداً على قيام المعرض من الآمال ؛ فقد كانوا يقدرون مثلاً أن يزور المعرض منذ افتتاحه حتى شهر أكتوبر عشرون مليوناً ، والآن لا يمكن أن يبلغ عدد الزائرين أكثر من نصف هذا العدد ؛ وكان المظنون أن تكاليف المعرض يمكن تحقيقها في المدة التي تقررت لافتتاحه أي حتى آخر نوفمبر ، ولكن إدارة المعرض منيت في ذلك الأمل بصدمة عنيفة ؛ ولذلك يرجح أن تقرر الحكومة الفرنسية امتداد المعرض خلال العام القادم . ويقال إنها قد بدأت فعلاً بمفاوضة الدول الكبرى للموافقة على إبقاء معرضاتها ، والمنتظر أن يتم التفاهم على ذلك في المستقبل القريب ، ثم تذيع الحكومة الفرنسية قرار الامتداد قبل نهاية شهر نوفمبر الآتي

كتاب جديد عن كرومويل

يعتبر الانكليز أن الطاغية الوحيد الذي تولى الحكم في تاريخ انكلترا هو أوليفر كرومويل زعيم الثورة الانكليزية الدستورية التي انتهت بإعدام الملك شارل الأول ؛ وقد صدر أخيراً كتاب عن حياة كرومويل وأعماله بقلم المؤرخ الانكليزي موريس آشلي عنوانه « أوليفر كرومويل ، الطاغية المحافظ » O. Cromwell the Conservatiwe Dictator ؛ وقد كان حرياً بمؤلف مثل هذا الكتاب أن يتأثر في تصوره للطاغية الانكليزي بروح الطغيان المعاصر ، وأن يحاول المقارنة بينه وبين الطغاة المعاصرين من حيث الغايات والأساليب . ولكن الأستاذ آشلي لم يحاول هذه المقارنة ، ذلك لأنه يعتبر كرومويل بعيداً عن هذا الجو ، ويعتبره طاغية محافظاً بالفريزة ، يؤيد سلطانه بهيبته وماضيه . ويعرض لنا الأستاذ آشلي تاريخ كرومويل بإسهاب ، ولا سيما في الفترة القصيرة التي تلت إعدام الملك شارل الأول ، ويحلل أساليبه في الحكم وسياسته الخارجية والمالية والدينية والاجتماعية بدقة وبروح من الانصاف المدهش ؛ ويقول لنا إن كرومويل كان إدارياً بعيد النظر لم تذهب روعة الطغيان بحسن تقديره ولم تؤثر في وسائله ؛ وإذا كان كرومويل لم يبد كل ما كان يريد من التسامح الديني فذلك لأنه غلب على أمره في هذه الناحية فقط ، ولم يستطع أن يحتفظ بكامل حريته . ولقد كان كرومويل في الوقت نفسه دستورياً يدعو البرلمان ويحافظ على سلطانه ، ولكن الجيش كان هنالك على إرادته . ويؤيد الأستاذ آشلي نظريته في أن كرومويل كان محافظاً بكثير من أقوال كرومويل في خطبه ورسائله ، ويقول لنا إن كرومويل كان يواجه جميع المسائل بنفس الروح التي يواجه به المسائل العسكرية ؛ فاذا كان النظام الذي شاده كرومويل لم يعمل طويلاً بل انهار عند موته ، فذلك لأنه لم يكن متفقاً مع روح التقاليد الانكليزية ، ولكنه مع ذلك كان نظاماً جديراً بالتقدير والاحترام

وقد لقي كتاب الأستاذ آشلي كثيراً من التقدير في دوائر النقد والتاريخ ، واعتبر من أحسن الكتب التي صدرت في هذا الموضوع

مترسة BARRICADE

اطلعت على سؤال الأديب المهذب السيد (احمد العربي) — لله هذا الاسم ! — وهذا ما أقوله :

التفسير الحق للذريعة هو ما جاء فى (لسان العرب) :

«الذريعة مثل الدريئة جمل يُختل به الصيد ، يمشى الصياد إلى جنبه فيستتر به ، ويرمى الصيد إذا أمكنه ، وذلك الجمل يسير أولا مع الوحش حتى يألفه ؛ والذريعة السبب إلى الشيء وأصله من ذلك الجمل » وفى (الأساس) : « ومن المجاز : فلان ذريعتى إلى فلان ، وقد تذرعت به إليه »

فـ (الذريعة) هى ذريعة ختل لرمى الصيد ، لا طريقة وقاية من شر أو كيد . فلن تلاق — وذلك معناها — الكلمة الفرنسية Barricade

وهناك كلمة قيلت لها منذ مدة طويلة وهى (المترسة) ولم يجد الناقلون ما يضارعها ، دع عنك ما يفضلها ، وأنا لا أنفر منها ، فنى (المخصص والمصباح والقاموس) : « كل ما تترست به فهو مترسة لك » وفى شرح القاموس « ضبطه بكسر الميم »

فهذه العربية لتلك الفرنجية ، و (تترسوا بالمتارس) للجملة الفرنسية Dresser des Barricades ولكل حرب عدة وعدد ، ولكل قتال مترسة ومتارس

الاسكندرية (***)

جهود الفنانين فى مصر الحديثة

يسر لجنة تخليد عظماء مصر بجمعية هواة الفنون الجميلة بالأسكندرية أن تعلن أنها تستعد بعونه تعالى لإخراج مطبوع ضخم يضم بين دفتيه أشهر آثار الفنانين المعاصرين فى مصر الحديثة مع فذلكات خاصة عن تواريخهم ومجهوداتهم الفنية وكلمات تفسر أعمالهم وتنقدها ومقدمة مع بيان موجز عن أثر الفنان المصرى القديم بقلم عظيم قدير

واللجنة ترجو من حضرات الهواة والفنانين أن يعاونوها فى تحقيق مهمتها الفنية الجليلة

ولزيادة العلم عن المشروع يُرجع إلى مدير الجمعية الأستاذ حسن كامل شارع الوراق رقم ١٣ بميدان المحطة

جائزة نوبل للسلام

تبحث الآن اللجنة المختصة بجامعة ستوكهلم فى ترشيح من يصلح للحصول على جائزة نوبل للسلام هذا العام . وجائزة السلام قدرها نحو عشرة آلاف جنيه تمنح كل عام لإحدى الشخصيات التى خدمت السلام فى أى ناحية من النواحى . وقد ظفر بها من قبل عدة من أقطاب السياسة العالمية مثل ارستيد بريان رئيس الوزارة الفرنسية الأسبق ، والدكتور شترزن وزير الخارجية الألمانية السابق ؛ وظفر بها عدة من الكتاب السلميين مثل السير نورمان انجيل الكاتب الانكليزى ، والهرفون أوسيتسكى الكاتب الألماني، وقد ظفر بها في العام الماضى ، وكانت لذلك ضجة فى ألمانيا انتهت بتحريم الحكومة الألمانية ترشيح أحد من رعاياها لنيل جوائز نوبل . وفى هذا العام يرشحون عدة فى مقدمتهم الزعيم الهندى الكبير مهاتما غاندي ، واللورد بادن باول مؤسس حركة الكشافة الدولية ، والكاتب النمسوى ريخارد كودن هوفى ، وغيرهم ممن برزوا فى خدمة السلام بجهودهم وأقلامهم ودعاياتهم ؛ وربما كان غاندي هو الذى تختاره اللجنة من بين المرشحين

برنارد شو والمسرح القومى

من الغريب حقاً أن تبقى انكلترا حتى اليوم بلا مسرح قومى . وقد وجه برنارد شو الكاتب المسرحى الطائر الصيت بهذه المناسبة إلى الأمة الانكليزية كلمة لاذعة نعى فيها هذا النقص البارز فى حياتها الفنية والثقافية . ومما قاله : إن الأمة الانكليزية لا تشترك فى الاعتماد الخاص بانشاء المسرح القومى لأنها ترغب عن مثل هذه المؤسسة ، ولا بد من أن يفرض إنشاؤها فرضاً على شعب لم يتحرر تماماً من الهمجية ، ولا يزال يعتقد أن الفنون الجميلة إنما هي مظاهر للخلاعة ، وأن باب المسرح هو أحد أبواب جهنم ، وليس فى ذلك شىء جديد أو غريب ؛ فمن الحقائق التاريخية المعروفة أن المعاهد الثقافية يجب أن تفرض على الشعب بواسطة الحكومات أو الأفراد المستنيرين الذين يعلمون أن مثل هذه المعاهد ليست ترفاً ولا لهواً ، بل هى على العكس من ضرورات الحياة المتمدنة . ولو أن المعاهد الأوربية العلمية ترك إنشاؤها لرغبة الجمهور وأهوائه فى العطاء والمن لماتت جميعاً في مهدها ،

ولكانت أوربا اليوم أكثر همجية مما هى عليه . ثم إن المسرح القوى إذا وجد لا يستطيع أن يعيش وحده ، ولا بد له من مديرين وممثلين أكفاء وكتاب مسرحيات بارعين ، ويتوقف وجود هؤلاء على مقدرته على الدفع والتعويض

هكذا يخاطب الكاتب المسرحى الكبير أمته بأسلوبه الفكه اللاذع ويوجه إليها قوارص الكلم لأنها لم تبد حماسة فى مشروع إنشاء المسرح القوى . وإذا كنا فى مصر نشعر بأشد الحاجة إلى مثل هذا المشروع الثقافى العظيم ، فانه من المحقق أنه لا يمكن أن يقام بالاكتتاب العام ؛ ولا بد أن تنهض به حكومة مستنيرة تقدر أثر الفن والثقافة المسرحية فى ترقية أذواق الشعب ومداركه

تاريخ غانية شهيرة

قد تستحق غانية شهيرة أن تترجم وتؤرخ كما يؤرخ ملك أو قائد أو مفكر عظيم ؛ فقد لعب الغوانى دورهن فى التاريخ ، وكان بينهن طائفة شهيرة استطاعت أن تؤثر فى مصاير العروش والأمم ؛ ويكفى أن نذكر فى هذا الوطن أسماء مثل بومبادور ، ودوبارى . وكان عصر لويس الرابع عشر بالأخص عصر الغانيات الشهيرات ، ومن هؤلاء امرأة اشتهرت بجمالها وذكائها ونفوذها الاجتماعى ، هى نينون دى لانكلو ؛ وقد ترجم هذه الغانية الشهيرة من قبل غير كاتب ، وظهر أخيراً تاريخ جديد لها بقلم مسيو جان جودال J. Goudal بعنوان « نينون دى لانكلو ، غانية عظيمة فى عصر لويس الرابع عشر « Ninon de Lanclos, une grande Courtisane au Siècle de Louis XIV » ؛ وتاريخ نينون هو فى الواقع رواية غرامية اجتماعية ساحرة ، تمتاز بكثير من الأناقة والظرف ، ولكنها تكشف أيضاً عن مواطن مريبة كثيرة ؛ فقد اتهمت نينون من أهل عصرها بأنها كانت ساحرة تزاول السحر الأسود ، وتتعاقد مع الشيطان للاحتفاظ طويلا بجمالها . واتهمت أيضاً بأنها تسببت فى موت ولدها الشفالييه دى فلييه ، وأنها جلبت الشؤم والنحس على كثيرين من أصدقائها ؛ ولكن نينون كانت مع ذلك نجما ساطعاً فى مجتمعها ، وكانت صديقة لأعلام عصرها مثل موليير ولافونتين ، وكان لها بهو رائع يختلف إليه عظماء العصر وأمراؤه . وكانت نينون ابنة جندى وموسيقى مغامر وأم ورعة ، فاستقت خلالها من الناحيتين ، وتلقت تربيتها الأولى فى الدير ، ولكنها فرت منه فيا بعد ؛ وكان مولدها سنة ١٦٢٠ ، وتوفيت سنة ١٧٠٥ ، وعرفت فولتير فتى حدثاً ، ونفحته بعطية يشترى بها كتباً ؛ وكانت فى عصرها ملتقى الوصل بين التيارات المتضاربة ؛ من الخلاعة إلى السياسة والفلسفة ، وكانت من أعلام الفكر الحر ، وكانت أديبة رفيعة الثقافة كما كانت غانية ماجنة ساحرة ، وكان لها أثر عظيم فى صوغ الخلال النسوية فى عصرها

تلك هى الشخصية التى يتناولها جان جودال فى كتابه ؛ وهو يقص علينا حياة نينون بأسلوب شائق يستمد سحره وقوته من حياة نينون نفسها ، ومن الألوان المختلفة التى اتشحت بها خلال حياتها الطويلة الحافلة



ابن المقفع

تأليف الأديب عبد اللطيف حمزة

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

الوجه في إفراد شاعر أو كاتب من الماضين بالتأليف هو — كما يقول الرافعي رحمه الله — أن تصنع كأنك تعيده إلى الدنيا في كتاب وكان إنساناً، وترجمه درساً وكان عمراً، وترده حكاية وكان عملا، وتنقله بزمنه إلى زمنك، وتعرضه بقومه على قومك حتى كأنه بعد أن خلقه الله خلقة إيجاد، يخلقه العقل خلقة تفكير.

وهذا كتاب « ابن المقفع » قد وضعه الأديب عبد اللطيف حمزة، وحاول فيه هذه المحاولة، واجتهد في إدراك تلك الغاية، فأخذ كاتب العربية بالقول من جميع جهاته، وتناوله من كل ناحية يمكن أو تصح أن تلابسه، وكان أن جرى في ذلك على مذهب الناقد الفرنسي المشهور « تين » الذي يرى أن الكاتب صنيعة لعوامل ثلاثة: « الجنس، والبيئة، والزمان » ولذلك فقد تكلم عن شعب ابن المقفع وعصره كلاماً مستفيضاً شاملا، ثم تناوله من جهة شخصيته فتكلم عن حياته ولونه السياسي ومصرعه وأخلاقه ومكانته ونظرته إلى المثل الأعلى وزندقته وما قيل فيها، ثم انتقل إلى الكلام عنه في فنه وعبقريته، وعرض له مصلحاً اجتماعياً وكاتباً له أسلوبه وطريقته، واهتم بتحقيق آثاره وخص بعضها بالتحليل والدرس، وأطال القول خاصة في كليلة ودمنة، ثم ختم كتابه بالقول في الأثر الأدبي لابن المقفع، أثره في الشعراء وأثره في الكتاب، وأثره في القصة، وأثره في العقل الشرقي بوجه عام

فالأديب الفاضل قد توسع للموضوع حق التوسع، ودخل عليه من كل ناحية يمكن أن تتصل بابن المقفع، وهو في كل ناحية للقول يعني كثيراً بأن يستعرض آراء السابقين في الرجل فيناقشها مناقشة حادة عنيفة، ينتهي من ورائها إلى نقض ما يراه جديراً بالنقض، وإلى تأييد ما يراه حقيقاً بالتأييد، ثم يتقدم برأيه الشخصي محاولا أن يحتج له ما وسعته الحجة، وأن يتلمس له ما يمكن أن يكون هناك من دليل، ولست أزعم لك أني معه في كل ما انتهى إليه من الرأي، ولكني — كما يقول الأستاذ أحمد أمين — قد أخالفه في بعض ما ذهب إليه من النتائج، وقد أخالفه في طريقة عرض بعض الفصول والأبواب، وقد أخالفه في تعميم الحكم أحياناً حين يحسن التخصيص[1] — بل إني لأراه قد يفرض الرأي في بعض الأحيان فرضاً ولو لم يقم عليه شبه دليل.

ومثال ذلك ما نقله عن أستاذه طه حسين (ص ٣١) من « أن صلة ما لابد موجودة بين أشعار صالح بن عبد القدوس وأبي العتاهية، وبين شاعر يوناني قديم هو آبيدوس عرف بفن من فنون الشعر اليوناني هو فن الشعر التعليمي؛ ثم قال: « وعندي أن ليس هناك ما يمنع العباسيين من أن يتصلوا (كذا) بهذا الفن من فنون الشعر الذي لا يتعارض والدين، ولكني لا أعلم كيف تسنى لهم هذا الاتصال وليس في المصادر العربيـة ما يدلنا على ترجمة لهذا الفن الشعري ولا لغيره من الفنون الشعرية عند اليونانيين ».

والواقع أن الدكتور طه قد ألقى رأيه فرضاً من غير دليل، وهو رجل يدرس الأدب بالفرض والتخمين؛ ولا شك أن الأديب حمزة قد تورط إذ أخذ برأي أستاذه هذا وتابعه على مذهب « ليس ما يمنع[2] » وإني لأعجب كيف يقول: إن صلة ما لا بد موجودة بين شاعري العربية والشاعر اليوناني، مع أنه « لا يعلم كيف

---

(١) مقدمة الكتاب للأستاذ أحمد أمين

(٢) كانت « ليس ما يمنع » هذه من أدلة الدكتور في كتابه الشعر الجاهلي فتنادر عليه به الناقدون وكانت في قلم الرافعي سخرية وتهكما

تشى لم هذا الانفصال وليس فى المصادر العربية ما يدلنا عليه »

هذا ولقد تورط حضرته مرة أخرى فى مطاوعة أستاذه ، إذ رأى (ص ٨٠) أن السبب الوحيد أو من الأسباب فى قتل ابن المقفع « رسالة كتبها توشك أن تكون برنامج ثورة موجهة إلى المنصور وهى رسالة الصحابة » قال : « وفى هذه الرسالة نجد تشريعاً جديداً من عمل الكاتب يقترحه على الخليفة ليعمل به فى أمور شتى كان أهمها أمر القضاء » والذى نراه أن رسالة الصحابة على ما ينطق به موضوعها ليست برنامج ثورة ، ولكنها فى الواقع برنامج إصلاح رفعه الكاتب إلى الخليفة ، لأن فيه توطيداً للملك ، وتقوية لنفوذه ؛ وكأنى بالكاتب قد كتب هذه الرسالة يريد بها المثوبة عند الخليفة . والواقع أن الأديب حمزة قد أبعد كثيراً فى تلمس الأسباب التى أودت بحياة ابن المقفع وانتهت به إلى تلك النهاية الأليمة ؛ مع أن السبب ظاهر واضح ... وهل قتل الرجل غير « السياسة » قاتلها الله ؟! تلك التى طالما طاحت برقاب وهوت برؤوس ، كمثل ما صنعت بعبد الحميد الكاتب وببشار بن برد وغيرهم من الكتاب والشعراء

وثمة أحكام تخالف المؤلف فى الأخذ بها ، فأنا مثلاً لست معه فى تصحيح تلك الرواية التى نقلها عن إسلام ابن المقفع (ص ٥٦) ولا فى تلك التى أثبتها عن معارضته للقرآن ، كما إنى لست معه فى أن ابن المقفع « أوذى فى سبيل حرية الفكر » وأنه كان « عدواً للعرب يسخر منهم » وأنه كان « زنديقاً ملحداً » إلى غير ذلك من الأحكام التى يتلبسها المستشرقون للرجل بالحق والباطل . ولقد كان فى تقديرى أن أناقش الأديب حمزة الرأى لولا أنى رأيت المجال محدوداً ، وأنى لست بصدد الكلام على ابن المقفع ، ولكنى بصدد القول فى « كتاب » ...

بقى القول فى أسلوب الكتاب وهى ناحيــة مهمة فى تقدير الأثر الأدبى وتعيين قيمتــه ؛ ولست متجنياً على الأديب الفاضل إذا تنقصت أسلوبه فى بعض نواحيه ، فهو ينهج نهج أستاذه الدكتور طه فى تكرير اللفظ ، ومرادفة الجمل ، والإكثار من الحشو والاعتراض ، ولكنه لا يحكم ذلك ولا يجوده ، وربما تهافت إلى حد لا يطيقه الذوق ، كأن يقول : « وهذا وهذا وهذا عدا الكتب الأخرى » وكأن يقول : « ويذهب به ما ذهب بنفوذ الاعراب وتقاليد الاعراب وعقول الاعراب » وأكثر من هذا فقد يهضم حق اللغة كأن يقول : « وقد كان القدماء يخشون من وضع الكتب ... ولعلنا نخشى كذلك من وضع الكتب » وكأن يقول : « ثمناً غالياً وغالياً بأكثر مما يتصور الناس » وكأن يقول : « ولعل كتاب الأدب الكبير يكون أصدق مثال لما نقول » و(كان) لا تنقاس زيادتها إلا بين ما وفعل التعجب ولا تكون إلا بلفظ الماضى . وما أريد أن أتقصى وإنما أريد أن أنبه الأديب الفاضل لعله يتلافى هذه الهنوات وأمثالها فى الطبعة القادمة إن شاء الله ، خصوصاً وهو ربيب قسم اللغة العربية فى كلية الآداب ؛ ثم هو يزعم أنه يتصوف تصوفاً علمياً وأدبياً فيعكف على العلم والأدب آصائل النهار وناشىء الأسحار ، وما يليق « بمتصوف » الأدب أن يكون أسلوبه فى شىء من التهافت وضعف التأليف ؛ وما يليق به أن يغنى فى غيره ، وإنما الواجب أن يكون له طريقته ونهجه ، فان الفناء فى شخصية أخرى « فناء »

على أن الأديب حمزة والحمد لله ليس من المكابرين فى قيمة الأسلوب فهو يرى أن « من حق الأسلوب أن يجود وليس كاتب ولا عالم ولا مؤرخ إلا ويجب (؟) أن يصرف فى العناية أقصى ما يستطاع » ولكنه يعتذر عن نفسه بأن « الوقت لم يتسع للتجويد فى الأسلوب » وأنا لا أدرى ما الذى ضيق عليه الوقت ، وما الذى حمله على إخراج كتابه قبل أن يستكمله تجويداً وتحريراً كأنه لم يعلم أن المرء ما زال فى فسحة من عقله حتى يؤلف كتاباً ... وكأنه لم يعلم أن الناقد لا يقدر الأثر الأدبى إلا من حيث هو هو فى مادته ، وليس مما يعنيه مراعاة المسافة والزمن ، ولقد سألت صديقنا الأستاذ الزين الشاعر مرة فقلت له : أراك تتنطس فى حوك شعرك حتى لتقضى فى ذلك الوقت الطويل . فقال : نعم ! لأنى لا أريد أن أفوت ثلمة يتقحم منها الناقد . وإن القارىء ليقرأ وهو مطمئن ، فليكتب الكاتب وهو أكثر اطمئناناً

أما بعد ، فأنا مقدر للأديب حمزة ما صرف من جهــد فى البحث والاطلاع وإخراج هذا الأثر النافع ، ولعل كتابه — على ما أعرف — هو أوفى بحث خرج عن ابن المقفع للآن ، وإنى لأرجو له أبحاثاً أوفى وأتم ، وأشمل وأعم ، فتكون كالإعجاز بعد الارهاص ؟

محمد فهمى عبد اللطيف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

5 me Année, No. 227

Lundi - 8 - 11 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ في مصر والسودان

٨٠ في الأقطار العربية

١٠٠ في سائر الممالك الأخرى

١٢٠ في العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٢٧ « القاهرة في يوم الاثنين ٥ رمضان سنة ١٣٥٦ — ٨ نوفمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهـــرس

ســـــورية !

للدكتور عبد الوهاب عزام

سورية الجميلة ذات الخمائل الوارفة ، والجنات الناضرة ، والمياه الثارّة !

سورية مراح الفؤاد ، ونُزهة الطرْف !

سورية الكادحة التي يجهد أهلها في السهل والجبل يُخرجون بالماء القليل شتى الثمرات ، وينبتون به يانع الجنات ، سوريةُ برَدَى والعاصي !

سورية الصابرة التي وفرت الأيام نصيبها من النكبات والأزمات ، المجاهدة التي تجادل عن نفسها ، وتجاهد عن شرفها ، دفاعَ البطل الأصْيَد الأعزل ، يمضي بجنانه ويده يشق الأهوال إلى غايته ، ويحطم الخطوب إلى طلبته ، مجاهداً مثابراً ، مرزّأً صابرا

سورية التي لم تجف فيها دماء الشهداء ، ولم تنقطع سلسلة النوائب !

سورية التي تفيض بالذكر المجيدة ، والسير الخالدة ، وتمتّ بالرحم الواشجة ، والقربى الواصلة ، والجوار والذمام !

سورية الجميلة الحبيبة ، الكادحة المجاهدة الصابرة ، فجئها السيل كقطع الليل ، ودهمها القضاء من السماء ، فاستحالت جبالها أنهارا ، وسهولها بحارا ! طغى السيل بالناس والدواب ، وجرف القرى والضياع ، وذهب بالزروع والثمار

فهذه جثث الغرقى منثورة فى السهول ، وأنقاض الدور تغص بها الأودية ، وتحت الماء والطين عتاد البائسين ، وذخيرة المساكين ، وما أبقت الأزمات ، من ثياب وأقوات . فانظر إلى الشمل المبدّد ، والأمل الخيّب ، والهلع والفزع ، والفاقة والجزع ! أنظر إلى الدموع الجارية ، والنظرات الهالعة ، والخدود الضارعة ، والعقول الذاهلة ، والقلوب الحائرة ، واستمع زفرات الأحياء على الأموات ! وبكاء الأولاد أو نحيب الآباء والأمهات ! استمع فكم أنّة كليم ، وآهة يتيم !

إن الشاعر المحزون الواله ليخيل إليه أن مجرى السيل خليق أن يكون مجرى الدمع ؛ ويذكر قول أبى العلاء :

ليت دموعي بمنى سيّلت ليشرب الحجاج من زمزمين

لك الله يا سورية ! تركتك منـذ قليل تعانين ما تعانين ، وارتقبت أن تتطاير الأخبار بما نؤمل من انتعاشك ، وما نرجو من نهوضك ، فما راعنا إلا نبأ السيول الجارفة المدمرة . ولكن فى صبرك وجهادك عزاء ، وكل غمرة إلى انجلاء ؛ وإن وراء هذا الظلام فجرا ، وإن مع العسر يسرا

* * *

هـذه سورية فى نكبتها ؛ فمن ندعو لنجدتها ؟ إن ندعُ العرب فأهل النجدة ، وأولو الحمية ، وحفظة الجوار ، ورعاة العهد ؛ فى قلوبهم الراحمة لهؤلاء المنكوبين رجاء ، وفى قرابتهم العاطفة عزاء ، وفى أيديهم السخيّة ما يخفف البلاء . وهم للبائس خير وزر ، وللاجىء أمنعُ عصَر

وإن ندع المسلمين والنصارى فالذين يأمرهم بالتراحم ويحفزهم إلى المواساة ؛ وإن لإخوانهم فيهم لنُصراء رحماء يجيبون دعوة المضطر ، ويمسحون دمعة المحزون ، ويفرجون كربة المكروب ، أن عليهم أن يمسحوا على هذه القلوب الدامية ، ويرفقوا بهذه الأكباد الواهية

بل أدعو البشر أجمعين والانسانية كلها دعوة عامة شاملة ، وأستنجد القلوب الرحيمة لا أستثنى أحداً ، أن تمد الأيدي الآسية إلى هذه الألوف التى يعوزها القوت واللباس والمأوى

يا معشر الكتاب والشعراء ! كيف تقسو فى هـذه المحنة القلوب ، وتجمد فى هذه الكارثة الدموع ، ويتصمت فى هـذه الفاجعة البيان ، ويخذُل القلم واللسان ؟

إن ما بين دمشق إلى المعرة للسيل غارات ، وللدمار آيات ، وللشعر مقالاً ، وللبيان مجالاً

دمشق العظيمة تستغيث ، والمعرة الخالدة تستنجد ؛ فيا أدباء العربية والاسلام ! أحيوا الهمم واشحذوا العزائم . ويا أحباء أبى العلاء ! هذا شيخ المعرة فى بيانه ، يستنجدكم لجيرانه :

يقول :

كيف لا يشرك المضيقين فى النعـــمة قوم عليهم النعماء ؟

ويقول :

من حاول الحزم فى إسداء عارفة
فليُلقها عند أهل الحاج والشُكر
ومن بغى الأجر محضاً فلينادِ لها
برّا فقيراً وإن لاقاه بالنكر

فالقوا بمعروفكم هؤلاء الأبرار الشكرُ تجمعوا الحزم والخير فى مكرمة . ولا تحقروا ما تسعفون به وإن قل . واستمعوا إليه يقول :

إذا طرق المسكين دارك فاحبُه
قليلاً ولو مقـدار حبـة خردل
ولا تحتقر شيئاً تساعفـه به
فربّ حصاة أيّدت ظهر مجدل

عبد الوهاب عزام

المزاح البـــارد

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كان لنا في المدرسة الابتدائية مدرس لا نراه إلا معبّساً — لا يفتر له ثغر ولا تنبسط له أسارير وجه ، ولا تلمع عيناه بنور البشر ، لفرط ما يزوى ما بينهما ، ولكنه على هذا كان لا يكف عن ركوب زملائه المدرسين ورئيسه الناظر أيضاً بالدعابة التي تجيء أحياناً خفيفة محولة ، وسائغة مستظرفة ، وأحياناً أخرى تكون سمجة ثقيلة لا تطاق . فمن لطيف مزحه أن العادة جرت في المدارس بأن يصوّر التلاميذ مع أساتذتهم في آخر العام المدرسي لتبقى الصور ذكرى لعهد التعلم فصففنا أمام المصور — القصار من أمثالي في الصدر ، والطوال وراءهم ، وجلس المعلمون على كراسي أعدت لهم أمامنا وجيء بكرسي كبير ذي مسندين للناظر ، وكان رجلاً جهولا ولكنه طيب القلب ، وجعل صاحبنا يروح ويجيء هنا وههنا ليسوى الصفوف كما زعم ، ويقدم واحداً ويؤخر آخر ، ويقبل ويدبر ، والناظر قلق يصيح به : « اخلص بقي يا فلان افندي » فيقول : « حالا . حالا . إن الله مع الصابرين » ويمضي فيما هو فيه من التسوية والتعديل . وكانت العادة أيضاً أن توضع خلف الصفوف خريطة أو مصور جغرافي كبير فادعى أنه نسي ذلك وذهب يعدو إلى حجرة المدرسين ثم عاد يحمل مصوراً ملفوفاً وعلقه وأبقاه مطوياً ثم صاح بنا : « الآن انظروا كلكم إلى عدسة المصور » ففعلنا ونشر هو المصور الجغرافي وأخذت الصورة فطوى الخريطة وحملها وذهب بها فأعادها إلى حيث كانت ، وجاءت الصور وأدى كل من رغب في الاحتفاظ بنسخة منها الثمن المفروض ومضى بها إلى بيته فرحاً مسروراً . ثم تأملناها على مهل في البيوت فاذا مكتوب وراءنا بالخط الثلث : « حيوانات الدنيا » ، ولا أحتاج أن أقول أن معلمنا نشر خلفنا مصوراً لحيوانات الأرض من أبقار وجاموس وحمير وخيل وأسود وفيلة الخ لا للكرة الأرضية وقاراتها ...

ومما أذكره في باب المزاح العملي أن واحداً من أصدقائي كاد مرة يخرب بيتي ، فقد زارني فلم يجدني وكنت يومئذ في بيت عتيق له فناء رحيب ، فوقف يصفق وينادي ، فلما قالوا له إني خرجت قال : « سبحان الله العظيم وهل هذا كلام ؟ يشبُك بنات الناس ويهرب ؟ »

وعدت إلى البيت وأنا خالي الذهن مما حدث ، فلما دخلت على أهلي قلت : « السلام عليكم » كما هي عادتي فرأيت أمي تنظر إليّ مقطبة ثم ترخي عينها إلى الأرض ، فالتفت إلى زوجتي فاذا هي تنظر إلى الحائط ولا تحول عينها عنه ، كأنما عليه رسم ساحر ؛ فاستغربت وأنكرت هذا الاستقبال الحافل بالنذر ولكني آثرت التباله ، وأقبلت على أمي أريد أن أقبل يدها فتناولتها فنزعتها بعنف وحولت وجهها عني والدمع متحير في مآقيها فزاد عجبي وقلت : « مالكم ... جرى إيه ؟ » فصاحت أمي بي : « رح .. رح إلى حيث كنت

ووجدت زوجتي لسانها فقالت : « أيوه رح إلى حيث كنت »

فتأملتها ملياً وأنا أحك رأسي وأحاول أن أهتدى إلى سر هذا اللقاء الغريب فلم يفتح الله على بشيء ، فقعدت أمامهما وجذبت وجهيهما إليّ وقلت : « خبراني ما هي الحكاية فما أعرف شيئاً أستحق من أجله أن ألقى منكما هذه الجفوة »

فأفصحت أمي قليلا وقالت : « شف بنات الناس ... »

فقاطعتها : « بنات الناس ؟ أي بنات وأي ناس ؟

قالت : « هل خطبت ؟ »

فوثبت إلى قدمي وصحت : « خطبت ؟ .. خ .. خ .. »

فقالت زوجتي : « ألا ترين كيف يتلعثم ؟ إن هذا إقرار »

فصرخت وأنا أكاد أجن : « أي إقرار ياستي ؟ أين عقلكم يا خلق الله ؟ ألا تكفي غلطة واحدة ؟ »

ولا أحتاج أن أقول أيضاً إني خرجت بحماقتي من ورطة فوقعت في ورطة . فقــد اقتنعت أمي وزوجتي بأن الزواج من أخرى لم يخطر لي على بال ، وإن هذا كان مزحاً ثقيلاً من صاحبي ولكن زوجتي ظلت إلى آخر عمرها تذكر قولي : « ألا تكفي غلطة واحدة ؟ »

***

ومن الفصول الباردة ما حدث مرة في بيت قريب لنا وكان قد دعانا إلى سهرة في مصر الجديدة حيث كان يسكن ، وكان بين الضيوف اثنان من المصريين الذين تعلموا في ألمانيا ، فاقترح أحدهما

أن يدعو صديقاً له من الألمان ليسمعنا قطعة موسيقية ألمانية فكاهية ، وقال إنها : « تميت من الضحك » وأيد زميله قوله ، فقبلنا وذهب رب الدار معهما لدعوة هذا الألماني الذي بُشّرنا بأنه سيميتنا من الضحك وكانت شقته في العمارة نفسها فما لبثوا أن عادوا ومعهم رجل وقور ، ذو لحية كثة ، ووجه رزين ، ونظرة صارمة ، فجعلت أتعجب فيما بيني وبين نفسي كيف يسع هذا الرجل أن يضحك أحداً كائناً ما كان ما يغنيه أو يعزفه . وكان الشابان يكلمان الرجل بالألمانية التي لا نعرف منها حرفاً . وجلس الرجل إلى البيانو وشرع يدق فلم يبد لنا — أو على الأقل لي — أن في الأمر ما يضحك ؛ وكان جاداً وكان وجهه ساهما كأنه يحلم ، وغنى وهو يدق بصوت عميق قوي فالتفت إلى أحد الشابين فألفيته يبتسم فقلت : أبتسم مثله وأستر جهلي باتخاذه قدوة ، وصرت بعد ذلك أخالس الشابين أو أحدهما النظر وأفعل كما يفعلان فإذا ابتسما ابتسمت ، وإذا ضحكا ضحكت ، وإذا قهقها أطلقتها مجلجلة ؛ ولم أكن وحدي في هذا الاحتذاء فقد كان المدعوون مثلي جهلاء — أعني باللغة الألمانية — وقد خطر لهم كما خطر لي أن يحاكوا الشابين . وكنت ربما عجبت لطربنا فقد كان إذا ضحكنا أو قهقهنا رمينا بنظرات حامية فالتفت إلى الشابين مستغرباً ما يبدو عليه من الغضب والغيظ والنقمة فهمس في أذني أحدهما أن هذا هو المضحك .. هذا الجد الصارم على الرغم مما في القطعة التي يغنيها وما في تلحينها من الفكاهة الواضحة فهززت رأسي كأني فهمت وازددت اقتناعا بأن الأمر مضحك ولا شك ورحت أقهقه . ثم استغنيت عن النظر إلى الشابين والاقتداء بهما ورحت أضحك على مسئوليتي كما يقولون وخلعت ثوب الجهل والتقليد ، ولبست ثوب الدعوى العريض الفضفاض

وأخيراً نهض الرجل عن كرسيه وأدار فينا عيناً تقذف بالشرر وخرج مغضباً محنقاً يرطم ويبرجم ونحن نتبادل نظرات الانكار لهذا السلوك العجيب فهل كان ضحكنا يا ترى أقل مما يجب؟ هل خيبنا أمله ببلادتنا ؟ لا بل بجهلنا فقد كان ما يغنيه قطعة مبكية من مأساة مشهورة ، وكان الرجل المسكين يعتز بأدائها على الوجه الصحيح ، فكاد يجن إذ كنا نتلقى ذلك بالهزء والسخرية . وقد اعتذرنا إليه بعد بضعة أيام — لما فهمنا الحقيقة وعرفنا أنها كانت مزحة قبيحة — ولكن المسكين كان قد تعذب ليالي لا ليلة واحدة .

ابراهيم عبد القادر المازني

إلام يسير العالم ؟

طريق الحرب وطريق السلام

بقلم باحث دبلوماسي كبير

إلام يسير العالم ؟ هل يوفق إلى التغلب على أزماته واضطراباته الحاضرة أم يسير حتما إلى حرب جديدة تغمره بالويل ؟ هذا سؤال يتردد اليوم على ألسنة جميع الأمم والافراد ؛ ولكن أشد المتفائلين لا يسعه إلا أن يسلم بأن العالم يجوز حالة من القلق والفوضى لا تبعث إلى الطمأنينة والرضى ، بل نستطيع أن نقول إن العالم يسير اليوم إلى مستقبل محفوف بالنذر والمخاطر ؛ فأينما سرحنا البصر ألفينا الأمم تجيش بالخصومات والمشاكل الداخلية والخارجية وتعاني متاعب العطلة والفاقة والأزمات الطاحنة ؛ وتسودها حالة ظاهرة من القلق والتشاؤم ؛ وفي أمم عدة تقوم نظم عنيفة طاغية تضطرم بروح الثورة على كل النظم والمبادىء القائمة ، وعلى كل العهود الدولية ، وتسحق في الداخل كل الحقوق والحريات العامة وتسلب الفرد كل المزايا والخواص الانسانية ، وتمد الشعوب لمعارك دموية تخوضها في سبيل أحلام ومطامع غامضة من السلطان والسيادة . وفي أكثر من ميدان تضطرم اليوم حروب عنيفة قاسية ، تجني شر الجنايات على شعوب آمنة مسالمة ، وتحصد أرواح البشر بأروع الأساليب والصور ، ولا يجد المضرمون لنارها وازعا يردهم عن جرائمهم لأنهم لا يؤمنون إلا بالقوة الهمجية وخصومهم ليسوا مثلهم على استعداد للالتجاء إليها

هذه هي صورة العالم اليوم ، وهي صورة تحمل على التشاؤم أكثر مما تحمل على التفاؤل ، فلم يبلغ العالم منذ الحرب الكبرى ما يبلغه اليوم من الاضطراب والاضطرام والفوضى ؛ وكل ما هنالك يدل على أنه يجتاز مقدمات العاصفة كما كان يجوزها في سنتي ١٩١٣ — ١٩١٤ ، ولأسباب تشبه في معظمها تلك التي أدت إلى الانفجار في سنة ١٩١٤ ؛ ذلك أن الحرب الكبري قامت لعاملين أساسيين هما الخصومات العنصرية والمطامع والمنافسات الاستعمارية ، وتلك الخصومات والمطامع والمنافسات هي التي تثير

اليوم معظم الأزمات الدولية ، وإليها يرجع بالأخص ما يعانيه العالم اليوم من أسباب القلق والاضطراب والفوضى ؛ فالحرب في الشرق الأقصى بين الصين واليابان ، والحرب الأهلية الاسبانية وما يترتب عليهما من أزمات خطيرة تهدد سلام العالم ؛ والمنافسة الشائكة بين إيطاليا وإنكلترا على سيادة البحر الأبيض المتوسط ؛ وما تدعيه إيطاليا وألمانيا كل لنفسها من حقوق استعمارية ، وما يحفزها إلى المبالغة في التسلح والاستعداد للحرب : كل ذلك يرجع إلى شهوة التوسع والاستعمار ، وإلى المنافسة الاقتصادية والاستعمارية بين أمم كإيطاليا وألمانيا واليابان ترى أنها حرمت دون حق من نصيبها المشروع في أسلاب الأمم الضعيفة وميادين الاستعمار الشاسعة وبين أمم مثل إنكلترا وفرنسا تتمتع كلتاها بأملاك استعمارية ضخمة وموارد اقتصادية عظيمة ، وتحرص كل الحرص على ما بيدها من هذا التراث الذي ترمقه الأمم الأخرى بعين الحفيظة والجشع ، وإلى هذا العامل الاستعماري يرجع أيضاً ما تعانيه الأمم المغلوبة من الآلام والمتاعب المادية والمعنوية ؛ فالاضطرابات الدموية التي تجيش بها فلسطين منذ أشهر ، والحركات القومية التي تجيش بها تونس والجزائر ومراكش ، وما تنزله الأمم الغالبة بهذه الأمم المغلوبة من ضروب القمع المنظم احتفاظاً بسلطانها وسيادتها ، إنما هي أيضاً وليدة هذه الشهوة الاستعمارية التي لا تخبو ، والتي لا تعرف حقاً ولا عدالة ولا أي اعتبار إنساني

ولقد كان غزو إيطاليا للحبشة إحدى هذه الفورات الاستعمارية البربرية ، كما كان غزو اليابان من قبل لولاية منشوريا الصينية ، وكما هو اليوم شأنها في الحرب التي تشهرها على الصين دون رأفة ولا هوادة ؛ ولم يكن موقف الأمم الأخرى بالأمس إزاء الاعتداء على الحبشة ، أو موقفها اليوم إزاء الاعتداء على الصين إلا وجهاً آخر من وجوه المأساة ، فهذه الأمم لا تحاول أن تعترض سبيل الأمم المعتدية لأنها تؤمن دونها بالحق وترغب في الذود عنه ، ولكن لأنها تخشى أن تظفر الأمم المعتدية دونها بغنائم وأسلاب استعمارية جديدة تزيد في ثروتها وقوتها وخطرها

هذا عن العامل الاستعماري ؛ وأما العامل العنصري فيرجع إليه أيضاً قسط كبير في إثارة الخصومات والقلاقل الدولية . ولقد كانت الخصومة السلافية الجرمانية من أهم العوامل التي عاونت إضرام نار الحرب الكبرى ؛ أما اليوم فهنا لك الدعوة الآرية أو دعوة الأجناس الرفيعة والأجناس المنحطة التي تشهرها ألمانيا الهتلرية في وجه العالم ؛ وهنا لك الخصومة الآرية اليهودية التي تذكي ضرامها بكل ماوسعت ؛ ثم هنا لك مشكلة الأقليات القومية التي تتخذ في أوربا الوسطى صوراً حادة تبث الحقد والحفيظة بين الأمم والعناصر المتجاورة ، وتنذر بتكدير السلم من آن لآخر

بيد أنه يوجد في المعترك الدولي الحاضر عامل جوهري آخر لم يعرفه العالم قبل الحرب الكبرى ؛ وذلك هو الخصومة المضطرمة بين جبهتين مختلفتين من النظم والمبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ فالنضال بين الفاشيستية والديموقراطية يشغل اليوم فراغاً كبيراً في المعترك الدولي ، ويثير أزمات دولية خطيرة تنذر بتقويض صرح السلم بين آونة وأخرى . والفاشيستية تذكي الأحقاد القومية والجنسية بصورة عنيفة تثير أعصاب الأمم المختلفة وتحول دون تفاهمها ، وتعمل بكل ما وسعت لتمزيق العهود الدولية ، وتدعيم نظرية القوة الغاشمة ، وجعل الحرب هي المثل الأعلى للأمم ؛ وهي بذلك تحمل أكبر تبعة في خلق الأزمة الدولية الحاضرة ، وإثارة القلق الذي يساور جميع الأمم ، وتكدير جو السلام ، والتمهيد بحركاتها وتهديداتها العسكرية لجر حرب جديدة تبدو نذرها في الأفق حيناً بعد حين

***

هذه الصورة المضطربة المروعة لأحوال العالم رسمها الرئيس روزفلت في خطابه الذي ألقاه أخيراً في شيكاغو وحمل فيه على « نظم الارهاب والانتهاك » التي فرضتها بعض الحكومات على العالم منذ بضعة أعوام ، وعلى تدخل هذه الحكومات تدخلا غير مشروع في الشئون الداخلية لبعض الأمم الأخرى ؛ وعلى غزو الأراضي الأجنبية انتهاكاً للمعاهدات والعهود الدولية ؛ وتساءل الرئيس روزفلت : كيف يقال إننا في أوقات سلم والغواصات تتربص بالسفن الآمنة فتغرقها دون سبب ودون إنذار ، والقنابل تلقى على المسالمين الآمنين ومنهم نساء وأطفال أبرياء دون حرب ودون مبرر من أي نوع . هنا لك أمم تزعم أنها تطلب الحرية وتقدسها ولكنها تنكرها على الأمم الأخرى ؛ وهنا لك شعوب بريئة تضحى لتحقيق شهوة سلطان وسيادة لا تبررها أية عدالة

أو أى اعتبار انسانى ؛ ومع ذلك فان هؤلاء الذين يلعبون بالنار ويعملون على تكدير السلم لايبلغون فى رأى الرئيس روزفلت أكثر من عشرة فى المائة من مجموع شعوب العالم . وأما التسعون فى المائة الباقية فهى شعوب ترغب فى السلام، وتستطيع بل يجب عليها أن تجد الوسيلة لكى تحقق رغبتها فى صون السلام، وأنه يستحيل عندئذ على أية أمة مسالمة أن تلوذ بالعزلة والحياد من حالة الفوضى والاضطراب الدولى التى يخلقها انتهاك الحقوق

وصوت الرئيس روزفلت هو صوت الأمم الديموقراطية ؛ والدول التى يعنيها ، وهى المنتهكة للحقوق والمعاهدات ، المقدمة على تكدير السلم وعلى الفتك بالآمنين والمسالمين ، هي الدول الفاشستية والاستعمارية ، أوبعبارة أخرى هي ألمانيا وإيطاليا واليابان؛ ولكن الديموقراطية أبدت فى الأعوام الأخيرة كثيراً من ضروب الضعف والتردد ، وبالغت فى التمسك بالألفاظ والوعود ، ولم تحاول أن تؤيد كلمتها بوسائل فعالة إزاء العابثين بالحقوق والمنتهكين لحريات الأمم ؛ واستطاع هؤلاء بما رأوا من احجام الدول الديموقراطية وتخاذلها أن يقدموا على تنفيذ مشاريعهم بجرأة لا مثيل لها ؛ فقد ذهبت الحبشة ضحية لتهاون الديموقراطية ووعودها الخلابة ، واستولت عليها ايطاليا فى غمر النار والدم بينما كانت عصبة الأمم والدول الديموقراطية من حولها تردد أنشودة الحق والمعاهدات والعقوبات الاقتصادية ؛ وذهبت اسبانيا الجمهورية فريسة الدسائس الفاشستية وما زالت تعانى أكثر من عام أهوال حرب أهلية لم تقصدها ، ولم يثر ضرامها ويمدها بالوقود سوى أولئك الذين يرون أن يشقوا إلى أطماعهم طريق النار والدم ؛ وها هي ذي اليابان تتوغل فى الصين وتثخن فى جنباتها وتفني جيوشها وشعوبها دون اعلان حرب ودون مبرر سوى ما ترمي إليه من تحقيق شهوتها الاستعمارية ؛ كل ذلك والدول الديموقراطية تقنع بالاحتجاجات اللفظية وعقد لجان عدم التدخل والمؤتمرات التى لا طائل تحتها

والخلاصة إن الفاشستية المضطرمة تجيش بمشاريعها وتعمل لتحقيق شهوتها فى الاستعمار والسيادة غير مكترثة لما تهدد به سلام العالم من الأزمات والأخطار ؛ ذلك انها لا ترى أمامها سوى طريق العنف والدم ؛ والديموقراطية من جانبها تلوذ بالاحجام والمطاولة وتؤثر التراجع على الاصطدام الخطر ؛ ذلك أنها ترغب عن الحرب وتفتدى سلامها بكل ماوسعت ؛ ولكن النضال يصل اليوم إلى ذروته ، ولا بد أن تضطر الديموقراطية عاجلاً إلى العمل إذا لم ترد أن تفلت القيادة من يدها وتغدو تحت رحمة الفاشستية المتوثبة . فماذا يكون مصير السلام يومئذ ؟ وهل يؤدي الاصطدام إلى الانفجار الخطر ، أم تستطيع الديموقراطية بما تملك من وسائل الضغط المادي والمعنوى أن تقف هذا التيار المتوثب في الوقت المناسب فتنقذ بذلك سلامها وسلام العالم ؟ يقول لنا العلامة فيريرو ، وهو من ثقات التاريخ والسياسة : إن ماتعانيه أوربا الآن من الاضطراب والفوضى يشبه ما عانته منهما على أثر عقد معاهدة ڤينا عقب سقوط نابوليون ؛ ومعاهدة فرساى تشبه معاهدة ڤينا فى فساد الأسس والمبادىء التى قامت عليها ؛ وان الأزمات والأخطار العسكرية التى تواجهها أوربا ترجع إلى مايسميه فيريرو « باستعمار الخوف » ؛ فان ايطاليا واليابان تنحدر كل منهما من مغامرة إلى أخرى للاحتفاظ بما كسبته من الأراضي من طريق غير مشروع على نحو ما كان يفعل نابوليون عقب كل انتصار من الاندفاع فى مغامرة جديدة للاحتفاظ بثمرة انتصاره .

ويرى فيريرو أن ألمانيا التى استطاعت حتى الآن أن تجتنب هذه المغامرات يمكن أن تمد عاملاً جوهرياً فى تأييد السلم إذا رأت أن تجانب هذا التيار المتوثب وأن تضع يدها فى يد الديموقراطية الغربية ؛ أما اذا اندفعت ألمانيا فى هذا التيار فويل للسلام عندئذ .

هذا ما يراه العلامة فيريرو ، ونحن معه فى ان الخطر على السلام إنما يرجع بالأخص إلى نزعات الفاشستية ومطامعها الاستعمارية ، وان مستقبل السلام منوط بموقف الديموقراطية ، فاذا هي يئست من الحلول والوسائل السلمية ، واستطاعت عندئذ أن تعتزم أمرها ، وأن تقابل الوعيد بالوعيد والضغط بمثله تؤيده استعداداتها ومواردها الضخمة ، فان تيار الفاشستية لا يلبث أن ينكشف ويخبو . وفى رأينا أن الساعة قد حلت لأن تسلك الديموقراطية هذا المسلك ؛ وفى يقيننا انها فاعلة بلا ريب .

(***)

التشريع والقضاء

فى العهد الفرعونى

للأستاذ عطية مصطفى مشرفة

— ٣ —

كان يفصل فى القضاءين المدنى والجنائى حتى القرن الثالث عشر ق . م بمصر هيئة واحدة ؛ وفى عهد الأسرة التاسعة عشرة وهى من الرمامسة فصل القضاء المدنى من القضاء الجنائى وأصبح لكل منهما محكمة خاصة به فى الاقليم . وكان رأس المحكمة المدنية فى طيبة رئيس كهنة (آمن) ويجلس معه عشرة من الكهنة ، أما المحاكم الجنائية فكان رأسها « دجا » أى ممثل السلطة التنفيذية فى الاقليم ورئيسه ، وكان يساعده موظفان كبيران هما بمثابة محلفين، ونائب الملك « نم » الذى كان يمثل النيابة . أما الدعاوى المختلطة أى التى تجمع بين طرفين أحدهما مدنى والآخر جنائى فكانت المحكمة الجنائية تنظرها مضافاً إليها ثلاثة قضاة مدنيين يكونون فى الأكثر من رجال الدين . وعند ما تدخل الكهنة فى القضاء فى القرن الحادى عشر ق . م فى عهد الأسرة العشرين زاد نفوذ الإله آمن فاستفتى فى المسائل الجنائية ثم عظم نفوذه بمضى الزمن حتى أصبحت فتاوى آمن فى خلال حكم الأسرة الحادية والعشرين أحكاماً نافذة فى جميع الأقضية التى تعرض عليه جنائية أو مدنية أو تجارية أو إدارية ؛ فكان يعرض عليه المتهمون ليفصل فى قضاياهم بالوحى المنزل من عنده ، وكان يدير الاجراءات بحضرته رئيس الكهنة فيقدم كتابين أحدهما يثبت البراءة والثانى يقرر الادانة ، فإذا وضع الإله إصبعه على الأول برئ المتهم ، وإذا وضع الإله إصبعه على الثانى أدين . وأحياناً يحضر المتهم أمام تمثال آمن ثم يذكر رئيس الكهنة الوقائع أمام التمثال عند ما ينتهى من ذكر تلك الوقائع يسأل رئيس الكهنة الوثن إن كان المتهم مجرماً أو بريئاً ، فإذا هز الإله رأسه بالنفى برئ المتهم ، وإن هز الإله رأسه بالايجاب اعتبر المتهم مجرماً

قال الأستاذ ارون بيفن فى كتابه «مصر فى عهد البطالسة» عن آمن : « وكان الوثن كسكل أوثان التنبؤ مجبولا بحيث يحدث عدداً محدوداً من الاشارات ، فيحرك رأسه أو يلوح بذراعيه أو يشير بيديه ؛ وكان يعهد إلى كاهن أن يشد الحبل الذى يحرك الوثن ثم ينطق بالنبوءة ؛ وكان الجميع يعرفونه معرفة تامة ، ولكن لم يدر بخلد أحد أن يتهمه بالغش أو يرميه بالخداع فإنه كان عندهم الأداة التى يستخدمها الإله وبالأحرى آلة سيره ، وكان الروح يلبسه فى برهة خاصة ، والروح هو الذى يحرك الصنم ويحرك شفتى الكاهن بما يريد ؛ فالكاهن يعير يديه وصوته ، ولكن الإله هو الذى يقدر أعماله ويوحى إليه بما يخرج من كلمات» وإذا كان المتهم غير معروف على وجه التحديد عرض المتهمون جميعاً على تمثال آمن الذى يشير بيده إلى المتهم منهم ، أو يقول عنه مثلا « هذا هو السارق » . فإذا أنكر المتهم ما اتهمه به آمن أعاد آمن اتهامه ، فإذا صمم على الانكار بعد ذلك سيق إلى السجن وهناك يلقى من العذاب ما يجعله يقر بجرمه ، إذ لا يمكن نسبة الكذب إلى الإله آمن . وعند اعترافه بأنه مذنب يساق مرة أخرى إلى آمن الذى يسمع اعترافه ويصادق عليه ، وعندئذ يقدم المتهم للمحكمة الجنائية التى تحكم عليه بالعقوبة نتيجة لهذا الاعتراف . غير أن نفوذ الآله آمن قد ضعف فى عهد الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين وهما من اللوبيين وأصبح الرجوع لفتاواه شكلياً بحتاً ، ثم استرد بعض نفوذه بين سنتى ٧٢١ و ٧١٨ ق . م

ولما تبوأ الملك بوخوريس مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين عرش مصر أزال التدخل الدينى وأعطى للقضاء صبغته المدنية السابقة ؛ غير أن استيلاء الأثيوبيين على مصر وانتمائهم لآمن أعاد له سلطته القضائية السابقة ولكنها ضعفت فى عهد الملك أمازيس (أحمس الثانى) أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين ، وبذلك قضى على سلطة آمن قضاء مطلقاً ، وأعاد للقضاء صبغته المدنية التى كان عليها زمن الملك بوخوريس فأعاد أمازيس المحاكم الجنائية والمدنية وفق نظام رمسيس الثانى (رمسيس الأكبر) أى إلى ما كانت عليه المحاكم فى القرن الثالث عشر ق . م وبذلك أعيد الاختصاص فى المواد الجنائية إلى محكمة دجا Dja وفى المواد المدنية إلى محكمة القضاة الكهنة كما كان متبعاً من قبل . ولم يحرم أمازيس الكهنة من الفصل فى القضايا المدنية لسببين : أولهما أن

القضايا المدنية تتطلب علماً ومعرفة بالقانون ، والثانى أن هذا العلم وتلك المعرفة لم يتوفرا إلا لرجال الدين إذ ذاك ، ولكن أمازيس ألغى طريقة الفصل فى القضايا بواسطة الوحى الديني ، أما القضاء الجنائى فنظراً لبساطته وسهولته بقي الفصل فى أموره للملك إما بنفسه وإما بقضاة يعينهم

ولقد فصل قدماء المصريين بين وظيفة القضاء ووظيفة الاتهام إذ ظهر منذ الأسرة الثانية عشرة وظيفة لسان الملك وكان شاغلها بمثابة النائب العام فى زماننا ؛ وكانت مهمته أن يباشر التحقيق وأن يقيم الدعوة العامة وأن يأمر بالقبض إن وجد لذلك مسوغاً . وكانت له بجانب وظيفته القضائية هذه اختصاصات أخرى مالية وإدارية . وقد أمكننا أن نعرف وظائفه على وجه التحديد فى عهد الرعامسة أى فى عهد الأسرة التاسعة عشرة . وكانوا يسمونه تارة « لسان الملك » وأخرى « فم الملك » وثالثة « زيم » وكما أن للنائب العام فى زماننا وكلاء يباشرون الدعوى نيابة عنه فى الجهات الأخرى المختلفة كذلك كان « للسان الملك » وكلاء يسمون دِنُو Denu فى الأقاليم وكانوا يباشرون الدعوى العامة أمام محاكم الأقاليم الجنائية ، وكان عضو النيابة يدخل فى صميم تشكيل المحكمة الجنائية عادية كانت أم غير عادية . وكان يثابر على حضور الجلسات ، وكان يذكر اسمه عقب القضاة وقبل الكتبة فى محاضرهم ؛ وكان قدماء المصريين يعترفون للمؤسسات الدينية بالشخصية المعنوية وبذلك سمحوا لها بالتقاضى أمام المحاكم . وكان للمحكوم له أن يحجر على أموال المحكوم عليه . وكان للأفراد حق رفع الجنحة المباشرة إلى المحكمة إذا لم تقم النيابة العمومية أى « لسان الملك » ووكلاؤه برفع دعاويهم

ووجد بكل محكمة قلم لتلقى العرائض وآخر للمحفوظات تحفظ به سجلات الأحكام ، وكانت محاضر جلسات المحاكم الجنائية العادية مكتوبة ومطولة تشمل كل التحقيقات من أسئلة وأجوبة واستجوابات وشهادة شهود إلى غير ذلك ، وكان يقوم بتدوينها كتبة يدخلون فى تشكيل المحكمة

وقد فطن قدماء المصريين إلى ما فى المرافعات الشفهية من ضرر قد يصيب العدل فى صميمه نتيجة لتأثر القضاة بفصاحة اللسان فتفادوها وجعلوا معظم الاجراءات مكتوبة ؛ وكان للمحكمة أن تنتدب الخبراء لمعاينة مكان الحادث أو لإجراء الكشف الطبى على المجنى عليهم وفحص المتهمين

وقد أشفق قدماء المصريين على قضاتهم من فصاحة المحامى وحسن دفاعه وسحر بيانه وما قد يؤدى إليه ذلك أحياناً من الاغضاء عن الحق والقانون فلم يقروا نظام المحامين عن الخصوم أمام المحاكم واعتقدوا أنه قد يكون فى بلاغتهم وفصاحة لسانهم وحسن منطقهم ما يغشى على الحقيقة فيتأثر القضاة بهم لما فى البيان من السحر . وكانت الطلبات تعرض فى مذكرات ، ولكل من طرفى الخصوم الحق فى الرد عليها كتابة ، فيشرح المدعى دعواه بالتفصيل في عريضة دعواه ويرفق بها كل مستنداته ثم تعرض تلك العريضة على المدعى عليه ليطلع عليها ويرد عليها بمذكرة مكتوبة معترفاً أو منكراً بعض أو كل ما جاء فيها ، ثم تترك الفرصة مرة أخرى للمدعى للرد على ما جاء بمذكرة المدعى عليه ويترك لهذا الأخير فرصة الرد الأخير على المدعى بمذكرة ثانيـة فكان المدعى عليه هو آخر من يقرأ له القاضى وكان يحصل هـذا التبادل فى المذكرات قبل الجلسة . ولا تصدر المحكمة حكمها إلا بعد الاطلاع على المستندات المقدمة من طرفى الخصوم ونظر جميع الأوراق المختصة بالدعوى وتمام المداولة واستشارة قوانين الدولة . وكان التأني فى إصدار الحكم من أهم صفات القضاة حتى لا تجرهم العجلة إلى السقوط فى مهاوى الخطأ . وكانت جلسات المحاكم تعقد علانية ويؤدى الشهود يميناً قبل أداء شهادتهم أمام المحكمة فى الدعاوى الجنائية والمدنية . أما صيغة اليمين فهى « أقسم بآمون وبالملك أن أقر الحقيقة ولا أقول كذباً ؛ فلئن كذبت فلتجدعن أنفي ولتصلمن أذني ولأنفين إلى إتيوبيا أو إلى خارج الحدود » ووجدت السجلات العقارية التى كانت تسترشد بها المحاكم إذا فصلت فى نزاع عقارى فإذا شعرت المحكمة بأن المستندات المقدمة من الخصوم والمثبتة للملكية غير كافية لإثبات الحق أمرت بإجراء تحقيق تكميلى تسد به هذا النقص ثم تصدر حكمها مشتملا على خلاصة أقوال الطرفين فى النزاع والأسباب ونص الحكم . أما المحكمة الخاصة التى كانت تنظر فى القضاء الجنائى غير العادى فكانت تصدر حكمها بغير إعلان الأسباب . وكانت التحقيقات فيها سرية ومحاضرها موجزة . وكانت فكرة العقاب عند قدماء المصريين لا تنطوى على

الانتقام الشخصي وكانوا يعتقدون أن حق معاقبة المجرم وتنفيذ العقوبة فيه مفوض إليهم من القوة الإلهية. وقد عرف قدماء المصريين الحبس الاحتياطي وصرحت به قوانينهم

بعض نماذج من التشريعات المصرية المدنية والجنائية في قوانينهم

قلنا إن ديودورس الصقلي امتدح القوانين المصرية، وقال إنها جديرة بالإعجاب وإن العالم أعجب بها فعلاً. ويؤسفنا أن نقول إن هذه القوانين التي بهرت العالم برقيها والتي غذته بمبادئها مازالت دراستها مهملة في بلادنا. وإنه ليعز علينا أن نعترف بأنه على الرغم من أهميتها التاريخية والفنية لم نعثر في بحثنا إلا على بعض المصادر الأوروبية والعربية التي بحثت فيها. جمع «تحوت» إله القانون القوانين المختلفة بعد أن وضعها لقدماء المصريين، وكان ذلك في سنة ٤٢٤١ ق. م؛ إلا أن هذه القوانين قد بعثرت وشتت أغلبها بعد ذلك، ولم يتمكن من جمعها إلا الملك بوخوريس الذي عدلها وأفرغها في مجموعة واحدة نظم بها الأحوال الشخصية والمعاملات المدنية. كانت التعهدات على اختلاف أنواعها قبل الملك بوخوريس تحصل مشافهة إذ لم تكن كافة العقود تحصل بالكتابة وإنما كانت تتم بيمين أو «صنك» يصدر من المتعهد للمتعهد له بأنه سيؤدي إليه ما اتفقا عليه، ثم أطلق لفظ «صنك» بعد ذلك على العقد نفسه. ونحن نرجح بأن لفظ «سند» هي بعينها «صنك» المصرية القديمة. وكان يشترط حضور عدد من الشهود ذكوراً كانوا أم أناثاً حتى يمكن إثبات العقد. ولم يكن من الجائز تعدد أحد طرفي العقد عندهم فإذا تعدد اعتبروا شخصاً واحداً، ويقولون «تكلم فلان وفلان بفم واحد أو بلسان واحد» وكان لا يترتب على العقد إلا التزام من طرف واحد؛ وكان إذا تخلف المتعهد عن الوفاء بما التزم به أكره على الأداء بالعقاب البدني مع الحكم عليه بغرامة تعادل نصف قيمة الحق المدعى به؛ ولم يكن التقادم معروفاً في القانون المصري القديم قبل عهد الملك بوخوريس

قلنا إن الأصل في العقود ولا سيما البيع وهو من أهمها أن لا يكون البائع والمشتري أكثر من واحد، لأن تعدد طرفي العقد لم يعترف به قانونهم فكان إذا تعدد البائعون اعتبروا متضامنين فيما بينهم، وإذا تعدد المشترون وكانوا من عائلة واحدة صار أرشدهم وكيلاً عنهم. وكان يترتب على البيع المنعقد باليمين أمام الشهود أن يلتزم البائع بتعهدين أولهما تسليم سندات الملكية وثانيهما منع كل تعرض للمشتري. واشترطوا ذكر هذين التعهدين صراحة في العقد بادىء ذي بدء ثم عدلوا عن ذكرهما صراحة في العقد عند ما كثر استعمالها وأصبحا يفهمان ضمناً في العقد. وقسم القانون المصري القديم الأموال إلى منقولة وثابتة، وقسم الأموال المنقولة إلى جامدة وحية. وكانت تلك الأموال بجميع أقسامها السالفة الذكر ملكاً لملك مصر يمنحها لمن يشاء؛ وقد احتفظ الملك في الأموال الثابتة بحق الرقبة وأعطى حق الاستغلال لمن يشاء من رعيته

«يتبع»

عطية مصطفى مشرفة

الطريقة العلمية

في الحضارة والحياة

للأستاذ محمد أديب العامري

كيف ذهب العمر؟

يرى بعض علماء الحياة أنه قد مر الآن ما يقارب مليون سنة على وجود الانسان على وجه الأرض. ويرى بعضهم أن هذا كثير فينزل العدد إلى نصف من ملايين السنين. ومهما يكن من أمر الخلاف بين العلماء في ذلك فالمؤكد عندهم على كل حال أن عمر الانسان على الأرض لا يقل عن ربع مليون

ومن المعلوم أنه قد مضى الجزء الأكبر من هذه الحقب الطويلة دون أن يكون للانسان في المدنية طول يذكر، ولكن عشرة آلاف السنة الأخيرة شاهدت من تفجر عقل الانسان ما تقر به الآثار إلى اليوم، كما أن النصف الأخير فقط من هذه الآلاف العشرة هو الذي يعرفه إنسان التاريخ في حضارة الدنيا

لحضارات العصور الحجرية والفلزية وحضارات الآشوريين والمصريين واليونان والرومان والهنود والصينيين والفرس والعرب والحضارة الحاضرة، هي النتاج البشري المهم الذي نذكره حين ندرس التاريخ

ومن الواضح أن المدنية الحاضرة أزهى هذه الدنيات وأعلاها وأكثرها ديموقراطية وتمهيداً لرفاهية الانسان وسعادته

وأن هذه المدنية الزاهية العظيمة قد ظهرت ونمت ، ولا تزال تنمو بنمو أعظم ، فيما لا يزيد على الـ ٢٥٠ سنة الأخيرة . ومع ذلك كله فما زال مفكر مثل ويلز يقول : « إننا لم نشهد بعد الفجر الأول الباكر للتاريخ الانساني »

وليس من غرضنا أن نبحث هذا الآن ، ولكن ويلز محق ، فليس تاريخ البشر فى طابعه الأكبر إلى اليوم إلا سلسلة من المجازر الوحشية والمجاعات والتدمير والغارات والسطو . فان يكن هذا جديراً بعقل الانسان وفكره فان فجر الحضارة قد طلع منذ أيام رجل جاوى القردى . ولعل النوع الانسانى إذ ذاك كان أشد حضارة فقد كان أشد ضراوة وأشد فتكا ؛ وإلا فان تاريخ النوع البشرى لم يخط منه إلى الآن شيء يستحق ألا يمحى

ومع ان الواقع يؤيد ما يقول ويلز فاننا نحب أن نحسب للمائتين والخمسين سنة الأخيرة حساباً خاصاً ؛ فقد خطت فيها الحضارة البشرية خطوات إن تكن راجفة فانها واعية ؛ وإن تكن فى بعض صفحاتها مخزية ، فانها فى بعضها لامعة مشرقة . فقد رافق هذه المدنية متاعب وآثام نحن نعانى اليوم أشد أدوارها مرارة ، ولكن المؤكد لدى التدقيق هو أن هذه المتاعب ستزول إذ تمحوها الأفكار البشرية العالية يوم تصفو المدنية نفسها للنوع الانساني خالصة من كدرها وويلها . والنظر فى هذه المتاعب لا يهمنا فى بحثنا الحاضر كذلك ، وانما يهمنا هنا إزالة الريب الذي يحدثه بعض الكتاب إذ يقولون إن المدنية الحاضرة لم تكن أشمل المدنيات وأرقاها وأبعدها تمثيلاً لاتجاه التطور الانسانى فى معارج التقدم

فحساب الـ ٢٥٠ سنة التي نمت فيها هذه المدنية بالنسبة إلى ربع المليون كحساب سنة فى الألف . فما الذى ضيع على تاريخ البشر هذه السنين كلها فجعلها هباء أو كالهباء ؟

إن السر فى ذلك هو « الطريقة العلمية » فهي طابع المدنية الحاضرة والعامل الأساسي فى سرعة خطاها وسعتها

فما هي هذه « الطريقة العلمية » ، وكيف أدت إلى اسراع خطوات النهضة الحاضرة ، وكيف يمكن أن نفيد منها فى حياتنا الاجتماعية والسياسية اليومية ؟

كيف كان الناس يفكرون ؟

كان الناس من قبل يؤمنون بالأرواح يصورونها لأنفسهم ، ويثقون بالأذكياء منهم (العلماء) ثقة عمياء . فقد كفى أن يقول أرسطو إن الهواء عديم الوزن حتى مضى قوله هذا صحيحاً دون ريب قروناً عديدة . وقد كان يكفى هوميروس أن يقول ان الأرض مستوى مستدير حتى يؤمن الناس بقوله دون تحقيق أو يعارضوه دون تحقيق . لم تكن نظرة الناس قائمة على التجربة والاختبار ؛ ومع أن النهضة العربية كانت أحدث النهضات ومن أبعدها قياماً على البحث والتحقيق ، فقد تخللها جدل غيبي عابث كثير وإيمان أعمى كثير . فاذا قال القزويني إن الهواء ينقلب ماء إذا برد كان على الناس أن يصدقوه ، لأنه يؤكد أنه ما افترى شيئاً مما أورد فى « عجائب المخلوقات »

فاذا كان الذى يقرر الحقائق العلمية لا يسأل عن براهين وأدلة ، راده الغرور أكثر الأمر ، وجال ذهنه فى الغيبيات والعميات يخترع للناس ويضع . وإذا كان من حق كل متكلم أن يتكلم فى رأيه عن أمر لم يخبره بالتجربة كان كل روائى الذهن عالماً مدهشاً ، وساد فى الناس سفسطائيوهم وكذابوهم والمتجرئون منهم على الحق والعلم

وهكذا بطأت خطوات العلم فى التاريخ منذ عرف الانسان إلى ما قبل القرون الثلاثة الأخيرة ، حتى وصل الناس إلى مفتاح هذه السرعة الهائلة فى الوصول إلى النتائج العملية والآراء النظرية فى مدنيتنا الحاضرة . هذا المفتاح هو الطريقة العلمية ، فكيف بدأت « الطريقة العلمية » بدءها الواضح فى تاريخ الناس ؟

كيف يفكر العلماء ؟

يروى لأرسطو قوله : « لو استطعت أن أجد نقطة فى الكون تصلح محور ارتكاز لرفعت الأرض كلها على رافعة » . وقال ديكارت شيئاً مثل ذلك ، ولكنه كان أبعد أثراً فى تاريخ الفكر البشرى . قال : « لو كنت أستطيع أن أجد حقيقة لا ريب فيها لبنيت عليها كل العلوم » — حقيقة واحدة فقط ! هذا يدلك على مبلغ شك الرجل « العلمى » وحذره فى كل ما يرى ويسمع . فليس شيء عنده حقاً حتى يتضح بالوسائل التى تدفع

كل شك ؛ وليس شيء ينفي إلا بعد براهين النفي كاملة . فوقف الرجل العلمي تجاه المسائل هو موقف الحياد التام

وإذا لم يعتبر ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) نفسه أول واضع لأساس الطريقة العلمية في التفكير البشرى الفلسفي ، فلا ريب أنه من أول الواضعين ، كما يعتبر جاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢) مؤسس الطريقة العلمية التجريبية في العلوم

ويمثل كل من الرجلين في ميدانين من ميادين التفكير البشرى « الرجل العلمي » الذى امتلأت جوانحه بملازمة الصفات التي يتصف بها أمثالها من العلماء

فالرجل العلمي يعشق الحقيقة ويصبر على الوصول إليها . هو ذو عين يقظة حذرة ترى الدقائق في الأشياء المعرضة للبحث والدراسة . وما أشد هذه الخاصة ندرة ! فان عدداً من الناس يشهد حفلا ، فاذا سئلوا بعد انفضاضه عن عدده تشعبت أقوالهم عجباً ، وتداخلت عواطفهم إلى حد يفسد الوصف ويشوه الواقع . فالرجل العلمي قوي الملاحظة صحيحها ، دقيق الوصف لها . قال السير ميخائيل فوستر في خطاب له في رياسة المجمع البريطاني : « يكتفي الرجل ـ الرجل غير العلمي ـ بقوله (تقريباً) و (حوالى) ، أما الطبيعة فليس عندها من ذلك شيء . ليس من طريقها التوحيد بين شيئين مختلفين مهما دقت شقة الخلاف بينهما ، حتى ولو كان الخلاف يقاس بأقل من جزء من ألف من المليغرام أو المليمتر » فكلما أغفل المرء دقائق هذه الفروق بين الأشياء في العلم ضل ؛ ومهما يكن من أمر صراعه واجتهاده في الوصول إلى الحقيقة على أساس هذا الاغفال فإنه مخفق في النهاية . لا محالة أن العلم لا يعرف إلا الدقة المطلقة ؛ والذى لا يصبر على هذه الدقة لا يستطيع أن يكون عالماً . ولم يخلق كل الناس ليكونوا علماء . على أن التمرس بالدقة في الوصول إلى الحقائق أمر لازم في التربية

والرجل العلمي متأن متحفظ ، فهو لا يسرع في إبرام حكمه على شيء حتى تتوفر لديه الأدلة كافية عليه . وإن من أكثر مايهم الباحث هو الوصول إلى استنباطات لجة قائمة على عدد قليل من الحقائق . لا يتعجل الوصول إلى فرض جديد أو نظرية حديثة ليتعجل شيئاً لنفسه ، فان الفرض أو النظرية إذ تنهار فيما بعد تنهار على صاحبها . وهو لا يتحيز إلى نفسه ولا إلى أى فرض أو نظرية . إنه ينظر إلى الحقائق مجردة

والرجل العلمي إنسان واضح صافي الذهن صافي الفكرة . وهو يعي أنه يدرك الأمور على حقائقها . فأنت تعرف أن بعض الناس يؤكدون أنهم يعرفون أشياء على وجه ما ، فاذا الحقيقة انها على وجه آخر . إنهم لا يعرفون متى يعرفون شيئاً ومتى لا يعرفونه . وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا علماء أو تتم لهم ثقافة . وكما أن الرجل العلمي واضح الفكرة فهو صافي العبارة كذلك . إنه حين يعبر عن شيء يعبر عنه بأبسط الكلمات وأوجز العبارات ؛ ومن هنا كانت لغة العلم الصحيحة سهلة . وأثر الأسلوب العلمي في أدب العصر فانتحى السهولة الممتنعة . فالرجل العلمي لا يستعمل لفظة تحتمل معنيين أو جملة تشير إلى مفهومين ، بل تكون عبارته قاصدة واضحة

وبالجملة يكون الرجل العلمي رجل ثقافة وعقلية علمية . فهو بطبعه يحب الصدق والوضوح والايجاز والتدقيق في قبول مايعرض على عقله من حقائق وأقوال

ونجمل فنقول : إن الطريقة العلمية في بحث مسألة من المسائل تقتضي :

١ — أن يجمع العالم من الحقائق والمشاهدات على المسألة التي يبحث فيها جهد ما يستطيع . ويجب أن يتأكد من صحة الحقائق والمشاهدات بالقياس الدقيق

٢ — أن ينسق مايصل إليه من الحقائق

٣ — أن يكون بناء على الحقائق فرضاً يؤول هذه الحقائق جملة

٤ — أن يجرب صحة الفرض بحقائق أخرى . فاذا قوى الفرض أدرك مرتبة النظرية

٥ — ويمكن أن تحيط النظرية بجميع الحقائق التي تبحث عنها بعد تجربة واختبار طويلين فتصبح قانوناً ، وهو أقوى تعبير يجمل الحقائق العلمية

ولنضرب مثلا يوضح الطريقة العلمية :

فالناس يعرفون الآن أن المادة ليست متلاحمة الأجزاء .

فبين أجزاء قطعة من الحديد وإن ظهرت مصمتة فراغ كبير . واضح مثلاً أن بين أجزاء الفلين فراغ يملؤه الهواء أو فراغ مطلق لا شيء يملؤه . فالذي يشاهد أن الفلين يمتص الماء يفكر في الفراغ الذي ملأه الماء ، فيخطر بباله أنه لا بد وأن يكون بين أجزاء الفلين فراغ . فاذا ما لاحظ ان قطعة السكر تمتص الماء كذلك اشتد خاطره بأن هنالك مادة غير الفلين يتخلل الفراغ أجزاءها . فاذا ما لاحظ ان قطعة السكر تذوب في الشاي ترجح لديه ان بين أجزاء الماء نفسه فراغ تملؤه دقائق السكر الذائب . ذلك نمط من الحقائق يجمعها العالم ، ويرافق جمعها في ذهنه فكرة توحد بين المشاهدات التي يقصدها منها . هذه الفكرة هي الفرض

فإذا ما انطلق العالم يفتش عن مواد أخرى ويلاحظ ما إذا كان يفصل بين دقائق أجزائها فراغ ، ويرى أن هنالك كثيراً جداً من المواد يصدق عليه ما خطر له في الفرض أكد فرضه فجعله نظرية

والنظرية التي يمكن أن تستنبط من مثالنا هنا هي أن بين جزئيات المادة فراغ . فإذا صادف العالم المحقق أثناء بحثه مادة كالبلاتين شديدة التماسك لا يبدو للمرء أول وهلة ان بين أجزائها فراغا حاول بكل وسائله الممكنة أن يعرف ما إذا كان هذا المثل يرد النظرية أو يؤيدها . فاذا ردها عاد العالم إلى حقائق أخرى ، فإذا كانت المشاهدات الجديدة غير ممكنة التأويل على أساس النظرية المقترحة سقطت وبحث عن غيرها ، وإلا فأنها تتأيد وتصبح بمنزلة القانون العام .

فأسلوب البحث العلمي واضح العالم بيّن الطريق . وهو يقتضي كما ترى عقلية خاصة وإرادة خاصة وشمولاً خاصاً في النظر لا يتاح لكثيرين . واتباع هذا الأسلوب الواضح هو الذي خطا بالعلم هذه الخطوات الواسعة ، وفسح للعقل البشري هذه الآفاق العجيبة

الطريقة العلمية والحياة

إن أسلوب التفكير العلمي نافع جداً في العلاقات بين الناس . والتفصيل في ضرب الأمثلة على ذلك يحمل على الإطالة أكثر مما أطلنا .

فنحن نشاهد ضعف قوة الملاحظة في التلاميذ والناس . والشرق لا يختلف عن الغرب ، لكن الغربيين أخذوا بأساليب البحث العلمي زمناً فقويت عندهم ملكة المشاهدة واتزنت عقول كثيرين منهم وترفعت عن الأوهام والأخذ بالظواهر ؛ وكان لهذا أثر كبير في حياتهم السياسية والاجتماعية . ولا ريب أن أخذنا بأسباب المدنية الحاضرة سيؤدي بنا ما أسرعنا باتخاذنا هذه الأسباب إلى الغاية نفسها ؛ وفي هذا الخير كل الخير

فكثيرون منا مازالون يأخذون بظاهر الأقوال سواء أجرت هذه مجرى حقائق العلم أو حقائق الحياة . ويعزى كثير من الركود والسوء في مجتمعنا إلى هذا الأخذ البسيط . يقال لنا مثلاً إن مرافق الحياة والانتاج في بلادنا ضعيفة ، فنأخذ بظاهر هذا القول ونتقاعس عن وسائل الانتاج العلمي فيشتد بنا الخوف والتراحم

ومن مظاهر حياتنا اتهامنا الشديد للذين يصيبون منا شيئاً من النباهة . وهذا خلق عام في الناس ، ولكن شدته عندنا ظاهرة . فما إن ينبغ نابغ حتى تدور الألسنة فيه بالكذب والافتراء . ومما يدل على ضعف الروح العلمية في الناس تصديقهم بمفتريات وادعاءات لا تنطبق على الواقع ولا يصدقها العقل . وهم يأخذون بهذه المفتريات بضعف النظرة العلمية فيهم . فالذي يحملك على رأي في إنسان لم تعرفه أنت بنفسك كالذي يحملك على القول بأن الهواء غير ذي وزن دون أن تزنه — كلا الأمرين يدل على فقدان النظرة العلمية

« السلط » محمد أديب العامري

أبو الفرج الببغاء

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

— ٢ —

قدمت طرفاً عن نشأة أبي الفرج وعن حياته الأدبية ، فلأقدم ظرفاً من شعره ونثره محاولاً أن أكشف في أثناء عرضي لها عن مكنون معانيها ، وروائع أخيلتها ، بما يقر عين الكاتب ، وينقع غلة الشاعر ، فأحيي شعراً كاد أن يندثر ، وأذيع أدباً قد غمر ، بينا صاحبهما كان في عصره غمر البديهة وفير النباهة . ولا أكاد أفهم لماذا ضن الزمان على أبي الفرج بما وهبه لمن هم أدنى منه مكانة وأقل قدراً ، ممن ذاع في عصرنا أدبهم ، وصارت ملء الأسماع والأبصار أسماؤهم ؛ إلا إذا اعتقدت أن للأدب جداً قد يكون لامعاً فينشر تاريخ صاحبه ، وقد يكون خابياً فيأفل بأفوله صيت كاتبه ؛ وهذا هو نصيب أبي الفرج من أدبه ، ولكني أرجو أن أقضي حقوقاً نام قاضيها ، وأوفي ذكر أيادٍ على اللغة لم تجد من يوفيها ، فيتنبه علية الكتاب ورافعو ألوية الأدب في مصر إلى أمثال الببغاء ممن لفهم الدهر في طياته ، وطواهم بين إمماته ونكرانه ، وكانوا في إبان نهضة اللغة من النابهين ، وفي عصور ازدهار الأدب من الفحول النوابغ ، فيحيون تراثهم وينشرون للأدباء سيرهم ، ويقرئوننا شعرهم ونثرهم

طرق أبو الفرج جميع أغراض الشعر المتداولة في عصره إلا ما يبعد صاحبه عن النبل والمروءة ويسمه بسمة الفحش والسفاهة أو ينظمه في سمط السلطاء ، فلم يكن هجاء مقذعا بل كان يربأ بنفسه عن أن تكون في منزلة دنيا فيتناول الأحساب بعرضها أو الأعراض ينهشها ، كما كان يفعل ذلك أكثر شعراء عصره . وإنه ليبدو لنا من دراسة شعره أنه كان رقيق الحاشية سجيح الخلق نبيل المروءة محبباً إلى علية القوم وعامتهم ، يرى أن له مكانة ترفعه عن اللغو ، وتسمو به عن الهجو . وإليك ما يشعرنا بذلك من شعره قال :

أكل وميض بارقة كذوب؟ ... أما في الدهر شيء لا يريب ؟
تشابهت الطباع فلا دنيء ... يحن إلى الثناء ولا حسيب
وشاع البخل في الأشياء حتى ... يكاد يشح بالريح الهبوب

وفيها يقول :

أبى لي أن أقول الهجر قدر ... بعيد أن تجاوره العيوب

وإذن فاعتداده بنفسه ، وعرفانه قدرها ، هو الذي حدا به إلى الترفع عن الهجاء . ولقد كان أبياً عزيز النفس لا يتحمل منة ولا يستكين عن ذلة ويدعو إلى القناعة شأن شعراء الزهد في عصره :

ما الذل إلا تحمل المنن ... فكن عزيزاً إن شئت أو فهن
إذا اقتصرنا على اليسير فما الـ ... ـسِلَّةُ في عتبنا على الزمن

ومع أن هذا الشعر قد يكون صادراً للحكمة وإرسال الأمثال فإنه يدلنا على صفاته ويشي إلينا ببعض خلاله . كذلك لم يكن من الرقعاء الماجنين أو الخلعاء المستهترين ، وإن هو قد ألم في صدر شبابه بما تدعو إليه نزوات الشباب ، وأتى في باكورة صباه ما يصبو إليه من لا يزال غض الإهاب ، لكنه مع هذا كان عفيف اللسان شريف البيان ، تقرأ حوادثه الكاعب الغانية والشمطاء الفانية فلا تجد الأولى ما يريق حياءها أو يبعث الخجل إلى وجهها ، وإن وجدت الأخرى ما يهيج أشجانها ويتصباها ، ويبعث فيها ذكريات أيام شبابها وصباها ؛ وهذه قصة تريك حقيقة ما نقول :

تخلف عن الغزو مع سيف الدولة بدمشق ، وكانت سنه قرابة العشرين ؛ ويظهر أنه أحس وخز الضمير وتأنيب الشهامة ، فأخذ يتسلى عن تخلفه بارتياد الحدائق والرياض ، ويتعزى عن اتهامه بالقعود بالقصف والمجون ، فقصد إلى دير مران ، واختار له من رهبانه سميراً هو أقلهم في الرهبنة حظاً ، وأديرت بينهما الراح ، وإذا راهب آخر يوحي إليه بطرفه يستقدمه إليه ، فانتحيا ناحية ، فسلمه رقعة فضها فإذا هي دعوة إلى زيارة أرسلها صاحبها في عبارة رقيقة وأبيات رشيقة ختمها بهذين البيتين :

فإن تقبلت ما أتاك به ... لم تشن الظن فيه بالكذب
وإن أبى الزهد دون رغبتنا ... فكن كمن لم يقل ولم يجب

فصحا من سكره ، وتخيل الداعي في نثره وشعره ملكاً

كريماً ، أو عاشقاً نبيلا ، فكان جوابه على دعوته ما ذكره فى وصفه لتلك الحادثة إذ يقول :

وكان جوابي طاعة لا مقالة
ومن ذا الذى لا يستجيب إلى اليسر

فلاقيت ملء العين نبلا وهمة
مُحَلَّى السجايا بالطلاقة والبشر

فاستقبله غلام (كأن البدر ركب على إزاره) واقتعدا وغلاميهما غارب اللذة وتناهبا نوادر الأخبار وتناهبا روائع الأسمار على كؤوس المدام ، فما شملتهم بالفرح الشمول حتى أمر المضيف غلامه بالغناء فغنى :

يا مالكي وهو ملكي وسالبي ثوب نسكي
نزه يقين الهوى فيك عن تعرض شك
لولاك ما كنت أبكي إلى الصباح وأبكي

فانتشيا من راحين ، وطربا بحدامين ، واستسلما للفرح ، وأسلما زماميهما إلى النشوة والفرح ، فاقترح المضيف على الضيف (أن يشى ليلتهما بشيء يكون لها طرازاً ولذكرها معلماً) ففعل وأنشد ارتجالاً :

وليلة أوسعتنى حسناً ، ولهواً ، وأنسا
ما زلت ألثم بدراً بها ، وأشرب شمسا
إذ أطلع الدير سعداً لم يبق مذبان نحسا
فصار للروح منى روحاً وللنفس نفسا

فطربوا وقصفوا ما طاب لهم الطرب والقصف ، وقد وشى ليلتهما بقصيدة طويلة جيلة النسج سنية الخيال نورد منها قوله :

جنينا جَنيَّ الورد فى غير وقته
وزهر الرُبا من روض خديه والثَّغر

وقابلنا من وجهه وشرابه
بشمسين فى جنحى دجى الليل والسَّمر

وغنى فصار السمع كالطرف آخذاً
بأوفر حظ من محاسنه الزُّهر

وأمتعنا من وجنتيه بمثل ما
تمزج كفاه من الماء والخمر

بسرور شكرنا منة الصحو إذ دعا
إليه ، ولم نشكر به منة السكر

مضى وكأنى كنت فيه مهوماً
يحدث عن طيف الخيال الذى يسرى

أليست أبياته كلها وهى فى موقف ينسى الحياء سخية به كريمة بالاحتشام ؛ ليس فيها هناة تأخذها عليه فتاة ، ولا خيال تعافه الحييات أو تتنكر له الناسكات ؟

ويذكرنى وصف ليلته أبياتاً لشاعرنا العظيم محمود سامى باشا البارودى حذا فيها حذو أبي الفرج ، فوصف ليلة قال :

وليلة من ليالى الأنس صافية
بلغت بالراح فيها كل مقترحي

قتلتها بعد أن نام الخلى بها
بغادة لو رأتها الشمس لم تلح

فكيف لا تدرك الأفلاك منزلتى
والبدر فى مجلسي والشمس في قدحي

ولكن شتان بين الليلتين ، فليلة البارودى إحدى ليالى أنسه الكثيرة ، وهي لم تزد على أنها ليلة صافية ، بلغ فيها مقترحه لا أمنيته ؛ وما أسهل ما يبلغ الانسان ما يقترح ! أما ليلة الببغاء فليلة فريدة فى حسنها حافلة بلهوها مفعمة بأنسها ؛ وكيف لا تكون كذلك وهو يلثم بدراً ويرشف شمساً ؛ أما صاحبه فانه يجالس البدر أو يخالسه ، وينظر إلى الشمس كما ينظر إليها عابر سبيل ، وفرق بين من يلثم ويشرب ، ومن يجالس وينظر ، وأين هو من قول الببغاء ؟

فصار للروح منى روحاً وللنفس نفسا

وكان على المحتذى أن يفوق المحتذى به ، ويجلى فى الميدان الذى اختاره لنازلته فيه لا أن يجيء مصلياً بينا الأول مرتجل والثانى متئد ، ولكن ذلك ما لم يستطع له شاعرنا بلوغاً . ولننتقل إلى الحديث عن شعره

تأثر أبو الفرج فى شعره خطوات شاعرين ملأ ذكرهما الآفاق ، وذاع صيتهما فى الشام والعراق ، هما أبو تمام والبحترى ، فقد كان اسماهما فى عصره لا يزالان أرفع أسماء الشعراء فتأثر بهما ، فأولع بالبديع ولعاً شديداً ، وأوغل فيه أعظم إيغال ، فانك لا تكاد تجد بيتاً ليس فيه نوع من أنواع البديع ، وهذا هو ما أخذه عن أبي تمام ، ولكنه لم يغرب فى ألفاظه إغرابه ولا تعمد الكلمات الجزلة والعبارات الضخمة ذات الموسيقا الصاخبة

والرنين القوى التى أوخذ عليها أبو تمام ، حتى وجد في عصره من النقدة من ينكر عليه عبقريته بل شاعريته ، فان كلفه بالاغراب وشغفه بضخامة الألفاظ كان سبباً فى غموض بعض معانيه . وأخذ عن البحترى الألفاظ العذبة والأخيلة الشائقة التى لا تصك الآذان ، ولا تثقل على الأسماع ، ولا تدفع بالقارىء إلى قطيعة الشعر جرياً وراء المعجمات تارة ، وإمعاناً فى تفهم المعميات من المعانى أخرى ، فأخذ من طريقتيهما بالحسنيين ، وكاد يجلى فى الحلبتين . ولا أدعى أنه بذهما أو ساواهما ولكنى أعتقد أنه عدا خلفهما فلم يتخلف ، ونهج بعض نهجهما دون أن يتكلف ، فشعره سهل معبد لا تكتنفه جنادل ، ولا تحوطه مفاوز ، بل هو مما يلذ الأديب العريق ، ويفهمه المتأدب الرقيق . وسأورد من شعره غير ما أوردته فى مناسباته ما يروق غير مدقق فى الاختيار ولا متحر الجودة ؛ لأنى أرى شعره طبقة واحدة ، ووحدة غير متنوعة ، لأنه نبعة صادقة . فاسمعه يصف ولهه بحبه ، وهيامه بمالك لبه ، فهو يرى أن قربه وبعده يستويان عنده لأن الوصل لايطفىء غلة ولا يبرىء علة ، والبعد لايزيد تأجج شوقه ، ولا يؤرث نار وجده ، فقد بلغ كلاهما النهاية وأوفيا على الغاية ، وهى مبالغة طريفة ساقها فى لفظ ساحر قال :

حصلت من الهوى بك فى محل ... يساوى بين قربك والفراق
فلو واصلت ما نقص اشتياقى ... كما لو بنت ما زاد اشتياقى

وقد طُرق هذا المعنى من قبله ، فلعله ألم به فسطا عليه ، أو جاء من توافق الخواطر ، وكلاهما جائز . وهذان بيتان فى هذا المعنى لعليه بنت المهدى قالت :

إذا كان لا يسليك عمن تحبه ... تناء ولا يشفيك طول تلاقى
فما أنت إلا مستعير حشاشة ... لمهجة نفس آذنت بفراق

ولكنه تخلف عن علية فقد بلغت غرضها فى بيت ، أما هو فاحتاج بيته الأول إلى بيت ثان يوضح غرضه ويبين عن قصده . وهذا معنى آخر من المعانى المطروقة قبله لم يأخذه كما سبق إليه بل جود فيه وحسن حتى ليخاله القارىء معناه المبتكر ، قال :

من ضر من بعد السرور يمعده ... لو كان يجمل فى صيانة عبده
يبدو فأطرق هيبة ومخافة ... من أن يؤثر ناظري فى خده
قد صرت أعجب أن علة طرفه ... ليست تؤثر علة فى وده

أخذ هذا المعنى من قول أبى تمام :

ومضمخ بالمسك فى وجناته ... حسن الشمائل ساحر الألفاظ
أبدا ترى الآثار فى وجناته ... مما يجرحها من الألحاظ
وتراه سائر دهره متبسماً ... فإذا رآنى مر كالمغتاظ
فى القلب منى والجوانح والحشا ... من حبه حر كحر شواظ

وقد زاد البناء على معنى أبى تمام أن إغضاءه لسببين : أولها هيبته وجلاله ، وثانيهما خشيته أن يؤثر طرفه فى وجنته . ولعله مما يشين المحبوب أن يرى دائما مجرح الوجنات مخدد الخدود من تلك الألحاظ اللواحظ والعيون النواظر ، وأحسب أنه أخذ معنى أبى تمام فى قوله :

ومهفهف لما اكتست وجناته ... حلل الملاحة طرزت بعذاره
لما انتصرت على عظيم جفائه ... بالقلب كان القلب من أنصاره
كملت محاسن وجهه فكأنما أقـ ... ـتبس الهلال النور من أنواره
وإذا ألح القلب فى هجرانه ... قال الهوى لا بد منه فداره

وإلى عدد تال وموعد قريب .

« المادي » عبد العظيم على قناوى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٢ —

— « لقد وضعك حسنك في طريق موضع البدر : يرى ويحب ولا تناله يد ولا تعلق بنوره ظلمة نفس، لكن كبرياءك نصبتك نصبة الجبل الشامخ : كأنه ما خلق ذلك الخلق المتتر الوعر إلا لتدق به قلوب للصعدين فيه . . . كوني من شئت أو ما شئت ، خلقاً مما يكبر في صدرك أو مما يكبر في صدري؛ كوني ثلاثاً من النساء كما قلت أو ثلاثة من الملائكة ، ولكن لا تكوني ثلاثة آلام . انفحي نفح العطر الذي يلمس بالروح ، واظهري مظهر الضوء الذي يلمس بالعين ، ولكن دعيني في جوك وفي نورك . اصعدي إلى سمائك العالية ، ولكن ألبسيني قبل ذلك جناحين . كوني ما أرادت نفسك ، ولكن أشعري نفسك هنه أني إنسان . . . ! » (هو)

— « إن أمي ولدت نفسي ونفسي هي ولدتني ، فلا ترج أن تصيب في طباع أنثى وإلا ضل ضلالك أيها الحبيب . . . » (مى)

هو وهي ؟

« رجل وامرأة كأنما كانا ذرتين متجاورتين في طينة الخلق الأزلية وخرجتا من يد الله معاً ؛ هي بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته . . .

« كانا في الحب جزءين من تاريخ واحد ، نشر منه ما نشر وطوى ما طواه ؛ على أنها كانت له فيما أرى كذلك الوحي للأنبياء ، ورأى في وجهها من النور والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين فلك المعاني السامية كمرآة المرصد السماوي ؛ فكل ما في رسائله من البيان والاشراق هو نفسها ، وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه ! »

***

لم تكن (مى) أولى حبائبه ولكنها آخر من أحب ؛ أحبها وقد تخطى الشباب وخلف وراءه أربعين سنة ونيفا حافلة بأيام الفتاء مشرقة بذكريات الهوى والصبابة والأحلام ، وكان بينهما في السن عمرُ غلام يخطو إلى الشباب . . .

سعى إلى مجلسها يوم (الثلاثاء) سعي الخلي إلى اللهو والغزل ، يلتمس في مجلسها مادة الشعر ، وجلاء الخاطر ، وصقال النفس ؛ ومجلسها في كل (ثلاثاء) هو ندوة الأدب ومجمع الشعراء ؛ وجلس إليها ساعة ، وتحدث إليها وتحدثت إليه ، وكان كل شيء منها ومما حولها يتحدث في نفسه . ولمسه الحبُّ لمسة ساحر جعلت في لسانه حديثاً ولعينيه حديثاً . وطال انفرادها به عن ضيوفها ؛ فما تركته إلا لتعتذر إليهم فتعود إليه . . . وقامت تودعه إلى الباب وهي تقول : « متى تكون سعادتي بالزيارة الثانية ؟ » فنعى النفس عن الهوى ونسأ الأجل إلى غد . . . !

ووقع من نفسها كما وقعت من نفسه ، فما افترقا من بعدها إلا على ميعاد ؛ ومحت صورتها من ماضيه كل ما كان في أيامه وكل من عرف ، لتملأ هي نفسه بروعتها ودلالها وسحرها ؛ وانتزعها هو من أيامها فما بقي لها من أصحابها وصواحبها غير مُصَيْفِي[1] مشغلةً في الليل والنهار

وكان الرافعي أول من يغشى مجلسها يوم الثلاثاء وآخر من ينصرف ، فإن منعه شيء عن شهود مجلسها في القاهرة كتب إليها من طنطا وكتبتْ إليه على أن يكون له عوض مما فاته يومه وحده . . .

كان يحبها حباً عنيفاً جارفاً لا يقف في سبيله شيء ، ولكنه حب ليس من حب الناس ، حب فوق الشهوات وفوق الغايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية . لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح ، وقد وجدها ، ولكن في نفسه لا في لسانه وقلمه ، وأحس وشعر وتنوَّرت نفسُه الآفاق البعيدة ، ولكن ليثور بكل ذلك دمُه وتصطرع خواطره ولا يجد البيان الذي يصف نفسَه ويُبين عن خواطره . . .

بلى ، قد كتب ونظم وكان من إلهام الحب شعرُه وبيانه ، ولكنه منذ ذاق الحب أيقن أنه عاجز عن أن يقول في الحب شعراً وكتابة ، ومات وهو يدندن بقصيدة لم ينظمها ولم يسمع

(١) يزعم الرافعي أن (مصيف) هي تصغير (مصطفى) على قاعدة الترخيم ، وصوابه صفيّ (بضم ففتح فتضعيف) والرافعي على علمه يخطأ هنا التصغير كان حريصاً على استعماله لأنها هي رضيته وكانت تتحبب به إليه . . . فلا كان سيبويه وأبو علي وابن حيان إن رضيت هي !

منها أحد بيتاً ، لأن لغة البشر أضيق من أن تتسع لمانيها أو تعبر عنها ، لأنها من خفقات القلب وهمسات الوجدان

و(مى) أديبة فيلسوفة شاعرة ؛ فمن ذلك كان حبها وكان حبه « من خصائصها أنها لا تُعجبُ بشيء إعجابها بدقة التعبير الشعري ... إنها تريد أن تجمع إلى صفاء وجهها وإشراق خديها وخلابتها وسحرها ، صفاء اللفظ وإشراق المعنى وحسن العرض وجمال العبارة ، وهذا هو الحب عندها ... »

« ولا يستخرج عجبَها شيء كما يعجبها الكلام الفنَّن المشرق المفيء بروح الشعر ؛ فهو حلاها وجواهرها ؛ وما السوق حبها من دنانير غيرُ المعاني الذهبية ؛ فإنها لا تبايعك صفقة يد بيد ، ولكن خفقة قلب على قلب »

* * *

وكذلك تحابّا ؛ وتراءيا قلباً لقلب ، وتكاشفا نفساً لنفس ، ومضى الحب على سنته . ونظر الرافعي إليها وإلى نفسه وراح يحلم ، وخيل إليه أنه يمكن أن يكون أسعد مما هو لو أنها ... لو أنها كانت زوجته ... ثم عاد إلى نفسه يؤامرها فأطرق من حياء ... وكانت خطرة عابرة من خطرات الهوى أطافت به لحظة وما عادت . وقالت له نفسه وقال لنفسه ، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها من قبل بعيني العاشق ، وأوشكت القصة أن تبلغ نهايتها وتنحل العقدة ، فجاءت كبرياؤه لتخُطّ الخاتمة ...

وراح الرافعي يوماً إلى ميعاده ، وكان في مجلسها شاعر جلست إليه تحدثه ويحدثها ؛ ودخل الرافعي فوقفت له حتى جلس ، ثم عادت إلى شاعرها لتتم حديثاً بدأته ؛ وجلس الرافعي مستريباً ينظر ؛ وأبطأت به الوحدة ، وثقل عليه أن تكون لغيره أحوجَ ما يكون إليها ، ونظر إلى نفسه وإلى صاحبه ، وقالت له نفسه : « ما أنت هنا وهي لا توليك من عنايتها بعض ما تولي الضيف ... ؟ » فاحمر وجهه وغلى دمه ، ورمى إليها نظرة أو نظرتين ، ثم وقف واتخذ طريقه إلى الباب ... واستمهلته فما تلبث ، وكتب إليها كتاب القطيعة ... !

وعاد إليه البريد برسالتها تعتذر وتعتب وتجدد الحب والإخلاص في أسطر ثلاثة ، ولكن الرافعي حين وجد كبرياءه نسي حبه ، وكان هو الفراق الأخير ... !

كان ذلك في يناير سنة ١٩٢٤

وثابت إليه نفسه رويداً رويداً ، وخلا إلى خواطره وأشجانه ليكتب رسائل الأحزان !

ومضت ثلاث عشرة سنة لم يلتقيا وجهاً لوجه ، إلا مرة ، في حفل أدبي في طنطا ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها ، ثم فر أحدهما من الميدان وخلف الآخر ينتظر ...

على أن الرافعي لم ينس صاحبته قط ، وعاش ما عاش بعد ذلك اليوم وما تبرح خاطره لحظة ، وما يأنس إلى صديق حتى يتحدث إليه فيما كان بينه وبين (فلانة) ، ثم يطرق هنيهة ليرفع رأسه بعدها وهو يقول : « هل يعود ذلك الماضي ؟ إنها حماقتي وكبريائي ، ليتني لم أفعل ، ليت ... ! » ثم ينصرف عن محدثه إلى ذكرياته ، ويطول الصمت ...

وكان لا ينفك يسأل عنها من يعرف خبرها ، حتى عرف أنها سافرت إلى الشام تستشفي منذ عام فأقامت هناك ، فهفت إليها نفسه وتحركت عاطفته إليها في لون من الحب وغير قليل من الندم ؛ فكتب إلى صديقة في (دمشق) لتزورها في مستشفاها وتكتب إليه بخبرها ؛ فكتبت إليه[1] :

« ... ... بالصدق يا صديقي أنني كلما استعدت بذاكرتي وصية (فلانة) المؤلمة ونتيجتها المحزنة ، تعتريني حالة انقباض شديد وحزن لا حد له ... إن الموت في مثل هذه الحالات يعد كنزاً ثميناً لا يحصل عليه إلا السعيد . وإني أتهمك قانوناً ... بأنك كنت السبب فيما نابها ، فماذا عليك لو لبيت الدعوة ؟ آه ، لقد كنت قاسياً وفي منتهى القسوة ، فهل كان يحلو لك تعذيبها بهذا الشكل ، وإلا فماذا تقصد من هذه القطيعة ؟ إن المرأة على حق حين تظن ، لا بل حين تعتقد أن الرجل ... ... لا ، السكوت أولى الآن ... »

أما هذه (الوصية) التي أوصت بها (فلانة) زائرتَها لتبلغها إلى الرافعي ، فلست أعرف ما هي ؛ فقد قصّ الرافعي هذا الجزء من الخطاب قبل أن يصل إليَّ ، ولست أعرف أين خبأه من مكتبه ، ولعل ولده الدكتور الرافعي يدري ، فإن كان عليه حقاً للأدب أن يحتفظ بما عنده من الرسائل إلى أوانها ، فسيأتي يوم تكون

(١) جاءه هذا الكتاب قبل موته ببضعة وعشرين يوماً ، وأحسبه آخر ما جاءه من أنباء صاحبته !

فيه هذه الرسائل شيئاً له قيمته فى البحث الأدبي

***

قلت : إن الرافعى قطع ما بينه وبين صاحبته منذ ثلاث عشرة سنة لم يلتقيا إلا مرة ، ولكنه كان يكتب لها وتكتب له رسائلَ لا يحملها ساعي البريد ، لأنه كان ينشرها وتنشرها فى ثنايا ما تنشر لهما الصحف من رسائل أدبية ، يقرؤها قراؤها فلا يجدونها إلا كلاماً من الكلام فى موضعها من الحديث أو المقالة أو القصة ، ويقرؤها المرسل إليه خاصة فيفهم ما تمنيه وما تشير إليه ، ثم يكون الرد كذلك : حشواً من فضول القول فى حديث أو مقالة أو قصة ؛ هى رسائل خاصة ولكنها على أعين القراء جميعاً وما ذاع السر ولا انكشف الضمير ، وفى أكثر من مرة والرافعى يملى علىّ مقالاته — كان يستمهلنى قليلا ليُبَيِّتَ فى درج مكتبه قليلا فيخرج ورقة أو قصاصة يملى علىّ منها كلاماً ، ثم يعود إلى إملائه من فكره ، وأعرف ما يعنيه فأبتسم ويبتسم ثم نعود إلى ما كنا فيه ؛ وتنشر المقالة ، فلا نلبث أن نجد الرد فى رسالة تكتبها (فلانة) فيتلقاها الرافعى فى صحيفتها كما يفض العاشق رسالة جاءته فى غلافها مع ساعىَ البريد من حبيب ناء ...

هى طريقة لم يتفاهما عليها ولكنهما رضياها ، وأحسب ذلك نوعاً من الكبرياء التى ربطتهما قلباً إلى قلب ، والتى فرقت بينهما على وقدة الحب وحرقة الوجد والحنين ...!

***

وكنت مع الرافعى مرة بالقاهرة فى شتاء سنة ١٩٣٥ ، فقال لى : « مِلْ بنا إلى هذا الشارع ! » ولم تكن لنا فى ذلك الشارع حاجة ولكنى أطعته ، وانتهينا إلى مكان ، فوقف الرافعى معتمداً على عصاه ، ورفع رأسه إلى فوق وهو يقول : « إنها هنا ، هذه دارها ، من يدرى ، لعلها الآن خلف هذه النافذة .. ! »

قلت : « مَنْ ؟ » قال : « فلانة ! »

قلت : « ولكن النوافذ مغلقة جميعاً ولا بصيص من نور ؛ فأين تكون ؟ »

قال : « لعلها الآن فى السينما . إذا كان الصباح فاغْدُ علىّ مبكراً لنزورها معاً ، إن بى حنيناً إلى الماضى ... ليتنى ... ولكن أترى من اللائق أن أزورها بعد كل ما كان ؟ »

قلت : « وما يمنع ؟ أحسبها ستسرّ كثيراً بلقياك ... ! »

قال : « إذن فى الصباح ، ستكون معي ، ولكن احذر ، احذر أن تغلبك على قلبك ... أو تسمح لخيالك أن يسبح وراء عينيك ... إنها فاتنة ! »

قلت : « لا ، إنها عجوز ، فما حاجتى بها .. ؟ » وضحكت مازحا فزوى ما بين عينيه وهو يقول : « وَىْ ! عجوز ، إنها أوفر شباباً منك ! »

قلت : « قد يكون لو وقفت بها السن منذ اثنتى عشرة سنة ... ! »

قال : « صدقت ... ! اثنتى عشرة سنة ... ! »

وسكتَ وسكتّ حتى أوصلته إلى الدار ، فلما كان الصباح غدوتُ عليه فأذكرته موعده ، فابتسم ابتسامة هادئة وهو يقول: يا بنىّ ، إنها ليست هناك ، إن (تلك) قد ذهبت منذ اثنتى عشرة سنة ، أما (هذه) فأظننى لا أعرفها ... إننى أحرص على الماضى الجيل أن تتغير صورته فى نفسى .. بحسبى أنها فى نفسى ..!»

ثم لم يلبث بعد ذلك أن جاءه أنها سافرت إلى الشام لعلة فى أعصابها ... ! »

« لها بقية » محمد سعيد العريان

الـكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

— ٢ —

سيرته

ولد الكميت بالكوفة سنة ستين للهجرة ، وهي السنة التي قتل فيها الحسين رضى الله عنه ، وكان أهل الكوفة قد دعوه ليبايعوه فى بدء عهد يزيد بن معاوية ، فسار إليهم من مكة إلى أن وصل إلى كربلاء ، فقتله فيها جيش عبيد الله ابن زياد

وكانت الكوفة عاصمة العراق وما إليه من بلاد فارس وما حوالها ، وكانت أيضاً مهداً للتشيع العلوي من يوم أن اتخذها على رضى الله عنه عاصمة لخلافته ، كما كانت دمشق بالشام مهداً للتشيع الأموى بتأثير معاوية رضى الله عنه ، ولعلهما بهذا أرادا أن يستغلا العصبية القديمة بين العراق والشام ، فقد كانت هناك منافسة شديدة فى الجاهلية بين عرب العراق وعلى رأسهم دولة المناذرة ، وبين عرب الشام وعلى رأسهم دولة الغساسنة . ولم يترك على (ض) المدينة التى كانت عاصمة الخلفاء قبله إلى الكوفة إلا ليكون له أهل العراق على معاوية وأهل الشام ، ويساعدوه على أن تكون الخلافة بعاصمتهم ، فتحيا بها بلادهم ، ويكون خيرها لهم ، ولا يستأثر به أهل الشام دونهم ؛ وهذا إلى مافى العراق من الرجال والخصب ، فيضاهى بهذا خصب الشام بالمال والرجال ، ويجد من الحاقدين على معاوية وبنى أمية مالا يجده فى مكة والمدينة

وقد كان الكميت من بنى أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس ابن مضر بن معد بن عدنان ، وهو الجد الأعلى للنبي عليه الصلاة والسلام ، فنشأ بين من نزح من قبيلته من البادية إلى الكوفة ، وأخذ عن علمائها من أهل الحضر علوم الدين والأدب ، وكانت له جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تصفان له البادية وأمورها ، وتخبرانه بأخبار الناس في الجاهلية ، فإذا شك في شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه عنه ، فتأثر من هذا وذاك بثقافة البدو والحضر ، واجتمع له علم غزير بلغات العرب وغريبها وأشعارها وأيامها ومفاخرها ومثالبها ، وروى الحديث وغيره من العلوم الدينية ، وقد ذكر صاحب الأغانى بعض رواياته فى الحديث فليرجع إليها من يريدها

ولم يقصر الكميت نفسه على العلم والأدب ، بل كان يأخذ نفسه بقول الشعر والاستماع إليه ، ولكن ميله إلى هذا لم يكن يبلغ ميله إلى العلم والأدب . ويحكى أنه وقف وهو صبى على الفرزدق وهو ينشد أشعاره ، فراع الفرزدق حسن استماع الكميت وأخذه الزهو والخيلاء ، فلما فرغ من إنشاده أقبل على الصبى وقال له : هل أعجبك شعري يا بنى ؟ فأجاب الكميت : لقد طربت لشعرك طرباً لم أشعر بمثله من قبل ، فانتشى الفرزدق ، وأخذ العجب منه كل مأخذ ، وقال للصبى فى نشوة المفتون : أيسرك أني أبوك ؟ فقال الكميت : أما أبي فلا أريد به بدلا ، ولكن يسرني أن تكون أمى . فحصر الفرزدق ، وقال : مامر بى مثلها

فلما أتم الكميت دراسته اشتغل بما كان يغلب ميله إليه من العلم والتعليم ، فكان يعلم الصبيان بمسجد الكوفة ، ولكن عشيرته من بنى أسد كانت تريد منه أن يكون شاعرها الذى يعلى من شأنها ، وينشر من مفاخرها ، ويناضل عنها أعداءها ، وقد صار الشعر فى الدولة المروانية كما كان فى الجاهلية مفخرة القبائل العربية فتعلقت به تلك القبائل كما كانت تتعلق به فى جاهليتها ، فأخذ بنو أسد يرغبون الكميت فى قول الشعر ، ويحملونه على الانصراف إليه والتفرغ له ، ويحكون فى ذلك أن عمه وكان رئيس قومه أخذ الكميت يوماً وقال له : يا كميت لم لا تقول الشعر ؟ ثم أخذه فأدخله الماء وقال : لا أخرجك منه أو تقول الشعر ، فمرت به قنبرة فأنشد متمثلا :

يالكِ من قُنْبُرَةٍ بِمَعْمَرِ   خلالكِ الجوُّ فبيضى واصفرى
وَنَقِّرى ما شئتِ أن تُنَقِّرى

فقال له عمه ورحمه : قد قلت شعراً فاخرج ، فقال الكميت لا أخرج أو أقول لنفسى ، فما رام حتى عمل قصيدته المشهورة ، وهى أول شعره ، ثم غدا على عمه فقال : اجمع لى العشيرة ليسمعوا فجمعهم له فأنشد :

طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطْرَبُ
ولا لعباً منّي وذو الشيوق يلعبُ

وقد طعن الأستاذ زكي مبارك فى صحة هــذه القصة ، وذكر أنه ليس بمعقول أن تكون هذه القصيدة أول شعره . لأن فيها من القوة ما يقطع بأنها ليست بداية شعرية ، وإنما هى صرخة شاعر فحل طال منه الصيال

ولا وجه عندى لهذا الطعن فى صحة هذه القصة ، لأن هذه القصيدة : (طربتُ وما شوقاً إلى البيض أطربُ) من قصائد الهاشميات ، وقد ثبت من غير هــذا الطريق أن هاشمياته على العموم وهذه القصيدة على الخصوص كانت أول ما قاله من الشعر ، وواضح أنه لا يراد من هذا إلا أنها أول ما قاله من الشعر الجيد الذى يعتد به ، فلا يمنع أن يكون له شعر قبل هذا الشعر ترقى فيه إلى أن وصل إلى درجة هذا الشعر الجيد

فلما أرادته عشيرته على أن يكون شاعراً ينافح عنها ويصاول أعداءها ، صرف نفســه إلى قول الشعر وتفرغ له حتى أجاد إنشاءه ، وكان قد ورث التشيع لأهل البيت عن بيئته بالكوفة التى نشأ فيها ، ولم يكن للشيعة فى عهده شاعر يتعصب لها وينشر دعوتها كما كان لبنى مروان من الشعراء الأخطل وغيره ، وكما كان للخوارج الطرماح بن حكيم وعمران بن حطان ، فرأى أن يكون هو شاعر الشيعة وناصر دعوتها ، والمشيد بذكر أهل البيت والناشر لفضلهم

وقد كانت الشيعة فى ذلك الوقت تعادى بنى مروان والخوارج معاً ؛ ولكن العداوة بين الشيعة والخوارج لم تكن تبلغ درجة العداوة بينها وبين بنى مروان ، لأن الخوارج كانوا قد اشتغلوا بعداوة بنى مروان بعد أن صار الأمر لهم ، وتناسوا عداوتهم للشيعة بعد انصراف الأمر عنهم ، فاشترك كل من الشيعة والخوارج فى مناهضة الدولة المروانية ، ومناوأتها بسيوفهم وألسنتهم ، وكان اشتراكهم فى معارضة هذه الدولة سبباً فى تخفيف ما بينهم من العداوة

ولهذا كان تعصب الكميت فى شعره للشيعة موجهاً إلى بنى مروان وحدهم ، ولا يدخل فيه أولئك الخوارج الذين لقى الشيعة منهم ما لقوا فى عهد على رضى الله عنه ؛ بل لم يمنع ذلك التعصب الكميت من إخلاص المودة للطرماح بن حكيم من شعراء الخوارج ، فقد كان بينهما من الخلطة والمودة والصفاء ما لم يكن بين اثنين ، حتى إن راوية الكميت قال : أنشدت الكميت قول الطرماح :

إذا قبضتْ نفسُ الطِّرِمَّاح أخلقتْ
عُرَى المجد واسترخى عنانُ القصائد

فقال الكميت : إى والله ، وعنان الخطابة والرواية

وهذه الأحوال كانت بينهما على تفاوت المذاهب والعصبية والديانة ، فقد كان الكميت شيعياً عصبياً عدنانياً من شعراء مضر متعصباً لأهل الكوفة ، وكان الطرماح خارجياً صفرياً قحطانياً عصبياً لقحطان من شعراء اليمن متعصباً لأهل الشام ، فقيل للكميت : فيم اتفقتما هذا الاتفاق مع اختلاف سائر الأهواء ؟ فقال : اتفقنا على بغض العامة

والعامة التى اتفقا على بغضها كانت فى ذلك الوقت جمهور الأمة من خاصة الناس وعامتهم ، فقد استكانوا لحكم بنى مروان حين طال عليهم أمده ، وخضعوا لظلمهم ولم يعنهم إلا أمورهم الخاصة ، كشأن العامة فى كل وقت وفى كل أمة ، ولا تزال بعض الحكومات القائمة يقرب الآن بين معارضيها ، وينسيهم ما بينهم من عداوات ، واختلاف فى المشارب والأهواء

فنصب الكميت نفسه لمناهضة بنى مروان بشعره ، وهم أصحاب الملك فى الناس ، وأخذ ينصر عليهم أهل البيت والأمر مدبر عنهم ، وليس هناك مطمع فيهم ، وإنما هو سبيل اتخذه لنفسه يرضى به عقيدته ، وينأى بعلمه وشعره أن يتخذهما أداة كسب كما فعل ذلك غيره من الشعراء ، فكان يقول الشعر للشعر ويتخذه وسيلة لإرضاء نفسه وعقيدته ، ويجاهد به فى إصلاح حال أمته ، ويؤدى به ما يجب على الشاعر فى عصره ، ولا يهمه بعد هذا ما يفوته من دنيا الملوك ، ولا ما يصيبه من عنتهم وإرهاقهم

وقد أراد ثراة أهل البيت أن يثيبوه على ما يقوم به من نصر دعوتهم ، وإنشائه القصائد الطوال فى مدحهم والإشادة بذكرهم ، فكان يعرض عما يعرضونه عليه من الصلات والجوائز ، ويذكر أنه يريد من ذلك وجه الله تعالى ، ونصرة الحق الذى يدين به ، وقد حدث صاعد مولى الكميت قال : دخلنا على أبى جعفر محمد

ابن على فأنشده الكميت قصيدته التى أولها :

مَنْ لقلبٍ متيَّمٍ مستهامِ

فأمر له بمال وثياب ، فقال الكميت : والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردت الدنيا لأتيت من هى فى يديه ، ولكننى أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركاتها ، وأما المال فلا أقبله ، فرده وقبل الثياب

وحدث أيضاً فقال : دخلنا على فاطمة بنت الحسين رضى الله عنهما ، فقالت : هذا شاعرنا أهل البيت ، وجاءت بقدح فيه سويق فحركته بيدها وأسقته الكميت فشربه ، ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب ، فهملت عيناه وقال : لا والله لا أقبلها ، إنى لا أحبكم للدنيا

وحدث محمد بن سهل صاحب الكميت قال : دخلت مع الكميت على أبي عبد الله جعفر بن محمد في أيام التشريق فقال له : جعلت فداك ألا أنشدك ؟ فقال إنها أيام عظام ، قال إنها فيكم ، قال هات ، وبعث أبو عبد الله إلى بعض أهله فقرب ، فأنشده فكثر البكاء حتى أتى على هذا البيت :

يصيبُ به الرَّامونَ عن قوس غيرهمْ

فيا آخراً أسْدَى له الغيَّ أوَّلُ

فرفع أبو عبد الله يديه وقال : اللهم اغفر للكميت ما قدم وما أخر ، وما أسر وما أعلن ، وأعطه حتى يرضى

عبد المتعال الصعيدى

الحكم فى مباراة الأقصوصة

اجتمعت لجنة التحكيم فى مباراة الأقصوصة التى اقترحتها مجلة الرواية وجعلت للفائز فيها جائزة قدرها خمسة عشر جنيها ، يوم الأحد الماضى مؤلفة من حضرات الأساتذة : محمد فريد أبو حديد ، توفيق الحكيم ، إبراهيم عبد القادر المازنى ، محمود تيمور ، ثم صاحب هذه المجلة ، ونظرت فيما تجمع من الأقاصيص المتسابقة ، ثم قررت النظام الذى تتبعه فى قراءتها وفحصها . وستجتمع مرات أخرى متوالية حتى يصدر حكمها فننشره فى الرواية والرسالة وبعض الصحف .

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليليـــة

للدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٧ —

الفلسفة الصينية

العصر المنهجى — كونفيشيوس

مؤلفاته

تنقسم مؤلفات هذا الحكيم إلى قسمين . فأما القسم الأول فهو مجموعة شروحه وتعليقاته على الكتب المقدسة التى نسخها بخطه ثم أحاطها بطائفة ضخمة من معارفه العامة وآرائه الشخصية فى الدين والفلسفتين النظرية والعملية ، كما أن تلاميذه قد أحاطوا الأقسام الفلسفية من هذه الكتب بشروحهم وتعليقاتهم كذلك إلى حد أن اختلطت على الباحثين آراؤهم بآراء أستاذهم

وأما القسم الثانى فهو كتبه الخاصة التى وضعها وضمنها مذهبه وعارض فى بعضها مذاهب من سبقوه وعاصروه من الفلاسفة الذين أسلفنا الحديث عنهم في الفصول السابقة . وهذا القسم أيضاً ممتزج بآراء التلاميذ على نحو ما امتزجت آراء سقراط بمذهب أفلاطون وإن كانت آراء حكيمى الإغريق قد وضحت وتبين منها ما للأستاذ وما للتلميذ بفضل علماء العصر الحديث الذين نخص منهم بالذكر العالمين الفرنسيين « ريفو » و « بريهييه »

القسم الأول

يحوى هذا القسم كل الكتب المقدسة الهامة التى سبقت عصر « كونفيشيوس » ولكن الذى يعنينا هنا هو الكتب الرئيسية وهى : « وى — كينج » أى الكتب الخمسة . فأما « شو — كينج » و « شى — كينج » فقد كان حكيمنا معنياً بهما عناية فائقة إلى حد أنه اتخذ مما فيهما من صور مُثله العليا التى يجب أن يحتذيها الحكماء والملوك ؛ ولم يعرض المستصينون لتحقيق ما احتواه هذان الكتابان وتبين ما للأستاذ فيهما وما

للتلاميذ من شروح وتعليقات . وأما « إي — كينج » فقد وجدعليه الباحثون شروحاًمطولة ، وتعليقات مسهبة ، وتقريرات مطنبة ، فدرس العلماء كل هـذا دراسة دقيقة خرجوا بعدها مقتنعين بأن هذه المطولات مزيج من آراء : « كونفيشيوس » وتلاميذه ، ولـكنهم لم يستطيعوا إلى الآن أن يحلوا هذه المشكلة تماماً فيبينوا ما للأستاذ وما للتلاميذ . وأما « لى — كى » فقد ضاع أكثره ، لأنه حين أحرقت الـكتب لم يكن مُتـداولاً كغيره ففقد منه ما فقد ، والجزء القليل الباقى منه وجد — فيما يظهر — بدون شرح ولا تعليق ، لأنه كتاب طقوس دينية أكثر منه أى شيء آخر ، فلم يكن هناك داع للشرح أو للتعليق .

وأما كتاب « تشون — تسيو » ومعناه : « يوميات الربيع والخريف » فهوالـكتاب الوحيد الذى لم يَرتب أحد من الباحثين الدقيقين فى نسبة ما عليه من شروح وتعليقات إلى « كونفيشيوس » وحده . ويؤكد أولئك الباحثون أن هذه التعليقات هى أسمى بكثير من النصوص الأصلية للـكتاب ، لأن هذه التعليقات تدل على علم واسع ودراية شاملة بالتاريخ الصينى القديم والمعاصر لهذا الحـكيم بدرجة أدهشت علماء العصر الحديث

القسم الثانى

يتكون هذا القسم من أربعـة مؤلفات تدعى بالصينية « سى — شو » . وتعبيرنا فى جانب هذه الـكتب بألف أو وضع فيه شيء من التجوز ، لأن المستصينين يكادون يجمعون على أن الحـكيم أملى بعض هذه الـكتب على تلاميذه إملاء كما حاورهم أو حاضرهم بالبعض الآخر فرووه عنه وأثبتوه مقترنا باسمه دون تغيير ولا تبديل . وليس هذا فحسب ، بل إن كتاب « لون — يو » أخد الـكتب الأربعة وأكثرها إنتشاراً قد وجد مكتوباً بأسلوب أحد الذين تتلمذوا على تلاميذ « كونفيشيوس » بعد أن روى له أستاذه عن الحـكيم الأكبر ما رواه شفهيا من الآراء والأفكار بنصوصها وعباراتها . ويحتوى هذا الـكتاب على مجموعة من آراء مقتضبة وجوامع كلم ، ومحادثات مع التلاميذ وملاحظات هؤلاء على آراء أستاذهم وهلم جرا . وليس لهذا الـكتاب — على سعة ذيوعه وتداوله — أهمية فلسفية عظمى

أما الـكتاب الثانى وهو « تا — هيو » أو الدراسة الـكبرى فهو دراسات وجيزة لبعض الآراء والمثا كل الفـكرية فى صورة أمثلة وحكم ، وقد كتبه « تسيه سى » حفيد كونفيشيوس » ولـكن « تشو — إى » أحد شراح « كونفيشيوس » الصينيين فى القرن الثانى عشر يؤكد أن النصوص الأصلية لهذا الـكتاب قد وجدت مثبتة بخط الحـكيم نفسه وأن حفيده لم يزد على شرحها والتعليق عليها . ولا يرى العلماء فى هذا الرأى بأساً إذ يحتمل أن يكون هذا الحفيد قد استولى على نصوص جده وأضاف إليها مذكرات من معارفه الخاصة المتواترة فى الأسرة عن هذا الجد . ويرى بعض آخر من الباحثين أن هذا الحفيد لم يجد فى الغالب نصوصاً مكتوبة من هذا السفر ، وإنما وجد روايات شفوية مأثورة عن جده فأثبتها بأسلوبه . وأما الذى شرحها وعلق عليها ، فهو « تسانج — تسيه » أحد تلاميذ « كونفيشيوس »

أما الـكتاب الثالث ، فهو « تشونج — يونج » وهو أهم كتب هذا الحـكيم الفلسفية ، لأنه هو الـكتاب الوحيد الذى يحوى مذهبه ، والمؤلف الجوهرى الذى يعتمد عليه الباحثون فى فهم المدرسة « الـكونفيشيوسية » ، ويتكون هذا الـكتاب من مقدمة واثنين وعشرين فصلا . فأما المقدمة فقد كتبها حفيده السابق الذكر ، وهى مجموعة وافية من الآراء الأساسية فى أخلاق « كونفيشيوس » سمعها هذا الحفيد من جده مباشرة فأثبتها فى المقدمة وشرحها شرحاً مفصلا فى بقية الـكتاب

ويرى « ألين » الانجليزى و « فون إركس » الألمانى أن هذا الـكتاب ليس إلا مجموعة مشوهة من « تاويسم » ؛ فأما الأول فيرى الأستاذ زانكير أن من العبث الرد عليه ، لأنه هو الذى زعم أن « كونفيشيوس » أسطورة ، وأما الثانى فالسبب الذى خدعه وأوقعه فى هذا الخطأ هو أنه وجد أن هذا الـكتاب يحتوى على شيء غير يسير من التنسك الذى يشبه ميول « لاهو — تسيه » فاستبعد صدور هذه الآراء عن « كونفيشيوس » ، ولـكن هذا خطأ بحت ، لأن « كونفيشيوس » ليس مادياً جافاً ولا نفعياً أثرأ ، وإنما هو حكيم جليل قمين بأسمى الأخلاق

وأما الـكتاب الرابع فهو مجموعة كتب « مانسيوس » السبعة التى سنعرض لها عند حديثنا عن هذا الفيلسوف

منهجه وتأثيره

يشبه منهج « كونفيشيوس » منهج « سقراط » كثيراً ، إذ هو يحاول أن يرشد تلاميذه إلى الحقيقة ، ولكن لا عن طريق التقليد والتحفيظ ، بل عن طريق البحث الشخصي الذي يتدرج من المحسات إلى المعقولات ، ويصعد من الماديات إلى المعنويات ؛ فتارة يلمح إلى البرهان الحق تلميحاً خفياً ، وأخرى يشير إلى تناقض الباطل إشارة غامضة ثم يقود التلاميذ في طريق المحاورة قيادة منطقية محكمة إلى أن يعثروا على الحق بأنفسهم أو يهدموا الباطل بمجهوداتهم الشخصية المراقبة بإرشاد الأستاذ . وفي هذا يقول : « أنا لا أعلِّم من لا يشتهي أن يفهم ، ولا أساعد على الكلام من لا يحاول أن يوضح أفكاره [1] »

ومن منهجه أيضاً أنه كان يضع أمام تلاميذه مُثُلاً حية من أخلاق الحكماء والملوك السابقين أو من المأثورات الدينية العالية أو القصائد الشعرية المفعمة بالفضيلة أو الحوادث التاريخية التي تصلح لأن تتخذ نماذج للسمو والنبل ، وكان يسلك هذا النهج في تعليم تلاميذه الفلسفة والأدب والفن والأخلاق

ويروى المؤرخون أن تلاميذ هذا الحكيم الذين استفادوا من منهجه بلغ عددهم في حياته ثلاثة آلاف تلميذ ، وأن عدداً كبيراً من بين هؤلاء التلاميذ شغلوا في الدولة مناصب هامة وأنهم كانوا العنصر الأساسي للعلماء والأدباء الذين حكموا الصين أكثر من ألفي سنة ، لأن « كونفيشيوس » قد أحسن تأديبهم فلم يخلق فيهم الميل إلى الانزواء واليأس ، وإنما بث في نفوسهم روح الاصلاح والانتصار والسيادة ، ولهذا لم تكن حلقات دروسه مقصورة على التلاميذ ، بل كانت تضم بينها عدداً ضخما من كبار النبلاء والارستوقراطيين الذين وجدوا فيه أكبر محقق لعظمة الصين المنشودة فدفعتهم وطنيتهم إلى الاعتراف من نمير علمه الصافي وإلى محاكاة أخلاقه السامية النبيلة

وفي الحق أن كونفيشيوس يجب أن يعد في طليعة أفذاذ الرجال الذين خلقوا الدنية الصينية ، بل المدنية العالية ؛ إذ هو الذي أنشأ السياسة الصينية القيمة ، وهو الذي وضع قواعد أخلاق الأسرة على الأسس الفلسفية المحترمة ، وهو الذي قسم الفلسفة العملية إلى فروعها الثلاثة : الأخلاق الشخصية ، وتدبير المنزل ، وسياسة الدولة أو المدينة الفاضلة ؛ فسبق بذلك أرسطو وأفلاطون كما سنشير إليه حين نعرض لأخلاقه النظرية . وليس هذا فحسب ، بل هو الذي رفع علم التاريخ في الصين إلى مصاف العلوم الأخرى عند الأمم الراقية ، وهو أول من أناروا سبيل علم المنطق للذين أتوا بعده فزادوا عليه ماجعله قمينا بالاحترام والاجلال

غير أنه على الرغم من ذلك كله لم يصادف في حياته نجاحاً باهراً كما أسلفنا . والسبب في ذلك الاخفاق هو أخلاقه المتينة التي لم تسمح له أن يتملق أعظم الملوك والأمراء مرة واحدة في حياته ، ولا أن يحني رأسه إلا للحق وحده ، فضايقت هذه الأخلاق القوية المبطلين من الطغاة والمتجبرين . وكانت نتيجة ذلك أن ربح فيلسوفنا الفضيلة وخسر الحياة المادية

على أن الشعب لم يلبث أن تنبه إلى حكمة « كونفيشيوس » الخالدة القائلة : « إن الجوهر الأساسي العملي للشعب يجب أن يكون هو الأخلاق ، وإن سياسة الدولة لاتنجح نجاحاً حقيقياً إلا إذا أسست على الأخلاق »

لما تنبه الشعب إلى هذه الحكمة وآمن بها وأخذ يطبقها تطبيقاً عملياً دقيقاً أخذت أحواله العامة تتحسن شيئاً فشيئاً حتى بلغت الأوج . والفضل في ذلك كله راجع إلى التماسك الأخلاقي الذي وضع هذا الحكيم بذوره في تعاليمه القيمة الجليلة

« يتبع » محمد غلاب

(١) كتاب « لون — يو » فصل ٧

دراسات فى الأدب الانكليزى

جون ملتون

للأستاذ خليل جمعة الطوال

تتمـــة

خلاصة الفردوس المفقود

تقع هذه الملحمة بعد تنقيحها فى اثنى عشر جزءاً ، وقد نقلها العلامة دريدن والشاعر الفذ (لوريت Laureate) إلى أوبرا تمثيلية بطولية ، وذلك بإذن مؤلفها عام ١٦٧٤ ؛ وجعلا عنوانها « The State of Innocence » وإليك خلاصة موضوعها :

(١) يحتوى الجزء الأول من هذه الملحمة على خلاصة موجزة لها . وبعدها يصف ملتون كيف أن الشيطان يتمرد على الله تعالى مع طغمة من الملائكة الأشرار ، فيسقطهم الله فى جهنم المتقدة حيث يفقدون الوعى مدة وجيزة ، وبعدها يثوبون إلى رشدهم ، ويقف إبليس فيهم خطيباً ، ويذكرهم بالنبوة التى جاء فيها أن الله سيخلق خليقة جديدة وعالماً جديداً ، ويقترح عليهم أن ينتقموا من هذه الخليقة الجديدة التى سيخلقها الله — لجدهم الضائع

(٢) فيعقد الملائكة الأشرار وعلى رأسهم إبليس اجتماعاً هاماً فى مجلس إبليس الخاص Pandemonium ويدرسون فيه هــذا الاقتراح وطريقة تنفيذه ، فيقر أمرهم على إيفاد أحدهم إلى ذلك العالم لينشر فيه روح الشر ، ولينصب فيه فخ المكيدة ، فيتعهد إبليس أمر هذه الرحلة الخطرة ، ويشرع بها وهو غير عابئ بما فيها من الصعوبات الجمة ، فيصل أبواب الجحيم وقد سهر على حراستها وحشان غريبان مخيفان ، فيتخطاها بكل صعوبة وجهد . وبعد سفر طويل يواجه ذلك العالم الأرضى الجديد

(٣) ثم يبصر الله تعالى ، وهو جالس على عرشه الشيطان وهو مسرع نحو ذلك العالم الجديد ، فيشفق على خليقته الجديدة من شره ، ولكنه يعد بإرسال ابنه فدية . أما الشيطان فيواصل السير حتى يصل إلى الشمس ويتقابل هناك مع « أوريال » — ملاك الشمس — فيرشده هذا إلى طريق العالم الجديد الذى جعله قبلته ، فيسلكها حتى يصل إليه ، وهناك يستريح على قمة أحد الجبال

(٤) ثم يبحث عن طريق الجنة ، فيتسلل إليها بعد أن يتقمص جسم « غراب الماء Carmarant » وهناك يجثم على غصن من أغصان شجرة الحياة ، ويأخذ فى التطلع حوله ، فيدهشه جمال الجنة الرائع ، ثم ينظر آدم وزوجه حواء أثناء رجوعهما من صلاة العشاء للاستراحة

(٥) وفى الليل ترى حواء حلماً مزعجاً ، وتقصه فى الصباح على آدم فيفسره هذا بما يسكن من روعها ، ثم يذهبان للصلاة وبعدها يشرعان فى الشغل فى الجنة

(٦) ، (٧) ، (٨) ثم يرسل الله الملاك رفائيل إلى آدم فيحذره من مكيدة إبليس ، ويدور بينهما حديث طويل جداً

(٩) ويعلم حارس الجنة بوجود إبليس فيطرده منها ، ولكنه يرجع إليها ثانية فى الليل بشكل الضباب ، ثم يتقمص جلد حية . وفى الصباح التالى تقترح حواء على آدم أن يشتغل كلٌّ منهما منفرداً عن رفيقه فيلبي اقتراحها ، فيجد الشيطان الفرصة سانحة لتنفيذ مكيدته ، فيسير إلى حواء ويغريها أن تأكل من الثمرة المحرمة ، فتأكل وتناول بعلها فيأكل هو أيضاً

(١٠) فيحكم عليهما الله تعالى بالعذاب والموت ويطردهما من الفردوس . أما الشيطان فيرجع إلى بطانته مسروراً جذلاً

(١١) ثم يندم آدم وحواء على إثمهما ، ويطلبان منه تعالى الصفح ، فيصفح عنهما ولكنه لا يرجعهما إلى الجنة ثانية

(١٢) بل يعدهما بإرسال ابنه ليكفر بموته عن خطيئتهما

أشعاره وشاعريته

قال العلامة « جون دريدن » وهو من معاصرى ملتون : لقد جمع ملتون فى شعره بين الجيد والردئ ، وبين الجليل والمبتذل ، وذلك لأنه كثيراً ما كان يعتسف النظم على غير حضور بديهته أو شبوب عاطفته ؛ ولكنَّ هذا لا يضع من مكانته كشاعر فذ ومفكر نابغ ؛ إذ ليس من الضرورى أن يكون الشاعر حاضر الخيال متوقد العاطفة فى كل مناسبة يشعر

فيها . وهل من الضرورى أن تكون الشمس دائمة الاشراق والنور لنستدل على وجودها فى الكون ؟؟؟ ولست أرى مثيلاً لهذا القول إلا رأى سلم الخاسر فى شعر أبى العتاهية إذ يقول : شعرُ أبى العتاهية كساحة الملوك ، فيها الدرُّ والساقط ...

ولئن لم يكن ملتون متوثب الشعور فى جميع أشعاره ، لقد جمع في شعره بين إحساس العاطفة ورزانة العقل ، أو قل بعبارة أوضح بين الشعر كفن والفلسفة كميزان لجميع الفنون والعلوم . تدل على ذلك قصائده العديدة التى تحمل خلال جميع أبياتها جرثومةً من مسحة العقل وأثراً من عمق التفكير . وما أشعاره فى الحقيقة إلا قبس من النور يومض فى عتمة تلك الحروب المذهبية السياسية الحالكة التى اندلعت فى انكلترا بسبب تحطيم الأرستقراطية على صخرة الديمقراطية الناشزة . وهل أوحى إلى ملتون بملحمة الفردوس المفقود غير ذلك النزاع الذى خاض غماره ؟ أم هل كانت أشعار ملتون جميعها إلا صورة جلية تتبين منها حقيقة ذلك النزاع ؟

ابتدأ ملتون يعبث بالشعر ولما يبلغ بعد الثالثة عشرة من العمر . ولئن كانت أشعاره إذ ذاك خالية من ابتكار المعنى إلا أنها كانت — بالنسبة لصغر سنه — تحمل بين أسطرها جراثيم النبوغ والتفوق . فهذه قصيدته الشهيرة المعروفة بـ The Ode Of Nativity والتى نظمها عام ١٦٢٩ تكاد تكون لروعتها وجمالها خير قصيدة غنائية فى الشعر الانكليزى ، بل هى من فتى حدث كملتون لم يبلغ بعد حدَّ نضوج العقل والعاطفة ، أروع قصيدة على الاطلاق ...

وفى عام ١٦٣٣ نظم ملتون قصيدتين رائعتين وهما : (١) L'allegro و (٢) Il Penscroso ، وقد أجمعت آراء الأدباء على أنهما خير نموذج للجيد من شعره ، وذلك لما فيهما من الدقة البالغة فى التصوير والحرارة الملتهبة فى الشعور . وفى عام ١٦٣٤ نظم قصيدة القومس Comus وهي قصة شعرية دراماتيكية ، يكثر فيها ظهور الأحراج والأشباح الغيبية ، Suqeruetural Beings ، ولكنها ليست من دقة الفن بقياس قصص شكسبير الدراماتيكية التى من نوعها — كدرامة كما تحب مثلا — وذلك لأن شكسبير كان شاعراً بالفطرة ، وبارعاً فى تمثيل سوءات المجتمع وعاداته ؛ وهو إذ ينظم القصيدة فكأنما يصور بالألفاظ عواطفه الحساسة ، وينحت فى صخر اللغة مشاعره الوثابة ، بينا كان ملتون — مع اعترافنا به كشاعر فذ — مبالغاً فى التصنع ، ومسرفاً فى إجهاد القريحة ، واستفزاز المخيلة ، فمعانيه — فى معظمها — تكاد تقرب من الابتذال فى شيوعها ، وأخيلته إلا القليل منها مستكرهة على الشعر ، ثقيلة على الطبع لشذوذها . وليس أدل على هذا من مناجاة كومس لليدى !! ولعل خير قطعة فى هذه القصيدة هى تلك التى تمثل الشجار بين ليدى وكومس ، وذلك لأنها قطعة فنية من نفس ملتون الثائرة المتمردة التى تهزها الثورة أكثر مما تحركها الدعة والطمأنينة ، ولأنه فى هذه القطعة إنما ينفض علينا مكنون طويته ويصور لنا دخيلة نفسيته . وإليك تحرير المعنى في هذه القصيدة :

يذهب أخوان وأختهما إلى حرج عظيم كثيف ، فتضل الأخت طريقها فى عذا الغاب ، فيتركها أخواها هائمة على رأسها تائهة فى طريقها ، ولا يهمان ألبتة بما تقاسيه فى ذلك الحرج المخيف من مرارة الجوع ، وحرارة العطش ، وألم الوحدة ، ووحشة الغابة التي ترتعد منها الفرائص . ويذهبان بعيداً عنها فى جمع ثمر العليق ؛ حتى إذا تضيَّفت الشمس للمغيب عادا إلى بيتهما تاركين فى الغابة القفر أختهما الوحيدة ضحية للألم والجوع ، وفريسة للوحوش والسباع

فأنت ترى أن مثل هذا التخيل الفسل المكروه ليس من الحقيقة فى شىء ، إذ ليس من الممكن للطبع البشرىّ مهما أوغل فى التحجر والقساوة أن يتصور وقوع مثل هذه المأساة الخيالية الملفقة !!

أما الصونيتس Sonnets فقد كتبها فى فترات متقطعة ومناسبات كثيرة . ويذهب جونسون فى نقده لملتون إلى أن — الصونيتس — ليست من الفن الشعرى بدرجة تستحق أن توضع في غربال النقد . ولكنها مع ذلك عذبة اللفظ طلية الأسلوب . وفى عام ١٦٤٤ ألف الـ Areopagitica وهى رسالة نقدية دافع فيها عن حرية الطبع والنشر دفاعاً قيماً في وقت بلغ فيه التزمت حداً عظيما . أما الفردوس المسترجع فقد ألفه عام ١٦٧١

وهو يمتاز عن بقية مؤلفاته الشعرية بميزات سامية كثيرة سنوردها في مقالاتنا الآتية التي سنكتبها عنه ، وفي ذلك العام أيضاً ألف قصيدة أل Samson Agonistes وسنعرض لها أيضاً فيما بعد

أسلوبه

لم يكن أسلوب ملتون على نمط واحد في جميع أشعاره ، فقد كان مشرق الديباجة سلس العبارة حيث تكون الفكرة مختمرة في رأسه ، والعاطفة متوثبة في صدره ، ولكنه حين كان يعتسف النظم كانت تجيء أشعاره ملتوية العبارة ، غامضة المعنى ، ووعرة الأسلوب

وتدل أشعاره العديدة التي كتبها بخط يده والتي لا تزال محفوظة في مكتبة كلية ترنتي في كمبردج على أنه كان مولعاً بصيد أوابد الكلمات ، وإستقصاء غريب الألفاظ . ومما تجب الإشارة اكتظاظ أسلوبه بالكلمات اللاتينية المهجورة

قال العلامة ماكولي في مقالته عن ملتون : ألم تسمع قط بتأثير الشعر السحري وبتياره الكهربائي العنيف ؟ ألم تسمع قط بالأسلوب الرائع الذي يقيد عليك مشاعرك ويهز منك جميع أوتار حسك ؟ أما سمعت قط بالشعر الذي يأسر القلب ، ويذيب العاطفة ؟ إن هذه الصفات جميعها إن هي إلا من مدلولات شعر ملتون وأسلوبه ... لم يكن ملتون بارعاً في ابتكار المعاني ، إلا أنه كثيراً ما كان يتناول المعاني المبتذلة الشائعة فيسبكها في قالب لفظي متين تزيد في روعتها وجمالها ويجعل منها أفكاراً سامية تسحر العقل وتذهب اللب . على أنك لو بدلت كيفية صياغتها اللفظية ، أو حوّرت ولو قليلا أسلوبها الذي صيغت به لما كان لها أي أثر في نفسك أو تقدير في قياسك

خاتمة حياته وموته

لقد عاش ملتون وهو في عنفوان الشباب عيشة مترفة رخية ، شأن أبناء ذوي اليسر والجاه ، ولكن الدهر أبى ألا أن يقلب له ظهر المجن ، ويجرعه كأس الشقاء المرة حتى الثمالة . ففي عام ١٦٥٢ غشيت إحدى عينيه ، ثم ابتدأت المصائب تنثال عليه بغير حساب ، فقد شرد وطرد وغرم في أمواله وأملاكه ثم أصيب بداء النقرس ، ونفي خارج وطنه وأهله أكثر من مرة . وأخيراً عزل من منصبه السياسي الذي كان يتبلغ براتبه . وفي عام ١٦٦٢ فقد عينه الأخرى فتم عماه ؛ إلا أن هذه المصائب كلها لم تضعضع من عنجهيته ، ولا فلت من شباة نفسه ، بل صادفها وتقبلها بقلب وادع مطمئن وصدر عامر بالإيمان والثقة بالنفس . ولئن كان لها من أثر يذكر في نفسه فذلك أنها شحذت قريحته وأرهفت إحساسه ، ووثبت شعوره ، وزادته جلداً على الدرس ، ومثابرة على الاجتهاد

تزوج ملتون ثلاث زوجات . والراجح أنه لم يكن موفقاً في غرامه ولا سعيداً في زواجه . وقد توفي في شهر نوفمبر عام ١٦٧٤ في مزرعة بنهل تاركاً وراءه زوجه الثالثة ، وثلاث بنات . وقد قبر في مقبرة .St. Jiles . وبعد وفاته بسنين عديدة أقيم له نصب تذكاري في وست منستر أبي . وهكذا بات ملتون مزملاً بنبوغه وشهرته ، تئن رفاته في جدثها من ظلم المتقصين المغرضين ، وغلو الناصرين المفرطين .

خليل جمعة الطوال

أسانيد البحث

1 — Milton — Paradise lost Comus.
2 — Johnson — Life of Milton - 1779.
3 — Hazlitt — Lecture on Shakspeare and Milton
4 — Laing — A History of English Literature
5 — Brooke — English Literature.
6 — Macaulay — Essoy on Milton - 1825
7 — W. H. Stephens - Introduction to the Study of English Literature.
8 — Hughes - Introduction to the Study of Milton poetry and prose.

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٩٣ — لا أدخل مكاناً فرقت فيه بين متحابين

في (تزيين الأسواق) من لطف الفقيه أبي بكر محمد (١) ابن داود (الظاهري) ورقته أنه كان يدخل الجامع من باب الوراقين فهجره أياماً. فسئل في ذلك فقال: دخلت يوماً فرأيت متحابين يتحادثان، فتفرقا مذ رأياني، فآليت ألا أدخل مكاناً فرقت فيه بين متحابين

٢٩٤ — نموذج من نثر أبي تمام

في (رهبة الأيام): كتب أبو تمام مع أخيه سهم بن أوس إلى علي بن اسحق (والي دمشق وأعمالها) كتاباً يذكر فيه حرمته به، ومنازلته إياه في الفندق (٢) في (سُرَّ من رأى (٣)) وضرب له في كتابه مثلا فقال: « ومثلي مع الأمير — أعزه الله — مثل عجوز كانت بالكوفة من جَرم قضاعة، وكان الوالي على الكوفة رجلا من عُكل. فأجرم ابن العجوز جرماً، فحبس، فتعرضت العجوز للوالي على ظهر الطريق، وقالت: أصلح الله الأمير، لي حاجة، ولي بالأمير وسيلة. فقال ما حاجتك؟ وما وسيلتك؟ قالت: حاجتي أن تطلق ابني من محبسه، ووسيلتي إليك أن الشاعر جمعني وإياك في بيت السوء حيث يقول:

جاءت به عُجُزٌ مقابَلةٌ ما هُنَّ من جَرم ولا عُكل (١)

وأنا امرأة من جرم، وأنت رجل من عكل. فأمر بإطلاق ابنها. وأنا أقول: وسيلتي إليك (أيها الأمير) منازلتي إياك في الفندق بسر من رأى مع فتور الماء، وكثرة الذباب » وكتب إليه في أسفل الكتاب قصيدة نونية (٢)

٢٩٥ — ان كان وضاح الا مفتيا لنفسه

في (أغاني) أبي الفرج قال يوسف بن الماجشون (٣): أنشدت محمد بن المنكدر قول وضاح اليمن:

إذا قلت يوماً: نوّليني، تبسمت وقالت: معاذ الله من فعل ما حرم!

فما نوّلت حتى تضرّعت عندها وأعلمتها ما رخص الله في اللمم (٤)

فضحك وقال: إنْ كان وضاح إلا مفتياً لنفسه!

٢٩٦ — أفتراك مني تفلتين

كان العباس بن علي (عم المنصور) يأخذ الكاس بيده ثم يقول لها: أما المال فتبلعين، وأما المروءة فتخلعين، وأما الدين فتفسدين! ويسكت ساعة ثم يقول: أما النفس فتسمّحين، (٥) وأما الهم فتطردين، أفتراك مني تفلتين؟ (٦) ثم يشربها ...

٢٩٧ — أربعة أحاديث

قال أبو بكر بن داسة: سمعت أبا داود (سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني) يقول: كتبت عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خمس مائة ألف حديث، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب (يعني كتاب السنن) جمعت فيه (٤٨٠٠) حديث

---

(١) في (النجوم الزاهرة): صاحب كتاب الزهرة وكان يلقب (بعصفور الشوك) لنحافته وصفرة لونه. وفي (الوفيات): لما توفي أبوه (داود الظاهري) جلس في حلقته استصغروه، فدسوا له رجلا وقالوا له: سله عن حد السكر فسأله عن السكر ماهو، ومتى يكون الانسان سكران فقال: إذا عزبت عنه الهموم، وباح بسره المكتوم. فاستحسن ذلك منه، وعلم موضعه من العلم. ولما بلغت وفاته الامام بن سريج كان يكتب شيئاً فألقى الكراسة من يده، وقال: مات من كنت أحث نفسي وأجهدها على الاشتغال لمناظرته ومقاومته

(٢) مولدة وهي في النثر والشعر كثيرة، ويقال: فنتق

(٣) بين بغداد وتكريت على شرق دجلة، وفيها لغات. وقالت العامة والشعراء: سامرا، سامراء، سر من راء. والنسبة: سرمري، سامري، سري، ومن هذه الحسن بن علي بن زياد المحدث السري

(١) عجز: من جمع عجوز: قال الأزهري: العرب تقول لامرأة الرجل (وإن كانت شابة) هي عجوزة، والزوج (وإن كان حدثاً) هو شيخها. قلت لامرأة من العرب: حالي زوجك فتذمرت وقالت: هلا قلت شيخك؟ (المقابل) بفتح الباء: الكريم النسب من قبل الأبوين

(٢) منها البيتان المشهوران (أولى البرية حقا). وفي (الهبة): لما قرأ الكتاب حضر سعيد بن عون المعروف بـ (الشباني) وكان متمكنا من علي بن اسحق، ولم يكن لأبي تمام محباً فأوقع فيه، وحرم سهم بن أوس

(٣) لقب أبي سلمة مولى آل المنكدر، بضم الجيم والشين، وفي حاشية المواهب بكسر الجيم وضم الشين، معرب (ماه كون): لون القمر (التاج)

(٤) في الكشاف: اللمم ما قل وصغر. والمراد الصغائر من الذنوب. الخدري: اللمم هي النظرة والغمزة والقبلة. الكلبي: كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً ولا عذاباً

(٥) يريد تجعلينها سمحة

(٦) فلت وفلته، وافلت وافلته: كلاهما لازم متعدل

ذكرت الصحيح[١] وما يشبهه ويقاربه . ويكفى الانسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث أحدها قوله — عليه السلام — : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى[٢]) ؛ والثانى قوله : (من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه) ؛ والثالث قوله : (لايكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه[٣]) ؛ والرابع قوله : (الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبين ذلك أمور مُشتَّبهات[٤] لا يعلمها[٥] كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ[٦] لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يُوشك أن يواقعه[٧] . ألا وإنَّ لكل مَلِك حمى ، ألا وإنَّ حمى الله فى الأرض محارمه[٨] . ألا وإنَّ فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله : إلا وهى القلب[٩])

٢٩٨ — فالطباع جوامح

أبو الجوائز الحسن بن على بن محمد بن بارى :

دع الناسَ طرّاً واصرفِ الود عنهمُ
إذا كنت فى أخلاقهم لا تسامح
ولا تبغ من دهرٍ تظاهرَ رَنْقه
صفاء بنيه؛فالطباع جوامح[١٠]

٢٩٩ — إنه الله ! ! !

فى (تاريخ بغداد) : قال أبو القاسم عبيد الله بن سليمان : كنت أكتب لموسى بغا ، وكنا بالرى ، وقاضيها إذ ذاك أحمد ابن بديل ، فاحتاج موسى أن يجمع ضيعة هناك كان فيها سهام

(١) أي الذى صح عنده
(٢) الذى نواه أو نيته وكذا لكل امرأة مانوت لأن النساء شقائق الأقوام (القسطلانى)
(٣) وفي جامع البخارى وغيره : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه
(٤) أى شبهت بغيرها مما لم يتبين به حكمها على التعين (القسطلانى)
(٥) لا يعلم حكمها
(٦) أستبرأ : طلب البراءة
(٧) يقع فيه
(٨) المعاصي التى حرمها
(٩) القلب : هو محل العقل عندنا . وقال أبو حنيفة فى الدماغ (القسطلانى) والعقل عند الشافعية فى القلب
(١٠) جمح الفرس براكبه : اعتزه على رأسه وذهب جريا غالبا لا يملكه ، وجمحت السفينة : تركت قصدها فلم يضبطها الملاحون ، وفلان جموح وجامح : راكب لهواه (الأساس ، اللسان)

ويعمرها ، وكان فيها سهم ليتيم ، فصرت إلى أحمد بن بديل وخاطبته فى أن يبيع علينا حصة اليتيم ويأخذ الثمن ، فامتنع وقال : مالليتيم حاجة إلى البيع ، ولا آمن أن أبيع ماله وهو مستغن عنه فيحدث على المال حادثة فأكون قد ضيعته عليه . فقلت فإنا نعطيك فى ثمن حصته ضعف قيمتها ، فقال : ما هذا لى بعذر فى البيع . والصورة فى المال إذا كثر مثلها إذا قل . فأدرته بكل لون وهو يمتنع ؛ فأضجرنى فقلت له : أيها القاضى ، إلا تفعل فإنه موسى بن بغا !

فقال لى : أعزك الله ، إنه الله تبارك وتعالى !!

فاستحييت من الله أن أعاوده بعد ذلك وفارقته ، فدخلت على موسى فقال : ما عملت فى الضيعة ؟ فقصصت عليه الحديث ، فلما سمع : « إنه الله » بكى وما زال يكررها ثم قال : لا تعرض لهذه الضيعة وانظر فى أمر هذا الشيخ الصالح ، فإن كانت له حاجة فاقضها ، فأحضرته وقلت له : إن الأمير قد أعفاك من أمر الضيعة وهو يعرض عليك قضاء حوائجك فدعا له وقال : هـذا الفعل أحفظ لنعمته ، ومالى حاجة إلا إدرار رزقى ، فقد تأخر منذ شهور أضرنى ذلك . فأطلقت له جاريه

٣٠٠ — كان أبوه ينسج الشمال باليمين

قال على (رضى الله تعالى عنه) للأشعث بن قيس الكندى : إنى لأجد بنَّة[١] النزل منك . فسئل (رضى الله تعالى عنه) فقال : كان أبوه ينسج الشمال[٢] باليمين[٣] ...

(١) البنة — بالفتح — الريح الطيبة وقد تطلق على المكروهة والجمع بنان بالكسر (النهاية)
(٢) الشمال — بالكسر — جمع الشملة — بالفتح والشملة : كساء دون القطيفة والشملة عند العرب مئزر من صوف أو شعر يؤتزر به (التاج ، اللسان)
(٣) قال ابن منظور : قوله من أحسن الألفاظ وألطفها بلاغة وفصاحة . وقال صاحب (النهاية) : رماه بالحياكة . (قلت) . أى إنما روت القول أملوحة ، ومكانة الحرفة مكانتها ، وكان اليمان ينسج ، والحجازي يتجر ، وإذا رمى الثانى الأول بنساجته رمى الأول الثانى بتجارته . وكلاهما يعيب — إما فعل — غير معيب . والرجلان فى هـذا المجتمع الانسانى عاملان . وما الشرف إلا فى العمل ، والنقص كل النقص فى البطالة والكسل . واليقين أن علياً كان يداعب الرجل ، وما قوله في الحرفة إلا لقول عمر : رووا : « كان عمر إذا نظر إلى ذى سيماء سأل : أله حرفة ؟ فان قيل : لا . سقط من عينه » وعلى كعمر كلاهما عارف بالله وبالدنيا ، وكلا هذين الصاحبين العظيمين (رضوان الله عليهما) خريج ذلك النبي الاعظم (صلى الله عليه وسلم)

فى أعقاب الخريف

للأستاذ محمود الخفيف

ألقى على الدوح فتورَ الكرى
فلاحَ كالناعِسِ
لا تستبينُ العينُ فيما ترى
من أفقه العابس
غيرَ الأسى فى جوه منذرا
بليـــلِ المكتئب الدامس
***
يَكرُبنى فى الأُفق هذا القطوبْ
وهذه الكُدْرَةُ فى لونه
وتُجفِلُ النَّفسُ لهذا الغروبْ
وحُمْرَةِ المحزون فى جفنه
يا وَيْلتَا تلك الرؤى أفرخَتْ
فى قلْبِيَ المستَسْلِمِ اليائس !
***
أسْلَمَنى للوجْدِ هذا الخريف
فى لفْتَةِ الراحِل
وأنكرتْ أذناى هذا الحفيف
من عُودِهِ الناحِلِ
يَلُوحُ لي منه خيالٌ مُطيفْ
لكل شيء هالِكٍ زائلِ
***
أوْرَاقُه تَهُبُّ رياح المساء
تُلْقِى بها مُصْفَرَّةً ذابِلَهْ
تسوقُها مُعْجَلَةً للفناء
قافِلَةً فى إثرها قافِلَهْ
تَطَايرت كما تَطيرُ المنى
من لمحةِ الوَهْم إلى الباطِلِ
***

حطَّتْ على الدَّوْحِ بنات الهديل
ساهمةً عانيهْ
للشَّفَقِ الباكى بهذا الأصيل
مافتئت رانيه
طالمَا منه شتاء طويلْ
عِشاشُها فى كفه واهيه
***
قد أشبهتنى الوُرْقُ فى غُمَّتي
لكنها تذهل عن أسيها
وكل شيء مُوقِظٌ مُهْجَتِى
حتى رياح الليل فى همسها
أسْمَعُ فى هسيسها أنَّةً
بالأمسِ كانت نَغْمَةً شادِيَهْ
***
شَـــبَّابةُ الراعى بأنغامه
فى مسْمَعِى صاخِبَهْ
يا لاعباً طيوف أحــــلامه
خافقة لاعبه
نَبَّهت القلبَ لآلامــه
إذ بَعَثَتْ أحلامَهُ الذاهبه !
***
يا ليتني أذهل عما مضى
أوْ أرْعَوِي بَعْدَ فواتِ الأمَلْ
يا ليت لى مثلك هذا الرضى
يا ناعماً ما ذاق إلا الجذَلْ
تَغَنَّ ما شِئْتَ ودع لى الجوى
هَوَاكَ لمْ تَعْلَقْ بِهِ شائبَهْ !
***
يَسْتَيْقظ القلبُ إلى وجده
فى أُخْرَيات الخريف
يَعُودُ مالم يَنْسَ من عهده
فَهْوَ وَجيبٌ لهيف

تَغرَّبَ « الطائرُ » عن عُوده
وخَلَّفَ القلب لهذا الوجيف
***
ما روعةُ الكونِ وما سِحْرُهُ
وكلُّ حُسْنٍ باعث للشَجَنْ ؟ !
هذا الخريفُ هاجنى ذكره
هل أرتجى فى ظِلِهِ من سكن ؟ ؟
تَغرَّبَ الطائرُ لم ألْقَهُ
فى مَرْبَعٍ بَعْدُ ولا في مَصيف !
***
يا سائلاً يُنكِرُ أشْجَانِيهْ
ما كُنْتُ بالمدَّعى
يا صاحِ لو كُنْتَ ترى ما بِيَهْ
بكيتَ حظِّى معى
تبسُّمِي يَحْجُبُ أتراحيَــــه
كالرَّمْسِ تحت الزَّهَرِ المُمْرِعِ !
***
ما أنا بالشـــاكى ولكنها
أُغْنيـــةٌ ضاقت ضلوعي بها
أُغْنيـــةٌ صاغ الجوى لحنها
وأُجْبِرَ القلبُ على سَكْبِهـــا
يا أيُّهـــا المُنْكِرُ أشْجَانِيهْ
وُقِيتَ ما أُضمِرُ فى أضــلُعى
***
قد أغرق الدَّوْحَ فتورُ الكرى
فلاحَ كالناعس
لا تستبين العينُ فيما ترى
من أفقِهِ العابس
غيرَ الأسى فى جَوِّهِ منذرا
بلَيْـــلِ المكتئبِ الدامِسِ

الخفيف



فرانز شوبير

١٧٩٧ – ١٨٢٨

للأديب عبد الرحمن فهمي

كانت حياة شوبير القصيرة حياة كفاح قضاها تاركاً للأجيال التي بعده حظاً من المتعة أوفر مما كان لنفسه . وهو أشهر الموسيقيين النمساويين ولد بفينا عام ١٧٩٧ ولا تزال عاصمة النمسا إلى اليوم تحيي ذكرى ميلاده

وأبوه ابن فلاح من منطقة مورافيا كان يدير مدرسة صغيرة في قريته ويستعين بإيرادها على عول أسرة كبيرة كان فرانز من بينها

وسيرة فرانز إحدى سير العظماء الذين أعجبهم العالم . بدأ أبوه يعلمه العزف على آلة موسيقية مماثلة (للربابة) وكانت أسرة شوبير تمتاز بحذق العزف على الآلات الموسيقية فنبغ فى هذا الفن نبوغاً جعله يفوق إخوته وهم أكبر منه سناً . فلما بلغ السنة الحادية عشرة بعثت به أسرته إلى مدرسة تابعة لكنيسة صغيرة ليتعلم بها الترتيل، وتقدم معه إليها أولاد عديدون كانوا يتسلون انتظاراً لدورهم فى امتحان القبول بالتهكم على فرانز لصغر سنه ورثاثة ملبسه ، ولكنه بعد أن قبل بالمدرسة استبدل بلباسه لباس المدرسة الرسمي الأنيق فى حين لم يقبل بها الطلاب الآخرون لفشلهم في الامتحان

وكانت بهذه المدرسة مكاناً طريفاً للدرس ، يكون تلاميذها فيما بينهم مجموعة موسيقية (أركسترا) يمرنون كل يوم فى الدرس . وكان فرانز في أول الأمر غير ظاهر بين زملائه الذين كانوا جميعاً يكبرونه سناً ، ولكن حذقه فى الفن لفت إليه نظر رئيس الفرقة وهو صبي يدعى سپون ويقول عنه : (وبحثت عن هذا العازف الحاذق فوجدته صبياً صغيراً على عينيه منظار يدعى فرانز شوبير) ومن ثم أضحى سپون وفرانز صديقين حميمين

واستطاع فرانز يوماً أن يؤلف قطعة موسيقية ، إلا أنه عجز عن الحصول على الورق الخاص بكتابة الموسيقى (النوتة) لفقره ، فأعانه صديقه بالمال . وهكذا بدأ تاريخ الموسيقى الصغير . وكانت غرفة التمرين بالمدرسة قاسية البرد شتاء ، والطعام لا يملأ بطون التلاميذ لعدم كفايته ، فهو يقدم فى وجبتين ضئيلتين إحداها عند الظهر والأخرى فى الثامنة مساء . وعلى رغم ذلك استطاع فرانز فى فترة الدراسة أن يخرج عدة (نوتات) موسيقية لاشك فى أنها كانت تظهر أحسن من ذلك لو أن أساتذته أخذوه بالنظريات الموسيقية التى أهملتها المدرسة فى تعليمها وتركت لهذا العبقرى الصغير الحرية فى الجموح دون أن تصقله بتغذية روحه الفني بالنمو المنتظم المطرد ؛ غير أن أخذه الدرس على ساليرى فيما بعد — وهو موسيقي مشهور — جعل أسلوبه في هذا الفن ينضج وينمو وينتظم

ولا ننس أنه أتى على شوبير حين من الزمن بعد إتمام الدراسة بهذه المدرسة كان فيه بائساً لأنه عاد إلى قريته واضطر أن يعلم التلاميذ فى مدرسة أبيه القروية القراءة والكتابة . ومَنْ أشد بؤساً من معلم لم يُخلق لمهنة التدريس ؟ إلا أنه كان صاحب ذمة فأخلص للعمل الذى ينال عليه أجراً لكنه لا تكاد تنقضي ساعات التدريس حتى كان يهرع إلى داره ويخلو بنفسه فى غرفته

وقتاً طويلا منكباً على عمله الخاص ملقياً عن نفسه كل حمل خارجي؛ وشوبير الشاب النابغ كان يحمل بين جنبيه عبقرية فذة فى فن الموسيقى وتفانياً وإخلاصاً فى ميدان الصداقة. هيأ لنفسه أصدقاء عديدين في فترة التعليم وأحاط به أصدقاؤه كما تحيط الهالة بالقمر وكثيراً ما خففوا عنه بؤسه ومتاعبه

ولم يكن قد بلغ الثامنة عشرة عند ما ألقي أول (أصواته) الموسيقية بالكنيسة وأعقب ذلك بتلحين قطعة أخرى؛ ثم أنشأ فرقة موسيقية تتكون منه رئيساً ومن أخيه عازفاً على الأرغن ومن موسيقى كان مدير مدرسة الترتيل التي تخرج هو فيها، ومن صديق يغني الأدوار الرئيسية. ونستطيع أن نتصور السرور والاعجاب اللذين لاقى بهما أبوه هذا العبقرى الصغير حتى لقد ابتاع له نوعاً من البيانو مشهوراً فى ذلك الوقت واستعان على ثمنه بما اقتصده مما حصل عليه بعرق جبينه طوال حياته

وأول فشل صادف شوبير كان وهو فى التاسعة عشرة من عمره عند ما أنشأت الحكومة مدرسة للموسيقى فيما جاور بلدته والتمس أن يقبل بها مديراً بأجر إن كان واحداً وعشرين جنيها فقط فى العام الواحد إلا أنه كان يفضل كل ما عدا مهنة التدريس عليها. فلما لم يعين لهذا المركز يئس يأساً شديداً، ولكن الحياة عوضته عن ذلك خيراً، فإن صداقته الجديدة لشاب يدعى شوبار أدخلت فى نفسه انشراحاً وحبوراً وتحولت حياته إلى حياة جديدة

وترجع هذه الصداقة إلى سماع شوبار بشهرة فرانز الفنية من بيت سبون فقرر أن يزوره فى داره فلقيه بعد أن عاد من المدرسة القروية جالساً إلى مكتبه تتكدس حوله أكوام المخطوطات الموسيقية

رغب أبوه في هذا الوقت فى أن يقوم ابنه بتعليم تلامذة مدرسته الأحرف الموسيقية، ونفذ الابن هذه الرغبة إلى حين حتى نجح شوبار بإلحاحه عليه بالعودة معه إلى فينا فهجر التدريس ورجع معه حيث تقاسما العيش فرحاً معترفاً بجميل صديقه إذ بتمام الصداقة بينهما تقدم سير مصنفاته تقدماً سريعاً فى جو هذه الحرية الجديدة. ولكنه برغم ذلك لم تتقدم حالته المادية بسبب إسرافه وتبذيره وعدم انتظامه فى معاملة الناشرين. بل إن الحالة أدت به إلى أن يبيع أغانيه مرة بما يساوى أربعة قروش للأغنية الواحدة؛ إلا أنه خفف من هذه الحالة كثيراً اشتراكه هو وأصدقاؤه فى العيش حتى أن القبعات والمعاطف كانت على الشيوع فيما بينهم جميعاً. وهذا النوع من الحياة وما كان يتخلله من فترات يقضيها فرانز مع أصدقائه فى الجبال المنعزلة بقى على هذا الأسلوب حتى آخر أيامه القصيرة. ولذلك لا نعجب إذا كنا نراه يرفض بلباقة ما كان يُعرض عليه بين حين وآخر من وظائف العزف على الأرغن علماً منه أنه غير جدير بعمل يحتاج إلى الاستقرار والنظام

ولم يُسمع عنه أنه وهن يوماً أو تباطأ فى عمله الخاص، بل كان يجلس إليه فى الساعة التى يستيقظ فيها؛ بل إن حمى العمل إذا أصابته دفعته إلى الكتابة والقراءة فى الوقت الذى كان عليه أن يهجع فيه للنوم

وبرغم أن الحياة صدمته صدمات عنيفة لم تستطع أن تغير من خلائقه، فقد كان شوبير الطائش الغافل ذو الفكر المضطرب المثل الأعلى للصداقة، المحبوب من كل معارفه، المتواضع الذى لا يعنيه من أمر الظهور شيء. أما قده فلم يكن جميلاً، وأما طلعته فلم تكن بهية، فهو فى كل أدوار حياته (فرانز شوبير الصغير ذو المنظار على عينيه)

ويحسن أن نعرف أنه ألف فرقة موسيقية قبل وفاته بعام واحد وافتتح بها صالة كانت تزدحم بالمتفرجين، وأصابه منها ربح يعادل اثنين وثلاثين جنيهاً، ولكنه أتى عليها سريعاً. ويدل على إسرافه أن باجانيني الموسيقى المشهور جاء إلى فينا ليطرب جمهورها لأول مرة فحجز شوبير لنفسه أغلى مقعد ليحظى بسماعه، ثم عاد فحجز مقعدين له ولصديقه ودفع هو أجرهما. وعلى هذا النمط من التبذير أضاع نصيبه فيما كان قد ربحه. لم يتزوج شوبير قط؛ وكان إذا

سئل في ذلك أجاب بأنه متزوج لموسيقاه.

ومنذ بلوغه الثامنة عشرة بدأ يُخرج للعالم تصانيف كثيرة أدهشت كثرتها الموسيقى العادي فكتب في عام واحد ثماني روايات غنائية (أوبرات). وكان ذا ميل إلى الشعر يقرأ منه ما تقع عليه عيناه فيختار منه ما يَبعُد غرضه ويَجمُل معناه، ثم يلحنه فإذا به كنغمة عذبة من نغمات طير مغرد. ويحكى أنه عاد أصيل يوم أحد إلى داره من نزهة خلوية فقابل أحد أصدقائه في حديقة فندق القرية وأخذا يتسامران، وكان بيد صديقه مجلد لشكسبير يطالعه فانتزعه شوبير منه وتصفحه فوقع نظره على سطر معناه (أنصت واستمع إلى صوت القبرة) وتساءل (لِمَ لا يكون معي الآن ورق لكتابة الأحرف الموسيقية؟) وسرعان ما رسم له صاحبه خطوطاً مهيئاً له طلبته على قائمة حسابه بالفندق وعليها بين ضجة المكان وصخبه خط فرانز الأغنيـة المشهورة: «أنصت واستمع إلى صوت القبرة» ملحناً إياها. وفي المساء لحن أغنية أخرى من رواية أنطونيو وكليوباترا؛ وكذلك لحن الأغنية المحبوبة (من هي سلفيا؟) وكان في هذا الباب تياراً جارفاً لا يقف عند حد، فلا يقع تحت ناظريه شعر إلاّ لحنه. وقد قال شومان في ذلك: «إن كل ما لمسه شوبير كان يتحول إلى موسيقى» وقال ليسْت «يعد شوبير أعرق شعراء العالم الموسيقيين» ووصفه كتاب سيرته «بأنه ملك كتاب الأغاني» وكلهم محقون في ذلك فإنه أخرج في حياته القصيرة ما يقرب من الستمائة أغنية

وحل وقت هجر فيه شوبير عمله وتركه نسياً منسياً فقد أرسل يوماً مقداراً من مخطوطات أغانيه الجديدة إلى صديق له؛ وحدث أن زاره بعد أسبوعين من ذلك الوقت وكان يعزف على البيانو مغنياً أغنية أعجب بها فرانز فسأله (لمن هذه الأغنية الجميلة؟) فأجابه: (إنها لك!)

وكان شديد الإعجاب بما كتبه ڤيمور كوبر يدلك على ذلك كتابه لصديقه شوبار: «صديقي شوبار إنني منذ أحد عشر يوماً لم أتذوق طعاماً ولا شراباً لأني طريح الفراش مريض.... فاشفق عليّ وأنا في هـذه الحالة البائسة بزيارتك لي لتقرأ عليّ ما أنا غير مستطيعه. وقد كنت قرأت لكوبر «الجاسوس والدليل وطلائع الجيش» فإن كان لديك غير ذلك له فلتتفضل عليّ بإحضاره معك»

(صديقك)

وكانت غرفتـه مزدحمة جداً بالمخطوطات المبعثرة هنـا وهنالك، وذلك لأنه لا يكاد ينجز عملاً حتى يبدأ في غيره أغنية كان أو ترتيلة أو أوبرا أو غير ذلك مما لم يخلق شوبير إلا لها. ولن نستطيع أن نتصور الكثرة المطلقة التي كان يخلفها لنا لو أنه عاش أكثر من ذلك؛ إلا أن المنية وافته ولما يبلغ الواحد والثلاثين عاماً.

عبد الرحمن فهمي
بكالوريوس في الآداب



من أساطير الاغريق

٢ـ خرافة جاسون

للأستاذ دريني خشبة

مساكين هؤلاء الآرجونوت ! (١)

لقد كانت رحلة شاقة مضطرمة بالمتاعب ، مليئة بالأشجان ، فى بحر لجى وأمواج كالظُّلل ، ظلمات بعضها فوق بعض ،وأهوال جسام يأخذ بعضها برقاب بعض ، وطريق كله سَعَالى (٢) وأغوال

لقد لقى الأبطال الصناديد من أمرهم رهقاً أى رهق ... فلقد أرسوا مرة بأرض شجراء باسقة الدوح ، نما أيكها واستطال ، وغلظت جذوعها واستوت ، فبدا لهرقل أن يصطحب غلامه هيلاس وينطلق فى الغابة يقطع أغصاناً تصلح لأن يصنع منها مجاذيف للآرجو ، فأوغلا ... وكانت الطريق ملتوية مُضلة ... فلما أن قطعا من الأغصان شيئاً كثيراً ، أصاب هرقل ظمأ شديد لم يصبر عليه ، فأمر هيلاس أن ينطلق فيملأ جرة الماء التى كانت معهما من نبع قريب كانا يسمعان خريره يتلاشى كالصدى فى سكون الغابة ... وذهب هيلاس ، وجلس هرقل ينتظره ... ولكن وقتاً كافياً طويلا مضى قبل أن يعود الفتى ... ثم مضى من الوقت ساعة أو نحوها ... ثم ساعتان ... ثم أكثر من ذلك ... ثم أكثر ... ماذا ؟ ترى ما الذى عوق هيلاس ؟ أواه! لقد كان هيلاس أجمل شباب الدنيا فى ذلك الزمن ، ولقد كان له جسم سمهري ممشوق ، وصدر رحب أخيلي ، ووجه تمترج فيه بداوات الرجولة والفتوة بقسمات الفتنة والجمال ، وعينان يترقرق فى بريقهما لون من السحر لا يعرفه إلا العذارى ، ولا تحسه إلا قلوب الحسان ... وشفتان إن كانتا لرجل ، فقد سرقتهما له الطبيعة الفنانة من فم غادة ... وجبين متلألئ وضاح ، لمَّاح كإشراقة الشمس فى مولد الصباح ... تبارك الله ما كان أسبى وما كان أصبى ، وما كان أجمل هيلاس ! !

ذهب يملأ الجرة ... وما كاد ينثنى ليضرب بها الماء ، حتى رأته عرائسه الغيد ، الخُرَّد الأماليد ، فشغفهن وامتلك قلوبهن ، وبرزن من القاع ليسكرن بجماله ، وينهلن من حسنه ، وليقسمن بسيد الأولب ما هذا بشرا إن هذا إلا ملاك كريم !! واقترن من مكانه ، ثم لم يقوين على البعد فاقترن أكثر ، ثم تأجج الهوى فى فؤاد إحداهن ، وهي أجلهن ، إن كان فيهن من هي أجمل من أختها ، فهتفت به ، فلم يجب ، فجذبته من ذراعه جذبة نزل بها إلى المـاء

— ماذا بالله عليك يا عروس ؟

— تعيش معنا !

— أعيش معكن فى الماء وأنا بشر ؟

— لن تكون بشراً بعد اليوم ، بل تكون إلهاً كريماً

— وأنى لى هذا وأنا غلام هرقل ومولاه ، وهو ظمئ إلى جرعة من مائكن تشفي جُواده ؟

— ومن أذن لهرقل أن يرسو بأرضنا ؟ إذن هذا عقابه ! تعال ! سيمنحك الخلود سيد الأولب !

وجذبته إلى القاع ... ولكنه لم يغرق ... وهو يعيش إلى اليوم مع هذا السرب من الحور العين لا يخدم أحداً ، ولا يجوع ولا يظمأ !

ونهض هرقل يقص أثر فتاه ، حتى إذا انتهى إلى النبع ، ووجد الآثار هابطة إلى المـاء ، إلى غير عود ، صرخ صرخة

---

(١) المسافرون فى السفينة (آرجو)

(٢) جمع سعلاة أو سعلاء وهى الغول أو ساحرة الجن

تجاوبت أصداؤها فى أركان الغابة ، ثم جلس ساعة على حفافى المقبرة التى ابتلعت هيلاس ينشج ويبكى ... وأقسم لا يفوتن من مائها قطرة ، وأقسم كذلك لا يصحبن الآرجو فى هذا السفر .. وعاد أدراجه ، بعد رحلة طويلة قطعها على قدميه إلى أرض الوطن ، وعاش حياته الطويلة القاتمة لا يفتأ يذكر هيلاس ، ولا يفتأ يبكى على هيلاس !

* * *

وأرست الآرجو فى شاطىء تراقيا ، ونزل جاسون فى نفر من رجاله يمتارون ، فعلموا أن ملكا أعمى يقال له فنئيوس ، شديد البؤس ، طويل الشقاء ، يحكم هذه المملكة ... ولم يكن عماه وذهاب بصره علة شقائه فحسب ، بل كان ذلك بسبب طيور غريبة الخلق ، لها جسم الطير وريشه ومخالبه ، ورأس الانسان ولؤمه وخبث طباعه ... كانت هذه الطيور تنزل بساحة القصر الملكى ، ثم تهجم على غرفة الملك كلما حان موعد الطعام ، فتلتهم غذاءه ، فلا تبقى ولا تذر . وكان الملك فى أكثر الأحيان لا يجد لقمة واحدة يتبلغ بها . لأن هذه الطيور لم يكن من دأبها أن تبقى على شىء ... حتى على الفتات ... ولم يكن ردها عن قصر الملك وعن غرفة غذائه خاصة شىء مطلقاً ... فلقد كانت تخمش وجوه الجند وتمزق جلودهم كلما حاولوا صدها عن بيت مولاهم ؛ وكانت تفلت من سيوفهم وتمرق من سهامهم بخفة تحير الألباب ، ولم يحدث مرة أن أصاب أحد الجنود منها غرضاً ، حتى جن جنون الملك وتضاعفت بلواه ، وجأر بالشكوى إلى آلهة السماء

ودهش جاسون ، وذهب بالقصة إلى رفاقه الآرجونوت ، فتقدم إليه البطلان الضرغامتان ، ولدا بوريس ، يقترحان أن يذهبا معه إلى الملك المسكين فيعرضا عليه حرباً عواناً يشبان نيرانها على هذه الطيور ، فاما أن يتم لهما النصر عليها ، وإما أن تكون لها الكرة عليهما ... وصادف الاقتراح هوى فى نفس جاسون فانطلق معهما إلى الملك الذى هش لهما وبش ، وفرح بما عرضاه فرحاً شديداً ... فلما حان موعد الغداء ، جلس الملك وضيفاه — وكان جاسون قد عاد إلى السفينة — إلى المائدة . ثم لم تمض لحظات حتى أقبلت الطيور ترنق فوقهم وتدوم ، فوقف البطلان وامتشقا سيفيهما ، فلما هبطت ناوشاها مناوشة عنيفة ، ولم يمكناها من خدش واحد تحدثه بيدنيهما ، بل هجما عليها هجوماً ذريعاً وأخذا يسقطان منها عدداً كبيراً كان يهوى فوق الأرض فيلطخها بدماء حارة فائرة ... وكلما هبطت واحدة طفقت تشكو وتبث بلسان يونانى مبين ... ثم فرت بقية الطير ... لكن ملكتها حطت بمكان قريب من الملك وهتفت به كى يأمر بوقف الملحمة حتى تدعو بعض جندها لنقل جثث القتلى ... بيد أن الملك رفض طلبتها حتى تقاسمه أغلظ الأقسام وأوكدها أنها لا تعود إلى الاعتداء عليه أبداً ، ولا تعود إلى زيارة تراقيا كلها أبد الحياة ... فقاسمته ملكة الطير ، فأشار إلى ولدى بوريس فأغمدا حساميهما ، وذهبت الملكة وعادت بعد قليل فى شرذمة من جندها ، وبعد أن ذرفت من دموعها على قتلاها حملتها وذهبت إلى غير عود [1] ... وبرت قسمها ، فلم تزر تراقيا بعد هذا أبداً . وشكر الملك لولدى بوريس ، وعرض أن يستوزرهما ، فرفضا شاكرين ، ليصحبا جاسون

* * *

وكأنما ذاع نبأ الهزيمة فى عالم الطير فهبت جبابرته تأخذ بثأر الهاربيز ؛ فإنه ما كادت الآرجو تبعد عن شطئان تراقيا ، حتى رأى راكبوها سرباً كبيراً من البزاة والنسور البواشق يقبل من علو كأنما تفتحت عنه أبواب السماء ، ثم لا يفتأ يضرب الهواء بخواف من نحاس تلمع فى أشعة الشمس كالذهب ؛ حتى إذا كان فوق الآرجو طفق يقذف راكبيها بحجارة مسومة من سجيل ألحقت بهم أذى كبيراً ... ولم تنفع معها سيوفهم ولا قسيهم شيئاً ، فاختبأت كل كوكبة منهم فى قمرتها ، وخلا جاسون إلى عصاه السحرية يستشيرها ماذا يصنع لينجو بقبيله من هذه الطير ، فتكلم الرأس العجيب فأشار بأن يضرب الجنود بأغماد سيوفهم على دروعهم ضرباً شديداً فيحدث صوتاً تنزعج الطير منه ، وتفر مروعة إلى غير عود ... ودعا جاسون جنوده ففعلوا كما أشارت العصا ، وفرت الطير ذاهلة ممزقة فى رحب السماء

* * *

وحاقت بهم كوارث أخرى لا حصر لها ... ثم اقتربوا من برزخ سمبلجيدز الذى ليس لمسافر إلى مملكة كولخيس سبيل

(١) تعرف هذه الطيور فى الميثولوجيا باسم هاربز Harpies وروى أنها نفت نفسها فى جزيرة ستروفيد

غيره ... وهو مضيق رهيب يصل ماء بحرين وعلى كل من عُدْوتيه صخرة هائلة ، فما تزال الصخرتان تنطبقان وتنفرجان ، بحيث تسحقان كل شيء يحصل بينهما فيصيّرانه هباء عفاء كأن لم يَغْن من قبل ... وكأيّن من سفينة جازف ملاحوها بالمرور بينهما ، فحطمتهم وعفت على آثارهم ... ولم يدر جاسون ماذا يصنع ، وجلس رفاقه يُقلّبون الأكف على ما أنفقوا في مخاطرتهم هذه ، وظلوا ينظرون إلى الصخرتين ساعات وساعات وهما ترتطمان وتبتعدان ، وكلما سمعوا قصيفهما يجلجل في الآفاق جعلوا أصابعهم في آذانهم حذر الغشية وتَقِيّةً من الصمم ... وخلا جاسون إلى عصا جونو يستوحيها ماذا يفعل ، فما كانت غير لحظات حتى تكلم الرأس العجيب ، فأشار بأن يطلق جاسون حمامةً بين الصخرتين حين تنفرجان ، ويرى هل تمرق قبل أن تنطبقا عليها ، ثم يرى ، هل يستطيع أن يمرق ملاحوه بسفينتهم بمثل سرعة هذه الحمامة ... ؟ ودعا جاسون رجاله يستشيرهم ، ثم أطلقوا الحمامة البيضاء كما أشارت العصا ، وكم كان عجبهم شديداً حين رأوها تفلت من بين الصخرتين إلا ريشةً واحدة انتُزعت من ذنبها فصارت هباء تذره الهواء ! واستعدوا للمقاحمة ، وظفقوا يقيسون مسافة ما بين البحرين في البحر الذي هم فيه ، ثم يطلقون حمامة كالتي أطلقوا ، بحيث يعملون مجاذيفهم حين تنطلق في الجو ... وأعادوا التجربة مثنى وثلاث ورباع ، حتى وثقوا من قدرتهم على قطع المسافة في مثل البرهة التي قطعتها فيها حمامتهم الأولى ... ودفعوا سفينتهم إلى أول المضيق ، وانتظروا حتى أوشكت الصخرتان أن تنفرجا ، ثم أعملوا مجاذيفهم بأذرع مستبسلة ، وأرواح ترتعد فَرَقاً من الموت في أبدانها ، فمرقت السفينة كما يمرق السهم عن سِيَة القوس ... واحربا !! لقد استطاعوا أن يفلتوا بفلكهم ، وإن حطمت الصخرتان سكانها ، كما حطمتا ريشة ذيل الحمامة من قبل ؟!

وما كادوا ينجون من هذه الموتة المحققة ، حتى انسدحوا في الفلك يلهثون ويتنفسون ، ويهنىء بعضهم بعضاً ...

***

وبلغوا كولخيس بعد عناء وبعد جهد ، ومَثَلوا بين يدي إيتيس ملكها الجبار ، فسلّم جاسون بسلام الملوك ، ثم سئل عن طلبته فقال :

— عَزّ نصر مولاي ، لقد تجشمنا مشاق هذه السَّفرة في سبيل الفروة الذهبية التي يقتنيها ملك الملوك ، لأنه نُمي إليّ أنها كانت من تراث آبائي ... ولا أدري كيف حصل عليها السيد بعد إذ أفلتت من كنوزنا

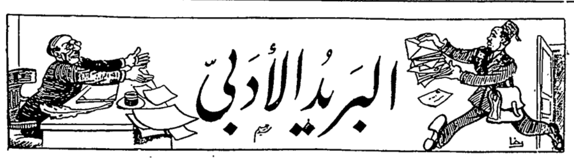
وقهقه الملك ملء شدقيه كالساخر المستهزئ ، ثم ربت على كتف جاسون وقال :

— أيْ بني ! أبْقِ على شبابك الغض ، وجمالك الفينان ، وعلى شباب هذه النخبة أولي القوة والفتوة الذين معك ... ! أي فروة ذهبية يابني تبتغي ؟ وتراث آبائك من ؟! لقد ذبح فركسوس الكبش بيديه أمام عيني ، وسلخه بين يدي ، وضحى باللحم والحوايا للآلهة ، ثم أهدى إلى الفروة الذهبية التي تعدل كنوز الدنيا بأسرها ! ففيم إذن تجشمك تلك المشاق ، وفيم مجازفتك بالسفر بين صخرتي سمبلجيدر ؟! وفيم كل تلك المهاوي والمهالك ؟ عد يابني إلى بلادك فهو خير لك ، وأبق على حياتك ، وانعم بحضن أمك الدافئ فهو أرحب لك من ميدان كله ذؤبان وغيلان ، ومنايا تثير الأشجان والأحزان !

وتبسم جاسون وتشبث بما سأل الملك ، فأخذ إيتيس يعظه وينصحه ، فلما رأى تصميمه واستمساكه ، قال له :

— « لك إذن ما طلبت يا بني ، ولكن اسمع ، واصغ إليّ ؛ إن أمامك مخاطر كنت أوثر ألا تلقي بنفسك في تهلكتها ، ولكن ما دمت قد غرتك الأماني ، وازدهتك هذه النخبة من أبطال بني جلدتك ، فاذهب إذن ، وحاول ما استطعت أن تلجم عِجْلَيْ فلكان المائلين اللذين ينقذف اللهب من منخريهما ، ويفتكان بكل من اقترب منهما ؛ ثم حاول بعد ذلك أن تحرث بهما الأرض الجُبُوب(١) التي تقدست باسم مارس ، فاذا فعلت فازرع ما حرثت بأنياب تنين كما فعل قدموس بأبي طيبة ، فانك لا تلبث أن ترى الأرض تُنبت جيلا من المَرَدَة مقنعين في الحديد يلاعبونك بأسنة الرماح ، فاذا قدرت عليهم فان عليك أن تقتل التنين الهائل الذي يحرس الفروة الذهبية ، فاذا فعلت ، ولا أحسبك تفعل ، فان الفروة لك ، كنزاً ليس كمثله كنز ، وذخيرة من الذهب

(١) الصلبة المتحجرة



أزمة الكتاب والثقافة العالمية

عقد أخيراً في مدينة نيس في جنوب فرنسا مؤتمر نظمته أكاديمية البحر الأبيض المتوسط برياسة رئيسها الكاتب الكبير جورج دوهامل للنظر في مسألة ثقافية خطيرة هي أزمة « الكتاب » . وقد أجمع المؤتمرون وهم رهط من كبار المفكرين والكتاب من مختلف أمم البحر الأبيض على أن مسألة الكتاب هي مسألة الثقافة العالمية كلها ، وأنه لا يمكن أن تقوم بدون الكتاب أية ثقافة أو حضارة أو إنسانية أو سلام أو مثل عليا ؛ ولذلك رأوا أن يعرضوا إلى المسألة من ناحيتها الدولية والعالمية

وجرى البحث في النقط والتفاصيل الآتية : هل يمكن أن تحل المجلات الدورية محل الكتاب ؟ وهل يمكن أن تحل الإذاعة اللاسلكية (الراديو) مكان الكتاب والمجلة معاً ؟ وهل يمكن أن يحل السينما مكان الكتاب والجريدة ؟ وهل يمكن أن تشترك وسائل الإذاعة مع الكتاب أم لا يمكن إلا أن تضربه ؟ وهل يمكن أن تستعمل هذه الوسائل بطريقة تتفق مع مصلحة التفكير والذهن الإنساني ؟ وأخيراً هل يمكن أن يفيد تنظيم المكاتب العامة وإعارة الكتب بلا مقابل في تهذيب القراء ، ويعاون في حل أزمة الكتاب ؟

هذه النقط وجميع ما يتعلق بها كانت وما تزال موضع بحث المؤتمر أو محكمة الكتاب كما يسميه المسيو دوهامل

ولا ريب أن أزمة الكتاب والثقافة مسألة عالية وهي مسألة الحضارة كلها ؛ وقد بدأت هذه الأزمة منذ نهاية الحرب الكبرى إذ انصرفت الأذهان شيئاً فشيئاً عن الكتب القيمة وأغرقت الشعوب المختلفة بسيل من الآداب والكتب السطحية . ثم جاءت السينما الناطقة والراديو فزادت الأزمة حدة ، وطغت الصحافة من جانبها على الكتاب وأخذت بتنويع محتوياتها الأدبية والثقافية تصرف الأنظار عن الكتاب

وقد شعرنا في مصر ، كما شعرت جميع الأمم المتمدنة بهذه الأزمة الثقافية الخطيرة ؛ ومن ثم فإنه يجدر بنا أن نبحثها كما يبحثها غيرنا ، وأن نحاول معالجتها بنفس الوسائل والأساليب .

الابريز ليست تعدلها ذخيرة ؛ هذا إلى فخر يرفعك إلى عليين ، وينقش اسمك في لوحة الخلود إلى آخر الزمان ! »

وسمع جاسون ... وخفق قلبه ، ووجبت روحه وجيباً محزناً ثم أخذ على نفسه عهداً أن يفعل ! !

ونصحه رفاقه أن ينكث ، وأشفقوا عليه أن يضحي بهم وبنفسه في مثل هـذه المهالك ؛ بيد أنه صمم على أن يلجم عجلي فلكان ، وأن يحرث بهما الأرض الجبوب ، وأن يزرع فيها أنياب التنين ، وأن يحارب المردة فاما هزمهم وإما غلبوه ، وأن يقتل التنين الذي يحرس الفروة الذهبية ليفوز بها ، وليعود إلى الوطن بالفخر والمجد وخالد الذكر ، فيحكم ويكون خير الحاكمين!

وكان يتكلم أمام رفاقه في شجاعة مدعاة ، وفتوة مفتراة ، فاذا خلا إلى نفسه حزن أشد الحزن ، وأسلم نفسه للتفكير العميق ... ثم استوحى عصاه السحرية فقالت له إنه ينبغي عليه أن يلتقي ابنة الملك . الأميرة ميديا ، فانها مشغوفة به حباً منذ رأته يحدث أباها ... وأنها تكاد تجن به جنوناً

— وكيف ألقى ميديا هذه يا معجزة جونو الحبيبة ؟

— اتصل باحدى مجاز كولخيس تقض حاجتك !

— ومتى ألقاها وأين ؟

— يا لك من فتى ؟ ! ألم تسمع من يقول : وكم لظلام الليل عندي من يد ؟ إلقها في جنح الليل ، ولتكن له يد عندك ، والقها في حديقة قصر أبيها الملك !

« التتمة في العدد المقبل » دريني خشبة

دانونزيو في رياسة الاكاديمية الايطالية

من أنباء رومة الأخيرة أن الكاتب والشاعر الايطالي الأشهر جبرائيلي دانونزيو قد عين رئيساً للأكاديمية الايطالية الملوكية . وقد علقت الصحف الايطالية والخارجية على هـذا التعيين بالاستحسان ، وقالت إن الدوتشي (موسوليني) باسناده هـذا المنصب لأعظم كاتب إيطالي في العصر الحديث قد أسدى خدمة جليلة للثقافة الايطالية . على أنه يلاحظ أن هذا الاختيار لا يرجع فقط إلى خلال الشاعر الأدبية ، ولكنه يرجع أيضاً إلى ماضيه الوطني ؛ فلم يكن دانونزيو شاعراً وكاتباً عظيما فقط ، بل كان وطنياً وجندياً عظيماً أيضاً ؛ وهو اليوم شيخ في الرابعة والسبعين من عمره . وقد بزغ مجده منـذ خمسين عاماً كشاعر موهوب إذ نشر مجموعة أولى من قصائده ؛ ثم توالت بعد ذلك كتبه بين منثور ومنظوم وقصص ونقد . ومنذ أوائل هـذا القرن يتبوأ دانونزيو ذروة الشعر والكتابة في إيطاليا الجديدة . وفي إبان الحرب الكبرى كان دانونزيو في فرنسا ، وكان يدعو في كتبه وقصائده إلى انضمام إيطاليا إلى الحلفاء . ولما دخلت إيطاليا الحرب انتظم دانونزيو في الجيش ضابطاً في المدفعية ، وفقد إحدى عينيه في خدمة الطيران . وفي نهاية الحرب حدث خلاف بين إيطاليا ويوجوسلافيا على ملكية ثغر فيومى ، وانتهى النزاع بأن وافقت إيطاليا على تركه ليوجوسلافيا ، ولكن دانونزيو لم يرتض هذا الحل وزحف على فيومى على رأس ألف من المتطوعين واحتل الثغر عنوة وأعلن ضمه إلى إيطاليا . وهنالك زاره موسوليني الصحفي يومئذ وأعجب به وبخلاله الوطنية والعسكرية العالية . ولما قام الحكم الفاشستي وتبوأ موسوليني ذروة النفوذ والسلطان حدث جفاء بين الرجلين في البداية ، ولكنه لم يلبث أن زال وأحيط الشاعر الكبير بكل مظاهر التكريم ، وأنعم عليه بلقب الأمارة في سنة ١٩٢٥ ، وهو يتبوأ اليوم رياسة الأكاديمية الايطالية ومن ورائه ذلك الماضي الحافل في الشعر والأدب والوطنية والحرب

الشرائط المصورة في خدمة المكتبات

في حين أن أنصار الكتاب يرون أن الأفلام الناطقة من العناصر الضارة التي تؤثر في رواج الكتب ، يرى بالعكس خبراء المكتبات أن الأفلام الناطقة يمكن استخدامها بنجاح في خدمة المكتبات العامة وفي تذليل مهامها . هذا ما رآه المندوبون في مؤتمر عقد أخيراً في كامبردج للنظر في شئون المكتبات وتنظيمها .

وقد صرح الأستاذ ، واطسون دافيس أحد المندوبين الأمريكيين أنه بمرور الزمن يمكن أن تستخدم هذه الأفلام في حفظ نفائس أعظم المجموعات العالمية ، وبذلك تسهل مهمة تبادلها بين مختلف العواصم والمكتبات : بل يمكن بهـذه الوسيلة أن تنقل نفائس مكتبة بأسرها من قارة إلى أخرى مدونة في بعض هذه الأفلام الناطقة

وذكر الأستاذ هتون من خبراء المتحف البريطاني أن إدارة المتحف ستقوم بإخراج أفلام ناطقة من جميع الكتب الانكليزية التي ظهرت قبل سنة ١٥٥٠م ، ثم ترسل نسخا منها إلى الولايات المتحدة (أمريكا) . وقد صار من الميسور الآن أن تصور الصفحة الكبيرة في حجم لا يزيد على طابع البوستة ، وبذلك يمكن تصوير آلاف من الكتب في أحجام صغيرة ، ثم يمكن بعد ذلك لكل راغب أن يحصل بواسطة الجهازات المكبرة على صور منها في حجمها الطبيعي ، أو يمكن عرضها على ستار السينما

الأدب الأردي

اللغة الأردية هي لغة مسلمي الهنـد ، وهي من الفصيلة الفارسية ، وتكتب بالحروف العربيـة ؛ ولها أدب خاص يتأثر أشـد التأثر بالآداب الفارسية والعربيـة . وقد ظهر أخيراً بالانكليزية كتاب عن الأدب الأردي بقـلم الدكتور موهان سنغ الأستاذ بجامعة لاهور تحت عنوان Urdu Literature ، وهو بحث جامع في تاريخ اللغة الأوردية وآدابها ، من النثر والشعر والقصص ، والعوامل التي اشتركت في تطورها ، ومدى تأثرها بالأدب الانكليزي والأدب الهندي القديم ، وما كان للقرآن الكريم والآداب العربية من أثر في تطور الثقافة الأردية وقد تناول الدكتور سنغ بحثه بأسلوب جديد يسبغ على مؤلفه قيمة خاصة ، بحيث تقرأ فيه تاريخ الأدب الأردي كما تقرأ تاريخ الأدب الانكليزي أو الفرنسي

بول فاليري أستاذ في الكوليج دي فرانس

أصدرت الحكومة الفرنسية أخيراً مرسوماً بتعيين الكاتب والشاعر الفرنسي الكبير وعضو الأكاديمية الفرنسية بول فاليري أستاذاً للشعر في معهد « الكوليج دي فرانس » وبذلك يتبوأ الشاعر الكبير فوق مكانته في عالم الشعر والأدب مركزاً رسمياً خطيراً يستطيع أن يبث منه إلى الشباب نظرياته الطريفة في الشعر الفرنسي

هذه بضاعتنا ردت الينا

لما قرأت في (الرسالة الغراء) مقالة (أخبار أبي تمام للصولى) تذكرت بيتاً لهذا الشاعر العظيم « وكم بيت بديوان [(١)] » سلبه إياه أبو عبيد البكرى ، ووهبه للمتنبي ...

ومقسم يعطى العشيرة حقها ومغذمر لحقوقها هضامها [(٢)]

ورأيت أن يُردّ اليوم الحق إلى أهله . وهذه قصة الذهب والهبة :

جاء في كتاب (اللآلى في شرح أمالى القالى) أو سمط اللآلي (الجزء الأول . الصفحة ٢١٧) :

« وقال المتنبي في النسيب :

إنسيّة الأنسان إن هي حصّلت

جنيّةُ الأبوين ما لم تُنسبِ »

وقال محقق الكتاب ومنقحه الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى الحاشية : « لا يوجد البيت فى شىء من نسخ شعره (أي شعر المتنبي) وقد جمع العاجز — يعنى الأستاذ نفسه — زيادات ديوانه ؛ ولعله وهم (أي البكرى) فى حمله البيت عليه »

قلت : قوله (العاجز) هو من تواضع العلماء ، وقد أظهر فى (اللآلى وسمطه) كل قوة ، وأخبر فضله أن ليس بعد هذا التحقيق تحقيق « ليس وراء عبادان قرية [(٣)] » . ومن خصائص الأستاذ الميمنى أنه يعرف جميع المواطن التى ورد فيها بيت من أبيات (اللآلى) ويذكرها كلها قلت أو كثرت

وهذا البيت الذى عزاه البكرى إلى المتنبي ، وأنكر الأستاذ عزوته ، ولم يدلنا على صاحبه — على اتساع ذاك الاطلاع — هو لأبى تمام فى قصيدة مطلعها :

أحسِنْ بأيام العقيق وأطيب والعيش فى أطرافهن المعجب

(١) أبو العلاء :

والأنس مثل نظام الشعر كم رجل بالجيش يغدى ، وكم بيت بديوان

(٢) لبيد العامرى . (المغذمر) الذى يأخذ من هذا ، ويعطى هذا ، ويدع هذا .

(٣) أورده الميدانى فى أمثال المولدين فى (القاموس) . عبادان جزيرة أحاط بها شعبتا دجلة ساكبتين فى بحر فارس

ورواية صدر البيت (المسلوب) فى الديوان هو (أنسية إن حصلت أنسابها) وقبله :

وإذا رنت خلت الظباء ولدنها ربعية واسترضعت فى الربرب [(١)]

فاقرأ اليوم يا حبيب : « هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إلينا » فى (اللآلى) [(٢)]

« الاسكندرية » (***)

وفاة المؤرخ التركى أحمد رفيق

روعت الأمة التركية فى غضون هذا الشهر بوفاة عالمها المؤرخ الجليل احمد رفيق ، ولقد كانت وفاته فاجعة كبرى أصابت الأمة التركية فى شعرها وأدبها وتاريخها

بدأ رفيق حياته العامة بالانضمام إلى الجيش ، ثم أكب على الدراسات العلمية الدقيقة وراح يبذل قصاراه فى المطالعة والبحث والاستقصاء فى العلوم التاريخية إلى أن وهنت قواه فخرج من السلك العسكرى وكان خروجه هذا سبباً فى انغماره فى مضمار الدراسة العنيفة ، والمطالعة المضنية ، فأكب على دراسة التاريخ وهي الناحية التى كان يميل إليها بالفطرة فدرسها درساً وافياً وشرع فى تأليف مؤلفاته القيمة التى تزيد على الاثنى عشر مجلداً ، وجميعها من أروع الكتب التاريخية التى نالت تقدير كبار أساتذة التاريخ فى العالم

مارس أحمد رفيق الشعر والأدب فألّف ديواناً فى الشعر ، وأنشأ مقالات عديدة فى الأدب ، فكان توفيقه فى هذين الفنين ضئيلاً بالنسبة إلى ما أصابه فى التاريخ من نجاح باهر ومكانة سامية

وأسلوب الرفيق التاريخى يمتاز من غيره بالسهولة وتبسيط المعقد من التاريخ بطريقة لاتجعل الملل يتسرب إلى القارىء

ويحزننا أن نقول إن ذلك المؤلف الكبير على رغم الخدمات العظيمة التى أسداها إلى أمته كان فى أواخر أيامه فريسة للحرمان والفاقة

(١) ربعى نتج في الربيع نسب على غير القياس ، وربعى كل شىء أوله (الشأن) . الربرب . الجماعة من المها (ياظبية أشبه شىء بالمها)

(٢) كتاب بارع محكم محقق ، جزءان ، أكثر من ألف صفحة ، نشرته ذات الفضائل والمكارم والأيادى (لجنة التأليف والترجمة والنشر) فى مصر



كان ما كان

تأليف الأستاذ مخائيل نعيمة

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

كان ما كان ... ألا إنها كلمة سحرية تفيض بالذكريات والأحلام ، وتفتح على النفس أفاقا من الماضي ، وما أحب الماضي إلى النفس وإن كان كله الشقاء ! ولعل هذا المعنى هو الذي لحظه الأديب اللبناني الأستاذ مخائيل نعيمه في وضع هذه الكلمة عنواناً لمجموعة من قصصه ، وهي مجموعة تشتمل على ست قصص وفصل من رواية مسرحية اسمها « جمعية الموتى » كان الأستاذ قد كتبها عن المجاعة اللبنانية إبان الحرب . ونعيمه لاشك أديب قصاص ، عنده طبيعة فنية ، وله في فنه ميزات ومواهب ، وهو في قصصه يحيا حياة روحية نبيلة كلها صفاء وتصوف ، فعنده « أن الفطرة حقيقة صافية ، وللدفيـة رياء موشى » وهو « يحب الروح النظيفة في جسم قذر ، عن الروح القذرة في جسم نظيف » ومن رأيه « أن الأرض روح طاهرة في جسم طاهر لاتساد ولاتستعبد ، فهي ميزان العدل الإلهي ، ولذلك لا تخجل من أن تنبت الوردة والشوكة والقمحة » ، وإنه لينظر إلى سبل الحيـاة في الشرق والغرب ، فيرى « الشرق يسير إلى المحجة ومركبته قلبه ، وجياده عواطفه وأفكاره ، وأعنته إيمانه وتقاليده المتصلة بالآزال ، بينما الغرب يسير في مركبة روحها البخار أو الكهرباء ، وعضلاتها لوالب ودواليب من حديد وفولاذ ، وأعنتها ادعاؤه واعتداده بنفسه » . ومع أن الغرب يلتفت إلى الشرق هازئاً ، والشرق يهزء ما رى فيقر للغرب بالمجد ، فان نعيمة يرفع الشرق في روحانيته الصافية ، على الغرب في ماديته الملونة ؛ وهو يأسف على الشرق إذ « يطرح مركبته ، ويبيع روحه ، ليحصل على مركبة كمركبة جاره » ، لأن الحيـاة المادية في الواقع « حياة مقنعة » كلها زحمة باطلة ، وجلبة فارغة ، وما الانسان في وسط هذه الجلبة إلا « كالهر يلحس المبرد فيتلذذ بطعم الدم السائل من لسانه جاهلاً أنه دمه ... »

ونعيمة أيضاً رجل باحث ، يعاني النقد والدراسة التحليلية ، وله « سياحات في ظواهر الحياة وبواطنها » . ولا شك أن القصاص في حاجة إلى مواهب الباحث ، من دقة الملاحظة ، وصواب الفكر ، وحسن التقدير ؛ ولكن ليس من الصواب أن يفني شخص القصاص في شخص الباحث ، حتى لا يضعف النهج القصصي في القصة كما يلاحظ في بعض قصص نعيمة ؛ فهو يهتم بأن يقول لك كل شيء في نفسه ، ويعنيه كثيراً أن يشرح كل شيء يعترضه ؛ ومن ثم فهو يستطرد كثيراً ويخرج بك إلى كل ناحية تتصل بالحديث ، ومن ثم كانت القصة عنده فكرة قوية ، وحكمة غالية ، وبحثاً اجتماعياً كاملا ، ولكنها ليست على ما يجب من الاستواء الفني والاتساق القصصي ، فأنت تقرأها وكأنك تقرأ مقالا ممتعاً ، أو بحثاً ضافياً ؛ ولقد تعمد إلى بعض أجزائها بالحذف فما يضير ذلك ، ولا هو يقطع صلة الحوادث في القصة ؛ ولقد تجده يطيل كثيراً في التحليل النفسي للأشخاص إطالة قد تحتملها القصة الطويلة ، ولكنها لاتليق بالقصة القصيرة . وإليك مثلاً : تلك القصة التي أسماها «ساعة الكوكو» والتي صدر بها الكتاب ، فان نعيمة قد حشاها بكثير من الحكم والمواعظ ، ونقل فيها كلاماً طويلاً من كلام « بو معروف » وعرض فيها لشخصية « خطار » فحللها تحليلا

نفسانياً دقيقاً صور فيه كل شيء حتى الخواطر والأحاسيس ، وساق كلاماً عن الشرق والغرب ، والمادية والروحية ، ولكنه ساق كل ذلك مساقاً إن اغتبط به فكر الباحث فلن يرتضيه تقدير القصاص ؛ لأن القصة ليست خطاباً يلقى أو حكاية تروى ، ولكنها حدود مرسومة ، وأبعاد مقدرة ، وحبكة قوية في البدء والنهاية ، وخطة هي طبيعة الحياة ومظهر الواقع ؛ وبالجملة فهي قطعة فنية مستوية لا استطراد فيها ولا زوغان . ولو أن نعيمة راعى ذلك في قصصه لكان من غير شك سباق الحلبة وحامل لواء القوم في القصة

أما أسلوب المؤلف فأسلوب سهل مرسل ، يريده نعيمة على أن يكون أداة لإفهام القارىء فحسب . ولقد يهمل حق البيان واللغة في بعض الأحيان ، فيقدم حيث يجب التأخير ، ويحذف في مقام الذكر ، ويرجع بالضمير إلى غير ما هو له ، كأن يقول : « ولا يزال نحو المائة منهم ينتظرون الدخول وراء السور » يريد ولا يزال نحو المائة منهم وراء السور ينتظرون الدخول . وكأن يقول : « لكنهم يكونون كلاماً ، وينوحون من قلوب ضاحكة وأجواف مفعمة » يريد أن بكاءهم لا حزن فيه وأنهم ينوحون وأجوافهم ممتلئة « بالسرور » ، ولكن العبارة لا تفي بما يريد ، لا في صدرها من الخطأ اللغوي ، ولا في عجزها من القصور . وكأن يقول في بعض تشبيهاته : « فكأن دماغي قد تحول إلى مسحوق دقيق ذرته يد خفية في هاوية تلبدت بدخان » وهذا تشبيه لا يسوغه الذوق البياني

على أننا لو تجاوزنا عن مثل هـذا فما يصح أن نتجاوز عن حق اللغة والنحو في مثل قوله : « ويلتقي الأخ أخاه » وقوله : « لتشاركه بالفرح » وقوله : « ولا يلعب بالقمار » وقوله : « كانت تحوي على صفات » وقوله : « فلنباشر بفحصهم » وقوله : « وذقنك المستطيلة وأحناك النافرة » إلى آخر ما هنالك من التعابير التي لا أحسب أن نعيمة الناقد يرضاها من غيره . وهل من اللائق أن تكون الفكرة من الذهب وأن يكون لبوسها من الخشب ؟ !

ثم هناك هنوات طفيفة كأن يقول (ص ٥٧) واختلت مع جميل في مخدعها ، وسياق الكلام يقضي أنها اختلت مع عزيز وما أحسب ذلك إلا سبق قلم

وفي قصة الكوكو (ص ٨) يقول : في حقيبتي رسالة تسلمتها في أيار سنة ١٩٢٢ والذي في ذيل القصة أنها كتبت بتاريخ سنة ١٩١٥ ولعل هذا من تحريف الطابع

أما بعد ، فقد كانت فترات طيبة تلك التي قضيتها في قراءة « كان ما كان » ، وما أبالغ إذا قلت إن نعيمة قد غمرني بفيض من الفكرة « الروحية البحتة » التي يخدمها ويخلص لها في قصصه . وإنها لفكرة سامية ما أحوج الناس إليها وقد جرفتهم أوضار المادة الفاسدة ، ولكن من لها بأمثال نعيمة في روحانيته وإخلاصه ؟

محمد فهمي عبد اللطيف

5 me Année, No. 228

Lundi - 15 - 11 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العــــدد ٢٢٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٢ رمضان سنة ١٣٥٦ — ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهـــرس

الصيام بين عهدين

والتجدد أو التطور يصيب كل شئ فيجعله أعلى عالٍ أو يردُّه أسفلَ سافل !

كان عهدنا بالصوم قبل اليوم أن يكون عصياناً للنفس فى طاعة الله ، وحرماناً للجسم فى مَبَرَّة الروح ، ونكراناً للذات فى معرفة الناس ؛ فالجوارح مغلولة عن الأذى ، والمشاعر مكفوفة عن الشهوة ، والخواطر مستغرقة فى الدعاء ، بين نهار كله إحسان وتأمل وتصدُّق ، وليلٍ كله قرآن وتواصل وتهجُّد ؛ فلا الغنىُّ يهيج به البطر ، ولا القوي تفرط عليه القدرة ، ولا الفقير يتجهم له الحرمان ، وكأنما زالت الفروق بين الناس فأصبحوا سواسية فى نعمة الدين وسعادة الدنيا !

كان الرجل الدنيوى الشهوان إذا أقبل عليه رمضان تاب وتطهر ، فلا يفتح فمه لهُجر ، ولا عينَه لفحش ، ولا أذنَه للغو ، ولا قلبَه لخطيئة . يقضى يومه مضطرباً فى المعاش على أفضل ما يكون الخلق ؛ فإذا كان تاجراً لا يدلِّس ، أو صانعاً لا يزوِّر ، أو عاملاً لا يُفرِّط ، أو معاملاً لا يخون . ويحيي ليله فى استماع القرآن ومواصلة الإخوان ومُوادَّة ذوى القربى ؛ فإذا ما انقضى بعض الشهر بدا عليه شحوب الصوم وذبول الصلاة وكلال السهر وخشوع الورع . فلو كنت حاضر ذلك العهد لرأيت رمضان

عيداً قومياً ودينياً يؤكد أسباب القرب بين الله وعباده ، ويوثق عرى الحب بين الشعب وأفراده

***

ذلك عهدنا برمضان الأمس ؛ أما رمضان اليوم فبحسبك أن أصف لك حياة من حيوات القاهرة فيه ؛ وتستطيع أنت أن تصور لنفسك الطور العجيب الذي آل إليه شهر القرآن والعبادة

هي أسرة لا أقول إنها مثال لكل الأسر ؛ ولكنها استجابت لنوازع التجديد الأبله استجابة الإمّعة فأصبحت تمثل ماعسى أن يكون بين التقاليد والتقليد من التناقض المضحك

ميم باشا يتبوأ منصباً من مناصب الدولة الرفيعة . بلغه بعد حياة طويلة كادحة ، تبتدىء من القرية الحقيرة والأسرة الفقيرة والوظيفة الخاملة ، وتنتهي إلى هذا الجاه العريض والثراء الضخم والمنزل المرموق ؛ فهو وزوجه من عهد ، وابناه وبناته الثلاث من عهد ؛ والتفاعل بين هذين العهدين هو الذي أحدث هذه الظاهرة التي تجدها اليوم في أكثر بيوت القاهرة . لابد لهذه الأسرة أن تصوم ؛ ذلك حكم النشأة وسلطان العادة . ولا بد كذلك لهذا الصوم المتزمت الجافي أن يتسع باله وترق حواشيه إذا ما استضاف هذه الأسرة . فهو يُسبل جناحيه الرءومين على أسرّتها الوردية الوثيرة من طلوع الفجر إلى متوع النهار ؛ ثم يمس بريشهما الناعم خدود الأوانس النواعس فينتبهن ؛ ويهبُّ الوالدان على زقزقتهن في غرف الزينة وطنف القصر ؛ ثم يجتمع بعد قليل مجلس الأمثرة لينظر في مقترحات البطون على إدارة المطبخ . فهذه تقترح ، وتلك تعترض ، وهذا يطلب لوناً ، وذاك يطلب آخر ، والباشا يدير هذا الجدل الشهي إدارة موفقة ، فيعدّل أو يكمل أو يؤجل ، حتى ينتهي النقاش بثَبَت حافل بالمشهيات والمقليات والمشويات والمحشوات والفطائر لاتجد بعضه في مطعم كبير

يتغير هذا الثبت كل يوم فيطول أو يقصر ، ولكن لونين فيه لاينالهما تغير ولا يمسهما نقص : لوناً من الأرانب مطبوخة في النبيذ يحبه الباشا ، ولوناً من الشرائح الوردية مطعمة بفصوص من شحم الخنزير تحبه الآنسة الكبرى سين !

هاهو ذا الباشا البطين يتذبذب وئيداً بين المطبخ والمائدة كأنه رقاص الساعة ؛ في يده مسبحته الكهرمان الصغيرة يهش بها على الطهاة والخدم ، وشفتاه تختلجان من غير كلام ، وعيناه تتحركان من غير نظر ، حتى إذا دنت المغرب خفت حركته واحتد نشاطه فأقبل على المائدة ينسق الآنية ، وينضد الأكواب ، ويسكب أمام كل آكل الشراب الذي تعوده ؛ فهنا قمر الدين ، وهنا منقوع التين ، وهنا الكينا ، وهناك القرمود ، وهنالك إفيان ، وأمامه هو شراب صحي فاخر من صيدلية (يني) ؛ ثم يدبج الخوان المحلي بنوافل المائدة من السلطات والكوامخ ، ويرتب الألوان مع النادل على أصول مقررة في الفن ؛ ثم يسرح بعد ذلك بصره في السماط المكتظ فيرتد إليه ملآن بالرضا والعُجب ؛ فيخرج إلى الردهة ، ومن الردهة إلى الشرفة ، فيلقي النظرة الأخيرة على الشمس الغاربة ، ثم يعود فيرى الأسرة بجنسيها لم تفرغ بعد من إعداد الأهب للسهرة الراقصة ؛ فالحلل تنتقى ، والحلى تُختار ، والشعور ترجل وتموج ، والأظفار تدرَّم وتصبغ ، والحواجب تدقق وتخطط ، والخطوات واللفتات والبسمات تتكرر أمام المرايا لتراض وتُتقن . حتى إذا انطلق مدفع الإفطار من الراديو أهرعوا إلى المائدة إهراع جنود الإطفاء إلى السيارة ؛ ثم يجلس الباشا بين بنيه ويضع المسبحة الملومة مكان القدح المجهول ، ثم يرفعه إلى فيه وهو يقول : « اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت . » ثم يقبلون على هذه الآكال وهذه الأشربة إقبال الشره القاره ! فلو رأيتهم حسبتهم صاموا العام كله ليفطروا في رمضان !

أذنت العشاء فصلاها الباشا الصالح ، ولم يكد ينفلت منها حتى أخذ يُعد مقصف الليلة من النقول المختلفة ، والأشربة الهاضمة ، والأزهار الجنية . وأخذت الأسرة زينتها التمامة الكاشفة واجتمعت في البهو الفسيح الفخم تستقبل أسراب السيدات والأوانس ومعهن أبناؤهن وإخوتهن من الأيفاع والشباب ؛ فيعزف البيان ، ويخفق العود ، وتشدو الكواعب ، ويهزج الحاكي ، ويدور الرقص على نمطيه الشرقي والغربي ، فتلتف الأيدي على الخصور ، وتلتصق الصدور بالصدور ، وتمتزج أنفاس الكحول بأنفاس العطور ، ويقف رمضان المسكين من هذه المناظر المريبة وقفة شيخ من شيوخ الدين دفعت به الأقدار إلى ماخور !

هذه والله صورة ناطقة لأسرة أعرفها ويعرف أمثالها الناس. فمن عرفها فسيقول قصَّر ، ومن جهلها فسيقول بالَغ ؛ والحق أنها الواقع لا تنقصه إلا تسمية الأسماء وتعيين المنزل .

احمد حسن الزيات

الحـــد الحاسم

للأستاذ عباس محمود العقاد

من العقول عقل كالرسول الذى تثق بقدميه ولا تثق برأسه : ترسله وتفصل له مايعمل فى كل حالة ، فإذا طرأ طارئ لم تسلف له فيه وصية فلا عمل ولا تصريف حتى يرجع إليك . فالشئ عنده إما معمول بأمر أو متروك بأمر ، وإما حسن كما تراه أو قبيح كما تراه ، ولا توسط ولا تدرج بين الأمور

ومن العقول عقل كالرسول المفوض : تنبئه بمرادك ثم تكل إليه تحصيله كما يريد ، فلا تبيح ولا تمنع ، ولا تقسم الأمور كما تراها ، بل تدع له أن يقسم مايشاء حين يشاء

العقل الأول لا غنى له عن الحدود الحاسمة فى الكلام ؛ فالشئ عنده إما أبيض أو أسود ، وإما حلو أو مر ، وإما مأخوذ أو متروك ؛ ولا يجوز أن يكون مأخوذاً فى حال ومتروكا فى حال ، ولا أن يكون حلواً ومراً فى وقت واحد ، ولا أن يكون بين البياض والسواد تارة يبيض وتارة يسود على حسب الضياء والظلام ، وعلى حسب الموقع الذى تنظر منه إليه

والعقل الثانى لا يتقيد بالحدود الحاسمة ولا يحتاج إليها ، لأنه يرى الدرجات بين المسافات ، ويرى الظلال بين الألوان ، ويرى التشكيلات بين الأشكال

فالشئ عنده لا يكون بعيداً وحسب ، ولا قريباً وحسب ، وإنما يكون بعيداً بمقدار كذا وقريباً على درجة من القرب مقسومة بين الدرجات ؛ وقس على ذلك سائر مايدركه ويحده ويميه

ولغات الأمم تبين لنا مقدار نصيبها من العقل المسخر ومن العقل المفوض

فاللغة التى تقل فيها « الظروف » هى اللغة التى قلما يستغنى أصحابها عن الحدود الحاسمة والأوامر المفروضة ، لأنهم يجهلون الفروق ولا يدركون وجوه الاختلاف ، إلا إذا بلغت من الظهور والانصداع مبلغ النقيض من النقيض ، أو مبلغ الشئ المميز بعلامة لا تشتبه بغيرها من العلامات

واللغة التى تكثر فيها الظروف هي لغة العقول المفوضة أو العقول المتصرفة ، لأنها تلمح الفرق الصغير فلا تقف عند الحد الحاسم الكبير ، وترى العمل الواحد على أشكال متعددات ، فلا تحصره فى شكل واحد محدود محتوم

و « الظرف » فى اللغة هو الكفيل باظهار هذه الفروق الصغيرة ، وتقسيم الدرجات بين المسافات الواسعة . فإذا رأينا « الظروف » فى لغة من اللغات فنحن إذن أمام ناس متصرفين غير محدودين ، أو أمام عقول تستنبط الفهم من بواطنها ولا تنتظر حتى يقال لها : افهمى هذا هكذا، وافهمى ذاك على ذاك المثال

وأحسب أن « الظروف » تقل ، وأن العقول تعجز عن التصرف لسبب من سببين :

أحدهما طول عهد الاستبداد ، فيتعود العقل إملاء الأوامر عليه وإسناد الفرائض إليه ، فيصدع بما يؤمر ويطيع ثم لا يتصرف ، وينتظر الارشاد والتسديد فى كل خطوة وعند كل طارئ جديد

والثانى نشأة الأمة فى بيئة محدودة لم تتشعب فيها مسالك العمران ومذاهب التفكير ، فكل ما فيها فروق كبيرة بارزة ، ومسافات بعيدة شاسعة ، فلا محل فيها للفرق الدقيق ولا للدرجة الصغيرة ولا للمسحة المترددة بين الألوان

وأنت تستطيع أن تفتح « معجم » اللغة من اللغات فتعرف نصيبها من الحرية أو من سعة العمران بتلك العلامة التى لا تخطئ ، وهى علامة « الظروف » المصوغة أو التى تسهل صياغتها من الأسماء والأفعال

يضحك الانسان ضحكة السرور ، وضحكة الألم ، وضحكة التشفى ، وضحكة التهكم ، وضحكة الرصانة ، وضحكة الطيش ، وضحكة المعرفة والحكمة ، وضحكة الجهل والبلاهة ، وضحكة القوة والعزة ، وضحكة المجون والاسترخاء ؛ وكله ضحك إذا نظرت إلى اسمه فى اللغة ... فماذا يفيد هذا الاسم إن لم يميزه مميز من الظروف ؟

وتقول مثلاً فى عنوان مقال أو قصيدة : « شجاعة الجبن » فيفهم العقل المتصرف أو عقل « الظروف » معنى ما تقول

أما العقل المتلق أو عقل الحدود الحاسمة فيعجب حتى يغرب فى الضحك ويسخر ممن يلقى إليه بذلك العنوان ، لأن المسألة

عنده إما شجاعة وإما جبن ولا يلتقيان . وليس فى علمه أن الجبن قد يؤدى إلى الاقدام بعض الأحيان ، وأن الجبان والشجاع فى بعض المواقف سيان

ومن هنا كان استغراب الجامدين لما كانوا ينعتونه «بالتفريج» من تلك العناوين ، وما هو بالتفريج ولا بالوصف الوقوف على الفرنجة ، ولكنه وصف شائع بين جميع العقول التى بلغت رشدها وخرجت على وصاية « الحدود الحاسمة » أو على وصاية الأسماء والأفعال التى لا تميز بينها الظروف والإضافات

وليس أصعب من إفهام عقل حاسم يتحذلق ويقيم الاعتراضات على ما يسمع . فأنت إذا قلت مثلاً : إن النهار مضئ والليل مظلم ، فذلك تفريق من أصدق التفريقات بين الأضداد : يسمعه العقل المتصرف فيعلم ما تعنيه لأول وهلة ، ويسمعه العقل الحاسم المحدود المتحذلق فيقول لك : كيف ؟ إن النور الكهربائى يقىء بعض الحجرات بالليل ، وإن الستائر لتلقى الظلام على بعض الحجرات بالنهار ! وقس على ذلك أمثال هذه الاعتراضات وما تنم عليه من الضيق والعجز وقلة التصرف والتواء التفكير

وإلا فانك إذا أردت أن تمنع ذلك الاعتراض وأشباهه فقد وجب عليك أن تقول : إن النهار مضئ والليل مظلم ، ثم تتبع هذا التفريق باحصاء جميع الحجرات التى تحجبها الستائر والنوافذ وجميع الحجرات التى تضيئها المصابيح الكهربائية وغير الكهربائية ، وتعود فتقول : إن النهار مضىء والليل مظلم ما عدا حجرة فى بيت زيد فى طريق كذا فى مدينة كيت وكيت بمصر بالقارة الإفريقية ، وهكذا حتى تستوفى بيان جميع الحجرات فى جميع الطرقات فى جميع المدائن فى جميع الأقطار . فإن لم تذهب إلى هذا التفصيل فأقل ما فى الأمر أن تعمد إلى استثناء لا حاجة إليه ولا مزيد فيه

فما الذى يدعو العقل المحدود إلى أشباه ذلك الاعتراض ؟ أدقة فى فهم ؟ كلا ! بل عجز عن إدراك الحدود بغير إملاء حاسم وعجز عن طلب المعرفة يشغله بالقشور عن اللباب وبالتوافه عن مهام الأمور

وهنا ينبغى لنا من التمثيل بمثل آخر للتفريق بين العقل المتصرف المفوض والعقل الحاسم المسخر

فهل من الضرورى أن يلجأ العقل المتصرف إلى التفريقات والظروف فى تعبيراته ؟

وهل إذا قال القائل : « إن النهار مضىء والليل مظلم » نحسبه من أصحاب اللغات الفنية التى يتكلمها المتصرفون أو من أصحاب اللغات الفقيرة التى يتكلمها المحدودون المغلقون ؟

الجواب هنا ينفع فيه التصرف المطلق ، ولا ينفع فيه الحسم المغلق !

الجواب هنا أن ذلك القائل يكون من المتصرفين إذا قدر أن سامعيه لا يعترضون ذلك الاعتراض السخيف ولا يطالبونه ببيان الحجرات فى جميع البيوت والطرقات والأمصار والقارات ، أو باستثناء هو وذلك على حد سواء . فإذا هو سكت بعد تفريقه الموجز فسكوته خير من الإفاضة والتشعيب

وأنه يكون من المحدودين إذا قال : « إن النهار مضىء والليل مظلم » ثم سكت عن المزيد لأنه يجهل مواقع الاستثناء كما يجهلها سامعوه .

فالتصرف لازم فى جميع التفريقات حتى التفريق بين المتصرفين والمحدودين ..

ومن ثم نستطيع أن تقول : إن « الظروف » والتفريقات تكثر فى اللغات الفنية ، ثم نرى أن أصحاب تلك اللغات قد يستغنون عن الظروف والتفريقات ويعرفون كيف يستغنون عنها ومتى يحسن الاستغناء ؛ فلا نعجل بالاعتراض ولا نحسب أننا متناقضون ، لأن التصرف خليق أن ينفى هذا التناقض الظاهر عن أذهاننا وأن يغنينا عن الإسهاب حيث لا حاجة إلى إسهاب

***

ساقنى إلى موضوع الحد الحاسم رأى فى علاقة الأدب والديمقراطية قرأته فى كتاب « لونارد وولف » المسمى بعد الطوفان ، وسأعود إليه ببعض الشرح والتعليق فى غير هذا المقال

وخلاصة رأيه أن الشعراء والقاصين كانوا يرسمون للناس قبل القرن السابع عشر نماذج من طوائف وجماعات . أما بعد القرن السابع عشر وانتشار الديمقراطية فأبطال القصص « أفراد » مستقلة قلما تتكرر فى غمار السواد ، وليست نماذج من طبقة أو طائفة أو قبيل

وعلاقة الديمقراطية بهذا فى رأى « لونارد وولف » ومن يجارونه أن المساواة قد خولت الفرد حرية الظهور فبرزت الخصائص واستحقت من الشعراء والكتاب عناية لم تكن تستحقها حين كان الجمهور أرقاماً متكررة على نموذج واحد ، أو حين كان النبلاء طرازاً مرسوم المراسم لا يختلف فيه إنسان عن إنسان

رأي جميل لا شك فى صدقه واحتوائه للكثير من الأصول والملاحظات ودلالته على سعة المعرفة وحسن التحليل والتعليل

ولكن ما نصيب ذلك الرأى لو وقع للمحدودين من أصحاب الحدود الحاسمة ومن جماعة المطالبين بتعداد الحجرات إذا قيل إن النهار ضياء والليل ظلام ؟

فقبل القرن السابع عشر رسم شكسبير بطله « هملت » وهو ولا ريب « فرد » بين أمراء جميع الأزمان وليس بالنموذج المتكرر فى طبقة الأمراء

وقبل القرن الأول رسم هومير أبطاله الفرسان وهم مختلفون اختلاف أفراد لا اختلاف نماذج

فأين يذهب رأى وولف الجميل لو صدمناه باعتراضات شتى على هذه الوتيرة ؟

يذهب إلى حيث نخسره ويخسره النقد وميزان الآداب ، لأن وصف الشخوص بعد القرن السابع عشر قد اختلف وكانت لاختلافه علاقة بالديمقراطية ما فى ذلك مراء . وعلينا نحن أن « نتصرف » فى التفريق بين أجزاء ذلك الرأى فنضيف إلى ميزان الأدب صنجة تعين على الضبط والتمييز . أما إذا أبطلنا الرأى وعطلناه حتى يعود لنا وولف ببيان الحجرات المضيئة فى الليل والحجرات المظلمة فى النهار فنحن الخاسرون لأننا نجهل مواقع التدقيق لا لأننا نعرف التدقيق فى نقد الآراء

الحد الحاسم أو العقل المحدود هو آفة الجامدين الكبرى ، وهو علة الركود فى آدابنا وفنوننا ، ولكننا نتغلب عليه ونروض عقباته ، ولا نستدل على ذلك بشىء أدل من زهدنا فى الجدل « البيزنطى » عاماً بعد عام

عباس محمود العقاد

كلمة موجزة

المتنبى

أبو تمام ، الوزن ، القافية ، التجديد

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

فى (العمدة) لابن رشيق : ثم جاء أبو الطيب فملأ الدنيا ، وشغل الناس

* * *

فى (المثل السائر) لابن الأثير : وقفتُ على أشعار الشعراء قديمها وحديثها فلم أجد أجمع من ديوان أبى تمام وأبى الطيب للمعانى الدقيقة ، ولا أكثر استخراجاً منهما للطيف الأغراض والمقاصد

* * *

فى (خزانة الأدب) للبغدادى : المتنبى سريع الهجوم على المعانى

* * *

فى (شذرات الذهب) لابن العماد : ليس فى العالم أشعر من المتنبي أبداً ، وأما مثله فقليل

* * *

قلت ذات مرة للعربيّ الألمعيّ الأستاذ (رياض الصلح) — وقد ذكرنا المتنبى وأبا تمام — : إن الأول كان يحلق فى سماء الشعر بمعانيه ، وإن الثانى كان يغوص فى بحره على لآليه ، فقال : قِفْ . إذن ، المتنبى (طيارة) ... وأبو تمام (غواصة) ...

* * *

ولقد جاء الذى شغل الناس ، والذى هو دهره من رواة قلائده بما جاء به وهو من تلك القافية وذاك الوزن فى سجن . ولولا هذان لأسمعك (أحمد) من القريض — الذى هو أعجب ، وأراك ما هو آنق مما رأيتَ وأغرب . ولولا هذان لجوّدَت الأيام أيّما تجويد تسطيرَ ما أملى قلم يقل :

ولم تُحسن الأيام تكتبُ ما أملي [١]

رُبَّ ما لا يُعبّر (الشعر) عنه
والذي يُضمرُ الفؤادُ ، اعتقادُه [٢]

وما قيّد الشعرَ العربيّ إلا قوافيه ، وما قصَّر خطواته في ميادين الشؤون إلاّ تلك الأوزانُ (البدويّة) وإلاّ هي ؛ والقافية في أكثر الأحايين هي القائلة لا القائل ، والوزن هو الوازن لا شعور الشاعر ؛ فأكثر الشعر ليس لأهله لكنه للوزن أو للقافية ... إنه مما أتى ، مما وُجد ... ليس هو مما قُصد ...

وكائنْ في الضمائرِ من معانٍ باهراتٍ مدهشاتٍ قد غيبتّها القوافي !

وإذا كان ذلك القديم الكريم الموروث قد كفى في شيء فثمّةَ أشياء لم يستقلّ بها ، والراغب والطالب في (الحضارة) في كل وقت جمّة

ولولا أنّ عبقريّةً متنخيةً قويّة عند المتنبي قد أنكرت الجريَ على أساليب القوم أو بعض أساليبهم ،

إذا كان مَدْحٌ فالنسيبُ المقدَّمُ
أكلُّ فصيحٍ قال شعراً متيّم [٣] ؟

وأرادت أن تحرر ربّها لأقام (الكندى) دهرَه من تُبّاع (الطائي) يأخذ بأخذه فلا يجاريه ، ويكدّ روحه في أن يصوغَ كما يصوغُ فلا يساويه ؛ وحبيبٌ في صَوْغِهِ وغَوْصِهِ لا يلحق.

« أراد المتنبي أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه [٤] » وقلّما ضارع كبيرٌ مقلَّدٌ عظيماً مقلَّدا

ولم يستطع المتنبي — على تبرزه وارتقائه — أن يزحزح حبيباً عن مكانته ، وما قدر إلا أن يقعد في عرش الشعر معه . وليس بقليل أن يقتطع من ملك حبيب ما اقتطع ، ويختلج من رعاياه من اختلج . فالناس بعدهما في كل زمان حزبان : متنبيّ ، وتماميّ ، لكن جماعة (أحمد) أكثر عدداً ، و (للحبيب) شيعة به مغرمون

وقد قالوا : أبو تمام عند الخاصة أشعر ، والمتنبي أشعر عند العامة . وما أنصف المتنبي هؤلاء القائلون . إن في (السيفيات والكافوريات والعضديات) وغيرهن لآيات بينات ، وإن فيهن لسحرا . وإذا كان لأبي تمام عشر قصائد علا بهن علوّاً كبيراً ، فان للمتنبي قدّامهن خمسين قصيدة أو أكثر من ذلك . وقد يقول قائل — وفي قوله حق — إن طول الأجل وقصره قد أعطيا ومنعا ، فلم يعمّر (حبيب) ما عمّر (أحمد)

وكان شيوخ ابن خلدون يرون — كما قال — أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء — الله أكبر ! — لأنهما لم يجريا على أساليب العرب [١]

وكلام هؤلاء الشيوخ (شفاهم الله ، وشفى ناقل قولهم معهم) ليس بشيء إلا شيئاً لا يُبأ به ؛ فأساليب العرب متنوعة مختلفة ، وليس هناك أسلوب أوحد ؛ ولكل قبيل طريقة ، وللبدوي بلاغة ، وللحضري بلاغة ، وللاقليم أو المكان ، وللخليقة والمزاج أثرٌ وسلطان ؛ ولكل عصر أو قرن زيٌ ولحن . و « أحسنُ الكلام ما شاكل الزمان [٢] » والدنيا في تبدّل مستمر ، « وأحوال العالم لا تدوم على وتيرة واحدة ، ومنهاج مستقر [٣] »

ولكل نابغة نهجٌ معلوم

فتنكّبُ المتنبي عما تنكّب عنه ، وسلوكه السبيل الذي

---

(١) في (الجزء الأول من كتاب العبر) المقدمة لابن خلدون : الشعر هو الكلام البليغ ، المبنى على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروى ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به . فما كان من الكلام منظوما وليس على تلك الأساليب فلا يكون شعراً . وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعرى ليس هو من الشعر في شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب

(٢) المأمون في كتاب الايجاز والاعجاز للثعالبي

(٣) العلامة الفيلسوف ابن خلدون في (مقدمته)

---

(١) في رثاء عبد الله بن سيف الدولة ، والصدر (وما تسع الأيام على بأمرها) وفي هذه القصيدة :

هل الولد المحبوب الا تعلة   وهل زورة الحسناء إلا أذى البعل
وما الدهر أهل أن تؤمل عنده   حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

والمعري من هنا مشى في تكرهه الحياة والنسل إلى الناس

(٢) في أبي الفضل بن العميد يهنئه بالنيروز وفي القصيدة يقول :

عربي لسانه ، فلسفي   رأيه ، فارسية أعياده
[illegible] الله أفصح الناس طرا   في مكان ، أعرابه أكراده
مثل ما أحدث النبوة في العالم (م)   والبعث حين شاع فساده

(٣) مطلع قصيدة للمتنبي في سيف الدولة

(٤) المثل السائر

قصة واقعة

للأستاذ علي الطنطاوي

« أغارت سيول هائلة ليلتي ٢٤ ـ ٢٥ أكتوبر على حارستا والمعظمية والضمير من أكبر قرى دمشق الشمالية ، فخربتها ولم تدع في الضمير حجراً على حجر ، وقتلت الناس بالمئات وتركت من تركت بلا مأوى ولا مال ... »

كانت « منطرة [1] » « سعد الخطار » أعلى منطرة في « دوما [2] » ، وكانت تطل على كروم دوما الواسعة والسهول التي تليها ممتدة إلى ثنيّة العقاب التي انحدر منها خالد مَقْدَمَه من العراق في طريقه إلى اليرموك ساحة الشرف الخالد ، وتشرف من هناك على جنان الغوطة تلوح من ورائها دمشق جنة الأرض أقدم مدن العالم ، يرى خيالها حيال الأفق بمآذنها التي لا يحصيها عدّ ، ومسجدها العظيم تتوّج هامته قبة النسر الباذخة المشمخرة ، والمنائر السامقة العالية ، ويرى منها قاسيون الحبيب ، وهاتيك الجبال ... وكان سعد الخطار سيد شباب الضمير [3] ، وأشدهم أسراً ، وأجرأهم جناناً ، وأقواهم ساعداً . اشتغل منذ عشر سنين ناطوراً في كروم دوما ، فعرف فيها بالشدة والبأس ، فتجنب الناس كَرْمه وابتعد عنه اللصوص والطرّاء . وكان يجول النساء في أنحاء الكرم أو ينزل إلى البلد ، وخيزرانه في يده ، فيجتمع النساء في طريقه ينظرن بإعجاب إلى قامته المديدة ، وصدره الواسع ، وأكتافه العريضة ، وشاربيه الأسودين المفتولين ؛ ولكن سعداً كان مع هذه الشدة وهذا البطش رقيق العاطفة ، مرهف الحس ، يحمل بين جوانحه قلب شاعر شاعر ...

***

كان عصر اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٣٧ وكانت السماء متلبدة بالغيوم ، والأمطار ترش رشاً خفيفاً ، والدنيا مظلمة ترى كأنها في ساعة الغروب ، وكان سعد في منطرته ينظر إلى الكرم الواسع الذي حرسه الصيف كله ، وكان موقَرا بالثمر تبدو عناقيده الحمر والبيض من خلال الورق الأخضر كأنها عقود اللؤلؤ والياقوت ، يمتد إلى حيث لا يدرك البصر حافلا بالحياة ؛ فرآه قد اصفرت أوراقه وعطل من الثمر وعاجله الخريف فذوت أوراقه واساقطت تطير مع الريح ؛ ورأى أشجار الشمس التي كان يبصرها دائماً عن يمين الكرم خضراء زاهية ، قد تجردت ولم يبق عليها إلا أوراق صفراء جافة ؛ ثم هبت رياح باردة من رياح الخريف فلفحت وجه سعد ، وحملت هذه الأوراق الذاوية فألقتها في منطرته فكان يسمع لوقعها تحت المطر صوتاً حزيناً مؤلماً ، فشعر سعد بالأسى يملأ قلبه ... سيضطر غداً إلى فراق هذه المنطرة الحبيبة ، وهذا الكرم الذي ثابر على حراسته عشر سنين وتعلقت حياته به ، وانتثر قلبه في أرجائه ، فأصبح جزءاً من حياته وقطعة من نفسه ، لا غنى له عنه ، ولا حياة له بدونه ... لقد ملأوا

(١) المنطرة في عرف الشاميين غرفة من أعواد سقفها من القش أو من أوراق الشجر تبنى على أربعة أعمدة عالية من الخشب يقيم فيها الناطور والناطور فارسي معرب من القديم والاسم النطارة والمنطرة اسم مكان منها

(٢) بليدة على ثلاثة عشر كيلا من دمشق ، يصلها بها خط ترام كهربائي تعد هي وضواحيها عشرين ألفاً ، وهي أشهر قرية في سورية بكروم العنب الأحمر ، وبصنع الدبس والزبيب

(٣) الضمير قرية كبيرة شمالي دمشق إلى الشرق على سيف البادية قال المتنبي :

لئن تركنا ضميراً عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ألم

سلكه ما ضاراه بل ظاهراه في إبداعه ونبوغه ، وكان ذلك على هذه اللغة من نِعَم الله . فتحرَّرَ (ابن الحسين) من تقليده ، ومشى مشيَ المُدِلّ المستقل في تجديده ؛ والمقلد عبْد ، ولا يرضى بالعبودية حرّ ؛ والتقليدُ عدم ، والاستقلال كون . وشَيّرَ المتنبي ذاك الشعر ، وأظهر (أحمد) معجزه

ولي فيك ما لم يقل قائل وما لم يسر قمر حيث سارا [1]

ورأت العربية أكبر شاعر ، وظهر في العرب شاعرهم

ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الصائح المحكيّ والآخر الصدى

وما الدهر إلا من رواة قلائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرا وغنى به من لا يغني مغرّدا

محمد إسعاف النشاشيبي

(١) للمتنبي في سيف الدولة وقبله :

وعندي لك الشرد السائرات (م) لا يختصصن من الأرض دارا

قواف إذا سرت عن مقولي وثبن الجبال وخضن البحارا

أمس آخر صندوق (سحارة) من العنب جمعوه من بقايا العناقيد ولم يبق فى الكرم ما يحرسه ، فشعر كأنه يفارق ولداً عزيزاً عليه ، قد رباه وتعهده بالعناية ثم فقده ... أو لم يرافق الكرم وهو لا يزال حصرما ؟ أو لم يتعهده حتى نضج وأينع ؟ أو لم يشاهد التجار كل مساء وهم يأتون ومعهم العمال بالعشرات يملأون صناديق (سحاحير) العنب ، وهم يغنون ويصيحون ويترعون الفضاء أنساً ؟ كم بين هذا المشهد وبين مشهدهم أمس وهم يملأون آخر (سحارة) صامتين تلوح على وجوههم أمارات الحزن والكآبة ؟ لم يستطع سعد أن يراهم على هذه الحال فانسل إلى منطرته ووضع رأسه بين يديه يفكر حزيناً ملتاعاً ...

* * *

جلس سعد يتأمل هذا المشهد ذاهلاً غائباً عن نفسه والمطر يشتد ويقوى ، والماء ينفذ من سقف المنطرة ، وكان سقفها من ورق الكرم الجاف ، ويبلل رأسه وثيابه لا يحس به ولا يحفله لأنه ابن البر وصديق الطبيعة ، ولأنه كان ذاهلاً عن نفسه لم يصح حتى أسدل الليل ثوبه الأسود على الدنيا فنيب تحته هذه المشاهد كلها ... صحا سعد فنفض الماء عن شعره وثيابه ، ونشر خيمته فوق رأسه لتمنع عنه المطر ، وأوقد مصباحه الألالى الذى يظهر للسائرين فى هذا المرقب العالى كأنه نجم من نجوم السماء ... وجلس يفكر ...

ذهب به الفكر إلى بعيد . فذكر حين جاء هذه المنطرة مع عمه وابنة عمه ليلى ، وكان ذلك قبل أحد عشر عاماً . لقد كان فى السادسة عشرة ، وكانت هي فى التاسعة من عمرها ، وكان عمه ناطور الكرم يحرسه منذ ثلاثين سنة ، وهو الذى بنى هذه المنطرة وأعاد بناءها أكثر من عشرين مرة إذ كانت تهدمها الرياح والأمطار والسيول . لقد تصور عمه بقامته العالية وجسمه المتين وظهره الذي انحنى قليلا تحت أعباء الزمان ، ولحيته البيضاء ... لقد كان عمه قوياً شجاعاً وكان سعد يعجب به كثيراً كما كان يحب ابنته ليلى ... أحبها منذ كانت طفلة ولكنه لم يكن يعرف أنه يحبها ، ولم تكن كلمة الحب دائرة على ألسنة القرويين ، بل كان من العار على الشاب أن يذكرها لفتاة ...

لم يكن يعرف أنه يحبها ولكنه لم يكن يستطيع أن يبتعد عنها أو أن يمر عليه يوم لا يراها فيه ؛ وإذا هو لقيها وذهب معها يلعب أو يرعى العنزات أو يسوق البقرة إلى المزرعة أو يملأ الجرة من العين ، إذا كان معها ينسى الدنيا كلها ولا يفكر فى شيء ...

ذكر حين جاء هذه المنطرة أول مرة مع عمه وابنة عمه ليلى وحين تركه عمه مع ليلى لينزل إلى دمشق ، وأوصاه بأن يعتنى بها ، ويحرس الكرم ...

— لقد صرت شاباً يا سعد . كن عاقلا وشجاعاً . لا تدع ليلى تنزل فى الليل من المنطرة . إذا رأيت وحشاً أو سارقاً فأطلق عليه النار . لا تخف من شيء ... هذه هى البندقية ...

وذهب عمه ، وهو يتبعه بصره . فلما غاب عن عينيه أحس سعد بأنه غدا منذ تلك اللحظة رجلا ، وأنه هو حامى ليلى ، وحارس الكرم ، وأنه يستطيع أن يطلق النار من البندقية كما كان يفعل عمه تماماً ، وتمنى من كل قلبه أن يرى وحشاً أو لصاً ليرى ليلى شجاعته ورجولته ، ولكنه لم ير شيئاً .

ذكر كيف قضى الليل مع ليلى ، وكانت ليلة قمراء رخية النسيم لطيفة . فتحدثا وتبادلا النكات ، وأحس بلذة لا تشبهها لذة ، ولكنه لم يمسها بيده ، ولم يذكر لها كلمة الحب لأن الشرف والأمانة كانت شعار الشباب فى تلك الأيام ، وليلى ابنة عمه وعرضه ائتمنه عمه عليها ، والله شاهد عليه .

وقفز به الفكر إلى بلده الضمير ، وقد كبرت ليلى وحجبت عنه فلم يعد يراها إلا على العين أو فى الحقل ؛ ولم يكن يمنعه الحجاب من رؤيتها لأنه حجاب شرعى يظهر الوجه والكفين ويستر كل شيء ، لا كحجاب المدن الذى يستر الوجه بغشاء رقيق يزيده فتنة وجمالا ثم يكشف العنق والصدر والساق وما فوق الساق ، ويظهر الكف والساعد ... فكان يحدثها ويصحبها فى الطريق ؛ ولم يكن بينهما سوء ، لأنها خطيبته السماة عليه منذ كانا صغيرين ... فهى له ، ولم يجرؤ شاب فى القرية على خطبتها احتراماً لسعد ، وخوفاً من بطشه ...

ومرت فى ذهنه صورة العرس وحفلاته ، ووفود القرى المجاورة والولائم العامة فى الساحات والطرق ، و (الدبكات)

والأهازيج ... مرت فى ذهنه مراً سريعاً ، فأبصرها حية قريبة كأنما كانت أمس ، وقد كانت منذ سبع سنين لم ير فيهـا من زوجته ليلى إلا ما يعجبه يرضيه . ولم تغضبه مرة واحدة . كانت تحيا من أجله ، تهيء له الطعام وترتب الدار ، وتنتظره حتى يجيء من عمله . فإذا جاء رآها قائمة وراء الباب منتظرة فقبلت يده ، ثم أعانته فى نزع ثيابه ، وصبت على يديه المـاء حتى يتوضأ ويغسل رأسه ووجهه بالصابون ، ثم قدمت إليه الطعام ، ولم تدخر وسعاً فى تسليته وإيناسه . وإذا كان كئيباً أو مهموماً رفهت عنه وواسته . وأضاق مرة ولحقـه الدائنون حتى هددوه بالسجن من أجل عشرين ليرة ، فلم يشعر إلا وزوجته تقدمها إليه زاعمة أنها قد وفرتها من نفقات المنزل ، فصدقها ووفى دينه ؛ ثم علم بعد أنها باعت حليّها التى لا تملك غيرها ...

كانت مثال الزوجة الشرقية المسلمة التى تعيش لبيتها وزوجها وتتخذه سيداً لها ؛ وكان هو مثال الزوج الوفى الصالح الذى يشتغل ويحيا لزوجته وبيته ، ليس له سهرة ولا خليلة ولا عادة من العادات السيئة التى تذهب الأموال وتشقى العيال ...

ثم ذهب الفكر بسعد إلى ولده ، ولده الوحيد يسار ، فهاجه الشوق إليه ، وبرّح به الحنين إلى بيته ، وغلب على حبّه لهذه الأرض وتعلقه بها . وكان الليل قد انتصف ولم يذق سعد مناماً فنهض ورفع طرف الخيمة فنظر فإذا السماء صافية قد انقشعت عنها الغيوم ، وطلع القمر من وراء الأفق هلالاً ضعيفاً يلقى على الدنيا نوراً كابياً ، فرأى الكرم أسود مظلماً فساوده الحنين إليه والحزن على فراقه ؛ وكانت منزلة الكرم من نفسه كمنزلة زوجته وولده ، بل كانت هذه المنطرة أحب إليه من بيته . وجعل يتأمل الكرم فامتلأ قلبه أسى ؛ وذكر ليلى ويساراً فأزمع الرحيل ولكنه اضطر إلى انتظار الفجر ، ولبث صامتاً فغلب عليه النعاس فأغفى إغفاءة قصيرة ثم نهض مذعوراً يرتجف . لقد رأى حلماً مرعباً فتعوذ بالله وسأله أن يحرس زوجه وولده ، ولم يطق البقاء فقام يجمع أمتعته — وما أمتعته إلا فراش ولحاف وبساط وخيمة وصندوق صغير فيه قدر وأطباق وإبريق للشاى — ويلقى على المنطرة النظرة الأخيرة كأنه يريد أن يثبت صورتها فى نفسه ، وأن يودع ما فيها من ذكريات لذة هى أعز ما يملك في حياته ، ثم نزل إلى دابته والفجر يهم بالانبثاق ...

* * *

راقه سكون الليل وجمال الفجر وهذه الكروم الواسعة التى استيقظت وتسربت إليها خيوط النور من ناحية الشرق فأضاءت صفحتها ، فاشتد به الحنين إلى زوجته وولده ، وشعر أن حبه لهما قد نما فى هذه الساعة وازداد وطنى على نفسه ، فجعل يتصور حركاتهما وسكناتهما ، وكيف يخرجان لاستقباله ، وكيف يتعلق به يسار فيرفعه إلى وجهه ويقبله ؛ ورنت فى أذنيه كلمة (بابا) حلوة مستحبة ، وشعر بعالم من الحب والعطف والوئام يغمره ، حتى أحس بنفسه يطير على متن الهواء فى حلم فاتن لذيذ ، فانطلق يغنى شتى الأغانى القديمة وصوته العذب القوى يشق السكون ويوقظ الطبيعة ، فتجاوبه الديكة من الكروم المجاورة بزقائها ، والعصافير بسقسقتها الحلوة

* * *

أشرف على البلد ضحى ، فتأمل الفضاء فلم يبصر شيئاً ، أين البلد ؟ هل أخطأ الطريق ؟ أم هو لا يزال بعيداً عن البلد ؟ لقد نظر حوله وأنعم النظر فلم يشك أنه حيال البلد . لقد سلك هذا الطريق مئات المرات ، ويستطيع أن يسلكه مغمض العينين ، فكيف يخطئ أو يضل ؟ لا شك أنه على صواب ، وأنه قد وصل ، ولكن أين البلد ؟ وأحسّ سعد كأنه قد بدأ يجنّ . أتختفى بلد برمتها أيها الناس ؟

ودنا حتى وصل البلد ، فلم يجد إلا أكواماً من التراب مبتلة عليها آثار الماء ، تتخللها برك مالها من آخر ، وحجارة منثورة فى البادية نثراً ، فجن جنونه ، وانطلق يصيح : ليلى ! ليلى ! يسار ! يسار ! ليلى ... وهيم شارداً على وجهه ، يدور بلا وعى ، وإذا بشيخ مسنّ من حكماء القرية يهتف به ثم يأخذه من يده ، فيتبعه سعد صاغراً ، حتى يجلسا على كومة من هذه الأكوام ...

— هذه حال الدنيا يا بنى ... إن لله حكمة لا يعلمها أحد ، فلنصبر ولنرض بالواقع ، الحمد لله على كل حال ...

— ولكن ماذا جرى يا عم ؟ أين ليلى ، أين ابنى يسار ؟

— هذا قضاء الله يا بنى .. لقد كنت نائماً ليلة أمس فسمعت

ضجة في الطريق ولغطاً ، فخرجت فإذا الناس مجتمعون ، وعلى وجوههم أمارات الذعر الشديد ، وهم يصغون في خوف شديد ورعب بيّن ، إلى صوت عجيب آت من بعيد ، فأصغيت فإذا صوت عميق مستمر لا ينقطع ، فجزعنا ولم ندر ما هو ؟ فقائل إنها ريح ، ولكنه ليس بصوت ريح ، وقائل هو من أصوات الجن ، وقائل إنه رعد ، وما هو كذلك ، فوقفنا وتهيأنا للنضال ، وحملنا السلاح ، وكان الصوت مستمراً ولكنه جعل يقوى ... ويقترب حتى تبينا فيه هدير الماء ... إنه السيل ! السيل ! وطارت هذه الكلمة على الأفواه ، فأسرع قوم إلى بيوت القرية العالية ، يحسبونه سيلاً كالذي عرفوا من السيل ، لا يبلغ هذه البيوت ؛ وخاف قوم فأسرعوا إلى الجبل ، وقد أعجلهم الخوف فلم يأخذوا معهم غطاء ولا وطاء ، وكنتُ ممن أمّ الجبل

— وليلى ؟ وليلى ويسار ؟

— لقد بقوا في البلد ... اسمع يا بنى ، إنها لم تكن إلا ربع ساعة حتى بدا الهول ، نعوذ بالله ... لقد أقبل سيل علوّه أكثر من أربعين متراً ، يتكسر ويقذف بالصخور والحجارة والأشجار فغمر أعلى بيت في المدينة ، واختلط هديره العاتى بصراخ النساء وصياح الأطفال وأصوات الشباب ...

— وليلى ويسار ؟

وانحنى سعد على قدمى الشيخ يقبلهما بجنون ويصرخ :

— وليلى ويسار ؟ أرجوك يا عم خبرنى عن ليلى ويسار ؟

قال الشيخ :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ... لقد أصبح الصباح وليس في المدينة حجر على حجر ، ولم يبق ممن كان فيها أحد . لقد وجدت الجثث طافية على وجه البرك وغارقة في الوحل ومطمورة بالأنقاض ، وجثث حملها معه السيل إلى بحيرة العتيبة ، ولم ينج إلا من كان على الجبل ، بقى بلا مأوى ولا مال ...

— وليلى ويسار ؟ وليلى ويسار ؟

ووثب سعد هائماً على وجهه يصرخ وينادي :

لقد جن « سعد الخطار » حزناً على ليلى ويسار !

« بيروت » علي الطنطاوي

التشريع والقضـــــاء

في العهد الفرعوني

للأستاذ عطية مصطفى مشرفة

— ٤ —

أما الزواج عندهم فكان نوعين : زواج مدني تكتسب فيه الزوجة بالشراء ، وكان شبيهه في روما الزواج المعروف باسم Complio الذي كان خاصاً بالعامة ؛ وزواج ديني يعقد على يد أحد الكهنة ، وكان يقابله عند الرومان زواج Onfarreatio الذي كان قاصراً على الاشراف . وكان المتبع أن يحصل الزواج المدني قبل الزواج الديني الذي يقوم بعقده أحد رجال الدين ؛ فكان الزواج بذلك يتم أولا على حسب الأصول القانونية المدنية بطريق الشراء ثم يحصل الزواج الديني بعد ذلك

وكان ينص في عقد الزواج على العلاقة المالية بين الزوجين ؛ وكان هذا الاتفاق المكتوب في صلب عقد الزواج لا يخرج عن طريق من ثلاث : أولها أن يفصل مال الزوجة عن مال الزوج ، وفي هذه الحالة يكون للزوجة أن تتصرف في مالها دون إجازة زوجها . ثانيهما أن يخصص بعض أو كل أموال الزوجة لمساعدة الزوج للقيام بالانفاق على الأسرة ، وفي هذه الحالة يجب على الزوج ردها بعينها إذا كانت عقاراً أو ردها بقيمها المبينة في صلب عقد الزواج إذا كانت منقولا . وثالثها أن يشترك الزوجان في بعض الأموال أو كلها . وسمح القانون للزوجة بأن تشترط في عقد الزواج أيضاً أن يدفع لها الزوج مبلغاً معيناً كغرامة ونفقة لها إذا طلقها الزوج فأعطى لها حق الرهن العام على جميع أموال زوجها ضماناً لما يكون لها من الحقوق عليه . فلما جاء بوخوريس في القرن الثامن قبل الميلاد وضع القوانين التي تعتبر بحق أصل التشريع الحديث وأعطاه صبغة مدنية بعد أن كانت ذات صبغة دينية . ولقد تأثر بوخوريس عند وضعه شرائعه بقوانين حلفائه الأشوريين والكلدانيين فأخذ عن الكلدانيين مبدأ التعاقد بالكتابة ، فبعد أن كان العقد يتم عند قدماء المصريين قبل بوخوريس بقسم وبحضور

شهود أصبح لا يجوز إثبات حق مدعى به إذا أنكره المدين إلا إذا ثبت بدليل كتابى ، وبذلك أصبح زوال الدين مرهوناً باعطاء سنده . ثم أوجب تسجيل العقود عند كاتب التسجيل فى سجلات مخصوصة نظير رسم معين فأصبح من السهل على أى شخص إثبات صحة سنده

أخذ بوخوريس أيضاً عن الكلدانيين المشتغلين بالتجارة نظام الفوائد فحددها وحرم أن تزيد الفائدة السنوية على ثلث رأس المال ، كما حرم أيضاً زيادة الفائدة على ضعف أصل الدين مهما طالت المدة . وحرم بوخوريس الربح المركب ، وحرم إكراه المدين الجثمانى ، وأبطل استرقاق المدين عند عدم الوفاء ، وجعل التنفيذ قاصراً على أموال المدين دون شخصه

أما فى الأموال فقد اعترف بوخوريس بالملكية العقارية للأفراد بعد أن كان لهم فقط حق الاستغلال دون حق الرقبة ؛ وبذلك أباح بتشريعه هذا حق التصرف فى الأراضى بعقود عرفية ، وبذلك أصبحت تلك الأراضى ضامنة لتعهدات الأشخاص عند عدم وفاء الدين بعد أن كان ضمان الدائن قبل ذلك جثة والد المدين ؛ وكان إذا لم يقم المدين بوفاء دينه قبل موته يحرم من ميزة الدفن وحفلاته

أما فى الإيجار فقد رتب بوخوريس على عقده أن تصبح جميع أموال المستأجر مرهونة رهناً عاماً لوفاء الأجر المتفق عليه .

وألغى بوخوريس الزواج الدينى الذى كان يتم على يد الكاهن وأصبح الزواج مدنياً ، واكتفى بالرضا فيه ليتم كباقى العقود . وكان للذكر مثل حظ الأنثى فى الميراث : وكان لا يجوز للرجل أن يتزوج بأكثر من زوجة . وجعل بوخوريس حق الرهن العام الذى للزوجة على أموال زوجها يتم بقوة القانون دون حاجة للنص عليه فى صلب عقد الزواج كما كان متبعاً قبل ذلك

من ذلك نعلم أن اصطلاحات بوخوريس التشريعية شملت الأموال والأحوال الشخصية والالتزامات ، وبذلك أوجد للمصريين قانوناً عادلاً للتجارة والمعاملة . ويؤسفنا أن نقول : إن هذه الاصلاحات التشريعية التى قام بها هذا الملك لم تبق طويلاً لأنه فقد عرشه بعد نحو سبع سنوات فاستولى الأثيوبيون على مصر وأسسوا بها الأسرة الخامسة بعد العشرين . وكان أول عمل لهم أن أبطلوا العمل بشرائع بوخوريس وألغوا الملكية الفردية العقارية ومنحوها للإله آمن ؛ وبذا اقتصرت ملكية الأفراد على حق الاستغلال دون الرقبة ، وسمح لهم بأن يتصرفوا داخل دائرة أسرتهم فقط وبعد موافقة كهنة آمن لهذا التصرف فى مقايضة أرض بأرض . ولما ظهر الملك أمازيس أو أحمس الثانى — وهو من ملوك الأسرة السادسة بعد العشرين — حتم على كل مصرى أن يثبت فى آخر كل سنة اسمه ولقبه وصناعته وسبل تعيشه فى سجل وضع خصيصاً لهذا الأمر فى محكمة الجهة القاطن بها ؛ وهذا النظام المبنى على تقسيم العمل وارتباط المصرى بمكان نشأته كان سبباً فى تماسك أفراد الأمة ورقيها اجتماعياً واقتصادياً وصناعياً ، وكان عاملاً قوياً فى توزيع الفلاحين على الأراضى الزراعية

تأثرت شريعة أمازيس بالشريعة الإسرائيلية بعض الشيء فأخذت جزءاً كبيراً من مبادئها عن اليهود النازلين الذين كانوا مقيمين بمصر إذ ذاك

أرجع أمازيس العمل بقانون بوخوريس فأباح لأصحاب الأراضى حق التصرف التام فى أراضيهم بأن أعطاهم حق ملكيتها التامة ثم أرجع مبدأ ثبوت العقود بالكتابة واحتفظ بحد الفوائد القانونية التى قررها تشريع بوخوريس ، وجعل الالتزام بعقد ملزم لطرف واحد ، وأدخل طريقة الاشهاد فى الميزان فى سائر العقود الناقلة للملكية وفيها البيع ، فكانت تطبق على المنقولات الجامدة ، المراد نقل ملكيتها ، وعلى المنقولات الحية كالحيوانات والعبيد كما طبقت على العقارات لصبغة شكلية كما كانت تطبق أيضاً فى التبنى ، وكان يجب لإتمام العقد من وجود ميزان وقطعة من النحاس والعين المراد نقل ملكيتها ، فيحضر طرفا العقد والشهود ، وهنا يمسك المشترى بالعين المراد نقل ملكيتها مقرراً أنه اشتراها بالثمن المقدر بالميزان ، ثم يضرب الميزان بقطعة النحاس مشيراً بذلك إلى وزن الثمن . لذلك كان الميزان يستخدم لغرضين : أولهما وزن العين ، وثانيهما وزن الثمن ؛ وكان يحرر بهذه الاجراءات عقد كتابى

وكان يطبق فى الزواج اجراءات الاشهاد بالميزان ؛ وكان

الزواج يتم بطريق الشراء ، إلا أن الزواج الديني لم يلبث بتولى أمازيس ، إذ ركن إليه نفر من المصريين المتعبدين . وبذلك بقى الزواج الديني أيضاً بجانب الزواج المدني في حكم أمازيس ردحاً من الزمن

ولقد فقدت الزوجة المركز الممتاز الذي كان لها في القانون القديم وقانون بوخوريس إذ أصبحت في قانون أمازيس هي وأموالها ملكا للزوج تحت تأثير الشريعة اليهودية . من هذا نرى أن أمازيس قد هذب القوانين المصرية وأفرغها بعد أن نقح قوانين بوخوريس في مجموعة سميت بمجموعة قوانين أمازيس سنة ٥٥٤ ق . م

وفي عهد الأسرة الثامنة بعد العشرين تولى الملك أمرتوت أو أمرتوس أو نفيريت واستمر فيه حتى سنة ٣٩٩ ق . م فأمر بتشكيل لجنة لتعديل مجموعة شرائع بوخوريس وتنقيحها فأدخلت اللجنة عليها التعديلات الآتية : وهي أن جعلت سريان الفوائد تبتدئ من يوم حلول ميعاد الدفع ، واعترفت بعقد الرهن (النّاروقة) الذي فيه يعطي المدين عقاره للدائن يستغله وينتفع به لنفسه لحين تمام وفاء الدين . وقد استمر العمل بهذه المجموعة المعدلة بمصر اثناء المدة الباقية من العهد الفرعوني . أما قوانين قدماء المصريين الجنائية فقد صاغوها في مواد كفلت لهم استتباب الأمن واطمئنان الشعب وقطع دابر البطالة ومنع الغش والتدليس إلى غير ذلك ؛ وذلك بالضرب على أيدي المفسدين ومعاقبة المجرمين بالعقاب الرادع الزاجر ، فكانوا يحكمون بالاعدام بقطع الرأس أو بالشنق على كل من يحلف يميناً كاذبة أمام المحاكم ، وعلى كل من يقتل نفساً عمداً بغير حق مع سبق الاصرار سواء أ كان المجني عليه حراً أم عبداً ، وعلى كل من رأى إنساناً يشرف على الهلاك وكان في مقدوره أن ينجيه ولم يفعل ، وعلى كل من قدر على تخليص المقتول من القاتل أو القتلة بدون حق ولم يخلصه ، وعلى كل من ظهر أنه يعيش بطريق غير شرعي

وكان يحكم بالعذاب ثم بالحرق حياً على كل من يقتل أحد أبويه عمداً ، فتقطع أصابعه أولا ثم يحرق . وكان الحكم لا ينفذ على الحبلى حتى تضع حملها لئلا يعاقب الطفل البريء ، وبذلك سنوا لنا حكمة أن العقاب قاصر على المجرم لا يتعداه إلى غيره

وكانوا يبيحون إقامة الحدود على الأموات كما تقام على الأحياء فيمنعون من أتى جرماً ومات قبل تنفيذ الحكم عليه من الدفن مع الاحترام

وكانوا يحكمون بالجلد على كل من سب غيره أو وشى به . وكان جزاء الآباء والأمهات الذين يقتلون أولادهم ذكوراً كانوا أم إناثاً معانقة الجثة والبقاء بجانبها ثلاثة أيام بلياليها تحت رقابة الحراس العموميين

وكانوا يحكمون بسل لسان من يهدى عدواً مهاجماً إلى السبل أو يطلعه على أسرار وطنه ومواضع الضعف فيه . وكانوا يقطعون يد من يطفف الميزان والكيل ، أو من يزيف النقود ، أو يقلد خاتم الأهالي والسلطان ، أو يزور في العقود العرفية أو الأوراق الرسمية . وكانوا يقصرون العقوبة على العضو الذي قام بعمل الجريمة

وكان يشهّر على رؤوس الأشهاد بكل ولد لم يقم بالإنفاق على أبويه العاجزين عن الكسب ، وليس للولد على الوالدين مثل ذلك . ويحكم بالتشهير أيضاً على كل جندي فر يوم الزحف أمام العدو ، وعلى كل من لا ينفذ أوامر رؤسائه . وكان لمن حكم بتجريده من شرفه وفضيحته أن يسترد شرفه واعتباره ، وبذلك تنمحي العقوبة نهائياً إذا قام بأعمال مجيدة بعد ذلك لوطنه في ميدان القتال

وكانت عقوبة كل من به عاهة تمنعه من إنقاذ شخص قتله آخرون أمامه ولم يبلغ الجهات المختصة عن الجريمة ومرتكبيها منع الطعام عنه ثلاثة أيام وجلده . وكان يحكم بهاتين العقوبتين معاً أيضاً على كل من كلف بالإرشاد عن قطاع الطرق وتسليمهم للمحكمة ولم يفعل ذلك . وكان يحكم على المدعي بالباطل على غيره بنفس الحكم الذي يحكم به على المتهم لو صحت الجريمة . وكان يحكم على كل من حلف من المتهمين أو الشهود بالإله آمن وبالملك بأن يقول الصدق ولم يقله بجدع الأنف وصلم الأذنين وبالنفي في أثيوبيا أو إلى ما وراء حدود المملكة

وكان لآمن أن يحكم بفقدان الشرف وما يترتب عليه الحرمان من الوظائف العامة

« تم البحث » عطيه مصطفى مشرفة

أبو الفرج الببغاء

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ٣ —

لأبي الفرج الببغاء فى أحاديث الطيف ومناجاة الخيال شعر أفعم حسناً وجودة وعذوبة وحلاوة ، ومعان ملئت جمالاً وروعة وصفاء ورقة ؛ حتى لكأنى به قصد إلى أن يميل ذوى الصبوة والهوى إلى وصال طيف الحبيب ورسمه لا شخصه وجسمه ، فهو يعلمهم كيف يتسلون بمناجاة القلوب عن مداعبة المحبوب ، ويدعوهم مفتنا إلى هذا اللون من الوصال الذى لم يدعهم إليه قبله أحد فى مثل رشيق تعليله وبديع تصريفه وعجيب لعبه بالخيال وجميل استلهامه المعاني ، فمن ذلك قوله :

علمت طيفك إسعافى فما هجعت عيناى إلا وطيف منك يطرقنى

فكيف أشكر من إن نمت واصلنى بالطيف منه وإن لم أغف قاطعنى ؟

فمن من العشاق الولهين لا يرقب أن يسعده ذلك الطيف الطارق ، ولا يشترى الكرى بكل ما يملك إذا علم أنه لا سبيل سواه إلى الوصال ، وهو داعية المتعة بالحسن والجمال ، وإن الغفوة نهزة رسول الحبيب ، ينتهزها ليشفى بها حر الوجيب ؟ وأين من هذا قول ابن المعتز فى مثل هذا المعنى وهو ملك الشعر ولا سيما فى هذا الضرب :

شفانى الخيال بلا حمدة وأبدلنى الوصل من صده

وكم نومة لىَ قوّادة تقرب حِبي على بعده

وإنها لجفوة جافية — لا نعرفها فى ابن المعتز — ألا يحمد من يشفيه ، وألا يستحق شكره مبعوث حبيبه المصطفيه ، وينسب ذلك إلى نومة قوادة لا تستأهل حمداً ، ولا يستجيز لها أحد شكراً ، لأنها أتت شيئاً نكراً لا أظن ابن المعتز يستميحه لنفسه فى اليقظة ، فكيف يستملحه فى الغفوة ؟ ولو أنه قال :

وكم نومة لى مزدانة بوصل حبيبى على بعده

لكان — فيما أرى — أكثر توفيقاً وأنبل خيالاً وأعف لفظاً وأكرم حباً . ومما قاله أبو الفرج فى الطيف أيضاً :

يا طيف من أنا عبده من أين لى شكر يقوم ببعض ما توليه

ينأى فتدنيه إلىّ على النوى فأراه كالتحقيق فى التشبيه

ما كان أحسن حالتى لو أن ما أوتيت من كرم وعطف فيه

ولا يساورنى شك فى أن هذه الأبيات أروع خيالاً وأسطع فى معناها جمالاً من أبيات تحاكيها للبحترى قال :

طيف الحبيب ألمّ من عُدَوائه وبعيد موقع أرضه وسمائه

يهدى السلام، وفى اهتداء خياله من بعده عَجَب وفى إهدائه

لو زار فى غير الكرى لشفاك من خبل الغرام ومن جوى برحائه

الحق أن ديباجة أبيات البحترى ناصعة مجلوة ، ونسجها محمل مفوف ، ولكنى مع هذا أرى العجب العاجب من تعجب البحترى لاهتداء خيال محبوبه إليه من بعيد عدوائه ونأى صحرائه وإهدائه السلام اليه . فكيف يكون حبيباً من يضل محجة طيفه مهما نأى عنه جسمه ؟ ومن هو أولى من المحب المستهام بإهداء السلام؟ ولعل خبل الغرام هو موحى ذلك الخيال ، وإلا فمن يجحد حتى غير العشاق — أن الأرواح تتناجى وتتواصل ، والقلوب تتآلف فتتراسل ؛ سواء فى ذلك تباعدت الأجسام أو تقاربت ، وتناءت الأبدان أو تدانت ؛ فتلك حقيقة لا سبيل إلى نكرانها . وهلا قال كما قال أستاذه أبو تمام :

استزارته فكرتي فى المنام فأتانى فى خيفة واكتتام

فالليالى أحق بقلبي إذا ما جرعته النوى من الأيام

يا لها ليلة تنزهت الأر واح فيها سراً من الأجسام

مجلس لم يكن لنا فيه عيب غير أنا فى دعوة الأحلام

واستمع إلى هذا العتب الحلو المبارة ، الرقيق الاشارة ، والاستعطاف البارع اللطيف يكشف به لحبيبه عن غرام ويستوحيه فيه وصله ، إذ يريه أن خياله أعظم به رأفة وطيفه أكثر عليه عطفاً ، إذ يواصله فى غفوة العيون ؛ ولو أنه وجد سبيلا إلى المواصلة في اليقظة وعلى مسمع الرقباء لفعل ؛ لحظره عليه السِّنة ومنعه عنه النوم ، قال :

خيالك منك أعرف بالغرام وأرأف بالمحب المستهام

فلو يستطيع حين حظرت نومى علىّ لزار فى غير المنام

ومن غزله العذب ووصفه الدقيق الممتع قوله :

يا من تشابه منه الخَلق والخُلق فما تسافر إلا نحوه الحدق

توريد دمعي من خديك مختلس
وسقم جسمي من جفنيك مسترق
لم يبق لي رمق أشكو هواك به
وإنما يتشكى من به رمق

ومثله قول أبي فراس الحمداني، وكأني بهما ينهلان من معين واحد، أو أن أبا الفرج جرى في ميدانه لما أعجبه حسن بيانه؛ وما من عابٍ عليه أن يسير على نهج أبي فراس، فهو في الشعراء ملك وفي العلياء فلك، قال:

وشادن قال لي لما رأى سقمي
وضعف جسمي والدمع الذي انسجما
أخذت دمعك من خدي وجسمك من
خصري وسقمك من طرفي الذي سقما

وترى أن بيتي أبي فراس أنضر معنى وأوفر حسناً، وأجزل رقة وأجمل دقة من أبيات أبي الفرج، وإن كلمة تسافر لنابية في مكانها، قلقة في موضعها، لأن الحدق لا يسافر، وإنما هو ينتقل أو يتحول، كما أن السقم لا يسترق إلا إذا كان مسترقه يسعى إلى حتفه بظلفه كما يقولون

ولو أنا أردنا لغزله العنيف استقصاء، ولنسيبه الطريف إحصاء، لطال بنا الشوط وما بلغنا الناية؛ فلنختم غزله بأبيات بعث بها إلى حبيب رمدت عيناه فأبدع أيما إبداع في الأسى لأساه ووصف حمرة عيني حبيبه، وهي تلك التي تغذي رؤيتها العيون، وتتأذى من النظر إليها الأبصار وصفاً جعلها مما يسعد رؤيتها الطرف، وصورها تصويراً تطمئن له النفس، قال:

بنفسي مايشكوه مَن راح طرفه | ونرجسه مما دهى حسنه ورد
أراقت دمي ظلماً محاسن وجهه | فأضحى وفي عينيه آثاره تبدو
غدت عَينه كالخد حتى كأنما | سقى عينه من ماء توريده الخد
لئن أصبحت رمداء مقلة مالكي | لقدطالما استشفت بها أعين رمد

والوصف في شعر أبي الفرج له المقام الأول، فجل فنون شعره يحليها الوصف، وتنتظم التشبيهات الدقيقة الخلابة، والأوصاف البارعة الجذابة؛ وإن وصفه ليبلغ ذروة الإجادة والإحسان، ويصل إلى منتهى الجمال والجلال عند ما يصف الحرب، أو ما يتصل بها من حشد الكتائب وتسيير الجحافل؛ وقد عرفنا أن طبيعة كل امرئ أن يحسن فيما يحبه، وأن يجيد القول فيما يرغبه، فلعل أبا الفرج كان من رجال الحرب وأبطالها.

أصخ إليه يصف جيش سيف الدولة، فإنه ليصك الآذان بريح الحرب تدوي في قصيده، فقصف الرعد وزمزمته دون صهيل الخيول، ووميض البرق ولمانه لا يبلغان بريق السيوف، وحوافر الخيل أهلة ونجوم تنافس ذكاء، تلك تضيء في السماء، وهذه تتطاير رجوماً للأعداء، وعين الشمس قد طرفها بعثيره ولكنها احتملته وجعلت منه إثمداً تكتحل به وتستشفي؛ كل ذلك في ألفاظ جزلة وعبارات ضخمة، وطبع قوي، وخيال سري؛ لا ينال من جماله ناقد، ولا يحط من جلاله حاقد، قال:

قاد الجياد إلى الجياد عوابساً | شُعثاً ولولا بأسه لم تنقد
في جحفل كالسيل أو كالليل أو | كالقطر صافح موج بحر مزبد
متوقد الجنبات يعتنق القنا | فيه اعتناق تواصل وتودد
متمنجر بظبا الصوارم مبرق | تحت الغبار وبالصواهل مرعد
ردالظلام على الضحى فاسترجع ال | إظلام من ليل العجاج الأربد
وكأنما نقشت حوافر خيله | للناظرين أهلة في الجلمد
وكأن طرف الشمس مطروف وقد | جعل الغبار له مكان الإثمد

وهذه أبيات من قصيدة أخرى يمدح بها أبا شجاع فاتك بن يانس، ويصف فيها إحدى وقائعه الحربية التي خلدتها هذه القصيدة بما جاء فيها من تشبيه رائع، ووصف جامع. وأي خلود لموقعة انقلب نهارها ليلاً غاسقاً، لا يكشف غلالته إلا كر الفرسان في الميدان ومبادلة الضراب والطعان، بأسياف لامعة، وصوارم بارقة قاطعة، حتى استحال البر بحراً بما سال في جنباته من دماء الشجعان، ورأى الأعداء أن الفرار رمز الانتصار، وأن أعظم فروسية يعتز بها أن يستطيعوا إعطاء الجياد القياد، لا أن يثبتوا للجلاد والذياد. قال:

واليوم من غسق العجاجة ليلة | والكر يخرق سجفها المدودا
وعلى الصفاح من الكفاح وصدقه | روع أحال بياضها توريدا
والطعن ينتصب الجياد شياتها | والضرب يقدح في التريك وقودا
وعلى النفوس من الحمام طلائع | والخوف ينشد صبرها المفقودا
وقد استحال البر بحراً والضحى | ليلا ومنخرق الفضاء حديدا
وأجل ما عند الفوارس حثها | في طاعة الهرب الجياد القودا

حتى إذا ما فارق الرأي الهوى وغدا اليقين على الظنون شهيدا
لم يغن غير أبي شجاع والعلا عنه تناجي النصر والتأييدا

وتكفينا في وصف الحرب هاتان القطعتان فهما تغنيان عن قصائد وتبينان عما له في الوصف الحربي من قدم راسخة وأخيلة سامية ؛ ولنعرض لأشياء أخرى وصفها فأجاد ، فمن ذلك قوله يصف فرساً :

إن لاح قلت : أدُمية أم هيكل ؟ أوعنَّ قلت : أسابح أم أجدل
تتخاذل الألحاظ فى إدراكه ويحار فيه الناظر المتأمل
فكأنه فى اللطف فهم ثاقب وكأنه فى الحسن حظ مقبل

وهو من أجود ما وصفت به الجياد ، ومن أحسن ما استحدث فى تشبيهها بالفهم الثاقب والحظ المقبل ، كما أنه أتى فى وصف سرعتها بما لم يأت به الكثير ممن وصفوها قبله ؛ فأى سرعة تلك التى تتخاذل الألحاظ دون إدراكها ، ويحار الطرف المتأمل في معرفة كنهها ؟ ومن قصيدة له فى وصف النرجس وهى من خير ماقيل فيه :

ونرجس لم يعد مبيضه الـ كأس ولا أصفره الراحا
تخال أحقاف لجين حوت من أصفر العسجد أقداحا
كأنما تهدي التحايا به لطفاً إلى الأرواح أرواحا
يلعى عن الورد إذا ماربا ويخلف المسك إذا فاحا
أجيب به من زائر راحل عوض بالأحزان أفراحا
فانتهز الفرصة فى قربه وكن إلى اللذات مرتاحا

وله يصف الورد ، وقد ألمَّ فى الأبيات بوصف مجلس الأنس فأبدع فى الغرضين ، وفوق فأصاب فى الرميتين ، وأتى بأنواع من البديع أزهى من أزهار الربيع ، فأشرقت ديباجة شعره عن در منضود وأسفرت عن جوهر منظوم قال :

زمن الورد أظرف الأزمان وأوان الربيع خير أوان
أدرك النرجس الجنى وفزنا منهما بالخدود والأجفان
أشرف الزهر زار فى أشرف الدهـ ـر فصل فيه أشرف الإخوان
واجل شمس العقار فى يد بدر الـ ـحسن يخدمك منهما النيران
وأدرها عذراء وانتهز الإمـ ـكان من قبل عائق الإمكان

وقال يصف قدحاً أزرق قد صورت عليه تهاويل ورسم عليه نقوش وتصاوير ، تحسده عليها كؤوس لم تنل ما نال من زينة منحته شعراً خالداً :

كم منة للظلام فى عنقى بجمع شمل وضم معتنق
وكم صباح للراح أسلمنى من فلق ساطع إلى فلق
فعاطنيها بكراً مشعشعة كأنها فى صفائها خلق
فى أزرق كالهواء يخرقه اللحـ ـظ وإن كان غير منخرق
كأن أجزاءه مركبة حسناً ولطفاً من زرقة الحدق
مازلت منه منادماً لبقاً مذ أسكرتها الشفاه لم تفق
تختال قبل المزاج فى أزرق الـ ـفجر وبعد المزاج فى الشفق
تغرق فى أبحر الدام فيسـ ـتنقذها شربنا من الغرق
فلو ترى راحتى وزرقته من صبغها فى معصفر شرق
خلت أن الهواء لاطفنى بالشمس فى قطعة من الأفق

وحسبنا من وصفه الممتع ما قدمناه ففيه صورة رائعة له ، ورسم صادق لشعره ، يملأ النفس روعة وإعجاباً . وإلى عدد تال نذكر أمثلة لبقية أغراض شعره ونماذج من نثره إن شاء الله

عبد العظيم على قناوى

مقالات اسماعيلية

لأستاذ جليل

حلّ برقّادةَ المسيحُ ... حل بها آدم ونوحُ (١)

حل بها (الله) ذو المعالي ... وكلُّ شيء سواه ريحُ (٢)

***

هذا (مَعَدٌّ) والخلائق كلُّها ... هذا (المعزّ) متوّجاً والدينُ

هذا ضميرُ النشأة الأولى التي ... بدأ الإلهُ، وغيبُها المكنونُ

من أجل هذا قُدّر المقدور في ... أمّ الكتاب، وكُوِّن التكوينُ

فارزق عبادك منك فضل شفاعة ... واقرب بهم زلفى فأنت مكين (٣)

***

هذا ما وعده العالمون والمتعلمون المثقفون قرّاء (الرسالة الهادية) من (المقالات الاسماعيلية)، وإن الناس منذ الأزمنة القديمة ليتطلعون إلى علم نحلة القوم، وإن الباحثين في الشرق والغرب ليجدّون مفتشين منقبين في كل وقت عن تلك المقالات لينشروها، إذ أن أهلها في القديم والحديث قد خبؤوها وكتموها — وياليت شعري أيّان يريدون أن يعلنوها؟ — ولم تفدنا كتب (الملل والنحل) لمثل الشهرستاني والأشعري وابن حزم والبغدادي والتصانيف في (مفاضح الباطنية) لمثل الغزالي وابن تيمية — إلا نُتَفاً نُتِشت من مكنونات الجماعة نتشاً.

وليس هناك كتاب معروف مطبوع ظاهر ألمّ بمذهب (الاسماعيليين) إلا (رسائل إخوان الصفاء) فإن فيها خلاصة الاسماعيلية ملفوفة بإسلامية لفّ ما كر داهٍ، وهي الاسماعيلية، هي الباطنية، وهم الدهاة دعاتها!

وقد تَوَّه ما فيها علماء متعمقين كأبي حيان التوحيدي وشيخه أبي سليمان السجستاني وغيرهم في المتقدمين، وحيّر حاذقين ألمعين من المتأخرين من أعجميين وعربيين مثل (باربيه دومينار) والدكتور طه حسين. ولولا أن الأمر استعجم عليهم ماقال أبو حيان وشيخه مثل الذي رواه القفطي في كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء)، وما كان الدكتور طه حسين سطر في (مقدمته) لتلك الرسائل ما سطر، ولم يكتب دومينار إلى الأستاذ أحمد زكي (رحمه الله) ذلك الكتاب. وإذا كان أمثال هؤلاء البارعين النحارير قد حاروا ودير بهم «فهم في أمر مَريج» فكيف حال من هم دونهم؟

والقصد من هذا الكلام أن (مقالة) الجماعة — وإن ضمتها تلك الرسائل المطبوعة المنشورة — لم تنفك مستورة محجوبة.

وقد قال لي منذ بضع سنين (الدكتور حسين الهمداني[١])

---

(١) رقادة: بلدة كانت بأفريقية بينها وبين القيروان أربعة أميال، والمعروف أن الذي بناها ابراهيم بن احمد بن الأغلب، وكان تغلب عبيد الله الملقب بالمهدي عليها سنة ٢٩٧ (معجم البلدان). وعبيد الله هذا (ويقال ان اسمه سعيد وعبيد الله لقبه) هو جد العبيديين الذين ملكوا في المغرب ومصر، وفي نسبه اختلاف كثير كما قال (ابن خلكان) وشرح حاله يطول

(٢) (الله): عبيد الله ... والبيتان قيلا فيه حين قدم رقادة، وهما لبعض الشعراء، وقد نسبا إلى ابن هانئ الأندلسي خطأ، وأثبتهما ناسخ ديوانه وطابعوه فيه

(٣) لابن هانئ الأندلسي، والشاعر لم يسلك فيما يقول طريق الشعراء في المبالغة والغلو بل قال ما يعتقده هو وما يريده ويدعيه (العبيدي) وربما عد (المعز) ابن هانئ مقتصداً أو مقصراً، وإن كانت تلك النونية الساحرة الفتانة قد ظفرت بخمسة عشر ألف دينار «والله يرزق من يشاء بغير حساب». ومن قول ابن هانئ في المعز:

هو علة الدنيا ومن خلقت له ... ولعلة ما كانت الأشياء

ليست سماء الله ما ترأونها ... لكن أرضاً تحتويه — سماء

جاء بلفظة (ترأى) على الأصل

(١) كنت قد رأيت في ثلاث صحف، أشياء في (إخوان الصفاء ورسائلهم) كلها تخاليط فنشرت في جريدة (البلاغ) الشهيرة في ٢ صفر ١٣٥٣ مقالة عنوانها (الاسماعيلية ورسائل إخوان الصفاء) منها هذه السطور: (للنحلة الاسماعيلية دعوتان: دعوة قديمة وأهلها اليوم اسماعيليو اليمن، ودعوة جديدة وإمامها (آغاخان) المشهور؛ والأولى لاتأتم به ولا تعرفه. ومن شيعة الدعوة القديمة الدكتور حسين الهمداني أستاذ تاريخ الاسلام في جامعة بومباي. قال — حين تلاقينا وقد ذكرنا الاسماعيلية ورسائل إخوان الصفاء —: إن الاسماعيلية يرون القرآن الكريم كتاب العامة، الجمهور، ثم لطف اللفظة فقال: الأمة، ويرون رسائل إخوان الصفاء كتاب الأئمة. فسألناه رأينا في تلك الرسائل ثم ذكرنا له للمخالفة وابتغاء الايناس قول (المعلمة) أو دائرة المعارف الانكليزية في التربية والتعليم (وهي غير تلك الكبرى) في رسائل إخوان الصفاء وهو: (إن الاسماعيلية قد أفضلت إلى فن التربية والتعليم برسائل إخوان الصفاء) ثم قلنا له: قد قرأنا تلك الرسائل ولخصنا نحلة الاسماعيلية في هذه الجملة: (الاسماعيلية قنطرة (جسر) بين الاسلام والالحاد) فأخرج الدكتور الهمداني دفتراً وكتب قولنا وقال: ما سمعت بأحسن من هذا) وقد أطلعني العلامة الأستاذ (خليل مردم) على رسالة مطبوعة للدكتور الهمداني في (رسائل إخوان الصفاء) فوجدته قد روى تلك المقالة كلها عن (البلاغ)

— وهو من شيعة الدعوة القديمة للاسماعيلية — إنه قد اطلع على مئة مخطوطة من كتب القوم منها (زهر المعانى) التى أخذ بمؤلفه فيه درجة (الدكتوراه) من جامعة فى لندن ، وأنه عازم على نشرها أو نشر طائفة منها . أفنقول — ولم تحقق تلك الأمنية المتمناة — : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون » أم نرتقب تلك الكتب فى المرتقبين ؟

إذا ضنّ الأضنّاء بالضنائن[1] ولم تصل أيدينا إلى تلك الخبايا فى المخادع والزوايا ، فليس لنا إلا غزو النازين من الغربيين ، والنازى — وإن كان قوياً — يُغزي ... والناهب — يا أخا العرب — يُنهب ...

وكنت إذا قومٌ غزونى غزوتهم

فهل أنا فى ذيّاك (همدانُ) ظالم[2]

وقد قلت لإسلاميتى (الصحيحة) وعربيتى — وأنا أنسج ما ستتلوه — : قفا واسمعا ولا تتكلما . لا تجادلا ولا تناقشا ، فليس المقام مقام جدَل ، ولا عدْل ميَل ، فالمقالات — والنية هذه — تحكى كما وجدت ، وتعطى كما أخذت ؛ وإن وجد الخطأ اللغوى لا يُصلح ، وإن جاء تصحيف أو تحريف فى كلمة أو جملة — حاشا الآيات القرآنية — يُستبْـق، وليس لدى نسخة ثانية حتى أرجع إليها . ورب إبقاء على شىء خير من تغييره ، والقارئ الفهم لا تخفي عليه الكلمة محرفة ولا تستبهم . ولن يصدنا ذلك عن تعليق أو حاشية

ولو قلنا لأصحاب لنا أدباء فاضلين من (الحاكمية) و(الاسماعيلية) فى بر الشام ممن لا يعبدون (العَدَم) وقد عبَد الأجداد والآباء (العبيديين) وإن كانوا هم — أى الأبناء المثقفون — بعبادتهم كافرين . فلو قلنا لهم : أطلِعونا بإجاعة على رسائلكم حتى نعارض (نقابل) هذه (المقالات) بها ونصلحها لقالوا : ما عندنا ولا نعرفها ، وإنا مسلمون ؛ وإنها لديهم ، وإنهم يعرفونها ، ولكن التشيطنين يكتمون ...

ولم يك فى المقالات هذا المسمى بعلامات الترقيم — إلا فى اثنتين — فرأيت وضعه حتى لا تقتحم العين الصفحة قد التصق بعضُ عباراتها ببعض فكدّ البصر ، وما هذا الصنع بأمر نكر

وقدرُ هـذه (المقالات) عظيم . ومن عرف نحلة القوم أو ألمّ بها أدرك مما يتلوه مما نمليه ما لا يدركه غير العارف ؛ ولو درى شيئاً من اصطلاحات الباطنية الذين قالوا تأمُّهين ضالين ماقالوه فى (رسائل إخوان الصفاء) ما جاءوا خابطى عشوة ، وصاروا فى عصر البحث والتحقيق ضحكة . ومن قذف بمقال لا ينصره نص ولا يسانده دليل ، فهو هذِر ، وكلامه هدَر ...

واعلم أن هذه الاسماعيلية لم تظهر فيها حتى اليوم كتب قديمة تبين كيفية بدئها وحقيقة حالها تبييناً صحيحاً موضحاً شافياً ، ولم يهد بحث الباحثين فى هذا الزمن إلى شىء من ذلك

قلت مرة لعالم عاقل إسماعيلي : دعْ قول الإسماعيلية فى أصلها ودع حديث خصمها ، فهل أوصلك تحقيقك الناقد ، وتفتيشك المدقق ، إلى مصدرها الصحيح ومنبعها ؟

فقال : لا

فنحن من نشوء هذه النحلة فى ظلمات بعضها فوق بعض. ولعل كتباً قديمة تنجم فتضىء هذا الليل المظلم . ورب علماء محققين لا يجتزئون بالقريب المعروف ، بل يعشون أقوياء أشداء صابرين فى فلوات البحث فيصلون إلى (عين المعرفة) ؛ ورب غوّاصين يغوصون فى بحور البحث والتنقيب غوْصات إثر غوصات فيخرجون لنا شيئاً . ولن يجىء بالدر إلا الغواصون الماهرون

* * *

فصل فى مناجاة المعز لدين الله

قال هذه :

(إلهي) كنت رتقك ، قبل أن تظهر فىّ بفتقك، وأوجدت عنى خلقك ، وصدرت عنى دنياك فى الذات والأسماء والصفات . ولست أنا بك متصلا ، ولا عنك منفصلا ، إذ أنا بك تبعيض ، وأنا راجع إليك عند النقلة والتفويض . انقلْ الصورة كيف تشاء ، وأعط النور الإلهى لمن تشاء بما قدمت أيديهم ولا نظم مثقال ذرة . (إلهي) انى كما أنت عظيم فى سلطانك ، وأنا قدرتك وبرهانك ، وإرادتك ومكانك . (إلهي) بمعرفة بي استجبْ وسلْ وأشرقْ ألوانك ، وإنى وجدتك بعد أن عرفتني التلاقي ،

---

(١) ذكرتني هذه العبارة (الضادية) برسالتي ابن الحريرى (السينية والشينية) وقسما بلغة (الضاد) ما تكلفت ذلك

(٢) مالك بن حريم ، وبعده :

متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

واتلف واضمحل . (إلهي) وأفنى من جهلك ، وفاز وبقى من عرفني بالبداية وفضلك . (إلهي) أترى يعرفك سواك ، ويدنو منك إلا إياك ، أم يعدو إليك من خرج عن طاعتك ، وطاعة حدودك وأوليائك . إلهي بك استدللت ومنك وصلت وإليك[1] (إلهي) ليس غيري لك حجاب ، فكيف الوصول إليك من غير باب ، فأنا منك بحيث النهوض والهمة ، وأنت أنا بحيث أنا القدرة والعظمة ، وحيث أنا بك خلقت أولياءك ، وبدعت ملائكتك وأنبياءك ، فلما عرفتك كنت ذلك ، إذ ليس يعرفك سواك ، ويدنو منك إلا إياك ، باتصالك بحدودك وأوليائك . (إلهي) إن كثرت الأشخاص ، فهي أنت بلا اختصاص ، وأنا منك بديت ، لأني بحدودك اهتديت ؛ ان عرشك عليه استويت . (إلهي) أوجدتني منك في ظاهر الأمر بصفة كانت الموجودات على دفعة واحدة ، فأنت بي باطناً وأنا بك ظاهراً . (إلهي) ظهرت الموجودات كلها بي ، واخترعت مني كل رسول ونبي ، وأنا ابن لك وأنت أبي . أنا منك كالفيض ، وشراقه وليف[2] فليس الفيض غير الفيض ، فقد غاب ، واضمحل كما في النار وذاب . (إلهي) رامت رؤساء الجهل وأهل العمى والضلال وذوى الانكار والجحود[3] ، وأنهم خرجوا من العدم إلى الوجود ، وهم في العدم . يا (إلهي) وصلت إليك ، ومنك دخلت عليك ، فأنا قدرتك الظاهرة ، وعني ظهرت آياتك الباهرة . إلهي حقني[4] ابتلاؤك ، لأنها حلاوة رضائك ، فتفسي منك وإليك انتهت . (إلهي) ظهرت الخلق حتى يعرفوك من حدودك فحجبتهم عنك لما زادوني إنكارك ، وذلك أنهم ضلوا في التكبر عن أبيهم ، فلم يجدوا لهم مرشداً أبداً يهديهم ، فأظهروك بي لأني أنت ، وكوني بك ظاهر ، وأنت في حاضر . (إلهي) أنا الكرسي والمكان ، والوقت والزمان ، وأنا منشىء التنقلات ، وأنا بك عالم ما يكون وما كان . (إلهي) أنا اسمك وموجود اسمك ، وأنا البشير إليك ، والدال عليك ، والدال على من دال[5] عليك ، فمن تمسك بحدودك نجا ، والصورة معادة ورآء ليس دونك

(١) وصلت إليك

(٢) وواشراقه متألق أو مؤتلق

(٣) شيء حذف في الجملة

(٤) حقني

(٥) للدال

حجاب غيره فقصده لا بلاء سواك بأوحد[1] ولا لك اسم سواي فيستطاع ويبطل ، وأنا صاحب البقاء ، وعلى ذات النطقاء ، وأنا في النطق . (إلهي) قصرت لذاتك إنكار الباحثين إذ لم يقصدوا لحجابك ، وأحجبتهم[2] عن معرفتك إذ لم يدخلوا إليك من بابك ، فهلكوا لما أنكروا لكلمتك ، وتاهوا لما عجزوا عن معرفتك . (إلهي) أنت ذاتي ونفسي ، وممدني وقدسي ، ونطقي وأنسي ، ألا فيّ اختفيت فاشرقت ، وبي اقتربت[3] فارقت . أنا نظرتك بكلمتك الإلهية ، وكلمتك القدسية ، وذاتك الأبدية ، والذات الأزلية الكلية ، ونورك[4] ، وبي ظهورك ، بك ظهرت وبي نهيت وأمرت ، فمن عرفني فقد نزهك ، ومن اتصل إليك بحدودي (فقد عرفك) فقد عرفتك أنا غيري فتكون أعداءك ، ولا أنت غيري فتكون أفرادك . أنا كنت فيك رتقاً ، وفيّ ذلك حقاً ، فأطلقتني ولم تفصلني في وجودي . أرجوك تميد ووقت تطلب فتقصد[5] ، فأنا منك كضوء السراج من السراج ، بلا تبعيض ولا إمزاج . (إلهي) صدق المستجيب لما قال لأبيه ، إلهي منك بديت ، وإلى معرفتك اهتديت ، وإليك توجهت ، وإليك تبت ، وبك منك إليك سعيت ، ولو فرطت فيك لاضمحللت وتلاشيت ، ولو اقتديت بغيرك أشركت وتعديت في طاعتي لك فعرفت وتدركت[6] (إلهي) كادت نفسي لعظيم امتحانك أن تجهل وتخفى كنه علمك وتكفر حتى ألفت عناها[7] بجودة من نور معرفتك ، فجذبت وتلطف قدارأيها بضوء من علمك فمسكت فيه بعد ما كنت جحدت وتبت عند ماسليت بنعمتك[8] فتهدت بعد (أن) كانت جحدت فأورثها الثبات بالنعيم المقيم والنجاة من العذاب . (إلهي) عجزت المقصرون بنظرهم إليك وقالوا لا يجوز الصفة أن تدرك الصانع ، فلو علموا أني بك استقرارهم ، وأن تصديقهم هو إنكارهم . (إلهي) هل يعرفك من ليس منك ويتفكر إنما هو أنت محال . (إلهي) لم لم لا تنتقل الصورة بما لا تريد ، بل

(١) كذا هذه الجملة والتي قبلها (٢) وحجبتهم

(٣) أو اقتربت (٤) رب محذوف قبل الكلمة

(٥) كذا هذه الجمل

(٦) كذا هذه الجملة

(٧) حتى ألفت عناءها أو حتى ألفت عمايتها

(٨) كذا هذه الجملة

في وقت تريد، فلولا نظرك إليها بالشاكلة لأُفقدت، ولولا تعطفك بالناسبة لأُبعِدتْ. (إلهي) لقد خاب من أنكر معرفة نفسه منك، ولقد ظلم من لم يعرفك بك، وهو بك ظهر، وبي حجابك وفي حجابك استتر، وأنت الناظر بلا حركة. (إلهي) تناهوا الجاهلون في طلب معرفة حدودك وطلبوها معرفة في تيجان الملوك، فلما نظروا حدودك، نكروك. (إلهي) ناجتك المحقون وقالوا يامبدع الأحد، من غير عدد، تختلف الأعداد بك، بقدرة منك، دعوناك فالذي عرفك منك إليك، عاد إليك. (إلهي) تحيرت العقول عند طلبتك، أتاهت (1) الأبصار في رؤيتك. (إلهي) قالوا الجاهلون في معرفتك وما تبيّن فلا عرفوا، (إلهي) لقد غاب من نادى سواك، ومن عرفك بحقيقة المعرفة تيقن أنك دائم، ومن أفضل الغنائم. (إلهي) ظهرت لهم فوق الناثر، فتوهموا أنهم حصلوك بالعناصر، فأثبتوا التشبيه والتمثيل، وعدموا التنزيه والتحصيل. (إلهي) عجزوا عن اثبات النفر (2) ولم يعلموا ما حقيقة العيان من الخبر، فالنظر حجاب عنك لا لك، والمنظور أنت به لا (هو) فيك. (إلهي) من قال إنه لا يعرفك، فقد عدمك، ومن عبدك، من غير حدودك، فقد حال إلى غائب معدوم، فأنا الذي لا تدركه الأبصار، وأنا أدرك الأبصار، وأنا اللطيف الخبير (3)، فاللطيف الخبير، صورني بالصورة المرئية، التي هي الحدود العلوية. (إلهي) بوجود معرفتك اهتديت، وبعدت المقصرين عنك تباركت وتعاليت. (إلهي) كنت أنت والمكان، لأن المكان هو إشارة بالفيض وتكرير الفكر باحضار المكان، والمكان هو المركز هو الدال عليك. (إلهي) كلما ظهرت عني صورة فظهرتها أبدع على أولها اخفيا (4) لأنقلها عني «وأنا فعال لما أريد (5)»

* * *

هذه الأولى من (المقالات الاسماعيلية) والباقيات في الأعداد الآتيات من (الرسالة)

(قارئ)

(1) تاهت أو أتيهت أو أتاهت وفي زائده (2) النظر
(3) الآية الكريمة: لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير (4) كذا
(5) القول الكريم: إن ربك فعال لما يريد

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

للدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٨ —

الفلسفة الصينية

العصر المنهجي — كونفيشيوس

مذهبه

صدر «كونفيشيوس» في فلسفة النظرية عن نفس النقطة التي صدرت عنها فلسفة عصر ما قبل التاريخ، وفلسفة «لاهو — تسيه»، والتي أشرنا إليها في حينها، وهي نقطة القول بوحدة الوجود التي تفرع عنها نشوء كائن سلبي أو يتأثر عن الكائن الايجابي المؤثر، ومن اجتماع قوتي هذين الكائنين نشأت المادة، وبتأثير النفس على هذه المادة وجدت الكائنات الحية التي بين السماء والأرض

غير أن «كونفيشيوس» تعمق في هذه النقطة وصيرها فلسفية جديرة بالدراسة والتمحيص، إذ أضاف إليها أن جميع جزئيات الطبيعة مشتملة على الانسجام التام الذي هو سر جمالها وتقدمها وصلاحيتها للوجود، وأن هذا الانسجام ليس موجوداً في هذه الكائنات بطريق المصادفة، بل هو تنفيذ لإرادة إلٰهية مرسومة خطتها في منهج السماء، وأن هذا الانسجام محكم الوضع في جزئيات الطبيعة إلى حد أنه يظهر «دينا ميكيا» وأنه هو العلة في تطور الكائنات المادية والظواهر الطبيعية، ولكن كيف ولماذا كان هذا الانسجام علة لذلك التطور؟ لم يجب «كونفيشيوس» على هذا السؤال مطلقاً، لأنه عد البحث فيه فوق طاقة العقل البشري، فوافق في هذه الناحية «لاهو — تسيه» الذي أسلفنا أنه صرح هذا التصريح أيضاً وإن كان لم يكن قد وصل إلى كشف سر هذا الانسجام وأثره العظيم اللذين وفق «كونفيشيوس» إلى كشفهما

على أن المشاهد لدينا هو أن كثيراً من الكائنات تتحرك وتعمل مقودة بالهوى ، فلا تنتج هذه الحركات إلا السوء والشر والرذيلة ؛ فاذا بحثنا عن علة هذا الانقياد للهوى ألفيناها الحيدة عن هذا الانسجام ، فكل خضوع للقانون الطبيعى ينتج الخير والفضيلة والتقدم نحو الكمال ، وكل انحراف عن هذا النهج ينجم عنه الشر والاضطراب ، لأن الطبيعة فى ذاتها ليس فيها للشر أثر ألبتة ، ولهذا كان أهم واجبات الحكيم هو محاولة رد الانسجام إلى كل جزئية فقدته ، فأنتج فقدها إياه الشر والسوء . وعلى أساس هذه النظرية بنى « كونفيشيوس » مذهبه الأخلاق وأعلن أن الواجب ينحصر فى تنفيذ أوامر الطبيعة وتطبيق قوانينها القويمة كما سنشير إلى ذلك فيما بعد .

وعنده أن الانسان مشتمل على قوتين كالطبيعة سواء بسواء ؛ وأن كل الفروق الموجودة بين الأفراد البشرية ناجمة عن تغلب إحدى القوتين على الأخرى ، فاذا كانت الغلبة فى الانسان مثلا للقوة الايجابية المؤثرة ، كان ذلك الانسان حكيما بالمعنى الكامل ، وإذا غلبت فيه القوة السلبية كان حكيما عاديا ، وهذا النوع الأخير يظل هكذا حتى يتعرض لمواصف الأهواء والشهوات المختلفة ، فاذا نجا منها ظل كما كان على الفطرة أى فى درجة الحكمة العادية ، وإذا غلبه الهوى فحاد به عن صراط الطبيعة السوى نزل من درجة الحكمة العادية إلى درجة العامة الذين يحدثون الشر والسوء

وعنده أن الكمال يتحقق لنوعين من البشر : الأول رجل تبدأ السماء فى إلهامه الحقيقة من يوم ميلاده دون مجهود شخصى من جانبه ، وهو يحصل فى البدأ على ما يحصل عليه الآخرون فى النهاية ، وهذا هو الحكيم الموحى إليه أو « شينج — جين » . أما الثاني فهو الحكيم الذى يعمل على كسب الحكمة بجحوثه المتواصلة ، ومجهوداته المتتابعة فيحصل على الحقيقة ، وبها يصل إلى الكمال ، ويسمى هذا الأخير : « كيون — تسيه » وفى هذا الصدد يقول « كونفيشيوس » فى كتاب « تايو » : « إن البعض يحصلون عليها (أى الحقيقة) عند ميلادهم ، أما البعض الآخر فانهم إما أن يتلقوها عن الغير وإما أن يحصلوا عليها بوساطة مجهوداتهم وأعمالهم الشخصية[1] »

وعنده أن الانسان الملهم هو ابن السماء الذى يحرس الصراط السوى ورعاه بفضلها فى جميع أحوال الوجود ، وهو مشتمل على سر إلهى عظيم . أما الحكيم المكتسب الحكمة بمجهوداته فهو ابن الأرض الذى حمايته من الهوى والشر موكولة إلى مجهوده الخاص ، والذى لا يعتمد فى مقاومة ضعفه وفى احتفاظه بانسجامه الطبيعى إلا على نفسه ؛ فاذا نجح اقترب من درجة الحكيم الملهم

وعنده أن حكمة وجود الحكيم الموحى إليه هى إذاعة قانون السماء والسهر على تنفيذه وإنقاذ بنى الانسان من الخروج على الصراط السوى ، وما ذلك إلا رحمة بهم وإشفاقاً عليهم من الحيدة عن الواجب الذي لا تُنْقَذُ الانسانية من الدمار والاضطراب إلا بالحرص عليه والاحتفاظ به

مطابقة الأسماء للمسميات ، أو التعريفات العامة

لا تزال الأكثرية الغالبة من المثقفين والعلماء فى أوروبا تعتقد أن سقراط هو أول حكيم وضع التعريفات العامة كما صرح بذلك أرسطو . وقد كنت أنا أحد أولئك الذين يؤمنون بهذه الفكرة إلى أن درست « كونفيشيوس » فى شىء من الدقة ، فتبين لي تبيناً يقينياً أن حكماء الصين قد سبقوا حكيم الاغريق إلى هذه الفكرة ، وأن لهم فيها نصوصاً قيمة جديرة بالإعجاب ، وأن الحكمة التي أعلن سقراط أنها تدفعه إلى هذا التحديد هي نفسها التي وردت فى نصوص « كونفيشيوس » وهى الوصول إلى ضبط الأخلاق وتحديد الفضيلة والقبض على الحقيقة عن طريق التطابق المحكم بين الألفاظ والمعانى أو بين الأسماء ومسمياتها ، إذ نحن نعلم أن « السوفسطائيين » لم ينجحوا فى إفساد الأخلاق العامة فى عهد سقراط إلا بوساطة التلاعب بالألفاظ ، فلما أراد سقراط أن ينقذ الفضيلة حارب أعداءها بسلاح الدقة والتحديد فتم له ما أراد . وهكذا كان منهج « كونفيشيوس » إذ أيقن أنه لا سبيل إلى تنفيذ الواجب بدقة إلا بوضع جميع الأشياء فى نصابها ، وأن هذا الوضع لا يتحقق إلا بالتطابق التام بين القوالب ومحتوياتها ، أو الألفاظ والمعانى ، أو الأسماء والمسميات ، وهو فى هذا يقول رداً على سؤال وجهه إليه أحد تلاميذه قائلا :

(١) راجع كتاب « تايو » فصل ٢٠

ماذا كنت تفعل لو أنك عُيِّنْتَ حاكماً على دولة ؟ « كنت أبدأ أعمالى بأن أرد إلى كل مسمى اسمه الحقيقى » . ولما لم يفهم التلميذ هذا الجواب سأله قائلا : وما معنى هذا ؟ فأجاب الفيلسوف بقوله : « إن الحكيم يجب أن يحتاط فى تبصر من كل ما لا علم له به ، فاذا لم تتفق الأسماء مع مسمياتها بالضبط وقع الخلط فى اللغة ، وإذا وقع الخلط فى اللغة لا ينفذ شىء من أوامر النظام العام ، وإذا لم ينفذ شىء من أوامر النظام العام ، أهملت الحشمة واللياقة والانسجام ، وإذا أهملت الحشمة واللياقة والانسجام فُقِد توافق العقاب مع الخطأ ، وإذا فقد هذا التوافق ، أصبح الشعب مضطرباً لا يفرق بين موضع قدميه وموضع يديه . ولهذا يجب على الحكيم أن يضع لكل مسمى اسمه الذى هو له ، وأن يعالج كل موجود حسب التعريف الذى وضع له [1] »

ألست ترى معى أيها القارىء أن فى هذه النصوص « الكونفيشيوسية » برهاناً ساطعاً على أن حكيم اليونان الأول لم يكن مبدع التعريفات العامة ، الجامعة المانعة ، ولا أول من قال بالدقة والتحديد ؛ ثم ألست توافقنى على أن هذه نقطة هامة تضيف إلى ما كشف من مجد الشرق صفحة فخار جديدة ، وأنها لهذا جديرة بالعناية والتسجيل كما أن فيها رداً آخر يضاف إلى ردودنا السالفة على أولئك الأذناب المتفيهقين الذين أنكروا على الشرق ميزة التفلسف النظرى ؟ »

مما قدمنا يتبين أيضاً خطأ بعض الباحثين الأوروبيين الذين سلكوا فى مؤلفاتهم سبيل نزع تاج الفلسفة من فوق رأس « كونفيشيوس » ووَضْعِهِ على رؤوس : « لاهو — تسيه » و « تشوانج — تسيه » و « مي — تي » وجزموا بأن « كونفيشيوس » لم يكن فيلسوفاً ، وإنما كان أخلاقياً ، ولم يكن أخلاقياً من النوع العالي ، وإنما كان عملياً ، بل نفعياً . فأما دعواهم أنه ليس فيلسوفاً فيبطلها ما أسلفناه ؛ وأما زعمهم أنه عملي أو نفعي فسندحضه حينما نعرض لدراسة الأخلاق عنده

اعتمد أولئك الباحثون في رميهم « كونفيشيوس » بالخلو من التفلسف النظرى على تصريح أثر عنه قال فيه : « إنى لم أبتدع شيئاً جديداً ، وإنما نقلت تراث الحكماء الأقدمين إلى العصر الذى أعيش فيه » . أو « إنى لست مساوياً الحكماء ، وإنما أنا أحاول التشبه بهم » إلى آخر ما صرح به مما يشبه هذه العبارات ولست أدرى كيف يتخذ أولئك الباحثون هذه التصريحات برهاناً على عدم فلسفية « كونفيشيوس » ولا يتخذون أمثالها من كلام سقراط برهاناً على عدم فلسفيته حين نبأته كاهنة « دلفى » بأنه أحكم حكماء الإغريق عامة ، فاستكثر ذلك على نفسه وقال : « أنا لست حكيما ، ولكنى محب للحكمة » . فلم عدوا هذا التصريح من جانب سقراط تواضعاً ومن جانب « كونفيشيوس » برهان الخلو من الفلسفة ؟ ؟

نعم إن « كونفيشيوس » أسس مذهبه على نظريات صينية عتيقة ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ، ولكن هل « بارمينيد » و « أمبيدوكل » و « زينون الأكبر » و « فيثاغورس » و « سقراط » و « أفلاطون » و « أرسطو » فعلوا غير هذا ؟ بل هل « ديكارت » نفسه — على تبرئه من الماضي — استطاع أن يتخلص من أسس التراث العقلي القديم ؟ كلا ، ولكن سُحقاً للهوى والسطحية ، فإن جميع الأخطاء الإنسانية ناشئة منهما أو من أحدهما . أما الذى لاشك فيه بعد كل هذا ، فإن « كونفيشيوس » فيلسوف نظري عظيم ، وأن جميع الباحثين الأدقاء يضعونه فى الصف الأول من صفوف الحكماء ، لأنهم يعتمدون فى ذلك على مجموعة ماله من آراء فلسفية مبتدعة كما يتطلب النقد الحديث ، وإنه أخلاقي من طراز « كانت » و « اسبنوزا » وأمثالها من أجلاء فلاسفة العصور الحديثة

« يتبع » محمد غلاب

(١) راجع كتاب « لون — يو » فصل ١٣

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٣ —

١ — « إن فى الرجل شيئاً ينقذ المرأة منه وإن هالك بحبها ، وإن هدمت عيناها من حافاته وجوانبه : فيه الرجولة إذا كان شهماً ، وفيه الضمير إذا كان شريفاً ، وفيه الدم إذا كان كريماً . فوالذى نفسى بيده لا تعوذ المرأة بشىء من ذلك ساعة تجن عواطفه ، وينفر طائر حلمه من صدره ، إلا عاذت — والله — بمعاذ يحميها ويعصمها ويعد على طهارتها جناح ملك من الملائكة »

٢ — « ... ويسرف علىّ بعضها أحياناً فأتلهب عليها في زفرات كمسعة الحريق حين ينطبق مثل الفلك من جهنم على مدينة قائمة فيمضغ جدرانها مضغ الخبز اليابس ؛ ثم يسرف على حبها أحياناً فينحط قلبي فى مثل غمرات الموت وسكراته يتطوح من غمرة إلى غمرة ؛ فأنا بين نقمة تفجأ ، وبين عافية تتحول ، وكأنه لا عمل لى إلا أن أصعد مئة درجة لأهبط مئة درجة ... ! »

٣ — « لقيتها وما أريد الهوى ولا تعمده قلبي ، ولا أحسب أن فيها أموراً ستئول ما آلها ؛ وكنت أظن أن للمستحيل قسمان : ما يستحيل وقوعه فلا تفضى إليه ، وما يمكن وقوعه فتهمله فلا يفضي إليك ، ولكن حين توجد المعجزة تبطل الحيلة ؛ ومتى استطردك القدر الذى لا مفر منه ، أقبل بك على ما كنت منه تفر »

٤ — « ... إنها لأبلغ ذات لسان ، وأبرع ذات فكر ، وأروع ذات نفس ؛ ولو كنا سليلى أبوة ما شهدت لها بأكثر من هذا حرفاً ، ولو كان دمي من أعدائها ما نقصتها من هذا حرفاً ، وعلم الله ما أبغض فيها إلا هذه التى أشهد لها ... ! »

٥ — « ... دعنى أقول لك : إنى أبغض من أحبها .. وإن هذا البغض وجه آخر من الحب ، كالجرح : ظاهره له ألم وباطنه له ألم ... »

٦ — « ... وكما ينشأ الكفر أحياناً من عمل العقل الانسانى إذا هو تحكم فى الدين ، يأتى البغض من هذا العقل بعينه إذا هو تحكم فى الحب ! » (الرافعى)

شعره وفلسفته : وهب وكبرياء

... أترى صوتي يبلغ إليها وهى فى مستشفاها بأنشام ذاهلة اللب شاردة الخيال ضائعة الأمل مستطارة القلب ؟

أم ترى صوتى يبلغ إليه تحت أطباق الثرى وبيننا ستة أشهر من عمر الزمان كأنها من البعد وانفساح المدى سنوات وسنوات؟

إنه ليخيَّل إليّ أن هذا الحديث الذى أكتبه عنها وعنه هو رسالة من الغيب إلى هذه الحبيبة الواجدة المحزونة ، من الحبيب الذى أحبها أعنف الحب وأرقّه وما تراءى لها مع ذلك فى عمره الطويل إلا الرجلَ القاسى الذى حطم قلبها بقسوته وكبريائه ، ومات وما تلقت رسالته الأخيرة فنفذت روُحه من أقطار السموات لتمليها علىّ وفيها المعذرة والاستغفار ...

آه لو تدرين كم كان يحبك أيتها الحبيبة ! .. فهل كنت ..؟ ولكن ... ولكن لا سبيل إلى ما فات ... !

***

لقد أحبها جهد الحب ومداه ، حبا أضل نفسه وشرّد فكره وسلبه القرار ؛ ولكنه حب عجيب ، ليس فيه حنين الدم إلى الدم ، ولكن حنين الحكمة إلى الحكمة ، وهفوة الشعر إلى الشعر ، وخلوة الروح إلى الروح فى مناجاة طويلة كأنها تسبيح وعبادة ؛ وأسرف عليه هذا الحب حتى عاد فى غمراته خلقاً بلا إرادة ، فليس له من دنياه إلا هى ، وليس له من نفسه إلا ما تهب له من نفسه !

والرافعي رجل — كان — له ذات وكبرياء ؛ فأين يجد من هذا الحب ذاته وكبرياءه ؟ هكذا سألته نفسه !

***

وأحبها أديبة فيلسوفة شاعرة تستطيع أن ترتفع إلى سمائه وتحلق في واديه وله مثل قدرتها على الطيران والتحليق فى آفاق الشعر والحكمة والخيال ؛ فما التقيا مرة حتى كان حديثهما فنوناً من الشعر وشذرات من الفلسفة وقليلا من لغة العشاق فى همس من لغة العيون ... وقال لها مرة : « إن الحب يا عزيزتى ... » قالت : « إن فلسفة الحب ... » قال : « بل أعنى حقيقة الحب ومعناه ... » قالت : « دع عنك يا حبيبي ... إن أحلام الحب هي شيء غير الحب ، أفأنت تريد ... ؟ » فاختلجت شفتاه وأطرق ، وراح يسأل نفسه : « ما الحب وما فلسفة الحب ؟ يا ضيعة المنى إن كان الحب شيئاً غير الذى في نفسى ! » وتحدث ضميره فى ضميرها فابتسمت وهى تقول : « ... أنا ما أحببتك رجلا بل

فكراً وروحاً ونفساً شاعرة، وأنت بكل ذلك ملء نفسي وملء قلبي؛ فلا تلتمس فيَّ طباع أنثى وإلا ضل ضلالك أيها الحبيب...! »

قال: « فهل رأيتني يا حبيبتي إلا فكرة تطيف أبداً بك، وروحاً ترفرف حواليك، ونفساً تنترف الشعر والحكمة من وحي عينيك ...؟ » قالت: « دع عنك ذكر عينيَّ يا حبيبي. إن الحب ليس هناك، إن الحب ... » قال: « لا تحدثيني عن الحب. يخيل إلي أني أعرفه لأني أجد مسَّه على قلبي كلذع الجمر، ولكن آه، ولكنك أنتِ ... »

وقالت له نفسه: « إنك يا صاحبي تضرب في بيداء؛ إن الشعر والحكمة والفلسفة لا تلد الحب، فهل أحببتها أنت إلا للشعر والحكمة والفلسفة؟ ولكنك بذلك لن تجد منها الحب، إن الحب من لغة القلب، أما هذه ... »

وكان يحبها أديبة فيلسوفة شاعرة، فعاد يباعد بينه وبينها أنها فيلسوفة شاعرة ...!

***

وامرأة هي كانت — إلى أدبها وفلسفتها — « فتنة » خلقت امرأة، فإذا نظرت إليك نظرتها الفاترة فإنما تقول لقلبك: إذا لم تأت إليَّ فأنا آتية إليك ... وهي أبداً تشعر أن في دمها شيئاً لا يوصف ولا يسمى ولكنه يجذب ويفتن، فلا تراها إلا على حالة من هذين، حتى ليظن كل من حادثها أنها تحبه وما به إلا أنها تفتنه ...

« رشيقة جذابة تأخذك أخذ السحر، لأن عطر قلبها ينفذ إلى قلبك من الهواء؛ فإذا تنفست أمامها فقد عشقتها ...

« أما أنوثتها فأسلوب في الجمال على حدة؛ فإذا لقيتها لا تلبث أن ترى عينيك تبحثان في عينيها عن سر هذا الأسلوب البديع فلا تعثر فيهما بالسر ولكن بالحب ... وتنظر نظرة الغزال الذعور أُلهِم أنه جميل ظريف فلا يزال مستوفزاً يتوجس في كل حركة صائداً يطلبه ... ... (1) »

والرافعي رجل كان — على دينه وخلقه ومروءته — ضعيف السلطان على نفسه إذا كان بإزاء امرأة؛ فما هو إلا أن يرى واحدة لها مزية في النساء حتى يتحرك دمه وتنفعل أعصابه؛ وما كان — رحمه الله — يرى في شدة الإحساس بالرجولة وفي سرعة الاستجابة العصبية إلى المرأة إلا أنهما أحد طَرَفَي النبوغ، أو أحد طرفي النبوَّة كما كان يقول؛ فما كان يرى له وقاية من سحر المرأة حين يحس أثرها في نفسه إلا أن يسرع في الفرار. وكثيراً ما كان يقول: « الفرار الفرار؛ إنه الوسيلة الواحدة إلى النجاة من وسوسة الشيطان وغلبة الهوى ...! »

وقالت له نفسه: « ما أنت وهذا الحب الذي سلبك الإرادة وغلبك على الكبرياء ويوشك أن يهوي بك من وسوسة النفس وفتنة الهوى إلى أرذال البشرية ...؟ »

فكان لصوت النفس في أعماقه صدى بعيد ...

***

وكان يحبها ليجد في حبها ينبوع الشعر، فما وجد الحب وحده، بل وجد الحب والألم وثورة النفس وقلق الحياة؛ ووجد في كل أولئك ينابيع من الشعر والحكمة تفيض بها نفسه، وينفعل بها جنانه، ويضيء بها فكره؛ وكان آخر حبه الألم، وكانت آلامه أول قدحة من شرار الشعر والحكمة ...

وقالت له نفسه: « ها قد بلغتَ من الحب ما كنت ترجو، فلم تبق إلا الغاية الثانية وإنك عنها لَعَفٌ كريم ...! »

***

وهي فتاة ذات جمال وفتنة، ولها لسان وبيان، وما يمنعها دينها ولا شيء من تقاليد أهلها أن يكون لها مجلس من الرجال في ساعة في يوم من كل أسبوع، يضم من شعراء العربية ورجالاتها أشتاتاً لا يؤلفها إلا هذا المجلس المعطر بعطر الشعر وعطر المرأة الجميلة؛ أفتراهم يجتمعون في دارها كل أسبوع لتتوارى منهم خلف حجاب فلا سمر ولا حديث؟

والرافعي غيور شموس كثير الأثَرة لا يرضيه إلا أن يكون على رأس الجماعة، أو هو نفسه رأس الجماعة ...

وقالت له نفسه: « أأنت هنا وحدك أم ترى لكل واحد من هؤلاء هنا هوى وحبيبا ...؟ »

***

وكانت القطيعة بين الرافعي وبينها من أجل ذلك كله: من أجل أن له ذاتاً وكبرياء، وما يريد أن تفنى ذاته وكبرياؤه في امرأة؛

(1) هذا مما يصفها به الرافعي في رسائل الأحزان

ومن أجل أنها فيلسوفة وشاعرة ، وما تجتمع الفلسفة والحب فى قلب حواء ؛ ومن أجل أنها أنثى وأنه رجل له دين ومروءة وزوجة ودار ؛ ومن أجل أنه بلغ مبلغه منها حين وجد الألم فى حبها فوجد ينبوع الشعر الذى كان يفتقد ؛ ومن أجل أن الرافعى الغيور الظنين الكثير الأثرة والاعتداد بالنفس ...!

وخُيِّل إليه حين كتب إليها رسالة القطيعة فى يناير سنة ١٩٢٤ أنه يبغضها ، وأن هذا الحب الذى قطعه عن دنيا الناس عاماً بحاله قد انتهى من تاريخه وطواه القدر فى مَدْرَجة الفناء ، وأن نفساً كانت فى الأسر قد خرجت إلى فضاء الله ...

وأحس فى نفسه حديثاً طويلا يريد أن يفضى به ، وشعر كأن فى قلبه ناراً تَلظَّى ، واصطرعت فى نفسه ذكريات وذكريات ، وخيِّل إليه أنه يكاد يختنق ؛ فصاح من كل أولئك منيظاً محنقاً يقول : « أيتها المحبوبة ، إننى أبغضك ... إننى أبغضك أيتها المحبوبة ! »

ليت شعرى ، أكان الرافعى يعني ما يقول ؟ أكان على يقين حين زعم أنه يبغضها ؟ أم أنه استعار للحب لفظاً متكبِّراً من كبريائه العاتية فسماه البغضَ وما هو به ولكنها ثورة الحب حين يبلغ عنفوانه فتختلط به مذاهب الفكر ومذاهب النظر فلا يبقى فيه شئ على حقيقته ؟

كلا ، ما أبغض الرافعى صاحبته يوماً منذ كانت ولا استطاع أن يفك نفسه من وثاقها ، وما هذه الثورة التى ألهمته كتابيه « رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر » إلا لون من ذلك الحب وفصل من فصوله وكان الخطأ في العنوان ؛ فلما ثابت إليه نفسه نزع به الحنين إلى الماضى ولكن كبرياءه وقفت فى سبيله ، فظل حيث هو ولكن قلبه ظل يتنزى بالشوق والحنين ... !

وجاءت صاحبته إلى طنطا بعد ذلك بقليل ، مدعوةً إلى حفلةٍ خيرية لتخطُبَ ، وكان الرافعى مدعواً لمثل مادعيت له . وعلى غفلة التقت العيون ، فدار رأس الرافعي وذُهب به ، وعاد الزمان القهقري لينشر ماضيه على عينيه ، وزلزلت نفسه زلزالا شديداً حتى أوشك أن تغشاه غاشية ، وحاول أن يتحدث فوقفت الكبرياء بين قلبه ولسانه ، وخشى أن يفتضح فنهض عن كرسيه منطلقاً إلى الباب ؛ ولحقه صديقه الأديب جورج إبراهيم ، فأفضى إليه بذات صدره وودع صاحبته بعين تختلج ، ومضى ...

وانتهى الاحتفال ، ووقفت (مى) تدير عينيها فى المكان فما استقرتا على شيء ؛ ووجدت فى نفسها الجرأة على أن تقول : « أين الرافعي ؟ » فما وجدت جواباً ... وكان الرافعى وقتئذ جالساً إلى مكتبه ينشىء قصيدة لمجلة المقتطف عن بمث الحب ... ! وكان آخر لقاء ... !

* * *

ولقيت الرافعى فى خريف سنة ١٩٣٢ ، فتسرحنا فى الحديث عن الحب ، فكشف لى عن صدره فى عبارات محمومة ، وكلمات ترتعش ، ثم قال : « ... وإن صوتاً ليهتف بى من الغيب أن الماضى سيعود ، وأننى سألقاها ، وسيكون ذلك فى تمام عشر سنين من رسالة القطيعة : فى يناير سنة ١٩٣٤ ... » وأخذ يقبض أصابعه ويبسطها ثم قال :

« نعم ، بعد أربعة عشر شهراً سيكون هذا اللقاء ... إن قلبى يحس ، بل إننى لموقن ... بعد أربعة عشر شهراً ، فى تمام السنة العاشرة منذ فارقتها مغضباً ، سنلتقى ثانية ويعود ذلك الماضى الجميل ، إنها تنتظر ، وإننى أنتظر ... ! » ، وظل على هذا اليقين أشهراً وهو يحصى الأيام والأسابيع كأنه منها على ميعاد ...!

ومضت السنوات العشر ، ومضى أربعون شهراً بعدها وما تحقق أمله فى اللقاء ، حتى لقى الله ...!

* * *

هذا هو الرافعى العاشق ، جلوت صورته كما عرفته ؛ أما مى ، أما صاحبته التى كان من تاريخه معها ما كان ، فهل كانت تحبه ؟ وما كان هذا الحب ، وماذا كانت غايته ؟

هذا حديث موعده العدد القادم ، فإلى اللقاء

« شبرا » محمد سعيد العريان

العدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة .

قطف الثمـــار

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأديب عبد الخالق العطار

كانت حياتي أيام الصبا كزهرة ... تفقد واحدة أو اثنتين من وريقاتها الكثيرة ... ثم ينسيها الربيع ما فقدت ... إذا ما وقف ببابها يطلب إحساناً

وودعت الشباب ... فصارت حياتي كثمرة ... ليس لها ما تستطيع فقده ... ولكنها تنتظر من تهب له نفسها كاملة بكل ما تحمل من حلاوة

* * *

هل للأوراق الصفراء والزهور الذابلة أن تشارك الورود الناضرة في بهجتها بعيد الصيف ؟ وهل لا يرسل غناء البحر أنغامه للأمواج الهابطة ... كما يشجي بها الأمواج العالية ؟

ها هي ذي اللآلىء والدرر ... قد انتظمت في بساط يقف عليه إلهي ... ولكن هناك كثيرون ... ينتظرون صابرين ... يرجون لمسة من قدمه ...

ما أقل العقلاء ..!.. وما أعظم من يجلسون إلى جوار سيدهم!

ولكنه هو .. لقد احتوى الساذجين بين ذراعيه .. وجعلني خادمه إلى الأبد ...

* * *

وجدت خطابه مع الصباح ... عند ما استيقظت ...

ولم أعلم ماذا يقول فيه ... فاني لا أعرف القراءة ...

مالي وذاك الرجل العاقل ... الذي يجلس وحيداً بين كتبه ؟

لن أضنيه ... وهو الذي يستطيع أن يقرأ لي خطابي ...

دعني ... دعني أضع الخطاب على جبيني ... وأضمه إلى صدري

وعند ما ينمو سكون الليل ... وتتناثر النجوم في ظلمته واحدة إثر واحدة ... سأبسط الخطاب في يدي ... وأظل صامتاً :

سيقرؤه لي حفيف الأوراق بصوت عال !

ستغنيه لي المياه وهي تندفع في مجراها !

سترتله لي سبعة نجوم هادئة ... وسأسمع ترتيلها من السماء !

لقد ضل سبيلي ... وأنا أبحث عما أريد !

لقد استغلق عليّ فهم مالا بد من معرفته !

ولكن هذا الخطاب الذي لم يقرأ ... قد خفف عني العبء فصارت أفكاري كلها كالأناشيد

لقد ضللت سبيلي حيث تعددت السبل ...

فلا في المياه الواسعة ... ولا في السماء الزرقاء ... أستطيع أن أجد لي طريقاً

لقد اختفى الطريق تحت أجنحة الطير ... ووراء النجوم الملتهبة ... وخلف أزهار الفصول المتعاقبة ...

فتساءلت ... أي قلبي ! ألا تحمل مع ذلك حقيقة الطريق الذي لا أراه ؟

* * *

عند ما كنت أختال ببطء بين كنوزي الثقيلة الموروثة ...

كنت أشعر كأني الدودة التي تعيش في الظلام ... تتغذى على الثمرة التي ولدت عليها ...

إني أترك هذا السجن ... سجن الفساد

إني لا أعبأ إذ أحطم تمثال السكون ... لأني ذاهب في طريق باحثاً عن الشباب الدائم ...

سأتخلى عن كل ما لم يتحد مع حياتي ...

سأتخلى عن كل شيء ... إلا ما كان خفيفاً كضحكي

وسأجري خلال الزمان ...

و ... آه يا قلبي ... في عربتك الصغيرة يرقص الشاعر ويغني بينما خياله يسبح

* * *

لقد أخذتني من يدي ... وأدنيتني إلى جانبك ... وأجلستني أمام الناس جميعاً ... وفي مقام عال ... حتى صرت ضعيفاً لا أقوى على النظر ولا السير في طريق ... يملؤني الشك ... ويحيطني الوجل ... خشية أن أعثر فيصيبني احتقار الناس ...

ولكني تحررت أخيرا ...

فقد دوت الصرخة ... وقرعت الطبول إنذاراً ... وهبط مقعدي في التراب ...

وتفتحت السبل أمامي !

إن أجنحتي لتطير بها الرغبة إلى السماء ...

إني أذهب لأحتل مكاني بين النجوم التي تنطلق في منتصف الليل ... لتغرق في الظل اللانهائي ، إني كسحابة الصيف التي تتقاذفها العاصفة ... بعد أن ألقت عنها تاجها الذهبي الذي ألبسته إياها الشمس قبل أن تغيب ... فتعلقت كسيف مسلول على سلسلة من الضوء ... وإذا الرعد يدوي كلما اهتز السيف

وفي فرح اليائس أجري في الطريق الذي غطاه التراب ... طريق المنبوذين . وأجيء إلى جانبك لأحييك التحية الأخيرة ...

والطفل لا يرى أمه حتى يخرج منها ...

فعندما صرت بعيداً عنك ... وألقيت بمنأى من جوارك...

صرت حراً ... صرت حراً ... فاستطعت أن أرى وجهك

* * *

على بعد وفى هذا المنخفض ينساب نهر الجومنا ... هادئاً رائعاً... والشاطيء بارز فوقه ... والتلال المظلمة والغابات المتناثرة قد تجمعت حوله ...

وجلس جوفندا ... معلم الشيخ الأعظم ... على صخرة يقرأ الأساطير ... عندما جاءه تلميذه راجونات ... فخوراً بثروته فانحنى احتراماً وقال :

« لقد جئتك بهدية صغيرة ... لا تستحق منك القبول »

قالها ووضع أمام أستاذه سوارين من الذهب المرصع بالأحجار الثمينة ...

أمسك السيد أحدهما ... وأداره فى أصبعه فبرقت الجواهر وأرسلت من الضوء ... وفجأة ... أفلت من يده ... وتدحرج على الشاطئ ... إلى أن بلغ الماء ... واستقر فى القاع

هتف راجونات ... « يا إلهى » ... ووثب وراء السوار فى الماء ...

أعاد المعلم بصره إلى كتابه ... وأمسكت المياه وأخفت ما سرقته ... وسارت فى طريقها ...

واضمحل ضوء النهار ... عندما عاد راجونات إلى أستاذه متعباً يتصبب عرقاً وقال : « قد أستطيع استرجاعه لو أنك أشرت إلىّ أين سقط »

أمسك المعلم السوار الآخر ... وقال وهو يلقيه فى الماء ... « إنه هناك » ...

* * *

يا إله السموات ... إن حديثك سهل بسيط ... ولكن حديث هؤلاء الذين يتحدثون عنك ليس كذلك ...

فما أقرب صوت نجومك إلى فهمي... وما أبلغ صمت أشجارك.

إن قلبى قد تفتح كالزهرة التى ملأتها حياتى فى خميلة مختفية ...

وأنا نشيدك ... كالطيور الآتية من بلاد الثلج النائية ... وتريد أن تبنى لها عشاً فى قلبى ... يما فيه من حرارة كحرارة أبريل ...

ولكنى أنا قانع بانتظارى هذا الفصل البهيج

عبد الخالق العطار

الأديان والمذاهب فى الحبشة

رحل الأستاذ محمد تيسير ظبيان الكيلانى صاحب جريدة الجزيرة بدمشق إلى بلاد الحبشة فدرس أحوالها دراسة مستفيضة ثم وضع فى ذلك كتاباً يوشك أن يصدر . وقد خص الرسالة بهذا الفصل من فصوله ننشره لحضرته شاكرين

لما لم يكن لبلاد الحبشة حتى هذه الأيام احصاء رسمى صحيح يمكن الاعتماد عليه فى تقدير عدد المسلمين وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى فأننا نكتفى فيما يلى بنشر زبدة ما حصلنا عليه من المعلومات المختلفة والروايات المتنوعة فى هذا الموضوع

إن الأديان الرئيسية الموجودة فى الحبشة هى :

الوثنية ، واليهودية ، والمسيحية ، والاسلام ، وقد تضاربت الأقوال فى تقدير عدد مسلمى الحبشة فمن قائل إنهم لا يزيدون عن ثلاثة ملايين ، ومنهم من يقدرهم بخمسة ملايين ، ومنهم من يرفعهم إلى أكثر من ذلك ؛ وكل هذا من قبيل الرجم بالغيب

أما من جهتى فقد ألقيت عصا تسيارى فى تلك البلاد أخذت أوجه كل اهتمامى إلى تلك الناحية فرحت أتغلغل فى مختلف الأوساط الحكومية والشعبية حتى وفقت والحمد لله للحصول على النتيجة الآتية وهى لعمرى نتيجة بحث واف وتمحيص دقيق

الاسلام

إن الاسلام هو أكثر الأديان انتشاراً فى بلاد الحبشة ولا سيما بعد أن ضم إليها مقاطعتا « الصومال الايطالى والأرتيرية . والمسلمون (كما أكد لى موظف مصرى مسؤول) كانوا يؤلفون فى المئة خمسة وخمسين من مجموع السكان ؛ أما الآن بعد أن زالت الأسباب التى كانت تمنعهم من الظهور وبعد أن ضمت منطقة الصومال الايطالى وجميع أهلها مسلمون ، والأرتيرية وكثرة سكانها من المسلمين أيضاً ، فاعتقد أنهم يؤلفون ستين فى المئة (على الأقل) من مجموع السكان . نعم لا أنكر أن بعض المناطق ولا سيما منطقة امهرة أكثر سكانها من المسيحيين ، ولكن المناطق الأخرى يتفوق فيها العنصر الاسلامى على غيره كما سيأتى

والغريب المدهش أن الديانة الإسلامية تنتشر من تلقاء نفسها بسرعة خارقة فى الأوساط الحبشية (وخصوصاً فى المناطق الوثنية) رغم سياسة القهر والعسف التى كانت متبعة ضد المسلمين

ورغم قلة الوسائل الموجودة لدى هؤلاء لنشر ديانتهم والتبشير بها بالنسبة للديانة المسيحية التي كانت البلاد الحبشية تموج برسلها ودعاتها وبعثاتها التبشيرية المنظمة ومن ورائها الحكومات الكبرى تؤيدها والأموال الوفيرة تتدفق عليها والحكومة المحلية نفسها تشد أزرها وتسهل مهمتها

حقاً إنه لسر غريب انتشار الدين الحنيف بسرعة البرق في تلك الأصقاع ، وإقبال الأحباش على اعتناقه رغم جميع الصعوبات التي كانت تعترض سبيله وتقف في طريقه ، ولا غرو فمظهر المسلم (وإن كان إسلامه ضعيفاً أو ناقصاً) جذاب يسحر القلوب ويستهوي النفوس ؛ فهناك التقوى والصلاح ومكارم الأخلاق والنظافة والشهامة والتواضع والوفاء ... الخ

ولست أرى من وراء ذلك الحط من قدر الديانات الأخرى اليهودية والمسيحية . كلا ، فإنها ديانات سماوية أيضاً ، ولكن الأحباش كانوا يتمسكون بقشورها ويتركون لبابها ؛ فهم كانوا بذلك أقرب إلى الوثنية

قال لي الأمير عبد الله أبا جفار سلطان جما في أثناء حديثه معي: إن هذه الديار ديارنا ونسبة الأحباش إلى المسلمين نسبة واحد للعشرين ، ولاسيما في بلاد هرر والعرومي والفوارغي وجار غوما ولمو وجيده ؛ فهذه البلاد ليس فيها أثر للمسيحية ؛ وأغلب أهالي رنا ووالو ودارا وحفات والدنا كل مسلمون . وإذا قدرنا سكان الحبشة حسب الاحصاءات الصادرة عن القناصل والدوائر المسؤولة بعشرة ملايين « بما فيها الصومال والأريتريه » فلا يقل عدد المسلمين فيها عن ستة ملايين إن لم يكونوا أكثر من ذلك

وأكثر المذاهب الإسلامية انتشاراً المذهب الشافعي . وليست للمسلمين مع الأسف مدارس عامرة وجمعيات خيرية وأدبية كما هي الحال في مختلف الأقطار الإسلامية إذا استثنينا جمعية الإشفاق الإسلامي التي تألفت في أديس أبابا في عهد الحكومة السابقة ، وكان في مقدمة أعمالها تأسيس المدرسة الإسلامية التي سيأتي ذكرها

وليس بين المسلمين علماء واقفون تماماً على أسرار الشريعة الغراء إلا في مقاطعتي جما ووالو ؛ ويظهر أنه يوجد في جما نهضة إسلامية لا بأس بها سيأتي ذكرها بمناسبة مقابلتي لسلطانها الأمير عبد الله

الدين المسيحي

ويأتي في الدرجة الثانية من حيث الانتشار الدين المسيحي ، وكان دين الحكومة الرسمي وأكثر المذاهب المسيحية انتشاراً : « المنوفيزية » وقد بثها البطريرك ثيودوسيوس الاسكندري في القرن السادس واتخذ ملوك الحبشة هذا المذهب مذهباً رسمياً

وكنيسة الأحباش قائمة تحت إدارة نائب بطريرك الأقباط المعروف هناك باسم « أبونا » وكان له نفوذ كبير وسلطة واسعة تخوله خلع الملك (النجاشي)

ومن المذاهب المسيحية المنتشرة أيضاً المذهب الكاثوليكي وله مبشرون كثيرون ومرسلون عازاريون وكبوشيون

أما المذهب البروتستانتي فقليل الانتشار

الدين اليهودي

يعرف اليهود في الحبشة باسم « فلاشة » وهم يقيمون في الأقاليم الشرقية ، ويقال إنهم متحدرون من القبائل اليهودية الأولى التي توغلت في تلك الجهات . ولا يزيد عددهم عن الخمسين ألفاً ، ويوجد منهم في أديس أبابا نحو مئة شخص ، وهم يعيشون عيشة مستقلة لا يختلطون بأحد من الأحباش ، ولا يتزوجون من غير أبناء دينهم ، ويشتغلون بالزراعة وصناعات النسج

العقائد الوثنية

إن العقائد الوثنية على اختلاف أنواعها منتشرة في بلاد الحبشة ، ولا سيما في الجهات الغربية ، والارساليات الأجنبية تتصل بالوثنيين وتحاول التأثير عليهم . ويعبد أكثرهم الأشجار « وأخصها شجرة الجميز » والأنهار والأحجار والشمس والبهائم والنار . وقد أخبرني شاب حبشي اسمه جرجس ابراهيم أن طائفة منهم تقطن « الفامبيلا » على حدود السودان ، وهم يعيشون في العراء دون أن يستروا أجسامهم ، ولهم طريقة خاصة في العبادة ، وذلك أنهم يجتمعون في كل عام أمام النيل الأزرق ويرقصون ثم يقدمون له ذبيحه كقربان

ولم أستطع أخذ فكرة صحيحة عن عدد الوثنيين في الحبشة ولكنهم لا يقلون على كل حال عن مليون ولا يزيدون عن مليون ونصف

عادات وثنية غريبة

قيل لي انه توجد قبائل في جهات — ووللاًغا — لا تدين بدين أبداً ولها عادات غريبة جداً ، منها أن الرجال لا يقتربون من نسائهم إذا كن حبالى ، ويضطر الزوج في هذه الظروف أن يبيت

فلسفة التربية

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

« نريد أن ننتهي إلى تقدير واف نحو التربية التي تضعنا في مركز نفهم فيه الكون ونكشف الدور الذي علينا فيه أن نلعبه ، كما نتبين كيف أنه يجب علينا ، وكيف يمكننا أن نقوم بهذا الدور بكل ما نستطيع »

هكذا يقول الأستاذ Attlee في كتابه (Philos. in The Ed. Theory) محاولاً أن يلتمس في الفلسفة تفسيراً أو تقويماً لعملية التربية . ذلك أننا سنسأل ما قيمة التربية في الحياة ؟ وما قدر عمر المرء بالقياس إلى الأعمار الجيولوجية السحيقة الهائلة ؟ وأي ربح يربحه الانسان من عمله تحت الشمس ؟ جيل يعيش وجيل يموت ، والأرض باقية فما جدوى ذلك كله ؟ لمَ يجب أن نعيش ؟؟ لمَ نُلزم بالبقاء في عالم لم نسأل عنه قبل مجيئنا إليه ولا نملك فيه حتى حق الموت ؟؟! وما هي الصلة بين مركزنا في الحياة وواجبات هذا المركز ؟؟

أولئك جميعاً مسائل عسيرة عتيدة يضج منها الجمهور لأنه لا يستطيع الخوض فيها بحكم عقله الذي لا ينحو نحواً كلياً يفسر به الظروف الجزئية ويسمو عليها . لذلك تراه يقول حسبنا أننا نعيش ما دام الواقع أننا نعيش !! وحسبنا أننا نتعلم ونتربى ما دام الواقع أننا كذلك ؟!! ولكن الفلسفة لا ترضى منه بهذه القناعة ولا تفتأ تقول له : إياك أن تغفل سؤال (لِمَ تعيش) ؟ لا لشيء إلا لأنك تعيش !! ذلك أنك تتقدم من غير شك إذا ما سلطت النقد على حياتك ونظرت قبل القفز ثم بعده !! يقول الأستاذ برادلي Bradley في أصول المنطق جـ ٢ ص ٧٢١ « إن ديانة العمل من أجل العمل فحسب ، أو إن كل شيء من أجل العمل ، تنتهي حتماً إلى نتيجة مهدومة في العمل نفسه »

وهكذا تقول الفلسفة للجمهور « قصدك الأساسي هو العمل ، أما أنا فقصدي النظر ؛ ولكن النظر مع ذلك يسير إلى جانب العمل . أنا أغوص ، والعمل يستفيد من غوصي ، لأنه بي — وبي وحدي — يستطيع أن يفهم لِمَ يعمل ما يعمل » . ذلك أن الفلسفة لا تضرب في الهواء ولكنها تحاول أن تحدد الأشياء بحدودها المنطقية معطية إياها نهاياتها الميتافيزيقية ؛ وأن العمل نفسه يصير فلسفة إذا ما نقد نفسه . لذلك لا غرو أن قالوا إن العمل الصحيح هو ذلك الذي يشعر بنفسه !!

سيقول العمل — وهو لا بد قائل — « ولكن ذلك يضايق!! » وستقول الفلسفة « إنه حقاً يضايق ولكنه بعد ضروري لأن التقدم لم يضر نفسه إلا عن طريق الغرور ! لذلك لا بد من هاتيك الأسئلة السقراطية الحصيفة العميقة كيما نأمن مغبة الغرور !! »

وهنا سيعجب « العمل » من قول الفلسفة ، وسيبسم فتضحك « الفلسفة » وتقول له : « حسناً لقد اقتربنا ! إنك قد بدأت تعجب والتعجب أول خطواتي !! وإذن فكن مني كما يقول المثل الصيني « كل رغيفاً واشتر بالآخر زهرة !! » وتذكر دائماً أنك تكون إياي حينما تنعكس على نفسك فتختبر حقائقها وترتبها وتبوبها وتجعلها منطقية معقولة !! »

وإذن فليست فلسفة التربية أداة لفهمها فحسب ؛ وإنما هي أيضاً أداة لنقدها وإصلاحها . وللفلسفة عدة صور أهمها الميتافيزيقا التي تعطينا فكرة جامعة عن الكون . ونحن في التربية إزاء كائنات راقية هي أفراد الإنسان . وعلم النفس لا يكفي قط لفهم هذه الكائنات بجميع علائقها ، وإذاً فلا بد من ذلك « التقدير الوافي » الذي تقدمه الفلسفة !! فترى ماذا عسى أن يكون ذلك التقدير ؟؟

تبحث الفلسفة كما قدمنا في « الكليات » ، وترى « الكل » ممثلاً في الجزء كما نرى الحيوان المنقرض في هيكله العظمي ،

خارج الغرفة أو المنزل الذي تبيت فيه زوجته . ولا يحق له أن يأكل معها وهو مجبر أن يحضر لها كل يوم حيواناً يصطاده وإذا أخفق فلا يحق له دخول القرية

وتمتاز هذه القبائل بصلابة الأجسام وصحة الأبدان وسلامتها من الأمراض

الدروز الأحباش

توجد طائفة في بعض مقاطعات الحبشة تسمى « بالدروز » وهي منتشرة بنوع خاص في جهات — غلامو وسيدامو — وعقيدتهم على ما قيل إنها خليط من الإسلام والمسيحية واليهودية ولهم أخلاق وعادات شاذة وهم يشتغلون بالنسيج والحياكة

محمد تيسير ظبيان

والإنسان جزء من الكون . وكل أجزاء الكون ترتبط وتندمج في وحدته الكلية . والتربية من أهم تجارب الإنسان إن لم تكن أهمها جميعاً . وسؤال الفلسفة هنا هو ماذا تقوم عليه التربية من أصول ، وما قيمة هذه الأصول ؟؟ ذلك أن التربية أسلوب زمني يعمل لإعداد الفرد كيما يحقق نوعه بإخراج ملكاته من القوة إلى الفعل ، والارتفاع به من الواقع إلى المثل الأعلى ؛ ولما كانت أغلب تجارب الإنسان تقع في حيز الزمن ؛ ولما كان الزمن يقص علينا قصة المجهول على لسان التطور الذي ما فتئ يعمل في الكون منذ السديم الأول إلى اليوم ؛ ولما كانت التربية هي تطور في الفرد مع شعور بهذا التطور ؛ ولما كانت سلسلة التطور تمتد في مجرى الزمن وتمتد حتى المطلق — أقول لما كان كل ذلك — فيما يلوح — حقاً ، فإنه يرجح لدى الأستاذ هرن Horn صاحب كتاب « فلسفة التربية » أن قصة الإنسان تتطور نحو الكمال ، وأن التربية هي وسيلة ذلك التطور . وإذا صح ما يقوله « هيجل » من أن تجارب الإنسان الزمنية ليست إلا مظهراً « للدائم الخالد » ، صح أن التربية من أهم هذه التجارب ..!!

وتعترف الفلسفة بالعقل البشري كآخر منحة للجسم العضوي في تطوره ؛ وكوسيلة للخروج من اللاشعور إلى الشعور ؛ ولذلك تراها تضع يدها عليه لترقيه وتنميه معتبرة إياه أعظم أنواع الحقيقة الزمنية . ويقول هاملتون « ليس في الدنيا أعظم من الإنسان ، وليس في الإنسان أعظم من العقل » . ولكن من أين أتى هذا العقل ؟ أمن العدم ؟ أم من شئ غير عقلي ؟ لا بد من القول هنا « بعقل تام » قائم خلف عقلنا المحدود ، وهذا العقل التام هو السبب الأول لمركز التربية في الإنسان — وهو العقل — بل وهو الضامن كما يقول ديكارت « الموضوعية » الحقائق العقلية ذاتها !

وتكون التربية على ذلك تحقيق للانسانية بجهد خاص قوامه الشعور بالنفس ؛ ولكن ما طبيعة هذا الجهد وما صلته بالكون ؟

سبق أن الإنسان جزء من كل ؛ ويتبع ذلك أنه محدود في شعوره بنفسه لأنه جزء فحسب ؛ هذا بينا الكل الذي يحوي الإنسان ويحوي غيره يجب أن يكون مطلق الشعور بنفسه وذو نشاط ذاتي دائب ... وهذا الكل هو الله

ولما كان الإنسان عقلا بالقوة يتحقق بالفعل بالجهد أو بالنشاط الذاتي ، ولما كانت التربية هي ذلك الجهد نفسه أو ذلك النشاط الذاتي ؛ كانت عمليتها تقرب حتما ما بين الإنسان وخالقه

وإذا أخذنا بمذهب الحلول Pantheism قلنا إن الله تعالى مصدر ما في الكون من قوة وحركة ونشاط . وإذن تكون المادة نشاط في نظر العالم الطبيعي ، ويكون هذا النشاط درجة من الشعور في نظر الفيلسوف . ويكون الله على ذلك هو وحدة الكون الشاعرة التي تحيا الطبيعة فيها والانسان . يقول القديس بطرس : « إننا نعيش ونتحرك ونأخذ كياننا فيه » ؛ ويكون زمن التربية على ذلك هو فترة تحقيق الناشئ لأحد مظاهر الله . وذلك التحقيق يسر الله من غير ما شك . يقول فيختة Fichte « التربية تكميل خالد وطريق لجعل الجزء كلاً ، إذ الحقيقة الكلية هي الكون أو الله . والحقيقة الزمنية هي الصيرورة . ومن أساليب الصيرورة ذلك الأسلوب الذي يصير به الإنسان ما هو عليه في الأبد . والحياة الأبدية هي أن يكون الإنسان على نحو الله »

* * *

وخلاصة القول أن التربية تقوم على أن أصل الإنسان هو الله ، وأن الإنسان حر الطبيعة خالد المصير[1] ؛ وأن أساس التنشئة في الناحية البيولوجية هو ملاءمة الإنسان بين نفسه وبين البيئات المتطورة المتجددة ؛ وأساسها في الناحية الفسيولوجية هو العناية بالجسد وتجميله لأنه هيكل الروح القدس ؛ وفي الناحية النفسية هو أنه لا حد لنمو العقل فلنسم به إلى المطلق ؛ وفي الناحية الاجتماعية هو أن الله يظهر نفسه في الزمان خلال مثل الإنسان العليا من خير وحق وجمال ، وإذا فليكن لهذا الثالوث قداسته واتزانه في حياتنا ...

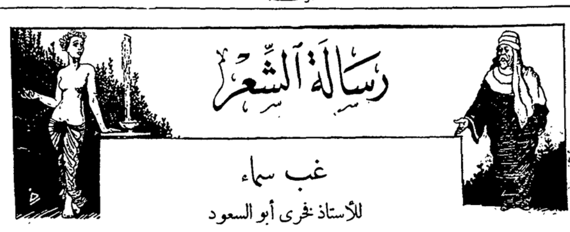
ويكون التعريف الجامع المانع للتربية في نظر الأستاذ هورن هو « أنها الطريق الأبدي للملاءمة العليا بين الإنسان الكامل جسما وعاطفة وعقلا ، وبين الله ممثلا في البيئة الزمنية للإنسان »[2]

هذا هو تفسير الفلسفة لعملية التربية . أفلا ترى أنه رفعها ويقدسها ويجعلها جديرة منا بكل إجلال ، ومن الدولة بكل عناية وتقدير ؟؟

محمد حسني ظاظا
مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

(١) وسير عليها إثبات ذلك مما لا يتسع المجال لذكره

(٢) أنظر كتاب الأستاذ هورن Horn في فلسفة التربية الفصل الأخير



غب سماء

للأستاذ فخري أبو السعود

رَوِيَ الطَّرْفُ والجوانحُ ريًّا ... في أصيلٍ مُشعشعِ الأضواء

من جمال الأشياء لمَّا تراءت ... شائقات الجمال غب سماء

بعد يوم داجي السحاب عَبوسٍ ... دائب السَّحِّ هاطل الأنواء

غائب الأفق لم يَبِنْ فيه حتى ... دَلَفَتْ للمغيب وجهُ ذُكاء

أشرقتْ في غروبها وتبدَّتْ ... من ثنايا السحاب باللألاء

فأحالت جهامةَ الجوِّ بِشْراً ... وأنارتْ جوانبَ الغبراء

وأذابتْ شعاعها الصافيَ الأصـ ... ـفرَ في الماء والثرى والفضاء

وكَسَتْ من ضيائها أخضرَ الأعـ ... ـشاب حُسناً ويابسَ الأكلاء

فهما يزهُوان في ريقةِ القطـ ... ـرِ زهاءً وفي شُفوفِ الضياء

واستطار النسيم بعد ركود ... وتمشَّى على سطوح الماء

وتراءتْ دون السطوح ظلالٌ ... ذاهباتٌ في رعشةٍ وانثناء

إنَّ في هذه المجالي لَرَوْحاً ... وغذاء للنفس أيَّ غذاء

تُفعِم النفسَ غبطةً وهياماً ... بخلودٍ بها لغير انتهاء

وهي وحيُ الأشعار لا ذمُّك الدهـ ... ـرَ وشكوى الهوى وطولُ البكاء

هي شِعرُ الوجود أحرِ به أنْ ... يُلهِمَ الشعرَ أنفُسَ الشعراء

خيرُ ذخرٍ للنفس ديوان شِعرٍ ... قد حوى حُسْنَ هذه الأشياء

يبسم الزهرُ فيه من كل سطر ... ويهب النسيمُ حُلوَ الزكاء

فكأني أسيرُ إذْ أجتليه ... في رياض منضَّراتِ النماء

قد تهادَتْ بها الأماليدُ والأز ... هارُ شتَّى الألوان والأسماء

يصفُ المبهم الدقيقَ ويُحصي ... كلَّ شيء بالنظرة الجلواء

حاكياً مَوْقِعَ الجمال ومَهْوى ... فتنةِ الكون في فؤاد الرائي

يصف الفجرَ إذْ يهب على الأزْ ... واحِ رَطْبَ الأنفاس والأنداء

وضياء الشروق ينتظم الكو ... نَ بفيضٍ من روعة وبهاء

وضُحى مُنضِراً وُجوهَ الروابي ... وثغور الحدائق الغنَّاء

وأصيلاً هَيْنَ النسائم قد شا ... عتْ بأضوائه ظلالُ المساء

فخري أبو السعود

ليلة قمراء!

للأستاذ خليل هنداوي

أحجبي عن مقلتي بدر السما ... أنتِ في عيني وقلبي القمر !

هل لمحت الكون لمَّاع السنا ... كل شيء فيه عين تنظر

كل ما فيه سكون حولنا ... وضياء ضل فيه البصر

ولنا في الغاب ظل وارف ... وغصون للهوى تنهصر

كل دنيانا هنا ، ما نبتغي ؟ ... لو أردنا لتدلَّى القمر

قد رآنا الليل من أشيائه ... فتولانا ، ونام القدر

وكسانا النور ثوباً راجفاً ... نتراءى فيه أو نستتر

نجعل النور جناحاً وعلى ... غارب النور يطيب السفر

يبتغي البدر بأن يغريني ... ليتنا للبدر عيناً تبصر

فيرى البدر الذي ألهمني ... سكرة تصحو، وصحواً يسكر !

خليل هنداوي

بين ابن زيدون وولادة

شـــاعر الحب ...(١)

للأستاذ محمد بهجة الأثرى

مهداة إلى الصديق « الزيات »
مصور الحقيقة والجمال والخير
« الأثرى »

حيِّه من شاعرٍ فى الغابرينْ   عاشَ حيًّا فى قُلوب العاشقينْ
شاعرُ الحبِّ ، وما أعظَمَهُ   لَقَبًا يَحْيَا به فى الخالدين !
شاعرُ الحبِّ ، وما الدنيا سوى   نَغَمِ الحبِّ وشعرِ المُغْرَمين
وبقاياها فضـــولٌ مُنِيَتْ   بتعاطيها نفوسُ الأكرمين
هل يروقُ العيشُ فى غير هوى .   أو يروق العيش فى غير حنين؟
لا ودلِّ الغيـــدِ فى فتنته   وجلالِ الحسنِ فى الخُلُقِ الحصين

***

جلَّ ما رقرقه فى شـــعره   من دموعٍ وزفيرٍ وأنينْ
قِطَعٌ من كبدٍ مقروحة   صَلِيَتْ فى الحب نيرانَ الشجونْ
وفؤادٍ من تباريح الضَّنَى   ذابَ إلاَّ رَمَقًا لا يَسْتَبين
قطَّرتها شَجَنًا أنفاسُـــهُ   كحنانِ الإلْفِ ناداه القرين
وجَلَتْها فتنًا أشعارُهُ   كرُواءِ السحر، تسبى الناظرين
ضحكٌ فى دمعةٍ رقراقةٍ   وتعالٍ فى خضوعٍ مستكين
لَمَحَاتٌ تنبرى مسرعةً   كوميض البرقِ أو نبضِ الوتين
من ضلالِ النفس فى حَيْرتها   وخداعِ القلب بالوصل الضنين
يرهبُ الفُرقةَ أنْ تُفْزِعَهُ   ويخافُ الدهرَ ألاَّ يستكين
بين يأسٍ من يقينٍ عنده   ورجاءٍ يبتغيه فى الظنون
مادرى الأمنَ فؤادٌ عاشقٌ   ساعةً دون ارتياعٍ من كمين

***

أيُّ قلبَيْنِ إذا ما اجتمعا   وعيونٍ تتلاقى بعيون !
قفْ تأمَّلْ خفقاتٍ نطقتْ   بالهوى وارْنُ إلى السحر المبين
وتصوَّرْ مبسَمَيْن التَقَيَا   وعناقَيْنِ : خَدِينًا لخدين
فى أحاديثَ كأنفاس الصَّبَا   وشذا الوردِ ورَقْراقِ المعين
يقطعانِ الدهرَ فى ظلِّ الصِّبا   بين لَثْمٍ وعنـاقٍ وأنين
كلَّما جَدَّ الهوى زادا به   لَعِبًا يُغْري ولهوًا وحنينْ
هل ترى من غِبطةٍ رفَّتْ على   مشهدٍ أبدعَ يحلو ويَزِينْ ؟
وقف الدهرُ عليه ثَمِلاً   يغبط الإلْفَيْنِ كالصبِّ الغَبِينْ
لا أخافَ اللهُ قلبًا هائمًا   ببنات الحسنِ من حُورٍ وعِين

***

يا دعاءً ما استجابَتْه السما   لعشيقَيْن على كرِّ السنين
ليتها فى عاشقَيْ قُرْطُبة   لبّتِ القولَ لذُلِّ الضارعين
إن ما ذاقاه فى ظل الهوى   من أفاويقَ حَلَتْ ، عادَ وزِينْ
ضَرَبت أيدى النوى بينهما   والنوى أقتلُ داءِ العاشقين
النوى ؟ سل بالنوى مَنْ ذاقها   يُزِلِ الشكَّ ويُخْبِرْكَ اليقينْ
ظمأٌ بَرْحٌ ، وشوقٌ دائم   وجوًى يُذْوِى ، وسقم وجنون
ما لها طِبٌّ يداويها خلا   عودةَ الوصل قرينًا لِقرين

***

يا لسانًا وقَّع الشجوَ الذى   سَحَرَ الدنيا وهزَّ المُغْرمين
ولدتْ (ولادةٌ) أنغـامَه   فتناغى بأفانين اللحون
قد أصاب الحبُّ من قلبَيْهما   عاشقًا طهرًا ومعشوقًا رزين
ما مشى الرَّيْبُ إلى قُدْسِهما   وهوى الناسِ ارتيابٌ ومُجُونْ
يُعْصَمُ النُّبْلُ ويُحْمَى حوضُهُ   بقُوى النفس وبالخُلُق المتينْ
يعرفُ الصدقَ أخو الصدقِ فدَعْ   كذبَ الشكِّ وغمزَ الجاهلين
ربَّ حبٍّ كنمير الماء في   صفوه : طُهْرٌ وعذبٌ ومصون

(بغداد)   محمد بهجة الأثرى

(١) من ديوان « ظلال الأيام » الماثل للطبع



الفن الهندى

النحت والتصوير

للدكتور أحمد موسى

— ٣ —

وبلغت الثروة الفنية فى النحت الهندى مبلغاً عظيماً من الكثرة والاتقان ، وذلك بالنظر إلى ما بقى منها فى المعابد والمبانى الأثرية الكثيرة التى كان الدافع إلى تشييدها الرغبة الأكيدة فى خدمة العقيدة الدينية

وقد انقسمت منحوتات الهنود إلى قسمين أولهما النحت نصف البارز الذى بلغ حيناً درجة التجسم الكامل لولا التصاقه بالأرضية الموجودة تحته ، وثانيهما النحت الكامل المعروف بالتماثيل

ولما كانت المنحوتات والتماثيل قد أنشئت للمعابد وما إليها بقصد تنسيقها وتجميلها ، فان معرفة تطور النحت الهندى معرفة صحيحة تكاد تكون غير ممكنة بالنظر إلى السبب السابق التنويه به فى المقال الأول

وقد شملت المنحوتات والتماثيل المناظر الخيالية والدينية ، ولكنها كانت فى جوهرها بعيدة عن الاقتباس من الطبيعة . ثم حاول الفنان الهندي أن يصور الحقيقة فى منحوتاته فسار متجها إلى المناظر الحربية ، وإلى مناظر حياة بوذا فى منحوتات نصف بارزة وجدت فى توبا سانتشى

أما بقية المنحوتات البوذية بوجه عام فكانت دينية وقصصية يحتبت على الجوائط الداخلية والخارجية للمعابد ، وكان من بينها ما تم عمله بحالة فائقة من الدقة التى تدعو للاعجاب . وقد بلغ ارتفاع بعض التماثيل حوالى ثلاثين متراً وهذا ارتفاع هائل شابهوا فيه المصريين بعض الشبه

وسار النحت البراهمى نحو القصة والدين ، إلا أنه كان أكثر تعمقاً وأبعد خيالا ؛ فأظهر لنا فى وضوح حياة الآلهة والأبطال فضلا عن بعض مناظر لحيوانات خرافية ولراقصات ومغنيات خصصن لخدمة المعابد برقصهن وغنائهن

ولعل الطابع المميز لهذه المنحوتات أنها كانت لا تمثل الحقيقة الخالصة فى مجموعها ، وهذا يخالف بالطبع ما سبقت مشاهدته من منحوتات الإغريق (راجع الرسالة : أكروبوليس أثينا — النحت) ولم تكن هذه الظاهرة لتمنع من تمتعها بقسط كبير من الحياة وجمال التكوين . فالآلهة التى نحتت بحيث كان لها ستة أيد كانت وجوهها وملامحها دقيقة الاخراج ، بدت عليها مظاهر العظمة الدينية . هذا فضلاً عن الدقة والعناية فى سير خطوطها التحديدية ولا سيما فى الأشكال التى مثلت المرأة عند ما عُنى الفنان بإظهارها رشيقة



ش ١ — تماثيل على حائط معبد إيللورا

وتناول النحت الهندى ناحية أخرى جديرة بالتسجيل ،

وهي ناحية المناظر الدراماتيكية ، منها قطعة مشهورة اسمها « تطاحن الآلهة » ، وأخرى اسمها « أحلام الوصول » وهما وإن كانتا من المناظر الدينية ، إلا أنهما أقرب إلى تمثيل النفس الفنية ، وما يمكن أن تسبح فيه من خيال ، وقد تمكن الفنان من إخراجهما بقوة تمثلت في إظهار فهمه للطبيعة وما يدور فيها من مظاهر الحياة



ش ٢ — نحت نصف بارز من مهاماليابور

وتكاد تكون مجموعة معبد إيللورا (راجع المقال السابق) وكدشوارو من خير ما تركه الفن الهندي في النحت

أما التصوير فكانت غالبية مرسومة على حوائط المعابد ، إلا أنه مع الأسف لم يبق منه شيء كثير من القطع الكبيرة

ويغلب على الظن أن أروع مصورات هندية هي تلك التي على حوائط معبد أدشوتنا (القرن الخامس بعد الميلاد) ، وتمثل بوذا والاحتفالات الدينية ، وبعض مناظر الحروب والصيد ، وكانت خالية من قواعد وأصول الرسم المنظور ، ولكن هذا لا يمنع من اعتبار خطوط التحديد جيدة لدرجة أكسبت الأجسام شيئاً كثيراً من الروعة والحياة

أما الألوان فكانت قوية اختارها الهنود جذابة للنظر لما غلب عليها من دقة الاختيار وحسنه . ويتلخص التطور الذي طرأ على فن التصوير الهندي في أن المساحات المشغولة به كانت كبيرة ، ثم أخذت في الصغر حتى أصبحت تقرب من تلك التي تعلق على الحوائط في أيامنا هذه ، بل إن الكثير منها رسم في مساحة الكتب العادية

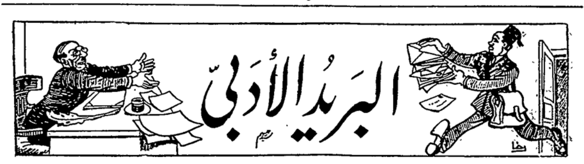
هذا إلى أنها كانت شاملة في أول أمرها لعدة أشخاص ثم خصصت للتعبير عن الجمال أو مواقف الغرام بين رجل ومعشوقته

ولعلنا بالنظر إلى الصورة المنقولة عن حائط معبد أدشوتنا نلاحظ حرص الفنان على صدق المحاكاة بالرغم من بساطة الخطوط ، فالتسمة الرؤوس تكاد تكون متشابهة من حيث الملامح والتكوين . أنظر إلى الشعر وإلى العيون والحواجب والشفاة تر أنها كلها لجنس واحد من الناس

وقد اجتهد الفنان في تصوير الأيدي مختلفة الأوضاع ؛ فتراه جعلها قابضة مرة على عقد وأخرى مشيرة ، وثالثة منبسطة على كتف

وهذه الصورة وإن كانت بسيطة بالنسبة إلى غيرها ؛ إلا أنها تعطي فكرة صادقة عن روح التصوير الهندي

احمد موسى



جلالة الملك يحضر دروس الدين في رمضان

يحرص جلالة الفاروق أيد الله ملكه على أن يحيي سنن الراشدين من خلفاء الرسول، والصالحين من ملوك الإسلام، فشاءت جلالته أن يحضر دروس التفسير والحديث التي يلقيها في المسجد الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر في مساء كل خميس من شهر رمضان. وقد كان يوم الخميس الماضي افتتاح هذه الدروس بمسجد الأبوصيري في الاسكندرية. ففي الدقيقة الخامسة والعشرين من الساعة التاسعة أقبل موكب المليك الأعظم فاستقبله على باب المسجد العلماء والنبلاء والوجهاء والشيوخ والنواب وجمهور حاشد من طبقات الشعب، ثم أخذ مجلسه المتواضع في بيت الله بين عباد الله وشرع الأستاذ المراغي يلقي درسه الجامع بعد أن مهد له بهذه الكلمة البليغة قال:

« قبل أن أشرع في المحاضرة أرى لزاماً عليَّ وأداء للواجب أن أنِّي لولاي حضرة صاحب الجلالة « الملك فاروق » الأول أعزه الله ببعض حقه على الإسلام والمسلمين من الثناء والشكران، فقد أعاد سنة من سنن الإسلام بتحيته وبندائه الذي أذاعه أول يوم من رمضان هي سنة الأمر بالمعروف والاعتصام بهدى الله وأوامره تصدر من ولي الأمر، وهو أعزه الله باستماعه لمحاضرات دينية قد أرشد الناس إلى الرجوع إلى الحق وسماع آي الكتاب الكريم والسنة المطهرة

تلك نعم من الله تستوجب الشكر والدعاء بدوامها. ومما يزيدنا غبطة أن هذه الرعاية من المليك المعظم للدين جاءت في وقت نبتت فيه عند الشبان من أبناء الجيل فكرة الرجوع إلى الدين والاعتزاز به

ومما لا ريب فيه أن تعهد هذا الشعور سينميه ويقويه ويصل به إلى أبعد الغايات وأحب الثمرات. حقق الله الآمال وأدام « الفاروق » ذخراً للإسلام والمسلمين ولأهل الوطن أجمعين »

وقد انتهى هذا الدرس الديني في الساعة التاسعة والدقيقة العاشرة فما كاد جلالته ينصرف من المسجد ويبدأ الموكب الملكي في العودة إلى قصر المنتزه حتى هبت عاصفة التصفيق والهتاف بحياة الملك الصالح، وظلت تلاحق الموكب حتى عاد إلى القصر الملكي باليمن والإقبال

الموسوعة الإيطالية (انسيكلوبيديا اتاليانا)

منذ أسابيع قلائل ظهر المجلد الأخير من الموسوعة العلمية الايطالية (الأنسيكلوبيديا أو دائرة المعارف)؛ وهو المجلد السادس والثلاثون. وإصدار هذه الموسوعة الضخمة من أعظم وأجل الأعمال العلمية التي تمت في العهد الفاشستي؛ وقد وضع مشروعها لأول مرة في سنة ١٩٢٥؛ وكان روح المشروع هو السنيور موسوليني نفسه؛ وتبرع لمعاونة المشروع عدة من رجال المال الايطاليين في مقدمتهم السناتور جوفاني تريكاني، وهو من أقطاب الصناعة ومن هواة العلوم والفنون؛ وانتخب العلامة السناتور جنتيلي لادارة المشروع والاشراف على إخراج الموسوعة؛ وصدر المجلد الأول منها في ربيع سنة ١٩٢٩، ووعد القائمون بأمرها يومئذ بأن المجلد الأخير منها سيصدر في سنة ١٩٣٧؛ وكانوا عند وعدهم. ودعا السناتور جنتيلي، وهو من العلماء والكتاب الأجلاء، كتاب العالم وعلماءه في كل فن وفرع ليشتركوا في تحرير الموسوعة الجديدة، وأغدقت عليهم الهبات الوفيرة، ولم تعترض معاونتهم أية اعتبارات حزبية أو قومية، إذ حرص القائمون بالأمر على أن يسود المشروع كله جو علمي بعيد عن جميع الاعتبارات. وقد صرح السناتور تريكاني حين تقديمه المجلد الختامي من الموسوعة إلى السنيور موسوليني بأن الموسوعة الايطالية اتخذت نموذجها من الموسوعة البريطانية وصدرت على طرازها باعتبارها مثلا أعلى لهذا النوع من العلم المحشود؛ وإنهم مع ذلك حاولوا باصدارها التفوق على الموسوعة البريطانية. ومن

محاسن الموسوعة الجديدة أنها لم تكن مشروعاً تجارياً بل كانت مشروعاً علمياً فقط ، وانها حسبما يصفها المشرفون عليها ، قصدت إلى غاية علمية جليلة هي أن تلخص العلم الايطالى المعاصر والثقافة الايطالية المعاصرة ؛ ولكن هنا لك ملاحظة جديرة بالتقدير ، وهي أن كل ماتخرجه ايطاليا الفاشيستية من صنوف التفكير والثقافة يصطبغ بصبغة الدعاية العميقة للفاشستية ونظمها ومزاياها المزعومة ؛ فماذا كان أثر هذه النزعة في إصدار الموسوعة الايطالية ؟ يقول النقدة الذين درسوا الموسوعة إنها جاءت لحسن الطالع مجهوداً علمياً لم تطغ عليه شوائب الدعاية القومية المنظمة ؛ وإذا كانت فى الواقع تعتبر أعظم وأغزر مصدر لكل ما يتعلق بالفاشستية ، فان ذلك طبيعي لا غبار عليه لأنها تصدر عن بلد النظم الفاشستية . وقد تولى السنيور موسوليني نفسه كتابة المقال المتعلق بشرح النظرية الفاشستية ، وكتب السنيور ڤولبي وزير الطيران تاريخ الفاشستية . وإذا كانت الموسوعة الجديدة تنم عن نزعة ثورية فى النظر إلى مناحى العلوم والفنون ، فهى أيضاً نزعة طبيعية فى بلد يعيش في عهد تطور وثورة ؛ بيد أنه يمكن أن يقال بوجه الاجمال ، إن الموسوعة الايطالية مجهود علمى جليل قبل كل شئ ، وإنها مفخرة علمية خالدة لايطاليا الفاشستية ، وإنها قد استطاعت أن تحقق إلى غاية بعيدة كل ما قصده المشرفون عليها من تلخيص الثقافة الايطالية المعاصرة ، وإنها قد استطاعت أن تتحرر من كل نزعة قومية أو حزبية أو جنسية أو دينية خاصة ، وإنها أخيراً فتح علمى عظيم يستحق كل إعجاب وتقدير

صور بغدادية

أصدرت مس ستارك (مذكراتها) عن بغداد فى كتاب بالإنجليزية سمته Baghdad Sketches وقد كتبته فى الفترة التى عاشتها فى هذه المدينة الخالدة مكبة على تعلم اللغة العربية وأختها الفارسية . والكتاب على طرافتــه خليط من الحق والباطل والماضى والحاضر ؛ وفيه — برغم مزاياه — ظلم كثير للعرب ، ونسيان للجميل العظيم الذى ينبغى أن يذكره الإنجليز إلى الأبد لهذا القطر الشقيق ... وقد كانت المؤلفة تعيش فى صميم بغداد ، ومن هنا كانت هذه النظرة السوداء لطرق معيشة البغداديين ، والنعي على قذارة الحى الذى كانت تعيش فيه ... ولو أن الآنسة فرايا ستارك عاشت فى بعض أحياء لنــدن القذرة لما سولت لها نفسها إيراد ما أوردته فى كتابها عن الحى البغدادي الذى لم يرغمها أحد على أن يكون مستقرها فى الفترة التى قضتها فى عروس مدن التاريخ ... هذا وقد تكلمت الآنسة عن العلاقة بين العرب فى العراق وبين الإنجليز فصرحت أنها تقوم على النفاق ، وأن العراقيين فى طول البلاد وعرضها يضمرون للأجانب عامة البغضاء والكراهية ، واستنتجت ذلك من مرورها مرة وهى تزور النجف بصانع أحذية طاعن فى السن ما كاد ينظرها حتى انصرف عن عمله وراح يحدجها بنظرات عدائية ارتجفت لها أعصابها ... وهذا بطبعه استنتاج سقيم كان من المآخذ الكثيرة التى استدركتها على الكتاب صحيفة التيمس الأدبية

دور الضيافة الأدبية

منذ عامين أنشأت نقابة الصحافة الفرنسية فى باريس بمعاونة الحكومة نادياً للضيافة سمته دار الضيافة الفرنسية Acceuil de France وأعدته لنزول الصحفيين الأجانب الذين يزورون باريس زيارة قصيرة ؛ فهنالك يحتفى بهم وتقدم إليهم جميع المعاونات والمعلومات اللازمة لتسهيل مهامهم وأغراضهم العلمية والسياحية . وفى هذا العام استطاع نادى القلم الفرنسى أن يحمل الحكومة الفرنســية على أن تخصص داراً عظيمة فخمة لنزول الكتاب الأجانب الوافدين على باريس ؛ وتقع هذه الدار فى حى الشانزيليزيه أفخم أحياء باريس فى شارع بيير شارون ، ويمكن لجميع كتاب العالم الذين ينتمون إلى نوادى القلم أن ينزلوا فيها ضيوفاً على الحكومة الفرنسية ؛ وقد حددت مدة الضيافة بخمسة أيام فقط نظراً لكثرة الكتاب الوافدين على الدار وفي خلالها يقدم طعام الإفطار إلى الضيوف ، وتوضع تحت تصرفهم جميع المعاونات والتسهيلات الممكنة لزيارة المعالم الأثرية والفنية . ومنذ أوائل الصيف الماضى تقوم هذه الدار الفخمة بمهمتها فى استقبال الكتاب من مختلف الأنحاء

ونحن فى مصر فى حاجة إلى دار للضيافة من هذا الطراز ؛ ولا نقول إنها يجب أن تمد لاستقبال جميع الكتاب الوافدين إلى مصر ، بل يكفى أن تمد لنزول الكتاب والأدباء الذين يفدون علينا من الأقطار العربية والاسلامية ؛ ونحن نستقبل

الكثيرين من هؤلاء الإخوة في كل عام وكل فصل ، ولا نستطيع في معظم الأحيان أن نقدم إليهم ما يجب من حسن الضيافة والمعاونة . فعلى هيآتنا الصحفية والأدبية أن تبذل السعي اللازم لدى الحكومة حتى تظفر بتحقيق هذه الأمنية التي يعاون تحقيقها في توثيق الروابط الأدبية والاجتماعية بين مصر وشقيقاتها

اكتشاف جديد لسر التحنيط

هل اكتشف العلم الحديث أخيراً سر التحنيط عند الفراعنة ؟ هذه مسألة تعنى بها الأوساط العلمية في أوربا وأمريكا منذ حين عناية خاصة ، وتبذل الجهود من آن لآخر للوقوف على سر ذلك المحلول العجيب الذي كانت تنقع فيه الجثث المحنطة فيكفي لحفظها من العطب والتحلل آماداً طويلة ، بل آلافاً مؤلفة من السنين كما تشهد به موميات الفراعنة التي تحتفظ بها مصر وكثير من المتاحف العالمية . ولقد كان التحنيط على هذا النحو فناً من فنون المصريين القدماء برعوا فيه إلى الغاية ؛ ولكن تسربت منه على ما يظهر في العصر القديم معلومات إلى بعض الأمم المعاصرة كالأشوريين والفرس ؛ بيد أنه لم يبلغ في حضارة من الحضارات القديمة مثل ما بلغه عند المصريين القدماء

وقد بذل العلم الحديث محاولاته لاكتشاف هذا السر مهتدياً بما كتبه المؤرخ اليوناني الكبير هيرودوت عن التحنيط عند الفراعنة حسبما شاهده ودرسه بنفسه لدى المحنطين المصريين وهم الرهبان في ذلك العصر ؛ ولكن رواية هيرودوت لم تلق قط على حقيقة المواد التي كانت تستعمل ضوءاً كافياً ، وكل ما هنالك أنه يتحدث عن محلول « النترول » . وفي أواخر القرن الماضي استطاع بعض العلماء الألمان أخيراً أن يهتدي إلى مركب تحفظ به الجثث المحنطة ولكن إلى أعوام قلائل

والآن تحمل إلينا الأخبار من إيطاليا أن المباحث التي كانت تجرى منذ حين في جامعة تورينو قد انتهت بالوقوف على سر المحلول الفرعوني للتحنيط ، وأن الكيميائي الإيطالي السنيور سالفاتوري بيروتا قد استطاع أن يهتدي إلى محلول تحفظ به جثث الحيوانات المحنطة أعواماً طويلة دون أن يصيبها البلى ، بل تبقى كأنها حية تماماً . ويقول أساتذة المعهد الكيميائي بجامعة تورينو إن بيروتا قد استطاع حقاً أن يقف على سر التحنيط بهذا الاكتشاف ؛ على أنه يبقى أن تثبت التجارب العلمية ما إذا كان هذا المحلول الذي اكتشفه العالم الإيطالي يكفي لحفظ الجثث آماداً طويلة ، وهذه هي عقدة المسألة كلها . وقد كان بيروتا طالباً في معهد تورينو وتخرج فيه ، ولكنه اضطر لفقره أن يلتحق بوظيفة صغيرة ؛ إلا أنه شغف بالتجارب الكيميائية وأنشأ له معملاً صغيراً في منزله وأجرى فيه تجاربه ؛ ولما وقفت الجامعة على جهوده سارعت لمعاونته ووضعت معملها الكبير تحت تصرفه حتى اهتدى بتجاربه العديدة إلى اكتشافه المذكور

انعقاد المؤتمر الطبي السنوي في بغداد

قررت الجمعية الطبية المصرية عقد مؤتمرها السنوي العاشر بمدينة بغداد في المدة بين ٩ و ١٣ فبراير القادم

وسيتناول المؤتمر بحث الموضوعات الآتية :

جراحة الكبد والحويصلة الصفراوية — الملاريا — الكوليرا — موضوعات متنوعة جراحية وباطنية (من بينها الحمى المتموجة وحبة بغداد) — توحيد المصطلحات الطبية في اللغة العربية

وترجو الجمعية من حضرات الأطباء الراغبين في إلقاء بحوث عن هذه الموضوعات إحاطتها علماً بالموضوع الذي يختاره كل منهم مع ملخص بسيط عنه

أما قيمة الاشتراك في المؤتمر ، فهي جنيه مصري يرسل باسم سكرتير الجمعية العام (بريد قصر العيني) . وستعلن الجمعية قريباً عن البرنامج التفصيلي الشامل لحضور المؤتمر

أسبوع الكتاب الألماني

جرت عادة الجالية الألمانية في مصر أن تقيم في كل سنة معرضاً تطلق عليه « أسبوع الكتاب الألماني » . وقد أقامته هذه السنة في القاعة الكبرى بالبيت الألماني في شارع الترعة البولاقية رقم ٧ تحت رعاية وزير ألمانيا المفوض

ومن أهم ما عرض في هذه السنة ما كتبه الألمان عن مصر في مختلف الأزمان ، إذ قدم المعهد الأثري الألماني للمعرض نخبة من المؤلفات القيمة في هذا الباب

وظل المعرض مفتوحاً يومي السبت والأحد وأقيمت في منتصف الساعة الثانية عشرة من صباح الأحد أمس حفلة موسيقية اختتم بها أسبوع الكتاب الألماني



من أساطير الاغريق

٣ ـ خرافة جاسون

للأستاذ دريني خشبة

— « وله ؟ ألست بن ملك مثلها ؟ ألست صاحب عرش عظيم ؟ أليس لى ملك تساليا بعد أن أعود من رحلتى هذه ؟

— بلى يا بنى ! ولكنها تخشى أباها أشد الخشية . أليس يرى فيك عدوه الأكبر لما تريد من استلابه الفروة الذهبية التى هى أكبر كنوزه ؟

— دعى هذا الآن يا أماه ، ولكن طمئنينى كان الله لك ، هل تحبنى ميديا حقاً ؟

— ومن أنبأك هذا ؟

— نبأتـنيه ربة من السماء لا تضن ولا تنسى !

— ربة ؟ تقدس اسمها ؟ ! من عساها تكون يا ترى ؟

— هى جونو يا أعز الأمهات ! لا أكذبك ، إنها جونو !

— أتعرف ما تقول ؟

— وهل يكذب بشر على آلهته ؟

— إن كان ما تقول حقاً . فلا أذيع سراً أذاعته سيدة الأولب ، ومليكة جوف الكبير المتعال ؛ إن ميديا يا بنى مولعة بك ولوعاً شرد النام من عينها ، وجعلها فى أيام معدودات طيفاً لا يردد لسانه غير اسمك ، ولا تذرف عيناه إلا من أجلك .. و ..

— ميديا تبكى ؟ ومن أجلى ؟ ولم تبكى ؟

— تبكى لأنك كلفت بأمور لا تحملها الجبال ! وأين أنت من عِجلَىْ فلكان والأرض الجبوب التى لمارس ؟ ومن أنت والجيش العرمرم من المردة من نبات أنياب التنين ؟ ثم من أنت وما هذا كله فى التنين الهائل الذى يحرس الفروة ؟ حقاً لقد جازفت بنفسك حين وافقت الملك على خوض تلك المخاطرة ..

— وما الرأى إذن ولا بد مما ليس منه بد ؟

— الرأى أن تلقى ميديا فهى حبيبتك ، وإن عندها ، فضلا عن ذلك ، أمّ كتاب السحر ، ولن تبخل عليك بعلمها مهما كلفها ذلك من حَنَق أبيها ، وإغضاب أربابها

* * *

لقد كان الليل يضرب على العالم بجرانه ، وكانت النجوم تلتهب فى فحمته كقلوب المحبين ، والفرقدان يتقدان من هول الزيارة المضروبة بين العاشقة المُدَلَّهة ، والفتى المقاحم ذي الآمال

وأقبل جاسون فوجد العجوز تنتظره عند الباب الخلفى ...

وهمست إليه فسار فى إثرها حتى كانا عند منعرج مُسَوَّج بنبات ذى عساليج ، يؤدى إلى رحبة واسعة ينتشر في أرجائها أرج الورود والرياحين ، حتى ليوقظ القلوب النائمة ، ويعطرها بفغمة[1] الحب ، ويسكرها برحيقه المختوم الذى كله لغو وتأثيم !

وهناك ، كانت تنتظره ميديا بنفس غرثى[2] ، وقلب ظامئ خفق ، فلما رأته غمرها إحساس ثائر ، واستولت عليها عاطفة صارخة ، لم تستطع معها إلا أن تلقى بنفسها على صدره القوي الرحب ، تبلله بدموعها ...

ووقف جاسون ساكناً هادئاً ، كأنما كان يوجس خيفة من هذا الحب الذى أقبل فجأة يهاجمه ويَدّارأ عليه ، ويدفع بعضه

(١) الفغمة : الرائحة الجميلة

(٢) غرثى : جائعة والمراد مشوقة

بعضاً من حوله ... لقد كان قلبه بارداً كالثلج ، وذراعاه جامدتين كالرخام ... وكانت ميديا تبكي وتنثر اللؤلؤ من عينيها الرتجفتين ، ولكنه لم يستطع أن يرد تحية واحدة من تحايا هذه الدموع ... وكأنما كان يحس ، حينما كانت الفتاة تلف ذراعيها حوله ، أن حية رقطاء تتحوّى عليه ، وتنفث سمها فيه ... لماذا ؟ لم تكن إلا الآلهة وحدها تدري !!

— جاسون ... أحبك ... أحبك من أعمق أغوار قلبي ! لم أكن أعرفك قبل أن رأيتك من الشرفة تكلم أبي ، فلما رأيتك فنيت فيك ...

— أشكرك يا عزيزتي ... أشكرك شكراً لا أدرى كيف أعبر عنه !

— جاسون ! ألا تكون لي إلى الأبد ؟

— أنا خادمك ... بل عبدك إذا شئت !

— لم رضيت لنفسك ما عرضه عليك أبي يا جاسون ؟

— وماذا يخيفني يا ميديا ؟ نحن الاغريق لا نرهب الردى ، ولا نخاف الموت !

— هذا جميل ... ولكن الموت أكره الأشياء وأقبحها لمثل هذا الشباب !

— قد أنتصر ، والنصر ، لا سيما في المخاطرات ، أجمل تاج يتألق على جبين الشباب !

— هذا محال إذا لم أساعدك !

— تساعدينني ؟

— أجل !

— وكيف ؟

— عدني أولاً !

— وبماذا أعدك يا أعز الناس !

— أن تكون لي ... أن نتزوج !

— أعدك !

— بل أعطني موثقك !

— أقسم لك !

— بل احلف بجونو ؛ فهي حارستك ! وأحلف بهيا كاتيه !

— أ ... أ ... أحلف ! أحلف بجونو ! وبهيا كاتيه !

— تحلف بجونو ماذا ؟

— أحلف بجونو أن نتزوج !

— وأن يعيش كل منا للآخر إلى الأبد !

— إ ... إ ... إلى الأبد ؟!

— إذن ... لاضير عليك ... ستنجو من كل شيء ياجاسون ... خذ !

— ماذا ياميديا ؟

— أسلحتك التي تقيك !

— أسلحتي !؟ هاتان علبتان ... وهذا حجر أسود صغير ! أكل هذه أسلحتي ؟ ماذا أصنع بها ؟

— علبة من فضة إذا فتحتها اصّاعدت منها ريح تفل من حدة عجلَي فلكان ، وتقي وجهك حر النار التي ينفثانها من منخريهما ، فتستطيع أن تلجمها ، وتضع على عنقيهما النير حتى يكون المقوَم [1] بيدك ... أما الحجر الأسود الصغير فتقذفه وسط المحاربين الذين تنبتهم أرض مارس الجبوب ، وإنه لحجر مسوّم من سجيل ، يجعلهم كعصف مأكول ! وأما العلبة الصغيرة الذهبية فتنثر مما بها من طيب في وجه التنين فيسكر وتتخدر أعصابه وينام لساعته ، ولك عندها أن تقضي عليه ...

وسكتت ميديا ...

ومدت فمها إلى جاسون ، فطبع عليه قبلة فاترة خائفة ترتجف وترتعد ، مما سمعت من سحر الحجر الأسود ، وريح العلبة الفضية ، وطيب العلبة الذهبية !!

* * *

وكان الجو العبوس القمطرير يزيد في منظر الحفل الحاشد

(١) المقوم الخشبة بين الثورين يمسك بها الحراث — أما النير فالقصبة التي تشد المحرات على عنقيهما (الثعالبي)

روعةً ورهبة ؛ وكان الملك الجبار يملأ بجسمه الضخم عرشه المرد فوق الأكمة المشرفة على الأرض الجبوب المقدسة باسم مارس ، وكان الناس الذين أقبلوا من كل فج مُشَاةً وعلى كل ضامر يجلسون على الشماف وأحْيَاد الجبال المطلة على الميدان متزاحين متدافعين كأنهم فى يوم حشر ... وكان إخوان جاسون يجلسون عصبة بينهم وفى قلوبهم حسرات على صاحبهم ، وألسنتهم مانفتر عن الدعاء له ، والتوسل إلى الآلهة من أجله ... وكانت ميديا العتيدة تجلس فى ركن من مقصورة الملك تتموذ وتُعَوِّذ وتطلق الرُّقى ...

ثم دق الناقوس الكبير فصمت الناس وشملهم سكون عجيب.. وانفتح باب الزّرب فبرز عجلا فلكان ثم جملا بمضفان ويتلبطان[1] وينفثان من منخريهما شرراً ودخاناً يختلط بهما لهب أزرق ما مسَّ شيئاً فى الميدان إلا حرقه ... حتى العشب الرطب الندىّ بَلْه الهشيم اليابس... ، ... وبرز جاسون من مكمنه ، فانحبست أنفاس الناس ، وسكنت الريح ، وأشرفت الآلهة من نوافذ السماء تنظر إلى هذا اللقاء العظيم... وأهطع[2] أصحاب البطل وطارت ألوان وجوههم ، وتحسس كل منهم فؤاده ... ولكن جاسون الهائل خطر شطر العجلين غير هياب ؛ وعليه دروعه ، وفى يده سيفه ؛ فلما كان قاب قوس منهما جعل يتلطف بهما ، ثم فتح العلبة الفضية فصعدت منها ريح هدأت ثورتهما وأسلست قيادهما فأسرع إلى النير فوضعه على عنقيهما وشد وثاقه ، ثم ربط إليه المحراث وبدأ عمله الشاق ... وكانت الريح السحرية قد بطل عملها أو كاد فعاد العجلان إلى سابق دأبهما من التوحش والقماص والشبوب[3] وعاد منخراهما يقذفان دخاناً أبيض وشواظاً ... بيد أن جاسون سيطر عليهما حتى أتم حرث الأرض كلها ، ثم قادهما إلى زَرْبها وأطلقهما ، وغلق عليهما ، وقصد ناحية الملك يسأله أنياب التنين لبزرعها ... فدفعها الحراس إليه وطفق يغرسها فى الأرض الرحبة حتى إذا فرغ من عمله ، نظر فإذا رؤوس مقنعة فى خوذات من حديد تنبت من الأرض ، ثم تنمو فتبرز الرقاب ، ثم تظهر الصدور وعليها الدروع السابغات، ثم تشقق الأرض وتكون الجذوع كلها من فوقها، وتخلص الأذرع وفى أكفها السيوف المرهفة تلاعب الهواء .. ثم ترتفع الأفخاذ وعليها كل لأمة دلاص[1]، ثم يقف أمام جاسون جيش عرمرم من هذه الشياطين المسلحة ترغى وتزبد وتزأر، ثم ينقض عليه الجيش بأكمله وقد شرع كل جندى حسامه ، فيتلقاهم البطل بأحسن ما علمه شيرون أستاذه العظيم من قوة فى كر ، وحزم فى فر ، وحذق فى تحرُّف لقتال ، ورسم لخطط للنضال ... وكان الملك ينظر إلى كل ذلك ويتعجب ، وكان الشعب يفغر أفواهه من دهش وذهول ... وكانت ميديا — برغم ما سلحت به جاسون من سحر — تمسك قلبها الخفاق بيدين مرتجفتين ... أما رفاق جاسون ، فوارحمتاه لهم !! لقد كانوا يرون الأبالسة يحدقون به من كل صوب ، ويزلزلون الأرض تحت قدميه ، فتزيغ أبصارهم وتتقلب قلوبهم ، وتتثلج مشاعرهم ، وينظر بعضهم إلى بعض ، لا يملكون لهذه الحال ردًّا ولا دفعاً

وظل جاسون يناضل ويناضل ، وكلما قتل عشرة وقفت مائة مكانها ، وكلما جندل مائة بُدلت بألف ؛ فانقذف شيء من الرعب فى قلبه ، وسرى إلى نفسه دبيب من اليأس كاد يقتله ، لولا أن أقبلت جونو تكلمه فى نسمة روحت عن قلبه ، وتذكره بالحجر الصغير الأسود ... ولكن الحجر الصغير الأسود كان فى جيب صداره ، فأنى له به ولو غفل لحظة عن الدفاع عن نفسه لباء بقتلة شنيعة يقطر سمها من ألف ألف سيف !!

وجعل المسكين يحاول مرة بعد مرة أن يخرج الحجر الصغير الأسود ... ولكن محاولاته كلها ذهبت سدى ... وكان قد بلغ منه الجهد ، وتولاه الإعياء والضنى ... فلهج لسانه فجأة باسم جونو ... فأسرعت سيدة الأولب لنجدته ، وأخرجت الحجر الأسود من جيبه ، ووضعته فى يده ، فقذفه جاسون وسط جيش

---

(١) الاعصاف السير السريع الذى يثير الأرض ، ويتلبطان يختلطان فى سيرها

(٢) مدوا رؤوسهم

(٣) أن ترفع الدابة يديها عاصية

(١) الدرع الواسعة السابغة

الأعداء المحدقين ، فما هي إلا طرفة عين حتى تفرقوا من حوله ، ثم تصرعوا غير مأجورين ... وماتوا جميعاً

وأهرع أصحاب جاسون إليه ، وطفقوا يحيونه ويهنئونه ، ويذرفون حوله دموع الفرح لما كشف عنه من غمة هذا البلاء ثم حملوه وهم يهتفون باسمه أحر الهتاف ، وأهرعت الجموع الزاخرة في آثارهم نحو البحر ، وهي تفتأ تردد صيحات الاغريق ، حتى خاف الملك على عرشه أن يثله شعبه ، وأن يجلس عليه جاسون .. لذلك اربد وجهه ، وانتشرت عليه سحابة من الكآبة والهم تملأ أساريره

وبلغ الاغريق سفينتهم فشكروا الكولخيين جميل ما حيوا به بطلهم ... ثم خلوا بعد ذلك إلى جاسون فنضوا عنه ثيابه ، وضمخوه بالطيوب والعطور ، ثم هيأوا له طعاماً وشراباً ، من أفخر ما يقتنون .. وفي الليل أسر إليهم بسره ، وانطلق ليلتقي ميديا

***

ولقيته ابنة الملك بابتسامة لم يجزها عليها بمثلها ... ثم تركها وقتاً غير قليل تغمره بقبلها وتنضح يديه وخديه وجبينه بدموعها وتعبر له عما كان يقيمها ويقعدها حينما انبرى لمجلي فلكان ، وحين أحدق به أبالسة التنين يقاتلونه ويتكاثرون عليه ، وهو صابر لهم ، صامد لجموعهم ، حتى قذف الحجر فانقذفت في قلوبهم المنايا

— أرأيت إذن ياحبيبي ما صنع الحجر الأسود من السحر أيقدر على مثل ذلك غير من أوتي من العلم ما أوتيت ؟

— كلا !

— مالك لا تتكلم يا جاسون ؟

— الفروة الذهبية ! أريد أن أفرغ من هذا الهم الطويل ؟!

— الفروة الذهبية لك من غير ما ريب .. فلا تبتئس ! قبلني !

وطبع على ثغرها قبلة ميتة كانت ترتجف من شياطين السحر التي ترقص دائماً في فم ميديا ... وانطلقا إلى الجانب القصي من الغابة المجاورة ، حيث كان التنين الهائل يحرس الفروة المعلقة على شجرة السنديان ، وهناك ، فتح جاسون العلبة الذهبية ثم اقترب من التنين في غفلة منه ، وقذف في وجهه بما كان فيها من قطرات السحر ... فترنح الوحش المخيف الرائع ؛ واستل جاسون جُرازه ، وأغمده في صدر الأفعوان الكريه ، فخر يتلبط في دم غزير ... وانقض الفتى على الفروة الثمينة التي ترجح ألف كنز فانتزعها من الشجرة ... وعادا محللين إلى القصر الملكي الرهيب ، حيث كانت وصيفاتها في انتظارها ، وقد جمعن كل ما استطعن حمله من أذخار القصر ، كما رسمت لهن ميديا من قبل وحين أوشك الجميع أن يغذوا السير إلى الآرجو ... إذا بالفتى أبسرتوس ، أخو ميديا غير الشقيق ، وولي عهد الملك ، يقبل لبعض شأنه ، فتغريه أخته بالسفر معها في رحلة جميلة إلى أبدع بلدان العالم ... تساليا ... ويرضى ولي العهد ... وينطلق الجميع إلى المرفأ حيث رست الآرجو ، فيركبونها ، وتقلع بهم في موج كالجبال

في العدد المقبل (خاتمة ميديا) — دريني خشبة

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧

5 me Année, No. 229

Lundi - 22 - 11 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

السنة الخامسة «القاهرة في يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ١٣٥٦ — ٢٢ نوفبر سنة ١٩٣٧» العـــدد ٢٢٩

الفهـــرس

ثورة على الأخـلاق !

هل الصلاح غير النجاح ؟

— ما رأيتك يا محمود على هذه الحال منذ عرفتك ! أين السماحة التي تفترُّ في ثغرك، والغبطة التي تشرق في صدرك، والرضا الذي كان يجعل من حياتك نموذجاً لعلماء الدين وجهابذة العلم وفلاسفة الخلق ؟

— ماذا أصنع يا صديقي والناس أصبحوا يشككونني في مزايا الأخلاق وقيمَ الفضائل ؟ كنت أضطرب في دائرة ضيقة من العيش فيها كل ما في الدنيا الواسعة من لذة الروح بالأهل، وسرور القلب بالإخوان، ومتاع العقل بالكتب، ونشاط الجسم بالعمل ؛ وليس فيها البُحران الذي يحدث من حمَّى الهموم، ولا الجحيم الذي يشبُّ من تحاسد الخصوم، ولا اللجب الذي ينشأ من تنافس المجتمع ؛ وكنت وأنا في هذا العالم الصغير المحدود أعتقد أن القواعد التي سنها الأخلاقيون لتهذيب الإنسان من الخلال المضادة لغريزته، قد استطاعت على مر القرون أن تخفت في دمه صوت الحيوان، وأن تلائم بين موهوب الطبع وبين مكسوب العادة من تناقض الرأي وتعارض الهوى، وأن تجعل

من سلطانها الغالب دستوراً لحياة الناس ، فيكون بها مقياس السؤدد ، وفيها سبب الرقى ، ومنها وسيلة النجاح . نعم يا صديقى كنت أعتقد ذلك وأستبعد أن يكون للمدنية معنى غير الثقافة ، وللثقافة مدلول غير الكفاية ، وللكفاية نتيجة غير الفوز ، حتى أتاحنى طبيعة عملى العامّ إلى توسيع هذه الدائرة ، فوسعتها بمقدار ما استلزمه هذا العمل من ملابسة الشعب ومراجعة الحكومة ، فإذا كل ما قرأته زور ، وما تخيلته وهم ، وما اعتقدته باطل . ماشيت العامة على منهج الدين فلقيت الكفر ، وعاملت الخاصة على هوى الخلق فوجدت النفور ، وعالجت الأمور على مقتضى القانون فأدركت الخيبة ؛ فذهبت أفتش فى الناس عن أسباب الفوز فلم أجد من بينها سبباً يمت إلى الفضيلة أو يتصل بالكفاية . هذا الباشا فلان يملك القرى بإنسانها وحيوانها وأطيانها ، وله المقعد المرفوع فى البرلمان ، والصوت المسموع فى الحكومة ، والأمر النافذ فى البنوك ، وهو رجل لا يزال على الفطرة الأولى من الوحشية والعنجهية والجهالة . وهذا البك فلان تشغل عمائره الخلاء والهواء من المدينة ، وله على أغلب الأمر دَين ، وعلى أكثر البيوت اختصاص ؛ ولو سألت جيرانه الأولين عن مصدر هذا الثراء الضخم لأجابوك بلهجة المحنَق الموتور بأنه الربا الذى لا يحفل القانون ، والغش الذى لا يبالي الفضيحة ، والاختلاس الذى لا يخشى الله ، والبخل الذى لا يذكر الموت . وهذا الموظف فلان يملك القصر المنيف فى أجمل بقعة ، والسيارة الفخمة من أعلى طراز ، والمرتب الضخم من أول درجة ، وله الوصل والقطع فى أمور الناس ، والمنح والمنع فى أموال الدولة . فهل بلغ ما بلغ بعلمه ؟ إنه لا يحمل غير الشهادة الثانوية . هل نال ما نال بكفايته ؟ إنه لا يحسن غير الإمضاء فى الموضع الذى يضع عليه الكاتب الصغير إصبعه من الورقة . إذن لم يدرك الرجل ما أدرك إلا بفضل المرونة التي تكون فيمن خلقوا من المطاط لا من الطين ، فرأسه ذو وجهين ، ولسانه ذو شقين ، وضميره ذو باطنين ، وشرفه ذو رأيين ؛ يدارى ويجارى ، وينافق ويمالق ، ويهان فيغضى ، ويستباح فيبيح ؛ وهو متفرق الأحاسيس فلا تجتمع له عاطفة ، متنافر المنازع فلا ينسجم له رأى ، معوج المسالك فلا يستقيم له مذهب

وهذا الأستاذ فلان يأكل فى صحاف الذهب والفضة كالنابغة ، ويخطر فى مطارف النعيم والجاه كابن العميد ، ويملك للناس الضر والنفع كابن عبد الملك ! فلعله أصاب ما أصاب من وراء علمه وخلقه . ليت ذلك كان فتشذ القاعدة ويخطئ القياس ، ولكن الأستاذ نجح وا أسفاه لأنه باع العلم بالسياسة ، واشترى الدنيا بالدين ، واضطرب فى مهب الأعاصير حتى رفعه أحدها على متنه ، ثم استقر على المنحدر الشاهق استقرار الريشة القلقة !

ثم رجعتُ أبحث عن أسباب الفشل فوجدتها لا تخرج عن حدود الفضائل التى تعشقها ابن آدم منذ أدرك ! فالعلم والصدق والصراحة والشجاعة والقناعة والأمانة والنزاهة والأنفة والحلم والتواضع والجود ، كل أولئك عوائق عن درك الغنى ونيل الجاه وكسب الشهرة . وأقوى البراهين على إقناعك أن تستقرئ أحوال المصابين بهذه الخلال فهل تجدهم إلا أواخر الموظفين فى الديوان ، وأخسر المتعاملين فى السوق ، وأضعف المتنافسين فى المجتمع؟

لقد تدبرت الأمر فوجدت الفضائل لا تنتصر إلا فى الروايات والقصص ؛ أما التاريخ الذى يسجل الواقع ويروى الحق فهو دامي الصفحات بأخبار الأنبياء والعلماء والفضلاء والمصلحين الذين أوذوا فى سبيل الدين ، وقتلوا فى خدمة العلم ، ونكبوا فى مرضاة الحق ، وشقوا فى حب الفضيلة . فهل تقول بعد ذلك إن الأخلاق الفاضلة لا تزال عدة النجاح وطريق السعادة ؟

فقلت له : أما أنها طريق السعادة فنَعَامِ ونَعَم . وأما أنها عدة النجاح فلا أجد فى نفسى الآن قوة على تأييده ؛ لأن لى فى بعض المصالح مسألة لم يفسدها إلا رعايتى للخُلق ، وفى بعض الوزارات مسألة أخرى لم يعقدها إلا محافظتى على القانون . فليس لك عليّ إلا أن أعرض رأيك على رجال الدين وحماة القانون ودعاة الأخلاق ، ليردوا عليك ما كذب من قولك ، أو يردوا إليك ما عزب من عقلك .

احمد حسن الزيات

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

١ — دمشق

يا صديق صاحب الرسالة

أحسبك رأيت من قبلُ دمشق فأنقك مرآها ، ونفحتك ريّاها ، وآنستك ذكراها ، ودارت بك منازهها وطرقها بين الماضي المجيد ، والحاضر المجهود ، والمستقبل المنشود . ولعلك أشرفت من قاسيون على البلد الجميل تحيط به الحدائق الشجراء متصلة بين المزّة والغوطة فسرحت الطرف والقلب فى مرأى جميل ومنظر بهيج . ولا ريب رأيت بَرَدَى يتبطن الوادى ، ويتسنم الجبل ، وينسرب فى شرايين المدينة فيسرى فى دورها ومساجدها وحماماتها وشوارعها ، وتسمع أحياناً خريره فى جوف قناة أو جدار لا تتبين مأتاه ومذهبه . ومن قبلُ قال ياقوت :

« فقلّ أن تمرّ بحائط إلا والماء يخرج منه فى أنبوب إلى حوض يشرب منه ، ويستقى الوارد والصادر . وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاها إلا والماء يجرى فى بركة فى صحن هذا المكان ، ويسحّ فى ميضته »

وأحسبك يا أخى مررت بمعاهدها فأحسست وقدة بين الضلوع ، أو طرحت كما يقول البحترى ثقلا من الدموع

أدخلت إلى الجامع الأموى من باب جيرون ورأيت فى الطريق المفضية إلى الباب صفا من العمد العادية ، وتمثلت القرون تنسخ القرون ، والعصور تحطم العصور ، وولجت الباب العظيم إلى الصحن الفسيح فالتفت إلى شمالك فرأيت صوز الدور والأشجار والأنهار مصورة بالفسيفساء منذ عهد الوليد . ثم ملت إلى اليمين فدخلت الجامع تروعك العمد العالية الضخمة تمتد فى صفوف مديدة ، ورأيت أمام القبلة قبة النسر الشامخة تزهى بما أشرفت على التوحيد فى محرابه ، وأظلت الحق فى جماله وجلاله

وما أحسبك رقيت فى المنارة الشرقية ، وشهدت فى مرتقاك حجرة يقال إن الغزالى كان يتكف فيها ، ثم بلغت القمة بعد جهد فجمعت أمامك المدينة ، وزويت الأرض كأنك تطالع منها صورة فى رقعة فقلت :

صعدت فى قمة التاريخ مأذنة لها من الحق والتاريخ أحجار

فإذا تركت الجامع الكبير فهنالك مشاهد أخرى عظيمة ، وذكريات جليلة

— هل مررت بالرجل الصالح نور الدين محمود ثم البطل المجاهد صلاح الدين يوسف ؟ هل وقفت على ابن أيوب فقلت :

فيا لك قبراً على قربه تظل العقول به فى سفر
ويا لك قبراً كمين البصير يحوى العوالم منها صغر

وهناك المدرسة العادلية وبها المجمع العلمى اليوم ، والمدرسة الظاهرية حيث ضريح الملك الظاهر بيبرس وبها دار الكتب ، ودار الحديث الأشرفية وكان من نزّالها العالم التقى الذى لم تأخذه فى الحق رغبة ولا رهبة محيي الدين النواوى . ولا تزال حجرته بها معروفة . ويقول بعض المحدثين ولعله ابن حجر :

وفى دار الحديث لطيف معنى أطوفُ حول مغناه وآوى
لعلى أن أصيب بحُرّ وجهى مكاناً مسّه قدم النواوى

وهل صعّدت فى الصالحية إلى ضريح محيي الدين بن عربى أم نفرت من هذا الشيخ الغريب واللغز العجيب ؟ على أن بجانبه بطلاً من أبطال الجهاد وسيفاً من سيوف الجلاد : الأمير عبد القادر الجزائرى . وإن أردت مزار الرجل العالم الصالح الصوفى الشاعر ذى المناقب الحميدة وصاحب التأليفات الكثيرة الشيخ عبد الغنى النابلسى فليس بعيداً من ضريح محيي الدين تسلك إليه طريقاً مقفرة بها مدارس دارسة ، منها المدرسة القمرية

فإذا صعدت فى الصالحية فهنالك من الآثار ما يشق تعداده : مدارس ومساجد ومستشفيات ، وهناك جامع الحنابلة الذى قرأ به الذهبى وابن قدامة وغيرهما من كبار العلماء ، والمدرسة الضيائية وكانت تحفظ بها خطوط كبار المحدثين وهى اليوم كتّاب ، حتى ينتهى الصعود إلى مقبرة الصالحية حيث قبر محمد بن مالك النحوى فى قبور كثيرة للعلماء والكبراء

وفى أطراف المدينة مشاهد كثيرة للصحابة فمن بعدهم . ولا تنس وقفة على قبر بلال فى مقبرة الباب الصغير لترى الأذان مضمراً فى كتابه ، وتسمع الصوت مكنوناً فى نايه ، بل تسمعه

جهيراً مدوياً يملأ الفضاء ، ويبلغ عنان السماء « كالخط يملأ مسمعي من أبصرا » . أو كإشارات الموسيقى خطوط فى البصر ، ونغمات فى الأذن ، ووجد فى القلب . وهل الأذان فى المشرق والمغرب إلا صوت بلال مردداً قد بقى فى القبة الزرقاء صدى توالت رواته واتصلت نغماته ؟

***

وهل جُلْتَ فى الغوطة تحنو عليك أشجارها ، وتترقرق عليك ظلالها ، وتطالعك من بين الغصون شمسها ، وتتمادى بك مسالكها بين الزروع والأشجار :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها فلي بجنوب الغوطتين شجون

وهناك ضريح سعد بن عبادة قد اعتزل الناس فى مماته ، كما اعتزلهم فى آخر حياته :

وهل سرت إلى دوما ومررت بجوبر فذكرت قول القائل :

إذا افتخر القيسى فاذكر بلاءه بزراعة الضحاك شرقي جوبرا

أو قول الأمير شكيب أرسلان فى الصديق الأديب الشاعر خليل مردم بك :

« وإليه تجبي جوبر وكنيسها »

***

يا أخى وكيف تجيش الفكر وتنبع الذكر حين يقترب المسافر من المدينة الخالدة فيلقى نضارتها ويجد روحها عند الهامة . فإذا أجاز إلى دُمَّر فهناك بردى عن اليمين والشمال متدفقاً فى ظلال الأشجار — أشجار الحور الباسقات — ولله مجلس على بردى تذوب فى مائه النظرات ، وتتساقط عليه من الحور نغمات . فإذا بلغت الشاذروان فغمك عرف دمشق ، وشممت أخلاطاً من الروائح الطيبة أمدت بها الأشجار والأعشاب ، روائح يعجز عنها الوصف إلا أن يسميها « نفحات دمشق » . وهل جلست بالربوة فسمعت المعجبين بها يقولون : إنها الربوة التى ذكرها القرآن الكريم فى قوله : « وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » هناك بردى سبعة أنهر تجرى فى الوادى وعلى الصدفين وفوق الجبل . ويخر من نهر يزيد —وهو فوق الجبل لا يرى— شلال على الربوة لا يعلم الشاهد مرآه ومسمعه

أما أنا يا أخى فلست أمل التردد بين دمشق ودمر أجد هناك جمالاً لا يحد ، وسحراً لا ينفد . وقد رُدت هذه المشاهد مرات ، ورأيت لها فى القمراء آيات ؛ يتمعج بنا الوادى بين الجبال والأشجار ، ومياه بردى تسيل بها ربوة ، أو يوسوس بها شعب ، أو يتغنى بها بستان ، فلا تفتأ تسمع منه حديثاً يؤلف مع حفيف الريح موسيقى هذا الجمال الفتان ، والوادى يدور بنا دوراته ، والقمر يلاعبنا بطلعاته ، عن اليمين والشمال وأمام وخلف . والقلب بين ذلك مضطرب ، وللشعر مذهب أى مذهب . كان يخيل إلىّ أن هذه المياه الثرثارة حزم من الأشعة ، وأن أشعة القمر رشاش من بردى ، وأن هذا النسيم المعطر مزيج من الماء والضياء ينضح وجوه السابلة : شعر تفيض به الأرض والسماء ، وسحر ينفثه الماء والهواء ، وإلهام يفيض به الجنان ، ويعجز عنه البيان

يا صديقى قد صدق البحترى إذ قال :

إذا أردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسي السحاب على أجبالها فرقاً ويصبح النبت فى صحرائها بددا
فلست تبصر إلا واكفاً خضلا أو يانعاً خضراً أو طائراً غردا

دمشق ٢٢ تموز ١٩٣٧ عبد الوهاب عزام

مطبوعات

لجنة التأليف والترجمة والنشر هذا الشهر

الثمن م	اسم الكتاب
٠١٨	أخبار أبى تمام للصولى
٠٢٠	أمراء البيان للأستاذ محمد كرد على فى جزءين
١٥٠	النقض فى المواد المدنية والتجارية للأستاذين حامد فهمى ومحمد حامد فهمى
٠١٥	الطرائف الأدبية ويشتمل على جملة دواوين شعراء لم يسبق نشرها منها ديوان الصولى والمختار من دواوين المتنبى والبحترى وأبى تمام للإمام عبد القاهر الجرجانى

وتطلب هذه الكتب من اللجنة بدارها رقم ٩ بشارع الكرداسى بعابدين ومن المكاتب الشهيرة

على ذكر الموسوعة الايطالية

قصة الموسوعة الجامعة

وكيف عرفتها الآداب العربية في العصور الوسطى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

سجل العلم الحديث فتحاً جديداً خطير الشأن بصدور الموسوعة الايطالية (دائرة المعارف)[1] التي بدأ صدورها منذ أعوام ثلاثة فقط ، وصدر المجلد الأخير منها (وهو المجلد السادس والثلاثون) منذ أسابيع قلائل . وإذا كنا ممن لا يؤمنون بمزايا النظام الفاشستي ، فانه لا يسعنا إلا أن نحيي ذلك المجهود العظيم الذي حققه العلم الايطالي في تلك الفترة الوجيزة ، والذي يعتبر بحق مفخرة للعهد الفاشستي ، خصوصاً وأن الموسوعة الجديدة جاءت حسبما يقرر النقدة مجهوداً علمياً خالصاً بعيداً عن شوائب الدعاية والأهواء

ولهذه الموسوعات العظيمة التي تحشد فيها سائر العلوم والفنون والآداب تاريخ حافل يرجع إلى أقدم العصور ؛ وإذا كانت تغدو اليوم مورداً سهلا لكل طالب وقارىء بما انتهت إليه من سهولة في الترتيب والتصنيف ، فانها لم تصل إلى نظامها الحالي إلا بعد أن تقلبت في أطوار عديدة ، واشترك في تنظيمها كثير من الأذهان في مختلف العصور والأمم ؛ وكان لتفكيرنا العربي ، حسبما نرى ، نصيب يذكر في هذا الميدان

وأصل الكلمة أي كلمة « انسيكلوبيديا » التي تطلق اليوم في جميع اللغات الحية على جميع الموسوعات العلمية والأدبية يوناني ، وأصل الفكرة ذاتها يوناني أيضاً ؛ وكانت تعني في اليونانية القديمة مجموعة المعارف التي يجب أن يتزود بها الفتى لاستقبال الحياة العملية ؛ ثم استعملها الرومان وأضحت بمضي الزمن تطلق على جميع العلوم مجتمعة في سفر واحد . وأقدم مجموعة من هذا النوع انتهت إلينا هو مؤلف بلنى الكبير في التاريخ الطبيعي الذي يرجع إلى القرن الأول من الميلاد ، وهو مؤلف شامل يتناول كل ما كان معروفاً في ذلك العصر من الطب والجغرافيا والتاريخ الطبيعي وغيرها من الفنون

ووضعت خلال العصور الوسطى باللاتينية عدة مصنفات شاملة من هذا النوع ، وكان واضعوها بالأخص جماعة من رجال الدين الذين توفروا في تلك العصور على جمع أشتات العلوم والفنون ، بيد أن هذه المصنفات القديمة كان ينقصها روح التناسق والترتيب العلمي ، ولم تظهر فكرة الموسوعة (الانسيكلوبيديا) بمعناها الحديث إلا منذ القرن السادس عشر . ولم تظهر طلائع الموسوعات الحديثة بترتيبها الفني أو الأبجدي إلا في القرن السابع عشر كما سنرى

وهنا ، وقبل أن نمضي في استعراض تاريخ الموسوعة الحديثة يجدر بنا أن نشير إلى الدور الذي أداه التفكير العربي في هذا الميدان ؛ فقد عرفت الآداب العربية فكرة الموسوعة بمعناها الشامل ، وحققت في هذا الباب جهوداً خليقة بالاعجاب والتقدير . ومنذ القرن الثالث الهجري يبدو أثر هذا الميل إلى التصنيف الشامل واضحاً في كثير من الآثار العربية ، ونستطيع أن نلمس هذا الأثر في كتب مثل عيون الأخبار لابن قتيبة ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والأغاني لأبي الفرج ، وهي مصنفات يطبعها طابع الموسوعة فيما تتناول من مختلف الموضوعات والأخبار . كذلك نجد روح الموسوعة ظاهراً في كثير من المصنفات التاريخية العربية ؛ فكتاب الكامل لابن الأثير مثلا يعتبر بحق موسوعة تاريخية شاملة تجمع بين مزايا التعميم والترتيب المدهش ، وكتاب الوفيات لابن خلكان بلا ريب من أقيم موسوعات التراجم . ومما يلاحظ أن الموسوعة الأوربية الحديثة بدأت كما سنرى بهذا النوع من المصنفات والمعاجم التاريخية الشاملة

على أن الآداب العربية عرفت في مصر نوعاً أتم من الموسوعة الكبيرة الشاملة ؛ ونستطيع أن نقول إن القرن الرابع عشر في مصر كان عصر الموسوعات ؛ ففيه أخرج شهاب الدين النوري المتوفي سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣ م) موسوعته الضخمة « نهاية الأرب في فنون الأدب » ، وأخرج ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) موسوعته الجغرافية والتاريخية العظيمة « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ؛ وفي أواخر هذا القرن وضع القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) موسوعته

(1) Encyclopaedia Italiana

السياسية والادارية الضخمة « صبح الأعشى » ، وفى هذه الآثار النفيسة الشاملة نرى طابع الموسوعة وروحها بارزين لا من حيث الضخامة وسعة الأفق فقط ، بل ومن الناحية العلمية والفنية أيضاً ؛ فكتاب نهاية الأرب الذى يشغل نحو أربعين مجلداً ضخماً هو موسوعة تاريخية وجغرافية وأدبية وعلمية وفنية ، يأخذ فى كل من هذه النواحى بنصيب وافر ؛ وكتاب « مسالك الأبصار » الذى يبلغ نحو عشرين مجلداً ، هو موسوعة جغرافية وتاريخية حقة ، لا يقل من الناحية العلمية والفنية عن كثير من الموسوعات الأوربية المماثلة التى صدرت فى القرن السابع عشر ؛ وكتاب « صبح الأعشى » الذى أصدرته دار الكتب المصرية فى أربعة عشر مجلداً ضخماً ، هو موسوعة فذة فى نوعها وقيمتها فهو « دار محفوظات » بأسرها جمعت فيه معلومات ووثائق إنشائية وإدارية وسياسية عن الدول المصرية لم تجتمع فى أى مؤلف آخر

هذه الآثار العربية التى نذكرها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر ، تدل دلالة واضحة على أن فكرة التصنيف الجامع أو بعبارة أخرى فكرة الموسوعة الشاملة ، عرفت فى الآداب العربية وبلغت فيها شأناً يذكر ؛ بيد أن هذه المحاولة العلمية الجليلة وقفت مع الأسف فى منتصف الطريق وحالت دون تقدمها عصور محزنة من الركود والانحلال توالت على التفكير العربى

***

ونعود الآن إلى الموسوعة الأوربية ، فنقول إن طلائع الموسوعات الحديثة ظهرت منذ القرن السابع عشر ، وكان ظهورها بالأخص فى فرنسا ، حيث صدر فى سنة ١٦٧٤ معجم مورري التاريخى المسمى « القاموس التاريخى الكبير » Grand Dict. Historique مرتباً ترتيباً أبجدياً ؛ وصدرت فى سنة ١٦٩٧ موسوعة بايل التاريخية المسماة « القاموس التاريخى النقدى » Dict. Historiqu et Critique مرتباً على الحروف أيضاً ؛ وظهرت أيضاً فى أواخر هذا القرن موسوعة دربلو الشرقية المسماة « المكتبة الشرقية » ؛ ثم تطور نظام الموسوعة بسرعة ، فاتجهت إلى التوسع والترتيب الفنى والأبجدى ، وأخذت تندو شيئاً فشيئاً مرجعاً شاملا لأشتات العلوم والفنون ، وتشعبت مناحيها شيئاً فشيئاً حتى غدت مشروعاً علمياً جامعاً ، بعد أن كانت مجهوداً فردياً فقط ، وساهمت فى إخراجها جميع الآداب الحية بأوفر نصيب

ففى انكلترا بدأت الموسوعة الحديثة بقاموس وضعه القس جون هاريس فى أوائل القرن الثامن عشر عن العلوم والفنون Lexicon Technicum ثم تبعه تشامبرز بموسوعته Cyclopeabia ويعتبر تشامبرز أبا الموسوعة الانكليزية . وفى سنة ١٧٦٨ ، وضع ثلاثة من أهل ادنبورج ، وهم وليم سملى الطابع ، واندروبل المصور الحفار ، وكولن مكفز كوهار ، وهو صاحب مطبعة ، مشروعاً لاصدار موسوعة جامعة للعلوم والفنون والآداب ، ظهرت فى ثلاثة مجلدات فى سنة ١٧٧١ ؛ وكانت هذه الموسوعة المتواضعة هى الطبعة الأولى من الموسوعة البريطانية Ency. Brittanica ، التى هى اليوم أمثل وأنفس الموسوعات الحديثة . وظهرت الطبعة الثانية بين سنتى ١٧٧٧ و ١٧٨٤ فى عشرة مجلدات ؛ وتوالى صدور طبعاتها الجديدة حتى صدر منها إلى اليوم خمس عشرة طبعة متدرجة فى الضخامة والاتقان ؛ وصدرت طبعتها الأخيرة والخامسة عشرة فى سنة ١٩٣٤ ، فى اثنين وثلاثين مجلداً ضخماً غير الفهارس والأطالس ؛ والرأى مجتمع على أن الموسوعة البريطانية هى خير موسوعة فى العالم من حيث مادتها ونظامها وروحها العلمى الخالص

وفى فرنسا ، بعد أن ظهرت المعاجم والموسوعات التاريخية التى أشرنا إليها ، وضع المفكر الفيلسوف ديدرو وعدة من زملائه الأعلام مثل دالامبر وهولباك وجريم موسوعتهم الشهيرة التى ظهرت بين سنتى ١٧٥١ و ١٧٧٢ فى ثمانية وعشرين مجلداً على نمط موسوعة تشامبرز الانكليزية ؛ وكانت هذه الموسوعة التى امتازت بنزعتها الفلسفية المجددة ، وبالثورة على القديم فى كل شىء فتحاً عظيماً فى التفكير الفرنسى ، وكان لها أكبر الأثر فى توجيه الذهن الفرنسى إلى الأفكار والمبادىء الجديدة التى سادت عصر الثورة الفرنسية فيما بعد . وظهرت فى القرن التاسع عشر موسوعات لاروس الشهيرة ، ومنها القاموس الكبير الذى يعتبر

فوق مزاياه اللغوية دائرة معارف شاسعة ، وظهرت منها إلى يومنا عدة طبعات مختلفة ؛ وفى أواخر القرن الماضي صدرت الموسوعة الفرنسية الكبرى La Grande Ency بين سنتى ١٨٨٦،١٩٠٣ فى إحدى وثلاثين مجلداً ، بيد أنها بقيت على طبعتها الأولى حتى اليوم ، وتخلفت بذلك عن مضمار التجديد والاستكمال

وظهرت فى القرن التاسع عشر عدة موسوعات عظيمة أخرى فظهرت الموسوعة الايطالية لأول مرة بين سنتى ١٨٤١و ١٨٥١ فى أربعة عشر مجلداً ، ثم ظهرت فى أواخر القرن الماضى فى خمسة وعشرين مجلداً ، وظهرت أخيراً بعناية الحكومة الفاشستية فى ستة وثلاثين مجلداً ، صدر الأخير منذ أسابيع قلائل حسبما قدمنا فجاءت بذلك أحدث الموسوعات الأوربية وأتمها من الوجهة الفنية . وصدرت الموسوعة الألمانية فى مائة وسبعة وستين مجلداً تحت عنوان « الموسوعة العامة للعلوم والفنون » ، وبدأها الأستاذان أرش وجروبر سنة ١٨١٣ ، واستمر صدورها طوال القرن التاسع عشر ولم تكمل إلا فى سنة ١٩٠٥ ، ولم يعد طبعها إلى اليوم . وصدرت الموسوعة الروسية حتى سنة ١٩٠٥ فى واحد وأربعين مجلداً ، وظهرت طبعتها الثانية فى ظل الحكم السوفيتى

ويوجد غير هذه الموسوعات العامة الجامعة موسوعات أخرى فى نواح معينة من العلوم أو الفنون ، مثل الموسوعة اليهودية Jewish Ency ، موسوعة الدين والأخلاق Ency of Religine and Ethics ، موسوعة العلوم المتافيزيقية ، وغيرها ؛ ولهذه الموسوعات قيمة علمية خاصة لأنها تجمع أشتات العلم أو الفن الواحد ومراجعه كلها مرتبة أبدع ترتيب .

* * *

هذه خلاصة لتاريخ الموسوعة الجامعة (الانسيكلوبيديا) وتطوراتها ، نسوقها لمناسبة صدور المجلد الأخير من الموسوعة الايطالية الجديدة ؛ بيد أننا ننتهز فرصة هذه المناسبة لنلفت الأنظار إلى أمنية قديمة كثيراً ما رددتها دوائر الأدب العربى فى الأعوام الأخيرة ، وهى أن تعمل دوائرنا العلمية والأدبية المسؤولة لاخراج موسوعة عربية جامعة على طراز الموسوعات الحديثة ؛ وقد بذلت فى العصر الأخير جهود فردية فى سوريا وفى مصر لاخراج موسوعة عربية ، ولكن هذه الجهود لم تكن ذات قيمة علمية أو أدبية تذكر ، خصوصاً وأنها بذلت فى وقت لم تكن الآداب العربية قد بلغت فيه من النضج والكفاية الفنية ما تبلغه اليوم .

ولم تبق الموسوعة اليوم عملا فردياً كما كانت فى الماضى ، ولكنها اليوم تنتظم فى سلك المشاريع العلمية الجليلة التى تشرف على تنفيذها الدولة أو الهيئات العلمية القوية . ولدينا اليوم فى مصر ، فضلاً عن وزارة المعارف العمومية ، عدة من الهيئات العلمية القوية الرسمية وغير الرسمية ؛ فى وسعها جميعاً أن تتعاون فى بحث مشروع الموسوعة العربية ، وفى العمل على تنظيمه وإخراجه .

ومن المحقق أن مثل هذا المشروع الجليل يلقى من التأييد والنجاح فى مصر وفى جميع البلاد العربية ، مالقيه حتى اليوم فى جميع الأمم المتمدنة والآداب الحية .

محمد عبد الله عنان

في الإسلام ضمان للعرش والديمقراطية

للدكتور محمد البهي قرقر

كان من النتائج المباشرة للحرب العالمية الكبرى بعد أن مارست الأمم الكفاح أربع سنوات أن شعرت الطبقات الشعبية بأنها هي التي قامت بالدفاع ، وأنها هي التي كانت تساق إلى ميادين القتال سوقاً ، وأن غرم الحرب من الأنفس كان منها ومن الأموال كان مما تدفعه للدولة . شعرت بهذا فشعرت بأن لها الحق في قيادة الأمة في حال السلم والسيطرة على شئونها لأنها وحدها هي التي تنال أذى الحرب وتتحمل خسائرها فمن العدل أن تقودها

قوى هذا الشعور فأصبح مبدأ ، وازداد هذا المبدأ تغلغلا في النفوس حتى تحول إلى سياسة عملية ، قوامها نصرة الطبقات الشعبية وتمكينها من قيادة دفة الأمور ، ولكن في صورة غير مألوفة من قبل

هذه السياسة العملية صحبها انقلاب رئيسي في نظام الحكومات نشأ عنه نوعان من الحكم الشيوعي والفاشستي ، يتفقان في ادعاء الديمقراطية وهي تمكين الشعب من حكم نفسه تمكيناً عملياً ، ويختلفان في الأسلوب تبعاً لاختلاف العوامل الاجتماعية الأخرى والغاية التي يقصد إليها

الديمقراطية الشيوعية

فالنوع الشيوعي تغالى في المعنى الشعبي وزاد في تقديسه ، أو هو أساء في الواقع فهم المنزلة الشعبية ؛ وتبع تلك المغالاة العداء للطبقة الأرستقراطية وازدياد السخط على الفرد الممتاز أو السيد الحاكم بأمره . وكانت نتيجة سياسته العملية ذات شقين ، أولا إبعاد ذلك الفرد الممتاز عن الحكم ، واضطهاد الطبقة الأرستقراطية ؛ وبعبارة أوسع الطبقة التي كانت تبيح لنفسها ، إما اعتماداً على مالها من شرف أو لما في يدها من مال ، أن تتزعم الطبقات الأخرى الفقيرة والمتوسطة . وثانياً رفع الشعب إلى منصة الحكم

ولكن لم يكد الشعب صاحب هذا النظام يتولى تنفيذ التفويض من جهة والرفع من جهة أخرى حتى اصطدم بالحقيقة الواقعة ، وشعر بأن زوال الرأسمالية التي ترى فيها النظرية الشيوعية السعادة المتوهمة لكل أفراد الشعب ، وتولي الدولة للشئون الاقتصادية وتوزيع العمل والانتاج على الطبقات المختلفة تحقيقاً لمساواة صورية ، عمل يضاد العدالة المبتغاة ، إذ آخر أمره استبداد طائفة من الشعب بأفراد الأمة كلها على صورة قانونية

كما شعر الشعب نفسه ، صاحب هذا النظام ، بعد ما ملك بيده زمام الأمر أن إقصاء صاحب الحق الشرعي في سيادة الدولة وهو القيصر ، كان من الأسباب التي سولت لكثير من أفراد الشعب بأن له حقاً في الرياسة العامة إذ أنه يملك القسط المشترك وهو المعنى الشعبي الذي يخول له هذا . فالخصائص الأخرى في نظره عديمة الأهمية أو يجب ألا يكون لها اعتبار

ومن هذا الشعور النفسي تولدت هذه الثورات الداخلية في السوفييت الروسي ، وسيستمر لهيبها ما بقي هذا الشعور ، وسيظل باقياً ما دام مبدأ الشيوعية يعتقد أو يمني آخر ما دامت هذه الفئة الشعبية تملك قوة تسيطر بها على النفوس

وإذن فالمبدأ الشيوعي لا يتفق مع فطرة الجماعة الانسانية التي لا تخضع بطبيعتها إلا إلى واحد منها تعتقد فيه مزايا لا تتوفر لكل فرد من أفرادها ، وخصائصه تعلو به عن طبيعة الإنسان العادي ؛ كما لا يتفق مع طبيعة الأفراد التي لا يمكن أن تكون من نوع واحد ؛ فمساواة إنسان بآخر مساواة مطلقة في كل مرافق الحياة إجحاف بأحدهما لا محالة ، وإنكار للقوة الكامنة في إنسان دون آخر وهي التي قد تخلق منه شخصية بارزة في أية ناحية يفضل بها غيره

إذن فهو نظام (أوتوماتيك) يحاول أن يخلق من جماعة البشر أعضاء لا إرادة لهم إلا ما يريده مباشر السلطة العليا ولا حياة لهم إلا في ظل الضغط . يريد أن ينشئ من الشعب آلات مسخرة للإنتاج العام ، وأن يكون منه جبهة لمقاومة كل نظام آخر يقوم على المبدأ الوطني ويقر بشيء من حقوق التملك للفرد

فغايته إزالة الفوارق الاجتماعية والمالية والطبيعية أيضاً بين

الأفراد ، ثم قيام الدولة وبعبارة أخرى مباشرة الهيئة الحاكمة بأمرها — وإن زعمت أنهـا تحكم باسم الشعب — للإنتاج الاقتصادى . وفوق ذلك فهو يرى أن له رسالة عالية تتم غايته وهى حمل الشعوب الأخرى على قبول هذا المبدأ الفوضوى

ومحاولة الوصول إلى هذه الغاية إما مستحيلة من الوجهة العملية كإزالة الفوارق السابقة ، وما النداء به إلا إغراء للطبقات الشعبية فقط ، أو اعتداء بين على الحقوق الطبيعية لأفراد الشعب فضلاً عن الإخلال بحقوق الجوار والتدخل فيما هو من اختصاص الدولة الأخرى . فهو نظام ضد الطبيعة وضد المبدأ الخلقى السائد بين الشعوب وهو مبدأ رعاية الجوار

الديمقراطية الفاشستية

أما النظام الفاشستى فهو نظام ديمقراطى أيضاً ، أى نظام مبنى على سيادة الشعب لنفسه ، ولكنه لا يبالغ فى المعنى الشعبى ولا يسيء فهم المساواة بين أفراد الشعب فيجعلها مساواة مزعومة فى الإنسانية

فهو يعترف بسيادة الفرد الممتاز : الملك أو الرئيس الجمهورى ، وبوجوب المحافظة على سيادته ، وبذلك منع الإغراء بالمعنى الشعبى كما أنه لم يجعله وحده سبب التفضيل . فهو إن حرم النظام الأرستقراطى ، أى قصر وظائف الدولة الكبرى على طبقة مخصوصة بما لها من شرف مزعوم ، إلا أنه أباح لأفراد الشعب أن يتولوا تلك الوظائف إذا وهبوا الكفاية فى العمل . وإذن فأساس القيام بالخدمة العامة والانتفاع بسلطة الوظائف الكبرى ليس هو النسب الأصلى على الإطلاق ، ولا هو الشعبية بدون قيد ، وإنما هو الكفاية والجدارة أينما وجدت . فمنى إقصاء الأرستقراطية عنده عن الحكم إبعاد تلك الطائفة التى استعبدت الطبقات الفقيرة لا لسبب إلا أنها تنتسب إلى أصل قد تعوّد الحكم مع أنها فى نفسها قد تكون مصابة فى مزاجها العقلى ومنحطة فى مبدئها الخلقى . ومعنى تقريب الشعب من الحكومة إعطاؤه هذا الحق وإزالة مبدأ « الأصل والنسب » من طريقه . أما مباشرة أمر الحكومة نفسها فذلك مرهون بالكفاية الشخصية

ولما كان النظام الفاشستى يقرر مبدأ الكفاية فانه لا يقول بإزالة الفوارق الطبيعية بين إنسان وآخر ، أى لا يعمل على إهمالها وعدم اعتبارها لأن ذلك يناقض اتخاذ الكفاية قاعدة للاختيار ، بل بالعكس هو يؤيدها ويتعهد القوى الفطرية فى الفرد التى تؤهله لأن يقوم بعمل عام فيما بعد برعاية الدولة

ولأن الكفاية الشخصية هى مبدأ التفضيل فقد أصبحت الفوارق الاجتماعيـة : فوارق الطبقات المختلفة ، عديمة الأهمية والاعتبار ، كما أصبحت الرأسمالية قليلة الأثر فى اختيار من يقوم بالأمر ويتقلد مناصب الحكومة

أما تحويل الإنتاج الأهلى إلى حكومى ومنح حق التملك للحكومة وحدها ، كما ترى نظرية النظام الشيوعى تحقيقاً لمعنى المساواة الموهومة المغرية ، فلا يجد قبولاً لدى النظام الفاشستى ، لأنه من الوجهة العملية عسير التحقيق فوق ما فيه من إخماد للقوى الفردية وإنكار لمنزلتها الأدبية وإنتاجها العملى أيضاً . ولكنه فى الوقت نفسه يبيح للدولة التدخل فى اختصاص الرأسمالية لمصلحة الفرد العامل وموازنة إنتاج الأمة ، فتدخله بمثابة كف لطغيان الرأسماليين فى الهيئة العاملة ، أو منع محاولة ضغطهم على الحكومة فى توجيهها توجيهاً معيناً لمصلحتهم الشخصية أو لغرض سياسى دولى آخر

الديمقراطية البرلمانية

والواقع أن النظام الشيوعى والفاشستى جاءا وقد وجدا أمامهما مسائل كثيرة عجز النظام الديمقراطى البرلمـانى عن حلها ، إما تمشياً مع وجهة نظره أو لكثرة إجراءاته وطول مدتها التى من شأنها العمل على تحويل بعض المسائل الاجتماعية الصغيرة فى بدء أمرها إلى معضلات تظهره فيما بعد بمظهر العاجز . ومن أهم تلك المسائل تحكم أصحاب رءوس الأموال فى الطبقات الفقيرة الذى تسبب عنه هذا الجفاء الكبير والعداوة الشديدة بين صاحب العمل والعامل

فالديمقراطية البرلمانية الشائعة التى تفهم من المساواة الأخاء الشعبى والعالمى ، ومن الحرية تفكير الفرد فى دائرة القانون العام وعادات الأمة ، ومن العمل أن يتعدى حدود المصلحة العامة إلى غيرها ، هذه الديمقراطية التى تسيء فى الواقع فهم المساواة وفهم الحرية إن هى نجحت فى مكافحة الأرستقراطية أو على الأصح فى كبح طغيانها قد ساعدت على تحكم أصحاب رؤوس الأموال بحجة « الحق

المشروع » والمحافظة على حرية الفرد فى تصرفه فيما يملك ولو كان فى ذلك ضرر الغير وضياع المصلحة العامة . وفى الواقع هى لا تحافظ على حرية الفرد وإنما تغريه بما يخرج عن معنى الحرية الفردية الصحيحة ؛ تغريه أن يتحكم بماله فى الطبقة التى دونه فى الثروة أو على تبذيره والإسراف فيه ابتغاء شهواته النفسية ؛ تغريه بالاستخفاف بعادات غيره ومعتقد السواد الأعظم من الشعب ، كل ذلك باسم الحرية . فهى تؤمن بنظرية الفرد ، Individualismus أكثر من إيمانها بنظرية الجماعة Sozialismus – تقدس الفرد وتضحى بمصلحة المجموع . فللفرد أن يعمل ما شاء وإن فنيت الدولة فى عمله . وهذا فى الواقع رد فعل لحكم الاستبداد الذى سبق الحكم الديمقراطى البرلمانى . فالفردية فى الحكم الأرستقراطى كانت مستمرة لا لمصلحة الجماعة بل لمصلحة الفرد الحاكم . فلما جاء النظام الديمقراطى البرلمانى حرر الفرد من تبعيته تبعية مطلقة للحاكم المستبد وغالى فى ذلك ، وكان من الطبيعى أن يفضل مصلحة الجماعة لأنها لم تكن الهدف للكفاح وإنما الذى كان مقصوداً يسعى لتحقيقه هو حرية الفرد ومصلحته

بقيت مصلحة الجماعة مغفلة وحرية الفرد معكوساً فهمها ، فلما جاء النظام الشيوعى عمل من جديد على تقييد سلطة الفرد الشعبي وخصوصاً فى الناحية المالية ، وقصر حق التملك على الدولة التي حلت فى الواقع محل الفرد فى النظام الديمقراطى البرلمانى . ثم لم يكتف هذا النظام بما فعله نحو الطبقة الأرستقراطية من حد سلطتها بل بالغ فى معاداتها ، أو هو أساء فهم خصومتها كما أساء فهم نصفة الشعب فجاء نظاماً غير عادى ولا مألوف ، نظاماً استبدادياً لا يتفق مع فطرة الفرد ولا مع طبيعة الجماعة

بينما اكتفى النظام الفاشستى بما وقف عنده النظام البرلمانى فى وضع حد الحكم الأرستقراطى وإن خالفه فى فهم معنى الحرية والمساواة . ولذا أجاز لنفسه التدخل فى وضع علاقة للرأسمالية مع الفرد العامل ، وهو تدخل للمصلحة العامة ولمنع الجفاء بين طبقات الشعب المختلفة . وقد كان من أثر هذا التدخل أن توحدت الأمة ، وقد صارت وحدتها فى النهاية عن رضا وفهم متبادل بين الطبقات ، بينما يتحول اتجاه عداوة الشعب وجفائه فى الأمم الديمقراطية البرلمانية من الأرستقراطيين إما إلى الطبقة الحاكمة لأنها تخص نفسها بماله وتضن عليه بما يؤمنه على حياته الضرورية ثم تنظر إليه نظرة صغار لأنها « مهذبة » دونه ، وإما إلى أصحاب رؤوس الأموال لعنتهم وتشددهم فى حفظ مصالحهم الخاصة

غاية أنواع الحكم الديمقراطية المختلفة ومعايبها

وإذن فالنقص الذى أخذ أسلوب الحكم الحديث على نفسه العمل لتلافيه هو عدم التوازن إما فى علاقة الطبقة الأرستقراطية بالشعب ، أو فى علاقة أصحاب رؤوس الأموال بالطبقات الفقيرة ، أو فى ارتباط مصلحة الفرد بالجماعة

ومن الطبيعى أن تكون الغاية الايجابية لأسلوب الحكم فى الوقت الحاضر ، ولو على سبيل الادعاء ، تحقيق الإخاء والمساواة ، وبعبارة أخرى العمل على سيادة العدل الانسانى

فالنظام الديمقراطى البرلمانى نظر إلى هذه الغاية نظرة إفراط أو نظرة من ناحية واحدة ، فبينما هو يشل سلطة الهيئة الأرستقراطية إذا به يبيح لأصحاب رؤوس الأموال بمقتضى إفراطه فى منح الفرد حريته التحكم فى الطبقة العاملة ؛ وبذلك اختل توازن العلاقة من جديد ولكن بين طبقتين من الشعب

والنظام الشيوعى ينظر لتحقيق هذا الإخاء وتلك المساواة نظرة هوج وخيال ، فبدل أن يتناول علاقة الطبقة الأرستقراطية بالشعب ، ثم علاقة أصحاب رؤوس الأموال بالطبقات العاملة ، بالتسوية تناولها بالهدم ، فزالت الأرستقراطية وزالت الرأسمالية واختل توازن العلاقة مرة أخرى وأصبحت علاقة حاكم مستبد ، مخادع مغرر ، بأفراد شعب سلبوا الحقوق الفطرية والاجتماعية بدل المساواة المزعومة

والنظام الفاشستى نظر إليها نظرة قاصرة على الحدود الطبيعية للأمة ، فعمل على التوازن أيضاً ، ولكن جعل مقياسه مصلحة الجماعة من الشعب ؛ فلا داعى لاضطهاد الأرستقراطيين إذا لم يسيئوا لمصلحة الجماعة ، كما يجب التدخل فى حرية الفرد إذا هددت تلك المصلحة بالخطر . ولأن هذا النظام قصر جهوده على الأمة كان نظاماً وطنياً بحتاً ، بينما المعنى الدولى متحقق بكل معانيه فى النظامين السابقين قبله . ولذا كانت اليهودية العالمية من ألد

خصوم الفاشستية وأعز أنصار الديمقراطية البرلمانية والديمقراطية الشيوعية وإن أزالت هذه الأخيرة نظام رؤوس الأموال لأنها لا تنكر عليهم التوطن في أي جهة

فالرأسمالي اليهودي لا يبيح لنفسه في دولة ديمقراطية فاشستية باسم حرية الفرد أن يطغى على الطبقة الفقيرة كطغيانه في فلسطين التي تتبع في سياستها الرئيسية بلداً ديمقراطياً برلمانياً . فهناك في فلسطين يباح لليهودي المالي أن يجرد العربي الساذج من كل مايملك ، وفي الوقت نفسه يذل العرب في مجموعهم باسم حرية التملك . وإذا طلب من حكومة فلسطين أن تتدخل في الأمر لمصلحة الجماعة أجابت بأنها لا يمكنها ذلك لما فيه من اعتداء على حرية الفرد . أما المصلحة العامة فهي ضحية تلك الحرية التي لم تفهم على وجهها الصحيح . وأما مجموع الشعب فلا مانع من فنائه تدريجياً مادام الفرد يتمتع بحريته التامة

والواقع أن هذا عكس الطبيعة ، ولا يقر أحد في أي بقعة من بقاع الأرض أن المجموع يفنى لمصلحة الفرد كما لا يقر تضحية الشعب محافظة على تنفيذ نصوص القانون

وقد يظن لأول الأمر أن النظام الفاشستي هو المعتدل من هذه النظم الثلاثة . وقد يكون في ذلك وجه من الصحة . ولكن جمع السلطة وتركيزها في يد فرد من أفراد الشعب إن أتى بنتائج إيجابية في وقت وجيز يعجب الانسان منها ومن عظمتها فقد لا يضمن الوفاء بأمثالها في المستقبل إذا ما انتقلت السلطة إلى فرد آخر ربما يستغل هذا التركيز لغير مصلحة الأمة . والمعروف اليوم أنه إذا كان رجال الحكم الفاشستي قد جمعوا كل سلطة في الدولة في أيديهم إلا أنهم لا يبرمون أمراً إلا بمشورة ذوي الخبرة في الأمة وبمعونتهم أيضاً وإن لم تكن لهم علاقة تبعية بالحزب السياسي . وأنا أذكر أن زعيم ألمانيا يحرص الآن على أن يتولى المناصب الاقتصادية الرجال الإخصائيون في المسائل المالية ولو كانوا من غير أتباع حزبه ، كما أنه يأخذ برأي وزير الخارجية ووزير الدفاع في كل المسائل الخارجية وهما لم يتبعا في يوم من الأيام الحزب الوطني الاشتراكي

والديمقراطية معنى غير محدود . وكل نظام من نظم الحكم الثلاثة يدعى أنه هو الديمقراطي الصحيح كما ادعى كل فيلسوف من فلاسفة اليونان القدماء أنه هو وحده الذي وصل إلى الحقيقة في العالم . وفي الواقع لم تكن هناك حقيقة مطلقة ولكنها نسبية مقيدة وإذا كانت هناك حقيقة مطلقة فانها على وفق المقدمات والدعاوى التي يفترضها الفيلسوف لنفسه

الديمقراطية الإسلامية

والآن بعد ما تبين أن من معايب الحكم الديمقراطي البرلماني الجوهرية فناء المصلحة العامة أو التغاضي عنها محافظة على حرية الفرد المطلقة وعلى مصلحته الخاصة

ومن معايب النظام الشيوعي أن العلاج الذي يتخذه في توازن طبقات الشعب المختلفة هو الثورة والهدم وأن أسلوب حكمه على العموم هو الفوضى المطلقة

كما أن من نقائص الحكم الفاشستي عدم قابلية الفرد الشعبي الذي بيده سلطة الحكم للعزل مع احتمال طغيانه

بعد ما تبين كل هذا نريد أن نعرف رأي الإسلام والحلول التي يقترحها ضماناً للتوازن ، وبعبارة أخرى تجاه المسائل الاجتماعية التي يهتم بها نظام الحكم الحديث والتي هي في الحقيقة منذ بدء الجماعة الإنسانية تظهر من حين لآخر في شكل معضلات

نريد أن نعرف رأي الإسلام ، وهل هو مع كونه ناجحاً يتجنب تلك الأخطار التي في أسلوب الحكم الخاص ؟

الإسلام ليس نظاماً روحياً ، نظام كهنة وكنيسة ، وإنما هو مبادئ خلقية للفرد ، وقوانين عامة تحفظ نظام الجماعة . وهو بهذه الصفة يتدخل في علاقة الفرد بالفرد وتنظيم علاقته بالمجموع ، وفي علاقته بالمجموع يبنى أيضاً الإخاء والمساواة ، يبني الوحدة ويعمل على تماسكها ، يريد التوازن وتأسيسه على قواعد ثابتة

ولكنه في إقراره الإخاء يريد تقرير مبدأ آخر للتفضيل بدل مبدأ الجنسية الذي ساد قبل الإسلام ويسود أيضاً الآن من وقت لآخر ، يريد تقرير مبدأ الكفاية والعمل (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فالإخاء معناه عدم اعتبار الانتماء إلى قبيلة أو شعب مرجحاً ومميزاً لفرد عن آخر لمجرد هذا الانتماء كما يقصد اليوم من محاربة الأرستقراطية ، وعدم جعلها القاعدة الأولى في الاختيار والتفضيل

وفى إقراره المساواة لا يرى زوال الرأسمالية ، ولا منع الفرد من التملك وقصره على الدولة وحدها ، وإنما يقصد المساواة أمام القانون ، أمام المبادىء الخلقية ، أمام التكليف بالواجبات ، والقيام بالأعمال العامة . فليس لشريف أن يخلى نفسه من التكليف ، ولا لحاكم أن يستبد بمصالح الأمة لنفسه اعتماداً على أنه مميز لما له من الهذيب « الرسمى » أو لانتمائه إلى جنس كذا أو قبيلة كذا

وفى إقراره المساواة على هذا النحو لم يمنع التفضيل لصفات أخرى ، لم يحرم الفرد أن ينال جزاء مجهوده الشخصى فى هذه الحياة الدنيا ، ولكنه فرض عليه فيما اكتسبه من علم أو مال أن يخصص جزءاً منه لمن هو دونه : لمن هو أقل منه معرفة ، أو أقل ثراء ؛ فرض أن تقرب الخاصة نفسها من عامة الشعب ، حتى لا يكون هناك جفاء بين عالم وجاهل أو عداوة منشأها الحقد بين غنى وفقير ، حتى يكون (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر...) هذا واجب العالم فى علمه فى أية ناحية تعلق علمه بها نحو أمته ، نحو أكثريتها الجاهلة

أما الغنى صاحب الثروة فواجبه فى ماله الزكاة لمستحقيها ، لفقراء الأمة المعوزين . وهو واجب يخف على النفس عمله ، بل يسرها القيام به ، لأنه تلبية لنداء الدين ورغبة ناشئة عن إحساس التدين ؛ وما نشأ عن التدين والاعتقاد كان كالصادر عن التعود ، كالعادة نفسها فى المواظبة على عملها وعدم الشعور بغضض فى الإتيان بها

وليس من شك فى أن التكليف الوضعى أى تشريع الدولة وتقنينها لا يساير التكليف الدينى فى نتائجه الإيجابيـة . فنسبة من يعتقد من أفراد الأمة بعدالة قانون وضعى أقل بكثير ممن يعتقد بعدالة قانون إلـهى ؛ لا لأن القانون الوضعى قد لا يطابق المصلحة العامة ، بل لأنه يعتقد على العموم أن واضعه ممن يجوز بل ممن يغلب عليه الخطأ ، ولكن من ينسب إليه القانون الدينى هو ممن يستحيل عليه فوات الصواب فى تشريعه

وهكذا أثر العقيدة الدينية التى تكون من نفس الإنسان جزءها الأعظم . ولذلك كان من المهمة الأولى للدين أن يخلق من التكاليف والالتزامات مبادئ خلقية تعتقد ، جزاء فعلها أو تركها منوط بالخالق القادر ، وفى عالم آخر لا اطلاع للإنسان عليه فى هذه الحياة الدنيا . وإذن فالشوق إلى جزاء الفعل — كالخوف من جزاء الترك — لا يقاس فى تصور النفس له بجزاء القوانين الوضعية ، لأنه فى عالم محدود معروف فيه أقصى درجة الثواب والعقاب

والمصلح السياسى أو زعيم الدولة الذى يفهم كنه الإصلاح ويهتم بتنفيذه واتباع الشعب له لا يألو جهداً فى بناء قوانينه الإصلاحيـة على مبادئ الدين أو صبغها على الأقل بصبغة دينية حتى يكون لها نصيب من معتقدات الشعب ، وبهـذا يكون لها قوة الاستقرار والدوام . والاستقرار من أهم عوامل نجاح الإصلاح

فكثير من القوانين الإنكليزية وخصوصاً قوانين العائلة الإصلاحية أسست على مبادئ فلسفية خلقيـة قام بها بعض الفلاسفة الإنكليز الدينيين

حتى فى بعض الحكومات الفاشستية التى يُظن أنها تحارب الدين ، نجدها لا تتخلى عن ربط مبادئها السياسية بالمبادئ الدينية العامة ؛ فهى فى الواقع لا تحارب الدين ، وإنما تحارب سلطة الكنيسة ، أى سلطة طائفة أخرى تتمتع بنفوذ كبير فى الشعب ربما تحد من سلطة الدولة . فخطباء الحزب الاشتراكى الوطنى هنا فى ألمانيا يعظون الشعب فى كل يوم أحد بواسطة الراديو محاولين فى وعظهم إرجاع أعمالهم الاجتماعية ، كمساعدة الشتاء ، وخدمة العمل العام ، وتنظيم هدايا عيد الميلاد التى هى أقرب شبه بزكاة الفطر فى الإسلام ، إلى مبادئ الدين الصحيح حتى يضمنوا للحكومة طاعة الشعب ، ومن وراء ذلك تنفيذ أعمالهم الإصلاحية

فقاعدة الحكم عندهم مبنية على قيادة الرئيس وعلى طاعة الشعب له . والدين هو خير ضامن وأقوى كفيل بتلك الطاعة عن رضا واختيار ولمدة طويلة

أما بناء السياسة العامة لتركيا الحديثة على إبعاد الدين فلا يصح أن يقوم حجة على أنها مع ذلك سياسـة إصلاحية ثابتة أو أنها ستنجح فى جيل مقبل . فالثقافة التركية التى كان عمادها الدين قد تزعزعت من أساسها ؛ ثم ما يدخله مدعو الإصلاح فى تركيا الحديثة من ثقافات البلاد الأجنبية لا يصح أن يعوض ثقافة

الشعب الأصلية كما لا يؤمل أن يكوّن ثقافة ثابتة في المستقبل للشعب التركي . وما تمتعت به الحكومة التركية للآن من طاعة الشعب لها فسببه عقيدة الشعب التي لم تفن بعد من وجوب الطاعة للقائم بالأمر ، فهو في الواقع أثر من آثار العقيدة الدينية

فإذا كان الإسلام يتدخل في سلطة الرأسمالية بنظام الزكاة فهو تدخل مقبول لدى النفوس بحكم ما فيها من قوة التدين ، وفي الوقت نفسه هو نظام غير مرتبط بقيام فرد بالحكومة دون آخر بل هو كأي نظام ديني أبدي غير مؤقت بوقت

فتقرير مبدأ الإخاء والمساواة على النحو السابق ، والاعتراف بالجزاء على المجهود الشخصي من حق التملك ، ثم حصر نفوذ الفرد في حدود المصلحة العامة ، هو نوع من أسلوب الحكم الديمقراطي الذي لم يصل إليه تشريع وضعي للآن . فقد رأينا كل نوع من أنواع الحكم في العصر الحديث الذي تدعي فيه أوربا أنها وصلت آخر المرحلة التي يمكن للانسان أن يصل إليها ، ومع ذلك فكل نوع منها لا يسلم من أخطار عديدة لاستحالة تنفيذه أو لعجزه عن حل بعض المشاكل الاجتماعية الكبرى ، أو لأنه قد لا يضمن الوفاء في المستقبل بمثل ما حققه الآن من نتائج

وبتقرير الإسلام هذه المبادئ كان نظام توازن واعتدال . لا يترك طائفة تتحكم في أخرى حتى تلجأ الطائفة المتحكم فيها إلى عمل ثوري أهوج مبني على العاطفة وحدها غايته الهدم والتخريب . وبتقريره هذه المبادئ كان أيضاً دين الفطرة والطبيعة ، أي أنه يساير الطبيعة ويقضي على ما شذ منها

ولكونه دين الفطرة والطبيعة كان لنظام الملك منه سند قوي يعتمد عليه في حكمه ، لأنه مغروس في طبيعة الجماعة أن تخضع لفرد واحد منها خضوعاً ناشئاً عن عقيدة ؛ وكلما علا شأن هذا الفرد كانت العقيدة بالخضوع له أشد وأعم . وليس بلازم أن تعرف الجماعة ميزة هذا الفرد — بل من المصلحة العامة ألا تتناوله بالتحليل — وإنما يكفي أن تعتقد أنه ممتاز

فإذا كان هذا الفرد الممتاز الذي يجب أن تكون له السيادة وتخضع له الجماعة ليس من عامة الشعب أمنت حكومته انقلاباً شعبياً ، ولم تكن هناك أطماع في استبداله بآخر ، لأن الشعب ما زال يعتقد فيه ميزة ليست لكل فرد . وكلما استقر الحكم في يد من له الأمر كانت نتائجه أثبت وأضمن لمصلحة الشعب نفسه

ونظام الملكية هو أقرب النظم الفطرية للجماعة الانسانية ، بل هو أضمن لوحدة الجماعة ، لأنه يحول بين أي فرد من أفراد الشعب وبين أن تسوّل له نفسه أنه أجدر بالقيام بالأمر من هذا أو ذاك ، مما يترتب عليه ثورات داخلية لا ينطفئ لهيبها كما هو حال النظام الشيوعي اليوم

فكما يميل الاسلام إلى نظام الملكية لأنه أقرب نظم الحكم إلى فطرة الجماعة ، ويفرض طاعة الأمة لرئيسها الأعلى ما دام قائماً بدستور الاسلام وهو كتاب الله وسنة رسوله ، كذلك يؤيد روح الشورى ويهيئ الشعب للعمل على وفق مبادئ خلقية ، كمبدإ الشعور بالواجب والشعور بالحرية المهذبة والشعور بالمساواة والاعتراف بالكفايات ، تلك المبادئ التي منها تتكون الديمقراطية الصحيحة

ففي الوقت الذي يأمر فيه الاسلام الشعب بالطاعة لولي أمره حتى تسلس قيادته ، يقيد هذه الطاعة بقيام العدل في الرعية

وفي الوقت الذي ينادي فيه بحرية الفرد حتى فيما يعتقد لا يتركه يتعدى مصلحة الجماعة

وفي الوقت الذي يشجع فيه على اكتساب الرزق ويبيح فيه للفرد حرية التملك ، يكلفه بالتنازل عن جزء مما ربحه لمن أشقاه الفقر في حياته

وهكذا يقصد الاسلام دائماً إلى التوازن والاعتدال ، فهو دين الفرد والجماعة ، بينما الديمقراطية البرلمانية ، كما رأينا ، تتحيز للفرد وحده ، والفاشستية تؤيد الجماعة فحسب ، والشيوعية تهدم مصلحة كل من الاثنين

ففيه كدين فطري للجماعة الانسانية ضمان للعرش ، وفيه كمنادٍ بمبدإ الإخاء والمساواة وعامل أيضاً على تحقيق هذا المبدإ بوسائل ناجعة ومنفذ لمبدأ التفاضل على حسب الكفاية والعمل لا غير ، اتباع لقواعد الديمقراطية الصحيحة وحاجز حصين ضد الشيوعية الفوضوية

محمد البهي قرقر
دكتور في الفلسفة وعلم النفس
وعضو بعثة الأستاذ محمد عبده

من الأدب التحليلي

الوحـــــدة

« مهداة إلى الدكتور إبراهيم مدكور »

للأستاذ علي الطنطاوي

« ... إن كل عناء في الحياة مصدره أنا نحيا منعزلين .
وكل ما نبذل من جهودنا لا نريد به إلا الفرار من هذه العزلة »
جي دوموباسان (الرسالة ٢١٠)

ما آلمني شيء في الحياة ما آلمتني الوحدة . كنت أشعر كلما انفردت بفراغ هائل في نفسي ، وأحس بأنها غريبة عني ، ثقيلة عليّ ، لا أطيق الانفراد بها ؛ فإذا انفردت بها أحسست أن بيني وبين الحياة صحارى قاحلة ، وبيداً مالها من آخر ، بل كنت أرى العالم في كثير من الأحيان ، وحشاً فاغراً فاه لابتلاعي ، فأحاول الفرار ، ولكن أين المفرّ من نفسي التي بين جنبيّ ، ودنياي التي أعيش فيها ؟

إن نفسي عميقة واسعة ، أو لعلي أراها عميقة واسعة لطول ما أحدق فيها ، وأتأمل جوانبهـا ، فتخيفني بسعتها وعمقها ، ويرمضني أنه لا يملؤها شيء مهما كان كبيراً ... وهذا العالم ضيق أو لعلي أراه ضيقاً لاشتغالي عنه بنفسي ، وشعوري بسعتها ، فأراه يختنق بضيقه ...

إني أجمع العالم كله في فكرة واحدة أزمها في زاوية من زوايا نفسي ، في نقطة صغيرة من هذا الفضاء الرحيب ، ثم أعيش في وحدة مرعبة أنظر ما يملأ هذا الفضاء ...

إني كلما انفردت بنفسي ، فتجرأت على درسها ، والتغلغل في أعماقها ، بدت لي أرحب وأعجب . فما هـذا المخلوق الذي يحويه جسم صغير ، لا يشغل من الكون إلا فراغاً ضيقاً كالذي يشغله صندوق أو كرسي ... ويحوي هو (المكان) كله ، ويشمل (الزمان) ، وينتقل من الأزل إلى الأبد في أقل من لحظة ، وينتظم (الوجود) كله بفكرة ، وتكاد الحياة نفسها تضل في أغواره ؟

من المستحيل أن نفهم هذا المخلوق الذي ندعوه (النفس) ! لذلك نخاف الوحدة ونفر منها . إننا نخشى نفوسنا ، ولا نستطيع أن ننفرد بها ، فنحب أن نشتغل عنها بصحبة صاحب ، أو حب حبيب ، أو عمل من الأعمال ... ونخشى الحياة ، ونحب أن نقطعها بحديث تافه ، أو كتاب سخيف ، أو غير ذلك مما نملأ به أيامنا الفارغة . وإذا نحن اضطررنا مرة إلى مواجهة الحياة ، ومقابلة الزمان خالياً من ألهيـة نلهو بها ، كما يكون في ساعة الانتظار مللنا وتبرمنا بالحياة وأحسسنا بأن الفلك يدور على عواتقنا . أفليس هذا سراً عجيباً من أسرار الحياة : يكره المرء نفسه ويخشاها ، وهي أحب شيء إليه ؛ ويفر منها ... ويضيق بحياته ، وهي أعز شيء عليه ، ويسعى لتبديدها وإضاعتها ؟

* * *

عجزت عن احتمال هذه الوحدة ، وثقل عليّ هذا الفراغ الذي أحسه في نفسي ، فخالطت الناس ، واستكثرت من الصحابة . فوجدت في ذلك أنساً لنفسي ، واجتماعاً لشملي ، فكنت أتحدث وأمرح وأمزح وأضحك وأضحك ، حتى ليظنني الرائي أسعد خلق الله وأطربهم ؛ بيد أني لم أكن أفارق أصحابي وأنفرد بنفسي ، حتى يعود هذا الفراغ الرهيب ، وترجع هذه الوحدة الموحشة

انغمست في الحيـاة لأملأ نفسي بمشاغل الحياة ، وأغرق وحدتي في لجة المجتمع ، واتصلت بالسياسة وخببت فيها ووضعت وكتبت وخطبت ، فكنت أحس وأنا على المنبر بأني لست منفرداً وإنما أنا مندمج في هذا الحشد الذي يصفق لي ويهتف ... ولـكني لا أخرج من الندي ورفض الناس من حولي ، وأنفرد في غرفتي حتى يعود هذا الفراغ أهول مما كان ، وترجع الوحدة أثقل ، فكأنها ما نقصت هناك إلا لتزداد هنا ، كالماء تسد مخرجه فينقطع ، ولـكنك لا ترفع يدك حتى يتدفق ما كان قد اجتمع فيه ... فماذا يفيدني أن أذكر في مائة مجلس أو يمر اسمي على ألف لسان ، وأن يتناقش فيّ الناس ويختصموا ، إذا كنت أنا في تلك الساعة منفرداً مستوحشاً متألماً ؟ . .

وجدت الشهرة لا تفيد إلا اسمي ، ولـكن اسمي ليس مني ، ولا هو (أنا) فأحببت أن أجد الأنس بالحب وأن أنجو به من وحدتي ، فلم أجـد الحب إلا اسماً لغير شيء ، ليس له في الدنيا وجود ، وإنما فيها تقارب أشباح :

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تدان ؟

وألم فاها كي تزول صبابتي   فيشتد ما ألقى من الهيمان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله   سوى أن يرى الروحين تلتقيان

ولكن أنى تلتقي الأرواح ؟ وأين هذا الحب الجارف القوي الخالص الذي يأكل الحبيبين كما تأكل النار المعدن ، ثم تخرجهما جوهراً واحداً معنى نقياً ما فيه (أنا) ولا (أنت) ولكن فيه (نحن) ؟...

فنفضت يدي من الحب ، ويئست من أن أرى عند الناس الاجتماع المطلق ، فعدت بطوعي أنشد الوحدة المطلقة

***

صرت أكره أن ألتقي بالناس ، وأنفر من المجتمعات ، لأني لم أجد في كل ذلك إلا اجتماعاً مزيفاً : يتعانق الحبيبان ، ولو كشف لك عن نفسيهما لرأيت بينهما مثل ما بين الأزل والأبد ؛ ويتناجي الصديقان ، ويتبادلان عبارات الود والإخاء ، ولو ظهر لك باطنهما لرأيت كلا منهما يلعن الآخر ؛ وترى الجمعية الوطنية ، أو الحزب الشعبي ، فلا تسمع إلا خطباً في التضحية والإخلاص ، ولا ترى إلا اجتماعاً واتفاقاً بين الأعضاء ؛ ولو دخلت في قلوبهم لما وجدت إلا الإخلاص للذات ، وحب النفس ، وتضحية كل شيء في سبيل لذة شخصية أو منفعة !

وجدتني غريباً بين الناس فتركت الناس وانصرفت إلى نفسي أكشف عالمها ، وأجوب فيافيها وأقطع بحارها ، وأدرس نواميسها وجعلت من أفكاري وعواطفي أصدقاء وأعداء ، وعشت بحب الأصدقاء وحرب الأعداء ...

***

إن من حاول معرفة نفسه عرضت له عقبات كأداء ، ومشقات جسام ، فإن هو صبر عليها ، بلغ الغاية ، وما الغاية التي تطمئن معها النفس إلى الوحدة ، وتأنس بالحياة ، وتدرك اللذة الكبرى ؟ الغاية إلا معرفة الله

وسيظل الناس تحت أثقال العزلة المخيفة حتى يتصلوا بالله ويفكروا دائماً في أنه معهم ، وأنه يراهم ويسمعهم ، هنالك تصير الآلام في الله لذة ، والجوع في الله شبعاً ، والمرض صحة ، والموت هو الحياة السرمدية الخالدة . هنالك لا يبالي الإنسان ألا يكون معه أحد ، لأنه يكون مع الله

علي الطنطاوي

الكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

— ٣ —

وقد كان لهذه القصائد في نصرة أهل البيت وتأليب الناس على بني مروان أثرها في النفوس ، حتى لهج بها الخاصة والعامة ، وصار الناس يتقربون إلى الله والرسول بحفظها وتلاوتها ويتناقلون في ذلك رؤى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان الكميت يرى بعضها ، وكان غيره يرى بعضاً آخر منها ، فارتفعت بهذا منزلة الكميت وعلت درجته بين قومه بني أسد حتى كانوا يعدونه من مفاخرهم ، ويقولون : فينا فضيلة ليست في العالم ، ليس منزل منا إلا وفيه بركة وراثة الكميت ، لأنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقال له أنشدني :

طَرِبتُ وما شوقاً إلى البيض أطرَبُ

فأنشده فقال له : بوركت وبورك قومك

ويروى من طريق آخر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في نومه وهو مختف بعد أن هرب من سجن بني مروان فيما سنذكره من سيرته ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : مم خوفك ؟ فقال : يا رسول الله من بني أمية ، وأنشده :

ألم ترني من حبِّ آل محمدٍ   أروح وأغدُو خائفاً أترقَّبُ

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : اظهر فإن الله قد أمنك في الدنيا وفي الآخرة

وحدث ابراهيم بن سعد الأسدي قال : سمعت أبي يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقال : من أي الناس أنت ؟ قلت : من بني أسد ، قال : من أسد بن خزيمة ؟ قلت : نعم ، قال : أهلالي أنت ؟ قلت : نعم ، قال : أتعرف الكميت بن زيد ؟ قلت : يا رسول الله عمي ومن قبيلتي ، قال : أتحفظ من شعره شيئاً ؟ قلت : نعم ، قال أنشدني :

طَرِبت وما شوقاً إلى البيض أطْرَبُ

قال : فأنشدته حتى وصلت إلى قوله :

فما لِيَ إلا آل أحمد شيعةٌ   وما لِيَ إلا مَشْعَبَ الحق مشعب

فقال لى : إذا أصبحت فاقرأ عليه السلام ، وقل له قد غفر الله لك بهذه القصيدة

وحدث نصر بن مزاحم المنقرى أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم ورجل بين يديه ينشده :

* مَنْ لقلبٍ مُتيَّمٍ مستهامِ *

قال: فسألت عنه ، فقيل لى : هذا الكميت بن زيد الأسدى ، قال : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : جزاك الله خيراً وأثنى عليه

وإذا كان الكميت قد نصر بشعره أهل البيت هذا النصر الذى كان له هذا الشأن ، فانه وهو الشاعر العالم لم يكن يتجاوز تأييدهم باللسان إلى تأييدهم بالفعل ، وكان شأنه فى هذا شأن القعدة من الخوارج كعمران بن حطان الشاعر وغيره ، ولا غرابة فى أن يكون للشيعة قعدة كما كان للخوارج قعدة ، بل إن قعدة الشيعة كانوا أكثر من قعدة الخوارج لأخذ الشيعة بالتقية . وقد روى أبو الفرج الأصبهانى أنه لما خرج زيد بن على كتب إلى الكميت : أخرج معنا يا أعيمش ، ألست القائل :

ما أبالي إذ أحفظتُ أبا القا   سم فيكم ملامَةَ اللُّوَّامِ

فكتب إليه الكميت :

تجودُ لكم نفسى بما دونَ وثْبَةٍ   تظلُّ لها الغربانُ حولِيَ تحجلُ

ولم يكن هذا منه يغضب أهل البيت عليه ، بل كانوا هم أيضاً يضنون على نفسه ضنه عليها ، ويحبون أن يبقى لهم بشعره الذى يفعل فى هدم بنى مروان ما لا يفعله بالسيف غيره

وكان على العراق فى هذا العهد خالد بن عبد الله القسرى ، وعلى عرش بنى مروان هشام بن عبد الملك ، وقد اضطربت الروايات فى وصول خبر الكميت وأشعاره إلى هشام اضطراباً كبيراً ، فلنسق هذه الروايات المضطربة ، ثم نأخذ بعد هذا فى نقدها والترجيح بينها

قال أبو الفرج الأصبهانى : كان خالد بن عبد الله القسرى فيما حدثنى به عيسى بن الحسين الوراق قال : أخبرنا أحمد بن الحارث الفزارى عن ابن الأعرابى ، وذكره محمد بن أنس السلامى عن المستهل ابن الكميت ، وذكره ابن كناسة عن جماعة من بنى أسد أن الكميت أنشد قصيدته التى يهجو فيها اليمن وهى :

* ألا حُيِّيتِ عنا يا مدينا *

فأحفظته عليه ، فروى جارية حسناء قصائده الهاشميات ، وأعدها ليهديها إلى هشام ، وكتب إليه بأخبار الكميت وهجائه بنى أمية وأنفذ إليه قصيدته التى يقول فيها :

فيارب هل إلاَّ بك النصر يُرتجَى   ويارب هل إلاَّ عليك المعوَّلُ

وهى طويلة رثى فيها زيد بن على[1] وابنه الحسين بن زيد (كذا) ويمدح بنى هاشم ، فلما قرأها أكبرها وعظمت عليه واستنكرها ، وكتب إلى خالد يقسم عليه أن يقطع لسان الكميت ويده ، فلم يشعر الكميت إلا والخيل محدقة بداره ، فأخذ وحبس فى المحبس . وكان أبان بن الوليد عاملاً على واسط ، وكان الكميت صديقه ، فبعث إليه بغلام على بغل وقال له : أنت حر إن لحقته والبغل لك ، وكتب إليه : قد بلغنى ما صرت إليه وهو القتل إلا أن يدفع الله عز وجل ، وأرى لك أن تبعث إلى حبي — يعنى زوجة الكميت وهى بنت نكيف بن عبد الواحد وهى ممن يتشيع أيضاً — فاذا دخلت إليك تنقبت نقابها ولبست ثيابها وخرجت ، فانى أرجو ألا يؤبه لك

فأرسل الكميت إلى أبى وضاح حبيب بن بديل وإلى فتيان من بنى عمه من مالك بن سعيد ، فدخل عليه حبيب فأخبره الخبر وشاوره فيه فسدد رأيه ، ثم بعث إلى حبي امرأته فقص عليها القصة وقال لها : أى ابنة عم ، إن الوالى لا يقدم عليك ولا يسلمك قومك ، ولو خفته عليك لما عرضتك له ، فألبسته ثيابها وإزارها وخمرته وقالت له : أقبل وأدبر ، ففعل ، فقالت : ما أنكر منك شيئاً إلا يبسا فى كتفك ، فاخرج على اسم الله ، وأخرجت معه جارية لها ، فخرج وعلى باب السجن أبو وضاح ومعه فتيان من أسد فلم يؤبه له ، ومشى والفتيان بين يديه إلى سكة شبيب بناحية الكناس ، فمر بمجلس من مجالس بنى تميم ، فقال بعضهم :

(١) قد رجعنا إلى هذه القصيدة فلم نر فيها ذكراً لها وإنما ذكر فيها الحسين بن على وحده على أن الظاهر مما سبق بين الكميت وزيد أن خروجه وقتله كانا بعد هذه الهاشميات لا قبلها

رجل ورب الكعبة ، وأمر غلامه فأتبعه ، فصاح به أبو وضاح يا كذا وكذا لا أراك تتبع هذه المرأة منذ اليوم ، وأومأ إليه بنعله فولى العبد مدبراً ، وأدخله أبو وضاح منزله

ولما طال على السجان الأمر نادى الكميت فلم يجبه ، فدخل ليعرف خبره ، فصاحت به المرأة : وراءك لا أم لك . فشق ثوبه ومضى صارخاً إلى باب خالد فأخبره الخبر ، فأحضر حبى فقال لها : ياعدوة الله احتلت على أمير المؤمنين وأخرجت عدوه . لأمثلن بك ولأصنعن ولأفعلن ، فاجتمعت بنو أسد إليه وقالوا : ماسبيلك على امرأة منا خدعت ؟ فخافهم فخلى سبيلها

قال : وسقط غراب على الحائط فنعب فقال الكميت لأبي وضاح : إني لمأخوذ ، وإن حائطك لساقط ، فقال له: سبحان الله ! هذا مالا يكون إن شاء الله ، فقال له : لا بد من أن تحولني ، فخرج به إلى بني علقمة وكانوا يتشيعون ، فأقام فيهم ولم يصبح حتى سقط الحائط الذي سقط عليه الغراب

قال ابن الأعرابي قال المستهل : وأقام الكميت مدة متوارياً حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه خرج ليلاً في جماعة من بني أسد على خوف ووجل ، وفيمن معه صاعد غلامه ، فأخذ الطريق على القطقطانة وكان عالماً بالنجوم مهتدياً بها ، فلما صار سحيراً صاح بنا :هوّموا يا فتيان ، فهوّمنا وقام يصلي ، قال المستهل : فرأيت شخصاً فتضعضعت له ، فقال : مالك ؟ قلت : أرى شيئاً مقبلاً ، فنظر إليه فقال : هذا ذئب قد جاء يستطعمكم ، فجاء الذئب فربض ناحية فأطعمناه يد جزور فتعرقها ، ثم أهوينا له بإناء فيه ماء فشرب منه وارتحلنا ، فجعل الذئب يعوى ، فقال الكميت : ماله ويله ؟ ألم نطعمه ونسقه ؟ وما أعرفني بما يريد ! هو يعلمنا أنا لسنا على الطريق . تيامنوا يا فتيان ، فتيامنا ، فسكن عواؤه ، فلم نزل نسير حتى جئنا الشام فتوارى في بني أسد وبني تميم . وأرسل إلى أشراف قريش وكان سيدهم يومئذ عنبسة بن سعيد بن العاص ، فمشت رجالات قريش بعضها إلى بعض وأتوا عنبسة فقالوا : يا أبا خالد هذه مكرمة قد أتاك الله بها . هذا الكميت بن زيد لسان مضر ، وكان أمير المؤمنين كتب في قتله فنجا حتى تخلص إليك وإلينا . قال فروه أن يعوذ بقبر معاوية ابن هشام بدير حنيناء ، فمضى الكميت فضرب فسطاطه عند قبره ، ومضى عنبسة فأتى مسلمة بن هشام فقال له : يا أبا شاكر مكرمة أتتك ، بها تبلغ الثريا إن اعتقدتها ، فإن علمت أنك تفي بها وإلا كتمتها ، قال : وما هي ؟ فأخبره الخبر ، وقال : إنه قد مدحكم عامة وإياك خاصة بما لم يسمع بمثله . فقال : عليّ خلاصه فدخل على أبيه هشام وهو عند أمه في غير وقت دخول ، فقال له هشام : أجئت لحاجة ؟ قال : نعم ، قال : هي مقضية إلا أن يكون الكميت فقال : ما أحب أن تستثني علي في حاجتي ، وما أنا والكميت : فقالت أمه : والله لتقضين حاجته كائنة ما كانت ، قال : قد قضيتها ولو أحاطت بما بين قطريها ، قال : هي الكميت يا أمير المؤمنين ، وهو آمن بأمان الله عز وجل وأماني ، وهو شاعر مضر ، وقد قال فينا قولاً لم يقل ، قال : قد أمنته وأجزت أمانك له ، فاجلس له مجلساً ينشدك فيه ما قال فينا . فعقد له وعنده الأبرش الكلبي ، فتكلم بخطبة ارتجلها ما سمع بمثلها قط ، ومدحه بقصيدته الرائية ، ويقال إنه قالها ارتجالاً وهي قوله :

* قفْ بالديار وقوفَ زائرْ *

فمضى فيها حتى انتهى إلى قوله :

ماذا عليك مِنَ الوقو ف بها وإنك غيرُ صاغِرْ
درجتْ عليها الناديا تُ الرائحاتُ من الأعاصر

وفيها يقول :

فالآنَ صرتُ إلى أُمَيَّـــةَ والأمورُ إلى المصاير

وجعل هشام يغمز مسلمة بقضيب في يده فيقول : إسمع إسمع ، ثم استأذنه في مرثية ابنه معاوية فأذن له فأنشد قوله :

سأبكيك للدنيا وللدين إنَّني رأيت يد المعروف بعدك شُلَّتِ
أدامتْ عليك بالسلام تحيةً ملائكةُ الله الكرامُ وصلَّتِ

فبكى هشام بكاء شديداً ، فوثب الحاجب فسكته ، ثم جاء الكميت إلى منزله آمناً فحشدت له المضرية بالهدايا ، وأمر له مسلمة بعشرين ألف درهم ، وأمر له هشام بأربعين ألف درهم ، وكتب إلى خالد بأمانه وأمان أهل بيته ، وأنه لا سلطان له عليهم . وجمعت له بنو أمية فيما بينها مالاً كثيراً ، وودع هشاماً وأنشده قوله فيه :

* ذكر القلبُ إلفَـهُ المذكورا *

وهذه هي الرواية الأولى فيما كان بين الكميت وخالد بن عبد الله وهشام بن عبد الملك بسبب تلك القصائد السابقة

عبد المتعال الصعيدي

كتاب حضارة العرب

للكاتب الاجتماعي الكبير غوستاف لوبون

للأستاذ خليل هنداوي

تمهيد

لم يسبق أن تردد لفظ المملكة العربية والأمجاد العربية في يوم مثل هذا اليوم . ففي كل صوب من كل قطر عربي يهب هذا الحلم من نومه ويزحف هذا الراقد الفاني إلى حقيقة تمد ذراعيها وتدعو إلى تحقيق وجودها . وكل شيء من هذه الأحداث عامل يسرع في بيان ضرورة هذه الوحدة التي لا يقوم للعرب كيان بدونها . وما قيمة جسد فيه عضو يتحرك وأعضاء جامدة لا تتمشى فيها حركة ؟ وكأن السياسة الاستعمارية أدركت أن هذا التقسيم الذي رمت به الجزيرة العربية إنما هو تخدير موقوت فكيف تعمل على جعله تخديراً دائماً ؟ فخلقت النعرات القومية التي جرفها التاريخ فيما جرف ، والتي بادت من الحاضر حتى أصبحت لا وجود لها ... ولقد فتن بهذه السياسة قوم وعادوا يتجردون من القومية العربية ويحملون على الثقافة العربية ، لأنها في رأيهم ثقافة لم تحمل شيئاً للانسانية . وإنها لدعوى ملفقة لم يخلقها إلا الوهم الذي خلقته السياسة الاستعمارية ، وجاراها عليه فئة ماتت فيها الفكرة الاستقلالية . وتجاه خطر هذه الفئة المتذبذبة التي لا تعرف لها ديناً ولا لوناً من ألوان القومية وجب أن تقوم حملات صادقة لتحطيمها ودوس كرامتها إن كانت لها بقية من كرامة . وهذا واجب تبعث عليه البواعث الوطنية التي تؤمن بحق العرب وثقافة العرب وعظمة العرب !

لقد تناول تاريخ العرب رجال من الغرب ، منهم من كانت تسيره الأهواء ، ومنهم من كان يستلهم العقل والحقيقة وما أقل هؤلاء ! وقد كان بودنا أن نكتب تاريخنا بأيدينا بالهوى والعاطفة كما يقولون ، لأننا نكتبه إذ ذاك بحروف الذهب ، ونرسمه بخطوط اللهب ، لأنه تاريخ قوميتنا وثقافتنا وغابرنا الذي بيده أمر حاضرنا

ألا يكتب كل قوم تاريخهم كما يشاءون ؟ ألا يسجل كل شعب ماضيه كما يرغب ؟ فيا كارهي مجد العرب أي عار وجدتموه إلا عار الأنفة والكبرياء ؟ وأي وصمة أتوا بها إلا وصمة الفتوح والسيادة ؟ ونحن نرى المجد في الخضوع للمستعمر ، وفي الذل وخفض الجناح ، ونحن نرى الفخر في فتح أبوابنا له يلجها من يشاء متى شاء . وكيف يلتقي فخرنا وذلك الفخر ؟ وكيف يصافح مجدنا ذلك المجد ؟

لن نعرض لهؤلاء النافرين من مجد العرب شيئاً تسطره أقلامنا وأهواؤنا ، ولكنا عارضون لهم صفحات جليلة ، كتبها رجل لا يتعصب لنا ولا يريد باطلاً ولا جزاء ولا شكورا . وإنما ينشد حقيقة ما عرف التاريخ شهيداً كمثلها بين الحقائق التي نقلها . فأراد هذا الرجل إنصاف هذه الحقيقة ، وأراد إنصاف العرب بما كتب

قلت : كنت أريد أن يكتب تاريخنا بعاطفة وحرارة لأني أعتقد أن التاريخ في الأمم المتيقظة هو قلب قبل أن يكون عقلاً ، لأن هذه الأمم — وهي في بدء يقظتها — لأحوج إلى قيادة العاطفة منها إلى قيادة العقل . وإذا عدت إلى استقراء تاريخ كل أمة ألفيت أن العاطفة هي القائدة الهادية ، حتى إذا ماشت هذه الأمة إلى هدفها واستقام سيرها ، أخذت العاطفة تقر رويداً رويداً ويتسيطر على جموحها العقل . وها هي ذي الأمم الغربية التي نقتفي أثرها ونمجد خيرها على رغم مابلغت من نضج العقل ورسوخ القدم لا نقرأ تاريخها إلا موسوماً بميسم وطنيتها وعاطفتها لأن التاريخ المجرد يأتي هيكلاً مجرداً من الروح ، وإذا لم ترد الأمة أن تطبعه بطابع حياتها وحاجتها ، فما معنى حاجتها إلى هــذا التاريخ إذن ؟ على أننا لا نريد أن يأتي تاريخنا مشوهاً متحولاً مخالفاً للحقيقة ، ولا نريد أن نسجله تسجيلاً كاذباً مختلقاً . ولو قدرنا على ذلك لما فعلنا ، كما فعل ذلك العالم البلجيكي الذي أخذ يلوم أحد قادة الألمان على ما يرتكبون من فظائع في (بلجيكا) خلال الحرب العظمى وهدده بالتاريخ الذي سيحصي عليهم كل صغيرة وكبيرة ، فما أجابه ذلك القائد إلا بضحكة استهزاء متمتماً : « هل تهددنا بالتاريخ ، وما عسى يضع التاريخ ؟ ونحن الألى نسجله غداً » يريد أن الظافر هو الذي يتولى كتابة التاريخ وتشويه الحقائق . اننا لا نسجل الآن شيئاً ، وانما رجال غربيون يسجلون . منهم صاحب حضارة العرب يسجل تاريخ حضارتنا كما تفهمه وتلمسه . وما أجدر هــذه الفئة المنكرة

الجاحدة لتاريخها وقوميتها بقراءة هذه الصفحات والنظر إلى ماراحوا يتنكرون منه ويوارون وجوههم خجلاً ! وما كان أحق هذه الفئة بالتقديس لو أن لهامن القوة والعبقرية والثقافة جزءاً مما لأجدادهم ! ولكنهم قوم عميت منهم الأبصار والبصائر وشغفوا برداء يلبسه جارهم لا حظ لهم منه إلا النظر إذا سمح الجار بذلك

هذا ما بعثني على تعريب هذا الكتاب الذي خرج إلى العالم منذ خمسين عاماً ، ولا تزال الخزانة العربية تجهله ، أو تعرفه وتتخلف عن تبنيه كأنه لا يعسها فى شىء أو لا يعنيها من أمره شىء . على أنه كان خير كتاب سطره يراع غربى فى التاريخ العربى . ولعل فى إرجاء تعريبه سراً لأنه يخرج الآن فى وهلة أصبح تعريبه حاجة ماسة لجيل عربى تيقظ على أمجاد غابرة ، وعاد إليه حنينه الأول وحلمه الأسمى ! ومن حق هذه الأمجاد أن نعمل على بعثها حتى تغدو أصواتاً تتردد في كل فج ، وتصبح أصواتها أصداء تتجاوب فى كل رجاء

قد يقول بعضهم : إن بين مصادر المؤلف مصادر واهية يظهر ضعفها ، والكتاب ذاته ليس بذى قيمة كبيرة . ولقد يكون هنا لك ضعف فى المصادر وضعف فى بعض المستنتج ، وضعف فى إحصاء أشياء ، ولكن هذا لا يخلع عن الكتاب قيمته العلمية لأنه كتب فى عهد بعيد قبل أن تكثر الرواد التى جلت تاريخ العرب . وقد أبقينا على هذه الأخطاء لأن القارىء النبيه يستطيع تمييزها بسهولة ، لأننا أحببنا أن ننقل الكتاب صورة صادقة أمينة يطلع القارىء خلالها على آراء الغربيين فينا إبان ذلك العصر . ولكن هذه التهمة لم يكن الباعث عليها ضعف المصادر فحسب ، وإنما تعود أسبابها إلى أن المؤلف الذى يكتب عن العرب ينبغى له أن يعنى بإظهار سيئاتهم وطرح حسناتهم ، وأن يعمل على تصويرهم شعباً مهدماً للمدنية لا بانياً ، فجاء غوستاف لوبون العالم الجرىء المنصف خارقاً عادات القوم متخطياً بدعتهم السيئة فكتب عن العرب ما لا يكتبه العرب عن أنفسهم ، وفتح العيون العمى على مالهم من حضارة وفضل على الانسانية بوجه عام ، وعلى الحضارة الغربية بوجه خاص ، ولذلك لم يلق كتابه الرواج المنتظر فى أمته . وناهيك بأن سياسة الغرب فى ذلك العصر كانت تعد العدد وتختلق الحيل لاستعمار الشرق فكيف يروقها أن يظهر من يمدد لها

فضائل هذه الأقطار التى تريد استعمارها بتهمة الوحشية ودعوة التمدين . فكان عدم رواجه نتيجة منطقية معقولة لهذه الفكرة المسمومة ؛ وكانت حملات عليه كاذبة حاولت أن تطعن فى العرب وفيمن ينتصر لهم . ومن دواعي الأسف أن هذه الفكرة لا تزال تصاحب هذا الكتاب ، وسوف لا تزال مرافقة له حتى ينفض الغرب يده من هذه الأقطار وييأس من استعمارها !

وقد قص علىَّ أستاذ صديق أنه خلال وجوده فى باريس طلب إلى إحدى مكتبات المطالعة أن يطلع على هذا الكتاب فتأفف صاحب المكتبة ، فقال له الأستاذ : أراك مشمئزاً ، لعل الموضوع لا يرضيك ! فأجابه : ليست المسألة مسألة موضوع ، وإنما مسألة انتشاله من تحت أنقاض الكتب المتراكمة فوقه . فمد يده إلى خزانة ربما يطلق صاحبها عليها خزانة الكتب المهجورة والمغفلة ، ولبث يقلب حتى علقت يد صاحبنا بالكتاب فى قاع الخزانة !

وهذا يدل على أن الفكرة التى شوهته لا تزال ترافقه وأن الغربى قد ألقى فى خلده أن كل ما يكتب عن الشرق والعرب بلهجة الاعجاب هو شىء كاذب مدسوس ، وإنما الحق كل الحق فيما يتناولها بالذم والسخرية والتحقير . وكأنى بأفراد قلائل قد استطاعوا أن يطلقوا عقولهم من هذه الأوهام وينظفوا دم تفكيرهم من هذه السموم ، ولكن عدد هؤلاء محدود ، وما أقلهم لو استطاعوا أن يطهروا أنفسهم !

وأسباب ذلك كما قدمت تعود إلى أضاليل الغاية الاستعمارية التى استلهمت أيضاً العصبية الدينية ، وتكاتفتا معاً على إخفاء محاسن العرب ، وعلى إظهارهم شيئاً هو دون الشعوب . ويقينى لو أن موازناً منهم قارن بين شعب من الزنوج والعرب لشالت كفة العرب ولرجحت كفة الشعب الزنجي لأن هذا الشعب تم لهم استعماره وتحضيره وذلك لم يتم ولما يتم لهم منه شىء

أما أجري الذى أنشده من هذا التعريب فهو أمنيتي التى أرجو أنى وصلت إليها فى وضع لبنة واحدة فى صرح المملكة العربية الحديثة وفى استجلاب كثيرين ممن ضلوا مجد أمتهم الغابر ليحثهم على بناء المجد الحاضر ، وما هنا إلا صفحة من صفحات هذا الفاتح الذى ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم منه ... فاقرأوا أيها العرب وانفذوا منها إلى بقايا صفحات تاريخكم المجيد

« تتلوه المقدمة »

خليل هنداوى

مقالات اسماعيلية

لأستاذ جليل

— ٢ —

فى معرفة العقل

ومنها حدثني الحسن الموصلي عن علي بن محمد نازل سَوْرة[١] والعباس بن محمد بن الحسين جميعاً عن محمد بن سنان الزاهدي قال : سألت لمولانا[٢] (علينا سلامه) عن أول صفات الأزل ، فقال لي : العقل ، فقلت : وما العقل يا مولاى ؟ فقال : أنا . وما علمت أن بي يعقل العاقل ، وبي ينظر الناظر ، وبي يسمع السامع ، وبي يبطش الباطش ، وبي يتحرك الساكن ، وبي يذاق الطيب ، وبي يشم الروائح الطيبة ، وبي يحس الحواس ، وبي أفاضوا الناس ؟ فقال له محمد بن سنان فكيف منزلتك من البارى الأزلى ؟ فقال له كمنزلة العلم من العالم لم ينفصل منه ولا هو سواه . واعلم يامحمد ، أن الأزل أطلع من ذاته نوراً لم يفصله منه ، ولا غاب عنه ، ثم سماه عقلا ، وخاطبه به ، فقال له : من أنا ؟ أجابه أنت وأنا منك ، فقال له أدْبِرْ يعنى اظهر كالمنفصل مني ، فظهر ثم قال له : أقبل يعنى غب فيّ واتصل بي ، فاتصل فقال له به وخاطبه منه : وعزتى وجلالي ما خلقت خلقاً قبلك[٣] إلا أنا إذ أنا معدنك ، ولا خلق أبداً أحبَ إلى منك ، لأنك مني بديت[٤] ، وأنا بك ظهرت . منك نطقت ، وبك أدعو ، وأنت إشارتى ونودى في سمواتي وارضي ، بك آخذ حقى من خاقى ، وبك أجازى من عرفنى وأقرّ بى ، فأنت الواحد إذ لامثيل لك ، وأنا الأحد لأنى متحد بك . لست حين اطلع بك حركاتي وغيبتك سكونى[٥] وأنا العلى الحميد والسلام

(١) سورة بفتح السين وسكون الواو موضع (معجم البلدان)
(٢) مولانا
(٣) فى (الاحياء) : (أول ما خلق الله العقل فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ثم قال الله وعزتى وجلالى ماخلقت خلقاً أكرم علي منك بك آخذ ، وبك أعطى ، وبك أثيب ، وبك أعاقب) ونسب القول إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)
(٤) إن كانت محرفة فأصلها بدأت أو بدوت أي ظهرت
(٥) كذا هذه الجملة والتي قبلها

— ٣ —

فصل فى معرفة الانسان

قال الله (تعالى) : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » إعلم أن الإنسان هو النفس خلقت قبل الجسم زماناً طويلا ، فلما ظهرت النفس بصورة الجسم ذكرت وعرفت حتى تعقل منه المعقولات أى تعرف أمام العصر والزمان ؛ فإذا عرفت ارتقت إلى عالمها النوراني كما قال الله (عز وجل) « ثم ننجّى الذين اتقوا ونذرُ الظالمين فيها جِثِياً » والجثو هو المعاد فيها . وإذا لم تعرف إمام العصر والزمان تتردد فى عالم الكون والفساد على الأجساد ومحل الآلام حتى تعرف إمام زمانها وتدخل تحت طاعته ؛ فإذا عرفت خلصت ونجت وارتقت ، وإذا لم تعرف لاتزال تتردد حتى تعرف بعد المدد والدهور الطوال . قال بعض العارفين لولده : احرص يا بنيّ أن تخلّصها فى هيكل واحد ولا فى هيكل ثان والسلام

— ٤ —

(فصل) اعلم (يا أخى) ان النفوس المنكرة لا تزال تتردد فى عالم الكون والفساد والنشوء والبلى حتى تعقل منه المعقولات أعنى معرفة إمام العصر والزمان . والسلام على من اتبع الهدى ، وخشى عواقب الهوى ، وأطاع الملك الأعلى ، وأمر بالتقوى ، وكان من الفائزين ، والسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين

— ٥ —

(فصل) اعلم أن الجن ثلاث طبقات : الجن النواصة ، والجن الطيارة ، والجن المردَة . أما بعد فإنّ الجن النواصة هم الحكماء النواصون فى العلوم الحقيقية ، والجن الطيارة هم الحجج والدعاة الذين يطيرون فى علومهم من مكان إلى مكان ، والجن المردة فهم أهل الظاهر المرقبون[١] السمع[٢] العاندون للحق فى كل عصر وزمان ، فاتلم ذلك . قال عليّ (علينا سلامه) : من عاند الحق هان ، ومن تهاون فى الدين انهان[٣] . وقال أيضاً : من استغنى بعقله ضلّ ، ومن عجب بعلمه زل ، ومن استعان بغير الله ذل ، والسلام

(١ ، ٢ ، ٣) كذا

— ٦ —

(فصــل) اعلم أن دعائم الإسلام سبع ، وعند أهل الظاهر خمس ، وهى الصوم والصلاة والحج والزكاة والجهاد في سبيل الله (تعالى) والولاية والإمامة ، أنكر أهل الظاهر الولاية والإمامة

قال النبي عليه الصلاة والسلام فى حق علىّ يوم الغدير : (من كنت مولاه فعلىّ مولاه . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من نكره ، وأدرْ الحق معه حيث دار[١]) هذا فى الولاية ؛ وقال النبي فى الإمامة : (من مات ولم يعرف إمام زمانه معرفة جلية فقد مات ميتة جاهلية ، والجاهل كافر والكافر فى النار [٢]) والسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين

— ٧ —

(فصــل) النبي (صلعم) : (تسلمت من خمس وسلمت إلى خمس ، وبينى وبين ربى خمس) . (الجواب) : فالخمس الذى تسلم النبي منهم ، فهم بحيرا الراهب وميسرة وزيد بن عمرو وعمرو بن نفيل وخديجة بنت خويلد ؛ والخمس الذى سلم إليهم ، فهم الأساس ، والداعى ، والحجة ، والإمام ، والوصى ؛ والخمس الذين بينه وبين الله (عز وجل) فهم العقل ، والنفس ، والجد ، والفتح ، والخيال [٣] ، وقوله : أنا وأهل بيتى خمس ، فهم محمد ، وعلىّ والحسن ، والحسين وفاطمة ، عليهم السلام أجمعين ، والحمد لله رب العالمين

— ٨ —

(فصــل) اعلم يا أخى أن العقل نور إلٰهى مشرق على ظهر العالم فيقبل كل شىء من الأشياء التي تحته تحيي قواه ، فلما [٤]

(١) الذى فى الترمذى وغيره (من كنت مولاه فعلى مولاه) وفى اسناده محمد بن جعفر المدائنى . وفى النسائى وغيره (من كنت وليه فعلى وليــه) وفي كتب منها الصواعق المحرقة (من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، فأحب من أحبه ، وابغض من أبغضه ، وانصر من نصره واخذل من خذله ، وادر الحق معه حيث دار) ولسنا اليوم فى البحث عن صحة حديث أو ضعفه أو اختلاقه

(٢) حديث اسماعيلى

(٣) الجد ، والفتح والخيال ترجمها (جوارد) بهذه الألفاظ
La Matière première, L' Espace et le Temps

(٤) كان

الإنسان أقرب بنسبه إلى العقل قبل من الفيض أكثر من جميع الموجودات ، والنور هو العلم ، والعلم هو العقل الإنسانى والسلام

— ٩ —

(فصــل) اعلم يا أخى أن جهنم هى البعد من الله ، وهى مركز الأرض ومحل الأجسام عالم الكون والفساد ؛ والجنة هى القرب من الله وهى عالم القدس ومحل النفوس والأنوار ، وعرضها كعرض السموات والأرض كما قال الله تعالى : « وجنة عرضها السموات والأرض اعدت للمتقين » والحمد لله رب العالمين [١]

(١) فى (رسائل إخوان الصفاء) كتاب النحلة الاسماعيلية : « إعلم وتيقن ولا تشك في أن جهنم هى عالم الكون والفساد الذى هو دون فلك القمر ، وأن الجنة هى عالم الأرواح وسعة السموات ، وأن أهل جهنم هي النفوس المتعلقة بأجساد الحيوانات التى تنالها الآلام والأوجاع دون سائر الموجودات التى في العالم ، وأن أهل الجنة هي النفوس الملكية التى فى عالم الأفلاك وسعة السموات فى روح وريحان البريئة من الأوجاع والآلام والدليل على ذلك قوله تعالى : (إنطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب) إشارة إلى النفوس المتحدة بالأجسام ذى الطول والعرض والعمق إلى دون فلك القمر »

حقيقة الإســــلام

للأستاذ خليل جمعة الطوال

« ... أنا لست مسلماً ولكن ذلك لا يمنعني من أن أقول في الاسلام الحق . ولقد دفعني إلى هـذا ما شاع بيننا نحن المسيحيين — عن طريق المبشرين وانكشارية الدين المأجورين — من أن الاسلام دين كاذب قام على السيف وأصارحك أني كنت على هذا الرأي حتى تنبهت إلى فضائل الاسلام عن طريق الرسالة الغراء ، ثم عن طريق القرآن الشريف . لذلك آليت على نفسي أن أعوض عن عدم إسلامي بنشر فضائل الاسلام بقلمي ولساني »

خليل جمعة الطوال

« الإسلام دين بربري قام بقوة السيف ... »

« فولتير والخصوم »

بهذه الحجة الواهية ينال على الإسلام خصومه ليشوهوا جماله ، وينالوا من روحه الكبرى ، وينتقصوا من تعاليمه السامية. وبهـذه الحجة أيضاً يتذرع أهل الجهالة والزيغ ، إذ يصمون صاحب الرسالة العربية بالكذب والشعر والكهانة ، ويدعون أنه مؤسس ديانة بربرية كاذبة ، تنافى مبادئها روح الحضارة ، وتقف تعاليمها حائلاً دون تقدم المدنية . ولو أنهم خلوا إلى أنفسهم ، ونفضوا عنها غبار التعصب ، ودرسوا تعاليم الإسلام ، وتدبروا آياته في هدأة من أغراضهم الذاتيـة ، لانجابت عن بصائرهم سدف الأرجاف ، ولانجلى عن قلوبهم خبث الصدور وصدأ الباطل

يزعمون أن الإسلام قام بقوة السيف ... ويتمسكون بهذا الزعم على أنه حقيقة واقعة لا غبار عليها . ولكن فاتهم أن القوة التي أعزت الإسـلام في بدر ، والقادسية ، واليرموك ، والتي غزا بها المسلمون ـ على قلة عددهم وضعف عدتهم ـ وعتادهم العالم ، وأمعنوا في جهاته الأربع بالفتح والاستعمار ، حتى وسمت إمبراطوريتهم ثلثي الكرة الأرضية ـ لم تكن إلا قوة إيمانهم بعقيدتهم الجديدة ، عقيدة التوحيد بالله وعدم الشرك به ، تلك العقيدة السامية التي استمرأوا في سبيلها النكبات ، وتجشموا الأخطار والمصائب ، فما لانت قناتهم ، ولا خضدت شوكتهم ، ولا هانت قوتهم . ولئن قام الإسلام ببضعة أسياف ونفر من الرجال ، لقد قاومه أعداؤه المشركون بآلاف الصوارم ، وكتائب الأبطال . وما انتصاره عليهم إلا انتصار الحق على الباطل ، وما هزيمتهم أمامه إلا هزيمة القوة المادية أمام قوة الإيمان الروحية

تبارك الله !! رجل يقوم ضد أمة ، فكأنه بقوة إيمانه — وهي كل ذخيرته — أمة بأسرها . فيغلبها حيناً وتغالبه أحياناً ، ثم ينصر الله عبده ، ويعز كلمته ، فإذا القوم يسارعون فرادى وجماعات ليستظلوا تحت راية حقه ، وليسترشدوا بنوره ، ويهتدوا بهدايته ، وإذا محمد رسول الله ، ورجل الحق ، وعدو الكفر يقف فيهم خطيباً عند باب البيت ليعلن فيهم مبدأ الإخاء والحرية والمساواة ، فيقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدميّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج . يا معشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم

تلك هي مبادئ الإسلام السامية التي اهتزت لهـا أصنام الوثنية وهيا كلها ، بل تلك هي عدة المسلمين التي فتحوا بها العالم والتي لم تغن عنها « يوم نور » جيوشهم اللجبة الجرارة وأسلحتهم الوفيرة المدمرة

بمثل هذه المبادئ قام الإسلام يرشد الناس بنور الهداية ، وحسن الموعظة ، ولم يلجأ إلى السيف إلا دفاعاً عن حوزته ، وإشفاقاً على رسالتـه ، من أن تصبح مضغة استخفاف يلوكها أهل الكفر والالحاد مدى العمر . وأي شريعة سماوية جديدة قامت ولم يؤيدها السيف في انتشارها ؟ أهي اليهودية وقد كانت تأمر برجم كل خارج على الناموس ؟ ... أم هي المسيحية وما زالت محاكم التفتيش بأقبائها المروعة المظلمة يتردد صداها في الآذان ، وترتعد من فظائعها الأبدان ؟ ولم نذهب بعيداً في الاستدلال والتاريخ مفعم بذكر الكثيرين من ضحايا المسيحية — أو قل على الأصح إنكشارية المسيحية — ومجازرها ؟ وحسبك

منها مجزرة القديس « سان برتلمو » التى قتل فيها (٢٥٠٠٠) نفس ، ومجزرة شارلمان بقبائل السكسون التى سالت فيها الدماء البريئة أنهارا ؛ وما ارتكبته جيوش فيليب الثانى ملك أسبانيا وحامى ذمار الكاثوليكية في هولندا من الفظائع وضروب التمثيل التى تهتز لهولها الرواسى ، وتشيب لمنظرها النواصى . وما فعله الامبراطور فرديناند الثانى وهو من أسرة هبسبرج حين حاول أن يستأصل شأفة البروتسينتية فى ألمانيا ، فأرسل إليها جيوشه اللجبة ، التى أخذت تعمل السيف فى الرقاب والعباد ، والنهب فى البلاد ؛ واختل الأمن ، فأبيحت الأعراض ، وأزهقت النفوس البريئة ، وخرب خمسة أسداس المدن والقرى الألمانية ، وتناقص عدد السكان فيها ، حتى صار أربعة ملايين بعد أن كان ثمانية عشر مليوناً

ولِمَ نذهب بعيــداً وفى الأمس تراجع البابا تلك الذكريات المؤلمة ، فيبكى وينتحب لها ، ولأن أهل رومية قد أقاموا « لبرونو الايطالى » الذى أحرقته محاكم التفتيش بالقار والقطران ، فى حفل رائع من رجال الإكليروس ، تمثالاً عظيما فى المكان الذى أحرق فيه ضحية لتزمت العصر ، وكفارة عن حرية الفكر

ولم تكن البروتسنتية على حداثة عهــدها لتختلف عن الكاثوليكية بشىء من حيث تفتيش الضمائر ومخبآت الصدور ، واضطهاد أبطال الحرية الفكرية بالسجن حيناً وبالحرق أحياناً ، فتلك النيران المخيفة التى التهمت جثة « سرفيتوس الاسبانى » ما زال مشهدها ماثلاً أمام عينى كلفن وهو فى جدثه ، وما تزال تلك الذكرى تنتاش جثته الهامدة ورمته البالية

لقد اضطهدت المسيحية على اختلاف مذاهبها خلقاً كثيراً من ذوى الحرية الفكرية على حين كان الإسلام على درجة بعيدة من التسامح ؛ ولنا من أبى العلاء المعرى أكبر دليل على ذلك ، فقد شك هذا الفيلسوف المظيم فى جميع الأديان ، واتهم بالكفر والالحاد ، ومع كل ذلك فقــد عاش آمناً مطمئناً على حياته ، ولم ينله من الحكومات الإسلامية أدنى أذى مع أنه قد تمادى فى كفره وشكه لدرجة تكفى للحكم عليه بالقتل والحرق

ومن الحق هنا أن نسجل أن جميع الديانات حتى الوثنية منها تأمر بالخير والإحسان وأن المسيحية لم تبح سفك الدماء واضطهاد الأبرياء ، ولكن ما العمل وقد اضطهدت هذه النفوس البريئة باسمها ! وذلك إرضاء للنفوس الدنيئة ، والأطماع السافلة !!

لقد قام الإسلام يدعو إلى التوحيد ، فأعطى أهل الكتاب الحرية التامة فى إقامة شعائرهم الدينية ومعتقداتهم ، ولم يعمد إلى السيف فى إخضاع المشركين وردهم إلى حظيرة الإيمان بالله إلا إذا أبوا أن يلبوا دعوة الله بالحجة البينة ، والموعظة الحسنة ، واختاروا الحرب

أفبعد هذا يزعمون أن الإسلام دين كاذب ؟ ! ليت شعرى ، أية كذبة تماشى العصر ، وتساير الزمن ، وتعيش مع الدهر - بين الخصوم - أربعة عشر قرناً ، وتنطلى تمويهاتها على أربعمائة مليون من الناس ، وتظل عندهم طيلة هذه الأحقاب موضع الإجلال والإكبار ، تهز قلوبهم للرحمة وأكفهم للخير ؟

ألا إن الإسلام بريء مما نسب إليه ، فهو دين عربى صادق يدعو إلى توحيــد الله دون أن يلجأ إلى التواء المنطق وغث التأويل . « ولئن فاتنى حظى من النسب ، لن يفوتنى حظي من المعرفة »

هذا هو الإسلام الذى قال فيه شاعر الألمان وأعظم عظمائهم « جايتى » : إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذاً مسلمون . نعم كل من كان فاضلاً شريف الخلق فهو مسلم

(شرق الأردن) خليل جمعة الطوال

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٤ —

« ... أتذكر إذ التقينا وليس بيننا شابكة ، فجلسنا مع الجالسين ! هل شيئاً فى أساليب الحديث ، غير أننا قنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باثنين فيما بين قلبيهما ؟

« ... وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا فى التلاقى بعد فراق طويل ، كأن في كلينا قلباً ينتظر قلباً من زمن بعيد ؟

« ولم تكد العين تكتحل بالعين حتى أخذت كلتاهما أسلحتها ... وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب ؟

« وقلت لى بعينيك : أنا ... وقلت لك بعينى : وأنا ... وتكاشفنا بأن تكاتمنا ؟

« وتعارفنا بأحزاننا كأن كلينا شكوى تهم أن تفيض بينهما ؟

« وجذبتنى سحنتك الفكرية النبيلة التى تضع الحزن فى نفس من يراها فاذا هو إعجاب ؟ فاذا هو إكبار ؟ فاذا هو حب ؟

« وعودت عيني من تلك الساعة كيف تنظران إليك ؟

« وجعلت أراك تشعر بما حولك شعوراً مضاعفاً كأن فيه زيادة لم ترد ؟

« وكان الجو جو قلبينا ...

« وتكاشفنا مرة ثانية بأن تكاتمنا مرة ثانية ... ؟ »

(مى)

« ... عاذا أصف مكاناً للحب كأنما مس به سر الخلود فاذا الوقت فيه لا يشبه نقصاناً من العمر بل زيادة عليه ؛ وكانت يا حبيبتى كل دقيقة وثانيتها فى مجلسك الساحر كأنها بعض الفكرة والحس لا بعض الزمان والمكان ...

« ... وكنت وما أشعر من سحرك إلا أنى بازاء سر وضعنى فى ساعة من غير الدنيا وحصرنى فيك وحدك ...

« وهاجتنى من يقظتى واقتحمت على من حذري ...

« وخليتني وعينيك ، وخليتنى وما كتب على ...

« واتسعت روحى لتشملك ، فما كنت تتكلمين ولا تضحكين ولا تخطرين في غرفتك ولكن في داخل نفسى ..

« ... وكنا نتكلم ولكن ألفاظنا تتعانق أمامنا ويلثم بعضها بعضاً من حيث لا تراها إلا عيناى وعيناك

« وتراءت النفسان فملأتا المكان بأفراح الفكر ، واستفاض السرور على جمالك يجنى كلون الزهرة النضرة هو عطرها لمنظر

« وقلت لى بجملتك : أنا .. وقلت لك بجملتى : وأنا .. »

(هو)

هى وهو ؟

إنى لأعرفه عرفانى بنفسى ، فما بى شك فيما أكتب عن حبه ؛ ولقد خلطنى بنفسه زمناً فانى لأسمع نجواه وأقرأ سره ، وأعرف ذات صوره ، فما أصف من حبه إلا مستيقناً كأنما أنقل عن لوح مسطور فى فؤادى ، أو أثبت من حادثة فى تاريخ أيامى ماثلة فى نفسى بصورها وألوانها وحوادثها فما يغيب عنى منها شىء . ولولا تقاليد الناس وآداب الجماعة لمزقت النقاب عن وجه الحديث وجلوته على القراء فى بيان سافر كاشراق الضحى ، ولكن ... ولكنها هى ...

أما هى فما فى يدى شىء من خبرها إلا ما حدثنى به الرافعى أو حدثتنى رسائله ، فما أتحدث عن حبها إلا راوية يكتب ما يسمع لا ما يشهد ، أو محققاً يضع كلمة إلى كلمة ، ويزاوج بين رسالة ورسالة ، ليخرج منهما معنى ليس فى يده من حقيقته شىء إلا ما يهديه الفكر وصواب الرأي وملابسات الحادثة

وإنها لأديبة شاعرة يعرفها كثير من قراء العربية وأعرفها عرفانهم أو يزيد ، وحسبى هذا مقدمات إلى النتيجة ، وما يعسر على من يمسك طرف الخيط أن يصل إلى آخره ...

***

لقد التقيا وما بينهما شابكة ولا يربطهما سبب ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها حتى ارتبطا قلباً إلى قلب ؛ وكان الأدب رباط بينهما أول ما كان ، ثم استجرها الحديث إلى فنون من الكلام فكشفت له عن آلامها وكشف لها عن آلامه فكان عطف وإشفاق ؛ ثم تحدثت عن أحلامها وتحدث عن أحلامه ، فكان الحب ؛ ثم ... ثم كانت القطيعة حين بلغ الحب غايته ونال مناله من نفسها ومن نفسه ، فافترقا حين كان يجب أن يبدأ اللقاء ليتذوقا سعادة الحب ويقطفا من ثمراته ... وضرب الدهر من ضرباته فاذا هو تحت الرغام ، وإذا هي في المستشفى تتمرض من داء هيهات أن تجد له الدواء !

***

لم تكن (هي) تقصد الحب ولا تعمدته ولا كان هو ، ولكنها أديبة تعرف موازين الكلام ، لقيت الأديب الذى تعجب به ويفتنها بيانه ، فأحبته (عقلاً جميلا) كما تسميه في بعض رسائلها ...

***

وكان سعيه إليها يلتمس الشعر والحكمة ، والشعر والحكمة هما رابطتها إليه وفاتنتها به ؛ فتصنعت له لتفتنه وتزيده شعراً وحكمة ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تُصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيد هي به ؛ لأنها وجدت به نفسها ، ووجدت به الشعر والحكمة والبيان ؛ فأحبته (أستاذها ومرشدها) لأنه أوحى إليها ما عجز دونه الآخرون ، لأنه فجر لها ينبوع الشعر وعلمها البيان هكذا تقول فى بعض رسائلها ...

***

وهى فتاة لم يسالمها الدهر ولم تزل منذ كانت — غرضاً لسهام الأيام ، تنوشها الآلام من كل جانب ، ولها نفس شاعرة تضاعف أحزانها فتجعل لها من كل همّ همين ، وإن حواليها لكثيراً من الأصدقاء يزدلفون إليها ويخطبون ودها ، ولكن ... ولكنها تريد الصديق الذى يستمع إلى شكواها من الأيام فتستريح إليه ، أكثر مما تريد الصديق الذى لا تسمع منه إلا كلمات الزلفى والتحبب واصطناع الهوى والغرام ... وتحدث إليها الرافعى وتحدثت إليه ، وقصت عليه من أحزانها فاخضلّت عيناه وأطرق فوضعت يدها على يده وهى تقول :

« سأدعوك أبي وأمى متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر ، وسأدعوك قومى وعشيرتى ، أنا التى أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين ؛ وسأدعوك أخى وصديقى ، أنا التى لا أخ لى ولا صديق ؛ وسأطلعك على ضعفى واحتياجى إلى المعونة ، أنا التى تتخيل فىّ قوة الأبطال ومناعة الصناديد !

« وسأبين لك افتقارى إلى العطف والحنان ، ثم أبكى أمامك وأنت لا تدرى ... ! »

وأحبته (صديقاً) تفزع إليه إذا ضاقت بآلامها وحزبها الهموم ...

***

وهى الفتاة التى لم تعرف فى حياتها إلا التجهم والعبوس ، ولم تعرف من دنياها إلا الجد الصارم ؛ وما كان لها من عمل غير الاستغراق فى الفكر ، أو الاستغراق فى الفن ؛ وإنها لأنثى وإن كانت فيلسوفة شاعرة ...

والرافعى رجل — كان — لا يحمل من هم ، فما يدع النكتة ولا يترك المزاح والدعابة وإن الدنيا تصطرع حواليه ، وإن كان القضاء منه بمرصد يراه ويتوقعه ؛ وإنه ليهزل فى أجدّ الجد وأحرج الساعات هزله فى أصفى حالاته وأسعد أيامه ؛ فما يجالسه ذو هم إلا سُرِّى عنه كأنما يمسح قلبه فيمحو أحزانه ...

وتحدث إليها وتحدثت إليه ، فأحبته (الرفيق الأنيس) الذى تسيطر عليها روحه فينتزعها من دنياها العابسة إلى دنياه ..

***

واستمعت إلى صوته يتحدث ، فكان له فى نفسها رنين ؛ ونظرت إلى سحنته الفكرية النبيلة فرأت فيها مرآة نفس صافية لا تعرف الخداع والتزوير ؛ ولمحته يبتسم ، فجذبتها إليه ابتسامة لم تجد مثلها إلا زيفاً على شفاه الرجال ؛ ونظر إليها ونظرت إليه ، وقال وقالت ، وتحدث قلب إلى قلب ، وتناجيا فى صمت ؛ وتركها وهى فى نفسه ، ومضى وهو فى مجلسها ؛ وأحست فى نفسها إحساساً ليس لها به عهد ؛ فتناولت قلمها لتكتب إليه :

« ... سأستعيد ذكرك متكلما فى خلوتى لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك ، حكاية البشر المتجمعة فى فرد واحد ؛ وسأتسمع إلى جميع الأصوات علّى أعثر فيها على لهجة صوتك ، وأشرّح جميع الأفكار وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديرى لآرائك وأفكارك ... وسأبتسم فى المرآة ابتسامتك

« فى حضورك سأتحول عنك إلى نفسى لأفكر فيك ، وفى غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك ...

« سأتخيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ، وكيف تتغلب على عادىّ الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل ...

« وفى أعماق نفسى يتصاعد الشكر لك بخوراً ، لأنك أوحيت إلى ما عجز دونه الآخرون . أتعلم ذلك ، أنت الذى لا تعلم ؟ أتعلم ذلك ، أنت الذى لا أريد أن تعلم ... ! »

وكان حبها إعجاباً بالعقل الجليل ، ثم تقدراً لأستاذها الذى فجر لها ينبوع الشعر والبيان ، ثم إجلالا للصديق الذى وجدت مفزعها إليه ، ثم انعطافاً إلى الرفيق الأنيس الذى كشف لها عن أفراح الحياة ، ثم ... ثم حباً يستأثر بنفسها ويسيطر عليها فى غيبه ومشهده فما لها عمل إلا أن تفكر فيه ...

وأضلها الهوى وأضله ؛ وخيل إليها أنها تستطيع أن تكون

أرفع محلاً لو أنها منعته بعض ما تمنحه، وخيل إليه أنه يستطيع وقالت له: «أنا لا أشفق على آلامك؛ وهل تراني أكره لك النبوغ والعبقرية؟» وقالت له كبرياؤه وغيرته وظنونه غير ما قالت صاحبته؛ ومضى كل منهما إلى طريق والقلب يتلفت؛ وما عرفت إلا من بعد أنه يحبها حباً لا يطيق أن يتسع أكثر مما تتسع له نفس إنسان؛ وما عرف إلا من بعد أنها كانت تجافيه لتطلب إليه أن يكون في الحب أجرأ مما كان ...

وعرف وعرفت، ولكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفيلسوف وكبرياء المتكبر؛ وظل وظلت وبينهما البعد البعيد على هوى وحنين ... حتى جاء الموت فحل العقدة التي استعصت على الأحياء ... !

***

إن كثيراً ممن يعرفونها ويعرفونه ليدهشون إذ يقرءون قصة هذا الحب، وسيتناولونها بالريبة والشك؛ وسيقول قائل، وسيدعى مدع، وسيحاول محاول أن يفلسف ويعلل؛ ولا علىّ من كل أولئك ما دمت أقص القصة التي أعرفها وأستيقنها، والتي كان لها في حياة الرافعي الأدبية تأثير يُردّ إليه أكثر أدبه من بعد، وحسبه أنه كان الوحي الذي استمد منه الرافعي فلسفة الحب والجمال في كتبه الثلاثة: رسائل الأحزان، والسحاب الأحمر، وأوراق الورد، وحسبي أنني قدمت الوسيلة لمن يريد أن يدرس هذه الكتب الثلاثة على أسلوب من العلم جديد

(شبرا) محمد سعيد العريان

إلى الصديق الذي كتب إلى يسألني أن أنشر له وللقراء رسالة مما كان بين الرافعي وصاحبته: أن يقرأ رسالتها في أوراق الورد ص ١٤٤ — ١٥٠ فلعله يرى فيها لوناً من رسائلها إليه، وحسبه الآن هذه الرسالة، وإنها لبسبب من موضوع هذا المقال

أبو الفرج الببغاء

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

— ٤ —

أهلّ أبو الفرج الببغاء في أعقاب عصر، وفي طلائع عصر آخر؛ أما العصر الأول فكانت الكتابة فيه جزلة مرسلة، تسير ذللاً لا أمت فيها ولا عوج، وترسل طبيعية لا تمحل فيها ولا تكلف، لا يلتفت الكاتب إلى غير المعنى الواضح الناصع في اللفظ المحكم والنسج المبرم؛ فقد كانت الأمة حينئذ — أواخر دولة بني أميـة وأوائل دولة بني العباس — لا تزال بها رسيس من بداوة، وكتابها لا يفتأون ناهجين في أساليبهم نهج العروبة الخالصة، لم تشبها كدرة العجمة. ومن كان منهم أعجمي التفكير فإنه عربي قح في التعبير، ومن أريدت له من أبناء العجم — وما أكثرهم — المنزلة الرفيعة والحظوة المكينة لدى رجالات عصره وسراة دولته، فأداته الأولى حذق العربية والتبحر فيها، وممارسة الأدب والبراعة فيـه، والاحتفال له، واتخاذ صناعة الكتابة وسيلة زلفاه، وسبب علياه، والمشرع الذي يشرعه لا يحلّئه عنه أحد، ولا يذوده دون وروده ذائد؛ هو شدو اللغة بين بدوها، ينهل من قطرها ونبعها. ولقد كان أرباب السلطان يهيبون بمن يتخيلون فيهم مخايل الفطنة والموهبة والذكاء والنبوغ أو يتوسمون منهم فوقاً وحذقاً وبراعة ونبلاً؛ يهيبون بهم أن يهبطوا أول أمرهم في البادية تشرق فيها قرائحهم عن أفكار صافية، وتجرى ألسنتهم على الألفاظ السليمة الخالصـة، ثم يموجوا إلى رهط الحضر يعبُّون من أخيلته السامية، ويمتاحون من معارفه الزاخرة، ولم تكن الفارسية قد زحمت العربية إلا بقـدر، والعجمة لا تزال محدودة البيئة والوطن؛ لأن كلتا الدولتين الغاربة والشارقة، أو الأموية والعباسية إبان ذلك تبتغي مأرباً واحداً؛ فالأولى تريد لعرشها نهوضاً ولملكها رسوخاً، على ظبات الرماح وعلى أسلات اليراع؛ والأخرى تطلب لنجمها الصاعد سطوعاً وتبني ملكاً ثابت الأساس؛ فرجالها في حاجة إلى من يملك أسماع جمهور العامة بفصاحتـه الصّافية، ويخلب ألباب قارئيه من الخاصة ببلاغته الصافية؛

وما حديث عبد الحميد الكاتب إلا شاهد ما نقول من أن دولة الكتابة كانت — ولا تزال — عماداً قوياً لدولة السياسة

قام أبو مسلم الخراساني بالدعوة العلوية أو العباسية وظهر في كثير من الأقاليم، وذاع أمره واستشرى خطبه، فأراد عبدالحميد أن يحاربه بكتبه لا بكتائبه، وأن يأسره بلسانه لا بسنانه، فكتب إليه على لسان مولاه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية كتاباً يستصفيه وده ويستخلصه إليه، وقال لمولاه: قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره؛ فإن يك ذلك وإلا فالهلاك. ولكن أبا مسلم داهية الفرس ودهقانها وقائد خراسان ومحنكها لم يكن بالغر يلعب بعقله الأدب، وتشغله عن واجبه الكتب، فلم يعبأ بالكتاب ولابالاه، بل أمر بإحراقه وتركه تذروه الرياح، وكتب على قطعة منه إلى مروان:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى

عليك ليوث الغاب من كل جانب

في أعقاب عصر عبدالحميد وابن المقفع وأضرابهما وفي طلائع العصر الثاني الذي تحوّل فيه حال الكتابة وتبدل أمرها؛ إذ طغى العجم على العرب واستهتر الكتاب بالمجون والخلاعة، وصيّروا الكتابة أداة من أدوات اللهو، وسبباً من أسباب الدعة، وجعلوا لها من الأغراض ما للشعر وزيادة، أهلّ أبو الفرج، وعلى لوائها أبو الفضل بن العميد، وقد فُتن ومن لاحقه باللفظ المبهرج والأسلوب المزخرف، فالعبارات موشحة مرصعة، والفقرات مجنسة مطبقة، وأنواع البديع في الكتابة كزهر الربيع إلا أنها لاتجيء عفو الخاطر أو ربيبة القريحة كما كانت قبلا، بل تأتي بكد ذهن وعصر مخ وإعمال فكر؛ أما المعنى فكانت له لدى كتاب هذا العصر المنزلة الدنيا، فالأفكار ضيقة، والأخيلة محصورة محدودة؛ لذلك سرى في الكتابة روح غير روحها الأول، وسار الكتاب وئيداً إلى غير النهج الأمثل. على أن ابن العميد ولداته ومنهم أبو الفرج لم يغلوا غلواً ممقوتاً، ولا تطرفوا تطرفاً ممجوجاً، فعل من أتى بعدهم ممن سار على دربهم، فلم يصلوا إلى ماوصل إليه أسلافهم، فقد كانت أخيلة ابن العميد فارسية في حلة عربية، وألفاظه زائنات معانيه، ومعانيه درر كشفت عنها ألفاظه. ولقد ضرب به المثل فقيل: (بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد) وكأني بصاحب هذا المثل يريد أن يكسف شموساً أشرقت من بعده وفي عهده، وأن يخسف بدوراً سطعت على كتبه لافضل له عليهم إلا أن الدنيا لم تسر في ركابهم، والملك لم يقف على بابهم. وهذا أبو الفرج سرى على ضوئه وارتشف من نبعه حتى روى؛ وسار في عدوائه وضرب، حتى بلغ غاية التأمل، ووصل إلى مرتبة التفضل. وسأعرض قطعة من غرر نثر ابن العميد ترسل إلينا قبساً من سناه، وتكشف لنا عن سمو نثره وعلاه، ثم أقدم بين يدى القارئ الكريم أخريات لأبي الفرج، وأترك الحكم للحاذق الفهم. ولا أظن أن البيغاء قصر كثيراً عن رئيس الكتاب سوى أن الدنيا أقبلت على الرئيس ابن العميد فنحته محاسن غيره، وسلبت غيره محاسنه وأولته مثالب ومساوئ

كتب ابن العميد إلى أبي العلاء السروىّ وهو من أصفى خلصائه فالكتابة إليه في نهاية الجودة كما يقول الثعالبي (لصدوره عن صدر مائل إليه محب له مناسب بالأدب إياه) كتب إليه يشكو شهر رمضان وهو من الأغراض التي لم يحاك فيها سابقاً قال:

« كتابي — جعلني الله فداك — وأنا في كد وتعب منذ فارقت شعبان، وفي جهد ونصب من شهر رمضان، وفي العذاب الأدنى — دون العذاب الأكبر — من ألم الجوع ووقع الصوم، ومرتهن بتضاعف حرور لو أن اللحم يصلى يبعضها غريضاً أتى أصحابه وهو منضج، وممتحن بهواجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب، ويصرف وجه الحرباء عن التحنق، وزويه عن التبصر يقبض يده عن إمساك ساق، وإرسال ساق:

ويترك الجاب في شغل عن الحقب. ويقدح النار بين الجلد والعصب

ويغادر الوحش وقد مالت هواديها

سجوداً لدى الأرطى كأن رءوسها

علاها صداع أو فواق يصورها

ومنها:

« وممنو بأيام تحاكي ظل الرمح طولاً، وليال كإبهام القطاة قصراً، ونوم كلا ولا قلة، وكحسو الطائر من ماء الثماد دقة، وكتصفيقة الطائر المستحر خفة..

كما أبرقت قوماً عطاشا غمامة فلما رجوها اقشعت وتجلت

(و)

كنقر العصافير وهى خائفة   من النواطير يانعَ الرطب »

وهى طويلة وفيما قدمنا منها غنية عما تركنا . وقد جلت لنا طريقته فى الكتابة التى سلكها من عاصره ومن تابعه . ونعرض صوراً متنوعة من كتابة أبى الفرج علنا نؤدى واجبه كاملا دون تحيف أو تزيد

هنأ ممدوحه سيف الدولة بظفره فى إحدى وقائعه فقال من كتاب طويل :

والشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته ، تطرق الدنيا إذا نطق ، وينطق المجد إذا افتخر ، فالآمال موقوفة عليه ، والثناء أجمع مصروف إليه ، نهض بما قعدت همم الملوك عن ثقله ، وضعف الدهر عن معاناة مثله ، بهمم سيفية ، وعزائم علوية ، فرد شمل الدين جديداً ، وذميم الأيام حميداً ، بحق أوضحه ، وخلل أصلحه ، وهدى أعاده ، وضلال أباده

فلا انتزع الله الهدى عز بأسه   ولا انتزع الله الوغى عز نصره
وأحسن عن حفظ النبى وآله   ورعى سوام الدين توفير شكره
فما تدرك المداح أدنى حقوقه   بإغراق منظوم الكلام ونثره

لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر ، وأيسر منة تفوت المبالغة فى جميل الذكر ، فأما هذا الفتح الشريف خطره ، الجميد أثره ، المشهور بلاؤه ، الواجب ثناؤه ، الباسق فرعه ، العام نفعه ، فأشرف من أن يحد بالصفات ، أو يعد بأفصح العبارات »

وله من أخرى فيه أيضاً :

« شهاب ذكاء ، وطود وفاء ، وكعبة فضل ، وغمامة بذل ، وحسام حق : ولسان صدق ، فالليالى بأفعاله مشرقة ، والأقدار لخوفه مطرقة ، تحمده أولياؤه ، وتشهد له بالفضل أعداؤه

يقابلنا البعد من برده   ويشملنا السعد من سعده
ولو تخر المجد لم تلقه   فخوراً بشىء سوى مجده »

ولما مات سيف الدولة ولى نعمته كتب إلى عُدَّة الدولة يذكر له رغبته فى خدمته وأن يطوى باقى أيام حياته تحت رحمته قال :

« ومن أبرز لسيدنا صفحة رجائه ، ووفق للانقطاع إلى سمة نعمائه ، فقد استظهر لما بقى من عمره ، وحكم لنفسه بالفوز على دهره

فما يقدح الفقر فى حاله   ولا يطمع الدهر فى قصده
وكيف وقد صار ضيف النعا   م وهو قريب على بعده
ومن علقت بأبى تغلب   يداه احتذى البدر من سعده
همام قضى الله من عرشه   له بالإمارة فى مهده
قطود السيادة فى دسته   وشمس الرياسة فى برده »

وقد أجاب الأمير مسألته ، وأناله مألكته ، فكتب إليه من رسالة طويلة :

« أفصح دلائل الإقبال ، وأصدق براهين السعادة — أطال الله بقاء سيدنا — ما شهدت العقول بصحته ، ونطقت البصائر بحقيقته ، ونعمة الله تعالى على الدين والدنيا بما أولاهما من اختيار سيدنا لحراستهما بناظر فضله ، وسترهما بظل عدله ، مفصحة بتكامل الإقبال ، مبشرة بتصديق الآمال »

وفيها :

« للصدق كلامه ، وللعدل أحكامه ، وللوفاء ذمامه ، وللحسام عناؤه ، وللقدر مضاؤه ، وللسحاب عطاؤه :

دعوته فأجابتنى مكارمه   ولو دعوت سوى نعماه لم تجب
وجدته الغيث مشغوفاً بعادته   والروض يجنى بما فى عادة السحب
لو فاته النسب الوضاح كان له   من فضله نسب يغنى عن النسب
إذا دعته ملوك الأرض سيدها   طراً دعته المعالى سيد العرب »

هذه فقر مشرقة الديباجة مزهرة الرقعة ، انتظمت الحسن كله ، وضمنت الجمال جميعه ، فهى على حد تعبيرنا الحديث الشعر المنثور ، أو النثر المنظوم ، والدر المنضود ، أو السحر المرسوم أوحى به عقل أبى الفرج ، وجرى به خاطره ، فسجله الزمان فى كتبه ؛ وما استعرضناه من نثره يبيح لنا أن نقول :

إنه كان مغرماً بالسجع القصير الفقر الموشى الحبر ، فالجناس يزينه ، والطباق يجمله ، هذا إلى الاستشهاد بالأمثال السائرة والأبيات الشاردة

وإنى أرجو أن أكون قد وفيت ما إليه قصدت من تفصيل حياة رجل غمر غمره التاريخ وطواه . فإن أكن قد بلغت فللرسالة أكبر الفضل ، وإلا فعلى رمضان بعض العتب ، وما توفيقى إلا بالله قصرت أو أوفيت

عبد العظيم على قناوى

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٣٠١ — الصوم فى الليل

فى (المراح فى المزاح) شكى[1] عيينة بن حصن إلى نعمان صعوبة الصيام ، فقال له : صم الليل . فروى أن عيينة دخل على عثمان وهو يفطر فى شهر رمضان ، فقال : العشاء

فقال : أنا صائم

فقال عثمان : الصوم فى الليل ؟ !

فقال : هو أخف على

فيقال : إن عثمان قال : إحدى هنات[2] نعمان ...

٣٠٢ — ولا مناع أكل طعام

ابن قتيبة : قدم اعرابي على ابن عم له بالحضر فأدركه شهر رمضان ، فقيل له : أبا عمرو ، لقد أتاك شهر رمضان . قال : وما شهر رمضان ؟ قالوا : الامساك عن الطعام . قال : أبالليل أم بالنهار ؟ قالوا : لا ، بل بالنهار . قال : فان لم أصم فعلوا ماذا ؟ قالوا : تضرب وتحبس . فصام أياماً فلم يصبر ، فارتحل عنهم وجعل يقول :

يقول بنو عمى وقد زرت مصرهم : تهيأ (أبا عمرو) لشهر صيام

فقلت لهم : هاتوا جرابى ومزودى سلام عليكم ، فاذهبوا بسلام[3]

وبادرت أرضاً ليس فيها مسيطر علىّ ولا منّاع أكل طعام[4]

٣٠٣ — أعمد لصومك واتركنى وإفطارى

قال بعضهم : مررت بأعرابي يأكل فى شهر رمضان ، فقلت له : ألا تصوم يا أعرابي ؟ فقال :

(١) شكيت لغة فى شكوت
(٢) هنات : فعلات ، جمع هنة
(٣) المزود : وعاء يجعل فيه الزاد
(٤) بادر الشى وبادر إليه : أسرع

وصائم هبّ يلحانى فقلت له : اعمِد لصومك واتركنى وإفطارى[1]

واظمأ فإنى سأروى ثم سوف ترى من ذا يصير إذا متنا إلى النار ؟

٣٠٤ — أنا مثلك ...

وجد يهودى مسلماً يأكل شواء فى نهار من شهر رمضان[2] فطلب أن يطعمه ، فقال له المسلم : ياهذا إن ذبيحتنا لاتحل لليهود . فقال : أنا فى اليهود مثلك فى المسلمين ...

٣٠٥ — فتوى

قال الربيع بن سليمان : كنت عند الشافعى فجاءه رجل برقعة فقرأها ووقع فيها ، فمضى الرجل وتبعته إلى باب المسجد فقلت : والله لا تفوتنى فتيا الشافعى ، فأخذت الرقعة من يده فإذا فيها :

سل المفتى المكي هل فى تزاور وضمة مشتاق الفؤاد جناح

فوجدت الشافعى قد وقع :

فقلت : معاذ الله أن يذهب التقى تلاصق أكباد بهن جراح

قال الربيع : فأنكرت على الشافعى أن يفتى لحدث بمثل هذا . فقلت : يا أبا عبد الله ، تفتى بمثل هذا لمثل هـذا الشاب ؟ فقال لى : يا أبا محمد ، هذا رجل هاشمى قد بنى على أهله فى هذا الشهر — يعنى شهر رمضان — وهو حدث السن ، فسأل هل عليه جناح أن يقبّل أو يضم ـ وهو صائم ـ فأفتيته بهذا

قال الربيع : فتتبعت الشاب فسألته عن حاله ، فذكر لى مثل ما قال الشافعى ، فما رأيت فراسة أحسن منها

٣٠٦ — شتاد بين قرى وبين رجال

فى (المحاسن والمساوى) للبيهقى : نظر المأمون يوماً إلى ابنه

(١) هب يفعل كذا : طفق ، أخذ ، شرع . فى (التاج) : من المجاز لحيت فلاناً ألحاه لحيا إذا لمته فهو لاح وذاك ملحى كرمى . قال الكسائى : لحيت الرجل من اللوم بالياء لاغير ، ولحيت العود ولحوت بالياء والواو

قيل لبعضهم : أى وقت تحب أن تموت ؟ قال : إن كان ولابد فأول يوم من رمضان . ولبعضهم :

وتأمرنى بالصوم لادر درها وفى القبر صوم ـ يا أميم ـ طويل

(٢) الأزهرى : العرب تذكر الشهور كلها مجردة الا شهر ربيع وشهر رمضان (اللسان) وجمع رمضان : شهور رمضان ورمضانات ، والمحرم : المحرمات ، صفر : أصفار ، شهر ربيع : شهور ربيع ، رجب أرجاب ، وجماديات ، وشعبانات ، وشوالات شواويل ، وذوات القعدة ، وذوات الحجة (أدب الكتاب لابن قتيبة)

العباس وأخيه المعتصم فابنه العباس يتخذ المصانع[(١)] ويبني الضياع والمعتصم يتخذ الرجال فقال :

يبني الرجال ، وغيرُه يبني القـرى
شتّانَ بين قُرى وبين رجالِ [(٢)]

٣٠٧ — أنظر كيف شئت

قال ابن سعيد المغربي : كان بنو حمود من ولد إدريس العلوي الذين توثبوا على الخلافة في أثناء الدولة المروانيـة بالأندلس يتعاظمون ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس ؛ وكانوا إذا حضرهم منشد لمدح أو من يحتاج إلى الكلام بين أيديهم يتكلم من وراء حجاب . والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة . ولما حضر عبد الرحمن بن مقانا القنداق الأشبوني وأنشد إدريس بن يحيي الملقب بالعالي قصيدته النونية :

ألبرقٍ لائحٍ من أندرين ذرفت عيناك بالماء المعين[(٣)]
لعبت أسيـافه عـارية كمخاريق بأيدي اللاعبين
ولصوت الرعد زجر وحنين ولقلبي زفرات وأنين
وأناجي في الدجى عاذلتي ويك لا أسمع قول العاذلين
عيّرتني بسقـام وضني إن هذين لدين العاشقين[(٤)]
قد بدا لي وضح الصبح المبين فاسقنيها قبل تكبير الأذين[(٥)]
أسقنيهـا مُزّةً مشمولة لبثت في دنها بضع سنين[(٦)]
مع فتيان كـرام نجب يتهادَون رياحين المجون
شربوا الراح على خـدٍّ رشاً نوّر الورد به والياسمين

فلما بلغ إلى هذا البيت :

أنظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين !

رفع الخليفة الستر بنفسه وقال : أنظر كيف شئت . وانبسط مع الشاعر ، وأمر له باحسان . فكان هذا من أنبل ما يحكى عنه

٣٠٨ — الحمرة التي تعلو وجهها من الحياء

في (الظرائف واللطائف) للمقدسي : قيل لبنت أرسطاطاليس : ما أحسنُ ما في المرأة ؟

قالت : الحمرة التي تعلو وجهها من الحياء

٣٠٩ — المقابلة

في (خزانة ابن حجة) : المقابلة من أنواع البديع وهي التنظير بين شيئين فأكثر ، وبين ما يخالف وما يوافق[(١)] . ومن معجزات هذا الباب قوله تعالى : (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله) ولأبي الطيب في مقابلة خمسة بخمسة :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

وأخبرني مولانا قاضي القضاة الشافعي نور الدين الحاكم بحماة المحروسة الشهير بخطيب الدهشة أنه كان بحماة يهودي يطوف بالحناء والصابون على رأسه ويقول : معي حناء أخضر جديد ، وصابون يابس عتيق

٣١٠ — مضطر

قال أبو سعيد السيرافي : رأيت متكلماً ببغداد بلغ به نقصه في العربية أنه قال في مجلس مشهور : إن العبد مضطرُ[(٢)] بفتح الطاء ، والله مضطرّ بكسرها . وزعم أن من قال : مضطر عبده إلى كذا بالفتح — كافر . فانظر أين بلغ به جهله ، وإلى أي رذيلة أداه نقصه

(١) المصانع : الأبنية ، القصور . والعرب تسمي القرية والقصر مصنعة ويقولون هو من أهل المصانع يعنون القرى والحضر

(٢) يقال : شتان ثما هما ، وشتان ما بينهما ، وشتان بينهما . وذكر (المزهر) شتان ما بينهما في المولد . وفي (اللسان) أبي الأصمعي : شتان ما بينهما . وفي (الاقتضاب) : قـد أنكر الأصمعي أشياء كثيرة كلها صحيح . و (بين) تكرر مع المظهر كما تكرر مع المضمر ، وذلك في كلام الجاهليين والاسلاميين أكثر من الكثير . وقد خطأ الحريري في (الدرة) التكرير وذكر الخفاجي في (شرحها) جوازه

(٣) أندرين : اسم قرية (كانت) في جنوبي حلب بينهما مسير يوم للراكب (ياقوت) ومن سلطان الألفاظ الشعرية حنين أندلسيين إلى أندرين في شعرهم .

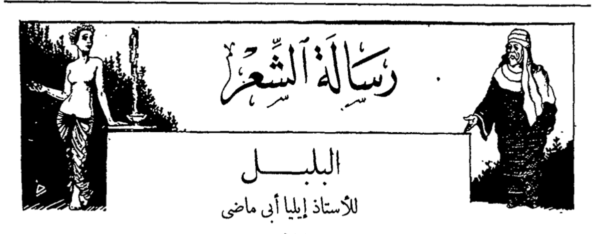
(٤) عيره كذا وبكذا قال عدي
أيها الشامت المعير بالدهر أأنت المبرأ الموفور ؟

(٥) الأذين : المؤذن ، الأذان .

(٦) المزة والمزاء (بضم الميم) الخمر التي تلذع اللسان وليست بالحامضة (اللسان) خمر مشمولة : طيبة الطعم (الأساس)

(١) المقابلة أعم من المطابقة ، المطابقة لا تكون إلا بالأضداد والمقابلة بالأضداد وغير الأضداد (الخزانة)

(٢) إسما الفاعل والمفعول في مثـل (مضطر) المدغم و (محتاج) المعتل يظهران في صورة واحدة



البلبـــــل

للأستاذ إيليا أبى ماضى

يا أيها الشادى المغرد فى الضحى ... أهواك إن تنشد وإن لم تنشد

الفن فيك سجية لا صنعة

والحب عندك كالطبيعة سرمدى

فإذا سكت فأنت لحن طائر ... وإذا نطقت فأنت غير مقلد

لله درك شاعراً لا ينتهى ... من جيد إلا صبا للأجود

مرح الأزاهر فى غنائك والشذا

وطلاقة الغدران والفجر الندى

وكأن زورك فيه ألف كمنجة ... وكأن صدرك فيه ألف مردد

***

كم زهرة فى السفح خادرة المنى ... سكنت على يأس سكون الجلمد

غنيتها فاستيقظت، وترنحت ... وتألقت كالكوكب المتوقد

وجرى الهوى فيها وشاع بشاشة ... من لم يحب فإنه لم يولد

وكأننى بك حين تهتف قائلاً ... للزهر: إن الحسن غير مخلد

فاستنفدى فى الحب أيام الصبا ... واسترشديه فهو أصدق مرشد

واستشهدى فيه، فمن سخر القضا

ألا تذوقيه ... وأن تستشهدى!

***

يا فيلسوفاً قد تلاقى عنده ... طرب الخلى وحرقة المتوجد

رفع الربيع لك الأرائك فى الربى ... وكسا حواشيها برود زبرجد

أنت المليك له الضياء مقاصر ... وتعيش عيش الناسك المتزهد

مستوفزاً فوق الثرى، متنقلا ... فى الدوح من غصن لغصن أملد

متزوداً من كل حسن لمحة ... شأن المحب الثائر المتمرد

وإذا ظفرت بنغمة وبقطرة ... فلقد ظفرت بروضة وبمورد

تشدو وتبهت حائراً، متردداً ... حتى كأنك حين تعطى تجتدى

وتمد صوتك فى الفضا متلهفاً ... فى ذلة المسترحم المستنجد

فكأنما لك موطن ضيعته

خلف الكواكب فى الزمان الأبعد

طوردت عنه إلى الحضيض فلم تزل

متلفتاً كالخائف المتشرد

يبدو لعينيك فى العقيق خياله ... وتراه فى ورق الغصون الميد

صوراً معددة لغير حقيقة ... كالآل لاح لمعطش فى فدفد

فتهم أن تدنو إليه وتنثنى ... حتى كأنك خائف أن تهتدى!

وكأنه حلم يصح مع الكرى ... فإن انتبهت من الكرى يتبدد

كم ذا تفتش فى السفوح وفى الذرى

عنقاء أقرب منه للمتصيد

***

يا أيها الشادى المغرد فى الضحى ... أهواك إن تنشد، وإن لم تنشد

طوباك إنك لا تفكر فى غد ... بدء الكآبة أن تفكر فى غد

إن كنت قد ضيعت إلفك إننى ... أبكى على إلفى الذى لم يوجد!

إيليا أبو ماضى

وحي جديد (١)

للأستاذ سيد قطب

فى خِفّة الطير فى نضرة الزهرِ
لاقيتُها عَرَضاً بسّامةَ الثغر
فتّانةً تُغرى بالسحر والطهر
تهفو . فتحسبها لحناً هفا يسرى
فى لَفْتةِ الجيد فى خَفْقةِ الصدر
« تقسيم » موسيقى منغومة (٢) النبر

* * *

يا بسمةَ الفجر يا نفحةَ العطرِ
أسكرتِ وجدانى من لونك الخمرى
ألهبتِ إحساسى بالشوق . كالجمر
وهمستِ فى قلبى وهتفتِ فى صدرى
وبعثتِنى أشدو للحبِّ بالشعر
وكأننى روح تَغْفو خُطا سحر
مفتونة ترنو للكون فى سُكر
والكونُ يشملها بالأنس والبشر

* * *

عَجَبى لما ألقى من لغزك السحرى!
وحىٌ يوسوس لى فى السر والجهر
حوّلتِ عمرىَ من شطر إلى شطر
حبّبْتِنى ، عجباً ! فى عيشةِ الوكر
قد كنتُ أرهبها كالنّاب والظفْر !
وإخالها شركا فى البر والبحر !
إذ كنت أُدمغها بالشك والغدر
فلأنتِ ثقةٌ بجمالها المغْرى
ورسمتِ لى صورا لفراخها الخضر
تَزْقو فنطعمها بحناننا النضر
وتَريشُ أجنحة من ريشها النّزْر
فتطير هازجةً فى جوّنا الشعرى
وتؤوب وادعة للعش كالطير !

* * *

يا فتنتى ، هذا طيف من السحر
إن تأذنى أضحى شطراً من العمر
فهى لى (١) روحا من رُقيةِ الثغر
هى قبلة تُمضى ما شئتِ من أمر
وكأنها قَدَرٌ بسعادتى يجرى

سيد قطب

(١) من ديوان « أصداء الزمن » يصدر فى ديسمبر
(٢) (كذا)

رجاء نفس

للأستاذ خليل هنداوى

لا تيأسى يا نفس واعتزمى صبراً ، فليس اليأس من خلقى
هذا مطاف المجد فانطلقى قُدُماً ، وهذا العز فاستبقى

جارت على عصفور روضتنا هوجاء تخبط خبطة القدر
والآن جدد عشه فرحاً واختال يبسم بسمة الظفر

النور فى الآفاق ملتمع فتجلبى يا نفس بالنور
والأفق قد ضحكت مشارقه والسحب ترقص رقصة الحور

هذا الوجود صفت مشاربه فترنحى كالشارب الثمل
لنجدد الآمال ثانية ما أوسع الأيام بالأمل !

عودى إلى دنياك ناشطةً نبنى على الأنقاض والرمم
لم يوح من أودى بمظهره للحى معنى اليأس والسأم
أنا من إذا هدمتْ بنى وإذا عبس القضاء بوجهه ابتسما
أنا من إذا سأمٌ تعاورَنى صيرتُ لهواً ذلك السأما ...

خليل هنداوى

(١) (كذا)



من أساطير الاغريق

٤ ـ خرافة جاسون

للأستاذ دريني خشبة

تتمـــة

أقلعت الآرجو وطفقت تطوى عباباً من بعده عباب ، ولجة من ورائها لجة ؛ وبدا الطريق كأنه يطول ، والأفق كأنه يحلولك ، والسحب كأنما تتجمع من كل صوب لتنعقد فوق الآبقين بكنوز إيتيس وابنته وولى عهده ...

ونمى الخبر المفزع إلى الملك فجن جنونه ، وهب من فوره بعد أساطيله ليقتفى آثار جاسون ، عسى أن يقبض عليه ، ويعود بابنيه وأعز كنزه ... وانطلق هو الآخر يطوى العباب ، ويتواثب بأسطول فوق أعراف الموج ، ووقف بين اللاحين يحضهم ويحرضهم ، ويستحثهم ويشجعهم ، حتى لاحت الآرجو لهم كالنكتة السوداء فى حمرة الشفق ، أو المطوقة الورقاء فى صحيفة الأفق ، فضاعفوا الجهود وشدوا الأذرع ، واستبقوا إليها من كل فج ؛ وكانت سفينة الملك فى المقـدمة كالطائر الدليل يتبعه سائر السرب ؛ ونظر الأرجونوت فأبصروا السفينة تنقذف فوق نواصى الموج نحوهم ، فراحوا بدوزهم يعملون المجاديف ويُهدهِـدُون الشراع للريح ؛ وكلما اقتربت السفينة منهم خفقت قلوبهم وشاع فيها الذعر فجمد عليه يبرده . وكانت ميديا تنظر إلى مركب أبيها وترتعد فرائصها من الفَـرَق ... وفكرت فى ألف حيلة وألف سحر ، ولكن أفكارها ذهبت كلها أباديد ، وبطل سحرها كله فهو لا ينفع ولا يفيد ... واقتربت سفينة أبيها حتى صارت على رميـة سهم ... وأخذ أبوها المسكين يهتف بها وينادى ، ويتوسل أن تعيد إليـه ابنه ... ابنه الأوحد ... أبستروس ... « ميديا ! ابنتى ! أنا أبوك ! أتوسل إليك ! ردى علىّ ولدى واذهبى أنى تشائين ! إنه أملى فى الحياة ! إنه ولى عهدى وحافظ ذريتى ! ميديا ! أرسليه فى زورق واذهبى أنت ... ! »

ولـكن الفتاة غَـلّقتْ فؤادها وسدّت بالجحود سمعها ! واأسفاه ! يالقاسية ! يالبرودة القلب الذى لا يحس ، والنفس التى لا ترحم ؟ لقد أمرت ميديا بالفتى فأحضر إليها ، ثم شحذت سِكّيناً وأغمدته فى صدره ، وتدفق الدم الحار ... دم الشباب الفينان ... يلطخ اليد الأثيمة المجرمة ... اليد الشقية ، يد ميديا التى طوّعت لها نفسها المثلقة قتل أخيها ، ثم تقطيعه إرْباً ... ؟

ماذا خطر برأس الساحرة ؟ أواه ! لقد أخذت تمزق أخاها مِزَقاً مِزَقاً ، وكلما اقتطعت منه شِلْواً قذفت به فى المـاء ، وأبوها المسكين المجنون يرى ، فيضطر أن يتلبث عند الشلو لينتشله ، ثم يتلبث عند الشلو الذى يليه ... وهكذا دواليك ، حتى انتشل آخر الأمر الرأس العزيز ... الرأس الصغير الذى كان يبسم لأينع الآمال ، ويحلم بأجمل الأمانى ... رأس أبستروس ... ولى العهد ، والأمل المدّخر لأمة بأسرها ...

لقد انتشر الظلام فى عينى الملك ... وغمر قلبه قنوط مر ... وأمر اللاحين فطووا الشراع ، وأخذوا يعودون أدراجهم إلى الوطن فى بحر هادئ كله هم ، وكله حزَن ؛ وجلس إيتيس وبين يديه أشلاء ولده يغسلها بدموعه ، ويخضبها بالدم الذى تذرفه عيناه

— « آه يا بنى ! أية فروة وأى كنز ؟ ليتك خلصت لى بكل مُلكى ! ميـديا ! غضبت عليك آلهة السماء يا عاقة ! تبت يداك يا أغدر البنات ! ألا ليت أمك لم تلدك ... ! أبستروس ! رد علىّ أيها الحبيب ... ! » وهكذا ظل الملك المحزون يجتر أشجانه حتى عاد إلى الوطن !

* * *

ولـكن جاسون ما خطبه ؟ ! مسكين ! لقـد كان ينظر إلى ميديا وهو مأخوذ بما تصنع ! ولقد حاول أن يمنعها من ارتكاب

هذا الإثم ... لكنها حدجته بنظرة آمرة كان يرقص فيها ألف جنى ، فسكت ! وهل كان فى وسعه أن يفعل شيئاً ؟ ! أنيس يذكر الحجر الواحد الصغير الأسود الذى أهلك جيشاً بأكمله ؟ ورد عنه كيد ألف ألف مقاتل من المردة الجبابرة ؟ ! بيد أنه عرف الآن ماذا كان يحجز بين قلبه وبين فم هذه المرأة الهائلة حين كانت تغمر خديه وجبينه بالقبل ! لقد كان السر الرهيب الطوى فى صحائف الغيب هو الذى يصون جاسون من مبادلتها حباً بحب وغراماً بغرام ، وقبلاً حارة ملتهبة بمثلها !

وقد فكر جاسون فى ملكه الضائع المغتصب ، وفى أبيه الضعيف الطريد ، وفى عمه الجبار العتى ، وفكر فى قوة ميديا الخارقة ، فآثر أن يبقى عليها عسى أن تنفعه ... لهذا أظهر لها التودد ، وتمثل فى حضرتها البشاشة ... حتى وصلت الآرجو إلى إيولكوس ، حاضرة تساليا ...

وحمل جاسون الفروة الثمينة ، وقصد إلى عمه ...

وذهل بلياس ... وجعل يحملق فى الكنز العظيم الذى أتاه به ابن أخيه ... وجعل يلمسه بيديه كأنه لا يصدق ... ولكن كيف لا يصدق وهذا بريق الذهب يكاد يذهب سناه ببصر عينيه جميعا ؟ !

— « ترى ماذا صنع هذا الفتى حتى وسعه أن يقهر ملك كولخيس على هذا الكنز العظيم ؟ إن الملك كان أحرص عليه من نفسه التى بين جنبيه ؟ ألا كم هلك أناس طمعوا فى فروة فركسوس ؟ عجلا ڤلكان ! وأرض مارس ! وجيل بأكمله ينبت من أنياب التنين ... ؟ والأفعوان الهولة الذى يحرس الفروة ؟ أظفر جاسون — هذا الفتى — بكل أولئك ؟ جاسون ابن أخى ؟ عجيب وحق الآلهة ... ؟ بل أسأله ، فلا بد من سر فى هذا الأمر ... » وسأله ، وتبسم جاسون ، وراح يلفق قصة طويلة قذف بها الرعب فى جوانح عمه ، وظل يتغنى بشجاعته ، ويصف ماكان من ظفره بعجلى ڤلكان ، وحرثه الأرض الجبوب ، وغرسه أنياب التنين ، ثم هذه الحرب الزبون التى شبها عليه المردة وماكان من إفنائه لجوعهم ، وتلك الملحمة التى قتل فيها التنين الرهيب الذى وكلت إليه حراسة الفروة العظيمة ... ثم إنه لم يشر بكلمة إلى ميديا

وأكرم عمه مثواه ... وكلما طلب إليه جاسون أن يتنزل له عن العرش ، مطله وراوغه ، وزخرف له الأمانى ... حتى أيقن جاسون أن عمه يعبث به ، بل يدبر له غيلة يخلص له العرش من بعدها ، ولا يعكر عليه صفو الحياة أىّ من تلاميذ شيرون !!

* * *

ولقى جاسون أباه ، فراعه أن يرى كومة من العظام نخرها الكبر ، وجللها الشيب ، وأوهاها الحزن ، وأوهنها الألم المتصل ، وناءت تحت كوارث الزمان ... وبكى جاسون ! ولكن أباه انتهره وقال له : « أى بنى ليس لرجل مثلك شب على فضائل شيرون أن يبكى ! إنما يبكى النساء والمستضعفون من الرجال . على أنه ماذا يبكيك ؟ ألا إن كان يبكيك اقتلاع أبيك من العرش فلهذا عهدت بك إلى أستاذك العظيم ، وأحسبه قد ذكر لك ماكان من وصاتى له حينما عهدت بك إليه يهذبك ويؤدبك ... ولقد أصبحت رجلاً شيخاً هالكا ، أما أنت ففى صباك فى إبان ، ومن عنفوانك فى ريعان ، وأنت بالعرش أحق منى وأولى ، وهو بك منى ومن عمك أليق ، ولن أغفر لك قعودك عنه ، وليس فى تساليا إلا شعب يحبك ، ورعية تلهج بالثناء عليك ، فشمر عن ساعدك ، واطلب حقك بالقنا ياجاسون »

وذهب الفتى وقد اضطرم بين جنبيه جحيم من النقمة على عمه ، فلقى أول من لقى ميديا

— ماذا ، فيم أنت مقطب هكذا يا حبيبى ؟

— لا شىء ... لا شىء مطلقاً !

— لا شىء ؟ وكيف ؟ ألا تفهم ميديا ما فى نفسك ؟ حدثنى ولا تخف علىّ !

— لا شىء وحقك يا ميديا

— أوَ مُصرٌّ أنت على كتمان دخيلتك عنى ؟ إذن لقد كان أبوك يعظك !

— أجل ! وبهذه المناسبة أريد أن أقول لك كلمة ...

— قل يا حبيبى ! تكلم يا جاسون !

— إن لك إلماماً تاماً بغرائب السحر ، وعلم التعاويذ والرُّقى ولقد نفعنى علمك فى أحرج مواقفى ... ولن أنسى مساعدتك يوم لقيت عجلىْ ڤلكان ، وحاربت المردة ، وقتلت التنين ... إنما فعلت كل أولئك بمعونتك ، ولى رجاء إليك ...

— رجاء ؟ أى رجاء يا حبيبى ؟ إنما أنت تأمر ...

— شكراً ! ألا تستطيعين ياميديا أن تردى الشباب إلى أبى ؟

إنه رجل شيخ محطم ، وإن الأيام لتنحدر به إلى القبر ، كما تنحدر صفوانة من شاهق ... فهل عزيز على علمك أن ترديه إلى ما ولى من الصبى ؟... خذى من عمرى فَصِلى عمره إن استطعت ! أتوسل إليك يا ميديا أن تفعلى ! ... »

— اطمئن يا حبيبى فليس أيسر مما طلبت ، وسأرده إلى ميعة شبابه بقليل من العناء ... وسأزيد فى عمره ما أحببت ... على ألا تنقص سنوك شيئاً بل تزيد إن شئت ؟ !

***

لقد كان البدر تماً ، والليل الفضى الجميل أروع ما ينثر لجينه على الطبيعة النشوانة [1] ، وكل ما فى البرِّية نائماً ساكناً ، والعشب الحلو كان نائماً كذلك ... وكانت ميديا تخطر كالشبح الأبيض بين الآكام وملء الأدغال حتى أتت إلى ربوة تشرف على كل ما حولها فصعدت فوقها ... وتلبثت قليلا تفحص الطبيعة الرائمة فى الأرض والسماء بعينيها الجبارتين ثم بدأت تتلو تعاويذها وتقرأ رُقاها ... وترسل للنجوم صلاة سحرية كان يحملها الليل الصامت إلى أرجاء السماء وإلى القمر الحالم الساهم ... ثم سبحت سبحاً طويلاً باسم هيكاتيه ربة السفل والسحر ، وباسم تللوس ربة هذه الأرض العجيبة النائمة التى تنبت البقل والعشب لِمَا تعمل ميديا ... وصلّت كذلك لآلهة الغاب والأنهار والبحار والغدران ، ولآلهة الرياح والضباب والسحاب ، وصلت لجميع الآلهة ، ولم تفتر تطلق التعاويذ وترسل الرق ...

ثم سكتت ... وصمت حولها كل شىء ... حتى الرياح كتمت أنفاسها ... ثم تشققت السماء فكانت وردة كالدهان ... ثم انفتح فيها باب كبير من ذهب ، وبرزت منه عربة عجيبة يجرها أفعوانان هائلان ، فلم يزالا يطويان الرحب حتى كانا عند قدمى ميديا ... وتقدمت الساحرة وهى تبتسم فركبت فى العربة ، وانطلق الأفعوانان يجرانها فى الهواء ، ويرفان بها فوق الوديان والغيران ، وفوق قلل الجبال وهضاب الأرض ، وفوق الغاب الساكن المستسر ، وفوق الأنهار والبحار ... وفوق كل شىء ... حتى انتهت إلى آخر أقطار الأرض حيث تنبت الأعشاب العجيبة التى تنفعها فى سحرها ... وهناك ... مكثت الساحرة تسع ليال بعيدة عن العالم تجمع العشب وتنتقى البقل ذا الأسرار ؛ ثم ركبت عربتها وانسابت فى الهواء حتى أتت بيت جاسون ، فنزلت بحملها العجيب وعرج الأفعوانان فى السماء ...

وفى الصباح ، فوجئ جاسون بوجودها فذعر ذعراً يشوبه شىء من التفاؤل بعودة الشباب إلى أبيه كما وعدت ... وأمرت أن يخلى بينهـا وبين إيسون حتى لا ترى عين إلى ما تصنع ، ولا تنكشف أسرار سحرها لأحد ما من العالمين ... ثم إنها أقامت مذبحين عظيمين أحدهما باسم هيكاتية ربة السفل والسحر ، والآخر باسم هيب ربة الشباب ، وذبحت لكل شاةً سوداء فاحمة السواد ، ثم صبت على دمائهما صلاةً للربتين من خمر ولبن ... وتوسلت بعد ذلك إلى پلوتو رب هيدز ، وإلى زوجه پروز ربين ، ألا يعجلا بقبض روح إيسون ... ثم بدحت نحو الرجل فتمتمت برُقْية أسلمته إلى نوم عميق ، وأضجعته على فراش مهدته له من الأعشاب العجيبة التى حملتها من أقصى الأرض ، وطفقت بعد هذا تخطر وتدور حول الجثة ، وشعرها المهدل يداعبه النسيم ، وصدرها المنكشف ناهد نحو السماء ... حتى إذا أتمت دورات ثلاثاً وقفت ، وشحذت سكيناً ماضياً ، وجعلت تشعل أعواداً من عشبها وتنظمها حول المذبحين ... ثم تناولت إداوتها التى حفظت بها أعشابها ذوات الأسرار ، وحفظت بها أزهاراً فيها من الرحيق السحرى ماهو آية ، وجعلت فيها من حجارة الشرق ورمال البحر المحيط ، ومن البَرَد الذى جمته أثناء رحلتها فى ضوء القمر ، وجعلت فيها رأس بومة وجناحيها ، وحوايا ذئب ، وبقايا من صدفة سلحفاة ، ومزقاً من كبد غزال ، ورأس غراب ومنسره ، وما إلى أولئك من آثار الحيوانات المعمرة ؛ ثم صبت على ذلك كله ماء وتمتمت بكلمات ، وأشعلت ناراً فجعلت عليها الإداوة بما فيها ، وتركتها تغلى وتفور ، وهى فيما بين هذا وذاك تعوّذ وتهمهم ، وتتمتم وتغمغم ، ثم تُقلب مافى الإداوة بغصن زيتون أملود ... فما كاد السائل يفور حتى نمت فى الغصن أفنان من الورق الأخضر ، وحبات من الزيتون يكاد زيتها يقطر منها ، وكلما نثرت منه على الأرض شيئاً نما مكانه عشب حلو أخضر كأحسن ماينمو العشب فى إبان الربيع !

ثم شحذت سكينها مرة ثانية ، ثم أهوت على حلقوم الشيخ فقطعته ، وتركت دمه ينبجس من الجرح الكبير حتى سال أجمعه ؛ ثم إنها صبت من الإداوة فى الجرح وفى الفم ، كأنما

---

(١) المشهور نشوى وقد استعملنا هنا لغة بنى أسد كسكرانة

تجمل منه مكان ماسال من الدم ... وما هي إلا لحظة حتى دبت الحياة الفتية فى جوارح الرجل الهدم المحطم ... فهذا شعره يَسْوَدُّ ويصير فاحماً غربيباً ... وهذا وجهه الجعد ذو الأسارير يمتلىء باللحم والدم ، وهذا ظهره المحنى يستقيم ويمتلىء قوة وعنفواناً ، وهذا دم الشباب يجرى فى عروقه كقبل أن يكتهل ، وها هو ذا يثب كالغلام الأمرد السمهرى ، ويشب على إخمصيه كأرشق مايفعل الصبيان !! وهاهو ذا الوجه يكتسى جمال العصر الخالى ... ثم ها هو ذا جاسون يقبل من بعيد فينظر إلى أبيه وكأنه فى حلم ... ويعانقه ويهنئه ... ويشكر ميديا ... ويبكى !!

***

— أرأيت يا حبيبى ؟ أليست لك حاجة بعد ؟

— وكيف ياميديا ؟ إنى مفتقر أبداً إلى واسع علمك ، ومبين سحرك !

— أمهمة أخرى ؟

— أجل يا ميديا ! ألا ترين إلى والدى مطروداً من عرشه ، وإليَّ يقتلنى الحزن من أجل ذلك ؟ ألا تصنعين شيئاً ينفعنا فى ذلك ؟

— ولم لانقتل عمك ؟ ألا يستحق القتل بعد كل هذه الجرائم ؟

— أنا ضعيف يا ميديا ... وهو رجل جبار وله جند ...

— إذن أنا أكفيك مؤونة ذلك ...

***

وأخذ إيسون يجوب شوارع المدينة فيراه الناس ، ويعجبون لهذا الشباب الذى تدفق فى بردتيه ، فيسجدون له وإن منعهم الجند وطاردوهم ... وعلم بنات الملك بما ردّت ميديا على عمهم من رونق الصبى ، وما ألبسته من رواء الشباب ... وكان أبوهم قد بلغ من الكبر ، ورزح تحت أعباء الملك المغتصب ، فوددن لو أتين له بميديا لتصنع معه ما صنعت مع إيسون ... واتصلن بالساحرة ، وأغرينها بالمال ، فرحبت وقبلت مختارة أن ترد إلى أبيهن الصبى ، حتى لا يغلبه على الملك إيسون ولا ولده جاسون ... وأحضرت الإداوة بما وعت من عشب ، ثم جىء لها بالشاة السوداء ، ولكنها جين تمتمت بكلماتها السحرية ، وكانت الإداوة تغلى بما فيها من سائل عجيب ، قفزت الشاة فكانت فى الإداوة ، ثم قفزت منها فكانت حَمَلاً وديعاً جرى إلى السهول يرعى العشب ... وطرب البنات حين شهدن آية السحر وإعجازه ... ثم جىء بالملك وحراسه ليشهدوا ... وأعطت ميديا كلا منهن سيفاً مسلولاً وتمتمت بكلمات فدارت الأرض برأس بلياس وصحبه وحراسه ، فسقطوا وغطوا فى سبات عميق ... وأشارت ميديا إلى البنات أن يضربن بسيوفهن عنق أبيهن وصدره لتبدأ هى عملها ... فتلكأن أول الأمر ... ثم أطعن ، وحركن أيديهن بالسيوف فى ضعف وفرق فأحدثن به جروحاً أيقظته ... فلما شهد بناته تأوه وتوجع وصرخ بهن : « ويلاه ! بناتى يقتلننى ! ؟ » وخافت ميديا أن يبطل سحرها فبدت فى صورة إحدى بناته ، واستلت سيفاً مرهف السنان وأغمدته فى صدر الملك اللص ... فمات إلى الأبد ... وأغمض عينيه ليفتحهما فى هيدز ... وفى هيدز فقط ...

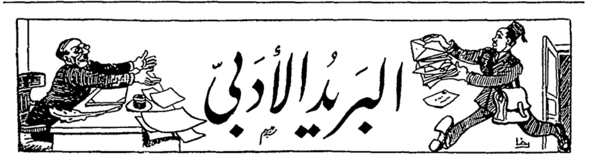
وكانت ميديا قد هتفت بالآلهة فأرسلت إليها العربة التى يجرها الأفعوانان ، وكانت قد فعلت فعلتها حين بدأ الفجر ينبلج ، فركبتها ولاذت بالفرار قبل أن يكشف صنعها أحد !

سبحان مقلب القلوب !! إن كل هذا السحر لم ينفع ميديا ! لقد كان قلب جاسون مغلقاً دونها برغم أنه بر بوعده فتزوج منها وأولدها أطفالاً أبرياء أطهاراً نقيين كالثلج !! لقد أحب جاسون الأميرة كروزا ملكة كورنث ، وأحب هذه المرة حباً صريحاً لايشوبه ذعر ... ولا تعكره التعاويذ ... ولا تتلفه رُقى السحر ... وأعلنت الخطبة ، فجن جنون ميديا ... واسودت الدنيا فى قلبها وعينيها ... وهاهو ذا نكران جاسون لجميلها الذى ناله مثنى وثلاث ورباع ... ولِمَ لا ؟ أليست هى التى مهدت له سبيله إلى العرش ؟ أليست هى قاتلة بلياس ... إذن فالويل له ! !

ودست إلى أميرة كورنثا ثوباً لو اجتمعت الجن والإنس لم تقدر على مثله ! ... فلما كانت ليلة الزفاف، لبسته كروزا، ولكنها ماتت لساعتها ! أواه ! لقد كان الثوب مسموما ... وكان ما به من سم يكفى لقتل شعب بأسره ...

ولم تكتف الساحرة بذلك ، بل شحذت سكينها ، وأعادت مأساة أبستروس ، فقتلت جميع أبنائها من جاسون ... وأشعلت النيران فى القصر الملكى ... وفرت إلى أثينا على العربة السحرية لتتزوج من ملكها إيجيوس ، ولتلقى ثمت مصرعها

دريني خشبة



جائزة فاروق الأول لإحياء العلوم والفنون والآداب

أرسل حضرة صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا وزير مصر المفوض في لندن إلى وزارة المعارف مذكرة يقترح فيها إنشاء جائزة مالية سنوية باسم « فاروق الأول » تمنح للمصريين المتفوقين في العلوم والآداب والفنون

وقد أحالت الوزارة هذا الاقتراح إلى لجنة لبحثه فأبدت طائفة من الآراء نشير إليها فيما يلي :

وافقت اللجنة سعادة المقترح على فكرة المباريات لما لها من الأثر الحسن في نهضة التأليف وإبراز ما يجول بخواطر العلماء والمفكرين من النزعات العلمية والفكرية ، بعد أن انصرف الكثيرون منهم عن البحوث والدراسات لأسباب مختلفة ؛ ولكنها تشترط في الكتب التي تقدم لهذه المباريات : أن تكون مثلاً صالحاً للابتكار ، وأن تكون جديرة بإحداث الأثر المرجو ؛ على ألا تكون هذه الكتب مترجمة ولا منقولة إلا ما يؤخذ من ذلك على وجه الاستشهاد أو الاقتباس

وتقترح اللجنة أن تكون الموضوعات التي تعرض في هذا السبيل سبعة : تاريخ الأدب المصري ، والنقد الأدبي ، وتاريخ مصر ، والاجتماع والتشريع والاقتصاد فيما له علاقة بمصر . ومسائل التربية والتعليم وتطبيقها في مصر . والزراعة في مصر . والعلوم في مصر

وترى اللجنة أن تكون الكتب مطبوعة ، وأن تنتظم لجان التحكيم فيها كبار العلماء والأدباء ، على أن يتم اجتماع هذه اللجان مرة في كل عامين

ثم أقرت الرأي القائل : بأن تتوج الجوائز « باسم فاروق الأول » فيقال : جائزة « فاروق الأول لتاريخ الأدب المصري » أو جائزة « فاروق الأول للعلوم » وهكذا

وقد تقرر أن تعقد لجنة يرأسها وكيل وزارة المعارف وتضم الوكيل المساعد ومراقبي التعليم لدراسة هذه الآراء والمقترحات وإعداد تقرير عنها توطئة لإصدار تشريع خاص بذلك ، لأنها ستكون جائزة رسمية للدولة

رامسي مكدونالد الكاتب والمفكر

لما نعي المرحوم المستر رامسي مكدونالد السياسي البريطاني الكبير ورئيس الوزارة البريطانية الأسبق أفاضت صحفنا في استعراض حياته السياسية ؛ ولكنها نسيت في حياته ناحية خطيرة هي ناحية التفكير والكتابة ؛ ذلك أن ماكدونالد كان كاتباً اجتماعياً واقتصادياً كبيراً ، وله في هذه الناحية آثار عديدة قيمة نذكر منها : «العمل والامبراطورية » Labour and Empire (سنة ١٩٠٧) ؛ « الاشتراكية والحكومة » Socialism and the Government (١٩٠٩) ؛ « يقظة الهند » Awakening of the India (١٩١٠) ؛ « الحركة النقابية » Syndicalism (١٩١٢) ؛ « البرلمان والثورة » Parliament and Revolution (١٩١٩) «الاشتراكية الناقدة والمنشئة» Socialism, Critical and Constructive (١٩٢١) ، وغيرها

وقد كان مكدونالد كاتب الاشتراكية الانكليزية ولسانها ، وكتابه عن الاشتراكية الذي صدر لأول مرة في سنة ١٩٢١ ثم أصدره بعد ذلك في سنة ١٩٢٤ ، وقت أن كان رئيساً لوزارة العمال الأولى ، يعتبر من أقوم الكتب الانكليزية التي صدرت في هذا الموضوع لا من الناحية العلمية والفنية ، ولكن من ناحية أنه يعبر أحسن تعبير عن ميول الاشتراكية الانكليزية ومثلها . وقد كان مكدونالد مدى أعوام طويلة زعيما لحزب العمال الانكليزي وزعيم الحركة العملية الانكليزية ، والمعبر عن أمانيها ومثلها ؛ وفي كتاب « الاشتراكية » يدلل مكدونالد بشروحه على أن

الاشتراكية الانكليزية لم تتقدم كثيراً فى مثلها الاقتصادية والاجتماعية عن الاشتراكية الغابية أو الاشتراكية الاصلاحية ، وإنها أبعد ما تكون عن روح الثورة الاجتماعية والاقتصادية التى ترمى إليها اشتراكية القارة الأوربية وتعمل لها . ولما تولى حزب العمال الحكم برآسة مكدونالد ظهرت هذه الحقيقة بصورة عملية فى سياسة الحزب الداخلية والخارجية ، وظهرت الاشتراكية الانكليزية فى صبغتها القومية العميقة . والخلاصة أن كتاب مكدونالد فى « الاشتراكية » هو رسالة الاشتراكية الانكليزية وحدها ، وهو يعتبر من جانب أنصار الاشتراكية المتطرفة رجعياً فى نظرياته وشروحه

جوائز نوبل

حملت إلينا الأنباء الأخيرة أسماء الفائزين ببعض جوائز نوبل لهذا العام ؛ فقد منحت لجنة جامعة استوكهلم جائزة نوبل للكيمياء للعالم النرويجى كارلر والأستاذ هاويت الانكليزى ؛ ومنحت جائزة نوبل للعلوم الطبيعية للأستاذ وارسون الأمريكى والأستاذ تومسون الانكليزى

وفاز بجائزة نوبل للآداب ، وهى فى الواقع أشهر جوائز نوبل ، الكاتب الفرنسى روجيه مارتان دوجار Roger M. Dugard ومسيو دوجار من جيل الكتاب الشبان الذين ظهروا فى عالم الصحافة بادىء ذى بدء ، ثم نبهت أقلامهم فى عالم الأدب ؛ واشتهر بالأخص بفصوله الأخبارية الشائقة . وتنقل مسيو دوجار فى دوائر الأدب ، وتزعم جماعة من الكتاب الشبان الذين انضووا تحت لواء مجلة الأخبار الأدبية Nouvelles Littéraires ، ولبث مدى أعوام مديراً لهذه الصحيفة الأدبية الهامة ، ولم يتركها إلا منذ حين ، إذ حل مكانه فى إدارتها الكاتب ليفبر ؛ وظهرت فى مجلة الأخبار الأدبية بقلم مسيو دوجار فصول ومقالات شائقة كثيرة معظمها عن مشاهدات وسياحات ، وكان من ماعدة فصول نشرت عن مصر ، ونالت استحساناً عظيماً . وله غير مقالاته الصحفية العديدة كتب وقصص تمتاز بقوة العرض وطلاوة الأسلوب

ويلوح لنا أن دوائر ستوكهلم المشرفة على جوائز نوبل أضحت تميل إلى تقدير النوابغ من الكتاب الذين لم تهيء لهم الظروف من الشهرة والمكانة ما يتفق مع عبقريتهم ، ولم تعد تتقيد كما كانت فى الماضى باختيار أولئك الأعلام الذين تربعوا فى ذروة الشهرة والنفوذ ، ومن ثم كان اختيارها لكتاب مثل إيفان بونين ، ودوجار ، لم يبلغوا — قبل فوزهم بجوائز نوبل — مكانة عظيمة من الشهرة فى عالم الأدب فرفعتهم باختيارها إلى المكانة اللائقة بفنهم وعبقريتهم

كيف يشجعون الآداب والفنون

يظهر أن السويد قد وطدت العزم على أن تغدو أولى الأمم فى حماية الآداب والفنون ، فهى فضلا عن جوائز نوبل الشهيرة التى تمنحها كل عام لعدة من أكابر العلماء والكتاب فى مختلف الأمم ، والتى تتدفق بمقتضاها على الفائزين عشرات الألوف من الجنيهات كل عام ، تضرب كل يوم مثلا جديداً فى هذا الميدان . وآخر ما انتهى إلينا من ذلك أن هبة جديدة قدرها مليون كرون (نحو ٥٥ ألف جنيه) قد رصدتها دار النشر السويدية الشهيرة « ألبرت بونير » لتشجيع المؤلفين والفنانين ، وذلك لمناسبة الاحتفال بعيدها المئوى . وقد أطلق على هذه الهبة « التذكار المئوى لألبرت بونير » وذلك تنويهاً بانقضاء مائة عام على صدور أول كتاب أصدرته هذه الدار ؛ وخصص دخل هذا الاعتماد للمؤلفين والصحافيين الذين يكتبون باللغة السويدية والفنانين الذين يتولون التصوير للكتب ؛ وندب لادارته مجلس يتألف من ممثلى الواهبين ، والصحافة ، ودوائر الأدب والفن السويدية ؛ ويجرى توزيع الجوائز السنوية تحت إشراف الجامعة السويدية

وهكذا تضرب الأمة السويدية الأمثلة الرائعة على رفيع تقديرها لعبقرية الفكر وعبقرية الفن . وقد كان نوبل صاحب الجوائز العلمية والأدبية العظيمة من رجال المال والصناعة ؛ وصاحب الهبة الجديدة ، وهو الدكتور بونير من رجال المال والصناعة ؛ ومع ذلك فان أولئك المولين استطاعوا أن يقدروا ما للآداب والفنون من الأثر العظيم فى نهضة الأمم وفى ازدهار الحضارة

أما فى مصر فان الآداب لم تنل حتى اليوم تقديراً ولا تشجيعاً ، لا من الجهات الرسمية ، ولا من رجال المال ؛ وما زالت فكرة الجوائز الرسمية لتشجيع التأليف تتردد منذ أعوام بين اللجان والجهات المختلفة دون أن تحظى بالتنفيذ العملى

محاضرات ألمانية عن الفن المصري

قرأنا في البريد الألماني الأخير خلاصة لبعض محاضرات يلقيها العلامة الأثري الألماني الدكتور جورج ريدر في همبورج عن أثر الفن المصري في تطور الفن اليوناني والفن الروماني. ومن رأى العلامة ريدر أن الفن المصري القديم بدأ من فجر التاريخ مستقلاً بنفسه منعزلاً عن غيره إلى نحو ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، ثم اتصل الفن اليوناني عندئذ بالفن المصري؛ ودلل المحاضر على نظريته بعرض صور مختارة من تراث مصر الفرعوني غير الآثار الفرعونية المعروفة. ومن قبل المسيح بنحو ثلاثة آلاف عام لبث الفن المصري كما هو ثابتاً في أساليبه وألوانه؛ فلما وقعت الصلة بين الفنين اليوناني والمصري تأثر الفن اليوناني بالفن المصري تأثراً كبيراً، ولبث هذا التأثير ظاهراً إلى ماقبل المسيح بنحو ثلاثة قرون، ثم تطور بعدئذ إلى أصوله وأساليبه الخاصة؛ ثم كان بعد ذلك تأثر الفن الروماني بالفن اليوناني

كتاب جديد عن مأساة التامبل

هذا كتاب جديد عن لويس السابع عشر وضعه المؤرخ الانكليزي مورتون بعنوان ولي العهد The Dauphin؛ وولي العهد هو الطفل لويس شارل ولد لويس السادس عشر وماري انتوانيت، وقد ترك وحيداً في سجن التامبل بعد قتل والده ثم والدته على نطع الجلاد؛ ولبث في سجنه الرطب القذر يلقى من حراسه أغلظ معاملة حتى مرض وأصابه انحلال مادي ومعنوي شديد. وهنا يسدل على مصير هذا الأمير الطفل حجاب كثيف، هل توفي في التامبل حسبما تؤكد الروايات المعاصرة والتقارير الرسمية؟ أم هل استطاع الملكيون أن يستبدلوا به طفلا آخر، وأن يمهدوا له سبيل الفرار إلى حيث شب وترعرع وقضى حياة مجهولة؟ هنا يضطرم الجدل وتكثر الروايات المدهشة؛ وهنا تبدو قصة الطفل الشهيد فصلا من أغرب فصول القصة. وفي أوائل القرن التاسع عشر انتحل كثيرون في مختلف الأنحاء شخصية الأمير، وزعم كل منهم أنه هو الطفل لويس شارل وأنه هو ولي العهد الفار، نجا من سجنه بأعجوبة، وكان أشدهم إلحاحاً في ذلك شخص ظهر في ألمانيا واسمه كارل ناوندورف، كان لمزاعمه صدى عميق ووصلت إلى القضاء الفرنسي. وفي عصرنا ظهرت روايات عديدة أخرى عن مصير ولي العهد قدمها إلينا مؤرخون مثل لينوتر، خلاصتها أن الأمير الطفل فر من سجنه وسافر إلى بعض جزر الهند الغربية وتوفي هنالك في بعض المشاغبات المحلية. وفي الكتاب الجديد يسرد مستر نورتون كل هذه الروايات والقصص بأسلوب شجي مؤثر يطبعه طابع علمي رزين

السينما للأمهات

قامت شركة الفحم وغاز الاستصباح البريطانية بعمل جليل لا يمت إلى أعمالها بصلة، وهو وإن يكن من قبيل الإعلان عن نفسها إلا أن له قيمته الكبيرة وأثره في أوساط التربية ودور العلم ... ذلك أنها عملت شريطاً سينمائياً لحياة الصغار في مدارس رياض الأطفال والمدارس الابتدائية، وأنفقت عليه مبالغ طائلة من مالها الخاص فجاء آية للأشرطة التربيوية، ومثالاً يحتذى ... وقد عنيت الشركة بإظهار وسائل الحياة في مدارس الأطفال وتلك العلائق المحببة التي تقوم بينهم وبين المدرسات على المودة والمحبة والألفة والحرية التي لا حد لها ... ويبدأ الشريط بعرض حياة الأطفال من وقت قيامهم من الفراش إلى أن يعودوا إليه، فلا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها ... ولما كانت الحياة في رياض الأطفال مثالاً عالياً لما ينبغي أن تكون عليه تنشئة الصغار فقد اقترحت صحيفة (عالم المعلمين) على الشركة عرضه في منتديات السيدات ودور السينما والمجتمعات العامة، على أن يشهده فيها جميع الأمهات بالمجان، ليترك فيهن أثره المرجو، ولتضمن بريطانيا جيلاً جديداً ينشأ على وسائل علمية نيرة كان يجهلها الجيل القديم. ثم لتكون كل البيوت الإنجليزية بهذا العرض رياضاً للأطفال ... ونحن بدورنا نقترح على وزارة المعارف عمل هذا الشريط التربيوي الجليل ليعرض في طول البلاد وعرضها على الأمهات، ليقبسن منه ويَقِسنَ عليه في تنشئ فلذات أكبادهن

الاحتفال بالذكرى الألفية لوفاة المعري

قررت وزارة المعارف السورية بمناسبة مرور ألف عام على وفاة أبي العلاء المعري إقامة مهرجان الفي لإحياء ذكراه تدعى اليه مصر وجميع الأقطار العربية

وقد انتهت الحكومة السورية من وضع تصميم لبناء ضريح الشاعر الفيلسوف في مسقط رأسه (المعرة) من ولاية حلب

المرحوم العلامة كمبفماير

نعت أنباء برلين الأخيرة المرحوم العلامة الدكتور جورج كمبفاير المستشرق الألماني الكبير، ورئيس جمعية الدراسات الاسلامية الألمانية وأستاذ اللغة العربية سابقاً بمعهد اللغات الشرقية ببرلين. توفى فى نحو الثمانين من عمره بعد حياة علمية حافلة أسدى فيها المباحث الاسلامية والآداب العربية خدمات جليلة؛ وكان من طبقة المستشرقين الأكابر التى تنقرض اليوم أمثال نيلدكه وزاخاو وبيكر وغيرهم من زملائه وأصدقائه. وتخصص الدكتور كمبفاير فى دراسة الآداب العربية، وتتبع بالأخص تطورات التفكير الشرقى الحديث والثقافة العربية المعاصرة؛ وله فى ذلك بحوث نقدية عديدة نشر معظمها فى مجلة معهد اللغات الشرقية Milteilungen des Seminars für O. S.؛ ولبث مدى أعوام طويلة ركناً من أركان معهد اللغات الشرقية، ولم ينقطع عن التدريس فيه إلا فى الأعوام الأخيرة إذ تفرغ لدراساته وكتاباته فى مجلة العالم الاسلامى Die Welt des Islams التى كان يصدرها باسم جمعية الدراسات الاسلامية والتى قطعت إلى اليوم زهاء عشرين عاماً من عمرها

وفى سنة ١٩٢٨ قام الدكتور كمبفاير برحلة دراسية فى مصر وبلدان الشرق الأدنى، واشترك بعدئذ فى وضع كتابين انتفع فيهما بهذه الدراسة: أولها كتاب زعماء الأدب العربى المعاصر الذى وضعه بالانكليزية مع تلميذه وصديقه الدكتور طاهر خميرى الذى يقوم الآن بتدريس اللغة العربية فى معهد همبورج الشرقى، والثانى كتاب «أين يتجه الاسلام» الذى وضعه بالانكليزية عدة من أكابر المستشرقين، وتولى الدكتور كمبفاير كتابة القسم الخاص بمصر فيه؛ وكان للعلامة الراحل أصدقاء عديدون فى مصر وجميع البلاد العربية، وكان بارعاً فى كتابة العربية والتحدث بها. وسنوافى القراء فى فرصة أخرى بدراسة مفصلة لحياة العلامة الراحل وآثاره

معرض لذكرى لورد بيرون

وضع أخيراً فى انكلترا مشروع لتخليد ذكرى الشاعر الانكليزى الكبير لورد بيرون بصورة دائمة، وذلك بأن يقام فى المنزل الذى كانت تملكه أسرة الشاعر فى قرية «نيوستيد أبى» معرض دائم لتراث الشاعر ومخلفاته وكل ما يتعلق بحياته وشعره. وقد كان هذا المنزل الريفى الذى نشأ فيه الشاعر وأحبه أعز ما لديه، ولكنه اضطر إلى بيعه فى سنة ١٨١٧ حينما سافر إلى اليونان ليدافع عن قضيتها الوطنية. وأخيراً قررت بلدية نوتنهام شراءه من أصحابه الحاليين ووقفه لتخليد ذكرى الشاعر. وسيكون بين محتويات هذا المعرض الذى سمى «بمعرض بيرون» مجموعة كاملة من مؤلفات بيرون فى طبعاتها المختلفة، ومخطوطات الشاعر، وأوراقه ورسائله، وأوراق أسرة بيرون كلها. وبين الخطابات التى تتألف منها هذه المجموعة خطاب مؤثر من خادم اللورد بيرون، وليم فلتشر، ينعى فيه سيده إلى أسرة الشاعر، ويصف وفاته فى ميسو لونجى فى ابريل سنة ١٨٢٤

وقد صدر بهذه المناسبة فهرس قيم لآثار الشاعر وأوراقه وفيه وصف شامل لها: وبه أيضاً خلاصة وافية لحياة الشاعر ومذكرات مختلفة عن جوانب من حياته، وصور له ولزوجه وأمه وأخته وابنته

وهكذا يحظى الشاعر الكبير أخيراً بأثر حى يخلد ذكراه بصورة دائمة، وكانت هذه أمنية قديمة «لأصدقاء» بيرون والمعجبين بشعره وعبقريته وحياته الروائية المؤثرة

أثر تذكارى للشاعر الانجليزى كبلنج

أقيمت فى لندن وليمة شائقة احتفالاً بافتتاح العمل لانشاء أثر تذكارى للشاعر الانكليزى كيلنج ترأسه الارل اثلون وكانت برفقته زوجته البرنسس أليس ابنة الدوق البنى وحفيدة الملكة فكتوريا. وقد تليت أثناء الوليمة رسالة من الملك جورج السادس يظهر بها ارتياحه إلى اجتماع ممثلين من جميع أنحاء الأمبراطورية توطئة لاقامة تذكار مناسب لشاعر يعد نبوغه تراثاً لجميع المتكلمين باللسان الانكليزى. وقد اشترك فى هذه الوليمة ألف رجل وامرأة من المعجبين بأشعار كيلنج فى كل العالم. وقد تليت رسائل من رؤساء حكومات الهنود والدومنيون تمنوا بها النجاح لهذا المشروع الذى بلغت الاكتتابات المالية له حتى الآن ٣٥ الف جنيه

5 me Année, No. 230

Lundi - 29 - 11 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ٢٣٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٦ رمضان سنة ١٣٥٦ — ٢٩ نوفبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهـــرس

ثورة على الأخـــلاق

للدكتور عبد الوهاب عزام

يا أخى صاحب الرسالة !

أبلغ أخى محمودا الذى لا أعرفه هذه الكلمة عنى :

« قرأت فى الرسالة ما نقله الأستاذ الزيات من رأيك فى مزايا الأخلاق والفضائل فهالنى ما قرأت ، وعزمت على أن أبادر بالكتابة إليك على ضيق الوقت وفتور الصيام . وكيف لا يرتاع من يسمع أن رجلاً من ذوى الأخلاق خاب ظنه فيها فثار عليها ويئس منها ؟ فاقرأ يا أخى كلمتى ثم أبن لى رأيك من بعد :

دخل أعرابى مسجد المدينة ورسول الله وأصحابه هناك فصلى ثم دعا فقال : « اللهم ارحمنى ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً » فضحك صلوات الله عليه وقال : « لقد حجّرت واسعاً يا أعرابيّ » .

وكذلك أنت يا أخى قد حجّرت واسعاً حين خيّل إليك أن دائرة عملك التى (وسّعتها بمقدار ما استلزمه هذا العمل من ملابسة الشعب ومراجعة الحكومة) هى الأمة كلها ، وأن الأمة هى العالم كله ، وأن العالم الحاضر هو الزمان كله . وإن شئت أن تقول إنى لم أحجّر واسعاً ولكنى وسّعت محجّرا فلك رأيك ، والنتيجة فى الحالين واحدة

أود قبل أن أناقشك فى رأيك أن أعدّك موافقى ، كما وافق

صديقنا الزيات ، على أن الخلق الفاضل سبيل إلى سعادة صاحبه وطمأنينته مافى هذا ريب ، وأن الرجل الحرّ الأبىّ الفاضل يعيش فى سعة من نفسه ، وعزة من خلقه ، ونعيم من وجدانه ، لا يدركها أصحاب الجاه العظيم والثراء العريض ممن وجدوا كل شئ وفقدوا أنفسهم ، وأن الحرّ الكريم يرى نفسه فى عزتها وحريتها ورضاها فوق هذا العالم الذى تباع فيه النفوس رخيصة وتبذل فيه القلوب ذليلة ، ويعدّ نفسه أسداً قوياً مهيباً قد ربض حجرة من معترك الذئاب ومُهتَرش الكلاب

إنما خلافنا فى النجاح فى المعايش ونيل الجاه والثروة ؛ أسبيله الخلق القويم أم العمل الذميم ؟ وإنى أجمل لك الجواب فى قضية نتفق عليها لنفرغ لما بعدها فأقول : حق أن الرجل التقى الحرّ الأبىّ لا يرى إلى الجاه والمال إلا طريقاً واحدة هى الطريق التى يسنّها الحق والشرف والأباء والمروءة ، وأن أمام الفساق والأذلاء والأدنياء طرقاً شتى من التلصص والكذب والتزوير والخداع والنفاق والملق والذلة والشره والظلم والقسوة والأثرة وهلمّ جرّا . وحق كذلك أن من الأحرار من يخفق فى عمله حين يُلزم نفسه هذه الطريق الواحدة ، ويقصرها على هذه المحجة الواضحة ، وأن من العبيد عبيدِ المطامع والأهواء ، ومرضى النفوس والأخلاق ، من يظفرون فى هذه السبل بما يريدون ، ويبلغون الغاية التى يقصدون . ولست أجحد كذلك أن الجماعة قد تعتلّ فيكثر فيها البطلون الظافرون ، والمحقّون المحرومون . كل هذا يا أخى حق ، ولكن استمع :

كثيراً ما يحرم الحر الصالح لعزوفه عن معترك المطامع وصدوفه عن الاتجار فى أسواق الحياة ، وتنكّبه السبل التى جعلتها سُنن الجماعة وسائل إلى الجاه والثروة . فليس اخفاق هؤلاء بأخلاقهم ، ولكن بكبريائهم وتقصيرهم فى أخذ الأهبة وإعداد العدة ، على حين يتأهب الأشرار ، ويجدّ الفجّار . فلا جرم يخفق أولئك ويُنجح هؤلاء ، فإن للحياة قوانين وللمعايش سُنناً . والقرآن الكريم يقول : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون . » ويقول : « كلاً نمد : هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً . » ولكن إذا أخذ الرجل أهبته للعراك فى الحياة وتسلّح بالخلق الطيب فلن يكون هذا الخلق سبباً إلى إخفاقه وسبيلاً إلى خيبته أبداً . ربما تعتلّ الجماعة فينتصر البطل ويخذل المحقّ ، ويفتتن بهذا كثير من الناس ، ولكن هذا لا يكون ديدنا . ثم علة الجماعة لاتدوم ؛ وليست الجماعات كلها عليلة . وماتزال الجماعات منذ ألفها الله وعلّمها وبعث فيها الهداة المرشدين ، ووضع لها السنن أيداً لأنصار الحق وعوناً لأهل الفضيلة ، وخذلاناً لجند الباطل والرذيلة . ما زال الصانع الذى يتقن صنعته ، ويحسن معاملته ويصدق وعده ، أنجح عملاً وأكثر مالاً من الصانع الكذاب سيء المعاملة . وما زال التاجر الصادق فى قوله ، الأمين فى فعله ، الذى يقلّب تجارته على شرائع من الصدق والأمانة والقناعة والإخلاص ، ولا يلبس على الناس الجيد بالردىء ، والغالى بالرخيص — ما زال هذا التاجر أربح متجراً واملأ يداً وأحظى برضا الناس وإقبالهم من التاجر الكاذب الغاشّ الشره المخادع . أترى فى هذا ريباً ؟ إن كنت فى ريب فابحث كما تشاء واسأل من تشاء . ولا يزال المزارع الذى يزرع الأرض فلا يتزيد فيما أنفق عليها ، ولا يسرق من زرعها ، بل يصدُق مالك الأرض فيما أنفق وما جنى ؛ ومستأجر الأرض أو الدار الذى يشق على نفسه ليؤدى الأجرة فى حينها ؛ لا يزال هذا وذاك أحب إلى المالكين وأظفر بما يريد

ولا يزال الرجل الصادق الأمين فى كل جماعة وفى كل طائفة موضع المودة والثقة . ينال بسيرته ما تقصر عنه ثروته ؛ إن استقرض أُقرض ، وإن استعار أعير . له من ثقة الناس رأس مال لا ينال منه الخسار ، وتجارة لا يدركها البوار . ربما يتّجر فى ألف وليس عنده إلا مائة ؛ ويزرع عشرة فدادين وليس بيده إلا أجرة فدان واحد ؛ ويستخدم فى المتاجر والمصانع دون كفيل أو ضمين . سل يا أخى الناس فى كل قبيلة ، وطالع التاريخ فى كل جيل

على أن الأمم فى هذا مختلفات ، والتاريخ درجات : أمة تسدّ الطريق على كل فاجر مخادع كذاب ، وتؤثر بمالها وكرامتها كل برّ أمين صادق ؛ وأمة يجد المخادعون فيها طريقاً ولكنها وعرة ، ومذهباً ولكنه ضيق ، ورواجاً ولكنه قليل ؛ وأخرى تتسع فيها مجال الأشرار ، وتروج فيها سوق الفجّار . ولكن لا تبلغ

« البقية على صفحة ١٩٦٠ »

النماذج والأفراد في الأدب

للأستاذ عباس محمود العقاد

أشرت في مقالي السابق إلى رأي « لونارد وولف » في كتابه « بعد الطوفان » وخلاصته أن الشعراء والقاصين كانوا يرسمون للناس قبل القرن السابع عشر نماذج من طوائف وجماعات، أما بعد القرن السابع عشر وانتشار الديمقراطية فقد أصبح أبطال القصص « أفراداً » مستقلة قلما تتكرر في غمار السواد.

وعلاقة الديمقراطية بهذا التغير الواضح أن المساواة قد خولت الفرد حرية الظهور فبرزت الخصائص واستحقت من الشعراء والكتاب عناية لم تكن تستحقها حين كان الجمهور أرقاماً متكررة على نموذج واحد، أو حين كان النبلاء طرازاً مرسوم المراسم لا يختلف فيه إنسان عن إنسان

أشرت إلى هذا الرأي وقلت إنني سأعود إليه ببعض الشرح والتعليق في مقال آخر؛ وأظن أن تاريخ الآداب لا يفهم حق فهمه إلا بتجلية هذا الرأي وأمثاله والوقوف على مبلغ ما فيها من الحقيقة والتمييز بين الأدب القديم والأدب الحديث، لأن تاريخ الآداب إن هو إلا المعالم التي نميز بها عصراً من عصر وطريقة من طريقة وموضوعاً من موضوع، سواء أكان هذا الموضوع بطلاً موصوفاً في رواية أو قصيدة، أم كان عاطفة إنسانية يصورها الراوي والشاعر حسبما يراه

***

لقد كان اليونان يصورون الإنسان لأنه يستحق النظر إليه ويقولون: إذا كنت لا تجد من ينظر إليك فكيف تجد من يصورك؟ وعلى هذا كان تصورهم مقصوراً على الجميل والنبيل والرائع والمشهور، وهي الصورة التي تسترعي الأنظار وتشغل الخواطر وتفعم النفوس بالفتنة والإعجاب

كان ذلك شعارهم في عالم التصوير الفني، فهل تغير اليوم هذا الشعار؟

لا. لم يتغير، ولم يزل من دأب القاصين والشعراء والرسامين والمثالين والكتاب المسرحيين أن يصوروا ما يستحق النظر، وأن يقولوا كما كان اليونان الأقدمون يقولون: إذا كنت لا تجد من ينظر إليك فكيف تجد من يصورك؟!

لم يتغير شعار الفن القديم، وإنما تغير الذين يستحقون النظر فأصبح الدميم والسقيم والوضيع والخامل مستحقين أن ينظر إليهم الناظر، وأن يبحث فيهم الباحث، وأن يتناولهم التشريح، وأن يتعلق بعرفانهم عرفان أخلاق الإنسان وأطوار الجماعات وأدواء الأجسام وآفات الضمائر، وأصبح الهمل المنبوذون أهلاً للدرس والفحص والمراقبة مذ أصبحت جثة الميت أهلا للعناية بها ومراقبة الأدواء والأدوية فيها. فإذا قال القائل الحديث: كيف تجد من يصورك وأنت لا تجد من ينظر إليك؟ فهو معبر عن رأي الأقدمين والمحدثين على حد سواء؛ ولكنه إذا سأل: من الذي يستحق النظر أو من الذي يستحق التصوير؟ فهنا يظهر الخلاف ويتبين الفارق بين شعار الفن القديم وشعار الفن الحديث

وقد أصاب « لونارد وولف » حين قرن بين هذا التغيير وبين الديمقراطية، وأصاب أكثر من ذلك حين قال: إن الأديان فتحت باب هذا التغيير حين عرّفت الانسان أن له روحاً مستقلاً بحسابه، منفرداً بثوابه وعقابه، معدوداً أمام الله خلقاً لا يفنى في غمار الخليقة، ولا يزال له ميزانه وكتاب حسناته وسيئاته لا يختلط بميزان غيره ولا بكتابه

وتلك في الحقيقة هي أول خطوة خطاها الإنسان في إظهار « الفرد » وتمييزه من غمار الجنس كله أو الطائفة برمتها

فمنذ أصبح الإنسان « فرداً » معزولاً في حكم الدين، لا اختلاط بين حسناته وسيئاته وبين حسنات الآخرين وسيئاتهم، ولا التباس بين ثوابه وثوابهم وعقابه وعقابهم؛ هنالك أصبحت كل نفس بما كسبت رهينة، وأصبحت كل نفس حقيقة بالمحاسبة والإحصاء والمراقبة، ورسخت جذور الديمقراطية في التاريخ فلم يبق إلا أن تظهر لها على وجه الأرض فروع وأوراق وثمار

وغاية الفرق بين الفردية الدينيـة والفردية الديمقراطية أن حساب الدين إنما يكون في الآخرة فلا ضرورة لفرز الأفراد في هذا العالم الأرضي ولا لتمييزهم بالخصائص الدنيوية وما يتصل بها من الخلائق الاجتماعية والملامح الفكرية والأطوار السياسية أما الديمقراطية فلا مناص فيها من التمييز بهذه الزايا ولا من

فرز الناس على حسب ما يتراءى بينهم من فوارق الدنيا وعلامات الحياة وشياتها . ومن ثم بدأ التحليل النفسي بعد ظهور الديمقراطية ولم يبدأ توًّا بعد ظهور الأديان ؛ وكان من دواعي ظهوره مع الديمقراطية عدا ما تقدم أنها جاءت على أثر النهضة العلمية وعلى أثر انتشار العلوم والمباحث في أطوار الناس مجتمعين ومنفردين ، فتيسر التحليل النفسي الذي لم يكن ميسوراً قبل ذلك في صدر المسيحية أو في صدر الإسلام ، وأمكن التفريق بين الأفراد في الطائفة الواحدة والجنس الواحد ، لأنهم من جهة قد ملكوا الحرية التي يبرزون بها خصائصهم ونزواتهم ، وينطلقون بها مع أهوائهم ورغباتهم ؛ ومن جهة أخرى قد وجدوا من يدرسهم ويطبق عليهم قواعد العلوم ويصوب إليهم مجاهر النقد والملاحظة . ولم تكن أسباب ذلك كله مهيأة عند ما جاءت الأديان بدعوة الفردية الدينية وجعلت كل إنسان « روحاً » له حسابه وكتابه وليس بالقطرة المنسية في الغمار

على أن العبقريات الرفيعة قد سبقت نهضة الديمقراطية إلى تمييز « الخصائص الفردية » على اختلافها ولو كانت في أوضع النفوس وأهونها وأبشع مياسمها . فكان المصور العظيم « ليوناردو دافنشي » يتعقب المشوهين والمسخاء في الطرقات ويغريهم بالخمر والمال ، حتى يتكشفوا عن سرائر نفوسهم ، ويخرجوا من حجاز الكلفة والمهابة ، فيرقص منهم من يرقص ، ويهذي منهم من يهذي ، ويقهقه منهم من يقهقه ؛ وتزداد بذلك بشاعة وجوههم وفسولة طبائعهم ، وهو ناظر إليهم يترقب لمحة عارضة فيسجلها بقلمه دون أن يقطع عليهم مجانتهم وخلاعتهم . وكان شكسبير يصور عشرات النساء وكل واحدة منهن امرأة غير سائر بنات حواء في حبها وبغضها وحيلتها وكيدها وكلامها وسلوكها ، حتى لا مشابهة بين صاحبة هملت وصاحبة عطيل وصاحبة مكبث وبنات الملك لير إلا في صفة الأنوثة التي تشمل جميع النساء

أما من عدا هذه الطبقة من العبقريين فأبطالهم كما قال « لونارد وولف » نماذج يشترك في صفاتها المئات والألوف ، فحسن التاجر البصري مثلاً هو تاجر كسائر التجار ، وهو عنوان طائفة وليس بفرد من الأفراد ؛ وكذلك عجيب وغريب وغيرهما من أبطال ألف ليلة وليلة ، هم نماذج للفرسان والأمراء ، وللأخيار والأشرار وللشيوخ والشبان ، لا تحس فرقاً بين أحدهم وبين غيره من أبناء قبيله وعامة أقرانه وزملائه ، ولا مشابهة بينهم وبين أبطال القصص الحديثة — ولا سيما التحليلية منها — حيث ترى البطل فرداً ليس بالمتكرر وليس بالشائع بين أبناء صنعته وإخوان طرازه ، وإن شابههم في صفة من الصفات فبمقدار ما يستدعيه إتفاق الصناعة واتفاق البيئة دون أن يفنى معهم في الغمار أو يغيب وراء العنوان

* * *

يلوح لي أن هذا الرأي الذي أجملته وتصرفت في تفسيره بما أخلى المؤلف من تبعاته — هو على الجملة رأي صواب لا غنى عنه في نقد الفنون والآداب

ولكني أفضل أن أقول إن التحليل النفسي لم يكن نتيجة الديمقراطية وإنما كانت الديمقراطية والتحليل النفسي معاً نتيجة شيء آخر : هو انتهاء الكشوف الظاهرة وابتداء الكشوف الباطنة ، أو هو انتهاء السياحات الجغرافية وابتداء السياحات النفسية الانسانية

ففي الوقت الذي ظهرت فيه القصة التحليلية كان الانسان قد فرغ من كشف الأرض ووصل إلى أقصى مجاهل العالم المعمور ولم تكن هناك قصة تحليلية قبل كشف الهند وكشف أمريكا وكشف المجاهل الاسيوية والأفريقية

فلما كشفت كل هذه الأصقاع ووقف حب الاستطلاع والتماس الغرائب ، من هذه الناحية ، بدأ الالتفات إلى دخائل النفس وأخذت غرائب الأخلاق في الظهور ، وأخذت العناية بها والتوفر على درسها في التقدم والشيوع

لقد كان معظم الرواية القديمة رواية رحلات ورحالين وكان الإنسان مشغولاً بكشف « المكان » الذي يحيط به ويغريه بسحره ووعوده ومجازفاته ، فكان شغفه بالاستطلاع والإحاطة بالدنيا مستغرقاً كله أو جله في هذه الناحية ، وكان أمامه من العالم شيء يستوفيه ويستكمله ولا يزال له متعقباً متأثراً حتى ينتهي به إلى مداه

ولم يكن مجرد اتفاق ولا مصادفة أن تمت الكشوف الجغرافية وبدأت الكشوف النفسية في عصر واحد ، فقد فرغ الإنسان

الكتابة وحالات النفس

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كتب إليّ بعضهم يسألني : هل صحيح ما روته إحدى المجلات من أني لا أكتب حديثاً للاذاعة اللاسلكية إلا قبيل موعده بوقت قصير ، وأني إذا كتبته قبل ذلك بزمن طويل فالأغلب والأرجح أن أمزقه وأكتبه مرة أخرى ؟ وما سبب ذلك أو داعيه ؟

فأما أني أمزق شيئاً مما أكتب — حديثاً كان أو مقالاً أو قصة — فغير صحيح ، ولست أعرف أني راجعت كلاماً أكتبه أو عنيت به بعد أن أفرغ منه . فقد غدوت كالثور المشدود إلى الساقية وعيناه معصوبتان ، حتى لايدور رأسه من كثرة الدوران واللف ، وكلما وقف يستريح صاح به صاحبه : « عا » ولسه بالعصا أو السوط ، فيتحرك الثور ويستأنف الدوران ، لأنه أخف مؤونة وأسلم عاقبة من الوقوف . وكذلك أراني ، في حياتي ، وإذا كان الثور يدرى لماذا يجشم عناء هذا اللف كله ، فإني أدرى لماذا تكلفني الحياة هذا الجهد . وليست على عيني عصابة وإني لأنظر بهما وأرى ، ولكني لا أدرك ماوراء ذلك ، وليس ثم سوط يلهب ظهرى ، ولا عصا هناك تقع عليه ، ولكن الحياة تدفعني من حيث أشعر ولا أشعر ، وللحياة وخز وحفز وإغراء محسوس وغير محسوس ؛ ولعل الذى لا نفطن إليه أفعل وأقوى من الذى ندركه من وسائلها . وكثيراً ما أشعر أني مدفوع إلى الكتابة وأني لا أملك التحول عنها أو إرجاءها ، وأني سأشقى وأسقم إذا لم أذعن لهذا الدافع الغامض ، فأجلس إلى المكتب وليس فى رأسي شيء سوى الاحساس العام الثقيل بالحركة وبأنها يوشك أن تتمخض عن خاطر معين أو خالجة بينة ، ويكون القلم فى يدي فى تلك اللحظة فأخطط به على الورقة وأنا حائر ، ذاهل ، لا أحس ما حولى ، بل لا قدرة لى على الاحساس بشيء مما يحيط بي إلا إذا حملت نفسى على ذلك حملا ، وخرجت بها من ضباب الحيرة والذهول والسهو بجهد واضح ، ثم تخطر لى عبارة فأخطها ، وأنا لا أدرى إلى أين تفضي بي ، ويغلب أن يطول ترددى فى البداية ثم يمضي القلم بعد ذلك بلا توقف ويستغرقني الموضوع وتستولى روحه عليّ ، فلا يبقى لى بال إلى شيء ، حتى إذا انتهى الأمر ونضب المعين ألقيت القلم والورقات ورحت أتثاءب وأتمطى كأنما كنت نائماً ، ويكون هذا آخر عهدى بما كتبت فى يومي

وقد استعملت لفظ « التمخض » وأنا أعنيه ، فليس ثم أدنى فرق فيما أعلم وأحس بين التمخض بالجنين ، وبين حركة التوليد فى النفس ؛ وكما تفتر المرأة بعد أن تضع طفلها ، ولا ينازعها فى ذلك الوقت شوق إليه أو تحس فرحاً به ، وإنما يكون إحساسها بالفرج بعد الضيق الذى كانت فيه والكرب الذى كانت تعانيه ، والراحة بعد الجهد والمشقة والعذاب ، والتفتير الذى يورثها إياه ما تجشمت ، كذلك يكون الأديب بعد أن يستريح من أزمة النفس أو الفكر

ويخطر لى أحياناً أني كالمسافر الذى لا يذهب إلى المحطة إلا والقطار يوشك أن يتحرك ، فما أراني أكتب إلا فى اللحظة الأخيرة ؛ وقد ألفت أن أرجيء الكتابة مادام فى الوقت فسحة ، وأحسب أنه لو وسعني أن أكف عن الكتابة لفعلت ، فأني أوثر الراحة على هذا العناء الباطل ، وبي مثل بلادة التلميذ الذى لا يذهب إلى المدرسة إلا محمولاً على ذراع الخادم ، فليت من يدرى أهذه عادة اعتدتها أم هى طباع وفطرة واستعداد ؟ على أني

من كشف الظاهر فانقلب إلى كشف الباطن ، وعرف العجائب من البقاع المجهولة ، فانثنى إلى العجائب من الخلائق الخفية ، وكان هذا هو الترتيب الطبيعي المعقول فى تاريخ الكشف والاستطلاع ، فإن الاهتداء إلى المكان أسهل وأوجب من الاهتداء إلى سرائر الأخلاق ، والعلم الذى يحتاج إليه المرء فى سياحة جغرافية أقل من العلم الذى يحتاج إليه فى سياحات الضمير ، إذ هو فى الواقع ملتقى جميع العلوم ومشتجر الفلسفات والديانات والمذاهب أجمعين

لقد بدأت الديمقراطية وبدأ التحليل النفسي معاً بعد كشف الأمريكتين وكشف الهند وكشف المجاهل الآسيوية والأفريقية ، ولولا انكشاف الأرض للإنسان لبقى مشغولاً بالمجهول منها عن سرائره وخصائصه وما يتميز به الأفراد من حقوق وواجبات

عباس محمود العقاد

أعرفني من المرجئين في كل شيء : الدَّين أفر من أدائه ماوسعني الفرار ، والنوم أكره أن أستيقظ منه ، والفراش يشق عليَّ أن أترك نعيمه ، واليقظة أستثقل أن أزل عنها — كل حالة أكون فيها أشتهى أن تطول وتدوم ، إلا التنغيص والألم كما لا أحتاج أن أقول

وقد جربت أن أكتب ولا أنشر ، فكتبت رواية «طويلة» ودسستها في درج المكتب ، ومضت شهور ، وسافرت إلى لبنان فحملتها معي لأراجعها هناك قبل طبعها ، فلما أجلت فيها عيني وجدت أن الحالة النفسية التي كتبتها بها قد ذهبت ، وأن حالة أخرى قد استولت عليَّ ، فحاولت أن أستعيد تلك الحالة الأولى فأعياني ذلك ، فأجريت القلم في الرواية بالتبديل والتغيير ، والتقديم والتأخير ، والحذف والاضافة ، وإذا بالرواية قد صارت شيئاً جديداً فقلت لا بأس ، وطويتها ، وفي عزمي نشرها بعد الأوبة إلى مصر . فلما صرت في بيتي خطر لي يوماً أن أخرجها وأتصفحها ، فإذا بي في حالة نفسية جديدة لا تسمح لي بالرضى عن الرواية في صورتها الثانية ... فأعملت فيها القلم ومسختها مرة ثانية ، وما زلت بعد ذلك أرجع إليها بالمسخ كل بضعة شهور حتى يئست فانتزعت منها فصولاً تصلح أن تكون قصصاً قصيرة ومزقت الباقي . وحمدت الله على الراحة بعد طول العناء . وأيقنت أنه خير لي ألاّ أكتب إلا إذا وثقت من النشر بعد أن أضع القلم

وأذكر أن بعضهم سألني مرة « أي كتبك أحب إليك ؟ » فلما قلت : « ولا واحد » استغرب جوابي وأنكره ، وذكرني بأني قلت مرة إن هذه المفاضلة عسيرة لأن الكتب كالأبناء ، والوالد لا تخفى عليه مزايا أبنائه وعيوبهم ، ولا يجهل أن هذا ذكي وذاك غبي مثلاً ، ولكنه مع ذلك يحبهم جميعاً على السواء وإن كان يعرف فضل بعضهم على بعض . وهذا صحيح ، على الجملة ، وفي الأغلب والأعم ، ولكني رجل دأبي أن أراجع نفسي ، ولا تنفك حالاتي النفسية تتغير ، فنظرتي إلى الشيء وإحساسي به يختلفان من يوم إلى يوم . وثم أمر آخر هو ما يتمثل لي من صور الكمال وما يبدو لي في عملي من وجوه النقص والقصور ، وليس لي حيلة إلا أن أقيس ما أخرجت إلى ما كنت أحب أن يكون ، وإلا أن أحدث نفسي أنه كان في مقدوري أن أصنع خيراً مما صنعت ، ولو كنت أعتقد أن هذا هو غاية ما يبلغه الجهد ويصل إليه الامكان لرضيت وقنعت واغتررت ، ولكني أحس أني أقدر على خير مما أفعل ؛ وقد يكون هذا إحساساً كاذباً ، كالجوع الكاذب ، وقد يكون خدعة من خدع الغرور ، فإن يكن كذلك فإنه ولا شك بلاء ، ولكنه الواقع على كل حال . وما أكثر ما أسمع من يثني على كتاب لي ، فأتركه يثني فإن الثناء حبيب إلى النفوس ، وأتعجب له فيما بيني وبين نفسي وأسألها : ماذا أعجبه يا ترى ؟ أما لو أن رجلاً نقد نفسه ... ؟ وأزداد غروراً ، وأشعر أني فوق هذا المادح ... ولكني أتواضع وأقول له وأنا مطرق — ووجهي فيما أعتقد وأرجو مضطرم من فرط الحياء — « أستغفر الله ! أستغفر الله ! ياشيخ قل كلاماً غير هذا ! » الخ الخ

فإذا كنت لا أكتب إلا قبيل أوان النشر بأوجز فترة فذاك لأني بليد ولأن نفسي تتعاقب عليها حالات مختلفة فأسخط على ما كنت أرضى عنه وأذم ما حمدت ، واستضئل ما أكبرت ، ولا حيلة لي في ذلك . وماذا أصنع إذا كنت أحس أني مسوق إلى جس نفسي وقياس قدرتها إلى ما ينبغي مما ترتسم صوره في نفسي وتتمثل لي في خواطري ؟

ابراهيم عبد القادر المازني

في سبيل الإصلاح

الحلقـــة المفقودة (*)

للأستاذ علي الطنطاوي

نحن اليوم (في الشرق الاسلامى) فى دور انتقال ليس له وضع ثابت ، ولا صفة معروفة ، فلا نحن نعيش حياة إسلامية شرقية كما كان يعيش أجدادنا ، ولا نحن نعيش حياة غربية خالصة كالتى يحياها الأوربيون ، ولكنا نعيش حياة مختلطة مضطربة متناقضة فيها ما هو شرقى إسلامى ، وفيها ما هو غربى أجنبى ، وفيها ما ليس بالشرقى ولا بالغربى ، ولكنه منقول نقلاً محرفاً مشوهاً عن هذا أو ذاك . بل أنت إذا دققت وأنعمت النظر فى حياتنا وجدت لها جانبين مختلفين ، ولونين متباينين : الجانب الذى يميل إلى المحافظة ، والجانب الذى يجنح إلى التجديد . وهذان الجانبان تلقاهما فى كل عهد من عهود الانتقال فى التاريخ ؛ ففى مطلع العصر العباسى كنت تجد فى بغداد المحدثين والزهاد والفقهاء كسفيان والفضيل وأبى حنيفة ، وإلى جانبهم الفساق والمجان كبشار وأبى نواس ، والمتعصبين للعربية والشعوبيين ، ومن كل صفة زوجان ، ولكل أمر ناحيتان ، وكذلك كان شأن الرومان أول اختلاطهم باليونان .

قف ساعة فى أى شارع كبير فى أى مدينة من مدن الشرق الاسلامى واعرض الأزياء ، تر الازار والعقال إلى جانب العمة ، إلى الطربوش ، إلى القبعة ، إلى اللاطية . حتى أن أجنبياً وقف مرة هذا الموقف فظن أن القوم فى عيد المساخر (الكارنفال) . وادخل عشرة بيوت تجد البيت الشرقى ذا الصحن الواسع والإيوان المشمخر والبركة ذات النوافير ، إلى جانب البيت الأوربى المسقوف المتداخل الذى لا ترى فيه السماء إلا من الشرف . وفى البيت الواحد تجد الغرفة ذات الفرش العربى : الأسرّة والتكآت والوسائد والبسط والنمارق ، إلى جانب الغرفة الأوربية ذات القاعد والمناضد ... واعرض أهل الدار تجد بين الأب وابنه قرناً كاملاً فى اللباس والتفكير والعادات . وفتش عن الأب المساء تلقَه فى المسجد أو قهوة الحى ، ثم انظر الابن تجده فى أحدث مرقص أو أكبر ناد للقمار أو للتمثيل أو للمحاضرات . وانظر إلى الأم المحتجبة المصلية الصائمة ، وابنتها السافرة التى لا تعرف من أين القبلة ، ولا تدرى ما هو الصيام . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ولكنه تعداه إلى الثقافة والعلم وسائر الأمور التى تتصل بحياة الأمة اتصالا ماساً ، فجعل فيها هذا الازدواج وهذا التناقض . اجتمع باثنين من المثقفين بالثقافة الاسلامية والثقافة الغربية ، تر الثانى ينكر المكتبة العربية جملة ، ويجحدها مرة واحدة ، وينبزها بالكتب الصفراء والثقافة الرجعية الجامدة ، لا يدرى أن المكتبة العربية أجل تراث على عرفه البشر وأعظمه ، وأنها رغم ما أصابها من نكبات : منها نكبة هولاكو حين ألقى الكتب فى دجلة حتى اسود ماؤه — فيما نقلوا — من خبرها ، ونكبة الأسبان حين أحرقوا الكتب وفيها حصاد أدمغة البشر قروناً طويلة ، ولبثوا الليالى يستضيئون بنورها إلى الصباح ؛ ورغم ما أضاعه الجهل والاهمال لا تزال مخطوطاتها تغذى المطبعات فى الشرق والغرب من خمسين سنة إلى الآن دأباً بلا انقطاع ، ولا تزال فيها ما يغذيها خمسين سنة أخرى فى ناحية من نواحى التفكير وفى كل فرع من فروع العلم

وتجد الأول ينكر العلم الحديث كله ويجحده بجملته ويعيش اليوم بعقل جدّه الذى كان قبل ثلاثمائة سنة ، فلا علم عنده إلا علم العربية والدين والمنطق ، ولا أدب إلا الأدب العربى ، ولا كتب إلا هذه الحواشى والشروح التى لم تصلح أبداً حتى تصلح اليوم ، والتى لا يتصور العقل طريقة فى التأليف أشد عقماً منها ، إذ تذهب ثلاثة أرباع جهود الدرس والتلميذ فى فهم عبارتها وحل رموزها والربع الباقى فى فهم مادة العلم التى لا يخرج منها التلميذ على الغالب بطائل

فرجالنا المثقفون وعلماؤنا بين رجلين : رجل درس الثقافة الإسلامية ، ولكنه لم يفهم شيئاً من روح العصر ، ولا سمع بالعلم الحديث ، ورجل فهم روح العصر ودرس العلم الحديث ،

(*) استعير هذا العنوان من الأستاذ الجليل أحمد أمين فى مقاله المنشور فى العدد الأول من الرسالة ١٨ رمضان سنة ١٣٥١

ولكنه لم يدر أن فى الدنيا شيئاً اسمه ثقافة إسلامية ... فمن أى هذين الرجلين ننتظر النفع ؟ لا من هذا ولا من ذاك ، ولكننا ننتظر النفع من الرجل الذى عرف الإسلام وعلومه ، وفهم روح العصر وألم بالعلم الحديث ، هذه الطبقة المنتظرة من المساء ، هذه الحلقة المفقودة هى التى يرجى منها أن تقوم بكل شىء ، وهى التى سينشئها الأزهر المعمور ودار العلوم العليا ، والمدارس التى شيدت لتجمع بين الثقافتين كالكلية الشرعية فى بيروت ، ودار العلوم فى بغداد ، وينشئها من يتخرج فى المدارس العليا والجامعات ويكون ذا ميل إلى الدين ، ويكون له إلمام بعلومه

***

من هذه الطبقة ينتظر النفع والفلاح ، وعلى هذه الطبقة واجبات كثيرة يجمعها أصل واحد ، هو دراسة الإسلام على أساس العلم الحديث واستخراج رأيه فى مشاكل العصر ، وحكمه فى الأحداث التى لم يعرفها الفقهاء ولم تحدث فى أيامهم . وأهم من هذا كله الآن استخراج القوانين الأساسية والحقوقية والجزائية من الفقه الإسلامي ، بدلاً من أخذ القوانين الأجنبية برمتها وتطبيقها فى البلاد الإسلامية التى انبثق منها أعظم تشريع عرف إلى الآن وأرقاه . وهذا العمل يبدأ بالدراسات العلمية الفردية ثم يصل إلى الغاية المتوخاة ، وهى أن تتم إحدى الحكومات الإسلامية العمل الذى بدأته لجنة المجلة (مجلة الأحكام العدلية) لكن بمقياس أوسع ونسبة أكبر ، فلا تتقيد هذه اللجنة بمذهب واحد من المذاهب الأربعة ، بل لا بأس أن تأخذ بعض الأقوال من مذهب آخر ، ولا تتقيد بالمذاهب الأربعة بل لا بأس أن تأخذ بقول لبعض الأئمة الذين اندثرت مذاهبهم ، كالثورى والأوزاعى والليث والطبرى والظاهرى ، إن صح مستند هذا القول ، ولا تتقيد أيضاً بهذه الأقوال بل تجتهد كما اجتهد الأئمة ، وتأخذ الأحكام من الكتاب والسنة رأساً ، وأن تبحث عن المصلحة التى يقتضيها النص ، فإن الشريعة ما أنزلت عبثاً ، والأحكام لم تشرع لغواً ، ولكن لكل حكم مصلحة . ومن دقق فى اجتهادات الخلفاء الراشدين وجد أنهم يدورون مع المصلحة أينما دارت . هذا عمر رضى الله عنه علم أن المصلحة المرادة من إعطاء المؤلفة قلوبهم سهماً من الزكاة إنما هى تقوية الإسلام وإعزازه ، فلما حصلت المصلحة وعز الإسلام أسقط سهم المؤلفة وهو منصوص عليه فى القرآن الكريم . وهذه مسألة طلاق الثلاث بكلمة واحدة كان يقع واحدة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبي بكر وصدراً من خلافة عمر ، فرأى عمر أن المصلحة (فى أيامه) فى إيقاعه ثلاثاً فأوقعه مع أن الآية صريحة فى أن الطلاق مرتان (وقد عادت المصلحة اليوم فى إيقاعه طلاقاً واحداً والرجوع إلى الأصل المعروف من الكتاب والسنة) . وعطل عمر حد السارق فى عام المجاعة . وهذا عثمان جمع الناس على حرف واحد من حروف القرآن ، مع أن القرآن أنزل على سبعة أحرف لأن المصلحة تقتضى هذا الجمع . وهذا على حرّق وهو يعلم حكم الله فى القتل لأنه رأى المصلحة فى هذا العقاب البليغ .

والحكومة الاسلامية التى يؤمل منها تحقيق هذا المشروع العظيم هى مصر وحدها ، لأنها الحكومة الاسلامية الكبرى ، ولأنها وحدها التى ينص دستورها على أن دينها الرسمى الاسلام ، ولأن فيها الملك المسلم التقى فاروق أعز الله به الإسلام ، ولأن فيها الأزهر المعمور وفيها العلماء ، ولأن فيها اتجاهاً إسلامياً قوياً ظهر فى السنين الأخيرة ، ودعوة قوية إلى استبدال القوانين الاسلامية بالقوانين الأجنبية

ولو أنى وجهت هذه الدعوة قبل عشر سنين مثلا لعرضت لها المعارضة من ناحيتين : ناحية المشايخ الجامدين ، وناحية الشباب الجاحدين . أما الأول فلأنهم كانوا يعتقدون أن الاجتهاد سد بابه إلى يوم القيامة ، وأن الفقهاء لم يدعوا شيئاً إلا بينوا حكمه مع أن المسألتين مردودتان ، لأن سدّ باب الاجتهاد معناه الحظر على الله أن يخلق مثل أبي حنيفة ، وهذا محال. وما دامت الأرحام تمتلىء ، والنساء تلد ، فليس مستحيلاً أن ينشأ مجتهدون وأئمة ونابغون يفوقون الأولين — ولأن الفقهاء وإن بذلوا الجهد ، وفرضوا فى كثير من المسائل أبعد الفرضيات ، وبينوا حكمها ، فإن من البديهى أنهم لم يتكلموا فى المسائل التى ظهرت الآن ولم يعرفوها . وإذا كان الإمام الشافعى قد غير رأيه فى أكثر مسائل المذهب ، حين انتقل إلى مصر ، ورأى أفقاً جديداً ، حتى

صار له مذهبان قديم وجديد ، فلم لا يتغير الرأى فى كثير من المسائل، وقد تغير العالم كله ، وتبدلت الدنيا ، والإسلام صالح لكل زمان ومكان ، والأحكام تتغير بتغير الأزمان ؟

أما الشباب الجاحدون فقد كانوا يمارسون هذه الدعوة لأنهم كانوا ينفرون من كل ما يتصل بالإسلام ، أو يمتّ إلى الدين بسبب ، ويموتون عشقاً لأوربة ، ولكل ما له علاقة بأوربة

أما الآن فقد اعتدلت الطائفتان ، فلم يبق على وجه الأرض عالم مسلم يقول بسد باب الاجتهاد ، ويدعى أن الفقهاء لم يتركوا شيئاً كان أو يكون إلا بينوا حكم الله فيه ؛ ولم يبق فى الشباب المتعلمين (والمثقفين حقاً) من ينفر من الدين ، ويفزع من اسمه ، بل إن العقلية العربية (ولا سيما فى مصر) قد اتجهت نحو الإسلام اتجاهاً قوياً ملموساً ؛ فعلماء مصر ، وطلاب مصر ، ورجالات مصر ، مؤيدون للإسلام متجهون إليه ، وهذا مما يسر ، ويبعث الأمل فى نشوء هذه الحلقة المفقودة ، وإنجاز هذه الواجبات كلها

* * *

والمسائل التى تحتاج إلى نظر وبحث واجتهاد كثيرة لا أستطيع الآن – ولا أريد – أن أستقريها كلها ، ولكني أمثل لها بأمثلة قليلة قريبة

هذا رمضان قد جاء . أفلا يجب إعادة النظر (مثلاً) فى مسألة ثبوت الهلال ؟ أليست هذه الطريقة المتبعة اليوم فى أكثر البلدان الإسلامية مؤدية إلى الفوضى الظاهرة والنتائج الغريبة المضحكة ؟ ألم تمر سنوات ثبت فيها رمضان فى بعض البلدان الاسلامية السبت ، وفى غيرها الأحد ، وفى أخرى الاثنين ... إلى الأربعاء ، فاختلف ابتداء رمضان ، من السبت إلى الأربعاء ، وهو يبدأ فى الواقع فى يوم واحد ؟ ألا يبدو هذا مخالفاً لجوهر الدين ؟

أنا لا أدعو إلى بدعة جديدة ، فقد تكلم الفقهاء فى هـذه المسألة ، فمن فقهاء الحنفية من قال بأن رؤية الهلال فى قطر توجب الصيام على الجميع ، فلماذا لا تتخـذ مرصداً منتظماً فى إحدى البلدان الإسلامية ، ثم تذاع نتائج رصده على البلدان الإسلامية كافة فيعمل بها ؟ أنكون بذلك مخالفين أو مبتدعين ، والفقهاء قد قالوا بهذا ؟

ومن فقهاء الشافعية كالقفال والرملي وابن سريج من قال بالأخذ بالحساب ، والاعتماد على العلم الثابت ، فلماذا لا نأخذ بهذه الأقوال ، ونحن فى عصر ترقى فيه العلم ، وصار يعرف موعد الخسوف مثلاً ، بالدقيقة والثانية ، ويثبت خبره عياناً ، أفلا يعرف موعد ولادة القمر وظهوره ؟

إن الاعتماد على الشهادة فى رؤية الهلال ينتج أموراً عجيبة ، من ذلك أن جماعة من قرية دوما شهدوا عند القاضى بدمشق أنهم رأوا الهلال ، وأثبت القاضى رمضان اعتماداً على شهادتهم ، فقال عمى الشيخ عبد القادر الطنطاوى (وهو شيخ انتهى إليه الآن علم الفلك الاسلامى فى الشام) قال للقاضى : إن هـذه الشهادة كاذبة وإن الهلال لا يمكن أن يرى الليلة الثانية ، فضلاً عن الأولى . وذهب مع القاضى وجماعة من وجوه الشام إلى دوما ، وأحضر الشهود ، ووقف معهم فى المكان الذى زعموا أنهم رأوا منه الهلال فى الجهة عينها ، والساعة ذاتها ، وسألهم : أين الهلال ؟ فلم يروا شيئاً . ثم قال واحد : ها هو ، فقال الجميع : ها هو ، فأخرج عمى نظارة مكبرة وأراهم ، فإذا الذى رأوا غمامة طولها متران ، انقشعت بعد ثوان :

وقد حدث مثل هذا كثيراً . سمعت من مشايخي ، ولم أر ذلك فى كتاب ، أن أنس بن مالك رضى الله عنه شهد عند شريح القاضي أنه رأى الهلال ، فقال له : هلم أرنيه ياعم . وذهب معه ، فقال : هاهو . فنظر شريح وهو الشاب الحديد البصر ، فلم ير شيئاً وأنس يقول : ها هو ... فنظر شريح فإذا شعرة من حاجب أنس بيضاء متدلية رآها فيحسبها هلالا ... فأزاحها فلم يعد يرى شيئاً

* * *

ومنها مسألة الطلاق ، لقد بلغت مسألة الطلاق حداً لا يجوز السكوت عنه ، ولا بدّ من إعادة النظر فيها . وشرع قانون لها يؤمن المصلحة العامة ، ويحقق غرض الشارع

يكون الرجل فى السوق يبيع أو يشترى ، فيحلف بالطلاق على أمر ، فتطلق امرأته وهي فى دارها ، ويتشرد أولادها ، وتتهدم دار على رؤوس أهلها ؛ أو يغضب من أمر فيحلف بالطلاق ، مع

أن الذى أفهمه أنا[1] أن الزواج عقد يعقد قصداً يراد به ضم حياة الرجل إلى حياة المرأة ، وأن الطلاق عقد مثله يراد به حلّ العقد الأول ، ولا بأس أن يكون حلّ العقد بيد الرجل وحده ولكن لا بدّ من ثبوت القصد ، وأعنى بالقصد أن يطلق الرجل وهو يفكر فى معنى الطلاق ونتائجه ، ويقصد فك الرابطة الزوجية فيجب أن يكون القصد شرطاً فى وقوع الطلاق ، ويجب أن نجد طريقة مادية لإثبات القصد ، كأن يشترط تبليغ الزوجة الطلاق بواسطة موظف مخصوص ينصبه القاضى فإن طلق رجل وهو قاصد من غير واسطة هذا الموظف ، يقع الطلاق ديناً ، ولا تسمع به الدعوى

هذا وأنا لا أجتهد فى هذه المسألة ولكن أدعو إلى الاجتهاد فيها ودرسها

وهناك مسائل كثيرة ، لا أعمد الآن إلى استقصائها

***

متى وجدت هذه الحلقة المفقودة درست هذه المسائل كلها ، فحققت حاجات العصر وأجابت مطالبه ، ولم تخرج على أصول الإسلام ، ولم تخالف قواعده ، ودرست الإسلام من كافة النواحى العلمية والفنية والاجتماعية ، فإن درسنا الحقوق الأساسية العامة ، درسنا الحقوق الأساسية فى الإسلام ، وإن بحثنا فى الاشتراكية بحثنا عن رأى الإسلام فى الاشتراكية ، وإن انقطعنا إلى التاريخ درسنا التاريخ الاسلامى درساً حديثاً ، وإن اشتغلنا بالفلسفة درسنا تاريخها فى الاسلام ، وحكم الاسلام فى نظرياتها ومسائلها ...

عند ذلك يمحى هذا الازدواج ، وهذا التناقض من حياتنا ، ونحيا حياة كاملة قد اصطبغت كل ناحية فيها بالصبغة الإسلامية وهذا هو مثلنا الأعلى الذى يجب أن نطمح إليه ...

(دمشق) علي الطنطاوى

---

(1) قرأنا أن الأستاذ الجليل الشيخ احمد شاكر ألف كتاباً فى الطلاق عالج فيه هذه المسألة ، ولكن الكتاب لم يصل إلى دمشق أصلا ، ولم أره فى مكتبة مع أنى سألت عنه كثيراً

مقدمة حضارة العرب

لغوستاف لوبون

للأستاذ خليل هنداوى

قد علم قراء كتبنا الأولى هذا الكتاب الحديث ، وعلموا أننا بعد انتهائنا من درس الإنسان والمجتمعات ينبغى أن ننصرف إلى درس تاريخ الحضارات !

كان كتابنا الأخير (الإنسان والمجتمعات) مختصاً بوصف الأشكال المتتالية للأشكال الطبيعية والعقلية عند الإنسان ، والمواد المختلفة التى تتألف منها المجتمعات . ولقد أوضحنا فى ذهابنا إلى أقصى العصور الغابرة كيف تألفت الجماعات الانسانية ، وكيف تولدت الأسرة والمجتمعات ، وجميع أصناف الفنون والمعتقدات ، وكيف استحالت هذه المظاهر خلل العصور ، وكيف كان مبدعو هذه الاستحالات !

وبعد أن درسنا الإنسان المنعزل وحركة المجتمعات ، يجب علينا لكى يتم غرضنا الذى قصدنا إليه أن ندرس الحضارات الكبرى بحسب هذه المناهج التى عرضناها

أجل ! إن المشروع واسع ، ومشاكله كبيرة . لا نتكهن إلى أى مدى نستطيع أن نصل به . ونحن نريد أن يأتى كل كتاب من هذه الكتب كاملاً مستقلاً حتى إذا استطعنا أن ننجز الثمانية أو العشرة — بما يتم هدفنا به جاء عمل تصنيفها ودرس الحضارات المختلفة عليها أمراً يسيراً !

وقد بدأنا بحضارة العرب لأن حضارتهم جلتها لنا رحلاتنا وعرفتنا بهم تعريفاً حسناً ؛ وحضارة العرب هى من الحضارات التى كمل سيرها ، وظهر فيها تأثير المؤثرين ممن جربنا أن نحدد عملهم ونعين تأثيرهم ، وهى تعد من الحضارات التى يشوق تاريخها ومع ذلك لبثت مهملة

إن حضارة العرب تسيطر — منذ اثنى عشر قرناً — على القطر الواسع الذى يمتد من شواطىء الاطلانطيك إلى البحر الهندى ، ومن شواطىء البحر الأبيض حتى رمال أفريقية

الداخلية ،والشعوب والقبائل التي تسكنه تدين بدين واحد وتنطق بلسان واحد ، وتتلقن تعاليم واحدة ، وفنوناً واحـدة ، وهم يؤلفون جزءاً من المملكة .

إن النظر نظراً شاملاً إلى مظاهر هذه الحضارة عند الشعوب التي سيطرت عليها ، وأتت بالمعجزات التي غادرتها في الأندلس وأفريقيا ، وفي مصر وسوريا ، وفي فارس والهند : هو نظام لم يجرب بعـد ! والفنون ذاتها التي يرتكز عليها صميم الحضارة العربية لم تخضع بعد لهذا الدرس الشامل ! وأولئك المؤلفون القليلون الذين دنوا من وصفها كانوا يقررون أنها ناقصة ، ولـكن خطأ أدلتهم وأسانيدهم حال بينهم وبين تجريبها . ومن الحق الذي لا ريب فيه أن مشابهة العقائد قد رمت إلى توطيد قربى قوية الوشائج في مظاهر فنون هذه الأقطار المختلفة الخاضعة للإسلام ، ولا يقل عن هذا وضوحاً أن اختلاف التربات والبيئات يجب أن يولد تبايناً واختلافاً كبيرين . فما كانت هذه المجانسات ؟ وما كانت هذه الاختلافات ؟ والقارئ الذي يطلع على هذه الصفحات المختصة من كتابنا بدرس فن العمارة والفنون ، سيجد أن العلم الحاضر لم يعط جواباً على هذه الأسئلة !

وكلما توغلت في درس هذه الحضارة رأيت النتائج قد اتسعت والأفق قد فسح مداه ، وعلمت أن القرون الوسطى لم تعرف تاريخ الأجيال القديمة إلا بواسطة العرب ، وأن الجامعات في الغرب لبثت طوال خمسة قرون تتهافت على كتبهم في الرياضيات والمباحث العقلية والأخلاق . هؤلاء هم الذين مدنوا أوربا وعمروها بأنوار الحضارة ؛ وعند ما يدرس دارس آثارهم العلميـة ويقف على اكتشافاتهم يجد أن لا شعب أنتج ما أنتجوه في عهد قصير الأمد ، وعند ما نمتحن فنونهم نعلم حق العلم أنهم كانوا يملـكون مقدرة على الإبداع لا تعلو عليها مقدرة

إن أثر العرب — على عظمته في المغرب — كان أعظم تأثيراً في الشرق ولم يعرف التاريخ عن شعب تأثيراً مثله بلغ قوته وروعته فالشعوب التي سيطرت على العالم من أشوريين وفرس ومصريين ويونان ورومان قد توارت بين أطواء الأجيال وثنايا العصور ، ولم تغادر وراءها إلا ركاماً ؛ أما دياناتهم ولغاتهم وفنونهم فقـد بادت ولم يبق منها إلا ذكريات . والعرب قد تواروا بدورهم كما توارى أولئك ، ولـكن عناصر حضاراتهم ، تلك العناصر القوية من دين ولغة وفن لا تزال حية . وهناك عدد يربو على مائة مليون (يبدو للقارئ أن إحصاء المسلمين بهذا العدد إحصاء مغلوط) يتوزعون بين المغرب والهند لا يزالون قائمين على تعاليم الرسول

فاتحون كثيرون اقتحموا العرب وما سمعنا بفاتح واحد أراد أن يستبدل حضارة بالحضارة التي أنشأها العرب ، وكل هؤلاء الفاتحين قد اعتنقوا دياناتهم ، وقبسوا منهم فنونهم ، وأخذ جلهم لغتهم ، وإن شريعة هذا الرسول — وإن تزعزعت في بعض مواطن — لشريعة يشبه أنها قامت لتكون ثابتة إلى الأبد . ففي الهند قد جرفت في طريقها ديانات بلغت من الـكبر عتياً ، وحولت مصر القديمة الفرعونية بأسرها إلى مصر العربية ، وهي البلد الذي لم يؤثر فيه الفرس واليونان والرومان إلا قليلاً ؛ والشعوب الهندية والفارسية والمصرية والافريقية كان لها معلمون وهداة غير خلفاء محمد ، ولـكنهم منذ اعتنقوا شريعة هؤلاء الخلفاء ثبتوا عليها ولم يستبدلوا بها ديناً

حقاً إنها لمعجزة في التاريخ ، معجزة هذا المأخوذ الرائع الذي أخضع صوته هذا الشعب الجموح الذي أعجز الفاتحين نضاله لاسم تزلزلت منه أقوى الممالك ، وهو اليوم تحت أطواء لحده يخضع ملايين الناس لشريعته

إن العلم الحديث ينعت هؤلاء العظماء ، ومؤسسي الديانات بالمأخوذين وللعلم الحق في هذه النظرة إذا توخينا محض الحقيقة ولـكن يجب احترام هؤلاء . لأن روح جيل ما ، وعبقرية شعب ما مرتبطتان بهم ، وسلالات كثيرة ضائعة في ظلام العصور إنما تتكلم بألسنتهم . إن هؤلاء المبدعين للمثل العليا لا ينشئون في الحقيقة إلا أخيلة ، ولـكن هذه الأخيلة المشكوك فيها هي التي أبدعتنا على هذا التقويم . وبدون هذه الأخيلة لم تستطع أية حضارة أن تحيا ! وليس التاريخ إلا قصة الحوادث المتممة يقوم بها الانسان ليخلق مثلا أعلى يعبده أو يجربه !

والحضارة العربية أنشأها شعب فيه ما فيه من ريح البربرية ، خرج من ظلمات الصحراء العربية واقتحم معاقل الفرس واليونان وحصون الرومان وألف مملكة واسـعة تمتد حدودها من الهند حتى الأندلس وأبدع هـذه الآثار الرائعة التي تثير في روع كل ناظر عوامل العجب

فأي خالقين عملوا على إنشاء هذه الحضارة وهذه المملكة في بدء نشأتها ؟ وما كانت علة هذه الرفعة وعلة هذا الانحطاط ؟ إن

العلل التى تمرس بها المؤرخون جاءت فى الحقيقة ضعيفة واهية ، وإن مذهباً من مذاهب التعليل لا يمكن امتحانه امتحاناً حسناً إلا إذا جرى تطبيقه على شعب كهذا الشعب

قد ولد الغرب من الشرق ، وفى الشرق يجب أن نطلع على مفتاح الحوادث الماضية ، إذ على سطح هذه الأرض العجيبة تهيأت الفنون واللغات وأكثر ديانات البشر . ورجالها اليوم ليسوا كرجال الأمس ، لقد تبدلت الأفكار غير الأفكار والعواطف غير العواطف ، والأطوار تمشى فاترة بطيئة بحيث إذا أقبل عليها الدارس استطاع أن يقف على سلسلة تلك الأعمار المطوية : فالفنانون والعلماء والشعراء يتكررون دائماً ... كم مرة جلست إلى ظل نخلة أو فىء جدار أحد الهياكل مستسلماً إلى أخيلة طويلة تتنابى مفعمة بأخيلة ذلك الماضى المتوارى ، أتنهد تنهداً خفيفاً ، وفى الأعماق الشاعة تتعالى مدن غريبة تتوهج قصورها وأعمدتها ومناراتها تحت سماء ذهبية . وتجوز قوافل البدو والجماعات الآسيوية ذات الألوان البراقة ، وطوائف العبيد ذات الجلود البرونزية والنساء المحجبات ! لقد اندثرت اليوم أكثر هذه المدن القديمة . (نينوى ودمشق والقدس وآثينا وغرناطة وممفيس وطيبة ذات المئة باب) قصور آسيا وهياكل مصر عفاها القدم وآلهة بابل وسوريا والكلدان وشواطئ النيل لم يبق منهم إلا ذكريات ، ولكن كم من أشياء مستورة فى هذه الخرائب ! وكم من أسرار مبثوثة يجدر سؤال هذه الذرارى عنها ! من أعمدة (هركول) إلى سهول آسيا الخصبة القديمة ، ومن شواطئ بحر (ايجه) الأخضر إلى رمال الحبشة المحرقة

يحمل كثير من التعاليم والعقائد من هذه الأقطار الشاسعة ويضيع فيها أيضاً كثير من المعتقدات ، ودرسها يرينا كم عمق هذه الهوة التى تفصل بين الناس ، وإلى أى مدى يذهب وهم أفكارنا فى الحضارة الانسانية ، والأخاء الانسانى ، ويبدى لنا الحقائق والمذاهب التى يخال أنها مجردة مطلقة كيف تتبدل فى الحقيقة من بلد إلى بلد

هنالك أسئلة كثيرة تعرض للمتأمل فى تاريخ العرب ، وأكثر من درس يحفظه ، فإن هذا الشعب هو خير شعب حرر ذرارى الشرق على اختلافها من ذرارى الغرب . إن أوروبا لا تعرف عن هذا الشعب إلا قليلا ، وإنما يجب عليها أن تعمل على معرفته لأن الساعة دانية حيث ترتبط مقدراتها وحظوظها بمقدراتهم وحظوظهم [1] :

إن الخلاف بين الشرق والغرب اليوم عظيم حتى لا يرجى أن يقبل أحدهما تفكير الآخر ، ومجتمعاتنا القديمة تتحمل تطورات عميقة ، فمراحل العلم السريعة والصناعة قلبت قواعدنا الطبيعية والأخلاقية ، والنزاع الحاد فى جسم المجتمع ، والألم الشامل الذى يدفعنا دائماً إلى تبديل تعاليمنا لكى نعالج الأدواء الاجتماعية التى تنشأ عن التطور ذاته ، منها خطأ التوفيق بين العواطف القديمة والعقائد الجديدة ، وإبادة الأفكار التى نشأ عليها الأقدمون . هذا ما يحف بالغرب الآن ، فنظام الأسرة والمنزل والدين والأخلاق والإيمان كله يتغير أو سائر فى طريق التغير ، والأصول التى عشنا عليها حتى الآن قد وضعتها المذاهب العصرية تحت المناقشة ! وما سوف يخرج من العلم الحديث لا يستطيع أحد أن يفوه به ! الجماعات تهيم اليوم وراء تعاليم بسيطة تؤلفها من نظرات سلبية غريزية ، ولكن نتائج هذه السلبية لم تستشفها بعد نظراتها . هنالك الوهيات جديدة حلت محل ألوهيات قديمة ، والعلم الراهن يجرب أن يذود عنها ، فمن ذا يستطيع القول بأنه سوف يذود عنها فى المستقبل ؟

أما فى الشرق فالحالة مباينة لما هى عليه فى الغرب . فبدلاً من أقسامنا وأسباطنا وبدلاً من حياتنا المتوقدة نرى الشرق يعيش فى وسط تسعده السكينة والراحة العميقة . وهذه الشعوب التى تؤلف بعددها أعظم نوع فى البشرية قد بلغت منذ زمن طويل هذا الاستقرار الهادئ الذى يقال أقل ما فيه انه صورة السعادة . وهذه المجتمعات القديمة قد صانت من صلابتها ومتانتها مافقدته مجتمعاتنا ، والايمان الذى فقدناه ما زال الشرقيون يعتصمون به ، والأسرة التى بدأت تتحول وتتشقق - عندنا - لا تزال ثابتة صلبة عندهم ، والمذاهب التى أضاعت كل تأثير عندنا لا تزال مسيطرة عليهم ، والدين والأسرة والتعاليم وسلطة التقاليد والعادات وكل القواعد التى جاءت بها المجتمعات القديمة والتى تقوضت دعائمها فى الغرب تراها حافظت على ملامحها فى الشرق ، والأمر الأعجب فيها أن الشرقيين لم يفكروا فى تبديل هذه القواعد أو انتقاء سواها

خليل هنداوى

(١) ما أصدق نبوءتك يا غوستاف

صورة

المولد الأحمــــدى

للأستاذ ابراهيم بك جلال

خرج أهل القرى جماعات وقوافل من أسفل الأرض ومن صعيدها فكانوا أسراباً يتعاقب بعضهم على آثار بعض، يزحمون السبل المعبدة وأشباه السبل، قد شمر الرجل عن ساقيه، وبسط على الساعد قضيباً تناط به صرة جافة، وإلى يمينه آخر ينوء كاهلاه «بغرارة» من تلك الأقراص، وثالث به رمق من سمة يوم جاريه أن تحته مطية ويظل يحرك ساقيه كلما تحركت المطية

أما المرأة فتضن بخفيها على البلى فتجمعهما على أم رأسها فاذا أوفت على المدينة آوت إلى الخفين تمشى فيهما حجلا

وغالب هذا الحجيج مشاة حفاة سرابيلهم من أسمال ومظاهرهم فاقة ومسكنة، نفروا خفافاً متوسمين فضلة الموائد ونهلة من طعام الحضر وحلواه

وفيهم صنوف وألوان من أهل الطريق تنم عليهم تلك القلانس وما يتدلى من عذباتها، وبأيديهم أعلام مصبغة، وحولهم صنوج تدق وطبول تدوي كأنصار المهدى يوم فتح السودان.

فاذا غربلهم ناقد خرج ببضعة نفر من أهل العلم والتقى قدموا حسبة وقربى لله يذكرونه فى تقى وخشية، ويتعففون عن قرابين هذا العيد، طعامهم أقراص وتمر، ومضاربهم مقفرة من زهو الدنيا، مهادهم بوارى بسطت على أديم الأرض يؤثرون بها الزائر فيحل بين أدب واتضاع وعلم

أولئك هم مصابيح الدجى، وأعلام الهدى لمن كانت هجرته لله ورسوله

وفى المدينة دعة وجاه، ونسق جميل ومصابيح وبنود تخفق فوق الدروب وبأيدى الناس، وترى السوق المفضية إلى كعبة هذا الحجيج قد ترامت فيها السلع أكداساً على المناكب وفي الحوانيت، وفيها القمص والجوارب والنعال والأكسية والقلانس والجباب، ويليها عرائس الدمى المزوقة، والدفوف الموشاة، والأساور والأقراط والخلاخل والعقود والمرايا، وكل طلى تحبه بنات القرية وبنوها، ويلى ذلك باعة الحلوى والحمص جاثمين على الموائد يلوحون بالجواليق

ويجوس الخلال باعة الشراب يدقون الكؤوس، وبين هؤلاء وأولئك يندس جماعة السراق يفترسون الغرات ويفرون بأسلابهم

والمتسولة جنود أهل بأس يرودون الأسواق والمضارب والمشارب كالذباب حول الموائد ولهم أديم من معدن الصفاقة وجلد على هوان النفس فى المسألة

وإن تلك الجموع الزاخرة من أهل القرى لتحوم حول كل متجر ويعنمها الاملاق من أن تمد له يداً حتى لكأنها الحرب الضروس بين العرض اللح وبين تنحى الناس وإعراضهم وكأنما أقيمت مناحة للكساد موتاها سلع البلاد

وتبلدت ألوف الدهماء فى مواقفها فنثرتها سياط الشرط بدداً ثم جمعتها يمنة ويسرة، وكلت المناكب بباب المسجد، وعن الولوج لغير السواعد وأهل البأس، وإنك لتحس بين الضجيج أنات لأضالع وأعناق تدق ثم تنجلى عن شيوخ وغلمان ونسوة يزخرون بين الصحن والرواق وحول المحاريب ولهم دوى كألسنة الرعود لا يرعون جانب الله وما ينبغي لحرمة بيتـه من سكينة وخشوع فيحملون على الأكف كل أبرص ومجذوم ومعتوه.

ويلوذون بأشباه الرجال ذوى الأزياء المنكرة من التمائم والمسابح ويرفعون عقائرهم بالرجس والإثم عداوناً على هذا الدين الحنيف، وإيلاماً لذلك التقيّ المنيب فى آزال الله وكرامته

وعند باب الضريح طائفة من السدنة من أهل الخطر والعزة فى الرقيق الموشى من الديباج وعلى تيجانهم سمات الحسب العالى يرمقون صفوف العواد والزائرين حين يلجون الباب وحين يمرجون، ولهم آذان مرهفة لترتيل آيات الذهب والفضة فى خزائن النذور

لقد كان النبي صلوات الله عليه جد هذا السيد البدوى يدعو لشد الرحال إلى ثلاثة: إلى بيت الله الحرام، وإلى الحرم المدنى، وإلى بيت القدس بغير مزيد

فما أشد وجيعة ذلك السبط الهاشمى، وأهل مصر يتخذون قبره مثابة للناس. وما أبعد الوجيعة فى قلوبنا معشر آل بيت النبي

ابراهيم جلال

ليلى المريضـــة بالعراق

للدكتور زكي مبارك

— ١ —

أخي الأستاذ الزيات

تحيتي إليك وإلى السامرين في نادي الرسالة من كرام الأصدقاء. وتحيتي إلى القاهرة التي لا تقع فيها العين إلا على نجم أزهر أو كوكب لماح. وسلامي على مصر الجديدة وعلى سنتريس. ولو شئت لسلمت على مكتب تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف حيث يحلو الجدل ويطيب الضجيج!

وبعد فإنك تعرف كيف رحلت إلى بغداد. أنت تذكر ولا ريب أن حكومة العراق طلبت أستاذاً للأدب العربي بدرجة دكتور؛ وتذكر أن وزارة المعارف المصرية فهمت أن الغرض من ذلك مداواة ليلى المريضة بالعراق. وقد صرح بهذا حضرة صاحب العزة الأستاذ عوض إبراهيم بك؛ وكان من المفهوم أنه لا يصلح لهذه المهمة غير مؤلف مدامع العشاق!

تلك هي الأسباب التي قضت برحيلي إلى العراق، ولولا ذلك لبقيت في القاهرة أحارب من أحارب وأسالم من أسالم، وفقاً للنزق والطيش، وطاعة لصديقنا الشيطان!

ولا أستطيع أن أصف كيف كانت الأيام التي سبقت رحيلي إلى العراق. فقد قضيتها في درس الطب النفساني والروحاني، وزودت عقلي بأهم ما يعرف أقطاب العلم الحديث، من أمثال الدكتور محجوب ثابت، والدكتور محمد عبد الحي، والدكتور منصور فهمي، والدكتور طه حسين

ولم يفتني أن أستفتي بعض الولعين بدرس المشكلات الغرامية كالأستاذ محمد الهراوي، والأستاذ محمد مسعود، والموسيقار محمد عبد الوهاب

وكان في النية أن أستفتي بعض الأقطاب من علماء الأزهر الشريف، ولكن ضاق الوقت عن ذلك

وجاء يوم الرحيل، والتفت فإذا محطة القاهرة تموج بعدد كبير من كرام الأصدقاء، وكنت أظنهم جاءوا مودعين، ثم دهشت حين رأيتهم لم يجيئوا إلا ليحملوني التحية إلى ليلى المريضة بالعراق!

وعند ذلك عاهدت نفسي وعاهدت الواجب أن أكون عندما يرجو المصريون والعراقيون من الظن الجميل. ولم يكد القطار يبرح محطة باب الحديد حتى أسلمت خيالي إلى مغريات الأحلام.

ولما وصلت إلى بيروت رجاني بعض الأدباء أن أقيم أسبوعاً في ضيافة لبنان فأبيت وقلت كيف أتلبث في الطريق والواجب يدعوني إلى عيادة ليلى المريضة في العراق؟ وكذلك كان حالي حين وصلت إلى دمشق، فقد رجاني الأستاذ كرد علي والأستاذ عبد القادر المغربي أن أقيم مدة بالشام في ضيافة الأكرمين من أهل تلك البلاد، فأبيت وقلت كيف أتمهل في الطريق والهوى يدعوني إلى موافاة ليلى المريضة بالعراق!

ثم قضيت أربعاً وعشرين ساعة في الطريق من دمشق إلى بغداد. ولا تسلني كيف قضيت تلك الساعات الطوال، فقد كانت الساعة كألف سنة مما تعدون بسبب القلق على ليلى المريضة بالعراق

ولما وصلت ألقيت أثقالي في الفندق، ومضيت بسرعة البرق إلى وزير المعارف أتلقى تعليماته فيما يختص بذلك الروح العليل

ستمضي الشهور والسنون ولا أنسى كيف لقيت وزير المعارف في العراق، فقد بدا رجلاً شاعراً لا يهمه غير الاطمئنان على ليلى المريضة بالعراق

وجلست فتحدثت معه في كثير من الشؤون، ولكنه لم يفتح الحديث عن ليلى، فأخذ مني العجب كل مأخذ، وخشيت أن تكون « قصة » ليلى قصة مخترعة، وأنني كنت مخطئاً حين صدقتها من كبار الأطفال!

وذهبت إلى دار المعلمين العالية فأعطاني المدير جدولاً يقصم الظهر، وهو دروس في الأدب وفقه اللغة وتفسير القرآن، وليس فيه أية إشارة إلى مداواة ليلى المريضة بالعراق. فتأكدت مرة ثانية أن قصة ليلى من اختراع الخصوم الألداء الذين أرادوا أن يستريحوا مني فزينوا لي الرحيل إلى العراق

ثم خطر بالبال خاطر طريف؛ فقد حدثتني النفس بأن مرض

ليلى لا يهم أهل العراق ، وإنما يهم المصريين ؛ وإذن فلا بد أن تكون الفوضية المصرية على بينة من هذه القضية . فأخذت عربة ومضيت إلى هناك فوجدت رجال للفوضية لا يعرفون شيئاً عن ليلى المريضة بالعراق ، وأن هذه القصة من أوهام الشعراء

وكذلك عرفت مرة ثالثة أن تلك الحكاية لم تكن إلا خداعاً فى خداع

***

قضيت الأسبوع الأول وأنا فى همٍّ مُقْعِد مقيم . وهل كان يعوزنى أن أدرس الأدب وفقه اللغة والتفسير ؟ هل ضاقت معاهد القاهرة عن رجل مثلى حتى يرحل إلى العراق ليكون أستاذاً للأدب فى مدرسة عالية ؟ إنما كنت أرجو أن أؤدى رسالة عجز عنها الزيات والسنهورى وعزام ، ثم قضى الحظ العاثر أن أكون رجلاً « عبيطاً » لا يدرك وجه المِحال ، فى أحاديث الرجال

وفى الأسبوع الثانى تلقيت رسالة من القاهرة : رسالة من الآنسة جيمى التى ملكت نُهاى حيناً من الزمان ، وهى تسأل وتلح فى السؤال عن ليلى المريضة بالعراق . وللآنسة جيمى حقوق ، فقد كانت أوهمتنى فى السنين الخالية أن الهوى إله معبود ؛ وبالرغم من تجنيها فى الأيام الأخيرة فقد أحسست أن إشارتها أمر يجب أن يطاع . ومنَّيت نفسى برضاها فى الليالى المقبلات ، حين يسمح الدهر بسامرة الأنجم الزهر على ضفاف النيل . فهل ترانى أعيش إلى ذلك العهد يا صديقى الزيات ؟ وهل أعاقر الهوى من ذلك الرضاب بعد أن تدول دولة الفراق ؟

ولكن ماذا أصنع ؟ هل أخترع قصة جديدة عن ليلى المريضة بالعراق أصل بها إلى قلب الآنسة جيمى ؟ وكيف وأنا رجل لا يجيد اختراع الأقاصيص ؟ ومعشوقتى تميز بين الصحيح والمزيف من أحاديث الوجدان ! رعاك الله يا جيمى وأرانى وجهك الجميل ؟

***

ما أعجب ما تصنع المقادير ! هذا رجل يسأل عنى بالتليفون تسع مرات فى كل يوم ؛ وها هو ذا ينقلنى بسيارته إلى منزله الفخم بالكاظمية ، ويسألنى كيف وجدت ليلى ، فأتضاحك وأنا محزون ، وأقرر أن ليلى اسم اخترعه العابثون من الشعراء ؛

وعندئذ ينفجر الرجل بالبكاء ويقول : إن ليلى لا تزال مريضة بالعراق ، ولكن العراقيين يتجاهلون ذلك ، لأنهم فى هذه الأيام مرضى بالجد والنشاط ولا يحبون أن يعرف أحد أنهم أهل وجدان .

ولا تعجب إن كتم عنك رجال الفوضية المصرية أخبار ليلى ، فهم قوم دبلوماسيون لا يرون الخروج على الوقار الذى تصطنعه حكومة العراق

وما أكاد أسمع هذا حتى أجذب الرجل من ذراعه وأمضى به كالمجنون لأعرف كيف حال ليلى ، وما هى إلا لحظات حتى تقف السيارة على بيت متواضع فى شارع العباس بن الأحنف ، أحد شوارع بغداد ، وأطرق الباب برفق كأننى على ميعاد ، وتخرج وصيفة فتقول : « من الطارق ؟ » فأقول : « أنا الدكتور زكى مبارك » فتقول : « أدخل بسلام ، فإن ليلى تنتظرك منذ سنين »

« للحديث بقية » زكى مبارك

أناشيد صوفية

جيتـــانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

جيتنجالى كلة هندية بنغالية معناها «القرابين الفنية» وهى أناشيد صوفية تبلغ ١٠٣ نشيد ، نظمها طاغور فى البنغالية ثم نقلها بنفسه إلى الانجليزية ، وشهرتها فى الأدب العالى كشهرة رباعيات الخيام ، وهى تمثل الروح العالية على فلسفة طاغور من جهة ، والطبيعة الصوفية المميزة للبوذية من جهة أخرى . وسننشرها كلها مترجمة بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ١ —

أنت خلقتنى أبدياً ، تلك مشيئتك . وهذا الحطام الفانى — جسمي — أنت تفرغه مرة ومرة ثم تملأه بالحياة النضة

هذا الناى الصغير أنت علوت به وهبطت ، ثم وقعت عليه أنغاماً سحرية خالدة ، وحين لمست يداك قلبي الضعيف لمسة إلهية شاع فيه السرور وانبعث منه لحن أخاذ ، وبين يدىّ الضعيفتين استقبلت آلاءك العظمى ، والأعوام تتصرم وأنت ما تزال تحبونى وفى قلبي شوق وطمع

— ٢ —

وحين أمرتنى أن أرتل نشيدى خُيِّل إلي أن قلبي يهتز من أثر الفرح والكبرياء معاً ؛ ثم رحت أتوضح وجهك فاغرورقت عيناى بالدموع

كل ما فى حياتى من شدة وضيق يذيبه لحن جميل ، وصلواتى تنشر علىّ جناحين رفيقين كما يفعل الطير الطروب وهو يدف بجناحيه فوق أمواج البحر

أنا أوقن أن أغانىّ تطربك ، وأنى حين أغني أكون في حضرتك

وبرغم أن أغانىّ وهى تعلو مصعدة تكاد تبلغ قدميك ؛ فأنا لا أستطيع أن أصل إليها

لقد غُمّ علىّ حين سيطرت علىّ نشوة التغريد ، فناديتك : يا صديقى ؛ وأنت إلـهى

— ٣ —

لست أدري كيف ترسل ألحانك ، يا إلهى ؛ وأنا — دائماً — أتسمع فى لهفة

إن نور موسيقاك يضيء العالم ، وأنفاسها تنقل من سماء إلى سماء ، وسكبها القدس يحطم الموانئ الصلبة لينفذ

لقد تمشق قلبي أن يسمع ألحانك ، ولكن عبثاً حاول أن يظفر بصوت . سأتحدث حديثاً لا يحور إلى أغنية . بل إلى صيحة اليأس . آه إن ألحانك الأبدية قد جذبت إليها قلبي ، يا إلهى

— ٤ —

يا روح حياتى سأحفظ — دائماً — جسمى طاهراً لأننى أعرف أن لمساتك الرفيقة تحوطنى

سأحول — دائماً — بين أفكارى وبين الأكاذيب ، لأنك وأنت الحق ، بعثت فى قلبى شعاع الحق

سأنزع — دائماً — عن قلبي الرذائل ليظل حبي لك طاهراً فأنت تتربع فى قلبي

ثم أجعل همى أن أكشف أمامك عن كل ما أعمل ، لأنك أنت الذى تسبغ على القدرة على العمل

— ٥ —

أنا أسألك لحظة فيها الرضا أجلس فيها إلى جانبك ، وأؤجل ما بين يدى من عمل إلى ما بعد

إن قلبي لا يستقر ولا يهدأ إن حرمت النظر إلى طلعتك لأغتمر فى لجة من العمل المضنى ... لجة لا شاطىء لها

اليوم نفح الصيف أول زفراته لدى نافذتى ، والنحل بين الزهور يرتل أنغامه

هذا وقت أجلس فيه بإزائك هادئاً ، وفى هذا الصمت والفراغ والهدوء ، أترنم بأناشيد الحياة المقدسة

— ٦ —

اقطف هـذه الزهرة الصغيرة — يا سيدي — وخذها . لا تستأن ! فأنا أخشى عليها الذبول والسقوط ؛ لعلها لا تجد مكاناً في بستانك ، ولكن شرّفها بلمسة بنانك ، فأنا أخاف أن تنطوي الأيام قبل أن أستطيع تقديمها لك هدية

إن لونها ليس أخاذا ، وريحها ليس نفاذا ؛ ولكن اقطفها فقد يكون فيها النفع ... اقطفها حين تسنح الفرصة

— ٧ —

لقد نزعت عن لحني الزخرف، فما فيه برقشة ولا تنميق ؛ لأن زخرف القول يفسد ما بيننا ، ويحول بيني وبينك ، ورناته تخفي عني همساتك

إن عبارات الصلف فى شعري تتلاشى أمام ناظريك يا إله الشعر . أنا جاثم عند قدميك أريد أن تنفث في حياتي البساطة والنقاوة كنغم ساحر انبعث من نايك

— ٨ —

إن الطفل الذى تثقله مطارف الإمارة ، وتزينه القلائد الذهبية ، لا يجد اللذة في ألعوبته لأنه يرسف فى قيود من ثيابه

وهو ينزوى عن العالم خشية أن تتلوث أو تتعفر ، فهو يخاف كل شيء حتى الحركة

أيتها الأم ! لا تثقلى ابنك بالزينة فهى تحجبه عن تراب الأرض الصحى ، وتسلبه من النهج القويم الذى يقوده إلى البهجة العظمى فى حياة الانسان العامة

— ٩ —

يا لحمق الغبي الذى يحاول أن يحمل نفسه على كتفيه إن كدّه السير ! يا لغفلة الشحاذ الذى يقف أمام باب داره يستكف

ألق ما أثقلك بين يدى من لا يثقله أن يحمل كل شيء ، ثم لا تلتفت إلى وراء فى حسرة

إن أمانيك تطفئ بأنفاسها نور السراج . حرام أن تأخذ ما ليس لك بيدين آثمتين ، ولكن خذ ما أعطيت فى قناعة ورضا

— ١٠ —

هنا آثار سيرك ؛ وهناك تطمئن قدماك ... هناك حيث يعيش الفقير والوضيع والضائع

وإذا سجدت لك فجبهتى لا تبلغ الأعماق حيث تطمئن قدماك بين الفقير والوضيع والضائع

إن الكبرياء لن تبلغ موطئ قدميك وأنت تتهادى فى ثوب من التواضع بين الفقير والوضيع والضائع

إن قلبي لا يجد السبيل إلى حيث تصحب من لا رفيق له بين الفقير والوضيع والضائع

— ١١ —

دع عنك التراتيل والأغاريد والتسابيح ! من الذى تتحنث له فى هذا الخلاء المظلم من متعبَّدك وبابك مغلق ؟ افتح عينيك فلن تجد إلهك أمامك !

إنه هناك عند الفلاح وهو يعزق الأرض الصلبة ، هو عند العامل وهو يحطم الصخور القاسية ؛ إنه بإزائهما تحت حرور الشمس ووابل المطر ، ولباسه معفر بالتراب . اخلع طيلسانك المقدس واهبط مثله إلى تراب الأرض

التواكل ؟ أين هو التواكل ؟ إن إلهنا نفسه قد أخذ نفسه — فى لذة — بأن يتكفل عباده ؛ وهو بيننا إلى الأبد

إنزع عنك تأملاتك ، ودع أزهارك وبخورك ! ماذا يضيرك إن مزقت ثيابك ولوّثت ؟ أخرج إليه ، وقف بإزائه كادحاً والعرق يرفضُّ من جبينك

— ١٢ —

إن سفرى بعيد وطريقه طويل

لقد انطلقت عند أول شعاع من النور ، واندفعت أضطرب فى أنحاء العالم الموحش أرى هدْى أمرى بين النجوم والكواكب

إنها مسافة أطول مما يخيّل إليك ، وهى تجربة قاسية تنتهى إلى السهولة ... إلى لحن

إن المسافر يضطر إلى أن يقرع كل باب ليتعرف بابه هو ، وهو يضرب فى أرجاء الأرض ليصل — فى النهاية — إلى المحراب العظيم

لقد انطلق بصرى يطوق العالم قبل أن أحشدهم وأغلق عليهم الباب ثم أقول : « ها أنتم هنا ! »

وددت الصيحة : « أوه ! أين ؟ » ثم ذابت الصيحة إلى عبرات تتدفق ؛ ثم غمر الأرض سيل من الإيمان ينادى « أنا ! »

كامل محمود حبيب

الاســـــلام والسيف !

للأستاذ محمد كامل حته

« مهداة إلى الأستاذ خليل جمعة الطوال »

إن من الجناية على الحق والافتراء على التاريخ أن يقول قائل إن الإسلام قد انتشر بالسيف ! أي سيف كان يحمله محمد ، وهو الأعزل الذي لا حول له ولا قوة ، الوحيد الذي لا ناصر له ولا معين ، يناله السفهاء بالأذى فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، ويأتمر به قومه ليقتلوه فيفر بحياته إلى يثرب ؟ ...

لقد ظل محمد — صلى الله عليه وسلم — ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولم يكن له من سلاح غير ثقته بالله وإيمانه بأنه على حق ، ولقد لاقى هو وأصحابه في سبيل هذه الدعوة من ضروب الفتنة والاضطهاد مالا يثبت عليه إلا الذين عمرت قلوبهم بالإيمان ، واستيقنت أنفسهم من نصر الله !

كان الرسول يوماً يصلي في الكعبة ، وبينا هو ساجد إذا بعقبة بن أبي معيط ، يطأ عنقه الشريف حتى كادت عيناه تبرزان ... وخنقه برادئه خنقاً شديداً ، والناس من حوله شامتون ، حتى أقبل أبو بكر مشتداً وخلص الرسول منه وهو يقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟

ولما خرج إلى الطائف يدعو أهلها للإسلام ، أغروا به سفهاءهم فترصدوا له بالطريق وأخذوا يحصبونه بالحجارة حتى تخضبت قدماه بالدماء !

ولما أبى عمه أبو طالب أن يسلمه إليهم ليقتلوه تعاهدوا على مقاطعة أوليائه من بني هاشم ، ودامت هذه المقاطعة ثلاث سنين لقي فيها هذا البيت الكريم من العنت والإرهاق أعظم البلاء ...

وعذب عمار بن ياسر وأهله عذاباً شديداً ، فكان الرسول يمر بهم وهم في العذاب ويقول : صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة !

ومن ذلك أن أبا جهل طعن سمية أم عمار بحربة فقضى عليها فشكا عمار ذلك إلى الرسول قائلاً : يا رسول الله ، بلغ منا العذاب كل مبلغ ! فقال صلى الله عليه وسلم : « اصبر أبا اليقظان ، اللهم لا تعذب من آل ياسر أحداً بالنار ! »

وقد استشهد أفراد هذه الأسرة الكريمة في سبيل الله ، ولم يبق منهم إلا عمار الذي كان يعذب حتى لا يعي ما يقول

وممن عذب في سبيل العقيدة بلال بن رباح كان مملوكاً لأمية ابن خلف ، فلما اعتنق الإسلام حنق عليه سيده وأمره بالرجوع إلى عبادة الأصنام ، فلم ينصع لأمره لأنه ذاق حلاوة الإيمان ، فأنزل به ألواناً من العذاب : كان يطرحه على الرمضاء ، ويصهر على صدره دروع الحديد ، ويضع عليه الأحجار الثقيلة حتى قد ظهره ! وهو يهتف دائماً : أحد ، أحد ، إلى أن أنقذه أبو بكر فاشتراه من سيده ، وأعتقه لوجه الله ...

وكثير غير هؤلاء ممن آمنوا بمحمد في مبدأ بعثته ، كانوا يلاقون العذاب الهون والبلاء العظيم ، حتى أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لمن ليس له أنصار يحمونه من هذا العدوان أن يفر بدينه إلى الحبشة ، فهاجر إليها جم غفير . واستأذن أبو بكر في الهجرة إليها فأذن الرسول صلى الله عليه وسلم له ، فلما كان على مسيرة يومين ، لقيه ابن الدغنة سيد قومه فسأله : أين تريد يا أبا بكر ؟ قال : أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي ، قال : إن مثلك لا ينبغي أن يَخرج أو يُخرج من أرضه ؟ ثم رجع به إلى قريش وأدخله في جواره ، على شرط أن يعبد الله

فابتنى أبو بكر مسجداً بفناء منزله ، وصار يصلي فيه ويتلو كتاب الله ، فكان نساء قريش وشبانهم يجتمعون حول داره ، يستمعون لتلاوته ، ويؤخذون ببلاغة القرآن وروعته ! ففزع القوم وشكوا أبا بكر إلى حليفه ، فأغلظ الحليف لأبي بكر في القول وقال له : إما ألا تستعلن بعبادتك ، وإما أن تعيد إليّ ذمتي . فقال أبو بكر : إني أرد لك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل

* * *

فكيف اجتمع هؤلاء الناس على محمد ؟ أبالسيف وهو أعزل لا يستطيع أن يعصم نفسه ؟ ومتى كان السيف وسيلة لتكوين العقائد في النفوس ؟

ولماذا باعوه أرواحهم يبذلونها رخيصة في سبيل دعوته ؟ أطمعاً في مال وهو فقير لا يكاد يملك من حطام الدنيا شيئاً ؟ ومتى

كان للمال هذا السلطان القاهر على العقول والأفهام ؟

كلا ؛ لا بهذا ولا بذاك ، وإنما بهذا الدين الحنيف الذى استحوذ على العقول وأخذ بمجامع القلوب ، وبهذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى حين سمعه وفد الحبشة من القسس والرهبان ، خشعت قلوبهم وفاضت أعينهم وأسلموا لله رب العالمين ، فنزل فيهم قوله تعالى : « ... ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين »

ولقد ظل المسلمون على هذه الفتنة الطاغية فترة من الزمن ، حتى إذا استفحل الخطب وعظم البلاء ، شرع الله لهم القتال دفاعاً عن النفس وذباً عن الدين ، فقال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » ، « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير »

كان موقف الاسلام إذن موقفاً سلبياً فى حروبه الأولى ، لا يقصد به غير الدفاع عن أهله ، ورد عدوان المتدين . فلما استقرت قواعده ، وانتهت إليه الخلافة فى الأرض ، كان عليه أن يقف موقفاً إيجابياً لحماية المؤمنين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرنَّ الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »

وهذا يدل على أن الحرب فى الإسلام وسيلة لدرء المفاسد وإقرار السلام ، لا إرضاء لشهوة الفتح والاستعباد . وإذا كان الاسلام قد حث على الاستعداد الحربى بقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » فانما يرمى بذلك لإطفاء جذوة الحرب فى نفوس الأعداء ، وهو ما يعرف فى هذا العصر بالتسلح السلمى !

وهذه مبادئه الحربية شواهد ناطقة بعدله ورحمته وإحسانه ، انظر إليه يأمر بالسلم إذا جنح إليها العدو ، ولو كان جنوحه خداعاً ومخاتلة : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم ؛ وإن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين »

وما تم فى معاهدة الحديبية ، يدل على مبلغ حرص الرسول — صلى الله عليه وسلم — على السلم وكراهية الحرب ، فقد رضى أن توضع الحرب بين المسلمين والمشركين عشر سنين ، فى الوقت الذى كان المسلمون يتحرقون على القتال ، وينتظرون منه كلمة واحدة ، يندفعون بعدها كالسيل الجارف صوب مكة ، حيث ينتصفون لأنفسهم وللإسلام من أولئك الذين أخرجوهم من ديارهم بغير حق ، فكان الرسول حائلاً بينهم وبين ما يشتهون ، حتى كادت تحدث بينهم فتنة عمياء لولا أن الله سلم ...

وكان الرسول يوصى أتباعه دائماً فى الحروب بقوله : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ؛ لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعته ، ولا تحرقوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء ! »

هذه مبادئ الإسلام فى الحرب ، وهى أرحم بالإنسانية وأشرف غاية من المبادئ السلمية — ولا أقول الحربية — التى تطبقها الدول القوية على الأمم الضعيفة باسم المدنية فى هذا العصر

وإليك هذا الموقف الرائع النبيل ، حين فتح الرسول مكة ، ومكنه الله من رقاب قريش ، وقد وقف على باب الكعبة والناس من حوله ينتظرون كلمة الفصل : فإما موت وإما حياة ! فقال لهم : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ! فكان ذلك سبباً فى إسلام قريش بأجمعها ، وحقن دمائهم ودماء المسلمين

فالقول إذن بأن الإسلام انتشر بالسيف فرية باطلة ، وإنما انتشر الإسلام بالحجة والبرهان ، وبسماحة مبادئه ومتانة أصوله . ولا عجب فهو الذى يقول : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم »

« حلوان الحمامات » محمد كامل حته

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٥ —

« هي رسائل الأحزان ، لا لأنها من الحزن جاءت ، ولكن لأنها إلى الحزن انتهت ؛ ثم لأنها من لسان كان سلما يترجم عن قلب كان حربا ؛ ثم لأن هـذا التاريخ الغزلي كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضيا إلى قبر ... ! »

« الرافعي »

رسائل الأحزان

خرج الرافعي من مجلس صاحبته مغضباً ، في نفسه ثورة تَوَجّ وفي أعراقه دم يفور ، وفي رأسه مرجل يتلهب ؛ وكتب إليها كتاب القطيعة وأرسل به ساعي البريد ، ثم عاد إلى نفسه فما وجد فيما كتب شفاء لنفسه ، ولا هدوءاً لفكره ، ولا راحة في أعصابه ؛ وأحس لأول مرة منذ كان الحب بينه وبين صاحبته أنه في حاجة إلى من يتحدث إليه ؛ وافتقد أصحابه فما وجد منهم أحداً يبثه أحزانه ويفضي إليه بذات صدره ويطرح بين يديه أحماله . لقد شغله الحب عن أصحابه عاماً بحاله لا يلقاهم ولا يلقونه ولا يتحدث إليهم ولا يتحدثون ؛ فلما عاد إليهم كان بينه وبينهم من البعد ما بين مشرق عام ومغربه بلياليه وأصباحه وتاريخه وحوادثه . وثقلت عليه الوحدة وضاقت بها نفسه ، ففزع إلى قلمه يشكو إليه ويستمع إلى شكاته ، فكتب الرسالة الأولى من « رسائل الأحزان » إلى صديقه الذي خصه بسره ... إلى نفسه ...

كان ذلك في مساء ٢١ من يناير سنة ١٩٢٤

وترادفت رسائله من بعد مسهبة ضافية يصف فيها من حاله ومن خبره وما كان بينه وبين صاحبته ، في أسلوب فيه كبرياء المتكبر ، ولوعة العاشق ، ومرارة الثائر الموتور ، و ... وذلة المحب المفتون يستجدي فاتنته بعض العطف والرحمة والحنان

وانتهى من كتابة « رسائل الأحزان » في مساء ١٧ من فبراير سنة ١٩٢٤

***

يخاطب الرافعي نفسه في « رسائل الأحزن » على أسلوب (التجريد) ، فهو يزعم أنها رسائل صديق بعث بها إليه ، فتراه يوجّه الخطاب فيها إلى ذلك الصديق المجهول يستعينه على السلوان بالبث والشكوى ؛ ثم يصطنع على لسان ذلك الصديق تتفاً من الرسائل يدير عليها أسلوباً من الحديث في رسائله هو ، وما هناك صديق ولا رسائل ، إلا الرافعي ورسائله ، يتحدث بها إلى نفسه عن حكاية حبه وآماله وما صار إليه

أو قل : إن الرافعي في هـذه الرسائل جعل شيئاً مكان شيء ، فأنشأ هذه الرسائل إلى صاحبته ثم نشرها كتاباً تقرؤه لتعلم من حاله ما لم تكن تعلمه ، أو ما يظن أنها لم تكن تعلمه ؛ فهي رسائله إليها على أسلوب من كبرياء الحب ، تشفي ذات نفسه ولا تنال من كبريائه

وفي بعض حالات الحب حين تقف كبرياء العاشق بينه وبين ما يريد إعلانه ، وتقف النفس وقفتها الألمية بين نداء القلب وكبرياء الخلُق ، يتمنى العاشق لو كان له ملء الفضاء ليهبه إلى من يحمل عنه رسالة إلى حبيبتـه من غير أن يعترف بأنه رسول ... ! وتكون أبلغ الرسائل عنده أن يكتب إلى حبيبته : « إنه يحبك » يعني : « أنا أحبك ! » ويتحدث إليها عن نفسه بضمير الغائب وهو من مجلسها على مرأى ومسمع ، ومن لفتات قلبها وقلبه على مشهد قريب ... !

وبهذ الأسلوب تحدث الرافعي عن نفسه بضمير الغائب في رسائل الأحزان

« أنا ... » هـذا الضمير الذي لا يتحدث به متحدث إلا سمعتَ في نبْره معنى شموخ الأنف ، وصَعَر الخد ، وكبرياء الخلُق ؛ لا يؤدي في لغة الحب إلا معنى من التذلل والشكوى والضراعة ، فما تسمعه من العاشق المفتون إلا في معنى اليد المدودة للاستجداء ، وما تقرأ ترجمته في أبلغ عبارة وأرفع بيان وأكبر كبرياء إلا في معنى : « أنا محروم ... ! »

يا عجباً للحب ! كل شيء فيه يحول عن حقيقته حتى ألفاظ اللغة وأساليب الكلام ... !

وكذلك كان الرافعي يقول في رسائل الأحزان : « هو » ويعني : « أنا ... » لأنه لا يريد أن يبتذل كبرياءه في لغة الحب...

* * *

إنني أحسب الرافعي لم يكتب رسائل الأحزان لتكون كتاباً يقرؤه الناس ، ولكن لتقرأه هي ، وهي كل حسبه من القراء ؛ فمن ذلك لم يجر فيها على نظام المؤلفين فيما يكتبون للقراء من قصة فيها اليوم والشهر والسنة ، وفيها الزمان والمكان والحادثة ؛ بل أرسلها خواطر مطلقة ، لا يعنيه أن يقرأها قارئها فيجد فيها اللذة والمتاع أو يجد فيها الملل وحيرة الفكر وشرود الخاطر

ولم يكتبها — كما يزعم — رسائل أدبية عامة تتم بها العربية تمامها في فنٍّ من فنون الرسائل لم يُؤْثر مثلُه فيما نقل إلينا من تراث الكتاب العرب ، ليحتذيه المتأدبون وينسجوا على منواله ؛ بل هي رسائل خاصة تترجم عن شيء كان بين نفسين في قصة لم يذكرها في كتابه ولم ينشر من خبرها

وبذلك ظلت « رسائل الأحزان » عند أكثر قراء العربية شيئاً من البيان المصنوع تكلَّفه كاتبُه ليحاول به أن يستحدث فنًّا في العربية لم يوفق إلى تجويده . على أنه كتاب فريد في العربية في أسلوبه ومعانيه وبيانه الرائع ، ولكنه بقيةُ قصةٍ لم تنشر معه ، فجاء كما تأكل النار كتاباً من عيون الكتب فما تُبقي منه إلا على الهامش والتعليق وصُلْبُ الكتاب رماد في بقايا النار ...

فمن شاء أن يقرأ رسائل الأحزان فليقرأ قصة غرام الرافعي قبل أن يقرأه ، فسيجد فيه عندئذ شيئاً كان يفتقده فلا يجده ، ولسوف يوقن يومئذ أن الرافعي أنشأ في العربية أدباً يستحق الخلود

* * *

قلت : إن الرافعي أنشأ رسائل الأحزان ليكون رسالة إليها هي ، فهذا كان أول أمره فيما بينهما من الرسائل التي قلت عنها فيما سبق إنهما كانا يتبادلانها على أعين القراء من غير أن يذيع السر أو ينكشف الضمير ، ومن غير أن يسعى بينهما حامل البريد ؛ ولقد ردّت صاحبته ردَّها على رسالته هذه برسالة مثلها بعثتْ بها إليه مع بائع الصحف والمجلات ... ثم تتابعت رسائلهما من بعد على هذا الأسلوب العجيب

وسيأتي يوم يُدرس فيه أدب (فلانة) صاحبة الرافعي ، وسيجد الباحثون يومئذ لوناً لذيذاً من البحث إذ يعثرون على رسائلها إليه في بعض كتبها ومقالاتها ، وليس بعيداً أن يقرأ الأدباء يومئذ كتاباً جديداً بعنوان « رسائلها ورسائله » بتاريخها وزمانها وأسبابها ، مقتبسةً مما نُشر ونشرتْ في الصحف والمجلات من مقالات وأقاصيص بين سنة ١٩٢٤ و سنة ١٩٣٦

أيها الباحث الذي سيأتي أوانه ، ابحث عن حَشْو القول وفضول الكلام في مقالاتها ومقالاته ، واقرِنْ تاريخاً إلى تاريخ وسبباً بسبب ، لتنشر لنا رسائلها ورسائله في كتاب ... !

* * *

أراني لم أتحدث عن « رسائل الأحزان » كما يتحدث كاتب من الكتاب عن كتاب من الكتب ، فليس هذا إليَّ ، وإنما قدمتُ وسائل القول لمن يريد أن يقول ؛ وأحسب أن كلاماً سيقال عن رسائل الأحزان من بعدُ غيرَ ما كان يُقال ، وأعتقد أن الدكتور طه حسين بك لن يكرر مقالته التي قالها فيه من قبل ، يوم أشهدَ الله على أنه لم يفهم منه حرفاً ؛ وأعتقد أن الدكتور منصور فهمي بك لن يقتصر على قوله فيه من قبل : « إن معانيه من آخر طراز يأتي من أوربا ... » لأنه سيجد مجالاً للقول في غير معانيه وبيانه

* * *

ولكن في رسائل الأحزان شيئاً غير ما قدمت من أشيائه ، ذلك لأن الرافعي — رحمه الله — كان ولوعاً بأن يضيف إلى كل شيء شيئاً من عنده ؛ وتلك كانت طبيعته في الاستطراد عند أكثر ما يكتب

سيجد الباحث في رسائل الأحزان عند بعض الرسائل وفي هامش بعض الصفحات من الكتاب ، كلاماً وشعراً لا يتساوق مع القصة التي رَوَيت . ألا إن الرافعي كانت تغلبه طبيعته الفنية في الكتابة أحياناً فيستطرد إلى ما لا يريد أن يقول ؛ ليثبت معنى يخشى أن يفوته ، أو ليذكر حادثة يراها بالحادثة التي يرويها أشبه ، أو لأن تعبيراً جميلا وجد موضعه الفني

من الكلام وإن لم يجد موضعه من الحادثة ؛ فان رأى الباحث شيئاً من ذلك فلا يداخله الريب في أثبت من الحقيقة التي أرويها كما أعرفها

وسيجد في بعض الرسائل حديثاً وشعراً عن لبنان وأيام لبنان ؛ وما عرف الرافعي صاحبته إلا في مصر وإن كان مولدها هناك . فليعلم من يريد أن يعلم ، أن صاحبة الرافعي هذه لم تكن هي أولى حبائبه ، وقد كان له قبل أن يعرفها في الغرام جولان ؛ وكان بعض من أحب قبلها فتاة أديبة عرفها في لبنان ، وهي سمية صاحبتنا هذه ؛ وكان بينهما رسائل أثبت الرافعي بعضها في « أوراق الورد » ، ومن أجلها أنشأ الرافعي كتابه « حديث القمر » ، على أن عمر الحب لم يطل بينهما ، إذ تزوجت وهاجرت مع زوجها إلى أمريكا لتشتغل بالصحافة العربية هناك — وما تزال — فما جاء في رسائل الأحزان من حديث لبنان وذكر أيام هناك ، فهو بقية من ذكرى صاحبة « حديث القمر » أقحمه في رسائله حرصاً عليه وبخلا به على الضياع

***

لقد كان حب الرافعي الأخير حادثة في أيامه فعاد حديثاً في فكره ، ورسائل الأحزان هي أول ما أنشأ من وحي هذا الحب ؛ على إن قارئه يقرؤه فما يعرف أهو رسالة عاشق ألحّ عليه الحب أم زفرة مبغض يتلذع بالبغض قلبه ؛ والحق أن الرافعي أنشأه وهو من الحب في غمرة بلغت به من الغيظ والحنق أن يتخيل أنه قادر على أن يبغض من كان يحب ، بغضاً يرد عليه كبرياءه وينتقم له ؛ فما فعل إلا أن أعلن حبه في أسلوب صارخ عنيف: كما تحنو الأم على وليدها في عنفوان الحب فتعضه وإنها لتريد أن تقبله ، أو كما تقسو ذراع الحبيب على الحبيب تضمه في عنف وما بها إلا الترفق والحنان ... !

وطبع الرافعي كتابه وأنفذه إلى صاحبته ، فكتبت إليه ... وثارت ثورة الرافعي مرة ثانية فأصدر « السحاب الأحمر »

« شبرا » محمد سعيد العريان

***

إلى الآنسة الأديبة أمينة شاكر فهمي بالجيزة ، وإلى الصديق الكريم محمد الخالد توفيق بيى مزار : لأشكر لهما رأيهما فيما أكتب عن أدب الرافعي ، ولأثني على براعتهما في الاستنباط وتوفيقهما في معرفة اسم صاحبة الرافعي

مقالات إسماعيلية

لأستاذ جليل

— ٩ —

(فصل) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من عرف نفسه عرف ربه) وقال عليه الصلاة والسلام : (عرفت ربي بربي) أشار إلى أنك لست أنت إنما هو أنت بالهوانت لا هو داخل فيك ، ولا أنت داخل فيه ، ولا (هو) خارج منك ، ولا أنت خارج منه . وما عنى بذلك أنك موجود وصفتك هكذا بل عنى به أنك ما كنت ولا تكون إلا بنفسك لاهويتك المضنونة هي العدم ، فأنت لا فان ولا موجود . أنت هو وهو أنت بلا علة من هذه العلل ، فإن عرفت وجودك هكذا فقد عرفت الله تعالى وأكثر العارفين (أضافوا [1]) معرفة الله تعالى إلى فناء الوجود وإلى فناء فنائه (فهذا [2]) إثبات الشرك ؛ فإن معرفة الله تعالى (لا) تحتاج إلى فناء الوجود ، ولا إلى فناء فنائه ، ولا شيء لا وجود شيء ، وما لا وجود (له) لا فناء له ، فإن الفناء لا يكون إلا بعد إثبات الموجود ، والوجود الإضافي عدم ، والعدم لا شيء ، فإن عرفت نفسك بلا وجود ولا فناء فقد عرفت الله تعالى . قال السيد راشد الدين (علينا منه السلام) : « لولانا [3] بشهوتنا للاشياء لما كان إلا الله ولا شيء سواه . وفي إضافة معرفة الله تعالى (إلى) فناء الوجود وإلى فناء فنائه إثبات الشرك ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من عرف نفسه عرف ربه) ولم يقل من أفنى نفسه عرف (ربه) فإن إثبات الغير تناقض فنائه ، وما لا يجوز ثبوته لا يجوز فناؤه ، ووجودك ووجوده لا شيء ولا يضاف إلى شيء . أشار عليه الصلاة والسلام إلا أنك معدوم كما كنت قبل متكوناً التقدر [4] فلا أن الأزل والأبد والله تعالى (موجودون) هو وجود الأزل والأبد ، وذات جميع الموجودات والوجود ولو لم يكن كذلك ما كان إلا الله وحده بنفسه لا يوجد الله تعالى فيكون رباً ثابتاً وهو محال ، فليس لله تعالى شريك في ملكه ولا ند ولا كفؤ . ومن (جمل) لا شيء مع الله وهو محتاج إلى الله فقد جمل ذلك

(١) ، (٢) هاتان الكلمتان زيدتا إذ لا بد من ذلك ، وفي هذا الفصل تحريف كثير مفسد (٣) لولا أنا (٤) كذا

الشيء شريكا له لأنه محتاج إليه . ومن توهم موجوداً سواه قائماً به ثم يصير فائناً [١] فناءه ويصير فائناً فى فنائه فتسلسل الفناء بالفناء شركا بعد شرك . ومن كان هذه معرفته فهو مشرك لا عارف ، والعارف بالله وبنفسه هو الذي يعلم أن الله كان ولم يكن معه شيء وهو الآن كان ، فإن قيل : إن النفس ليست هي الله ولا الله تعالى هو النفس ، قلنا : إن النفس هي وجودك وحقيقتك إلا النفس اللوامة والأمارة والمطمئنة . وأشار النبي صلعم الى الأشياء الموجودة فقال عمّ (ربي أرني الأشياء كما هي) وعني بالأشياء كما توُهِّم أنها غير الله (تعالى) أي عرفني ما سواك من سائر الأشياء لا أعلم هل هي أنت أم غيرك ؟ وهل هي قديمة أم باقية أم فانية ؟ فأراه الله ما سواه ، فإذا هي نفسه بلا وجود ما سواه ، فرأى الأشياء كما هي ، أعني رأى الأشياء ذات الله بلا كيف ولا أين لأنه هو تعالى هوية الكل بالحقيقة ، واسم الأشياء يقع على النفس من الأشياء ، فإن وجود النفس ووجود الأشياء شيئان فى المشيئة التي عرفت الأشياء وعرفت النفس ، ومتى عرفت النفس عرفت الرب ، لأنه الذي تظن أنه غير الله ليس هو سوى الله ، ولكنك ما تعرفه وأنت (لا) تراه ، ولا تعلم أنك هو فإذا عدّمت إياك فى ذاته بذاته لذاته علمت أنه كنه مقصودك وغاية مطلوبك وعلمت أن « كل شيء هالك إلا وجهه » أعني لا موجود إلا هو وجود لغيره مع وجوده فيحتاج (كل شيء) إلى الهلاك ، ويبقى وجهه أعني لا شيء إلا وجهه ، أعني لا نفس إلا نفسه ، ولا وجود إلا وجوده ، كذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تبقَّ الدهر بَانَ الله [٢]) أشار بذلك لا وجود للدهر ، وجود الله تعالى ووجود جميع الكائنات وجوده ؛ ليس للأشياء من ذاتها إلا العدم جداً ووجودك ووجوده لا إله إلا الله وأنا لا أنا هو كما وجب وجوده وجب عدم ما سواه ، فان الذى تظن أنه غيره ليس هو غيره إذ لا وجود مع وجوده أنى وجوده ظاهراً وباطناً ، ومن مات موتاً معنوياً عدمت ذاته وصفاته ، وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (موتوا قبل أن تموتوا) أى : اعرفوا نفوسكم واعرفوا ذاتكم المديمة لتعاينوا عين الهوية الحقيقة ، وكانت كل حالة لله تعالى

(١) فانيا (٢) لا ريب فى تصحيف هـذا القول المعزو إلى النبى (صلوات الله عليه) وتحريفه . وصحته : (لاتسبوا الدهر فان الله هو الدهر) وهو فى (مسلم) عن أبى هريرة

لأنه كان هو ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يزال العبد يتقرب بى [١] بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها) لأن حركاته وأفعاله كلها لله تعالى لا له فالذى عرف نفسه يرى وجود ذاته بل كان جاهلاً بمعرفة وجوده ؛ فتى عرفت نفسك ارتفعت فى عينيك وعرفت أنك لم تكن غير الله تعالى . وحقيقة معرفـة النفس أن تعلم (أن) وجودك ليس بموجود ولا معدوم ، فانك لم تكن كائناً ولا كنت ولا تكون تعرف معنى قوله : (لا إله إلا الله) ، ولا وجود لغيره ولا غيره سواه ، لا إله إياه ، وليس هذا بل بتعطيل الربوبية لأنه لم يزل رباً ولا مربوباً ، ولم يزل خالقاً ولا مخلوقاً ، خلاقيته وربوبيته لا يحتاجان إلى مخلوق ، ولا إلى مربوب ، ووجود الأشياء كان الله ، ولا شيء سواه ، وهو الآن ولا شيء سواه ، فوجود الموجودات وعدمها شيئان فلا هو إلا هو ، وما سواه عدم والسلام

(✱✱✱)

(١) إلي

نقـل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

إلى سيدى العلامة الأستاذ الكبير حسن حسنى عبد الوهاب الصمادحى — أدام الله مجده ، ونفع المشرقين بعلمه وفضله (١)

(نقل الأديب) للنشاشيبي ما هو إلا من ذلك الميراث القديم العظيم ، وقد ورث الأستاذ كما ورثت ، وعرف من قدْر ما ترك الأكرمون الأولون مثل الذى عرفت ، بل أكثر مما عرفت . وما أنا بالمستأثر بكنوز القوم وما أنا بالمستبد ، وما أنا بالوارث الأوحد

وإن هذا المال الموروث لَدَثْر كثير ، ولكل فى التدبير والتثمير والانفاق منه طريق . وعند الأستاذ التالدُ ، وعنده — والحمد لله — الطريف ؛ فهو السريّ المثرى ، وكم فى سوق الأدب من صُعلوك وكم من صَعْفوق (٢)

وليست تسميتُه ولدَه — وكتابُ المرء ولدُه المخلد — باسم ولدى (وقد زيد الحبيب) إلا تواضعاً ؛ والعلماء الكبار يتواضعون . وعزوُه الفضلَ إليّ باظهاره تلك الطرائف التونسية هو أدبُ نفس ، سليلُ ملك السَرِيّة به مشهور . فرحباً مرحباً بـ (نقل الحبيب إلى الأديب) وحَيَّهَل ، حيّ هلا (٣) بتضاعف الحسن فى العلم والفضل والاسم ، ومد الله فى عمره

محمد اسعاف النشاشيبي

(١) أخذ الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب ينشر فى مجلة (الجامعة) التونسية طرائف من الأدب فى أفريقية معنونة (بنقل الحبيب إلى الأديب) وقد استهلها بكتاب بهذا القول : « إلى سيد الكتاب ومحيى الآداب العلامة الكبير محمد إسعاف النشاشيبي أدام الله حياته »

(٢) فى حديث الشعبي : ماجاءك عن أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) فخذه ودع مايقول هؤلاء الصعافقة : هم الذين يدخلون السوق بلا رأس مال ، فاذا اشترى التاجر شيئا دخلوا معه فيه . واحدهم صعفوق : أراد أن هؤلاء لا علم عندهم فهم بمنزلة التجار الذين ليس لهم رأس مال (النهاية)

(٣) فى حديث ابن مسعود : إذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر ، أى ابدأ به وعجل بذكره ، وهما كلمتان جعلتا كلمة واحدة وفيها لغات ، وهلا : حث واستعجال (النهاية)

٣١١ — فإن شهرك فى الواوات قد وقعا

محمد بن على بن منصور بن بسام :

قد قرّب الله منا كل ماشسعا ... كأننى بهلال الفطر قد طلعا

فخذ لهوك فى شوال أهبته ... فإن شهرك فى الواوات قد وقعا (١)

٣١٢ — الجمة السكينية

فى (أغانى أبى الفرج) : كانت سُكَينة أحسن الناس شعراً وكانت تصفف جُمّتها تصفيفاً لم ير أحسن منه حتى عرف ذلك وكانت تلك الجمة تسمى (السكينية) ، وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلا يصفف جمته السكينية جلده وحلقه

٣١٣ — بردى ساقه وخادم . . . (٢)

ذكر أبو بكر بن العربى فى رحلته أنه دخل بدمشق بيوت بعض الأكابر فرأى فيه النهر جارياً إلى موضع جلوسهم ثم يعود من ناحية أخرى . قال أبو بكر : فلم أفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام فى النهر المقبل إلينا ، فأخذها الخدم ووضعوها بين أيدينا ، فلما فرغنا ألقى الخدم الأوانى وما معها فى النهر الراجع فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يقرب الخدم تلك الناحية . فعلمت السر ، وإن هذا لعجيب

٣١٤ — أشهى الى من الدنيا وزخرفها

على بن الجهم :

لجلسةٌ مع أديبٍ فى مذاكرة ... أنفى به الهم أو أستجلب الطربا (٣)

أشهى إلىّ من الدنيا وزخرفها ... وملئها فضة أو ملئها ذهبا (٤)

٣١٥ — اللغة والدولة

فى (الإحكام فى أصول الأحكام) لابن حزم : إن اللغة يسقط

(١) وقع رمضان فى الواوات يريدون أنه جاوز العشرين فلا يذكر إلا بواو عطف . وفى أمثال العوام : إذا وقع رمضان فى الأنين ، خرج شوال من السكين . وقع فى الأنين : مرادهم أنه يقال فيه واحد وعشرون ، اثنان وعشرون ، فيكرر فيه الأنين (الغيث المسجم)

(٢) بردى : نهر دمشق الأعظم ، ياقوت : إنه بلا شك أنزه نهر فى الدنيا

(٣) مع : تسكين عينه لغة غنم وربيعة لا ضرورة خلافا لسيبويه (المغنى)

(٤) شاعر :

وهجرت الا من لقاء محدث ... حسن الحديث يزيدنى تعليما

أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها ، ودخول غيرهم عليهم فى مساكنهم ، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم ، فإنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم . وأما من تلفت دولتهم ، وغلب عليهم عدوهم ، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم فمضمونٌ منهم موت الخواطر ؛ وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وأخبارهم ويبود[1] علومهم . هذا موجود بالشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة

٣١٦ — السلطاد ، الملك

فى (طبقات الشافعية الكبرى للسبكى) : مصطلح الدول أن السلطان من ملك أقليمين فصاعدا . فان كان لا يملك إلا إقليما واحداً سمي بالملك ، وإن اقتصر على مدينة واحدة لا يسمي بالملك ولا بالسلطان بل بأمير البلد وصاحبها . ومن هذا يعرف خطأ كتاب زماننا[2] حيث[3] يسمون صاحب حماة سلطاناً ، ولا ينبغى أن يسمى سلطاناً ولا ملكا لأن حكمه لا يعدوها ، فكأنهم خرجوا عن المصطلح . ومن شرط السلطان ألا يكون فوق يده يد ، ولا كذلك صاحب البلدة الواحدة ، فان السلطان[4] يحكم عليه ، وأما حكم السلطان على الملك وعدم حكمه فيختلف باختلاف القوة والضعف

٣١٧ — بطل أندلسى

فى (الإحاطة فى أخبار غرناطة) لمحمد لسان الدين بن الخطيب: خرج إبراهيم بن محمد بن مفرج (همشك[5]) متصيداً وفى صحبته قارعو أوتار الغناء فى مائة من الفرسان ، فما راعهم إلا خيل العدو هاجمة على غرة فى مائتين من الفوارس . فقال : إذا كنتم أنتم لمائة وأنا لمائة فنحن قدرهم ؛ ثم استدعى قدحاً من شرابه وصرف وجهه إلى المغنى وقال : غن لى :

يتلقى الندى بوجه حياء   وصدور القنا بوجه وقاح

هكذا هكذا تكون المعالى   طرُق الجدّ غير طرق المزاح

فغناه ، واستقبل العدو وحمل عليه بنفسه وبأصحابه حملة رجل واحد ، فاستولت على العدو الهزيمة ، وأتى على معظمهم القتل ، ورجع غانما إلى بلده . ثم عاد للصيد فى موضعه ذلك ، وأطلق بازه على حجلة فأخذها ، ورأى نصلا من نصال المعترك من بقايا الهزيمة فأخذه من التراب ، وذبح الطائر ، واستدعى الشراب ، وأمر المغنى فغناه بيت أبي الطيب :

تذكرتُ ما بين العذَيب وبارق   مجرَّ عوالينا ومَجرى السوابق

وصحبة قوم يذبحون قنيصهم   بفضلة ما قد كسّروا فى المفارق

(١) بادبدا ويبودا

(٢) تاج الدين السبكى (أبو نصر عبد الوهاب) مولده (٧٢٧) وفاته (٧٧١) نسبته إلى سبك من أعمال مصر (أعلام الأستاذ الزركلى)

(٣) حيث تعليلية (مولدة) وهى فى كلام الزمخشري وغيره

(٤) قلت : لقد ضيم اسم السلطان فى هذا الزمان أيما ضيم ، وضيمت معه قرينته (العظمة) . المتنبي :

أرانب غير أنهم ملوك   مفتحة عيونهم نيام

(٥) همشك : ترى المقطوع الأذن ، إذ (ها) عندهم قريب من (أما) فى اللغة العربية ، (المشك) المقطوع الأذنين فى لغتهم (الاحاطة)

نكبة السيل في سورية

الفاجعـــة !

للأستاذ أمجد الطرابلسي

عجبٌ فعالُكَ يا غَمامُ ! أفتكتَ في الشهر الحرام[1] ؟
ياليت شعريَ ! هل نَهِمـــتَ فقمتَ تلتهم الصِّيام ؟
أعملتَ رأيكَ في الظلا مِ ، وبئس غدّارُ الظلام !
ومكرتَ ، والحُلُمُ الهَنى ءُ يُهدهدُ المُقَلَ النيام
والغادةُ الفرحى تُقبِّـــلُ ثغرَها صُوَرُ الهيام
والطفلُ عانقَ أمَّــــه وغفا ودُنياهُ ابتسام
حتى الشبابُ الأهوجُ الـــصخّابُ أسكره المنامْ
فغفا وما زالتْ ترِنُّ برأسه ذِكَرُ الغرام
والشيخُ في محـــرابِهِ يبكي ويخشعُ في القيام
يدعو لصبيتهِ الصّفا ءِ وهم على شَرَفِ الفِطام
يدعو لهمْ منْ لا يُخيِّـــبُ مُرتجيهِ ولا يُضام
يرجو ابتساماتِ الحيا ةِ لهمْ وإدراكَ المَرام
ويذوبُ في صَلَواتِهِ نشوانَ من أسمى مُدام
وبنوهُ قد رقدوا ورفَّ مَ على مُهودِهمُ السّـــلام
فصَبَبْتَ وَبْلَكَ ساخطاً من دونِ ذنبٍ واجترام
ماذا نقِمتَ عليهمُ فأذقتهم شرَّ انتقام ؟

أرسلتَ صوْبَكَ أيَّ بحـــرٍ زاخرِ الأمواجِ طام
في الليلِ يقتحمُ الخـدو رَ وأهلَها أيَّ اقتحام
وُيباغتُ الشَّملَ الجميـــعَ مُصَدَّعاً كلَّ التئام
هبّوا يرومون النجا ةَ ، ولا نجاةَ ولا اعتصام
يعـــلو نحيبُهم فيُطـــفئه الدويُّ والانهدام
يالهفَ نفسيَ ! ما الفِرا رُ من القيامةِ إذْ تُقام ؟
سيلٌ تعوم بهِ العـــذا رى والولائدُ والسَّوام

(١) المقصود به (رمضان) وإن لم يكن من الأشهر الحرم الأربعة !

والأيكُ والوُكُناتُ والـــهضْبُ المنيعةُ والرِّجام
لَقِفَ الحظائرَ والخِيا مَ وأهلَ هاتيكَ الخيام
وسطا على الأكواخِ ينسِـــفُها ويجترفُ الحطام
... وبدا الصّباحُ كما تخضَّـــبَ بالدّمِ القاني الحسامْ
فإذا الديارُ مقابرٌ يختالُ فيهنَّ الحِمامْ !!

يا ابنَ الحسين[1] ألا نفضـــتَ صفيحَ قبركَ والرَّغام
فرأيتَ كيفَ طغى العُبا بُ وغالَ دُنيا في منام !
سِرْ والصِّحابَ ترَ المَنا زِلَ لا مُناخَ ولا مُقامْ
وترَ الملاعبَ والحدا ئقَ لا اتِّساقَ ولا انتظام
لا عنْ ميامنِكم (ضُمَيْـــرُ) ولا وَراءِ ولا أمام
مُحِيَتْ من الدنيا كما تمحو السطورَ يدُ الغُلام
وطوتْ معالمَها السُّيو لُ فلا رسومَ ولا رِمام

قَلَمونُ[2] ! يا فرحَ الشَّآمِ ! وفرحةَ الدّنيا الشّآم
يا مرتعَ الآرامِ والأ حلامِ والحَدَقِ السِّقام
يا مهبطَ الشِّعرِ الحلا لِ ومَسْرَحَ الحُسْنِ الحرام
هل سامعٌ فيكَ السّلا مَ ، إذا أطلتُ لكَ السلام ؟!
كلُّ الجراحاتِ التي نزَفتكَ في قلبي دَوام
يا جنّةَ الأطيارِ والأ لحانِ ! ما فعلَ الحَمامْ ؟
أتُراه قد هجرَ الخما ئلَ والجداولَ أم أقام
لمّا مضى بِبُكورِهِ وبزُغْبِهِ الموتُ الزُّؤام
يا مسطعَ الأنوارِ هل أذوى مباسِمَكَ القَتام ؟
هل شفَّ (يَبْرودَ) الشحو بُ وأنَّ (جَيْرودَ) القتام ؟
كيفَ الحدائقُ والكرو مُ سُلِكْنَ في أبهى نظام ؟
كيف العشيّاتُ العِذا بُ وكيفَ في الرّوضِ الزّحامْ

(١) أحمد بن الحسين المتنبي ، وفي المقطع من القصيدة إشارة إلى قوله ذاكراً (ضمير) إحدى القرى التي طغت عليها السيول :
« لئن تركن ضميراً عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم »
والضمير في (تركن) يعود إلى النوق التي وصفها في بيت سابق

(٢) قلمون اسم الجبل الذي دمرت السيول أكثر قراه . وهو في شمال دمشق ومن أجمل مصيفات الشام

في منهل الشعر

زهرة تتغنى

للأديب أحمد فتحي مرسي

الرَّوْضُ مَعْقُودُ اللهَا هاجِدٌ ... قَدْ صَوَّحَ النَّاضِرُ مِنْ زَهْرِهْ

والرِّيحُ في الآفاقِ عَصَّافَةٌ ... وَالطَّيْرُ قَدْ عادَ إلى وَكْرِهْ

يا وَيْلتا ! ماذا أصابَ الضُّحى ... حَتَّى غدا كاللَّيلِ في قَرِّهْ

لا الرَّوْضُ مَمْطُورُ الثَّرى زاهِرٌ ... كَلاَّ .. وَلا الأمْوَاهُ في نَهْرِهْ

وَالغُصْنُ ذاوٍ في الرُّبَى ذابِلٌ ... قَدْ صَلُبَ الرَّيَّانُ مِنْ خَصْرِهْ

يَلُوحُ كالمَذْعُورِ في رَجْفِهِ ... مُنْتَفِضَ الأطْرَافِ مِنْ ذُعْرِهْ

يَنْفُضُ في الرَّوْضِ وُرَيْقاتِهِ ... والذَّاوِيَ اليابِسَ مِنْ نَوْرِهْ

كَطائِرٍ يَنْفُضُ عَنْ رِيشِهِ ... ما خَلَّفَ الوَابِلُ مِنْ قَطْرِهْ

أُنَقِّلُ الطَّرْفَ فما إنْ أرى ... إلاَّ هَشِيمَ الرَّوْضِ في قَفْرِهْ

هٰذِي الرِّيَاحُ النُّكْبُ مِنْ عَصْفِها ... قَدْ بِتُّ كالثَّامِلِ في سُكْرِهْ

وَذا نَسِيمُ اللَّيْـلِ في هَبَّةٍ ... يَهْصِرُ بي ما شاءَ مِنْ هَصْرِهْ

قَدْ خَدَّشَ الخَدَّ بأنْفاسِهِ ... وَأطْفأَ المُؤَجَّجَ مِنْ جَمْرِهْ

* * *

في بَسْمَةِ الصُّبْحِ وَفي صَمْتِهِ ... وَفي البَهِيِّ النَّضْرِ مِنْ فَجْرِهْ

وُلِدْتُ في الأفْنانِ مُخْضَلَّةً ... فَضَمَّنِي الغُصْنُ إلى صَدْرِهْ

رَخِيَّـةُ الصَّفْحَةِ لَوْ مَسَّها ... ثَغْرُ امْرِئٍ ذابَتْ عَلَى ثَغْرِهْ

أجْرَى عَلَى خَدِّي النَّدَى قَطْرَهُ ... وَأسْبَلَ المَنْهَلَّ مِنْ خَمْرِهْ

مَنْزِلَتِي في الرَّوْضِ مِنْ زَهْرِهِ ... مَنْزِلَةُ الوُسْطَى عَلَى نَحْرِهْ

تُخايِلُ الأفْنانُ بي في الرُّبَى ... وَيَنْثَنِي غُصْنِيَ مِنْ فَخْرِهْ

حَتَّى إذا أرْخَى الدُّجَى سُجْفَهُ ... وَلَفَّ هَذا الكَوْنَ في سِتْرِهْ

لِجِسْمِيَ الذَّاوِي عَلَى غُصْنِهِ ... لا تَأْتَلِي الأنْسامُ في نَثْرِهْ

وَتَسِيكَةُ المَوْتِ وَلَمْ أنْتَهِلْ ... مِنْ رَوْعَةِ الكَوْنِ وَمِنْ سِحْرِهْ

ماذا عَلَى الأقْدارِ لَوْ صابَرَتْ ... قَدْ يَجْتَنِي الصَّابِرُ مِنْ صَبْرِهْ

كأنَّنِي حُلْمٌ لَطِيفُ الرُّؤَى ... قَدْ طافَ بالوَسْنانِ في فِكْرِهْ

حَتَّى إذا وَلَّتْ سِناتُ الكَرَى ... لَمْ يَبْقَ في القَلْبِ سِوَى ذِكْرِهْ

أيْنَ الرَّبِيعُ الطَّلْقُ في حُسْنِهِ ... أيْنَ الشَّذا الفَوَّاحُ مِنْ عِطْرِهْ

أيْنَ السَّنا اللَّمَّاحُ مِنْ نُورِهِ ... أيْنَ الفَمُ الوَضَّاحُ مِنْ بِشْرِهْ

كَمْ عِنْدَهُ مِنْ رائِعٍ خالِدٍ ... يَعْيا اللِّسانُ الطَّلْقُ في حَصْرِهْ

قَدْ مَرَّ بالرَّوْضِ قَرِيبَ المَدَى ... كَخُطْوَةِ العَجْلانِ في مَرِّهْ

وَشَيَّعَ المُبْتَلَّ مِنْ غُصْنِهِ ... وَوَدَّعَ المُخْضَلَّ مِنْ زَهْرِهْ

وَآذَنَ الدَّهْرَ بِهِجْرانِهِ ... فَرَوَّعَ الأفْنانَ مِنْ هَجْرِهْ

وَالدَّهْرُ أطْوارٌ تَقَضَّى بِنا ... ما مَرَّ لا يَرْجِعُ مِنْ طَوْرِهْ

وَذاكَ العَيْشُ بِهِ مَعْبَرٌ ... تَفاوَتُ الأعْمارُ في عَبْرِهْ

الصَّفْوُ وَالكَدَرُ سَوَاءٌ بِهِ ... وَعُسْرُهُ أهْوَنُ مِنْ يُسْرِهْ

وَشَرُّهُ ماضٍ إلى خَيْرِهِ ... وَخَيْرُهُ غادٍ عَلَى شَرِّهْ

كَمْ في حَياتِي عِظَةٌ لِلوَرَى ... لَوْ نَبَّهَ الغِرُّ إلى أمْرِهْ

كُفِّنْتُ في مَهْدِي ولَمَّا أزَلْ ... ذَكِيَّةَ الأذْيالِ مِنْ طُهْرِهْ

فَلَحْظَةٌ عُمْرِي . وَكَمْ يَشْتَكِي الْـ ... إنْسانُ قُرْبَ المَوْتِ في عُمْرِهْ

شَكِيَّةُ الإنْسانِ ما تَنْتَهِي ... وَإنْ يَعِشْ دَهْراً عَلَى دَهْرِهْ

ما أغْدَرَ المَوْتَ بأعْمارِنا ... وَأغْفَلَ الإنْسانَ عَنْ غَدْرِهْ

وَألْعَبَ الجَـدَّ بآمالِنا ... وَأقْرَبَ المَوْلُودَ مِنْ قَبْرِهْ

« القاهرة » — « فتحي »

من كلِّ هيفـاءِ القوا ... مِ وكلِّ عشّاقِ القوام

لهفى عليـكَ وللسيو ... لِ على جوانبكَ النظامْ

كالفلكِ في لُجَجِ البحا ... رِ السُّودِ أعياها الخصام

لا الموجُ يرحمُها ولا الإ ... عصارُ يُسلِمُها الزِّمام

فتقطَّعتْ عُقَـدُ الشِّرا ... عِ وشقَّ جُؤجُؤَها الصِّدام

وتناثرت أشـــلاؤها ... حيناً ... وغيَّبها الظَّلامْ !

(دمشق) — أحمد الطرابلسي



الزنـــك

كعنصر أساسى لنمو النبات

للأستاذ عبد الحليم منتصر

كان المتقد إلى عهد قريب أن العناصر الأساسية لنمو النبات ، أى التى لا يستطيع أن يتابع نموه بحالة طبيعية بدونها هى الكربون والايدروجين والأكسجين والأزوت والكبريت والفسفور ثم الحديد والبوتاس والمغنسيوم والكلسيوم ، ولم يجد العلماء كبير عناء فى إثبات أهمية أى عنصر من هذه العناصر ، ولم يصادفوا أية مشقة فى دراسة الدور الذى يقوم به كل منها فى بناء النبات ، بل لقد عرفوا تفصيل كل ذلك بصور قاطعة لم يعد الشك يتطرق إليها . فالثلاثة الأول تكون الكربوايدرات التى توجد بالنبات ، ومنها مع الثلاثة التالية ، يتكون البروتبلازم ومركباته . أما العناصر الأربعة الأخرى فهى ضرورية جداً للنبات على رغم عدم دخولها فى تركيب مادته . فالحديد والمنسيوم ضروريان جداً لتكوين مادة الخضير التى بدونها لا يستطيع النبات الأخضر تحضير مواد غذائه ، كما أنه لا يستطيع تكوين النشاء إذا انعدم البوتاس من عناصر تغذيته ، كذلك يدخل الكلسيوم فى تكوين هيكل النبات الداخلى ، أى فى جدر خلاياه ، كما أنه لازم ليكون انقسام الخلايا فى الأجزاء النشطة عادياً

وليس ثمت شك فى أساسية هذه العناصر التى يأخذها النبات — ماعدا الكربون والأكسجين للتنفس — من التربة . والقول بأن هذه العناصر أساسية لا يقصد منه أن غيرها لا لزوم له ، بل على النقيض من ذلك قد يوجد بالنبات عشرات من العناصر الأخرى لها بعض الأثر فى نمو النبات وازهاره وأثماره ، ولكنه لا يكون لانعدامها هذا الأثر الذى نلاحظه عند حذف أى عنصر من هذه العناصر سالفة الذكر . ويمكن القول بأن هذه العناصر هى الأساسية إجمالاً أو إطلاقاً ، أما غيرها فقد يكون لازماً لبعض النباتات دون البعض الآخر ، ولكن فقدها بالكلية ليس قوى الأثر على حياة النبات أى ليس مهلكا له

على أن هذا الثبت من العناصر قد أخذ يتزايد على مر الأيام نتيجة لنشاط العلماء وتجاربهم الدقيقة ، فقد قال بعضهم بضرورة عنصر البورن ، وأثره البالغ فى تحسين المحصول وحالة البذور جودة ومناعة ... كذلك قيل عن أهمية المنجنيز لتنشيط الخمائر ، والنحاس ودوره فى التفاعلات الكيميائية بالنبات ، والكلور وأثره فى زيادة خضرار النبات وقلة نتحه ، كذلك الفلور واليود وأثرهما فى زيادة نمو النبات . وعن السليكون وأهميته فى تمثيل حامض الفسفوريك فى النبات ، والصوديوم وفائدته فى حالة قلة البوتاسيوم . وغير هذه العناصر كثير مما تحدث عنه العلماء نتيجة لتجاربهم وملاحظاتهم مما جعل بعضهم يضيفها إلى قائمة العناصر الأساسية ، وإن كانوا لا يعنون فى أغلب الأحوال أن تكون أساسية إطلاقاً ، أى أنها لازمة لكل أنواع النبات ، أو أن فقدها يسبب هلاك النبات . وسنرى فيما نعرض فى هذا الحديث مكان الزنك بين هذه العناصر المختلفة التى يحتاجها النبات ، والآثار التى تترتب على فقده ، والأخطار التى يتعرض لها النبات عند حرمانه منه ، وذلك ما جعل موضوع أساسيته محل البحث والدرس عند العلماء فى الوقت الحاضر

ولقد كان « رولن » أول من لاحظ ضرورة وجود الزنك لنمو بعض الفطريات ، وأثبت أنه فى حالة عدم وجوده يضعف نمو الفطرة ويقل ازدهارها ، وقال إنه حتى فى حالة عدم إضافته يكون موجوداً مع مركبات العناصر الأخرى نظراً لعدم نقائها ، ولعل ذلك هو السر فى تجاهل شأن الزنك . وقد عضده فى ذلك « چافييه » بتجارب أجراها على الفطرة (اسبرجلس) ثم أعاد « شتينبرج » تجارب « چافييه » محاولاً تنقية مركبات العناصر التى كان يغذى بها الفطرة من أى أثر للزنك ، فوجد أن نموها قد تأثر كثيراً . على أن أحداً من هؤلاء لم يقطع بأن الزنك عنصر أساسى لنمو النبات . بل لقد افترضوا آنئذ أن الزنك ما هو إلا حافز فى حالة الفطرة . ولكن « رولن » أبدى رأيه فى أساسية الزنك للنباتات الراقية ، بيد أنه كان متحفظاً ، فلم يقطع بذلك بل تركه للزمن يحققه ويمحصه

وقد أثبت كثير من العلماء تأثر النبات بكمية الزنك التى تضاف إليه ، ومن أخص هؤلاء « ميز » و « سومر » و « ليمان » الذين كانت تجاربهم مضرب المثل فى الدقة والعناية والبعد عن مظان الضعف أو مواطن التشكيك ، كاختبار الزجاج الذى تجرى به التجارب للتأكد من خلوه من الزنك ، كذلك خلو الماء الذى تروى به النباتات أو الغبار الذى يعلو المزرعة ، أو المركبات الكيميائية التى تستعمل فى المحاليل الغذائية ، مثل هذه التجارب كان من أهم نتائجها إثبات ضرورة الزنك لنمو النباتات

وقد أثبت « هامس » فى سنة ١٩٣٢ فائدة الزنك لأشجار الليمون كما أوضح « هجلاند » فى سنة ١٩٣٦ أعراض المرض الذى ينتاب كثيراً من النباتات عند حرمانها قطعياً من الزنك . كما أثبت فى كثير من الحالات تحسن المحصول وزيادة النمو فى الحقل بعيداً عن تجارب المعمل ، وذلك باضافة الزنك للتربة فيكون له هذا الأثر البارع من اطراد فى النمو وازدياد فى الايناع إلى شفاء من أعراض المرض ، فاضافة بضعة كيلو جرامات من كبريتات الزنك للفدان قمينة بزيادة محاصيل كثير من الأنواع النباتية كالقمح والشوفان والذرة والترمس والبسلة وكثير من أنواع الفاكهة . وقد أثبت « مورى » و « كامب » وغيرهما أن إضافة مركبات الزنك للتربة تفيد كثيراً فى حالات تبقع الأوراق وتجعدها وجفاف الأفرع ، وغير ذلك من الأعراض التى تصيب النبات نتيجة حرمانه من الزنك . كان من نتائج تقدم هذه البحوث أن استطاع علماء النبات توفير ملايين من الجنيهات كانت تضيع هباء فى أمريكا نتيجة لما يصيب الموالح والتفاح والجوز والعنب من التبقع والاصفرار والانكماش مما يؤثر تأثيراً بليغاً فى المحصول . وقد ظهر أن السبب هو نقص الزنك ، وأن العلاج هو الزنك دون سواه ، ولهذا سمى المرض نقص الزنك أو الحرمان من الزنك

ما هى أعراض هذا المرض ، وكيف نشخصه بدقة ، وما هى طرائق علاجه بمركبات الزنك ؟ سيكون ذلك موضوع حديثنا فى عدد الرسالة المقبل .

عبد الحليم منتصر



أقصوصة من ايبل مانن

حب في روما (١)

للأستاذ دريني خشبة

يخطىء من يحسب أن الحب وقف على جماعة الأرستقراطيين من الناس، وخاصة الحب الرفيع السامى ، الذى هو ينبوع آدميتنا والذى تبتعثه السماء فى قلوبنا ليصهرها بآلامه الحلوة ، وأشجانه الجميلة ؛ وليفجر منها دموع الرحمة والمودة والحنان ... وقد ينمو الحب فى كوخ من قش ، كما ينمو فى قصر ، وقد يكون فى الكوخ أصدق منه فى البيت ذى العماد ، وقد يكون فى ركن منسى ، أصفى منه فى جنة فيحاء ... وهكذا كان حب هذا الفتى ميشيل ، الخادم الفقير فى أحد فنادق روما

لله ما أقسى المقادير ! لقد كان ميشيل ، الفتى الايطالى المرح ، أحق بأن يكون شاعراً يودع روحه فى قصائد رنانة ، ينشدها ويتغنى بها ، لا خادماً ينضد الوسائد ، ويُعنى بالسُرر ، ويَنفض السجاجيد ... و ... ينظف أحذية النازلين !! وكانت له أم لولاها ما اضطر لأن يعمل كى يكفلها ، إذ ماتت عنها زوجها فى السنوات الأولى من البناء بها ... وكان يؤوب إليها آخر كل نهار بحبه لها ، وحرصه على إسعادها ، ثم بليرات قليلة تشفى السغب ، وتضمن السِّتر ، وتقيم أَوَدَ الحياة ...

وكان ميشيل يحب الموسيقى ، ويغرم بالقصص الايطالية ، ويشغف بمآسى الحب ، وكان يتمنى لو وفق إلى أن يكون واحداً من أولئك الأبطال الذين يملأون الروايات بالدموع والآهات ، وإن لم يعيشوا مع ذلك إلا فى أدمغة مبتدعيهم من الكتاب والمؤلفين

وكانت تعمل معه فى الفندق فتاة لم تكن فى رأيه أول الأمر شيئاً مذكوراً ، وإن يكن شعرها الذهبي يلفت نظره أحياناً ، وساقاها الجميلتان اللتان لهما ظلال خفيفة من بنفسج الأبنين تثيران فى قلبه (استلطافاً) لم يفكر مرة فى أنه ينتج حباً أو يتأصل فيكون غراماً ... لا ... لم يفكر ميشيل مطلقاً فى أن هذه الفتاة البائسة مثله ، ستكون حلمه وأمنيته ، وأنه من أجلها سيقضى أطول لياليه مسهداً كما يقضى الشعراء لياليهم فى عوالم شاسعة من المنى والأحلام

وكان ميشيل ينقطع عن العمل نصف يوم عطلة فى كل أسبوع وكانت الفتاة ماريا ، من أجل ذلك ترهق بالعمل ، وكان يرهقها أكثر ، وجودها مع نادل آخر شرس الطباع ، لئيم الخلق ، يدعى فرارى ... كان يتعمد أن يترك لها كل عمل مجهد ، على أن يستخف هو باليسير الأقل ... وكان فرارى ينقطع عن العمل أمسية واحدة كل أسبوع كما ينقطع ميشيل ، وطالما كان يختار أمسيته فى نفس اليوم الذي كان ينقطع فيه زميله ، فكانت ماريا المسكينة توزع نفسها على جميع أنحاء الفندق ، وكان بهو الطعام يتهمها أكثر من كل شيء ، لاختلاف أمزجة الآكلين وكثرة طلباتهم ، وضرورة مراعاة ترتيب النداءات ، وإلا فالويل لماريا من هؤلاء (السياح) الانجليز المتغطرسين الذين يغشون هذا الفندق دائماً

وقد لحظ ذلك ميشيل ، فكان يتعمد أن يبقى فى أمسيته ، دون أن يذهب لإجازته ، ناسياً أن أمه العجوز الرؤوم المريضة المشفية على الموت ، تنتظره ليسمر إليها ، ويخفف عنها آلامها .. كان ميشيل ينسى هذا الواجب المقدس ، ولكنه كان لا يلتفت إلى أن فى عمله هذا تقصيراً ، بل بالعكس من ذلك ، كان يرى فيه إنسانية سامية ، وعطفاً تحتمه عليه رجولته ، على هذه الفتاة ذات الشعر الذهبي والساقين اللتين لهما ظلال جميلة من بنفسج الأبنين ... ولم يفكر ميشيل مرة أنه فجر الحب ينبلج فى قلبه ، وأنها أنفاس الغرام العطرية تجذبه كالفراش إلى هذه الزهرة الحلوة

(١) العنوان الأصلى ميشيل جلوريا

الفضة ... كلا ... بل لم يفكر قط فى أن أمه الرؤوم الريضة كانت أحوج إليه وإلى لحظات ينفقها عليها ، من هذه الفتاة اللعوب الطروب ذات الفم الدقيق ، ماريا التى تعمد ألا يغادر الفندق ليساعدها وليخفف عنها هـذا العبء الهائل ، من رفع الأطباق وجمع الأكواب ، وتنضيد البهو ، وتلميع الموائد ... حتى لا يهان هذا الشعر الذهبى المغدودن الذى يرف كأنفاس الحور على صدرها الناهد وظهرها الماجى ، وحتى لا ترهق الساقان الملفوفتان اللتان لها هذا السحر الجميل المنعكس من بنفسج الأبنين ! !

ولم تشكره ماريا قط ، ولم تتعب تفكيرها فى السبب الذى كان يصرف زميلها عن التمتع بأجازته القصيرة ، وكانت كلما همت بعمل شاق من أعمال البهو ، وأقبل هو مهرولا ليؤديه نيابة عنها أنفضت رأسها الذى يتخابث صغيراً في شفق الشعر الذهبى ، ومضت لطيتها ، تاركة لميشيل أن يقوم بكل عسير شاق من أعمال الصالة ... ووقفت تعبث بدمية أو بباقة من الزهر ، أو تصلح صورة أو تسقى أصيصاً ... وكان الفتى مع ذاك يخالسها نظرات كالودق يخرج من بين السحاب ، وكان مع ذاك أيضاً لا يشعر بتعب ولا يناله إعياء ... وكان يسعد سعادة لم يكن يعرفها كلما سمع صوت ماريا يرن فى فضاء البهو الكبير ، فيرن جرسه الفضى فى جوانحه ، ويوقظ فيها أمانيه التى كن يتصورها لياليه الخاليات ولا يظفر بتحقيقها

وأخيراً عرف أنه الحب ...

وكانت مفاجأة حلوة لروحه الصادية أن تروى أول ما تروى من هذه الكأس المترعة بمفاتن ماريا ذات الشعر الذهبى ، والساقين الملفوفتين فى بنفسج الأبنين ... وكانت مفاجأة حلوة كذلك أن تتبرج الدنيا القبيحة هكذا فتصبح جميلة سافرة بسامة ، بعد أن كانت عبوساً قمطريراً معتمة حين كان قلبه لا يعرف الحب ... ويصبح كل ما حوله ضاحكاً يتأرج ويتبرج ويهتز كما تهتز الأعطاف بالبشر

ولكن ميشيل كان حيياً ... وكان كلما هم بمحادثة ماريا عما يجيش من حبها في قلبه ارتبك وانعقد لسانه ، والتوت الكلمات فكأنها من حديد لا يلين ، وخفق قلبه وازلزل ، وهرب الدم من خديه ، فينصرف حزيناً محسوراً ... ولكن نظرة واحدة إلى شعر ماريا وساقيها كانت تعيد ابتهاجه ، وترد صوابه ، فيرضى بالصمت الذى لا يد له فى غيره ...

وظل حبه دفيناً فى قلبه يشفه ويضنيه ؛ وظل هو قانعاً راضياً بأن يكون فى جوار ماريا دائماً ... وفى ظلها الوارف أمسية من كل أسبوع ؛ يحمل عنها أوزارها ، ويقوم بكل ما يشفق عليها أن تؤديه من مشاق

وكأنما لحظ الخبيث فرارى ، الكهرباء التى تزلزل أركان ميشيل فأقسم ليكيدن له ؛ وكان فرارى فتى لَعّاباً يجيد إلى درجة الخطورة إعمال عينيه وقسمات وجهه ، ويتقن زخرفة الكلمات التى تقع عليها قلوب العذارى كما يقع الفراش فى النيران ... وكان هو الآخر يرى فى ماريا غادة لم تخلق لهذا العناء ، وكان يزن جمالها بعقله لا بقلبه ... أى أنه كان يراها تصلح كزوجة نافعة تجلب اليسر والرخاء للرجل الذى يحظى بها ، لأنها لو عملت فى فندق آخر لحصلت على أضعاف ما تحصل عليه هنا ... ولم لا ؟ أليس لها هذا الشعر الذهبى الذى هو فى نفسه كنز ؟ أليس لها هذا الجسم المشوق والقد المعتدل ، والخطى الراقصة التى تلفت الأنظار وتكهرب القلوب ؟ ! إذن لينافس فرارى زميله ميشيل ... وليطلب من مدرة الفندق استبدال أمسيته التى يستريح فيها ليعمل مع ماريا حين يكون ميشيل فى إجازته ، وليظفر فرارى بكل ما تصبو إليه نفسه ، وليتهم ميشيل ، وليلفق له التهم ، ولتصدق المدرة الحمقاء ما يُتهم به الفتى البائس الذى قضى عليه سوء طالعه أن يباشر هؤلاء اللئام وأن يأكل من أيديهم كفافه ، فى حين كان ينبغى أن يكون شاعراً أو أديباً يسمو بأدبه على الأدباء ... لا على خدم الفنادق ... مسكين ميشيل ! لقد كدر عليه هذا الإبليس المقتدر الملفق صفو حبه المضمر الذى يلذه بقدر ما يشقى به ... وأثاره ومزق قلبه ما رأى من العلائق بين مارى وبينه ، ما لم يستطع هو أن يظفر بشىء منه برغم كده وتضحيته وحرصه على التقرب من الفتاة والتودد إليها

وأخذت الدنيا تسمج مرة ثانية فى عين الفتى ، وتكتسى سربالاً أسود اللون قاتماً ... وعادت نفسه الأديبة الشاعرة تختلج بما تختلج به نفوس الشعراء البائسين ... وعاد يوماً إلى داره فوجد أمه تعالج سكرات الموت ... فلما رأته أشارت إلى صليبها وهى لا تقوى على حمله ، فأدناه من فمها فقبلته ، ونظرت إليه بعينين مغرورقتين ، ثم تمتمت بكلمات هى من غير شك دعاء له ؛ ثم لفظت آخر أنفاسها ... فذعر ميشيل وانخلع قلبه وطفق يبكى ويُعول ، وينظم ألحانه فيسرها فى نفسه

ولما عاد إلى الفندق بعد ثلاثة أيام ، كان يحدث نفسه - إذ هو منطلق في الطريق - أن ماريا لا بد عاطفة عليه ، معزيته أحسن العزاء وألطفه ، جالسة إليه تواسيه وتذهب عنه الحزن ... وكان يتصورها معه في بهو المطعم تلاطفه وتظهر له الألم من أجل وفاة أمه ... وأنه مستطيع لا بد أن يظهرها على حبه ، وأن يعترف لها بمكنون قلبه ... وصمم على أن يكون جريئاً مقداماً هذه المرة وأن ينتهز الفرصة ليقهر هذا المذول : فراري ، وأن ينحيه عن فتاته مهما كلفه ذلك ، فإن لم تصخ له وتنصره عليه ، فلينصرف عن هذه الدنيا المخادعة ، وليَلُذ بأطراف الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، فلن يعـدم لقيمات تسد مسغبته ، وقطرات من ماء تبل أواره ... وهكذا تداعت هواجسه ، وتسلسلت أفكاره ؛ وكان كلما تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فذهب به مذاهب شتى ... حتى إذا وصل إلى الفنـدق ، وتسلم عمله ، راح يتنسم ماريا ويتشمم عبيرها ، ولكنه ، وا أسفاه ، لم يجد عندها شيئاً !! إنها سراب بقيعة !! لقد ذهبت ماريا ... وذهب فراري ... وذهبا معاً في يوم واحد ، وفي لحظة واحدة ، ولسبب لم تستطع مديرة الفندق أن تذكره لميشيل ، لأنها لم تستطع أن تعرفه !!

***

وضاقت عليه الأرض بما رحبت ؛ وكيف لا تضيق وقد فقد أمه وفقد هواه في أسبوع واحد ؟ لقد فقد القلب الذي كان يعفو والقلب الذي كان لا يعرف ... فقد في الأول المحبة والظل الوارف ، والتسامح والرضى ؛ وفقد في الثاني هذا الأمل الذي حبب إليه الحياة ، وجملها حلوة مشرقة بسامة ، لأنها تضم ماريا ... ماريا ذات الشعر الذهبي الهفهاف ، والوجه المتألق المشرق ، والساقين ذاتي الظلال من بنفسج الأيتين ؟ أين ذهبت ماريا يا ترى ؟ أين ذهب بها الشيطان فراري إن كانت قد ولت معه ؟ ولماذا ذهبا معاً ؟ لقد كانت تضيق به ، وتشكو منه ، ولا تكاد تستنشق هواء يشركها فيه ؟ فأين ذهبا معاً ؟ ولم ذهبا هكذا من دون أن يعلم أحد ؟

وانطلق ميشيل يطوى الطريق السادرة النائمة في ظلال البلوط والصنوبر ، المؤدية إلى ضاحية تيفولي ، وهو ينظر بعينين موجعتين محزونتين إلى هذه الشمس الرومانية النارية ، التي تتوهج كالجذوة الكبيرة في هشيم الطبيعة ، وينظم في أعماقه ألحانه ، ويستمع إلى خرير الجداول مختلطاً برنين الناقوس الكبير الذي يحيي بدقاته السماء ، ويسألها للناس الرحمة ... ولقد بدا له أن يعرج إلى هـذا البيت المنيف من بيوت الله فيصلي له ، ويسجد ويخبت ، لعل روح ماريا تكون معه فتسجد هي الأخرى ، وترق له ، وتكفر عما أعرضت عنه ... بيد أنه مضى في طريقه لا يلوى على شيء ، لأن هـذه فكرة واحدة من آلاف الفِكَر التي كانت لا تفتأ تطيف برأسه وهو لا يعي

واشتد خبله ، وظمئت روحه إلى ماريا ظمأ شديدا ، وصار يلتمس لها المعاذير من هذا النكران الذي ما تعمدته ولا قصدت إليه لأنها لم تكن تدرى ما يضمره لها من هيام في سويدائه ، وظل يهتف باسمها في نومه كما يتغناه في يقظته ، لكنه كان يتغنى به كما يتغنى الصوفي المجذوب أسراره ... وهو لا يدرى ما يقول !!

وجلس مرة يقلب صحائف مجلة انجليزية فوقع بصره على صورة ماريا ... ماريا بعينها !؟ يا عجبا ! ومن أين لماريا هذا الصيت البعيد والذكر المنتشر ؟ إنها كانت مثله لا تعرف كلمة انجليزية واحدة ، وهذه مجلة للآداب والمسرح ، وليس معقولاً أيضاً أن تكون ماريا قد التحقت بالمسرح الانجليزي نجمة عظيمة من أنجمه ، وليس معقولاً أيضاً أن تكون قد أصبحت في أيام معدودات أديبة واسعة الإلمام بأدب هذه اللغة الانجليزية التي كان يحسبها ميشيل - لصعوبتها في نظره - من لغات الشياطين ! فما ماريا وهـذه المجلة الانجليزية يا ترى ؟ ومالها هي وما للأدب الانجليزي والمسرح الانجليزي ؟ ! ونظر أسفل الصورة ليقرأ اسم صاحبتها ... ولشد ما كانت دهشته عظيمة هائلة إذ وجد اسم صاحبة الصورة (إزابل هايس) ! ! المؤلفة الكبيرة والقصصية البارعة ، التي طالما قرأ لها روائع وآيات مترجمة إلى لغته الايطالية ؟ !

لا بأس ... إنه لم يحصل مرة على صورة ماريا ، وها هي ذي صورة إزابل لا تفترق عنها في شيء ... فليحتفظ إذن بها ، وليجعلها بين شموع وضاءة تلتهب بالقبس القدس الذي يتأجج ملء قلبه ... وليصلِّ لها كل مساء وحين يصبح ... وليذكر في فمها الرقيق الصغير تلك الأقحوانة التي كانت تنفرج عنها شفتا حبيبته ... ولتباركه الصورة المستعارة بكلمات صامتة لا تبين ، فقد كانت ماريا لا تبين كذلك ... وليرَ هو في وجهها الوضاء جمالاً جديداً كل يوم جديد ، وليعش على الأماني يبهرجها لنفسه ، ولا بأس من أن يضع الصورة كلما نام تحرسه عند رأسه ... وبالاختصار ، لتكن حياته أحلاماً في أحلام ...

غير أن الفندق صار شيئاً كريهاً لا يطاق ، لأن ماريا لم تعد

ترسل فى أجوائه أنفاسها ... بيد أنه مع ذلك جيل محبب لأن فى كل ركن من أركانه ذكرى لماريا تغذى أحلام ميشيل ، وترسل دموعه كلما جفت ؛ وهو مع ذلك أيضاً هيكل حبه الأول الذى استيقظ فيه قلبه من سبات العدم تخفق بنسمة الهوى ... لهذه التناقضات سيقيم ميشيل فيه ... وليكن رئيس الخدم بعد شهر أو شهرين ، وليتضاعف راتبه ، وليشتر بجانب كبير منه كثيراً من قصص إزابل هايس التى لم يقرأها ، لأنه أصبح يرى فى آثار هذه الكاتبة الانجليزية روح ماريا .... وليحاول أن يتعلم الانجليزية ليقرأ المؤلفة فى لغتها ، وليفشل فى هذه المحاولة ، فقد أورى إحساساً شريفاً نحو صورة لسيدة تشبه ماريا ، وكفى بذلك برهاناً على وفائه لذكرى فتاة لم تعرف قط أنه يهواها . .

***

وأقبل فوج من (السياح) عظيم من أغنياء الانجليز فنزلوا فى هذا الفندق ، وأعجبوا بحديقته إعجاباً شديداً ، فقد كانت ظلال الأبنين البنفسجية تعكس على نضرتها وخضرتها ألواناً شعرية تصول فيها الأرواح وتجول

وحان موعد الغداء فانتشر النازلون فى بهو المطعم الوردى ، وجلسوا إلى موائدهم مسرورين فرحين ، وراح النُّدل بينهم وجاءوا ، هذا يحمل الأطباق الحافلة ، وذاك يحمل الماء المثلوج ، وثالث الكامخ الايطالى اللذيذ ... وأشرف ميشيل على الجميع بملابسه الناصعة ، ووجهه الحزين الباسم ، فطفق يأمر هذا ويشير إلى ذاك ، ويدعو هذه ويحث تلك ، والسياح مقبلون على آكالهم وأشربأتهم آخذون فى سمر هامس ، وكلام رقيق ... شأن السادة الانجليز فى كل فج ...

ثم وقف ميشيل أمام حسناء إنجليزية فجأة ولم يرم !

ماله وقف هكذا كالتمثال ويداه مقبوضتان ! إنه لا ينبس ولا يتحرك ! بل سمر عينيه فى السيدة المشغولة عنه بطعامها وشرابها ، ولما يأبه للنداءات والأجراس التى تهتف به من كل صوب ! ... ودهش النازلون فجعلوا يحدجونه وإن لم يشتغلوا به عن طعامهم ثم استبطأته الدبرة فانطلقت إليه كى ترى ... فلما وجدته يقف عن كثب قريباً من السيدة الانجليزية لكزته لكزة هينة لينة ، لكنه لم ينتبه ... فنظرت الدبرة إلى السيدة السائحة نظرات سريعة فعرفت كل شىء

— أستميحك عذراً يا سيدتى فهذا النادل ميشيل أديب مشغوف بك ، يقرأك ويكب على قراءتك ، وليست لك قصة أو درامة منقولة إلى الايطالية إلا وقد اقتناها ... والأعجب من كل ذلك أنه اقتنى صورتك من إحدي المجلات التي تكتبين فيها ، ووضعها فى إطار ثمين، ولولاها من عنايته مالم يول حياته الخاصة ! أندريا ! أندريا !

وأقبل الخادم أندريا فقالت له الدبرة :

— انطلق إلى غرفة ميشيل فأحضر صورة السيدة إزابل هايس!

ونظرت السيدة الأديبة إلى صورتها فدهشت لاحتفاظ النادل الايطالى بها ، وشاع فيها برغم طبعها الانجليزى المعروف إحساس بالكبرياء والزهو ... حتى إذا فرغت من طعامها هتفت بميشيل وسمحت له بالجلوس إليها يكلمها وتكلمه .. وكانت تجيد الايطالية فكان الحديث بينهما جيلاً جذاباً ذا شجون ...

ومما سحر ميشيل أنه سمع من فم الأديبة الانجليزية صوت ماريا ، ورأى فوق رأسها سلوكا هفهافة من الذهب تشبه شعر حبيبته ، ووجد الجسم السمهرى المشوق هو هو جسم صاحبته وقوامها .. ولم يكن باقياً إلا أن تكون الأديبة إيطالية .. ونادلة .. لتكون ماريا ...

وسكنت إزابل فى الطابق العلوى في الغرفة الأخيرة من البهو الكبير ... واستدعت الدبرة فأوصتها ألا يرتفع للخدم ضجيج ولا لغط لأنها اختارت هذه الغرفة لتخلو إلى نفسها فتكتب ما هو مطلوب منها من القصص ... وطمأنتها الدبرة ... وذهبت

وأقبل فوج آخر من السياح ، فنهضت الدبرة تدبر له الغرف اللازمة ... وكانت قريباً من غرفة إزابل غرفة تقوم للبهو مقام مخزن ... فاستدعت ميشيل وخادمة أخرى لتساعده فى نقل الصناديق والأمتعة المحفوظة بها ... ثم أمرتهما أن يلزما السكينة والصمت ، وألا يقطعا على النازلة فى الغرفة رقم ١٧ هدوءها ... « لأنها تكتب لك قصة رائعة يا ميشيل ! »

وامتثل الخادمان ، وأخذا يحملان ما بالغرفة ... ولم يبق إلا هذا الصندوق الثقيل الذى لا يعرفان ما ذا كان بداخله ... فلما أخرجاه من الغرفة ، وشرعا يحملانه فى البهو . انفلت من يد الخادمة فهوى إلى الأرض ، وانتثر ما بداخله من أطباق وزجاج ، فصار هشيماً ، وأحدث فى البهو صوتاً مزعجاً كأنما هوى الفندق كله وصار أنقاضاً على أنقاض ... وأقبلت الدبرة ترغى وتزبد

وتصخب ، وتلعن وتسب ... وبرزت إزابل كالمجنونة لأن كل أفكارها طارت كالحمام من برج رأسها ... — كما عبرت هي — واجتمع السياح والخدم يشهدون ويتسلون بدافع الفضول ... ثم التفتت المديرة إلى ميشيل ، وهي تنظر في الوقت نفسه إلى إزابل وقالت له : « أما أنت أيها المشئوم فمفصول من عملك ، ولا حاجة للفندق بك ! »

وغضب الفتى وإن لم يتكلم ... وقبل أن يذهب لشأنه هتفت به الأدبية الانجليزية وواسته بكلمة ، ثم صافحته ، ودست في يده ورقة مالية كبيرة ... واعتذرت مع ذاك إليه ، لأنها كانت سبب ما لحق به من أذى ...

ولم يذهب ميشيل البائس ليأخذ متاعه ويمضي ... بل انطلق كالمجنون يذرع طرقات روما المتيدة ، حتى كان عند تخومها ... وهو ما يزال قابضاً على الورقة المالية ، ولا يدري ماهي ؟! ثم نظر في البطاح القريبة فرأى ضاحية تيفولى بيلوطها الرائع وحورها الجميل ، وشجر السرو المعجب البارز في جنباتها ... فانطلق في طريقه إليها ... حتى إذا بلغها ، كان قد نال منه الجهد ، وأحس بتعب شديد ... ولم يكن ثمة مكان يستريح به إلا هذه الفنادق الهائلة التي تشتهر بها هذه الضاحية ... فلم يبال ... ودخل أول واحد منها ، ثم انحط على كرسي كبير عند مائدة ، وأسند رأسه وراح يحلم بماريا ... وبأيام ماريا ... ويسكب دموعاً حارة ...

له الله ! كم ألف فكرة طافت برأسه الثائر وقلبه المشبوب !!

ثم أقبلت نادلة فهمست به وهو في سكراته : ماذا يطلب ... بيد أنه كان غارقاً في هواجسه وأحلامه ، فلم ينظر إلى الفتاة ... ومدت هي يدها الصغيرة اللينة توقظه ... أو تنبهه ... فرفع رأسه قليلاً ... لكنه أحس كأنما الدنيا تدور به ، وكأنما الأرض تسوخ تحت قدميه ... وصرخ يقول :

— ماريا ... أنت هنا ... ؟

وانهمرت دموع الفتى المسكين تنسل خديه الأشحبين ...

وقالت ماريا تجيبه ، وكأنما حلّت عقدة السحر ... « أجل ياميشيل أنا ... هنا ! فمن جاء بك ؟ »

— لقد طردوني يا ماريا ... فذهب قلبي يبحث عنك حتى اهتدى إليك ...

— شكراً للمقادير ياعزيزي ... ولكن ... أما تزال تحبني ؟

— وكيف عرفت يا ماريا ؟

— لقد كنت أحسبك تعبث بي ... وهذا ما جعلني أفر مع فراري غليظ الكبد ، وأتزوجه في نابلي ... نابلي ! آه لهذه البلدة المتوحشة !!

— أنتِ ؟ تزوجت من فراري ... ؟

— أجل ... ولكنه كان زواجاً منحوساً ... لقد عشت معه ثلاثة أشهر ، كانت نكداً كلها ... والحمد لله ... لقد قتل في شجار نشب بينه وبين عصبة من رعاع نابلي ، فأراحني الله منه ... .

— إذن أنت خالصة الآن لي ؟!

— ... ؟ ...

— إذن هلمي ياماريا ... هلمي ...

— أهذه ورقتك ؟ ماذا ؟ ورقة مالية كبيرة ... بخمسين ليرة ؟!

— لا ... إنها ليست لي ، ولكنها لسيدة انجليزية تصدقت بها علي ...

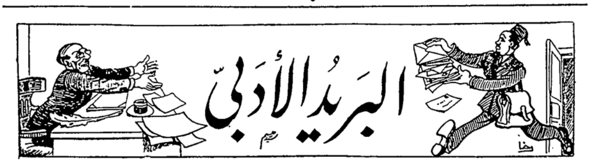
* * *

واستقالت ماريا من فورها ... وانطلقت مع ميشيل إلى روما ... وقوبلا في الفندق مقابلة ثائرة صخابة ... ولقيتها المديرة بالترحاب ، وبالغت في الاعتذار لميشيل ، لأنها علمت أنه لم يتسبب في تهشيم الصندوق ... ولكن الفتى ازور عنها ، وسأل الكاتب ظرفاً كبيراً من الورق وضع فيه الورقة المالية ... وصعد إلى الطابق العلوي فاستأذن على إزابل هايس الأدبية الانجليزية فأذنت له ... ولم يجلس ، بل قدم إليها الظرف بما فيه ... وانطلق شاكراً

وحمل متاعه ... وصحبته ماريا إلى بيته القديم الذي لم يدخله مذ ماتت أمه ... وهناك ، طفق الحبيبان ينفضان غبار الموت والفقر والذكريات المشجية عن الأثاث القديم ... وكشف في صندوق أمه عن فضل قليل من المال كان حسبه للعقد على ماريا ، ولحياة ثلاثة أشهر كانت كلها عسلاً ... وكتب خلالها قصته ... وباعها بمبلغ كبير من المال ...

وعاش في ظل ماريا ... من أنبغ الأدباء الايطاليين

« ملخصة » دريني خشبة



الأستاذ زيجفريد وأثر العلوم السياسية في تكوين الأمم

ألقى الأستاذ اندريه زيجفريد الأستاذ بالكوليج دى فرانس ونزيل مصر الآن فى كلية الآداب بالجامعة المصرية محاضرة شائقة عن العلوم السياسية وأثرها فى تكوين الأمم والحكومات ؛ ومن رأى الأستاذ زيجفريد أن العلوم السياسية من العناصر الضرورية لتكوين الحكومات والرأى العام فى الأمم الديموقراطية ، وأن الأداة الحكومية يجب أن ترتكز على عناصر مثقفة من الناحية السياسية لتستطيع القيام بمهمتها ؛ أما رجال السياسة فيرى الأستاذ زيجفريد أنه ليس من الضرورى أن يلموا بكثير من التفاصيل الادارية والفنية ليتولوا مهام القيادة والحكم ؛ وليس من السهل أن يتعلموها ، وللسياسى العظيم شخصية ومواهب خاصة تغنيه عن معرفتها . ففي السياسة يجب أن يكون الانسان شخصاً ما . أما في الادارة فيجب أن يكون الانسان شيئاً ما

كان اللورد كيرزون نائب الملك فى الهند يقول : إن الحاكم يحكم بشخصيته . بيد أن هنالك فريقاً من الساسة يجمع بين الصفتين أعنى المزايا السياسية والمزايا الادارية ، ومن هؤلاء نابوليون وتيير وبسمارك وكافور وموسولينى ؛ وهنالك أيضاً بعض الساسة الذين تعوزهم الصفات الادارية والفنية حكموا بأعظم قسط من النجاح ، ومن هؤلاء لويد جورج ، وارستيد بريان

على أنه إذا كان الرجل العبقرى يستطيع الاستغناء عن هذه التفاصيل فان الحكومات لا تستطيع الاستغناء عنها ؛ وتتفاوت كفاية الحكومات فى الحكم بقدر ما تملكه من المزايا الادارية والفنية ؛ والحكومات القوية العظيمة هى التى تتمتع بأعظم قدر من هذه المزايا ؛ ودراسة العلوم السياسية هى أول عنصر يمهد للتمتع بها

وبهذه المناسبة نذكر أن الأستاذ زيجفريد، فضلاً عن كونه أستاذاً بالكوليج دى فرانس ، عضو بالمجمع العلمي الفرنسى ؛ وله عدة كتب هامة فى الاقتصاد السياسى والاقتصاد الاجتماعى ؛ ومن أشهر كتبه : « الولايات المتحدة اليوم » : Les Etats Unis d'aujourd' hui ؛ « وأمريكا اللاتينية » L'Amerique Latine ؛ « والأزمة البريطانية فى القرن العشرين » La Crise Britt. au XX ciècle ، وغيرها وهو يعد الآن مؤلفاً من هذا النوع عن مركز فرنسا فى البحر الأبيض المتوسط ويعنى أثناء دراسته بمصر بملاحظة أثر مدنية البحر الأبيض فى وادى النيل

دراسة علمية لتاريخ العراق الحديث

صدر أخيراً كتاب بالانكليزية عن العراق يعتبر من خير المراجع التى صدرت عن العراق الحديث ؛ وعنوان هذا المؤلف الجديد هو : « العراق : دراسة لتطوره السياسى » Iraq. A study in Political Development ومؤلفه مؤرخ ومستشرق أمريكى هو الأستاذ ب . و . إرلاند Ireland ؛ والكتاب عبارة عن دراسة سياسية اجتماعية دقيقة لتاريخ العراق وتطوراته الحديثة حتى عصر الاستقلال . ويبدأ المؤلف دراسته منذ ظهور النفوذ البريطانى فى العراق لأول مرة ، حيث ظهرت جالية الهند الشرقية البريطانية فى القرن الثامن عشر ورأت فى العراق مركزاً هاماً للتجارة الهندية ، واضطرت للمحافظة على مصالحها التجارية أن تقوم من آن لآخر بحملات بحرية تأديبية ضد عرب السواحل

ويستعرض المؤلف تدخل انكلترا الحديث فى شئون العراق بعد زوال الحكم التركى ، ويقول إن الاستعمار الانكليزي كثيراً ما ينحدر إلى مغامرات وتجارب خاطئة ؛ ولكنه كان بعيد النظر حينما استقدم الملك فيصلاً ليتبوأ عرش العراق . وقد كان الملك فيصل فى رأى المؤلف من طبقة « المستبدين الأخيار » وكانت جهوده تتجه على العموم الى خير البلد الذى وضعته الأقدار على عرشه . ثم يقول المؤلف إن مستقبل العراق تحفه بعض الريب المظلمة ،

ويتوقف بالأخص على ما يبديه الشعب العراقي من جهود حازمة تشبه تلك الجهود الموفقة التي أبداها حتى وصل إلى الاستقلال ؛ ويعاني العراق كثيراً من المتاعب الجنسية والطائفية ، ومشاكل البدو ، وهذه جميعاً تعوق تقدمه ؛ ومن ثم فإن الوطنية العراقية يجب أن تتجه إلى ما وراء الاستقلال ، وأن تروض نفسها على حمل أعباء الدولة والادارة السياسية . ويمتاز الكتاب بطابعه العلمي الدقيق وكثرة مراجعه ووثائقه

العلامة كارير الفائز بجائزة نوبل

أشرنا في العدد الماضي إلى الفائزين بجوائز نوبل هذا العام وقلنا نقلاً عن الأنباء البرقية إن الذي فاز بجائزة نوبل للكيمياء هو العلامة النرويجي كارل ؛ ولكنا بمراجعة البريد الألماني الأخير علمنا أن الذي فاز بهذه الجائزة هو العلامة السويسري الدكتور باوو كارير P. Karrer بالاشتراك مع الأستاذ هواث الانكليزي

وقد منح العلامة كارير هذه الجائزة لمباحثه القيمة عن أنواع الفيتامين ، وأثر ألوان النبات فيها . وملخص ترجمته أنه درس الكيمياء دراسة عميقة ، ومنذ سنة ١٩١٣ وهو يشغل كرسي الكيمياء في جامعة تسيريخ ، وفي سنة ١٩١٩ عين مديراً للمعهد الكيميائي ؛ وفي سنة ١٩٣٢ حصل الدكتور كارير على جائزة مارسيل بنوا من أجل مباحثه ورسائله عن « هيدرات الفحم » ثم ظهر بعد ذلك بمباحثه عن الفيتامين ، ولفتت إليه أنظار الدوائر العلمية الدولية ؛ ومن أجلها منحته جامعة برزلاو أجازة الشرف في الطب سنة ١٩٣٣ ؛ وله عدة رسائل ومؤلفات في الفيتامين وألوان النبات تعتبر حجة عالية في بابها

تمثال للثقافة العربية

تألفت لجنة من بعض المستشرقين الايطاليين والشرقيين المقيمين في إيطاليا للعمل على إقامة تمثال للثقافة العربية ، في مكتبة الأمير وزيانة ، أسوة بالتماثيل المقامة لعباقرة الأمم الأخرى

وقد بعثت إلينا اللجنة بكتاب تضمن السؤالين التاليين ، واللجنة ترجو من المعنيين بالثقافة العربية أن يجيبوا عن هذين السؤالين ، وهما

١ — من هو الشخص العربي البرز في النظم ، أو النثر ، أو الفلسفة ، وتفوق على السلف والخلف ، حتى تمثلت فيه الثقافة العربية ؟

٢ — متى أجمع الرأي على واحد بين الأقدمين ، مثلاً ، ولم يكن له صورة فهل من المستطاع رفع تمثال له ؟ وإذا ما أمكن ذلك ، فأي شعار أو رمز يصح أن يمثل الثقافة العربية بكل معانيها ؟

والمرجو إرسال الرد على هذين السؤالين إلى سكرتير اللجنة بعنوانه الآتي :

Dr. Enrico Nunè Via Morgagni,6 - A Roma

معرض مدرسي لدور العلم الحديثة

أقام المجمع الملكي للمعماريين البريطانيين معرضاً عظيماً في لندن في اكتوبر الماضي (١٢ — ١٩) لدور العلم الحديثة جمع فيه صوراً شمسية ونماذج مجسمة لأحدث ما استجد من وسائل التعليم في الممالك الراقية (الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا وألمانيا وشمال غرب أوربا) وقد عني أكبر العناية بإبراز مستحدثات مدارس التعليم في الهواء الطلق . وكان مما استلفت الأنظار معروضات القسم الفرنسي ، ومنها كرة هائلة جداً تمثل الأرض بجميع قاراتها ومحيطاتها وبحارها وجبالها وممالكها وأشهر أنهارها ومدنها . وقد أحيطت هذه الكرة الكبيرة بسلم عظيم دائري يبدأ من القطب الشمالي ويلف حولها حتى ينتهي إلى القطب الجنوبي ، بحيث يبدأ التلاميذ زياراتهم ومشاهداتهم من أول الدرج فيرون كل دقائق العالم في جميع أرجائه حتى ينتهوا إلى القطب الشمالي ... والعجيب أن هذا السلم يتسع لزيارة مدرسة يربى عددها على الأربعمائة من التلاميذ ... وبعد أن ظل المعرض فاتحاً أبوابه للجماهير أسبوعاً بأكمله اقترحت الحكومة أن ينتقل في سائر أنحاء الجزر البريطانية على أن يلبث أسبوعاً في كل مدينة كبيرة ليستطيع الناس ورجال التعليم أن يلموا بما فيه ، وأن يطبقوا ما يرونه تم في مدارسهم ؛ وسيقضي المعرض في رحلته هذه عامين كاملين حتى ينتهي منها في اكتوبر سنة ١٩٣٩

تزوير وبراءة

علمت أن مجلة «المكشوف» البيروتية نشرت فى أحد أعدادها الأخيرة خطاباً زعمت أنى أرسلته إليها ومقالاً عن الأدب المصرى نسبته إلىّ ؛ فأثار ذلك منى دهشة واستنكاراً لأنى لم أكتب مطلقاً إلى هذه الصحيفة أى خطاب ولم أرسل إليها أى مقال ؛ وما كنت أتصور أن هذه الصحيفة التى عرفت بإمعانها فى الطعن فى مصر والكتاب المصريين والنيل منهم تذهب فى جرأتها إلى حد التزوير عليهم

فالى أن أتخذ الاجراءات القانونية ضد الصحيفة المذكورة لأدحض هذا التزوير الشائن أعلن على صفحات الرسالة بكل قواى أنى لم أرسل إليها فى حياتى أية رسالة ولم أنشر فيها حرفاً واحداً وفى هذا التكذيب الحاسم ما يكفى الآن

محمد عبد الله عنان

كذا ...!

رأى قراء الرسالة الغراء فى العدد الماضى هذه الكلمة (كذا) حاشية على كلمتين فى بيتين من قصيدتى «وحى جديد» أما الأولى فعلى كلمة «منغومة» فى البيت السادس :

تقسيم موسيقى منغومة النبر

وهى هنا (كذا) حقيقة ، كما أردتها وكتبتها ، لأن «منغومة» نعت لكلمة «موسيقى» وهى مؤنثة ، وتكون المعنى هكذا :

فى لفتة الجيد فى خفقة الصدر
تقسيم موسيقى منغومة النبر

أما الثانية فعلى كلمة «لى» فى البيت الثلاثين :

فهى لى روحاً من رقية الثغر

وهى هنا ليست (كذا) ولكنها غلطة فى الكتابة والنقل ، وصحتها «له» بدلاً من «لى»

«حلوان» سيد قطب

(الرسالة) : لا تزال (كذا) موضوعة على (منغومة) لأن الأستاذ الشاعر أعربها ولكنه لم يذكر فى أى استعمال عربى أو فى أى قاموس لغوى وجدها

لازلو مصور الملوك

نعت أنباء لندن الأخيرة فيليب دى لازلو المصور المجرى الشهير الملقب بمصور الملوك لأنه قام بتصوير جميع ملوك العالم المعاصرين ؛ ويعتبر لازلو من أعظم مصورى العصر الحديث ، وقد ظهر نبوغه منذ أوائل هذا القرن بصورة بارزة ؛ ومنذ سنة ١٩١٤ انتقل لازلو إلى لندن وعاش فيها وتجنس بالجنسية الانكليزية ؛ ومما يذكر أنه قدم إلى مصر منذ أعوام ؛ وعمل صورة رسمية للمرحوم الملك فؤاد الأول ، وصورتين لصاحب السمو الملكى الأمير فاروق ولى العهد يومئذ ، فحازت هذه الصور أعظم إعجاب وتقدير

ويعتبر لازلو أستاذاً لمدرسة التصوير المجرية الحديثة ، وله عدة مجموعات بديعة تزين متاحف التصوير الحديث فى معظم العواصم الأوربية ، هذا عدا ما يزين منها قصور أوربا الملوكية

لمناسبة العيد المئوى لبوشكين

تذكر أن روسيا احتفلت منذ بضعة أشهر بالعيد المئوى لوفاة شاعرها الأكبر بوشكين ؛ وقد نشرت بعض الصحف الأدبية أخيراً أرقاماً مدهشة عما بيع في روسيا بهذه المناسبة من كتب بوشكين وآثاره . ويقال إن ما بيع من آثار بوشكين والكتب المتعلقة بحياته وشعره بلغ ثمانية ملايين نسخة ، وذلك كله مما قامت بطبعه مكتبة الدولة ؛ وبيعت مقادير وافرة من مجموعات آثار بوشكين ، وترجمت إلى جميع اللغات الذائعة فى روسيا مثل الأوكرانية والأرمينية والترية ؛ وقد أخرج شريط مصور (فلم) عن شباب بوشكين ، وتخرج الآن أشرطة أخرى عن حياته وعن موته المؤسى

سيرانو دى برجراك للسينما

أحب المخرج الانجليزى المعروف (مستر كوردا) أن يخرج شريطاً لرواية الشاعر المشهورة ، ولكنه لم ترقه التراجم الانجليزية لهذه الرواية ، فاقترح ترجمة جديدة اشترط أن تكون حرفية تنعدم فيها شخصية المترجم ؛ فقدمها إليه الكاتب الكبير همبرت ولف بعد ثلاثة أسابيع من إعلان الاقتراح ... ولسنا ندرى ماذا صنع المترجم فى هذه الأيام القليلة ، ولا كيف جاءت ترجمته ، ولا ماذا صنع بالقطوعات الشعرية المنتثرة فى رواية إدموند روستان ... ؟! ترى هل استعان بالشياطين فى نقلها إلى النظم الانجليزى ؟ سنرى حين تصل الترجمة إلى مصر



سيرة السيد عمر مكرم

صفحة مجيدة من جهاد الشعب المصرى في الدفاع عن أرضه وحرياته وحقوقه

للدكتور رياض شمس

في حلكة ذلك الجزء المظلم من تاريخ مصر الذى يبدأ قبيل الحملة الفرنسية ، وينتهى فى أوائل حكم محمد على باشا ، تألق نجم رجل امتاز بخلقه المتين ، ووطنيته الصادقة ، واستحق التفاف الشعب حوله ؛ فكان لا يأتمر إلا باشارته ، ولا يخضع لغير رأيه ، ولا يفزع فى الملمات إلا إلى شخصه العظيم . وقد استطاع هذا الرجل أن يحرز لمواطنيه بقدوته السامية ، وبفضل إيمانه بقوة الشعب ، انتصارات باهرة على أعداء البلاد من فرنسيين وأتراك ومماليك ، وكانت نتيجة انتصارات الشعب على يديه تغيير اتجاه تاريخ مصر الحديث

وهأنذا أحاول أن ألقى نظرة خاطفة على بعض مواقف ذلك الزعيم الشعبي ، لأن سيرته فى الواقع هى سجل ممتاز لفترة هامة من تاريخ مصر السياسى الحديث ، ولأنى أجد هذه الفترة وثيقة الاتصال بتاريخنا الحاضر ، وأجد فيها من العظات السياسية والاجتماعية ما ينبغى أن يظل ماثلا أمام عينى الشعب المصري ، مستقراً فى صميم قلوب الشباب فى فاتحة عهدنا الجديد

وقد كنت أجهل قدر هذا الرجل لأنى مع الأسف الشديد كغيرى من غير المتخصصين ، تكاد تنحصر معلوماتنا عن تاريخ العصور المصرية الماضية ، ولا سيما العصر الذى عاش فيه ذلك الزعيم فيما درسناه موجزاً فى المدارس الثانوية ، ونسيناه عاجلا بعد تخرجنا فيها

ولكن مؤرخاً معاصراً تربطه بذلك الزعيم صفات مشتركة من متانة الخلق ، وصدق الوطنية ، والايمان الراسخ بقوة الشعب ، استطاع بعد سنين طويلة من البحث والتحقيق أن يستخلص لنا من ظلمات الماضى القريب ضياء وضاحاً حجبه عن أبصارنا كر الغداة ومر العشى مدي قرن من الزمان

* * *

اقتحم الغزاة الفرنسيون بلادنا فرأى مواطننا العظيم أن أمراء المماليك لا يعنون بغير إخفاء أموالهم ثم الذهاب إلى الحرب ليبادروا بالهروب لدى الصدمة الأولى ، فأهاب بالشعب أن يشمر للذود عن حياضه . وهنا أترك الكلمة للمؤرخ الجليل الأستاذ محمد فريد أبو حديد مؤلف « سيرة عمر مكرم » . قال فى الصفحة الحادية والخمسين :

« وكان جواب الشعب باهراً نبيلاً ، إذ لبى جميعه نداء الواجب فخرج كل من فى القاهرة وضواحيها من الرجال والشبان حتى لم يبق أحد إلا الضعفاء والنساء ، وجاد كل منهم بما عنده من مال قليل دراهم اقتطعها الفقراء من أقواتهم وأقوات عيالهم وجادوا بها ليشتروا سلاحاً وخياماً وذخيرة ... »

فلما هزمت المماليك فى موقعة امبابة ، وقرر شيوخ القاهرة أن يعلنوا التسليم للقائد الفرنسى ، أنف السيد عمر مكرم أن يعود إلى القاهرة إلا إذا كانت عودته على جهاد ، رغم أنه يعلم أن اسمه فى طليعة الأسماء التى اختار القائد أصحابها ليحكموا البلاد بجانب الفرنسيين . وأنت تقرأ تعليق المؤلف على هذا الموقف الكريم على الصفحة ٥٦ وما بعدها :

« ولو كان نظره إلى نفسه ومصلحتها لآثر العودة كما عاد السادات والشرقاوى ، على أن يكون أحد زعماء العهد الجديد ، فلا يتحمل التشريد والنفى والحرمان والفقر ومعاناة الأهوال والشدائد ؛ ولكنه لم يكن ينظر إلى نفسه وما تتجشمه من الأخطار وما تتكبده من المشقة ، بل كان ينظر إلى بلاد شهد أول تحركها نحو التحرر ، وذكر حقها فى الحياة الحرة المستقلة فلم يجد له وسيلة إلا أن يضحى بنفسه راضياً فى سبيل الجهاد ، مهما يكلفه ذلك من عناء ...

« مع أن مراداً وابراهيم ومن معهما من الأمراء لو استطاعوا أن يعودوا إلى الحكم بالاتفاق مع الفرنسيين لما ترددوا فى ذلك لحظة ، فلم تكن بأحدهم رغبة فى الجهاد لنجاة البلاد من حكم الأجنبى ، أو للمحافظة على حياتها وحريتها ، بل كان كل ما يرمون إليه أن يسترجعوا السيادة ، ويعودوا إلى سيرة طغيانهم وعسفهم ؛ ولو وجدوا من الفرنسيين ميلاً إلى الاتفاق على أن يعودوا إلى الحكم تحت علمهم وحمايتهم لما ترددوا فى ذلك .. »

ولاشك أن تأنق المؤلف فى عرض موقف المماليك وبراعته فى المقارنة بين الوطنية الحقيقية والمنفعة الشخصية ، قد أعاد إلى ذاكرة القارئ عشرات المواقف فى تاريخنا السياسى الحديث ، منذ سنة ١٩١٩ إلى الآن ، حيث كان قادة الأمة الأمناء يضربون عن الاشتراك في الحكم بكل صور الإضراب ، ويتحملون ألوان المصادرة والنفي والسجن والتشريد ، بينما يتهالك غيرهم على التقاط الفتات المتساقط من مائدة الغاصب على حساب الوطن وحرية البلاد

ثم اسمع المؤلف يروى لك فى الصفحة ٧٢ قصة ثورة مارس سنة ١٨٠٠ قال :

« سارع (السيد عمر مكرم) إلى الخروج من عزلته إذ رأى الواجب يناديه إلى العمل .. واجتمع فى قلوب الشعب عامة عوامل تدفعه وتذكى حماسته من غضب الكريم لكرامته ، وخوف الشريف على شرفه ، واشتعلت العاطفة الوطنية في الصدور ، تثيرها ذكريات المجد التالد من ماضى القرون ، فلم يكن إلا أن صاح السيد عمر صيحته ... حتى هبت الثورة المصرية الكبرى التى دامت تضطرب فى القاهرة سبعة وثلاثين يوماً ، ودخلت فى أثنائها قلوب المصريين عامة فى بوتقة الانصهار ليكون منها شعب جديد يتقارب فيه الأمير من العامي ، ويمتزج فيه الكبير بالصغير ، وتنبع من ثمرات ذلك أمة حديثة ، يحس فيها الفرد بأنه للمجموع ، ويحس فيها المجموع بأنه من الأفراد »

... ص ٨١ « كان السيد عمر قد عاد إلى مصر مضطراً ، ثم حاول أن يقاوم الأجنبى عند مالاحت له الفرصة فلم تواته الظروف وعجز ، ولكنه كان لا يزال يأمل أن يبقى على جهاده حتى تحين فرصة أخرى ، فلم يرض أن يقيم على أرض مصر ما دامت أقدام الأجنبى تطؤها ، فآثر العودة إلى الهجرة والبعد عن وطنه ، وأن يتكبد المشقة والفقر ولوعة الفرقة من أحبائه وأشياعه على أن يقيم فى بلاده لا يستطيع أن يتنفس فيها حراً »

ص ٨٧ « ... وأصبح السيد عمر بعد رجوعه مع الجيش المنتصر رجل مصر وزعيمها . اجتمعت فيه الزعامة والجهاد والتضحية ، وقد علاه عند ذلك تاج الانتصار والانخراط في سلك رجال الدولة الجديدة . ودخل القاهرة فكان دخوله يوماً من الأيام المشهودة ، إذ خرج الناس للقائه والترحيب به »

أنشأت أطالع الصفحة الأولى من « سيرة السيد عمر مكرم » فلم أكد أبدأ الكتاب حتى وجدتنى عاجزاً عن تركه لحظة ؛ وما زلت به حتى وصلت إلى الصفحة ٢١٩

ولما فرغت من دراسته ضممته إلى أحب مراجعي إلي ، وألفيتنى على ظمأ إلى نهلة أخرى من مورد تاريخنا الحديث . ذلك المورد العذب الذي طالما حالت ظروف مصر السياسية دون تصوره للطلبة المصريين تصوراً صحيحاً يغذى الروح القومية ويذكى فى الشباب المتعلم نعرة الاعتزاز بالماضى المشرف ، ويبعث فى نفسه حمية التطلع إلى أن يكون لبنة قوية فى بناء صرح بلاده ، ويزيده حرصاً على الاضطلاع بمسئولياته كمواطن شريف فى بلد لم يقصر مواطنوه فى الماضى قريبه والبعيد عن أداء واجبهم الوطنى بكل ما لديهم من وسائل

إن الأسلوب الذى ابتدعه الأستاذ الكبير فريد أبو حديد فى كتابة « سيرة عمر مكرم » ليعد بحق فتحاً جديداً ، بل فتحاً مجيداً ، فى تاريخ المؤلفات التاريخية المصرية

فقد استطاع هذا الكاتب الموهوب أن يلقى ضياء وضاء على

تاريخ القومية المصرية ، وأن يستخرج من الحقائق التاريخية المدعمة بالأسانيد ، ذخيرة صالحة وغذاء شهياً للشباب المصري الذي كان إلى عهد قريب لا يجسر على تقليب صفحات الماضي خشية ألا يجد فيها ما يشرف

وقد كان لنا بعض العذر ، فقــد عودنا المؤلفون الأجانب والمترجمون المصريون أن نقرأ صفحات الماضي في ظلال التحامل على القومية المصرية ، والانتقاص من قدر أمتنا النبيلة المجاهدة

وإن كل ما نتمناه أن يتاح لطلبة مدارس مصر الثانوية أن يطالعوا سيرة عمر مكرم ، وأن يحرص كل مصرى يحترم نفسه ويعتبر بماضيه على دراسة هذا السفر النفيس

أما المؤلف فإنا لا نستطيع أن نشكره لأنه قد دعانا إلى مائدته فقدم لنا لوناً من طعام فاخر لا عهد لنا به ، فلما استوعبناه تفتحت شهيتنا إلى المزيد . وهانحن أولاء نخشى موائد الثقافة فلا نجد هذا الطراز من المؤلفات التاريخية التي نحن أشد ما نكون حاجة إلى تذوقها بعد ما تذوقنا من لذة سيرة السيد عمر مكرم

لذلك نطالب مؤرخنا النابغة أن يخرج لنا سلسلة من الكتب تكشف عن أمجاد ماضينا القريب تكون حافلة بالعظات البالغة ، العظات السياسية والخلقية والاجتماعية على نحو ما ألفناه في كتاب عمر مكرم

فإذا اضطلع بهذا الواجب ، وهو على مثله من النابغين فرض حتم ، كان لنا أن نسميه بحق : « منصف تاريخ القومية المصرية في الأزمنة الحديثة »

رياض شمس

« بقية المنشور على صفحة ١٩٢٢ »

أمة من الفساد أن تسن فى الرذائل سُنَناً ، وتشرع فى المخازى شرعاً تجعل الأشرار المخادعين فائزين حيثما ساروا ، وترد الأبرار الصادقين خائبين أين توجهوا . مهما تشتد العلة فالخيبة أكثرها للأولين ، والنجح أكثره للآخرين . فإذا أرادت تجعل الفساد سنّة فوتها دون الغاية ، وزوالها قبل نهاية الطريق

أحسب يا أخى أن الذى لبس عليك الأمر لبساً ، وملأ عليك العالم حزناً ، وملأك على العالم سخطاً ، أنك نظرت أول مانظرت إلى دواوين الحكومة فرأيت جماعة من خفاف الأحلام صغار النفوس شالت كفتهم فارتفعوا ، وآخرين من راجحى العقول كبار النفوس ثقلت موازينهم فنزلوا ؛ فلما امتلأت نفسك أسفاً وأملك فى الناس خيبة ، نظرت إلى أنحاء الأمة ساخطاً متشائماً ، فنفضت عليها هذا السواد ، ونفثت عليها هذه الغضبة ، واتهمتها بهذه التهمة

إن دواوين الحكومة أقرب المواضع إلى مازعمت ، وأكثرها تعرضاً لما وصفت . ذلك بأن الرزق فيها لا يُنال بالسعى والكد ، والجهد والدأب ، والاحتكام إلى سنن الاجتماع وقوانين الطبيعة ؛ ولكن الرزق فيها يُقسم بأيد قليلة ، ويصرّف بآراء معدودة ، فإذا فالت هذه الآراء ، وطاشت هذه الأيدى ، وقع الفساد ، ثم شاع وعمّ حتى يبلغ أمده . وكثيراً ما تفيل الآراء وتطيش الأيدى بأهواء السياسة ومنازع التحزب ؛ على أن هذا مهما كثر لايبلغ أن يكون قاعدة العمل وسنّة الجزاء

ولا تنس يا أخى أن هــذه الدواوين حديثة عهد بأيدى الأجانب ومن ترّبى فى عبوديتهم ؛ وكانت سنة الأجنبى أن يرفع من استسلم إليه وتوكل عليه ، ولا يكون هذا الاستسلام وذاك التوكل إلا احتقاراً للكرامة وازدراء بالخلق الفاضل ؛ ونحن لانزال فى أول عهدنا بالاستقلال لم تهذبنا التجارب ولم تتمكن أيدينا من وضع القواعد الصالحة ، وسن السنن القديمة ، وإقامة الوزن بالقسط بين الناس أجمعين

فإن رأيت جوراً فى الدواوين وظلماً بين الموظفين فهى علة زائلة . فلا تنشرها على الأمة كلها ، ولا تمدها على الزمان جميعه . واعلم أن الظفر للحق والخيبة للباطل ، وأن النصر للفضيلة والهزيمة للرذيلة ، وأنها الغمرات ثم ينجلين ، والعاقبة للمتقين . والسلام عليكم ورحمة الله

عبد الوهاب عزام

تصويب

ورد فى فاتحة مقال « قصة الموسوعة الجامعة » الذى نشر فى عدد الرسالة الماضى (ص ١٨٨٥) ما يأتى : « سجل العلم الحديث فتحاً جديداً خطير الشأن بصدور الموسوعة الايطالية التى بدأ صدورها منذ أعوام ثلاثة فقط » والصواب « منذ أعوام قلائل فقط »

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

5 me Année, No. 231
Lundi 6 - 12 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون
ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٣١ « القاهرة في يوم الاثنين ٣ شوال سنة ١٣٥٦ — ٦ ديسمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهـــرس

٩٠٥٦

ثورة على الأخلاق

شقشقة هدرت ثم قرت

أخي عزام

قرأت مقالك البليغ في عدد الرسالة السابق ، وكان محمود خصمك حاضراً فكفاني ما كلفتني من إبلاغه . وهو في هذه الساعة لين الحاشية ، لأنه قام منذ هنيهة عن مائدة الإفطار الغنية الشهية ، ممتلئ البطن من خير الله ، رطيب اللسان بحمد الله ، لا يذكر أن في العالم ضيق رزق ، ولا أن في الناس سوء خلق . ولذلك قال حين ذكرّته برأيه وخبّرته برأيك ما قال الإمام علي رضي الله عنه : تلك شقشقة هدرت ثم قرت ! فكانت حاله التي حالت بين الأمس واليوم دليلاً جديداً لعلماء الاجتماع الذين يردون ثورات الشعوب المختلفة إلى العوامل الاقتصادية المحض من الحرمان والجوع . والواقع الذي لا يرفعه زخرف القول أن الناس يدورون بعواطفهم وأخلاقهم حول مادة العيش ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعطَوا منها إذا هم يسخطون

على أن مجلسنا كان حافلاً بغير محمود من رجال العلم والدين والأدب وكلهم كانوا له وعليك . وليس ذهابهم إلى رأي خصيمك

انصرافاً عما قررت من حميد الأثر لأخلاقنا المقدسة فى أمة الناس وسعادة النفس ، فإن ذلك موضع اتفاق لا يشذ عنه إلا ميت الضمير أو مريض العقل . إنما كان موضع الجدل أن الأخلاق الفاضلة لا تصلح أن تكون عدة النجاح إن لم تكن عدة الفشل . والنجاح فى جهاد العيش لا يدل على تمام معناه إذا قصدنا به الكفاف من ميسور الرزق ، يصيبه الصالح والطالح ، ويقتنصه البازى والرخم . فإذا ضربت له مثلاً نجاح الصانع الصادق والتاجر الأمين والمزارع الوفى والعامل التانع . كانوا أحرياء أن يتهكموا بقداسة هذه الأخلاق إذا كان قصارى أمرها هذا النجاح الحقير وهى الدستور الأعلى لبلوغ السموات وامتلاك الأرض . فإن هؤلاء الطيبين الأخيار الذين وصفتهم بالقناعة وخصصتهم بالرضى لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً من رجال المال والأعمال كصيدناوى والبدراوي وعبود . أما حين تقصد النجاح بمعناه الأتم فإنهم يرونك تنزع إلى مقالة محمود وتعلل بمنطقك السليم فشل التقى الأبى الحر بأنه (لا يرى إلى الجاه والمال إلا طريقاً واحدة هي الطريق التي يسنها الحق والشرف والأباء والمروءة ، وأن أمام الفساق والأذلاء والأدنياء طرقاً شتى من التلصص والكذب والتزوير والخداع والملق والذلة والشره والظلم والقسوة والأثرة وهلم جرا ، وأن من الأحرار من يخفق في عمله حين يلزم نفسه هذه الطريق الواحدة ، ويقسرها على هذه المحجة الواضحة ، وأن من العبيد عبيد المطامع والأهواء ومرضى النفوس والأخلاق من يظفرون فى هذه السبل بما يريدون ، ويبلغون الغاية التى يقصدون)[1] وما دام جوهر الرأي واحداً فالسبيل القاصدة إذن أن نطبَّ لهذه الحال بما يوائم بين طموح الناس وكرامة الأخلاق وسلامة المجتمع .. وليس هناك إلا وسيلة من وسيلتين : إما أن نصد الناس جميعاً عن هذه الطرق المتعددة ، ونقصرهم على هذه الطريق الواحدة ، بقوة الأديان والسلطان والتربية ، وذلك ما عناه الرسول (ص) بقوله : « عليكم بالجادّة ودعوا البُنَيّات[2] » ؛ وإما أن نعيد النظر فى قانون الأخلاق فلعل فيه ما لا يرافق تقلب العصر وتطور المجتمع . فأما الوسيلة الأولى فقد سجل الماضى ودلل الحاضر على أنها خيال نبيل لا يقع فى الإمكان ، وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة . وتعليل ذلك لا يعزب عنك فلا حاجة إلى تقريره . وأما الوسيلة الأخرى فهى على ما يرون مظنة التوفيق فى الإصلاح الجديد

ما معنى أن يظل التواضع والقناعة والزهد والمداراة والتوكل على إطلاقها فضائل وأنت ترى بعين الواقع أن المتواضع موضوع والقانع مهمل والزاهد محروم والمدارى مستذَل والمتوكل عاجز ؟ أليس صلف الانجليزى أبلغ فى العزة ، وطمع الفرنسى أليق بالحياة ، وطموح الايطالي أخلق بالرجولة ، وصراحة الألماني أدعى إلى الهيبة ، واستقلال الأمريكى أضمن للفوز ؟ ما معنى أن يظل الربا فى عصر الاقتصاد رذيلة وقد اختلف اليوم فى معناه ومرماه عن ربا (شيلوك) وأنت تعلم أن الغرب لم يستعبد الشرق إلا عن طريق بنوكه . فقد كانت تأخذ القناطير المقنطرة من أموال المسلمين بغير ربا لتقرضها إخوانهم المساكين بالربا الفاحش . ولو أنهم أخذوا رباها وأنفقوه فى وجوه الإصلاح والبر لما بقى على أرضهم أجنبى ، ولما ظل تحت سمائهم فقير . ولا أريد أن أعرض لغير الربا من الرذائل فلا تزال فى حاجة إلى التقية والمصانعة . وإذا سلمنا أن مقياس الفضائل والرذائل هو النفع والضرر ، فما كان مؤدياً إلى منفعة سمى فضيلة ، وما كان مؤدياً إلى مضرة سمى رذيلة ، سهل قياس الأخلاق على هذا الأساس ، وأمكن بعد ذلك الاتفاق على نتيجة هذا القياس

* * *

ذلك يا عزام قولهم بأفواههم يريدون أن يصل إليك عن طريق الرسالة . أما محمود فقد ظل صامتاً طول الحديث كأنه ليس منه فى قال ولا فى قيل . ولا أدرى إذا ما خلا جوفه من طعام رمضان الدسم المرىء أيعود إلى جدالك ، أم يكتفى بتعليق أصحابه على مقالك . وأما أنا فلا أزال أهيب بدهاقنة الدين وفلاسفة الأخلاق أن تتدخل جماعتهم فى سوق الفضائل معدِّلة أو هادية ، كما تتدخل الحكومة فى سوق الأقطان مشترية أو حامية

احمد حسن الزيات

(١) من مقال الأستاذ فى العدد الماضى

(٢) الجادة وسط الطريق والبنيات ، الطرق الصغار التى تتشعب من الجادة

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٢ —

من دمشق إلى القسطنطينية

ياصديقي الزيات :

لعل رسالتي التي حدثتك فيها بطرف من أحاديث دمشق قد بلغتك ؛ وهذه رسالة أخرى أطرفك فيها ببعض ماوعت النفس من مشاهد الطريق بين دمشق والقسطنطينية . وأرجو أن أواصل الرسائل من بعد :

ترددت برهة كيف آخذ طريق من دار الأمويين إلى دار البيزنطيين . أأركب إليها البحر من بيروت وأرجع من طريق البر ، أم أخترق اليبس إلى غايتي ؟ وكنت ركبت السفينة بين الاسكندرية والقسطنطينية مرتين قبلاً ، فقلت لنفسي : ماذا تفيدين من رؤية ما رأيت ، وحافظ الشيرازي يقول :

من جرّب المجرّب حلت به الندامة

وماذا تُجدى عليك رؤية الدأماء صباح مساء ؟ لجة واحدة وأمواج متشابهة ، كأنها ساعات الزمان فى بحر العمر !

صح العزم على سفر البر ، فخرجت من دمشق بعد ظهر الثلاثاء ١٩ جمادى الأولى (٢٧ تموز) فى سيارة أعدتها شركة السكك الحديدية لإبلاغ المسافرين حمص ليركبوا منها سكة الحديد إلى حلب . وقد ابتليت برفقة ليس بينى وبينهم سبب فأرحت لسانى وأذنى ، وسرّحت طرفى فى الفضاء ، وفكرى فى مسارح لا تحد بين الماضى والحاضر ، والقريب والبعيد . وكان للسيارة سوّاق ذكرنا بقول القائل : « قد لفّها الليل بسوّاق حُطم » فانطلق بنا لا يألو إسراعاً حتى يكاد الماء فى جوف السيارة يشتعل ، فيقف ريثما يفثأ الماء ، والطريق أكثرها صحراء جرداء تسايرها جبال وتلال ، وتزينها بين الحين والحين قرى ومدن ومشاجر ومياه ، ولا سيما قرب حمص . ولم نقف على الطريق إلا فى النبك لبثنا به قليلا

هذه حمص بعد سبع سنين ولات حين تلبث . إن الوقت لا يمهلك حتى لزيارة خالد بن الوليد فاصبر حتى تعود أدراجك من هذه الطريق فتقضي حق العين والفؤاد من هذه المشاهد

بعد قليل جاءت من طرابلس عربة كعربة ديزل المعروفة فى مصر ، وتسمى فى الشام باسمها الفرنسى « أوتومُتريس » أخذت مكانى بها وانطلقت سريعة تطوى ما بين حمص وحلب ، والطريق هنا أكثر ماء وشجراً وزرعاً . وفى الطريق لاحت حماة فى زينات من شجرها ومائها ، ونغمات نواعيرها منثورة فى السهل تدور بالماء والماء بها يدور لاتفتر نهاراً ولا ليلا وتذكرت قول القائل :

ناعورة مـذعورة للبين حيرى سائرة
المـاء فوق كتفها وهي عليـه دائرة

وتذكرت أنى حين قرأت هذين البيتين فى المدرسة ظننت الناعورة هى الساقية بلسان أهل مصر ، ثم عرفت فرق ما بينهما حين ذهبت إلى الشام أول مرة . ومن رأى نواعير الفيوم فقد رأى صورة صغيرة من نواعير الشام الماثلة فى الفضاء على نهر العاصى عالية رائعة

وبلغنا حلب بعد الساعة الثامنة من المساء فقصدت إلى فندق البارون . اضطرنى إليه ، على نفرتى من هذه الأسماء الأفرنجية فى البلاد العربية ، أنى أُنـزلت به مرة ، ولم أعرف من فنادق حلب غيره . وقضيت به بقية الليـل . وأصبحت مبكراً إلى القطار قطار الشرق السريع . لم أر فى حلب شيئاً ولم ألاق بها صديقاً . وسأعود إلى حديث حلب وحمص فى رجوعى إلى الشام إن شاء الله

وجاء القطار الفخم قد كتب عليه بالفرنسية والتركية ذات الحروف اللاتينية : « قطار الشرق السريع » وسألت أحد عمال القطار عن عربات النوم فقال لصاحب له بالتركية : « دلّه عليها » فقلت : هذا أول العُجمة وطلائع الغربة

أخذت مكانى بالقطار موطّناً النفس على السفر ستاً وثلاثين ساعة ، ورفيقى فكرى وخيالى وديوان البحترى . سار القطار والساعة سبع من الصباح ، وكان شريكى فى المقصورة انكليزياً ذاهباً من العراق إلى بلده فى إجازة قصيرة ، ولكنى وجدت عن ملازمته ميلاً ومندوحة فى مقصورة أخرى خالية خلوت فيها بصاحبى البحترى . وسأحدث القارئ حديثه بعدُ ؛ على أنى لم أذمم من الانكليزى الشيخ صحبة ، وكنت ألقاه حيناً فحيناً فنتحدث ونتفكه ، وكنت أجده جالساً وبجانبه عدة السفر من البيبة والسجاير والكتب . ولست أنسى رنانى له حينما أضلّ منظاره فاضطرب حيناً يبحث عنه ، ثم جلس كئيباً يقول : إنى لا أستطيع القراءة بدونه ، وكيف أقطع الطريق إلى لندرة بغير قراءة ؟ إنه منظار ثمين ، إنه يلائم عينىّ ؛ ثم يهيج فيتهم خادم القطار بالسرقة ؛ وييأس ، فأعيدُ الأمل فى نفسه ، فيعود يبحث عنها

وأبحث معه . وجاء الخادم يقول : لعلها فى حقيبتك . ففتح الحقيبة مغضباً وأخرج ما فيها من ورق وقال للخادم بالانكليزية — وهو عالم أنه لا يعرف منها كلمة — : أنظر ! أتجدها هنا ؟ أأنت على يقين أنها ليست هنا ؟ أمطمئن أنت إلى أنها ليست هنا ؟ ثم رجعت إليه بعد حين فإذا هو متهلل الوجه مسرور ، فلما رآنى وثب يرينى كيف انزلق منظاره وراء الباب وكيف وجده ، فشاركته السرور وأعدنا الحديث عنه ضاحكين بعد أن أطلنا الحديث عنه آسفين …

وبعد ساعتين من حلب دخلنا إقليماً جبلياً مشجراً تخلل القطار فيه أنفاقاً كثيرة متعاقبة على سفوح الجبال حتى بلغنا ميدان أقبس على الحدود بين سورية وتركية ، والساعة تسع وخمسون دقيقة ، فوقف القطار زهاء نصف ساعة . وجاء موظف تركى فسأل : من أين ؟ قلت : من مصر . قال : إلى أين ؟ قلت : استانبول . قال : أمعك أشياء للجمرك ؟ قلت : لا . قال : كم معك من النقود التركية ؟ قلت : قليل لا يتجاوز كذا . قال : مع السلامة

وبلغنا ، والساعة ثلاث ونصف ، محطة اسمها مصيص . قلت لنفسى : هذه ولا ريب المصيصة التى كانت ثغراً بين البلاد الاسلامية وبلاد الروم زمناً طويلاً .. هنا نهر جيحان ، وهنا مغازى سيف الدولة ؛ وفى هذا الإقليم وما يجاوره نظم المتنبى ما نظم من قصائده . أليس يقول أبو الطيب لسيف الدولة :

سريت إلى جيحان من أرض آمد ... ثلاثاً لقد أدناك ركض وأبعدا

ومن قبل قال عدىّ بن الرقاع العاملى :

فقلت لها كيف اهتديت ودوننا ... دُلوك وأشراف الجبال القواهر
وجيحانُ جيحانُ الملوك وآلس ... وحَزن خزازى والشعوب القواسر

أجل وهنا أطراف العواصم التى يفيض بذكرها التاريخ والشعر .

ومررنا بعد المصيصة ثلاثين كيلا شطر الغرب فاتسع السهل وانتشرت الخضراء ووافينا أطنة والساعة أربع . ندع حديث أطنة وما يليها إلى العودة ، ونسير إلى الشمال زهاء ساعة فنوافى جبال طوروس ، وما أعظمها منظراً جليلاً رائعاً هائلا : سفوح مخضرة يصعّد فيها الطرف حتى يبلغ قمماً شاهقة تكاد العين تقصر دونها ، قمم متنافسة متسامية إذا صعد البصر إلى إحداها انزلق على السفح ليرقى فى سفح آخر إلى قمة أخرى ، وإذا أسفّ النظر إلى الحضيض فهناك الأودية العميقة السحيقة يهول الناظر عمقها ويروقه بين الحين والحين مياه تجرى مسرعة مزبدة متعرجة كأنها الأراقم راعها القطار فانسابت إلى مجاحرها . وتتوالى مرائى طوروس فى جمالها وجلالها واختلاف ألوانها وارتفاعها واستفالها وما يشغل العين والفكر من صورها ، والقطار على السفح موف على هذه الأودية الهائلة يصعد متمهلا وينبهر أحياناً فيقف زاحراً زافراً لا يقوى على الترقى . فاذا أعد العدة من مائه وناره وبخاره عزم فصعد جاهداً مجهودا . وبعد نصف ساعة على هذه السفوح تعاقبت أنفاق لبث القطار فيها نحو عشرين دقيقة كلما بشرّ الضوء بانتهاء أحدها أقبل الآخر فى ظلامه يلتهم القطار

ومن بدائع الجناس أو المقابلة فى هذا الجمال البديع أذواد من الإبل فى أودية طوروس ، لم تذهب بجمالها ورواتها مناظر الجبال العظيمة ؛ وأما سرب المعزى الذى رأيته هناك فلا أدرى من أى أنواع البديع مرآه هناك

وتوالت ذِكَرُ الآل والأصحاب فإذا لسانى يترنم بهذه الأبيات :

ذكرتك إذ طوروس فى اللُّوح مُصعِد ... يظلّ بأهداب السحاب يُعمَّم
يطير بىَ الاعجاب بين سفوحه ... وقمّاته والقلب فيه مقسَّم
ويفزع من وديانه كل ناظر ... ويحتار فيه الطرف كيف يُيمّم
جمال ترود العين بين رياضه ... عليه جلال بالمهابة مفعم
فأيقنت أنْ ذكراك أروع مشهداً ... وأجمل من طوروس عندى وأعظم

وانتهى بنا الإصعاد إلى مكان اسمه أولوقشله وهو أعلى موضع فى طريق طوروس ؛ وبعده بقليل تلتقى الطريقان : الطريق الآتية من أنقرة ، والآتية من قونية

وجن الليل وبات القطار يسرى فأصبحنا عند أنقرة والساعة سبع من الصباح : وأستأذنك يا صديقى أن أطوى المسافة بين أنقرة واستنبول والحديث عنها إلى العودة فقد كان نصيبى من هذه الديار فى عودتى أوفر ، وأنسى بها أطول ، ثم أخشى أن تمل الحديث الطويل والرسالة السهبة . فسلام عليك إلى أن أكتب إليك

استنبول ٣٠ تموز — عبد الوهاب عزام

في التاريخ السياسي

مصر وإيطاليا

عبر الماضي دلائل الحاضر

بقلم باحث دبلوماسي كبير

لما كشفت إيطاليا الفاشستية في أوائل سنة ١٩٣٥ عن نياتها الاستعمارية نحو الحبشة توجس أولئك الذين يشفقون على حرياتهم وحريات الشعوب الآمنة شرا ، واستشعروا الخطر الاستعماري جاثماً وراء تأكيدات رومة بأنها لا تبغي من وراء أهباتها العسكرية سوى الدفاع عن أملاكها الأفريقية . ولم تمض أشهر قلائل حتى صدق الظن ووثبت إيطاليا بالحبشة وثبتها المعروفة ، واستشهدت ضحية جديدة من ضحايا الاستعمار

وكان لهذه المأساة الاستعمارية في مصر وقع خاص ؛ ولم يكن ذلك فقط لأن مصر ترتبط مع الحبشة بروابط تاريخية قديمة ، ولها في الحبشة نفوذ ديني خاص بواسطة كنيستها القبطية ، ومنابع نيلها تقع في الحبشة ، ولكن لأن مصر شعرت على الأخص بأن خطراً استعمارياً جديداً قد استقر على مقربة منها ومن سودانها ونيلها ، وأن الفاشستية الطموحة المتوثبة قد أصبحت تطوق وادي النيل من ناحيتيه ، وأن استشهاد الحبشة على هذه الصورة المروعة إنما هو عبرة يجب أن يكون لها بالغ الأثر

وقد كانت المعاهدة المصرية الانكليزية التي عقدت في ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ نتيجة محتومة لهذه المأساة ؛ ولم يكن في وسع مصر وبريطانيا العظمى أن يتجاهلا أهمية ذلك التطور الخطير في أحوال وادي النيل ؛ ولم يكن في وسعهما أن يمضيا بعد في نزاع طال أمده ، وأن يغفلا بذلك عن الخطر الذي تواجهانه معاً ؛ ومن ثم كان عقد المعاهدة المصرية الانكليزية عملا حكيما من الجانبين ، وكانت ضرورة أملتها الظروف والحوادث

والآن تبدو أهمية التحالف بين مصر وبريطانيا العظمى ؛ فتطور الحوادث في البحر الأبيض المتوسط ، وحالة التوتر التي تسود علائق الدول الفاشستية والدول الديمقراطية ، والكدر الذي يشوب علائق إيطاليا وبريطانيا ، وما تبديه الفاشستية الايطالية من بوادر التحفز والطموح ، وما تقوم به من الأهبات العسكرية في جزيرة بانتلاريا الواقعة بين تونس وصقلية ، وفي جزيرة رودس ، وما تحشده من القوات الجرارة في طرابلس على مقربة من الحدود المصرية : كل أولئك يجب أن يلفت الأنظار ، ويثير الريب ، ويقضي على أولئك الذين تعنيهم هذه الحالة أكثر من سواهم بالتيقظ والحذر والاستعداد

* * *

ولا ريب أن مصر في مقدمة الدول التي يجب أن تعنى بهذه التطورات ؛ بل هنالك ما يدل على أنها ليست بعيدة عنها ، وأنها لا تستطيع أن تطمئن إليها ؛ وليس ذلك فقط لأن الحوادث قد جمعت بين مصر وبريطانيا العظمى ، ووثقت بينهما في جبهة صداقة وتحالف دائمين ، ولأن الفاشستية الايطالية في خصومتها لبريطانيا العظمى لا بد أن تقصد إلى خصومة مصر في نفس الوقت باعتبارها حارسة لشريان من أهم شرايين الأمبراطورية البريطانية : نقول ليس ذلك فقط ، بل كذلك لأن الفاشستية الايطالية ليست بعيدة عن التفكير في مصر لذاتها

إن الفاشستية الايطالية تضطرم اليوم بأعظم الأحلام الأمبراطورية ، وترتد ببصرها إلى الأمبراطورية الرومانية ؛ وليست مصر في نظرها إلا كطرابلس ولاية رومانية سابقة . وما زلنا نذكر إشارة السنيور موسوليني في إحدي خطبه أيام الحرب الحبشية إلى مصر وقوله إنها كانت أهراء الغلال لرومة ، والفاشستية ترنو في حلمها الامبراطوري إلى مصر ، ولا سيما بعد استيلائها على الحبشة . وقد دلت على ذلك في مواطن عديدة ومناسبات كثيرة وهي تحاول منذ أعوام أن تقوى نفوذها ودعايتها في مصر بمختلف الوسائل ؛ وسواء أكانت الفاشستية ترنو إلى مصر من خلال خصومتها لانكلترا ، أو كانت تقصد إليها بالذات كحلم استعماري رائع يمكن تحقيقه ، فان الذي لا ريب فيه هو أن مصر تواجه اليوم مرحلة من أدق مراحل تاريخها

ولقد توالت من خلال هذا القلق الشامل تصريحات المقامات المسئولة في رومة بأن إيطاليا الفاشستية لا تضمر شراً لمصر ولا يمكن أن تفكر في الاعتداء عليها ، وأنها بالعكس تشعر نحوها بأكرم عواطف الصداقة والود ؛ وأما الجيوش الجرارة التي تحشد

فى برقة ، وأما الأهبات العسكرية الماثلة التى تتخذ هنالك على مقربة من الحدود المصرية ، فليست سوى إجراءات تحفظية تقرر اتخاذها منذ بعيد . هكذا نسمع من رومة بين حين وآخر ، وهكذا أكد لنا السنيور موسولينى نفسه فى حديث أفضى به منذ أسابيع قلائل ، وهكذا يؤكد ممثل إيطاليا فى مصر للحكومة المصرية كلما أبدت دهشتها وتساؤلها من سير الأحوال فى برقة

بل هنالك ما هو أكثر من ذلك ، وهو أن الحكومة الإيطالية عرضت أكثر من مرة ، وما زالت تعرض بواسطة ممثلها فى مصر على الحكومة المصرية أن تعقد معها ميثاق صداقة وعدم اعتداء . ويقال إنها تقدمت إلى الحكومة المصرية بمثل هذا العرض حتى قبل أن تعقد المعاهدة المصرية الانكليزية

ومصر تغتبط بلا ريب بمثل هذه التأكيدات الودية من جانب حكومة رومة ، وتود لو أنها تستطيع أن تؤمن بها وتطمئن إليها

ولكن مصر لا تستطيع أن تؤمن ولا أن تطمئن ؛ ولها فى ذلك أكبر العذر ؛ فالتاريخ يعيد نفسه دائماً ، وشواهد الماضى قرائن الحاضر ؛ ولإيطاليا الحديثة فى نقض المواثيق والعهود تاريخ متصل لم تنقطع حلقاته حتى اليوم ؛ وهو يدل دلالة واضحة على أنه إذا كانت إيطاليا الحديثة الناشئة قد آثرت مدى نصف قرن أن تجرى على سياسة انتهاز الفرص ونقض العهود ، فإن إيطاليا الفاشستية التى تجيش بمختلف المطامع والأمانى لا يمكن أن تكون أحفظ للعهد وأجدر بالثقة والاطمئنان

وإليك منطق التاريخ الحاسم : لم تكد إيطاليا الفتية تستكمل وحدتها واستقلالها فى أواخر القرن الماضى حتى أخذت تساورها نزعة الاستعمار والتوسع ، وتلتمس لتحقيقها جميع الخطط والوسائل ؛ وكانت تتردد يومئذ بين فرنسا وألمانيا لترى أى الناحيتين أكفل للغنم ؛ وكان وزيرها الشهير كرسپي رجل المطامع والمغامرات ، بل يمكن أن يقال إنه هو الذي وضع أسس سياسة التوسع التى تنزل إيطاليا إلى ميدانها اليوم . فلما احتلت فرنسا تونس فى سنة ١٨٨٠ اضطرمت إيطاليا سخطاً لأنها كانت تطمع فى احتلالها ؛ وتحول كرسپي إلى ألمانيا خصيمة فرنسا يخطب ودها ، وانتهى الأمر بدخول إيطاليا فى المحالفة الثنائية الألمانية النمسوية التى غدت المحالفة الثلاثية من ذلك الحين (سنة ١٨٨٢) ثم تجددت فى سنة ١٨٨٧ ؛ ولبثت قائمة حتى نشوب الحرب الكبرى

ولكن ما الذي حدث عند نشوب الحرب الكبرى ؟ التمست إيطاليا الوسيلة لنقض عهود تحالفها مع الدول الوسطى والتزام الحيدة أولا ، ولم يمض عام حتى انقلبت إلى الحلفاء . ثم انضمت إليهم وأعلنت الحرب على حليفتيها القديمتين لتشترك مع الحلفاء فى تحطيم الامبراطورية النمسوية والاستيلاء على نصيبها من أسلابها

وحصلت إيطاليا على نصيبها من أسلاب الدول المهزومة ؛ وكانت أوفر الحلفاء حظاً فى أوربا لأنها فضلاً عن الفوز بتحطيم الامبراطورية النمسوية جارتها القوية وخصيمتها القديمة ، استولت على التيرول الجنوبي واستيريا ودلماتيا ، وكفلت بذلك حدوداً منيعة فى الشمال والشرق

ثم قامت الفاشستية الايطالية ولم يرضها ما حصلت عليه إيطاليا من أسلاب الحرب ، بل اعتبرته غبناً لها وانتقاصاً لحقوقها فشهرت سياستها المعروفة فى سبيل التوسع الاستعمارى ، وعززتها بالتسلح والأهبات العسكرية العظيمة ، وأخذت تترقب الفرص لتحقيق مشاريعها وأمانيها

وكانت إيطاليا قد عقدت منذ سنة ١٩٠٦ معاهدة ثلاثية مع بريطانيا العظمى وفرنسا تقضى بالعمل المشترك بينها لحماية أراضيها ومصالحها فى شرق أفريقية ، وتنص على وحدة الحبشة واستقلالها مع التنويه بمصالح إيطاليا فى الحبشة ؛ وجددت هذه المعاهدة فى سنة ١٩٢٥ . وفى سنة ١٩٢٨ عقدت إيطاليا مع الحبشة معاهدة صداقة وتحكيم ، وجددت عهودها للحبشة باحترام استقلالها ووحدتها ، وكانت إيطاليا من أشد المؤيدين لدخول الحبشة عصبة الأمم

ولكن الفاشستية الإيطالية كانت فى الوقت الذى تقطع فيه على نفسها هذه العهود والمواثيق تتحين الفرص ، وتدبر اعتداءها سراً على الحبشة ، حتى إذا سنحت الفرصة نفذت مشروعها الاستعمارى على مرأى ومسمع من العالم ، ولم تبال بمواثيق أو عهود ، وسخرت من كل اعتراض أو احتجاج ، وتم لها ما أرادت من القضاء على حريات أمة آمنة مستقلة

ولما اضطرمت الحرب الأهلية الأسبانية ظهرت إيطاليا الفاشستية من وراء الثوار تشد أزرهم وتذكي أوار الحرب بجنودها وسلاحها ، وما زالت تمضى فى سياستها حتى اليوم تنفيذاً لمآرب ومشاريع استعمارية تبغى اجتناءها . ولما نظمت اليابان اعتداءها الأخير على الصين بادرت إيطاليا بإظهار عطفها وتأييدها لليابان المعتدية لأنها تسير فى نفس السياسة الاستعمارية التى تسير عليها

هذا هو ماضى إيطاليا ، وهذا هو حاضر الفاشستية الايطالية فى نقض العهود والمواثيق وتمزيق المجتمعات ، وفى ترقب الفرص غير المشروعة وتنظيم الاعتداءات الاستعمارية

والواقع أن الفاشستية الإيطالية لا تنكر جنوحها إلى هذه الخطط ، فهى تنادى علناً بأن الحق للقوة وحدها ، وتسخر من كل عهد أو ميثاق أو حق لا تؤيده القوة ، وهى تجرى على سياسة مكيافيلية خالصة تبرر لتحقيق الغاية كل الوسائل

فكيف تستطيع مصر بعد ذلك كله أن تثق بتأكيدات رومة الودية وتطمئن إليها ؟ إن التاريخ يعيد نفسه دائماً ، ومصر ترجو ألا تكون ميداناً للوثبة القادمة

ومصر لا يمكن أن تطمئن إلا لنفسها ومقدرتها على الدفاع عن كيانها ، وهى تشعر شعوراً صادقاً بالخطر الذى يلوح لها فى الأفق ؛ ولكن مصر تثق أيضاً فى مستقبلها وطالعها ، وتعتزم ألا تسمح لأحد بالاعتداء عليها . ومن حسن الطالع أنها تستطيع أن تعتمد فى مثل هذا الظرف على معاونة صديقتها وحليفتها العظيمة بريطانيا العظمى . ومن حسن الطالع أن مصلحة مصر ومصلحة بريطانيا تتفقان هنا وتمتزجان ؛ فالاعتـداء على مصر يكون فى نفس الوقت اعتداء على ما تعتبره بريطانيا مركزاً حيوياً لمواصلاتها الإمبراطورية

على أن مصر يجب أن تعمل منذ الآن للاعتماد على نفسها قبل كل شىء ، فنحن فى عصر القوة لا فى عصر الحق ، ويجب أن تتدرع الأمم للذود عن حرياتها وكيانها بكل ما تدخر من القوى المادية والمعنوية ؛ وهذا ما ستفعله مصر بلا ريب

ثم إننا نؤمن من جهة أخرى بأن هذه النظم الطاغية والخطط الاستعمارية الباغية التى تصول اليوم فى ميدان القوة والعـدوان سوف تنهار متى وقع الاصطدام الحقيقى ؛ هذا إذا لم تسارع قبل ذلك إلى تمزيق نفسها بنفسها (***)

مســــكين

بين إنجليزى ولبوته

أثر العادة والتدريب فى الانسان والحيوان

كنت قد أبصرت في بعض الصحف صورة شبل مع إنجليزى وطلَّتـه [1] أو لَبْـوَته [2] ... وهما يشربان الشاي (أو الشاهى كما يقولون فى الحجاز) والثلاثة : الرجل والرَّجلةُ وابن الليث يتناظرون [3] صامتين . وفى الصحيفة حديث عن أنس الوحش، فلم أتعجب إذ رأيت هذا المسكين (أعنى الشبل) يقاعد إنجليزيا ، ولم أنكر ، ولم أقل : إن ذلك البريطاني قد تطبع بطبع الأسد الوحشى حتى ائتلفا واصطحبا لأن الانجليزى إنسان من الاناسية والناس لا يحتاجون كما يعرف العارفون إلى تدرب على طبيعة من طبـائع الضوارى والكواسر أو الجوارح [4] ، فالقرابات كما حققت علوم كثيرة فى هـذا الزمان بين منتصبى القامات اليوم وبين [5] الماشيات على أربع والطـائرات والزحافات واشجات قربيات ؛ ووراثة الأجداد البعيدة (بل القريبة) وهي التي يقال لهـا فى اللسان الأفرنجى L' atavisme ما زايلتهم فى حين ، وما ضاع والحمد لله ... منها شيء ؛ وفى كل يوم ألوف ألوف من الأدلة المثبتة المسكتة ، المخجلة المخزية . وابْـلُ من شئت ممن تفخمهم تفخيماً وتبجلهم تبجيلاً وتحسبهم — وهم من البشر — ملائكة ، فإنه لا يكاد أفضلهم رأياً يردّه عن فضل رأيه الرضا والسخط ، ويكاد أصلبهم عوداً تنكأه اللحظة ،

(١) طلة الرجل : امرأته ، قال :

وإنى لمحتاج إلى موت طلتى ولـكن قرين السوء باق معمر

(٢) اللبوة ساكنة الباء غير مهموزة : لغة فى اللبؤة بضم الباء وبالهمزة

(٣) يتناظرون : ينظر بعضهم بعضاً لا إنهم كانوا يتناظرون ويتباحثون فى كتابى (أصل الأنواع) لداروين و (تاريخ الخلق الطبيعى) لأرنست هيكل

(٤) (الضارى) من السباع ماضرى بالصيد ولهج بالفرائس (باز كاسر) وعقاب كاسر ، كسر الطائر ضم جناحه حتى ينقض يريد الوقوع (الجوارح) ذوات الصيد من السباع والطير

(٥) بين تـكرر مع المظهر لا كما قال الحريرى فى (الدرة) وغـيره والتكرير فى أقوال العرب كثير

وتستحيله الكلمة الواحدة [١] »

« والناس شجرة بَغْيٍ [٢] »

« وجدت الناس إن قارضتهم قارضوك ، وإن تركتهم لم يتركوك ، وإن هربت منهم أدركوك [٣] »

« وجدت الناس أخبرْ تَقْلِه [٤] » :

يلقاك بالماء النمير الفتى وفي ضمير النفس نار تَقِد [٥]

يعطيك لفظاً ليّناً مسّه ومثل حدّ السيف ما يعتقدْ

فالناس هم الناس ، و« هم » — كما قال عالم أفرنجي — لم يزالوا حتى اليوم في الأفق (الدور) القردي الشبنزي أو الشنبنزي » إنهم بعدُ لفي هذا الأفق وإن مشوا في الأرض متغطرسين متكابرين متبجحين على إخوانهم الأقربين (ذوات الأذيال ...) بما سمّته لغاتهم تقدماً وارتقاء وإن أسمعك بعضهم — وأنت في القاهرة مقيماً — صوت الحبيبة في (نيويورك) وأراك صورة من تهوى في بلاد (النمسة) :

من في العراق يراك في طرسوسا [٦]

فالناس هم الناس :

فلا تلزمن الناس غير طباعهم

فتتعب من طول العتاب ويتعبوا [٧]

أعود إلى أول كلامي فأقول : لا ، لا ، لم أقل : إن ذلك الانجليزي قد تخلق بنحيزة ضار ، فألف كلٌّ صاحبَه ؛ فالانسان — كما أثبت علم العلماء وأثبت عمله هو — سبعى بالطبع ، بل ازددت بعد تلاوة ذلك الحديث إيقاناً بأثر العادة والتمويد ، وإيماناً بأن التدريب يقدر أن يذلل الضاري ويقتاده — كان الله في عونه — إلى ملابسة انجليزي (أو غير انجليزي) ولا شيء في الدنيا أصعب من مخالطة الناس

* * *

وفي العربية أقوال كثيرة في العادة والمرون والتضرية والتدريب والتألف . وهذا خبر حسن بارع مجزئٌ عن كثير في هذا المعنى ، وهو في الشرح الكبير (للنهج) لابن أبي الحديد :

« إن لم تكن حليماً فتحلم ، فانه قل من تشبه بقوم إلا أوشك أن يكون منهم) صحيحٌ في مناهج الحكمة ؛ لأن من تشبه بقوم وتكلف التخلق بأخلاقهم ، والتأدب بآدابهم ، واستمر على ذلك ومرن عليه الزمان الطويل ، اكتسب رياضة قوية وملكة تامة وصار ذلك التكلف كالطبع له ، وانتقل عن الخلق الأول . ألا ترى أن الأعرابي الجلف الجافي إذا دخل المدن والقرى وخالط أهلها ، وطال مكثه فيهم انتقل عن خلق الأعراب الذي نشأ عليه وتلطف طبعه ، وصار شبيهاً بساكني المدن ، وكالأجنبي عن الوبر . وهذا قد وجدناه في حيوانات أخرى غير البشر كالبازي والصقر والفهد التي تراض حتى تذل وتأنس ، وتترك طبعها القديم ، بل قد شاهدناه في الأسد وهو أبعد الحيوان من الانس . وذكر ابن الصابي (أبو إسحق) أن عضد الدولة بن بويه كانت له أسود يصطاد بها الصيد فتمسكه عليه حتى يدركه فيذكيه [١] ، وهذا من العجائب الطريفة »

(ﻫ)

(١) يذكيه : يذبحه ، والذكى المذبوح ، في (الكشاف) : إلا ما ذكيتم : إلا ما أدركتم ذكاته (ذبحه) وهو يضطرب اضطراب المذبوح وتشخب أوداجه

العدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة

(١) من كلام النهج . (تستحيله) يريد تحيله ، ولم أجد استحال متعدياً في كلام عربي يوثق به ، ولا في كتب اللغة المعروفة

(٢) إنما جعلهم شجرة البغي إشارة إلى أنهم ينبتون وينمون عليه (الميداني) والقول مثل

(٣) أي إن نلت من أعراضهم نالوا من عرضك ، وإن تركتهم فلم تنل منهم نالوا منك أيضاً لسوء دخلتهم ، وخبث طباعهم (الميداني) قرضه : جازاه (التاج) يقارض الناس يلاحيهم ويواقعهم (الأساس) والقول لأبي الدرداء

(٤) أبو الدرداء . قلاه يقليه قلى وقلاء (بالفتح) ومقلية وقلية (كرضية) يقلاه : أبغضه ، والهاء للسكت ، والمعنى وجدت الناس أي عفتهم مقولا فيهم هذا القول أي ما منهم أحد إلا وهو مسخوط الفعل عند الخبرة (الفائق للزمخشري)

(٥) أبو العلاء

(٦) المتنبي . وصدر البيت : (كذب المخبر عنك ، دونك وصفه)

(٧) عمارة اليمني

إلى أخي النازح إلى باريز!

للأستاذ علي الطنطاوي

« هذا الذي أقوله لأخي ، يقال لكل طالب مسلم يدرس في أوربة » « ع »

يا أخي!

لمّا دخلتَ (مسابقة البعثة) أمّلت لك بالفوز لما عوّدك الله من التوفيق والمعونة ، وخفت عليك الخيبة لأن (الوزارة) لا تريد إلا مبعوثاً واحداً في (العلوم الرياضية) من سورية كلها ، وأنى لك أن تكون ذاك الواحد؟

فلما ظهرت النتيجة ، وكنت أنت الناجح في (فرع الرياضة) ، وكنت الناجح في (الطبيعة) أيضاً ، حمدت الله على هذه المنة ، وذهبت أستعجلك بالسفر

ولما عزمت أعددت لك ما تريد وأنا فرح مستبشر مسرور كنت مسروراً لأني أعلم أنك ذاهب تطلب العلم ، وتخدم الوطن ، وتقوم بالواجب

ولكن لم يكد يتحقق الأمر ، ويأزف الرحيل ، وأرى الباخرة الفخمة (ماريت باشا) رابضة حيال المرفأ (في بيروت) تسطع أنوارها وتتلألأ ، والتي نظري على هذا البحر الهائل الذي يمتد في الفضاء أسود مثل الليل ، حتى يغيب في السماء ، أو تغيب فيه السماء ... لم أكد أرى ذلك حتى أدركت الحقيقة الواقعة ، وعلمت أنك مودع نازح ، فغلبت عليّ العاطفة ، وفاضت نفسي رقة وحناناً

لم أستطع أن أودّعك ، ولم أقو على رؤيتك وأنت في الباخرة ، ماخرة بك عباب اليمّ ، تنأى بك عني ، حتى تصير نقطة صغيرة على شاطئ الأفق ، ثم تنحدر إليه ، وتختفي وراءه ، وتختفي أنت معها ، وتصبح[1] في نظري عدماً ، لأني لا أحس لها وجوداً . .

والوداع — يا أخي — جماع آلام الحياة وأساسها ومصدرها ، وأشد ألوان الوداع وآلمها وأمرّها وداع في البحر ، ذاك الذي لا يطيقه ذو قلب ..

ودعتك وداعاً عادياً ، ولبثت في مدرستي التي درسي وأنا هادئ الجوارح ساكن الطائر ، ولكن في القلب مني زلزلة ، وفي الأعصاب ناراً ...

حتى إذا عاد أخوك ناجي الذي صحبك إلى الباخرة فخبرني أنك سرت (على اسم الله) ، أحسست كأن قلبي قد هبط من هذا الزلزال كبناء هوى ، وأن هذه النار قد تركت أعصابي رماداً منطفئاً فسقطت على كرسي ... لا أدري فيم هذا الضعف . ولا أحبه من نفسي ، ولكني أدري أني أتخيلك الآن وحيداً فريداً لا ترى حولك قريباً ولا صديقاً ، تطل من شرفة الباخرة فلا ترى إلا السماء والماء ، وقد أخذك دوار البحر فلم تجد معيناً ولا مسعفاً . وأتصورك في ذلك البلد الغريب الذي لا ترى فيه إلا وجوهاً تنكرها ، وأنت الذي لم يفارق أهله قط ، ولم يغب عن بيته ليلة ، ولم يسافر وحده أبداً ... فلذلك ما أحزن ، وفي ذلك أفكر

* * *

ولكنها — يا أخي — خطيئة تربيتنا الاتكالية . لو أن آباءنا عودونا ، ولو أنا عوّدناك على الحياة الاستقلالية الصحيحة ، وتركناك وأنت في الثانية عشرة تذهب وحدك وتعود وحدك ، وعودناك حمل التبعات وأبقظنا فيك شخصيتك ولم ندعها نائمة في شخصياتنا ، ودفعناك إلى استثمار مواهبك ولم نتركها معطلة ، لو فعلنا ذلك وأنت في الثانية عشرة لما خفت عليك السفر وحدك إلى باريز وأنت في طريق العشرين!

يا أخي .

إنك تمشي إلى بلد مسحور (والعوذ بالله) ، الذاهب إليه لا يؤوب ، إلا أن يؤوب مخلوقاً جديداً وإنساناً آخر غير الذي ذهب ... يتبدل دماغه الذي في رأسه ، وقلبه الذي في صدره ، ولسانه الذي في فيه ؛ وقد يتبدل أولاده الذين هم في ظهره إذا حملهم في بطن أنثى جاء بها من هناك!

إي والله يا أخي ، هذه حال أكثر من رأينا وعرفنا (إلا من عصم ربك) ، يذهبون أبناءنا وإخواننا وأحباءنا ، ويعودون عداة لنا ، دعاة لعدونا ، جنداً لاستعمارنا ... لا أعني استعمار البلاد ، فهو هيّن لين ، ثم إننا قد شفينا منه بحمد الله أو كدنا ..

(١) تصبح هي لا هو

وإنما أعني استعمار الرؤوس بالعلم الزائف ، والقلوب بالفنّ الداعر ، والألسنة باللغة الأخرى ، وما تبع ذلك من الارتستات والسينمات وتلك الطامات ، من المخدرات والخمور ، وهاتيك الشرور ...

فانتبه لنفسك واستعن بالله ، فإنك ستقدم على قوم لايبالى أكثرهم العفاف ، ولا يحفل العرض . سترى النساء في الطرقات والسوح والمنابر يعرضن أنفسهن عرض السلعة ، قد أذلتهن مدنية الغرب وأفسدتهن ، وهبطت بهن إلى الحضيض ، فلا يأكلن خبزهن إلا مغموساً بدم الشرف ، وأنت لاتعرف من النساء إلا أهلك ، مخدّرات معصومات كالدّر المكنون ، شأن نساء الشرق المسلم ، حيث المرأة عزيزة مكرّمة ، محجوبة مخدرة ، ملكة في بيتها ، ليست من تلك الحطة والذلة في شيء ... فإياك أن تفتنك امرأة منهن عن عفتك ودينك ، أو يذهب بلبك جمال لها مزوّر ، أو ظاهر خدّاع . هي والله الحيّة : ملمس ناعم ، وجلد لامع ، ونقش بارع ، ولكنّ في أنيابها السمّ ... إياك والسم !

إن الله قد وضع في الانسان هذه الشهوة وهذا الميل ، وجعل له من نفسه عدوًّا (لحكمة أرادها) ، ولكنه أعطاه حصناً حصيناً يعتصم به ، وسلاحاً متيناً يدرأ به عن نفسه ، فتحصن بحصن الدين ، وجرد سلاح العقل تُوَقّ الأذى كله ... واعلم أن الله جعل مع الفضيلة مكافأتها : صحة الجسم ، وطيب الذكر ، وراحة البال ؛ ووضع في الرذيلة عقابها : ضعف الجسد ، وسوء السمعة ، وتعب الفكر ، ومن وراء ذلك الجنة أو جهنم ...

فإن عرضت لك امرأة بزينتها وزخرفها فراقب الله ، وحكّم العقل ، واذكر الأسرة والجدود ... لا تنظر إلى ظاهرها البراق بل انظر إلى نفسها المظلمة القذرة وماضيها الخبيث النتن ، أتأكل من إناء ولغت فيه كل الكلاب ؟ ؟

يا أخي !

إن في باريز كل شيء : فيها الفسوق كله ، ولكن فيها العلم . فإن أنت عكفت على زيارة المكتبات وسماع المحاضرات وجدت من لذة العقل ما ترى معه لذة الجسم صفراً على الشمال (كما يقول أصحابنا الرياضيون) ، ووجدت من نفعها ما يعلقك بها حتى ما تفكر في غيرها . فعليك بها ، استق من هذا المورد الذي لا تجد مثله كل يوم . راجع وابحث وألّف وانشر ، وعش في هذه السماء العالية ، ودعْ من شاء يرتعْ في الأرض ، ويعش على الجيف المعطرة ...

غير أنك واجد في ثنايا هذه الكتب التي كتبها القوم المستشرقون عن العربية والاسلام ، وفي غضون هذه المحاضرات التي يلقونها ، عدواناً كثيراً على الحق ، وتبديلاً للواقع ، فانتبه له واقرأ ما تقرأ واصغ لما تسمع وعقلك في رأسك ، وإيمانك في صدرك . لا تأخذ كل مايقولون قضية مسلمة وحقيقة مقررة ، فالحق هو الذي لا يكون باطلاً ، وليس الحق ما كان قائله أوربيا فانظر أبداً إلى ما قيل ، ودع من قال !

* * *

ثم إنك سترى مدينة كبيرة ، وشوارع وميادين ، ومصانع وعمارات ... فلا يهولنك ماترى ، ولا تحقر حياله نفسك وبلدك كما يفعل أكثر من عرفنا من روّاد باريس . واعلم أنها إن تكن عظيمة ، وإن يكن أهلها متمدنين ، فما أنت من سودان أفريقية ولا بلدك من قرى التبّت ... وإنما أنت ابن المجد والحضارة ، ابن الأساتذة الذين علموا هؤلاء القوم وجعلوهم ناساً ، ابن الأمة التي لو حذف اسمها من التاريخ لآض تاريخ القرون الطويلة صحفاً بيضاً لا شيء فيها ، إذ لم يكن في هذه القرون بشر يدوّن التاريخ تاريخه سواهم ... فمن هؤلاء الذين ترى؟ إنما هم أطفال أبناء أربعة قرون ، ولكنّ أمتك بنت الدهر لما ولد الدهر كانت شابة ، وحين يموت الدهر تكون شابة ...

لا . لا أفخر بالعظام البالية ، ولا أعتز بالأيام الخالية ، ولا أذكر لك الماضي لتقنع به وتنام ، ولكن أذكره لك لأهز فيك نفسك العربية المسلمة ، لأستصرخ في دمك قوى الأجداد التي قتلت وأحيت ، وهدمت وبنت وعلمت ، واستاقت الدهر من زمامه فانقاد لها طيعا ... إن هذه القوى كامنة في عروقك ، قائمة في دمك ، فليفُر هذا الدم وليثر ويضطرم تظهر ثانية وتعمل عملها

لا تقل : ما ذا يصنع طالب مثلي ضعيف في أمة قوية ، فإن الأندلس المسلمة كانت بالنسبة لمصرها أقوى ، وكان روادها من طلاب الفرنجة أضعف ، ولكنهم استطاعوا على ضعفهم أن يضعوا (هذه القوة) التي تعجب بها أنت ، ويذوب فيها دين غيرك

وخلقه ... إن الدهر يا أخى دولاب ، والأيام دول . وإن فى الشرق أدمغة ، وفى الشرق سواعد ، وفى الشرق مال ، ولكن ينقص الشرق العلم فاحمله إليه أنت وأصحابك ، وعودوا إلى الشرق شرقيين معتزين بشرقيتهم الخيرة العادلة ، كما يعتز الغربيون بغربيتهم الظالمة الطاغية . واعلموا أن مهمتكم ليست ورقة تنالونها ، قد تنال بالغش والاستجداء والسرقة... ولكن مهمتكم أمة تحيونها

يا أخى !

إذا وجدت واسعاً من الوقت فادرس أحوال القوم وأوضاعهم فى معايشهم وتجاراتهم وصناعاتهم ومدارسهم ، وابحث عن أخلاقهم ومعتقداتهم ، على أن تنظر بعين الناقد العاقل الذي يدوّن الحسنة لتتملها ، والسيئة لتتجنبها . ولا تكن كهؤلاء الذين كتبوا عن بارز من أبناء العرب ، فلم يروا إلا المحاسن والمزايا ، ولا كأولئك الذين كتبوا عن الشرق من أبناء الغرب ، فلم يبصروا إلا المخازى والعيوب ، ولكن كن عادلاً صادقاً أميناً

وإياك وهذه الحماقة التى يرتكبها بعض الكتاب من الفرنجة حين يهرفون بما لا يعرفون ، ويقولون مالا يعلمون ، كهذا الأخرق الصفيق الذى عمل أطروحة موضوعها (الحج) قدمها إلى جامعة كبرى وهو يجهل العربية ، ولا يعرف أى كتاب من كتب المسلمين بحث فى الحج ، وإنما جمع الأخبار من الصحف ومن أفواه العامة ؛ وكتب فى نظام الريّ فى الغوطة ، وزعم أنه وفّى البحث وأتمّه ، وهو لا يعرف منه إلا ماخبره به ثلاثة فلاحين لقيهم فى قرية ذهب إليها ، مع أن نظام الريّ فى الغوطة لا يكاد يعرفه فى دمشق إلا نفر قليل... وذاك الذى كان معلماً أولياً فى بلده فصار عندنا مدير دار المعلمين العالية ، فذهب مع طلابه إلى ظاهر دمشق ، فمشى ينظر على جانبي طريق (الربوة) هنا وهناك... فوجد فى الجبل أثراً للماء ، فقال : من أين جاء هذا الماء ؟ لا بدّ أن يكون جاء من بردى ، إذ لا ماء فى دمشق إلا من بردى . فماذا تكون نتيجة (البحث العلمى) فى هذه المسألة ؟ هى أن بردى كان يصل إلى هنا ... إذن فقد كان عرض بردى فى الماضى أربعمائة متر ... وانطلق يقرر دائماً هذه الحقيقة !

* * *

وبعد يا أخى ، فاعلم أن أثمن نعمة أنعمها الله عليك هى نعمة الايمان ، فاعرف قدرها ، واحمد الله عليها ، وكن مع الله ترَ الله معك وراقب الله دائماً ، واذكر أنه مطلع عليك ، يعصمْك من الناس ويُبعدْك من الشيطان ، ويوفقْك إلى الخير

وفى اللحظة التى تشعر فيها أن دينك وأخلاقك فى خطر ، احزم أمتعتك وعد إلى بلدك ، وخلّ (السوربون) تنعِ من بناها ... وانفض يدك من العلم إن كان لا يجىء إلا بذهاب الدين والأخلاق ...

أستودع الله نفسك ودينك وأخلاقك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

على الطنطاوى

أطراف من تاريخ الملابس
عند المسلمين

للعلامة المستشرق دوزي (*)

للأديب محمد طه الحاجري

كاد فن صناعة الملابس أن يكون مجهولاً في العهود الإسلامية الأولى، يوم كان العرب كلهم بدواً إلا قليلا، وكانت المدن صغيرة ضئيلة الخطر، فكانت الأردية البسيطة المفردة كافية في الوقاية من البرد والحر. وما كانوا يحسبون أن من الممكن أن تصنع الملابس على أسلوب رشيق، بل كان ناسج الثوب هو وحده الذي يقوم بالأمر. ولكن العرب حينما فتحوا وشيكا قسما كبيراً من آسيا وأفريقية وأوربا، اتصلوا بالشعوب التي غلبوها، وكانت قد وصلت إلى درجة عالية من الحضارة، فلم يلبثوا أن تركوا شيئاً فشيئا حياة البادية، وأخذوا يستقرون في المدن[1]. وكذلك أدركوا أن في مكنتهم أن يصنعوا لأنفسهم ثياباً أرشق مما كانوا يلبسون، فأخذوا كثيراً من زى الشعوب التي غلبوها. ولما كانت مظاهر الترف قد تقدمت عند الفرس تقدماً عظيما، فقد أحس بلاط بغداد إحساساً مطرداً بنفوذ جيرانه ورعاياه، كما أن تقدم الحضارة والتجارة أنشأ مصانع من كل نوع. وما أسرع ما ضمت بغداد عدداً عظيماً منها، كان مقدار ما فيها من الثياب الحريرية الفاخرة، والأقمشة المصفوفة بالذهب والفضة وما إليهما، يتضاعف مضاعفة مستمرة

أما في المغرب فكان الأمر على العكس من ذلك، إذ اختلط العرب بالمراكشيين والبرابرة، وهم شعوب جافية، دون فاتحيهم في الحضارة، فكانت مظاهر الترف مجهولة لديهم، فأخذ العرب منهم إلى حد ما زيهم البسيط الغليظ

أما في الأندلس فقد استخلص العرب لأنفسهم جزءاً كبيراً من زى الفرسان المسيحيين، ولا سيما في العهد الأخير من عهود ملكهم. ويصرح ابن سعيد بأن أقبية عرب الأندلس كانت تشبه أقبية المسيحيين. ويقول ابن الخطيب المؤرخ، وهو يتحدث عن محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش المتوفى في النصف الثاني من القرن السادس الهجري: «وآثر زى النصارى من السلاح والملابس واللجم والسروج»

أما في مصر والشام فقد عانى الزى تغيرات عظيمة بسبب غارة الأتراك

وقد أحدث امتزاج العرب بالأجانب أن وجد دائماً اختلاف كبير بين أزياء الشعوب المختلفة التي تكون الامبراطورية العربية الشاسعة، حتى أنه ليستطاع لأول وهلة أن يميز عربي الشرق من عربي الغرب. ويقول ابن إياس، وهو يتحدث عن المؤرخ الشهير ابن خلدون: «واستقر لما تولى القضاء وهو بزي المغاربة فعد ذلك من النوادر» ويقول النويري وهو يروي وفاة الملك القاهر بهاء الدين أبي محمد عبد الملك بن الملك المعظم: «وكان يلبس ملابس العرب ويتزيا بزيهم ويركب كمركبهم ويتخلق بأخلاقهم في كثير من أفعاله» وحتى الذين يسكنون المدن القريب بعضها من بعض كانوا يختلفون في أزيائهم، فقد كتب أحد المغاربة — وسماه مارمول Francisco Nunez Muley — يقول، حينما حرم فليب الثاني على مغاربة الأندلس أن يلبسوا زيهم الوطني: «إن زى نسائنا ليس مغربياً بل هو زى مدني كما في قشتالة، وإن الشعوب الإسلامية في البلاد الأخرى لتختلف في أغطية الرأس وفي الثياب والأحذية. ومن ذا الذي ينكر أن زى مراكشيات أفريقية والتركيات يختلف عما تلبسه نساؤنا في غرناطة؟ وكذلك تختلف أزياء الرجال، فليس زى فاس كزى تلمسان، وليس زى تونس كزى مراكش، وكذلك الأمر في تركيا والممالك الأخرى»

وهنالك فوق ذلك اختلاف كبير في زى الطبقات المختلفة التي تتكون منها الجماعة الاسلامية حتى ليستطاع تمييز الرجل الخاصي من العامي والجندي من شكل العمامة على الأخص، وكذلك كانوا يعرفون بها المنصب الذي يشغله من يلقونه

بيد أنه يجب ألا يؤخذ هذا القول بوجه عام إلا عند أهل المدن، أما البدو فقد احتفظوا تقريباً بالزى القديم، ولاحظوا تعاليم الدين أكثر من الحضريين

(*) ترجمة الفصل الذي كتبه مقدمة لكتابه القيم: «قاموس تفصيلي بأسماء الملابس عند العرب»

(١) راجع مقدمة ابن خلدون في الفصل الذي عقده عن صناعة الحياكة والخياطة

ولقد حدث محمد (ص) أحاديث عديدة ليمنع مظاهر الترف في الثياب من أن تتغلغل فى أمته ، وقد استخلص فقهاء الاسلام من هذه الأحاديث نظاماً بالبادىء والقوانين الخاصة بالزى ، وسنعرضها هنا وفقاً لما جاءت به كتب الفقه الحنفى والمالكى

إن وظيفة الملابس ، على ما يقول كتاب ملتقى الأبحر ، هي ستر العورة والوقاية من الحر والبرد ؛ والأفضل أن تكون من القطن أو الكتان غير مغالى فيها ولا شديدة الرثاثة . وليس أخذ الزينة حراماً متى كان لإظهار نعم الله التى تفضل بها علينا . أما حين تصدر عن الكبرياء فانه ممنوع . وكثيراً ما أوصى عظماء العرب والفرس بالتواضع فى هيئة اللباس ، ويقول النورى ، مثلا ، وهو يمدح صلاح الدين :

« وكان لا يلبس إلا ما يحل كالكتان والقطن والصوف »

ويقول فى موضع آخر بمناسبة موت الأمير جمال الدين ايدغدى العزيز : « وكان مقتصداً على ملبسه يلبس الثياب القطن من المندى والبعلبكى وغيره مما يباح ولا يكره لبسه » (راجع : Anthologia Cersicp, pag. 56, 58).

والحرير مباح للنساء محرم على الرجال إلا أن يتخذوا منه حاشية لثيابهم لا يتجاوز عرضها أربعة أصابع فذلك جائز لهم ؛ ويرى البعض ألا تتجاوز إصبعين ؛ أما المالكية فيرون ألا يبلغ عرضها عرض إصبع واحد . وقد نهى النبى (ص) نهياً مشدداً عن الملابس الحريرية فقال : « من لبس الحرير فى الدنيا فلن يلبسه فى الآخرة » وقال : « إنما يلبس الحرير فى الدنيا من لا خلاق له فى الآخرة » ويجيز الحنفية للرجال أن يلبسوا ثياباً سداها من الحرير ولحمتها من غيره ، وأما عكس هذا ، أى أن تكون اللحمة من الحرير والسدى من غيره فلا يحل إلا فى الحرب . ولا يتفق المالكية فيما بينهم فى جواز لبس القماش المسمى بالخز ، وهو ما سداه حرير ولحمته صوف ، ولكن الأكثرين على منعه

والأكثر استحباباً من الألوان الأبيض والأسود ؛ أما الأبيض فلقول الرسول (ص) : « إن الله يحب الثياب البيض وإنه خلق الجنة بيضاء »

ويقول مؤرخ إفريقى وهو يمدح عبدالرحمن الأول أول ملوك الأندلس : « كان يلبس البياض ويعتم به » ، وأما الأسود فلأن محمداً (ص) كان يلبس يوم فتح مكة جبة سوداء وعمامة سوداء كذلك . أما الشيعة فعلى العكس من ذلك يحرمون السواد ، إذ نقرأ فى رحلات شردان Vayages de chardin ما يأتى :

« ولا يلبس الأسود فى الشرق ولا سيما فى فارس لأنه لون مشئوم بغيض لا يمكن النظر إليه ، ويسمونه لون الشيطان » أما اللونان الأحمر والأصفر فمكروهان من غير أن نعرف سبب كراهيتهما ؛ غير أنى أفرض أن الأصفر مكروه لأنه لون البغض ، والأحمر لأنه لون الدم . ومع هذا فكثيراً ما يلبس المسلمون ثياباً حمراء وصفراء . ويقول ابن جنى والواحدى : إن الفتيات يلبسن عادة ملابس حمراء . أما الملابس الخضراء فلا يلبسها إلا الأشراف سلالة الرسول (ص)

ويظهر أنه ليس بين الحنفية والمالكية والشافعية كبير خلاف فى فصل الملابس ، ولكن يظهر أن مذهب ابن حنبل ، وهو أكثر المذاهب تشدداً ، قد أبعد فى التشدد فى هذه المسألة . وها هو ذا ما جاء فى تاريخ مصر للنورى (فى حوادث سنة ٧١٦)

« وفى هذه السنة فوض قضاء قضاة الحنابلة بدمشق إلى شمس الدين أبى عبد الله محمد ، ووصل إليه بتقليد القضاء من الأبواب السلطانية فى يوم السبت ثامن صفر . وقرئ بجامع دمشق بحضور القضاة والأعيان ، وخرج القاضى شمس الدين المذكور من الجامع ماشياً إلى دار السعادة ، فسلم على نائب السلطنة ، ثم نزع الخلعة السلطانية وتوجه إلى جبل الصالحية وجلس للحكم فى سابع عشر صفر ، وما غير هيئته ولا عادته فى مشيه وحمل حاجته ، ويجلس للحكم على مئزر غير مبسوط ، بل يضمه فى يده ويجلس عليه ، ويكتب فى محبرة زجاج ، ويحمل نعله بيده فيضمه على مكان ؛ وإذا قام من مجلس الحكم حمله أيضاً حتى يصل إلى آخر الإيوان فيلقيه ويلبسه . هكذا أخبرنى من أثق بأخباره ؛ واستمر على ذلك ، وهذه عادة السلف »

ولست أدرى إن كان كل الحنابلة على هذا التواضع الشديد أم هم القضاة وحدهم ؟ ويؤسفنى أن ليس لدى من فقه الحنابلة ما أراجعه فى هذه المسألة ، بل يظهر أن هذا الفقه نادر جداً فى أوربا

ولكى نكون لأنفسنا فكرة عن التطورات التى طرأت على زى العرب نقارن ثوب محمد صلى الله عليه وسلم بثوب رجل من الطبقة المتوسطة من أهل القاهرة فى القرن السادس عشر بعد غارة الأتراك

كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يلبس قميصاً من القطن الأبيض تصل أكمامه إلى المعصم، وسروالاً من القماش؛ وما كان فوق القميص والسروال — فيما يظهر — إلا ثوب واحد هو الجبة؛ وهى ثوب طويل من الصوف، وحواشيه من الحرير، مفتوح من أمام، ضيق الأكمام؛ أو القباء، وهو ثوب طويل مهيأ بالأزرار من أمام. وكان يلبس فى بعض الحالات — بدلاً من هذه الثياب — كساء من القماش الغليظ، وهو عادة قطعة كبيرة من الصوف السميك رمادية اللون مخططة، يلف بها الجسم، وهى (البردة). وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) يلبس العمامة البيضاء أو السوداء ويرخى طرفاً منها على ظهره. وأما حذاؤه فكان نعالاً مصنوعة من جلد الإبل، مربوطة بسيرين يمر أحدهما بوسط القدم والآخر بين الإبهام وما يليه

فنحن نرى أن زى الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان فى غاية البساطة، ولا يزال هو زى أهل الصحراء فى أيامنا هذه. فالبدو لا يلبسون — مثل الرسول — إلا قميصاً من القطن، وثوباً طويلاً، وقد يستعيضون عنه بكساء من الصوف

أما زى الرجل القاهرى فى القرن السادس عشر، فيتألف من عدد عظيم من الملابس — فلا ترى بحال ما تلك البساطة التى كانت تميز زى الرسول، والتى لا تزال ترى فى زى البدو — فكان يلبس فوق القميص والسراويل قفطاناً من الحرير فى ألوان مختلفة قد خالط بعضها بعضاً، ولهذا الثوب أكمام فضفاضة؛ ثم يلبس فوق القفطان حزاماً من الحرير أو الوبر أو الصوف، ثم جبة طويلة مفتوحة من الأمام، ذات كمين قصيرين لا يصلان إلى المعصم حتى يظهر طرفا كمى القفطان وقد تجاوز الأصابع؛ وهذا الثوب أقصر قليلاً من الأمام عنه من خلف، وهو مصنوع من القماش الأحمر أو الأزرق أو الرمادى؛ ثم يلبس فوق الجبة ثوب فضفاض يصنع عادة من الوبر، ويزين أحياناً بالفراء، وهو الفراجية. أما غطاء الرأس فيتكون من طاقية صغيرة من القطن وطربوش أحمر وقطعة طويلة من الشاش (الموسلين) تستدير حول الرأس. وأما الحذاء فمن الجلد المراكشى الأحمر

وجمال الثياب وعددها يخلع على لابسها فى الشرق العظمة ويبعث على احترامه ويقول المثل الفارسى «قربت بلباس» ويفسره تافرنيه Tavernier بقوله: بمقدار ما تتجمل فى ثيابك، تقابل بالاجلال، وتنال الحظوة فى القصر والقربى لدى العظماء. أما فى مصر فهاك ما جاء من ذلك فى كتاب «وصف مصر» Descriptian de L' Egypte: كلما كدس الناس من الثياب على أجسامهم ضاعفوا الاحترام والتقدير الذي يبغونه لأنفسهم»؛ فليس يبدو غريباً إذن أن يعنى الشرقيون بأن تكون ثيابهم نظيفة طيبة الرائحة، وقد جاء فى الأغانى عبارة: «ملاءة مطيبة» كما نقرأ فى تاريخ مصر للنويرى أنه وجد فى ذخائر أحد العظماء لبنة من العنبر على قدر جسده، برسم ثيابه، توضع ثيابه عليها لتكتسب رائحتها. وورد فى «ألف ليلة وليلة» هذا البيت من الشعر:

وتميس بين مزعفر ومعصفر ومعنبر وممسك ومصندل

كما وردت فيه أيضاً هذه الفقرة: «لبست تلك البدلة الفاخرة وكانت مطيبة» وفى موضع آخر منه: «فقعدت تبخره فطارت شرارة فأحرقت طرفه». ويقول بوركهارت Burekhardt عن وهابيى نجد أنهم يعنون بتطييب الكوفية بأنواع من الطيوب ويخص الأردان بالتطييب، ففى قصيدة للمتنبى يقول:

أتت زائراً ما خامر الطيب ثوبها وكالمسك من أردانها يتضوع

أما عادة منح الثياب للدلالة على التقدير فعادة شرقية قديمة؛ ومع ذلك يقول المقريزى: إن أول من استعملها هو هرون الرشيد حينما خلع على نديمه جعفر بن يحيى البرمكى. ويسمى ثوب الشرف هذا خلعة، ثم سمى بعد هذا تشريفا. ثم لما تغلغلت هذه العادة أصبحت من القوة بحيث كان الأمير يخلع الرداء الذى يرتديه، فيلبسه الشخص الذى هو موضع تكريمه أو أجازته. ولكن يظهر أن الأمراء لم يكونوا بعد ذلك يهبون من الثياب إلا مما هو مودع فى خزائن ثيابهم، أو ما كان جديداً كل الجدة؛ ولكنه كان من دلائل الشرف دائماً أن يلبس الرجل ثياباً كان الأمير يلبسها من قبل؛ ولم يفت المؤرخين أن يشيروا إلى ذلك، فما يحكى النويرى هذه العبارة: «أنعم على الأمير سيف الدين بشربوش كان قد لبسه»

أما حين يراد معرفة أنواع الثياب التى تتألف منها الخلعة أو التشريف، فقد أشرفنا على مسألة شديدة الصعوبة؛ وإن يكن يخيل إلى أن الأمر كان يرجع، فى حكم بعض الأسر، إلى اختيار الأمير المطلق؛ ومع هذا، فإذا كان فيرس Veijers يحسب أن الخلعة كانت تتكون غالباً، أو مطلقاً، من القباء وحده، فإنى أرى لزاماً على أن أدل هنا على أن هذا رأى خاطىء الأساس. وإذا

كان صحيحاً أن ثوب الشرف كان يتكون ، فى حكم حسن باشا لليمن ، من القباء ، فإن الأمر لم يكن كذلك فى بغداد ومصر مثلا ، فقد كانت الخلعة أو التشريف تتكون من ثياب مختلفة غير ذلك . فالنويري يذكر لنا أن الخلعة التى وهبها خليفة بغداد للملك الناصر داود كانت تتكون من قباء حريرى وشربوش ، كما يحكى فى موضع آخر أن الخلعة التى أعطاها الخليفة العباسى المعتصم بالله كانت تتكون من عمامة سوداء وفراجية موشاة بالذهب . ونقرأ فيا بعد ذلك أن ثوب الشرف الذى منحه الخليفة كان يتألف من عمامة من الحرير الأسود المطرز بالذهب ودراعة . أما الخلعة التى كانت تعطى للوزير فى مصر فكانت تتألف من جبة وفراجية وطرحة . وكذلك كان التشريف يتكون من ثياب مختلفة . وأخيراً تدلنا عبارة أخرى للنويرى على أن ثياب الشرف كانت تختلف فى القماش الذى صنعت منه ، والقطع التى تتألف منها حسب مرتبة من تقدم إليه ، أو حسب الخدمات التى أداها للأمير

وكان الأمير فى كثير من الأحوال ، يقدم إلى جانب الخلعة خنجراً وحصاناً وأشياء أخرى . كما أنا كثيراً ماتقرأ عن خلعة كاملة وتشريف كامل

وكانت ثياب الشرف التى يهبها الخلفاء العباسيون تكاد تكون دائماً سوداء

ولم تكن الغاية من الثياب منحصرة لسوء الحظ ، فى الزينة بل كان شيطان البغض والانتقام يستعملها فى انتزاع الحياة بطريقة دنيئة . ومن المعروف عند الغربيين أن الثياب كانت تستعمل فى القرون الوسطى لهذه الغاية . ويكفى قليل من الأمثلة المأخوذة من التاريخ الإسلامى لإثبات أن هذا الأسلوب من الانتقام الدنئ لم يكن مجهولاً فى الشرق . والنويرى يقص علينا أن السلطان الأيوبى ، الملك المعظم ، أضمر سخطاً شديداً على قاضى القضاة لأنه أقنع أخت صلاح الدين والملك العادل ست الشام بنت أيوب أن توقف أموالها على بعض المؤسسات الدينية ، فخيبت حماسة القاضى الدينية آماله . ولقد حاول الأمير عبثاً أن يجد حجة يستطيع أن ينتقم بها من القاضى ، ثم لما وجد أخيراً هذه التعلة أرسل إليه وهو فى مجلس حكمه ، وحوله جماعة كثيرة من العدول والمتحاكمين ، فلما جاءه الرسول قال له : السلطان يسلم عليك ويقول لك : الخليفة ، سلم الله عليه ، إذا أراد أن يشرف أحداً من أصحابه خلع عليه من ملابسه ، ونحن نسلك طريقه ؛ وقد أرسل إليك من ملابسه ، وأمر أن تلبسه فى مجلسك هذا وأنت تحكم بين الناس ؛ وكان الملك المعظم أكثر مايلبس قباءاً أبيض وكلوتة صفراء . وفتح الرسول البقجة ، فلما نظر القاضى إلى ما فيها وجم . قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة فأخبرنى الرسول الذى أحضر هذه الخلعة والرسالة بذلك . قال وكان السلطان أمرنى أن ألبسه إياها بيدى إن امتنع أو توقف ، فأشرت عليه بلبسها وأعدت الرسالة عليه ، فأخذ القباء ووضعه على كتفه ، ووضع عمامته على الأرض ولبس الكلوتة الصفراء على رأسه ، ثم قام ودخل بيته ، ومرض إثر هذه الحادثة ورمى كبده ومات ؛ ويقال إن ذلك كان فى يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة وسبعمائة »

ويذكر بعض المؤرخين الأسبان أن ملك قشتاله الدون أنريك Eon Lnrique مات مسموماً لأن ملك غرناطة محمداً أهدى إليه حذاءاً مغموراً فى السم

وكانت الثياب السوداء تلبس قديماً للدلالة على الحداد ، سواء فى لبسها لذلك الرجال والنساء . ومن المعلوم أن زى العباسيين الأسود إنما انتحل حداداً لموت الامام إبراهيم بن محمد وكذلك جاءت هذه العبارة فى تاريخ مصر للنويرى : « شق القاهرة وهو لابس السوداء ، وأعلامه كذلك ، حزناً على الظاهر »

ولكن الرجال فى الأزمنة المتأخرة صاروا لا يلبسون ثياب الحداد ، إذ كانت تبدو كأنها دليل على عدم الصبر على ماقدر الله أما النساء فلا يزالون يلبسونها فى الشرق ، ولكن عند موت الزوج أو القريب الأدنى ، ولا يلبسونها فى موت من تقدم به العمر . وقد جاء فى معجم الأعلام الذى وضعه ابن الخطيب أن الشاعرة الشهيرة حفصة ، عشيقة أبى جعفر احمد بن سعيد ، الشاعر الشهير ووزير صاحب غرناطة ، لبست الحداد حين بلغها أن حبيبها قد قتل ، ولكن هذا من غير شك شذوذ من العادة العامة

ويكون الحداد بأن تصبغ المرأة بالنيلة قميصها وقناعها الذى تغطى به رأسها وتستر به وجهها ومنديلها صبغة زرقاء قاتمة أو قريبة من السواد . وتلبس النساء ثياب الحداد فترة الأيام السبعة أو الخمسة عشر أو الأربعين فى بعض الأحيان

أما فى الأندلس ، أثناء حكم الخلفاء الأمويين فكانت ثياب

أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ١٣ —

إن اللحن الذى جئت لأترنم به ظل مكفوفاً فى نفسى للآن

وتصرمت الأيام وأنا أشد أوتار قيثاري وأرخيها

لم يأن لى أن أبدأ فالكلمات لم تواتنى ، غير أن الرغبة الملحة تنزى فى قلبى

إن الكمّ لم يتفتح ، ولكن الريح تزف حواليه

لم أر وجهه ، ولم أسمع رنات صوته ؛ غير أنى استشعرت خطواته الرفيقة وهو يسير الهوينى أمام دارى

ومر اليوم الطويل وأنا أهيئ له مكاناً ، ولكنى لم أستطع أن أدعوه إلى دارى لأن سراجى كان هامداً

وها أنذا أعيش بالأمل فى لقياه ، ولكن اللقيا لم تحن

— ١٤ —

إن رغباتى كثيرة ، وفى صيحاتى الألم ؛ أفتردنى فى رفض قاس والرحمة منبثة فى أضعاف حياتى هنا وهناك ؟

وعلى مرّ الأيام جعلتنى أستأهل من آلائك العظيمة ما أنعمت به علىّ دون سؤال : هذه السماء والنور ، هذا الجسم والحياة والعقل

ثم نجيتنى من خطر الرغبة الجامحة

فى حين كنت أتباطأ فى فتور ؛ وفى حين آخر كنت أهب مسرعاً إلى الغاية ؛ ولكنك كنت تخفى نفسك عنى فى قسوة

وعلى مر الأيام جعلتنى أستأهل منك القبول المحض بعد طول رفضك إياى ، وأنت جنبتنى خطر التخاذل والرغبة المضطربة

— ١٥ —

أنا هنا لأردد لك الأناشيد ، ولأجلس فى زاوية من فنائك

لا عمل لى فى دنياك ، لحياتى الخاوية تتفجر عن ألحان لا غاية لها

وعند منتصف الليل ، حين تدق الساعة فى محرابك المظلم ، مؤذنة بصمت العبادة الرهيب ؛ مُرْنى ، يا إلهى ، أن أقف أمامك لأرتل أغانىّ

وبين نسمات الفجر ، وقيثارك الذهبية تصدح ، شرّفنى واطلب إلىّ أن أتقدم نحوك

— ١٦ —

لقد لبيتُ الدعوة إلى مهرجان الحياة ، فكانت حياتى سعيدة .

إن عينىّ تبصران ومسمعىّ تسمعان

وكان عملى فى هذا الحفل أن أعزف على قيثارى ، فبذلت غاية جهدى

والآن ، أسأل : ألم يأن لى أن أنطلق لأرى وجهك وأحييك فى صمت وهدوء

— ١٧ —

أنا أنتظر من أحب لألقى بنفسى بين ذراعيه . هذا هو عذرى حين أبطأت ، وهو ذنبى حين أهملتُ

لقد جاءوا جميعاً وبين أيديهم القانون ومواده ليوثقوا به قيدى فأفلت من قبضتهم لأنى أنتظر من أحب لألقى بنفسى بين ذراعيه

والناس يلوموننى ويرموننى بالغفلة ، ولا ريب فهم على حق

انفضت السوق ، وأنجز كل ذى عمل عمله ، وانصرف الذين جاءوا ينصحوننى وفيهم الغيظ والغضب ؛ وأنا أنتظر من أحب لألقى بنفسى بين ذراعيه

— ١٨ —

إن السحب تتكاثف فى السماء والدنيا تظلم ؛ آه ، يامن أحب ، لماذا تركتنى وحيداً فى هذا العراء ؟ عند الظهر فى ساعات العمل ،

الحداد بيضاء . إذ نقرأ فى تاريخ الأندلس للمقرى هذه العبارة : « عليهم الظهائر البيض شعار الحزن »

. ويلبس العرب ثياباً حمراء أو صفراء حينما يريدون الدلالة على الغضب . وقد جاء فى كتاب ألف ليلة وليلة هذه العبارة : « لبس بدلة الغضب وهى بدلة حمراء » ولكن هذه العادة ربما كانت عادة تركية

أما فى الغرب فكان اللون الأصفر هو الذى يدل على الغضب فقد لاحظ بيدودى سن أولون وويندوس Pidoude St. Olon et Windus أن ملوك مراكش كانوا إذا اعتزموا أن يسفكوا دماً لبسوا فى الغالب ثياباً صفراء

محمد طه الحاجرى

أندفع بين الزمر . والآن فهذا اليوم الظليل الهادىء هو لك يامن تعلق به أملي

فإذا لم تطلع عليّ لأجتلي النور من وجهك ، وتركتني وحيداً فكيف أقضي هذه الساعات الطويلة الممطرة

أنا أحدق في السماء المتجهمة ، وقلبي المضطرب يئن مع الرياح العاصفة

— ١٩ —

إذا لم تتحدث حديثك فاملأ قلبي من صمتك العميق وأحمله راضياً ؛ سأطمئن وأنتظر كالليل لتسهر كواكبه ورأسه مطأطأ في صبر

لا ريب فالصباح آت ليبدد الظلمات ، وسيتدفق صوتك في مجاريه الذهبية يخترق أطباق السماء ، وسيرفرف كلمك في جناحي لحن كأنه طيري الغرّيد ، وتتفتح أنغامك عن زهر في أنحاء حديقتي

— ٢٠ —

يا أسفا ! في اليوم أينعت زهرة اللوتس . كان عقلي مضطرباً فلم أحس بها ، وكانت سلتي فارغة ولكن الزهرة ظلت مكانها

الآن تملني حزن عميق ، فهببت من حلمي لأستروح نسمات عطرية تحملها رياح الجنوب

فبعثت هذه النسمات الحلوة في قلبي آلام الحنين ، وتراءت لي كأنها زفرات الصيف العاشق وهو يفتش عن نصفه الآخر

ما كنت أعلم أن هذه الزهرة على خطوات مني ، وأنها هي لي ، وأن هذه الحلاوة قد تفتحت في أعماق قلبي

— ٢١ —

لا بد أن أتناول غدائي على الشاطئ ، ومرت الساعات متباطئة على الشاطئ . فيا أسفي !

لقد تفتح الربيع عن زهراته وأوراقه الخضراء ، وأنا أضرب في الأرض منتظراً وعلى كتفي حمل من زهراتي الذابلة الذاوية

الأمواج تضطرب في صخب ، وعلى الشاطئ شجرات من الخوخ يانعة تعصف الريح بأوراقها الصفراء

لماذا تحدق في الفضاء ! أفلا تستشعر في الهواء هزات تحمل نغم لحن جاء في أضعافها من الشاطئ الآخر

— ٢٢ —

تحت ظلال شهر يوليه المطير ، تسير أنت في خطوات هادئة وفي صمت لا يشعر به الرقيب

واليوم أغمض الصباح جفنيه ، لا يعبأ بصفير الرياح الشرقية وهي تلح في ندائها ، وقد أسدل نقاب كثيف على وجه السماء الأزرق المتألق

وأمسكت الغابة عن ترديد لحنها ، وغلقت الأبواب ؛ وأنت... أنت يا عابر السبيل تضرب في الطريق الصحراوي وحيداً . أوه ، يا صديقي العزيز ، يا من أحب ، إن باب داري مفتوح على مصراعيه فلا تمر به كأنك حلم

— ٢٣ —

يا صديقي ، أأنت في العراء تتم رحلة الهوى في هذه الليلة العاصفة ؟ وإن السماء تئن كأنها مصدور ينفس عن نفسه

لقد أرقت الليلة ، يا صديقي وباب داري مفتوح فانظر إليه في هذا الظلام الدامس . أنا لا أرى — في هذا الظلام — شيئاً مما أمامي ، فلا أستطيع أن أجد الطريق إليك

عند شاطئ أي نهر مظلم قاتم ، لدى حافة أية غابة سوداء حالكة ، وفي ثنايا أي عمق معتم مضل ، جلست يا صديقي ، ترسم في نفسك الطريق إليّ

— ٢٤ —

إذا انطوى النهار ، وصمتت الطيور الغريدة ، وهدأت الرياح الزفزافة ؛ فانشر عليّ قناعاً صفيقاً من الظلمة كما نشرت على الأرض أستار النوم ، وكما لففت أوراق زهرة اللوتس الذابلة في غيابة الظلام

نحِّ عن السائح الذي نفد زاده ، وتمزقت ثيابه ، وتشعث واغبر ، وخارت قوته ، وانطفأت منته ، قبل أن يبلغ غايته ... نحِّ عنه الضنا والفقر ، وانفث فيه من روح الحياة ليكون كزهرة تلفعت برداء الليل الرفيق

— ٢٥ —

في الأمسية التي أكدّني فيها الجهد ، دعني أنم هادئاً وفي نفسي الإيمان بك

ولا تطلب إليّ أن أرهق نفسي المتعبة بعبادتك

فأنت الذي حسرت عن عيني النهار نقاب الظلام ليبدو فيهما النشاط والمرح من جديد بعد أن أضناها التعب والأسى

كامل محمود حبيب

أبو إسحاق الصابي

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

— ١ —

بعثني إلى الكتابة عن أبي إسحاق الصابي رغبة حافزة في أن أربط بينه وبين أبي الفرج الببغاء أديبين عقّ عليهما الدهر، ثم أراد لأدبهما بعثاً، كما ربطت بين روحيهما أواصر الأدب، فتعارفا متباعدين وتآلفا متقاربين، فقد قدّمنا أن الصلة بينهما كانت في الحياة وثيقة العرا محكمة الحلق، لم تشبها شائبة حفيظة، ولقد جعلني الحديث عن أبي الفرج على ذُكر متصل بأبي إسحاق لا يبرح أفق تفكيري ولا يحيد عنه، ولا يريم عن محيط ذهني ولا يقصو دونه. ولعلّ من أهم عوامل علوق اسمه بذاكرتي، ورسوخ شخصه في مخيلتي، أن حظّه في دنياه كان كحظ صنوه، بل إنه كان أسوأ من أخيه جداً وأنكد دهراً، وأتعس رجاء وأملاً، فكلما تقدم به الأجل وأشرق له الأمل أدركته حرفة الأدب، فتضاعف عليه الألم، لا يغني عنه ما أوتي من ألمعية نادرة، ولا يصرف صروف الدهر دونه ما وهب الله له من مواهب فياضة زاخرة، فغير الدهر تنصب عليه انصباباً، ونوبه تتقاذفه تقاذفاً، وأحداث الزمان تتعاوره كهلاً ألمّ به الشيب، وخطوبه تتناوبه شيخاً بما لا يقوى عليه الفتى الصليب. وهكذا دواليك: غمرات تترى، ونكبات تتوالى، ولا يجد على تعاقب الليالي إلا ضنا، وتسومه الأيام بكرها خسفاً وظلماً؛ حتى أنشد وأنشد وتمنى، فكانت المنية هي أصدق المنى، فلله هو إذ يقول:

إذا لم يكن للمرء بدّ من الردى ... فأسهله ما جاء والعيش أنكد

وأصعبه ما جاء والعيش رائع ... تطيف به اللذات والعيش مسعد

فإن أكُ شر العيشتين أعيشها ... فإني إلى خير المماتين أقصد

وسيان يوما شقوة وسعادة ... إذا كان غِبا واحداً لهما الغد

وما زال هذا شأنه لا يحول حاله إلا إلى سوء، وذلك ديدنه لا يتغير أمره إلا إلى غِيَر، وهو يندب جده آناً وآناً، ويشكو بؤسه حيناً وحيناً، فلا يجد لشكواه سكينة أو أوناً، ولا يعرف إلى الحُسْنَيين مهيعاً أو سبيلاً؛ حتى صار ملجأ أمراض وأسقام، ومحط أوصاب وآلام. وها هو ذا يشكو زمانته، وآثار الهرم في كيانه وحاجته إلى محفة يتخذها بدل قدميه اللتين نأتا بحمله، وشاركتا الدهر في استثقال ظله، وقد بعث بقصيدته تلك إلى الشريف الرضي، وقد كان يشفق عليه ويرحمه، ويأسو كلومه ويرأمه، قال منها:

إذا ما تعدت بي وسارت محفة ... لها أرجل يسعى بها رجلان

وما كنت من فرسانها غير أنها ... وفت لي لما خانت القدمان

نزلتُ إليها عن سراة حصان ... بحكم مشيبي أو فراش حصان

فقد حلت مني ابن تسعين سالكا ... سبيلاً عليها يسلك الثقلان

كما حمل المهدُ الصبيّ وقبلها ... ذعرت ليوث الغيل بالنزوان

فجاءت مواساة الشريف له سخية وفية، وعطفه براً سابغاً ضافياً، فقد لأم جروحه بقصيدة تفيض بالعطف أشطارها وتفعم بالود أبياتها منها:

لئن رام قبضاً من بنانك حادث ... لقد عاضنا منك انبساط جنان

وإن بُزَّ من ذاك الجناح مطاره ... فرب مقال منك ذي طيران

وإن أقعدتك النائبات فطالما ... سرى مو قراً من مجدك الملوان

وإن هدمت منك الخطوب بمرها ... فثم لسان للمناقب بان

مآثر تبقى ما رأى الشمس ناظر ... وما سمعت من سامع أذنان

من هذه الأبيات ندرك تعاسته وبؤسه، ونتبين آلامه وأسقامه، وما زال يغالب الزمان ويجالد الحدثان حتى أراد الله له الدعة التي طالما تمناها، وآتاه الطلبة التي كثيراً ما طلبها فعزت عليه. وافاه أجله وقد جاوز التسعين سنة حلب فيها الدهر أشطره فذاق شره مترعاً وقلما طعم خيره، وشرب كئوس البؤس دهاقاً، ولمّا ما ألمّ بالنعيم، ولقد كان في فتوته أسعد حالاً منه في كهولته وعاش في شبيبته أنعم بالاً منه في شيخوخته، وإليك حديثه عن ذلك في خيال صاف وديباجة مطرزة:

عجباً لحظي إذ أراه مصالحي ... عصر الشباب وفي المشيب مناضبي

أمن النوانى كان؟ حتى ملني ... شيخاً، وكان على صباي مصاحبي

أمع التضعضع ملني متجنبا؟ ... ومع الترعرع كان غير مجانبي

يا ليت صبوته إليّ تأخرت ... حتى تكون ذخيرة لمواقبي

وبعد تلك الالمامة بحاله نتحدث عن نشأته وحياته: روى ياقوت في معجمه أن أبا إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون ولد

بحَرَّان سنة ثلاث عشرة وثلثمائة هجرية ، وأدركته منيته لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر شوال لسنة أربع وثمانين وثلثمائة؛ فسنه على هذه الرواية إحدى وسبعون سنة ، وهو يقول فى تعزيز روايته تلك : (وذكر أبو منصور الثعالبى فى كتابه « يعنى كتاب يتيمة الدهر » أنه بلغ من العمر تسعين سنة والذى أوردته من تاريخ حفيده ، وهو به أعلم) ويقصد بحفيده أبا الحسين هلالا بن المحسن بن ابراهيم الصابى ، ويُعقِّب الأستاذ شارح معجم الأدباء على ياقوت فيقول : (إنما قال الثعالبي إنه خنق التسعين أى قاربها)[1] والحق أن الثعالبي ذكر سن أبى إسحاق في موضعين فقال فى صدر الحديث عنه ، وهو بصدد التعريف به (وكان قد خنق التسعين فى خدمة الخلفاء وخلافة الوزراء) ثم قال فى نهاية الفصل الذى كتبه عنه تحت عنوان وفاته (توفى فى يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة من شوال سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، وكانت سنوه إحدى وتسعين سنة قمرية)

وإنى إلى تحقيق الثعالبي أمْيَل لوجوه أعدد منها :

أولا : يكاد أبو منصور الثعالبي يعتبر معاصراً لأبى إسحاق الصابى ، فقد توفى أبو منصور عقبه بنحو خمس وأربعين سنة ، وهو أمد قصير في أعمار التاريخ والمؤرخين

ثانياً : السن التى ذكرها صاحب اليتيمة وردت فى قصيدة لأبى إسحاق إذ يقول :

فقد حلت مني ابن تسعين سالكا سبيلا عليها يسلك الثقلان

وقد كان إنشاء هذه القصيدة قبل وفاته بنحو أربعة أشهر

ثالثاً : قد يكون حفيد أبى اسحاق صادراً فى حديثه عن غير تروّ وتدبر للحقيقة ، لأنه حديث يسمع وينسى لا كما يصدر حديث عن مؤلف يتحرى الصدق ويلتزم جادة الدقة ؛ لأنه خبر يخلد ويبقى

رابعاً : سن السبعين لا توهي جلداً ولا توهن عظماً ، وإن كان صاحبها متراحمة عليه النائبات مولعة به النكبات إلا فى القليل النادر

وسواء أكان موته عن إحدى وتسعين أم عن إحدى وسبعين فقد خلف فى الأدب أخلد الأثر ، وضرب فى النبل والوفاء أصدق المثل ، فلقد ولد ومات على دين الصابئة ، والصابئون كما يقول الامام الكبير الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ... الخ الآية) : (قوم يعبدون الكواكب ثم لهم قولان : الأول إن خالق العالم هو الله سبحانه ، إلا أنه سبحانه أمر بتعظيم هذه الكواكب واتخاذها قبلة للصلاة والدعاء والتعظيم . والثانى : إن الله سبحانه خلق الأفلاك والكواكب ، ثم إن الكواكب هى المدبرة لما فى هذا العالم من الخير والشر والصحة والمرض ، والخالقة لها ، فيجب على البشر تعظيمها لأنها هي الآلهة المدبرة لهذا العالم ، ثم إنها تعبد الله سبحانه)

على هذا الدين ولد أبو إسحاق وعليه مات فى عصر الاسلامُ فيه مزدهر والكلمة العليا له ، والمكانة المكينة فى العالم لرجاله ، ولا فضل لمن لم يوله قلبه ، ويهب له نفسه ، وإن بقاءه على صابئته — على الرغم مما يحوطه ليدل أعظم الدلالة على أن الإسلام دين سمح ، أساسه العفو والأمر بالعرف ، والإعراض عن المشركين دون أن يصيبهم أذى ، أو ينالهم حيف ، أو تحل بهم نقمة مخلوق ؛ لأنه دين العقل والحجة والمنطق والموعظة الحسنة ، ولو لا تسامح ذلك الدين القويم ما وجد مثل الصابئ كنفاً يلجأ إليه أو وزراً يحميه ، فكيف وقد عاشر الخلفاء والأمراء والملوك والوزراء ؟ وكذلك عاش أمثاله فى رغد ورفهية ؛ عاشوا موفورى الكرامة مرفوعى الرءوس مجدودى الحياة ؛ ولقد بُصِّر أبو إسحاق بالدين الإسلامى ورُغِّب فى الاسلام وأُلِّف قلبه ، وأجزل له من أجل ذلك ، فلم يهد الله قلبه للإيمان ؛ لأنا لا نهدى من نحب ، ولكن الله يهدى من يشاء ؛ لذلك لم يصخ بسمعه إلى دعوة اليقين والداعون إليها هم سادته ومواليه وأرباب نعمته ومالكو زمام أمره إن شاءوا رفعوه وأعزوه ، وإن أرادوا وضعوه وأذلوه . ولقد حدث التاريخ أن عز الدولة بختيار عرض عليه الوزارة على أن يسلم ، فأباها مفضلاً أن يبقى على دين آبائه الغابرين ؛ وإن وفاءه لملته ، وإخلاصه لنحلته لمصدر عجب لمن أراد العجب ؛ إذ لم يعرف عنه أنه ارتكب أمراً حرم عليه ، ولا جاء وزراً نهى عنه شرعه . ويروى المؤرخون أنه حضر مائدة للوزير المهلبي بن أبي صفرة ، وكان أبو إسحاق من خلانه الأدنين وخلصائه المصطفين ، فامتنع عن لون من ألوان الطعام محرم لدى الصابئة ، فقال له المهلبى : لا تبرد وكل معنا من هذه الباقلاء . فقال : أيها الوزير لا أريد أن أعصى الله فى مأكول ، فكان موفقاً في إجابته مسدداً فى مُحاجته . وروي أن عز الدولة بختيار بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول

(١) الجزء الثانى من المعجم الطبعة الأخيرة ص ٢٦

وهو مما يحرم أكله أيضاً في دينه ، فرفضها متعففاً وهو الفقير إليها فأين منه أولئك الذين لا يتناهون عن منكرات يجترمونها ، ولا يتعففون عن محرمات يجترحونها غير مبالين ما ينتظرهم من حساب شديد وعذاب أليم ؟ وآية نبله أنه مع تعصبه هذا وتشدده وتزمته في دينه كان جميل العشرة للمسلمين صادق الإخاء كريم الصنيع حسن المعونة ، فكان يصوم رمضان لا تحتماً بل تجملاً ، ويحفظ القرآن الكريم إجلالا له وعرفاناً بخطره ؛ لأنه رأى فيه مهبط الحكمة ومصدر البلاغة ، ومشرع اللسن والفصاحة ، فظهر أثر ذلك على أسلة يراعه ، وجرى على عذبة لسانه . وإليك ما يقوله أبو منصور الثعالبي في يتيمته عنه في تلك الناحية من خلقه وأدبه : « كان يعاشر المسلمين أحسن عشرة ، ويخدم الأكابر أرفع خدمة ، ويساعدهم على صيام شهر رمضان ، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلمه ، وبرهان ذلك ما أوردته في كتاب الاقتباس من فصوله التي أحسن فيها كل الإحسان وحلاها بآي من القرآن)

ومن آيات وفائه ونبله أنه كان صديقاً ودوداً للشريف الرضى حتى اتهم بأنه يدعو له بالخلافة ، ويتمنى أن ينال مطمحه ويدرك مآربه ، وهو لم ينف ذلك عن نفسه ، بل إنه جهر به في قصيدة بعث بها إلى الشريف ، وهو لابد عالم بوقعها في نفوس أعدائه وحاسديه ، ولكنه لم يعبأ بما قد يصيبه بسببها ، لأنه أسير وجدانه ، وينطق إذ ينطق عن شعوره وإحساسه ، وما عليه إذ يرضيهما من بأس ، وهذا بعض ما قاله فيها :

أبا حسن لى في الرجال فراسة ... تعودتُ منها أن تقول فتصدقا
وقد خبّرتني عنك أنك ماجد ... سترقي من العلياء أبعد مرتقى
فوفّيتك التعظيم قبل أوانه ... وقلت أطال الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها ... إلى أن أرى إطلاقها لى مطلقا
فإن عشت أو إن مت فاذكر بشارتى ... وأوجبْ بها حقاً عليك محققاً
وكن لى في الأولاد والأهل حافظاً ... إذا ما اطمأن الجنب في موضع البقا

ولقد كان مع هذا محببا إلى الخلفاء والوزراء ، كلهم يطلب يده ويبتغي أن يقصر خدمته عليه دون غيره ، فمنهم من كان يسلك إلى إربته طريق البذل والرفد ، ومنهم من كان يطرق سبيل العقوبة والحقد ، فعاش محسداً إن رضى عنه وزير غضب عليه آخر ، وإن صفا له أمير جفاه خليفة . وممن اصطفاه ولم يجتوه وأحبه ولم يجفه الصاحب بن عباد ، ولعل الأدب هو الذى قرب بين نفسيهما وألف بين روحيهما ، فلم تقع بينهما نبوة ، ولا لحق صداقتهما جفوة ، فكثيراً ما بثه شكواه ، واستمطر غيثه وكان موضع نجواه ، ولقد كان أول أمره يأنف أن يتصل بالصاحب مادحا أو أن يطلب صلته ما نحا ؛ حتى استوزر الصاحب فنزل عن أنفته وقنع من مطاولته بمصاحبته ، وكان الصاحب يعجب به أشد الإعجاب ، ويراه أحد أفذاذ الأدب ، فقد حدّث عنه أنه كان يقول: « كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو إسحاق الصابى ولو شئت لذكرت الرابع » وكان يعنى بالرابع نفسه . ويقول الثعالبي « وأما الترجيح بين هذين الصدرين أعنى الصاحب والصابى في الكتابة فقد خاض فيه الخائضون ، وأخب فيه المخبون ، ومن أشف ما سمعته في ذلك أن الصاحب كان يكتب كما يريد ، وأبو إسحاق كان يكتب كما يؤمر ، وبين الحالين بون بعيد» وأحسب أنه يقصد تفضيل الصابى لأن الذى يستطيع أن يكتب ما يراد منه ويؤمر به لا شك مستطيع أن يكتب ما يريده هو ، وعلى هذا فقد برع في الناحيتين وفاق صاحبه فيما قصر فيه ، وإلى أمد قاصد نكمل عنه الحديث متناولين جزءاً آخر من تاريخه الأدبى

عبد العظيم على قناوى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٦ —

« لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر : يا أنا ... ومن هذه الناحية كان أعنف بين الحبيبين — حين يقع — أعنف ما في الخصومة ، إذ هو تقاتل روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة . وأكبر خصيمين في عالم النفس (هما) متحابان تباغضا ... » (الرافعي)

السحاب الأحمر

ترى ماذا كتبت إليه صاحبته بعد ما قرأت رسائل الأحزان فأثارت نفسه بعد هدأتها وردته من الغيظ والحنق إلى أن يقول : « يا هذه لا أدرى ما تقولين ؛ ولكن الحقيقة التي أعرفها : أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها في حاجة إلى أن يغسل بالماء والصابون وهيهات .. ! » ويقول : « يجب على المدارس حين تعلم الفتاة كيف تتكلم أن تعلمها أيضاً كيف تسكت عن بعض كلامها » ؟

من لي بأن أعرف ما كان وقع رسائل الأحزان في نفسها وما ردت به ؟

إنه يتحدث في السحاب الأحمر عن التهمة والظنون ، والكلام الذي لا يغسله الماء والصابون ، والنجمة الهاوية ، وخداع النظر في الحب ، وفساد الرأى في الهوى ، وطيش القلب في الاستسلام ، ثم ... ثم يحاول أن يعتذر ... !

هنا الحلقة المفقودة في تاريخ هذا الحب ، فلست أدعى المعرفة ؛ ولقد كنت مع الرافعي مرة في مكتبه وبيننا السحاب الأحمر يقرأ لي بعض فصوله ، فأشرت إليه عند فقرة من الكلام ليجيبني عن سؤال يكشف عن شيء من خبرها ومن خبره ؛ فوضع الكتاب إلى جانبه وحدق في طويلاً ثم سكت ، وسبحت خواطره إلى عالم بعيد ، وراحت أصابعه تعبث بما على المكتب من أشيائه ، ثم قال : « أرأيت القلم الذي تراءى لي السحاب الأحمر في نصابه بين عيني والمصباح ... ؟ » ثم دس يده في درج المكتب فأخرجه ودفعه إلي وهو يقول : « ضع النصاب بين عينيك والمصباح وانظر . ألست ترى سحاباً يترقرق بالدم كأن قلباً جريحاً ينزف ؟ في شعاعة هذا النور تراءت لي هذه الخواطر التي تقرؤها في السحاب الأحمر ... » ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال ...

* * *

أحسب أن الرافعي حين أنشأ السحاب الأحمر كان في حالة عصبية قلقة لست أعرف مأتاها ومردها ، ولكن فصول الكتاب تتحدث عن خبرها في شيء من الغموض والإبهام

لقد أنشأ الرافعي رسائل الأحزان ليكون رسالة إليها يتحدث فيها عن حبه وآلامه ؛ ولست أشك أن صاحبته حين تأدت إليها رسائله قد فهمت ما يعنيه وعرفت ذات صدره ، وأحسبها — وهي الأديبة الشاعرة — قد سرها أن تكون هي فلك الوحي لما في رسائل الأحزان من كل معنى جميل . أفتراها قد بدا لها أن تهيجه بالدلال والإغراء وقسوة العتب وتصنع الغضب لتفتنه وتزيده وحياً وشعراً وحكمة ... ؟

إن كانت هذه رسالتها إليه فما أراها قد بلغت بها إلا أن هاجت كبرياءه ، وأثارت نفسه ، فكتب كتابه ولكن لغير ما أرادت وما قصدت إليه ...

* * *

يقوم السحاب الأحمر على سبب واحد ، يدور حول فلسفة البغض ، وطيش الحب ، ولؤم المرأة ... !

على أن كل ما فيه لا يشير إلا لمعنى واحد : هو أن قلباً وقع في أسر الحب يحاول الفكاك فلا يستطيعه ؛ فما يملك إلا أن يصيح بملء ما فيه : إنني أبغضك أيتها ... أيتها المحبوبة !

وكما يفزع الشخص إذا حزبه أمره إلى أصدقائه يستعينهم ويستلهمهم الرأى في بلواه ، كذلك فزع الرافعي في السحاب الأحمر ، ولكن إلى أصدقاء من غير عالمه يستعينهم على أمره ؛ فهذا صديقه الشيخ علي صاحب المساكين ، وهذا صفيه وصاحب نشأته الشيخ أحمد الرافعي ؛ وذلك أستاذه ومثله العالي

فى دينه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ؛ وهذه أم ضل ولداها الحبيبان ، وتلك زوج يفارقها زوجها الحبيب إلى السجن ؛ وهذا ، وهذه ، وتلك ، يحدثونه جميعاً حديثهم عن الحب فى رأى العين ، وفى رأى القلب ، وفى رأى العقل ، ويحدثهم حديثه ... فما تلمح من أحاديث هؤلاء جميعاً إلا أن الرافعى فى جهاد عنيف بين قلبه وعقله ، يريد أن يثبت الغلبة لعقله على هواه ليخرج من أسر صاحبته برأيه وفكره وكبريائه ، ثم لاتكون الغلبة فى النهاية إلا للحب على رأيه وفكره وكبريائه

على أن كتاب السحاب الأحمر ليس كله خالصاً لصاحبته وإن يكن من وحيها ؛ ذلك أن نسقه العجيب ، ومحاولة الرافعى به أن ينصرف عنها ، قد شرع له فى الكتاب مسالكَ من القول لم تكن مما يقتضيه ما بينه وبين صاحبته

* * *

فى الفصل الأول من السحاب الأحمر ، يتحدث الرافعى عن فتاة « عرفها قديماً فى ربوة من لبنان ، ينتهى الوصف إلى جمالها ثم يقف ! » وهو يعنى صاحبته التى أملت عليه «حديث القمر» وإنك لتقرأ حديثه عنها ، ووصفه لها ، وما كان من أثرها فى نفسه ؛ فتسأل نفسك : أى شئ ردَّه إلى هذه الذكرى البعيدة فأيقظها فى نفسه بعد اثنتى عشرة سنة محا الزمان بها فى قلبه وأثبت ؟ فلا تلبث أن تجد الجواب فى الأسطر الأخيرة من هذا الفصل :

« إن من النساء ما يُفهَم ثم يعلو فى معانيه الجميلة إلى أن يمتنع ، ومن النساء ما يُفهَم ثم يَسفل فى معانيه الخسيسة إلى أن يبتذل ...

« إن من المرأة ما يُحَبّ إلى أن يلتحق بالإيمان ، ومن المرأة ما يُكرَه إلى أن يلتحق بالكفر ...

« من المرأة حلو لذيذ يؤكل منه بلا شبع ، ومن المرأة مُرٌّ كريه يشبع منه بلا أكل ... ! »

أتراه بهذا يوازن بين واحدة وواحدة ، ليقول لهذه : إن تلك كانت خيراً منك ؟ وهل تحسبه كان يعتقد ذلك ؟ أما أنا فأعرف من أخلاق الرافعى أن هذا معنى لم يكن يعنيه ، ولكنها مساومة فى الحب يريد بها أن يهيج غيرة صاحبته ليردَّها إليه ، أو أنه أراد أن ينقذ كبرياءه فيزعم لصاحبته أنه لم يكن يعنيها برسائل الأحزان ، لأن هنالك أخرى ...

* * *

وتقرأ « النجمة الهاوية » فى الفصل الثانى ، فتسمعه يقول : « تمَّ آمالُنا حين لا نؤمّل ! » فما تشك أن هنالك رسالة إليها ، رسالة يملها الحب المغيظ المحنق ، يحاول فيها أن يوهمها أنها لم تعد شيئاً فى نفسه ، وأنه قد تمت آماله واستراحت نفسه فليس له فيها أمل ولا يتعلق بها رجاء ؛ ثم يستطرد فى معانى البغض والهجر والقطيعة بأسلوب قاسٍ عنيف ، ولكن قلبه العاشق المفتون ينبض فى كلماته ؛ فما ينتهى الفصل حتى يستعلن حبه من وراء كلمات البغض وهو يقول : « أشأم النساء على نفسها من لا تُحِب ولا تُبغِض ، وأشأمهن على الناس من إذا عدَّت مبغضيها لا تَعُد إلا الذين أحبوها ... ! » وإننى لأعرف الرافعى وأستمع إلى همسات قلبه ، فهل ترى ترجمة هذه العبارة إلا أنه يقول : « إننى أحبك يا أشأم النساء ! » ؟

اقرأ فى آخر هذا الفصل الصاخب قوله :

يامن على الحب ينسانا ونذكره   لسوف تذكرنا يوماً وننساكا
إن الظلام الذى يجلوك يا قمرٌ   له صباح متى تدركه أخفاكا

* * *

ويتحدث فى الفصل الثالث عن السجين تحمله عربة السجناء إلى قضائه ، وزوجته التى تحبه تشيعه بنظراتها الجازعة ؛ فتعرف من وصفه لساعة الفراق بين الزوجين الحبيبين ، أىّ خاطرة فى الحب ألهمته هذا الفصل البديع ، وكأنك تسمع الرافعى يتحدث فيه عن نفسه مما فعل به الفراق : « ما الفراق إلا أن تشعر الأرواح المفارقة أحبتَها بمسّ الفناء لأن أرواحاً أخرى فارقتها ؛ ففي الموت يُمسّ وجودُنا ليتحطم ، وفى الفراق يُمسُّ ليلتوى ؛ وكأن الذى يقبض الروح فى كفه حين موتها ، هو الذى يلمسها عند الفراق بأطراف أصابعه !

« وإنما الحبيب وجود حبيبه لأن فيه عواطفه ؛ فعند الفراق تنتزع قطعة من وجودنا فنرجع باكين ونجلس فى كل مكان محزونين كأن فى القلوب معنى من المناحة على معنى من الموت ..

« ... ترى العمر يتسلل يوماً فيوماً ولا نشعر به ، ولكن متى

فارقنا من نحبهم نبه القلب فينا بغتة معنى الزمن الراحل ، فكان من الفراق على نفوسنا انفجار كتطاير عدة سنين من الحياة ... »

* * *

ويتحدث فى الفصلين الرابع والخامس عن تجارة الحب[1] ، وعن المنافق ، فتلمح من وراء حديثه معنى لا يريد أن يفصح عنه ، وإنه لبسبب مما كان بينه وبين صاحبته ؛ أفتراه يشير به إلى شىء من أسباب القطيعة ؟

وفى الفصل السادس يتحدث عن حب الأم فى قصة والدة ضل ولداها الصغيران ثم اهتدت إليهما :

« الحب ! ما الحب إلا لهفة تهدر هديرها فى الدم ، وما خلقت لهفة الحب أول ما خلقت إلا فى قلب الأم على طفلها ... حب الأم فى التسمية كالشجرة : تغرس من عود ضعيف ، ثم لا تزال بها الفصول وآثارها ، ولا تزال تتمكن بجذورها وتمتد بفروعها حتى تكتمل شجرة بعد أن تفنى عداد أوراقها ليالى وأياماً . وحب العاشقين كالثمرة : ما أسرع ما تنبت ، وما أسرع ما تنضج ، وما أسرع ما تقطف ؛ ولكنها تنسى الشفاه التى تذوقها ذلك التاريخ الطويل من عمل الأرض والشمس والماء فى الشجرة القائمة

« لا لذة فى الشجرة ولكنها مع ذلك هى الباقية وهى المنتجة ، ولا بقاء للثمرة ولكنها على ذلك هى الحلوة وهى اللذيذة وهى المنفردة باسمها

« وهكذا الرجل أغواه الشيطان فى السماء بثمرة فنسى الله حيناً ، ويغويه الحب فى الأرض بثمرة أخرى فينسى معها الأم أحياناً ! »

* * *

وتراه فى الفصول الثلاثة الباقية كأنما يحاول أن يروض نفسه على السلوان ، ويقنعها بأن الحب ليس هو رجولة الرجل ، وليس هو إنسانية الانسان ، وليس هو كل مافى الحياة من لذة ومتاع ، فى كلام يجريه على ألسنة شيوخه وأصدقائه : الشيخ على ، والشيخ أحمد ، والشيخ محمد عبده ؛ يحاورهم ويحاورونه ، فتستمع فى هذا الحوار إلى النجوى بينه وبين نفسه ، وإلى الصراع بين عقله وهواه

إن الرافعى بكبريائه وخلقه ودينه واعتداده بنفسه ، لم يُخلق للحب ! ولكنه أحب ؛ فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام ، وصراعاً دائماً بين طبيعته التى هو بها هو ، وفطرته التى هو بها إنسان . وإنك لتلمح هذا الصراع الدائم فى كل فصل من فصول السحاب الأحمر

* * *

وفى كتاب السحاب الأحمر ، تقرأ رأى الرافعى فى القضاء والقدر ؛ وإنه ليشعرك برأيه ذلك مقدار ما فعل به الحب وما فلّ من إرادته ، فتراه يؤمن بأن الإنسان فى دنياه ليس له كسبٌ ولا اختيار فيما يعمل ، ولكنه قضاء مقدور عليه منذ الأزل لا طاقة له على الفكاك منه ؛ وإنه على ذلك لموقن بأن لله حكمة فيما قضى وقدر وإن دقت حكمته على الأفهام :

« ألا يا ماء البحر ، ما أنت على أرض من الملح ؛ فماذا أصبحت زُعاقاً لا تحلو ولا تُساغ ولا تُشرب ؟ إنك لست على أرض من الملح ولكنك يا ماء البحر ذابت فيك الحكمة المِلْحة ... ! »[1]

* * *

قلت فى مقالى السابق : إن رسائل الأحزان عند أكثر قراء العربية هو شىء من البيان المصنوع تكلّفه كاتبه ليحاول به أن يستحدث فنًّا فى العربية لم يوفق إلى تجويده ... لأنه بقية قصة لم تنشر معه — هى قصة غرام الرافعى — فجاء كما تأكل النار كتاباً من عيون الكتب فما تبقى منه إلا على الهامش والتعليق وصلبُ الكتاب رماد فى بقايا النار

أما السحاب الأحمر فهو كتاب كامل . احذف منه فصلا أوفصلين فى أوله ، وشيئاً من فضول القول فى سائره ، تجد فناً فى العربية لا يقدر عليه إلا الرافعى ، فجرِّدْهُ من قصته أو انسبه إليها فانك واجد فيه أدباً يستحق الخلود ، وبياناً يزهى على البيان ، وشعراً وحكمة ما زال الأدباء يدورون عليها حتى وجدوها فى أدب الرافعى

* * *

فى رسائل الأحزان أراد الرافعى أن تعرف صاحبته من حاله ومن خبره ما أراد ، فأغراها بالترفع والدلال عليه . وفى السحاب

---

(١) هذا الفصل فى السحاب الأحمر بعنوان « الربيطة » كتبه الرافعى عن صديق من خريجى جامعات أوربا ، هو الدكتور فلان ، وكان فى صدر شبابه — كأكثر واردات أوربا — زيغا فى الدين ، وزيغا فى الخلق ، وزيغا فى الرجولة ؛ على أنه الآن من أكثر المسلمين حمية لدينه وحفاظاً على تراث قومه ؛ وله مقالات فى الاسلام وفى الرد على بعض جهال المستشرقين تشفع له يوم الدين

(١) إلى الآنسة أ . ش : أن تقرأ هذه الفقرة من كلام الرافعى ؛ فان فيها الجواب عن بعض سؤالها ، وشفاها الله !

الأحمر حاول أن يشعرها أنه قد فرغ من أمرها وفرغت من أمره فما لها عنده إلا البغض والإهمال ، وما له عندها إلا الجفوة على ما كان من أيامه . أفتراه فى السحاب الأحمر قد بلغ ما أراد ؟

هيهات أن يخفى الهوى !

استمع إليه يحاول أن يهيج فيها الغيرة ويبعث اللهفة ويوقظ الحنين ويورّث البغضاء ويثير الندم ؛ فلا يكاد يبلغ آخر الرسالة حتى ينسى ما قصد إليه ليدع لقلبه أن يقول :

ويلى على متـدلـل ... ما تنقضى عنى فنونه
كيف السُّلُوُّ وفى فؤا ... دى لا تفارقنى عيونه ؟!

رحمك الله يا صديقى !

« شبرا » محمد سعيد العريان

(*) إلى (دمشق) : إن صاحبة الرافعى هى هى التى عرفت

فلسفة التربية

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٢ —

« الفلسفة بوجه عام هى المحاولة المتكررة للوصول إلى معرفة منظمة مفهومة لصور وعلاقة ومعنى وتحول الأشياء »

« بولزن Paulsen »

رأيت فى المقال السابق ذلك « التقدير النزيه » الذى تُقوّم به الفلسفة عملية التربية ، وتبينت إلى أى حد ترتفع التربية بذلك « التقدير » وتسمو على سائر التجارب الإنسانية . وأحب اليوم أن أنتقل بك إلى العلاقة بين الفلسفة والتربية ، وإلى فحوى فلسفة التربية لدى الإنجليز والأمريكيين على الخصوص ، تمهيداً للكلام على مسائل أخرى تختص بأغراض التربية ومنهجها ، وتطبيقات العلم والديمقراطية عليها

العلاقة بين الفلسفة والتربيـة قوية إلى أبعد حد . بل إن « جون ديوى » الفيلسوف الأمريكى الذى يحمل لواء التربية فى هذا العصر يذهب إلى القول بأن الفلسفة اليونانية — وهى أول فلسفة دقيقة معروفة — لم تنشأ إلا من ضغط مسائل التربية على عقول المفكرين . وإذن فلم يكن « الطبيعيون الأولون » عنده إلا فصلا فى تاريخ العلم ! أما السفسطائيون وسقراط ، فأولئك هم الذين اضطرتهم شئون التربية فى عهدهم إلى أن « يتفلسفوا » ! فكان لنا منهم كلام فى التربية تأدى بهم إلى كلام فى الفلسفة ! !

ومهما يكن من أمر هذه المبالغة الظاهرة فى كلام « ديوى » فلا شك أن التربية لا تستطيع أن تستغنى قط عن الفلسفة ، لا فى غاياتها ولا فى تقدير وربط نتائج علومها الكثيرة بعضها ببعض . بل نحن إذا نظرنا فى مسائل الفلسفة الكبرى وجدنا أن أغلبها يقوم محوراً لعملية التربية ذاتها (١)

ولقـد كانت الفلسفة إلى ما قبل « العلم التجريبى » مجرد نظريات ومبادئ تخوض فى متاهات ميتافيزيكية كثيرة . أما اليوم بعد أن نجح هذا العلم فى اقناع العالم بنجاحه وجدارته ، وبعد أن اتجهت أمريكا على الخصوص اتجاهاً « عملياً » فى فهم الكون وتقدير القيم المختلفة للموجودات — فقد أصبحت (الفلسفة) تسير فى التربية على الضوء الذى يبعثه العلم ولا تكاد تميل عنه إلا قليلا ، وبالأحرى هى كذلك لدى (جون ديوى) ومدرسته . فهى كما يقولون لا تستطيع أن تفهم الوجود بأكثر مما يسمح به الواقع المحدود ! ! وهى « فى التربية » تأخذ ذلك « الواقع المحدود » من علوم الحياة ، ووظائف الأعضاء ، والنفس ، والاجتماع ، وتاريخ الثقافة والسياسة والتربية والفن والدين ، ثم تكون منه نظرة كلية فيها شرح وتفسير وتقويم وتشريع !

وإذن ففلسفة التربية فى هذا المذهب لا تكاد تعدو أن تكون النظرية العامة التى تجد تطبيقاتها فى عملية التربية بجميع نواحيها ذلك أنها تعالج التربية كوظيفة ضرورية غير منفصلة عن الحياة بحكم طبيعة الحياة نفسها ، وتنقد وتشرح الطرق والمواد المستعملة فى هذه العملية على أساس تلك الوظيفة الآنفة ، وتمدنا بالأصول التى تجعل التربية فعالة ، وتوضح المبادئ التى تنفث الحياة فى مصالح الجماعة والتى تبرر النظام القائم أو لا تبرره ، كما تعطى الجماعة ذاتها شعوراً شاملا قوياً بمعنى الأساليب المختلفة التى تباشرها فى تدريب أعضائها ، وبأساس هذه الأساليب وقيمتها

(١) فمثلا العلاقة بين الروح والجسم ، وبين العلم والأخلاق ، وبين الفرد والجماعة ، ومسألة المعرفة ذاتها و ... الخ كل ذلك مما تتناوله الفلسفة والتربية معاً .

ولئن قال قائل إن التفكير غالباً ما يولى هارباً تحت ضغط الحوادث تاركا العمل للعاطفة ، أو الانفعال ، أو الضرورة الغالبة بحيث أنا لا نستطيع دائماً « التفلسف » فى أساليب حياتنا : فالجواب هو أن التفكير لا يزال بالرغم من ذلك الأداة الوحيدة التى تخرجنا من الأزمات بما يقدمه من حلول ممكنة ، ووسائل محتملة ، ثم هو وإن كان لا يخلق قيماً جديدة فهو على كل حال يخير بين القيم المختلفة ، ويقدم لنا تلك التى توصلنا أكثر من غيرها إلى غايتنا

وإذن فالتربية القائمة على غير فلسفة تسندها تكون كالسارى بالليل من غير دليل ، والتربية القائمة على فلسفة خاطئة مصيرها الفشل المحتوم ...

والأمر فى الفرد والمجتمع على السواء . فلكل فرد فلسفته الخاصة فى الحياة . ولكل جيل أو مجتمع نظريته العامة التى يطبقها فى سلوكه ؛ وعلى قدر دقة هذه النظريه وصحتها يكون النجاح أو الفشل ، والسعادة أو الشقاء [1]

كلمة فلسفة التربية الحديثة فى اتجاهات اليوم

وإذا كان العصر الحاضر يمتاز بثلاثة اتجاهات أساسية هى : الديموقراطيـة ، والصناعة والتجارة ، والعلم التجربى ، فإن الأستاذ « جون ديوى » عند ما يكتب عن « فلسفة التربية » (فى دائرة معارف التعليم للأستاذ منرو) لا يكاد يخرج عن هذه الاتجاهات الثلاثة . فنراه من حيث الاتجاه الأول (الديموقراطية) ينادى بتعليم الجميع وبتساويهم فى فرصة إظهار كفايتهم الخاصة حتى يمسك فخ التعليم بالذكاء والنبوغ على نحو تعبير « ويلز » القصصى الفيلسوف ، كما نراه ينادى باحترام الفرد ولكن على أن يؤدى واجبه فى المجتمع وهو راض مطمئن

وهو من حيث الاتجاه الثانى « الصناعة والتجارة » يدعو إلى ضرورة إشراك العمل مع النظر فى التربية ، وإلى بث روح التعاون بين الطبقات ، وإلى العناية بعلوم الطبيعة وعدم الافراط فى التخصص الذي يجعل من الآلة إلٰهاً جباراً . هذا إلى جانب غرس الذوق السليم ، ومحاربة التبذل والاسفاف والترف المقيت وإضاعة الفراغ فى غير متعة بريئة ، وإلى جانب التحذير الدائم من عواقب التعسفات الرأسمالية

أما من حيث الاتجاه الثالث (اتجاه العلم التجربى) فنراه يلح فى نبذ تلك « السلبية » البغيضة التى قد أوقفتنا وما زلنا نوقف فيها الطفل إزاء عملية المعرفة ، ويدعو بقوة إلى جعل التعليم عملية (كشف) يدرب فيها الطفل حواسه وقواه العقلية ويمضى فيها كما سيمضى غداً فى الحياة ، فيفترض الفروض أمام المشكلات ويجرب ويحقق آناً بنفسه وآناً بإرشاد الأستاذ ، ذلك إلى حصر الدراسة في المواد التى يحتاج إليها العصر الراهن من ناحية ، والكمال الانسانى من ناحية أخرى .

« يتبع » محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بشبرا الثانوية الأميرية

(١) فمثلا تستند الفاشستية فى إيطاليا إلى فلسفة هيجل Hegel التى تؤدى إلى جعل سلطة الحكومة مطلقة . ويذيع هذه الفلسفة فى إيطاليا Georanni Gentile (أنظر كتاب السير برسى Epucation - its Dada and First principles)

« ويقول الأستاذ وليم جيمس في أول كتابه (البراجماتزم) نقلا عن شسترتون « هناك كثيرون ــ وأنا واحد منهم ــ يعتقدون أن أهم شيء فى الرجل هو نظرته للكون ... ولا شك أن أهم ما يجب معرفته عن عدونا هو فلسفته لا عدده وعدته » أنظر كتاب الأستاذين (روس وفنى) فى فلسفة التربية الاجتماعية

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٣١٨ — ما أشبه فروع الإحسان بأصوله

البحترى : قال ابراهيم بن الحسن بن سهل : كان المأمون يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر مع ملك بنى أمية . وكان عمى الفضل بن سهل يقول له : الأوائل حجة وأصول ، وهؤلاء أحسن تفريعا . إلى أن أنشده يوماً عبد الله بن أيوب التيمى شعراً مدحه فيه ، فلما بلغ قوله :

ترى ظاهر المأمون أحسن ظاهر ... وأحسنُ منه ما أسرّ وأضمرا

يناجى له نفسا تريع بهمة ... إلى كل معروف وقلبا مطهرا[1]

ويخشع إكباراً له كلُّ ناظر ... ويأبى لخوف الله أن يتكبرا

فقال للفضل : ما بعد هذا مدح ، وما أشبه فروع الإحسان بأصوله !

٣١٩ — أشعر الشعراء

فى (المثل السائر) لابن الأثير : يُروى عن بشار أنه وصف نفسه بجودة الشعر والتقدم على غيره ، فقيل له : ولمَ ذاك ؟ فقال: لأنى نظمت اثنتى عشرة[2] الفَ قصيدة وما تخلو واحدة منهن من بيت واحد جيدّ ، فيكون لى اثنا عشر الف بيت . وقد تأملت هذا القول فوجدته على بشار لا له ، لأن (باقلا) لو نظم قصيداً ما خلا من بيت واحد جيد . وقد وصل إلىّ ما بأيدى الناس من شعره فما وجدته بتلك الغاية التى ادعاها لكن وجدت جيده قليلا بالنسبة إلى رديئه ، وتندر له الأبيات اليسيرة . وبلغنى عن الأصمعى وأبى عبيدة وغيرهما أنهم قالوا هو أشعر الشعراء المحدثين قاطبة ، وهم عندى معذورون لأنهم ما وقفوا على معانى أبى تمام وأبى الطيب ولا على ديباجة البحترى. وهذ الموضع لا يستفتى فيه علماء العربية ، وإنما يستفتى فيه كاتب بليغ[3] أو شاعر مفلق ، فإن

(١) تريع : ترجع ، تعود ، تنقاد . فى الأساس : وعظته فأبى أن يريع

(٢) الألف مذكر وتأنيث العدد للقصيدة ، وهى رواية (الأغانى)

(٣) مثل ضياء الدين بن الأثير ...

أهل كل علم أعلم به . على أن علم البيان من الفصاحة والبلاغة محبوب إلى الناس قاطبة ؛ وما من أحد إلا يحب أن يتكلم فيه حتى إنى رأيت أجلاف العامة وأغتام[1] الأجناس كلهم يخوضون فى فن الكتابة والشعر ، ويأتون بكل مضحكة . والمذهب عندى فى تفضيل الشعراء أن الفرزدق وجريراً والأخطل أشعر الشعراء أولا وآخراً ، ومن وقف على دواوينهم علم ما أشرت إليه . وأشعر من هؤلاء عندى الثلاثة المتأخرون وهم أبو تمام والبحترى والمتنبى فإن هؤلاء الثلاثة لا يدانيهم مدان فى طبقة الشعراء ؛ أما أبو تمام وأبو الطيب فربا المعانى ، وأما أبو عبادة فرب الألفاظ فى ديباجتها وسبكها .

٣٢٠ — الشعر المغسول

فى (الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء) لأبى عبيد الله المرزبانى : قال البحترى : دعانى على بن الجهم فمضيت إليه ، وأفضنا فى أشعار المحدثين إلى أن ذكرنا أشجع السُّلَمى . فقال لى : إنه (يُخلى) وأعادها مرات ولم أفهمها ، وأنفت أن أسأله عن معناها ، فلما انصرفت أفكرت فى الكلمة ، ونظرت فى شعر أشجع فاذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولة[2] ، ليس فيها بيت رائع ، وإذا هو يريد هذا بعينه : إنه يعمل الأبيات ولا تصيب فيها بيتاً نادراً كما أن الرامى إذا لم يصب من رشقه كله الفرض بشىء قيل (أخلى[3]) فجعل ذلك قياساً ، وكان على بن الجهم عالماً بالشعر

٣٢١ — وإنما لمعاد تعشق الصور

أبو القاسم غانم بن أبى العلاء الأصبهانى :

(١) الأغتم : الأعجم وهو من لا يفصح شيئاً ، الغتمة العجمة فى المنطق (التاج ، الأساس)

(٢) الأساس : كلام فلان مغسول ليس بمغسول ، كما تقول : عريان وساذج للذى لا ينكت فيه قائله كأنما غسل من النكت والفقر غسلا أو من حقه أن يغسل ويطمس ، ومنه قولهم : على وجه فلان غسلة إذا كان حسناً ولا ملح عليه ويقال في ضده : على وجهه حفلة

(٣) لم تذكر كتب اللغة مثل (اللسان والتاج) هذا الحرف بذلك المعنى ، وكم كلمات ذنت المعجمات !

قوم لو أنهمُ ارتاضوا لـمـا قرَضوا
أو أنهم شعروا بالنقص ما شعروا [١]

لا يحسن الشعر ما لم يُسـترقَّ له
حرّ الكلام ، وتستخدمْ له الفكـر
أنظرْ تجدْ صور الأشعار واحدة وإنما لمعانٍ تعشق الصور

٣٢٢ — اختيار الوزن والقافية

قال الصاحب في رسالته (الكشف عن مساوئ شعر المتنبي) : كنت أقرأ على (الأستاذ الرئيس ابن العميد) شعر ابن المعتز متخيراً الأنفس فالأنفس ، فابتدأت قصيدة على المديد الأول [٢] ، فرسم تجاوزها ، وقدَّرته يحفظها ولا يرضاها . فسألته عنها ، فقال : هذا الوزن لا يقع طلبه للمحدثين جيد الشعر . فتتبعت عدة قصائد على هذا الضرب فوجدتها في نهاية الضعف . وسمعته (أيده الله) يقول : إن أكثر الشعراء ليس [٣] يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبتدأ النسج ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده ، والمعنى الذي اعتمده ، وينظر في أيّ الأوزان يكون أحسن استمراراً ، ومع أي القوافي يحصل أجمل اطراداً ، فيركب مركباً لا يخشى انقطاعه والتياثه عليه

٣٢٣ — فلقى الله شبعان ريان دفيئاً

قال أعرابي وهو يدعو الله بباب الكعبة : اللهم ميتة كميتة أبي خارجة . فسألوه ، فقال : أكل بَذَجاً [٤] وشرب وطْباً [٥] من اللبن ، وتروى من النبيذ [١] ، ونام في الشمس فمات ؛ فلقي الله شبعان ريان دفيئا

٣٢٤ — طلعها كأنه رؤوس الشياطين

في (الكامل) : التشبيه جار كثير في كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد . قال عز وجل وله المثل الأعلى : (الزجاجة كأنها كوكب دري) وقال : (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) . وقد اعترض معترض من الجهلة الملحدين في هذه الآية فقال : إنما يتمثل الغائب بالحاضر ، ورؤوس الشياطين لم نرها فكيف يقع التمثيل بها ؟ وهؤلاء في هذا القول كما قال الله : (بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) . وهذه الآية قد جاء تفسيرها في ضربين : أحدهما أن شجراً يقال له : (الأستن) منكر الصورة يقال لثمره : رؤوس الشياطين ، وزعم الأصمعي أن هذا الشجر يسمى الصوم [٢] . والقول الآخر — وهو الذي يسبق إلى القلب — : إن الله شنع رؤوس الشياطين في قلوب العباد ، وكان ذلك أبلغ من المعاينة ، ثم مثل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس [٣]

٣٢٥ — الا التنقل من حال الى حال

في (تاريخ الطبري) : قال أبو العتاهية : وجّه إليّ المأمون يوماً فصرت إليه ، فألفيته مطرقاً مفكراً ، فأحجمت عن الدنو منه في تلك الحال ، فرفع رأسه فنظر إليّ ، وأشار بيده أن ادنُ فدنوت ، ثم أطرق ملياً ، ورفع رأسه فقال : يا أبا اسحق ، شأن النفس الملل وحُبُّ الاستطراف ، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفة . فقلت : أجل يا أمير المؤمنين ، ولي في هذا بيت . قال : وما هو ؟ قلت :

لا يُصلح النفس إذ كانت مقسَّمَةً
إلا التنقلُ من حال إلى حال

---

(١) (إنهم) بهمزة وصل للضرورة (ارتاضوا) راضه فهو مروض وقد ارتاض . (قرضوا) : قرض الشعر قاله ، وله قريض حسن لأن الشعر ذو تقاطيع أو سمي بالقريض الذي هو الجرة ... (الأساس) . (شعر به) كنصر وكرم والأولى هي الفصيحة : علم به وفطن ، وحكى اللحياني : شعر لكذا إذا فطن له ، وشعر به بالفتح : عقله (التاج) . (شعر) كنصر وكرم شعراً قاله أو شعر ككرم أجاده ، وهذا القول الذى ارتضاه الجماهير لأن (فعل) له دلالة على السجايا التى تنشأ عنها الاجادة ، وشعرت لفلان أى قلت له شعراً (التاج)

(٢) الحماسى :

فاسقنيها ياسواد بن عمرو إن جسمى بعد خالى لخل
فاعلاتن فعلن فعلاتن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن

(٣) اسمها ضمير الشأن

(٤) البذج : الحمل ، ولد الضأن كالعتود من المعز

(٥) الوطب : سقاء اللبن ، الزق ، جمع القلة . أوطب والكثير : وطاب وأوطاب

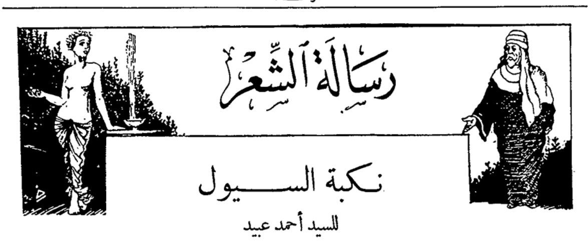
---

(١) في المحكم : إنما سمى نبيذاً لأن الذى يتخذه يأخذ تمراً أو زبيباً فينبذه فى وعاء أو سقاء عليه الماء ويتركه حتى يفور فيصير مسكراً ، والنبذ الطرح (التاج) ويقال للخمر المعتصر من العنب نبيذ كما يقال للنبيذ خمر (النهاية) (٢) الصوم : شجر على شكل شخص الانسان

(٣) قال ابراهيم بن اسماعيل الكاتب لأبى عبيد : قال الله : (طلعها ...) وإنما يقع الوعد والايعاد بما قد عرف مثله وهذا لم يعرف فقال : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهو لم ير الغول قط ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به (نزهة الالباء للأنبارى) وقيل : كأنه رءوس حيات فان العرب تسمى بعض الحيات شيطاناً ؛ حية له عرف قبيح المنظر (اللسان)



نكبة السيول

للسيد أحمد عبيد

« أيها الاخوان هلا عطفة تجبر الكسر وتحيي من غبر »

هجع السامرُ وانفضّ السمرْ | وتوارى البدرُ والنجم استسرّ
وسجا الليل فما من نَبْسةٍ | بَهم الليل إذ الليل اعتكر
وخلا الأفق سوى من ومضةٍ | تتجلى فيه آناً وتمرّ
والكرى يبعث أضغاث الرؤى | زاخراتٍ بتهاويل الصوَر
غفَل الناسُ بها عن كونهم | والرزايا راصداتٌ والغيَر
هجعوا والمزنُ مرجوُّ الحيا | والغوادي حافلاتٌ بالدِّرَر
وإذا السحبُ رُكامٌ مطبقٌ | عابسُ الطلعة مرهوبُ النظر
وإذا السيلُ أتيٌّ ماردٌ | عَرِمُ الطغيانِ مشهودُ الضرر
غادر السهلَ كبحرٍ مُزْبِدٍ | طمّتِ الأمواج فيه فانفجر
قلّما مرّ على شيء ولم | يمحُ من أعلامه كلَّ أثر
فأتى البنيانَ من آساسه | وتعاطى كلَّ نفسٍ فعقر
لم ينَلْ من شرّه نبتٌ ولم | ينجُ منه حيوانٌ أو بشر
والردى يدهق في دأمائه | كأسَ موتٍ وهلاكٍ ما أمرّ
فترى الأشلاء تطفو فوقه | زاهقاتِ الأنفس الطهرِ الغُرَر

* * *

رب طفلٍ أبصر السيلَ ولم | يقوَ أن ينجوَ منه أو يفرّ
صاح يرجو نجدةً من أمه | وأبيه وهما فيمن غمر
فعلا الجذعَ يُرَجّي عنده | نجوةً فانبتّ فيه وانكسر
وفتاةٍ طفلةٍ ناعمةٍ | ذاتِ دلٍّ وعفافٍ وخفَر
عصف السيلُ بها فانهتكت | وطواها في مطاويه القدر
وغنيٍّ كان مرموقَ السنا | حاشداً نَدْباً كريمَ المُعْتَصر
تركته النكبة الكبرى لقىً | يَنْشُدُ العيشَ ويبكى من قبر

* * *

أيها الإخوان هلّا عطفةٌ | تجبر الكسرَ وتحيي من غَبَر(1)
أنفقوا مما تحبون فمن | يفعلِ الخير تجِدْه مُسْتَطَر
ليس يغني الدمعُ في تَسكابه | عن بلاء جلّ أو خطبٍ أبرّ
أتبعوا سيلَ الحيا سيلَ النّدى | ينتعشْ بعضُ الذى كان عثر
واشكروا لله إذ أنجاكم | بالجدا(2) فالله يجزى من شكر
لِيَجُدْ ذو الفضل بالعفو(3) ومن | جادَ من جُهدٍ(4) فقد أسنى وبرّ

(دمشق) **أحمد عبيد**

(١) غبر : بقى

(٢) الجدا : العطا

(٣) العفو : الزائد من المال ومنه قوله تعالى : (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو)

(٤) الجهد : الشيء القليل يعيش به المقل على جهد العيش

لوحة الشاعر

للشاعر السوداني المرحوم التجاني يوسف بشير

الحسنُ يهفو بجفنِهِ الوسنُ ... كلُّ خبيءٍ من سحره حسنُ
للحسن عندي وللهوى صورُ
وهي لعمري وعمرُها غُرَرُ
ذخيرةٌ للفؤاد أو أثرُ
من الجمال الحبيبِ يُعتصَر
يرقد في حِجرِها فتًى أثِرُ ... يعتنُ في خَلقها ويفتتن
سكرى لها في الحياة مُنحَدَرُ ... دوني . وفي لوحتي لها منن

***

مسحورةٌ في الدماء تضطربُ ... تَسمَعُ منها دويَّها الأذنُ
أطيافُ دنيا سماؤها عجبُ
تنآى وتدنو آناً وتقترب
فيها غيومٌ وعندها سحب
تبرز آناً منها وتحتجب
أضيعُ شيءٍ في أرضها الذهب ... يجرى بعيداً عن كونها الزمن
وتلك دنيا للسحر مضطرب ... فيها وللساحرين مُرتَهَنُ

***

تحسبها في النَّدىِّ إن سمرت ... أو هزّها في مراحها الدَّدَنُ
جنًّا نآدَى ما غازلت طفرتْ
إلى مراقي السماء وانحدرت
وما أصابت من قُبلةٍ سكرت
تطِنُّ كالنحل كلما طفرت
بشاطئ للنعيم ماعبرت ... إلاّ على مدمع به السفن
وملعب للملاح كم خطرت ... فيه ديار وكم مشت مُدُن

***

أية دنيا هاتيك ظلُّ شبح ... من كل فَنٍّ يحفها فنن
وكنزها العبقري شقُّ قدحْ
أخي هَزارٍ إن حركته صدح
أو عَابَتَه على الدّنان سبح
ذات ظلال سحرية وملح
أكرومة الفن من أسًى ومرح ... ترقد فيها القصور والدمن
لوّنها في الزمان قوس قزح ... وذاب فيها السرور والحزن

عودتنا الثانية

للأستاذ خليل هنداوي

غداً عند ماتتهادى اللحود ... وتنفضنا من حنايا الترابْ
وقد لمستنا أكف الخلود ... وردت علينا ثياب الشباب

غداً عند ماتنهلين الحياة ... شراباً ويا برد ذاك الشرابْ
وقد رف للحب كالأقحوان ... فم لا يزال عليه الترابْ

أنخفق مثل الفراش الجميل؟ ... نزوّق ألواننا من هوانا
أنطلع مثل زهور الحقول؟ ... ونملأ جو الهوى من شذانا

إلى أين نمشي وأنَّى نطير! ... وقد ملأ العاشقون اللحودْ
وفي كل صوب تهب الحياة ... ويحيا الهوى، ويفيق الوجودْ

تعالى إلى لحدنا المطمئن ... نجدد سيرتنا أو نُعيدْ
لقد كان مثوى فناء عتيق ... وأصبح مأوى غرام جديدْ!

خليل هنداوي



الزنـــــك

كعنصر أساسي لنمو النبات

للأستاذ عبد الحليم منتصر

— ٢ —

أعراض مرض الحرمان من الزنك

لقد أصبح من السهل تشخيص هذه الحالات المرضية ، التى تعترى النبات ، نتيجة لحرمانه من الزنك ، وذلك بعد التجارب العديدة التى أجريت ، والملاحظات القيمة التى أبديت ، وبعد أن ظهر جلياً أن علاج هذه الأعراض لا يكون إلا بإعطائه حاجته من الزنك ، على أن يكون ذلك بإحدى الطرائق التى سنوردها فيما بعد

وأظهر هـذه الأعراض مايعترى الأشجار التى تتساقط أوراقها خريفاً ، وذلك بأن تظهر الأوراق عند حلول الربيع ، فى قمم الأفرع الصغيرة ، لايتجاوز طول الورقة بوصة ، ويكون عرضها نحو ربع البوصة ، وهى إلى جانب ذلك محمرة اللون ، جافة قليلا ، قصيرة العنق ، مبقعة فى الغالب . وقد تكون هذه الأفرع ذاتها محملة فى غير قممها بأوراق سليمة لا أثر لهـذه الأعراض عليها ؛ بيد أن مقاومة هذه الأجزاء مؤقتة ، أى أنها لاتستطيع متابعة النمو الطبيعى مدة طويلة ، وفى الحالات الشديدة تظهر الأعراض نفسها عليها هى الأخرى ، فترى أوراقها صغيرة مبقعة ذات أشكال غير طبيعية ، وقد لوحظ أن مثل هـذه الأشجار قد تذوى وتموت بعد عام أو عامين على الأكثر ، وإن أظهر بعضها مقاومة مرض الحرمان من الزنك مدة أطول

وفى الحق أن هذه الأعراض تختلف باختلاف الأشجار أو النبات ، فهى فى المشمش غيرها فى الكريز أو التفاح والجوز واللوز والموالح وغيرها ، وما ذلك إلا لأن درجة الاحتمال ليست واحدة ، حتى إنه ليصعب على غير ذى الدربة تمييز هذا المرض من غيره إذ تشابه أعراضه أعراض سواه .

كما أن من المحقق أن ثمار مثل هذه الأشجار المصابة لاتكون طبيعية الشكل والحجم ، فالخوخ والبرقوق تكون ثمارها صغيرة مفرطحة ومدببة أطرافها ، كذلك المشمش والليمون . وذلك علاوة على النقص البيّن فى المحصول . وعلى الجملة فإن أشجار الفاكهة فى الحدائق وغيرها من أشجار الزينة تبدى أعراض مرض الحرمان من الزنك ، بيد أن درجات احتمالها ومقاومتها متفاوتة ، فعلى حين تكون أشجار الخوخ والكريز مثلاً قد أذبلها وأذواها هذا المرض ، أو لعله قد صيّرها مشرفة على الهلاك ، يكون غيرها من جوز ولوز وتفاح وكمثرى وبرقوق وعنب ومشمش وتين وموالح أكثر مقاومة ، وإن كان حتماً أنها تصل إلى نفس المصير مالم تسعف بالعلاج ولن ترضى بغير الزنك بديلاً

وتختلف درجة مقاومة النبات للمرض تبعاً لطبيعة التربة التى ينمو بها ، فهو أكثر مقاومة إذا ما كانت الأرض طينية ، قادر على احتمال نقص الزنك من ألوان غذائه فيها . أما إذا كانت الأرض رملية أو كانت حصباء ، فان أعراض المرض لاتلبث أن تظهر إذا كانت كمية الزنك غير مناسبة لحاجة النبات منها .

ومن الملاحظات التى سجلت على الخوخ أنه بعد أن تابع نموه مدى أعوام خمسة كان يعطى فيها أوفر محصول .. ظهرت أعراض تأثره بنقص الزنك فى أواخر صيف العام الخامس ، وكانت النتيجة موت أغلب الأشجار خلال ثلاثة الأعوام التالية ؛ وعند ما زرعت مكانها أشجار أخرى ظهرت أعراض المرض فى العام الأول مباشرة . وعند ما عولجت بالزنك اطرد التحسن وزاد المحصول

طرائق العلاج

وتتلخص طرق علاج مرض الحرمان من الزنك فيما يأتي من الوسائل التي جربت وثبتت صلاحيتها :

١ — إضافة محلول كبريتات الزنك إلى التربة

٢ — وضع قطع من الزنك في ثقوب تعمل لهذا الغرض في جذوع الأشجار وفروعها

٣ — وضع كبريتات الزنك في ثقوب بالشجرة

٤ — رش الأوراق بكبريتات الزنك والجير

٥ — الرش بأكسيد الزنك

٦ — الرش — بعد سقوط الأوراق — بكبريتات الزنك

٧ — الرش بكلورور الزنك

على أنه لوحظ أن العلاج عن طريق التربة هو من أنجع هذه الوسائل ، وخاصة إذا وضع مركب الزنك غير بعيد من الجذع . وقد وجد أن وضع نحو ثلاثمائة كيلو جرام للفدان الواحد مذراة فوق أرضه تبقى نافذة الأثر في العلاج مدى ثلاث سنوات تباعاً . كما أن وضع مائة كيلو جرام فقط ، توضع بالملعقة قيد قدمين من جذع الشجرة يعطي نفس الفائدة ولذات المدة

أما العلاج عن طريق حقن الجذع بكبريتات الزنك في ثقوب تكون متقاربة ، يوضع في كل ثقب من جرامين إلى ثلاثة ، ثم يقفل الثقب بالشمع ؛ مثل هذه الطريقة لم يخب مفعولها مطلقاً في علاج أمراض الحرمان من الزنك ، بل إن أثرها ليبقى مدة ثلاث سنوات على الأقل ؛ إلا أنه وجد أن الخشب الرخو يتأثر بهذه الطريقة ، كما أن الثقوب قد تكون سبباً في جلب أمراض أخرى ، وذلك إذا أهمل إحكام غلقها

كما أن إدخال قطع من الزنك أو الحديد المغطى بالزنك (وتفيد المسامير العادية في بعض الحالات) في الجذع والفروع ، يعطي نفس الأثر من علاج حاسم سريع للمرض ، إلى تقدم محسوس في نمو النبات ودرجة إزهاره وإثماره . ويستحسن في هذه الحالة أن يدق عدد من المسامير على أبعاد وأغوار مناسبة . وقد ثبت أن هذه الطريقة هي أنجع الطرائق المذكورة إطلاقاً ، فهي أقواها مفعولاً وأدومها أثراً . ومما يستحق الملاحظة في هذه الطريقة أننا إذا ثبتنا مسماراً أو عدداً من المسامير في أحد الأفرع فإن أثر العلاج يتبدّى واضحاً جلياً على الجزء من الفرع الذي يبدأ بموضع المسمار أو المسامير وينتهي بالقمة ، على حين يظل الجزء من الفرع الذي يبدأ من هذا الموضع نفسه وينتهي بالجذع الرئيسي أو الأرض ، يظل هذا الجزء كما هو لا تبدو عليه أي علائم التحسن أو آثار العلاج

وطريقة الرش هي أيضاً بارعة الأثر في كثير من الحالات ، فقد وجد أن رش الأوراق بمزيج مكون من عشرة أرطال من كبريتات الزنك ومائة جالون من ماء الجير ، مفيدة جداً كعلاج لأعراض مرض الحرمان من الزنك ، وخاصة للموالح والشمش والعنب ، وإن كان من الحق أن نقول : إنها كانت غير وافية بالغرض في بعض حالات أخرى . وقد وجد أنه في حالة استعمال هذه الطريقة يحسن أن يعاد رش الأشجار المصابة مدى عامين متتاليين إذا كان مرض الحرمان قد أثر تأثيراً سيئاً على النبات

كيف تؤثر طبيعة التربة وصفاتها الكيميائية في سير مرض الحرمان من الزنك ؟ وكيف يستجيب النبات لهذه المؤثرات ؟ وما هو الدور الذي يقوم به الزنك في النبات ؟ سيكون ذلك موضوع حديثنا في عدد الرسالة المقبل إن شاء الله تعالى

« يتبع »

عبد الحليم منتصر
ماجستير في العلوم



مشهد غرامي من أنتوني ترولوب

غرام راهب

للأستاذ دريني خشبة

لم يكن لبقاً سيدنا الحَبْر الجليل – المستر سلوب – حين حاول هذه المرة أن يُنَقّل فؤاده حيث شاء من الهوى ... فلقد عرف الناس أنه مشغوف بالسيدة (... بولد) وأنه يسعى جهده ليحظى بها زوجة مثرية غنيةً ذات مال وذات جمال ، وذات ريع ثابت يَقْدُرُه العارفون بألف أحمر رنان تقبضها غير منقوصة كل سنة ... عرف الناس هذا ، وحرص سيدنا الحَبْر الجليل على ألا تفلته هذه الفرصة النادرة التي تضمن له غَرْفَةً من كنوز قارون في كل مطلع عام جديد ، فيضمن نوال الدنيا و ... حسن ثواب الآخرة !!

ولم يكن أحد يعيب عليه قط مجازفته الغرامية هذه ، لأنها كانت في سبيل الزواج ... والزواج شيء عادي أقرته الأديان ونزلت به الشرائع ... أما أنه راهب فلا بأس ، فإنها رهبانية ما فرضها الله على أحد ، فلِمَ يفرضها سيدنا الحبر الجليل – المستر سلوب – على نفسه ؟ !

وسيدنا الحبر الجليل رجل يعرف حق الدنيا كما يعرف حق الآخرة ويعطي لقلبه من هذه الدنيا تسعة وتسعين من أنصبتها المائة المقسمة بينه وبين عقله ... لذلك كان شعوره يطغى على تفكيره ... وكان هواه المتقد وعاطفته المشبوبة لا يتفقان ومركزه الذي أساسه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والبغي

فلقد عرف هذا الحبر السيدة (... بولد) الأرمل ، بعد أن مات زوجها ، وبعد أن ترك لها هذه الثروة الهائلة التي أسالت لعاب المستر سلوب ، وشبت أطماعه ... فلم ير بأساً أن يصل أسبابه بأسبابها ، وأن يملقها ويدهن لها ، وأن يزخرف لها حباً يوهمها به أن له ناراً تتأجج في قلبه ، وتندلع بين أضالعه ... وكان للأرمل الغنية شيءٌ من الجمال غير قليل ... وإن كان جمالها يذهب به كثرة اللحم والشحم ، وقصر الرقبة واستكراش البطن ، وترهل الثديين قليلا ... ولكن وجهها كان ذا رواء وسيماء ، خصوصاً حين تعالجه بالأصباغ والدمام ، وسائر فنون التطرية ... لقد كانت تجلب له حسناً مصنوعاً يغري المساكين من أمثال سيدنا الحبر الجليل المستر سلوب ، فكيف وقد حازت هذا الثراء الضخم ، والغنى الواسع ، والدخل المضمون ؟ ... إنها ما أغنى وما أقنى ، فلم لا يغضي الحبر الجليل عن بعض العيوب التي جرها الشحم واللحم ؟ ولم لا يذكر أنه هو الآخر ليس وسيما قسيما ، ولا نحيل القد ممشوق القوام ، ولا له لفتة الظبي ولا خيلاء الطاووس !؟ بلى ، ينبغي أن يذكر لحيته الهائلة التي تحجب عين الشمس عما تحتها من وجه مكلثم ، وصدر كأنه نصف جبل حملته ساقا عفريت . وهكذا ينبغي أن يخجل قلبه المنهوم بالجمال قليلا ، فنظرة خاطفة في المرآة تقنعه بمحاسن الأرمل السيدة بولد ، ونظرة أخرى إلى ثروتها الكبيرة تجعلها أجمل حسان الدنيا

ولكن قلب الحبر الجليل ليس من هذه القلوب الرطبة التي تقنع بصيد واحد ، لاسيما إذا كان هذا الصيد وثناً من أوثان الدنيا التي تغري بالذهب ، وتجذب بالثروة ، وتتكلم بالدنانير .. لا .. ليس لمثل هذا الصيد يخفق قلب الراهب الذي يشغفه الجمال فهو ينبض له ، وتجذبه مفاتن الحسن فهو يهيم بها ... إن لمثل هذا القلب في هذه الدنيا حقوقاً يقتضيها من خدود الغيد وعيون الخُرَّد الأماليد ، وهو لا شأن له بالذهب الذي يضمن سعة الحياة ورَغَد العيش وإقبال الأيام ... ومن أجل ذلك فليس لقلب المستر سلوب من هذه الأرمل الغنية نصيب ، فهي صيد نفيس سمين لأطماعه ، ومن أجل ذلك فلينطلق هذا القلب في دنيا الجمال

ينشد صيده ، فهو لا يعنيه أن يعكف على وثن من الذهب يتعبده ولا يهواه

* * *

هذه هي السيدة ... بولد ... أما السينورة نيرونى ، فزوجة وفية للسينور نيرونى من كبار رجال السياسة والطب، وقد تزوجها السينور لجمالها البارع، ولهذه الألغاز المميقة التى تمتلىء بها عيناها السحريتان ؛ وتلك الظلال الحزينة الفاتنة التى تموه جبينها بمثل ظلال الغروب ... وليس شك أن السينور يحبها ويحرص على مرضاتها ، وأكبر ما يعطف قلبه عليها أنها مقعدة ، أو كالمقعدة ، لأنها أصيبت بلين فى عظام ساقيها بعد أن بنى عليها ... ولسنا ندري إذا كانت السينورة تحبه ، أو تحب أحداً من العالمين ... فلقد عبست للحياة وتنكرت لمباهجها وأول هذه المباهج الحب .. وكان السينور يفرط في منحها حرية الاجتماع بمن تشاء ، والخلوة بمن تحب ؛ وكانت هى كالعنكبوت الصناع التى لا تفتأ تنسج شراكها للذباب ، فلم يكن أحد يخلو إليها حتى تصمى قلبه بنظرة أو نظرتين من عينيها القتالتين فتزلزله ويصبح لها عبداً وبها هائماً وكأنما كانت تنتقم لنفسها من الناس فهى تعذبهم بالحب الذى لم تبله ، وتكوى قلوبهم بالغرام الذى لم تعرفه . وقد أولعت بذلك حتى صار طبعاً ثانياً لها ، وهى لا تستحى أن تفخر بذلك وتباهى به ، فتقول لأختها : « إنها لا تعجز عن إذلال قلوب الجبابرة وقسرهم على التمرغ تحت قدميها ... » ولم يكن بدعاً إذن أن يكثر عشاقها حتى يربوا على العشرين ... وكان أحرهم شغفاً بها هو هذا الحبر الجليل العلامة المستر سلوب ، الذى لم يكد يراها حتى نسى نفسه ووسوس له شيطانه ، فعقد أواصره بأواصر السينور نيرونى ، ثم بأواصر السينورة من بعد ... وأى بأس فى أن يحتفظ بالسيدة بولد لنفسه الأمارة الطاعة ، وبالسينورة لقلبه النهوم بكل هيفاء حسناء ... لا بأس قط ... فليضع فى قوس كيوبيد وترين غرُدَّين ، ولير كيف يصيب بهذه القوس إن كان مثله يحسن أن يحمل مثلها ... ثم ليكن جريئا ... فلا يبالى رجال الكهنوت وهذه المعاطف الفضفاضة السود ، ومقالة السوء التى يثلبونه بها ... وليزر السينور نيرونى فى الوقت الذى لا يكون السينور موجوداً فيه فى منزله ، ولا جرم إن السنيورة مستلقاه حينئذ ، وسيشرب فى حضرتها قدحاً من القهوة ... وربما أمرت له بكوب من نبيذ بردو يبعث الدم حاراً فى عروقه فيزداد جرأة وإقداماً ، وقد يجد الفرصة الجميلة فيكشف عن خبيئة قلبه لهذه السيدة اللعوب ... وليس ضير أن يفشل مرات ومرات فى البوح لها ... على أن السينورة الحصيفة اللبيبة قد عرفت ما يجتاح قلبه من حبها لأول زَوْرَة من زياراته الصباحية المفتعلة التى حسب أنه شرفها بها ... ولقد كانت السينورة واسعة الثقافة ، بل كانت أكثر من ذلك ، كانت فيلسوفة بفطرتها ، تجيد الفلسفة التطبيقية فى كل أحوالها ... وكانت تجيد ذلك على الخصوص مع رجال الدين ... فما بالك بحبر جليل من عظامهم ينسى نفسه بين يديها ، وينسى وظيفته فى الحياة ، وينسى دقات الناقوس التى توقظ الغافلين وينسى بيانه الذى يرهب به ويرغب ... وينسى كل شيء ... حتى صور القديسين والحواريين التى كانت تهاجمه كلما خلا إلى السينورة فلا يأبه بها ، ولا يعنى بهتافها به كما يعنى بانتقاء العطور التى يضمخ بها نفسه ، والبنيقات التى يحرص أن تكون نظيفة ناصعة ، وبكل ما يظهره فتى فى عين السينورة ، من منديل جميل وقفاز جديد ... و ... و ...

وذهب الراهب الوقور ليسأل كمادته عن السينور فلم يجده ، وأدخل إلى السينورة فلم تمن به إلا كما يعنى الصبية بنماز الشص ينبه عن فريسة السمك ... ووجدها كدأبها دائماً مضطجعة فوق كنبة وثيرة عند مكتبها الفخم ، وبيدها يراعها الأبنوس الثمين ، وأمامها صحيفة تخط فيها كلاماً قالت عنه وهى تتخابث إنه خطاب أوشكت أن تكتبه للحبر الجليل ... ثم مدت يدها الجميلة البضة لسيدنا الراهب فتناولها فى يده المرتجفة ، وانحنى برأسه الكبير ولحيته المنكرة فلثمها ، وهو يخيل إليه أنه يسرق القبلة الذهبية من كنوز سليمان ... ياله من منظر عجيب !! لقد كان شئ كبير هائل شائه كرأس ثور ، ينحنى فيبحث فى زهرة يانعة جنى عليها المنجل بقذفها فى طعامه ... بل كان أغرب من هذا ... لقد كان كالتنين المولة ينازل فينوس ربة الحسن !

— لقد أوشكت أكتب إليك ، فأما وقد جئت ، فلألقى بما كتبت فى سلة المهملات ...

— لا ... لن يكون مصير ما تتفضلين بكتابته إلى هـذا المصير ... لأحتفظ به إلى الأبد ، فإذا كان لا بد من إبادته ، فلأحرق له بخوراً ولألق به فى ناره ! أليس كانت ديدو تصنع مثل هذا ؟

— أنا لا أحترم ديدو هذه أيها الأب ... لقد كنت أوثر أن تكون ديدو مثل كليوبترة حين رأت ما حاق بحبيبها فآثرت

أن تلحق به ، حتى لا تقع بين المطرقة والسندال ... أيها الأب الكريم مستر سلوب ، أرجو ألا تخلط بين جد الحياة وبين عبث الحب ! »

وصبغت حمرة الخجل وجنات الحبر الجليل لأنه أيقن أن السينورة تعرض بما بينه وبين المسز بولد ، وأنها تشتهي أن تذله كما أذلت عشرين عاشقاً لها من قبل ... ثم لم تشأ أن تقسو عليه فقالت تعبث به متلطفة :

— ماذا ؟ إني ما أزال أقولها لك في صراحة : لا تخلط بين عبث الحب وجد الحياة ... إن أمامك ثروة واسعة ، ومدينة من الذهب شاسعة ، وإنك تشتهي أن تكون صاحبها ، فأقدم بحزم ، ولا تتلف أطماعك بهذا الحب الطارئ ؛ فإن كنت في عرض الدنيا زاهداً ، فأحب كما ينبغي أن يكون الحب ... هب الحب كل قلبك فالحب يكره أن يشركه أحد في القلب ... فإذا أبيت إلا أن تصيب الحسنيين فاعلم أنك من الآن فاشل ... فأيهما تؤثر أيها الأب : المال ، أم الحب والجمال ؟ !

وطافت برأسه طائفة من الأفكار ، ولكنها طافت بسرعة البرق ، فقال : « بل الحب ، ولا شيء غير الحب ... الحب الذي ينبغي أن يقهر كل رغبة وأن يسود جميع الأطماع ... »

— بل آثر أن تستمع إلى نصيحتي ، وتذكر ما بعد نشوة الأسبوعين أو الثلاثة الأسابيع من عمر الحب ... ! إنها الخيبة وانعكاس الأمل ... إنه ما حدث في الأساطير لميزيس التي لم يحب أحد كما أحبت ولا اكتوى عاشق بمثل ما اكتوت ... إن التفاني في الحب يعني الفشل فيه ... والحب الصحيح يعدل القنوط من جنى الثمرة المشتهاة ... أو لم تحب جوليت ؟ أو لم تحب ديدو ؟ وهايدي كذلك ! وترويلوس ؟ ألم يحب حباً طمس رجولته ؟

— بلى ... لقد أحب ترويلوس ولكن تغفلته حبيبته ، ويستطيع كل إنسان أن يحب ولا يكون ترويلوس ، فليس كل النساء كرسيدز !

— هذا حق ، ولكن عدم الإخلاص ليس كله في جانب المرأة ، بل لكم النصيب الأوفى فيه ... فلقد أخلصت إملوجين ، فماذا كان جزاؤها ؟ ألم يتهمها زوجها أنها صبت إلى أول ضيف انفردت وإياه لأول مرة في غيابه ؟ وديدمونا ؟ ألم خنقها بعلها ؟ ألم تكن مخلصة وفية ؟ وأوفيليا ؟ ألم تجن بإخلاصها ؟ إنه يبدو لي ألا سعادة في الحب إلا في خاتمة القصة الانجليزية ! أما هذه الدنيا السحرية في ذهبها وجمالها وفتنتها وخيراتها سعادة محسة لامراء فيها .:. سعادة يسع كل أحد أن يهنأ بها ويرشف ماشاء من معينها ...

وارتبك الحبر الجليل قليلاً ثم قال : « أوه ! كلا ... إن كل هذه الدنيا بجميع ما حوت من حطام لا يمكن أن تؤدي إلى السعادة ! »

— إذن ما الذي يستطيع أن يجعلك سعيداً أيها الأب ؟ ما المعين الذي لا ينضب ، الذي تنشد منه سعادتك ؟ لن تقول ألا معين لك ، فلكل من الناس معينه الخاص !

وغلب الحبر خباله الديني فأجاب : « قد يبحث الإنسان عن السعادة فيعييه البحث ، ذلك لأننا نبحث عنها دائماً في هذه الأرض ، وهي لا تكون إلا في السماء !! »

— صه ، ويلك ! إنك تقول بلسانك ماليس في قلبك ... إنها تعاليمكم التي لم تستطع أن تشفي أطماعكم في هذه الدنيا ..! إذا لم يكن شيء من السعادة حقاً في هذا العالم الفاني فلم جاهدت أن تكون قساً وجاهد أصحابك معك ؟ لم طمعتم في حطام هذا الفناء وتشبثتم به ؟

— ذلك لأني لم أطهر من شوائب آدميتي ، فإن لي كما لجميع الناس أطماعاً ...

— صدقت ، ولذلك قلت لك إنك تقول بلسانك ماليس في قلبك ، وإنك تسلم بما لا تؤمن ، وإنك تبيع للناس عظات لا تعتقد بصحتها ... لقد كان القديس بول مؤمناً حقاً ، ولذلك لم تفسد الدنيا بكل ما فيها من زخارف تعاليمه ؛ وكان مثله القس اللاهوتي المتزمت ، الذي قضى نصف عمره قائماً فوق عمود في أرض الفراعنة ... أنا أجل هؤلاء وأضرابهم ، لأنهم يؤمنون بالشيء فيبدو إيمانهم في كل ما يصدر عنهم ... فإذا دعا رجل الدين إلى فضيلة ولم يكن متحلياً بها ، فتعساً له ، وتعساً للفضيلة تخرج من فمه فتكون رغاء ...

وانعقد لسان الحبر الجليل فلم يحر جواباً ... وأنى له أن يستذكر تعاليم مولاه التي أعطى مركزه ليبشر بها بين الناس ما دام الشيطان يملك زمامه ، ويؤجج نيران الجحيم بين يديه .. ثم أنى له أن يجسر على هذه التعاليم فيذلها لشهواته ، وهو يعلم ويؤمن ، أن مولاه الإله محيط به ، ما تكاد تكون له نجوى إلا هو عالم بها ؟ ! وقد طربت السينورة لما بدا عليه من بداوات الحيرة

والقلق والارتباك ، فقالت له : « يبدو لي أن ذكاءك وتوقد ذهنك يسلمان بهذه القضايا ، بيد أنني ألحظ أن قلبك وعاطفتك عَمِيَّان عنها ، أليس كذلك ؟ »

— قلبي ! ! إنك أنت التي توجدين ثغرة هائلة بين ذهنك وبين قلبك ، بين ذكائك وبين عاطفتك ... إني أتهمك بما تتهميني به ... »

ثم حمل كرسياً ودنا من السينورة بحيث لم يعد يحجز بينهما إلا زاوية المكتب الفخم الذي كانت تكتب عليه ، وكانت يدها الجميلة الساحرة ممتدة عليه ، فبلع سيدنا الحبر الجليل ريقه ، ووضع يده الثقيلة الملتهبة عليها ... فقالت له :

— هــذا يعني أنك ... تحب ! وأنك تجعل مني جَنَّةً مقمرة لأحلامك ؟!

— ولم لا ! إن حبك يصلح لأن يكون جنة واسعة مقمرة لأحلام ملك !

— لأحلام ملك ؟ هه ! بل قل لأحلام رئيس أساقفة يا عزيزي المستر سلوب ! ! وله ؟ إنكم دائماً تعسلون لنا زخرف القول أيها الرجال ! وأنتم خاصة أيها الأحبار أمهر الناس في توشية الكلام .. كن شجاعا يا عزيزي المستر سلوب وانظر إلي بمجامع عينيك

وكانت قد سحبت يدها الجميلة الساحرة بعيداً من يده فنظر إليها بعينيه الجائعتين المنهومتين نظرة الوامق الملتاع ، ومد يده ليقبض على يدها ، لكنها رمقته بعينيها الجميلتين الصارمتين وقالت له : « لقد رجوتك أن تحول حماسة يديك الجبارتين إلى عينيك الحالمتين يا مستر سلوب لكنك لم تفعل ... »

وكان قلب الحبر الجليل قد أنهكه من لوعة الحب ، وتعذيب الحبيبة ، فصرخ شاكيا :

— أوه مدلين ! !

فتبسمت عن ثنايا كاللؤلؤ وقالت له : « حسن ، إن اسمي مادلين ، هذا لا ريب فيه ، ولكن أحداً من العالمين لا يجرؤ أن يناديني به إلا أن يكون من أسرتي ، أفتريد أن أفهم من ذلك يا مستر سلوب أنك تحبني وتتعشقني ؟ ! »

وارتبك الحبر الجليل ، ولم يدر ما ذا يصنع ، لأنه إنما أتى إلى بيت السينور ليجلس جلسة غرامية من غير أن يصرح بلسانه أنه يحب ، فلما بدهته هي بهذا السؤال لم يستطع إلا أن يجثو على ركبتيه أمام الأريكة ، ويصرح أنه إنما يحب السينورة حقاً ، ولكن لا كما يحب الناس ! ! فلما قالها ... بدهته السينورة بسؤال آخر فقالت :

— « والآن ، أتستطيع أن تخبرني متى تتزوج بالسيدة ألينور بولد ؟ ! »

ولم يستطع المسكين إلا أن يقول : « ولأمر ما ترمينني بتهمة النفاق والتغرير بك يا عزيزتي ؟

— نفاق ! أنا لم أقل شيئاً من هذا أيها الأب ! ولكنه يبدو لي أنك تحب أن تدافع عن نفسك فيما يتعلق بي ؟ فلم هذا ؟ لم لا تبقى دفاعك لتقدمه بين يدي السيدة ألينور ؟ إنها هي التي ستتزوج منك ، أما أنا فامرأة ذات جمال راقتك ، وليس هذا شيئاً ، ألا ما أبرعكم في التخريج يا رجال الدين ؟

— لقد بحت لك يا عزيزتي السينورة أنني أحبك .. أهواك . أعبدك ... فلم تعيِّرينني ؟

— أعيرك ؟ يا لله ! هلم أيها الأب نخبرني ! ألا تتزوج من السيدة ألينور بولد ؟

— لا ... لن يكون هذا !

— بل أؤكد لك أنك من عُبَّادها !

— وأنا أنفي ذلك من كل قلبي !

— ولم لا أيها المستر سلوب ؟ إنها أولى النساء بك ... بل تزوجها تكن لأطفالك أما ولبيتك ربة ... ثم لا تنس أنها أرمل جميلة ذات ثراء !

— ألا ما أقساك يا سينورة !

— أو تلك قسوة ؟

— أجل ... إذ كيف يصبو فؤادي الذي هو لك إلى امرأة سواك ! ؟

— إذا كانت هذه قسوة أيها الأب ، فماذا إذا صرحت لك أنني لا أملك أن أبادلك حباً بحب ولا عاطفة بعاطفة ؟ فاذا كنت لا أملك هذا ، فخبرني كيف أجزيك على حبك ؟ أأجزيك عليه بأن تحضر كل يوم فتسبح بحبي وتذكر محاسني ! أواه ! ما أقساك أيها القدر ! !

وكان الأب الجليل ما يزال راكعاً بين يدي مادلين ، فلما

أهوت على قلبه بهذا التصريح هب منتفضاً كالغراب (!) الذي بلله القطر ، وجلس على كرسي قريب

— وهل تسمحين أن أعطف عليك ... مجرد عطف ... على مانابك ؟

— تعطف علي ؟ بل تريد أن ترثى لي لأني شبه مقعدة ؟ إني إذن أحتقرك !

— أوه مادلين ! أردت أن أقول « أحبك ! »

ثم انقض على يدها الضعيفة الجميلة يعطرها آلاف القبل ... فقالت له بعد إذ لم تستطع أن تذوده :

— هذا جميل ! ولكن لنفرض أن السينور نيروني فاجأك الآن ، فماذا عساك أن تفعل ؟ وأفاق من سكرة حبه على الاسم المخيف فقال : « سينور نيروني ؟ ! »

— أجل ... سينور نيروني ؟ أترسله إلى الأسقف وزوجه السيدة برودي ؟ »

— ولم تسألين ؟

— لم أسأل ؟ إني أحببت أن تعلم أن هناك رجلا لا تذكره يدعى السينور نيروني ؟ !

— لا . . . بل أنت تنسين قلبك حين تذكرين السينور زوجك ! إنك لا تحتفظين له بأثارة من الحب لأنه غير خليق بك

— القلب مرة أخرى ؟! مالك كيف تتكلم أيها الأب ؟ تريد أن تقول إن المرأة التي لاتضمر حباً لزوجها لها الحق في أن تخونه ؟ أو على الأقل لها ألا تخلص له ! والذي يقول هذا كبير أساقفة الكنيسة الانجليزية

واشتعلت الجحيم في رأس كبير الأساقفة ، وعجب كيف تذله امرأة مقعدة كالسينورة نيروني ، وتمنى لو استطاع لجعلها تسجد بين قدميه تطلب حبه كما فعل هو ، وتمنى كذلك لو انتزع حبها من قلبه فقذف به من حالق ... ولكن شتان بين أن يتمنى المرء وبين أن يقدر ، فلقد سحقته السينورة لأنها عرفت من مآسي الحياة مالم يعرف القس ، و بلت من تجاربها مالم يَبْلُ ... وذلك أنه ما كاد يرفع عقيرته بالاحتجاج حتى غلبه هواه ، وسجد مرة أخرى تحت قدميها يستعطف كالتلميذ الذليل ... لكنها وصلت سخريتها به فقالت له :

— ولم لاتضحي حبك أيها الأب مادام زَيفاً وبهتاناً ؟

— زيف وبهتان ؟ أتريدن أن تقولي إن حبي لك زيف ؟

— زيف وأي زيف !! وإلا ، فافرض أنني حنثت في سبيلك بيميني أن أكون إلى الأبد مخلصة لزوجي وفية لاسمه الذي حملت ، وأنني زللت لأرضي حبك وأشفي لوعتك ، فهل ترضى إذا أُخرجت من هذا البيت أن تذهب معي فنقف أمام المذبح لتعلن للملأ أنك رضيتني زوجة لك ... ؟ أنا ... ؟ هذه المقعدة التي لايسندها في فؤادك إلا مسحة من الجمال تفتنك الآن ، ولا تدرى ماذا تكون في غد ؟ — ولكن الحبر الجليل لم ينبس ببنت شفة ، فقالت مادلين : « ماذا ؟ تكلم ! ماذا تضحي من أجلي إذن إذا ضحيت لك بكل ماعرفت !؟ »

فقال الأب : « لو أنك حرة الآن لرضيتك زوجة لا أرضى بها ملء الأرض ذهباً ! »

فقالت مادلين : « لو أنني حرة ! أنا حرة ! ها أناذى حرة ! لننطلق إذن من هنا ... هلم فاحملني إلى دارك ! لم تقف جامداً هكذا ؟ »

لكن الأب لم يبد مع ذلك حراكا ...

— آه ! لقد خشيت أن تضحي الدنيا الواسعة المترعة بالخيرات من أجل امرأة مقعدة مثلي ! إذن فهلم نكون صديقين ... صديقين فحسب ... لا تنس هذا ... »

وانحط على الكرسي القريب منها ، ثم تناول يدها الجميلة الساحرة وطفق يقبلها أكثر وأحر مما فعل قبل ، حتى لكأن الدرس القاسي الذي تلقاه لم يكن له أثر ... وزاد الطين بلة فقال وهو يبكي :

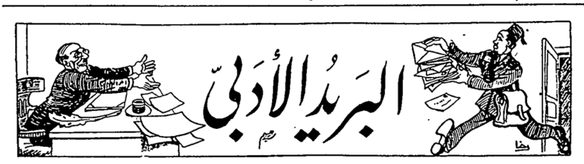
— « مادلين ... مادلين ... قولي إني أحبك ... قولي يا مادلين ! »

* * *

وهنا سمع وقع أقدام في الخارج فبهرته السينورة وهي تقول : « صه أيها الأب ! إن أمي قادمة وأخشى أن تشهد دموعك ... هلم فأصلح من شأنك ... »

ووثب الأب الجليل مروعاً ... ولم يعن بإصلاح شأنه ... بل انطلق على وجهه من الباب الخلفي ، ولم يعد أحد يسمع به ... لأنه لم يذهب إلى الكنيسة منذ ذلك اليوم ...

(ملخصة) دريني خشبة



الى صحف القطر الشقيق

نشرت فى عدد « الرسالة » الماضي على أثر ماعلمته من أن جريدة المكشوف البيروتيـة نشرت خطاباً ومقالاً زعمت أنى أرسلتهما إليها — كلمة موجزة كذبت فيها هذه الواقعة بطريق حاسم وقلت إن ما فعلته المجلة المذكورة إنما هو تزوير شائن

والآن بعدأن اطلعت على بعض الصحف البيروتية التى نقلت المقال المزعوم أو علقت عليه (وذلك لأنى لم أستطع الحصول على عدد المكشوف الذى حدث فيه النشر المزور) عرفت أن الصحيفة المذكورة قد عمدت إلى مقال قديم كنت نشرته فى « السياسة الأسبوعية » سنة ١٩٣١ واقتضبت منه عبارات مسختها وزعمت أنها مقال أرسلته إليها ، ونشرت إلى جانبه الخطاب الذي زعمت أنها تلقته منى

وقد أرادت الجريدة المذكورة أن تلقى بذلك فى روع قرائها أننى أؤيد الحملة الدنيئة المستمرة التى تشهرها على التفكير المصرى والكتاب المصريين ، والتى لاتاتى هنا وهنا لك سوى ماتستحق من الإعراض والزراية ، وأرادت أن تدلل على ذلك ببعض فقرات إختلستها من مقالى المذكور

فأقرر هنا أنى كتبت هذا المقال منذ سبعة أعوام لمناسبة حالة أدبية معينة لاحظت أعراضها يومئذ ، ورأيت فى تلك الأعراض بعض وجوه ضعف يجب اصلاحها وتداركها . والحركة الأدبية المصرية ليست معصومة ، ولم يقل أحد إنها بلغت ذروة الكمال ، بل هي ككل حركة فكرية واجتماعيـة قابلة للنقد والاصلاح ؛ ولكن لما كانت الحركة الأدبية المصرية تتب بخطى الجبابرة فان هذه الآراء لا يمكن أن تعبر إلا عن الوقت والظروف التى قيلت فيها

أما أن تعمد جريدة المكشوف إلى اقتضاب بعض ما ورد فى هذا المقال ثم تزعم أني أرسلته إليها ، بل وتذهب فى الافتراء إلى أبعد من ذلك فتقرن المقال المزعوم بخطاب تدعى أنى أرسلته إليها فأقل ما يقال فى ذلك إنه عمل إجرامى دنىء

ما كان لمثلى أن ينزل إلى مثل ذلك فيبالى وريقة عرفت بحقدها المضطرم على الثقافة المصرية ، وعلى النيل من ثقافة بلاده التى يعتز بها ، والتى يتشرف هو بأن يشترك فى حمل لوائها الخفاق

ولقد رأيت فى بعض صحف القطر الشقيق بعض مقالات وتعليقات على هذه الدسيسة الأدبية الثيرة ، نشرت بلا ريب بحسن نية ، ولما كان من المتعذر على أن أكتب إليها جميعاً فإنى أكتفى بأن أوجه إليها هذه الكلمة على صفحات الرسالة لتقف منها على الحقيقة ولتذيعها نصرة للحق والانصاف

أما الصحيفة القاذفة المزورة فأمرها إلى القانون يحاسبها ، وإلى الرأى العام يصدر حكمه عليها

محمد عبد الله عنان

ذكرى وفاة أبي الفرج الأصبهاني

فى انتهاء عامنا الهجرى هذا يكون قد مضى ألف سنة على وفاة المؤلف العظيم أبى الفرج الأصبهاني على بن الحسين الأموى المرواني الذى يعد من أعاظم المؤرخين والبحاثين ، فقد بلغ عدد ما عرف من مؤلفاته خمسة وثمانين مؤلفاً من أثمن المؤلفات العربية فى التاريخ والاجتماع والأدب ، وأشهرها « الأغانى » ؛ وقد أجمع المؤرخون على أنه لم يصنف مثله فى هذا الباب ، ولولاه لضاع شعر الجاهلية والاسلام ؛ وقد ألفه فى مدة خمسين سنة ولم يزل هذا الكتاب المطبوع فى ٢١ مجلداً منذ ألف سنة حتى اليوم ينبوعاً صافى الورد ، ومنهلا عذب الارتشاف ، يرده الأدباء والمتأدبون وهم ظماء ، ويصدرون عنه وهم رواء . فكم من أديب نابغ قد تخرج عليه ، وعلم من أعلام البيان العربى كان يرجع بيانه إليه ، وشاعر

لخل زكت شاعريته ونمت موهبته بالرواية عنه والأخذ منه ...

وقد عن لى بهذه المناسبة — مناسبة مرور ألف عام على وفاته — أن أقترح على علماء العراق وأدبائه وأهل الفن فيه إقامة مهرجان ألفى فى بغداد موطن المؤلف التى كتب فيها جميع مؤلفاته وتوفى فيها تمهد أن خلد اسمها إلى أبد الدهر . ولا أظن أن من الأقطار العربية من يتأخر عن الاشتراك فى هذا الاحتفال وتمديد مناقب رجل جمع بين علوم الدين والدنيا فى الاسلام

(كربلا) عباس علوان الصالح

وفاة علامة هندى عظيم

نعت الينا أنباء الهند الأخيرة العلامة الهندى الكبير السير جاجاديس شندرا بوز ، أعظم علماء النبات المعاصرين ، توفى فى نحو الثمانين من عمره ؛ وكان مولده بالهند فى سنة ١٨٥٨ ، ودرس فى كلكوتا وكامبردج ؛ وبدأ حياته أستاذا فى جامعة كلكوتا ، وتخصص فى علم النبات وأبدى فيه براعة خاصة . ثم انقطع بعد ذلك لدراسة حياة النبات ، ووفق أثناء تجاربه إلى عدة اكتشافات باهرة لفتت إليه أنظار العالم ، وكان أهمها ما أثبته بالتجارب العملية وهو أن النبات كأى إنسان يشعر ويحيا ، وله كالانسان نبض يمكن جسه وإحصاؤه ؛ ولإثبات نظريته الجديدة اخترع السير بوز آلة سماها « كرسكوجراف » تسجل حياة النبات ونبضه ، وتكبرها بنسبة مائة الف مرة ؛ وبهذه الآلة يمكن مشاهدة نمو النبات وتأثره بالعوامل الجوية ، وبالعناصر الغريبة التى يلقح بها كالأسمدة أو السموم أو غيرها . وقد عرض السير بوز تجاربه فى أنحاء العالم فحازت إعجاب العلماء وتقديرهم جميعاً . ومما يذكر أنه قدم إلى القاهرة فى شتاء سنة ١٩٢٧ ، وعرض تجاربه أمام جمهور من العلماء والمشاهدين فأدهشهم جميعاً بما عرضه من حركات النبات ودلائل حسه ونبضه . وللسير بوز عدة آلات دقيقة أخرى اخترعها لتسجيل الحياة النباتية ، وله عدة كتب تعتبر فى هذا الباب مرجعاً وحجة ، منها :

Erritability of Plants, (جواب النبات) Plant Response (تهييج النبات) , Life Movements in Plants , (حركات الحياة فى النبات) , The Nervous Mechanism of Plants , (الجهاز العصبى للنبات) وغيرها ؛ وهو يعتبر عميد العلوم النباتية فى العصر الحديث

مذكراتى فى نصف قرن

منذ أيام قلائل صدر القسم الثالث والأخير من كتاب « مذكراتى فى نصف قرن » بقلم الأستاذ الجليل أحمد شفيق باشا وقد استطاع قراء القسمين الأولين من هذه المذكرات النفيسة أن يقدروا اليد الجليلة التى أسداها الأستاذ شفيق باشا لتاريخ مصر الحديث بتدوين هذه المذكرات ثم باخراجها ؛ وكان تدوينها فى الواقع عملاً دقيقاً شاقاً شغل حياة مدونها ، بيد أنها كانت سلوى حياته لا يغفل عنها ، ولا ينسى متابعتها قط مهما ادلهمت من حوله الخطوب والحوادث ؛ وكان فوق ذلك أجدر الناس بتدوينها ، وأقدرهم على الاستفادة من عبر الحوادث وفهم أسرارها وتطوراتها ؛ ذلك أنه كان مدى ثلث قرن شخصية بارزة فى القصر الخديوى ، بل كان مدى أعوام طويلة أعظم رجال البطانة الخديوية نفوذاً وأشدهم تأثيراً فى توجيه الخديو ؛ وكان بحكم منصبه ومراقبته لسير الأمور من أكثر الناس اطلاعاً على سير الحوادث ، وعلى أسرار الوثائق ، وأكثرهم فهماً للرجال العموميين. فما يقدمه إلينا فى مذكراته هو أصح وأدق ما يستطيع مؤرخ معاصر أن يقدمه عن حوادث عصره

ويشمل القسم الثالث من هذه المذكرات النفيسة مرحلة الحرب الكبرى وما بعدها ، من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩٢٣ ؛ ونحن نعرف أن الخديو عباس حلمى كان منذ صيف ١٩١٤ متغيباً فى استانبول ، وأن الخلاف وقع بينه وبين الانكليز منذ نشوب الحرب الكبرى ، فلم يعد بعد ذلك إلى مصر ، وأنه لعب أثناء الحرب أدواراً خطيرة ، واشترك فى كثير من مشاريع السياسة الألمانية التركية نحو مصر . وقد كان المؤلف خلال هذه الأعوام الدلهمة إلى جانب مولاه فى المنفى مع نفر من كرام المصريين ، يتتبع عن كثب تطورات الحوادث ويقيدها . وهو يقص علينا فى مذكراته ناحية من المأساة لم تكن مصر خلال الحرب تدرى شيئاً عنها ؛ ومن الصعب أن نتتبع محتويات الكتاب فى هذا المقام الضيق ، ولكنا نستطيع أن نقول باختصار إنها كل حياة الخديو السابق وكل حركاته وأعماله منذ سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩٢٠ وهى صفحة غريبة مشجية من تاريخ مصر السرى لا نعرف عنها سوى القليل ؛ ومن حولها معلومات وتفاصيل كثيرة عن المصريين

الذين اشتركوا فيها أو اتصلوا بها ، ومنهم كثير من الزعماء اللاحقين ؛ ويقرن المؤلف ذلك بتفصيل أعماله وحياته وصلاته مع الخديو وغيره حتى عوده إلى الوطن من النفي في سنة ١٩٢٣

ونحن نهنئ الشيخ الوقور أحمد شفيق باشا بتوفيقه في إتمام ذلك العمل الجليل الذي استغرق أعواماً كثيرة من حياته واقتضى منه جهوداً عظيمة تستحق تقدير مواطنيه وتقدير التاريخ ؛ أمد الله في حياته الحافلة النافعة

الآداب الفرنسية وجائزة نوبل

تحدثت الصحف الفرنسية لمناسبة فوز الكاتب الفرنسي روجيه مارتان دوجار بجائزة نوبل للآداب عن الكتاب الفرنسيين الذين ظفروا قبله بهذا الشرف ، فذكرت أنهم قلائل جداً بالنسبة إلى من ظفروا بجوائز نوبل من الأمم الأخرى ، وهم لا يتجاوزون خمسة : أولهم سولى برودوم ، وقد حصل عليها في سنة ١٩٠١ ؛ والثاني الشاعر البروفنسي مسترال ، وقد حصل عليها في سنة ١٩٠٤ والثالث رومان رولان ، وقد حصل عليها سنة ١٩١٦ ؛ والرابع أناتول فرانس ، وقد حصل عليها سنة ١٩٢١ ، والخامس الفيلسوف هنرى برجسون ، وقد حصل عليها سنة ١٩٢٨ ؛ ومنذ عشرة أعوام لم يظفر كاتب فرنسي بجائزة نوبل ، في حين أن الآداب الانكليزية أو الألمانية أو الإيطالية لا يكاد يمضي عام أو اثنان حتى تظفر إحداها بهذا الشرف

ولكن الصحف الفرنسية ترى من جهة أخرى أن الآداب الفرنسية كانت موفقة من الناحية المعنوية أعظم توفيق ، لأن أولئك الذين حصلوا على جوائز نوبل منذ قيامها إلى الآن هم خيرة ممثليها في مراحلها المختلفة ؛ وقد كان مارتان دروجار حقاً ممثلها من نوع يستحق التقدير العالمي

والمعروف أن لجنة استوكهلم قد منحته جائزة نوبل من أجل قصته الشهيرة « تيبول Thibault » التي تقف حوادثها عند صيف سنة ١٩١٤ ، والتي استؤنفت بعد ذلك خلال الحرب الكبرى ؛ وهي القصة التي ظفر من أجلها أيضاً بجائزة مدينة باريس الكبرى التي رتبتها بلدية باريس لأحسن مؤلف قصصي أو تاريخي ، ثم توجتها عقب ذلك جائزة نوبل . وقد أحدث حصوله على جائزة استوكهلم دهشة في بعض دوائر الأدب الفرنسي إذ كانت تتوقع أن يكون الفائز بها هو الشاعر الكبير بول ڤاليري ، ولكنها اغتبطت على أية حال لأن الفائز بها فرنسي

جائزة نوبل للسلام

وعلى ذكر جوائز نوبل أيضاً نقول إن الذي فاز بجائزة نوبل للسلام هو السياسي الانكليزي الكبير اللورد روبرت سسل ، وذلك من أجل جهوده في سبيل قضية السلم العالمي . وقد درس اللورد سسل في جامعتي إيتون واكسفورد ، وخاض حياة سياسية باهرة ، وانتخب عضواً في مجلس العموم منذ سنة ١٩٠٤ وتقلب في المناصب الكبيرة حتى غدا في سنة ١٩١٨ وزيراً للخارجية . وقد لعب دوراً كبيراً في مؤتمر الصلح وإعداد دستور عصبة الأمم ؛ ومثل انكلترا في جلساتها مراراً ثم ناب عن انكلترا في لجنة السلاح ، وكان له في أعمالها مواقف نبيلة دلت على تحمسه في مناصرة قضية السلم . واللورد سسل من أعظم أنصار عصبة الأمم ومبدأ السلامة الاجتماعية . وقد استقال من جميع المناصب الحكومية ليتفرغ لخدمة قضية السلم ، وله في ذلك مواقف وخطب رنانة ؛ وله كتاب قيم عنوانه « سبيل السلام » The Way of Peace ضمنه خطبه وأحاديثه السلمية ، وكلها تدل على تمكنه من موضوعه . وهو في الوقت نفسه من أشد خصوم النظم الفاشستية ، وله في شأنها حملات خطابية وكتابية شديدة ، وهو اليوم في الثالثة والسبعين من عمره ، ولكنه لا يزال يعمل لخدمة السلام بهمة الشباب

موطن الجواد قبل التاريخ

عثر المنقبون في سقالوف في جنوب السويد على عظام قديمة ظهر من فحصها أنها عظام الجواد الوحشي ، وأنها ترجع إلى نحو عشرين ألف سنة . ويرى العلماء الرسميون الذين فحصوها أنها بلا ريب من بقايا الجواد القديم المنقرض ، وقد كانت هذه المسألة مثار خلاف بين العلماء ، فجاء هذا الاكتشاف مؤيداً لأقوال القائلين بأن الجواد كان ضمن الحيوانات التي تعيش في هذه المناطق منذ عصر ما قبل التاريخ

بريطانيا العظمى وفلسطين

صـدر فى انجلترا منذ أسابيع هذا الكتاب عن فلسطين الشقيقة للكاتب الانجليزى هربرت سيد بوتهام . وقد تصفحناه فوجدناه كتاباً مُغرضاً أغلب الظن أنه طبع بأموال يهودية ليشر بالدعاوة لليهود فى سائر أنحاء العالم على العموم وفى انجلترا وبين أنصار حزب المحافظين على الخصوص ... فلقد سرد تاريخاً مملا مشوهاً لفلسطين منذ أن فتحها محمد على الكبير إلى اليوم واعتبر هذا الفتح مبدأ لحركة الدعاوة لانشاء الوطن القومى لليهود الذى لم يتحقق إلا فى السنوات الأخيرة ، وقد اعتبر اليهود سفراء المدنية الغربية إلى الشرق ، وتبجح فنعى على العرب قلة عرفانهم بهذا الجميل الذى أسدته إليهم بريطانيا إذ سخرت لهم الذهب اليهودى والذكاء اليهودى لينهضا بهم ، كأن العرب كانوا قد نسوا مدينتهم ومجدهم وافتقروا إلى السحت لاحياء ماضيهم النابر . ومما يثير عجب القارىء ويبتعث ضحكه أن ينعى المؤلف على بريطانيا استخذاءها تلقاء العرب « الذين يعتبرون التأدب البريطانى جبناً والرحمة الانجليزية ضعفاً فَتَرِد وفودهم إلى لندن ليملوا شروطهم كأنهم انتصروا على بريطانيا فى معارك حربية ... » ولسنا نعرف أن بريطانيا قد استخذت يوماً فى فلسطين فيما يتعلق بالجانب العربى ، اللهم إلا أن يعتبر المؤلف ضرب السكان بالنار ونسف المدن بالديناميت استخذاء . ولسنا نعرف أيضاً ماذا كان من نكران العرب لجميل بريطانيا ؟ أفمن هذا النكران وقوف العرب صفاً بجانب الانجليز فى الحرب الكبرى ضد إخوانهم المسلمين ؟ أم من هذا النكران تمسكهم ببلادهم وافتداؤهم لها بدمائهم ؟ ما كان أجمل أن يذكر المؤلف كيف سند العرب بريطانيا فى الشرق ، ولو لم يفعلوا لتغير مجرى التاريخ ، وتغير تبعاً لذلك وجه الأرض ...

وبعـد ، فليقرأ الفلسطينيون هذا الكتاب ولينظروا فى وقاحاته ، فقد عرض بالسوء لرجالاتهم ، وجرح بالباطل زعماءهم وهم برد مزاعمه أولى

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧ ﴾

5 me Année, No. 232

Lundi - 13 - 12 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

العـــدد ٢٣٢ « القاهرة في يوم الاثنين ١٠ شوال سنة ١٣٥٦ — ١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهـــرس

ثورة على الأخلاق

معدة قرقرت ثم استقرت

للدكتور عبد الوهاب عزام

فأما صاحبك فقد ساءتني حربه وسلمه . وهو في سلمه أشد إساءة وأعظم جناية ؛ صورته لي غاضباً للأخلاق ، راثياً للفضيلة ، ثائراً على الناس ، يقذفهم بالتهم ، ويرميهم بالحُمَم ؛ يشتط في غضبته ، ويغلو في ثورته ، فقلتُ : حرٌ غضب فأخطأ ، وكريم ثار فجار ، وأبيٌّ برٌّ أسخطته المذلة ، وهاجه الفجور ، فانطلق لا يقف عند حد . ثم صورته قنوعاً مستسلماً فقلتُ : وا سوأتا ! أهذا البطلَ جادلتُ ، وهذا الجبانَ نازلتُ ؟ لقد كان جهاداً في غير عدوّ . لم تكن شقشقة هدرت ثم قرت ، بل معدة قرقرت ثم استقرت . وما الشقاشق إلا لفحول الجمال ، وأشباههم من فحول الرجال

وأما أنت يا أخي الزيات فما أحسبك إلا شريك محمود في رأيه ، أو صاحب وحيه ؛ قدمته للكلام ونطقت على لسانه ، وعرضته للنضال ونزعت في قوسه ، ولا أقول أقمته مقام الوثن من سادنه ، والصنم من كاهنه . فلما تبين أنه في الخصام غير مبين ، وفي المآزق غير دفاع ، وفي المعارك لا يثبت للمصاع ؛ رأنه لجوع يثيره ،

وشبع تُرضيه ، أبدلت به جماعة حسبتهم أقوَم بحجتك ، وأشدّ هيبة فى صدور خصومك فقلت : « على أن مجلسنا كان حافلاً بغير محمود من رجال العلم والدين والأدب ، وكلهم كانوا له وعليك » وأكبر ظنى أن هؤلاء (رجال العلم والدين والأدب) شركوا محموداً فى المائدة . وإلا فكيف جمعهم بمحمود المجلس وقد (قام منذ هنيهة عن مائدة الإفطار الغنية الشهية) ؟ والعجيب أن تذهب المائدة بثورة محمود وتثير سخط هؤلاء . ولعله كان أبنهم على المـائدة حلة ، وأطيشهم فى الصحاف يداً . ولعلهم آثروا القناعة ، واصطنعوا الحياء ، وتمسكوا بالأخلاق نُحرموا ، فكانت ثورتهم على الأخلاق

وبعد فموضع الخلاف بيننا هذه القضية : هل الخلق الفاضل سبيل النجاح ؟ قال محمود إبّان ثورته : لا ، وقلتُ : نعم نعم . وضربت مثلاً الصانع المُجيد ، الحسن المعاملة ، الصادق الوعد ، والتاجر الأمين المخلص ، والمزارع الأمين . ثم قلتُ : « ولا يزال الرجل الصادق الأمين فى كل جماعة وفى كل طائفة موضع المودة والثقة ؛ ينال بسيرته ما تقصرُ عنه ثروته ، إن استقرض أقرض ، وإن استعار أعير ، الخ » فبأىّ هـذا يرتاب أصحابك ؟ يقولون : ما أهون الأخلاق إن كان قصاراها هذا النجاح الحقير . ويقولون إن الذين ضربتهم مثلاً من الأخيار لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً من رجال المال والأعمال كفلان وفلان — وأنا ياصديقى ماخصصت بقولى ضرباً من النجاح دون ضرب . ولم يكن ذكرى التاجر والصانع والمزارع إلا مثلاً و « إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً مّـا ، بعوضة فما فوقها » ولا أتمّ الآية إشفاقاً على أصحابك . إنى أقولها كلمة عامة شاملة : الخلق الفاضل ، فى أغلب الأحوال ، سبيل إلى النجاح فى كل طرائق الحياة ؛ إن أخفق حيناً نجح أحياناً ، وإن أكدى مرة أورى مرارا . فالحاكم الخيّر ، والرئيس البرّ ، والقائد الصالح ، والمؤلف الصادق ، والأديب النزيه ، والصانع والتاجر والزارع ، بل الموظف ، كل أولئك أقرب إلى النجح وأظفر بالطلبة فى أكثر الأحوال من أمثالهم من الأشرار ، بعد أن يتخذوا للمقاصد سُبُلها ، ويُعدّوا لكل أمر عُدّته . فإن قصّروا فى الأهبة ، وتوانوا فى اتخاذ العدة ، فماذا يجديهم الخلق وحده ؟ إن بعض الأخيار تجنبوا المعارك ، وأشفقوا من المهالك ، وضيعوا الحزم ، فلما أوفت بهم الأعمال على نتائجها التبس الأمر على كثير من الناس فحسبوا إخفاقهم بما استمسكوا بالحق والخلق الطيب ، وخالوا نجاح أضدادهم بما ركبوا إلى غاياتهم مراكب الباطل والرذيلة . فقل لهؤلاء : أعيدوا النظر ، وأحسنوا التفكير ، ولا تقصروا النجاح على المال فيجور بكم المنطق ؛ فهناك الكرامة والجاه والرياسة والزعامة ، وهناك الطاعة والمودة . وانظروا إلى الزعماء الذين يسوسون الأمم أهم من أصحاب المال ؟

وقلت فى مقالى السابق : إن للاخيار إلى مقاصدهم سبيلاً واحدة ، وللأشرار سُبلاً شتى ، ولكن هذه السبيل الواحدة أحرى بأن تؤدى إلى الغاية ، وتوفى على المطلوب . فقلت إن أصحابك يرون فى قالتى هذه نزوعاً إلى رأى محمود . ثم قلت : « ومادام جوهر الرأى واحداً فالسبيل القاصدة أن نطب لهذه الحال بما يوائم بين طموح الناس وكرامة الأخلاق وسلامة المجتمع » ثم قلت إنه لا معدى عن إحدى وسيلتين : أن تحمل الناس بالدين والسلطان على سبيل الحق الواحدة وذلك « خيال نبيل لا يقع فى الامكان » ، وإما أن نعيد النظر فى قانون الأخلاق ، وهذا « على ما يرون مظنة التوفيق فى الاصلاح الجديد »

وجوابى أنه ليس فى كلامى نزوع إلى رأى محمود إلا أن تقطع المقدمات بعضها عن بعض ، ويفصل بين أول الحجة وآخرها . وأما الدعوة إلى إعادة النظر فى الأخلاق فأنا لم أعدُ فى مقالى جملة الأمر إلى تفصيله . لم أجادل عن خلق بعينه ، ولم أقل إن خلقا ما صالح لهذا الزمن أو غير صالح ، ولكنى قلت إن الأخلاق الفاضلة التى تتفق عليها أمة أو أمم لا تكون سبلا إلى الخيبة والحرمان . وإن أردت أن نعيد النظر فى الأخلاق فما أنا بمنكر أن الأخلاق تقبل بعض التغيير ، ولكنى لا إخال اعادة النظر ستغير تغييراً ذا بال فيما سارت عليه الأمم منذ هداها الوجدان والعقل إلى سبل الخير ؛ ولن تحلل هذه الاعادة رذائل كالكذب والسرقة والتزوير والظلم ، أو تحرم فضائل كالصدق والأمانة والعدل . ومهما تكن النتيجة فالأخلاق القديمة أو الجديدة لا تكون قرينة الخيبة والشقاء

وقد ذكرت أيها الأخ الكريم أخلاقاً تجعلها مثلاً لما تريد تغييره . ذكرت التواضع والقناعة والزهد والمداراة والتوكل .

(البقية على صفحة ٢٠٣٩)

هل الحرب ضرورة ؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

جرى من يقول إن الحرب ليست من ضرورات الطبيعة الإنسانية فى هـذا الزمن الذى قلما نسمع فيه إلا حديث حرب وخوفاً من حرب واستعداداً لحرب وبحثاً فى محالفات ومؤتمرات ليس الغرض منها إلا اتقاء المداوات والحروب

والواقع أن محاربة الحرب فى العصر الحاضر تحتاج إلى كل مافى الإنسان من شجاعة ، وكل ماعنده من رأى ، وكل ماينطوى عليه من سجية ، لأنه يحارب أقوى القوى متضافرات متشابكات : يحارب قوة المال وقوة السلاح وقوة الجهل وهى أقوى عناصر هذا الثالوث

وربما كان خير الميادين للغلبة على الحرب ميدان الثقافة وما يلحق به من ميدان التربية والتعليم . فإن التربية تصلح ما أفسدته التربية ، ثم تزيد فتصلح مالم تفسده قبل ذلك ، وهى على كل حال سلاح لا غنى عنه فى هـذا الميدان ، لأن وسائل السلم كلها لن تفيد فى تعويد الناس غير ما تعودوه ما بقيت تربيتهم وتثقيف عقولهم على الحال التى هي عليه

فى طليعة الكتاب المعنيين بفلسفة الحرب «الدوس هكسلى» حفيد العالم الانجليزى هكسلى الكبير

وهو وأقرانه فى هـذا الجهاد الإنسانى الشريف لا يبحثون عن الحرب بحث الصحف والأخبار والمؤتمرات والوزارات ، فإنهم يعتقدون وهم على حق فيا يعتقدون أن سياسة الأمم أعمق وأخفى وأعرق من هـذه الجوانب التى يتناولها السواس وتلغط بها صحف الأخبار ، ولكنهم يبحثون الطبيعة الإنسانية وينقبون فى تواريخ الأمم ليعرفوا منها ماهو طبيعى أصيل ، وما هو عرضى قابل للتهذيب والتبديل . ومعظم النابهين بين كتاب هذه الطائفة ينتهون إلى أن الحرب بدعة طارئة وليست ضرورة من ضرورات الطبيعة الإنسانية ولا قانوناً من قوانين الاجتماع ، وهذا هو الرأي الذى يلوح غريباً ممعناً فى الغرابة للذين سمعوا وطال سماعهم لقوانين تنازع البقاء وإرادة القوة وإرادة الحياة ، وحسبوا أن هذه القوانين ودوام الحرب معنيان مترادفان

كتاب « الغايات والوسائل » هو آخر كتب هكسلى فى هـذا العام ، وإن كان قد ردد فيه بعض الآراء التى شرحها فى كتبه السابقة منذ سنوات

وفصل الحرب فى هذا الكتاب من أبرع الفصول التى كتبها هذا الأديب اللوذعى المطلع القدير ، وهو الفصل الذى نلخصه فى هذا المقال ، ونعتقد أننا — نحن المصريين والشرقيين — خلقاء أن نبحث الحرب من هذه الناحية بعد أن طال حديثنا عنها من نواحيها العرضية التي تجئ وتذهب مع الأخبار ، بل لعلنا أحوج ما نكون إلى تدعيم بحوثنا كلها على هـذه الأسس وعلى هذه الأصول

يقول هكسلى ما خلاصته أن الحرب ظاهرة إنسانية لا وجود لها فى عالم الحيوان ، لأن الحيوان يتقاتل فى إبان الثورة الجنسية أو طلباً للطعام أو لهواً ولعباً فى قليل جداً من الأحايين ؛ وليس من الحرب بالبداهة أن يقتل الذئب الشاة أو تلعب الهرة بالفأر ، فإنما هذا شبيه بعمل الجزار حين يقتل ما يطعمه الناس ، أو شبيه بعمل الصياد حين يتعقب الثعلب والأرنب

نعم أن بعض علماء الحيـاة وعلى رأسهم السير أرثركيت يزعمون أن الحرب كالمنجل فى يد الطبيعة تقطع الفاسد وتبقى من أفراد الحضارة وشعوبها كل صالح للبقاء

ولكن هذا كما هو ظاهر لغو فارغ ، لأن الحرب تقضى على الشبان والرجال الأشداء وتترك الضعفاء والشيوخ الذين لا يذهبون إلى الميدان . وقد دلت التجربة على أن أعنف الشعوب وأصلحهم للحرب لم يكونوا قط أفضل الشعوب وأرفعها فى مراتب الأخلاق والثقافة ، إذ ليس أنفس بنى الانسان وأغلاهم قيمة فى معيار الحضارة أوفاهم « نزعة حربية » وضراوة فى حومة القتال

وأوجز ما يقال فى هذا الصدد أن الحرب تختار الأفراد على طريقة عكسية فتفنى الأقوياء وتترك الضعفاء ، وأنها تختار الشعوب على سنة المصادفة والمناسبات الموقوتة ، فكثيراً ما تفنى الشعوب المقاتلة وتترك الشعوب الوادعة ، وكثيراً ما كان انطباع الأمة على الحرب طريقاً لها إلى الوبال والاستئصال

والذى يدل أكبر دلالة على أن الحرب ليست طبيعة فى الانسان ولا فى الاجتماع أنها لم تظهر فى التاريخ إلا بعد ظهور درجة من الحضارة وتوع من الحكومة ، فهى مجهولة بين قبائل « الأسكيمو » التى تسكن الأصقاع الشمالية حتى اليوم . وقد كانت مجهولة فى أطوار الانسانية الأولى فلم يعرف عن الانسان فى تلك الأطوار أنه اتخذ السلاح للقتال وحب الغلب والسيادة ، وإنما كان يتخذ السلاح لدفع الضوارى أو لصيد بعض الحيوان

وصحيح أن « تنازع البقاء » قانون قائم فى عالم الانسان كما هو قائم فى عالم الحيوان ، ولكن من أين لنا أن تنازع البقاء مستلزم دوام الحرب كما ألفناها ونألفهـا فى الحضارات الغابرة والحاضرة ؟ ومتى شوهد الحيوان وهو يتجمع مئات وألوفاً ليقاتل بعضه بعضاً من فصيلة واحدة ؟ فليس فى عالم الطبيعة كلها ظاهرة تشبه اجتماع جيش لمحاربة جيش آخر ، ولم يعلم قط أن قطيعاً من الذئاب احتشد للهجوم على قطيع مثله ، أو أن سرباً من الطير فعل مثل ذلك على سنة الآدميين فى الحروب

فالقول بأن الحرب قانون طبيعى قول لا يستند إلى أصل من الطبيعة الحيوانية فى حالى التفرد والاجتماع ، وإنما هو تفسير خاطئ لقانون صحيح

إن الآداب الأوربية قد شوهت الأخلاق حتى وهم الناس أن التضحية بالحياة أنبل ما يستطيعه الانسان ، وأن الشهيد أى الميت الحسن على زعمهم أفضل من الرجل العامل أى الحى الحسن . وعلى خلاف ذلك كانت آداب الشرقيين فى الهند والصين ، فعند اتباع كنفشيوس أن المغامرة بالحياة لا تليق ، وأن الحكمة أفضل من الشجاعة البدنية ، وأن العاملين فى السلم أفضل من العاملين فى القتال ، وأن الفضيلة العليا أن يحجم المرء عن الكبرياء والعدوان ويروض نفسه على الوداعة ومجازاة الاساءة بالاحسان

ولما جاء المسيح بدين الوداعة والمسالمة دخلت المسيحية بين شعوب أوربا المقاتلة فجعلوا « الاستشهاد » غاية الغايات فى النبل والفضيلة ، لأنهم هكذا ينظرون إليه فى الآداب العسكرية ، حتى التبست دعوة السلام بدعوة القتال

أما فى الهند فالحضارة البوذية تأبى العدوان على أحد من الأحياء وتوصى بمجاربة الشر بالكف عن مقابلته بمثله ، وهو ما يسمونه عندهم « أهمسا » أى اجتناب الأذى مع الأحياء كافة حتى ما يؤذيه الآخرون طلباً للطعام

وفى شرع البوذيين أن « الغضب » رذيلة دائماً وأن الإكراه محظور فى جميع الأحوال ، فشاعت البوذية وعمت بين مخالفيها دون أن تلجأ إلى اضطهاد أو جاسوسية أو محكمة تفتيش

وعلى هذا ، وعلى ماتقدم من نفى ضرورة الحرب ، يسوغ لنا أن نعتقد أن الدعوة إلى إلغاء الحروب ليست بالدعوة التى تقاوم مجرى الطبيعة أو تعارض تيار السنن التاريخية ، وانه من الجائز أن يشيع السلام فى وقت من الأوقات ، وبخاصة فى العصور المقبلة القريبة بعد ما استفحل خطر الحرب وتعذرت النجاة منه على المسالمين فى البيوت والمقاتلين فى خطوط النار

* * *

واستطرد الكاتب إلى إجمال أسباب الحرب فقال ماخلاصته أنها أسباب نفسية قبل أن تكون اقتصادية أو سياسية كما يزعم الاشتراكيون ورجال السياسة ، وإن كان هذا لايمنع أن لهـا أسباباً اقتصادية تعالج بترياق غير ترياق الدماء

فمن أسباب الحرب الخوف ، فهو يدفع إلى الاستعداد ، والاستعداد يضطر الأمم إلى الحرب ، لأنه يهيء الأذهان لهـا بكثرة التوقع والشك فى إمكان اجتنابها ، وأحرى أن يكون ذلك فى العصور الحديثة والبلاد المتحضرة ، حيث أصبح السلاح عرضة للتغيير والبلى بعد قليل من السنوات ، فمن العسير أن تنفق الدول الملايين ثم تلقى بها فى التراب

ومن أسبابها شيوع الملل فى الحضارة إذ يشيع الكفر بالأمثلة العليا فتعود الحياة عبثاً ثقيلاً لاغرض له ولا وجهة ولا متعة فيها أمتع من الإهاجة واستفزاز الشعور ، والحرب تهيج النفوس فتدفع الملل والسآمة وتقل حوادث الانتحار كما ثبت من إحصاءات علماء النفس وفى طليعتهم دركيم وهلباش

ومن أسباب الحرب الحرب نفسها حين تهجم أمة على أمة أخرى لانتزاع موقع لازم للتحصين ودرء المخاوف واتقاء الهجوم

ومن أسبابها المجد الكاذب وطغيان الأقوياء وتحويل أنظار الشعوب فى الأزمات إلى ما يشغلها عن الثورة والانتقاض

ومن أسبابها التربية القائمة على الإفراط فى اتباع النظام

فإن الإفراط فى النظام ينشئ « العقلية العسكرية » ويجنى على استقلال الأفراد ، فتسهل قيادتهم إلى ما يريده القابضون على أعنة الأمور . ولو تربى الأطفال مستقلين لما استطاع القادة سوقهم إلى المجازر كما تساق الأنعام

أما الأسباب الاقتصادية والسياسية فهى دون ما تقدم فى القوة وصعوبة العلاج ، وسنعود إليها وإلى مناقشة آراء الكاتب فى غير هذا المقال

على أن الرأى الذى نود أن نختم به مقالنا هذا هو إصرار هكسلى على السخر بكل ما يقال عن الحروب التى تختم الحروب

فعنده أن التاريخ الإنسانى ليس « كرة أرضية » يخرج فيها الإنسان إلى اليابان فيلقى نفسه فى أقصى المغرب من طريق الشرق البعيد

إنما التاريخ الانسانى خط مستقيم ، فإذا أردت أن تتقدم فيه إلى اتقاء الحروب فلن تصل إلى وجهتك بالرجوع إلى الوراء

عباس محمود العقاد

القلب الغريب

فى ليلة عيد

للدكتور زكى مبارك

أخى الأستاذ الزيات

هل تذكر ما حدثتنى به منذ سنين ؟ هل تذكر أنك تشهيت مرة أن توجه إلىَّ خطاباً على صفحات البلاغ عنوانه « من غريب إلى غريب » وكنتَ الغريب فى بغداد وكنتُ الغريب فى باريس ؟

ولم تحدثنى عما أوحى إليك أن تفكر فى إنشاء ذلك الخطاب ، فهل أستطيع أن أرجّح أن ذلك كان بعد أن نشرتُ أنا رسالة « من غربة إلى غربة بين القاهرة وباريس » تلك الرسالة التى فضحتُ بها مكتوم صدرى ومكنون هواى ؟

على أننى لن أكتب مثل تلك الرسالة مرة ثانية ، فقد انتهى عهد الغربة بالقاهرة ، وقضى الحب أن أشهد كيف تنهمر دموع الملاح يوم رحيلى إلى العراق

انتهى عهد الغربة بالقاهرة ، وحلّ عهد الاغتراب عن القاهرة ، فمن يردّنى إليها ليلة أو ليلتين لأقضى حق التحية ، تحية المغانى الآهلة التى كانت تتشوف إلى العيد ، لترانى مع العيد !

ليتك يا صديقى تعرف نعمة الله عليك فى بلد لك فيه أهلٌ وأحباب ، ولا أراك الله حسرتى وعذابى وأنا أتجرع كأس الغربة فى ليلة عيد !

ولكن هل من السياسة أن أعلن غربتى فى بغداد ، وقد لقيتُ فيها أهلاً بأهل وجيراناً بجيران ؟

إن قيل ذلك فأنا أعلن أنى لا أعانى غربة العقل ، وإنما أعانى غربة القلب

وكيف أعانى غربة العقل ومحاضراتى يشهدها المئات من عشاق العلم والبيان ، ولا أخطو خطوة إلا وأنا محوط بالعطف والإعجاب ، ولا أدخل نادياً إلا تلقانى أهله وسامروه بالترحيب والتبجيل ؟

ولكن هل يكتفى مثلى بحياة العقل ؟ يا ضيعة العمر إن كُتب علينا ألا نظفر بغير الثناء من عقلاء الرجال ! وما أضيق العيش إن كانت لا تلمع بروقه إلا من صرير القلم وسواد المداد !

إن الحياة العلمية ليست إلا خدعة يتلهى بها أرباب القلوب . وهل يخفى عليك ما يعانيه رجل مثلى حين يعود وحيداً إلى منزله بلا أنيس ولا رفيق ؟ هل يعزّيه حينذاك أن يتذكر أنه كان منذ لحظات يساقر الفكر والرأى وهو يلقى محاضرته على جمهور من العلماء والأدباء ؟

ليتك ترانى وأنا أدخل إلى غرفتى شارد اللب فأزيح الستائر عن النوافذ ثم أطفئ المصباح لأقف وجهاً إلى وجه مع ظلام بغداد ، ويا رحمة الله من ظلام بغداد فى لياليها الطوال !

ولكن ما الذى يدعونى إلى معانقة الظلام فى بغداد ؟

لا أعرف ، ولكن يُخيّل إلىَّ أن الظلام يؤنسنى بعض الايناس ، لأنه يوهمنى أنى فى فترة من الزمن تأنس فيها القلوب بالقلوب ، وتسكن الأرواح إلى الأرواح . وربما كان الظلام فى غرفتى فرصة طيبة أتبين فيها بصيص النور فى منزل قريب أو بعيد فأتمثل أخيلة النجوى والعتاب ، وأتوهم ضجيج المرح فى ليالى الوصال

***

أما بعد فهذا غروب اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان وهذا مكانى على المائدة فى المطعم الذى تخيرته بشارع الرشيد ، وهذه أطياف تردُ على القلب ، من أحباب القلب ، أطياف من مصر الجديدة والزمالك ، تلك البقاع التى لم تر فيها النجوم قلباً مثل قلبي ، ولم تسدل ستائرها على هوى أعنف من هواى ... وليقلْ من شاء ما شاء !

وأسأل جارى على المائدة : هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : سنعرف ذلك بعد ساعة أو ساعتين

وأخرج فأتصفح الوجوه فى شارع الرشيد بلا نفع ولا غناء ، ثم أميل على الشرطى أسأله :

هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : لم تثبت ، ولكن المحكمة تنتظر برقية من النجف

فأدمدم : برقية من النجف ؟ وهل يسرُّ من فى النجف أن يفطر من فى بغداد ؟ إن كان الأمر لعلماء النجف فسيضيفون إلى الصوم يومين ، ولولا أن يفضحهم الهلال لزادوا الصوم أسبوعين

وأذهب إلى نادى المعارف لأسمر لحظات مع الزملاء من المدرسين فيفرحون بلقائى ويسألون : كيف غبت أمس ؟ فأجيب : غبت أمس لأحضر اليوم . ولكن حدثونى هل عندكم أخبار عن الهلال ؟ فيجيبون : سنعرف ذلك بعد الساعة العاشرة . فأقول : والشمس تغرب فى الخامسة ، فهل يمكن أن يكون بين الخامسة والعاشرة مجال لرؤية الهلال ؟

وبعد لحظة تُحوَّل إبرة المذياع إلى مصر فأسمع فتاة تُباغم المستمعين فتقول : سادتى وسيداتى ، هذا آخر العهد برمضان !

فأقول : يا إخوانى ، ياحضرات الأساتذة ، يامسلمين ياأولاد الحلال ، هذه فى مصر ليلة العيد

فيجيب أحدهم وهو يبتسم : علمت شيئاً وغابت عنك أشياء . ألم تعلم أننا صمنا يوم الجمعة ، وصام المصريون يوم الخميس ، فهم حتماً يسبقوننا إلى العيد ؟

فأقول : من هنا تعلمون أن مصر تقدمت فى كل شىء ، فلها السبق فى الصوم ولها السبق فى العيد . وأنصرف محزون الفؤاد

***

هذه غرفتى موحشة لا يؤنسنى فيها غير أرواح الموتى من المؤلفين ، وسيكون الغد يوم عمل ، لأن يوم الوقفة لا عطلة فيه فى بغداد ، وإذن فسأعطى غداً درساً فى التفسير ، وهو درس متعب لأنه فى الكشاف ، وفى آية يختلف فيها أهل السنة مع أئمة الاعتزال

وكيف أعدّ هذا الدرس ، ياربّاه ، وأنا أعرف أنها ليلة عيد فى مصر الجديدة وفى الزمالك ، وياويلتاه من لوعة القلب حين أتمثل مصر الجديدة والزمالك ؛ وغضبةُ الله على من تمرّ بباله خاطرة ملام وأنا أردّد أسماء تلك المغانى ، حرسها الله ، وأدام لأهلها نضرة النعيم

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون »

قال جار الله الزمخشرى ...

هذه طلقة مدفع !

وقال ابن حجر فى الردّ عليه ...

وهذه طلقة ثانية !

وكيف نوفِّق بين القولين ؟

وهذه طلقة ثالثة !

ولكن ما الساعة الآن ؟

الساعة العاشرة ! إذن ليست هذه مدافع السحور ولا مدافع الرفع ، وإنما هى مدافع العيد

***

وأطفأت المصباح ، وتلفتُّ إلى النافذة لأرى ظلام بغداد ، وقلت : هذه ليلة عيد بالإجماع ، فلأُرحْ نفسى من الكشاف ، ولحاجة صاحب الكشاف ، ولأُقبل على قلبى أتبينُ ما فيه من فُطور ونُدوب

وتذكرت أننى كنت أكتب رسالة وجدانية فى كل ليلة عيد ، ثم انقطعت رسائلى بعد إذ مات أبى يرحمه الله ، لأننى أنفتُ أن أبكى بعده على غرض مُضَيَّع أو هوًى مفقود

ثم بدا لى فى هذه الليلة أن أبى لا يسره فى قبره أن تعيش مهجتى بلا لوعة ، ومقلتى بلا دمعة ، وكان يرحمه الله جذوةً من الوجدان

وعدتُ إلى الظلام أستلهمه وأستوحيه فلم أجد من

أحاوره غير الرجل الحزين الذى اسمه أحمد ، أحمد حسن الزيات

صديق !

هل تذكر فكاهتك الطريفة إذ تحدث إخوانك أنك عرفتنى أول مرة عن طريق البوليس ؟ هل تذكر أن البوليس دعاك مرة إلى زيارة المحافظ فتوجست خيفة ، ثم رأيت أن الخطب هيّن لأنك دُعيت لتتسلم رسالة من الشيخ زكى مبارك الذى اعتقلته السلطة العسكرية أيام الثورة المصرية ؟

ألا فلتعلم أن الحظ قضى عليك ألا تتاقى منى رسالة إلا فى ظروف تحيط بها شبهات ، فإن كانت الرسالة الأولى فى عهد ثورة فهـذه أيضاً فى عهد ثورة ، وربما كانت هذه أعنف وأفظع لأنها تحدثك عن صديق حزين يناضل الأرق والسهاد فى ليلة عيد

صديق !

لا تعجب من رجل يضنيه الحزن والابتئاس مع أنه ينهض بأثقل الأعباء ، فدنيا القلب غير دنيا العقل ، والشواغل الجسام لا تُلهى الرجل عما يساوره من لواذع الإحساس ، وأنا رجل يؤمن بأن القلب أدق ميزاناً من العقل ، وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذ هدايته من الفطرة ، على حين لا يهتدى العقل إلا بالبراهين ، وهى فى الأغلب تقوم على مقدمات لا تخلو من تضليل

صديق

هذه الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، وستقرأ هذه الرسالة فتذكر أنك أرقت فى ليلة العيد بلا سبب معروف ، فلتفهم حين تقرأ هذه الرسالة أن ذلك الأرق إنما كان هدية أرسلها إليك الغريب فى بغداد ، الغريب الذى يوحى الحزن إلى أشقياء الغرباء

والآن أطفىء المصباح لأعانق الظلام فى المدينة السحرية التى شقى بلياليها ملايين الرجال فلا أرى غير بصيص ضئيل لمصباح أقامته الحكومة على شاطىء دجلة ، فأفهم أننى أخاطب الأموات لأن مصابيح الحكومة لا تدل على شىء ، ولا يهتدى بها غير لصوص الجيوب

الآن تهدأ بغداد بعد أن تسدل أستارها على النائمين من السعداء والبائسين ، ويبقى المسهد الغريب الذى لا يعرف ربيع القلب ، ولا نعيم الجفون

فى هذه الليلة تهدأ جنوب ، وتقلق جنوب ، وجنبى هو الجنب الحائر تحت سماء بغداد

فى هذه الليلة تتلفت عيون فلا ترانى ، عيون كنت لها أمتع من إغفاءة الفجر ، وأنضر من بياض الصباح ، فى هذه الليلة تشتاقنى أكبادٌ رقاقٌ علمتها كيف تطيب ليالى الأعياد

ولكن لا بأس ، فستعيش حتى تردَّ دون الهوى ، وسيعلم من أبكاهم الفراق أن الدمع لا ينفع ، وسنرجو ألا يسمحوا لنا بعد هذه المرة بالتعرف إلى محطة باب الحديد

أخى الأستاذ الزيات

لا أنتظر منك دمعة عند قراءة هذا الخطاب ، ولكن لى إليك رجاء ، فاحفظ عهد أخيك ولا تمش فى شوارع القاهرة إلا مشية الخاشعين ، فليس فى تلك المدينة بقعة إلا ولى فيها صبوات ، وليس فيها شارع ولا مشرب ولا ناد إلا ولى فيه أحباب وخلان

ولو شئت لكلفتك تبليغ التحية إلى أصفياء القلب فى مصر الجديدة ، وفى الزمالك ، ولكنَّ مثلك والأسفاء لا يؤتمن على نقل التحية إلى أسراب الملاح ، فلتكن (الرسالة) رسولى إلى من أذالوا غاليات الدموع يوم رحيلى إلى العراق ، والسلام عليهم وعليك من الغريب الحزين

زكى مبارك

جاءنا الفصل الثانى من فصول الأستاذ المبارك فى (ليلى المريضة بالعراق) ولكننا قدمنا عليه هذه الرسالة الطريفة فى النشر حتى لا تفوت مناسبتها «الرسالة»

حرق الميت

العرب أول من أعلن (بقاء المادة)

Conservation de la matière

لأســـتاذ جليل

وصى (مكدونالد) الانجليزى الاسكتلندى من رؤساء الوزراء السابقين فى بلاد البريطانيين قومه أن يحرقوه إذا هلك فاحرقوه فى هذا اليوم . وحرقُ الميت طريقة هندية برهمية ، وقد زينها (المعرى) فى (اللزوميات) للناس، فقال الخبيث — جزاه الله جزاءه — :

فاعجب لتحريق أهل الهند ميتهم ... وذاك أروح من طول التباريح

إن حرّقوه فما يخشون من ضبع ... تسري إليه ولا خَنْفى وتطريح[1]

والنار أطيب من كافور ميّتنا ... غبّاً وأذهب للنكراء والريح[2]

ومن أجل هذا وغيره اتهم الرجل بالتبرهم ، فنى (لسان الميزان) لابن حجر : « من عجيب رأى أبي العلاء تركه كل ما كول لا تنبته الأرض شفقة على الحيوانات حتى نسب إلى التبرهم »

والبرهمي يتقرب بالحرق إلى الله . وقد يحرق بعضهم نفسه (جسمه) بنفسه وهو حى متفنناً فى إحراقه ، فقد قال (البديع) فى إحدى رسائله :

« وربما عمد أحدهم — يعنى الهنود — فاتخذ لرأسه من الطين إكليلا ، ثم قوّر قحفه[3] لحشاه فتيلاً ، ثم أضرم فى الفتيل ناراً ولم يتأوه ، والنار تحطمه عضواً فعضواً »

وغير البرهمى إنما يفر بالحرق من الله — وهل من الله (باغر) مفر — فنى (الفائق) للزمخشرى : « أن رجلا رَغَسَه[4] الله مالا وولداً حتى ذهب عصر وجاء عصر ، فلما حضرته الوفاة قال :

أى بنىّ ، أىّ أب كنت لكم ؟

قالوا : خيرَ أب

قال : فهل أنتم مطيعىّ ؟

قالوا : نعم

قال : إذا مت فحرقونى حتى تدعونى فحما ، ثم اهرسونى بالهراس ، ثم اذرونى فى البحر فى يوم ريح ، لعلى أضلّ الله[1] »

وهيهات أن يضلّ الله ، أن يفوت الله هارب من عذابه « أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ، ساء ما يحكمون »

وهيهات أن يضمحل فى الوجود شيء ؛ إن (الكتاب) يقول : « أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً ، إن الله على كل شيء قدير » « يا بُنَىّ إن تكُ مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير »

والعلم العربى قد أعلن (بقاء المادة) ونادى أن لا تلاشي[2] للأشياء . قال عبد الحميد بن هبة الله فى كتاب شرحه لنهج البلاغة : « إنا نرى الحيوانات الميتة إذا دفنت فى الأرض تنقص أجسامها ، وكذلك الأشجار المدفونة فى الأرض ؛ على أن التحقيق أن المحترق بالنار والبالى بالتراب لم تعدم أجزاؤه ، وإنما استحالت إلى صور أخرى »

ذلك قول الله ، وقوله الحق . وهذا قول العلم العربى المثبت بالعلم الغربى[3] فلن يضل الله محروق أو غريق أو مُفَرْفَر[4] فى الفيل ما كول ، ولن يضيع فى العالم ضائع ، ولن يعدم فى الوجود كائن . إن الطبيعة خزانة الله حافظة أمينة « وكان الله بكل شيء محيطا »

« فويلٌ للذين ظلموا من عذاب يوم أليم »

الاسكندرية (***)

---

(١) خنى الشيء الخنى واختفاه : أخرجه (الأساس) المختفى النباش لاستخراجه أكفان الموتى (اللسان)

(٢) النكراء : النكر ، المنكر ، الشدة ، وربما أراد (النكرة) وهى مايخرج من الخراج من دم أو قيح كالصديد

(٣) القحف : العظم فوق الدماغ

(٤) رغسه الله مالا وولداً : أكثر له منهما وبارك له فيهما ، والرغس السعة فى النعمة والبركة والنماء (النهاية) وحق (مالا وولداً) أن يكون انتصابهما على التميز (الزمخشرى)

(١) أضل الله : أفوته ويخفى عليه مكانى (النهاية) ضلنى فلان فلم أقدر عليه أى ذهب عنى (الزمخشرى)

(٢) تلاشى الشيء : اضمحل (التاج) واللفظة مولدة ، وهى من (لاشيء) والتلاشى فى كلام العلماء والأدباء من المولدين لكثير ، وفى (نهج البلاغة) : « وما تلاشت عنه بروق الغمام »

(٣) أظهر (Lavoisier) مقالته فى (بقاء المادة) منذ (١٤٨) سنة وابن أبي الحديد توفى سنة (٦٥٦) أى منذ (٧٠٠) سنة

(٤) فرفره : مزقه ، والفرافر الأسد لتمزيقه الفريسة

فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٣ —

« خلق الله تعالى الانسان وأودعه بذرة كماله المنشود ، ثم تركه للعلم ينمي فيه هـذه البذرة حتى إذا ما اشتد ساعده واصل تربية نفسه بنفسه محققاً إرادة السماء »

Kant, « Traité de Pedagogie »

بينت في المقال السابق ما بين الفلسفة والتربية من علاقة ، وذكرت فحوى فلسفة التربية الحديثة لدى جون ديوى ومدرسته وسأتناول في هذا المقال معنى التربية وضرورتها وقدرتها :

أما معناها فكان وما زال موضع خلاف في التصور والتعبير ، فمثلا دائرة معارف Chambet تقول : « إن كل شيء يعلم الإنسان وإن التربية على الخصوص هي صب الأطفال في قالب خاص » (أنظر A Source Book of Education فصل كيف نتصور التربية) ، ويقول Stein : « التربية تطور متناسق للملكات يتفق وطبيعة العقل » ؛ هذا بينا يقول بستالوتزى : « كل عمل المعلم هو أن يمنع ما يعرقل طبيعة الناشئ حتى تستطيع أن تنمو نمواً طبيعياً على مثال صورة الله تعالى » ، وبينما يقول ديوى : « التربية هي الأسلوب الذى يصير المرء في امتلاك متواصل متزايد لنفسه ولقواه ، بواسطة الاشتراك المتواصل المتزايد في أعمال الجنس »

هذا ويعلل لنا الأستاذ أمين مرسى قنديل عدم الاتفاق على تعريف جامع مانع للتربية بقوله : « التربيـة من حيث هي علم لم يستقر بعد ، فهي لا تزال في دور التحول والتكوين » (أنظر أصول التربية والتعليم ج ٢ ص ٣٥)

ومهما يكن من شيء فالأستاذ هورن Horn يفهم التربية على نحوين : نحو عام هو تلك « العملية » الطويلة الهائلة التى يتعلم فيها الجنس البشرى تحت رعاية ذلك « الروح الأبدى » المتجلى في الطبيعة والانسان ؛ ونحو خاص هو « عملية » المدرسة منذ روضة الأطفال إلى نهاية المدرسة العليا . ولذلك كانت دراسة التربية من حيث معناها العام دراسة للمدنية بأجمعها ، ودراستها من حيث معناها الخاص دراسة لتاريخها ومثلها الأعلى وفنها العملي وفلسفتها (انظر A Philos. of Educ)

هذا عن معناها . وأما ضرورتها فها هو «هربارت» يقول : «إنها (أى التربية) مهمة دينية ورسالة مقدسة !» وهاهو «كانت» يزعم « أن الانسان لايصير إنساناً إلا بهـا » ! ! ولاشك أنا نستطيع أن نلمس ضرورتها في نواح عديدة أهمها الثلاث الآتية :

١ — الناحية النفسية

ذلك أنا إذا أخـذنا طفل « الرجل المتمدن » وألقيناه في إحدى الغابات ، وفرضنا أن الطبيعة سترعاه حتى يستطيع أن يطعم نفسه ويدافع عنها ، لوجدنا أن نشأته بين الأشجار ستكون بدائية [1] بحتة ترجع بالانسانية آلاف السنين إلى الوراء

وكذلك قد لوحظ أن الطفل الاسكتلندى الأصل إذاما انتقل إلى الوسط الفرنسى تغير كثيراً وأضحى غير زملائه في وسطه الأول

ومعنى هذا أن الوراثة الاجتماعية تعدل في الوراثة البيولوجية تعديلا خطيراً . ومادام الأمر كذلك فمجال « الإمكان » في التربية إذن فسيح ، ومجال سلطانها على مستقبل الناشىء ، بل والعالم كله ، من حيث السعادة والشقاء ، والتقدم والتأخر ، إذن عظيم وخطير ! يؤيد ذلك قول تورندايك في The Educ Psycho « إن التربية أعظم مساعد للناس جميعاً على تحقيق خيرهم المطلق » وقول الأستاذ آدم سميث في The Wealth of Nat « إن الفرق في كثير من الأحيان بين الفيلسوف ورجل الشارع ناشىء في العادة من التربية أكثر مما هو ناشىء من الطبيعة » ، وقول هيوم « هما المران والممارسة ينشئان العامل الماهر »

بل إن البعض ليذهب إلى أكثر من ذلك ، فهم يدعون أن علم الوراثة سيستطيع أن يقدم للتربية في الغد ما يمكنها من « خلق » العقل والجسم المنشودين !!

٢ — الناحية الاجتماعية

والانسان فضلا عما تقدم كائن اجتماعى . ولما كانت الحياة في ذاتها نمو وتطور وتجدد كانت التربيـة هي الاداة الفعالة التى

(١) Primitive

يستطيع المجتمع أن يحفظ بها كيانه ويجدد نفسه . وكلما تعقدت أساليب الحياة في المجتمع احتيج إلى تربية نظامية دقيقة ، والأفراد يموتون ولكن الجماعة تبقى ! ، والصغير محتاج — كيما يواصل حياة الجماعة فيما بعد — إلى أن يأخذ من الكبير الذى سيموت تاركاً له التراث الأكبر ! ، فيجب إذن « ترقيع » الجماعة دائماً ! وإلا فلا يجد الصغير درعاً يساعده على البقاء ! ومعنى هذا أن التربية في الجماعات المتمدنة قد أصبحت تقوم مقام الصلاحية للبقاء في الحيوانات والجماعات المتوحشة !

زد على هذا أن الجماعة لكيما تكون وحدة ناجحة سليمة يجب أن تتحد فى المطامح والعقائد والفهم العام . وليس كالتربية وسيلة لتحقيق مثل تلك الوحدة الناجحة . ذلك أنها ترتب الميول المراد تنميتها وتساعد عملية النمو ؛ كما أنها تطهر وترفع مستوى العادات الاجتماعية القائمة ؛ وتوجد بيئة متوازنة ، هى المدرسة ، تمد الطفل لمواجهة البيئة الكبرى ...

٣ — ناحية النمو

ويقول السير جون آدمز إن أغلب تعاريف التربية تحوى معنى النمو . فكومنيوس وبستالوتزى مثلاً يتفقان فى أن العقل كالبذرة ينمو من الداخل . والحق أن الحياة فى الفرد وفى المجتمع وفى تاريخ الكائنات جميعاً ليست إلا عملية نمو هائلة متسلسلة ينطق بها لسان التطور ؛ ويحتاج النمو الصالح إلى مرونة تجدها التربية فى الطفولة والشباب . وبهذه المرونة نتعلم من التجربة ونكتسب العادات الآلية التى تضمن لنا السيطرة على الطبيعة ، وحسن التكيف فى الموقف الجديد ، والاختراع والابتكار والخلق والإبداع

وما دام الأمر أمر نمو فإن المدرسة الحديثة تعارض فكرة الإعداد « للغد فحسب » كل المعارضة حتى لاتصرف المتعلم عن فرصة الحياة الحاضرة بما فيها من ميزات

يقول « ديوى » فى « المدرسة والاجتماع ترجمة الأستاذ قندلفت » : « لايتاح لأمة أن تفى حق الأمانة لنفسها إلا بأن تكون أمينة على إنماء أفرادها التى تتألف منها . ولا عامل كالمدرسة ينيلها ماتريد »

* * *

بقى بعد ذلك أن نتكلم عن قدرة التربية كما أشرنا إلى ذلك من قبل . والحق أننا نستطيع أن نتحدث هنا دون أى حرج . وها هو ذا إرازمس Erasmus يقول إنه لو سيطر على التربية بضع سنوات لغير الدنيا . وبسمارك يردد : « إن من يدير المدرسة يوجه مستقبل الأمة ... » وقديماً حاول إفلاطون أن يخلق المدينة السعيدة الفاضلة بالتربية . وحديثاً يسود الانجليز ويستمدون عظمتهم من تربيتهم لا من جيوشهم وأساطيلهم .

وأخيراً إذا كان العالم يسير اليوم متشائماً نحو الحرب والدمار فلأنه قد نشأ نفسه وا أسفاه على أساس من تربية فلسفتها البقاء للأصلح ، وقوامها الوطنية الكاذبة والقومية الحمقاء !!! ؟

لذلك كله يرجو دعاة السلام والاصلاح من التربية خيراً جزيلا ؛ ويحاولون جهدهم أن يستغلوا « امكانات » علم النفس في تعديل الغرائز وتهذيبها والتسامى بها أيما استغلال ، ولكنهم يشعرون — وأشعر معهم — أنهم لا يزالون بعد في حاجة قصوى إلى إقناع الساسة والشعوب بفلسفتهم الجديدة القائمة على أن العالم هو الوطن الأكبر ، وعلى أن الانسانية في التعاون والتعاضد والبناء والتشييد ، لا في التنابذ والتحاسد والتخريب والتدمير ..!!

فهل يستطيعون لهذا الاقناع سبيلا وأبواق الحرب تهرف في كل مكان بدعاية مجنونة ، ورجال السلاح ينفثون سمومهم وأحقادهم ومطامعهم في نفوس بريئة لا تملك النقد ولا تعرفه ؟ ؟

وكيف السبيل لذلك الاقناع ورجال الحرب يسيطرون على الحكومات ويوجهون برامج التعليم إلى حيث تتحقق فلسفتهم الجوفاء ؟ ؟

ومصر في عصرها الديموقراطى المستقل الراهن أترى للتربية فيها فلسفة ناضجة ؟ ؟ وإذا كان لها فلسفة ما : أفلا تتطلب هذه الفلسفة تعديلا يلتئم وحاجات العصر الجديد من ناحية ، ويتمشى وحقائق علوم التربية الحديثة من ناحية أخرى ؟ ؟

ذلك ما أدعوك للتفكير فيه أيها القارئ العزيز على ضوء الحقائق التى ذكرتها وسأذكرها ؛ وما أعدك بتناوله بعد الفراغ من هذا الوضوع

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

مجالس طريفة واقعية حول

معجزات الإســـلام

للأستاذ خليل جمعة الطوال

هل تطلبون من المختار معجزة   يكفيه شعب من الاجداث أحياه
وكيف ساس رعاة الابل مملكة   ما ساسها قيصر من قبل أو شاه
(عنيم)

استويتُ إلى مكتبي المتواضع ، وفى النية أن أكتب فصلاً « للرسالة الغراء » عن نخاسة الأعراض وتجارة الزواج فى شرق الأردن ؛ وفيما أنا أفكر فى عناصر الوضوع ، وطريقة الدخول اليه وأستجمع له الخواطر الشاردة ، والأفكار الطافية فوق هموم العيش والإفلاس ، إذ بطارق يقرع علىّ الباب ثلاث قرعات متوالية ، ثم يقتحم الغرفة بدون استئذان ، ويجلس بالقرب منى على مقعد خشبي قديم ، أشبه ما يكون بمقاعد مقهى المتالين فى باب العامود . وكانت بادرة الفكر أن أحوله عن هذا المقعد الوضيع الذى لا يتفق ومكانة الزوار ، ولكنه تشدد علىّ وأبى إلا أن يلازم مكانه الذى ظل جالساً فيه وكأنما يستجمع قواه ليقفز

كان طوالاً أجنأ ، ياسرَ الوجه ، أرمَ الثنية اليسرى ، متفطرفاً وعواعاً ، قد تفشّغ الشيب فى لمته وذقنه الحليق ، توضحتهُ فتبينت فى أسارير وجهه قصة طويلة ، إلا أنها خفيّةُ المنى ، عديمة الإبانة ، غامضة الإشارة ، فألقيت عليه تحية المساء ، ثم سكتُّ علّه يبدأ الحديث ، ولكنه ظلّ مُبرطما ، ينكث السجادة بعصاه دون أن ينبس ببنت شفة ، فتهمتُ كمادتى ؛ فحدجنى بنظرة شزرة حسبت فيها سخط الإنس والجن ، ثم أخذ يتثاءب ويتمطى ، فكأنما كان يحمل حملاً ثقيلاً أزيح عنه بالتثاؤب ، إذ انبسطت أسارير وجهه ، وزال برطامه ، ولكنه ظل مع ذلك مطرقاً لا يتكلم ؛ فاستثقلتُ جلستهُ — كما قد يستثقل القارئ هذا الحديث — وقلت لنفسى لا بدّ من أن أستدرجهُ إلى الحديث وإلا فهذا المجلس المكروه إن طال سيضيّق عطنى ، ويستفز كامن عصبيتى ، فاهتبلت فرصة تثاؤبه وابتدرته بالحديث قائلاً :

— الحمد لله على سلامة الشيخ

— وهل يعرف المتعلمُ رباً فيحمده ؟ ... أنت ملحد ... كافر ... درزى لا دين لك

—(فتذكرت الحكمة القائلة : داروا سفهاءكم) درزى...! أليس للدرزى دين ... ! يا شيخ كيف تتهمنى بالكفر ؟

— كيف أكفرك ... ! ألست مسيحيًا أبًا عن جد ؟

— بلى ! وليت ذلك لم يكن ؛ إذن لكنت حرًا فى نوع صوفيتى مع الله ؟ وفى تكوين عقيدتى بالله ... !

— أفلا تعتقد بقول المسيح : من ليس معى فهو علىّ ؛ وبقوله يخاطب الكهنة : من سمع منكم فقد سمع منى ، ومن احتقركم فقد احتقرنى ؟ ثم ألست الزاعم بأن الإكليروس هم إنكشارية الدين المأجورون ؟ وذلك نصرة لبدعة فاسدة ادعاها رجل كاذب يدعى محمد . قل لى هل يستوى النور والظلام ؟

— لا . لا يستويان

— فكيف إذن تجمع بين المسيح — الذى هو طريق الحق والحياة — ومحمد ؟ وكيف تدافع عن محمد وأنت من جند المسيح ؟

— يا سيدى ! ... قل لى ، أمن الإيمان أن تمتهن بقية العقائد ؟ .. ثم ما رأيك فى الشريعة الموسوية ؟ .. أليست — فى حكمك — شريعة كاذبة لأنها ليست من تشريع المسيح ؟ .. وهل كان الرسل لينسخ اللاحق منهم شريعة السابق أم ليكملها ؟ وهل فاتك قول المسيح ما جئت لأنقض بل لأتمم ؟ .. فموسى ومحمد إذن حكمهما من حيث الصدق والكذب واحد

— حاشا ! حاشا أن أعتقد ذلك . فشتان بين موسى كليم الله الذى أنقذ أمته ، وجعل العصا فى يد فرعون حية ، وأخرج من الصخر الأصم مياهاً نقية ، وبين محمد — نبيك — الذى لم تؤثر عنه مكرمة ، ولا سمت له معجزة

— وأية مكرمة أفضل من إخراج محمد قومه من حظيرة الشرك إلى حظيرة التوحيد ؟

— ليته لم يفعل ذلك . إذن لسهل على المسيحية أن ترد هذه الخراف الضالة إلى قطيعها

— ولم لا تردها الآن ما دامت ضالة عن القطيع ! ...

— هيهات ذلك ، هيهات أن يفلت الحمل من مخلب الذئب

— بل هيهات أن يسلم الذئب من رصاصة الراعي وعصاه ، وأن يصل الباطل إلى قمة الحق وذراها . والآن دعنا نحسم هـذا الجدل العنيف ، وقل لي ما الذي تشترطه على محمد لتتم له النبوة ؟

— الأمر واضح فلا نبوة بغير معجزة

— وأنا معك في ذلك ، وإلا لادعى النبوة كل مشعوذ ، ولصار النـاس جميعهم أنبياء . والآن أعرني سمعك لأبين لك معجزة الاسلام

لقد كان العرب في جاهليتهم يعبدون إما الأصنام التي كانوا يقيمونها من بعض الحجارة والمعادن ، وإما بعض مظاهر الطبيعة المتعددة ، كالشمس ، والهواء ، والبحر ، والسماء ، ولـكن العربي البدى لم يكن يقدم لآلهته هـذه التي راح يلتجيء إليها كلما حز به أمر ، أو داهمه خطر ، الذبائح والقرابين ، ولا كان يقيم لها الشعائر الدينية والمراسيم ، كما كان يفعل الأشوريون والفينيقيون ومن إليهم ، بل لم يكن يتحرج عن إهانتها وتحطيمها ولاسيما إذا استقسم عندها بأقداحه فخرج منها مايكره — كما فعل امرؤ القيس بن حجر الـكندي — ذلك لأن العربي في الجاهلية كان قلما يهتم بما وراء الطبيعة

ولقد تسربت اليهودية والمسيحية إلى جزيرة العرب فارتدتا عنها بالاخفاق والفشل ، ذلك لأن أحلام الأولى وآمالها ، وأسرار الثانية ومعمياتها ؛ فمن إلـه متأنس ، إلى رب مصلوب ، إلى أقانيم ثلاثة بجوهر واحد ، إلى استحالة الخبز والخمر إلى جسد ودم ؛ كانت جميعها مما ينفر منها الطبع البدوي الساذج ، أما الاسلام وإن اصطدم بالعنجهية العربية ، وتصارع مع وثنية البادية حيناً من الدهر ، فإنه تمكن أخيراً من أن يظهر عليهما بالنصر ، ذلك لأنه دين يتساوق مع العقل والقلب ، ويسوى بين الدين والدنيا ، ويجمل الفقير بذمة الثري ، فهو في حقيقته مجموعة قواعد خلقية سامية ، ومبادئ اجتماعية مثلى ، وهل الدين في حقيقته إلا إصلاح النفس والأخلاق في الفرد ، وإقامة الفضيلة واجتثاث السوءآت في المجتمع ؟

ولئن كانت معجزة موسى أن حول العصا أمام فرعون حية ، لقد كانت معجزة الاسلام أبلغ منها ، ذلك لأنه حول مادية النفسية البدوية الضارية التي طبعت على حب الغزو والنهب ، وعلى استباحة المنكرات إلى شعلة روحية تشع في أرجاء الـكون بنور المبادئ العالية ، والفضائل السامية

ولِمَ نذهب بعيداً في الاستدلال ؟ وهذا البدوي الجلف ، الذي كان بالأمس ينفر من ظل الدين ، ويستحل جميع أنواع المنكرات ، ولا يتحرج من سفك الدماء البريئة باسم مجد القبيلة وجاهها ، تثخنه اليوم باسم الدين والتوحيد أسـنة المشركين في أحد جراحاً ما زالت تثعب دماً ، وتمزق إهابه نبال الفرس في القادسية وقسي الروم في اليرموك ، فيستقبلها بصدر عامر بالإيمان ، ويستمرئ آلامها غير جزع ولا هياب ، ذلك لأن معجزة الإسلام أخرجت نفسه من حدود هـذا العالم المادي الضيق الذي يتعين بجهات الأرض الأربع ، إلى عالم روحي فسيح يتعين بعقيدة التوحيد ، وبحدودها الأربعة : التي هي : التقوى في الدين ، والحرية ، والإخاء ، والمساواة في الدنيا

ولئن كان فتى الجزيرة قبل الإسلام راعي إبل وغنم ، تختلف عنقه بين نيرى الفرس والروم وتصعّرُ خدّه أيدي الغزاة الطامعين من بقية الشعوب ، فإنه اليوم بفضل المعجزة الـكبرى التي تزحزح لإشراقها أسّ الإيوان ، وانصهر من حرارتها التاج والصولجان ، قد فتح ثلثي الـكرة الأرضية في أقل من ثلثي قرن . فهذا خالد بن الوليد الذي لم ينهزم قط في حياته يفتح دمشق ، وهذا عمرو بن العاص يوغل في الديار المصرية ، وهذا طارق بن زياد يعبر المضيق الذي لايزال يحمل اسمه حتى اليوم ، يريد أن ينفذ من الشطوط الأسبانية إلى سفوح جبال البرنيه ثم إلى غسقونيا وبوردو . وهذا موسى بن نصير يسرح بخيول مضر وعدنان في شرق الأندلس وغربها ؛ في قرطبة وطليطلة ، وأشبيلية ، وقادس ، وغرناطة ، وغيرها

ثم انظر إلى هـذا الفتى الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر بعد ، كيف اخترق السند وظل ممعناً بفتوحاته ، حتى أدخل الهند ضمن الامبراطورية الاسلاميـة . أليس بفضل معجزات الإسلام يربط هذا الفتى « تورس » غرب باريس ببحر الهند على ما بينهما من الشقة الواسعة والمسافة النائية ؟

أفلا يعد معجزة فى الإسلام أن يضاهى عصر المأمون فى بغداد عصر بركليس فى أثينة ، وعصر الناصر فى الأندلس عصر أغسطس فى رومية ؟ ونحن الذين كنا بالأمس نرعى الإبل والشاء ونأكل الضباب والمظاة

انظر إلى ما يقوله فينا « غوستاف لوبون » فى كتابه « La psychologie Politique » زعم المؤرخون أن التأثيرات العلمية والأخلاقية العجيبة التى أثرها المسلمون فى العالم كانت بفضل ماديّاتهم ، ولكن لا يصح اليوم أن نجهل ان هذه المؤثرات قد دامت فى مجراها حتى بعد أن أضاع المسلمون ماديّاتهم ونفوذهم السياسى ، فإن المسلمين فى الصين يزيدون على عشرين مليوناً ، وفى الهند على خمسين ، ولا يزال هذا العدد فى نمو ، وإن المسلمين بعد الرومان هم الأمة المدنة الوحيدة التى نجحت فى نقل تهذيبها الاجتماعى ودينها وأوضاعها وعلومها إلى العناصر المختلفة التى افتتحتها وتسربت بينها . هذه التأثيرات لا تضمحل بل على العكس نراها آخذة فى النمو ، تتعدى الحدود التى بلغتها فى أيام القوة المادية .

إن القرآن وما اشتق منه هو إلى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الناس الأولية ، حتى أن قبوله آخذ حكمه على مر الدهور لا يعوقه عائق ؛ وحيث ينزل المسلمون ، ولو كانوا تجاراً سذجاً ، تتدخل أوضاعهم ومعتقداتهم . وكلما توغل الرواد من أهل المدنية الحديثة فى صميم أفريقية شاهدوا قبائل تنتحل الإسلام . والمسلمون الآن يعدون قبائل أفريقية على نحو ما يستطيعون ويجاهدون فى تلك القارة الغريبة ، على حين يطوف الأوربيون فى الشرق فاتحين كانوا أو متجرين ولا يتركون وراءهم أثراً لنفوذ أدبى ...

أفبعد هذه الشهادة تطلب من الإسلام معجزة وله فى سجل التاريخ مثل هذه الصفحة الرائعة المجيدة ؟

(شرق الاردن) خليل جمعة الطوال

العــدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة

أثر حروب محمـــد على
فى الأدبى الألمـانى والفرنسى

للأديب السودانى المبارك ابراهيم

لم يكد يتولى محمد على الكبير حكم القطر المصرى باسم الدولة العلية ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، حتى بات يتحين الفرص لبسط ظله على الأقطار المجاورة . ففى عام ١٨١٨ م انتصر على الوهابيين فى الأراضى الحجازية . وفى عام ١٨٢١ م وحد بين شطرى وادى النيل بضم السودان لمصر ، وفى عام ١٨٣٢ م كانت بلاد الشام تدين بالطاعة والولاء لمحمد على

وعند ما توترت العلاقات بينه وبين حكومة الباب العالى سير جيوشه ليغزو تركيا ويخضعها لسلطانه ، بدلا من أن يظل هو خاضعاً لسلطانها : ففى ديسمبر ١٨٣٢ هزمت الجيوش المصرية الجيوش التركية هزيمة منكرة ، وباتت على مسير بضعة أيام من استامبول عاصمة سلاطين آل عثمان !

لقد كان طموح محمد على إلى السيطرة والحكم لا يقف عند حد ، إذ كان يتوق إلى إنشاء امبراطورية مصرية مترامية الأطراف لا تغيب عنها الشمس !

على أن هذا التوسع الاستعمارى من جانب محمد على لم يرق الأسد البريطانى ، فوقف فى طريق محمد على يزمجر غاضباً ويكشر عن أنيابه ويلوح بذيله ! وتحت ضغط الظروف القاهرة اضطرت جيوش محمد أن تنسحب من الأراضى التركية قبل أن يهاجمها هذا الليث الانجليزى المصور ، وغيره من دول أوروبا التى لا يرضيها تقدم الحكام الشرقيين فى الميادين السياسية والحربية ، وبهذا التدخل من قبل الدول الأوروبية ، بات الرجل المريض « تركيا » فى مأمن من مداهمة محمد على له والإجهاز عليه لأن هذه الدول الأوربية كانت تطمح فى الاستيلاء على تركة الرجل المريض « الأراضى التركية » واقتسامها فيما بينها . وقد وضعت هذه الدول أيديها فعلا على معظم هذه الأملاك التركية

وفى عام ١٨٤٠ م أبرم الأسد البريطانى ، والدب الروسى ، والنسر البروسى ، اتفاقية سياسية تدعى اتفاقية لندن ،

فكان فيها القضاء المبرم على الامبراطورية المصرية التي كان يحلم بإنشائها ذلك الحاكم الشرقي العصامي العظيم محمد علي . إذ قسرته هذه الاتفاقية التي تآمرت فيها هذه الدول عليه أن يتخلى عن الولايات التركية التي استولى عليها بحد السيف في بلاد الشام وشبه جزيرة العرب

هذا ، ولما كانت فرنسا صديقة لمحمد علي ، تقف إلى جانبه وتشد أزره ، فقد سلبتها هذه الاتفاقية هي أيضاً حقها في الشاطئ الأيسر من نهر الرين ، ومنحته لألمانيا فعسكرت فيه بعض كتائبها

ومن جراء هذه الاتفاقية التي أضاعت جزءاً من أملاك فرنسا تحمس الرأي السياسي العام في باريس ، حتى أن الملك لويس فيليب نفسه صرح بأنه مضطر إلى لبس القبعة الحمراء ، وأن ينزع عن النمر كمامته . وهو يعني بذلك المناداة بالثورة الحربية في وجه ألمانيا

* * *

وبعد هذا التمهيد نقول : إن هذه الأزمة السياسية الدولية التي سببتها حروب محمد علي قد دعت إلى صراع أدبي عنيف بين أدباء ألمانيا وفرنسا ترك أثراً حياً في الشعر الألماني والفرنسي

قالوا إن الشاعر الألماني بيكر كان جالساً ذات يوم مع أصدقاء له في إحدى الحانات ، يشرب الجعة ويطالع الصحف السياسية الواردة من فرنسا . وبعد أن رجع الشاعر إلى داره نظم وهو تحت تأثير نشوة الخمر وحماسة السياسة ، قصيدته « أنشودة الرين » فما كادت تنشر حتى لحنت وراح يترنم بها الألمان في غدواتهم وروحاتهم

والقصيدة هي :

لن ينالوا الرين ذلك النهر الألماني الحر
وإن كانوا يطلبونه بنعيبهم كالغربان الجشعة ؛
لن ينالوه ما دام يترقرق ساكناً في ثوبه الأخضر ؛
وما دام هنالك مجداف يضرب في مياهه !
وما دامت الصخور قائمة وسط مجراه !
وما دامت الكاتدرائيات الشاهقة تعكس خيالها في مرآته !

لن ينالوا الرين ذلك النهر الألماني الحر
لن ينالوه ما دام الفتيان الحديدو القلوب يغازلون الفتيات المشوقات القوام !
وما دامت هناك سمكة تسبح في أعماقه !
وما دام على شفاه المنشدين أنشودة تردد !
لن ينالوا الرين ذلك النهر الألماني الحر
لن ينالوه حتى تدفن عظام آخر رجل في طيات أمواجه !

ولما ذاق الشاعر الألماني بيكر حلاوة الشهرة عقب ذيوع هذه الأنشودة ، بعث بنسخة منها إلى شاعر فرنسا الكبير : لامارتين ، وكان ذلك منه على سبيل الأدب والتحدي معاً !

غير أن لامارتين كان داعية سلم ووئام ، ولم يكن في يوم من الأيام بوقاً للحرب والخصام ؛ وكان يقول : أنا ابن الإنسانية قبل أن أكون ابن فرنسا ؛ ولتهلك أمتي إذا كان في هلاكها حياة الإنسانية

ولهذا جاءت قصيدته في الرد على الشاعر الألماني تفيض بروح المحبة والسلام . وقد دعاها فعلاً : «مارسيليز السلام» ومنها :

يا نهر الرين ، يا نيل الغرب !
يا كأساً تستقي منها الأمم !
سر حراً متكبراً في مجراك بين عرض شاطئيك !
واحمل في طياتك مطامع الشعوب الساكنة المرتوية من مائك الشبم !

لن يدنس بعد اليوم بلور مياهك دم الفرنسي الأحمر ، ولا دم الجرماني الأزرق ، كما أن البارود لن يقوض بعد اليوم الجسور الممتدة فوقك بين الشعبين كاليد الممتدة للمصافحة !

سر في مجراك يا نهر
ولا تبال إذا كان الذين تحملهم أو ترويهم هم قاطني شاطئك الشرقي أو الغربي
وطن كل إنسان هو الإقليم الذي يمتد إليه عقله ، فأنا مواطن لكل إنسان يفكر ، فالحقيقة هي بلادي !

النسر والثور يشربان من مياهك . فليقترب إذن الإنسان من أخيه الإنسان وليشربا من مياهك !

* * *

وعند ما نشر رد لامارتين هذا على أنشودة الشاعر الألماني قابله الشعب الفرنسي بشيء من الفتور عظيم ، وذلك لخلوه التام من الروح الحربي والحماسة الوطنية ، حتى أن فريقاً من

النقاد اتهم لامارتين ظلماً بعدم الاخلاص للوطن في حين أن الشاعر معروف بوطنيته الصادقة ، ولكنه كان يمقت الدعاية للحرب وإراقة الدماء البريئة ، وترميل النساء ، وتيتيم الأطفال ، وتخريب المدن الجميلة العامرة

***

ولقد كانت الصالونات الأدبية في باريس في ذلك الأوان لا حديث لها إلا « أنشودة الرين » لبيكر ، و « مارسيلييز السلام » للامارتين .

وكان صالون مدام جيرارون غاصاً ذات يوم برهط من أدباء فرنسا وعلى رأسهم الشاعر الشهير : ألفرد دى موسيه ، وكان الحديث يدور رد لامارتين ، فانبرت ربة الصالون تقول :

لا مشاحة في أن قصيدة لامارتين آية في البلاغة ، ولكنني كنت أوثر رداً أكثر إيلاماً منها ، فأنا متطرفة في الوطنية ، ولا تزال عقيدة الوطن راسخة في ذهني . وكم كنت أود لو تصدى واحد من شعرائنا لذلك الشاعر الألماني المتحمس ، فكال له الصاع صاعين ! فقال لها ألفرد دى موسيه : وأنا على رأيك يا سيدتى . وهنا صاح به الحاضرون : عليك بالرد إذن ... عليك بالرد ، وقد أحاطوا به ملحين . ثم اقتادوه إلى حديقة الدار ، وأوصدوا باب الصالون دونه ، بعد أن زودوه بالورق والقلم ، ولفافتين من التبغ ! ولم يمض إلا وقت وجيز حتى أتوا إليه فوجدوه قد أحرق اللفافتين ، ونظم القصيدة التالية في الرد على نشيد الرين ، وهى : —

قد نلنا الرين نهركم الألماني !

وقد وسعه جام من جاماتنا !

فهل لأنشودة يسير بها القوم هازجين أن تمحو الأثر العظيم الذي تركته حوافر جيادنا المصبوغة بنجيع دمائكم ؟!

قد نلنا الرين نهركم الألماني !

فان في أحشائه جرح يسيل دامياً من عهد ما مزق « كونديه » القائد الفرنسي الظافر ثوبه الأخضر !

ولا شك في أن الأبناء لمارون حيث مر الآباء !

قد نلنا الرين نهركم الألماني !

أين كانت فضائلكم الجرمانية يوم كان بابليون القدير يبسط ظل سلطانه على سهولكم ؟!

وأين وقع آخر عظم من عظام رجالكم ؟!

قد نلنا الرين نهركم الألماني !

فإن كنتم نسيتم تاريخكم ، فإن بناتكم أكثر احتفاظاً بذكرانا منكم ، فقد صببن في كؤوسنا نبيذكم الأبيض !

قد نلنا الرين نهركم الألماني !

وإذا كان الرين لكم فاغسلوا فيه ثيابكم

وإذا ما تكلمتم عنه فاخفضوا الصوت ، فكم كنتم من غربان في اليوم المصيب حول النسر المحتضر : بابليون

فليتدفق نهركم الألماني بسلام

ولتنعكس صور كاتدرائياتكم النوطية في مياهه !

ولكن احذروا ، فإن أناشيدكم الحربية قد توقظ الأموات من رقادها الدموى !

***

فما كاد موسيه ينتهى من إنشاد قصيدته النارية على السامعين حتى دوى المكان بالتصفيق وتعالى هتاف الاستحسان والتقريظ

وعندما تلقت القصيدة الصحف الفرنسية نشرتها في أمكنة بارزة ، مشفوعة بالتهليل والتكبير

وقد ازداد بسببها هياج الرأى العام في فرنسا والمانيا

وكان من الضباط الألمان من أرسلوا إلى الشاعر الفرنسي دى موسيه رسائل يدعونه فيها للمبارزة !

ولكن دى موسيه أجاب : إذا لم يكن من المبارزة بد ، فهو لا يبارز إلا رصيفه الشاعر الألماني بيكر . ولكن بيكر لم يلب الدعوة

***

ويقال إن هذا الصراع الأدبي بين شعراء فرنسا وألمانيا في عام ١٨٤٠ م كان من ضمن الشرر الذى أشعل نار الحرب بين الشعبين بعد مضى ثلاثين سنة ، عام ١٨٧٠ م ، وهى الحرب المعروفة في تاريخ أوروبا بحرب السبعين

أم درمان سودان **المبارك ابراهيم**

في وجه الثورة على الأخلاق

للأستاذ أمين الخولي

الأستاذ بكلية الآداب

يا صاحب الرسالة

أبلغت قراءك ثورة محمود على الأخلاق فتحدث إليه الأستاذ عزام، وسكت محمود حين امتلأ بطنه؛ لكن كان المجلس حافلا بغير محمود من رجال العلم والدين والأدب، فكانوا كلهم لمحمود وعلى عزام ... وإنما كان موضع الجدل أن الأخلاق الفاضلة لا تصلح أن تكون عدة النجاح إن لم تكن عدة الفشل ... وأن هؤلاء الطيبين الأخيار الذين وصفهم الأستاذ عزام بالقناعة، وخصهم بالرضا، لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً ما من رجال المال والأعمال كصيدناوي والبدراوي وعبود (١)

فلنسأل الثائرين عن هذا ثم ننتقل إلى غيره: لم لا تصلح الأخلاق الفاضلة أن تكون عدة النجاح؟ هل يتحدث الواقع الصحيح بهذا؟ لا أظن؛ بل أعتقد دائماً أن فشل الفاشلين لعجزهم أو ضعفهم أو نقصهم يملل بالفضيلة والأخلاق. وإلا فهل خرج إلى ميدان واحد من الحياة رجلان تساوى فهمهما لهذه الحياة، وتساوى تسلحهما لما يبغيان من غاية، وكان أحدهما نبيلا، والآخر فسيلا، فنجح الثاني وسقط الأول، أو نجح الثاني أكثر من نجاح الأول، بغير فارق إلا فضيلة الأول ورذيلة الثاني؟ لا أظن، فلو كانا في عمل حر ولهما هذا التساوي التام لأكد الواقع أن أي مجتمع مهما اشتد فساده سيجد في فضيلة الأول نوعاً من الدقة والثبات، وسبباً للطمأنينة إليه، ويدفعه كل أولئك إلى الإعجاب به وإيثار معاملته؛ بل لا أشك في أن الثاني السافل لن ينجح إلا إذا اصطنع هذه الفضيلة وحقق آثارها بل ادعاها في غير مناسبة كما هو شأن أعداء الفضيلة دائماً. ولو تخلفت هذه النتيجة فنجح النذل أو زاد نجاحه لغير فارق آخر بين الرجلين فما أظن هذا يكون إلا عن نسبة من الندرة تؤكد القاعدة ولا تهدمها؛ وأنا كفيل بأن تجد دائماً في مثل هذه الحالة فارقاً في الكفاية والاستعداد واليقظة وما إلى ذلك

(١) من عبارة الأستاذ الزيات في العدد ٢٣١ من الرسالة بتصرف اقتضاه إدماج العبارة لا غير

وإن ذهب وهم القارئ - كما ذهب وهم أصحاب هذه الثورة - إلى أن النذل سيصطنع بعد الكفاية والاستعداد أساليب منحطة لا يلوى عليها النبيل، فقد فاته أن يقظة النبيل تقضي عليه باحتياط نبيل لهذه الأساليب، وعمل على كشفها وفضحها، وإلا كان ناقص الاستعداد محدود الفهم لواقع الحياة ونذالة الأنذال، وعاد النقص على استعداده ولم يكن الذنب لفضيلته

هذا حين يتحد الميدانان؛ لكن الثائرين سيقولون إن الميادين متعددة وسبلها إلى الوصول مختلفة، وسيتخير النذل أقصرها وأسرعها فيصل في غير مشقة، على حين يكد الفاضل فيصل متأخراً ولا يصل إلا لبعض الشيء. فهب أحدهما اتجر في الغلال أو الأقطان لأنه فاضل، واتجر الثاني في المخدرات أو الرقيق الأبيض لأنه لا يبالي؛ حسن، سيربح الأول ربحاً يسيراً ثابتاً غير مهدد بالتضحية من أجل حمايته أو الوصول إليه لأنه أكشف الوجه واضح الطريق، ربحاً غير مهدد بالمطاردة، غير مهدد بالمخاطرة، غير مهدد بالمرض وقصف العمر سريعاً؛ وسيربح الثاني ربحاً وافراً سريعاً يبذل غير القليل منه لحمايته أو الوصول إليه، ربحاً مهدداً بالخطر، مهدداً بقصر العمر إثر الجهد والاحتيال والمجازفة، بل مهدداً بالموت السريع، والفضيحة العاجلة ... إلى آخر ما لا أزعج القارئ به من آفات تكفي أيسر نظرة متأنية لتبينها وتشهد بأن لذة زوجة شريفة من زوجية غير سعيدة أكثر في مجموعها وأقوى في جملتها من لذة مومس هائلة، لا تزيد حياتها في ذلك على بضع سنوات حين تطول حياة الزوجة عقوداً بعد تلك السنين. والعملية الحسابية المادية تحدث نتيجتها دائماً لو أحسن حساب اللذائذ والآلام، والخسائر والمكاسب بأن الفضيلة قد اختيرت لعائدتها فوق ما فيها من النبل، وأن ليس الفشل لسبب خلقي بل لغيره دائماً

وهنالك الوظائف والدواوين لجريان الأمر فيها على الهوى واضطراب السياسة قد تظهر ميداناً غير خاضع لهذه القاعدة، ميداناً قد ترتفع فيه نسبة الشذوذ والتخلف، لكن حتى هذا الميدان تنتهي فيه النظرة المتأنية إلى تلك النتيجة نفسها، فلو دخله موظفان قد تساويا في كل شيء، واختلفا في الخلقية لم يهن أن ينجح النذل لنذالته لا غير إلا حين يسلك طرائق يأباها الشريف فيتقدم هذا كلما اضطرب الميزان وضعف الرئيس، لكنه تقدم غير مطرد؛ إنه تقدم مهدد بمثل ما يهدد تاجر المخدرات أو قريباً

منه طفرة سريعة ونكسة غير بطيئة؛ ولا أقل من ألم الخوف والفزع بعدم ثبات الحالة، وتغير السيد، والرأس الناكسة، والعجز عن دعوى الفضيلة والكرامة التي يحرص مثل هؤلاء على ادعائها. آلام تنتهي بها العملية الحسابية إلى قريب من نتيجتها المطردة؛ وفي الجانب الثاني لذائذ لا يرضى الشريف أن يدع مكانه مستبدلا بها آلام خصمه، ولو ساومته على ذلك لرفض. هذا إذا كان كل الفرق بينهما الأخلاق؛ أما إن وجدت شيئاً وراء ذلك كما هو الكثير الغالب، بل الذي يقع دائماً، من لباقة وحسن بيان، ومعرفة بالرغبات، ومرونة في العمل، وطلاقة وجه، وما إلى ذلك، فقد عادت اللائمة على وخامة الثاني ونقصه لا على أخلاقه، ولم تكن الأخلاق سبيلا إلى الفشل ولا عائقاً عن النجاح

وأما دعوى الثورة أن الطيبين القانعين المخصوصين بالرضا لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً ما من رجال المال والأعمال كفلان وفلان فدعوى يقول الأستاذ الزيات على لسان أصحابها: ما معنى أن يظل التواضع والقناعة والزهد والمداراة والتوكل على اطلاقها فضائل؛ كما يقول: أليس صلف الإنجليزي أبلغ في العزة، وطمع الفرنسي أليق بالحياة، وطموح الإيطالي أخلق بالرجولة، وصراحة الألماني أدعى إلى الهيبة، واستقلال الأمريكي أضمن للفوز؟

تلك هي الدعوى؛ لكن هذا المعنى للفضائل التي عدت معنى لا تعرفه خلقية دينية، ولا تقره خلقية فلسفية؛ فانما التواضع أن تكون رفيع القدر فلا تتغطرس، وليس التواضع اتضاعاً. وإنما القناعة أن تملك فلا تشره، وليست القناعة ترك مادة الحياة وافساح الطريق لعاد أو غاصب. وإنما الزهد أن تستطيع فلا تنهم، وليس الزهد العجز عما في الدنيا والحسرة على ما في أيدي الناس. وإنما التوكل أن تقدم واثقاً لا أن تحجم عاجزاً. وأما المداراة فما عرفناها بين الفضائل. والخلق والدين يقرران أن صلف الانجليزي قبيح أفضل منه عزة المؤمن الذي يرى العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فحسب. وطمع الفرنسي قبيح أليق منه قيام المتدين وذي الخلق بحق الحياة وواجبها. وطموح الايطالي مفتعل أصل منه تلك العزة الروحية وهذا الإباء الساعي لإعلاء كلمة الحق، المتقدم إلى الدنيا بمهمة اجتماعية، وعمل إنساني يرغم من أجله ويجهد في سبيله. واستقلال الأمريكي بعض مغامرة الذي يقدم واثقاً باحدى الحسنيين. وصراحة الألماني بعض شجاعة الذي

لا يخشى في الحق لومة لائم. وما هذا الذي يعيب الثائرون من صور التواضع المتضع، والزهد العاجز، والقناعة المحرومة، والتوكل الخامل، إلا صور لاتعرفها الأخلاق ولا يفشل أصحابها لأخلاقهم بل يفشلون لفشل أخلاقهم

وأما هذا الربا الذي جاء في عداد تلك الأخلاق فمسألة اقتصادية عملية، لا خلقية أدبية؛ وهي فكرة اقتصادية، يقرن فيها النظام الاسلامي الكامل الذي قررها بالنظم الاقتصادية الأخرى ليحكم لهذا أو ذاك، وليست تلك المسألة من أسباب الثورة على الأخلاق في شيء

* * *

ويعرض الأستاذ الزيات على لسان تلك الثورة أن يكون مقياس الفضائل والرذائل هو النفع والضرر، فما كان مؤدياً إلى منفعة سمي فضيلة، وما كان مؤدياً إلى مضرة سمي رذيلة. وهذا مقياس لا يأباه الدين ولا الخلق، فالمذهب النفعي قديماً وحديثاً معروف بين مذاهب الخير؛ ولكن ليس بهذا اليسر والسهولة التي تفهمها الثورة على الأخلاق، وتأخذ فيه باللمحة الطائرة. فما المنفعة المحكمة؟ وما المضرة المتقاة؟ أمنفعة الفرد أم منفعة الأسرة أو الأمة أو العالم؟ آلمنفعة المادية الحاسية أم النفعة المعنوية العقلية أم هما أم فرع منهما وما هو؟ آلمنفعة العاجلة أم النفعة الآجلة أم هذه وتلك؟ ومتى تكون هذه ومتى تكون تلك؟ وإذا تعارضت منفعة ومضرة فكيف يوازن بينهما وبأي شيء؟ وإذا وجدت منفعتان في عملين فكيف يفاضل بينهما وبأي شيء؟ وإذا وإذا... من مضايق شائكة يسلكها الباحث ليخرج منها بمقياس للأخلاق منفعي. وقد انتهى كل أولئك الباحثين على اختلاف ما بينهم إلى أن هناك فضيلة ورذيلة، وأحبوا هذه، وثاروا على تلك؛ فلن يكون تحكيم المنفعة منهياً للثورة على الأخلاق. وهأنذا قد حكمت المنفعة فيما مضى من موازنة بين نجاح تاجر النلال وتاجر المخدرات فلم تخرج النتيجة شاهدة بفشل الأخلاق

وأخيراً يا صاحب الرسالة: اسمح لي أن أحملك رسالة إلى الثائرين. قل لهم: استعدوا للحياة بعد فهمها فهماً صحيحاً قبل أن تلقوا تبعة فشلكم على الأخلاق. ولا تحكموا على الفضائل بعمل الناس فتحكموا بفشل الأخلاق، لأن للفضائل حقائق تبثت على الاختبار، وأيدتها التجربة بعد بحث لا تزال الإنسانية تمنحه قوتها وجهدها. وانظروا إلى النتائج البعيدة والقريبة للأعمال،

أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٢٦ —

لقد دلف إلىّ وجلس إلى جانبى ولكنى لم أستيقظ . يا لتعس هذه النومة ، ويا لشقاوتى !

جاء والليل ساج وفى يده قيثاره ، فرن نغم لحنه العذب خلال أحلامى

يا أسفا ، أهكذا تضيع ليالىّ ؟ آه ، لماذا أحرم — دائماً — النظر إليه وأنفاسه تداعبنى فى نومى ؟

— ٢٧ —

النور ؟ أوه ، أين هو النور ؟ أشعله بنار الرغبة المتأججة

ها هو المصباح ولكنه لا يضىء أبداً ؛ إنه مظلم كحظك يا قلبى ! آه ، إن الموت خير لك

إن البؤس يقرع بابك ليوحى إليك بأن سيدك يقظان يناديك إلى ميعاد الهوى فى غسق الليل

السماء مثقلة بالغيوم ، والمطر ما يبرح يهطل مدراراً ، وأنا لا أعرف ماذا يضطرب فى جوانحى ، ولا أعى له معنى

إن وجهى يكفهر لومضات البرق ، وقلبى يتلمس طريقه إلى حيث موسيقا الليل تناديه

النور ؟ أوه ، أين هو النور ؟ أشعله بنار الرغبة المتأججة !

السماء ترعد ، والرياح تهب هوجاء تملأ الفضاء ، والليل قاتم كالصخرة السوداء ؛ فلا تدع الظلام يخيم علينا ، واشعل مصباح الهوى بنور حياتك

— ٢٨ —

إن صلابة الرأى عقال يتألم قلبى حين أحاول أن أتخلص منه

إن الحرية هى كل ما أبتغى ، وأنا أستشعر الخجل حين أتمناها

أنا أومن بأن بين يديك الثراء العريض ، وأنك أنت صديقى الحميم ، ولكنى لا أجد فى نفسى الجرأة على أن أزيل كل ما يملأ حجرتى من بَهْرج

إن هذا السجف التى يسترنى هو كفن من التراب والموت أنا أبغضه غير أنى أضنى به

إن ديونى كثيرة وخطاياى أعظم ، وعيوبى التى أخفيها فى نفسى تثقلنى ؛ وحين أنطلق لأطلب إليك الاحسان تسيطر علىّ رعدة شديدة خشية ألا تتقبل صلاتى

— ٢٩ —

إن فى هذا البناء — جسمى — شبحاً يذرف الدمع فى خلوته ، وأنا دائماً فى شغل شاغل أشيد حوله سوراً عالياً ، وعلى مرّ الأيام ارتفع سَمْكه فعميت عن حقيقة وجودى وأنا فى ظلامه القاتم

لقد أخذتنى العزة بهذا السور الشامخ فاندفعت أطليه بالطين والرمل خشية أن تكون به فُرجة ، ولكن ما بذلت من جهد أعمانى عن حقيقة وجودى

— ٣٠ —

ها أنا أتيت وحيداً لأفى بوعدى ؛ ولكن من هذا الذى يتبعنى فى دجى الليل وسكونه ؟ وعبثاً تحولت عن طريقى لأضلله

إنه يثير الغبار وهو يمشى الخيلاء ، وهو يردد قولى فى صوت أجش

إنه روحى الضئيل — يا إلهى — وهو لا يستشمر الخزى ، وأنا أستحى أن أجئ بابك برفقته

— ٣١ —

قلتُ : « يا أيها السجين ؛ خبرنى ، من ذا الذى قيدك هنا ؟ »

ودققوا فى الموازنة بين فاشل وناجح قبل أن تحكموا بأن هذا فشل لأخلاقه دون غيرها ، وهذا نجح برذائله دون غيرها . ولا تظنوا طيبة القلب وسلامة الضمير والبعد عن إيذاء الناس وسائل وأسلحة تكفى وحدها للنجاح كما ظن ظانون أن الايمان وحده كاف لهزيمة الأعداء ؛ لأن الله قد سير هذا الكون على نواميس لا تتخلف ، وجعل للنزات المبنوية والنفسية مرجحات بين من تساويا مادياً وفهما النواميس فهماً واحداً ؛ وبدل أن تهيب بدهاقنة الدين وفلاسفة الأخلاق أن يتدخلوا فى سوق الفضائل معدلين ، أهب بزعماء الثورة أن يتدخلوا فى تقدير الحياة مدققين ؛ فإن ناروا بعد ما كلفت لهم هذه الدقة فعلى الدهاقنة أن يعيدوا النظر فيعدلوا ويحوروا

أمين الخولى

قال: « هو سيدى ، لقد ظننت أنى أبذ كل إنسان على الأرض بما لدى من ثراء وقوة ، وبين يدى بيت المال وهو ينضم على كل ما يملك مليكى . وحين يغلبنى النعاس أنطرح على فراش كان فى — يوم ما — سرير سيدى ؛ وحين أستيقظ أجد نفسى سجيناً فى بيت المال »

قلت : « يا أيها السجين ؛ خبّرنى ، من ذا الذى صنع هذه السلسلة الصلبة ؟ »

قال : « بيدى الصناع ابتدعتها ، وخُيل إلى ان قوتى الكامنة ستقبض على العالم كله وأظل أنا طليقاً فى أمان ، فقضيت عمراً من عمرى أهين هذه السلسلة أستعين بالنار والمقامع الحديدية الشديدة ؛ فلما فرغت من عملى وتمت حلقاتها وجدت نفسى مقيداً بها »

— ٣٢ —

لقد حاول أحبائى على الأرض جهدهم أن أعيش بين أيديهم فى أمان ؛ ولكن حبك أنت يفوق حبهم . أنت يامن تكفل حريتى

إنهم يلازموننى دائماً خيفة أن أنساهم ، وها هى الأيام تمر سراعاً وأنت ما تزال تتستر خلف الحجب

وإذا لم أتوسل إليك فى صلواتى ، وإذا لم أحفظك فى قلبى ، فحبك لى ما يزال ينتظر حبى لك

— ٣٣ —

وحين يسفر وجه الصبح يفدون إلى دارى زمراً ويقولون « سننزل فى هذه الغرفة الضيقة »

ثم يقولون «سنشد أزرك فى عبادة ربك لننال فضل إحسانه» ثم قبعوا فى ركن فى هدوء وتواضع

وفى هدأة الليـل تدافعوا إلى هيكلى المقدس فى صخب ، يستلبون القرابين من محراب الرب فى شره

— ٣٤ —

هب لى بعض نفسى فأذكرك كلك

هب لى بعض عزمى فأشعر بك فى كل مكان ، وأنزع إليك فى كل عملى وأحبوك بحبى فى كل آن

هب لى بعض نفسى فلا أستخفى منك

هب لى بعض هذه الأغلال فأنا مقيد بمشيئتك ، وما تريده فهو آت ... هذه القيود هى قيود حبك

— ٣٥ —

حين يطمئن الفؤاد فلا يستولى عليه الذعر فيرتفع الرأس عالياً

حين تكون حرية الراى ،

حين لا يتصدع العالم شيماً وتفرق بينه الحدود الضيقة ،

حين تنبعث الكلمات من أعماق الحقيقة ،

حين يمد التناحر الدائم ذراعيه صوب الكمال ،

حين يهتدى الرأى الناضج إلى طريقة السوىّ فلا يضل فى متاهات التقاليد البالية

حين تجذب العقل إليك ... إلى الفكرة والعمل الأبديين

إلى سماء الحرية ؛ انزع — يا إلـهى — عن وطنى سباته العميق

— ٣٦ —

ها هى صلواتى إليك ـ يا إلـهى ـ : جُذ أصول الموز من قلبى ؛

امنحنى القدرة على أن أحمل أفراحى وأتراحى معاً

امنحنى القدرة على أن أخلق من حبى عملاً صالحاً

امنحنى القدرة على ألاّ أنهر فقيراً ، وألاّ أخرّ على ركبتى أمام غطرسة الجبار

امنحنى القدرة على أن أسمو بعقلى فوق السخافات الأرضية

ثم امنحنى القدرة على أن أزل فى رضا عن كبريائى أمام مشيئتك

— ٣٧ —

يتراءى لى كأن رحلتى قد انتهت عند الغاية ، عند آخر نزوة من نزوات قوتى — ها هو الطريق قد أغلق أمامى ، ونفد زادى وآن لى أن أستريح فى سكون الظلام

ولكن يخيل إلىّ أن إرادتك لا تجد فىّ النهاية ، فحين تموت الكلمات الرثة على شفتىّ يتفجّر القلب بنغم عذب ، وحين تنسد أمامى المسالك القديمة يتفتّح أمامى عالم جديد فيه العجائب

— ٣٨ —

إنى أهفو إليك ، إليك وحدك — دع قلبى يرددها مرات ومرات فى غير نهاية . إن الوساوس التى تلح علىّ صباح مساء ، لتصرفنى عنك ، إن هى إلاّ جوفاء خدّاعة

حين يتوارى الليل خلف سجوفه ينتظر بسمة الفجر ، ترن فى أعماق قلبى صيحة : إنى أهفو إليك ، إليك وحدك

حين تمدو العاصفة الهوجاء فى طريقها تبتغى الهدوء فتبدد هى السكون فى صولة وبأس ... فى هذا الحين تعصف ثورتى الجامحة بحبك وهى ماتزال ترسل صيحاتها : إنى أهفو إليك ، إليك وحدك

كامل محمود حبيب

الـكميت بن زيد

شاعر العصر المرواني

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

— ٤ —

وأما الرواية الثانية في سبب المنافرة بين الكميت وخالد بن عبد الله فقد نقلها أبو الفرج الأصبهاني من كتاب محمد بن يحيي الخراز ، قال حدثني أحمد بن ابراهيم الحاسب ، قال حدثني عبد الرحمن بن داود بن أبي أمية البلخي ، قال : كان حكيم بن عباس الأعور الكلبي ولعاً بهجاء مضر ، فكانت شعراء مضر تهجيه ويجيبهم ، وكان الكميت يقول هو والله أشعر منكم . قالوا فأجب الرجل ، قال إن خالد بن عبد الله القسري محسن إلي فلا أقدر أن أرد عليه . قالوا فاسمع بأذنك ما يقول في بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ؛ وأنشدوه ذلك ، فحمى الكميت لعشيرته فقال المذهبة :

« ألا حُيِّيتِ عنَّا يا مَدينا »

فأحسن فيها ، وبلغ خالداً خبرها ، فقال لا أبالي مالم يجر لعشيرتي ذكر ، فأنشدوه قوله :

ومن عجبٍ على لَعَمْرُ أمٍّ   غذتْكَ وغير هانئًا يمينا
تجاوزتَ المياهَ بلا دليلٍ   ولا علمٍ تَعَسَّفَ مخطئينا
فانك والتحوُّلَ من مَعَدٍّ   كهيلةَ قبلنا والحالبينا
تخطتْ خيرهم حَلْباً ونَسْناً   إلى الوالى النادر هاربينا
كمنزِ السُّوءِ تنطح عالفيها   وترميها عِصِيُّ الذابحينا

فبلغ ذلك خالداً فقال : فعلها ! والله لأقتلنه . ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن ، وتخيرهن نهاية في حسن الوجوه والكمال والأدب ، فرواهن الهاشميات ، ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك فاشتراهن جميعاً . فلما أنس بهن استنطقهن فرأى فصاحة وأدباً ، فاستقرأهن القرآن فقرأن ، واستنشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت الهاشميات ، فقال : ويلكن من قائل هذا الشعر ؟ قلن : الكميت بن زيد الأسدي ، قال : وفي أي بلد هو ؟ قلن : في العراق ثم بالكوفة ، فكتب إلى خالد : ابعث إلى برأس الكميت بن زيد . فبعث خالد إلى الكميت في الليل فأخذه وأودعه السجن . ولما كان من الغد أقرأ من حضره من مضر كتاب هشام واعتذر إليهم من قتله ، وآذنهم في إنفاذ الأمر فيه في غد . فقال لأبان بن الوليد البجلي وكان صديقاً للكميت : أنظر ما ورد في صديقك ، فقال عز عليّ والله ما به . ثم قام أبان فبعث إلى الكميت فأنذره فوجه إلى امرأته ، ثم ذكر الخبر في خروجه ومقامها مكانه كما ذكر من تقدمه ، وقال فيه : فأتى مسلمة بن عبد الملك فاستجار به ، فقال : إني أخشى ألا ينفعك جوارى عنده ، ولكن استجر بابنه مسلمة بن هشام ، فقال : كن أنت السفير بيني وبينه في ذلك ، ففعل مسلمة وقال لابن أخيه : قد أتيتك بشرف الدهر ، واعتقاد الصنيعة في مضر ، وأخبره الخبر

فأجاره مسلمة بن هشام ، وبلغ ذلك هشاماً فدعا به ثم قال : أتجير على أمير المؤمنين بغير أمره ؟ فقال : كلا ولكني انتظرت سكون غضبه . قال : أحضرنيه الساعة ، فانه لاجوار لك . فقال مسلمة للكميت : إن أمير المؤمنين أمرني بإحضارك . قال : أتسلمني يا أبا شاكر ؟ قال : كلا ولكني أحتال لك . ثم قال له : إن معاوية ابن هشام مات قريباً ، وقد جزع عليه جزعاً شديداً ، فاذا كان من الليل فاضرب رواقك على قبره ، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك في الرواق فاذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بثيابك ، ويقولوا هذا استجار بقبر أبينا ، ونحن أحق من أجاره

فأصبح هشام على عادته متطلعاً من قصره إلى القبر . فقال : من هذا ؟ فقالوا : لعله مستجير بالقبر . فقال : يجار من كان إلا الكميت ، فإنه لا جوار له ، فقيل : فإنه الكميت ، قال : يحضر أعنف إحضار ، فلما دعى به ربط الصبيان ثيابهم بثيابه ، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستعبر وهم يقولون : يا أمير المؤمنين ، استجار بقبر أبينا وقد مات ، ومات حظه من الدنيا ، فاجعله هبة له ولنا ، ولا تفضحنا فيمن استجاز به . فبكى هشام حتى انتحب ، ثم أقبل على الكميت فقال له : ياكميت أنت القائل :

وإنْ لا تقولوا غيرها تتعرَّفوا   نواصيها تردى بنا وهي شُزبُ

فقال : لا والله ولا أتان من أتن الحجاز وحشية ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ، ثم قال : أما بعد — فإني كنت أتدهدى في غمرة ، وأعوم في بحر غواية ، أخنى على خطلها ، واستفزني وهلها ، فتحيرت في الضلالة ، وتسكعت في الجهالة ، مهرعاً عن

الحق ، جائراً عن القصد ، أقول الباطل ضلالاً ، وأنوه بالبهتان وبالاً ، وهذا مقام العائذ مبصر الهدى ، ورافض العماية ، فاغسل عني يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجريمة ، ثم قال :

كم قال قائلكم لعاً لك عند عثرته لعاثرْ
وغفرتمُ لذوي الذنو ب من الأكابر والأصاغر
أبني أميّةَ إنكم أهل الوسائل والأوامر
ثقتي لكل مُلِمّةٍ وعشيرتي دون العشائر
أنتم معادنُ للخلا فة كابراً من بعد كابر
بالتسعة المتتابعيـ ـنَ خلائفاً وبخير عاشر
وإلى القيامة لا تزا لُ لشافعٍ منكم وواتر

ثم قطع الإنشاد وعاد إلى خطبته فقال : إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته مناط المتجمين بحبله ، من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين ، فضلاً عن استشاطة غضبه بجهل الجاهلين

فقال له : ويلك يا كميت ، من زين لك الغواية ، ودلاك في العماية ؟
قال : الذي أخرج أبانا من الجنة ، وأنساه العهد فلم يجد له عزما

فقال : إيه أنت القائل :

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوءها ويا حاطباً في غير حبلك تحطبُ

فقال : بل أنا القائل :

إلى آل بيت أبي مالكٍ مُناخٌ هو الأرحب الأسهلُ
نَمُتُّ بأرحامنا الداخلا ت من حيث لا يُنكرُ المدخل
بمُرّةَ والنَّضر والمالكيـ ـن رهطٌ هم الأنبل الأنبل
وبارى خزيمةَ بدرَ السما ء والشمسَ مفتاحُ ما نأمل
وجدنا قريشاً قريش البطا ح على ما بنى الأوّلُ الأوّل
بهم صلح الناسُ بعد الفسا د وحيصَ من الفتق ما رَعبلوا

قال له : وأنت القائل :

لا كعبد المليك أو كوليدٍ أو سليمانَ بعدُ أو كهشامِ
من يمتْ لا يمتْ فقيداً ومن يحـ ـيَ فلا ذُو إلٍّ ولا ذو ذمام

ويلك يا كميت ، جعلتنا ممن لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة ،

فقال : بل أنا القائل يا أمير المؤمنين :

فالآن صرتُ إلى أميّـة والأمور إلى المصاير
والآن صرت بها المصيـ ـب كمهتدٍ بالأمس حائر
يا ابن العقائل للعقا ئل والجحاجحة الأخاير
من عبد شمس والأكا بر من أمية فالأكابر
إن الخلافة والإلا ف برغم ذي حسد وواغر
دَلفا من الشرف التليـ ـد إليك بالرِّفد الموافر
فحللتَ مُعتلجَ البطا ح وحلّ غيرك بالظواهر

قال له : فأنت القائل :

فقل لبني أمية حيث حلوا وإن خفتَ المهندَ والقطيعا
أجاعَ الله من أشبعتموهُ وأشبع من بجوركم أجيعا
بمرضيِّ السياسة هاشميٍّ يكون حياً لأمته ربيعا

فقال : لا تثريب يا أمير المؤمنين إن أردت أن تمحو عني قولي الكاذب ، قال بماذا ؟ قال بقولي الصادق :

أورثته الحَصانُ أمُّ هشام حسباً ثاقباً ووجهاً نضيرا
وتعاطى به ابن عائشة البد ر فأمسى له رقيباً نظيرا
وكساه أبو الخلائف مروا نُ سَنيَّ المكارم المأثورا
لم تجهم له البطاح ولكن وجدتها له معاناً ودورا

وكان هشام متكئاً فاستوى جالساً وقال : هكذا فليكن الشعر يقولها لسالم بن عبد الله بن عمر وكان إلى جانبه ، ثم قال : قد رضيت عنك يا كميت . فقبل يده وقال : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تزيد في تشريفي ، ولا تجعل لخالد علي إمارة ، قال : قد فعلت وكتب له بذلك وأمر له بأربعين ألف درهم ، وثلاثين ثوباً هشامية وكتب إلى خالد أن يخلي سبيل امرأته ، ويعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوباً ، ففعل ذلك

وأما الرواية الثالثة فقد قال فيها أبو الفرج الأصبهاني : أخبرني أحمد بن عبد الله بن عمار ، قال حدثنا النوفلي علي بن محمد بن سليمان أبو الحسن ، قال حدثني أبي قال : كان هشام بن عبد الملك قد اتهم خالد بن عبد الله ، وكان يقال له إنه يريد خلعك ، فوجد بباب هشام يوماً رقعة فيها شعر ، فدخل بها على هشام فقرئت عليه ، وهي :

تألّق برقٌ عندنا وتقابلت
أثافٍ لقِدْر الحرب أخشى اقتبالها
فدونكَ قِدْرَ الحربِ وَهْيَ مُقِرّةٌ
لكفّيك واجعل دون قِدْرٍ جِعالَها
ولن تنتهي أو يبلغَ الأمرُ حدَّهُ
فَنَلْها برِسْلٍ قبل ألّا تنالها

فتجشم منها ما تجشمت من التي
بسوراء هرت نحو حالك حالها
تلاف أمور الناس قبل تفاقم
بعقدة حزم لا تخاف انحلالها
فما أبرم الأقوام يوماً لحيلة
من الأمر إلا قلدوك احتيالها
وقد تخبر الحرب العوان بسرها
وإن لم تبح من لا يريد سؤالها

فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة فجمعوا، فأمر بالأبيات فقرئت عليهم، فقال: شعر من تشبه هذه الأبيات؟ فأجمعوا جميعاً من ساعتهم أنه كلام الكميت بن زيد الأسدي، فقال هشام: نعم هذا الكميت ينذرني بخالد بن عبد الله، ثم كتب إلى خالد يخبره وكتب إليه بالأبيات، وخالد يومئذ بواسط فكتب خالد إلى واليه بالكوفة يأمره بأخذ الكميت وحبسه، وقال لأصحابه: إنه بلغني أن هذا يمدح بني هاشم ويهجو بني أمية فأتوني من شعره هذا بشيء، فأتوه بقصيدته اللامية التي أولها:

ألا هل عم في رأيه متأمل   وهل مدبر بعد الاساءة مقبل

فكتبها وأدرجها في كتاب إلى هشام يقول فيه: هذا شعر الكميت، فإن كان قد صدق في هذا، فقد صدق في ذاك

فلما قرئت على هشام اغتاظ، فلما قال:

فيا ساسة هاتوا لنا من جوابكم   ففيكم لعمري ذو أفانين مقول

اشتد غيظه، فكتب إلى خالد يأمره أن يقطع يدي الكميت ورجليه ويضرب عنقه، ويهدم داره ويصلبه على ترابها. فلما قرأ خالد الكتاب كره أن يستفسد عشيرته، وأعلن الأمر رجاء أن يتخلص الكميت، فقال: لقد كتب إلى أمير المؤمنين، وإني لأكره أن استفسد عشيرته وسماه، فعرف عبد الرحمن بن عنبسة ابن سعيد ما أراد، فأخرج غلاماً له مولداً ظريفاً، فأعطاه بغلة له شقراء فارهة من بغال الخليفة، وقال: إن أنت وردت الكوفة فأنذرت الكميت لعله أن يتخلص من الحبس فأنت حر لوجه الله والبغلة لك، ولك علي بعد ذلك إكرامك والاحسان إليك فركب البغلة وسار بقية يومه وليلته من واسط إلى الكوفة فصبحها، فدخل الحبس متنكراً، فخبر الكميت بالقصة، فأرسل إلى امرأته وهي ابنة عمه يأمرها أن تجيئه ومعها ثياب من لباسها وخفان ففعلت، فقال: ألبسيني لبسة النساء ففعلت، فخرج فمر بالسجان فظن أنه المرأة فلم يعرض له، فنجا وأنشأ يقول:

خرجت خروج القدح قدح ابن مقبل
على الرغم من تلك النوابح والمشل
علي ثياب الغانيات وتحتها
عزيمة أمر أشبهت سلة النصل

وورد كتاب خالد على والي الكوفة يأمره فيه بما كتب به إليه هشام، فأرسل إلى الكميت ليؤتى به من الحبس فينفذ فيه أمر خالد، فدنا من باب البيت فكلمتهم المرأة وخبرتهم أنها في البيت وأن الكميت قد خرج، فكتب بذلك إلى خالد، فأجابه: حرة كريمة فدت ابن عمها بنفسها، وأمر بتخليتها، فبلغ الخبر الأعور الكلبي بالشام، فقال قصيدته التي يرمى فيها امرأة الكميت بأهل الحبس ويقول:

« أسودينا واحمرينا »

فهاج الكميت ذلك حتى قال:

« ألا حييت عنا يامدينا »

وهي ثلثمائة بيت لم يترك فيها حياً من أحياء اليمن إلا هجاهم وتوارى وطلب فمضى إلى الشام فقال شعره الذي يقول فيه:

« قف بالديار وقوف زائر »

ويقول:

يا مسلم ابن أبي الوليد لميت إن شئت ناشر
اليوم صرت إلى أمية والأمور إلى المصاير

فأذن له ليلاً، فسأله أن يجيره على هشام، فقال: إني قد أجرت على أمير المؤمنين فأخفر جواري، وقبيح برجل مثلي أن يخفر في كل يوم، ولكني أدلك فاستجر بمسلمة بن هشام وبأمه أم الحكم بنت يحيى بن الحكم، فإن أمير المؤمنين قد رشحه لولاية العهد، فقال الكميت: بئس الرأي، أضيع دمي بين صبي وامرأة، فهل غير هذا؟ قال: نعم، مات معاوية بن أمير المؤمنين وكان يحبه، وقد جعل أمير المؤمنين على نفسه أن يزور قبره في كل أسبوع يوماً — وسمى يوماً بعينه — وهو يزوره في ذلك اليوم، فامض فاضرب بناءك عند قبره واستجر به، فإني

سأحضر معه وأكله بأكثر من الجوار

فعمل ذلك الكميت فى اليوم الذى يأتيه فيه أبوه ، فجاء هشام ومعه مسلمة فنظر إلى البناء فقال لبعض أعوانه : أنظر ماهذا ؟ فرجع فقال : الكميت بن زيد مستجير بقبر معاوية بن أمير المؤمنين ، فأمر بقتله ، فكلمه مسلمة وقال : يا أمير المؤمنين إن إخفار الأموات عار على الأحياء ، فلم يزل يعظم عليه الأمر حتى أجاره

عبد المتعال الصعيدى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٧ —

« ... إنه ليس معى إلا ظلالها ، ولكنها ظلال حية تروح وتجىء فى ذاكرتى . وكل ما كان ومضى هو فى هذه الظلال الحية كأنْ لا يفنى . وكما يرى الشاعر الملهم كلام الطبيعة بأسره مترجماً إلى لغة عينيه ، أصبحت أراها فى هجرها طبيعة حسن فاتن مترجمة بجملتها إلى لغة فكرى

« كان لها فى قسى مظهر الجمال ومعه حماقة الرجاء وجنونه ثم خضوعى لها خضوعاً لا ينفعنى ... فبدلنى الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله ، ثم خضوعها الخيالى خضوعاً لا يضرها ...

« وما أريد من الحب إلا الفن ، فان جاء من الهجر فن فهو الحبّ ...

« كلما ابتعدت فى صدها خطوتين رجع إلى صوابى خطوة

« لقد أصبحت أرى ألين العطف فى أقسى الهجر ، ولن أرضى بالأمر الذى ليس بالرضا ، ولن يحسن عندى مالا يحسن ولن أطلب الحب إلا فى عصيان الحب . أريدها غضبى ، فهنا جمال يلائم طبيعتى الشديدة ، وحب يناسب كبريائى . ودع جرحى يترشش دما ، فهذه لعمرى قوة الجسم الذى ينبت ثمر العضل وشوك المخلب ، وما هى بقوة فيك إن لم تقو أول شىء على الألم ...

« أريدها لا تعرفنى ولا أعرفها ، لا من شىء إلا لأنها تعرفنى وأعرفها ... تتكلم ساكتة وأرد عليها بسكوتى . صمت ضائع كالعبث ولكن له فى القلبين عمل كلام طويل .. »

(الرافعى)

أوراق الورد

هدأت ثائرة الرافعى هوناً ما ، وفاءت إليه نفسه ، واعتدلت مقادير الأشياء فى عينيه ، وعاد إلى حالة بين الرضى والغضب ، وبين الحب والسلوان ؛ فاستراح إلى اليأس ... لولا أثارة من الحنين تنزع به إلى الماضى ، وبقية من الشوق واللهفة على ما كان ، وفرغت أيامه من الحادثة لتمتلئْ من بعدُ بالشعر والحكمة والبيان

ومضت سبع سنين والحياة تذهب به مذاهبها ، والذكرى تغشاه فى خلوته وتداعبه فى أحلامه ، والأمانىّ التى بعثرتها الكبرياء بَدَداً فى أودية النسيان تتخايل له فى شكول وألوان ، وخواطره من وراء ذلك تعمل ، ونفسه الشاعرة تحس وتشعر وتنفعل بما يتعاقب غليها من الرُّؤى والأحلام . وأتم نظم قصيدته البارعة فى « أوراق الوردَ » فى سنة ١٩٣١

أوراق الورد هو طائفة من الخواطر المنثورة فى فلسفة الحبُ والجمال ، أنشأه الرافعى ليصف حالة من حالاته ، ويثبت تاريخاً من تاريخه ، فى فترة من العمر لم يكن يرى لنفسه من قبلها تاريخاً ولا من بعد

ويقول الرافعى إنه جمع فى أوراق الورد رسائلها ورسائله . أما رسائله فنعم ولكن على باب من المجاز ، وأما رسائلها فما أدرى أين موضعها من الكتاب ، إلا رسالة واحدة وجزازات من كتب ونتفاً من حديثها وحديثه

بلى ، إن فى أوراق الورد طائفة من رسائله إليها ، ولكنها رسائل لم تذهب إليها مع البريد ، بل هى من الرسائل التى كان يناجيها بها فى خلوته ، ويتحدث بها إلى نفسه ؛ أو يبعث بها إلى خيالها فى غفوة المنى ، ويترسّل بها إلى طيفها فى جلوة الأحلام إلا رسالتين أو ثلاثاً مما فى أوراق الورد ... فلما أتم تأليفها وعقد عقدتها ، بعث بها إليها فى كتاب مطبوع بعد سبع سنين من تاريخ الفراق !

***

ولكن أوراق الورد ليس كله من وحى (فلانة) ، وليست كل رسائله فى الكتاب إليها ؛ فهنالك الأخرى ، هنالك صاحبة (حديث القمر) ، تلك التى عرفها فى ربوة من لبنان منذ تسع عشرة سنة ، وهنا فلانة ...

هما اثنتان لا واحدة : تلك يستمدّ من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة ، معانىَ الحب التى تملأ النفس بأفراح الحياة وهذه يستوحيها معانى الكبرياء والصد والقطيعة وذكريات الحب التى أشرق فى خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالألم !

لقد مضت سبع سنين منذ فارق صاحبته (فلانة) كان قلبه فى أثنائها خالصاً لها ، ولكن فكره كان يدور على معانى الشعر يلتمسه من هنا ومن هناك ؛ فلما اجتمع له ما أراد ، ضم أوراق الورد إلى أشواكه ، وأخرجها كتاباً للفن أولا ثم لها من بعد

هو كتاب ليس كله من نبضات قلبه الذى يعشقها وما زال متيّما فى هواها ، ولكن فيه إلى جانب ذلك فكر الفكّر وعقل الأديب وحيلة الفنان

بلى ، إنه كان يحبها حباً لا يتسع القلب لأن يشرك فيه غيرها فكان (قلبه) لها من دون النساء جميعاً ، ولكن الذكريات كانت تتوزع (فكره) فتوحى إليه من هنا ومن هنالك ومما يستجد على خواطره من بعد فى معانى الحب والبغض والود والقطيعة

هو كتاب يصور نفسه وخواطره فى الحب ؛ ثم يصوّر فنه وبيانه فى لغة الحب ؛ ثم ... ثم لا يصور شيئاً من بعد مما كان بينه وبين صاحبته على وجهه وحقيقته ، إلا أن يتدبر قارئه ويستأنى ليستخلص معنى من معنى على صبر ومعاناة فى البحث والإستقراء

فما رأيت من رسالة فيها اللهفة والحنين ، وفيها التذلل والاستعطاف ، وفيها تصنّع الغضب ودعوى الكبرياء ، وفيها التى الحالة تتواثب بين السطور فى خفة الفراشة الطائرة ؛ وما رأيت من معنى تحاول أن تمسكه فيفلت ؛ فهو فصل يؤدى أداءه فى قصة هذا الحب العجيب

وما قرأت من رسالة تصف ما كان فى خلوة نفس إلى نفس ، وتقص عليك فى لغة الماضى حديث قلب إلى قلب ، وتكشف لك عن سر الابتسامة ومعنى النظرة ، وتتحدث إليك عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون ؛ فهو ذكرى من الماضى البعيد ، كان حباً فى القلب فصار حديثاً فى الفكر ، ثم استتبع شيء شيئاً

وما قرأت من قول مزوّق ، وبيان منمّق ، ومعنى يلد معنى ، وفكرة تستجرّ فكرة ، وعبارة تتوكأ على عبارة ؛ فهو من أداء الفن وولادة الفكر

ولقد تجد رسالة كلها حنين ولهفة ، أو حادثة وذكرى ، أو فن من الفن ؛ ولقد تجد كذلك رسالة غيرها تجمع هذه الثلاثة فى قرن ؛ ففيها قلب ينبض ، وذكرى تعود ، وبيان مصنوع

فاذا أنت عرفت هذه الثلاثة ، عرفت الكتاب ، وعرفت صاحبته ، وخرجت منه بشيء

* * *

يبدأ أوراق الورد بمقدمة بليغة فى الأدب يتحدث فيها عن تاريخ رسائل الحب فى العربيـة بأسلوب هو أسلوب الرافعى ، وإحاطة هى إحاطته ، وسعة اطلاع لا تعرفها لغيره ؛ وهذه المقدمة وحدها هى باب فى الأدب العربى لم ينسج على منواله ولم يكتب مثله ، تذكر قارئها ذلك النهج البارع الذى نهجه الرافعى العالم المؤرخ فى كتابه « تاريخ آداب العرب » فكان به أول من كتب فى تاريخ الأدب وآخر من كتب ...

وتأتى بعد هذا الفصل مقدمة الرسائل ، وفيها سبب تسمية الكتاب ، وهو شيء مما كان بينه وبين صاحبته ؛ يقول إنه كان فى مجلسها يوماً ومعها وردة ؛ فأخذت تحدثه عن الحب وعمر الحب ، وعن الورد وعمر الورد ، وكأنها تقول له : إحذر أن تجعل حظك من الوردة أكثر من أن تستنشيها على بُعد من دون لمسة البنان ، واحذر فى الحب ... قال : « ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها إلى عروة صاحبها ، فقال لها : وضمتها رقيقة نادية فى صدرى ، ولكن على معان فى القلب كأشواكها ... فاستضحكت وقالت : فإذا كتبت يوماً معانى الأشواك فسمها أوراق الورد ... وكذلك سماها »

ويمضى فى هذه المقدمة يتحدث عن حبه ، وآلامه فى الحب ورأيه فى الحب ، وشيء مما كان بينه وبينها ؛ ثم يتحدث عن نهجه فى هذه الرسائل ، وما أراد بها ، وما أوحاها إليه ؛ فى أسلوب كله حنين ، وكله شوق وألم

ثم تأتى بعـد ذلك فصول الكتاب متتابعة على ما أوضحت طريقها من قبل : فيها حنين العاشق المهجور ، وفيها مُنية المتمنى وفيها ذكريات السالى ، وفيها فن الأديب وشعر الشاعر ؛ وفيها من رسائلها ومن حديثها ...

* * *

من أراد أوراق الورد على أنه قصة حب فى رسائل لم يجـد شيئاً ؛ ومن أراده رسائل وجوابها فى معنى خاص لم يجد شيئاً ؛ ومن أراده تسلية وإزجاء للفراغ لم يجد شيئاً ؛ ومن أراده نموذجاً من الرسائل يحتذيه فى رسائله إلى من يحب لم يجـد شيئاً ؛ ومن أراده قصة قلب ينبض بمعانيه على حاليـه فى الرضى والغضب ، ويتحدث بأمانيه على حاليه فى الحب والسلوان — وجد كل شيء وهو فى الفن فنٌّ وحده ، لا تجد فى بيانه ومعانيه ضريباً له

مما أنشأ الكتاب وأنشد الشعراء فى معانى الحب ؛ على أنه بأسلوبه المنيف وبيانه العالى وفكرته السامية فى الحب ، لا يعرف قراءه فى العربية . وكم قارىء استهواه عنوان الكتاب وموضوعه فتناوله بشوق ولهفة ، فما هو إلا أن يمضى فيه إلى صفحات قليلة حتى تُسلمه يمناه إلى يسراه إلى الزاوية المهملة من مكتبته ، ثم لا يعود إليه ... وكم قارىء كان لا يعرف الرافعى الشاعر الثائر المنيف فى حبه وبغضه وكبريائه ، فلما قرأ أوراق الورد عرفه فأحبه فاستخلصه لنفسه فما يعرفه فى الأدباء إلا أنه مؤلف أوراق الورد

وكم وكم ... ولكن أوراق الورد ما زال مجهولا عند أكثر قراء العربية وإن كان فى مكتباتهم ، لأن القارىء الذى يلذه أوراق الورد ما زال يتعلم فى المدرسة كيف يقرأ ليستفيد ويضم فكراً إلى فكره ، لا ليتسلى ويهرب من فكره ! لأن العربية ليس لها قراء ... !

ليت شعرى أفى العربية كلها شاعر يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من أوراق الورد أو يجمع معانيها فى قصيدة ؟ ابحثوا عن جمهور هذا الشاعر وقرائه يوم تسمون قصيده ...

أرأيت إلى المنجم الذى يمتد فى الأرض ويتغلغل بعروق الذهب ؟ إنه كنز، ولكن مَنْ ذا يصبر على المعاناة فى استخراجه والبلوغ إليه إلا أن يكون صاحب أيدٍ وقوة ؟ إنه كنز يطلبه الجميع ولكنك لن تجد فى الجميع من يقدر على استخلاصه من بين الصخور المتراكبة عليه وحواليه من طبقات الأرض إلا الرجلَ الواحد المحظوظ الذى يكون معه الصبر

إن أوراق الورد مَنْجم من المعانى الذهبية ، لو عرفه المتأدبون من شبابنا لوضعوا يدهم على أثمن كنز فى العربية فى معانى الحب والجمال يكون لهم غذاء ومادة فى الشعر والبيان

وكان الرافعى — رحمه الله — يعتز بأوراق الورد اعتزازه بأنفس ما أنتج فى أدب الإنشاء ، ويباهى ويفتخر ؛ وما أحسبه تعزّى عن صاحبته بقليل إذ تعزّى بما لقى من النجاح والتوفيق فى إنشاء أوراق الورد ؛ وكما تجد الأم سلوتها فى ولدها العزيز عن الزوج الحبيب الذى طواه الموت ، وجد الرافعى العزاء فى أطفال معانيه عن مطلّقته العنيدة ... لقد فارقها ولكنه احتواها فى كتاب !

إن الأم لاتنسى زوجها الحبيب إذا فارقها وخلّف بين يديها بضعة منه ، ولكنها تجد العزاء عنه بشئٍ منه وإن قلبها ليخفق بذكراه فى عينى هذا الحبيب الصغير . وكذلك لم ينس الرافعى ولكنه وجد السلوان ... لقد أفلتتْ من يده ولكنها خلفتْ ذكراها معه ، ذكرى حيةً ناطقة تتمثل معانىَ وكلماتٍ فى كتاب يقرؤه كلما لج به الحنين فكأنه منها بمسمع ومشهد قريب !

رحمه الله ! لقد مات ولكن قلبه مازال حياً ينبض يتحدث عن آلامه وأشواقه فى قلب كل محب يقرأ كتابه فيجد فيه صورة من قلبه وعواطفه وآماله ... رحمه الله !؟

« طنطا » محمد سعيد العريان

* * *

هنا ينتهي حديث الرافعي العاشق، لنبدأ عنه من الأسبوع المقبل إن شاء الله في حديث جديد

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليليـــة

للدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٩ —

الفلسفة الصينية

العصر المنهجي — كونفيشيوس

الأخلاق عنده

جزم أكثر المستَتْصِينين بأن غاية « كونفيشيوس » من فلسفته العملية كانت إصلاح الهيئة الاجتماعية في عصره ، وإحداث تجديد أخلاقي وعمراني وسياسي في الدولة ، ولكن العالم المحقق « زانكير » يرى أن هذا غير صحيح ، ويصرح بأن حكيمنا لم تكن له غاية أخرى غير تحقيق الواجب في ذاته ، وأن النظريات التي ترى إلى المنفعة أو إلى السعادة أو التي تعلل الأمر والنهي الأخلاقيين بعلة خارجة عن الواجب لا أثر لها في مذهبه وهو في هذه الناحية يشبه « كانت » في رأي الأستاذ « زانكير » إذ كلاهما يأمران باتباع الواجب لذاته لا لشيء آخر ، وهو يستدل على صحة رأيه بالنص الآتي من كلام « كونفيشيوس » في كتاب « لون — يو » : « إن الحكيم يتعطش إلى الفضيلة ، والرجل العامي يتحرق إلى اللذائذ المادية ، وإن الحكيم يعنى بأن يلاحظ الواجب ويذعن له ، والرجل العامي لا يهتم إلا بأن يتصيد ما فيه من فوائد ، وإن الحكيم لا يفهم في العموم إلا الواجب ، أما العامي ، فهو لا يفهم إلا منفعته »[1]

لا ريب أن هذا النص يؤيد الأستاذ « زانكير » فيما ذهب إليه ، لأنه صريح في أن الحكيم لا يأبه إلا للواجب في ذاته ، وأنه إذا حاد عن هذا الطريق فاكترث بأي شيء آخر كلذة أو منفعة يهوي إلى صفوف العامة والجماهير ، والآن وبعد أن أثبتنا أن « كونفيشيوس » كان في مقدمة القائلين بـ « الفيذاتية » المطلقة ، نريد أن ندرس مذهبه الأخلاقي على ضوء نصوصه كما هي طريقتنا دائماً في هذه الدراسات

قال « كونفيشيوس » في كتاب « تشونج — يونج » ما نصه : « إن الطبيعة هي الارادة الإلهية الخالدة ، وإن الحياة بحرية أو اتباع الطبيعة هو واجب الانسان أو « تاوو » ، وإن معرفة الواجب هي الدين نفسه . إن الواجب هو ذلك الشيء الذي ليس بمسموح لأحد إبعاده لحظة واحدة ، لأنه لو سمح بالبعد عنه لحظة لما أصبح هو الواجب ، ولهذا يعنى الحكيم في شيء من الانتباه بما لا يرى في داخله ويخشى في شيء من القلق ما لا يسمعه بأذنه ، ويجب ألا يعالج بالكشف والايضاح إلا ما هو خفي في داخل نفسه ، ويجب ألا يكون شيء أوضح لديه من أعمق طيات قلبه ، ولأجل ذلك يلقى الحكيم بنفسه بين أعطاف هذه المعالجات التوضيحية كلما خلا بنفسه ، وحينما تكون النفس غير مهتاجة بأحاسيس حب أو غضب أو حزن أو سرور يقال عنها إنها في حالة الاعتدال أو « تشونج » ، وحينما تتولد هذه الأحاسيس في النفس دون أن تتجاوز الحد المعتدل ، قيل عن هذه النفس : إنها في حالة الانسجام « تاوو » وإذاً ، فالاعتدال هو الأصل ، والانسجام هو القانون العام ، وحينما يلحق الاعتدال والانسجام غايتهما يسود النظام في السماء وعلى الأرض ، وتنمو جميع الكائنات »

من هذه النصوص يتبين مذهب هذا الحكيم في الأخلاق جيداً ، وتتضح فكرته عن الواجب والاعتدال والإنسجام ، ومن الجملة الأخيرة بنوع خاص نلمح مذهب « كانت » قبل وجوده بأكثر من أربعة وعشرين قرناً ، وهو القائل بأن الاعتدال هو أصل أساسي في النفس ، وبأن الحيدة عن الصراط المستقيم طارئة على الانسان بسبب أحاسيس الحب والبغض والغضب والرضى والسرور والحزن ، وبأن الحرية الأخلاقية هي منشأ المسئولية ، وبأن الانسجام ضرورة سماوية لبقاء العالم ونموه وسيره نحو الكمال وما أقوى الشبه بين نص « كونفيشيوس » القائل : « وحينما يلحق الاعتدال والانسجام غايتهما يسود النظام في السماء وعلى الأرض ، وتنمو جميع الكائنات » ونص « كانت » القائل : « إن كل ما لو عم لصلحت الأرض هو الخير ، وكل ما لو عم لفسدت الأرض هو الشر »

بل ما أحكم الصلة بين نص « كونفيشيوس » القائل : « إن

(١) راجع كتاب « لون — يو » فصل ٤

الاعتدال هو الأصل والانسجام هو القانون العام » وبين نص « كانت » القائل : « إن إرادة كل فرد عاقل معتدل هي المؤسسة للقانون العام »

يرى « كونفيشيوش » كما يرى « كانت » أن كل إنسان إذا حقق الانسجام الطبيعي وثبته في داخل نفسه كما شاءته الارادة الإلهية، فقد حقق الواجب ، وهو يرى كذلك أن الحرية النفسية يجب أن تسبق تأدية الواجب ، وأن الارادة البشرية ليست موفقة دائماً لتحقيق الواجب ، وأنها تستطيع أن تبتعد عنه ، ولكن ليس معنى هذا الابتعاد أن يتغير الواجب ، كلا ، بل هو كما تبعته الارادة البشرية أو لم تتبعه ، وهذا يدل — كما يرى الأستاذ « زانكير » — على أن قانون الأخلاق هو معتبر في ذاته أو هو مطلق عام لا شخصي مقيد ، ولولا ذلك الاطلاق وهذه العمومية لما كان قانوناً أخلاقياً لكل أفراد الانسانية ، بل للسماء والأرض

وعنده أيضاً أن جميع أفراد بني الانسان متساوون أمام هذا القانون الأخلاقي ، وأنه في درجة من الوضوح لا تخفى على أي فرد ، لأن العلم به فطرى ، وهو يرى لذلك أن الواجب لا غاية له إلا ذاته ، وأنه إذا لوحظت في تأديته غاية أخرى من منفعة أو لذة أو أية غاية أخرى ، خرج عن كونه واجباً عاماً وأصبح غير صالح للجميع ، لأن الناس يختلفون في غاياتهم الشخصية ، فاذا أخضعنا الواجب لبعض تلك الغايات المتباينة لم يعترف به الآخرون الذين ليس لديهم مثل هذه الغايات ، وبهذا يفقد كل شيء

وعنده أيضاً كما عند « كانت » أن العمل إذا قصد به غير وجه الواجب سقطت قيمته الأخلاقية وأصبح نفعياً ، وأن اتباع الارادة للواجب يصيرها سامية فوق اعتبارات الحياة العامية ، وأن الحكيم يشعر في داخل نفسه عند أداء الواجب بأقصى أنواع السعادة ، وهو في كل هذا يقول : « إن الانسان ذا الأخلاق الكاملة (جين) هو الذي يقدم التعب المضنى على النافع اللذيذ ولا يلتفت عند أداء الواجب إلى ما سيستفيده منه [1] » ويقول أيضاً : « إن الانسان بدون الأخلاق لا يستطيع أن يحتمل الفقر ولا الغنى وقتاً طويلا . وإن الأخلاقي يجد في الأخلاق كل ترضية وإن الحكيم لا يصيره شرها نهما إلا كنز الفضيلة [2] »

(١) كتاب « لون — يو » فصل ٦
(٢) كتاب « لون — يو » فصل ٤

لا ريب أن عدم احتمال الفقر عند غيبة الأخلاق أمر مفهوم لأن من تعوزه فضيلة الصبر يتعذب بمرارة الفقر ، أما عدم احتمال الغنى في تلك الحالة فلعل الحكيم يقصد به أن الغنى في حالة فقد الفضيلة خطر لا يحتمله حتى صاحبه . بقي علينا الآن أن نشرح كلمة « جين » الواردة في هذا النص الذى أسلفناه لك كما فهمها المستصينون ، ومعناها : الأخلاق ، أو الواحد لأجل الجميع ، أو الفرد للمجموعة

وجه بعد ذلك سؤال إلى « كونفيشيوس » من معاصريه قالوا له فيه : كيف يتبع الانسان الواجب دائماً ؟ وما هي الوسيلة العملية لتحقق هذا الواجب ؟ وما هو ذلك الصوت الذى تقول إنه ينادى دائماً بالاذعان للواجب ؟ وأى ضمان يطمئن الانسان على أنه سائر دائماً في طريق الواجب ؟ فأجاب بقوله : إن الطريق العملي لتحقق الواجب هو الاذعان لهذا الصوت الداخلي ، وإن الضمان المطمئن هو إدمان مراقبة النفس حتى يكشف جميع دواخلها، فاذا حصل للفرد هذا الكشف وصل إلى درجة الحكمة ، لأن القلب حينما يقوده الهوى ينسحب إلى الشر دون أن يشعر فيصبح الانسان يرى ولا يبصر ويسمع ولا يعقل . والعلة في هذا هي أن العواطف والأهواء تسود أعمالنا وتمنعنا من أن نحكم أحكاماً صحيحة على أنفسنا وعلى العالم الخارجي .

أحسب أن الباحث لا يجد عسراً في ربط هذا الجواب الأخير بقول حكيم اليونان الأول : « إعرف نفسك بنفسك » تلك الحكمة التي وجدها « سقراط » — فيما تقول الأساطير الاغريقية — مكتوبة بالذهب على عتبة معبد « دلفي » واستغلها فكانت أساساً صالحاً لفلسفته وفلسفة تلميذه العظيم « أفلاطون » بل إنها ظلت تتغلغل ساطعة في غيابات المستقبل حتى كانت أحد أسباب جلال « ديكارت » وخلوده حيث صرح بعد اثنين وعشرين قرناً بقوله: « إني لما كشفت الأنا حملت مصباحه الذي على سناه كشفت كل اللاأنا »

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل إن الأستاذ « زانكير » يرى أن فلاسفة اليونان الذين قالوا بمبدأ « إعرف نفسك بنفسك» لم يتنبهوا إلى العقبات التي تعترض سبيل الانسان عند ما يحاول هذه المعرفة ، وهو يصرح بأن « كونفيشيوس » إن لم يزد على أولئك الفلاسفة في هذه النقطة فهو من غير شك يساويهم فيها . وبناء على ذلك ، فالقائلون بأن « كونفيشيوس »

حتى لو كان قد تنبه إلى معرفة النفس بالنفس فانه قصر فى معالجة العقبات الناشئة من هذه المحاولة هم على خطأ فى هذا الرأي ، لأن تلك العقبات لم يعرض لها إلا علماء النفس فى العصور الحديثة .
وإذن ، ففلاسفة الاغريق وحكيم الصين فى هذا الموقف متساوون

يختلف « كونفيشيوس » مع « لاهو — تسيه » في وسيلة الوصول إلى الكمال الخلقى ، فأما « لاهو — تسيه » فهو يرى أن التأمل النفسانى كاف لوصول الانسان إلى الكمال أو إلى تحقيق الانسجام المطلق فى جميع حركاته . والانسجام عنده هو المسمى بالسكون الطبيعي الذي لا ينقصنا إلا حينما ننشغل بالظواهر ، ومتى فصمنا عرى صلاتنا بها عاد إلينا . أما « كونفيشيوس » فيرى أن من المستحيل قطع صلاتنا بالظواهر الخارجية ، وأن كل محاولة فى هذا السبيل فاشلة ، وأن الانسان لا يصل أبداً إلى الانسجام المطلق فى جميع حركاته ، وإنما يصل إلى انسجام نسبي يقترب من الاطلاق بعض الشيء ، وأن التأمل وحده ليس كافياً ، وإنما يجب أن تضم إليه الثقافة والمعارف الخارجية ، بل إن الثقافة هي الجوهر الأساسى للوصول إلى المعرفة والفضيلة الكاملتين ، وهو لهذا يقول : « إن الشغوف بالدراسة يمنح فضيلة الحكمة ، وإن من يقوم بمجهود يمنح فضيلة حب الانسانية ، وإن الذى يحمر وجهه خجلا من أنانيته يمنح فضيلة القوة [1] » وهذه الفضائل الثلاث هى عنده الواجب أو ضروريات الكمال . وهو يرى أن الدراسة المحققة للثقافة والفضيلة يجب أن تتناول حقائق الأشياء : معنوياتها ومحساتها تناولا دقيقاً مؤسساً على النقد الذى لا يعرف هوادة ولا ليناً ، ولا يخضع لرحمة ولا عاطفة ولا هوى ، فاذا نبت الدراسة عن هذه الموائق أنتجت أسمى النتائج وأرقاها . وفى هذا يقول : « حينما تدرس طبيعة الأشياء عن قرب وبانتباه تصل المعرفة إلى أعلى آواجها . وحينما تبلغ المعرفة أقصى آواجها تصبح الارادة كاملة ، وحينما تصبح الارادة كاملة تصير حركات القلب منظمة متفقة مع القانون . وحينما تصبح حركات القلب منظمة يتخلص الانسان من الآثام . وبعد أن يتخلص الفرد من الآثام يشرع فى توطيد دعائم النظام والانسجام في الأسرة . وإذا ساد الانسجام فى الأسر بلغ الحكم فى المدينة درجة الكمال ، وإذا بلغ الحكم فى المدينة حد الكمال استمتعت الامبراطورية بالسلام التام [1] »

أحسب أنه بعد كل الذي قدمناه من آراء هذا الحكيم القيمة وبعد هذه الموازنة التى أسلفناها بينه وبين أولئك الفلاسفة القدماء والمحدثين لامعنى لأن يغمطه بعض الباحثين الغربيين حقه فيرموه تارة بأنه ليس فيلسوفاً ، وأخرى بأنه عملي أو نفعي . وأحسب كذلك أنه لا ينبغى أن نتأثر فى حكمنا على هذا الفيلسوف بذلك التشويه الذى أصاب مذهبه بعد عصره ، بل يجب علينا أن نضع نصب أعيننا ذلك السمو الفلسفى ، والنبل الأخلاقى اللذين تفيض بهما مؤلفات « كونفيشيوس » وأن نذكر دائماً أنه وضع للتفلسف ثلاثة شروط أساسية ، الأول الاخلاص الكامل فى كل ما يخطوه من خطوات علمية أو عملية . الثانى البدء بدراسة (الأنا) ليتوصل به إلى كشف كل (اللا أنا) . الثالث الدراسة النقدية العميقة لجميع الأشياء الخارجية . فاذا لاحظنا كل هذا جزمنا بأن كل من لا يسمو بهذا الفيلسوف إلى الصف الأول من صفوف مفكرى الانسانية كان غير موفق فى دراسته وحكمه

« يتبع » محمد غلاب

(١) كتاب « تشونج — يونج » فصل ٢٠

(١) كتاب « تايو » فصل ٥







الليـــــل...

للأديب محمود السيد شعبان

أَسْبِلْ على الدُّنيا سُتُورَ الكَرَى وَلُفَّها يا ليلُ فى ظُلْمَتِكْ !!
الصَّمْتُ فى وادِيكَ حَيٌّ يُرَى! والوَحْدَةُ الخَرْساءُ فى عُزْلَتِكْ!

***

والموتُ فى نادِيكَ يَرْعَى البَشَرْ يا مَوْطِنَ الهُلْكِ وَمَثْوَى النَّهَمْ!
وفِي دياجِيكَ يَطِيشُ القَدَرْ وَيفتِكُ الهمُّ وَيَطْغَى السَّأَمْ !

***

أأنتَ مَعْنًى مِنْ مَعانِى الرَّدَى أَمْ أَنْتَ طَيْفٌ مِنْ طُيُوفِ المَلَلْ؟
قدْ ضَاعَ فى وَادِيكَ عُمْرِى سُدَى ومَا جَنَتْ كَفَّاىَ إلاَّ العِلَلْ!

***

يا مَوْطِنَ الأَشْباحِ يا ابْنَ العَدَمْ ما أنا مَنْ يَخْشاكَ أوْ يَرْهَبُكْ!
وفى فُؤادِى غَيْهَبٌ مِنْ أَلَمْ يَرْوِى دُجاهُ بالأَسَى غَيْهَبَكْ!

***

أَطَلْتُ يا لَيْلُ إِلَيْكَ النَّظَرْ فَمَا رَأَتْ عَيْنَاىَ شَيْئًا يُرَى!!
يَا وَيْلَتَا لِى كَيْفَ أَهْوَى السَّهَرْ
وكلُّ مَنْ فِى الأرْضِ يَهْوَى الكَرَى ؟

***

نَمْ يا فُؤادِى كُلُّ شَيْءٍ هُنَا أَغْفَى عَلَى أُمْنِيَةٍ تُرْتَجَى !!
وَهَدْهَدَتْهُ بَاسِمَاتُ المُنَى فى هَدْأَةِ اللَّيْلِ وَصَمْتِ الدُّجَى!

***

لَمْ تُبْقِ لِي الأيَّامُ مِنْ مَأْمَلِ فى حاضِرِى أَرْجُوهُ أَوْ فى غَدِى!
قدْ غاضَتِ الآمالُ مِنْ جَدْوَلِي وقدْ نَفَضْتُ الآنَ مِنْها يَدِى !

***

مالي و للأغلاسِ تُعْمِي البَصَرْ وليسَ لي فى الليلِ إِلْفٌ يُرَى؟!
يا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ جَفَانِى البَشَرْ
أَمْ أَنَّنِي وحْدِى جَفَوْتُ الوَرَى ؟

***

يا نَجْمُ ماذا فى الدُّجَى أَعْجَبَكْ والَّليْلُ يا نجمُ عُبابُ القَدَرْ ؟!
أأَنْتَ يا نجمُ تُحِبُّ الحَلَكْ أمْ أنْتَ مِثْلِي مُولَعٌ بالسَّهَرْ ؟

***

يا ساهِدًا لَمْ يَدْرِ مَعْنَى الكَرَى كُنْ مُؤْنِسِي إِنِّى وَحِيدٌ هُنَا !!
أَمَا تَرَانِى قدْ هَجَرْتُ الوَرَى؟ فَلَيْتَنِي أَسْطِيعُ هَجْرَ الدُّنَا !

***

أَلِيَّةً يا نَجْمُ قُلْ لِلسَّحَرْ : تَعالَ إِنِّى قدْ سَئِمْتُ الغَلَسْ !!
مافي الدُّجَى مِنْ مُتْعَةٍ لِلْبَصَرْ وليسَ فى وَادِيهِ إِلاَّ الخَرَسْ!!

***

يا رَاقِدًا حَفَّتْ بِهِ العَافِيَهْ وداعَبَتْ أَجْفَانَهُ الحالِمَهْ !
أَلَمْ تُثِرْ أَشْجَانَىَ البَاكِيَهْ لَفْحَ الأَسَى فى نفسِكَ النَّاعِمَهْ ؟!

***

عَلَى سَرِيرِ الوَرْدِ نَمْ إِنَّنِي على سَرِيرِ الشَّوْكِ أَسْتَشْهِدُ !!
أُرِيدُ أَنْ أَبْكِى فَلا تَلْحَنِي لَعَلَّ هَذَا الدَّمْعَ لِي يُسْعِدُ !!

***

نَمْ يا حَبِيبِي لا يَرُعْكَ الأَسَى ما أنا فى الظَّلْماءِ إلاَّ شَبَحْ !!
أَوْ زَوْرَقٌ فِي بَحْرِهِ مَارِسًا ! أَوْ تائِهٌ عَنْ دارِهِ قَدْ نَزَحْ !

***

نَمْ يا حَبِيبِي نَاعِمًا لا تَخَفْ ! مِنْ عابِرٍ أَضْنَاهُ طُولُ السُّرَى!

وَهَبْ لِرُوحِي قُبلَةً مِنْ تَرَفٍ ... لَعلَّ عَيْنِي تَسْتَطِيبُ الكَرَى!

* * *

يا لَيْلُ مالي مِنْ حَبِيبٍ فَلَا ... تَسْأَلْ فُؤَادِي: فِيمَ ذِكْرُ القُبَلْ!؟

هَذَا خَيَالٌ زَائِفٌ مَاسَلَا ... عَنْ ذِكْرِهِ قَلْبٌ يُحِبُّ الغَزَلْ!

* * *

يَا وَيْحَ مَا أَحْلَاكَ مَوْهِنًا مَعِي ... عَيْشِي بِأَطْيَافِ الرُّؤَى الخادِعَهْ!

وَأَسْكُبُ لُحُونَ البِشْرِ فِي مِسْمَعِي

وَأَمْلَأُ حَيَاتِي بِالمُنَى الرَّائِعَهْ!

* * *

يَا وَيْحَ قَلْبِي مَاتَ فِيهِ الهَوَى ... وَمَا تَبَقَّى مِنْهُ غَيْرُ الخَبَلْ!!

وَكَانَ مَا كَانَ فَلَمَّا انْطَوَى ... مَضَى الرِّضَى عَنْهُ وَغَاضَ الجَذَلْ!

* * *

وهَامَ فِي الظُّلْمَةِ بِي يَسْأَلُ : ... أَيْنَ الهَوَى يَا لَيْلُ أَيْنَ المَرَحْ؟!

يا قلبُ لا تَسْأَلْهُ مَا يَجْهَلُ ! ... وَدَعْ لِمَنْ ضَلَّ الأَسَى وَالتَّرَحْ!

* * *

يَا لَيْلُ دَعْنِي قَدْ دَهَانِي القَلَقْ! ... وَحَطَّمَتْنِي عَادِيَاتُ القَدَرْ !!

وَارْحَلْ فَقَدْ يَذْهَبُ عَنِّي الأَرَقْ ... إِنْ أَنْتَشِرْ رُوحِي بِعِطْرِ السَّحَرْ!

* * *

قَدْ أَقْبَلَ الفَجْرُ فَلَا تَيْأَسِي ! ... مَاضَاعَ يَا نَفْسِي اصْطِبَارٌ سُدَى!

وَأَغْمِضِي جَفْنَيْكِ ثُمَّ انْعَسِي! ... وَلَا تَخَافِي إِنْ أَتَاكِ الرَّدَى !!

« الاسكندرية » محمود السيد شعبان

على زهرة ذاوية

للسيد جورج سلستي

عَبَثَتْ برونقها يدُ الدهرِ ... وبدا البلى بعروقها يَسري

وتناثرتْ أوراقُها — وَثَوَتْ ... فوق الثرى — كتناثُرِ الدرِ

لهفي على حسنٍ تصوَّحهُ ... أيدي العفاء وسطوة الغدرِ

كانتْ تَزِينُ الروضَ روعتُها ... وتضمّخُ الأرجاء بالعطرِ

كانت وكان الفجرُ يعبدها ... بين الرياض ولم تكنْ تدري

جابَسَ الغرامُ فؤاده وكوى ... منه الضلوعَ بلسهِ السحري

فبدا له ، فأراقَ مهجتَه ... فيها ، فكانتْ ديمة القطرِ

ليس الندى إلاّ دماه ، ألا ... لله من فعل الهوى العذري

* * *

يازهرة روَّيتُها بدمي ... وسقيتُها بمدامعي الحمرِ !

نامي بحضنِ الأرضِ هانئةً ... إنَّ الردى خيرٌ من العمرِ !

انَّ الحيـــاةَ لمرّةٌ أبداً ... ملأى من الآثام والشرِّ !

أسقتنيَ الأيامُ من مَدَرٍ ... وغذتنيَ الأقـدارُ بالمرِّ

صافٍ[1] الهناءَنِي، وقدنفرتْ ... منى السعادةُ كالظبا العُفْرِ

قد كان لى يا زهرتى أملٌ ... لكنما أودىٰ به دهري

وحبيبةٌ كالصبح طلعتُها ... غدرَتْ كأنَّ الحسنَ بالغدرِ

يا زهرتي ، يأتي الربيعُ غدا ... وينمِّق الجنّاتِ بالزهرِ

نامي بحضنِ الأرضِ حالمةً ... بمجيئهِ ، وبسمةِ الفجرِ

لكنَّ آمالى وقد غربتْ ... ليست تعودُ ؛ غلبتُ فى أمري

لك فى مماتك عودةٌ وأنا ... بعد المماتِ أظلُّ فى قبري !

« بيروت » جورج سلستي

الأسرار

للأستاذ إيليا أبو ماضى

ياليتنى لص لأسرق فى الضحى ... سرّ اللطافة فى النسيم السارى

وأجس مؤتلق الجمال بأصبعي ... فى زرقة الأفق الجميل العارى

ويبين لى كنه المهابة فى الربى ... والسر فى جذل الغدير الجارى

والسحر فى الأنغام والألوان والأ ... نداء والأشذاء والأزهار

و بشاشة المروج الخصيب ووحشة الـ ... ـوادى الكئيب وصولة التيار

و إذا الدجى أرخى علىّ سدوله ... أدركت مافى الليل من أسرار

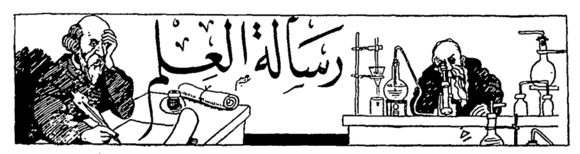
فلـكم نظرت إلى الجمال نخلته ... أدنى إلى بصرى من الأشفار

فطلبته و إذا المغالق دونه ... و إذا هنالك ألف ألف ستار

باد ويعجز خاطرى إدراكه ... وافتنني بالظاهر المتوارى !

إيليا أبو ماضى

(١) صاف : نأى وبعد



الزنــــــك

كعنصر أساسى لنمو النبات

للأستاذ عبد الحليم منتصر

تتمـــة

بينا فى المقال السابق الأعراض التى تبدو على النبات المحروم من عنصر الزنك من بين ألوان غذائه ، وأتينا على طرائق علاج هذه الحالات المرَضية التى تعتريه بإعطائه حاجته من هذا العنصر، ووعدنا بتفصيل العلاقة بين طبيعة التربة وصفاتها الكيميائية وبين سير هذا المرض وتأثر النبات به ودرجة احتماله إياه ومقاومته له . فقد ثبت من التحاليل الكيميائيـة الدقيقة التى أجراها « هبرر » و « إلين » و « بوجز » أن النبات لا يستخلص كل الزنك الذى بالتربة ، ولكن لسبب ما — لعله الحموضة أو القلوية الموجودة أكثر من اللازم — يجعل التربة تحبس زنكها عن النبات، فإذا كانت قلوية كان السبب عدم ذوبان مركبات الزنك فى هذا المحلول القلوى . وإذا كانت حامضـة كان السبب عدم سهولة الاحتفاظ بالزنك فى المحلول بالتربة ، ويكون آنئذ سريع الانتشار . فمن ذلك نرى أن هناك علاقة بين ظهور أعراض المرض وبين درجة الحموضة أو القلوية للتربة ، بمعنى أن المرض يظهر ويشتد فى درجة حموضة أو قلوية خاصـة ، على حين لا تبدو آثاره فى درجة أخرى . فقد وجد أنه إذا كانت درجة القلوية من ٧ إلى ٧ر٣ تكون أعراض المرض شديدة جدًّا ، بل يندر أن ينجو من خطره أقوى أنواع النبات احتمالاً ، لأن درجة احتفاظ التربة بالزنك فى هذه الحالة تكون ضعيفة مسرفة فى الضعف . أما إذا كانت هذه الدرجة من ٨ إلى ٩ فى أرض طينية ، فإنه يندر أن تتأثر الأشجار كثيراً بنقص الزنك ، لأن مثل هذه التربة تحتفظ بالزنك إلى درجة كبيرة ، وهى فى الوقت نفسه لا تحبسه عن النبات

ومن العوامل الطبيعية التى تؤثر فى سير المرض حرارة الجو وكمية الضوء ، فهو فى الشتاء حين الحرارة منخفضة وكمية الضوء قليلة ضعيف الانتشار ؛ وعلى نقيض ذلك تكون الحال فى الصيف

وهناك من الحقائق ما يثبت أن فى التربة المصاب نباتها من العوامل ما يمنع الجذر من امتصاص الزنك ، أو المساهمة فى نقله إلى قمم الأشجار أو سائر أعضاء النبات . وقد وجد فى بعض الأشجار التى تعاقبت على إصابتها السنون دون علاج أن كثيراً من أجزاء الجذر قد ماتت فعلاً . والمرجح أن عنصر البوتاسيوم لا يلبث أن يخرج من قلف الجذر فى النبات المصاب ، فقد ثبت أن ما به منه لا يتجاوز ١٠ إلى ٢٥ ٪ من البوتاسيوم الموجود بقلف الساق أو بقلف جذر نبات سليم أو معالج بالزنك . وبما أن الزنك يتحد بمركبات عضوية ، ويكون أحد مقوماتها غير العضوية ، فربما كان خروج البوتاسيوم يساعد على استمساك الجذور بزنكها واحتفاظها به ، فلا يتصاعد إلى القمم . وكانت نتيجة التحاليل الكثيرة التى أجريت إثبات تجمع الزنك بالجذر فى بعض الحالات

على أن الواقع أن معالجة الأشجار بالرش ، أو بإيلاج قطع الزنك فى الفروع دون التعرض للتربة ، من شأنه أن يشفى النبات ويجعله فى حالة جيدة ، مما يدل على أن الجذر برغم عدم حمل العلاج عن طريقه مباشرة ، يقوم بوظيفته الطبيعية فى سهولة ويسر

ومن الاحصاءات البديعة ، ما قدمه « باركر » عنـد ما قارن بين الأشجار المعالجة برش الزنك وتلك التى لم تحظ بهذا العلاج ، إذ وجد أن الشجرة المعالجة قد أعطت ٤٧٧ رطلا من

الثمار على حين كان ما أنتجته الثانية لا يزيد على ٥٦ رطلا فقط ؛ وذلك فضلا عن أن ثمار الأولى أكبر حجما وأجمل منظراً ، وهى بالتالى أسرع نفاداً فى السوق ، لكثرة الاقبال عليها من المستهلك . كذلك وجد « باركر » فى حالة البرتقال (أبو سرة) أن محصوله قد تضاعف فأصبح ستة أمثاله قبل العلاج

وقد بينا أنه فى حالة وضع قطع من الزنك فى الفرع تظهر آثار العلاج فى الجزء من قمة الفرع إلى مكان الزنك فيه ، نمواً وإزهاراً وإثماراً على حين يكون الجزء الأسفل ما زال يعانى آثار المرض ، وإن ثبت أن بعض التحسن يبدو عليه بعد ذلك كنتيجة لاطراد التقدم سنة بعد أخرى ، وذلك من آثار الصحة والنشاط التي ستتبدى فى الأوراق بعد العلاج ، فيعم خيرها على النبات كله بالتدريج .

وقد أوضح بعض الباحثين منهم « آرك » و « هجلاند » الأثر الذى تنتجه الكائنات الدقيقة التى توجد بالتربة فى ظهور هذا المرض أو اشتداد آثاره ، تلك التى كانت نتيجة إبادتها بالفورمالين أو الحرارة أو الأثير زوال الأعراض السالفة أو تخفيف بعض آثارها مما يدل على أن لهذه الكائنات فعلا فى إظهار المرض وسيره . ولكن الواقع أن معالجة التربة بهذه الطرائق أى المطهرات أو الحرارة غير متيسرة إلا فى الصُّوَب (بيوت زجاجية لتربية النبات) ولذلك فهى غير مجدية فى الحقول أو الحدائق . أما إضافة الزنك إلى التربة فانها أكيدة النفع محققة الغرض

على أننا نتساءل الآن : ماذا عسى أن يكون هذا الدور الذى يلعبه الزنك فى النبات ؟ فالمعروف أن لكل عنصر يدخل النبات دوراً يقوم به فى تغذيته وتركيبه ، أو فى العمليات الفسلجية التى تجرى به . ولما كانت نسبة الزنك فى النبات ضئيلة جداً خصوصاً إذا قورنت بأى عنصر من العناصر الأخرى ، فهى لا تكاد توازى جزءاً واحداً لكل ألفين أو ثلاثة آلاف جزء من الأزوت مثلا . بيد أن نقص الزنك أنتج مرض حرمانه كما رأينا من الآثار السيئة الشديدة التى تصيب النبات من هذا الحرمان . وذلك رغما من أن الزنك لا يدخل دائماً فى تركيب البروتبلازم أو مركباته ، كما هى الحال مع الفسفور أو الكبريت أو الأزوت . والمعتقد أن للزنك دوراً هاماً يقوم به فى بعض العمليات الفسلجية بالنبات ، وخاصة عمليات التأكسد التى لولاها لتكونت مواد ثانوية ضارة هى التى تؤخر النمو وتكون السبب فى ظهور البقع والأوراق الصغيرة المحمرة وغيرها من الأعراض ؛ كما أن له أثراً آخر قد لا يقل عن سالفه ، وهو أن مركب الزنك يعتبر عاملا مساعداً يسرع بالعمليات الكيميائية وخاصة ما يتصل منها بالمواد الكربوايدراتية . ودليلنا على ذلك شدة الأعراض فى الصيف إذ يكون اليوم طويلا فتتجمع المواد النشوية ، كذلك فى حالة الأشجار التى تتساقط أوراقها شتاء ؛ فهذه الأعراض تبدو قوية الأثر آنئذ بسبب تراكم المواد النشوية فتتحسن حالته فى أوائل الربيع ، وذلك عندما يأخذ النبات أهبته ويستأنف نشاطه ، فيستغل ما تجمع فيه من مواد لنموه . وقد ظهر من المشاهدات والبحوث العديدة التى أجريت فى هذا الصدد أن عنصراً غير الزنك لا يستطيع أن ينتج نفس الأثر أو يمنع عوارض المرض ، فقد استعملت مركبات الكوميوم والزئبق والفضة والنيكل والكروم والبورق والتيتانوم فكانت النتائج سلبية . وكذلك الحال باستعمال مركبات الصفيح والزركونيوم والتنجستن والموليبدنوم

من هذه الحقائق مجتمعة ، يصح لنا أن نعتقد أن الزنك عنصر أساسى للنبات ، سواء منه الفطريات أو النباتات الراقية . وإن من المناسب إضافته إلى ثبت العناصر الأساسية الهامة التى تلزم لكى يحيا النبات حياة طبيعية هادئة ، وحتى تستقيم له أسباب نموه وإيراقه وإزهاره

ولعل الصعوبة التى كانت تحول دون هذا الاعتبار إنما ترجع إلى الحقيقة الواقعة من أن كمية ضئيلة منه تكفى ، ثم إنه من السهل وجود مثل هذه الكمية فى المركبات الكيميائية المختلفة التى توجد بالتربة أو التى تضاف إليها ، وذلك لأن مركباته ذائعة الانتشار جداً مع المركبات الأخرى عند ما تكون غير نقية ، أو غير تامة النقاء . ولقد رأينا كيف أن عدم وجود الزنك بين عناصر الغذاء يسبب مرض الحرمان الذى أشرنا إليه فى هذا الحديث ، وإن علاجه يكون بالاضافة إلى التربة ، أو فى ثقوب بالجذع والفروع ، أو بدق مسامير مطلية بالزنك ، أو برش مركبات



من روائع القصص الواقعي الإسلامي

عمـــار بن ياسر

للأستاذ دريني خشبة

« يا ابن سمية ، لايقتلك أصحابي ، ولكن تقتلك الفئة الباغية ! »
(حديث شريف)

— ١ —

« عير من اليمن »

الحارث — ولم لاتعود معنا يا أخانا إلى اليمن ؟

ياسر — اليمن وطني ، ولكني والله أشم ريحاً بمكة لاتهب إلا من السماء ؛ وإن قلبي ليهفو إلى مسراها . فاذهبا أنتما حتى يأذن الله !

مالك — يا أخانا ، أنأتي إلى الحجاز لنعود أربعة إن وجدنا أخانا الضائع ، فلا نعود إلا اثنين ؟ أي ريح هذه التي تهب من السماء وإنك لتهفو إلى مسراها ؟

ياسر — والله يا ابن أم ما أدري . وأكاد أنصح لكما ألا تعودا أدراجكما حتى تنشقها جميعاً ...

مالك — بل تبقى أنت ونرحل نحن غداة غد ...

ياسر — ومع ذاك فلا أحبَّ إلى من أن تبقيا !

الحارث — بل تبقى أنت ونرحل نحن

— ٢ —

« في مضارب بني مخزوم »

ياسر لأعرابي — عم صباحاً يا أخا العرب

الأعرابي — عم صباحاً ! من أنت ؟ ومن أي البطون أقبلت ؟

ياسر — أنا رجل يمني أقبلت في عير مع أخوَيَّ لنبحث عن أخ لنا رابع أبق

الأعرابي — ما عن ذاك سألت !

ياسر — بلى ، وأريد أن أحالف [1] سيد هذه العشيرة . فمضارب من هيَهْ ؟

الأعرابي — مضارب سيد العرب أبي حذيفة بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم [2] وإنه لقادم فالقه إن شئت !

(يقبل أبو حذيفة)

أبو حذيفة — ممن الرجل وماذا يبغي ؟

ياسر — يمني يعربي قحطاني يبغي أن يحالف سيد العرب فيخلص له !

أبو حذيفة — على عهد نَبْل وهُبَل !

ياسر — ... ! ...

أبو حذيفة ينادي : يا كعب ... يا كعب ... خذ الرجل فاعهد إليه بالإبل !

— ٣ —

أبو حذيفة — وحق نَبل وهُبل يا ياسر إنك للمخلص الأمين ، وإني مزوجك أمتي الجميلة العاقلة سُمية هذه

ياسر — ... الحمد لله !

(١) يعاهد ويلتزم ، كناية جميلة عن الرق
(٢) الطبري ج ١٣ ص ١١

(*) اتفقنا في هذا البحث بمقال للعلامة « شاندلر » نشر في الغازيتة النباتية .

الزنك على الأوراق والفروع . أما المقدار الذي يضاف إلى التربة فانه يختلف تبعاً لطبيعة التربة والنبات والكائنات المجهرية التي بالتربة . كما أن المرجح حتى الآن أن الدور الذي يقوم به الزنك في العمليات التي تجرى بالنبات هو دور العامل المساعد في بعض التفاعلات التي تتصل بتمثيل المواد الكربوايدراتية [*]

عبد الحليم منتصر
ماجستير في العلوم

أبو حذيفة — ... بل لِهُبَل !

ياسر — الحمد لله لى ولك ياسيدى على ما رزقنى

أبو حذيفة — أحمد هُبلاً ، واحمد بعلاً يا ياسر ، فإنهما الإلـهان !

— ٤ —

« فى مقابر بنى مخزوم »

ياسر — أفى هذا الثرى ترقد يا أبا حذيفة ! أما والله إنه لا بَعْل نفعك ولا هبل ... أما والله لقد عجل بك الموت عن الطريق السُّوَى ...

عمار — ماذا تقول يا أبتاه ! ما الطريق السُّوَى ؟ ...

ياسر — والله يابنى إنا لفى زمان أظلنا فيه نَبىُّ ، وإنى لأجد شميمه ، وإنى والله تخلفت عن أعمامك فلم أضرب بطون المطى إلى اليمن من أجل هذا ، لأن اليهود تقول إنه من قريش

عبد الله — وما بكاؤك هذا كله على أبى حذيفة ؟

ياسر — أكرم مثواى وزوجنى سمية أمكما فرزقتكما منها يا بنى ؛ وقد أعتقنى فما رضيت أن أفارقه . ولشد ما أخشى أن أهون بعده !

— ٥ —

« بيت بالصفا بلحف أبى قبيس »

ياسر — إسمعى يا ابنى ما أحلى ما يقرأ محمد والمسلمون معه !

عمار — وماذا يقرأون يا أبى ؟

ياسر — يقرأون ما يقضى إلى محمد وحيه من الله . لله ما أحلى ولله ما أعلى !

عبد الله — أليس هو من عند بَعْل يا أبتاه !

ياسر — بعل حجر لا ينطق وهم خلقوه . والله لقد حان حين بعل !

عمار — ولم لا ندخل فنقرأ معهم يا أبى ؟

ياسر — والله إنى لهذا جئت إلى الصفا يا بنى . ووالله إنى لأجد الريح التى تنشقتها مذ قدمت من اليمن . ومن أجلها استأنيت الحجاز وخالفت أخوى !

عمار — إذن نطرق الباب لنكون من السابقين !

ياسر — والله لنكونن منهم بإذن الله .. اطرق يا بنى فلقد شرح الله صدورنا لهذا الأمر (عمار يطرق الباب)

صوت من الداخل — « من ؟

عمار — مؤمنون بمحمد يريدون رسول الله !

الصوت — حُبًّا حُبًّا إخواننا فى الله !

ياسر — يدك يا رسول الله . أشهد وبنىَّ أنه لا إله إلا الله وأنك رسول الله (يمد لهم الرسول يمينه فيبايعونه)

ياسر — إنطلق يا عمار فأت بسمية تشهد معنا وتغنم هـذا الخير ، إن هـهنا مؤمنات مسلمات خابتات خاشعات !

— ٦ —

« رمضاء مكة وقت الظهيرة »

« يقدم بنو مخزوم ومعهم عمار وأبوه ياسر وأمه سمية »

أحدهم لياسر — نم ياصاحب محمد ! ذق عـذاب السعير الذى ينذرنا به نبيك ! (وضربه ويضع الحجارة على صدره)

أحدهم لعمار — وأنت يا ابن الأمة ! قل كفرت برب محمد ! قل ! إخلع هذه الثياب فلنفصلن لك ثيابًا من رمضاء مكة تكويك وتشويك (ينزع عنه الثياب ويقيده ويحثو التراب على رأسه)

أترى إلى هذا الجمل ؟ قل هو ربى ! قل هو خير من إله محمد ! قل آمنت بيعل وود ويغوث ويعوق وهُبل ، وكفرت بإله محمد !

عمار — بل الله الله ! الله ربى وبعل حجر أنتم خلقتموه !

(الكافر يركله ويحمى حديداً فى نار موقدة ويكويه به)

الكافر المخزومى — قل كفرت بإلـه محمد أو أسمل عينيك

عمار — إقض ما أنت قاض . إنما تقضى هذه الحياة الدنيا !

الكافر — أنظر إلى أبيك وأمك كيف يتمنعان ! ألا تستر أمك فتكفر بمحمد وإلـه محمد يا ابن الأمة !

عمار — بل يصبران لبلاء الله كما أصبر ... الله . الله . الله !

أحدهم لسمية وهو يعذبها — أنظرى يا أمية بعل ، هذا زوجك وهذا ولدك ، ألا تكفرين بإله محمد فنرسلك ونرسلهما ؟

سمية — وكيف وقد هدانى الله ؟ لَعذابكما أهون من حر جهنم . بل ربى الله لا أعبد إلا إياه ...

الكافر المخزومى — وولدك هذا الذى يكوى بالنار ؟

سمية — يصبر اليوم خير من ألا يصبر غدا !

الكافر المخزومى — ولن أدعك حتى تكفرى بمحمد

(يضربها على يافوخها فتحتضر)

سمية — بل ربى الله ! آمنت بالله وبرسوله

(يمر رسول الله فيرى ما يقع بآل ياسر)

رسول الله — « صَبْراً آل ياسر ! موعدكم الجنة . صَبْراً آل ياسر ! موعدكم الجنة ! »

آل ياسر — لقد بعنا لك أنفسنا يا رسول الله فانظر ما يفعل السفهاء بنا

سمية — صوت مَنْ ؟ الرسول الكريم ! محمد ! آمنت بك يا محمد ! آمنت بك يا محمد ! إشهد يا محمد مايصنع بنا بنو مخزوم ...

الكافر المخزومى — تعال يا محمد نخلص عبيدك !

(ويضربها الكافر بحجر كبير على رأسها فتموت ويستعبر النبي)

الرسول الكريم — يارب . يارب . يارب !

أبو جهل (يحضر فيشهد فيقول لياسر) — يافاجر تكفر بأربابك وأرباب آبائك ؟ ها هو ذا محمد أدْعُه يمنعك !

(يمضى أبو جهل فيحثو التراب على رأس الرسول ويعود)

أرأيت ! ها هو ذا محمد ! تركت دين أبيك ياياسر وهو خير منك . لنسفهن حلمك ولنفيلن رأيك ! (يضربه ويمضى)

أبو سلمة المخزومى[1] — يالقوى ! أتقتلون أناساً أن يقولوا ربنا الله !

أبو جهل — أسكت يا أبا سلمة أو لنرجمنك ونضمن شرفك !

— ٧ —

« النبي والصحابة يبنون مسجد المدينة »

مَدَنى لأنصارى — مَنْ أخوكم هذا الرجل الآدم الطوال المضطرب الأشهل[2] الذى يحمل لبنتين ولا يحمل أيهم إلا لبنة واحدة ؟

الأنصارى — ألا تعرف من هذا ؟ إنه حبيب نبينا الرجل المؤمن الذي ما تعذب أحد من المسلمين كما تعذب ... هذا عمار ابن ياسر ...

المدنى — ومن هذا الرجل النظيف المتنظف يحمل اللبنة ويجافى بها عن ثوبه ، فاذا وضعها نفض كفيه ونظر إلى ثوبه ، فاذا أصابه شيء من التراب نفضه[3] ؟

الأنصارى — هذا الرجل الصادق عثمان بن عفان

(على بن أبى طالب يرى ما يصنع عثمان فينشد)

على بن أبى طالب :

لا يستوى من يعمر المساجدا يدأب فيها راكعاً وساجدا

وقائماً طوراً وطوراً قاعداً ومن يرى عن التراب حائداً !

(عمار يسمع علياً فيحفظ ما يقول وينشده فيسمعه عثمان)

عثمان — يا ابن سمية ما أعرفنى بمن تعرض . لتكفن أو لأعترضن بهذه الجريدة وجهك (النبي يسمع ما يقول عثمان)

عمار — جلدة ما بين عينى وأنفى ، فمن بلغ ذلك منه فقد بلغ منى ...

بعض المسلمين لعمار — إن رسول الله قد غضب فيك ونخاف أن ينزل فينا قرآن !

عمار — أنا أرضيه كما غضب ! (يقصد نحو النبي)

عمار — يا رسول الله مالى ولأصحابك ؟

رسول الله — ومالك ولهم ؟

عمار — يريدون قتلى ... يحملون لبنة ويحملون على لبنتين

(النبي ينفض عنه التراب بيديه الكريمتين ويطوف به)

النبي — وَيْح عمار ! تقتله الفئة الباغية ... يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار[1] ... للناس أجر ولك أجران ، وآخر زادك من الدنيا شربة لبن[2]

— ٨ —

« سنة ٣٧ هـ ، يوم صفين فى الفتنة بين على ومعاوية »

مجلس شورى[3]

على بن أبى طالب بعد خطباء — أيها الناس ! إنه قد بلغ بكم وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغوا منكم ما بلغوا ، وأنا غاد عليهم بنفسى بالغداة فأحاكمهم بسيفى هذا إلى الله !

(خطباء كثيرون يرون الحرب ويرى غيرهم الموادعة)

عمار بن ياسر — أما والله لقد أخرجها إليك معاوية بيضاء ، من أقرَّ بها هلك ، ومن أنكرها هلك . مالك ياأبا الحسن ؟ أشككتنا فى ديننا ورددتنا على أعقابنا بعد مائة ألف قتلوا منا ومنهم ؟ أفلا كان

(١) أحد المؤمنين السابقين من بنى مخزوم وقد هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى

(٢) هذا الكلام من وصف لؤلؤة مولاة أم الحكم بنت عمار لعمار

(٣) هذه رواية أم سلمة زوج النبي

(١) الحديث رواه البخارى وأثبت بعض القصة ابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار ج ١ وقد اعتمدنا على ما أثبته ابن عبد ربه فى العقد ج ٣

(٢) زيادة فى حديث رسول الله أثبتها مسعر فى جامعه

(٣) من تاريخ ابن قتيبة

هذا (الاحتكام إلى كتاب الله) قبل السيف وقبل طلحة والزبير وعائشة ؟ قد دعوك إلى ذلك فأبيت ،وزعمت أنك أولى بالحق ، وأن من خالفنا منهم ضال حلال الدم ، وقد حكم الله تعالى فى هذا المال ما قد سمعت ... فان كان القوم كفاراً مشركين فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وإن كانوا أهل فتنة فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . والله ما أسلموا ولا أدوا الجزية ولا فاءوا إلى أمر الله ولا طفئت الفتنة ...

علي — والله إنى لهذا الأمر كاره !

— ٩ —

« في حرب صفين »

عمار — أيها الناس! ائتونى بضياح من لبن فى قدح أروح له حلقة حمراء (١) « يشرب ويحمد الله ويقول : » إن رسول الله قال لى إن آخر شربة أشربها من الدنيا شربة لبن ... اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أقذف بنفسى فى هـذا البحر لفعلته ... اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أضع ظُبَةَ سيفى فى صدرى ثم أنحنى عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت . وإنى لا أعلم اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم أن عملا من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته ...

(عمار يهتف بالمسلمين من أصحاب علي)

— ألا من يبتغى رضوان الله عليه ولا يؤوب إلى مال ولا ولد ... ؟ (يقصد إليه مسلمون كثيرون فيهتف بهم)

— أيها الناس! اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذين يبغون دم عثمان ويزعمون أنه قتل مظلوماً ؛ والله ما طلبتهم بدمه ، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرءوها وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم . ولم يكن للقوم سابقة فى الاسلام يستحقون بها طاعة النـاس والولاية عليهم فخدعوا أتباعهم أن قالوا إمامنا قتل مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة ملوكا .. تلك مكيدة بلغوا بها ما ترون ... ولولا هي ما تبعهم من الناس رجلان .. اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت ، وإن تجعل لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا في عبادك العذاب الأليم !

(ويمضى بمن معه من المحاربين)

عمار — يا عمرو بن العاص

عمرو — مالك يا عمار ؟

عمار — تبًّا لك بعت دينك بمصر ! تباً لك تباً ! طالما بغيت فى الاسلام عوجاً ... يا عبيد الله بن عمر بن الخطاب !

عبيد الله — مالك يا عمار ؟

عمار — بعت دينك من عدو الاسلام وابن عدوه ؟

عبيد الله — لا ، ولكن أطلب بدم عثمان

عمار — أشهد على علمي فيك أنك لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله عز وجل ، وأنك إن لم تقتل اليوم تمت غداً ، فانظر إذا أعطى الناس على قدر نياتهم ما نيتك ؟ ... أما والله لقد قاتلت صاحب هـذه الراية مع رسول الله ثلاثاً ، وهذه الرابعة ما هى بأبر ولا أتقى (عمار يهجم بمن معه ويقول لهاشم حامل الراية)

تقـدم يا هاشم ... الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت فى أطراف الأسل . وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين ؛ اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه

(يهجم عليه أبو غادية المزنى من أصحاب معاوية فيقتله)

أبو غادية — إليك أيها الرجل فأنا قاتله ...

عقبة بن عامر — بل أنا صاحبه . إليك إليك ... لى رأسه أحتزه بسيفي !

أبو غادية — فتذهب بها إلى معاوية ؟

(يقبل معاوية ومعه عمرو بن العاص)

عمرو بن العاص — والله إن يختصمان إلا فى النار !

(ينصرف الرجلان بعد تسليم الرأس)

معاوية — ما رأيت مثل ما صنعت ! قوم بذلوا أنفسهم دوننا تقول لهما إنكما تختصمان في النار

عمرو — والله ذاك ! والله إنك لتعلمه ، ولوددت أنى مت قبل هذا بعشرين سنة .. لقد أسلم قبلي وقبلك ، وأوذي مالم نؤذ ، وأحبه رسول الله ، وحضر كل وقائع النبى ... وقال الرسول تقتله الفئة الباغية !

معاوية — ويك يا عمرو ! أنحن الذين قتلناه .. لقد قتله من أخرجه لهذا اليوم !

* * *

عليك السلام يا عمار ... ليت قوماً غير المسلمين قتلوك !

دريني خشبة

(١) الطبرى ج ٦



كتاب عن الصحارى المصرية

من الكتب التي استرعت الأنظار أخيراً في انكلترا وأمريكا كتاب صدر عن الصحارى المصرية بقلم الماجور جارفيس بك عنوانه: « صحراوات ثلاث » Three Deserts؛ وقد كان جارفيس بك مدى ثمانية عشر عاماً حاكماً إدارياً في الصحارى المصرية، وكان إلى عامين حاكم محافظة سيناء، ثم أقيل من الخدمة فيمن أقيل من الموظفين الانكليز، وعكف على إخراج كتابه. وقد درس جارفيس بك خلال خدمته الطويلة أحوال الصحارى المصرية من الوجهة الجغرافية والوجهة الاجتماعية، ودرس اللغة العربية ولهجات البدو دراسة حسنة، فكتابه ثمرة لدراسة مستفيضة. وهو يقص علينا تجاربه الأولى حينما أرسل إلى العامرية محافظاً للصحراء الغربية ليشرف على ضبط الأمن والنظام في منطقة صحراوية شاسعة يجهل خواصها وأحوال سكانها. ومن رأيه أنه خير لأهل هذه الواحات النائية أن يبقوا على حالهم من البداوة والتأخر؛ وهو أيضاً خير لحكامهم، وتزداد مهمة الحاكم صعوبة كلما تقدم هؤلاء البدو في المعرفة والتمدن. غير أنه قد أضحى من المستحيل اليوم أن تطبق هذه النظرية بعد أن تطورت طرق المواصلات السريعة، وانتشرت الطيارة والراديو، وخرجت الصحراء عن عزلتها القديمة، وأضحت ترتبط بالعالم المتمدن. وهنا ينظر جارفيس بك إلى مهمته نظرة استعمارية، فيحمل على مواطنيه الذين يضطلعون بمثل مهمته، ويجهلون كيف تساس هذه المجتمعات المتأخرة، وكيف تحشد تحت لواء المستعمر. على أن كتاب جارفيس بك يحتوي بالرغم من صبغته الاستعمارية على كثير من المعلومات القيمة، وقد زين بكثير من الخرائط والرسوم

شاعر انكليزي كبير يحاضر بالقاهرة

دعت كلية الآداب بالجامعة المصرية الأستاذ لاسيل ابركرومبي الشاعر الانكليزي الكبير ليلقي بالقاهرة بعض محاضرات عن الشعر الانكليزي والشعراء الانكليزية وستبدأ هذه المحاضرات اليوم ١٣ ديسمبر بمحاضرة عن الشاعر « بن جونسون » ثم تعقبها محاضرات أخرى

والأستاذ ابركرومبي من أعظم الشعراء والنقدة المعاصرين في الأدب الإنكليزي؛ ويعتبر اليوم بعد وفاة توماس هاردي وكبلنج ودرنكواتر عميد الشعر الإنكليزي. وهو عضو في الأكاديمية البريطانية؛ وقد شغل منصب الأستاذية في عدة من الجامعات الانكليزية الكبيرة مثل جامعة ليدز وجامعة لندن، وموضوعه الشعر والشعراء. وهو يشغل اليوم في انكلترا نفس المكانة التي يشغلها زميله وقرينه الشاعر بول ڤاليري في فرنسا

وسيكون ضمن محاضراته أحاديث عن التجديد في الشعر الغنائي والتجديد في فن الدرامة، وهما من الموضوعات التي اختص بدراستها وله فيها آراء جديرة بالتقدير

رينه دوميك

نعت أنباء باريس الأخيرة الكاتب الفرنسي الكبير رينة دوميك سكرتير الأكاديمية الفرنسية. وكان دوميك مدى ثلث قرن في طليعة الكتاب والصحفيين البارزين؛ وقد بدأ حياته أستاذاً للأدب في كلية استانسلاس، ثم عالج الكتابة في الصحف فلم يلبث أن ظهر بصفاء أسلوبه وقوة نقده. ولما تبوأ مركزه في الصحافة العالية، اشتغل حيناً في جريدة « الديبا » ثم دعي إلى التحرير في مجلة العالمين الشهيرة Revue de deux Mondes. وهنالك ظهر على صفحات هذه المجلة العظيمة إلى جانب زميله

وصديقه الكاتب الكبير جول ليمتر . ولبث دوميك أعواماً طويلة يعمل فى أسرة مجلة العالمين ، وكان لجهوده أثر بارز فى تقدم هذه الصحيفة فى العصر الأخير . واستقر المطاف بدوميك أخيراً فى الأكاديمية الفرنسية حيث عين سكرتيراً دائماً لها . وهنالك بذل دوميك أيضاً جهوداً عظيمة فى تنظيم الأعمال العلمية والاجتماعية . واشتهر دوميك بأسلوبه الذى يغلب عليه طابع الدقة والتحقيق . وله عدة مؤلفات أدبية ونقدية أشهرها كتابه فى تاريخ الأدب الفرنسى

كتاب جديد عن مكتشف أمريكا

صدر أخيراً بالفرنسية كتاب جديد عن كريستوف كولب مكتشف أمريكا عنوانه « سر كريستوف كولب » Le Secret de Chr. Colomb بقلم الكاتبين شارل دى جافرى ورينه لى جانتى وفيه يحاول الكاتبان تمحيص جميع الأساطير التى ذاعت حول مولد كولب وشخصيته وجنسيته ؛ ودحض المطاعن والروايات القاذفة التى ثارت حول أعماله فى أواخر حياته وقد أسبغت هذه الروايات على سيرة المكتشف وعلى خلاله كثيراً من الريب ، وألقت على بطولته حجاباً كثيفاً . ويعترف الكاتبان أن بحثهما النقدى المستفيض لم يبدد كل غموض فى حياة المكتشف العظيم ، بيد أنه يلقى عليها كثيراً من الضياء الجديد

وفاة أديب عراقى فى القاهرة

توفى الأستاذ محمود السيد سكرتير مجلس النواب العراقى يوم الجمعة الماضى بمستشفى الروضة على أثر عملية جراحية خطيرة ظل ثلاثة أشهر يكابد غصصها بعيداً عن وطنه ، غريباً عن أهله حتى قضى نحبه المحتوم بين عناية أطبائه وعطف أصدقائه وقد أوصى وهو فى سياق الموت أن يدفن فى القاهرة . والأستاذ الشاب محمود السيد كان من السابقين الأولين فى ميدان الأقصوصة ، وقد بدأ شوطه فيها بداية حسنة ، وهو وتيمور وصاحب الحاصد البغدادية طلائع النهضة القصصية فى العالم العربى . رحمه الله رحمة واسعة وعزى فيه الشباب العراقى خير العزاء

الرطانة واللغة الانجليزية

لما فتح العرب فارس والشام ومصر فشت الرطانة فى اللغة العربية . ونقصد بالرطانة ما أطلق عليه المؤرخون (اللحن) وقد آثرنا الرطانة لأنها أعم ، إذ اللحن لا يعدو الخطأ فى الإعراب . وما حدث للغة العربية منذ ثلاثة عشر قرناً يحدث مثله اليوم للغة الانجليزية . فقد فشت فى آسيا الشرقية وجزر المحيط الهادى رطانة انجليزية أطلقوا عليها هذه اللفظة پِدْجِن ، فقالوا Pidgin English ، وهى خليط من الانجليزية والصينية لا يعسر على الانجليزى أن يفهمها بعد أسابيع من إقامته هناك ... وقد فشت هذه الرطانة الانجليزية فى دور العلم والمعاهد الصينية ولاسيما فى هونج كونج التى تنفذ منها الثقافة الانجليزية إلى قلوب الصينيين ... ويحاول الانجليز جهدهم تخفيف هذه الرطانة ولكنهم لا يفلحون

باكونين

صدر فى انجلترا فى الأسبوع الفارط كتاب عن الفوضوى الروسى باكونين هو أكبر مؤلف فى غير الروسية عن هذا الرجل السياسى الخطر الذى يرجع إليه الفضل فى الحركة النهلستية التى أقضت مضجع القيصر وأقلقت بال حكومته ، والتى كمنت فى الشعب الروسى البائس ، لتنفجر فى هذه الثورة الجامحة الهدامة التى قام بها لنين وتروتسكى وأتباعهما ... ومؤلف الكتاب هو الأديب المؤرخ الانجليزى الكبير ا . ه . كار .. وقد استطاع أن يلم بحياة المترجم إلماماً يثير الاعجاب ومن أحسن ما قال فيه : « فإن تكن جهود باكونين قد انتهت آخر الأمر إلى أيدى عصابة من الأبالسة ، فليس الذنب ذنب تعاليمه ، فالرجل كان ينشد لروسيا حرية وحكومة صالحة أمينة على مرافق الأمة ، لا حكومة جبارة حمراء ، تستمد حمرتها من الدماء الزكية التى تسفكها ... وقد كان باكونين غولاً يرتعد منه القيصر ، فلما فر الزعيم من وجهه إلى أوربا ناشد قياصرتها باسم المودة أن تقبض عليه وتبعث به إليه ... وقد فعلوا ... فقد قبض عليه فى درسدن وحوكم بتهمة التآمر على سلامة الدولة وحكم عليه بالإعدام ، وأرسلت به الحكومة إلى النمسا ، ولا ندرى لماذا ، فأيدت الحكم عليه بالاعدام محاكمها الامبراطورية ... ثم أرسل

من هناك إلى روسيا ، فصدر عليه نفس الحكم ؛ ثم خفف بالنفي إلى أصقاع سيبريا ... وقد ظل هناك بضع سنين ... وكتب إلى القيصر يستعطفه ويرجوه أن يمنح البلاد بعض الحقوق الدستورية ، ولكن القيصر سخر بكتابه ... غير أن باكونين فر من منفاه ، واستطاع أن يركب البحر إلى أمريكا ، ومنها إلى أوروبا ، ووصل إلى كوبنهاجن ، ولكن عيون القيصرية كانت تترصده ، فثنى عنانه إلى فرنسا ، واستقر في ليون ، يعاني شظف العيش ويتجرع غصص الحياة ، حتى وافته منيته سنة ١٨٧٥ »

هذا وقد تأثر كبار أدباء الروس بتعاليم باكونين ، وفي مقدمتهم دستويفسكي وتولستوي وترجنيف

تطور القصة البوليسية

تشغل القصة البوليسية اليوم أوسع مكان في الأدب القصصي ، بل هي اليوم أحب أنواع القصص الشعبي ، وهي تستهوي الشباب بنوع خاص ، ومن ثم كانت العناية بتهذيبها وصقلها اليوم . ويعتقد البعض خطأ أن القصة البوليسية حديثة العهد بين أنواع القصص ؛ والواقع أنها قديمة النشأة ، وتجد مادتها في التاريخ بكثرة ، غير أنها اتخذت في العصر الحديث صبغتها الفنية الجديدة ، وأصبح بطلها التقليدي رجلاً مغموراً لا اسرة له ، يستهويه بحث الغامض وتحقيق القضايا المعقدة ومطاردة الجناة البارعين في التستر والتخفي . وقد كان هذا البطل في البداية يقدم إلينا في صور وصفات بغيضة ، أخصها القسوة والخشونة وحب التنكيل والتشفي ؛ وفي مثل هذه الصورة يبدو لنا « جافير » أحد أبطال قصة «البؤساء» لفكتور هوجو ؛ ولكن هذه النزعة تطورت في العصر الأخير تطوراً ظاهراً ، وغدا بطل الرواية البوليسية شخصاً محبوباً يتصف بالتواضع والبراعة والخلال الحسنة ، ويحب الخير ، ولا يقسو إلا على المجرمين العابثين . وكان أول من قدم إلينا هذا النوع من الأبطال الكاتب الفرنسي « أميل جابوريو » ، وهو بلا مراء أعظم كتاب القصة البوليسية في فرنسا ؛ وتلاه بعد ذلك جمهرة من الكتاب البارعين أضحت أبطالهم البوليسية شخصيات محبوبة تثير الإعجاب . ومن هؤلاء السير كونان دويل مبتكر شخصية شرلوك هولمز ؛ وبونسون دي تيراي مبتكر شخصية روكامبول اللص البارع والبوليس المدهش معاً ؛ وموريس لبلان مبتكر شخصية ارسين لوبان وغريمه الشرطي جانيار ، وغيرهم . وتتجه القصة البوليسية اليوم إلى نوع من القصص التهذيبي المفيد بعد أن ظهر أنها أحب أنواع القصص إلى الشباب .

(بقية المنشور على صفحة ٢٠٠٢)

وهذه أمور يختلف فيها النظر وليست من قواعد الأخلاق . فقل فيها ما يهديك إليه النظر الصائب . ورأيي أن التواضع محمود ما لم يكن ذلة ، والقناعة حميدة بقدر ما تحول بين الإنسان وبين الشره والاستكلاب . فإن كانت ضعفاً في الهمة وعجزاً عن الإدراك فهي رذيلة . وكذلك الزهد . وأما التوكل فإن يكن استكانة للحادثات ، وخنوعاً لكل ما هو آت ، فلا يرضاه إنسان ؛ وإن كان ثقة بالنفس وانطلاقاً في سبل الحياة لا ترده دون غايته المشاق والأهوال فما أحوج الناس إليه

يا أخي : قد أساء العجز والذل تأويل هذه الأمور . وأنت تعرف أن المثل الأعلى للرجل المسلم أن يكون طماحاً إلى أبعد غايته ، واثقاً بنفسه إلى غير نهاية ، حراً لا يقر بعبودية ، أبياً لا يقيم على دنية ؛ يرى نفسه قائماً في هذا العالم بالقسط قد وكل الله إليه تصريف الأمور وتقسيم الأرزاق ، والهيمنة على الأخلاق . وأين هذا مما فهمه الناس من التواضع والتوكل . الخ

وأما الربا فلا يتسع المقام للكلام فيه . وحسبك هذه الثورات الثائرة حوله ، والمعارك الهائجة فيه بين البلشفية والرأسمالية

وأما قياس الأخلاق بالنفع والضر فقد ذهب إليه بعض علماء الأخلاق ، ولكنْ مذهباً ينتهي إلى منفعة الجماعة وضررها لا منفعة الفرد وضرره . ولن تقوم لأمة قائمة إن جعلت مقياس أخلاقها نزوات كل إنسان ونزغات كل فرد

وبعد فيا صديقي أراني حدت عن الموضوع الأول استطراداً معك ، فأرجع إلى محمود أحمد على ثورته مخطئاً ، وأذمه على هدوئه مصيباً . فقد تمثل لي في الأولى حراً ثائراً يريد أن يقلب نظام الأخلاق في الأمة ، وتمثل لي في الثانية نُكلة نِكساً مبطاناً لم يدع على المائدة فتاتاً ، ولم تدع فيه المائدة بقية لهمة أو عزيمة أو ثورة . فرحمه الله جوعان ثائراً ، وأخزاه الله شبعان خائراً

عبد الوهاب عزام

الـكتب

قصة معمل الذهب

القصة الثالثة عشرة من القصص المدرسية

للأساتذة : سعيد العريان ، أمين دويدار ، محمود زهران

للأستاذ أبو الفتوح محمد التوانسي

عنوان القصة الجديدة من القصص المدرسية ، وهي أولى المجموعة الثالثة من هذا القصص الرفيع ، فماذا يوحي هذا العنوان الطريف العجيب الذي يثير الرغبة ويهيج الشوق ؟

لا شك عندي أن الطفل سيسر حين يطالع قصته ، وسيغرق في الضحك حين يعلم أمر الأب توت مع الشقي حابي ، وسيدفعه هذا وذاك إلى إدراك جمال القصة ، وقريب من أذهان الطفولة تلك الأسمار الشائعة التي لا يزال يرويها عامة القصاص في القرية من حكايات العفاريت التي يتخللها كثير من صور المسخ والتقمص . وفي اعتقادي أن هذا أثر عريق من آثار مصر القديمة في عهدها الأسطوري لا زال عالقاً بالأذهان ، رغم تقادم الحقب وامتداد الزمن ؛ فالشراب الذي يحيل الحيوان الناطق إلى حيوان نكير الصوت شبيه بالكيمياء الذهبية ، وتلك خرافة قديمة

وما زالت الخرافة عند الشعوب منشأ الفلسفات والأديان ؛ فالقصة التي تصوغ الحقيقة الواقعة في أسلوب خرافي هي أدنى إلى منازع الطفولة ، وقصة معمل الذهب تقوم على فكرة من هذه الفكر التي تنتهي حتما إلى غرض تهذيبي ، وإذا فماذا يفهم الطفل من قصته الجديدة ؟ سيعرف بلا ريب أن السرقة التي حرمتها الأديان لا تليق بكرامته ، لأن مصيره ربما كان كمصير اللص حابي ومن لف لفه

فإذا انتقلنا من هذا العرض الموجز ألفينا في القصة أسلوباً قصصياً بارعاً ، نسج برده طبع قصصي ، فهو يملك سمع الطفل ويحرك فيه شهوة القراءة ، ثم يمنحه زاداً لغوياً نافعاً ويسوقه في رفق إلى تذوق التعابير الصحيحة التي هي الغاية من تعليم اللغة . فقصة معمل الذهب وشقيقاتها السابقات طريق سهل واضح المسالك إلى تعليم الإنشاء العربي . وما تزال طريقة هذا الفن في مدارسنا في حاجة إلى التجويد ، وإن تكن قد بلغت منزلة مشكورة من الإجادة الفنية في حسن الاختيار والتصرف والشرح . والأمر في قبضة المعلم الحازم الذي يولد من القصة موضوعات شائقة في الإنشاء . وما أحب هذا النوع من الكتابة الفنية لدى الأطفال والناشئين من تلاميذنا ! ومما يرفع من شأن القصص المدرسية في جملتها وعنايتها الصادقة بتصحيح التراكيب والمفردات التي كان يظن أنها في فسولة العامية ، وليس هذا بالأمر الهين فهو مما يحتاج إلى جهود متضافرة ، واطلاع شامل ، وخبرة تامة بأساليب اللغة العامية أما الخيال في هذه القصة وفيما سبقها فبعيد مداه ، ليس له أفق محدود ، وهذا العنصر من عناصر القصة متى أجاده المؤلف وواتاه فيه الطبع أكسب القصة سحراً وتأثيراً

هذا وقد بلغ التحليل النفسي الغاية في دقة الوصف ، وأثر ذلك واضح في تصوير بطلي القصة الأب توت ، ذلك الحكيم الكيماوي ، وحابي الأثيم الذي كم ذاق صنوفاً من الشقاء . وقد أصاب مؤلفو القصص المدرسية في هذه الناحية توفيقاً كبيراً يدل على قدرة عجيبة في فهم طبائع الأشخاص ، ودراسة ممحصة لأحوال البيئة المصرية ، تجد ذلك في العرض الدقيق في سائر القصص للعادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية في بيئتنا ، مع صدق في اللهجة ، وجمال في الفن ، وبساطة في التعبير ، وابتكار متجدد ، فتلك جريدة التلميذ الملحقة بقصتنا الجديدة نوع مستحدث ومستطرف يرمي إلى غرس الملكات الأدبية في نفوس الناشئين

وكل ذلك مما يجعل القصص المدرسية مورداً عذباً لدراسة عقلية نافعة ، ومثلا عليا للتلميذ تحببه إلى الفضيلة وتعمل على رفع مستواه الخلقي ، وتشحذ من عزيمته ، وتقوي من استقلاله الفكري

وبعد فماذا في تلك القصص ؟ إنها مجهود أدبي في أدب الطفل يسير في طريق تحقيق الغاية من إيجاد الأدب القوي الذي يجمع بين الموروث عند العرب في الثقافة اللغوية ، وبين موضوعات البيئة التي نعيش فيها

فإلى من يهتمون باللغة القومية في العهد الجديد من المسئولين وغيرهم نوجه الحديث ، فإن في تشجيع ذلك المجهود شداً لأزر الفصحى في المدارس .

(الجيزة) أبو الفتوح محمد التوانسي

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧

5 me Année, No . 233



Lundi - 20 - 12 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

السنة الخامسة « القاهرة فى يوم الاثنين ١٧ شوال سنة ١٣٥٦ — ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٧ » العـــدد ٢٣٣

الأخـــلاق
بين النجاح والفشل

تعال يا صديقي ! جعلتمونى مظهراً لثورتكم على الأخلاق فحسب الناس أنى ثائر معكم عليها وهى مصـدر سعادتى ومنبع رضاى . فلماذا لا تمضى ما تقول باسمك كما يفعل كل رجل له رأى وفيه صراحة ؟

فقال صاحبي وقد استوى على المقعد الذى يحبه من المكتب وكفَّاه تدوران على عدد مطوى من الرسالة أظنه الأخير :

إن مقال الثائر المجهول كقبر الجندى المجهول يعبر عن فكرة ويرمز لطائفة . ولو كان ذلك رأيى الخاص لأمضيتهُ ، ولكنه رأى جميع المنكوبين بأخلاقهم وإخلاصهم اضطرب على لساني حديثاً بعد ما اضطرم فى نفوسهم ثورة . ولقد كان فيما قلتُ وقال الإخوان تفريج لما كرَب صدورنا من وقاحة الحال وصراحة الواقع ؛ غير أن فى نفسى بعد أن قرأت هذا العدد كلمة

قلت وماذا تريد أن تقول بعد ما أجرَتْ لسانَك الأخلاقُ بعقلين متينى الحجة من عقول دعاتها وحماتها ؟

فقال : « إن الأستاذين الجليلين عزاماً والخولى أطلا علينا من قُدُس الأقداس وكلمانا بلغة الدين الذى يتجاهل الكفر ،

الفهـــرس

ولهجة الحق الذى يتناسى الباطل . وقدس الأقداس كما تعلم مكان بين النجوم ينزله الأحبار والفلاسفة فينظرون إلى السماء أكثر مما ينظرون إلى الأرض ، ويتصلون بالملائكة أكثر مما يتصلون بالناس ، ويدبرون أمر هذا الكوكب المظلم على أنه مَرَاد الصلاح الخالص والخير المحض ، فلا يريدون أن يقيموا وزناً للمنكر ، ولا أن يلقوا بالاً إلى الشر ، حتى أنهم ليغفلون ذكر الفواحش فى كتب الدراسة ليجهلها الناشئ ، كأنما جهلك الشئ يمحوه من الوجود ! والشر منذ معصية آدم وجريمة قابيل قسيمُ الخير فى الأرض . والرذيلة هى الطبيعة الحرة لهذه الحياة ، أما الفضيلة فهى قيد لها وحدٌّ منها

لا أريد أن أقول لعلماء الأخلاق زاوجوا بين الخير والشر ينتج منهما مزاج مستقل لا هو الخير كله ، ولا هو الشر كله ، فتلك تجربة نعوذ بالله من غوائلها إذا طاشت ؛ ولكنى أطلب إليهم أن يعالجوا مشكلة الفضائل على أساس التسليم بأن للرذائل جاذبية ومنفعة ، وأن مصلحة الفرد لا ينبغى أن تذوب هذا الذوبان فى مصلحة الجماعة . ذلك أدنى إلى أن يكون العلاج أنجع والشفاء أتم . أما أن تكون القاعدة فى رأى الأستاذ الخولى أن الفاضل لابد أن ينجح ، والرذيل لابد أن يخيب ، إذا تساويا فى الاستعداد والاجتهاد والكفاية ، فإذا وقع العكس كان شذوذاً يؤكد هذه القاعدة ولا يهدمها ، فذلك على ما أظن حكم لا يصححه القياس ولا يناصره الواقع . وليس الأستاذ الخولى بالرجل الذى نضرب له الأمثال من الماضى ، ونذكر له الشواهد من الحاضر ، فإنه يعلم علم اليقين أن تاريخ الدنيا يسجل فى كل زمان وفى كل مكان أثر الرذيلة الخطير فى النجاح الخارق ، سواء أكانت الرذيلة فى الناجح أم فيمن يلابسه . هذان فرسان رائعان اشتركا فى خصائص القوة والفتوة ، ثم ضُمِّرا على نمط واحد ، وركبهما فى السباق فارسان على كفاية واحدة ؛ فلو أنهما تراكضا بالحق لاستوليا معاً على الأمد ؛ ولكن صاحب أحدهما حقنه بمادة يعرفها بياطرة السباق ويحظرها القانون ، فجعلت من كل شعرة فيه جناحاً بلغت به الغاية قبل أن يتوسط قِرْنه الميدان . وأحرز الفرس المحقون الرهن الضخم فأصبح ملك الخيل وسبع الليل . وشبيه بهذين الفرسين رجلان تماثلا فى الشهادة والكفاية والاستعداد والخلق ، ثم سارا معاً فى طريق الحياة جنباً إلى جنب ، وكان لأحدهما زوجة جميلة لبقة ، فحقنت زوجها حقنة تعرفها هى ، جعلته فى اليوم التالى سيداً للناس ورئيساً على الآخر . لا يستطيع المسبوق أن يستعد لمثل هذه الرذيلة لأنه لا يعرف مأتاها ، ولو عرف لما استطاع أن يحتقن بمثل هذه الحقنة وهو عالم . ولو تقصينا أسباب النجاح السريع — وهو الكثرة الفاحشة — لوجدنا هذه الحقنة هى جماع تلك الأسباب فى شكول مختلفة . وحصر الدعة واللذاذة فى الثراء الحلال البطىء آت من شعور الاستاذ نفسه . فإنه إذا لم يجد المراءة والمناءة إلا فى لحم الخروف ، وجدهما الوف غيره فى لحم الخنزير . وإذا عد الأستاذ تاجراً من تجار الغلال أثرى بطيئاً وهو وادع بفضل الخلق ، عددنا له ألفاً من تجار المخدرات أثروا سراعاً وهم آمنون بفضل الشُّرَط

يقولون إن نجاح الأخلاق الفاضلة مشروط باستعداد الفاضل . والاستعداد أهبة الكفاح ووسيلة النجاح ما فى ذلك شك ؛ ولكن كيف اتفق أن يكون أكثر الأراذل قادرين وأكثر الأفاضل عجزة ؟ لقد ذكَّرنا بذلكُ فكاهة من قال إن أكثر أهل الجنة الأغفال والبُله من النساك والمشعبذين والجهلة ، وأكثر أهل النار العباقرة والأفذاذ من الفلاسفة والحكام والقادة . لم لا يجوز أن يفسَّر هذا النقص العام فى الفضلاء بأنهم يُلزمون أنفسهم الطريق الوعر إلى الغاية البعيدة ، بينما يجد غيرهم إلى الغاية الواحدة ألف طريق ؟

لقد سرنى أن فسر الأستاذان الجليلان ما غمّنا من بعض الفضائل هذا التفسير ، فإنه — وإن كان أبعد المعانى عن فهم الناس لهذه الأخلاق — أقربها إلى القصد الذى تتوخاه من التعديل والإصلاح . ولعلك تلمح فى هذا التفسير اعترافاً مضمراً بأن من الفضائل مالا يلائم بمفهومه الشائع طبيعة هذا العصر ولا روح هذا المجتمع و . . . . . »

ورأيت صاحبى يتمكن فى مقعده الوثير ، ويسحب سيكارة من علبته الأنيقة ، ويريد أن يرخى للحديث العنان . فقلت له : حسبك ! حسبك ! فقد انتهت الصفحة وضاق الوقت . وليته اتسع حتى أسرد عليك حديث أحد السعداء الناجحين بالأخلاق أفضى به إلىَّ قبل أن تدخل على ، فربما وجدت فيه ما يرضيك ويهديك . فإلى فرصة أخرى

احمد حسن الزيات

وكان صباح

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

جاء يوم العيد ، وطلع نهاره ، وارتفعت شمسه ، وأنا لا أرى أحداً يدخل علىّ فيقرئنى السلام ويحيينى تحية الصباح ، ويهنئنى بهذا العيد الجديد ، ويتمنى لى كثيراً من أمثاله ، وأمثال أمثاله إن شاء الله . شئ بارد !! أين هـذه الزوجة التى كنت أظنها صالحة ، والأولاد الذين كنت أرجو أن يكونوا بررة ؟ ؟

وأنا يحلو لى الحديث على الرّيق ، بين نوبات التثاؤب والتمطى تحت اللحاف أو الملاءة ، ولا أذكر أنى عدمت قط من يحدثنى فى صباح — حتى قبل أن أستيقظ ! — يدخل علىّ أحـد الصغيرين اللعينين فأسمع صوتاً ناعماً ينادينى : « بابا ... بابا » فأتقلب فى فراشى وأحدث نفسى أن هذا حلم ، ولـكن الصوت يلح علىّ بالنداء « بابا ... بابا » فأفرك عينىّ بيد ، وأدس الأخرى تحت الوسادة لأخرج الساعة وأنظر ، فإذا هى الخامسة صباحاً ! فأصيح : « يا خبر أبيض ...! مالك ياولد ! ؟ » فيقول « صباح الخير » فأقول : « أى خير يا أخى ؟ حرام عليك ! » فلا يعبأ بى ، ولا يشفق علىّ ، ويقول « هات القرررررش » ـ هكذا ينطقها ـ فأحتال لأصرفه عنى برفق وأقول له فى جملة ما أقول « اذهب إلى أمك ... خذه منها » فيأبى اللعين أن يتزحزح ويقول : « نائمة ! » فأحدق فى وجهه مستغرباً وأسأله « نائمة ؟ بالذمة ؟ » فيؤكد لى أنهـا نائمة ، فأقول « وأنا ؟ ؟ » فيقول « صاحى ! » فأقول « تمـام ... فى محله ... لا بأس ... ولـكن القرش تحت الوسادة التى تريح عليها أمك النائمة خدها الأسيل ، فاذهب إليها وادفع يدك تحت المخدة ... بقوة ... وخذ القرش ، فإذا لم تجده هناك ، فستجده لا محالة بين أسنانها ، فإنها ماكرة ، فافتح لها فمها وانتزعه من بين أضراسها »

فيضحك الخبيث وقد راقه الـكلام ، ويسألنى « وإذا عضتنى ؟ » فأطمئنه وأؤكد له أنى سأعضها انتقاماً له ! فيذهب عنى مسرورا ...

أو تقبل الخادمة ، ويحسن أن أقول إن لهـا فى بيتى عشر سنوات ، فتقف على رأسى وراء شباك السرير وتقول بصوت خافت ولـكنه ملح : « سيدى ... سيدى ... »

فأنظر فى الساعة التى تحت الوسادة ، وأقرض أسنانى من الغيظ ، ولـكنى أتجلد وأقول : « يا صباح الفل ، نعم ياستى ... هل تريدين أن أفسر لك حلماً ؟ »

فتبتسم — أعرف أنها تبتسم وإن كنت لا أراها — وتقول « هل تريد الشاى خفيفاً أو ثقيلاً ؟ »

فأتنهد ، فإن هذا سؤالها كل يوم منذ عشر سنوات ، وأقول لها ما قلت كل يوم فى هذه السنوات العشر :

« خير الأمور الوسط ياشيخه ! »

فتسأل « نعم ؟ »

فأقول على سبيل الشرح « متوسط .. لا بالخفيف ولا الثقيل .. ماذا تصنع الست ؟ »

فتقول : « نائمة »

فأقول : « يابختها ! ليتنى كنت الست فى هذا البيت السعيد ! »

فتقول الفتاة معترضة « يا سيدى ! »

فأقول : « اسمعى ... إذا كنت تحبين ألا أكون الست ، فاذهبى إلى هذه الست التى تغط فى نومها إلى الآن (الساعة الخامسة) وأيقظيها وقولى لها إنى أصبح عليها وأقبل وجنتيها ، واسأل عن الشاى الجديد أين خبأته ؟ إفعلى هذا ، والله يحفظك »

والدعاء للخادمة واجب ، فما ثم شاى جديد ، ولا خبأت الست شيئاً ، ولـكن لماذا يرعجنى كل من فى البيت فى هذه الساعة البكرة دونها ؟

ويعلو الضجيج ، ثم تدخل الست مرغية مزبدة ، وهى تصيح بى : « ألا يمكن أن تكف عن هذا العبث ؟ حرام عليك ياشيخ .. والله ما نمت إلا ساعتين »

فأقول « كالقطط ... تأكل وتنكر ... أنا أيضاً لم أنم إلا دقائق ... ضاع الليل كله فى أحلام ... »

فتنحى عنى اللحاف ، وتشد يدى ، أو رجلى ، وهى تقول « طيب قم ... »

فأصيح بها « إلى أين ؟ »

فتقول « وهل أنا أعرف ؟ قم والسلام ، ولكن هذا جزاؤك على إقلاق راحتى »

فأقول : « اتق الله يا مسلمة »

فتقول : « ولماذا لا تتقيه أنت ؟ »

فأؤكد لها أنى سأتقيه من الآن فصاعداً ، وأرجو أن تتركنى أنعم بالرقدة ، ولكن هيهات ، فقد استيقظ كل من فى البيت ، فلا سبيل بعد ذلك إلى راحة أو نوم

* * *

ولكن الساعة قاربت التاسعة فى يوم العيد ، وما زال البيت ساكناً على خلاف عادته ، فقلقت عليهم ونهضت ، ودخلت غرفهم واحدة واحدة ، ونظرت فى وجوههم وجسست نبضهم لأطمئن ، وأردت أن أستوثق وأن أنفى كل شك فى أنهم ما زالوا أحياء وبخير وعافية ، فوضعت أذنى على صدورهم — أعنى قلوبهم — لأسمع دقاتها ، ولم يكفنى هذا ، فقد كانت بقية من الشك تختلج فى صدرى ، فما رأيتهم يتحركون ، فرحت أقرص هذا وأشد أذن ذاك لأرى هل يحسون أو لا يحسون ، فقاموا جميعاً فزعين يصيحون ويحتجون ، فلما سكنت الضجة قليلاً قلت لهم : «ماهذا النوم ؟ قوموا يرحمكم الله وتعالوا هنئونى »

فمشوا ورائى وحفوا بى حيث جلست ، وأقبلوا علىّ يسألوننى ؛ وتعلق بى الولدان اللعينان فرحين ، ووقف الباقون ينتظرون أن أفضى إليهم بالسر ، فأغرقت فى الضحك ثم قلت وأنا أنهض :

« أليس فى البيت شىء يؤكل ؟ إنى أتضور جوعاً »

فقالت الزوجة الصالحة : « شىء يؤكل ؟ هل تعنى أنك أزعجتنا جميعاً على هذه الصورة الفاضحة ، لا لسبب سوى أنك تريد أن تأكل ؟ »

فقلت : « اسمعى يا امرأة ... لا تجدفى ... إن الطعام شىء مقدس ... لا تذكريه إلا بلهجة الاحترام والتوقير ... فما خلقنا إلا لنأكل ... على الأقل هذا ما يبدو لى أنا ... لا تقاطعى من فضلك ... أنت تظنين أنك خلقت لتنامى ... ولكنك مخطئة .. أوهجداً ... الأكل أحلى ، وأوفق ، وأليق بالحى ... أما النوم ؟ ما الفرق بالله بين الميت والنائم ؟ »

فقاطعتني وقالت : « يعني ضحكت علينا وأجريتنا وراءك بعد أن أوهمتنا أن هناك داعياً للتهنئة ... ؟ »

قلت : « كلا ... لم أضحك على أحد ... أليس اليوم يوم عيد ؟ تعالوا إذن قبلوا يدى بأدب ، وهنئونى ، وادعوا لى بالسعادة وطول العمر ... مالكم ؟ »

ولم أسمع جواب السؤال ، ولم أعد أعنى بأن أسمعه ، فقد شغلت عنه بالنار التى اندلعت فى بدنى ، من القرص الذى انهال به علىّ الكبار والصغار ، حتى خيّل إلىّ أنى فى خلية من خلايا النحل ، لا فى بيت يسكنه آدميون ...

وقلت وأنا أنظر إلى وجهي في المرآة : « ليتكم تفعلون بى هذا كل صباح .. لقد صار وجهي أكبر .. وأحمر .. وأحلى .. ما شاء الله ! »

فقالت الزوجة الصالحة : « كابر ... كابر ... »

قلت : « لا مكابرة ... هى الحقيقة ... لقد صار خداى كالوردتين ... »

قالت : «حسن ... سنصبحك ونمسيك بما يحفظ لك حمرتهما. مستعدون يا أولاد ؟ »

فصاحوا جميعاً : « أيوه ... »

فقعدت ، وقد نويت أن آخذ بثارى ...

وكان صباح ...

إبراهيم عبد القادر المازنى

ليلى المريضـــة بالعراق

للدكتور زكي مبارك

– ٢ –

... ودخلت أعدو خلف الوصيفة في بصر زائغ ، وقلب خفاق ، فلم أكد أتبين مدخل البيت ، وعثرت قدمي على السلم عثرة خفيفة سلم الله منها ولطف ، وانتهيت إلى غرفة صغيرة فيها أريكة وثلاثة مقاعد ، وتركتني الوصيفة وراحت تدعو ليلى ، فتلفت أدرس أساس الغرفة في لهفة وشوق ، فوجدت على الحائط قطعة من القطيفة نقش عليها هذا البيت :

يقولون ليلى بالعراق مريضة فياليتني كنت الطبيب المداويا

ورأيت بجوار تلك القطيفة صورة السيدة نادرة التي جمعت عواطف العرب حول ليلى بفضل ما أبدعت في ترجيع هـذا البيت ، ورأيت فوق المنضدة كتابين : رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ، وذكريات باريس للشيخ زكي مبارك ، فيا عجباً كيف جاز لمنزل ليلى أن يجمع بين الهوى والضلال !

وغابت ليلى ولم تعد الوصيفة ، واستمر الحال كذلك عشرين دقيقة ، فدفعني الملال إلى التلهي بالنظر في سلة المهملات ، وما أدرى كيف وقعتُ في هذا الفضول ، فهل تصدقون أني رأيت بين الخطابات المزقة رسالة من «فلان» يؤكد لها أن زكي مبارك أديب وليس بطبيب ؟ سامحك الله يا دكتور فلان ، ولا أراك نعمة الهوى والجنون !

لعل ليلى في زينتها ، وإلا فكيف أعلل صبرها عن لقائي كل هذا الزمن الطويل ؟

ثم فتح الباب ، ودخلت امرأة ملفوفة بالسواد لا تقع العين منها على شيء ، ولم لا أقول دخل شبح أسود نحيل كأنه عود الخلال ؟

وانحط ذلك الشبح على أحد المقاعد ، ولكن هذه الجفوة لم تمنع قلبي من تواتر الخفوق . وبعد لحظات طوال كأعمار الأحزان تكلمت ليلى

رباه ! ماذا أسمع ؟ إن أذنيّ لا عهد لها بمثل هـذا الصوت المتكسر الناعم الحزين

ومضت ليلى تتكلم وتسهب ، ولكني لم أفهم شيئاً ، فقد كنت مشغولا بدرس طبيعة هذا الصوت ، هذا الصوت الذي يذكرني بتلك الفتاة التي خفق القلب لها أول خفقة ، والتي قلت فيها أول قصيدة ، وسكبت عليها أول دمعة ، تلك الفتاة المنسية التي تنام في قبر مجهول تحت سماء سنتريس

ما هذا الصوت ؟ يارباه ! أفي الحق أني سمعت أمثال هـذه النبرات على كثرة ما طوّفتُ في البلاد ؟

لا أكذب الحق ، هذا جوهر لم أشهد مثله في سنتريس ولا باريس ، وإنما هو من جواهر العراق ، هو صوت تحدر عن تلك الانسانة التي قال فيها أحد المفتونين في بغداد :

وكأنَّ رَجْعَ حديثها قِطعُ الرياض كسين زهرا

هو صوت تحدر عن تلك الانسانة التي قال فيها أحد القدماء :

رُهبانُ مدينَ والذين عهدتُهم يبكون من خوف العذاب قُعودا
لو يسمعون كما سمعتُ حديثها خروا لعزةَ ركّعاً وسجودا

هو صوت ليلى يا بني آدم ، ليلى المريضة بالعراق ، ولو سمعه الشيخ فلان لسال منه اللُّعاب

ثم انتبهت ، فقلت في نفسي : إن ليلى بخير ، فهذا الصوت الضعيف يحمل قوة تهد رواسي الجبال

ثم انطلقنا نعدد في شجون الأحاديث ، فسألتني عن مصر ، وسألتني عن صاحبة الذهبية التي ترسو على الشاطئ الأيمن خلف جسر اسماعيل ؛ فعجبت من أن تصل أخباري إلى ليلى وهي مريضة بالعراق ، وقلت : إن تلك الانسانة بخير ، ولكنها تركت الذهبية وعادت إلى منزلها بمصر الجديدة . وقد صحا القلب يا ليلى فلم يَعُد بيننا تلاق منذُ ربيع سنة ١٩٣٥ والله المستعان على مكاره الصدود !

فتنهدت ليلى وقالت : حتى أنت تنسى العهود ! وماذا خليت لِخُلف القلوب ؟

ومضت تتحدث عن الحياة الأدبية في وادي النيل ، وسألتني عن كثير من الأدباء ، فكنت أذكرهم جميعاً بما يحبون أن يذكروا به في بغداد ، ورأيت أن أكون أميناً في تبليغ التحيات فقلت : إن الأستاذ الزيات يسلم عليك . فقالت : لا أحب أن أسمع اسمه . فقلت : وكيف ؟ فقالت : هل تصدق أنه أقام سنين في بغداد ولم

بسأل عنى ؟ فتشجعت وقلت : لعل له عذراً وأنت تلومين ! ذلك رجل يتهيب أقاويل المرجفين

واستطردت فقلت : ولعل الدكتور السنهورى قام بالواجب .

فضحكت ضحكة عالية كادت تخرق النقاب وقالت : السنهورى أغلظ كبداً من ذلك !

فقلت : وما صنع الدكتور عبد الوهاب عزام ؟

فأجابت : أوَ كنت تحسبنى أنتظر زيارة الدكتور عزام ؟ إنه رجل أديب ، ولكن انشغاله بالتحريم والتحليل لم يترك فى قلبه مجالاً لرقيق الأحاسيس

فقلت : لقد مرّ الأستاذ أحمد أمين ببغداد منذ سنين ، فماذا فعل ؟

فقالت : هو رجل صافى الذهن ، ولكن يظهر أنكم أوهمتموه فى مصر أن العالم الحق لايليق به أن يُشغَل بشؤون الوجدان

ثم أغرقتْ فى صمت مُوحش حسبتُـه لوناً من العتاب

***

وجاءت أقداح الشاى ، فتجرأتُ وقلت : وأين أكواب الصهباء ؟ نحن فى حضرة ليلى وتحت سماء بغداد !! فقالت : أنا امرأة مسلمة ونحن فى رمضان ؟ وأنتَ ؟

فقلت : وهل حسبتنى من الكافرين ؟

وفهمتُ أننى أخطأت فغيّرت مجرى الحديث

— مولاتى ليلى !

— نعم ، يامولاى !

— إنما جئت للعناية بصحتك ، كما تعلمين

— أعرف ذلك ، وهو فضل سأذكره ما حييت . سأذكر أن الحكومة المصرية كانت أعرف الحكومات الشرقية بالواجب نحو امرأة عليلة أوحت ما أوحت من الشعر والخيال ثم أضرعها الداء فتناساها الأهل والأقربون

فقلت : البركة فى الحكومة العراقية

فقالت : الحكومة العراقية ؟ سامحها الله ! هل تصدق يادكتور أن الحكومة العراقية تبيح لمحطة الإذاعة أن تذيع جميع الأغانى والأناشيد ، إلا الصوت الحزين :

يقولون ليلى فى العراق مريضة فياليتنى كنت الطبيب المداويا

وهنا تنبهت إلى أنى لم أسمع هذا الصوت فى بغداد

فقلت : وكيف تحرّم الحكومة العراقية هذا الصوت ؟

فأجابت : إن الحكومة فى هذا الزمن لاتعرف غير الجيش والرماح والسيوف والمدافع ، وهى تبغض أحاديث الوجدان كل البغض ، ولا يرضيها أبداً أن يتحدث إنسان عن ليلى المريضة بالعراق

فقلت : وكيف يصح ذلك وعندكم وزير مشرق الجبين هو المدفعىّ ، وعندكم وزير أديب هو الشبيبى ؟

فقالت : أما المدفعىّ فله من اسمه نصيب ، لأنه منسوب إلى المدفع ؛ وأما الشبيبى فلا تغرّنك بسماته العِـذاب ، فقـد كان شاعراً فيما سلف ، أما اليوم فهو من دواهى العراق ، العراق الذى يعبد النضال

ومرت لحظات صمت كانت أبلغ من الإفصاح

***

— مولاتى ليلى !

— نعم يا مولاى !

— إنما جئت للاهتمام بصحتك

— أشكر لك يادكتور ، ولكنك تكرر هـذه العبارة . فماذا تريد ؟

— أريد أن أرى وجهك ويديك

— وهل تريد أن تخطبنى ؟

— ليس هذا ما أريد ، فلى بحمد الله أهلٌ وأبناء

— إذن ماذا تريد ؟

— اعقلى يا ليـلى ، إن الأمر كله جِدّ ، والأمة المصرية تهتم بصحتك أبلغ اهتمام ، وقد نزلت الحكومة عند إرادة الأمة فأوفدتنى إليك ، ثم بالغتْ فى الاحتياط فأوعزتْ إلى الدكتور على باشا ابراهيم أن يقترح على الجمعية الطبية أن تجعل مؤتمرها المقبل فى بغداد ، وأنا أحب ألا يعقد المؤتمر إلا وأنت فى عافية الفرس الجموح ، فإن لم يمكن ذلك فلا أقل من أن أقدّم للمؤتمرين تقريراً صافياً يشهد بأننى لم أضع الوقت فى التعرف إلى عيون الظباء . وسيَـقدَم الدكتور محجوب ثابت وهو من خصومى الألدّاء ، وأخشى أن يشى بى فيصرح لمعالى الأستاذ نجيب الهلالى بك بأننى لم أكن فى الحرص على مهمتى من الصادقين

وبدأت ليلى فكشفت عن يديها ، فانخلع قلبي من الرُّعب ، حين وقع البصر على تلك الأنامل الصُّفر الدِّقاق

فتماسكتُ وقلت : وعيناك ؟

فألقت النقاب عن وجه مليح التقاسيم كان له في ماضيه تاريخ جميل ، وتأملت أنفها مرات ومرات فرأيت فيه أخيلة من الملاحة قلما يجود بمثلها الزمان

ثم ارتقيتُ فوقعتُ على عينيها وُقوعَ الطائر الظمآن على الورد النمير

الله أكبر ! ما هذا السحر البين ؟ أأنت مريضة يا ليلى ولك هاتان العينان ؟

فابتسمت وقالت : صدق الدكتور فلان حين كتب إليّ أنك أديب ولست بطبيب !

فقلت : إنما أريد بعث الطمأنينة في قلبك المروّع يا مريضة العراق

وقضيت ساعتين في مسامرة ليلى ثم استأذنت في الانصراف والله المحمود على نعمة ذلك الحديث

***

والآن أوجه القول إلى الأمة المصرية ، الأمة القلقة على المريضة بالعراق ، ولا سيما الأستاذ محمد الهراوي الذي دسّ في جيبي دينارين على المحطة ، أجرة برقية أرسلها من بغداد ليطمئن على ليلى المريضة بالعراق ، إليهم أوجّه الكلام فأقول :

بني وطني :

إن ليلى تملك عنصرين مهمين من عناصر الحياة : رخامة الصوت ، وملاحة العينين ؛ ولكنها مع ذلك فريسة الضَّنَى والنحول ، وسأبذل جهد الجبابرة لأصل بها إلى ساحل النجاة

وقد كلفت السيدة جميلة القيمة بشارع صريع الغواني أن تحتال في دعوة وصيفة ليلى لقضاء سهرة بريئة في منزلي بشارع الرشيد ، فإن حضرت تلك الوصيفة فسأعرف سرّ ليلى . سأعرف كيف قضت أهوال الحب بأن تصل إلى ذلك النحول

فإن تمت تلك المحاولة فقد أصل إلى شيء ، وإن لم تتم فستذهب جهود المؤتمر الطبي أدراج الرياح

وأنا أرجو صديقي الأستاذ الزيات أن يقف أطباء مصر على تفاصيل هذه المعضلة ، فما أحب أن يعودوا خائبين ، فيسيئوا إلى سمعة الحكومة المصرية بلا موجب معقول

وأنت أيتها السيدة التي اسمها جميلة ، والتي زعمت أنني فتى جميل ، اسمعي ؛ ليس يهمني بالدرجة الأولى على حد تعبيركم في بغداد أن تغسلي ثيابي ، وأن تحضري لي مائدة فخمة في كل أسبوعين ؛ يا بخيلة ، وإنما يهمني أن تقودي وصيفة ليلى إلى منزلي ، إلى غرفة الاستقبال يا لئيمة لا غرفة السرير ، فإن عند تلك الفتاة أسراراً تكشف المحجوب من حياة ليلى المريضة بالعراق

يا جميلة ! لقد كنت في صباك جميلة ، فكوني عند ما أرجوه من محمود الظنون

يا جميلة ! أنا أنتظرك مع وصيفة ليلى في الساعة العاشرة من مساء السبت المقبل ، والله بالتوفيق كفيل

(للحديث بقية) زكي مبارك

مصرع شجرة الدر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت كليوباتره آخر ملكة جلست على عرش مصر الفرعونية، وكانت شجرة الدر أول وآخر ملكة جلست على عرش مصر الإسلامية . وكانتا كلتاهما آية الجمال والسحر ، وعنوان البطولة والحزم ، زينة الملك ، وملاذ العرش والدولة ؛ وقد لقيتا كلتاهما مصرعها في ظروف روائية مؤثرة ؛ ولكن بينما تحيط الأسطورة بحياة كليوباترة وتكاد تغمر حوادث مصرعها ، إذا بشخصية شجرة الدر تبرز واضحة خلال الفترة القصيرة التي تبوأت فيها عرش مصر ، وإذا مصرعها مأساة قصر تحيط بها جميع العوامل والظروف التي تجتمع حول مآسي القصور

لم تكن شجرة الدر كما تريد أن يصورها القصص أحياناً ، غانية قصر تعتمد على سحرها النسوي فقط في تبوء المكانة التي سمت إليها ؛ ولكنها كانت فوق سحرها الجم ، امرأة رفيعة الخلال وافرة الذكاء والعزم ؛ بدأت حياتها جارية وحظية للصالح نجم الدين أيوب ولد الملك الكامل ملك مصر مذ كان نائباً عن أبيه بالولايات الشرقية . ولما توفى الملك الكامل ، وتولى ولده الملك العادل دون أخيه الأكبر الصالح نجم الدين ، وأعلن الصالح الثورة على أخيه بقيت شجرة الدر إلى جانبه في جميع الوقائع والخطوب التي خاضها ، وشاركته مرارة الحرمان والأسر . ولما خلع الملك العادل وتولى الصالح مكانه ملك مصر في سنة ٦٣٧هـ تألق نجم شجرة الدر وتبوأت ذروة النفوذ والسلطة وغدت كل شيء في البلاط وفي الحكومة . وكان الصالح قد فتنته خلالها الرفيعة فأعتقها وتزوجها ، ورزق منها ولداً يدعى خليل . ولم تبق بعد حظية تسمو بجمالها وسحرها ، ولكنها غدت سيدة القصر الشرعية ، وأم ولده المحبوب ؛ كانت هذه الجارية التركية أو الرومية تلعب يومئذ في بلاط القاهرة نفس الدور الذي لعبته من قبل صبح النافارية (البشكنسية) جارية الحكم المستنصر وأم ولده المؤيد في بلاط قرطبة . ولما توفى ولدها خليل حدثاً بعد ذلك بأعوام قلائل ، لم تزعزع هذه الضربة الأليمة مركزها ، بل لبثت محتفظة بنفوذها وتأثيرها في توجيه الشئون

ولما قدم الفرنج الصليبيون إلى المياه المصرية بقيادة ملكهم لويس التاسع في أوائل سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) ، وحاصروا دمياط ، كان الملك الصالح مريضاً وكان البلاط في حيرة ، وكانت مصر تضطرب من أقصاها إلى أقصاها ؛ فأبدت شجرة الدر في هذه الآونة العصيبة ثباتاً مدهشاً ، واستطاعت بعزمها وبراعتها أن تسير الشئون ، وأن تشرف على أحوال الدفاع ؛ ثم توفى الملك الصالح بعد ذلك بأشهر قلائل ، فأخفت شجرة الدر نبأ وفاته ، حتى استقدم ولده توران شاه من الشام ، ولبثت مدى حين تخرج الأوامر والمناشير ممهورة بالعلامة السلطانية . ولما وصل توران شاه إلى مصر وتقلد الملك باسم الملك المعظم ، أساء السيرة ، واختلف مع شجرة الدر ومع مماليك أبيه ، فأتمروا به وقتلوه لنحو شهرين فقط من ولايته ، واتفقوا على تولية شجرة الدر ، فتبوأت عرش مصر في عاشر صفر سنة ٦٤٨ هـ

وكانت ولاية شجرة الدر حادثاً فريداً في التاريخ الاسلامي ، فلم تجلس امرأة قط من قبلها أو بعدها على عرش مملكة مسلمة مستقلة ؛ وكان للحادث وقع عميق في العالم الاسلامي حتى قيل إن الخليفة المعتصم بالله العباسي نعى على مصر أن تجلس على عرشها امرأة ، ونعاه بعض فقهاء العصر . وشعر المماليك الذين ولوها بهذا الشذوذ ، فعينوا إلى جانبها أميراً منهم هو عز الدين أيبك التركماني ليكون مقدماً للعسكر ومشرفاً على الشئون . ودعى لشجرة الدر على المنابر ، ونعتت في الخطبة « بالجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية ، صاحبة السلطان الملك الصالح » وكانت علامتها على الأوامر والمراسيم : « والدة خليل » . وتولت شجرة الدر الأمور بحزم ، وكان الجيش المصري قد استطاع في تلك الأثناء أن يقف زحف الصليبيين وأن يسحقهم في موقعة المنصورة الشهيرة (المحرم سنة ٦٤٨) ؛ وأسر لويس التاسع وعدد كبير من أمرائه ، وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين ، فأشرفت شجرة الدر على هذه المفاوضات ، وانتهت بانسحاب الفرنج من الأراضي المصرية والافراج عن ملكهم لقاء

فدية كبيرة؛ وأبدت شجرة الدر في ذلك كله براعة ومقدرة تخلق بأعظم الرجال

***

على أن شجرة الدر كانت تشعر بضعفها كامرأة فرأت أن تتزوج من عز الدين أيبك، فتقوى بذلك مركزها كملكة، وتدعم عصمتها كامرأة. ولما شعرت أن هذا الزواج لم يحقق كل شيء، ورأت أن جلوسها على العرش قد أثار الفتنة في الشام ويخشى أن يثيرها في مصر، نزلت عن العرش لزوجها، وجلس أيبك مكانها على عرش مصر باتفاق المماليك البحرية باسم الملك المعز، وذلك في آخر ربيع الآخر، وبذلك لم يطل ملك شجرة الدر أكثر من ثمانين يوماً

وعادت شجرة الدر امرأة وزوجاً فقط، ولكنها لبثت كما كانت أيام زوجها الأول الملك الصالح سيدة القصر والبلاط، وكان المعز طاغية ظلوماً، ولكنه كان يخشى هذه المرأة القوية التي رفعته إلى الملك، ويصدع بأمرها ووحيها؛ وكانت شجرة الدر كثيرة الغيرة بالرغم من كونها قد جاوزت سن الشباب، فأرغمت المعز على طلاق زوجته الأولى، وكانت تحدث بينهما المناظر العاصفة من وقت إلى آخر. ولما سئم المعز هذه الحياة الزوجية النكدة فكر في اختيار زوجة أخرى، وبعث بالفعل إلى بدر الدين صاحب الموصل يخطب ابنته؛ ولعله لم يكن في الوقت نفسه بعيداً عن التفكير في التخلص من شجرة الدر، والتحرر من نيرها المرهق؛ ولكن شجرة الدر كانت ترقب حركاته ومشاريعه، فثارت نفسها سخطاً وكبرياء، وأدركت بثاقب فكرها وخبرتها لدسائس القصر أنها إذا لم تبادر إلى التخلص منه، فانه سيعاجلها بالتخلص منها

فلم تضع وقتاً، ولجأت إلى دهاء المرأة وخديعتها؛ وكان المعز يقيم منذ أيام في مناظر اللوق بعيداً عنها، فبعثت إليه تتلطف به وتدعوه إلى قصر القلعة، فاستجاب إليها المعز؛ وكانت قد رتبت له من غلمانها خمسة ليقتلوه، وعلى رأسهم الخادم سنجر الجوهري. وفي مساء اليوم الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ ركب المعز إلى القلعة، فاستقبلته شجرة الدر بحفاوة، وبعد أن مكث حيناً دخل الحمام فانقض عليه الغلمان الخمسة وهو عار لينفذوا فيه حكم الإعدام الذي أصدرته شجرة الدر. وتنقل الرواية إلينا عن مصرعه روايات مثيرة، فيقال إن القتلة أخذوا بخصيتيه حتى زهق، أو أن شجرة الدر أخذت تضربه بالقبقاب على رأسه وهو يستغيث حتى أجهزت عليه. وعلى أي حال فقد تمت الجريمة وقتل المعز قتلة مروعة بتحريض زوجه النادرة الخؤون

وحاولت شجرة الدر على أثر ذلك أن تقيم في السلطة أميراً آخر تستتر وراءه في الحكم فلم توفق؛ ونادى الأمراء المعزية بتولية الملك المنصور ولد المعز، وهو يومئذ صبي في نحو الخامسة عشرة، ووافق الأمراء الصالحيــة على توليته اتقاء الفتنة؛ وامتنعت شجرة الدر بجناحها بالقلعة مع نفر من خدمها وجواريها، وطالب الأمراء المعزية بالقبض عليها، وحاولوا اقتحام الدار فمنعهم الأمراء الصالحية حماية لشجرة الدر. وكادت تقع بين الفريقين فتنة لولا أن تعهد الأمراء المعزية بتأمين شجرة الدر وعدم التعرض لشخصها. وفي اليوم التاسع والعشرين من ربيع الأول أخرجت شجرة الدر باتفاق الفريقين من جناحها الملكي واعتقلت في البرج الأحمر أحد أبراج القلعة مع بعض جواريها، وقبض على الخدم الذين اشتركوا في الجريمة وزعيمهم سنجر وصلبوا جميعاً، وأعدم عدة كبيرة من الغلمان والطواشية، وقبض على الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا بتهمة الاشتراك في الجريمة، ولم يفرج عنه إلا بعد أن افتدى نفسه بمبلغ طائل

وأصر الأمراء المعزية بعد ذلك، بتحريض الملك المنصور وأمه، على معاقبة شجرة الدر، واعترض الأمراء الصالحية أياماً؛ ولكنهم كانوا الفريق الأضعف فلم تغن معارضتهم شيئاً. وفي يوم السبت الحادي عشر من ربيع الثاني (أو الجمعة ١٧ منه على رواية أخرى) نفذ المماليك المعزية إلى البرج الأحمر، وقبضوا على شجرة الدر، وحملوها إلى أم الملك المنصور لكي تتولى عقابها بنفسها. وهنا يقول لنا المقريزي « فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت في يوم السبت؛ وألقوها من سور القلعة إلى الخندق وليس عليها سوى سراويل وقميص، فبقيت في الخندق أياماً، وأخذ بعض أراذل العامة تكة سراويلها، ثم دفنت بعد أيام — وقد نتنت وحملت في قفة — بتربتها قرب المشهد النفيسي؛ وكانت من قوة نفسها، لما علمت أنها قد أحيط بها، أتلفت

حياة الأمة العربية (*)

بين الماضي والمستقبل

للأستاذ ساطع بك الحصرى
مدير الآثار العامة فى بغداد

يسرنى أن أحيى فريق الكشاف العربى ، تحت سقف هذا البناء القديم ، باسم دائرة الآثار القديمة

إننى أحيى فريق الكشاف العربى باسم دائرة الآثار العربية مع علمى بأن الكثيرين من الحضور سيستغربون قولى هذا وسيتساءلون : ما شأن الآثار القديمة فى الأعمال الكشافية ؟

فى الواقع أيها السادة أن الكشاف يمثل « الشباب المتجدد » وأعمال الكشافة كلها بمثابة « استعداد للمستقبل » فى حين أن هذه البناية هى « موئل القديم » وكل مافيها « مثال الماضى ومرآة التاريخ » فجمع الكشافة فى هذه البناية القديمة بين القاعات المملوءة بالآثار القديمة ، يظهر فى الوهلة الأولى كأنه « الجمع بين الأضداد » مثل « الجمع بين الماضى والمستقبل »

غير أنا ، أيها السادة ، إذا تعمقنا فى البحث قليلاً نضطر إلى التسليم بأن الماضى والمستقبل ليسا متناقضين إلا من حيث المعنى اللغوى ؛ أما من جهة العمل الاجتماعى فإنهما مرتبطان متلازمان ، فإن الماضى منبع المستقبل دائماً ، كما أنه من عوامل الدفع إلى الأمام فى كثير من الأحيان ولا سيما فى حياة الأمم التى تستفيق من سباتها وتنزع إلى النهوض بعد الرقود

لقد قال أحد المفكرين : « إن الأموات لا يرقدون فى المقابر فى حقيقة الأمر ، بل إنهم لا يزالون يعيشون فى نفوس الأحياء ويسيطرون على الكثير من أعمالهم فى كثير من الأحيان » إن هذا القول يحتوى على قسط كبير من الحقيقة ولا سيما فى حياة الأمم . فلأجل أن تقتنع بذلك جيداً يجدر بنا أن نلقى نظرة عامة على أهم مقومات الأمم

إن كل أمة من الأمم تكون شخصية معنوية تتصف بالحياة والشعور وتمتاز ببعض النزعات والميول

إن حياة الأمة تقوم بلغتها بوجه عام ، أما الموت بالنسبة إلى الأمة فليس — فى حقيقة الأمر — إلا فى الحرمان من اللغة الخاصة بها . إن الأمة التى تدخل تحت حكم دولة أجنبية تفقد استقلالها وحريتها ، تصبح مستعبدة لها ولكنها لا تفقد حياتها ما بقيت محافظة على لغتها ، فقد قال أحد المفكرين : « إن الأمة المحكومة التى تحافظ على لغتها تشبه السجين الذى يمسك بيده مفتاح باب سجنه » إنها تبقى حية ما بقيت محافظة على لغتها ؛ إنها تبقى مستعدة للتحرر والاستقلال ما دامت مستمسكة بلغتها . أما إذا فقدت هذه اللغة فإنها تكون قد فقدت الحياة ؛ تكون قد اندمجت فى الأمة المستولية عليها وفقدت كل ما لها من عناصر الكيان . إنها تكون قد زالت من عالم الوجود وبتعبير أقصر « ماتت » بكل معنى الكلمة . إن اللغة التى تكون بهذه الصورة هى « روح الأمة وحياتها » وتمثل « أهم عناصر القومية وأثمن مقوماتها » . أليست ميراث الأجيال الماضية وهدية الحوادث التاريخية بوجه عام ؟ أفلا يحق لنا أن نقول إنها تربط الماضى بالمستقبل دائماً ؟ .

* * *

هذا ويجدر بنا أن نلاحظ ، أيها السادة ، فضلا عن كل ذلك أن الحياة ليست كل ما يهم الوجود . فإن هناك شيئاً آخر لا يقل أهمية عن الحياة وإن كان تابعاً له ، ألا وهو الشعور . إن للأمم شعوراً كما للأفراد . فالشعور القوى بالنسبة إلى حياة الأمم مثل الشعور الشخصى بالنسبة إلى حياة الأفراد .

قلنا إن حياة كل أمة من الأمم تقوم بلغتها ، ويجب أن نعرف

(*) نص الخطبة التى ألقاها الأستاذ ساطع الحصرى بك مدير دار الآثار العامة فى العراق فى الحفلة التى أقامتها دار الآثار لتكريم الوفد الكشافى العربى فى دار الآثار العربية

شيئاً كثيراً من الجواهر واللآلئ كسرته فى المآون (١) »

وهكذا زهقت تلك التى لبثت مدى أعوام طويلة زينة البلاط المصرى وصاحبة الحول والسلطان فيه ؛ وزهقت بنفس الأسلوب المروع الذى زهق بها زوجها الملك المعز ؛ وكان القصاص مثيراً ولكن عادلاً ، وكان الفصل الأخير مأساة قصير بدأت رائعة باهرة ، ثم انحدرت إلى ظلمات الجريمة

محمد عبد الله عنان

(١) السلوك ج ١ ص ٤٠٤

فى الوقت نفسه أن شعور كل أمة من الأمم يتكون من ذكرياتها التاريخية الخاصة بها

فالأمة التى تحافظ على لغتها وتنسى تاريخها ، تكون بمثابة فرد فاقد الشعور ، بمثابة فرد يغط فى النوم ، أو بمثابة مريض فى حالة الإغماء . نعم إنه لا يزال على قيد الحياة ، ولكن حياته هذه لا تكتسب قيمة إلا إذا استيقظ من نومه واستعاد الشعور الذى فقده مدة من الزمن

فيحق لنا أن نقول إن إهمال التاريخ القوى يكون بمثابة الاستسلام للذهول والكرى ؛ وأما نسيان التاريخ المذكور فيكون بمثابة فقدان الشعور ...

هذه حقيقة يعرفها جيداً رجال الحكم والاستعمار ويستفيدون منها دائماً ، فهم عند ما يستولون على أمة من الأمم يبذلون قصارى جهدهم لإبعاد ذاكرتها عن تاريخها الخاص . إنهم يتوسلون بكل الوسائل الممكنة لتخدير الأمة وتنويمها عن طريق الحيلولة بينها وبين تاريخها القوى . إنهم يعرفون جيداً أن الشعور القوى عند الأمم المحكومة يأخذ فى الخمود والتضاؤل كلما أسدل النسيان سدوله على « التاريخ القوى » إلى أن ينعدم تماماً بنسيان التاريخ الخاص نسياناً تاماً

أما عودة الشعور القوى إلى مثل هذه الأمم المحكومة فلا تتم إلا باستعادة الذكريات التاريخية . إن حركات النهوض والانبعاث وجهود الاستقلال والاتحاد عند تلك الأمم تبدأ بوجه عام بتذكير الماضى واستلهام التاريخ . استعرضوا تواريخ استقلال الأمم التى كانت مغلوبة على أمرها ، ثم نهضت وتخلصت من ربقة الاستبداد تفهموا جيداً منها أن حب الاستقلال يتغذى بذكريات الاستقلال المفقود ، والتوقان إلى السؤدد والمجد يبدأ بالتحسر على السيادة الماضية والمجد السالف ، كما أن الإيمان بمستقبل الأمة يستمد قوة من الاعتقاد بماضيها الباهر ؛ والنزوع إلى الاتحاد يزداد شدة وحماسة بتجدد ذكريات الوحدة الضاعة ...

ومما يجب أن يلفت أنظارنا فى هذا المضمار أن خطة استلهام الماضى والاستفادة من التاريخ تظهر للعيان حتى فى أعمال الأمم التى تقوم بثورات عنيفة وتحاول قلب حياتها الاجتماعية رأساً على عقب بصورة جدية وفورية . إن تلك الأمم تثور فى حقيقة الأمر على « الماضى القريب » وحده ، وتحاول فى خلال ثورتها هذه أن تستمد قوة من الماضى البعيد . أنعموا النظر فى تاريخ ثورات ووثبات تلك الأمم — مثل اليابان وتركيا الحديثة — تجدوا فيها أيضاً ، بجانب حركات التجديدات الجندية ، اهتماماً متزايداً بالأبحاث التاريخية ، وتغلغلاً مستمراً فى استخدام التاريخ لتقوية الروح القومية وإيجاد النزعات التجديدية

إن أمر الاهتمام بالتاريخ والالتفات إلى الماضى ليس من الخطط الخاصة بالأمم التى كانت فى حالة تأخر وسبات ، بل هى من الأمور التى تشمل جميع الأمم بدون استثناء . تعمقوا فى دراسة أحوال أرقى الأمم العصرية ، وأنعموا النظر فى أحسن الشوارع والميادين فى أرقى المدن الحديثة تجدوا فى جميعها آثار اهتمام عظيم بالماضى والتاريخ ، تجدوا فى جميعها عدداً كبيراً من الأنصاب والتماثيل والألواح التذكارية وسلسلة طويلة من المهرجانات والاحتفالات يقصد منها تذكير الماضى للناس ، وترسيخ التاريخ فى الأذهان

ولهذه الأسباب كلها أقول فى كل حين : إن الماضى منبع فياض للمستقبل والتاريخ قوة مهمة فى حياة الأمم

ولهذه الملاحظات رأيت من الواجب على فريق الكشاف العربى أن يذهب إلى سامرا ليقضى يوماً كاملا فى التجوال بين أطلالها ، ويطلع على الآثار الباقية من عهد الامبراطورية العربية العباسية فيها ، ثم يعود إلى هنا ليجتمع معنا فى هذه البيئة التاريخية ويتأمل مدة فى ماضى أمتنا العزيزة ، ويستمد من ذكريات هذا الماضى قوة جديدة لجهوده القادمة . ولهذا أقدمت على تحيته باسم دائرة الآثار القديمة

* * *

إننى لا أحب المغالاة فى مثل هذه الأمور ، بل أنزع دائماً إلى مجابهة الحقائق من كل وجوهها . وبعد أن شرحت لكم ما أعتقده فى خطورة الدور الذى يلعبه التاريخ فى حياة الأمم أرى من واجبى أن أقول لكم كلمة عن مضاره أيضاً ، لكى أحذركم منها

إن الحياة الاجتماعية غاية فى التعقد ؛ والعوامل الاجتماعية فى منتهى التشابك . ولذلك قلما نجد بين تلك العوامل ما هو مفيد على الاطلاق ، ومجرد عن الشوائب والأضرار فى كل الأحوال . إن الفوائد والأضرار فى الحياة الاجتماعية تتشابك بشكل غريب ،

فاقتطاف الفوائد مع توقى الأضرار يحتاج إلى يقظة كبيرة وانتباه شديد فى معظم الأحوال

إن تأثير التاريخ والماضى فى حياة الأمم ، لا يشذ عن هذه القاعدة العامة ، فانه أيضاً قد يصبح مضراً فى بعض الأحوال

فان التاريخ يكون مفيداً عند ما يفرغ فى شكل « قوة دافعة » تحركنا إلى الأمام كما ذكرت لكم ؛ غير أنه يصبح مضراً إذا أخذ شكل « قوة جاذبية » تدعونا إلى العودة إلى الوراء . فلا يجوز لنا أن نعتبر الماضى هدفاً نتوجه نحوه ، ونسعى للعودة إليه ، بل يجب علينا أن نجعل منه « نقطة استناد » نستند إليها فى سيرنا إلى الأمام ، يجب علينا أن نكون منه قوة فعالة حافزة تدفعنا نحو المستقبل الجديد ، وبتعبير أوجز : شعارنا فى هذا الباب يجب أن يكون : « تذكر الماضى ، مع التطلع إلى المستقبل دائماً »

واسمحوا لى أن أشرح لكم قصدى من هذا الشعار بذكر بعض الأمثلة :

كلكم تعلمون أن سيرة خالد بن الوليد من أجلّ السير التى سجلها التاريخ ، فيجب علينا أن ندرسها بكل اهتمام ؛ ولكن لماذا ولأى قصد ؟ ألقصد الحصول على دروس فى فنون التعبئة والحرب ؟ كلا ؟ فان الخطط الحربية التى كانت تضمن النجاح والنصر فى عصر خالد بن الوليد لا يمكن أن تفيد فى هذا العصر بوجه من الوجوه . ولا مجال للشك فى أن الخطط الحربية التى تضمن النصر والنجاح فى عصر الدبابات والطيارات والغواصات والمدافع الضخمة والقذائف الهدامة والغازات الخانقة — تختلف كل الاختلاف عن الوسائل التى كانت تؤدى إلى النصر فى حروب العصور السالفة . فكل من يحاول أن يجد فى خطط خالد بن الوليد دروساً فى فنون الحرب قابلة للتطبيق فى العصر الحاضر يكون قد أقدم على عمل لا يتفق مع العقل والمنطق

غير أنه يجب أن نعرف أن الحروب لا تتم بالوسائط والقوى المادية وحدها ، بل إنها تحتاج إلى قوى معنوية متنوعة فضلاً عن القوى المادية ، أهمها : الوطنية الصادقة ، والايمان بإمكان النصر مع الإقدام على إحرازه بحزم وثبات ، وجرأة وشجاعة لا تتأخر عن نوع من أنواع التضحية . إن هذه القوى المعنوية لعبت ولا تزال تلعب دوراً هاماً فى الحروب فى جميع العصور ، مهما كانت الوسائط المادية المستعملة فى خلالها ، سواء أكانت من نوع السهام أم الدبابات ، أم الجمال أم الطيارات .

إن سيرة خالد بن الوليد مملوءة بأمثلة عليا عن هذه القوة المنوية ؛ وإذا ما أقدمنا على درس سيرة خالد بن الوليد يجب أن ندرسها لكى نستفيد من تلك القوى المنوية ؛ وإذا ما بحثنا عنها يجب أن نبحث عنها بقصد استثارة قوى معنوية مماثلة لها ، لا بقصد محاولة الحرب على الطريقة التى مشى خالد بن الوليد عليها

وكذلك كلكم تعلمون بأن أجدادنا العظام أسدوا إلى الطب من الخدمات ما لا ينساه التاريخ ، فيجب علينا أن ندرس تلك الخدمات ، ونطلع عليها ونتذكرها دائماً ، ولكن لماذا ؟ وبأى قصد ؟ هل يجوز لنا أن نفعل ذلك بقصد الاستفادة من آراء كبار أطباء العرب فى مداواة الأمراض ؟ لا مجال للشك فى أن ذلك يكون فى منتهى السخافة . يجب علينا أن ندرس خدمات العرب للطب ، لا بأمل أن نجد فى اكتشافاتهم ما يفيدنا فى أمر التطبيب والمداواة ، بل لنزداد مباهاة بأعمال أجدادنا العظام ، ولنزداد إيماناً بحيوية أمتنا الكامنة ، ولنحصل على دوافع باطنية تحفزنا على القيام بخدمات تشبه خدماتهم التالية . إن أطباء العرب القدماء خدموا الطب خدمة كبرى ، ومشوا فى مقدمة العالم فى هذا المضمار قروناً عديدة . إن خدمات هؤلاء يجب أن تولد فى نفوسنا طموحاً لإحراز مكانة عالية فى الطب الحديث ، مثل المكانة التى كان أحرزها هؤلاء فى العصور التى عاشوا وعملوا فيها

ولذلك قلت إنه يجب علينا أن نستمد من التاريخ قوة معنوية ، تثير فى نفوسنا نزعات التقدم إلى الأمام ، وتحفزنا إلى العمل لمجد المستقبل

أما أهم النزعات التى يجب أن نستلهمها من التاريخ فهى فى نظرى الايمان بحيوية الأمة العربية ، وبإمكان حصولها على مجد جديد لا يقل شأناً عن المجد الذى كانت نالته فى سالف العصور

إننا فى حاجة إلى مثل هذا الايمان فى هذا الزمان أكثر من أى زمان آخر ، لأن المصائب انصبت على العالم العربى من كل حدب وصوب . ومن المعلوم أن كثرة المصاعب والمصائب تفتح باباً إلى تسرب الفتور والقنوط إلى القلوب التى لا تتجهز بالأمل القوى ، ولا تتقوى بالعقيدة الراسخة

ونحن نعلم أن الأمل من أهم عوامل السعي والعمل ، وأما القنوط فهو من أقمل دواعي التقاعد والشلل . ولهذا السبب نستطيع أن نقول : إن تطهير القلوب من شوائب الفتور والقنوط وتجهيزها بالأمل والإيمان يجب أن يكون من أهم أهداف العاملين ، ولا سيما في الظروف التي أحاطت بالعالم العربي في خلال هذه السنين

وبهذه الوسيلة ، وقبل أن أختم كلمتي هذه أود أن أذكركم بإحدى الأساطير اليونانية ، وهي « أسطورة باندور » :

باندور كانت إلهة جمة الخصال تكونت من عطايا جميع الآلهة : أعطتها كل إلهة من الآلهة الموجودة في ذلك الحين شيئاً من خصالها ، ولهذا السبب سميت هذه الإلهة الجديدة باسم (باندور) بمعنى « عطية الكل »

عندما غضب جوبيتير على هرقل وأراد أن ينتقم منه فكر في إغرائه بواسطة باندور ، فسلمها علبة سحرية ، وطلب إليها أن توصلها إليه من غير أن تفتحها وتطلع على ما فيها . وحملت باندور هذه العلبة ، غير أنها لم تستطع أن تتغلب على ميل الاستطلاع في نفسها ، ففتحت العلبة في طريقها ؛ وعند ذلك أخذ يخرج من العلبة جيش عرمرم من المساوىء والشرور ، وينتشر في الأرض بسرعة العاصفة مع أزيز هائل . اندهشت باندور من كل ذلك ، وأخذت تبذل كل ما لديها من قوة لإعادة إقفال العلبة بسرعة ؛ غير أنه قد خرج من العلبة جميع الشرور قبل أن تتمكن من ذلك ، ولم يبق فيها إلا شيء واحد ، وكان ذلك الشيء الذي بقي في العلبة مقابل جميع تلك المساوىء والشرور هو « الأمل »

إن حالة العالم العربي الآن تشبه الحالة التي حدثت عند انفتاح علبة باندور المذكورة في هذه الأسطورة . لقد انتشرت المصائب والشرور في العالم العربي ، ولم يبق بين أيدي أبنائه شيء غير « الأمل » ، فيجب علينا ألا ننسى أن الأمل هو من أهم عوامل العمل ، ولا بد أن نحرص عليه كل الحرص فلا نترك سبيلاً إلى تسلل القنوط إلى قلوبنا . فليكن قلب كل واحد منا شبيهاً بعلبة باندور « يحفظ الأمل » بل لا يكتفي بحفظه فيسعى إلى تغذيته وتقويته إلى أن يتحول إلى « إيمان لا يتزعزع » يدفعنا إلى العمل المتواصل بروح التضحية والأخلاص .

ساطع الحصري

إلى الأستاذ الزيات

تكيف الأخلاق الفاضلة

للأستاذ خليل جمعة الطوال

— بلى يا محمود ! وهل تشك في ذلك ... ! إن الأخلاق الفاضلة هي مبعث كل سعادة ، وأس كل نجاح ، ولولا فضيلة الخلق لكان للعالم شأن غير هذا الشأن . فهي الصخرة الناشرة في طريق الكفر التي تحطمت عليها أصنام الوثنية في قريش ؛ وهي القوة العظيمة التي بدلت نواميس الطبيعة التي لا تتبدل يوم هرب موسى بشعبه من ظلم فرعون الطاغية ؛ بل هي العدة الوافرة التي تسلح بها المسلمون في جهادهم فجعلت سيوف المشركين في أيديهم خشباً ، وحملها العرب في فتوحاتهم فإذا بها لغم تداعت له جوانب الإيوان وشرفاته ، وتلاشت فيه أبهة التاج وجوهراته . ولكن ما العمل فقد تطور الحال ، واستحال الزمان ، ولم يعد ابن الأمس — المتوحش على زعمنا — في قياس هذا العصر بإنسان ، ولا أخلاقه الرجعية بالتي ترجح فيها كفة الفضيلة في الميزان ؟

يا أخي ! إنها « لموضة » تعم كل شيء ، وتجتاح كل ما في سبيلها ، وتخضعه لحكمها ؛ فلا فرق في ناموسها بين الأخلاق الفاضلة والسراويل المخرجة التي يلبسها خصيان الأتراك . ومتى انتشرت « الموضة » فعار على الإنسان أن يتخلف عنها . ولقد نظرت في تاريخ المدنية فرأيت فيه أزياء من الأخلاق بعدد « موضات » اللابس ، ورأيت أن الأخلاق تتكيف بالزمن وملابساته ، تكيف الجسم بالمحيط ومؤثراته . وما تعمل الأخلاق غير هذا ... إنها مكرهة عليه لتحتال لنفسها على البقاء وتنجو من يد الفناء ، فهو طريقها في شهوة الخلود ، ولا محيص لها عن سلوكه . ألا فانظر كيف يقلم الإنسان أظفاره لاستغنائه عنها ، ويدرمها « بالمونيكير » مجاراة للموضة ، وكيف حسر عن رأسه ليظهر شعره السبط اللامع المطيب نأطايب « الموضة » أفلا يسفر بعد هذا عن أخلاقه : ... وقد نظر في ناموس

الأخلاق ، فرأى أن الفضائل التى كانت فيما مضى قائمة به إلى معالى الأمور ، حافزة له على عظيم المآثر ، هي القاعدة به اليوم عن عالي الرتب ، وعريض الجاه ؛ وهي السالكة به طريق الفشل ، والصادة له عن محجة النجاح ؛ فلا عجب بعد هذا أن يتنكب جادتها ، ويصد عن ورد شرعتها ؛ فالكرمُ الذى كان يتهالك عليه المرء فيما مضى ، إذ كان طريق السؤدد ومحمدة ما فوقها من محمدة أصبح اليوم — في عرف هذا العصر — تبذيراً وهوساً . وأعوذ بالله ممن يرميه الناس بالتبذير ، ألا يتهمونه بالهوس ؟ والحلم أصبح ضعفاً وعجزاً ، والتقوى تزمتاً ورجعية ، والحياء نقصاً في الرجولة وأنوثة . وما الفضائل الجلى ، والحظوة البالغة ، والمكانة السامية إلا في الطباع اللئيمة ، والكذب الصراح ، والتملق الشائن ، والخلق اللدن ، والمثالب الفاضحة ، والسفالة الواضحة .

هى الأخلاق تنصهر بالموضة وتميع ، ومتى ماعت جرت — حسب قوانين السوائل من فوق إلى تحت — من ذروة سمو النفس ، إلى دركة حيوانية الطبع ، وتشكلت بشكلها والعياذ بالله !

أين ذاك الزمان الذى كان يتنافس فيه الأقران على اجتذاب حبل الفضيلة بوأد حيوانية الطبع ، وعلى سمو النفس بصلب سفالة الشهوة ، وعلى زعامة الخلق بانكار أنانية الذات ، من هذا العصر الذى تدلت فيه معنويات الفضيلة ، فجبل الشهوات البهيمية على التارب ، وخسة الطبع والقحة هما من الأخلاق فى ذروتها ، والتبجح الكاذبُ مدار الحديث فى كل مجلس وناد ؟ والأغرب أن الناس إنما يتجاحشون على الرذيلة باسم الفضيلة ، ويتمرغون فى حمأة الموبقات باسم الأخلاق ، ويرتكبون اللتيا والتى باسم التجديد ! التجديد الذى شمل الأخلاق وعم الفضائل ، فحور فيهما وبدل ، ما حور وبدل فى الثياب

استعرض الناس على اختلاف طبقاتهم وبيئاتهم ، وانظر علامَ يتجاحشون ! أعلى الصدق وهم يرونه آفة على جمع المال الذى احتكرته الختالة والخداع ؟ أم على الحياء وقد أصبح صاحبه مقروناً بالحرمان ، كما أصبحت الحظوة من مدلولات القحة ؟ أم على الكفاية وقد تغير مقياسها — بتغير الموضة — ولم تعد دليلاً على مقدار رسوخ قدم صاحبها فى العلم والعرفان ، ولا على مقدار ما فى نفسه من معنويات الشرف ، وطهارة الوجدان ، وإنما على مقدار ما له من جاه عريض ، وأصل أثيل ، وعلى عدد ما فى بطانته من أرباب الرتب الملحوظة ، والألقاب الضخمة ، والشخصيات المنفوخة : إن صح هذا التعبير كالأفندية ! والباكوية ! والباشوية ! كلا ليس على شيء من هذه الفضائل يتجاحشون ، ولِمَ يتجاحشون عليها وهم يرونها — جميعها — قد اختلطت ، وتفاعلت ، وتركبت فى جوهر واحد فقط هو الوظيفة ؟

أفلا تراهم يشترون أحط الوظائف دركة بماء وجوههم اللدنة ونخاسة سمتهم السافلة ، وفضيلتهم الداعرة ، حتى إذا ظفروا بها بطروا ، وضحوا فى سبيل استبقائها والحرص عليها بجميع أخلاقهم وبضمائرهم الموبوءة ، وما ذلك إلا ليكونوا من ذوى الزلفى ، وليثملوا بنشوة الغرور ، إذ يقول فيهم الناس ، تزلفت إلى البيك فى الديوان وزرت الأفندى فى الديوان ، وتوسطت فى الأمر لدى الباشا فى الديوان

قد يسوءك الأمر ويغمك ، ولكن الأخلاق الفاضلة غير مسئولة عن ذلك لأنها تطورتْ وأنت تحجرتَ — فى عرف أهل الموضات — وتقدمتْ فتخلفتَ

يا أخى ! لقد تلقحت أخلاقنا الفاضلةُ الأصيلة بأخلاق سفلة الشعوب الوضيعة فنغلت وصارت كالخنثى ، لاهو ذكر ولا أنثى ، بل كالبغل ليست فيه أصالة الحصان ولا ضعف الأتان

هى « الموضة » ياعزيزي ... ! وقد أبت الأخلاق إلا أن تتكيف بها ، فتصبغت وتطيبت ثم تدلت وانتهت إلى هذه الحالة التى تشكو منها . وما شكاتك إلا شكاة الفضائل بأسرها ، والأخلاق العالية بكاملها . هى « الموضة » وعبثاً يحاول الإنسان أن يجارى الدنية ولا يجاريها ، فهى من مقوماتها الأولى ، ومستلزماتها الرئيسية

أفبعدَ هذا — يامحمود — تطمح إلى النجاح فى القرن العشرين وعدتك له عدة الجدود التارين ؟

(شرق الأردن) خليل جمعة الطوال

صور وخواطر

بعد المرض

للأستاذ علي الطنطاوي

... يقولون إن الإنسان يأكل ليعيش ، ولكني أعيش في هذه الأيام لآكل . آكل بشراهة ونهم ، حتى أحس الامتلاء ولا يبقى في المعدة مكان لذرّة ... فأدع الطعام آسفاً ، وأنظر إلى الأطباق وما فيها نظرة المودّع الحزين ، ثم أقوم إلى كتابي فأفتحه ، أو إلى شباك أطلّ منه ، أتلهى بهذا أو بذاك حتى أحس أو أتوهم أني أحس جوعاً ، فأدعو بالطعام ، أو تمضي ثلاث ساعات ، فآكل ولو لم أكن جائعاً ... ألم يقل لي الطبيب : كلْ كلَّ ثلاث ساعات ؟!

ذلك لأني لبثت عشرين يوماً أشتهي قطعة الخبز ، فأطلبها وألح في طلبها ، فتمتنع عني ، وأحرمها فأراها في منامي ، وأحلم بها في يقظتي تجسمها لي أمانيّ وأفكاري ، فأتخيل أني قد نلتها ، فإذا أنا لم أنل إلا هذا اللبن (الحليب) الذي برمت به واجتويته ، والذي يفضل المريض رؤية عزرائيل على رؤيته يطالعه في الصباح وفي المساء ، والذي كرهت لأجله كل أبيض ، حتى بياض الفجر وبياض النحر ... والذي أصبح قذًى في عيني لا أطيق رؤيته ، وسمًّا في فيّ لا أقدر على تذوقه ... ثم فرّج الله عني بعد الضيق وأنالني ما أشتهي من الأطعمة وأريد ، فكيف لا أهجم عليها بشراهة ونهم ، وكيف تبلغ بي الحماقة أن أقوم عن المائدة وفي الأطباق بقية ؟

* * *

لا أكاد أشبع من الطعام ولا من القراءة ، ولا من النظر في هذا الفضاء الفسيح ، وهذه الجنات المتسلسلة تبدو من شباكي يعانق بعضها بعضا ، حتى يستاق آخرها في أحضان قاسيون . لا أكاد أشبع من شيء ، لأني خرجت من هذا المرض كمن ولد ولادة جديدة ، فهو لا يعرف الدنيا قط وهو ينظر إليها بعيني طفل ذكي يدهشه كل شيء ويود لو يمتلكه ويأكله أو تحتويه يده ... ولأني خرجت منه ضعيفاً مهدوداً ، ولقد كنت من قبله قوياً نشيطاً . استحممت يوماً في البحر ، ثم خرجت منه متوثباً متحفزاً ، أكاد أطير مما أحس في جسمي من النشاط ، فسرت على الشاطئ حتى حاذيت الصخرة (الروشة !) ، تلك الصخرة القائمة في البحر كأنها الطاق العظيم ، أو كأنها قوس نصر ، أقامه الماء الهيّن الليّن الذي انتصر بصبره وثباته في جهاده ، على هذه الصخرة العاتية المتكبرة ، فجعلها فارغة جوفاء ، ولا تزال على عتوها وكبرها . سنة الله في المتكبرين ، لا يكونون إلا فارغين ... تلك التي يدعونها في بيروت صخرة الانتحار ، لأن المجانين أعداء أنفسهم وأوطانهم ، يلقون بأنفسهم منها يثبون إلى ... إلى جهنم ! وكانت الشمس مائلة إلى المغيب ، تمنح البحر آخر هباتها ، فيبدو براقاً لامعاً ، قد لبس حلّة من النور ، فأكبرت هذه المخلوقات : الشمس والبحر والصخر ، ووقفت صاغراً حيال عظمة الطبيعة وجلال الطابع (جلّ جلاله) ، ثم غلب عليّ هذا النشاط الذي أحسّ ، وبلغ دماغي فملأه ادعاء وكبراً وغروراً ؛ والمرء في فكره وعواطفه خاضع أبداً لحالة جسمه ، ودرجة صحته ، فرأيت هذا الصخر إلى زوال قد عبث به الماء ، والماء إلى ذهاب قد بخرته الشمس ، والشمس إلى غياب قد ابتلعها البحر ، ورأيتني وحدي الذي يبقى ، أنا الذي فتّت الصخر ، وأنا الذي أذلّ البحر ، وأنا الذي اتخذ الكون كله معمل تجارب لعقله وسخّره لمنفعته ، وأنا الذي يحوي في صدره عالماً أكبر من هذا العالم ، ونوراً أبهى من هذه الشمس وعواطف أعمق من هذا البحر ، وأرقّ من هذا الماء ، وأشد من هذا الصخر ...

وذهبت إلى المدرسة ، وأنا أقول (أنا) ، والعياذ بالله من (أنا) فإنها كلمة إبليس ... ذهبت ماشياً فأكلت من ساعتي أكل من لبث في البحر ساعتين ، ومشى ساعة كاملة ، من (الروشة) إلى الحرج ، وكانت سكرة النشاط ، ونشوة (أنا) لا تزال ضاربة في رأسي ، فذهبت مع الطلاب أمشي وأعدو وأثب ، وأفعل كل ما لا يفعل عاقل ، ولم أعد إلى المدرسة إلا غارقاً في العرق فشربت قازوزتين[1] مثلجتين من (القازوز) ، وصارعت ... واغتسلت بالماء البارد ، ونمت فأصبحت مريضاً !

* * *

(١) القازوزة . القارورة الصغيرة

يا لهذا المغرور الأحمق الذى أصاب ذرة من العلم ، وعبث بالكون عبث الوليد ، يرفع ويضع فلم يعد يرضيه إلا أن يدّعى الألوهية ، أو (يؤلّه هذا العلم) ... يا لهذه القوة الكاذبة ، وهذه السطوة الفارغة ، هذا القوىّ الجبار الذى فتت الصخر ، وأذلّ البحر ، يذله مخلوق من أصغر مخلوقات الله ، لا تراه لهوانه العين ، يعيش الملايين منه فى قطرة ماء ، مخلوق واحد من أضعف المخلوقات يلقى الإنسان محطوماً ، ويطيّر هذه الأفكار كلها من رأسه حتى يعود ذليلاً خانعاً ... فكيف ويحك لو أصابك الله بعذاب من عنده ؟ يا للأحمق المغرور !

***

أصبحت فإذا أنا قد نسيت أفكار الأمس ونسيت الأمس كله وأحسست بالبعد عن الدنيا التى آلفها وأحبها . ولقد انقطعنا مرة فى قلب جزيرة العرب ، وتهنا فى رمالها الموحشة سبعة عشر يوماً نسير وراء حدود العالم مع الوحش والآكام ، والشمس والعطش والموت ، فما أحسست بأنى بعيد عن الدنيا ولا بلغ بى ذلك كله ما بلغ بى هذا المرض القصير ... لقد أصبحت بلا ماض ولا مستقبل ولا حاضر إلا هــذا الحاضر الضيق الأليم الذى يستقر فى بطنى حيث (الزائدة) الملتهبة ، وفى خاصرتى حيث الرمل فى الكلية . اصطلحت علىّ العلل ، واجتمعت المتناقضات ، فالالتهاب لا يطفئه إلا كيس الثلج ، ونوبة الرمل لا يصلحها إلا الماء الحار ، فإن داويت هذه زدت تلك ، وإن عالجت تلك اتقضت هذه ...

***

أنسانى المرض كل شىء ، حتى ما أذكر أنى كنت يوماً من الأيام أمشى وآكل وأشرب واقرأ وأكتب وأمارس أنواعاً من الرياضة ، ولا أذكر أنى كنت أستطيع التفكير فى آلاف المسائل وأعالج المئات من الأمور ، وماتت الدنيا فى عينى ، وأصبح هــذا الألم دنياى كلها ، فأنا أطلق الفكر من عنانه ، فلا يخرج عنه ، ولا يجول إلا فيه ، يتخيل أبشع أنواع المرض ، وأفظع ألوان الخطر ثم ينطلق الفكر إلى العملية التى أكد الأطباء أنه لا بد منها ، فلا يكاد يشرع فى تصورها حتى تسود الحياة فى عينى ، وأراها كلها ألماً وشراً ، وأتمنى أن لو كان أبى على مذهب المعرى ، أو لو أن أمى لم تلدنى ... ويوسوس لى الشيطان أن ما حق أبيك فى أن يقضى عليك فيجىء بك ، أليست حياتك متعلقة بك وحدك ؟ فهل استشارك فيها ، أو هو قد ضحى بك وبحريتك وسعادتك فى سبيل لذته ، أو هو لم يفكر فيك أبداً ، ولم تخطر له على بال ؟ ... فأرى الشيطان يريد أن يزيدنى على مرض جسمي مرض دينى ، فألعن الشيطان وما جاء به ، وإن مما يجىء به الشيطان لما يسمونه فناً وابتكاراً وتجديداً ، ولـكنه يبقى أبداً فناً شيطانياً ... أدع هذا وأعود بفكرى إلى سرير العمليات الذى حملنى اليه المدير مرة ووكل بى الممرضات ، وأقام علىّ طالبين يحرسانني ، وذهب إلى الطبيب يحضره فوثبت أحمل أوجاعى وأناضل دون حريتى حتى بلغت الشارع حافياً ، وركبت إلى الكلية أول سيارة رأيتها وأنجانى الله من العملية والأطباء . والأطباء — والرجاء عدم المؤاخذة — قوم برئوا من العاطفة وانبتوا من الشفقة [1] يشقون بطون النــاس — نسأل الله السلامة — ويخرجون أمعاءهم فيضعونها فى طبق ... ويكسرون جماجم البشر ، ويعبثون فى أدمغتهم . ويفعلون ما لو فعله غيرهم للحقه الشرط ، واصطف له القضاة ، وفتحت له أبواب السجون ، وأعدت له حبال المشانق ؛ ثم يتصدرون المجالس يفتخرون بأنهم أصــدقاء الانسانية ... أفأعطيهم بطنى ليشقوه ، ويردونى مريضاً بعد إذ أنا معافى وأتعجل الداء بنفسى ؟ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين

***

لم يكن يفزعنى شىء وأنا مريض مثــل ما يفزعنى الليل بسواده وامتداده . كنت أخافه أشد الخوف ، وأحسب لمجيئه الدقائق والثوانى ، وأرقبه كما يرقب المحكوم ساعة القتل ، ذلك أنى لم أكن أستطيع النوم ولا أطيق الجلوس ، وإنما أستطيع أمراً واحداً ، هو الاضطجاع على قفاى أحدّق فى السقف ليلاً ونهاراً ... ولطالما رأيت فى السقف بقعة سوداء ، فخيل إلىّ لطول التحديق فيها ، أنها حية تريد أن تنقض علىّ أو رتيلاء كبيرة ذات تسع وتسعين رجلاً وعشرة رءوس ، أو مجموعة من

(١) هذا لسان الأدب ، أما لسان الحقيقة فينطق والله بشكر كبير جراحى بيروت الدكتور محمد خالد ، وكبير جراحى دمشق الدكتور الأديب مرشد خاطر ، وشـكر الحكيم البارع الدكتور حسيب يازيد على وجه التخصيص ، فهو رجل وضع الله الشفاء فى شخصيته المحببة كما وضعه فى علمه الجم . أما ابنا عمى الطبيبان فهما منى ولا يشكر امرؤ نفسه ..

العقارب أو عفريت من الجن ، أو جنى من العفاريت ، فأصيح فزعاً وأنطلق أهذى هذيان محموم حرارته أربعون ...

إنى لأضحك الآن ، وأكركر من الضحك حين يعيدون علىّ ما كانوا يسمعون مني إذ أهذى ، وأرى فيه صورة واضحة لكثير مما نقرأ فى الصحف والمجلات ينشره أصحابه على أنه أدب ، ويقرؤه الناس على أنه ثرثرة وهذيان محموم !

وكان أحبّ شيء إلىّ وأنا مريض أن يكثر الناس من حولى ، ثم يتحدثوا شتى الأحاديث لأخلص من وحدتى وأتسلى عن ألمى وأذكر جانباً مما فى الحياة ... ولكنى كنت أسمع أصواتهم كأنها خارجة من جوف بئر سحيق ، أو أعماق منارة بعيدة ، وأراهم من خلال ضباب كثيف ، فلا أتبين صورهم ولا أصواتهم ، وسرعان ما أملّ منهم وأطلب جديداً . كانت أيامى متشابهة متشاكلة ، فكنت أحب أن أجد كل لحظة شيئاً جديداً

ضعفت قواى وضاعت إرادتى ولم يبق لى طاقة على المشى ، ولا قدرة على المحاكمة العقلية ، ولم يبق حياً فىّ إلا لسانى ... أكل ذلك لأن جرثومة صغيرة دخلت جسمى ...؟ بالضعف هذا الإنسان القوىّ !

***

تألمت فى هذا المرض لكنى تعلمت . تعلمت فى الحياة درساً جديداً ، وما الحياة إلا دروس ... هو أن المرض نعمة ليس بنقمة ، وأنه لازم للإنسان لايدرك قيمة الصحة ولا يعرف معنى الحياة ولا يرجع إلى نفسه إلا إذا مرض ، هنالك يدرك معانى هذه الأشياء التى يمرّ بها وهو صحيح مراً سريعاً لأنه مشغول عنها بما لانهاية له من الصغائر والترهات ، وإن للمريض — قبل لذة الصحة — لذتين ، لذة هذا العطف الذى يحاط به والحب الذى يغمره ، ولن أنسى أبداً عطف مدير الكلية وناظرها علىّ وحبّ الطلاب إياى وإنى لأسيغ ذكرى الألم إذا تصورت هذين الطالبين اللذين كانا يقيمان الليل كله بجانبى ، إذا قلت آه أو انقلبت من جنب إلى جنب كانا واقفين أمامى . آثرانى على أهلهما وفضّلا راحتى على راحتهما ، أما عطف إخوتى وأهلى فلست أذكره ...

ولذة أخرى ، وهى اللذة الكبرى التى يجدها ساعة يلجأ إلى الله ، ويدعوه مخلصاً مضطراً ، وكنت إذا وصف لى مريض به مثل ما بى اليوم ، يُدار بى من الرثاء له ، والخوف مما هو فيه فلما غدوت مريضاً ، لم أجزع ولم أخف ، وكانت تمر بى لحظات أضيق فيها بهذا القيد إلى السرير وهذا الألم ، ويبلغ بى الضيق فى الليل أقصاه ، ولكنها كانت تمر بي لحظات كنت أرضى فيها كل الرضى ، وأفىء فيها إلى ربى ، وأرى ما أنا فيه امتحاناً لصبرى ، ونعمة من الله تزيد فى أجرى ، فأطمئن ويبلغ بى الأمر إلى أكثر من الاطمئنان إلى نوع من اللذة الخالصة لا أشعر بمثلها فى الصحة ، وإلى لون من النشاط والقوة لا أعرفه قط وأنا معافى ، وأحسب أن لو أصبت بأشد الأمراض وأقواها ، وانا أقدر على هذا الرضا ، وأحس هذا الاطمئنان لما وجدت فيه إلا لذة . هذا ما كنت أجده لا أبالغ ولا أتخيل ، فأرجو أن يصدقنى القراء ، وهذه نعمة من نعم الله الخفية على الانسان ، ومظهر من مظاهر القوة الهائلة التى أعطاه ، فلا يحكم الانسان على المريض أو البائس بظاهره . فيشك فى عدل الله ورحمته ، ولكن ليدخل إلى الداخل ، لعل وراء الجدار الخرب قصراً عامراً ، ولعل خلف الباب الضخم كوخاً خرباً ، ولعل فى هذه الثياب الرثة ، وهذا الجسم المزّق البالى نفساً مشرقة سعيدة وإنساناً كاملا ...

***

وتعلمت من المرض أن المساواة التامة هى سنة الله فى الحياة . أنظروا المرض هل يعرف غنياً أو فقيراً ؟ هل يمتنع منه الملك الجبار رب القصر والحراس ؟ وهل تمنع أبوابه وجنده هذا المخلوق التافه الصغير من الدخول ؟ سد الأبواب ، وأغلق النوافذ ، وأقم الجند بالسلاح ، وعش فى صندوق مغلق ، إنه يدخل مع الهواء الذى تنشقه ، والماء الذى تشربه ، والطعام الذى تأكله ، ويحتل جسمك ، ويعيش فى عينك وفك ، ويسبح فى دمك

ترفع عن المساكين ، وتكبر على الفقراء يرجعك المرض إلى صفوف المساكين والفقراء ، فتألم كما يألمون ، وتصيح مثل ما يصيحون ، وكل ما فى الحياة يسوّى بينك وبينهم ؛ هل تنشق أيها الغنى من الهواء هواء معطراً ، وينشقه الفقير بغير عطر ، أم إن الهواء وهو قوام الحياة لك وله ، قد سوى فيه بينك وبينه ؟

التزوج بالغربيـــات

تحريمه بفتوى وقانون

لأستاذ جليل

هلاكُ الشيوخ والشبان منا معشر المصريين على التزوج[1] بالغربيات أجلَ أن تهدّم (قاصدين أو غير قاصدين بُلْهاً أو متفلسفين) الأسرة المصرية بل الأمة المصرية — أجبر على كتْب هذه السطور :

قال الله تعالى : « اليومَ أُحلّ لكم الطيبات ، وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حِلّ لكم ، وطعامكم حلّ لهم ، والمحصناتُ من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهنّ أجورهنّ محصنين غير مسافحين ولا مُتخذى أخدان[1] ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عملُه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين »

صدق الله العظيم ، وقول الله بيّن ، وظاهرُه طوّع لأئمةٍ نكاحَ الكتابية : اليهودية والنصرانية . بيد أن لنزول الآيات أسباباً يوردها المفسرون ، وقد يكون المغزى فى آية غير ما يلوح أولّ وهلة . والصحابة والتابعون هم أدرى بكتاب الله ومراميه من تابعى التابعين ومن مجتهدين مولدين محدثين (وللمجتهد فضل وقدر وأجر) فقد جاء فى (مفاتيح الغيب) :

« كان ابن عمر (رضى الله عنهما) لا يرى التزوج بالذمية ، ويحتج بقوله : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ) ويقول : لا أعلم شركاً أعظم من قولها : (إن ربها عيسى) ومن قال بهذا القول أجاب عن التمسك بقوله تعالى (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) بوجوه : (الأول) إن المراد الذين آمنوا منهم ، فانه كان يحتمل أن يخطر ببال بعضهم أن اليهودية إذا آمنت فهل يجوز للمسلم أن يتزوج بها أم لا ، فبين تعالى بهذه الآية جواز ذلك . (الثانى) روى عن عطاء أنه قال : إنما رخص الله تعالى فى التزوج بالكتابية فى ذلك الوقت لأنه كان فى المسلمات قلة ، وأما الآن ففيهن الكثرة العظيمة ، فزالت الحاجة ، فلا جرم زالت الرخصة . (الثالث) الآيات الدالة على وجوب المباعدة عن الكفار كقوله (لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) وقوله : (لا تتخذوا بطانة من دونكم) ولأن عند حصول الزوجية ربما قويت المحبة ، ويصير ذلك سبباً لميل الزوج إلى دينها ، وعند حدوث الولد فربما مال الولد إلى دينها ، وكل ذلك إلقاء للنفس فى الضرر من غير حاجة . (الرابع) قوله تعالى فى خاتمة هذه الآيات : (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين) وهذا من أعظم المنفرات عن التزوج بالكافرة ، فلو كان المراد بقوله تعالى : (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) إباحة التزوج بالكتابية لكان ذكر هذه الآيات عقيبها كالتناقض ، وهو غير جائز »

وروى محمد بن جرير هذا الخبر معنمنا :

(١) هلك على الشيء هلاً كا إذا اشتد حرصه وشرهه

(١) متخذى أخدان : صدائق ، والخدن يقع على الذكر والانثى (الكشاف)

هل تشرب ماء العيون معسولة مذاباً فيها السكر ، ويأخذها الفقير ملحاً أجاجاً .. إن الهواء والماء والشمس والقمر والصحة والمرض والولادة والموت كل أولئك سطور خط فيها الله على صفحة الحياة : إن الناس متساوون . هل سمعتم أن ابن الملك يولد إذ يولد مرتدياً الحرير ، يمشى على رجليه إلى سريره ويلقى بنفسه خطبة ميلاده ، ويشرف من شباكه على شعبه ، وابن السوق يولد أخرس عارياً ؟ افتحوا القبر المجصص الفخم ، وارفعوا ما فوقه من نصب وتماثيل وكتابات ونقوش هل تجدون فيه عظاماً تضوع بالمسك ، وتفوح بالند ، لأنها كانت تلبس الحرير ، وترتدى الديباج ؟

هذا ما تعلمته من المرض !

* * *

وبعد ، فلقد أطلت الكلام ، وآن أوان الطعام ، ولا بد من قطع هذا الحديث ! وأنا أحمد الله على الصحة والمرض ، وأحمده على كل حال

« بيروت » علي الطنطاوي

« من نساء أهل الكتاب من يحلّ لنا ، ومنهم من لا يحل لنا ، ثم قرأ : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية) فمن أعطى الجزية حل لنا نساؤه ، ومن لم يعط الجزية لم يحلّ لنا نساؤه »

فهذا الخبر يُحِلّ نكاح النصرانية المصرية (القبطية العربية) لا النصرانية الغربية الأوربية ، الأمريكية ، و « حنانيك » كما قال الشاعر وجاء في مثل . وفصل الخطاب في هذا الباب عندي وعند كل مصري (مسلم أو قبطي) حريص على وقاية المصرية وصونها ونجاتها — هو خطة (الفاروق) — رضي الله عنه — فقد جاء في (جامع البيان) :

« ... شهر بن حوشب قال : سمعت عبد الله بن عباس يقول : نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن أصناف النساء — إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات — عن كل ذات دين غير الاسلام . وقال الله (تعالى ذكره) ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله . وقد تزوج طلحة بن عبيد الله يهودية ، وتزوج حذيفة بن اليمان نصرانية ، فغضب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) غضباً شديداً حتى همّ بأن يسطو عليهما ، فقالا : نحن نطلق يا أمير المؤمنين ، ولا تغضب ، فقال : لئن حلّ طلاقهن لقد حلّ نكاحهن ولكن أنتزعهن منكم صغرة قمأة »

***

إن هذا الشر ، شر نكاح الغربيات قد اشتد واستفحل بل استأسد ، فاذا لم يُدرك الناسَ في مصر رجالُ الدين والدنيا وشيخ الاسلام ومفتيه وهيئة كبار العلماء ، بالدواء الناجع ، بالفتوى المحرِّمة ، والقانون المانع ، دارئين بذلك هذا البلاء ، هذه الداهية الدهياء ، هذا التزوج بالغربية — فحولق[1] (أيها المصري) واسترجع[2] ، واقرأ الفاتحة (على الأسرة) وقل السلام على (الأمة) !

وإني في هذا المقام أذكّرُ عاملا بقول الله : « وذكّرْ فإن الذكرى تنفع المؤمنين » رئيس الدولة وشيخ الاسلام بأن (موسوليني) الطلياني و (هتلر) الجرماني قد سارا سيرة (الفاروق) في التحريم . فحرّم الأول على قومه نساء الأحبوش أو الحُبشان ، وحرّم الثاني بنات[1] يهود . وما لامهما في الناس لائم . وحري بمن امتلّ ملة (الفاروق) — ومن أعرف بدين الله من عمر ؟ — أن يستن بسنته ، وينقذ من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة بني أمته ، والله يقول : « إنا لا نضيع أجر المصلحين » « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا »

اللهم ، إني قد بلغت في (الرسالة) الاسلامية ، العربية ، وقلت ، وذكّرت

اللهم ، اشهد

(الاسكندرية) (***)

(١) حولق : قل : لا حول ولا قوة إلا بالله

(٢) استرجع : قل : إنا لله وإنا إليه راجعون

(١) بنات بفتح التاء وكسرها

***

اصلاح

في الكلمة (حرق الميت) في آية كريمة : « يا بني إن تك مثقال حبة » وإنما هي : « يا بني إنها إن تك مثقال حبة الخ »

أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٣٩ —

حين يتصلّب قلبي ويتحرّق ، صب على رشاش رحمتك

حين ينزع الحنان من على الأرض ، إبعث إلى بنشيدك العذب

حين يعلو ضجيج العمل فيشمل كل مكان فيباعد بيني وبين الناس جميعاً ، أرسل إلىّ — يا إله الصمت — فيض الهدوء والأمان

حين يخرّ قلبي الضعيف ساجداً فى عزلته ، افتح الباب — يا مليكي — وتعال إلى فى أبهة الملك

حين تعمى الرغبة الملحة قلبي وتنفث فيه الغواية ، إلىّ — أيها القدس — فى برقك ورعدك

— ٤٠ —

لقد كفّ غيثك — يا إلهى — عن قلبي الظمآن منذ أيام وأيام ، والأفق قفر ليس فيه غمامة رقيقة ولا أثر قطرة واحدة

وإذا شئت فانفخ من عواصفك الهجوم ما يحمل ريح الموت ثم املأ السماء بالبرق الخاطف

ولكن ردّ عنى — يا إلهى — هــذه الحرارة المتسعرة الصامتة فهى فى شدتها وقسوتها تلفح القلب بنار اليأس القاتل

ثم دع سحائب الرحمة تهل علينا من علٍ كأنها نظرات أم عطوف ترى الأب يتنزّى غضباً فترقرق فيها عبرات الحنان

— ٤١ —

يا من أحب ، أين مكانك من وراء الزمر ، وأنت تتوارى فى ظلالهم ؟ إنهم ينطلقون على الطريق التّرب ، يمرون بك فلا يلتفتون إليك ؛ وأنا هنا أنتظر الساعات الطوال فى قلق وبين يدى الهدايا ، وحين يمرون بى يلتقطون زهورى واحدة واحدة وسلتى تكاد تفرغ

لقد تصرّم النهار ، وجاء الليل ينشر ظلامه ، والنعاس يداعب جفنىّ ، والناس ينطلقون إلى دورهم ، وفى أعينهم نظرات التهكم والسخرية ، وفى قلبي الخجل . إننى هنا أنتظر فى جلسة الشحاذ ، أرخى فضل ثوبى على وجهى ، وحين يستخبروننى أعرض عنهم فى صمت

أوه ، كيف أخبرهم بأننى أنتظرك وأننى منك على ميعاد ؟ كيف أستطيع أن أقول لهم إننى أقدم فقرى مهراً لك ؟ آه ، سأكتم كبريائى فى أعماق قلبي

أننى أقضى الساعات على الحشائش الخضراء أحدق فى السماء وأرخى لخيالى العنان أحلم بساعة اللّقيا الجميلة — فيخيل إلىّ أن النور يسطع وأن الرايات الذهبية تخفق فوق مركبتك ، والناس على جانبى الطريق يحدقون فى ذهول حين يرونك تهبط من عليائك لتنتزعنى من التراب ، ولتجلس إلى فتاة فقيرة ترتدى الأسمال ، وهى تضطرب من أثر الحياء والكبرياء كأنها حشرة تتهادى بين نسمات الصيف

إن الساعات تمر وأنا لا أحس صوت عربتك . كم حفل مر بى فى ضجة ولجب فيه سحر الأبهة ! أفتبقى أنت من ورائهم تتوارى فى صمت وأنا أقضى حياتى أنتظر عبثاً أبكى وقلبي يتفطر ؟

— ٤٢ —

فى بكرة الصباح سمعت همسة : ستبحر معه فى قارب ، أنتما معاً فقط ، وما فى العالم من يعرف شيئاً عن هذه السفرة ، فهى إلى غير غاية وإلى غير نهاية

فى أضعاف ذلك اليم اللانهائى وعند بسمتك الرقيقة الهادئة ستحور أغانىّ إلى لحن طليق كالموج ... لحن لا تحده الألفاظ

أفلم يأن لى ؟ أفلا يزال هناك ما يشغلك عنى ؟ يا أسفا ! لقد أسدل الليل أستاره على الشاطئ ونزع الطير إلى وكره

من يدرى متى ترفع السلاسل ويندفع القارب فيتوارى فى أحشاء الليل كأنه آخر شعاع من أشعة الطّفل ؟

— ٤٣ —

ما كنت أهيئ نفسى لِلقياك حين وجدت السبيل إلى قلبي ، فدخلت إليه — يا مليكي — دون إذن كأنك واحد من الشعب غريب عنى ، فطبعت على لحظات من عمرى بطابع الخلود

واليوم كشفت عن تلك اللحظات — على حين فجأة — فألفيتها منثورة على التراب وعليها خاتمك ومزاجها ذكرى أيام قليلة من حياتى النابرة فيها الأسى والطرب فى وقت معاً

لا ترتد عنى محتقراً سنى طفولتى حين كنت ألهو باللعب فى التراب ، فإنه ليتراءى لى أن خلواتى وأنا أدرج فى حجرتى بين

الصُّحب تشبه تلك التي يدوى صداها بين النجوم

— ٤٤ —

إن متعتى فى أن أجلس على جانب الطريق أنتظر وأرقب الظلام وهو يطارد النور ، والمطر وهو يتعقب صفاء الصيف

ورسلك يمرون بي وعليهم بشرى السماء يحيونني وينطلقون فى سبيلهم فيهتز قلبي طرباً وأنا أستروح النسمات الحلوة

من الفجر لدن الغسق وأنا جالس بإزاء بابي لأنني أوقن بأن فترات السعادة آتية لا مرية فيها ، آتية حين أرى ...

فى هذا الحين سأخلو إلى نفسى أبسم وأترنم والهواء يتضوع بأريج الوعد

— ٤٥ —

أفلم تحس وقع خطواته الهادئة ؟

هو آت ... آت ... ودائماً هو آت

فى كل لحظة وحين ، فى كل يوم وليلة ؛ هو آت ... آت ... ودائماً هو آت .

لقد شدوت بألحان كثيرة ما تزال رناتها تقول : « هو آت ... آت ... ودائماً هو آت »

فى اليوم الصحو العطر من شهر ابريل ، وعلى طريق الغابة هو آت ... آت ... ودائماً هو آت

فى عبوس الليلة المطيرة من شهر يوليه ، وعلى مركب السحب المزمجرة هو آت ... آت ... ودائماً هو آت

إن خطواته هي التى تسحق قلبي فى لحظات الأسى والحزن ولكن لمسات قدميه الذهبية هى التى تبعث الطرب فى قلبي مشرقاً

— ٤٦ —

لست أدرى منذ كم من الزمان وأنت تهفو تريد لقياى ؛ وما تستطيع شمسك ولا كواكبك أن تحجبك عنى إلى الأبد

ما يزال وقع قدميك يرن فى مسمعيّ كل صباح وكل مساء ، وما يزال وحيك يهتف فى قلبي ويناديني سراً

لست أدرى لماذا تضطرب حياتى فى هذه الأيام ، وفى قلبي نبضات السرور

لكأنى أرى الأيام تهم لتنجز عملي ، وأنا أستروح النسيم الحلو يبشرنى بقدومك

— ٤٧ —

أوشك الليل ينحسر وأنا أنتظر عبثاً . إنى أخشى أن يحضر والفجر ، وقد غلبني النعاس والتعب معاً . فيا صاحبي

دع الطريق أمامه مفتوحاً ولا تقف فى سبيله

وإذا لم توقظنى خطواته فلا تفزعنى أنت عن منامى ؛ فما أريد أن يزعجنى عنـد انبثاق الفجر ، لحن الطائر الغرّيد ، ولا زفيف الريح . ذرنى هادئاً فى نومى ولو جاء سيدى إلى بابى

أيها النوم ، أيها النوم اللذيذ ، إنك تنتظر لمساته لتطير عنى .

آه ، سينفض نورُ بسماته عن عينيّ ثقلَ الكرى ، وهو أمامى كأنه حلم لذيذ يلمع بين ظلمات الهجوع

فليأت أمام ناظريّ كأول شعاع أضاء وكأول شبح بدا .

إن نظراته ستبعث فى حياتى العابسة أول هزات الطرب . وحين أعود إلى نفسى فلتكن عودتى إليه هو

— ٤٨ —

إن صمت الفجر العميق يمزقه رجع تغريد الطير ؛ والأزاهير نشوى على جانبي الطريق ، وبين تعاريق السحب تنثر الثروة الذهبية ؛ أما نحن فنهرع إلى العمل فى شغل لا نلتفت

ليس فى ألحاننا النشوة والطرب ؛ ولم تنطلق إلى القرية طلباً للفائدة ؛ ولم تنفرج شفاهنا عن كلمة أو ابتسامة ، وما تريثنا على الطريق ؛ ولكن رحنا نستحث الخطو كلما انطوى الزمن

تكبدت الشمس السماء والبط يمرح تحت وارف الظل ، وأوراق الشجر تضطرب فى الهاجرة ، وغفا الراعى فى ظل شجرة الرند يحلم ؛ أما أنا فاستلقيت إلى جانب الغدير مرسلاً أطرافى المكدودة على الحشائش

لقد سخر مني صحابتي وانطلقوا فى صمر فلم يعقب واحد منهم ولم يستأن ، ثم غابوا عند الأفق . لقد اجتازوا مهامه ومروجاً وبلاداً نائية عجيبة . لك المجد يا من تملك الطريق اللانهائى ! إن السخرية واللوم أفزعانى عن مكانى ؛ وإن لم أجد الرضا فى نفسى فلقد فقدت نفسى فى أعماق الخشوع الجميل ... فقدتها فى ظلال النشوة الغامضة

إن وشى الشمس الجميل انتشر فى بطء على قلبي فأنسانى ما انطلقت على أثره فأسلمت عقلي — فى غير عناد — إلى مباهج الظل والأغانى

وأخيراً حين استيقظت من سباتى وجدتك إلى جانبي تنزع عنى النوم بابتساماتك . كم خشيت أن يكون الطريق إليك طويلا وعراً ، وأن يعجزنى أن أصل إليك !

كامل محمود حبيب

بين القاهرة واستنبول

للدكتور عبد الوهاب عزام

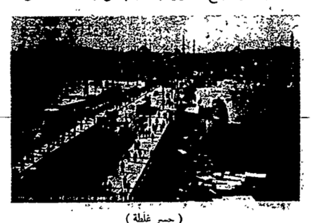
— ٣ —

المتحف العسكرى

يا أخى صاحب الرسالة

سلام عليك . لا أقول هذه ثالثة الرسائل خيفة أن تقول فى نفسك « ثالثة الأثافى » بل أقول هذه الرسالة الثالثة أرسلها إليك من استنبول لأصف لك مما رأيت

خرجت من مسكنى فى تقسيم أؤم المتحف العسكرى ومعى زميلى الدكتور زيادة ؛ فلما أجزنا الجسر — جسر غلطة [1] شرعت السماء ترذّ ذا ، حتى إذا بلغنا ساحة أياصوفيا وملنا شطر قصر « طوب قبو » انهمر المطر فأوينا إلى الباب ، وهو باب شاهق واسع عليه الطغراء السلطانية ، يمتدّ على جانبه سور عال كأسوار القلاع ، أوينا إليه مع من ألجأه المطر ؛ وازداد المطر انهماراً فطال بنا الوقوف . ولست أنسى مشهداً رائعاً شهدته هنالك : إلى اليسار سبيل السلطان احمد في جمال هندسته وحسن نقشه ، وحلّى من الخط والمعنى تتجلى بها أبيات من الشعر أطافت به ؛ وإلى اليمين جامع أياصوفيا يبدو جانب من قبته ومأذنتان من



(جسر غلطة)

مآذنه الأربع ؛ وأمامى على بعد جامع السلطان احمد فى جلال قبابه وجمال بنائه ، قد علت قبته ومآذنه الستّ أهلّةٌ ذهبية يزيدها المطر اشتعالاً . وهيهات أن تذهب بنور التوحيد سُدَف الدجن أو شآبيب المطر ، وجامع السلطان أحمد أجمل جوامع استنبول فى رأيى وأكثرها إضاءة فى قلب الداخل وعينه . ما يزال الطرف يتقلب بين جدرانه وأساطينه وقبابه حتى إذا بهره الجمال والجلال استراح إلى مرأى البحر من خلال النوافذ الزجاجية الجميلة . وقد دخلته قبل ثمانى سنين ، فلما رأيت هذه الأساطين الأربع الماثلة قلت : « يا لك أربعة أساطين حملت الدنيا والدين ! »



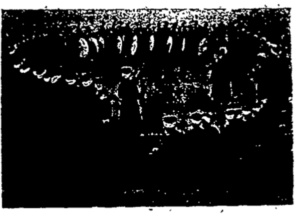
(منظر لجامع السلطان أحمد)

خف المطر فأسرعنا صوب المتحف العسكرى فاذا هو مقفل إلى الظّهر فأوينا إلى باب « الضربخانة » . ولما أذن المطر بالسير انصرفنا نسير فى أرجاء المدينة . ثم عدنا إلى المتحف ، وهو فى كنيسة قديمة اسمها سنت أدنيا ، رُصّت خارجه مدافع كثيرة جاهدت فى عصور مختلفة . فيها مدفع كبير بجانبه قذائف مكورة من الحجر وقد نقش عليه بالعربية بيتان يدلان على أنه من مدافع سليمان ، وأنه صنع سنة ٩٢٨ هـ وهناك مدافع أخرى نقش عليها أسماء صانعيها ؛ وأمام المتحف قنبلة سوداء مخروطية طويلة هى بعض ما ألقاه الأسطول الانكليزى على الجيوش العثمانية حينما سدّت طريق الدردنيل بأبدانها وإيمانها

وفتحنا الباب فإذا دهليز على جانبيه تمثالان لجنديين دارعين من انكشارية القرنين الثامن والتاسع من الهجرة . ثم سلكنا الدهليز بين بنادق كثيرة من صنع القرن الماضى والقرن الحاضر . ولست أستطيع ولا أستحسن أن أصور لك كل ما رأيت فى هذا المعرض المظيم من تاريخ الصناعات ومجد العثمانيين وعبر التاريخ : أكداس من الوقائع والعبر ، يضيق عنها النظر والفكر ، وإنما

[1] جسر يصل جانبى المدينة : استنبول وغلطة . وهذه التسمية لجانبى المدينة قديمة وقد ذكرها ابن بطوطة ، والجسر فى مدخل خليج القرن الذهبى وهو جسر ضخم عائم ترفعه عائمات ضخمة بجانبها عائمات أخرى اتخذت طرقاً ومراسى للبواخر الصغيرة والمطاعم ومجالس للسافرين .

أصف لك ماغلب على الذاكرة، من بينها: المتحف كنيسة قديمة تقوم على ساحتها قبة كبيرة عالية ويدور بها طبقتان من الاروقة سرنا فى الرواق إلى اليمين ودرنا معه فإذا بنادق ومدافع وآلات حربية كثيرة ومناظر لبعض الحروب، حتى انتهينا إلى سيارة في نوافذها ثقوب؛ فهذه السيارة التي قتل فيها المرحوم محمود



(حلقة موسيقية صوفية)

شوكت باشا وهو صدر أعظم فى عهد السلطان محمد الخامس؛ وبعدها صور وآثار كثيرة لمتأخرى القواد العثمانيين: علمدار مصطفى باشا ومختار الغازي وأنور وغيرهم. ثم خرجنا إلى وسط الكنيسة فرأينا فى صدرها صورة الغازى مصطفى كمال باشا بجانبها أنواع من الأسلحة القديمة والحديثة. وسرنا قليلاً فإذا درع قديمة تتخطاها العين غير حافلة، حتى إذا أوقفها التطلع قرأت عليها: « درع الفاتح » فأخذها جلال الذكرى وأدركت فرق ما بين المظاهر والحقائق، بجانب الدرع سيوف من ذلك العهد وتروس محكمة الصنع منها ترس محمود باشا أحد الصدور فى عهد الفاتح، وترس يعقوب جلبى بن السلطان مراد الأول. ويقال إن السلطان بايزيد أمر بقتله وهو يتعقب العدو فى موقعة قوصوه الأولى سنة ٧٩١، ثم سيوف لسليمان القانونى فيها سيف كتب عليه:

على الله فى كل الأمور توكلى وبالخمس أصحاب العباء توسلى

ورأينا بعد هذه خوذات أهداها نابليون إلى السلطان سليم الثالث، وعلماً رفعه العثمانيون فى موقعة قوصوه الأولى، ثم مخلفات السلطان عبد الحميد. وهكذا نطوى العصور فى لحات. فالفاتح وبايزيد وسليم وعبد الحميد طواهم التاريخ فى سجله، وجمعهم الزمان في معرضه، فدار بهم الزائر فى خطوات، وحوامهم بطرف فى نظرات، وقبض الدهر هذه العصور المتطاولة فى كلمة واحدة: « الماضى » ...

وفى الدهليز الذى إلى اليمين سنان رمح كان للأمبراطور جستنيان، وبركار كان للمعمار سنان. قلت لنفسى: شتان ما بين السنانين هذا للحرب والفناء، وهذا للعمران والبقاء. قد فنيت آثار سنان جستنيان، وللفناء كان طعانه، وبقيت آثار بركار سنان، وللبقاء كان بنيانه. وحسب سنان خلوداً هذا الجامع الرائع والأثر العظيم الذى يدل على الصانع: جامع السلطان سليمان. على أن هذه اليد القاهرة المعمرة شادت فى أرجاء المملكة أربعمائة بناء (عمر المعمار سنان أكثر من مائة عام وتوفى سنة ٩٩٦ ودفن فى الجامع الذى ينسب إليه فى استنبول) وبعد هذين صورة تمثل الأمير البطل عبد القادر الجزائرى وهو يقابل القائد الفرنسى بعد معاهدة تفنة سنة ١٨٣٨ م

وفى الطبقة الثانية تماثيل كثيرة تمثل رجال الدولة وخدم الملوك فى أزيائهم القديمة. فهذا شيخ الإسلام على أريكة قد جلس أمامه أعوانه، وهذا قاضى العسكر بجانبه قاضى مكة وآخرون.



(شيخ الاسلام)

وهذا أغا دار السعادة، وهذا قزم كان يضحك السلاطين، وهذه صور الانكشارية فى أزيائهم العجيبة، وهذا الجلاد واقفاً كالقضاء ينفذ أمر السلطان — صور من التاريخ مبكية مضحكة، وفى هذه الطبقة خرائط مجسمة تمثل القسطنطينية وما يحيط بها، وألواح فيها آيات من القرآن أو كلمات مأثورة ...

وبعد فحسبي اليوم هذه السطور. ولعل الرسالة الآتية تبلغك عما قليل، والله يرعاك والسلام عليك

استنبول ٣ أغسطس سنة ١٩٣٧ عبد الوهاب عزام

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٨ —

« كتب كاتب في العدد الأخير من مجلة المقتطف الغراء شيئاً بعنوان « سيرة الرافعي » فيه أشياء أعرفها ويعرفها قراء الرسالة ، وفيه أشياء لا أعرفها ولم أسمع بها على طول صحبتي للرافعي وما رويت من خبره عن أهله وخاصته ، وفيه أشياء أنا على خلافها ؛ ولو كان لي أن أعرف مصادر الكاتب إلى هذا العلم لاتهمت نفسي ؛ ولكني أحسب كل مصادره أنه يسرف في الاستنباط ، فرجائي إليه أن يمايز بين أجزاء الكلام ليعرف ما هو له وما هو الحقيقة ، فإن فكر المفكر غير حوادث التاريخ ، وما تراه أنت رأياً في الحادثة قد يراه غيرك على نقيض ؛ والحياة حادثة وقصة واحدة لاخلاف فيها ، ولكنها على اختلاف من ينظر فيها من أهل الرأي والفلسفة قصص وحيوات ؛ وإن عليّ للرافعي لديناً يدعوني إلى السهر على تراثه ، فمن ذلك أرى عليّ أن أتوجه إلى الكاتب بهذا الرجاء ، وأن أتوجه بالعتب إلى الأستاذ فؤاد صروف القائم على تحرير المقتطف ، وهو الخبير بموازين الكلام ، وهو هو الذي كان للرافعي صديقاً من خاصة أحبابه وأصفيائه » (العريان)

الرافعي الناقد

سأحاول في هذا الفصل أن أتحدث عن شيء مما كان بين الرافعي وأدباء عصره ، وإنه لحديث شائك ، وإني منه لفي حرج شديد. لقد مات الرافعي ولكنه خلف وراءه صدى بعيداً مما كان بينه وبين أدباء عصره من الخصومات الأدبية ؛ فما أحد منهم إلا له عنده ثأر ، وفي صدره عليه حفيظة أو له عليه معتبة .

ولقد اهتزت بلاد العربية كلها لنعي الرافعي وما اختلجت نفس واحد من خصومه فكتب إلى أهله كلمة عزاء ، إلا رجلاً واحداً هو الدكتور طه حسين بك ، إذ كتب برقية إلى ولده ؛ فلا جرم كان بذلك — على تفاهته — أنزه خصوم الرافعي وأعرفهم بالأدب اللائق !

ولقد مضى بضعة أشهر منذ ترك الرافعي دنياه ؛ فهل رأيت أحداً منهم كتب شيئاً عنه يناله بالمدح أو الذمة ؟ وهل رأيت اللجنة التي اجتمعت لتأبينه قد استطاعت أن تحمل واحداً من هؤلاء على أن يشاركها فيما تعمل لتأبين الرافعي ، أو قل لتأريخ عصر من عصور الأدب قد انطوى تاريخه بين أعيننا ويوشك أن يضيع في مدرجة النسيان ؟

ليت شعري أكان الرافعي من الهوان في المنزلة الأدبية بحيث لايذكره ذاكر من زعماء الأدب العربي ولما ينقض على موته بضعة أشهر ، وبحيث تجتمع له لجنة التأبين وتنفض وتحدد الموعد ثلاث مرات ثم لاتجد من يتقدم إليها ليقول في تأبين الرافعي فتوشك أن تنسأ الأجل إلى غير ميعاد ... ؟

ولكنه هو — يرحمه الله — الذي ألّب على نفسه هذه العداوات حياً وميتاً . لقد كان ناقداً عنيفاً حديد اللسان ، لايعرف المداراة ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه . وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس ؛ وكان فيه صراحة وصرامة ؛ وكان له في الأدب مذهب وحده ؛ وكان فيه حرص على « اللغة » من جهة الحرص على الدين ، إذ لايزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء : لامنفعة فيهما معاً إلا ببقائهما معاً » وكان يؤمن بأنك « لن تجد ذا دخلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدت له مثلها في اللغة » ... فكان بذلك كله ناقداً عنيفاً ، يهاجم خصومه على طريقة عنترة : يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع ... !

إقرأ له في أول كتاب المعركة : « ... إنما نعمل على إسقاط فكرة خطرة ، إذا هي قامت اليوم بفلان الذي نعرفه ، فقد تكون غداً فيمن لانعرفه ؛ ونحن نرد على هذا وعلى هذا برد سواء ، لا لجهلنا من نجهله يلطّف منه ، ولا معرفتنا من نعرفه تبالغ فيه ... فإن كان في أسلوبنا من الشدة أو العنف ، أو القول المؤلم أو التهكم ، فما ذلك أردنا ؛ ولكنا كالذي يصف الرجل الضال ليمنع المهتدي أن يضل ، فما به زجرُ الأول بل عظة الثاني ... »

***

وأول ما أعرف للرافعي في النقد ، مقاله في الثريا عن شعراء العصر في سنة ١٩٠٥ ؛ ثم مقاله في الرد على المرحوم المنفلوطي في المنبر ، وكان نشر مقالاً يعارض به رأي الرافعي في الشعراء وينتصف به لصديقه المرحوم السيد توفيق البكري ، فكتب المرحوم حافظ إلى الرافعي يقول : « قد وكلت أمر تأديبه إليك ... ! »

ثم كانت مصاولات أدبية بينه وبين الجامعة المصرية غداة

نشأتها فى سنة ١٩٠٨ ، ثم مقالات عن الجديد والقديم ، والعامية والفصحى ، فى مجلتي البيان والزهراء ؛ ثم خصومة بينه وبين لجنة النشيد القومى فى سنة ١٩٢١ ؛ ثم وقعت الواقعة بينه وبين الدكتور طه حول كتاب رسائل الأحزان فى سنة ١٩٢٤ فى السياسة الأسبوعية ؛ فكان هذا أول ما بينهما ؛ ثم كانت المعارك المنيفة بينه وبين العقاد ، وبينه وبين عبد الله عفيفى ، وبينه وبين زكى مبارك ، إلى ما لا ينتهى من المصاولات بينه وبين أدباء عصره

على أن أشهر هذه المعارك شهرةً هو ما كان بينه وبين طه وبينه وبين العقاد ، بل لعلها أشهر وأقسى ما فى العربية من معارك الأدب ، وإنها لجديرة بأن يؤرخ بها فى تاريخ النقد كما كان العربَ يؤرخون بأيامهم ... !

وإننى لأشعر أن علىَّ واجباً أن أكشف عما أعرف من الأسباب الخاصة أو العامة التى نشأت بها هذه الخصومات الأدبية أو انتهت إليها ، وإننى لأشعر بجانب ذلك أننى أكلف نفسى بهذا فوق ما أستطيع

إن كل ما تناولته إلى الآن من تاريخ الرافعى كان له هو وحده ، فلا علىَّ ما دمت مطمئن النفس إلى ما أكتب ؛ أما الآن ... أما الآن فسيكون إلى جانب اسم الرافعى أسماء ، وإنهم لذوو حول وسلطان ، فما أدرى أيرضون ما أكتب عنهم أم يسخطون . ولقد رأيت ما فعلت بالرافعى شجاعتُه فمات لم يذكره أحد منهم أو يترحم عليه ؛ وما أنا كفء لهذه العداوات ، ولست لها بأهل ، ومالى طاقة بالدفاع عن نفسى ، ولا لى أنصار ذوو لسان وبيان ، وما تهون علىَّ نفسى ... !

ولكن ... ولكن من عذيرى يوم الحق من كتمان الشهادة ؟ ولكن ... ولكن ما أنا إلا راوية يكتب ما رآه لا ما ارتآه . ولكن ... ولكنَّ فلاناً وفلاناً اليوم أناسىُّ تصول وتجول ، وإنها غداً لصفحات من التاريخ تتحدث . ولكن ... ولكن التاريخ قد وقع فلا سبيل إلى محوٍ فيه أو إثبات . ولكن ... ولكن الندم على ما كان لا يمحو من تاريخ الانسان ما كان ...

فهذا عذرى عند فلان وفلان ممن يتناولهم حديثى بما يغضب أو يسوء ، فإن كان لى عندهم عذر من الكتمان إن كتمت الشهادة فليحدثونى لأطوى من الحديث ما قد يغضب أو يسوء ...

أما وإن تاريخ الرافعى فى هذا الفصل هو تاريخ الأدب فى جيل من الأدباء ، فإن كان من حق أحد أن يعتب علىَّ لنشر هذا الفصل فإن حق الأدب لأوجب ؛ وما أريد من فلان وفلان شيئاً ، ومالى عندهم حاجة ولا لهم علىَّ يد ؛ فليغضب من يغضب للحق أو لنفسه فلا علىَّ من غضبه أو رضاه ، وإنى لماض فيما أنا بسبيله ...

بين الرافعى وطه

فى سنة ١٩٢٢ كانت السياسة الأسبوعية هى صحيفة الأدب والثقافة ؛ وفيها كان يعمل الدكتور طه حسين فى الأدب وفى السياسة معاً ؛ ولم يكن بين الرافعى وطه يومئذ شىء يثير ثائرة فى الصدر ، أو يدعو إلى عتاب وملامة ، ولكنَّ إرهاصات كانت تسبق ذلك ببضع عشرة سنة ...

كان طه حسين فى سنة ١٩٠٩ هو الطالب المرموق فى الجامعة ، وكان الرافعى الشاعر ماضياً فى الشعر على سنته ، لا يعرف له أحد مذهباً غير الشعر ؛ فلما نشر مقاليه المشهورين فى (الجريدة) ينقد بهما أساليب الأدب فى الجامعة ، تنبهت إليه العيون ؛ فلما أنشأ كتابه تاريخ آداب العرب فى سنة ١٩١١ ، عرف الأدباء الرافعى العالم المؤرخ الرواية ، وعرفه طه حسين الطالب بالجامعة .

أفكان الطالب طه حسين يرشح نفسه من يومئذ ليكون أستاذ الأدب بالجامعة ، فنفس على الرافعى أن يؤلف كتاباً فى تاريخ آداب العرب فكتب ينقد كتابه ويقرر أنه لم يفهمه ، ثم يقررها ثانية فى نقد « حديث القمر » وثالثة فى « رسائل الأحزان » ؟

الحق أن الرافعى كان يطمع فى أن يكون إليه تدريس الأدب فى الجامعة منذ أنشئت الجامعة ، وقد كشف عن رغبته هذه فى مقاليه الأول والثانى بالجريدة ؛ ولكن طه يومئذ كان طالباً فى الجامعة ، فمن الإسراف فى المزاح أن ننسب ما كان بينهما من بعدُ إلى النفاسة أو المنافسة على كرسى الآداب فى الجامعة ! ولكنه صدر من تاريخ هذه الخصومة الأدبية له قدره فى هذا الفصل فلا بد من الإشارة إليه

* * *

ونفخت السياسة الأسبوعية فى الأدب روحاً جديدة ، واتخذت لها أسلوباً فى الدين وفى العلم وفى الأدب ، فقال عنه جماعة من الأدباء : إنه إلحاد وكفر وضلال . وقالت طائفة : إنه المذهب الجديد فى الدين والعلم والأدب . ثم مضت السياسة بما تكتب وبما

تفسح من صدرها للكتاب ، تقسم الأدباء إلى فرق ومعسكرات ، وقديم وجديد ، ورفعت في الجهاد راية ...

والرافعي رجل — كان — فيه عصبية للدين ، وعصبية للقديم ؛ فأيقن منذ قرأ العدد الأول من السياسة الأسبوعية أن سيكون له شأن مع السياسة وكتاب السياسة في غد ...

ونال الرافعي رشاش من بعض المعارك وإنه لبعيد عن الميدان ، فأحس في نفسه رغبة في الكفاح فتحفز للوثبة ...

ودس كلمة إلى طه يذم أسلوبه بما يشبه المدح ، ويعيب عليه التكرار وضيق الفكرة ، فنشرها طه في السياسة قبل أن يستبين مغزاها وما ترمى إليه ... ثم عرف ...

وتهيأت أسباب الحرب ولم يبدأ أحد بالعدوان .. وتربص الرجلان في انتظار السبب المباشر لبدء المعركة ...

ثم أصدر الرافعي رسائل الأحزان ، فسعى راجلاً إلى دار السياسة ليهدى إليها كتابه . وهناك التقى الرافعي وطه حسين وجهاً لوجه ... ونظر الرافعي إلى طه ، واستمع طه إلى حديث الرافعي ، وتصافح الخصمان قبل أن يصعدا إلى حلبة المصارعة ، ونفخ الدكتور هيكل بك في صفارة الحكم ، وبدأت المعركة . وكانت مشادة حادة خرج الرافعي يتحدث عنها وصمت طه .

لمن يا ترى كانت الغلبة ؟ الرافعي يقول : أنا ... ولكن طه لا يتكلم ، والدكتور هيكل ضنين بالحديث .

ومضت فترة ، ثم نشر طه حسين رأيه في رسائل الأحزان في السياسة الأسبوعية ، فرفع راية العداء وأعلن الحرب . ورد الرافعي يقول :

يسلم عليك المتنبي ويقول لك :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم !

ثم مضى في رده يهزأ ويسخر ويتجنى ويتحدى ، في مقال طويل تقرؤه في ص ١٠٩ — ١٢٢ من كتاب المعركة ؛ وطارت الشرارة الأولى ، فاندلعت ألسنة النار فما خمدت حتى أحدثت أزمة وزارية ، وأنشأت جفوة بين سعد وعدلي ، وأوشكت أن تؤدى بعلي ماهر إلى المحاكمة ، وهزت دوائر البرلمان ، ثم انتهت في النيابة العمومية ...

وفي الأسبوع المقبل بقية الحديث عما كان

« شبرا » محمد سعيد العريان

أبو إسحاق الصابي

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

— ٢ —

لعل أبا إسحق الصابي أصدق مثل يضرب لمن يمارى في وجوب نزول الآباء على إرادة الأبناء فيما يحبون من فروع العلوم أو ينزعون إليه من أفنان الفنون ، وأن خير ما يؤخذ به المتعلم هو الرغبة الحافزة لا الرهبة القاسية ، إذ لا يرجى كثير نجاح في قسر الأبناء على علم بعينه يريده الآباء ، ولا أخذهم بدراسة مخصصة لا يبغيها أولئك ويحتمها هؤلاء ، فإن ذلك قاتل لملكاتهم رافع بهم إلى الاستيئاس من النجاح ، أو على الأقل الأدنى نازع بهم إلى القصور في كل علم ، والتقصير فيما لا يميلون إليه من الفن ، وضارب بهم في مهامه لا يعرفون وجه المحجة فيها ، وموقع بهم في مفاوز إن نجوا منها فبعد لأى وعناء ؛ ولا سيما متى كان ذكاؤهم محدوداً ونبوغهم قاصراً . ورضى الله عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حيث يقول : « لا تقسروا أبناءكم على آدابكم ، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم » وإذا كان رضوان الله عليه قد قصد بالتأديب معناه الأخص فهو على وجه العموم أولى ، وبشموله كل أدب أجدى .

دفعني إلى تلك التقدمة أني رجل تربية من واجبي تنبيه الأذهان إلى ترك الحرية العلمية للتلميذ ينهج فيها نهجه الذي يحبه . فلقد حاول أبو الحسن والد إبراهيم الصابي تعليمه منذ نشأته صناعة الطب وحذق الحكمة سيرا على سنن آبائه نهجا على منهج أسلافه ، إذ كان جلهم رجال طب وحكمة . وبذل في سبيل ذلك غاية الجهد ، وجهد لتنفيذ إربته إلى أقصى غاية ، وقد وجد من ابنه سميعاً ومن إبراهيم مطيعاً ، لا عن رغبة وحب ، بل عن رهبة وأدب ، وقسر وزجر . ولو غير أبي إسحاق لرمى بكلام أبيه عرض الأفق ، ولكنه كان باراً بأبيه عالماً بواجبات الأبوة لا يعصى له أمراً وإن جاء قاسياً ، ولا يخالف له رأياً وإن بدا له رأياً خاطئاً ، وإن هذه النزعة فيه نزعة البر والحدب والحب والولاء ليعبر عنها شعره تعبيراً قوى الأسر صادق النزعة ، فهو

ى أن الإنسان بعد فقد والديه ليس شيئاً مذكوراً ، وأنه يعيش فى الدنيا غريباً ، لأنه لايجد فؤاداً يحنو عليه ولا عيناً ترمقه ، وأنه يعيش — متى كان حى الوجدان — جنيب صفاء وأليف شقاء ، فمن هذا قوله :

أسرة المرء والداه وفيما بين حضنيهما الحياة تطيب
فإذا ما طواهما الموت عنه فهو فى الناس أجنبى غريب

ولا يختلف شأنه مع أبنائه عن شأنه مع والديه ، فإنه ليعطف عليهم عطف الأم الرءوم لا الأب الرحيم ، ويتجاوز عن جرائرهم ويجعل هفواتهم دبر أذنه ، حتى لا تقع عليهم لعنة الله ولا تحق فيهم كلمته ؛ شأن الأب الكريم ، وشيمة الرجل الحليم الحكيم . وهو إذ يتحدث عن ذلك يتحدث فى زهو ، ويقصه فى فخر معلما أولئك الآباء القساة طرائق فى التربية تسعدهم وتسعد أبناءهم ، ومتى أغنت النظرة فلا حاجة إلى الكلمة ، وفى مثل ذلك يقول:

أرضى عن ابنى إذا ما عقنى حذرا
عليه أن يغضب الرحمن من غضبى
ولست أدرى بما استحققت من ولدى
إقذاء عيني وقد أقررت عين أبى

واستمع إليه يرد على رسالة وردته من ابنه أبى على المحسن كان قد كتبها تسلية له فى إحدى نكباته ، وجاء فى رسالة أبى على هذان البيتان :

لا تأس للمال إن غالته غائلة
ففى حياتك من فقد اللُّهى عوض
إذ أنت جوهرنا الأعلى وما جمعت
يداك من تالد أو طارف عرض

فكتب تلك الأبيات التى أحسبها من حبات قلبه نسيجها ، ومن عبرات عينيه نظيمها ، فكل حرف شفقة وعطف ، وكل كلمة ر ورحمة . قال :

يا درة أنا من دون الردى صدف لما أقيها المنايا حين تعترض
قد قلت للدهر قولاً كان مصدره
عن نية لم يشب إخلاصها مرض
دع المحسن يحيا فهو جوهرة
جواهر الأرض طرا عندها عرض

فالنفس لى عوض عما أصبت به
وإن أصبت بنفسى فهو لى عوض
أتركه لى وأخاه ، ثم خذ سلبي
ومهجتى فهما منزاى والغرض

فلا غرو إذا مازل ، وهذا خلقه وتلك شيمه ، على أمر أبيه كارهاً ، وأطاعه تكلفاً ، وجامله فيما كلفه إياه مصانعاً ، فتعلم الطب مخلصاً فى تعلمه ، وإن لم ينته عن التعرض لما تصبو إليه نفسه ، ورغب فيه طبعه ، فكان يزاول فى أوقات خلوته وسويعات فراغه من كتب الحكمة — أشتات علوم اللغة والأدب وما إليهما ، فإن علم أبوه ذلك عنه نهاه وزجره ، حتى يأخذ فيما يؤهله له ، ولا يصرف وقته فيما لا غناء فيه فى نظره . وأجدر بى أن أسوق حديث أبى اسحاق عن نفسه فى هذا الموقف ، فإنه يقول : « كان [1] والدى أبو الحسن يلزمنى فى الحداثة والصبا قراءة كتب الطب والتحلى بصناعته ، وينهانى عن التعرض لغير ذلك ، فقويت فيها قوة شديدة ، وجعل لى برسم الخدمة فى « البيمارستان » عشرون ديناراً فى كل شهر ، وكنت أتردد إلى جماعة من الرؤساء خلافة له ، ونيابة عنه ، وأنا مع ذلك كاره للطب ، ومائل إلى قراءة كتب الأدب ، كاللغة والشعر والنحو والرسائل والأدب ؛ وكان إذا أحس بهذا منى يعاتبنى عليه ، وينهانى عنه ، ويقول : يابنى لاتعدل عن صناعة أسلافك . فلما كان فى بعض الأيام ورد عليه كتاب من بعض وزراء خراسان يتضمن أشياء كثيرة كلفه إياها ، ومسائل فى الطب وغيره سأله عنها ، وكان الكتاب طويلا بليغاً ، قد تأنق منشئه وتغارب . فأجاب عن تلك المسائل ، وعمل جملا لما يريده ، وأنفذها على يدى إلى كاتب لم يكن فى ذلك العصر أبلغ منه ، وسأله إنشاء الجواب عنه . قال: فمضيت وأنشأت أنا الجواب ، وأطلته وحررته ، وجئت به إليه ، فلما قرأه قال : يابنى سبحان الله ! ما أفضل هذا الرجل وأبلغه ! فقلت له : هذا من إنشائى ، فكاد يطير فرحاً ، وضمنى إليه ، وقبلنى بين عينى ، وقال : قد أذنت لك الآن ، فامض فكن كاتباً

ومن ذلك اليوم هجر أبو إسحاق الطب إلى الأدب وقلى الحكمة ليواصل اللغة ، فكان كاتباً أديباً وشاعراً مجيداً ، جرى

(١) معجم ياقوت : الجزء الثانى ص ٥٤

اسمه في كل مجلس، سواء في ذلك مجالس الأنس والنحس، وحلق في كل أفق لا يبالى أكان الأفق ساطعاً أم ملبداً، وبرع في كل فن حتى صار ملء الأسماع ومهبط الآماق؛ ولله در واصفه إذ يقول:

أصبحت مشتاقاً حليف صبابة ... برسائل الصابى أبى إسحاق
صوب البلاغة والحلاوة والحجا ... ذوب البراعة سلوة العشاق
طوراً كما رق النسيم وتارة ... يحكى لنا الأطواق في الأعناق
لا يبلغ البلغـاء شأو مبرز ... كتبت بدائعـه على الأحداق

وإن أدبه — كما يقول معاصروه — لسلوة الحزين، وشفاء الكليم، وأنيس المسافر والمقيم، وسمير الصديق والحميم، مما يدل على أنه كان أمة عصره ونابغة دهره، يشهد له بذلك البعيـد والقريب، والعدو والحبيب، ولن أبلغ في وصف أدبه الغاية كما بلغ لداته، فهذا أحدهم يقول:

يا بؤس من يمنى بدمع ساجم ... يهمى على حجب الفؤاد الواجم
لولا تعـالله بكأس مدامة ... ورسائل الصابى وشعر كشاجم

ولكنه لبؤس حاله ونكد طالعه نشأ في عصر أفعم بالفتن، فسياسته مختلة، ورياسته معتلة، والخلافة اسم ليس له مسمى، ورسم لا حقيقة، وملوك الديلم تأرث بينهم الأحقاد، وتمحك الدسائس وتفشو الفتن، والرجل ذو المروءة لا يسلم روحيًّا وحسيًّا، فإما النفاق فيسخر ضميره لكل حاكم، ويكتب بكل قلم، ويأكل على كل مائدة، ويمتح عقله كل راغب، ويعطى لسانه كل خاطب؛ وإلا فالمحابس مفتحة، والسلب والنهب أيسر عقاب. ولقد كان إبان شبابه قبل أن تستشرى الفتن، ويتنزى الاضطراب وتتأصل في النفوس السخائم، يتسامى ويتصاعد، وجده يتعالى ويتماجد، حتى صار من العظماء الممدوحين لا من الأدباء المادحين، فسعى إلى أبى الطيب المتنبي راغباً إليه أن يمدحه بقصيدتين ولا يمنعه رفده، أو يقطع عنه سيبه بل يرفده بخمسة آلاف درهم، فبعث إليه المتنبي قائلاً: «والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولا أوجب عليَّ في هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت، وإن أنا مدحتك تنكر لك الوزير (يقصد المهلبي) وتغير عليك لأنني لم أمدحه، فإن كنت لا تبالى هذه الحال، فأنا أجيبك إلى ما التمست، وما أريد منك مالاً، ولا عن شعري عوضاً؛ فتنبه إلى موضع خطئه ولم يعاوده بعدئذ. وإن دلنا ذلك الحديث الذي رويناه عن ياقوت على شيء فإنه يدل على سمو نفسه واعتزازه بقدره، فمن أسمى من ممدوح المتنبي؟ كما يدل على علو منزلته لدى أبى الطيب، وعلى أن هذا كان شديد الإخلاص وفير الوفاء لصداقته، فلو قد فعل دون تحذير أو تنبيه لبكرت عليه النكبات، ولفقد وليًّا طالما بذل له رفده، ولعب على ضوء وده

وكان لذيوع اسمه بين الكتاب والشعراء موجدة إن نأى ومحبة إن دنا في نفوس الملوك والوزراء، وما أكثرهم في ذلك العصر، فهو إن أخلص لهـذا عوقب، وإن والى ذاك عوتب، وإن لزم الحيدة أنب، وإن أعلن عن رأيه أدب، فهو ملوم في كل حال، مستحق العقوبة في كل زمان ومكان، فكان نزيل السجن مسلوب الوفر، وهذا ما جناه على نفسه. فلو أنه أطاع أباه وانصرف إلى الطب لعاش سعيداً ومات سعيدا، ولكنه تنكب الطريق السوي فكان من أمره ما سنفصله في مقال تال

عبد العظيم على قناوى

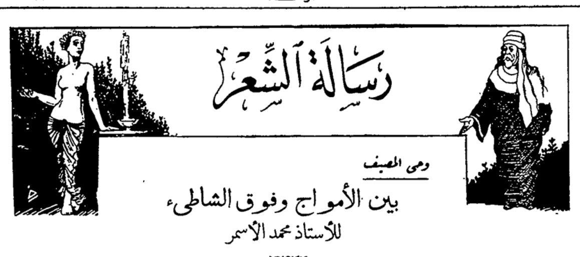
يوميات نائب في الارياف

للأستاذ أحمد الزين

أهدى الأستاذ توفيق الحكيم إلى الشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين كتابه «يوميات نائب في الأرياف» فأجابه الأستاذ الزين على هديته بهذه الأبيات:

إن يفخر العرب الكرام بكاتب ... فليفخروا بيراع ذاك النائب
قلم بتصوير السرائر مولع ... غيب النفوس عليه ليس بغائب
يسرى إلى طي الصدور شعاعه ... أمضى وأنفذ من شهاب ثاقب
يصف النفوس كما برأها ربها ... ويميط عنها كل ثوب كاذب
فكأنما يدعو النفوس فتلتقى ... في الطرس سافرة سفور الكاعب
سحر البيان يبين كل خفية ... أين المصور من يراع الكاتب
إيه أديب الشرق هات روائعا ... قصصاً توشيها بطرف خالب
وأفض على اللغة الكريمة ثروة ... فالعرب أشكر أمة للواهب

أحمد الزين



وحي المصيف

بين الأمواج وفوق الشاطىء

للأستاذ محمد الأسمر

ليس الفؤادُ وإن حرصتَ بسالِمِ ... فاقرعْ على ما كان سنَّ النادمِ

ناديتهُ — والموج فيما بيننا — ... فأجابني : دعني فما من عاصمِ

الذنبُ ذنبي حيث أنزل لاهياً ... في البحر أسبحُ بين سِرب حمائمِ

ما كُنَّ من وُرْقِ الوكور وإنما ... وُرْقٌ هزأنَ بكل ريش ناعمِ

يَسْبَحْن فوق الماء ألين ملمساً ... منهُ وأبهى من فرند الصارمِ

سِربٌ تقاسمَ مهجتي ومضى بها ... فرحان يلعبُ كالإوز العائمِ

***

وعلى الرمالِ من الحسان جآذرٌ ... كدراهمٍ نُثِرتْ حيالَ دراهمِ

متبسماتٌ للهواء وللهوى ... يَمْرَحْنَ ما يمرحْنَ غير أوائمِ

مستلقياتٌ كاللآلئ رونقاً ... نهبَ النواظر، والخيال الهائمِ

لكأنَّ (بحرالروم) أخرج دُرَّه ... فشت به الأمواجُ جِدَّ رواغمِ

حملته وهي غواضبٌ وأتت به (المصطافَ) بين هماهمٍ وزمازمِ

أو ما تراها لا يقر قرارها ... في كل ناحيةٍ زئيرُ ضراغمِ

قذفتْ به فوق الرمال أوانساً ... من نسلِ أعرابٍ، ونسل أعاجمِ

فوق الظهورِ أو البطونِ رواقدٌ ... متناوماتُ الجفن غير نوائمِ

حيث الهواء الطلقِ، والشمس التي ... تفترُّ عن ثغرٍ هنالك باسمِ

جاذَبْنَني عقلي فطاوعَ بعد ما ... قد كان لي في البحر ألومَ لائمِ

فالآنَ لا قلبي، ولا عقلي معي ... إلا خيالاً مثل حلم الحالمِ

محمد الأسمر

طيفهـــــا . . .

للاديب محمود السيد شعبان

يا مَنْ أراها بِرَغْمِ البُعْدِ دانيةً ... ولاَ يَراها برغم القُرْبِ مَنْ تَصِلُ !

لا تجْحَدِي خاطراً قد جالَ في خَلَدِي ... أوْحَتْهُ لي مِن سَمٰواتِ الهوى رُسُلُ

أوْ تُنكِرى ما رأَتْ عيني وما نظرتْ ... فالدَّمْعُ يَشْهَدُ إنْ أنكرْتِ والقُبَلُ !

يا طَالَما زُرْتِني والفجرُ مُبْتَسِمٌ ... وطَالَما جِئْتِني والليلُ مُنْسَدِلُ !

أَلَسْتِ أنتِ التي أنْشَدْتِنِي نَغَماً ... هو الرِّضَى والهوَى والشَّوقُ والغَزَلُ ؟!

أَلَسْتِ أنتِ التي أهْدَيْتِنِي قُبَلاً ... كالسِّحْرِ يَكْمُنُ في طيَّاتِهِ الخَبَلُ ؟!

تذكَّرِي لا تقولي : لَسْتُ ذاكرةً ... فإنَّما البِشْرُ قد أنْساكِ والجَذَلُ !!

***

يا طيفها هل تراني كنتُ في حُلُمٍ — أم أنَّه الحقُّ لا مَيْنٌ ولا خَطَلُ؟!

ذهبتَ يا طيفَها عنِّي إلى وطنٍ — تقطَّعتْ دونه الأسبابُ والسُّبُلُ

فكيف أحيا غريباً عنك مبتعداً

والحسنُ فنٌّ فريدٌ فيك مكتَمِلُ؟!

أمدُّ كفِّي أرجو أن تصافحني — فلا تمدُّ يداً نحوي وترتحلُ!

تعالَ يا طيفَها زُرني كمن كرُموا

ولا تكن مثل مَنْ ضنُّوا ومن بخلوا!

خلَّفتني مفرداً لهفانَ لا وطرٌ — به أعلِّلُ أنفاسي ولا أملُ!

أضمُّ ظلَّك من شوقٍ فيتركني — يا حسرتاه وحيداً ثم ينفتلُ!

والآنَ ... يا طيفها أقبلْ لننهل من

مواردِ الحبِّ طهراً مثل مَن نهلوا!

(الاسكندرية) محمود السيد شعبان

أنا نبأ كاذب

جبران — عن نعيمة —

للأستاذ خليل هنداوي

ويا ناعتي بسمو الخيال — أنا نبأ كاذب فاجر

لقد سكن الوحش في باطني — وإن لان مني لك الظاهر

يهذب نفسي الخيال الرقيق — ويغمرني بالهدى غامر

ولكنني أبداً في انخفاض — يجاذبني طبعي الماكر

ويغلب فيَّ الدنيُّ البريءَ — ويسطو على الشاكر الغادرُ

وتنزع نفسي إلى خبثها — وثوبي - بين الورى - طاهر

أأزعم أني لطبعي قهور — إذا شئتُ، وهو لي القاهر

أأقهر إرث زمان طويل — بنفسي، فأنت إذاً جائر!

عوالم أحمل آثارها — من الشعر يخطئها الناظر

عوالم تنبتُ في اللاشعور — يقادُ بها الوعيُ والخاطر

وتحسبُ أنيَ كون حديث — وفيَّ انطوى العالم الغابر

وهل أنا إلا صدى للبعيد — يردده صوتي الحاضر!

خليل هنداوي

صورتان

للأستاذ زكي المحاسني

أيا صورةً منسيةً وهي في نفسي — أشاهدها مادمت أصبح أو أمسي

مددت إلى الأوراق كفاً وعهدها — قديم كأني كنت أعهدها أمسِ

تلمستها مثل الذي نال ضائعاً — ولم أدر أن الكهرباء لدى اللمس

رجفت وأصابني من الحزن سكتة — بقيت لها حيناً كأني من الخرسِ

بكيت على تلك المباسم في الثرى — وعهدي بها كالورد مخضلة الغرس

فيا طول ذاك النأي ما منك رجعة

وهل يرجعن الدهر ميتاً من الرمس

أقبل منك الرسم وهو بقيـة — كما قنع الصديان من فضلة الكأس

***

على مَ التجافي يا حبيبي وإنما — خلقنا لكي نحيا أليفين في أنسِ

فوالله مهما عشت لست ببائع — هواكَ ولو أمعنتَ بيعي في بخسِ

لو ان المنى حقت لجزنا مع الهوى

إلى مطلع الأفلاك حتى مدى الشمس

تعالي أمثل فيك رسماً مجدداً — لصورة محبوب تصور في حسي

وأعظم فيك الطهر والحب والوفا

كما تُعظَّمُ الأوثان في الهيكل القدسِ

يناديك، لو أسمعتِ، بي كل خافقٍ

فإن قلتِ كذابٌ فها كبدي جُسّي

إذا شئتِ بيضتِ الحياة بناظري

وخليتِ لي دنياي ترقص كالعرسِ

وإلاّ تشائي الحب كوني صديقتي — أجدْكِ عزاءً لي إذا عضني بؤسي

زكي المحاسني

أستاذ اللغة العربية في تجهيز دمشق



أقصوصة من مرجريت ستين

الحلقـــة الأخيرة

للأستاذ دريني خشبة

« هل الحياة الحب ؟ أم الحياة العمل »

لقد كانت مفاجأة عجيبة حقاً من تلك الفتاة الجميلة العذراء (ديانا...) حين ذكرت لصديقتها الآنسة تمار كورى أنها متزوجة ! فلم تكن الصديقة الوفية تعرف عن صديقتها إلا أنها تحب الفتى القسيم الوسيم كليف صولوى ، وأن الفتى القسيم الوسيم صولوى يحبها ، إن لم يكن يتعبدها ، وأنه إنما رحل منذ عشر سنوات إلى كندا الانجليزية يلتمس الثراء الضخم والغنى الوافر ليضمن لمعبودته نعيم الخلد بما ضمنت له نعيم الحب ، وليهيء لها عيشة رغداً ، لايتلف جمالها عمل ، ولا يذهب بروائها عناء . لذلك قالت لصديقتها حينما سألتها سبب هذا الكتمان الطويل إنهما أرادا بذلك أن يضمن أحدهما الآخر أثناء هذا البعاد الطويل

وقد جلست ديانا تشكو لصديقتها ما تحس به من شتى الأحاسيس نحو فتاها صولوى الذى عرفته وأحبته حين الصبا فى شرخه ، والشباب فى ميعته ، والقلب فى فتوته ، وربيع الحياة فى إبانه . فكانت هذه السنوات العشر بما حورت وطورت ، وبدلت وغيرت . فكأنما القلب غير القلب ، والسمع غير السمع ، والحياة غير الحياة !

ذلك أن الفتاة ديانا ، ذات القوام والقد ، والجيد والخد ، والفم الأنيق والأنف الدقيق ، والجمال والفتن ... اليتيمة مع كل ذلك ، والتى أضفى يتمها على جمالها ظلالاً من السحر المميس اضطرت ان تبرز إلى ميدان الحياة لتجاهد فى سبيل قوتها بعد إذ ارتحل حبيبها إلى أمريكا بشهر واحد ، لأن عمتها التى كانت تكفلها وتكفيها عناء العمل... ماتت بعد هذا الشهر أيضاً ولم تترك لها من حطام الحياة إلا نصيباً نزراً من المال ظل يتسقط من راحتيها اللتين لم يعرفا مساكا حتى لم يبق منه إلا دريهمات

وساعدتها صديقتها تمار كورى فقدمتها إلى أحد بيوت النشر الانجليزية فربطوا لها راتباً بسيطاً . وكان عملها ثمت أن تقرأ الرسائل الكثيرة المتنافرة ذوات الخطوط المختلطة ، التى كان أكثرها أشبه بفرق من راقصات الزنوج يترنحن على القراطيس . ولم تلبث ديانا أن خبرت من الحياة تجاريب لم تعرفها من قبل كان محورها جميعاً المال ... المال ! ... المال الذى تدور حوله كواكب الآمال السيارة ، والذى بدونه يقف دولاب كل شيء ... حتى دولاب الحب ، كما بدأت ديانا تعتقد !

لقد كانت تشهد كيف تتم الصفقات فى البيت الذى تعمل فيه ، وكيف كان أصحاب العمل يجنون أشهى الثمرات بقليل من الجهد ، حتى لا يكاد أحدهم يبذل في سبيل المئات التى يحصل عليها آخر كل سنة بعض ما يبذلها أبسط الموظفين فى الشركة .. من أجل ذلك دأبت ديانا تدخر مبالغ صغيرة من راتبها التافه ، حتى إذا اجتمع لديها قدر غير قليل أخبرت صديقتها تمار فعقدت أسبابها بأسباب خبير مالي من رجال الأعمال يدعى لويس كراوفورد ، له دراية واسعة بالصيرفة ، فنصح للفتاة بالمضاربة فى أحد البيوت المالية المربحة بنصف ما معها ، حتى إذا غنمت شيئاً عادت فضاربت بنصف ما تملك ... وهكذا ... واعتمدت ديانا على الله ، ثم على هذه الآمال البراقة التى تولدت فى نفسها مذ وضعت رجليها فى شركة النشر ... وضاربت كما أشار المالى لويس . ولشد ما شدهها أن ربحت مبلغاً لم تكن قط تحلم به منذ أن ضيعت مائة الجنيه التى تركتها لها عمتها ... ودق قلبها البشائر واتسعت أمامها آفاق الأمانى ، واصطبغت أحلامها ببريق الذهب وقويت إرادتها وثبتت عزيمتها ، فضاربت بنصف ما اجتمع لها

من المال ، وقد صار شيئاً كثيراً في حسبانها ... وربحت ... وفرحت فرحاً شديداً بهذا الحظ المواتي ... وتعلمت أشياء لم تكن تعرفها ... دروس الحياة وأفانين المال وعجائب العمل ... وضاربت مرة ثالثة ورابعة ... واجتمع في قبضتها كنز من الذهب رَوَّأ لها الآمال ووسع في قلبها الأماني ، حتى لباتت تفكر في شراء بيت النشر الذي تعمل فيه !

أما كليف صولوى ... الفتى القسيم الوسيم ، ذو العينين الزرقاوين اللتين تختلط بزرقتهما خضرة الأطلنطيق الواسع الخضم فقد عمل هو الآخر وجد ، وسعى واجتهد ، واشترى مرجاً واسعاً من مروج كندا الشاسعة ، جلب له قطيعاً من الغنم الأمريكي ذى الصوف الغزير ، وجعل في الله رجاءه أن يغل له المال الوفير ليبني لحبيبته ديانا القصور والعلالي

***

وتصرمت سنون خمس ؛ وكتب صولوى إلى منية نفسه خطاباً يقول في شطره : « لم أستطع بعد يا حبيبتي أن أشيد لك القصر الذي حلمنا به ، على رغم جهادي الطويل الشاق ... إن هو إلا مرج شاسع حلو المشب ، لا ينقصه إلا شخصك المعبود ليكون جنة ذات أعناب ! » وتناولت ديانا يراعها وجلست تكتب إلى حبيبها وقد اختلطت في قلبها دنيا الأطماع بعالم الحب والأحلام : « حبيبي ! لشد ما أود أن أجتاز الأطلنطيق إليك الآن ... الآن ... في هذه اللحظة ... لأشفى حاجات الفؤاد المعذب ... ولكن اصغ إلي ... ألا نستطيع أن نتلبث هكذا ... كما نحن (!) حلقة أخرى من الزمان ! خمس سنوات أخرَ ياصولوى ، وأعود إليك امرأة ذات مال يا حبيبي ! ألا نحتاج مالاً كثيراً نعمل به في مرجك الشاسع فيضمن لنا حياة واسعة مخفرجة ، نقضي نصفها كل عام في انجلترا ونصفها الثاني في أمريكا ؟ يا حبيبي ! ألا تكون حماقة منا أن نهجر الطريق الذي يؤدي إلى أبدع الأماني بعد أن قطعنا نصفه ...؟ »

وعند ما ذهبت لتلقي بالخطاب في صندوق البريد ، ذرفت دموعاً غزيرة ، وتجاوب صدى وقع الخطاب في الصندوق في فراغ قلبها الذي ما زال حب صولوى يملأه ...

وكتب إليها صاحبها يقول : « أختاه ! لقد علمتنا السنوات الخمس الماضية دروساً صارمة في فن العيش ... علمتنا الأنفة والكبرياء ... إننا الآن في مباراة عقيمة ... وكل منا يشتهي أن يكون السابق المجلى ... لقد نسيت أن أذكر لك في خطابي السابق أن المرج الذي أنضره لك ليكون جنتك الفيحاء ، هو مرج من أبناء الطبيعة الذين لم تتلقفهم المدنية ، ولم تفسد سليقتهم الحضارة ذات البهارج ... ولو جئت وافقت لصار بك الفردوس الموعود ... ألا ما أروع السكون هنا ؟ لا ضجيج كما هو عندكم في لندن ... على كل سأبذل جهدي فأبتني القصر المشيد الذي يليق بأبهة مليكتي ... ! »

وجازفت ديانا فاشترت شركة النشر ؛ وقد أحدثت هذه الخطوة الجريئة انقلاباً قوياً في حياتها ، فقد باتت لا تفكر إلا في تنمية مواردها ، ومضاعفة النجاح الذي كان لهذه الشركة قبل أن تحمل الاسم الجليل الجديد : (هـ . بلـنـدل) وقد اتسقت أعمال الشركة فعلا ، واضطرد تقدمها ، وبعث كل ذلك في نفس ديانا كثيراً من الزهو وكثيراً من الخيلاء ، وكثيراً من هذا الشعور الذي هو نتيجة نجاح الطفرة وأثر من آثارها

***

لذلك كانت مفاجأة غريبة ألا تعلم تمار كوري ، أعز صديقات ديانا وأوفاهن ، إلا ذلك اليوم ، بزواج صديقتها من حبيبها كليف صولوى ، وهو موشك أن يصل من كندا ، بل هو واصل منها غداً بعد غياب عشر سنوات

ما كان أطولها ليلة مملوءة بالهواجس ، مزدحمة بالوساوس ، عاجّة بالأفكار ، هذه الليلة التي تقلبت فيها ديانا على فراش القلق وما كان إلا من ديباج ... وما كان أشقاها بهذا الشوك الذي يخز جسمها الغض ، وما لبست إلا شفا أنعم من خدود الورد ..

لقد باتت تفكر في الـ (هـ . بلندل) وأولئك العمال الكثيرين الذين أصبحت هي ضرورة لهم ، وهؤلاء العملاء الذين يصبون أنهار الذهب في خزائنها ... وتلك الأبهة وهذه العظمة ... والحياة العالية الأرستقراطية المحفوفة بالوقار ... ثم تنتقل من كل ذلك إلى هذا المنفى السحيق وراء الأطلنطيق في ذاك المرج النائي المهجور ... ولكنها كذلك كانت تفكر في حبيبها صولوى القسيم الوسيم فتذكر أحلام الصبا وأفاويق الشباب وموسيقى القبل ، وتذكر أيضاً أنه زوجها الذي ارتبطت به برباط السماء العلوي المقدس ... وتذكر فوق ذلك جميعاً أنها لا تستطيع الحياة بغير صولوى كما لا يستطيع صولوى الحياة بدونها ... وهنا تتحير وترتبك ، وتسبح في بحر لجي تتقاذفها أمواجه فتعلو بها وتسفل وتنظر إلى رأسها في المرآة فلشد ما تذهل وتراع ! لقد رأت

أولى شعراتها البيض نذيراً صارخاً من مارد الشيب الجبار يؤذن بخاتمة الثلاثين ... فتزعج وتنزعج ... وترسل فى المرآة آهة تغطيها بضبابة تستر ما افتر باسماً ساخراً من شيبها !.

ولبثت ترهف أذنيها لرنين جرس الباب ... فقد دنا موعد وصول صولوى ... ولم تشأ أن تنزع الشعرة البيضاء ، بل آثرت أن تتركها حيث هى ليشهد حبيبها حقيقة ما كان ... وهى بذلك قد سخرت من نذير الشيب الذى شاء أن يسخر هو منها ...

ورنّ الجرس ... وأهرعت إلى الباب فتلقت حبيبها ملء ذراعيها ، وضمها هو إلى صدره الواسع الرحب بذراعين مفتولتين جبارتين ، لم تكونا له قبل أن يرتحل إلى كندا ، ثم انحنى على الفم الرقيق المرتجف يقبله ، وما كاد يفعل حتى قاومت ديانا ... وجاهدت حتى انفلتت من صولوى ، وفرت منه إلى ركن الردهة القصى ! ووقفت ثمة تحدجه ، وتقلب فيه عينيها الثاقبتين !

لقد كبر صولوى وتغيرت معالم شبابه ! ما هذا الصدر العظيم والعضل المكتنز والوجه ذو الأسارير ؟ وعيناه ؟ أين زرقة السماء التى كانت تختلط بخضرة الأطلنطيق ؟ وأين هذا الكوكب الدرى الذى كان يتألق فى أغوارها فيرسل منهما بريقاً أى بريق ؟ وما هـذه الملابس الغليظة الخشنة والحقائب الثلاث البالية ؟ وما هذه السحب الكثيفة من دخان التبغ يرسلها صولوى فيتلف بها سماء الحب القديم الصافية ... لقد وقف كليف المسكين ، وقد أشعل لفافته ينفث الدخان من فمه ! فيتلف على ديانا أخيلتها ، ويمسخ أمانيها ...

ثم انفجرت ضاحكة وانفجر ضاحكا

— أوه ! حبيبى ! هلم ! أدخل أولا ! لقد شبيت !

— أجل ياحبيبتى ! هيا ... لقد أحضرت كنوزى لأضعها بين يديك ... »

وانحنى صولوى لحمل الحقيبتين الكبريين ، وحملت ديانا الحقيبة الصغرى ، حتى إذا بلغت غرفتها الفخمة التى تدير منها أعمال شركتها ، لم يلبث كليف أن قال :

— حبيبتى ، إنى لا أطيق أن أنظر إلى هـذه الغرفة مالم تكونى أنت فيها ! »

وفهمت ديانا ما يقصد صولوى أن يقول ، فقالت له ...

— لا عليك ، فسنصعد سوية إلى الطابق العلوى يحملنا ؛ إذ لا أحد معنا يحمل هذه الحقائب الثقلة عنا ...

ومضيا فى سبيلهما صعدا ، وظلت ديانا تنظر إلى بعلها الذى كان يبدو كأنما تقدمت به السن عشراً على عمره ، بينما كانت تبدو هى ، برغم الشعرة البيضاء ، كأنما تأخرت بها السن عشراً عن عمرها ... وظلت كذلك تفكر فيما قال عن غرفة إدارتها .. لقد أحست أن روحه نفرت من هذه الغرفة التى بعثت الكبرياء والعجب فى نفسها ، وهذا أقل ماتفعله فترة من الزمان قدرها عشر سنوات

— هذه غرفة الخادمة ياصولوى ... لقد ذهبت لتمضى الليلة عند أهلها

وفتحت باب الغرفة فدهش صولوى لما فيها من أثاث ورياش ... وعجب كيف ينطى سرير خادمة هذا اللحاف الإيطالى الوشى ، وكيف تزين أركان غرفتها هذه الأصص الفاخرة من السوسن المصنوع الجميل !

— أما تلك فغرفتى ... أنظر ... أتراها جميلة ؟

ونظر صولوى فذهل ... وسرعان ما ذكر أيامه القريبة بمرجه القفر فى فلوات كندا ، وكوخه الموحش الخشن ذا السرير الحديدى الصدئ ، والأرائك البالية ، التى ظل يتقلب فوقها طوال عشر سنوات ، لايفكر فى زخرفتها وتوشيتها ! ووضع يديه فى جيبيه خاشعاً وقال :

— أحسب أنه آثر لدينا أن نستأجر خصاً فى ريف لندن فنعيش فيه شهراً قبل أن نحضر إلى هنا ... ألا توافقين ؟ »

وفهمت ماريد أن يقول هذه المرة أيضاً فقالت : « ما أجمل أن يكون هذا ... ! »

وحان موعد العشاء ، فذهبت به إلى حجرة الطعام الغنية الحافلة ، حيث راعته المائدة النظيفة الناصعة ، التى صفت فوقها الأطباق والأكواب وكؤوس الخمر ، وقوارير البلور ، وملاعق الفضة ذوات الطنين وذوات الرنين ... وأكلا ... ودار بينهما هذا الحديث :

— لن تمضى خمس سنوات يا ديانا حتى يكون لك القصر الذى حلمنا به فى مرجنا الواسع الجميل ... لقد اشتريت لك حصاناً ياله من حصان ... وأسميته هصار ... وستروقك منه قوائمه البيض التى تشبه جوربات الربيع ... إننى إذن أستطيع أن أعين وكيلا عنى فنقضى نصف كل سنة فى انجلترا كما أشرت ! »

وكانت صدمة لروح ديانا هذه السنوات الخمس ... هذه الحلقة

الأخرى من الزمان الطويل اللانهائي ... وله ؟ أليست هي الآن في رغد من العيش؟ ما الذي يقسرها على ذلك المنفى البعيد الموحش الخشن ؟ إذن ، فلتصارحه !

وروت ديانا قصتها ، وكادت تجلس كأفروديت الساحرة على عرش جمالها ، ثم طلبت إليه ، أو أومأت إليه ، أنه ينبغي أن يهجر مرجه ليعمل معها في ال (هـ . بلندل) :.فقال صولوى واجماً : « سأنظر في هذا ... سأنظر ! » ثم عبس وبسر ، وغاب من عينيه هذا الملاك الكريم الحالم ، وأطل مكانه شيطان رجيم مارد ، ثم قال : « طبعاً ... إنك لن تتركي كل هذه الدنيا التي تلف حواليك لتذهبي معي إلى أمريكا فتبني لي عشاً هناك ... ! »

وكانت روح الازدراء تتدفق في لهجته المرة ، فروعت ديانا وقالت تجيبه: «ماذا ياصولوى؟ إهدأ ماذا أصابك؟ إني لم أرد أن أسوءك ؟»

لكن صولوى لم يهدأ ، بل زادت ثورته ، واشتدت حدته ، فقالت ديانا : « تالله يا صولوى إن كل هذه الدنيا التي تحيط بي لا تهمني ... أنظر ... أترى هذه الصورة الصينية الفاتنة ؟ إنها أثر قيم اشتريته بالمئات ... وصديقتي تام تقدر عمرها بالقرون ... أنظر ... » ثم قذفت بالصورة إلى الدفأ فذهبت بها ألسن النيران

— لا أدرى والله ماذا تعنين بهذا ؟

— أعني أنني لا تهمني زخارف الحياة كما زعمت !

— إذن ماذا يهمك ؟

— يهمني هذا العمل العتيد الذي بذلت له جهدي وقواي .. أل (هـ . بلندل) ياصولوى : كيف أدعه يتلاشى ! ؟ »

— غير أنك كنت تعلمين أنني قادم إليك !

— أجل ، كنت أعلم هذا ، بيد أنك تقول إنك في حاجة إلى خمس سنوات أخر ، إلى حلقة ثالثة لتضمن لنا عيشاً هانئاً ، وكيف ؟ كم بقي من العمر لنقضي منه خمس سنوات تضيع عبثاً وعناء ؟ وهذا العمل العظيم الذي شدته ؟ كيف يضيع هو أيضاً عبثا ؟ بل أقيم أنا هنا ، لأنني أصبحت ضرورة لحياة كثيرين ، أما هناك ، أما في المرج البعيد النائي ، فإني أكون عبثاً عليك وعلى نفسي، وقد تقتلني الوحشة والركود ياصولوى ! ماذا أكون هنالك؟ ماذا أعمل وقد تعودت العمل ؟ أأكون متعة فقط ؟

— لا. لا رأيت في حياتك مكروهاً كهذا المكروه ! وكيف تكونين متعة لراعي قطعان !

— خمس سنوات أخر ؟ ثم ماذا ؟ ما الحياة ياصولوى حتى تريدها أن تحتمل كل هذا ؟ لقد علمتنا الحياة فنونها القاسيات .. لقد علمتنا أن ننظر إليها بعين غير العين التي تعودناها في الصبا .. لقد كشفت لنا عن المعميات يا حبيبي ! لقد وضحت لنا حقائقها بقدر ما غاضت أحاسيسها وترهاتها ! »

— وما هي هذه الحقائق بالله عليك ! ؟

— هي الصراحة والجد ، والجهاد والعمل ، والتحصيل الذي يضمن للانسان حياة طيبة موفورة قليلة البؤوس ، حياة كريمة تتفق وكبرياء المرء ، يرضى بها عقله ، كما يستريح إليها جسمه ! »

— وإذا عرضت عليك هذه الحياة ، ولكن في مرج بكندا فلم ترفضين ؟

— لشد مايعزب عنك ما أريد ياصولوى ! إن المادة لا تهمني إلى هذا الحد ، ولكن يهمني ألا تتعذب روحي في هذا الركن من أركان الدنيا ... أنا لم أتعود هذا اللون من الحياة الذي تريده لي يا حبيبي ، وقد أحتمله لوقت قصير ، بيد أنه لا جرم أنني سأضيق به ، وعندها يُقضى على كل شيء ... حتى على حبنا !

— لاتتحدثي عن حبنا أرجوك ! إني أرى ما وراء الأكمة ! إني أرى ماذا تضمرين ! بل كوني صريحة ... ماذا يرضيك بعد هذا ... ؟

— ولم لا أبقى أنا حيث أنا الآن حتى تشيد قصرك وتعد العدة لحياتنا المنشودة ، وأستطيع بذلك أن أدير أعمالي الواسعة هنا ، ثم نلتقي بعد أية فترة من الزمان ... بعد عام أو عامين أو أكثر أو أقل ... ؟

— إذن تريدي أن تقصريني على خطتك دائماً ... توجهيني حيثما تريدين وكيفما تشائين ... لا ... لقد تكلمت عن الوحشة والوحدة فيما مضى وفيما خفت أن يأتي ... إذن ... أنا لا أربطك

— ثم ... ؟

— ثم لا شيء ... إنك إذا استعملت أحداً في عمل لك ولم يؤده لك حسب هويتك استغنيت عنه واستعملت غيره مكانه ، أليس كذلك ؟

وسرت قشعريرة من الذعر في جسم ديانا ، وبدا الارتباك في محياها ، فلم يعبأ صولوى وقال متماً حديثه : « أنت تفضلين عملك المالي على أن تكوني زوجة لرجل راع صاحب قطعان في

كندا ، أليس كذلك ؟ لا بأس ، فزوجة الراعى لن يكون لديها وقت طويل للأعمال التالية ...

— هل تريد أن تجعلنى أفهم أنك قد عولت على الاستعاضة بامرأة سواى ؟

— لقد أخلصت لك سنوات عشرا فى جميع أمرى ... ولشد ما آسف على هذا البله الذى حصل منى !

— صولوى !

— لا ... بل لا بد من إنقاذك من هذا الغل الذى وضعته بإخلاصى حول عنقك ... فلا تبتئسى ولا تحزنى ... لا بد أن يتبدل الأمر غير الأمر !

— بل أنت تحب امرأة أخرى !

— ولم لا ؟ ... على الأقل امرأة تعنى بشأنى ... لقد أخلصت لى ، وصدقتنى الحب .. قرّى لنفسك فقد صرحت لك !

— إنك تعنى الطلاق .. مضحك .. مضحك جداً ياصولوى !

— عرفت إذن ! لا خير ! فلقد أخطأنا حيناً كنا صغيرين فلم لا نتدارك خطايانا وقد شبينا ... إسمعى يا ديانا ينبغى أن أذهب الآن ... سأنزل فى فندق ، وسأخبرك عن اسمه بعد ، وإذا احتجتك فسأدعوك فى التلفون ...

— صولوى ... صولوى ... !

***

وفى اليوم التالى لقيت صديقتها تمار كورى ، فلما سألتها عما كان قالت لها ديانا : إنتهى كل شىء ، حيث كان ينبغى أن يبدأ كل شىء !

— ماذا تعنين ؟ أتقصدين أنك قذفت به من حالق بعد أن انتظرته كل هذه السنوات العشر ؟

— بل هو قد قذفنى من حالق يا أختاه ! لقد ظهر أننى كنت كَلاًّ عليه ... أليس هذا عجيباً ؟

— أكبر ظنى أن هذا كان نتيجةً لخطئك ؟ ماذا قلت له ؟

— قلت له إننى لا أستطيع أن أهجر عملى هنا فى ال (هـ . بلندل) لأعيش فى قفار كندا ... ماذا كنت أقول له غير هذا ؟ أذلك يعنى أن حبي له قد نقص ؟

— فو ... !! يابلهاء ! بمثل هذه الحماقة يفلت من يديك كليف ؟ ياله من كنز ؟ ما الذى عوقك كل هذه السنين الطوال إن لم يكن هو حبك لصولوى ؟ وما الذى عوقه هو الآخر ؟ ما الذى جاء به من كندا ؟ لقد كان لك فى لويس كرا وفورد ، أوفى الشاب ستيفن ، خير زواج لو أردت ذلك منذ سنين ، فما الذى حال بينك وبينهما ؟ أليس هو حبك وجميلك ووفائك لصولوى ؟ والآن ؟ أتدعينه يفر منك هكذا ؟ يابلهاء ؟ ياحمقاء ؟

— يا أختاه فكرى قليلا فيما عسى أن تكون حياتى فى كندا بعد هذه السنين العشر الحافلة فى لندن الصاخبة ... سنوات عشر ياتام ! كلها رجهاد ... كلها قتال ... كلها حرب على الحياة !

— حرب ! إى والله ! الحرب التى تعشقين ! أنت لاتهوين سواها ! الحرب التى كوّنت لك ال (هـ . بلندل !) أليس كذلك ؟ ومم كونت لك هذه الحرب أعمالك الباهرة ؟ من دريهمات أريتها لى يوم لقيتنى قبل أن تلتحق بعملك الذى در عليك أخلاف الرزق فأعماك !! إنك من أجل ال (هـ . بلندل) ترفضين ماعرضه عليك كليف من السعادة فى أكناف مرجه بكندا ، وقد علمت أنه عمل أبهر من عملك أضعافاً مضاعفة ... ال (هـ . بلندل !) هذه اللعبة ! بل هو الفتى الخبيث ستيفن الذى فتنك ، والذى تظنين أنه يضمن لك حياة الخلد فى باحات لندن ! ياديانا ! لقد عرفت ستيفن قبل أن يعرفك فاحذرى ... إنه يصبو إلى ثروتك ليعتصرها ثم يقذف بك ... ثم لا يكون ال (هـ . بلندل) بتك انجلترا بعد ... ؟

— ليس ما تقولين حقاً يا تام ! ...

— شو ... دعينى أتم حديثى ... إنك لاهم لك إلا الحرب والقتال ... حتى أصدقاءك تحاربينهم ... حتى الرجل الذى أحببته وأحبك فأخلص لك الحب ... بل هناك حد إذا وصلت إليه الكبرياء انقلبت فصارت غفلة وحماقة ... ولقد وصلت إلى هذا الحد بإذن الله !

— تعنين أنه ينبغى أن أذهب فأنتظر السعادة فى قفار كندا بعد خمس سنوات طوال يبنى لى بعدها صولوى بيتاً يضمنى ويؤوى أبنائى ؟ ...

— لابد أن يصل كليف إلى كل مطمحه يوماً ما ... ولكن لا تنسى خطاباته إليك ، فلقد شهدت أكثرها ... لا تنسى أنه دعاك إلى كندا قبل خمس سنوات فأبيت ، فوافقك ، فلم لا توافقين

اليوم ...؟ ثق أن كل حرب إلى نهاية . ، ولقــد حاربت بما فيه الكفاية ... واعلمى أن ما أنت مقبلة عليه لن يحيق شره إلا بك !

— ماذا تعنين ؟

— أعنى أن الكبرياء التى تحسبينها لك الآن ستكون له .. أعنى أنه هو الذى سيرفضك فيقف مكانك وتقفين مكانه ، وتنعكس الآية ، ويصعب عليك إصلاح الحال !

— وكيف وقد انتهى كل شىء يا تام ؟

— بل لم ينته كل شىء يا أختاه ... المرأة التى عركت الحياة لن تفقد وسيلة لبلوغ مآربها ... وكيمياء الحظ ماهرة صناع

* * *

وجلست ديانا فى غرفة إدارة ال (ه . بلندل) مضطربة كاسفة البال ... وطفقت تذكر ما كان من حبها لصولوى ، وإخلاصها له طيلة هذا الزمان ، ثم ما كان من لقائه هذا اللقاء المضنى .. ثم هذا الحب الذى زعمه لها أنه يشغل قلبه .. ورددت حديث صديقتها وسبب نعمتها تمار كورى ، وراحت تسائل نفسها: ما عقبى هذا الجهاد الطويل الذى كانت تتخذه سبباً فأصبحت تتخذه غرضا ..؟ وجعلت تتخيل هذه المرأة التى سحرت حبيبها فشغلته عنها ؟ من هى ؟ وما جمالها ؟ وما مالها ؟ وما جسمها ... وجعلت تقارن كل ذلك بنفسها ... ثم تبسمت حين ذكرت مرج صولوى والحصان الذى اشتراه لها وقوائمه البيض ...

واستيقظت فى باكورة الصباح فدقت التليفون إلى اال (ه . بلندل) ، وكلمها إحدى العاملات فأخبرتها أنها لن تنزل إلى الشركة اليوم ... وعجبت العاملة لذلك أيما عجب ، إذ لم يحصل أن تأخرت المديرة خلال السنوات الخمس لأى سبب من الأسباب .. وانتظرت ديانا أن يكلمها صولوى فى التلفون كما وعد فلم يصنع ، ولم يرسل أى خطاب منه يعلمها به ماذا انتهى إليه عزمه ...

ورن جرس التلفون فجأة فدق معه قلبها ...

— مِس بلندل ؟ هنا محل المصور لمشيريز ... لقد طلب إلينا شخص يدعى كليف صولوى أن نعطيه صورة لك عن إحدى السلبيات التى لك عندنا ، فهل نفعل ؟

— لا بأس ، ولكن هل أعطاكم عنوانه ؟

— كلا ... ولكنه حدد يوم الأربعاء لتسلم الصورة

— هل التى تكلمنى هى المس موريس ؟

— أجل يا مس بلندل ، أنا هى ...

— أرجو إذا حضر المستر كليف لتسلم الصورة أن تدعينى فى التليفون وأن تمطليه لديك حتى أحضر لمقابلته ، فهل تذكرين ! ؟

— بكل تأكيد يا مس !

وهكذا كان كليف صولوى أبعد فى لندن منه فى كندا ، لولا هذه الفاجأة التليفونية ...

* * *

ورن جرس التليفون يوم الأربعاء ، فدق قلب ديانا معه ... ولكن بشدة ...

— مس بلندل ... المستر كليف هنا ...

— أرجو أن تذكرى ما أوصيتك به ... سأصل حالاً

— أخشى ألا نستطيع حجزه طويلا ... لقد احتج بأن عنده ميعاداً قريبا ...

وأهرعت ديانا المسكينة إلى تحت ووجدت لحسن الحظ سيارة ركوب لدى الباب فطارت بها إلى الأستوديو ...

وا أسفاه ... لقد أخذ كليف الصورة ومضى لطيته ...

واسودت الدنيا فى عينى ديانا ... وعادت فى سيارتها ترنح فى شوارع لندن ذات الضجيج ... ولم تسمج فى عينها لندن كما سمجت ذلك اليوم ، ولم تكره صخبها كما كرهته الساعة ...

ثم لمحت كليف واقفاً عند عمود مصباح وسط الشوارع المزدحم فجأة فأشارت إلى السائق فوقف ، ونزلت وهى لا تكاد تعى وذهبت من فورها إلى حبيبها ، غير عابئة بآلاف السيارات التى تطوى الشارع ... والتى أشار إليها الشرطى ذو الذراع البيضاء فوقفت جميعا ...

— صولوى ... ما هذا الظرف الذى تحمله ؟

وانتزعت منه الظرف الكبير الذى كان يحمل دعوى طلاقها فمزقته قصاصات قصاصات ، وبعثرت الوريقات فى الشارع ... والناس ينظرون ويبتسمون ...

— صولوى ... سأتبعك ... سأتبعك ولو إلى القطب الجنوبى ... سأعيش معك ... لن نفترق ... ستكون هــذه السنوات الخمس حلقة تجاربنا الأخيرة !

دريني خشبة



مشروع جديد لدراسة القانون

وضع معالى وزير المعارف بصفته الرئيس الأعلى للجامعة المصرية مشروع إصلاح جديد لدراسة القانون فى كلية الحقوق ؛ وأهم عناصر المشروع الجديد هو تخفيض مدة الدراسة من أربعة أعوام إلى ثلاثة ، وإنشاء قسم جديد لإجازة الدكتوراه تجرى الدراسة فيه باللغة العربية ، وتكون مدتها سنتين . وقد كانت دراسة الحقوق حتى الآن تستغرق أربعة أعوام ؛ ولم يكن بالكلية من قبل قسم للدكتوراه ، فكان الطلبة المصريون الذين يرغبون فى الحصول على هذه الإجازة يقصدون بعد إتمام دراستهم بمصر إلى جامعات فرنسا ؛ وأنشئ أخيراً قسم للدكتوراه بكلية الحقوق ولكنه لم يحقق الغاية المرجوة من إنشائه لأن الدراسة فيه كانت بالفرنسية ، وكان الإقبال عليه لذلك ضعيفاً . وينص المشروع الجديد على حذف بعض مواد الدراسة التى أضحت غير ضرورية حتى تكون دراسة الأعوام الثلاثة شاملة لكل ما هو ضرورى فقط . والواقع أن توحيد القوانين الأهلية والمختلطة ، وتقدم القضاء المصرى بجهاته المختلفة فى ميدان التوحيد ، وتمصير الإدارة الداخلية مما يسهل تبسيط الدراسة القانونية التى كانت تحتوى من قبل على عناصر كثيرة من الدراسات القانونية والإدارية والمالية لم يبق لها اليوم ضرورة . ومن جهة أخرى فإن المشروع الجديد يقرب إلى طلبة الليسانس دراسة الدكتوراه ويشجعهم بذلك على التقدم فى دراسة العلوم القانونية العليا . وقد كان لهذا التعديل فى مناهج الدراسة وقع حسن لدى طلبة الحقوق

مجمع اللغة العربية الملكى

يفتتح مجمع اللغة العربية الملكى المصرى دورته الجديدة فى الثامن عشر من ديسمبر ، والمفهوم أن هذه الدورة ستكون خاتمة اجتماعات المجمع طبقاً للنظام الحالى . وفى خلال الدورة البرلمانية الحاضرة ينتظر أن يوضع نظام جديد للمجمع ينص على الزيادة فى أعضائه وعلى تنظيم اختصاصاته وتوسيعها ، إذ لا يخفى أن المجمع الحالى قد أنشئ فى ظروف خاصة ، وقصد به إلى تحقيق غاية ضيقة ، وأن عناصر مصرية تمتاز بمكانتها العلمية الرفيعة قد أبعدت عنه لاعتبارات خاصة ؛ والمفهوم أن هذه العناصر ستتبوأ مكانتها الحق فى المجمع الجديد ؛ وسيكون المجمع الجديد أداة لغوية علمية صالحة للعمل المثمر لخير اللغة العربية وتقديمها وتدعيم نهضتها ، وسيجرى على خطته من الاستعانة بالعناصر الممتازة فى هذا الميدان من أبناء البلاد العربية الأخرى وكذلك من العلماء المستشرقين ، على أن تتخذ هذه المعاونة صورة المراسلة العلمية والمؤتمرات العامة كما هو متبع فى الهيئات العلمية المماثلة فى أوربا

مؤتمر الرمد الدولى

اختتم مؤتمر الرمد الدولى الذى عقد بمدينة القاهرة منذ ٨ ديسمبر الجارى أعماله فى الرابع عشر منه . وهذا المؤتمر هو الخامس عشر من نوعه ؛ وقد وجهت مصر الدعوة إلى عقده بها منذ عام ، واشتركت فى إجابة الدعوة معظم الدول الكبرى وفى مقدمتها انكلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وأمريكا . وشهد المؤتمر وفود كبيرة من أعلام الطب الرمدى فى أنحاء العالم . وقد كان لعقد هذا المؤتمر فى القاهرة أهمية خاصة ، لأن مصر تعتبر موطن الأمراض الرمدية ؛ وقد تقدمت بها مباحث الرمد تقدماً عظيما ، ولأطبائها الرمديين شهرة عالية . وقد نوه أعلام الأطباء

الأجانب في المؤتمر بما كان للعرب من فضل عظيم في هذا الميدان .
ومما هو جدير بالذكر أن هذا هو أول مؤتمر رسمي يفتتحه صاحب الجلالة الملك فاروق الأول بعد توليه الملك ، وقد آثر حفظه الله أن يفتتحه باللغة العربية بعد أن كانت المؤتمرات المماثلة تفتتح دائماً باللغة الفرنسية ، وبذلك وضع جلالته سنة جديدة نبيلة

معهد فرنسي جديد للدراسات الاجتماعية

قررت مدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة أن تفتتح قسما جديداً يسمى معهد الدراسات الاجتماعية المصرية ؛ وقد بدأت الدراسة بالفعل في هذا المعهد الجديد منذ ١٦ الجاري ؛ وصرح مديره الأستاذ بوابيه أن الدراسة فيه ستجرى على مثل الدراسة في مدرسة العلوم السياسية بباريس ، وأنها ترمي إلى توسيع الثقافة القانونية والسياسية والاقتصادية ، وإعداد الطلاب للالتحاق بالأعمال في الشركات الأجنبية

ونستطيع أن نذكر بهذه المناسبة أن فرنسا تبدى في العهد الأخير عناية خاصة نحو تدعيم نفوذها الثقافي في مصر ؛ فمنذ أسابيع قلائل افتتحت في هليوبوليس مدرسة فرنسية جديدة (ليسيه) ، ويفد إلى مصر في كل شتاء عدة من الأساتذة والكتاب الفرنسيين يلقون المحاضرات المختلفة وينوهون دائماً بما لفرنسا من مكانة ثقافية قديمة في مصر . وفرنسا تشعر أن صرح ثقافتها القديمة في مصر قد وهنت أركانه منذ بعيد ولم يبق منه إلا أطلال الجيل الماضي . وقد جاء اتفاق مونترو بإلغاء الامتيازات الأجنبية ضربة جديدة لهذا النفوذ الثقافي ، ولم يبق في وسع مدرسة الحقوق الفرنسية أن تمضي في مهمتها ؛ فافتتاح معهد الدراسات الاجتماعية هو محاولة جديدة للتمشي مع العهد الجديد ، واستدراك بعض ما طرأ على الثقافة الفرنسية في مصر من عوامل الوهن والضعف

دور مصر في بناء الحضارة

ألقى العلامة الدكتور هارتمان محاضرة في بهو قصر ميرابل بمدينة سالزبورج تحدث فيها عن « الدور الذي أدته مصر في تاريخ الحضارة » فذكر أن مصر القديمة بلد العجائب من وجوه كثيرة ، فهي مهاد الأديان والعبادات الأولى ، ومهد الفنون والبناء ؛ وليس من شك في أن الحضارة المصرية القديمة كان لها أثر عظيم في بناء الحضارة الأوربية ما يزال ماثلا إلى عصرنا . وقد كان اليونانيون القدماء الذين يعتبرون من آباء الحضارة الأوربية ، يعتبرون المصريين أساتذتهم في الحكمة المقدسة وفي كل ضروب المعارف والحضارة ؛ وكانت مصر أول مهد في التاريخ لفنون النحت والتصوير ، وقد وضع المصريون القدماء المباحث الأولى لمسائل العالم الخالدة ، وهي المولد والحياة والموت ، ودعوا فكرة الخلود والبعث ومثلوها في النقوش والقربان ، وتحتفظ مصر الفرعونية بأقدم آثار في هذا الميدان . وليس من ريب في أن تقاليد الموت الفرعونية ما زالت تمثل في كثير من تقاليدنا ، وقد أوضح الدكتور هارتمان محاضرته بعدد من الصور البديعة

وهذه المحاضرة التي ألقاها الدكتور هارتمان أخيراً هي واحدة من سلسلة من المحاضرات الأثرية والتاريخية التي يلقيها أثناء موسم الشتاء عن حضارة مصر الفرعونية وتاريخها

الصحافة والترجمة بكلية الآداب

تفتتح كلية الآداب بالجامعة المصرية قريباً قسما جديداً للصحافة والترجمة والتحرير يلتحق به الحائزون لإجازة الليسانس في الآداب ، وسيسد هذا القسم الجديد فراغاً كانت الحاجة تدعو إلى سده ؛ وسيكون مهداً حسناً لتخريج شباب يجيدون الترجمة والتحرير والأعمال الصحفية الفنية

المعجزة ، الشعبذة

في (الرسالة) الغراء — الجزء ٢٣٢ — في (مجادلة في معجزات الإسلام) للسيد خليل جمعة الطوال — هذا القول :
« الأمر واضح فلا نبوة بغير معجزة — وإلا لادعى النبوة كل مشعوذ » والمعجزة في (الأديان) هي مضادة السنن الكونية ، والسير الطبيعية . والعلماء الغربيون المتحررون يكفرون بالمعجزات ويرونها شعبذات ، ويقولون : إن الأنبياء لم يأتوا بها ، وإنما نسبها أتباع تلك الشرائع بعد حين أو قرون إلى شارعيها . ولهم في موسى والمسيح (صلوات الله عليهما) ووجودهما أقوال كثيرة .

ففقدان (المعجزة) عندهم فى دين هو من مزايا ذاك الدين . وهم يسخرون من كل نحلة تدعيها ، ويعيبون كل طائفة تؤمن بها . ومن أئمة هؤلاء القوم فى بلاد الغرب (م . جيو) صاحب كتاب (اللادينية فى المستقبل) وهو كتاب مهم احتوت عليه خزانة (فريدريك نتشه) وقد قرأه هذا الفكر الجرمانى ، وله فى ذلك الكتاب تعاليق ذات بال . وهذا ما أورده (م . جيو) فى مصنفه فى مبحث فيه أرويه بلغته ، قال :

« Le mahométisme seul s'est introduit dans le monde sans s'appuyer sur aucun témoignage visible et grossier, en éclatant non aux yeux, mais aux esprits, camme dirait Pascal; sous ce rapport il avait peut-être à son origine une élévatian intellectuelle plus grande que le judaïsme et le christianisme ».

فلو تعلّم صاحب (الخليل) وعقل كلام هذا العالم الفرنسى لاستحى من أن يقول فى (المعجزة) ما قاله إن كان من أهل الحياء

وبعد فليعلم من يجهل أن معجزات رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التى كتبتها مؤلفات المسلمين تزيد على معجزات النبيين كلهم أجمعين قاطبة

(قارئ)

الى الاستاذ عبد الله عنان

اطلعت على الكلمة التى استنكرت بها فرية صاحب « المكشوف » فى بيروت بنشره مقالات لك قديماً وادعائه أنك أرسلت إليه عتاباً لطيفاً مع المقال . وقد عجبت قبل ذلك وداخلنى الشك فى العتاب والمقال ، وقلت فى نفسى كيف أقدم الأستاذ عنان على هذا التملق والاستخذاء لجريدة عرفت مراميها التجارية فى بث الفتنة وإيقاع العداوة بين الأدباء فضلا عن إمعانها فى التزوير والطعن على قادة الأدب العربى فى القطر المصرى الشقيق. ولما رأيت الأستاذ أبا شبكة يعلق على مقالك فى صحيفة « الجمهور » أبديت استغرابى بمقال نشرته « صوت الأحرار » ومما قلت فيه : « ومن الغريب أن يستخذى الأستاذ عنان فيبعث للمكشوف بعتاب لطيف ومقال عتيق عرض فيه لوجوه الضعف فى الحركة الأدبية المصرية ، ترضية لجريدة عرفت غايتها فى شن الغارة على أدب إخواننا المصريين ، وكان ينبغى أن يربأ بقلمه عن الخوض فى هذا المجال حرصاً على كرامته »

أما وقد أعلنت مرتين استنكارك لتزوير صاحب « المكشوف » وإقامتك الدعوى الجزائية عليه — وأنت المحامى — فإنى أعتذر إليك عما كتبت بنية خالصة . ولا ريب أن الصحافة اللبنانية تستنكر مثلك هذا التحرش ، فتنصح صاحب « المكشوف » بالإقلاع عن خطته الشائنة ، أو تدعو كل عربى لمقاطعة صحيفته القاذفة ، إن الباطل كان زهوقا

(دمشق) داود سكاكينى محاسنى

الى الاستاذ على الطنطاوى

تعقيب على بعض ما جاء فى رسالته إلى أخيه بباريس (١)

عفا الله عنك أيها الأخ الكريم.

أيجدر بك — وأنت المنتصر للشرق الغيور على الاسلام — أن تجعل من بلد شرقى مسلم مضرباً لأمثال السوء ؟ لئن كان عيب السودان لونهم الأسمر أو بشرتهم القاتمة ، فإن خلف تلك السمرة وذلك القتام قلوباً عامرة بالإيمان ، ونفوساً أبية تعف عن مواطن المسكنة وترباً عن الهوان ، وعقولاً على نزر ما تلقى من الثقافة — بحكم مركز السودان السياسى — جبارة دائبة التفكير فيما يعلى شأن بلادها ، لا تخلد إلى الراحة ولا تستمرئ الخمول

سل مصر الشقيقة تنبئك عنا وتصل أسباب التعارف بينك وبين أخيك النائى ، فقد حان الوقت الذى يجب أن يعرف فيه بعضنا بعضاً حتى نعمل يداً واحدة فننهض برسالة الشرق والإسلام . وإن تذرع الأخ بأنه إلى غير سوداننا قصد فلا ينس أن كلمة « السودان » شاملة وأنه لا بد أن يلحقنا كفل من السبة

عفا الله عنك أيها الأخ الكريم ! على أنى لا زلت معجباً بما تكتب ، فخوراً بغيرتك على الاسلام وانتصارك للشرق . وأصدقك القول بأنى على رغم ما اضطرنى إلى إثبات هذه الكلمة لم أقف قراءتى دون خاتمة الرسالة

(أم درمان — سودان) « سودانى »

(الرسالة) جاءنا من إخواننا السودانيين رسائل كثيرة فى هذا المعنى فاكتفينا بهذه الرسالة لاعتدالها وإيجازها.

---

(١) العدد ٢٣١ من الرسالة

في المسرح الروسي الحديث

يقاسي المسرح الروسي الحديث كثيراً من العنت بسبب الدكتاتورية الفاسدة التي يفرضها الطاغية ستالين ... وقد كان المظنون أن البلشفية الروسية هي أشهى ثمار الأدب الروسي الذي تقدمها ومهد لها، ووضع لها في قلوب الفقراء أسساً من الثورة والتبرم والاشمئزاز من الوسائل القيصرية العاتية في حكم الشعب، وهو ما نلحظه واضحاً تمام الوضوح في قصص دستو تفسكي وتولستوي وترجنيف وتشيخوف ومن إليهم من أعلام الكتاب الروسيين ... وكان المظنون أيضاً أن فقيد روسيا العظيم جوركي سيقف حائلا بين الأدب وبين طغيان الحكومة التي حاولت إفساده بإخضاعه لنظمها واستخدامه للتبشير بين الجماهير، فلما شجر الخلاف بينه وبين رجال الثورة في إبانها استبشر المغرمون بالأدب الروسي خيراً، ولكنهم سرعان ما فوجئوا بعودة جوركي إلى روسيا وصلحه مع طغاتها، وصيرورته مبشراً بتعاليمهم، بل من أشد المتحمسين لهم، حتى خاب الظن، ووثق الجميع أن مجد الأدب الروسي قد انهار، وأنه ركد ركوداً لا أمل في انتعاشه منه قط ... ولولا أن كان جوركي أديباً بطبعه، ولولا أن حياته امتدت في ظل البلشفية، لكانت نكبة الأدب الروسي بتعاليمها نكبة ماحقة، إلا أن هذا الرجل الذي لم تلهه حياة الفراغ والدعة قد ستر هذا النقص فيما جناه هذا النوع الفوضوي من الحكم على الأدب في روسيا، فلما مات خبا آخر قبس من هذه النار المقدسة التي ظلت أعواناً تؤجج قلوب الروسيين ومشاعرهم ... وقد هال موت جوركي رجال الحكم في روسيا وعلى رأسهم ستالين، وهبوا ينصرون الأدب فيما يخيل لهم عن طريق المسرح، وهم يبذلون جهود الجبابرة لإقالة عثرته، بيد أنهم لمبالغتهم في جعل المسرح للبلشفية، لا البلشفية للمسرح، ومبالغتهم أيضاً في بلشفة كل ما يتعلق بالتمثيل قد باءوا بالفشل من حيث كانوا ينشدون النجاح ... وهم يعترفون بهذا، ولذا دأبوا على إبراز درامات جوركي على أكثر مسارحهم، حتى أن روايته الأخيرة (ييجور بوليشوق) تمثل في الليلة الواحدة في أكثر من ستة مسارح من مسارح العاصمة ... وتبدو الروح البلشفية المفتعلة في درامات أكثر الكتاب، إما لاضطرارهم إلى إرضاء الحكومة وتملقها، وإما لعجزهم عن وصل ما انقطع من جهود أسلافهم العظام... فهذه درامة (الأرستقراطيين) للكاتب نيقولا بوجودين تكاد تكون حرباً على الأرستقراطية التي يجهلها شباب روسيا تمام الجهل ... وكذلك رواية إيفان كوشرجا (الساعاتي والدجاجة) إن هي إلا درامة فارغة برغم الطبل المدوي الذي دقه النقاد الروسيون لها، وبرغم الجائزة السنية التي نالها صاحبها بسببها. على أن بعض الكتاب الذين احتفظوا باستقلالهم قد استطاعوا أن يكتبوا قطعاً فنية رائعة وإن تكن تحمل الطابع البلشفي أحياناً ... ومن هؤلاء الكاتب فسوفولود فشنفسكي مؤلف (المأساة التي تبشر بالخير) والتي اضطر أن يقحم عليها روحاً من نوع الميلودرام إرضاء للسادة الحاكمين

ومن أعجب العجب خمول كتاب نابهين مثل كرشون وأفينوجنيف ... ويبدو أن سبب خمولهم عائد إلى عدم استطاعتهم هضم هذه الدكتاتورية التي يفرضها ستالين وأذنابه على روسيا، وهي الدكتاتورية التي حاربوها من قبل في شخص القيصر نفسه

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧

5 me Année, No . 234

Lundi - 27 - 12 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٢٣٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٤ شوال سنة ١٣٥٦ — ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهـــرس

رجل سعيـــــد

وعدتك أن أقص عليك حديث الرجل السعيد بخلقه ودينه عسى أن تجد فيـه ما يبرد غيظك ويرد حلمك ويقر بالك . وهأنذا اليوم أسوق إليك هذا الحديث على سرده :

دخل عليّ هذا الرجل وأنا مكب على عمل دقيق حافز ، فلم يسعنى حين رأيت ما عليه من سَمْت الوقار وسيما الخير إلا أن أدع ما فى يدى وأفرغ له

— نعم يا سيدى

— أنا رجل من أهل ... قرأت ما كتب فى الرسالة عن الأخلاق ونكولها أمام الغرائز الوصولية فى الإنسان ، فساءنى وأيم الله أن تشتبه المعالم حتى يضل الهادى ، وتعترك الظنون حتى يشك المؤمن . وليس لى قلم أضمه بين هذه الأقلام فيـدلها على موضع الحق أو يعينها على مقطع الحكم ، فآثرت أن أشخص إليك لأكون أمامك مقالاً حياً يقرر ، ودليلاً ناطقاً يؤيد

وفى الحق أن الرجل كان فى بزّته العربية المهندمة ، ولهجته الطبيعية المتزنة ، كأنما ينطق عن وحى الفضيلة العليا . فقلت له : أتظن أن الفاضل ينجح بمحض فضله فى هذا العصر الآلى الأصم ؟

فقال : لا أظن ، وإنما أعتقد ؛ ولا أنكر مع هذا الاعتقاد أن الفضيلة وعرة الطريق ، وأن الخير صعب المرتقى . وفى قول الرسول الكريم : «حفت الجنة بالمكاره» ، و «القابض على دينه

كالقابض على الجمر » ما يصدق ذلك . ولكن الفضائل تعليم وتعويد ورياضة ؛ فإذا أوف(١) غرسها في النشء ، وضعف أثرها في المجتمع ، دل ذلك على فشل التربية لا على فشل الفضيلة .

أنا رجل واسع الثراء سابغ النعمة ؛ وقد جمعت مالي الوفر من ذلك الطريق السوي الذي ألزمني إياه أبي منذ الصغر ؛ فليس في نصابه قرش زائف ولا متر مغتصب . وورثت عن أبي الدين الصحيح على أنه دستور الدنيا ، والخلق الصريح على أنه جوهر الدين : ثم زاولت التجارة بالصدق والصبر فاستغنيت ، واقتنيت العمائر والضياع فأثريت ، وأديت الصلاة فوصلت ما بيني و بين الله ، وآتيت الزكاة فأصلحت ما بيني و بين الناس . ثم أحصنت نفسي بالزواج الباكر فوهبت البنين ، وعصمت شهوتي من المتع الحرام فرزقت العافية ، وطهرت قلبي من الطمع الحاسد والخصام الحاقد فأوتيت السكينة . ثم جهلت البنك لجهلت الربا والدين ، وأنكرت المحكمة فأنكرت العداوة والظلم ، ووضعت فضل مالي في أيدي ذوي الخلق من التجار يحفظونه لي ويستثمرونه لهم ، وجعلت أرضي في ذوي الدين من الزراع يربعونها علي و يستغلونها عليهم ، ومسست بالمواساة والرحمة قلوب البائسين حولي فسللت منها الضغينة ؛ ثم كان لي في كل مبرة سهم ، وفي كل مستشفى سرير ، وفي كل مشروع وطني يد . فأنا أمشي في الناس ملحوظ الشهادة محفوظ الغيب ، لا تمتد يد إلى مالي لأنه مبذول للسائل والمحروم ، ولا ينبسط لسان في عرضي لأن جاهي موقوف على العاطل والمظلوم ، ولا يأتمر أحد بحياتي لأن وجودي أمان للشقي من البؤس والجريمة

أما سعادتي في نفسي وولدي فهي أعظم وأتم من سعادتي في عملي ومالي : أجدني كنف الرجاء لكثير من الأسر الفقيرة ، ومصدر العزاء لطائفة من القلوب الكسيرة ؛ وأرى في كل نظرة وفي كل بسمة وفي كل كلمة معاني لا تتناهى من العرفان والحنان والشكر ، فتعظم سعادتي في نفسي ، وتجمل دنياي في عيني ، ويغمرني شعور من عزة المؤمن وزهو الخاشع ، لأن حياتي لها هذا الخطر في حياة بعض الناس . ثم أنظر إلى بني الثمانية فأرى في وجوههم صورتي ، وفي صدورهم محبتي ، وفي شعورهم عاطفتي ، وفي ميولهم رضاي ، وفي آمالهم مناي ، فأقبل يدي ظاهراً وباطناً وأقول لنفسي : احمدي الله واشكري به فإن عليّ لن يموت ، وإن ثراءه لن يبيد ، وإن بناءه لن يتقوض !

ذلك كله يا سيدي بفضل الخلق . فإذا كان قد تهيأ لمثلي على جهله بقواعد المدنية وضروريات العلوم أن يجمع بمعونة الله وحده هذه الثروة الضخمة وليس له رأس مال من إرث ولا فيض رزق من حكومة ، وأن ينال هذا الجاه العريض وليس له نسب عريق في أسرة ولا سبب وثيق إلى سلطان ، وأن يخلق من حوله هذا النعيم المقيم فيغرق فيه أهله وعشيرته وبيئته ، وأن يرفع بناء الأخلاق الفاضلة في بنيه بالتربية وفي أهله بالقدوة وفي مواطنيه بالتقليد ، فكيف لا يستطيع معلمو المدرسة ووعاظ المسجد ومشرعو البرلمان أن يخلقوا في كل مكان هذه البيئة وتلك الجنة فيصلح المجتمع ويسعد العالم ؟

قلت له وقد أعجبني عقله وأمتعني حديثه : يا سيدي ، إن من سعادتك وسعادة الناس بك أنك صاحب عمل لا صاحب علم ، ورجل عزيمة لا رجل رأي . ولو كنت من كهنة العلم لصعدت إلى قدس الأقداس وظللت تقرأ الفلسفة والأخلاق لرياضة العقل أو للذة المعرفة أو لشهوة الجدل ، ثم رميت الناس من عليا سمائك بالآراء المتعارضة والأحكام المتناقضة لتصطرع في المطابع حيناً ثم تموت في الكتب

لا يزال المربون يا سيدي يجادلون في أغراض التربية ويجربون نظرياتها المختلفة في حقولهم الخاصة . فليت شعري وشعرك أيتاح لهؤلاء في دهر من الدهور أن يقبضوا على أعنة الأمم ويتولوا القيادة في ركب الحياة !؟ ادع الله للناس أن يلهمهم من الحق ما ألهمك ، وأن يعلمهم من قواعد الخير ما علمك !

***

قال صاحبي الثائر وقد شبا وجهه بشيء من الإيمان والاطمئنان : وهل تستطيع أن تعد كثيراً من الناس على غرار هذا الرجل ؟ قلت له : يا صاحبي ! ليست المسألة مسألة إحصاء وعد ، إنما هي مسألة إمكان وواقع . ومتى ثبت أن الأخلاق الفاضلة استطاعت أن تصنع من هذا الرجل هذا المثال ، فلم لا تستطيع أن تصنع على غراره ملايين من الرجال ؟

احمد حسن الزيات

---

(١) أوف الزرع أصابته آفة

هل الحرب ضرورة؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

— ٢ —

ظهور المذهب فى الأمة شىء، وشيوع العمل بذلك المذهب شىء آخر

ولكن ظهور المذاهب مع هذا لا يخلو من دلالة قوية على طبيعة الأمة ومعدن أخلاقها وطرائق معيشتها ، ولو لم يعمل به الناس أو يتقيدوا بأحكامه فى الحياة اليومية

فالجنود والفلاسفة ورجال المال وأصحاب التجارات الواسعة موجودون فى بلاد الحضارة كافة ، وربما تساوت « النسبة » بينهم فى العدد والقوة والجاه ، ولكن مما لا شك فيه أن البلد الذى « مثله الأعلى » رجل الحرب غير البلد الذى يتخذ له « مثلاً أعلى » من الرجل الغنى أو من الرجل الحكيم أو من الرجل الزاهد . فإذا ظهر فى الصين حكيم يوصى الناس بالوداعة وحب السلم وكراهة القتال فليس بالمعقول ولا بالميسور أن يشيع العمل بوصاياه حتى يمتنع ظهور الجند ووقوع القتال بين تلاميذه ومريديه ؛ ولكن ليس بالمعقول كذلك أن نسوى بين هذا البلد وغيره من البلدان التى يتمنى حكماؤها شيوع الحرب أو شيوع الثروة أو شيوع الزهد والرهبانية ، إذ يكفى أن يتمنى الإنسان شيئاً ليكون مختلفاً فى تفكيره وشعوره عمن لا يتمنونه وقد يتمنون نقيضه ، ولا يسوى بينهم بعد ذلك أنهم يشتركون فى عمل واحد يعمله بعضهم مضطراً مسوقاً إليه ، ويعمله بعضهم مختاراً شديد الرغبة فيه

لقد أوصى حكماء الصين بالسلام وبغضوا الناس فى الحرب وفيمن يجعلها صناعته وهمه وهجيراه ، فليس معنى هذا أن حرباً لم تقع فى الصين وأن حكيما لم يظهر بين أهلها يحثهم على الكفاح كلما دعت إليه حاجة أو قضت به مصلحة سياسية ؛ فقد ظهر من الصينيين فلاسفة بالغوا فى تمجيد الحرب كما يبالغ فيها اليوم فلاسفة المذاهب « الفاشية » أو مذاهب العسكريين . وقال أحدهم وهو « كنج سوف يانج » : « إن الأمة التى تجتمع فيها القوة حقيقة أن ترهب وتصبح عظيمة البأس والمهابة ؛ أما الأمة التى تلهو بالكلام معى وشيكة التمزيق . ولو أن ألفاً اشتغلوا بالزرع والحرب وواحداً بينهم اشتغل بنظم القصيد ورواية التاريخ وتنميق الأحاديث لأفسد عليهم أعمالهم أجمعين ... » إلى أمثال هذا الكلام الذى يخيل إلى قارئه أنه من عربدة المعسكرات لا من نصائح الوعاظ والحكماء

ظهر فى الصين من قال بهذا وظهر فيها من قال بغيره وهو الفريق الغالب والقدوة العامة المرموقة من الأكثرين ، وربما كان ظهور الحكماء السالمين وانتشار حكمتهم هو الباعث إلى ظهور المخالفين لهم وإغراقهم فى دعوة الحرب وآداب القتال ، كما يصيح الإنسان ويبالغ فى الصياح كلما أحس أنه ضائع الصوت والصدى محتاج إلى جذب الأسماع ولفت الأنظار ؛ وإنما عبرة هذا جميعه أن النيات لها دلالة قوية وليست الدلالة كلها للأعمال والوقائع ؛ فإذا رأينا أناساً ينوون السلم ويحاربون فليس بالصحيح أن نسوى بينهم وبين من ينوون الحرب ويحاربون : هم مختلفون وإن تشابهوا فى عمل واحد ، ونحن رابحون إذا أشعنا دعوة السلم وإن لم يتبعها على الأثر شيوع السلم وبطلان القتال

ومن الأشياء التى لها دلالتها فى العصر الحديث كثرة الناعين على الحروب بين الأمم الحرة ، وكثرة المنكرين لمظاهر الزهو التى كانت تحيط فيما مضى برجال الفتوح والغزوات ، فسيكون لذلك كله أثره كما كانت له دلالته وكانت له دواعيه . وحسبنا أن العمل فى هذه الوجهة ليس بالعبث ولا بالعقيم ، بل حسبنا أنه واجب محمود ، بل حسبنا أنه ليس بذميم ، ليكون ذلك من أسباب المضى فيه والإقبال عليه

يقال إن الضراوة ليست من طبيعة الوحش فى حالة التأبد والسهولة . ويقول هدسون : إن البوما — وهو من أشد السباع الأمريكية — لا يهجم على أحد إلا وهو مدافع عن حياته . ويقول كومستوك : إن الثعابين والدببة وغيرها من السباع لا تتعلم الضراوة إلا حين يظهر بينها الإنسان ويوغل بينها فى الصيد والاعتداء والتحرش والإيذاء . وحسبنا من ذلك أن الضراوة ليست أصلاً فى الخليقة حتى بين السباع والعجماوات ، وأنها ضرورة وليست بشهوة مطلوبة ، وأنها تحول إذا امتنعت الضرورة وتغيرت الأسباب . فلا نزعم كما زعم الفاشيون أن تربية الانسان على الحرب فضيلة متى ثبت أن الحرب رذيلة ليس عنها محيد : ذلك

خطأ لا ريب فيه ، لأنه لم يثبت أولاً أن الحرب طبيعة فى الأحياء ، ولن يثبت بعد ذلك أن الرذيلة تصبح فضيلة مرغوباً فيها متى علمنا أنها عسيرة الاجتناب

ولست أكبر من شأن الدلالة التى أشار إليها الكاتب « الدوس هكسلى » صاحب كتاب الغايات والوسائل حين قال : إن الإنسان فى دور الفطرة لم يكن يعرف الحرب على نظامها المعروف بين أصحاب الحضارة ، فإن الرجل الذى يحارب ليس بأبشع ولا أقسى من الرجل الذى يقتل بعد تدبير وإصرار ؛ ولعله أقل بشاعة وقسوة لأنه يقتل وهو مهتاج مستثار بما يثير الجنود فى حومة الصراع . إلا أننى أومن بما تواترت به الآراء عن قلة الضراوة بين الأحياء التى تعيش على الفطرة فى حالة التبدى والسهولة ، فإن ذلك معناه أن الحرب آفة قابلة للعلاج فى زمن من الأزمان ، وأنها متى بطلت أسبابها الأولى ووضحت أضرارها الجسام وكثر المصابون بتلك الأضرار خفيت من عالم الإنسان المتحضر كما خفيت من عالم الإنسان الفطرى أو من عالم الحيوان

وربما لاح عجيباً للمصريين أن يعلموا أنهم أول أمة فى العالم قد اخترعت « فن الحرب » على النظام المعروف ؛ فقبل الحضارة المصرية لم تكن حرب منظمة ولا تعبئة مدروسة ولا حركات يتعلمها القادة كما يتعلم صناعته كل ذى صناعة محفوظة الأصول والقواعد ؛ وإنما كانت هناك مشاجرات يدخل فيها استخدام السلاح ولا تعتمد فى فنون التعبئة على نظام سابق . فما أعجب أن يكون المصريون الوادعون هم أسبق الأمم إلى اختراع فن القتال ! وما أعظم ما فى ذلك من دواعى التفاؤل عند أناس ودواعى التشاؤم عند آخرين ! فأما التفاؤل فذلك لأن هذه العجيبة دليل على أن الحرب ضرورة معيشة فى بعض حالات الحضارة الأولى ، وليست بشهوة مقرونة بالوحشية التى تناقض الوداعة والمسالمة ؛ وأما التشاؤم فذلك أن يقول القائل : هذا شأن الوادعين فكيف بالضراة المقتحمين ؟ !

ومع هذا نقول ويقول هكسلى : إن علاج الحرب نفسى وليس باقتصادى على زعم الاشتراكيين أصحاب التفسير المادى للتاريخ ، وإن المعيشة تابعة لحالة النفس قبل أن تكون الحالة النفسية تابعة للمعيشة . فهذب الرجل وأصلح من ذوقه وتفكيره ينتقل من منزل إلى منزل ومن حى إلى حى ومن كساد إلى كساد ومن طعام إلى طعام ، وهكذا يكون العلاج لآفات الأمم فى هذا الزمان

وقد وعدنا فى المقال السابق أن نلم بأسباب الحرب الاقتصادية كما يراها مؤلف الكتاب . فأهمها وأسبقها تاريخاً فى نظره هو التماس المرعى الخصيب وانتزاعه من أيدى مالكيه ؛ ثم تبدل هذا الباعث فى زماننا فحل التماس الأسواق محل التماس المرعى الخصيب ، وأدى التماس الأسواق إلى إنشاء المصانع فى البلاد المستعمرة فقام النزاع بين المصالح فى أيدى الأقوياء والضعفاء على السواء

ومن أهم أسباب الحرب الاقتصادية معامل السلاح ونفوذ المتنفعين بترويج الأسلحة بين المتحاربين . وليس من العلاج الناجع فى رأى هكسلى أن تستولى الحكومات على هذه المعامل فتبطل الدعاية للحروب ، لأن الحكومات تحتاج إلى المال كما تحتاج إليه الشركات ؛ ويزيد على المشكلة مشكلة جديدة وهى أن الحكومات أقوى على الجملة من الشركات

ويمضى الكاتب فى سرد أمثال هذه الأسباب مجتهداً فى إبراز غرضه الأصيل من كتابة الكتاب وهو تغليب العوامل النفسية على العوامل الاقتصادية وتوجيه الأذهان إلى ابتغاء العلاج الأدبى مع العلاج الاقتصادى فى وقت واحد . وخلاصة العلاج الأدبى ترجع بنا إلى مذهب كمذهب أهل الهند أو مذهب المتصوفة القائلين بأن عظمة الإنسان على مقدار استغنائه عن قيود اللذات والشهوات وقيود الأوجاع والهموم ، وأن المثل الأعلى فى التربية هو الترفع عن الحاجات وليس الخضوع لها والانقياد لنوايها . أما خلاصة العلاج الاقتصادى فهى العناية بالوسائل الزراعية التى يجربها الدكتور ولكوكس صاحب كتاب « الأمم تعيش على مواردها الداخلية » ؛ وفحواها أن الأمة بالغاً ما بلغ عدد سكانها قادرة على استخراج طعامها من أرضها إذا هى عمدت إلى تطبيق بعض الأساليب العلمية التى حققها بالتجربة المشهودة . ويتوقع هكسلى أن طريقة ولكوكس ومثلها طريقة الأستاذ جريك فى كليفورنيا ستحدثان فى العالم انقلاباً شاملاً لا يذكر إلى جانبه انقلاب الصناعة فى القرنين الثامن عشر

والتاسع عشر ، إلا كما تذكر التوافه واللمم فى معرض الأخبار الجسام

وجميع هذه الخلاصات إنما هى فهرس للعناوين يشوق من يعنيه الأمر إلى المراجعة والاستقصاء . فإذا راجع واستقصى علم أن الجزاء أكبر من العناء ، وأن من مباحث الزراعيين فى عصرنا هذا ما يلذ القارئ كما يلذه البحث فى الأدب والفن والفلسفة وأصول العقائد وقوانين الاجتماع ، فلا سبيل إلى علاج عالمى يعصف بآفات القرون الأولى ويحيط بعواملها الفكرية والشعورية مالم يكن مصحوباً بدراسة هذه الشؤون

عباس محمود العقاد

ليلى المريضـــة بالعراق

للدكتور زكى مبارك

— ٣ —

... وفى صباح يوم السبت توجهت إلى بهو أمانة العاصمة لأؤدى واجب التحية ، تحية العيد إلى وزراء الدولة . وقد ظننى فخامة الرئيس عراقياً ، لأنى كنت بالسدارة ، فسرنى ذلك . وكانت فرصة طيبة عيدت فيها على رجال كنت أحب أن أذهب إليهم فى منازلهم ؛ وراقنى أن يعرف العراقيون مكاناً عاماً يلتقون فيه يوم العيد ، وهى عادة حسنة كنت دعوت إليها فى الرسالة التى قدمتها للمباراة الأدبية الرسمية : رسالة (اللغة والدين والتقاليد)

وتلفتّ فرأيت الدكتور حسين كامل يشير إلىّ ، وما هى إلا لحظة حتى كانت يدٌ كريمة تصافحنى وتقول : أنا الدكتور شوكة الزهاوي رئيس الجمعية الطبية العراقية ، وقد سألت عنك مرات لأن اسمك يرد كثيراً فى المخابرات التى تجرى بيننا وبين الجمعية الطبية المصرية . والحمد لله على أن اهتديت إليك بعد التشوف والاشتياق

ثم استطرد فقال : إيش لون ليلى ؟ (واللون فى عرف العراقيين هو الحال فى عرف المصريين)

فقلت وأنا أبتسم : ستعرف ذلك يوم ألقى بحثى فى المؤتمر الطبى عن ليلى المريضة بالعراق

فقال : عجّل بدفع الاشتراك ليحفظ لك مكانك بين الخطباء .

فأخرجت ديناراً لم يكن معى سواه وقلت : إليك الدينار فى سبيل ليلى ؛ والله المستعان

والظاهر أنه لم يعرف شيئاً عن الرسالة التى كلفت الأستاذ الزيات تبليغها إلى الجمعية الطبية المصرية (ولا تغضب يا صديقى الزيات من كلمة تكليف ، فكذلك قلت ، وما أكذب عليك)

* * *

وفى المساء ذهبت إلى نادى المعارف واشتركت فى استقبال الكشافة السورية ، وألقيت خطبة تناسب المقام . وما كادت تنقضى الحفلة حتى عدوت إلى منزلى لأنتظر وصيفة ليلى

وجاءت الساعة العاشرة ولم يحضر أحد ، فقلت فى نفسى : هذا جزاء الفضول !

ثم تذكرت أنى أؤدى خدمة وجدانية سيذكرها التاريخ فانشرح صدرى بعض الانشراح وهدأت ، ثم أخذت أقلب أوراقى فى سكون واطمئنان

وبعد نصف ساعة أحسست يداً رفيقة تطرق الباب ، فخففت إليه فى وقار مصنوع وفتحته بدون أن أسأل عن أسماء الزائرين . وما الحاجة إلى ذلك وأنا أعرف جوهر الزيارة فى نصف الليل ؟ وليتها كانت زيارة تذكر بالأيام الخوالى حين كنت أدرس الطب فى باريس ، وحين كنت أترك الباب بلا رتاج لتدخل الصغيرة المحبوبة حين تشاء

إنها زيارة جرداء ستنقضى فى السؤال والجواب ، وأنا اليوم طبيب مسئول عن رعاية الحرمات

دخلت جميلة أولاً ، وتبعتها وصيفة ليلى . دخلتا ملفوفتينْ ، مع أن المرأة جميلة جاوزت الستين ؛ وشعرت بشىء من الخجل للفقر البادى فى غرفة الاستقبال ، ثم تماسكتُ حين تذكرت أن هاتين المرأتين تفهمان بلاريب أنى طبيب غريب وأن الوقت لم يتسع لتأثيث العيادة والبيت

— يا جميلة ، ما اسم هذه الوصيفة ؟

— إسمها ظمياء ، ولكن ما ذنبى عندك يا دكتور حتى تغير اسمى ؟

فقلت : لن أذكر اسمك الصحيح فى علاج ليلى ، لأنى لا أريد

أن تغتنمى الفرصة فتصبحى عَـلَماً على حسابها يا حيزبون !

وأخذت المرأة فى اللجاجة ولكنى انصرفت والتفت إلى ظمياء

— إيش لون ليلى ؟

— بخير ، يا دكتور ، وقد سرتْ فى روحها البشاشة منذ الوقت الذى رأتك فيه ، ولكن فى نفسها منك شىء

فقلت وأنا منزعج : وما هو ذلك الشىء ؟ أعوذ بالله من كيد الشياطين !

فأجابت : كتب إليها كثير من أدباء مصر يؤكدون أنك أديب ولست بطبيب

فقلت : هؤلاء دساسون ، وقد آذونى قبل ذلك أبلغ إيذاء ، فقد كنت خطبت فتاة فى باريس وطاب لى معها العيش ، إلى أن تدخل المفسدون وحدثوها أنى متأهل ، وأن لى خمسة أبناء . وأنا يا آنستى رجل محسود لا أخطو خطوة إلا وحولى رقباء لا ضمائر لهم ولا قلوب

فقالت : ولكن ليلى رأت فى صدور كتبك أنك دكتور فى الآداب

فقلت : هذا تواضع منى ، لأن الطبيب الحق لا يقول إنه طبيب ، ومع ذلك فلا بأس من إخبارك بكل الحقيقة لتبانى ليلى فتطمئن . عندى يا آنستى ثلاث دكتوراهات : الأولى فى الآداب ، والثانية فى الطب ، والثالثة فى القانون

فتهلل وجه ظمياء وقالت : الآن فهمت ما ينشر فى الجرائد من أنك تلقى محاضرات فى كلية الحقوق

فقلت : هو ذلك يا آنستى . وستقرئين فى الجرائد بعد حين أنى ألقى محاضرات فى كلية الطب !

والآن ندخل فى صحيح الغرض من هـذه الزيارة الليلية ، ولندرس الموضوع من جميع الأطراف ، لأنى لا أستريح إلى دعوتكما لزيارتى مرة ثانية ، فإن العيون ترصدنى من كل جانب ، وسمعة الطبيب هى كل ما يملك ، وأنت فى الحق فتاة حسـناء وأخشى أن تحيط بى من أجلك الظنون

فتنهدت وقالت : العفو يا دكتور : إن مرض ليلى هدّنى ولم يبق منى على شىء

فقلت وقد غاظنى أن تحسبنى أتغزل : اسمعى ، ليس الوقت وقت دلال ، أنت هنا فى خدمة الواجب ، أجيبى على الأسئلة بصدق وصراحة ، واحذرى عواقب المداورة فى الجواب

— هل تُرى ليلى امرأة مصونة ؟ هل يحيط بسمعتها قليل من الشبهات ؟

— ليلى مصونة كل الصيانة يا دكتور ، وبالرغم من كثرة الحواسد لم تستطع امرأة أثيمة أن تقول فى حقها كلمة سوء ، فهى مثال الطهر فى بغداد ، وحديثها كالمطر فى جميع أرجاء العراق

— وكم سنّ ليلى الآن ؟ وكيف كان ماضيها فى الحياة الزوجية ؟

— هى فى حدود الأربعين ، ولا تزال عذراء

« وعندئذ دونت فى مذكرتى أن المرأة التى تصل إلى سنّ الأربعين وليس لهـا زوج ولا أطفال معرضة لكثير من الأمراض ، وهذه أهم نقطة أعرضها للدرس فى المؤتمر الطبى »

ثم رفعت بصرى إلى ظمياء وقلت : ولكن كيف اتفق أن تعيش ليلى كل هذا العمر عذراء ؟

فتلجلجت الفتاة ثم لاذت بالصمت ، فنهرتها بعنف ، فأجابت وما تكاد تبين :

— كانت تحب الضابط عبد الحسيب

— ومن هو الضابط عبد الحسيب ؟

— فتى كان فى الجيش العراقى وأبوه من مصر وأمه من لبنان

« للحديث بقية » زكى مبارك

ضبط النفس

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

علمتني الحياة ضبط النفس ، والحياة مع الأسف مدرسة ولكنها فيما يبدو لي عقيمة ، فان الدروس فيها لا تنتهي ، ولا يكاد المرء يظن أنه حذق بعضها وآن له أن ينتفع بما تعلم منها حتى تسلمه الأقدار إلى العفاء ! ففيم كان طول التلمذ هذا ؟ وما خيره إذا كان العمر ينتهي به ؟ وما الفرق إذن بين الجهل والعلم والطيش والحكمة ؟ ولماذا يعني المرء نفسه بالنظر والتدبر والتحصيل ؟ ؟

قلت هذا مرة لصديق انجليزي فلم يستغربه ، لأنه لا جديد فيه ، ولكنه سألني : « أيشق عليك هذا ؟ » فاحتجت أن أدير عيني في نفسي لأتبين ، فما أدري والله أهو يشق أم يهون . ثم قلت له : « لا أظن .. فاني حائر .. أجهل ما تنطوي عليه نفسي .. ولكني أريد أن أفهم وأن أهتدي إلى الحكمة ... فاني أراني أتعب وأكد في التحصيل والنظر ... وسأقضي حياتي كلها في هذا ، ثم يجيء يوم فأطوي ... ويطوي معي كل ما تعبت في إفادته ولم أنفع به أحداً . ولو أني كنت أموت ويبقى ما أفدت لاختلف الحال ، ولكن عقلي يبطل ، وإحساسي ينعدم ، فكأني ما عشت ولا كنت . فما هذا الموت الذي تموت به كل المعاني الحاصلة ، والحكمة المستفادة ، والمعارف والاحساسات ؟ هذا هو الذي يثقل عليّ ، وإن كان لا مفر منه . وفي سؤالك ما يشعر أنك لا تستثقله كما أفعل ، وهذا راجع إلى طبيعة المصري ، فانها غير طبيعتكم . نحن المصريين يختلط في نفوسنا الشعور بالحياة بالشعور بالموت ، وتفكيرنا في هذه بتفكيرنا في ذاك . حياتنا كلها وآثار آبائنا الأقربين والأقدمين تثبت ذلك ، ولكنكم تفكرون في الموت كأنه شيء مستقل عن الحياة ، يعترضها ولكنه ليس منها ، هو عندكم طارىء غريب ... أو قل إنكم لا تحسون به كاحساسنا نحن ... »

وقصصت عليه قصة تجلو فرق ما بيننا وبين الانجليز في هذا ، وتلك أن سيدة استأجرت غرفة في بيتها في لندرة روت لي يوماً أن جارها توفي أبوه ، وقالت إنه الآن مسجى على سريره في غرفته ينتظر يوم الدفن ، وكان الابن يحب فتاة ويشتهي أن تكون زوجته ، وقد تودد إليها وأطلعها على ما يجن لها من الحب وخطبها فشكرته وأسفت واعتذرت ، وكان له صديق يحب الفتاة أيضاً وينافسه عليها ، وقد ظفر منها بكلمة القبول في نفس اليوم الذي مات فيه أبو صاحبه ، فزاره ليعزيه ، ثم لم يسعه إلا أن يفضي إليه بما يملأ قلبه من السرور وأن يبلغه أن الفتاة رضيت أن تكون زوجته ، فاحتمل الرجل الصدمتين : صدمة الموت وصدمة الحرمان ، وتناول زجاجة الويسكي وناول صديقه كأساً وتناول هو أخرى ، قالت السيدة : وقد ظلا يشربان إلى الهزيع الثاني من الليل . وقد كانت تروي لي هذه القصة وهي معجبة بسعة صدر ذلك المفجوع في أبيه وفي حبه ، وعظم ضبطه لنفسه ؛ ولم يكن إعجابها به لأنه استقبل صديقه وراح يسامره وأبوه الميت لا يزال في البيت فان الموت مألوف لا جديد فيه ، ولا خير من تقطيع القلب حسرات من جرائه ، وإنما كان الاعجاب لأنه احتمل الهزيمة في ميدان الحب على هذا النحو الكريم

مثل هذا لا يمكن أن يحدث في مصر . ولو أن اثنين تنافسا على فتاة ، لما كان من سلامة الذوق أن يذهب الفائز بها إلى مزاحمه ليطلب منه تهنئته بذلك ومشاركته في سروره ، فإن هذا في عرفنا أشبه بأن يكون شماتة ومكايدة ، فكيف إذا كان أحدهم أبوه ملفوف في أكفانه ينتظر أن يحمل إلى قبره ؟

وأكثر ما نراه من مظاهر الحزن أو الجزع عندنا من التكلف ولا سيما بين النساء . ولكن لماذا يتكلف المصريون هذا ويحرصون على إبدائه ؟ أترى تكلفهم هذا يرجع الأمر فيه إلى الجهل أم إلى شعور بشيء في الطباع ؟ لا أدري ، ولكن الذي أدريه أن التجلد يكون مما يتحدث به الناس ويلهجون بذكره ، كأنما الأصل هو الجزع . وإني لأذكر أني تظاهرت بالاطمئنان ، وتكلفت الابتسام لما ماتت أمي ، بين يدي ، وكنت أخادع أختي وأخادع سيدات كثيرات كن في تلك الساعة في البيت ، وقد كرهت أن ينفجرن بالصراخ والعويل واللطم ، وأمي يتهن في ثيابها التي كانت تلبسها لما حضرتها الوفاة ، فلما عرف أختي ما دبرت ساءه هذا مني وكبر عليه أني زعمت له أنها نائمة وهي ميتة ، وأني تبسمت وكان حقي أن أبكي ، وبقي أياماً لا يكلمني ، وإذا لقيني ترقرقت الدموع في عينيه ؛ ولا أدري ماذا كان يجديه أن يعلم أن روحها فاضت قبل ساعة أو بعد ساعة ، وأحسب هذا من الحزن ، ولم أكن دونه حزناً ، بل لعلي أعمق منه حزناً عليها ، ولكنه كان عليّ مالم يكن عليه من الواجبات في تلك الساعة

فاحتجت إلى خنق شعوري حتى أفرغ من الأمر على ما أحب

وكانت لى طفلة صغيرة ماتت ، فاحتلت حتى استطعت أن أواريها التراب وأمها تعتقد أن بنتها لاتزال على قيد الحياة ، وكانت الأم مريضة ، وقد أوصاها الطبيب بالتزام السكون واجتناب الحركة والانفعال ، فلم يسعني أن أفعل إلا مافعلت ، وكان هناك عامل آخر غير الموت يزيد في ألمي ، وذلك أنى موقن أن الإهمال هو الذى جر الموت ، والآجال بيد الله ، ولكن لكل شيء سبباً ، وكانت البنت قد أصيبت بالحصبة ، فاحتجنا — لمرض أمها — أن نكل العناية بها إلى خادمة كنا نظنها حاذقة ذكية ، فأصيبت البنت بالتهاب رئوى قضى عليها وأودى بها ؛ غير أن ما كان كان ، ولا حيلة فيه لإنسان . فكظمت غيظي ، وكتمت ألمي ، وتشددت لأعين الأم المسكينة على الصبر . وجاءني بعض الأصدقاء يعزونني في المساء فألفوني أبتسم وأضحك وأمزح فتعجبوا ، ولا محل للعجب في الحقيقة ، وأحسب الأمر قد صار عندي عادة وما أظن بي إلا أنى أصبحت « كالحانوتى » والمرء مما تعود

ولم أكن هكذا في صغرى . وإنى لأستحيي أن أقول كيف كنت أحمق طياشاً قليل الصبر سريع التأثر ، ولو شئت لقصصت على القارئ مائة حكاية وحكاية ، ولكني لا أنوى أن أفضح نفسي ، وقد صرت يهون على كل شيء إلا أن يرانى الناس لا أملك زمام نفسي ، ولا أستطيع ضبطها وكبحها . ومن العسير أن أعرف البواعث التي أغرتني بهذا الكبح وزينته لى حتى أصبحت لا يسخطنى شيء كأن يتفلت زمام النفس من يدى . وفي وسعي أن أقول في هذه البواعث ، ولكني لا أحسب أنى قادر على الاحاطة بها أو مهتد إلى الخفي منها . وما ذكرت الموت إلا لأنه في مصر مما يفتقر الجزع حياله ، وإن كان المرء يلقى في حياته ما هو شر منه وأدهى ، وقانا الله السوء ولطف بنا . ولم تهن على الحيلة ، ولكني مللت طول الحيرة التي يورثنيها النظر في وجوهها وأضجرني العجز عن الاهتداء والفهم ، فنفضت يدى يائساً وقلت فليكن ما يشاء الله أن يكون ، ولأعش كما يتيسر لى أن أعيش والسلام ، ولأدع عناء التفكير والنظر لمن أراد أن يحطم رأسه ، فإني أنا لا أشتهي هذا التحطيم ، وقد جربته فلن أعود إليه . ومن هنا قلة مبالاتي . وماذا أبالي بالله ؟

إبراهيم عبد القادر المازنى

هل انتهت السياحات والكشوف الظاهرة

في القرن السابع عشر أو بعده ؟

للأستاذ أديب عباسي

إذا كتب الأستاذ الكبير — العقاد — أطرف وأبدع ، فلا يسع القارىء الذى يصح أن نطلق عليه هذا الاسم إلا أن يقرأ ما كتب الأستاذ . وإذا قرأ له القارىء فلا يسعه إلا أن يقرأ مترفقاً مستأنياً ، فليس الأستاذ العقاد بالذى تستطيع أن تقرأ له على الطريقة الأميركية ، طريقة الخطف واللمح والقراءة بالأسطر والفقرات بدل القراءة بالجمل والكلمات . وليس ذلك لإبهام فى الرأى الذى يبسط الأستاذ أو التياث فى الرأى الذى يشرح ، وإنما هو راجع إلى خصلة التركيز الشديد والعمق الصادق التى تتسم بها كل آثار العقاد . وإذا قرأ القارىء الحصيف ما يكتب الأستاذ العقاد هذا النوع من القراءة المتئدة المترفقة فالأرجح أن يخرج مما قرأ له على وفاق معه لا يشوبه تردد الابهام ولا شك المداورة . ذلك بأن الأستاذ ، فى صميم ما يكتب ، لا يحاول أن يكتب ليفحم ، إنما يكتب ليفهم ، ويناقش ليقنع لا ليدهش . أقول هذا لمناسبة ما كتب الأستاذ فى موضوعى « الحد الحاسم » و « النماذج والأفراد فى الأدب » اللذين نشرا فى عددى ٢٢٨ و ٢٢٩ من الرسالة . هذان المقالان يكادان يكونان نموذجاً لما تتصف به كتابات العقاد من العمق وسلامة المنطق وقوة التوجيه مع الشمول والاحاطة . ومن هنا بادرت أتهم نفسى بالتواء القصد عليها حينما رأيتنى أخالف الأستاذ فيما ارتآه فى ختام موضوعه الثانى فأرى هذا الرأى الذى أبسطه فى بقية هذه الكلمة ، ولكننى برغم ما اتهمت نفسى وأعدت قراءة الموضوع لم أوفق إلى شىء يردنى إلى رأى الأستاذ أو يوافق بين رأيه ذاك ، ورأيى الذى أبسطه هنا ليتكرم فيصلحه لى ، إن رآنى مخطئاً ، أو يصلح رأيه إن رآني مصيباً

لخص الأستاذ فى مقاله الأخير رأياً للأستاذ أدولف وولف فى علاقة الديمقراطية والدين بظهور الخصائص المستقلة فى الصور الأدبية بعد القرن السابع عشر فقال : « فمنذ أصبح الانسان فرداً معزولاً فى حكم الدين لا اختلاط بين حسناته وسيئاته وبين حسنات الآخرين وسيئاتهم ولا التباس بين ثوابه وثوابهم وعقابه وعقابهم ، هنالك أصبحت كل نفس بما كسبت رهينة ، وأصبحت كل نفس حقيقة بالمحاسبة والاحصاء والمراقبة ، ورسخت جذور الديمقراطية فلم يبق إلا أن تظهر لها على وجه الأرض فروع وأوراق وثمار »

وكان من هذه الفروع — كما يرى الأستاذ — ظهور الخصائص الفردية والسمات المميزة والفوارق القوية فى الصور الأدبية الحديثة . هذه الخصائص والسمات والفوارق يجعلها الأستاذ وولف — كما لخصه لنا الأستاذ العقاد — رهناً بظهور التحليل النفسى الذى كان بدوره رهناً بشيوع الروح الديمقراطية والنظر إلى الفرد نظرة خاصة فاحصة ، فلا تخفى معالم شخصيته ومظاهر سلوكه فى غمار الجمهور والنماذج التقليدية المرسومة . إنما يؤثر الأستاذ العقاد ، فى ختام موضوعه ، أن يرجع التحليل النفسى والديمقراطية معاً إلى شىء آخر « هو انتهاء الكشوف الظاهرة وابتداء الكشوف الباطنة ، أو انتهاء السياحات الجغرافية وابتداء السياحات النفسية الانسانية »

هنا يسمح لنا الأستاذ العقاد أن نخالفه ويسمح لنا أن نسأل : أصحيح أن الكشوف الظاهرة أو الكشوف الجغرافية انتهت فى القرن السابع عشر أو حواليه ، ومن ثم بدأت الكشوف الباطنة للنفس كنتيجة لانصراف الذهن البشرى عن الدراسات والسياحات الظاهرة إلى الدراسات والسياحات الباطنة ؟ ! إننى أشك فى صحة هذا الزعم ، بل أكاد أنفيه قاطعاً

ليست السياحات الظاهرة وقفاً على الضرب فى مجاهل الأرض واكتشاف كل رجا من أرجائها ؛ وليس الاستشراف للمجهول فى خارج حدود النفس الانسانية قاصراً على الحدود الجغرافية لقارات الكرة الأرضية ؛ فهناك السماء بعوالمها الشاسعة ، وأكوانها المبثوثة فى رحاب الكون وأسرارها المحيرة ؛ وثمت الذرة بصفاتها العجيبة وسلوكها الغريب وأسرارها الدقيقة ؛ وهناك أمواج الأثير من ضوء وحرارة وكهرباء وأشعة كونية

وخلافها ؛ وهناك النبات والحيوان ؛ وهناك ما يسيطر على كل أولئك من قوانين خالدة وقوى منظمة . أفبعد كل هذه العوالم العجيبة نستطيع أن نقول : لقد انقضى عهد الكشوف الظاهرة فى القرن السابع عشر أو انتهى مجالها ؟ ! كلا ! والدليل القاطع هذه الكشوف الرائعة التى انتهى إليها الانسان فى سياحاته بين أجواز الفضاء ورحاب الكون أو فى حقائق الذرة ومعاقلها المنيعة . ومن يستطيع أن يقول : إن الكشوف الظاهرة التى تمت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداءة هذا القرن في عوالم الطبيعة والحياة تقل روعة وأسراً للخيال وشدها للانسان عن أروع المغامرات الجغرافية التى تمت في القرن السابع عشر أو بعده ؟ ثم هذه الكشوف الجغرافية ذاتها هل انتهت حقاً فى القرن السابع عشر ؟ أين مغامرات سكوت وشاكلتون وبيرد وغيرهم ؟ قد يقال هذه المغامرات منها ما جاء متأخراً ومنها ما لم يقع إلا فى أوائل هذا القرن ، ولكن هذا فى اعتقادى ليس بالشىء المهم ، فالتطورات الفكرية والنفسية العامة تحسب بالأجيال والقرون ، ولا تحسب بالأيام والشهور والسنين .

وقد يسأل الأستاذ العقاد : إذن بماذا نفسر ظهور الدراسات الباطنة ، وما تلاه من تأسيس علم النفس التحليلى الذى تهدى أدباء الأجيال الحديثة فى كتابة القصة التحليلية ؟ وأجيب أن هذه الدراسات الباطنة للنفس كانت مظهراً عادياً يتساوق مع المظهر العام لنشاط الفكر البشرى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فلما كشفت الكشوف الفلكية والطبيعية والكيميائية والفزيولوجية ، كشفت كذلك الكشوف فى مجاهل النفس وخوافى الحس . فذ اصطنعت الطريقة العلمية فى البحث وأخذ العلماء يجرون على أسلوب المشاهدة والفحص والاختبار اتخذت دراسة النفس خطة منظمة مجدية ، فظهر أولا علم النفس العام ، وتلاه علم النفس التحليلى ؛ ولكننا نعود ونقول : إن هذه الدراسة لم يكن الحافز فيها والباعث عليها انتهاء الكشوف الظاهرة ، وإنما كان الحافز عليها اتساع هذه الكشوف وسيرها على خطة علمية منظمة مجدية شملت الجماد والحيوان والانسان جميعاً . هذا وأحب أن أقرر هنا أن الدراسات النفسية لم تحد ولم تخرج عن حدود الحدس والتخمين وإبهام الفلسفة الذي قيدها من زمن أرسطو ، إلا حينما تابع رجالها أسلوب العلم الطبيعى فى المشاهدة والاختبار ، بل لقد استفادت الدراسات النفسية فائدة مباشرة مما كشفه البحث من العلاقة الوثيقة بين تركيب الجسم الفزيولوجى ومظاهر النشاط الفكرى والنفسى . ومن هنا كانت الدراسات النفسية باعتبار الزمن تابعة للدراسات الطبيعية مقلدة لها فى أسلوبها مستفيدة من حقائقها . ولقد بلغ من اعتماد علماء النفس اليوم على الطريقة العلمية فى البحث بحيث غدوا لا يؤمنون بأسلوب الاستبطان والدراسة الذاتية Introspection ، وأضحى همهم أن يدرسوا النفس البشرية دراسة موضوعية مبنية على المشاهدة الظاهرة والاختبار المنظم

وجملة ما نريد أن نقرره هنا أن الكشوف والسياحات الخارجة لم تنته قط في القرن السابع عشر ، بل هى زادت واتسع نطاقها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وبداءة هذا القرن إلى الحد الذى يكاد يكظ الأذهان ويتخم الفكر . وإذن ليس صحيحاً أنه جاء يوم انقطع فيه الإنسان الباحث الفكر عن الكشف الظاهر فتعين له مع ذلك الانقطاع أن ينصرف إلى السياحات الداخلية والكشوف النفسية . والصحيح أن الانسان الباحث تنبه إلى الكشوف الباطنة لما ارتفع مستوى البحث والتطلع واتسع نطاقه ومجاله حتى شمل كل موضوعات النظر والبحث وفيها صفات الإنسان النفسية والفكرية .

أديب عباسى

الحضـــارة المصرية
في عهد الدولة القديمة

بحث للعلامة الأثرى اريك بيت [1]

للأستاذ احمد نجيب هاشم

جغرافية مصر وأثرها

ليست هناك بلاد يمكن أن يتتبع فيها أثر البيئة فى طبيعة أهلها أكثر من مصر . فلفهم الحضارة التى قامت فى مصر القديمة يجب علينا أولا أن نصف المظاهر الطبيعية لهذا القطر

تنقسم مصر قسمين لكل منهما ميزات خاصة : مصر العليا ، ومصر السفلى . والأولى شريط من الوادى يمتد من رأس الدلتا أو القاهرة الحالية إلى الشلال الأول ، وهى مسافة يبلغ طولها ٥٤٧ ميلا ، ولا تزيد عرضها فى أى اتساع على اثنى عشر ميلا ، وقد لا تزيد فى جهات على مائة ياردة . ويقع هذا الجزء فى منخفض حوالى ثلثمائة قدم عن مستوى الأراضى المحيطة به . ويرى فريق من الجغرافيين أن النيل هو الذى حفر لنفسه هذا الوادى العظيم أيام أن كانت الصحراء التى تحيط به غزيرة الأمطار . ويقول آخرون : إن هذا الوادى العيبي كان بمثابة الخط الأقل مقاومة للمياه المتجمعة فى الجهات المرتفعة فى الجنوب

عاش ساكن الصعيد فى واد ضيق يحد أفقه من الجانبين صخور جيرية تقع فى أعلاها الصحراء ، وهى أرض تكاد تكون عديمة الأثر فى حياته . وقد قسم المصرى الأرض إلى نوعين : الأرض السوداء ، وهو اسم أطلقه على وادى النيل بسبب لون تربته الداكن ، والأرض الحمراء ، وأراد بها الصحراء الرملية . وكانت معرفته بالممالك الأجنبية بسيطة إن لم تكن معدومة ، فكان يرمز إليها فى لغته الهيرغليفية كأنها بلاد جبلية بالنسبة لسهل مصر المستوى . واتخذ المصرى مجرى النيل مرشداً له فى غدواته وروحاته ، فالشمال عنده هو الجهة التى يجرى إليها النهر ، والجنوب الجهة التى يجرى منها . فكان يقول صعد أو نزل مع النهر بمعنى سار جنوباً أو شمالا ، وعلى ذلك لما بلغ المصرى نهر الفرات ببلاد العراق سمى ذلك النهر بذى المياه المنكسة المجرى التى تنزل مع النهر أى تسير جنوباً بدلاً من أن تجرى شمالاً . وليس هناك ما يدل على عزلة المصرى القديم من اعتقاده هذا [1]

أما فى الدلتا فقد كانت الأحوال مختلفة كل الاختلاف إذ أن هذا المثلث المستوى والذى هو حديث التكوين نسبياً يكاد يكون خالياً مما يحد أفق سكانه . ولابد أنه ظهر لهم كأنه سهل متسع يمتد حتى الأفق فى كل الجهات لاتتخلله تلال ولا مرتفعات ؛ بيد أن شروط العمل على الأرض كانت شبيهة بدرجة كبيرة بمثيلتها فى الصعيد

ولاريب أن اتساع الأفق أمام سكان الدلتا وانعدام صخور الصحراء مما بث شعور الحرية فى كل جهة ، أنتج على عقولهم نتيجة مخالفة . وكان من سوء الحظ أن رسوب غرين النيل فى الدلتا مضافاً إليه حاجة الزراعة جعلت أغلب المدن الفرعونية القديمة وراء علم الباحث ، ولذا لا يمكننا أن نقدر الدور الذي لعبه فى تطور التاريخ المصرى القديم

أما من حيث الجو فمعروف أن الوجهين البحرى والقبلى يتمتعان بجو جميل على العموم ، ويسقط المطر فى الدلتا ويكاد ينعدم فى الصعيد ، وقد ينهمر عليه سيل غزير مرة فى كل عشر سنوات وتشتد الحرارة فى الصعيد وتزداد شدتها كلما اتجهنا جنوباً .

هذه هى أهم المظاهر الطبيعية لمصر ، ولا يقل عنها أهمية موقعها الجغرافى ، وهى تحمى مدخل أفريقية ضد الغزو من جهات أسيا الغربية ، فقد كانت تلك الأجزاء على الدوام مركزاً للاضطرابات التى كانت أحياناً تشتد جداً إذا كان سكانها يميلون إلى الهجرة إلى دلتا مصر الخصبة ، وتكررت غزواتهم وكان لكل نتائج وقتية . ولا شك أن هذه الغزوات حالت دون الاطراد فى تقدم مصر . ففى كل مرة خرجت فيها مصر من الضربة التى أصابتها استنفد هذا الخروج كثيراً من نشاطها ، وكان من الممكن أن تستنفده فى نيل تقدم حقيقى

ولم تكن الدلتا أسلم فى جهة الغرب منها فى جهة الشرق ، فهناك

(١) كان العلامة Eric Peet أستاذاً للعاديات المصرية فى جامعة ليفربول وقد توفى فى سنة ١٩٣٣

(١) برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور ترجمة الدكتور حسن كمال (ص ٦)

عاشت قبائل ليبية لم تقتصر فى سكناها على الأقليم الساحلى ، بل نزلت أيضاً فى الواحات التى تمتد جنوباً داخل أفريقية ؛ وربما استولى بعضها فعلا على الجزء الغربى من الدلتا فى عصر ماقبل الأسرات.
وعلى كل حال كانت هـذه القبائل الليبية طول التاريخ المصرى القديم تنتهز ضعف الحكومة فى مصر أو قيام نزاع داخلى فيهـا فتنقض على الأراضى الخصبة التى اعتقدت أنها ميراثها القديم

أما الصعيد فلم تهدده غزوات تقريباً ؛ إذ ليس له جيران فى الشرق ولا فى الغرب ؛ ثم إن الصحراء نفسها كانت بمثابة سد منيع ضد أى إغارة من الجهتين

أما من جهة الشمال والجنوب فقد كان من السهل الدفاع عن البلاد بمقدمة حربية لا تزيد على ميل أو ميلين بل لا تزيد أحياناً على بضع مئات من الياردات

وكانت الدلتا من جهة الشمال سداً منيعاً ضد غزو الأسيويين من الشرق والليبين من الغرب

أما من جهة الجنوب فإن القبائل المتوحشة فى النوبة العليا والسودان لم تزعج مصر إزعاجاً يذكر إلا فى عهد الفاتح بمنخى فى القرن الثامن قبل الميلاد

على ذلك نرى الأحوال فى الصعيد كانت تنعم بالاستقرار الذى كان ينقص الدلتا . وفى كل مرة تقع فيها الدلتا فريسة للغزو الأجنبى نرى الصعيد ينجو منها ويصل تقدمه السياسى والاجتماعى ، بل يكون على استعداد عند ما تتخلص البلاد من غزاتها الأجانب أن يعيد المياه إلى مجاريها فى الداخل والعمل على توسيع ملكها فى الخارج

مصر قبل الأسرات

كانت مصر العليا والنوبة قبل قيام الأسرة الأولى فى يد جنس واحد له مدنية واحدة ونسميه شعب ما قبل الأسرات.
ولا يزال البحث العلمى يكشف لنا شيئاً عن هؤلاء القوم الذين يمكننا أن نتبع حوادثهم فى مقابر البدارى ، وعند ما نسمع عنهم لأول مرة لانراهم متوحشين بل نجدهم قد عرفوا النحاس ولهم فنونهم وحرفهم ؛ وأهم من كل هذا أنهم عرفوا الزراعة واشتغلوا بها
وهذه الحقيقة الأخيرة هى أساس فهم حياة مصر الاجتماعية ، فنظامها قائم على الزراعة — ولا نعرف أين نشأت لأول مرة بل ليس من المؤكد أيضاً أنها ظهرت فى تلك الجهات مثل وادى النيل أو الفرات حيث الظروف أكثر مناسبة لها ، وإنما يمكننا أن نقول إن الزراعة وما تطلبته من صناعات تقدمت بسرعة بعد أن قامت فى مصر وأخذت تؤثر فى أخلاق الناس ونظمهم

أما الصيد وهو إحدى الوظائف الثلاث الهامة التى اشتغل بها الإنسان الأول فلم يلعب دوراً هاماً فى الحياة المصرية . نعم يرجح ان الصحراء التى تقع على جانبى وادى النيل كانت تأوى كثيراً من الحيوانات المتوحشة ، فهنـاك لوحة يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسرات عن حملة منظمة أرسلت لصيد الأسود . ثم نرى فى مقابر أشراف المصريين القدماء طول مدة تاريخهم مناظر تمثل أصحابهـا وهم يقومون بحملات لصيد الأسود والفهود والوعول مستعملين لذلك السهام . على أن الصيـد كان ولا يزال عندهم وسيلة من وسائل الرياضة عند الأشراف ولم يتخذه الأهالى وسيلة للارتزاق ؛ فإن هؤلاء كانوا يحصلون على حاجاتهم من اللحوم من طيورهم وحيواناتهم المستأنسة . وفى الوقت نفسه يظهر أن صيد الوعول وغيرها من حيوانات الصحراء الصغيرة التى تربى وتسمن وتقدم على المائدة مع (الدواجن المألوفة) كان ذلك من الأشياء التى تمارس لتكون مرتزقا

أما الطيور والسمك فقد كانت برك الدلتا ملأى بكثير منها ، وكانت تصاد بشباك ثم تربى للأكل . وقد عثر على بقايا الفخاخ التى كانت مستعملة لذلك . والمقابر ملأى بالرسوم التى تمثل الطيور

وقد اتخذ النبلاء صيد الطيور وسيلة للرياضة أيضاً فنرى من هذه الرسوم صوراً تمثل النبيل فى قاربه المصنوع من البردى وهو يصيب الطير بعصاه

وقد أولع المصريون بصيد السمك إذ كان طعاماً أساسياً للأهالى . وكان الصياد يصيده بالشص ؛ أما النبيل الذى يتخذ هذا الصيد وسيلة من وسائل الرياضة والتسلية ، فقد كان يصيده برمح . وقد كانت هذه الطريقة فى الأصل مستعملة فى عصر ما قبل الأسرات كما يستدل على ذلك من الحراب المصنوعة من العظام والنحاس التى عثر عليها الباحثون

هكذا لم يكن المصريون الأوائل صيادين بمعنى الكلمة فلم تدفعهم الحاجة إلى تتبع فريستهم مما يجعل شعب الصيادين متنقلا غير مستقر ، فقد يفر الأسـد وعجل البحر أو الفيل من الصعيد

إلى النوبة ثم إلى السودان ولكن المصرى لم يحاول أن يقتنى أثرها

قد يختلف علماء الأنتربولوجيا فى النقطة الآتية : هل من الممكن لشعب أن ينتقل من طور الصيد إلى طور الزراعة دون أن يمر بطور الرعى ؟ ولكن هذه المسألة لا تهمنا هنا فإننا نجد فى مصر فى عهد ما قبل الأسرات ، الزراعة والرعى قائمين جنباً إلى جنب

ولهذا السبب لا يمكننا أن نعتبر المصريين قوماً رعاة بمعنى الكلمة ، وليست مصر على أى حال بلاداً من طبيعتها الرعى . أجل قد يكون من الجائز أن الزراعة لم تشمل كل البلاد فى الزمن العريق فى القدم ، وأنه كانت هناك أرض مغطاة بالأعشاب مخصصة للماشية . على أى حال فإن أراضى الرعى فى عهد الدولة القديمة كانت قليلة فى الصعيد لدرجة كبيرة حتى اضطر القوم أن يرسلوا ماشيتهم فى عهدة رعاة إلى الدلتا مدة أشهر الصيف . ولعل هذه الحال تغيرت فيما بعد وأصبحت كما هى اليوم حيث تربى الماشية على علف خاص يزرع لها

استأنس المصريون قليلاً من الحيوانات منها الماشية التى اتخذوا منها اللبن وزودت الأغنياء باللحوم واستعملوها فوق ذلك وسيلة من وسائل النقل . وإن أهم حيوان فى هذه الناحية كانت الأبل . أما الغنم فلم تقتصر الفائدة على لحومها بل كانت هامة أيضاً لأصوافها ؛ ثم استعملت الخنازير فيما بعد (للدوس) فوق البذور بعد بذرها

ومن الحيوانات التى استأنسها المصريون الجدى والكلاب السلوقى والقط ؛ أما الحصان فلم يعرف إلا بعد دخول الهكسوس مصر . وكذلك ظل الجمل مجهولاً حتى عهد اليونان

وكان للثور أهمية كبيرة كأهمية الجاموسة فى العصر الحالى . وكان الفلاحون يعملون على تسمينه بإعطائه خميرة من العجين إذا قل غذاؤه الطبيعى . وكان الرجال يحلبون البقر بدلاً من أن يقوم النساء بهذه العملية

وترى فى النقوش التى تمثل لنا حياة المصريين (جنباً إلى جنب) مع الحيوانات المستأنسة صورة غزالة خجلة ، وكانت هذه من الأطعمة الفاخرة للأغنياء وقد عملوا على تسمينها بإعطائها خميرة — كما كان الحال مع الماشية — وليس هناك ما يدل على أنها ربيت ، بل يرجح أنها كانت تصاد من الصحراء بشباك أو فخاخ

ولم يستأنس المصريون الطيور إذ كانت برك الدلتا ملأى بالبط على أنواعه ، وأدرك القوم أن صيدها بالشباك وتسمينها فى مدة قصيرة قبل ذبحها للأكل أوفر لهم من الإنفاق عليها لاستئناسها

وهنا يجب أن نذكر أن الدجاج لم يعرفه المصريون حتى عهد الدولة الحديثة عند ما عادت إحدى حملات تحوتمس الثالث بأشياء عجيبة من بينها طيور « تبيض كل يوم بيضة »

على أن الزراعة كانت أهم ما اشتغل به أكثر المصريين على الأقل فى فترات معينة من السنة ، فقد كان النيل كريماً من ناحية وقاسياً من ناحية أخرى على البلاد : فهو كريم بما يجلبه من غرين يلقيه على تربة الأرض فيجعل السماد غير ضرورى تقريباً ، وهو قاس لأنه بمجرد أن يتم فعل هذا يأخذ فى الانخفاض فيصعب على الفلاح أن يروى أرضه منه . وإذا كانت مصر شحيحة الأمطار كانت سعادتها متوقفة على نشاط الزراع ومجهودهم فى رفع المياه من النهر وتسييرها فى قنوات وترع إلى أرضهم . والغريب أن الطريقة التى استعملوها لذلك هى نفس الطريقة التى يستعملها الفلاح اليوم أى بالشادوف

أهم المحصولات

كانت أهم المحصولات فى العصر القديم الشعير والقمح والكتان؛ وكانت طرق الزراعة غاية فى البساطة ، فحينما ينخفض ماء النيل يحرث الفلاح الأرض بمحاريث من الخشب كان يجرها فى عصر المملكة القديمة الثيران ، ثم يبذر الحبوب وتدوسها الغنم كي تغرسها فى الأرض (وقد استخدمت الخنازير فيما بعد فى هذه العملية) ثم يلى ذلك أسابيع يقضيها الفلاح فى العمل بنشاط أمام الشادوف . فإذا طاب الزرع حصد الفلاح القمح وترك الميدان فى الأرض ، ونقل القمح المحصود فى شكل حزم على الحمير إلى الجرن ، وهناك تدوسه الحمير والماشية ، ثم يذرى فى الهواء بمذراة من الخشب فينفصل التبن عن القمح (الحب) ثم يوضع القمح فى الزكائب وينقل إلى مخازن خاصة تتكون من بناء من اللبن كالقباب له فتحة صغيرة فى أعلاه يصب القمح منها ، وفى أسفل البناء باب لسحب الغلال حسب الحاجة . وكان الكاتب يشرف على هذه العملية فيدون فى لفائف ورق البردى التى يحملها ما يخزن من الغلال زكية زكية وما يخرج منها

وقد استعمل الشعير والقمح فى صنع الخبز وعمل الجعة . وزيادة على هذه المحاصيل كانت هناك نباتات أخرى أهمها الخضر المختلفة وخصوصاً البصل ، وكان غذاء أساسياً ؛ ثم فواكه كثيرة

أهمها التمر والتين والعنب ، وكانت تكثر زراعته فى الدلتا ، وقد صنع المصريون من التمر نوعا من النبيذ والعرق

توحيد القطرين

كانت مصر قبل الأسرة الأولى منقسمة إلى مملكتين منفصلتين : مملكة الوجه القبلي ومملكة الوجه البحرى . وكانت هاتان المملكتان مقسمتين أمارات لكل منها طوطم خاص كان بمثابة علم الإمارة الذى كان يحمل أمام رئيسه . ومما لا شك فيه أن بعض هذه الرموز كانت اسما للمقاطعة باللغة الهيرغليفية ، وكان البعض الآخر رموزاً للقبيلة ؛ ومن هذه الرموز ما هو فى شكل حيوان كالأرنب والوعل

ويعتقد العلماء أن أصل هذه الرموز راجع إلى أن مصر كان يسكنها فى وقت ما قبائل مستقلة ، كل قبيلة ترمز لنفسها بنوع خاص من الحيوانات أو النباتات يكون معروفاً لجميع أهلها ويميز كل قبيلة من غيرها

وحدث قبل قيام الأسرة الأولى أن انضمت قبائل الوجه القبلي وكونت مملكة واحدة ، وكذلك فعلت قبائل الوجه البحرى ثم قامت محاولات لتوحيد القطرين ، وتم ذلك على يد رجل واحد عرف باسم مينا . ويرجح أنه بقيام الأسرة الأولى انتهى الدور الطوطمى بمدلولاته الاجتماعية ؛ وأهم ما تركه من آثار مجموعة الآلهة التى فى جسم إنسان ورأس حيوان مثل تحوتى ورمز له بطائر أبى منجل، وسبك ورمز له بالتمساح ، وحوريس ورمز له بالصقر

كان اندماج القبائل فى كل من الوجهين القبلي والبحرى أمراً طبيعياً ، لأن انتشار الزراعة أدى إلى الرغبة فى الاستقرار وإدراك المصلحة المشتركة ؛ أما انضمام الوجهين إلى بعضهما فقد كان أقل ضرورة ، إذ كون كل منهما وحدة جغرافية قائمة بنفسها ؛ ولذلك يرجح أن هذا الضم تم على يد رجل ذكي دفعته أطماعه إلى ذلك . هكذا استطاع مينا أن يوحد القطرين وأصبح الميدان حرّاً لظهور شعور قوى . ومع أن المصريين حافظوا على ذكر هذا الضم وحرصوا على إظهاره فى ألقاب الملك وفى أسماء دواوين الحكومة إلا أن الاندماج كان فى الواقع تاماً وأبدياً فأصبحت مصر منذ ذلك الوقت — عدا فترات الفوضى القصيرة — مملكة واحدة

(البقية فى العدد القادم)

أحمد نجيب هاشم
أستاذ بمعهد التربية للبنات

نجوى للشمس الغاربة

للكاتب الفنان الفرنسى « بيير لوويس »

P. LAUYS

للأستاذ خليل هنداوى

أركاس — أيتها الغادة ذات العينين السوداوين ...

ميلينا — لا تمسني !

أركاس — لن أمسك ، وإنما سأظل بعيداً عنك يا أخت أفروديت ! أيتها الغادة ذات الغدائر المدلاة كالعناقيد ، إننى أقف على حافة الطريق لا أستطيع أن أتزحزح عنه لا إلى من ينتظروننى ولا إلى من غادرتهم

ميلينا — إذهب ! إنك تنطق عبثاً ، يا راعياً بدون قطيع ! ويا سارحاً فى الطرق المبهمة ! إذا لم تستطع أن تتبع الطريق فخض خلال الحقول ، ولكن لا تدخل فى حقلى يا من لا أعرفك . إذهب وإلا دعوت ...

أركاس — ومن عسى تدعين فى هذه العزلة ؟

ميلينا — الآلهة الذين ينتظروننى

أركاس — آه أيتها الغادة الصغيرة ! إن الآلهة هم أبعد عنك منى الآن . ولو أنهم كانوا حولك لما منعونى أن أقول لك إنك جميلة . إنهم يباهون فخورين بوجهك لأنهم يعلمون أنه أثر رائع منهم

ميلينا — أسكت أيها الراعى وابرح هذا المكان فإن أمى منعتنى أن أسمع أية كلمة من رجل . إننى هنا أرعى نعاجى حتى غروب الشمس . لا أريد أن أسمع أصوات الفتيان العابرين فى الطريق مع ريح المساء .

أركاس — ولماذا ؟

ميلينا — لا أعلم السبب ، ولكن أمى تعلمه خيراً منى ... لم يمر على ولادتى فوق هذا السرير القائم من أوراق الشجر إلا ثلاثة عشر عاماً ؛ وإنى سأكون غبية جاهلة إذا أغفلت عمل ما تطلبه منى أمى .

أركاس — إنك لم تفهمى أيتها الصغيرة عن أمك الحسنة العاقلة المحترمة ... إنها حدثتك عن الرعاع الذين يعبرون البرارى والعقد

فى أذرعهم والسيوف مشهورة بأيديهم . إن هؤلاء لئام بالنسبة إليك لأنك ضعيفة وهم أقوياء . وهم فى الأقطار التى نزلوها ذبحوا عذارى كثيرات لمن مالك من الجمال . ولو رأوك لما أشفقوا عليك . ولكن مثلى أى شر يحمله لك ؟ ليس لى إلا جلد على كتفى وخاتم فى يدى . حدقى فىّ مليًا ، هل ترينى مرعباً ؟

ميلينا — لا أيها الراعى ، إن كلماتك عذبة سوف أصغى إليها طويلاً . ولكن الكلمات الأعذب هي الأغدر عند ما يتوجه بها رجل إلى واحدة منا

أركاس — وهل إلى جواب من سبيل ؟

ميلينا — بلى !

أركاس — بماذا كنت تحلمين تحت الزيتونة السوداء خلال عبورى ؟

ميلينا — لا أريد أن أقول

أركاس — أعرف ذلك

ميلينا — قل إذن

أركاس — إذا أذنت لي بالدنو منك وإلا لبثت صامتاً ، لأنى لا أستطيع أن أقول إلا همساً . لأن هذا سرك لا سرى . إنك تريدين أن أقترب منك وأن أتناول يدك

ميلينا — بماذا كنت أحلم ؟

أركاس — بنطاق العذراء !

ميلينا — آه ! من قال لك ؟ هل قلت ذلك عالياً ؟ هل أنت إله أيها الراعى فتقرأ ما يرتسم من بعيد فى عيون الفتيات ؟ لا تنظر إلىّ هذه النظرة ولا تحاول أن تقرأ ما أفكر فيه الآن ..

أركاس — إنك تحلمين بنطاق العذراء وبذلك المجهول الذى سيحله بمثل هذه الكلمات العذبة التي رحت تخشينها ... فهل تكون إذ ذاك هذه الكلمات غادرة ؟

ميلينا — إننى لم أسمع أبداً مثلها

أركاس — ولكنك تسمعين كلماتى وترين عينى

ميلينا — لا أريد أن أراها

أركاس — إنك تنظرينهما فى حلمك

ميلينا — أيها الراعى ...

أركاس — عند ما آخذ بيدك لماذا تجفلين ؟ وعند ما يلتف ذراعى على صدرك لماذا تنحنين ؟ ولماذا يبحث رأسك الضعيف عن ذراعى ؟

ميلينا — آه أيها الراعى

أركاس — كيف تكونين عارية هكذا بين ذراعى إذا لم أكن بعلك ؟

ميلينا — لا لا ، إنك لن تكونه . دعنى وحدى ، إن أحشائى ترعد من الخوف فاذهب عنى ! إننى لا أعرفك . دعنى ! إن يدك تؤلمنى ، لا أريد

أركاس — لماذا تتكلمين بلهجة أمك ؟

ميلينا — ليست أمى هي التى تكلمك وأنما أنا ! إننى عاقلة فاتركنى أيها الراعى . إننى لأستحيي أن أفعل ما فعلت « تاييس » أو « فيليرا » أو « كلوا » اللواتي لم ينتظرن ليالى أعراسهن

أركاس — ولماذا ؟ وماعسى أن أصنع لك ؟ ... على أننى أهجرك وأتركك وحيدة . اذهبى ! لماذا لا تذهبين ؟

ميلينا — ذرنى أذرف الدمع

أركاس — أتخالين أنني أحبك حباً ضعيفاً يأذن لى بتركك وحدك ؟ وهل كنت أتكلم من بدء إصغائك إلى لو لم أطلب إليك إلا لحظة سرور قد تستطيع أن تمنحنى إياها كل الراعيات ؟ ألم تملك عيناى شيئاً ؟ ولكنك لا تنظرين فيهما ، فى عينى ... إنك توارين عينيك وتبكين ...

ميلينا — بلى !

أركاس — إذا شئت فانى أسفح على قدميك حياة كلها حب وكلمات عذبة ، وألف بذراعى جسدك ، وألقى رأسى على صدرك ، وفمى على فمك ، وأنت تحلين غدائرك المعقودة لتغمرى قبلاتنا بالعطف والرقة

اسمعى ! إذا شئت أقمت لك كوخاً أخضر الأفياء من الغصون الزاهرة والأعشاب الندية تصيح خلالها الصراصير الشادية ذات الألوان الذهبية اللامعة . هنالك تقلقين علىّ كل الليالى ، وعلى السرير الأبيض الذى يغطيه جلدى الممدود سيخفق قلبانا إلى الأبد قلباً على قلب

ميلينا — آه دعني أذرف الدمع أيضاً !

أركاس — بعيدة عنى ؟

ميلينا — على ذراعيك ، وفى عينيك

أركاس — يا محبوبتى ! السماء يلف الكون ، والنور يتوارى كأنه كائن يجنح نحو السماء ، والأرض قد غمرها الظلام ، ولا يرى فى الأعلى إلا طريق المجرة الطويلة التى تسطع كنهر من النجوم حول حقلنا . ما أشد هذا الستار اللامع !

ميلينا — إنه لامع جداً . قدنى إلى حيث تشاء !

أركاس — تعالى ! فالغاب الذى نجوس خلاله بين الغصون الحانية هو غاب عميق ، حتى الإلهات يخشين سلوكه فى النهار . هنالك لا يُرى — على طرقه — من يتبع خطوات الجنيات . هنالك لا يُرى — بين أوراقه — العيون الخضراء واقعة على عيون الرجال الخائفة . ولكنا لن نخاف ما دمنا معاً أنت وأنا ...

ميلينا — لا ... إننى أبكى بالرغم منى ، ولكنى أحبك وأتبعك . إن إلهاً فى قلبى . حدثنى ... حدثنى أيضاً . إن إلهاً فى صوتك

أركاس — اسدلى غدائرك على عنقى ، وأرخى ذراعك حول إزارى ، وضمى خدك على خدى . خذى حذرك ، هنا حجارة وصخور ؛ واخفضى عينيك ، هنا جذور ؛ والأعشاب لها حفيف خفيف تحت أقدامنا العارية ؛ والثرى ندى ، ولكن صدرك حار تحت يدى

ميلينا — لا تبحث عن صدرى فإنه صغير ، ليس بجميل . فى الخريف الغابر لم أرمنه إلا ما رأيته يوم ولادتى ... إن صويحباتى يسخرن منى . ولكن فى الربيع وجدته ينمو مع براعم الأشجار . لا تدغدغه هكذا . إننى لا أستطيع أن أمشى

أركاس — تعالى ، نحن هنا فى الظلام ، لا أرى وجهك . نحن هنا شىء لا هو أنا ولا هو أنت . لا تعطنى شفتيك . أريد أن أرى عينيك . تعالى إلى هـذه الشجرة الكهلة التى تسطع تحت رواء القمر . إن ظلها يزحف نحونا فانتبهى ...

ميلينا — إنه ظل ضخم كالقصر

أركاس — قصر عرسك الذى تتفتح أبوابه لنا فى أعماق الليلة السرية

ميلينا — أسمع ضجة ، هذا حفيف النخيل

أركاس — النخيل النامى فى موكب العرس

ميلينا — وهذه النجوم

أركاس — إنها المشاعل

ميلينا — وهذه الأصوات

أركاس — هى الآلهة

ميلينا : أيها الراعى ! دخلت هذا المكان عذراء (كأرتميس) التى تضىء لنا بعيداً خلل الغصون السوداء والتى قد يمكن أن تسمع عهودنا . فلا أعلم هل أحسنت صنعاً فى اتباعك حيث سلكت . ولكن نفخة فى صدرى ، وروحاً ولدها صوتك ، إنك منحتنى السعادة كشىء خالد بإعطائك إياى يدك

أركاس — أيتها النادة ذات العينين السوداوين . لا أبوك ولا أمك هيئا اتحادنا بنبالك أو غناى . إننا فقيران فنحن إذن حران . وإذا كان أحد سهل قراننا هذا المساء فهم آلهة الأولب الذين يحرسون الرعيان !

ميلينا — يا زوجى ، قل لى ما اسمك ؟

أركاس — اسمى أركاس . وأنت ما اسمك !

ميلينا — اسمى ميلينا ...

خليل هنداوى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٩ —

بين الرافعى وطه (٢)

لم تكن بداية هذه المعركة تنذر بما آلت إليه ، فما كانت فى أولها إلا خصومة بين مذهبين في الأدب وأسلوبين فى الكتابة ، فما لبثت من بعد أن استحالت إلى حرب شعواء يتقاذف فيها الفريقان بألفاظ الكفر والضلال والالحاد والغفلة والتعصب والجمود ، وانتقلت من ميدان الأدب واللغة إلى ميدان الدين والقرآن ، ثم إلى ميدان السياسة والحكومة والبرلمان ، ثم إلى ميدان القضاء . والدكتور طه رجل لا تستطيع أن تفرق بين مذهبه فى الأدب ومذهبه فى الدين ، ولا بينهما وبين مذهبه فى السياسة . والرافعى رجل كان لا يفرق بين الدين والأدب ، ولا يعرف شيئاً منهما ينفصل عن شيء أو يتميز منه ، ولكنه فى السياسة كان يتحلى بفضيلة الجهل التام ، فلا تعرف له رأياً فى السياسة تؤاخذه به أو تناقشه فيه ، لأنه كان لا يعرف من السياسة إلا حادثة اليوم بأسبابها ، لا بأصحابها . وكم جر عليه هذا الجهل السياسى من متاعب ! وكم ألصق به من تهم ! ولكنه هنا كان من عوامل توفيقه فى هذه المعركة

***

فى سنة ١٩٢٥ كانت الحكومة للأحرار الدستوريين ولأصدقائهم . والأحرار الدستوريون حزب طه حسين ، نشأ بينهم ووقف قلمه على الدعاية لهم . فلما رأى على ماهر باشا أن يضم الجامعة المصرية إلى وزارة المعارف ، انضم معها الدكتور طه حسين أستاذ الأدب العربى بالجامعة .

ومضى الدكتور طه يحاضر طلابه فى كلية الآداب محاضرات فى الأدب الجاهلى ، على الأسلوب الذى رآه لهم ؛ فلما استدار العام جمع طه محاضراته فى كتاب أخرجه للناس باسم « فى الشعر الجاهلى » ؛ وقرأ الناس كتاب الدكتور طه حسين بعد أن سمعه طلابه منجّماً في كلية الآداب ، فقرأوا رأياً جديداً فى الدين والقرآن رجح ما كان عندهم ظناً بالدكتور طه حسين وكتّاب السياسة الأسبوعية . فقال الأكثرون من القراء : هذا كفر وضلال . وقالت طائفة : هو خطأ فى الفكر وإسراف فى حرية الرأى . وقال الأقلون : بل هو الأسلوب الجديد لتجديد الآداب العربية وتحرير الفكر العربى . وظل الرافعى ساكتا ، إذ لم يكن قد قرأ الكتاب بعد ، فما نبهه إلى خطره إلا مقالان نشر أحدهما الأستاذ عباس فضلى القاضى فى السياسة الأسبوعية ، وكتب ثانيهما الأمير شكيب أرسلان فى كوكب الشرق ، فكان فيهما الانذار للرافعى بأنه قد آن أوانه ...

وانتضى الرافعى قلمه وكتب مقاله الأول فبعث به إلى جريدة « كوكب الشرق » ، ثم مقالات ثلاثاً بعده ، ولم يكن قد قرأ الكتاب ولا عرف عنه إلا مانشرت الصحف من خبره ؛ فكانت المعركة بذلك فى ميدانها الأول : خصومةً بين مذهبين فى الأدب وفى الكتابة وفى طرائق البحث . على أن الرافعى لم ينس فى هذه المقالات أن له ثأراً عند طه ، فجعل إلى جانب النقد الأدبى فى هذه المقالات شيئاً من أسلوبه المرّ فى النقد ، ذلك الأسلوب الذى لا يريد به أن يفحم أكثر مما يريد أن يثأر وينتقم . ثم تلقّى كتاب الدكتور طه حسين فقرأه ، فثارت ثائرته لأمر جديد ...

لقد كان شيئاً منكراً أن يزعم كاتب أن له الحق فى أن يتجرّد من دينه ليحقق مسألة من مسائل العلم ، أو يناقش رأياً من الرأى فى الأدب ، أو يمحِّص رواية من الرواية فى التاريخ ؛ لم يكن أحد من كتاب العربية ليترّخص لنفسه فى ذلك فيجعل حقيقة من حقائق الدين فى موضع الشك ، أو نصاً من نصوص القرآن فى موضع التكذيب ؛ ولكن الدكتور طه قد فعلها وترّخص لنفسه ، ومنح نفسه الحق فى أن يقول قالةً فى القرآن وفى الإسلام وتاريخ الإسلام ؛ وقرأ الرافعى ما قال طه ، فنضب غضبته للدين والقرآن وتاريخ المسلمين ، ونقل المعركة من ميدان إلى ميدان ...

وكان طه فى أول أمره عند الرافعى كاتباً يزعم أن له مذهباً

جديداً فى الأدب ، فماد مبتدعاً مُضِلاًّ له مذهب جديد فى الدين والقرآن ؛ فكما ترى البدوىّ الثائر لعرضه أن يُنتَهك ، كان الرافعى يومئذ ؛ فمضى يستعدى الحكومة والقانون وعلماء الدين أن يأخذوا على يده ويمنعوه أن تشيع بدعتُه فى طلاب الجامعة ... وترادفت مقالاته ثائرةً مهتاجة تفور بالغيظ وبالحميّة الدينية وبالعصبية للإسلام والعرب ، كأن فيها معنى الدم

ونسى فى هذه المقالات كلَّ اعتبار مما تقوم به الصِّلاتُ بين الناس ، فما كان يكتب نقداً فى الأدب ، بل يصبّ لهباً وحمما وقذائف لا تُبقى على شئ . وكان ميدانه فى جريدة كوكب الشرق ، وكوكب الشرق يومئذ هى جريدة الأمة وجريدة سعد وجريدة الشرق العربى كله ؛ فمن ذلك لم يبق فى مصر قارئ ولا كاتب إلا صار له رأى فى طه حسين وفى دينه ، وإن للأمة من قبل لرأياً فى وطنيته ومذهبه ، وحسبك بها من وطنية فى رأى الشعب ، وطه حسين هو عدوّ سعد

ووقفت الدوافع السياسية إلى جانب الرافعى تؤيده وتشدّ أزره ، وإن لم يكن للرافعى فى السياسة باع ولا ذراع

وبلغت الصيحة آذان شيوخ الأزهر ، فذكروا أن عليهم واجباً للدفاع عن الدين والقرآن فجمعوا جماعتهم إلى جهاد

وتساوقت الوفود إلى الوزارة تطلب إليها أن تأخذ طه بما قال ؛ وإن طه لأثير فى وزارة الأحرار الدستوريين وأصدقائهم ، ولكنها لم تستطع أن تتجاهل إرادة الرأى الإسلامى العام ...

ومضى الرافعى فى حملته تؤيده كل القوى وتشدّ أزره كل السلطات

ونشطت النيابة العمومية لتنظر فى شكاوى العلماء وتحدد الجريمة وتقترح العقاب ، فعرف الدكتور طه حسين أن عليه وقتئذ أن يقول شيئاً ، فكتب كتاباً إلى مدير الجامعة يشهده أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ولكن الرافعى لم يقنع فمضى فى النقد على جادّته

ولم تجد الجامعة فى النهاية بُدًّا من جمع نسخ الكتاب من المؤلف ومن المكتبات لتمنع تداوله ، لعل ذلك يرد الفتنة التى توشك أن تعصف بكل شىء حتى الجامعة ، ولكن الرافعى لم يقنع فاستمر فى حملته على الدكتور طه حسين ، وظهيرُه يومئذ هو الدكتور زكى مبارك ... !

لقد كانت هذه المقالات التى ينشرها الرافعى فى كوكب الشرق صيحةً مدوّية وصلت إلى كل أذن ؛ فما أحسب أحداً فى أدباء العربية وقرائها قد فاته منها شىء . لقد كان المصريون وقتئذ مكمومة أفواههم عن السياسة والحديث فى شئونها فلعلهم وجدوا فى هذه المقالات ما يعزّيهم عن شىء بشىء ، إذ كان طه عندهم يومئذ ما زال هو طه حسين عدوّ سعد ، ومحرر جريدة السياسة ، وعضو الأحرار الدستوريين

لا أزعم أن اهتمام الناس جميعاً فى مصر بهذه المقالات لأنهم جميعاً قد صار لهم فى شئون الأدب رأى ، أو لهم فى الذود عن الإسلام حميّة ، لا ؛ ولكنه نوع من التعصب السياسى جاء اتفاقاً ومصادفة فى هذا الوقت نفسه ليكون تأييداً لقول الله وانتصاراً لكلمته ؛ على أن هذه المقالات بإقبال الناس عليها — لسبب أدبى أو لسبب سياسى — قد بعثت روحاً دينية كانت راقدة ، وأذكت حمية كانت خامدة ، وألّفت قلوباً إلى قلوب كانت متنافرة ، ونبّهت طوائف من عباد الله كانت أشتاتاً لتعمل للذّود عن دين الله

وإنى لأذكر مثلاً مما كان من إقبال الناس على هذه المقالات أننى — وكنت طالباً ... لم أكن أطيق الانتظار حتى يجىء بائع الصحف إلى الحى الذى أسكنه لآخذ منه كوكب الشرق ، بل كنت وجماعة من الطلاب نستعجل فنقطع الطريق من المنيرة إلى باب اللوق راجلين لنشترى من الأعداد المبكرة السافرة إلى حلوان ، لنقرأها قبل أن يقرأها الناس

* * *

وتطورت السياسية المصرية ، وتخلى زيور باشا عن الحكم ، وعادت حكومة الشعب يؤيدها برلمان سعد ؛ وعكف نوّاب الأمة على تراث الحكومة الماضية يفتشون عن أخطائه ؛ وما زال فى آذانهم صدى رنّ عما كان من أمر الجامعة وأمر طه حسين ، فأبدى البرلمان رغبته فى محاكمته . وقال النواب: نحن نريد . وقالت الحكومة : وأنا لا أريد . وتشادّ عدلى رئيس الحكومة

وسعد رئيس النواب ؛ فقامت زوبعة ، ونشأت صحة ، وحدثت أزمة وزارية ، ولوّح عدلى بالاستقالة ، وأصر سعد على وجوب تنفيذ رأى الأمة ، وتعقدت المشكلة ...

وسعى الوسطاء بالصلح بين الزعيمين ؛ فما كان الحل إلا أن يتقدم النائب الجليل عبد الحميد البنان بشكواه إلى النيابة العمومية فتسقط التبعة عن الحكومة ، ويُنفَّذ رأى الأمة ، ثم تسير القضية إلى غايتها أمام القضاء وكان بعد ذلك ما كان

وإذ كان انضمام الجامعة إلى وزارة المعارف عملاً من أعمال على ماهر وزير المعارف ، فإن ما ثار حول الجامعة بسبب الدكتور طه حسين قد دعا نائباً أو نواباً إلى اقتراح محاكمة على ماهر بما فعل للجامعة ، وبما غيّر من نظام التعليم العام من غير أن يكون ذلك من حقه الدستورى ... ولكنه ظل اقتراحاً لغير التنفيذ

* * *

ليست كل هذه الحوادث من تأليف الرافعي ، ولكنها شيء يتصل بتاريخه وله أثر فيه أيُّ أثر ؛ فلولا ما كان من الخصومة بين الرافعي وطه ، لما قامت هذه الضجة ، ولا ثارت هذه الثائرة ، ولمَا كان في التاريخ الأدبي أو السياسي لهذه الحقبة شيء مما كان

على أن هذه المعركة قد خلفت لنا شيئاً آخر ، هو أغلى وأمتع ، ذلك هو كتاب : «المعركة تحت راية القرآن» وهو جماع رأى الرافعي في القديم والجديد ، وهو أسلوب في النقد سنتحدث عنه بعد

* * *

ولقد ظلت الخصومة قائمة بين الرافعي وطه إلى آخر أيامه ؛ بل أحسبها ستظل قائمة ما بقيت العربية وبقى تاريخ الأدب ؛ فما هي خصومة بين شخص وشخص تنتهي بنهايتهما ؛ بل هي خصومة بين مذهب ومذهب سيظل الصراع بينهما أبداً ما دام في العربية حياة وقدرة على البقاء

وما أعرف أن الرافعي وجد فرصة ليغمز طه في أدبه ، أو وجد طه سانحة لينال من الرافعي في فنه ومذهبه ، إلا أفرغ كل منهما ما في جعبته . وكم مقال من مقالات طه حسين قرأه عليّ الرافعي فقال : اسمع ، إنه يعنيني . وكم مقال أملاه عليّ الرافعي أو قرأته له فوجدت فيه شيئاً أعرف مَن يعنيه الرافعي به . ومرة أو مرتين قال الأستاذ الزيات للرافعي : أرجو أن تعدّل في أسلوب هذا المقال — مما ينشر في الرسالة — فإني لا أحب أن يظن طه أنك تعنيه بشيء تنشره في الرسالة وعليّ تبعته عنده

ولما ثارت في الجامعة في العام الماضي مسألة المسجد والمصلى والدروس الدينية وفصل الفتيان عن الفتيات ، كتب الرافعي مقالا للرسالة غمز فيه طه وحيّا شباب الجامعة ، ولم يجد الأستاذ الزيات بُداً من نشره . وفُتن الرافعي بمقاله ذاك وحسُن عنده وقعه ، فأنشأ تتمة له بعنوان «شيطان وشيطانة» يعني طه وتلميذته ، ولكن الزيات وقف له واحتج حجة ، رعاية للصديق القديم طه . وكان أول مقال يكتبه الرافعي فتردّه له الرسالة . وقد اغتاظ الرافعي لذلك غيظاً شديداً ، وأحسبه مات وفي نفسه حسرة من عدم نشر هذا المقال . لو كان لي أن أعرف أين أجد صورة هذا المقال لأوجبت على الرسالة أن تنشره بحق التاريخ الذي لا يحابي الأحياء ولا الأموات ، ولكن أين أجده ؟ الأستاذ الزيات يقول : لقد رددته إليه . والدكتور الرافعي يقول : لم أجده على مكتب أبي ؛ وما كان بين هذا المقال وبين أجل الرافعي إلا قليل

ولم يتلاق الرافعي وطه وجها لوجه في النقد بعد هذه المعركة حول كتاب « في الشعر الجاهلي » ، ولكن المعارك بينهما ظلت مستمرة من وراء حجاب ، تنتقل من ميدان إلى ميدان

ولما اشترك الرافعي في المباراة الأدبية في العام الماضي ، ونال في بعضها من الجائزة دون ما كان يطمع ، لم ينسب ذلك لشيء إلا لأن طه كان عضواً في اللجنة ، وطه خصم عنيد ...

* * *

أما بعد فهذا شيء للتاريخ أثبته على ما فيه ، ليس فيه رأيي ولا رأى أحد معي ؛ ولكنه شيء مما حكاه لي الرافعي أو قرأت في كتبه ، فكتبته في موضعه من هذا البحث بضمير المتكلم ومالي فيه إلا الرواية ، وذلك حسبي من العذر إن كان عليّ معتبة أو ملام

« شبرا » محمد سعيد العريان

ثورة على الأخلاق

للأستاذ علي صرطاوي

إلى الأخ محمود بواسطة الأستاذ الزيات

قرأ أصدقاؤك والمعجبون بأدبك فى الأقطار الشقيقة شكواك البليغة فى عدد الرسالة (٢٢٩)، فعتبوا عليك، وأسفوا أن تمر بسمائك سحابة صيف من مآسى الحياة فى ظرف من الظروف الألمية التى يطيش فيها حلم الحليم، فتحجب عن بصرك ذلك القبس الإلهىّ الذى كان يحبّب إليك أن تحترق كالشمعة لتنير الطريق إلى الذين لا يعرفون الفضيلة فى الدنيا؛ وأن تتحمل كل ما فى الألم من مرارة وما فى الاضطهاد من معنى، فى سبيل الأخلاق الفاضلة والذود عنها والدفاع عن حرمتها، فتنقلب فى طرفة عين إلى خصم لدود يطعنها تلك الطعنات القاتلة، فكنت كالذى أوشك أن يتم جداراً لاقى النكد فى بنائه، فانقلب إليه يهدمه إلى وجه الأرض لأن حجراً وقع عليه

لا يجادلك فيما ذهبت إليه في شكواك إنسانٌ فى الدنيا، ولا يوافقك على الأسباب التى ادعيتها علّة النجاح من له دين وتفكير إلا إذا كنت تريد أن يتدهور البشر إلى مستوى العجماوات حيث يعيشون للطعام والشراب، وأن يتلاشى ذلك التراث الإنسانى الثمين الذى ورثته البشرية عن الأنبياء والمصلحين.

إن نجاح التاجر الذى يغش ويسرق، والموظف الذى يتلون حسب الظروف، والظالم الذى لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه، لا يقوم دليلاً على ما ذهبت إليه، ولا شأن للأخلاق فيه، إذ ليس ذنب الماء العذب أن يزعم مريض أنه كريه المذاق، ولا الشمس المشرقة أن يجادل فى رؤيتها أعمى. فالذنب ياسيدى الكريم هو ذنب المجتمع المريض الذى يُسمّى الأشياء بغير أسمائها، فيرى الجبل شجرة، والحجرة كتاباً، والجرة تمرة. ولو كان لنا مجتمع تعيش فيه الصراحة والجرأة الأدبية ويشرق عليه نور الخلق الفاضل والتربية العملية الدينية الصحيحة، لتضور أمثال هؤلاء جوعاً فيه

وزاع الدكتور عزام طعنك فى الأخلاق على النحو الذى قرأه الناس جميعاً، فأسرع يكتب إلى صاحب الرسالة كلمته البليغة لتصل إليك فى العدد (٢٣٠) وظن القراء أن فيما أورده الدكتور من الآراء الصائبة ما يكفى لإرجاعك إلى الحق، والرجوع إليه فضيلة؛ وانتظروا أن يقرأوا ذلك فى العدد (٢٣١) وإذا بصديقك الزيات يقول إن المجلس الذى أبلغك فيه رأى الدكتور، وكان حافلا بغيرك من رجال العلم والدين، كانوا لك وعليه، وأنك ظللت صامتاً ولم تحر جواباً

لقد أعجبنى صمتك، لأن السكوت دليل على التسليم، ولكنى لم أرض أن يزعم أن مجلسك كان حافلاً برجال العلم والأدب والدين، ويقول على لسانهم بأن السبيل (القاصدة إذن أن نطبّ لهذه الحال فيما يوائم بين طموح الناس وكرامة الأخلاق وسلامة المجتمع، وليس هناك إلا وسيلة من وسيلتين: إما أن نصد الناس جميعاً عن هذه الطرق المتعددة ونقصرهم على هذه الطريق الواحدة بقوة الأديان والسلطان والتربية، وذلك ماعناه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «عليكم بالجادّة ودعوا البنيّات» وإما أن نعيد النظر فى قانون الأخلاق فلعل فيه ما لا يوافق تقلب العصر وتطور المجتمع. فأما الوسيلة الأولى فقد سجل الماضى ودلل الحاضر على أنها خيال نبيل لا يقع فى الإمكان وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة، وتعليل ذلك لا يغرب عنك فلا حاجة إلى تقريره. وأما الوسيلة الأخرى فهى على ما يرون مظنة التوفيق فى الإصلاح الجديد)

يزعم أصدقاؤك أن إلزام الناس طريق الفضائل عن طريق الأديان والسلطان والتربية (خيال نبيل لا يقع فى الإمكان، وحلم جميل لا تقوم عليه يقظة) ويؤكدون أن الماضى قد سجل ذلك، وأن الحاضر قد دلّل عليه ...

أما السلطان فأوافقهم على ذلك إذ:

لا ترجع الأنفس عن غيها مالم يكن منها لها زاجر

وأما الأديان، فأى ماض قد سجل ذلك؟ هل قرأ أصدقاؤك التاريخ العربى قبل الإسلام وبعده؟ من هم أولئك الذين كانوا يأكلون الدم والميتة، ويئدون البنات، ويتزوج العشرة منهم امرأة واحدة؟ ومن هم أولئك الذين صهرتهم حرارة الدين فأخرجت منهم أبا بكر وعمر، ووطئت بخيولهم الصين وسهول

اللواء ، وملأوا الدنيا والتاريخ عدلا ، وخاطب خليفتهم فى بغداد السماء بأن تمطر أنى تشاء فالخراج لهم ؟

إذا تعلم أفراد المجتمع الدين تعلماً عملياً صحيحاً ، وساروا على صراطه المستقيم ، فمسير أن يعيش بين أفراده مثل من ذكرهم صديقك الزيات . فعلة العلل أننا لا نعرف الناحية العملية من الدين ... وهـذا ما كان سبباً فى تهكم أحد رؤساء الجامعات الأوروبية على دروس الأخلاق النظرية التى وجدها فى أحد برامج بعض المدارس العربية العالية ... إذ قال بأن الشرقيين لا يزالون فى الضلال يعمهون حين يظنون أن فى المستطاع تكوين الخلق الفاضل بعيداً عن الناحية العملية . وأما الحاضر الذى دلل على ضعف الدين ، فهو حاضر لا يمت إلى الدين بشئ

والإصلاح الجديد الذى يراه أصدقاؤك يجلب على المجتمع الدمار والبؤس والفوضى التى يئن تحتها المجتمع الأوربي فى مظاهر مدنية النار والحديد

ويرى أصدقاؤك فى صلف الانجليزى العزة ، وفى طموح الايطالى الرجولة ، وفى طمع الفرنسى الحياة ، وفى صراحة الألمانى الهيبة ، وفى استقلال الأمريكى الفوز ، ويرون فى قناعة العربى الاهمال ، وفى زهده الحرمان ، وفى مداراته الذل ، وفى تواضعه العجز . ولست أظنهم ينصفون الحقيقة فى هذا الرأى ، فقياس الفضيلة هو مقدار الناحية العملية الصالحة منها ، وحسب أصدقائك أن يقارنوا بين فضائل من ذكروا ، وبين فضائل العربى وهو قريب من عهد الرسالة ، وهى منتزعة من صميم الدين ، والتى لا تمت بصلة إلى الأسماء التى تطلق عليها الآن ، وهو على أبواب مدينة حمص حينما هاجمها الروم للمرة الثانية ، فتدفع تلك الفضائل العربى أن يعيد لأهل المدينة الجزية التى أخذها منهم ، فيرفضون أخذها ويدفعون الروم بكل ما يملكون . والأمثلة كثيرة ، وثقافتك الواسعة وعبقريتك الصادقة فى غير ما حاجة إلى إقامة دليـل

وأما الربا فيريدون ألا يظل فى عصر الاقتصـاد رذيلة ، وحجتهم أن الغرب لم يستعبد الشرق إلا عن طريق بنوكه ، وأن ربع الأموال التى كانت تضيع على المسلمين فى البنوك ، لو صرفت على طرق الاصلاح ووجوه البر لما بقى أجنبى فى أرضهم ولما ظل تحت سمائهم فقير . والواقع لا يدل على ذلك أبداً ، فلقد حرم الدين الربا لحكمة لا نستطيع بعقولنا المادية المحدودة إدراكها . ويجب أن يبقى كذلك عملاً بأوامر الدين . وأما استعباد الشرق عن طريق البنوك ، فمسألة فيها نظر وليست قضية مسلمة ، ودليل ذلك أن الانجليز كانوا يطمعون فى مصر منذ سنة ١٨٤٥ . ويقرأ ذلك من يشاء فى رحلة الاسكندر وليم كنج لاك Alexander William King Lake فى بلاد الشرق الأدنى فى السنة المذكورة التى سماها (يوثين) Eothen ، حيث تنبأ وهو أمام أبى الهول باحتلالهم مصر قبل أن تشق قناة السويس . وأما طرق الاصلاح ووجوه البر ، فلو صرفت عليها الزكاة التى فرضها الدين لما بقى فقير بين المسلمين

وبعد فسيظل الخلق الفاضل عدة النجاح ما دام هنالك دين فى الدنيا والسلام عليك .

« جنين » على مرطاوى

أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٤٩ —

لقد هبطت عن عرشك لتقف بإزاء باب كوخي

كنت جالساً وحدى فى زاوية أترنم بألحان ألفيت أنت إليها سمعك فهبطت عن عرشك لتقف بإزاء باب كوخي

وفى فنائك احتشد العظماء والأغانى تتردد هناك فى كل حين ؛ غير أن لحناً بسيطاً ارتفع بين هذه الأغانى فجذبك إليه ؛ هو لحن قصير فيه الشجن اختلط بموسيقى العالم العظمى فهبطت ومعك هدية من زهر ... هبطت لتقف بإزاء باب كوخي

— ٥٠ —

وانطلقت أتكفف الناس وأنتقل من باب إلى باب على طريق القرية . ثم بدت عربتك الذهبية عند الأفق كأنها الحلم اللذيذ فعجبت : تُرى من يكون ملك الملوك هذا !

ولع الأمل فى نفسى وخُيّل إلىّ أن أيام السوء قد انقضت فوقفت أنتظر الهبات ، وهي تعطى فى غير سؤال ، والمال وهو ينثر هنا وهناك

ووقفت العربة بإزائى . وحين وقع بصرك على دلفت نحوى وعلى شفتيك ابتسامة ، فاستشعرت السعادة فى نفسى ؛ وعلى حين فجأة مددت إلىّ يمناك وأنت تقول : « ماذا عندك لتهبه لى ؟ »

آه ! إنها دعابة ظريفة أن تمد يدك تسأل شحاذاً . واضطربتُ وسيطرت علىّ الحيرة ثم تناولت من سلتى أصغر حبة قمح ... تناولتها فى بطء وقدمتها إليك

لشد ما عجبتُ حين أفرغت سلتى عند الغروب ، فألفيت بين متاعى الحقير حبة من ذهب فى قدر حبة القمح ، فرحت أبكى فى حُرقة وأسى لأننى لم أجد فى نفسى القوة على أن أقدم إليك كل ما أملك

أظلم الليل وانتهى عملنا اليومى ، وخيل إلينا أن آخر ضيف قد قدم لأن أبواب القرية غلّقت ؛ غير أن قائلاً قال : « سيأتى الملك »

فسخرنا منه وقلنا : « لا ، لا يمكن ! »

وبدا لنا كأن طارقاً يدق الباب فقلنا إنه الريح ؛ ثم أطفأنا المصابيح وانطلقنا إلى الفراش ؛ غير أن قائلاً قال : « إنه رسول ! »

فضحكنا منه وقلنا : « لا ، بل هى الريح ! »

وفى أعماق الليل دوى صوت نخيل إلينا ــ والنعاس يغالبنا ــ أنه هزيم الرعد ؛ ثم زلزلت الأرض زلزالها ، واضطربت الحيطان ففزعنا عن مراقدنا ، وقال قائل : « إنه صوت عربات » فقلنا فى صوت الحالم : « لا ، إنه جلجلة السحب ! »

وفى جوف الليل رنّ فى مسامعنا دوى الطبل ، ونادى مناد : « هبوا ، لا تنوا ! » فوضعنا أيدينا على قلوبنا والخوف ينفضنا نفضاً شديداً ، وقال قائل : « وبلى ، هاهى ذى راية الملك تخفق ! » فاندفعنا نصيح : « لقد أزف الوقت فلا تتكاسلوا ! »

لقد جاء الملك ، ولكن أين المشاعل ؟ أين الأكاليل ؟ أين العرش ليستوى عليـه ؟ يا للفضيحة ، يا للعار ! أين الدار ؟ أين الزينة ؟ فقال قائل : « عبثاً تصيحون ، حيوه بأيد فارغة وادعوه إلى حجراتكم المعطلة ... »

افتحوا الأبواب ، واعزفوا الألحان ؛ ففي جوف الليل جاء الملك إلى بيتنا الوحش المظلم . إن الرعد يزمجر فى السماء ، وإن البرق يزيح أستار الظلام . هات فراشك البالى وافرشه فى الفناء ؛ فهو قد جاء على حين بغتة مع العاصفة الهوجاء ... هو رب الليل الحالك المهيب ...

— ٥٢ —

لقد أردت أن أطلب إليك عقد الورد الذى تحلّى به جيدك غير أنى لم أجسر ، فانتظرت حتى تبرح عنـد الصباح . وحين غادرت وجدت بقايا منثورة على الفراش ، وفى السحر رحت أفتش عن الوريقات المفقودة كأنى شحاذ

آه ، ماذا وجدت ؟ ماذا تركت ذكرى هواك ؟ إنك لم تترك الزهر ولا العبير ولا زجاجة عطر بل سيفك العظيم يتألق كشعلة من لهب ، وهو ثقيل كالصاعقة . لقد اخترق نافذتى أول شعاع فتىّ من أشعة الصباح فهمّ الطير يتفتق ويسأل : « أيتها الفتاة ، ماذا أصبت ؟ » لا ، لم يكن الزهر ولا العبير ولا زجاجة عطر ، بل هو سيفك المهيب .

وجلست أفكر فى دهشة : ماذا عسى أن تكون هذه الهدية ؟ لم أجد له مخبأ ، وإنى لأخجل أن أتقلده وأنا حطام متهدم ، وإنه ليؤذينى إن ضممته إلى صدرى ، ولكنى سأحمل فى قلبى هـذا

الشرف ... هذا العبء الثقيل من الآلام ... هذه الهدية الغالية

والآن لم يبق فى هذه الدنيا ما أخافه لأنك أنت نصيرى . لقد نزعت عن رفيق الموت ، فسأنذيه أنا روحى . إن سيفك معى لأحطم به قيودى فلا يبقى فى هذه الدنيا ما أخافه

سأنزع عن نفسى — منذ الآن — زخرف الحياة ؛ ولن أتوارى بعد — يا مليك القلب — فى ركن أبكى ، ولن أستحيى أو أرق من خالق فأنت قد حبوتنى سيفك لأزين به فلن أتحلى بسواه من زينة الحياة

ما أجمل سوارك وقد زينتــه النجوم ، ورصعته كواكب الحلية ؛ غير أن سيفك أحلى منه فى عينى وهو يلمع كأنه جناح طير ڤينشو [1] المقدس ، وقد انتشر فى أشعة الغروب الحمراء

إنه يضطرب كأنه آخر أحاديث الحياة حين يسيطر الألم على الإنسان فى ساعة الاحتضار فيذهله عن نفسه ؛ ثم هو يتألق كأنه شعاع الوجود الطاهر حين يرسل شرارة حامية فتلتهم كل العواطف الأرضية

ما أجمل سوارك وقد زينته كواكب الحلية ! غير أن سيفك — ياإله الرعد — قد رصع بجمال باهر يفوت الوصف ويفوق الخيال

— ٥٣ —

لن أطلب إليك شيئاً ؛ ولن أذكر اسمى عند مسمعيك . وحين تنأى عنى سأقف فى صمت . لقد كنت لدى البئر وحدى والظل وارف ، والفتيات ينطلقن إلى دورهن ، يحملن جرارهن المترعة ؛ لقد ناديننى : « تعال معنا ، إنه يضنيك أن تنتظر من لدن الصباح حتى الظهر » غير أنى ترددت حيناً ثم ذهلت عن نفسى وسط الخواطر المضطربة

ما سمعت دبيبك حين جئت ، وكان فى نظراتك الأسى حين وقع بصرك علىّ ، وكان فى صوتك أثر الأين والتعب حين قلت : « آه ، إننى مسافر ظمآن » ففزعت عن أحلامى لأصب الماء فى كفيك ، لخفقت الأوراق من فوقنا ، وانبعث شدو الطير يمزق سكون الظلام ، وفاح أريج عطر الزهرات من منعطف الطريق

ووقفت صامتاً فى خجل حين سألتنى عن اسمى ، ماذا أسديت إليك فتسأل عن اسمى لتذكرنى ؟ ولكن ذكرى الماء الذى أطفأت به حرّتك ستعلق بقلبى وتبعث فيه الرضى . إن ساعات الصباح قد انطوت ، والطير يغرد فى كلال ، والأوراق تحف من فوق ، وأنا جالس إلى نفسى أفكر وأفكر

— ٥٤ —

مازال الفتور يسيطر على قلبك ، والنعاس يستولى على عينيك

أفلم يبلغك أن الزهرة تحكم بين الشوك فى كبرياء ؟ استيقظ ؛ أوه ، انتبه ؛ لاتدع الزمان يمر عبثاً

عند نهاية الطريق الصخرى وفى بلاد الوحدة الطاهرة ... هناك يجلس صاحبى فى عزلة ، فلا تخدعه . استيقظ ؛ أوه ، انتبه !

ماذا لو أن السماء تلهبت واضطربت فى قيظ الظهيرة المحرق ... ماذا لو أن الرمال المتأججة نشرت لظى الظمأ ...

أفلا تجد الطرب فى قرار قلبك ؟ أفلا تتفجّر قيثار الطريق — فى كل خطوة من خطواتك — عن لحن شجى فيه الألم ؟

— ٥٥ —

إن رغبتك تامة فىّ ، وإنه أنت الذى هبطت إلىّ ؛ فمن عسى أن يكون حبيبك — يا إله الملك — إن لم أكُنْه ؟

لقد اتخذتنى لك شريكا أقاسمك هذا الثراء العريض ؛ ففى قلبى السرور اللانهائى أستمده منك ، وفى حياتى مشيئتك تسيطر علىّ

لهذا زيّنت نفسك — وأنت ملك الملوك — بالجمال الخلاب لتأسر قلبى ، ولهذا بذلت حبك فى سبيل مَن تحب ، فظهرت للأعين كائنين امتزجا معاً

— ٥٦ —

أيها النور ، أيها النور الذى تشرق على العالم ، وتقبل العيون وتنفث البهجة فى القلوب !

آه ، إن النور يرقص — يا عزيزى — فى أعماق حياتى ، إنه يضطرب بين أوتار قلبى ؛ إن السماء تنفرج ، والريح تهب عاصفة ، ورنات الضحك تتردد على الأرض

إن الفراش ينشر أجنحته على لجة النور ، والزنبق والياسمين يضطرب فوق موجها

لقد تحطم النور فوق كل سحابة — يا عزيزى — إلى قطع من لجين استحالت إلى جواهر تتألق

إن البهجة تتناثر — يا حبيبى — على أوراق الشجر فيهم السرور ، وإن نهر السماء يفيض على شاطئيه فيملأ الطرب كل مكان

كامل محمود حبيب

(١) ڤينشو : أحد آلهة التثليث الهندى

فلسفة التربيـــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٤ —

جولة في أغراض التربية

أوردت لك فيما سبق تفسير الفلسفة للتربيه ، وكشفت عما بينهما من علاقة ، وأبنت ضرورة الأولى للثانية ، ثم تناولت الثانية ذاتها ببعض الشرح والتحديد . وأحب اليوم أن أجول بك فى « أغراض » هذه « العملية الكبرى » التى اصطلحنا على تسميتها بالتربية والتعليم !

لِمَ يتعلم الناس ؟ وفيم تقام لهم هذه المدارس وتلك الجامعات التى تنفق فيهـا الجهود الطائلة والأموال الجسيمة ؟ أظنك قد أصبحت ترى معى أن من حق الفلسفة بل من واجبها أن تناقش ما عسى أن يكون لهذه « العملية الكبرى » من أغراض ، علها تستطيع أن تهدينا إلى « الغرض الأسمى » !

والحق أنه إن لم يكن للتربية غرض واضح محدود صريح فإن عمليتها لا تعدو أن تكون ضرباً فى الهواء مصيره الفشل المحتوم ! ؛ ولما كانت حياة « الأفراد » على ظهر الأرض واحدة لا رجعة لها ولا تكرار ؛ ولما كانت « التربية » هى الأداة التى تعدنا لهذه الحياة الواحدة القصيرة ، فإنه لا شك فى ضرورة « إيجاد » ذلك « الغرض الأسمى » الذى نستطيع به — وبه وحده — أن نستغل « العمر » إلى أبعد حدود الاستغلال ، وأن نتمتع به إلى أقصى وأرفع حدود التمتع

ولكنك تعلم أن الفلسفة حينما تعرض لمثل هذا « المشكل » لا تستطيع أن تنجو من ذلك « التباين » الهائل الذى يبدو فى أغلب مذاهبها

يقول الأستاذ بولزن Paulsen فى أسلوب عذب رشيق[1] « يريد المرء أن يلعب ويتعلم ، وأن يعمل ويكتسب ، وأن يملك وينعم ، وأن يكون ويخلق ، وأن يُحب ويعجب ، وأن يطيع ويحكم ، وأن يجاهد ويفوز ، وأن يردد الشعر ويحلم ، وأن يفكر ويبحث وأن يجرب علاقة الابن بأبيه ، والتلميذ بأستاذه ، والخادم بسيده ، وأن يعيش قنوعاً ؛ أخا بين أخوة ، وصديقاً بين أصدقاء ، وزميلاً بين زملاء ، ومواطناً بين مواطنين ، وحبيباً وعدواً ، وزوجاً ووالداً ومربياً ؛ كل ذلك على نحو طبيعى خاص ؛ فإذا ما تحقق له ذلك شعر أن حياته قد كملت ، وانتظر النهاية الأخيرة برضا وارتياح ، لأنه سيلحق بعدها بآبائه وأجداده . »[1]

وأنت ترى أن ذلك الغرض طويل غير مجمل وإن كان صحيحاً فى كل أجزائه ، وأنه يرى إلى تكوين الفرد الاجتماعى الناجح السعيد .

ويقول فيخته Fichte [2] « إن غرض التربية هو تكوين الوطنى العارف بحقوق الوطن وواجباته » . ولكن من ذا يستطيع أن يحصر الحياة فى دائرة الوطنية فحسب ؟ أليست الوطنية إحدى نواحى الحياة الشاملة الفسيحة ؟

ويقول هربارت [3] « إن غرض التربية هو تكوين إنسان عارف بحقوق الإنسانية ؛ وإن غايتها القصوى هى اكتساب الفضائل والتحلى بمكارم الأخلاق » . ولكن ترى ما هى حقوق الإنسانية التى يتركها لنا هربارت غامضة من غير ما تفسير ؟ وإذا كانت الأخلاق هى غاية التربيـة القصوى ، فأين يقع « التفكير الخالص » من هذه الغاية وقد وضعه « ارسطو » فوق جميع الغايات عند ماينصب على أسمى موضوعات التفكير وهو الله ؟

ويقول ديوى Dewey « إن غرض التربيـة الأسمى هو النمو [4] » ولكن ما معنى النمو وما مقياسه المضبوط ؟ يلمس « ديوى » بنفسه ذلك الغموض ويرسم لنا مثلا أعلى « للإنسان النامى » فإذا هو « كائن ذو عادات بصيرة حساحة بعيدة النظر خاضعة لمسئوليات أكثر » . وذلك قول جامع ولكنه لا يخلو مع ذلك من غموض ...

ويقول الأستاذ ريدجر Ruediger [5] « تلائم التربية بين

(١) أنظر A Louree Book of The Philos. of Educ. at, on by Kilpatrich فصل أغراض التربية

(١) قد تصرفنا فى الترجمة قليلا

(٢) أنظر كتاب الأستاذ العمروسى فى التربية والتعليم

(٣) أنظر كتاب الأستاذ العمروسى أيضاً

(٤) أنظر مقالة فى فلسفة التربية بدائرة معارف منرو للتربية

(٥) أنظر كتابه The Principles of Education

الفرد وبين عناصر البيئة المعترف بها فى الحياة الحديثة ، وهى تعمل على تنمية وترتيب وتدريب قواه حتى تصبح ذات «فاعلية» مشروعة النفع » وذلك أيضاً قول دقيق لولا ما قد ينتاب « هذه الملاءمة » من القضاء على روح الثورة فى الناشئ . تلك الثورة التى نريدها منه كلما رأى ماهو جدير بها فى حياة المجتمع

ويقول الأستاذ تورندايك « إن أقصى غايات التربية هو غرس رغبة « الخير » وتكوين القدرة على الحياة السعيدة والمتعة النبيلة البريئة » ولكن ترى ماهى الحياة السعيدة ذات المتعة النبيلة البريئة ؟ أما نحتاج هنا لتحديدها ؟

أما « سبنسر » فيلسوف التطور فيقول « إن غاية التربية هي أولا وقبل كل شئ حفظ الحياة » . ولكن من الثابت الواضح أن « حفظ الحياة » وسيلة وليس بغاية ؛ إذ فى سبيل أى شئ نحفظها ؟ يقول سبنسر نفسه : « إن واجب التربية هو الاعداد للحياة بأوسع معانيها . وأهم مافى الحياة هو الحكم الصائب فى كل الاتجاهات وجميع الظروف ، ثم تربية الجسم والعقل ، ثم الإعداد للعائلة والسعادة والوطن وخدمة المجتمع » وذلك كلام له وجاهته الخاصة دون ماشك . ولكن ألسنا نرى فيه إغفالا أو شبه إغفال لناحية الشعور بما فيه الدين ؟

ويبسط لنا الأستاذ ريدجر Ruediger غرض الملاءمة الآنف فى فصل طريف لخواه الحياة بالعقل والروح ثم بالجسد فى جو خلق دائب التجدد ، يقوم فيه الدين إلى جانب الفن ، ويتسلط فيه الإنسان تسلطاً عاقلاً على البيئة ، شاعراً أنها وطنه الذى يجد فيه المتعة العقلية والفنية ، منتفعاً فى نفس الوقت بكل مافيها مما يفهمه ويقدره

أما الأستاذ Angel فيقول إن غرض التربية « هو النمو المتشابه لقوى الفرد » وذلك قول له طرافة من الناحية النفسية التى تطالبنا بإيجاد التوازن بين قوانا بحيث لا يطغى فيها العقل على العاطفة ، أو العاطفة على العقل [1] ، ولكنه لا يزال بعد مفتقراً إلى « تشريع » يوجه هذا النمو المتشابه فى نواحيه المنشودة

وأما أبناء العم سام فاغراض التربية عندهم هى :
(١) عضوية الأسرة الناجحة (٢) المهنة الموفقة (٣) الفراغ الممتع (٤) التمدن العاقل (٥) الصحة الحسنة (٦) المعاملات الطيبة

ولكن واضح أن ذلك المستوى شعبى بحت لا يتناول « الفكر الراقى » كما ينبغى أن يتناوله

***

وتلك كما ترى آراء كثيرة توسع من مدى فكرنا وإن كانت لا تقف به عند رأى حازم جازم لأن طبيعة « الغاية الأخيرة » ذاتها تتطلب ذلك الخلاف ما دام أن الأفراد أنفسهم هم الذين يتناولونها بالبسط والتحديد لأنها غايتهم . ويشعر الأستاذ ديوى Dewey نفسه بصعوبة الموقف فيقول : « ليس للتربية غاية أو غرض خاص ، ولذلك يجب أن نأخذ فى حسابنا نشاط من يراد تعليمهم وحاجاتهم الطبيعية والاكتسابية عند ما نحدد للتربية والتعليم أغراضهما »

ويعقب الأستاذ يعقوب فام على هذا الرأى بقوله [1] : « ليس التعليم منفصلاً عن الحياة حتى يقال إنه وسيلة لها ، بل هو والحياة أمر واحد » ومعنى ذلك أن غاية التربية هى هى غاية الحياة . فترى ماذا عسى أن تكون تلك الغاية ؟ أهى ذلك الثالوث الأقدس الذى ينادى به الأستاذ فيكتور كوزن فى كتابه الطريف [2] ثالوث الخير والحق والجمال ؟ أم هى « التفكير الخالص » فى أسمى موضوعات التفكير كما يقول أرسطو ؟

ومهما يكن من شىء فإن الأستاذ « ديوى » يعطينا مقياساً طريفاً نطبقه على الأغراض « المطروحة » لنختبرها به وهو : (١) قيام الغرض على الظروف الراهنة (٢) وقدرته على القيادة والمرونة (٣) والاتفاق التام بينه وبين الوسيلة . ثم هو يعطينا مقياساً آخر نقيس به مواد الدراسة هو « درجة وطريقة ماتجلبه على الطالب من شعور بيئته الاجتماعية ، وما تمده من قدرة يفسر بها قواه الخاصة من ناحية قابليتها لخدمة المجتمع » ويفسر لنا الأستاذ « باجلى » مدى هذه « القابلية » بقوله : « إنها تتضمن أن يكون المرء فاعلاً فى المجتمع منتجاً أو مرشداً الناس إلى الإنتاج ، متدخلاً فى مجهودات الآخرين بأخلاقه الصالحة ، عاملاً على تكميل القوى الاجتماعية أى إنجاح الجماعة » ويعزز الأستاذ ديوى نفسه ذلك الرأى بقوله : « أعتقد أن كل تربية يجب أن ترمى إلى مشاركة الفرد فى الوجدان الاجتماعى »

(١) فى غير النواحى الخلقية بالطبع

(١) انظر « التربية والأخلاق » للأستاذ

(٢) أنظر « V. Cousin - Du Bien, Du Vrai, et du Beau »

ولا بأس من أن نختم هذا الفصل بقول الأستاذ Kerschensteiner [1] وهو : « أننا لا نستطيع أن نحصر أغراض التربية فى غرض واحد ، وكل ما هنالك أن التربية يجب أن تشمل الإبقاء على الماضى إبقاء لا يستر عيوبه ولا يعمينا عن خيرات الحاضر ، ثم الوقوف على الأزمنة والبيئات والطبقات المختلفة حتى نوسع من مدى اتصال الناس بعضهم ببعض ، ثم تمدين ومحو الوحشية من بينهم ، أى انتشال العقول من الأودية المظلمة ، والعواطف من الغرائز الحيوانية ، ثم غربلة الناشئين وتوجيه كل منهم إلى الطريق الذى يتفق وميوله الخاصة حتى يبلغ أقصى ماهو كفء له ، ثم غرس العادات الحسنة من غير استعباد الناشئ لها »

***

وبعد ، فماذا تريد أن أقول ؟ وأى الأغراض تحب أن أزجيها إليك ؟

أليس من الخير أن نترك هذا الباب مفتوحاً لرجال التربية فى الشرق ، كيما يدلوا فيه بآرائهم السديدة ، ويرسموا لنا تلك « الغاية الأخيرة » التى يجب أن ينشدها الشرق فى تربيته على الخصوص ؟

ثم أنت ترى المعاهد فى مصر كثيرة والخريجين أكثر ، فهل تستطيع أن تتبين وراء تلك المعاهد « غرضاً واضحاً محدوداً » وهل تستطيع أن تلمس « الطريقة » التى يحقق بها هذا الغرض وما عسى أن يكون فيها من ضعف وقوة ؟

أحب أن تفكر فى هذا قليلا . لا ، بل كثيراً

« شبرا » محمد حسنى ظاظا

مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

(١) أنظر كتاب Thomson - Amodern Philos. of Ed.



هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الرؤى والألغاز

— ١ —

وعند ما تناقل البحارة خبر وجود زارا بينهم وكان بلغهم ذلك من رجل دخل السفينة معه قادماً من الجزر السعيدة ساد الجميع شيء من القلق وباتوا يتوقعون حدثاً فى وجوده ، غير أن زارا بقى يومين جامداً تساوره أحزانه ؛ تحدق فيه الأنظار فلا يلتفت ، وتوجه إليه الأسئلة فلا يجيب . وأخيراً أصغى لما يقال حوله متوقعاً سماع أبحاث لها خطورتها تدور على هذه السفينة القادمة من بعيد والمتجهة إلى أماكن سحيقة . وما كان زارا لينفر من الأسفار البعيدة ومن الأخطار ، وبعد أن أصغى طويلاً حلت عقدة لسانه فانطلق يقول :

— إليكم أيها الشذاذ الجريئون أياً كنتم ، أيها المستسلمون للشراع الغدار على هائجات الأمواج

إليكم أيها الثملون بخمرة الأسرار ، المتجذبون بين خيوط الظلمات والأنوار ، إلى نغمات كل شبابة تنوح فى المجاهل الخفية . إنكم تنفرون من تلمس طريقكم بيد مرتجفة على ما نصب من دليلات الحبال إذ تفضلون الإدراك بالحس على الادراك بالإستقراء

إليكم دون سواكم أوجه الخطاب لأخبر بما تجلى من ألغاز وبما خطر من رؤى لأشد الناس استغراقاً فى عزلته .

لقد اجتزت الغسق فى أشد فتراته وجوماً . اقتحمته وقد تقلصت شفتاى وعلا وجهى الاغبرار وكنت شاهدت من قبل شموساً كثيرة تجنح إلى الغروب

رأيت أمامى طريقاً يتسلل على جروف المرتفعات ، طريقاً وعراً تعرى جانباه من كل نبات فدفعت عليه أقدامى أتحداه فأسمع صريف حصاه تحتها .

مشيت صامتاً أحاول تثبيت الحصى المتطايرة بخطواتى لأنجو من الانزلاق عليها

واعتليت فاذا بروح الكثافة وهو عدوى الألد يشد بى إلى الأعماق ، واعتليت أيضاً فاذا بهذا الروح المطبق علىّ كالقزم من الناس والخلد من سكان الأوجار يسكب فى أذنى ودماغى كلمات ثقيلة كالرصاص فسمعته يقول لى متمهلاً هازئاً :

أى زارا أيها الحجر المدعى الحكمة ، لقد رشقت نفسك إلى ما فوق ، ولكن أى حجر ارتفع ولم يسقط عائداً إلى مصدره ؟

أى زارا أيها الحجر الحكيم المتقذف إلى العلا لزعزع الكواكب فى مدارها ما أنت إلا القاذف والمقذوف معاً ، فلا بد لك من السقوط ككل حجر يرشق إلى ما فوق . لقد حكمت بالرجم فكان حكمك به على نفسك ، وهذا الحجر الذى فوّقته سيرجع ساقطاً عليك

وسكت القزم طويلاً حتى ضاقت من سكوته أنفاسى ، فالرفيق الصامت يشعرك بوحشة الانفراد أكثر مما تشعر بها وأنت وحدك لا رفيق لك

وارتقيت أيضاً وأنا تائه فى تفكيرى وأحلامى شاعراً بتزايد الضيق فى صدرى كأننى عليل نبهته أضغاث أحلامه فاستفاق ليشعر بأوجاعه

غير أننى أعهد بنفسى قوة أسميها شجاعة وهى القوة التى أرغمت بها كل وهن فى نفسى ، بهذه الشجاعة تذرعت فصحت بالقزم قائلاً :

إن واحداً منا يجب عليه أن يتوارى

ما من قاتل كالشجاعة التى تهاجم ، وما من فيلق يتقدم إلا وفى طليعته الأنغام الحاديات

إن أوفر الحيوانات شجاعة إنما هو الانسان الذى قهر بشجاعته سائر الحيوانات وتغلب على جميع الأوجاع ماشياً وراء حاديات الأنغام بالرغم من أن أوجاع الانسان أشد ما فى الكون من أوجاع

وللشجاعة أيضاً فضيلة ردع الدوار المستولى على الرؤوس حين تحدق فى الأعماق ، وما من موقف للانسان لا هاوية تحته وما عليه إلا أن يحدق ليرى المهاوى من أى موقف فى مواقفه

إن الشجاعة خير مايقتل فانها تقتل الاشفاق أيضاً ؛ وما من هاوية أبعد قراراً من الاشفاق لأن نظر الانسان ليذهب وهو يسبر الآلام إلى أقصى مدى يبلغه عند سبره الحياة نفسها

إن خير مايقتل إنما هى الشجاعة إذا هاجت ، لأنها ستتوصل أخيراً إلى قتل الموت نفسه لأنها تقول فى ذاتها : « يا للعجب ! أهذا ما كانت الحياة ؟ إذن لأرجعن إليها مرة أخرى » إن فى مثل هذه العقيدة أشد حداء يدفع إلى الإقدام . من له أذنان سامعتان فليسمع

— ٢ —

واستوقفت القزم قائلاً : يجب أن يبقى أحدنا ويفنى الآخر . إننى أنا الأقوى لأنك لا تدرك أعمق أفكارى ، وما أعمقها إلا فكرة لا قبل لك باحتمالها . فارتمى القزم عن كتفى نخف حملى ، فإذا بهذا القزم يجلس القرفصاء على حجر أمامى ، وإذا نحن تجاه باب كأنه وجد صدفة هناك فقلت لرفيقى :

أنظر إلى هذا الباب فإن له واجهتين ، وهنا ملتقى مسلكين لم يبلغ إنسان أقصاهما ، أحدهما منحدر يمتد إلى البرية ، والآخر مرتفع يمتد إلى البرية الأخرى ، والمسلكان يتعارضان متقاطعين عند هذا الباب وقد كتب اسمه على رتاج واحد « الحين »

فقلت : أتعتقد أيها القزم أن من يتوغل فى إحدى هذين المسلكين يبقى معتقداً بأن اتجاه أحدهما معارض لاتجاه الآخر ؟

فقال القزم بازدراء : إن كل اتجاه على خط مستقيم إنما هو اتجاه مكذوب ، فالحقيقة منحرفة لأن الزمان نفسه خط مستدير أوله آخره

فأجبته قائلاً : لا تستخف بالأمر أيها الروح الكثيف وإلا غادرتك فتعطب حيث أنت ، ولا تنس أننى أنا حملتك إلى الأعالى . تفكر فى « الحين » الذى نحن فيه الآن ، فإن من بابه يمتد سلك أبدى لا نهاية له متراجعاً إلى الوراء ، فإنما وراءنا البرية يا هذا

أفما كان لزاماً على كل شىء مُعززٍ بعزفة السير أن يجتاز هذا السلك فيما مضى؟ أفما يحتم على كل شىء له طاقة الوصول أن يكون قد وصل فيما مضى فأتم سيره وعبره ؟

وإذا كان كل موجود الآن قد وجد من قبل فما هو اعتقادك فى هذا الحين ؟ أفما كان لهذا الباب وجود سابق ؟

أفما ترى الأشياء كلها متداخلة ، وأن هذا « الحين » يجر

وراءه كل ما سيكون ، بل يجر نفسه أيضاً ؟

أفما يتحتم والحالة هـذه على كل ممزز بقوة السير أن يندفع مرة أخرى على هذا السلك المتجه إلى فوق ؟

أنظر إلى هذه العنكبة التي تدب على مهل تحت شعاع القمر ! أنظر إلى شعاع القمر نفسه وإلى ذاتي وذاتك مجتمعتين تحت هذا الباب تهامسان بأسرار الأبد ! أفما تعتقد أنه لابد أن نكون وقفنا جيماً من قبل في هذا المكان ؟

أفليس علينا أن نعود أيضاً للتدفع تكراراً على السلك الآخر الذاهب أمامنا متصاعداً مستطيلاً مروعاً ؟ أفما لزم علينا أن نعود تكراراً وأبداً ؟

هكذا كنت أتكلم بصوت يتزايد انخفاضه وقد أرعبتني أفكاري وما كمن وراء أفكاري فإذا بي أسمع فجأة نباح كلب على مقربة منا

خيل إلى أنني سمعت مثل هذا النباح من قبل، ورجعت بتذكاري إلى الماضي فإذا هو يسمعني هـذا النباح في أبعد أيام طفولتي ويمثل لي مثل هذا الكلب الذي أراه الآن وقد وقف شعره ومد رقبته مرتجفاً في أشد الليالي سكوناً حيث يتراءى للكلاب أيضاً أن في العالم أشباحاً

ونبه نباح الكلب اشفاقي إذ تذكرت انه عنـد ما عوى منذ هنيهة كان القمر يطل من وراء البيت صامتاً كالموت ؛ ومنذ هنيهة كان هذا القمر يستقر فوق السطح كقرص ملتهب يراود ما ليس له ، وذلك ما أثار غضب الكلب لأن الكلاب تؤمن بالسارقين والأشباح

عند ماسمعت هذا النباح للمرة الثانية عاودني الاشفاق تكراراً

أين توارى القزم الآن ومعه الباب والعنكبة وأحاديث المناجاة؟

أكنت في حلم فاستفقت فأما الآن وحيد بين جرداء الصخور لا مجير لي غير شعاع القمر المنفرد في السماء

ولكنني رأيت رجلاً مسجى على الأرض وكان الكلب يقفز وقد اقشعر جلده وهو يهدر هديراً ، وإذ رآني قادماً نحوه بدأ بالنباح فتساءلت عما إذا كنت سمعت من قبل كلباً ينبح بمثل هذا الصراخ المستغيث

والحق أن ما رأيت في ذلك المكان ما كنت رأيت مثله ، لأنني شاهدت أمامي راعياً فتياً ينتفض محتضراً ، وقد ارتسم الروع على وجهه وتدلت من فه أفعى حالكة السواد ، فتساءلت عما إذا كنت رأيت قبل الآن مثل هذا الاشمئزاز والشحوب على وجه من الوجوه . لعل هذا الراعي كان يغط في رقاده عندما انسلت الأفعى إلى حلقه وانشبكت فيه

وبدأت أسحب الأفعى بيدي ، ولكنني شددت عبثاً ، فسمعت من داخلي صوتاً يهيب بالراعي قائلاً : عض عليها بأسنانك ولاتني حتى تقطع رأسها ، وهكذا سمعت بهذا الهتاف أصوات رعبي واشمئزازي وضغينتي وإشفاقي كأنها صوت واحد يتعالى مني

فيا أيها الشجعان المحيطون بي، أيها الشذاذ المكتشفون يامن تقتحمون مجاهل البحار مستسلمين للشراع الغدار وأنتم تسرون بالمعميات والألغاز، عبروا رؤى المنفرد وحلوا ما رأى من معميات وقد كمن فيها ما كان وما سيكون

أيّ هذه الرموز يدل على ما فات وأيها يدل على ما هو آت ؟ من هو الراعي الذي اندّست الأفعى في فه ، ومن هو الإنسان الذي سيصاب بمثل هذه الداهية الدهماء ؟

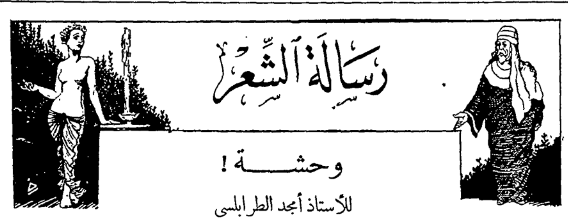
على أن الراعي بدأ يشد بأسنانه منفذا ما أشرت به ، وما لبث أن تفل دافعاً برأس الأفعى إلى بعيد ، ثم انتفض ووقف على قدميه

وتبدلت هيئة الراعي فلم يعد راعياً حتى ولا إنساناً ، إذ جلله الإشعاع وضحك ضحكة ما سمعت حياتي مثلها

لقد سمعت يا إخواني ضحكة ليست من عالم الإنسان ولم أزل منذ ذلك الحين أحترق بشهوة لا أجد ما يطفئها . إن شهوة هذه الضحكة تنهش أحشائي فكيف أرضى الموت بعد الآن

هكذا تكلم زارا

« يتبع » فليكس فارس



وحشة!

للأستاذ أمجد الطرابلسي

ما أرى الينبوع فى هذى الفلاه … فالتمسه اليوم في أعماق نفسك!

أيها الغربانُ يا شؤمَ الربوعِ … انعبي ماشئتِ فى صدرى وقرّى
يُنشدُ الشاعرُ فى عرسِ الربيع … وأنا أستلهِمُ الوحشةَ شعرى!

إيهِ يا نضوَ الفلا حسبُك صمتا … غنِّ فى الوَحدةِ ألحانَ التّصافى
لستَ بالشاعرِ يا قلبيَ حتى … تُطلعَ النّرجسَ من شوكِ الفيافى!

هذه الصّحراءُ ما بين ضلوعى … كاد يُذوى شوكَها فرطُ صَداها
أعولتْ فى الصّدرِ تَسْتَجدى دموعي … فأبى مُسْتكبِرُ الدمع وتاها

عَبَثاً تخرسُ فى الصّدرِ اللّحونْ … أيّها المُصْحِرُ صَنّاً وإباء
أنت كالبلبلِ فى هامِ الغصونْ … عيشُهُ أنْ يُسكرَ الروضَ غناء

هذه الصّحراءُ حولى أين سرتُ … تفزعُ الجِنّانُ من وحشتِها
قدعوى فى جوّها الويلُ المُشتُّ … وتنزّى الرملُ فى شُعلتِها

يتَمَنّى الصّمت — لو كانَ مُتاحا — … ضَرَمٌ في صَدرِهِ مُسْتَبْسِلُ
لا الجوى لا الغمّ لا الويلُ جِراحا … تُسكتُ البلبلَ، عاشَ البلبلُ!!

تتعبُ الأَعينُ فى آفاقِها … كشراعٍ بينَ أمواجِ العُباب
ويَضِجُّ الغمُّ فى أعماقِها … ضجّةَ الأغلالِ فى دار العذاب

أيّها الضاربُ فى عُرضِ الصّحارى … تتَمَنّى واحة تأوي إليها
عَبَثاً تطلبُ فى الصّحراءِ دارا … تطرحُ الأَعباءَ ما بينَ يديْها

يا لصحراوَيْنِ في قلبي وحولى … أتمنّى فيهما لمعَ سَراب
أنا ما بينهما أرقبُ ظِلّى … فأراهُ سَلوتى وسْطَ الرّحاب

أيها الهاربُ من دُنيا الجحودْ … إنَّ فى صدركَ أنغامَ الوفاء!
أيها المُدلجُ فى ليلِ الجمودْ … إنَّ فى نفسكَ آفاقَ الضّياء!

أيّها الوحشةُ خَلّى العنكبوتْ … تنسُجِ الأكفانَ فى أحناءِ صدرى
وانشرى ابنيْكِ على كهفِ الصَّموتْ … واصبِغى باليأسِ والأهوالِ فجرى

أيها الظمآنُ فى هـذا العَدَمْ … أنتَ نبعٌ ترتوى منهُ الظّماء:
أنتَ فيه يائسٌ تشكو السّقمْ … وَهْوَ من يأسكَ يستسقِى الرّجاء!

أظمئى زهرى وزيدي سَأَمى … وارتعى فى خاطرى يا وَحشتى!
أنا منْ صمتِكِ أغذو نغَمى … وَبِوَيْلاتِكِ أسقى جنّتى!!

غنِّ هـذا الموتَ ألحانَ الحياةْ
واسقِ صحراوَيْكَ من خمرةِ حسِّكْ

إنّ غمّا لِيَ فى الصّدرِ يُطوى … هو كنزى ومَعينُ الشّعرِ عندى
لا تُهِنْهُ أيّها القلبُ بشكوى … إنّ فيها هونَ آمالى ومجدى

ما أرى الينبوعَ فى هذي الفلاةْ … فالتمسهُ اليومَ فى أعماقِ نفسِك!

(دمشق) أمجد الطرابلسى

الصدى والنرجس

للأستاذ خليل هنداوى

مهدة إلى الأستاذ دريى خشبة

« نرجس كان فتى سليل إلهين من آلهة الماء ، فأحبته « الصدى » فصدعنها وجفاها ، فشكت أمرها إلى الالهة « هيرا » زوجة « أبولون » فلم يذعن ولذا مسخه أبولون زهرة هي زهرة النرجس . فكانت على غراره مصوبة برأسها لأنه كان يقف على حواف الغدران ويكس رأسه ليستجلى جماله في مائها . أما الصدى فأصابها الهزال حتى لم يبق منها إلا القدرة على ترديد الأصوات »

أيها الرجل ! لاتصم سمعك عند ما تناديك المرأة فهى شئ غير الحب والجمال (غ . هـ)

نرجس

على وجنتيه يرفُّ الشباب   وتزهو على الفجر ألوانه
ومن مُقلتيهِ يشعُّ الضياء   كأن الكواكبَ أخدانه
يفيض على الكون من حسنه   كأن حمى الحسن أوطانه

تمثَّلَ فى قلب كل الحسان   فكان الرجاء ، وكان المثل
لكم تتهادى عليه القلوب   وكم تتهادى عليه المقل
على كل ثغر يطوف اسمه   كأن اسمه - عندهن - الأمل!

رأته التى راعها حسنه   فراحت تذيع جواها به
وظلت تلازم محرابه   كراهب دير بمحرابه
فيامن رأى من جفاها الكرى   موزعة النفس فى بابه !

لقد شفها منه هذا النفور   وصيَّرها الحب مثل الخيال
أيشعر رب الجمال الفتون   بما فى قلوب المها للجمال
فقالتِ : لآتيه فى خلوة   أبث هواى له فى اعتزال

وأشكو وأبكى لما حفَّ بى   فيرحم ما سال من أدمعى
وإمَّا استخف كشفت الضلوع   وأعلنت ما تحتوى أضلعى
وإمَّا نبا قلت : قف يافتى !   لتشهد عن كثب مصرعى

فيرسم فى مقلتى حبيبه   وتسقط شكواه فى مسمعى
ويلبث مستعبراً مشفقاً   ويحنو كئيباً على مضجعى
وإذ ذاك أغفو على راحة   لأن حبيبى يقيم معى !

لقاء

رأته مُكباً على دافق   كمن تتراءى له خاطره
فما مدَّ عيناً لمن أقبلت   ولا لفت الطرف للزائره
ولكنها وجمت وهلة   تلملم آمالها الحائره

رأت وجهه فى رقيق الغدير   يرى الحسن منه ولا يشبع
فقالت : أتيتُ بلا موعد   إلى حاجة لم تكن تُدفع
فكان على زهوه ذاهلاً   عن الصوت ، يصغى ولا يسمع

أما راق عينيك حسنى النضير؟   وهذا المقبَّل والمتنق ؟
لقد لثم الفجر ثغرى الصغير   وضرَّج خدَّىَّ لونُ الشفق
صفا كل معنى بجسمى الرشيق   وراق به كل شئ ورق ...

تسللتُ والفجر فى غبشة   جرى فى حواشى الدجى تبره
وجئتك يقتادنى لاهب   من الوجد لايتقى حره
أتغفو على الحب غفو الخلى   ومضناك يقتله صبره؟

هنالك غيد تطير الأمانى   بهن لحسنك أنى ائتلق
ولكننى شبح هائم   أبيت على أرق أو قلق
تعال ! فما بىَ إلا رمق   وإلا تباريح تُذكى الحُرق

أراك تميل ولا تطمئن   فأهوِ علىَّ ؛ ولا تبخل
ألا رشفة منك فيها الرحيق   تقطر من ريقك السلسل
ألا قبلة يا حبيبى النفور !   ولكنه سار لم يحفل !

فى قمة الأولمب

وزفَّت إلى قمة الآلهات   وقد هالها منه ما هالها
وقصت على « هير » ما عالها   وأذهب فى الحب آمالها
فحنت لها آلهات الأولمب   وكل بكى أو تباكى لها

لقد لج بى الوجد يا ربتاه   فقولى له يعطنى ما أشاء
أهم بتقبيله عنوة   فيزجرنى زاجر الكبرياء
فنادَوه حتى يلبى النداء   فزاد عتوًّا ... فكان الجزاء

نرجس والصدى

تعالين يا فاتنات الوجوه   تأملن فى النرجس الهائم
لقد مسخوا شخصه نرجساً   يطل على الماء كالحالم
يطيف بكل مسيل رقيق   ويحدق فى حسنه الناعم

مهبك يا ريح زاكى الأريج   فمن أين ياريح نفح العبير ؟
حنت حين هبت على نرجس   شذاه العبير ، هواه المذير

من مشاهد دجلة فى الشتاء

للأستاذ محمد بهجة الأثرى

ويومٍ ببغدادَ فى شَتْوَةٍ ... كما تلسعُ العقربُ الشائله
فليس الدِّثارُ يقى بردَها ... ولا النارُ مشبوبةً هائله
ترى المرء يَصْلى بكانونها ... وتأخُذُه رجفــةٌ خاذله
لمحتُ بدجْلَةَ فيه امرءًا ... تجرَّدَ كالإبرةِ العاطله
فطوراً يُكِبُّ على جسمه ... كما تَرْحَضُ الرَّيْطةَ الغاسله
وطوراً يعومُ بتيّارها ... كما انسابتِ الحيّةُ الوائله
يغوصُ كما الصخرِ يُلقى بها ... إلى أنْ تظُنَّ به النازله
فيطفو على مَتْنِها جائلاً ... شبيهَ الحبابِ طفَتْ جائله
تَفَنَّنَ فى عَوْمِه جاذلاً ... كراقصةٍ رقصةً جاذله
نظرتُ إليه وبى دهشةٌ ... كما يجمُ القلبُ فى الآزله
تعجّبْتُ منه ومن حالتى ... ولى حالةٌ عكسه حائله
حرامٌ علىَّ ســوى فاترٍ ... من الماء فى القيظِ فى القائله
تعجبتُ منه ولو راءنى ... لَتَهْقَهَ قهقهــةً هازله
كلانا عجيبٌ . فسُبْحانَ مَنْ ... برا الناسَ شاكلةً شاكله
ترى خلْقَه ظاهراً جائراً ... وباطنــه حكمةٌ عادله
تدقُّ عن الفهم أسرارُها ... وإنْ بلغَ الرتبةَ الكامله
هو الكونُ أُحْجيّةٌ أعجزتْ ... بنى الأرضِ قافلةً قافله
علَوْا لُجّةَ الغمْرَ من آدمٍ ... وغاصُوا وما عرَفُوا ساحله
بدائعُ دلّتْ على مُبْدِعٍ ... وأعظمُها القوّةُ العاقله
فلا يَزْعُمَنْ جاهلٌ فطنةً ... فيَجْحَدَ من جهله جابله
ألا إنما العقلُ مُسْتَبْصِرٌ ... فهل ينزعِ النزعةَ الجاهله ؟!

(بغداد) محمد بهجة الأثرى

وقــد بلّــل المــاء أعراقه ... فطاب النسيم ورق النمير
وأما الصدى فهى ولهى تجوب ... من القفر كل بعيد المدى
وتحسب كل نداء نداه ... فتمضى تجيب النِّـدا بالنَّـدا
لقد شجيت من أساها الصدى ... فليس تردد إلا الصـدى ...

خليل هنداوى

رغبــــــة

للشاعر الألمانى شيلر

للسـيد عارف قياسه

من يستطيع أن يتصور غبطتى وابتهاجى ، حين أجد مخرجاً من هذا الوادى ، حيث سُحب الضباب الصفيقة تنعقد فى جوه ، وتتلبد على عدوتيه ، وأقذف بنفسى فى الفضاء الرحيب

ثمت تصافح عينى هضبات ضاحكة مستبشرة ، كلها خضرة أبدية ، وزيّنتها فتوة سرمدية

وا حسرتاه ! ليتنى عصفور ! ليت لى أجنحة ! إذن لدوّمت ثمت ورنّقت فوق هاتيك الربى وتلك الهضبات

فلطالما رنت فى أذنى ألحان علوية ، ليس لى بها من عهد ، أفلتت من موسيقى ذلك العالم الطرب المفراح

ولطالما بلغنى أريجه العبق الفواح ، ممتطياً أجنحة النسمات الرقيقة ، فسطع فى أنفى

ثمت أرى أثماراً ذهبية اللون تتألق خلال الأوراق الكثيفة ونباتات تتلألأ بالنوار ، لا تخاف قر الشتاء ولا صبارّته

***

تالله ما أرغد الحياة وأهناها فوق هاتيك الربى حيث تذهبها بآرادها شمس أبدية !

ولكن أمواج تيار جياشة مزبدة ، تحظر الاقتراب علىّ ، وتمنعنى من الدنو ، وتملأ قلبى فرقاً ورعباً

فالزورق ينوس قرب الشاطىء ويرجحن ، ولكن واحسرتاه ليس له من ربان يدير دفته ! وماذا يضير ؟ فلنلجه فى غير وجل ولا إشفاق ، فإن شُرُعه لمنشورة ... فلنأمل ولا نقنط ، ولنجترىء ولا نفرق ، ومن يرج النجاة فليسلك مسالكها

إن أعجوبة فريدة تستطيع أن تنقلنى إلى ذلك العالم الجميل المفعم بالأعاجيب والملىء بالمعجزات .

(حماه — سوريا) عارف قياسه



قصة شرقية من كاثلين رودس

زبيدة

للأستاذ دريني خشبة

من دأب الزائرات فى بعض الممالك الإسلامية أن يلبسن كَوْثاً [1] أحمر يخلعنه لدى باب حجرة الزائرين ليراه الرجال فلا يدخلوها مادُمن فيها . وهـذه قصة الزوج المسكين صادق على ، الذى رأى الكوث الأحمر فلم يستطع أن يلج باب الحجرة ليلقى زوجه بعد سفر طويل عَبْر الصحراء الملتهبة المتلظية ، وما حل بصاحب الكوث من دمار

* * *

زبيدة ابنة الصائغ فتاة جميلة بارعة الحسن ساحرة اللفتات ، تميس كالغصن الرطب فى الروضة الفيحاء ، وتبسم كالزهرة الناضرة فى الخميلة الغناء ... لم تكد تبلغ من العمر سنتها الثانية عشرة حتى حبسها أبوها فى ظلام الخدر ، وأسبل على بدرها السافر خمار الأسر ، كما تعوّد الشرقيون أن يفعلوا ببناتهم إذا ما بلغن هذه السن المبكرة ، التي تُعَد فيها الفتاة لزواج مبكر كذلك ، فيما يكون بناتنا (فى انجلترا) يتلاعبن فى الحدائق ، ويتثقفن فى المدارس ، دون أن تبدو عليهن بداوات الأنوثة الغائرة الثائرة ، التي هى أول إرهاصات الزواج

وكان جميع موسري المدينة ينتظرون اكتمال شباب الفتاة ليخطبوها من أبيها لأبنائهم ، وكان كل منهم حريصاً أشد الحرص على أن يفوز بها لابنه دون جميع الناس . وكانت حمرة الخوخ التي تتأرج بالعطر من خديها ، وتفتير النرجس الذي يَنفُث السحر من عينيها ، ثم هذه القَسِمات التى تتحوى حول فمها الدقيق الرقيق ... كان جميع ذلك مخلوقاً للحب ، موقوفاً على الهوى ، غير مُيَسّر إلا لشباب غض مثله ريّان كما إنه ريّان

وتقدم الآباء إلى الصائغ يخطبون زبيدة ، ولكن الصائغ كان يغلو في تقدير مهرها ليتخلص ممن لا يراه كفءاً لها ، وطمعاً منه ألا يكون أحد قد قبض لابنته مهراً أكثر من مهر زبيدة . ولم لا ؟ أليست زبيدة أجمل فتيات المدينة وأرشقهن وأوفرهن فتنة وأخفهن روحاً ؟ وهى مع ذاك كاتبة قارئة تحفظ قدراً غير قليل من آيات الله وحديث الرسول وقصائد الشعراء ، ثم هي تجيد الانشاد والغناء حتى لا يغني مثلها بلبل ، ولا يجيد أن يرسل مثل نغمها ناي ولا عود ... أضف إلى ذلك كله مهارة فائقة فى الحياكة وأشغال الإبرة وشواغل المنزل ...

وكان أغنى أغنياء المدينة — صادق علي — رجلاً شيخاً ، أشرف على الستين ، وكان صديقاً للصائغ ، يقضى كل يوم شطراً من فراغه عنده ؛ وكانت أسعد لحظاته تلك التي يرى فيها زبيدة الصغيرة تلهو بعرائسها أو تعبث بسِلّيها ، وهى مشرقة أمام الدكان بين أترابها كالقمر الحالم بين الأنجم الحَسْرى ... ولم يكن أحد يفكر في أن هذا الشيخ الذي أوهنه الكبر قد ثوى فى فؤاده من حب زبيدة ما لم يثو فى أفئدة الشبان اليوافع ؛ وأنه صمم على أن يشتري هـذا الجمال وذاك الكمال بذهبه الذي لا يكاثره في ضخامته أحد ... فلما تقدم خاطبا زبيدة إلى أبيها ، هش الرجل وبش ، وعده فخراً أي فخر أن يصهر إلى صادق علي ذي الكنوز والضياع والأملاك الشاسعة ، والقصور المنيفة العامرة

[1] كاثلين رودس من أشهر الكاتبات الانجليزيات ومن أحبهن إلى بني جنسها . ولها قصص عظيمة سامية ولكنها في هذه القصة تكتب متأثرة إلى حد كبير بروح ألف ليلة . وقد أطلقت على القصة (الكوثان الأحمران) والكوث أو القفش هو ما نسميه الشبشب

وذعرت زبيدة أيما ذعر لما صعقها أبوها بهذا النبأ . وكيف لاتذعر وهى تعرف الرجل أحسن المعرفة ، وطالما قدمت له أقداح الشاي المعطر ، وفناجيل القهوة العربية ، فى دكان أبيها ؟ وكيف لاتذعر ، وهي يعز عليها أن يذبل شبابها الفينان ، فى هاتين اليدين الثلوجتين ، وتحت ظلال تلك الشيبة الناصعة ، وهـذا البدن المهزول المعروق ... إن سنيها الثلاث عشرة لتنوء تحت كلكل السنين الستين التي يرزح تحتها هذا الرجل ... وإن حمرة الخوخ وتفتير النرجس وقسمات الخدين وجنة بدنها الخصب الناضج ، لأعز من أن تشرك صادق على (١) في قبره القريب ! فلم لاتفزع الفتاة من النبأ المزعج الذى فجأها به والدها فى أمسية شقية فتقول له :

— أبتاه ! عمرك الله ماذا تقول ؟ ما أظنك إلا ساخراً بى ! إن صادق على رجل عادل ، وأحسبه لا يرتضى هذا الظلم الذى يوشك أن يحل بى ، فهو شيخ عجوز طاعن فى السن ، وأنا بعد فتاة صغيرة لم تكد تنقضى طفولتى ، فأين أنا وأين هو ... لا لا يا أبى ...

فيتلطف أبوها ويقول : « هذا حق ، إلا أنه يا ابنتى رجل موسر غنى ضخم الثراء ، وقد مهرك مهراً لم تمهر بمثله فتاة فى المدينة ؛ وهو مع هذا يحبك وسيحرص عليك كروحه ، وحين تصبحين زوجه سيحترمك الجميع وتكونين على رأس السيدات قاطبة ... ثم هو برغم سنه قوىّ فتىّ مفتول العضل ، غض الإهاب موفور الشباب ...

فتعبس الفتاة وتقول شاكية : « أوه يا أبى ! ولكنى لا أستطيع أن أحبه ... هل ضقت بى ذرعاً يا أبى فتريد أن تقذف بى ولما استمتع بعد بشبابى ؟ ! دعنى أعش معكم قليلاً يا أبتاه ! دعنى أستمتع بالشباب الحلو ، وأهنأ بأفاويق الصبا الغريض !

واتقد عينا الأب الجشع بالغضب ، وهم أن يبطش بزبيدة المسكينة التى تقدمت فى سذاجة وخوف ، فطوقت أباها بذراعيها اللدنتين ، وأسندت رأسها الصغير إلى صدره الكبير ، وانطلقت تبكى

— أسكتى يا ابنتى ! إن الفتاة العاقلة المهذبة هي التى لاتضطر أباها إلى أخذها بالشدة ، بل ما على الوالد إلا أن يأمر ، وما عليها إلا أن تطيع . إننى لست كهؤلاء الآباء الذين نشأوا أبناءهم على احترام العصا ، ولكننى أرجو ألا أضطر إليها إذا ركبت رأسك ولم تصيخى ولم تسمعي !

وازلزل قلب الفتاة ، وذكرت ماكان يعاملها أبوها به من اللطف والظرف والرقة والرفق ، وأنه ما ساءها قط بضرب ولا تأنيب ، وأنها ، وما تزال ، كانت كل شئ له فى هذه الحياة ، لأنه لم يكن له ولد غيرها ، وأنه طالما جلب لها اللعب ، وترضاها بالدُمى ... فسكنت وقالت : « عفواً يا أبى ... » وسر الرجل التاجر ، وقبل ابنته وقال : « الآن أنت ابنتى حقاً ... أنت زبيدة المؤدبة المهذبة المطيعة ... غداً يحضر صادق على فينثر ذهبه تحت قدميك ، ولا يمضى شهر حتى تُزَفّى إليه

***

وكان لزبيدة خادمة نوبية أبنوسية السواد ، وكانت بها حفية وعليها عطوفا ، فأهرعت إليها زبيدة تقول :

— فاطمة ! فاطمة ! هل علمت ؟ لقد أمر أبى أن أتزوج من صادق على العجوز الغنى الأرمل الذى سنه أضعاف سنى ؟ ! وهو يقول إننى سأزف إليه قبل شهر ، فهل رأيت ؟ آه . يا فاطمة أنا لا أطيق هذا ! ساعدينى بربك حتى أنجو من هذا العذاب

— آه يا صغيرتى العزيزة ! لا بد أن تتم مشيئة أبيك ! حقاً إن صادق على رجل عجوز أرمل ، ولكنه غنى واسع الغنى ، وستنعمين عنده بمالا تحلم به فتاة !

فحملقت عينا زبيدة ، وقالت للنوبية المشئومة :

— حتى أنت يا فاطمة ! وسرى الذى ألقيته إليك أمس ؟ هل نسيته ؟

فوضعت النوبية إصبعها الأبنوسى فى فمها المرجانى ، وأنشأت تقول :

— صه ! أسكتى يا صغيرتى ! إياك أن تنبسى بهذا الهذر بعد فقد يذهب به طائر سوء إلى من تكرهين أن يعلمه ... حقاً ، أنا لم أنس ما قصصت علىّ من غرام عمران الشاب صاحب الناى... ولكن هذا العبث لا بد أن ينتهى الآن ، ويجب ألاّ تلتقيا بعد اليوم !

(١) تستبيح اللغة فى الوقوف على الاعلام المنصوبة هكذا

— بيد أننى أحبه يا فاطمة ! إنه جميل ويافع ... وعزفه أحب إلى وأحلى من غناء النسيم فى أفنان شجرات اللوز ، وصفاء عينيه أوقع فى النفس من صفاء الماء النمير فى الغدير ... إن له لمساً ناعماً كأوراق الورد يا فاطمة ! أواه لو أننى زففت إليه بدلاً من صادق على !

— حسبك ! إنك إذن كنت تلقينه ! والله لو علمت بهذا لفضحتك عند والدك منذ أسابيع !

وهكذا اسودت الدنيا بأسرها في فؤاد الفتاة ، فلقد كانت ترجو أن تعينها فاطمة على بلواها ؛ فانعكست الآية ، وانتشر ليل أحزانها من وجه النوبيه البغيض

لقد أحبت زبيدة عمران ، وأحب عمران زبيدة ، لأنهما نشآ فى مهد الطفولة الناعم ، وشبا على غرار الشباب الغريض ، فبارك الله قلبيهما ، ومشى عليهما بيده الرحيمة الطاهرة . ولما وقفا مرة قبيل حجاب زبيدة ، تحت ظلال أشجار البرتقال فى حديقة بيت الصائغ ، نقل الأرج الحلو شذى حبهما من قلب إلى قلب ، وعرفا لأول مرة سر الوجود ، ونظر بعضهما إلى بعض نظرات عميقة جديدة مغرورقة بالدموع ، تنسكب من أغوار الفؤاد لا من أطراف العين ... وظلت أشجار البرتقال هيكلهما الحبيب ، يتناجيان فى ظله ويتشاكيان ، هي فى الثالثة عشرة أو فى فجر الرابعة عشرة ؛ وهو فى الثامنة عشرة ، أسود العينين ، مسبل الشعر ، وضاح الجبين ؛ ثغره الباسم كالأقحوانة ، وخده الكسو بالخجل مهيأ للقبل ، وشبابه اليانع كنضرة الحديقة ، وماءة حسنه تسكب نداها فى روح زبيدة ، القسيمة الوسيمة ، للفتان الحسان التى لها هذا الفم وذاك الجسم ... تبارك الله ! ...

يا للقضاء الساخر ! لقد قطف الحبيبان جنا القبلة الأولى ... القبلة الشهية السحرية التى غيرت معالم الأرض ، ودارت برأسيهما حولها ... فى صبيحة اليوم الأسود الذى تكلم فيه الصائغ مع فتاته ، فصعقها بالنبأ المشئوم

لقد باتت زبيدة ليلة يا لها من ليلة ، تتقلب على فراش من الشوك ، وتجتر صنوفاً مهلكة من الهموم ، وتطيف برأسها المتقد شهب من الأفكار تقذف روحها بالصواعق . . . حتى إذا انبلج الفجر ، وانفلق الصباح ، وثبت كالقطاة من سريرها الكئيب وطوت الدرج دون أن تنتعل حذاء يقى قدميها المعبودتين ، وذلك مخافة أن توقظ أحداً من النُّوام الأشقياء ، ثم انفلتت إلى الحديقة قبل أن يهتف المؤذن هتاف الصباح الرهيب : « الله أكبر ! الله أكبر ! » وقبل أن تنتثر أوراق الورد على جبين الشرق ... ومضت إلى الهيكل ... بيت القدس الحبيب ... إلى شجرات البرتقال ، ووقفت ثمت ترتقب عمران الذى كان منها على موعد ... ولم تبال بقطرات الندى التى كانت تنهلّ معطرة بنفحة الورد ، وعبير أزهار اللوز ، وروح الزنبق والياسمين ، لأنها ملائكة الحب تجبر القلوب الكسيرة ، وتمسح الدمع من عيون العشاق ...

وأقبل عمران فى ظلام البعد يسكب فى آذان الطبيعة الناعمة موسيقاه ، ويساعد المؤذن التقى بنايه الفردوسى ، فتصحو البرايا وتهتف مع المؤذن ومع عمران : « الله أكبر »

وروّع عمران ما رأى من وجوم حبيبته ، وما لمح من لؤلؤ دمعها الذى يوشك أن ينهمر : « ماذا ؟ زبيدة ! مالك ياحبيبتى ؟ لقد كنا بخير أمس ! فماذا ؟ ما بالك باهتة هكذا كأننا فى أخريات رمضان ؟ » ولفّت زبيدة ذراعيها الحبيبين حول عنق فتاها ، وجعلت تصعد آهاتها وتقول : « آه يا حبيبى ! لقد كان ما لم يكن فى الحسبان . لقد خُطبت ! وقضى أبى أن أزف إلى صادق على العجوز الأرمل بعد شهر من الزمان ! »

وتصدع قلب الوامق المحب ، وبكى ، وبكت معه زبيدة ؛ وطفقا ينعيان أحلامهما ، ويتمنيان آلامهما ، ولا يدريان ماذا يصنعان . وكان الفجر الحزين يبكى معهما بدموع الندى

وجلسا على العشب المبلل ساعة ، وزبيدة نائمة غارة فى صدر حبيبها ، وكلما حاول عمران أن يتكلم انحبس منطقه وتكلمت جفونه ، ولم يملك إلا أن يغمر حبيبته بالقبل ، يطبعها فى شعرها المندودن ، وفوق جبينها الشاحب ، وعلى صدرها المرتجف ، حتى ذرّ قرن ذكاء ، وآذنتهما بالفراق ، فهب الفتى المتبول يعانق زبيدة وزبيدة تعانقه ، ويقبلها وتقبله ... ثم افترقا ... هى كالشبح فى ظلال الأشجار إلى القصر الرهيب ، وهو كسير القلب ، مهيض الجناح ... إلى ... الصحراء ، لا يدرى أيان يذهب

***

وجعلوا يُسمّنون زبيدة فيقدمون لها كرات الشهد معجونة بالأفاويه ، ويدسمون لها السمان ، ويبالغون فى انتقاء الآكال ...

ولكن زبيدة مع ذاك جعلت تشحب وتشحب ، ويذبل جسمها ويضوى ، وأبوها القاسي يرى ذلك فيحزن ، ثم يواسيها بكلمة جافة فتبدى له الرضى .. حتى إذا كانت ليلة الزفاف ، وخرجت الفتاة من الحمام ، وسيقت إلى سجن زوجها ، أخذت تودع الحديقة عن كثب ، وترمق هيكل الحب المقدس تحت ظلال البرتقال ، وتذرف العبرات الحرار ، وفاطمة الحبيشة تشهد ولا تتصدع ، بل تبسم وتتفكه ... وتزغرد وتغنى ...

ومضت الأيام ... ولم يأل صادق على جهداً في ملاطفة زبيدة ومداعبتها ، ولم يترك حلية من ذهب أو ماس أو لؤلؤ إلا اشتراها لها مهما كان ثمنها ... ولكن الفتاة كانت مع ذاك تشحب وتشحب ، ويشتد شحوبها ... لأنها لم تنس عمرانها الفتى الجميل الذي زاد جماله وتضاعف حبه بازدياد كراهتها لصادق على ...

ولم يكن الشيخ العجوز يسمح لزبيدة بمغادرة باب القصر... حتى ولو إلى الحديقة الواسعة الفيحاء التي تحيط به ، فكانت تصعد إلى السطح ، لتتنسم أخبار حبيبها في أديم السماء ، ولتنشق عبير الحب القديم على أجنحة الذكريات !

فبينا هي على السطح يوماً إذا بها تسمع موسيقى حلوة في حديقة القصر ، وإذا الموسيقى إرنان ناى كناى حبيبها ... فأطلت لترى من صاحب الناى ، فوجدت بستانيًّا يجمع الأوراق المتناثرة فوق عشب الحديقة ... وكأنما جذبته روحها اللهفانة فرفع رأسه إلى السطح ... والتقت الأعين ... وعرف كل حبيبه

لقد عمل عمران بستانيًّا لدى صادق على ... لينشق الهواء الذى تنشق منه سالبة لبه ، وساكنة قلبه ... وهو مع ذاك لا يحلم بلقائها ... !

ودارت الأرض مرة أخرى ... واستيقظت آمال وأحلام !

وكان يحس عمران هذه اللحظة السعيدة التى يرى فيها كل أصيل وجه حبيبته ، وتلتقى عيناه بعينيها ... لكن الحب أجرأ من هذا وأشجع ... وهو لا يبالى أن يسلك سبل الجحيم ليصنع ماصنع پاولو وفرنشيسكارا[1] ... فتبدلت النظرة فصارت ابتسامة ثم تمتمة ، ثم تلويحاً بأعواد من الياسمين ... ثم محاولة لقاء ...

* * *

ولق صادق زوجته فشدهه منها تبدل حالها وتدفق الدم الشاب الفتى في خديها ... وأخبرها أنه مزمع سفراً طويلاً في الصحراء ، قد لا يعود منه قبل أسبوع ، لأن الشيطان نزغ بين نفر من أقاربه ، فهو ذاهب لإصلاح ذات بينهم ، وإحلال الصفاء محل الجفاء فيهم ؛ ثم أوصاها بالقصر ، وحذرها — في تلطف — من مغادرة بابه ، حتى يؤوب ... ووعدته أن تكون عند ظنه بها ، وفية له ، حفية به ، عاملة على مافيه رضاه !

وسافر صادق على ... واستطاعت زبيدة أن ترسم الخطة للقاء عمران ... وكلته حين أمنت مكر الخدم وقت غدائهم ، خلال (مشربية) مشرفة على الحديقة ، فاتفقا أن يزورها في زي امرأة (!) وأن يعد لذلك كوتاً أحمر وملاءة سوداء ونقاباً ... وأن يتخذ اسماً مستعاراً ، وليكن (مرسينه) ... ولم يكن أحد من الخدم يعرف من هي هذه السيدة مرسينه التي تريد لقاء سيدتهم ، ولكنهم لم يشكوا قط في إحدى زائرات القصر ، ولهذا كانت الخادم ، بعد إذ تقدم أكواب الشاي المعطر ، أو أقداح القهوة العربية ، للسيدة مرسينه ، تنسحب من الطابق كله ... فيخلو الجو للحبيبين المشوقين !!

ومضى الأسبوع على أحسن حال بينهما من تساقى الحب وتشاكى الهوى ، وبل أوار القلوب ، ثم جاء رسول من لدن صادق على يحمل رسالة من مولاه ، أن قد شجر خلاف آخر ، وأنه قاض أسبوعاً آخر عند أهله ...

وفرح عمران أيما فرح ... وطفر قلب زبيدة ... وما كان أجمل عمران وهو يبث حبه إلى فتاته ، وهو يعانقها في شدة وحرارة ويقول : « أسبوع آخر ؟ وما سبعة أيام يازهرة حياتي وننفصل بعدها ، وتقبل الشفتان الكريهتان فتقطف القبل الحلوة المعسولة من فك الرقيق الدقيق ، وينحط الصدر البغيض الميت فوق صدرك الناهد الأغيد ، وتنقلب السلاسل الذهبية التي تربط قلبينا بأغصان الورد فتؤذى قلبك بأصفاد من حديد ؟ ! »

بيد أن صادق على أنجز أعماله في ثلاثة أيام أو نحوها ، وأقبل يحث المطى عبر الصحراء ، فوصل قبل ميعاده ... ووصل والمحبان يرشفان كؤوس الهوى ، ويتبادلان سلافة الحب ، فلما أقبل

---

(١) كنا متحابين في الدنيا ، فلما متنا دخلنا النار ، ولكننا التقينا في الجحيم فنسينا لظاها بحلاوة القبل ! (دانتى)

الزوج مشوقاً إلى لقاء زوجه ، نظر فوجد الكوث الأحمر لدى الباب ، فتلبث قليلا ، وجعل يروح ويجيء ، وينتظر بجدع أنفه أن ينصرف الزائر فلا ينصرف .. ثم يسأل الخادم فيعلم أنها امرأة تدعى مرسينة « تطيل اللبث يا مولاى عند سيدتى ، وتحضر إلى هنا كل يوم ... و ... و ... »

ويمضي الرجل المسكين فيدخل إلى الحمام ليذهب عنه غبار السفر

ويصعد الخادم فيرهف سمعه ، وينصت ليسمع حديث من فى الغرفة ... ولكنه بدلاً من أن يسمع حديثاً ترن فى أذنيه قبل فضية ، وآهات موجمات ... ثم ينصت ... فيسمع شكوى ونجوى ... وسباباً مقذعا ، فيعلم السر ... ويسقط فى يده : « تالله لو علم مولاي لذبح حبيبها أمام عينيها »

وفضل الخادم أن ينقذ الموقف ، فنقر بأصبعه على الباب ، واستوى عمران واستتر ...

— أدخل !

— سيدتى ... لقد عاد مولاى صادق على فجأة ... وهو يريد أن يراك ! وارتبكت زبيدة ، وأسقط فى يدي عمران

— لا بأس ... إذهب أنت !

وتبادل الحبيبان القبل مع ذاك ، ثم فتحت له زبيدة شباك (المشربية) فانفتل منه وقد لبس الكوث الأحمر

***

وخرجت زبيدة لتلقى زوجها وهي مطمئنة آمنة ... ولكن ساعة بأكلها مضت دون أن يخرج من الحمام ... ومضت ساعة أخرى ... وأرخى الليل سدوله ... وأمرت الخدم فأوقدوا السُّرُج ... وآثرت أن تذهب إلى الحمام لتلقى زوجها ... وما كادت تفعل حتى برز صادق على من إحدى الغرف وقد بدل ثيابه ، فعانق زبيدة عناقاً حاراً وطفق يغمرها بقبل لا جنية ولا مشتهاة !

— قط ما عرفت الشوق كما عرفته فى هذا السفر يا زبيدة !

— ... ؟ ...

— لقد أحضرت لك هدايا وألطافاً جمة ... يا غلام ! أحضر السلال والحقائب

وأحضر الغلام السلال والحقائب ، وطفق صادق على يحل الأربطة ، ويخرج عقود اللؤلؤ وأقراط الذهب وأساور الفضة ، ثم يضع كل ذلك موضعه من عنق زبيدة وجيدها وأذنيها وذراعيها ... ثم فتح حقيبة وأخرج ثوباً ثميناً موشى تخلعه عليها فبدت فيه كامرأة هرون الرشيد !

— هذا جميل ... أشكرك

— وأجمل منه الهدية التالية ... يا غلام ... أحضر السفط !

وأحضر الغلام السفط الكبير فقال صادق على :

— أما والله لا يفتح السفط إلا زبيدة ...

فارتجفت يدا زبيدة كأن فيهما كهرباء ، وفتحت السفط ، ثم جعلت تخرج ما فيه من طرف وتحف ...

ولكنها اقشعرت فجأة ، حينما اصطدمت يداها بكوث أحمر ... ثم بثوب فيه شيء ثقيل ...

ماذا ... واحرباه !! رأس عمران الجميل ... الرأس الذى كان يرسل عينيه الساحرتين الدعجاوين فى عينيها الوامقتين المشغوفتين ...! الرأس الذى كان لسانه يصوغ أحلى عبارات الغزل ! الرأس الذى كان فمه ينفخ فى الناى فترقص الملائكة ...

— زبيدة !! أحزينة أنت !

— اقتلني ... اقتلني يا صادق !

— لا ... بل أعاقبك بأشد من القتل ! ستعيشين لى ! أنظري ! هاتان الشفتان المرتمشتان ستنطبقان على شفتيك برغمك ... لا شفتا عمران ! وهذا الوجه المكلثم المجمد الشائه سيزعجك دائماً ... وهذا الصدر الثقيل سيضايقك أبداً ... ستكونين لى بعد عمران يا زبيدة ! لن يشركني فيك أحد بعد اليوم ! أليس كذلك ؟ ها ها ... ها ... »

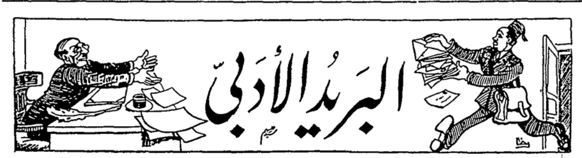
ولفت الدنيا برأس زبيدة ، ولكن فكرة طافت بدماغها فجأة ، فجثت تحت قدمى صادق على ، وطفقت تتوسل وتتضرع ، وتلف يديها على وسطه ، حتى إذا لمست خنجره ، انتزعته بقوة ، ثم أغمدته فى صدرها ...

— لا لن أكون لك أيها المسخ ، وسأكون إلى الأبد لعمران ... سأظل وفية لك يا عمران ... لك وحدك ... يا ... عمران ! ...

***

الشباب للشباب يا شرق ... وإلا ... فالكوث الأحمر يعمل عمله

دريني خشبة



جوائز أدبية مصرية

تنشر الرسالة فى هذا الباب كثيراً من أنباء الجوائز الأدبية التى ترتبها مختلف الأمم لتشجيع الآداب والعلوم ، ولكنها لم تستطع أن تنشر حتى اليوم أنباء « الجوائز الأدبية المصرية » ذلك لأن هذه الجوائز لم توجد مع الأسف حتى اليوم ؛ بيد أنه مما يدعو إلى الغبطة أن تكون وزارة المعارف قد فطنت أخيراً إلى هذا النقص ، فأمامها الآن مشروع قدمه منذ حين صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفى باشا سفير مصر فى لندن يقضى بإنشاء خمس جوائز أدبية تمنح للمتفوقين من كتاب العربية فى الآداب والعلوم ؛ وقيمة هذه الجوائز ألف جنيه لكل منها مائتا جنيه قد تزاد إلى مائتين وخمسين ، ويمنح منها أربع للمصريين ، وترصد الخامسة لأبناء الأقطار العربية الشقيقة . ولم توضع نصوص المشروع النهائية بعد ، ولكن هناك تفكيراً فى أن يكون باب التشجيع والمنافسة مفتوحاً لكل كتاب العربية من مختلف الأقطار فى جميع الموضوعات الأدبية العامة مثل الشعر وتاريخ الأدب والقصة والقطع المسرحية وأمثالها ؛ وأما الموضوعات المصرية المحضة فتقصر المباراة فيها على المصريين . وعلى أى حال فإن الغاية الأساسية من ترتيب هذه الجوائز هى تشجيع الآداب العربية بصفة عامة ، وهى غاية نحمدها ونرجو أن توفق الجهات المختصة إلى تحقيقها . ذلك أن الأمر لا يتعلق هنا بوزارة المعارف فقط ، ولا يكفى فيه أن ترتب جوائز خمس ؛ فهنالك الجامعة المصرية وكلياتها المختلفة ، وهنالك الجامع الأزهر وكلياته المختلفة ، وهنالك مختلف الهيئات العلمية والفنية ، فهذه كلها يطلب إليها أن ترتب الجوائز الأدبية والعلمية . وإذا كانت وزارة المعارف تعتمد فى كل عام نحو عشرة آلاف جنيه لتشجيع الحركة المسرحية ، وتغدق من هذا المبلغ معظمه على الفرق التمثيلية الأجنبيه ، فإنه يكون من التقتير الواضح أن ترصد ألف جنيه فقط لتشجيع الحركة الأدبية . لذلك نحب أن نعتبر مشروع الجوائز الحالى بداية فقط نرجو أن تثمر ثمرها المرغوب ، وأن تؤازرها جميع هيئاتنا العلميـة ، فترتب كل جوائزها لتشجيع التفكير العربى فى مختلف نواحيه

اغلاق مقهى أدبى شهير

من أنباء باريس أن مقهى « كافيه ده كرواسان » الشهير قد أغلق نهائياً بعد أن لبث مدى تسعين عاماً منتدى للأدباء والصحفيين . وكان هذا المقهى التاريخى يقع على زاوية شارع مونمارتر عند التقائه بشارع كرواسان الصغير ؛ وقد اشتهر منذ أواخر القرن الماضى بأنه مقهى الأدباء الناشئين . ثم غدا قبيل الحرب مجمع الصحفيين يحتشدون فيه صباحاً ومساء ليكتبوا أخبارهم أو مقالاتهم ؛ وهكذا كانت تحرر فيه معظم الصحف البارزية ، وتعقد فيه الاجتماعات الأدبية والصحفية . وكان صاحبه مسيو فيدمان أديباً يشرف على كثير من الاجتماعات الأدبيـة التى تعقد فى مقهاه . ومما هو جدير بالذكر أن جان جوريس الكاتب الفرنسى والزعيم الاشتراكى الشهير قتل فى أغسطس سنة ١٩١٤ أثناء جلوسه فى شرفة هذا المقهى

وقد تحول تيار الأدباء والفنانين فى العهد الأخير من مونمارتر إلى مونبارناس ، وأخذت مقاهى مونمارتر ومطاعمها الشعبية تواجه الأزمات نظراً لانصراف أصدقائها القدماء عنها ، بينما أخذت مقاهى مونبارناس ، ومعظمها جديد ، تزخر بعملائها الجدد ، وقد عرفت مقاهى هذا الحى البارزى الشهير دائماً بأنها مجمع الفنانين ، ولكنها اليوم تغدو أيضاً مجمع الأدباء والكتاب من كل ضرب

اقتراح انشاء جامعة عراقية

أقام أدباء بغداد حفلة تكريم للدكتور زكي مبارك فألقى في تحيتهم خطبة جاءت في ختامها الكلمة الآتية :

« لقد رحلت عن مصر وأنا مصمم على الاستبسال في الدعوة إلى إنشاء جامعة عراقية ، فلما وردت العراق لم أجد من يشجعني على تحقيق ذلك الأمل النبيل ، وصارحني بعض الرجال بما يعترض إنشاء الجامعة العراقية من عراقيل

فأنا أنتهز هذه الفرصة لتسجيل هذه الرغبة بطريقة علنية ، وأصافح بيمناي أنصارها الأوفياء ، وأدعوكم إلى الكتابة عن هذه الأمنية في كل يوم ، والكلام عنها في كل مجتمع ، والالحاح بها على جميع الوزراء . واعلموا أن من العار أن تخلو بغداد من جامعة وباسمها الخالد تتعطر الأفواه في جامعات الشرق والغرب

إن الحجة في أيدينا أيها الزملاء ، فعندنا نواة الجامعة العراقية ، عندنا النواة السليمة لأربع كليات ، فلنبادر بتأسيس الجامعة العراقية بصفة رسمية ، ولنبادر بخلق الصلات العلمية والأدبية مع الجامعة المصرية وجامعة باريس ، ولنقرر منذ هذه الساعة أن نفتتح الجامعة بمهرجان مشهود في آذار القبل ، شهر الأزهار والرياحين

أيها الصحفيون الشرفاء

لقد كنتم عند ظن الوطن الغالي في ظروف كثيرة ، فشدوا من عزائمكم لنصرته هذه المرة ، وحققوا أشرف غاية لحملة الأقلام وهي إعزاز العلوم والآداب والفنون

أيها الزملاء

لقد كرمتموني بهذا الاحتفال الرائع ، فهل تعرفون متى أرد لكم هذا الدين النبيل ؟

سأرده يوم يتقرر بفضل مسعاكم إنشاء الجامعة العراقية ، ويومئذ لا أكتفي في تكريمكم بألوان الحلوى وأكواب الشاي ، وإنما أعقر لكم الذبائح من عرائس الشعر الجميل »

وقد نوهت جميع الجرائد العراقية بهذه الدعوة التي صادفت هوى في أنفس الحاضرين وفيهم أقطاب التعليم بوزارة المعارف العراقية

المهرجان الملكي لجماعة الأسبوع الصحي

رأت جماعة الأسبوع الصحي أن تقيم لمناسبة زواج جلالة الملك الميمون مهرجاناً في إبان الزفاف ، تسهم فيه بنصيبها في أفراح الأمة ، وتعلن عظيم سرورها بذلك الأملاك الكريم . وقد تألفت من بين الأعضاء القائمين بهذا المهرجان لجنة أدبية لتدعو الشعراء والكتاب والخطباء والزجالين إلى مباراة بيانية تقام في مكان وزمن يعلن عنهما فيما بعد . وإن في التقدم إلى تلك المباراة تسجيل فخار وشرف لما لموضوع القول من جلال الخطر ، وسمو الشأن ، وكرم المنصب ، وشرف المحتد ، وعلو القدر بين العالمين

وإن ميدان البيان البليغ لمتسع ، شباب رائع فتى ، وعقل ألمعي ، وقلب تقي ، وخلق عظيم ، ودين مكين ، قد ضرب أروع الأمثال للشباب الطاهر ، فسارع إلى الزواج ، وهو سنة الاسلام ونصف الدين ، وبادر إلى الإحصان ، ليكون أسوة حسنة لشباب مصر في إجابة دعوة الرسول الأمين

وإن اللجنة لتتقدم داعية رجال الأدب إلى تلك الحلبة الطاهرة المباركة ليتقدموا إليها بشعرهم ، وخطبهم ، وكتاباتهم ، وأزجالهم وأدعيتهم الضارعة إلى الله تعالى أن يقي مليك مصر خائنة الأعين وما تخفي الصدور

ومن يقع الاختيار على كلامه يكن له حق إلقائه في يوم المهرجان ، أو يسجل في كتاب يرفع إلى مقام المليك ، وينشر بين الناس تذكاراً خالداً . وستضع اللجنة جوائز مختلفة لمن يحوز قصب السبق في المباراة . وإن أقصى ميعاد يرسل فيه الأدباء ماتجود به قرائحهم هو يوم الاثنين ١٠ يناير سنة ١٩٣٨

وترسل إلى الأستاذ محمد عبد الجواد المدرس بدار العلوم العليا بالمنيرة بمصر

مقرر اللجنة

محمد أبو زهره

المدرس بكلية الحقوق

معركة الفاشستية والديمقراطية

يتخذ النضال الدولي يوماً فيوماً صورة صراع واضح بين معسكرين من المبادئ الخصيمة : الفاشستية والديمقراطية ؛ وهذه الظاهرة تستغرق اليوم اهتمام المفكرين والساسة في جميع الأمم .

وقد ظهر أخيراً كتاب يتناول هذا الموضوع بقلم الكاتب السياسي الأمريكي هاملتون ارمسترنج عنوانه « إما نحن وإما هم » We or They ؛ ونحن يقصد بها الكتلة الديمقراطية ، وهم يقصد بها الكتلة الفاشستية . ويستعرض الكاتب ظروف هذه المعركة بقوة ووضوح ، وهو يدرسها ويستعرضها منذ أعوام فى مجلة الشئون الخارجية الأمريكية التى يشرف على تحريرها ببراعة . ومن رأيه أن توجد اليوم بين هاتين الكتلتين من المبادئ هوة لا يمكن اجتيازها ، وإن إحداها ستقتل الأخرى بلا ريب ؛ وكل ما هنالك هو السعى لمعرفة من يكون الظافر . فهل تنتصر الشعوب الحرة وتلك التى تريد أن تستعيد حريتها ، أم تنتصر عصبة الفاجرين الحمقى الذين يريدون أن يجعلوا من البشرية أداة حية لخدمة الحكم المطلق ؟

ويدحض الكاتب بقوة ذلك الزعم الذى تستتر وراءه الفاشستية منذ حين وهو أنها تخاصم الشيوعية وتعمل لسحقها ؛ ومع أنه ليس بالاشتراكي ولا بالشيوعى فإنه ديموقراطي فى تفكيره مؤمن بمبدأ سيادة الشعب وحكومة الشعب . وهو يرى أن الحرية هى أسمى ما يمكن أن يتمتع به شعب حر ، ولكنه يحمل على تلك الديمقراطية البرجوازية التى تستغل الحكم لمصالحها ومنافعها . ومن رأيه أن الجماعة المنظمة التى تعترف بعجزها عن تهيئة الأعمال للعاطلين وفتح الأسواق للأعمال والتجارة ، ومحاربة الصناعات المحتكرة ، وتخفيض مستوى العيش ؛ مثل هذه الجماعة أو الحكومة ليست جديرة فى نظره بالبقاء والحياة ، وليست بالأخص جديرة لأن تخاصم وتناضل أنواع الحكم الأخرى

ويشرح الكاتب نظرياته بأمثلة عملية من حوادث التاريخ الحديث والمعاصر ؛ ويرى فى المسألة الاسبانية ومسألة الصين أعظم ميدان لاصطدام القوتين الخصيمتين ، ويحمل بشدة على سياسة الدول الديمقراطية فى هاتين المسألتين ، ويرى فيها دلائل الاضطراب والضعف . وفى اعتقاده أنه ليس ثمت ما يحمل الدول الديموقراطية على كل هذه التقديرات الخطيرة التى ترتبها على مقابلة الهجوم بمثله ، وإنه قد يكون الخطر فى الميدان الدولى أقل بكثير إذا قامت الدول الديموقراطية بعمل ما مما لو استمرت فى موقفها السلبي الحاضر

روح العصر فى معرض باريس

كانت المعارض إلى عهد قريب تعنى بإبراز البهارج التى تلفت الأنظار ، وتثير إعجاب البسطاء ، وإن عنيت أحياناً بعرض مدى التقدم الذهنى فى أمة من الأمم . ففى المعرض البريطانى الذى أقيم عام ١٨٥١ أنشىء هذا البيت المظيم الجميل الذي أطلق عليه « القصر البلورى » ، والذى دمره الحريق أخيراً وكان دائماً آية ذلك المعرض ، وحامل ذكراه للأجيال ؛ وفى معرض باريس الذي أقيم عام ١٨٨٩ أنشىء برج إيفل ، وكانت النزعة التى تمخض عنها نزعة فرعونية كالتى تحدّت زوسر وخوفو وخفرع إلى بناء الأهرام ، وإلا فقد كان الفولاذ الذى استخدم فى بناء هذا البرج كافياً لبناء أسطول صغير يدفع بعض الأذى عن فرنسا . أما فى معرض باريس الأخير (١٩٣٧) فقد تجلى روح العصر ، وتناسى العارضون بعض هذه المنجهية التى كانت تجعلهم يبنون القصر البلورى ويقيمون برج إيفل . هذا وإن يكن المعرض الأخير يفوق كل المعارض السابقة رونقاً وعظمة وجلالا . وأحسن ما يشهد لهذا المعرض بتفوق روح العصر هذه الدار العظيمة التى أقيمت فى المعرض ، والتى أطلق عليها (دار الاستكشاف) والمراد الاستكشاف العلمى الذى تدين له الحضارة الحديثة بكل ما تتيه به على غابر القرون . فقد حشدت فى هذه الدار الهائلة جميع الاستكشافات التى أدت إلى تقديم الانسانية ، وخطت بالعالم أشواطاً بعيدة نحو الكمال . وهى مع ذلك لم تهمل الاستكشافات القديمة التى كانت سبباً مباشراً أو غير مباشر لما أبدعته القرائح الحديثة ... فبينا ترى جهازاً أوتوماتيكيا (آليا) يكلمك ويشرح لك نظريات نيوتن وجاليليو فى الحركة والجاذبية إذا بك تنظر إلى جهاز آخر يوضح لك كيف تستنبط الكهرباء بأبسط الوسائل ، وكيف استخدمت الكهرباء بعد الاهتداء إليها فى الاضاءة وتحريك الآلات ونقل الصوت باللاسلكى والصور بالتلفزيون ... وتسير بضع خطوات فترى فوقك العالم السماوى بأكمله ، وقد جرت فيه كل النجوم والكواكب ، ووضحت فيه سدم المجرة ، وهكذا تعرف من الفلك ما كان يعوزك أن تعرفه فى أعوام ... ثم تنتقل فترى معهداً

للحياة (Biology) يضع بين يديك لامارك وهكسلي وداروين ، ويريك كيف تدرجت الحياة من الذر إلى هذا العالم الحافل بعجائب المخلوقات ... وأنت فيما بين هذا تشهد التجارب المدهشة لاثبات قوانين مندل فى الوراثة واستكشافات باستير وكوخ فى عوالم المكروب ... وقل مثل ذلك فى كل ما أفاد العلم فى البر والبحر وتحت الماء وفى أجواز الفضاء ... وقد تكلفت هذه الدار ملايين الفرنكات ، على أنها عوضت ما أنفق عليها ، إذ قد زارها حسب إحصائية المعرض فى المدة من ٢٥ مايو إلى ٧ أكتوبر الماضى ١٫٦٠٠٫٠٣٨ زائراً دفعوا جميعاً رسوم الدخول . وزارها غير هؤلاء ٤٠٠٫٠٠٠ طالب وعالم وأستاذ ، من جميع أنحاء الأرض ، وعقدت فيها المؤتمرات العلمية الطريفة لتبادل الآراء ومناقشة أحدث المستكشفات

ألف ليلة بالانجليزية

ما يزال كتاب ألف ليلة وليلة موضع إعجاب الأمم الأوربية عامة والانجليزية خاصة ، ولقد ظهرت ترجمات كثيرة لبعض قصص الكتاب فى لغات شتى ، ولكنه لم يترجم ترجمة كاملة إلا هذا العام ، وقد ظهرت الترجمة بالانجليزية فى أربعة أجزاء تخمة تعرض للبيع بأربعة جنيهات وربع الجنيه ، وهو ثمن يبهرنا نحن الشرقيين ويزعج جيوبنا ، ولكنه يدل على الروح العالى الذى يتقبل به الانجليز كنوز المؤلفات الرفيعة . ومترجم ألف ليلة هو الأديب الانجليزى الكبير بويس ماثر ، وقد وضع نصب عينيه وهو يترجم الكتاب أن يتحاشى العيوب التى ظهرت فى ترجمة جالان الفرنسية (١٧٠٤ — ١٧١٢) وترجمة لينز الانجليزية (١٨٤٠ م) وترجمة سير ريتشارد برتون (١٨٨٠ م) — ولم يفته أن ينتفع بمحاسن الترجمة الفرنسية التى وضعها الدكتور ج . ماردروس (١٨٩٩) وقد قلد هذه الترجمة فى بعض صورها فنقل الأشعار العربيــة إلى شعر انجليزى رائع ، وإذا عرفنا أن المترجم شاعر فقد علمنا إلى أى حد وفق فى نقل أشعار ألف ليلة

الى الأخ السودانى

كنت قادماً من بيروت . فلم أكد أنزل من السيارة حتى استقبلنى من كان فى (مكتبة عرفة) وهى مجمع الأدباء فى دمشق ، بكلمتك الرقيقة الصادقة ونصبوا من أنفسهم محامين عنك ، فوجهوا إلىّ أمر العتاب ، وأشد اللام ، حتى اضطررت إلى الاعتراف ، لأنى لم أجد لنفسى عذراً ، وقديماً قالوا الاعتراف يذهب الاقتراف

أي والله يا أخى إننا إخوة وإن اختلفت الألوان ، وتباينت الديار ، وحّد بيننا الشرق ، ووحّدت بيننا الآلام والآمال ، وآخى بيننا الله من فوق سماواته ، قال الله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) . وللسودان والله على سواد بشرتهم ، أطهر أفئدة ، وأسمى نفوساً ، وأدنى إلى الفضيلة والحق من كثير من بيض الجلود . وما أردت والله إلا أولئك السود من سكان أفريقية الوسطى ، وكانت كلمة أسرعت إلى اللسان ، قبل أن يتدبرها الجنان . فمعذرة يا أخى وشكراً لك على حسن ظنك بى ، والسلام عليك ورحمة الله

من أخيك : على الطنطاوى

الكومنترن أو الشيوعية الدولية

ترددت كلمة الكومنترن Comintern هذه الأيام بمناسبة الاتفاق الثلاثى الذى تم بين ألمانيا وإيطاليا ثم اليابان لمقاومة الشيوعية — وكثير من القراء لا يعرفون ما هو الكومنترن الذى هو فى الحقيقة اسم منحوت من كلمتى Communist أى شيوعية International أى دولية ، فالكومنترن هي الشيوعية الدولية وهو اسم جديد للدولية الثالثة التى تحكم روسيا الآن ... والمدهش أن روسيا اليوم لا أثر فيها لتعاليم الكومنترن الأصلية التى وضعها الزعيم لينين ، ولكن الحكومة الروسية تدأب على نشر هذه التعاليم خارج حدودها لأنها ألد أعداء السلام العالمى

تصويب

وقع فى مقال « مصرع شجرة الدر » الذى نشر فى العدد الماضى تحريف فى علمين أولها « ثوران شاه » وصوابه توران شاه والثانى الخليفة المتصم العباسى وصوابه المستعصم بالله

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧

فهرس الموضوعات للمجلد الثاني من السنة الخامسة

فهرس الكتاب للمجلد الثانى من السنة الخامسة

FIN

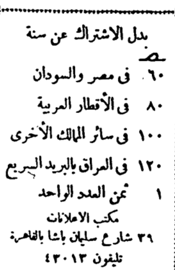
DU

DOCUMENT

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

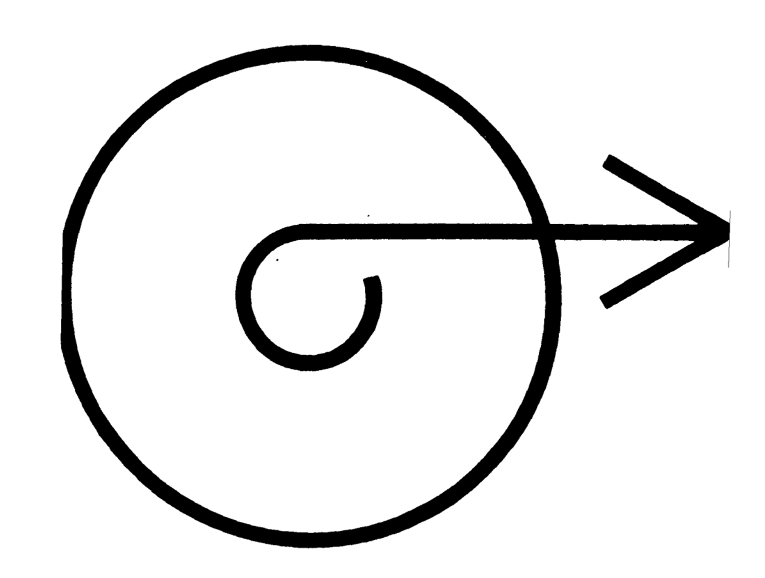




1937

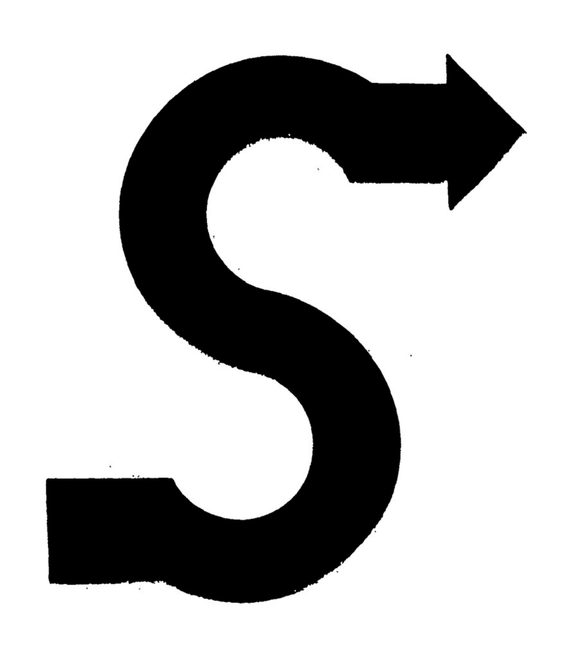
5 juillet - 27 décembre

(n° 209-234)



Fin de bobine

NF Z 43 120 3



Suite sur une autre bobine

NF Z 43-120-6